تفسير البغوي

(معالم التنزيل)

للإمام محيي السنة

أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي

(المتوفى ٥١٦ هـ)

طبعة جديدة منقحة ومرتبة
ميزت فيها الآيات المتعلقة بالتفسير بلون أحمر
منضبطة برسم المصحف

دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

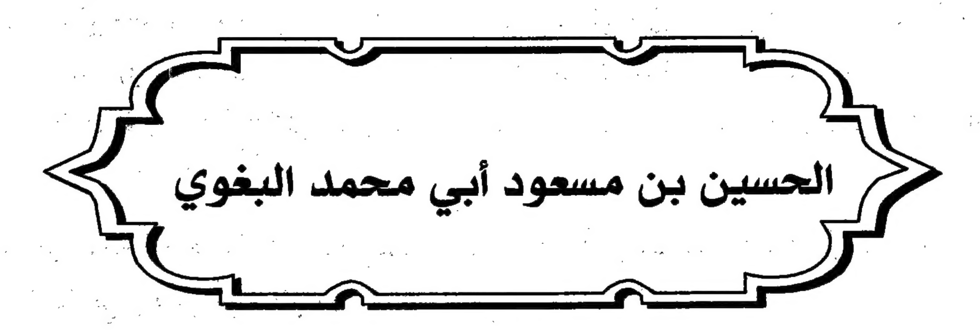
دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير البغوي

(معالم التنزيل)


بسم الله الرحمن الرحيم



الحسين بن مسعود أبي محمد البغوي

هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة، البغوي: فقيه، محدث، مفسر من أحد العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز والسنة النبوية. نسبته إلى «بغا» من قرى خراسان، بين هراة ومرو، والفراء نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.

وهو من أئمة السلف الصالح الذين التزموا بالكتاب والسنة في مفهوم الاعتقاد وخاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

وكان عالماً، ديناً، عاملاً على طريقة السلف، وكان ثبتاً حجة صحيح العقيدة في الدين.

ومن ثناء العلماء عليه تلقيبه بلقب «محيي السنة» وغير ذلك من الألقاب والصفات التي أثبتها له كل من ترجم له.

نشأ على المذهب الشافعي ولقب إمام هذا المذهب، إلا أنه لم يتعصب لمذهبه وكان ينظر في أقوال العلماء وأدلتهم.

فقال عنه ابن كثير: كان ديناً ورعاً، علامة زمانه، عابداً، زاهداً، صالحاً.

وقال السيوطي: كان من العلماء الربانيين، ذا تعبد ونسك، وقناعة باليسير. وسماه في طبقات الحفاظ الحسين بن محمد ابن مسعود.

وقال الإمام الذهبي: كان يلقب بمحيي السنة وبركن الدين، وكان إماماً زاهداً، سيداً، قانعاً باليسير.

سمع من عدد كثير من العلماء، في الحديث والتفسير والفقه نذكر منهم:

١ ـ حسين بن محمد المروزي، القاضي، الفقيه، فقيه الشافعية.

٢ ـ أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، الفقيه والمعروف بشيخ الحجاز.
٣ ـ عبدالواحد بن أحمد بن أبي القاسم المليحي، الهروي، روى الصحيح عن النعيمي.
٤ ـ حسان بن سعيد المنيعي، أبو علي، ـ والمنيعي نسبة إلى منيع جد ـ.

ولقد أقبل عليه الكثير من طلاب العلم، لسعة معرفته بعلوم كثيرة نذكر البعض منهم:

١ ـ أبو المكارم فضل الله ابن المحدث العالم أبي سعيد محمد بن أحمد النوقاني الشافعي، وهو آخر من روى عنه بالإجازة.
٢ ـ الحسن بن مسعود أبو علي البغوي أخو الإمام الحسين البغوي.
٣ ـ أبو الفتوح محمد بن أبي جعفر محمد بن علي بن محمد الطائي الهمداني، الواعظ المحدث.

ولقد ترك الإمام ـ رحمه الله ـ علوماً في الحديث والتفسير والفقه كان لها الأثر النافع نذكر منها:

- التهذيب: وهو في فقه الشافعية وهو مشهور.
- شرح السنة: وهو في الحديث، وفوائد الأخبار المروية عن النبي ﷺ.
- لباب التأويل في معالم التنزيل: وهو في التفسير.
- مصابيح السنة: وهو مجموعة من الأحاديث اعتمد على نقل الأئمة لها.
- والجمع بين الصحيحين وغير ذلك.

توفي الإمام ـ رحمه الله ـ بمرو الروذ وهي مدينة من مدن خراسان، سنة ست عشرة وخمسمائة للهجرة.

وفي وفيات الأعيان ١/١٤٥ وفيه رواية أخرى في وفاته سنة ٥١٦هـ. وفي تهذيب ابن عساكر ٤/٣٤٥ ووفاته فيه سنة ٥١٦هـ.



سورة فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ولها ثلاثة أسماء معروفة: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، سُميت فاتحة الكتاب لأن الله تعالى بها افتتح القرآن، وسميت أم القرآن وأم الكتاب: لأنها أصل القرآن، منها بُدىء القرآن، وأم الشيء: أصله، ويُقال لمكة: أم القرى، لأنها أصل البلاد، دُحيت الأرض من تحتها، وقيل: لأنها مقدمة وإمام لما يتلوها من السور يبدأ بكتابتها في المصحف وبقراءتها في الصلاة، والسبع المثاني: لأنها سبع آيات باتفاق العلماء، وسُميت مثاني لأنها تثنى في الصلاة، فتُقرأ في كل ركعة.

وقال مجاهد: سُميت مثاني لأنّ الله تعالى استثناها لهذه الأمة فدخرها لهم، وهي مكية على قول الأكثرين. وقال مجاهد: مدنية، وقيل: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولذلك سُميت مثاني، والأوّلُ أصح أنّها مكية لأن الله تعالى منّ على الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، والمراد منها: فاتحة الكتاب، وسورة الحِجْرِ مكية، فلم يكن يمنّ عليه بها قبل نزولها.

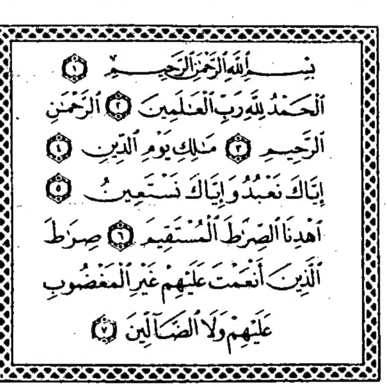
سُورَةُ الفَاتِحَة

(١) قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الباء أداة تخفض ما بعدها، مثل مِنْ وَعَنْ، والمتعلق به الباء محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: أبدأ بسم الله أو قل: بسم الله، وأسقطت الألف من الاسم طلباً للخفة لكثرة استعمالها، وطولت الباء. قال القتيبي: ليكون افتتاح كلام كتاب الله بحرف مُعظم.

كان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يقول لكتّابه: طوّلوا الباء وأظهروا السين وفرّجوا بينهما ودوِّروا الميم تعظيماً لكتاب الله تعالى.

وقيل: لما أسقطوا الألف ردّوا طُول الألف على الباء ليكون دالاً على سقوط الألف، ألا ترى أنه لما كتبت الألف في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] رُدت الباء إلى صيغتها، ولا تحذف الألف إذا أضيف الاسم إلى غير الله ولا مع غير الباء. والاسم هو المسمى وعينه وذاته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، أخبر أن اسمه يحيى ثم نادى الاسم فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ١٢]، وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] وأراد [بالأسماء] الأشخاص المعبودة، لأنهم كانوا يعبدون المسميات وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] ثم يُقال للتسمية أيضاً اسم، فاستعماله في التسمية أكثر من المسمى، فإن قيل: ما معنى







التسمية من الله لنفسه؟ قيل: هو تعليمٌ للعباد كيف يفتتحون القراءة]، واختلفوا في اشتقاقه، قال المبرد في البصريين: هو مشتق من السمو وهو العلو، فكأنه علا على معناه وظهر عليه، وصار معناه تحته، وقال ثعلب في الكوفيين: هو مشتق من الوسم والسمة وهي العلامة وكأنه علامة لمعناه وعلامة للمسمى، والأول أصح لأنه يُصغر على سُمي، ولو كان من السمت لكان يُصغَّر على الوسيم كما يُقال في الوعد وعيد، ويُقال في تصريفه: سميت، ولو كان من الوسم لقيل: وسمت.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ قال الخليل وجماعة: هو اسم علم خاص لله تعالى لا اشتقاق له كأسماء الأعلام للعباد، مثل زيد وعمرو.

وقال جماعة: هو مشتق. ثم اختلفوا في اشتقاقه فقيل: من أله

إلاهة أي: عبد عبادة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «ويذرك وإلاهتك» [الأعراف: ١٢٧] أي: عبادتك معناه أنه المستحق للعبادة دون غيره، وقيل: أصله إله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، قال المبرد: هو قول العرب: ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، قال الشاعر:

أَلِهْتُ إليها والحوادِثُ جَمَّةٌ

فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره، يقال: ألهت إليه أي: فزعت إليه، وقال الشاعر:

أَلِهت إليها والركائب وُقَّفُ

وقيل: أصل الإله «ولاه»، فأُبدلت الواو بالهمزة مثل وشاح وأشاح، اشتقاقه من الوله لأن العباد يولهون إليه، أي يفزعون إليه في الشدائد ويلجؤون إليه في الحوائج كما يوله كل طفل إلى أمّه، وقيل: هو من الوله وهو ذهاب العقل لفقد من يعز عليك.

(١) قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، واختلفوا فيهما، منهم من قال: هما بمعنى واحد مثل ندمان ونديم، ومعناهما ذو الرحمة، وذكر أحدهما بعد الآخر (تطميعاً) لقلوب الراغبين، وقال المبرد: هو إنعام بعد إنعام، وتفضل بعد تفضل، ومنهم من فرّق بينهما فقال: للرحمٰن معنى العموم، والرحيم بمعنى الخصوص. فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا، وهو على العموم لكافة الخلق. والرحيم بمعنى المعافي في الآخرة والعفو في الآخرة للمؤمنين على الخصوص.

ولذلك قيل في الدعاء: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، فالرحمن من تصل رحمته إلى الخلق على العموم، والرحيم من تصل رحمته إليهم على الخصوص، ولذلك يدعىٰ غير الله رحيماً ولا يدعى غير الله رحمن، فالرحمن عام المعنى خاص اللفظ، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى، والرحمة إرادةُ الله تعالى الخيرَ لأهله. وقيل: هي ترك عقوبة من يستحقها وإسداء الخير إلى من لا يستحق، فهي على الأول صفة ذات وعلى الثاني صفة (فعل).

واختلفوا في آية التسمية فذهب قراء المدينة والبصرة وفقهاء الكوفة إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب، ولا من غيرها من السور والافتتاح بها للتيمّن والتبرك. وذهب قراء مكة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز إلى أنها [ليست] من الفاتحة وليست من سائر السور، وإنما كتبت للفصل، وذهب جماعة إلى أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلا سورة التوبة، وهو قول الثوري وابن المبارك والشافعي، لأنها كتبت في المصحف بخط سائر القرآن.

واتفقوا على أن الفاتحة سبع آيات فالآية الأولى عند من يعدها من الفاتحة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وابتداء الآية الأخيرة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾، ومن لم يعدها من الفاتحة قال ابتداؤها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وابتداء الآية الأخيرة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، واحتج من جعلها من الفاتحة ومن السور بأنها كتبت في المصحف بخط القرآن، وبما أخبرنا [أبو الحسن] عبدالوهّاب بن محمد الكسائي، أنا أبو محمد عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، وأنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي أنا عبدالمجيد عن ابن جريج قال: أخبرني أبي عن سعيد بن جبير قال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. هي أم القرآن قال أُبي: وقرأها عليَّ سعيد بن جبير حتى ختمها ثم قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الآية السابعة، قال سعيد: قرأها عليَّ ابنُ عباس كما قرأتُها عليك ثم قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الآية السابعة، قال ابن عباس: فادخرها لكم فما أخرجها لأحد قبلكم.

ومن لم يجعلها من الفاتحة، احتج بما ثنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي أنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «قمت وراء أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كلهم كان لا يقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إذا افتتح الصلاة»، قال سعيد بن جبير: عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ لا يعرف خَتْمَ السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم.

وعن ابن مسعود قال: كنا لا نعلم فصل ما بين السورتين حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ يكتب في بدء الأمر على رسم قريش باسمك اللهم حتى نزلت ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا﴾ [هود: ٤١]، فكتب باسم الله حتى نزلت ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فكتب بسم الله الرحمن حتى نزلت آية ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتب مثلها.

(٢) قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لفظه خبر كأنه يخبر أن المستحق للحمد هو الله عزّ وجلّ وفيه تعليم الخلق تقديره قولوا الحمد لله، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة، ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة. يُقال حمدت فلاناً على ما أسدى إليّ من النعمة، وحمدته على علمه وشجاعته، والشكر لا يكون إلا على النعمة، والحمد أعم من الشكر إذ لا يقال شكرت فلاناً على علمه، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً وقيل: الحمد باللسان قولاً والشكر بالأركان فعلاً، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، يعني: اعملوا الأعمال لأجل الشكر، فشكراً مفعولاً له وانتصب باعملوا.

قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ اللام فيه للاستحقاق كما يُقال الدار لزيد.

(٣) قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فالرب يكون بمعنى المالك كما يُقال لمالك الدار: ربُّ الدار، ويقال: ربّ الشيء إذا ملكه، ويكون بمعنى التربية والإصلاح، يقال: ربّ فلانٌ الصنعة يربها إذا أتمها وأصلحها، فهو ربّ مثل طب وبر، فالله تعالى مالك العالمين ومُربّيهم، ولا يقال للمخلوق هو الرب معرفاً، إنّما يُقال: ربّ كذا مضافاً، لأنّ الألف واللام للتعميم، وهو لا يملك الكل، و«العالمين»: جمع عالَم [والعالم جمعٌ] لا واحدَ له من لفظه، واختلفوا في العالَمين.

قال ابن عباس: هم الجن والإنس، لأنهم مكلفون بالخطاب، قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]: وقال قتادة ومجاهد والحسن: هم جميع المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤]، واشتقاقه من العلم والعلامة، سُمّوا به لظهور أثر الصنعة فيهم، قال أبو عبيدة: هم أربع أمم الملائكة والإنس والجن والشياطين، مشتق من العلم، ولا يقال للبهائم: عالم لأنها لا تعقل.

واختلفوا في مبلَغهم، قال سعيد بن المسيب: لله ألف عالَم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وقال مقاتل بن حيان: لله ثمانون ألف عالَم، أربعون ألفاً في البحر وأربعون ألفاً في البر، وقال وهب: لله ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا عالم منها وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء. وقال كعب الأحبار: ولا يحصي عدد العالمين أحدٌ إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

(٤) قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿مَٰلِكِ﴾ وقرأ الآخرون «ملِك» قال قوم: معناهما واحد مثل فرِهين وفارهين وحذِرين وحاذرينَ، ومعناهما الربّ، [كما] يقال: رب الدار ومالكها، وقيل: المالك هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود، ولا يقدر عليه أحدٌ غير الله.

قال أبو عبيدة: «مالك» أجمع وأوسع لأنه يقال مالك العبيد والطير والدواب، ولا يقال ملك هذه الأشياء، ولأنّه لا يكون مالك لشيء إلاّ وهو يملكه، وقد يكون ملك الشيء ولا يملكه.

وقال قوم: ملك أولى لأن كل ملك مالك، وليس كل ملك ملكاً، ولأنه أوفق لسائر القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤] و﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] قال مجاهد: الدين الحساب، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦] أي الحساب المستقيم، و﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢] قال ابن عباس ومقاتل والسدي: ملك يوم الدين، قاضي يوم الحساب وقال قتادة: الدين الجزاء. ويقع على الجزاء في الخير والشر جميعاً، كما يقال: كما تَدين تُدان.

قال محمد بن كعب القرظي: مالك يوم لا ينفع فيه إلا الدِّين، وقال يَمَانُ بن رباب: الدِّين القهر، يُقال

دِنته فدان، أي: قهرته فذل. وقيل: الدِّين الطاعة، أي: يوم الطاعة، وإنما خُص يومُ الدين بالذكر مع كونه مالكاً للأيام كلها لأن الأملاك يومئذ زائلة فلا ملك ولا أمر إلاّ له، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

وقرأ أبو عمرو: «الرحيم ملك» بإدغام الميم في الميم، وكذلك يُدغم كل حرفين من جنس واحد أو مخرج واحد أو قريبي المخرج سواء كان الحرف ساكناً أو متحركاً إلا أن يكون الحرف الأول مشدداً أو منوناً أو منقوصاً أو مفتوحاً أو تاء الخطاب قبله ساكن في غير المثلين فإنه لا يدغمهما وإدغام المتحرك يكون في الإدغام الكبير، وافقه حمزة في إدغام المتحرك في قوله ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ [النساء: ٨١] ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١.٣] و﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]، وأدغم التاء فيما بعدها من الحروف. وافقه الكسائي وحمزة في إدغام الصغير، وهو إدغام الساكن في المتحرك برواية جابر وخلف إلاّ في الراء عند اللام والدال عند الجيم، وكذلك لا يدغم حمزة ـ برواية خلاء وخلف ـ الدال عند السين والصاد والزاي، ولا إدغام لسائر القراء إلاّ في أحرف معدودة.

(٥) قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾، «إيا» كلمة ضمير خُصتْ بالإضافة إلى المضمر، ويستعمل مقدماً على الفعل، فيقال: إياك أعني وإياك أسأل، ولا يستعمل مؤخراً إلا منفصلاً فيقال: ما عنيت إلاّ إياك.

قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ أي: نوحدك ونطيعك خاضعين، والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده يقال: طريق معبد أي: مُذلل، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، نطلب منك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا.

فإن قيل: لِمَ قدّم ذكر العبادة على الاستعانة والاستعانة تكون قبل العبادة؟ فلهذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل، ونحن نحمد الله ونجعل التوفيق و(الاستعانة) مع الفعل، فلا فرق بين التقديم والتأخير، ويقال: الاستعانة نوع تعبُّد فكأنه ذكر جملة العبادة أوّلاً، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها.

(٦) قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، اهدنا: أرشدنا، وقال علي وأُبيّ بن كعب: ثبتنا، كما يُقال للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: دم على ما أنت عليه. وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية، لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى على مذهب أهل السنة.

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: «وسراط» قُرىء بالسين رواه أُوَيس عن يعقوب وهو الأصل، سمي سراطاً لأنه يسرط السابلة، ويُقرأ بالزاي، وقرأ حمزة بإشمام الزاي وكلها لغات صحيحة، والاختيار الصاد عند أكثر القراء لموافقة المصحف.

والصراط المستقيم: قال ابن عباس وجابر: هو الإسلام وهو قول مقاتل. وقال ابن مسعود: هو القرآن.

وروي عن علي مرفوعاً «الصراط المستقيم كتاب الله».

وقال سعيد بن جبير: طريق الجنة، وقال سهل بن عبدالله: طريق السنة والجماعة، وقال بكر بن عبدالله المزني: طريق رسول الله ﷺ. وقال أبو العالية والحسن: رسول الله وآله وصاحباه، وأصله في اللغة الطريق الواضح.

(٧) ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مننت عليهم بالهداية والتوفيق، قال عكرمة: مننت عليهم بالثبات على الإيمان والاستقامة وهم الأنبياء عليهم السلام، وقيل: هم كل من ثبته الله على الإيمان من النبيين والمؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن يغيّروا دينهم. وقال عبدالرحمن: هم النبي ﷺ ومن معه. وقال أبو العالية: هم الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأهل بيته، وقال شَهْرُ بن حوشب: هم أصحاب رسول الله ﷺ [وأهل بيته].

قرأ حمزة: «عليهم ولديهم وإليهم» بضم الهاء، ويضم يعقوب كل هاء قبلها ياء ساكنة تثنيةً وجمعاً إلا قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقرأ الآخرون بكسرها، فمن ضم الهاء ردها إلى

الأصل لأنها مضمومة عند الانفراد، ومن كسرها فلأجل الياء الساكنة والياء أخت الكسرة، وضم ابن كثير وأبو جعفر كل ميم جمع ضماً مشبعاً في الوصل إذا لم يلقها ساكن، فإن لقيها ساكن فلا يُشبع، ونافع يخيّر، ويضم ورش عند ألف القطع، وإذا لقته ألفُ وصل - وقبل الهاء كسرة أو ياء ساكنة - ضم الهاء والميم حمزة والكسائي وكسرهما أبو عمرو، وكذلك يعقوب إذا انكسر ما قبله، والآخرون [يقرؤون] بضم الميم وكسر الهاء لأجل الياء أو لكسر ما قبلها وضم الميم على الأصل.

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: غير صراط الذين غضبت عليهم، والغضب هو إرادة الانتقام من العصاة، وغضب الله تعالى لا يلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وغير الضالين عن الهدى، وأصل الضلال الهلاك والغيبوبة، يقال: ضل الماء في اللبن إذا هلك وغاب، و «غير» ههنا بمعنى لا، ولا بمعنى غير، ولذلك جاز العطف [عليها]، كما يُقال: فلان غير محسن ولا مجمل، فإذا كان غير بمعنى سوى، فلا يجوز العطف عليها بلا، ولا يجوزُ في الكلام: عِندي سوى عبدِ اللّهِ ولا زيد. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «غير المغضوب عليهم وغير الضالين»، وقيل: المغضوب عليهم: هم اليهود، والضالون: هم النصارىٰ لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب، فقال: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وحكم على النصارى بالضلال فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧].

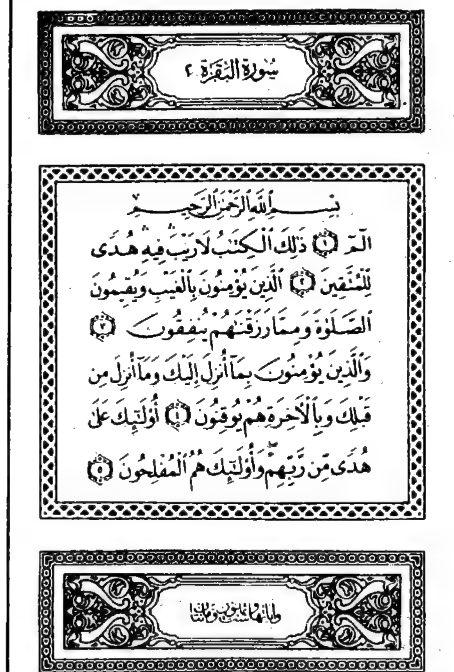
وقال سهل بن عبدالله: غير المغضوب عليهم بالبدعة، ولا الضالين عن السنة. والسنة للقارىء أن يقول بعد فراغه من قراءة الفاتحة: «آمين»، مفصولاً عن الفاتحة بسكتة، وهو مخفف ويجوز عند النحويين ممدوداً ومقصوراً، ومعناه اللهم اسمعْ واستجب، وقال ابن عباس وقتادة: معناه كذلك يكون، وقال مجاهد: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو طابع الدعاء، وقيل: هو خاتم الله على عباده يدفع به الآفات عنهم، كخاتم الكتاب يمنعه من الفساد وظهور ما فيه.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي، وأبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي قالا: أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو علي محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميداني، ثنا محمد بن يحيى ثنا عبدالرزاق أنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقولوا: آمين، فإن الملائكة يقولون: آمين، وإن الإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه» صحيح.

(فصل في فضائل فاتحة الكتاب)

أنا أبو الحسن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد الكيّالي أنا أبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي، أنا أبو عثمان عمرو بن عبدالله البصري ثنا محمد بن عبد الوهاب، ثنا خالد بن مخلد القطواني حدثني محمد بن جعفر بن أبي كثير هو أخو إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه، عن أبي هريرة قال:

«مرّ رسول الله ﷺ على أُبي بن كعب وهو قائم يُصلي فصاح به فقال: «تعال يا أُبيّ» فعجّل أُبيّ في صلاته، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ما منعك يا أُبي أن تجيبني إذْ دعوتك؟ أليس الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال أُبي: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت مصلياً، قال: «تحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»؟ فقال أُبي: نعم يا رسول الله فقال: «لا تخرج من باب المسجد حتى تَعلَّمها»، والنبي ﷺ يمشي يريد أن يخرج من المسجد فلما بلغ الباب ليخرج قال له أُبي: السورة يا رسول الله، فوقف فقال: «نعم! كيف تقرأ في صلاتك»؟ فقرأ أُبي أمّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها



وإنها لهي السبع المثاني التي آتاني الله عزّ وجلّ»، هذا حديث حسن صحيح.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالصمد الترابي أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي، أنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد أنا إسحٰق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو الأحوص عن عمار بن رُزيق، عن عبدالله بن عيسى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ عنده جبريل إذ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: «أبشرْ بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته»، صحيح. [أخرجه مسلم عن الحسن بن ربيع عن أبي الأحوص].

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي ثنا زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري عن مالك عن العلاء بن عبدالرحمن: أنه سمع أبا السائب مولى هشام بن زُهرة يقول: سمعت أبا هريرة يقول:

قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي [خداج، هي خداج] خداج غير تمام»، قال: فقلت: يا أبا هريرة إني أحياناً أكون وراء الإمام؟ فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها يا فارسي في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل»، قال رسول الله ﷺ: «اقرؤا يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى عليّ عبدي، يقول العبد: مالك يوم الدين، يقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، يقول الله عزّ وجلّ: هذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل». صحيح. [وأخرجه مسلم عن قتيبة عن مالك].

❊ ❊ ❊

سُوَرة البَقَرة
[سورة البقرة مدنية وهي مائتان وثمانون وسبع آيات]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ﴾ ﴿١﴾ قال الشعبي وجماعة: الٓمٓ وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سرُّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها.

قال أبو بكر الصديق [رضي الله عنه]: في كل كتاب سرّ وسرّ الله في القرآن أوائل السور.

وقال علي [رضي الله عنه]: إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف (التهجي).

قال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سراً وإن سرّ القرآن فواتح السور فدعها، وسلْ عما سوى ذلك.

وقال جماعة: هي معلومة المعاني، فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه كما قال ابن عباس في ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، الكاف من كافي والهاء من هادي والياء من حكيم والعين من

عليم والصاد من صادق. وقيل في ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] أنا الله الملك الصادق، وقال الربيع بن أنس في الٓمٓ: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه المجيد.

وقال محمد بن كعب: الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: معنى الٓمٓ: أنا الله أعلم، ومعنىٰ الٓمٓصٓ: أنا الله أعلم وأفضل، ومعنى الٓر: أنا الله أرى، ومعنى الٓمٓر: أنا الله أعلم وأرى. قال الزجاج: وهذا حسن فإن العرب تذكر حرفاً من كلمة تريدها كقولهم:

قلت لها قفي فقالت قاف

أي: وقفت.

وعن سعيد بن جبير قال: هي أسماء الله تعالى «مقطعة» لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم، ألا ترى أنك تقول الٓمٓر وحم، ون، فتكون الرحمن، وكذلك سائرها إلا أنا لا نقدر على وصلها.

وقال قتادة: هذه الحروف أسماء القرآن وقال مجاهد وابن زيد: هي أسماء «السور»، وبيانه: أن القائل إذا قال: قرأت الٓمٓصٓ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بالٓمٓصٓ.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها أقسام، وقال الأخفش: إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مبادئ كتبه المنزلة مبادىء أسمائه الحسنى.

(٢) قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: هذا الكتاب وهو القرآن، وقيل: هذا فيه مضمر أي هذا ذلك الكتاب. قال الفراء: كان الله قد وعد نبيه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلَقُ عن كثرة الرد، فلما أنزل القرآن قال: هذا (ذلك) الكتاب الذي وعدتك أن أنزله عليك في التوراة والإنجيل، وعلى لسان النبيين من قبلك، وهذا (للتقريب وذلك) للتبعيد.

وقال ابن كيسان: إن الله تعالى أنزل قبل سورة البقرة سوراً كذّب بها المشركون ثم أنزل سورة البقرة فقال: ذلك الكتاب يعني ما تقدم (سورة) البقرة من السور، لا شك فيه. والكتاب مصدر وهو بمعنى المكتوب كما يقال للمخلوق خلق، وهذا الدرهم ضرب فلان، أي: مضروبه، وأصل الكتاب الضم والجمع، ويقال للجند كتيبة، لاجتماعها وسُمي الكتاب كتاباً لأنه جمع حرف إلى أحرف.

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل: هو خبر بمعنى النهي أي: لا ترتابوا فيه لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، قرأ ابن كثير فيه بالإشباع في الوصل، وكذلك كل هاء كناية قبلها ساكن يشبعها وصلاً ما لم يلقها ساكن، ثم إن كان الساكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسر ياء، وإن كان غيرها يشبعها بالضم واواً، ووافقه حفص في قوله: ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩] (فيشبعه).

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، يدغم الغنة عند اللام والراء أبو جعفر وابن كثير وحمزة والكسائي، زاد حمزة والكسائي عند الياء، وزاد حمزة عند الواو، والآخرون لا يدغمونها، ويخفي أبو جعفر النون والتنوين عند الخاء والغين، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: هو هدى، أي: رشد وبيان لأهل التقوى، وقيل: هو نصب على الحال، أي: هادياً تقديره لا ريب فيه في هدايته للمتقين، والهدى ما يهتدي به الإنسان، للمتقين، أي: للمؤمنين قال ابن عباس: المتقي من يتقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتقاء، وأصله الحجز بين شيئين، ومنه يُقال: اتقى بترسه أي: جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما يقصده.

وفي الحديث: كنّا إذا احْمرَّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ.

أي: إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو، [فكأنَّ المتقي يجعل امتثالَ أمر الله والاجتناب عما نهاه حاجزاً بينه وبين العذاب]، قال عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] لكعب الأحبار: حدثنا عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذّرت وشمرّت، قال كعب: ذلك التقوى، وقال ابن عمر: التقوىٰ أن لا ترىٰ نفسك خير من أحد، وقال عمر بن عبدالعزيز: التقوىٰ تركُ ما حرّم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلىٰ خير، وقيل: هو الاقتداء بالنبي ﷺ.

وفي الحديث: «جماع التقوىٰ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾» [النحل: ٩٠] الآية وقال شهر بن حوشب: المتقي الذي يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وتخصيص المتقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى.

﴿٣﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ موضع الذين خفض، نعتاً للمتقين (يؤمنون) يصدقون، ويترك همزهُ أبو عمرو وورش، والآخرون يهمزونه، وكذلك يتركان كل همزة ساكنة هي فاء الفعل [نحو] يؤمن ومؤمن إلا أحرفاً معدودة، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق لنا.

وهو في الشريعة: الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فسُمي الإقرار والعمل إيماناً لوجه من المناسبة لأنه من شرائعه، والإسلام هو الخضوع والانقياد فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً إذا لم يكن معه تصديق، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وذلك لأن الرجل قد يكون [مسلماً] في الظاهر غير مصدق في الباطن ويكون مصدقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر.

وقد اختلف [في] جواب النبي ﷺ عنهما حين سأله جبريل عليه السلام، وهو ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن محمد بن علي بن بُوَيْه الزَّرَّاد البخاري، أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعي، ثنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، ثنا أبو أحمد عيسى بن أحمد العسقلاني أنا يزيد بن هارون أنا كَهْمَس بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن يَعْمَر قال: كان أول من تكلم في القدر - يعني بالبصرة - معبدالجهني، [قال] خرجت أنا وحميد بن عبدالرحمن نريد مكة فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء، فلقينا عبدالله بن عمر فاكتنفته أنا وصاحبي - اكتنفوا أي: أحاطوا - أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل الكلام إليّ فقلت: أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا أُناس يَتَقَفَّرون هذا العلم ويطلبونه، يزعمون أن لا قدر إنما الأمر أُنف، قال: فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني بُرآء، والذي نفسي بيده لو أن لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قَبِلَ الله منه شيئاً حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ثم قال: حدثنا عمر بن الخطاب، قال:

بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ما يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وركبته تمس ركبته، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام تشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول اللّه، وتُقيمُ الصلاة وتُؤتي الزكاة وتصومُ رمضانَ وتحجُ البيتَ إنِ استطعت إليه سبيلاً»، فقال: صدقت، فتعجبنا من سؤاله وتصديقه، ثم قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة والنار وبالقدر خيره وشره»، فقال: صدقت، ثم قال: فما الإحسان؟ قال: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه فإنّك إن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: صدقت، ثم قال: فأخبرني عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلد الامةُ رَبَّتها وأن ترى الحُفاةَ العُراةَ رِعاء الشاء يتطاولون في بنيان المدر»، قال: صدقت، ثم انطلق، فلما كان بعد ثالثة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عمر هل تدري مَنِ الرجل؟» قال: قلت اللّهُ ورسولهُ أعلمُ قال: «ذلك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، وما أتاني في صورة إلاّ عرفُته فيها إلا في صورته هذه».

فالنبي ﷺ جعل الإسلام في هذا الحديث اسماً لِمَا ظهر من الأعمال، والإيمان اسماً لِمَا بطن من الاعتقاد، وذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، والتصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد، وجماعها الدين، ولذلك قال: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم». والدليل على أن [الأعمال من] الإيمان، ما أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي بن الشاه، ثنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان، ثنا

بِشر بن موسى ثنا خالد بن الوليد عن جرير الرازي، عن سهيل بن أبي صالح عن عبدالله بن دينار، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان».

وقيل الإيمان مأخوذ من الأمان فسُمي المؤمن مؤمناً لأنه يُؤمّن نفسه من عذاب الله، والله تعالى مؤمن لأنه يؤمّن العباد من عذابه.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، والغيب: مصدرٌ وُضع موضع الاسم، فقيل للغائب: غيب، كما قيل للعادل: عدل، وللزائر: زور، والغيب ما كان مغيباً عن العيون.

قال ابن عباس: الغيب هٰهنا كل ما أُمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنّة والنار والصّراط والميزان.

وقيل: الغيب هٰهنا هو الله تعالىٰ، وقيل: القرآن. وقال الحسن: الآخرة. وقال زرّ بن حُبيش وابن جريج: الوحي، نظيره: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [النجم: ٣٥]، وقال ابن كيسان: بالقدر، وقال عبدالرحمٰن بن يزيد: كنا عند عبدالله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقوا به فقال عبدالله: إن أمر محمد كان بيّناً لمن رآه والذي لا إلٰه غيره ما آمن أحدٌ قطّ إيماناً أفضل من إيمانٍ بغيب، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وورش: ﴿يُومِنُونَ﴾، بترك الهمزة، وكذلك يترك أبو جعفر كل همزة ساكنة إلا في ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ [البقرة: ٣٣]، و﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ [المائدة: ١٤]، و﴿نَبِّئْنَا﴾ [يوسف: ٣٦]، ويترك أبو عمرو كلها إلا أن يكون علامةً للجزم نحو ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ [القمر: ٢٨]، و﴿أَنۢبِئْهُم﴾ [البقرة: ٣٣]، و﴿تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، و﴿إِن نَّشَأْ﴾ [الشعراء: ٤]، و﴿ننسأها﴾، ونحوها أو يكون خروجاً من لغة إلى أخرى نحو: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾، و﴿وَرِءْيًا﴾، ويترك ورش كل همزة ساكنة كانت فاء الفعل، إلا ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ و﴿تُـْٔوِيهِ﴾، ولا يترك من عين الفعل إلا: ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، وبابه إلا ما كان على وزن فعلٍ مثل: ذئب.

قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها، يقال: قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطيئ حقوقه، والمراد بها الصلوات الخمس، ذُكر بلفظ «الواحد»؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يعني: الكتب.

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادعُ لهم، وفي الشريعة اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء وثناء، وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية، إن الصلاة من الله في هذه الآية الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن المؤمنين: الدعاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، «أي»: أعطيناهم، والرزق اسم لكل ما يُنتفع به حتى الولد والعبد، وأصله في اللغة: الحظ والنصيب.

﴿يُنفِقُونَ﴾: يتصدّقون، قال قتادة: ينفقون في سبيل الله وطاعته، وأصل الإنفاق: الإخراج عن اليد والملك، ومنه نَفاق السوق، لأنه يُخرج فيه السلعة عن اليد، ومنه: نَفَقَتِ الدابة إذا خرجتْ روحها، فهذه الآية في المؤمنين من مشركي العرب.

﴿٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، يعني: القرآن. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: من التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزّلة على الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ويترك أبو جعفر وابن كثير وقالون [وأبو عمرو] وأهل البصرة ويعقوب كلَّ مدّة تقع بين كلمتين، والآخرون يمدونها، وهذه الآية في المؤمنين من أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة، سُمّيت الدنيا دنيا لدنوّها من الآخرة، وسُميّت الآخرة: آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا.

﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أي: يستيقنون أنها كائنة، من الإيقان: وهو العلم.

وقيل: الإيقان واليقين: علمٌ عن استدلال، ولذلك لا يُسمّى الله موقناً ولا علمه يقيناً إذْ ليس علمه عن استدلال.

﴿٥﴾ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: أهل هذه الصفة، وأولاء كلمة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٣

معناها الكناية عن جماعة نحو: هم، والكاف للخطاب، كما في حرف ذلك ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾، أي: رُشد وبيان وبصيرة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الناجون والفائزون فازوا بالجنة ونجوا من النار، ويكون الفلاح بمعنى البقاء، أي: الباقون في النعيم المقيم، وأصل الفلاح: القطع والشق، ومنه سُمي الزّراع: فلاحاً، لأنه يشق الأرض، وفي المثل: الحديد بالحديد يفلح [أي: يشق]، فهم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة.

﴿٦﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يعني مشركي العرب، قال الكلبي: يعني اليهود. والكفر هو الجحود، وأصله من الكفر وهو الستر ومنه سُمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسُمي الزّارع كافراً لأنه يستر الحب بالتراب، والكافر يستر الحق بجحوده.

والكفر على أربعة إنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق، فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به، وكفرُ الجحود هو أنْ لا يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس لعنه الله وكفر اليهود. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وكفرُ العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب حيث يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة
لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وأما كفر النفاق: فهو أن يقرّ بلسانه ولا يعتقد بالقلب، وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله تعالىٰ بواحد منها لا يغفر له. قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: متساوٍ لديهم ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ خوّفتهم وحذّرتهم، والإنذار إعلام مع تخويف وتحذير، وكل منذر معلم وليس كل معلم منذراً، وحقق ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي الهمزتين في ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، وكذلك كل همزتين تقعان في أول الكلمة، والآخرون يلينون الثانية، ﴿أَمْ﴾ حرف عطف على الاستفهام، ﴿لَمْ﴾ حرف جزم لا تلي إلا الفعل، لأن الجزم يختص بالأفعال. ﴿تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وهذه الآية نزلت في أقوام حقّت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله، ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال:

﴿٧﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾، طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تعي خيراً ولا تفهمه. وحقيقة الختم الاستيثاق من الشيء كيلا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما فيه ومنه الختم على الباب، قال أهل السنةُ: أي حكم على قلوبهم بالكفرِ لما سبق من علمه الأزلي فيهم، وقال المعتزلة: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، أي: على موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به، وأراد على أسماعهم كما قال ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وإنما وحده لأنه مصدر والمصدر لا يُثنى ولا يُجمع. ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾: هذا ابتداء كلام، غشاوة أي: غطاء فلا يرون الحق.

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿أَبْصَٰرِهِمْ﴾ بالإمالة وكذلك كل ألف بعدها راء مجرورة في الأسماء كانت لام الفعل يُميلانها، ويميل حمزة منها ما يتكرر فيه الراء كالقرار ونحوه. زاد الكسائي إمالة جبارين، والجوار، والجار وبارئكم ومن أنصاري، ونسارع وبابه، وكذلك يميل هؤلاء كل ألف هي بمنزلة لام الفعل أو كان علماً للتأنيث إذا كان قبلها راء، فعلم التأنيث مثل: الكبرى، والأخرى، ولام الفعل مثل: ترى، وافترى، يكسرون الراء منها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: في الآخرة، وقيل: القتل والأسر في الدنيا والعذاب الدائم في العُقبى، والعذاب: كل ما يعيي الإنسان ويشقّ عليه، قال الخليل بن أحمد: العذاب ما يمنع الإنسان عن مراده، ومنه: الماء العذب لأنه يمنع العطش.

⑧ قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾: نزلت في المنافقين عبدالله بن أُبي ابن سَلول ومعتب بن قشير وجدِّ بن قيس وأصحابهم، حيث أظهروا كلمة الإسلام لِيَسْلَمُوا من النبيّ ﷺ وأصحابه، واعتقدوا خِلافها، وأكثرهم من اليهود، والناس: جمع إنسان، سمّي به لأنه عُهد إليه فنسي، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥]، وقيل: لظهوره من قولهم آنست، أي: أبصرت، وقيل: لأنه يستأنس به، ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: بيوم القيامة، قال الله تعالىٰ:

⑧ - ⑨ ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ اللَّهَ﴾، أي: يخالفون الله، وأصل الخداع في اللغة الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يُخفى فيه المتاع، فالمخادع يظهر خلاف ما يضمر، والخداع من الله في قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، أي: يُظهرُ لهم ويُعجل لهم من النعيم في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، وقيل: أصل الخداع: الفساد. معناه: يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمروا من الكفر. وقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، أي: يُفسد عليهم نعيمهم في الدنيا بما يصيرهم إليه من عذاب الآخرة، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ اللَّهَ﴾، والمفاعلة للمشاركة وقد جلّ الله تعالىٰ عن المشاركة في المخادعة؟ قيل: قد ترد المفاعلة لا على معنى المشاركة كقولك عافاك الله وعاقبت فلاناً وطارقت النعل.

وقال الحسن: معناه يُخادعون رسول الله ﷺ؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، أي: أولياء الله، وقيل: ذِكرُ الله هٰهنا تحسينٌ، والقصد بالمخادعة الذين آمنوا، كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقيل: معناه يفعلون في دين الله ما هو خداع في دينهم. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم آمنّا وهم غير مؤمنين، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ما يخادعون كالحرف الأول وجعلوه من المفاعلة التي تختص بالواحد. وقرأ الباقون. ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ على الأصل: ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، لأن وبال خداعهم راجع إليهم لأن الله يُطلع نبيّه ﷺ على نفاقهم فيُفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العُقبى، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وَبَالَ خِداعهم يعود عليهم.

⑩ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شك ونفاق، وأصل المرض الضعف، وسُمي الشك في الدين مرضاً لأنه يُضعف الدينَ كالمرض يُضعف البدنَ، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، لأن الآيات كانت تنزل تترى آيةً بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً، وذلك معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، قرأ ابن عامر وحمزة ﴿فَزَادَهُمُ﴾، بالإمالة، وزاد حمزة إمالة (زاد) حيث وقع، وزاغ، وخاب، وخاف، وطاب، وحاق، وضاق، والآخرون لا يُميلونها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم يخلص وجعُه إلى قلوبهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [ما للمصدر، أي: بتكذيبهم الله ورسوله في السر، وقرأ الكوفيون] يكذبون بالتخفيف، أي: يكذبهم إذ قالوا: آمنّا وهم غير مؤمنين، ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ قرأ الكسائي (قيل، وغيض، وجيء، وحِيل، وسِيق، وسِيئت) بِرَوْمِ أوائلهن الضم، ـ ووافق ابن عامر في (سيق، وحيل، سيىء، وسيئت) ـ ووافق أهل المدينة في (سيىء، وسيئت): لأن أصلها قُوِل بضم القاف وكسر الواو، مثل قُتِل، وكذلك في أخواته، فأُشير إلى الضمة لتكون دالةً على الواو المنقلبة، وقرأ الباقون بكسر أوائلهن، استثقلوا الحركة على الواو، فنقلوا كسرتها إلى فاء الفعل وانقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها.

⑪ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني للمنافقين، وقيل لليهود، أي قال لهم المؤمنون، ﴿لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ﴾، بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن. وقيل: معناه لا تكفروا، والكفر أشدّ فساداً في الدين، ﴿قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: يقولون هذا القول كذباً كقولهم آمنّا وهم كاذبون.

﴿١٢﴾ ﴿أَلَآ﴾: كلمة تنبيه ينبّه بها المخاطب، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ أنفسهم بالكفر، والناس بالتعويق عن الإيمان، ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أنهم مفسدون، لأنهم يظنون أنّ الذي هم عليه من إبطان الكفر صلاح، وقيل: لا يعلمون ما أعدّ الله لهم من العذاب.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين، وقيل: لليهود، ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ عبدالله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب، وقيل كما آمن المهاجرون والأنصار، ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: الجهال، فإن قيل كيف يصح النفاق مع «المجاهرة» بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؟ قيل أنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لاَ عند المؤمنين، فأخبر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين بذلك فردَّ اللّهُ عليهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، أنهم كذلك، فالسفيه خفيف العقل رقيق الحلم، من قولهم: ثوب سفيه أي: رقيق، وقيل: السفيه الكذاب الذي يتعمد (الكذب) بخلاف ما يعلم.

قرأ أهل الكوفة والشام ﴿ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ﴾ بتخفيف الهمزتين، وكذلك كل همزتين وقعتا في كلمتين اتفقتا أو اختلفتا، والآخرون يحققون الأولى ويلينون الثانية في المختلفتين طلباً للخفة، فإن كانتا متفقتين مثل: (هؤلاء، وأولياء، وأولئك، وجاء أمر ربك)، قرأ أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير بهمزة واحدة، وقرأ أبو جعفر وورش والنواس ويعقوب بتحقيق الأولى وتليين الثانية، وقرأ قالون [بتخفيف الثانية] لأن ما يستأنف أولى بالهمزة مما يُسكت عليه.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعني: هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ رجعوا، ويجوز أن يكون من الخلوة، ﴿إِلَىٰ﴾، بمعنى: الباء، أي: بشياطينهم، وقيل: إلى بمعنى مع كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم. ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾، أي: رؤسائهم وكَهَنَتِهِم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهم خمسة نفر من اليهود كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبدالدار في جُهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبدالله بن السوداء بالشام، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له. والشيطان: المتمرّد العاتي من الجنّ والإنس ومن كل شيء، وأصله البُعد، يقال: بئر شطون، أي: بعيدة العمق، سُمي الشيطان شيطاناً لامتداده في الشر وبعده من الخير.

وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بمحمد ﷺ وأصحابه بما نُظهر من الإسلام. قرأ أبو جعفر: (مستهزون، ويستهزون، وقل استهزوا، وليطفوا، وليواطوا، ويستنبونك، وخاطين، وخاطون، ومتكن ومتكون فمالون، والمنشون) بترك الهمزة فيهن.

﴿١٥﴾ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، أي: يجازيهم جزاء استهزائهم، سمّي الجزاء باسمه لأنه في مقابلته؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، قال ابن عباس: هو أن يُفتح لهم باب من الجنة فإذا انتهوا إليه سُد عنهم ورُدّوا إلى النار. وقيل: هو أن يُضرب للمؤمنين نورٌ يمشون به على الصراط فإذا وصل المنافقون إليه حيل بينهم وبين المؤمنين؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ [الحديد: ١٣] الآية. وقال الحسن: معناه أن الله يظهر المؤمنين على نفاقهم. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يتركهم ويمهلهم، والمد والإمداد واحد، وأصله الزيادة إلا أن المدَّ أكثر ما يأتي في الشر، والإمداد في الخير؛ قال الله تعالى في المدّ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدّٗا﴾ [مريم: ٧٩]، وقال في الإمداد: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦] ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ [الطور: ٢٢]. ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾، أي: في ضلالتهم، وأصله: مجاوزة الحدّ، ومنه: طغى الماء. ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يتردّدون في الضلالة متحيّرين.

﴿١٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾: أي استبدلوا الكفر بالإيمان، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾، أي: ما ربحوا في تجارتهم، أضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها كما تقول العرب: ربح بيعك وخسرت صفقتك. ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: من الضلالة، وقيل: مصيبين في تجارتهم.

﴿١٧﴾ ﴿مَثَلُهُمْ﴾: شَبَهُهُم، وقيل:

الجزء الأول — سورة البقرة

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

٤

صفتهم، والمَثَلُ: قولٌ سائر في عُرف الناس يعرف به معنى الشيء، وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ يعني الذين بدليل سياق الآية، ونظيره ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: أوقَدَ ناراً، ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾، أي: حول المستوقد، وأضاء لازمٌ ومتعدٌ، يقال: أضاء الشيءُ بنفسه وأضاءه غيره، وهو: هنا متعد، ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك والسدي: نزلت في المنافقين. يقول: مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينا هو كذلك إذ طُفيت نارُه فبقي في ظلمة خائفاً متحيّراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أَمِنُوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنون ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادُوا إلى الظلمة والخوف.

وقيل: ذهاب نورهم في القبر، وقيل: في القيامة حيث يقولون للذين آمنوا انْظرونا نقتبسْ من نوركم، وقيل: ذهاب نورهم بإظهار عقيدتهم على لسان النبيّ ﷺ، فضرب النار مثلاً، ثم لم يقل: أطفأ الله نارهم لكن عبّر بإذهاب النور عنه، لأن النار نورٌ وحرارةٌ فيذهب نورُهم وتبقى الحرارةُ عليهم، وقال مجاهد: إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة.

وقال عطاء ومحمد بن كعب: نزلت في اليهود وانتظارهم خروج النبيّ ﷺ واستفتاحهم به على مشركي العرب، فلما خرج كفروا به، ثم وصفهم الله فقال:

﴿١٨﴾ ﴿صُمٌّۢ﴾، أي: هم صُمّ عن الحق لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا، ﴿بُكْمٌ﴾ خُرسٌ عن الحق لا يقولونه، أو أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق، ﴿عُمْىٌ﴾، أي: لا بصائرَ لهم، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة إلى الحق.

﴿١٩﴾ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾، أي: كأصحاب صيب، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالىٰ للمنافقين، بمعنى آخر: إن شئت مثّلهم بالمستوقد، وإن شئت بأهل الصيّب، وقيل: أو بمعنى الواو يريد، وكصيّب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، بمعنى: ويزيدون، والصيب: المطر وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيّب فيعل، من صاب يصوب، أي: نزل ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من السحاب.

قيل: هي السماء بعينها، والسماء كل ما علاك فأظلك، وهي من أسماء الأجناس يكون واحداً وجمعاً. ﴿فِيهِ﴾، أي: في الصيّب، وقيل: في السماء، أي: في السحاب، ولذلك ذكّره، وقيل: السماء تُذكّر وتؤنّث، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾: جمع ظلمة ﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، ﴿وَبَرْقٌ﴾: وهو النار التي تخرج منه. قال عليّ وابن عباس وأكثر المفسّرين: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرقُ لمعانُ سَوْطٍ من نور، يزجرُ بهِ الملكُ السحابَ، وقيل: الصوت زجر السحاب، وقيل: تسبيح الملك، وقيل: الرعد نطق الملك والبرق ضحكه، وقال مجاهد: الرعد اسم الملك، ويقال لصوته أيضاً رعد، والبرق: مَصعُ ملك يسوق السحاب، وقال شَهْرُ بن

حَوْشَب: الرعد ملك يزجر السحاب فإذا تبدّدتْ ضمّها فإذا اشتدّ غضبه طارت من فيهِ النار فهي الصواعق، وقيل: الرعد انحراف الريح بين السحاب، والأول أصح. ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة، وهي الصيحة التي يموت من يسمعها أو يُغشى عليه، ويقال لكل عذاب مُهلك: صاعقة، وقيل الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله تعالى على من يشاء.

رُوي عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللّهمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك».

قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، أي: مخافة الهلاك، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: عالم بهم وقيل جامعهم وقال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم، وقيل: مهلكهم، دليله قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: أي تهلكوا جميعاً. ويُميل أبو عمرو والكسائي الكافرين في محل النصب والخفص، ولا يُميلان: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

(٢٠) ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾، أي: يقرب، يقال: كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل، ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يختلسها، والخطف استلابٌ بسرعة، ﴿كُلَّمَآ﴾: كلّ حرف جملة، ضُم إلى ما الجزاء فصار أداةً للتكرار، ومعناهما متى ما، ﴿أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾، أي: وقفوا متحيّرين، فالله تعالىٰ شبّههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة أصابهم مطرٌ فيه ظلمات، من صفتها أن الساري (لا يُمكنه) المشي فيها، ورعد من صفته أن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هَوْله، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدّة توقده، فهذا مَثَلٌ ضربه الله للقرآن، وصنيعِ الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد ما خُوّفوا به من الوعيد، وذكر النار والبرق ما فيه من الهُدى والبيان والوَعد وذكر الجنّة والكافرون يسدّون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه، لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: القرآن يُبهر قلوبهم، وقيل: هذا مثل ضربه الله للإسلام، فالمطر الإسلام، والظلمات ما فيه من البلاء والمِحن، والرعد: ما فيه من الوَعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق: ما فيه من الوعد والوعيد.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩]، يعني: أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاءً وشدةً هَرَبُوا حَذَراً من الهلاك، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جامعهم، يعني: لا ينفعهم هَرَبُهم لأن الله تعالىٰ من ورائهم يجمعهم فيعذبهم.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾، يعني: دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾، يعني: أن المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان آمنوا فإذا ماتوا عادُوا إلى الظلمة، وقيل: معناه كلّما نالُوا غَنيمةً وراحةً في الإسلام ثَبَتُوا وقالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: رأوا شِدّةً وبلاءً ﴿قَامُوا۟﴾ [أي تأخروا] ووقفوا [أو قعدوا]؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾، أي: بأسماعهم ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ الظاهرة، كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، وقيل: لذهب بما استفادوا من العزّ والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: قادر، قرأ ابن عامر وحمزة: «شاء، وجاء»، حيث كان بالإمالة.

(٢١) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. قال ابن عباس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة، ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة، وهو هُهنا عام إلاّ من حيث إنه لا يدخله الصِّغار والمجانين.

﴿ٱعْبُدُوا۟﴾: وحّدوا. قال ابن عباس: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد.

﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: والخَلْقُ اختراع الشيء على غير مثال سبق، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: وخلق الذين من قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لعلكم تنجون من العذاب، وقيل: معناه كونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر وَوِقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء؛ كما قال:

الجزء الأول — سورة البقرة

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

٥

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، أي: ادعواه إلى الحق وكُونا على رجاء التذكر، وحكم الله من ورائه يفعل ما يشاء، قال سيبويه: لعلّ وعسى حَرْفَا ترجٍّ، وهُمَا من الله واجب.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، أي: بساطاً، وقيل: مناماً، وقيل: وِطَاءً، أي: ذلّلها ولم يجعلها حَزْنَةً لا يمكن القرار عليها، والجعل هٰهنا بمعنى: الخلق، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، أي: سقفاً مرفوعاً، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من السحاب، ﴿مَآءً﴾، وهو المطر، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: من ألوان الثمرات وأنواع النبات، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: طعاماً لكم وعَلَفاً لدوابّكم، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله.

وقال أبو عبيدة: النّد الضّد، وهو من الأضداد، والله تعالىٰ بريء من المِثْل والضِّد، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه واحدٌ خلق هذه الأشياء.

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾، أي: وإن كنتم في شك، لأن الله تعالىٰ علم أنهم شاكّون ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾، يعني: القرآن، ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: محمد [ﷺ]، ﴿فَأْتُوا۟﴾: أمر تعجيز، ﴿بِسُورَةٍ﴾، والسورة قِطعة من القرآن معلومة الأول والآخِر، من أسأرْتُ، أي: أفضلت وحذفت الهمزة.

وقيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه، سُمّيت سورة لأن القارىء ينال بقراءتها منزلةً رفيعةً حتى يستكمل المنازل باستكماله سور القرآن، ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، أي: مثل القرآن، ومِنْ: صلة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقيل: الهاء في مثله راجعة إلى محمد ﷺ، يعني: مِن مِثْلِ محمدٍ ﷺ أميّ لا يُحسن الخط والكتابة.

﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾، أي: واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال مجاهد: ناساً يشهدون لكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أنّ محمداً تقوّله من تلقاء نفسه، فلما تحدّاهم عجزوا، فقال:

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾، فيما مضى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، أبداً فيما بقي، وإنّما قال ذلك لبيان الإعجاز، وأن القرآن كان معجزة للنبيّ ﷺ حيث عجزوا عن الإتيان بمثله، قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾، أي: فآمنوا واتقوا بالإيمان النارَ، ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، قال ابن عباس وأكثر المفسّرين: يعني حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً، وقيل: جميع الحجارة، وهو دليل على عظمة تلك النار، وقيل: أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت منحوتة من الحجارة، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿أُعِدَّتْ﴾: هُيِّئت ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

(٢٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: أخبر، والبشارة: كل خبر صدق تتغيّر به بشرة الوجه، ويُستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: الفعلات الصالحات، يعني: المؤمنين الذين هم من أهل الطاعات، قال عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: أخلصوا الأعمال؛ كما قال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، أي: خالياً عن الرياء، قال معاذ: العمل الصالح الذي فيه أربعة أشياء: العلم والنيّة والصبر والإخلاص.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: جمع الجنة، والجنة: البستان الذي فيه أشجار مثمرة، سُمّيت بها لاجتنانها وتسترها بالأشجار، وقال الفراء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾، أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: المياه في الأنهار، لأن النهر لا يجري، وقيل: من تحتها أي: بأمرهم؛ لقوله تعالىٰ حكاية عن فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، أي: بأمري، والأنهار جمع نهر، سُمّي به لسعته وضيائه، ومنه النهار.

وفي الحديث: «أنهار الجنة في غير أخدود».

﴿كُلَّمَا﴾: متى ما، ﴿رُزِقُواْ﴾: أطعموا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ أي: ثمرة، ومِن: صلة، ﴿رِّزْقًا﴾: طعاماً، ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، وقبل: رفع على الغاية، قال الله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، قيل: من قبل في الدنيا، وقيل: الثمار في الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعم، فإذا رُزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى، ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾ بالرزق، ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾، قال ابن عباس ومجاهد والربيع: متشابهاً في الألوان مختلفاً في الطعوم، وقال الحسن وقتادة: متشابهاً أي يشبه بعضها بعضاً في الجودة، أي: كلها خيار لا رذالة فيها، وقال محمد بن كعب: يشبه ثمر الدنيا، غير أنها أطيب، وقيل: متشابهاً في الاسم مختلفاً في الطعم. قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي.

أنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبدالله محمد ابن عبدالله الصفار، أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي، أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبدالله قال:

قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنّة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يمتخطون ولا يبزقون، يُلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون النفس، طعامهم الجشاء ورشحهم المسك».

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾: في الجنات ﴿أَزْوَٰجٌ﴾: نساء وجوار، يعني: من الحور العين، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: من الغائط، والبول، والحيض، والنفاس، والبصاق، والمخاط، والمني، والولد، وكل قذر، قال إبراهيم النَّخعي: في الجنّة جماع ما شئت ولا ولد، وقال الحسن: هنّ عجائزكم الغمص العُمش طُهرن من قذرات الدنيا، وقيل: مطهرة عن مساوىء الأخلاق، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.

أنا أبو عمرو عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو حامد أحمد بن عبدالله النُّعيمي، أنا محمد بن يوسف الفربري، أنا محمد بن إسماعيل البخاري أنا قتيبة بن سعيد، أنا جرير عن عمارة عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن أول زُمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشدّ كوكب دُري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوّة، وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء».

أنا عبدالواحد المليحي، أنا عبدالرحمٰن بن أبي شُرَيْح أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد أنا فُضيل هو ابن مرزوق، عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال:

قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة [تدخل] الجنة يوم القيامة صورة وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن الكواكب في السماء لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلّة يرى مخ سوقهن دون لحومها ودمائها وحللها».

أنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي المروزي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا [أبو] عبدالرحمٰن بن أبي شريح أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حُجْر، أنا إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير المدني عن حُميد الطويل عن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله ﷺ: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنّة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولتاجها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»، صحيح [أخرجه محمد بن عبدالله بن محمد عن معاوية بن عمر عن أبي إسحاق عن حميد].

أنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي، أنا عبدالله [بن محمد] بن مسلم أبو بكر الجوربذي أنا أحمد بن الفرج الحمصي، أنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، أنا محمد بن المهاجر عن الضحاك المعافري عن سليمان بن موسى حدثني كُريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول:

قال رسول الله ﷺ: «ألاَ هَلْ مِنْ مُشَمِّر للجنة، وإن الجنة لا خطر لها وهي وربِّ الكعبة نورٌ يتلألأ ورَيحانة تهتز، وقصر مشيد ونهر مطرد، وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحُلل كثيرة ومقام أبد في دار سليمة وفاكهة خضرة وحَبْرة، ونعمة في محلة عالية بهية»، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمّرون لها قال: «قولوا: إن شاء الله»، قال القوم: إن شاء الله.

ورُوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة جردٌ مُرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلىٰ ثيابهم».

وأنا أبو بكر محمد بن عبدالصمد الترابي، أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيى، أنا إسحاق الحنظلي أنا أبو معاوية أنا عبدالرحمٰن بن إسحاق، عن النعمان بن سعيد عن علي قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنّة لسوقاً ليس فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها، وإن فيها لمجتمع حور العين ينادين، بصوت لم يسمع الخلائق بمثله نحن الخالدات فلا نبيد أبداً ونحن الناعمات لا نبأس أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، فطوبى لمن كان لنا وكنّا له أو نحن له».

ورواه أبو عيسى عن هناد وأحمد بن منيع عن أبي معاوية مرفوعاً وقال: هذا حديث غريب.

أنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج، أنا أبو عثمان سعيد بن عبدالجبار البصري، أنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك:

أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنّة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بَعْدَنا حسناً وجمالاً فيقولون: وأنتم والله لقد زدتم بَعْدَنا حُسناً وجَمالاً».

(٢٦) قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

سبب نزول هذه الآية: أن الله تعالىٰ لـمّا ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، قالت اليهود: ماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟.

وقيل: قال المشركون: إنّا لا نعبد إلٰهاً يذكر مثل هذه الأشياء فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾، أي: لا يترك ولا يمنعه الحياء ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ يذكر شبهاً، ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾، ما: صلة، أي: مثلاً بالبعوضة، وبعوضة: نصب بدل عن المثل، والبعوض صغار البق، سُمّيت بعوضة كأنها بعض البق، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾، يعني: الذباب والعنكبوت.

وقال أبو عبيدة: أي: فما دونها، كما يُقال: فلان جاهل، فيقال: وفوق ذلك، أي: وأجهل. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بمحمد والقرآن، ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، يعني: المثل هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾: الصدق ﴿مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي: بهذا المثل، فلما حذف الألف واللام نصب على الحال والقطع، ثم أجابهم فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أي بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون ضلالاً، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾، أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من المؤمنين فيصدقونه، والإضلال هو الصرف عن الحق إلى الباطل، وقيل: هو الهلاك، يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا هلك، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: الكافرين وأصل الفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، قال الله تعالىٰ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، أي: خرج، ثم وصفهم فقال:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿٢٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾: يخالفون ويتركون، وأصل النقض الكسر ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾: أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، وقيل: أراد به العهد الذي أخذه على النبيين وسائر الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية، وقيل: أراد به العهد الذي عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويبيّنوا نعته، ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾: توكيده، والميثاق: العهد المؤكد، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، يعني: الإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الرسل عليهم السلام لأنهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقال المؤمنون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة ٢٨٥]، وقيل: أراد به الأرحام، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾: المغبونون، ثم قال لمشركي العرب على وجه التعجب:

﴿٢٨﴾ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؟ بعد نصب الدلائل ووضوح البراهين، ثم ذكر الدلائل فقال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾: نُطفاً في أصلاب آبائكم، ﴿فَأَحْيَـٰكُمْ﴾: في الأرحام والدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: للبعث، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تُردّون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم، قرأ يعقوب ﴿تَرْجِعُونَ﴾ [في] كل القرآن بفتح الياء والتاء على تسمية الفاعل.

﴿٢٩﴾ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، لكي تعتبروا وتستدلوا، وقيل: لكي تنتفعوا، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، قال ابن عباس وأكثر مفسّري السلف: أي ارتفع إلى السماء، وقال ابن كيسان والفراء وجماعة من النحويين: أي أقبل على خلق السماء، وقيل: قصد لأنه خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾: خلقهن مستويات لا فطور فيها ولا صدع، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي وقالون وهو، وهي بسكون الهاء إذا كان قبل الهاء: واوٌ أو فاء أو لام، زاد الكسائي وقالون ثم هو وقالون ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: وقال ربك، وإذْ زائدة وقيل معناه واذكر إذْ قال ربك وكذلك كل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وإذْ وإذا حرفا توقيت إلاّ أن إذْ للماضي وإذا للمستقبل، وقد يُوضع أحدهما موضع الآخر، قال المبرد: إذا جاء إذْ مع المستقبل كان معناه ماضياً؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، يريد وإذ مكر، وإذا جاء [إذا] مع الماضي كانت معناه مستقبلاً؛ كقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١]، أي: يجيء. ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [والملائكة] جمع ملك، وأصله مألك من المألكة والألوكة والألوك: وهي الرسالة، فقلبت فقيل: ملأك، ثم حذفت الهمزة طلباً للخفة لكثرة استعماله ونقلت حركتها إلى اللام: فقيل: «ملَكٌ» وأراد به الملائكة الذين كانوا في الأرض.

وذلك أن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض فعبدوا دهراً طويلاً في الأرض ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا وقتلوا، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة يقال لهم: الجن، وهم خُزان الجِنان اشتق لهم من الجنة رأسهم إبليس وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علماً، فهبطوا

إلى الأرض فطردوا الجن إلى شعوب الجبال [وبعلون الأودية] وجزائر البحور وسكنوا الأرض وخفّف الله عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض، وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبدالله تارةً في الأرض وتارةً في السماء وتارة في الجنة فدخله العجب، فقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا المُلك إلاّ لأني أكرم الملائكة عليه، فقال الله تعالى له ولجنده: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ [خالق] ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: بدلاً منكم ورافعكم إليّ فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة، والمراد بالخليفة هٰهنا آدم سمّاه خليفة لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم.

وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: بالمعاصي، ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بغير حق، أي: كما فعل بنو الجان فقاسوا الشاهد على الغائب، وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق [وصلاة البهائم وغيرهما سوى الآدميين] وعليها يرزقون.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج أنا زهير بن حرب أنا حَبّان بن هلال، أنا وُهَيْب أنا سعيد الجُرَيْري عن أبي عبدالله الجَسْري عن عبادة بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سُئل: أيّ الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده».

وقيل: نحن نصلّي بأمرك، قال ابن عباس: كل ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نثني عليك بالقدس والطهارة وقيل: ونطهر أنفسنا لطاعتك، وقيل: وننزهك، واللام: صلة، وقيل: لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجّب وطلب وجه الحكمة فيه، قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: من المصلحة فيه، وقيل: إني أعلم أن في ذريته من يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والصلحاء، وقيل: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس، وقيل: إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم، قرأ أهل الحجاز والبصرة: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ﴾ بفتح الياء وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلاّ في مواضع معدودة، ويفتحون في بعض مواضع عند الألف المضمومة والمكسورة، وعند غير الألف، وبين القراء في تفصيله اختلاف.

(٣١) قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: سُمّي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وقيل: لأنه كان آدم اللون، وكنيته أبو محمد وأبو البشر، فلما خلقه الله تعالى علّمه أسماء الأشياء.

وذلك أن الملائكة قالوا لما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منّا وإن كان فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره، فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم، وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وإن كانوا رسلاً كما ذهب إليه أهل السنة [والجماعة].

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس: أسماء الملائكة، وقيل: أسماء ذريّته، وقيل: صنعة كل شيء، قال أهل التأويل: إن الله عزّ وجلّ علم آدم جميع اللغات ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فتفرّقوا في البلاد واختصّ كل فرقة منهم بلغة، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، إنّما قال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، ولم يقل عرضها، لأن المسميات إذا جمعت من يعقل وما لا يعقل يُكنّى عنها بلفظ من يعقل، كما يُكنّى عن الذكور والإناث بلفظ الذكور، وقال مقاتل: خلق الله كل شيء الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة، فالكناية راجعة إلى الشخوص، فلذلك قال ﴿عَرَضَهُمْ﴾، ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الموجودات ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [في] أني لا أخلق خلقاً إلاّ كنتم أفضل وأعلم منه، ﴿قَالُوٓاْ﴾ فقالت الملائكة إقراراً بالعجز:

(٣٢) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهاً لك، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا

عَلَّمْتَنَآ﴾، معناه: إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمرك، والحكيم له معنيان أحدهما الحاكم وهو القاضي العدل، والثاني المحكم للأمر كي لا يتطرّق إليه الفساد، وأصل الحكمة في اللغة: المنع فهي تمنع صاحبها من الباطل، ومنه حَكَمَةُ الدابة لأنها تمنعها من الاعوجاج، فلما ظهر عجزهم:

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾، أخبرهم بأسمائهم فسمى آدم كل شيء [باسمه] وذكر الحكمة التي لأجلها خلق، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما كان منهما وما يكون، لأنه قد قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقر: ٣٠].

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، قال الحسن وقتادة: يعني قولهم أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: قولكم لنْ يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أنّ إبليس مرّ على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف لا روح فيه، فقال: لأمرٍ ما خُلق هذا، ثم دخل في فيه وخرج من دبره، وقال: إنه خلق لا يتماسك لأنه أجوف، ثم قال للملائكة الذين معه: أرأيتم إنْ فَضّل هذا عليكم وأُمرتم بطاعته ماذا تصنعون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا، فقال إبليس في نفسه: والله لئن سُلطت عليه لأهلكنّه ولئن سُلط عليّ لأعصينه، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يعني: ما تُبديه الملائكة من الطاعة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني إبليس من المعصية.

﴿٣٤﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿لِلملائكةُ اسْجُدُوا﴾ بضم التاء على جوار ألف اسجدوا، وكذلك قرأ ﴿قَٰلَ ربُّ ٱحْكُمْ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، بضم الباء، وضعفه النحاة جداً ونسبوه إلى الغلط فيه، واختلفوا في أن هذا الخطاب مع أي من الملائكة، فقال بعضهم: مع الذين كانوا سكان الأرض والأصح أنه مع جميع الملائكة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]، وقوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾، فيه قولان:

الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة وتضمن معنى الطاعة لله عزّ وجلّ بامتثال أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، كسجود إخوة يوسف له في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناءً، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام.

وقيل معنى قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ أي: إلى آدم فكان آدم قبلةً والسجودُ لله تعالىٰ، كما جُعلت الكعبة قبلةً للصلاة والصلاة لله عزّ وجلّ، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ يعني: الملائكة، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحارث، فلما عصىٰ غير اسمه وصورته، فقيل: إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالىٰ، أي: يئس.

واختلفوا فيه، فقال ابن عباس وأكثر المفسّرين: كان إبليس من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة، والأول أصح لأن خطاب السجود كان مع الملائكة، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: من الملائكة الذين هم خزنة الجنة.

وقال سعيد بن جبير: من الذين يعملون في الجنة، وقال قوم: من الملائكة الذين [كانوا] يصوغُون حِليّ أهل الجنة، وقيل: إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار سموا جناً لاستتارهم عن الأعين، وإبليس كان منهم، والدليل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وهو قولهم الملائكة بنات الله، ولمّا أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية. قوله: ﴿أَبَىٰ﴾ أي: امتنع فلم يسجد، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾، أي: تكبّر عن السجود لآدم، ﴿وَكَانَ﴾ أي: وصار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال أكثر المفسّرين: وكان في سابق علم الله أنه من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة.

أنا أبو بكر محمد بن عبدالصمد الترابي أنا الحاكم أبو الفضل

محمد بن الحسين الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد، أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي أنا جرير ووكيع وأبو معاوية، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة وأُمرت بالسجود فعصيت فلي النار».

﴿٣٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وذلك أن آدم لم يكن له في الجنة من يجانسه فنام نومة فخلق الله زوجته حواء من قُصيراء أي من شقه الأيسر، وسمّيت حواء لأنها خلقت من حي، خلقها الله عزّ وجلّ من غير أن يحسَّ به آدم ولا وجد له ألماً، ولو وجد ألماً لما عطف رجل على امرأة قط، فلما هبّ من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما في خلق الله، فقال لها: من أنت؟ قالت: زوجتك خلقني الله لك تسكن إليّ وأسكن إليك ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾: واسعاً كثيراً، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، يعني: للأكل، قال بعض العلماء: وقع النهي على جنس من الشجر.

وقال آخرون: على شجرة مخصوصة، واختلفوا في تلك الشجرة، فقال ابن عباس ومحمد بن كعب ومقاتل: هي السنبلة، وقال ابن مسعود: هي شجرة العنب، وقال ابن جريج: شجرة التين، وقال قتادة: شجرة العلم، وفيها من كل شيء، وقال علي: شجرة الكافور، ﴿فَتَكُونَا﴾: فتصيرا ﴿مِنَ الظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: الضارين بأنفسكما بالمعصية، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿٣٦﴾ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، [أي]: استزل ﴿الشَّيْطَـٰنُ﴾ آدم وحواء، أي: دعاهما إلى الزلة، وقرأ حمزة «فأزالهما»، أي: نحاهما ﴿الشَّيْطَـٰنُ﴾: فَيْعَالٌ من شطن، أي: بَعُد، سُمّي به لبعده عن الخير وعن الرحمة، ﴿عَنْهَا﴾ عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: من النعيم، وذلك أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليُوسْوس إلى آدم وحواء فمنعته الخزنة فأتى الحية وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنّة، فسألها إبليس أن تُدخله في فمها فأدخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون، فأدخلته الجنة.

وقال الحسن: إنّما رآهما على باب الجنة، لأنهما كانا يخرجان منها وقد كان آدم حين دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم قال: لو أن خلداً، فاغتنم ذلك منه الشيطان فأتاه الشيطان من قِبَل الخُلد، فلما دخل الجنّة وقف بين يدي آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح، فقالا له: ما يبكيك؟ قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة، فوقع ذلك في أنفسهما فاغتما، ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخُلد، فأبى أن يقبل منه وقاسمهما بالله أنه لهما لمن الناصحين فاغترّا، وما ظنا أن أحداً يحلف بالله كاذباً فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم ناولت آدم حتى أكل [منها].

وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء سقته الخمر حتى [إذا] سكر قادته إليها فأكل، قال إبراهيم بن ادهم: أورثتنا تلك الأكلةُ حُزناً طويلاً، قال ابن عباس وقتادة: قال الله عزّ وجلّ لآدم: ألم يكن فيما أبحتك من الجنّة مندوحة عن الشجرة؟ قال: بلى يا ربّ وعزّتك، ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزّتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كَدّاً. فأُهبطا من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً فعُلّم صنعة الحديد وأُمر بالحرث فحرث فيها وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ ما شاء الله.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن آدم لما أكل من الشجرة التي نُهي عنها قال الله عزّ وجلّ: يا آدم ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا ربّ زينته لي حواء، قال: فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً ودميتها في الشهر مرتين، فرنت حواء عند ذلك فقيل: عليك الرنة وعلى بناتك، فلما أكلا تهافتت عنهما ثيابُهما وبدتْ سوآتهما وأُخرجا من الجنّة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا۟﴾ أي: انزلوا إلى الأرض، يعني: آدم وحواء وإبليس

الجزء الأول — سورة البقرة

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٧

والحية، فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود، وحواء بجدة، وإبليس بالأيلة، والحية بأصفهان، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أراد العداوة التي بين ذرّيّة آدم والحية، وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

أنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن محمد بن الصفار حدثنا منصور الرمادي أنا عبدالرزاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عكرمة: لا أعلمه إلا رفع الحديث:

«أنه كان يأمر بقتل الحيات وقال: من تركهن خشيةً أو مخافةَ ثائرٍ فليس منّا»، وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة في الحديث: «ما سالمناهنّ منذُ حاربْناهنّ».

ورُوِي «أنه نهى عن ذوات البيوت».

وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ «إن بالمدينة جِنّاً قد أسلموا فإن رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان».

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: موضع قرار ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾ بُلْغة ومُستمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى انقضاء آجالكم.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾: تلقن، والتلقي: هو قبول عن فطنة وفهم، وقيل: هو التعلم، ﴿ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ قراءة العامة آدمُ برفع الميم وكلمات بخفض التاء، قرأ ابن كثير (آدمَ) بالنصب (كلماتٌ) برفع التاء، يعني: جاءت الكلمات آدم من ربه وكانت سبب توبته، واختلفوا في تلك الكلمات، فقال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية.

وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي: هي قوله لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك وبحمدك ربِّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فاغفرْ لي إنّك أنت التواب الرحيم، لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك ربِّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، وقال عبيد بن عمير: هي أن آدم قال: يا رب أرأيت ما أتيت، أشيءٌ ابتدعتُه من تلقاء نفسي أم شيءٌ قدّرتَه عليّ قبل أن تخلقني؟ قال الله تعالىٰ: لا بل شيءٌ قدّرته عليك قبل أن أخلقك، قال: يا رب فكما قدّرته قبل أن تخلقني فاغفر لي. وقيل: هي ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء، قال ابن عباس: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة.

وروى المسعودي عن يونس بن خباب وعلقمة بن مرثد قالوا: لو أن دموع [جميع] أهل الأرض جُمعت لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جُمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنّة.

قال شهر بن حوشب: بلغني أن آدم لما هبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياءً من الله تعالىٰ، قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: فتجاوز عنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: يقبل توبة عباده، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: بخلقه.

(٣٨) قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾، يعني هؤلاء الأربعة، وقيل: الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الآخر من السماء الدنيا إلى الأرض، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾، أي: فإن يأتكم يا ذرية آدم ﴿مِّنِّى هُدًى﴾، أي: رُشدٌ وبيان شريعة، وقيل: كتاب ورسولُ، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، قرأ يعقوب: «فلا خوفَ» بالفتح [في] كل القرآن، والآخرون بالضم والتنوين ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون هم ﴿وَلَا

﴿هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، وقيل: لا خوف عليهم [في الدنيا]، ولا هم يحزنون في الآخرة.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: جحدوا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالقرآن ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: يوم القيامة، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

(٤٠) قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يا أولاد يعقوب، ومعنى إسرائيل: عبدالله، وإيل: هو الله تعالى. وقيل: صفوة الله، وقرأ أبو جعفر: (إسرائيل) بغير همزة، ﴿اذْكُرُوا﴾: احفظوا، والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وقيل: أراد به الشكر، وذكر بلفظ الذكر، لأن في الشكر ذكراً وفي الكفر نسياناً، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، ﴿نِعْمَتِيَ﴾، أي: نعمي، لفظها واحد ومعناها جمع؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: على أجدادكم وأسلافكم.

قال قتادة: هي النعم التي خُصّت بها بنو إسرائيل: من فلق البحر، وإنجائهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم في التيه، وإنزال المنّ والسلوى، وإنزال التوراة، في نعم كثيرة لا تحصى.

وقال غيره: هي جميع النعم التي لله عزّ وجلّ على عباده، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي: بامتثال أمري ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: بالقبول والثواب، قال قتادة ومجاهد: أراد بهذا العهد ما ذكر في سورة المائدة [في قوله]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] إلى أن قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، فهذا قوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، وقال الحسن: هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، فهو شريعة التوراة، وقال مقاتل: هو قوله [تعالى]: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال الكلبي: عهد الله إلى بني إسرائيل على لسان موسى: إني باعث من بني إسماعيل نبياً أمياً من اتبعه وصدق بالنور الذي يأتي معه غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، يعني: أمر محمد ﷺ. ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: فخافوني في نقض العهد، وأثبت يعقوب الياءات المحذوفة في الخط مثل (فارهبوني، فاتقوني، واخشوني)، والآخرون يحذفونها في الخط.

(٤١) ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾ يعني القرآن، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، أي: موافقاً لما معكم يعني التوراة في التوحيد والنبوّة والأخبار ونعت النبيّ ﷺ، نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه من علماء اليهود ورؤسائهم، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، أي: بالقرآن، يريد من أهل الكتاب، لأن قريشاً كفرت قبل اليهود بمكّة، معناه: ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن فيتابعكم اليهود على ذلك فتبوؤا بآثامكم وآثامهم، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾، أي: ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾: ببيان صفة محمد ﷺ، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: عوضاً يسيراً من الدنيا، وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون منهم كل عام شيئاً معلوماً من زروعهم وضروعهم ونقودهم، فخافوا أنهم إن بيّنوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المآكل، فغيّروا نَعْتَه وكتموا اسمه، فاختاروا الدنيا على الآخرة، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: فاخشوني.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، أي: لا تخلطوا، يقال: لَبِسَ الثوبَ يَلْبَسُ لُبساً، ولَبَسَ عليه الأمرُ يُلبِس لَبساً، أي: خَلَطَ، يقال: لا تخلطوا الحق الذي أنزلت عليكم من صفة محمد ﷺ بالباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير [صفة محمد ﷺ]، والأكثرون على أنه أراد لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية، قال مقاتل: إن اليهود أقروا ببعض صفة محمد ﷺ وكتموا بعضاً ليُصدَّقوا في ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ الذي تقرون به ﴿بِالْبَاطِلِ﴾، يعني: بما تكتمونه، فالحق بيانهم والباطل كتمانهم، ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، أي: لا تكتموه، يعني: نعتَ محمد ﷺ، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه نبيّ مُرسل.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يعني: الصلوات الخمس بمواقيتها

وحدودها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أدوا زكاة أموالكم المفروضة مأخوذة من زكا الزرع إذا نَـما وكثُر، وقيل: من تزكى، أي: تطهر، وكلا المعنيين موجود في الزكاة لأن فيها تطهيراً وتنمية للمال، ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي صلوا مع المصلين: محمد ﷺ وأصحابه، وذكر بلفظ الركوع لأنه ركن من أركان الصلاة، ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع، فكأنه قال: صلوا صلاة ذات ركوع، قيل: إعادته بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، لهذا أي صلوا مع الذين في صلاتهم ركوع، فالأول مطلق في حق الكل، وهذا في حق أقوام مخصوصين، وقيل: هذا حثّ على إقامة الصلاة جماعةً كأنه قال لهم: صلوا مع المصلين الذين سبقوكم بالإيمان.

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾، أي: بالطاعة، نزلت في علماء اليهود وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ: اثبت على دينه فإن أمره حق، وقوله صدق، وقيل: هو خطاب لأحبارهم حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة، ثم خالفوا وغيّروا نعتَ محمد ﷺ، ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تتركون أنفسكم فلا تتبعونه، ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: تقرؤون التوراة فيها نعته وصفته، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أنه حق فتتبعونه، والعقل مأخوذ من عِقال الدابة، وهو ما يُشد به ركبة البعير فيمنعه عن الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني، أنا أبو بكر محمد بن عبدالله حفيد العباس بن حمزة، أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفان أنا حماد بن سلمة أنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك:

أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا علي بن عبدالله أنا سفيان عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال أسامة بن زيد:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه أي تنقطع أمعاؤه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

وقال شعبة عن الأعمش:

«فيطحن فيها كما يطحن الحمار برحاه».

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾: على ما يستقبلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة، ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾: أراد حبس النفس عن المعاصي، وقيل: أراد الصبر على أداء الفرائض، وقال مجاهد: الصبر: الصوم، ومنه سُمّي شهر رمضان شهر الصبر، وذلك لأن الصوم يزهده في الدنيا والصلاة ترغبه في الآخرة، وقيل: الواو بمعنى «على» أي: واستعينوا بالصبر على الصّلاة كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ١٣٢]، ﴿وَإِنَّهَا﴾، ولم يقل وإنهما، ردّ الكناية إلى كل واحد منهما، أي: وإن كل خصلة منهما، كما قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: كل واحدة منهما، وقيل: معناه ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [وإنه لكبير، وبالصلاة] وإنها لكبيرة، فحذف أحدهما اختصاراً.

وقال المورّج: ردّ الكناية إلى الصّلاة لأنها أعم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤] ردّ الكناية إلى الفضة لأنها أعم، وقيل: ردّ الكناية إلى الصلاة لأنّ الصبر داخل فيها كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولم يقل يرضوهما، لأن رضى الرسول داخل في رضى الله عزّ وجلّ.

وقال الحسين بن الفضل: ردّ الكناية إلى الاستعانة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾، أي: لثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، يعني: المؤمنين، وقال الحسن: الخائفين، وقيل: المطيعين، وقال مقاتل بن حيان: المتواضعين، وأصل الخشوع: السكون، قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالىٰ.

﴿٤٦﴾ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يستيقنون، أنهم مبعوثون وأنهم محاسبون وأنهم راجعون إلى الله تعالى، أي: يصدقون بالبعث، وجعل رجوعهم بعد الموت إلى المحشر رجوعاً إليه والظنّ من الأضداد يكون شكاً ويقيناً وأملاً كالرجاء يكون خوفاً وأملاً وأمنياً، ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ﴾: مُعاينو ﴿رَبِّهِمْ﴾: في الآخرة، وهو رؤية الله تعالىٰ، وقيل: المراد من اللقاء الصيرورة إليه، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: فيجزيهم بأعمالهم.

﴿٤٧﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: عالَمِي زمانكم، وذلك التفضيل وإن كان في حق الآباء لكن يحصل به الشرف للأبناء.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾: واخشوا عقاب يوم، ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾: لا تقضي نفسٌ ﴿عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾، أي: حقاً لزمها، وقيل: لا تغني، وقيل: لا تكفي شيئاً من الشدائد، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾، قرأ ابن كثير ويعقوب بالتاء، لتأنيث الشفاعة، وقرأ الباقون بالياء، لأن الشفع والشفاعة بمعنى واحد كالوعظ والموعظة، فالتذكير على المعنى والتأنيث على اللفظ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال في موضع آخر: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: لا تقبل منها شفاعة إذا كانت كافرة ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، أي: فداء، وسمي به لأنه مثل المفدي والعدل المثل، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون من عذاب الله.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾، [يعني]: أسلافكم وأجدادكم فاعتدها مِنّةً عليهم، لأنهم نجوا بنجاتهم، ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أتباعه وأهل دينه، وفرعون هو الوليد بن مصعب بن الريان، وكان من القبط العماليق وعمّر أكثر من أربعمائة سنة، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يُكلفونكم ويُذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أشد العذاب وأسوأه، وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة هكذا ومرة هكذا كالإبل السائمة في البريّة.

وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخَوَلاً، وصنّفهم في الأعمال فصِنفٌ يبنون، وصِنفٌ يحرثون ويزرعون، وصِنفٌ يَخدمُونه، ومن لم يكن منهم في عمل وَضع عليه الجزية.

وقال وهب: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فَذَوُو القوة ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم [وأيديهم] ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة [والطين يبنون له القصور]، وطائفة منهم يضربون اللَّبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج، جزية يؤدونها كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته غُلّتْ يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتان وينسجن، وقيل: تفسيره ذكر ما بعده ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، فهو مذكور على وجه البدل من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركونهن أحياء.

وذلك أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطي بها، ولم تتعرض لبني إسرائيل، فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه، فقالوا يُولدُ في بني إسرائيل غلامٌ يكون على يده هلاكُكَ وزوال ملكك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يُولد في بني إسرائيل، وجَمَعَ القوابلَ فقال لهن: لا يسقطنّ على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قتل ولا جارية إلا تُركت، ووكّل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل: إنه قتل في بني إسرائيل اثني عشر ألف صبي في طلب موسى، وقال وهب:

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٨

بلغني أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعين ألف وليد، وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوسُ القبط على فرعون وقالوا: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل أفتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هٰرون في السنة التي لا يذبحون فيها وموسى في السنة التي يذبحون فيها، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، قيل: البلاء المِحنة، أي: في سَوْمهم إياكم سُوء العذاب محنة عظيمة، وقيل: البلاء: النعمة، أي: في إنجائي إياكم منهم نعمة عظيمة، فالبلاء يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة، فالله تعالىٰ قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(٥٠) ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، قيل: معناه فرقنا لكم، وقيل: فرقنا البحر بدخولكم إياه، وسُمّيَ البحر بحراً لاتساعه، ومنه قيل للفرس: بحر إذا اتّسع في جريه.

وذلك أنه لمّا دَنَا هلاك فرعون أمر الله تعالىٰ موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل من مصر ليلاً فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله تعالىٰ كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم وكل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط، حتى رجع كل إلى أبيه، وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم واشتغلوا بدفنهم حتى أصبحوا، طلعت الشمس وخرج موسى عليه السلام في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يَعُدّون ابنَ العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان أصحاب موسى ستمائة ألف وسبعين ألفاً.

وعن عمرو بن ميمون قال: كانوا ستمائة ألف، فلما أرادوا السير ضُرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك، فقالوا: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يُخرجوه معهم فلذلك انسدّ علينا الطريق، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا فقام موسى ينادي أَنْشُدُ اللّهَ كلَّ من يعلم أين موضع قبر يوسف عليه السلام إلاّ أخبرني به، ومن لم يعلم به فصُمّتْ أذناه عن قولي، وكان يمر بين الرجلين ينادي [فلا] يسمعان صوته، حتى سمعته عجوز لهم فقالت: أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطيني كل ما سألتك؟ فأبى عليها وقال حتى أسأل ربي، فأمره الله تعالىٰ بإيتائها سُؤالَهَا، فقالت: إني عجوز كبيرة لا أستطيع المشي فاحملني وأخرجني من مصر، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من الجنّة إلاّ نزلتها معك، قال: نعم، قالت: إنه في جوف الماء في النيل، فادع الله تعالىٰ حتى [يحسر عنه] الماء، فدعا الله تعالىٰ فحسر عنه الماء، ودعا الله أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف عليه السلام، فحفر موسى عليه السلام ذلك الموضع واستخرجه في صندوق من مَرْمَرٍ وحمله حتى دفنه بالشام، فَفُتِحَ لهم الطريق فساروا وموسى عليه السلام على ساقتهم وهٰرون على مقدمتهم، ونذر بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني إسرائيل حتى يصيح الديك فوالله ما صاح ديك تلك الليلة فخرج فرعون في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف، وكان فيهم سبعون ألفاً من دُهم الخيل سوى سائر الشيات.

وقال محمد بن كعب رضي الله عنه: كان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشيات، وكان فرعون يكون في الدهم، وقيل: كان فرعون في سبعة آلاف ألف، وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف أصحاب حراب، ومائة ألف أصحاب الأعمدة فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر والماء في غاية الزيادة

فنظروا فإذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس، فبقوا متحيرين فقالوا: يا موسى كيف نصنع وأين ما وعدتنا؟ هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلنا غرقنا؟ قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢] فأوحى الله إليه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]،

فضربه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كَنِّه، فضربه وقال: انفلق يا أبا خالد بإذن الله تعالى، ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وظهر فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق، وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل، وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار [البحر] يبساً فخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا وقال كل سبط قد قتل إخواننا فأوحى الله تعالى إلى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء شبكات كالطبقات يرى بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم كلام بعض، حتى عبروا البحر سالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾: من آل فرعون والغرق.

﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وذلك أن فرعون لمّا وصل إلى البحر فرآه منفلقاً قال لقومه: انظروا إلى البحر انفلق من هيبتي حتى أدرك عبيديَ الذين أبقوا، ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه، وقيل: قالوا له: إن كنت ربّاً فادخل البحر كما دخل موسى، وكان فرعون على حصان أدهم، ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل على فرس أنثى وديق، فتقدمهم وخاض البحر، فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها وهم لا يرونه، ولم يملك فرعون من أمره شيئاً وهو لا يرى فرس جبريل، واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم [يشحذهم و] يسوقهم حتى لا يشذ رجل منهم ويقول لهم: الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم البحر وخرج جبريل من البحر [وخرج ميكائيل من البحر] وهَمَّ أولهم بالخروج، فأمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم [عليهم] وأغرقهم أجمعين، وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ وهو [بحر القلزم طرف من بحر فارس]، قال قتادة: [هو] بحر من وراء مصر يقال له: إساف، وذلك بمرأى من بني إسرائيل، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى مصارعهم، وقيل: إلى هلاكهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾، هو من المفاعلة التي تكون من الواحد كقولهم: عافاك الله وعاقبتُ اللص وطارقت النعل، وقال الزجاج: كان من الله الأمر ومن موسى القبول، فلذلك ذكر بلفظ المواعدة، وقرأ أهل البصرة «وإذ وعدنا» من الوعد، ﴿مُوسَىٰ﴾: اسم عبري عُرِّب و«مو» بالعبرانية الماء «وشى» الشجر، سُمّي به لأنه أُخذ من بين الماء والشجر، ثم قلبت الشين المعجمة سيناً في العربية، ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، أي: انقضاءها ثلاثون من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وقرن [التاريخ] بالليل دون النهار لأن شهور العرب وُضعت على سير القمر، [والهلال إنما يهل بالليل].

وقيل: لأن الظلمة أقدم من الضوء، وخُلِقَ الليل قبل النهار، قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وذلك أن بني إسرائيل لما أمنوا من عدوّهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما، فوعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة، فقال موسى لقومه: إني ذاهب لميقات ربي آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون، وواعدهم أربعين ليلة، ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس، يقال له: فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا حُيي ليذهب بموسى إلى ربّه، فلما رآه السامري وكان رجلاً صائغاً من أهل باجرمي واسمه ميخا، وقال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان، وقال ابن عباس: اسمه موسى بن مظفر.

وقال قتادة: كان من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة - وكان منافقاً أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر - فلما رأى جبريل على ذلك الفرس، ورأى مواضع قدم الفرس تخضر في الحال قال: إن لهذا شأناً، فأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبريل عليه السلام، قال عكرمة: ألقي في روعه أنه إذا ألقي في شيء غيّره، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلّة عرس لهم، فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فلما فصل موسى قال السامري لبني إسرائيل: إن الحلي التي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفرة

فادفنوها فيها حتى يرجع موسى، فيرى فيها رأيه.

وقال السدي: إن هارون عليه السلام أمرهم أن يُلقوها في حفيرة، حتى يرجع موسى ففعلوا، فلما اجتمعت الحِلي صاغها السامري عجلاً في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب فرس جبريل عليه السلام، فخرج عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، وخار خورةً، وقال السدي: كان يخور ويمشي فقال السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]، أي: فتركه هٰهنا وخرج يطلبه.

وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدّوا اليوم مع الليلة يومين، فلما مضى عشرون يوماً ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة، وقيل: كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة، فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري: عكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه، وقيل: كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصح.

وقال الحسن: كلّهم عبدوه إلا هارون وحده، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: إلٰهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أظهر ابن كثير وحفص الذالَ من (أخذت، واتخذت)، والآخرون يُدغمونها، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾: محونا ذنوبكم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد عبادتكم العجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم، قيل: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السرّ والعلانية، قال الحسن: شكر النعمة ذكرها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال الفضيل: [شكر كل نعمة أن لا يُعصى الله بعد تلك النعمة]، وقيل: حقيقة الشكر العجز عن الشكر. حكي أن موسى عليه السلام قال: إلٰهي أنعمت عليّ النِّعمَ السوابغَ وأمرتني بالشكر، وإنما شكري إياك نعمة منك، قال الله تعالىٰ: يا موسى تعلمت العلم الذي لا يفوقه شيء من علم، حسبي من عبدي أن يعلم أن ما به من نعمة فهو مني، وقال داود: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة.

(٥٣) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: التوراة، ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾، قال مجاهد: هو التوراة أيضاً ذكرها باسمين، وقال الكسائي: الفرقان نعت الكتاب، والواو زائدة، يعني: الكتاب المفرق بين الحلال والحرام، وقال يمان بن رباب: أراد بالفرقان انفراق البحر؛ كما قال [تعالىٰ]: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، بالتوراة.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: الذين عبدوا العجل، ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾: ضررتم بأنفسكم، ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: إلٰهاً. قالوا: فأي شيء نصنع؟ قال: ﴿فَتُوبُوٓا﴾: فارجعوا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: خالقكم، قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فَٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾، يعني: ليقتل البريء منكم المجرم، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، أي: القتل، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، فلما أمرهم موسى بالقتل، قالوا: نصبر لأمر الله فجلسوا بالأفنية مُحْتَبِين، وقيل لهم: من مدَّ حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتّقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، وأصلتَ القوم عليهم الخناجرَ فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره، فلم يمكنهم المضي لأمر الله تعالىٰ، قالوا: يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالىٰ عليهم ضبابة وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلما كثر القتل دعا موسىٰ وهٰرون عليهما السلام وبكيا وتضرّعا وقالا: يا ربّ هلكتْ بنو إسرائيل، البقيةَ البقيةَ، فكشف الله تعالىٰ السحابة وأمرهم أن يكفوا عن القتل، فتكشفت عن ألوف من القتلى، روي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: كان عدد القتلى سبعين ألفاً فاشتدّ ذلك على موسى فأوحى الله تعالىٰ إليه: أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول في الجنة؟ فكان من قُتل منهم شهيداً، ومن بقي مكفَّراً عنه ذنوبه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم فتجاوز عنكم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: القابل التوبة [منكم] ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

(٥٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾

﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار [موسى] سبعين رجلاً من قومه من خيارهم فقال لهم: صُوموا وتطهروا وطهِّروا ثيابكم ففعلوا، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه، فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال لهم: أفعل فلما دنا موسى إلى من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشى الجبل كله فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنُوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام وخرُّوا سجداً، وكان موسى إذا كلّمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه، وأسمعهم الله إني أنا الله لا إله إلاّ أنا ذو بكّة أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري، فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً معاينة، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال: جهرة ليُعلم أن المراد منه العيان، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، أي: الموت.

وقيل: نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، أي: ينظر بعضكم [إلى] بعض حين أخذكم الموت، وقيل: تعلمون، والنظر يكون بمعنى العلم، فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرّع ويقول: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلاً بعد رجل، بعدما ماتوا يوماً وليلة وينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فذلك قوله تعالى:

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾: أحييناكم، والبعث: إثارة الشيء عن محلّه، يقال: بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، قال قتادة: أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يُبعثوا إلى يوم القيامة.

(٥٧) ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾، في التيه تقيكم حرّ الشمس والغمامُ من الغم، وأصله: التغطية والستر، سُمّي السحاب غماماً لأنه يُغطي وجه الشمس، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه كن يسترهم فشكوا إلى موسى فأرسل الله تعالى غماماً أبيض رقيقاً أطيب من غمام المطر، وجعل لهم عموداً من نور يُضيء لهم الليل إذ لم يكن لهم قمر، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، أي: في التيه، والأكثرون: عن أن المنّ هو الترنجبين.

وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، قال الزجاج: * المنّ ما يمنّ الله به من غير تعب.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو نعيم أنا سفيان، عن عبدالملك هو ابن عمير عن عمرو بن حُرَيْث عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال:

قال النبيّ ﷺ: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين».

قالوا: فكان هذا المنّ يقع كل ليلة على أشجارهم مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع، فقالوا: يا موسى قتلنا هذا المنّ بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأنزل الله تعالى عليهم السلوى وهو طائر يشبه السماني، وقيل: هو السماني بعينه، بعثه الله سحابةً فمطرت السماني في عرض ميل وطول رمح في السماء بعضه على بعض والسلوى: العسل فكان الله ينزل عليهم المنّ والسلوى كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه يوماً وليلة، وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين، لأنه لم يكن ينزل يوم السبت. ﴿كُلُوا۟﴾، أي: وقلنا لهم كلوا: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: [من] حلالات، ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، ولا تدخروا لغدٍ، ففعلوا فقطع الله ذلك عنهم، ودوَّد وفسد ما ادّخروا، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: وما بخسوا بحقنا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ولا حساب في العقبى.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السُّلمي، أنا عبدالرزاق أنا معمر عن همام بن مُنبه أنا أبو هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر».

(٥٨) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، سمّيت القرية قرية لأنها تجمع أهلها، ومنه المقراة للحوض لأنها تجمع الماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي أريحا وهي قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم: العمالقة، ورأسهم عوج بن عنق، وقيل: بلقاء، وقال مجاهد: بيت المقدس، وقال الضحاك: هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر.

وقال مقاتل: إيليا، وقال ابن كيسان: الشام، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: موسعاً عليكم، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾، يعني: باباً من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب ﴿سُجَّدًا﴾، أي: رُكّعاً خضعاً منحنين.

وقال وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكراً لله تعالىٰ، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، قال قتادة: حطّ عنا خطايانا، أُمروا بالاستغفار، وقال ابن عباس: لا إله إلاّ الله، لأنها تحطّ الذنوب، ورفعها على تقدير: قولوا مسألتنا حطة، ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾: من الغفر وهو الستر، فالمغفرة: تستر الذنوب، وقرأ أهل المدينة ونافع بالياء وضمّها وفتح الفاء، وقرأها ابن عامر بالتاء وضمّها [وفتح الفاء]، وفي الأعراف قرأ جميعاً ويعقوب بالتاء وضمّها، وقرأ الآخرون فيهما: بنصب النون وكسر الفاء، ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ثواباً من فضلنا.

(٥٩) ﴿فَبَدَّلَ﴾: فغيّر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أنفسهم، وقالوا: ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، وذلك أنهم بدّلوا قول الحطة بالحنطة فقالوا بلسانهم: حطانا سمقاثاً، أي: حنطة حمراء استخفافاً بأمر الله تعالىٰ.

وقال مجاهد: طوّطىء لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فأبوا أن يدخلوها سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم مخالفة في الفعل، كما بدّلوا القول وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن نصر، أنا عبدالرزاق عن معمر عن همام بن منبّه أنه سمع أبا هريرة يقول:

قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فبدّلوا فدخلوا يزحفون على استاهم وقالوا حبة في شعرة»، ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قيل: أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: يعصون ويخرجون من أمر الله تعالىٰ.

(٦٠) ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾: طلب السقيا ﴿لِقَوْمِهِ﴾، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل، فأوحى [الله] إليه كما قال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ﴾ وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً، واسمها عليق، حملها آدم عليه السلام من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام، فأعطاها موسى عليه السلام، قال مقاتل: اسم العصا بنعته، قوله تعالىٰ: ﴿الْحَجَرَ﴾، اختلفوا فيه، قال وهب: لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فينفجر عيوناً، لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطاً ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أُمر أن يسقيهم، وقال الآخرون: كان حجراً معيناً بدليل أنه عرّفه بالألف واللام، وقال ابن عباس: كان حجراً خفيفاً مربّعاً على قدر رأس الرجل، وكان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه، وقال عطاء: كان للحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين، لكل سبط عين، وقيل: كان الحجر رخاماً، وقيل: كان من الكذّان، فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعضاه فيذهب الماء، وكان يسقي كل يوم ستمائة ألف.

وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

ففرّ بثوبه ومرّ به على ملأ من بني إسرائيل حين رموه بالأدرة، فلما وقف أتاه جبريل فقال: إن الله تعالىٰ يقول ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة فرفعه ووضعه في مخلاته.

قال عطاء: كان يضربه موسى اثنتي عشرة ضربة فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدي المرأة فيعرق [ثم] يتفجر الأنهار ثم تسيل، وأكثر أهل التفسير يقولون: انبجست وانفجرت واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: انبجست عرقت، وانفجرت سالت، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾، أي: فضرب فانفجرت أي سالت، ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: على عدد الأسباط، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: موضع شربهم، لا يدخل سبط على غيره في شربه، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾، أي: وقلنا لهم: كلوا من المنّ والسلوى واشربوا من الماء فهذا كلّه من رزق الله الذي يأتيكم بلا مشقة، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، والعيث: أشدّ الفساد، يقال: عثي يعثى عثياً، وعثا يعثو عثواً، وعاث يعيث عيثاً.

﴿٦١﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وذلك أنهم أجمعوا وسئموا من أكل المنّ والسلوى، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهما اثنان، لأن العرب تعبّر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبّر عن الواحد بلفظ الاثنين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح دون العذب، وقيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد.

وقال عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم: كانوا يعجنون المنّ بالسلوى فيصيران واحداً، ﴿فَادْعُ لَنَا﴾: فاسأل لأجلنا ﴿رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾، قال ابن عباس: الفوم الخبز، وقال عطاء: الحنطة، وقال القتيبي رحمه الله تعالىٰ: الحبوب التي تؤكل كلها، وقال الكلبي: الثوم، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، ﴿قَالَ﴾، لهم موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾: أخس وأردى ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾: أشرف وأفضل؟ وجعل الحنطة أدنى في القيمة وإن كانت هي خيراً من المنّ والسلوى، أو أراد أنها أسهل وجوداً على العادة، ويجوز أن يكون الخير راجعاً إلى اختيار الله لهم واختيارهم لأنفسهم، ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، يعني: فإن أبيتم إلاّ ذلك فانزلوا مصراً من الأمصار، وقال الضحاك: هو مصر موسى وفرعون، والأول أصح لأنه لو أراده لم يصرفه، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾: من نبات الأرض، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾: جُعلت عليهم، وألزموا ﴿الذِّلَّةُ﴾: الذلّ والهوان، قيل: بالجزية، وقال عطاء بن السائب: هو الكستيج والزنار وزيّ اليهودية، ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر، سُمّي الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء، وقيل: الذلّة فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذلّ وأحرص على المال من اليهود، ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: رجعوا، ولا يقال: باؤوا إلا بشر، وقال أبو عبيدة: احتملوا وأقرّوا به.

ومنه الدعاء: «أبوءُ (لك) بنعمتك عليّ وأبوءُ بذنبي».

أي: أقرّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الغضب، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: بصفة محمد ﷺ وآية الرجم في التوراة، ويكفرون بالإنجيل والقرآن، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾، تفرد نافع بهمز النبيّ وبابه، فيكون معناه: المخبر، من أنبأ يُنبىء ونبأ ينبىء، والقراءة المعروفة ترْكُ الهمزة، وله وجهان: أحدهما هو أيضاً من الإنباء تُركت

الهمزةُ فيه تخفيفاً لكثرة الاستعمال، والثاني: هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوّة، وهي المكان المرتفع، فعلى هذا يكون (النبيين) على الأصل، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بِلاَ جرم، فإن قيل: فلِمَ قال بغير الحق، وقتلُ النبيّين لا يكون إلاّ بغير الحق؟ قيل: ذكره وصفاً للقتل، والقتل تارة يوصف بغير الحق، وهو مثل قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، ذكرُ الحق وصفاً للحكم لا أنّ حكمه [تعالى] ينقسم إلى الجور والحق، ويُروى أن اليهود قتلت سبعين نبياً في أول النهار، وقامت (سوق بقتلهم) في آخر النهار، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي.

(٦٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾، يعني: اليهود سُمّوا به لقولهم ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: ملنا إليك، وقيل: لأنهم هادوا، أي: تابوا عن عبادة العجل، وقيل: لأنهم مالوا عن دين الإسلام وعن دين موسى عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهوّدون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السمٰوات والأرض تحركت حين آتى الله موسى التوراة، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، سُمّوا به لقول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وقال مقاتل: لأنهم نزلوا قرية يقال لها: ناصرة، وقيل لاعتزائهم إلى نَصِرَة وهي قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام، ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ قرأ أهل المدينة والصابين والصابون بترك الهمزة، والباقون بالهمزة، وأصله الخروج، يقال: صبأ فلان أي خرج من دين إلى دين آخر، وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها، وصبأ ناب البعير إذا خرج، فهؤلاء سمّوا به لخروجهم من دين إلى دين.

قال عمر وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب، قال عمر رضي الله عنه: ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب.

وقال ابن عباس: لا تحلّ ذبائحهم ولا مناكحتهم، قال مجاهد: هم قبيلة نحو الشام بين اليهود والمجوس، وقال الكلبي: هم قوم [بين] اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ويجبون مذاكيرهم، وقال قتادة: هم قوم يقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلّون إلى الكعبة ويقرون بالله تعالى أخذوا من كل دين شيئاً، قال عبدالعزيز بن يحيى: انقرضوا. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فإن قيل: كيف يستقيم قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وقد ذكر في ابتداء الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قيل: اختلفوا في حكم الآية فقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على التحقيق.

ثم اختلفوا في هؤلاء المؤمنين، فقال قوم: هم الذين آمنوا قبل المبعث وهم طلاب الدين، مثل حبيب النجار وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء السني وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي وبحيراً الراهب ووفد النجاشي، فمنهم من أدرك النبيّ ﷺ وبايعه، ومنهم من لم يدركه، وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية، وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ الذين كانوا على دين موسى عليه السلام ولم يبدلوا، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يغيّروا وماتوا على ذلك.

قالوا: وهذان الاسمان لزماهم زمن موسى وعيسى عليهما السلام حيث كانوا على الحق كالإسلام لأمة محمد ﷺ، ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ زمن استقامة أمرهم ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، أي: من مات منهم وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان بالموافاة، ويجوز أن يكون الواو مضمراً، أي: ومن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة، وقال بعضهم: إن المذكورين بالإيمان في أول الآية على طريق المجاز دون الحقيقة، ثم اختلفوا فيهم فقال: بعضهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك.

وقيل: أراد بهم المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى الذين اعتقدوا اليهودية والنصرانية بعد التبديل، والصابئون بعض أصناف الكفار ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ من هذه الأصناف بالقلب واللسان، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، إنما ذكر بلفظ الجمع لأن ﴿مَنْ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: في الآخرة.

(٦٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾: عهدكم يا معشر اليهود، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾، وهو الجبل

بالسريانية في قول بعضهم، وهو قول مجاهد، وقيل: ما من لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن، وقال الأكثرون: ليس في القرآن لغة غير لغة العرب؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وإنما هذا وأشباهه وقع وفاقاً بين اللغتين.

وقال ابن عباس: أمر الله تعالىٰ جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم، وذلك أن الله تعالىٰ أنزل التوراة على موسى عليه السلام، فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها، فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التي هي فيها، وكانت شريعة ثقيلة، فأمر الله تعالىٰ جبريل عليه السلام فقلع جبلاً على قدر عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ فرفعه فوق رؤوسهم مثل قامة الرجل كالظلة، وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: رفع الله فوق رؤوسهم الطور وبعث ناراً من قِبَل وجوههم وأتاهم البحر المالح من خلفهم، ﴿خُذُوا﴾، أي: قلنا لهم خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾: أعطيناكم ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجدّ واجتهاد ومواظبة، ﴿وَٱذْكُرُوا﴾: وادرسوا ﴿مَا فِيهِ﴾، وقيل: احفظوا واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العُقبى، فإن قبلتم وإلاّ رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار، فلما رأوا أنْ لا مهرب لهم منها قبلوا وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار سنة في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، ويقولون: بهذا السجود رفع العذاب عنّا.

﴿٦٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾: أعرضتم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد ما قبلتم التوراة، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، يعني: بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب عنكم، ﴿لَكُنتُم﴾ لصرتم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: من المغبونين بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة، وقيل: من المعذبين في الحال كأنه رحمهم بالإمهال.

﴿٦٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، أي: جاوزوا الحد، وأصل السبت القطع، قيل: سُمّي يوم السبت بذلك لأن الله تعالىٰ قطع فيه الخلق، وقيل: لأن اليهود أُمروا فيه بقطع الأعمال.

والقصة فيه أنهم كانوا زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك حتى يخرجن خراطيمهن من الماء لأمنها، حتى لا يُرى الماء من كثرتها، فإذا مضى السبت تفرّقن ولزمن مقْل البحر فلا يُرى شيء منها، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ثم إن الشيطان وسوس إليهم وقال إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا يقدرن على الخروج لبعد عمقها وقلّة مائها، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقيل: كانوا يسوقون الحيتان إلى الحياض يوم السبت [ولا يأخذونها]، ثم يأخذونها يوم الأحد، وقيل: كانوا ينصبون الحبائل والشخوص يوم الجمعة، ويُخرجونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً ولم تنزل عليهم عقوبة، فتجرؤوا على الذنب وقالوا: ما نرى السبت إلاّ وقد أُحِلّ لنا، فأخذوا وأكلوا وملّحوا وباعوا واشتروا وكثر مالهم، فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلاثة أصناف:

الجزء الأول | سورة البقرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

١٠

صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنف انتهك الحرمة، وكان الناهون اثني عشر ألفاً، فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا: والله لا نُساكِنُكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار عبروا بذلك سنتين فلعنهم داود عليه السلام وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم، فلما أبطؤوا تسوّروا عليهم الحائط فإذا هم جميعاً قردة لها أذناب يتعاوون.

قال قتادة: صار الشبان قردة والشيوخ خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام ولم يتوالدوا، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾: أمر تحويل وتكوين، ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: مُبعدين مطرودين، قيل: فيه تقديم وتأخير، أي كونوا خاسئين قردة، ولذلك لم يقل خاسئات، والخسأ: الطرد والإبعاد، وهو لازم ومتعد، يقال: خسأته خسأً فخسأ خسوءاً، مثل رجعته رجعاً فرجع رجوعاً.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾، أي: جعلنا عقوبتهم بالمسخ ﴿نَكَٰلًا﴾، أي: عقوبة وعبرة، والنكال: اسم لكل عقوبة ينكل الناظر من فعل ما جُعلت العقوبة جزاءً عليه، ومنه النكول عن اليمين: وهو الامتناع، وأصله من النكل وهو القيد، وجمعه يكون أنكالاً.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال قتادة: أراد بما بين يديها، يعني: ما سبقت من الذنوب، أي: جعلنا تلك العقوبة جزاءً لِما تقدّم من ذنوبهم قبل نهيهم عن أخذ الصيد، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: ما حضر من الذنوب التي أخذوا بها، وهي العصيان بأخذ الحيتان، وقال أبو العالية والربيع: عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعِبرة لمن بعدهم أن يَسْتَنُّوا بسنّتهم، و﴿مَا﴾ الثانية بمعنى: من، وقيل: جعلناها أي: جعلنا قرية أصحاب السبتِ عِبرةً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾، أي: القرى التي كانت مبنية في الحال، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما يحدث من القرى بعدُ ليتعظوا، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: فجعلناها وما خلفها، أي: ما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة نكالاً وجزاءً لِما بين يديها، أي: لِما تقدم من ذنوبهم باعتدائهم في السبت، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: للمؤمنين من أمّة محمد ﷺ، فلا يفعلون مثل فعلهم.

(٦٧) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾: البقرة هي الأنثى من البقر، يقال: هي مأخوذة من البقر وهو الشق، سُمّيت به لأنها تبقر الأرض، أي: تشقّها للحراثة، والقصة فيه أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى موسى يدّعي عليهم القتل، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى.

قال الكلبي: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبيّن لهم بدعائه، فأمرهم الله بذبح بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، ﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، أي: تستهزىء بنا نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة، وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يدروا ما الحكمة فيه.

قرأ حمزة «هزواً وكفواً» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتثقيل، وبترك الهمزة حفص. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾: أمتنع بالله ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: من المستهزئين بالمؤمنين، وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال، لأن الجواب لا على وفق السؤال جهل، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عزّ وجلّ استوصفوها، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنّهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، وكانت تحته حكمة.

وذلك أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عِجْلة أتى بها إلى غيضة، وقال: اللّهمّ إني أستودعك هذه العِجْلة لابني حتى يكبر، ومات الرجل فصارت العِجْلة في الغيضة عواناً، وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن كان باراً بوالدته، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق، فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أمه يوماً: إن أباك ورّثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا انطلق وادع إلٰه إبراهيم وإسماعيل

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

وإسحاق أن يردها عليك، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تأتي إلي فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها يقودها، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى فقالت: أيها الفتى البار بوالدتك اركبني، فإن ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليَّ أبداً أنطلق، فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل، لبرّك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه، فقالت له: إنك فقير لا مال لك فيشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق فبع [هذه] البقرة، فقال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير، ولا تبع بغير مشورتي، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير، فانطلق بها إلى السوق.

وبعث الله مَلَكاً ليُري خَلْقَه قدرته، وليختبر الفتى كيف بِرّه بوالدته، وكان الله به خبيراً فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضى والدتي، فقال المَلَك: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي، فردّها إلى أمه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضىً مني، فانطلق بها إلى السوق، وأتى الملك فقال: استأمرت أمك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها، فقال الملك: فإني أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك، فقالت: إن الذي يأتيك مَلَك في صورة آدمي، ليختبرك فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقل لها: أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران عليه السلام يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلا بملء مَسْكها دنانير فأمسكوها وقدّر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفون موسى حتى وصف لهم تلك البقرة بعينها، مكافأة له على بِرّه بوالدته فضلاً منه ورحمة، فذلك قوله تعالى:

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، أي: ما صفتها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾، يعني: فسأل الله تعالى فقال إنه يعني أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾، أي: لا كبيرة ولا صغيرة، والفارض: المسنة التي لا تلد، يقال منه فرضت تفرض فروضاً، والبكر: الفتاة الصغيرة التي لم تلد قط، وحُذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض، ﴿عَوَانٌ﴾: وسط نَصَفٌ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بين السِّنَّين، يقال: عوّنت المرأة تعويناً إذا زادت على الثلاثين، قال الأخفش: العوان التي لم تلد قط وقيل: العوان التي نتجت مراراً، وجمعها عون، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾: من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال.

﴿٦٩﴾ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾، قال ابن عباس: شديدة الصفرة، وقال قتادة: صاف، وقال الحسن: الصفراء السوداء، والأول أصح لأنه لا يقال أسود فاقع، إنما يقال أصفر فاقع، وأسود حالك وأحمر قانىء وأخضر ناضر وأبيض بقق للمبالغة، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾: إليها يعجبهم حُسنها وصفاء لونها.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾: أسائمة أم عاملة؟ ﴿إِنَّ الْبَقَرَ

﴿تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾، ولم يقل تشابهت لتذكير لفظ البقر؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، وقال الزجاج: أي جنس البقر تشابه، أي: التبس واشتبه أمره علينا فلا نهتدي إليه، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾: إلى وصفها.

قال رسول الله ﷺ: «وايْمُ اللهِ لو لم يستثنوا لَما بُيِّنَتْ لهم إلى آخر الأبد».

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾: مذلّلة بالعمل، يقال: رجل ذلول بيّن الذل ودابة ذلول بيّنة الذل، ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾: تقلبها للزراعة، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾، أي: ليست بساقية، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: بريئة من العيوب، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: لا لون فيها سوى لون جميع جلدها، قال عطاء: لا عيب فيها، قال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالبيان التام الشافي الذي لا إشكال فيه، وطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلا مع الفتى فاشتروها بملء مَسْكها ذهباً، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: من غلاء ثمنها، وقال محمد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها، وقيل: وما كادوا يفعلون من شدّة اضطرابهم واختلافهم فيها.

﴿٧٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾: هذا أول القصة، وإن كان مؤخّراً في التلاوة، واسم القتيل عاميل، ﴿فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾، أصله تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال وأدخلت الألف مثل قوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٨]، قال ابن عباس ومجاهد: معناه فاختلفتم، وقال الربيع بن أنس: تدافعتم، أي: يحيل بعضكم على بعض، من الدرء: وهو الدفع، فكان كل واحد يدفع عن نفسه، ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ﴾، أي: مظهر: ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فإن القاتل كان يكتم القتل.

﴿٧٣﴾ ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾، يعني: القتيل، ﴿بِبَعْضِهَا﴾، أي: ببعض البقرة، واختلفوا في ذلك البعض، فقال ابن عباس رضي الله عنه وأكثر المفسّرين: ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو المقتل، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: بَعُجب الذنب لأنه أول ما يُخلق وآخر ما يبلى، ويُركّب عليه الخلق، وقال الضحاك: بلسانها، وقال الحسين بن الفضل: هذا أدلّ بها لأنه آلة الكلام، وقال الكلبي وعكرمة: بفخذها الأيمن، وقيل: بعضو منها لا بعينه، ففعلوا ذلك فقام القتيل حياً بإذن الله تعالى، وأوداجه ـ أي: عروق العنق ـ تشخب دماً، وقال: قتلني فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث، وفي الخبر: «وما ورث قاتل بعد صاحب البقرة»، وفيه إضمار تقديره فضرب فحُيي، ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: كما أحيا عاميل، ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قيل: تمنعون أنفسكم من المعاصي، أما حكم هذه المسألة في الإسلام إذا وجد قتيل في موضع ولا يعرف قاتله، فإن كان ثَمَّ لوث على إنسان، واللوث: أن يغلب على القلب صدق المدعي بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء فتفرّقوا عن قتيل يغلب على القلب أن القاتل فيهم، أو وُجد قتيل في محلة أو قرية كلهم أعداء للقتيل لا يخالطهم غيرهم فيغلب على القلب أنهم قتلوه، فادّعى الولي على بعضهم، يحلف المدعي خمسين يميناً على من يدّعي عليه، وإن كان الأولياء جماعة تُوزَّع الأيمان عليهم، ثم بعدما حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه إن ادّعوا قتل خطأ، وإن ادّعوا قتل عمدٍ فمن ماله، ولا قَوَدَ على قول الأكثرين، وذهب بعضهم إلى وجوب القَوَد وهو قول عمر بن عبدالعزيز، وبه قال مالك وأحمد، وإن لم يكن على المدّعى عليه لوث، فالقول قول المدعى عليه مع يمينه، ثم هل يحلف يميناً واحدة أم خمسين يميناً فيه قولان: أحدهما يميناً واحدة كما في سائر الدعاوى، والثاني يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر الدم، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا حكم للوث، ولا يبدأ بيمين المدعي، وقال: «إذا وُجد قتيل في محلة يختار الإمام خمسين رجلاً من صلحاء أهلها فيحلّفهم أنهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلاً، ثم يأخذ الدية من سكّانها، والدليل على أن البداية بيمين المدعي عند وجود اللوث ما أخبرنا به عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبدالوهّاب بن عبدالمجيد الثقفي، عن يحيى بن سعيد عن بُشَيْر بن يسار عن سهل بن أبي حَثْمَة:

أن عبدالله بن سهل ومُحَيِّصَة بن مسعود: خرجا إلى خيبر فتفرقا لحاجتهما، فقتل عبدالله بن سهل، فانطلق هو وعبدالرحمن أخو المقتول وحويصة بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له قتل عبدالله بن سهل، فقال رسول الله ﷺ: «تحلفون خمسين يميناً وتستحقون دم صاحبكم أو قاتلكم»، فقالوا: يا رسول الله لم نشهد ولم نحضر، فقال رسول الله ﷺ: «فتبرئكم يهود بخمسين يميناً»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقبل أيمانَ قوم كفار؟ فعزم النبيّ ﷺ عَقْلَه من عنده. [وفي لفظ آخر: فزعم أن النبيّ ﷺ عَقَلَه من عنده]. قال بُشير بن يسار: قال سهل: لقد ركضتني فريضة من تلك الفرائض في مَرْبَد لنا؛ وفي رواية: لقد ركضتني ناقة حمراء من تلك الفرائض في مربد لنا أخرجه مسلم عن محمد بن المثنى عن عبدالوهّاب.

وجه الدليل من الخبر: أن النبيّ ﷺ بدأ بأيمان المدعين ليقوّي جانبهم باللّوث، وهو أن عبدالله بن سهل وجد قتيلاً في خيبر، وكانت العداوة ظاهرة بين الأنصار وأهل خيبر، فكان يغلب على القلب أنهم قتلوه، واليمين أبداً تكون حجّة لمن يقوى جانبه، وعند عدم اللّوث يقوى جانب المدعى عليه من حيث أن الأصل براءة ذمّته، وكان القول قوله مع يمينه.

(٧٤) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾، أي: يبست وجفت، جفاف القلب: خروج الرحمة واللّين عنه، وقيل: غلظت، وقيل: اسودّت، ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد ظهور الدّلالات، قال الكلبي: قالوا بعد ذلك نحن لم نقتله، فلم يكونوا قط أعمى قلباً، ولا أشدّ تكذيباً لنبيهم منهم عند ذلك، ﴿فَهِيَ﴾: في الغِلْظَةِ والشدة: ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، قيل: أو بمعنى بل وقيل: أو بمعنى الواو؛ كقوله: ﴿مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أي: بل يزيدون أو ويزيدون، وإنّما لم يشبّهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين، فإنه يليّن بالنار، وقد لاَن لداود عليه السلام، والحجارة لا تلين قط، ثم فضّل الحجارة على القلب القاسي فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قيل: أراد به جميع الحجارة، وقيل: أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للأسباط، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾: أراد به عيوناً دون الأنهار، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾: ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: وقلوبكم لا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود، فإن قيل: الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى؟ قيل: الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه.

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالىٰ علْم في الجمادات وسائر الحيوانات، سوى العقلاء علماً لا يقف عليه غيره، فلها صلاة وتسبيح وخشية؛ كما قال جلّ ذكره: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨] الآية، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالىٰ.

ويُروى أن النبيّ ﷺ كان على ثبير، والكفار يطلبونه فقال الجبل: انزل عني فإني أخاف أن تُؤخذ عليّ فيعاقبني الله بذلك، فقال له جبل حِرَاء: إليّ يا رسول الله.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، ثنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، أنا أحمد بن محمد بن عبدالوهّاب النيسابوري، أنا محمد بن إسماعيل الصائغ، أنا يحيى بن أبي بكر، أنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلّم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن»، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن أبي بكر.

وصح عن أنس.

أن رسول الله ﷺ: طلع على أُحد، فقال: «هذا جبل يُحبّنا ونُحبّه». وروي [عن أبي هريرة: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل على الناس بوجهه وقال: «بينما رجل يسوق بقرة إذْ عَيِيَ فركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم؟ فقال

رسول الله ﷺ: «فإني أومن به أنا وأبو بكر وعمر» وما هُمَا ثَم، وقال: «بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأدركها صاحبها فاستنقذها، فقال الذئب: فمن له يوم السبع، أي: يوم القيامة يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم! فقال: أومن به أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثم].

وصحّ عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ على حراء وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال النبيّ ﷺ: «اهدأ. أي: اسكن. فما عليك إلاّ نبي أو صديق أو شهيد»، صحيح أخرجه مسلم.

أنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو سعيد يحيى بن أحمد بن علي الصانع، أنا أبو الحسن علي بن إسحاق بن هشام الرازي أنا محمد أيوب بن ضريس البجلي الرازي، أنا محمد بن الصباح حدثنا الوليد بن أبي ثور عن السدي عن عباد بن أبي يزيد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

«كنّا مع رسول الله ﷺ بمكة فمررنا في نواحيها خارجاً من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله».

أنا أبو الحسن عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع، أنا الشافعي أنا عبدالمجيد بن عبدالعزيز عن ابن جُريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنه يقول:

«كان النبيّ ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية، وحنّت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله ﷺ فاعتنقها فسكنت».

قال مجاهد: لا ينزل حجر من أعلىٰ إلى أسفل إلاّ من خشية الله، ويشهد لِما قلنا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ۝﴾ [الحشر: ٢١].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾: بساهٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: وعيد وتهديد، وقيل: بتارك عقوبة ما تعملون، بل يجازيكم به، قرأ ابن كثير يعملون بالياء والآخرون بالتاء.

(٧٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: أفترجون؟ يُريد محمداً وأصحابه، ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾: يصدقكم اليهود بما تخبرونهم به؟ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، يعني: التوراة، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: يغيّرون ما فيها من الأحكام، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: علموه [كما] غيّروا صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنهم كاذبون، هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة والسدي وجماعة، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه، وذلك أنهم لما رجعوا بعدما سمعوا كلام الله إلى قومهم رجع الناس إلى قولهم، وأما الصادقون منهم فأدّوا كما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله يقول في آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا، فهذا تحريفهم وهم يعلمون أنه الحق.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني: منافقي اليهود الذين آمنوا بألسنتهم إذا لقوا المؤمنين المخلصين، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: كإيمانكم، ﴿وَإِذَا خَلَا﴾: رجع ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا، أو غيرهم من رؤساء اليهود، لأمرهم على ذلك، ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما قص الله عليكم في كتابكم أن محمداً حق وقوله صدق، والفتاح: القاضي.

وقال الكسائي: بما بيّنه الله لكم من العلم بصفة النبي ﷺ ونعته، وقال الواقدي: بما أنزل الله عليكم وأعطاكم، ونظيره ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: أنزلنا، وقال أبو عبيدة: بما منّ الله عليكم وأعطاكم، ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾: ليخاصموكم، يعني: أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا بقولكم عليكم، فيقولوا: قد أقررتم أنه نبيّ حق في كتابكم، ثم لا تتبعونه؟ وذلك أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتّباع محمد ﷺ آمنوا به فإنه حق، ثم قال بعضهم لبعض أتحدّثونهم بما أنزل الله عليكم، يعني: لتكون لهم الحجة عليكم. ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة،

الجزء الأول — سورة البقرة

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

وقيل: إنهم أخبروا المؤمنين بما عذّبهم الله به على الجنايات، فقال بعضهم لبعض: أتحدّثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به عند ربّكم، ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله، وقال مجاهد: هو قول يهود قريظة قال بعضهم لبعض حين قال لهم النبيّ ﷺ: يا إخوان القردة والخنازير، فقالوا: من أخبر محمداً بهذا؟ ما خرج هذا إلاّ منكم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

(٧٧) قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: يخفون، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: يبدون، يعني اليهود.

(٧٨) وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، أي: من اليهود أمّيون لا يحسنون القراءة والكتابة، جمع: أمّي، منسوب إلى الأم كأنه باق على ما انفصل من الأم لم يتعلم كتابة ولا قراءة.

[وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب»، وقيل: هو منسوب إلى أمّ القرى وهي مكة. ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، قرأ أبو جعفر: «أمانيَ»، بتخفيف الياء، كل القرآن، حذف إحدى الياءين تخفيفاً، وقراءة العامّة بالتشديد، وهو جمع: أمنية وهي التلاوة، وقال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، أي: في قراءته، قال أبو عبيدة: إلا تلاوته وقراءته عن ظهر القلب لا يقرؤونه من كتاب، وقيل: يعلمونه حفظاً وقراءة، لا يعرفون معناه، قال ابن عباس: يعني غير عارفين بمعاني الكتاب، وقال مجاهد وقتادة: إلاّ كذباً وباطلاً، قال الفراء: الأماني: الأحاديث المفتعلة، قال عثمان رضي الله عنه: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت وأراد بها الأشياء التي كتبها علماؤهم من عند أنفسهم، ثم أضافوها إلى الله عز وجلّ من تغيير نعت النبيّ ﷺ وغيره، وقال الحسن وأبو العالية: هي من التمنّي وهي أمانيهم الباطلة التي تمنّونها على الله عزّ وجلّ، مثل قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فعلى هذا تكون إلاّ بمعنى «لكن»، أي: لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم، ﴿وَإِنْ هُمْ﴾، وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، يعني: وما [هم إلا] يظنون ظناً وتوهماً لا يقيناً، قاله قتادة والربيع، قال مجاهد: يكذبون.

(٧٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَيْلٌ﴾، قال الزجاج: «ويل» كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة، وقيل: هو دعاء الكفار على أنفسهم بالويل والثبور، وقال ابن عباس: شدّة العذاب، وقال سعيد بن المسيب: ويل واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت ولذابت من شدّة حره.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك عن رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث أنه حدّث عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

عن النبيّ ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصَّعود جبل من نار يتصعّد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فهو كذلك»، ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وذلك أن

أحبار اليهود خافوا ذهاب مأكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبيّ ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة، وكانت صفته فيها: حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة [القامة]، فغيّروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر، فإذا سألهم سفلتهم عن صفته قرؤوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته فيُكذّبونه [وينكرونه]، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: [ما] كتبوا بأنفسهم اختراعاً من تغيير نعت محمد ﷺ، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾: من المآكل، ويقال: من المعاصي.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا﴾، يعني: اليهود ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾: لن تصيبنا النار، ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: قدراً مقدّراً ثم يزول عنا العذاب [ويعقبه النعيم]، واختلفوا في هذه الآية، فقال ابن عباس ومجاهد: كانت اليهود يقولون هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذّب بكل ألف سنة يوماً واحداً ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام، وقال قتادة وعطاء: يعنون أربعين يوماً التي عبَد فيها آباؤهم العجل، وقال الحسن وأبو العالية: قالت اليهود: إن ربنا عتب علينا في أمر فأقسم الله ليعذّبنا أربعين يوماً فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلّة القسم، فقال الله عزّ وجلّ تكذيباً لهم، ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، ألف استفهام دخلة على ألف الوصل ﴿عَهْدًا﴾ مَوْثقاً أن لا يعذبكم إلاّ هذه المدة، ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾، وعده، قال ابن مسعود: عهداً بالتوحيد، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]، يعني: قوله لا إله إلاّ الله، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ ثم قال:

(٨١) ﴿بَلَىٰ﴾، وبلى وبل: حرفا استدراك، ومعناهما نفي الخبر الماضي وإثبات الخبر المستقبل. ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، يعني: الشرك ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، وقرأ أهل المدينة «خطيئاته» بالجمع، والإحاطة: الإحداق بالشيء من جميع نواحيه، قال ابن عباس وعطاء والضحاك وأبو العالية والربيع وجماعة: هو الشرك يموت عليه، وقيل: السيّئة الكبيرة والإحاطة به أن يصرّ عليها فيموت غير تائب، قاله عكرمة والربيع بن خيثم.

وقال مجاهد: هي الذنوب تحيط بالقلب كلما أذنب ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب، وهي الرين، قال الكلبي: أوبقته ذنوبه، دليله قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: تهلكوا، ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٨٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾.

(٨٣) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: في التوراة والميثاق العهد الشديد، ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾، بالياء، وقرأ والآخرون بالتاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، معناه أن لا تعبدوا، فلما حذف (أن) صار الفعل مرفوعاً وقرأ أُبي بن كعب: «لا تعبدوا إلا الله»، على النهي، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾، أي: ووصيناهم بالوالدين، ﴿إِحْسَانًا﴾ برّاً بهما وعطفاً عليهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى، ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي: وبذي القرابة، والقربى مصدر كالحسنى، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾، جمع يتيم وهو الطفل الذي لا أب له، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾، يعني: الفقراء، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: صدقاً وحقاً في شأن محمد ﷺ، فمن سألكم عنه فاصدقوه وبيّنوا صفته ولا تكتموا أمره، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وابن جريج ومقاتل، وقال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، وقيل: هو اللّين في القول والمعاشرة بحسن الخلق، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «حَسَناً» بفتح الحاء والسين، أي: قولاً حسَناً، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أعرضتم عن العهد والميثاق، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾، وذلك أن قوماً منهم آمنوا، ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، كإعراض آبائكم.

(٨٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ﴾، أي: لا تريقون، ﴿دِمَاءَكُمْ﴾، أي: لا يسفك بعضكم دمَ بعض، وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فتسفك دماؤكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾، [أي]: لا

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

يُخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل: لا تسيئوا جوار من جاوركم فتلجؤوهم إلى الخروج بسوء جواركم، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بهذا العهد أنه حق وقبلتم، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: اليوم على ذلك يا معشر اليهود وتقرون بالقبول.

﴿٨٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني: يا هؤلاء، وهؤلاء للتنبيه، ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: يقتل بعضكم بعضاً، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾، بتشديد الظاء، أي: تتظاهرون، أدغمت التاء في الظاء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء فحذفوا تاء التفاعل وأبقوا تاء الخطاب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: ٢]، ومعناهما جميعاً تتعاونون، والظهير: العون، ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: بالمعصية والظلم، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ﴾، [و] قرأ حمزة ﴿أسرى﴾، وهما جمع: أسير، ومعناهما واحد، ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾: بالمال وتنقذوهم، [و] قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائي ويعقوب ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾، أي: تبادلوهم، أراد مفاداة الأسير بالأسير، وقيل: معنى القراءتين واحد، ومعنى الآية، قال السدي: إنّ الله تعالىٰ أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأيّما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه، فكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكانوا يقتتلون في حرب سنين، فيقاتل بنو قريظة وحلفاؤهم وبنو النضير وحلفاؤهم وإذا غلبوا خرّبوا ديارهم وأخرجوهم منها، وإذا أُسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه وإن كان الأسير من عدوّهم، فتعيّرهم العرب وتقول: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، فيقولون: فلم تقاتلوهم؟ قالوا: إنا نستحي أن يستذل حلفاؤنا، فعيّرهم الله تعالىٰ بذلك، فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير، ونظمها: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وهو محرم عليكم إخراجهم، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، فكأن الله تعالىٰ أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتال وترك الإخراج وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وفداء أسراهم، فأعرضوا عن الكل إلا الفداء.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، قال مجاهد يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك، ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾: يا معشر اليهود، ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾: عذاب وهوان، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فكان خزي قريظة القتل والسبي، وخزي النضير الجلاء والنفي من منازلهم إلى أذرعات وأريحاء من الشام، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾، وهو عذاب النار، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالياء، والباقون بالتاء.

﴿٨٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾: استبدلوا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ﴾، يهون ﴿عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، لا يُمنعون من عذاب الله عزّ وجلّ.

﴿٨٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة جملة واحدة، ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: وأتبعنا، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾: رسولاً بعد رسول، ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الدلالات الواضحات، وهي ما ذكر الله في سورة آل عمران والمائدة، وقيل: أراد الإنجيل، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قويناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، قرأ ابن كثير «القدْس» بسكون الدال، والآخرون

الجزء الأول — سورة البقرة

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

١٤

بضمّها، وهما لغتان مثل: الرُّعْب والرُّعُب، واختلفوا في روح القدس، قال الربيع وغيره: أراد بالروح [الروح] الذي نفخ فيه، [و] القدس هو الله أضافه إلى نفسه تكريماً وتخصيصاً، نحو: بيت الله، وناقة الله، كما قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ٢٠]، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقيل: أراد بالقدس: الطهارة، يعني: الروح الطاهرة، سمّى روحه قدساً لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث، إنما كان أمراً من الله تعالى، قال قتادة والسدي والضحاك: روح القدس جبريل عليه السلام، قيل: وصف جبريل [عليه السلام] بالقدس أي بالطهارة، لأنه لم يقترف ذنباً، قال الحسن: القدس هو الله، وروحه جبريل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام أنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به الله إلى السماء، وقيل: سمّي جبريل عليه السلام روحاً للطافته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: روح القدس هو اسم الله تعالى الأعظم الذي كان يُحيي الموتى، ويُري الناس [به] العجائب، وقيل: هو الإنجيل جعل له روحاً كما جعل القرآن روحاً لمحمد ﷺ، لأنه سبب لحياة القلوب، وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فلما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه السلام، قالوا: يا محمد لا مثلَ عيسى ـ كما تزعمُ ـ عملت، ولا كما يُقصّ علينا من الأنبياء فعلت، فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً.

قال الله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾: يا معشر اليهود ﴿رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تكبّرتم وتعظّمتم عن الإيمان، ﴿فَفَرِيقًا﴾: طائفة ﴿كَذَّبْتُمْ﴾: مثل عيسى ومحمد ﷺ، ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، أي: قتلتم مثل زكريا ويحيى وشعيا، وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾، يعني: اليهود، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، جمع أغلف وهو الذي عليه غشاء، معناه: عليها غشاوة فلا تعي ولا تفقه ما تقول، قاله مجاهد وقتادة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، وقرأ ابن عباس: «غُلُف» بضم اللام، وهي قراءة الأعرج، وهي جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء، وقال الكلبي: معناه أوعية لكل علم فهي لا تسمع حديثا إلا تعيه إلا حديثك لا تعقله ولا تعيه، ولو كان فيه خير لوعته وفهمته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: طردهم الله وأبعدهم عن كل خير، ﴿بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا قليل، لأن من آمن من المشركين أكثر ممّن آمن من اليهود، أي: فقليلاً يؤمنون، ونصب (قليلاً) على الحال، وقال معمر: لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره، أي: فقليل يؤمنون [ونصب (قليلاً) بنزع الخافض، و(ما) صلة على قولهما، وقال الواقدي: معناه لا يؤمنون] قليلاً ولا كثيراً؛ كقول الرجل للآخر: ما أقل ما تفعل كذا، أي: لا تفعله أصلاً.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾: موافق ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾، يعني: التوراة، ﴿وَكَانُوا۟﴾، يعني: اليهود، ﴿مِن قَبْلُ﴾، [أي]: من قبل مبعث محمد ﷺ، ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يستنصرون، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: على مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا حزبهم أمرٌ أو

دهمهم عدوّ: اللّهمّ انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، يعني: محمداً ﷺ من غير بني إسرائيل وعرفوا نعته وصفته، ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾: بغياً وحسداً، ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

(٩٠) ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، بئس ونعم فعلان ماضيان وُضعا للمدح والذم، لا يتصرفان تصرف الأفعال، معناه: بئس الذي اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق، وقيل: الاشتراء هٰهنا بمعنى البيع، والمعنى: بئس ما باعوا به حظ أنفسهم، أي [حين] اختاروا الكفر وبذلوا أنفسهم للنار، ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، يعني: القرآن، ﴿بَغْيًا﴾، أي: حسداً، وأصل البغي: الفساد، يقال: بغى الجرح إذا فسد، والبغي: الظلم، وأصله الطلب، والباغي طالب الظلم والحاسد يظلم المحسود جهده طلباً لإزالة نعمة الله تعالى عنه، ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: النبوّة والكتاب، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: محمد ﷺ، قرأ أهل مكة والبصرة «ينزل» بالتخفيف، إلا في «سبحان» في موضعين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٢] و﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] فإن ابن كثير يشددهما، وشدد البصريون في الأنعام ﴿عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]، زاد يعقوب تشديد ﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾ في النحل، وافق حمزة والكسائي في تخفيف ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤] في سورة لقمان وحم عسق، والآخرون يشدّدون الكل ولم يختلفوا في تشديد ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ﴾ [الحجر: ٢١] في الحجر، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾: رجعوا بغضب ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، أي: مع غضب، قال ابن عباس ومجاهد: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم، والثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال قتادة: الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال السدي: الأول بعبادة العجل، والثاني بالكفر بمحمد ﷺ، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾: الجاحدين بنبوّة محمد ﷺ من الناس كلهم، ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: مخزٍ يهانون فيه.

(٩١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، يعني: القرآن، ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، يعني: التوراة، يكفينا ذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، أي: بما سواه من الكتب، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: ٧]، أي: سواه، وقال أبو عبيدة: بما وراءه أي بما سواه من الكتب، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، يعني: القرآن، ﴿مُصَدِّقًا﴾، نُصب على الحال، ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾: من التوراة، ﴿قُلْ﴾: لهم يا محمد ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾، أي: قتلتم، ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾، و(لِم) أصله لِمَا، فحذفت الألف فرقاً بين الخبر والاستفهام، كقولهم فيمَ وبِمَ، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السّلام.

(٩٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

(٩٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾، أي: استجيبوا وأطيعوا، سمّيت الطاعة والإجابة: سمعاً على المجاورة، لأنهما سبب للطاعة والإجابة، ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾: قولك، ﴿وَعَصَيْنَا﴾: أمرك، وقيل: سمعنا بالآذان، وعصينا بالقلوب، قال أهل المعاني: إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوا وتلقوه بالعصيان نُسب ذلك إلى القول اتساعاً.

﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، أي: حب العجل، معناه: أدخل في قلوبهم حبّ العجل وخالطها، كإشراب اللون لشدة الملازمة، يقال: فلان مشرب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة، وفي القصص: أن موسى أمر أن يبرد العجل بالمبرد، ثم يذرّه في النهر وأمرهم بالشرب منه، فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه، قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾: أن تعبدوا العجل من

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

دون الله، أي: بئس إيمان يأمركم بعبادة العجل، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: بزعمكم وذلك أنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، فكذّبهم الله عزّ وجلّ.

﴿٩٤﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن اليهود ادّعوا دعاوى باطلة مثل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فكذّبهم الله عزّ وجلّ وألزمهم الحجّة فقال: قل لهم يا محمد ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعني: الجنّة، ﴿خَالِصَةً﴾، أي: خاصة ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾، أي: فأريدوه أو اسألوه، لأن من علم أن الجنة مأواه حنّ إليها، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت، فاستعجلوه بالتمنّي، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في قولكم، وقيل: فتمنوا الموت، أي: ادعوا بالموت على الفرقة الكاذبة.

رُوي عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه وما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات».

﴿٩٥﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون، وأراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما قدّموه من الأعمال، وأضافها إلى اليد [دون سائر الأعضاء] لأن أكثر جنايات الإنسان تكون باليد، فأُضيف إلى اليد أعماله، وإن لم يكن لليد فيها عمل، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾، اللام لام القسم، والنون تأكيد للقسم، تقديره: والله لتجدنّهم يا محمد، يعني: اليهود ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، قيل: هو متصل بالأول، أي: وأحرص من الذين أشركوا، وقيل: تمّ الكلام بقوله: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، ثم ابتدأ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، وأراد بالذين أشركوا المجوس، قاله أبو العالية والربيع، سُمّوا مشركين لأنهم يقولون بالنور والظلمة. ﴿يَوَدُّ﴾: يريد ويتمنّى، ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، يعني: تعمير ألف سنة، وهي تحية المجوس فيما بينهم، يقولون: عش ألف سنة وكل ألف نيروز ومهرجان، يقول الله تعالى: اليهود أحرص على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾: بمباعده، ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، [أي]: من النار ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾، أي: طول عمره لا ينقذه زحزحه وتزحزح من العذاب و(زحزح) لازم ومتعدٍّ، يقال: زحزحته، فتزحزح، وزحزحته: فتزحزح، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٩٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن حبراً من أحبار اليهود، يقال له عبدالله بن صوريا قال للنبيّ ﷺ: أيُّ ملك يأتيك من السماء؟ قال: «جبريل»، قال: ذلك عدونا من الملائكة، ولو كان ميكائيل لآمنّا بك، إن جبريل ينزل بالعذاب والقتال والشدّة وإنه عادانا مراراً، كان أشدّ ذلك علينا أن الله تعالى أنزل على نبيّنا: أنّ بيت المقدس سيخرب على يد رجل يُقال له: بختنصر، وأخبرنا بالحين الذي يخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بني إسرائيل في طلبه ليقتله، فانطلق حتى لقيه ببابل غلاماً مسكيناً فأخذه ليقتله، فدفع عنه جبريل، وكبر بختنصر وقوي وغزانا وخرّب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدواً، فأنزل الله هذه الآية.

وقال مقاتل: قالت اليهود إن

جبريل عدوّنا لأنه امر أن يجعل النبوّة فينا فجعلها في غيرنا.

وقال قتادة وعكرمة والسدي: كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وممرّها على مدارس اليهود، فكان إذا أتى أرضه يأتيهم ويسمع منهم كلاماً فقالوا له: ما في أصحاب محمد أحبّ إلينا منك، إنهم يمرّون بنا فيؤذوننا وأنت لا تؤذينا وإنا لنطمع فيك، فقال عمر: والله ما آتيكم لحبكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم [وأنتم تكتمونها]، فقالوا: من صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة؟ قال: جبريل، فقالوا: ذاك عدوّنا يُطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل عذاب وخسف وسَنَةٍ وشدة، وإنّ ميكائيل إذا جاء، جاء بالخصب والمغنم، فقال لهم عمر: تعرفون جبريل وتنكرون محمداً؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله عزّ وجلّ، قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، قال عمر: فإني أشهد أن من كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكائيل، ومن كان عدواً لميكائيل فإنه عدو لجبريل، ومن كان عدواً لهما كان الله عدواً له، ثم رجع عمر إلى رسول الله ﷺ، فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيات، فقال: «لقد وافقك ربك يا عمر»، فقال عمر: لقد رأيتني بعد ذلك في دين الله أصلب من الحجر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ﴾، يعني: جبريل، ﴿نَزَّلَهُ﴾، يعني: القرآن، كناية عن غير مذكور، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يا محمد ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بأمر الله ﴿مُصَدِّقًا﴾: موافقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لما قبله من الكتب، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٩٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: خصّهما بالذكر من جملة الملائكة مع دخولهما في قوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾، تفضيلاً وتخصيصاً؛ كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۞﴾ [الرحمٰن: ٦٨]، خصّ النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في ذكر الفاكهة، [للتفضيل]، والواو فيهما بمعنى «أو»، يعني: من كان عدواً لأحد هؤلاء [فإنه عدوّ للكل]، لأن الكافر بالواحد كافر بالكل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، قال عكرمة: جبر وميك وإسراف هي العبد بالسريانية، قال وإيل هو الله تعالى، ومعناهما: عبدالله وعبدالرحمٰن، وقرأ ابن كثير «جَبريل» بفتح الجيم غير مهموز، بوزن فعليل، قال حسان:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقرأ حمزة والكسائي بالهمزة والإشباع وزن (سلسبيل)، وقرأ أبو بكر بالاختلاس، وقرأ الآخرون بكسر الجيم غير مهموز، وميكائيل قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص «ميكال» بغير همز، قال جرير:

عبدوا الصليب وكذّبوا بمحمد ... وبجبرائيل وكذبوا ميكالا

[وقال آخر]:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد ... فيه مع النصر جبريل وميكال

وقرأ نافع وأهل المدينة: بالهمز والاختلاس، بوزن ميفاعل، وقرأ الآخرون: بالهمز والإشباع بوزن ميكائيل، قال ابن صوريا: ما جئتنا يا محمد بشيء نعرفه، فأنزل الله تعالى:

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات مفصّلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام، ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾: الخارجون عن أمر الله عزّ وجلّ.

(١٠٠) قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾، واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، ﴿عَاهَدُوا عَهْدًا﴾، يعني: اليهود عاهدوا: لئن خرج محمدٌ ﷺ ليؤمنن به، فلما خرج [إليهم محمد ﷺ] كفروا به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما ذكّرهم رسول الله ﷺ ما أخذ الله عليهم [من الميثاق] وعهد إليهم في محمد ﷺ أن يؤمنوا به، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا عهدٌ في محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يدلّ عليه قراءة أبي رجاء العطاردي «أو كلما عُوهدوا» فجعلهم مفعولين، وقال عطاء: هي العهود التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود: أن لا يعاونوا المشركين على قتاله، فنقضوها كفعل بني قريظة والنضير، دليله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٦]، ﴿نَّبَذَهُ﴾: طرحه ونقضه ﴿فَرِيقٌ﴾:

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

طوائف ﴿مِّنْهُم﴾، من اليهود، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، يعني: محمداً ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، يعني: التوراة، وقيل: القرآن، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال الشعبي: كانوا يقرأون التوراة ولا يعملون بها، وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير والديباج وحلّوها بالذهب والفضة ولم يعملوا بها، فذلك نبذهم لها.

﴿١٠٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾، يعني اليهود ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾، أي: ما تلت، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي، والماضي موضع المستقبل، وقيل: ما كانت تتلو، أي: تقرأ، قال ابن عباس رضي الله عنه: تتبع وتعمل به، وقال عطاء: تحدث وتكلم به، ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي: في ملكه وعهده.

وقصة الآية: أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف بن برخيا: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك، ثم دفنوها تحت مصلاه حتى نزع الله الملك عنه، ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات استخرجوها وقالوا: للناس إنما ملكهم سليمان بها فتعلّموها، فأمّا علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا من علم الله، وأمّا السفلة فقالوا: هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة [على] سليمان، فلم يزل هذا حالهم [وفعلهم] حتى بعث الله محمداً ﷺ، وأنزل عليه براءة سليمان، هذا قول الكلبي، وقال السدي: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا في كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني إسرائيل أن الجن تَعْلَمُ الغيبَ، فبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنه تحت كرسيه، وقال: لا أسمع أحداً يقول إن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلف، تمثل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً، قالوا: نعم، فذهب معهم فأراهم المكان الذي تحت كرسيه فحفروا فأقام ناحية فقالوا له: ادنُ، قال: لا أحضره، فإن لم تجدوه فاقتلوني وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب، فقال الشيطان لعنه الله: إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا، ثم طار الشيطان عنهم، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب واستعملوها، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فلما جاء محمد ﷺ برّأ الله تعالى سليمان من ذلك، وأنزل في عذر سليمان: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾: بالسحر، وقيل: لم يكن سليمان كافراً بالسحر ويعمل به، ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، قرأ ابن عباس رضي الله عنه والكسائي وحمزة (ولكن)، خفيفة النون، (والشياطينُ)، رفع، وقرأ الآخرون (ولكنّ)، مشدّدة النون (والشياطينَ) نصب، وكذلك ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ومعنى ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ نفي الخبر الماضي وإثبات المستقبل. ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، قيل: معنى السحر: العلم والحذق بالشيء، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، أي: العالم، والصحيح أن السحر عبارة عن التمويه والتخييل، والسحر وجوده حقيقة عند

أهل السنة وعليه أكثر الأمم، ولكن العمل به كفر، حكي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: السحر يُخيل ويُمرض وقد يقتل، حتى أوجب القصاص على من قتل به، فهو من عمل الشيطان يتلقاه الساحر منه بتعليمه إياه، فإذا تلقاه منه استعمله في غيره، وقيل: إنه يُؤثر في قلب الأعيان فيجعل الآدمي على صورة الحمار، ويجعل الحمار على صورة الكلب، والأصح أن ذلك تخييل، قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون، وللكلام تأثير في الطباع والنفوس، وقد يسمع الإنسان ما يكره فيَحْمى ويغضب، وربما يُحم منه، وقد مات قوم بكلام سمعوه، فهو بمنزلة العوارض والعلل التي تُؤثر في الأبدان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، أي: ويعملون الذي أنزل على الملكين، أي: إلهاماً وعلماً، فالإنزال: بمعنى الإلهام والتعليم وقيل: اتبعوا ما أنزل على الملكين، وقرأ ابن عباس والحسن: «الملِكين» بكسر اللام، وقال ابن عباس: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقال الحسن: علجان، لأن الملائكة لا يعلمون السحر، وبابل هي بابل العراق، سُمّيت بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود، أي: تفرّقها، قال ابن مسعود: بابل أرض الكوفة، وقيل: جبل دماوند، والقراءة المعروفة: ﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بالفتح، فإن قيل: كيف يجوز تعليم السحر من الملائكة؟ قيل: له تأويلان، أحدهما: أنهما لا يتعمدان التعليم لكن يصفان السحر، ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه، والتعليم: بمعنى الإعلام، فالشقي يترك نصيحتهما ويتعلم السحر من صنعتهما، والتأويل الثاني وهو الأصح: أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، فمن شقي يتعلم السحر منهما [ويأخذه عنهما ويعمل به] فيكفر به، ومن سعد يتركه، فيبقى على الإيمان، ويزداد المعلمان بالتعليم عذاباً ففيه ابتلاء للمعلم والمتعلم، ولله أن يمتحن عباده بما شاء فله الأمر والحكم.

قوله عز وجل: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ هما اسمان سريانيان وهما في محل الخفض على تفسير الملكين إلا أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما، وكانت قصتهما على ما ذكره ابن عباس والمفسّرون: أن الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام، فعيّروهم وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض خليفة واخترتهم، فهم يعصونك بأنواع المعاصي، فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبتُ فيكم ما ركبت فيهم لركبتم مثل ما ركبوا، فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم، وقال الكلبي: قال الله تعالى لهم: اختاروا ثلاثة فاختاروا عزا وهو هاروت وعزايا وهو ماروت، غُيّر اسمهما لمّا قارفا الذنب [وعزائيل]، فركّب الله فيهم الشهوة وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر، فأمّا عزائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقبل ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله، فسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه ولم يزل بعد مطأطئاً رأسه حياءً من الله تعالى، وأمّا الآخران فإنهما ثبتا على ذلك وكانا يقضيان بين الناس يومَهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء، قال قتادة: فما مرّ عليهما شهر حتى افتتنا، قالوا جميعاً، وذلك أنه اختصمت إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: وكانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلما رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت، وقالت: لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصلّيا لهذا الصنم، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله تعالى قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما

ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة، فزنيا فلما فرغا رآهما إنسان فقتلاه، قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم، فمسخ الله الزهرة كوكباً. وقال بعضهم: جاءتهما امرأةٌ من أحسن الناس تخاصم زوجها، فقال أحدهما للآخر: هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي من حبّ هذه؟ قال: نعم، فقال: وهل لك أن تقضي لها على زوجها بما تقول؟ فقال له صاحبه: أمَا تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أمَا تعلم ما عند الله من العفو والرحمة، فسألاها نفسها فقالت: لا إلاّ أن تقضيا لي على زوجي، فقضيا لها ثم سألاها نفسها، فقالت: لا إلاّ أن لي صنماً أعبده إن أنتما صلّيتما معي له فعلتُ، فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الأول، قال صاحبه مثله، فصليا معها فمُسِخَتْ شهاباً. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه والكلبي والسدي: إنها قالت لهما [حين سألاها نفسها]: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا باسم الله الأعظم، قالت: فما أنتم تدركاني حتى تعلمانيه، فقال أحدهما لصاحبه: علّمها، فقال: إني أخاف الله [رب العالمين]، قال الآخر: فأين رحمة الله تعالىٰ؟ فعلّماها ذلك، فتكلّمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً، فذهب بعضهم إلى أنها هي الزهرة بعينها، وأنكر الآخرون هذا وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي أقسم الله بها، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۞ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۞﴾ [التكوير: ١٥]، والتي فتنت هاروت وماروت إنما هي امرأة كانت تسمى الزهرة لجمالها، فلما بغت مسخها الله تعالىٰ شهاباً، قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حلّ بهما من الغضب فقصدا إدريس النبيّ عليه السّلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عزّ وجلّ، وقالا له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادات مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى ربك، ففعل ذلك إدريس عليه السّلام فخيّرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذّبان.

واختلفوا في كيفية عذابهما، فقال عبدالله بن مسعود: هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة.

وقال عطاء بن أبي رباح: رؤوسهما منصوبة تحت أجنحتهما، وقال قتادة: كُبّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما، وقال مجاهد: جعلا في جب ملئت ناراً.

وقال عمر بن سعد: منكوسان يضربان بسياط الحديد.

ورُوي أن رجلاً قصد هاروت وماروت لتعلّم السحر فوجدهما معلّقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربع أصابع، وهما يعذّبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله مكانهما، فقال: لا إله إلاّ الله، فلما سمعا كلامه قالا له: من أنت؟ قال: رجل من الناس، قالا: من أي أمة [أنت]؟ قال: من أمّة محمد ﷺ، قالا: أوَ قد بُعث محمد ﷺ؟ قال: نعم، قالا: الحمد لله وأظهرا الاستبشار، فقال الرجل: وبِمَ استبشاركما؟ قال: إنه نبيّ الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ﴾، أي: أحداً و﴿مِنۡ﴾ صلة ﴿حَتَّىٰ﴾: ينصحاه أولاً، ﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ﴾: ابتلاءٌ ومحنة، ﴿فَلَا تَكۡفُرۡ﴾، أي: فلا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر، وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان، من قولهم: فتنت الذهب والفضة، إذا أذبتهما بالنار ليتميز الجيّد من الرديء، وإنما وحّد الفتنة وهما اثنان لأن الفتنة مصدر، والمصادر لا تثنى ولا تجمع، وقيل: إنهما يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات، قال عطاء والسدي: فإن أبى إلا التعلم قالا له: ائت هذا الرماد وأقبل عليه فيخرج منه نور ساطع في السماء، فذلك نور المعرفة، وينزل شيءٌ أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه، وذلك غضب الله تعالىٰ، قال مجاهد: إن هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان في كل مسألة اختلافة واحدة.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾، وهو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه ويبغض كل واحد إلى صاحبه، قال الله تعالىٰ:

الجزء الأول — سورة البقرة

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

١٧

﴿وَمَا هُم﴾، قيل: أي السحرة، وقيل: الشياطين، ﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾، أي: بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾، أي: أحداً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بعلمه وتكوينه، فالساحر يسحر والله يكوّن، قال سفيان الثوري: معناه إلا بقضائه وقدره ومشيئته، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾، يعني: السحر يضرهم، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾، يعني: اليهود، ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾، أي: اختار السحر، ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: في الجنة، ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من نصيب، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ﴾: باعوا به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فإن قيل: أليس قد قال ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ فما معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ بعدما أخبر أنهم علموا؟ قيل: أراد بقوله: ولقد علموا، يعني: الشياطين، وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: اليهود، وقيل: كلاهما في اليهود يعني: لكنهم لما لم يعملوا بما علموا، فكأنهم لم يعلموا.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ والقرآن، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾: اليهودية والسحر، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾: لكان ثواب الله إياهم خيراً لهم، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿١٠٤﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾، وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله، من المراعاة، أي: أَرْعِنا سمعك، أي: فرّغ سمعك لكلامنا، يقال: أرعى إلى الشيء ورعاه وراعاه، أي: أصغى إليه واستمعه، وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً بلغة اليهود، وقيل: كان معناها عندهم: اسمع لا سمعت، وقيل: هي من الرعونة، كانوا إذا أرادوا أن يحمّقوا إنساناً قالوا [له]: راعنا، يعني: يا أحمق، فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قالوا فيما بينهم: كنا نسبّ محمداً سراً فأعلنوا به الآن، فكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: لئن سمعتها من أحد منكم يقولها للرسول ﷺ لأضربنّ عنقه، فقالوا: أوَ لستم تقولونها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ، ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾، أي: انظر إلينا، انتظرنا وتأنَّ بنا، يقال نظرت فلاناً وانتظرته، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، قال مجاهد: معناه فهّمناه، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: ما تؤمرون به وأطيعوا، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾، يعني: اليهود، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١٠٥﴾ قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وذلك أن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد ﷺ، قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن عليه، ولوَدِدْنا لو كان خيراً، فأنزل الله تكذيباً لهم ﴿مَّا يَوَدُّ﴾، أي: ما يحب وما يتمنى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني اليهود، ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، جرّه بالنسق على (مِنْ) ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: خير ونبوة، و﴿مِّنْ﴾، صلة، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: بنبوّته، ﴿مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، والفضل ابتداء إحسان بلا عِلّة، وقيل: المراد بالرحمة الإسلام والهداية، وقيل معنى الآية: إنّ الله تعالى بعث الأنبياء من ولد إسحاق فلما بعث النبيّ ﷺ من ولد إسماعيل لم يقع ذلك بودّ اليهود ومحبّتهم، وأمّا المشركون، فإنما لم

يقع بودّهم لأنه جاء تضليلهم وعيب آلهتهم، [فنزلت الآية فيه].

(١٠٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، وذلك أن المشركين قالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمر بخلاف ما يقوله، إلاّ من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، كما أخبر الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ وأنزل ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [النحل: ١٠١]، فبيّن وجه الحكمة من النسخ بهذه الآية.

والنسخ في اللغة شيئان، أحدهما: بمعنى التحويل والنقل، ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحوّل من كتاب إلى كتاب، فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ، لأنه نسخ من اللوح المحفوظ، والثاني: يكون بمعنى الرفع، يقال: نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ، أي: ذهبت به وأبطلته، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخاً وبعضه منسوخاً، وهو المراد من الآية، وهذا على وجوه، أحدها: أن يثبت الخط ويُنسخ الحكم، مثل آية الوصية للأقارب، وآية عدة الوفاة بالحول، وآية التخفيف في القتال، وآية الممتحنة، ونحوها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما نُثبت خطها ونُبدّل حكمها ومنها: أن ترفع تلاوتها ويبقى حكمها، مثل آية الرجم، ومنها أن ترفع تلاوته أصلاً عن المصحف وعن القلوب، كما رُوي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن قوماً من الصحابة رضي الله عنهم، قاموا ليلة ليقرؤوا سورة فلم يذكروا منها إلاّ بسم الله الرحمٰن الرحيم، فغدوا إلى النبيّ ﷺ فأخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «تلك سورة رُفعت تلاوتها وأحكامها»، وقيل: كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوة وحكماً، ثم مِن نسخِ الحُكم ما يُرفع ويُقام غيرُه مقامه، كما أن القبلة نُسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للأقارب نُسخت بالميراث، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، ومُصابرة الواحد العشر في القتال، نسخت بمصابرة الاثنين، ومنها ما يُرفع ولا يُقام غيره مقامه كامتحانِ النساء، والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهي دون الأخبار.

أما الآية فقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾، قراءة العامة بفتح النون والسين، من النسخ، أي: نرفعها، وقرأ ابن عامر بضم النون وكسر السين، من الإنساخ وله وجهان، أحدهما: أن نجعله كالمنسوخ، والثاني: أن نجعله نسخة له، يقال: نسختُ الكتاب، أي: كتبته، وأنسخته غيري: إذا جعلته نسخة له، أو ﴿نُنسِهَا﴾، أي: ننسها عن قلبك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نتركها لا ننسخها، قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: تركوه فتركهم، وقيل: ﴿نُنسِهَا﴾، أي: نأمر بتركها، يقال: أنسيت الشيء، إذا أمرت بتركه، فيكون النسخ الأول من رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، والإنساء يكون ناسخاً من غير إقامة غيره مقامه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «أو نَنسأها» بفتح النون الأولى والسين مهموزاً، أي: نؤخرها فلا نبدلها، يقال: نسأ الله في أجله وأنسأ الله أجله. وفي معناه قولان: أحدهما نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كما فعل في آية الرجم، فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة والحكم، والقول الثاني: قال سعيد بن المسيّب وعطاء: أما ما نسخ من آية فهو ما قد نزل من القرآن، جعلاه: من النسخة ﴿أو ننسأها﴾ أي نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا تنزل. ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾، أي: بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم، لا أن آية خير من آية، لأن كلام الله واحد وكلّه خير، ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾: في المنفعة والثواب، فكل ما نسخ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل، وما نسخ إلى الأشق فهو في الثواب أكثر. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: من النسخ والتبديل، لفظة استفهام ومعناه تقرير، أي: إنك تعلم.

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم﴾: يا معشر الكفار عند نزول العذاب، ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: مما سوى الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: قريب وصديق، وقيل: من والٍ، وهو القيّم بالأمور، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: ناصر يمنعكم من العذاب.

(١٠٨) قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن

﴿تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، نزلت في اليهود حين قالوا: يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، فقال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾، يعني: أتريدون، فالميم صلة، وقيل: بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ، ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، سأله قومه [فقالوا] ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقيل: إنهم سألوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، كما أن موسى سأله قومه فقالوا: أرنا الله جهرة، ففيه منعهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلائل والبراهين. ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾: يستبدل الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أخطأ وسط الطريق، وقيل: قصد السبيل.

(١٠٩) قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، الآية.

نزلت في نفرٍ من اليهود، قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أُحد: لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال لهم عمّار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت، فقالت اليهود: أمّا هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: أمّا أنا فقد رضيت بالله تعالى ربّاً وبمحمد نبيّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلةً وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «قد أصبتما الخير وأفلحتما»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، أي: تمنّى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾، يا معشر المؤمنين ﴿مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾، نُصب على المصدر، أي: يحسدونكم حسداً، ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، أي: من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك، ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق، ﴿فَاعْفُوا﴾: فاتركوا ﴿وَاصْفَحُوا﴾، وتجاوزوا، فالعفو: المحو، والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، بعذابه القتل والسبي لبني قريظة والجلاء والنفي لبني النضير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة: هو أمره بقتالهم في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم، حكم لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا﴾: تُسلفوا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: طاعة وعمل صالح ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [تجدوا ثوابه عند الله]، وقيل: أراد بالخير المال؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وأراد: من زكاة أو صدقة ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ حتى الثمرة واللقمة مثل أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١١١) ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾، أي: يهودياً، قال الفراء: حذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية، وقال الأخفش: الهود: جمع هائد، مثل عائد وعود وحائل وحول، ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾، وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ولا دين إلا [دين] اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ولا دين إلا دين النصرانية، وقيل: نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى، اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود، فكذّب بعضهم بعضاً، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، أي: شهواتهم الباطلة التي تمنّوها على الله بغير الحق، ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿هَاتُوا﴾، أصله: آتوا، ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾: حجتكم على ما زعمتم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ثم قال ردّاً عليهم:

(١١٢) ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، أي: ليس كما قالوا بل الحكم للإسلام، وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه ﴿لِلَّهِ﴾، [أي: أخلص دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل: خضع وتواضع لله]، وأصل الإسلام الاستسلام والخضوع، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: في عمله، وقيل: مؤمن، وقيل: مخلص، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١٨

﴿١١٣﴾ قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، نزلت في يهود المدينة ونصارى أهل نجران، وذلك أن وفد نجران لمّا قدموا على النبيّ ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت لهم اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب، وقيل: معناه ليس في كتبهم هذا الاختلاف، فدلّ تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على كونهم على الباطل، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني: آباءهم الذين مضوا، ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، قال مجاهد: يعني عوام النصارى، وقال مقاتل: يعني مشركي العرب، كذلك قالوا في نبيّهم محمد ﷺ وأصحابه: أنهم ليسوا على شيء من الدين، وقال عطاء: أمم كانت قبل اليهود والنصارى، مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، قالوا لنبيّهم: إنه ليس على شيء، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يقضي بين المحق والمبطل، ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: من الدين.

﴿١١٤﴾ قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ﴾، الآية نزلت في طيطوس بن إسبيسبانوس الرومي وأصحابه، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير، فكان خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال قتادة والسدي: هو بختنصر وأصحابه غزوا اليهود وخرّبوا بيت المقدس، وأعانهم على ذلك النصارى طيطوس الرومي وأصحابه من أهل الروم، قال السدي: من أجل أنهم قتلوا يحيى بن زكريا، وقال قتادة: حملهم بغض اليهود على معاونة بختنصر البابلي المجوسي، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: أكفر [وأعتى] ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، يعني: بيت المقدس ومحاريبه ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ﴾ عمل ﴿فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾، وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى ومحل زيارتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يدخلها، يعني بيت المقدس، بعد عمارتها رُومي إلا خائفاً لو عُلم به قُتل، وقال قتادة ومقاتل: لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً لو قُدر عليه لعُوقب، قال السدي: أخيفوا بالجزية. وقيل: هذا خبر بمعنى الأمر، أي: أجهضوهم بالجهاد حتى لا يدخلها أحد منهم إلا خائفاً من القتل أو السبي، أي: ما ينبغي، ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾: عذاب وهوان، قال قتادة: هو القتل للحربي والجزية للذمي، قال مقاتل والكلبي: يفتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمّورية، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهو النار، وقال عطاء وعبدالرحمٰن بن زيد: نزلت في مشركي مكة، وأراد بالمساجد المسجد الحرام منعوا [رسول الله ﷺ] وأصحابه من حجه والصلاة فيه عام الحديبية، وإذا منعوا [رسول الله ﷺ] من أن يعمره بذكر فقد سعوا في خرابه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾، يعني: أهل مكة، يقول أفتحها عليكم حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم، ففتحها عليهم. و أمر النبيّ ﷺ منادياً ينادي: «ألا لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك»، فهذا

خوفهم، وثبت في الشرع أن لا يمكّن مشرك من دخول الحرم، ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الذلّ والهوان والقتل والسبي والنفي.

(١١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة فتحرّوا القبلة وصلوا، فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا، [وأنهم مخطئون في تحرّيهم]، فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت في المسافر يصلّي التطوع حيث ما توجهت به راحلته.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي على راحلته في السفر حيث ما توجّهت به.

وقال عكرمة: نزلت في تحويل القبلة، قال أبو العالية: لما صرفت القبلة إلى الكعبة وعيّرت اليهود المؤمنين وقالوا: ليست لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هكذا وتارة هكذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مجاهد والحسن: لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: أين ندعوه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، ملكاً وخلقاً ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، يعني: أينما تحولوا وجوهكم ﴿فَثَمَّ﴾، أي: هناك وجه الله، قال الكلبي فثمّ الله يعلم ويرى والوجه صلة؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، أي: إلا هو، وقال الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حبان: فثم قبلة الله، والوجه والوجهة والجهة: القبلة، وقيل: رضا الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: غني يعطي من السعة، قال الفراء: [الواسع]: الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء، قال الكلبي: واسع المغفرة، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم حيث ما صلوا ودعوا.

(١١٦) قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، قرأ ابن عامر قالوا اتخذ الله بغير واو، وقرأ الآخرون بالواو: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت في يهود المدينة حيث قالوا عزيرٌ ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، نزّه وعظّم نفسه.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان، أنا شعيب عن عبدالرحمن بن أبي حسن عن نافع بن جُبير: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أنْ أتخذ صاحبةً أو ولداً»، قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: عبيداً وملكاً، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، قال مجاهد وعطاء والسدي: مُطيعون، وقال عكرمة ومقاتل: مُقرّون له بالعبودية، وقال ابن كيسان: قائمون بالشهادة، وأصل القنوت القيام.

قال النبيّ ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت».

واختلفوا في حكم الآية، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص، وقال مقاتل: هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس، وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام في جميع الخلق، لأن لفظ كل يقتضي الإحاطة بالشيء بحيث لا يشذّ منه شيء، ثم سلكوا في الكفار طريقين، فقال مجاهد: يسجد ظلالهم لله على كره منهم، قال الله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال السدي: هذا يوم القيامة، دليله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، وقيل: ﴿قَٰنِتُونَ﴾: مذلّلون مسخرون لِما خُلقوا له.

(١١٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: مبدعهما ومنشئهما من غير مثال سبق، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، أي: قدّره، وقيل:

وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

أحكمه وأتقنه، وأصل القضاء: الفراغ، ومنه قيل لمن مات، قضي عليه لفراغه من الدنيا، ومنه قضاء الله وقدره، لأنه فرغ منه تقديراً أو تدبيراً، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قرأ ابن عامر «كن فيكون» بنصب النون في جميع المواضع إلا في آل عمران ﴿كُن فَيَكُونُ ۞ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠]، وفي سورة الأنعام: ﴿كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وإنما نصبها لأن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً وقرأ الآخرون بالرفع على معنى: فهو يكون، فإن قيل: كيف قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ والمعدوم لا يُخاطب؟ قيل: قال ابن الأنباري معناه: فإنما يقول له، أي: لأجل تكوينه، فعلى هذا ذهب معنى الخطاب، وقيل: هو إن كان معدوماً ولكنه لمّا قدّر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود، فصحّ الخطاب.

﴿١١٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: اليهود، وقال مجاهد: النصارى، وقال قتادة: مشركو العرب، ﴿لَوۡلَا﴾: هلا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾: عياناً بأنك رسوله، وكل ما في القرآن ﴿لَوۡلَا﴾ فهو بمعنى هلا إلاّ واحداً وهو قوله: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣]، معناه فلو لم يكن، ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾: دلالة وعلامة على صدقك [في ادعائك النبوّة]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾، أي: كفار الأمم الخالية، ﴿مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: أشبه بعضها بعضاً في الكفر والقسوة وطلب المحال، ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالصدق؛ كقوله: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس: ٥٣]، أي: صدق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالقرآن دليله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [ق: ٥]، وقال ابن كيسان: بالإسلام وشرائعه، دليله: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال مقاتل: معناه لم نرسلك عبثاً إنما أرسلناك بالحق، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بَشِيرٗا﴾، أي: مبشراً لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب الكريم، ﴿وَنَذِيرٗاۖ﴾، أي: منذراً مخوّفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم، قرأ نافع ويعقوب: «ولا تَسْأَلْ»: على النهي.

وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن النبيّ ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي»، فنزلت هذه الآية، وقيل: هو على معنى قولهم: لا تسأل عن [شرّ] فلان فإنه فوق ما تحسب، وليس على النهي، وقرأ الآخرون «ولا تُسأل» بالرفع، على النفي بمعنى: ولست بمسؤول عنهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، والجحيم معظم النار.

﴿١٢٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾، وذلك أنهم [كانوا] يسألون النبيّ ﷺ الهدنة ويُطمّعونه في أنه إن أمهلهم اتّبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه أنك وإن هادنتهم فلا يرضون بها، وإنما يطلبون ذلك تعلّلاً ولا يرضون منك إلا باتّباع ملّتهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبيّ ﷺ حين كان يصلّي إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ

عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾، إلا باليهودية، ولا النصارى إلا بالنصرانية، والملةُ الطريقة، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، قيل الخطاب مع النبيّ ﷺ والمراد به الأمة؛ كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: البيان بأن دين الله هو الإسلام والقبلة قبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيراً، وقال الضحاك: هم ممّن آمن من اليهود عبدالله بن سلام وشعبة بن عمرو وتمام بن يَهُودَا وأسد وأسيد ابنا كعب وابن يامين وعبدالله بن صوريا، وقال قتادة وعكرمة: هم أصحاب محمد ﷺ، وقيل: هم المؤمنون عامة، ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، قال الكلبي: يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألهم من الناس، والهاء راجعة إلى محمد ﷺ، وقال الآخرون: هي عائدة إلى الكتاب، واختلفوا في معناه، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يقرؤونه كما أُنزل ولا يحرّفونه، ويُحلون حلاله ويُحرمون حرامه، وقال الحسن: يعملون بمحكمه ويُؤمنون بمتشابهه ويكِلون علمَ ما أشكل عليه إلى عالمِهِ، وقال مجاهد: يتّبعونه حقَّ اتباعه، قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

(١٢٢) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝﴾.

(١٢٤) قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قرأ ابن عامر: «إبراهام» بالألف في أكثر المواضع، وهو اسم أعجمي ولذلك لا يُجر، وهو إبراهيم بن تارخ [هو آزر] بن ناخور، وكان مولده بالسوس من أرض الأهواز، وقيل: بابل، وقيلَ: كوفي، وقيل: لشكر، وقيل: حران، وكان أباه نقله إلى أرض بابل أرض نمرود بن كنعان، ومعنى الابتلاء: الاختبار والامتحان والأمر، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العبادُ أحوالَهم حتى يعرف بعضهم بعضاً، واختلفوا في الكلمات التي ابتلى اللّهُ بها إبراهيم عليه السلام، فقال عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما: هي ثلاثون سهماً، شرائع الإسلام لم يُبتل بها أحدٌ فأقامها كلَّها إلا إبراهيمُ، فكُتب له البراءة، فقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، عشرٌ في براءة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخرها، وعشرٌ في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخرها، وعشرٌ في سورة المؤمنين في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١] الآيات، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝﴾ [المعارج: ٢٢]، في سأل سائل، وقال طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما: ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء، وهي الفطرة خمس في الرأس: قصُّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق والسواكُ وفرْق الرأس، وخمسٌ في الجسد: تقليمُ الأظافر ونتفُ الإبط وحلقُ العانة والختانُ والاستنجاء بالماء.

وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام «أول من قص الشارب، وأول من اختتن، وأول من قلم الأظافر، وأول من رأى الشيب، فلمّا رآه قال: يا ربِّ ما هذا؟ قال: الوقار، قال: يا رب زدني وقاراً».

قال مجاهد: هي الآيات التي بعدها في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى آخر القصة، وقال الربيع وقتادة: مناسك الحج، وقال الحسن: ابتلاه الله بسبعة أشياء: بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر، وعلم أن ربه دائمٌ لا يزول، وبالنار فصبر عليها، وبالهجرة وبذبح ابنه وبالختان فصبر عليها، قال سعيد بن جُبير: هو قولُ إبراهيم وإسماعيل إذْ يرفعان البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية، فرفعاه بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وقال يمان بن رباب: هنّ مَحاجة قومه، قال الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقيل: هي قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٧٨]، إلى آخر الآيات.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال قتادة: أداهنّ، وقال الضحاك: قام بهنّ، وقال نعمان: عمل بهن، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: يُقتدى بك، في الخير ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: ومن أولادي أيضاً فاجعل منهم أئمة يقتدى بهم في الخير، [قال] الله تعالىٰ: ﴿لَا يَنَالُ﴾: لا يصيب ﴿عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قرأ حمزة وحفص بإسكان الياء والباقون بفتحها، أي: مَنْ كان منهم ظالماً لا يصيبه، قال عطاء بن أبي رباح: عهدي رحمتي، وقال السدي: نبوّتي، وقيل: الإمامة، قال مجاهد: ليس لظالم أن يُطاع في ظُلمه، ومعنى الآية: لا ينال ما عهدتُ إليك من النبوّة والإمامة من كان ظالماً من وَلَدِكَ، وقيل: أراد بالعهد الأمان من النار، وبالظالم المشرك؛ كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢].

(١٢٥) قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾، يعني: الكعبة، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾: مرجعاً لهم، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يأتون إليه من كلّ جانب ويحجّون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معاذاً وملجأً، وقال قتادة وعكرمة: مجمعاً، ﴿وَأَمْنًا﴾، أي: مأمناً يأمنون فيه من إيذاء المشركين فإنهم كانوا يتعرّضون لأهل مكة، ويقولون هم أهل الله، ويتعرّضون لمن حوله؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبدالله أنا جرير عن منصور عن مجاهد عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه»، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر».

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾، قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر، وقرأ الباقون بكسر الخاء على الأمر، ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، قال ابن يمان: المسجد كله مقام إبراهيم، وقال إبراهيم النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة ومزدلفة وسائر المشاهد، والصحيح: أن مقام إبراهيم هو الحَجَر الذي في المسجد يصلّي إليه الأئمة، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وقيل: كان أثر أصابع رجليه بيناً فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، قال قتادة ومقاتل والسدي: أمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم، ولم يُؤمروا بمسحه وتقبيله.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد عن يحيى عن حميد، عن أنس قال:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله عزّ وجلّ آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبيّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت لهن: إنِ انتهيتُنّ أو ليبدلنه اللّهُ خيراً منكن، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] الآية،

ورواه محمد بن إسماعيل أيضاً عن عمرو بن عوف أنا هشام عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وأما بدء قصة المقام.

فقد روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل وهاجر وضعهما بمكة، وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل منهم امرأة و[قد] ماتت هاجر، واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا يَنْزِل، فقدم إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر

فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب للصيد، وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي ضيافة وسألها عن عيشهم، فقالت: نحن في ضيق وشدّة، فشكت إليه فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه [مني] السلام وقولي له: فليغيّر عتبة بابه، فذهب إبراهيم فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ فقالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال أقرئي زوجك [مني] السلام وقولي له فليغيّر عتبة بابه، قال: ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك فطلّقها، وتزوج منهم بأخرى فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيّد وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن واللحم، وسألها عن عيشهم فقالت: نحن بخير وسعة فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز وبر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برّاً أو شعيراً أو تمراً، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شقّ رأسه الأيسر، فبقي أثر قدميه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه [مني] السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ كبير أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا، وقلت له كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه، فقال ذاك إبراهيم [النبيّ أبي]، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ورُوي عن سعيد بن جبير أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثم لبثت عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله تعالى أمرني بأمر تعينني عليه، قال: أعينك عليه، قال: إن الله أمرني أن أبنيَ هٰهنا بيتاً، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، فلما ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام إبراهيم على حجر المقام، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وفي الخبر: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا ما مسته أيدي المشركين لأضاء ما بين المشرق والمغرب».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾، أي: أمرناهما وأوحينا إليهما، قيل: سمّي إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولد، ويقول: اسمع يا إيل، وإيل هو الله، فلما رُزق الولد سمّاه به. ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾، يعني: الكعبة، أضافه إليه تخصيصاً وتفضيلاً، أي: ابنياه على الطهارة والتوحيد، وقال سعيد بن جبير وعطاء: طهّراه من الأوثان والريب وقول الزور، وقيل: بخّراه وخلّقاه. قرأ أهل المدينة وحفص ﴿بَيْتِىَ﴾ بفتح الياء هٰهنا وفي سورة الحج [٢٦]، وزاد حفص في سورة نوح [٢٨]، ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: الدائرين حوله، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾: المقيمين المجاورين، ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾، جمع راكع، ﴿ٱلسُّجُودِ﴾: جمع ساجد، وهم المصلون، قال الكلبي ومقاتل: (الطائفين): هم الغرباء والعاكفين أهل مكة، قال عطاء ومجاهد عكرمة: الطواف للغرباء أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل.

﴿١٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾، يعني: مكة، وقيل: الحرم، ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾، أي: ذا أمن يأمن فيه أهله، ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، إنما دعا بذلك لأنه كان بوادٍ غير ذي زرع، وفي القصص: أن الطائف كانت من بلاد الشام بأردن، فلما دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى قلعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعاً ثم وضعها موضعها الذي هي الآن فيه فمنها أكثر ثمرات مكة، ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: دعاء للمؤمنين خاصة،

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

٢٠

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾، قرأ ابن عامر ﴿فَأُمْتِعُهُۥ﴾ خفيفاً بضم الهمزة، والباقون مُشدّداً، ومعناهما واحد، ﴿قَلِيلًا﴾، أي: سأرزق الكافر أيضاً قليلاً إلى منتهى أجله، وذلك أن الله تعالى وعد الرزق للخلق كافة مؤمنهم وكافرهم، وإنما قيّد بالقلة لأن متاع الدنيا قليل، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾، أي: ألجئه في الآخرة: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: المرجع يصير إليه، قال مجاهد: وجد عند المقام كتاب فيه: أنا الله ذو بكة صنعتها يوم خلقت الشمس والقمرَ وحرّمتها يوم خلقت السمٰوات والأرض، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، مُبارك لها في اللحم والماء.

﴿١٢٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، قال الرواة: إن الله تعالى خلق موضع البيت قبل الأرض بألفي عام وكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش، فكشا إلى الله تعالى فأنزل الله البيت المعمور من ياقوتة، من يواقيت الجنة له بابان من زمرّد أخضر باب شرقي وباب غربي، فوضعه على موضع البيت، وقال: يا آدم إني أهبط لك بيتاً تطوف به كما يُطاف حول عرشي وتصلّي عنده كما يصلى عند عرشي، وأنزل الحجر وكان أبيض فاسودّ من لمس الحيّض في الجاهلية، فتوجّه آدم من أرض الهند إلى مكّة ماشياً، وقيّض الله له ملكاً يدلّه على البيت، فحجّ البيت وأقام المناسك، فلما فرغ تلقّته الملائكة وقالوا: بُرّ حجُك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. قال ابن عباس رضي الله عنه: حجّ آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه، فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق، فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعدما وُلد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يُذكر فيه، فسأل الله عزّ وجلّ أن يُبيّن له موضعه، فبعث الله السكينة لتدلّه على موضع البيت، وهي ريح حجوج لها رأسان شبه الحية، فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة، فتطوّت السكينة على موضع البيت، كتطوّي الحجفة. هذا قول علي والحسن، وقال ابن عباس: بعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وافق مكّة، ووقفت على موضع البيت، فنودي منها إبراهيم أن ابنِ على قدر ظلها لا تزد ولا تنقص، وقيل: أرسل الله جبريل ليدله على موضع البيت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت، فكان إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، يعني أسسه، واحدتها: قاعدة، وقال الكسائي: جُدر البيت، قال ابن عباس: إنما بني البيت من خمسة أجبل طورسيناء وطورزيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودي وهو جبل بالجزيرة، وبنيا قواعده من حِراء وهو جبل بمكة، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود، قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن يكون للناس عَلَماً فأتاه بحجر، فقال: ائتني بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها فأخذ الحجر الأسود

فوضعه مكانه، وقيل: إن الله تعالىٰ بنى في السماء بيتاً وهو البيت المعمور، ويُسمّى الضراح، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله، وقيل: أول من بنى الكعبة آدم، واندرس زمن الطوفان، ثم أظهره الله لإبراهيم حتى بناه، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، فيه إضمار، أي: ويقولان: ربنا تقبّل منا بناءنا، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾، لدعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: بنياتنا.

﴿١٢٨﴾ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: موحدين مطيعين مخلصين خاضعين لك: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾، أي: أولادنا ﴿أُمَّةً﴾: جماعةً، والأمة: أتباع الأنبياء، ﴿مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: خاضعة لك، ﴿وَأَرِنَا﴾ علّمنا وعرّفنا، قرأ ابن كثير ساكنة الراء، وأبو عمرو بالاختلاس، والباقون بكسرها، ووافق ابن عامر وأبو بكر في الإسكان في حم السجدة، وأصله: أرئنا، فحذفت الهمزة طلباً للخفة، ونُقلت حركته إلى الراء، ومن سكنها قال: ذهبتِ الهمزةُ فذهبت حركتها، ﴿مَنَاسِكَنَا﴾: شرائع ديننا وأعلام حجنا، وقيل: مواضع حجنا، وقال مجاهد: مذابحنا، والنسك: الذبيحة، وقيل: متعبّداتنا، وأصل النسك: العبادة، والناسك: العابد، فأجاب الله تعالىٰ دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة، فلما بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم؟ قال: نعم، فسُمّي الوقت عرفة والموضع عرفات. ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾، تجاوز عنا، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿١٢٩﴾ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾، أي: في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وقيل: في أهل مكة، ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، أي: مرسلاً منهم، أراد به محمداً ﷺ.

حدثنا السيد أبو القاسم علي بن موسى الموسوي، حدثني أبو بكر أحمد بن محمد بن عباس البلخي، أنا الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، أنا محمد بن المكي أنا إسحاق بن إبراهيم أنا ابن أخي ابن وهب أنا عمي أنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبدالأعلى بن هلال السّلمي عن العرباض بن سارية:

عن رسول الله ﷺ قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيّين وأن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نورٌ أضاءت لها منه قصور الشام».

وأراد بدعوة إبراهيم هذا فإنه دعا أن يبعث في بني إسماعيل رسولاً منهم، قال ابن عباس: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. ﴿يَتْلُوا۟﴾: يقرأ ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾، كتابك يعني: القرآن، والآية من القرآن كلام متصل إلى انقطاعه، وقيل هي جماعة حروف، يقال خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، قال مجاهد: فهم القرآن، وقال مقاتل: مواعظ القرآن وما فيه من الأحكام. وقال ابن قتيبة: هي العلم والعمل به، ولا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، وقيل: هي السنة، وقيل: هي [الأحكام أو] القضاء، وقيل: الحكمة الفقه، قال أبو بكر بن دريد: كل كلمة وعَظَتْك أو دَعَتْك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يطهرهم من الشرك والذنوب، وقيل: يأخذ الزكاة من أموالهم، وقال ابن كيسان: يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ من التزكية وهي التعديل، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، قال ابن عباس: العزيز: الذي لا يُوجد مثله، وقال الكلبي: المنتقم، بيانه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]، وقيل: المنيع الذي لا تناله الأيدي ولا يصل إليه شيء، وقيل: القوي، والعزّة القوة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، أي: قوّينا، وقيل: الغالب، قال الله تعالىٰ إخباراً: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلبني، ويقال في المثل: من عزّ بزّ، أي: من غَلَبَ سَلَبَ.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، وذلك أن عبدالله بن سلام دعا ابني أخيه سَلمةَ ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله عزّ وجلّ قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن

لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يُسلم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، أي: يترك دينه وشريعته، يقال: رغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا تركه، وقوله ﴿وَمَن﴾: لفظة استفهام ومعناه التقريع والتوبيخ، يعني: ما يرغب عن ملة إبراهيم ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، قال ابن عباس: من خسر نفسه، وقال الكلبي: ضلّ من قِبَل نفسه، وقال أبو عبيدة: أهلك نفسه، وقال ابن كيسان والزجاج: معناه جهل نفسه، والسفاهةُ: الجهلُ وضعف الرأي، وكل سفيه جاهل، وذلك أن مَنْ عبدَ غيرَ الله فقد جهلَ نفسه لأنه لم يعرف أنّ الله خلقها، وقد جاء: مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربّه، وفي الأخبار: أن الله تعالىٰ أوحى إلى داود: اعرف نفسك واعرفني، فقال: يا رب كيف أعرف نفسي وكيف أعرفك؟ فأوحى الله إليه: اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء، واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء. وقال الأخفش: معناه سفه في نفسه، و﴿نَفْسَهُۥ﴾ على هذا القول: نصب بنزع حرف الصفة، وقال الفراء: نصب على التفسير، وكان الأصل سفهتْ نفسُه، فلما أضاف الفعل إلى صاحبها خرجت النفس مفسّرة ليعلم موضع السفه، كما يقال: ضقت به ذرعاً أو ضاق ذرعي به، ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: اخترناه في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يعني: مع الأنبياء في الجنّة، وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ والآخرة وإنه لمن الصالحين.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾، أي: استقم على الإسلام واثبت عليه، لأنه كان مسلماً، قال ابن عباس: قال له ذلك حين خرج من السرب، وقال الكلبي: أخلص دينك وعبادتك لله، وقال عطاء: أسلم نفسك إلى الله عزّ وجلّ وفوّض أمورك إليه، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: فوّضت، قال ابن عباس: وقد حقّق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين أُلقي في النار.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: و«أوصى» بالألف، وكذلك [هو] في مصاحفهم، وقرأ الباقون ﴿وَوَصَّىٰ﴾ مشدّداً، وهما لغتان مثل أنزل ونزّل معناه: ووصى إبراهيم [بنيه] ووصى يعقوب بنيه، قال الكلبي ومقاتل: يعني كلمة الإخلاص: لا إلٰه إلاّ الله، قال أبو عبيدة: إن شئت رددت الكناية إلى الملّة لأنه ذكر ملّة إبراهيم، وإن شئت رددتها إلى الوصية، أي: وصّى إبراهيم بنيه الثمانية: إسماعيل وأمه هاجر القبطية وإسحاق وأمه سارة، وستة أمهم قنطورا بنت يقطن الكنعانية، تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة، ويعقوب، سُمي بذلك لأنه والعيص كانا تَوْأمين فتقدم عيص في الخروج من بطن أمه، وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقبه، قاله ابن عباس، وقيل: سمّي يعقوب لكثرة عقبه، يعني ووصّى أيضاً يعقوب بنيه الاثني عشر ﴿يَٰبَنِىَّ﴾، معناه أن يا بني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾: اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾، أي: دين الإسلام، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، مؤمنون، وقيل: مخلصون، وقيل: مفوضون، والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت، وإنما نُهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام، معناه: داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله: أنه قال ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: محسنون بربكم الظن.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبدالرحمٰن بن أبي شُريح، أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، أنا علي بن الجعد أنا أبو جعفر الرازي عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبدالله قال:

سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يُحسن الظن بالله عزّ وجلّ».

(١٣٣) قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾، يعني: أكنتم شهداء يريد ما كنتم شهداء حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: حين قرب يعقوب من الموت، قيل: نزلت في اليهود حين قالوا للنبيّ ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فعلى هذا القول يكون الخطاب لليهود.

وقال الكلبي: لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران،

الجزء الأول — سورة البقرة

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

٢١

فجمع ولده وخاف عليهم ذلك، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ قال عطاء: إن الله تعالىٰ لم يقبض نبياً حتى يخيّره بين الحياة والموت، فلما خيّر يعقوب قال: يا ربّ أنظرني حتى أسأل ولدي وأوصيهم، ففعل [الله] ذلك به، فجمع ولده وولد ولده وقال لهم: قد حضر أجلي فما تعبدون من؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وكان إسماعيل عماً لهم، والعرب تسمّي العم أباً كما تسمّي الخالة أماً.

قال النبيّ ﷺ: «عمُّ الرجل صنو أبيه».

وقال في عمّه العباس: «ردّوا عليّ أبي فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود»، وذلك أنهم قتلوه. ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ نُصب على البدل من قوله: ﴿إِلَٰهَكَ﴾، وقيل: نعبد إلهاً واحداً، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

(١٣٤) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾: جماعة، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: من العمل، ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [من القول والعمل] ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يعني: يسئل كل عن عمله لا عن عمل غيره.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، قال ابن عباس: نزلت في رؤساء يهود المدينة: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله، فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن، وقالت النصارى نبيّنا [عيسى] أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد ﷺ والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، بل نتّبع ملة إبراهيم، وقال الكسائي: هو نصب على الإغراء كأنه يقول: اتّبعوا ملّة إبراهيم، وقيل: معناه بل نكون على ملة إبراهيم، فحذف على فصار منصوباً، ﴿حَنِيفًا﴾، نصب على الحال عند نحاة البصرة، وعند نحاة الكوفة نصب على القطع، أراد به ملة إبراهيم الحنيف، فلما أسقطت الألف واللام لم يتبع المعرفة النكرة فانقطع منه، فنُصِبَ.

قال مجاهد: الحنفية اتّباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس، قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلا دين الإسلام، وأصله من الحنف وهو ميل وعوج يكون في القدم، وقال سعيد بن جبير: الحنيف هو الحاج المختتن، وقال الضحاك: إذا كان مع الحنيف المسلم فهو الحاج، وإذا لم يكن مع المسلم فهو المسلم، قال قتادة: الحنيفية الختان وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وإقامة المناسك، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ثم علّم المؤمنين طريق الإيمان، فقال جلّ ذكره:

(١٣٦) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، يعني القرآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهو عشر صحف، ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، يعني: أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطاً: واحدهم: سبط، سمّوا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة، وسبط الرجل: حافده، ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما: سبطا رسول الله ﷺ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب، من بني إسماعيل، والشعوب من

العجم، وكان في الأسباط أنبياء، ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقيل: هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلهم أنبياء. ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، يعني: التوراة، ﴿وَعِيسَىٰ﴾، يعني: الإنجيل، ﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾: أعطي ﴿ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: نؤمن بالكل لا نفرّق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وأخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا عثمان بن عمر، أنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:

كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾» الآية.

﴿١٣٧﴾ ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أي: بما آمنتم به، وكذلك كان يقرؤها ابن عباس، و (المثل) صلة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، أي: ليس هو كشيء، وقيل: معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به، أي: أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم، وقيل: معناه فإن آمنوا مثل ما آمنتم، والباء زائدة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، وقال أبو معاذ النحوي: معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم: ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾، أي: في خلاف ومنازعة، قاله ابن عباس وعطاء، يقال: شاق مشاقة إذا خالف، كأن كل واحد أخذ في شق غير شق صاحبه، قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ [هود: ٨٩]، أي: خلافي، وقيل: في عداوة، دليله قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ١٣]، أي عادوا الله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: يا محمد، أي يكفيك شرَّ اليهود والنصارى، وقد كُفي بإجلاء بني النضير، وقتل بني قريظة، وضرب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لأقوالهم، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

﴿١٣٨﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عباس في رواية الكلبي وقتادة والحسن: دين الله، وإنما سمّاه صبغة لأنه يظهر أثرُ الدين على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل: لأن المتديّن يلزمه ولا يفارقه كالصبغ يلزم الثوب، وقال مجاهد: فطرة الله وهو قريب من الأول، وقيل: سنّة الله، وقيل: أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم، وقال ابن عباس: هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر، يقال له: المعمودية، وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً، فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى، وهو نصب على الإغراء، يعني: الزموا دين الله، قال الأخفش: هي بدل من قوله ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾: ديناً، وقيل: تطهيراً، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾: مطيعون.

﴿١٣٩﴾ ﴿قُلْ﴾: يا محمد لليهود والنصارى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾، أي: في دين الله، والمحاجة: المجادلة في الله لإظهار الحجة، وذلك بأنهم قالوا: إنَّ الأنبياء كانوا منّا وعلى ديننا، وديننا أقدم فنحن أولى بالله منكم، فقال الله: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أي: نحن وأنتم سواء في الله فإنه ربنا وربكم، ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، أي: لكل واحد جزاء عمله، فكيف تدعون أنكم أولى بالله، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾، وأنتم به مشركون، قال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يُرائي بعمله، قال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

﴿١٤٠﴾ قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾، يعني: أتقولون [صيغته] صيغة استفهام، ومعناه التوبيخ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾، وقال بعده: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، وقرأ الآخرون بالياء، يعني: يقول اليهود والنصارى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ﴾: يا محمد ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ وقد أخبر الله تعالىٰ أن إبراهيم لم يكن

يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ﴾: أخفى ﴿شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأن محمداً ﷺ حق ورسول أشهدهم الله عليه في كتبهم، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كرره تأكيداً.

(١٤٢) قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: الجهال ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ﴾، أي شيء صرفهم وحوّلهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، يعني: بيت المقدس، والقبلة فعلة من المقابلة نزلت في اليهود ومشركي مكة، طعنوا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة فقالوا لمشركي مكة: قد تردّد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجّه نحو بلدكم، وهو راجع إلى دينكم، فقال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾: ملك له والخلق عبيده، ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(١٤٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، نزلت في رؤساء اليهود، قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمد قِبْلَتنا إلا حسداً وإن قبلتنا قبلة الأنبياء، ولقد علم محمدٌ أنا عدلٌ بين الناس، فقال معاذ: إنا على حق وعدل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وهكذا، وقيل: الكاف للتشبيه، وهي مردودة على قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ١٣٠]، أي: كما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي: عدلاً خياراً، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، أي: خيرهم وأعدلهم، وخير الأشياء أوسطها، وقال الكلبي: يعني أهل دين وسط بين الغلوّ والتقصير لأنهما مذمومان في الدين.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو معشر إبراهيم بن محمد بن الحسين الوراق، أنا أبو عبدالله محمد بن زكريا بن يحيى، أنا أبو الصلت أنا حماد بن زيد أنا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

قام فينا رسول الله ﷺ يوماً بعد العصر، فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلا ذكره في مقامه ذلك، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان، قال: «أما إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا، ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أمة وهي آخرها وأخيرها وأكرمها على الله تعالى».

قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما معنى قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؟ قال: أمة محمد ﷺ شهداء على من يترك الحق من الناس أجمعين، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾:

الجزء الثاني — سورة البقرة

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

٢٢

محمدٌ ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: مُعدِّلاً مزكياً لكم، وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم الماضية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] فينكرون ويقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، فيسأل الله الأنبياء عليهم السلام عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلّغناهم، فيسألهم البينة ـ وهو أعلم بهم ـ أما إقامة للحجة. فيُؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون لهم أنهم بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا إنما أتوا بعدنا؟ فيسأل هذه الأمة فيقولون: أرسلتَ إلينا رسولاً وأنزلتَ عليه كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يُؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله

النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا إسحاق بن منصور أخبرنا أبو أسامة حدثنا الأعمش: أخبرنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري قال:

قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بنوح يوم القيامة فيُقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيسأل أمته هل بلّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيُقال: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فقال رسول الله ﷺ: فيُجاء بكم فتشهدون»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، أي: تحويلها، يعني عن بيت المقدس، فيكون من باب حذف المضاف، ويحتمل أن يكون المفعول الثاني للجعل محذوفاً على تقدير: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة، وقيل: معناه التي أنت عليها وهي الكعبة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي: أنتم، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها؟ قيل: أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب، إنما يتعلق بما يُوجد معناه لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، أي: لنرى ونُميّز من يتبع الرسول في القبلة [التي أرادها في أزلنا]، ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، فيرتد، وفي الحديث: «أن القبلة لما حُوّلت ارتدّ قومٌ من المسلمين إلى [دين] اليهودية، وقالوا: رجع محمد إلى دين آبائه»، وقال أهل المعاني: معناه إلا لِعلْمنا مَنْ يتبع الرسولَ ممن ينقلبُ على عقبيه، كأنه سبق في علمه أنّ تحويل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة قوم، وقد يأتي لفظ الاستقبال بمعنى الماضي، ؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]، أي: فلم قتلتموهم؟ ﴿وَإِن كَانَتْ﴾، أي: وقد كانت، أي تولية الكعبة، وقيل: الكناية راجعة إلى القبلة، وقيل: إلى الكعبة، قال الزجاج: وإن كانت التحويلة ﴿لَكَبِيرَةً﴾: ثقيلة شديدة، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، أي: هداهم الله، قال سيبويه: ﴿وَإِن﴾ تأكيدٌ شبيهٌ باليمين، ولذلك دخلت اللام في جوابها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

وذلك أن حُييَّ بن أخطب وأصحابه من اليهود، قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إن كانت هدى، فقد تحوّلتم عنها، وإن كانت ضلالة فقدْ دنتم الله بها؟ ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه، قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟، وكان قد مات قبل أن تحوّل إلى الكعبة من المسلمين أسعد بن زرارة، من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة، وكانا من النقباء، ورجال آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبيّ ﷺ وقالوا: يا رسول الله قد صرفك [الله] إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قرأ أهل الحجاز وابن عامر وحفص «لرؤوف» مشبعاً على وزن فعول، لأن أكثر أسماء الله تعالىٰ على فعول وفعيل، كالغفور والشكور [والرحيم والكريم] وغيرها، وأبو جعفر يلين الهمزة، وقرأ الآخرون بالاختلاس على وزن فعل، قال جرير:

للمسلمين عليك حقاً
كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

والرأفة: أشد الرحمة.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى، فإنها رأس القصة، وأمر القبلة أول ما نُسخ من أمور الشرع، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أمره أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس، ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إيّاه إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعته في

التوراة، فصلّى بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، وكان يحبّ أن يُوجَّه إلى الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السّلام. وقال مجاهد: كان يُحب ذلك من أجل اليهود لأنهم كانوا يقولون: يخالفنا محمد ﷺ في ديننا ويتبع قبلتنا، فقال لجبريل عليه السّلام: «وَدِدْتُ لو حوّلني الله إلى الكعبة، فإنها قبلة أبي إبراهيم عليه السّلام»، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فإنك عند الله عزّ وجلّ بمكان، فرجع جبريل عليه السلام وجعل رسول الله ﷺ يُديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾، فلنحولنّك إلى قبلة ﴿تَرْضَاهَا﴾، أي: تحبّها وتهواها، ﴿فَوَلِّ﴾، أي: حوّل ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: نحوه، وأراد به الكعبة، والحرام: المحرّم، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾، من برّ [أو بحر] شرق أو غرب: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، عند الصلاة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لمّا دخل النبيّ ﷺ البيت دعا في نواحيه كلّها ولم يصل حتى خرج منه، فلما خرج ركع ركعتين في قُبُل الكعبة وقال: «هذه القبلة».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد، أخبرنا زهير أخبرنا أبو إسحاق، عن البراء:

أن النبيّ ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وإنه صلّى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلّى أول صلاة صلاّها صلاة العصر، وصلّى معه قوم فخرج رجل ممن صلّى معه، فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قِبَل مكّة، فداروا كما هم قِبَل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلّي قِبَل بيت المقدس، لأنه قبلة أهل الكتاب، فلما ولىٰ وَجهَه قِبَل البيتِ أنكروا ذلك، وقال البراء في حديثه هذا: إنه مات على القبلة قَبْل أن تُحوّل رجالٌ وقتلوا فلم ندرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكان تحويل القبلة في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين.

قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ في مسجد بني سَلِمَة، وقد صلّى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحوّل في الصّلاة واستقبل الميزاب، وحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسُمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

وقيل: كان التحويل خارج الصلاة بين الصلاتين، وأهل قباء وَصَل إليهم الخبر في صلاة الصبح.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي السامري، أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، عن مالك بن أنس عن عبدالله بن دينار أن عبدالله بن عمر قال:

بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذا جاءهم آت وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

فلما تحوّلت القبلة قالت اليهود: يا محمد ما هو إلاّ شيء تبتدعه من تلقاء نفسك فتارة تُصلي إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة، ولو ثبتّ على قبلتنا لكنّا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، يعني: أمر الكعبة، ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ثم هدّدهم فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء، قال ابن عباس: يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، وقرأ الباقون بالياء، يعني: ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأجازيهم في الدنيا وفي الآخرة.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

﴿١٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: اليهود والنصارى، قالوا: ائتنا بآية على ما تقول، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: معجزة، ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، يعني: الكعبة، ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب، والنصارى تستقبل المشرق، وقبلة المسلمين الكعبة.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا الحسن بن بكر المروزي أخبرنا المُعَلَّى بن منصور أخبرنا عبدالله بن جعفر المخزومي، عن عثمان الأخنسي عن سعيد المَقْبُري عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «القبلة ما بين المشرق والمغرب».

وأراد به في حق أهل المشرق وأراد بالمشرق: مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة، وبالمغرب: مغرب الصيف في أطول يوم من السنة، فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت على يمينه ومشرق الشتاء على يساره كان وجهه إلى القبلة. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: مرادهم، الخطاب مع النبيّ ﷺ، والمراد به الأمة، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، من الحق في القبلة، ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿١٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، يعني: يعرفون محمداً ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾: من بين الصبيان، قال عمر بن الخطاب لعبدالله بن سلاّم: إن الله قد أنزل على نبيّه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ قال عبدالله: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابني، فقال عمر: وكيف ذلك؟ فقال: أشهد أنه رسول حقّ من الله تعالى، وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ وأمر الكعبة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿١٤٧﴾ ثم قال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا الحق، خبر مبتدأ مضمر، وقيل: رُفع بإضمار فعل، أي: جاء الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين.

﴿١٤٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾، أي: لأهل كل ملة قبلة، والوجهة: اسم للمتوجّه إليه، ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، أي: مستقبلها، ومقبل عليها، يقال: وليته، ووليت إليه إذا أقبلت عليه، ووليت عنه إذا أدبرت عنه، قال مجاهد: هو موليها وَجْهَهُ، وقال الأخفش: هو كناية عن الله عزّ وجلّ، يعني [الله تعالى]: مولي الأمم إلى قبلتهم، وقرأ ابن عامر: «هو مولاها»، أي: المستقبل مصروف إليها، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: إلى الخيرات، يريد بادروا بالطاعات، والمراد: المبادرة إلى القبول، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾: أنتم وأهل الكتاب، ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾: يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم [إن خيراً فخير وإن شراً فشر]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿١٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ أبو عمرو بالياء، و[قرأ] الباقون بالتاء.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ

﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وإنما كرر لتأييد النسخ، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، اختلفوا في تأويل هذه الآية، ووجه قوله: ﴿إِلَّا﴾ فقال بعضهم: معناه حُولت القبلة إلى الكعبة لئلا يكون للناس عليكم حجة إذا توجّهتم إلى غيرها، فيقولون: ليست لكم قبلة، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [منهم] وهم قريش واليهود، فأمّا قريش فتقول: رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة آبائه، فكذلك يرجع إلى ديننا، وأما اليهود، فتقول: لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه أنه حق إلاّ أنه يعمل برأيه، وقال قوم: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، يعني: اليهود، وكانت حجتهم على طريق المخاصمة على المؤمنين في صلاتهم إلى بيت المقدس، أنهم كانوا يقولون: ما درى محمدٌ ﷺ وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم مشركوا مكّة، وحجّتهم أنهم قالوا لما صرفت القبلة إلى الكعبة: إن محمّداً قد تحيّر في دينه وسيعود إلى ملّتنا كما عاد إلى قبلتنا، وهذا معنى قول مجاهد وعطاء وقتادة، وعلى هذين التأويلين يكون الاستثناء صحيحاً، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: لا حجة لأحد عليكم إلا مشركو قريش فإنهم يحاجونكم فيجادلونكم ويخاصمونكم بالباطل والظلم، والاحتجاج بالباطل يسمى: حجة؛ كما قال الله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، وموضع ﴿الَّذِينَ﴾ خفض كأنه قال: إلا [سوى] الذين ظلموا، قاله الكسائي، وقال الفراء: نُصب بالاستثناء، قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾، يعني: من الناس، قيل: هذا استثناء منقطع عن الكلام الأول معناه ولكن الذين ظلموا يجادلونكم بالباطل؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، يعني: لكن يتبعون الظن، فهو كقول الرجل: ما لك عندي حق إلا أن تظلم، قال أبو روق: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾، يعني: اليهود ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وذلك أنهم عرفوا أن الكعبة [قبلة] لإبراهيم، ووجدوا في التوراة أن محمداً سيُحوّل إليها، فحوّله الله تعالى إليها لئلا يكون لهم حجة فيقولون: إن النبيّ الذي نجده في كتابنا سيحوّل إليها ولم تُحول أنت، فلما حُوّل إليها ذهبت حجتهم، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: إلا أن يظلموا فيكتموا ما عرفوا من الحق، وقال أبو عبيدة: قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ليس باستثناء، ولكن ﴿إِلَّا﴾ في موضع واو العطف، يعني: والذين ظلموا أيضاً لا يكون لهم حجّة، كما قال الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه
لعمر أبيك إلا الفرقدان

معناه: والفرقدان أيضاً يتفرقان، فمعنى الآية: فتوجهوا إلى الكعبة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ يعني لليهود، عليكم حجّة فيقولوا: لِمَ تركتم الكعبة وهي قبلة إبراهيم وأنتم على دينه ولا الذين ظلموا وهم مشركو مكة فيقولون لم ترك محمد قبلة جدّه وتحوّل عنها إلى قبلة اليهود؟ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: في انصرافكم إلى الكعبة، وفي تظاهرهم عليكم بالمجادلة، فإني وليّكم أظهركم عليهم بالحجّة والنُّصرة، ﴿وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، عطف على قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، ولكي أتِمَّ نعمتي عليكم بهدايتي إيّاكم إلى قبلة إبراهيم، فتتمّ به لكم الملة الحنيفية، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: تمام النعمة الموت على الإسلام، قال سعيد بن جُبير: لا يتم [نعمته] على المسلم إلا أن يدخله الله الجنة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لكي تهتدوا من الضلالة، و﴿لعل وعسى﴾ من الله واجب.

(١٥١) قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾، هذه الكاف للتشبيه، تحتاج إلى شيء ترجع إليه، فقال بعضهم: يرجع إلى ما قبلها، معناه: ولأُتمّ نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم، قال محمد بن جرير: دعا إبراهيم عليه السلام بدعوتين إحداهما، قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، والثانية قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فبعث الله الرسول، وهو محمد ﷺ، ووَعْدُ إجابة الدعوة الثانية أن يجعل من ذريته أمّة مسلمة، يعني: كما أجبت دعوته ببعث الرسول، كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين، وأُتم نعمتي عليكم ببيان شرائع الملّة الحنيفية، وقال مجاهد وعطاء والكلبي: هي متعلقة بما بعدها

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

وهو قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، معناه: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني، وهذه الآية خطاب لأهل مكة والعرب، يعني: كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾، يعني: محمداً ﷺ، ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، يعني: القرآن، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، قيل: الحكمة السنة، وقيل: مواعظ القرآن، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، من الأحكام وشرائع الإسلام.

(١٥٢) ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، قال ابن عباس: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وقال سعيد بن جبير: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدّة والبلاء، بيانه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمر بن حفص، أخبرنا أبي أخبرنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح عن أبي هريرة قال:

قال النبيّ ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إلي ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي، وثنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة الكشميهني قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا أبو عبدالملك الدمشقي، أخبرنا سليمان بن عبدالرحمٰن أخبرنا منذر بن زياد عن صخر بن جويرية، عن الحسن عن أنس [بن مالك] قال: إني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ عدد أناملي هذه العشر:

أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالىٰ يقول: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبراً دنوت منك ذراعاً وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً وإن مشيت إليّ هرولتُ إليك، وإن هرولت إليّ سَعَيْتُ إليك، وإن سألتني أعطيتك، وإن لم تسألني غضبت عليك».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا يحيى بن عبدالله أخبرنا الأوزاعي، أخبرنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أم الدرداء عن أبي هريرة قال:

قال النبيّ ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركتْ بي شفتاه».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا عبدالرحمٰن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا إسماعيل بن عياش، أخبرنا عمرو بن قيس السَّكوني، عن عبدالله بن بسر قال:

جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رَطْبٌ من ذكر الله تعالىٰ».

قوله تعالىٰ: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، يعني: واشكروا لي بالطاعة ولا تكفرون بالمعصية، فإن من أطاع الله، فقد شكره ومن عصاه فقد كفره.

(١٥٣) قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝﴾: بالعون والنصرة.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾، نزلت في قتلى

بدر من المسلمين، وكانوا أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، كان الناس يقولون لمن يقتل في سبيل الله: مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذّتها، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ [أي هم أموات]، ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ كما قال في شهداء أحد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قال الحسن: إن الشهداء أحياء عند الله تعالىٰ تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوْحُ والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غُدوة وعشية، فيصل إليهم الوجع.

(١٥٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، أي: ولنختبرنكم يا أمة محمد، واللام: لجواب القسم [المحذوف]، تقديره: واللّهِ لنبلونكم، والابتلاء [من الله] لإظهار المطيع من العاصي، لا ليعلم شيئاً لم يكن عالماً به، ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾، قال ابن عباس: يعني خوف العدو، ﴿وَٱلْجُوعِ﴾، يعني: القحط، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: بالخسران والهلاك، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾، يعني: بالقتل والموت، وقيل: بالمرض والشيب، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، يعني: بالجوائح في الثمار، وحكي عن الشافعي أنه قال: الخوف خوف الله تعالىٰ، والجوع صيام رمضان، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات، والأنفس الأمراض، والثمرات موت الأولاد، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا الحسن بن موسى أخبرنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنت ابني سناناً وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني فقال: ألا أبشرك؟ حدثني الضحاك [بن عبدالرحمٰن بن عرزَب] عن أبي موسى الأشعري قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم، قال: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: فماذا قال عبدي؟ قالوا: استرجع وحمدك، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيتَ الحمد».

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: على البلايا والرزايا، ثم وصفهم فقال:

(١٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ﴾: عبيداً وملكاً، ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: في الآخرة.

أخبرنا عبدالواحد بن [أحمد] المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا محاضر بن المورّع أخبرنا سعد بن سعيد عن عمر بن كثير بن أفلح أخبرنا مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ أنها قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مصيبة تُصيب عبداً فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّهمّ أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها»، قالت: فلما توفي أبو سلمة عَزَمَ الله لي فقلت: اللّهمّ أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، [قالت]: فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.

وقال سعيد بن جبير: ما أُعطي أحدٌ في المصيبة ما أُعطي هذه الأمة، يعني: الاسترجاع، ولو أُعطيها أحدٌ لأعطيها يعقوب عليه السلام، ألا تسمع إلى قوله تعالىٰ في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

(١٥٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أهل هذه الصفة: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، صلوات: أي: رحمة، فإن الصلاة من الله رحمة، و«رحمة» ذكرها الله تأكيداً، وجميع الصلوات، أي رحمة بعد رحمة، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: إلى الاسترجاع، وقيل: إلى الحق والصواب، وقيل: إلى الجنة والثواب، قال عمر رضي الله عنه: نِعْمَ العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة الهداية، وقد وردت أخبار في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين، منها ما:

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمٰن بن أبي صَعْصَعَة أنه

قال: سمعت أبا الحُباب سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول:

قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصبْ منه».

وأخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا [أحمد] بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبدالله بن محمد، أخبرنا عبدالملك بن عمرو أخبرنا زهير بن محمد عن محمد بن عمرو بن حَلْحَلَة، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «ما يُصيب المسلم من نَصبٍ ولا وَصبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر اللَّهُ بها من خطاياه».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أنا محمد بن عبيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال:

جاءت امرأة بها لَمَمٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يشفيَني، قال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئتِ فاصبري ولا حسابَ عليك»، قالت: بل أصبر ولا حساب عليّ.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو سعيد خلف بن عبدالرحمٰن بن أبي نزار، أخبرنا أبو منصور العباس بن الفضل النضروي، أخبرنا أحمد بن نجدة أخبرنا يحيى بن عبدالحميد الحِماني، أخبرنا حماد بن زيد عن عاصم هو ابن أبي النّجود، عن مصعب بن سعد عن سعد، قال:

سُئل رسول الله ﷺ عن أشدّ الناس بلاءً قال: «الأنبياء والأمثل فالأمثل، يبتلى الله الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً ابْتُلي على قدر ذلك، وإن كان في دينه رقة هُوِّن عليه، فما يزال كذلك حتى يمشي على الأرض وما له ذنب».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبدالله بن صالح قال: حدّثني الليث حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان عن أنس بن مالك:

عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «إنّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البَلاء، فإنّ الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السخط».

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أخبرنا أبو [علي] إسماعيل بن محمد الصفار أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الزهري، عن ابن المسيّب عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تُفيئُه، ولا يزال المؤمن يُصيبه البلاء، ومثَلُ المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تهتز حتى تُستحصد».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي أخبرنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن العَيْزَار بن حُريث عن عمر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال:

قال رسول الله ﷺ: «عجباً للمؤمن إن أصابه خير حمدَ الله وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر، فالمؤمن يُؤجر في كل أمره حتى يؤجر في اللقمة يرفعها إلى فِيِّ امرأته».

(١٥٨) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، الصفا جمع: صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال صفاة وصفى، مثل: حصاةً وحصىً ونواةٍ ونوىٰ، والمَرْوَة: الحجر الرخو، وجمعها: مَرْوَات، وجمع الكثير: مرو، مثل: تمرة وتمرات وتمر، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، وشعائر الله أعلام

دينه، أصلها من الإشعار، وهو الإعلام، واحدتها شَعيرة، وكل ما كان مُعْلَماً لقربان يُتقرّب به إلى الله تعالىٰ من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرةٌ، فالمَطاف والمَوقف والنحر كلها شعائر لله ومثلها المشاعر، والمراد بالشعائر هٰهنا: المناسك التي جعلها الله إعلاماً لطاعته فالصفا والمروة منها حتى يطاف بهما جميعاً، ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾، فالحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وفي الحج والعمرة المشروعين: قصد وزيارة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾، أي: لا إثم عليه، وأصله من جنح، أي: مال عن القصد، ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، أي: يدور بهما، وأصله يتطوّف أدغمت التاء في الطاء. وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان أساف ونائلة، وكان أساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيماً للصنمين ويتمسحون بهما، فلما جاء الإسلام وكُسرت الأصنام كان المسلمون يتحرجون عن السعي بين الصفا والمروة لأجل الصنمين، فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله، واختلف أهل العلم في حكم هذه الآية ووجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فذهب جماعة إلى وجوبه، وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة، وبه قال الحسن وإليه ذهب مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أنه تطوّع، وهو قول ابن عباس، وبه قال ابن سيرين ومجاهد، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وقال الثوري وأصحاب الرأي على مَنْ تَرَكَه دمٌ، واحتجّ من أوجبه بما أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الكسائي الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبدالله بن مؤمَّل العائذي عن عمرو بن عبدالرحمٰن بن محيصن، عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني بنت أبي تجراة اسمها حبيبة إحدى نساء بني عبدالدار. قالت:

دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين ننظر إلى رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيته يسعى وإن مئزره ليدور من شدّة السعي، حتى لأقول: إني لأرى ركبتيه، وسمعته يقول: «اسْعَوا فإنّ الله كتبَ عليكم السعي».

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنّه قال:

قلت لعائشة زوج النبيّ ﷺ: أرأيتَ قولَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فما أرىٰ على أحد شيئاً ألاّ يطوف بهما، قالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول، كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهلون لِمَنَاة وكانت مناة حِذْوَ قديد، وكانوا يتحرجون أنْ يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال عاصم: قلت لأنس بن مالك: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جابر بن عبدالله أنّه قال:

سمعت رسول الله ﷺ حين خرج من المسجد وهو يريد الصفا يقول: «نَبْدَأُ بما بَدَأَ الله تعالىٰ به»، فبدأ بالصفا، وقال: كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثاً ويقول: «لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، يصنع ذلك ثلاث مرات، ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك، وقال: كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي يسعى حتى يخرج منه.

قال مجاهد رحمه الله: حج موسى عليه السلام على جمل أحمر وعليه عباءتان قطوانيتان فطاف بالبيت، ثم صعد الصفا ودعا ثم هبط إلى المسعى وهو يلبّي فيقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، فقال الله تعالىٰ: لبيك عبدي، أنا معك، فخرّ موسى

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

عليه السلام ساجداً. قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء وتشديد الطاء وجزم العين، [وكذلك الثانية: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا﴾ [البقرة: ١٨٤]، بمعنى: يتطوع، ووافق يعقوب في الأولى وقرأ الباقون بالتاء]، وفتح العين في الماضي، وقال مجاهد: معناه ومن تطوّع بالطواف بالصفا والمروة، وقال مقاتل والكلبي «فمن تطوع»، أي: زاد في الطواف بعد الواجب، وقيل: من تطوع بالحج والعمرة بعد أداء الحجّة الواجبة عليه، وقال الحسن وغيره: أراد سائر الأعمال، يعني: فعل غير المفترض عليه من زكاة وصلاة وطواف وغيرها من أنواع الطاعات، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾، مجازٍ لعبده بعمله، ﴿عَلِيمٌ﴾: بنيته، والشكر من الله تعالى أن يُعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير.

(١٥٩) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾، نزلت في علماء اليهود [حين] كتموا صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغيرهما من [سائر] الأحكام التي كانت في التوراة، ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾، وأصل اللعن الطرد والبُعد، ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، أي: يسألون الله أن يلعنهم ويقولون: اللّهمّ العنهم، واختلفوا في هؤلاء اللاعنين، قال ابن عباس: جميع الخلائق إلا الجنّ والإنس، وقال قتادة: هم الملائكة، وقال عطاء: الجنّ والإنس، وقال الحسن: جميع عباد الله، وقال ابن مسعود: ما تَلاعَنَ اثنان من المسلمين إلا رجعت تلك اللعنة على اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ وصفته، وقال مجاهد: اللاعنون: البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَّنَةُ وأمسك المطر، وقالت: هذا من شؤم ذنوب بني آدم، ثم استثنى فقال:

(١٦٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾: من الكفر، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: أسلموا أو أصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم، ﴿وَبَيَّنُوا﴾: ما كتموا، ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أتجاوز عنهم [جميع سيئاتهم] وأقبل توبتهم، ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾: الرجاع بقلوب عبادي المنصرفة عني إليّ، ﴿الرَّحِيمُ﴾: بهم بعد إقبالهم عليّ.

(١٦١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾، أي: لعنة الملائكة ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، قال أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقف الكافر فليعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس، فإن قيل: فقد قال ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والملعون هو من جملة الناس، فكيف يلعن نفسه؟ قيل: يلعن نفسه في القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقيل: إنهم يلعنون الظالمين والكافرين، ومن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه.

(١٦٢) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في اللغة وقيل في النار، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يُمهلون ولا يُؤجلون، وقال أبو العالية: لا ينظرون فيعتذروا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

(١٦٣) قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد صفْ لنا ربك وانسبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص، والواحد: الطي لا نظير له ولا شريك له.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر

الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا مكي بن إبراهيم وأبو عاصم، عن عبيد الله بن أبي زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، و﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» [البقرة: ٢٥٥].

قال أبو الضحى: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن محمداً يقول: إنّ إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين، فأنزل الله عزّ وجلّ:

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ذكر السماوات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد لأن كل سماء ليست من جنس واحد بل من جنس آخر، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب، فالآية في السماوات: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة، وما يُرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض: مدّها وبَسْطها وسعتُها وما يُرى فيها من الأشجار والأنهار، والجبال والبحار والجواهر والنبات. قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبَه، إذا ذهب أحدهما جاء الآخر [خلفه]، أي: بعده، نظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، قال عطاء: أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان، والليل جمع ليلة، والليالي جمع الجمع، والنهار جمع نهر، وقدّم الليل على النهار في الذكر لأنه أقدم منه، قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾، يعني: السفن واحده وجمعه سواء، فإذا أُريد به الجمعُ يُؤنث، وفي الواحد يُذكر، قال الله تعالى في الواحد والتذكير: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]، وقال في الجمع والتأنيث: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ الآية في الفلك: تسخيرها وجريانها على وجه الماء، وهي موقرة لا ترسب تحت الماء، ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾، يعني: ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب، ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾، يعني: المطر، قيل: أراد بالسماء السحاب، يخلق الله الماء في السحاب ثم من السحاب ينزل، وقيل: أراد به السماء المعروفة، يخلق الله تعالى الماء في السماء ثم ينزل من السماء إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض، ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾، أي: بالماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد يبسها وجدوبتها، ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾، أي: فرّق فيها ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿الرِّيحِ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف، وكل ريح في القرآن ليس فيها ألف ولا لام، اختلفوا في جمعها وتوحيدها إلا في الذاريات: ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، اتفقوا على توحيدها، وفي الحرف الأول من سورة الروم: ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، اتفقوا على جمعها، وقرأ أبو جعفر سائرها على الجمع، والقراء مختلفون فيها، والريحُ تذكر وتؤنث، وتصريفها أنها تتصرف إلى الجنوب والشمال، والقَبول والدَّبور والنكباء، وقيل: تصريفها أنها تارةً تكون ليناً، وتارة تكون عاصفاً، وتارة تكون حارّاً، وتارة بارداً، قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء، وسمّيت الريح ريحاً لأنها تريح النفوس، قال شريح القاضي: ما هبّت ريح إلا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح، والبشارة في ثلاث من الرياح: في الصبا والشمال والجنوب، أما الدّبور فهي الريح العقيم، لا بشارة فيها، وقيل: الرياح ثمانية، أربعة للرحمة، وأربعة للعذاب، فأما التي للرحمة: فالمبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات، وأما التي للعذاب: فالعقيم والصرصر في البر والعاصف والقاصف في البحر. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾، أي: الغيم المذلّل، سُمّي سحاباً لأنه ينسحب، أي: يسير في سرعة كأنه يُسحب أي يُجرّ، ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً، قال وهب بن منبه: ثلاثة لا يُدرى من أين تجيء، الرعد والبرق والسحاب.

(١٦٥) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾، أي: أصناماً يعبدونها. ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

﴿ٱللَّهِ﴾، أي يُحبّون آلهتهم كحب المؤمنين اللَّهَ، وقال الزجاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله، فسوّوا بين الله وبين أوثانهم في المحبة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، أي: أثبت وأدوم على حُبّه لأنهم لا يختارون على الله ما سواه، والمشركون إذا اتّخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه، طرحوا الأول واختاروا الثاني، قال قتادة: إن الكافر يُعرض عن معبوده في وقت البلاء ويُقبل على الله تعالى، كما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، والمؤمن لا يُعرض عن الله في السرّاء والضرّاء والشدة والرخاء، قال سعيد بن جبير: إن الله عزّ وجلّ يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه في الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم، فلا يدخلون لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام، ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدي الكفار: إن كنتم أحبائي فادخلوا جهنم، فيقتحمون فيها فينادي منادٍ من تحت العرش: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وقيل: إنما قال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، لأن الله تعالى أحبهم أولاً ثم أحبوه، ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتمّ، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿ولو ترى﴾ بالتاء وقرأ الآخرون بالياء وجواب ﴿وَلَوْ﴾ هٰهنا محذوف، ومثله كثير في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ﴾ [الرعد: ٣١] الآية، يعني: لكان هذا القرآن، فمن قرأ بالتاء معناه: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم في شدّة العذاب، لرأيت أمراً عظيماً، قيل: معناه: قل يا محمد: أيها الظالم لو ترى الذين ظلموا، أي: أشركوا في شدة العقاب، لرأيت أمراً فظيعاً، ومن قرأ بالياء معناه: ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب، أي: ولو رأوا شدة عذاب الله وعقوبته حين يرون العذاب، لعرفوا مضرة الكفر، وأنّ ما اتخذوا من الأصنام لا ينفعهم، قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾، قرأ ابن عامر بضم الياء والباقون بفتحها، ﴿ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: بأن القوّة لله جميعاً معناه: لرأوا وأيقنوا أن القوة لله جميعاً، وقرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿إن القوة﴾ و﴿إن الله﴾ بكسر الألف على الاستئناف، والكلام تام عند قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، مع إضمار الجواب.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾، هذا في يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع، فيتبرأ بعضهم من بعض، هذا قول أكثر المفسّرين، وقال السدي: هم الشياطين يتبرأون من الإنس، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾، أي: عنهم ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾، أي: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا، من القرابات والصداقات، وصارت مُخَالّتهُم عداوة، وقال ابن جريج: الأرحام؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال السدي: يعني الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٣]، وأصل السبب ما يُوصَل به إلى الشيء من ذريعة أو قرابة أو مودة ومِنّة، يقال للحبل: سبب، وللطريق: سبب.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾، يعني: الأتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾، أي: من المتبوعين، ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾: اليوم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كما أراهم العذاب، كذلك ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ﴾، وقيل: كتبرّيء بعضهم من بعض، يُريهم الله: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ﴾: نداماتٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، جمع حسرة، قيل: يُريهم [الله] ما ارتكبوا من السيّئات فيتحسّرون لِمَ عملوا، وقيل: يريهم ما تركوا من الحسنات، فيندمون على تضييعها، وقال ابن كيسان: إنهم أشركوا بالله الأوثان رجاء أن تقربهم إلى الله عزّ وجلّ، فلما عُذّبوا على ما كانوا يرجون ثوابه تحسّروا وندموا، قال السدي: تُرفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم [وقصورهم] فيها لو أطاعوا الله فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون ويتحسّرون ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

(١٦٨) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن

الجزء الثاني　　سورة البقرة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

٢٦

صعصعة، وبني مدلج فيما حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والحلال ما أحلّه الشرع طيّباً، قيل: ما يُستطاب ويستلذّ، والمسلم يستطيب الحلال ويعاف الحرام، وقيل: الطيب [الطاهر]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب بضم الطاء، والباقون بسكونها، و ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ آثاره وزلاته، وقيل: هي النذور في المعاصي، وقال أبو عبيدة: هي المحقَّرات من الذنوب، وقال الزجاج: طُرقه، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: بيّن العداوة [وقيل: مظهر العداوة] وقد أظهر عداوته بإبائه السجود لآدم وغروره إيّاه، حتى أخرجه من الجنّة، و (أبان) يكون لازماً ومتعدياً، ثم ذكر عداوته فقال:

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾، أي: بالإثم، وأصل السوء ما يسوء صاحبه، وهو مصدر ساء يسوء سوأ ومساءةً، أي: أحزنه، وسوّأته فساء أي: حزّنته فحزن، ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾: المعاصي وما قَبُح من القول والفعل، وهو مصدر كالسراء والضراء، روى باذان عن ابن عباس قال: الفحشاء من المعاصي ما يجب فيه الحدّ، والسوء من الذنوب ما لا حدّ فيه، وقال السدي: هي الزنا، وقيل: هي البخل، ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من تحريم الحرث والأنعام.

(١٧٠) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، قيل: هذه قصة مستأنفة، والهاء والميم في ﴿لَهُمُ﴾ كناية عن غير مذكور.

وروي عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

أي: ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا خيراً وأعلم منّا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: الآية متّصلة بما قبلها وهي نازلة في مشركي العرب وكفّار قريش، والهاء والميم عائدة إلى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾، أي: ما وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، وقيل: معناه وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله في تحليل ما حرّموه على أنفسهم من الحرث والأنعام والبَحِيرَة والسائبة، والهاء والميم عائدتان إلى الناس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾ ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ﴾، قرأ الكسائي ﴿بَل نَّتَّبِعُ﴾ بإدغام اللام في النون، وكذلك يدغم لام هل وبل في التاء والثاء والزاي والسين والصاد والطاء والظاء، ووافق حمزة في التاء الثاء والسين، و﴿مَا أَلْفَيْنَا﴾ ما وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من التحريم والتحليل، قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ﴾، أي: كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾؟ الواو في ﴿أَوَلَوْ﴾ واو العطف، ويُقال لها: واو التعجب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً لا يعقلون [شيئاً، لفظه] عام ومعناه الخصوص، أي: لا يعقلون شيئاً من أمور الدين، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾،[لاتباع محمد لعدم عقلهم]، ثم ضرب لهم مثلاً فقال جلّ ذكره:

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾، والنعيق والنعق: صوت الراعي بالغنم، معناه: مَثَلُكَ يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عزّ وجلّ [كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم]، وقيل: مثل واعظ الكفار وداعيهم معهم كمثل الراعي ينعق بالغنم وهي لا تسمع، ﴿إِلَّا دُعَاءً

صوتاً ﴿وَنِدَآءً﴾، فأضاف المثل إلى الذين كفروا، لدلالة الكلام عليه؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، معناه: كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها، كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنّما يسمع صوتك، وقيل: معناه ومثل الذين كفروا في قلّة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله، كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي إلا الصوت، فيكون المعنى للمنعوق به والكلام خارج عن الناعق، وهو فاش في كلام العرب يفعلون ذلك و يقلبون الكلام لاتضاح المعنى عندهم، يقولون: فلان يخافك خوف الأسد، أي: كخوفه الأسد، وقال تعالىٰ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦]، وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح، وقيل: معناه مثل الذين كفروا في دعاء الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه في غناء من الدعاء والنداء، كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلاّ العَناء والبلاء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقيل: معنى الآية ومثل الذين كفروا في دعاء الأوثان، كمثل الذي يصيح في جوف الجبال، فيسمع صوتاً يقال له الصدى لا يفهم منه شيئاً، فمعنى الآية: كمثل الذي ينعق بما لا يسمع منه الناعق إلا دعاء ونداء. ﴿صُمٌّ﴾، تقول العرب لمن [لا يسمع، ولا يعقل] كأنه أصم، ﴿بُكْمٌ﴾، عن الخير لا يقولونه، ﴿عُمْىٌ﴾، عن الهُدَى لا يبصرونه، ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١٧٢) قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ﴾: حلالات ﴿مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أبو محمد و عبدالرحمٰن بن أبي شُريح، أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا فُضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنّ اللّهَ طيبٌ لا يقبل إلاّ الطيب، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر [أشعث أغبر] يمدُّ يده إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يُستجب لذلك».

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾: على نعمه، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، ثم بيّن المحرّمات فقال:

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ في كل القرآن بالتشديد، والباقون يشدّدون البعض، والميتة: كل ما لم تدرك ذكاته ممّا يُذبَح، ﴿وَٱلدَّمَ﴾، أراد به الدم الجاري، يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد، ومن الدم الكبد والطحال فأحلها.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن ابن عمر قال:

قال رسول الله ﷺ: «أُحلّتْ لنا ميتتان ودمان، الميتتان: الحوت والجراد، والدمان: أحسبه قال: الكبد والطحال».

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾، أراد به جميع أجزائه، فعبّر عن ذلك باللحم لأنه مُعظمه، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: ما ذُبح للأصنام والطواغيت، وأصل الإهلال رفع الصوت، و[لأن المشركين] كانوا إذا ذبحوا لآلهتهم [شيئاً] يرفعون أصواتهم بذكرها، فجرى ذلك من أمرهم حتى قيل لكل ذابح وإن لم يجهر بالتسمية: مُهِلٌّ، وقال الربيع بن أنس وغيره: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، قال: ما ذُكر عليه اسم غير الله، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، بكسر النون وأخواته، عاصم وحمزة، ووافق أبو عمرو إلا في اللام والواو مثل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ويعقوب إلا في الواو، ووافق ابن عامر في التنوين، والباقون كلهم بالضم، فمن كسر قال لأن الجزم يُحرّك إلى الكسر، ومن ضمّ فلضمِه أول الفعل، نقلَ حركتها إلى ما قبلها، وأبو جعفر بكسر الطاء ومعناه فمن اضطر إلى أكل الميتة، أي:

أحوج وألجىء إليه، ﴿غَيْرَ﴾، نُصب على الحال، وقيل: على الاستثناء، وإذا رأيت (غير) يصلح في موضعها «لا» فهي حال، وإذا صلح في موضعها «إلا» فهي استثناء، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أصل البغي: قصد الفساد، يقال: بغى الجرح يبغي بغياً إذا ترامى إلى الفساد، وأصل العدوان: الظلم والمجاوزة الحد، يقال: عدا عليه عدواً وعدواناً إذا ظلم، واختلفوا في معنى قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، فقال بعضهم: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير خارج على السلطان، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، [أي: ولا] متعد عاص بسفره، بأن خرج لقطع الطريق أو الفساد في الأرض، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير، وقالوا: لا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل الميتة إذا اضطر إليها، ولا أن يترخص برُخَصِ المسافر حتى يتوب، وبه قال الشافعي، لأن [في إباحته] له إعانة له على فساده، وذهب جماعة إلى أن البغي والعدوان راجعان إلى الأكل، واختلفوا في تفصيله، فقال الحسن وقتادة: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [لا يأكله] من غير اضطرار ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: لا يعدو لشبعه، وقيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير طالبها وهو يجد غيرها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: غير متعدٍّ ما حُدّ له، [فما يأكل] حتى يشبع، ولكن يأكل منها قوتاً مقدارَ ما يُسدّ به رَمقه، وقال مقاتل بن حيان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: مستحلٍّ لها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: متزوّد منها، وقيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير مجاوز للقدر الذي أُحِلَّ له، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: لا يُقصّر فيما أبيح له فيدعه، قال مسروق: من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار، واختلف العلماء في مقدار ما يَحِلُّ للمضطر أكلُه من الميتة، فقال بعضهم: مقدار ما يسدّ رَمَقَه، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، وأحد قولي الشافعي رضي الله عنه، والقول الآخر: يجوز أن يأكل حتى يشبع، وبه قال مالك رحمه الله تعالىٰ، وقال سهل بن عبدالله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ مفارق للجماعة، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مبتدع مخالف للسنة، ولم يُرخص للمبتدع في تناول المحرم عند الضرورة، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، فلا حرج عليه في أكلها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، لمن أكل في حال الاضطرار، ﴿رَّحِيمٌ﴾، حيث رخّص للعباد في ذلك.

﴿١٧٤﴾ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، نزلت في رُؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يُصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبيّ المبعوث منهم، ولما بُعث محمد ﷺ من غيرهم، خافوا ذهاب مأكلهم وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فغيّروها، ثم أخرجوها إليهم، فلما نظرت السفلة إلى النعت المغيّر وجدوه مخالفاً لصفة محمد ﷺ فلم يتّبعوه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ ونبوّته، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾، أي: بالمكتوم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: عوضاً يسيراً، يعني: المآكل التي يُصيبونها من سفلتهم، ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، يعني: إلا ما يؤديهم إلى النار وهو الرشوة والحرام وثمن الدين، فلما كان يفضي ذلك بهم إلى النار فكأنهم أكلوا النار، وقيل: معناه أنه يصير ناراً في بطونهم، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: لا يكلّمهم بالرحمة وبما يسرّهم، إنما يكلّمهم بالتوبيخ، وقيل: أراد به أنه يكون عليهم غضبان، كما يقال: فلان لا يكلم فلاناً إذا كان عليه غضبان، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، أي: لا يطهرهم من دنس الذنوب [والخطايا]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١٧٥﴾ ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝﴾، قال عطاء والسدي: هو ما الاستفهام معناه: ما الذي صبّرهم على النار؟ وأي شيء يصبّرهم على النار حتى تركوا الحق واتّبعوا الباطل؟ قال الحسن وقتادة: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على العمل الذي يُقربهم إلى النار؟ وقال الكسائي: فما أصبرهم على [عمل] أهل النار، أي: ما أدومهم عليه.

﴿١٧٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني: ذلك العذاب بأن الله نزّل الكتاب بالحق فأنكروه وكفروا به، وحينئذ يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محل الرفع، وقال بعضهم: محله نصب، معناه: فعلنا ذلك بهم، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: لأن الله نزّل الكتاب بالحق، فاختلفوا فيه، وقيل:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

معناه ذلك أي فعلهم الذي يفعلون من الكفر والاختلاف والاجتراء على الله، من أجل أن الله نزل الكتاب بالحق، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧]، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾: فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، أي: في خلاف وضلال بعيد.

﴿١٧٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، قرأ حمزة وحفص: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾ بنصب الراء، والباقون برفعها، فمن رفعها جعل البرّ اسم ليس وخبره في قوله: ﴿أَن تُوَلُّوا﴾، تقديره: ليس البرُّ توليتكم بوجوهكم ومن نصب جعل ﴿أَن تُوَلُّوا﴾ في موضع الرفع على اسم ليس تقديره: ليس توليتكم وجوهكم البرّ كله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا﴾ [الجاثية: ٢٥]، والبِرُّ: كلُّ عمل خير يُفضي بصاحبه إلى الجنة، واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية، فقال قوم: عنى بها اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود كانت تصلي قِبَل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قِبَل المشرق، وزعم كل فريق منهم أن البِرَّ في ذلك، فأخبر الله تعالىٰ أن البرَّ غير دينهم وعملهم، ولكنه ما بيّنه في هذه الآية، وعلى هذا القول قتادة ومقاتل بن حيان، وقال الآخرون: المراد بها المؤمنون، وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض إذا أتى بالشهادتين وصلّى الصلاة إلى أي جهة كانت، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، فلما هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض، وحدّت الحدود وصرفت القبلة إلى الكعبة، أنزل الله هذه الآية فقال: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾، أي: [كل البر] أن تصلوا قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا [على] غير ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ﴾ ما ذكر في هذه الآية، وعلى هذا القول ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك، ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ﴾، قرأ نافع وابن عامر ﴿وَلَٰكِنِ﴾، خفيفة النون ﴿الْبِرُّ﴾، رفع، وقرأ الباقون بتشديد النون ونصب البرّ، قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، جعل ﴿مَنْ﴾ وهي اسم خبر للبرّ هو فعل، ولا يقال: البر زيد، واختلفوا في وجهه، قيل: لما وقع ﴿مَنْ﴾ في موضع المصدر جعله خبراً للبر، كأنه قال: ولكن البر الإيمان بالله، والعرب تجعل الاسم خبراً للفعل، وأنشد الفراء:

لعَمْرُكَ ما الفتيان إن تنبت اللُّحى ... ولكنما الفتيان كل فتى ندى

فجعل نبات اللحية خبراً للفتى، وقيل: فيه إضمار، تقديره: ولكنّ البر [بر] من آمن بالله، فاستغنى بذكر الأول عن الثاني؛ كقولهم: الجود حاتم، أي: الجود جود حاتم، وقيل معناه: ولكن ذا البِرّ من آمن بالله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، أي: ذوو درجات، وقيل معناه: ولكن البار من آمن بالله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طـه: ١٣٢]، أي: للمتقي، والمراد من البِرّ هٰهنا الإيمان والتقوى، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾: كلهم، ﴿وَالْكِتَابِ﴾، يعني: الكُتب المنزّلة، ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾: أجمع، ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾، أي: أعطى المال على (حبه) اختلفوا في هذه الكناية فقال أكثر أهل التفسير إنها راجعة إلى المال أي أعطي المال في حال صحته ومحبته المال، قال ابن مسعود: أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا [موسى بن إسماعيل] أخبرنا

عبدالواحد، ثنا عمارة بن القعقاع أنا أبو زرعة، أخبرنا أبو هريرة قال:

جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ الصّدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تُمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان».

وقيل: هي عائدة إلى الله عزّ وجلّ، أي: على حب الله تعالىٰ، ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أهل القرابة.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة أخبرنا سفيان بن عُيينة، عن عاصم الأحول عن حفصة بنت سيرين، عن الرّباب عن عمّها سلمان بن عامر، يبلغ به النبيّ ﷺ قال:

«الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة».

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، قال مجاهد: يعني المسافر المنقطع عن أهله يمرّ عليك، ويقال للمسافر: ابن السبيل لملازمته الطريق، وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل.

قال النبيّ ﷺ: «مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه».

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾، يعني: الطالبين.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن ابن أبي بُجيد الأنصاري، وهو عبدالرحمٰن بن بُجيد، عن جدّته وهي أم بجيد:

أن رسول الله ﷺ قال: «ردُّوا السائلَ ولو بظلف محرق»، وفي رواية: قال لها رسول الله ﷺ: «إنْ لم تجدي شيئاً إلا ظِلفاً محرقاً فادفعيه إليه».

قوله تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾، يعني: المكاتبين، قاله أكثر المفسّرين، وقيل: عتق النَّسمة وفك الرقبة، وقيل: فداء الأسارى، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: وأعطى الزكاة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾: فيما بينهم وبين الله عزّ وجلّ، وفيما بينهم وبين الناس، ﴿إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾، يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، [وإذا عاهدوا أوفوا]، وإذا قالوا صدقوا وإذا ائتُمِنوا أدّوا، واختلفوا في رفع قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾، قيل: هو عطف على خبر، ومعناه: ولكن ذا البر: المؤمنون والموفون بعهدهم، وقيل: تقديره وهم الموفون [بعهدهم] كأنه عدّ أصنافاً، ثم قال: هم والموفون كذا، وقيل: رفع على الابتداء والخبر، يعني: وهم الموفون، ثم قال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وفي نصبها أربعة أوجه، قال أبو عبيدة: نصبها على تطاول الكلام، ومن شأن العرب أن تغيّر الإعراب إذا طال الكلام والنسق، ومثله في سورة النساء: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وفي سورة المائدة: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقيل: معناه: أعني الصابرين، وقيل: نصبه نسقاً على قوله ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: وآتي الصابرين، وقال الخليل: نصب على المدح، والعرب تنصب الكلام على المدح والذم كأنهم يريدون أفرادَ الممدوح والمذموم، فلا يتبعونه أول الكلام وينصبونه، فالمدح كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، والذمّ كقوله تعالىٰ: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ٦١]، قوله تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾، أي: الشدّة والفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض والزمانة، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾، أي: القتال والحرب.

أخبرنا المطهر بن علي بن عبيد الله الفارسي، أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني، أخبرنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حبان، أخبرنا عبدالله بن محمد البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا زهير عن أبي إسحاق عن حارثة بن مُضَرِّب عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال:

كنّا إذا احمرّ البأس ولقي القومُ القومَ اتّقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه، يعني: إذا اشتدّ الحرب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾: في إيمانهم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

(١٧٨) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾، قال الشعبي والكلبي وقتادة: نزلت هذه الآية في حيَّيْنِ من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكانت

بينهما قتلى وجراحات لم يأخذها بعضهم من بعض، حتى جاء الإسلام، قال مقاتل بن حيان: كانت بين بني قريظة والنضير، وقال سعيد بن جبير: كانت بين الأوس والخزرج، قالوا جميعاً: وكان لأحد الحيّين على الآخر طَوْل في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور، فأقسموا لنقتلن بالعبد منّا الحُرّ منهم، وبالمرأة منّا الرجل منهم، وبالرجل منّا الرجلين منهم، وجعلوا جراحاتهم ضِعْفَي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبيّ ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وأمر بالمساواة [بينهم]، فرضوا وأسلموا، قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾، أي: فُرض عليكم القصاص، ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾، والقِصاص: المُسَاواة والمُمَاثلة في الجراحات والدِّيَات، وأصله من قصّ الأثر إذا اتّبعه، فالمفعول به يتبع ما فُعل به فيفعل مثله، ثم بين المماثلة فقال: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾، وجملة الحكم فيه أنه إذا تكافأ الدمان في الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منهم، قُتل من كل صنف منهم الذكر إذا قُتل بالذكر والأنثى، وتُقتل الأنثى إذا قتلت بالأنثى وبالذكر، ولا يُقتل مؤمن بكافر ولا حرٌّ بعبد، ولا والدٌ بولد ولا مسلم بذمّي، ويُقتل الذمي بالمسلم والعبدُ بالحرّ والولدُ بالوالد، هذا قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان، أنا الشافعي أخبرنا سفيان بن عيينة عن مُطَرِّف عن الشعبي عن أبي جُحَيفة قال: «سألت علياً رضي الله عنه هل عندك عن النبيّ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النَّسمة، إلا أن يُؤتي اللّهُ عبداً فهماً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: [العقل] فِكاكُ الأسير، ولا يُقتل مؤمنٌ بكافر».

وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقام الحدودُ في المساجد ولا يُقاد بالولد الوالد».

وذهب الشعبي والنخعي وأصحاب الرأي إلى أن المسلم يُقتل بالذمي، وإلى أن الحُرَّ يُقتل بالعبد، والحديث حجة لمن لم يُوجب القصاص على المسلم بقتل الذمي، وتُقتل الجماعة بالواحد، رُوي عن سعيد بن المسيّب: أن عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] قتل سبعة أو خمسة برجل قتلوه غيلة، وقال: لو تَمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً، ويجرى القصاص في الأطراف كما يجري في النفوس، إلا في شيء واحد وهو أن الصحيح السَّوِيّ يُقتل بالمريض والزَّمِن، وفي الأطراف لو قطع يداً شلاء أو ناقصة بإصبع لا تقطع بها الصحيحة الكاملة، وذهب أصحاب الرأي إلى أن القِصَاص في الأطراف لا يجري إلا بين حرين أو حرتين، ولا يجري بين الذكر والأنثى، ولا بين العبيد، ولا بين الحُرّ والعبد، وعند الآخرين الطرف في القصاص مَقِيسٌ على النفس.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبدالله بن منير أنه سمع عبدالله بن بكر السهمي، أخبرنا حميد عن أنس ابن النضر [بن مالك]:

أن الرُّبَيِّعَ عمته كسرتْ ثنيَّة جارية فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضُوا الأرْشَ فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ، فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتُكسر ثنيّة الرُّبَيِّع، لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتابُ الله القصاصُ»، فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه».

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، أي: تُرِك له وصَفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد، ورضي بالدِّيَةِ، هذا قول أكثر المفسّرين، قالوا: العفو أن يقبل الدية في قتل العمد، وقوله: ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾، أي: من دم أخيه، وأراد بالأخ: المقتول، والكنايتان في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ و ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾، ترجعان إلى ﴿مَنْ﴾ وهو القاتل، و[في] قوله ﴿شَىْءٌ﴾ دليل على أنّ بعض الأولياء إذا عفا يسقط القَوَدُ لأنّ شيئاً من الدم قد بَطُل. قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: على الطالب للدية

أن يتبع بالمعروف فلا يُطالب بأكثر من حقه، ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، أي: على المطلوب منه أداء الدية بالإحسان من غير مُماطلة، أُمر كلُّ واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه، ومذهب أكثر العلماء من الصحابة والتابعين: أن ولي الدم إذا عفا عن القصاص على الدية، فله أخذ الدية، وإن لم يرض به القاتل، وقال قوم: لا دية له إلا برضى القاتل، وهو قول الحسن والنخعي وأصحاب الرأي، وحجة المذهب الأول ما أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فُديك عن ابن أبي ذئب عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن أبي شُريح الكعبي:

أنّ رسول الله ﷺ قال: «ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل من هُذيل، وأنا والله عَاقِلُه فمَن قَتل بَعده قتيلاً فأهله بينَ خِيرتين إن أحبوا قَتلوا وإن أحبوا أخذُوا العَقْل».

قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾، أي: ذلك الذي ذكرتُ من العفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة، وذلك أن القصاص في النفس والجراح كان حتماً في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم [فيها] القصاص، فخيّر الله هذه الأمّة بينَ القصاص وبين العفو على الدية تخفيفاً منه ورحمة، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، فقتل الجاني بعد العفو وقَبُول الدية، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهو أن يقتل قصاصاً، قال ابن جريج: يتحتم قتله حتى لا يقبل العفو، وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً بالقتل؛ لأن الله تعالىٰ خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾، وأرادَ به أخوّة الإيمان، فلم يقطع الأخوة بينهما بالقتل.

(١٧٩) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾، أي: بقاء، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قَتل يُقتل، يمتنع عن القتل، فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هَمَّ بقتله، [وقيل في المثل: القتل أنفى للقتل]، وقيل معنى الحياة: سلامته من قصاص الآخرة، فإنه إذا اقتُصّ منه في الدنيا حيي في الآخرة، وإذا لم يُقتص منه في الدنيا اقتُصّ منه في الآخرة، ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، أي: تنتهون عن القتل مخافة القَوَد.

(١٨٠) قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: فُرض عليكم، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، أي: جاءه أسباب الموت وآثاره من العلل والأمراض، ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾، أي: مالاً، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ [البقرة: ٢٧٢ و٢٧٣]، ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال، ثم نُسخت بآية الميراث.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا محمد بن أحمد بن الوليد، أخبرنا الهيثم بن جميل أخبرنا حماد بن سلمة عن قتادة عن شَهْرِ بن حَوْشَب عن عبدالرحمٰن بن غَنْم عن عمرو بن خارجة قال:

كنت آخذاً بزمام ناقة النبيّ ﷺ فقال: «إنّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقه، فلا وصيةَ لوارث».

فذهب جماعة إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق الأقارب الذين يرثون، وبقي وجوبُها في حق [الأقارب] الذين [لا] يرثون من الوالدَين والأقارب، وهو قول ابن عباس وطاوس وقتادة والحسن، قال طاوس: من أوصى لقوم سمّاهم وترك ذَوِي قرابته محتاجين، انتُزِعَتْ منهم ورُدّتْ إلى ذَوِي قرابته، وذهب الأكثرون إلى أن الوجوب صار منسوخاً في حقّ الكافة، وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا طاهر بن أحمد، أخبرنا [أبو] إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن نافع عن ابن عمر:

أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىءِ مسلم له شيءٌ يُوصي فيه، يَبيتُ ليلتين إلاّ ووصيتُه مكتوبةٌ عند رأسه». قوله تعالىٰ: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾، يُريد: يُوصي بالمعروف فلا يزيد على الثلث، ولا يُوصي للغني ويدع الفقير، قال ابن مسعود: الوصية

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

للأخل فالأخل، أي: الأحوج فالأحوج.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غرزه أخبرنا عبيد الله بن موسى وأبو نُعيم عن سفيان الثوري، عن سعد [بن إبراهيم عن عامر بن سعيد] عن سعد بن مالك قال:

جاءني النبيّ ﷺ يعودني فقلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله، قال: «لا» قلت: فالشطر، قال: «لا» قلت: فالثلث، قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون الناس بأيديهم».

وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ أن رجلاً قال لعائشة رضي اللَّهُ عنها: إني أريد أن أُوصي، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عِيالُك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وإن هذا شيءٌ يسير فاتركه لعيالك. وقال عليّ رضي الله عنه: لأن أُوصي بالخُمُسِ أحب إليّ من أن أُوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إليّ من أن أوصي بالثلث، فمن أوصى بالثلث فلم يترك. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: يُوصى بالسدس أو الخمس أو الربع. وقال الشعبي: إنما كانوا يُوصون بالخمس أو الربع.

قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ نُصب على المصدر، وقيل: على المفعول، أي: جعلَ الوصيةَ حقاً، ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾: المؤمنين.

﴿١٨١﴾ قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾، أي: غيّر الوصيةَ في الأوصياء أو الأولياء أو الشهود، ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾، أي: بعد ما سمع قول الموصي، ولذلك ذكر الكناية مع كون الوصية مؤنثة، قيل: الكناية راجعة إلى الإيصاء؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، رَدّ الكناية إلى الوعظ، ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، والميتُ بريءٌ منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾، لما أوصى به الموصي، ﴿عَلِيمٌ﴾: بتبديل المُبدِّل أو سميع لوصيّته عليم بنيّته.

﴿١٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾، أي: علم؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أي: علمتم، ﴿مِن مُّوصٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب بفتح الواو وتشديد الصاد؛ كقوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقرأ الآخرون بسكون الواو وتخفيف الصاد؛ كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١، ١٢]، ﴿جَنَفًا﴾، أي: جَوراً وعدولاً عن الحق، والجنفُ: الميلُ، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾، أي: ظلماً، وقال السدي وعكرمة والربيع: الجَنَفُ: الخطأ، والإثم: العمد، فأصلح بينهم، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، واختلفوا في معنى الآية، قال مجاهد: معناها أن الرجل إذا حضر مريضاً وهو يُوصي فرآه يميل إمابتقصير أو إسراف أو وضع الوصية في غير موضعها، فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف، فينظر [للموصى] والورثة، وقال الآخرون: إنه أراد به أنه إذا أخطأ الميتُ في وصيته أو جار متعمداً فلا حرج على وليّه أو وصيّه أو وَالي أمور المسلمين أن يُصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصَى لهم، ويردَّ الوصيةَ إلى العدل والحق ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أي: لا حرج عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال طاووس: جَنَفُهُ توليجه، وهو أن يُوصي لبني بنيه، يُريد ابنه أو لولد ابنته ولزوج ابنته يُريد بذلك ابنته، وقال الكلبي: كان الأولياء

والأوصياء يُمضون وصية الميت بعد نزول قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨١] الآية، وإن استغرق المال كله، ولم يبق للورثة شيء، ثم نسخها قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ الآية، قال ابن زيد: فعجز الموصي أن يُوصي للوالدين والأقربين كما أمر الله تعالىٰ، وعجز الوصي أن يُصلح، فانتزع الله تعالىٰ ذلك منهم، ففرض الفرائض.

رُوي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيَضارّان في الوصية فتجبُ لهما النار»، ثم قرأ أبو هريرة ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١١ و١٢].

﴿١٨٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، أي: فُرض وأُوجب [و] الصومُ والصيام في اللغة: الإمساك، يُقال: صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة، لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء وقفت وأمسكت عن السير سويعة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦]، أي: صمتاً، لأنه إمساك عن الكلام، وفي الشريعة: الصوم هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع مع النيّة في وقت مخصوص. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: من الأنبياء والأمم، واختلفوا في هذا التشبيه، قال سعيد بن جُبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة، كما كان في ابتداء الإسلام، وقال جماعة من أهل العلم: أراد أن صيام رمضان كان واجباً على النصارى، كما فُرض علينا، فربّما كان يقع في الحرّ الشديد والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم ويضرّهم في معايشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصّيف، فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا، فصار أربعين [يوماً]، ثم إن مَلِكاً لهم اشتكى فمه، فجعل لله عليه إن هو بريء من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً فبرىء، فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتمّوه خمسين يوماً، وقال مجاهد: أصابهم مَوتان فقالوا: زيدوا في صيامكم، فزادوا فيه عشراً قبلُ وعشراً بعدُ، قال الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يُشكّ فيه، فيقال من شعبان، ويقال من رمضان، وذلك أن النصارى فرض الله عليهم شهر رمضان فصاموا [قبل الثلاثين يوماً وبعدها يوماً]، ثم لم يزل القرن الآخر يستن بسنّة القَرْنُ الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يوماً، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، يعني: بالصوم، لأن الصوم وصلة إلى التقوى، لِما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تحذرون [عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع].

﴿١٨٤﴾ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، قيل: كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً، وصوم يوم عاشوراء، فصاموا كذلك من الربيع إلى شهر رمضان سبعة عشر شهراً، ثم نُسخ بصوم رمضان، قال ابن عباس: أول ما نُسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم، ويقال: نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام، قال محمد بن إسحاق: كانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشر ليلة خلتْ من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة.

حدثنا أبو الحسن الشيرزي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أمّ المؤمنين أنها قالت:

كان يوم عاشوراء يوماً تصومُه قريشٌ في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فُرض رمضان كان هو الفريضة، وترك يومَ عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

وقيل: المراد من قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: شهر رمضان، وهي غير منسوخة، ونصب ﴿أَيَّامًا﴾ على الظرف، أي: في أيام معدودات، وقيل: على التفسير، وقيل: على هو خبر ما لم يسمّ فاعله، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾، أي: فأفطر فعدّة ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، أي: فعليه عدّة [من أيام أخر]، والعدد والعدة واحد من أيام أُخر، أي: غير أيام مرضه وسفره،

و﴿أُخَرَ﴾ في موضع خفض، لكنها لا تنصرف، فلذلك نُصب، قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحُكمها، فذهب أكثرهم إلى أن الآية منسوخة، وهو قول ابن عمر وسلمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مُخيّرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا، خَيّرهم الله تعالىٰ لئلا يَشُقّ عليهم، لأنهم كانوا لم يتعوّدوا الصوم، ثم نُسخ التخيير ونزلتِ العزيمةُ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال قتادة: هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي يطيق الصوم، ولكن يشقّ عليه، رُخّص له في أن يفطر ويفدي، ثم نُسخ، وقال الحسن: هذا في المريض الذي به ما يقع عليه اسم المرض وهو مستطيع للصوم، خُيِّرَ بين أن يصوم وبين أن يفطر ويفدي، ثم نُسخ بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وثبتتِ الرخصةُ للذين [لا] يُطيقون، وذهب جماعة إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناه: وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب فعجزوا عنه في حال الكِبَر فعليهم الفدية بدل الصوم، وقرأ ابن عباس ﴿وعلى الذين يطوّقونه﴾ بضم الياء وفتح الطاء وتخفيفها وفتح الواو وتشديدها، أي: يُكلّفون الصوم، وتأويله: على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم، والمريض الذي لا يُرجى زوال مرضه، فهم يُكلفون الصوم ولا يُطيقونه، فلهم أن يفطروا ويُطعموا مكان كل يوم مسكيناً، وهو قول سعيد بن جُبير، وجعل الآيةَ محكمة.

قوله تعالىٰ: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، قرأ أهل المدينة والشام مضافاً، وكذلك في المائدة: ﴿كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥]، أضاف الفدية إلى الطعام، وإن كان واحداً لاختلاف اللفظين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، وقولهم: المسجد الجامع، وربيع الأول، وقرأ الآخرون: «فديةٌ، وكفارةٌ» منوّنة، و﴿طَعَامُ﴾ رفع، وقرأ ﴿مَسَٰكِينَ﴾ بالجمع هنا، أهل المدينة والشام، والآخرون على التوحيد، فمن جمع نصب النون، ومن وحّد خفض النون ونوّنها، والفدية: الجزاء، ويجب أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً مُدّاً من الطعام بِمُدّ النبيّ ﷺ وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد، هذا قول فقهاء الحجاز، وقال بعض فقهاء أهل العراق: عليه لكل مسكين نصف صاع لكل يوم يفطر، وقال بعضهم: نصف صاع من القمح أو صاع من غيره، وقال بعض الفقهاء: ما كان المفطر يتقوّتُه يومَهُ الذي أفطره، وقال ابن عباس: يُعطي كل مسكين عشاءَهُ وسُحورَه، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، أي: زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يوم مسكينين فأكثر، قاله مجاهد وعطاء وطاووس، وقيل: من زاد على القَدر الواجب عليه فأعطى صاعاً وعليه مُدّ فهو خير له، ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فمن ذهب إلى النسخ قال معناه: الصوم خير له من الفدية، وقيل: هذا في الشيخ الكبير لو تكلّف الصوم، وإن شقّ عليه فهو خير له من أن يفطرَ ويفدي، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، واعلمْ أنّه لا رُخصةَ لمؤمنٍ مُكلّفٍ في إفطار رمضان إلا لثلاثة، أحدهم: يجب عليه القضاء والكفارة، والثاني: عليه القضاء دون الكفارة، والثالث: عليه الكفارة دون القضاء، أمّا الذي عليه القضاء والكفارة: فالحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما فإنهما تفطران وتقضيان، وعليهما مع القضاء الفدية وهو قول ابن عمر وابن عباس وبه قال مجاهد، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، وقال قوم: لا فدية عليهما، وبه قال الحسن وعطاء وإبراهيم النَّخَعِي والزهري، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي، وأمّا الذي عليه القضاء دون الكفارة: فالمريض والمسافر والحائض والنفساء، وأمّا الذي عليه الكفارة دون القضاء فالشيخ الكبير والمريض الذي لا يُرجى زوال مرضه، ثم بيّن الله تعالىٰ أيام الصيام فقال:

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، رفعه على معنى: هو شهر رمضان، وقال الكسائي: كُتب عليكم شهر رمضان، وسُمّي الشهر شهراً لشهرته، وأمّا رمضان [فقد] قال مجاهد: هو من أسماء الله تعالىٰ، يقال: شهر رمضان كما يقال شهر الله، والصحيح: أنه اسم للشهر سُمّي به

من الرمضاء، وهي الحجارة المحماة، لأنهم كانوا يصومونه في الحرّ الشديد، وكانت ترمض فيه الحجارة من الحرارة.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، سمّي القرآن قرآناً لأنه يجمع السور والآي والحروف، وجمع فيه القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد، وأصل القرء: الجمع، وقد يحذف الهمز فيقال: قريت الماء في الحوض إذا جمعته، وقرأ ابن كثير «القران» بفتح الراء غير مهموز، وكذلك كان يقرأ الشافعي، ويقول: ليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل، ورُوي عن مقسم عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقد نزل في سائر الشهور، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]؟ فقال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزّة في السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، قال داود بن أبي هند قلت للشعبي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أما كان ينزل في سائر الشهور؟ قال: بلى ولكنّ جبريل كان يعارض محمداً ﷺ في رمضان ما أنزل الله إليه، فيُحكم اللَّهُ ما يشاء ويُثبت ما يشاء ويُنسيه ما يشاء.

ورُوي عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «أُنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في ثلاث ليال مضين من [شهر] رمضان»، ويُروى «في أول ليلة من رمضان»، «وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من [شهر] رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الزبور على داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين من شهر رمضان لستّ بقين بعدها».

قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: من الضلالة، و﴿هُدًى﴾ في محل النصب على القطع، لأن القرآن معرفة «وهدىً» نكرة، ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: دَلالاتٍ واضحات من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾، أي: المفرق بين الحق والباطل، قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أي فمن كان مقيماً في الحضر فأدركه الشهر [فليصمه]، اختلف أهل العلم فيمن أدركه الشهر وهو مقيم ثم سافر، رُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: [لا] يجوز له أن يفطر، وبه قال عبيدة السلماني؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أي: الشهر كلّه، وذهب أكثر الصحابة والفقهاء إلى أنه إذا أنشأ السفرَ في شهر رمضان جاز له الفطر، ومعنى الآية: فمن شهد منكم الشهر كله فليصمه، أي: الشهر كله، ومن لم يشهد منكم الشهر كله فليصم ما شهد منه، والدليل عليه: ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن عُبيد الله بن عُتبة بن مسعود عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكّة عام الفتح في رمضان، فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه، وكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، أباح الفطر لعذر المرض والسفر، [و] أعاد هذا الكلام ليُعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ، واختلفوا في المرض الذي يبيح الفطر، فذهب أهل الظاهر إلى أن ما يطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر، وهو قول ابن سيرين، قال طريف بن تمام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل فقال: إنه وجعت أصبعي هذه، وقال الحسن وإبراهيم النخعي: هو المرض الذي يجوز به الصلاة قاعداً، وذهب الأكثرون إلى أنه مرض يخاف معه من الصوم زيادة علّة غير مُحتملة، وفي الجملة أنه إذا أجهده الصوم أفطر، وإن لم يجهده فهو كالصحيح، وأما السفر فالفطر فيه مباح، والصوم جائز عند عامّة أهل العلم إلاّ ما رُوي عن ابن عباس وأبي هريرة وعُروة بن الزبير

وعلي بن الحسين أنهم قالوا: لا يجوز الصوم في السفر، ومن صام فعليه القضاء.

واحتجّوا بقول النبيّ ﷺ: «ليس من البر الصوم في السفر».

وذلك عند الآخرين في حق من يُجهده الصوم، فالأولى له أن يفطر، والدليل عليه ما:

أخبرنا به عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم، أخبرنا شعبة أخبرنا محمد بن عبدالرحمٰن الأنصاري قال: سمعت محمد بن عمرو بن الحسن بن علي عن جابر بن عبدالله قال:

كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زُحاماً ورجلاً قد ظُلّل عليه، فقال: «ما هذا؟» قالوا: صائم، فقال: «ليس من البرّ الصوم في السفر».

والدليل على جواز الصوم: ما حدّثنا الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو نُعيم الإسفراييني، أخبرنا أبو عوانة أخبرنا أبو أمية أخبرنا عبيد الله القواريري، أخبرنا حماد بن زيد أخبرنا الجُرَيري، عن أبي نَضْرة عن أبي سعيد قال:

كنّا نسافر مع رسول الله ﷺ في رمضان، فمنّا الصائم ومنّا المفطر، فلا يَعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.

واختلفوا في أفضل الأمرين، فقالت طائفة: الفطر في السفر أفضل من الصوم، رُوي ذلك عن ابن عمر وإليه ذهب سعيد بن المسيب والشعبي، وذهب قوم إلى أن الصوم أفضل، ورُوي ذلك عن معاذ بن جبل وأنس، وبه قال إبراهيم النخعي وسعيد بن جُبير، وقالت طائفة: أفضل الأمرين أيسرهما عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وهو قول مجاهد وقتادة وعمر بن عبدالعزيز.

ومن أصبح مقيماً صائماً ثم سافر في أثناء النهار لا يجوز له أن يفطر ذلك اليوم عند أكثر أهل العلم، وقالت طائفة: له أن يفطر، وهو [قول الشعبي وبه قال أحمد، أمّا المسافر إذا أصبح صائماً فيجوز له أن يفطر] بالاتفاق، والدليل عليه ما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبدالعزيز بن محمد عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جابر: أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكّة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس معه فقيل له: يا رسول الله إن الناس قد شقّ عليهم الصيام، فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون فأفطر بعض الناس، وصام بعض، فبلغه أن أناساً صاموا فقال: «أولئك العصاة».

واختلفوا في السفر الذي يُبيح الفطر، فقال قوم: مسيرة يوم، وذهب جماعة إلى مسيرة يومين، وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب جماعة إلى مسيرة ثلاثة أيام، وهو قول سفيان الثوري وأصحابُ الرأي.

قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، بإباحة الفطر في المرض والسفر، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، قرأ أبو جعفر «العسر واليسر» ونحوهما بضم السين، وقرأ الآخرون بالسكون، وقال الشعبي: ما خُيّرَ رجلٌ بين أمرين فاختار أيسرهما إلاّ كان ذلك أحبهما إلى الله عزّ وجلّ، ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، قرأ أبو بكر بتشديد الميم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهو الاختيار؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، والواو في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾ وَاوُ النَّسقِ واللامُ لام كي، تقديره: ويريد لكي تكملوا العدة، أي: لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتُم في مرضكم وسفركم، وقال [عطاء]: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، أي: عدد أيام الشهر.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا مالك عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر:

أن رسول الله ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمّ عليكم فأكملوا العِدّة ثلاثين».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا تقدموا الشهرَ بصوم يوم ولا يومين، إلا أن يُوافق ذلك صوماً كان يصومه أحدكم، صُوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن أُغمي عليكم فعدّوا ثلاثين ثم أفطروا».

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾: ولتعظّموا الله، ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾: أرشدكم إلى ما رضي به من صوم شهر رمضان وخصّكم به دون سائر أهل الملل، قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر، وروى الشافعي عن ابن المسيب وعروة وأبي سلمة أنهم كانوا يكبّرون ليلة الفطر يجهرون بالتكبير، وشبّه ليلة النحر بها إلا من كان حاجاً فذكرُه التلبية، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه [التي خصكم بها]، وقد وردتْ أخبار في فضل شهر رمضان وثواب الصائمين.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الحسن المروزي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا علي بن عبدالعزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسمُ بن سلاّم، حدثني إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة:

عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل رمضان صُفّدتِ الشياطينُ وفُتّحت أبوابُ الجنّة وغُلّقتْ أبوابُ النار».

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراح، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا أبو كريب محمد بن العلاء، أخبرنا أبو بكر محمد بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدتِ الشياطينُ ومَرَدَةُ الجنّ وغُلقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب، وفُتّحتْ أبوابُ الجنّة فلم يُغلق منها باب، ويُنادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر، ولله عُتقاءُ من النار، وذلك كل ليلة».

أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي نصر بن أحمد الكوفاني الهروي بها، أخبرنا أبو محمد عبدالرحمٰن بن عمر بن محمد التُّجَيْبي المصري بها المعروف بأبي النحاس قيل له: أخبركم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد العنزي البصري بمكة المعروف بابن الأعرابي، أخبرنا الحسن بن محمد بن الصبّاح الزعفراني، أخبرنا سفيان بن عُيينة عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبدالرحمٰن عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّمَ من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّمَ من ذنبه».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو سعيد خلف بن عبدالرحمٰن بن محمد بن أبي نزار، حدثنا الحسين بن أحمد بن محمد بن عبدالرحمٰن بن أسد الصفّار، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي إسحاق العنزي، أخبرنا علي بن حجر بن إياس السعدي أخبرنا يوسف بن زياد عن علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال:

خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيها الناس إنه أظلكم شهر عظيم». [وفي رواية: «قد أظلكم»، بالظاء: أظل: أشرف]، شهرٌ مبارك، شهرٌ فيه ليلة القدر خير من ألف شهر، شهرٌ جعل الله صيامَه وقيام ليله تطوّعاً، من تقرّب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنّة، وشهر المواساة [أي المساهمة] وشهرٌ يُزاد فيه الرزق، من فطّر فيه صائماً كان له مغفرةً لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء»، قالوا: يا رسول الله ليس كلنا نجد ما يُفطّر به الصائم؟ قال رسول الله ﷺ: «يُعطي اللّهُ هذا الثوابَ لمن فطّر صائماً على مَذْقَةِ لَبَنٍ أو تمرة أو شَرْبَةٍ من ماءٍ، ومن أشبع صائماً سقاه الله عزّ وجلّ من حوضي شَرْبَةً لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنّة. وهو شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين تُرضون بهما ربّكم، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، أمّا الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إلٰه إلاّ الله

وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنّة وتعوذون به من النار».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله بن عمر بن بكير الكوفي، أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يُضاعف له الحسنةُ بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، قال الله تعالىٰ: إلاّ الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَعُ الصائم طعامَهُ وشرابَهُ وشَهْوَتَهُ من أجلي، وللصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربّه، ولَخَلُوفُ فِيْهِ أطيب عند الله من ريح المسك، الصّوم جُنّةٌ الصوم جنة».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا محمد بن مطرف، حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد:

عن النبيّ ﷺ قال: «في الجنّة ثمانية أبواب، منها بابٌ يسمّى الريان لا يدخله إلا الصائمون».

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي تَوبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبدالله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال أخبرنا عبدالله بن المبارك، عن رشدين بن سعد عن حُيَيّ بن عبدالله عن أبي عبدالرحمٰن الحُبُلي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ [أنه] قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: أيْ ربِّ إني منعته الطعام والشراب والشهوات بالنهار فشفّعني فيه، ويقول القرآن: ربِّ إني منعته النوم بالليل فشفّعني فيه فيشفعان».

(١٨٦) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال يهود أهل المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أنّ بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غِلَظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية.

وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبيّ ﷺ فقالوا: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وفيه إضمار، كأنه قال: فقل لهم [يا محمد] إني قريب منهم بالعلم لا يخفى عليَّ شيء، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النّعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل [أخبرنا موسى بن إسماعيل]، أخبرنا عبدالواحد عن عاصم عن أبي عثمان، عن أبي موسى الأشعري قال:

لما غَزَا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: لمّا توجه رسول الله ﷺ إلى خيبر، أشْرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «أربِعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم».

قوله تعالىٰ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، قرأ أهل المدينة غير قالون وأبي عمرو بإثبات الياء فيهما في الوصل، والباقون يحذفونها وصلاً ووقفاً، وكذلك اختلف القراء في إثبات الياءات المحذوفة من الخط وحذفها في التلاوة، ويثبت يعقوب جميعها وصلاً ووقفاً، واتفقوا على إثبات ما هو مثبت في الخط وصلاً ووقفاً، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾، قيل: الاستجابة بمعنى الإجابة، أي: فليجيبوا إليّ بالطاعة، والإجابة في اللغة: الطاعة وإعطاء ما سئل، فالإجابة من الله تعالىٰ: العطاء، ومن العبد: الطاعة، وقيل: فليستجيبوا ليّ، أي: ليستدعوا مني الإجابة، وحقيقته فليطيعوني، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، لكي يهتدوا، فإن قيل: فما وجه قوله تعالىٰ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾، وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقد ندعو كثيراً فلا يُجيب؟ قلنا: اختلفوا في معنى الآيتين، قيل: معنى الدعاء هٰهنا: الطاعة، ومعنى الإجابة: الثواب، وقيل: معنى الآيتين خاص، وإن كان لفظهما عاماً، تقديرهما: أُجيبُ دعوة الداعي إن شئت؛ كما قال:

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، أو أُجيب دعوةَ الداعي إن وافق القضاء، أو أجيبه إن كانت الإجابة خيراً له، أو أجيبه إن لم يسأل محالاً.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور [محمد بن محمد] بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبدالله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح أن ربيعة بن زيد حدّثه عن أبي إدريس، عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «يستجيبُ اللَّهُ لأحدكم ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل، قالوا: وما الاستعجال يا رسول الله؟ قال: يقول قد دعوتُكَ يا ربُّ قد دعوتُك يا ربُّ قد دعوتك يا رب فلا أراك تستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، فَيَدَعُ الدعاء».

وقيل: هو عام، ومعنى قوله: ﴿أُجِيبُ﴾، أي: أسمع، ويقال: ليس في الآية أكثر من إجابة الدعوة، فأما إعطاء المنية فليس بمذكور فيها، وقد يجيب السيدُ عبدَه والوالدُ ولدَه ثم لا يُعطيه سؤله، فالإجابة كائنة لا محالة عند حصول الدعوة، وقيل: معنى الآية أنه لا يخيب دعاءَه فإن قدّر له ما سأل أعطاه، وإن لم يُقدّرْ له ادّخر له الثواب في الآخرة أو كفّ عنه به سوءاً [في الدنيا]، والدليل عليه ما:

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا ابن ثوبان وهو عبدالرحمٰن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه عن مكحول عن جُبير بن نُفير عن عُبادة بن الصامت حدثهم:

أن النبيّ ﷺ قال: «ما على الأرض رجل مسلم يدعو الله تعالىٰ بدعوة إلاّ آتاه الله إيّاها، أو كفّ عنه من السوء مثلَها ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم».

وقيل: إن الله تعالىٰ يُجيب دعاء المؤمن في الوقت، ويُؤخر إعطاء [من يحب] مراده ليدعوه فيسمع صوته، ويعجل إعطاء من لا يحبه لأنه يبغض صوته، وقيل: إن للدعاء آداباً وشرائط وهي أسباب الإجابة، فمن استكملها كان من أهل الإجابة، ومن أخلّ بها فهو من أهل الاعتداء في الدعاء، فلا يستحقّ الإجابة.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

﴿١٨٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، فالرفث كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكني، كلما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث، فإنما عنى به الجماع، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، قال أهل التفسير: كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حلّ له الطعام والشراب إلى أن يصلّي العشاء الآخرة، أو يرقد قبلها، فإذا صلّى العشاء أو رَقَدَ قبلها حَرُمَ عليه الطعام والنساء إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقع أهله بعدما صلّى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، إني رجعت إلى أهلي بعدما صلّيت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسوّلت لي نفسي فجامعتُ أهلي، فهل تجد لي من رخصة؟ فقال النبيّ ﷺ: «ما كنتَ جديراً بذلك يا عمر»، فقام رجال فاعترفوا بمثله، فنزل في عمر وأصحابه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ أي: أبيح لكم ليلة الصيام: ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾، أي: سكن لكم، ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، أي:

سكن لهنّ، دليله قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقيل: لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر، وقيل: سمّي كل واحد من الزوجين لباساً لتجرّدهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد، حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، وقال الربيع بن أنس: هنّ فراش لكم، وأنتم لحاف لهن، وقال أبو عُبيدة وغيره: يقال للمرأة هي لباسك وفراشك وإزارك، وقيل: اللباس اسم لما يُواري الشيء، فيجوز أن يكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عمّا لا يحل، كما جاء في الحديث:

«مَنْ تزوّج فقد أحرز ثلثي دينه».

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تخونونها وتظلمونها بالمجامعة بعد العشاء، قال البراء: لمّا نزل صوم رمضان، كانوا لا يقرَبُون النساء [رمضان] كلّه، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: تجاوز عنكم، ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾: محا ذنوبكم، ﴿فَالْـَٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾: جامعوهن حلالاً، سمّيت المجامعة: مباشرة، لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه، ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: فاطلبوا ما قضى الله لكم، وقيل: ما كتب الله لكم في اللوح المحفوظ، يعني: الولد، قاله أكثر المفسّرين، قال مجاهد: ابتغوا الولد إن لم تلد هذه فهذه، وقال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم، بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ وقال معاذ بن جبل ابتغوا ما كتب الله لكم، يعني: ليلة القدر، قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾، نزلتْ في رجل من الأنصار اسمه أبو صِرْمَة بن قيس بن صِرْمَة، وقال عكرمة: أبو قيس بن صرمة، وقال الكلبي: أبو قيس صرمة بن أنس بن صرمة.

وذلك أنه ظلَّ نهاره يعمل في أرضٍ له وهو صائم، فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، وقال لأهله قدمي الطعام، فأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخيناً فأخذت تعمل له سخينة، وكان في الابتداء مَنْ صلّى العشاء ونام حَرُم عليه الطعامُ والشراب، فلما فرغت من طعامه إذْ هي به قد نام، وكان قد أعيا وكَلَّ [من العمل]، فأيقظته فكره أن يعصي الله ورسوله وأبىٰ أن يأكل فأصبح صائماً مجهوداً، فلم ينتصف النهار حتى غُشِيَ عليه فلما أفاق أتى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «يا أبا قيس مَا لَكَ أمسيت طليحا»، فذكر له حاله فاغتمّ لذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، يعني في ليالي الصوم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ يعني: بياض النهار من سواد الليل: سُمّيا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الابتداء ممتداً كالخيط.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا أبو غسان محمد بن مُطَرِّف، ثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال:

أُنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، ولم ينزل قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيطَ الأبيض والخيطَ الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيّن له رؤيتهما، فأنزل الله تعالىٰ بعده: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فعلموا إنما يعني بهما: الليل والنهار.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا حجاج بن منهال أخبرنا هُشَيْم أخبرنا حصين بن عبدالرحمٰن، عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال:

لما نزلت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدتُ إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر إليهما وإلى الليل لا يستبين لي، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن بلالاً ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم»، قال: وكان ابن أمّ مكتوم رجلاً أعمى

لا ينادي حتى يقال له: أصبحت أصبحت.

واعلم أن الفجر فجران: كاذب وصادق، فالكاذب: يطلع أولاً مستطيلاً كذنب السرحان ويصعد إلى السماء، فبطلوعه لا يخرج الليل ولا يحرم الطعام والشراب على الصائم، ثم يغيب فيطلع بعده الفجر الصادق مستطيراً ينتشر سريعاً في الأفق، فبطلوعه يدخل النهار ويحرم الطعام والشراب على الصائم.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا هناد ويوسف بن عيسى، قالا: أخبرنا وكيع عن أبي هلال عن سوادة بن حنظلة عن سمرة بن جُندب قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحوركم آذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فالصائم يحرم عليه الطعام والشراب بطلوع الفجر الصادق ويمتد إلى غروب الشمس، فإذا غربت حصل الفطر.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان أخبرنا هشام بن عروة قال: سمعت أبي يقول: سمعت عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هٰهنا وأدبر النهار من هٰهنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي الْمَسَٰجِدِ﴾ [وقد نويتم الاعتكاف في المساجد وليس المراد عن مباشرتهن في المساجد لأن ذلك ممنوع منه في غير الاعتكاف]، والعكوف هو الإقامة على الشيء، والاعتكاف في الشرع: هو الإقامة في المسجد على عبادة الله [تعالى]، وهو سنة، ولا يجوز في غير المسجد ويجوز في جميع المساجد.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبدالله بن يوسف، أخبرنا الليث عن عُقَيْل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النبيّ ﷺ:

أن النبيّ ﷺ كان يعتكف العشر الأوَاخِرَ من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه من بعده.

والآية نزلت في نفر من أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرضت للرجل منهم الحاجة إلى أهله خرج إليها فجامعها ثم اغتسل، فرجع إلى المسجد، فنُهوا عن ذلك ليلاً ونهاراً حتى يفرغوا من اعتكافهم، فالجماع حرام في حال الاعتكاف، ويفسد به الاعتكاف، أمّا ما دون الجماع من المباشرات كالقبلة واللمس بالشهوة فمكروه، ولا يفسد به الاعتكاف عند أكثر أهل العلم، وهو أظهر قولي الشافعي، كما لا يبطل به الحج، وقالت طائفة: يبطل بها اعتكافه، وهو قول مالك، وقيل: إن أنزل بطل اعتكافه، وإن لم ينزل فلا، كالصوم. وأمّا اللمس الذي لا يقصد به التلذذ فلا يفسد به الاعتكاف، لِما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عمرة بنت عبدالرحمٰن، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف أدنى إليّ رأسه فأرَجّلُه وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني: تلك الأحكام التي ذكرها في الصيام والاعتكاف حدود الله أي: ما منع الله عنها، قال السدي: شروط الله، وقال شهر بن حَوْشَب: فرائض الله وأصل الحد في اللغة المنع، ومنه يُقال للبواب: حداد لأنه يمنع الناس من الدخول، وحدود الله ما يمنع الناس من مخالفتها، ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، فلا تأتوها ﴿كَذَٰلِكَ﴾، هكذا ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، لكي يتقوها فينجوا من العذاب.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ﴾، قيل:

نزلت هذه الآية في امرىء القيس بن عابس الكندي ادّعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله ﷺ أرضاً [أنه غلبني عليها] فقال النبيّ ﷺ للحضرمي:

«ألك بيّنة؟» قال: لا، قال: «فلك يمينه»، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ: «[أما إن حلف على ماله] ليأكله ظلماً ليلقينّ الله وهو عنه معرض»، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

أي: لا يأكل بعضكم مالَ بعض بالباطل، أي: من غير الوجه الذي أباحه الله وأصل الباطل: الشيء الذاهب، والأكل بالباطل أنواع: قد يكون بطريق الغصب والنهب، وقد يكون بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغني ونحوهما، وقد يكون بطريق الرشوة والخيانة، ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾، [أي: تُلقوا أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلى الحكام]، وأصل الإدلاء إرسال الدلو، وإلقاؤه في البئر، يُقال: أدلى دلوه إذا أرسله، ودلاه يدلوه إذا أخرجه، قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بيّنة فيجحد المال، ويخاصم فيه إلى الحاكم وهو يعرف أن الحق عليه، وأنه آثم بمنعه قال مجاهد في هذه الآية: لا تخاصم وأنت ظالم، قال الكلبي: هو أن يقيم شهادة الزور، وقوله: ﴿وَتُدْلُوا۟﴾ في محل الجزم بتكرير حرف النهي معناه ولا تدلوا بها إلى الحكام، وقيل: معناه لا تأكلوا بالباطل وتنسبونه إلى الحكام، قال قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم، فإن قضاءه لا يُحل حراماً، وكان شُريح القاضي يقول: إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالماً، ولكن [لا يسعني إلاّ أن أقضي] بما يحضرني من البيّنة، وإن قضائي لا يُحلّ لك حراماً.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنّما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حقّ أخيه فلا يأخذنّه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

قوله تعالىٰ: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا﴾: طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾: بالظلم، وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة يقطع بها مال أخيه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنكم مبطلون.

(١٨٩) قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمَة الأنصاريَيْن قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلىء نوراً، ثم يعودَ دقيقاً كما بدأ ولا يكون على حالة واحدة فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، وهي جمع هلال، مثل رداء وأردية، سُمّي هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته، من قولهم استهلّ الصبي إذا صرخ حين يُولد، وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، جمع ميقات، أي: فعلنا ذلك ليعلم الناس أوقات الحجّ والعمرة والصوم والإفطار وآجال الديون وعُدد النساء وغيرها، فذلك خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة، ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، قال أهل التفسير: كان الناس في الجاهلية وفي أوّل الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحجّ أو العمرة، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج، أو يتخذ سُلّماً فيصعد منه [ويهبط]، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يَحِلَّ من إحرامه، ويرون ذلك بِرّاً إلاّ أن يكون من الحُمْسِ، وهم قريش وكنانة وخزاعة [وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صَعْصَعَة وبنو حضر بن معاوية، سُمّوا حمساً لتشدّدهم في دينهم، والحماسة الشدة والصلابة، فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار يُقال له: رفاعة بن التابوت على أثره من الباب، وهو محرم فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «لِمَ دخلت من الباب وأنت محرم»؟ فقال: رأيتك دخلت [منه] فدخلت على أثرك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أحمس»، فقال الرجل: إن كنت أحمسياً فإني أحمسي رضيتُ بهديك وسمتِك ودينك، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

وقال الزهري: كان ناس من الأنصار إذا أهلّوا بالعمرة لم يَحِلْ بينهم وبين السماء شيء، فكان

الرجل يخرج مُهلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة بعدما يخرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته، حتى بلغنا أن رسول الله ﷺ أهلّ زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة، فقال النبيّ ﷺ: «لِمَ فَعلتَ ذلك؟» قال: لأني رأيتُك دخلتَ، فقال رسول الله ﷺ: «إني أحمس»، فقال الأنصاري: وأنا أحمس، يقول: وأنا على دينك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «البيوت، والغيوب، والجيوب، والعيون، وشيوخاً» بكسر أوائلهن، لمكان الياء، وقرأ الباقون بالضم على الأصل، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «جيوبهن» بكسر الجيم، وقرأ أبو بكر وحمزة «الغيوب» بكسر الغين، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، أي: البِرُّ بِرّ من اتقى ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، [أي]: في حال الإحرام، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في طاعة الله، ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، كان في ابتداء الإسلام أمر الله تعالىٰ رسول الله ﷺ بالكفّ عن قتال المشركين، ثم لمّا هاجر إلى المدينة أمره بقتال من قاتله منهم بهذه الآية، وقال الربيع بن أنس: [هذه أول آية نزلت في القتال، ثم أمره بقتال المشركين كافة، قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، فصارت هذه الآية منسوخة بها، وقيل: نسخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قريبٌ من سبعين آية. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾، أي: لا تبدؤوهم بالقتال، وقيل: هذه الآية محكمة غير منسوخة، أمر النبيّ ﷺ بقتال المقاتلين، ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾، أي: لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان، ولا من ألقى إليكم السلام، هذا قول ابن عباس ومجاهد.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو بكر بن سهل القهستاني المعروف بأبي تراب، أخبرنا محمد بن عيسى الطرسوسي، أنا يحيى بن بُكير أنا الليث بن سعد عن جرير بن حازم عن شعبة، عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بُريدة عن أبيه قال:

كان النبيّ ﷺ إذا بعث جيشاً قال: «اغزوا بسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تقتلوا امرأةً ولا وليداً ولا شيخاً كبيراً».

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه للعمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدّهم المشركون عن البيت الحرام، فصالحهم على أن يرجع عامه ذلك، على أن يخلوا له مكّة عام قابل ثلاثة أيام فيطوف بالبيت، فلما كان العام المقبل تجهّز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي قريش بما قالوا، وأن يصدّوهم عن البيت الحرام، وكره أصحاب رسول الله ﷺ قتالهم في الشهر الحرام وفي الحَرَم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني محرمين، ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، يعني: قريشاً ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾، فتبدؤوا بالقتال في الحرم [وأنتم] محرمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

(١٩١) ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾،

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩١) فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦)

٣٠

قيل: نُسخت الآية الأولى بهذه الآية، وأصل الثقافة: الحِذقُ والبصر بالأمر، ومعناه: واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكّنتم من قتلهم، ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، يعني: شركهم بالله عزّ وجلّ أشدّ وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام، ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم»، بغير ألف فيهن من القتل على معنى ولا تقتلوا بعضهم، تقول العرب: قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم، وقرأ الباقون بالألف من القتال وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يَحِلُّ بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، هذا قول قتادة، وقال مقاتل بن حيان: قوله ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، أي: حيث أدركتموهم في الحِلّ والحرم، وصارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ثم نسختها آية السيف في «براءة»، فهي ناسخة منسوخة، وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

(١٩٢) ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾، عن القتال والكفر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: غفورٌ لِمَا سَلَفَ رحيم بالعباد.

(١٩٣) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾، يعني: المشركين، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: شرك، يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلاّ الإسلام فإن أبى قُتل، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾، أي: الطاعة والعبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، فلا يُعبد شيءٌ دونه، قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير، فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرّم دم أخي، قال: ألا تسمع ما ذكره الله عزّ وجلّ [في قوله]: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، فقال: يا ابن أخي لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إليّ من أن أعير بالآية التي يقول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]... قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: [قد] فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتن في دينه إما يقتلونه أو يعذّبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: هل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس [لكم غنىً عن الملك]، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾: عن الكفر وأسلموا، ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾، فلا سبيل ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، قاله ابن عباس، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ٢٨]، وقال أهل المعاني: العدوان: الظلم، أي: فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل، إلا على الظالمين الذين بقوا على الشرك، [وما يفعل بأهل الشرك] من هذه الأشياء لا يكون ظلماً، وسمّاه عدواناً على طريق المجازاة والمقابلة، كما قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وسُمّي الكافرُ ظالماً لأنه يضع العبادة في غير موضعها.

(١٩٤) ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾، نزلت هذه الآية في عُمْرَةِ القضاء، وذلك أنّ النبيّ ﷺ خرج معتمراً في ذي القعدة فصدّه المشركون عن البيت بالحديبية، فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام المقبل فيقضي عمرته، فانصرف رسول الله ﷺ عامه ذلك، ورجع في العام القابل في ذي القعدة، وقضى عمرته سنة سبعٍ من الهجرة.

فذلك معنى قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾، يعني ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة، وقضيتم فيه عُمرتكم سنة سبع [من الهجرة]، بـ ﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾، يعني: ذا القعدة الذي صُددتم فيه عن البيت سنةَ ستٍّ، ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾: جمع حرمة، وإنما جمعها لأنه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام، والقِصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يُفعل بالفاعل مثل ما فعل، وقيل: هذا في أمر القتال، معناه: إن بدءُوكم بالقتال

في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، فإنه قصاص بما فعلوا فيه، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾، وقاتلوهم ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، سُمّي الجزاء باسم الابتداء على ازدواج الكلام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

(١٩٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أراد به الجهاد وكل خير هو في سبيل الله، ولكنّ إطلاقه ينصرف إلى الجهاد، ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، قيل: الباء في قوله تعالىٰ: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ زائدة، يُريد: ولا تلقوا أيديكم، أي: أنفسكم إلى التهلكة عبّر بالأيدي عن الأنفس؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، أي: بما كسبتم، وقيل: الباء في موضعها، وفيه حذف، أي: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، أي الهلاك، وقيل: التهلكة كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك، أي: فلا تأخذوا في ذلك، وقيل: التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه، والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، والعرب لا تقول للإنسان: ألقى بيده إلا في الشرك، واختلفوا في تأويل هذه الآية، فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق، يقول: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بترك الإنفاق في سبيل الله، وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس في هذه الآية: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلاّ سهم أو مشقص ولا يقولن أحدكم إني لا أجد شيئاً وقال السدي فيها: انفق في سبيل الله، ولو عِقالاً ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، ولا تقلْ: ليس عندي شيء، وقال سعيدبن المسيِّب ومقاتل بن حيان: لمّا أمر الله تعالىٰ بالإنفاق قال رجل: أُمرنا بالنفقة في سبيل الله [تعالىٰ]، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء، فأنزل الله هذه الآية، وقال مجاهد فيها: لا يمنعكم نفقة في حق خِيفة العِيْلَة.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة، أخبرنا أبو غسان، أخبرنا خالد بن عبدالله الواسطي، أخبرنا واصل مولى أبي عيينة عن بشار بن أبي سيف، عن الوليد بن عبدالرحمٰن عن عياض بن غضيف قال: أتينا أبا عُبيدة نعوده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ أنفق نفقةً فاضلةً في سبيل الله، فبسبعمائة، ومن أنفق نفقةً على أهله فالحسنة بعشر أمثالها».

وقال زيد بن أسلم: كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة، فإما أن يُقطع بهم وإما أن يكونوا عيالاً، فأمرهم الله تعالىٰ بالإنفاق على أنفسهم في سبيل الله، ومن لم يكن عنده شيء ينفقه، فلا يخرج بغير نفقة ولا قوت فيُلقي بيده إلى التهلكة، فالتهلكة: أن يهلك من الجوع والعطش أو من المشي، وقيل: نزلت الآية في ترك الجهاد،

قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار، وذلك أن الله تعالىٰ لمّا أعزّ [دينه] ونصر رسوله، قلنا فيما بيننا: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيّه فلو رجعنا إلى أهلنا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

والتهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة بقسطنطينية في زمن معاوية، فتوفي هناك ودُفن في أصل سور القسطنطينية، وهم يستسقون به.

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزوِ ماتَ على شعبة من النفاق».

وقال محمد بن سيرين وعَبيدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله، قال أبو قُلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة، فييأس من رحمة الله وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالىٰ عن ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أي أحسنوا أعمالكم وأخلاقكم وتفضلوا على الفقراء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٩٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قرأ علقمة وإبراهيم

النخعي: «وأقيموا الحج والعمرة لله»، واختلفوا في إتمامهما فقال بعضهم: هو أن يُتِمَّهُمَا بمنَاسِكِهما وحُدودِهما وسُننهما، وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعي ومجاهد، وأركان الحجّ خمسة: الإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة، وحلق الرأس أو التقصير، وللحج تحلّلان، وأسباب التحلّل ثلاثة: رمي جمرة العقبة يوم النحر، وطواف الزيارة، والحلق، فإذا وُجد شيئان من هذه الأشياء الثلاثة حصل التحلّل الأول، وبالثلاث حصل التحلّل الثاني، وبعد التحلّل الأول يستبيحُ جميعَ محظوراتِ الإحرام إلاّ النساء، وبعد الثاني يستبيح الكل، وأركان العمرة أربعة: الإحرام، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والحلق. قال سعيد بن جبير وطاووس: تمام الحج والعمرة أن تُحرم بهما [مُفردَين مستأنَفَيْن] من دويرة أهلك، [وسُئل عليّ بن أبي طالب عن قوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قال: أن تحرم بهما من دُوَيْرة أهلك]، ومثله عن ابن مسعود، وقال قتادة: تمام العُمرة أن تُعمَل في غير أشهر الحجّ، فإن كانت في أشهر الحج ثم أقام حتى حج فهي متعة، وعليه فيها الهَدي إن وجدَه أو الصيام [إنْ لم يجد الهَدْي]، وتمام الحج أن يُؤتى بمناسكه كلها حتى لا يلزمه عامله دمٌ بسبب قِرانٍ ولا متعةٍ، وقال الضحّاك: إتمامها أن تكون النفقة حلالاً وينتهي عمّا نهى الله عنه، وقال سفيان الثوري: [إتمامها] أن تخرج من أهلك لهما، ولا تخرج لتجارة ولا لحاجة. قال عمر بن الخطاب: الوفد كثير والحاج قليل. واتفقتِ الأمةُ على وجوب الحج [على] من استطاع إليه سبيلاً، واختلفوا في وجوب العُمْرة، فذهب أكثر أهل العلم إلى وجوبها وهو قول عمر وعلي وابن عمر، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والله إن العمرة لقرينة الحج في كتاب الله، [قال الله تعالىٰ]: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير، وإليه ذهب الثوري والشافعي في أصحّ قوليه، وذهب قوم إلى أنها سنّة، وهو قول جابر وبه قال الشافعي، وإليه ذهب مالك وأهل العراق وتأوّلوا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، على معنى أتمّوهما إذا دخلتم فيهما، أمّا ابتداء الشروع فيها فتطوّع، واحتجّ من لم يوجبهما بما رُوي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله عن النبيّ ﷺ أنه سُئِلَ عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعتمرُوا خيرٌ لكم».

والقول الأول أصح، ومعنى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، أي: ابتدؤوهما فإذا دخلتم فيهما فأتمّوهما فهو أمر بالابتداء والإتمام، أي: أقيموهما؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي: ابتدؤه وأتمّوه.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا ابن أبي شيبة، أخبرنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عاصم، عن شقيق عن عبدالله قال:

قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحجّ والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكيرُ خَبثَ الحديدِ والذهبِ والفضةِ، وليس للحجّ المبرور جزاء إلا الجنّة».

وقال ابن عمر: ليس من خلق الله أحد إلا وعليه حجة وعُمرة واجبتان إن استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، فمن زاد بعد ذلك فهو خير وتطوّع، واتفقت الأمة على أنه يجوز أداء الحجّ والعمرة على ثلاثة أوجه: الإفراد والتمتع والقِرَان، فصورة الإفراد أن يُفرد الحج، ثم بعد الفراغ منه يعتمر، وصورة التمتع: أن يعتمر في أشهر الحج ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يُحرم بالحج من مكة، فيحج في هذا العام، وصورة القِرَان أن يُحرم بالحج والعمرة معاً، أو يحرم بالعمرة ثم يُدخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف، فيصير قارناً، واختلفوا في الأفضل من هذه الوجوه فذهب جماعة إلىٰ أن الإفراد أفضل ثم التمتع ثم القرآن وهو قول مالك والشافعي، لِما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الأسود محمد بن عبدالرحمٰن بن نوفل، عن عروة بن الزبير عن عائشة أمّ المؤمنين أنها قالت:

خرجنا مع رسول الله ﷺ عام

حَجّة الوداع فمنّا من أهلّ بعمرة، ومنّا من أهلّ بحج وعُمرة، ومنّا من أهلّ بالحج، وأهلّ رسولُ الله ﷺ بالحج، فأمّا من أهلّ بالعمرة فحلّ وأمّا من أهلّ بالحج أو جمع بين الحج والعمرة، فلم يَحِلَّ حتى كان يوم النحر.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جُريج عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وهو يحدث عن حَجّة النبيّ ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا ننوي إلا الحج، ولا نعرف غيره ولا نعرف العُمرة.

وروي عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ أفرد الحج.

وذهب قوم إلى أن القِرَان أفضل، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي واحتجوا بما:

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا محمد بن هشام بن مَلاّس النميري أخبرنا مروان بن معاوية الفزاري أخبرنا حميد [قال:] قال أنس بن مالك:

أهلَّ رسول الله ﷺ فقال: «لبيك بحجة وعُمرة»، وذهب قوم إلى أنّ التمتع أفضل، وهو قول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، واحتجّوا بما أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف

أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يحيى بن بكير، أخبرنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب، عن سالم بن عبدالله أن ابن عمر قال:

تمتّع رسول الله ﷺ في حَجّة الوداع بالعمرة إلى الحج، [وأهدى] فساق معه الهدي من ذي الحُلَيْفَة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلّ بالعمرة ثم أهلّ بالحج، [فتمتع الناس مع النبيّ ﷺ بالعُمرة إلى الحج]، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، ومنهم من لم يهدِ فلما قدم النبيّ ﷺ مكةَ قال للناس: «من كان منكم أهدَى فإنه لا يَحِلُّ من شيء حَرُم منه، حتى يقضي حجّه، ومن لم يكن منهم أهدَى فليَطُفْ بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة وليقصّر وليحلل، ثم ليهلّ بالحج فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»، فطاف حين قدم مكة واستلم الركن أول شيء، ثم خَبَّ ثلاثة أطواف ومشى أربعاً فركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين، ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف ثم لم يتحلّل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض فطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه، وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ مَنْ أهدى وساق الهدي من الناس.

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أخبرته عن النبيّ ﷺ في تمتّعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: قد اختلفت الرواية في إحرام النبيّ ﷺ، كما ذكرناه وذكر الشافعي في كتاب «اختلاف الحديث» كلاماً موجزاً أن أصحاب رسول الله ﷺ كان منهم المفرد والقارن والمتمتع، وكلٌّ كان يأخذ منه [ﷺ] أمر نُسكه ويصدر عن تعليمه، فأُضيف الكل إليه على معنى أنه أمر بها وأذن فيها، ويجوز في لغة العرب إضافة الشيء إلى الآمر به، كما يجوز إضافته إلى الفاعل له، كما يقال: بنى فلان داراً وأُريد أنه أمر ببنائها، وكما رُوي أن النبيّ ﷺ رجم ماعزاً.

وإنّما أمر برجمه، واختار الشافعي الإفراد، لرواية جابر وعائشة وابن عمر وقدّمها على رواية غيرهم لتقدم صحبة جابر للنبيّ ﷺ، وحُسن سياقه لابتداء قصة حَجّة الوداع وآخرها، ولفضل حفظ عائشة رضي الله عنها، وقرب ابن عمر من النبيّ ﷺ، ومال الشافعي في «اختلاف الحديث» إلى التمتّع، وقال: ليس شيء من الاختلاف أيسر من هذا، وإن كان الغلط فيه قبيحاً من جهة أنه مباح، لأن الكتاب ثم السنّة ثم ما لا أعلم فيه خلافاً يدلّ على أن التمتّع بالعمرة إلى الحجّ وإفراد الحج والقِرَان واسع كله، وقال من قال إنه أفرد الحج يشبه أن يكون قاله على ما [لا] يعرف من أهل العلم الذين أدركوا دَوْرَ رسول الله ﷺ أن أحداً لا يكون مقيماً على الحج إلا وقد ابتدأ إحرامه بالحج، قال الشيخ الإمام

رحمه الله: ومما يدلّ على أنه كان متمتعاً أن الرواية عن ابن عمر وعائشة متعارضة، وقد:

روينا عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تمتع رسول الله ﷺ في حَجّة الوداع بالعمرة إلى الحج.

وقال ابن شهاب عن عروة: إنّ عائشة أخبرته عن النبيّ ﷺ في تمتعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر.

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «هذه عمرة استمتعنا بها».

وقال سعد بن أبي وقاص [في المتعة]: صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه.

قال الشيخ الإمام: وما رُوي عن جابر أنه قال: خرجنا لا ننوي إلا الحج لا ينافي التمتّع، لأن خروجهم كان لقصد الحج، ثم منهم من قدّم العمرة ومنهم من أهلّ بالحج إلى أن أمره النبيّ ﷺ أن يجعله متعة. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾، اختلف العلماء في الإحصار الذي يُبيح للمحرم التحلّل من إحرامه، فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام والمضي في إحرامه من عدوٍ أو مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أو إضلال راحلة يُبيح له التحلّل، وبه قال ابن مسعود، وهو قول إبراهيم النخعي والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعُروة بن الزبير، وإليه ذهب سفيان الثوري وأهل العراق، [و] قالوا: لأن الإحصار في كلام العرب هو: حبس العلة أو المرض، وقال الكسائي وأبو عبيدة: ما كان من مرض أو ذهاب نفقة، يقال: منه أُحصر فهو مُحصرٌ، وما كان من حبس عدوٍ أو سجن يُقال: حُصر فهو مَحصُور [وَ] إنما جعل هُهنا حبس العدو إحصاراً قياساً على المرض إذ كان في معناه، واحتجّوا بما:

رُوي عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من كُسرَ أو عَرج فقد حلّ [و] عليه الحج من قابل»، قال عكرمة: فسألت ابن عباس وأبا هريرة فقالا: صدق.

وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحلّل إلا بحبس العدو، وهو قول ابن عباس، وقال: لا حصر إلا حصر العدو، ورُوي معناه عن ابن عمر وعبدالله بن الزبير، وهو قول سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق، وقالوا: الحصر والإحصار بمعنى واحد، وقال ثعلب: تقول العرب حصرت الرجل عن حاجته، فهو محصور، وأحصره العدو إذا منعه عن السير فهو محصر، واحتجّوا بأن نزول هذه الآية في قصة الحديبية [و] كان ذلك حبساً من جهة العدو، ويدلّ عليه قوله تعالى في سياق الآية: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾، والأمن يكون من الخوف، وضعفوا حديث الحجاج بن عمرو بما ثبت عن ابن عباس أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، وتأوّله بعضهم على أنه إنما يحل بالكسر والعرج إذا كان قد شرط ذلك في عقد الإحرام، كما:

رُوي أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة، فقال لها النبيّ ﷺ: «حُجّي واشترطي وقولي: اللّهمّ مَحِلّي حيث حبستني».

ثم المحصر يتحلّل بذبح الهدي وحلق الرأس، والهدي بشاة وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، ومحل ذبحة حيث أحصر عند أكثر أهل العلم، لأن النبيّ ﷺ ذبح الهدي عام الحديبية بها، وذهب قوم إلى أن المحصر يقيم على إحرامه، ويبعث بهديه إلى الحَرَم ويُواعد من يذبحه هناك ثم يحل، وهو قول أهل العراق، واختلف القول في المحصر إذا لم يجد هدياً، ففي قول: لا بدل له فيتحلّل والهدي في ذمّته إلى أن يجد، والقول الثاني: له بدل، فعلى هذا اختلف القول فيه، ففي قول: عليه صوم التمتّع، وفي قول: تقوّم الشاة بدراهم ويجعل الدراهم طعاماً فيتصدّق به، فإن عجز عن الإطعام صام عن كل مُدّ من الطعام يوماً كما في فدية الطِّيب واللبس، فإن المحرم إذا احتاج إلى ستر رأسه لحرّ أو بردٌ أو لبس قميص أو مرض فاحتاج إلى مداواته بدواء فيه طيب، فعلَ وعليه الفدية، وفديته على الترتيب والتعديل فعليه ذبح شاة، فإن لم يجد يقوّم الشاة بدراهم، والدراهم يشتري بها طعاماً فيتصدّق به، فإن عجز صام عن كل مُدّ [من الطعام] يوماً، ثم المحصر إن كان إحرامه بفرض قد استقرّ عليه فذلك الفرض في ذمّته،

وإن كان بحج تطوع فهل عليه القضاء؟ اختلفوا فيه فذهب جماعة إلى أنه لا قضاء عليه، وهو قول مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أن عليه القضاء وهو قول مجاهد والشعبي والنخعي وأصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، أي: فعليه ما تيسّر من الهدي، ومحله رفع، وقيل: ﴿ما﴾ في محل النصب، أي: فاهد ما استيسر، والهدي جمع هدية وهي اسم لكل ما يُهدَى إلى بيت الله تقرباً إليه، وما استيسر من الهدي شاة، قاله علي بن أبي طالب وابن عباس لأنه أقرب إلى اليسر، وقال الحسن وقتادة أعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾، اختلفوا في المحل الذي يحل المحصر ببلوغ هديه إليه، فقال بعضهم: هو ذبحه في الموضع الذي أحصر سواء كان في الحلّ أو في الحَرم، ومعنى ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ حيث يحلّ ذبحه فيه [وأكله].

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبدالله بن محمد أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر، أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة في قصة الحديبية، قال:

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلمّا لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبيّ الله أتحب ذلك! [قال: نعم، قالت] فاخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعوا حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك [و] نحر بُدْنَة ودعا حالقه فحلقه، فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً» [أي: ازدحاماً].

وقال بعضهم: محل هدي المحصر: الحَرَم، فإن كان حاجاً فمحله يوم النحر، وإن كان معتمراً فمحله يوم يبلغ هديه الحرم، قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾، معناه: لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقة لمرض أو لأذىً في الرأس من هوامّ أو صُداع ﴿فَفِدْيَةٌ﴾، فيه إضمار، أي: فحلق فعليه فدية، نزلت في كعب بن عُجرة.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحسن بن خلف، أخبرنا إسحاق بن يوسف عن أبي بشر وَرْقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حدّثني عبدالرحمٰن بن أبي ليلى عن كعب بن عُجْرة:

أن رسول الله ﷺ رآه وقملُه يسقط على وجهه، فقال: «أيؤذيك هوامُك»؟ قال: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يبين لهم أنهم يحلون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكّة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله ﷺ أن يُطعم فَرْقاً بين ستة مساكين، أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام.

قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾، أي: ثلاثة أيام، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾، أي: ثلاثة آصع على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾، واحدتها نسيكة، أي: ذبيحة أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، أيتها شاءَ ذَبَحَ، فهذه الفدية على التخيير والتقدير، ويتخيّر بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدّق، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكّة ويتصدّق به على مساكين الحرم، إلا هدياً يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أُحصر، أما الصوم فله أن يصوم حيث شاء، قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾، أي: من خوفكم وبرأتم من مرضكم، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، اختلفوا في هذه المتعة فذهب عبدالله بن الزبير إلى أن معناه: فمن أُحصر حتى فاته الحج ولم يتحلّل فقدم مكة خرج من إحرامه بعمل عُمرة واستمتع بإحلاله ذلك، بتلك العمرة إلى السنة المقبلة ثم حجّ، فيكون متمتّعاً بذلك الإحلال إلى إحرامه الثاني في العام القابل، وقال بعضهم: معناه فإذا أمنتم وقد حللتُم من إحرامكم بعد الإحصار، ولم تقضوا عمرة وأخرتم العمرة إلى السنة القابلة فاعتمرتم في أشهر الحجّ ثم حللتم فاستمتعم بإحلالكم إلى الحجّ ثم أحرمتم

بالحج، فعليكم ما استيسر من الهدي، وهو قول علقمة وإبراهيم النخعي وسعيد بن جُبير، وقال ابن عباس وعطاء وجماعة: هو الرجل يقدم معتمراً من أفق [من] الآفاق في أشهر الحجّ، فقضى عمرته وأقام حلالاً بمكّة حتى أنشأ منها الحج، فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعاً بالإحلال من العمرة إلى إحرامه بالحج، فمعنى التمتع: هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة بما كان محظوراً عليه في الإحرام إلى إحرامه بالحج، ولوجوبِ دم التمتع أربع شرائط: أحدها أن يُحرم بالعمرة في أشهر الحج، والثاني أن يحج بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة، والثالث أن يُحرم بالحج في مكة ولا يعود إلى الميقات لإحرامه، والرابع أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام، فمتى وجدت هذه الشرائط فعليه ما استيسر من الهدي، وهو دم شاة ويذبحها يوم النحر، فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج يجوز عند بعض أهل العلم كدماء الجنايات، وذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز قبل يوم النحر كدم الأضحية.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾، أي: صوموا ثلاثة أيام يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة، ولو صام قبله بعدما أحرم بالحج جاز، ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاث، في أيام التشريق، يُروى ذلك عن عائشة وابن عمر وابن الزبير، وهو قول مالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق، قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، أي: صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم، فلو صام السبعة قبل الرجوع إلى أهله لا يجوز، وهو قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن ابن عمر وابن عباس، وقيل: يجوز أن يصومها بعد الفراغ من أعمال الحجّ، وهو المراد من الرجوع المذكور في الآية، قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: ذكرها على وجه التأكيد، وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان، وقيل: فيه تقديم وتأخير، يعني: فصيام عشرة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم، فهي عشرة كاملة، وقيل: كاملة في الثواب والأجر، وقيل: كاملة فيما أُريد به من إقامة الصوم بدل الهدي، وقيل: كاملة بشروطها وحدودها، وقيل: لفظه خبرٌ ومعناه أمرٌ، أي: فأكملوها ولا تنقصوها، ﴿ذَلِكَ﴾، أي: هذا الحكم، ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، واختلفوا في حاضري المسجد الحرام، فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة، وهو قول مالك، وقيل: هم أهل الحرم، وبه قال طاووس، وقال ابن جُريج: أهل عرفة والرجيع وضجنان [ونخلتان]، وقال الشافعي: كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر، فهو من حاضري المسجد الحرام، وقال عكرمة: هم من دون الميقات، وقيل: هم أهل الميقات فما دونه، وهو قول أصحاب الرأي، ودَمُ القِرَان كدم التمتع، والمكي إذا قَرَن أو تمتع فلا هدي عليه.

قال عكرمة: سُئِل ابن عباس عن متعة الحج، فقال: أهلَّ المهاجرون والأنصار وأزواج النبيّ ﷺ في حَجّة الوَداع، وأهللنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا إهلالَكم بالحج عُمرةً إلا منْ قلّد الهدي»، فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ثم أُمرنا عشية التروية أن نُهلّ بالحجّ، فإذا فرغنا فقد تمّ حجُنا وعلينا الهدي. فجمعوا بين نسكين في عام، بين الحجّ والعمرة، فإن الله أنزل في كتابه وسنّة نبيه، وأباحه للناس من غير أهل مكّة، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ومن فاته الحج، وفواته يكون بفوات الوقوف بعرفة، حتى يطلع الفجر يوم النحر فإنه يتحلّل بعمل العمرة، وعليه القضاء من قابل، والفدية وهي على الترتيب والتقدير كفدية التمتع والقِرَان.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن نافع، عن سليمان بن يسار أن هناد بن الأسود جاء يوم النحر وعمر بن الخطاب ينحر هديَه فقال: يا أمير المؤمنين أخطأنا العدد كنّا نظنّ أن هذا اليوم يوم عرفة، فقال له عمر: اذهب إلى مكة فطف أنت ومن معك بالبيت، واسعوا بين الصفا والمروة، وانحروا هدياً إن كان معكم، ثم احلقوا أو قصروا، ثم ارجعوا فإذا كان عام قابل فحجّوا وأهدوا، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في أداء الأوامر، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، على ارتكاب المناهي.

(١٩٧) قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾، أي: وقت الحجّ أشهر معلومات، وهي: شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجّة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، ويُروى عن ابن عمر: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجّة، وكل واحد من اللفظين صحيح غير مختلف فيه، فمن قال: عشر عبّر به عن الليالي، ومن قال تسعٌ عبّر به عن الأيام، فإن آخر أيامها يوم عرفة وهو يوم التاسع، وإنما قال: ﴿أَشْهُرٌ﴾ بلفظ الجمع وهي شهران وبعض الثالث لأنها وقت، والعرب تسمي الوقتَ تاماً بقليله وكثيره، فتقول: أتيتك يوم الخميس، وإنّما أتاه في ساعة منه، وتقول: زرتُك العام، وإنّما زاره في بعضه، وقيل: الاثنان فما فوقهما جماعة، لأن معنى الجمع ضم الشيء إلى الشيء فإذا جاز أن يسمى الاثنان جماعة، جاز أن يُسمّى الاثنان وبعض الثالث جماعة، وقد ذكر الله تعالىٰ الاثنين بلفظ الجمع، فقال: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، أي: قَلْبَاكُمَا، وقال عروة بن الزبير وغيره: أراد بالأشهر شوّالاً وذا القعدة وذا الحجّة كَمَلاً، لأنه يبقى على الحاج أمورٌ بعد عرفة يجب عليه فعلها مثل الرمي والذبح والحلق وطواف الزيارة والبيتوتة بمنى، فكانت في حكم الحج، ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾، أي: فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

٣١

والتلبية، وفيه دليل على أن من أحرم بالحج في غير أشهر الحجّ لا ينعقد إحرامه بالحج، وهو قول ابن عباس وجابر، وبه قال عطاء وطاووس ومجاهد وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي، وقال: ينعقد إحرامه بالعمرة، لأنّ الله تعالىٰ خصّ هذه الأشهر بفرض الحجّ فيها، فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة، كما أنه علق الصلَوات بالمواقيت، ثم من أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لا ينعقد إحرامه عن الفرض، [وذهب جماعة إلى أنه ينعقد إحرامه بالحج]، وهو قول مالك والثوري وأبي حنيفة رضي الله عنهم، وأما العمرة فجميع أيام السنة لها وقتٌ إلاّ أن يكون متلبساً بالحج، روي عن أنس أنه كان بمكة فكان إذا حمّم رأسه خرج فاعتمر.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ بالرفع والتنوين [فيهما، وقرأ الآخرون بالنصب من غير تنوين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، وقرأ أبو جعفر كلها بالرفع والتنوين]، واختلفوا في الرفث، قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر: هو الجماع، وهو قول الحسن ومجاهد وعمرو بن دينار وقتادة وعكرمة والربيع وإبراهيم النخعي،

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لها بالفحش من الكلام، قال حصين بن قيس: أخذ ابن عباس رضي الله عنهما بذنب بعيره، فجعل يلويه وهو يحدو ويقول:

وهن يمشين بنا هميسا
إن تصدق الطير ننك لميسا

فقلت له: أترفث وأنت محرم؟ قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء، وقال طاووس: الرفث التعريض للنساء بالجماع وذكره بين أيديهن، وقال عطاء: الرفث قول الرجل للمرأة في حال الإحرام إذا حللت أصبتك، وقيل: الرفث الفحش والقول القبيح، أما الفسوق فقد قال ابن عباس: هو المعاصي كلها، وهو قول طاووس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهري والربيع

القرظي، وقال ابن عمر: هو ما نُهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظافر وأخذ الأشعار وما أشبههما، وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد: هو السباب.

بدليل قول النبيّ ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

وقال الضحاك: هو التنابز بالألقاب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا آدم أخبرنا شعبة أخبرنا سيّار أبو الحكم، قال:

سمعتُ أبا حازم يقول سمعت أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج لله فلم يرفثْ ولم يَفسُقْ رجع كيومَ ولدتْه أمه».

قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس: الجدال أن يماري صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه، وهو قول عمرو بن دينار وسعيد بن جبير وعكرمة والزهري وعطاء وقتادة، وقال القاسم بن محمد هو أن يقول بعضهم: الحجُ اليومَ ويقول بعضهم: الحجُ غداً، وقال القرظي: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتمّ من حجكم، وقال هؤلاء: حجنا أتمّ من حجكم.

وقال مقاتل: هو أن النبيّ ﷺ قال لهم في حَجّة الوداع وقد أحرموا بالحج: «اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا مَنْ قلّد الهدي»، قالوا: كيف نجعله عُمرة وقد سمّينا الحج؟ فهذا جدالهم.

وقال ابن زيد: كانوا يقفون مواقف مختلفة: كلهم يزعم أن موقفه موقف إبراهيم، فكانوا يتجادلون فيه. وقيل: هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بالمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وكان بعضهم يحج في ذي الحجّة، فكل يقول: ما فعلته هو الصواب، فقال جلّ ذكره: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، أي: استقرّ أمر الحج على ما فعله رسول الله ﷺ، فلا اختلاف فيه من بعد.

وذلك معنى قول النبيّ ﷺ: «ألاَ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمواتِ والأرض».

قال مجاهد: معناه ولا شك في الحجّ أنه في ذي الحجة، فأبطل النسيء. قال أهل المعاني: ظاهر الآية نفي، ومعناها: نهي، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا؛ كقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، أي: لا ترتابوا، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، أي: لا يخفى عليه فيجازيكم به.

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، نزلت في أُناس من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون: نحن متوكّلون، ويقولون: نحن نحج بيت الله فلا يطعمنا؟ فإذا قدموا مكة سألوا الناس، وربما يُفضي بهم الحال إلى النهب والغصب، فقال الله جلّ ذكره: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، أي: ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم، قال أهل التفسير: الكعك والزبيب والسويق والتمر ونحوها، ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ من السؤال والنهب، ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يا ذوي العقول.

(١٩٨) قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾،

أخبرنا عبدالواحد بن المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا علي بن عبدالله، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

كانت عُكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحجّ، قرأ ابن عباس كذا.

ورُوي عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنّا قوم نكري في هذا الوجه، يعني: إلى مكة، فيزعمون أن لا حج لنا؟ فقال: ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون؟ قلت: بلى، قال: أنت حاج، جاء رجل إلى النبيّ ﷺ يسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: حرج ﴿أَنْ

﴿تَبْتَغُوا فَضْلًا﴾ [رزقاً] ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: بالتجارة في مواسم الحج، ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾: دفعتم، والإفاضة: دفع بكثرة، وأصله من قول العرب: أفاض الرجل ماء، أي: صبّه، ﴿مِّنْ عَرَفَـٰتٍ﴾، هي جمع عرفة، جمع بما حولها وإن كانت بقعة واحدة، كقولهم: ثوب أخلاق.

واختلفوا في المعنى الذي لأجله سُمي الموقف عرفات، واليوم عرفة، فقال عطاء: كان جبريل عليه السلام يُري إبراهيم عليه السلام المناسك ويقول: أعرفت؟ فيقول: عرفتُ، فسمّي ذلك المكان عرفات، واليوم عرفة، وقال الضحاك: إن آدم عليه السلام لما أُهبط [من الجنة] إلى الأرض وقع بالهند وحواء بجدة، فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه، فاجتمعا بعرفات يوم عرفة وتعارفا، فسمّي اليوم عرفة والموضع عرفات، وقال السدي: لما أذّن إبراهيم في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية، وأتاه من أتاه أمره الله [تعالىٰ] أن يخرج إلى عرفات ونعتها له، فخرج فلما بلغ الجمرة عند العقبة استقبله الشيطان ليردّه، فرماه بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة فطار، فوقع على الجمرة الثانية، فرماه وكبّر فطار، فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبّر فلما رأى الشيطان أنه لا يطيقه ذهب، فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فلما نظر إليه لم يعرفه فجاز، فسُمي ذا المجاز، ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت، فسُمّي الوقت عرفة والموضع عرفات، حتى إذا أمسى ازدلف، [أي: قرب] إلى جمع، فسمّي المزدلفة. ورُوي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمر بذبح ابنه، فلما أصبح روّى يومه أجمع، أي: فكّر أمِنَ الله تعالىٰ هذه الرؤيا؟ أم من الشيطان؟ فسُمّي اليوم يوم التروية، ثم رأى ذلك ليلة عرفة ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالىٰ، فسُمّي اليوم يوم عرفة. وقيل: سُمّي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم، وقيل: سُمّي بذلك من العَرف، وهو الطيب، وسمّي منىً لأنه يُمنى فيه الدم، أي: يُصبّ فيكون فيه الفروث والدماء فلا يكون الموضع طيباً، وعرفات طاهرة عنها فتكون طيّبة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾: بالدعاء والتلبية، ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، وهو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة إلى المُحسّر، وليس المأزمان ولا المحسر من المشعر الحرام، وسُمّي مشعراً من الشّعار، وهي العلامة لأنه من معالم الحج، وأصل الحرام من المنع، فهو ممنوع [من] أن يفعل فيه ما لم يُؤذن فيه، وسُمّي المزدلفة جمعاً لأنه يُجمع فيه بين صلاتي المغرب والعشاء، والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس، ومن جمع قبل طلوعها من يوم النحر، قال طاووس: كان أهل الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس، ومن مزدلفة بعد أن تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير كيما نُغير، فأخر الله هذه، وقدم هذه.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن موسى بن عقبة عن كريب مولى عبدالله بن عباس عن أسامة بن زيد أنه سمعه يقول:

دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب، نزل فبال ثم توضأ فلم يسبغ الوضوء، فقلت له: الصلاة يا رسول الله، قال: فقال: «الصلاة أمامك»، فركب فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أُقيمت الصلاة فصلّى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلاّها ولم يصل بينهما شيئاً.

وقال جابر: دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسبّح بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلّى الفجر حين تبيّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب [ناقته] القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، ودفع قبل أن تطلع الشمس.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا زهير بن حرب أخبرنا وهب بن جرير، أخبرنا أبي عن يونس الأيلي عن الزهري عن

عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أسامة بن زيد كان رِدْفَ رسول الله ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى، قال: فكلاهما قالا: لم يزل النبيّ ﷺ يُلبّي حتى رمَى جمرةَ العقبة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، أي: واذكروه بالتوحيد والتعظيم، كما ذكركم بالهداية، فهداكم لدينه ومناسك حجّه، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: وقد كنتم [قبل]، [أي]: وما كنتم من قبله إلا من الضالين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، أي: وما نظنك إلا من الكاذبين، والهاء في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ راجعة إلى الهُدى، وقيل: إلى رسول الله ﷺ كناية عن غير مذكور.

(١٩٩) قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، قال أهل التفسير: كانت قريش وحلفاؤها ومَنْ دَانَ بدينها وهم الحُمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله وقُطّان حرمه، فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه، ويتعظّمون أن يقفوا مع [سائر العرب] بعرفات، [وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات]، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحُمسُ من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس، وأخبرهم أنه سنّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقال بعضهم: خاطب به جميع المسلمين، وقوله تعالىٰ: قال ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ من جمع، أي: ثم أفيضوا من جمع إلى مِنىً، وقالوا: لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع، فكيف يسوغ أن يقول: فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ثم أفيضوا من عرفات؟ والأول قول أكثر أهل التفسير، وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: فمن فرض فيهن الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام، وقيل: ثم بمعنى الواو، أي: وأفيضوا؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧]، وأما الناس فهم العرب كلهم غير الحمس، وقال الكلبي: هم أهل اليمن وربيعة، وقال الضحاك: الناس هٰهنا إبراهيم عليه السلام وحده؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]، وأراد محمداً ﷺ وحده، ويقال هذا الذي يُقتدَى به ويكون لسانَ قومه، وقال الزهري: الناس هٰهنا آدم عليه السلام وحده، دليله قراءة سعيد بن جُبير: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسِي﴾، بالياء، وقال: هو آدم نسي عهد الله حين أكل من الشجرة.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبدالله بن يوسف أخبرنا مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه قال: سئل أسامة وأنا جالس كيف كان [يسير] رسول الله ﷺ في حجة الوداع حين دفع؟ قال: كان يسيرُ العَنَق، فإذا وجد فجوةً نَصَّ.

قال هشام: والنص فوق العنق.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا إبراهيم بن سويد، حدثني عمرو بن أبي عمرو مولىٰ المطلب قال: أخبرني سعيد بن جُبير مولى والبة الكوفي حدثني ابن عباس أنه دفع مع النبيّ ﷺ يوم عرفة، فسمع النبيّ ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإنّ البرّ ليس بالإيضاع»، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢٠٠) قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾، أي: فرغتم من حجكم وذبحتم نَسَائِكَكُم، أي: ذبائحكم، يقال: نسك الرجل ينسك نَسْكاً إذا ذبح نسيكته، وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بالتكبير والتحميد والثناء عليه، ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائها، فأمرهم الله بذكره، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإني الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم، قال ابن عباس وعطاء: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء، وذلك أن الصبي أول ما يتكلّم يلهج بذكر أبيه لا بذكر غيره، فيقول الله: فاذكروا الله لا غير، كذكر الصبي

أباه، ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، وسئل ابن عباس عن قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، فقيل: قد يأتي على الرجل اليوم لا يذكر فيه أباه، قال ابن عباس: ليس كذلك ولكن أن تغضب لله إذا عُصي أشدّ من غضبك لوالديك إذا شتما، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، يعني: بل أشدّ، أي: أكثر ذكراً، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾، أراد به المشركين كانوا لا يسألون الله تعالىٰ في الحجّ إلا الدنيا، يقولون: اللّهمّ أعطنا غنماً وإبلاً وبقراً وعبيداً، وكان الرجل يقوم فيقول: اللّهمّ إن أبي كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته، قال قتادة: هذا عبدٌ نيتُه الدنيا لها أنفق ولها عمل ونَصب، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾: من حظّ ونصيب.

﴿٢٠١﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، يعني: المؤمنين، واختلفوا في معنى الحسنتين، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: في الدنيا حسنة امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة الجنة.

أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد الحنيفي أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الطوسي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خلاد أنا الحارث بن [أبي] أسامة أنا أبو عبدالرحمٰن المقري، أخبرنا حيوة وابن لهيعة قالا: أخبرنا شرحبيل بن شريك أنه سمع أبا عبدالرحمٰن الحُبُلي يحدث عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه:

عن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة».

وقال الحسن: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ العلم والعبادة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ الجنة. وقال السدي وابن حيان: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقاً حلالاً وعملاً صالحاً، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة الثواب.

أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبدالله بن أبي توبة أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلاّل، ثنا عبدالله بن المبارك عن يحيى بن أيوب حدثني عُبيد الله بن زَحْر عن عليّ بن يزيد عن القاسم أبي عبدالرحمٰن عن أبي أمامة:

عن النبيّ ﷺ قال: «أغبَطُ أوليائي عندي مؤمنٌ خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه فأطاعه في السرّ وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك» ثم نفض بيده فقال: «هكذا عُجِّلت منيّته، قلَّتْ بواكيه، قلَّ تُراثه».

وقال قتادة: في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية، وقال عوف في هذه الآية: من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبدالله بن علي الكركاني الطوسي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور السمسار، أخبرنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي الرازي، أخبرنا محمد بن عبدالله الأنصاري، أخبرنا حميد الطويل عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

رأى رسول الله ﷺ رجلاً قد صار مثل الفرخ، فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إيّاه؟» فقال: يا رسول الله كنت أقول: اللّهمّ ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فقال: «سبحان الله لا تستطيعه ولا تُطيقه، هلاّ قلت: اللّهمّ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن أبي إسحاق الحجاجي، أخبرنا أبو العباس محمد بن عبدالرحمٰن الدغولي، أخبرنا محمد بن مشكان أخبرنا أبو داود أخبرنا شعبة عن ثابت عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الكسائي أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه [عن]

۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

عبدالله بن السائب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فيما بين ركن بني جمح والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿٢٠٢﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾: حظ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾: من الخير والدعاء بالثواب والجزاء، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، يعني: إذا حاسب عبده فحسابهُ سريع لا يحتاج إلى عقد يد ولا وَعْي صدر ولا إلى رُؤْيَةٍ ولا فكرٍ، قال الحسن: أسرع من لمح البصر. وقيل: معناه إتيان القيامة قريب لأن ما هو كائن لا محالة فهو قريب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

﴿٢٠٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، يعني: التكبيرات أدبار الصلاة وعند الجمرات، يكبّر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات، ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار، سمّيت معدودات لقلّتهن؛ كقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، والأيام المعلومات: عشر ذي الحجّة آخرهن يوم النحر، هذا قول أكثر أهل العلم، ورُوي عن ابن عباس: المعلومات يوم النحر، ويومان بعده والمعدودات أيام التشريق، وعن عليّ قال: المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وقال عطاء عن ابن عباس: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر وأيام التشريق. وقال محمد بن كعب: هما شيء واحد وهي أيام التشريق.

ورُوي عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله».

ومن الذكر في أيام التشريق التكبير، واختلفوا فيه فروي عن عمرو وعبدالله بن عمر أنهما كانا يكبّران بمنى تلك الأيام خلف الصلاة وفي المجالس وعلى الفراش والفسطاط وفي الطريق، ويكبّر الناس بتكبيرهما، ويتأولان هذه الآية، والتكبير أدبار الصلوات مشروع في هذه الأيام في حق الحاج وغير الحاج عند عامة العلماء، واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يبتدىء التكبير عقب صلاة الصبح من يوم عرفة ويختم بعد العصر من آخر أيام التشريق، يُروى ذلك عن عليّ رضي الله عنه، وبه قال مكحول وإليه ذهب أبو يوسف رضي الله عنه [وهو المرجح عند الشافعي]، وذهب قوم إلى أنه يبتدىء التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة، ويختتم بعد العصر من يوم النحر، يُروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال قوم: يبتدىء التكبير عقيب صلاة الظهر من يوم النحر ويختتم بعد [صلاة] الصبح من آخر أيام التشريق، يُروى ذلك عن ابن عباس، وبه قال مالك والشافعي، قال الشافعي: لأن الناس فيه تبع للحاج، وذكر الحاج قبل هذا الوقت التلبية، ويأخذون في التكبير يوم النحر من صلاة الظهر، ولفظ التكبير: كان سعيد بن جبير والحسن يقولان: الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثلاثاً نسقاً، وهو قول أهل المدينة وإليه ذهب الشافعي، وقال: وما زاد من ذكر الله فهو حسن، وعند أهل العراق يكبّر اثنين، يُروى ذلك عن ابن مسعود.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أراد أن من نَفَرِ الحاج في اليوم الثاني من أيام التشريق، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وذلك أنه على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق، ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، عند كل جمرة سبع حصيات، ورخّص في ترك البيتوتة لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج، ثم

كل من رمى اليوم الثاني من أيام التشريق وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة، ورمى يومها فذلك له واسع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، ومن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث ثم ينفر، [وقوله تعالى] ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، يعني: لا إثم على من تعجّل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله، ومن تأخر حتى ينفر في اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تأخره، وقيل معناه: فمن تعجّل فقد ترخّص ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالترخص، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [في ذلك] بترك الترخص، وقيل معناه: رجع مغفوراً له لا ذنب عليه تعجل أو تأخر.

كما روينا: «من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

وهذا قول علي وابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، أي: لمن اتقى أن يصيب في حجة شيئاً نهاه الله عنه، كما قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق»، قال ابن مسعود: إنما جُعلت مغفرة الذنوب لمن اتّقى الله تعالىٰ في حجّه، وفي رواية الكلبي عن ابن عباس معناه: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الصيد، لا يحلّ له أن يقتل صيداً حتى تخلو أيام التشريق، وقال أبو العالية: ذهب إثمهُ إن اتقى فيما بقي من عمره، [﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: تُجمعون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم].

(٢٠٤) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال الكلبي ومقاتل وعطاء: نزلت في الأخنس بن شُريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أُبي، وسُمّي الأخنس لأنه [كان] خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله ﷺ فيجالسه ويُظهر الإسلام [عنده]، ويقول [له]: إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك، وكان منافقاً فكان رسول الله ﷺ يدني مجلسه، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: تستحسنه ويعظم في قلبك.

ويُقال في الاستحسان أعجبني كذا، وفي الكراهية والإنكار: عجبتُ من كذا، ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾، يعني: قول الأخنس المنافق: والله إني بك مؤمن ولك محب، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾، أي: شديد الخصومة، يقال: لددتَ يا هذا وأنت تَلِدّ لداً ولَدادةً، فإذا أردت أنه غلب على خصمه قلت: لدّه يلدّه لدّاً، يقال: رجل ألدّ وامرأة لدّاء وقومٌ لُدٌّ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، قال الزجاج: اشتقاقه من لدّيدي العنق وهما صفحتاه، وتأويله: أنه في أيّ وجهٍ أخذ من يمين أو شمال، في أبواب الخصومة غلب، والخِصام: مصدر خاصمه خصاماً ومخاصمةً، قاله أبو عبيدة، وقال الزجاج: وهو جمع خصم، يقال: خصم وخصام وخُصوم، مثل: بحر وبحار وبُحور، قال الحسن: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾، أي: كاذب القول، قال قتادة: شديد القسوة في المعصية، جدل بالباطل يتكلّم بالحكمة، ويعمل بالخطيئة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو عاصم عن ابن جريج، عن ابن أبي مُليكة عن عائشة رضي الله عنها:

عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ أبغض الرجال إلى الله تعالىٰ الألدُّ الخصم».

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾، أي: أدبر وأعرض عنك، ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: عمل فيها، وقيل: سار فيها ومشى، ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، قال ابن جريج: قطع الرحم وسفك دماء المسلمين، ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾، وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيّتهم ليلاً فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، قال مقاتل: خرج إلى الطائف مقتضياً مالاً له على غريم فأحرق له كدساً وعقر له أتاناً، والنسل: نسل كل دابة، والناس منهم: وقال الضحاك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾، أي: ملك الأمر وصار والياً ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال مجاهد في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: إذا وَلِيَ فعمل بالعدوان والظلم، فأمسك الله المطر وأهلك الحرث والنسل، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، أي: لا يرضى بالفساد، وقال سعيد بن المسيب: قطع الدراهم من الفساد في الأرض.

(٢٠٦) قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ

ٱللَّهَ﴾، أي: خَفِ الله، ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾، أي: حملته العزة، وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم، أي: بالظلم والعزة والتكبّر والمِنعة، وقيل معناه: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾ للإثم الذي في قلبه، فأقام الباء مقام اللام، قوله: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، أي: كافيه، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، أي: الفراش، قال عبدالله بن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال للعبد: اتقِ اللّهَ فيقول: عليك بنفسك، ورُوي أنه قيل لعمر بن الخطاب: اتّق الله فوضع خده على الأرض تواضعاً لله عزّ وجلّ.

(٢٠٧) قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، أي: لطلب رضا الله تعالىٰ، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

رُوي عن ابن عباس والضحاك أن هذه الآية نزلتْ في سرية الرجيع، وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة إنا قد أسلمنا، فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلّمونا دينك، وكان ذلك مكراً منهم، فبعث رسول الله ﷺ خُبَيْب بن عدي الأنصاري ومَرْثد بن أبي مَرْثد الغَنويّ وخالد بن بكير، وعبدالله بن طارق بن شهاب البَلوي وزيد بن الدَّثِنَة، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري.

قال أبو هريرة: بعث رسول الله ﷺ عشرة عيناً وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فساروا فنزلوا ببطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجوة فأكلوا [وطرحوا النوىٰ] فمرّت عجوز فأبصرت النَّوَى فرجعت إلى قومها بمكة وقالت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب، من أصحاب محمد ﷺ، فركب سبعون رجلاً منهم معهم الرماح حتى أحاطوا بهم، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ذكروا [ذلك لحي] من هُذيل يقال لهم: بنو لحيان [فنفروا لهم] بقريب من مائة رجلٍ رام، فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا مأكلَهم التمر في منزل نزلوه فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم [فلحقوهم] فلما أحسّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد فأحاط بهم القومُ فقتلوا مَرْثداً وخالداً وعبدالله بن طارق فنثر عاصم بن ثابت كنانته وفيها سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلاً من عظماء المشركين ثم قال: اللّهمّ إني قد حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخر النهار، ثم أحاط [به] المشركون فقتلوه فلمّا قتلوه أرادُوا جزّ رأسه ليبيعوه من سَلافة بنت سعد بن شُهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، فأرسل الله رِجْلاً من الدَّبْر وهي الزنابير فحمت عاصماً فلم يقدروا عليه، فسُمّي حميُ الدَّبْر فقالوا: دعوه حتى نمسي فتذهب عنه [الدبر] فنأخذه، فجاءت سحابة سوداء وأمطرت مطراً كالعَزالي فبعث الله الوادي غديراً فاحتمل عاصماً فذهب به إلى الجنة، وحمل خمسين من المشركين إلى النار، وكان عاصم قد أعطى الله تعالىٰ عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً أبداً، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدّبر منعته: عجباً لحفظ الله العبدالمؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً أبداً فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع عاصم في حياته، وأسر المشركون خُبيب بن عدي الأنصاري وزيد بن الدَّثِنَة فذهبوا بهما إلى مكّة، فأمّا خُبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ليقتلوه بأبيهم، وكان خُبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، حتى أجمعوا على قتله فاستعار من بعض بنات الحارث موسىٰ ليستحدّ بها فأعارته، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة فما راع المرأة إلا خُبيب قد أجلس الصبي على فخذه والموسى بيده، فصاحت المرأة، فقال خُبيب أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن الغدر ليس من شأننا، فقالت المرأة بعد: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خُبيب والله لقد وجدته يوماً يأكل قِطْفاً من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة إن كان إلا رزقاً رزقه الله خُبيباً، ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلّ وأرادوا أن يصلبوه، فقال لهم خُبيب: دعوني أصلي ركعتين فتركوه، فكان خُبيب هو أول مَنْ سنّ لكل مسلم قُتل صبراً الصّلاة، فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن يحسبوا أن ما بي

جزع لزدت، اللّهمّ أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تُبق منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

فلستُ أبالي حين أُقتل مسلماً
على أيّ شق كان في اللّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزّعِ

فصلبوه حياً فقال: اللّهمّ إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي، ثم قام أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، ويقال: كان رجل من المشركين، يقال له سلامان أبو ميسرة معه رمح فوضعه بين ثديي خُبيب فقال له خبيب: اتّق الله فما زاده ذلك إلا عتواً فطعنه فأنفذه [من ظهره]، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾، يعني: سلامان، وأما زيد بن الدَّثِنَة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه، واجتمع معه رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن بمكانك نضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُبّ أصحاب محمّد محمداً، ثم قتله النسطاس، فلما بلغ النبيّ ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه: «أيكم ينزل خُبيباً عن خشبته وله الجنّة»، فقال الزّبير: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود، فخرجا يمشيان بالليل ويكمنان بالنهار، حتى أتيا التنعيم ليلاً وإذا حول الخشبة أربعون رجلاً من المشركين نيام نشاوى، فأنزلاه فإذا هو رطب ينثني لم يتغيّر منه شيء بعد أربعين يوماً ويده على جراحته وهي تبض دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك، فحمله الزبير على فرسه وسارا، فانتبه الكفار وقد فقدوا خُبيباً فأخبروا قريشاً فركب منهم سبعون فلما لحقوهما قذف الزبير خُبيباً فابتلعته الأرض، فسمي بليع الأرض، فقال الزبير: ما جراكم علينا يا معشر قريش، ثم رفع العمامة عن رأسه فقال: أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبدالمطلب، وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدفعان عن شبليهما، فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة وقدما على رسول الله ﷺ وجبريل عنده، فقال: يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين [الرجلين] من أصحابك فنزل في الزبير والمقداد بن الأسود: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، حين شريا أنفسهما بإنزال خُبيب عن خشبته.

وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سِنان الرومي، حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين، فعذّبوهم فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير لا يضرّكم أمِنكم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكّة ما شاء الله، ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال، فقال له أبو بكر: ربح بيعك يا أبا يحيى، فقال له صُهيب: وبيعك فلا تتحسّر، قال صهيب: ما ذاك؟ فقال: أنزل الله فيك، وقرأ عليه هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيب وعطاء: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبيّ ﷺ، فاتّبعه نفرٌ من مشركي قريش، فنزل عن راحلته ونثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم إني لَمِنْ أرماكم رجلاً، والله لا أضع سهماً مما في كنانتي إلا في قلب رجل منكم، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بكل سهم من كنانتي [رجلاً منكم] ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي، ثم افعلوا ما شئتم [بي]، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي، قالوا: نعم، ففعل ذلك، فأنزل الله [فيه] هذه الآية.

وقال الحسن: أتدرون فيم نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقى الكافر، فيقول له: قل لا إله إلاّ الله، فيأبى أن يقولها، فقال المسلم: والله لأشرين نفسي لله، فتقدم فقاتل وحده حتى قُتل.

وقيل: نزلت الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن عباس: أرى من يَشري نفسه ابتغاء مرضات الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم، قال: [هذا] وأنا أشري نفسي لله فقاتله فاقتتل الرجلان لذلك، وكان عليّ إذا قرأ هذه الآية يقول:

اقتتلا وربِّ الكعبة، وسمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾، فقال عمر: إنا لله وإنّا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقُتل.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا عبدالرحمٰن بن [أبي] شريح أخبرنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة:

أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال: «أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر».

﴿٢٠٨﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾، قرأ أهل الحجاز والكسائي ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ هٰهنا بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها، وفي سورة الأنفال [﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾] بالكسر، وقرأ أبو بكر والباقون بالفتح، وفي سورة محمد ﷺ بالكسر، حمزة وأبو بكر.

نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب، عبدالله بن سلام النضيري وأصحابه، وذلك أنهم كانوا يعظّمون السبت ويكرهون لحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا وقالوا: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فَلْنَقُمْ بها في صلاتنا بالليل، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾، أي: في الإسلام، قال مجاهد: في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم كافة أي جميعاً، وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافين عن المجاوزة إلى غيره، وأصل السلم من الاستسلام والانقياد، ولذلك قيل: للصلح سلم.

قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم، فعدّ الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والعمرة والجهاد والأمر المعروف والنهي عن المنكر، وقال: قد خاب من لا سهم له، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ﴾، أي: آثاره فيما زيّن لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾،

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش، أخبرنا علي بن عبدالعزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام، أخبرنا هشيم أخبرنا مجالد عن الشعبي، عن جابر بن عبدالله:

عن النبيّ ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود فتُعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تَهوكَتِ اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي».

﴿٢٠٩﴾ ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾: أي ضللتم، وقيل: مِلتم، يقال: زلت قدمه تزل زلاً وزَللاً إذا دحضت، قال ابن عباس: يعني الشرك، قال قتادة: قد علم الله أنه سيزل زالّون من الناس، فتقدّم في ذلك وأوعد فيه ليكون له به الحجّة عليهم، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، أي: الدّلالاتِ الواضحاتِ، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: في نقمته، ﴿حَكِيمٌ﴾: في أمره، فالعزيز: هو الغالب الذي لا يفوته شيء، والحكيم: ذُو الإصابة في الأمر.

﴿٢١٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾، أي: هل ينظر التاركون الدخول في السلم والمتَّبِعون خطوات الشيطان، يقال: نظرته وانتظرته بمعنىً واحد، فإذا كان النظر مقروناً بذكر الله أو بذكر الوجه أو إلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية، ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ﴾، جمع ظُلة، ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾، وهو السحاب الأبيض الرقيق سُمّي غماماً لأنه يغم، أي يستر، وقال مجاهد: هو غير السحاب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وقال مقاتل: كهيئة الضباب أبيض، قال الحسن: في سترة من الغمام، فلا ينظر إليه أهل الأرض، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قرأ أبو جعفر بالخفض عطفاً على الغمام، تقديره مع الملائكة، تقول العرب: أقبل الأمير في العسكر، أي: مع العسكر، وقرأ الباقون بالرفع على معنى إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظُلل من الغمام، والأولى في هذه الآية وما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله تعالىٰ، ويعتقد أن الله عزّ اسمه منزّه عن سمات الحدوث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة، قال الكلبي: هذا هو [العلم] المكتوم الذي لا يُفسر، وكان مكحول والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن

الجزء الثاني — سورة البقرة

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

٣٣

سعد وأحمد وإسحاق، يقولون فيها وفي أمثاله: اقروها كما جاءت بلا كيف، قال سفيان بن عيينة: كلما وصفَ اللّهُ به نفسَه في كتابه فتفسيره: قراءتُه والسكوتُ عنه، ليس لأحد أن يفسّره إلا الله تعالىٰ ورسوله.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: وجب العذاب وفُرغ من الحساب، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق يوم القيامة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم.

﴿٢١١﴾ قوله تعالىٰ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: سل يا محمد يهود المدينة: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾: أعطينا آباءهم وأسلافهم، ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾، دَلاَلةٍ واضحة على نبوّة موسى عليه السلام، مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها، وقيل: معناها الدلالات التي آتاهم الله في التوراة والإنجيل على نبوّة محمد ﷺ ﴿وَمَن يُبَدِّلْ﴾، يعني: يُغير ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: كتاب الله، وقيل: عهد الله، وقيل: من يُنْكِر الدّلالة على نبوة محمد ﷺ، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿٢١٢﴾ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، الأكثرون على أن المُزيّن هو الله تعالىٰ، والتزيين من الله تعالىٰ هو: أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة، فنظر الخلق [إليها] بأكثر من قدرها فأعجبتهم فَفُتنوا بها، وقال الزجاج: زين لهم الشيطان، قيل: نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه، كانوا يتنعمون بما بسط الله لهم في الدنيا من المال ويكذّبون بالمعاد، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: يستهزؤون بالفقراء من المؤمنين، قال ابن عباس: أراد بالذين آمنوا عبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيباً وبلالاً وخباباً وأمثالهم، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين عبدالله بن أُبي وأصحابه وكانوا يتنعمون في الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم، وقال عطاء: نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وبني قينقاع، سخروا من فقراء المهاجرين، فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بني قريظة والنضير بغير قتال، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لفقرهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، يعني: هؤلاء الفقراء، ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾، لأنهم في أعلى عليّين وهم في أسفل السافلين.

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أخبرنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمٰن البزاز أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحاق الدّبري أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النّهدي عن أسامة بن زيد قال:

قال رسول الله ﷺ: «وقفت على باب الجنّة فرأيت أكثر أهلها المساكين، ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء، وإذا أهل الجد محبوسون إلا من كان منهم من أهل النار، فقد أمر به إلى النار».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا»؟ فقال رجل من أشراف الناس: هذا والله حري إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرّ رجل [آخر فقال له رسول الله ﷺ]: «ما رأيك

في هذا»؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، [قال ابن عباس]: يعني كثيراً بغير مقدار، لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل، يريد يوسع على من يشاء ويبسط لمن يشاء من عباده، وقال الضحاك: يعني من غير تبعة يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل: هذا يرجع إلى الله، معناه: يقتّر على من يشاء ويبسط لمن يشاء، ولا يُعطي كل أحد بقدر حاجته بل يعطي الكثير لمن لا يحتاج إليه ولا يُعطي القليل مَنْ يحتاج إليه، فلا يُعترض عليه ولا يُحاسَب فيما يرزق، ولا يُقال: لِمَ أعطيت هذا وحرمت هذا، ولِمَ أعطيت هذا أكثر مما أعطيت ذاك، [لا يسأل عما يفعل]، وقيل: معناه لا يخاف نَفَاذَ خزائنه، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها لأن الحساب من المعطي إنما يكون لمن يخاف من نفاذ خزائنه، [والله تعالىٰ خزائنه لا تنقص بكثرة الإنفاق].

(٢١٣) قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: على دين واحد، قال مجاهد: أراد آدم وحده كان أمة واحدة، [قال]: سُمّي الواحد بلفظ الجمع، لأنه أصل النسل وأبو البشر، ثم خلق الله تعالىٰ منه حوّاء ونشر منهما الناس فانتشروا، وكانوا مسلمين إلى أن قتل [قابيل] هابيل فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾، قال الحسن وعطاء: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملّة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وغيره من النبيّين، وقال قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح، وكان بينهما عشرة قرون، كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا في زمن نوح، فبعث الله إليهم نوحاً فكان أول نبي بُعث، ثم بعث بعده النبيّين، وقال الكلبي: هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين، ثم اختلفوا بعد وفاة نوح، ورُوي عن ابن عباس قال: كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة كفاراً كلهم، فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيّين، وقيل: كان العرب على دين إبراهيم إلى أن غيّره عمرو بن لحيّ، ورُوي عن أبي العالية عن أُبي بن كعب قال: كان الناس حين عُرضوا على آدم وأُخرجوا من ظهره، وأقرّوا بالعبودية لله تعالىٰ أمةً واحدة مسلمين كلهم، ولم يكونوا أمةً واحدة قط غير ذلك اليوم، ثم اختلفوا بعد آدم، نظيره في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]، وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكورون في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون نبياً، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: بالثواب من آمن وأطاع، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: محذّرين بالعقاب من كفر وعصى، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، أي: الكتب، تقديره: [وأنزل مع كل واحد منهم] الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالعدل والصدق، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿لِيُحْكَمَ﴾ بضم الياء وفتح الكاف هٰهنا، وفي أول آل عمران وفي النور موضعين، لأن الكتاب لا يحكم في الحقيقة إنما يُحكم به، وقراءة العامة بفتح الياء وضمّ الكاف، أي: ليحكم الكتاب، ذكره على سعة الكلام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقيل: معناه ليحكم كل نبيّ بكتابه، ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾، أي: في الكتاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، أي: أُعطوا الكتاب، ﴿مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، يعني: أحكام التوراة والإنجيل، قال الفراء: ولاختلافهم معنيان: أحدهما كفرُ بعضهم بكتاب بعض، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، والآخر: تحريفهم كتاب الله، قال الله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقيل: الآية راجعة إلى محمد ﷺ وكتابه، اختلف فيه أهل الكتاب ﴿مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، صفة محمد ﷺ في كتبهم، [ما] ﴿بَغْيًا﴾ وظلماً وحسداً ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا اخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، أي: لما اختلفوا فيه، ﴿مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، بعلمه وإرادته فيهم، قال ابن زيد في هذه الآية: اختلفوا في القبلة فمنهم من يصلّي إلى المشرق ومنهم من يصلّي إلى المغرب، ومنهم من يصلّي إلى بيت المقدس، فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا في الصيام، فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في الأيام، فأخذت اليهود السبت،

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

والنصارى الأحد، فهدانا الله للجمعة، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، فهدانا الله للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود لفِرْية، وجعلته النصارى إلٰهاً، فهدانا الله للحق فيه، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٢١٤﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾، قال قتادة والسدي: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدّة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقيل: نزلت في حرب أُحد، وقال عطاء: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتدّ عليهم الضر لأنهم خرجوا بِلا مالٍ وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرّ قومٌ النفاق، فأنزل الله تعالىٰ تطييباً لقلوبهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، معناه: أحسبتم والميم صلة قاله الفراء، وقال الزجاج: بل حسبتم، ومعنى الآية: أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾، أي: ولم يأتكم و﴿ما﴾ صلة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾، شبه الذين مضوا، ﴿مِن قَبْلِكُم﴾: من النبيين والمؤمنين، ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾: الفقر والشدّة والبلاء، ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: المرض والزمانة، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾، أي: حُركوا بأنواع البلايا والرزايا وخُوّفوا، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، ما زال البلاء بهم حتى استبطؤوا النصر، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، قرأ نافع ﴿حَتَّىٰ يَقُولُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالرفع، معناه: حتى قال الرسول، وإذا كان الفعل الذي يلي حتى في معنى الماضي، ولفظه لفظ المستقبل، فَلَكَ فيه وجهان: الرفع والنصب، فالنصب على ظاهر الكلام لأن ﴿حَتَّىٰ﴾ تنصب الفعل المستقبل، والرفع لأن معناه الماضي، و﴿حَتَّىٰ﴾ لا تعمل في الماضي.

﴿٢١٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً ذا مال، فقال: يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾.

وفي قوله ﴿مَاذَا﴾ وجهان من الإعراب، أحدهما: أن يكون محله نصباً لقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾، تقديره: أي شيء ينفقون، والآخر: أن يكون رفعاً بـ ﴿ما﴾ ومعناه: ما الذي ينفقون؟ ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، أي: من مال، ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾، يُجازيكم به، قال أهل التفسير: كان هذا قبل فرض الزكاة فنسخت بالزكاة.

﴿٢١٦﴾ قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، أي: فرض عليكم الجهاد، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال عطاء: الجهادُ تطوّع، والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم، وإليه ذهب الثوري، واحتجّ من ذهب إلى هذا بقوله تعالىٰ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]، ولو كان القاعد تاركاً فرضاً لم يكن يعده الحُسنى، وجرى بعضهم على ظاهر الآية، وقال: الجهاد فرض على كافة المسلمين إلى قيام الساعة.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي الخوارزمي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم

الثعلبي، أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أُبيّ الفراتي، [أخبرنا أبو الهيثم بن كليب]، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غَرزة، أخبرنا سعيد بن عثمان السعيدي عن عمر بن محمد بن المنكدر عن سُمَيّ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغزُ ولم يُحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».

وقال قوم وعليه الجمهور: إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، مثل صلاة الجنازة، وردّ السلام، قال الزهري والأوزاعي: كتب الله الجهاد على الناس غَزَوا أو قعدوا، فمن غزا فبها ونعمت، ومن قعد فهو عِدّة إن استُعين به أعان وإن استُنفر نَفَر، وإن استُغني عنه قَعَد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، أي: شاق عليكم، قال بعض أهل المعاني: هذا الكره من حيث نفورُ الطبع عنه، لِما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالىٰ، وقال عكرمة: نسخها قوله تعالىٰ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، يعني: أنهم كرهوه ثم أحبوه، فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأنّ في الغزو إحدى الحُسنيين إمّا الظفر والغنيمة وإمّا الشهادة والجنّة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾، يعني: القعود عن الغزو، ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾: لما فيه من فوات الغنيمة والأجر، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾؟ سبب نزول هذه الآية:

أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن جحش وهو ابن عمّة النبيّ ﷺ أخت أبيه في جمادى الآخرة، قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مَقْدمِه إلى المدينة، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، سعد بن أبي وقاص الزهري وعُكّاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غَزْوَان السُلَمي وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسُهيل بن بيضاء وعامر بن ربيعة وواقد بن عبدالله وخالد بن بكير، وكتب لأميرهم عبدالله بن جحش كتاباً وقال له: «سِرْ على اسم الله، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت فافتح الكتاب، واقرأه على أصحابك، ثم امضِ لما أمرتُك ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على السير معك»، فسار عبدالله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم أمّا بعد، فسرْ على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل بطن [نخلة] فترصدْ بها عِيرَ قريش لعلك تأتينا منه بخبر، فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه ذلك، وقال إنه نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق، ومن كره فليرجع، ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلّف عنه منهم أحدٌ حتى كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له بُحران، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما يتعقّبانه فتخلّفا في طلبه،

ومضى ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف، فبينما هم كذلك إذ مرّت عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأُدْماً وتجارة من تجارة الطائف فيهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة وعثمان بن عبدالله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبدالله المخزوميان، فلما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ هابوهم، فقال عبدالله بن جحش: إن القوم قد ذُعِرُوا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم، فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرف عليهم، فقالوا: قوم عمار لا بأس عليكم فأمنوهم، وكان ذلك في آخر يوم من جُمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب، فتشاور القوم وقالوا: [لئن] تركتموهم الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم في مواقعة القوم فرمى واقد بن عبدالله السهمي عمرو بن الحضرمي فقتله، فكان أول قتيل من المشركين وهو أول قتيل في الهجرة، وأدى النبيّ ﷺ دِيَة ابن الحضرمي إلى ورثته من قريش، قال مجاهد وغيره: لأنه كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش عهد، وادع أهل مكة سنتين أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه واستأسر الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين في الإسلام وأُفلت نوفل فأعجزهم واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقالت قريش: قد استحلّ محمد الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ [فيه] الحرائب، وعيّر بذلك أهل مكة من

كان فيها من المسلمين، وقالوا: يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وبلغ [ذلك] رسول الله ﷺ، فقال لابن جحش وأصحابه: «ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام»، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك، فعظُم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أنْ قد هلكوا وسقط في أيديهم، قالوا: يا رسول الله إنا قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى، وأكثرَ الناسُ في ذلك فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، فأخذ رسول الله ﷺ العير فعزل منها الخُمس فكان أول خُمس في الإسلام، وقسم الباقي بين أصحاب السرية فكان أول غنيمة في الإسلام، وبعث أهل مكة في فداء أسيريهم، فقال: بل نقفهما حتى يقدم سعد وعتبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قدما فاداهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمّا عثمان بن عبدالله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً، وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطّما جميعاً، فقتله الله [تعالىٰ] فطلب المشركون جيفته بالثمن، فقال رسول الله ﷺ: «خذوه فإنّه خبيث الجيفة خبيث الديّة»، فهذا سبب نزول هذه الآية.

(٢١٧) قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾؟ يعني: رجباً، سُمّي بذلك لتحريم القتال فيه، قوله تعالىٰ: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾، أي: عن قتال فيه، ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾: عظيم، تمّ الكلام هٰهنا ثم ابتدأ، فقال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وصدّكم المسلمين عن الإسلام ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾، أي: كفركم بالله، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، [أي: بالمسجد الحرام، وقيل: وصدّكم عن المسجد الحرام]، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾، أي: إخراج أهل المسجد ﴿مِنْهُ أَكْبَرُ﴾: أعظم وزراً ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ﴾، أي: الشرك الذي أنتم عليه، ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، أي: أعظم من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام، فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس إلى مؤمني مكة: إذا عيّركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيّروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام، ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾، يعني: مشركي مكة، وهو فعل لا مصدر له مثل عسى، ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، يا معشر المؤمنين، ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾: يصرفوكم، ﴿عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ﴾، جُزم بالنسق، ﴿وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ﴾: بطلت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: حسناتهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، قال أصحاب السرية: يا رسول الله هل نُؤجر على وجهنا هذا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزواً؟

(٢١٨) فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾، فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم، ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾، المشركين ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، [في] طاعة الله فجعلها جهاداً، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أخبر أنهم على رجاء الرحمة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢١٩) قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، الآية

نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ونفر من الأنصار أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مَذهبة للعقل مَسْلبة للمال، فأنزل الله هذه الآية.

وجملة القول في تحريم الخمر على ما قال المفسرون: إن الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة، وهي: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ، ثم نزلت في مسألة عمر ومعاذ بن جبل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تقدم في تحريم الخمر»، فتركها قوم لقوله: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وشربها أقوام لقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، إلى أن صنع عبدالرحمٰن بن عوف طعاماً فدعا ناساً من أصحاب النبيّ ﷺ وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب، فقدّموا بعضهم ليصلّي بهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذف لا،

فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فحرّم السكر في أوقات الصلاة، فلما نزلت هذه الآية تركها قوم وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير حين الصلاة حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر، ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحُوا إذا جاء وقت الظهر، واتخذ عتبان بن مالك صَنيعاً ودَعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار، وفخر لقومه فأخذ رجل من الأنصار لَحى البعيرِ فضرب به رأس سعد فشجّه موضحة فانطلق به سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاري، فقال عمر: اللّهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في سورة المائدة إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب.

قال أنس: حُرّمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشدّ من الخمر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت الآية في سورة المائدة حرمت الخمر فخرجنا بالحباب إلى الطريق فصببنا ما فيها فمنّا من كسر صبّه، ومنّا من غسله بالماء والطين، ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً، كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يعقوب بن إبراهيم أخبرنا ابن عُلية، أخبرنا عبدالعزيز بن صهيب قال: قال لي أنس بن مالك:

ما كان لنا خمر غير فضيخكم، وإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: حُرّمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.

وعن أنس رضي الله عنه: سُمّيت الخمر خمراً لأنهم كانوا يَدَعُونها في الدنان حتى تختمر وتتغيّر، وعن ابن المسيّب: لأنها تُركت حتى صفا صفوها ورسب كدرها.

واختلف الفقهاء في ماهية الخمر، فقال قوم: هي عصير العنب أو الرُّطَب الذي اشتدّ وغلا من غير عمل النار فيه، واتّفقت الأئمة على أن هذه الخمر نجس يُحدّ شاربُها ويُفسق، ويَكْفُر مُستحلّها، وذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة وجماعة إلى أن التحريم لا يتعدّى هذا، ولا يحرم ما يُتخذ من غيرها كالمتّخذ من الحنطة والشعير والذرة والعسل والفانيذ، إلا أن يسكر منه فيحرم، وقالوا: إذا طبخ عصير العنب والرُّطب حتى ذهب نصفه فهو حلال، ولكنهُ يُكره، وإن طبخ حتى ذهب ثلثاه قالوا: هو حلال مباح شربه، إلا أن السكر منه حرام، ويحتجّون بما رُوي أن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عماله [و] إن أرزق المسلمين من الطِّلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، ورأى أبو عبيدة ومعاذ شرب الطلاء على الثلث، وقال قوم: إذا طبخ العصير أدنى طبخ صار حلالاً وهو قول إسماعيل بن علية، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن كل شراب أسكر كثيره فهو خمر وقليله حرام يُحدّ شاربُه، واحتجّوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي حدثنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن، عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنّها قالت:

سُئل رسول الله ﷺ عن البِتْع، فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن داود بن بكر بن أبي الفرات، عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله:

أن رسول الله ﷺ قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني أبا عبدالغفار بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو الربيع العتكي، أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال:

قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو مدمنها [و] لم يتب لم يشربها في الآخرة».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أحمد بن أبي رجاء أنا يحيى عن أبي حيان التيمي، عن الشعبي عن ابن عمر قال:

خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ فقال: إنه قد نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة أشياء: من العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل، والخمر: ما خامر العقل.

وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من العنب خمراً، وإن من التمر خمراً، وإن من العسل خمراً، وإن من البُرّ خمراً، وإن من الشعير خمراً». فثبت أنّ الخمر لا يختص بما يُتّخذ من العنب أو الرُّطب.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن السائب بن يزيد أنه أخبره:

أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح خمر أو شراب، وزعم أنه شرب الطِّلاء، وأنا سائل عما شرب! فإن كان يُسكر جلدتُه، فجلده عمر الحدّ تاماً.

وما رُوي عن عمر وأبي عُبيدة ومُعاذ في الطِّلاء فهو فيما طُبخ حتى خرج عن أن يكون مُسكراً، سُئل ابن عباس عن الباذق، فقال: سبق محمد الباذق، فما أسكر فهو حرام.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾، يعني: القمار، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يُخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية. والميسر: مفعل من قولهم: يسر لي الشيء إذا وجب ييسر يسراً وميسراً، ثم قيل للقمار: ميسر، وللمقامر: ياسر ويُسر، وكان أصل الميسر في الجزور، وذلك أن أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً فينحرونها ويجزؤونها عشرة أجزاء ثم يُسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام السبعة، منها أنصباء وهي الفذ، وله نصيب واحد، والتوأم وله نصيبان، والرقيب وله ثلاثة أسهم، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبل وله ستة، والمعلّى وله سبعة، وثلاثة منها لا أنصباء لها وهي: المنيح والسفيح والوغد، ثم يجعلون القداح في خريطة تسمّى الرّبابة ويضعونها على يدي رجل عدل عندهم يسمى المجيل والمفيض، ثم يجيلها ويخرج قدحاً منها باسم رجل منهم، فأيّهم خرج سهمه أخذ نصيبه على قدر ما خرج، فإن خرج له واحد من هذه الثلاثة التي لا أنصباء لها كان لا يأخذ شيئاً، ويغرم ثمن الجزور كله، وقال بعضهم: كان لا يأخذ شيئاً ولا يُغرّم، ويكون ذلك القدح لغواً ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك ويذمّون من لم يفعل ذلك، ويسمّونه البرم، وهو أصل القمار الذي كانت تفعله العرب، والمراد من الآية أنواع القمار كلّها، قال طاوس وعطاء ومجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر، حتى لُعب الصبيان بالجَوز والكِعاب، وروي عن عليّ رضي الله عنه في النرد والشطرنج أنهما من الميسر.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾: وزر عظيم من المخاصمة والمشاتمة وقول الفُحش، قرأ حمزة والكسائي ﴿إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾، بالثاء المثلثة وقرأ الباقون بالباء، فالإثم في الخمر والميسر ما ذكره الله في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝﴾؟ [المائدة: ٩١]، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، فمنفعة الخمر اللذة عند شربها والفرح واسْتِمْرَاء الطعام، وما يصيبون من الربح بالتجارة فيها، ومنفعة الميسر إصابة المال من غير كَدّ ولا تعب، وارْتِفاق الفقراء به، والإثم فيه أنه إذا ذهب ماله من غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه فقصده بالسوء، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، قال الضحاك وغيره:

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، [وقيل: إثمهما أكبر من نفعهما قبل التحريم]، هو ما يحصل به من العداوة والبغضاء.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾؟ وذلك أن رسول الله ﷺ حثّهم على الصدقة، فقالوا: ماذا نُنفق؟ فقال: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، قرأ أبو عمرو ﴿ٱلْعَفْوُ﴾ بالرفع، معناه: الذي يُنفقون هو العفو، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى، قل: أنفقوا العفو، واختلفوا في معنى العفو، فقال قتادة وعطاء والسدي: هو ما فَضُلَ عن الحاجة، وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدّقون بالفَضل بحكم هذه الآية ثم نسخ بآية الزكاة وقال مجاهد معناه التصدق عن ظهر غنىً حتى لا يبقىٰ كلاً على الناس.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أنا إبراهيم بن عبدالله بن عمر الكوفي أنا وكيع عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العُليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

وقال عمرو بن دينار: الوسط من غير إسراف ولا إقتار، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال طاووس: ما يَسُرَ، والعفو اليُسر من كل شيء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، أي: الميسور من أخلاق الناس.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي، أنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال:

جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله عندي دينار، قال ﷺ: «أنفقه على نفسك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على ولدك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على أهلك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على خادمك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنت أعلم».

قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾، قال الزجاج: إنما قال كذلك على الواحد وهو يخاطب جماعة، لأن الجماعة معناها القبيل، كأنه قال: كذلك أيها القبيل، وقيل: هو خطاب للنبيّ ﷺ، لأن خطابه يشتمل على خطاب الأمة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

﴿٢٢٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، قيل: معناه يبيّن الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة، فتحبسون من أموالكم ما يُصلحكم في معاش الدنيا، وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العُقبىٰ، وقال أكثر المفسّرين معناها: هكذا يُبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، قال ابن عباس وقتادة: لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] الآية، تحرّج المسلمون من أموال اليتامى تحرّجاً شديداً حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، حتى كان يُصنع لليتيم طعام [فيفضل] فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد، فاشتدّ ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿قُلْ

﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، أي: الإصلاح لأموالهم من غير أجرة ولا أخذ عِوض خير لكم وأعظم أجراً [لما لكم في ذلك من الثواب، وخير لهم لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم]، قال مجاهد: يُوسع عليه من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم. ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾، هذه إباحة المخالطة، أي: إن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم في نفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودَوَابكم، فتُصيبوا من أموالهم عوضاً عن قيامكم بأمورهم أو تكافؤهم على ما تُصيبون من أموالهم، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾، أي: فهم إخوانكم، والإخوان يُعين بعضهم بعضاً ويُصيب بعضهم من أموال بعض على وجه الإصلاح والرضا، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾: لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾: لها، يعني: الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وإفساد مال اليتيم وأكله بغير حق من الذي يقصد الإصلاح، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، أي: لضيّق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم، وقال ابن عباس: ولو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقاً لكم، وأصل العنت: الشدّة والمشقة، ومعناه: كلفكم في كل شيء ما يشق عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: العزيز الذي يأمر بعزّةٍ، سَهُلَ على العباد أوشَقَّ عليهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما صنع من تدبيره وترك الإعنات.

(٢٢١) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، سبب نزول هذه الآية أن أبا مَرْثد الغَنوي بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين سراً، فلما قدمها سمعتْ به امرأة مشركة يُقال لها عناق، وكانت خليلته في الجاهلية فأتته وقالت: يا أبا مَرْثد ألا تخلو؟ فقال لها: ويحك يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، فقالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأستأمره، فقالت: أبي تتبرم؟ ثم استغاثت عليه فضربوه ضرباً شديداً ثم خلّوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه بالذي كان من أمْرِه وأمْرِ عناق وما لقي بسببها، فقال: يا رسول الله أتحل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.

وقيل: الآية منسوخة في حق الكتابيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلا نبوّة محمد ﷺ؟ قال أبو الحسن بن فارس: لأن من يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غيره، وقال قتادة وسعيد بن جبير: أراد بالمشركات الوثنيات، فإن عثمان تزوج نائلة بنت فرافصة وكانت نصرانية فأسلمت تحته، وتزوج طلحة بن عبيد الله نصرانية، وتزوج حذيفة يهودية. [فكتب إليه عمر رضي الله عنه: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تتعاطوا المومسات منهن]. قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: بجمالها ومالِها، نزلتْ في خنساءَ وَليدةٍ سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، قال حذيفة: يا خنساء قد ذُكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوّجها.

وقال السدي: نزلت في عبدالله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها ولطمها، ثم فزع فأتى النبيّ ﷺ فأخبره بذلك، فقال له ﷺ: «وما هي يا عبدالله»؟ فقال: هي تشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وإنك رسول الله وتصوم رمضان وتُحسن الوضوء وتصلّي، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مؤمنة»، قال عبدالله: فوالذي بعثك بالحق نبياً لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل ذلك فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: أتنكح أمةً؟ وعرضوا عليه حرةً مشركة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾، هذا إجماع: لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك، ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ﴾، يعني: المشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، أي: إلى الأعمال الموجبة للنار، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، أي: بقضائه وقدره وإرادته، ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾، أي: أوامره ونواهيه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، يتعظون.

(٢٢٢) قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾، أخبرنا أبو طاهر عمر بن

عبدالعزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبدالواحد الهاشمي، أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي أنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أنا موسى بن إسماعيل أنا حماد ابن سلمة أنا ثابت البناني عن أنس بن مالك: أن اليهود كانت إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسُئل رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ الآيـة، فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فقالت اليهود: وما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمرنا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشير إلى النبيّ ﷺ فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا ننكحهن في المحيض فتمعّر وجه رسول الله ﷺ [حتى ظننا أن قد وَجَد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ]، فبعث في آثارهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يَجِدْ عليهما.

قـولـه تـعـالـىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾، أي: عـن الـحـيـض، وهومصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً، كالسير والمسير، وأصل الحيض الانفجار والسيلان، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، أي: قذر، والأذى كل ما يُكره من كل شيء، ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، أراد بالاعتزال ترك الوطء [لهن]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، أي: لا تجامعوهنّ، أما الملامسة والمضاجعة معها فجائز.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة، أنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبيّ ﷺ من إناء واحد، كِلانا جنبٌ، وكان يأمرني أن أتزر فيباشرني وأنا حائض، وكان يُخرج رأسه إليّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أبو أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعد بن حفص، أنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمة عن زينب بنت أبي سلمة حدثته: أن أم سلمة قالت: حضت وأنا مع رسول الله ﷺ في الخَمِيلة فانسللتُ فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتي فلبستها، فقال لي رسول الله ﷺ: «أنفست»؟ قلت: نعم، فدعاني فأدخلني معه في الخميلة.

أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد الحنيفي أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم، أنا أبو الموجّه محمد بن عمرو، أنا صدقة أنا وكيع أنا مسعر وسفيان عن المقدام بن شُريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض فأناوِله للنبيّ ﷺ، فيضع فاهُ على موضع فيّ وأتعرق العَرْق فيتناوله فيضع فاه في موضع فيّ.

فوطء الحائض حرام ومَنْ فعله يعصي الله عزّ وجلّ ويعزّره الإمام إن عُلم منه ذلك، واختلف أهل العلم في وجوب الكفارة عليه، فذهب أكثرهم إلى أنه لا كفارة عليه فيستغفر الله ويتوب إليه، وذهب قوم إلى وجوب الكفارة عليه، منهم قتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق، لِما:

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا عبدالرحمٰن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد، أنا أبو جعفر الرازي عن عبدالكريم بن أبي المخارق عن مِقْسَم عن ابن عباس:

أن النبيّ ﷺ سئل في رجل جامع امرأته وهي حائض، فقال: «إن كان الدم عبيطاً فليتصدّق بدينار، وإن كان صفرة فبنصف دينار»، ويُروى هذا موقوفاً على ابن عباس.

ويمنع الحيضُ جوازَ الصلاة ووجوبَها، ويمنع جوازَ الصوم ولا يمنع وجوبَه، حتى إذا طَهُرَتْ يجب عليها قضاء الصوم ولا يجب [عليها] قضاء الصلاة، وكذلك النفساء.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي أنا علي بن حجر أنا علي بن مُسهر عن عُبيدة بن معتِّب الضبي عن إبراهيم النَّخعي عن الأسود عن عائشة قالت: كنّا نحيض عند رسول الله ﷺ ثم نطهر فيأمرنا بقضاء الصيام ولا يأمرنا بقضاء الصّلاة.

ولا يجوز للحائض الطواف بالبيت ولا الاعتكاف في المسجد ولا مسّ المصحف ولا قراءة القرآن، ولا يجوز للزوج غشيانها.

أخبرنا عمر بن عبدالعزيز أنا القاسم بن جعفر أنا أبو علي اللؤلؤي، أنا أبو داود أنا مسدد أنا عبدالواحد بن زياد أنا أفلت بن خليفة قال: حدثتني جَسْرة بنت دِجاجة قالت: سمعت عائشة تقول:

جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد، فقال: «وجّهوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحلّ المسجد لحائض ولا جنب».

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، قرأ عاصم برواية أبي بكر وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء، يعني: يغتسلن، وقرأ الآخرون بسكون الطاء وضم الهاء مخففاً، ومعناه: حتى يطهرن من الحيض ولينقطع دمهن، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، يعني: اغتسلن، ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾، أي: فجامعوهن، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، أي: من حيث أمركم أن تعتزلوهن منه وهو الفرج، قاله مجاهد وقتادة وعكرمة، وقال ابن عباس: طؤوهنّ في الفرج ولا تعدوه إلى غيره، أي: اتقوا الأدبار، وقيل: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ بمعنى في حيث أمركم الله تعالىٰ وهو الفرج؛ كقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]، أي: في يوم الجمعة، وقيل: فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله أن تؤتوهن [فيه] وهو الطهر، وقال ابن الحنفية: من قِبَل الحلال دون الفجور، وقيل: لا تأتوهن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات، وأتوهن وغشيانهن لكم حلال، واعلم أنه لا يرتفع تحريم شيء مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل أو تتيمّم عند عدم الماء إلا تحريم الصوم، فإن الحائض إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فوقع غسلها بالنهار صحّ صومها، والطلاق في حال الحيض يكون بدعياً وإذا طلّقها بعد انقطاع الدم قبل الغسل لا يكون بدعياً، وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه إذا انقطع دمُها لأكثر الحيض وهي عنده عشرة أيام يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل، وقال مجاهد وطاووس: إذا غسلت فرجها يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل. وأكثر أهل العلم على التحريم ما لم تغتسل أو تتيمّم عند عدم الماء؛ لأن الله تعالىٰ علّق جواز وطئها بشرطين: بانقطاع الدم والغسل، ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، يعني: من الحيض، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، يعني: اغتسلن فأتوهن، ومن قرأ يطهرن بالتشديد فالمراد من [ذلك] الغسل؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]، أي: اغتسلوا، فدلّ على أن قبل الغسل لا يحلّ الوطء.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحب التوابين من الذنوب ويحب المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات، وقال مقاتل بن حيان: يحب التوابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك، وقال سعيد بن جبير: التوابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب، وقال مجاهد: التوابين من الذنوب لا يعودون فيها والمتطهرين منها لم يصيبوها، والتواب الذي كلما أذنب تاب، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

(٢٢٣) قوله تعالىٰ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾،

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا عبدالله بن حامد الأصبهاني، أخبرنا محمد بن يعقوب أنا ابن المنادي أنا يونس، أنا يعقوب القُمّي عن جعفر بن [أبي] المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس:

جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال: «وما الذي أهلكك»؟ قال: حوّلتُ رحلي البارحة فلم يردّ عليه شيئاً، فأوحى الله إليه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، يقول: «أدبِرْ وأقبل واتقِ الدُّبُرَ والحَيْضَة».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحيم بن منيب، أنا ابن عُيينة عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبدالله يقول:

كانت اليهود تقول في الذي يأتي امرأته من دبرها في قبلها أن الولد يكون أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرت عليه وقالت: إنا كنا نُؤتى على حرف فإن شئت فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، حتى سرَى أمرُهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ الآية، يعني: موضع الولد، ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ مقبلات ومدبرات ومستلقيات. و﴿أَنَّىٰ﴾ حرف استفهام يكون سؤالاً عن الحال والمحل، معناه: كيف شئتم وحيث شئتم بعد أن يكون في صمام واحد، وقال عكرمة ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾: إنما هو الفرج، ومثله [عن الحسن، وقيل: حرث] لكم، أي: مزرع لكم ومنبت للولد بمنزلة الأرض التي تزرع، وفيه دليل على تحريم الأدبار، لأن محل الحرث والزرع هو القُبل لا الدبر، وقال سعيد بن المسيب: هذا في العزل، يعني: إن شئتم، فاعزلوا وإن شئتم فلا تعزلوا، وسُئل ابن عباس عن العزل فقال: حرثك إن شئت فأعطش وإن شئت فأرو، وروي عنه أنه قال: تُستأمر [الحرة في العزل ولا تستأمر] الجارية، وبه قال أحمد وكره جماعة العزل، وقالوا: هو الوأد الخفي.

وروي عن مالك عن نافع قال: كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾، فقال: أتدري فيمَ نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها فشق ذلك عليه، فنزلت هذه الآية، ويُحكى عن مالك إباحة ذلك، وأنكر ذلك أصحابه، وروى عن عبدالله بن الحسن أنه لقي سالم بن عبدالله فقال له: يا أبا عمر ما حدثت بحديث نافع عن عبدالله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهن؟ فقال: كذب العبد وأخطأ إنما قال عبدالله: يُؤتَون في فروجَهن من أدبارهن. والدليل على تحريم الأدبار ما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد بن الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع أخبرنا الشافعي أنا عمِّر محمد بن علي بن شافع، أخبرنا عبدالله بن علي بن السائب عن عمرو بن أُحَيْحَة الجُلاح، عن خزيمة بن ثابت:

أن رجلاً سأل النبيّ ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهن، فقال النبيّ ﷺ: «في أيّ الخرمتين، أو في أيّ الخَرَزَتَين أو في أي الخصفتين أمِنْ دُبُرها في قبلِها فنعم، أمْ مِن دُبُرها في دُبرها فلا، فإن الله لا يستحيي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن».

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله الحسين بن محمد الحافظ أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي، أخبرنا محمد بن عبدالله بن سليمان الحضرمي أنا عبدالله بن عمر بن أبان أنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن مسلم بن خالد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها».

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾، قال عطاء: التسمية عند الجماع، قال مجاهد: وقدموا لأنفسكم يعني: إذا أتى أهله فليدْع.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي [أنا محمد بن يوسف] أنا محمد بن إسماعيل أنا عثمان بن أبي شيبة أنا جرير عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس قال: قال النبيّ ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللّهمّ جنبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّر بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرّه الشيطان أبداً».

وقيل: قدّموا أنفسكم، يعني: طلب الولد.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أخبرنا عبدالله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكُشْمِيهني، أنا علي بن حجر عن العلاء بن عبدالرحمٰن عن أبيه عن أبي هريرة:

أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع

به أو ولد صالح يدعو له».

وقيل: هو التزوّج بالعفائف ليكون الولد صالحاً.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف [أنا محمد بن إسماعيل] أنا مسدد أنا يحيى عن عبيد الله حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وقيل: لمعنى الآية تقديم الأفراط.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.

أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم».

وقال الكلبي والسدي: وقدّموا لأنفسكم، يعني: الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾: صائرون إليه فيجزيكم بأعمالكم، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٢٢٤) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾، نزلت في عبدالله بن رواحة كان بينه وبين خَتَنِهِ على أخيه بشير بن النعمان الأنصاري شيء، فحلف عبدالله أن لا يدخل عليه ولا يكلّمه ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه، قال: قد حلفتُ بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر يميني، فأنزل الله هذه الآية، وقال ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مُسطح حين خاض في حديث الإفك، والعرضة أصلها الشدة والقوة، ومنه قيل للدابة التي تُتَّخذ للسفر: عُرضة لقوتها عليه، ثم قيل لكل ما يصلح لشيء: هو عرضة له، حتى قالوا للمرأة: هي عُرضة النكاح إذا صلحت له، والعُرضة كل ما يعرض فيمنع عن الشيء، ومعنى الآية: لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً لكم عن البرّ والتقوى، يُدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برّ، فيقول: حلفتُ بالله أن لا أفعله فيعتلّ بيمينه في ترك البر، ﴿أَن تَبَرُّوا﴾، معناه: أنْ لا تبروا؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا، ﴿وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾،

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد [أنا] أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بيمين فرأى خيراً منها فليُكفّرْ عن يمينه، وليفعلِ الذي هو خير».

(٢٢٥) قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، اللغو كل مُطّرَح من الكلام لا يُعتدّ به، واختلف أهل العلم في اللغو [في] اليمين المذكورة في الآية، فقال قوم: هو ما يسبق إلى اللسان على عجلة لصلة الكلام من غير عقدٍ وقصد، كقول القائل: لا واللّهِ وبلَى واللّهِ وكلاّ والله.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الكسائي أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع أنا الشافعي أنا مالك عن هشام عن عروة، عن أبيه عن عائشة أنها قالت: لغوُ اليمين قولُ الإنسان: لا والله وبلى والله.

ورفعه بعضهم. وإلى هذا ذهب الشعبي وعكرمة، وبه قال الشافعي.

ويُروى عن عائشة أيمان اللغو: ما كانت في الهزل والمِراءِ والخُصومةِ، والحديث الذي لا يَعْقِدُ عليه القلب، وقال قوم: هو أن تحلف على شيء ترى أنه صادق، ثم يتبيّن له خلاف ذلك، وهو قول الحسن والزهري

الجزء الثاني — سورة البقرة

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾

٣٦

وإبراهيم النخعي وقتادة ومكحول، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقالوا: لا كفارة فيه ولا إثم عليه، وقال علي: [هو اليمين على] الغضب، وبه قال طاووس وقال سعيد بن جُبير: هو اليمين في المعصية لا يُؤاخذه الله بالحِنث فيها، بل يَحْنَثُ ويُكفِّر، وقال مسروق: ليس عليه كفارة، أنُكفِّرُ خُطواتِ الشيطان؟ وقال الشعبي في الرجل يحلف على المعصية: كفارتها أن يتوب منها، وكل يمين لا يَحِلُّ لك أن تفي بها فليس فيها كفارة، ولو أمرتُه بالكفارة لأمرته أن يُتمَّ على قوله، وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه، كقول الإنسان: أعمىٰ الله بصري إن [لم] أفعل كذا، [أخرجني الله من مالي إن لم آتك غداً ويقول هو إن فعل كذا]، فهذا كله لغو لا يؤاخذه الله به، ولو آخذهم به لعجّل لهم العقوبة، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وقال: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]، قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي: عزمتم وقصدتم إلى اليمين، وكسب القلب: العقد والنية، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

واعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته، فاليمين بالله أن يقول: والذي أعبده والذي أصلي له والذي نفسي بيده، ونحو ذلك، واليمين بأسمائه؛ كقوله: والله والرحمٰن [والرحيم] ونحوه، واليمين بصفاته كقوله: [وكبرياء الله] وعزّةِ الله وعظمةِ الله وجلالِ الله وقدرةِ الله ونحوهما، فإذا حلف بشيء منها على أمر في المستقبل، فحَنِثَ تجب عليه الكفارة، وإذا حلف على أمر ماضٍ أنه كان ولم يكن، أو على أنه لم يكن وقد كان إنْ كان عالماً به حالة ما حلف [به]، فهو اليمين الغَمُوس وهو من الكبائر، وتجب فيه الكفارة عند بعض أهل العلم عالماً كان أو جاهلاً، وبه قال الشافعي.

ولا يجب عند بعضهم وهو قول أصحاب الرأي، وقالوا: إن كان عالماً فهو كبيرة ولا كفارة لها كما في سائر الكبائر، وإن كان جاهلاً فهو اليمين اللغو عندهم، ومن حلف بغير الله [تعالىٰ] مثلاً، مثل أن قال: والكعبة وبيت الله ونبي الله، أو حلف بأبيه ونحو ذلك فلا يكون يميناً ولا تجب به الكفارة إذا حلف وهو يمين مكروهة، قال الشافعي: وأخشى أن يكون معصية.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد [أنا] أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلفْ بالله أو ليصمتْ».

(٢٢٦) قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، يؤلون أي: يحلفون، والألية: اليمين، والمراد من الآية اليمين على ترك وطء المرأة، قال قتادة: كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية، وقال سعيد بن المسيّب: كان ذلك من ضِرار أهل الجاهلية، كان الرجل لا يحب امرأته ولا يريد أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها لا أيّماً ولا ذات بعل، كانوا عليه في ابتداء الإسلام، فضرب الله له أجلاً في الإسلام، واختلف أهل العلم فيه، فذهب أكثرهم إلى أنه إن حلف أن لا يقرب زوجته أبداً أو سمّى مدةً أكثر من أربعة أشهر يكون مولياً، فلا يتعرض [له] قبل مضي أربعة أشهر وبعد مضيها يوقف ويؤمر بالفيء أو بالطلاق بعد مطالبة المرأة، والفيء: هو الرجوع عمّا قاله بالوطء إن قدر عليه، وإن لم يقدر فالبقول، فإن لم يفِ ولم يُطلّق طلق عليه السلطان واحدةً، وذهب إلى الوقوف بعد مضي المدّة: عمر وعثمان وعلي وأبو الدرداء وابن عمر، قال سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبيّ ﷺ كلهم يقولون بوقف المُولي، وإليه ذهب سعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: إذا مضت أربعة أشهر تقع عليها طلقة بائنة، وهو قول ابن عباس وابن مسعود، وبه قال سفيان الثوري وأصحاب الرأي. وقال سعيد بن المسيب والزهري: تقع طلقة رجعية، ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون مُولياً بل هو حالف، فإذا وطئها قبل مضي تلك المدة تجب عليه كفارة اليمين،

ولو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر لا يكون مُولياً عند من يقول بالوقف بعد مضى المدة، [لأن بقاء المدة شرط للوقف وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق، وقد مضت المدة، وعند من لا يقول بالوقف يكون مولياً ويقع الطلاق بمضي المدة]، ومدة الإيلاء أربعة أشهر في حق الحر والعبد جميعاً عند الشافعي رحمه الله، لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع، وهو قلة صبر المرأة عن الزوج، فيستوي فيه الحر والعبد. وعند مالك رحمه الله وأبي حنيفة رحمه الله تتّصف مدة العِنّة بالرّق غير أن عند أبي حنيفة تتنصّف برِقّ المرأة، وعند مالك برِقّ الزوج، كما قالا في الطلاق.

قوله تعالىٰ: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، أي: انتظار أربعة أشهر، والتربّص: التثبّت والتوقّف، ﴿فَإِن فَآءُو﴾: رجعوا عن اليمين بالوطء، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإذا وطيء خرج عن الإيلاء، وتجب عليه [كفارة اليمين] عند أكثر أهل العلم، وقال الحسن وإبراهيم النخعي وقتادة: لا كفارة عليه لأن الله تعالىٰ وعد بالمغفرة، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك عند الأكثرين في إسقاط العقوبة لا في الكفارة، ولو قال لزوجته: إن قربتك فعبدِي حرٌّ أو صرت طالقاً، أو لله عليّ عِتقُ رقبة أو صومٌ أو صلاة، فهو مولٍ لأن المولي من يلزمه أمر بالوطء ويوقف بعد مضيّ المدة، فإن فاء يقع الطلاق أو العتق المعلّق به، وإن التزم في الذمة يلزمه كفارة اليمين في قول، وفي قول: يلزمه ما التزم في ذمّته من الإعتاق أو الصلاة أو الصوم.

٢٢٧ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾، أي: حقّقوه بالإيقاع، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لقولهم، ﴿عَلِيمٌ﴾: بنيّاتهم، وفيه دليل على أنها لا تطلّق بعد مضي المدة ما لم يطلّقها زوجها، لأنّه شرطَ فيه العزم، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فدلّ على أنه يقتضي مسموعاً، والقول هو الذي يُسمع.

٢٢٨ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾، أي: المخليات من حبال أزواجهن، ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: ينتظرن، ﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، فلا يتزوجن، والقروء: جمع قَرء مثل فرع، وجمعه القليل: أقرؤ، والجمع الكثير: أقراء، واختلف أهل العلم في القَرء فذهب جماعة إلى أنها الحيض، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد، وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي، واحتجوا بأن النبيّ ﷺ قال للمستحاضة: «دعي الصلاة أيام أقرائك».

وإنما تدع المرأة الصلاة أيام حيضها، وذهب جماعة إلى أنها الأطهار، وهو قول زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وعائشة، وهو قول الفقهاء السبعة والزهري، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي.

واحتجّوا بأن ابن عمر رضي الله عنه لمّا طلق امرأته وهي حائض، قال النبيّ ﷺ لعمر: «مُرْهُ فليراجعْها حتى تطهر، ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن يُطلق لها النساء».

فأخبر أن زمان العدّة هو الطهر.

ومن جهة اللغة قول الشاعر:

ففي كل عام أنت جاشم غزوة
تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالاً وفي الحي رفعة
لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأراد به أنه كان يخرج إلى الغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقراؤهن، وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر، لا زَمان الحيضة، وفائدة الخلاف تظهر في أن المعتدة إذا شرعت في الحيضة الثالثة تنقضي عدتها على قول من يجعلها أطهاراً وتحسب بقية الطهر الذي وقع فيه الطلاق قرءاً، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا طعنت المطلقة في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرىء منها، ومن ذهب إلى أن الأقراء هي الحيض يقول لا تنقضي عدتها ما لم تطهر من الحيضة الثالثة، وهذا الاختلاف من حيث إن اسم القُرء يقع على الطهر والحيض جميعاً، يقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وأقرأت إذا طهرت فهي مقرىء، واختلفوا في أصله، فقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: هو الوقت لمجيء الشيء وذهابه، يقال: رجع فلان لقرئه ولقارئه، أي: لوقته الذي يرجع فيه، وهذا قارىء الرياح، أي: وقت هبوبها، قال مالك بن الحارث الهذلي:

كرهت العقر عقر بني شليل
إذا هبّت لقارئها الرياح

أي: لوقتها، والقرء يصلح للوجهين لأن الحيض يأتي لوقت،

والطهر مثله، وقيل: هو من القرأ، وهو الحبس والجمع، تقول العرب: ما قرأت الناقة سلاً قط، أي: لم تضم رحمها على ولد، ومنه قريت الماء في المقراة وهي الحوض، أي: جمعته بترك همزها، فالقرء هٰهنا احتباس الدم واجتماعه، فعلى هذا يكون الترجيح فيه للطهر، لأنه يحبس الدم ويجمعه، والحيضُ يُرخيه ويُرسله، وجملة الحكم في العدد أن المرأة إذا كانت حاملاً فعدّتها بوضع الحمل سواء وقعت الفرقة بينها وبين الزوج بالطلاق أو بالموت؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فإن لم تكن حاملاً نُظر إن وقعت الفرقة بينهما بموت الزوج، فعليها أن تعتدّ بأربعة أشهر وعشراً، سواء مات الزوج قبل الدخول أو بعده وسواء كانت المرأة ممن تحيض أو لا تحيض؛ لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وإن وقعت الفرقة بينهما بالطلاق في الحياة نُظر [فإن كان] قبل الدخول بها فلا عدّة عليها؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وإن كان بعد الدخول [بها] نُظر إن كانت المرأة لم تحض قط أو بلغت في الكِبَرِ سِنَّ الآيسات فعدّتها ثلاثة أشهر؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤]، وإن كانت ممن تحيض فعدّتها ثلاثة أقراء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، وقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ لفظه خبر ومعناه أمر، وعِدّة الأمَةِ إن كانت حاملاً بوضع الحمل كالحرة، وإن كانت حائلاً ففي الوفاة عدّتها شهران وخمس وأيام، وفي الطلاق إن كانت [ممن] تحيض فعدّتها قُرءان، وإن كانت ممن لا تحيض فشهرٌ ونصف، وقيل: شهران كالقرءين في حق من تحيض، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ينكح العبدُ اثنين ويُطلق طلقتين، وتعتدُّ الأمَةُ بحيضتين فإن لم تكن تحيض فشهرين أو شهراً ونصفاً، قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾، قال عكرمة: يعني الحيض وهو أن يريد الرجل مراجعتها، فتقول: قد حضت الثالثة، وقال ابن عباس وقتادة: يعني الحمل، ومعنى الآية: لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد. ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، معناه: أن هذا من فعل المؤمنات، وإن كانت المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء؛ كما تقول: أدِّ حقي إنْ كنتَ مؤمناً، يعني: أداء الحقوق من فعل المؤمنين، ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾، يعني: أزواجهنّ جمع بعل، كالفحول جمع فحل، سُمّي الزوج بعلاً لقيامه بأمور زوجته، وأصل البعل السيد والمالك، ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾: أولى برجعتهن إليهم، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في حال العدة، ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾، أي: إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحُسن العشرة لا الإضرار، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية [كان] الرجل يطلق امرأته، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها، ثم تركها مدة ثم طلقها، يقصد بذلك تطويل العدّة عليها، ﴿وَلَهُنَّ﴾، أي: للنساء على الأزواج ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ للأزواج ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، قال ابن عباس في معناه: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما تحب امرأتي أن تتزيّن لي؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الحسن المروزي، أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة السجزي، أنا أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر بن داسة، أنا أبو داود السجستاني أنا موسى بن إسماعيل، أنا حماد أنا أبو قزعة سويد بن حجر الباهلي، عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال:

قلت يا رسول الله ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تُطعمها إذا طَعِمْتَ وأن تَكْسُوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني، أخبرنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا حاتم بن إسماعيل المدني، حدثنا

جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال: دخلنا على جابر بن عبدالله فقلت: أخبرني عن حجّة رسول الله ﷺ، فسرد لي قصةَ حجّة الوداع إلى أن ذكر خطبته يوم عرفة، قال: «فاتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطئن فُرُشَكُمْ أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضرِبُوهنّ ضرباً غير مُبَرّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغتَ وأديتَ ونصحتَ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللّهمّ اشهد [اللّهمّ اشهد] ثلاثَ مرات».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن يحيى، أنا يعلى بن عُبيد أنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائكم».

قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال، وقال قتادة: بالجهاد، وقيل: بالعقل، وقيل: بالشهادة، وقيل: بالميراث، وقيل: بالديّة، وقيل: بالطلاق، لأن الطلاق بيد الرجال، وقيل: بالرجعة، وقال سفيان وزيد بن أسلم: بالإمارة، وقال القتيبي: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، معناه: فضيلة في الحق، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار، أخبرنا أحمدبن محمد بن عيسى البرتي، أنا [أبو] حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظِبْيان:

أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه النبيّ ﷺ فيها، ثم رجع فرأى رجالاً يسجد بعضهم لبعض، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد، لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها».

(٢٢٩) قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، روي عن عروة بن الزبير قال: كان الناس في [ابتداء الإسلام] يطلقون من غير حصر ولا عدد، وكان الرجل يطلق امرأته، فإذا قاربت انقضاء عدّتِها راجعها، ثم طلقها كذلك ثم راجعها، يقصد [بذلك] مضارتها، فنزلت هذه الآية: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، يعني: الطلاق الذي يملك الرجعة عقيبه مرتان، فإذا طلق ثلاثاً فلا تحل له إلا بعدَ نكاح زوج آخر، قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾، قيل: أراد بالإمساك الرجعة بعد الثانية، والصحيح أن المراد منه الإمساك بعد الرجعة، يعني: إذا راجعها بعد الطلقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف، والمعروف كل ما يعرف في الشرع مِنْ أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة، ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها، وقيل: الطلقة الثالثة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، وصريح اللفظ الذي يقع به الطلاق من غير نية ثلاثة: الطلاق والفِراق والسَّراح، وعند أبي حنيفة: الصريح هو لفظ الطلاق فحسب، وجملة الحكم فيه: أن الحرَّ إذا طلّق زوجته طلقةً أو طلقتين بعد الدخول بها يجوز له أن يراجعها بغير رضاها ما دامت في العدّة، فإن لم يراجعها حتى انقضتْ عدّتُها، أو طلقها قبل الدخول بها، أو خالعها، فلا تحلّ له إلاّ بنكاح جديد بإذنها وإذن وليّها، فإن طلقها ثلاثاً فلا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره، [وأما العبد إذا كانت تحته امرأة فطلّقها طلقتين فإنها لا تحل له إلا بعد نكاح زوج آخر]، واختلف أهل العلم فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقاً فذهب أكثرهم إلى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج، فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد لا يملك على زوجته الحرة إلا طلقتين، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: الطلاق بالرجال، والعدة بالنساء، يعني يعتبر في عدد الطلاق حال الرجل، وفي قدر العدة حال المرأة، وهو قول عثمان وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عطاء وسعيد بن المسيب، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وذهب قوم إلى أن الاعتبار بالمرأة في عدد الطلاق،

فيملك العبد على زوجته الحرّة ثلاث تطليقات، ولا يملك الحرّ على زوجته الأمَة إلا تطليقتين، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتموهنّ ﴿شَيْـًٔا﴾ من المهور وغيرها، ثم استثنى الخلع، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

نزلت في جميلة بنت عبدالله بن أبي أوفى، ويقال: في حبيبة بنت سهل، كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه وهو يُحبّها فكان بينهما كلام فأتتْ أباها فشكت إليه زوجها، وقالت [له]: إنه يسيء إليّ ويضربني، فقال [لها]: ارجعي إلى زوجك فإني أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها، قال: فرجعت إليه الثانية وبها أثر الضرب، فقال: ارجعي إلى زوجك فلما رأت أن أباها لا يشكيها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه زوجها وأرتْه آثاراً بها من ضربه، وقالت: يا رسول الله لا أنا ولا هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فقال: «ما لك ولأهلك»؟ فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحبّ إليّ منها غيرك، فقال لها: «ما تقولين»؟ فكرهت أن تَكْذِبَ رسولَ الله ﷺ حين سألها، فقالت: صدق يا رسول الله ولكن قد خشيت أن يهلكني، فأخرجني منه، وقالت: يا رسول الله ما كنتُ لأحدثكَ حديثاً يُنزّل الله عليك خلافَه فهو من أكرم الناس حباً لزوجته، ولكني أبغضه، فلا أنا ولا هو، قال ثابت: يا رسول الله [إني] قد أعطيتها حديقة فقل لها فلتردها عليّ وأخلي سبيلها، فقال لها: «تردين عليه حديقته وتملكين أمرك»؟ قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثابتُ خُذْ منها ما أعطيتها، وخلِّ سبيلَها»، ففعل.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا زاهر بن جميل، أخبرنا عبدالوهاب الثقفي أنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعتبُ عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر بعد الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقبلِ الحديقة وطلقها تطليقة».

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾، أي: يعلما ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب ﴿إِلَّآ أَن يُخافا﴾ بضم الياء، أي: يعلم ذلك منهما، يعني: يعلم القاضي والولي ذلك من الزوجين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، فجعل الخوف لغير الزوجين، ولم يقل: فإن خافا، وقرأ الآخرون ﴿يَخافا﴾ بفتح الياء، أي: يعلم الزوجان من أنفسهما أنْ لا يُقيما حدود الله، تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها فنهى الله الرجلَ أن يأخذ امرأته شيئاً مما آتاها إلاّ أن يكون النشوز من قِبلها، فقالت: لا أطيع لك أمراً ولا أطأ لك مضجعاً ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، أي: فيما افتدتْ به المرأة نفسَها منه، قال الفراء: أراد بقوله ﴿عَلَيْهِمَا﴾ الزوج دون المرأة، فذكرهما جميعاً لاقترانهما؛ كقوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١]، وإنما الناسي فتى موسى دون موسى، وقيل: أراد أنه لا جناح عليهما جميعاً، لا جناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية، ولا فيما افتدت به وأعطت من المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق، و[لا] على الزوج فيما أخذ منها من المال إذا أعطته طائعة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الخلع جائز على أكثر ممّا أعطاها، وقال الزهري: لا يجوز بأكثر مما أعطاها من المهر، وقال سعيد بن المسيّب: لا يأخذ منها جميع ما أعطاها بل يترك [لها] شيئاً، ويجوز الخلع على غير حال النشوز، غير أنه يُكره لِما فيه من قطع الوصلة بلا سبب.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله بن فنجويه الدينوري، أنا عبدالله بن محمد بن [أبي] شيبة، أنا أحمد بن جعفر المستملي أنا أبو محمد يحيى بن إسحاق بن شاكر بن أحمد بن خباب، أنا عيسى بن يونس أنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن مُحارب بن دِثار، عن ابن عمر قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أبغض الحلال إلى الله تعالىٰ الطلاق».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه، أنا ابن أبي شيبة محمد بن عثمان بن أبي شيبة، أنا أبي أنا [أبو] أسامة عن حماد بن زيد عن أبي أيوب، عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان يرفعه إلى النبيّ ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجَها الطلاقَ في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنّة».

وقال طاووس: الخلع يختص بحالة خوف النشوز لظاهر الآية، والآية خرجت على وفق العادة في أن الخلع لا يكون إلا في حال خوف النشوز غالباً، وإذا طلق الرجل امرأته بلفظ الطلاق على مال فقبلت وقعت البينونة، وانتقص به العدد. واختلف أهل العلم في الخلع، فذهب أكثرهم إلى أنه تطليقة بائنة ينقص بها عدد الطلاق، وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، وبه قال سعيد بن المسيّب وعطاء والحسن والشعبي والنخعي، وإليه ذهب مالك والثوري والأوزاعي وأصحاب الرأي، وهو أظهر قولي الشافعي، وذهب قوم إلى أنه فَسْخٌ لا ينتقص به عدد الطلاق، وهو قول عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عكرمة وطاوس، وإليه ذهب أحمد وإسحاق، واحتجوا بأنّ الله تعالىٰ ذكر الطلاق مرتين، ثم ذكر بعده الخلع، ثم ذكر بعده الطلقة الثالثة فقال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً، ومن قال بالقول الأول جعل الطلقة الثالثة: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾. قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، أي: هذه أوامر الله ونواهيه، وحدود الله ما منع الشرع من المجاوزة عنه، ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، فلا تجاوزوها، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(٢٣٠) قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾، يعني: الطلقة الثالثة، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾، أي: من بعد الطلقة الثالثة، ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، أي: غير المطلق فيجامعها، والنكاح يتناول الوطء والعقد جميعاً، نزلت في تميمة، وقيل: في عائشة بنت عبدالرحمٰن بن عتيك القرظي، كانت تحت ابن عمها رفاعة بن وهب بن عتيك القرظي فطلّقها ثلاثاً،

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي، أخبرنا سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمعها تقول:

جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إني كنت عند رفاعة القرظي فطلقني فبتّ طلاقي وتزوجتُ بعده عبدالرحمٰن بن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: «لا، حتى يذوق عُسيلتك وتذوقي عسيلته».

وروي أنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسني، فقال لها النبيّ ﷺ: «كذبت بقولك الأول فلن نصدقك في الآخر»، فلبثتْ حتى قُبض النبيّ ﷺ، فأتتْ أبا بكر رضي الله عنه، فقالت: يا خليفة رسول الله ﷺ أرجع إلى زوجي الأول فإن زوجي الآخر قد مسني وطلّقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتيته وقال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قُبض أبو بكر رضي الله عنه أتتْ عمر رضي الله عنه وقالت له مثل ذلك، فقال عمر رضي الله عنه: لا ترجعي إليه لئن رجعت إليه لأرجمنّك.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾، يعني: فإن طلّقها الزوج الثاني بعدما جامعها فلا جُناح عليهما، يعني: على المرأة وعلى الزوج الأول أن يتراجعا، يعني: بنكاح جديد، ﴿إِن ظَنَّآ﴾، أي: عَلِما، وقيل: رجوا، لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلا الله عزّ وجلّ، ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، أي: يكون بينهما الصلاح وحُسن الصحبة، وقال مجاهد: معناه إن علما أن نكاحهما على غير دلسة، وأراد بالدلسة: التحليل، وهو مذهب سفيان الثوري والأوزاعي ومالك وأحمد وإسحاق، قالوا: إذا تزوّجت المطلقة ثلاثاً زوجاً آخر ليحللها للزوج الأول فإن النكاح فاسد، وذهب جماعة إلى أنه إذا لم يُشترط في النكاح مع الثاني أنه يفارقها،

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل، ولها صداق مثلها غير أنه يكره إذا كان في عزمها ذلك.

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ، أنا الحسن بن الفرج أخبرنا عمرو بن خالد الحراني، أنا عبيد الله عن عبدالكريم هو الجزري، عن أبي واصل عن ابن مسعود رضي الله عنه:

عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعنَ اللّهُ المحلِّل والمحلَّل له».

وقال نافع: أتى رجلٌ ابنَ عمر فقال له: إن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فانطلق أخ له مَن غير مؤامرة، فتزوّجها ليُحلّها للأول، فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعدّ هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ وقال رسول الله ﷺ لعن الله المحلِّل والمحلَّل له، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: يعلمون ما أمرهم الله تعالىٰ به.

﴿٢٣١﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، الآية نزلت في رجل من الأنصار يُدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى إذا قارب انقضاء عدّتها راجعها ثم طلّقها يقصد بذلك مضارتها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: أشرفن على أن تبين بانقضاء العدة، ولم يرد حقيقة انقضاء العدة لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ هٰهنا بلوغ مقاربة، وفي قوله تعالىٰ بعد هذا: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، حقيقة انقضاء العدة، والبلوغ يتناول المعنيين، يقال: بلغ المدينة إذا قرب منها [و] إذا دخلها، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾، أي: راجعوهن، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾، قيل: المراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء، أو ﴿سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: اتركوهن حتى تنقضي عِدَّتهنَّ فيكن أملكَ لأنفسهن، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾، أي: لا تقصدوا بالرجعة المضارة [لهن] بتطويل الحبس. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، أي: أضرّ بنفسه بمخالفة أمر الله تعالىٰ، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، قال الكلبي: يعني قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزواً، وقال أبو الدرداء: هو أن الرجل كان يطلّق امرأته ثم يقول كنتُ لاعباً، ويعتق ويقول مثل ذلك، وينكح ويقول مثل ذلك.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخُرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبدالله بن عمرو الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر عن أبي حبيب بن أردك عن عطاء بن أبي رباح عن ابن ماهك عن أبي هريرة:

أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: الطلاق والنكاح والرجعة».

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بالإيمان، ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾، يعني: السنّة، وقيل: مواعظ القرآن، ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، نزلت في جميلة بنت يسار أخت معقل بن يسار المُزني كانت تحت أبي البداح عاصم بن عدي بن عجلان، فطلقها.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن أبي عمرو: حدثني أبي حدثني إبراهيم عن يونس عن الحسن قال: حدثني معقل بن يسار قال:

زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتُك وفرشتُك وأكرمتُك فطلقتَها! ثم جئت تخطبها؟ ألا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوّجها إياه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، أي: لا تمنعوهن عن النكاح، والعضل: المنع، وأصله الضيق والشدّة، يقال: عضلتِ المرأة: إذا نشب ولدها في بطنها فضاق عليه الخروج، والداء العضال الذي لا يُطاق علاجه، وفي الآية دليل على أن المرأة لا تلي عقد النكاح، إذْ لو كانت تملك ذلك لم يكن هناك عضل، ولا لنهي الولي عن العضل معنىً، وقيل: الآية خطاب مع الأزواج لمنعهم من الإضرار لأن ابتداء الآية خطاب معهم، والأول أصح، ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾، بعقد حلال ومهر جائز، ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: [ذلك] الذي ذكر من النهي ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وإنما قال ذلك موحداً والخطاب للأولياء، لأن الأصل في مخاطبة الجمع ذلكم، ثم كثر حتى توهموا أن الكاف من نفس الحرف وليس بكاف خطاب، فقالوا ذلك، فإذا قالوا هذا كانت الكاف موحدة منصوبة في الاثنين والجمع والمؤنث والمذكر، قيل: هو خطابٌ للنبي ﷺ، فلذلك وحّد ثم رجع إلى خطاب المؤمنين، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، أي: خير لكم، ﴿وَأَطْهَرُ﴾: لقلوبكم من الريبة وذلك أنه كان في نفس كل واحد منهما علاقة حب لم يؤمن أن يتجاوز ذلك إلى غير ما أحل الله لهما، ولم يؤمن من الأولياء أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا بريئين من ذلك فيأثمون، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم.

(٢٣٣) قوله تعالىٰ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، أي: والمطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن ﴿يُرْضِعْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب، لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد؛ لقوله تعالىٰ في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها، ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، أي: سنتين، وذكر الكمال للتأكيد؛ كقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقيل: إنما قال كاملين لأن العرب قد تسمّي بعض الحول حولاً وبعض الشهر شهراً، كما قال الله تعالىٰ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإنّما هي شهران وبعض الثالث، وقال: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وإنما يتعجّل في يوم وبعض يوم ويقال: أقام فلان بموضع كذا حولين، وإنما أقام به حولاً وبعض آخر، فبيّن الله تعالىٰ أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهراً، واختلف أهل العلم في هذا الحد، فمنهم من قال: هو حد لبعض المولودين، فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها إذا وضعت لستة أشهر فإنها ترضعه حولين كاملين، وإن وضعته لسبعة أشهر فإنها ترضعه ثلاثة وعشرين شهراً، وإن وضعت لتسعة أشهر فإنها ترضعه أحداً وعشرين شهراً، وإن وضعت لعشرة أشهر فإنها ترضعه عشرين شهراً كل ذلك تمام ثلاثين شهراً؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال قوم: هو [حد] لكل مولود بأي وقت وُلد لا ينقص رضاعه عن حولين إلا باتفاق الأبوين، فأيهما أراد الفطامَ قبل تمام الحولين ليس له ذلك إلا أن يجتمعا عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾، وهذا قول ابن جريج والثوري، ورواية الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد من الآية بيان أن الرضاع الذي يثبت [به] الحرمة ما يكون في الحولين فلا يحرم ما يكون بعد الحولين، قال قتادة: فرض الله على الوالدات إرضاع حولين كاملين، ثم أنزل التخفيف فقال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، أي: هذا منتهى الرضاع، وليس فيما دون ذلك حدّ محدود [لهما]، وإنما هو على مقدار صلاح الصبي وما يعيش به. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾، يعني: الأب، ﴿رِزْقُهُنَّ﴾:

طعامهن، ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾: لباسهن، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾، أي: على قدر الميسرة، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾، أي: طاقتها، ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة برفع الراء، نسقاً على قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ وأصله تضار، فأدغمت الراء في الراء، وقرأ الآخرون ﴿تُضَآرَّ﴾، بنصب الراء، وقالوا: لما أدغمت الراء في الراء حُركتْ إلى أخف الحركات وهو النصب، ومعنى الآية: لا تضار والدة بولدها فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾، أي: لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما ألِفها تُضارّه بذلك، وقيل: معناه لا ﴿تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ﴾ فتكره على إرضاعه إذا كرهت هي إرضاعه، وقَبِلَ الصبي من غيرها، لأن ذلك ليس بواجب عليها ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾، فيحتمل أن يعطي الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع الولد من غيرها، فعلى هذين القولين أصل الكلمة: لا تضار، بفتح الراء الأولى على الفعل المجهول، والوالدة والمولود [له] مفعولان، ويُحتمل أن يكون الفعل لهما يكون تضار بمعنى: تضارر بكسر [الراء] الأولى على تسمية الفاعل، والمعنى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ﴾ فتأبى أن ترضع ولدها ليشقّ على أبيه، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾، أي: لا يضار الأب أم الصبي فينتزعه منها ويمنعها من إرضاعه، وعلى هذه الأقوال يرجع الضرار إلى الوالدين، يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد، ويجوز أن يكون الضرار راجعاً إلى الصبي، أي: لا يضار كل واحد منهما الصبي، فلا تُرضعه الأم حتى يموت، أو لا يُنفق الأبُ، أو ينتزعه من الأم حتى يضرّ بالصبي، فعلى هذا يكون الباء زائدة، ومعناه: لا تضار والدةٌ ولدَها، ولا أبٌ ولدَه، وكل هذه الأقاويل مروية عن المفسّرين. قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾، اختلفوا في هذا الوارث، فقال قوم: هو وارث الصبي، معناه: وعلى وارث الصبي الذي لو مات الصبي وله مال ورثه الذي كان على أبيه في حال حياته، ثم اختلفوا في أيّ وارث هو من ورثته، فقال بعضهم: هم عصبة الصبي من الرجال، مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العم، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وبه قال إبراهيم والحسن ومجاهد وعطاء، وهو مذهب سفيان، قالوا: إذا لم يكن للصبي مال ينفق عليه أُجبرت عصبتُه الذين يرثونه على أن يسترضعوه، وقيل: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء، وهو قول قتادة وابن أبي ليلى، ومذهب أحمد وإسحاق، وقالوا: يُجبر على نفقته كل وارث قدر ميراثه، عصبة كانوا أو غيرهم، وقال بعضهم: هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود، فمن ليس بمحرم مثل ابن العم والمولى، فغير مراد بالآية، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، وذهب جماعة إلى أن المراد بالوارث هو الصبي نفسه الذي هو وارث أبيه المتوفى، تكون أجرة رضاعه ونفقته في ماله، فإن لم يكن له مال فعلى الأم، ولا يجبر على نفقة الصبي إلا الوالدان، وهو قول مالك والشافعي رحمهما الله، وقيل: هو الباقي من والدي المولود، بعد وفاة الآخر عليه، مثل الذي كان على الأب من أجرة الرضاع والنفقة والكسوة، وقيل: ليس المراد منه النفقة بل معناه وعلى الوارث ترك المضارة، وبه قال الشعبي والزهري، ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾، يعني: الوالدين، ﴿فِصَالًا﴾، [أي]: فطاماً، قيل: الحولين ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾، أي: اتفاق [من] الوالدين، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾، أي: يشاورون أهل العلم به حتى يُخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضرّ بالولد، والمشاورة استخراج الرأي، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ﴾، أي: لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين، ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾، أي: لأولادِكم مراضع غير أمّهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم، أو تعذّر لعلة بهنّ أو انقطاع لبن أو أردن النكاح، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾، إلى أمهاتهم، ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾، ما سمّيتم لهن من أجرة الرضاع [أو] بقدر ما أرضعن، وقيل: إذا سلّمتم أجور المراضع إليهن، [﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾]، قرأ ابن كثير ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ [وفي الروم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ [الروم: ٣٩]] بقصر الألف، ومعناه: ما فعلتم يُقال أتيت جميلاً إذا فعلته فعلى هذه القراءة يكون التسليم بمعنى الطاعة والانقياد لا بمعنى تسليم الأجرة، يعني: إذا سلّمتم لأمره وانقدتّم لحُكْمه، وقيل: إذا سلمتم للاسترضاع عن

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

٣٨

تراض وإنفاق دون الضرار، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٢٣٤) قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، أي: يموتون وتتوفى آجالهم، وتوفى واستوفى بمعنى واحد، ومعنى التوفي: أخذ الشيء وافياً، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾: يتركون أزواجاً، ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: ينتظرن، ﴿بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، أي: يعتددن بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهن هذه المدّة، إلا أن يكن حوامل فعدّتهن بوضع الحمل، وكانت عدّة الوفاء في الابتداء حولاً كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، ثم نُسخت بأربعة أشهر وعشراً، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كانت هذه العدة يعني أربعة أشهر وعشراً واجبة عند أهل زوجها، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾، فجعل لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت وهو معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فالعدّة كما هي واجبة عليها، وقال عطاء: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نُسخت هذه الآية عدّتها عند أهلها، وسكنت في وصيتها، وإن شاء خرجت، قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتدّ حيث شاءت ولا سكنى لها، ويجب عليها الإحداد في عدّة الوفاة، وهي أن تمتنع من الزينة والطيب، فلا يجوز لها تدهين رأسها بأي دهن سواء كان فيه طيب أو لم يكن، ولها تدهينُ جسدها بدهن لا طيب فيه، فإن كان فيه طيب فلا يجوز، ولا يجوز لها أن تكتحل بكحل فيه طيب أو فيه زينة كالكحل الأسود، ولا بأس بالكحل الفارسي الذي لا زينة فيه، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة فقد رخّص فيه كثيرٌ من أهل العلم ومنهم سالم بن عبدالله وسليمان بن يسار، وعطاء والنخعي وبه قال مالك وأصحاب الرأي، وقال الشافعي رحمه الله: تكتحل به ليلاً وتمسحه بالنهار.

قالت أم سلمة: دخل عليّ رسول الله ﷺ حين تُوفّي أبو سلمة وقد جعلت على وجهي صَبِراً فقال: «إنه يَشُبُّ الوجه، فلا تجعليه إلا بالليل وتنزعيه بالنهار».

ولا يجوز لها الخضاب ولا لبس الوشي والديباج والحلي، ويجوز لها لبس البيض من الثياب ولبس الصوف والوبر، ولا تلبس الثوب المصبوغ للزينة كالأحمر والأخضر الناضر والأصفر، ويجوز ما صُبغ لغير زينة كالسواد والكحلي، وقال سفيان:

لا تلبس المصبوغ بحال.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحٰق الهاشمي، أنا أبو مُصْعب عن مالك عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر [بن] حزم، عن حميد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته بهذه الأحاديث الثلاثة، قالت زينب:

دخلت على أم حبيبة زوج النبيّ ﷺ حين تُوفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أمُّ حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مسّتْ به بطنها ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلّ لامرأة [تؤمن بالله واليوم الآخر] أن تحدّ على ميتٍ فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعةَ أشهرٍ وعشراً». وقالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش [زوج النبيّ ﷺ] حين توفي أخوها عبدالله

فدعت بطيب فمسّت به، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحِدَّ على ميت فوق ثلاث ليالٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً». قالت زينب: وسمعت أمي أمَّ سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكتْ عينها أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول»، قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شرَّ ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى يمرّ بها سنة، ثم تُؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به، فقلّما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتُعطى بعرة فترمي بها، ثم تُراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره.

وقال مالك: تفتض، أي: تمسح جلدها، وقال سعيد بن المسيب: الحكمة في هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد، ويقال: إن الولد يرتكض، أي: يتحرك في البطن لنصف مدة الحمل أربعة أشهر وعشراً قريباً من نصف مدة الحمل، وإنما قال ﴿عشراً﴾ بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي، لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلّبت عليها الليالي، فيقولون: صمنا عشراً، والصوم لا يكون إلا بالنهار، وقال المبرد: إنّما أنث العشر لأنه أراد المدد، أي: عشر مدد، كل مدة يومٌ وليلة، وإذا كان المتوفى عنها زوجها حاملاً فعدّتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم، روي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم: أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشراً، وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أنزلت سورة النساء القُصْرَى بعد الطُولَى، وأراد بالقصرى سورة الطلاق ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، نزلت بعد قوله تعالىٰ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، [وبالطولى] في سورة البقرة فحمله على النسخ، وعامة الفقهاء خصّوا الآية بحديث سُبَيعة وهو ما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مُصْعَب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة:

أن سُبَيْعَة نَفِسَتْ بعد وفاة زوجها بليال فجاءت إلى رسول الله ﷺ فاستأذنته أن تُنكح، فأذن لها، فنكحت.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: انقضت عدتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، خطاب للأولياء، ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾، أي: من اختيار الأزواج دون العقد فإن العقد إلى الولي، وقيل: فيما فعلن من التزين للرجال زينة لا ينكرها الشرع، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والإحدادُ واجب على المرأة في عدة الوفاة، أمّا المعتدة عن الطلاق ففيها نظر، فإن كانت رجعية لا إحداد عليها في العدة، لأن لها أن [تصنع] ما يُشوق قلب الزوج إليها ليُراجعها، وفي البائنة بالخلع والطلقات الثلاثة قولان، أحدهما: [عليها] الإحداد كالمتوفى عنها زوجها، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال أبو حنيفة، والثاني: لا إحداد عليها، وهو قول عطاء، وبه قال مالك.

(٢٣٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: النساء المُعتَدَّات، وأصل التعريض: هو التلويح بالشيء، والتعريض في الكلام بما يفهم به السامع مرادَه من غير تصريح، والتعريض بالخِطبة مباح في العدة، وهو أن يقول: رُبَّ راغبٍ فيك، من يجد مثلك، إنك لجميلة، وإنك لصالحة، وإنك عليّ لكريمة، وإني فيك لراغب، وإنّ من غرضي أن أتزوج، وإن جمع الله بيني وبينك بالحلال أعجبني، ولئن تزوجتُك لأحسنن إليك، ونحو ذلك من الكلام من غير أن يقول أنكحيني، والمرأة تجيبه بمثله إن رغبتْ فيه، وقال إبراهيم: لا بأس أن يهدي إليها ويقوم بشغلها في العدة إذا كانت [من شأنه].

رُوي أن سكينة بنت حنظلة بانت من زوجها فدخل عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر في عدّتها وقال: يا بنت حنظلة أنا مَنْ قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ

وحقّ جدي عليّ وقِدَمي في الإسلام! فقالت سكينة: أتخطبني وأنا في العدة وأنت [ممن] يؤخذ العلم عنك! فقال: إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ، قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وهي في عدة زوجها أبي سلمة، فذكر لها منزلته من الله عزّ وجلّ وهو متحامل على يده حتى أثّر الحصير في يده من شدّه تحامله على يده، والتعريض بالخطبة جائز في عِدّة الوفاة، أمّا المعتدّة عن فرقة الحياة يُنظر إن كانت ممن لا يحل بانت [منه] نكاحها، كالمطلقة ثلاثاً، والمُبانة باللّعان والرضاع، فإنه يجوز خطبتها تعريضاً، [وإن كانت ممن يحل للزوج نكاحها كالمُختلعة والمفسوخ نكاحها، يجوز لزوجها خطبتها تعريضاً وتصريحاً]، وهل يجوز للغير تعريضاً؟ فيه قولان، أحدهما: يجوز كالمطلقة ثلاثاً، والثاني: لا يجوز لأن المعاودة ثابتة لصاحب العدة كالرجعية لا يجوز للغير تعريضاً بالخطبة، [و] قوله تعالى: ﴿مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، [الخطبة] التماس النكاح وهي مصدر خَطَبَ الرجلُ المرأة يَخطِبُ خِطْبة، وقال الأخفش: الخِطبة الذكر والخُطبة التشهد، فيكون معناه فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾: أضمرتم، ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، من نكاحهن، يقال: أكننتُ الشيءَ وكننتُه لغتان، وقال ثعلب: أكننتُ الشيء [أي: أخفيته في نفسي]، وكننتُه سترتُه، قال السدي: هو أن يدخل فيسلم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: بقلوبكم، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، اختلفوا في السرّ المنهي عنه، فقال قوم: هو الزنا وكان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنية وهو يتعرض بالنكاح، ويقول لها: دعيني فإذا وَفيتِ عِدّتَك أظهرتُ نكاحَك، هذا قول الحسن وقتادة وإبراهيم وعطاء، ورواية عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال زيد بن أسلم: أي لا ينكحها سراً فيمسكها فإذا حلت أظهر ذلك، وقال مجاهد: هو قول الرجل لا تفوّتيني بنفسك فإني ناكِحُك، وقال الشعبي والسدي: لا يأخذ ميثاقها أن لا تنكح غيره، وقال عكرمة: لا ينكحها ولا يخطبها في العدّة، قال الشافعي: السرّ هو الجماع، وقال الكلبي: أي لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع، فيقول: آتيتك الأربعة والخمسة، وأشباه ذلك، ويُذكر السرُّ ويُراد به الجماع، قال امرؤُ القيس:

ألا زعمتِ بسباسة القوم أنني
كبرت وألا يُحسن السرَّ أمثالي

وإنما قيل للزنا والجماع: سر لأنه يكون في خفاء بين الرجل والمرأة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، هو ما ذكرنا من التعريض بالخِطبة. [و] قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾، أي: لا تُحققوا العزم على عقد النكاح في العدة حتى يبلغ الكتابُ أجله، أي: حتى تنقضي العدة، وسمّاها الله: كتاباً، لأنها فرض من الله؛ كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ [النساء: ١٨٣]، أي: فُرض عليكم، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، أي: فخافوا الله، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، لا يعجّل بالعقوبة.

(٢٣٦) وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، أي: ولم تمسوهن ولم تفرضوا.

نزلت في رجل من الأنصار تزوّج امرأةً من بني حنيفة ولم يُسمّ لها مهراً، ثم طلقها قبل أن يَمسَّها، فنزلت هذه الآية، فقال له رسول الله ﷺ: «متعها ولو بقلنسوتك».

قرأ حمزة والكسائي «ما لم تماسوهن»، بالألف هٰهنا وفي الأحزاب على المفاعلة، لأنّ بَدَنَ كل واحد منهما يُلاقي بدنَ صاحبه؛ كما قال الله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٤]، وقرأ الباقون ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ بلا ألف، لأن الغشيان يكون من فعل الرجال، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]، أو تفرضوا لهن فريضة، أي: تُوجبوا لهن صداقاً، فإن قيل: فما الوجه في نفي الجُناح عن المطلّق؟ قيل: الطلاق قطع سبب الوصلة. وجاء في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق».

فنفي الجُناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك، وقيل: معناه لا سبيل للنساء عليكم إن طلقتموهنّ

من قبل المسيس، والفرض بصداق ولا نفقة، وقيل: لا جُناح عليكم في تطليقهن قبل المسيس في أيّ وقت شئتم حائضاً كانت المرأة أو طاهراً لأنه لا سُنّةَ ولا بدعة في طلاقهن قبل الدخول بها، بخلاف المدخول بها، فإنه لا يجوز تطليقها في حال الحيض، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، أي: أعطوهنّ من مالكم ما يتمتعنّ به، والمتعة والمتاع: ما يُتبلّغ به من الزاد، ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾، أي: على الغنى، ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾، أي: الفقير، ﴿قَدَرُهُۥ﴾، أي: إمكانُه وطاقتُه، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ﴿قدره﴾ بفتح الدال فيهما، وقرأ الآخرون بسكونهما، وهما لغتان، وقيل: القدْر بسكون الدال: المصدر، وبالفتح: الاسم، ﴿مَتَٰعًا﴾ نُصب على المصدر، أي: متعوهن، ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بما أمركم الله به من غير ظلم، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وبيان حكم الآية: أنّ من تزوّج امرأة ولم يفرض لها مهراً، ثم طلّقها قبل المسيس يجب عليه المتعة بالاتّفاق، وإن طلقها بعد الفرض قبل المسيس فلا متعة لها، على قول الأكثرين، ولها نصف المهر المفروض.

واختلفوا في المطلقة بعد الدخول بها فذهب جماعة إلى أنها لا متعة لها، لأنها تستحق المهرَ، وهو قول أصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أنها تستحق المتعة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وهو قول عبدالله بن عمر، وبه قال عطاء ومجاهد والقاسم بن محمد وإليه ذهب الشافعي، لأن استحقاقها المهر بمقابلة ما أتلف عليها من منفعة البضع، فلها المتعة على وحشة الفراق، فعلى القول الأول لا متعة إلا لواحدة، وهي المطلقة قبل الفرض والمسيس، وعلى القول الثاني: لكل مطلقة متعة إلا لواحدة وهي المطلقة بعد الفرض قبل المسيس، قال عبدالله بن عمر: لكل مطلقة متعة إلا التي فُرض لها ولم يمسّها زوجها، فحسبها نصفُ المهر، قال الزهري: متعتان يقضي بإحداهما السلطان ولا يقضي بالأخرى، بل يلزمه فيما بينه وبين الله تعالىٰ، فأمّا التي يقضي بها السلطان فهي المطلقة قبل الفرض والمسيس، وهو قوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، والتي تلزمه فيما بينه وبين الله [تعالىٰ] فلا يقضي بها السلطان، فهي المطلقة بعد المسيس، وهو قوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وذهب الحسن وسعيد بن جُبير إلى أن لكل مطلقة متعة سواء كان قبل الفرض والمسيس أو بعد الفرض قبل المسيس؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، ولقوله تعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقالا: معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، أي: أو لم تفرضوا لهن فريضة، وقال بعضهم: المتعة غير واجبة والأمر بها أمر ندب واستحباب.

رُوي أن رجلاً طلّق امرأته وقد دخل بها فخاصمتْه إلى شُريح في المتعة، فقال شريح: لا تأبَ أن تكون من المحسنين ولا تأبَ أن تكون من المتّقين، ولم يجبره على ذلك، واختلفوا في قدر المتعة، فرُوي عن ابن عباس: أعلاها خادم، وأوسطها ثلاثة أثواب: دِرْعٌ وخِمارٌ وإزار، ودون ذلك وقاية، أو شيء من الوَرِق، وبه قال الشعبي والزهري وهذا مذهب الشافعي، قال: أعلاها على المُوسع: خادم، وأوسطها: ثوب، وأقلها: [أقل] ما له ثمن وحسن ثلاثون درهماً، وطلق عبدالرحمٰن بن عوف امرأته وحممّها جارية سوداء، أي: متّعها، ومتع الحسن بن علي رضي الله عنه امرأةً له بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق، وقال أبو حنيفة رحمه الله: مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز. والآية تدلّ على أنه يُعتبر حال الزوج في العُسر واليُسر، ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر يصح النكاح، وللمرأة مطالبته بأن يفرض لها صداقاً، فإن دخل بها قبل الفَرْضِ فلها عليه مهرُ مثلها، وإن طلّقها قبل الفرض والدخول فلها المتعة، وإن مات أحدهما قبل الفرض والدخول، فاختلف أهل العلم في أنها هل تستحق المهر أم لا؟ فذهب جماعة

إلى أنه لا مهر لها، وهو قول علي وزيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس، كما لو طلّقها قبل الفرض والدخول، وذهب قوم إلى أن لها المهر لأن الموت كالدخول في تقرير المسمى، فكذلك في إيجاب مهر المثل إذا لم يكن في العقد مسمىً، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي واحتجّوا بما رُوي عن علقمة عن ابن مسعود أنه سُئل عن رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً ولم يدخل بها حتى مات، فقال ابن مسعود: لها صداق نسائها ولا وَكْسَ ولا شَطَطَ، وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق امرأة منّا مثلَ ما قضيتَ ففرح بها ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال الشافعي رحمه الله: فإن ثبت حديث بَرْوَع بنت واشق فلا حجة في قول أحد دُون قول النبيّ ﷺ، وإن لم يثبت فلا مهر لها ولها الميراث، وكان عليّ يقول في حديث بَرْوَع: لا يقبل قول أعرابي من أشجع على [كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ].

(٢٣٧) وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، هذا في المطلقة بعد الفرض قبل المَسيس، فلها نصف المفروض وإن مات أحدهما قبلَ المَسيس فلها كمال المهر المفروض، والمراد بالمس المذكور في الآية: الجماع.

واختلف أهل العلم فيما لو خَلاَ الرجل بامرأته ثم طلّقها قبل أن يدخل بها، فذهب جماعة إلى أنه لا يجب لها إلا نصف الصداق ولا عِدّة عليها، لأن الله تعالىٰ أوجب بالطلاق قبل المَسيس نصف المهر ولم يوجب العدّة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه وابن مسعود، وبه قال الشافعي رحمه الله، وقال قوم: يجب لها كمال المهر وعليها العدة، لِما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: إذا أُرخيت الستورُ فقد وجب الصداق، ومثله عن زيد بن ثابت، وحمل بعضهم قول عمر على وجوب تسليم الصداق إليها إذا سلّمت نفسها، لا على تقدير الصداق.

وقيل: هذه الآية ناسخة للآية التي في سورة الأحزاب: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فقد كان للمطلقة قبل المسيس متاع فنُسخت بهذه الآية وأوجب للمطلقة المفروض لها قبل المسيس نصف المفروض، ولا متاع لها. وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، أي: سمّيتم لهن مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، أي: لها نصف المهر المُسمّى، ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾، يعني: النساء، أي: إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج، قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾، اختلفوا فيه فذهب بعضهم: إلى أن الذي بيده عُقدة النكاح هو الولي، وبه قال ابن

عباس رضي الله عنه، معناه: إلا أن تعفو المرأة بترك نصيبها إلى الزوج إن كانت ثيباً من أهل العفو أو يعفو وليّها، فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكراً، أو غير جائزة العفو فيجوز عفو وليها، وهو قول علقمة وعطاء والحسن والزهري وربيعة، وذهب بعضهم إلى أنه إنما يجوز عفو الولي إذا كانت المرأة بكراً، فإن كانت ثيباً فلا يجوز عفو وليها، وقال بعضهم: الذي بيده عُقدة النكاح هو الزوج، وهو قول علي، وبه قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والشعبي وشريح ومجاهد وقتادة، وقالوا: لا يجوز لوليّها تركُ الشيء من الصداق بكراً كانت أو ثيباً كما لا يجوز له ذلك قبل الطلاق بالاتفاق، كما لا يجوز له أن يهب شيئاً من مالها، وقالوا: معنى الآية [إلا أن] تعفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج، أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق، فعلى هذا التأويل وجه الآية الذي بيده عُقدة النكاح نكاح نفسه في كل حال قبل الطلاق أو بعده، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، [موضعُهُ رفعٌ بالابتداء، أي: فالعفو أقرب للتقوى]، أي إلى التقوى، والخطاب للرجال والنساء، جميعاً لأن المذكّر والمؤنث إذا اجتمعا، كانت الغلبة للمذكر، معناه: وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى، ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، أي: إفضال بعضهم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها، حثّهما جميعاً

الجزء الثاني — سورة البقرة

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٣٩

على الإحسان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿٢٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، أي: واظبوا وداوِمُوا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها، وإتمام [شروطها] وأركانها، ثم خصّ [الله تعالىٰ] من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دَلالةً على فضلها، والوسطى تأنيث الأوسط، ووَسَط الشيء: خيرُه وأعدَلُه، واختلف العلماء من الصحابة ومن بعدهم في الصلاة الوسطى، فقال قوم: هي صلاة الفجر، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر، وبه قال عطاء وعكرمة ومجاهد، وإليه ذهب مالك والشافعي؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، والقنوت: طول القيام، وصلاة الصبح مخصوصة بطول القيام وبالقنوت، ولأن الله تعالىٰ خصّها في آية أخرى من بين الصلوات، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني: يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان الليل وديوان النهار، ولأنها بين صلاتي جَمْع، وهي لا تُقصر ولا تُجمع إلى غيرها، وذهب قوم إلى أنها صلاة الظهر، وهو قول زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأسامة بن زيد، لأنها في وسط النهار وهي أوسط صلوات النهار في الطول.

أخبرنا عمر بن عبدالعزيز أخبرنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي، أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود، أنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر، أنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم قال: سمعت الزِّبْرِقان يحدث عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال:

كان رسول الله ﷺ يصلّي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلّي صلاة أشدّ على أصحاب النبيّ ﷺ منها، فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة العصر، رواه جماعة عن رسول الله ﷺ، وهو قول علي وعبدالله بن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وعائشة رضوان الله عليهم، وبه قال إبراهيم النخعي وقتادة والحسن.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما أنه قال:

أمرتني عائشة أن أكتب لها مُصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فلما بلغتها آذنْتُها فأملتْ عليّ ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ - «صلاة العصر» - ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: سمعتها من رسول الله ﷺ، وعن حفصة مثل ذلك.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أبو نعيم أنا سفيان عن عاصم بن أبي النَّجود عن زرّ بن حُبيش قال: قلنا لعبيدة: سَلْ علياً عن الصلاة الوسطى، فسأله، قال: كنّا نرى أنها صلاة الفجر حتى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم الخندق: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً».

ولأنها بين صلاتي نهار وصلاتي ليل، وقد خصّها النبيّ ﷺ بالتغليظ، أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا

محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم، أنا هشام [أنا] يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة عن أبي المليح قال:

كنا مع بُريدة في غزوة في يوم ذي غيم، فقال: بكّرُوا بصلاة العصر فإن النبيّ ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر [فقد] حبط عمله».

وقال قبيصة بن ذُؤيب: هي صلاة المغرب لأنها وسط ليس بأقلها ولا بأكثرها، ولم يُنقل عن أحد من السلف وإنما ذكرها بعض المتأخرين لأنها بين صلاتين لا تقصران، وقال بعضهم: هي إحدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهمها الله تعالىٰ تحريضاً للعباد على المحافظة على أداء جميعها، كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان، وساعة إجابة الدعوة في يوم الجمعة، وأخفى اسمه الأعظم في الأسماء ليحافظوا على جميعها. قوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، أي: مطيعين، قال الشعبي وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وطاوس: والقنوتُ: الطاعة، قال الله تعالىٰ: ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، أي: مُطيعاً، وقال الكلبي ومقاتل: لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين، فقوموا أنتم لله في صلاتكم مطيعين، وقيل: القنوت السكوت عمّا لا يجوز التكلّم به في الصلاة.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي أنا أحمد بن مَنيع، أنا هشيم أنا إسماعيل بن أبي خالد عن الحارث بن شُبَيْل عن أبي عمرو الشيباني عن زيد بن أرقم، قال:

كنّا نتكلم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة يُكلّم الرجلُ منّا صاحبَه إلى جنبه، حتى نزلتْ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام.

وقال مجاهد: خاشعين، وقال: من القنوت طول الركوع، وغضُّ البصر، والركودُ وخفضُ الجناح كان العلماء إذا كان أحدهم يُصلّي يهاب الرحمٰنَ أن يلتفت أو يقلّب الحصى أو يعبث بشيء أو يُحدّث نفسَه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسياً، وقيل: المراد من القنوت طول القيام.

أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي، أنا ابن أبي عمر أنا سفيان بن عُيينة عن أبي الزبير، عن جابر قال: قيل للنبيّ ﷺ: أيُّ الصلاة أفضل؟ قال: «طولُ القنوت».

وقيل: قانتين، أي: داعين، دليله ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً يدعو على أحياء من بني سليم على رِعل وذَكوان وعُصية.

وقيل: معناه مصلّين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]، أي: مصلٍّ.

(٢٣٩) قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، فرجالاً أي: رجالة، يقال: راجل ورجال، مثل صاحب وصحاب، وقائم وقيام، ونائم ونيام، أو رُكباناً على دوابّهم، وهو جمع راكب، معناه: إن لم يُمكنكم أن تصلوا قانتين موفّين للصلاة حقَّها لخوفٍ، فصلّوا مشاةً على أرجلكم أو رُكباناً على ظهورِ دَوابّكم، وهذا في حال المقاتلة والمسايفة يصلي حيث كان وجهه، رَاجلاً أو راكباً مستقبل القبلة، وغير مستقبلها، ويُومِيءُ بالركوع والسجود، ويجعل السجودَ أخفضَ من الركوع، وكذلك إذا قصده سَبُعٌ أو غشيَه سيلٌ يخاف منه على نَفسه فَعَدَا أمَامَه مُصلياً بالإيماء يجوز، والصلاة في حال الخوف على أقسام، فهذه صلاة شدة الخوف، وسائر الأقسام سيأتي بيانها في سورة النساء إن شاء الله تعالىٰ، ولا يُنتقص عددُ الركعات بالخوف عند أكثرِ أهل العلم.

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيّكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة.

وهو قول عطاء وطاووس والحسن ومجاهد وقتادة: أنه يُصلي في حال شدة الخوف ركعة، وقال سعيد بن جبير: إذا كنت في القتال وضَربَ الناسُ بعضهم بعضاً فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، واذكر الله، [فإذا ذكرت الله] فتلك صلاتُك. ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، أي: فصلّوا الصلوات الخمس تامّة بحقوقها، ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

(٢٤٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾: يا معشر الرجال، ﴿وَيَذَرُونَ﴾، أي: يتركون ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أي: زوجات، ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾، قرأ أهل البصرة وابن عامر وحمزة وحفص ﴿وَصِيَّةً﴾ بالنصب على معنى: فليُوصوا وصيةً، وقرأ الباقون بالرفع، أي: كُتب عليكم الوصية، ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾، متاعاً بنصب على المصدر، أي: متِّعوهنّ متاعاً، وقيل: جعل الله ذلك لهن متاعاً، والمتاع: نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسَكَنِها وما تحتاج إليه، ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، نُصب على الحال، وقيل: بنزع حرف على الصفة، أي: من غير إخراج.

نزلت هذه الآية في رجل من أهل الطائف يقال له: حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته، فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبيّ ﷺ والديه وأولاده من ميراثه، ولم يعط امرأته شيئاً وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولاً كاملاً وكانت عِدّة الوفاة في ابتداء الإسلام حولاً كاملاً وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول، وكانت نفقتها وسكناها واجبةً في مال زوجها تلك السنة ما لم تخرج، ولم يكن لها الميراث، فإن خرجت من بيت زوجها سقطتْ نفقتُها، وكان على الرجل أن يوصي بها، فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث، فنسخ الله تعالىٰ نفقة الحول بالربع والثمن، ونسخ عِدّة الحول بأربعة أشهر وعشراً. قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾، يعني: من قِبَل أنفسهن قبل الحول [من غير إخراج الورثة]، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت، ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، يعني: التزيّن للنكاح، ولرفع الجُناح عن الرجال وجهان، أحدهما: لا جُناح عليكم في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول، والآخر: لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج، لأن مقامها في بيت زوجها حولاً غيرُ واجب عليها، خيّرها الله تعالىٰ بين أن تُقيم حولاً ولها النفقة والسكنى، وبين أن تخرج فلا نفقة ولا سُكنى، إلى أن نَسَخه [الله تعالىٰ] بأربعة أشهر وعشراً، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝﴾، إنما أعاد ذكر المتعة هٰهنا لزيادة معنىً وذلك أن في غيرها بيان حكم غير الممسوسة، وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلّقات في المتعة، وقيل: إنه لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، قال رجل من المسلمين: إن أحسنت فعلت وإن لم أرد ذلك لم أفعل، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾، جعل المتعة لهن بلام التمليك، وقال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يعني: المؤمنين المتّقين الشرك.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾.

(٢٤٣) قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾، قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها دَاوَرْدَان قِبَل واسط، وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقي في القرية، وسلم الذين خرجوا [منها]، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منّا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون [عليهم] من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفْيَح، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم مَلك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن مُوتُوا فماتوا جميعاً.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب حدثنا مالك عن ابن شهاب، عن عبدالله بن عامر بن ربيعة:

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام فلما جاء سَرْغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبدالرحمٰن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجُوا فِرَاراً منه»، فرجع عمر من سرغ.

قال الكلبي ومقاتل والضحاك: إنما فرّوا من الجهاد وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلّوا وقالوا لملكهم: إن الأرض التي نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع

منها الوباء، فأرسل الله عليهم الموت [في مكانهم]، فخرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فلما رأى الملك ذلك قال: اللّهمّ ربّ يعقوب وإله موسى وهرون قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلما خرجوا ليتقوا الهلاك قال لهم الله تعالىٰ: ﴿مُوتُوا﴾ عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابّهم كموت رجل واحد، فما أتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأرْوَحت أجسادهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها، واختلفوا في مبلغ عددهم، قال عطاء الخراساني: كانوا ثلاثة آلاف، وقال وهب: أربعة آلاف، وقال مقاتل والكلبي: ثمانية آلاف، وقال أبو رُواق: عشرة آلاف، وقال السدي: بضعة وثلاثون ألفاً، وقال ابن جريج: أربعون ألفاً، وقال عطاء بن أبي رباح: سبعون ألفاً، وأولى الأقاويل قول من قال: كانوا زيادة على عشرة آلاف، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ والألوف جمع الكثير، وجمعه القليل آلاف، ولا يقال لِما دُونَ عشرة آلاف ألوف، قالوا: فأتت على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم، فمرّ عليهم نبي يقال له: حزقيل ابن يودى، ثالث خلفاء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل كان بعد موسى عليه السلام يوشع بن نون ثم كالب بن يوقنا ثم حزقيل، كان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزاً فسألت الله [تعالىٰ] الولد بعدما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالىٰ لها، قال الحسن ومقاتل: هو ذو الكفل، وسُمي حزقيل ذا الكفل لأنه تكفّل بسبعين نبياً وأنجاهم من القتل، فلما مرّ حزقيل على أولئك الموتى، وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم متعجباً، فأوحى الله تعالىٰ إليه تريد أن أريك آية؟ قال: نعم، فأحياهم الله [تعالىٰ]، وقيل: دعا حزقيل ربه أن يحييهم فأحياهم، وقال مقاتل والكلبي: هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله بعد ثمانية أيام، وذلك أنه لمّا أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم، فوجدهم موتى فبكى وقال: يا رب كنت في قوم يحمدونك ويسبّحونك ويقدسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيت وحيداً لا قومَ لي، فأوحى الله تعالىٰ إليه إني جعلت حياتهم إليك، قال حزقيل: احْيوا بإذن الله، فعاشوا.

قال مجاهد: إنهم قالوا حين أُحيوا سبحانك اللّهمّ ربنا وبحمدك لا إله إلاّ أنت، فرجعوا إلى قومهم وعاشوا دهراً طويلاً وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد دنساً مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كُتبت لهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وإنها لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود تلك الريح، قال قتادة: مَقَتهم اللَّهُ على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم، ثُم بُعثوا ليستوفوا بقية آجالهم، ولو ماتوا بآجالهم ما بعثوا، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أي: ألم تعلم بإعلامي إياك، وهو من رؤية القلب، وقال أهل المعاني: هو تعجيب، يقول: هل رأيت مثلهم كما تقول ألم ترَ إلى ما يصنع فلان، وكل ما في القرآن ألم ترَ ولم يعانيه النبيّ ﷺ فهذا وجهه، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾، جمع ألف، وقيل: مؤتلفة قلوبهم جمع أُلفٍ، مثل قاعد وقعود، والصحيح: أن المراد منه العدد، ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، أي: خوف الموت، ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾، أمر تحويل؛ كقوله تعالىٰ: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، بعد موتهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، قيل: هو على العموم في حق الكافة [في الدنيا]، وقيل: على الخصوص في حق المؤمنين، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أمّا الكفار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

(٢٤٤) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: في طاعة [الله] أعداء الله، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، قال أكثر أهل التفسير: هذا خطاب للذين أُحيوا، أُمروا بالقتال في سبيل الله فخرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يُجاهدوا، وقيل: الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد.

(٢٤٥) قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، القرض: اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازَى عليه، فسمّى الله تعالىٰ عملَ المؤمنين له على رجاء ما وعدهم من الثواب قرضاً، لأنهم يعملونه لطلب

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

٤٠

ثوابه، قال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيىء، وأصل القرض في اللغة: القطع، سمّي به القرض لأنه يقطع من ماله شيئاً يُعطيه ليرجع إليه مثله، وقيل في الآية اختصارٌ مجازه: من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، [الأحزاب: ٥٧]، أي: يؤذون عباد الله، كما جاء في الحديث الصحيح

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ تعالىٰ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمَك عبدي فلان فلم تطعمه، أما عَلِمْتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي»؟.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾، أي: ينفق في طاعة الله قرضاً حسناً، قال الحسين بن علي الواقدي يعني: محتسباً طيّبةً بها نفسه، [و] قال ابن المبارك: من مالٍ حلالٍ، وقيل: لا يمنّ به ولا يؤذي ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب «فيضعّفه» وبابه بالتشديد، ووافق أبو عمرو في سورة الأحزاب، وقرأ الآخرون ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالألف مخففاً، وهما لغتان، ودليل التشديد قوله: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، لأن التشديد للتكثير، وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب الفاء، وكذلك في سورة الحديد على جواب الاستفهام، وقيل: بإضمار أن، وقرأ الآخرون برفع الفاء نسقاً على قوله يقرض ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، قال السدي: وهذا التضعيف لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، وقيل: سبعمائة ضعف، ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾، قرأ أهل البصرة وحمزة ﴿يبسط﴾ هنا، وفي الأعراف: ﴿بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، بالسين كنظائرهما، وقرأهما الآخرون بالصاد، وقيل: يقبض بإمساك الرزق والنّفس والتقتير، ويبسط بالتوسيع، وقيل: يقبض بقبول التوبة والصدقة، ويبسط بالخلف والثواب، وقيل: هو الإحياء والإماتة فمن أماته فقد قبضه ومن مدّ له في عمره فقد بسط له،

وقيل: هذا في القلوب لما أمرهم الله تعالىٰ بالصدقة أخبر أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بتوفيقه، قال: يقبض بعض القلوب فلا ينشط بخير ويبسط بعضَها فيقدم لنفسه خيراً.

كما جاء في الحديث: «القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها الله كيف يشاء» الحديث.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي إلى الله تعودون فيجزيكم بأعمالكم، وقال قتادة: الهاء راجعة إلى التراب، كناية عن غير مذكور، أي: من التراب خلقهم وإليه يعودون.

﴿٢٤٦﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، والملأ من القوم: وجوههم وأشرافهم، وأصل الملأ: الجماعة من الناس، ولا واحد له من لفظه، كالقوم والرهط والإبل والخيل والمجن، وجمعه أملاء، ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾، أي: من بعد موت موسى، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾، واختلفوا في ذلك النبيّ، فقال قتادة: هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وقال السدي: اسمه شمعون، وإنما سمّي شمعون لأن أمه دعت الله أن يرزقها غلاماً فاستجاب الله دعاءها فولدت غلاماً فسمّته سمعون، تقول: سمع الله تعالىٰ دعائي، والسين تصير شيناً بالعبرانية، وهو شمعون بن صفية بنت علقمة من ولد لأوى بن يعقوب، وقال سائر المفسّرين: هو إشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن يال بن علقمة، وقال مقاتل: هو من نسل هارون، وقال مجاهد: هو أشمويل،

وهو بالعبرانية إسماعيل بن يال بن علقمة، وقال وهب وابن إسحاق والكلبي وغيرهم: كان سبب مسألتهم إياه ذلك أنه لمّا مات موسى عليه السلام خلف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم التوراة وأمر الله تعالىٰ حتى قبضه الله تعالىٰ، ثم خلف فيهم كالب كذلك حتى قبضه الله تعالىٰ، ثم خلف حزقيل حتى قبضه الله، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس نبياً فدعاهم إلى الله تعالىٰ وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، ثم خلف من بعد إلياس اليسع، فكان فيهم ما شاء الله ثم قبضه الله، ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت [فيهم] الخطايا فظهر لهم عدو يقال له البلشاثا، وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل [بقوتهم] وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاماً وضُربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم ولقي بنوا إسرائيل منهم بلاء وشدّة، ولم يكن لهم نبي يدبّر أمرهم، وكان سبط النبوّة قد هلكوا فلم يبقَ منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيتٍ رهبةً أن تلدَ جاريةً فتبدّلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً فولدت غلاماً فسمّته إشمويل، تقول: سمع الله تعالىٰ دعائي، فكَبُرَ الغلام فأسلمته ليتعلم التوراة في بيت المقدس، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه ذلك الشيخ، فلما بلغ الغلام أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ، وكان لا يأتمن عليه أحداً فدعاه جبريل بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام الغلام فزعاً إلى الشيخ، فقال: يا أبتاه دعوتني، فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام، وقال: يا بني ارجع فنم فرجع الغلام فنام، ثم دعاه الثانية، فقال الغلام: يا أبت دعوتني، فقال: ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني، فرجع الغلام فنام، فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل، فقال له: اذهب إلى قومك فبلّغهم رسالة ربك فإنّ الله عزّ وجل قد بعثك فيهم نبيّاً، فلما أتاهم كذّبوه وقالوا: استعجلت بالنبوّة ولم تنلك، وقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آيةً من نبوّتك، وإنما كان قِوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة الملوك لأنبيائهم، فكان الملك هو الذي يَسير بالجموع والنبيّ يقيم له أمره ويشير عليه برشده، ويأتيه بالخبر من ربّه، قال وهب بن منبه: بعث الله تعالىٰ أشمويل نبياً فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان، فقالوا لأشمويل: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، جزم على جواب الأمر، فلما قالوا له ذلك: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾، استفهام شك، يقول: لعلّكم، قرأ نافع ﴿عَسِيتُمْ﴾ بكسر السين، كل القرآن، وقرأ الباقون بالفتح، وهي اللغة الفصيحة بدليل قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿إِن كُتِبَ﴾: فُرضَ ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، مع ذلك الملك، ﴿ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾، أن لا تَفُوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه، ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإن قيل: فما وجه دخول أن في هذا الموضع، والعرب لا تقول ما لك أن لا تفعل، وإنما يقال: ما لك لا تفعل؟ قيل: دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان، فالإثبات كقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، والحذف كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، وقال الكسائي: معناه وما لنا في أن لا نقاتل، فحذف في، وقال الفراء: أي: وما يمنعنا أن [لا] نقاتل في سبيل الله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال الأخفش: أنْ هٰهنا زائدة معناه: وما لنا لا نقاتل في سبيل الله ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي أخرج من غلب عليهم من ديارهم ظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص، لأن الذين قالوا لنبيّهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله كانوا في ديارهم وأوطانهم، وإنما أخرج من أُسر منهم، ومعنى الآية: أنهم قالوا مجيبين لنبيّهم: إنما كنّا نزهد في الجهاد إذْ كنّا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا، فأما إذا بلغ ذلك منّا فنطيع ربنا في الجهاد، ونمنع نساءنا وأولادنا، قال الله

تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن الجهاد وضيّعوا أمر الله، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وذلك أن أشمويل سأل الله تعالىٰ أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعصاً وقرن فيه دهن القدس، وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون ملكاً طولُه طولَ هذه العصا، وانظر هذا القرن الذي فيه الدهن، فإذا دخل عليك رجل فنشّ الدهن الذي في القرن فهو مَلِكُ بني إسرائيل، فادّهن به رأسَه وملّكه عليهم، وكان طالوت اسمه بالعبرانية شاول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب، سمّي طالوت لطوله، وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه، وكان رجلاً دبّاغاً يعمل الأديم، قاله وهب، وقال السدي: كان رجلاً سقّاءً يسقي على حمار له من النيل، فضلّ حماره فخرج في طلبه [وقيل: كان خربندجا]، وقال وهب: بل ضلتْ حُمرٌ لأبي طالوت فأرسله وغلاماً له في طلبها فمرّا بِبيْتِ أشمويل عليه السلام، فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبيّ فسألناه عن أمر الحُمر ليرشدنا ويدعو لنا لكان حسناً، فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له [شأن دابتهما]، إذ نَشّ الدهنُ الذي في القرن، فقام أشمويل عليه السلام فقام طالوت بالعصا فكانت طوله، فقال لطالوت: قرّبْ رأسك فقرّبه فدهنه بدهن القدس، ثم قال له: أنت مَلِكُ بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالىٰ أن أملكك عليهم، فقال طالوت أما علمت أنّ سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ قال: بلى، قال: فبأيّ آية؟ قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حُمُرَه، فكان كذلك، ثم قال لبني إسرائيل: إن الله قد بعث لكم طالوت مَلِكاً، ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، أي: من أين يكون له الملك علينا؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾: أولى ﴿بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾؟ وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان، سبط نبوّة وسبط مملكة، فكان سبط النبوّة سبط لاوى بن يعقوب، ومنه كان موسى وهارون [عليهما السلام]، وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب، ومنه كان داود وسليمان [عليهما السلام]، ولم يكن طالوت من أحدهما، وإنما كان من سبط بُنْيامين بن يعقوب، وكانوا عملوا ذنباً عظيماً، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله تعالىٰ عليهم ونزع الملك والنبوّة عنهم، وكانوا يسمون سبط الإثم، فلما قال لهم نبيّهم ذلك، أنكروا عليه لأنه لم يكن من سبط المملكة، ومع ذلك قالوا: هو فقير، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾: اختاره ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾: فضيلة وسعة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته، وقيل: إنه أتاه الوحي حين أوتي الملك، وقال الكلبي: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ فضيلة وسعة في العلم بالحرب، وفي الجسم بالطول، وقيل: الجسم بالجمال، وكان طالوت أجمل رجل في بني إسرائيل [في وقته] وأعلمهم، ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قيل: الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى، والعليم العالم، وقيل: العالم بما كان، والعليم بما يكون، فقالوا له: فما آية ملكه فقال لهم نبيّهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت.

(٢٤٨) فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، وكانت قصة التابوت أن الله تعالىٰ أنزل تابوتاً على آدم فيه صورة الأنبياء عليهم السلام، وكان من عود الشمشاذ نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم [بعد ذلك] عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده، ثم عند يعقوب ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى، فكان موسى يضع فيه التوراة، ومتاعاً من متاعه، فكان عنده إلى أن مات موسى عليه السلام، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت إشمويل، وكان فيه ما ذكرَ اللَّهُ تعالىٰ: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، اختلفوا في السكينة ما هي؟ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ريح خجوج هفافة لها رأسان، ووَجه كوجه الإنسان، وعن مجاهد: شيء يُشبه الهرة له

رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان، وقيل: له عينان لهما شعاع وجناحان من زُمُردٍ وزَبَرْجَدٍ فكانوا إذا سمعوا صوته تيقّنوا بالنصرة، وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت قُدّامهم، فإذا سارَ سارُوا، وإذا وقف وقفوا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي طستٌ من ذهب من الجنّة، كان يُغسل فيه قلوبُ الأنبياء [عليهم السلام]، وعن وهب بن منبه قال: هي روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يُريدون، وقال عطاء بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها، وقال قتادة والكلبي: السكينة فعيلة من السكون أي: طمأنينة من ربكم، ففي أيّ مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾، يعني: موسى وهارون أنفسهما، كان فيه لوحان من التوراة ورضاض الألواح التي تكسّرتْ، وكان فيه عصا موسى ونعلاه، وعمامة هارون وعصاه، وقَفيزٌ من المنّ الذي كان ينزل على بني إسرائيل، فكان التابوت عند بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوّهم، فلما عصوا وأفسدوا سلّط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت، وكان السبب في ذلك أنه كان لَعيْلَى العالِم الذي ربّى إشمويل عليه السلام ابنان شابان وكان عيلى حبرَهم وصاحبَ قربانهم، فأحدث ابناه في القربان شيئاً لم يكن فيه، وذلك أنه كان لعَيْلَى منوط القربان الذي كانوا ينوطونه به كلابين، فما أخرجا كان للكاهن الذي ينوطه فجعل ابناه كلاليب، وكان النساء يصلّين في بيت المقدس فيتشبثان بهنّ، فأوحى الله تعالى إلى إشمويل عليه السلام انطلق إلى عِيلَى فقل له: منعك حبُّ الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يُحدثا في قرباني وقدسي شيئاً، وأن يعصياني فلأنزعنّ الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكنّك وإياهما، فأخبر إشمويل عَيْلى بذلك ففزع فزعاً شديداً، فسار إليهم عدوٌ ممن حولهم فأمر ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو، فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تهيّؤوا للقتال جعل عِيلى يتوقع الخبر ماذا صنعوا، فجاءه رجلٌ وهو جالس على كرسيه وأخبره أن الناس قد انهزموا وإن ابنيك قد قُتلا، قال: فما فعل التابوت؟ قال: ذهب به العدو فشهق ووقع على قفاه من كرسيه ومات، فخرج أمْرُ بني إسرائيل وتفرّقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكاً، فسألوا البيّنة فقال لهم نبيّهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، وكانت قصة التابوت أن الذين سبّوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها ازدود، وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمّروا قدمي الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قطعتْ يد الصنم ورجلاه، وأصبح ملقىً تحت التابوت، وأصبحت أصنامُهم منكسةً فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهلَ تلك الناحية وجعٌ في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه إلى قرية كذا، فبعث الله على أهل تلك القرية [فأراً فكانت الفأرة تبيت مع الرجل منهم فيصبح ميتاً وقد أكلت ما في جوفه، فأخرجوه إلى الصحراء فدفنوه في مخرأة لهم، فكان كل من تبرّز [بها] أخذه الباسور والقولنج فتحيّروا [في أمرهم وفي الأماكن يضعوا التابوت]، فقالت امرأة كانت عندهم من سبي بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم، فأتوا بِعَجَلَةٍ، بإشارة تلك المرأة، وحملوا عليها التابوت، ثم علّقوها على ثورين وضربوا جُنوبَهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل الله تعالىٰ بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما، فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل فكسَرا نِيرَيْهِمَا وقطعَا حبالَهما ووضعا التابوت في أرض فيها حصاد بني إسرائيل ورجعا إلى أرضهما، فلم يرعَ بني إسرائيل إلا بالتابوت، فكبّروا وحمدُوا الله، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، أي: تسوقه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، وقال الحسن: كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما ولي

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾

طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم وقال قتادة: بل كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك، فحملته الملائكة حتى وضعته في دار طالوت فأقرّوا بملكه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: لعبرة، ﴿لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن التابوت وعصى موسى في بحيرة طبرية، وإنهما يخرجان [منها] قبل يوم القيامة.

(٢٤٩) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾، أي: خرج بهم، وأصل الفصل: القطع، يعني: قطع مستقرّه شاخصاً إلى غيره، فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل، وقيل: ثمانون ألفاً لم يتخلّف عنه إلا كبيرٌ لهرمه أو مريضٌ لمرضه، أو معذور لعذره، وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكّوا في النصر فتسارعوا إلى الجهاد، فقال طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى [من القوم]، لا يخرج معي رجل يبني بناءً لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة يشتغل بها، ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج امرأة ولم يبنِ بها، ولا أبتغي إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع له ثمانون ألفاً ممن شرْطِه، وكان في حرٍّ شديد فشكوا قِلّة الماء بينهم وبين عدوّهم، فقالوا: إن المياه قليلة لا تحملنا فادعُ اللّهَ أن يُجري لنا نهراً، ﴿قَالَ﴾ طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾: مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم، ﴿بِنَهَرٍ﴾، قال ابن عباس والسدي: هو نهر فلسطين، وقال قتادة: نهر بين الأردن وفلسطين عذب، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، أي: ليس من أهل ديني وطاعتي، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾: لم يشربه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «غرفة» بفتح الغين، وقرأ الآخرون بالضم وهما لغتان، قال الكسائي: الغرفة بالضم الذي يحصل في الكف من الماء إذا غرف، والغرفة بالفتح: الاغتراف، فالضم اسم والفتح مصدر، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، نصب على الاستثناء، واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا [من النهر]، فقال السدي: كانوا أربعة آلاف، وقال غيره: ثلاثمائة وبضعة عشر وهو الصحيح،

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال:

كنّا أصحاب محمد ﷺ نتحدّث أن عدّة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن وهم بضعة عشر وثلاثمائة.

ورُوي: ثلاثمائة وثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر وقد أُلقي عليهم العطش، فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل فمن اغترف غرفة كما أمر الله قوي قلبه وصحّ إيمانه، وعَبَر النهرَ سالماً وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه، والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودّت شفاههم وغلبهم العطش، فلم يُرووا وبقوا على شط النهر وجُبنوا عن لقاء العدوّ، فلم يجاوزوا ولم يشهدوا الفتح، وقيل: كلّهم جاوزوا ولكن لم يحضر القتال إلا [القليل] الذين لم يشربوا، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾، يعني: النهر ﴿هُوَ﴾، يعني: طالوت، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، يعني: القليل، ﴿قَالُوا﴾، يعني: الذين شربوا وخالفوا أمر الله وكانوا أهل شكٍّ ونفاق، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي: فانحرفوا ولم يجاوزوا، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُو

﴿اللَّهِ﴾، وهم الذين ثبتوا مع طالوت، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾: جماعة، وهو جمع لا واحد له من لفظه، وجمعه فئات وفؤون في الرفع، وفئين في الخفض والنصب، ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بقضائه وقدره وإرادته، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: بالنصر والمعونة.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾، يعني: طالوت وجنوده، يعني: المؤمنين، ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ المشركين، ومعنى برزوا: صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها، ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾: أنزل واصبب ﴿صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: قوّ قلوبنا، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٢٥١﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، [أي: بعلم الله تعالىٰ]، ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾، وصفة قتله: قال أهل التفسير: عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود في ثلاثة عشر ابناً له وكان داود أصغرهم وكان يرمي بالقذافة، فقال لأبيه يوماً: يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرعتُه، فقال له: أبشر يا بني فإن الله [عزّ وجلّ] جعل رزقك في قذافتك، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبته فأخذت بأذنيه فلم يهجني، فقال: أبشر يا بني فإن هذا خير يريده الله بك، ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأُسبّح فما يبقى جبل إلا سبّح معي، فقال: أبشر يا بني فإن هذا خير أعطاكه الله تعالىٰ، فأرسل جالوت إلى طالوت أن ابرزْ لي أو أبرزْ إليّ من يقاتلني، فإن قتلني فلكم ملكي وإن قتلته فلي ملككم فشقّ ذلك على طالوت فنادى في عسكره من قتل جالوت زوّجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد، فسأل طالوت نبيّهم أن يدعو الله تعالىٰ فدعا الله في ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور من حديد فقيل: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي يوضع هذا القرن على رأسه فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه ويكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه، فدعا طالوت بني إسرائيل فجرّبهم فلم يوافقه منهم أحد، فأوحى الله إلى نبيّهم أن في ولد إيشا من يقتل الله به جالوت فدعا طالوت إيشا، فقال: اعرضْ عليّ بنيك، فأخرج له اثني عشر رجلاً أمثال السواري، فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئاً، فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غيرهم؟ فقال: لا، فقال النبيّ: يا ربّ إنه زعم أن لا ولد له غيرهم، فقال: كذب، فقال النبيّ: إن ربي كذبك، فقال: صدق الله يا نبيّ الله إن لي ابناً صغيراً يقال له داود، استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا، وكان داود رجلاً قصيراً مسقاماً مصفاراً أزرق أمعر، فدعاه طالوت، ويقال: بل خرج طالوت إليه فوجد الوادي قد سال بينه وبين الزريبة التي كان يريح إليها فوجده يحمل [شاتين] يجيز بهما السيل ولا يخوض بهما الماء فلما رآه طالوت يفعل ذلك قال: هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض، فقال طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوّجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي؟ قال: نعم، قال: وهل آنست من نفسك شيئاً تتقوّى به على قتله؟ قال: نعم، أنا أرعى الغنم فيجيء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة فأقوم إليه فأفتح لِحْيَيْه عنها وأضرقها إلى قفاه فردّه، فمرّ داود عليه السلام في طريقه بحجر فناداه الحجر: يا داود احملني فإني حجرُ هَارون الذي قتل بي مَلِك كذا وكذا فحمله في مخلاته، ثم مرّ بحجر آخر فقال: احملني فإني حجر موسى الذي قتل بي ملء كذا وكذا فحمله في مخلاته ثم مر بحجر آخر فقال: احملني فإني حجرك الذي تقتل بي جالوت فوضعه في مخلاته، فلما تصافّوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة، انتدب له داود فأعطاه طالوت فرساً ودرعاً وسلاحاً فلبس الدرع وركب الفرس فسار قريباً [من جالوت] ثم انصرف إلى الملك فقال من حوله: جَبُنَ الغلامُ فجاء فوقف على الملك فقال: ما شأنك؟ فقال له داود: إنّ الله إنْ لم ينصرني لم يغنِ عني هذا السلاح شيئاً فدعني أقاتل جالوت كما أريد، قال: فافعل ما شئت، قال: نعم فأخذ داود مخلاته فتقلّدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشدّ

الرجال وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد، فلما نظر إلى داود ألقى الله في قلبه الرعب، فقال له: أنت تبرز إليّ؟ قال: نعم، وكان جالوت على فرس أبلق وعليه السلاح التام، فقال: أتيتني بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب؟ قال: نعم أنت شر من الكلب، قال: لا جرم لأقسمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء، فقال داود: أو يقسم الله لحمك، فقال داود: باسم إله إبراهيم وأخرج حجراً ثم أخرج الآخر، وقال: باسم إله إسحاق ووضعه في مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال: باسم إله يعقوب ووضعه في مقلاعه فصارت كلها حجراً واحداً بأمر الله، ودوّر داودُ عليه السلام المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجرُ أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً وهزم الله تعالىٰ الجيش وخر جالوت قتيلاً فأخذ يجره حتىٰ ألقاه بين يدي طالوت ففرح المسلمون فرحاً شديداً، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، والناس يذكرون داود بخير، فجاء داودُ طالوتَ وقال: أنجزْ لي ما وعدتني، فقال: أتريد ابنة الملك بغير صداق، فقال داود: ما شرطتَ علي صداقاً وليس لي شيء، فقال: لا أكلفك إلا ما تطيق أنت رجل جريء وفي حيالنا أعداء لنا غُلف فإذا قتلت منهم مائتي رجل وجئتني بغلفهم زوّجتك ابنتي، فأتاهم [داود] فجعل كلما قتل واحداً منهم نظم غلفته في خيط حتى نظم غلفهم فجاء بها إلى طالوت وألقاها إليه، وقال: ادفع إليّ امرأتي فزوّجه إياها وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود وأحبوه، وأكثروا ذِكْرَهُ فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له: ذو العينين، فقالت ابنة طالوت لداود: إنك مقتول في هذه الليلة، قال: ومن يقتلني؟ قالت: أبي، قال: فهل أجرمت جرماً [أستحق به القتل]؟ قالت: حدثني مَنْ لا يكذب ولا عليك أن تغيب هذه الليلة حتى تنظر مصداق ذلك، قال: لئن كان الله أراد ذلك ما أستطيع خروجاً ولكن ائتيني بزق خمر فأتت به فوضعه في مضجعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير، فدخل طالوت نصف الليل، فقال لها: أين بعلك؟ قالت: هو نائم على السرير، فضربه بالسيف ضربة فسال الخمر، فلما وجد ريح الخمر قال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج [من عندها]، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً، فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك مني ثأره، فاشتدّ حجابه وحراسه وأغلق دونه أبوابه، ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون فأعمى الله سبحانه الحجبة وفتح له الأبواب، فدخل عليه وهو نائم علىٰ فراشه فوضع سهماً عند رأسه وسهماً عن رجليه [وسهماً عن يمينه] وسهماً عن شماله، ثم خرج فلما استيقظ طالوت بصر بالسهام فعرفها، فقال: يرحم الله تعالىٰ داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكفّ عني ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه، فلما كانت [الليلة] القابلة أتاه ثانية وأعمى الله الحجاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه وكوزه الذي كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئاً من هدب ثيابه، ثم خرج وهرب وتوارى، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلّط على داود العيون وطلبه أشدّ الطلب، فلم يقدر عليه، ثم إن طالوت ركب يوماً فوجد داود يمشي في البرية، فقال: اليوم أقتله فركض على أثره فاشتدّ داودُ وكان إذا فزع لم يُدرَك، فدخل غاراً فأوحى الله تعالىٰ إلى العنكبوت فنسجت عليه بيتاً فلمّا انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت، فقال: لو كان دخل هٰهنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى، وانطلق داود وأتى الجبل مع المتعبّدين فتعبّد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله وأغرى بقتل العلماء، فلم يكن يقدر على عالم في بني إسرائيل يطيق قتله إلا قتله حتى أُتي بامرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر خبازه بقتلها، فرحمها الخباز وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها فوقع في قلب طالوت التوبة وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي: أنشد الله عبداً يعلم أن لي توبة إلا أخبرني بها فلما أكثر

عليهم ناداه منادٍ من القبور: يا طالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاءً وحزناً، فرحمه الخباز فقال: ما لك أيها الملك؟ قال: هل تعلم في الأرض عالماً أسأله هل لي من توبة؟ فقال الخباز: إنما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطيّر منه، فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلا ذبحتموه، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه: إذا صاح الديك فأيقظونا حتى نُدْلِجَ، فقالوا له: وهل تركت ديكاً يسمع صوته؟ ولكن هل تركت عالماً في الأرض؟ فازداد حزناً وبكاءً فلما رأى الخباز ذلك قال له: أرأيتك إن دللتك على عالم لعلك أن تقتله، قال: لا، فتوثق عليه الخباز [بالأيمان] فأخبره أن المرأة العالمة عنده، قال: انطلق بي إليها [حتى] أسألها هل لي من توبة، وكانت من أهل بيت يعلم الاسم الأعظم، فإذا فنيت رجالهم علمت نساؤهم، فلما بلغ طالوت الباب، قال الخباز: إنها إذا رأتك فزعت، فخلفه خلفه ثم دخله فقال لها: ألستُ أعظم الناس مِنّةً عليك أنجيتك من القتل وآويتك؟ قالت: بلى، قال: فإن لي إليك حاجةً، هذا طالوت يسأل هل له من توبة، فغُشي عليها من الفَرَق، فقال لها حين أفاقت: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسألك هل له من توبة؟ قالت: لا والله لا أعلم لطالوت توبة، ولكن هل تعلمون مكان قبر نبي؟ فانطلق بهما إلى قبر إشمويل فصلّت ودعت ثم نادتْ: يا صاحب القبر، فخرج إشمويل من القبر ينفض رأسه من التراب، فلما نظر إليهم ثلاثتهم قال: ما لكم؟ أقامت القيامة؟ قالت: لا ولكن طالوت يسألك هل له من توبة، قال إشمويل: يا طالوت ما فعلت بعدي؟ قال: لم أدع من الشر شيئاً إلا أتيته وجئت لأطلب التوبة، قال له: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال، قال: ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلّى عن ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك، ثم تقاتل أنت حتى تُقتل آخرَهم، ثم رجع إشمويل إلى القبر وسقط وخرّ ميتاً، ورجع طالوت أحزن ما كان رهبةً أن لا يتابعه ولده، وقد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه، فدخل على أولاده فقال لهم: أرأيتم لو دُفعتُ إلى النار هل كنتم تفدونني؟ قالوا: بلى نفديك بما قدرنا عليه، قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم، قالوا: فاعرضْ علينا ما ينجيك منها، فذكر لهم القصة، قالوا: وإنك لمقتول؟ قال: نعم، قالوا: فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت، فتجهّز بماله وولده فتقدم وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شدّ هو بعدهم للقتال حتى قُتل، فجاء قاتله إلى داود ليبشّره، وقال: قتلت عدوّك، فقال داود: وما أنت بالذي تحيا بعده فضرب عنقه، فكان ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل إلى داود وأعطوه خزائن طالوت وملّكوه على أنفسهم. قال الكلبي والضحاك: ملك داود بعد قتل طالوت سبع سنين، ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني: النبوّة، وجمع الله لداود بين الملك والنبوّة، ولم يكن من قبل [بل] كان الملك في سبط والنبوّة في سبط، وقيل: الملك والحكمة هو: العلم مع العمل، [وهو] قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، قال الكلبي وغيره: يعني صنعة الدروع، فكان يصنعها ويبيعها، وكان لا يأكل إلا من عمل يده، وقيل: منطق الطير وكلام الجبل والنمل. وقيل: هو الزبور، وقيل: الصوت الطيب والألحان، فلم يُعطِ الله أحداً من خلقه مثل صوته، وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يأخذَ بأعناقها، وتظلّه الطير مصيخة له ويركد الماء الجاري، ويسكن الريح، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النار وحلقها مستديره مفصّلة بالجواهر مدسّرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فلا يحدّث في الهواء حَدَثٌ إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحدث، ولا يمسّها ذو عاهة إلا برىء وكانوا يتحاكمون إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رفعت، فمن تعدّى على صاحبه وأنكر له حقاً أتى السلسلة فمن كان صادقاً مدّ يده إلى السلسلة فتناولها، ومن كان كاذباً لم ينلها، فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

والخديعة فرفعت، وقيل: رفعت السلسلة في زمن داود حين أوحى الله إليه ما كان من مكرهم، فبلغنا أن بعض ملوكها أودع رجلاً جوهرة ثمينة فلما استردّها أنكر فتحاكما إلى السلسلة فعمد الذي عنده الجوهرة إلى عكاز فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر [عند] السلسلة، فقال صاحب الجوهرة: ردّ عليّ الوديعة، فقال صاحبه: ما أعرف لك عندي من وديعة، قال: فإن كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده، فقيل للمنكر: قم أنت فتناولها، فقال لصاحب الجوهرة: خذ عكازتي هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها المالك عنده، ثم قام المنكر نحو السلسلة فأخذها، فقال الرجل: اللّهمّ إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التي يدعيها عليّ قد وصلت إليه فقرب مني السلسلة، فمدّ يده فتناولها فتعجّب القوم وشكّوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة من بين أظهرهم. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب «دفاع الله» بالألف هٰهنا وفي سورة الحج، وقرأ الآخرون بغير الألف، لأن الله تعالىٰ لا يغالبه أحد، وهو الدافع وحده، ومن قرأ بالألف قال: قد يكون الدفاع من واحد مثل قول العرب: أحسن الله عنك الدفاع، قال [ابن عباس]: لولا دفع الله الناس بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخرّبوا المساجد والبلاد، وقال سائر المفسّرين: لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر، وبالصالح عن الفاجر.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله بن زنجويه أنا أبوبكر بن خرجة، أنا عبدالله بن أحمد بن حنبل أنا أبو حميد الحمصي، أنا يحيى بن سعيد العطار أنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبدالرحمٰن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ عزّ وجلّ ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

﴿٢٥٢﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾، أي: كلّمه الله تعالىٰ، يعني: موسى عليه السلام، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، يعني: محمداً ﷺ، قال الشيخ الإمام: رحمة الله عليه ما أوتي نبي آية إلا أوتي نبيُّنا مثل تلك الآية، وفُضّل على غيره بآيات مثل انشقاق القمر بإشارته، وحنين الجذع على مفارقته، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم والشهادة برسالته، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تُحصى، وأظهرها القرآن الذي عجز أهل السماء والأرض عن الإتيان بمثله.

أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق الثقفي، أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله تعالىٰ إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سنان أخبرنا هشيم أنا سيّار، أنا يزيد الفقير أنا جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

أن النبيّ ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلتْ لي الغنائم ولم تحلّ لأحد من قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبيّ يُبعث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناسِ عامّةً».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاء بن عبدالرحمٰن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن النبيّ ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ، أوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم، ونُصرتُ بالرُّعب، وأُحلتْ لي الغنائم، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً [وطهوراً]، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيّون».

قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد الرسل، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾، ثبت على إيمانه بفضل الله، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾، بخذلانه، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾، أعاده تأكيداً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، يُوفق منْ يشاء فضلاً ويُخذل من يشاء عدلاً. سأل رجلٌ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: هو طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحر عميق فلا تلِجْه، فأعاد السؤال، فقال: سرّ الله في الأرض قد خفي عليك فلا تفتشه.

(٢٥٤) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، قال السدي: أراد به الزكاة المفروضة، وقال غيره: أراد به صدقة التطوّع والنفقة في الخير، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾، أي: لا فداء فيه، سُمّاه بيعاً لأن الفداء شراء نفسه، ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾، ولا صداقة ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾، إلا بإذن الله، قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة كلها بالنصب، وكذلك في سورة إبراهيم: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وفي سورة الطور: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقرأ الباقون كلها بالرفع والتنوين، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

(٢٥٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن [محمد بن] سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرّياني، أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبي شيبة، أنا عبدالأعلى عن الجريري عن أبي السّليل، عن عبدالله بن رباح الأنصاري عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «أبا ذر أيُّ آية من كتاب الله أعظم»؟ قلتُ: الله لا إلٰه إلاّ هو الحيّ القيوم، قال: فضرب في صدري ثم قال: «لِيَهْنِكَ العلمُ [يا أبا المنذر]»، ثم قال: «والذي نفس محمد بيده إنّ لهذه الآية لساناً وشفتين تُقدّس المَلِكَ عند ساق العرش».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي [أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، عن محمد بن إسماعيل قال: عثمان بن الهيثم أبو عمرو، نا عوف، عن محمد بن سيرين] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخلّيت سبيله فأصبحتُ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجةً شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج ولي عيال ولا أعود، فرحمته

فخلّيت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته وخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: هي؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، حتى تختم الآية فإنك لن يزال من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، [فخلّيت سبيله فأصبحت، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلّمني كلمات ينفعني الله بها فخلّيت سبيله، قال: «وما هي»؟ [قال:] قال لي: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أوّلها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وقال: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص الناس على الخير]، فقال النبيّ ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة»؟ قلت: لا، قال: «ذاك شيطان».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرَّيَّاني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيى، أخبرنا أبو معاوية عن عبدالرحمٰن بن أبي بكر هو المُلَيْكي، عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ١ ـ ٢]، حُفظ في يومه ذلك حتى يُمسي ومن قرأهما حين يُمسي حفظ في ليلته تلك حتى يُصبح».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ﴾، رفع بالابتداء وخبره في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، الباقي الدائم على الأبد وهو من له الحياة، والحياة صفة الله تعالىٰ ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ وقرأ عمر وابن مسعود «القيام»، وقرأ علقمة «القيم»، وكلها لغات بمعنى واحد، قال مجاهد: القيّوم القائم على كل شيء، قال الكلبي: القائم على كل نفس [بما كسبت]، وقيل: هو القائم بالأمور، وقال أبو عبيدة: الذي لا يزول ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾، السِّنَةُ النعاس، وهو النوم الخفيف، والوَسْنَانُ بين النائم واليقظان، يقال منه: وَسِنَ يَسِنُ وَسَناً وسِنَةً، والنوم هو: الثقل المزيل للقوة والعقل، وقال المفضل الضبي: السِّنَةُ في الرأس، والنوم: في القلب، فالسنة أول النوم وهو النعاس، وقيل: السّنة في الرأس والنعاس في العين، والنوم في القلب، فهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء، نفى الله تعالىٰ عن نفسه النوم لأنه آفة وهو منزّه عن الآفات، ولأنه تغيّر ولا يجوز عليه التغيّر.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبدالله بن حامد أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرنا علي بن حرب أخبرنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مرّة عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال:

قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينامَ ولكنّه يخفضُ القسط و [يرفعه] يُرفع إليه عملَ الليل قبلَ عملِ النهار وعملَ النهار قبلَ عملِ الليل، حجابُه النورُ لو كشفه لأحرقتْ سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

ورواه المسعودي عن عمرو بن مرة، وقال: «حجابه النار»، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، ملكاً وخلقاً، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، بأمره، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾، قال مجاهد وعطاء والسدي: ما بين أيديهم من أمر الدنيا ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ من أمر الآخرة، وقال الكلبي: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، يعني: الآخرة لأنهم يقدمون عليها، وما خلفهم الدنيا لأنهم يخلّفونها وراء ظهورهم، وقال ابن جريج: ما بين أيديهم: ما مضى أمامهم، وما خلفهم: ما يكون بعدهم، وقال مقاتل [بن سليمان]: ما بين أيديهم ما كان قبل [خلق] الملائكة وما خلفهم، أي: ما كان بعد خلقهم، وقيل: ما بين أيديهم أي: ما قدّموه من خير وشر، وما خلفهم ما هم فاعلوه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾، أي:

من علم الله، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، أن يُطلعهم عليه، يعني: لا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء مما أخبر به الرسل؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: ملأ وأحاط به، واختلفوا في الكرسي، فقال الحسن: هو العرش نفسه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: الكرسي: موضوع أمام العرش، ومعنى قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: سعته مثل سعة السمٰوات والأرض.

وفي الأخبار: «أن السمٰوات والأرض في جنب الكرسي، كحلقة في فلاة، والكرسي في جنب العرش، كحلقة في فلاة».

ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن السمٰوات السبع والأرضين السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس، وقال عليّ ومقاتل: كل قائمة من [قوائم] الكرسي طولها مثل السموات السبع والأرضين السبع، وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسي أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام. ملكٌ على صورة سيد البشر آدم عليه السلام، وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى السنة، وملكٌ على صورة سيد الأنعام وهو الثور، وهو يسأل للأنعام الرزق والمطر من السنة إلى السنة، وعلى وجهه غضاضةٌ منذ عُبد العجل، وملكٌ على صورة سيد السباع، وهو الأسد يسأل [الله الرزق] للسباع من السنة إلى السنة، وملكٌ على صورة سيد الطير، وهو النسر يسأل [الله] الرزق للطير من السنة إلى السنة. وفي بعض الأخبار: أن ما بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور، غِلَظُ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، ولولا ذلك لاحترقت حملة الكرسي من نور حملة العرش. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أراد بالكرسي علمه، وهو قول مجاهد، ومنه قيل لصحيفة العلم: كراسة، وقيل: كرسيه ملكه وسلطانه، والعرب تسمّي الملك القديم: كرسياً. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾، أي: لا يُثقله ولا يَشقّ عليه، يقال: آدني الشيءُ أي أثقلني، ﴿حِفْظُهُمَا﴾، أي: حفظ السمٰوات والأرض، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾: الرفيع فوق خلقه، والمتعالي عن الأشياء والأنداد، وقيل: العليّ بالملك والسلطنة، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: الكبير الذي لا شيء أعظم منه.

(٢٥٦) قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة ـ والمقلاة من النساء التي لا يعيش لها ولد، وكانت تنذر لئن عاش لها ولد لَتهوّدَنّه إن عاش ولدها جعلته في اليهود، فجاء الإسلام وفيهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم، وقالوا: هم أبناؤنا وإخواننا، فنزلت هذه الآية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «خيّروا أصحابكم فإنِ اختاروكم فهم منكم وإنِ اختاروهم فأجلُوهم معهم».

وقال مجاهد: كان ناسٌ مسترضعين في اليهود من الأوس فلما أمر النبيّ ﷺ بإجلاء بني النضير، قال الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهبنّ معهم ولنَدينن بدينهم، فمنعهم أهلوهم، فنزلت ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتنصّرا قبل مبعث النبيّ ﷺ، ثم قَدِمَا المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما، فتخاصما إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ فخلّى سبيلهما، وقال قتادة وعطاء: نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا الجزية، وذلك أن العرب كانت أمة أُمّية لم يكن لهم كتاب فلم يُقبلُ منهم إلا الإسلام، فلما أسلموا طوعاً أو كرهاً أنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، فأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يسلموا أو يُقرّوا بالجزية، فمن أعطى منهم الجزية لم يكره على الإسلام.

وقيل: كان هذا في الابتداء قبل أن يُؤمر بالقتال، فصارت منسوخة بآية السيف، وهو قول ابن مسعود

الجزء الثالث | سورة البقرة

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

٤٣

رضي الله عنه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أي: الإيمان من الكفر والحق من الباطل، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، يعني: بالشيطان، وقيل: كل ما عُبد من دون الله تعالىٰ فهو طاغوت، وقيل: كل ما يُطغي الإنسان، فاعول، من الطغيان زيدتِ التاء فيه بدلاً من لام الفعل كقولهم: حانوت وتابوت، فالتاء فيها مبدلة من هاء التأنيث، ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، أي: تمسّك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين، والوثقى: تأنيث الأوثق، وقيل: العروة الوثقى السبب الذي يُوصل إلى رضا الله تعالىٰ، ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾: لا انقطاع لها، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: [قيل: سميع] لدعائك إياهم إلى الإسلام، ﴿عَلِيمٌ﴾: بحرصك على إيمانهم.

﴿٢٥٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ناصرهم ومعينهم، وقيل: مُحبّهم، وقيل: متولّي أمورهم لا يكلهم إلى غيره، وقال الحسن: ولي هدايتهم، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: من الكفر إلى الإيمان، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فالمراد منه: الكفر والإيمان غير التي في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فالمراد منه: الليل والنهار، سُمّي الكفر: ظُلمة لالتباس طريقه، وسُمّي الإسلام نوراً لوضوح طريقه. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾، قال مقاتل: يعني: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، يدعونهم من النور إلى الظلمات، والطاغوت يكون مذكراً ومُؤنثاً وواحداً وجمعاً، فقال تعالىٰ في المذكر والواحد: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال في المؤنث: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، وقال في الجمع: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، فإن قيل: كيف يخرجونهم من النور إلى الظلمات وهم كفار لم يكونوا في نور قط؟ قيل: هم اليهود وكانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن يُبعث لِما يجدون في كتبهم من نعته، فلما بُعث كفروا به، وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفار، وقالوا: منعهم إياهم من الدخول فيه: إخراجٌ، كما يقول الرجل لأبيه: أخرجتني من مالك، ولم يكن فيه؛ كما قال الله تعالىٰ إخباراً عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكن قطّ في ملتهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿٢٥٨﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، معناه: هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي حاجّ إبراهيم، أي: خاصم وجادل، وهو نمرود، وهو أوّل من وضع التاج على رأسه وتجبّر في الأرض وادّعى الربوبية؟ ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، أي: لأن آتاه الله الملك فطغى، أي: كانت تلك المحاجّة من بَطَرِ الملك وطغيانه، قال مجاهد: ملَكَ الأرضَ أربعةٌ: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران: فنمرود وبختنصر، واختلفوا في وقت هذه المناظرة، قال مقاتل: لمّا كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود، ثم أخرجه ليحرقه بالنار، فقال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ فقال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وقال آخرون: كان هذا بعد إلقائه في النار وذلك أن الناس قُحِطوا على عهد نمرود، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام، فكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام سأله من

ربك فإن قال أنت، باع منه الطعام، فأتاه إبراهيم فيمن أتاه، فقال له نمرود: من ربك؟ قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فاشتغل بالمحاجّة ولم يعطه شيئاً، فرجع إبراهيم فمرّ على كثيب من رمل أعفر فأخذ منه تطييباً لقلوب أهله إذا دخل عليهم، فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو أجود طعام ما رآه أحد فأخذته فصنعت له منه فقرّبته [إليه]، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه فحمد الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره: قال له من ربك؟ قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قرأ حمزة: ﴿رَبِّيْ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بإسكان الياء وكذلك ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، و﴿عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، و﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، و﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]، و﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، و﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، و﴿عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، و﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١]، و﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، و﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ [الملك: ٢٨]، أسكن الياء فيهن حمزة، ووافق ابن عامر والكسائي في ﴿لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٣١]، وابن عامر [في] ﴿آيَاتِيَ الَّذِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وفتحها الآخرون ﴿قَالَ﴾ نمرود [لإبراهيم] ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، قرأ أهل المدينة ﴿أَنَا﴾ بإثبات الألف والمدّ في الوصل إذا تلتها ألف مفتوحة أو مضمومة، والباقون بحذف الألف، ووقفوا جميعاً بالألف، قال أكثر المفسّرين: دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل تَرْكَ القتل إحياءً له فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لاعجزاً، فإن حجّته كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميّت فكان له أن يقول فأحيي من أمت إن كنت صادقاً، فانتقل إلى حُجّة أخرى أوضح من الأولى ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، أي: تحيّر ودُهش وانقطعت حُجّته، فإن قيل: كيف بُهت وكان يمكنه أن يُعارض إبراهيم، فيقول له: سَلْ أنت ربك حتى يأتي بها من المغرب، قيل: إنما لم يقله لأنه خاف أن لو سأله ذلك، دعا إبراهيم ربّه فكان زيادة في فضيحته وانقطاعه، والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهاراً للحجّة عليه أو معجزة لإبراهيم عليه السلام ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(٢٥٩) قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية مَسُوقَةٌ على الآية الأولى، تقديره: ألم ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه، [وإلى الذي] مرّ على قرية؟

وقيل: تقديره: هل رأيت كالذي حاجّ إبراهيم في ربّه؟ وهل رأيت الذي مرّ على قرية؟ واختلفوا في ذلك المارّ.

فقال قتادة وعكرمة والضحاك: هو عزير بن شرخيا، وقال وهب بن منبه: هو أرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون وهو الخضر، وقال مجاهد: هو كافر شكّ في البعث، واختلفوا في تلك القرية، فقال وهب وعكرمة وقتادة: هي بيت المقدس، وقال الضحاك: هي الأرض المقدسة، وقال الكلبي: هي دير سابر أباد، وقال السدي: سلماباد، وقيل: دير هرقل، وقيل: هي الأرض التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وقيل: هي قرية العنب وهي على فرسخين من بيت المقدس، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾: ساقطة، يقال: خوِي البيت بكسر الواو يخوي، خوىً مقصوراً إذا سقط، وخوى البيت بالفتح خواء ممدوداً إذا خلا، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: سقوفها، واحدها عرش، وقيل: وكل بناء عرش، ومعناه: أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ وكان السبب في ذلك على ما روى محمد بن إسحاق بن منبه: أنّ الله تعالىٰ بعث أرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل ليسدّده في ملك، ويأتيه بالخبر من الله عزّ وجلّ، فعظمت الأحداث في بني إسرائيل، وركبوا المعاصي فأوحى الله تعالىٰ إلى أرمياء أنْ ذكّر قومك نِعَمِي وعَرِّفهم أحداثهم [وركوبهم معصيتي] وادْعُهمْ إليّ، فقال أرمياء: إني ضعيفٌ إن لم تقوني، عاجزٌ إنْ لم تبلّغني، مخذولٌ إنْ لم تنصرني، فقال الله عزّ وجلّ: أنا ألهمك [ما تقول]، فقام أرمياء

فيهم ولم يدرِ ما يقول، فألهمه الله في الوقت خُطبةً بليغةً طويلةً بيّن لهم فيها ثوابَ الطاعة وعقابَ المعصية، وقال في آخرها عن الله تعالى: وإني أحلف بعزّتي لأُقيّضَنَّ لهم فتنةً يتحيّر فيها الحليم ولأسلطنَّ عليهم جباراً فارسياً ألبسه الهيبةَ وأنزعُ من صدره الرحمةَ يتبعه عددٌ مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله تعالى إلى أرمياء: إني مهلك بني إسرائيل [بيافث]، ويافث من أهل بابل، وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشقّ ثيابه ونبذَ الرمادَ على رأسه، فلما سمع الله تضرّعَه وبكاءَه ناداه يا أرمياءِ أشقّ عليك ما أوحيت إليك [من إهلاكهم]؟ قال: نعم يا رب، أهلِكْنِي قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أسرّ به، فقال الله تعالى: وعزّتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك، ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه، فقال: لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل، ثم أتى المِلِكُ فأخبره بذلك وكان مَلِكاً صالحاً فاستبشر وفرح، فقال: إن يُعذّبنا ربُّنا فبذنوب كثيرة، وإن عفا عنّا فبرحمته.

ثم إنهم لبثوا بَعْدَ الوحي ثلاث سنين لم يزدادُوا إلاّ معصيةً وتمادياً في الشر، وذلك حين اقترب هلاكُهم فقلّ الوحي، ودعاهم المِلِكُ إلى التوبة [فتمادوا في غيّهم]، فسلّط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس، فلما فصل سائراً أتى المَلِك الخبرُ فقال لأرمياء: أين ما زعمت أنّ الله أوحى إليك، فقال أرمياء: إن الله لا يخلف الميعاد، وأنا به واثق، فلما قَرُبَ الأجل بعث الله إلى أرمياء ملَكاً قد تمثل له رجلاً من بني إسرائيل، فقال له أرمياء: من أنت؟ قال: أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي، وصلت أرحامهم ولم آتِ إليهم إلا حُسناً ولا يزيدهم إكرامي إياهم إلا إسخاطاً لي، فأفتني فيهم، فقال: أحسنْ فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير، فانصرف الملَكُ فمكث أياماً ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل، فقعد بين يديه، فقال له أرمياء: مَنْ أنت؟ قال: أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي، فقال له أرمياء: أمَا طهرت أخلاقهم لك بعد؟ فقال: يا نبيّ الله والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلىٰ رَحِمه إلا قدّمتها إليهم وأفضل [من ذلك]، فقال له النبي أرمياء عليه السلام: ارجع فأحسن إليهم واسألِ اللّهَ الذي يُصلح عباده الصالحين أن يُصلحهم [لك]، فانصرف الملَكُ، فمكث أياماً وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل، فقال ملكهم لأرمياء: يا نبي الله أين ما وعدك الله؟ قال: إني بربّي واثق، ثم أقبل الملَكُ إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذي وعده، فقعد بين يديه، فقال له أرمياء: من أنت؟ فقال: أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين، فقال النبيّ: ألم يأنِ لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال الملَكُ: يا نبيّ الله كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه، فاليوم رأيتهم في عمل لا يُرضي الله، فقال النبيّ: على أي عمل رأيتهم؟ قال: على عمل عظيم من سخط الله، فغضبتُ لله وأتيتك لأخبرك، وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبياً إلا ما دعوتَ اللّهَ عليهم لِيُهلِكَهم، فقال أرمياء: يا مالك السمٰوات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم، فلما خرجتِ الكلمةُ مِنْ فِي أرمياء أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس، فالتهب مكان القربان [ناراً] وخُسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشقّ ثيابه ونبذ الرماد على رأسه، وقال: يا مالك السمٰوات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به، فنودي أنه لم يصبهم ما أصابهم إلا بفتياك ودعائك، فاستيقن [أرمياء] عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ربّه، فطار أرمياء حتى خالط الوحوش، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً فيقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤوه، ثم أمرهم أن يجمعوا من كان في بلدان بيت المقدس، فاجتمع عنده صغيرهم وكبيرهم من بني إسرائيل، فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسّمهم بين الملوك الذين

كانوا معه، فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة، وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا، وفرّق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثاً قتلهم وثلثاً سباهم وثلثاً أقرّهم بالشام، وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله ببني إسرائيل بظلمهم فلما ولّى عنهم بختنصر راجعاً إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب في ركوة وسلّة تين حتى غشي إيلياء، فلما وقف عليها ورأى خرابها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وقال الذي قال: إن المارّ كان عزيراً وإن بختنصر لمّا خرّب بيت المقدس وقدِم بسبي بني إسرائيل ببابل كان فيهم عزيرٌ ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود، فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل على شط دِجلة، فطاف في القرية فلم يرَ فيها أحداً وعامة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زقّ، فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، قالها تعجباً لا شكّاً في البعث. رجعنا إلى حديث وهب. قال: ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد فألقى الله تعالىٰ عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام، وأمات حماره، وعصيرُه وتينه عنده فأعمى الله عنه العيون فلم يرَه أحد، وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله مَلكاً إلى ملِك من ملوك فارس يقال له: نوشك، فقال [له]: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمّر بيت المقدس وإيلياء حتى يعود أعمر ما كان، فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمّرونه، فأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت دماغه، ونجّى الله من بقي من بني إسرائيل، ولم يمت ببابل أحد [منهم]، وردّهم جميعاً إلى بيت المقدس ونواحيه وعمّروها ثلاثين سنة، وكثُروا حتى عادوا على أحسن ما كانوا عليه [قبل]، فلما مضت المائة أحيا الله مِنْهُ عَيْنَيْهِ وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر إليه، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيضٌ تلوح، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض واتّصل بعضها ببعض، ثم نُودي: أن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وجلداً فكانت كذلك، ثم نُودي أن الله يأمرك أن تحيا فقام بإذن الله ونهق، وعمّر اللَّهُ أرمياء فهو الذي يُرى في الفلوات، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، أي: أحياه، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾، أي: كم مكثت؟ يقال: لمّا أحياه الله بعث إليه ملكاً فسأله: كم لبثت ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾، وذلك أن الله تعالىٰ أماته ضُحىً في أول النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال: لبثت يوماً وهو يرى أن الشمس قد غربت، ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، بل بعض يوم ﴿قَالَ﴾ له الملك: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾، يعني: التين، ﴿وَشَرَابِكَ﴾، يعني: العصير، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، أي: لم يتغيّر، فكان التين كأنه قُطف من ساعته، [والعصير كأنه عُصر من ساعته]، قال الكسائي: كأنه لم تأت عليه السنون، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿لم يتسن﴾ بحذف الهاء في الوصل، وكذلك ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقرأ الآخرون بالهاء فيهما وصلاً ووقفاً، فمن أسقط الهاء في الوصل جعل الهاء صلةً زائدةً، وقال: أصله يتسنى، فحذف الياء في الجزم وأبدل منه هاء في الوقف، وقال أبو عمرو: وهو من التسنّن، بنونين، وهو التغيّر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦ و٢٨ و٣٣]، أي: متغيّر، فعوّضت من أحد النونين ياء؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣]، أي: يتمطّط، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]، وأصله: دسّسها، ومن أثبت الهاء في الحالين جعل الهاء أصلية لامَ الفعل، وهذا على قول من جعل أصل السنة السنهة، وتصغيرها سُنيهة، والفعل من المسانهة، وإنما قال: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ولم يثنه مع [غيره مع] أنه أخبر عن شيئين رداً للمتغيّر إلى أقرب اللفظين به، وهو الشراب، واكتفى بذكر أحد المذكورين، لأنه في معنى الآخر، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، فنظر [إليه] فإذا هو عظام

بيض، فركّب الله تعالىٰ العظام بعضها على بعض فكساه اللحمَ والجلدَ وأحياه وهو ينظر، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، قيل: الواو زائدة مقحمة، وقال الفراء: أُدخلت الواو فيه دلالةً على أنها شرط لفعل بعدها معناه: ولنجعلك آيةً [أي] عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت، قاله أكثر المفسّرين، وقال الضحاك وغيره: إنه عاد إلى قريته شاباً وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز، وهو أسود الرأس واللحية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، قرأ أهل الحجاز والبصرة: ﴿ننشرها﴾ بالراء، معناه: نحييها، يقال: أنشر الله الميت إنشاراً ونشره نشوراً، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، وقال في اللازم: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال الآخرون بالزاي، أي نرفعها من الأرض [ونردها إلى مكانها من الجسد]، ونركّب بعضها على بعض، وإنشاز الشيء: رفعه وإزعاجه، أنشزته فنشز، أي: رفعته فارتفع، واختلفوا في معنى الآية، فقال الأكثرون: أنه أراد به عظام حماره، وقال السدي: إن الله تعالىٰ أحيا عُزيراً، ثم قال له: انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه، فبعث الله تعالىٰ ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، وقد ذهبت بها الطير والسباع، فاجتمعت فركّب بعضها في بعض وهو ينظر [فصار حماراً من عظام ليس فيه لحم ولا دم، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، ثم كسى العظام لحماً] فصار حماراً لا روح فيه، ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه، فقام الحمار ونهق بإذن الله، وقال قوم: أراد به عظام هذا الرجل، ذلك أن الله تعالىٰ لم يُمت حماره بل أماته هو، فأحيا الله عينيه ورأسه، وسائر جسده ميت، ثم قال له: انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائماً واقفاً كهيئته يوم ربطه حياً لم يُطعم ولم يشرب مائة عام، ونظر إلى الرُّمة في عنقه جديدة لم تتغيّر، وتقدير الآية: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وانظر إلى عظامك كيف ننشزها، في الآية تقديم وتأخير وتقديرهما: وانظر إلى حمارك، وانظر إلى العظام كيف ننشرها، ولنجعلك آية للناس]، وقال قتادة عن كعب والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا أحيا الله تعالىٰ عُزيراً بعدما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس [وأنكر هو الناس] وأنكر منازله، فانطلق على وَهْم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفته وعقلته، فقال لها عزير: يا هذه هذا منزل عُزير؟ قالت: نعم هذا منزل عُزير وبكت، وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عُزيراً، فقال لها: فإني أنا عزير، قالت: سبحان الله فإنّ عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة لم نسمع له بذكر، قال: فإني أنا عزير إن الله تعالىٰ أماتني مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية، فادعُ الله أن يردّ عليّ بصري حتى أراك، فإن كنت عزيراً عرفتُك، فدعا ربَّه ومسح بيده على عينيها فصحّتا وأخذ بيدها، وقال: قومي بإذن الله تعالىٰ، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحةً فنظرتْ إليه فقالت: أشهد أنك عُزيرٌ، فانطلقتْ إلى بني إسرائيل، وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ في المجلس، فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذّبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم، دعا لي ربَّه فردّ عليّ بصري وأطلق رجلي، وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه، [قال] فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ولده: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير [والشامة بين كتفيه]، وقال السدي والكلبي: لما رجع عزير إلى قومه، وقد أحرق بختنصرَ التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزير على التوراة، فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلىٰ بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة، وبعثه نبياً فقال: أنا عزير فلم يصدّقوه، فقال: إني عزير قد بعثني الله إليكم لأجدّد لكم توراتكم، قالوا: أمْلِها علينا فأملاها عليهم من ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت إلا أنه ابنه، فقالوا: عزير ابن الله، وستأتي القصة

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ
تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾
مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ
لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ
أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ
صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

[بتمامها] في سورة براءة إن شاء الله تعالىٰ.

وله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ذلك عياناً، ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾، قرأ حمزة والكسائي مجزوماً موصولاً على الأمر على معنى قال الله تعالىٰ له: اعلم، وقرأ الآخرون ﴿أَعْلَمُ﴾ بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عزير أنه قال لما رأى ذلك: أعلم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢٦٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك وابن جريج: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام أنه مرّ على دابّة ميتة، قال ابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر، قال عطاء: بحيرة طبرية، قالوا: فرآها وقد توزعتها دواب البحر والبر، فكان إذا مدّ البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها، فما وقع منها يصير في البحر، فإذا جزَرَ البحرُ ورجع جاءت السباع فأكلت منها فما سقط منها يصير تراباً، فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فما سقط منها قطعته الريح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام تعجّب منها وقال: ربّ قد علمتُ أنك لتجمعنها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر، فأرني كيف تُحييها لأعاين فأزداد يقيناً فعاتبه الله تعالىٰ، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾: يا ربّ علمتُ وآمنت، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، أي: ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة، أراد أن يصير له علمُ اليقين عينَ اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة، وقيل: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لمّا احتجّ على نمرود فقال [له]: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال نمرود: أنا أحيي وأميت، فقتل أحدَ الرجلين وأطلق الآخرَ، [وزعم أن هذا إحياء وإماتة]، فقال إبراهيم: إن الله تبارك وتعالىٰ يقصد إلى جسد ميت فيحييه، فقال له نمرود: أنت عاينته فلم يقدر أن يقول نعم، فانتقل إلى حجّة أخرى، ثم سأل ربه أن يُريه إحياءَ الموتى، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بقوّة حجّتي، فإذا قيل أنت عاينته فأقول نعم قد عاينته.

وقال سعيد بن جبير: لمّا اتّخذ الله تعالىٰ إبراهيم خليلاً، سأل مَلكُ الموت ربَّه أن يأذن له فيبشّر إبراهيم بذلك، فأذن له، فأتى إبراهيمَ ولم يكن في الدار فدخل داره، وكان إبراهيم عليه السلام أغير الناس، إذا خرج أغلق بابه، فلمّا جاء وجد في داره رجلاً فثار عليه ليأخذه وقال له: من أذن لك أن تدخل داري؟ فقال: أذن لي ربُّ هذه الدار، فقال إبراهيم: صدقتَ، وعرف أنه مَلَك، فقال: من أنت؟ قال: أنا ملَك الموت، جئتُ أبشّرك بأنّ الله تعالىٰ قد اتّخذك خليلاً، فحمد الله عزّ وجلّ، وقال: فما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك، فحينئذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أنك اتخذتني خليلاً وتجيبني إذا دعوتك.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن صالح، أنا ابن وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن وسعيد بن المسيّب عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، ورحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن

طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن حرملة بن يحيى عن وهب بهذا الإسناد مثله، وقال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

حكى محمد بن إسحاق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث: لم يشكّ النبيّ ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما شكّا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا، وقال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما بقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالىٰ على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك، لكن من قِبَل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقيل: لمّا نزلت هذه الآية قال قوم: شكّ إبراهيم ولم يشك نبينا! فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعاً منه وتقديماً لإبراهيم على نفسه.

قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ معناه: قد آمنتَ فلِمَ تسأل [إحيائي الموتى]؟ شهد له بالإيمان؛ كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

يعني: أنتم كذلك ولكن ليطمئن قلبي بزيادة اليقين. ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾، قال مجاهد وعطاء وابن جريج: أخذ طاوساً وديكاً وحمامةً وغُراباً، وحُكي عن ابن عباس رضي الله عنه: ونسراً بدل الحمامة، وقال عطاء الخراساني: أوحى [الله إلى إبراهيم] أنْ خذ بطةً خضراء وغراباً أسود وحمامةً بيضاء وديكاً أحمر، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة ﴿فصِرهن إليك﴾ بكسر الصاد، أي: قطعهنّ ومزقهنّ، يقال: صار يصير صيراً، إذا قُطع، وانصار الشيء انصياراً إذا انقطع، قال الفراء: هو مقلوب من صَرَيْت أصْرِي صرياً، إذا قَطعت، وقرأ الآخرون ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد، ومعناه: أملهنّ إليك ووجههن يقال: صرت الشيء أصُوره، إذا أمَلْتُه، ورجلٌ أصور إذا كان مائل العنق، وقال عطاء معناه: اجمعْهنّ واضْمُمهنّ إليك، يقال: صار يصور صوراً إذا اجتمع، ومنه قيل لجماعة النحل: صُور، [و] من فسّره بالإمالة والضم قال: فيه إضمار معناه: فصرهنّ إليك ثم قطعهنّ، فحذفه اكتفاء بقوله: ثم اجعل على كل جبل منهنّ جُزءاً لأنه يدلّ عليه، وقال أبو عبيدة: فصرهنّ معناه قطعهنّ أيضاً، والصور: القطع.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، قرأ عاصم برواية أبي بكر ﴿جُزُءًا﴾ مثقلاً مهموزاً، والآخرون بالتخفيف والهمز، وقرأ أبو جعفر مشدّداً الزاي بلا همز، وأراد به بعض الجبال، قال بعض المفسّرون: أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور، وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض، ففعل ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء، ويجعلها على أربعة أجبل، على كل جبل رُبعاً من كل طائر، وقيل: جبل على جانب الشرق وجبل على جانب الغرب وجبل على جانب الشمال وجبل على جانب الجنوب، وقال ابن جريج والسدي: جزّأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤوسهن، ثم دعاهنّ فقال: تعالين بإذن الله، فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يصير إلى العظم الآخر وكل بضعة [لحم] تصير إلى الأخرى، وإبراهيم ينظر لقيت كل جثة بعضها بعضاً في السماء بغير رأس، ثم أقبلن إلى رؤوسهن سعياً فكلّما جاء طائر مال برأسه، فإن كان رأسه دنا منه، وإن لم يكن تأخر حتى التقى كل طائر برأسه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، قيل: المراد بالسعي الإسراع والعدو، وقيل: المراد به المشي دون الطيران؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، أي: فامضوا،

والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد عن الشُّبْهَةِ؛ لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير، وأن أرجلها غير سليمة [لم تحلّها الحياة] والله أعلم، وقيل: السعي بمعنى: الطيران، ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢٦١) قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فيه إضمار تقديره: مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم، ﴿كَمَثَلِ﴾، زارع ﴿حَبَّةٍ﴾، وأراد بسبيل الله: الجهاد، وقيل: جميع أبواب الخير، ﴿أَنۢبَتَتْ﴾: أخرجت، ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، جمع: سُنبلة، ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾، فإن قيل: فما رأينا سنبلة فيها مائة حبة فكيف ضرب المثل به؟ قيل: ذلك متصوّر غير مستحيل وما لا يكون مستحيلاً جاز ضرب المثل به، وإن لم يوجد معناه ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾، إن جعل الله فيها ذلك، وقيل: هو موجود في الدخن، وقيل: معناه أنها إن بُذرتْ أنبتت مائة حبة، فما حدث من البذر الذي كان فيها كان مضافاً إليها، وكذلك تأوّله الضحاك فقال: كل سُنبلة أنبتت مائة حبة. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، قيل: معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، وقيل: معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء، ما بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف مما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾، غني يُعطي عن سَعَة، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية من ينفق ماله.

(٢٦٢) قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال الكلبي: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالىٰ عنهما، جاء عبدالرحمٰن بأربعة آلاف درهم صدقةً إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله فيما أمسكتَ لك، وفيما أعطيتَ»، وأما عثمان فجهّز جيش المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها فنزلت فيهما هذه الآية.

وقال عبدالرحمٰن بن سَمُرة: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في جيش العُسرة فصبّها في حجر رسول الله ﷺ فرأيت النبيّ ﷺ يدخل فيها يده ويقلبها ويقول: «ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: في طاعة الله، ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾، وهو أن يمنّ عليه بعطائه، فيقول: أعطيتك كذا، ويَعدّ نِعَمَه عليه فيكدرها ﴿وَلَآ أَذًى﴾، [الأذى]: وهو أن يُعيّره، فيقول: إلى كم تسأل وكم تؤذيني [بسؤالك لي]؟

وقيل: من الأذى: أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحبّ وُقوفَه عليه، وقال سفيان: ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾، هو: أن يقول: قد أعطيتك [وأعطيت] فما شكرت. قال عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيتَ أنّ سلامك يثقل عليه فكفّ سلامك عنه، فحظّر الله على عباده المَنَّ بالصنيعة، واختصّ به صفةً لنفسه، لأنه من العباد تعيير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، أي: ثوابهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: كلامٌ حسن وردٌّ على السائل جميل، وقيل: عدة حسنة، وقال الكلبي: دعاء صالح يدعو لأخيه [به] بظهر الغيب، وقال الضحاك: نزلت في إصلاح ذات البين، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، أي: تستر عليه خلته ولا تهتك عليه سِتْرَه، وقال الكلبي والضحاك: يتجاوز عن ظالمه، وقيل: يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه عند ردّه، ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾ يدفعها إليه، ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، أي: منّ وتعيير للسائل أو قول يؤذيه، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾، أي: مستغنٍ عن صدقة العباد، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعجّل بالعقوبة على من يَمنُّ ويُؤذي بالصدقة.

(٢٦٤) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾، أي: أجور صدقاتكم ﴿بِٱلْمَنِّ﴾، على السائل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالمنّ على الله تعالىٰ، ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾، لصاحبها ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾، أي: كإبطال الذي ينفق ماله ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مراءاةً وسُمعةً ليروا نفقته وليقولوا: إنه كريم سخي، ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

﴿ٱلْآخِرِ﴾، يريد أن الرياء يُبطل الصدقة، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، وهذا للمنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مرائي، ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، أي: مثل هذا المرائي، ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾، وهو الحجر الأملس، وهو واحد وجمع، فمن جعله جمعاً فواحده صفوانة، ومن جعله واحداً فجمعه [صفاو] صفي، ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على الصفوان، ﴿تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد العظيم القطر، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾، أي: أملس، والصلد: الحجر الصلب الأملس الذي لا شيء عليه، فهذا مثل ضربه الله تعالىٰ لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمنّ بصدقته ويؤذي، ويُري الناسَ في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً كما يري الترابُ على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة بطل كلّه واضمحلّ لأنه لم يكن لله [تعالىٰ]، كما أذهب الوابلُ ما على الصفوان من التراب فتركه صلداً، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾، أي: على الثواب عن شيء مما كسبوا وعملوا في الدنيا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبدالله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني أخبرنا علي بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطّلب عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد:

أن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العبادَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارثي، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمد بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، أخبرنا عبدالله بن المبارك، عن حيوة بن شريح أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني، أن عقبة بن مسلم حدّثه أن شُفَيّ الأصبحي حدّثه، أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ قال: أبو هريرة، فدنوتُ منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدّث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أنشدك الله بحق لَمَا حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعُو به رجلٌ جمع القرآن، ورجلٌ قُتل في سبيل الله، ورجلٌ كثيرُ المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فقال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالىٰ: بل أردت أن يُقال فلان قارىء فقد قيل ذلك، ويُؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدّق، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالىٰ: بل أردت أن يُقال فلان جواد فقد قيل ذلك، ويُؤتى بالذي قُتل في سبيل الله فيقول الله له: فبماذا قُتلت؟ فيقول: يا ربّ أُمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتلت،

فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالىٰ: بل أردت أن يُقال فلان جريء فقد قيل ذلك»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلقٍ تُسعّر بهم النار يوم القيامة».

(٢٦٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، أي: طلب رضا الله تعالىٰ، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قال قتادة: احتساباً، وقال الشعبي والكلبي: تصديقاً من أنفسهم، أي: يُخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب [من الله]، وتصديق بوعد الله، ويعلمون أنّ ما أخرجوا خيرٌ لهم مما تركوا، وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم، وقال عطاء ومجاهد: يتثبتون أين يضعون أموالهم، قال الحسن: كان الرجل إذا همّ بصدقة تثبت، فإن كان لله أمضى، وإن خالطه شكٌ أمسك، وعلى هذا القول يكون التثبيت بمعنى التثبّت؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، أي: تبتّلاً، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾، أي: بستان، قال المبرد والفراء: إذا كان في البستان نخل فهو جنة وإن كان فيه كرم فهو فردوس، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ و﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] في سورة المؤمنون بفتح الراء، وقرأ الآخرون بضمّها، وهي المكان المرتفع المستوي الذي تجري فيه الأنهار فلا يعلوه الماء [ولا يعلو عن الماء]، وإنما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر شديد كثير، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾: ثمرها، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتثقيل، وزاد نافع وابن كثير تخفيف «أكله» و «الأكل» وخفّف أبو عمرو «رسلنا، ورسلكم، ورسلهم، وسبلنا» ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، أي: أضعفت في الحمل، قال عطاء: حملتْ في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين، وقال عكرمة: حملت في السنة مرتين، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، أي: فطش وهو المطر الضعيف الخفيف، ويكون دائماً، قال السدي: هو الندى. وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالىٰ لعمل المؤمن المخلص، فيقول: كما أن هذه الجنّة تُربع في كل حال ولا تُخلف سواء قلّ المطرُ أو كثُر، كذلك يُضعّف الله صدقة المؤمن المخلص الذي لا يَمنّ ولا يُؤذي [بها] سواء قلّت نفقته أو كثُرت، وذلك أن الطلّ إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٢٦٦) ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، [هذه الآية متصلة بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، قوله: أيودّ يعني: أيُحب أحدكم ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾، أي: بستان، ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾]، ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾، أولاد صغار ضعاف عجزة، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾، وهو الريح العاصف التي ترتفع إلى السماء كأنها عمود وجمعه أعاصير، ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائي، يقول: عمله في حُسْنه كحُسنِ الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنّة بالجنة، فإذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضعاف أصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت، فصار أحوج ما يكون إليها وضعُف عن إصلاحها لكبره وضعُف أولاده عن إصلاحها لصغرهم، ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه، فبقوا جميعاً متحيّرين عجزة لا حيلة بأيديهم، كذلك يُبطل الله عمل هذا المنافق والمرائي حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا إقالة.

قال عبيد بن عمير: قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبيّ ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر رضي الله عنه، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه: [يا] ابن أخي قلْ ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُربتْ مثلاً لعمل، قال عمر رضي الله عنه: أيّ عمل؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لعمل المرائي، قال عمر رضي الله عنه: لرجل غني يعمل بطاعة الله بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله،

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٢٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾: من خيار، قال ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد: من حلالات ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾، بالتجارة والصناعة، وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنه ينقسم إلى طيّب وخبيث.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن [محمد بن] سمعان، أخبرنا أبو جعفر الرَّيَّاني، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يعلى بن عبيد، أخبرنا الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال رسول الله ﷺ: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الرَّيَّاني، أخبرنا حُميد بن زنجويه أخبرنا عبدالله بن صالح، أخبرنا أبو معاوية بن صالح عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان عن المقدام بن معد يكرب، أنه حدّثه:

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، فكان داود لا يأكل إلا من عمل يديه».

أخبرنا أبو القاسم يحيى بن علي بن محمد الكشميهني، أخبرنا جناح بن نذير يزيد المحاربي بالكوفة، أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم أخبرنا يعلى بن عبيد، أخبرنا أبان بن إسحاق عن الصّبّاح بن محمد عن مرة الهمداني، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا يكتسب عبد مالاً حراماً فيتصدّق منه فيقبلُ الله منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء، ولكن يمحو السيىء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

[فصلّ]. والزكاة واجبة في مال التجارة عند أكثر أهل العلم، فبعد الحول يقوّم العرض فيُخرج من قيمتها رُبع العُشر إذا كان قيمتها عشرين ديناراً أو مائتي درهم.

قال سَمُرَة بن جندب: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نعده للبيع.

وعن أبي عمرو بن حِماس أن أباه قال: مررتُ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عُنقي أدمة أحملها، فقال عمر: ألا تؤدي زكاتك يا حِماس؟ فقلت: ما لي غير هذا، وأهب في القرظ، فقال: ذاك مال فضع فوضعتها فحسبها فأخذ منها الزكاة.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، قيل: هذا أمرٌ بإخراج العُشور من الثمار والحبوب، واتّفق أهل العلم على إيجاب العشر في النخيل والكروم، وفيما يُقتات من الحبوب إن كان مسقياً بماء السماء أو من نهر يجري الماء إليه من غير مؤنة، وإن كان مَسْقياً بساقية أو بنضح ففيه نصف العُشر.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا عبدالله بن وهب، أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب، عن سالم بن عبدالله عن أبيه:

عن النبيّ ﷺ: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرِياً: العُشر، وفيما سُقي بالنضح نصف العشر».

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلاّل، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا عبدالله بن نافع، عن محمد بن صالح التمّار عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيّب عن عتّاب بن أسيد:

أن رسول الله ﷺ قال في زكاة الكرم: «يخرص كما يُخرص النخل ثم تؤدى زكاتُه زبيباً كما يؤدى زكاة النخل تمراً».

واختلف أهل العلم فيما سوى النخل والكروم، وفيما سوى ما يُقتات به من الحبوب، فذهب قوم إلى أنه لا عشر في شيء منها، وهو قول ابن أبي ليلى والشافعي رضي الله عنه، وقال الزهري والأوزاعي ومالك رضي الله عنهم: يجب في الزيتون، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه يجب العشر في جميع البقول والخضروات والثمار إلا

الحشيش والحطب، وكل ثمرة أوجبنا فيها الزكاة فإنما يجب ببدوّ الصلاح، ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف، وكل حب أوجبنا فيه العشر، فوقت وجوبه اشتداد الحب ووقت الإخراج بعد الدياسة والتنقية، ولا يجب العُشر في شيء منها حتى تبلغ خمسة أوْسُق عند أكثر أهل العلم، وعند أبي حنيفة رحمه الله يجب في كل قليل وكثير منها، واحتجّ مَنْ شرط النصاب بما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمٰن بن أبي صعصعة المازني، عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «ليس فيما دون خمسة أوْسُق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمسة أواق من الوَرِق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة».

وروى يحيى بن عبادة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

أن النبيّ ﷺ قال: «ليس في حب ولا تمر صدقة حتى تبلغ خمسة أوسق».

وقال قوم: الآية في صدقات التطوع.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرّيّاني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو عوانة، عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال:

قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له [به] صدقة».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾، قرأ ابن كثير برواية البزيّ بتشديد التاء في الوصل فيها وفي أخواتها، وهي واحد وثلاثون موضعاً في القرآن، لأنه في الأصل تاءان أسقطت إحداهما، فردّ هو الساقطة وأدغم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ومعناه: لا تقصدوا، ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، رُوي عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار تخرج. إذا كان جذاذ النخل. أقناء من التمر والبُسْر فيعلقونه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، فكان الرجل منهم يعمد فيدخل قِنْوَ الحَشَفِ وهو يظنّ أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾، أي: الحشف والرديء.

وقال الحسن ومجاهد والضحاك: كانوا يتصدّقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم ويعزلون الجيّد ناحيةً لأنفسهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ الرديء منه تنفقون، ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾، يعني: الخبيث، ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، الإغماض: غضّ البصر، وأراد هُهنا: التجويز والمساهلة، معناه: لو كان لأحدكم على رجل حقّ فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقّه وتركه، قال الحسن وقتادة: لو وجدتموه يُباع في السوق ما أخذتموه بسعر الجيّد. ورُوي عن البراء قال: لو أهدي ذلك لكم ما أخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ، فكيف ترضون لي ما لا ترضوْن لأنفسكم؟ هذا إذا كان المال كلّه جيّداً فليس له إعطاء الرديء، لأن أهل السهمان شركاؤه فيما عنده، فإن كان كل ماله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم، ﴿حَمِيدٌ﴾، محمود في أفعاله.

﴿٢٦٨﴾ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، أي: يُخوّفكم بالفقر، ويُقال: وعدته خيراً ووعدته شراً، قال الله تعالىٰ في الخير: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ [الفتح: ٢٠]، وقال في الشرّ: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢]، فإذا لم يذكر الخير والشر قلت في الخير: وعدته وفي الشر أوعدته، والفقر سوءُ الحال وقلّة ذات اليد، وأصله من كسر الفِقَار، ومعنى الآية: أن الشيطان يخوّفكم بالفقر، ويقول للرجل: أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدّقت به افتقرت، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾، أي: بالبخل ومنع الزكاة، وقال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾، أي: لذنوبكم و﴿وَفَضْلًا﴾ ورزقاً وخلفاً، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ غني ﴿عَلِيمٌ﴾.

أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

٤٦

أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال: حدّثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ يقول: ابن آدم أنفقْ أُنفقْ عليك»، وقال: قال رسول الله ﷺ: «يمينُ اللّهِ ملأى لا تُغيضها نفقةٌ سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنه لم ينقص ما فيه يمينه، قال: وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض، يرفع ويخفض».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبيد الله بن سعيد أخبرنا عبدالله بن نمير، أخبرنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء.

أن رسول الله ﷺ قال لها: «أنفقي ولا تحصي، فيُحصي اللّهُ عليك، ولا تُوعِي فيُوعِي اللّهُ عليك».

(٢٦٩) قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، قال السدي: هي النبوّة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: عِلمُ القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدّمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه، وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة، وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهنّ حتى يتعلّموهن، ولا يكونوا كأهل نهروان تأوّلوا آيات من القرآن في أهل القبلة، وإنما أنزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال، وشهدوا علينا بالضلالة، فعليكم بعلم القرآن فإنه من عَلم فيمَ أُنزل لم يختلف في شيء منه، وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه، وروى ابن أبي نجيح عنه: الإصابة في القول والفعل، وقال إبراهيم النخعي: معرفة معاني الأشياء وفهمها، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، ﴿مَن﴾ في محل الرفع على ما لم يُسمَّ فاعله، و﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ خبره، وقرأ يعقوب يؤتِ الحكمة بكسر التاء، أي: من يؤتيه الله الحكمة، دليله قراءة الأعمش «ومن يؤته الله» حُكي عن الحسن، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال: الورع في دين الله، ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾: يتعظ، ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ذوو العقول.

(٢٧٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾: فيما فرض الله عليكم، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾، أي: ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾، ويحفظه حتى يجازيكم به، وإنما قال ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ ولم يقل يعلمها، لأنه ردّه إلى الآخر منهما؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢]، وإن شئت حملته على «ما»؛ كقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ولم يقل بهما، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾، الواضعين الصدقة في غير موضعها بالرياء ويتصدّقون من الحرام، ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾، من أعوان يدفعون عذاب الله عنهم، وهي جمع نصير، مثل شريف وأشراف.

(٢٧١) قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: تُظهروها، ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾، أي: نعمت الخصلة هي، و «ما» في محل الرفع، و«هي» في محل النصب، كما تقول: نعم الرجل رجلاً، فإذا عرفتَ رفعتَ فقلت: نِعْمَ الرجل زيد، وأصله نعم ما فوصلت، قرأ أهل المدينة غير ورش وأبو عمرو وأبو بكر ﴿فَنِعِمَّا﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين، وقرأ ابن كثير ونافع

بـروايـة ورش ويـعـقـوب وحـفـص بكسرهما، وكلها لغات صحيحة، وكذلك في سورة النساء. و﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾، تُسروها، ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾، [أي: تُؤتوها الفقراء] في السرّ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأفضل وكل مقبول إذا كانت النيّة صادقة، ولكن صدقة السرّ أفضل.

وفي الحديث: «صدقة السر تطفىء غضب الربّ».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن خُبيب بن عبدالرحمٰن عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يُظلّهم اللّهُ في ظلّه يومَ لا ظلَّ إلا ظله: إمامٌ عادلٌ وشابٌّ نشأ في عبادة الله تعالىٰ، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمسجد إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضتْ عيناه، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتَ منصب وجمال فقال: إني أخاف اللّهَ، ورجلٌ تصدّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفقُ يمينُه».

وقيل: الآية في صدقة التطوّع، أمّا الزكاة المفروضة فالإظهار فيها أفضل حتى يقتدي به الناس، كالصّلاة المكتوبة في الجماعة أفضل، والنافلة في البيت أفضل، وقيل: الآية في الزكاة المفروضة كان الإخفاء فيها خيراً على عهد رسول الله ﷺ أمّا في زماننا فالإظهار أفضل حتىٰ لا يُساء به الظن. قوله تعالىٰ: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالنون ورفع الراء، أي: «ونحن نُكفّر»، وقرأ ابن عامر حفص بالياء ورفع الراء، أي: «ويكفّرُ الله»، وقرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بالنون والجزم نسقاً على الفاء التي في قوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن موضعها جزم الجزاء، وقوله: ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، قيل: ﴿مِّن﴾ صلة، تقديره: نكفّر عنكم سيّئاتكم، وقيل: هو للتحقيق والتبعيض، يعني: نكفّر [عنكم] الصغائر من الذنوب، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٢٧٢) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، قال الكلبي: سبب نزول هذه الآية أن ناساً من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يُسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم، وأرادوهم على أن يسلموا، وقال سعيد بن جبير: كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله ﷺ عن التصدّق على المشركين كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام، فنزل قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، فتمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وأراد به هداية التوفيق، أما هدي البيان والدعوة كان على عهد رسول الله ﷺ، فأعطوهم بعد نزول الآية، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾، أي: مال، ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، أي: تعملونه لأنفسكم، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾، وما جحد لفظه نفي ومعناه نهي، أي: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾، شرط كالأول، ولذلك حذف النون منهما، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، أي: يُوفر لكم جزاؤه، ومعناه: يؤدي إليكم، ولذلك أدخل فيه «إلى»، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً، وهذا في صدقة التطوّع أباح الله تعالىٰ أن توضع في أهل الإسلام وأهل الذمّة، فأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين، وهم أهل السهمان المذكورون في سورة التوبة.

(٢٧٣) قوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، اختلفوا في موضع هذه اللام، قيل: هو مردود على موضع اللام من قوله: ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، كأنه قال: وما تنفقوا من خير فللفقراء، وإنما تنفقون لأنفسكم. ، وقيل: معناها الصدقات التي سبق ذكرها، [وقيل: خبر محذوف تقديره]: للفقراء الذين صفتُهم كذا حق واجب، وهم فقراء المهاجرين، كانوا نحواً من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، وكانوا في المسجد يتعلّمون القرآن ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سريّة يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أصحاب الصفة، فحثّ الله تعالىٰ عليهم

الناس فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى، ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فيه أقاويل، قال قتادة: هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لا يتفرّغون للتجارة وطلب المعاش، وهم أهل الصفة الذين ذكرناهم، وقال سعيد بن جبير: حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، وقيل: هؤلاء قوم أصابتهم جراحات مع رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله فصاروا زَمْنَى أحصرهم المرضُ والزَّمانةُ عن الضرب في سبيل الله للجهاد، وقال ابن زيد: معناه: من كثرة ما جاهدوا صارت الأرض كلها حرباً عليهم فلا يستطيعون ضرباً في الأرض من كثرة أعدائهم، ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ وبابه بفتح السين، وقرأ الآخرون بالكسر، ﴿ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم، ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾، أي: من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء والتعفّف التفعل من العفة وهي الترك، [يقال: عفّ عن الشيء إذا كفّ عنه وتعفّف إذا تكلّف في الإمساك]، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، والسيماء والسيمياء والسمة: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها هٰهنا، فقال مجاهد: هو التخشع والتواضع، وقال السدي: أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقال الضحاك: صفرة ألوانهم من الجوع والضرّ، وقيل: رثاثة ثيابهم، ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، قال عطاء: إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاء وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداء، وقيل: معناه: لا يسألون الناس أصلاً؛ لأنه قال: ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾، والتعفف: ترك السؤال، ولأنه قال تعرفهم بسيماهم، ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت إلى معرفتهم بالعلامة من حاجة، فمعنى الآية: ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف، والإلحافُ: الإلحاح واللجاج.

أخبرنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيلي، أخبرنا محمد بن يعقوب أخبرنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، أخبرنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة، عن أبيه عن الزبير [ابن العوام رضي الله عنه] قال: قال رسول الله ﷺ:

«لأن يأخذ أحدكم حَبْلَة فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكفّ بها وجهه، خيرٌ له من أن يسألِ الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان»، قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنىً فيُغنيه ولا يُفطن له فيتصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «منْ سأل وله أوقية أو عِدْلُها فقد سأل إلحافاً».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أخبرنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمٰن البزاز، أخبرنا محمد بن زكريا بن عذافر، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدبري، أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن هارون بن رياب، عن كنانة العدوي عن قبيصة بن مُخارق، قال:

إني تحمّلت بحمالة في قومي فأتيت النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله إني تحملت بحمالة في قومي وأتيتك لتعينني فيها، قال: «بل نتحمّلها عنك يا قبيصة ونُؤديها إليهم من الصدقة»، ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة حَرُمَتْ إلا في إحدى ثلاث: رجل أصابته جائحة فاجتاحتْ ماله فيسأل حتى يصيب قِوَاماً من عيشه ثم يُمسك، و[في] رجل أصابته حاجة حتى يشهد له ثلاثة نفر من ذوي الحِجى من قومه أنّ المسألة قد حلت له فيسأل حتى يصيب القَوام من العيش ثم يُمسك، و[في] رجل تحمّل بحمالة فيسأل حتى إذا بلغ أمسك، وما كان غير ذلك فإنه سحتٌ يأكله صاحبه سُحتاً».

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة أخبرنا شريك عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبدالرحمٰن بن يزيد، عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خُمُوش أو خُدُوش أو كُدوح»، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها ذهباً».

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾، من مال، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وعليه مجازي.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، رُوي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية.

وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لمّا نزلت ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بعث عبدالرحمٰن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أصحاب الصفة [نهاراً]، وبعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في جوف الليل بوسق من تمر، فأنزل الله تعالىٰ فيهما: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، عنى بالنهار: علانيةَ صدقةِ عبدالرحمٰن بن عوف، وبالليل: سرَّ صدقةِ علي رضي الله عنه، وقال أبو أمامة وأبو الدرداء ومكحول والأوزاعي: نزلت في الذين يرتبطون الخيل للجهاد فإنها تُعتلف ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا علي بن حفص أخبرنا ابن المبارك أخبرنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعت سعيد المقبري يحدّث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبيّ ﷺ:

«من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقا بوعده فإن شِبَعَه ورِيَّه وروْثَه وبولَه في ميزانه يوم القيامة».

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال الأخفش: جعل جواب الخبر بالفاء، لأن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بمعنى «من»، وجواب من بالفاء في الجزاء ومعنى الآية من أنفق كذا فله أجره عند ربّه، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿٢٧٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، أي: الذين يعاملون به، وإنما خصّ الأكل لأنه معظم المقصود من المال ﴿لَا يَقُومُونَ﴾، يعني: يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ﴾، أي: يصرعه ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾، أصل الخبط: الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء، يقال: ناقة خبوط للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها، ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، أي: الجنون، يقال: مُسّ الرجلُ فهو ممسوس إذا كان مجنوناً، ومعناه: أن آكل الربا يُبعث يوم القيامة كمثل المصروع.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم السرخسي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عبدالله بن حامد أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف، أخبرنا عبدالله بن يحيى، أخبرنا يعقوب بن سفيان أخبرنا إسماعيل بن سالم، أخبرنا عباد بن عباد، عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في قصة الإسراء، قال:

«فانطلق بي جبريل عليه السلام إلى رجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم منضّدين على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرضون على النار غُدواً وعشياً،

قال: فيُقبلون مثل الإبل المنهوكة يخبطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون، فإذا أحسّ بهم أصحاب تلك البطون قاموا، فتميل بهم بطونهم فيُصرعون، ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنُه فيصرع، فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مُقبلين ومُدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللّهمّ لا تقم الساعة أبداً، قال: [و] يوم القيامة يقال: أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، أي: ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا واستحلالهم إياه، وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حلّ ماله على غريمه فطالبه [به]، فيقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك ويقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير، فكذّبهم الله تعالى فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، واعلم أن الربا في اللغة الزيادة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: ليكثر ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام في الجملة، إنما المحرم زيادة على صفة مخصوصة في مال مخصوص بيّنه رسول الله ﷺ فيما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا عبدالوهّاب، عن أيوب بن أبي تميمة عن محمد بن سيرين، عن مسلم بن يسار ورجل آخر، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الوَرِق بالوَرِق، ولا البُر بالبُر، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح، إلا سواءً بسواء عيناً بعين يداً بيد، ولكن بيعوا الذهب بالوَرِق والوَرِق بالذهب، والبُر بالشعير، والشعير بالبُر، والتمر بالملح، والملح بالتمر، يداً بيد كيف شئتم». ونقص أحدهما الملح أو التمر وزاد أحدهما. «من زاد أو استزاد فقدْ أربَى».

وروى هذا الحديث [من] طرق عن محمد بن سيرين عن مسلم بن يسار وعبدالله بن عتيك عن عبادة، فالنبيّ ﷺ نصّ على ستّة أشياء، وذهب عامّة أهل العلم إلى أن حكم الربا يثبت في هذه الأشياء بالأوصاف فيها فيتعدّى إلى كل مال توجد فيه تلك الأوصاف، ثم اختلفوا في تلك الأوصاف، فذهب قوم إلى أن المعنى في جميعها واحد وهو النفع، وأثبتوا الرّبا في جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الرّبا يثبت في الدراهم والدنانير بوصف، وفي الأشياء المطعومة بوصف آخر، واختلفوا في ذلك الوصف، فقال قوم: ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية، وهو قول مالك والشافعي، وقال قوم: ثبت بعلة الوزن، وهو قول أصحاب الرأي، وأثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحوها، وأما الأشياء الأربعة [المطعومة] فذهب قوم إلى أن الربا ثبت فيها بعلة الكيل، وهو قول أصحاب الرأي، وأثبتوا الرّبا في جميع المكيلات مطعوماً كان أو غير مطعوم كالجَصّ والنُّورة ونحوهما، وذهب جماعة إلى أن العلّة فيها الطعم مع الكيل والوزن، فكل مطعوم وهو مكيل أو موزون يثبت فيه الرّبا، ولا يثبت فيما ليس بمكيل ولا موزون، وهو قول سعيد بن المسيّب وقاله الشافعي رحمه الله في القديم، وقال في الجديد: يثبت فيها الربا بوصف الطعم، وأثبت الرّبا في جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة، لِما:

رُوي عن معمر بن عبدالله قال: كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل».

فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثمناً أو مطعوماً، والرّبا نوعان ربا الفضل وربا النَّساء، فإذا باع مال الرّبا بجنسه مثلاً بمثل بأن باع أحد النقدين بجنسه، أو باع مطعوماً بجنسه، كالحنطة بالحنطة ونحوها يثبت فيه كِلا نوعي الرّبا، حتى لا يجوز إلاّ متساويين في معيار الشرع، فإن كان موزوناً كالدراهم والدنانير

يشترط المساواة في الوزن، وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير بِيْعَ بجنسه، فيشترط المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد، وإذا باع مال الرّبا بغير جنسه نُظر إن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل: إن باع مطعوماً بأحد النقدين فلا ربا فيه، كما لو باع بغير مال الرّبا، وإن باعه بما يوافقه في الوصف مثل: إن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو باع مطعوماً بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا الفضل حتى يجوز متفاضلاً أو جزافاً وثبت فيه ربا النساء حتى يشترط التقابض في المجلس، وقول النبيّ ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب»، إلى أن قال: «إلا سواء بسواء» فيه إيجاب المماثلة وتحريم الفضل عند اتّفاق الجنس، وقوله: «عيناً بعين» فيه تحريم النساء، وقوله: «يداً بيد كيف شئتم»، فيه إطلاق التفاضل عند اختلاف الجنس مع إيجاب التقابض في المجلس، هذا في ربا المبايعة. ومن أقرض شيئاً بشرط أن يَردّ عليه أفضل [منه]، فهو قرض منفعة، وكل قرض جرّ منفعة فهو ربا. قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: تذكير وتخويف، وإنما ذكر الفعل ردّاً إلى الوعظ، ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾، عن أكل الرّبا، ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾، أي: ما مضى من ذنبه، قبل النهي مغفور له، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، بعد النهي إن شاء عصمه حيث يثبت على الانتهاء، وإن شاء خذله حتى يعود، وقيل: أَمْرُهُ إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحلّ له ويحرّم عليه، وليس إليه من أمر نفسه شيء، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾، بعد التحريم إلى أكل الربا مستحلاً له، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾،

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا محمد بن المثنى، حدثني غندر أخبرنا شعبة عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه أنه قال:

«إن النبيّ ﷺ نهى عن ثمن الدم، وثمن الكلب، وكسْبِ البغي، ولعن آكل الربا ومُوكله، والواشمة والمستوشمة، والمصور».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني أخبرنا [عبد] الغافر بن محمد الفارسي أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أخبرنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا زهير بن حرب أخبرنا هشيم، أخبرنا أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكلَ الرّبا ومُوكِلَه وكاتبَه وشاهدَيه، وقال: هم سواء».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو محمد المخلدي أنا أبو حامد بن الشرقي أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا النضر بن محمد، أخبرنا عكرمة بن عمار أخبرنا يحيى هو ابن أبي كثير قال: حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الرّبا سبعون باباً أهونها عند الله عزّ وجلّ كالذي ينكح أمّه».

(٢٧٦) قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، أي: ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، يعني: لا يقبل منه صدقةً ولا جهاداً ولا حجّاً ولا صِلةً، ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: يُثمّرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف بها الأجر والثواب في العقبى، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾، بتحريم الرّبا، ﴿أَثِيمٍ﴾، فاجر بأكله.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٢٧٨) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾، قال عطاء وعكرمة: نزلت في العباس بن عبدالمطلب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وكانا قد أسلفا في التمر، فلما حضر الجذّاذ قال لهما صاحب التمر: إن أنتما أخذتما حقّكما لا يبقى لي ما يكفي عيالي، فهل لكما أن تأخذا النصف وتُؤخرا النصف وأُضعف لكما ففعلا، فلما حلّ الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهما، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رُؤوسَ أموالهما.

قال السدي: نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يُسْلِفَان في الرّبا إلى بني عمرو بن عمير، ناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الرّبا، فأنزل تعالىٰ هذه الآية، فقال

النبيّ ﷺ في حَجّة الوداع في خطبته يوم عرفة:

«ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوعة كلُّها، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبدالمطلب، فإنها موضوعةٌ كلُّها».

وقال مقاتل: نزلت في أربعة إخوة من ثقيف [وهم]: مسعود وعبدياليل وحبيب وربيعة، وهم بنو عمرو بن عميرة بن عوف الثقفي، كانوا يُداينون بني المغيرة بن عبدالله بن عميرة بن مخزوم، وكانوا يُربون فلما ظهر النبيّ ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الأخوة فطلبوا رباهم من بني المغيرة، فقال بنو المغيرة: والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله تعالىٰ عن المؤمنين، فاختصموا إلى عتّاب بن أسيد، وكان عاملَ رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب بن أسيد إلى النبيّ ﷺ بقصّة الفريقين، وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾، أي: إذا لم تذروا ما بقي من الرّبا، ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، قرأ حمزة وعاصم برواية أبي بكر «فآذنوا» فالمدّ، على وزن آمنوا، أي: فأعلموا غيركم أنكم حرب لله ورسوله، وأصله من الأذن، [أي: أوقعوا في الأذان]، وقرأ الآخرون ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ مقصوراً بفتح الذال، أي: فاعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقال لآكل الربا يوم القيامة: خُذْ سلاحك للحرب، قال أهل المعاني: حرب الله النار، وحرب رسول الله السيف، ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾، أي: تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾، بطلب الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، بالنقصان عن رأس المال، فلما نزلت [هذه] الآية قال بنو عمرو الثقفي ومن كان يعامل بالربا من غيرهم]: بل نتوب إلى الله فإنه لا يَدَانِ لَنا بحرب الله ورسوله، فرضوا برأس المال فشكا بنو المغيرة العُسرة، وقالوا: أخرونا إلى أن تُدركَ الغلات فأبوا أن يُؤخروا، فأنزل الله تعالىٰ:

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، يعني: وإن كان الذين عليه الدّين مُعْسَراً، رُفع الكلام باسم كان ولم يأت لها بخبر، وذلك جائز في النكرة تقول: إن كان رجلٌ صالحٌ فأكرمه، وقيل: «كان» بمعنى وقع، وحينئذ لا تحتاج إلى خبر، قرأ أبو جعفر «عُسُرة» بضم السين، ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ أمرٌ في صيغة الخبر، تقديره: فعليه نظرة، ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾، قرأ نافع «ميسُرة» بضم السين، وقرأ الآخرون بفتحها، وقرأ مجاهد «ميسُرة» بضم السين مضافاً، ومعناها: اليسار والسَّعة، ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾، أي: تتركوا رؤوسَ أموالكم إلى المُعسر، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قرأ عاصم «تصدقوا» بتخفيف الصاد، [وقرأ] الآخرون بتشديدها.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أخبرنا أبو العباس إسماعيل بن عبدالله الميكالي، أخبرنا عبدالله بن أحمد بن موسى بن عبدان الحافظ، أخبرنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن السرح، أخبرنا ابن وهب عن جرير عن حازم، عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن عبدالله بن أبي قتادة عن أبيه:

أنه كان يطلب رجلاً بحق فاختبأ منه، فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: العُسرة، فاستحلفه على ذلك فحلف فدعا بصكه فأعطاه إياه، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر مُعْسراً أو وَضَعَ له أنجاه الله من كُرَبِ يوم القيامة».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الريّاني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل عن منصور عن ربعي عن أبي مسعود رضي الله عنهما قال:

قال النبيّ ﷺ: «إن الملائكة لَتلقّت روح رجل كان قبلكم فقالوا له: هل عملت خيراً قطّ؟ قال: لا، قالوا: تذكّرْ؟ قال: لا إلا أني رجل كنت أداين الناسَ فكنتَ آمر فتياني أن يُنظروا الموسر ويتجاوزوا عن المعسر، قال الله تبارك وتعالىٰ: تجاوزوا عنه».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الريّاني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أحمد بن عبدالله أخبرنا زائدة عن عبدالملك بن عمير، عن ربعي عن أبي اليسر، قال:

سمعت النبيّ ﷺ يقول: «من أنظر مُعسراً أو وضع عنه أظلّه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه».

فصل
«في الدَّين وحُسن قضائه وتشديد أمره»

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو الوليد، أخبرنا شعبة أخبرنا سلمة بن كهيل قال: سمعت أبا سلمة بمنىً يُحدّث عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ، فأغلظ له، فهمّ به أصحابه، فقال: «دعوه فإنّ لصاحب الحق مقالاً، واشتروا له بعيراً فأعطوه إيّاه»، قالوا: لا نجد إلا أفضل من سِنّه، قال: «اشتروه فأعطوه إيّاه، فإن خيركم أحسنكم قضاءً».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«مَطْلُ الغني ظلم، وإذا أُتبع أحدُكم على مليءٍ فليتبعْ».

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا إبراهيم بن سعيد بن إبراهيم عن أبيه عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «نفس المؤمن مُعلّقة بدَينه حتى يُقضى عنه».

أخبرنا أبو الحسن السرحسني أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن عبدالله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه أنه قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدبرٍ يُكفر اللّهُ عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فلما أدبرَ ناداه رسول الله ﷺ، أو أمر به، فنُودي فقال رسول الله ﷺ: «كيف قلت»؟ فأعاد عليه قوله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم إلا الدَّين، كذلك قال جبريل».

(٢٨١) قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، قرأ أهل البصرة بفتح التاء، أي: تصيرون إلى الله، وقرأ الآخرون بضم التاء وفتح الجيم، أي: تُردّون إلى الله تعالى، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال له جبريل عليه السلام: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ واحداً وعشرين يوماً، وقال ابن جريج: تسع ليال، وقال سعيد بن جبير: سبع ليال، ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة.

قال الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ آية الرّبا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

(٢٨٢) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال ابن عباس رضي الله

عنهما: لمّا حرّم الله الربا أباح السَّلم، وقال: أشهد أن السَّلم المضمون إلى أجل مسمّى قد أحلّه الله تعالىٰ في كتابه وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾.

قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾، أي: تعاملتم بالدين، يقال: داينته إذا عاملته بالدين، وإنما قال ﴿بِدَيْنٍ﴾ بعد قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾؛ لأن المُداينة قد تكون مجازاة، و[قد] تكون معاطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ، وقيل ذكره تأكيداً [لـ]ـقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، الأجل: مدة معلومة الأول والآخر، والأجل يلزم في الثمن في البيع وفي السَّلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل مجله، وفي القرض لا يلزم الأجل عند أكثر أهل العلم، ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾، أي: اكتبوا الذي تداينتم به بيعاً كان أو سَلَماً أو قرضاً، واختلفوا في هذه الكتابة فقال بعضهم: هي واجبة، والأكثرون على أنه أمرُ استحباب، فإن تُرك فلا بأس؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضاً ثم نسخ الكلّ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهو قول الشعبي، ثم بيّن كيفية الكتابة فقال جلّ ذكره: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾، أي: ليكتب كتابَ الدين بين الطالب والمطلوب ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾، أي: بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره، ﴿وَلَا يَأْبَ﴾، أي: لا يمتنع، ﴿كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾، واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمّل الشهادة على الشاهد، فذهب قوم إلى وجوبها إذا طُولب، وهو قول مجاهد، وقال الحسن: يجب إذا لم يكن كاتب غيره، وقال قوم: هو على الندب والاستحباب، وقال الضحاك: كانت عزيمة واجبة على الكاتب والشاهد، فنسخها قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: كما شرّعه الله وأمره، ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾، يعني: المطلوب يُقرّ على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه، والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن، فالإملال هُهنا، والإملاء قوله تعالىٰ: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، يعني: المملي، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: لا ينقص منه أي من الحق الذي عليه شيئاً، ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾، أي: جاهلاً بالإملاء، قاله مجاهد، وقال الضحاك والسدي: طفلاً صغيراً، وقال الشافعي: السفيه المبذرُ المفسدُ لماله أو في دينه، قوله: ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾، أي: شيخاً كبيراً، وقيل: هو ضعيف العقل لعَتهٍ أو جنون، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾، لخرسٍ أو عي أو عُجمة أو حبسٍ أو غَيبةٍ لا يمكنه حضور الكاتب أو جهل بما له وعليه، ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾، أي: قيّمه، ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾، أي: بالصدق والحق، وقال ابن عباس رضي الله عنه ومقاتل: أراد بالولي صاحبَ الحق، يعني: إن عجز من عليه الحق من الإملال فيُملل وليّ الحق وصاحب الدَّيْن بالعدل لأنه أعلم بحقه، ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾، أي: وأشهدوا ﴿شَهِيدَيْنِ﴾، أي: شاهدين ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾، يعني: الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان [والكفار]، وهو قول أكثر أهل العلم، وأجاز شُريح وابن سيرين شهادة العبيد، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ﴾، أي: لم يكن الشاهدان رجلين، ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾، أي: فليشهد رجل وامرأتان، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الأموال حتى تثبت برجل وامرأتين.

واختلفوا في غير الأموال، فذهب جماعة إلى أنه تجوز شهادتهن مع الرجال في غير العقوبات، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلا برجلين عدلين، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن ما يطّلع عليه النساء غالباً كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة ونحوها يثبت بشهادة رجل وامرأتين، وشهادة أربع نسوة، واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة في العقوبات.

قوله تعالىٰ: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، يعني: من كان مرضياً في ديانته وأمانته. وشرائطُ قبول الشهادة

سبعة: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ، والعدالة، والمروءة، وانتفاء التهمة، فشهادة الكافر مردودة، لأن المعروفين بالكذب على الناس لا تجوز شهادتهم، فالذي يكذب على الله تعالىٰ أولى أن يكون مردود الشهادة، وجوّز أصحاب الرأي شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض، ولا تقبل شهادة العبيد، وأجازها شُريح وابن سيرين، وهو قول أنس بن مالك رضي الله عنه ولا قول للمجنون حتى يكون له شهادة، ولا تجوز شهادة الصبيان سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال: لا يجوز لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، والعدالة شرط، وهي أن يكون الشاهد مجتنباً للكبائر غير مُصرٍّ على الصغائر، والمروءة شرط، وهي ما يتّصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة والسيرة والعُشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر من نفسه شيئاً مما يستحي أمثالُه من إظهاره في الأغلب يعلم به قلّة مروءته، وتردّ شهادته، وانتفاء التهمة شرط حتى لا تقبل شهادة العدوّ على العدوّ، وإن كان مقبول الشهادة على غيره لأنه متّهم في حق عدّوه، ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وإن كان مقبول الشهادة عليهما، ولا تقبل شهادة من يجرّ إلى نفسه بشهادته نفعاً، كالوارث يشهد على رجل بقتل مورّثه، أو يدفع عن نفسه بشهادته ضرراً كالمشهود عليه يشهد بجرح من شهد عليه لتمكّن التهمة في شهادته.

أخبرنا أبو عبدالله بن الحسين المروزي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراح الطحان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان، أخبرنا علي بن عبدالعزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام أخبرنا مروان الفزاري، عن شيخ من أهل الحيرة يقال له يزيد بن زياد عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ترفعه:

«لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا ذي غمر على أخيه ولا ظَنين في ولاء ولا قرابة، ولا القانع مع أهل البيت».

قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾، قرأ حمزة ﴿أن تَضِلَّ﴾ بكسر الألف، ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ برفع الراء، ومعناه الجزاء والابتداء وموضع ﴿تَضِلَّ﴾ جزم بالجزاء، إلاّ أنه لا نسق بالتضعيف ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ رفع، لأن ما بعد فاء الجزاء مبتدأ، وقراءة العامة بفتح الألف ونصب الراء على الاتّصال بالكلام الأوّل، و﴿تَضِلَّ﴾ محلّه نصب بأن ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ منسوق عليه، ومعنى الآية: فرجل وامرأتان كي تذكر ﴿إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، ومعنى «تضل» تنسى، يريد إذا نسيت إحداهما شهادتها تذكرها الأخرى، فتقول: ألسنا حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا؟ قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿فَتُذْكِرَ﴾ مخففاً، وقرأ الباقون مشدداً «وذكر» و «اذكر» بمعنى واحد، وهما متعدّيان، من الذكر الذي هو ضدّ النسيان، وحُكي عن سفيان بن عُيينة أنه قال: هو من الذَّكَر أي: تجعل إحداهما الأخرى ذكراً، أي: تصير شهادتهما كشهادة ذكر، والأول أصح لأنه معطوف على النسيان.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾، قيل: أراد به إذا ما دُعُوا لِتحمّل الشهادة، سمّاهم شهداء على معنى أنهم يكونون شهداء، وهو أمر إيجاب عند بعضهم، وقال قوم: تجب الإجابة إذا لم يكن غيره، فإن وُجد غيره فهم مخيّرون، وهو قول الحسن، وقال قوم: هو أمر ندب وهو مخيّر في جميع الأحوال، وقال بعضهم: هذا في إقامة الشهادة وأدائها، فمعنى الآية: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ لأداء الشهادة التي تحمّلوها، وهو قول مجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير، وقال الشعبي: الشاهد بالخيار ما لم يُشهد، وقال الحسن: الآية في الأمرين جميعاً في التحمّل والإقامة إذا كان فارغاً ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾، أي: ولا تملّوا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾، الهاء راجعة إلى الحق، ﴿صَغِيرًا﴾، كان الحق، ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾، إلى محل الحق، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، أي: الكتاب، ﴿أَقْسَطُ﴾: أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، لأنه أمر به، واتّباع أمره أعدل من تركه، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾، لأن الكتابة تُذكّر الشهود، ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾: وأحرى وأقرب إلى، ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾: تشكّوا في الشهادة، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

حَاضِرَةً﴾، قرأهما عاصم بالنصب على خبر كان وأضمر الاسم، مجازه إلا أن تكون التجارة تجارةً حاضرة أو المبايعة تجارةً، وقرأ الباقون بالرفع، وله وجهان، أحدهما: أن يجعل الكون بمعنى الوقوع، معناه: إلا أن تقع تجارة، والثاني: أن يجعل الاسم في التجارة والخبر في الفعل، وهو قوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾، تقديره: إلا أن تكون تجارة حاضرة دائرة بينكم، ومعنى الآية: إلاّ أن تكون تجارة حاضرة يداً بيدٍ تُديرونها بينكم ليس فيها أجل، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾، يعني: التجارة، ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال الضحاك: هو عزم من الله تعالى، والإشهاد واجب في صغير الحق وكبيره ونَقْدِهِ ونسيئِهِ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: الأمر فيه إلى الأمانة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [البقرة: ٢٨٣] الآية، وقال الآخرون: هو أمرُ ندب. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾. هذا نهي للغائب، وأصله: يضارر، فأدغمت إحدى الرائين في الأخرى ونُصبت لحق التضعيف لاجتماع الساكنين، واختلفوا فيه، فمنهم من قال: أصله يضارِر بكسر الراء الأولى، وجعل الفعل للكاتب والشهيد، معناه: ولا يُضار الكاتب فيأبى أن يكتب ولا الشهيد فيأبى أن يشهد، ولا يضار الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرّف ما أملي عليه ولا الشهيد فيشهد بما لم يستشهد عليه، وهذا قول طاوس والحسن وقتادة. وقال قوم: أصله يضارر بفتح الراء على الفعل المجهول، وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين، ومعناه: أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شغل مهم فيقولان: نحن على شغل فاطلب غيرنا، فيقول الداعي: إن الله أمركما أن تُجيبا ويَلِحّ عليهما فيشغلهما عن حاجتهما فنهى عن ذلك، وأمر بطلب غيرهما، ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ ما نهيتكم عنه من الضّرار، ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، أي: معصية وخروج عن الأمر، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿٢٨٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «فرُهُن» بضم الهاء والراء، وقرأ الباقون ﴿فَرِهَانٌ﴾ وهو جمع: رَهْن، مثل: بغل وبغال وجبل وجبال، والرُّهُن: جمع الرهان: جمع الجمع، قاله الفراء والكسائي، وقال أبو عبيدة وغيره: هو جمع الرهن أيضاً مثل: سقف وسُقف، وقال أبو عمرو: وإنما قرأنا «فرهن» ليكون فرقاً بينها وبين رهان الخيل، وقرأ عكرمة: «رُهْنٌ» بضم الراء وسكون الهاء، والتخفيف والتثقيل في الرهن لغتان، مثل: كُتْبٌ وكُتُبٌ ورَسْلٌ ورُسُل، ومعنى الآية: وإن كنتم على سفر ولم تجدوا آلات الكتابة فارتهنوا ممن تداينونه رُهوناً لتكون وثيقة بأموالكم، واتّفقوا على أن الرهن لا يتمّ إلا بالقبض، وقوله: فرهان مقبوضة، أي: ارتهنوا واقبضوا حتى لو رهن ولم يسلم فلا يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلّم لزم من جهة الراهن، حتى لا يجوز له أن يسترجِعَه ما دام شيء من الحق باقياً، ويجوز في الحَضَرِ الرهنُ مع وجود الكاتب، وقال مجاهد: لا يجوز الرهن إلا في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية، وعند الآخرين: خرج الكلام في الآية على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط.

والدليل عليه ما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه رهن درعَه عند أبي الشحم اليهودي، ولم يكن ذلك في السفر ولا عند عدم كاتب.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وفي [حرف أُبي] «فإن ائْتُمِنَ»، يعني:

فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئاً لحسن ظنه به، ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾، أي: فليقضه على الأمانة، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في أداء الحق، ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾، إذا دُعيتم إلى إقامتها نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه فقال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ﴾، أي: فاجرٌ قلبه، قيل: ما وعد على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة، قال: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وأراد به مسخ القلب نعوذُ بالله من ذلك، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من بيان الشهادة وكتمانها، ﴿عَلِيمٌ﴾.

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ملكاً وأهلها [له عبيدٌ وهو مالكهم]، ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، اختلف العلماء في هذه الآية فقال قوم: هي خاصة ثم اختلفوا في وجه خصوصها، فقال بعضهم: هي متّصلة بالآية الأولى نزلت في كتمان الشهادة، معناه: وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوا الكتمان يُحاسبكم به الله، وهو قول الشعبي وعكرمة، وقال بعضهم: نزلت فيمن يتولّى الكافرين من دون المؤمنين، يعني: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفار أو تُسرّوه يحاسبكم به الله، وهو قول مقاتل، كما ذكر في سورة آل عمران: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى أن قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وذهب الأكثرون إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فيها، فقال قوم: هي منسوخة بالآية التي بعدها.

والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أخبرنا عبدالغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن المنهال الضرير وأمية بن بسطام العيشي واللفظ له، قالا: أخبرنا يزيد بن زريع أنا روح وهو ابن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

لـمّا أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية، قال: اشتدّ على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: . أي: لرسول الله ﷺ . كُلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلتْ عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلِكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما قرأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قال: نعم، ربّنا ولا تُحمّلنا ما لا طَاقة لنا به، قال: نعم، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، قال: نعم».

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بمعناه، وقال في كل ذلك: «قد فعلتُ» بدل قوله «نعم»، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وابن عمر [رضي الله عنهم]، وإليه ذهب محمد بن سيرين ومحمد بن كعب وقتادة والكلبي.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو محمد عبدالله بن يوسف الأصفهاني، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه، أخبرنا يعقوب بن يوسف القزويني أخبرنا أبو القاسم بن الحكم العرني أخبرنا مسعر بن كِدام، عن قتادة عن زُرارة بن أوفى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:

«إنّ الله عز وجل تجاوز عن أُمّتي ما وَسْوَسَتْ به أنفسَها ما لم تتكلّم أو تعمل به».

وقال بعضهم: الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد على الأخبار، إنما يرد على الأمر والنهي، وقوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ خبر لا يَرِدُ عليه النسخ، ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم: قد أثبت الله تعالى للقلب كسباً

فقال: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فليس لله عبدٌ أسرَّ عملاً أو أعلنه من حركة في جوارحه أو هِمّة في قلبه إلا يجزه الله به ويُحاسبه عليه، ثم يغفر بما يشاء ويعذب بما يشاء، وهذا معنى قول الحسن، يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال الآخرون: معنى الآية: إن الله عزّ وجلّ يُحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه، غير أن معاقبته على ما أخفوه مما لم يعملوه بما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب، والأمور التي يحزنون عليها.

وهذا قول عائشة رضي الله عنها، قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال:

«يا عائشة هذه معاتبة الله العبدَ بما يُصيبه من الحمى والنكبة حتى الشوكة [يشاكها] والبِضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيروع لها، حتى إن المؤمن يخرج من ذنوبه كما يخرج التّبر الأحمر من الكير».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الرّيّاني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبدالله بن صالح حدّثني الليث حدثني يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سِنّان عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يُوافيه به يوم القيامة».

وقال بعضهم: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: ما في قلوبكم مما عزمتم عليه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، ولا تبدوه وأنتم عازمون عليه يحاسبكم به الله، فأمّا ما حدّثت به أنفسكم مما لم تعزموا [عليه] فإن ذلك ممّا ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولا يؤاخذكم به، دليله قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، قال عبدالله بن المبارك: قلت لسفيان: أيؤاخذ الله العبدَ بالهِمّة؟ قال: إذا كان عَزِماً أُخذ بها، وقيل معنى المحاسبة: الإخبار والتعريف، ومعنى الآية: وإن تُبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم، يُحاسِبْكم به الله ويُخبركم به ويُعْرفكم إياه، ثم يغفر للمؤمنين إظهاراً لفضله، ويُعذّب الكافرين إظهاراً لعدله، وهذا معنى قول الضحاك، ويُروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، يدلّ عليه أنه قال: يُحاسبكم به الله، ولم يقل: يُؤاخذكم به، والمحاسبة غير المؤاخذة، والدليل عليه ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزراد أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أناعيسى بن أحمد العسقلاني أنا يزيد بن هارون أنا همام بن يحيى عن قتادة عن صفوان بن محرز قال:

كنت آخذاً بيد عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فأتاه رجل فقال: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النَّجْوَى؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالىٰ يُدني المؤمنَ يومَ القيامةُ حتى يضعَ عليه كَنَفَه يُستَرُهُ مِنَ الناس فيقول: أيْ عبدي! أتعرفُ ذنبَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ، ثم يقول: أيْ عبدي أتعرفُ ذنبَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتُها لك اليوم، ثم يُعطي كتابَ حسناته، وأمّا الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

قوله تعالىٰ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، رفع الراء والباء أبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب، وجزمهما الآخرون فالرفع على الابتداء والجزم على النسق، روى طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما فيغفر لمن يشاء الذنبَ العظيم ويُعذّب من يشاء على الذنبِ الصغير لا يَسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، والله على كل شيء قدير.

(٢٨٥) قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، أي: صدق ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، يعني: كلُّ واحدٍ منهم، ولذلك وحّد الفعل، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، قرأ حمزة والكسائي «وكتابه» على الواحد، يعني: القرآن، وقيل معناه: [الجمع وإن ذُكر بلفظ التوحيد]؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقرأ الآخرون: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بالجمع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، فيه إضمارٌ تقديره: يقولون لا نُفرّق، وقرأ يعقوب: «لا يفرق» بالياء، فيكون خبراً عن الرسول، أو معناه: لا يُفرّق [بين] الكل، وإنما قال ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ولم يقل بين آحاد، لأن الأحد يكون للواحد والجمع، قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾، قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك، رُوي عن حكيم بن جابر رضي الله عنهما أنّ جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ حين نزلت هذه الآية: إن الله قد أثنى عليك وعلى أمتك، فسلْ تعطَ، فسأل بتلقين الله تعالىٰ فقال: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ وهو نصب على المصدر، أي: اغفر غفرانك، [أو على المفعول به]، أي: نسألك غفرانك، ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ظاهر الآية قضاء الحاجة، وفيها إضمار السؤال كأنه قال: وقالوا لا تكلفنا إلا وُسعنا، فأجاب: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتَها، والوُسْعُ: اسم لما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، واختلفوا في تأويله، فذهب ابن عباس رضي الله عنه وعطاء وأكثر المفسّرين إلى أنه أراد به حديثَ النفس الذي ذُكر في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ كما ذكرنا، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: هم المؤمنون خاصةً وسّع عليهم أمرَ دينهم ولم يُكلّفهم فيه إلا ما يستطيعون؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وسُئل سفيان بن عيينة عن قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، قال: إلا يُسرها ولم يُكلّفها فوقَ طاقتها، وهذا قول حسن، لأن الوُسْعَ ما دون الطاقة.

قوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، أي: للنفس ما عملت من الخير لها أجره وثوابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشرّ وعليها وزره ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾، أي: لا تعاقبنا ﴿إِن نَّسِينَآ﴾، جعله بعضهم من النسيان الذي هو السهو، قال الكلبي: كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أُمروا به أو أخطؤوا عُجّلت لهم العقوبة فحرّم عليهم شيءٌ من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك، وقيل: هو من النسيان الذي هو الترك؛ كقوله [تعالى]: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قيل: معناه القصد والعمد، يقال: أخطأ فلان إذا تعمّد، قال اللّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، قال عطاء: إن نسينا أو أخطأنا يعني: إن جهلنا أو تعمّدنا، وجعله الأكثرون: من الخطأ الذي هو الجهل والسّهو، لأنّ ما كان عمداً من الذنب فغير معفوّ عنه بل هو في مشيئة الله، والخطأ معفوٌّ عنه.

قال النبيّ ﷺ: «رُفع عن أُمّتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه».

قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي عهداً ثقيلاً وميثاقاً لا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، يعني: اليهود، فلم يقوموا به فعذّبتهم هذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والسدي والكلبي وجماعة، يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١]، أي: عهدي، وقيل معناه: لا تُشدّد ولا تُغلظ الأمر علينا كما شدّدت على مَنْ قبلنا من اليهود، وذلك: أن الله فرض عليهم خمسين صلاةً وأمرهم بأداء رُبع أموالهم في الزكاة ومن أصاب ثوبَه نجاسةٌ قطعها، ومن أصاب ذنباً أصبح ذنبه مكتوباً على بابه، ونحوها من الأثقال والأغلال، وهذا معنى قول عثمان وعطاء ومالك بن أنس وأبي عبيدة وجماعة، يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقيل: الإصرُ ذَنبٌ لا توبةَ له، معناه: اعصمنا من مثله، والأصل فيه العقل والإحكام. قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، أي: لا تُكلّفنا من الأعمال ما لا نطيقه، وقيل: هو حديث النفس

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

والوسوسة، حُكي عن مكحول أنه قال: هو الغلمة، [قيل: الغلمة شدّة الشهوة]، وعن إبراهيم قال: هو الحب، وعن محمد بن عبدالوهّاب قال: [هو] العشق، وقال ابن جريج: هو مسخ القردة والخنازير، وقيل: هو شماتة الأعداء، وقيل: هو الفرقة والقطيعة نعوذ بالله منها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾، أي: تجاوزْ وامحُ عنّا ذنوبنا، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾: استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ﴿وَارْحَمْنَآ﴾ فإننا لا ننال العمل إلا بطاعتك ولا نترك معصيتك إلا برحمتك، ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرنا وحافظنا ولينا، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ﴾.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، قال الله تعالىٰ: «قد غفرتُ لكم»، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: «لا أؤاخذكم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ قال: «لا أحمّل عليكم إصراً»، ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: «لا أحمّلكم»، ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ إلى آخرها، قال: «عفوتُ عنكم وغفرتُ لكم ورحمتُكم ونصرتُكم على القوم الكافرين».

وكان معاذ بن جبل إذا ختم سورة البقرة، قال: آمين.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا أبو أسامة حدثني مالك بن مغول عن الزبير بن عدي عن طلحة بن مُصَرِّف عن مُرّة عن عبدالله قال:

«لما أُسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبض به فوقها فيقبض منها قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قال: فأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً من المقحمات» كبائر الذنوب.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسين الإسفراييني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ أنا يونس وأحمد بن شيبان قالا: ثنا سفيان بن عُيينة عن منصور عن إبراهيم عن عبدالرحمٰن بن يزيد عن أبي مسعود رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ:

«الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه»، [أي عن قيام الليل].

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الريّاني أخبرنا حميد بن زنجويه أنا العلاء بن عبدالجبار أنا حماد بن سلمة أخبرنا الأشعث بن عبدالرحمٰن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله تعالىٰ كتب كتاباً قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا تُقرآن في دار ثلاثَ ليالٍ فيقربها شيطان».

سورة آل عمران مدنية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

قوله تعالىٰ:

﴿١﴾ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ﴾ قال الكلبي: والربيع بن أنس وغيرهما: نزلت هذه الآيات في وَفدِ نجران وكانوا ستين راكباً قدموا على

رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم، العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبدالمسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحَبرهم، دخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية في جمال رجال بلحارث بن كعب يقول: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فصلّوا إلى المشرق، فسلم السيدُ والعاقبُ، فقال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما»، قالا: قد أسلمنا قبلك، قال كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير، قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن يكن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهم النبيّ ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه»؟ قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حيّ لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء»؟ قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً»؟ قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء»؟ قالوا: بلى، قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم»؟ قالوا: لا، قال: «فإن ربّنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا ليس بذي صورة وليس له مثل وربُنا لا يأكل ولا يشرب»، قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذّي كما يُغذّى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث»؟ قالوا: بلى، قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم»؟ فسكتوا، فأنزل الله تعالىٰ صدرَ سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية منها، فقال عزّ مِنْ قائل: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ﴾. مفتوح الميم موصول عند العامة، وإنما فتح الميم لالتقاء الساكنين، حُرّك إلى أخف الحركات، وقرأ أبو يوسف ويعقوب بن خليفة الأعمش عن أبي بكر ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ﴾ مقطوعاً سكن الميم على نيّة الوقف، ثم قطع الهمزة للابتداء وأجراه على لغة من يقطع ألف الوصل.

﴿٢﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ﴾ ابتداء وما بعده خبره، و﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ نعتٌ له.

﴿٣﴾ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: القرآن، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالصدق، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، لِما قبله من الكتب في التوحيد والنبوّة والأخبار وبعض الشرائع، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

﴿٤﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾، وإنما قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ لأن التوراة والإنجيل أُنزلا جملةً واحدةً، وقال في القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾ لأنه نزل مفصّلاً، والتنزيل: للتكثير، والتوراة، قال البصريون: أصلها وَوْرِيَة على وزن: فَوْعلة مثل دوحلة وحَوْقَلة فحوّلت الواو الأولى تاء وجعلت الياء المفتوحة ألفاً فصارت توراة، ثم كتبت بياء على أصل الكلمة، وقال الكوفيون: أصلها تفعلة مثل توصية وتوفية، فقُلبت [الياء] ألفاً على لغة طيء، فإنهم يقولون للجارية جاراة، وللتوصية توصاة، وأصلها من قولهم: ورى الزند إذا خرجت ناره وأوريته أنا، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٧١]، فسمّى التوراة لأنها نور وضياء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقيل: [هي] من التورية وهي كتمان السر والتعريض بغيره، وكان أكثر التوراة معاريض من غير تصريح، والإنجيل: إفعيل من النجل وهو الخروج، ومنه سمّي الولد نجلاً لخروجه، فسمّي الإنجيل به لأن الله تعالىٰ أخرج به دارساً من الحق عافياً [قيل]: هو من النجلِ وهو سَعَة العين، سُمّي به لأنه أُنزل توسعة لهم ونوراً، وقيل: التوراة بالعبرانية تورتور، [و] معناه: الشريعة، والإنجيل بالسريانية: إنقليون، ومعناه: الإكليل. قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، هادياً لمن تَبِعَه، ولم يثنّه لأنه مصدر، ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، [ليفرّق] بين الحقّ والباطل، وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدىً للناس، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

(٦) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، [من الصور المختلفة] ذكراً أو أنثى أبيضَ أو أسودَ حسناً أو قبيحاً تامّاً أو ناقصاً، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وهذا ردٌ على وَفْدِ نجرانَ من النصارى حيث قالوا: عيسى ولد الله، وكأنه يقول: كيف يكون ولداً وقد صوّره الله تعالىٰ في الرحم؟

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو محمد عبدالرحمٰن بن أحمد بن محمد الأنصاري أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا أبو خيثمة زهير بن معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب قال: سمعت عبدالله بن مسعود يقول:

حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «أن [خلق] أحدكم يجمع في بطن أمه أربعينَ يوماً نطفةً ثم يكونُ علقةً مثلَ ذلك، ثم يكونُ مضغةً مثل ذلك ثم يَبعثُ اللَّهُ إليه الملكَ أو قال: يُبعث إليك الملَكُ بأربع كلمات، فيُكتبُ رزقُه وعملُه وأجلُه وشقيٌّ أو سعيد، قال: وإن أحدكم ليعملُ بعمل أهلِ الجنةِ حتى ما يكونَ بينها وبينه غيرُ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعملُ بِعملِ أهلِ النارِ فيَدْخلُها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع [فيسبق عليه الكتاب] فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد بن عبدالله بن نمير ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد:

يبلغ به النبيّ ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقرّ في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أم سعيد؟ فيكتب ذلك فيقول: يا رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيكتبان، ويُكتبُ عملُه وأجلُه ورزقُه ثم تُطوى الصحف، فلا يُزاد فيها [و] لا يُنقص».

(٧) قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾، مبينات مفصّلات سمّيت محكمات من الإحكام، كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرّف فيها لظهورها ووضوح معناها، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أصله الذي يعول عليه في الأحكام، وإنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ولم يقل: أمّهات الكتاب لأن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة، وكلام الله تعالىٰ واحد، وقيل معناه: كل آية منهنّ أمّ الكتاب، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أي: كل واحدة منهما آية، ﴿وَأُخَرُ﴾، جمع أُخرى، ولم يصرفه لأنه معدول عن الآخر مثل: عُمر وزُفر، ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، فإن قيل: كيف فرّق هٰهنا بين المُحكم والمُتشابه وقد جعل الله كلَّ القرآن محكماً في مواضع أُخر، فقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وجعل كلّه متشابهاً [في موضع آخر] فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]؟ قيل: حيث جعل الكل محكماً أراد أنّ الكل حقٌ ليس فيه عَبَثٌ ولا هَزْلٌ، وحيث جعل الكلَّ متشابهاً أراد أن بعضه يُشبه بعضاً في الحق والصدق وفي الحُسن، وجعل بعضه هٰهنا محكماً وبعضه متشابهاً.

واختلف العلماء فيهما، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المُحكمات هنّ الآيات الثلاث في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ونظيرها في بني إسرائيل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] الآيات. وعنه أنه قال: المتشابهات حروف التهجّي في أوائل السور. وقال مجاهد وعكرمة: المحكم ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه يُشبه بعضه بعضاً في الحق ويُصدق بعضه بعضاً؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠]، وقال قتادة والضحاك والسدي: المحكم الناسخ الذي يُعمل به والمتشابه المنسوخ الذي يُؤمن به ولا يعمل به. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: محكمات القرآن: ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يُؤمن به، ويعمل به

والمتشابهات: منسوخه، ومُقدَّمه، ومُؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يُؤمَن به ولا يعمل به. وقيل: المحكمات ما أوقف اللهُ الخلق على معناه. والمتشابه ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه، ولا سبيل لأحدٍ إلى علمه، نحو الخبر عن أشراط الساعة، من خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا. قال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكم ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه ما احتمل أوجهاً. وقيل: المحكم ما يُعرف معناه وتكون حجّته واضحة، ودلائله لائحةً لا تُشتبه، والمتشابه هو الذي يُدرك علمه بالنظر، ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل. وقال بعضهم: المحكم ما يستقل بنفسه في المعنى، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا بردّه إلى غيره.

قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما في رواية بَاذان: المتشابه حروف التهجّي في أوائل السور، وذلك أن رهطاً من اليهود منهم حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا إلى النبيّ ﷺ فقال له حيي: بلغنا أنه أنزل عليك ﴿الٓمٓ﴾ ننشدك الله أنزلت عليك؟ قال: «نعم»، قال: فإن كان ذلك حقاً فإني أعلم مدّة مُلك أمتك هي إحدى وسبعون سنة، فهل أنزل غيرها؟ قال: «نعم: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١]»، قال: فهذه أكثر، هي إحدى وستون ومائة سنة، قال: فهل غيرها؟ قال: «نعم، ﴿الٓر﴾ [هود: ١]»، قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى وسبعون سنة، [قال]: فهل غيرها؟ قال: «نعم ﴿الٓمٓر﴾» [الرعد: ١]، قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى وسبعون سنة، ولقد غلطت علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله، ونحن ممن لا يؤمن بهذا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، أي: ميل عن الحق، وقيل: شك، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾.

واختلفوا في المعني بهذه الآية، قال الربيع: هم وفد نجران الذين خاصمُوا النبيّ ﷺ في عيسى عليه السلام، وقالوا له: ألستَ تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: حسبنا ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وقال الكلبي: هم اليهود طلبوا علم أجل هذه الأمة واستخراجها بحساب الجُمل. وقال ابن جريج: هم المنافقون. وقال الحسن: هم الخوارج. وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم؟ وقيل: هم جميع المبتدعة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النُّعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالله بن مَسْلمة أنا يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مُليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت:

تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم».

قوله تعالىٰ: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: طلبُ الشرك، قاله الربيع والسدي، وقال مجاهد: ابتغاء الشبهات واللّبس ليُضلوا بها جهالَهم، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: تفسيره وعِلْمه، دليله قوله تعالىٰ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقيل: ابتغاء عاقبته، وطلب أجل هذه الأمة من حساب الجُمل، دليله قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، أي: عاقبة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، اختلف العلماء في نظم هذه الآية، فقال قوم: الواو في قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ واو العطف، يعني: أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع علمهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وهذا قول مجاهد والربيع، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ حالاً معناه: والراسخون في العلم قائلين آمنا به، هذا كقوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الحشر: ٧]، ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠]، وهذا عطف على ما

سبق، ثم قال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: ١٠]، يعني: هم مع استحقاقهم للفيء يقولون: ربّنا اغفرْ لنا، أي: قائلين على الحال، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه كان يقول في هذه الآية: أنا من الراسخين في العلم، وقال مجاهد: أنا ممن يعلم تأويله، وذهب الأكثرون إلى أن الواو في قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ واو الاستئناف، وتمّ الكلامُ عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو قول أُبي بن كعب وعائشة وعُروة بن الزبير رضي الله عنهم، ورواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وأكثر التابعين، واختاره الكسائي والفراءُ والأخفش، وقالوا: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يُطلعْ عليه أحداً من خلقه، كما استأثر بعلم الساعة، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه الصّلاة والسّلام، ونحوها. والخلقُ مُتعبّدُون في المتشابه بالإيمان به، وفي المحكم بالإيمان به والعمل، ومما يصدق ذلك قراءة عبدالله «إنْ تأويلُه إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنّا به»، وفي حرف أُبي: «ويقول الراسخون في العلم آمنا به»، وقال عمر بن عبدالعزيز في هذه الآية: انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: آمنّا به كلٌّ من عند ربنا. وهذا القول أقيس في العربية وأشبه بظاهر الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، [أي: الداخلون في العلم] هم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في معرفتهم شكّ، وأصله من رسوخ الشيء [في الشيء] وهو ثبوته، يقال: رسخ الإيمان في قلب فلان، يرسخ رسخاً ورُسوخاً، وقيل: الراسخون في العلم علماء مؤمني أهل الكتاب، مثل عبدالله بن سلام وأصحابه، دليله قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٦٢]، يعني: الدارسون علم التوراة والإنجيل، وسُئل مالك بن أنس رضي الله عنه عن الراسخين في العلم، قال: العالِمُ العامِلُ بما عَلِمَ المتّبعُ له. وقيل: الراسخ في العلم مَنْ وُجِدَ في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي: بقولهم آمنّا به سمّاهم الله تعالىٰ راسخين في العلم، فرسوخهم في العلم قولهم آمنّا به، أي: بالمتشابه، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وما علمنا وما لم نعلم، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾: وما يتّعظ بما في القرآن، ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ذوو العقول.

(٨) قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، أي: ويقول الراسخون [في العلم]: ربّنا لا تُزغْ قلوبنا، أي: لا تُملْها عن الحق والهدى كما أزَغْتَ قلوبَ الذين في قلوبهم زيغ فضلّوا وأضلوا، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، وفقتنا لدينك والإيمان بالمُحكم والمُتشابه من كتابك، ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾: أعطِنا من عندك، ﴿رَحْمَةً﴾، توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهُدَى. وقال الضحاك: تجاوزاً ومغفرةً، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السّهمي أنا أبو أحمد بن عدي الحافظ، أنا أبو بكر عبدالرحمٰن بن القاسم القرشي، يُعرف بابن الرواس الكبير بدمشق، أنا أبو مسهر عبدالأعلى بن مسهر الغساني أنا صدقة، أنا عبدالرحمٰن بن زيد بن جابر حدّثني بشر بن عُبيد الله قال: سمعت أبا إدريس الخَوْلاني يقول: حدثني النواس بن سمعان الكلابي قال:

قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ قلبٍ إلاّ وهو بين أصبعينِ من أصابعِ الرحمٰن، إذا شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه»، [قال]: وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللّهمَّ يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينك. والميزان بيد الرحمٰن يرفع قوماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، حدثنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري [أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون، أنا سعيد بن إياس الجريري عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ القلب

الجزء الثالث — سورة آل عمران

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

٥١

كريشة بأرضِ فلاةٍ تُقلِّبها الرياحُ ظهراً لبطن».

(٩) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾، أي: لقضاء يوم، وقيل: اللام بمعنى: في، أي في يوم، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، وهو مِفْعال، من الوَعْد.

(١٠) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ﴾: لن تنفع ولن تدفع، ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾، قال الكلبي: من عذاب النار، وقال أبو عُبيدة: من بمعنى عند، أي: عند الله ﴿شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

(١١) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد: كفعل آل فرعون وصنيعهم مع نبيّهم في الكفر والتكذيب به وبما جاء، وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة: كسنّة آل فرعون. وقال الأخفش: كأمر آل فرعون وشأنهم. وقال النّضر بن شُميل: كعادة آل فرعون، يريد عادة هؤلاء الكفّار في تكذيب الرسول وجحودِ الحق كعادة آل فرعون، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾، فعاقبهم الله، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقيل: نظم الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ عند حلول النّقمة والعقوبة [بهم]، مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية، أخذناهم فلن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم، [من عذاب الله شيئاً]، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(١٢) قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما، أي: أنهم يُغلبون ويحشرون، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما على الخطاب، أي: قل لهم يا محمد إنكم ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم.

وقال مقاتل: أراد مشركي مكة، معناه: قل لكفار مكة ستُغلبون يومَ بدرٍ وتُحشرون إلى جهنم في الآخرة، فلمّا نزلت هذه الآية قال لهم النبيّ ﷺ يوم بدر: «إنّ الله غالبُكم وحاشرُكم إلى جهنم».

وقال بعضهم: المراد بهذه الآية اليهود.

وقال الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهود أهل المدينة قالوا لمّا هَزم رسول الله ﷺ المشركين يومَ بدر: هذا والله النبي الذي بشّرنا به [موسى]، لا تُردّ له راية، وأرادوا اتباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة [له] أخرى، فلما كان يوم أُحد ونكب أصحاب رسول الله ﷺ، شكّوا، فغلب عليهم الشقاء، فلم يُسلموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى مكة ليستفزهم، فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وقال محمد بن إسحاق عن رجاله، ورواه سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: أنه لمّا أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال:

«يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلِمُوا قبل أن ينزلَ بكم مثل ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبيٌّ مُرسل، تجدون ذلك في كتابكم»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا عِلمَ لهم بالحرب فأصبتَ فيهم فرصةً، وإنا والله لو قاتلناكَ لعرفتَ أنا نحن الناس. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني اليهود. ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: تُهزمون في الدنيا في

قتالكم محمّداً ﴿وَتُحۡشَرُونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾: الفراش، أي: بئس ما مُهد لهم، يعني: النار.

﴿١٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾، ولم يقل قد كانت، والآية مؤنثة لأنه ردّها إلى البيان، أي: قد كان [لكم] بيان، فذهب إلى المعنى، وقال الفراء: إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل، وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه، فمعنى الآية: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾، أي: عبرة ودَلالة على صدق ما أقول لإنكم ستُغلبون، ﴿فِي فِئَتَيۡنِ﴾: فرقتين، وأصلها فيءٌ: الحرب، لأن بعضهم يفيء إلى بعض، ﴿ٱلۡتَقَتَاۖ﴾، يوم بدر، ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، طاعة الله، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وصاحب راية المهاجرين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة، وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسان فرسٌ للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد، وأكثرهم رَجّالة وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف. قوله تعالىٰ: ﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾، أي: فرقة أخرى كافرة، هم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة، رأسهم عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم مائة فرس، وكانت حرب بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء، يعني: ترون يا معشر اليهود وأهل مكة مثلي عدد المسلمين، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا حضروا قتال بدر لينظروا على مَن تكون الدائرة فرأوا المشركين مِثلَي عدد المسلمين ورأوا النصرة مع ذلك للمسلمين، فكان ذلك معجزة وآيةً، وقرأ الآخرون بالياء، واختلفوا في وجهه، فجعل بعضهم الرؤيةَ للمسلمين، ثم له تأويلان، أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم، فإن قيل: كيف قال ﴿مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ وهم كانوا ثلاث أمثالهم؟ قيل: هذا مثل قول الرجل وعنده درهم: أنا أحتاج إلى مثلي هذا الدرهم، يعني: إلى مثليه سواه، فيكون ثلاثة دراهم. والتأويل الثاني هو الأصح: كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم قلّلهم الله تعالىٰ في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين، ثم قلّلهم الله في أعينهم في حالة أُخرى، حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم [يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم] يزيدون [علينا] رجلاً واحداً، ثم قلّلهم الله تعالىٰ أيضاً في أعينهم حتى رأوهم عدداً يسيراً أقلَّ من أنفسهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال أراهم مائة. وقال بعضهم: الرؤية راجعة إلى المشركين، يعني: يرى المشركون المسلمين مثليهم، قلّلهم الله قبل القتال في أعين المشركين ليجترىء المشركون عليهم، ولا ينصرفوا [عنهم]، فلما أخذوا في القتال كثّرهم [الله] في أعين المشركين، ليَجْبُنوا، وقلّلهم في أعين المؤمنين ليجترؤوا [عليهم]، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٤٤]. قوله تعالىٰ: ﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾، أي: في رأي العين، نُصب بنزع حرف الصنعة، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، [أي: في] الذي ذكرتُ، ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، لذوي العقول، وقيل: لمن أبصر الجَمعين.

﴿١٤﴾ قوله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، جمع شهوة، وهي ما تدعو النفس إليه، ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، بدأ بهنّ لأنهنّ حبائل الشيطان، ﴿وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ﴾، جمع قنطار، واختلفوا فيه، فقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير بعضه على بعض، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: القنطار ألف ومائتا أوقية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: ألف ومائتا مِثقال، وعنهما رواية أُخرى: اثنا عشر ألف درهم وألف دينار، ديةُ أحدكم. وعن الحسن قال: القنطار دية أحدكم، وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مائة ألف ومائة مَنٍّ ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم، ولقد جاء الإسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا. وقال سعيد بن المسيب

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٥٢

وقتادة: ثمانون ألفاً. وقال مجاهد: سبعون ألفاً. وعن السدي قال: أربعة آلاف مثقال، وقال الحكم: القنطار ما بين السماء والأرض من مال، وقال أبو نضرة: ملءُ مَسْكِ ثورٍ ذهباً أو فضةً. وسُمّي قنطاراً من الإحكام، يقال: قنطرتُ الشيءَ إذا أحكمته، ومنه سُمّيت القنطرة. قوله تعالى: ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، قال الضحاك: المُحصّنة المُحكمة، وقال قتادة: هي الكثيرة المنضدة بعضها فوق بعض. وقال يمان [بن رباب]: هي المدفونة. وقال السدي: المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير. وقال الفراء: المضعّفة. فالقناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، قيل: سُمّي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة فضةً لأنها تنفض، أي: تتفرّق، ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: الخيل جمعٌ لا واحد له من لفظه، وَاحدُها فرس، كالقوم والنساء ونحوهما، ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ قال مجاهد: هي المُطهمة الحِسان. وقال عكرمة: تسويمها حُسنها، وقال سعيد بن جبير: هي الراعية، يقال: أسامَ الخيلَ وسَوّمها، وقال الحسن وأبو عبيدة: هي المعلّمة من السيماء [وهي] العلامة، ثم منهم من قال: سيماها الشبه واللّون، وهو قول قتادة، وقيل: الكّي، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، جمع النَّعَم، وهي الإبل والبقر والغنم، جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾، يعني: الزرع، ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرنا، ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، يشير إلى أنها متاع يفنى، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾، أي: المرجع، وفيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

﴿١٥﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾، أي: أخبركم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، قرأ العامة بكسر الراء، وروى أبو بكر عن عاصم بضم الراء، وهما لغتان كالعِدوان والعُدوان.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى بن سليمان حدّثني ابن وهب حدثني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

قال النبيّ ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنّة: يا أهل الجنّة، فيقولون: لبّيك يا ربّنا وسَعْدَيْك والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: و مَا لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ لكم رِضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، إن شئت جعلت محل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفضاً ردّاً على قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، وإن شئتَ جعلتَه رفعاً على الابتداء، ويُحتمل أن يكون نصباً تقديره: أعني الذين يقولون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، صدقنا، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، [أي]: استرها علينا وتجاوزْ عنا، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾، إن شئتَ نصبتَها على المدح، وإن شئتَ خفضتَها على النعت، يعني: الصابرين في أداء الأوامر، وعن ارتكاب النهي، وعلى البأساء والضراء وحين البأس والصادقين في إيمانهم، قال قتادة: هم قوم صدقتْ نياتُهم واستقامتْ قلوبُهم وألسنتُهم فصدقوا في السرّ والعلانية، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: المطيعين المصلّين، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في طاعة الله،

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، قال مجاهد وقتادة والكلبي: يعني المصلّين بالأسحار، وعن زيد بن أسلم أنه قال: هم الذين يُصلّون الصبح في الجماعة، وقيل: بالسحر لقربه من الصبح، وقال الحسن: مدّوا الصلاة إلى السحر، ثم استغفروا، وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما يُحيي الليل، ثم يقول: يا نافع أسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم، [قعد وأخذ] يستغفر الله ويدعو حتى يُصبح.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي حدثنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أنا قتيبة أنا يعقوب بن عبدالرحمٰن عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ اللّهُ إلى السماء الدنيا كلَّ ليلةٍ حينَ يبقى ثلثُ الليل الأخير، فيقول: أنا الملك أنا الملك مَن ذَا الذي يدعُوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأُعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغْفرُ له».

وحُكي عن الحسن: أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تكن أعجز من هذا الدِّيك يصوِّت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

(١٨) قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، قيل: نزلت هذه الآية في نصارى نجران.

قال الكلبي: قدم حَبْران من أحبار الشام على النبيّ ﷺ فلما أبصرا المدينةَ قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا عليه [ورأياه] عرفاه بالصفة، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا له: وأنت أحمد؟ قال: أنا محمد وأحمد، قالا له: فإنّا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنّا بكَ وصدقناكَ، فقال: اسألا، قالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عزّ وجلّ، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، فأسلم الرجلان.

قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾، أي: بيّن اللّهُ، لأن الشهادة تبيينٌ، وقال مجاهد: حَكَم الله، وقيل: عَلِم الله، وقيل: أعلم الله أنّه لا إلٰه إلاّ هو. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد بنفسه [لنفسه] قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا برّ ولا بحر، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: وشهدتِ الملائكة، قيل: معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين: الإقرار، ﴿وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، يعني: الأنبياء عليهم السلام، وقال ابن كيسان: يعني المهاجرين والأنصار. وقال مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب، عبدالله بن سلام وأصحابه. وقال السدي والكلبي: [يعني] جميع علماء المؤمنين. ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، ونظم الآية: شهد الله قائماً [بالقسط]، نصبٌ على الحال، وقيل: نصب على القطع، ومعنى قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: قائماً بتدبير الخلق، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان، أي: مدبرٌ له ومتعهد لأسبابه، وقائم بحق فلان أي: مجازٍ له، فالله جلّ جلاله مدبرٌ ورازقٌ ومجازٍ بالأعمال، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، يعني: الدين المَرضي [لله] الصحيح، كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفتح الكسائي الألف من ﴿أن الدين﴾ ردّاً على أن الأولى، تقديره: شهد الله أنه لا إلٰه إلاّ هو وشهد أن الدين عند الله الإسلام، أو شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إلٰه إلاّ هو، وكسر الباقون الألف على الابتداء، والإسلام: هو الدخول في السِّلم، وهو الانقياد والطاعة، يقال: أسلم، أي: دخل في السّلم، واستسلم، قال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، قال: شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالىٰ وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودلّ عليه أولياءه، فلا يقبل غيره، ولا يُجزي إلا به.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عمرو الفراتي أنا أبو موسى عمران بن موسى، أنا الحسن بن سفيان أنا عمار بن عمر بن المختار، حدثني

أبي عن غالب القطان، قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، وكنت أختلف إليه، فلما كنت ذات ليلة أردت أن أتحدّر إلى البصرة، فإذا الأعمش قائم من الليل يتهجّد فمرّ بهذه الآية، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾، ثم قال الأعمش: وأنا أشهدُ بما شهدَ اللَّهُ به، وأستودعُ اللَّهَ هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فصليت معه وودعته، ثم قلت: إني سمعتك تقرأ آية تردِّدها، فما بلغك فيها؟ [قال لي: أوَما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندكَ منذُ سنتين لم تحدّثني]، قال: والله لا أحدّثك بها إلى سنة، فمكثت على بابه ذلك اليوم، وأقمتُ سنةً فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة، فقال: حدثني أبو وائل عن عبدالله قال:

قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحقّ من وَفّى بالعهد، أدْخِلُوا عبدي الجنّة».

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال الكلبي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام، أي: وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب في نبوّة محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، يعني: بيان نعته في كتبهم، وقال الربيع بن أنس: إن موسى عليه السلام لمّا حضره الموت دعا سبعين رجلاً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة واستخلف يُوشع بن نون، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم وهم الذين أُوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين، حتى أهرقوا بينهم الدماء، ووقع الشرّ والاختلاف وذلك من بعد ما جاءهم العلم، يعني بيان ما في التوراة، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، أي: طلباً للملك والرياسة فسلّط الله عليهم الجبابرة، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت [هذه الآية] في نصارى نجران ومعناها: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب، يعني: الإنجيل في أمر عيسى عليه السّلام، وفرّقوا القول فيه، إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، أي: للمعاداة والمخالفة، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(٢٠) قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾، أي: خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: لسنا [على] ما سمّيتنا به يا محمد وإنما اليهودية والنصرانية نسب، والدين هو الإسلام ونحن عليه فقال الله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾، أي: انقدْتُ لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خصّ الوجه لأنه أكرم الجوارح من الإنسان، وفيه بهاؤه فإذا خضع وجهه للشيء فقد خضع له جميع جوارحه. وقال الفراء: معناه أخلصت عملي لله، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾، أي: ومن اتّبعني فأسلم كما أسلمتُ، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء في قوله تعالى: «اتبعني» على الأصل وحذفه الآخرون على الخط لأنها في المصحف بغير ياء، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، يعني: العرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، لفظة استفهام ومعناه أمرٌ، أي: وأسلموا، كما قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهل الكتاب: أسلمنا، فقال لليهود: أتشهدون أن عُزيراً عبدُه ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عُزير عليه السلام عبداً، وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمةُ الله وعبدُه ورسوله؟ قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، أي: تبليغ الرسالة، وليس عليك الهداية، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، عالم بمنْ يُؤمن وبمن لا يؤمن.

(٢١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يجحدون بآيات الله، يعني: القرآن، وهم اليهود والنصارى، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، قرأ حمزة «ويقاتلون الذين يأمرون» بألف، قال ابن جريج: كان الوحي يأتي على أنبياء بني إسرائيل ولم يكن يأتيهم كتابُ فيذكّرون قومهم فيقتلون، فيقوم رجال ممن اتّبعهم وصدقهم فيذكّرون قومهم فيقتلون أيضاً فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله الحسين بن محمد [بن] فنجويه الدِّينَوري، أنا أبو نصر منصور بن جعفر النهاوندي، أنا أحمد بن يحيى بن الجارود أنا محمد بن عمرو بن حيان أنا محمد بن حِمْيَر أنا أبو الحسن مولى بني أسد عن مكحول عن قُبيصة بن ذؤيب الخُزاعي عن أبي عُبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال:

قلت لرسول الله ﷺ أيُّ الناسِ أشدُّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾، إلى أن انتهى إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا عبيدة قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبياً في أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عُبّادِ بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً في آخر النهار في ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله في كتابه وأنزل الآية فيهم».

﴿فَبَشِّرْهُم﴾: أخبرهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وَجِيع، وإنما أدخل الفاء على خبر ﴿إِنَّ﴾، وتقديره: الذين يكفرون ويقتلون فبشّرهم، لأنه لا يقال: إن زيداً فقائم.

﴿٢٢﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝﴾، وبطلان العمل في الدنيا أن لا يقبل، وفي الآخرة أن لا يُجازَى عليه.

﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، يعني: اليهود، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾، اختلفوا في هذا الكتاب، فقال قتادة: هم اليهودُ دُعوا إلى حُكم القرآن فأعرضوا عنه. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية:

إن الله تعالى جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحكم القرآن على اليهود والنصارى: أنهم على غير الهدى، فأعرضُوا عنه، وقال آخرون: هو التوراة.

وروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فقال له نُعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أيِّ دين أنت يا محمد؟ فقال: «على مِلّة إبراهيم»، فقالا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: «فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم»، فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا، وكان في كتابهم الرجم فكرهُوا رَجمهما لشرفهما فيهم، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن يكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى وبحري بن عمرو: جُرْتَ عليهما يا محمد ليس عليهما الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «بيني وبينكم التوراة»، فقالوا قد أنصفتنا، قال: «فمن أعلمكم بالتوراة»؟ قالوا: رجل أعور يسكنُ فدكَ يقال له ابن صوريا، فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أنت ابن صوريا»، قال: نعم، قال: «أنت أعلم اليهود»؟ قال: كذلك يزعمون، قال: فدعا رسول الله ﷺ بشيء من التوراة فيها الرجم مكتوب، فقال له: «اقرأ»، فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها، وقرأ ما بعدها على رسول الله ﷺ، فقال عبدالله بن

سلام: يا رسول الله قد جاوزها، فقام فرفع كفّه عنها، ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البيّنة رُجمَا، وإن كانت المرأة حُبلى تربّص حتى تضع ما في بطنها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديّين فرُجما فغضب اليهود لذلك وانصرفوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾ التوراة، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾، الغرور: هو الإطماع فيما لا يحصل منه شيء، ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، الافتراء: اختلاق الكذب.

﴿٢٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾، أي: فكيف حالهم أو كيف يصنعون إذا جمعناهم، ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، وهو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وُفّرت ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، أي: جزاء ما كَسَبَتْ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم.

﴿٢٦﴾ قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾:

قال قتادة: ذكر لنا أن النبيّ ﷺ سأل ربّه أن يجعل مُلك فارس والروم في أمّته فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وأنس بن مالكٍ رضي الله عنه: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وَعَدَ أمته مُلك فارس والروم. قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ﷺ مُلك فارس والروم؟ وهم أعزّ وأمنع من ذلك، ألم يكفِ محمداً مكة والمدينة حتى طمع في مُلكَ فارس والروم، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ قيل: معناه يا الله، فلما حُذف حرف النداء زيد الميم في آخره، وقال قوم: للميم فيه معنى، ومعناه: يا الله أمِنّا بخير، أي: اقصدنا، حذف منه حرف النداء، كقولهم: هَلُمّ إلينا، كان أصله هلْ أُمّ إلينا، ثم كثرت في الكلام فحذفت الهمزة استخفافاً وربما خففوا أيضاً فقالوا لا هُمّ، قوله: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، [يعني: يا مالك الملك]، أي: مالك العباد ومَا مَلَكُوا، وقيل: يا مالك السمٰوات والأرض، وقال الله تعالىٰ في بعض الكتب: [أنا الله مَلِكُ الملوك]، ومَالِكُ الملوك وقُلوب المُلوك ونواصيهم بيدي، فإنِ العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمةً وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطّفهم عليكم.

قوله تعالىٰ: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني مُلك النبوة، وقال الكلبي: تُؤتي المُلكَ من تشاء: محمداً وأصحابه، ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ أبي جهل وصناديد قريش، وقيل: تُؤتي الملك من تشاء: العرب، وتنزع الملك ممّن تشاء: فارس والروم، وقال السدي: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾، آتى الله الأنبياء عليهم السلام الملك وأمر العباد بطاعتهم، ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾، نزعه من الجبارين، وأمر العباد بخلافهم، وقيل: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: آدم وولده، ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾: إبليس وجنوده، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾، قال عطاء: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾: المهاجرين والأنصار، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾: فارس والروم، وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ محمداً ﷺ وأصحابه، حين دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها قهراً على أهلها، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ أبا جهل وأصحابه، حتى جُزّتْ رؤوسهم وألقوا في القليب، وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾: بالإيمان والهداية [ودخول الجنة]*. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾: بالكفر والضلالة [ودخول النار]، [وقيل تُعزّ من تشاء بالطاعة، وتُذل من تشاء بالمعصية]، وقيل: تُعزّ من تشاء بالنصر، وتُذل من تشاء بالقهر، وقيل: تُعز من تشاء بالغنَى، وتُذلّ من تشاء بالفقر، وقيل: تُعز من تشاء بالقناعة والرّضى، وتُذل من تشاء بالحرص والطمع، ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، أي: بيدك الخيرُ والشرّ فاكتفى بذكر أحدهما. قال تعالىٰ: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي: الحرّ والبرد، فاكتفى بذكر أحدهما. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٢٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، أي: تدخل الليل في النهار، حتى يكون النهار خمسَ عشرة ساعة

والليل تسعَ ساعات، ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، حتى يكون الليلُ خمسَ عشرة ساعةً، النهارُ تسعَ ساعات، فما نقص من أحدهما زاد في الآخر، ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بتشديد الياء هٰهنا وفي الأنعام ويونس والروم، وفي الأعراف: ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وفي فاطر: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، زاد نافع: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، و﴿لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] و﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] فيشددها والآخرون يخففونها وشدد يعقوب ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ و﴿لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢]، قال ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة: معنى الآية: يُخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان، وقال عكرمة والكلبي: يخرج الحيّ من الميت، أي: الفرخ من البيضة ويُخرج البيضة من الطير، وقال الحسن وعطاء: يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن، فالمؤمنُ حيّ الفؤاد والكافر ميتُ الفؤاد، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال الزجاج: يُخرج النبات الغَضّ الطري من الحبّ اليابس، ويخرج الحب اليابس من النبات الطري النامي. ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، من غير تضييق ولا تقتير.

أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد الحنفي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا أبو جعفر عبدالله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، أنا محمد بن علي بن زيد الصائغ أنا محمد بن الأزهر أنا الحارث بن عمير، أنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مشفّعات معلقات بالعرش بينهنّ وبين الله عزّ وجلّ حجاب، قلن: يا رب تُهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك منه؟ قال الله عزّ وجلّ: بي حلفت لا يقرؤكنّ أحد من عبادي دُبُرَ كلِّ صلاةٍ إلا جعلت الجنّةَ مثواه على ما كان منه ولأسكنته حظيرة القدس، ولنظرت إليه بعيني المكنونة، [كل يوم سبعين مرة] ولقضيتُ له كلَّ يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، ولأعذتُه من كل عدو وحاسد، ونصرتُه منهم». [رواه الحارث بن عمير وهو ضعيف].

(٢٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد [يظنون بنفر] من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبدالله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنوكم عن دينكم ويخرجوكم عن طاعة الله ورسوله، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، وكانوا يُظهرون المودّة لكفار مكّة.

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المنافقين: عبدالله بن أبي وأصحابه كانوا يتولّون اليهودَ والمشركين ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم، قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، أي: مُوالاةَ الكفارِ في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عَوْرَةِ المسلمين، ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، أي: ليس من دين الله في شيء، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، يعني: إلا أن تخافوا منهم مخافة، قرأ مجاهد ويعقوب: «تقية» على وزن بقية لأنهم كتبوها بالياء، ولم يكتبوها بالألف: مثل حصاة ونواة، وهي مصدر يقال: تقيت تقاة وتقى تقية وتقوى، فإذا قلت: اتّقيت كان المصدر الاتّقاء، وإنما قال تتقوا من الاتّقاء، ثم قال: تقاة ولم يقل: اتقاءً لأن معنى اللفظين إذا كان واحداً يجوز إخراج مصدر أحدهما على لفظ الآخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، ومعنى الآية: إن الله تعالىٰ نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم، إلاّ أن يكون الكفار غالبين ظاهرين [على المؤمنين]، أو

يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم ويداهنهم باللسان، وقلبُه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه مضارتهم ما أمكن، من غير أن يستحلّ دماً حراماً أو مالاً حراماً أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النيّة، قال الله تعالىٰ: إلاّ من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ثم هذا رخصة، فلو صبر حتى قُتل فله أجرٌ عظيم، وأنكر قوم التقية اليوم، قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التقية في جِدَةِ الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، [فأما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام]، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتّقوا من عدوهم، وقال يحيى البكاء: قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجاج إن الحسن كان يقول لكم: التقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان، فقال سعيد: ليس في الإسلام تقية، وإنما التقية في أهل الحرب، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، أي: [و] يُخوّفكم الله عقوبته على مُوالاة الكفار وارتكاب المنهي ومخالفة الأمور، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾، قلوبكم من مودّة الكفارة، ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من موالاتهم، قولاً وفعلاً، ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، قال الكلبي: إن تُسرّوا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب، أو تُظهروه بحربِهِ وقتاله، يَعْلَمْهُ اللَّهُ ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به في الدنيا بالأسر والقتل بنصره عليكم وفي الآخرة بالعذاب الشديد، ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ رفع على الاستئناف ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: إذا كان لا يخفَى عليه شيءٌ في السمٰوات ولا في الأرضِ؟ فكيف يخفى عليه مُوالاتكم الكفار وميلكم إليهم بالقلب؟ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٣٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ نصب ﴿يَوْمَ﴾ بنزع حرف الصفة، أي: في يوم، وقيل: بإضمار فعل أي اذكروا واتّقوا يومَ تجدُ كلُّ نفس، ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ لم يبخس منه شيء؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ جعل بعضهم خيراً في موضع النصب، أي تجِدُ محضراً ما عملت من الخير والشرّ، فَتُسرُّ بما عملت من الخير، وجعله بعضهم خيراً مستأنفاً، دليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود رضي الله عنهما: «وما عملتْ من سوء ودّتْ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً»، قوله تعالىٰ: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾، أي: بين النفس ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾، يعني: وبين السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، قال السدي: مكاناً بعيداً، وقال مقاتل: كما بين المشرق والمغرب، والأمد: الأجل، والغاية التي ينتهي إليها، قال الحسن: يَسُر أحدُهم أن لا يلقى عمله أبداً، وقيل: يودّ أنه لم يَعْمله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

الجزء الثالث — سورة آل عمران

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

٥٤

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحبّاؤه.

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وقف النبيّ ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلّقوا عليها بَيْضَ النّعام وجعلوا في آذانها الشُّنُوف وهم يسجدون لها، فقال: «والله يا معشر قريش لقد خالفتم مِلَّةَ أبيكم إبراهيم وإسماعيل»، فقالت له قريش: إنما نعبدها حباً لله ليُقربونا إلى الله زُلْفَى، فقال الله تعالىٰ: قلْ لهم يا محمّد إنْ كنتم تُحبّون اللّهَ وتعبدون الأصنام ليُقرّبوكم إليه [زلفى]، فاتّبِعُوني يُحببكم الله، فأنا رسوله إليكم وحجّته عليكم، [أي:] اتّبعوا شريعتي وسنّتي يُحْببكم الله، حبُّ المؤمنين لله اتّباعهم أمْرَه وإيثار طاعته،

وابتغاء مرضاته؛ وحبُّ الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٣٢) وقيل: لما نزلت هذه الآية قال عبدالله بن أُبي لأصحابه: إن محمّداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نُحبّه كما أحبّت النصارى عيسى ابنَ مريم، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾، [أي]: أعرضوا عن طاعتهما، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، أي: لا يرضى فعلَهم ولا يغفرُ لهم.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سنان أنا فليح أنا هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «كل أُمّتي يدخلون الجنّة إلا من أبى»، قالوا: ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن عبادة أنا يزيد أنا سليم بن حيان وأثنى عليه، أنا سعيد بن ميناء قال: حدثنا أو سمعت جابر بن عبدالله يقول:

جاءت ملائكة إلى النبيّ ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، [فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربُوا له مثلاً]، فقالوا: مثله كمثل رجل بنَى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدارَ وأكلَ من المأدُبة، ومن لم يُجبِ الداعي لم يدخل الدارَ ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا: أوّلوها له يفقهها، فقالوا: فالدار: الجنّة، والداعي: محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمّدٌ ﷺ فرّق بين الناس.

(٣٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني: إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام، وأنتم على غير دين الإسلام. و﴿اصْطَفَىٰ﴾: اختار، افتعل من الصفوة، وهي الخالص من كل شيء، ﴿آدَمَ﴾ أبو البشر، ﴿وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾، قيل: أراد بآلِ إبراهيم وآلِ عمران إبراهيم عليه السلام وعمران أنفسهما؛ كقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، يعني: موسى وهارون، وقال آخرون: آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وكان محمد ﷺ من آل إبراهيم عليه السلام، وأما آل عمران فقد قال مقاتل: هو عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام، والد موسى وهارون، وقال الحسن ووهب: هو عمران بن أشهم بن أمون من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، ومآله: مريم وعيسى، وقيل: عمران بن ماثان، وإنما خُصّ هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل كلّهم من نسلهم، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [أي عالمي زمانهم].

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةً﴾، اشتقاقها من ذرأ بمعنى خلق، وقيل: من الذر لأنه استخرجهم من صلب آدم كالذر، ويسمّى الأولاد والآباء ذرية، فالأبناء ذُرية، لأنه ذرأهم، والآباء ذُرية لأنه ذرأ الأبناء منهم، قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]، أي: آباءهم، ﴿ذُرِّيَّةً﴾ نُصب على معنى: اصطفى ذرية ﴿بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾، أي: بعضها من ولدِ بعض، وقيل: بعضها من بعض في التناصر، وقيل: بعضها على دين بعض، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٣٥) ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾، وهي حنة بنت فاقوذ أم مريم، وعمران: هو ابن ماثان، وليس [هو] بعمران أبي موسى عليه السلام، لأن بينهما ألف وثمانون سنة، [وقيل: كان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ألف سنة، وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة]، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، وقيل: عمران بن أشهم.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، أي: جعلتُ الذي في بطني محرّراً نذراً مني لك، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والنذر: ما يُوجِبُه الإنسان على نفسه ﴿مُحَرَّرًا﴾، أي: عتيقاً خالصاً لله مفرغاً لعبادة الله ولخدمة الكنيسة، لا أشغله بشيء من الدنيا، وكل ما

أُخلص فهو محرر، يقال: حررتُ العبد إذا أعتقتُه وخلّصتُه من الرقّ، قال الكلبي ومحمد بن إسحاق وغيرهما: كان المحرّر إذا حُرّر جعل في الكنيسة يقوم عليها يكنسها ويخدمها ولا يبرح مقيماً عليها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير إن أحب أقام فيه وإن أحب ذهب حيث شاء، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير لم يكن له ذلك، ولم يكن أحد من الأنبياء والعلماء إلا من نسله محرر لبيت المقدس، ولم يكن محرّراً إلا الغلمان ولا تصلح له الجارية، لما يُصيبها من الحيض والأذى، فحررتْ أم مريم ما في بطنها وكانت القصة في ذلك أن زكريا وعمران تزوجا اختين، وكانتْ أشياع بنت قافوذا أم يحيى عند زكريا، وكانت حنة بنت قافوذا أمّ مريم عند عمران، وكان قد أُمسك عن حنة الولدُ حتى أيست وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يُطعم فرخاً فتحركت بذلك نفسُها للولد، فدعتِ اللّهَ أن يهب لها ولداً، وقالت: اللهمّ لك عليّ إنْ رزقتني ولداً أن أتصدّق به على بيت المقدس، فيكون من سَدَنته وخَدَمه، فحملت بمريم فحررت ما في بطنها، ولم تعلم ما هو، فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت؟ أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى لا تصلح لذلك؟ فوقعا جميعاً في همّ من ذلك، فهلك عمران وحنةُ حامل بمريم.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، أي: ولدتها، إذا هي جارية، والهاء في قوله: ﴿وَضَعَتْهَا﴾ راجعة إلى النذير لا إلى [ما في بطنها]، ولذلك أنث، ﴿قَالَتْ﴾ حنة وكانت ترجو أن يكون غلاماً، ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، اعتذاراً إلى الله عزّ وجلّ، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، بجزم التاء إخباراً عن الله تعالى عزّ وجلّ، وهي قراءة العامة وقرأ ابن عامر وأبو بكر ويعقوب ﴿وَضَعَتْ﴾ برفع التاء جعلوها من كلام أم مريم، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، في خدمة الكنيسة والعبّاد الذين فيها لِلِينها وضعْفها وما يعتريها من الحيض والنفاس، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وهي بلغتهم العابدة والخادمة، وكانت مريم من أجمل النساء في وقتها وأفضلهن، ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ أمنعها وأجيرها، ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، والشيطان الطريد اللعين والرجيم المُرمَى بالشهب.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري حدثني سعيد بن المسيّب قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم من مولودٍ إلا يَمَسُّه الشيطانُ حين يُولد، فيستهل الصبي صارخاً من [مسّ] الشيطان، غير مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن أبي الزِّنَاد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدمَ يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يُولد غير عيسى ابن مريم، ذهبَ يطعنُ فطعنَ في الحجاب».

(٣٧) قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: تقبل اللّهُ مريم من حنة، مكان المحرّر، وتقبل بمعنى: قَبِل ورضي، والقَبُول: مصدر قَبِل يَقْبَل قَبُولاً، مثل الولوع والوزوع، ولم يأتِ غير هذه الثلاثة، وقيل: معنى التقبل: التكفّل في التربية والقيام بشأنها، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، معناه: وأنبتها فنبتتْ نباتاً حسناً، وقيل: هذا مصدر على غير اللفظ، وكذلك قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، ومثله شائع؛ كقوله: تكلمت كلاماً، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: سلك بها طريق السُّعداء، وأنبتها نباتاً حسناً، يعني: سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبتُ في اليوم ما ينبت المولود في العام، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، قال أهل الأخبار: أخذت حنةُ مريمَ حين ولدتْها، فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبةُ من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافس فيها الأحبار [أيهم يأخذها]، لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قُربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحقّكم بها، عندي

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

خالتُها، فقالتْ له الأحبار: لا تفعلْ ذلك فإنها لو تركت لأحق الناس بها لتُركت لأمها التي ولدتها، لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جار، قال السدي: هو نهر الأردن، فألقوا أقلامهم في الماء على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها، وقيل: كان على كل قلم اسم واحد منهم، وقيل: كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم في الماء فارتزّ قلم زكريا، فارتفع فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت في النهر، قاله محمد بن إسحاق وجماعة، وقيل: جرى قلم زكريا مصعداً إلى أعلى الماء وجرت أقلامهم بجري الماء، قال السدي وجماعة: بل ثبت قلم زكريا وقام فوق الماء كأنه في طين، وجرت أقلامهم مع جرية الماء [فذهب بها الماء]، فسهمَهم وقرعَهم زكريا، وكان رأسَ الأحبار ونبيّهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، قرأ حمزة وعاصم والكسائي «كفّلها» بتشديد الفاء، فيكون زكريا في محل النصب أي: ضمنها الله وزكريا وضمها إليه بالقرعة، وقرأ الآخرون بالتخفيف فيكون زكريا في محل الرفع، أي: ضمّها زكريا إلى نفسه وقام بأمرها، وهو زكريا بن آذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿زَكَرِيَّا﴾ مقصوراً، والآخرون ممدوداً، فلما ضمّ زكريا مريمَ إلى نفسه بنَى لها بيتاً واسترضع لها [مرضعه]، وقال محمد بن إسحاق: ضمّها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبتْ وبلغت مبلغ النساء، بنَى لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطها لا يرقى إليها إلا بالسلّم مثل باب الكعبة لا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودُهنها كل يوم، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، [وأراد بالمحراب] الغرفة [التي بناها]، والمحراب أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، ويقال للمسجد أيضاً: محراب، وقال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يُرتقى [عليه بدرج]، قال الربيع بن أنس: كان زكريا إذا خرج يُغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل عليها غرفتها، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، أي: فاكهة في غيرِ حينها [فيرى] فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، قال أبو عُبيدة معناه: من أين لك هذا، وأنكر بعضهم عليه وقال: معناه من أيِّ جهة لك هذا لأن ﴿أَنَّىٰ﴾ للسؤال عن الجهة و «أين» للسؤال عن المكان، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: من قطف الجنّة، وقال الحسن: إن مريم من حين وُلِدَتْ لم تَلْقَم ثدياً قط بل كان يأتيها رزقها من الجنّة، فيقول لها زكريا ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، تكلمتْ وهي صغيرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال محمد بن إسحاق: ثم أصابت بني إسرائيل أزمة، وهي على ذلك من حالها حتى ضعُف زكريا عن حملها، فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل تعلمون والله لقد كبرتْ سنّي وضعفت عن حمل مريم بنت عمران، فأيّكم يكفلها بعدي؟ فقالوا: والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بُدّاً فتقارعوا عليها بالأقلام، فخرج السهم على رجل نجار من بني إسرائيل، يقال له: يوسف بن يعقوب، وكان ابن عم مريم، فحملها فعرفت مريم في وجهه شدة مؤنة ذلك عليه، فقالت له: يا يوسف أحسنْ بالله الظن

فإن الله سيرزقنا، فجعل يوسف يُرزق بمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها في الكنيسة أنماه الله فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلاً من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف، فيقول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾؟ ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾، قال أهل الأخبار: فلما رأى ذلك زكريا قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير حينها من غير سببٍ لقادر على أن يصلح زوجتي ويهب لي ولداً في غير حينه على الكبر، فطمع في الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا، وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد.

﴿٣٨﴾ قال الله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: عند ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾، فدخل المحراب وغلّق الأبواب وناجى ربه، ﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: يا ربِّ، ﴿هَبۡ لِي﴾ أعطني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك، ﴿ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾، أي: ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضياً، والذرية تكون واحداً وجمعاً ذكراً وأنثى، وهو هٰهنا واحد بدليل قوله عزّ وجلّ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥]، وإنما قال: طيبة لتأنيث لفظ الذرية، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، أي: سامعه، وقيل: مُجيبه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝﴾ [يس: ٢٥]، أي: فأجيبوني.

﴿٣٩﴾ ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قرأ حمزة والكسائي «فناداه» بالياء، والآخرون بالتاء [فمن قرأ بالتاء] فالتأنيث لفظ الملائكة، وللجمع مع أن الذكور إذا تقدم فعلهم وهم جماعة كان التأنيث فيهم أحسن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ [الحجرات: ١٤]، وعن إبراهيم قال: كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: يذكر الملائكة في القرآن، قال أبو عبيدة: وإنما نرى عبدالله اختار ذلك خلافاً للمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله تعالىٰ، وروى الشعبي: أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا اختلفتم في التاء والياء فاجعلوها ياء، وذكّروا القرآن، وأراد بالملائكة هٰهنا جبريل عليه السلام وحده؛ كقوله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [النحل: ٢]، يعني: جبريل بالروح والوحي، ويجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، كقولهم: سمعت هذا الخبر من الناس، وإنما سمع من واحد، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، يعني: نعيم بن مسعود، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾، يعني: أبا سفيان بن حرب، وقال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيساً يجوز الإخبار عنه بالجمع، لاجتماع أصحابه معه، وكان جبريل عليه السلام رئيس الملائكة، وقلّ ما يبعث إلا ومعه جمع، فجرى على ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾، أي: في المسجد، وذلك أن زكريا كان الحَبر الكبير الذي يُقرّب القربان فيفتح باب المذبح، فلا يدخلون حتى يأذن لهم بالدخول، فبينما هو قائم يصلي في المحراب، يعني: في المسجد عند المذبح يصلّي والناس ينتظرون أن يأذن لهم في الدخول، فإذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض تلمع ففزع منه، فناداه وهو جبريل عليه السلام: يا زكريا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، [قرأ ابن عامر وحمزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكسر الألف على إضمار القول، تقديره: فنادته الملائكة فقالت: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، وقرأ الآخرون بالفتح بإيقاع النداء عليه كأنه قال: فنادته الملائكة بأن الله يبشرك]، قرأ حمزة ﴿يَبۡشُرُكَ﴾ وبابه بالتخفيف كل القرآن إلا قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، فإنهم اتفقوا على تشديدها، ووافقه الكسائي هٰهنا في الموضعين وفي «سبحان» و «الكهف» و «عسق»، ووافق ابن كثير وأبو عمرو في «عسق»، والباقون بالتشديد، فمن قرأ بالتشديد فهو من بشر يبشر تبشيراً، وهو أعربُ اللغات وأفصحها، دليل التشديد قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، و﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢]، قالوا: ﴿بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥]، وغيرها من الآيات، ومن خفّف فهو من بَشَر يبشُر وهي لغةُ تُهامة، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿بِيَحۡيَىٰ﴾ هو اسم لا يجرّ لمعرفته، وللزائد في أوله، مثل: يزيد ويعمر، وجمعه يحيون مثل موسون وعيسون، واختلفوا في أنه لِم سُمي يحيى، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن الله أحيا به عقر أمه، [و] قال قتادة: لأن الله تعالىٰ أحيا قلبه بالإيمان، وقيل: سُمّي يحيى لأنه استشهد، والشهداء

أحياء، وقيل: معناه يموت، وقيل: لأن الله تعالىٰ أحياه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية، ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعني: عيسى عليه السلام، سُمّي عيسى كلمة الله لأن الله تعالىٰ قال له: كن من غير أب فكان، فوقع عليه اسم الكلمة [لأنه بها كان]، وقيل: سمّي كلمة لأنه يُهتدى به كما يُهتدى بكلام الله تعالىٰ، وقيل: هي بشارة الله تعالىٰ لمريم بعيسى عليه السلام، بكلامه على لسان جبريل عليه السلام، وقيل: لأن الله تعالىٰ أخبر الأنبياء بكلامه في كتبه أنه يخلق نبياً بلا أب، فسمّاه كلمة لحصوله بذلك الوعد، وكان يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى عليه السلام وصدّقه، وكان يحيى عليه السلام أكبر من عيسى بستّة أشهر وكانا ابني خالة، ثم قُتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام [إلى السماء]، وقال أبو عبيدة ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: بكتاب من الله وآياته، تقول العرب: أنشدني كلمةَ فلان، أي: قصيدته.

قوله تعالىٰ: ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو فعيل من ساد يسود، وهو الرئيس الذي يتبع وينتهى إلى قوله، قال المفضل: أراد سيداً في الدين، قال الضحاك: السيد: الحسنُ الخلق، قال سعيد بن جبير: السيد الذي يطيع ربه عزّ وجلّ، وقال سعيد بن المسيّب: السيد الفقيه العالم، وقال قتادة: سيد في العلم والعبادة والورع، وقيل: الحليم الذي لا يغضبه شيء، قال مجاهد: الكريم على الله تعالىٰ، وقيل: السيد التقي [قاله الضحاك]، و قال سفيان والثوري: الذي لا يحسد، وقيل: الذي يفوق [أقرانه و] قومه في جميع خصال الخير، وقيل: هو القانع بما قسم الله له، وقيل: هو السخي.

قال رسول الله ﷺ: «من سيّدكم يا بني سلمة؟» قالوا: جدّ بن قيس على أنا نبخّله، قال: «وأي داء أدوأ من البخل، لكن سيدكم عمرو بن الجموح».

قوله تعالىٰ: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والحصُور: أصله من الحصر وهو الحبس، والحصور في قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة رضي الله عنهم، وعطاء والحسن: الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن، وهو على هذا القول، فعول بمعنى فاعل، يعني: أنه يحصر نفسه عن الشهوات، وقيل هو الفقير الذي لا مال له، فيكون الحصور بمعنى المحصور، يعني: الممنوع من النساء، قال سعيد بن المسيّب: كان له مثل هدبة الثوب، وقد تزوج مع ذلك ليكون أغضّ لبصره، وفيه قول آخر: أن الحصور [هو] الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، واختار قوم هذا القول لوجهين، أحدهما: لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء، والثاني: أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء.

(٤٠) قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: يا سيدي، قال لجبريل عليه السلام، هذا قول الكلبي وجماعة: وقيل: قاله لله عزّ وجلّ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾، يعني: أين يكون، ﴿لِي غُلَٰمٌ﴾، أي: ابن ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، هذا من المقلوب، أي: وقد بلغت الكبر وشخت، كما تقول: بلغني الجهد، أي: أنا في الجهد، وقيل: معناه: وقد نالني الكِبَرُ وأدركني وأضعفني، قال الكلبي: كان زكريا يوم بُشّر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة، وقيل: ابن تسع وتسعين سنة، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، أي: عقيم لا تلد، يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر، وقد عقُر بضم القاف يعقر عقراً وعقارة، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، فإن قيل: لِمَ قال: زكريا بعدما وعده الله تعالىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، أكان شاكّاً في وعد الله وفي قدرته، قيل: إنّ زكريا لمّا سمع [نداء] الملائكة جاءه الشيطان فقال: يا زكريا إن الصوت الذي [سمعت] ليس من الله إنما هو من الشيطان، ولو كان من الله لأوحاه إليك كما يُوحى إليك في سائر الأمور، فقال ذلك دفعاً للوسوسة، قاله عكرمة والسدي، وجواب آخر: وهو أنه لم يشك في وعد الله إنما شكّ في كيفيّته، أي: كيف ذلك أتجعلني وامرأتي شابين، أم ترزقنا ولداً على الكِبَر منّا أم ترزقني من امرأة أُخرى؟ قاله مستفهماً لا شاكّاً، هذا قول الحسن.

(٤١) قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل

لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾، أي: علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكراً لك، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾، أي: تكفّ عن الكلام، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، وتقبل بكليتك على عبادتي لا أنه يُحبس لسانه عن الكلام، ولكنه نُهي عن الكلام، وهو صحيح سَوِي كما قال في سورة مريم: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠]، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، فأمره بالذكر ونهاه عن كلام الناس، وقال أكثر المفسّرين: عُقل لسانه عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام، قال قتادة: أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له لسؤالِهِ الآية، بعد مُشافهة الملائكة إيّاه، فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام وقوله: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾، أي: إشارةً والإشارة قد تكون باللسان وبالعين وباليد، وكانت إشارته بالأصبع المسبّحة، قال الفرّاء: قد يكون الرمز باللسان من غير أن يُبين، وهو الصوت الخفي شبه الهمس، وقال عطاء: أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلّموا إلاّ رمزاً، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، قيل: المراد بالتسبيح: الصلاة، والعشي ما بين زوال الشمس إلى [غروبها]، ومنه سمّيت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي والإبكار، ما بين صلاة الفجر إلى الضحى.

(٤٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يعني: جبريل، ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾: اختارك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، قيل: من مسيس الرجال، وقيل: من الحيض والنفاس، قال السدي: كانت مريم لا تحيض، وقيل: من الذنوب، ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قيل: على [نساء] عالمي زمانها، وقيل: على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وقيل: بالتحرير في المسجد ولم [يحرر فيه أحد من النساء إلاّ هي].

أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن [أبي] رجاء، أخبرنا النضر عن هشام أخبرني أبي قال: سمعت عبدالله بن جعفر قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول:

سمعت النبيّ ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة رضي الله عنهما».

ورواه وكيع وأبو معاوية عن هشام بن عروة، وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم أنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي موسى الأشعري قال:

قال رسول الله ﷺ: «كَمَلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمٰن البزار، أخبرنا محمد بن زكريا العُذافري أخبرنا إسحاق الديري أخبرنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس رضي الله عنهما:

أن النبيّ ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون».

(٤٣) قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾، قالت لها الملائكة شِفاهاً، أي: أطيعي ربك، قال مجاهد: أطيلي القيام في الصلاة لربك، والقنوت: الطاعة، وقيل: القنوت طول القيام، قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى [تورمت] قدمَاها وسالت دماً وقيحاً ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾، قيل: إنما قدّم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم، وقيل: بل كان الركوع قبل السجود في الشرائع كلها، وليس الواو للترتيب بل للجمع، يجوز أن يقول الرجل: رأيت زيداً وعمراً وإن كان قد رأى عمراً قبل زيد، ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقل مع الراكعات ليكون أعمّ وأشمل، فإنه يدخل فيه الرجال والنساء، وقيل: معناه مع المصلّين في الجماعة.

(٤٤) قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾، يقول لمحمد ﷺ: ذلك الذي ذكرتُ من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى، [على نبينا وعليهم السلام، ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ

الجزء الثالث — سورة آل عمران

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

٥٦

الغيب﴾، أي]: من أخبار الغيب ﴿نوحيه إليك﴾ ردّ الكناية إلى ذلك فلذلك ذكره، ﴿وما كنت﴾ يا محمد، ﴿لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾، سهامهم في الماء للاقتراع، ﴿أيهم يكفل مريم﴾ يحضنها ويربيها، ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، في كفالتها.

(٤٥) قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾، إنما قال اسمه، وردّ الكناية إلى عيسى، واختلفوا في أنه لِمَ سُمّي مسيحاً، فمنهم من قال: هو فعيل بمعنى المفعول يعني: أنه مُسح من الأقذار وطُهّر من الذنوب، وقيل: لأنه مسح بالبركة، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل: مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل، وقيل: لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له، وسمّي الدجال مسيحاً [لأنه ممسوح إحدى العينين]، وقال بعضهم: هو فعيل بمعنى الفاعل، مثل عليم وعالم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمّي [عيسى عليه السلام] مسيحاً لأنه ما مسح ذا عاهةٍ إلا برأ، وقيل: سُمّي بذلك لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان، وعلى هذا القول تكون الميم فيه زائدة، وقال إبراهيم النخعي: المسيح الصديق، ويكون المسيح بمعنى: الكذاب، وبه سُمي الدجال. والحرف من الأضداد، ﴿وجيهاً﴾، أي: شريفاً رفيعاً ذا جاهٍ وقدر، ﴿في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، عند الله.

(٤٦) ﴿ويكلم الناس في المهد﴾ صغيراً قبل أوانِ الكلام، كما ذكره في سورة مريم: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ [مريم: ٣٠] الآية، حُكي عن مجاهد قال: قالت مريم كنت إذا خلوتُ أنا وعيسى حدثني وحدثته، فإذا شغلني عنه إنسان سبّح في بطني وأنا أسمع قوله، ﴿وكهلاً﴾، قال مقاتل: يعني إذا [اجتمعت قوته] قبل أن يرفع إلى السماء، وقال الحسين بن الفضل: وكهلاً: بعد نزوله من السماء، وقيل: أخبرها [الله] أنه يبقى حتى يكتهل وكلامه بعد الكهولة إخباره عن الأشياء المعجزة، وقيل: وكهلاً: نبياً بشّرها بنبوّة عيسى عليه السلام، وكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة، وقال مجاهد: وكهلاً أي: حليماً، والعرب تمدح الكهولة، لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة، ﴿ومن الصالحين﴾، أي: هو من العباد الصالحين.

(٤٧) ﴿قالت رب﴾ يا سيدي، تقوله لجبريل، وقيل: تقول لله عزّ وجلّ، ﴿أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ ولم يصبني رجل، قالت ذلك تعجّباً إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد لا أب له، ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً﴾، أراد كون الشيء، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾، كما يُريد.

(٤٨) قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم ويعقوب بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾، وقيل: ردّه على قوله: ﴿أن الله يبشرك﴾ ﴿ويعلمه﴾، وقرأ الآخرون بالنون على التعظيم، كقوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ [آل عمران: ٤٤]، قوله: ﴿الكتاب﴾، أي: الكتابة والخط، ﴿والحكمة﴾: العلم والفقه، ﴿والتوراة والإنجيل﴾ علّمه الله التوراة والإنجيل.

(٤٩) ﴿ورسولاً﴾، أي: ونجعله رسولاً ﴿إلى بني إسرائيل﴾، قيل: كان رسولاً في حال الصبا، وقيل: إنما كان رسولاً بعد البلوغ، وكان أوّل أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام، فلما بعث قال: ﴿أني﴾، قال الكسائي:

إنما فتح لأنه أوقع الرسالة عليه، وقيل: معناه بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾، علامة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، تصدق قولي، وإنما قال بآية وقد أتي بآيات لأن الكل [من ذلك الآيات] دلّ على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة، فلما قال ذلك عيسى عليه السلام لبني إسرائيل قالوا: وما هي؟ قال: ﴿أَنِّي﴾، قرأ نافع بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح على معنى بأني ﴿أَخْلُقُ﴾، أي: أصوّر وأقدر، ﴿لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، قرأ أبو جعفر «كهيئة الطير»، هٰهنا وفي المائدة، والهيئة الصورة المهيّأة من قولهم: هيأتُ الشيء إذا قدرتُه وأصلحتُه، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾، أي: في الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قراءة الأكثرين بالجمع، [لأنه خلق طيراً كثيراً]، وقرأ أهل المدينة ويعقوب «فيكون طائراً» على الواحد هٰهنا وفي سورة المائدة، ذهبوا إلى نوع واحد من الطير، لأنه لم يخلق غير الخفاش، وإنما خصّ الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً لأن لها ثدياً وأسناناً، وهي تحيض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميّز فعل الخلق من فعل الخالق [تعالىٰ]، وليعلم أن الكمال لله عزّ وجلّ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾، أي: أشفيهما وأصححهما، واختلفوا في الأكمه قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: هو الذي ولد أعمى، وقال الحسن والسدي: هو الأعمى، وقال عكرمة: هو الأعمش، وقال مجاهد: هو يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ هو الذي به وضح، وإنما خصّ هذين لأنهما داءان عياءان وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، [فأراهم الله المعجزة] من جنس ذلك، قال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق مشى إليه عيسى، وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس: قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح، فأمّا عازر فكان صديقاً له فأرسلت أخته إلى عيسى عليه السلام أنّ أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره [فدعا الله تعالىٰ فقام عازرُ وَوَدَكه يقطر فخرج من قبره] وبقي وولد له، وأما ابن العجوز فإنه مُرّ به ميتاً على عيسى عليه السلام على سرير يُحمل، فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل على أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له، وأمّا ابنة العاشر فكان والدها رجلاً يأخذ العشور، ماتت له بنت بالأمس فدعا الله عزّ وجلّ [بإسمه الأعظم] فأحياها الله تعالىٰ، وبقيت بعد ذلك زمناً وولد لها، وأما سام بن نوح عليه السلام، فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله الأعظم فخرج من قبره، وقد شاب نصف رأسه خوفاً من قيام الساعة، [وقيل: خوفاً من خروج روحه ثانياً فيحصل له ما حصل أولاً من سكرات الموت]، ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان، فقال: قد قامت القيامة؟ قال [عيسى]: لا ولكن دعوتُك باسم الله الأعظم، ثم قال له: مُتْ، قال: بشرط أن يُعيذني الله من سكرات الموت، فدعا الله ففعل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم، ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾، مما لم أعاينه، ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾، ترفعونه، ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾، حتى تأكلوه، وقيل: كان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكل اليوم وبما ادّخره للعشاء.

وقال السدي: كان عيسى عليه السلام في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم، ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا، فينطلق الصبي إلى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى عليه السلام، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا ليسوا هٰهنا، فقال: فما في هذا البيت قالوا خنازير، قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير، ففشا ذلك في بني إسرائيل فهمّت به بنو إسرائيل، فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة عنهم إلى أهل مصر، وقال قتادة: إنما كان هذا

في المائدة، وكانت خوانا ينزل عليهم أينما كانوا كالمنّ والسلوى، وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبئوا للغد فخانوا وخبؤوا، فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وبما ادّخروا منها، فمسخهم الله خنازير. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت، ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على قوله ﴿وَرَسُولًا﴾، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، من اللحوم والشحوم، وقال أبو عبيدة: أراد بالبعض الكل، يعني: كل الذي حُرم عليكم، وقد ذُكر البعضُ ويُراد به الكل؛ كقول لبيد:

تَرّاكُ أمكنة إذا لم أرضها
أو يَرتبط بعضَ النفوس حمامها

يعني: كل النفوس.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: ما ذكر من الآيات، وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(٥١) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

(٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾، أي: وجد، قاله الفراء، وقال أبو عبيدة: عرف، وقال مقاتل: رأى، ﴿مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وأرادوا قتله استنصر عليهم، ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، قال السدي: كان سبب ذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل وأمره بالدعوة نفتْه بنو إسرائيل وأخرجوه، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض، فنزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك المدينة جبار متعد فجاء ذلك الرجل يوماً مغتماً حزيناً فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه كئيباً، قالت: لا تسأليني، قالت: أخبريني لعل الله يفرج كربتَه، قالت: إن لنا ملكاً يجعل على كل رجل منا يوماً أن يطعمه وجنوده ويسقيهم الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة، قالت: فقولي له لا تهتم فإني آمر ابني فيدعو له فيكفى ذلك، فقالت مريم لعيسى عليه السلام في ذلك، فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شرٌ، قالت: فلا تبال فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا، قال عيسى عليه السلام: فقولي له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء، ثم أعلمني، ففعل ذلك، فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام فتحوّل ماء القدور مرقاً ولحماً وماء الخوابي خمراً لم يرَ الناسُ مثله قط، فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال: من أين هذا الخمر؟ قال: من أرض كذا، قال الملك فإن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه، قال: هي من أرض أخرى، فلما خُلِّط على الملك واشتدّ عليه، قال: فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إيّاه، وأنه دعا الله فجعل الماء خمراً، وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام، وكان أحب الخلق إليه، فقال: إن رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمراً ليجاء به إليّ حتى يُحيي ابني، فدعا عيسى فكلّمه في ذلك، فقال عيسى: لا تفعل فإنه إن عاش وقع شر، قال الملك: لا أبالي أليس أراه حياً؟ فقال عيسى: إن أحييته تتركوني وأمي نذهب حيث نشاء؟ قال: نعم، فدعا الله فعاش الغلامُ فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادرُوا إلى السلاح، وقالوا: أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه، فيأكلنا كما أكل أبوه، فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه فمرّ بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: نصطاد السمك، قال: أفلا تمشون حتى نصطاد الناس، قالوا: ومن أنت؟ قال: عيسى ابن مريم عبدالله ورسوله، ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، فآمنوا به وانطلقوا معه.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، قال السدي وابن جريج: مع الله تعالى، تقول العرب: الذّودُ إلى الذّودِ إبل، أي: مع الذود؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، أي: مع أموالكم، وقال الحسن وأبو عبيدة: ﴿إِلَى﴾، بمعنى في، أي: من أعواني في الله، أي: في ذات الله وسبيله، وقيل: ﴿إِلَى﴾ في موضعه معناه: من يضم نُصرته إلى نُصرة الله لي، واختلفوا في الحواريين، قال مجاهد والسدي: كانوا صيادين يصطادون السمك، سُمّوا حواريين لبياض ثيابهم، وقيل: كانوا ملاحين، وقال الحسن: كانوا قصّارين، سُموا بذلك لأنهم كانوا يُحوِّرون الثياب، أي:

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

يبيّضونها، وقال عطاء: أسلمت مريم عيسى عليه السلام إلى أعمال شتى، فكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصّارين وصباغين، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلّم منه فاجتمع عنده ثياب [كثيرة، لتصبغ على ألوان شتى]، وعرض له سفر فقال لعيسى: إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج في سفرٍ لا أرجع إلى عشرة أيام، وهذه ثياب مختلفة الألوان وقد علّمت كل واحد بخيط على اللون الذي يُصبغ به، فيجب أن تكون فارغاً منها وقت قدومي، وخرج فطبخ عيسى جُبّاً واحداً على لون واحد وأدخل جميع الثياب [فيه]، وقال: كوني بإذن الله على ما أُريد منك، فقدم الحواري والثياب كلها في الجب، فقال: ما فعلت؟ فقال: فرغت [منها]، قال: أين هي؟ قال: في الجب، قال: كلها؟ قال: نعم، قال: لقد أفسدت تلك الثياب، قال: قم فانظر، فأخرج عيسى ثوباً أحمر وثوباً أصفر وثوباً أخضر إلى أن أخرجها على الألوان التي أرادها [ذلك الحواري]، فجعل الحواري يتعجّب فعلم أن ذلك من الله [تعالى]، فقال للناس: تعالوا فانظروا، فآمن به هو وأصحابه، فهم الحواريون، وقال الضحاك: سُمّوا حواريين لصفاء قلوبهم، وقال ابن المبارك: سُمّوا لِما عليهم من أثر العبادة ونُورها، وأصل الحور عند العرب: شدّة البياض، [يقال: رجل أحور وامرأة حوراء، أي: شديدة بياض العين]، وقال الكلبي وعكرمة: الحواريون هم الأصفياء، وهم كانوا أصفياء عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، قال رَوحُ بن القاسم: سألت قتادة عن الحواريين، قال: هم الذين تصلح لهم الخلافة، وعنه أيضاً أنه قال: الحواريون هم الوزراء، وقال الحسن: الحواريون الأنصار، والحواري الناصر، والحواري في كلام العرب خاصة: الرجل الذي يستعين به فيما ينوبه.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن المنكدر قال: سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، يقول:

ندب رسول الله ﷺ الناسَ يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبيّ ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريّ الزبير».

قال سفيان: الحواري: الناصر.

وقال معمر: قال قتادة: إن الحواريين كلهم من قريش، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وجعفر وأبو عُبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبدالرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم أجمعين، ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أعوان دين الله ورسوله، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾، يا عيسى، ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، من كتابك، ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، عيسى، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق، وقال عطاء: مع النبيّين لأن كل نبيّ شاهد أمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مع محمد ﷺ وأمّته، لأنهم يشهدون للرسل بالبلاغ.

﴿٥٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾، يعني: كفار بني إسرائيل الذي أحسّ عيسى منهم الكفر، دبروا في قتل عيسى عليه السلام، [وذلك أن عيسى] بعد إخراج قومه [إياه] وأمّه [من بينهم] عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة فهمّوا بقتله

وتواطؤوا على الفتك به فذلك مكرهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة، ومن الله: استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم، كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وقال الزجاج: مكر الله عزّ وجلّ مجازاته على مكرهم، فسُمّي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية وهو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام، حتى قُتل، قال الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن عيسى استقبل رهطاً من اليهود فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، وقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى عليه السلام منهم دعا عليهم، ولعنهم فمسخهم الله خنازير، فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وأميرهم، فزع لذلك وخاف دعوته، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام، [فثاروا إليه] ليقتلوه فبعث الله جبريل فأدخله في خوخة في سقفها روزنة فرفعه إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر يهوذا رأسُ اليهود رجلاً من أصحابه يقال له: ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل غرفته لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يُقاتله فيها فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام، فلما خرج [عليهم] ظنوا أنه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه، قال وهب: طرقوا عيسى في بعض الليل ونصبوا [له] خشبةً ليصلبوه [عليها]، فأظلمت الأرض فأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه، فجمع عيسى الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا وتفرّقوا، وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلّهم عليه، ولمّا دخل البيت ألقى الله عليه شبه عيسى، فرفع عيسى، وأخذ الذي دلّهم عليه، فقال: أنا الذي دللتكم عليه، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى، فلما صُلب شبه عيسى جاءت مريم وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما: علام تبكيان إن الله قد رفعني ولم يصبني إلا خيرٌ، وإن هذا شيء شبّه لهم، فلما كان بعد سبعة أيام [من فعلهم]، قال الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام: اهبط على مريم المجدلانية - اسم موضع في جبلها - فإنه لم يبك [عليك] أحد بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها، ثم ليجتمع لك الحواريون فبثّهم في الأرض دعاة إلى الله عزّ وجلّ فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نوراً فجُمعت له الحواريون فبثّهم في الأرض دعاة ثمّ رفعه الله عزّ وجلّ إليه وتلك الليلة هي التي تُدخن فيها النصارى، فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝﴾، وقال السدي: إن اليهود حبسوا عيسى في بيت وعشرة من الحواريين، فدخل عليهم رجل منهم ليقتله فألقى الله عليه شبَهَه فقتل وصلب، وقال قتادة: ذكر لنا أن نبيّ الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيّكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول، فقال رجل من القوم: أنا يا نبيّ الله، فقُتل ذلك الرجل، ومنع الله عيسى عليه السلام، ورفعه إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وطار مع الملائكة [الكرام]، فهو معهم حول العرش، وصار إنسياً ملكياً سمائياً أرضياً، قال أهل التواريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، فأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فكانت نبوّته ثلاث سنين، وعاشت أمّه مريم بعد رفعه ست سنين، [فتوفيت مريم عليها السلام وهي بنت اثنين وخمسين سنة].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ (٥٥)، اختلفوا في معنى التوفي هُهنا، قال الحسن

والكلبي وابن جريج: إني قابضك ورافعك من الدنيا إليّ من غير موت، يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧]، أي: قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما تنصّروا بعد رفعه [إلى السماء] لا بعد موته، فعلى هذا للتوفي تأويلان أحدهما: إني رافعك إليّ وافياً لم ينالوا منك شيئاً، من قولهم: توفيت وكذا واستوفيته إذا أخذته تاماً، والآخر: إني متسلمك، من قولهم توفيت منه كذا، أي: تسلّمته، وقال الربيع بن أنس: المراد بالتوفي النوم، وكل ذي عين نائم وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائماً إلى السماء، معناه إني منومك ورافعك إليّ؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، أي: يُنيمكم بالليل، وقال بعضهم: المراد بالتوفي الموت، وروى عن علي بن [أبي] طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ معناه: إني مميتك يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، فعلى هذا له تأويلان أحدهما ما قاله وهب [بن منبه]: توفّى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه الله إليه، وقال محمد بن إسحاق: إن النصارى يزعمون أن الله تعالىٰ توفاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه ورفعه إليه، والآخر: ما قاله الضحاك وجماعة: أنّ في هذه الآية تقديماً وتأخيراً معناه: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبدالرحمٰن بن أبي شريح أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة رضي الله عنه:

عن النبيّ ﷺ [أنه] قال: «والذي نفس محمّد بيده ليُوشِكَنّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَماً عادلاً، يكسرُ الصليبَ ويقتلُ الخنزير، ويضع الجزيةَ، فيفيض المال حتى لا يقبله أحد».

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «يهلك [الله] في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلّي عليه المسلمون».

وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد نزول عيسى في القرآن؟ قال: نعم، قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ وهو لم يكتهل في الدنيا وإنما معناه «وكهلاً» بعد نزوله من السماء؟ قوله تعالىٰ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: مُخرجك من بينهم ومنجيك منهم، ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي: هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه [في التوحيد من أمة محمد ﷺ]، فهم فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزّة والمنعة والحجّة، وقال الضحاك: يعني الحواريين فوق الذين كفروا، وقيل هم الروم، وقيل: أراد بهم النصارى، أي: فهم فوق اليهود إلى يوم القيامة، فإن اليهود قد ذهب ملكهم، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة، فعلى هذا يكون الاتباع [في الآية] بمعنى الادّعاء والمحبة، لا اتباع الدين، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، في الآخرة، ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، من أمر الدين وأمر عيسى.

﴿٥٦﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾، بالقتل والسبي والجزية والذلّة، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، أي: في الآخرة بالنار، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، قرأ الحسن وحفص بالياء، والباقون بالنون، أي: نوفي أجور أعمالهم، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يرحم الكافرين ولا يثني عليهم بالجميل.

﴿٥٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: هذا الذي ذكرت من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، يعني: نخبرك به وبتلاوة جبريل عليك، ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، يعني: القرآن [و] الذكر ذي الحكمة، وقال مقاتل: الذكر الحكيم، أي: المحكم الممنوع من الباطل، وقيل: الذكر الحكيم: هو اللوح المحفوظ، وهو معلق بالعرش من درة بيضاء، وقيل: من الآيات، أي: من العلامات الدالّة على نبوتك لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارىء

كتاب [الله] أو من يُوحي إليه وأنت أُمّي لا تقرأ.

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الآية

نزلت في وفد نجران، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا، قال: «وما أقول؟» قالوا: تقول إنه عبدالله، قال: «أجل هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾، في كونه خلقه من غير أب وأم، ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ﴾، يعني: لعيس عليه السَّلام، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، يعني: فكان، فإن قيل: ما معنى قوله ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ خلقاً، ولا تكوين بعد الخلق، قيل: معناه خلقه ثم أخبركم أني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، وهو مثل قول الرجل: أعطيتُك اليوم درهماً ثم أعطيتك أمس درهماً، أي: ثم أخبرك أني أعطيتُك أمس درهماً، وفيما سبق من التمثيل دليل على جواز القياس، لأن القياس: هو ردّ فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد ردّ الله تعالىٰ خلق عيسى إلى آدم عليهم السلام بنوع شبه.

(٦٠) قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، [أي: هو الحق]، وقيل: جاءك الحق من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، أي: الشاكّين، الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد أمّته.

(٦١) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾، أي: جادلك في أمر عيسى أو في الحق، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، بأنّ عيسى عبدالله ورسوله، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾، وأصله تعاليوا تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضمة على الياء فحُذفت، قال الفراء: بمعنى تعال كأنه يقول: ارتفع، ﴿نَدْعُ﴾، جُزم على جواب الأمر، وعلامة الجزم سقوط الواو، ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾، قيل: أبناءنا أراد الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة وأنفسَنا عنى نفسَه وعلياً رضي الله عنه، والعرب تسمي ابن عم الرجل نفسه؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، يُريد إخوانكم، وقيل: هو على العموم لجماعة أهل الدين، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي نتضرع في الدعاء، وقال الكلبي: نجتهد ونبالغ في الدعاء، وقال الكسائي وأبو عبيدة: نلتعن، والابتهال: الالتعان، يقال عليه بِهلة الله، أي: لعنته، ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، منّا ومنكم في أمر عيسى.

فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غداً فخلا بعضهم ببعض فقالوا: للعاقب وكان ذا رأيهم، يا عبدالمسيح ما ترى؟ قال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل والله ما لاعن قوم نبيّاً قط فبقي كبيرُهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك لتهلَكنّ [عن آخركم]، فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادِعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا رسول الله ﷺ محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول لهم: «إذا أنا دعوت فأمّنوا»، فقال أُسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض منكم نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أنْ لا نلاعنك وأن نتركك على دينكَ ونَثبتُ على دينِنا، فقال رسول الله ﷺ: «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم»، فأبوا فقال: «فإني أنابذكم [بالحرب]»، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكنّا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا، ولا تردنا عن ديننا [على] أن نؤدي إليك كل عام ألفي حُلّة ألفاً في صفر وألفاً في رجب، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال: «والذي نفسي بيده إن العذاب قدْ تَدلّى على أهل نجران، ولو تلاعنُوا لمُسخوا قردةً وخنازيرَ ولاضْطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر، ولما حالَ الحولُ على النصارى كلهم حتى هلكوا».

(٦٢) قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾: النبأ الحق، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، [و﴿مِنْ﴾ صلة تقديره:

الجزء الثالث — سورة آل عمران

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

٥٨

وما إلـه إلا الله]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية،

قال المفسّرون: قدم وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا في إبراهيم عليه السلام فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه، وأولى الناس به، وزعمت اليهود: أنه كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «كِلا الفريقين بريءٌ من إبراهيمَ ودينهِ، بل كان [إبراهيم] حنيفاً مسلماً وأنا على دينه وأولى الناس به، فاتبعوا دينه دين الإسلام»، [فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتّخذت النصارى عيسى ربّاً؟] وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾.

والعربُ تُسمي كلَّ قِصةٍ لها شرح ﴿كَلِمَةٍ﴾ ومنه سمّيت القصيدة كلمة ﴿سَوَاءٍ﴾ عدل بيننا وبينكم مستوية أي أمر مُستَوٍ، يقال دعا فلان إلى السواء، أي إلى النَّصفَة، وسواء كل شيء وسطه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، وإنما قيل: للنصف سواء لأن أعدل الأمور وأفضلها أوسطها، سواء نعت لكلمة إلا أنه مصدر، والمصادر لاتثنى ولا تجمع ولا تؤنث، فإذا فُتحت السين مددت، وإذ كُسرت أو ضُمت قُصرت؛ كقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، ثم فسر الكلمة فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ومحل ﴿أَلَّا﴾ رفع على إضمار هي، وقال الزجاج: رفع بالابتداء، وقيل: محلّه نصب بنزع حرف الصلة، معناه بأن لا نعبد إلا الله، وقيل: محلّه خفض بدلاً من الكلمة؛ أي: تعالوا إلى أنْ لا نعبدالله، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، كما فعلت اليهود والنصارى، قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال عكرمة: هو سجود بعضهم لبعض أي لا نسجد لغير الله، وقيل: معناه لا نطيع أحداً في معصية الله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا﴾، أي: فقولوا أنتم [يا أمة محمد ﷺ] لهم: اشهدوا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مُخلِصون بالتوحيد.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع أخبرنا شُعيب عن الزهري أخبرنا محمد بن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أخبره:

أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ عاهد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية بن خليفة الكلبي إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على من اتّبع الهدى أمّا بعد، فإني أدعوكَ بدعاية الإسلام أسلم تَسْلَم يؤتِكَ اللّهُ أجرَكَ مرّتين فإن تولّيتَ فإنّما عليكَ إثم الأريسين و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

(٦٥) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تزعمون أنه كان على دينكم، وإنما دينكم اليهودية والنصرانية وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، أي: وإنما أنزلت التوراة والإنجيل بعد إبراهيم بزمان طويل وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟

(٦٦) قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ بتليين الهمزة، حيث كان مدني، وأبو عمرو والباقون بالهمزة واختلفوا في أصله، فقال بعضهم: أصله أنتم، وهاء تنبيه، وقال الأخفش: أصله أأنتم، فقلبت الهمزة الأولى هاء كقولهم: هرقت الماء وأرقت، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أصله أولاء دخلت عليه هاء التنبيه، وهو في موضع النداء يعني: يا هؤلاء أنتم، ﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ [جادلتم] ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، يعني: في أمر موسى وعيسى، وادّعيتُم أنكم على دينهما، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وليس في كتابكم أنه كان يهودياً أو نصرانياً، وقيل: حاججتم فيما لكم به علم]، يعني: في أمر محمد ﷺ، لأنهم وجدوا نعته في كتابهم، فجادلوا فيه بالباطل، فلِمَ تُحاجّون في إبراهيم، وليس في كتابكم ولا علمَ لكم به، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم برّأ الله تعالى إبراهيم بمّا قالوا، فقال:

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والحنيف المائل عن الأديان [كلها] إلى الدين المستقيم، وقيل: الحنيف الذي يُوحّدُ ويحجُ ويُضحي ويختتنُ ويستقبل الكعبةَ وهو أسهل الأديان وأحبّها إلى الله عزّ وجلّ.

(٦٨) قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، أي: من اتبعه في زمانه، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾، يعني: محمداً ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، يعني: من هذه الأمة، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناد حديث هجرة الحبشة: لمّا هاجر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة واستقرّت بهم الدار وهاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إن لنا في الذين هم عند النجاشي من أصحاب محمد ﷺ ثأراً ممن قتل منكم ببدر، فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشي لعلّه يدفع إليكم من عنده من قومكم، ولينتدب ذلك رجلان من ذَوِي رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد مع الهدايا الأدم وغيره، فركبا البحر وأتيا الحبشة، فلمّا دخلا على النجاشي سجدا له وسلّما عليه وقالا له: إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولصلاحك محبّون، وإنهم بعثونا إليك لنحذّرك هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء وإنّما كنا قد ضيّقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد [قد قتلهم] الجوع والعطش، فلما اشتدّ عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، وقالا: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيّونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنّتك، قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله، فقال النجاشي: مُروا هذا الصائح فليُعِدْ كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمّته، فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه وقال: ألا تسمع كيف يَرْطُنُونَ بحزب الله، وما أجابهم به النجاشي، فساءهما ذلك، ثم دخلوا عليهم فلم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك، فقال لهم النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا إليّ وتحيوني بالتحية التي يُحييني بها من أتاني من الآفاق؟ قالوا: نسجد لله الذي خلقك ومَلّكَكَ،

وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبدالأوثان، فبعث الله فينا نبياً صادقاً وأمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام، تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل، قال: أيكم الهاتف ليستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر: أنا، قال: فتكلّمْ، قال: إنك ملكٌ من ملوك أهل الأرض، ومن أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا أحب أن أُجيب عن أصحابي، فمُرْ هذين الرجلين فليتكلّم أحدهما ولينْصُتِ الآخر، فتسمع محاورتَنا، فقال عمرو لجعفر: تكلم، فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار، فإن كنا عبيداً أبقْنا من أربابنا فارْدُدْنا إليهم، فقال النجاشي: أعبيد هم أم أحرار؟ فقال عمرو: بل أحرار كرام، فقال النجاشي: نجوا من العبودية، ثم قال جعفر: سلهما هل أهرقنا دماً بغير حق فيُقتصّ منّا؟ قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعليّ قضاؤه، فقال عمرو: لا ولا قيراطاً، قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنّا وهم على دين واحد وأمر واحد، على دين آبائنا فتركوا ذلك وابتغوا غيره، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي كنتم عليه [وتركتموه] والدين الذي اتبعتموه اصدقني؟ فقال جعفر: أمّا الدين الذي كنّا عليه فتركناه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبدالحجارة، وأمّا [الدين] الذي تحولنا إليه فدين الله الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى ابن مريم، موافقاً له، فقال النجاشي: يا جعفر لقد تكلّمت بأمر عظيم فعلى رِسْلك، ثم أمر النجاشي فضرب بالناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب فلما اجتمعوا عنده، قال النجاشي: أنشدكم اللّهَ الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيّاً مرسلاً، فقالوا: اللّهمّ نعم قد بشّرنا به عيسى، وقال: من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ قال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمر بحُسن الجوار وصلة الرحم، وبرّ اليتيم، ويأمرنا بأن نعبدالله وحده لا شريك له، فقال: اقرأ عليّ [شيئاً] مما يقرأ عليكم، فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيّب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يُغضب النجاشي، فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه، فقال النجاشي: ما تقولون في عيسى وأمه؟ فقرأ جعفر عليهم سورة مريم، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى عليهما السلام رفع النجاشي نفثةً من سواكه قدر ما يقذي العين، فقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون مثل هذا، ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ـ يقول: آمنون ـ من سبّكم أو آذاكم غُرّم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دَهْوَرة اليوم على حزب إبراهيم، قال عمرو: [يا نجاشي] ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومن تبعهم، فأنكر ذلك المشركون وادّعوا [في] دين إبراهيم، ثم ردّ النجاشي على عمرو وصاحبه المالَ الذي حملوه، وقال: إنما هديتكم إليّ رشوة فاقبضوها، فإن الله ملّكني ولم يأخذ مني رشوة، قال جعفر: فانصرفنا فكنّا في خير دار وأكرم جوار، وأنزل الله تعالىٰ في ذلك اليوم على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم، وهو بالمدينة ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٦٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، فنزلت ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾، أي: تمنّت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود، ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [يستزيلونكم] عن دينكم ويردّونكم إلى الكفر، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعني: القرآن وبيان نعت محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أن نعته في التوراة والإنجيل مذكور.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿٧١﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وقيل: لم تخلطون الإيمان بعيسى عليه السلام وهو الحق، بالكفر بمحمد ﷺ، وهو الباطل؟ وقيل: لِمَ تخلطون التوراة التي أنزلت على موسى بالباطل الذي حرّفتموه وكتبتموه بأيديكم، ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن محمداً ﷺ ودينه حق.

﴿٧٢﴾ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟﴾ الآية، قال الحسن وقتادة والسدي: تواطأ اثنا عشر حَبراً من يهود خيبر وقرى عيينة، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد ﷺ أول النهار باللسان دون الاعتقاد ثم اكفروا آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمد ﷺ ليس هو بذاك المنعوت وظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم واتّهموه. وقالوا إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منّا، فيرجعون عن دينهم.

وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا في شأن القبلة لما صُرفت إلى الكعبة شقّ ذلك على اليهود، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذي أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار، ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم، فيرجعون إلى قبلتنا، فأطلع الله تعالى رسوله على سرّهم، وأنزل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾، أوله سُمّي وجهاً لأنه أحسنه وأول ما يواجه الناظر فيراه، ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾، [عند غروب الشمس]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فيشكّون ويرجعون عن دينهم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، هذا متّصل بالأول من قول اليهود بعضهم لبعض، ولا تُؤمنوا، أي: ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم، أي: وافق ملّتكم، واللام في ﴿لِمَن﴾ صلة، أي: لا تصدّقوا إلا من تبع دينكم اليهودية؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، أي: ردفكم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، هذا خبر من الله تعالى أن البيان بيانه، ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين وما بعده متّصل بالكلام الأول إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض، ومعناه: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحدكم مثل ما أوتيتم من العلم والكتاب والحكمة والآيات من المن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجّوكم عند ربكم لأنكم أصح ديناً منهم، وهذا معنى قول مجاهد، وقيل: إن اليهود قالت لسفلتهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من العلم، أي: لئلا يُؤتى أحد، و «لا» فيه مضمرة؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلاّ تضلّوا، يقول: لا تصدّقوهم لئلا يعلموا مثل ما علمتم فيكون لكم الفضل عليهم في العلم، ولئلا يحاجّوكم عند ربكم فيقولوا: عرفتم أن ديننا حق، وهذا معنى قول ابن جريج، وقرأ الحسن والأعمش «إن يؤتى» بكسر الألف، فيكون قول اليهود تامّاً عند قوله: إلا لمن تبع دينكم، وما بعده من قول الله تعالى، يقول: قل يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ إن بمعنى: الجحد، أي: ما يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد ﷺ، ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، يعني: إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا: نحن أفضل منكم، فقوله عزّ وجلّ: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾، أي: عند فعل ربكم بكم ذلك، وهذا معنى قول سعيد بن

جبير والحسن والكلبي ومقاتل.
وقال الفراء: ويجوز أن يكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى حتى؛ كما يُقال: تعلق به أو يُعطيك حقك، ومعنى الآية: ما أُعطي أحدٌ مثلَ ما أُعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجّة حتى يحاجّوكم عند ربكم! وقرأ ابن كثير «آن يُؤتى» بالمدّ على الاستفهام، وحينئذ يكون فيه اختصار تقديره: أن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة تحسدونه ولا تؤمنون به، هذا قول قتادة والربيع، قالا: هذا من قول الله تعالى، يقول: قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله بأن أنزل كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً حسدتموه وكفرتم به، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى «أن»، لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر، أي: وإن يُحاجوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم، فقل يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه، ويجوز أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين، ويكون نظم الآية: أن يُؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين حسدوكم، فقل: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، وإن حاجوكم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، ويجوز أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا﴾ من كلام الله يثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم، يقول: لا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل، ولا تصدّقوا أن يحاجوكم في دينكم عند ربكم أو يقدروا على ذلك، فإن الهدى هدى الله، وإن الفضل بيد الله يُؤتيه من يشاء والله واسع عليم، فتكون الآية كلها خطاب الله للمؤمنين عند تلبيس اليهود لئلاّ يرتابوا.

(٧٤) قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: بنبوّته ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

(٧٥) قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ الآية، نزلت في اليهود أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل، يقول منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قلّت، قال مقاتل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، هم مؤمنو أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، يعني: كفار اليهود، ككعب بن الأشرف وأصحابه، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، يعني: عبدالله بن سلام، أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، يعني: فنحاص بن عازوراء، استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه ولم يؤده إليه، قوله: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة ﴿يؤدهْ﴾، و﴿لا يُؤدهْ﴾ و﴿ونُصلِهْ﴾، و﴿نُؤتِهْ﴾ ﴿نولِّهْ﴾ ساكنة الهاء، وقرأ أبو جعفر وقالون ويعقوب بالاختلاس كسراً، والباقون بالإشباع كسراً، فمن سكّن الهاء قال لأنها وضعت في موضع الجزم وهو الياء الذاهبة، ومن اختلس فاكتفى بالكسرة عن الياء، ومن أشبع فعلى الأصل، لأن الأصل في الهاء الإشباع، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، قال ابن عباس مُلِحّاً، يريد يقوم عليه يطالبه بالإلحاح، وقال الضحاك: مواظباً أي تُواظب عليه بالاقتضاء، وقيل: أراد [إن] أودعته ثم استرجعته وأنت قائم على رأسه ولم تفارقه ردّه إليك، فإن فارقته وأخّرته أنكره ولم يؤده، ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك الاستحلال والخيانة، ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، أي: في مال العرب إثم وحَرَج؛ كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وذلك بأن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا، لأنهم ليسوا على ديننا ولا حُرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم، وقال الكلبي: قالت اليهود إن الأموال كلها كانت لنا فما في يد العرب منها فهو لنا، وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم، وقال الحسن وابن جريج ومقاتل: بايع اليهود رجالاً من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حق، ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادّعوا

أنهم وجدوا ذلك في كتبهم، فكذّبهم اللَّهُ عزّ وجلّ، وقال عزّ من قائل: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال ردّاً عليهم:

(٧٦) ﴿بَلَى﴾، أي: ليس كما قالوا بل عليهم سبيل، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَنْ أَوْفَى﴾ أي: ولكن من أوفى، ﴿بِعَهْدِهِ﴾، أي: بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن وأداء الأمانة، وقيل: الهاء في عهده راجعة إلى الموفي ﴿وَاتَّقَى﴾ الكفرَ والخيانةَ ونقضَ العهد، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة بن عقبة أنا سفيان عن الأعمش عن عبدالله بن مُرّة عن مسروق عن عبدالله بن عمر.

أن النبيّ ﷺ قال: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانتْ فيه خَصْلةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا ائتُمن خان وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

(٧٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، قال عكرمة: نزلت في رؤوس اليهود كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد ﷺ وبدّلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لئلاً يفوتهم المآكل والرُّشا التي كانت لهم من أتباعهم.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبدالله قال:

قال رسول الله ﷺ: «من حلف علي يمينِ صَبْرٍ يقتطع بها مالَ امْرِئٍ مسلمٍ لقيَ اللَّهَ يوم القيامة وهو عليه غضبان»، فأنزل الله تعالىٰ تصديق ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس، فقال: ما يحدّثكم أبو عبدالرحمٰن؟ فقالوا: كذا وكذا، فقال: فيّ أنزلتْ كانتْ لي بئرٌ في أرض ابن عم لي فأتيت رسول الله ﷺ فحدثتُه، فقال: «بيّنتك أو يمينه»، قلت: إذاً يحلِفُ عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين صَبْرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مالَ امْرِئٍ مسلم لقيَ اللَّهَ يوم القيامة وهو عليه غضبان».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل بن حجر، عن أبيه قال:

جاء رجل من حضرموت ورجل من كِنْدة إلى النبيّ ﷺ، فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرضٍ لي كانتْ لأبي، فقال الكندي: هي أرض في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال النبيّ ﷺ للحضرمي: «ألك بينة»؟ قال: لا، قال: «فلك يمينه»، قال: يا رسول الله إن الرجل فاجرٌ لا يُبالي على ما يحلف عليه، قال: «ليس لك منه إلا ذلك»، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر: «أما لئِنْ حلفَ على مالِهِ ليأكله ظلماً ليَلْقَيَنَّ اللَّهَ وهو عنه مُعْرِض».

ورواه عبدالملك بن عمير عن علقمة، وقال هو امرؤ القيس بن عابس الكندي وخصمه ربيعة بن عُبدان، وروى [أنه] لمّا همّ أن يحلف نزلت هذه الآية فامتنع امرؤ القيس أن يحلف. وأقرّ لخصمه بحقه ودفعه إليه.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي (أبو إسحاق الهاشمي)، أنا أبو مصعب عن مالك عن العلاء بن عبدالرحمٰن عن سعيد بن كعب عن أخيه عبدالله بن كعب بن مالك عن أبي أمامة:

أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقّ امرئٍ مسلم بيمينه حرّم الله عليه الجنّة وأوجب له النار»، قالوا: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»، قالها ثلاث مرات.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن

محمد أنا هشيم بن محمّد أنا العوّام بن حوشب عن إبراهيم بن عبدالرحمٰن عن عبدالله بن أبي أوفى:

أنّ رجلاً أقام سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يعط، ليُوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾، أي: يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أراد الأمانة، ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ الكاذبة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: شيئاً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾، لا نصيب لهم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، ونعيمها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، كلاماً ينفعهم ويُسرّهم، وقيل: هو بمعنى الغضب، كما يقول الرجل: إني لا أكلم فلاناً إذا كان غضب عليه، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: لا يرحمهم ولا يُحسن إليهم ولا يُنيلهم خيراً، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، أي: لا يُثني عليهم بالجميل ولا يُطهّرهم من الذنوب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغفار بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد أنا سفيان أنا مسلم بن الحجاج محمد بن جعفر عن شعبة عن علي بن مُدرك عن أبي زرعة عن خرشة بن الحُرّ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه:

عن النبيّ ﷺ قال: «ثلاثة لا يُكلّمهم الله يومَ القيامة ولا ينظر إليهم ولا يُزكيهم ولهم عذابٌ أليم»، قال: قرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال أبو ذر: خابوا وخسروا مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «المُسبل والمنّان والمنفق سلعته بالحَلِفِ الكاذب»، في رواية: «المسبل إزاره».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أسيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، أنا أبو نصر محمد بن حمدويه المروزي أنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «ثلاثة لا يُكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يُزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل حلف يميناً على مال مسلم فاقتطعه، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد صلاة العصر أنه أعطي بسلعته أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل منع فضل مالة، فإن الله [سبحانه] وتعالىٰ يقول: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك».

(٧٨) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾، يعني: من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾، أي: طائفة، وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يعطفون ألسنتهم بالتحريف والتغيير، وهو ما

الجزء الثالث — سورة آل عمران

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٦٠

غيّروا من صفة النبيّ ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، يُقال: لَوَى لسانه عن كذا، إذا غيّره، ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾، أي: لتظنّوا ما حرّفوا ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، [أي]: الذي أنزله الله تعالىٰ [على أنبيائه]، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، عمداً، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أنهم كاذبون وأنهم هم المغيرون له من عند أنفسهم، وقال الضحاك عن ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله ما ليس منه.

(٧٩) قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، قال مقاتل والضحاك: ما كان لبشر يعني: عيسى عليه السلام، وذلك أن نصارى نجران كانوا يقولون: إن

عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، يعني: عيسى ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: الإنجيل، وقال ابن عباس وعطاء: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، يعني: محمداً [ﷺ] ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: القرآن.

وذلك أن أبا رافع القرظي من اليهود، والرئيس من نصارى أهل نجران قالا: يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله، ما بذلك أمرني الله، وما بذلك بعثني، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، أي: ما ينبغي لبشر؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦]، أي: ما ينبغي لنا، والبشر: جميع بني آدمَ لا واحد له من لفظه، كالقوم والجيش، يوضع موضع الواحد والجمع، ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾، الفهم والعلم، وقيل: إمضاء الحكم عن الله عزّ وجلّ، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، المنزلة الرفيعة بالأنبياء، ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟﴾، أي: ولكن يقولوا كونوا، ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، واختلفوا فيه، قال عليّ وابن عباس والحسن: كونوا فقهاء علماء، وقال قتادة: حكماء علماء، وقال سعيد بن جبير: العالم الذي يعمل بعلمه، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: فقهاء مُعلّمين، وقيل: الرباني الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره، وقال عطاء: حكماء علماء نُصحاء لله في خلقه، قال أبو عبيدة: سمعت رجلاً عالماً يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي العارف بأنباء الأمة ما كان وما يكون، وقيل: الربّانيون فوق الأحبار، والأحبار فوق العلماء، والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصارة بسياسة الناس، قال المؤرج: كونوا ربانيين تدينون لربكم، من الربوبية، كان في الأصل ربيّ، فأدخلت الألف للتفخيم، ثم أُدخلت النون لسكون الألف، كما قيل: صنعاني وبهراني، وقال المبرد: هم أرباب العلم سُمّوا به لأنهم يربون العلم، ويقومون به ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها، وكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه فقد ربَّه يُربه، واحدُها: ربان كما قالوا: ريان وعطشان وشبعان وعريان، ثم ضُمّت إليه ياء النسبة، كما يقال: لحياني ورقباني، وحُكي عن علي رضي الله عنه أنه قال: هو الذي يَرُبُّ علمه بعلمه، قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس: اليوم مات ربانيّ هذه الأمة، ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، أي: بما أنتم؛ كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، أي: من هو في المهد، ﴿تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم، وقرأ الآخرون «تعلَمون» بالتخفيف من العلم؛ كقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، أي: تقرؤون.

﴿٨٠﴾ قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بنصب الراء عطفاً على قوله: ثم يقول، فيكون مردوداً على البشر، أي: ولا يأمرَ ذلك البشر، وقيل: على إضمار «أن»، أي: ولا أن يأمركم ذلك البشر، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف، معناه: ولا يأمرُكم الله، وقال ابن جريج وجماعة: ولا يأمرُكم محمد، ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾، كفعل قريش والصابئين حيث قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح وعُزير ما قالوا، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، قاله على طريق التعجّب والإنكار، يعني: ولا يقول هذا.

﴿٨١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾، قرأ حمزة ﴿لِمَآ﴾ بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها، فمن كسر اللام فهي لامُ الإضافة دخلت على ما الموصولة، ومعناه: إن الذي يريد للذي آتيتكم، أي: أخذ ميثاق النبيّين لأجل الذي آتاهم من الكتاب والحكمة وأنهم أصحاب الشرائع، ومن فتح اللام فمعناه: للذي آتيتكم، بمعنى الخبر، وقيل: بمعنى الجزاء، أي: لئن آتيتكم ومهما آتيتكم، وجواب الجزاء، قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ قرأ نافع وأهل المدينة «آتيناكم» على التعظيم؛ كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وقرأ الآخرون بالتاء لموافقة الخط، ولقوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾، واختلفوا في المعني بهذه الآية: فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيّين خاصة أن

يُبلّغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده، وأن يُصدّق بعضهم بعضاً وأخذ العهد على كل نبيّ أن يُؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إن أدركه، وإن لم يدركه أن يأمر قومَه بنصرته إن أدركوه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ، وقال الآخرون: إنما أخذ الله الميثاق منهم في أمر محمد ﷺ، فعلى هذا اختلفوا فمنهم من قال: إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل منهم النبيّين، وهذا قول مجاهد والربيع، ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، وإنما كان محمد ﷺ مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيّين يدل عليه أن في قراءة عبدالله بن مسعود وأبيّ بن كعب ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وأما القراءة المعروفة ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، فأراد: أن الله أخذ ميثاق النبيّين أن يأخذوا الميثاق إلى أممهم أن يُؤمنوا بمحمد ﷺ ويُصدّقوه وينصروه، إن أدركوه، وقال بعضهم: أراد أخذ الله الميثاق على النبيّين، وأممهم جميعاً في أمر محمد ﷺ، فاكتفى بذكر الأنبياء؛ لأن العهد مع المتبوع عهد على الأتباع، وهذا معنى قول ابن عباس، وقال عليّ بن أبي طالب: لم يبعث الله نبياً آدمَ فمن بعده إلا أخذ عليه الميثاق والعهد في أمر محمد، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بُعث وهم أحياء لينصرنّه،

قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾، يعني: محمداً ﷺ، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج الذريّة من صلب آدم عليه السلام والأنبياء فيهم كالمصابيح والسُّرج، وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ، ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾، أي: قبلتم على ذلكم عهدي، والإصر: العهد الثقيل، ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ﴾، الله تعالى: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي: فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم، ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، عليكم وعليهم، وقال ابن عباس: فاشهدوا، أي: فاعلموا، وقال سعيد بن المسيب: قال الله تعالى للملائكة فاشهدوا عليهم كناية عن غير مذكور.

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، الإقرار، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، العاصون الخارجون عن الإيمان.

(٨٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فادّعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام واختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى النبيّ ﷺ «كِلاَ الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام»، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، قرأ أبو جعفر أهل البصرة وحفص عن عاصم ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾: خضع

وانقاد، ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فالطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان بمشقّة وإباءٍ من النفس، واختلفوا في قوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، قال الحسن: أسلم أهل السمٰوات طوعاً وأسلم من في الأرض بعضهم طوعاً وبعضهم كرهاً خوفاً من السيف والسبي، وقال مجاهد: طوعاً المؤمن، وكرهاً ذلك الكافر، بدليل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ۩﴾ [الرعد: ١٥]، وقيل: هذا يوم الميثاق حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال بعضهم: طوعاً، وبعضهم: كرهاً، وقال قتادة: المؤمن أسلم طوعاً فنفعه الإسلام، والكافر أسلمَ كرهاً في وقت البأس فلم ينفعه الإسلام، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وقال الشعبي: هو استعاذتهم به عند اضطرارهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال الكلبي: طوعاً الذي وُلد في الإسلام، وكرهاً الذين أُجبروا على الإسلام ممن يُسبى منهم فيجاء بهم في السلاسل، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، قرأ بالياء حفص عن عاصم ويعقوب كما قرأ ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء وقرأ الباقون بالتاء فيهما إلا أبا عمرو فإنه قرأ ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء و﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء، قال: لأن الأول خاص والثاني عام، لأن مرجع جميع

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

الخلق إلى الله عزّ وجلّ.

﴿٨٤﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝﴾، ذكر الملل والأديان واضطراب الناس فيها، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية.

﴿٨٥﴾ قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدّوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، فنزلت فيهم: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿٨٦﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، لفظة استفهام ومعناه جحد، أي: لا يهدي الله، وقيل معناه: كيف يهديهم اللَّهُ في الآخرة إلى الجنة [ويعطيهم] الثواب [فيها]، ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٨٧﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿٨٨﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، وذلك أن الحارث بن سويد لمّا لحق بالكفار ندم فأرسل إلى قومه [بالمدينة]، أن سلوا رسولَ الله ﷺ هل لي من توبة ففعلوا ذلك، فأنزل الله تعالى:

﴿٨٩﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لما كان منه، فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك وإن الله عزّ وجلّ لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة فأسلم وحسن إسلامه.

﴿٩٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، قال قتادة والحسن: نزلت في اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن، وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ لمّا رأوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، يعني: ذنوباً في حال كفرهم، قال مجاهد: نزلت في جميع الكفار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، أي: أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه، قال الحسن: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ كلما نزلت آية كفروا بها، فازدادوا كفراً، وقيل: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بقولهم: نتربص بمحمد ريبَ المنون، قال الكلبي: نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد، لما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا هم على الكفر بمكة وقالوا: نقيم على الكفر ما بدا لنا فمتى أردنا الرجعة نزل فينا ما نزل في الحارث، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة فمن دخل منهم في الإسلام قُبلت توبتُه، ونزل فيمن مات منهم كافراً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة: ١٦١] الآية.

فإن قيل: قد وعد الله قبول توبة من تاب، فما معنى قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، قيل: لن تُقبل توبتُهم إذا [رجعوا في حال المعاينة]، كما قال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقيل: هذا في أصحاب الحارث بن سويد حيث أمسكوا عن الإسلام، وقالوا: نتربص بمحمد [ريبَ المنون]، فإن ساعده الزمان نرجع إلى دينه، [﴿لَّن

﴿تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، لن يقبل منهم ذلك] لأنهم متربّصون غير محققين، [﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾].

(٩١) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ﴾، أي: قدرَ ما يملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها، ﴿ذَهَبًا﴾، نصب على التفسير، كقولهم: عشرون درهماً. ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾، قيل: معناه لو افتدى به، والواو زائدة مقحمة. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أخبرنا غندر أخبرنا شعبة عن أبي عمران قال: سمعتُ أنس بن مالك:

عن النبيّ ﷺ قال: «يقول الله لأهونِ أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لكَ ما في الأرض من شيء أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردتُ منك أهونَ من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي».

(٩٢) قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾، يعني: الجنة، قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: التقوى، وقيل: الطاعة، وقيل: الخير، وقال الحسن: لن تكونوا أبراراً.

أخبرنا محمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن حماد قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبدالله رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدقِ، فإنّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنّ البرَّ يهدي إلى الجنّة، وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرّى الصدقَ حتى يُكتبَ عندَ اللهِ صديقاً، وإياكم والكذبَ فإنّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، و [إن] الفجورُ يهدي إلى النار، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذاباً».

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، أي: من أحبِّ أموالِكم إليكم، روى الضحاك عن ابن عباس: أن المراد منه أداء الزكاة، وقال مجاهد والكلبي: هذه الآية نسختها آية الزكاة، وقال الحسن: كل إنفاق يبتغي به المسلمُ وجهَ الله حتى التمرة ينال به هذا البرّ، وقال عطاء: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾، أي: شرفَ الدين والتقوى حتى تتصدقُوا وأنتم أصحاء أشحّاء.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول:

«كان أبو طلحة الأنصارى أكثر أنصاري بالمدينة مالاً وكان أحب أمواله إليه بيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالىٰ يقول في كتابه ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنّ أحب أموالي إليّ بَيْرَحاء، وإنها صدقة لله أرجو بِرّها وذُخرَها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت. فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

وروي عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فُتحت فدعا بها فأعجبته، فقال عمر: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فأعتقها عمر.

وعن حمزة بن عبدالله بن عمر قال خطرتْ على قلب عبدالله بن عمر هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال ابن عمر: فذكرتُ ما أعطاني الله عزّ وجلّ، فما كان شيء أعجب إليّ من فلانة، [وكانت جارية له] هي حرّة لوجه الله تعالىٰ، ولولا أنني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾، أي: يعلمه ويجازي به.

﴿٩٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على مِلّة إبراهيم وكان إبراهيم لا يأكل لُحوم الإبل وأنت تأكلها، فلست على مِلّته، فقال رسول الله ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام»، فقالوا: كلُّ ما نحرمُه اليومَ كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

يريد: سِوَى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قط، ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، يعني: ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكلُّ حلالاً له ولبني إسرائيل، وإنما حرّمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، يعني: ليست في التوراة حرمتُها.

واختلفوا في الطعام الذي حرّمه يعقوب على نفسه وفي سببه، قال أبو العالية وعطاء ومقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام لحمان: الإبل وألبانها.

ورُوي أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سُقْمُه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليُحرِمَنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها، فحرّمهما، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك: هي العروق، وكان السبب في ذلك أنه اشتكى عرق النَّسا وكان أصل وجعه، فيما روى جُويبر [ومقاتل] عن الضحاك: أن يعقوب عليه السلام كان نذر إن وهبه الله اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم، فتلقاه ملَك من الملائكة، فقال: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع، فعالجه فلم يصرعْ واحدٌ منهما صاحبَه، فغمزه الملَك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك، ثم قال له الملَك: أمَا إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً، فلما قدمها يعقوب أراد ذبح ولده ونسي ما قال له الملك، فأتاه الملَكُ وقال: إنما غمزتك للمخرج وقد وُفي نذرُك فلا سبيل لك إلى ولدك.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلاً بطشاً قوياً فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه [فلم يصرعه]، فغمز الملك فخذ يعقوب، ثم صعد إلى السماء ويعقوب عليه السلام ينظر إليه، فهاج به عرق النسا ولقي من ذلك بلاءً وشدةً، فكان لا ينام الليل من الوجع، ويبيت وله زقاء، أي: صياح، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق، فحرمه على نفسه [حين الله شفاه]، فكان بنوه بعد ذلك يتّبعون العروق ويخرجونها من اللحم.

وروى جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس [قال]: لما أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحم الإبل فحرّمها يعقوب على نفسه، وقال الحسن: حرّم إسرائيل على نفسه لحم الجزور تعبداً لله تعالىٰ، فسأل ربّه أن يجيز له ذلك فحرّمها الله على ولده، ثم اختلفوا في حال هذا الطعام المحرّم على بني إسرائيل بعد نزول التوراة، فقال السدي: حرّم الله عليهم في التوراة ما كانوا يحرمونه قبل نزولها، وقال عطية: إنما كان محرّماً عليهم بتحريم

إسرائيل، فإنه كان قد قال: إن عافاني الله [تعالىٰ] لا آكله ولا يأكله ولدٌ لي ولم يكن محرّماً عليهم في التوراة، وقال الكلبي: لم يحرمه الله عليهم في التوراة وإنما حُرّم عليهم بعد التوراة بظلمهم؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾، إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرّم الله عليهم طعاماً طيباً أو صبّ عليهم رِجزاً وهو الموت، وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم ولا حرّمه الله في التوراة، وإنما حرّموه على أنفسهم اتباعاً لأبيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله [تعالىٰ]، فكذّبهم الله عزّ وجلّ، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾، حتى يتبيّن أنه كما قلتم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فلم يأتوا، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿٩٤﴾ ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم لأن في اتباع ملة إبراهيم اتباعه ﷺ في جميع ما جاء به.

﴿٩٦﴾ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾، سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مَهاجر الأنبياء، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس، واختلف العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، قال بعضهم: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه [الله تعالىٰ] قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدُحيت الأرض من تحته، هذا قول عبدالله بن عمر ومجاهد وقتادة والسدي، وقال بعضهم: هو أول بيت بني في الأرض، رُوي عن علي بن الحسين: أن الله تعالىٰ وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور وأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثاله وقدره، فبنوه واسمه الضراح، وأمر مَنْ في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، ورُوي: أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام، وكانوا يحجّونه، فلما حجّه آدم قالت الملائكة: بَرّ حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، ويُروى عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بيت بناه آدم في الأرض، وقيل: هو أول بيت مبارك وُضع هدىً للناس [يروىٰ ذلك عن علي بن أبي طالب. وقال الضحاك: إن أول بيت وضع فيه البركة، وقيل: أول بيت وضع للناس يُعبدالله فيه ويحجّ إليه، وقيل: هو أول بيت جعل قبلةً للناس، وقال الحسن والكلبي: أول مسجدٍ ومُتَعَبّدٍ وُضع للناس يُعبدالله فيه؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، يعني: المساجد.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي [أنا محمد بن يوسف] أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا [موسى بن إسماعيل أخبرنا] عبدالواحد أنا الأعمش أخبرنا إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه قال: سمعتُ أبا ذرّ يقول:

«قلت: يا رسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، ثم قال: «أينما أدركتْكَ الصلاةُ بعدُ فصلِّ فإن الفضل فيه».

قوله تعالىٰ: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك، والعرب تعاقب بين الباء والميم، فتقول: سبد رأسه وسمده، وضربة لازب ولازم، وقال الآخرون: بكة موضع البيت، ومكة: اسم للبلد كلّه، وقيل: بكة موضع البيت والمطاف، سُمّيت بكة: لأن الناس يتباكون فيها، أي يزدحمون يبك بعضُهم بعضاً ويصلّي بعضهم بين يدي بعض، ويمرّ بعضهم بين يدي بعض، وقال عبدالله بن الزبير: سُمّيت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تدقّها فلم

يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله، وأما مكة فإنها سمّيت بذلك لقلة مائها، من قول العرب: مَكَّ الفصيل ضِرْعَ أمه وأمتكه إذا امتصّ كل ما فيه من اللبن، وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها، ﴿مُبَارَكًا﴾ نصب على الحال، أي: ذا بركة ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، لأنه قبلة للمؤمنين ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ قرأ ابن عباس «آية بينة» على الواحد، وأراد مقام إبراهيم وحده، وقرأ الآخرون ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ بالجمع، فذكر منها مقام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم، وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، ومن تلك الآيات في البيت الحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها، وقيل: مقام إبراهيم جميع الحرم، ومن الآيات في البيت أن الطير تطير حوله فلا تعلو فوقه، وأن الجارحة إذا قصدت صيداً فإذا دخل الصيدُ الحرم كفتْ عنه [ولم تجرحه فيه]، وإنه بلد صدر إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار، وإن الطاعة والصدقة فيها تُضاعف بمائة ألف.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري أنا مالك بن أنس عن أبي [زيد بن رباح وعبيد الله بن أبي عبدالله، عن أبي عبدالله الأغر] عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ من أن يحاج فيه، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، وكانت العرب في الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض ومن دخل الحرم أمِنَ من القتل والغارة، وهو المراد من الآية على قول الحسن وقتادة وأكثر المفسّرين، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقيل: المراد به أن من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمناً؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقيل: هو خبر بمعنى الأمر تقديره: ومن دخله فأمّنوه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن من وجب عليه القتل قصاصاً أو حداً فالتجأ إلى الحرم فلا يُستوفَى منه فيه، ولكنّه لا يُطعم ولا يُبايع ولا يُشارى، حتى يخرج منه، فيقتل، قاله ابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وذهب قوم إلى أن القتل الواجب بالشرع يُستوفى فيه، أمّا إذا ارتكب الجريمة في الحرم فيستوفَى فيه عقوبته بالاتّفاق، وقيل: معناه: من دخله معظماً له متقرّباً إلى الله عزّ وجلّ كان آمناً يوم القيامة من العذاب، قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، أي: ولله فرضٌ واجبٌ على الناسِ حجُّ البيت، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وحفص «حِجُّ البيت»، بكسر الحاء في هذا الحرف خاصةً، وقرأ الآخرون بفتح الحاء، وهي لغة أهل الحجاز، وهما لغتان فصيحتان ومعناهما واحد، والحج أحد أركان الإسلام.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا عبيد الله بن موسى أنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال:

قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وأن محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاةَ، وإيتاءِ الزكاةَ، والحجِّ، وصوم رمضانَ».

قال أهل العلم: ولِوُجوب الحج خمسُ شرائط الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة، ولا يجب على الكافر ولا على المجنون، ولو حجا بأنفسهما لا يصح لأن الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لفعل المجنون ولا يجب على الصبي ولا على العبد، ولو حج صبي يعقل، أو عبد يصح حجّهما تطوّعاً ولكن لا يسقط به فرض الإسلام عنهما فلو بلغ الصبي، أو أُعتق العبد بعدما حجّ واجتمع في حقّه شرائط وجوب الحجّ، عليه أن يحج ثانياً ولا يجب على غير المستطيع؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، غير أنه لو تكلف

فحج يسقط عنه فرض الإسلام، والاستطاعة نوعان، أحدهما: أن يكون قادراً مستطيعاً بنفسه، والآخر: أن يكون مستطيعاً بغيره، أما الاستطاعة بنفسه، فأن يكون قادراً بنفسه على الذهاب ووَجد الزادَ والراحلة.

أخبرنا عبدالواحد بن محمد الكسائي الخطيب ثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم عن إبراهيم بن يزيد عن محمد [بن] عباد بن جعفر قال: قعدنا إلى عبدالله بن عمر فسمعته يقول:

سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: ما الحاج؟ قال: «الشعث التفل»، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله، أيّ الحجّ أفضل؟ قال: «العجُّ والثج»، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «زادٌ وراحلة».

وتفصيله: أن يجدَ راحلةً تصلح لمثله، ووجدَ الزادَ للذهاب والرجوع، فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وعن دَيْنٍ يكون عليه، ووجد رفقة يخرجُون في وقت جرت عادة أهل بلده بالخروج في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله أو أخروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلا أن يقطعوا كل يوم أكثر من مرحلة لا يلزمهم الخروج [في ذلك الوقت]، ويشترط أن يكون الطريق آمناً فإن كان فيه خوف من عدوٍّ مسلمٍ أو كافرٍ أو رَصَدِيّ يطلب شيئاً لا يلزمه، ويشترط أن تكون المنازل [المأهولة] معمورة يجد الزاد والماء، فإن كان زمانَ جُدوبةٍ تفرّق أهلها أو غارت مياهها، فلا يلزمه الحج، ولو لم يجد الراحلة لكنه قادر على المشي أو لم يجد الزاد ولكن يمكنه أن يكتسب في الطريق لا يلزمه الحج، ويستحب لو فعل، وعند مالك يلزمه، وأمّا الاستطاعة بالغير فهي أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه، بأن كان زَمِناً أو به مرض غير مرجوّ الزوال، لكن له مال يمكّنه أن يستأجر [به من يحج عنه، يجب عليه أن يستأجر]، أو لم يكن له مال لكن بذلَ له ولدهُ أو أجنبيّ الطاعةَ في أن يحجّ عنه، يلزمه أن يأمره إذا كان يعتمدُ صِدقَه، لأن وجوب الحج يتعلق بالاستطاعة، ويقال في العرف: فلان مستطيع لبناء دار وإن كان لا يفعله بنفسه، وإنما يفعله بماله وأعوانه، وعند أبي حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة، وعند مالك لا يجب على المغصوب في المال، وحُجّةُ من أوجبه ما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سليمان بن يسار عن عبدالله بن عباس أنه قال:

كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خَثْعَم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشقّ الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج، أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم».

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن عباس والحسن وعطاء: جَحَدَ فَرْضَ الحج، وقال مجاهد: من كفر بالله واليوم الآخر، وقال سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود حيث قالوا: الحجّ إلى مكة غير واجبٍ، وقال السدي: هو من وجد ما يحجّ به ثم لم يحج حتى مات فهو كفرٌ به.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو الحسن الكلماتي أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر، أخبرنا سهل بن عمار أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا شريك عن ليث عن عبدالرحمٰن بن سابط عن أبي أمامة:

أن النبيّ ﷺ قال: «من لم تَحْبِسْه حاجةٌ ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر، ولم يحجّ فليمتْ إنْ شاء يهودياً وإنْ شاء نصرانياً».

(٩٨) قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

(٩٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لم تصرفون عن دين الله، ﴿مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا﴾ تطلبونها، ﴿عِوَجًا﴾ زيغاً وميلاً، يعني: لم تصدّون عن سبيل الله باغين لها عوجاً؟ قال أبو عبيدة العِوج ـ بالكسر ـ في الدينِ والقولِ والعملِ، والعَوَجُ ـ بالفتح ـ في الجدار، وكل شخص قائم

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، [أن في التوراة مكتوباً نعت محمد ﷺ وإن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام].

﴿١٠٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾،

قال زيد بن أسلم: مرّ شاسُ بنُ قيسٍ اليهودي. وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين. على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدّثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يومَ بُعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس مع الخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلّم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين على الركب، أوس بن قبطي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالا: قد فعلنا السلاحَ السلاحَ موعدكم الظاهرة، . وهي الحرة . فخرجوا جميعاً إليها وانضمّت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال ﷺ:

«يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية، وألّف بينكم؟ ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، اللّهَ اللّهَ»!! فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾، قال جابر: فما رأيت قط يوماً أقبح، أولاً أحسن آخراً من ذلك اليوم.

ثم قال الله تعالىٰ على وجه التعجب:

﴿١٠١﴾ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾، يعني: ولِمَ تكفرون؟ ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، [أي]: القرآن، ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾، محمد ﷺ، قال قتادة: في هذه الآية عَلَمَان بيّنان: كتابُ الله ونبيُّ الله، أمّا نبي الله فقد مضى، وأمّا كتاب الله فأبقاه بين أظهركم رحمةً من الله ونعمةٍ.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ أنا أبو الفضل الحسن بن يعقوب بن يوسف العدل أخبرنا أبو أحمد محمد بن عبدالوهّاب العبدي أنا أبو جعفر بن عوف أخبرنا أبو حيان يحيى بن سعيد بن حيان عن يزيد بن حيان قال: سمعت زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أمّا بعد أيها الناس، إنما أنا بشر يُوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما: كتابَ الله فيه الهُدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله تعالىٰ وخذوا به»، فحثّ [عليه] ورغّب فيه، ثم قال: «وأهلَ بيتي، أذكّركُمُ اللّهَ في أهل بيتي».

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾، أي: يمتنع بالله ويستمسك بدينه

وطاعته، ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، طريق واضح، وقال ابن جريج: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ يؤمن بالله، وأصل العصمة: المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصم له.

﴿١٠٢﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حَمِيُّ الدّبر، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتزّ عرش الرحمٰن له ورضي الله بحُكمه في بني قريظة، وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح، فأتاهم النبيّ ﷺ، وأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

وقال عبدالله بن مسعود وابن عباس: هو أن يُطاعَ فلا يُعصى، وقال مجاهد: أن تُجاهِدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لَوْمَةُ لائم، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم. وعن أنس أنه قال: لا يتقي اللّهَ عبدٌ حقَّ تقاته حتى يُخزن لسانه، قال أهل التفسير: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله ومَنْ يقوَىٰ على هذا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فنسختْ هذه الآية، وقال مقاتل: ليس في آل عمران من المنسوخ إلاّ هذه الآية ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: مؤمنون، وقيل: مخلصون مفوّضون أموركم إلى الله عزّ وجلّ، وقال الفضل: مُحسنون الظنَّ بالله [تعالىٰ].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو بكر العبدوسيّ أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يزيد أخبرنا سليمان بن سيف أخبرنا وهب بن جرير أنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اتقوا اللّهَ حقَّ تقاتِه فلو أنّ قطرةً من الزّقوم قُطرتْ على الأرض لأمرّتْ على أهل الدنيا معيشتَهم، فكيفَ بمنْ هو طعامُه وليسَ له طعامٌ غيره»؟.

﴿١٠٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، الحبل: السبب الذي يُتوصّل به إلى البُغية، وسُمي الإيمان حبلاً لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف [من النار]، واختلفوا في معناه هٰهنا، قال ابن عباس: معناه تمسّكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خيرٌ ممّا تُحبون في الفرقة، وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي: هو القرآن.

ورُوي عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «إن هذا القرآنَ هو حبلُ اللّهِ المتين، وهوالنورُ المبين، والشفاءُ النافع، وعصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن تبعه».

وقال مقاتل بن حيان: بحبل الله أي: بأمر الله وطاعته، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، كما افترقتِ اليهود والنصارى.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن سُهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالىٰ يرضَى لكم ثلاثاً [ويسخط لكم ثلاثاً]، يرضَى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تُناصِحُوا من وَلّى اللّهُ أمرَكم، [ويسخط لكم] قِيلَ وقالَ، وإضاعةَ المال، وكثرةَ السؤال».

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره من أهل الأخبار: كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعتْ بينهما عداوةٌ بسبب قتيل قُتل بينهم، فتطاولت تلك العداوةُ

والحربُ بينهم عشرين ومائة سنة إلى أن أطفأ الله عزّ وجلّ ذلك بالإسلام، وألّف بينهم برسوله محمد ﷺ، وكان سبب ألفتهم أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفاً يسميه قومه الكامل لجلَدِهِ ونسبه قدم مكة حاجّاً أو معتمراً، وكان رسول الله ﷺ قد بُعث وأمر بالدعوة، فتصدّى له [رسول الله ﷺ] حين سمع به ودعاه إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك»؟ فقال: مجلة لقمان، يعني: حكمته، فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها عليّ»، فعرضها، فقال: «إن هذا الكلام حسن، ومعي أفضل من هذا، قرآنٌ أنزل الله عليّ نوراً وهدىً»، فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يَبْعُدْ منه ولم ينفرْ وسُرّ بذلك، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بُعاثَ، فإنّ قومه ليقولون: إنه قد قتل وهو مسلم، ثم قدم أبو الحيسر أنس بن رافع، ومعه فئة من بني الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحِلْفَ من قريش على قوم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم، وقال: هل لكم إلى خيرٍ ممّا جِئْتُمْ له؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أنْ لا يشركوا بالله شيئاً، وأنزل الله عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أيْ قوم هذا والله خيرٌ ممّا جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعْنَا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فلما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه وإعزازَ نبيّه خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار ويُعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فلقي عند العقبة رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، وهم ستة نفر: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبدالله [بن رئاب]، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم»؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج؟ قال: «أمن موالي يهود»؟ قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون حتى أكلّمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرضَ عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قالوا: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم كانوا أهل أوثان وشرك، وكانوا إذا كان منهم شيء قالوا: إن نبياً الآن مبعوثٌ قد أظل زمانه، نتّبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فلمّا كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبيّ الذي توعّدكم به يهود، فلا يستبقُنّكم إليه، فأجابوه وصدّقوه وأسلموا، وقالوا: إنا قد تركنا قومَنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا به ﷺ [وصدّقوه]، فلما قدموا المدينة ذَكَرُوا لهم رسولَ الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم فلم يبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل، أتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك [بن العجلان]، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وهؤلاء خزرجيّون، وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، على أن لا يُشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا، إلى آخر الآية، «فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأُخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفارةٌ له، وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله إن شاء عذّبكم وإن شاء غفر لكم»، قال:

وذلك قبل أن يُفرض عليهم الحرب، قال: فلمّا انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مُصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمرَهُ أن يقرئهم القرآن ويُعلّمهم الإسلام ويُفقههم في الدين، وكان مُصعب يُسمى بالمدينة المقرىء، وكان منزله على أسعد بن زرارة، ثم إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، فجلسا في الحائط فاجتمع إليهما رجال ممن أسلم، فقال سعد بن معاذ لأُسيد بن حُضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيَا دارَنا ليسفّها ضعفاءَنا فازجرهما، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي [معهم]، ولولا ذلك لكفيتكه، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سَيِّدَيْ قومهما من بني عبدالأشهل وهما مشركان، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان في الحائط، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا والله سيد قومه قد جاءك، فاصدِق اللّهَ فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلمْهُ، قال: فوقف عليهما متشتّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره، قال: أنصفتَ، ثم ركّز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لَعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشراقة وجهه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا

وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسلُ وتُطهرُ ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي ركعتين، فقام واغتسل وطهّر ثوبيه، وشهد شهادة الحق ثم قام وركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، [و] سأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب [به] من عندكم، فلما وقف على النادي قال: قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمتُ الرجلين فوالله ما رأيتُ بهما بأساً وقد نهيتُهما، فقالا: فافعل ما أحببت، وقد حُدثتُ أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد مغضباً مبادراً للذي ذكره له من بني حارثة، فأخذ الحربة، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيد إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتّماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا مني تغشانا في دارنا بما نكره، قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد قومه، وإن اتّبعك لم يخالفك منهم أحد، فقال [له] مصعب: أوَ تقعد فتسمع فإن رضيتَ أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت، ثم ركزَ الحربة فجلس،

فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبيه وشهِّد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبدالأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلم ومسلمة، ورجع أسعد بن زرارة [ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة]، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائلاً وواقف، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر، وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدرٌ وأُحد والخندق، قال: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلاً

مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدُوا رسولَ الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وهي بيعة العقبة الثانية، قال كعب بن مالك: وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج، وكانت تلك الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم عمن معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلّمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عمّا أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ودعوناه إلى الإسلام فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة، وكان نقيباً، فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلّل مستخفين تسلّل القطا، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثّق له.

فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار خزرجها وأوسها، أن محمداً ﷺ منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعةٍ، قال: فقلنا: قد سمعنا ما قلت، فتكلمْ يا رسول الله وخذْ لنفسك ولربِّك ما شئت، قال: فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله تعالى ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم ونساءكم وأبناءكم»، قال: فأخذ البراء بن مَعْرُور بِيَدِهِ [ﷺ] ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أُزُرَنا فبايِعْنَا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً يعني العهود، وإنا قاطعوها فهل عسيتَ إن فعلنا نحن ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «الدمَ الدمَ والهدمَ الهدمَ، أنتم مني وأنا منكم، أحاربُ من حاربتم وأسالم من سالمتم»، وقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً كفلاءَ على قومهم بما فيهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم»، فأخرجوا اثني عشر نقيباً تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس.

قال عاصم بن عمر بن قتادة: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عُبادة بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالُكم مصيبةً وأشرافكم قتلىً أسلمتموه، فمِنَ الآن فهو والله إن فعلتم خِزْيٌ في الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دَعوتُموه إليه على تهلكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوهُ فهو والله خير في الدنيا والآخرة، قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: «الجنّة»، قال: ابسطْ يدَكَ فبسطَ يده فبايعوه، وأول من ضرب على يده [ﷺ] البراء بن مَعْرُور، ثم تتابع القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت، صوتاً ما سمعتُه قط: يا أهل الجباجب، هل لكم في مذمم والصباة قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا عدو الله هذا أزبّ العقبة، اسمع أيْ عدوّ الله، أما والله لأفرغنّ لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضّوا إلى رحالكم»، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل منىً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤمر بذلك

ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدتْ علينا جِلّةُ قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما حيٌّ من العرب أبغض إلينا أن ينشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث مِنْ هناك مِنْ مشركي قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، وصدقوا ولم يعلمُوا وبعضُنا ينظر إلى بعض، وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش، قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي فقال: والله لتنتعلنّهما، قال: يقول أبو جابر رضي الله عنه: مه والله لقد أحفظت الفتى فارددْ إليه نعله، قال: لا أردهما، [فأل والله صالح] والله لئن صدق الفأل لأسلبنه، قال: ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدّدوا العقد، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشاً فآذوا أصحاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الله تعالى قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها»، وأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار، فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي، ثم عامر بن ربيعة ثم عبدالله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً إلى المدينة فجمع الله أهلَ المدينة أوسَها وخزرَجَها بالإسلام وأصلح ذات بينهم بنبيّه محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾يا معشر الأنصار ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ قبل الإسلام ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام، ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾، أي: فصرتم، ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ برحمته وبدينه الإسلام، ﴿إِخْوَانًا﴾ في الدين والولاية بينكم، ﴿وَكُنتُمْ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾، أي: على طرف مثل شفا البئر [أي: طرفها]، معناه: وكنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم، ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله ﴿مِّنْهَا﴾ بالإيمان، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، أي: كونوا أمّةً، ﴿مِّن﴾ صلة ليست للتبعيض؛ كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، لم يُرِدْ اجتناب بعضَ الأوثان بل أراد اجتنبوا [جميع] الأوثان، واللام في قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر، ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾: إلى الإسلام، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر قال: أنا عبدالغافر بن محمد قال: أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر محمد بن أبي شيبة أخبرنا وكيع عن سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: قال أبو سعيد رضي الله عنهما:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فَبِلِسَانِهِ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

أخبرنا أبو عبدالله بن الفضل الخرقي قال: أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبدالله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني أخبرنا علي بن حُجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر أنا عمرو بن أبي عمرو عن عبدالله بن عبدالرحمٰن الأشهليّ عن حذيفة:

أن النبيّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتُنهونّ عن المنكر، أو ليوشِكَنّ اللّهُ أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لَتدعُنّه فلا يُستجاب لكم».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبوطاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا علي بن الحسين الدراوردي أخبرنا أبو النعمان أخبرنا عبدالعزيز بن مسلم القَسْمَلي أنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال:

سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فإني

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يوشك أن يعمّهم الله تعالىٰ بعقابه».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بن غياث أخبرنا أبي أنا الأعمش حدثني الشعبي أنه سمع النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول:

قال النبيّ ﷺ: «مثل المداهن في حدود الله تعالىٰ والواقع فيها، كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكانَ الذي في أسفلها يمرّ بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بدّ لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجّوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم».

(١٠٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾، قال أكثر المفسّرين: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: المبتدعة من هذه الأمة.

وقال أبو أمامة رضي الله عنه: هم الحرورية بالشام. قال عبدالله بن شداد: وقف أبو أمامة وأنا معه على رأس الحرورية بالشام، فقال: هم كلاب النار، كانوا مؤمنين فكفروا بعدَ إيمانهم، ثم قرأ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن عبدالملك بن عمير عن عبدالله بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سرّه أن يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة، فإن الشّيطان مع الفذّ، وهو من الاثنين أبعد».

قوله تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ نصبٌ على الظرف، أي: في يوم، وانتصاب الظرف على التشبيه بالمفعول، يريد: تبيّض وجوه المؤمنين وتسوّد وجوه الكافرين، وقيل: تبيّض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه الآية قال: تبيّض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: إذا كان يوم القيامة رُفع لكل قوم ما كانوا يعبدون، فيسعَى كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، وهو قوله تعالىٰ: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، فإذا انتهوا إليه حزنوا وتسودُّ وجوههم من الحزن، ويبقى أهل القبلة واليهود والنصارى لم يعرفوا شيئاً مما رُفع لهم فيأتيهم اللّهُ فيسجد له من كان يسجد في الدنيا مطيعاً مؤمناً ويبقى أهل الكتاب والمنافقون لا يستطيعون السجود، ثم يؤذن لهم فيرفعون رؤوسهم ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضاً والمنافقون وأهل الكتاب إذا نظروا إلى وجوه المؤمنين حزنُوا حُزناً شديداً فاسودتْ وجوهُهم، فيقولون: ربنا ما لنا مسودة وجوهنا، فوالله ما كنّا مشركين؟ فيقول الله للملائكة: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤]، قال أهل المعاني: ابيضاض الوجوه إشراقها واسْتِبْشارُها وسُرورها بعملِها وبثوابِ الله [تعالىٰ]، واسْوِدَادُها حُزنها وكآبتها وكُسوفها بعملها وبعذاب الله، يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٤] وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٠]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾، معناه: يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم، [﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾]، فإن قيلَ: كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيلَ: حُكي عن أُبي بن كعب أنه: أراد به الإيمان يوم الميثاق، حين قال لهم ربهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، يقول: أكفرتم بعد إيمانكم يوم الميثاق. وقال الحسن: هم المنافقون تكلّموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروا بقلوبهم،

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

٦٤

وعن عكرمة: إنهم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به، وقال قوم: هم من أهل قبلتنا، وقال أبو أُمامة: هم الخوارج، وقال قتادة: هم أهل البدع.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم عن نافع بن عُمر حدثني ابن أبي مُلَيْكَة عن أسماء بنت أبي بكر، قالت:

قال رسول الله ﷺ: «إني على الحوض حتى أنظر مَنْ يردُ عليّ منكم، وسيُؤخذ ناسٌ دُوني، فأقول: يا رب مني ومن أمّتي، فقال: هلْ شعرتَ ما عملوا بعدك؟ فوالله ما برِحُوا يرجعون على أعقابهم».

وقال الحارث الأعور: سمعت علياً رضي الله عنه على المنبر يقول: إن الرجل ليخرج من أهله فما يؤوب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنّة، وإن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار، ثم قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية، ثم نادى: هم الذي كفروا بعد الإيمان وربِّ الكعبة.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبدالله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكُشْمِيهني أنا علي بن حُجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبدالرحمٰن عن أبيه عن أبي هريرة:

أن رسول الله ﷺ قال: «بادرُوا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيعُ دِينَه بعَرضٍ من الدنيا».

﴿١٠٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، هؤلاء أهل الطاعة، ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، ففي جنة الله، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿١٠٨﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود وأُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حُذيفة، رضي الله عنهم، وذلك أنّ مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لهم: نحن أفضل منكم ودينُنا خير مما تدعونَنا إليه، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، ورَوَى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين هاجروا مع النبيّ ﷺ إلى المدينة، وقال جُويبر عن الضحاك: هم أصحاب محمد ﷺ خاصة، الرواة الدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم. ورُوي [عن] عمر بن الخطاب قال: كنتم خيرَ أُمةٍ أُخرجتْ للناس تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبدالرحمٰن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أخبرنا شُعبة عن أبي حمزة قال: سمعت زَهْدَم بن المُضَرِّب عن عمران بن حُصين رضي الله عنه:

عن النبيّ ﷺ قال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». قال عمران: لا أدري أذكر النبيّ ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، وقال: «إن بعدكم قوماً يخونون ولا يُؤتمنون ويشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمَن».

وبهذا الإسناد عن عليّ بن الجعد أخبرنا شعبة وأبو معاوية عن الأعمش عن ذكوان عن أبي سعيد:

عن النبيّ ﷺ قال: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن

أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدّ أحدِهم ولا نَصِيفَه».

وقال الآخرون: جميع المؤمنين من هذه الأمة، وقوله ﴿كُنتُم﴾ أي: أنتم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال في موضع آخر: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقيل: معناه كنتم خير أمة عند الله في اللوح المحفوظ، وقال قوم: قوله ﴿لِلنَّاسِ﴾ صلة قوله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أي: أنتم خير الناس للناس.

قال أبو هريرة معناه: كنتم خيرَ النّاس، تجيئون بهم في السلاسل فتُدخلونَهم في الإسلام، قال قتادة: هم أمة محمد ﷺ لم يُؤمرْ نبي قبله بالقتال، فهم يقاتلون الكفار فيُدخلونَهم في دينهم، فهم خير أمة للناس، وقيل: «للناس» صلة قوله أُخرِجتْ أي: ما أخرجَ اللَّهُ للناس أُمَّةً خيراً من أمة محمد ﷺ.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبدالله الحسين بن محمد الحافظ أخبرنا أبو علي الحسين بن محمد بن حبيش المقري أنا علي بن زنجويه أخبرنا سلمة بن شبيب أنا عبدالرزاق أنا معمر عن بهز بنِ حكيم عن أبيه عن جدّه:

أنه سمع النبيّ ﷺ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: «إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله عزّ وجلّ».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو معشر إبراهيم بن محمد الفيركي أخبرنا أبو عبدالله محمد بن زكريا بن يحيى أخبرنا أبو الصلت أخبرنا حماد بن زيد أخبرنا علي بن زيد عن أبي نَضْرة عن أبي سعيد الخدري:

عن النبيّ ﷺ قال: «ألا وإنّ هذه الأمة تُوفي سبعين أمة هي أخْيَرُها وأكرمُها على الله عزّ وجلّ».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن محمد أنا الفضل بن الفضل أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب قال عبدالرحمٰن يعني ابن المبارك أخبرنا حماد بن يحيى الأبح أنا ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أولهُ خيرٌ أم آخره».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو محمد المخلدي أخبرنا أبو نعيم عبدالملك بن محمد بن عدي أخبرنا أحمد بن عيسى التنيسي أخبرنا عمرو بن أبي سلمة أخبرنا صدقة بن عبدالله عن زهير بن محمد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حُرّمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحُرّمتْ على الأمم كلهم حتى تدخلها أمتي».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي قال: أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبدالله الحسين بن محمد أخبرنا أبو القاسم عمر بن محمد بن عبدالله بن حاتم الترمذي أخبرنا جدي لأمي محمد بن عبدالله بن مرزوق أنا عفان بن مسلم أنا عبدالعزيز بن مسلم أخبرنا أبو سنان يعني ضرار بن مرة عن محارب بن دثار عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال:

قال رسول الله ﷺ: «أهلُ الجنةِ عشرونَ ومائةُ صف، ثمانون من هذه الأمة».

قوله تعالىٰ: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: الكافرون.

﴿١١١﴾ قوله تعالىٰ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾، قال مقاتل: إن رؤوس اليهود عمدُوا إلى مَنْ آمن منهم كعبدالله بن سلام وأصحابه، فآذوهم فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، يعني: لا يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذىً باللسان وَعِيداً وطعناً، وقيل: كلمة كفر تتأذون بها ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، بل يكون لكم النصر عليهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، حيثُ ما وُجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعني: أينما وُجدوا استُضعفُوا وقُتلوا أو سُبُوا فلا يأمنون إلا بحبلٍ: عهدٍ منَ الله تعالىٰ بأن يُسلمُوا، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من المؤمنين ببذلِ جزية أو أمانٍ، يعني من الله: إلا أن يعتصمُوا بحبل الله فيأمنوا [على أنفسهم وأموالهم].

الجزء الرابع — سورة آل عمران

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

٦٥

قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، رجعوا به، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿١١٣﴾ قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: لما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارُنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، واختلفوا في وجهها، فقال قوم: فيه اختصار تقديره: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمة وأخرى غير قائمة، فتركَ الأخرى اكتفاءً بذكر أحد الفريقين، وقال الآخرون: تمام الكلام عند قوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ وهو وقف، لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب في قوله تعالى:]: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾، يعني: المؤمنين والفاسقين، ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾، ووصف المؤمنين بقوله: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، وقيل: قوله ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ابتداء كلام آخر، لأن ذكر الفريقين قد جرى، ثم قال: ليس هذان الفريقان سواءً، ثم ابتدأ فقال: من أهل الكتاب. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق المستقيمة، وقوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ قال ابن عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يضيِّعوه ولم يتركوه.

وقال مجاهد: عادلة. وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحدوده. وقيل: قائمة في الصلاة. وقيل: الأمة الطريقة. ومعنى الآية: أي ذو أمةٍ، أي: ذو طريقةٍ مستقيمة. ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، يقرؤون كتابَ الله، وقال مجاهد: يتبعون ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: ساعاته، واحدها: إنْيٌ وآناء، مثل نِحْيٌ وأنحاء، وإنىً وآناء مثل: مِعَىً وأمعاء، وأنَى مثل مَنا وأمناء، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، أي: يصلّون، لأن التلاوة لا تكون في السجود، واختلفوا في معناها، فقال بعضهم: هي قيام الليل، وقال ابن مسعود: هي صلاة العتمة يصلّونها ولا يصلّيها من سواهم من أهل الكتاب، وقال عطاء: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ الآية، يريد: أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدّقوا محمداً ﷺ وكان من الأنصار منهم عدة قبل قدوم النبيّ ﷺ منهم أسعد بن زرارة والبراء بن مَعْرُور ومحمد بن مسلمة ومحمود بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس، كانوا موحّدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبيّ ﷺ فصدّقوه ونصروه.

﴿١١٤﴾ قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء فيهما إخبار عن الأمة القائمة، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما؛ لقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وأبو عمرو يَرَى القراءتين جميعاً، ومعنى هذه الآية: وما تفعلوا من خير فلن تُعدموا ثوابَه بل يشكر لكم وتجازون عليه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾، بالمؤمنين.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: لا تدفع أموالهم بالفدية وأولادهم بالنصرة من الله شيئاً، أي: من عذاب الله، وخصّهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه

تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد. ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وإنما جعلهم من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يُفارقونها، كصاحب الرجل لا يفارقه.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قيل: أراد نفقات أبي سفيان وأصحابه ببدرٍ وأحد على عداوة رسول الله ﷺ وقال مقاتل: أراد نفقة اليهود على علمائهم، قال مجاهد: يعني جميع نفقات الكفار [في الدنيا] وصدقاتهم، وقيل: أراد إنفاق المرائي الذي لا يبتغي به وجهَ الله تعالىٰ، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها السَّموم الحارة التي تقتل، وقيل: فيها صِرٌّ أي: صوت، وأكثر المفسّرين قالوا: فيها برد شديد، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ [زرعَ قوم]، ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالىٰ، ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾، فمعنى الآية: مثل نفقات الكفار وذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع أصحابه منه بشيء، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾، [بذلك]، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بالكفر والمعصية.

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لِما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم، وقال مجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين فنهاهم الله تعالىٰ عن ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، أي: أولياء أصفياء من غير أهل ملّتكم، وبطانة الرجل: خاصّته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه، لأنهم يستبطنون أمرَه ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرُهم، ثم بيّن العلةَ في النهي عن مباطنتهم، فقال جلّ ذكره: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يُورثكم الشرَّ والفساد، [والخَبالُ: الشرُّ والفساد]، ونصب ﴿خَبَالًا﴾ على المفعول الثاني، لأن «يألو» يتعدّى إلى مفعولين، وقيل: بنزع الخافض، أي بالخبال، كما يقال: أوجعته ضرباً، ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: يودُّون ما يشق عليكم من الضُّر والشر والهلاك، والعنت: المشقة، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾، أي: البغض، معناه ظهرتْ أمارة العداوة، ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، بالشتيمة والوقيعة في المسلمين، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾، من العداوة والغيظ، ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ ها تنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور، ﴿أُولَاءِ﴾ اسم للمشار إليه، يريد: أنتم أيها المؤمنون، ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾، أي: تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التي بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة، ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لما بينكم من مخالفة الدين، وقال مقاتل: هم المنافقون يحبهم المؤمنون لِما أظهروا من الإيمان، ولا يعلمون ما في قلوبهم، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، يعني: بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا﴾، وكان بعضهم مع بعض ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾، يعني: أطراف الأصابع واحدتها أنملة بضم الميم وفتحها، ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم، [وعضّ الأنامل عبارة عن شدّة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال]، وإن لم يكن ثم عض، ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، أي: ابقوا إلى الممات بغيظكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما في القلوب من خير وشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾، أي: تُصبكم أيها المؤمنون ﴿حَسَنَةٌ﴾ بظهوركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وخصب في معايشكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾، تُحزنهم، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾، مساءةٌ بإخفاق سرية لكم أو إصابة عدوٍّ منكم، واختلاف يكون بينكم أو جدبٍ أو نكبة تصبكم، ﴿يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ تخافوا ربكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾، أي: لا ينقصكم، ﴿كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، قرأ ابن كثير ونافع

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

وأهل البصرة: ﴿لَا يَضِرْكُمْ﴾ بكسر الضاد خفيفة، يقال: ضار يضير ضيراً، وهو جزم على جواب الجزاء، وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء من ضرّ يضرّ ضراً، مثل ردّ يردّ رداً وفي رفعه وجهان، أحدهما: أنه أراد الجزم، وأصله يضرركم أُدغمت الراء في الراء، ونُقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد وضمّت الثانية اتّباعاً، والثاني: أن يكون لا بمعنى ليس ويضمر فيه الفاء، تقديره: وإن تصبروا وتتقوا فليس يضركم كيدهم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: عالم.

﴿١٢١﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، قال الحسن: هو يوم بدر، وقال مقاتل: يوم الأحزاب، وقال سائر المفسرين: هو يوم أُحد، لأن ما بعده إلى قريب من آخر السورة في حرب أُحد، وقال مجاهد والكلبي والواقدي: غدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة رضي الله عنها يمشي على رجليه إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح.

قال محمد بن إسحاق والسدي عن رجالهما:

إن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبدالله بن أُبي ابن سلول ولم يدعُهُ قط قبلها فاستشاره، فقال عبدالله بن أُبي وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ قط إلا أصاب منّا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشرّ مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق، وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله ﷺ هذا الرأي، وقال بعض أصحابه: يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب، لا يرون أنا جُبنّا عنهم وضَعُفنا، وقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت في منامي بقراً تذبح فأوّلتُها خيراً، ورأيتُ في ذُباب سيفي ثَلماً فأولتها هزيمةً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة»، وكان يعجبه أن يدخلوا عليهم بالمدينة فيقاتلوا في الأزقة، فقال رجال من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا برسول الله ﷺ من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ، فلبس لأمته فلمّا رأوه قد لبس السلاح ندِموا، وقالوا: بئس ما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما رأيتَ، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمتّه فيضعها حتى يقاتل»، وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس، فراح رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعدما صلّى بأصحابه الجمعة وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلّى عليه رسول الله ﷺ، ثم خرج إليهم، فأصبح بالشِّعب من أُحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، فكان من [أمر] حرب أُحد ما كان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي واذكر إذ غدوت من أهلك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزل المؤمنين ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، أي: مواطن، ومواضع للقتال، يقال: بوأتُ القوم إذا وطنتُهم، وتبوّؤا هم إذا تواطنوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧]، وقيل: تتخذ معسكراً، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾، أي: تَجبُنا وتضعُفا

وتتخلّفا، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل: في تسعمائة وخمسين رجلاً، فلما بلغوا الشوط اتخذ عبدالله بن أُبي بثلث الناس ورجع في ثلاث مائة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر السلمي، فقال: أنشدكم الله في نبيّكم وفي أنفسكم، فقال عبدالله بن أُبي: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهمّتْ بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبدالله بن أُبي، فعصمهم الله فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيمَ نعمتِه، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، ناصرهما وحافظهما [عن الانصراف من القتال]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يوسف عن ابن عيينة عن [عمرو] عن جابر قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بنو سلمة وبنو حارثة، وما أُحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

(١٢٣) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، وبدر موضع بين مكة والمدينة وهو اسم لموضع، وعليه الأكثرون، وقيل: اسم لبئر هناك، وقيل: كانت بدر بئراً لرجل يقال له بدر، قاله الشعبي، وأنكر الآخرون عليه، يذكر الله تعالى في هذه الآية مِنّتَهُ عليهم بالنصرة يوم بدر، ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، جمع: ذليل، وأراد به قلة العدد فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فنصرهم الله مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾، اختلفوا في هذه الآية، فقال قتادة: كان [هذا] يوم بدر أمدّهم الله تعالى بألفٍ من الملائكة؛ كما قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: ٩]، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر هٰهنا، ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، فصبروا يوم بدر واتقوا فأمدّهم الله بخمسة آلاف [من الملائكة] كما وعد، قال الحسن: وهؤلاء الخمسة الآلاف رِدْءُ المؤمنين إلى يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون، وإنما يكونون عدداً ومَدداً.

قال محمد بن إسحاق: لمّا كان يوم أُحد انجلى القوم عن رسول الله ﷺ وبقي سعد بن مالك يرمي، وفتىً شابٌّ يتنبل له فلما فني النبل أتاه به فنثره، فقال: ارم أبا إسحاق مرتين، فلما انجلتِ المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يُعرف.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالعزيز بن عبدالله أنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جدّه عن سعد بن أبي وقاص قال:

رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشدّ القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد.

رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، قال: أخبرنا محمد بن بشر وأبو أسامة عن مسعر عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن سعد يعني ابن أبي وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أُحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني: جبريل وميكائيل.

وقال الشعبي: بلغ رسول الله ﷺ والمسلمين يوم بدر: أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمدّ المشركين فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، فبلغ كرزاً الهزيمةُ فرجع فلم يأتِهِمْ ولم يَمُدّهم، فلم يمدّهم الله أيضاً بالخمسة آلاف، وكانوا قد أمدوا بألف.

وقال الآخرون: إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتّقوا محارمه أن يمدّهم أيضاً في حروبهم كلّها، فلم يصبروا إلاّ يوم الأحزاب، فأمدّهم الله حتى حاصروا قُريظة والنضير.

قال عبدالله بن أبي أوفى: كنّا

محاصري قريظة والنضير ما شاء الله فلم يُفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله ﷺ بغِسْلٍ فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام، فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها؟ فدعا رسول الله ﷺ بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدّنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة، ففتح لنا فتحاً يسيراً.

وقال الضحاك وعكرمة: كان هذا يوم أحد وَعَدَهم الله المَدَد إن صبرُوا فلم يصبروا فلم يُمدّوا به.

قوله تعالى: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾، الإمداد: إعانة الجيش بالجيش، وقيل: ما كان على جهة القوة والإعانة، يقال فيه: أمدّه إمداداً، وما كان على جهة الزيادة، ويقال فيه: مدّه مدّاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقيل: المدّ في الشر، والإمداد في الخير، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، وقال في الخير: [﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾] [الأنفال: ٩]، وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٢٦]، قوله تعالى: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي على التكثير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقرأ الآخرون بالتخفيف دليله قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]، ثم قال: ﴿بَلَىٰ﴾ يمددكم ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ لعدوكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفة نبيكم ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ [يعني المشركين] ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والحسن وأكثر المفسّرين: من وجههم هذا، وقال مجاهد والضحاك: من غضبهم هذا لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر، ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾، لم يرد خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف، بل أراد معهم، وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، أي: معلمين، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو، وقرأ الآخرون بفتحها، فمن كسر الواو أراد أنهم سَوّموا خيلهم، ومن فتحها أراد به أنفسهم، والتسويم: الإعلام من السومة وهي العلامة، واختلفوا في تلك العلامة، فقال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بُلق عليهم عمائم صُفر، وقال علي وابن عباس رضي الله عنهم: [كانت عليهم] عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، وقال هشام بن عروة والكلبي: عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وقال الضحاك وقتادة: كانوا قد أعلموا بالعهن في نواصي الخيل وأذنابها، ورُوي أن النبيّ ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «تسوّمُوا فإنّ الملائكة قد تسوّمتْ بالصوفِ الأبيض في قلانسهم ومغافرهم».

(١٢٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ يعني هذا الوعد والمدد، ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾، أي: بشارة لتستبشروا به ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ ولتسكن ﴿قُلُوبُكُم بِهِ﴾ فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلّة عددكم، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، يعني: لا تحيلوا بالنصر على الملائكة والجند، فإن النصر من الله تعالى فاستعينوا به وتوكّلوا عليه، فإن العزّ والحُكم له.

(١٢٧) قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقول لقد نصركم الله [ببدر] ليقطع طرفاً، أي: لكي يهلك طائفة من الذين كفروا، وقال السدي: معناه ليهدم ركناً من أركان الشرك بالقتل والأسر، فقُتل من قادتهم وسادتهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون، ومن حملَ الآيةَ على حرب أُحد، فقد قُتل منهم يومئذ ستة عشر وكان النصر للمسلمين حتى خالفوا أمر الرسول ﷺ فانقلب عليهم، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ قال الكلبي: يهزمهم، وقال يمان: يصرعهم لوجوههم، قال السدي: يلعنهم، وقال أبو عُبيدة: يهلكهم، وقيل: يحزنهم، والمكبوت: الحزين، وقيل: [أصله] يكبدهم، أي: يصيب الحزن والغيظ أكبادهم، والتاء والدال يتعاقبان كما يقال: سبت رأسه وسبده إذا حلقه، وقيل: يكبتهم بالخيبة، ﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، لم ينالوا شيئاً ممّا كانوا يرجونه من الظفر بكم.

(١٢٨) قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية.

فقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء بعثهم رسول الله ﷺ إلى أهل بئر

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحد ليُعلِّموا الناس القرآن والعلمَ أميرهم المنذر بن عمرو، فقتلهم عامر بن الطفيل، فوَجَدَ رسول الله ﷺ من ذلك وَجْداً شديداً، وقنت شهراً في الصلوات كلّها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللّعن والسّنين، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا حبان بن موسى أخبرنا عبدالله يعني ابن المبارك أخبرنا معمر عن الزهري قال: حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللّهمّ العن فلاناً وفلاناً وفلاناً، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وقال قوم: نزلت يوم أُحد.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أخبرنا مسلم بن الحجاج أخبرنا عبدالله بن مسلمة بن قعنب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنهما:

أن رسول الله ﷺ كُسرت رُباعيته يوم أُحد وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلتُ الدمُ عنه ويقول: «كيفَ يُفلحُ قومٌ شجوا نبيّهم وكسروا رُباعيته، وهو يدعُوهم إلى الله عزّ وجلّ»؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أُحد: «اللّهمّ العن أبا سفيان اللهمّ العن الحارث بن هشام، اللّهمّ العن صفوان بن أمية»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فأسلموا وحَسُن إسلامُهم.

وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن إسحاق: لـمّا رأى رسول الله ﷺ والمسلمون يوم أحد ما أصابهم من جدع الآذان والأنوف وقطع المذاكير، قالوا: لئن أدالَنا اللّهُ تعالىٰ منهم لنفعلنّ بهم مثل ما فعلوا، ولنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحدٌ من العرب بأحد، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية، [وقيل: أراد النبيّ ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال، فنزلت هذه الآية]، وذلك لعلمه فيهم بأن كثيراً منهم يسلمون. قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي: ليس إليك، اللام بمعنى «إلى»؛ كقوله تعالىٰ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، أي: إلى الإيمان، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، قال بعضهم: معناه حتى يتوب عليهم، أو: إلا أن يتوب عليهم، وقيل: هو نسق على قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [اعتراض بين نظم الكلام، ونظم الآية: ليقطعَ طرفاً من الذين كفروا أو يكبتَهم أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمرُ أمري في ذلك كله].

﴿١٢٩﴾ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٣٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾، أراد به ما كانوا يفعلونه عند حلول أجل الدَّين من زيادةِ المال على الدين وتأخير الطلب، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أمر الرِّبا فلا تأكلوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿١٣١﴾ ثم خوّفهم فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ

﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ لكي ترحموا.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام سارعوا بلا واو وقرأ الباقون بالواو ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [أي] بادروا وسابقوا إلى الأعمال التي تُوجب المغفرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى الإسلام، ورُوي عنه: إلى التوبة، وبه قال عكرمة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض، وقال أبو العالية: إلى الهجرة، وقال الضحاك: إلى الجهاد، وقال مقاتل: إلى الأعمال الصالحة. ورُوي عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ أي وإلى جنةٍ ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، أي: عرضها كعرض السماوات والأرض، كما قال في سورة الحديد: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١] أي: سعتها، وإنما ذكر العرض على المبالغة لأن طول كل شيء في الأغلب أكبر من عرضه، يقول: هذه صفة عَرْضِها فكيفَ طُولها؟ قال الزهري: وإنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلا الله [تعالى] وهذا على التمثيل لا أنها كالسماوات والأرض لا غير معناه: كعرض السماوات السبع والأرضين السبع عند ظنكم، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: ١٠٧] يعني: عند ظنكم وإلا فهما زائلتان، وروي عن طارق بن شهاب: أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه رضي الله عنهم، قالوا: أرأيتم قولَهُ ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فأين النار؟ فقال: عمر: أفرأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار، وإذا جاء النهار فأين يكون الليل؟ فقالوا: إنه لمثلها في التوراة، ومعناه أنه حيث يشاء الله، فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وأراد بالذي وعدَنَا: الجنة فإذا كانتِ الجنةُ في السماء فكيف يكون عرضُها السماوات والأرض قيل إن باب الجنة في السماء وعرضها السماوات والأرض، كما أخبر، وسُئل أنس بن مالك رضي الله عنه عن الجنة: أفي السماء [هي] أم في الأرض؟ فقال: [و] أي أرض وسماء تسع الجنة؟ فقيل: فأين هي؟ قال: فوق السماوات السبع تحت العرش [و] قال قتادة: كانوا يرون [أن] الجنة فوق السماوات السبع، وأن جهنم تحتَ الأرضين السبع. ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿١٣٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، أي: في اليُسر والعُسر، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكرَ السَّخَاوَةَ وقد جاء في الحديث.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا أبو عمر الفراتي أخبرنا أبو العباس أحمد بن إسماعيل العنبري، أخبرنا أبو عبدالله بن حازم البغوي بمكة أخبرنا أبو صالح بن أيوب الهاشمي أخبرنا إبراهيم بن سعد أخبرنا سعيد بن محمد عن يحيى بن سعيد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«السخي قريبٌ منَ اللّهِ قريبٌ منَ الجنةِ قريبٌ من النّاس، بعيدٌ منَ النّار، والبخيلُ بعيدٌ من اللّهِ بعيدٌ منَ الجنةِ بعيدٌ منَ الناسِ قريبٌ منَ النّار، والجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل».

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: الجارعين الغيظَ عند امتلاء نفوسهم منه، والكظم: حبس الشيء عند امتلائه، وكظم الغيظ أن يمتلىء غيظاً فيردّه في جوفه ولا يُظهره. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا أبو عمرو الفراتي أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد الإسفراييني أخبرنا أبو عبدالله بن محمد بن زكريا الغلابي أخبرنا رَوح بن عبدالمؤمن أخبرنا أبو عبدالرحمن المُقْرِي أخبرنا سعيد بن أبي أيوب قال: حدثني أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كظمَ غيظاً وهو يقدرُ على أن ينفذَه دعاهُ اللّهُ يومَ القيامة على رُؤوسِ الخلائقِ حتى يخيّره من أيِّ الحُورِ شاء».

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، قال الكلبي عن المملوكين سوء الأدب، وقال زيد بن أسلم ومقاتل: عمّن ظلمهم وأساء إليهم. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿١٣٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ الآية.

قال ابن مسعود: قال المؤمنون: يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منّا، كان أحدهمْ إذا أذنب [أصبحت] كفارة ذنبه مكتوبةً في عَتَبةِ بابهِ، اجدعْ أنفك أو أذنك، افعل كذا وكذا، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عطاء: نزلت في نبهان التمار وكنيته أبو معبد أتته امرأة حسناء، تبتاع منه تمراً فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه وقبلها، فقالتْ له: اتقِ الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ، وذكر ذلك، فنزلتْ هذه الآية.

وقال مقاتل والكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف فخرج الثقفي في غزاة واستخلف الأنصاريَّ على أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذ منه دخل على أثرِها وقبّل يدها، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي [من الغزاة] لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله، فقالت: لا أكثر الله في الإِخوان مثله ووصفت له الحال، والأنصاري يسيح في الجبال تائباً مستغفراً، فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجاً وقال الأنصاري: هلكتُ، وذكر القصة، فقال أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقال مثل ذلك، فأتيا النبيَّ ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾.

يعني: قبيحة خارجة عما أذن الله تعالى فيه، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحدّ، قال جابر: الفاحشة الزنا، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ما دون الزنا من القبلة والمعانقة والنظر واللمس، وقال مقاتل والكلبي: الفاحشة ما دون الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل، أو ظلموا أنفسهم بالمعصية، وقيل: فعلوا فاحشة الكبائر، أو ظلموا أنفسهم بالصغائر. وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً أو ظلموا أنفسهم قولاً، ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ذكروا وعيد الله، أن الله سائلهم، وقال مقاتل بن حيان: ذكروا الله باللسان عند الذنوب، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: وهل يغفر الذنوب إلا الله، ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي: لم يُقيموا ولم يثبتوا عليه، ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا، وأصل الإِصرار: الثبات على الشيء، قال الحسن: إتيان العبد ذنباً عمداً إصرارٌ حتى يتوب. وقال السدي: الإِصرار: السكوت وترك الاستغفار.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الريّاني أخبرنا حميد بن زنجويه أنا يحيى بن يحيى أنا عبدالحميد بن عبدالرحمن عن عثمان بن واقد العمري عن أبي نصيرة قال: لقيت مولًى لأبي بكر رضي الله عنه فقلتُ له: أسَمِعْتَ من أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم سمعتُه يقول: قال رسول الله ﷺ:

«ما أصرَّ مَنِ استغفر، وإنْ عاد في اليوم سبعين مرّة».

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، قال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: وهم يعلمون أنها معصية، وقيل: وهم يعلمون أن الإِصرار ضار، وقال الضحاك: وهم يعلمون أن الله [تعالى] يملك مغفرة الذنوب، وقال الحسين بن الفضل: أن لهم ربّاً يغفر الذنوب، وقيل: وهم يعلمون أنّ الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثُرت، وقيل: وهم يعلمون أنهم إن استغفرُوا غُفرَ لهم.

﴿١٣٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، ثوابُ المطيعين.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الريّاني أنا حميد بن زنجويه أنا عفان بن مسلم أنا أبو عَوانة أنا عثمان بن المغيرة عن علي بن ربيعة الأسدي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته وإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه: سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ عَبدٍ مُؤمنٍ يُذنِبُ ذنباً فيُحسنُ الطّهورَ ثم يقومُ فيصلي ثم

يستغفرُ اللّهَ إلا غَفَرَ اللّهُ له»، ورواه أبو عيسى عن قتيبة عن أبي عُوانة وزاد: ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الريّاني أنا حميد بن زنجويه أنا هشام بن عبدالملك أخبرنا همام عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة قال: كان قاضٍ بالمدينة يقال له: عبدالرحمن بن أبي عَمْرة فسمعته يقول:

سمعتُ أبا هريرة يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ عبداً أذنب ذنباً فقال: أيْ ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفرْهُ لي، قال: فقال ربُّه عزّ وجلّ: عَلِمَ عَبدي أنّ له رباً يَغفِرُ الذنبَ ويأخذُ به فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفرْهُ لي، فقال ربه عزّ وجلّ: عَلِمَ عَبدي أنّ له رباً يَغفِرُ الذنبَ ويأخذُ بِهِ قدْ غَفَرْتُ لعبدي فليفعلْ ما شاء».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حُميد بن زنجويه أخبرنا النعمان السدوسي أخبرنا المهدي بن ميمون أخبرنا غيلان بن جرير عن شهر بن حَوْشَب عن مَعْدِيَ كرب، وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى [قال]:

«قال الله: يا ابنَ آدمَ إنّك ما دعوتَني ورَجَوْتَني غفرتُ لكَ على ما كان منك، ابنَ آدمَ إنّك إنْ تلقاني بقُرَابِ الأرضِ خَطايَا لقيتُكَ بقُرَابِهَا مغفرةً بعد أنْ لا تُشرِكَ بي شيئاً، ابنَ آدمَ إنّك إن تُذْنِبْ حتى تبلغ ذنوبكَ عنانَ السماء ثم تستغفرني أغفرُ لك».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين الحسني أنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر أخبرنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

«قال الله تعالى: مَنْ علمَ أني ذُو قُدْرَةٍ على مغفرةِ الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يُشركْ بي شيئاً».

قال ثابت البناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً﴾ إلى آخرها.

(١٣٧) قوله تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، قال عطاء: شرائع، وقال الكلبي: مضتْ لكل أمة سُنّة ومنهاج إذا اتبعوها رضي الله عنهم، وقال مجاهد: قد خلت من قبلكم سُننٌ بالهلاكِ فيمن كذّب قبلكم، وقيل: سُننٌ أي: أُمَمٌ، والسّنّةُ: الأمّةُ، قال الشاعر:

ما عاينَ الناسُ من فضلٍ كفضلِكم
ولا رأوا مثلكم في سالف السّنَنِ

وقيل معناه: أهل السنن، والسنة [هي]: الطريقة المتبعة في الخير والشر، يقال: سنّ فلانٌ سُنّةً حسنةً، وسُنّةً سيئةً إذا عمل عملاً اقْتُدِيَ بِهِ فيهِ مِنْ خيرٍ وشر، ومعنى الآية: قد مضتْ وسلفتْ مني سننٌ فيمن كان قبلكم من الأُممِ الماضيةِ الكافرة، بإمهالي واستدراجي إيّاهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلتُه لإهلاكهم، وإدالةُ أنبيائي عليهم. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: آخر أمر المكذبين، وهذا في حرب أُحد، يقول الله عزّ وجلّ: فأنا أُمهلهم وأستدرجُهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلتُه في نصرة النبي ﷺ وأوليائه وإهلاك أعدائه.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا القرآن، ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾، عامة، ﴿وَهُدًى﴾، من الضلالة، ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، خاصة.

(١٣٩) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، هذا حثٌ لأصحاب النبي ﷺ على الجهاد والصبر على ما أصابهم من القتل والجراح يوم أُحد، يقول الله تعالى: ولا تهِنُوا أي: لا تضْعُفوا ولا تجبُنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح، وكان قد قُتل يومئذٍ من المهاجرين خمسة منهم: حمزةُ بن عبدالمطلب ومُصعبُ بن عُمير، وقُتل من الأنصار سبعون رجلاً، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فإنكم ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ بأن يكون لكم العاقبة بالنصر والظفر على أعدائكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إذ كنتم مؤمنين [على سنتي] أي: لأنكم مؤمنون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشّعب فأقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهمّ لا

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

يعلون علينا اللهمّ لا قوّةَ لنا إلاّ بك»، وثاب نفرٌ من المسلمين رماةٌ فصعدُوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

وقال الكلبي: نزلت هذه الآية بعد يوم أُحد حين أمر النبي ﷺ أصحابه بطلب القوم بعدما أصابهم من الجراح، فاشتدّ ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿١٤٠﴾ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿قُرْحٌ﴾ بضم القاف حيث جاء، وقرأ الآخرون بالفتح وهما لغتان معناهما واحد كالجُهد والجَهد، وقال الفراء: [القرح] بالفتح اسم للجراحة، وبالضم اسم لألم الجراحة، هذا خطاب مع المسلمين حيث انصرفوا من أُحد مع الكآبة والحزن، يقول الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يوم أُحد، ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، يوم بدر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، فيومٌ لهم ويومٌ عليهم، أُديل المسلمون على المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأَسَرُوا سبعين، وأُديل المشركون من المسلمين يوم أُحد حتى جرحوا منه سبعين وقتلوا خمساً وسبعين.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد الميلحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد أنا زهير أخبرنا أبو إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب يحدث قال: جعل النبي ﷺ على الرّجالة يوم أُحد وكانوا خمسين رجلاً عبدَ الله بن جُبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تَبْرَحُوا مكانَكم هذا حتى أُرسلَ إليكم وإنْ رأيتُمونَا هزمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحُوا حتى أُرسل إليكم»، فهزمُوهم، قال: فإنا واللّهِ رأيتُ النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبدالله بن جُبير: الغنيمة، أيْ قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جُبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينّ الناسَ فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفتْ وجُوهُهم فأقبلوا منهزمين. فذلك قوله ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فلم يبقَ مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً فأصابوا منّا سبعين. وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا، فما مَلَك عمرُ نفسَه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءُك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال، إنكم ستجدون في القوم مُثلةً لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أُعل هُبَلَ أُعل هُبَل، فقال النبي ﷺ: «ألاَ تُجيبوه»؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا اللّهُ أعلى وأجل»، قال إن لنا العُزى ولا عُزى لكم، فقال النبي ﷺ: «ألاَ تُجيبوه»؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم».

ورُوي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي حديثه قال أبو سفيان: يومٌ بيوم وإن الأيام دُول والحرب سجال، فقال عمر رضي الله عنه: لا سَواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

قال الزجاج: الدولة تكون

للمسلمين على الكفار، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وكانت يوم أُحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: إنما كانت هذه المداولة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليرى اللَّهُ الذين آمنوا فيميز المؤمن من المنافق، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، يُكرم أقواماً بالشهادة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُطهركم من الذنوب، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يُفنيهم ويُهلكهم، معناه: أنهم إن قتلوكم فهو تطهيرٌ لكم، وإن قتلتموهم فهو محقُهم واستئصالُهم.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي: أحسبتم؟ ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ [أي: ولم يعلم اللَّهُ]، ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾، وذلك أن قوماً من المسلمين تمنَّوا يوماً كيوم بدر ليقاتلوا ويستشهدوا فأراهم اللَّهُ يوم أُحد، وقوله: ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: سبب الموت وهو الجهاد من قبل أن تلقوه، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني: أسبابه، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، بعد قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾؟ قيل: ذكره تأكيداً، وقيل: الرؤية قد تكون بمعنى العلم، فقال: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ليعلم، أن المراد بالرؤية النظر، وقيل: معناه: وأنتم تنظرون إلى رسول الله ﷺ.

(١٤٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، قال أصحاب المغازي:

خرج رسول الله ﷺ حتى نزل بالشِّعب من أُحد في سبعمائة رجل، وجعل عبدالله بن جُبير [وهو أخو خَوات بن جبير] على الرّجالة، وكانوا خمسين رجلاً، وقال: أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنّا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، فإن كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم حتى أُرسل إليكم وأنّا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب فأخذ رسول الله ﷺ سيفاً فقال من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يُثخن، فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما أخذه اعتمّ بعمامة حمراء وجعل يتبختر فقال رسول الله ﷺ: «إنّها لَمشيةٌ يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع»، ففلق به هام المشركين، وحمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزموهم.

وروينا عن البراء بن عازب قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خَلاخِلهنّ وأسْوُقهن رافعاتٍ ثيابهن فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمةَ والله لنأتينّ الناس فلَنُصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم.

قال الزبير بن العوام: فرأيت هنداً وصواحباتها هارباتٍ مصعدات في الجبل، باديات خدامهن ما دون أخذهنّ شيء، فلما نظرت الرماةُ إلى القوم قد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينتهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب، فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة، ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم فهزموهم وقتلوهم، ورمى عبدالله بن قميئة رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه، ورُباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرّق عنه أصحابه ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة ليعلوها، وكان قد ظاهر بين درعين، فلم يستطع أن ينهضَ إليها فجلس تحته طلحة [فنهض] حتى استوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أوْجَبَ طلحةُ» ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعنَ الآذانَ والأنوفَ حتى اتخذت هند من ذلك قلائد، وأعطتْها وحشياً وبقرتْ عن كبد حمزة فلاكَتْها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها، وأقبل عبدالله بن قمئة يريد قتل النبي ﷺ فَذَبَّ عنه مصعب بن عمير ـ وهو صاحب راية رسول الله ﷺ ـ عن رسول الله ﷺ فقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ، فرجع إلى المشركين وقال: إني قتلت محمداً وصاح صارخ ألاَ إنّ محمداً قد قُتل، ويقال: إن ذلك الصارخ كان إبليس لعنة الله عليه، فانكفأ الناس، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «إليّ عبادَ الله إليّ عبادَ الله»، فاجتمع إليه

ثلاثون رجلاً فحمُوه حتى كشفوا عنه المشركين، ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقتْ سيَة قوسه، ونثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال له: «ارمِ فداك أبي وأمي»، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النّزع كَسَر يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر بجعبة من النبل فيقول: انثرْها لأبي طلحة، وكان إذا رمى اشرف النبي ﷺ فينظر إلى موضع نبله، وأصيبت يَدُ طلحة بن عبيد الله فيبست حين وقَى بها رسول الله ﷺ، وأُصيبت عينُ قتادة بن النعمان يومئذٍ حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ مكانها، فعادت كأحسن ما كانت، فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أُبي بن خلف الجمحي، وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ. فقال القوم: يا رسول الله لا يعطف عليه رجل منّا؟ فقال ﷺ: دعوه حتى إذا دَنى منه، وكان أُبي قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول له: عندي رمكة أعلفها كل يوم فَرَقَ ذُوة أقتُلُكَ عليها، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتُلك إن شاء الله»، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه، فخدشه خدشةً فتدهدأ عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور، ويقول: قتلني محمد، فأخذه أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس، فقال: بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومُضر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث إلا يوماً حتى مات بموضع يقال له سرف.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي [حدثنا محمد بن يوسف] أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن علي أنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اشتدّ غضبُ الله على من قتله نبي واشتدّ غضبُ الله على من دَمى وجه رسول الله ﷺ.

قالوا: وفشا في الناس أن محمداً قد قُتل فقال بعض المسلمين: ليتَ لنا رسولاً إلى عبدالله بن أُبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمد قد قُتل فالحقوا بدينكم الأول، فقال أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك: يا قوم إن كان [محمد] قد قتل فإن ربَّ محمد لم يُقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ ومُوتُوا على ما مات عليه ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين، ثم شدّ بسفيه فقاتل حتى قُتل، ثم إن رسول الله ﷺ انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس، فأول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، فقال: عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ أنِ اسكتْ، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبي ﷺ على الفِرار، فقالوا: يا نبي الله فديناك بآبائِنا وأُمهاتِنا، أتانا الخبرُ بأنك قد قُتلت، فرُعبت قلوبُنا فولّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

ومحمدٌ هو المستغرق لجميع المحامد، لأنّ الحمد لا يستوجبه إلا الكامل، والتحميد فوق الحمد، فلا يستحقه إلا المستولي على الأمر في الكمال، وأكرم اللّهُ نبيَّه وصفيَّه باسمين مشتقين من اسمه جلّ جلاله (محمد وأحمد)، وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألمْ ترَ أن اللّهَ أرسل عبدَه ... ببرهانه واللّهُ أعلى وأمجدُ

وشقّ له من اسمه لِيُجلّه ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمد

قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي: رَجعتم إلى دينكم الأول، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، فيرتدّ عن دينه، ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، بارتداده وإنّما يضرّ نفسه، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾، قال الأخفش: اللام في ﴿لِنَفْسٍ﴾ منقولة [من تموت] تقديره: وما كانت نفس لتموت، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، بقضائه الله وقدره، [وقيل: بعلمه]، وقيل: بأمره، ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: كتب لكل نفس أجلاً لا يقدر أحدٌ على تغييره وتأخيره، ونصب ﴿كِتَٰبًا﴾ على المصدر، أي: كتب كتاباً، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾

يعني: من يُرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نُؤته منها ما يكون جزاءً لعمله، يريد نُؤته منها ما يشاء مما قدرناه له، كما قال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، نزلتْ في الذين تركوا المركزَ يومَ أُحد طلباً للغنيمة، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، أي أراد بعمله الآخرة، قيل: أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبدالله بن جبير حتى قُتلوا، ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: المؤمنين المطيعين.

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداوودي أخبرنا أبو الحسن أحمد [بن محمد] بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم عبدالصمد الهاشمي أنا أبو يحيى محمد بن عبدالله بن يزيد بن عبدالرحمن المقرىء أنا أبي أنا الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

أن النبي ﷺ قال: «من كانت نيته طلبَ الآخرة جعل اللَّهُ غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعلَ الله الفقرَ بين عينيه وشتّتَ عليه أمرَه، ولا يأتيه منها إلا ما كتب الله له».

أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن محمد بن علي بن توبة الزرّار أخبرنا أبو بكر محمد بن إدريس بن محمد الجرجاني وأبو أحمد محمد بن أحمد المعلّم الهروي قالا: أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني أخبرنا أبو العباس الحسن بن سفيان النسوي أخبرنا حبّان بن موسى وعبدالله ابن أسماء ابن أخي جويرية بن أسماء قال: أخبرنا عبدالله بن المبارك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص الليثي، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرىءٍ ما نوى، فمن كانتْ هجرتُه إلى اللَّهِ ورسولِهِ فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانتْ هجرتُه إلى دنيا يُصيبها أو امرأةٍ يتزوّجها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه».

(١٤٦) قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، قرأ ابن كثير «وكائن» بالمد والهمزة على وزن فاعل، وبتليين الهمزة أبو جعفر، وقرأ الآخرون ﴿وَكَأَيِّن﴾ بالهمزة والتشديد على وزن كَعَيِّن، ومعناه: وكم، وهي كاف التشبيه ضُمت إلى أي الاستفهامية، ولم يقع التنوين صورةً في الخط إلاّ في هذا الحرف خاصة، ويقف بعض القراء على ﴿وَكَأَيِّن﴾ بلا نون، والأكثرون على الوقف بالنون، قوله: ﴿قَٰتَلَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة بضم القاف، وقرأ الآخرون ﴿قَٰتَلَ﴾ فمن قرأ ﴿قَٰتَلَ﴾ فلقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعدما قُتلوا، لقول سعيد بن جبير: ما سمعنا أن نبياً قُتل في القتال، ولأنّ ﴿قاتل﴾ أعم، قال أبو عبيدة: إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قُتل لم يدخل فيه غيرهم، فكان ﴿قَٰتَلَ﴾ أعم، ومن قرأ «قُتل» فله ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكونَ القتلُ راجعاً إلى النبي وحده، فيكون تمام الكلام عند قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾، ويكون في الآية إضمار معناه: ومعه ربيون كثير، كما يقال: قتل فلان معه جيش كثير، أي: ومعه، والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون المراد: بعض من معه، تقول العرب قتلنا بني فلان، وإنما قتلوا بعضهم، ويكون قوله ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ راجعاً إلى الباقين، والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير، وقوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: جموع كثيرة، وقال ابن مسعود: الربيون الألوف، وقال الكلبي: الرِّبِّيَّةُ الواحدة: عشرة آلاف، وقال الضحاك: الربية الواحدة: ألف، وقال الحسن: فقهاء علماء وقيل: هم الأتباع، والربانيون الولاة والربيون الرعية، وقيل: منسوب إلى الرب وهم الذين يعبدون الرب، ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي: فما جَبُنُوا، ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾، عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح، وقَتْلِ الأصحاب. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾، قال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم، وقال السدي: وما ذلوا، وقال عطاء وما تضرعوا، وقال أبو العالية: وما جبنوا ولكن صبروا على أمرِ ربّهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(١٤٧) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾، نصب على خبر كان، والاسم في أن قالوا، ومعناه: وما

الجزء الرابع سورة آل عمران

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

٦٩

كان قولهم عند قتل نبيهم، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: الصغائر، ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، أي: الكبائر، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، كي لا تـزول، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يقول فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، النصرة والغنيمة، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: الأجر والجنة، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿١٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يعني: اليهود والنصارى، وقال علي رضي الله عنه، يعني: المنافقين في قولهم: للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، يُرجعوكم إلى أول أمركم [مِنَ] الشرك بالله، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، مغبونين.

﴿١٥٠﴾ ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، ناصركم وحافظكم على دينكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

﴿١٥١﴾ ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ وذلك أنّ أبا سفيان والمشركين لمّا ارتحلوا يوم أُحد متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى إذا بلغوا بعض الطريق، ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم، ارجعوا فاستأصِلوهم، فلمّا عزموا على ذلك قذف الله في قلوبهم الرُّعب، حتى رجعوا عمّا همُّوا به فذلك قوله تعالى سنلقي أي: سنقذف في قلوب الذين كفروا الرعب، الخوف قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي ويعقوب ﴿ٱلرُّعُبَ﴾ بضم العين، وقرأ الآخرون بسكونها، ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجةً وبرهاناً، ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مقام الكافرين.

﴿١٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لمّا رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة من أحد [و] قد أصابهم ما أصابهم، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا الله النصر، فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر والظفر، وذلك أن النصر والظفر كان للمسلمين في الابتداء، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل عينين وهو جبل عن يساره وأقام عليه الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جُبير، وقال لهم: «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غَنِمْنا فلا تُشْرِكُونا وإن رأيتمونا نُقتل فلا تَنْصُرونا». وأقبل المشركون فأخذوا في القتال فجعل الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل، والمسلمون يضربونهم بالسيوف، حتى ولّوا هاربين.

فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم قتلاً ذريعاً بقضاءالله، قال أبو عبيدة: الحِسُّ: الاستئصال بالقتل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: إن جَبنتُم، وقيل: معناه فلما فشلتم، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾، والواو زائدة في ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ يعني: [حتى] إذا فشلتم تنازعتم، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فَشِلْتُم.

ومعنى التنازع الاختلاف، وكان اختلافهم أنّ الرماة اختلفوا حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: انهزم القوم فما مقامنا؟ وأقبلوا على الغنيمة، وقال بعضهم: لا تجاوزوا أمرَ رسول الله ﷺ، وثبت عبدالله بن جُبير في نفر يسير دون العشرة، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة فقتلوا عبدالله بن جبير وأصحابه، وأقبلوا على المسلمين وحالت الريح فصارت دبوراً بعد ما كانتْ صَباً، وانتفضت صفوف المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً ما يشعرون من الدهش، ونادى

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)

إبليس لعنه الله إن محمداً قد قتل، فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ يعني: الرسولَ ﷺ وخالفتم أمره، ﴿مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [الله ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾] يا معشر المسلمين من الظفر والغنيمة، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾، يعني: الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، يعني: الذين ثبتوا مع عبدالله بن جُبير حتى قُتلوا، قال عبدالله بن مسعود: وما شعرتُ أحداً أن من أصحاب النبي ﷺ يُريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، أي: ردّكم عنهم بالهزيمة، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، ليمتحنكم، وقيل: ليُنزل عليكم البلاء ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة [منكم لأمر نبيكم] ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٥٣) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ يعني: ولقد عفا عنكم إذ تُصْعِدُون هاربين، وقرأ أبو عبدالرحمن السُّلمي والحسن وقتادة «تَصعَدون» بفتح التاء والعين، والقراءة المعروفة بضم التاء وكسر العين، والإصعاد: السير في مستوى الأرض، والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح، قال أبو حاتم: يقال أصعدتَ إذا مضيتَ حيال وجهك، وصعدتَ إذا ارتقيتَ في جبل أو غيره، وقال المبرد: أصعد إذ أبعد في الذهاب، وكلتا القراءتين صواب فقد كان يومئذٍ من المنهزمين مُصعد وصاعد، وقال المفضل: صعد وأصعد صعّد بمعنى واحد، ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تعرجون ولا تقيمون على أحد، لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: في آخركم ومن ورائكم إليّ عباد الله فأنا رسول الله من يكرُّ فله الجنة، ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾، فجازاكم، جعل الإثابة بمعنى العقاب، وأصلها في الحسنات لأنه وضعها موضع الثواب، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] جعل البشارة في العذاب، ومعناه: جعل مكان الثواب الذي كنتم ترجون ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾، وقيل: الباء بمعنى على، أي: غماً على غمّ، وقيل: غماً متصلاً بغمٍّ، فالغمُّ الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثاني: ما نالهم من القتل والهزيمة، وقيل: الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح، والغم الثاني: ما سمعوا أن محمداً ﷺ قد قُتل فأنساهم الغمَّ الأول، وقيل: الغم الأول: إشراف خالد بن الوليد عليهم بخيل المشركين، والغم الثاني: حين أشرف عليهم أبو سفيان.

وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يومئذٍ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهماً في قوسه وأراد أن يرميه، فقال: «أنا رسول الله»، ففرحوا حين وجدوا رسولَ الله [ﷺ] وفرح النبي ﷺ حين رأى أنّ في أصحابه من يمتنع به، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا فأقبل أبو سفيان وأصحابه، حتى وقفوا بباب الشعب، فلما نظر المسلمون إليهم همّهمْ ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم فقال رسول الله ﷺ: «ليس لهم أن يعلونا اللّهم إن تقتل هذه العصابة لا تُعبد في الأرض»، ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، وقيل: إنهم غمّوا الرسولَ بمخالفة أمره، فجازاهم الله بذلك الغمّ غمّ القتل والهزيمة.

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، من الفتح والغنيمة، ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ أي: ولا على ما أصابكم من القتل والهزيمة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾، يا معشر المسلمين، ﴿مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

يعني: أمناً، والأمنُ الأَمَنَةُ بمعنى واحد، وقيل: الأمنُ يكون مع زوال سبب الخوف، والأَمَنَةُ مع بقاء سبب الخوف، وكان سبب الخوف ههنا قائماً، ﴿نُّعَاسًا﴾، بدل من الأَمَنة ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي «تَغْشى» بالتاء ردّاً إلى الأَمَنة، وقرأ الآخرون بالياء ردّاً إلى النُّعاس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمّنهم يومئذٍ بنُعاس يغشاهم، وإنّما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسماعيل أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن عبدالرحمن أنا حسين بن محمد أخبرنا شيبان عن قتادة أخبرنا أنس. أن أبا طلحة قال: غَشِيَنا النّعاسُ ونحن في مصافّنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي فآخذه ويسقط وآخذه.

وقال ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أُحد فجعلتُ ما أرى أحداً من القوم إلاّ وهو يميل تحت جُحفته من النّعاس.

قال عبدالله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام قال لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدّ علينا الخوف، أرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلاّ كالحلم، يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا.

فذلك قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، يعني: المنافقين: قيل: أراد الله به تمييز المنافقين من المؤمنين، فأوقع النّعاسَ على المؤمنين حتى أمِنُوا، ولم يُوقع على المنافقين، فبقوا في الخوف قد أهمّتهم أنفسهم، أي: حملتهم على الهَمّ يقال: أمرٌ مهمٌّ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا ينصر محمداً، وقيل: ظنوا أن محمداً ﷺ قد قُتل، ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: كظنّ أهل الجاهلية والشرك، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾، ما لنا، لفظةُ استفهام ومعناه: جُحد، ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ يعني: النصر، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، قرأ أهل البصرة برفع اللام على الابتداء وخبره في ﴿لِلَّهِ﴾ وقرأ الآخرون بالنصب على البدل، وقيل: على النعت، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وذلك أن المنافقين، قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمدٍ إلى قتال أهل مكة ولم يُقتل رؤساؤُنا، وقيل: لو كنّا على الحق ما قُتلنا ههنا، قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: يظنون بالله غيرَ الحق ظنَّ الجاهلية، يعني: التكذيب بالقدر، وهو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾، قُضِيَ، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، مصارعهم، ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ﴾، وليمتحن الله، ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ﴾، يخرج ويظهر ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، بما في القلوب من خير وشر.

﴿١٥٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ انهزموا، ﴿مِنكُمْ﴾، يا معشرَ المسلمين، ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبقَ مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً ستة من المهاجرين: وهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: طلب زلّتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً إذا طلبت عجلته، وقيل: حملهم على الزلّة

وهي الخطيئة، وقيل: أزلّ واستزلّ بمعنى واحد، ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، أي: بشُؤم ذُنوبهم، قال بعضهم: بتركهم المركز، وقال الحسن: ما كسبوا هو قبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة، ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

(١٥٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: المنافقين عبدالله بن أبي وأصحابه، ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾، في النفاق والكفر، وقيل: في النسب، ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا فيها لتجارة أو غيرها، ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أي: غُزاةً جمعُ غازٍ فَقُتلوا، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ يعني: قولهم وظنهم، ﴿حَسْرَةً﴾ (غماً) ﴿فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي «يعملون» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء.

(١٥٧) ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾، قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، وقرأ الآخرون بالضم، فمن ضمه فهو من مات يموت، كقولك: من قال يقول قلت، بضم القاف، ومن كسره فهو من مات يمات، كقولك من خاف يخاف خِفتُ، ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾، في العاقبة، ﴿وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، من الغنائم، قراءة العامة «تجمعون» بالتاء، لقوله ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ﴾ وقرأ حفص عن عاصم ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء، يعني: خيرٌ مما يجمع الناس.

(١٥٨) ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، في العاقبة.

(١٥٩) قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: فبرحمةٍ من الله، و﴿ما﴾ صلة، كقوله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿لِنْتَ لَهُمْ﴾ أي: سهلت لهم أخلاقُك، وكثرةُ احتمالك، ولم تُسرعْ إليهم بالغضب فيما كان منهم يوم أحد، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ يعني: جافياً سيِّء الخُلق قليل الاحتمال، ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾، قال الكلبي: فظّاً في القول غليظ القلب في الفعل، ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، أي: لنفرُوا وتفرقُوا عنك، يقال: فضضتُهم فانفضوا، أي: فرقتُهم فتفرقُوا ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، تجاوز عنهم ما أتوا يوم أحد ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حتى أشفّعكَ فيهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: استخرج آراءهم واعلم ما عندهم، من قول العرب: شُرتُ الدابة، وشَورتُها، إذا استخرجتَ جريها، وشرتُ العسلَ وأشرتُه إذا أخذتُه من موضعه، واستخرجتُه، واختلفوا في المعنى الذي لأجله أمرالله [تعالى] نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبّوا أو كرهُوا، فقال بعضهم: هو خاص في المعنى، أي: وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله تعالى عهد، وقال الكلبي: يعني ناظرْهم في لقاء العدو ومكايد الحرب عند الغزو، وقال مقاتل وقتادة: أمر الله تعالى بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شق ذلك عليهم، وقال الحسن: قد علم الله عزّ وجلّ أنه ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به مَن بعده.

أخبرنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبدالله الفارسي: أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم [بن علي] الصالحاني أخبرنا عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان أخبرنا علي بن العباس المقانعي أخبرنا أحمد بن محمد بن ماهان أخبرني أبي أخبرنا طلحة بن زيد عن عُقَيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت:

ما رأيتُ رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لا على مشاورتهم، أي: قُمْ بأمر الله وثق به واستعنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

(١٦٠) ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾، يعنكم الله ويمنعكم من عدوكم، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، مثل يوم بدر، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ يتركْكم فلم ينصرْكم كما كان بأحد، والخذلان: القعودُ عن النُّصرة، والإسلامُ للهلَكة، ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: من بعد خذلانه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، قيل: التوكل أنْ لا تعصي الله من أجل رزقك، وقيل: أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير الله ولا لرزقك خازناً غيره ولا لعملك شاهداً غيره.

أخبرنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن شجاع البزاز ببغداد

أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم الأنباري أخبرنا محمد بن أبي العوام أخبرنا وهب بن جرير أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب» قيل: يا رسول الله مَنْ هُم؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يَسْتَرقُون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقال عُكاشة بن محصن: يا رسول الله ادعُ اللَّهَ لي أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم» ثم قام آخر فقال: يا رسول الله ادعُ اللَّهَ أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة قال أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبدالله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبدالله بن المبارك عن حياة بن شريح حدثني بكر بن عمرو عن عبدالله بن هُبيرة أنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

سمعت رسول الله يقول: «لو أنكم تتوكّلُون على الله حقَّ توكله لرزَقَكُم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطَاناً».

(١٦١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ الآية.

روى عكرمة ومقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الناس أخذها رسول الله ﷺ.

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في غنائم أُحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم، فقال النبي ﷺ:

«لم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركزَ حتى يأتيَكم أمري»؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال النبي ﷺ: «بل ظننتم أنّا نَغُلّ ولا نُقسم لكم»، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال قتادة: ذُكر لنا أنها نزلت في طائفة غَلّت من أصحابه، وقيل: إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ فيُعطي قوماً ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية، وقال محمد بن إسحاق [بن يسار]: هذا في الوحي، يقول: ما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة أو مداهنة، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، معناه: أن يخون، والمراد منه الأمة، وقيل: اللام فيه منقولة، معناه: ما كان النبي ليَغُل، وقيل: معناه ما كان يظن به ذلك ولا يليق به، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الغين، وله وجهان، أحدهما: أن يكون من الغلول أيضاً، أي: ما كان لنبي أن يُخان، يعني: أن تخونه أُمّتُه، والوجه الآخر: أن يكون من الإغلال، معناه: ما كان لنبي أن يخون، أي ينسب إلى الخيانة، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، قال الكلبي: يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يقال له: انزلْ فخذْه فينزل فيحمله على ظهره فإذا بلغ موضعه وقع إلى النار، ثم يُكلف أن ينزل إليه، فيخرجه فيفعل ذلك به.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد الفقيه أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث مولى ابن مطيع. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهباً ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع، قال فوجّه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وكان رفاعة بن زيد وهب لرسول الله ﷺ عبداً أسود يقال له مِدْعَم، قال: فخرجنا حتى إذا كنّا بوادي القرى فبينما مِدْعم يحطّ رحلاً لرسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر فأصابه فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تُصبها المقاسم تشتعل عليه ناراً»، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بِشَراكٍ أو شِراكين إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا

زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حَبَّان عن أبي عمرة الأنصاري عن زيد بن خالد الجهني أنه قال:

تُوفي رجل يوم خيبر فذُكر لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك فزعم زيد أن رسول الله ﷺ: قال: «إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله» قال: ففتحنا متاعه فوجدنا خرزات من خرز اليهود ما تساوي درهمين.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب المروزي أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سفيان عن الزهري عن عروة بن الزبير. عن أبي حميد الساعدي قال:

استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يُقال له ابن اللُّتبية على الصدقة فلما قَدِمَ قال: هذا لكم وهذا أُهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا أُهدي لي، فهلاّ جلسَ في بيتِ أمه أو في بيت أبيه فينظر أيُهدَى إليه أم لا، والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رُغاء أو بقرة لها خُوار أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: «اللهمّ هلْ بلغتُ».

وروى قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «لا تصيبن شيئاً [بغير إذني] فإنه غلول، ومن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلّ يوم القيامة».

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا وجدتُم الرجلَ قد غَلّ فاحرقُوا متَاعَه واضربُوه».

وروي عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: «أنّ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر وعمراً حرقُوا متاعَ الغالّ وضربوه».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿١٦٢﴾ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، فترك الغلول، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فغلّ ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿١٦٣﴾ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: ذُو درجات عند الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني مَنِ اتَّبعَ رضوانَ الله ومَن باءَ بسخَطٍ مِنَ الله مُختلفُو المنازل عند الله، فلمن اتَّبع رضوانَ الله الثوابُ العظيم، ولمن باء بسخط من الله العذابُ الأليم. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٦٤﴾ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قيل: أراد به العرب لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلا وله فيهم من نسب إلا بني ثعلبة، دليله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال آخرون: أراد به جميع المؤمنين، ومعنى قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالإيمان والشفقة لا بالنسب، دليله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ﴾، وقد كانوا، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مبعثه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿١٦٥﴾ ﴿أَوَلَمَّآ﴾ [أي: حين] ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، بأحد، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، يوم بدر، وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين سبعين يوم أحد وقتل المسلمون منهم ببدر سبعين وأسروا سبعين، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، من أين لنا هذا القتلُ والهزيمةُ ونحن مسلمونَ ورسول الله ﷺ فينا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

روى عَبيدة السلماني عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن الله قد كَرِهَ ما صنعَ قومُك في أَخْذِهِمُ الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيّرَهم بين أن يقدّموا فتُضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفِداءَ على أن يُقتل منهم عدتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ للنّاس فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا، لا بلْ تأخذ منهم فداءهم، فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منّا عِدّتهم، فقُتل منهم يوم أُحد سبعون من أَسارَى أهل بدر.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: بأخذكم

وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَاتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

٧٢

الفداء واختياركم القتل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، بأحد من القتل والجرح والهزيمة، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بقضاء الله وقدره، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليميز، وقيل: ليرى.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَاتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لأجل دين الله وطاعته، ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾، عن أهلكم وحريمكم، وقال السدي: أي: كثّروا سوادَ المسلمين رابطوا إن لم تُقاتلوا يكونُ ذلك دفعاً وقمعاً للعدو، ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَاكُمْ﴾، وهو عبدالله بن أُبيّ وأصحابه الذين انصرفوا عن أحد وكانوا ثلاثمائة، قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾ أي: إلى الكفر يومئذٍ أقربُ ﴿مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: إلى الإيمان، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾، يعني: كلمة الإيمان ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿١٦٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَانِهِمْ﴾، في النسب لا في الدين وهم شهداء أحد ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ يعني: [و] قعد هؤلاء القائلون عن الجهاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾، وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بيوتهم ﴿مَا قُتِلُوا۟ قُلْ﴾، لهم يا محمد، ﴿فَٱدْرَءُوا۟﴾، فادفعوا، ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الحذرَ لا يُغني عن القدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية، قيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين، وقال آخرون: نزلت في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين حمزة بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبدالله بن جحش وسائرهم من الأنصار.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق قال: سألنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية:

﴿١٦٩﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآية، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم كطير خضر» ويروى ـ في جوف طير خضر ـ لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة في أيها شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، فبينما هم كذلك، إذ اطّلع عليهم ربك اطّلاعه، فقال: سلوني ما شئتم، فقالوا: يا ربُّ كيف نسألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا، فلما رأوا أن لا يتركوا من أن يسألوا شيئاً، قالوا: نسألك أن ترد أرواحنا إلىٰ أجسادنا في الدنيا نقتل في سبيلك مرة أخرى، قال: فلما رأىٰ أنهم لا يسألون إلا هذا تُركوا».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أن عبدالله بن حامد أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان أنا جيعوية أنا صالح بن محمد أنا سليمان بن عمرو عن إسماعيل بن أمية عن عطاء بن أبي رباح. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

إنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنّه لـمّا أُصيب إخوانُكم يوم أحد جعل الله عزّ وجلّ أرواحهم في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ تردِ أنهارَ الجنةِ تأكلُ من ثمارها وتسرح في الجنة حيثُ شاءتْ وتأوي إلى قناديلَ من ذهب تحت العرش، فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ورأوا مَا أعدَّ الله لهم من الكرامة، قالوا: يا ليت قومنا يعلمون ما نحنُ فيه من النّعيم وما يصنعُ اللّهُ بنا كي يرغبوا في الجهاد، ولا يتّكلوا عنه،

فقال الله عزّ وجلّ أنا مخبرٌ عنكم ومبلغٌ إخوانَكم ففرحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾».

وسمعتُ عبدالواحد بن أحمد المليحي قال: سمعتُ الحسن بن أحمد القتيبي قال: سمعتُ محمد بن عبدالله بن يوسف قال: سمعتُ محمد بن إسماعيل البكري قال: سمعتُ يحيى بن حبيب بن عربي قال: سمعتُ موسى بن إبراهيم قال: سمعتُ طلحة بن خراش قال: سمعتُ جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول:

لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسراً»؟ قلتُ: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالاً وديناً، قال: «أفلا أبشرك بما لقي اللَّهُ به أباكَ»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلّم اللَّهُ تعالى أحداً قط إلاّ من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلّمه كفاحاً، قال: يا عبدي تمنَّ عليّ أعطِك، قال: يا ربِّ أحيني فأقتل فيك الثانية، قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون، فأنزلتُ فيهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبدالله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكُشْميهَني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا حميد عن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منْ عبدٍ يموتُ له عندَ اللَّهِ خيرٌ يحبُّ أن يرجع إلى الدنيا، وأنّ له الدنيا وما فيها، إلا الشهيدُ لِما يَرَى من فضلِ الشهادة، فإنه يحبُّ أنْ يرجعَ إلى الدنيا فيُقتل مرةً أخرى».

وقال قوم: نزلت هذه الآية في شهداء بئر معونة.

وكان سبب ذلك على ما روى محمد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك وغيرهم من أهل العلم قال: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مَلاعِبَ الأسنّة ـ وكان سيد بني عامر بن صعصعة، على رسول الله ﷺ المدينة وأهدى إليه هدية، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها، وقال: «لا أقبل هدية مشرك»، فأسلمْ إنْ أردتَ أن أقبل هديتَك؟ ثم عرض عليه الإسلام، وأخبره بما له فيه وما أعدّ الله للمؤمنين، وقرأ عليه القرآن فلم يُسلم، ولم يبعد وقال: يا محمد إن الذي تدعو إليه حسنٌ جميل فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فيدعونهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبُوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهلَ نجد»، فقال أبو البراء: أنا لهم جارٍ فابعثهم فليدعوا الناسَ إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمر وأخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن يزيد بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه، وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها، قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال حرام بن ملحان: أنا. فخرج بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل في كتاب رسول الله ﷺ، فقال حرام بن ملحان: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم إني أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمِنُوا بالله ورسولِهِ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر فزتُ وربِّ الكعبة، ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نُخفرَ أبا براء قد عقد لهم عقداً وجواراً ثم استصرخ عليهم قبائل من بني سُليم عصية ورِعْلاً وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القومَ فأحاطوا بهم في رحالهم، فلمّا رأوهم أخذُوا السيوف فقاتلوهم حتى قُتِلُوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فارْتُثَّ بين القتلى، فضلوه

فيهم فعاش حتى قُتل يوم الخندق، وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم ينبههما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المعسكر! فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ماذا ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره، فقال الأنصاري الله أكبر لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القومَ حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً فلما أخبرهم أنه من مُضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزَّ ناصيتَه وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمّه، فقَدِم عمرو بن أميّة على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء قد كنتُ لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء فشقّ عليه إخفارُ عامر إيّاه، وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، وكان فيمن أُصيب عامر بن فهيرة.

فروى محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: مَنِ الرجلُ منهم لمّا قتل رأيته رُفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دُونه؟ قالوا: هو عامر بن فهيرة، ثم بعد ذلك حمل ربيعة بن أبي براء على عامر بن الطفيل فطعنه على فرسه فقتله.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالأعلى بن حماد أنا يزيد بن زُريع أنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك:

أن رِعْلاً وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدولهم فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قَتَلُوهم وغدرُوا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنتَ شهراً يدعو في الصبح على أحياء من العرب: على رِعْلٍ وذكوان وعُصية وبني لحيان، قال أنس رضي الله عنه: فقرأنا فيهم قرآناً، ثم إنّ ذلك رُفع: بلّغُوا عنّا قومَنا إنا لقينا ربنا فرضي عنّا وأرضانا، ثم نسخت فرفع بعدما قرأناه زماناً وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية.

وقيل: إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة تحسّروا على الشهداء، وقالوا: نحن في النعمة وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور، فأنزل الله تعالى تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قَتْلاَهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تظننّ ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر «قُتّلوا» بالتشديد، والآخرون بالتخفيف ﴿أَمْوَٰتًا﴾ [أي] كأموات من لم يُقتلْ في سبيلِ الله ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قيل أحياء في الدين، وقيل: في الذكر، وقيل: لأنهم يرزقون ويأكلون ويتمتعون كالأحياء، وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، وقيل: لأن الشهيد لا يبلى في القبر، ولا تأكله الأرض.

وقال عُبيد بن عمير: مرَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتُوهمْ وزُورُوهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يُسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه».

﴿يُرْزَقُونَ﴾، من ثمار الجنة وتُحفها.

﴿١٧٠﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، رزقه وثوابه، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾، ويفرحون، ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، من إخوانهم الذين تركوهم أحياءً في الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد لعلمهم أنهم إذا استشهدوا ولحقُوا بهم ونالُوا من الكرامة ما نالوا فهم لذلك مستبشرون، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿١٧١﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وبأن الله، وقرأ الكسائي بكسر الألف على الاستئناف، ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد الخلال حدثنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أنّ رسول الله ﷺ قال:

«تَكَفَّلَ اللَّهُ لمنْ جاهدَ في سبيله لا يُخرجُه من بيتِهِ إلاّ الجهادُ في سبيلِهِ وتصديقُ كلمتِهِ، أنْ يُدخلَه الجنة أو يُرجعَه إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منه مع ما نالَ من أجرٍ أو غنيمة».

وقال: «والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله والله أعلم بمن يُكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجُرحه يثعَبُ دماً اللونُ لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا علي بن الحسن الداربجردي أنا عبدالله بن يزيد المقري أنا سعيد حدثني محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «الشهيدُ لا يجدُ ألمَ القتلِ إلاّ كما يجدُ أحدُكم ألمَ القَرْصة».

(١٧٢) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية.

وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لمّا انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا وقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبقَ إلا الشريد تركتموهم؟ ارجعوا فاستأصلوهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يُرهب العدو، ويُريهم من نفسه وأصحابه قوةً فندب أصحابَه للخروج في طلب أبي سفيان، فانتدب عصابةٌ منهم مع ما بهم من الجراح والقرح الذي أصابهم يوم أُحد ونادَى منادي رسول الله ﷺ: ألاَ لاَ يخرجنّ معنا أحدٌ إلاّ من حضرَ يومنا بالأمس، فكلّمه جابر بن عبدالله، فقال: يا رسول الله إنّ أبي كان قد خلفني على أخوات لي سبع، وقال لي: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجلَ فيهنّ، ولستُ بالذي أُوثرك على نفسي في الجهاد مع رسول الله ﷺ، فتخلّف على أخواتك، فتخلفتُ عليهن، فأذنَ له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنّما خرج رسول الله ﷺ مُرْهِباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا أن بهم قوة وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم فينصرفوا، فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً رضي الله عنهم حتى بلغوا حمراءَ الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعبدالله بن الزبير: يا ابن أختي أما والله إنّ أباك وجدَّك تعني أبا بكر، والزبير لمن الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، فمرّ برسول الله ﷺ معبدالخزاعي بحمراء الأسد وكانت خزاعة مُسلمهم وكافرهم عيبةَ نصح رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتُهم معه لا يُخفونَ عنه شيئاً كان به وكان معبد يومئذٍ مشركاً فقال: يا محمد والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله ـ تعالى ـ كان [قد] أعفاك منهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ، حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أصبنا جلة أصحابه وقادتهم لنكرنّ على بقيتهم، فلنفرغنَ منهم، فلمّا رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج مع أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندِمُوا على صنيعهم، وفيهم من الحنق عليكم شيءٌ لم أرَ مثله قط، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصلَ بقيتَهم، قال: فإني والله أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلت فيه أبياتاً:

كادت تهدّ من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

فذكر أبياتاً فرد ذلك أبا سفيان ومن معه، ومرّ به ركب من عبدالقيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلّغون محمداً عني رسالةً وأحمّل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ غداً إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وانصرف أبو سفيان إلى مكة، ومرّ الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قاله أبو

سفيان، فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: «حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيل»، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد الثالث.

هذا قول أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة: نزلت هذه الآية في غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان يوم أُحد حين أراد أن ينصرف قال: يا محمد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله» فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية مرّ الظهران، ثم ألقى الله الرعب في قلبه فبدا له الرجوع فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال له أبو سفيان: يا نعيم واعدتُ محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وإنّ هذه عام جدب ولا يُصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن لا أخرج إليها، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي، فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أني في جمع كثير لا طاقة لهم بنا، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها لك على يدي سهيل بن عمرو ويضمنها، قال: فجاء سهيل فقال له نعيم: يا أبا يزيد، أتضمن لي هذه القلائص من أبي سفيان وأنطلق إلى محمد وأثبطه؟ قال: نعم، فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبا سفيان أن نلتقي بموسم بدر الصغرى [أن نقتتل بها]، فقال: بئس [الرأي رأيتم] أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا الشريد، أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، والله لا يفلت منكم أحد، فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجنّ ولو وحدي، فأمّا الجبان فإنه رجع، وأمّا الشجاع فإنه تأهب للقتال، وقال: حسبُنا اللَّهُ ونِعم الوكيل»، فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى وافوا بدراً الصغرى، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يُرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون: حسبنا اللَّهُ ونعم الوكيل، حتى بلغوا بدراً وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام، فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبو سفيان [وأصحابه] من مجنة إلى مكة، فلم يلقَ رسول الله ﷺ وأصحابه أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وكانت معهم تجارات ونفقات فباعوا وأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أجابوا، ومحل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفض على صفة المؤمنين تقديره: إنّ الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين المستجيبين الذين استجابوا لله والرسول، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، أي: [نالتهم الجراح]، تمّ الكلام ههنا، ثم ابتدأ فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بطاعة رسول الله ﷺ وإجابته إلى الغزو، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾، معصيته ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٧٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ومحل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفض أيضاً مردودٌ على [قوله] الذين الأول وأراد بالناس: نعيم بن مسعود، في قول مجاهد وعكرمة فهو من العام الذي أُريد به الخاصّ كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤] يعني: محمداً ﷺ وحده، وقال محمد بن إسحاق وجماعة: أراد بالناس الركب من عبدالقيس، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾، يعني أبا سفيان وأصحابه، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾، فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ تصديقاً [وقوة] ويقينا وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا الله، ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، أي: الموكول إليه الأمور، فعيل بمعنى مفعول.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن يونس أخبرنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

﴿١٧٤﴾ ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾، فانصرفوا،

الجزء الرابع — سورة آل عمران

فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

٧٣

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ بعافية لم يلقوا عدواً ﴿وَفَضْلٍ﴾ تجارة وربح وهو ما أصابوا في السوق ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ لم يصبهم أذى ولا مكروه، ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في طاعة الله وطاعة رسوله، وذلك أنهم قالوا: هل يكون هذا غزو فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿١٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: الذي قال لكم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، من فعل الشيطان ألقي في أفواههم لترهيبوهم وتجبنُوا عنهم، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، أي يخوفكم بأوليائه، وكذلك هو في قراءة أُبي بن كعب يعني: يخوّف المؤمنين بالكافرين، قال السدي: يعظّم أولياءَهُ في صدورهم ليخافوهم، يدل عليه قراءة عبدالله بن مسعود «يخوفكم أولياءه»، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، في ترك أمري ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، مصدقين بوعدي لأني متكفّل لكم بالنصر والظفر.

﴿١٧٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾، قرأ نافع (يحزنك) بضم الياء وكسر الزاي، وكذلك في جميع القرآن إلا قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ضدّه أبو جعفر، وهما لغتان: حزن يحزن وأحزن يحزن، إلا أن اللغة الغالبة حزن يحزن، ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، قال الضحاك: هم كفار قريش، وقال غيره: [هم] المنافقون يسارعون في الكفر بمظاهرة الكفار. ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، بمسارعتهم في الكفر، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾، نصيباً في ثواب الآخرة، فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٧٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾، استبدلوا ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، [بمسارعتهم في الكفر] وإنّما يضرون أنفسهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قرأ حمزة هذا والذي بعده بالتاء فيهما، وقرأ الآخرون بالياء، فمن قرأ بالياء فـ﴿الَّذِينَ﴾ في محل الرفع على الفاعل تقديره: ولا يحسبنّ الكفار إملاءنا لهم خيراً، ومن قرأ بالتاء يعني: ولا تحسبنّ يا محمد الذينَ كفروا، وإنّما نصب على البدل من الذين، ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، والإملاء الإمهال والتأخير، يقال: عشتُ طويلاً حميداً وتمليتُ حيناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: حيناً طويلاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾، نمهلهم ﴿لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة، وقال عطاء في قريظة والنضير.

أخبرنا عبدالرحمن بن عبدالله القفال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البَرْنجِردي أنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي أنا محمد بن يونس أنا أبو داود الطيالسي أنا شعبة عن علي بن زيد عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال:

سُئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: «من طالَ عمرُه وحَسُن عملُه»، قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طالَ عمرُه وساءَ عملُه».

﴿١٧٩﴾ قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، اختلفوا فيها، فقال الكلبي: قالت قريش: يا محمد تزعم أن من خالفكَ فهو في النار واللهُ عليه غضبان، وأن من اتّبعكَ على دينك فهو في الجنة، والله عنه راضٍ، فأخبرنا بمن يُؤمن بك وبمن لا يؤمن بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال السدي: قال رسول الله ﷺ:

«عُرضتْ عليّ أُمتي في صورها في الطين كما عُرضتْ على آدم، وأُعلمتُ من يؤمن بي ومن يكفر بي»، فبلغ ذلك المنافقين، فقالوا استهزاءً: زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد، ونحن معه وما يعرفنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام طعنُوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلا أنبأتكم به»، فقام عبدالله بن حُذافة السهمي، فقال: مَنْ أبي يا رسول الله؟ قال حذافة، فقام عمر فقال: يا رسول الله رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبك نبياً فاعفُ عنا عفا اللّهُ عنك، فقال النبي ﷺ: «فهل أنتم منتهون»؟ ثم نزل عن المنبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

واختلفوا في حكم [هذه] الآية ونظمها، فقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين، يعني: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وقال قوم: الخطاب للمؤمنين الذين أخبر عنهم، معناه: وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق، فرجع من الخبر إلى الخطاب، ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بضم الياء وتشديدها وكذلك التي في الأنفال، وقرأ الباقون بالتخفيف، يقال: ماز الشيء يميزُه ميزاً وميّزه تمييزاً إذا فرّقه وامتاز، وإنما هو بنفسه، قال أبو معاذ: إذا فرّقت بين شيئين، قلت: مزت ميزاً فإذا كانت أشياء، قلت: ميزتها تمييزاً، وكذلك إذا جعلت الشيء الواحد شيئين قلت: فَرَقتَ بالتخفيف، ومنه فرق الشعر، فإن جعلته أشياء، قلت: فرقته تفريقاً، ومعنى الآية: حتى يميزَ المنافقَ من المخلص، فميز اللّهُ المؤمنين من المنافقين يوم أُحد حيثُ أظهروا النفاق فتخلفوا عن رسول الله ﷺ، وقال قتادة: حتى يميز الكافر من المؤمن بالهجرة والجهاد، وقال الضحاك: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ في أصلاب الرجال وأرحام النساء يا معشر المنافقين والمشركين حتى يفرّق بينكم وبين من في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين، وقيل: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾ وهو المذنب ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ وهو المؤمن، يعني: حتى تحط الأوزار عن المؤمن بما يصيبه من نكبة ومحنة ومصيبة، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، لأنه لا يعلم الغيبَ أحدٌ غير الله، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيُطلعه على بعض علم الغيب، نظيره قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، وقال السدي: معناه وما كان الله ليطلع محمداً ﷺ على الغيب ولكن الله اجتباه، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾، أي: ولا يحسبنّ الباخلون البخل خيراً لهم، ﴿بَلْ هُوَ﴾، يعني: البخل، ﴿شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ﴾، أي: سوف يطوقون، ﴿مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، يعني: يجعل ما منعه من الزكاة حيّةً تُطوّق في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وأبي وائل والشعبي والسدي.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أناأحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبدالله المديني أنا هاشم بن القاسم أخبرنا عبدالرحمن [بن عبدالله] بن دينار [عن أبيه] عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «من آتاه اللّهُ مالاً فلم يؤدِ زكاتهُ مُثّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتان، يُطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه، يعني شدقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بن غياث أنا أبي أنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

انتهيت إليه يعني النبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده أو والذي لا إله

الجزء الرابع — سورة آل عمران

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

٧٤

غيره أو كما حلف، ما من رجلٍ يكون له إبل أو بقر أو غنم لا يُؤدي حقّها إلا أُتي بها يوم القيامة أعظم ما يكون وأسمنه، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلّما جازت أُخراها رُدتْ عليه أُولاها حتى يُقضَى بين الناس».

قال إبراهيم النخعي: معنى الآية يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوقاً من النار، قال مجاهد: يُكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به في الدنيا من أموالهم. وروى عطية عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتمُوا صفة محمد ﷺ ونبوّته، وأراد بالبخل كتمان العلم كما قال في سورة النساء ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٧] ومعنى قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يحملون وزرَه وإثمَه، كقوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني: أنه الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون ويرثهم، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، قرأ أهل البصرة ومكة [يعلمون] بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء.

(١٨١) قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، قال الحسن ومجاهد: لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: إن الله فقير يستقرض منّا ونحن أغنياء، وذكر الحسن: أن قائل هذه المقالة حيي بن أخطب.

وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق: كتب النبي ﷺ مع أبي بكر [الصديق] رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدارسهم فوجد ناساً كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم، ومعه حبر آخر يقال له: أشيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فآمنْ وصدقْ وأقرضِ اللّهَ قرضاً حسناً يدخلْكَ الجنة، ويضاعفْ لك الثوابَ، فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربّنا يستقرضُ أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني؟ فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً لفقير ونحن أغنياء، وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب وجه فنحاص ضربةً شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربتُ عُنقَكَ يا عدوّ الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما حملك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن اللّهَ فقيرٌ وهم أغنياء، فغضبتُ لله فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تعالى رداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾، من الإفك والفرية على الله فنجازيهم به، وقال مقاتل: سيحفظ عليهم، وقال الواقدي: سنأمر الحفظة بالكتابة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، قرأ حمزة

﴿سيكتب﴾ بضم الياء، ﴿وقتلُهم﴾ برفع اللام ﴿ويقول﴾ بالياء، و﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: النار، وهو بمعنى المحرق، كما يقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: مؤلم.

﴿١٨٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾، فيعذب بغير ذنب.

﴿١٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾، الآية، قال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً وأنزل عليك كتاباً وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾، يزعم أنه من عند الله، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾، فإن جئتنا به صدقناك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي: سمع الله قول الذين قالوا، ومحل ﴿الَّذِينَ﴾ خفض رداً على ﴿الَّذِينَ﴾ الأول، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي: أمرنا وأوصانا في كتبه ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾، أي: لا نصدق رسولاً يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فيكون دليلاً على صدقه، والقربان: كل ما يُتقرّب به العبد إلى الله تعالى من نسيكةٍ وصدقةٍ وعملٍ صالح، وهو فعلان من القربة، وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قرباناً أو غنموا غنيمة جاءت نارٌ بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دوي وحفيف، فتأكله وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يُقبل بقيت على حالها.

وقال السدي: إنّ الله تعالى أمر بني إسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما، فإنهما يأتيان بغير قربان، قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم، ﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾، يا معشر اليهود، ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾، من القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾؟ يعني: زكريا ويحيى [عليهم السلام] وسائر من قتلوا من الأنبياء، وأراد بذلك أسلافهم فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، معناه تكذيبهم إياك مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء، مع الإتيان بالقربان والمعجزات، ثم قال معزّياً لنبيه ﷺ.

﴿١٨٤﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾، قرأ ابن عامر «وبالزبر» أي: بالكتب المزبورة، يعني: المكتوبة، واحدها [زبور] مثل: رسول ورُسل، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، الواضح المضيء.

﴿١٨٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ [منفوسة] ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وفي الحديث: «لمّا خلق الله تعالى آدم اشتكت الأرض إلى ربّها لما أخذ منها، فوعدها أن يردّ فيها ما أخذ منها، فما من أحد إلا يدفن في التربة التي خُلق منها».

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾، توفون جزاء أعمالكم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر، ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾، نُحي وأزيل، ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [بالنجاة] ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، يعني منفعة ومتعة كالفأس والقدر والقصعة، ثم يزول ولا يبقى، وقال الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل له، قال قتادة: هي متاع متروكه يُوشك أن تضمحل بأهلها، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم، والغرور الباطل.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيى أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «يقولُ اللّهُ تعالى أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذن سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشر، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وإنّ في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠] ولموضعُ سَوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، واقرؤوا إن شئتم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾».

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

قال عكرمة ومقاتل والكلبي وابن جريج: نزلت الآية في أبي بكر وفنحاص بن عازوراء، وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فنحاص بن عازوراء سيد بني قينقاع ليستمدّه، وكتب إليه كتاباً وقال لأبي بكر رضي الله عنه: «لا تفتأتن عليّ بشيء حتى ترجع»، فجاء أبو بكر رضي الله عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلما قرأه قال: قد احتاج ربُك إلى أن نمدّه، فهمّ أبو بكر رضي الله عنه أن يضربه بالسيف، ثم ذكر قول النبي ﷺ: «لا تفتأتنّ عليّ بشيء حتى ترجع»، فكف، فنزلت هذه الآية.

وقال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف فإنه كان يهجُو رسولَ الله ﷺ ويسبّ المسلمين، ويحرض المشركين على النبي ﷺ وأصحابه، في شعره ويسبّ نساء المسلمين، فقال النبي ﷺ: «مَنْ لي بابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله»؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فافعلْ إن قدرت على ذلك»، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما تعلق به نفسه، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، وقال له: «لِمَ تركتَ الطعامَ والشراب»؟ قال: يا رسول الله قلت قولاً ولا أدري هل أفي به أم لا، فقال: «إنما عليك الجهد»، فقال: يا رسول الله إنه لا بدّ لنا من أن نقول فيك، قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حلٍ من ذلك، فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسِلْكانُ بنُ سلام أبو نائلة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو عيسى بن جبير، فمشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ثم وجّههم، وقال: «انطلقوا على اسم الله اللّهم أعنهم»، ثم رجع رسول الله ﷺ، وذلك في ليلة مقمرة فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه فقدّموا أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشدا الشعر، وكان أبو نائلة يقول الشعر، ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتُمْ عليّ، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل بلادَنا بلاءً، عادتْنا العربُ ورمونا عن قوس واحدة، فانقطعت عنا السبل حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس، فقال كعب: أنا ابن الأشرف أمَا والله لقد كنت أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى هذا، فقال أبو نائلة: إن معي أصحاباً أردنا أن تبيعنا طعامَك ونُرهنك ونوثّق لك وتحسن في ذلك، قال: أترهنوني أبناءكم، قال: إنا نستحي أن يُعيرَ أبناؤنا فيقال هذا رهينة وسق، وهذا رهينة وسقين، قال: ترهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنُكَ نساءَنا وأنت أجمل العرب ولا نأمنك، وأية امرأة تمتنع منك لجمالك، ولكنا نرهنك الحلقة، يعني: السلاح، وقد علمت حاجتنا إلى السلاح، قال: نعم، وأراد أبو نائلة أن لا ينكر السلاح إذا رآه فوعده أن يأتيه فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ليلاً، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب من ملحفته فقالت امرأته: أسمع صوتاً يقطر منه الدم، وإنك رجل محارب، وإن صاحب الحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة فكلّمْهم من فوق الحصن، فقال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة وإن هؤلاءِ لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، وإن الكريم إذا دعي إلى طعنة بليل أجاب، فنزل إليهم فتحدثوا معه ساعة ثم قالوا: يا ابن الأشرف هلْ لك إلى أن نتماشى إلى شعب العجوز نتحدث فيه بقيةَ ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم؟ فخرجوا يتماشون، وكان أبو نائلة قال: لأصحابه إني فاتل شعره فأشمّه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، ثم إنه شام يده في فودِ رأسه ثم شمّ يدَه، فقال: ما رأيت كالليلةِ طيبَ عروس قط، قال: إنه طيب أم فلان يعني امرأته، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة فعاد لمثلها ثم أخذ بقود رأسه حتى استمكن ثم قال: اضربُوا عدوَّ الله فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً، قال محمد بن مسلمة: فذكرتُ مغولاً في سيفي فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحةً لم يبق حَوْلَنا حصنٌ إلا أُوقدت عليه نار، قال فوضعته في ثُندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، ووقع عدو الله وقد أُصيب الحارث بن أوس بجرحٍ في رأسه أصابه بعض

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

أسيافنا، قال: فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، ثم وقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل كعب وجئنا برأسه إليه، وتفل على جُرح صاحبنا، فرجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت يهود وقعتنا بعدو الله، فقال رسول الله ﷺ: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه»، فوثب محيصة بن مسعود على سنينة رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله، وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يُسلِمْ وكان أسن من محيصة فلما قتله، جعل حويصة يضربه ويقول: أيْ عدو الله قتلته أمَا والله لرُبَّ شحم في بطنك من ماله، قال محيصة: والله لو أمرني بقتلك من أمرني بقتله لضربت عنقك، قال: لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال: نعم، والله إنّ ديناً بلغ بك هذا لعجب؟! فأسلم حويصة، وأنزل الله تعالى في شأن كعب: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لتخبرنّ، واللام للتأكيد، وفيه معنى القسم، والنون لتأكيد القسم ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالجوائح والعاهات والخسران ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالأمراض، وقيل: بمصائب الأقارب والعشائر، وقال عطاء: هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم ورِباعَهم وعذّبوهم، وقال الحسن: هو ما فرض عليهم من أموالهم وأنفسهم من الحقوق، كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، يعني: مشركي العرب، ﴿أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾، الله، ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، [أي] من حق الأمور وخيرها، وقال عطاء: من حقيقة الإيمان.

﴿١٨٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالياء فيهما، لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيها على إضمار القول، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: طرحوه وضيّعوه وتركوا العمل به، ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني: المآكل والرُّشا، ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾، قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن عَلِمَ شيئاً فليُعلّمه، وإيّاكم وكتمان العلم فإنه هلكة.

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ الشاه بن عبدالرحمن أخبرنا أبو بكر عمر بن سهل بن إسماعيل الدينوري أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى البِرْتي أخبرنا أبو حذيفة موسى بن مسعود أخبرنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «من سُئل عن علم يعلمه فكتمه أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجام من نار».

وقال الحسن بن عمارة: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه، فقلت: إن رأيتَ أن تحدثني؟ فقال: أمَا علمتَ أني قد تركتُ الحديث؟ فقلت: إمّا أن تحدثني وإما أن أحدثك، فقال: حدثني، فقلت: حدثني الحكم بن عتيبة عن يحيى بن الجزار قال: سمعتُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على

أهل العلم أن يُعلّموا، قال: فحدثني أربعين حديثاً.

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الآية، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء، أي: لا تحسبن يا محمد الفارِحين، وقرأ الآخرون بالياء «لا يحسبن» الفارِحُون فرحَهم مُنجياً لهم من العذاب، «فلا يحسبنهم» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وضم الياء خبراً عن الفارحين، أي فلا يحسبنَّ أنفسهم، وقرأ الآخرون بالتاء وفتح الباء، أي: فلا تحسبنّهم يا محمد، وأعاد قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيداً، وفي حرف عبدالله بن مسعود «ولا يحسبنّ الذينَ يفرحُون بما أُتوا ويُحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا بمفازةٍ من العذابِ» من غير تكرار، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم أنا محمد بن جعفر حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري:

أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فنزل ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الآية.

وأخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن موسى أنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرىء فرح بما أُوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لعذِّبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه إنّما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إيّاه فأخبروه بغيره فأروه أن قد استُحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

قال عكرمة: نزلت في فنحاص وأُشَيْع وغيرهما من الأحبار يفرحون بإضلالهم الناس بنسبة الناس إيّاهم إلى العلم وليسوا بأهل علم، وقال مجاهد: هم اليهود فرحوا بإعجاب الناس بتبديلهم الكتاب وحمدهم إيّاهم عليه، وقال سعيد بن جبير: هم اليهود فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم وهم برآء من ذلك.

وقال قتادة ومقاتل: أتت يهودُ خيبر نبي الله ﷺ قالوا: نحن نعرفك ونصدقك وإنا على رأيك ونحن لك رِدء، وليس ذلك في قلوبهم، فلما خرجوا قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ قالوا: عرفنا وصدقناه، فقال لهم المسلمون: أحسنتم هكذا فافعلوا، فحمدوهم ودعوا لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية،

وقال: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ قال الفراء بما فعلوا، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، أي: فعلت، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ﴾ أي: بمنجاة، ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يصرفها كيف يشاء، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسين الإسفراييني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ أنا أحمد بن عبدالجبار أنا ابن فضيل عن حصين بن عبدالرحمن عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس [عن أبيه: عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما]:

أنه رَقَدَ عند رسول الله ﷺ فرآه استيقظ فتسوّك ثم توضأ وهو يقول: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى ختم السور، ثم قام فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات ست ركعات كل ذلك يستاك، ثم يتوضأ ثمّ يقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث ركعات ثم أتاه المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول:

«اللهم اجعلْ في بصري نوراً وفي سمعي نوراً وفي لساني نوراً واجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً».

ورواه كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً» قوله تعالى: ﴿لَآيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ ذوي العقول ثم وصفهم، فقال:

(١٩١) ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، قال علي بن أبي طالب وابن عباس والنخعي وقتادة: هذا في الصلاة يصلي قائماً فإن لم يستطع فقاعداً فإن لم يستطع فعلى جنب.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي أنا هنَّاد أنا وكيع عن إبراهيم بن طهمان عن حسين المعلم عن عبدالله بن بريدة عن عمران بن حصين قال:

سألت رسول الله ﷺ عن صلاة المريض، فقال: «صلِ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب».

وقال سائر المفسرين أراد به المداومة على الذكر في عموم الأحوال لأن الإنسان قلّ ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث، نظيره في سورة النساء ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وما أبدع فيهما ليَدُلّهم ذلك على قدرة الله ويعرفون أن لها صانعاً قادراً مدبراً حكيماً، قال ابن عون: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة، ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: ويقولون ربنا ﴿مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا﴾ رّده إلى الخلق فلذلك لم يقل هذه، ﴿بَـٰطِلًا﴾، أي: عبثاً وهزلاً بل خلقته لأمر عظيم، وانتصب ﴿بَـٰطِلًا﴾ بنزع الخافض، أي: بالباطل، ﴿سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾، أي: أهنته، وقيل: أهلكته، وقيل: فضحته، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: ٧٨] فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]، ومن أهل الإيمان من يدخل النار، وقد قال: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾، فكيف الجمع؟ قيل: قال أنس وقتادة معناه: إنك من تخلده في النار فقد أخزيته، وقال سعيد بن المسيب هذه خاصة لمن لا يخرج منها.

فقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن اللّهَ تعالى يدخل قوماً النارَ ثم يخرجُون منها».

﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ يعني: محمداً ﷺ، قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر المفسرين، وقال القرظي: يعني القرآن، فليس كل أحد يلقى النبي ﷺ، ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ أي: إلى الإيمان، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، أي: في جملة الأبرار.

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، أي: على ألسنة رسلك، ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾، ولا تُعذبنا ولا تفضحنا ولا تهلكنا، ولا تُهنا، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، فإن قيل: ما وجه قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، وقد علموا أن الله لا يُخلف الميعاد؟ قيل: لفظه دعاء ومعناه الخبر، أي: لتؤتينا ما وعدتنا على رُسلك، تقديره: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، لِتُؤتينا ما وعدتنا على رُسلك من الفضلِ والرحمة، وقيل: معناه ربّنا واجعلنا ممن يستحقون ثوابَك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسِنَةِ رُسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها، وقيل: إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، قالوا: قد عَلِمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر، ولكن لا صبرَ لنا على حلمك فعجِّل خزيهم وانصرنا عليهم.

(١٩٥) قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى﴾ أي: بأني: ﴿لَآ أُضِيعُ﴾،

لا أُحبط، ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾، أيها المؤمنون ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

قال مجاهد: قالت أم سلمة يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

قال الكلبي: في الدين والنصرة والموالاة، وقيل: كلكم من آدم وحواء، وقال الضحاك: رجالكم شكل نساءكم ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة، كما قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾، أي: في طاعتي وديني، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة، ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾.

قرأ ابن عامر وابن كثير «قتّلوا» بالتشديد، قال الحسن: يعني أنهم قطعوا في المعركة، والآخرون بالتخفيف، وقرأ أكثر القراء: ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ يريد أنهم قاتلوا العدو ثم إنهم قتلوا، وقرأ حمزة والكسائي ﴿قتلوا وقاتلوا﴾ وله وجهان، أحدهما: معناه وقاتل من بقي منهم، ومعنى قوله ﴿وَقُتِلُوا۟﴾ أي: قُتل بعضهم، تقول العرب قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم، والوجه الآخر ﴿وَقُتِلُوا۟﴾ وقد قاتلوا، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، نصب على القطع قاله الكسائي، وقال المبرد: مصدر، أي: لأثيبنهم ثواباً، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

(١٩٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، نزلت في المشركين، وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، وضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وأنواع المكاسب، الخطاب للنبي ﷺ والمراد منه غيره.

(١٩٧) ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾، أي: هو متاع قليل، بُلْغَةٌ فانية ومُتْعَةٌ زائلة، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾، مصيرُهم، ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، الفراش.

(١٩٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾، جزاءً وثواباً، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، نصب على التفسير، وقيل: جعل ذلك نُزلاً، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾، من متاع الدنيا.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالعزيز بن عبدالله أنا سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن عبيد بن حنين أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

جئت فإذا رسول الله في مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أُدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظاً مصبوراً وعند رأسه أُهب معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيتُ فقال: «ما يُبكيك»؟ فقلت: يا رسول الله إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»؟.

(١٩٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية.

قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة: نزلت في النجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية، وذلك أنه لمّا مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، النجاشي» فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات، واستغفر له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على عِلْجٍ حبشي نصراني لم يره قط، وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال عطاء: نزلت في أربعين رجلاً من بني حارث بن كعب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فآمنوا بالنبي ﷺ، وقال ابن جريج: نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه، وقال مجاهد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، يعني: التوراة والإنجيل، ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين

الجزء الرابع — سورة آل عمران

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

٧٦

مُتواضعينَ لله، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني: لا يُحرفون كُتبَهم ولا يكتُمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة والمأكلة، كفعل غيرهم من رؤساء اليهود، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾، قال الحسن: اصبروا على دينكم فلا تَدَعُوه لشدّةٍ ولا رخاء، وقال قتادة: اصبروا على طاعة الله، وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان: على أمر الله، وقال مقاتل بن حيان: على أداء فرائض الله تعالى، وقال زيد بن أسلم: على الجهاد، وقال الكلبي: على البلاء، وصابروا يعني: على قتال الكفار، ورابطوا يعني: المشركين، قال أبو عبيدة: أي داوموا واثبتوا، والربطُ الشدُّ، وأصل الرباط أن يربط [هؤلاء] خيولهم، وهؤلاء خيولهم، ثم قيل: ذلك لكلّ مقيم في ثغرٍ يدفعُ عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالله بن منير أنه سمع أبا النضر أنا عبدالرحمن بن عبدالله بن دينار عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي:

أن رسول الله ﷺ قال: «رِباطُ يومٍ في سبيلِ اللّهِ خيرٌ من الدنيا وما فيها وما عليها، وموضعُ سَوطِ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها».

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أخبرنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي [أخبرنا عبدالله بن محمد بن مسلم أبو بكر الجوربذي] أنا يونس بن عبدالأعلى أنا ابن وهب أخبرني عبدالرحمن بن شريح عن عبدالكريم بن الحارث، أنا أبو عبيدة بن عقبة أنا شرحبيل بن السمط أنا سلمان الخير:

أنّ رسول الله ﷺ قال: «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان له أجرُ صيام شهرٍ مقيمٍ، ومن مات مرابطاً جرى له مثل ذلك الأجر، وأُجْرِي عليه الرزق، وأُمن من الفتّان»، وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن: لم يكن في زمن النبي ﷺ غزوٌ يُرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي أنا أبو مصعب أنا مالك أخبرنا العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «ألاَ أُخبركم بما يمحو الله الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قال بعض أرباب اللسان: اصبروا على النعماء وصابرُوا على البأساء والضراء ورابطوا في دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تُفلحون في دار البقاء.

تفسير سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعني: حواء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾، نشر وأظهر، ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، أي: تتساءلون به، قرأ أهل الكوفة

بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾، قراءة العامة بالنصب، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض، أي: به وبالأرحام كما يقال: سألتُك بالله والأرحام، والقراءة الأولى أفصح لأن العربَ لا تكاد تنسق بظاهر على مُكنًى إلا بعد أن تعيد الخافض فتقول: مررتُ به وبزيد، إلا أنه جائز مع قلته، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، أي: حافظاً.

﴿٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾.

قال مقاتل والكلبي: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمّا بلغَ اليتيمُ طلبَ المالَ فمنعه عمه فترافعا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العمُّ قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذُ بالله من الحَوْبِ الكبير، فدفع إليه ماله فقال النبي ﷺ: «من يوقَ شُحَّ نفسه ويُطعْ ربَّه هكذا فإنه يَحِلُّ دارَه».

يعني: جنته، فلما قبض الفتَى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر وبقيَ الوزرُ» فقالوا: كيف بقي الوزرُ؟ فقال: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده».

وقوله: ﴿وَآتُوا﴾ خطاب للأولياء والأوصياء، واليتامى: جمع يتيم، واليتيم: اسم لصغيرٍ لا أبَ له ولا جد، وإنما يدفع المال إليهم بعد البلوغ، وسماهم يتامى ههنا على معنى أنهم كانوا يتامى، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾، أي: لا تستبدلوا، ﴿الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾، أي: مالهم الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم، واختلفوا في هذا التبديل، قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي: كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدرهمَ الجيد ويجعل مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم، فنُهوا عن ذلك، وقيل: كان أهل الجاهلية لا يُورِّثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبرُ الميراثَ، فنصيبه من الميراث طيّب، وهذا الذي يأخذه من نصيب غيره خبيث، وقال مجاهد: لا تتعجلِ الرزقَ الحرام قبل أن يأتيك الحلال. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾، أي: مع أموالكم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: مع الله، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، أي: إثماً عظيماً.

﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، اختلفوا في تأويلها، فقال بعضهم: معناه إن خفتم يا أولياء اليتامى أن تعدلوا فيهنّ إذا نكحتُموهنّ فانكِحُوا غيرَهنّ من الغرائب مثنى وثُلاثَ ورُباعَ.

الجزء الرابع — سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

٧٧

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال: كان عروة بن الزبير يحدث أنه سأل عائشة رضي الله عنها [عن قوله]: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قالت: هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها، فنُهوا عن نكاحهنّ إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق، وأُمروا بنكاح من سواهنّ من النساء، قالت عائشة رضي الله عنها: ثم استفتى الناسُ رسولَ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

فبيّن الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رَغِبُوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يُقسطوا لها الأوْفَى من الصداق ويُعطوها حقَّها.

قال الحسن: كان الرجل من أهل الجاهلية يكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجْلِ مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يُدخل غريبٌ فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنزل الله هذه الآية.

وقال عكرمة: كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر فإذا صار معدماً من مؤن نسائه مالَ إلى مالِ يتيمه الذي في حجره فأنفقه، فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى، وهذه رواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال بعضهم: كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء، فيتزوجون ما شاؤوا ورُبما عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أنزل هذه الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، يقول كما خفتم أن لا تُقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهنّ فلا تتزوجوا أكثر مما يُمكنكم القيام بحقهن، لأن النساء في الضعف كاليتامى، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي، ثم رُخّص في نكاح أربع فقال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾، وقال مجاهد: معناه إن تحرجتم منْ وِلاية اليتامَى وأموالِهم إيماناً فكذلك تحرجوا من الزنا فانكحوا النساء الحلال نكاحاً طيباً ثم بين لهم عدداً، وكانوا يتزوجون ما شاؤوا من غير عدد، فنزل قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: مَنْ طَابَ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٥] أي ومن بناها، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] والعرب تضع «من» و«ما» كل واحدة موضع الأخرى، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ [النور: ٤٥]، وطابَ أي: حلّ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، معدولات عن اثنين وثلاث وأربع، ولذلك لا يصرفن، والواو بمعنى أو، للتخيير، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [فاطر: ١] وهذا إجماع أن أحداً من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة، وكانت الزيادة من خصائص النبي ﷺ لا مشاركة معه لأحد من الأمة فيها.

ورُوي أن قيس بن الحارث كان تحته ثمان نسوة فلما نزلت هذه الآية قال له رسول الله ﷺ: «طلق أربعاً وأمسك أربعاً» قال فجعلت أقول للمرأة التي لم تلد [مني] يا فلانة أدبري وللتي قد ولدت يا فلانة أقبلي.

ورُوي أن غَيلان بن سلمة الثقفي أسلم وعنده عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «أمسك أربعاً وفارق سائرهن».

وإذا جمع الحرُّ بينَ أربع نسوة حرائر فإنه يجوز، فأمّا العبد فلا يجوز له أن ينكح أكثر من امرأتين عند أكثر أهل العلم لِما:

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز [بن] أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن محمد بن عبدالرحمن مولى أبي طلحة عن سليمان بن يسار عن عبدالله بن عتبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ينكح العبد امرأتين، ويطلق تطليقتين وتعتد الأمة بحيضتين، فإن لم تكن تحيض فبشهرين أو شهر ونصف. وقال ربيعة: يجوز للعبد أن ينكح أربع نسوة كالحر. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، خشيتم، وقيل: علمتم، ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾، بين الأزواج الأربع، ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ أي: فانكِحُوا واحدةً. وقرأ أبو جعفر ﴿فَوَٰحِدَةٌ﴾ بالرفع، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، يعني: السراري لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق ما يلزم في الحرائر، ولا قَسْم لهنّ ولا وقف في عددهن، وذكر الأيْمَان بيانٌ تقديره: أو ما ملكتم، وقال بعض أهل المعاني: أو ما ملكت أيمانُكم، أي: ما ينفذ فيه إقسامكم، جعله من يمين

الحلف، لا يمين الجارحة، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾، أقـرب، ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي: لاَ تَجُورُوا ولا تميلوا، يقال: ميزان عائل، أي: جائز مائل، هذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: أنْ لا تضلوا، وقال الفراء: أنْ لا تجاوزوا، ما فرض الله عليكم، وأصل العول: المجاوزة، ومنه عَوْلُ الفرائض، وقال الشافعي رحمه الله: أنْ لا تَكْثُر عيالُكم، وما قاله أحد، إنما يقال: [من كثرة العيال] أعال يعيل إعالة إذا كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي رضي الله عنه أعلم بلسان العرب منّا ولعلّه لغة، ويقال: هي لغة حمير، وقرأ طلحة بن مصرّف «أنْ لا تعيلوا» وهي حجة لقول الشافعي رضوان الله عليه.

﴿٤﴾ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، قال الكلبي ومجاهد: هذا الخطاب للأولياء، وذلك أنّ وَلِيّ المرأة كان إذا زوجها فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولم يعطوها من مهرها غير ذلك، فنهاهم عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله قال الحضرمي: وكان أولياء النساء يُعطي هذا أُخته على أن يعطيه الآخرُ أُخته، ولا مهرَ بينهما، فنُهوا عن ذلك وأُمروا بتسميةِ المهر في العقد.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «نهى عنِ الشِّغار»، والشغار: أن يُزوّج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، وليس بينهما صداق.

وقال آخرون: الخطاب للأزواج أُمروا بإيتاء نسائهم الصداق، وهذا أصح؛ لأن الخطاب فيما قبلُ مع الناكحين، والصَّدقات: المهور، واحدها صدقة، (نحلةً) قال قتادة: فريضةً، وقال ابن جريج: فريضة مسماة، قال أبو عبيد: ولا تكون النحلة إلا مسماةً معلومة، وقال الكلبي: عطية وهبة، وقال أبو عبيدة: عن طيب نفس، وقال الزجاج: تديناً.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالله بن يوسف أخبرنا الليث حدثني يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال:

قال رسول الله ﷺ: «أحقُّ الشروطِ أن تُوفوا به ما استحللتمْ به الفروج».

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ يعني: فإن طابت نفوسُهن بشيء من ذلك فوهبنَ منكم، فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسرة، فلذلك وحّد النفس، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٢] ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ وقيل: لفظها واحد ومعناها جمع، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾، سائغاً طيباً، يقال: [هنأ في] الطعام يهنىء بفتح النون في الماضي وكسرها في الباقي، وقيل: الهنيء: الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء، والمريء: المحمود العاقبة التام الهضم الذي لا يضر، قرأ أبو جعفر «هنياً مرياً» بتشديد الياء فيهما من غير همزة، وكذلك «بري» «وبريون» «وبريا» «وكهية» والآخرون يهمزونها.

﴿٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾، اختلفوا في هؤلاء السفهاء فقال قوم: هم النساء، وقال الضحاك: النساء من أسفه السفهاء، وقال مجاهد: نهى الرجال أن يُؤتوا النساء أموالهم وهنّ سفهاء سواءٌ كنّ أزواجاً أو بنات أو أمهات، وقال آخرون: هم الأولاد، قال الزهري: يقول لا تعطِ ولدكَ السفيه مالك الذي هو قيامك بعد الله تعالى فيفسده، وقال بعضهم: هم النساء والصبيان، وقال الحسن: هي امرأتك السفيهة وابنك السفيه، وقال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وبنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنتَ الذي تُنفق عليهم في رزقهم ومُؤنتهم، قال الكلبي: إذا علم الرجل أنّ امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد فلا ينبغي له أن يُسلّط واحداً منهما على ماله فيفسده. وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مال اليتيم يكون عندك، يقول لا تؤته إيّاه وأنفقه عليه حتى يبلغ، وإنّما أضاف إلى الأولياء فقال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ لأنهم قوامها ومدبروها، والسفيه الذي لا يجوز

لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجرَ عليه، وهو أن يكون مبذراً في ماله أو مفسداً في دينه، فقال جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ﴾، أي: الجهال بموضع الحق أموالكم التي جعل الله لكم قياماً، قرأ نافع وابن عامر «قيماً» بلا ألف، وقرأ الآخرون ﴿قِيَٰمًا﴾ وأصله: قواماً، فانقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر. وأراد ههنا قِوام عيشكم الذي تعيشون به. قال الضحاك: به يقام الحج والجهاد وأعمال البِرّ وبه فكاك الرقاب من النار. ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: أطعموهم، ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾، لمن يجب عليكم رزقه ومؤنته، وإنما قال ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: منها، لأنه أراد اجعلوا لهم فيها رزقاً فإن الرزق من الله العطيةُ من غير حدّ، ومن العباد أجرٌ موقتٌ محدود. ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عدة جميلة، وقال عطاء: [يقول] إذا ربحتُ أعطيتُك وإن غنمتُ جعلت لك حظاً، وقيل: هو الدعاء، وقال ابن زيد: إن لم يكن ممن يجب عليك نفقته، فقلْ له: عافانا الله وإيّاك بارك الله فيك، وقيل: قولاً ليناً تطيبُ به نفوسهم.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، الآية نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه، وذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه ثابتاً وهو صغير، فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال: إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحل لي من ماله ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اختبروهم في عقولهم وأديانهم وحفظِهم أموالَهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾، أي: مبلغ الرجال والنساء، ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾، أبصرتم، ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾، قال المفسرون يعني: عقلاً وصلاحاً في الدين وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه. قال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبي: لا يدفع إليه ماله وإن كان شيخاً حتى يؤنس منه رشده، والابتلاء يختلف باختلاف أحوالهم فإن كان ممن يتصرف في السوق فيدفع الولي إليه شيئاً يسيراً من المال وينظر في تصرفه وإن كان ممن لا يتصرف في السوق فيختبره في نفقة داره، والإنفاق على عبيده وأُجرائه، وتُختبر المرأةُ في أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها، فإذا رأى حُسن تدبيره، وتصرفُه في الأمور مراراً يغلب على القلب رشده، دفعَ المالَ إليه. واعلمْ أن الله تعالى علّق زوال الحَجْرِ عن الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين: بالبلوغ والرُّشد، والبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة: اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان مختصان بالنساء فما يشترك فيه الرجال والنساء أحدهما السن، والثاني الاحتلام، أما السن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاماً كان أو جارية، لما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أخبرنا سفيان بن عُيينة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عُرضتُ على رسول الله ﷺ عام أُحد وأنا ابنُ أربع عشرة سنة، فردّني، ثم عُرضتُ عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني، قال نافع: فحدثتُ بهذ الحديث عمر بن عبدالعزيز، فقال: هذا فرق ما بين المقاتلة والذرّية، وكتب أن يفرض لابن خمس عشرة سنة في المقاتلة، ومن لم يبلغها في الذرية.

وهذا قول أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: بلوغ الجارية باستكمال سبعَ عشرة [سنة]، وبلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة، وأمّا الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع، أو غيرهما، فإذا وجد ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيهما كان حُكم ببلوغه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ [النور: ٥٩].

وقال النبي ﷺ لمعاذٍ في الجزية حين بعثه إلى اليمن: «خُذْ من كل حالم ديناراً» وأما الإنبات، وهو نبات الشعر الخشن حول الفرج، فهو بلوغ في أولاد المشركين، لِما رُوي عن عطية القرظي قال: كنتُ من سبي قريظة، فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت ممن لم ينبت.

وهل يكون ذلك بلوغاً في أولاد المسلمين؟ فيه قولان، أحدهما: يكون بلوغاً كما في أولاد الكفار، والثاني: لا يكون بلوغاً لأنه يمكن الوقوف على مواليد المسلمين بالرجوع إلى آبائهم، وفي الكفار لا يوقف على مواليدهم، ولا يقبل قول

آبائهم فيه لكفرهم، فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم، و أما ما يختص بالنساء فالحيض والحبل، فإذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يُحكم ببلوغها، وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل، وأمّا الرشد: فهو أن يكون مصلحاً في دينه وماله، والصلاح في الدين هو أن يكون مجتنباً عن الفواحش والمعاصي التي تسقط العدالة، والصلاح في المال هو أن لا يكون مبذراً، والتبذير: هو أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمدة دنيويّة ولا مثوبة أخرويّة، أو لا يُحسن التصرفَ فيها، فيغبن في البيوع فإذا بلغ الصبي وهو مفسد في دينه وغير مصلح لماله، دام الحجر عليه، ولا يدفع إليه ماله ولا ينفذ تصرفه، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه إذا كان مصلحاً لماله زال الحجر عنه وإن كان مفسداً في دينه، وإن كان مفسداً لماله قال: لا يدفع إليه المال حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة، غير أن تصرّفه يكون نافذاً قبله، والقرآن حجة لمن استدام الحجر عليه، لأنّ الله تعالى قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، أمر بدفع المال إليهم بعد البلوغ وإيناس الرشد، والفاسق لا يكون رشيداً وبعد بلوغه خمساً وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالإنفاق غير رشيد، فوجب أن لا يجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن، وإذا بلغ وأُونس منه الرشدُ زال الحجر عنه، ودفع إليه المال رجلاً كان أو امرأة تزوج أو لم يتزوج، وعند مالك رحمه الله تعالى: إن كانت امرأة لا يدفع المال إليها ما لم تتزوج، فإذا تزوجت دفع إليها، ولكن لا ينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج، ما لم تكبر وتُجرِّب، وإذا بلغ الصبي رشيداً وزال الحجر عنه ثم عاد سفيهاً نُظر فإن عاد مبذراً لماله حُجر عليه، وإن عاد مفسداً في دينه فعلى وجهين، أحدهما: يُعاد الحِجْرُ عليه كما يستدام الحجر عليه إذا بلغ بهذه الصفة، والثاني: لا يُعاد لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لا حجر على الحرّ العاقل البالغ بحال، والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة رضي الله عنهم، ما رُوي عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبدالله بن جعفر ابتاع أرضاً سبخة بستين ألف درهم، فقال عليٌّ: لآتينّ عثمان فلأحجرنّ عليك فأتى ابنُ جعفر الزبيرَ فأعلمه بذلك [فقال الزبير: أنا شريكك في بيعك فأتى علي عثمان وقال: احجر على هذا] فقال الزبير: أنا شريكه، فقال عثمان: كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير، فكان ذلك اتفاقاً منهم على جواز الحجر حتى احتال الزبير في دفعه. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾، يا معشر الأولياء ﴿إِسْرَافًا﴾، بغير حق، ﴿وَبِدَارًا﴾ أي: مبادرة، ﴿أَن يَكْبَرُوا۟﴾ و﴿أن﴾ في محل نصب، يعني: لا تبادروا كِبَرَهم ورُشدَهم حذراً من أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم، ثم بيّن ما يحل لهم ومن مالهم فقال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، أي: ليمتنع من مال اليتيم فلا يرزؤه قليلاً ولا كثيراً، والعفة الامتناع مما لا يحل، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا﴾ محتاجاً إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهده، ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر السجزي أخبرنا الإمام أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر بن داسة التمار أخبرنا أبو داود السجستاني أخبرنا حميد بن مسعدة أن خالد بن الحارث حدثهم أخبرنا حسين يعني المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم:

أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني فقير وليس لي شيء ولي يتيم، فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مسرفٍ ولا مبذّرٍ ولا متأثل».

واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء، فذهب قوم إلى أن يقضي إذا أيسر وهو المراد من قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، والمعروف القرض، أي: يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر قضاه، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة وليّ اليتيم: إن استغنيتُ استعففتُ وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف، فإذا أيسرتُ قضيت. وقال الشعبي: لا يأكله إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة، وقال قوم: لا قضاء عليه، ثم اختلفوا في

الجزء الرابع — سورة النساء

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

٧٨

كيفية هذا الأكل بالمعروف، فقال عطاء وعكرمة: يأكل بأطراف أصابعه، ولا يسرف ولا يكتسي منه، [وقال]: لا يلبس الكتان ولا الحُلل، ولكن ما سدّ الجوعةَ ووارى العورةَ، وقال الحسن وجماعة: يأكل من تمر نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا؛ فإن أخذ شيئاً منه فعليه ردُّه [عليه]، وقال الكلبي: المعروف ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئاً.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد أنه قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ لي يتيماً وإن له إبلاً أفأشرب من لبن إبله؟ فقال: إن كنت تبغي ضالة إبله وتهنأ جَرْبَاها وتليطُ حوضَها وتسقيها يوم وُرودِها فاشرب غير مُضرٍ بنسلٍ ولا ناهِكَ في الحَلْب.

وقال بعضهم: والمعروف أن يأخذ ماله بقدر قيامه وأجرة عمله، ولا قضاء عليه، وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾، هذا أمرُ إرشاد، وليس بواجب، أمر الولي بالإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعدما بلغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً ومجازياً وشاهداً.

﴿٧﴾ قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية.

نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأةً يقال لها أم كُجّة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووَصِيّاه، سويدٌ وعُرْفُجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يُورِّثون النساء ولا الصغير، وإن كان الصغير ذكراً، وإنما كانوا يورّثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلا من قاتل وحاز الغنيمة، فجاءت أم كُجّة فقالت: يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ ثلاث بنات وأنا امرأته، وليس عندي ما أنفق عليهن، وقد ترك أبوهنّ مالاً حسناً، وهو عند سويد وعرفجة، ولم يعطياني ولا بناتي شيئاً وهن في حِجْري، لا يطعمنَ ولا يسقين، فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل [كَلاً ولا يُنكأ] عدواً، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾. يعني: للذكور من أولاد الميت وأقربائه ﴿نَصِيبٌ﴾ حظٌ ﴿مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من الميراث، ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾، وللإناث منهم، ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾، أي: من المال، ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ منه ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، نصب على القطع، وقيل: جعل ذلك نصيباً فأثبت لهنّ الميراث، ولم يبين كم هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سُويد وعُرفجة: لا تفرقا من مال أوس بن ثابت شيئاً فإن الله تعالى جعل لبناته نصيباً مما ترك، ولم يُبيّن كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهنّ، فأنزل الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]. فلمّا نزلت أرسل رسول الله إلى سُويد وعُرفجة: «أنِ ادفعا إلى أُمّ كُجّة الثُّمن [مما ترك] وإلى بناته الثلثين، ولكما باقي المال».

﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾، يعني: قِسمةَ المواريث، ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾، الذين لا يرثون، ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، أي: فارضخوا لهم من المال قبل القسمة، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة، وقال سعيد بن المسيب والضحاك: كانت

هذه قبل آية الميراث فلما نزلت آية الميراث جعلت المواريث لأهلها، ونسخت هذه الآية. وقال آخرون: هي محكمة، وهو قول ابن عباس والشعبي والنخعي والزهري، وقال مجاهد: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، وقال الحسن: كانوا يعطون التابوت والأواني ورثّ الثياب والمتاع والشيء الذي يستحيا من قسمته، وإن كان بعض الورثة طفلاً فقد اختلفوا فيه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: إن كانت الورثة كباراً رضخوا لهم، وإن كانت صغاراً اعتذروا إليهم، فيقول الولي والوصي: إني لا أملك هذا المال إنما هو للصغار، ولو كان لي منه شيء لأعطيتكم، وإن يكبروا فسيعرفون حقوقك، هذا هو القول بالمعروف، وقال بعضهم ذلك حق واجب في أموال الصغار والكبار، فإن كانوا كباراً تولوا إعطاءهم، وإن كانوا صغاراً أعطى وليهم. روى محمد بن سيرين أن عَبيدة السلماني قسم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت فصنع طعاماً لأجل هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي. وقال قتادة عن يحيى بن يعمر: ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهن الناس، هذه الآية وآية الاستئذان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور: ٥٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، وقال بعضهم: وهو أولى الأقاويل: إن هذا على الندب والاستحباب، لا على الحتم والإيجاب.

﴿٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾، أولاد صغاراً، ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، الفقر، هذا في الرجل يحضره الموت، فيقول من بحضرته: انظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئاً، قدّم لنفسك اعتقْ وتصدقْ وأعطِ فلاناً كذا وفلاناً كذا، حتى يأتي على عامة ماله، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث، ولا يُجحف بورثته كما أنه لو كان هذا القائل هو الموصي يسره أن يحثه من بحضرته على حفظ ماله لولده، ولا يدعهم عالةً مع ضعفهم وعجزهم. وقال الكلبي: هذا الخطاب لوُلاة اليتامى يقول: من كان [منهم] في حجره يتيم فليحسنْ إليه وليأتِ في حقه ما يحب أن يفعل بذريته من بعده، قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي: عدلاً، والسديد: العدل، والصواب من القول، وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثُلث ويخلّف الباقي لورثته.

﴿١٠﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾، قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من بني غطفان، يقال له مرثد بن زيد ولي مالَ ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: حراماً بغير حق، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، أخبر عن ماله، أي عاقبته تكون كذلك، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، قراءة العامة بفتح الياء، أي: يدخلونها، يقال: صَلَى النار يصلاها صلاً وصلاءً، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣]، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الياء، أي: يدخلون النار ويحرقون، نظيره قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠] ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦] وفي الحديث: قال النبي ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل، إحداهما قالصة على منخريه والأخرى على بطنه، وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموالَ اليتامَى ظلماً».

﴿١١﴾ قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الآية، اعلم أن الوراثة كانت في الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يُورِّثون الرجال دون النساء والصبيان، فأبطل اللهُ ذلك بقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ الآية، وكانت أيضاً في الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] ثم صارت الوراثة بالهجرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] فنسخ [الله] ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة: بالنسب والنكاح أو الولاء، والمعنيُّ بالنسب أن القرابة يرث بعضهم من بعض، لقوله

تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، والمعني بالنكاح: أن أحد الزوجين يرث صاحبه، وبالولاء: أن المُعْتِقَ وعصباتُه يرثون المُعْتَقَ، فنذكر بعون الله تعالى فصلاً وجيزاً في بيان من يرث من الأقارب. وكيفية توريث الورثة فنقول: إذا مات ميّتٌ وله مال فيُبدأ بتجهيزه ثم بقضاءِ ديونه ثم بإنفاذ وصاياه فما فَضُلَ يُقسم بين الورثة على ثلاثة أقسام منهم، من يرث بالفرض من يرث بالتعصيب، ومنهم من يرث بهما جميعاً، فمن يرث بالنكاح لا يرث إلا بالفرض، ومن يرث بالولاء لا يرث إلا بالتعصيب، أمّا من يرث بالقرابة فمنهم من يرث بالفرض كالبنات والأخوات والأمهات والجدات، وأولاد الأم، ومنهم من يرث بالتعصيب كالبنين والإخوة وبني [الإخوة و] الأعمام وبنيهم، منهم من يرث بهما كالأب يرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد، وإن كان للميت ابن يرث الأب بالفرض السدس، وإن كان للميت بنت يرث الأب السدس بالفرض ويأخذ الباقي بعد نصيب البنت بالتعصيب، وكذلك الجد، وصاحب التعصيب من يأخذ جميع المال عند الانفراد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض، وجملة الورثة سبعة عشر: عشرة من الرجال وسبع من النساء، فمن الرجال الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجد أبو الأب وإن علا، والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم، وابن الأخ للأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وأبناؤهما وإن سفلوا، والزوج ومولى العتاق، ومن النساء البنت وبنت الابن وإن سفلت [والأم]، والجدة أم الأم أم الأب، والأخت سواء كانت لأب وأم أو لأب أو لأم، والزوجة ومولاة العتاق، وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير: الأبوان والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة، والأسباب التي توجب حرمان الميراث أربعة: اختلاف الدين والرق والقتل وعمي الموت، ونعني باختلاف الدين أن الكافر لا يرث المسلم والمسلم لا يرث الكافر، لما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الكسائي الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الشافعي أنا ابن عيينة عن الزهري عن علي بن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ».

أما الكفار يرث بعضهم من بعض مع اختلاف مللهم، لأن الكفر كله ملة واحدة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وذهب [بعض أهل العلم] إلى أن اختلاف الملل في الكفر يمنع التوارث حتى لا يرث اليهودي النصراني ولا النصراني المجوسي، وإليه ذهب الزهري والأوزاعي وأحمد وإسحاق:

لقول النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتّى»، وتأوله الآخرون على الإسلام مع الكفر، أمّا الكفر فكله ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين أهل ملتين شتى، والرقيق لا يرث أحداً ولا يرثه أحد لأنه لا ملك له ولا فرق فيه بين القِن والمدبَّر والمكاتَب وأم الولد، والقتل يمنع الميراث عمداً كان أو خطأً لِما:

رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «القاتل لا يرث».

ونعني بعمى الموت أن المتوارِثَين إذا عمي موتهما بأن غرقا في ماء أو انهدم عليهما بناء فلم يدرِ أيّهما سبق موته فلا يورث أحدهما من الآخر بل ميراث كل واحد منهما لمن كان حياته يقيناً بعد موته من ورثته. والسهام المحدودة في الفرائض ستة: النصف والربع والثُمن والثلثان والثلث والسدس، فالنصف فرض ثلاثة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصّلب أو لبنت الابن عند عدم ولد الصلب، وفرض الأخت الواحدة للأب والأم أو للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم، والربع فرض [اثنين: فرض] الزوج إذا كان للميت ولد وفرض الزوجة إذا لم يكن للميت ولد، والثمن: فرض الزوجة إذا كان للميت ولد، والثلثان فرض البنتين للصلب فصاعداً ولبنتي الابن فصاعداً عند عدم ولد الصلب، وفرض الأختين لأب وأم أو للأب فصاعداً، والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد، والاثنان من الأخوة والأخوات، إلا في مسألتين:

إحداهما زوج وأبوان، والثانية: زوجة وأبوان، فإن للأم فيهما ثلث ما بقي بعد نصيب الزوج والزوجة، وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم، ذَكَرُهُم وأنثاهم فيه سواء، وفرض الجد مع الإخوة إذ لم يكن في المسألة صاحب فرض، وكان الثلث خيراً للجد من المقاسمة مع الإخوة. وأمّا السدس ففرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد، وفرض الأم إذا كان للميت ولد، أو اثنان من الإخوة والأخوات، وفرض الجد إذا كان للميت ولد ومع الإخوة والأخوات إذا كان في المسألة صاحب فرض، وكان السدس خيراً للجد من المقاسمة مع الإخوة، وفرض الجدة والجدات وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى، وفرض بنات الابن إذا كان للميت بنت واحدة للصلب تكملة للثلثين، وفرض الأخوات للأب إذا كان للميت أخت واحدة لأب وأم تكملة للثلثين.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا مسلم بن إبراهيم أنا وُهَيب أنا بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأوْلَى رجلٍ ذكر».

وفي الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض، والحجب نوعان: حجب نقصان وحجب حرمان، فأما حجب النقصان فهو أن الولد أو ولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن، والأم من الثلث إلى السدس، وكذلك الاثنان من الإخوة [والأخوات فصاعداً] يحجبون الأم من الثلث إلى السدس. وحجب الحرمان هو أن الأم تُسقط الجدات كلهن وأولاد الأم وهم الأخوة للأم والأخوات يسقطون بأربعة: بالأب والجد وإن علا، وبالولد وولد الابن وإن سفل، وأولاد الأب والأم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا، ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت، وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي وأحمد وإسحاق رحمهم الله. وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم، وذهب قوم إلى أن الإخوة جميعاً يسقطون بالجد كما يسقطون بالأب، وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابن عباس ومعاذ وأبي الدرداء وعائشة رضي الله عنهم، وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة رحمهم الله، وأقرب العصبات يسقط الأبعد من العصوبة، وأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل، ثم الأب ثم الجد أبو الأب وإن علا، فإن كان مع الجد أحد من الإخوة والأخوات للأب والأم أو للأب يشتركان في الميراث، فإن لم يكن جد فالأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الإخوة يقدم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب، فإن استويا في الدرجة فالذي هو لأب وأم أولى ثم العم للأب والأم ثم العم للأب ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة، ثم عم الأب ثم عم الجد على هذا الترتيب، فإن لم يكن أحد من عصبات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق، فإن لم يكن حياً فلعصبات المعتق. وأربعة من الذكور يعصبون الإناث، الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب حتى لو مات عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لأب وأم أو لأب فإنه يكون المال بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا يفرض للبنت والأخت وكذلك ابن الابن يعصب من في درجته من الإناث، ومن فوقه إذا لم تأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن، فإن كان في درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين، والأخت للأب والأم أو للأب تكون عصبة مع البنت حتى لو مات عن بنت وأخت كان النصف للبنت والباقي للأخت، فلو مات عن بنتين وأخت فللبنتين الثلثان والباقي للأخت، والدليل عليه ما.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أنا أبو قيس قال: سمعت هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن ابنة وبنت ابن وأخت فقال: للبنت النصف وللأخت النصف، وائتِ ابنَ مسعود فسيتابعني فسُئل ابن مسعود وأُخبر

بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى به رسول الله ﷺ: للبنت النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبر فيكم.

رجعنا إلى تفسير الآية. واختلفوا في سبب نزولها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو الوليد أنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال:

سمعتُ [جابراً يقول جاء] رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبَّ عليَّ من وضوئه فعقلت، فقلت: يا رسول الله لِمَنِ الميراث إنّما يرثني كلالة؟ فنزلت آية الفرائض.

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في أم كُجّة امرأة أوس بن ثابت وبناته.

وقال عطاء: استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أُحد وترك امرأة وبنتين وأخاً، فأخذ الأخ المال فأتت امرأة سعد إلى رسول الله ﷺ بابنتي سعد فقالت: يا رسول الله إن هاتين ابنتا سعد وإن سعداً قُتل يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما ولا تنكحان إلا ولهما مال، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعي فلعلّ الله سيقضي في ذلك»، فنزل ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ إلى آخرها، فدعا رسول الله ﷺ عمهما فقال له: «أعطِ ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك»، فهو أول ميراث قُسم في الإسلام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ أي: يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم، أي: في أمر أولادكم إذا متم، للذكر مثل حظ الأنثيين. ﴿فَإِن كُنَّ﴾، يعني: المتروكات من الأولاد، ﴿نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾، أي: اثنتين فصاعداً ﴿فَوْقَ﴾ صلة، كقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]، ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ﴾، يعني: البنت، ﴿وَٰحِدَةً﴾، قراءة العامة [بالنصب] على خبر كان، رفعها أهل المدينة على معنى إن وقعت واحدة، ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾، يعني لأبوي الميت كناية عن غير مذكور، ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أراد أن الأب والأم يكون لكل واحد منهما سدس الميراث عند وجود الولد أو ولد الابن، والأب يكون صاحب فرض ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، قرأ حمزة والكسائي «فلإمه» بكسر الهمزة استثقالاً للضمة بعد الكسرة، وقرأ الآخرون بالضم على الأصل ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾، اثنان أو أكثر ذكوراً أو إناثاً ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، والباقي يكون للأب إن كان معها أب، والإخوة لا ميراثَ لهم مع الأب، ولكنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلا أن يكونوا ثلاثة لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، ولا يقال للاثنين إخوة، فنقول اسم الجمع قد يقع على التثنية لأن الجمع ضم شيء إلى شيء فهو موجود في الاثنين كما قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] ذكر القلب بلفظ الجمع، وأضافه إلى اثنين، قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر «يوصى» بفتح الصاد على ما لم يسم فاعله، وكذلك الثانية وافق حفص في الثانية، وقرأ الآخرون بكسر الصاد لأنه جرى ذكر الميت من قبل، بدليل قوله تعالى: ﴿يُوصِينَ﴾، و﴿تُوصُونَ﴾.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنكم تقرؤون الوصية قبل الدّين، وبدأ رسول الله ﷺ بالدَّين قبل الوصية.

وهذا إجماعٌ أن الدين مُقدّم على الوصية. ومعنى الآية الجمع لا الترتيب، وبيان أن الميراث مؤخر عن الدين والوصية جميعاً، معناه من بعد وصية إن كانت أو دين إن كان، والإرث مؤخر عن كل واحد منهما. ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾، يعني: الذين يرثونكم [آباؤكم وأبناؤكم]، ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، أي: لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم من يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالمُ بمن هو أنفع لكم، وقد دبرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه، وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أطوعكم لله

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

عزّ وجلّ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، فالله تعالى يُشفّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإن كان الوالد أرفع درجة يوم القيامة في الجنة رفع إليه ولده وإن كان الولد أرفع درجة رفع إليه والده لتقرّ بذلك أعينهم، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: ما قدّر الله من المواريث، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾، بأمور العباد، ﴿حَكِيمًا﴾، بنصب الأحكام.

﴿١٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، هذا [في] ميراث الأزواج، ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ﴾، يعني: للزوجات الربع، ﴿مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، هذا [في] ميراث الزوجات وإذا كان للرجل أربع نسوة فهن يشتركن في الربع والثمن. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ تُورث كلالة، ونظم الآية: وإن كان رجل أو امرأة يُورث كلالةً وهو نصب على المصدر، وقيل: على خبر ما لم يُسمّ فاعلُه، تقديره: وإن كان رجل يورث ماله كلالة، واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة مَنْ لاَ وَلَد له ولاَ وَالِدَ له. ورُوي عن الشعبي قال: سُئل أبو بكر رضي الله عنه عن الكلالة فقال: إني سأقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمنّي ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد والولد، فلما استخلف عمر رضي الله عنهما قال: إني لأستحيي من الله أن أردّ شيئاً قاله أبو بكر رضي الله عنه، وذهب طاوس إلى أن الكلالة مَنْ لا ولد له، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأحد القولين عن عمر رضي الله عنه، واحتج من ذهب إلى هذا بقول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وبيانه عند العامة مأخوذٌ من حديث جابر بن عبدالله، لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن، لأن أباه عبدالله بن حرام قُتل يوم أحد، وآية الكلالة نزلت في آخر عمر النبي ﷺ، فصار شأن جابر بياناً لمراد الآية لنزولها فيه، واختلفوا في أن الكَلالة اسم لمن؟ فمنهم من قال: اسم للميت، وهو قول علي وابن مسعود رضي الله عنهما، لأنه مات عن ذهاب طرفيه، فكلّ عمود نسبه، ومنهم من قال: اسم للورثة، وهو قول سعيد بنُ جبير، لأنهم يتكللون الميت من جوانبه، وليس في عمود نسبه أحدٌ، كالإكليل يحيط بالرأس ووسط الرأس منه خالٍ، وعليه يدل حديث جابر رضي الله عنه حيث قال: إنما يرثني كلالة، أي: يرثني ورثة ليسوا بولدٍ ولا والدٍ، قال النضر بن شميل: الكلالة اسم للمال، وقال أبو الخير: سأل رجل عُقبة عن الكلالة فقال: ألا تعجبون من هذا يسألني عن الكلالة، وما أعضل بأصحاب النبي ﷺ ما أعضلت بهم الكلالة، وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بينهن لنا أحب إلينا من الدنيا وما فيها: الكلالة والخلافة وأبواب الربا.

وقال معدان بن أبي طلحة: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعتُه في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي في الكلالة، حتى طعن بأصبعه في صدري فقال: «يا عمر ألاَ تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»، وإني إن أعش أقضِ

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

بقضية يقضي فيها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ [القرآن].

فقوله: «ألا تكفيكَ آيةُ الصيف»؟ أراد: أن الله عزّ وجلّ أنزل في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء والأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها، وفيها من البيان ما ليس في آية الشتاء، فلذلك أحاله عليها، قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾ أراد به الأخ والأختَ من الأم بالاتفاق وقرأ سعد بن أبي وقاص «وله أخ أو أخت من أم» ولم يقلْ لهما مع ذكر الرجل والمرأة من قبل، على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما، وكانا في الحكم سواءً، ربّما أضافت إلى أحدهما، وربّما أضافت إليهما، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥]،

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾، فيه إجماع أن أولاد الأم إذا كانوا اثنين فصاعداً يشتركون في الثلث ذكرُهم وأنثاهم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: ألاَ إن الآية التي أنزل الله تعالى في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها في الولد والوالد والأم، والآية الثانية في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ أي: غير مُدخل الضررَ على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية، قال: الحسن هو أن يوصي بدين ليس عليه، ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾، قال قتادة: كره الله الضِّرارَ في الحياة وعند الموت، ونهى عنه وقدّم فيه.

﴿١٣﴾ ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، يعني: ما ذكر من الفروض المحدودة، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر «نُدخله جنات»، و«نُدخله ناراً»، وفي سورة الفتح ﴿ندخله﴾ و﴿نعذبه﴾ [الفتح: ١٧] وفي سورة التغابن ﴿نكفر﴾ و﴿ندخله﴾ [التغابن: ٩] وفي سورة الطلاق ﴿ندخله﴾ [الطلاق: ١١] بالنون فيهن، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، يعني: الزنا، ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾، يعني: من المسلمين، وهذا خطاب للحكام، أي: فاطلبوا عليهن أربعةً من الشهود، [فيه بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود] ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾، فاحبسوهنّ، ﴿فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، وهذا كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، فكانت المرأة إذا زنت حُبست في البيت حتى تموت، ثم نسخ ذلك في حق البكر بالجلد والتغريب، وفي حق الثيب بالجلد والرجم.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أخبرنا الشافعي رضي الله عنه أخبرنا عبدالوهّاب عن يونس عن الحسن عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خُذوا عنّي خُذوا عنّي: قد جعل الله لهنّ سبيلاً، البكرُ بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

قال الشافعي رضي الله عنه: وقد حدثني الثقة أن الحسن كان يدخل بينه وبين عبادة حطان الرقاشي، فلا أدري أدخله عبدالوهّاب بينهما فنزل عن كتابي أمْ لاَ. قال شيخنا الإمام: الحديث صحيح رواه مسلم بن الحجاج عن محمد بن المثنى عن عبدالأعلى عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطان بن عبدالله عن عبادة [بن الصامت]، ثم نسخ الجلد في حق الثيب وبقي الرجم عند أكثر أهل العلم، وذهب طائفة إلى أنه يجمع بينهما. رُوي عن علي رضي الله عنه: أنه جَلَدَ شراحة الهمْدانية يوم الخميس مائة ثم رجمها يوم الجمعة، وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ. وعامة العلماء على أن الثيب لا يجلد مع الرجم لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية ولم يجلدهما. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه: التغريب أيضاً منسوخ في حق البكر. وأكثر أهل العلم على أنه ثابت.

روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ضَرَبَ وغَرّبَ، وأن أبا بكر رضي الله عنه ضَربَ وغرّبَ، وأن عمر رضي الله عنه ضَربَ وغرّبَ.

واختلفوا في أن الإمساك في البيت كان حداً فنسخ أم كان حبساً ليظهر الحد، على قولين.

(١٦) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾، يعني الرجل والمرأة، والهاء راجعة إلى الفاحشة. قرأ ابن كثير (اللذان، واللذين، وهاتان، وهذان) مشددة النون للتأكيد، ووافقه أهل البصرة في (فذانك) و[قرأ] الآخرون بالتخفيف. قال أبو عبيدة: خصّ أبو عمرو (فذانك) بالتشديد لقلة الحروف في الاسم ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ قال عطاء وقتادة: فيعّروهما باللسان: أمَا خِفْتَ اللَّهَ؟ أما استحيتَ من الله حيث زنيت؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُبوهُمَا واشتموهما، قال ابن عباس: هو باللسان واليد يُؤذى بالتعيير وضرب النعال، فإن قيل: ذَكرَ الحبسَ في الآية الأولى وذَكر في هذه الآية الإيذاء، فكيف وجه الجمع؟ قيل: الآية الأولى في النساء وهذه في الرجال، وهو قول مجاهد، وقيل: الآية الأولى في الثيب وهذه في البكر، ﴿فَإِن تَابَا﴾، من الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾، العمل فيما بعد، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾، فلا تُؤذُوهما، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وهذا كله كان قبل نزول الحدود، فنُسخت بالجلد والرجم، والجلد في القرآن قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ والرجم في السنة.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما أخبراه:

أنّ رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: اقضِ يا رسول الله بيننا بكتابِ الله، وقال الآخر وكان أفقههما: أجلْ يا رسول الله فاقضِ بيننا بكتابِ الله، وائذن لي أن أتكلم، فقال: «تكلم»، قال: إن ابني كان عسيفاً [أي: أجيراً] على هذا، فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم، فاقتديتُ منه بمائة شاة وبجارية لي، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله، أمّا غَنَمُك وجاريتُك فردٌّ عليك، وجلد ابنه مائة وغربه عاماً وأمر أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها» فاعترفتْ، فرجمها.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالعزيز بن عبدالله حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه:

إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله تعالى آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل واللّهِ ما نجدُ آيةَ الرجم في كتاب الله تعالى، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى في كتابه، والرجم في كتاب الله تعالى حق على

من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف.

وجملة حدّ الزنا: أن الزاني إذا كان محصناً وهو الذي اجتمعت فيه أربعة أوصاف: العقل والبلوغ والحرية والإصابة بالنكاح الصحيح، فحده الرجم مسلماً كان أو ذمياً وهو المراد من الشيب المذكور في الحديث، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الإسلام من شرائط الإحصان، ولا يرجم الذمي.

وقد صح، عن رسول الله ﷺ أنه رجم يهوديين زنيا، وكانا قد أحصنا.

وإن كان الزاني غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الأوصاف نظر إن كان غير بالغ أو كان مجنوناً فلا حدّ عليه، وإن كان حراً عاقلاً بالغاً غير أنه لم يُحصن بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام، وإن كان عبداً فعليه جلد خمسين وفي تغريبه قولان، إن قلنا يغرب فيه قولان، أصحهما نصف سنة كما يجلد خمسين على [النصف من] الحُرّ.

(١٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ قال الحسن: [يعني التوبة التي يقبلها]، فيكون ـ علىٰ ـ بمعنى عند، وقيل: من الله، ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنّ كل ما عُصي به اللّهُ فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عَصَى اللّهَ فهو جاهلٌ. وقال مجاهد: المراد من الآية: العمد، قال الكلبي: لم يجهل أنه ذنب ولكنه جهل عقوبته، وقيل: معنى الجهالة: اختيارُهم اللذة الفانية على اللذة الباقية. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، قيل: معناه قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها، وقال السدي والكلبي: القريب أن يتوب في صحته قبل مرض موته، وقال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل مُعاينة مَلَكِ الموت.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا عبدالرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا ابن ثوبان وهو عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما:

عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبا منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن عبدالجبار الريّاني أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الأسود أنا ابن لهيعة عن درّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما:

أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(١٨) ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، يعني: المعاصي ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، ووقع في النزع، ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾، وهي حال السَّوق حيث تساق روحه، لا يُقبل من كافر إيمانٌ ولا من عاص توبة، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق. ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا﴾، أي: هيأنا وأعددنا، ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(١٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾.

نزلت في أهل المدينة كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبَه على تلك المرأة أو على خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارّها لتفتدي منه بما ورثته من الميت أو تموت هي فيرثها فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقي عليها ولي زوجها ثوبَه فهي أحق بنفسها، فكانوا على هذا حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن ـ وقال مقاتل بن حيان: اسمه قيس بن أبي قيس ـ فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارّها لتفتدي

الجزء الرابع — سورة النساء

وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

٨١

منه، فأتت كبيشةُ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورِثَ نكاحي ابنه فلا [هو] ينفق علي ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال: «اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمرُ الله»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾.

قرأ حمزة والكسائي [كرهاً] بضم [الكاف ههنا وفي سورة التوبة وقرأ الباقون بالفتح قال الكسائي هما] لغتان وقال الفراء: الكَره بالفتح ما أُكره عليه، وبالضم ما كان من قِبَل نفسه من المشقة، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾، أي: لا تمنعوهنّ من الأزواج ليضجرن فيفتدين ببعض مالهن، قيل: هذا خطاب لأولياء الميت، والصحيح أنه خطاب للأزواج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيُضارّها لتفتدي وتردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى اللّهُ تعالى عن ذلك، ثم قال: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فحينئذٍ يحل لكم إضرارهنّ ليفتدين منكم، واختلفوا في الفاحشة، فقال ابن مسعود وقتادة: هي النشوز، وقال بعضهم وهو قول الحسن: هي الزنا، يعني: المرأة إذا نشزَتْ، أو زَنَتْ حلّ للزوج أن يسألها الخلع، وقال عطاء: كان الرجل إذا أصابتْ امرأتُه فاحشةً أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها [فنسخ الله تعالى ذلك بالحدود] وقرأ ابن كثير وأبو بكر (مبينة)، و(مبينات) بفتح الياء، وافق أهل المدينة والبصرة في (مبيّنات) والباقون بكسرها، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، قال الحسن: راجع إلى أول الكلام، يعني: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، والمعاشرة بالمعروف: هو الإجمال في القول والمبيت والنفقة، وقيل: هو أن يتصنع لها كما تتصنع له، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، قيل: هو ولد صالح، أو يعطفه الله عليها.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، أراد بالزوج الزوجة إذا لم يكن من قِبَلِها نشوزٌ ولا فاحشة، ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾، وهو المال الكثير صداقاً، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾، أي: من القنطار، ﴿شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ﴾، استفهام بمعنى التوبيخ، ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، انتصابهما من وجهين: أحدهما بنزع الخافض، والثاني: بالإضمار تقديره: تصيبون في أخذه بهتاناً وإثماً ثم قال:

﴿٢١﴾ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾، على طريق الاستعظام، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، أراد به المجامعة، ولكن الله حييٌ يُكني، وأصل الإفضاء: الوصول إلى الشيء من غير واسطة، ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، قال الحسن وابن سيرين والضحاك وقتادة: هو قول الولي عند العقد: زوجتُكَها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وقال الشعبي وعكرمة: هو ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله تعالى واستحللتُم فروجهنّ بكلمة الله تعالى».

﴿٢٢﴾ قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم.

قال أشعث بن سوار: تُوفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني اتخذتُكَ ولداً وأنت من صالحي قومك، ولكنني آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ

﴿ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، قيل: بعد ما سلف، وقيل: معناه لكن ما سلف، أي: ما مضى في الجاهلية فهو معفو عنه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: إنه فاحشة، ﴿وَكَانَ﴾ فيه صلة، و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أقبح المعاصي، ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: يُورث مقتَ اللّهِ، والمقت: أشدّ البُغض، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وبئس ذلك طريقاً وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه: مقيت وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية.

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر السجزي أنا الإمام أبو سليمان الخطابي أنا أحمد بن هشام الحضرمي أنا أحمد بن عبدالجبار العطاردي عن حفص بن غياث عن أشعث بن سوّار عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: مرّ بي خالي ومعه لواء فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثني النبي ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه.

﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [إلى آخر] الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية المحرمات بسبب الوصلة، وجملةُ المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبعٌ بالنسب، وسبعٌ بالسبب، فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع وأربع بالصهرية والسابعة المحصنات، وهن ذوات الأزواج، وأما السبع بالنسب فقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وهي جمع أُمّ ويدخل فيه الجدات وإن علونِ منْ قِبَل الأم أو منْ قِبَل الأب، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾، [وهي] جمع: البنت، فيدخل فيهن بنات الأولاد وإن سَفُلْنَ، ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾، جمع الأخت سواء كانت من قبل الأب والأم أو من قِبَل أحدهما، ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ جمع العمة، ويدخل فيهن جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علون، ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ جمع خالة، ويدخل فيهن أخوات أمهاتك وجداتك، ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾، فيدخل فيهنّ بنات أولاد الأخ والأخت وإن سَفُلنَ، وجملته: أنه يحرم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله. وأول فصلٍ من كل أصل بعده، والأصول هن الأمهات والجدات، والفصول البنات وبنات الأولاد، وفصول أول أصوله هن الأخوات وبنات الإخوة والأخوات، وأول فصل من كل أصل بعده هن العمات والخالات وإن علون، وأما المحرمات بالرضاع فقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، وجملته: أنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد [الخلال] أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ:

أن رسول الله ﷺ قال: «يحرمُ منَ الرَّضاعة ما يحرمُ من الوِلادة».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي قال: أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها أخبرتها:

أن رسول الله ﷺ كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، فقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال رسول الله ﷺ: أُراه فلاناً ـ لعم حفصة من الرضاعة ـ فقلت: يا رسول الله لو كان فلان حياً ـ لعمها من الرضاعة ـ أيدخل عليّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إنّ الرضاعة تُحرِّم ما يحرُم من الولادة».

وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ورُوي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ: «لا يحرمُ من الرضاعِ إلا ما فتقَ الأمعاء».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا رضاعَ إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم».

وإنما يكون هذا في حال الصغر، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه مدة الرضاع ثلاثون شهراً، لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهو عند الأكثرين لأقل مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع، وأقل مدة الحمل ستة أشهر، والشرط الثاني أن يوجد

خمس رضعات متفرقات، يُروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وبه قال عبدالله بن الزبير وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب سفيان الثوري، ومالك والأوزاعي وعبدالله بن المبارك وأصحاب الرأي، واحتج من ذهب إلى أن القليل لا يحرم بما:

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم أنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن الزبير يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرّم المصةُ من الرضاع والمصتان».

هكذا روى بعُضهم هذا الحديث.

ورواه عبدالله بن أبي مُليكة عن عبدالله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، وهو الصحيح.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل في القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يُقرأ مِنَ القرآن.

وأما المحرمات بالصهرية فقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، وجملته أن كل من عقد النكاح على امرأة فتحرم على الناكح أمهات المنكوحة وجداتها وإن علون من الرضاعة والنسب بنفس العقد، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، الربائب جمع: ربيبة، وهي بنت المرأة، سُميت ربيبة لتربيته إيّاها، وقوله: ﴿فِى حُجُورِكُم﴾ أي: في تربيتكم، يقال: فلان في حُجر فلان إذا كان في تربيته، ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: جامعتموهنّ، ويحرم عليه أيضاً بناتُ المنكوحة وبنات أولادها، وإن سَفلنَ من الرضاع والنسب بعد الدخول بالمنكوحة، حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو ماتَتْ جازَ له أن ينكح ابنتها، ولا يجوز له أن ينكح أمَّها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات وقال في تحريم الربائب، ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: في نكاح بناتهن إذا فارقتُموهنّ أو مِتْنَ.

وقال علي رضي الله عنه: أم المرأة لا تحرم إلا بالدخول بالبنت كالربيبة، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، يعني: أزواج أبنائكم، واحدتُها: حَليلة، والذكر حَلِيل، سُميا بذلك لأن كلَّ واحد منهما حلالٌ لصاحبه، وقيل: سُميا بذلك لأن كل واحد منهما يَحِلُّ حيث يحلُّ صاحبُه من الحلول وهو النزول، وقيل: لأن كلَّ واحدٍ منهما يحلّ إزارَ صاحبه من الحَلّ وهو ضدّ العقل، وجملته: أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أولاده وإنْ سَفلُوا من الرضاع والنسب بنفس العقد، وإنما قال: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ليعلم أن حليلة المتبنَّى لا تحرم على الرجل الذي تبناه، فإن النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، وكان زيدٌ قد تبنّاه رسول الله ﷺ، والرابع من المحرمات بالصهرية حليلةُ الأب والجدّ وإن علا، فيحرم على الولد ووَلَدِ الولد بنفس العقد سواء كان الأب من الرضاع أو من النسب، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢]، وقد سبق ذكره، وكل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين، والوطء بشبهة النكاح حتى لو وطىء امرأة بالشبهة أو جارية بملك اليمين فتحرم على الواطىء أمُّ الموطوءة وابنتها وتحرم الموطوءة على أب الواطىء وعلى ابنه.

ولو زنى بامرأة فقد اختلف فيه أهل العلم فذهب جماعة إلى أنه لا تحرم على الزاني أمُّ المَزنيّ بها وابنتها، وتحرم الزانيةُ على أب الزاني وابنه، وهو قول علي وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال سعيد بن المسيب وعُروة [ابن الزبير] والزهري، وإليه ذهب مالك والشافعي رحمهم الله تعالى، وذهب قومٌ إلى التحريم، يُروَى ذلك عن عِمرانَ بن حصينَ وأبي هريرة رضي الله عنهما، وبه قال جابر بن زيد والحسن وهو قول أصحاب الرأي. ولو مسَّ امرأةً بشهوة أو قبلها فهل يُجعل ذلك كالدخول في إثبات حرمة المصاهرة وكذلك لو مسّ امرأة بشهوة فهل يُجعل كالوطء في

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

تحريم الربيبة؟ فيه قولان أصحهما وهو قول أكثر أهل العلم أنه تثبت به الحرمة، والثاني: لا تثبت كما لا تثبت بالنظر بالشهوة. قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في النكاح سواء كانت الإخوة بينهما بالنسب أو بالرضاع، فإذا نكح امرأة ثم طلقها بائناً جاز له نكاح أختها، وكذلك لو ملك أختين بملك اليمين لم يجز له أن يجمع بينهما في الوطء، فإذا وطىء إحداهما لم يحل له وطء الأخرى حتى يُحرّم الأولى على نفسه، وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها [لما]:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، يعني: لكن ما مضى فهو معفو عنه، لأنهم كانوا يفعلونه قبل الإسلام، وقال عطاء والسدي: إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه جمع بين ليّا أم يهوذا وراحيل أم يوسف، وكانتا أختين. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٢٤) قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يعني: ذوات الأزواج، لا يحل للغير نكاحُهنّ قبل مفارقة الأزواج، وهذه السابعة من النساء اللاتي حَرُمْنَ بالسبب.

قال أبو سعيد الخدري: نزلت في نساء كُنّ يهاجرن إلى رسول الله ﷺ ولهن أزواج فيتزوجهنّ بعض المسلمين، ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يعني: السبايا اللواتي سُبين ولهن أزواج في دار الحرب فيحلُّ لِمَالِكِهِنّ وطؤهنّ بعد الاستبراء، لأن بالسبي يرتفع النكاح بينهما وبين زوجها.

قال أبو سعيد الخدري: بعث رسول الله ﷺ يوم حُنين جيشاً إلى أوطاسٍ فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين، فكرهوا غشيانهن فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عطاء: أراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أن تكون أمته في نكاح عبدِهِ يجوز أن ينزعَها منه وقال ابن مسعود: أراد أن يبيع الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها، ويكون بيعها طلاقاً فيحل للمشتري وطؤها، وقيل: أراد بالمحصنات الحرائر ومعناه: أن ما فوق الأربع منهن حرام إلا ما ملكت أيمانُكم فإنه لا عدد عليكم في الجواري. قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، نصب على المصدر، أي: كتب الله عليكم [كتاب الله] وقيل: نصب على الإغراء، أي: الزموا [كتاب الله عليكم] أي: فرض الله عليكم ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وحفص ﴿وَأُحِلَّ﴾ بضم الأول وكسر الحاء، لقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وقرأ الآخرون بالنصب، أي: أحلّ الله لكم ما وراء ذلكم، ما سوى ذلكم الذي ذكرتُ من المحرمات، ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾، تطلبُوا ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾، أن تنكِحُوا بصداقٍ أو تشتروا بثمنٍ، ﴿مُّحْصِنِينَ﴾، أي: متزوجين [أو] مُتعفِّفين، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، أي: غير زانين، مأخوذٌ من سَفْح الماء وصبِّه وهو المني، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾، اختلفوا في معناه، قال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذّذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: مهورهن، وقال آخرون: هو نكاح المتعة وهو أن

تنكح امرأة إلى مدّة فإذا انقضت تلك المُدّة بانَتْ منه بلاَ طلاق، ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث، وكان ذلك مباحاً في ابتداء الإسلام، ثم نهى عنه رسول الله ﷺ.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد بن عبدالله بن نمير أنا أبي أنا عبدالعزيز بن عمر حدثني الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني كُنتُ أذِنتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنّ الله تعالى قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليُخلِ سبيلَه ولا تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبدالله والحسن ابني محمد بن علي عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ نهى عن مِتعةِ النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية.

وإلى هذا ذهب عامة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام، والآية منسوخة. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يذهب إلى أن الآية محكمة، وترخّص في نكاح المتعة.

رُوي عن أبي نضرة قال سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن المتعة، فقال: أمَا تقرأ في سورة النساء: ﴿فما استمتعتُمْ بهِ مِنْهُنّ إلى أجلٍ مُسمّى﴾؟ قلت: لا أقرأها هكذا قال ابن عباس: هكذا أنزل الله، ثلاث مرات. وقيل: إنّ ابن عباس رضي الله عنهما رجع عن ذلك.

وروَى سالم عن عبدالله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ما بال رجال ينكحون هذه المتعة؟ وقد نهى رسول الله ﷺ عنها، لا أجدُ رجلاً نكحها إلاّ رجمتُه بالحجارة، وقال: هدمَ المتعةَ النكاحُ والطلاقُ والعِدّةُ والميراثُ.

قال الربيع بن سليمان: سمعتُ الشافعي رضي الله عنه يقول: لا أعلم في الإسلام شيئاً أُحلّ ثم حُرّم ثم أُحلّ ثم حُرّم غير المتعة. قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مُهورَهنّ، ﴿فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، فمن حمل ما قبله على نكاح المتعة أراد أنهما إذا عَقَدَا إلى أجلٍ بمالٍ فإذا تمّ الأجل فإن شاءت المرأة زادتْ في الأجلِ وزاد الرجل في الأجر، وإن لم يتراضيا فارقها، ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح. قال المراد بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾ من الإبراء عن المهر والافتداء والاعتياض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

[فصل في قدر الصداق وفيما يُستحب منه]

أعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ والمستحب أن لا يُغالي فيه.

قال عمر بن الخطاب: ألا لا تغالوا في صدقة النساء فإنها لو كانت مكْرمةً في الدنيا وتقوًى عند الله لكان أولاكم بها نبيُّ الله ﷺ ما علمتُ رسولَ الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا جعفر بن محمد المفلس أنا هارون بن إسحاق أنا يحيى بن محمد الحارثي أنا عبدالعزيز بن محمد عن يزيد بن عبدالله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة قال:

سألت عائشة رضي الله عنها كم كان صداق النبي ﷺ لأزواجه؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونش، قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم، هذا صداق النبي ﷺ لأزواجه.

أمّا أقل الصداق فقد اختلفوا فيه، فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقلّه بل ما جاز أن يكون مبيعاً أو ثمناً جاز أن يكون صداقاً، وهو قول ربيعة وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، قال عمر بن الخطاب: ثلاث قبضات زبيب مهر، وقال سعيد بن المسيب: لو أصدقها سوطاً جاز، وقال قوم: يتقدر بنصاب السرقة، وهو قول مالك وأبي حنيفة، غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم، والدليل على أنه لا يتقدر ما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي قال: أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني [قد] وهبت نفسي لك، فقامت [قياماً] طويلاً فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم تكن لك فيها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيءٍ تصدقُها»؟ قال: ما عندي إلاّ إزاري هذا فقال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إيّاه جلست لا إزار لك، فالتمسْ شيئاً»، فقال: ما أجده، فقال: «فالتمسْ ولو خاتماً من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «هلْ معك من القرآن شيء»؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا [لِسُوَرٍ سماها]، فقال النبي ﷺ: «قد زوجتكها بما معك من القرآن».

وفيه دليل على أن لا تقدير لأقل الصداق، لأنه قال: «التمس شيئاً» وهذا يدل على جواز أي شيءٍ كانَ من المال، و[لأنه] قال: «ولو خاتماً من حديد»، ولا قيمة لخاتم الحديد إلا القليل التافه، وفي الحديث دليل على أنه يجوز تعليم القرآن صداقاً وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز وهو قول أصحاب الرأي، وكل عمل جاز الاستئجار عليه مثل البناء والخياطة وغير ذلك من الأعمال جاز أن يجعل صداقاً، ولم يُجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه أن يجعل منفعة الحرّ صداقاً، والحديث حجة لمن جوّزه بعدما أخبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام حيث زوّج ابنته من موسى عليه السلام على العمل، فقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

(٢٥) قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾، أي: فضلاً وسعة، ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، الحرائر ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، قرأ الكسائي ﴿وَٱلْمُحْصِنَٰتُ﴾ بكسر الصاد حيث كان إلاّ قوله في هذه السورة ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقرأ الآخرون بفتح جميعها، ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾، إمائكم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة، فليتزوج الأمةَ المؤمنة، وفيه دليل على أنه لا يجوز للحرّ نكاح الأمة إلاّ بشرطين، أحدهما: أن لا يجدَ مهرَ حرةٍ، والثاني أن يكون خائفاً على نفسه من العنت، وهو الزنا، لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾، وهو قول جابر رضي الله عنه، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار، وإليه ذهب مالك والشافعي وجوّز أصحاب الرأي للحرّ نكاح الأمة إلاّ أن تكون في نكاحه حرة [و] أمّا العبد فيجوز له نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرة أو أمة، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يجوز إذا كانتْ تحته حرة، كما يقول في الحرّ، وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لأنه قال: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وقال في موضع آخر: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] أي: الحرائر جوز نكاح الكتابية، بشرط أن تكون حرّة، وجوّز أصحاب الرأي للمسلم نكاح الأمة الكتابية، وبالاتفاق يجوز وطؤها بملك اليمين ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾، أي: لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخُذوا بالظاهر فإنّ الله أعلمُ بإيمانكم، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، قيل: بعضكم إخوة لبعض، وقيل: كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفُوا من نكاح الإماء، ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، يعني: الإماء ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، أي: مواليهن، ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، مهورهن، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من غير مُطل وضرار، ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾، عفائف بالنكاح، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، أي: غير زانيات، ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، أي: أحباب تزنون بهن في السرّ، قال الحسن: المسافحة هي أن كل من دعاها تبعتْه، وذات الخدن: أن تختص بواحد لا تزني إلا معه، والعرب كانت تحرم الأولى وتجوّز الثانية، ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الألف والصاد، أي: حفِظنَ فروجهنّ، وقال ابن مسعود: أسلمنَ، وقرأ الآخرون: ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الألف وكسر الصاد، أي:

الجزء الخامس — سورة النساء

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

٨٢

تزويجهن، ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ﴾، يعني: الزنا، ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾، أي: ما على الحرائر الأبكار إذا زنين، ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: الحدّ فيُجلد الرقيق إذا زنى خمسين جلدة، وهل يُغرّب؟ فيه قولان، فإن قلنا يُغرّب فيغرب نصف سنة على القول الأصح ولا رجم على العبد. رُوي عن عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة قال: أمرني عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فتية من قريش فجلدنا وَلائِدَ [من ولائد] الإمارة خمسين في الزنا.

ولا فرق في حدّ المملوك بين من تزوج أو لم يتزوج عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى أنه لا حدّ على من لم يتزوج من المماليك إذا زنى، لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال طاوس، ومعنى الإحصان عند الآخرين الإسلام، وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحدّ عليه، بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً بالتزويج فلا رَجْمَ عليه، إنّما حدّه الجلد بخلاف الحرّ، فحدّ الأمة ثابت بهذه الآية، وبيان [أنه بالجلد في الخبر] هو ما:

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالعزيز بن عبدالله حدثني الليث عن سعيد يعني المقبري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال:

سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا زنت أمةُ أحدِكم فتبين زناها فليجلدها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعْها ولو بحبلٍ من شعر».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، يعني: نكاح الأمة عند عدم الطَّول، ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾، يعني: الزنا، يريد المشقةَ بغلبة الشهوة، ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾، عن نكاح الإماء متعففين، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لئلا يُخلق الولد رقيقاً ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي: أن يبين لكم، كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] أي: أن أعدل، وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال في موضع آخر ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ [غافر: ٦٦]، ومعنى الآية: يريد الله أن يبين لكم، أي: يوضح لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم، قال عطاء: يبين لكم ما يقربكم منه، قال الكلبي: يبين لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾، يرشدكم، ﴿سُنَنَ﴾، شرائع، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، في تحريم الأمهات والبنات والأخوات، فإنها كانت محرمة على من قبلكم، وقيل: ويهديكم الملة الحنيفية وهي ملة إبراهيم عليه السلام، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم، وقيل: يرجع بكم من المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، وقيل: يوفقكم التوبة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم، ﴿حَكِيمٌ﴾، فيما دبّر من أمورهم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، إن وقع منكم تقصير في أمر دينكم ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟﴾، عن الحق، ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بإتيانكم ما حرّم عليكم.

واختلفوا في الموصوفين باتّباع الشهوات، فقال السدي: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: هم المجوس لأنهم يُحلّون نكاح

الأخوات وبنات الأخ والأخت، وقال مجاهد: هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتزنون كما يزنون، وقيل: هم جميع أهل الباطل.

(٢٨) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾، يسهل عليكم أحكام الشرع، وقد سهل كما قال جلّ ذكره: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال النبي ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة».

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، قال طاووس والكلبي وغيرهما في أمر النساء: لا يصبر عنهن، وقال ابن كيسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ يستميله هواه وشهوته، وقال الحسن: هو أنه خلق من ماء مهين، بيانه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

(٢٩) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني بالحرام، بالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة ونحوها، وقيل: هو العقود الفاسدة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾، [قرأ أهل الكوفة] ﴿تِجَٰرَةً﴾ نصب على خبر كان، أي: إلا أن تكون الأموال تجارة، وقرأ الآخرون بالرفع، أي: إلا أن تقع تجارة، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾، أي بطيب نفس كل واحد منكم، وقيل: هو أن يجيز كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع، فيلزم وإلا فلهما الخيار ما لم يتفرقا لما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر:

أن رسول الله ﷺ قال: «المتبايعان كلُّ واحد منهما بالخيار على صاحبه، ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار».

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ﴾، قال أبو عبيدة: لا تُهلكوها، كما قال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقيل: لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل، وقيل: أرادَ به قتلَ المسلم نفسه، أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن أيوب عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك:

أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذّب به يوم القيامة».

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ بن عبدالرحمن المزني أنا أبو إسحاق إبراهيم بن حماد القاضي أنا أبو موسى الزمن أنا وهب بن جرير أخبرنا أبي قال سمعت الحسن: أخبرنا جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «خرج رجل فيمن كان قبلكم أراب فجزع منه فأخرج سكيناً فحزّ بها يده فما رقأ الدمُ حتى مات، فقال الله عزّ وجل: بادرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة».

وقال الحسن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ﴾ يعني: إخوانكم، أي: لا يقتل بعضُكم بعضاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سليمان بن حرب أنا شعبة عن علي بن مدرك قال: سمعت أبا زرعة بن عمرو بن جرير عن جده قال:

قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «استنصت الناسَ» ثم قال: «لا ترجعنَّ بعدي كفاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض».

(٣٠) ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، يعني: ما سبق ذكره من المحرّمات، ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾، فالعدوان مجاوزة الحدّ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾، نُدخله في الآخرة، ﴿نَارًاۚ﴾، يُصلى فيها، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، هيناً.

(٣١) قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، اختلفوا في الكبائر التي جعل الله اجتنابها تكفيراً للصغائر، أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن مقاتل أنا النضر أخبرنا شعبة أنا فراس قال: سمعت الشعبي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما:

عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراكُ بالله عز وجل وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، واليمينُ الغَموس»،

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي [محمد بن يوسف] أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا بشر بن المفضل أنا

الجريري عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال:

قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» [ثلاثاً] قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله عزّ وجلّ، وعقوقُ الوالدين وجلسَ وكان متكئاً فقال: ألا وقولُ الزُور»، فما زال يُكررُها حتى قلنا ليتَه سكت.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور، وواصل الأحدب عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبدالله رضي الله عنهما قال:

قلتُ يا رسول الله أيّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نِداً وهو خلقك، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: أن تقتل ولدَكَ خشيةَ أن يطعم معك، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تعالى [تصديق قول النبي ﷺ] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالعزيز بن عبدالله حدثني سليمان عن ثور بن زيد عن أبي الغيث أنا أبو هريرة:

عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السّبع المُوبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشركُ بالله والسّحرُ وقتلُ النفس التي حرّمَ الله إلاّ بالحق، وأكل الرّبا وأكل مال اليتيم، والتولي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات».

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمنُ من مكر الله والقنوطُ من رحمة الله واليأسُ من روح الله.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا عبدالرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة عن سعد بن إبراهيم قال: سمعتُ حميد بن عبدالرحمن يحدث عن عبدالله بن عمرو وقال:

قال رسول الله ﷺ: «من [أكبر] الكبائر أن يسبَّ الرجلُ والديه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: نعم يسبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه [ويسبُّ أمه].

وعن سعيد بن جبير: أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار، وقال: كل شيء عُصيَ الله به فهو كبيرة، فمن عمل شيئاً منها فليستغفر فإنّ الله لا يُخلّد في النار من هذه الأمة إلا راجعاً عن الإسلام أو جاحداً فريضة أو مكذباً بقدر. وقال عبدالله بن مسعود: ما نهى الله تعالى عنه في هذه السورة إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، فهو كبيرة، قال علي بن أبي طلحة: [عن ابن عباس] هي كل ذنب ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ. وقال الضحاك: ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا وعذاباً في الآخرة. وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيراً أو عظيماً نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قال سفيان الثوري: الكبائر ما كان فيه المظالم بينك وبين العباد، والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى، لأنّ الله كريمٌ يعفو، واحتج بما أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبدالله بن علي الكرماني أنا أبو طاهر محمد [بن محمد] بن محمش الزيادي أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد أنا الحسين بن داود البلخي أنا يزيد بن هارون أنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «ينادي منادي من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمّة محمد إن الله عزّ وجلّ قد عفا عنكم جميعاً المؤمنين والمؤمنات، تواهبُوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتي».

وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة، وقيل: الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما

أكره عليه، وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة، وقيل: الكبائر ذنوب المستحلين مثل ذنب إبليس والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم عليه السلام، وقال السدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبائر، والسيئات مقدّماتها وتوابعها وما يجتمع فيه الصالح والفاسق، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها.

قال النبي ﷺ: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويُصدِّقُ ذلك الفرجُ أو يكذبه»، وقيل: الكبائر ما يستحقره العباد، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته، كما أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا [أبو] الوليد أنا مهدي عن غيلان عن أنس قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنّا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.

وقيل: الكبائر الشرك، وما يؤدي إليه، وما دون الشرك فهو من السيئات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة ومن رمضان إلى رمضان.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج حدثني هارون بن سعيد الأيلي أنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّراتٌ لِمَا بينهن إذا اجتُنب الكبائر».

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، أي: حسناً وهو الجنة، قرأ أهل المدينة ﴿مَّدْخَلًا﴾ بفتح الميم هٰهنا وفي الحج، وهو موضع الدخول، وقرأ الباقون بالضم على المصدر بمعنى الإدخال.

(٣٢) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية.

قال مجاهد: قالت أم سلمة: يا رسول الله إن الرجال يغزون ولا نغزو ولهم ضعفُ ما لنا من الميراث، فلو كنّا رجالاً غزونا كما غزوا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا. فنزلت هذه الآية.

وقيل: لمّا جعل الله عزّ وجلّ للذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث قالت النساء: نحن أحقُّ وأحوج إلى الزيادة من الرجال، لأننا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وقال قتادة والسدي: لمّا أنزل الله قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] قال الرجال إنّا لنرجو أن نُفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة فيكون أجرُنا على الضعف من أجر النساء كما فُضّلنا عليهنّ في الميراث فقال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ من الأجر ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ معناه: أن الرجال والنساء في الأجر في الآخرة سواء، وذلك أن الحسنة تكون بعشرة أمثالها يستوي فيها الرجال والنساء، وإنّ فضل الرجال في الدنيا على النساء، وقيل: معناه للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد فللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج. يعني: إن كان للرجال فضل الجهاد فللنساء فضل طاعة الأزواج وحفظ الفروج قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، قرأ ابن كثير والكسائي (وسلوا، وسل، فسل)، إذا كان قبل السين واو أو فاء بغير همز، ونقل حركة الهمزة إلى السين، والباقون بسكون السين مهموزاً. فنهى الله تعالى عن التمنّي لما فيه من دواعي الحسد، والحسد أن يتمنى زوال النعمة عن صاحبه [سواء تمناها لنفسه أم لا]، وهو حرام، والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز. قال الكلبي: لا يتمنى الرجلُ مالَ أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقل اللهم ارزقني مثله، و هو كذلك في التوراة وذلك في القرآن. وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: وأسألوا الله من فضله أي: من رزقه، قال سعيد بن جبير: من عبادته، فهو سؤال التوفيق للعبادة، وقال سفيان بن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليُعطي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ أي: ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالي، أي: عصبة يُعطون ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ والوالدان والأقربون هم المورثون، وقيل: معناه ولكل جعلنا موالي أي: ورثة ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: من الذين تركهم يكون (ما) بمعنى من، ثم فسّر الموالي فقال: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي: هم الوالدان والأقربون، [فعلى هذا القول: الوالدان والأقربون] هم الوارثون، ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿عقدت﴾ بلا ألف، أي: عقدت لهم أيمانكم وقرأ الآخرون: ﴿عاقدت أيمانكم﴾، والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأيمان جمع يمين، من اليد والقسم، وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم بيد بعض على الوفاء والتمسّك بالعهد. ومحالفتهم أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك [وهدمي هدمك] وثأري ثأرك وحربي حربك وسِلْمِي سِلْمُك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتَعْقِلُ عنّي وأعقل عنك فيكون للحليف السدس من مال الحليف، وكان ذلك [ثابتاً] في ابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: أعطوهم حظّهم من الميراث، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال إبراهيم ومجاهد: أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث لهم، وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة لقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم فتح مكة: «لا تحدثوا حِلفاً في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فتمسّكوا فيه فإنّه لم يزده الإسلام إلا شِدّة».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار قدِموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم، فلمّا نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ نسخت ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث فيوصي له. وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبني وهذه الآية فيه ثم نُسخ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

(٣٤) ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، الآية

نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير ـ قاله مقاتل، وقال الكلبي: امرأته حبيبة بنت محمد بن مسلمة ـ وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ فقال: أفرشتُه كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص من زوجها»، فانصرفت مع أبيها لتقتصّ منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبي ﷺ: «ارجعوا هذا جبريل أتاني بشيء»، فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير»، ورفع القِصَاص.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: مسلّطون على تأديبهن، والقوّام والقيم بمعنى واحد، والقوّام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب، ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعني: فضّل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية، وقيل: بالشهادة لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقيل: بالجهاد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أنّ الرجل ينكح أربعاً ولا

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧)

يحلّ للمرأة إلا زوج واحد، وقيل: بأن الطلاق بيده، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدِّية، وقيل: بالنبوّة.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، يعني: إعطاء المهر والنفقة.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي قال أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البِرتي أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجدَ لزوجها».

قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾، أي: مطيعات ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾، أي: حافظات للفروج في غيبة الأزواج، وقيل: حافظات لسرهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهَ﴾ بالنصب، أي: يحفظن الله في الطاعة، وقراءة العامة بالرفع، أي: بما حفظهن الله بإيصاء الأزواج بحقهن وأمرهم بأداء المهر والنفقة. وقيل: حافظات للغيب بحفظ الله.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبدالله [محمد] بن فنجويه أخبرنا عمر بن الخطاب أنا محمد بن إسحاق المسوحي أنا الحارث بن عبدالله أنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «خيرُ النساءِ امرأةٌ إنْ نظرتَ إليها سرتْك وإنْ أمرتَها أطاعتْكَ وإذا غِبْتَ عنها حفظتْكَ في مالها ونفسِها»، ثم تلا: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.

﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، عصيانهن، وأصل النشوز: التكبر والارتفاع، ومنه النشز: [وهو الموضع]، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾، بالتخويف من الله والوعظ بالقول، ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾، يعني: إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهنّ ﴿فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾، قال ابن عباس: يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها، وقال غيره: يعتزل عنها إلى فراش آخر، ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني: إن لم ينزعن مع الهجران فاضربوهن ضرباً غير مُبَرّح ولا شائن، قال عطاء: ضرباً بالسواك.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «حقُّ المرأةِ أن تُطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تُقبح ولا تهجر إلاّ في البيت».

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾، أي: لا تجنوا عليهنّ الذنوب، وقال ابن عُيينة: لا تكلفوهنّ محبتكم فإنّ القلبَ ليس بأيديهن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾، متعالياً من أن يُكلِّفَ العبادَ ما لا يُطيقونه، وظاهر الآية يدل على أنّ الزوجَ يجمع عليها بين الوعظ والهجران والضرب، فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال: إذا ظهر منها النشوز جمع بين هذه الأفعال، وحمل الخوف في قوله ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، على العلم كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢] أي: علم، ومنهم من حمل الخوفَ على الخشية لا على حقيقة العلم، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال: هذه الأفعال على ترتيب الجرائم، فإن خاف نشوزها بأن ظهرت أمارته منها من المخاشنة وسوء الخُلق وعظها، فإن أبدت النشوز هجرها، فإن أصرت على ذلك ضربها.

(٣٥) قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾، يعني: خلافاً بين الزوجين، والخوفُ بمعنى اليقين، وقيل: هو بمعنى الظنّ يعني: إن ظننتم شقاقَ بينهما، وجملته أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاقٌ واشتبه حالهما فلم يفعل الزوج الصفح ولا الفرقة ولا المرأة تأدية الحق ولا الفدية وخرجا إلى ما لا يحلّ قولاً وفعلاً بعث الإمام حكماً من أهله إليه وحكماً من أهلها إليها رجلين حرين عدلين ليستطلع كلُّ واحد من الحكمين رأي من بُعث إليه إن كانت رغبتُه في الصلح أو في الفُرقة ثم يجتمع الحكمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيهما من الصلاح، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾، يعني: الحكمين، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، يعني: بين الزوجين، وقيل: بين الحكمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الكسائي أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا الثقفي عن

أيوب عن ابن سيرين عن عَبيدة أنه قال في هذه الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، قال: جاء رجل وامرأة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومع كل واحد منهما فئام من الناس، فأمرهم عليّ رضي الله عنه فبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ إن رأيتما أن تجمعا جمعتُما وإن رأيتما أن تُفرقا فرقتُما، قالتِ المرأة رضيتُ بكتاب الله بما عليّ فيه ولي، فقال الرجل: أمّا الفُرقة فلا فقال عليٌّ رضي الله عنه: كذبت والله حتى تُقرَّ بمثل الذي أقرّت به.

واختلف القول في جواز بعث الحكمين من غير رضا الزوجين والأصح القولين أنه لا يجوز إلا برضاهما، وليس لِحَكَم الزوج أن يُطلّق دون رضاه، ولا لِحَكَم المرأة أن يخلع على ما لها إلا بإذنها، وهو قول أصحاب الرأي لأن علياً رضي الله عنه، حين قال الرجل: أمّا الفُرقة فلا، قال: كذبتَ حتى تُقرّ بمثل الذي أقرت به. فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاه والقول الثاني: يجوز بعث الحكمين دون رضاهما، فيجوز لِحَكَم الزوج أن يُطلّق دُون رضاه ولِحَكَم المرأة أن يختلع دون رضاها، إذا رأيا الصلاح كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وفق مُرادهما، وبه قال مالك، ومن قال بهذا قال: ليس المراد من قول علي رضي الله عنه، للرجل: حتى تُقرّ أنّ رضاه شرط بل معناه: أن المرأة لمّا رضيتْ بما في كتاب الله فقال الرجل: أمّا الفُرقة فلا، يعني: ليست الفرقة في كتاب الله، فقال علي: كذبت، حيث أنكرت أن الفرقة في كتاب الله، بل هي في كتاب [الله] فإن قوله تعالى: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ يشتمل على الفُراق وغيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الوزْر وذلك تارةً يكون بالفُراق وتارةً بإصلاح حالهما في الوصلة.

(٣٦) قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدوه وأطيعوه، ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله بن بِشْران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبدالرزاق أنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

كنت رديف النبي ﷺ فقال: «هل تدري يا معاذ ما حقُّ الله على الناس؟» قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّه عليهم أن يعبدوه ولا يُشركُوا به شيئاً، أتدري يا معاذ ما حقُّ الناس على الله إذا فعلوا ذلك؟» [قال]؟ قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: «فإنّ حقَّ الناس على الله أن لا يعذبهم»، قال قلتُ: يا رسول الله أفلا أُبشّر الناسَ؟ قال: «دعهم يعملون».

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، براً بهما وعطفاً عليهما، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أحسنوا بذي القربى، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾،

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن زرارة أنا عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسَّبابة والوُسْطى وفرّج بينهما شيئاً».

أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبدالله بن المبارك عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ قال: «من مَسَحَ رأسَ يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شَعْرة تَمُرُّ عليها يَدُهُ حسنات، ومن أحسنَ إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتينِ وقرن بين أصبعيه».

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذي القَرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، أي: البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو [محمد] عبدالرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجَوْني قال: سمعت طلحة قال:

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيّهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً».

أخبرنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق أنا يزيد بن سنان أخبرنا عثمان بن عمر أخبرنا أبو عامر الخزاز عن أبي عمران الجوني عن عبدالله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

قال النبي ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ، وإذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها واغرف لجيرانك منها».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن منهال أنا يزيد بن زُريع أنا عمر بن محمد عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيُوَرِّثه».

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة ومجاهد، وقال عليّ وعبدالله والنخعي: هو المرأة تكون معه إلى جنبه، وقال ابن جريج وابن زيد: هو الذي يصحبك رجاء نَفْعِكَ، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، قيل: هو المسافر لأنه ملازم السبيل، والأكثرون: على أنه الضيف، أخبرنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسن الإسفراييني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق أنا شُعيب [بن] عمرو الدمشقي أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع نافع بن جُبير عن أبي شُريح الخزاعي:

أن النبي ﷺ قال: «من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا [أبو] مصعب عن مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شُريح الكعبي:

أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزتُه يومٌ وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحلُّ أن يثوي [أي: أن يقيم] عنده حتى يُحْرِجَه».

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: المماليك أحسنوا إليهم.

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحان أنا أبو أحمد محمد بن قريش أنا علي بن عبدالعزيز المكي أنا أبو عبيد القاسم بن سلام أنا يزيد عن همام عن قتادة عن صالح أبي الخليل عن سفينة عن أم سلمة رضي الله عنها:

عن النبي ﷺ أنه كان يقول في مرضه: «الصلاة وما ملكت أيمانُكم»، فجعل يتكلم ولا يفيض بها لسانه.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص أنا أبي أنا الأعمش عن المعرور عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

رأيت أبا ذرٍ وعليه بُرْدٌ وعلى غلامه بُرْدٌ، فقلتُ: لو أخذت هذا فلبسته كانت حُلَّةً وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنِلْتُ منها فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي: «أسابيت فلاناً؟» قلتُ: نعم، قال: «أفنِلْت [من] أمه؟» قلت: نعم، قال: «إنك امرؤٌ فيكَ جاهلية» قلتُ على ساعتي: هذه من كبر السن، قال: «نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعِنه عليه».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا سهل بن عمار أنا يزيد بن هارون أخبرنا صدقة بن موسى عن فرقد السبخي عن مرة الطيب عن أبي بكر رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة سيءُ المَلَكَةِ».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، المختال: المتكبر، والفَخُور: الذي يفخر على الناس

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

٨٥

بغير الحق تكبراً، ذكر هذا بعدما ذكر من الحقوق، لأن المتكبر يمنع الحق تكبراً.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبدالرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بُردين وقد أعجبته نفسه خَسَفَ الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مُصعب عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما:

أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظرُ الله يومَ القيامة إلى مَنْ جرّ ثوبَه خُيلاءَ».

﴿٣٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، البخل في كلام العرب: منع السائل من فضل ما لديه، وفي الشرع: منع الواجب، ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿بِٱلْبَخَلِ﴾ بفتح الباء والخاء، وكذلك في سورة الحديد، وقرأ الآخرون بضم الباء وسكون الخاء، نزلت في اليهود بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ وكتموها وقال سعيد بن جبير هذا في كتمان العلم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد: نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحري بن عمرو كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يخالطونهم فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، يعني: المال، وقيل: يبخلون بالصدقة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ محل ﴿الذين﴾ نصب عطفاً على الذين يبخلون، وقيل: خفض عطف على قوله: و﴿أعتدنا للكافرين﴾ نزلت في اليهود، وقال السدي: في المنافقين، وقيل: [في] مشركي مكة المتفقين على عَداوةِ الرسول ﷺ. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾، صاحباً وخليلاً ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾، أي فبئس الشيطان قريناً وهو نصب على التفسير، وقيل: على القطع بإلغاء الألف واللام كما تقول: نعم رجلاً عبدالله، وكما قال تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ [الأعراف: ١٧٧].

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: ما الذي عليهم وأيّ شيء عليهم؟ ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، [أدخل ابن عباس يده في التراب ثم نفخ فيها، وقال: كل واحد من هذه الأشياء ذرة، والمراد أنه لا يظلم لا قليلاً ولا كثيراً]، ونظمه: وماذ عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا فإن الله لا يظلم أي: لا يبخس ولا ينقص أحداً من ثواب عمله مثقال ذرة، والذرة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذرّ أجزاء الهباء في الكوة وكل جزء منها ذرة ولا يكون لها وزن، وهذا مثل يريد أن الله لا يظلم شيئاً كما قال في آية أخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤].

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن عبدالله الحفيد أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفان أنا همام أنا قتادة عن أنس رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله لا يظلم [المؤمن حسنةً يثاب عليها

الرزق] في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة»، قال: «وأمّا الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُعطَى بها خيراً».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو الطيب الربيع بن محمد بن أحمد بن حاتم البزاز الطوسي أنا أحمد بن محمد بن الحسن أن محمد بن يحيى حدثهم، أخبرنا عبدالرزاق وأخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَري أنا عبدالرزاق أنا معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا خَلَصَ المؤمنون منَ النار وأمِنُوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربِّهم في إخوانهم الذين أُدخلوا النار قال: فيقولون ربَّنا إخواننا كانوا يُصلون معنا ويصُومون معنا ويحجُّون معنا فأدخلتَهُمُ النارَ، قال: فيقول الله لهم: اذهبُوا فأخرجُوا مَنْ عَرَفْتُم منهم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النارُ صورَهم فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه ومنهم من أخذته إلى كعبيه فيُخرجونهم، فيقولون: ربّنا قد أخرجنا من أمرتنا، قال: ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه وَزْنُ دينار من الإيمان، ثم مَنْ كان في قلبه وزنُ نصف دينار، حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرة، قال أبو سعيد رضي الله عنه: فمن لم يُصدِّق بهذا فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال: فيقولون ربَّنا [قد] أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحدٌ فيه خير، ثم يقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، شفعت الأنبياء، وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، قال: فيقبض قبضةً من النار، أو قال: قبضتين [ناساً] لم يعملوا لله خيراً قط قد احترقوا حتى صاروا حُمماً فيُؤتى بهم إلى ماء يقال له: ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبَّة في حميل السيل، قال: فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم [مكتوب فيه: هؤلاء] عتقاء الله [من النار] فيُقال لهم: ادخلوا الجنّة فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم، قال فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من العالمين، قال: فيقول فإن لكم عندي أفضل منه، فيقولون: ربَّنا وما أفضل من ذلك؟ فيقول: «رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله بن الخلال أنا عبدالله بن المبارك عن ليث بن سعد حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن المعافري ثم الجيلي قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعةً وتسعين سجلاً كل سجل مثل مدِّ البصر، ثم يقول الله: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظَلَمَكَ كتبتي الحافظُون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفَلَكَ عذرٌ أو حسنة؟ فبهت الرجل، قال: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتُوضع السجلات في كفةٍ والبطاقة في كفةٍ فطاشت السجلات وثقُلت البطاقة، قال: فلا يثقل مع اسم الله شيء».

وقال قومٌ: هذا في الخصوم.

ورُوي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين ثم نادى منادٍ ألا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه، فيفرح المرء أن يكون له الحقّ على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه، فيأخذ منه وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ويؤتى بالعبد فينادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان ابن فلان فمن كان له عليه حق فليأت إلى حقه فيأخذه، ويقال: آت هؤلاء حقوقهم، فيقول: يا رب من أين

وقد ذهبت الدنيا، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا في أعماله الصالحة فأعطوهم منها فإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة: يا ربَّنا بقي له مثقال ذرة من حسنة، فيقول: ضعّفوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة. ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة: إلهنا فنيت حسناته وبقي طالبون؟ فيقول الله عز وجل: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيآته، ثم صُكّوا له صكاً إلى النار.

فمعنى الآية على هذا التأويل: أن الله لا يظلم مثقال ذرة للخصم على الخصم بل يأخذ منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضعفها له، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، قرأ أهل الحجاز ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالرفع، أي: وإن توجد حسنةٌ، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى: وإن تك زنةُ الذرة حَسَنة يُضاعِفها، أي: يجعلها أضعافاً كثيرة. ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا قال الله تعالى أجراً عظيماً فمن يقدر قدره؟.

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني: نبيها يشهد عليهم بما عملوا، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد، ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ شاهداً يشهد على جميع الأمة على من رآه ومن لم يره.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل [أنا] محمد بن يوسف أنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عَبيدة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ»، قلتُ: يا رسول الله أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ [قال]: نعم، فقرأت سورة النساء حتى إذا أتيت [على] هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۞﴾ قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

﴿٤٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [أي:] يوم القيامة، ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿تَسَّوَّىٰ﴾ بفتح التاء وتشديد السين على معنى تتسوى، فأدغمت التاء الثانية في السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين على حذف تاء التفعيل كقوله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول، أي: [لو] سويت بهم الأرض فصاروا هم والأرض شيئاً واحداً. قال قتادة وأبو عبيدة: يعني لو تخرقت الأرض فساخوا فيها وعادوا إليها ثم تسوى بهم، أي: عليهم الأرض، وقيل: وَدُّوا لو أنهم لم يُبعثوا لأنهم إنما نقلوا من التراب، وكانت الأرض مستوية عليهم، وقال الكلبي: يقول الله عز وجل للبهائم والوحوش والطيور والسباع: كونوا تراباً فتسوى بهم الأرض، فعند ذلك يتمنى الكافرأنْ لو كان تراباً كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال عطاء: وَدُّوا لو تُسوّى بهم الأرضُ وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ ولا نعته. وقال الآخرون: بل هو كلامٌ مستأنف، يعني: ولا يكتمون الله حديثاً لأن ما عملوه لا يخفى على الله ولا يقدرون على كتمانه. وقال الكلبي وجماعة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقال سعيد بن جُبير: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: هاتِ ما اختلفَ عليك، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كَتَمُوا، وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، وذكر خلق السماء قبل [خلق] الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، إلى قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١] فذكر في هذه [الآية خلق] الأرض قبل السماء، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨ و١٦٥] فكأنه كان ثم مضى؟ فقال ابن عباس

رضي الله عنهما: فلا أنساب [بينهم] في النفخة الأولى قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون تعالوا نَقُلْ لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾، و﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ في يومين آخرين [ثم دحى الأرض] ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فقال: خلق الأرض في يومين فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤ والنساء: ١٠٠]، أي: لم يزل كذلك، فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله. وقال الحسن: إنها مواطن، ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً، وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون [والله ربنا] ما كنا مشركين وما كنا نعمل في سوء، وفي موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ وفي موطن لا يتساءلون، وفي موطن يسألون الرجعة، وآخرُ تلك المواطن أن يُختم على أفواهِهم وتتكلّم جوارِحُهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

(٤٣) قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية، والمراد من السُّكْرِ: السُّكرُ من الخمر عند الأكثرين.

وذلك أنّ عبدَ الرحمن بن عوف رضي الله عنه صنع طعاماً ودعا ناساً من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوها قبل تحريم الخمر وسَكِرُوا فحضرت صلاة المغرب فقدّمُوا رجلاً ليصلي بهم فقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] أعبد ما تعبدون، بحذف (لا) هكذا إلى آخر السورة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصلاة حتى نزل تحريم الخمر.

وقال الضحاك بنُ مزاحم: أراد به سكر النوم، نهى عن الصلاة عند غلبة النوم.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن المغلّس أنا هارون بن إسحاق الهَمْداني أخبرنا عَبْدَة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال رسول الله ﷺ: «إذا نَعِسَ أحدُكم وهو يصلي فليرقُدْ حتى يذهب عنه النومُ فإنّ أحدَكم إذا صلى وهو ينعسُ لعلّه يذهبُ يستغفرُ فيسبُّ نفسَه».

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا﴾، نصبٌ على الحال، يعني: ولا تقربُوا الصلاة وأنتم جُنُبٌ يقال: رجلٌ جنبٌ وامرأةٌ جنبٌ، ورجالٌ جنبٌ ونساءٌ جنبٌ، وأصلُ الجنابة: البُعْد، وسُمّي جنباً لأنه يتجنّب موضعَ الصلاة، أو لمجانبته الناسَ وبُعدِه منهم، حتى يغتسل.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ اختلفوا في معناه فقال بعضهم: إلا أن تكونوا مسافرين ولا تجدون الماء فتيمّموا، منع الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولا يجد ماء فيصلي بالتيمم، وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد رضي الله عنهم، وقال آخرون: بل المراد من الصلاة موضع الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ [الحج: ٤٠] ومعناه: لا تقربوا المسجد وأنتم جنبٌ إلاّ مجتازين فيه للخروج منه، مثل أن ينام في المسجد فيجنب أو يصيبه جنابة والماء في المسجد أو يكون طريقه عليه، فيمرّ به ولا يقيم وهذا قول عبدالله بن مسعود وسعيد بن المسيب والضحاك والحسن وعكرمة والنخعي والزهري، وذلك أن قوماً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممرَّ لهم إلاّ في المسجد، فرُخّص لهم في العبور، واختلف أهل العلم فيه فأباح بعضهم المرور فيه على الإطلاق، وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، ومنع بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأي، وقال بعضهم: يتيمم للمرور فيه، أما المُكث فلا

يجوز عند أكثر أهل العلم.

لِمَا روينا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «وجِّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أُحِلُّ المسجدَ لحائضٍ ولا جنب».

وجوّز أحمد المكث فيه وضعّف الحديث لأنّ روايه مجهول، وبه قال المزني، ولا يجوز للجنب الطوافُ كما لا يجوز له الصلاة ولا يجوز له قراءة القرآن.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا عبدالرحمن بن أبي شُريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة أخبرني عمرو بن مرة قال سمعت عبدالله بن سَلِمة يقول: دخلتُ على عليّ رضي الله عنه فقال:

كان رسول الله ﷺ يقضي الحاجة ويأكلُ معنا اللّحم ويقرأُ القرآن وكان لا يَحْجُبُه أو يحجزه عن [قراءة] القرآن شيء إلا الجنابة.

وغسل الجنابة يجب بأحد أمرين إما بنزول المني أو بالتقاء الختانين وهو تغييب الحشفة في الفرج وإن لم ينزل، وكان الحكم في الابتداء أن من جامع امرأته فأكسل لا يجب عليه الغسل ثم صار منسوخاً.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن أبا موسى الأشعري سأل عائشة رضي الله عنها عن التقاء الختانين فقالت عائشة:

قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الختانان، أو مَسّ الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل».

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، جمع مريض، وأراد به مرضاً يضره إمساسُ الماء مثل الجدرى ونحوه، أو كان على موضع الطهارة جراحة يخاف من استعمال الماء فيها التّلفَ أو زيادة الوجع، فإنه يصلي بالتيمم وإن كان الماء موجوداً وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحاً والبعض جريحاً غسل الصحيح منها وتيمم للجريح، لِما أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبدالعزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي أنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني أنا موسى بن عبدالرحمن الأنطاكي أنا محمد بن سلمة عن الزبير بن خريق عن [عطاء عن] جابر بن عبدالله قال:

خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجه في رأسه، فاحتلم فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلمّا قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك قال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنّما شفاء العِيّ السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب ـ شك الراوي على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده».

ولم يجوّز أصحاب الرأي الجمع بين التيمم والغسل، وقالوا: إن كان أكثر أعضائه صحيحاً غسل الصحيح ولا يتيمم عليه، وإن كان الأكثر جريحاً اقتصر على التيمم. والحديث حجة لِمَن أوجب الجمعَ بينهما.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، أراد أنه إذا كان في سفر طويلاً كان أو قصيراً، وعدم الماء فإنه يصلي بالتيمم ولا إعادة عليه، لما رُوي عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إن الصّعيد الطّيب وضوءُ المسلم وإن لم يجد الماء عَشْرَ سنين، فإذا وَجَد الماء فليمسّه بَشَرَهُ [فإن ذلك خير]»، أما إذا لم يكن الرجل مريضاً ولا في سفر ولكنه عُدم الماء في موضع لا يُعدم فيه الماء غالباً بأن كان في قرية انقطع ماؤها فإنه يصلي بالتيمم ثم يُعيد إذا قدر على الماء عند الشافعي وعند مالك والأوزاعي لا إعادة عليه، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه يؤخر الصلاة حتى يجد الماء. قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، أراد به إذا أحدث، والغائط إسم للمطمئن من الأرض، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكُني عن الحدث بالغائط، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «لَمَسْتُم» هٰهنا وفي المائدة، وقرأ الباقون ﴿لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ واختلفوا في معنى اللّمس والمُلامَسَة، فقال قوم: هو المجامعة، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وكنّي باللّمس عن الجماع لأنّ الجماع لا يحصل إلا باللّمس، وقال قوم: هما التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع، وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي،

واختلف الفقهاء في حكم هذه الآية، فذهب جماعة إلى أنه إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما، ينتقض وضوءهما، وهو قول ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما، وبه قال الزهري والأوزاعي والشافعي رضي الله عنهم، وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق: وإن كان اللّمس بشهوة نقض الطهر، وإن لم يكن بشهوة فلا ينتقض، وقال قوم: لا ينتقض الوضوءُ باللّمس بحال، وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن و الثوري، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه لا ينتقض إلاّ إذا حدث الانتشار، واحتج من لم يوجب الوضوء باللّمس بما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبدالله عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: كنتُ أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضتُ رجليّ وإذا قام بسطتهما، قالت والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي:

أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ [قالت: كنتُ نائمةً إلى جنب رسول الله ﷺ] ففقدته من الليل فلمستهُ بيدي فوقعت يدي على قدميه وهو ساجد وهو يقول: «أعوذُ برضاك من سخطك وبمعافاتِك من عُقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

واختلف قول الشافعي رضي الله عنه فيما لو لمس امرأة من محارمه كالأم والبنت والأخت أو لمس أجنبية صغيرة، أصح القولين أنه لا ينتقض الوضوء لأنها ليست بمحل الشهوة كما لو لمس رجلاً، واختلف قوله في انتقاض وضوء الملموس [على قولين]، أحدهما: ينتقض لاشتراكهما في الالتذاذ كما يجب الغسل عليهما بالجماع، و الثاني: لا ينتقض لحديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت: فوقعت يدي على قدميه وهو ساجد، ولو لمس شعر امرأةٍ أو سِنَها أو ظفرها لا ينتقض وضوءه عنده، واعلم أن المُحدِثَ لا تصح صلاتُه ما لم يتوضأ إذا وجد الماء أو يتيمم إذا لم يجد الماء أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبدالرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا تُقبل [الله] صلاةُ أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ».

والحدَثُ هو خروج الخارج من أحد الفرجين عَيْناً كان أو أثراً، أو الغلبة على العقل بجنون أو إغماء على أي حال كان، وأمّا النوم فمذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يوجب الوضوء إلاّ أن ينام قاعداً متمكناً فلا وضوء عليه، لِمَا أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعي أنا الثقة عن حميد الطويل عن أنس رضي الله عنهما قال:

كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العِشَاء فينامون، أحسبُه قال قعوداً حتى تخفق رؤوسهم ثم يُصلون ولا يتوضؤون.

وذهب قوم إلى أن النوم يُوجب الوضوء بكل حال وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها، وبه قال الحسن وإسحاق والمُزَني، وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً فلا وضوء عليه حتى ينام مضطجعاً وبه قال الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي.

واختلفوا في مس الفرج من نفسه أو من غيره فذهب جماعة إلى أنه يُوجب الوضوء وهو قول عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة رضي الله عنها، وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي، وأحمد وإسحاق، وكذلك المرأة تَمسُّ فرجَها، غير أن الشافعي رضي الله عنه يقول: لا ينتقض إلا أن يمس ببطن الكف أو بطون الأصابع، واحتجوا بما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق

الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالله بن أبي بكر [بن] محمد بن عمرو بن حزم أنه سمع عروة بن الزبير يقول: دخلتُ على مروان بن الحكم فذكرنا ما يكون منه الوضوء، فقال مروان: مِن مسِّ الذكر الوضوء، فقال عروة: ما علمتُ ذلك، فقال مروان:

أخبرتني بُسرة بنت صفوان أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مس أحدكم ذكره فليتوضأ».

وذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوء، روي ذلك عن علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجوا بما رُوي عن طلق بن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئل عن الرجل مس ذكره، فقال: «هلْ هو إلاّ بضعة منك»؟ [ويُروى «هل هو إلا بضعة أو مضغة منه»].

ومن أوجب الوضوء منه قال: هذا منسوخ بحديث بُسرة لأن أبا هريرة يروي أيضاً: الوضوء من مسّ الذكر، وهو متأخر الإسلام، وكان قدوم طلق بن عليّ على رسول الله ﷺ أول زمن الهجرة حين كان يبني المسجد.

واختلفوا في خروج النجاسة من غير الفرجين بالفصد والحجامة وغيرهما من القيء ونحوه، فذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوء، رُوي ذلك عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس، وبه قال عطاء وطاوس والحسن وسعيد بن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعي وذهبت جماعة إلى إيجاب الوضوء بالقيء والرعاف والفَصْد والحجامة منهم سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، واتفقوا على أن القليل منه وخروج الريح من غير السبيلين لا يُوجبُ الوضوء ولو أوجب الوضوء كثيرُهُ لأوجب قليلُه كالفرج.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾، اعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة، روى حُذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنا على الناس بثلاثٍ: جُعلتْ صفوفُنا كصُفوف الملائكة، وجُعلتْ لنا الأرض كلها مسجداً وجُعلتْ تُربتُها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء»، وكان بدء التيمم ما:

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت:

خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناسُ أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر رضي الله عنه ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: أحبستِ رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت: فعاتبني أبو بكر رضي الله عنه وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله تعالى آية التيمم ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آلَ أبي بكر، قالت عائشة رضي الله عنها: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقدَ تحتَهُ.

وأخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبيد بن إسماعيل أنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه:

عن عائشة رضي الله عنها: أنها استعارت من أسماء قِلادة فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه في طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء، فلمّا أتوا النبي ﷺ شكوا ذلك إليه فنزلت آية التيمم. فقال أسيد بن حضير: جزاك الله خيراً فوالله ما نزل بك أمر قط إلاّ جعل الله لك منه مخرجاً وجعل للمسلمين فيه بركة.

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، أي: اقْصُدوا، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أي: تراباً طاهراً نظيفاً قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصعيدُ هو التراب.

واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم، فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنه يختص بما يقع عليه اسم التراب مما يعلق باليد منه غبار،

لأن النبي ﷺ قال: «وجُعلتْ تُربتُها لنا طهوراً»، وجوّز أصحاب الرأي التيمم بالزرنيخ والخص والنُّوْرة وغيرها من طبقات الأرض، حتى قالوا: لو ضرب يده على صخرة لا غبار عليها أو على التراب ثم نفخ فيه حتى زال التراب كله فمسح به وجهه ويديه صحّ تيممُه، وقالوا: الصعيد وجهُ الأرض.

لِما رُوي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

وهذا مجمل، وحديث حذيفة في تخصيص التراب مفسَّر والمفسَّر من الحديث يقضي على المُجمل، وجوّز بعضهم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات، ونحوهما وقال: إن الصعيد اسم لِما تصاعد على وجه الأرض، والقصد إلى التراب، شرطٌ لصحة التيمم، لأن الله تعالى قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، والتيمم: [هو] القصد، حتى لو وقف في مهب الريح فأصاب الغبار وجهه ونوى لم يصح. قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمم.

واختلفوا في كيفيته فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المرفقين، بضربتين يضرب كفيه على التراب فيمسح بهما جميع وجهه، ولا يجب إيصال التراب إلى ما تحت الشعور، ثم يضرب ضربةً أُخرى فيمسح يديه إلى المرفقين، لِما أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن أبي الحُويرث عن الأعرج عن أبي الصمة قال:

مررتُ على النبي ﷺ وهو يبول فسلمت عليه فلم يرد علي حتى قام إلى جدار فحته بعصاً كانت معه، ثم وضع يديه على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم ردّ عليّ.

ففيه دليلٌ على وجوب مسح اليدين إلى المرفقين كما يجب غسلهما في الوضوء إلى المرفقين، ودليلٌ على أن التيمم لا يصح ما لم يعلق باليد غبار التراب، لأنّ النبي ﷺ حتَّ الجدارَ بالعصا، ولو كان مجرد الضرب كافياً لما كان حتَّه، وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين، لِما رُوي عن عمار أنه قال: تَيمّمْنا إلى المناكب. وذلك حكاية فعله ولم ينقله عن النبي ﷺ.

كما رُوي أنه قال: أجنبتُ فتمعكت في التراب، فلمّا سأل النبي ﷺ[و] أمره بالوجه والكفين [انتهى إليه]

وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول علي وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال الشعبي وعطاء بن أبي رباح ومكحول، وإليه ذهب الأوزاعي وأحمد وإسحاق، واحتجوا بما:

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أخبرنا الحكم عن ذرّ عن سعيد بن عبدالرحمن بن أبزي عن أبيه قال:

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني أجنبتُ فلم أصب الماء، فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر أنّا كنّا في سفر أنا وأنتَ فأما أنتَ فلم تصل وأما أنا فتمعكت فصليت فذكرت للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنّما يكفيك هكذا، فضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخَ فيهما، ثم مسح وجهَهُ وكفيه»

وقال محمد بن إسماعيل أنا محمد بن كثير عن شعبة بإسناده وقال: عمار لعمر رضي الله عنه: تمعكت فأتيت النبيّ ﷺ فقال: «يكفيك الوجه والكفان»،

وفي الحديث دليل على أن الجنب إذا لم يجد الماء يصلي بالتيمم، وكذا الحائض والنفساء إذا طهرتا وعدمتا الماء. وذهب عمر وابن مسعود رضي الله عنهما إلى أن الجنب لا يصلي بالتيمم بل يؤخر الصلاة إلى أن يجد الماء فيغتسل، وحملا قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على اللمس باليد دون الجماع، وحديث عمار رضي الله عنه حجة، وكان عمر نسي ما ذكره له عمارٌ فلم يقنع بقوله. ورُوي أن ابن مسعود رضي الله عنه رجع عن قوله وجوّز التيمم للجنب والدليل عليه أيضاً ما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن عباد بن منصور عن أبي

الجزء الخامس — سورة النساء

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٨٦

رجاء العطاردي عن عمران بن حصين رضي الله عنهم أن النبي ﷺ أمر رجلاً كان جنباً أن يتيمم ثم يصلي فإذا وجدَ الماءَ اغتسلَ.

وأخبرنا عمر بن عبدالعزيز أنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود السجستاني أنا مسدد أنا خالد الواسطي عن خالد الحذاء عن أبي عمرو بن بجدان عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

اجتمعت غنيمةٌ من الصدقة عند رسول الله ﷺ فقال: يا أبا ذر ابدأ فيها فبدوت إلى الربذة فكانت تصيبني الجنابة فأمكث الخمس والست، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: [أبا ذر، فسكت، فقال: «ثكلتك أمك يا أبا ذر لأمك الويل»، فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتني بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلتُ فكأني ألقيت عني جبلاً، فقال:] «الصعيدُ الطيبُ وضوءُ المسلم ولو إلى عشر سنين، فإذا وجدت الماء فأمسّه جلدك فإنّ ذلك خيراً».

ومسحَ الوجهَ واليدينِ في التيمم، تارة يكون بدلاً عن غسل جميع البدن في حق الجنب والحائض والنفساء والميت وتارة عن غسل الأعضاء الأربعة في حق المحدث وتارة يكون بدلاً عن غسل بعض أعضاء الطهارة بأن يكون على بعض أعضاء طهارته جراحة لا يمكنه غسل محلها فعليه أن يتيمم بدلاً عن غسله، ولا يصح التيمم لصلاة الوقت إلا بعد دخول الوقت، ولا يجوز أن يجمع بين فريضتين بتيمم واحد لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] إلى أن قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، ظاهر الآية يدل على وجوب الوضوء أو التيمم إذا لم يجد الماء عند كل صلاة، إلا أن الدليل قد قام في الوضوء

فإن النبي ﷺ صلى يوم فتح مكة الصلوات بوضوءٍ واحد.

فبقي التيمم على ظاهره، وهذا قول علي وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وذهب جماعة إلى أن التيمم كالطهارة بالماء يجوز تقديمه على وقت الصلاة، ويجوز أن يصلي به ما شاء من الفرائض ما لم يُحدث، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهري والثوري وأصحاب الرأي، واتفقوا على أنه يجوز أن يصلي بتيمم واحد مع الفريضة ما شاء من النوافل قبل الفريضة وبعدها، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً، وإن كان تيممه بعذر السفر وعدم الماء فيشترط طلب الماء وهو أن يطلبه في رحله ومن رفقائه، وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظره ينظر حَوالَيه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار عدل عنه لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، ولا يُقال: لم يجد إلاّ لمن طلب، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه طلب الماء ليس بشرط فإن رأى الماء ولكن بينه وبين الماء حائل من عدو أو سُبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء في البئر وليس معه آلة الاستقاء، فهو كالمعدوم يصلي بالتيمم ولا إعادة عليه.

﴿٤٤﴾ قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني: يهود المدينة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم، كانا إذا تكلّم رسول الله ﷺ لَوَيا بألسنتهما وعاباهُ فأنزل الله تعالى هذه الآية، ﴿يَشْتَرُونَ﴾، يستبدلون، ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، يعني: بالهدى، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: عن السبيل يا معشر المؤمنين.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾، منكم، فلا تستنصحوهم فإنهم أعداؤكم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

نَصِيرًا﴾، [قال الزجاج: معناه اكتفُوا بالله ولياً واكتفُوا بالله نصيراً].

﴿٤٦﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾، قيل: هي متصلة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ وقيل: هي مستأنفة، معناه: من الذين هادوا من يحرفون، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: مَنْ له مقام معلوم يُريدُ: فريقٌ، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾، يُغيّرون الكلم ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ ويسألونه عن الأمر فيُخبرهم فيرى أنهم يأخذون بقوله فإذا انصرفوا من عنده حرّفُوا كلامه.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك، ﴿وَعَصَيْنَا﴾، أمرك، ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمعْ منّا ولا نسمع منك، ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: غير مقبول منك.

وقيل: كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمعْ ثم يقولون في أنفسهم: لا سمعت، ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي: ويقولون راعنا يُريدون به النسبة إلى الرُّعونة، ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، تحريفاً، ﴿وَطَعْنًا﴾، قدحاً ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾، لأن قولهم: راعِنَا منَ المُراعاة، وهم يُحرّفونه، يُريدون به الرُّعونة، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾، أي: انظر إلينا مكان قولهم رَاعِنا، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، أي أعدل وأصوب، ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا نفراً قليلاً منهم وهو عبدالله بن سلام ومن أسلم معه منهم.

﴿٤٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾، يُخاطب اليهود، ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾، [يعني: القرآن]، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، يعني: التوراة.

وذلك أنّ النبي ﷺ كلم أحبار اليهود عبدالله بن صوريا وكعب بن الأشرف، فقال: «يا معشر اليهود اتقُوا الله وأسلموا فوالله إنّكم لتعلمون أن الذي جئتكم به الحق»، قالوا: ما نعرف ذلك، وأصرّوا على الكفر، فنزلت هذه الآية، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾.

قال ابن عباس: نجعلها كخف البعير، وقال قتادة والضحاك: نُعميها، والمراد بالوجه العين، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾، أي: نطمس الوجوه فنردها على القفا، وقيل: نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة، لأن منابت شعور الآدميين في أدبارهم دون وجوههم، وقيل: معناه نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب ونجعلها كالأقفاء، وقيل: نجعل عينيه على القفاء فيمشي القهقري.

روي أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه لمّا سَمِعَ هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله ويده على وجهه، وأسلم وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي.

وكذلك كعب الأحبار لمّا سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر رضي الله عنه، فقال: يا رب آمنتُ، يا رب أسلمتُ مخافة أن يصيبهُ وَعِيدُ هذه الآية.

فإن قيل: قد أوعدهم الله بالطمس إن لم يُؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يُفعل بهم ذلك؟ قيل: هذا الوعيد باق، ويكون طمس ومسخ في اليهود قبل قيام الساعة، وقيل: هذا كان وعيداً بشرط فلما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه رفع ذلك عن الباقين، وقيل: أراد به في القيامة، وقال مجاهد أراد بقوله: ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: نتركهم في الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب، والردّ عن بصائر الهدى على أدبارها في الكفر والضلالة، وأصل الطمس: المحو والإفساد والتحويل، وقال ابن زيد: نمحُو آثارهم من وجوههم ونواصيهم التي هم بها فنردّها على أدبارها حتى يعودوا إلى حيث جاؤوا منه وهو الشام، وقال: قد مضى ذلك وتأوله في إجلاء بني النضير إلى أذرعات وأريحاء من [أرض] الشام ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، فنجعلهم قردة وخنازير، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه وذلك أنه لمّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يُعتق فلم يُوفَ له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ أنّا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، الآيات وقد دعونا مع الله إلهاً آخر

وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠ ـ ٧١] الآيتين، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلمّا قرؤوا كتبُوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً، فنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فبعث بها إليهم فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلمّا أخبره قال: «ويحك غيّب وجهك عني»، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات.

وقال أبو مجلز عن ابن عمر رضي الله عنه لمّا نزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، الآية قام رجل فقال: والشرك يا رسول الله، فسكت ثم قام إليه مرتين أو ثلاثاً فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾

وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير: قال ابن عمر رضي الله عنه: كنّا على عهد محمد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فأمسكنا عن الشهادات. حُكي عن علي رضي الله عنه أن أرجى آية في القرآن قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾، اختلق، ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال:

أتى النبي ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «منْ ماتَ لا يُشركُ بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشركُ بالله شيئاً دخل النار».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو معمر أنا عبدالوارث عن حسين يعني المعلم عن عبدالله بن بريدة عن يحيى بن يعمر حدثه أن أبا الأسود الدؤلي حدّثه أن أبا ذر حدّثه قال:

أتيت النبيّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما مِنْ عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلاّ دخل الجنة» قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: «وإن زنى وإن سرق» قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رَغْم أنفِ أبي ذر»، وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإنْ رغم أنف أبي ذر.

(٤٩) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في رجال من اليهود منهم بحري بن عمرو ونعمان بن أوفى ومرحب بن زيد، أتوا بأطفالهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال: لا، قالوا: وما نحن إلا كهيئتهم، ما عَملْنا بالنهار يُكفَّر عنّا بالليل، وما عملنا بالليل يكفر عنا بالنهار، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد وعكرمة: كانوا يقدّمون أطفالهم في الصلاة يزعمون أنهم لا ذنوب لهم فتلك التزكية، وقال الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل: نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: هو تزكية بعضهم لبعض.

روى طارق بن شهاب عن ابن مسعود قال: إن الرجل ليغدو من بيته ومعه دينه فيأتي الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً فيقول: والله إنك كيتَ وكيتَ!! ويرجع إلى بيته وما معه من دينه شيء، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، الآية. قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى﴾ أي: يطهر ويبرئ من الذنوب ويصلح، ﴿مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهو اسم لما في شقّ النواة، والقطمير اسم للقشرة التي على النواة، والنقير: اسم للنقطة التي على ظهر النواة، وقيل: الفتيل من الفتل وهو ما يحصل بين الأصبعين من الوسخ عند الفتل.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

٨٧

﴿٥٠﴾ قوله تعالى: ﴿انظُرْ﴾، يا محمد، ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾، يختلقون على الله، ﴿الْكَذِبَ﴾، في تغييرهم كتابه، ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ أي بالكذب ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

﴿٥١﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، اختلفوا فيهما فقال عكرمة: هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله [عز وجل]، وقال أبو عبيدة: هما كل معبودٍ يُعبد من دون الله [عز وجل] قال الله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، قال عمر: الجبتُ: السحر، والطاغوت: الشيطان. وهو قول الشعبي ومجاهد. وقيل: الجبتُ: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأوثان لكل صنم شيطان، يُعبّر عنه، فيغترُّ به الناس. وقال محمد بن سيرين ومكحول: الجبتُ: الكاهن، والطاغوت: الساحر. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية: الجبتُ: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن. وروي عن عكرمة: الجبتُ بلسان الحبشة: شيطان. وقال الضحاك: الجبتُ: حُيَيُّ بن أخطب، والطاغوتُ: كعب بن الأشرف. دليله قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبدالرزاق أنا معمر عن عوف العبدي عن حيان عن قطن بن قبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرةُ مِنَ الجِبْتِ».

وقيل: الجبتُ كلُّ ما حرّم الله، والطاغوتُ كلُّ ما يُطغي الإنسان. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾

قال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد لِيُحالفُوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دُور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمَنُ أن يكون هذا مكراً منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهِدُ ربَّ هذا البيت لنجهدنّ على قتال محمد ففعلوا، ثم قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أُمّيُّون لا نعلم، فأينا أهدَى طريقاً، نحن أم محمد؟ فقال كعب: اعرضُوا عليَّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونُعمّر بيتَ ربّنا ونطوف به ونحن أهل الحرم. ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، ودينُنا القديم ودينُ محمد الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد وأصحابه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، يعني: كعباً وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، يعني: الصنمين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أبي سفيان وأصحابه ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ﴿سَبِيلًا﴾ ديناً.

﴿٥٢﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ يعني: ألهم والميم صلة ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ ﴿مِّنَ الْمُلْكِ﴾ وهذا على جهة الإنكار، يعني: ليس لهم من الملك شيء، ولو كان لهم

من الملك شيء، ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، لحسدهم وبخلهم والنقير: النقطة التي تكون في ظهر النّواة ومنها تنبت النخلة، وقال أبو العالية: هو نقر الرجل الشيء بطرف أصبعه كما ينقر الدرهم.

﴿٥٤﴾ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾، يعني: اليهود، يحسدون الناس، قال قتادة: المراد بالناس العرب حسدهم اليهود على النُّبوة، وما أكرمهم الله تعالى بمحمد ﷺ. وقيل: أراد محمداً ﷺ وأصحابه، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة: المراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، حسدوه على ما أحلَّ الله له من النّساء، وقالوا: ما له هَمٌّ إلا النكاح، وهو المراد من قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وقيل: حسدوه على النُّبوة وهو المراد من الفضل المذكور في الآية، ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أراد بآل إبراهيم: داود وسليمان، وبالكتاب: ما أنزل الله عليهم وبالحكمة النُّبوة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فمن فسّر الفضلَ بكثرة النساء فسّر المُلكَ العظيم في حق داود وسليمان عليهما السلام بكثرة النساء، فإنه كان لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية، وكان لداود مائة امرأة، ولم يكن يومئذٍ لرسول الله ﷺ تسع نسوة، فلما قال لهم ذلك سكتوا.

﴿٥٥﴾ قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، يعني: بمحمدٍ ﷺ، وهم عبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، أعرض عنه ولم يؤمن به، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، وقوداً، وقيل: المُلك العظيم: مُلك سليمان، وقال السدي: الهاء في قوله ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ راجعة إلى إبراهيم، وذلك أن إبراهيم زرع ذات سنة، وزرع الناسُ فهلك زرع الناس وزكا زرع إبراهيم عليه السلام، فاحتاج إليه الناس فكان يقول: من آمن بي أعطيته، فمن آمن منهم أعطاه، ومن لم يؤمن به منعه.

﴿٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، ندخلهم ناراً، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾، احترقت، ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، غير الجلود المحترقة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُبدَّلون جلوداً بيضاً كأمثال القراطيس.

ورُوي إنّ هذه الآية قُرئت عند عمر رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه للقارىء: أعدها فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل، فقال معاذ: عندي تفسيرها «تُبدّل في كل ساعة مائةَ مرة»، فقال عمر رضي الله عنه: هكذا سمعت رسول الله ﷺ؟ قال الحسن: تأكلهم النار كلَّ يوم سبعين ألف مرة كلّما أكلتهم قيل لهم عُودُوا فيعودون كما كانوا.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن أسدٍ أنا الفضل بن موسى أنا الفضيل عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما بين مَنْكِبَي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا شُريح بن يُونس أنا حُميد بن عبدالرحمن عن الحسن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافر أو نابُ الكافر مثل أُحد، وغِلظُ جلده مسيرة ثلاثة أيام».

فإن قيل: كيف تُعذب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعصه؟ قيل يُعاد الجلد الأول في كلّ كرّة. وإنما قال: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ لتبدل صفتها، كما تقول صنعتُ من خاتمي خاتماً غيره، فالخاتم الثاني هو الأول إلا أن الصناعة والصفة تبدلت، وكمن يترك أخاه صحيحاً ثم بعد مرة يراه مريضاً دَنِفاً فيقول: أنا غيرُ الذي عهدتَ، وهو عين الأول، إلاَّ أن صفته تغيّرت. وقال السدي: يُبدل الجلد جلداً غيره من لحم الكافر ثم يعيد الجلد لحماً ثم يُخرج من اللحم جلداً آخر. وقيل: يُعذب الشخص في الجلد لا الجلد، بدليل أنه قال: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ولم يقل: لتذوق وقال عبدالعزيز بن يحيى: إنّ الله عزَّ وجلَّ يُلبس أهلَ النار جلوداً لا تألم، فتكون زيادة عذابٍ عليهم، كلّما احترق جلدٌ بدّلهم جلداً غيره، كما قال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فالسرابيل تُؤلمهم وهي لا تألم. قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، كنيناً لا تنسخه الشمس ولا يُؤذيهم حرٌّ ولا بردٌ.

(٥٨) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾،

نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبدالدار، وكان سَادِنَ الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان بابَ البيت وصَعَدَ السطح فطلبَ رسولُ الله المفتاحَ، فقيل: إنه مع عثمان فطلبه منه رسول الله فأبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنع المفتاح فَلَوَى عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه يَدَهُ فأخذ منه المفتاحَ وفتحَ البابَ فدخلَ رسول الله ﷺ البيتَ وصلّى فيه ركعتين، فلمّا خرج سأله العباس المفتاح أن يعطيه ويجمع له بين السِّقاية والسِّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ أن يردَّ المفتاحَ إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك عليٌّ رضي الله عنه، فقال له عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، وكان المفتاح معه فلمّا مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد من الآية جميع الأمانات.

أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزرّاد أنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني وأبو أحمد بن محمد بن أحمد المعلم الهروي قال: أنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني أنا الحسن بن سفيان النسوي أنا شيبان بن أبي شيبة أخبرنا أبو هلال عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قلما خطَبَنا رسولُ الله ﷺ قال: «ألا لا إيمانَ لمنْ لا أمانةَ له ولا دينَ لمنْ لا عهدَ له».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، أي: بالقسط، ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا﴾ أي نعم الشيء الذي ﴿يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الزيّات أنا حميد بن زنجويه أنا ابن عباد [أنا] بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس أنه سمع عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند الله على منابرَ من نُور على يمين الرحمن، وكِلتَا يديهِ يمين، هم الذين يَعْدِلُون في حكمهم وأهليهم ومَا ولوا»

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا عبدالرحمن بن أبي شريح أنا [أبو] القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الناسِ إلى اللَّهِ يومَ القيامةِ وأقربُهم منه مجلساً إمامٌ عادلٌ، وإنَّ أبغضَ الناسِ إلى اللَّهِ يومَ القيامةِ وأشدَّهم عذاباً إمامٌ جائرٌ».

(٥٩) قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، اختلفوا في ﴿وَأُولِى الْأَمْرِ﴾، قال ابن عباس وجابر رضي الله عنهم: هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالِمَ دينهم، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد، ودليلُه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقال أبو هريرة: هم الأمراء والولاة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حقٌ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويُطيعوا.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبدالرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصَاني فقد عصى الله، ومن يطعِ الأميرَ فقد أطاعني، ومنْ يعصِ الأميرَ فقد عصاني».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا

محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله حدثني نافع عن عبدالله رضي الله عنهم.

عن النبي ﷺ قال: «السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلم فيما أحبَّ وكَرِه، ما لم يُؤمرْ بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن [بن] محمد الداوردي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد أخبرنا عبادة بن الوليد بن عبادة أن أباه أخبره عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في العُسر واليُسر والمَنْشَطِ والمَكْرَه، وعلى أثرةٍ علينا وعلى أنْ لا نُنَازعَ الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في اللّهِ لَوْمَةَ لائم».

أخبرنا أبو عبدالله [عبدالرحمن] بن عبيد الله بن أحمد القفال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجردي أنا [أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان] الصيرفي أنا محمد بن يوسف الكديمي قال أخبرنا أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن أبي التياح:

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «اسمعْ وأطعْ ولو لعبدٍ حبشي كان رأسه زبيبة».

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس أنا محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا موسى بن عبدالرحمن الكندي أنا زيد بن الحباب أنا معاوية بن صالح حدثني سليم بن عامر قال: سمعتُ أبا أُمامة رضي الله عنه يقول:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب في حَجَّةِ الوَدَاعِ فقال: «اتقُوا اللّهَ وَصَلُّوا خمسكم وصُومُوا شهرَكم وأدُّوا زكاةَ أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلُوا جنَّةَ ربِّكُم».

وقيل: المراد أُمراء السرايا، أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا حجاج بن محمد [ابن جريج] عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبدالله بن حُذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية.

وقال عكرمة: أراد بأولي الأمر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما حدثنا أبو المظفر محمد بن أحمد التيمي أنا أبو محمد عبدالرحمن بن عثمان بن القاسم أخبرنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي أنا عمرو بن أبي غرزة بالكوفة أخبرنا ثابت بن موسى العابد عن سفيان بن عُيينة عن عبدالملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة رضي الله عنه قال:

قال: رسول الله ﷺ: «[إني لا أدري ما بقائي فيكم] فاقتَدُوا باللّذين مِن بعدي أبي بكرٍ وعمر»، رضي الله عنهما،

وقال عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان [بدليل قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾] [التوبة: ١٠٠] الآية.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي قال: أخبرنا عبدالله بن محمود أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبدالله بن المبارك عن إسماعيل المكي عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال:

قال رسول الله ﷺ: «مثلُ أصحابي في أُمتي كالملح في الطعام لا يَصْلُح الطعامُ إلا بالملح» [قال:] قال الحسن: قد ذهب مِلْحُنَا فكيف نصلح.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾، أي: اختلفتم، ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمر دينكم، والتنازع: اختلاف الآراء وأصله من النزع فكان المتنازعان يتجاذبان ويتمانعان، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، أي: إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حياً وبعد وفاته إلى سُنّته، والردُّ إلى الكتاب والسنة واجبٌ إن وُجد فيهما، فإن لم يُوجد فسبيله الاجتهاد. وقيل: الردُّ [إلى الله تعالى والرسول] أن يقول لِمَا لا يعلم: اللّهُ ورسولُه أعلم. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ﴾، أي: الردُّ إلى الله والرسول، ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: أحسنُ مآلاً وعاقبة.

الجزء الخامس — سورة النساء

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٨٨

﴿٦٠﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآية

قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد لأنه عُرف أنه لا يأخذ الرشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت هذه الآية.

قال جابر: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها واحدٌ في جُهينة وواحد في أسلم، وفي كل حي كاهن، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يُقال له بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلاَّ إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال: انطلق بنا إلى عمر رضي الله عنه فأتيا عمر فقال اليهودي: اختصمتُ أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك، فقال عمر رضي الله عنه للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرضَ بقضاءِ اللّهِ وقضاءِ رسولهِ. فنزلت هذه الآية. وقال جبريل: إن عمر رضي الله عنه فرّق بين الحق والباطل، فسُميَ الفاروق وقال السدي: كان ناس من اليهود أسلموا ونافق بعضُهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قتل به أو أخذ ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجلٌ من بني النضير رجلاً من بني قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقاً، وكانت النضير وهم حلفاء الأوس أشرف وأكثر من قريظة وهم حلفاء الخزرج، فلما جاء الله بالإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فاختصموا في ذلك، فقالت بنو النضير: كنّا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلون منّا، وديتُكم ستون وِسْقاً وديتُنا مائة وِسْق، فنحن نعطيكم ذلك، فقال الخزرج: هذا شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقِلّتنا فقهرتُمونا، ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد فلا فضل لكم علينا، فقال المنافقون منهم: انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي، وقال المسلمون من الفريقين: لا بلْ إلى النبي ﷺ فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة ليحكم بينهم، فقال: أعظموا اللقمة، يعني: الحظ، فقالوا: لك عشرة أوسق، قال: لا بل مائة وِسق ديتي، فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله تعالى آية القصاص، وهذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ يعني إلى: أبي بردة الكاهن أو كعب بن الأشرف، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي: يُعرضون عنكَ إعراضاً.

﴿٦٢﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم

﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾، هذا وعيد، أي: فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني: عقوبة صدودهم، وقيل: هي كل مُصيبة تُصيب جميع المنافقين في الدنيا والآخرة، وتم الكلام هُهنا، ثم عاد الكلام إلى ما سبق، يُخبر عن فعلهم فقال: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾، يعني: يتحاكمون إلى الطاغوت، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: يحيونك ويحلفون [لك]، وقيل: أراد بالمصيبة قتل عمر رضي الله عنه المنافق، ثم جاؤوا يطلبون دِيَته، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾، ما أردنا بالعُدول عنه في المحاكمة أو بالترافع إلى عمر، ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، وقال الكلبي: إلاَّ إحساناً في القول، وتوفيقاً: صواباً، وقال ابن كيسان: حقاً وعدلاً، نظيره: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وقيل: هو إحسان بعضهم بعض، وقيل: هو تقريب الأمر من الحق، لا القضاء على أمر الحكم، والتوفيق: هو موافقة الحق، وقيل: هو التأليف والجمع بين الخصمين.

(٦٣) ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، مَنَ النفاق، أي: علم أنَّ ما في قلوبهم خلاف ما في ألسنتِهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: عن عُقوبتهم وقيل: فأعرض عن قول عذرهم وعظهم باللسان وقل لهم قولاً بليغاً. وقيل: هو التخويف بالله [عزَّ وجلَّ]، وقيل: أن يُوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا، قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قُتلتم لأنه يبلغ في نفوسهم كل مبلغ، وقال الضحاك: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ في الملأ ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ في السرّ والخلاء، وقيل هذا منسوخ بآية القتال.

(٦٤) قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بأمر الله لأنَّ طاعة الرسول وجبت بأمر الله، قال الزجاج: إلا ليطاع بإذن الله لأنّ الله قد أذن فيه وأمر به، وقيل: إلاَّ ليُطاع كلام تام كاف، بإذن الله تعالى أي: بعلم الله وقضائه، أي: وقوعُ طاعته يكون بإذن الله، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، بتحاكمهم إلى الطّاغُوت ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

(٦٥) قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، الآية.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير:

أنَّ الزبير رضي الله عنه كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج مِنَ الحرة كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبير، ثم أرسل إلى جارك»، فغضب الأنصاري، ثم قال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجهُ رسول الله ﷺ، ثم قال للزبير: «اسقِ ثم احبسِ الماءَ حتى يبلغ الجدر»، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقَّه، وكان رسول الله ﷺ [قبل ذلك] أشار على الزبير برأي، أراد [به] سعة له وللأنصاري فلمّا أحفَظَ الأنصاريُ رسولَ الله ﷺ استوعى للزبير حقّه في صريح الحكم. قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية إلاَّ نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

ورُوي أن الأنصاري الذي خاصم الزبير كان اسمه حاطب بن أبي بلتعة فلما خَرَجَا مرَّ على المقداد فقال: لمن كان القضاء، فقال الأنصاري: قضى لابن عمته ولَوَى شدقه ففطن له يهودي كان مع المقداد، فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه في قضاءٍ يقضي بينهم، وايْمُ الله لقد أذنبنا ذنباً مرّة في حياة موسى عليه السّلام فدعا موسى إلى التوبة منه، فقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنّا، فقال ثابت بن قيس بن شماس: أمَا والله إنّ الله ليعلم مني الصدقَ ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت، فأنزل الله في شأن حاطب بن أبي بلتعة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، [الآية].

وقال مجاهد والشعبي: نزلت في بشر المنافق واليهودي اللّذين اختصما إلى عمر رضي الله عنه. قوله تعالى ﴿فَلَا﴾ أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثمَّ لا يرضون بحكمك، ثم استأنف القَسَم

الجزء الخامس — سورة النساء

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويجوز أن تكون (لا) في قوله ﴿فَلَا﴾ صلة، كما في قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾. أي يجعلوك حكماً، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: اختلف واختلط من أمورهم والتبس عليهم حُكمه، ومنه الشجر لالتِفَافِ أغصانه بعضها ببعض، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾، قال مجاهد: شكاً، وقال غيره: ضِيقاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، وقال الضحاك: إثماً، أي: يأثمون بإنكارهم ما قضيت، ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقياداً.

﴿٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ أي: فرضنا وأوجبنا، ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، كما أمرنا بني إسرائيل ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾، كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر، ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، معناه: ما كتبنا عليهم إلاَّ طاعة الرسول والرضى بحكمه، ولو كتبْنا عليهم القتلَ والخروجَ عن الدُّور ما كان يفعله، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، نزلت في ثابت بن قيس وهو من القليل الذي استثنى الله.

قال الحسن ومقاتل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ وهم القليل، والله لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنَّ من أُمتي لرجالاً الإيمانُ في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي»،

قرأ ابن عامر وأهل الشام ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالنصب على الاستثناء، وكذلك هو في مصحف أهل الشام، وقيل: فيه إضمار، تقديره: إلاَّ أن يكون قليلاً منهم، وقرأ الآخرون (قليل) بالرفع على ضمير الفاعل في قوله ﴿فَعَلُوهُ﴾ تقديره: إلاَّ نفر قليل فعلوه، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ يُؤمرون به من طاعة الرسول والرضى بحكمه، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾، تحقيقاً أو تصديقاً لإيمانهم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثواباً وافراً.

﴿٦٨﴾ ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: إلى الصراط المستقيم.

﴿٦٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية، نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال [له] رسول الله ﷺ: «ما غيّر لونك»؟ فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إن لم أرَكَ اسْتَوْحَشْتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنك تُرفع مع النبيين، وأني إن دخلت الجنة كنتُ في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنتَ في الدرجات العلى ونحن أسفل منك؟ فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في أداء الفرائض، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ في السنن ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم لأنهم يرفعون إلى درجة الأنبياء، ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾، وهم أفاضل أصحاب النبي ﷺ، والصدّيق المبالغ في الصدق، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، قيل: هم الذين استشهدوا في يوم أُحد، وقيل: الذين استشهدوا في سبيل الله، وقال عكرمة: النبيون هُهنا محمد ﷺ، والصديقون أبو بكر، والشهداء: عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، سائر الصحابة رضي الله عنهم، ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، يعني: رفقاء الجنة، والعرب تضع الواحد

موضع الجمع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] أي: أطفالاً ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] أي: الأدبار.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس السراج أنا قتيبة بن سعيد أنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس:

أنّ رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال النبي ﷺ: «المرء مع من أحبَّ».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي وأبو عمرو ومحمد بن عبدالرحمن النسوي قالا: أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو العباس السراج أنا أبو يحيى زكريا بن يحيى المروزي أنا سفيان بن عُيينة عن الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

قال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها» [فلم يذكر كثير أمر]؟ قال: إلاّ أنه يحب اللّهَ ورسولَه، قال: «فأنت مع من أحببت».

﴿٧٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: بثواب الآخرة، وقيل: بمن أطاع رسول الله وأحبّه، وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنّما نالُوها بفضل الله عزّ وجلّ.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحيم بن منيب أنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاربُوا وسَدِّدُوا واعلمُوا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ اللَّهُ برحمة منه وفضل».

﴿٧١﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، من عدوِّكم، أي: عِدَتِكم وآلتِكم من السلاح، والحذَرُ والحِذْرُ واحد كالمَثَلِ والمِثْلِ والشَّبَهِ والشِّبْهِ، ﴿فَانفِرُوا﴾ اخْرُجوا ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: سرايا متفرقين سرية بعد سرية، والثبات جماعات في تفرقة واحدتها ثبة، ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين كلكم مع النبي ﷺ.

﴿٧٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، نزلت في المنافقين، وإنما قال ﴿مِنكُمْ﴾ لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسيةِ والنسبِ وإظهارِ الإسلام، إلا في حقيقة الإيمان، ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتأخرنّ، وليتثاقلنّ عن الجهاد، وهو عبدالله بن أبي المنافق، واللام في ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ لام القسم، والتبطئة: التأخر عن الأمر، يُقال: ما أبطأ بك؟ أي: ما أخرك عنا؟ ويقال: أبطأ إبطاءً وبطّأ يبطىء تبطئة. ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: قتلٌ وهزيمة، ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقُعود، ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، أي: حاضراً في تلك الغزاة فيصيبني ما أصابهم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، فتحٌ وغنيمة، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المنافق، وفيه تقديم وتأخير، وقوله ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ متصل بقوله ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ تقديره: فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: معرفة، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب ﴿تَكُن﴾ بالتاء، والباقون بالياء، أي: ولئن أصابكم فضلٌ من الله لَيقُولَنّ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ في تلك الغزاة، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، أي: آخذ نصيباً وافراً من الغنيمة، وقوله ﴿فَأَفُوزَ﴾ نصب على جواب التمني بالفاء، كما تقول: وددت أن أقوم فيتبعني الناس.

﴿٧٤﴾ قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، قيل: نزلت في المنافقين، ومعنى يشرون أي: يشترون، يعني الذين يختارون الدنيا على الآخرة ومعناه: آمنوا ثم قاتلوا، وقيل: نزلت في المؤمنين المخلصين، معناه فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون أي: يبيعُون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارُون الآخرة ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾، يعني يستشهد، ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾، يظفر، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾، في كلا الوجهين ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ويدغم أبو عمرو والكسائي الباء في الفاء حيث كَانَ أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزّناد عن الأعرج عن أبي هريرة:

أنّ رسول الله ﷺ قال: «تكفَّلَ اللَّهُ لمنْ جاهدَ في سبيلِ اللَّهِ لا

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

يُخرجُهُ من بيتِهِ إلاّ الجهادُ في سبيله وتصديقِ كلمتِهِ أن يُدخلَه الجنة أو يرجعَه إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منه معَ ما نَالَ من أجرٍ وغنيمة».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني أنا عبدالرحمن عبدالله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مثلُ المجاهدِ في سبيلِ اللَّهِ كمثلِ القانتِ الصائمِ الذي لا يفترُ من صلاةٍ ولا صيامٍ حتى يُرجعَه اللَّهُ إلى أهلهِ بما يرجعُه من غنيمةٍ وأجرٍ، أو يتوفاه فيُدخله الجنة».

﴿٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ لا تجاهدون ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، في طاعة الله، يعاتبهم على ترك الجهاد، ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: عن المستضعفين، وقال ابن شهاب: في سبيل المستضعفين لتخليصهم، وقيل: في تخليص المستضعفين من أيدي المشركين، وكان بمكة جماعة، ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، يلقون من المشركين أذىً كثيراً، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يدعون و﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، يعني: مكة، الظالم أي: المشرك، أهلها يعني القرية التي من صفتها أن أهلها مشركون، وإنما خفض ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ لأنه نعتٌ للأهل، فلما أعاد الأهل على القرية صار كأن الفعل لها، كما يُقال: مررت برجل حسنة عينه. ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، أي: من يلي أمرنا لَدُنك، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، أي: من يمنع العدوَّ عنا، فاستجاب الله دعوتهم، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ولّى عليهم عتاب بن أسيد وجعله الله لهم نصيراً ينصف المؤمنين المظلومين من الظالمين.

﴿٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في [طاعة الله]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: في طاعة الشيطان، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: حِزبَه وجنوده [وهم] الكفار، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [أي:] مَكْرَه، ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾، كما فعل يوم بدر لمّا رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم.

﴿٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية.

قال الكلبي: نزلت في عبدالرحمن بن عوف الزهري، والمقداد بن الأسود الكندي، وقدامة بن مظعون الجمحي، وسعد بن أبي وقاص، وجماعة كانوا يلقون من المشركين بمكة أذىً كثيراً قبل أن يهاجروا، ويقولون: يا رسول الله ائذنْ لنا في قتالهم فإنهم قد آذونا، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «كُفوا أيديَكم فإن لم أؤمر بقتالهم»، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فلمّا هاجرُوا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فُرِضَ، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾، يعني: يخشون مشركي مكة، ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: كخشيتهم من الله، ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ أكثر، ﴿خَشْيَةً﴾، وقيل: معناه وأشدّ خشية، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، الجهادَ، ﴿لَوْلَآ﴾، هلاّ، ﴿أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، يعني: الموت، أي: هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا؟ واختلفُوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك، فقيل: قاله قوم من المنافقين لأن قوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، لا يليق بالمؤمنين، وقيل: قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفاً وجبناً

لا اعتقاداً ثم تابوا، وأهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان، وقيل: هم قوم كانوا مؤمنين فلمّا فرض عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلّفوا عن الجهاد، ﴿قُلْ﴾: يا محمد، ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: منفعتها والاستمتاع بها ﴿قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي وثواب الآخر خير وأفضل، ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، الشركَ ومعصيةَ الرسول، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وحمزة والكسائي بالياء والباقون تظلمون بالتاء

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبدالملك المؤذن أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن معاوية الصيدلاني، أخبرنا الأصم، أنا عبدالله بن محمد بن شاكر، أنا محمد بن بشر العبدي، أنا مِسْعَرُ بن كِدَام، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم حدثني المستورد بن شدّاد قال:

قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بِمَ يرجع».

(٧٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ينزل بكم الموت، نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أُحد: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فردَّ اللّهُ عليهم بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، والبروج: الحصون والقلاع، والمشيّدة: المرفوعة المطوّلة وقال قتادة: معناه في قصورٍ محصنة، وقال عكرمة: مُجصَّصة، والشِّيد: الجص، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾، نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم قالوا لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. فقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي خصب ورخص في السعر، ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، لنا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني: الجدب وغلاء الأسعار ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: من شؤم محمد وأصحابه، وقيل: المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر، وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد، يقولوا هذه من عندك أي: أنت الذي حملتنا عليه يا محمد، فعلى هذا يكون هذا من قول المنافقين، ﴿قُلْ﴾، لهم يا محمد، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: الحسنة والسيئة كلها من عند الله، ثم عيّرهم بالجهل فقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يعني: المنافقين واليهود، ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفقهون قولاً، وقيل: الحديث ههُنا هو القرآن أي: لا يفقهون معاني القرآن.

قوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال الفراء: كثرت في الكلام هذه الكلمة حتى توهمُوا أنّ اللاّم متصلة بها وأنهما حرف واحد، ففصلوا اللاّم مما بعدها في بعضه، ووصلوها في بعضه، والاتصال القراءة، ولا يجوز الوقف على اللام لأنها لام خافضة.

(٧٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾، خير ونعمة ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾، بليّةٍ أو أمر تكرهه، ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، أي: بذنوبك، الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وتعلق أهل القدر بظاهر هذه الآية، فقالوا: نفى اللّهُ تعالى السيئةَ عن نفسه ونسبها إلى العبد، فقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، ولا متعلق لهم فيه، لأنه ليس المراد من الآية حسنات الكسب ولا سيآته من الطاعات والمعاصي، بل المراد منه ما يُصيبهم من النِّعم والمِحن، وذلك أنه ليس من فعلهم بدليل أنه نسبها إلى غيرهم ولم ينسبها إليهم، فقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولا يقال في الطاعة والمعصية أصابني، إنّما يقال: أصبتها، ويقال في النعَم: أصابني، بدليل أنه لم يذكر عليه ثواباً ولا عقاباً، فهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، لما ذكر حسنات الكسب وسيآته نسبها إليه، ووعد عليها الثواب والعقاب، فقال ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقيل: معنى الآية: ما أصابك من حسنة من النصر والظفر يوم بدر فمن الله، أي: من فضل الله، وما أصابك من سيئة من القتل والهزيمة يوم أُحد فمن نفسك، أي: يعني [فبذنوب أصحابك، أي بذنبه نفسك، وهو مخالفتهم لك،] فإن قيل: كيف وَجْهُ الجمع بين قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وبين قوله ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؟ قيل: قوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: الخصبُ والجَدْبُ والنصرُ والهزيمة

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

كلها من عند الله، وقوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: وما أصابك من سيئة من الله بذنب نفسك عقوبةً لك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] يدل عليها ما روى مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قرأ «وما أصابكَ من سيئةٍ فمنْ نفسِك وأنا كتبتُها عليك». وقال بعضهم: هذه الآية متصلة بما قبلها، والقول فيه مضمر تقديره: فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾، يا محمد، ﴿لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، على إرسالك وصدقك، وقيل: كفى بالله شهيداً على أن الحسنة والسيئة كلها من الله تعالى.

﴿٨٠﴾ قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان يقول: «من أطاعني فقدْ أطاعَ اللّهَ ومن أحبني فقدْ أحبَّ الله» فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربّاً كما اتخذتِ النصارى عيسى ابن مريم ربّاً، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

أي: من يطع الرسول فيما أمر به فقد أطاع الله، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾، عن طاعته، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، يا محمد، ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: حافظاً ورقيباً بل كل أمورهم إليه تعالى، وقيل: نسخ الله عزّ وجلّ هذا بآية السيف، وأمره بقتال من خالف الله ورسوله.

﴿٨١﴾ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾، يعني: المنافقين يقول باللسان للرسول ﷺ: إنا آمنا بك فمرنا فأمرك طاعة، قال النحويون: أي أمرنا وشأننا أن نطيعك، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾، خرجوا، ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾، قال قتادة والكلبي: بيّت أي: غيّر وبدّل الذي عَهِدَ إليهم النبي ﷺ، ويكون التبييت بمعنى التبديل، وقال أبو عبيدة والقتيبي: معناه قالوا وقدّروا ليلاً غير ما أعطوك نهاراً وكل ما قدر بليل فهو تبييت، وقال أبو الحسن الأخفش: تقول العرب للشيء إذا قُدِّرَ: بُيِّتَ، يُشبهونه بتقدير بيوت الشعر، ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ﴾ أي: يُثبتُ ويحفظ، ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾، ما يُزوّرون ويُغيّرون ويُقدرون، وقال الضحاك، عن ابن عباس: يعني ما يُسرّون من النفاق، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، يا محمد ولا تعاقبهم، وقيل: لا تُخبرْ بأسمائهم، مُنع الرسول ﷺ من الأخبار بأسماء المنافقين، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، أي: اتخذه وكيلاً فكفى بالله وكيلاً وناصراً.

﴿٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، يعني: أفلا يتفكّرون في القرآن، والتدبر هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كلِّ شيءٍ آخره. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، أي تفاوتاً وتناقضاً كثيراً، قاله ابن عباس، وقيل: لوجدوا فيه أي: في الإخبار عن الغيب بما كان وبما يكون اختلافاً كثيراً، أفلا يتفكرون فيه فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر [به] أنه كلام الله تعالى لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف.

﴿٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ﴾، وذلك أنّ النبي ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلَبوا أو غُلبوا بادرَ المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيفشونه ويُحدّثون به قبل أن يُحدِّثَ به رسول الله ﷺ فيُضعفون به قلوبَ المؤمنين فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ أي: الفتح والغنيمة أو الخوف والقتل والهزيمة ﴿أَذَاعُوا بِهِۦ﴾ أشاعوه وأفشوه، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

﴿ٱلرَّسُولِ﴾ إلى رأيه ولم يحدثوا به حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾، أي: ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾، أي: يستخرجونه وهم العلماء، أي: عَلِمُوا ما ينبغي أن يُكتم وما ينبغي أن يُفشى، والاستنباط: الاستخراج، يقال: استنبط الماءَ إذا استخرجه، وقال عكرمة: يستنبطونه أي: يحرصون عليه ويسألون عنه، وقال الضحاك: يتّبعونه، يريد الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين ولو ردوه إلى الرسول ﷺ وإلى ذوي الرأي والعلم، لَعلِمه الذين يستنبطونه منهم، أي: يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو، ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، كلكم، ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فإن قيل: كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان؟ قيل: هو راجع إلى ما قبله، قيل: معناه أذاعوا به إلا قليلاً لم يفشه، وعني بالقليل المؤمنين، وهذا قول الكلبي واختيار الفراء، وقال: لأنّ عِلْمَ السرِّ إذا ظهر عَلِمَهُ المستنبطُ وغيرُه، والإذاعة قد تكون في بعضٍ دون بعض، وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً، ثم قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ كلام تام، وقيل: فضلُ الله الإسلامُ، ورحمتُه القرآن، يقول لولا ذلك لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً فهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول ﷺ ونزول القرآن، مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وجماعة سواهما، وفي الآية دليل على جواز القياس، فإن من العلم ما يُدرك بالتلاوة والرواية وهو النّص، ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعاني المودعة في النصوص.

(٨٤) قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ وَاعَدَ أبا سفيان بعد حرب أُحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ أي: لا تدع جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك، فإن الله قد وعدك النصرة وعاتبهم على ترك القتال، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ﴾ جواب عن قوله ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧٤] فقاتِلْ، ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، على القتال أي حضّهم على الجهاد ورغّبهم في الثواب، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكباً فكفاهم الله القتال، فقال جل ذكره ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ أي: لعلّ الله، ﴿أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، أي: قتال المشركين و﴿عَسَى﴾ من الله واجب، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾ أي: أشدّ صولة وأعظم سلطاناً، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ أي: عقوبة.

(٨٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾، أي: نصيب منها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة: هي المشي بالنميمة بين الناس، وقيل: الشفاعة الحسنة هي: حُسنُ القول في الناس ينال به الثوابَ والخير، والسيئة هي: الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر، قوله ﴿كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ أي: من وزرها، وقال مجاهد: هي شفاعة الناس بعضهم لبعض، يُؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يُشفَّع.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا [أحمد بن عبدالله النعيمي]، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا سفيان الثوري، عن أبي بردةِ أخبرني جدي أبو بردة، عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال:

كان النبي ﷺ [جالسا] إذا جاءه رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجهه، فقال: «اشفعُوا فلتؤجروا وليقض الله] على لسان نبيه ما شاء»،

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مقتدراً أو مجازياً قال الشاعر:

وذِي ضِغنٍ كففتُ النفسَ عنهُ وكنتُ على إساءتِه مُقيتاً

وقال مجاهد: شاهداً: وقال قتادة: حافظاً، وقيل: معناه على كل حيوان مقيتاً أي: يوصل القوت إليه.

وجاء في الحديث: «كفى بالمرءِ إثماً أن يضيّع من يَقُوتُ ويقِيتُ».

(٨٦) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾،

الجزء الخامس — سورة النساء

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

٩٢

التحية: [هي] دعاء الحياة، والمراد بالتحية ههنا السلام، يقول: إذا سلّم عليكم مُسلِّم فأجيبُوا بأحسنَ مما سلم أو رُدُّوها [أي ردوا] كما سلّم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله، رُوي أنّ رجلاً سلّم على ابن عباس رضي الله عنهما، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً، فقال ابن عباس: إنّ السلام ينتهي إلى البركة.

ورُوي عن عمران بن الحصين: أنّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردّ عليه، ثمّ جلس، فقال النبي ﷺ: «عشرٌ» ثمّ جاء آخرُ فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه فجلس، فقال: «عشرُون» ثم جاء آخرُ فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه فجلس، فقال: «ثلاثون».

واعلمْ أنّ السلام سنة وردُّ السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية [وكذلك السلام سنة على الكفاية] فإذا سلّم واحدٌ من جماعة كان كافياً في السنة، إذا سلّم واحدٌ على جماعة وردّ واحدٌ منهم سقط الغرض عن جميعهم.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أنا إبراهيم بن عبدالله بن عمر بن بكير الكوفي، أنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال:

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تَدْخُلُوا الجنّةَ حتى تُؤمنُوا ولا تُؤمنُوا حتى تحابّوا، أوَلا أدلّكم على شيء إذا فعلتمُوه تحابيتم؟ أفشُوا السلام بينكم».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا قتيبة، أنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عبدالله بن عمر[و] أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «أنْ تُطعمَ الطعامَ وتقرأ السلامَ على مَن عرفتَ ومَنْ لم تعرفْ».

ومعنى قوله: أيُّ الإسلام خير، يريد أيُّ خصال الإسلام خير، وقيل: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾، معناه أي إذا كان الذي سلّم مسلماً، ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ بمثلها إذا لم يكن مسلماً.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن عبدالله بن دينار، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم قال:

قال رسول الله ﷺ: «[إن اليهود] إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول: السّامُ عليك، فقلْ: عليك».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: على كل شيءٍ من رَدّ السلام بمثله أو بأحسن منه، حسيباً أي: محاسباً مجازياً، وقال مجاهد: حفيظاً، وقال أبو عبيدة: كافياً، يقال: حسبي هذا أي كفاني.

(٨٧) قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، اللاّم، لامُ القسم تقديره: واللّهِ ليجمعنّكم الله في الموت وفي القبور، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وسُميت القيامةُ قيامةً لأنّ الناس يقومُون من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] وقيل: لقيامهم إلى الحساب، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: قولاً ووَعْداً، قرأ حمزة

والكسائي ﴿أَصْدَقُ﴾، وكلُّ صادٍ ساكنة بعدها دالٌ بإشمام الزاي.

(٨٨) ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ اختلفوا في سبب نُزُولها فقال قوم: نزلت في الذين تخلّفُوا يوم أُحد من المنافقين، فلمّا رجعُوا قال بعضُ الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ: اقتلهم فإنّهم منافقون، وقال بعضهم: اعف عنهم فإنهم تكلّموا بالإسلام.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو الوليد، أنا شعبة، عن عدي بن ثابت قال: [سمعت عبدالله بن يزيد يحدث، عن زيد بن ثابت قال]:

لمّا خرج النبي ﷺ إلى أحد رجع ناسٌ ممن خرج معه كان أصحاب النبي ﷺ فرقتين فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾، وقال: «إنها طيبةُ تَنفي الذنوبَ كما تنفي النّارُ خَبَثَ الفِضّة».

وقال مجاهد: [هم] قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم ارتدُّوا واستأذنُوا رسول الله ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتّجِرُون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة، فاختلف المسلمون فيهم، فقائل يقول هم منافقون، وقائل يقول هم مؤمنون

وقال بعضهم: نزلت في ناسٍ من قريش قَدِمُوا المدينة وأسلموا ثم نَدِمُوا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين حتى بعدوا من المدينة فكتبُوا إلى رسول الله ﷺ: إنّا على الذي فارقناك عليه من الإيمان ولكنّا اجْتَوَيْنَا المدينة واشتقنا إلى أرضنا، ثم إنهم خرجوا في تجارة لهم نحو الشام فبلغ ذلك المسلمين، فقال بعضهم: نخرج إليهم فنقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغِبُوا عن ديننا، وقالت طائفة: كيف تقتلون قوماً على دينكم إن لم يَذرُوا دِيَارَهم، وكان هذا بعين النبي ﷺ وهو سَاكِتٌ لا ينهَى واحداً من الفريقين، فنزلت هذه الآية.

وقال بعضهم: هم قوم أسلموا بمكة ثم لم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين، فنزلت ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: صرتم فيهم فئتين، أي: فرقتين، ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي: نكّسهم وردّهم إلى الكفر، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بأعمالهم غير الزاكية ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾، أي: أن ترشدوا ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، وقيل: معناه أتقولون أنّ هؤلاء مهتدون وقد أضلّهم الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: [ومن] يُضْلِلِ اللّهُ عن الهدى، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الحق.

(٨٩) قوله تعالى: ﴿وَدُّوا﴾، تمنّوا، يعني أولئك الذين رجعوا عن الدين تمنّوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، في الكفر، وقوله ﴿فَتَكُونُونَ﴾ لم يُرِدْ به جواب التمني لأن جواب التمني بالفاء منصوب، إنّما أراد النسق، أي: وَدُّوا لو تكفرونَ ووَدُّوا لو تكونونَ سواءً، مثل قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] أي: وَدُّوا لو تُدْهِنُ وَوَدُّوا لَوْ تُدهنون، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، منعَ من موالاتهم، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، معكم، قال عكرمة: هي هجرة أُخرى، والهجرة على ثلاثة أوجه هجرة المؤمنين في أوّل الإسلام، وهي قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، ونحوهما من الآيات، وهجرة المنافقين. وهي الخروج في سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابراً محتسباً، كما حكي ههنا، وفي هذه الآية مَنْعَ المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يُهاجروا في سبيل الله، وهجرة سائر المؤمنين ما نهى الله عنه. وهي ما قال النبي ﷺ: «المهاجرُ من هَجَرَ ما نَهى اللّهُ عنه».

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، أعرضوا عن التوحيد والهجرة، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾، أي: خذوهم أسارى، ومنه يقال للأسير: أخِيذ، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحِلّ والحَرَم، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ثم استثنى طائفةً منهم فقال:

(٩٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل، لا إلى الموالاة، لأنّ موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال، ومعنى ﴿يَصِلُونَ﴾ أي: ينتسبون إليهم ويتصلون بهم ويدخلون فيهم بالحِلْفِ والجوار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد يلجأون إلى قوم، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد، وهم الأسلميون، وذلك أن

الجزء الخامس — سورة النساء

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٣

رسول الله ﷺ وَادَعَ هلالَ بن عويمر الأسلمي قبل خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يُعين عليه، ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم من الجوار مثلَ ما لهلال.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بني بكر بن زيد بن مَناة كانوا في الصلح والهدنة، وقال مقاتل: هم خُزاعة، وقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ أي: يتصلون بقوم جاؤوكم، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ضاقت صدورُهم، قرأ الحسن ويعقوب (حصرةً) منصوبة منونة أي: ضيقة صدورهم، يعني القوم الذين جاؤوكم وهم بنو مدلج، كانوا عاهدوا أن لا تقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم، حَصِرتْ: ضاقت صدورهم، ﴿أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾ أي: عن قتالكم للعهد الذي بينكم، ﴿أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، يعني: من أمِنَ منهم، ويجوز أن يكون معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم، يعني قريشاً قد ضاقت صُدُورُهم لذلك، وقال بعضهم: أو بمعنى الواو، كأنه يقول: إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهم، أي حصرت صدورهم عن قتالكم والقتال معكم، وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر، نَهَى اللهُ سبحانه، عن قتال هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهدٍ للمسلمين، لأنَّ من انضم إلى قوم ذوي عهدٍ فله حكمهم في حقن الدم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾، يذكر مِنّتَهُ على المسلمين بكفِّ بأسِ المعاهدين، يقول: إن ضيق صدورهم عن قتالكم لما ألقى الله في قلوبهم من الرعب وكفهم عن قتالكم، ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلَقاتلوكم مع قومهم، ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي: اعتزلوا قتالَكم، ﴿فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾، ومن اتصل بهم، ويقال: يوم فتح مكة يقاتلوكم مع قومهم، ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، أي: الصلح فانقادُوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً بالقتل والقتال.

﴿٩١﴾ قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم أسد وغَطَفَان كانوا حاضري المدينة تكلموا بالإسلام رياءً وهم غير مسلمين، وكان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا أسلمت؟ فيقول آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء، وإذا لقوا أصحاب النبي ﷺ قالوا: إنّا على دينكم، يريدون بذلك الأمنَ في الفريقين، وقال الضحاك عن ابن عباس: هم بنو عبدالدار وكانوا بهذه الصفة، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾، فلا تتعرضوا لهم، ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، فلا يتعرضوا لهم، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: دُعوا إلى الشرك، ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي: رجعوا وعادوا إلى الشرك، ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي: فإن لم يكفُّوا عن قتالكم حتى تسيروا إلى مكة، ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: المفاداة والصلح، ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي، ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾، أسراء، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ﴾ أي: أهل هذه الصفة، ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حُجّةً بيّنةً ظاهرة بالقتل والقتال.

﴿٩٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يُظهر إسلامَه لأهله فخرج هارباً إلى المدينة، وتحصّن في أطم من آطامها، فجزعت لذلك أمه جزعاً شديداً وقالت لابنيها الحارث وأبي

جهل بن هشام وهما أخواه لأمه. لا والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتوني به، فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة، فأتوا عياشاً وهو في الأطم، قالا له: انزل فإنّ أمك لم يُؤوها سقفُ بيت بعدك، وقد حلفت ألاّ تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دِينك، فلما ذكروا له جزع أُمه وأوثقوا له بالله نزل إليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه بنسعةٍ فجلده كل واحد منهما مائة جلدة، ثم قدموا به على أُمّه فلما أتاها قالت: والله لا أُحِلّكَ من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثقاً مطروحاً في الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاه الحارث بن زيد فقال: يا عياش أهذا الذي كنت عليه فوالله لئن كان هُدىً لقد تركت الهدى، ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقالته، وقال: والله لا ألقاك خالياً أبداً إلا قتلتك، ثم إن عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر ثم أسلم الحارث بن زيد بعده وهاجر إلى رسول الله ﷺ وليس عياش حاضراً يومئذ ولم يشعر بإسلامه فبينما عياش يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث فقتله، فقال الناس: ويحك أي شيء قد صنعت؟ إنه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله قد كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

وهذا نهيٌ عن قتل المؤمن كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾، استثناء منقطع معناه: لكنْ إن وقعَ خطأ، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾، كاملة، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ أي: إلى أهل القتيل الذين يرثونه، ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية، ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، أراد به إذا كان الرجل مسلماً في دار الحرب منفرداً مع الكفار فقتله من لم يعلم بإسلامه فلا دية عليه، وعليه الكفارة، وقيل: المراد منه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام وهو من نَسَبِ قوم كفار، وقرابتُه في دار الحرب حربٌ للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله، وكان الحارث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين وكان فيه تحرير رقبة ولم يكن فيه دية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أراد به إذا كان المقتول كافراً ذمياً أو معاهداً فتجب فيه الدية والكفارة، والكفارة تكون بإعتاق رقبة مؤمنة سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً رجلاً كان أو امرأةً حراً كان أو عبداً وتكون في مال القاتل، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، والقاتل إن كان واجداً للرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود ثمنها فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق، ولا يجوز أن ينتقل إلى الصوم فإن عجز عن تحصيلها فعليه صومُ شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمداً في خلال الشهرين أو نسي النية ونوى صوماً آخر وجب عليه استئناف الشهرين، وإن أفطر يوماً بعُذرِ مرضٍ أو سفر فهل ينقطع التتابع؟ اختلف أهل العلم فيه، فمنهم من قال: ينقطع وعليه استئناف الشهرين، وهو قول النخعي وأظهر قول للشافعي رضي الله عنه لأنه أفطر مختاراً، ومنهم من قال: لا ينقطع وعليه أن يبني، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي، ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع، فإذا طَهُرتْ بَنَتْ على ما صامت، لأنه أمرٌ مكتوب على النساء لا يمكنهن الاحتراز عنه، فإن عجز عن الصوم فهل يخرج عنه بإطعام ستين مسكيناً، فيه قولان، أحدهما: يخرج كما في كفارة الظهار، والثاني لا يخرج لأن الشرع لم يذكر له بدلاً فقال: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: جعل الله ذلك توبة القاتل الخطأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾، بمن قتل خطأً ﴿حَكِيمًا﴾ فيما حكم به عليكم، أمّا الكلام في بيان الديةَ فاعلم أن القتل على ثلاث أنواع: عمد محض وشبه عمد وخطأ

محض، أما العمد المحض فهو: أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالباً فقتله ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دِيَةٌ مغلّظة في مال القاتل حالة، وشبه العمد أن يقصد ضربه بما لا يموت مثله من ذلك الضرب غالباً، بأن ضربه بعصاً خفيفةً، أو حجرٍ صغير ضربةً أو ضربتين، فمات فلا قصاص فيه، بل تجب فيه دِيَةٌ مغلّظة على عاقلته مؤجلةً إلى ثلاث سنين، والخطأ المحض هو: أن لا يقصد قتله بل قصد شيئاً آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص فيه، بل تجب [فيه] دِيَةٌ مخففة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين وتجب الكفارة في ماله في الأنواع كلها، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه: قتل العمد لا يوجب الكفارة لأنه كبيرة كسائر الكبائر.

ودِيَةُ الحرّ المسلم مائة من الإبل فإذا عُدمت الإبل وجبت قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول، وفي قول يجب بدل مقدر منها وهو ألف دينار، أو أثني عشر ألف درهم، لِما رُوي عن عمر رضي الله عنه فرض الدية على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم. وذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مائة من الإبل، أو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم. وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصري رضي الله عنهما، وبه قال مالك. وذهب قوم إلى أنها مائة من الإبل أو ألف دينار، أو عشرة آلاف درهم، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي، ودية المرأة نصف دية الرجل، ودية أهل الذمة والعهد ثُلُثُ دِيَةِ المسلم إن كان كتابياً وإن كان مجوسياً فخُمْسُ الدِّيَةِ، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: دِيَةُ اليهودي والنصراني أربعة آلاف درهم، ودية المجوسي ثمانمائة درهم، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وذهب إليه الشافعي رضي الله عنه. وذهب قوم إلى أن دية الذمي والمعاهد مثل دِيَةِ المسلم، رُوي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وقال قوم: دية الذمي نصف دية المسلم وهو قول عمر بن عبدالعزيز، وبه قال مالك وأحمد رحمهما الله، والدية في العمد المحض وشبه العمد مغلّظة بالسّن فيجب ثلاثون حُقّة وثلاثون جَذَعة وأربعون خَلِفَة في بطونها أولادها، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، وبه قال عطاء: وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، لِما أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي رضي الله عنه أنا ابن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان عن القاسم بن ربيعة عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألاَ إنّ في قتل العمد الخطأ بالسّوط أو العصا مائة من الإبلِ مُغلّظة، منها أربعون خَلِفَة في بطونها أولادها».

وذهب قوم إلى أن الدِّية المغلّظة أرباعٌ: خمسٌ وعشرون بنت مخاض، وخمسٌ وعشرون بنت لبون، وخمسٌ وعشرون حُقّة، وخمسٌ وعشرون جَذَعة، وهو قول الزهري وربيعة وبه قال مالك وأحمد وأصحاب الرأي، وأمّا دِيَةُ الخطأ فمخففة، وهي أخماسٌ بالاتفاق، غير أنهم اختلفوا في تقسيمها، فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لَبُون، وعشرون ابن لَبون، وعشرون حُقّة، وعشرون جَذَعة، وهو قول عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة، وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، وأبدل قوم بني اللّبون ببنات المخاض، يُروى عن ابن مسعود رضي الله عنه وبه قال أحمد وأصحاب الرأي ودية الأطراف على هذا التقدير، ودية المرأة فيها على النصف من دية الرجل والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم عصبات القاتل من الذكور ولا يجب على الجاني منها شيء لأن النبي ﷺ أوْجَبَها على العاقلة.

(٩٣) قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية، نزلت في مقيس بن صبابة الكندي، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه هشام قتيلاً في بني النجار فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأرسل رسول الله ﷺ معه رجلاً من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتص منه وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه دِيَتَه، فأبلغهم الفهري

ذلك فقالوا: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، والله ما نعلم له قاتلاً ولكنّا نؤدي ديته فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة فأتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه، فقال: تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبة، اقتل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية، فتغفل الفهري فرماه بصخرة فشدخه، ثم ركب بعيراً وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً فنزل فيه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾، بكفرِهِ وارتدادِهِ وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة، [عمّن أمّنَهُ] فقُتل وهو متعلق بأستار الكعبة، قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: طرده عن الرحمة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، اختلفوا في حكم هذه الآية، فحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قاتل المؤمن عمداً لا توبةَ له، فقيل له: أليس قد قال الله في سورة الفرقان: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى أن قال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٧ ـ ٧٠]، فقال: كانت هذه [الآية] في الجاهلية وذلك أن أُناساً من أهل الشرك كانُوا قد قتلُوا وزنُوا فأتَوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تدعونا إليه لَحَسَنٌ، لو تخبرنا أن لمّا عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، فهذه لأولئك وأمّا التي في النساء فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل مسلماً متعمداً فجزاؤه جهنم، وقال زيد بن ثابت: لما نزلت التي في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللّينة فنسخت اللّينة، وأراد بالغليظة [هذه] الآية، وباللّينة آية الفرقان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تلك آية مكية وهذه مدنية ولم ينسخها شيء، والذي عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السنة أن قاتل المسلم عمداً توبته مقبولة لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما رُوي عن سفيان بن عُيينة أنه قال: إنْ لم يَقْتُلْ يُقال له لا توبةَ لك، وإنْ قَتَلَ ثم جاء يُقال لك توبة. ويُروَى مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وليس في الآية متعلق لمن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر، لأن الآية نزلت في قاتل هو كافر، وهو مقيس بن صبابة، وقيل: إنه وعيد لمن قتل مؤمناً مُستحلاً لقتله بسبب إيمانه، ومن استحل قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافراً مخلداً في النار، وقيل: قوله تعالى ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ معناه هي جزاؤه إن جازاه، ولكنه إن شاء عذبه [بذنبه] وإن شاء غفر له بكرمه، فإنه وَعَدَ أنْ يغفر لمن يشاء، حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يُخلف اللّهُ وعدَه؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أُتيت يا أبا عثمان! إن العرب لا تعد الإخلاف في الوعيد خلفاً وذماً وإنما تعد إخلاف الوعد خلفاً وذماً وأنشد:

وإنـي وإنْ أوعدتُـه أو وعدْتُـه لمخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

والدليل على أن غيرَ الشرك لا يوجب التخليد في النار ما روينا أن النبي ﷺ قال: «من مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبدالله أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة وقال:

إن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تُشرِكُوا بالله شيئاً ولا تسرُقُوا ولا تزنُوا ولا تقتلُوا أولادَكم ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونَهُ بينَ أيديكُم وأرجلِكم ولا تعصُوا في معروفٍ فمنْ وفَّى منكم فأجرُه على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فَعُوقِبَ في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله عليه، فهو إلى الله إن شاءَ عفا عنه وإن شاء

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

عاقبه»، فبايعناه على ذلك.

(٩٤) قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في رجل من بني مرة بن عوف يُقال له مرداس بن نهيك، وكان من أهل فدك [وكان] مسلماً لم يُسلم من قومه غيره، فسمعُوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدهم، وكان على السرية رجل يُقالُ له غالب بن فُضالة الليثي، فهربُوا وأقام الرجل لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقتِ الخيلُ سمعهم يكبرون، فلمّا سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبي ﷺ فكبّر ونزل وهو يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله السّلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وَجْداً شديداً وكان قد سبقهم قبل ذلك الخبر، قال رسول الله ﷺ: «أقتلتموه إرادة مَا مَعَهُ»؟ ثم قرأ هذه الآية على أُسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله استغفر لي فقال: «وكيف بلا إله إلاّ الله؟!» قالها رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، قال أُسامة: فما زال رسول الله ﷺ يعيدها حتى وَددتُ أني لم أكن أسلمت إلاّ يومئذ، ثم إن رسول الله ﷺ استغفرَ لي بعد ثلاث مرّات، وقال: «اعتق رقبةً».

وروَى أبو ظبيان عن أُسامة رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله إنّما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً أم لا»؟

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رجلٌ من بني سليم على نفر من أصحاب النبي ﷺ ومعه غنم له فسلّم عليهم، قالوا: ما سلّم عليكم إلاّ ليتعوذ منكم فقاموا وقتلُوه وأخذوا غنمه فأتوا بها إلى رسول الله ﷺ فأنزل اللّهُ تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

يعني إذا سافرتم في سبيل الله، يعني: الجهاد، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي هُهنا في موضعين وفي سورة الحجرات بالتاء والثاء من التثبيت، أي: قفوا حتى تعرفوا المؤمنَ من الكافر، وقرأ الآخرون بالياء والنون من التبيّن، يقال: تبينتُ الأمرَ إذا تأملته، (ولا تقولُوا لِمَنْ ألقَى إليكُمُ السَّلَمَ) هكذا قرأ أهل المدينة وابن عامر وحمزة أي: المعاذة وهو قول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وقرأ الآخرون ﴿السَّلَامَ﴾ وهو السّلام الذي هو تحية المسلمين لأنه كان قد سلّم عليهم، وقيل: السَّلم والسلام واحد، أي: لا تقولوا لمن سلّم عليكم لستَ مؤمناً، فذلك قوله تعالى: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: تقلبون الغُنم والغنيمة، و﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منافعها ومتاعها، ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ﴾، أي غنائم، ﴿كَثِيرَةٌ﴾، وقيل: ثوابٌ كثير لمن اتقَى قتلَ المؤمن، ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾، قال سعيد بن جبير: كذلك كنتم تكتُمون إيمانكم من المشركين ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، بإظهار الإسلام، وقال قتادة: كنتم ضلالاً من قبل فمنَّ الله عليكم بالهداية، وقيل معناه: كذلك كنتم من قبل تأمنُون في قومكم بلا إله إلاّ الله قبل الهجرة فلا تخيفوا من قالها فمنَّ الله عليكم بالهجرة، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أنْ تقتلوا مؤمناً، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، قلتُ: إذا رأى الغزاةُ في بلد أو قرية

شعارَ الإسلام فعليهم أن يكفُّوا عنهم، فإنّ النبي ﷺ كان إذا غزا قوماً فإن سمع أذاناً كفّ عنهم، وإن لم يسمع أغار عليهم.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن عبدالملك بن نوفل بن مساحق عن ابن عصام عن أبيه

أنّ النبي ﷺ كان إذا بعثَ سريةً قال: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً».

(٩٥) قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا عبدالعزيز بن عبدالله ثنا إبراهيم ابن عبدالله حدثنا أبراهيم بن سعد الزهري حدثني صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: رأيتُ مروان بن الحكم جالساً في المسجد فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت رضي الله عنه أخبره

أن رسول الله ﷺ أملَى عليه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال: فجاءه ابنُ أُم مكتوم وهو يُملِيها عليّ، فقال: يا رسول الله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ، وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله تعالى [على رسوله] وفخذُهُ على فخذي، فثقلتْ عليّ حتى خفتُ أن ترضّ فخذي، ثم سُرِّي عنه فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾.

فهذه الآية في فضل الجهاد والحثّ عليه، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن الجهاد ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب الراء، أي: إلاّ أولي الضّرر، وقرأ الآخرون برفع الراء على نعتِ ﴿ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ يُريدُ: لا يستوي القاعدون الذين هم غيرُ أولي الضرر، أي: غير أولي الزَّمانةِ والضّعف في البدن والبصر، ﴿وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ فإنهم يساوون المجاهدين، لأن العذر أقعدهم.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون أخبرنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه:

أنّ رسول الله ﷺ لمّا رجع من غزوة تبوك، فَدَنَا من المدينة فقال: «إنّ في المدينة لأقواماً ما سرتُم من مسيرٍ ولا قطعتم من وادٍ إلاّ كانوا معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر».

وروى مقسم عن ابن عباس قال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر، قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، أي: فضيلةً، وقيل: أراد بالقاعدين هٰهنا أولي الضرر، فضّل اللّهُ المجاهدين عليهم درجةً] لأن المجاهد باشر الجهاد مع النيّة وأولو الضّرر كانتْ لهم نيةٌ ولكنهم لم يباشروا، فنزلوا عنهم بدرجة، ﴿وَكُلًّا﴾ يعني المجاهد والقاعد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، يعني: الجنة بإيمانهم، وقال مقاتل: يعني المجاهد والقاعد المعذُور، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، يعني: على القاعدين من غير عذر.

(٩٦) ﴿دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، قال ابن محيريز في الآية: هي سبعون درجة ما بين كل درجتين عَدْوُ الفرس الجواد المضمَّر، سبعين خريفاً، وقيل: الدرجات هي الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فازَ بها المجاهدون

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبدالله [بن محمد] بن مسلم أبو بكر الجوربذي أنا يونس بن عبدالأعلى أنا ابن وهب حدثني أبو هانىء الخولاني عن أبي عبدالرحمن الجبلي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد مَنْ رضيَ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيّاً وجبتْ له الجنة» قال فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدْهَا عليّ يا رسولَ الله، [ففعل قال رسول الله ﷺ]: «وأُخْرَى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في

سبيل الله الجهاد في سبيل الله».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي الشاه أنا أبي أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن صالح المطرِّز أنا محمد بن يحيى أنا شريح بن النعمان أنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ورسولِهِ وأقامَ الصَّلاةَ وصامَ رمضانَ كانَ حقاً على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدخلَهُ الجنَّةَ جاهدَ في سبيل الله أو جلسَ في أرضه التي وُلِدَ فيها»، قالوا: يا رسول الله أفلا نُنذر الناسَ بذلك؟ قال: «إن في الجنّة مائة درجة أعدّها اللَّهُ للمجاهدين في سبيله ما بين [كل درجتين] كما بين السماء والأرض، فإذا سألتُمُ اللَّهَ فاسألوه الفِرْدَوسَ فإنه أوسط الجنّةِ وأعلى الجنّةِ وفوقهِ عرشُ الرَّحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

واعلمْ أن الجهاد في الجملة فرضٌ غيرَ أنه ينقسم إلى فرض العين وفرض الكفاية، ففرض العين أن يدخل الكفارُ دارَ قوم من المؤمنين فيجب على كل مكلّف من الرجال ممن لا عذر له من أهل تلك البلدة الخروجُ إلى عدوهم حراً كان أو عبداً غنياً كان أو فقيراً، دفعاً عن أنفسهم وعن جيرانهم، وهو في حق من بعد منهم من المسلمين فرض على الكفاية، فإن لم يقع الكفاية بمن نزل بهم يجب على من بعد منهم من المسلمين عونُهم، وإن وقعت الكفاية بالنازلين بهم فلا فرض على الأبعدين إلاّ على طريق الاختيار، ولا يدخل في هذا القسم العبيد والفقراء، ومن هذا القبيل أن يكون الكفار قارين في بلادهم، فعلى الإمام أن لا يخليَ سنة عن غزوة يغزوها بنفسه أو بسراياه حتى لا يكون الجهاد معطّلاً، والاختيار للمطيق الجهاد مع وقوع الكفاية بغيره: [أن لا يقعد عن الجهاد]. ولكنْ لا يُفترض لأنّ الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثوابَ في هذه الآية فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فلو كان فرضاً على الكافة لاستحقّ القاعد العقابَ لا الثواب.

(٩٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، نزلت في ناس من أهل مكة تكلّموا بالإسلام ولم يهاجروا، منهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أراد به ملك الموت وأعوانه أو أراد ملك الموت وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، بالشرك، وهو نصب على الحال أي: في حال ظلمهم، قيل: أي المقام في دار الشرك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلاّ بالهجرة.

ثم نسخ بعد فتح مكة فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، وهؤلاء قُتلوا يومَ بدرٍ وضربتِ الملائكةُ وجوههم وأدبارهم، [وقالوا لهم: فيمَ كنتم؟ فذلك قوله تعالى:] ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في ماذا كنتم أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك، ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾، عاجزين، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعني أرض مكة، ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؟ يعني إلى المدينة وتخرجوا من مكة من بين أهل الشرك؟ فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم، فقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ﴾، منزلهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، أي: بئس المصير إلى جهنم، ثم استثنى أهل العذر منهم، فقال:

(٩٨) ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لا يقدرون على حيلة ولا على نفقة ولا على قوة للخروج منها، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، أي: لا يعرفون طريقاً إلى الخروج. وقال مجاهد: لا يعرفون طريق المدينة.

(٩٩) ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، يتجاوز عنهم، وعسَى منَ اللَّهِ واجبٌ، لأنه للإطماع، والله تعالى إذا أطمع عبداً أوصله إليه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنتُ أنا وأمي ممن عذر الله، يعني المستضعفين، وكان رسول الله ﷺ يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصّلاة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي

أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن فَضَالة أنا هشام عن يحيى هو ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه

أنّ النبي ﷺ كان إذا قال: «سمع الله لمن حمده في الركعة الآخرة من صلاة العشاء: [قنت] اللّهُمّ أنجِ عياشَ بن أبي ربيعة اللّهم أنجِ الوليد [بن الوليد] اللّهم أنجِ سلمة بن هشام اللّهم أنجِ المستضعفين من المؤمنين، اللّهم اشْدُدْ وطأتَكَ على مضر، اللّهم اجعلها سنين كسني يوسف».

(١٠٠) قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُرَٰغَمًا﴾ أي: مُتحوَّلاً يتحول إليه، وقال مجاهد: متزحزحاً عمّا يكره، وقال أبو عبيدة: المُراغم: المُهاجر، يُقال: راغمت قومي وهاجرتهم، وهو المُضطَرَبُ والمَذْهَبُ.

ورُوي: أنه لما نزلت هذه الآية سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يُقال له جندب بن ضمرة، فقال: والله لا أبيت الليلة بمكة، أخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فأدركه الموت، فصفّقَ بيمينه على شماله ثم قال: اللّهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك، فمات فبلغ خبرُه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو وَافَى المدينة لكان أتمّ وأوْفَى أجراً، وضحك المشركون وقالوا: ما أدرك هذا ما طلب، فأنزل الله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾. أي: قبل بلوغه إلى مهاجره، ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ أي: وجب ﴿أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، بإيجابه على نفسه فضلاً منه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(١٠١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: حرج وإثم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، يعني من أربع ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾ أي: يغتالكم ويقتلكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، في الصّلاة ونظيره قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: يقتلهم. ﴿إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهر العداوة.

اعلم أن قصر الصّلاة في السفر جائز بإجماع الأمة، واختلفوا في جواز الإتمام فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وعمر بن عبدالعزيز وقتادة وهو قول مالك وأصحاب الرأي، لِمَا رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر وأتمت صلاة الحضر.

وذهب قوم إلى جواز الإتمام، رُوي ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وبه قال الشافعي رضي الله عنه، إنْ شاءَ أتمّ وإنْ شاءَ قصرَ، والقصرُ أفضل

أخبرنا الإمام عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالتْ: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ قصرَ الصّلاةَ وأتمّ.

وظاهر القرآن يدل على ذلك لأنَ الله تعالى قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ولفظ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إنّما يُستعمل في الرخص لا فيما يكون حتْماً، فظاهر الآية يُوجب أن القصر لا يجوز إلاّ عند الخوف، وليس الأمر على ذلك، إنّما نزلت الآية على غالب أسفار النبي ﷺ، وأكثرها لم يخل عن خوف العدو، والقصر جائز في السفر في حال الأمن عند عامة أهل العلم، والدليل عليه ما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مسلم بن خالد وعبدالمجيد بن عبدالعزيز بن أبي روّاد عن ابن جريج أخبرني عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي عمار عن عبدالله بن باباه عن يعلى بن أُمية، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّما قال الله تعالى ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، وقد أمن الناس، فقال عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ فقال: «صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته».

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَآءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

أخبرنا عبدالوهَّاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبدالوهَّاب عن أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة آمناً لا يخاف إلا الله تعالى فصلى ركعتين.

وذهب قوم إلى أنّ ركعتي المسافر ليستا بقصر إنّما القصر أن يُصلّي ركعة واحدة في الخوف، يُروى ذلك عن جابر رضي الله عنه وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد، وجعلوا شرط الخوف المذكور في الآية باقياً، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الاقتصار على ركعة واحدة لا يجوز خائفاً كان أو آمناً.

واختلف أهل العلم في مسافة القصر، فقالت طائفة: يجوز القصر في السفر الطويل والقصير، رُوي ذلك عن أنس رضي الله عنه، وقال عمرو بن دينار: قال لي جابر بن زيد: أقصرْ بعرفة، أمّا عامة الفقهاء فلا يُجوّزون القصر في السفر القصير، واختلف في حد ما يجوز فيه القصر، فقال الأوزاعي: مسيرة يوم، وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقصران ويفطران في أربعة بُرُدٍ، وهي ستة عشر فرسخاً، وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق وقول الحسن والزهري قريب من ذلك، فإنّهما قالا: مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: مسيرة ليلتين قاصدتين، وقال في موضع: ستة وأربعون ميلاً بالهاشمي، وقال سفيان الثوري وأصحاب الرأي مسيرة ثلاثة أيام، وقيل: قوله ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ [النساء: ١٠١] متصل بما بعده من صلاة الخوف منفصل عمّا قبله، رُوي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: نزل قوله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١] هذا القدر، ثم بعد حَوْلٍ سألوا رسولَ الله ﷺ عن صلاة الخوف فنزل: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنَّ الْكَٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١] ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآية. ومثله في القرآن كثير أن يجيء الخبر بتمامه ثم يُنسّق عليه خبرٌ آخر، وهو في الظاهر كالمتصل به، وهو منفصل عنه، كقوله تعالى: ﴿الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وهذه حكاية عن امرأة العزيز، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] إخبار عن يوسف عليه السّلام.

﴿١٠٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾.

روَى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم: أن المشركين لمّا رأوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه قامُوا إلى الظهر يُصلون جميعاً ندموا أن لو كانوا أكبُوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم يعني صلاة العصر، فإذا قاموا فيها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل عليه السّلام فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ فعلّمه صلاة الخوف.

وجملته أن العدو إذا كانوا في معسكرهم في غير ناحية القبلة فيجعل الإمام القوم فرقتين فتقف طائفة وِجاهَ العدو تحرسُهم، ويشرع الإمام مع طائفة في الصّلاة، فإذا صلى بهم ركعة قام وثبت قائماً حتى أتموا صلاتهم، وذهبوا إلى وِجاة العدوِ ثم أتت الطائفة الثانية فصلّى بهم الركعة الثانية، وثبت جالساً حتى أتموا لأنفسهم الصّلاة، ثم يُسلّم بهم.

وهذه رواية سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى

كذلك بذات الرقاع، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق.

أنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا مصعب عن مالك عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوات عمّن صلّى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: أنَّ طائفة صفّت معه وصفت طائفة وِجَاهَ العدو فصلّى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم، ثم انصرفُوا فصفُّوا وِجَاهَ العدو وجاءتِ الطائفةُ الأُخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلّم بهم.

قال مالك: وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف، وأخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيى، عن شعبة، عن عبدالرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن صالح بن خوّات، عن سهل بن أبي حَثْمة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ بهذا.

وذهب قوم إلى أن الإمام إذا قام إلى الركعة الثانية تذهب الطائفة الأولى في خلال الصلاة إلى وِجاه العدو وتأتي الطائفة الثانية فيُصلي بهم الركعة الأخيرة ويسلّم وهم لا يسلمون بل يذهبون إلى وجاه العدو، وتعود الطائفة الأولى فتتمُّ صلاتَها، ثم تعود الطائفة الثانية فتتمُّ صلاتَها، وهذه رواية عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ [صلى] كذلك. وهو قول أصحاب الرأي.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا محمد بن عبدالملك بن أبي الشوارب أنا يزيد بن زُرَيع أنا معمر، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه:

أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا فقاموا في مقام أولئك وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أُخرى ثم سلم بهم، فقام هؤلاء فقضوا ركعتهم [وقام هؤلاء فقضوا ركعتهم].

وكلتا الروايتين صحيحة وذهب قوم إلى أن هذا من الاختلاف المباح، وذهب الشافعي رضي الله عنه إلى حديث سهل بن أبي حَثْمة لأنه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ في حراسة العدو، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: إذا صلّوا، ثم قال: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟﴾، وهذا يدل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وقال: ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾، ومقتضاه أن يصلوا تمام الصلاة، فظاهره يدل [على] أن كل طائفة تفارق الإمام بعد تمام الصلاة، والاحتياط لأمر الصلاة من حيث أنه لا يكثر فيها العمل والذهاب والمجيء، والاحتياط لأمر الحرب من حيث إنهم إذا لم يكونوا في الصلاة كان أمكن للحرب والضرب والهرب إن احتاجوا إليه، ولو صلى الإمام أربع ركعات بكل طائفة ركعتين جاز.

أنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسين الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ قال أنا الصنعاني أنا عفان بن مسلم، ثنا أبان العطار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبدالله قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا بذات الرقاع وكنّا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، قال فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلّق بشجرة فأخذ سيفَ نبي الله ﷺ فاخترطه فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا». قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك»، قال فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأغمد السيف وعلّقه فنُودي بالصلاة، قال فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا فصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان.

أخبرنا عبدالوهّاب بن [محمد] الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي أخبرني الثقة [أنبأني] بن علية أو غيره، عن يونس، عن الحسن، عن جابر رضي الله عنهم: أن النبي ﷺ كان يصلي بالناس صلاة الظهر في الخوف ببطن نخل، فصلى بطائفة ركعتين ثم سلم، ثم جاءت طائفة

أخرى فصلى بهم ركعتين ثم سلم.

ورُوي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في صلاة الخوف أنه صلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا.

ورواه زيد بن ثابت وقال: كانت للقوم ركعة واحدة وللنبي ﷺ ركعتان. وتأوله قوم على صلاة شدة الخوف، وقالوا: الفرض في هذه الحالة ركعة واحدة، وأكثر أهل العلم على أن الخوف لا ينقص عدد الركعات فإن كان العدو في ناحية القبلة في مستوى إن حملوا عليهم رأوهم صلى بهم الإمام جميعاً وحرسوا في السجود، كما:

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم الإسفرايني، أنا أبو عوانة الحافظ أنا عمار، أنا يزيد بن هارون أخبرنا عبدالملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن جابر رضي الله عنهما قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا خلفه صفين، والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعاً ثم ركع وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه وقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى رسول الله ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود، ثم قاموا ثم تقدم الصف المؤخر، وتأخر المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى رسول الله ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً قال جابر رضي الله عنه: كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائهم.

واعلم أنّ صلاة الخوف جائزة بعد الرسول ﷺ عند عامة أهل العلم. ويُحكى عن بعضهم عدم الجواز ولا وجه له، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: كل حديث رُوي في أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز، رُوي فيها ستة أوجه أو سبعة أوجه.

وقال مجاهد في سبب نزول هذه الآية، عن ابن عياش الزرقي قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة لو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ أي: شهيداً معهم فأقمت لهم الصلاة، ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، أي: فلتقف، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠] أي: وقفوا، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، واختلفوا في الذين يأخذون أسلحتهم، فقال بعضهم: أراد هؤلاء الذينَ وقفوا مع الإمام يُصلّون ويأخذون الأسلحة في الصلاة، فعلى هذا إنما يأخذه إذا كان لا يشغله عن الصلاة، فلا يُؤذي مَنْ بجنبه [فإذا شغلته حركته وثقّلتهُ عن الصلاة كالجعبة والترس الكبير أو كان يؤذي من جنبه]، كالرمح فلا يأخذه، وقيل: وليأخذوا أسلحتهم أي: الباقون الذين قاموا في وجه العدو، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾، أي: صلّوا، ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾، يُريد مكان الذين هم وِجَاهَ العدو، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟﴾، وهم الذين كانوا في وجه العدو، ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، قيل: هؤلاء الذين أتُوا، وقيل: هم الذين صلّوا، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يتمنّى الكفار، ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ أي: لو وجدُوكم غافلين، ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾، فيقصدونكم ويحملون عليكم حملةً واحدة، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾، رخّص في وضع السلاح في حال المطر والمرض، لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين، ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، أي: رَاقبُوا العدو كيلا يتغفلوكم، والحذر ما يُتقي به من العدو.

وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رسول الله ﷺ، وذلك أنه غزا محارباً وبنَى أنماراً فنزلوا ولا يرون من العدو أحداً فوضع الناس أسلحتهم، وخرج رسول الله ﷺ لحاجة له قد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش، فَحَالَ الوادي بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه فجلس رسول الله ﷺ في ظل شجرة

فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال: قتلني الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله ﷺ إلاّ وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سَلّه من غِمْدِهِ فقال: يا محمد من يعصمك مني الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: الله، ثم قال: اللّهمّ اكفني غورث بن الحارث بما شئتَ، ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله ﷺ ليضربه فأكب لوجهِهِ مِن زَلْخةٍ زُلخها بين كتفيه، وندر سيفه فقام رسول الله ﷺ فأخذه ثم قال: يا غورث من يمنعك مني الآن؟ قال: لا أحد، قال تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيكَ سيفكَ؟ قال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك عدواً فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال غورث: والله لأنت خير مني، فقال النبي ﷺ: أجلْ أنا أحق بذلك منك، فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا: ويلك ما منعك منه. قال: لقد أهويتُ إليه بالسيف لأضربه فوالله ما أدري من زلخني بين كتفي فخررت لوجهي، وذكر حاله قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي [إلى] أصحابه فأخبرهم الخبر وقرأ عليهم هذه الآية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي: من عدوّكم، قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية: كان عبدالرحمن بن عوف جريحاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، يهانون فيه [والجُنَاح: الإِثم، من جنحت إذا عدلت عن القصد].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (١٠٣)، يعني: صلاة الخوف، أي: فرغتم منها، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي صلُّوا لله ﴿قِيَٰمًا﴾ في حال الصحة، ﴿وَقُعُودًا﴾، في حال المرض، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، عند الجرح والزمانة، وقيل: اذكُروا اللّهَ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد، على كل حال.

أخبرنا عمرو بن عبدالعزيز القاشاني أنا القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي أنا داود السجستاني أنا محمد بن العلاء أنا ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن خالد بن سلمة، عن الزهري، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: كان رسول الله ﷺ يذكُر اللّهَ على كل أحيانه.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي: سكنتم وأمنتم، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتموها أربعاً بأركانها، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، قيل: واجباً مفروضاً مقدراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتان، وقال مجاهد: أي فرضاً مؤقتاً وقّته اللّهُ عليهم، وقد جاء بيان أوقات الصلوات في الحديث.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا أبو بكر عبدالله بن هاشم حدثنا وكيع أنا سفيان، عن عبدالرحمن بن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة الزرقي، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنيف عن نافع بن جبير بن مطعم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّني جبريلُ عليه السلام عند البيتِ مرتين فصلّى وصلّى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلّى بي العشاءَ حينَ غابَ الشّفقُ، وصلّى بي الفجرَ حين حَرُمَ الطعامُ والشرابُ على الصائم، فلمّا كانَ الغدُ صلّى بي الظهرَ حين كان ظلُّ كلّ شيءٍ مثل ظله، وصلّى بي العصرَ حين كان ظِلّ كلّ شيء مثليه، وصلّى بي المغربَ حين أفطرَ الصائم، وصلّى بي العشاء حين ذهب ثلث الليل الأول، وصلّى بي الفجرَ فأسفر، ثم التفتَ إليّ وقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقتُ ما بين هذين الوقتين»

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر [أحمد] بن الحسن الحيري أنا وكيع أنا حاجب بن أحمد ثنا عبدالله بن هشام ثنا وكيع ثنا بدر بن عثمان ثنا أبو بكر بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ أن سائلاً أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة، قال: فلم يردّ عليه شيئاً ثم أمر بلالاً فأذن ثم أمره فأقام الصلاةَ حين انشقّ الفجرُ فصلى، ثم أمره فأقام الظهرَ، والقائل يقول: قد زالت الشمس أو لم تزل، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصرَ والشمسُ مرتفعةٌ بيضاء نقية ثم أمره فأقام المغربَ حين وقعت الشمس ثم أمره فأقام العشاء حين سقط الشفق، قال: وصلّى الفجرَ من

الجزء الخامس — سورة النساء

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

٩٦

الغد، والقائل يقول: طلعتِ الشمسُ أو لم تطلع، وصلى الظهر قريباً من وقت العصر بالأمس وصلى العصر والقائل يقول قد احمرتِ الشمسُ وصلى المغربَ قبلَ أن يغيبَ الشفقُ الأحمر، وصلى العشاء ثلث الليل الأول، ثم قال: أين السائل، عن وقت الصلاة؟ [فقال الرجل: أنا يارسول الله، قال:] «ما بين هذين الوقتين وقتٌ».

﴿١٠٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية، سبب نزولها أن أبا سفيان رضي الله عنه وأصحابه لـمّا رجعوا يوم أحد بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم فشكوا ألم الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: [لا] تضعفوا في ﴿ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ في طلب القوم أبي سفيان وأصحابه، ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾، تتوجعون مِنَ الجراح، ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾، أي: يتوجعون، يعني الكفار، ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون، وقال بعض المفسرين: المراد بالرجاء الخوف، لأن كل راج خائف أن لا يدرك مأموله، ومعنى الآية: وترجون [من الله أي: تخافون من الله] أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون، قال الفراء رحمه الله: ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحْد، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] أي: لا يخافون، وقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون لله عظمته، ولا يجوز رجوتُك بمعنى: خفتُكَ، ولا خفتُك وأنتَ تريدُ رَجَوْتَكَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿١٠٥﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الآية

روى الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث سرقَ درعاً من جارٍ له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب له فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، يُقال له زيد بن السمين، فالتُمستِ الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه، فقال اليهودي دفعها إليّ طعمة بن أبيرق، فجاء بنو ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يُجادل عن صاحبهم، وقالوا له: إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا، فهمّ رسول الله ﷺ أن يُعاقب اليهودي.

ويُروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى: أن طعمة سرق الدرع في جراب فيه نخالة فخرق الجراب حتى كان يتناثر منه النخالة طول الطريق فجاء به إلى دار زيد السمين وتركه على بابه، وحمل الدرع إلى بيته، فلما أصبح صاحب الدرع جاء على أثر النخالة إلى دار زيد السمين فأخذه وحمله إلى النبي ﷺ، فهمّ النبي ﷺ أن يقطع يد زيد اليهودي.

وقال مقاتل: إنّ زيداً السمين أودع درعاً عند طعمة فجحدها طعمة فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالأمر والنهي والفصل، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما علّمكَ اللهُ وأوحى إليك، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ [وهو] طعمة، ﴿خَصِيمًا﴾، مُعيناً مدافعاً عنه.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

﴿١٠٦﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، ممّا هممتَ به من معاقبة اليهودي، وقال مقاتل: واستغفر الله من جدالِكَ عن طعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ لا تخاصم ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾، خائناً، ﴿أَثِيمًا﴾ يريد خواناً في الدرع، أثيماً في رميه اليهودي، قيل: إنه خطاب مع النبي ﷺ، والمُرادُ به غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، والاستغفار في حق الأنبياء بعد النبوة على أحد الوجوه الثلاثة: إمّا لذنب تقدم قبل النبوة أو لذنوب أمته وقرابته، أو لمباح جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار، الاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: يستترون ويستحيون من الناس، يريد بني ظفر بن الحارث، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يستترون ولا يستحيون من الله، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾، يتقولون ويُؤلِّفون، والتبييت: تدبير الفعل ليلاً، ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ فإنه يسمع قوله ويمينه لأنه مسلم ولا يسمع من اليهودي لأنه كافر، فلم يرضَ الله ذلك منهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾، ثم يقول لقوم طعمة:

﴿١٠٩﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: يا هؤلاء، ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ أي: خاصمتم، ﴿عَنْهُمْ﴾ يعني: عن طعمة، وفي قراءة أُبيّ بن كعب «عنه» ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والجدال: شدّة المخاصمة من الجدل، وهو شدة القتل، فهو يريد قتل الخصم، عن مذهبه بطريق الحجاج، وقيل: الجدال من الجدالة، وهي الأرض، فكان كل واحد من الخصمين يروم قهر صاحبه وصرعه على الجدالة، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ﴾، يعني: عن طعمة، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إذا أخذه الله بعذابه، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، كفيلاً، أي: من الذي يذب عنهم، ويتولى أمرهم يوم القيامة، ثم استأنف فقال:

﴿١١٠﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾، يعني السرقة، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾، برميه البريء، وقيل: مَنْ يعمل سوءاً أي: شِرْكاً أو يظلم نفسَه: يعني: إثماً دونَ الشرك، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، أي: يتبْ إليه ويستغفرْهُ، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، يعرضُ التوبة على طعمة في هذه الآية.

﴿١١١﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾، يعني: يمين طعمة بالباطل، أي: ما سرقته إنمّا سرقه اليهودي ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، فإنما يضرُّ به نفسَه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾، بسارق الدرع ﴿حَكِيمًا﴾، حَكَمَ بالقطع على السارق.

﴿١١٢﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ أي: سرقة الدرع، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ يمينه الكاذبة، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ أي: يقذف بما جنى ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ منه وهو نسبة السرقة إلى اليهودي ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ البهتان: هو البهت، وهو الكذب الذي يُتحيّر في عِظَمِه، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ذنباً بيناً، وقوله ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ ولم يقلْ بهما بعد ذكر الخطيئة والإثم، ردَّ الكناية إلى الإثم وجعل الخطيئة والإثم كالشيء الواحد.

﴿١١٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، يقول للنبي ﷺ: ﴿لَهَمَّت﴾، لقد همّتْ أي: أضمرت، ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾، يعني: قوم طعمة، ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدافع عن طعمة، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، يعني يرجع وَبالُهُ عليهم، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾، يُريد أن ضرره يرجع إليهم، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني: القضاء بالوحي ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من الأحكام، وقيل: من علم الغيب، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿١١٤﴾ قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي

﴿كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامةٌ في حق جميع الناس، والنّجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قومٌ سرّاً كان أو جهراً فمعنىٰ الآية: لا خيرَ في كثير مما يدبرونه بينهم، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنجوىٰ تكون فعلاً. وقيل: هو استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة. قيل: النجوىٰ هاهنا: الرجال المتناجون كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: ٤٧] ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حث عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع؛ وأعمال البِرّ كلُّها معروف، لأن العقول تعرفها، ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد، أنا أبو معاوية، عن الأعمش عن عمرو بن مرة، عن سالم هو ابن أبي الجعد، عن أمّ الدرداء [عن أبي الدرداء قال]:

قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة»؟ قال: قلنا بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البين، وفساد ذات البين هي الحالقة».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، ثنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبدالرحمن، عن أمه أم كلثوم بنت عُقبة، وكانت من المهاجرات الأول، قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس بالكذاب من أصلح بين الناس وقال خيراً أو نمى خيراً».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: هذه الأشياء التي ذكرها، ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، أي: طلبَ رضاه، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾، في الآخرة، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة ﴿يؤتيه﴾ بالياء، يعني: يؤتيه الله وقرأ الآخرون بالنون.

(١١٥) قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾، نزلت في طعمة بن أبيرق وذلك أنه لمّا ظهرت عليه السرقة خاف على نفسه من قطع اليَدِ والفضيحة، فهرب إلى مكة وارتدّ عن الدين، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾، أي: يخالفه، ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾، من التوحيد والحدود، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: غير طريق المؤمنين، ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾، أي: نكله في الآخرة إلى ما تولّى في الدنيا، ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

رُوي أن طَعمة بن أبيرق نزل على رجل من بني سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن عُلاط، فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع أن يدخل ولا أن يخرج حتى أصبح، فأُخذ ليقتل، فقال بعضهم: دعوه فإنه قد لجأ إليكم فتركوه فأخرجوه من مكة، فخرج مع تجار من قضاعة نحو الشام، فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب، فطلبوه وأخذوه ورموه بالحجارة حتى قتلوه، فصار قبره تلك الحجارة، وقيل: إنه ركب سفينة إلى جدة فسرق فيها كيساً فيه دنانير فأخذ، فألقي في البحر، وقيل: إنه نزل في حرّة بني سليم وكان يعبد صنماً إلى أن مات فأنزل الله تعالى فيه:

(١١٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝﴾ أي: ذهب عن الطريق وحُرم الخير كله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ هذه الآية نزلتْ في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله إني شيخ منهمك في الذنوب، إلاّ أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفتُه وآمنت به، ولم اتخذ من دونه وَليّاً ولم أُواقع المعاصي جرأة على الله، وما توهمت طرفة عين أني أُعجز اللّهَ هرباً وإنّي لنادمٌ تائبٌ مستغفرٌ فما حالي؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(١١٧) قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾، نزلت في أهل مكة، أي: ما يعبدون، كقوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [غافر: ٦٠] أي: اعبدوني، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، قوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله، ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ أراد بالإناث الأوثان لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللاّت والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أُنثى

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

بني فلان فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، فلذلك قال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾، هذا قول أكثر المفسرين يدل على صحة [هذا] التأويل: وأن المراد بالإناث الأوثان قراءة ابن عباس رضي الله عنه ﴿إنْ يدعُون من دونه إلاّ إناثاً﴾، جمع الوثن فصيّر الواو همزة، وقال الحسن وقتادة ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي: مواتاً لا روح فيه، لأن أصنامهم كانت من الجمادات سماها إناثاً لأنه يخبر عن الموات، كما يخبر عن الإناث، ولأن الإناث أدون الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان، وقال الضحاك: أراد بالإناث الملائكة، [وكان بعضهم] يعبدون الملائكة ويقولون: الملائكة إناث، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي: وما يعبدون إلاّ شيطاناً مريداً لأنهم إذا عبدُوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان، والمريد: المارد، وهو المتمرد العاتي الخارج عن الطاعة، وأراد: إبليس.

﴿١١٨﴾ ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: أبعده من رحمته، ﴿وَقَالَ﴾، يعني: قال إبليس، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، أي: حظاً معلوماً، فما أُطيع فيه إبليس فهو مفروضه، وفي بعض التفاسير: من كل ألف واحدٌ لله تعالى وتسعمائة وتسعة وتسعون لإبليس، وأصل الفرض في اللغة: القطع، ومنه الفرضة في النهر وهي الثلمة تكون فيه، وفرض القوس والشرك: للشقّ الذي يكون فيه الوتر والخيط الذي يشد به الشراك.

﴿١١٩﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ يعني: عن الحق، أي: لأغوينهم، يقوله إبليس، وأراد به التزيين، وإلاّ فليس إليه من الإضلال شيء كما قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩] ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، قيل: أُمنّينّهم ركوبَ الأهواء، وقيل: أمنيّنهم أنْ لا جَنّةَ ولا نارَ ولا بعث، وقيل: أُمنيّنهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي، ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب والضحاك: يعني دين الله، نظيره قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي: لدين الله، يريد وضع الله في الدين بتحليل الحرام وتحريم الحلال، وقال عكرمة وجماعة من المفسرين: فليُغيرنّ خلقَ الله بالخِصاء والوشم وقطع الآذان حتى حرّم بعضهم الخصاء وجوزه بعضهم في البهائم، لأن فيه غرضاً ظاهراً، وقيل: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرموها، وخلق الشمسَ والقمرَ والأحجار لمنفعة العباد فعبدوها من دون الله، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ربّاً يطيعه، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

﴿١٢٠﴾ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ فوعدُهُ وتمنيتُهُ ما يوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم كما قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ويُمنيهم بأنْ لا بعثَ ولا جنّةَ ولا نار ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، أي: باطلاً.

﴿١٢١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾، أي: مفرّاً ومعدِلاً عنها.

﴿١٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: من تحت الغُرف والمساكن، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

﴿١٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، الآية.

قال مسروق وقتادة والضحاك: أراد ليس أمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى، وذلك أنهم افتخروا، فقال أهل الكتاب نبيّنا قبلَ نبيّكم وكتابُنا قبل كتابِكم فنحن أَوْلَى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيّنا خاتمُ الأنبياء وكتابُنا يقضي على الكتب، وقد آمنا بكتابكم ولم تُؤمنوا بكتابنا فنحن أوْلى. وقال مجاهد: أراد بقوله ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ يا مشركي أهل الكتاب، وذلك أنهم قالوا: لا بعثَ ولا حسابَ، وقال أهل الكتاب: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي: ليس الأمر بالأماني وإنّما الأمر بالعمل الصالح، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وجماعة: الآية عامة في حق كل عامل.

وقال الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا نزلت هذه الآية شقّتْ على المسلمين وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يعمل سوءاً غيرك فكيف الجزاء؟ قال: «منه ما يكون في الدنيا، فمنْ يعملْ حسنةً فله عشرُ حسنات، ومنْ جُوزي بالسيئة نقصتْ واحدةٌ من عشر وبقيت له تسعُ حسنات، فويل لمن غلب آحادُه أعشارَه، وأمّا [ما كان جزاء] في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر في الفضل، فيعطي الجزاءَ في الجنة فيؤتي كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَه».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي ثنا أبو بكر محمد بن أحمد العبدوسي ثنا أبو بكر أحمد بن سلمان الفقيه ببغداد ثنا يحيى بن جعفر بن الزِّبرقان والحارث بن محمد قالا: ثنا روح هو ابن عبادة، ثنا موسى بن عُبيدة أخبرني مولى بن سبّاع قال: سمعت عبدالله بن عمر يحدث، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال:

كنتُ عندَ رسول الله ﷺ فأُنزلتْ عليه هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر ألا أقرئك آية أُنزلتْ عليّ؟ قال: قلتُ بلى، قال: فأقرَئنيها، قال: ولا أعلم إلا أني وجدتُ انفصاماً في ظهري حتى تمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا بكر؟ فقلتُ: يا رسول الله بأبي أنت وأمي وأيُّنا لم يعمل سوءاً؟ إنا لمجزيُّون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ: أمّا أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليست لكم ذنوب، وأمّا الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتى يُجزوا يومَ القيامة».

(١٢٤) قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝﴾، أي: مقدار النقير، وهو النقرة التي تكون في ظهر النَّواة، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة وأبو بكر ﴿يُدْخَلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء ههنا وفي سورة مريم وحم المؤمن، زادَ أبو عمرو ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] في سورة فاطر، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء، روى الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: لمّا نزلت ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قال أهل الكتاب: نحنُ وأنتم سواء، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، ونزلت أيضاً:

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾، أحكمُ ديناً ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص عمله لله، وقيل: فوّض أمرَه إلى الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُوحد، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، يعني: دين إبراهيم عليه السلام، ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مُسلماً مُخلصاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومن دين إبراهيم الصلاة إلى الكعبة والطواف بها ومناسك الحج، وإنّما خُصّ بها إبراهيم لأنه كان مقبولاً عند الأمم أجمع، وقيل: لأنه بُعث على ملّة إبراهيم وزيدت له أشياء. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، صفياً، والخِلّة: صفاء المودّة، وقال الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، وكان منزله على ظهر الطّريق يضيف من مرَّ به من الناس، فأصاب الناسَ سَنَةٌ فحُشروا إلى باب إبراهيم عليه السلام يطلبون الطعامَ وكانت الميرة كل سنة من صديق له بمصر، فبعث

غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي له بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم عليه السلام إنما يريده لنفسه احتملنا ذلك له، فقد دخل علينا ما دخل على الناس من الشدة، فرجع رُسل إبراهيم عليه السلام، فمرّوا ببطحاء سهلة فقالوا فيما بينهم: لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة، فإنّا نستحي أن نمرّ بهم وإبلنا فارغة، فملؤوا تلك الغرائر سهلة، ثم أتوا إبراهيم [عليه السلام] فأعلموه وسارة نائمة، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار، فقالت: سبحان الله ما جاء الغلمان؟ قالوا: بلى، قالت: فما جاؤوا بشيء؟ قالوا: بلى، فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي ملأى بأجودِ دقيق حواري يكون، فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناسَ فاستيقظ إبراهيم [عليه السلام] فوجد ريح الطعام، فقال: يا سارة من أين هذا؟ قالت: من عند خليلك المصري، فقال: هذا من عند خليلي الله، قال: فيومئذٍ اتخذ الله إبراهيم خليلاً.

قال الزجاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل، والخلة: الصداقة، فسُمي خليلاً لأنّ الله أحبه واصطفاه. وقيل: هو من الخلة وهي الحاجة، سُمي خليلاً، أي: فقيراً إلى الله لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلاّ إلى الله عزّ وجلّ، والأول أصح لأن قوله ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ يقتضي الخلة من الجانبين، ولا تتصور الحاجة من الجانبين.

ثنا أبو المظفر [محمد] بن أحمد التميمي ثنا أبو محمد عبدالرحمن بن عثمان بن القاسم، ثنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي، ثنا أبو قلابة الرقاشي، ثنا بشر بن عمر، ثنا شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم قال:

قال رسول الله ﷺ: «لو كُنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ولكن أبا بكر أخي وصاحبي، ولقد اتّخذ اللّهُ صاحبَكم خليلاً».

(١٢٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: أحاط علمهُ بجميع الأشياء.

(١٢٧) قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، الآية. قال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في بنات أم كُجّة وميراثهن، عن أبيهن وقد مضت القصة في أول السورة.

وقالت عائشة رضي الله عنها: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل، وهو وليها فيرغب في نكاحِها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنّة صَداقها، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركها، وفي رواية: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها، فنهاهم الله عن ذلك.

قوله عز وجلّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يستخبرونك في النساء، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، قيل: معناه ويفتيكم في ما يتلى عليكم، وقيل: يريد الله أن يفتيكم فيهن وكتابه [يفتيكم فيهن]، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، قوله: ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، هذا إضافة الشيء إلى نفسه لأنه أراد باليتامى النساء، ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾، أي: لا تعطونهن، ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، من صداقهن، ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، أي في نِكَاحِهنّ لِمَالِهِنّ وجمالِهِنّ بأقل من صداقهن، وقال الحسن وجماعة: أراد لا تؤتونهن حقهن من الميراث لأنهم كانوا لا يُورثون النساء، ويرغبون أن ينكحوهن أي: عن نكاحهن لدمامتهن، ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يريد: ويُفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار، أن تعطوهم حُقوقهم لأنهم كانُوا لاَ يُورِّثُون الصغار، يريد ما يتلى عليكم في باب اليتامى من قوله ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢] يعني بإعطاء حقوق الصغار، ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: ويفتيكم في أنْ تقُوموا لليتامى بالقسط بالعدل في مُهورهن ومواريثهن، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾، يُجازيكم عليه.

﴿١٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية، نزلت في عمرة ويُقال: خولة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع، [و] يقال: رافع بن خديج تزوجها وهي شابة فلما علاها الكِبَر تزوّج عليها امرأة شابة، وآثرها عليها وجفا ابنة محمد بن مسلمة، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فشكت إليه فنزلت فيها هذه الآية، وقال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج عليها غيرها، فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي واقْسِمْ لي من كل شهرين إن شئت، وإن شئت فلا تَقْسِم لي فقال: إن كان يصلح ذلك فهو أحب إليّ فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ أي علمتْ، ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾، أي: من زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ أي: بُغضاً، قال الكلبي: يعني تركَ مضاجعتها، أو إعراضاً بوجهه عنها وقلة مجالستها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، أي: على الزوج والمرأة، ﴿أَنْ يُصَّالَحَا﴾ أي: يتصالحا، وقرأ أهل الكوفة ﴿أَنْ يُصْلِحَا﴾ من الإصلاح، ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ يعني: في القسمة والنفقة، وهو أن يقول الزوج لها: إنّك قد دخلت في السن وإني أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلةٍ أُوْثرها عليك في القسمة ليلاً ونهاراً فإن رضيتِ بهذا فأقيمي وإن كرهتِ خَلّيتُ سبيلك، فإن رضيتْ كانتْ هي المحسنة ولا تُجبر على ذلك، وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفّيها حقّها من القِسْم والنفقة أو يسرحها بإحسان، فإن أمسكها ووفاها حقّها مع كراهيته فهو مُحسن، وقال سليمان بن يسار في هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما: فإن صالحته عن بعض حقّها من القِسْم والنفقة فذلك جائز ما رضيت، فإن أنكرته بعد الصلح فذلك لها ولها حقها، وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية: هو أن الرجل يكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوج عليها الشابة، فيقول للكبيرة: أعطيك من مالي نصيباً على أن أقسم لهذه الشابة أكثر مما أقسِمُ لك فترضَى بما اصطلحا عليه، فإن أبتْ أن ترضَى فعليه أن يَعْدِلَ بينهما في القِسْم. وعن عليّ رضي الله عنه في هذه الآية قال: تكون المرأة عند الرجل فتنبو عينُه عنها من دمامة أو كبر فتكره فرقته، فإن أعطته من مالها فهو له حل وإن أعطته من أيامها فهو حل له، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ يعني: إقامتها بعد تخييره إيّاها والمصالحة على ترك بعض حقّها من القسم والنفقة، خير من الفرقة.

كما يُروَى أنّ سودة رضي الله عنها كانت امرأة كبيرة وأراد النبي ﷺ أنْ يُفارقها فقالت: لا تطلقني وكفاني أنْ أبعث في نسائك وقد جعلتُ نوبتي لعائشة رضي الله عنها فأمسكها رسول الله ﷺ، وكان يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة رضي الله عنها.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾، يريد: شُحّ كلّ واحد من الزوجين بنصيبه من الآخر، والشُّح: أقبح البخل، وحقيقتُه: الحرص على منع الخير، ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾، أي: تصلحوا ﴿وَتَتَّقُوا﴾، الجورَ، وقيل: هذا خطاب مع الأزواج، أي: وإنْ تُحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتقوا ظُلمَها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

﴿١٢٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾، أي: لن

تقدروا أن تُسووا بين النساء في الحب وميل القلب، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على العدل، ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾، أي: إلى التي تُحبونها، ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ في القِسْم والنفقة، أي: لا تُتبعُوا أهواءكم أفعالكم، ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾، أي فتدعوا الأخرى كالمنوطة لا أيّماً ولا ذاتَ بعل. وقال قتادة: كالمحبوسة، وفي قراءة أُبي بن كعب «كأنها مسجونة»

ورُوي عن أبي قلابة أنّ النبي ﷺ كان يُقسِمُ بين نسائه، فيعدل ويقول: «اللّهمّ هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أملك»، ورواه بعضهم عن أبي قلابة، عن عبدالله بن يزيد، عن عائشة رضي الله عنها مُتصلاً.

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانتْ له امرأتان فمالَ إلى إحداهما جاءَ يومَ القيامةِ وشقُّه مائل».

﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾، الجورَ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾، يعني: الزوج والمرأة بالطلاق، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، من رزقه، يعني: المرأة بزوج آخر والزوج بامرأة أخرى، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾، واسعَ الفضل والرحمة حكيماً فيما أمر به ونهى عنه، وجملةُ حُكم الآية: أنّ الرجل إذا كانت تحته امرأتان أو أكثر فإنه يجب عليه التسوية بينهنّ في القسْم، فإن ترك التسوية بينهن في فعل القِسْم عصى الله تعالى، وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط في البيتوتة، أما في الجماع فلا، لأنه يدور على النشاط وليس ذلك إليه ولو كانت في نكاحه حُرّةٌ وأَمَةٌ فإنه يبيت عند الحرّة ليلتين وعند الأمَةِ ليلة واحدة، وإذا تزوج جديدة على قديمات عنده يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال على التوال إن كانت بكراً، وإن كانت ثيباً فثلاث ليال ثم يُسوّي بعد ذلك بين الكل، ولا يجب قضاء هذه الليالي للقديمات.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، ثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يوسف بن راشد، ثنا أبو أسامة، ثنا سفيان الثوري، ثنا أيوب وخالد، عن أبي قلابة، عن أنس رضي الله عنه قال: مِنَ السنّة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً، ثم قَسَمَ وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً، ثم قسم. قال أبو قلابة: ولو شئتُ لقلتُ: إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ.

وإذا أراد الرجل سفرَ حَاجةٍ فيجوز له أن يحمل بعض نسائه مع نفسه بعد أن يُقرع بينهنّ فيه، ثم لا يجب عليه أن يقضي للباقيات مدة سفره، وإن طالت إذا لم يزد مقامه في بلده على مدة المسافرين، والدليل عليه ما:

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، ثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، ثنا الربيع، ثنا الشافعي، ثنا عمي محمد بن علي بن شافع، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبدالله، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفرَ أقرع بين نسائه فأيتهُنّ خرج سهمُها خرج بها» أما إذا أراد سفر نُقلة فليس له تخصيص بعضهنَ لا بالقرعة ولا بغيرها.

﴿١٣١﴾ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عبيداً ومُلكاً ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، يعني: أهل التوراة والإنجيل وسائر الأمم المتقدمة في كتبهم، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يا أهل القرآن في كتابكم، ﴿أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي: وحّدُوا اللّهَ وأطيعوه، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾، بما أوصاكم به الله ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قيل: فإن لله ملائكة في السموات والأرض هم أطوع له منكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾، عن جميع خلقه غير محتاج إلى طاعتهم، ﴿حَمِيدًا﴾ محموداً على نعمه.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، قال عكرمة عن ابن عباس: يعني شهيداً أن فيها عبيداً، وقيل: دافعاً ومُجيراً. فإن قيل: فأي فائدة في تكرار قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ قيل: لكلٍّ واحد منهما وجه، أمّا الأول: معناه لله ما في السموات وما في الأرض وهو يُوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيتَه، وأمّا الثاني يقول: فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾

غنياً أي: هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون، وأمّا الثالث فيقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: له الملك فاتخذوه وكيلاً ولا تتوكلوا على غيره.

(١٣٣) قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، يُهلككم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾، يعني: الكفار، ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾، يقول بغيركم خير منكم وأطوع، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ قادراً.

(١٣٤) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يُريد: من كان يريد بعمله عَرَضاً من الدنيا ولا يريد بها اللّهَ عزّ وجلّ آتاه الله من عَرَضِ الدنيا أو دفع عنه فيها ما أراد الله، وليس له في الآخرة من ثواب، ومن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أحب وجزاه الجنة في الآخرة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(١٣٥) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، يعني: كونوا قائمين بالشهادة بالقسط، أي: بالعدل لله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كونوا قوامين بالعدل في الشهادة على من كانت له، ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ في الرحم، أي: قُولُوا الحقّ ولو على أنفسكم بالإقرار أو الوالدين والأقربين، فأقيموها عليهم لله، ولا تُحابوا غنياً لغناه ولا ترحموا فقيراً لفقره، فذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، منكم، أي أقيموا على المشهُود عليه وإن كان غنياً وللمشهود له وإن كان فقيراً فالله أولى بهما منكم، أي كِلُوا أمرهما إلى الله. وقال الحسن: معناه الله أعلم بهما، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾، أي: ولا تجوروا وتميلوا إلى الباطل من الحق، وقيل: معناه لا تتبعوا الهوى لتعدلوا، أي: لتكونوا عادلين كما يقال: لا تتبع الهوى لترضي ربك. ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ أي: تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عنها فتكتموها ولا تقيموها، ويقال: تلووا أي تدافعوا في إقامة الشهادة، يقال: لَوَيْتُه حقّه إذا دفعتَه ومطلته، وقيل: هذا خطاب مع الحكام في ليِّهم الأشداق، يقول: وإن تلووا أي تميلوا إلى أحد الخصمين أو تعرضوا عنه قرأ ابن عامر وحمزة ﴿تلوا﴾ بضم اللام، قيل: أصله تلووا، فحذفت إحدى الواوين تخفيفاً، وقيل: معناه وإن تلوا القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا فتتركوا أداءها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

(١٣٦) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية

قال الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن سلام وأسد وأُسيد بني كعب، وثعلبة بن قيس وسلاّم بن أخت عبدالله بن سلاّم، وسلمة بن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مُؤمنُوا أهل الكتاب أتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إنّا نُؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال النبي ﷺ: «بل آمِنُوا بالله ورسوله محمد ﷺ، والقرآن وبكل كتاب كان قبله»، فأنزل الله هذه الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمدٍ ﷺ والقرآن وبموسى عليه السلام والتوراة ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، يعني القرآن، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «نُزّل وأُنزل» بضم النون والألف، وقرأ الآخرون «نَزّل وأَنزل» بالفتح أي أنزل الله، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾

﴿وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، فلما نزلت هذه الآية قالوا: فإنا نؤمن بالله ورسوله والقرآن وبكل رسولٍ وكتاب كان قبل القرآن، والملائكة واليوم الآخر لا نُفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، وقال الضحاك: أراد به اليهود والنصارى، وقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بموسى وعيسى ﴿ءَامِنُواْ﴾ بمحمدٍ والقرآن، وقال مجاهد: أراد به المنافقين، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باللّسان ﴿ءَامِنُواْ﴾ بالقلب. وقال أبو العالية وجماعة: هذا خطاب للمؤمنين، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ أي أقيمُوا واثبتُوا على الإيمان، كما يُقال للقائم: قُمْ حتى أرجع إليك، أي أثبت قائماً وقيل: المراد به أهل الشرك، يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باللاتِ والعُزّى ﴿ءَامِنُواْ﴾ بالله ورسوله.

﴿١٣٧﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾، قال قتادة: هم اليهود آمَنُوا بموسى ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل، ثم آمَنُوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام، ثم ازْدَادُوا كفراً بمحمد ﷺ. وقيل: هو في جميع أهل الكتاب آمَنُوا بنبيهم ثم كَفَرُوا به، وآمَنُوا بالكتاب الذي نُزّل عليه ثم كفروا به، وكفرهم به تركهم إيّاه ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، وقيل: هذا في قوم مرتدين آمنوا ثم ارتدوا ثمّ آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثمّ ارتدوا، ومثل هذا هلْ تُقبل توبته؟ حُكي عن علي رضي الله عنه أنه لا تقبل توبته بل يُقتل، لقوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾، وأكثر أهل العلم على قبول توبته، وقال مجاهد: ثم ازدادوا كفراً أي ماتوا عليه، ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾، ما أقاموا على ذلك، ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾، أي طريقاً إلى الحق، فإن قيل: ما معنى قوله ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾، ومعلوم أنه لا يغفر الشرك إن كان أول مرّة؟ قيل: معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرّة ودام عليه يُغفر له كفرُه السابق، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يُغفر له كفرُه السابق الذي كان، يُغفر له لو دَامَ على الإسلام.

﴿١٣٨﴾ ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، أخبرهم يا محمد، ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، والبشارة: كل خبر يتغير به بشرة الوجه سارّاً كان أو غير سار، وقال الزجاج: معناه اجعل في موضع بشارتك لهم العذاب، كما تقول العرب: تحيّتُك الضرب وعِتَابُك السيف، أي: بدلاً لك من التحية، ثم وصف المنافقين فقال:

﴿١٣٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾، يعني: يتخذون اليهود أولياءَ وأنصاراً أو بطانة ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾، أي: المعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه: وقيل: أيطلبون عندهم القوة، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ﴾ أي: الغلبة والقوة والقدرة، ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

﴿١٤٠﴾ ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، قرأ عاصم ويعقوب ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي، أي: نزل الله، وقرأ الآخرون (نُزِّل) بضم النون وكسر الزاي، أي: عليكم يا معشر المسلمين، ﴿أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يعني القرآن، ﴿يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾، يعني: مع الذين يستهزؤون، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾، أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد ﷺ والقرآن، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، قال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كلُّ مُحدِثٍ في الدين وكلّ مُبتدع إلى يوم القيامة، ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾، أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، والأكثرون على الأول. وآية الأنعام مكية وهذه مدنية والمتأخر أَوْلَى. قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

﴿١٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾، ينتظرون بكم الدوائر، يعني:

الجزء الخامس — سورة النساء

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

١٠١

المنافقين، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعني: ظفر وغنيمة، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لكم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، على دينكم في الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾، يعني دولة وظهور على المسلمين، ﴿قَالُوٓا۟﴾، يعني: المنافقين للكافرين، ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾، والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة، قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩] أي: استولى وغلب، يقول: ألم نخبركم بعورة محمد ﷺ وأصحابه ونُطلعكم على سرهم؟ قال المبرِّد: يقول المنافقون للكفار ألم نغلبكم على رأيكم ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾، ونصرفكم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: عن الدخول في جملتهم، وقيل: معناه ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين، أي: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إيّاكم بإخبارهم وأمورهم، ومُرادُ المنافقين بهذا الكلام إظهارُ المنة على الكافرين ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، يعني: بين أهل الإيمان وأهل النفاق، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، قال عليٌّ [رضي الله عنه]: في الآخرة، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أي حجة، وقيل: ظهوراً على أصحاب النبي ﷺ.

﴿١٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، أي يعاملونه معاملة المخادعين وهو خادعهم، أي: مجازيهم على خِداعهم وذلك أنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط، ويُطفأ نورُ المنافقين، ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، يعني: المنافقين ﴿قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ أي: متثاقلين لا يُريدون بها الله فإن رآهم أحد صلوا وإلاّ انصرفُوا فلا يُصلون، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: يفعلون ذلك مراءاةً للناس لا اتباعاً لأمر الله [عز وجل]، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن: إنّما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياءً وسمعة، ولو أرادوا بذلك القليلَ وجهَ اللّهِ تعالى لكان كثيراً، وقال قتادة: إنّما قلَّ ذكرُ المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله وكل ما قبل الله فهو كثير.

﴿١٤٣﴾ ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: مترددين متحيّرين بين الكفر والإيمان، ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمؤمنين، وليسوا من الكفار فيُؤخذ منهم ما يُؤخذ من الكفار، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، أي: طريقاً إلى الهُدى.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني قال أخبرنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج، أنا محمد بن المثنى، أنا عبدالوهّاب يعني الثقفي، أنا عبدالله [عن نافع عن] ابن عمر:

عن النبي ﷺ، قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرّة وإلى هذه مرّة».

﴿١٤٤﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار، وقال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجة بينةً في عذابكم، ثم ذكر منازل المنافقين، فقال جلّ ذكره:

﴿١٤٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿فِى ٱلدَّرْكِ﴾ بسكون الراء والباقون

الجزء السادس — سورة النساء

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝١٤٨ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۝١٥٣ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝١٥٤﴾

١٠٢

بفتحها وهما لغتان كالظعْن والظعَن والنهْر والنهَر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ في توابيت من حديد مقفلة في النار، وقال أبو هريرة: بيت مقفل عليهم توقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ مانعاً من العذاب.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من النفاق وآمنوا ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾، عملهم ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، وثقوا بالله ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، أراد الإخلاص بالقلب، لأن النفاق كفر القلب، فزواله يكون بإخلاص القلب، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الفراء: من المؤمنين، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنّة، وحذفتِ الياء ﴿وَمَن يُؤْتَ﴾ في الخط لسقوطها في اللفظ، وسقوطها في اللفظ لسكون اللام في ﴿ٱللَّهُ﴾.

(١٤٧) قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ أي: إن شكرتم نعماءَهُ ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به، فيه تقديم وتأخير، وتقديره: إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، وهذا استفهام بمعنى التقرير معناه إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عبادَهُ لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا يُنقِصُ من سلطانه، والشكرُ: ضدّ الكفر والكفر ستر النعمة، والشكر: إظهارها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾، فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده وإضعاف الثواب عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب.

(١٤٨) قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ يعني: لا يحب الله الجهر بالقبح من القول إلاّ من ظلم، فيجوز للمظلوم أن يخبر عن [ظلم] الظالم وأن يدعو عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، قال الحسن: دعاؤه عليه أن يقول: اللهم أعني عليه اللهُم استخرج حقي منه، وقيل: إنْ شتم جاز أن يشتم بمثله لا يزيد عليه.

أخبرنا أبو عبدالله الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبدالله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر [إسماعيل بن جعفر] أنا العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه

أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالا، فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم».

وقال مجاهد هذا في الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يُحسنوا ضيافته فله أن يشكو ويذكر ما صُنع به.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر أنه قال:

قلنا يا رسول الله إنّك تبعثنا فننزل بقوم فلا يُقرُوْنا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: «إنْ نزلتم بقوم فأمَرُوا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا فإن لم يفعلوا فخذُوا منهم حقّ الضيف الذي ينبغي لهم».

وقرأ الضحاك بن مزاحم وزيد بن أسلم: (إلاّ من ظلم) بفتح الظاء واللام، معناه: لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول، وقيل معناه: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن يجهر [به] من ظلم، والقراءة الأولى هي المعروفة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾، لدعاء المظلوم، ﴿عَلِيمًا﴾، بعقاب الظالم.

(١٤٩) قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾، يعني: حسنةً فيَعملُ بها كُتِبَت له عشراً. وإنْ همّ بها ولم

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُولَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

يعملُها كُتبتْ له حسنةٌ واحدة، وهو قوله ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وقيل المراد من الخير: المال، يُريدُ: إنْ تُبدوا صدقةً تُعطونها جهراً أو تخفوها فتعطوها سراً، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾، أي: عن مَظْلَمةٍ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، فهو أولى بالتجاوز عنكم يوم القيامة.

﴿١٥٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية، نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السّلام والتوراة وعُزير، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمدٍ والقرآن، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، أي: ديناً بين اليهودية والإسلام ومذهباً يذهبون إليه.

﴿١٥١﴾ ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، حقق كفرهم ليعلم أن الكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، كُلِّهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، يعني: بين الرُّسل وهم المؤمنون، يقولون: لا نُفرِّق بين أحدٍ من رسله، ﴿أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، بإيمانهم بالله وكتبه ورسله، قرأ حفص عن عاصم ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾ بالياء، [أي: يؤتيهم الله]، والباقون بالنون، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿١٥٣﴾ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، وذلك أنّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله ﷺ: إنْ كنتَ نبياً فأتِنا بكتاب جملةً من السماء كما أتى به موسى عليه السّلام، فأنزل الله عليه: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكّم واقتراح، لا سؤال انقياد، والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد. قوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أعظم من ذلك، يعني: السبعين الذين خرج بهم موسى عليه السّلام إلى الجبل، ﴿فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، قال أبو عُبيدة: معناه قالوا جهرة أرنا الله، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾، يعني إلهاً، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾، ولم نستأصلهم، قيل: هذا استدعاء إلى التوبة، معناه: أن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم، فتُوبوا أنتم حتى نعفوَ عنكم، ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، أي: حجةً بينةً من المعجزات، وهي الآيات التسع.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ﴾ قرأ أهل المدينة بتشديد الدال وفتح العين نافع برواية ورش ويجزمها الآخرون، ومعناه: لا تعتدوا ولا تظلموا باصطياد الحيتان فيه، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

﴿١٥٥﴾ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، أي: فبنقضهم، و﴿مَا﴾ صلة كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ونحوها، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، أي: ختم عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، يعني: ممن كذّب الرُّسلَ لا ممن طُبع على قلبه، لأنّ من طبعَ اللَّهُ على قلبه لا يُؤمن أبداً، وأراد بالقليل: عبدَ الله بن سلام وأصحابه، وقيل: معناه لا يُؤمنون قليلاً ولا كثيراً.

﴿١٥٦﴾ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، حين رموها بالزنا.

﴿١٥٧﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وذلك أنّ الله تعالى ألقى شَبهَ عيسى عليه السّلام على الذي دلّ اليهودَ عليه، وقيل: إنهم حبسوا عيسى عليه السّلام في بيت وجعلوا عليه رقيباً فألقى الله تعالى

شبه عيسى عليه السَّلام على الرقيب فقتلوه، وقيل غير ذلك، كما ذكرنا في سورة آل عمران. قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، في قتله، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، أي: في قتله، قال الكلبي: اختلافهم فيه هو أن اليهود قالت نَحْنُ قتلناه، وقالت طائفة من النصارى نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إلى السماء، ونحن ننظر إليه، وقيل: كان الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السَّلام على وجه ططيافوس ولم يلقه على جسده، فاختلفوا فيه فقال بعضهم: [قتلنا عيسى، فإن الوجه وجه عيسى عليه السَّلام وقال بعضهم] لم نقتله لأن جسده ليس جسد عيسى عليه السَّلام، فاختلفوا. قال السدي: اختلافهم من حيث أنّهم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، من حقيقة أنه قتل أو لم يقتل، ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾، لكنهم يتبعون الظنّ في قتله. قال الله جلّ جلاله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾، أي: ما قتلوا عيسى يقيناً.

﴿١٥٨﴾ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وقيل قوله ﴿يَقِينًۢا﴾ يرجع إلى ما بعده وقوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كلام تام تقديره: بل رفعه الله إليه يقيناً، والهاء في ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كناية عن عيسى عليه السَّلام، وقال الفراء رحمه الله: معناه وما قتلوا الذين ظنوا أنه عيسى يقيناً، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: وما قتلوا ظنهم يقيناً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً بالنقمة من اليهود، ﴿حَكِيمًا﴾ حكم باللعنة والغضب عليهم، فسلّط عليهم ضيطوس بن سبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة.

﴿١٥٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، أي: وما من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ بعيسى عليه السَّلام، وهو قول أكثر المفسرين وأهل العلم، وقوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ اختلفوا في هذه الكناية، فقال عكرمة ومجاهد والضحاك والسدي: إنها كناية عن الكتابي، ومعناه: وما من أهل الكتاب أحد إلاّ ليؤمننّ بعيسى عليه السَّلام قبل موته، إذا وقع في البأس حين لا ينفعه إيمانُه سواء احترق أو غرق أو تردّى في بئر أو سقط عليه جدارٌ أو أكله سبعٌ أو مات فجأةً، وهذه رواية علي ابن [أبي] طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم. قال: فقيل لابن عباس رضي الله عنهما: أرأيتَ أن مَنْ خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء قال: فقيل أرأيت إن ضرب عُنقُ أحدهم؟ قال: يتلجلج لسانه، وذهب قومٌ إلى أن الهاء في ﴿مَوْتِهِۦ﴾ كناية عن عيسى عليه السَّلام، معناه: وإنّ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ بعيسى قبل موت عيسى عليه السَّلام، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحدٌ إلاّ آمن به حتى تكون الملة واحدة، ملّة الإسلام.

وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُوشِكُ أنْ ينزلَ فيكم ابن مريمَ حكماً عدلاً يكسرُ الصّليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزية، ويفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحدٌ، ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلاّ الإسلام، ويقتلُ الدَّجالَ فيمكثُ في الأرض أربعين سنة ثم يتوفّى ويُصلّي عليه المسلمون»، وقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، قبل موت عيسى ابن مريم، ثم يُعيدها أبو هريرة ثلاث مرات.

وروي عن عكرمة: أنّ الهاء في قوله ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ كناية عن محمد ﷺ يقول: لا يموت كتابي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وقيل: هي راجعة إلى الله عزّ وجلّ يقول: وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ بالله عزّ وجلّ، قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانُه. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ﴾، يعني: عيسى عليه السَّلام، ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أنّه قد بلّغهم رسالة ربه، وأقرّ بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى مخبراً عنه ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وكل نبي شاهد على أُمته قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: ٤١].

﴿١٦٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، وهو ما تقدم ذكره من نقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله وبُهتانهم على مريم، وقولهم: إنّا قتلنا المسيح ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وهي ما ذكر في سُورة الأنعام، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ونظم الآية: فبظلم من الذين هادوا وهو ما ذكرنا، ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾، وبصرفهم أنفسهم وغيرهم، ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، أي: عن دين الله صداً كثيراً.

﴿١٦١﴾ ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾، في التوراة ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، من الرشا في الحكم، والمآكل التي يصيبونها عن عوامِّهم، عاقبناهم بأنْ حرّمنا عليهم طيباتٍ، وكانوا كلّما ارتكبوا كبيرةً حُرِّم عليهم شيءٌ من الطيبات التي كانت حلالاً لهم، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿١٦٢﴾ ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾، يعني: ليس كل أهل الكتاب بهذه الصفة، ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ﴾ البالغون في العلم منهم أولوا البصائر، وأراد به الذين أسلمُوا من علماء اليهود مثل عبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، يعني: المهاجرون والأنصار، ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، يعني: سائر الكتب المنزلة، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، اختلفوا في وجه انتصابه، فحكي عن عائشة رضي الله عنها وأبان بن عثمان: أنه غلط من الكاتب ينبغي أن يكتب و «المقيمون الصّلاة» وكذلك قوله في سورة المائدة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقوله ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣] قالوا: ذلك خطأً من الكاتب. وقال عثمان: إن في المصحف لحناً ستقيمه العربُ بألسنتها، فقيل له: ألاَ تغيّره؟ فقال: دعوه فإنه لا يُحلّ حراماً ولا يُحرّم حلالاً.

وعامة الصحابة وأهل العلم على أنه صحيح، واختلفوا فيه، قيل: هو نصب على المدح، وقيل: نصب على إضمار فعل تقديره: أعني المقيمين الصّلاة وهم المؤتون الزكاة، وقيل: موضعه خفض، واختلفوا في وجهه، فقال بعضهم: معناه لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصّلاة، وقيل: معناه يؤمنون بما أُنزل إليك وإلى المقيمين الصّلاة، ثم قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ رجوع إلى النسق الأوّل، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قرأ حمزة سيؤتيهم بالياء والباقون بالنون.

﴿١٦٣﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ هذا بناء على ما سبق من قوله [تعالى] ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣]، فلمّا ذكر الله عيوبهم وذنوبهم غضبوا وجحدوا كل ما أنزل الله عزَّ وجلّ، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وأنزل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ فذكر عدّة من الرسل الذين أوحى إليهم، وبدأ بذكر نوح عليه السّلام لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السّلام، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول من عذبت أُمته لردِّهم دعوته، وأُهلك أهلُ الأرض بدعائه وكان أطول الأنبياء عمراً وجعلت معجزاته في نفسه، لأنه عمّر ألف سنة فلم تسقط له سن ولم تشب له شعرة ولم ينتقص له قوّة، ولم يصبر نبي على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، وهم أولاد يعقوب، ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾، قرأ

الأعمش وحمزة «زُبوراً» والزُّبور بضم الزاي حيث كان، بمعنى: جمع زَبور، أي آتينا داود كُتباً وصُحفاً مزبورةً، أي مكتوبة، وقرأ الآخرون بفتح الزاي وهو اسم الكتاب الذي أنزل الله تعالى على داود عليه السَّلام، وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عزّ وجلّ، وكان داودُ يبرزُ إلى البريّة فيقوم ويقرأ الزَّبورَ ويقوم معه علماء بني إسرائيل، فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء، ويقوم الجنّ خلف الناس، الأعظمُ فالأعظم، والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه تعجباً لِمَا يسمعن منه، والطير ترفرف على رؤوسهم، فلما قارف الذنب لم يرَ ذلك، ونفروا من حوله، فقيل له ذاك أُنس الطاعة، وهذه وحشةُ المعصية.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر الجوزقي أنا أبو العباس أنا يحيى بن زكريا أنا الحسين بن حماد حدثنا يحيى بن سعيد الأموي عن طلحة بن يحيى عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال:

قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك ولقد أُعطيتَ مِزمَاراً من مَزامِيرِ آل داود»، فقال: أمَا واللَّهِ يا رسول الله لو علمتُ أنك تستمعُ لحبرتُه [لك] تحبيراً.

وكان عمر رضي الله عنه إذا رآه يقول ذكِّرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده.

﴿١٦٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، أي: وكما أوحينا إلى نوح وإلى الرسل، ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بنزع حرف الصفة، وقيل: معناه وقصصنا عليك رسلاً، وفي قراءة أُبيّ «ورسل قد قصصناهم عليك من قبل»، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، قال الفراء: العرب تسمي ما يُوصل إلى الإنسان كلاماً بأيّ طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر فإذا حُقّق بالمصدر ولم يكن إلاّ حقيقة الكلام كالإرادة يُقال: [أراد فلانٌ إرادةً، يُريد حقيقة الإرادة، ويقال]: أراد الجدار، ولا يُقال أراد الجدار إرادةً لأنه مجاز غير حقيقة.

﴿١٦٥﴾ قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، فيقولوا: ما أرسلتَ إلينا رسُولاًولا أنزلتَ إلينا كتاباً، وفيه دليل على أنّ الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عوانة أنا عبدالملك عن وَرّاد كاتب المغيرة عن المغيرة قال:

قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربتُه بالسيف غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ واللَّهِ لأنا أغيَرُ منه، واللَّهُ أغيرُ مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحشَ ما ظهرَ منها ومَا بَطنَ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المُنذرين والمُبشرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد اللَّهُ الجنة».

﴿١٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما إن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد سألْنَا عنكَ اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعمُوا أنهم لا يعرفونَكَ، ودخل عليه جماعة من اليهود فقال لهم: إني والله أعلم أنكم لتعلمن أني رسول الله، فقالوا: والله ما نعلم ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ إن جحدوك وكذّبوك، ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿١٦٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بكتمان نَعتِ محمد ﷺ، ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿١٦٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾، قيل: [إنما قال] ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ أتبع ظلمهم بكفرهم تأكيداً، وقيل: معناه كفروا بالله وظلموا محمداً ﷺ بكتمان نعته، ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾، يعني: دين الإسلام.

﴿١٦٩﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، يعني اليهودية، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، وهذا في حق من سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

﴿ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، تقديره: فآمِنُوا يكن الإيمان خيراً لكم، ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿١٧١﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، نزلت في النصارى وهم أصناف أربعة: الماريعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية، وقالت النسطورية: عيسى ابن الله، وقالت المرقسية: ثالث ثلاثة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ويُقال الملكانية يقولون: عيسى هو الله، واليعقوبية يقولون: ابن الله والنسطورية يقولون: ثالث ثلاثة علمهم رجل من اليهود يُقال له بولس، سيأتي في سورة التوبة إن شاء الله تعالى. وقال الحسن: يجوز أن تكون نزلت في اليهود والنصارى فإنهم جميعاً غلوا في أمر عيسى، فاليهود بالتقصير، والنصارى مجاوزة بالحدّ، وأصل الغلو مجاوزة الحدّ، وهو في الدّين حرام، قال الله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، لا تشدّدوا في دينكم فتفتروا على اللَّهِ الكذبَ ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، لا تقولوا أنّ له شريكاً وولداً ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾، وهي قوله ﴿كُن﴾ [مريم: ٣٥] فكان بشراً من غير أب، وقيل غيره، ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي أعلمها وأخبرها بها، كما يُقال: ألقيتُ إليك كلمة حسنة، ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، قيل: هو روح كسائر الأرواح إلاّ أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفاً، وقيل: الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل عليه السّلام في دِرْعِ مريم فحملت بإذن الله تعالى، سمّي النفخ روحاً لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره، وقيل: روح منه أي ورحمة، فكان عيسى عليه السّلام رحمةً لمن تبعه وآمن به، وقيل: الروح الوحي، أوحى إلى مريم بالبشارة، وإلى جبريل عليه السّلام بالنفخ وإلى عيسى أن كُنْ فكان كما قال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ يعني: بالوحي، وقيل: أراد بالروح جبريل عليه السّلام، معناه وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها إليها أيضاً روح منه بأمره وهو جبريل عليه السَّلام، كما قال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]، يعني: جبريل فيها، وقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، يعني: جبريل.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا الوليد عن الأوزاعي حدثنا عمرو بن هانيء حدثني جُنادة بن أمية عن عُبادة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أنْ لا إله إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وإنَّ محمداً عبدُه ورسولُه وأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجنةُ حقٌّ والنّارُ حقٌّ أدْخَلَهُ [الجنة] على ما كانَ مِنَ العمل».

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾، أي: ولا تقولوا هم ثلاثة، وكانت النصارى تقول: أب وابن وروح القدس، ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، تقديره: انتهوا يكن الانتهاءُ خيراً لكم، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾، وعلم أنّ التبني لا يجوز لله تعالى، لأن التبني إنّما يجوز لمن يُتصوّر له ولد، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

﴿١٧٢﴾ قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾.

وذلك أنّ وفد نجران قالوا: يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول: إنه عبدالله ورسوله، فقال النبي ﷺ:

«إنه ليس بعار لعيسى عليه السّلام أن يكونَ عبداً لله»، فنزل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لن يأنف ولن يتعظم، والاستنكاف: التكبر مع الأنفة، ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وهم حملة العرش، لا يأنفون أن يكونوا عبيداً لله، ويستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر، لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يُرتقى إلاَّ إلى الأعلى، لا يُقال: لا يستنكف فلان من كذا ولا عبده، إنما يُقال: فلان لا يستنكف من هذا ولا مولاه، ولا حجة لهم فيه لأنه لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر، بل رداً على الذين يقولون الملائكة آلهة، كما ردّ على النصارى قولَهم المسيح ابن الله، وقال رداً على النصارى بزعمهم، فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، قيل: الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو العلو والتكبر من غير أنفة.

﴿١٧٣﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، من التضعيف، ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، عن عبادته، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿١٧٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: محمداً ﷺ، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: هو القرآن، والبرهان: الحجة، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، بيّناً يعني القرآن.

﴿١٧٥﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾، امتنعوا به من زيغ الشيطان، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾، يعني الجنة، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

﴿١٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ نزلت في جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، وتوضأ وصبَّ عليَّ من وضوئه، فعقلت فقلتُ: يا رسول الله لمن الميراث وإنما يرثني الكلالة؟ فنزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وقد ذكرنا معنى الكَلاَلَة وحكم الآية في أوّل السورة، وفي هذه الآية بيان حكم ميراث الإخوة للأب والأم أو للأب، قوله [يستفتونك] أي: يستخبرونَكَ ويسألونَك [يا محمد]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾، يعني إذا ماتت الأخت فجميع ميراثها للأخ، ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فإن كان لها ابنٌ فلا شيء للأخ، وإنْ كان ولدها أنثى فللأخ ما فَضُلَ عن فرض البنات، ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، أراد اثنتين فصاعداً وهو أنّ ما مات وله أخوات فلهنّ الثلثان، ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾، قال الفراء رحمة الله عليه وأبو عبيدة: معناه أن لا تضلوا، وقيل: معناه يبيّن اللهُ لكم كراهة أن تضلُّوا، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنهم قال: آخرُ سورةٍ نزلتْ كاملةً براءةٌ، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ آخر آية نزلتْ آيةُ الرِّبا،

الجزء السادس — سورة المائدة

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ المَائِدَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٠٦

وآخر سورة نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

وروي عنه أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. ورُوي بعدما نزلت سورة النصر عاشَ النبي ﷺ عاماً، ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملةً فعاش النبي ﷺ بعدها ستة أشهر، ثم نزلت في طريق حجة الوداع ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ فسُميتْ آية الصيف، ثم نزلت وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، فعاش بعدها أحداً وثمانين يوماً، ثم نزلت آيات الرِّبا، ثم نزلت ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً [والله أعلم بالصواب].

* * *

سورة المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مائة وعشرون آية نزلت بالمدينة كلها إلاّ قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فإنها نزلت بعرفات.

رُوي عن أبي ميسرة قال: أنزل الله تعالى في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم يُنزلها في غيرها، قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾، ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾، ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وتمام الطهور في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] الآية، ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، وقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾، أي: بالعهود، قال الزجاج: هي أوكد العهود، يقال: عاقدتُ فلاناً وعقدتُ عليه أي: ألزمتُه ذلك باستيثاق، وأصله من عقد الشيء بغيره ووصله به، كما يُعقد الحبل بالحبل [إذا وُصل].

واختلفوا في هذه العقود، قال ابن جُريج: هذا خطاب لأهل الكتاب، يعني: يا أيها الذين آمنُوا بالكتب المتقدمة أوْفُوا بالعهود التي عهدتُها إليكم في شأن محمد ﷺ، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال الآخرون: هو عام، قال قتادة: أراد بها الحِلْف الذي تعاقدوا عليه في الجاهلية، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي عهود الإيمان والقرآن، وقيل: هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، قال الحسن وقتادة: هي الأنعام كلّها، وهي الإبل والبقر والغنم، وأراد تحليل ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام.

وروى أبو ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بهيمة الأنعام هي الأجنّة، ومثله عن الشعبي قال: هي الأجنّة التي تُوجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذُبحت أو نحرت، ذهب أكثر أهل العلم إلى تحليله.

[قال الشيخ الإمام]: قرأتُ على أبي عبد الله محمد بن الفضل الخرقي فقلتُ: قُرىء على أبي سهل محمدُ بن عمر بنُ طرفة وأنتَ حاضر، فقيل له: حدثكم أبو سليمان الخطابي أنا أبو بكر بن داسة أنا أبو داود السجستاني أنا مسدد أنا هشيم عن مجالد عن أبي الوَدّاك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم قال: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة فنجد في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إنْ شئتُم فإنّ ذكاته ذكاة أمّه».

وروى أبو الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمّه». وشرط بعضهم الإشعار، قال ابن عمر: ذكاة ما في بطنها في ذكاتها إذا تَمّ خلقُه ونبتَ شعرُه، ومثله عن سعيد بن المسيب.

وعند أبي حنيفة رضي الله عنه: لا يحلُّ أكل الجنين إذا خرج ميتاً بعد ذكاة الأم.

وقال الكلبي: بهيمة الأنعام وَحشيُّها وهي الظباء وبقر الوحش، سُمّيت بهيمةٌ لأنها أُبهمت عن التمييز، وقيل: لأنها لا نطق لها، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ما ذكر في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾

[المائدة: ٣]، ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾، وهو نصب على الحال، أي: لا مُحلّي الصيد، ومعنى الآية: أُحلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام كلّها إلا ما كان منها وحشياً، فإنه صيدٌ لا يحِلّ لكم في حال الإحرام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿٢﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ نزلت في الحطم واسمه شريح بن ضُبيعة البكري، أتى المدينةَ وخلّف خيله [خارج] المدينة، ودخل وحده على النبيّ ﷺ فقال له: إلامَ تدعُو الناس؟ فقال له: «إلى شهادةِ أنْ لا إلـه إلاّ الله، [وأنّ محمداً رسول الله]، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»، فقال: [حسن]، إلا أن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم، ولعلّي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم [بلسان] شيطان»، ثم خرج شريح من عنده، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر وخرجَ بقفا غادرٍ وما الرجل بمسلم»، فمرَّ بسرح المدينة فاستاقه وانطلق، فاتّبعوه فلم يُدركوه، فلمّا كان العام القابل خرج حاجاً في حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقد قلّدَ الهَدْيَ، فقال المسلمون للنبيّ ﷺ: هذا الحطم قد خرج حاجاً فخلّ بيننا وبينه، فقال النبيّ ﷺ: «إنه قد قلّد الهَدْيَ»، فقالوا: يا رسول الله، هذا شيء كنّا نفعله في الجاهلية، فأبى النبيّ ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هي مناسك الحج، وكان المشركون يحجّون ويهدون، فأرادَ المسلمون أن يُغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك.

وقال أبو عبيدة: شعائر الله هي الهدايا المُشعَرة، والإشعار من الشعار، وهي العلامة، وإشعارها: إعلامها بما يُعرف أنها هَدْي، والإشعار هُهنا: أن يطعن في صَفحَةِ سنام البعير بحديدة حتى يسيل الدمُ، فيكون ذلك علامة أنها هَدْي، وهي سنة في الهدايا إذا كانت من الإبلِ، لِما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم أنا أفلح عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فتلتُ قلائدَ بُدْنِ النبيّ ﷺ بيدي، ثم قلّدَها وأشعرَها وأهداها، فما حَرُمَ عليه شيء كان أُحِلّ له.

وقاس الشافعي البقرَ على الإبل في الإشعار، وأمّا الغنم فلا تشعر بالجرح، فإنها لا تحتمل الجرح لضعفها، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يشعر الهدي.

وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُحِلّوا شعائرَ الله وهي أن تَصِيدَ وأنتَ محرمٌ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، وقال السدي: أراد حرم الله، وقيل: المراد منه النهي عن القتل في الحرم، وقال عطاء: شعائر الله حرمات الله واجتناب سخطه واتباع طاعته.

قوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، أي: بالقتال فيه، وقال ابن زيد: هو النسيء، وذلك أنهم كانوا يُحِلّونه في الجاهلية عاماً ويُحرّمُونه عاماً، ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾، وهو كل ما يُهدَى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة، ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾، أي: الهدايا المُقلّدة، يريد ذواتِ القلائد، وقال عطاء: أراد أصحاب القلائد، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلّدُوا أنفسهم وإبلهم بشيءٍ منْ لِحَاءِ شجرِ الحرم كيلا يُتعرّضَ لهم، فنهى الشرعُ عن استحلال شيء منها. وقال مطرِّف بنُ الشِّخّير: هي القلائد نفسها وذلك أنّ المشركين كانوا يأخذون من لِحَاءِ شجر مكة ويُتقلّدونها فنُهوا عن نزع شجرها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾، أي: قاصدين البيت الحرام، يعني: الكعبة فلا تتعرضوا لهم، ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾، يعني: الرزق بالتجارة، ﴿وَرِضْوَانًا﴾، أي: على زعمهم، لأن الكافر لا نصيب له في الرضوان، وقال قتادة: هو أن يصلح معاشهم في الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها، وقيل: ابتغاء الفضل للمؤمنين والمشركين عامة، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة، لأنّ المسلمين والمشركين كانوا يحجّون، وهذه الآية إلى هُهنا منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وبقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

[التوبة: ٢٨]، فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يأمن كافر بالهدي والقلائد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾، أي: من إحرامكم، ﴿فَاصْطَادُوا﴾، أمرُ إباحة، أباح للحلال أخذ الصيد؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: لا يحملنّكم، يقال: جرمني فلان على أن صنعتُ كذا، أي: حملني، وقال الفراء: لا يكسبنّكم، يقال: جرم أي: كَسَبَ فلانٌ جريمة أهله، أي: كاسبهم، وقيل: لا يدعونكم، ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، أي: بغضهم وعداوتهم، وهو مصدر شننت، قرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿شَنْآنُ قَوْمٍ﴾ بسكون النون الأولى، وقرأ الآخرون بفتحها، وهما لغتان، والفتح أجود، لأنّ المصادر أكثرها على فعلان، بفتح العين مثل الضربان والسيلان والنسلان ونحوها، ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتح الألف، أي: لأن صدوكم، ومعنى الآية: لا يحملنّكم عداوةُ قوم على الاعتداء لأنهم صدّوكم. وقال محمد بن جرير: لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية، وكان الصدُّ قد تقدم، ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ عليهم بالقتل وأخذ الأموال، ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾، أي: ليعِنْ بعضُكم بعضاً، ﴿عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾، قيل: البر متابعة الأمر، والتقوى مجانبة النهي، وقيل: البر: الإسلام، والتقوى: السنّة، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، قيل: الإثم: الكفر، والعدوان: الظلم، وقيل: الإثم: المعصية، والعدوان: البدعة.

أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي طاهر الدقاق ببغداد أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن الزبير القرشي أنا الحسن بن علي بن عفان أنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح حدثني عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير بن مالك الحضرمي عن أبيه عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن البِرّ والإثم، قال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلقِ، والإثْمُ ما حَاكَ في نفسِكَ وكرِهْتَ أنْ يطلعَ عليه النّاس». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، أي: ما ذُكر على ذبحه اسم غيرُ الله تعالى، ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾، وهي التي تختنق فتموت، قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها، ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي المقتولة بالخشب، قال قتادة: كانوا يضربونها بالعصا فإذا ماتت أكلوها، ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾، هي التي تتردّى من مكان عالٍ أو في بئر فتموت، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾، هي التي تنطحها أخرى فتموت، وهاء التأنيث تدخل في الفعيل إذا كان بمعنى الفاعل، فإذا كان بمعنى المفعول استوى فيه المذكر والمؤنث، نحو عينٌ كحيلٌ وكفٌّ خضيبٌ، فإذا حذف الاسم وأفردت الصفة، أدخلوا الهاء فقالوا: رأينا كحيلة وخضيبة، وهنا أُدخل الهاء لأنه لم يتقدمها الاسم، فلو أسقط الهاء لم يُدْرَ أنها صفة مؤنث أم مذكر، ومثله الذبيحة والنسيكة، وأكيلة السبع ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾، يريد ما بقي ممّا أكل السبع، وكان أهل الجاهلية يأكلونه، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، يعني: إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء.

وأصل التذكية الإتمام، يقال: ذكّيتُ النارَ إذا أتممتُ اشتعالها، والمراد هنا: إتمام فري الأوداج وإنهارُ الدم.

قال النبيّ ﷺ: «ما أنهرَ الدّمَ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكُلْ غير السّن والظفر».

وأقل الذكاة في الحيوان المقدور عليه قطع المري والحُلقوم وكماله أن يقطع الودجين معهما، ويجوز بكل مُحدّد يقطع من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر إلا السن والظفر، لنهي النبيّ ﷺ عن الذبح بهما، وإنّما يحلّ ما ذكّيتَه بعدما جرحَه السبعُ أو أكل شيئاً منه إذا أدركتَه والحياةُ فيه مستقرةٌ فذبحته، فأمّا مَا صار بجرح السبع إلى حالة المذبوح، فهو في حكم الميتة، فلا يكون حلالاً وإن ذبحته، وكذلك المتردّية والنّطيحة إذا أدركتَها حيّةً قبل أن تصير إلى حالة المذبوح فذبحتها تكون حلالاً، ولو رمي إلى صيد في الهواء فأصابه فسقط على الأرض فمات كان حلالاً، لأن الوقوع على الأرض من ضرورته، فإن سقط على جبل أو شجر ثم تردّى منه فمات فلا يحلّ، وهو من المتردّية إلاّ أن يكون السهم أصاب مذبحه في الهواء فيحلّ كيفَ مَا وقع، لأن الذبح قد حصل بإصابة السهم المَذْبَح.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، قيل: النُّصب جمعٌ، واحده نصاب، وقيل: هو واحد وجمعه أنصاب مثل عنق وأعناق، وهو الشيء المنصوب.

واختلفوا فيه، فقال مجاهد وقتادة: كانت حول البيت ثلاثمائة وستون حجراً منصوبة، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويُعظّمونها ويذبحون لها، وليست هي بأصنام إنما الأصنام هي المُصوَّرة المنقوشة، وقال الآخرون: هي الأصنام المنصوبة، ومعناه: ما ذُبح على اسم النُّصبِ، قال ابن زيد: وما ذُبح على النصب وما أُهلّ لغير الله به: هما واحد، قال قطرب: على بمعنى اللام، أي: وما ذُبح لأجل النُّصب.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾، أي: وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، والاستقسام هو طلب القسم، والحكم من الأزلام، والأزلام هي: القِداح التي لا ريش لها ولا نَصْل، واحِدُها: زَلَم، وزُلَم، بفتح الزاي وضمّها وكانت أزلامهم سبعة قداح مستوية من شوحط، يكون عند سَادِنِ الكعبة، مكتوبٌ على واحدٍ: نعم، وعلى واحدٍ: لا، وعلى واحدٍ: منكم، وعلى واحدٍ: من غيركم، وعلى واحدٍ: مُلْصَق، وعلى واحدٍ: العقل، وواحدٍ غُفل ليس عليه شيء، وكانوا إذا أرادوا أمراً من سفر أو نكاح أو ختان أو غيره، أو تدارؤوا في نسبٍ أو اختلفُوا في تحمّل عقلٍ جاؤوا إلى هُبل، وكان أعظم أصنام قريش بمكة، وجاؤوا بمائة درهم أعطوها صاحب القداح حتى يُجيلَ القِدَاحَ، ويقولون: يا إلٰهنا أردنا كذا وكذا، فإن خرج نعم، فعلوا، وإن خرج لا، لم يفعلوا ذلك حولاً، ثمّ عادوا إلى القِدَاح ثانيةً، فإذا أجالوا على نسبٍ، فإن خرج منكم كان وسطاً بينهم، وإن خرج من غيركم كان حليفاً، وإن خرج ملصق كان على منزلته لا نسب له ولا حلف، وإذا اختلفوا في عقل فمن خرج عليه قدَاح العَقل حمله، وإن خرج الغفل أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب، فنهى الله عزّوجلّ عن ذلك وحرّمه، وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾، قال سعيد بن جبير: الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها، وقال مجاهد: هي كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها، وقال الشعبي وغيره: الأزلام للعرب، والكعاب للعجم، وقال سفيان بن وكيع: هي الشطرنج، وروينا أن النبيّ ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرَةُ مِنَ الجِبْتِ»، والمراد من الطَّرْقِ: الضَّرْبُ بالحصى.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه أنا فضل الكندي أخبرنا الحسن بن داود الخشاب أنا سويد بن سعيد أنا أبو المختار عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تكهَّن أو استَقْسَمَ أو تطيّر طيرةً تردّه عن سفره لم ينظرْ إلى الدرجات العُلى من الجنة يوم القيامة».

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾، يعني: أنْ ترجعُوا إلى دينهم كفاراً، وذلك أن الكفار كانوا يطْمَعُون في عَوْدِ المسلمين إلى دينهم فلما قويَ الإسلام يئسوا، ويئس وأيس بمعنى واحد.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، نزلت هذه الآية يوم الجمعة، يوم عرفة بعد العصر في حجّة الوداع، والنبيّ ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء، فكادت

عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدثني الحسن بن الصباح سمع جعفر بن عون أنا أبو العُمَيس أنا قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: «يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلتْ لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أيَّةُ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، فقال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبيّ ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة. أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيداً لنا».

قال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد: جمعة وعرفة وعيد اليهود والنصارى والمجوس، ولم تجتمع أعياد أهل الملل في يوم قبله ولا بعده.

وروى هارون بن عنترة عن أبيه قال: لما نزلتْ هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه، فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبكيك يا عمر»؟ فقال: أبكاني أنّا كنّا في زيادة من ديننا، فأمّا إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، قال: «صدقت».

وكانت هذه الآية نعي النبيّ ﷺ وعاش بعدها إحدى وثمانين يوماً، ومات يوم الاثنين بعدما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل: تُوفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وكانت هجرته في الثاني عشر.

قوله عز وجل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، يعني: يوم نزول هذه الآية أكملت لكم دينكم، يعني الفرائض والسّنن والحُدود والجهاد والأحكام والحلال والحرام، فلم ينزل بعد هذه الآية حلالٌ ولا حرام، ولا شيء من الفرائض هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويُروى عنه أن آية الرِّبا نزلت بعدها، وقال سعد بن جبير وقتادة: أكملت لكم دينكم فلم يحج معكم مشرك.

وقيل: أظهرت دينكم وأمَّنتُكم من العدو.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، يعني: أنجزت وعدي في قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين، وحجّوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾. سمعت عبد الواحد المليحي قال: سمعت أبا محمد بن أبي حاتم، قال: سمعت أبا بكر النيسابوري سمعت أبا بكر محمد بن الحسن بن المسيب المروزي، سمعت أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي، سمعت عبد الملك بن مسلمة أبا مروان المصري سمعت إبراهيم بن أبي بكر بن المنكدر رضي الله عنه سمعت عمي محمد بن المنكدر، سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه، يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال جبريل عليه السلام: قال الله تعالىٰ: هذا دين ارتضيتُه لنفسي ولن يُصلِحَه إلا السخاءُ وحُسْنُ الخُلق، فأكرِمُوه بهما ما صحبْتُمُوه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾، أي: أجهد في مجاعة، والمخمصة خلوّ البطن من الغذاء، يقال: رجل خميص البطن إذا كان طاوياً خاوياً، ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، أي: مائل إلى إثم وهو أن يأكل فوق الشبع، وقال قتادة: غير متعرض لمعصية في مقصده، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وفيه إضمار، أي: فأكله فإنّ الله غفور رحيم.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي أنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحان أنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز المكي أنا أبو عبيد القاسم بن سلام أنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي واقد الليثي، أن رجلاً قال: يا رسول الله إنّا نكون بالأرض فتصيبُنا بها المخمصة فمتى تَحِلّ لنا الميتة؟ فقال: «ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تختفئوا بها بقلاً فشأنكم بها».

(٤) قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ الآية، قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير، قالا: يا رسول الله إنّا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحلّ لنا

منها؟ فنزلت هذه الآية.

وقيل: سبب نزولها أن النبيّ ﷺ لما أمر بقتل الكلاب قالوا: يا رسول الله ماذا يحلّ لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية، فلمّا نزلت أذِنَ رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي يُنتفع بها، ونهى عن إمساك مَا لا نفعَ فيه منها.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بِشْرَان أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرَّمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط»، والأول أصح في سبب نزول هذه الآية.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، يعني: الذبائح على اسم الله تعالىٰ، وقيل: كل ما تستطيبه العرب وتستلذّه من غير أنْ يرد بتحريمه نصٌّ من كتاب أو سنة ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾، يعني: وأحل لكم صيد ما علّمتم من الجوارح.

واختلفوا في هذه الجوارح، فقال الضحاك والسدي: هي الكلاب دون غيرها، ولا يحل ما صاده غير الكلب إلا أن يُدْرِكَ ذكاته، وهذا غير معمول به، بل عامة أهل العلم على أنّ المراد من الجوارح الكواسب من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ومن سباع الطير كالبازي والعُقاب والصقر ونحوها ممّا يقبل التعليم، فيَحلّ صيدُ جميعها، سميت جارحة: لجرحها لأربابها أقواتهم من الصيد، أي: كسبها، يقال: فلان جارحة أهله، أي: كاسبهم، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، والمُكلّب الذي يغري الكلاب على الصيد، ويقال للذي يعلمها أيضاً: مُكلِّب، والكلاّب: صاحب الكلاب، ويقال للصائد بها أيضاً كلاّب، ونصبُ مكلّبين على الحال، أي: في حال تكليبكم هذه الجوارح أي إغرائكم إيّاها على الصيد، وذكر الكلاب لأنها أكثر وأعمّ، والمراد جميع جوارح الصيد، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾، تؤدّبونهن آداب أخذ الصيد، ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: من العلم الذي علّمكم الله، قال السدي: أي: كما علّمكم الله، «من» بمعنى الكاف، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، أراد أن الجارحة المعلّمة إذا خرجتْ بإرسال صاحبها فأخذتِ الصيدَ وقتلتْه كان حلالاً، والتعليم هو أن يُوجِدَ فيها ثلاثة أشياء: إذا أُشليتْ اسْتَشْلَتْ، وإذا زُجِرَتْ انْزَجَرَتْ، وإذا أخذتِ الصيدَ أَمْسَكتْ ولم تأكل، وإذا وجد ذلك منه مراراً وأقلها ثلاث مرات كانت معلّمة، يحل قتلها إذا خرجت بإرسال صاحبها.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا ثابت بن زيد عن عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم: عن النبيّ ﷺ قال: «إذا أرسلتَ كلبكَ المعلّم وسمّيتَ فأمسكَ وقتلَ فَكُلْ، وإن أكل فلا تأكل فإنّما أمسك على نفسه، وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكنَ وقتلنَ فلا تأكل فإنك لا تدري أيّها قتل، وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُلْ، وإن وقع في الماء فلا تأكل».

واختلفوا فيما إذا أخذت الصيد وأكلت منه شيئاً: فذهب أكثر أهل العلم إلىٰ تحريمه، رُوي ذلك عن ابن عباس، وهو قول عطاء وطاووس والشعبي، وبه قال الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصح قولي الشافعي لقوله ﷺ: «وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه».

ورخص بعضهم في أكله رُوي ذلك عن ابن عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص، وبه قال مالك: لِما رُوي عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلتَ كلبكَ وذكرتَ اسمَ اللّهِ تعالىٰ فكُلْ وإن أكل منه».

أمّا غير المعلم من الجوارح إذا أخذ صيدا أو المعلم إذا خرج بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فلا يكون حلالاً إلا أن يدركه صاحبه حياً فيذبحه، فيكون حلالاً.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن يزيد أنا حيوة أخبرني ربيعة بن يزيد الدمشقي عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت: يا نبيّ الله إنّا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في

آنيتهم، وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلّم، وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: «أمّا ما ذكرت من آنية أهل الكتاب، فإنْ وجدتُم غيرَها فلا تأكلُوا فيها، وإن لم تجدُوا فاغسلُوها وكلُوا فيها، وما صِدْتَ بقوسك فذكرتَ اسمَ اللّهِ عليه فكُلْ، وما صِدْتَ بكلبك المعلّم فذكرت اسم الله عليه فكل وما صِدْت بكلبك غير المعلّم فأدركتَ ذكاته فكُلْ».

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ففيه بيان أن ذكرَ اسم الله عزّ وجلّ على الذبيحة شرطٌ حالةَ ما يُذبح، وفي الصيد حالةَ ما يُرسِلُ الجارحةَ أو السهمَ.

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علويه الجوهري قال: أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن الأثرم المقري بالبصرة حدثنا عمر بن شبية أنا ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن أنس قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر، قال: رأيته واضعاً قدمه على صِفَاحِهِمَا ويذبحهما بيده ويقول: «بسم الله والله أكبر».

⑤ قوله عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، يعني: الذبائح على اسم الله عزّ وجلّ، ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾، يريد ذبائح اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبي محمد ﷺ حلالٌ لكم، فأمّا من دخل في دينهم بعد مبعث محمد ﷺ فلا تحلّ ذبيحتُه، ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله كالنصراني يذبح باسم المسيح فاختلفوا فيه، قال عمر: لا يحلّ وهو قول ربيعة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحلّ وهو قول الشعبي وعطاء والزهري ومكحول، سُئل الشعبي ومكحول عن النصراني يذبح باسم المسيح، قالا: يَحِلُّ فإن الله تعالىٰ قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون، وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي أو النصراني فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكله فإذا غاب عنك فكُلْ فقد أحلّ الله لك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾، فإن قيل: كيف شرع لهم حِلّ طعامنا وهم كفار ليسوا من أهل الشرع؟ قال الزجاج: معناه حلال لكم أن تطعموهم فيكون خطاب الحِلّ مع المسلمين، وقيل: لأنه ذكر عقيبه حكم النساء، ولم يذكر حِلّ المسلمات لهم فكأنه قال حلالٌ لكم أن تطعموهم حرامٌ عليكم أن تُزوّجوهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، هذا راجع إلى الأول منقطع عن قوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

اختلفوا في معنى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾، فذكر أكثر العلماء إلى أنّ المراد منهن الحرائر، وأجازوا نكاح كل حرة مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة، وهو قول مجاهد، وقال هؤلاء: لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون الأمة مؤمنة، وجوّز أكثرُهم نكاح الأمة الكتابية الحربية، وقال ابن عباس: لا يجوز وقرأ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فمن أعطى الجزية حَلّ لنا نساؤه ومن لم يعطِها فلا يحلّ لنا نساؤه.

وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات في الآية: العفائف من الفريقين حرائر كنّ أو إماء وأجازوا نكاح الأمة الكتابية، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهو قول الحسن، وقال الشعبي: إحصان الكتابية أن تستعف من الزنا وتغتسل من الجنابة.

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، غير مُعالنين بالزنا، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾، أي: غير مُسرّين بالزنا، قال الزجاج: حرّم الله الجماع على جهة السفاح وعلى جهة اتّخاذ الصديقة، وأحلّه على جهة الإحصان وهو التزوّج.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، قال مقاتل بن حيان: يقول ليس إحصان المسلمين إياهنّ بالذي يخرجهنّ من الكفر أو يغني عنهنّ شيئاً وهي للناس عامة، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

الجزء السادس — سورة المائدة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩

١٠٨

مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، أي: بالله الذي يجب الإيمانُ به.

وقال الكلبي: بالإيمان أي: بكلمة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله.

وقال مقاتل: بما أُنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وقيل: ومن يكفر بالإيمان، أي: يستحلّ الحرامَ ويحرّم الحلالَ فقد حَبِط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين، قال ابن عباس: خسر الثواب.

٦ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: إذا أردتُم القيامَ إلى الصلاةِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردتَ القراءةَ.

وظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء عند كلّ مرّة يريد القيام إلى الصّلاة، لكن علمنا ببيان السنّة وفعل النبيّ ﷺ أنّ المرادَ من الآية: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأنتم على غير طُهر، قال النبيّ ﷺ: «لا يقبلُ اللّهُ صلاةَ أحدكم إذا أحدثَ حتى يتوضأ».

وقد جمع النبيّ ﷺ يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنيفي أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حليم أنا أبو الموجّه محمد بن عمرو بن الموجّه أنا عبدان أنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أنّ النبيّ ﷺ صلّى يومَ فتحِ مكةَ الصلواتِ بوضوءٍ واحد، ومسح على خُفّيه.

وقال زيد بن أسلم: معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم.

وقال بعضهم: هو أمر على طريق النّدب، ندب لمن قام إلى الصلاة أن يجدّد لها طهارته وإن كان على طُهر، روى ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَن توضأ على طُهرٍ كتب اللّهُ له عشرَ حسناتٍ».

ورُوي عن عبد الله بن حنظلة بن عامر «أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء عند كلّ صلاةٍ طاهراً أو غير طاهر، فلمّا شقّ ذلك عليه أمر بالسّواك لكلّ صلاةٍ».

وقال بعضهم: هذا إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ أن لا وضوء عليه إلاّ إذا قام إلى الصلاةِ دون غيرها من الأعمال، فأذن له أن يفعل بعد الحدث ما بَدَا له من الأفعال غير الصلاة، أخبرنا أبو القاسم الحنيفي أنا أبو الحارث الطاهري أنا الحسن بن محمد بن حليم أنا أبو الموجه أنا صدقة أنا ابن عُيينة عن عمرو بن دينار سمع سعيد بن الحويرث سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كنّا عند النبيّ ﷺ فرجع من الغائط فأُتيَ بطعام فقيل له: ألا تتوضأ؟ فقال: «لِم؟ أصلّ فأتوضأ؟».

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، وحدُّ الوجه من مَنابِتِ شعر الرأس إلى مُنتهى الذقن طولاً وما بين الأذنين عرضاً يجب غسل جميعه في الوضوء، ويجب أيضاً إيصالُ الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والشارب والعذار والعنفقة وإن كانت كثيفة، وأمّا العارض واللحية فإن كانت كثيفة لا تُرى البشرة من تحتها لا يجب غسل باطنها في الوضوء، بل يجب غسل ظاهرها، وهل يجب إمرارُ الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان:

أحدهما: لا يجب وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه لأن الشعر النازل عن حدّ الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس في جواز المسح عليه، كذلك النازل عن حدّ الوجه لا يكون حكمه حكم الوجه في وجوب غسله.

والقول الثاني: يجب إمرار الماء على ظاهره، لأن الله تعالى أمر بغسل الوجه، والوجه ما يقع به المواجهة من هذا العضو، ويقال في اللغة: بقل وجه فلان وخرج وجهه: إذا نبتت لحيته.

قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، أي: مع المرافق؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، أي: مع أموالكم، وقال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤]، أي: مع الله.

وأكثر العلماء على أنه يجب غسل المرفقين، وفي الرِّجْل يجب غسل الكعبين، وقال الشعبي ومحمد بن جرير: لا يجب غسل المرفقين والكعبين في اليد والرِّجْل لأن حرف «إلى» للغاية والحدّ، فلا يدخل في المحدود.

قلنا: ليس هذا بحدّ ولكنه بمعنى مع كما ذكرنا، وقيل: الشيء إذا حدّ إلى جنسه يدخل فيه الغاية، وإذا حدّ إلى غير جنسه لا يدخل؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، لم يدخل الليل فيه لأنه ليس من جنس النهار.

قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، اختلف العلماء في قدر الواجب من مسح الرأس، فقال مالك: يجب مسح جميع الرأس كما يجب مسح جميع الوجه في التيمّم، وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربع الرأس، وعند الشافعي رحمه الله: يجب قدرُ ما يُطلق عليه اسم المسح.

واحتجّ من أجاز مسح بعض الرأس بما أخبرنا عبد الوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا يحيى بن حسان عن حماد بن زيد وابن علية عن أيوب السختياني عن ابن سيرين عن عمرو بن وهب الثقفي عن المغيرة بن شعبة: «أن النبيّ ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى عمامته وخُفّيه». فأجاز بعض أهل العلم المسح على العمامة بهذا الحديث، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحاق ولم يُجوّز أكثر أهل العلم المسح على العمامة بدلاً من مسح الرأس، وقالوا: في حديث المغيرة إن فرض المسح سقط عنه بمسح الناصية، وفيه دليل على أن مسح جميع الرأس غير واجب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بنصب اللام، وقرأ الآخرون: «وأرجُلِكم» بالخفض، فمن قرأ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب فيكون عطفاً على قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، أي: واغسلوا أرجلكم، ومن قرأ بالخفض فقد ذهب قليل من أهل العلم إلى أنه يمسح على الرجلين، ورُوي عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان، ويُروى ذلك عن عكرمة وقتادة، وقال الشعبي: نزل جبريل بالمسح وقال: ألا ترى المتيمّم يمسح ما كان غسلاً ويلغي ما كان مسحاً.

وقال محمد بن جرير الطبري: يتخيّر المتوضّىء بين المسح على الخفين وبين غسل الرجلين.

وذهب عامّة أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى وجوب غسل الرجلين، وقالوا: خفض اللاّم في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، فالأليم صفة العذاب، ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة، وكقولهم: جُحْرُ ضبٍ خربٍ، فالخرب نعت للجُحر، وأخذ إعراب الضب للمجاورة، والدليل على وجوب غسل الرجلين ما:

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي الخطيب أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب أنا يحيى بن محمد بن يحيى أنا الحجبي ومسدد قالا: أخبرنا أبو عوانة عن أبي بشرٍ عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلّف عنّا رسول الله ﷺ في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر، ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته: «وَيلٌ للأعقابِ مِنَ النّارِ».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدثنا عبدان أنا عبد الله أنا معمر حدثني الزهري عن عطاء بن يزيد عن حمران مولى عثمان قال: رأيتُ عثمان رضي الله عنه توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق واستنثر، ثم

غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل يده اليسرى إلى المرفق ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ثم اليسرى ثلاثاً، ثم قال: رأيتُ رسول الله ﷺ توضأ نحو وُضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يُحدّث نفسَه فيهما بشيء غفر الله له ما تقدّم من ذنبه».

وقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ المسح على الخفين كما رُوي أنّ النبيّ ﷺ كان إذا ركع وضع يديه على ركبتيه. وليس المراد منه أنه لم يكن بينهما حائل، يُقال: قبّلَ فلان رأس الأمير ويده، وإن كانت العمامة على رأسه ويده في كمه.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا زكريا عن عامر عن عروة بن المغيرة عن أبيه رضي الله عنهما قال: «كنتُ مع النبيّ ﷺ ذات ليلة في سفر فقال: «أمعك ماء»، فقلت: نعم، فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عني في سواد الليل، ثم جاء فأفرغتُ عليه من الإداوة فغسل وجهه ويديه وعليه جبة من صوف فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبة فغسل ذراعيه، ثم مسح برأسه، ثم أهويتُ لأنزع خفّيه فقال: «دعْهما فإني أدخلتُهما طاهرتين»، فمسح عليهما.

قوله تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، والكعبان هما العظمان الناتئتان من جانبي القدمين، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، فيجب غسلهما مع القدمين كما ذكرنا في المرفقين.

وفرائضُ الوضوء: غسل الأعضاء الثلاثة كما ذكر الله تعالىٰ، ومسح الرأس، واختلف أهل العلم في وجوب النيّة: فذهب أكثرهم إلى وجوبها لأنّ الوضوء عبادة تفتقر إلى النية كسائر العبادات، وذهب بعضهم إلى أنها غير واجبة وهو قول الثوري وأصحاب الرأي.

واختلفوا في وجوب الترتيب وهو أن يغسل أعضاءه على الولاء كما ذكر الله تبارك وتعالىٰ: فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق رحمهم الله، ويُروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه.

واحتجّ الشافعي بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وبدأ النبيّ ﷺ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»، وكذلك هٰهنا بدأ الله تعالىٰ بذكر غسل الوجه فيجب علينا أن نبدأ فعلاً بما بدأ الله تعالىٰ به ذكرا.

وذهب جماعة إلى أنّ الترتيب سنّة، وقالوا: الواوات المذكورة في الآية للجمع لا للترتيب؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية، واتفقوا على أنه لا تجب مراعاة الترتيب في صرف الصدقات إلى أهل السهمان، ومن أوجب الترتيب أجاب بأنه لم يُنقل عن النبيّ ﷺ أنه راعى الترتيب بين أهل السهمان، وفي الوضوء لم ينقل أنه توضأ إلا مرتباً كما ذكر الله تعالىٰ، وبيان الكتاب يُؤخذ من السنة؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، لمّا قدم ذكر الركوع على السجود، ولم ينقل عن النبيّ ﷺ أنه فعل إلاّ كذلك فكان مراعاة الترتيب فيه واجباً، كذلك الترتيب هٰهنا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، أي: اغتسلوا. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها «أن النبيّ ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء فيخلل بها أصول شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على جلده كله».

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾، فيه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾، بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمّم، ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾: ضيق، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، من الأحداث والجنابات والذنوب، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قال محمد بن كعب القرظي: إتمام النعمة تكفير

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

الخطايا بالوضوء؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فجعل تمام نعمته غفران ذنوبه.

أخبرنا أبو الحسن عبدالوهاب بن محمد الكسائي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران: أنّ عثمان توضأ بالمقاعد ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من توضّأ وضوئي هذا خرجتْ خطاياه من وجهه ويديه ورجليه».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران مولى عثمان: أنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه جلس على المقاعد يوماً فجاءه المؤذّن فآذنه بصلاة العصر فدعا بماء فتوضأ، ثم قال: والله لأحدثنّكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، ثم قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرىءٍ مسلم يتوضأ فيُحسن وضوءه ثم يُصلي الصلاةَ إلاّ غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصلّيها»، قال مالك: أراه يريد هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٧]، ورواه ابن شهاب، وقال عروة: الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩].

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى بن بكير أنا الليث عن خالد عن سعيد بن [أبي] هلال عن نعيم المجمر قال: رقيت مع أبي هريرة رضي الله عنه على ظهر سطح المسجد، فتوضأ قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ أمتي يُدعون يومَ القيامة غُراً محجّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع أن يُطيلَ منكم غُرتَه فليفعل».

﴿٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: النعم كلها، ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، عهده الذي عاهدكم به أيها المؤمنون، ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وذلك حين بايعوا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة وفيما أحبوا وكرهوا، وهو قول أكثر المفسّرين، وقال مجاهد ومقاتل: يعني الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، بما في القلوب من خير وشر.

﴿٨﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: كونوا له قائمين بالعدل قوّالين بالصدق، أمرهم بالعدل والصدق في أفعالهم وأقوالهم، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، ولا يحملنّكم، ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾، بغضُ قوم، ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟﴾، أي: على ترك العدل فيهم لعداوتهم. ثم قال: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾، يعني: في أوليائكم وأعدائكم، ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، يعني: إلى التقوى، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٩﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا في موضع النصب، لأن فعل الوعد واقع على المغفرة ورفعها على تقدير، أي: وقال لهم: مغفرة وأجر عظيم.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿١١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، بالدفع عنكم، ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، بالقتل.

قال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخل فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة، فأطلع الله تبارك وتعالىٰ نبيه على ذلك، وأنزل الله صلاة الخوف.

وقال الحسن: كان النبيّ ﷺ محاصراً غطفان بنخل، فقال رجل من المشركين: هل لكم في أن أقتل محمداً؟ قالوا: وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قالوا: وددنا أنك قد فعلت ذلك، فأتى النبيّ ﷺ، والنبيُّ ﷺ متقلّد سيفه، فقال: يا محمد أرني سيفك فأعطاه إيّاه فجعل الرجل يهزّ السيف، وينظر مرة إلى السيف ومرة إلى النبيّ ﷺ، وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: «الله»، فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فشام السيف ومضى، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

وقال مجاهد وعكرمة والكلبي وابن يسار عن رجاله: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي وهو أحد النقباء ليلة العقبة، في ثلاثين راكباً من المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة، فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة، وهي من مياه بني عامر فاقتتلوا فقتل المنذر بن عمرو وأصحابه إلا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالّة لهم، أحدهم عمرو بن أمية الضمري، فلم يرعهم إلا الطير تحوم في السماء تسقط من بين خراطيمها علق الدم، فقال أحد النفر: قتل أصحابنا ثم تولّى يشتد حتى لقي رجلاً فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه، وقال: الله أكبر الجنّة وربّ العالمين، فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم، وكان بين النبيّ ﷺ وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بني عامر فقتلاهما فقدم قومهما إلى النبيّ ﷺ يطلبون الدية، فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهم، حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما، وكانوا قد عاهدوا النبيّ ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديّات، قالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلسْ حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحاش: أنا، فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالىٰ يده وجاء جبريل وأخبره، فخرج النبيّ ﷺ راجعاً إلى المدينة ثم دعا علياً فقال: لا تبرح مقامك فمن خرج عليك من أصحابي فسألك عني فقل: توجّه إلى المدينة، ففعل ذلك عليّ رضي الله عنه حتى تناهوا إليه ثم تبعوه، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية وقال: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(١٢) قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون، فلما استقرت لبني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالىٰ بالسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة، وكانت لها ألف قرية في كل قرية ألف بستان، وقال: يا موسى إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فإني ناصرك عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيباً من كل سبط نقيباً، يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أُمروا به، فاختار موسى النقباء وسار موسى ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء، فبعث هؤلاء النقباء يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها، فلقيهم رجل من الجبابرة يقال له عوج بن عنق، وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاث وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، وكان يحتجز بالسحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله. ويُروى أن الماء في زمن نوح عليه السلام طبق ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتي عوج، وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدي موسى عليه السلام، وذلك أنه جاء وقلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى عليه السلام، وكان فرسخاً في فرسخ، وحملها ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فقوّر الصخرة بمنقاره فوقعت في عنقه

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

فصرعته، فأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله، وكانت أمه عنق إحدى بنات آدم وكان مجلسها جريباً من الأرض، فلما لقي عوج النقباء وعلى رأسه حزمة من حطب أخذ الاثني عشر وجعلهم في حجزته وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: لا بل خلِّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك.

وروي: أنه جعلهم في كمّه وأتى بهم إلى الملك فطرحم بين يديه، فقال الملك: ارجعوا فأخبروهم بما رأيتم، وكان لا يحمل عنقوداً من عنبهم إلا خمسة أنفس منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع منها حبها خمسة أنفس، فرجع النقباء وجعلوا يتعرفون أحوالهم، وقال بعضهم لبعض: يا قوم، إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدوا عن نبيّ الله ﷺ ولكن اكتموا، وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم أنهم نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى إلا رجلان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾، ناصركم على عدوّكم، ثم ابتدأ الكلام فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يا معشر بني إسرائيل، ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، نصرتموهم، وقيل: ووقّرتموهم وعظّمتموهم، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قيل: هو إخراج الزكاة، وقيل: هو النفقة على الأهل، ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، لأمحونّ عنكم سيئاتكم، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: أخطأ قصد السبيل، يريد طريق الحق، وسواء كل شيء: وسطه.

﴿١٣﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، أي: فبنقضهم، و﴿مَا﴾ صلة، ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾، قال قتادة: نقضوه من وجوه لأنهم كذّبوا الرسل الذين جاؤوا بعد موسى وقتلوا الأنبياء ونبذوا كتابه وضيّعوا فرائضه، ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾، قال عطاء: أبعدناهم من رحمتنا، قال الحسن ومقاتل: عذبناهم بالمسخ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿قَسِيَّةً﴾ بتشديد الياء من غير ألف، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَٰسِيَةً﴾ أي يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق، ومنه الدراهم القاسية وهي الرديّة المغشوشة.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، قيل: هو تبديلهم نعت النبيّ ﷺ، وقيل: تحريفهم بسوء التأويل، ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، أي: وتركوا نصيبَ أنفسهم مما أُمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته، ﴿وَلَا تَزَالُ﴾، يا محمد، ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: على خيانة، فاعلة بمعنى المصدر كالكاذبة واللاّغية، وقيل: هو بمعنى الفاعل والهاء للمبالغة مثل روّاية ونسابة وعلاّمة وحسّابة، وقيل: على فرقة خائنة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ﴾، أي: على معصية، وكانت خيانتهم نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ وهمّهم بقتله وسمّه، ونحوهما من خياناتهم التي ظهرت منهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم الذين

أسلموا من أهل الكتاب، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾، أي: أعرض عنهم ولا تتعرض لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف.

(١٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾، قيل: أراد بهم اليهود والنصارى فاكتفى بذكر أحدهما، والصحيح أن الآية في النصارى خاصة لأنه قد تقدم ذكر اليهود، وقال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى، أخذنا ميثاقهم في التوحيد والنبوّة، ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، بالأهواء المختلفة والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني بين اليهود والنصارى، وقال قوم: هم النصارى وحدهم صاروا فرقاً منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية وكل فرقة تكفر الأخرى، ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في الآخرة.

(١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، يريد يا أهل الكتابين، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، أي: من التوراة والإنجيل مثل صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم ولا يتعرّض له ولا يؤاخذكم به، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾، يعني: محمداً ﷺ، وقيل: الإسلام، ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، أي: بيّن، وقيل: مبين وهو القرآن.

(١٦) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾، رضاه، ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾، قيل: السلام هو الله عزّ وجلّ وسبيله دينه الذي شرع لعباده، وبعث به رسله، وقيل: السلام هو السلامة، كاللذاذ واللذاذة بمعنى واحد، والمراد به طرق السلامة، ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ﴿بِإِذْنِهِ﴾، بتوفيقه وهدايته، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو الإسلام.

(١٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وهم اليعقوبية من النصارى يقولون المسيح هو الله تعالى، ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، أي: من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً إذا قضاه؟ ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، قيل: أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا في الحنوّ والعطف، ونحن كالأبناء له في القرب والمنزلة، وقال إبراهيم النخعي: إن اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري، فبدلوا يا أبناء أبكاري، فمن ذلك قالوا نحن أبناء الله، وقيل: معناه نحن أبناء الله يعني أبناء رسل الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، يريد إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه فإن الأب لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مقرون أنه معذبكم؟ وقيل: فلم يعذبكم، أي: لِمَ عذب من قبلكم بذنوبهم فمسخهم قردة وخنازير؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾، كسائر بني آدم مجزيون بالإساءة والإحسان، ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فضلاً، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عدلاً، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

(١٩) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، محمد ﷺ،

الجزء السادس — سورة المائدة

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)

١١١

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أعلام الهدى وشرائع الدين، ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾، أي: على انقطاع من الرسل.

واختلفوا في مدة الفترة بين عيسى عليه السلام وبين محمد ﷺ، قال أبو عثمان النهدي: ستمائة سنة، قال قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال معمر والكلبي: خمسمائة وأربعون سنة، وسُمّيتْ فترة لأن الرسل كانت تترى بعد موسى عليه السلام من غير انقطاع إلى زمن عيسى عليه السلام، ولم يكن بعد عيسى عليه السلام سوى رسولنا ﷺ. ﴿أَن تَقُولُوا﴾، كيلا تقولوا، ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ﴾، أي: منكم أنبياء، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أصحاب خدم وحشم، قال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم. ورُوي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكاً».

وقال أبو عبد الرحمٰن الحُبلي: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، سأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإنّ لي خادماً، قال: فأنت من الملوك.

قال السدي: وجعلكم ملوكاً أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم. قال الضحاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جارٍ فهو ملك. ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: عالمي زمانكم، قال مجاهد: يعني المنّ والسّلوى والحَجَر وتظليل الغمام.

(٢١) قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، اختلفوا في الأرض المقدسة، قال مجاهد: هي الطور وما حوله، وقال الضحاك: إيليا وبيت المقدس، وقال عكرمة والسدي: هي أريحاء، وقال الكلبي: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هي الشام كلها، قال كعب: وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده.

قوله عزّ وجلّ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، يعني: كتب في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن، وقال ابن إسحاق: وهبَ اللّهُ لكم، وقيل: جعلها لكم، وقال السدي: أمركم الله بدخولها، وقال قتادة: أُمروا بها كما أُمروا بالصلاة، أي: فَرَض عليكم. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾، أعقابكم بخلاف أمر الله، ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له: انظر ما أدركه بصرك فهو مقدّس وهو ميراث لذريّتك.

(٢٢) ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، وذلك أن النقباء الذين خرجوا يتجسّسون الأخبار لمّا رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا، قال لهم موسى: اكتموا شأنهم ولا تخبروا به أحداً من أهل العسكر فيفشلوا، فأخبر كل رجل منهم قريبه وابن عمه إلا رجلان وفّيا بما قال لهم موسى، أحدهما يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهم السلام فتى موسى، والآخر كالب بن يوقنا ختن موسى عليه السلام على أخته مريم بنت عمران، وكان من سبط يهودا وهما النقباء فعلمت جماعة من بني إسرائيل ذلك ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا في أرض مصر، ولَيْتَنا نموتُ في هذه البرية ولا يُدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمةً لهم، وجعل الرجل يقول لصاحبه: تعال نجعل علينا رأساً وننصرف إلى مصر، فذلك قوله تعالى أخباراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، وأصل الجبار: المتعظّم الممتنع عن القهر، يُقال: نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدي إليها، وسُمّي أولئك القوم جبارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم، وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد، فلما قال بنو إسرائيل ما قالوا وهمّوا بالانصراف إلى مصر خرّ موسى وهارون عليهما السلام

ساجدين، وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما في قوله تعالى:

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، أي: يخافون الله تعالى، قرأ سعيد بن جبير ﴿يُخَافُونَ﴾ بضم الياء، وقال: الرجلان كانا من الجبارين فأسلما واتبعا موسى، ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتوفيق والعصمة، قالا: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾، يعني: قرية الجبارين، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾، لأن الله منجز وعده، وإنا رأيناهم فكانت أجسادهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوْهما.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ مما عدل به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرق وجهه وسرّه ما قال. فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من مخالفتهم أمر ربهم وهمِّهم بيوشع وكالب غضب موسى عليه السلام ودعا عليهم:

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾، قيل معناه: وأخي لا يملك إلا نفسه، وقيل: معناه لا يطيعني إلا نفسي وأخي، ﴿فَٱفْرُقْ﴾، فافصل، ﴿بَيْنَنَا﴾ وقيل: فاقض بيننا، ﴿وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، العاصين.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾، قيل: ههنا تمّ الكلام ومعناه تلك البلدة محرمة عليهم أبداً لم يرد به تحريم تعبّد، وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى: بي حلفت لأحرمنّ عليهم دخول الأرض المقدّسة غير عبدي يوشع وكالب، ولأتيهنّهم في هذه البرية ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، يتيهون مكان كل يوم من الأيام التي تجسّسوا فيها سنة، ولألقين جيفهم في هذه القفار، وأمّا بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، ﴿يَتِيهُونَ﴾، يتحيّرون، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: لا تحزن على مثل هؤلاء القوم، فلبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ وهم ستمائة ألف مقاتل، وكانوا يسيرون كل يوم جادين فإذا أمسوا كانوا في الموضع الذي ارتحلوا عنه.

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

١١٢

وقيل: إن موسى وهارون عليهما السلام لم يكونا فيهم، والأصح أنهما كانا فيهم ولم يكن لهما عقوبة وإنما كانت العقوبة لأولئك القوم، ومات في التيه كل من دخلها ممن جاوز عشرين سنة غير يوشع وكالب، ولم يدخل أريحاء أحد ممن قالوا: إنا لن ندخلها أبداً فلما هلكوا وانقضت الأربعون سنة، ونشأت النواشىء من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبارين.

واختلفوا فيمن تولى تلك الحرب وعلى يدي من كان الفتح، فقال قوم: إنما فتح موسى أريحاء وكان يوشع على مقدمته، فسار موسى عليه السلام إليهم بمن بقي من بني إسرائيل، فدخلها يوشع وقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى عليه السلام فأقام فيها ما شاء الله تعالى، ثم قبضه الله تعالى إليه، ولا يعلم قبره

أحد، وهذا أصحّ الأقاويل لاتفاق العلماء أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام.

وقال الآخرون: إنما قاتل الجبارين يوشع ولم يسر إليهم إلا بعد موت موسى عليه السلام، وقالوا: مات موسى وهارون جميعاً في التيه.

قصة وفاة هارون

قال السدي: أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى أني متوفي هارون فأت به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون عليهما السلام نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يُرَ مثلها وإذا ببيت مبني وفيه سرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه، فقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال: فنم عليه، فقال: إني أخاف أن يأتي ربُّ هذا البيت فيغضب عليّ، قال له موسى: لا ترهب إني أكفيك أمر ربِّ هذا البيت فنم، قال: يا موسى نم أنت معي فإن جاء ربُّ البيت غضب عليّ وعليك جميعاً فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد منيته قال: يا موسى خدعتني، فلما قبض رفع البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده لحبّ بني إسرائيل له، فقال موسى عليه السلام: ويحكم كان أخي فكيف أقتله، فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا الله تعالىٰ فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدّقوه.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل فمات هارون وبقي موسى، فقالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته، فآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلّمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرّأه الله تعالىٰ ممّا قالوا، ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه فلم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم، فجعله الله أصمّ وأبكم.

وقال عمرو بن ميمون: مات هارون قبل موت موسى عليه السلام في التيه، وكانا قد خرجا إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل، فقالوا: قتلتَه لحبّنا إيّاه، وكان محبباً في بني إسرائيل، فتضرّع موسى عليه السلام إلى ربّه عزّ وجلّ فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإني باعثه، فانطلق بهم إلى قبره فناداه موسى، فخرج من قبره ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتُك؟ قال: لا ولكني مت، قال: فعد إلى مضجعك، وانصرفوا.

وأمّا وفاة موسى عليه السلام، قال ابن إسحاق: كان موسى عليه الصّلاة والسلام قد كره الموت وأعظمه، فأراد الله أن يحبّب إليه الموت، فنبّأ يوشع بن نون وكان يغدو ويروح عليه، فيقول له موسى عليه السلام: يا نبيّ الله ما أحدث الله إليك؟ فيقول له يوشع: يا نبيّ الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنتُ أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدىء به وتذكره؟ ولا يذكر له شيئاً، فلما رأى ذلك موسى كره الحياة وأحب الموت.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبّه قال: أخبرنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران، فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع ملك الموت إلى الله تعالىٰ فقال: إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني قال فردّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: الحياةَ تريد؟ فإن كنتَ تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارثْ يدُك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب ربِّ أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال رسول الله ﷺ «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

وقال وهب: خرج موسى لبعض حاجته فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم ير شيئاً قط أحسن منه، ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لم تحفرون هذا القبر؟ قالوا: لعبد كريم على ربّه، فقال:

إن هذا العبدَ من الله لهو بمنزلة ما رأيت كاليوم مضجعاً قط، فقالت الملائكة: يا صفيّ الله تحب أن يكون لك؟ قال: وددت، قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك، قال: فاضطجع فيه وتوجه إلى ربه ثم تنفس أسهل تنفس فقبض الله تبارك وتعالىٰ روحه، ثم سوّت عليه الملائكة.

وقيل: إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه.

وكان عُمر موسى مائة وعشرين سنة، فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الأربعون سنة، بعث الله يوشع نبياً فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبابرة، فصدّقوه وتابعوه فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق، فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر، فلما كان السابع نفخوا في القرون وضجّ الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة، ودخلوا فقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم، وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها حتى يقطعوها، وكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت، فقال: اللّهمّ ارددِ الشمسَ عليّ، وقال للشمس: إنك في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ وأنا في طاعته فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله تعالىٰ قبل دخول السبت، فردت عليه الشمس وزيدت في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين، وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام، وصارت الشام كلها لبني إسرائيل وفرّق عماله في نواحيها وجمع الغنائم، فلم تنزل النار، فأوحى الله إلى يوشع أن فيها غلولاً فمرْهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال: هلمّ ما عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجواهر كان قد غلّه، فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان، ثم مات يوشع ودفن في جبل أفرائيم، وكان عمره مائة وستاً وعشرين سنة، وتدبيره أمر بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام سبعاً وعشرين سنة.

(٢٧) قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾، وهما هابيل وقابيل، ويقال له قابين، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾، وكان سبب قربانهما على ما ذكره أهل العلم أن حواء كانت تلد لآدم عليه السلام في كل بطن غلاماً وجارية، وكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته أقليما، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث، ثم بارك الله عزّ وجلّ في نسل آدم عليه السلام، قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً.

واختلفوا في مولد قابيل وهابيل، فقال بعضهم: غشي آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته أقليما في بطن واحد، ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت فيها بقابيل وتوأمته أقليما، فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً حتى ولدتهما، ولم تر معهما دماً فلما هبطا إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم، وكان آدمُ إذا شبّ أولاده يزوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء إلا توأمته التي ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم، فلما ولد قابيل وتوأمته أقليما ثم هابيل وتوأمته لبودا، وكان بينهما سنتان في قول الكلبي وأدركوا، أمَرَ الله تعالىٰ آدم عليه السلام أن ينكح قابيل لبودا أخت هابيل وينكح هابيل أقليما أخت قابيل، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فذكر ذلك آدم لولده فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: هي أختي أنا أحق بها، ونحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض، فقال له أبوه: إنها لا تحلّ لك فأبى أن يقبل ذلك، وقال: إن الله لم يأمره بهذا وإنما هو من رأيه، فقال لهما آدم عليه السلام: فقرّبا قرباناً فأيكما يُقبل قربانه فهو أحق بها، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار من السماء بيضاء فأكلتها، وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسباع، فخرجا ليقرّبا قرباناً وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام من أردأ زرعه

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

وأضمر في نفسه ما أبالي يقبل مني أم لا، لا يتزوج أختي أبداً، وكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقرّب به وأضمر في نفسه رضا الله عزّ وجلّ فوضعا قربانهما على الجبل، ثم دعا آدم عليه السلام فنزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾، يعني هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾، يعني: قابيل فنزلوا عن الجبل وقد غضب قابيل لردّ قربانه وكان يضمر الحسد في نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت، فلما غاب آدم أتى قابيل وهابيل وهو في غنمه، ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، قال: ولم، قال: لأن الله تعالىٰ قبل قربانك وردّ قرباني، وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس أنك خير مني ويفتخر ولدك على ولدي، ﴿قَالَ﴾ هابيل: وما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾، أي: مددت، ﴿إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال عبد الله بن عمر: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده، وهذا في الشرع جائز لمن أريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلباً للأجر، كما فعل عثمان رضي الله عنه، قال مجاهد: كتب عليهم في ذلك الوقت إذا أراد رجل قتل رجل أن لا يمتنع ويصبر.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾، ترجع، وقيل: تحمل، ﴿بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾، أي: بإثم قتلي إلى إثمك، أي: إثم معاصيك التي عملت من قبل، هذا قول أكثر المفسرين. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: معناه إني أريد أن تكون عليك خطيئتي التي عملتها أنا إذا قتلتني وإثمك فتبوء بخطيئتي ودمي جميعاً، وقيل: معناه أن ترجع بإثم قتلي وإثم معصيتك التي لم يتقبل لأجلها قربانك، أو إثم حسدك.

فإن قيل: كيف قال إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، وإرادة القتل والمعصية لا تجوز؟ قيل: ذلك ليس بحقيقة إرادة ولكنه لما علم أنه يقتله لا محالة وطّن نفسه على الاستسلام طلباً للثواب فكأنه صار مريداً لقتله مجازاً، وإن لم يكن مريداً حقيقة، وقيل: معناه إني أريد أن تبوء بعقاب قتلي فتكون إرادة صحيحة لأنها موافقة لحكم الله عزّ وجلّ، فلا يكون هذا إرادة للقتل بل لموجب القتل من الإثم والعقاب، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٣٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾، أي: طاوعته وشايعته وعاونته، ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي في قتل أخيه، وقال مجاهد: فشجعته، وقال قتادة: فزيّنت له نفسه، وقال يمان: سهّلت له نفسه ذلك، أي: جعلته سهلاً، تقديره: صوّرت له نفسه أن قتل أخيه طوع له أي سهل عليه، فقتله فلما قصد قابيل قتل هابيل لم يدر كيف يقتله، قال ابن جريج: فتمثل له إبليس وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر إليه فعلّمه القتل، فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين، قيل: قتل وهو مستسلم، وقيل: اغتاله وهو في النوم فشدخ رأسه فقتله، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة.

واختلفوا في موضع قتله، قيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم فَسْوَدَّ جسم القاتل وسأله آدم عليه السلام عن أخيه فقال: لم أكن عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته ولذلك اسودّ جسدك، مكث آدم مائة سنة لم يضحك قط منذ قتله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

على جبل ثور، وقيل: عند عقبة حراء، فلما قتله تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم، وقصدته السباع فحمله في جراب على ظهره أربعين يوماً، وقال ابن عباس: سنة، حتى أروح، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكّن له ثم ألقاه في الحفرة وواراه، وقابيل ينظر إليه، فذلك قوله تعالى:

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، فلما رأى قابيل ذلك ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾، أي: جيفته، وقيل: عورته لأنه كان قد سلب ثيابه، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، على حمله على عاتقه لا على قتله، وقيل: على فراق أخيه، وقيل: ندم لقلة النفع بقتله فإنه أسخط والديه، وما انتفع بقتله شيئاً ولم يكن ندمه على القتل وركوب الذنب.

قال عبدالمطلب بن عبد الله بن حنطب: لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء، فناداه الله: أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال الله تعالى: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلمَ قتلت أخاك؟ قال: فأين دمه إن كنتُ قتلته؟ فحرّم الله عزّوجلّ على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً.

وقال مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما قتل قابيل هابيل وآدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيّرت الأطعمة وحمضت الفواكه، وأمرّ الماء واغبرت الأرض، فقال آدم عليه السلام: قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل، فأنشأ يقول وهو أول من قال الشعر:

تغيّرتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوجهُ الأرض مغبرٌّ قبيح
تغيّر كل ذي لون طعم ... وقلّ بشاشةُ الوجه الصبيح
وروي المليح.

ورُوي عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من قال إن آدم عليه السلام قال شعراً فقد كذب، إن محمداً ﷺ والأنبياء كلّهم عليهم السلام في النهي عن الشعر سواء. ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، فلما قال آدم مرثيته قال لشيث: يا بني إنك وصي احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرقّ الناس عليه، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلّم بالعربية والسريانية وهو أول من خطّ بالعربية، وكان يقول الشعر فنظر في المرثية فردّ المقدم إلى المؤخر، والمؤخر إلى المقدم، ووزنه شعراً وزاد فيه أبيات منها:

وما لي لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة عليّ غمّاً ... فهل أنا من حياتي مستريح

فلما مضى من عمر آدم عليه السلام مائة وثلاثون سنة، وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له حواء شيثاً وتفسيره: هبة الله، يعني إنه خلف من هابيل علّمه الله تعالى ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادة الخالق في كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة فصار وصيّ آدم وولي عهده، وأما قابيل فقيل له: اذهب طريداً شريداً فزعاً مرعوباً لا تأمن من تراه، فأخذ بيد أخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدالنار فانصبْ أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيتاً للنار فهو أوّل من عبدالنار، وكان لا يمرّ به أحد إلا رماه، فأقبل ابن له أعمى ومعه ابن له، فقال ابنه: هذا أبوك قابيل، فرمى الأعمى أباه فقتله، فقال ابن الأعمى: قتلتَ أباك؟ فرفع يده فلطم ابنه، فمات فقال الأعمى: ويلٌ لي قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي.

وقال مجاهد: فعلقت إحدى رجلي قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس حيث ما دارت عليه في الصيف حظيرة من نار وفي الشتاء حظيرة من ثلج.

قالوا: واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير، وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان أيام نوح عليه السلام، وبقي نسل شيث.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا

أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث ثنا أبي ثنا الأعمش حدثني عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها لأنه أوّل من سنّ القتل».

(٣٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾، قرأ أبو جعفر من أجل ذلك بكسر النون موصولاً وقراءة العامة بجزم النون، أي: من جراء ذلك القاتل وجنايته، يقال: أجل يأجل أجلاً، إذا جنى، مثل أخذ يأخذ أخذاً، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، قتلها فيقاد منه، ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾، يريد بغير نفس وبغير فساد في الأرض من كفر أو زنا أو قطع طريق، أو نحو ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، اختلفوا في تأويلها، فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة: من قتل نبياً أو إماماً عدلاً فكأنما قتل الناسَ جميعاً، ومن شدّ عضد نبيٍّ أو إمام عدل فكأنما أحيا الناسَ جميعاً.

قال مجاهد: من قتل نفساً محرّمة يصلى النار بقتلها، كما يصلاها لو قتل الناس جميعاً، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ من سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعاً.

قال قتادة: أعظم الله أجرها وعظّم وزرها، معناه: من استحلّ قتل مسلم بغير حقه فكأنما قتل الناس جميعاً في الإثم لأنهم لا يسلمون منه، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، وتورّع عن قتلها، ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، في الثواب لسلامتهم منه، قال الحسن: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، يعني: أنه يجب عليه من القصاص له بقتلها مثل الذي يجب عليه لو قتل الناسَ جميعاً، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾: أي عفا عمّن وجب عليه القصاص له فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعاً، قال سليمان بن علي قلت للحسن: يا أبا سعيد أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ قال: إيْ والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، الآية. قال الضحاك: نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض.

وقال الكلبي: نزلت في قوم هلال بن عويمر، وذلك أن النبيّ ﷺ وَادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن مرّ بهلال بن عويمر إلى رسول الله ﷺ فهو آمن لا يهاج، فمرّ قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناس من أسلم من قوم هلال بن عويمر، ولم يكن هلال شاهداً فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم. وقال سعيد بن جبير: نزلت في ناس من عُرَيْنَة وعُكْل أتوا النبيّ ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فبعثهم النبيّ ﷺ إلى إبل الصدقة، فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عليّ بن عبد الله ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير حدثني أبو قلابة الجرمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم على النبيّ ﷺ نفر من عُكْل فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبيّ ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث النبيّ ﷺ في آثارهم، فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا.

ورواه أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: فقطع أيديهم وأرجلهم ثم أمر بمسامير فكحلهم بها وطرحهم بالحرة يستسقون فما يسقون حتى ماتوا. قال أبو قلابة: قتلوا وسرقوا وحاربوا اللّهَ ورسولَه وسعَوْا في الأرض فساداً وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

واختلفوا في حكم هؤلاء العرنيين، فقال بعضهم: هي منسوخة لأن المثلة لا تجوز، وقال بعضهم: حكمه ثابت إلا السمل والمثلة، وروى قتادة عن ابن سيرين

أن ذلك كان قبل أن ينزل الحدّ.

وقال أبو الزناد: فلما فعل رسول الله ﷺذلك بهم أنزل الله الحدود ونهاه عن المثلة فلم يعد.

وعن قتادة قال: بلغنا أن رسول الله ﷺبعد ذلك كان يحثّ على الصدقة وينهى عن المثلة.

وقال سليمان التيمي عن أنس: إنما سمل النبيّ ﷺأعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة.

وقال الليث بن سعد: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺوتعليماً منه إياه عقوبتهم، وقال: إنما جزاؤهم هذا لاَ المثلة، ولذلك ما قام النبيّ ﷺخطيباً إلا نهى عن المثلة.

واختلفوا في المحاربين الذين يستحقون هذا الحد، فقال قوم: هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح على المسلمين، والمكابرون في الأمصار، وهو قول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي رحمهم الله.

وقال قوم: هم المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذه الحدود، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه.

وعقوبة المحاربين ما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، فذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل والقطع والصلب، والنفي كما هو ظاهر الآية، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والنخعي ومجاهد.

وذهب الأكثرون إلى أن هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نُفوا في الأرض.

وهو قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي رحمهم الله تعالى.

وإذا قتل قاطع الطريق يُقتل حتماً حتى لا يسقط بعفو ولي الدم، وإذا أخذ من المال نصاباً وهو ربع دينار تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإذا قتل وأخذ المال يُقتل ويُصلب.

واختلفوا في كيفيته: فظاهر مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يقتل ثم يصلب وقيل: يصلب حياً ثم يطعن حتى يموت مصلوباً، وهو قول الليث بن سعد، وقيل: يصلب ثلاثة أيام حياً ثم ينزل فيقتل، وإذا أخاف السبيل ينفى.

واختلفوا في النفي: فذهب قوم إلى أن الإمام يطلبه ففي كل بلدة يوجد ينفى عنه، وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز، وقيل: يطلب لتقام عليه الحدود، وهو قول ابن عباس والليث بن سعد، وبه قال الشافعي، وقال أهل الكوفة: النفي هو الحبس، وهو نفي من الأرض، وقال محمد بن جرير: ينفى من بلده إلى غيره ويحبس في السجن في البلد الذي نُفي إليه حتى تظهر توبته، قال مكحول: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس في السجون، وقال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد فيؤذيهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من الحدّ، ﴿لَهُمْ خِزْىٌ﴾ عذاب وهوان وفضيحة، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فمن ذهب إلى أن الآية نزلت في الكفار، قال معناه: إلا الذين تابوا من شركهم وأسلموا قبل القدرة عليهم فلا سبيل عليهم بشيء من الحدود ولا تبعة عليهم فيما أصابوا في حال الكفر من دم أو مال، وأما المسلمون المحاربون فمن تاب منهم قبل القدرة عليه وهو قبل أن يظفر به الإمام تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقاً لله، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد فإن كان قد قتل في قطع الطريق يسقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتم القتل، ويبقى عليه القصاص لولي القتيل فإن شاء عفا عنه وإن شاء استوفاه، وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع، وإن كان قد جمع بينهما يسقط عنه تحتم القطع والقتل والصلب، ويجب ضمان المال وهو قول الشافعي رضي الله عنه.

وقال بعضهم: إذا جاء تائباً قبل

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

القدرة عليه لا يكون لأحد عليه تبعة في دم ومال إلا أن يوجد معه مال بعينه فيردّه إلى صاحبه.

وروي عن علي رضي الله عنه في حارثة بن يزيد كان قد خرج محارباً فسفك الدماء وأخذ المال، ثم جاء تائباً قبل أن يقدر عليه فلم يجعل عليّ رضي الله عنه عليه تبعة في دم ولا مال، إلا أن يوجد معه مال فيرد إلى صاحبه أما من تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء منها.

وقيل: كل عقوبة تجب حقاً لله عزّ وجلّ من عقوبات قطع الطريق وقطع السرقة وحدّ الزّنا والشرب تسقط بالتوبة بكل حال، والأكثرون على أنها لا تسقط.

(٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا﴾، واطلبوا، ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، أي: القربة، فعيلة مِنْ توسل إلى فلان بكذا، أي: تقرب إليه وجمعها وسائل، ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تلخيصه: امتثلوا أمر الله تنجوا.

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، فيه وجهان، أحدهما: أنهم يقصدون ويطلبون المخرج منها؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [الحج: ٢٢]، والثاني: أنهم يتمنّون ذلك بقلوبهم؛ كما قال الله تعالىٰ إخباراً عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

(٣٨) قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، أراد به أيمانهما، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وجملة الحكم: أن من سرق نصاباً من المال من حرز لا شبهة له فيه تقطع يده اليمنى من الرسغ، ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب عند عامة أهل العلم، حكي عن ابن الزبير أنه كان يقطع في الشيء القليل، وعامّة العلماء على خلافه واختلفوا في القدر الذي يقطع فيه، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقطع في أقل من ربع دينار، فإن سرق ربع دينار أو متاعاً قيمته ربع دينار يقطع، وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله تعالىٰ عنهم، وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي رحمهم الله، لِما:

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن ابن شهاب عن عمرة عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن رسول الله ﷺ قال: «القطع في ربع دينار فصاعداً».

وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم.

ورُوي عن عثمان أنه قطع سارقاً في أترُجّة قوّمت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار.

وهذا قول مالك رحمه الله تعالىٰ أنه يقطع في ثلاثة دراهم.

وذهب قوم إلى أنه لا يقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، ويُروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

وقال قوم: لا يقطع إلا في خمسة دراهم يُروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وبه قال ابن أبي ليلى.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أخبرني أبي أنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضةَ فتقطع يده، ويسرق الحبلَ فتقطع يده»، وقال الأعمش: كانوا يرون أنه بيض الحديد والحبل، يرون أن منها ما يساوي ثلاثة دراهم.

ويحتجّ بهذا الحديث من يرى القطع في الشيء القليل، وهو عند الأكثرين محمول على ما قاله الأعمش، لحديث عائشة رضي الله عنها «وإذا سرق شيئاً من غير حرز كثمر في حائط لا حارس له أو حيوان في برية لا حافظ له، أو متاع في بيت منقطع عن البيوت لا قطع عليه».

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا قطع في ثمر مُعلّق ولا في حَرِيسة جبل، فإذا آواه المُرَاح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن».

ورُوي عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع».

وإذا سرق مالاً فيه شبهة كالعبد يسرق من مال سيده أو الولد يسرق من مال والده أو الوالد يسرق من مال ولده أو أحد الشريكين يسرق من مال المشترك شيئاً: لا قطع عليه.

وإذا سرق السارق أول مرّة تقطع يده اليمنى من الكوع، ثم إذا سرق ثانياً تقطع رجله اليسرى من مفصل القدم.

واختلفوا فيما إذا سرق ثالثاً: فذهب أكثرهم إلى أنه تقطع يده اليسرى، ثم إذا سرق رابعاً تقطع رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعده يعزر ويحبس حتى تظهر توبته، وهو المروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو قول قتادة، وبه قال مالك والشافعي لما رُوي عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السارق يسرق «إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله، ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله».

وذهب قوم إلى أنه إن سرق ثالثاً بعدما قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى لا يقطع، بل يحبس، ورُوي ذلك عن عليّ رضي الله عنه، وقال: «إني لأستحي أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها»، وهو قول الشعبي والنخعي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وأصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، نصبٌ على الحال والقطع، ومثله: ﴿نَكَٰلٗا﴾، أي: عقوبة، ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾، أي: سرقته، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ العمل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، هذا فيما بينه وبين الله تعالى، فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين، قال مجاهد: قطع السارق توبته فإذا قطع حصلت التوبة، والصحيح أن القطع للجزاء على الجناية، كما قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، ولا بدّ من التوبة بعده، وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل، وإذا قطع السارق يجب عليه غُرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم، وقال سفيان الثوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه، وبالاتفاق إن كان المسروق قائماً عنده يسترد وتقطع يده لأن القطع حق الله تعالى والغرم حق العبد، فلا يمنع أحدهما الآخر، كاسترداد العين.

﴿٤٠﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، الخطاب مع النبيّ ﷺ والمراد به الجميع، وقيل: معناه ألم تعلم أيها الإنسان فيكون خطاباً لكل واحد من الناس، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾، قال السدي والكلبي: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من مات على كفره ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾: الكبيرة، من تاب من كفره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعذّب من يشاء على الصغيرة، ويغفر لمن يشاء على الكبيرة، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾، أي: في موالاة الكفار فإنهم لن يعجزوا الله، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، وهم المنافقون، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾، يعني: اليهود، ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، أي: قوم سماعون، ﴿لِلۡكَذِبِ﴾، أي: قابلون للكذب، كقول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: قبل الله،

وقيل: سماعون لأجل الكذب، أي: يسمعون منك ليكذبوا عليك، وذلك أنهم كانوا يسمعون من الرسول ﷺ ثم يخرجون ويقولون سمعنا منه كذا ولم يسمعوا ذلك منه، ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾، أي: هم جواسيس، يعني: بني قريظة لقوم آخرين وهم أهل خيبر.

وذلك أن رجلاً وامرأةً من أشراف أهل خيبر زنيا وكانا محصنين، وكان حدّهما الرجم في التوراة، فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل الذي بيثرب ليس في كتابه الرجم ولكنه الضرب، فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح له فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطاً منهم مستخفين وقالوا لهم: سلوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدّهما؟ فإن أمركم بالجلد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين فقدم الرهط حتى نزلوا على بني قريظة والنضير فقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث فلان وفلانة قد فَجَرَا وقد أحصنا فنحب أن تسألوا لنا محمداً عن قضائه فيه، فقالت لهم قريظة والنضير: إذاً والله يأمركم بما تكرهون.

ثم انطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسَعْية بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدُّهما في كتابك؟ فقال ﷺ: «هل ترضون بقضائي»؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل تعرفون شاباً أمرد أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا»؟ قالوا: نعم، قال: «فأيّ رجل هو فيكم»؟ فقالوا: هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ على موسى عليه السلام في التوراة قال: «فأرسلوا إليه»، ففعلوا فأتاهم، فقال ﷺ: «أنت ابن صوريا»؟ قال: نعم، قال: «وأنت أعلم اليهود»، قال: كذلك يزعمون، قال: «أتجعلونه بيني وبينكم»؟ قالوا: نعم.

فقال له النبيّ ﷺ: «أنشدك بالله الذي لا إله إلاّ هو الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي ظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنّ والسلوى، وأنزل عليكم كتابه وفيه حلاله وحرامه، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن»؟

قال ابن صوريا: نعم والذي ذكرتني به لولا خشية أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم»، فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله عزّ وجلّ في التوراة على موسى عليه السلام، فقال له النبيّ ﷺ: «فما كان أول ما ترخصتم به أمْرَ الله»؟ قال: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنا ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه، وقالوا: والله لا ترجمه حتى يرجم فلان - لابن عم الملك - فقلنا: تعالوا نجتمع فلنصنعْ شيئاً دون الرجم يكون على الوضيع والشريف، فوضعنا الجلدَ والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم، فقال اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به، وما كنت لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم: إنه قد أنشدني بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته به، فأمر بهما النبيّ ﷺ فرجما عند باب مسجده، وقال: «اللهمّ إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: إن اليهود

الجزء السادس — سورة المائدة

سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ
وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا
هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ
هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ
بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ
قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن
لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

١١٥

جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنّ رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها لآية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، وأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فقال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة.

وقيل: سبب نزول هذه الآية القصاص، وذلك أن بني النضير كان لهم فضل على بني قريظة، فقال بنو قريظة: يا محمد إخواننا بنو النضير وأبونا واحد وديننا واحد ونبيّنا واحد، وإذا قتلوا منّا قتيلاً واحداً لم يقيدونا وأعطونا ديّته سبعين وسقاً من تمر، وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منّا الضعف مائة وأربعين وسقاً من تمر، وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منّا وبالرجل منهم الرجلين منّا، وبالعبد الحرّ منّا، وجراحتنا على التضعيف من جراحاتهم، فاقضِ بيننا وبينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والأول أصح لأن الآية في الرجم.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، قيل: اللام بمعنى إلى، وقيل: هي لام كي، أي: يسمعون لكي يكذبوا عليك، واللام في قوله: ﴿لِقَوۡمٍ﴾، أي: لأجل قوم ﴿ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ وهم أهل خيبر، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾، جمع كلمة، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾، أي: من بعد وضعه مواضعه، وإنما ذكر الكناية ردّاً على لفظ الكلم، ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾، أي: إن أفتاكم محمد ﷺ بالجلد والتحميم فاقبلوه، ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، كفره وضلالته، قال الضحاك: هلاكه، وقال قتادة: عذابه، ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾، فلن تقدر على دفع أمر الله فيه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾، وفيه ردّ على من ينكر القدر، ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، أي: للمنافقين واليهود، فخزي المنافقين الفضيحة وهتك الستر بإظهار نفاقهم، وخزيُ اليهود الجزية أو القتل والسبي والنفي، ورؤيتهم من محمد ﷺ وأصحابه وفيهم ما يكرهون، ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، الخلود في النار.

﴿٤٢﴾ قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة والكسائي ﴿لِلسُّحُتِ﴾ بضم الحاء، والآخرون بسكونها، وهو الحرام، وأصله الهلاك والشدّة، قال الله تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٍۖ﴾ [طه: ٦١]، نزلت في حكام اليهود كعب بن الأشرف وأمثاله، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم.

قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة جعلها في كمّه فيريها إيّاه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة.

وعنه أيضاً قال: إنما ذلك في الحَكَم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً، فأما أن يعطي الرجل الوالي يخاف ظلمه ليدرأ به عن نفسه فلا بأس، فالسحت هو الرشوة في الحكم على قول الحسن ومقاتل وقتادة والضحاك، وقال ابن مسعود: هو الرشوة في كل شيء، وقال ابن مسعود: من شفع شفاعة ليردّ بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأهدي له فقبل فهو سحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمٰن ما كنّا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم، فقال: الأخذ على الحكم

كفر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمٰن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا عليّ بن الجعد أنا ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمٰن عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لعنةُ اللّهِ على الراشي والمرتشي».

والسحت كل كسب لا يحل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾، خير الله تعالىٰ رسولَه ﷺ في الحكم بينهم إن شاء حكم وإن شاء ترك.

واختلفوا في حكم الآية اليوم هل للحاكم الخيار في الحكم بين أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا؟ فقال أكثر أهل العلم: هو حكم ثابت، وليس في سورة المائدة حكم منسوخ، وحكام المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب إن شاؤوا حكموا وإن شاؤوا لم يحكموا، وإن حكَموا حكَموا بحكم الإسلام، وهو قول النخعي والشعبي وعطاء وقتادة.

وقال قوم: يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بينهم. والآية منسوخة نسخها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وهو قول مجاهد وعكرمة، وروي ذلك عن ابن عباس، وقال: لم ينسخ من المائدة إلا آيتان، قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢]، نسخها قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، نسخها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وأما إذا تحاكم إلينا مسلم وذمي فيجب علينا الحكم بينهما لا يختلف القول فيه؛ لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة. قوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي: العادلين، وروينا عن النبيّ ﷺ أنه قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور».

(٤٣) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، هذا تعجيب للنبيّ ﷺ، وفيه اختصار، أي: كيف يجعلونك حكماً بينهم فيرضون بحكمك وعندهم التوراة؟ ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾، وهو الرجم، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بمصدّقين لك.

(٤٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾، أي: أسلموا وانقادوا لأمر الله تعالىٰ، كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وكما قال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وأراد بهم النبيين الذين بعثوا من بعد موسى عليه السلام ليحكموا بما في التوراة، وقد أسلموا لحكم التوراة وحكموا بها، فإن من النبيّين من لم يؤمر بحكم التوراة منهم عيسى عليه السلام، قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال الحسن والسدي: أراد به محمداً ﷺ حكم على اليهود بالرجم، ذكر بلفظ الجمع كما قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، قيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: فيها هدى ونور للذين هادوا ثم قال يحكم بها النبيّون الذين أسلموا والربانيون، وقيل: هو على موضعه، ومعناه: يحكم بها النبيّون الذين أسلموا على الذين هادوا؛ كما قال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، أي: فعليها، وكما قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، [أي: عليهم]، وقيل: فيه حذف كأنه قال: للذين هادوا وعلى الذين هادوا فحذف أحدهما اختصاراً.

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾، يعني: العلماء، واحدهم حبر، وحَبر بفتح الحاء وكسرها، والكسر أفصح، وهو العالم المحكم للشيء، قال الكسائي وأبو عبيدة: هو من الحبر الذي يكتب به، وقال قطرب: هو من الحبر الذي هو بمعنى الجمال بفتح الحاء وكسرها، وفي الحديث: «يخرجُ مِنَ النّار رجلٌ قد ذهبَ حِبرُه وسِبرُه»، أي: حُسنه وهيئته، ومنه التحبير وهو التحسين، فسمى العالم حبراً لما عليه من جمال العلم وبهائه، وقيل: الربانيون هٰهنا من النصارى، والأحبار من اليهود، وقيل: كلاهما من اليهود.

قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: استُودعوا من كتاب الله، ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾، أنه كذلك.

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

١١٦

﴿يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قال قتادة والضحاك: نزلت هذه الآيات الثلاث في اليهود دون من أساء من هذه الأمة. رُوي عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والظالمون والفاسقون كلها في الكافرين، وقيل: هي على الناس كلهم.

وقال ابن عباس وطاوس: ليس بكفر ينقل عن الملّة، بل إذا فعله فهو به كافر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر.

قال عطاء: هو كفرٌ دونَ كفرٍ، وظُلمٌ دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال عكرمة معناه: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق.

وسئل عبد العزيز بن يحيى الكناني عن هذه الآيات، فقال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه، فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فأما من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك الشرك، ثم لم يحكم بجميع ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات. وقال العلماء: هذا إذا ردّ نصّ حكم الله عياناً عمداً، فأمّا من خفي عليه أو أخطأ في تأويل فلا.

﴿٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾، أي: أوجبنا على بني إسرائيل في التوراة، ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، يعني: من نفس القاتل بنفس المقتول وفاءً يقتل به، ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾، تُفقأ بها، ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾، يُجدع به، ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾، تُقطع بها، قال ابن عباس: أخبر الله تعالى بحكمه في التوراة وهو: أن النفس بالنفس واحدة بواحدة إلى آخرها، فما بالهم يخالفون فيقتلون بالنفس النفسين، ويفقأون بالعين العينين، وخفّف نافع الأذن في جميع القرآن وثقلها الآخرون، ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾، تقلع بها وسائر الجوارح قياس عليها في القصاص، ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، فهذا تعميم بعد تخصيص، لأنه ذكر العين والأنف والأذن والسن، ثم قال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، أي: فيما يمكن الاقتصاص منه كاليد والرجل واللّسان ونحوها، وأمّا ما لا يمكن الاقتصاص منه من كسر عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه، لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته، وقرأ الكسائي «وَٱلْعَيْنُ» وما بعدها بالرفع، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وأبو عمرو «والجروحُ» بالرفع فقط، وقرأ الآخرون كلها بالنصب كالنفس.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾، أي: بالقصاص ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، قيل: الهاء في «له» كناية عن المجروح وولي القتيل، أي: كفارة للمتصدق وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن والشعبي وقتادة.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الدينوري أنا عمر بن الخطاب أنا عبد الله بن الفضل أخبرنا أبو خيثمة أنا جرير عن مغيرة عن الشعبي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّقَ من جسدِهِ بشيءٍ كفَّرَ اللَّهُ عنه بقدره من ذنوبه».

وقال جماعة: هي كناية عن الجارح والقاتل، يعني: إذا عفا المُجنى عليه عن الجاني فعفوه كفارة لذنب الجاني لا يُؤاخذ به في الآخرة، كما أن القصاص كفارة له، فأمّا أجر العافي فعلى الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، رُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: على آثار النبيّين

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

الذين أسلموا، ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ﴾، أي: في الإنجيل، ﴿هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا﴾، يعني: الإنجيل، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ﴾، قرأ الأعمش وحمزة ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾: بكسر اللام ونصب الميم، أي: لكي يحكم، وقرأ الآخرون: بسكون اللام وجزم الميم على الأمر، قال مقاتل بن حيان: أمر الله الربانيين والأحبار أن يحكموا بما في التوراة، وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل، فكفروا وقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، الخارجون عن أمر الله عزّ وجلّ.

(٤٨) قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، القرآن، ﴿بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: من الكتب المنزلة من قبل، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، روى الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي شاهداً عليه، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والكسائي.

قال حسان:

إنَّ الكتابَ مُهَيمِنٌ لنبيِّنا ... والحقُّ يَعرِفُه ذَوُو الألبابِ

يريد شاهداً ومصدقاً.

وقال عكرمة: دالاً، وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة: مؤتمناً عليه، وقال الحسن: أميناً، وقيل: أصله مؤيمن مفيعل من أمين، كما قالوا: مُبيطر من البيطار، فقلبت الهمزة هاء؛ كما قالوا: أرقت الماء وهرقته، وإيهات وهيهات، ونحوها. ومعنى أمانة القرآن ما قال ابن جريج: القرآن أمين على ما قبله من الكتب، فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم فإن كان في القرآن صدّقوا وإلا فكذّبوا.

وقال سعيد بن المسيب والضحاك: قاضياً، وقال الخليل: رقيباً وحافظاً، والمعاني متقاربة، ومعنى الكل: أن كل كتاب يشهد بصدقه القرآن فهو كتاب الله تعالى وما لا فلا ﴿فَٱحْكُم﴾، يا محمد، ﴿بَيْنَهُم﴾، بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك، ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعالى في القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾، أي: لا تعرض عمّا جاءك من الحق ولا تتبع أهواءهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أي سبيلاً وسنّةً، فالشرعة والمنهاج الطريق الواضح، وكل ما شرعت فيه فهو شريعة وشرعة، ومنه شرائع الإسلام لشروع أهلها فيها، وأراد بهذا أن الشرائع مختلفة، ولكل أهل ملة شريعة.

قال قتادة: الخطاب للأمم الثلاث أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين، للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة، والدين واحد وهو التوحيد.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: على ملة واحدة، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾، ليختبركم، ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾، من الكتب وبيّن لكم من الشرائع، فيتبيّن المطيع من العاصي والموافق من المخالف، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾، فبادروا إلى الأعمال الصالحة، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(٤٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال كعب بن أسد وعبدالله بن صوريا وشاس بن قيس من رؤساء اليهود بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن

دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وإنا إن اتّبعناك لم يخالفنا اليهود، وإن بيننا وبين الناس خصومات فنحاكمهم إليك فاقضِ لنا عليهم نؤمن بك، ويتبعنا غيرنا. ولم يكن قصدهم الإيمان، وإنما كان قصدهم التلبيس ودعوته إلى الميل في الحكم فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، أي: أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، أي: فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾، يعني: اليهود، ﴿لَفَاسِقُونَ﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، قرأ ابن عامر ﴿تبغون﴾ بالتاء وقرأ الآخرون بالياء، أي: يطلبون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾، اختلفوا في نزول هذه الآية وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين.

فقال قوم:

نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك أنهما اختصما، فقال عبادة: إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وولاية اليهود، ولا مولى لي إلاّ الله ورسوله، فقال عبد الله: لكني لا أبرأ من ولاية اليهود، لأني أخاف الدوائر ولا بدّ لي منهم، فقال النبيّ ﷺ: «يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه»، قال: إذاً أقبل، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال السدي: لما كانت وقعة أحد اشتدّت على طائفة من الناس وتخوّفوا أن يدلّ عليهم الكفار، فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً إني أخاف أن يدل علينا اليهود، وقال رجل آخر: أما أنا فألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أماناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهما.

وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر بعثه النبيّ ﷺ إلى بني قريظة حين حاصرهم، فاستشاروه في النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا، فجعل أصبعه على حلقه أنه الذبح، أي: يقتلكم فنزلت هذه الآية.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، في العون والنصرة ويدهم واحدة على المسلمين، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾، فيوافقهم ويعينهم، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: نفاق يعني عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين الذين يُوالون اليهود، ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾، أي: في معونتهم وموالاتهم، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، دولة، يعني: أن يدول الدهر دولة فنحتاج إلى نصرهم إيّانا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه نخشى أن لا يتمّ أمر محمد فيدور الأمر علينا، وقيل: نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جدب وقحط، فلا يعطونا الميرة والقرض، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾، قال قتادة ومقاتل: بالقضاء الفصل من نصر محمد ﷺ على من خالفه، وقال الكلبي والسدي: فتح مكة، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾، قيل: بإتمام أمر محمد ﷺ، وقيل: هو عذاب لهم، وقيل: إجلاء بني النضير، ﴿فَيُصْبِحُوا﴾، يعني: هؤلاء المنافقين، ﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، من موالاة اليهود ودسّ الأخبار إليهم، ﴿نَادِمِينَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وَ﴾، حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿وَيَقُولُ﴾، بالواو والرفع على الاستئناف وقرأ أهل البصرة بالواو ونصب اللام عطفاً على ﴿أَن يَأْتِيَ﴾، أي: عسى أن يقول الذين آمنوا، وقرأ الآخرون بحذف الواو ورفع اللام، وكذلك هو في مصاحف أهل العالية، استغناء عن حرف العطف لملابسة هذه الآية بما قبلها، يعني: يقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين، ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾، حلفوا بالله، ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أي: حلفوا بأغلظ الأيمان، ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾، أي: إنهم لمؤمنون، يريد: أن المؤمنين حينئذ يتعجبون من كذبهم وحلفهم بالباطل. قال الله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، بطل كل خير عملوه، ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾، خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب.

﴿٥٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

﴿اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿يرتدد﴾ بدالين على إظهار التضعيف ﴿عَن دِينِهِ﴾، فيرجع إلى الكفر.

قال الحسن: علم الله تبارك وتعالى أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم الله ويحبونه.

واختلفوا في أولئك القوم من هم؟ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وقتادة: هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعي الزكاة، وذلك أن النبيّ ﷺ لما قُبض ارتدّ عامة العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس، ومنع بعضهم الزكاة، وهمّ أبو بكر رضي الله عنه بقتالهم فكره ذلك أصحاب النبيّ ﷺ، وقال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فمنْ قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة، وقالوا: أهل القبلة، فتقلّد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بدّاً من الخروج على أثره.

قال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء.

قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيّين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه، لقد قام مقام نبيّ من الأنبياء في قتال أهل الردّة.

كان قد ارتدّ في حياة النبيّ ﷺ ثلاث فرق:

منهم: بنو مذحج ورئيسهم ذو الخمار عيهلة بن كعب العنسي، ويلقب بالأسود، كان كاهناً مشعبذاً فتنبأ باليمن واستولى على بلادها، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين، وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسّك بدينهم، وعلى النهوض إلى حرب الأسود، فقتله فيروز الديلمي على فراشه، قال ابن عمر رضي الله عنه: فأتى الخبرُ النبيَّ ﷺ من السماء الليلة التي قُتل فيها، فقال رسول الله ﷺ: «قُتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك»، قيل: ومن هو؟ قال: «فيروز»، فبشّر النبيّ ﷺ أصحابه بهلاك الأسود، وقبض ﷺ من الغد؛ وأتى خبرُ مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الأول بعدما خرج أسامة وكان ذلك أول فتح، جاء أبو بكر رضي الله عنه.

والفرقة الثانية: بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب واسمه ثمامة بن قيس، وكان قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ في آخر سنة عشر، وزعم أنه أُشرك مع محمد ﷺ في النبوّة، وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، وبعث بذلك إليه مع رجلين من أصحابه، فقال لهما رسول الله ﷺ: «أتشهدان أن مسيلمة رسول الله؟» قالا: نعم. قال النبي ﷺ: «لولا أنّ الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما»، ثم أجاب: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أمّا بعد فإن الأرضَ للّهِ يُورثُها مَنْ يشاءُ من عباده، والعاقبةُ للمتقين»، ومرض رسول الله ﷺ وتوفي، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب في جيش كثير حتى أهلكه الله على يدي وحشي، غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب، بعد حرب شديد، وكان وحشي يقول: قتلتُ خيرَ الناس في الجاهلية وشرّ الناس في الإسلام.

والفرقة الثالثة: بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد بن الوليد، وكان طليحة آخر من ارتد، وادّعى النبوّة في حياة النبيّ ﷺ، وأوّل من قُوتل بعد وفاة النبيّ ﷺ من أهل الردّة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إليه، فهزمهم خالد بعد قتال شديد، وأفلت طليحة فمرّ على وجهه هارباً نحو الشام، ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.

وارتدّ بعد وفاة النبيّ ﷺ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه خلق كثير، حتى كفى الله المسلمين أمرهم ونصر دينه على يدي أبي بكر رضي الله عنه.

قالت عائشة: «توفي رسول الله ﷺ وارتدتِ العربُ واشرأبّ النفاق، ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها».

وقال قوم: المراد بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ هم الأشعريون، رُوي عن عياض بن غنم الأشعري قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال رسول الله ﷺ: هم قومُ هذا، وأشار إلى أبي موسى الأشعري وكانوا من اليمن.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا أبو عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرقّ أفئدةً، الإيمانُ يمانٍ والحكمةُ يمانيةٌ».

وقال الكلبي: هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس، فجاهدوا في سبيل الله يوم القادسية في أيام عمر رضي الله عنه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: أرقّاء رحماء، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولم يرد به الهوان، بل أراد أنّ جانبهم ليّن على المؤمنين. وقيل: هو من الذلّ من قولهم دابة ذلول، يعني أنهم متواضعون قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: أشدّاء غلاظ على الكفار يعادونهم ويُغالبونهم، من قولهم: عزّه أي غلبه. قال عطاء: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: كالولد لوالده وكالعبد لسيده، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: كالسبع على فريسته، نظيره قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، يعني: لا يخافون في الله لوم الناس، وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم، وروينا عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة وأنْ نقومَ أو نقولَ بالحق حيث ما كنّا لا نخاف في الله لومةَ لائم.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾، أي: محبّتهم لله ولين جانبهم للمسلمين، وشدّتهم على الكافرين، من فضل الله عليهم، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عبادة ابن الصامت وعبد الله بن أبيّ بن سلول حين تبرّأ عبادة من اليهود، وقال: أتولى الله ورسوله والذين آمنوا، فنزل فيهم من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله ﷺ. وقال جابر بن عبد الله: جاء عبد الله بن سلام إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء».

وعلى هذا التأويل أراد بقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، صلاة التطوع بالليل والنهار، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال السدي: قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، أراد به عليّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه، مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه.

وقال جُويبر عن الضحاك في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، قال: هم المؤمنون بعضهم أولياء بعض، وقال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، نزلت في المؤمنين، فقيل له: إنّ أناساً يقولون إنها نزلت في عليّ رضي الله عنه، فقال: هو من المؤمنين.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: يتولّ القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد المهاجرين والأنصار، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾، يعني: أنصار دين الله، ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

(٥٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية، قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه

الآيـة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، بإظهار ذلك بألسنتهم قولاً وهم مستبطنون الكفر، ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، يعني: اليهود، ﴿وَالْكُفَّارَ﴾، قرأ أهل البصرة والكسائي ﴿وَالْكُفَّارِ﴾ بخفض الراء، يعني: ومن الكفار، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: لا تتخذوا الكفار، ﴿أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(٥٨) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، قاموا وصلّوا لا صلّوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال السدي: نزلت في رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهدُ أنّ محمداً رسولُ الله، قال: حُرق الكاذبُ، فدخل خادمه ذات ليلة بنار هو وأهله نيام، فتطايرت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله.

وقال الآخرون: إن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا المسلمين فدخلوا على رسول الله ﷺ، وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم فإن كنت تدّعي النبوّة فقد خالفت فيما أحدثت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء، فمن أين لك صياح كصياح العنز، فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] الآية.

(٥٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ الآيـة، قـرأ الكسائي: ﴿هَل تَّنقِمُونَ﴾، بإدغام اللام في التاء، وكذلك يدغم لام هل في التاء والثاء والنون، ووافقه حمزة في التاء والثاء وأبو عمرو في ﴿هَلْ تَرَىٰ﴾ [الملك: ٣] في موضعين.

قال ابن عباس: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود، أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما، فسألوه عمّن يؤمن به من الرسل، فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوّته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾، أي: هل تكرهون منّا، ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي: هل تكرهون إلا إيماننا وفسقكم، أي: إنّما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنّا على حق، لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لحب الرياسة وحب الأموال.

(٦٠) ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾، أخبركم، ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرتم، يعني: قولهم لم نرَ أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شراً؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢]، ﴿مَثُوبَةً﴾ ثواباً وجزاءً، نُصب على التفسير، ﴿عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾، أي: هو من لعنه الله، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، يعني: اليهود، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى عليه السلام.

ورُوي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت فشبّانهم مُسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، أي: جعل منهم من عبدالطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوّل له، وتصديقها، قراءة ابن مسعود: ﴿ومن عبدوا الطاغوت﴾، وقرأ حمزة: ﴿وعبُد﴾ بضم الباء، ﴿الطاغوت﴾ بجر التاء، أراد العبد وهما لغتان عبْد بجزم الباء وعبُد بضم الباء، مثل سبْع وسبُع، وقيل: جمع العباد، وقرأ الحسن: ﴿وعبدالطاغوت﴾ على الواحد، ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، [أي]: عن طريق الحق.

(٦١) ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا﴾، يعني: هؤلاء المنافقين، وقيل: هم الذين قالوا: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢]، دخلوا على النبيّ ﷺ وقالوا: ﴿آمَنَّا﴾ بك وصدقناك فيما

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

قلت، وهم يُسرُّون الكفرَ، ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ﴾، يعني: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، يعني: من اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ﴾، قيل: الإثم المعاصي والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما كتموا من التوراة، والعدوان ما زادوا فيها، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، الرِّشا، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿لَوْلَا﴾، هلاّ، ﴿يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾، يعني: العلماء، قيل: الربانيون علماء النصارى، والأحبار علماء اليهود، ﴿عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿٦٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة: إنّ الله تعالىٰ كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في محمد ﷺ وكذّبوا به كفّ الله عنهم ما بسط عليهم من السّعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة عن الرزق، نسبوه إلى البخل، تعالى الله عن ذلك.

قيل: إنما قال هذه المقالة فنحاص، فلمّا لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها.

وقال الحسن: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذّبنا إلا ما تبرّ به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل. والأول أولى؛ لقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: أمسكت أيديهم عن الخيرات. وقال الزجاج: أجابهم الله تعالىٰ فقال: أنا الجواد وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسكة. وقيل: هو من الغلّ في النار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١]. ﴿وَلُعِنُوا﴾، عُذّبوا، ﴿بِمَا قَالُوا﴾، فمن لعنهم أنهم مُسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلّة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ويد الله صفةٌ من صفات ذاته كالسمع، والبصر والوجه، وقال جلّ ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال النبيّ ﷺ: «كلتا يديه يمين».

والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم.

وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف.

﴿يُنفِقُ﴾، يرزق، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، أي: كلما نزلت آية كفروا بها فازدادوا طغياناً وكفراً، كلما نزلت آية، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ﴾، يعني: بين اليهود والنصارى، قاله الحسن ومجاهد. وقيل: بين طوائف اليهود جعلهم الله مختلفين في دينهم متباغضين، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، يعني: اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة، فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلّط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين.

وقيل: كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد ﷺ وأوقدوا نار المحاربة أطفأها الله، فردّهم وقهرهم ونصرَ نبيّه ودينه، هذا معنى قول الحسن، وقال قتادة: هذا عام في كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

اليهود في بلد إلا وجدتهم من أذلّ الناس، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾، بمحمد ﷺ، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾، الكفر، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، يعني: أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾، يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل، ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلتُ عليهم القطر وأخرجتُ لهم من نبات الأرض.

وقال الفراء: أراد به التوسعة في الرزق كما يقال: فلان في الخير من قرنه إلى قدمه، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة غير غالية، ولا مقصرة جافية. ومعنى الاقتصاد في اللغة: الاعتدال في العمل من غير غلوّ ولا تقصير.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، بئس شيئاً عملهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عملوا القبيح مع التكذيب بالنبيّ ﷺ.

(٦٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، رُوي عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل الله فقد كذب، وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية. روى الحسن: أنّ الله تعالىٰ لما بعث رسوله ضاق ذرعاً وعرف أنّ من الناس من يكذبه، فنزلت هذه الآية.

وقيل: نزلت في عيب اليهود، وذلك أن النبيّ ﷺ دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون به، فيقولون له: تريد أن نتخذك حناناً كما اتّخذت النصارى عيسى ابن مريم حناناً، فلما رأى النبيّ ﷺ ذلك سكت فنزلت هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨] الآية.

وقيل: بلّغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص، نزلتْ في قصة اليهود.

وقيل: نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها.

وقيل: نزلت في الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوهُ؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٥]، وكرهه بعض المؤمنين قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧] الآية. فكان النبيّ ﷺ يمسك في بعض الأحايين عن الحثّ على الجهادِ لما يعلم من كراهة بعضهم، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر ويعقوب ﴿رِسَالَٰتِهِۦ﴾ على الجمع والباقون رسالته على التوحيد، ومعنى الآية: إن لم تبلّغ الجميع وتركت بعضه، فما بلغت شيئاً، أي: جرمك في ترك تبليغ البعض كجرمك في ترك تبليغ الكل؛ كقوله: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]، أخبر أن كفرهم بالبعض محبط للإيمان بالبعض.

وقيل: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: أظهر تبليغه؛ كقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ فإن لم تظهر تبليغه ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، أمره بتبليغ ما أنزل إليه مجاهراً محتسباً صابراً، غير خائف، فإن أخفيتَ منه شيئاً لخوفٍ يلحقك فما بلّغتَ رسالته.

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يحفظك ويمنعك من الناس، فإن قيل: أليس قد شجّ رأسه وكسرت رباعيته وأوذي بضروب من الأذى؟

قيل: معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك.

وقيل: نزلت هذه الآية بعد ما شجّ رأسه، لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

وقيل: والله يخصك بالعصمة من بين الناس، لأنّ النبيّ ﷺ معصوم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أنا سنان بن أبي سنان الدؤلي وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن أن جابر بن عبد الله أخبرهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ، قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي، فقال: «إنّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثاً»، ولم يعاقبه وجلس.

وروى محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأعرابي سل سيفه، وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: «الله»، فرعدتْ يدُ الأعرابي وسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر أنا يحيى بن سعيد أنا عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: كان النبيّ ﷺ سهر فلما قدم المدينة قال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، إذ سمعنا صوت سلاح، فقال: من هذا؟ قال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك فنام النبيّ ﷺ.

وقال عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيّ ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله سبحانه وتعالىٰ».

(٦٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: تقيموا أحكامهما وما يجب عليكم فيهما، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ﴾، فلا تحزن، ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، وكان حقه: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾، وقد ذكرنا في سورة البقرة وجه ارتفاعه، وقال سيبويه: فيه تقديم وتأخير تقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله إلى آخر الآية، والصابئون كذلك، قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: باللسان، وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، أي: بالقلب، وقيل: الذين آمنوا على حقيقة الإيمان ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، أي: ثبتَ على الإيمان، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٧٠) قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوحيد والنبوّة، ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾، عيسى ومحمّداً صلوات الله وسلامه عليهما، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، يحيى وزكريا.

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

﴿٧١﴾ ﴿وَحَسِبُوٓا۟﴾، ظنوا، ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: عذاب وقتل، وقيل: ابتلاء واختبار، أي: ظنوا أن لا يُبتلوا ولا يُعذّبهم الله، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي ﴿تكونُ﴾ برفع النون على معنى أنها لا تكون، ونصبها الآخرون كما لو لم يكن قبله لا، ﴿فَعَمُوا۟﴾، عن الحق فلم يبصروه، ﴿وَصَمُّوا۟﴾، عنه فلم يسمعوه، يعني: عموا وصموا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ببعث عيسى عليه السلام، ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، بالكفر بمحمد ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٧٢﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وهم الملكانية واليعقوبية منهم، ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، يعني: المرقوسية، وفيه إضمار معناه: ثالث ثلاثة آلهة، لأنهم يقولون: الإلهية مشتركة بين الله تعالى ومريم وعيسى، وكل واحد من هؤلاء إله فهم ثلاثة آلهة، يبيّن هذا قوله عزّ وجلّ للمسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ [المائدة: ١١٦]، ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به الإلهية لا يكفر، فإنّ الله يقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال النبيّ ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما ظنك باثنين اللّهُ ثالثهما». ثم قال رداً عليهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾، ليصيبنّ، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، خصّ الذين كفروا لعلمه أنّ بعضهم يؤمنون.

﴿٧٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾؟ قال الفراء: هذا أمر بلفظ الاستفهام؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، أي: انتهوا، والمعنى: أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، أي: ليس هو بإله بل هو كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾، أي: كثيرة الصدق.

وقيل: سُمّيت صديقة لأنها صدقت بآيات الله، كما قال عزّ وجلّ في وصفها: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلٰهاً من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟

وقيل: هذا كناية عن الحدَث، وذلك أن من أكل وشرب لا بدّ له من البول والغائط، ومنْ هذه صفته كيف يكون إلٰهاً؟

ثم قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: يُصرفون عن الحق.

﴿٧٦﴾ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿٧٧﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: لا تتجاوزوا الحد، والغلو والتقصير كل واحد منهما مذموم في الدين، وقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: في دينكم المخالف للحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾، والأهواء جمع الهوى وهو ما تدعو إليه شهوة النفس، ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾، يعني: رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى،

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

والخطاب للذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم، ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، يعني: من اتّبعهم على أهوائهم، ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، عن قصد الطريق، أي: بالإضلال فالضلال الأول من الضلالة، والثاني بإضلال من اتّبعهم.

﴿٧٨﴾ قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾، يعني: أهل أيلة لما اعتدوا في السبت، وقال داود عليه السلام: اللّهمّ العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردةً، ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، أي: على لسان عيسى عليه السلام يعني كفاراً أصحاب المائدة، لما لم يؤمنوا، قال عيسى: اللّهمّ العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿٧٩﴾ ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، أي: لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو الحسن محمد بن الحسين أنا أحمد بن محمد بن إسحاق أنا أبو يعلى الموصلي أنا وهب بن بقية أنا خالد ـ يعني ابن عبد الله الواسطي ـ عن العلاء بن المسيّب عن عمرو بن مرة عن أبي عُبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغد جالسه وآكله وشاربه كأنه لم يره على الخطيئة بالأمس، فلما رأى الله تبارك وتعالىٰ ذلك منهم ضرب قلوبَ بعضهم على بعض، وجعل منهم القردة والخنازير، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم بما عَصَوْا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يَدِ السفيه ولتأطرنّه على الحق أطراً أو ليضربنّ اللّهُ قلوبَ بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم».

﴿٨٠﴾ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، قيل: من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، مشركي مكة حين خرجوا إليهم يجيشون على النبيّ ﷺ، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن: ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعني من المنافقين يتولّون اليهود، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، بئس ما قدّموا من العمل لمعادهم في الآخرة، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، غضب الله عليهم، ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿٨١﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ محمد ﷺ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾، يعني: القرآن، ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾، يعني: الكفار، ﴿أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، أي: خارجون عن أمر الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿٨٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، يعني: مشركي العرب، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين، وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم، لا ولاء، ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه. وقيل: نزلت في جميع اليهود وجميع النصارى، لأن اليهود أقسى قلباً والنصارى ألين قلباً منهم، وكانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود.

قال أهل التفسير: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت

كل قبيلة على من فيها من المسلمين يُؤذونهم ويعذّبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء، ومنع الله تعالىٰ رسوله بعمّه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يُؤمرْ بعدُ بالجهاد أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إنّ بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرُجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً». وأراد به النجاشي واسمه أصحمة وهو بالحبشة عطية، وإنما النجاشي اسم الملك ـ كقولهم قيصر وكسرى ـ فخرج إليها سراً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وحاطب بن عمرو وسهل بن بيضاء رضي الله عنهم، فخرجوا إلى البحر وآجروا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ، وهذه الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها، فكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان.

فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردّوهم إليهم، فعصمهم الله، وذكرت القصة في سورة آل عمران.

فلما انصرفا خائبين أقام المسلمون هناك بخير دار وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ، وعلا أمره وذلك في سنة ست من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ـ وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها ـ ويبعث إليه من عنده من المسلمين فأرسل النجاشي إلى أم حبيبة جارية يقال لها: أبرهة تخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إيّاها، فأعطتها أوضاحاً لها سروراً بذلك، فأذنت خالد بن سعيد بن العاص حتى أنكحها على صداق أربعمائة دينار، وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي رحمه الله فأنفذ إليها النجاشي أربعمائة دينار على يد أبرهة، فلما جاءتْها بها أعطتها خمسين ديناراً فردته وقالت: أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئاً، وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدَّقتُ محمداً ﷺ وآمنتُ به، وحاجتي منك أن تُقرئيه مني السلام، قالت: نعم، قالت أبرهة: وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عُودٍ وعنبر، فكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكر.

قالتْ أم حبيبة: فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم النبيّ ﷺ، فدخلت عليه فكان يسألني عن النجاشي فقرأت عليه من أبرهة السلام فردّ رسول الله ﷺ، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧]، يعني: أبا سفيان مودة، يعني: بتزويج أم حبيبة، ولما جاء أبا سفيان تزويج أم حبيبة، قال: ذلك الفحل لا يقرع أنفُه.

وبعث النجاشي بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ﷺ، ابنه أزهى بن أصحمة بن أبجر في ستين رجلاً من الحبشة، وكتب إليه: يا رسول الله أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدَّقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله ربِّ العالمين، وقد بعثتُ إليك ابني أزهى، وإن شئت آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله، فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا، ووافى جعفر وأصحابه رسولَ الله ﷺ في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يٰسٓ إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ هذه الآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، يعني: وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون، وكانوا أصحاب الصوامع.

وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام.

وقال عطاء: كانوا ثمانين رجلاً أربعون من أهل نجران من بني الحارث بن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام.

وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحقّ مما جاء به عيسى عليه السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ صدّقوه وآمنوا به فأثنى الله عزّ وجلّ بذلك عليهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، أي: علماء، قال قُطْرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم، ﴿وَرُهْبَانًا﴾، الرهبان العُبّاد أصحاب الصوامع، واحدهم راهب، مثل فارس وفرسان، وراكب وركبان، وقد يكون واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقرابين، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، لا يتعظّمون عن الإيمان والإذعان للحق.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾، محمد ﷺ، ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾، تسيل، ﴿مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: يريد النجاشي وأصحابه قرأ عليهم جعفر بالحبشة ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]، فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، يعني: أمة محمد ﷺ، دليله قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿٨٤﴾ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾، وذلك أن اليهود عيّروهم وقالوا لهم: لِمَ آمنتم؟ فأجابوهم بهذا، ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، أي: في أمة محمد ﷺ، بيانه ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾، أعطاهم الله، ﴿بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وإنّما أنجح قولهم وعلق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص، بدليل قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، يعني: الموحدين المؤمنين، وقوله من قبل: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، يدل على أن الإخلاص والمعرفة بالقلب مع القول يكون إيماناً.

﴿٨٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿٨٧﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، الآية. قال أهل التفسير: ذكر النبيّ ﷺ الناس يوماً ووصف القيامة فرقّ له الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من أصحابه في بيت عثمان بن مظعون الجمحي، وهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو، وأبو ذر الغفاري، وسالم

الجزء السابع — سورة المائدة

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

١٢٢

مولى أبي حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن رضي الله عنهم، وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويجبوا مذاكيرهم، ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويسيحوا في الأرض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته أم حكيم بنت أبي أمية ـ واسمها الحولاء ـ وكانت عطارة: «أحقٌّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه»؟ فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ وكرهت أن تبدي على زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان بشيء فقد صدقك. فانصرف رسول الله ﷺ، فلما دخل عثمان أخبرته بذلك فأتى رسولَ الله ﷺ هو

وأصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال ﷺ: «إني لم أؤمر بذلك»، ثم قال: «إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»، ثم جمع الناس وخطبهم فقال: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات النساء؟ أما إني لستُ آمركم أن تكونوا قسيسيين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجّوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان واستقيموا يُستقمْ لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع»، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن رشدين بن سعد حدثني ابن أنعم عن سعد بن مسعود أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أتى النبيّ ﷺ فقال: ائذنْ لنا في الاختصاء، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من خصى ولا من اختصى، [إن] خصاء أمتي الصيام»، فقال: يا رسول الله ائذن لنا في السياحة، فقال: «إنّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»، فقال: يا رسول الله ﷺ ائذن لنا في الترهب، فقال: «إن ترهّب أمتي الجلوس في المساجد وانتظار الصلاة».

ورُوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله إني إذا أصبت من اللحم فانتشرت وأخذتني شهوة، فحرّمت اللحم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، يعني: اللذات التي تشتهيها النفوس، مما أحلّ الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾، أي: ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام. وقيل: هو جبّ المذاكير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

(٨٨) ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾، قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما غذى وأنمى، فأما الجوامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي أخبرنا أحمد بن إبراهيم الدورقي وسلمة بن شبيب ومحمود بن غيلان قالوا: أخبرنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبيّ ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ».

(٨٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧]، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ وكانوا حلفوا على ما اتفقوا عليه، فأنزل الله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿عَقَدتُّم﴾ بالتخفيف، وقرأ ابن عامر ﴿عاقدتم﴾ بالألف وقرأ الآخرون ﴿عقّدتم﴾ بالتشديد، أي: وكّدتم، والمراد من الآية قصدتم وتعمّدتم، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾، أي: كفارة ما عقدتم الأيمان إذا حنثتم، ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، واختلفوا في قدره: فذهب قوم إلى أنه يُطعم كل مسكين مُدّاً من الطعام بمدّ النبيّ ﷺ، وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد، وكذلك في جميع الكفارات، وهو قول زيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم وسليمان بن يسار وعطاء والحسن.

وقال أهل العراق: لكل مسكين مُدّانِ، وهو نصف صاع، يروى ذلك عن عمر وعليّ رضي الله عنهما.

وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع، وإن أطعم من

غيرها فصاع، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والحَكَم.

ولو غدّاهم وعشاهم لا يجوز، وجوّزه أبو حنفة، ويُروى ذلك عن عليّ رضي الله عنه.

ولا تجوز الدراهم والدنانير ولا الخبز ولا الدقيق، بل يجب إخراج الحبِّ إليهم، وجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه كل ذلك.

ولو صرف الكل إلى مسكين واحد لا يجوز، وجوّز أبو حنيفة أن يصرف طعام عشرة إلى مسكين واحد في عشرة أيام، ولا يجوز أن يصرف إلاّ إلى مسلم حرٍّ محتاج، فإن صرف إلى ذمي أو عبد أو غني لا يجوز، وجوّز أبو حنيفة صرفها إلى أهل الذمة. واتفقوا على أنّ صرف الزكاة إلى أهل الذمة لا يجوز. قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، أي: من خير قوت عيالكم، وقال عبيدة السلماني: الأوسط الخبز والخلّ، والأعلى الخبز واللحم، والأدنى الخبز البحت والكل مُجزٍ.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، كلّ من لزمته كفارة اليمين فهو فيها مخيّر إن شاء أطعم عشرة من المساكين، وإنْ شاء كساهم، وإن شاء أعتق رقبة، فإن اختار الكسوة، فاختلفوا في قدرها، فذهب قوم إلى أنه يكسو كلّ مسكين ثوباً واحداً مما يقع عليه اسم الكسوة، إزار أو رِداء أو قميص أو سراويل أو عمامة أو كِساء أو نحوها، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاووس، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ.

وقال مالك: يجب لكل إنسان ما تجوز فيه صلاته، فيكسو الرجال ثوباً واحداً والنساء ثوبين درعاً وخماراً.

وقال سعيد بن المسيب: لكل مسكين ثوبان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، وإذا اختار العتق يجب إعتاق رقبة مؤمنة، وكذلك جميع الكفارات، مثل كفارة القتل والظهار والجماع في نهار رمضان، يجب فيها إعتاق رقبة مؤمنة، وأجاز أبو حنيفة رضي الله عنه والثوري رضي الله عنه إعتاق الرقبة الكافرة في جميعها إلاّ في كفارة القتل، لأن الله تعالىٰ قيّد الرقبة فيها بالإيمان، قلنا: المطلق يُحمل على المقيّد كما أن الله تعالىٰ قيّد الشهادة بالعدالة في موضع، فقال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وأطلق في موضع فقال: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ثم العدالة شرط في جميعها حملاً للمطلق على المقيّد، كذلك هٰهنا، ولا يجوز إعتاق المرتد بالاتفاق عن الكفارة.

ويُشترط أن يكون سليم الرقّ حتى لو أعتق عن كفارته مُكاتباً أو أم ولد أو عبداً اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه بنية الكفارة، يُعتق ولكن لا يجوز عن الكفارة، وجوّز أصحاب الرأي عتق المكاتب إذا لم يكن أدّى شيئاً من النجوم، وعتق القريب عن الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضرّ بالعمل ضرراً بيّناً حتى لا يجوز مقطوع إحدى اليدين، أو إحدى الرجلين، ولا الأعمى ولا الزَّمِن ولا المجنون المطبق، ويجوز الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب لا تضرّ بالعمل ضرراً بيّناً.

وعند أبي حنيفة رضي الله عنه كلُّ عيب يفوِّت جنساً من المنفعة على الكمال يمنع الجواز.

حتى جوّز مقطوع إحدى اليدين، ولم يجوز مقطوع الأذنين. قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾، إذا عجز الذي لزمته كفارة اليمين عن الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة، يجب عليه صوم ثلاثة أيام، والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق فإنه يصوم ثلاثة أيام.

وقال بعضهم: إذا ملك ما يمكنه الإطعام وإن لم يفضل عن كفايته فليس له الصيام، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير.

واختلفوا في وجوب التتابع في هذا الصوم: فذهب جماعة إلى أنه لا يجب فيه التتابع، بل إن شاء تابع وإن شاء فرّق، والتتابع أفضل وهو أحد قولي الشافعي، وذهب قوم إلى أنه يجب فيه التتابع قياساً على كفارة القتل والظهار، وهو قول الثوري وأبي حنيفة، ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾. ﴿ذَلِكَ﴾، أي: ذلك الذي ذكرت، ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، وحنثتم، فإن الكفارة لا تجب إلا بعد الحنث.

واختلفوا في تقديم الكفارة على

الجزء السابع — سورة المائدة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

١٢٣

الحنث، فذهب قوم إلى جوازه، لما روينا أن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ حلف على يمينٍ فرأى غيرَها خيراً منها فليُكفّر عن يمينه، وليفعلِ الذي هو خير». وابن عمر وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم وبه قال الحسن وابن سيرين، وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي، إلا أن الشافعي يقول: إن كفّر بالصوم قبل الحنث لا يجوز لأنه بدني، إنما يجوز بالإطعام أو الكسوة أو العتق كما يجوز تقديم الزكاة على الحول، ولا يجوز تعجيل صوم رمضان قبل وقته، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾، قيل: أراد به ترك الحلف، أي: لا تحلفوا، وقيل: هو الأصح، أراد به: إذا حلفتم فلا تحنثوا، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب أو فعل مكروه، فإن حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب، فالأفضل أن يُحنث نفسه ويُكفّر، لِما:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا حجاج بن منهال أنا جرير بن حازم عن الحسن عن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: قال النبيّ ﷺ: «يا عبد الرحمٰن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنكَ إن أوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها، وإذا حلفتَ على يمينٍ فرأيت غيرَها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير».

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(٩٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، أي: القمار، ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾، يعني: الأوثان، سُمّيت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها، واحدها نَصْب بفتح النون وسكون الصاد، ونُصب بضم النون مخففاً ومثقلاً، ﴿وَٱلْأَزْلَـٰمُ﴾، يعني: القِداح التي يستقسمون بها واحدها زَلَم، ﴿رِجْسٌ﴾، خبيث مستقذر، ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾، من تزيينه، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، ردّ الكناية إلى الرجس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، أما العداوة في الخمر فإن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا، كما فعل الأنصاري الذي شجّ سعد بن أبي وقاص بلحى الجمل، وأمّا العداوة في الميسر، قال قتادة: كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال مغتاظاً على حرفائه، ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وذلك أن من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله، وشوّش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمٰن بن عوف، تقدم رجل ليصلّي بهم صلاة المغرب بعدما شربوا فقرأ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، أعبد ما تعبدون، بحذف لا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ أي: انتهوا لفظة استفهام ومعناه أمر؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ﴾؟ [الأنبياء: ٨٠].

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾، المحارم والمناهي، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وفي وعيد شارب الخمر.

أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد الفوراني أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني ثنا أبو الحسن محمد بن محمود المحمودي أنا أبو العباس الماسرجسي بنيسابور أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا صالح بن قدامة حدثنا أخي

عبد الملك بن قدامة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّ مسكرٍ حرام، وإن حتماً على الله أن لا يشربه عبدٌ في الدنيا إلاّ سقاه الله تعالىٰ يوم القيامة من طينة الخبال، هل تدرون ما طينة الخبال»؟ قال: «عرق أهل النار».

وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ شربَ الخمرَ في الدنيا ثم لم يتبْ منها حُرِمَها في الآخرة».

وأخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أحمد بن أُبيّ أخبرنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن إسحاق الصَّغاني حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد العزيز بن عمر عن عبد الرحمٰن بن عبد الله الغافقي من أهل مصر عن عبد الله بن عمر أنه قال: أشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: «لعنَ اللَّهُ الخمرَ وشارِبَها وساقيها وبائعَها ومُبتاعَها وعاصرهَا ومُعتصرهَا وحاملَها والمحمولةَ إليه وآكلَ ثمنها».

(٩٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية أنّ الصحابة رضوان الله عليهم قالوا لمّا نزل تحريم الخمر: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون من مال الميسر؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا﴾، وشَرِبُوا من الخمر وأكلوا من مال الميسر، ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾، الشرك، ﴿وَءَامَنُوا﴾، وصدّقوا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا﴾، الخمر والميسرَ بعد تحريمهما، ﴿وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا﴾، ما حرّم الله عليهم أكله وشربه، ﴿وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قيل: معنى الأول إذا ما اتّقوا الشرك، وآمنوا وصدقوا ثمّ اتّقوا، أي: داوموا على ذلك التقوى، ﴿وَءَامَنُوا﴾ وازدادوا إيماناً، ثم اتقوا المعاصي كلها وأحسنوا، وقيل: أي: اتقوا بالإحسان، وكلُّ محسن متقٍ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٩٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ الآية، نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد، وكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ ليختبرنّكم الله، وفائدة البلوى إظهار المطيع من العاصي، وإلا فلا حاجة له إلى البلوى بشيء من الصيد، وإنما بعّض، فقال ﴿بِشَيْءٍ﴾ لأنه ابتلاهم بصيد البرّ خاصةً. ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾، يعني: الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفرّ من صغار الصيد، ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾، يعني: الكبار من الصيد، ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾، ليرى الله، لأنه قد علمه، ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، أي: يخاف الله ولم يره؛ كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، أي: يخافه فلا يصطاد في حال الإحرام، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: صاد بعد تحريمه، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يوجع ظهره وبطنه جلداً، ويُسلب ثيابه.

(٩٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، أي: محرمون بالحج والعمرة، وهو جمع حرام، يقال: رجل حرام وامرأة حرام، وقد يكون من دخول الحرم، يقال: أحرم الرجل إذا عقد الإحرام، وأحرم إذا دخل الحرم، نزلت في رجل يقال له أبو اليَسَرَ شدَّ على حمارِ وحشٍ وهو محرم فقتله.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾، اختلفوا في هذا العمد، فقال قوم: هو العمد بقتل الصيد مع نسيان الإحرام، أما إذا قتله عمداً وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه، وأمره إلى الله لأنه أعظم من أن يكون له كفارة، هذا قول مجاهد والحسن، وقال الآخرون: هو أن يعمد المحرم قتل الصيد ذاكراً لإحرامه فعليه الكفارة.

واختلفوا فيما لو قتله خطأً، فذهب أكثر الفقهاء إلى أن العمد والخطأ سواء في لزوم الكفارة، وقال الزهري: على المتعمد بالكتاب وعلى المخطىء بالسنة، وقال سعيد بن جبير: لا تجب كفارة الصيد بقتل الخطأ، بل يختص بالعمد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿فَجَزَاءٌ﴾ منونٌ، ﴿مِثْلُ﴾، رفعٌ على البدل من

الجزاء، والآخرون بالإضافة ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، معناه: أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النّعم، وأراد به ما يقرب من الصيد المقتول شبهاً من حيث الخلقة لا من حيث القيمة، ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء من النّعم فيحكمان به، وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النّعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمٰن بن عوف وابن عمر وابن عباس، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، حكموا في بلدان مختلفة وأزمان شتّى بالمثل من النّعم، يحكم حاكم في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة، وفي حمار الوحش ببقرة وهي لا تساوي بقرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تساوي كبشاً، فدلّ أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شاة، وهو كل ما عبّ وهدر من الطير، كالفاختة والقمري لا من حيث القيمة.

ورُوي عن عمر وعثمان وابن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكة بشاة. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزبير المكي عن جابر بن عبد الله أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضى في الضبع بكبش، وفي الغزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة.

قوله تعالىٰ: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، أي: يُهدي تلك الكفارة إلى الكعبة، فيذبحها بمكة ويتصدّق بلحمها على مساكين الحرم، ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، قال الفراء رحمه الله: العِدْل بالكسر: المثل من جنسه، والعَدْل بالفتح: المثل من غير جنسه، وأراد به: أنه في جزاء الصيدِ مخيّر بين أن يذبح المثل من النّعم فيتصدّق بلحمه على مساكين الرحم، وبين أن يقوّم المثل دراهم، والدراهم طعاماً فيتصدق بالطعام على مساكين الحرم، أو يصوم عن كل مُد من الطعام يوماً وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين.

وقال مالك: إن لم يخرج المثل يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدّق به، أو يصوم.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يجب المثل من النّعم، بل يقوّم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النّعم، وإن شاء إلى الطعام فيتصدّق به، وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوماً.

وقال الشعبي والنخعي: جزاء الصيد على الترتيب والآية حجّة لمن ذهب إلى التخيير.

قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، أي: جزاء معصيته، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، يعني: قبل التحريم، ونزول الآية، قال السدي: عفا الله عما سلف في الجاهلية، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾، في الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وإذا تكرّر من المحرم قتل الصيد فيتعدّد عليه الجزاء عند عامّة أهل العلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قتل المحرم صيداً متعمداً يُسألُ هل قتلتَ قبله شيئاً من الصيد؟ فإن قال نعم لم يحكم عليه، وقيل له: اذهب ينتقم الله منك، وإن قال لم أقتل قبله شيئاً حكم عليه، فإن عاد بعد ذلك لم يحكم عليه، ولكن يُملأ ظهرُه وصدره ضرباً وجيعاً، وكذلك حَكَم رسول الله ﷺ في وجٍّ وهو وادٍ بالطائف.

واختلفوا في المحرم هل يجوز له أكل لحم الصيد؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحل بحال، ويروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول طاوس وبه قال سفيان الثوري، واحتجّوا بما. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن الصَّعب بن جَثّامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً، وهو بالأبواء، أو بودّان فردّه عليه رسول الله ﷺ، قال: فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهي، قال: «إنا لم نردّه عليك إلا أنّا حُرم».

وذهب الأكثرون إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا لم يصطد بنفسه ولا اصطيد له لأجله أو بإشارته، وهو قول عمر وعثمان وأبي هريرة، وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي، وإنما ردّ النبيّ ﷺ على الصعب بن جثامة

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

لأنه ظنّ أنه صيد من أجله.

والدليل على جوازه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله التيمي عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ حتى [إذا] كان ببعض طريق مكة، تخلّف مع أصحابه محرمين وهو غير محرم فرأى حماراً وحشياً فاستوى على فرسه وسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا فسألهم رمحه فأبوا فأخذه ثم شدّ على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وأبى بعضهم فلما أدركوا رسولَ الله ﷺ سألوه عن ذلك، فقال: «إنّما هي طعمة أطعمكموها الله تعالى».

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبوالعباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن عمروبن أبي عمرو عن المطلب بن حنطب عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لحم الصيد لكم في الإحرام حلال، ما لم تصيدوه أو يُصاد لكم».

قال أبو عيسى: المطلب لا نعرف له سماعاً من جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وإذا أتلف المحرم شيئاً من الصيد لا مثل له من النعم مثل بيض أو طائر دون الحمام ففيه قيمته يصرفها إلى الطعام، فيتصدّق به أو يصوم عن كل مُدّ يوماً، واختلفوا في الجراد فرخّص فيه قوم للمحرم وقالوا: هو من صيد البحر، رُوي ذلك عن كعب الأحبار، والأكثرون على أنها لا تحلّ، فإن أصابها فعليه صدقة، قال عمر: في الجراد تمرة، ورُوي عنه وعن ابن عباس: قبضة من طعام.

﴿٩٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، والمراد بالبحر جميع المياه، قال عمر رضي الله عنه: «صيده ما اصطيد وطعامه ما رمي به».

وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتاً.

وقال قوم: هو المالح منه، وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي.

وقال مجاهد: صيده: طريُّه، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: مالحه، ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ﴾، أي: منفعة لكم، وللسيارة: يعني المارّة.

وجملة حيوانات الماء على قسمين: سمك وغيره، أمّا السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها. قال النبيّ ﷺ: «أُحلّتْ لنا ميتتان ودمان: الميتتان: الحوت والجراد، والدمان: الكبد والطحال».

ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، وعند أبي حنيفة لا يحلّ إلا أن يموت بسبب من وقوع على حجر أو انحسار الماء منه ونحو ذلك.

أمّا غير السمك فقسمان: قسم يعيش في البرّ كالضفدع والسرطان، فلا يحل أكله، وقسم يعيش في الماء ولا يعيش في البر إلا عيش المذبوح، فاختلف القول فيه، فذهب قوم إلى أنه لا يحل شيء منها إلا السمك، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه وذهب قوم إلى أن ميت الماء كلها حلال، لأنّ كلّها سمك، وإن اختلف صورها، كالجريث يقال له حية الماء، وهو على شكل الحية وأكله مباح بالاتفاق، وهو قول وأبي بكر وعمر وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وأبي هريرة، وبه قال شريح والحسن وعطاء، وهو قول مالك وظاهر مذهب الشافعي.

وذهب قوم إلى أن ما له نظير في البر يؤكل، فميتته من حيوانات البحر

حلال، مثل بقر الماء ونحوه، وما لا يؤكل نظيره في البرّ لا يحلّ ميتته من حيوانات البحر، مثل كلب الماء والخنزير والحمار ونحوها.

وقال الأوزاعي: كل شيء عيشه في الماء فهو حلال، قيل: فالتمساح؟ قال: نعم.

وقال الشعبي: لو أن أهلي أكلوا الضفادع لأطعمتهم، وقال سفيان الثوري: أرجو أن لا يكون بالسرطان بأساً.

وظاهر الآية حجة لمن أباح جميع حيوانات البحر، وكذلك الحديث.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن صفوان بن سلمان عن سعيد بن سلمة من آل بني الأزرق أن المغيرة بن أبي بردة وهو من بني عبد الدار أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول:

سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نركب في البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطّهور ماؤهُ، الحِلُّ ميتته».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيى عن ابن جريج أخبرني عمرو أنه سمع جابراً رضي الله عنه يقول:

غزوتُ جيش الخبط وأُمّر أبو عبيدة، فجعنا جوعاً شديداً فألقى البحر حوتاً ميتاً لم نَرَ مثله، يقال له العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه، فمرّ الراكب تحته. وأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: قال أبو عبيدة: كلوا فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبيّ ﷺ، فقال: «كلوا رزقاً أخرجه الله إليكم، أطعمونا إن كان معكم»، فأتاه بعضُهم بشيء منه فأكله.

قوله تعالىٰ: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، صيد البحر حلال للمحرم، كما هو حلال لغير المحرم، أما صيد البرّ فحرام على المحرم وفي الحرم، والصيد: هو الحيوان الوحشي الذي يحل أكله، أمّا ما لا يحلّ أكله فلا يحرم بسبب الإحرام، وللمحرم أخذه وقتله، ولا جزاء على من قتله إلا المتولد بين ما لا يؤكل لحمه وما يؤكل، كالمتولد بين الذئب والظبي لا يحل أكله ويجب بقتله الجزاء على المحرم، لأن فيه جزاء من الصيد.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهنّ جُناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور».

ورُوي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقتلُ المحرمُ السّبُعَ العادي».

وعن أبي هريرة أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خمسٌ قتلهنّ حلال في الحرم: الحيّة والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور».

وقال سفيان بن عيينة: الكلب العقور كل سبع يعقر، ومثله عن مالك، وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في قتل ما لا يُؤكل لحمه، من الفهد والنمر والخنزير ونحوها إلا الأعيان المذكورة في الخبر، وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه الكفارة، وقاس الشافعي رحمه الله عليها جميعَ ما لا يُؤكل لحمه لأن الحديث يشتمل على أعيانٍ بعضُها سباعٌ ضارية وبعضُها هوامّ قاتلة وبعضُها طير لا يدخل في معنى السباع ولا هي من جملة الهوام، وإنما هي حيوان مستخبث اللحم، وتحريم الأكل يجمع الكل فاعتبره ورتّب الحكم عليه.

(٩٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، قال مجاهد: سمّيت كعبة لتربيعها والعرب تسمّي كل بيت مربع كعبة، قال مقاتل: سُمّيت كعبة لانفرادها من البناء، وقيل: سميت كعبة لارتفاعها من الأرض، وأصلها من الخروج والارتفاع، وسمّي الكعب كعباً لنتوئه، وخروجه من جانبي القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثديها: تكعّبت، وسمّي البيت الحرام: لأن الله تعالىٰ حرّمه وعظّم حرمته. قال النبيّ ﷺ: «إنّ اللّهَ تعالىٰ حرّم مكةَ يومَ خلقَ السّمواتِ والأرض».

﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قرأ ابن عامر ﴿قيماً﴾ بلا ألف والآخرون ﴿قِيَـٰمًا﴾ بالألف، أي: قواماً لهم في أمرِ دينهم ودنياهم،

أما الدين لأن به يقوم الحج والمناسك، وأما الدنيا فيما يُجبى إليه من الثمرات، وكانوا يأمنون فيه من النهب والغارة فلا يتعرض لهم أحد في الحرم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ [العنكبوت: ٦٧]، ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، أراد به الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، أراد أنه جعل الأشهر الحرم قياماً للناس يأمنون فيها القتال، ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، أراد أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدي، فذلك القوام فيه.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فإن قيل: أي اتصال لهذا الكلام بما قبله، قيل: أراد أن الله عزّ وجلّ جعل الكعبة قياماً للناس لأنه الله تعالىٰ يعلم صلاح العباد كما يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وقال الزجاج: قد سبق في هذه السورة الإخبار عن الغيوب والكشف عن الأسرار، مثل قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١]، ومثل إخباره بتحريفهم الكتب ونحو ذلك، فقوله ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ راجع إليه.

(٩٨) وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، التبليغ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، أي: الحلال والحرام، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾، سرّك، ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾، نزلت في شريح بن ضُبيعة البكري، وحجاج بن بكر بن وائل، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ولا تتعرّضوا للحجاج وإن كانوا مشركين، وقد مضت القصة في أول السورة، ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(١٠١) قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، الآية أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حفص بن عمر أنا هشام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه: سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فغضب فصعد المنبر فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيّنته لكم»، فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً فإذا كلُ رجل لافّ رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل كان إذا لاحَى الرجالَ يُدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله من أبي؟ قال: «حُذافة»، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن، فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، أني صُوِّرتْ لي الجنةُ والنارُ حتى رأيتهما وراء الحائط»، وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

وقال يونس عن ابن شهاب: أخبرني عبيد الله بن عبد الله قال: قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة: ما سمعت بابن قط أعقّ منك، أأمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ قال عبد الله بن حذافة: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته. ورُوي عن عمر قال: يا رسول الله إنّا حديثو عهد بجاهلية فاعفُ عنا يعفُ الله سبحانه وتعالىٰ عنك، فسكن غضبه.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الفضل بن سهل أخبرنا أبو النضر أنا أبو خيثمة أنا أبو جويرية عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: منْ أبي ويقول الرجل تضلّ ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، حتى فرغ من الآية كلها. ورُوي عن عليّ رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال رجل: يا رسول الله أفي كل عام؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال النبيّ ﷺ: «ما يُؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، فاتركوني ما تركتم فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟

عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. أي: إن تظهر لكم تسؤكم، أي: إن أُمرتم بالعمل بها فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به في كل عام فيسوءه، ومن سأل عن نسبه لم يأمن من أن يلحقه بغيره فيفتضح.

وقال مجاهد: نزلت حين سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، لا تراه ذكرها بعد ذلك؟ ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، معناه: صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم، وليس في ظاهره شرح ما بكم إليه حاجة ومست حاجتكم إليه، فإذا سألتم عنها حينئذ تبدُ لكم، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، كما سألت ثمود صالحاً الناقة وسأل قوم عيسى المائدة، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾، فأهلكوا، قال أبو ثعلبة الخشني: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

(١٠٣) قوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾، أي: ما أنزل الله ولا أمرَ به، ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، قال ابن عباس في بيان هذه الأوضاع: البحيرة هي الناقة التي كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها، أي: شقّوها وتركوا الحمل عليها وركوبها، ولم يجزّوا وَبَرها ولم يمنعوها الماء والكلأ، ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء، وإن كان أنثى بحروا أذنها، أي: شقّوها وتركوها، وحُرّم على النساء لبنها ومنافعها، وكانت منافعها خاصة للرجال، فإذا ماتت حلت للرجال والنساء.

وقيل: كانت الناقة إذا تابعت اثنتي عشرة سنة إناثاً سُيّبت فلم يُركب ظهرُها ولم يُجزّ وبرُها ولم يشرب لبنُها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم خلى سبيلها مع أمّها في الإبل، فلم تُركب ولم يُجزّ وَبرُها ولم يشربْ لبنَها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهي البحيرة بنت السائبة.

وقال أبو عبيد: السائبة البعير الذي يُسيّب، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر فقال: إن شفاني الله تعالىٰ أو شُفي مريضي أو ردَّ غائبي، فناقتي هذه سائبة، ثم يسيّبها فلا تحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبها أحدٌ فكانت بمنزلة البحيرة.

وقال علقمة: هي العبد يُسيّب على أن لا ولاء عليه ولا عقل ولا ميراث وقال ﷺ: «إنّما الولاء لمن أعتق».

والسائبة فاعلة بمعنى المفعولة، وهي المسيبة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، أي: مدفوق، ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

وأمّا الوصيلة: فمن الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكراً ذبحوه، فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركوها في الغنم وإن كان ذكراً وأنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى، وقالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوه، وكان لبن الأنثى حراماً على النساء، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء جميعاً.

وأما الحام: فهو الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: حُمي ظهرُه فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من كلأ ولا ماء، فإذا مات أكله الرجال والنساء.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنح درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يُسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار، وكان أول من سيّب السوائب».

رَوى محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأكثم بن جون الخزاعي: «يا أكثم رأيتُ عمرو بن لُحيّ بن قمعة بن خِنْدَق يجر قصبه في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجلٍ منك به ولا به منك»، وذلك أنه أول من غيّر دين إسماعيل ونصبَ الأوثان وبحرَ البحيرة وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحام، «فلقد رأيته في النار يؤذي

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

أهل النار بريح قصبه»، فقال أكثم: أيضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال: «لا، إنك مؤمن وهو كافر».

قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، في قولهم الله أمرنا بها، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، في تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿١٠٥﴾ قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يُوشك أن يعمّهم الله تعالىٰ بعقابه»، وفي رواية: «لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليستعملنّ اللّهُ سبحانه وتعالىٰ عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون اللّهَ عزّ وجلّ خيارُكم فلا يُستجاب لكم».

قال أبو عبيد: خاف الصديق أن يتأوّل الناس الآية غير متأوّلها فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأعلمهم أنها ليست كذلك وأن الذي أذن في الإمساك عن تغييره من المنكر، هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به، وقد صُولحوا عليه، فأمّا الفسوق والعصيان والريب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الآية في اليهود والنصارى، يعني: عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم.

وعن ابن مسعود قال في هذه الآية: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قُبِلَ منكم فإن رُدّ عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل منه آي: قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي: قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آي: وقع تأويلهن بعد رسول الله ﷺ بيسير، ومنه آي: يقع تأويلهنّ في آخر الزمان، ومنه آي: يقع تأويلهن يوم القيامة ما ذكر من الحساب والجنّة والنار، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، لم يُذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤٌ ونفسُه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الله النعيمي أنا أبو جعفر أحمد بن محمد العنزي أخبرنا عيسى بن نصر أنا عبد الله بن المبارك أنا عتبة بن أبي حكيم حدثني عمرو بن جارية اللخمي أنا أبو أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلتُ: يا أبا ثعلبة كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أيّةُ آية؟ قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال: أمَا والله لقد سألت عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «بل ائتمرُوا بالمعروف وتناهُوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيتَ أمراً لا بدّ لك منه فعليك نفسك ودع أمر العوام، فإنّ ورائكم أيام الصبر، فمن صبر فيهنّ قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل

عمله»، قال ابن المبارك: وزادني غيره: قالوا: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم».

وقيل: نزلت في أهل الأهواء، قال أبو جعفر الرازي: دخل على صفوان بن محرز شابٌ من أهل الأهواء فذكر شيئاً من أمره، فقال صفوان: ألا أدلك على خاصة الله التي خصّ بها أولياءه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾، الضالّ والمهتدي، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿١٠٦﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾، سبب نزول هذه الآية ما رُوي أن تميم بن أوس الداري وعدي بن بدّاء قد خرجا من المدينة للتجارة إلى أرض الشام، وهما نصرانيان ومعهما بُدَيْل مولى عمرو بن العاص، وكان مسلماً فلما اشتدّ وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، ومات بديل ففتشا متاعه وأخذا منه إناءً من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة فغيّباه، ثم قضيا حاجتهما فانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت، ففتشوا وأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاءوا تميماً وعدياً فقال له: هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه؟ قالا: لا، قالوا: فهل اتّجر تجارة؟ قالا: لا، قالوا: هل طال مرضه فأنفق على نفسه؟ قالا: لا، فقالوا: إنّا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما كان معه وإنا قد فقدنا منها إناءً من فضة مموّهاً بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضّة، قالا: ما ندري إنّما أوصى لنا بشيء فأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء، فاختصموا إلى النبيّ ﷺ فأصرّا على الإنكار، وحلفا فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾. أي: ليشهد اثنان، لفظه خبر ومعناه أمر.

وقيل: معناه: أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت اثنان، واختلفوا في هذين الاثنين، فقال قوم: هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي.

وقال آخرون: هما الوصيان، لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ﴾، ولا يلزم الشاهد يمين، وجعلُ الوصي اثنين تأكيداً، فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور؛ كقولك: شهدتُ وصية فلان، بمعنى حضرت، قال الله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، يريد الحضور، ﴿ذَوَا عَدۡلٖ﴾، أي: أمانة وعقل، ﴿مِّنكُمۡ﴾، أي: من أهل دينكم يا معشر المؤمنين، ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾، أي: من غير دينكم وملّتكم في قول أكثر المفسّرين، قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري، وهو قول سعيد بن المسيّب وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعبيدة.

ثم اختلف هؤلاء في حكم الآية فقال النخعي وجماعة: هي منسوخة وكانت شهادة أهل الذمّة مقبولة في الابتداء ثم نسخت.

وذهب قوم إلى أنها ثابتة، وقالوا: إذا لم نجد مسلمين فنشهد كافرين.

قال شريح: من كان بأرض غربة ولم يجد مسلماً يُشهده على وصيّته فأشهد كافرين على أي دين كانا من دين أهل الكتاب أو عبدة الأوثان، فشهادتُهم جائزة، ولا تجوز شهادة كافر على مسلم إلاّ على وصية في سفر.

وعن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدِمَا الكوفة بتركته وأتيا الأشعري، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد النبيّ ﷺ فأحلفهما، وأمضى شهادتهما. وقال آخرون: قوله: ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، أي: من حي الموصي ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾، من غيرِ حيّكم وعشيرتكم، وهو قول الحسن والزهري وعكرمة، وقالوا: لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ﴾، أي سرتُم وسافرتُم، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾، فأوصيتُم إليهما ودفعتُم إليهما مالكم فاتهمهما بعض الورثة وادّعوا عليهما خيانةً، فالحكم فيه أنْ ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾، أي: تستوقفونهما، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: بعد الصلاة، و﴿مِن﴾ صلة يريد بها بعد صلاة العصر، هذا قول الشعبي والنخعي

وسعيد بن جبير وقتادة وعامّة المفسّرين، لأن جميع أهل الأديان يعظّمون ذلك الوقت، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، وقال الحسن: أراد من بعد صلاة العصر، وقال السدي: من بعد صلاة أهل دينهما وملّتهما لأنهما لا يباليان بصلاة العصر، ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، فيحلفان، ﴿بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، أي: شككتم ووقعت لكم الريبة في قول الشاهدين وصدقهما، أي: في قول الذين ليسا من أهل ملتكم، فإن كانا مسلمين فلا يمين عليهما، ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾، أي: لا نحلف بالله كاذبين على عوض نأخذه أو مال يذهب به أو حق نجحده، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، ولو كان المشهود له ذا قرابة منّا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، أضاف الشهادة إلى الله لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها، وقرأ يعقوب ﴿شهادةٌ﴾، بالتنوين، ﴿آللهِ﴾ ممدود، وجعل الاستفهام عوضاً عن حرف القسم، ويُروى عن أبي جعفر ﴿شَهَٰدَةً﴾ بتنوين، ﴿ٱللَّهِ﴾ بقطع الألف وكسر الهاء من غير استفهام على ابتداء اليمين، أي: والله، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾، أي: إن كتمناها كنّا من الآثمين.

فلما نزلت هذه الآية صلّى رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعا تميماً وعدياً فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلاّ هو أنهما لم يختانا شيئاً مما دُفع إليهما فحلفا على ذلك، وخلّى رسول الله ﷺ سبيلهما.

ثم ظهر الإناء واختلفوا في كيفية ظهوره، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه وجد بمكة، فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعدي. وقال آخرون: لما طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بني سهم فأتوهما في ذلك، فقالا: إنا كنا قد اشتريناه منه فقالوا لهما: ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه؟ قالا: لم يكن عندنا بيّنة وكرهنا أن نقرّ لكم به فكتمناه لذلك، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿١٠٧﴾ ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾، أي: اطلع على خيانتهما، وأصل العثور: الوقوع على الشيء، ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾، يعني: الوصيين ﴿ٱسْتَحَقَّآ﴾، استوجبا، ﴿إِثْمًا﴾، بخيانتهما وبأيمانهما الكاذبة، ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، من أولياء الميت، ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، يعني: مقام الوصيين، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُحِقَّ﴾، بضم التاء على المجهول، هذا قراءة العامة، يعني: الذين استحق، ﴿عَلَيْهِمُ﴾، أي: فيهم ولأجلهم الإثم وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم و ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى في؛ كما قال الله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: في ملك سليمان، وقرأ حفص ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء والحاء، وهي قراءة علي والحسن، أي: حقّ ووجب عليهم الإثم، يقال: حق واستحق بمعنى واحد، ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، نعت للآخران، أي: فآخران الأوليان، وإنما جاز ذلك، و ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ معرفة والآخران نكرة لأنه لما وصف الـ «آخران» فقال ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ صار كالمعرفة و ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ تثنية الأولى، والأولى هو الأقرب، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿الاولين﴾ بالجمع فيكون بدلاً من الذين، والمراد منهم أيضاً أولياء الميت.

ومعنى الآية: إذا ظهرتْ خيانة الحالفين يقوم اثنان آخران من أقارب الميت، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾، يعني: يميننا أحق من يمينهما، نظيره قوله تعالىٰ في اللعان: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦]، والمراد بها الأيمان، فهي كقول القائل: أشهد بالله، أي: أُقسم بالله، ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾، في أيماننا، وقولنا أنّ شهادتنا أحقّ من شهادتهما، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله بعد العصر فدفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الداري بعدما أسلم يقول: صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله وأستغفره، وإنما انتقل اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين ادعيا أنهما ابتاعاه.

والوصي إذا أخذ شيئاً من حال الميت وقال: إنه أوصى لي به حلف الوارث، إذا أنكر ذلك، وكذلك لو ادّعى رجل سلعة في يد رجل فاعترف ثم ادّعى أنه اشتراها من المدعي، حلف المدعي أنه لم يبعها منه.

ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن تميم الداري قال: كنّا بعنا الإناء بألف درهم فقسمتها أنا

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

وعدي، فلما أسلمت تأثمت فأتيت موالي الميت فأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به إلى رسول الله ﷺ وحلف عمرو والمطلب فنزعت الخمسمائة من عدي، ورددتُ أنا الخمسمائة.

فذلك قوله تعالىٰ:

﴿١٠٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، [أي]: ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين أجدر وأحرى أن يأتي الوصيان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم، أي: أقرب إلى الإتيان بالشهادة على ما كانت، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: أقرب إلى أن يخافوا ردّ اليمين بعد يمينهم على المدّعين، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أن تحلفوا أيماناً كاذبة وتخونوا الأمانة، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾، الموعظة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿١٠٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿فَيَقُولُ﴾، لهم، ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، أي: ما الذي أجابتْكم أمتُكم؟ مَا الذي رُدّ عليكم قومُكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي؟ ﴿قَالُوا۟﴾، أي: فيقولون، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، قال ابن عباس معناه: لا علم لنا إلا العلم الذي أنت أعلم به منّا، وقيل: لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيّانا عن أمرٍ أنت أعلم به منّا، وقال ابن جريج: لا علم لنا بعاقبة أمرهم وبما أحدثوا من بعد، دليله أنه قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، أي: أنتَ الذي تعلم ما غاب ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا وُهَيب أنا عبد العزيز عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لَيَرِدَنّ عليّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتى إذا عرفتُهُم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد والسدي: إن للقيامة أهوالاً وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها، فيفزعون من هول ذلك اليوم ويذهلون عن الجواب، ثم بعدما ثَابَتْ إليهم عقولهم يشهدون على أممهم.

﴿١١٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، وأراد بقوله: ﴿نِعْمَتِى﴾، أي: نِعَمي قال الحسن: لفظه واحد ومعناه جمع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، مريم ثم ذكر النعم فقال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، قوّيتك، ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، يعني: جبريل عليه السلام، ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، يعني: وتكلم الناس، ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾، صبياً، ﴿وَكَهْلًا﴾، نبياً قال ابن عباس: أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: الخط، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني: العلم والفهم، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾، تجعل وتصوّر، ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، كصورة الطير، ﴿بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾، حيّاً يطير، ﴿بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ﴾، تصحح، ﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، من قبورهم أحياء، ﴿بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ﴾، منعت وصرفت، ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يعني: اليهود، ﴿عَنكَ﴾، حين همُّوا بقتلك، ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يعني: بالدلالات والمعجزات، وهي التي ذكرنا.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يعني: ما جاءهم به من البيّنات، قرأ حمزة والكسائي ﴿سَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ ها هنا وفي سورة هود والصف، فيكون راجعاً إلى عيسى عليه السلام، وفي هود يكون راجعاً إلى محمد ﷺ.

(١١١) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، أي: ألهمتُهم وقذفت في قلوبهم، وقال أبو عبيدة: يعني أمرت و ﴿إِلَى﴾ صلة، والحواريون خواص أصحاب عيسى عليه السلام، ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾، عيسى، ﴿قَالُوا﴾ حين وفقتهم ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، قرأ الكسائي ﴿هل تستطيع﴾ بالتاء ﴿ربَّك﴾ بنصب الباء هي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد، أي: هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربك، وقرأ الآخرون ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء، و ﴿وَرَبُّكَ﴾ برفع الباء، ولم يقولوه شاكّين بقدرة الله عزّ وجلّ، ولكن معناه: هل ينزل ربك أم لا؟ كما يقول الرجل لصاحبه: هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا، وقيل: يستطيع بمعنى يطيع، يقال: أطاع واستطاع بمعنى واحد، كقوله: أجاب واستجاب، معناه: هل يطيعك ربك بإجابة سؤالك؟ وفي الآثار من أطاع الله أطاعه الله، وأجرى بعضهم على الظاهر، فقالوا: غلط القوم، وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشراً، فقال لهم عيسى عليه السلام: عند الغلط استعظاماً لقولهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: لا تشكّوا في قدرته.

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾، المائدة الخوان الذي عليه الطعام، وهي فاعلة من: مادهُ يميدُهُ إذا أعطاه وأطعمه، كقوله: ماره يميره، وامتاد: افتعل منه، والمائدة هي المطعمة للآكلين الطعام، وسمي الطعام أيضاً مائدة على الجواز، لأنه يؤكل على المائدة، وقال أهل الكوفة: سُمّيت مائدة لأنها تميد بالآكلين، أي: تميل، وقال أهل البصرة: فاعلة بمعنى المفعول، أي: تميد بالآكلين إليها؛ كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: مرضية، ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فلا تشكّوا في قدرته، وقيل: اتّقوا اللّهَ أن تسألوه شيئاً لم تسأله الأمم قبلكم، فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان.

(١١٣) ﴿قَالُوا نُرِيدُ﴾، أي: إنّما سألنا لأنّا نُريد، ﴿أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾، أكل تبرّك لا أكل حاجة فنستيقن قدرته، ﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾، تسكن، ﴿قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، بأنّك رسول الله، أي: نزداد إيماناً ويقيناً، وقيل إن عيسى ابن مريم عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوماً، فإذا فطروا لا يسألون الله شيئاً إلاّ أعطاهم، ففعلوا وسألوا المائدة، وقالوا: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في قولك، إنا إذا صمنا ثلاثين يوماً لا نسأل الله تعالى شيئاً إلاّ أعطانا، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالنبوّة والرسالة، وقيل: ونكون من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، عند ذلك، ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾، وقيل: إنه اغتسل ولبس المسح وصلّى ركعتين وطأطأ رأسه وغضّ بصره وبكى، ثم قال: اللّهمّ ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، أي: عائدة من الله علينا حجّة وبرهاناً، والعيد: يوم السرور، وسمّي به للعود من الترح إلى الفرح، وهو اسم لما اعتدته ويعود إليك وسمّي يوم الفطر والأضحى

عيداً لأنهما يعودان في كل سنة، قال السدي: معناه نتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيداً لأولنا وآخرنا، أي: نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان: نصلّي فيه، قوله: ﴿لِأَوَّلِنَا﴾، أي: لأهل زماننا ﴿وَءَاخِرِنَا﴾، أي: لمن يجيء بعدنا، وقال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم، ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾، دلالة وحجة، ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿١١٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ مجيباً لعيسى عليه السلام، ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، يعني: المائدة وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بالتشديد لأنها نزلت مرات والتفعيل يدلّ على التكرير مرة بعد أخرى وقرأ الآخرون بالتخفيف لقوله ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، أي: بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، أي: جنس عذاب، ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: عالمي زمانه، فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فَمُسِخُوا قردة وخنازير، قال عبدالله بن عمرو: إنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون.

واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فقال مجاهد والحسن: لم تنزل لأن الله عزّ وجلّ لمّا أوعد على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا، وقالوا: لا نريدها، فلم تنزل، وقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، يعني: إن سألتم.

والصحيح الذي عليه الأكثرون أنها نزلت؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ولا خلف في خبره ولتواتر الأخبار فيه عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين.

واختلفوا في صفتها، فروى خلاس بن عمرو عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنها نزلت خبزاً ولحماً، وقيل لهم: إنها مقيمة لكم ما لم تخونوا وتخبؤوا فما مضى يومهم حتى خانوا وخبؤوا فمسخوا قردة وخنازير.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن عيسى عليه السلام قال لهم: صُومُوا ثلاثين يوماً ثم سلوا الله ما شئتُم يعطكموه، فصامُوا فلما فرغوا قالوا: يا عيسى إنّا لو عملنا لأحدهما فقضينا عمله لأطعمنا، وسألوا الله المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم.

قال كعب الأحبار: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض، عليها كل الطعام إلاّ اللحم.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أُنزل على المائدة كل شيء إلاّ الخبز واللحم.

قال قتادة: كان عليها ثمر من ثمار الجنّة.

وقال عطية العوفي: نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء.

وقال الكلبي: كان عليها خبز ورز وبقل.

وقال وهب بن منبه: أنزل الله أقرصة من شعير وحيتاناً وكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون حتى أكل جميعهم وفضل.

وعن الكلبي ومقاتل: أنزل الله خبزاً وسمكاً وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالىٰ، والناس ألف ونيف فلمّا رجعوا إلى قراهم، ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد، وقالوا: ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبّته على بصيرته، ومن أراد فتنته رجع إلى كفره، فمسخوا خنازير ليس فيهم صبي ولا امرأة، فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا، وكذلك كل ممسوخ.

وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرة وعشياً حيث كانوا كالمنّ والسلوى لبني إسرائيل.

وقال عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي: لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام صوفاً وبكى، وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوى منقضّة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى، وقال: اللّهمّ اجعلني من الشاكرين اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة، واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه، فقال عيسى عليه السلام: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم الله تعالى، فقال شمعون الصفار رأس الحواريين: أنت أولى بذلك

منّا، فقام عيسى عليه السلام فتوضّأ وصلّى صلاة طويلة وبكى كثيراً، ثم كشف المنديل عنها، وقال: بسم الله خير الرازقين فإذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوسها ولا شوك عليها تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، ولكنه شيء افتعله الله تعالىٰ بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله، قالوا: يا روح الله كن أول من يأكل منها، فقال عيسى عليه السلام: معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها، فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمقعدين والمبتلين، فقال: كلوا من رزق الله ولكم المهنأ ولغيركم البلاء، فأكلوا وصدر عنها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزَمِن ومُبتلى كلهم شبعان، وإذ السمكة كهيئتها حين نزلت، ثم طارت سفرة المائدة صعداً وهم ينظرون إليها حتى توارت، فلم يأكل منها زمن ولا مريض ولا مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى، وندم من لم يأكل منها فلبثت أربعين صباحاً تنزل ضحى، فإذا نزلت اجتمع الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء، ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعداً وهم ينظرون إليها في ظلها حتى توارت عنهم، وكانت تنزل غباً تنزل يوماً ولا تنزل يوماً كناقة ثمود، فأوحى الله تعالىٰ إلى عيسى عليه السلام: اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناسَ فيها، وقالوا: أترون المائدة حقاً تنزل من السماء؟ فأوحى الله تعالىٰ إلى عيسى عليه السلام: إني شرطت أنّ من كفر بعد نزولها عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلاً باتوا من ليلتهم على فراشهم مع نسائهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكنّاسات، ويأكلون العذرة في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا، فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف بعيسى عليه السلام وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برءوسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

(١١٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، اختلفوا في أن هذا القول متى يكون، فقال السدي: قال الله تعالىٰ هذا القول لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء لأن حرف ﴿إذ﴾ يكون للماضي، وقال سائر المفسّرين: إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة، بدليل قوله من قبل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال من بعدها: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وأراد بهما يوم القيامة، وقد تجيء ﴿إذ﴾ بمعنى إذاً؛ كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ [سبأ: ٥١]، أي: إذا فزعوا يوم القيامة، والقيامة وإن لم تكن بعد ولكنها كالكائنة لأنها آتية لا محالة.

قوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، فإن قيل: فما وجه هذا السؤال مع علم الله عز وجل أن عيسى لم يقله؟

قيل: هذا السؤال عنه لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله إعلاماً واستعظاماً لا استخباراً واستفهاماً.

وأيضاً أراد الله عزّ وجلّ أنْ يقرّ عيسى عليه السلام على نفسه بالعبودية، فيسمع قومه منه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك، قال أبو روق: إذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب أرعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة في جسده عين من دم، ثم يقول مجيباً لله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾، تنزيهاً لك وتعظيماً ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، قال ابن عباس: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: تعلم سري ولا

الجزء السابع — سورة الأنعام

سُورَةُ الأَنعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

١٢٨

أعلَم سرك، وقال أبو روق: تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في الآخرة، وقال الزجاج: النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته، يقول: تعلم جميع ما أعلم من حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، ما كان وما يكون.

﴿١١٧﴾ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، وحّدوه ولا تُشركوا به شيئاً، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ﴾، أقمت، ﴿فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾، قبضتني ورفعتني إليك، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾، الحفيظ عليهم، تحفظ أعمالهم، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿١١٨﴾ قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فإن قيل: كيف طلب المغفرة لهم وهم كفار، وكيف قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وهذا لا يليق بسؤال المغفرة، قيل: أمّا الأول معناه إن تعذبهم بإقامتهم على كفرهم وإن تغفر لهم بعد الإيمان، وهذا يستقيم على قول السدي: إن هذا السؤال قبل يوم القيامة لأن الإيمان لا ينفع في القيامة.

وقيل: هذا في الفريقين منهم معناه: إن تعذب من كفر منهم، وإن تغفر لمن آمن منهم.

وقيل: ليس هذا على وجه طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال: فإنك أنت الغفور الرحيم، ولكنه على تسليم الأمر وتفويضه إلى مراده، وأما السؤال الثاني فكان ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم﴾، وكذلك هو في مصحفه، وأمّا على القراءة المعروفة قيل: فيه تقديم وتأخيره تقديره: وإن تغفر لهم فإنهم عبادك وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

وقيل: معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز في الملك الحكيم في القضاء لا ينقص من عزّك شيء، ولا يخرج من حكمك شيء، ويدخل في حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته الكفار، لكنه أخبر أنه لا يغفر وهو لا يخلف خبره.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثني يونس بن عبدالأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدّثه عن عبد الرحمٰن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبيّ ﷺ تلا قول الله تعالىٰ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فرفع يديه وقال: «اللّهمّ أمتي أمتي» وبكى، فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربُّك أعلم فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله تعالىٰ: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك».

﴿١١٩﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾، قرأ نافع ﴿يومَ﴾ بنصب الميم، يعني: تكون هذه الأشياء في يوم، فحذف في فانتصب، وقرأ الآخرون بالرفع على أنه خبر ﴿هَٰذَا﴾، أي: ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافتضحوا، وقيل: أراد بالصادقين النبيّين.

وقال الكلبي: ينفع المؤمنين إيمانهم، قال قتادة: متكلمان يخطبان يوم القيامة عيسى عليه السلام، وهو ما قصّ الله، وعدو الله

إبليس، وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية، فصدق عدو الله يومئذٍ، وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه، وأما عيسى عليه السلام كان صادقاً في الدنيا والآخرة، فنفعه صدقه.

وقال عطاء: هذا يوم من أيام الدنيا لأن الدار الآخرة دار جزاء لا دار عمل، ثم بيّن ثوابهم فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ثم عظّم نفسه.

(١٢٠) فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

سورة الأنعام

وهي مائة وخمس وستون آية مكية، نزلت بمكة جملة ليلاً معها سبعون ألف ملك قد سدُّوا ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد، فقال النبيّ ﷺ: «سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم وخرّ ساجداً».

وروي مرفوعاً: «من قرأ سورة الأنعام يصلّي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره».

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة الأنعام بمكة، إلاّ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١ ـ ٩٣]، إلى آخر ثلاث آيات، وهو قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]، فهذه الستّ آيات مدنيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة، وآخر آية في التوراة، قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] الآية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: افتتح الله الخلق بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وختمه بالحمد فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بين الخلائق، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

قوله: الحمد لله، حمد الله نفسه تعليماً لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السمٰوات والأرض، خصّهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد وفيهما العبر والمنافع للعباد، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، والجعل بمعنى الخلق، وقال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما اللّيل والنهار.

وقال الحسن: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، يعني: الكفر والإيمان، وقيل: أراد بالظلمات الجهل وبالنور العلم، وقال قتادة: يعني الجنّة والنار.

وقيل: معناه خلق الله السمٰوات والأرض، وقد جعل الظلمات والنور، لأنه خلق الظلمة والنور قبل السمٰوات والأرض.

قال قتادة: خلق الله السمٰوات قبل الأرض، وخلق الظلمة قبل النور، والجنة قبل النار.

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالىٰ خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ».

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون، أي: يشركون، وأصله من مساواة الشيء بالشيء، ومنه العدل، أي: يعدلون بالله غير الله تعالىٰ، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به، قال النضر بن شميل: الباء بمعنى عن، أي: عن ربهم يعدلون، أي يميلون وينحرفون من العدول، قال الله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، أي: منها.

وقيل: تحت قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: معنى لطيف: وهو مثل قول القائل: أنعمت عليكم بكذا وتفضّلت عليكم بكذا، ثم تكفرون بنعمتي.

(٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، يعني: آدم عليه السلام، خاطبهم به إذ كانوا من ولده، قال السدي: بعث الله تعالىٰ جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني، فرجع جبريل ولم يأخذ شيئاً وقال: يا ربِّ إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل، فاستعاذت فرجع، فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره، فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء، فلذلك اختلفت ألوان بني

آدم، ثم عجنها بالماء العذب والملح والمرّ، فلذلك اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالىٰ لملك الموت: رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها، لا جرمَ أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك.

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خلق الله آدم عليه السلام من تراب وجعله طيناً، ثم تركه حتى كان حمأً مسنوناً ثم خلقه وصوّره وتركه حتى كان صلصالاً كالفخار، ثم نفخ فيه روحه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، قال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول من الولادة إلى الموت، والأجل الثاني من الموت إلى البعث، وهو البرزخ، ورُوي ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأجل الأول أجل الدنيا، والأجل الثاني أجل الآخرة، وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾، يعني: النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند اليقظة، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، يعني: أجل الموت، وقيل: هما واحد معناه: ثم قضى أجلاً يعني جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني: وهو أجل مسمى عنده لا يعلمه غيره، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، تشكّون في البعث.

(٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِۖ﴾، يعني: وهو إلٰه السمٰوات والأرض؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقيل: هو المعبود في السمٰوات والأرض، وقال محمد بن جرير: معناه وهو الله في السمٰوات يعلم سركم وجهركم في الأرض، وقال الزجاج: فيه تقديم وتأخير وتقدير: وهو الله، ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، في السمٰوات والأرض، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، تعملون من الخير والشر.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾، يعني: أهل مكة، ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، مثل انشقاق القمر وغيره، وقال عطاء: يريد من آيات القرآن، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، لها تاركين وبها مكذّبين.

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة استهزائهم إذا عُذّبوا.

(٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، يعني: من الأمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون، وقيل: القرن مدة من الزمان، يقال: ثمانون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، ويقال: مائة سنة، لِمَا رُوي أن النبيّ ﷺ قال لعبد الله بن بُسر المازني: «إنك تعيشُ قرناً»، فعاش مائة سنة.

فيكون معناه على هذه الأقاويل من أهلِ قرنٍ، ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، أي: أعطيناهم ما لم نعطكم، وقال ابن عباس: أمهلناهم في العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود، يقال: مكّنتهُ ومكنتُ له، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، يعني: المطر، مِفْعَال، من الدَّر، قال ابن عباس: مدراراً أي: مُتتابعاً في أوقات الحاجات، وقوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ من خطاب التلوين، رجع من الخبر من قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ إلى الخطاب؛ كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وفيهم محمد ﷺ وأصحابه، ثم خاطبهم معهم، والعرب تقول: قلت لعبد الله ما أكرمه، وقلت لعبد الله: ما أكرمك، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا﴾، خلقنا وابتدأنا، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

(٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أميّة ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ مكتوباً من عندي، ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، أي: عاينوه ومسّوه بأيديهم، وذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لأن اللمس أبلغ في إيقاع العِلم من الرؤية، فإن السحر يجري على المرئي ولا يجري على الملموس، ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، معناه: أنه لا ينفع معهم شيء لِمَا سبق فيهم من علمي.

﴿٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾، على محمد ﷺ، ﴿مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: لوجب العذاب، وفُرغ من الأمر، وهذا سنّة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية فأنزلت ثم لم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، أي: لا يؤجلون ولا يمهلون، وقال قتادة: لو أنزلنا ملكاً ثم لم يُؤمنوا لعُجّل لهم العذابُ ولم يُؤخروا طرفةَ عين، وقال مجاهد: لقضي الأمر أي لقامت القيامة، وقال الضحّاك: لو أتاهم ملك في صورته لماتُوا.

﴿٩﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾، يعني: لو أرسلنا إليهم ملكاً، ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾، يعني: في صورة رجل آدمي، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبيّ ﷺ في صورة دحية الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي: خلطنا عليهم ما يخلطون وشبّهنا عليهم فلا يدرون أملَكٌ هو أو آدمي، وقيل: معناه شَبّهوا على ضعفائهم فشبّه عليهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم أهل الكتاب فرّقوا دينهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم وقرأ الزهري ﴿وللبّسنا﴾ بالتشديد على التكرير والتأكيد.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، كما استهزىء بك يا محمد، يعزّي نبيّه ﷺ، ﴿فَحَاقَ﴾، قال الربيع بن أنس: فنزل، وقال عطاء: حلّ، وقال الضحّاك: أحاط، ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: جزاء استهزاءهم من العذاب والنقمة.

﴿١١﴾ ﴿قُلْ﴾، يا محمد لهؤلاء المكذّبين المستهزئين، ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، معتبرين، يُحتمل هذا السير بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: آخر أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك، فحذرّ كفار مكة عذاب الأمم الخالية.

﴿١٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإن أجابوك وإلاّ فـ ﴿قُل﴾، أنتَ، ﴿لِّلَّهِ﴾، أمره بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأثير وآكد في الحجّة، ﴿كَتَبَ﴾، أي: قضى، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، هذا استعطاف منه تعالىٰ للمتولّين عنه إلى الإقبال عليه وإخباره بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللَّهُ الخلقَ كتبَ كتاباً فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي غلبت غضبي».

وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: «إنّ رحمتي سبقتْ غضبي».

أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكركاني أنا أبو طاهر الزيادي أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا أبو عبدالرحمٰن المروزي أخبرنا عبد الله بن المبارك أنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله مائةَ رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تتعاطف الوحوش على أولادها، وأخّرَ الله

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا ابن أبي مريم ثنا أبو غسان حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبيّ ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها، تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبيّ ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار»؟ فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «اللَّهُ أرحمُ بعبادهِ من هذهِ بولدها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد مجازة: والله ليجمعنّكم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه ليجمعنكم في قبوركم إلى يوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾، غبنوا، ﴿أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: استقرّ، قيل: أراد ما سكن وما تحرّك؛ كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي: الحرّ والبرد، وقيل: إنما خصّ السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر، قال محمد بن جرير: كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن اللّيل والنهار، والمراد منه جميع ما في الأرض، وقيل معناه: وله ما يمرّ عليه الليل والنهار، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، لأصواتهم، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأسرارهم.

﴿١٤﴾ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؟ وهذا حين دعي إلى دين آبائه، فقال تعالىٰ: قل يا محمد أغير الله أتخذ ولياً، ربّاً ومعبوداً وناصراً ومُعيناً؟ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما ومُبدعهما ومبتديهما، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، أي: وهو يَرزق ولا يُرزق؛ كما قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]. ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله، وقيل: أسلم أخلص، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾، يعني: وقيل لي ولا تكوننّ، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾، فعبدتُ غيرَه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: عذاب يوم القيامة.

﴿١٦﴾ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾، يعني: من يُصرف العذاب عنه، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿يَصْرِف﴾ بفتح الياء وكسر الراء، أي: من يصرف الله عنه العذاب لقوله ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: النجاة البيّنة.

﴿١٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلية ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾، لا رافع، ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، عافية ونعمة، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، من الخير والضر.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الله السلمي أنا أبو العباس الأصم أنا أحمد بن شيبان الرملي أنا عبد الله بن ميمون القداح أنا شهاب بن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس قال: أهدي للنبيّ ﷺ بغلة، أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه، ثم سار بي ملياً ثم التفت إليّ فقال: «يا غلام»، قلتُ: لبّيك يا رسول الله، قال: «احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجدْهُ أمامك، تعرّفْ إلى اللهِ في الرخاء يعرفْك في الشدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، وقد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد

الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالىٰ لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضرّوك بما لم يكتب الله تعالىٰ عليك ما قدروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين، فافعلْ فإن لم تستطع فاصبرْ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأنّ مَعَ الكَرْبِ الفَرَجَ، وأنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً».

⑱ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، القاهر الغالب، وفي القهر زيادة معنى على القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد، وقيل: هو المنفرد بالتدبير الذي يُجْبِرُ الخلقَ على مُراده ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ هو صفة الاستعلاء الذي تفرّد به الله عزّ وجلّ. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، في أمره، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، بأعمال عباده.

⑲ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟ الآية، قال الكلبي: أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا: أرنا من يشهد أنك رسول الله فإنّا لا نرى أحداً يصدّقك، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿شَهَٰدَةً﴾؟ فإن أجابوك، وإلاّ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، على ما أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، لأخوّفكم به يا أهل مكة، ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾، يعني: ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة.

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أنا محمد بن بشر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن الحسن بن بشير النقاش أنا أبو شعيب الحراني أنا يحيى بن عبد الله بن الضحاك البابلي أنا الأوزاعي حدثني حسان بن عطية عن أبي كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومنْ كذبَ عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعدَه مِنَ النار».

أخبرنا أبو الحسن عبدالوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان بن عُيينة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نضّر اللّهُ عبداً سمعَ مقالتي فحفظها ووعاها وأدّاها، فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يَغِلُّ عليهنّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتَهم تحيطُ من ورائهم».

قال مقاتل: من بلغه القرآن من الجنّ والإنس فهو نذير له، وقال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ وسمع منه، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟ ولم يقل أُخر لأن الجمع يلحقه التأنيث؛ كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]. ﴿قُل﴾، يا محمد إن شهدتم أنتم، ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾، أنا أنّ معه إلٰهاً، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

⑳ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: التوراة والإنجيل، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، يعني: محمداً ﷺ بنعته وصفته، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، من بين الصبيان، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾، غبنوا، ﴿أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنّة، ولأهل النار منازل أهل الجنّة في النار، وذلك الخسران.

㉑ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أكفر، ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، اختلق، ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فأشرك به غيره، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، يعني: القرآن، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، الكافرون.

㉒ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة، قرأ يعقوب ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ هٰهنا، وفي سبأ بالياء، ووافق حفص في سبأ، وقرأ الآخرون بالنون. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أنها تشفع لكم عند ربكم.

㉓ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب «يكن» بالياء لأن الفتنة بمعنى الافتتان، فجاز تذكيره، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الفتنة، وقرأ ابن كثير وابن عامر حفص عن عاصم ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع جعلوه اسم كان، وقرأ الآخرون بالنصب، فجعلوا الاسم

قوله: ﴿أَن قَالُوا﴾، فتنتهم الخبر، ومعنى قوله: فتنتهم، أي: قولهم وجوابهم، وقال ابن عباس وقتادة: معذرتهم والفتنة التجربة، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة، قال الزجاج: في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يفتتن لمحبوب ثم يصيبه فيه محنة فيتبرّأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنت إلاّ هذا، كذلك الكفار فُتنوا بمحبة الأصنام، ولما رأوا العذاب تبرّأوا منها، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، في محبّتهم للأصنام، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على نداء المضاف، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت والله، وقيل: إنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرةَ الله تعالىٰ وتجاوزه عن أهل التوحيد، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتُمُ الشرك لعلّنا ننجوا مع أهلِ التوحيد، فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيختم على أفواههم وتشهدُ عليهم جوارحُهم بالكفر.

(٢٤) فقال عزّ وجلّ: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، باعتذارهم الباطل وتبرّيهم عن الشرك، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: زال وذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كلّه في ذلك اليوم.

(٢٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبيّ إبنا خلف والحارث بن عامر، يستمعون القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قُتيلة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأوّلين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا لا نقرّ بشيء من هذا، وفي رواية: لَلموت أهونُ علينا من هذا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وإلى كلامك، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أغطية، جمع كنان، كالأعنة جمع عنان، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أن يعلموه، قيل: معناه أن لا يفقهوه، وقيل: كراهة أن يفقهوه، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، صمماً وثقلاً، وهذا دليل على أن الله تعالىٰ يقلّب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنّة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾، من المعجزات والدلالات، ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم، والأساطير جمع: أسطورة، وإسطارة، وقيل: هي الترهات والأباطيل، وأصلها من سطرت، أي: كُتبت.

(٢٦) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: ينهون الناس عن اتّباع محمد ﷺ، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: يتباعدون عنه بأنفسهم، نزلت في كفار مكة، قاله محمد بن الحنفية والسدي والضحّاك، وقال قتادة: ينهون عن القرآن وعن النبيّ ﷺ ويتباعدون عنه.

وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى النبيّ ﷺ ويمنعهم وينأى عن الإيمان به، أي: يبعد، حتى رُوي أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا: خذ شاباً من أصبحنا وجهاً، وادفع إلينا محمداً، فقال أبو طالب: ما أنصفتموني أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأربي ولدكم؟ ورُوي أنّ النبيّ ﷺ دعاه إلى الإيمان، فقال: لولا أن تعيّرني قريش لأقررت بها عينك، ولكن أذبّ عنك ما حييت، وقال فيه أبياتاً:

والله لَنْ يصلوا إليك بجمْعهمْ
حتى أُوسَّدَ في الترابِ دفينا
فاصْدعْ بأمرِكَ ما عليكَ غضاضةٌ
وابْشِرْ بذاك وقِرّ بذاك منكَ عيونا
ودعوتني وعرفتُ أنكَ ناصحي
ولقد صدقتَ وكنتَ ثَمّ أمينا
وعرضتَ ديناً قدْ علمتُ بأنه
من خيرِ أديانِ البريّة دينا
لولا الملامةُ أو حذارُ سُبّةٍ
لوجدْتني سمحاً بذاك مبينا

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾، أي: ما يهلكون، ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾، أي: لا يرجع وبال فعلهم إلاّ إليهم، وأوزار الذين يصدونهم عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

(٢٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾، يعني: في النار؛ كقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: في ملك سليمان، وقيل: عُرضوا على النار، وجواب ﴿لو﴾ محذوف معناه: لو

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

تراهم في تلك الحالة لرأيتَ عجباً، ﴿فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، يعني: إلى الدنيا، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قراءة العامّة كلها بالرفع على معنى: يا ليتنا نرد [و] نحن لا نكذبُ ونكونُ من المؤمنين، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ بنصب الباء والنون على جواب التمنّي، أي: ليت ردنا وقع، وأن لا نكذب ونكون، والعرب تنصب جواب التمني بالواو كما تنصب بالفاء، وقرأ ابن عامر ﴿نُكَذِّبُ﴾ بالرفع، و ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب لأنهم تمنوا أن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا عن أنفسهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم إن ردوا إلى الدنيا.

﴿٢٨﴾ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ قوله: ﴿بل﴾ تحته ردّ قولهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو رُدّوا لآمنوا بل بدَا لهم ظهر لهم، ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾، يسرّون ﴿مِن قَبْلُ﴾، في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون، وهو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدتْ عليهم جوارحُهم بما كتمُوا وستروا، لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلا أن تجعل الآية في المنافقين، وقال المبرد: بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون، وقال النضر بن شميل: بل بدَا عنهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا﴾، يعني: إلى ما ﴿نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾، في قولهم، لو ردنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، هذا إخبار عن إنكارهم البعث، وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هذا من قولهم لو ردّوا لقالوه.

﴿٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: على حكمه وقضاءه ومسألته، وقيل: عُرضوا على ربهم، ﴿قال﴾ لهم، وقيل: تقول لهم الخزنة بأمر الله، ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ في موقف آخر، وللقيامة مواقف، ففي موقف يُقرّون، وفي موقف يُنكرون، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله بالبعث بعد الموت، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة، ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا﴾، ندامتنا، ذُكر على وجه النداء للمبالغة، قال سيبويه: كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أوانك، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾، أي: قصرنا، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الطاعة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة.

وقال محمد بن جرير: الهاء راجعة إلى الصفقة، وذلك أنه لمّا تبيّن لهم خسران صفقتهم ببيعهم الآخرة بالدنيا ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، أي: في الصفقة، فترك ذكر الصفقة اكتفاءً بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾، لأن الخسران إنما يكون في صفقة بيع، والحسرة شدّة الندم، حتى يتحسر النادم، كما يتحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾، أثقالهم وآثامهم، ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، قال السدي وغيره: إن المؤمن إذا أخرج من قبره استقبله أحسن شيء صورةً وأطيبه ريحاً، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، أي: ركباناً، وأمّا الكافر يستقبله أقبح شيء صورةً وأنتنه ريحاً، فيقول:

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك، فهو معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، يحملون، قال ابنُ عباس: أي بئس الحمل حملوا.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، باطل وغُرور لا بقاء لها، ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾، قرأ ابن عامر ﴿ولدار الآخرة﴾ مضافاً أضاف الدار إلى الآخرة، ويضاف الشيء إلى نفسه عند اختلاف اللفظين؛ كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ١٠]، وقولهم: ربيع الأول، ومسجد الجامع، سُمّيت الدنيا لدنوّها، وقيل: لدناءتها، وسُمّيت الآخرة لأنها بعد الدنيا، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أن الآخرة أفضل من الدنيا، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب ﴿أفلا تعقلون﴾، بالتاء ها هنا وفي الأعراف وسورة يوسف ويس، وافق أبو بكر في سورة يوسف، ووافق حفص إلا في سورة يس، وقرأ الآخرون بالياء فيهن.

﴿٣٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، قال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد بن عبد الله أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبيّ ﷺ: لا نتّهمك ولا نكذبك ولكنّا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، بأنك كاذب، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، قرأ نافع والكسائي بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد من التكذيب، فالتكذيب هو أن تنسبه إلى الكذب، وتقول له: كذبت، والإكذاب هو أن تجده كاذباً، تقول العرب: أجدبت الأرض وأخصبتها إذا وجدتها جدبة ومخصبة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، يقول: إنهم لا يكذبونك في السرّ لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى، وإنّما يكذّبون وَحْيي ويجحدون آياتي، كما قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، كذّبهم قومهم كما كذّبتك قريش، ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، بتعذيب من كذبهم، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، لا ناقض لِمَا حكم به، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال الحسن بن الفضل: لا خُلْفَ لعِدَاتِهِ، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، و﴿مِن﴾ صلة كما تقول: أصابنا من مطر.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: عظم عليك وشق أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشدّ الحرص، وكانوا إذا سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالىٰ ذلك طمعاً في إيمانهم، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾، تطلب وتتّخذ نفقاً أي سرباً و﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومنه نافقاء اليربوع، وهو أحد جحريه فيذهب فيه، ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾، أي: درجاً ومصعداً، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فتصعد

فيه، ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، فافعل، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فآمنوا كلهم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾، أي: بهذا الحرف، وهو قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وأن من يكفر لسابق علم الله فيه.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتّبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني: الكفار، ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، فيجازيهم بأعمالهم.

(٣٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا۟﴾، يعني: رؤساء قريش، ﴿لَوْلَا﴾، هلاّ، ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ما عليهم في إنزالها.

(٣٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، قيّد الطيران بالجناح تأكيداً كما يقال: نظرت بعيني وأخذت بيدي، ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، قال مجاهد: أصناف مصنفة تعرف بأسمائها يريد أن كل جنس من الحيوان أمة، فالطير أمة، والدواب أمة، والسباع أمة، تعرف بأسمائها مثل بني آدم، يعرفون بأسمائهم، يقال: الأنس والناس.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الرحمٰن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا المبارك هو ابن فضالة عن الحسن عن عبد الله بن مغفّل:

عن النبيّ ﷺ قال: «لولا أنّ الكلابَ أمة لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم».

وقيل: أمم أمثالكم يفقه بعضهم عن بعض، وقيل: أمم أمثالكم في الخلق والموت والبعث، وقال عطاء: أمم أمثالكم في التوحيد والمعرفة، قال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾، أي: في اللوح المحفوظ، ﴿مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، قال ابن عباس والضحاك: حشرها موتها، وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير، وكل شيء فيأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً فحينئذ يتمنى الكافر ويقول: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتردنّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ حتى يُقادَ للشاةِ الجلحاء مِنَ القَرناء».

(٣٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾، لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾، في ضلالات الكفر، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الإسلام.

(٤٠) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، هل رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد، وقال الفراء: العرب تقول أرأيتَك، وهم يريدون أخبرنا، كما تقول: أرأيتَك إن فعلت كذا ماذا تفعل؟ أي: أخبرني، وقرأ أهل المدينة ﴿أرأيتكم، وأرأيتم، وأرأيت﴾، بتليين الهمزة الثانية، والكسائي بحذفها، قال ابن عباس: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم، ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، قبل الموت، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، يعني: القيامة، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾، في صرف العذاب عنكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، وأراد أن الكفار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر عنهم: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

(٤١) ثم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، أي: تدعون الله ولا تدعون غيره، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾، قيّد الإجابة بالمشيئة والأمور كلها بمشيئته، ﴿وَتَنسَوْنَ﴾، وتتركون، ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾.

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾، بالشدّة والجوع، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾، المرض والزمانة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: يتوبون ويخضعون، والتضرّعُ السؤال بالتذلّل.

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ﴾، فهلاّ، ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾، عذابُنا، ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾، فآمنوا فكشف عنهم، أخبر الله عزّ وجلّ أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أُخذوا بالشدّة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرّعوا، فذلك قوله: ﴿وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿يَعْمَلُونَ﴾، من الكفر والمعاصي.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، تركوا ما وعظوا وأمروا به، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿فَتَحْنَا﴾ قراءة أخرى بالتشديد، في كل القرآن، وقرأ ابن عامر كذلك إذا كان عقيبه جمعاً، والباقون بالتخفيف وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدّلنا مكان البلاء والشدّة الرخاء والصحة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾، وهذا فَرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، فجأة آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، آيسون من كل خير، وقال أبو عبيدة: المبلس النادم الحزين، وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم، وروى عقبة بن عامر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيم على معصيته، فإنّما ذلك استدراج»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية.

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: آخرهم الذين بدبرهم، يقال: دبر فلان القوم يدبرهم دبراً ودبوراً إذا كان آخرهم، ومعناه: أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حمدَ الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على الرسل، فذكر الحمد لله تعليماً لهم ولمن آمن بهم، أن يحمدوا الله على كفايته شرّ الظالمين، وليحمد محمد ﷺ وأصحابُه ربّهم إذا أهلك المكذّبين.

(٤٦) قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾، أيها المشركون، ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾، حتى لا تسمعوا شيئاً أصلاً، ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾، حتى لا تبصروا شيئاً، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، حتى لا تفقهوا شيئاً ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، ولم يقل بها مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه يأتيكم بما أخذ منكم، وقيل: الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولاً ولا يندرج غيرُه تحته؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، فالهاء راجعة إلى الله، ورضى الرسول يندرج في رضا الله تعالىٰ، ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾، أي: نبيّن لهم العلامات الدالّة على التوحيد والنبوّة، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، يعرضون عنها مكذبين.

(٤٧) ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾، فجأة، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾، معاينة ترونه عند نزوله، قال ابن عباس والحسن: ليلاً أو نهاراً، ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾، المشركون.

(٤٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، حين يخاف أهل النار، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، إذا حزنوا.

(٤٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ﴾، يصيبهم، ﴿الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، يكفرون.

(٥٠) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: خزائن رزقه فأعطيكم ما تريدون، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، قال ذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريدُ: لا أقول لكم شيئاً من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: ما آتيكم به فمن وَحْيِ الله تعالىٰ، وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾؟ قال قتادة: الكافر والمؤمن، وقال مجاهد: الضال

والمهتدي، وقيل: الجاهل والعالم، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: أنهما لا يستويان.

(٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾، خوّف به، أي: بالقرآن، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا﴾، يجمعوا ويبعثوا، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقيل: يخافون أي يعلمون، لأن خوفهم إنّما كان من علمهم، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾، من دون الله، ﴿وَلِيٌّ﴾ قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، يشفع لهم، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فينتهون عمّا نُهوا عنه، وإنّما نفى الشفاعة لغيره ـ مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون ـ لأنهم لا يشفعون إلاّ بإذنه.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قرأ ابن عامر ﴿بِالغُدْوَةِ﴾ بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها، ها هنا وفي سورة الكهف، وقرأ الآخرون بفتح الغين والدال وألف بعدها.

قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وذووهم من المؤلّفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمّا رأوهم حوله حقّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنّا هؤلاء وأرواح جبابهم ـ وكان عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها ـ لجالسناك وأخذنا عنك، فقال النبيّ ﷺ لهم: «ما أنا بطاردِ المؤمنين»، قالوا: فإنّا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا فرغنا فاقعدْ معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: اكتب لنا عليك بذلك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، قال: ونحن قعود في ناحية إذْ نزل جبريل بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، إلى قوله: ﴿بِالشَّاكِرِينَ﴾، فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، فكنّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد وندنو منه حتى كادت ركبنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال لنا: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبّر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات».

وقال الكلبي: قالوا له: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، قال: «لا أفعل»، وقالوا: فاجعل المجلس واحداً فأقبل علينا ولِّ ظهرك عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾.

قال مجاهد: قالت قريش: لولا بلال وابن أم عبد لبايعنا محمداً، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال ابن عباس: يعني: يعبدون ربهم بالغداة والعشي يعني: صلاة الصبح وصلاة العصر، ويُروى عنه: أن المراد منه الصلوات الخمس، وذلك أن ناساً من الفقراء كانوا مع النبيّ عليه السلام، فقال ناس من الأشراف: إذا صلّينا فأخّر هؤلاء فليصلوا خلفنا، فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد: صلّيت الصبح مع سعيد بن المسيّب: فلمّا سلّم الإمام ابتدر الناس القاص، فقال سعيد: ما أسرع الناس إلى هذا المجلس! قال مجاهد: فقلت يتأوّلون قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال: أفي هذا! هو إنما ذلك في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن، وقال إبراهيم النخعي: يعني يذكرون ربّهم، وقيل المراد منه: حقيقة الدعاء، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: يريدون الله بطاعتهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يطلبون ثوابَ الله، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، أي: لا تكلف أمرهم ولا يتكلّفون أمرك، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملّهم، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ ولا رزقك عليهم، قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، جوابٌ لقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، جوابٌ لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، أحدهما جواب النفي

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

١٣٤

والآخر جواب النهي.

﴿٥٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾، أي: ابتلينا، ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أراد ابتلاء الغني بالفقير والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له، فذلك قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فهو جواب لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، فهو استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمن شكر الإسلام إذ هداه الله عزّ وجلّ.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام ثنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي أنا مسدد أنا جعفر بن سليمان عن المعلى بن زياد عن العلاء بن بشير المزني عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: جلستُ في نفرٍ من ضعفاء المهاجرين وإنّ بعضهم ليستتر ببعض من العري، وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسولُ الله ﷺ، فقام علينا، فلمّا قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلّم رسول الله ﷺ وقال: «ما كنتم تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله كان قارئ يقرأ علينا فكنّا نستمع إلى كتاب الله تعالىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أصبّر نفسي معهم»، قال: ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال بيده هكذا، فتحلّقوا وبرزت وجوههم له، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحداً غيري، فقال رسول الله ﷺ: «أبشرُوا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنّور التامّ يومَ القيامة تدخلون الجنّة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة».

﴿٥٤﴾ قول عزل وجل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله عزّ وجلّ نبيّه عن طردهم، وكان النبيّ ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام.

وقال عطاء: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وبلال وسالم وأبي عُبيدة ومُصعب بن عُمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهم أجمعين.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، أي: قضى على نفسه الرحمة، ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام فمن جهالته ركب الذنب، وقيل: جاهل بما يورثه ذلك الذنب، وقيل: جهالته من حيث أنه آثر المعصية على الطاعة، والعاجل القليل على الآجل الكثير، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، رجع عن ذنبه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾، عمله، وقيل: أخلص توبته، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ... فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بفتح الألف فيهما بدلاً من الرحمة، أي: كتب على نفسه أنه من عمل منكم، ثم جعل الثانية بدلاً عن الأولى؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، وفتح أهل المدينة الأولى منهما وكسر الثانية على الاستئناف وكسرهما الآخرون على الاستئناف.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: وهكذا، وقيل: معناه وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وإعلامَنا على المشركين كذلك نفصّل الآيات، أي: نميّز ونبيّن لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: طريق المجرمين، وقرأ أهل المدينة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء، ﴿سَبِيلُ﴾ نصب على خطاب النبيّ ﷺ، أي: ولتعرف يا محمد سبيل المجرمين، يقال: استبنتُ الشيءَ وتبيّنته إذا عرفته، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿وليستبين﴾ بالياء، ﴿سَبِيلُ﴾ بالرفع، وقرأ الآخرون ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء ﴿سَبِيلُ﴾ رفع، أي: ليظهر وليتّضح والسبيل، يُذكر ويُؤنّث، فدليل التذكير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ودليل التأنيث قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٩].

﴿٥٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾، في عبادة الأوثان وطرد الفقراء، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، يعني: إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيل الحق وسلكتُ غير طريق الهدى.

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، أي: على بيان وبصيرة وبرهان، ﴿مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، أي: ما جئت به، ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، قيل: أراد به استعجالهم العذاب، كانوا يقولون: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، وقيل: أراد به القيامة، قال الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ قرأ أهل الحجاز وعاصم ﴿يَقُصُّ﴾ بضم القاف والصاد مشدّداً، أي: يقول الحق لأنه في جميع المصاحف بغير ياء، ولأنه قال الحق ولم يقل بالحق، وقرأ الآخرون ﴿يقضي﴾ بسكون القاف والضاد مكسورة، من قضيت، أي: يحكم بالحق بدليل أنه قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾، والفصل يكون في القضاء وإنما حذفوا الياء لاستثقال الألف واللام؛ كقوله تعالى: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣]، ونحوها، ولم يقلْ بالحق لأن الحق صفة المصدر، كأنه قال: يقضي القضاء الحق.

﴿٥٨﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾، وبيدي، ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾، من العذاب، ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: فرغ من العذاب وأهلكتم، أي: لعجلته حتى أتخلّص منكم، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٥٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، مفاتح الغيب خزائنه، جمع مفتح.

واختلفوا في مفاتح الغيب، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «مفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاّ اللَّهُ، لا يعلم ما تغيض الأرحام أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يعلم ما في الغد إلاّ الله عزّ وجلّ، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلاّ الله، ولا تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعة أحدٌ إلاّ الله» وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب.

وقال عطاء: ما غاب عنكم من الثواب والعقاب.

وقيل: انقضاء الآجال، وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم، وقيل: هي ما لم يكن بعد أنه يكون أم لا يكون، وما يكون كيف يكون، وما لا يكون أنْ لو كان كيف يكون؟ وقال ابن مسعود: «أوتي نبيُّكم عِلْمَ كلّ شيء إلا علم مفاتيح الغيب».

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، قال مجاهد: البَرُّ: المفاوز والقفار، والبحر: القرى والأمصار، لا يحدث فيهما شيء إلاّ يعلمه، وقيل: هو البر والبحر المعروف، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، يريد ساقطة وثابتة، يعني: يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه، وقيل: يعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن سقطت على الأرض، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، قيل: هو الحب المعروف في بطون الأرض، وقيل: هو تحت الصخرة التي في أسفل الأرضين، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

عنهما: الرطب الماء، واليابس البادية، وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت، وقيل: ولا حيٌّ ولا ميت، وقيل: هو عبارة عن كل شيء، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، يعني: أن الكل مكتوب في اللّوح المحفوظ.

(٦٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾، أي: يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾، كسبتم، ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي: يوقظكم في النهار، ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يعني: أجل الحياة إلى الممات، يريد استيفاء العمر على التمام، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، في الآخرة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾، يخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٦١) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، يعني: الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، وهو جمع حافظ، نظيره: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾، قرأ حمزة ﴿توفيه﴾ و«استهويه» بالياء وأمالهما، ﴿رُسُلُنَا﴾، يعني: أعوان ملك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه؛ كما قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقيل: الأعوان يتوفونه بأمر ملك الموت، فكأن ملك الموت توفاه لأنهم يصدرون عن أمره، وقيل: أراد بالرسل ملك الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع، وجاء في الأخبار: إن الله تعالىٰ جعل الدنيا بين ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هٰهنا ومن هٰهنا فإذا كثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، أي: لا يقصّرون.

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، يعني: الملائكة، وقيل: يعني العباد يُردُّون بالموت إلى الله مولاهم الحق، فإن قيل الآية في المؤمنين والكفار جميعاً، وقد قال في آية أخرىٰ: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟ قيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفار، والمولى هٰهنا بمعنى الملك الذي يتولّى أمورهم، والله عزّ وجلّ مالك الكل ومتولّي الأمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردّون إلى مولاهم، والكفار فيه تبع، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾، أي: القضاء دون خلقه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد.

(٦٣) قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾، قرأ يعقوب بالتخفيف، وقرأ العامّة بالتشديد، ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البرّ والبحر فضلُّوا الطريق وخافوا الهلاك، دعَوُا اللّه مخلصين له الدين فينجيهم، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، أي: علانية وسراً، قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿وَخِفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، بكسر الخاء هنا وفي الأعراف، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان، ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا﴾، أي: يقولون لئن أنجيتنا، وقرأ أهل الكوفة: «لئن أنجانا الله»، ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾، يعني: من هذه الظلمات، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقّها.

(٦٤) ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد، مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، والكرب غاية الغمّ الذي يأخذ بالنفس، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾،

يريد أنهم يقرّون أنّ الذي يدعونه عند الشدّة هو الذي ينجيهم ثم يشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضرّ ولا تنفع.

(٦٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال الحسن وقتادة: نزلت الآية في أهل الإيمان، وقال قوم: نزلت في المشركين.

قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، يعني: الصيحة والحجارة والريح والطوفان، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، يعني: الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون.

وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، السلاطين الظلمة، ومن تحت أرجلكم العبيد السوء، وقال الضحاك: من فوقكم من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أي من أسفل منكم، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، أي: يخلطكم فرقاً ويبثّ فيكم الأهواء المختلفة، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضاً.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو النعمان أنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذُ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسرُ».

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة أنا يعلى بن عبيد الطنافسي أنا عثمان بن حكيم عن عامر بن سعد بن وقاص عن أبيه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلّى ركعتين وصلّينا معه فناجى ربّه طويلاً ثم قال: «سألتُ ربّي ثلاثاً: سألتُه أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلك أمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فَمَنَعْنيها».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن دلوية الدقاق ثنا محمد بن إسماعيل البخاري ثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني أخي عن سليمان بن بلال عن عبيد الله بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمٰن الأنصاري أن عبد الله بن عمر جاءهم ثم قال: «إن النبيّ ﷺ دعا في مسجد فسأل الله ثلاثاً فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة، سأله أن لا يُسلّط على أمته عدواً من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يُهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسَ بعضهم على بعض، فمنعه ذلك».

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾، أي: القرآن، وقيل: بالعذاب، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، برقيب، وقيل: بمسلَّطٍ ألزمكم الإسلام شِئْتُم أو أبيتم، إنّما أنا رسول.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾، خبر من أخبار القرون، ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾، حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبيّن صدقه من كذبه وحقّه من باطله، إما في الدنيا وإمّا في الآخرة، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقال مقاتل: لكل خبر يخبره الله وقت وقّته ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير، وقال الكلبي: لكلِّ قولٍ وفعلٍ حقيقة، إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ما كان في الدنيا فستعرفونه، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم.

(٦٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾، يعني: في القرآن بالاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، فاتركهم ولا تجالسهم، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾، قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين، وقرأ الآخرون بسكون النون وتخفيف السين، ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾، نَهْيَنا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، يعني: إذا جالست معهم ناسياً فقم من عندهم بعدما تذكّرت.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، رُوي عن ابن عباس أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً؟ وفي رواية: قال المسلمون: فإنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، الخوض ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾، أي: من آثام الخائضين، ﴿مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾، أي: ذكّروهم وعِظُوهم بالقرآن، والذكر والذكرى واحد، يريد ذكّروهم ذكرى، فتكون في محل النصب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الخوض إذا وعظتموهم فرخّص في مجالستهم على الوعظ لعله يمنعهم ذلك من الخوض، وقيل: لعلّهم يستحيون.

﴿٧٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً فاتخذ كل قوم دينهم ـ أي: عيدهم ـ لعباً ولهواً، وعيد المسلمين الصلاة والتكبير وفعل الخير مثل الجمعة والفطر والنحر، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، أي: وعظ بالقرآن، ﴿أَن تُبْسَلَ﴾، أي: لأن لا تبسل، أي: لا تُسلَّم، ﴿نَفْسٌۢ﴾، للهلاك، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، قاله مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن عباس: تهلك، وقال قتادة: أن تحبس، وقال الضحاك: تحرق، وقال ابن زيد: تؤخذ، ومعناه: ذكّرهم ليؤمنوا، كيلا تهلك نفس بما كسبت، وقال الأخفش: تبسل تُجازى، وقيل: تفضح، وقال الفراء: ترتهن، وأصل الإبسال التحريم، والبسل الحرام، ثم جعل نعتاً لكل شدّة تُتقى وتُترك، ﴿لَيْسَ لَهَا﴾، أي: لتلك النفس، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ﴾، قريب، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، يشفع لها في الآخرة، ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾، أي: تَفْدِ كل فداء، ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾، أُسلموا للهلاك، ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾، إن عبدناه، ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾، إنْ تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضرّ، ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾، إلى الشرك مرتدّين، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يكون مَثَلُنا كمثل الذين استهوته الشياطين، أي: أضلّته، ﴿حَيْرَانَ﴾، قال ابن عباس: كالذي استهوته الغيلان في المهامه فأضلّوه فهو حائر بائر، والحيران: المتردّد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه، ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾، هذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى كمثل رجل في رفقة ضلّ به الغُول عن الطريق ويدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلمَّ إلى الطريق، ويدعوه الغول هلمَّ، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى.

﴿٧١﴾ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك فإن الهدى هدى الله، لا هدى غيرُه، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾، أي: أن نُسلم، ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل.

﴿٧٢﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾، أي: وأمرنا بإقامة الصلاة والتقوى، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي: تجمعون في الموقف للحساب.

﴿٧٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، قيل: الباء بمعنى اللام، أي: إظهاراً للحق لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، قيل: هو راجع إلى خلق السموات والأرض والخلق، بمعنى: القضاء والتقدير، أي: كل شيء قضاه وقدّره قال له: كن، فيكون.

وقيل: يرجع إلى القيامة يدلّ على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا فيقومون، ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾، أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد أن ما وعده حق كائن، ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾، يعني: مُلْكُ الملوك يومئذ زائل؛ كقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وكما قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، والأمر لله في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله، والصُّور: قرنٌ يُنفخ فيه، قال مجاهد: كهيئة البوق، وقيل: هو بلغة أهل اليمن، وقال أبو عبيدة: الصور هو الصُّوَر وهو جمع الصّورة، وهو قول الحسن، والأول أصح.

والدليل عليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر المحاربي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أسلم عن بشر بن شغاف، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ يُنفخُ فيه».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن عطية بن سعد العوفي عن أبي سعيد الخدري أنّ النبيّ ﷺ قال: «كيف أنْعَمُ وصاحبُ الصورِ قد الْتَقَمَهُ، وأصغى سمعَهُ وحنى جبهتَهُ ينتظرُ متى يُؤمر»؟ فقالوا: يا رسول الله وما تأمرنا؟ قال: «قولُوا حسبنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيل».

وقال أبو العلاء عن عطية: «متى يؤمر بالنفخ فينفخ».

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، يعني: يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه، لا يغيب عن علمه شيء، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

(٧٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، قرأ يعقوب ﴿آزَرُ﴾ بالرفع، يعني: «آزرُ»، والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فينتصب في موضع الخفض.

قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي: آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارخ أيضاً مثل إسرائيل ويعقوب وكان من كوثي قرية من سواد الكوفة، وقال مقاتل بن حيان وغيره: آزر لقب لأبي إبراهيم، واسمه تارخ.

الجزء السابع — سورة الأنعام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾

١٣٧

وقال سليمان التيمي: هو سبّ وعيب، ومعناه في كلامهم المعوج، وقيل: معناه الشيخ الهرم بالفارسية، وقال سعيد بن المسيّب ومجاهد: آزر اسم صنم، فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره أتتخذ آزر إلهاً، قوله: ﴿أَصْنَامًا آلِهَةً﴾، دون الله، ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

(٧٥) ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: كما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، نريه، ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة، كالجبروت والرحموت والرهبوت، قال ابن عباس: يعني خلق السمٰوات والأرض، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السمٰوات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخر وكشف له عن ملكوت السمٰوات والأرض حتى العرش

وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنّة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧]، يعني: أريناه مكانه في الجنّة.

ورُوي عن سلمان رضي الله عنه، ورفعه بعضهم عن عليّ رضي الله عنه لمّا أُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الرب عزّ وجلّ: «يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدعونّ على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إمّا أن يتوب فأتوب عليه، وإمّا أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإمّا أن يبعث إليّ فإن شئتُ عفوتُ عنه، وإن شئتُ عاقبتُه»، وفي رواية: «وإمّا أن يتولى فإنّ جهنم من ورائه».

وقال قتادة: ملكوت السمٰوات الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، عطف على المعنى، ومعناه: نُريه ملكوت السمٰوات والأرض، ليستدلّ به وليكون من الموقنين.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ الآية، قال أهل التفسير: ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان، وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناسَ إلى عبادته، وكان له كهان ومُنجّمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغيّر دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، ويقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام.

وقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يُولد في ناحيتك في هذه السنة، فيكون هلاكك وهلاك مُلكك وأهل بيتك على يديه، قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، وأمر بعزل الرجال عن النساء، وجعل على كل عشرة رجال رجلاً فإذا حاضت المرأة خلّى بينها وبين زوجها، لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض، فإذا طهرت حال بينهما، فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام.

وقال محمد بن إسحاق: بعث نمرود إلى كل امرأة حُبلى بقرية، فحبسها عنده إلاّ ما كان من أمّ إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية حديثة السن، لم يعرف الحبل في بطنها.

وقال السدي: خرج نمرود بالرجال إلى معسكر ونحاهم عن النساء تخوّفاً من ذلك المولود أن يكون، فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة، فلم يأتمن عليها أحداً من قومه إلاّ آزر، فبعث إليه ودعاه وقال له: إنّ لي حاجة أحببت أن أوصيك بها ولا أبعثك إلا لثقتي بك، فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك، فقال آزر: أنا أشح على ديني من ذلك، فأوصاه بحاجته، فدخل المدينة وقضى حاجته، ثم قال: لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلمّا نظر إلى أم إبراهيم عليه السلام لم يتمالك حتى واقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أمه الليلة، فأمر نمرود بقتل الغلمان، فلمّا دنت ولادة أم إبراهيم عليه السلام وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطّلع عليها فيقتل ولدها، فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء، فرجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً عند نهر، فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه.

وقال محمد بن إسحاق: لمّا وجدتْ أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدّت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حياً يمصّ إبهامه.

وقال أبو روق: قالت أم إبراهيم ذات يوم: لأنظرنّ إلى أصابعه، فوجدته يمص من أصبع ماءً، ومن أصبع لبناً، ومن أصبع عسلاً، ومن

أصبع تمراً، ومن أصبع سمناً.

وقال محمد بن إسحاق: كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: قد ولدتُ غلاماً فمات، فصدقها فسكت عنها، وكان اليوم على إبرهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عشاءً فنظرَ وتفكّر في خلق السمٰواتِ والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لَربي الذي ما لي إلٰه غيره، ثم نظر إلى السماء فرأى كوكباً قال: هذا ربي، ثم أتبعه بصره لَينظر إليه حتى غاب، فلما أفل، قال: لا أحب الآفلين. ثم رأى القمر بازغاً قال: هذا ربّي وأتبعه ببصره حتى غاب، ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره، ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرفَ ربه وبرىء من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك، فأخبره أنه ابنه وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فَسُرَّ آزر بذلك وفرح فرحاً شديداً.

وقيل: إنه كان في السرب سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبع عشرة سنة، قالوا: فلمّا شبّ إبراهيم عليه السلام، وهو في السرب قال لأمه: مَنْ ربّي؟ قالت: أنا، قال: فمنْ ربُّكِ؟ قالت: أبوك، قال: فمن ربُّ أبي؟ قالت: نمرود، قال: فمنْ ربُّه؟ قالت له: اسكت فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذي كنّا نحدث أنه يغيّر دين أهل الأرض فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال، فأتاه أبوه آزر، فقال له إبراهيم عليه السلام: يا أبتاه مَنْ ربي؟ قال: أمُك، قال: فمن ربُّ أمي؟ قال: أنا، قال: فمن ربُّك؟ قال: نمرود، قال: فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال له: اسكت فلما جن الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكباً قال: هذا ربي.

ويقال: إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس، فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه ما هذه؟ فقال: إبل وخيل وغنم، فقال: ما لهذه بدّ من أن يكون لها ربٌّ وخالق، ثم نظر فإذا المشتري قد طلع، ويقال: الزهرة، وكان تلك الليلة في آخر الشهر فتأخّر طلوع القمر فيها، فرأى الكوكب قبل القمر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، أي: دخل، يقال: جنّ الليل وأجنّ الليل، وجنّه الليل، وأجنّ عليه الليل يجنّ جُنوناً وجَناناً إذا أظلم وغطى كل شيء، وجُنون الليل سواده، ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ قرأ أبو عمرو ﴿رَءَا﴾ بفتح الراء وكسر الألف، ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر، وفتحهما الآخرون. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾.

واختلفوا في قوله ذلك فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفّقه الله وآتاه رشده فلم يضرّه ذلك في حال الاستدلال، وأيضاً كان ذلك في حال طفوليته قبل قيام الحجّة عليه، فلم يكن كفراً.

وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقتٌ من الأوقات إلاّ وهولله موحّدٌ وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهّره وآتاه رشده من قبل وأخبره عنه؟ وقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكباً قال: هذا ربي معتقداً؟ فهذا ما لا يكون أبداً.

ثم قالوا: فيه أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن إبراهيم أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظّموه، وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها، ويرون أن الأمور كلها إليها فأراهم أنه مُعظّم ما عظموه ومُلتمس الهدى من حيث ما التمسوه، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدّعون، ومثل هذا مثل الحواريّ الذي ورد على قوم يعبدون الصنم، فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم علو فشاوروه في أمره، فقال الرأي أن تدعوا هذا الصنم حتى يكشف عنّا ما قد أظلنا، فاجتمعوا حوله يتضرّعون فلما تبيّن لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوالله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون، فأسلموا.

والوجه الثاني من التأويل أنه قاله

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

على وجه الاستفهام تقديره: أهذا ربي؟ كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ [الأنبياء: ٣٤]، أي: أفهمُ الخالدون؟ وذكره على وجه التوبيخ منكراً لفعلهم، يعني: مِثْل هذا يكون رباً، أي: ليس هذا ربي.

والوجه الثالث: أنه على وجه الاحتجاج عليهم، يقول: هذا ربي بزعمكم؟ فلمّا غاب قال: لو كان إلهاً لمَا غاب، كما قال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي: عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى أنه قال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [طه: ٩٧]، يريد إلهكَ بزعمك.

والوجه الرابع: فيه إضمار وتقديره يقولون هذا ربي؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولون ربّنا تقبّلْ منّا. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾، ربّاً لا يدومُ.

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾، طالعاً، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾، قيل: لئن لم يثبتني الهدى، ليس أنه لم يكن مهتدياً، والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالىٰ الثبات على الإيمان، وكان إبراهيم يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: عن الهدى.

﴿٧٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾، طالعةً، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، أي: أكبر من الكواكب والقمر، ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع، أو ردّه إلى المعنى، وهو الضياء والنور، لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾، غربت، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿٧٩﴾ ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿٨٠﴾ قوله عز وجل: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾، ولما رجع إبراهيم عليه السلام إلى أبيه، وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذبّاحين، وضمه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم عليه السلام وينادي من يشتري ما يضرّه ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فضرب فيه رؤوسها، وقال: اشربي استهزاءً بقومه، وبما هم فيه من الضّلالة، حتى فشا استهزاؤُهُ بها في قومه وأهل قريته، ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾، أي: خاصمه وجادله قومه في دينه، ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر بتخفيف النون، وقرأ الآخرون بتشديدها إدغاماً لإحدى النونين في الأخرى، ومن خفف حذف إحدى النونين تخفيفاً يقول: أتجادلونني في توحيد الله، وقد هداني للتوحيد والحق؟ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام فإنّا نخاف أن تمسّك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إيّاها، فقال لهم: ولا أخاف ما تُشركون به، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾، وليس هذا باستثناء من الأول بل هو استثناء منقطع، معناه: لكن إنْ يشأ ربي شيئاً سوءاً، فيكون ما شاء، ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، أي: أحاط علمه بكل شيء، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿٨١﴾ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾، يعني: الأصنام، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾، حجة وبرهاناً، وهو القاهر القادر على كل شيء، ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ﴾، أولى، ﴿بِٱلْأَمْنِ﴾، أنا وأهل ديني أم أنتم، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فقال الله تعالىٰ قاضياً بينهما:

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، لم يخلطوا أيمانهم بشرك، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق ثنا عيسى بن يونس أنا الأعمش أنا إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لمّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: «ليس ذلك إنما هو الشرك ألمْ تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣].

(٨٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، حتى خصمهم وغلبهم بالحجة، قال مجاهد: هي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ وقيل: أراد به الحجاج الذي حاجّ به نمرود على ما سبق في سورة البقرة.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، بالعلم قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿دَرَجَـٰتٍ﴾ [يوسف: ٧٦]، بالتنوين هٰهنا وفي سورة يوسف، أي: نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاجّ قومه في التوحيد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾، ووفقنا وأرشدنا، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾، أي: من قبل إبراهيم، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، أي: ومن ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذرية إبراهيم لأنه ذكر في جملتهم يُونس ولوطاً ولم يكونا من ذرية إبراهيم، ﴿دَاوُۥدَ﴾، هو داود بن أيشا، ﴿وَسُلَيْمَـٰنَ﴾، يعني ابنه، ﴿وَأَيُّوبَ﴾، وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، ﴿وَيُوسُفَ﴾، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمُوسَىٰ﴾، هو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب، ﴿وَهَـٰرُونَ ۚ﴾، هو أخو موسى أكبر منه بسنة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: وكما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء كذلك، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا﴾، هو زكريا بن اذن، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾، وهو ابنه، ﴿وَعِيسَىٰ﴾، وهو ابن مريم بنت عمران، ﴿وَإِلْيَاسَ ۖ﴾، واختلفوا فيه، قال ابن مسعود: هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل، والصحيح أنه غيره، لأن الله تعالىٰ ذكره في ولد نوح، وإدريس جد أبي نوح وهو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران، ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾، وهو ولد إبراهيم، ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾، وهو ابن أخطوب بن العجوز، وقرأ حمزة والكسائي ﴿والَّيْسع﴾ بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفي ص، ﴿وَيُونُسَ﴾، وهو يونس بن متّى، ﴿وَلُوطًا ۚ﴾، وهو لوط بن هاران بن أخي إبراهيم، ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، أي: عالمي زمانهم.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾، من فيه للتبعيض، لأن آباء بعضهم كانوا مشركين، ﴿وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾، أي: ومن ذرياتهم وأراد به ذرية بعضهم، لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد، وكان في ذرية بعضهم من كان كافراً، ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ﴾، اخترناهم واصطفيناهم، ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾، أرشدناهم، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾، دين الله، ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾، يرشد به، ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾، أي: هؤلاء الذين سمّيناهم، ﴿لَحَبِطَ﴾، لبطل وذهب، ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

(٨٩) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، أي: الكتب المنزلة عليهم، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، يعني: العلم والفقه، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾، يعني: الأنصار وأهل المدينة قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فإن يكفر بها هؤلاء الكفار فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين، يعني: الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله هٰهنا، وقال أبو رجاء العطاردي: معناه فإن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء، وهم الملائكة ليسوا بها بكافرين.

(٩٠) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ﴾، أي: هداهم الله، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾،

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

فبستّهم وسيرتهم، ﴿ٱقْتَدِهْ﴾، الهاء فيها هاء الوقف، وحذف حمزة والكسائي ويعقوب الهاء في الوصل، والباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً، وقرأ ابن عامر: ﴿ٱقْتَدِهِ﴾ بإشباع الهاء كسراً، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ﴾، ما هو، ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾، أي: تذكرة وعظة، ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿٩١﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي: ما عظموه حق عظمته، وقيل: ما وصفوه حق وصفته، ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصّيف يخاصم النبيّ ﷺ بمكة، فقال له النبيّ ﷺ: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين»، وكان حبراً سميناً فغضب، فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء.

وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء، وهو قائل هذه المقالة. وفي القصة: أنّ مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى، فلِمَ قلتَ ما أنزل الله على بشر من شيء؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمد فقلتُ ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه من الحبرية، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، لهم، ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، يعني: التوراة، ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، أي تكتبون عنه دفاتر وكتباً مقطعة تبدونها، أي: تُبدون ما تُحبون وتُخفون كثيراً من نعت محمد ﷺ وآية الرجم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يجعلونه﴾ ﴿ويبدونها﴾ ﴿ويخفونها﴾ بالياء جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾، الأكثرون على أنها خطاب لليهود، يقول: عُلِّمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا، ﴿أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾، قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيّعوه ولم ينتفعوا به.

وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكّرهم النعمة فيما علّمهم على لسان محمد ﷺ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، هذا راجع إلى قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، فإن أجابوك وإلاّ فقل أنت: الله، أي: قل أنزله الله، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ﴾، أي: القرآن كتاب مبارك أنزلناه ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ﴾، يا محمد، قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ولينذر﴾ بالياء، أي: ولينذر الكتاب، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، يعني: مكة سمّيت أم القرى لأنّ الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلّها كالأم أصل النسل، وأراد أهلَ أم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، بالكتاب، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾، يعني: الصلوات الخمس، ﴿يُحَافِظُونَ﴾، يداومون، يعني: المؤمنين.

﴿٩٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، أي: اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعم أن الله تعالى بعثه نبياً، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾، قال قتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي، فكان يسجع ويتكهن، فادّعى النبوّة وزعم أن الله

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

أوحي إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين، فقال النبيّ ﷺ لهما: «أتشهدان أن مسيلمة نبي»؟ قالا: نعم، فقال النبيّ ﷺ: «لولا أنّ الرسلَ لا تقتلُ لضربتُ أعناقكما».

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يديَّ سواران من ذهب، فكبُرا عليّ وأهمّاني فأوحي إليّ أن انفخهما فنفختهما فذهبا، فأوّلتهما الكذابين اللّذين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»، أراد بصاحب صنعاء الأسود العنسي وبصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، قيل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبيّ ﷺ وكان إذا أملى عليه: سميعاً بصيراً، كتب عليماً حكيماً، وإذا قال: عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً، فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال النبيّ ﷺ: «اكتبها فهكذا نزلت»، فشكّ عبد الله، وقال: لئن كان محمد صادقاً فقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، فارتدّ عن الإسلام ولحق بالمشركين، ثم رجع عبد الله إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبيّ ﷺ بمرّ الظهران.

وقال ابن عباس: قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، يريد المستهزئين، وهو جواب لقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، يا محمد، ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، سكراته وهي جمع غمرة، وغمرة كل شيء: معظمه وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ثم وُضعت في موضع الشدائد والمكاره، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾، بالعذاب والضرب يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل: بقبض الأرواح، ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾، أي: يقولون أخرجوا، ﴿أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أرواحكم كرهاً لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه، والجواب محذوف، يعني: لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجباً، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، أي: الهوان، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾، هذا خبر من الله أنه يقول للكفار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فُرادَى وحداناً، لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم، وفُرادى جمع فَرْدان، مثل سكران وسكارى، وكسلان وكسالى، وقرأ الأعرج فَرْدى بغير ألف مثل سكرى، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، عراةً حفاةً غرلاً، ﴿وَتَرَكْتُم﴾، وخلّفتم ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾، أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم، ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ خلف ظهوركم في الدنيا، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾، وذلك أن المشركين زعموا أنّهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده، ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص عن عاصم بنصب النون، أي: لقد تقطع ما بينكم من الوصل، أو تقطع الأمر بينكم، وقرأ الآخرون بينُكم بالرفع برفع النون، أي: لقد تقطع وصلكم وذلك مثل قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، أي: الوصلات والبَيْن من الأضداد يكون وصلاً ويكون هجراً، ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿٩٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، الفلق الشق، قال

الحسن وقتادة والسدي: معناه يشق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها، والحب جمع الحبة، وهي اسم لجميع البروز والحبوب من البر والشعير والذرة، وقال الزجاج: يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منهما أوراقاً خضراً.

وقال مجاهد: يعني الشقين اللّذين فيهما، أي: يشق الحب عن النبات ويخرجه منه ويشق النوى عن النخل ويخرجها منه. والنوى جمع نواة، وهي كل ما لم يكن له حباً، كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها.

وقال الضحاك: فالق الحبّ والنوى يعني: خالق الحبّ والنّوى، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، تصرفون عن الحقّ.

(٩٦) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، شاقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه وهو أول ما يبدو من النهار، يريد مُبدي الصبح وموضحه.

وقال الضحاك: خالق النهار، والإصباح مصدر كالإقبال والإدبار وهو الإضاءة وأراد به الصبح.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، يسكن فيه خلقه وقرأ أهل الكوفة: ﴿وَجَعَلَ﴾ على الماضي، ﴿الليلَ﴾، نُصبَ اتباعاً للمصحف، وقرأ إبراهيم النخعي «فلق الإصباح»، ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾، أي: جعل الشمس والقمر بحساب معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازله، والحسبان مصدر كالحساب، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

(٩٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾، أي: خلقها لكم، ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

والله تعالىٰ خلق النجوم لفوائد، أحدها هذا: وهو أن راكب البحر والسائر في القفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده.

والثاني: أنها زينة للسماء كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، ومنها رمي الشياطين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(٩٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾، خلقكم وابتدأكم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿فمستقِر﴾ بكسر القاف، يعني: فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وقرأ الآخرون بفتح القاف، أي: فلكم مستقر ومستودع.

واختلفوا في المستقر والمستودع، قال عبد الله بن مسعود: فمستقر في الرحم إلى أن يولد، ومستودع في القبر إلى أن يبعث.

وقال سعيد بن جبير وعطاء: فمستقَر في أرحام الأمهات ومستودع في أصلاب الآباء، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس قال سعيد بن جبير: قال لي ابن عباس هل تزوجت قلت: لا، قال: إنه ما كان من مستودع في ظهرك فسيخرجه الله عزّ وجلّ.

ورُوي عن أبيّ أنه قال: مستقر في أصلاب الآباء، ومستودع في أرحام الأمّهات.

وقيل: مستقر في الرحم ومستودع فوق الأرض، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥].

وقال مجاهد: مستقر على وجه ظهر الأرض في الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا، وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويُوشك أن تلحق بصاحبك.

وقيل: المستودع القبر والمستقر الجنّة والنار؛ لقوله عزّ وجلّ في صفة الجنة: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، وفي صفة النار: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

(٩٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾، أي: بالماء، ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾، من الماء، وقيل: من النبات، ﴿خَضِرًا﴾، يعني: أخضر، مثل العَوَر والأعور، يعني: ما كان رطباً أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، أي: متراكماً بعضه على بعض، مثل سنابل البرّ والشعير والأرز وسائر الحبوب، ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾، والطلع أول ما يخرج من ثمر النخل، ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنو وهو العِذق، مثل صنو وصنوان، ولا نظير لهما في الكلام، ﴿دَانِيَةٌ﴾، أي: قريبة المتناول ينالها القائم

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتزمة بالأرض، وفيه اختصار معناه: ومن النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة، فاكتفي بذكر القريبة عن البعيدة لسبقها إلى الأفهام؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، يعني: الحرّ والبَرْد فاكتفى بذكر أحدهما، ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾، أي: وأخرجنا منه جنات، وقرأ الأعمش عن عاصم ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بالرفع نسقاً على قوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾، وعامّة القراء على خلافه، ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾، يعني: وشجر الزيتون وشجر الرمان، ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، قال قتادة: معناه مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها، لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، وقيل: مشتبه في المنظر مختلف في الطعم، ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾، قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، هذا وما بعده وفي «يس» على جمع الثمار، وقرأ الآخرون بفتحهما على جمع الثمرة مثل: بقرة وبقر، ﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾، ونضجه وإدراكه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٠٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾، يعني: الكافرين جعلوا لله الجن شركاء، ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾، يعني: وهو خلق الجن.

قال الكلبي: نزلت في الزنادقة أثبتوا الشركة لإبليس في الخلق، فقالوا: الله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيّات والعقارب، وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وإبليس من الجن، ﴿وَخَرَقُوا۟﴾، قرأ أهل المدينة ﴿وخرّقوا﴾ بتشديد الراء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: اختلفوا، ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وذلك مثل قول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وقول كفار العرب الملائكة بنات الله، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿١٠١﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: مبدعهما لا على مثال سبق، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾، زوجة، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾، فأطيعوه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، بالحفظ له وبالتدبير فيه، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رُؤية الله عزّ وجلّ عياناً.

ومذهب أهل السنة إثبات رؤية الله عزّ وجلّ عياناً، كما جاء به القرآن والسنّة: قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، قال مالك رضي الله عنه: لو لم يرَ المؤمنون ربّهم يوم القيامة لم يعيّرِ اللّهُ الكفارَ بالحجاب، وقرأ النبيّ ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسّره بالنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا عاصم بن يوسف اليربوعي أنا أبو شهاب عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال: قال النبيّ ﷺ: «إنكم سترَوْنَ ربكم عياناً».

﴿١٠٣﴾ وأما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فاعلم أن الإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك هو: الوقوف على كُنْهِ الشيء والإحاطة به والرؤية: المعاينة، وقد تكون الرؤية

بلا إدراك، قال الله تعالىٰ في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١]، وقال: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله عزّ وجلّ يجوز أن يُرى من غير إدراك وإحاطة كما يُعرف في الدنيا ولا يُحاط به، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، قال سعيد بن المُسيّب: لا تُحيط به الأبصار، وقال عطاء: كلّتْ أبصار المخلوقين عن الإحاطة به، وقال ابن عباس ومقاتل: لا تُدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، أي: لا يخفى على الله شيء ولا يفوته، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: اللطيف بأوليائه الخبير بهم، وقال الأزهري: معنى ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ الرفيق بعباده، وقيل: اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، وقيل: اللطيف الذي يُنسي العبادَ ذنوبَهم لئلا يخجلوا، وأصل اللطف دقّة النظر في الأشياء.

(١٠٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: الحجج البيّنة التي تبصرون بها الهُدى من الضلالة والحق من الباطل، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فمن عرفها وآمن بها فلنفسه عَمِلَ، ونفعه له، ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، أي: من عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها، أي: فبنفسه ضرٌّ، ووبال العمى عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، برقيب أحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول أبلغكم رسالاتِ ربي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم.

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾، نفصّلها ونبيّنها في كل وجه، ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾، قيل: معناه لئلا يقولوا، ﴿دَرَسْتَ﴾، وقيل: هذه اللام لام العاقبة أي عاقبة أمرهم أن يقولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾، أي: قرأت على غيرك، وقيل: قرأت كتب أهل الكتاب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك، ولكن أراد أن عاقبة أمرهم أن كان عدواً لهم.

قال ابن عباس: وليقولوا يعني: أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درستَ، أي: تعلمتَ من يسار وخبر كانا عبدين من سبي الروم، ثم قرأتَ علينا تزعم أنه من عند الله، من قولهم: درست الكتاب أدْرس درساً ودراسة.

وقال الفراء: يقولون: تعلّمت من اليهود، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دارست﴾، بالألف أي: قارأت أهل الكتاب من المدارسة بين اثنين، تقول: قرأت عليك وقرأوا عليهم، وقرأ ابن عامر ويعقوب: دَرَسَتْ بفتح السين وسكون التاء، أي: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة، قد درست وانمحت، من قولهم: درس الأثر يدرس دروساً. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قال ابن عباس: يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد، وقيل: يعني أن تصريف الآيات ليشقي به قوم ويسعد به آخرون، فمن قال درست فهو شقي، ومن تبيّن له الحق فهو سعيد.

(١٠٦) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، يعني: القرآن اعمل به، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فلا تجادلهم.

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، أي: لو شاء الله لجعلهم مؤمنين، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، رقيباً، قال عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظاً تمنعهم منّي، أي: لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب إنّما بعثت مبلغاً. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

(١٠٨) قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال المشركون: يا محمد لتنتهين عن سبّ آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله تعالىٰ أن يسبوا أوثانهم.

وقال قتادة: كان المسلمون يسبّون أصنام الكفار، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك، لئلا يسبُّوا الله فإنهم قوم جهلة.

وقال السدي: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمرنّه أن ينهى عنّا ابنَ أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه. فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأُمَيّة وأُبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي مُعيط وعمرو بن

العاص، والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرُنا وسيدُنا وإن محمداً قد آذانا وآلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعنَه وإلٰهه، فدعاه فقال: هؤلاء قومك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلٰهك، وقد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبيّ ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتُم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم»؟ فقال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، قال: فما هي؟ قال: «قولوا لا إلٰه إلاّ الله»، فأبَوْا وتفرّقوا، فقال أبو طالب: قلْ غيرها يا ابنَ أخي، فقال: «يا عمُّ ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدَيّ»، فقالوا: لتكفنّ عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنّك ولنشتمنّ من يأمرك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

يعني: الأوثان، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾، أي: اعتداء وظلماً، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقرأ يعقوب ﴿عُدُوًّا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، فلمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تسبُّوا ربّكم»، فأمسك المسلمون عن سبّ آلهتهم.

وظاهر الآية وإنْ كان نهياً عن سبّ الأصنام فحقيقته النهي عن سبّ الله تعالى، لأنه سبب لذلك.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، أي: كما زيّنا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زيّنا لكل أُمّة عملَهم من الخير والشر والطاعة والمعصية، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾، ويُجازيهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية. قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش: يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كان معه عصاً يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أيّ شيء تحبون»؟. قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً أو ابعث لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحقٌّ ما تقول أم باطل، أو أرنا الملائكة يشهدون لك، فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلتُ بعض ما تقولون أتصدقونني»؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله ﷺ يدعوا الله أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: ما شئت إن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عذّبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: «بلْ يتوب تائبُهم»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أي: حلفوا بالله جهد أيمانهم، أي: بجهد أيمانهم، يعني: أوْكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدّها.

قال الكلبي ومقاتل: إذا حلف الرجل بالله، فهو جهد يمينه.

﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾، كما جاءت من قبلهم من الأمم، ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ﴾ يا محمد، ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، والله قادر على إنزالها، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، وما يدريكم.

واختلفوا في المخاطبين بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، فقال بعضهم: الخطاب للمشركين الذين أقسموا.

وقال بعضهم: الخطاب للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم ﴿إِنَّهَا﴾ بكسر الألف على الابتداء، وقالوا: تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ثم من جعل الخطاب للمشركين قال معناه: وما يُشعركم أيها المشركون أنها لو جاءتْ آمنتم؟ ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه: وما يُشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا؟ لأن المسلمين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى حتى يريهم ما اقترحوا حتى يُؤمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ثم ابتدأ فقال جلّ ذكره: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقرأ الآخرون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب للمؤمنين، واختلفوا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فقال الكسائي: ﴿لَا﴾ صلة، ومعنى الآية: وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت المشركين يؤمنون؟ كقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]،

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا
شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

أي: يرجعون وقيل: إنها بمعنى لعلّ، وكذلك هو في قراءة أُبيّ، تقول العرب: اذهب إلى السوق أنك تشتري شيئاً، أي: لعلّك، وقال عدي بن زيد:

أعاذِلُ ما يدريك أن منيّتي
إلى ساعة في اليوم أوْ في ضُحى الغدِ

أي: لعلّ منيتي، وقيل: فيه حذف، وتقديره: وما يُشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لا يؤمنون؟ وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿لا تؤمنون﴾ بالتاء على الخطاب للكفار واعتبروا بقراءة أُبيّ: ﴿إذا جاءتكم لا تؤمنون﴾، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر، دليلها قراءة ابن مسعود: ﴿أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، قال ابن عباس: يعني ونحول بينهم وبين الإيمان، فلو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره، وقيل: كما لم يُؤمنوا به أول مرة، يعني: معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨]، وفي الآية محذوف تقديره: ولا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة، وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: المرّة الأولى دار الدنيا، يعني: لو رُدّوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالهم يتمادون.

﴿١١١﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، فرأوهم عياناً ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، بإحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوّة كما سألوا، ﴿وَحَشَرْنَا﴾، وجمعنا، ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿قِبَلاً﴾ بكسر القاف وفتح الباء، أي: معاينة، وقرأ الآخرون بضم القاف والباء، قيل: هو جمع قبيل، وهو الكفيل، مثل رغيف ورُغف، وقضيب وقُضب، أي: ضُمناء وكُفلاء، وقيل: هو جمع قبيل وهو القبيلة، أي: فوجاً فوجاً، وقيل: هو بمعنى المقابلة والمواجهة، من قولهم: أتيتك قبلاً لا دبراً إذا أتاه من قبل وجهه. ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾، أي: أعداء فيه تعزية للنبيّ ﷺ، يعني: كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، ثم فسّرهم فقال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، قال عكرمة والضحاك والسدي والكلبي: معناه شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً منهم إلى الجن، وكلا الفريقين أعداء للنبيّ ﷺ ولأوليائه، وهم الذين يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن: أضللت صاحبي بكذا فأضلّ صاحبك بمثله، ويقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

قال قتادة ومجاهد والحسن: إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدلّ

عليه ما رُوي عن أبي ذرّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تعوّذت بالله من شياطين الجن والإنس»؟ قلت: يا رسول الله وهلّ للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شرّ من شياطين الجن».

وقال مالك بن دينار: إن شياطين الإنس أشدّ عليّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوّذتُ بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عياناً.

قوله تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: يلقي، ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾، وهو قول مموّه مزيّن مزخرف بالباطل لا معنى تحته، ﴿غُرُورًا﴾، يعني: هؤلاء الشياطين يُزيّنون الأعمال القبيحة لبني آدم، ويغرونهم غروراً، والغرور: القول الباطل، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، أي: ما ألقاه الشيطان من الوسوسة في القلوب، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: تميل إليه، والصغو: الميل، يقال: صغو فلان معك، أي: ميله، والفعل منه: صغى يُصغي، صغاً، وصغى يَصْغَى، ويصغُو صغواً، والهاء في إليه راجعة إلى زخرف القول، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾، ليكتسبوا، ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، يقال: اقترف فلان مالاً أي اكتسبه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال الزجاج: أي ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون.

(١١٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ فيه إضمار، أي: قلْ لهم يا محمد أفغيرَ الله، ﴿أَبْتَغِى﴾، أطلب ﴿حَكَمًا﴾، قاضياً بيني وبينكم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَماً فأجابهم به، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾، مبيّناً فيه أمره ونهيه، يعني: القرآن، وقيل: مفصّلاً أي خمساً خمساً وعشراً عشراً؛ كما قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، يعني: علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، وقيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب، وقال عطاء: هم رؤوس أصحاب النبيّ ﷺ، والمراد بالكتاب هو القرآن، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾، يعني: القرآن ﴿مُنَزَّلٌ﴾، قرأ ابن عامر وحفص: ﴿مُنَزَّلٌ﴾، بالتشديد من التنزيل لأنه أنزل نجوماً متفرقة، وقرأ الآخرون بالتخفيف من الإنزال؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، من الشاكّين أنهم يعلمون ذلك.

(١١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿كَلِمَتُ﴾ على التوحيد، وقرأ الآخرون ﴿كلمات﴾ بالجمع، وأراد بالكلمات أمره ونهيه ووعده ووعيده، ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، أي: صدقاً في الوعد والوعيد، وعدلاً في الأمر والنهي، قال قتادة ومقاتل: صادقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، قال ابن عباس: لا رادّ لقضائه ولا مغيّر لحكمه ولا خُلْف لوعده، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قيل: أراد بالكلمات القرآن لا مبدّل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عن دين الله، وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة، وقالوا: أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما قتله الله عزّ وجلّ؟ فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وإن تطعهم في أكل الميتة يُضلّوكَ عن سبيل الله، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، يريد أن دينهم الذي هم عليه ظنٌّ وهوىً لم يأخذوه عن بصيرة، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، يكذّبون.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، قيل: موضع ﴿مَن﴾ نصب بنزع حرف الصفة، أي: بمن يضل، وقال الزجاج: موضعه رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام، والمعنى: إنّ ربك هو أعلم أي الناس يضل عن سبيله، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالّين والمهتدين فيجازي كلاً بما يستحقه.

(١١٨) قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أي: كلوا مما ذبح على اسم الله، ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم كانوا يُحرّمون أصنافاً من النّعم ويحلّون الأموات، فقيل لهم: أحِلّوا ما أحلّ الله وحرّموا ما حرّم الله.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

(١١٩) ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾، يعني: أي شيء لكم، ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا﴾، وما يمنعكم من أن تأكلوا، ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، من الذبائح، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب وحفص ﴿فَصَّلَ﴾ و﴿حَرَّمَ﴾ بالفتح فيهما، أي: فصّل الله ما حرّمه عليكم؛ لقوله: ﴿اسْمُ اللَّهِ﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو عمرو بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على غير تسمية الفاعل؛ لقوله: ﴿ذُكِرَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿فَصَّلَ﴾ بالفتح و﴿حُرِّمَ﴾ بالضم، وأراد بتفصيل المحرمات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾، قرأ أهل الكوفة بضم الياء وكذلك قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ [يونس: ٨٨] في سورة يونس؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وقيل: أراد به عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين الذين اتخذوا البحائر والسوائب، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله: ﴿مَن يَضِلُّ﴾، ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، حين امتنعوا من أكل ما ذكر اسم الله عليه ودعوا إلى أكل الميتة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، يعني: الذنوب كلها لأنها لا تخلو من هذين الوجهين، قال قتادة: علانيته وسرّه، قال مجاهد: ظاهر الإثم ما يعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب، وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصرّ على الذنب القاصد له.

وقال الكلبي: ظاهره الزنا وباطنه المخالّة، وأكثر المفسّرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الرايات، وباطنه الاستسرار به، وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا وكان الشريف منهم يتشرف فيُسرُّ به، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرّمهما الله عزّ وجلّ، وقال سعيد بن جبير: ظاهر الإثم نكاح المحارم وباطنه الزنا، وقال ابن زيد: ظاهر الإثم التجرّد من الثياب والتعرّي في الطواف والباطن الزنا، وروى حبان عن الكلبي: ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهاراً عراة، وباطنه طواف النساء بالليل عراة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾، في الآخرة، ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾، يكتسبون في الدنيا.

(١٢١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها.

وقال عطاء: الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام.

اختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها، فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامداً أو ناسياً، وهو قول ابن سيرين والشعبي، واحتجّوا بظاهر هذه الآية.

وذهب قوم إلى تحليلها، يُروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين.

وذهب قوم إلى أنه ترك التسمية عامداً لا يحل، وإن تركها ناسياً يحل، حكى الخرقي من أصحاب أحمد: أن هذا مذهبه، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي.

ومن أباحها قال: المراد من الآية الميتات أو ما ذبح على اسم غير الله بدليل أنه قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، والفسق في ذكر اسم غير الله؛ كما قال في آخر السورة: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي

مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. واحتجّ من أباحها بما:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا أبو خالد الأحمر قال: سمعت هشام بن عروة يحدّث عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: إن قوماً قالوا: يا رسول الله إن هنا أقواماً حديثٌ عهدهم بشرك يأتون بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا أنتم اسم الله وكلُوا». ولو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح.

قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم، وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت مَن قتلَها؟ فقال: «الله قتلها»، قالوا: فتزعم أن ما قتلتَ أنتَ وأصحابك حلالٌ، وما قتله الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، في أكل الميتة، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، قال الزجاج: وفيه دليل على أن من أحلّ شيئاً مما حرّم الله أو حرّم ما أحل الله فهو مشرك.

﴿١٢٢﴾ قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، قرأ نافع ﴿مَيِّتًا﴾ و﴿لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتًا﴾ [الحجرات: ١٢] و﴿الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]، بالتشديد فيهنّ، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، أي: كان ضالاً فهديناه، كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾، يستضيء به، ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، على قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال قتادة: هو كتاب الله بيّنةٌ من الله مع المؤمنين، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، المثل صلة، أي: كمن هو في الظلمات، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، يعني: من ظلمة الكفر.

قيل: نزلت هذه الآية في رجلين بأعيانهما، ثم اختلفوا فيهما، قال ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾، يريد حمزة بن عبد المطلب، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، يريد أبا جهل بن هشام، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، وحمزة لم يؤمن بعد، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرّع إليه، ويقال: يا أبا عمارة أما ترى ما جاء به؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا، وقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل.

وقال عكرمة والكلبي: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، من الكفر والمعصية. قال ابن عباس: يريد زيّن لهم الشيطان عبادة الأصنام.

﴿١٢٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، أي: كما أن فُسّاق مكة أكابرها، كذلك جعلنا فسّاق كل قرية أكابرها، أي: عظماءها، جمع أكبر، مثل أفضل وأفاضل، وأسود وأساود، وذلك سنّة الله تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم، كما قال في قصة نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وجعل فسّاقهم أكابرهم، ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون لكل من يقدم: إيّاك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذّاب. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾، لأن وبال مكرهم يعود عليه. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أنه كذلك.

﴿١٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾، يعني: مثل ما أوتي رسل الله من النبوّة، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوّة حقاً لكنتُ أولى بها منك، لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: زاحمنا بنو

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبيّ يُوحى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتّبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، حجّة على صدق محمد ﷺ قالوا: يعني أبا جهل، ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، يعني: محمداً ﷺ. ثم قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، قرأ ابن كثير وحفص ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ على التوحيد، وقرأ الآخرون ﴿رسالاته﴾ بالجمع، يعني: الله أعلم بمن هو أحق بالرسالة. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾، ذلّ وهوان، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: من عند الله، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾، قيل: صغار في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة.

﴿١٢٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، أي: يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام. ولما نزلت هذه الآية سُئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر، قال: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح»، قيل: وهل لذلك أمارة؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾، قرأ ابن كثير ﴿ضَيْقاً﴾ بالتخفيف هٰهنا وفي الفرقان، والباقون بالتشديد، وهما لغتان مثل: هَيْن وهيِّن ولين وليِّن، ﴿حَرَجًا﴾، قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء والباقون بفتحها، وهما لغتان أيضاً مثل: الدنف والدَنِف، وقال سيبويه: الحرج بالفتح، المصدر كالطلب، ومعناه ذا حرج، وبالكسر الاسم وهو أشدّ الضيق، يعني: يجعل قلبه ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان. وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ. قال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأزّ قلبه، وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية، فسأل أعرابياً من كنانة: ما الحَرَجَة فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، قرأ ابن كثير: ﴿يصعد﴾ بالتحفيف، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿يصّاعد﴾ بالألف، أي: يتصاعد، وقرأ الآخرون ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بتشديد الصاد والعين، أي: يتصعد، يعني: يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء. وأصل الصعود المشقة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]، أي: عقبة شاقة. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال ابن عباس: الرجس هو الشيطان، أي: يسلّط عليه. وقال الكلبي: هو المأثم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه. وقال عطاء: الرجس العذاب مثل الرجز، وقيل: هو النجس. رُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «اللّهمّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ النّجس». وقال الزجاج: الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

﴿١٢٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾، أي: هذا الذي بيّنا. وقيل: هذا الذي أنت عليه يا محمد طريق ربّك ودينه الذي ارتضاه لنفسه مستقيماً لا عوج فيه وهو الإسلام. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿١٢٧﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يعني: الجنّة، قال أكثر المفسّرين: السلام هو الله وداره الجنّة. وقيل: السلام هو السلامة، أي: لهم دار

السلامة من الآفات، وهي الجنّة. وسمّيت دار السلام لأن كل من دخلها سَلِمَ من البلايا والرزايا.

وقيل: سمّيت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، فقال في الابتداء: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦]، وقال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قال الحسين بن الفضل: يتولاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء.

(١٢٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، قرأ حفص: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، ﴿جَمِيعًا﴾، يعني: الجنّ والإنس يجمعهم في موقف القيامة فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ﴾، والمراد بالجن: الشياطين، ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾، أي: استكثرتم من الإنس بالإضلال والإغواء، أي: أضللتم كثيراً، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ﴾، يعني: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس، ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

قال الكلبي: استمتاع الإنس بالجن هو أن الرجل كان إذا سافر ونزل بأرض قَفْرٍ خاف على نفسه من الجنّ، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فيبيت في جوارهم.

وأما استمتاع الجن بالإنس: هو أنهم قالوا قد سِدْنَا الإنس مع الجن، حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفاً في قومهم وعِظَماً في أنفسهم؛ وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وقيل: استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يُلْقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهوونها، وتسهيل سبيلها عليهم، واستمتاع الجنّ بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزيّنون لهم من الضلالة والمعاصي. قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم بعضاً وموافقة بعضهم لبعض.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، يعني: القيامة والبعث، ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾، مقامكم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء كما اختلفوا في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧].

قيل: أراد إلاّ قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم، يعني: هم خالدون في النار إلاّ هذا المقدار، وقيل: الاستثناء يرجع إلى العذاب، وهو قوله: ﴿النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾، أي: خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب.

وقال ابن عباس: الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار، و﴿مَا﴾ بمعنى «من» على هذا التأويل، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، قيل: عليم بالذي استثناه بما في قلوبهم من البرّ والتقوى.

(١٢٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، قيل: أي: كما خذلنا عصاة الجنّ والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض نولي بعض الظالمين بعضاً، أي: نسلّط بعضهم على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، سوى ما شاء الله من أنواع العذاب. كما جاء: «مَنْ أعان ظالماً سلّطه اللَّهُ عليه».

وقال قتادة: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالمؤمن وليّ المؤمن أين كان، والكافر وليّ الكافر حيث كان. ورُوي معمر عن قتادة: يتبع بعضهم بعضاً في النار، من الموالاة. وقيل: معناه نولي ظلمة الإنس ظلمة الجن، ونولي ظلمة الجن ظلمة الإنس، أي: نكل بعضهم إلى بعض؛ كقوله تعالىٰ: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها هو: أنّ الله تعالىٰ إذا أراد بقوم خيراً ولّى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولّى أمرهم شرارهم.

(١٣٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، واختلفوا في الجن هلْ أُرسل إليهم منهم رسول، فسُئل الضحاك عنه، فقال: بلى ألم تسمع الله يقول ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، يعني: بذلك رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن. قال الكلبي: كانت الرسل قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الجنّ وإلى الإنس جميعاً.

قال مجاهد: الرسل من الإنس والنُّذر من الجن، ثم قرأ: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]،

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا، وليس للجن رسل، فعلى هذا قوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٢٢]، وإنّما يخرج من الملح دون العذب، وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وإنّما هو في سماء واحدة.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يقرؤون عليكم، ﴿ءَايَٰتِى﴾، كتبي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، وهو يوم القيامة، ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، أنهم قد بلّغوا، قال مقاتل: وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، حتى لم يؤمنوا، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿١٣١﴾ ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم، لأنه لم يكن ربُّكَ مُهلكَ القرى بظلم، أي: لم يكن مهلكهم بظلم، أي: بشركِ من أشرك، ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، لم ينذروا حتى نبعث إليهم رسلاً ينذرونهم.

وقال الكلبي: لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن تأتيهم الرسل.

وقيل: معناه ما لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل فيكون قد ظلمهم، وذلك أن الله تعالىٰ أجرى السنة أن لا يأخذ أحداً إلاّ بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنباً إذا أُمر فلم يأتمر أو نُهي فلم ينته، وذلك يكون بعد إنذار الرسل.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، يعني: في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم من هو أشدّ عذاباً ومنهم من هو أجزل ثواباً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، قرأ ابن عامر ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والباقون بالياء.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾، عن خلقه، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، قال ابن عباس: ﴿ذو ٱلرَّحمةِ﴾ بأوليائه وأهل طاعته، وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، يهلككم، وعيد لأهل مكة، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾، ويخلق وينشىء، ﴿مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، خلقاً غيركم أمثل وأطوع، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، أي: آبائهم الماضين قرناً بعد قرن.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾، أي: ما توعدون من مجيء الساعة والحشر، ﴿لَءَاتٍ﴾، كائن، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: بفائتين، يعني: يدرككم الموت حيث ما كنتم.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم، ﴿مكاناتكم﴾ بالجمع حيث كان، أي: على تمكنكم، قال عطاء: على حالاتكم التي أنتم عليها. قال الزجاج: اعملوا على ما أنتم عليه. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه، وهذا أمر وعيد على المبالغة يقول الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ: قل لهم اعملوا ما أنتم عاملون، ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾، ما أمرني به ربي عزّ وجلّ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، أي: الجنة، قرأ حمزة والكسائي: ﴿يكون﴾ بالياء هاهنا وفي القصص، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث العاقبة، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، قال ابن عباس: معناه لا يسعد من كفر بي وأشرك. قال الضحاك: لا يفوز.

﴿١٣٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآية، كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم

سُورَةُ الأَنْعَام — الجزء الثامن

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

١٤٦

وثمارهم وسائر أموالهم نصيباً، وللأوثان نصيباً فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها، فإن سقط شيء مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إنّ الله غني عن هذا، وإن سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردّوه إلى الأوثان، وقالوا: إنها محتاجة، وكان إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوه لله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، وفيه اختصار مجازه: وجعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً.

﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾، قرأ الكسائي ﴿بِزُعْمِهِمْ﴾ بضم الزاي، والباقون بفتحها، وهما لغتان، وهو القول من غير حقيقة، ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾، يعني: الأوثان، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾، ومعناه: ما قلنا أنهم كانوا يتمون ما جعلوا للأوثان ممّا جعلوه لله، ولا يتمّون ما جعلوه لله مما جعلوه للأوثان. وقال قتادة: كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزّءوا لله وأكلوا منه فوفّرُوا ما جزّؤوا لشركائهم ولم يأكلوا منه، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: بئس ما يصنعون.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: كما زيّن لهم تحريم الحرث والأنعام كذلك زيّن لكثير من المشركين، ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾، قال مجاهد: شركاؤهم، أي: شياطينهم زيّنوا وحسّنوا لهمَ وأدَ البنات خيفة العيلة، سمّيت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله وأضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها.

وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم الذين كانوا يزيّنون للكفار قتل الأولاد، فكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدَهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله، وقرأ ابن عامر: ﴿وَزُيِّنَ﴾ بضم الزاي وكسر الياء، ﴿قَتْلُ﴾ رفع ﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ نصب، ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بالخفض على التقديم، كأنه قال: زيّن لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم، فصل بين الفعل وفاعله بالمفعول به وهو الأولاد، كما قال الشاعر:

فَزَجَجْتُهُ مُتَمَكِّناً
زَجَّ القَلُوصِ أبي مَزَادَهْ

أي: زجّ أبي مزادة القلوص، فأضيف الفعل وهو القتل إلى الشركاء، وإن لم يتولوا ذلك لأنهم هم الذين زيّنوا ذلك ودعوا إليه، فكأنهم فعلوه. قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾، ليهلكوهم، ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ﴾، ليخلطوا عليهم، ﴿دِينَهُمْ﴾، قال ابن عباس: ليدخلوا عليهم الشكّ في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بلَبْسِ الشياطين. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، أي: لو شاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا ذلك من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد، ﴿فَذَرْهُمْ﴾، يا محمد، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، يختلقون من الكذب، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد.

﴿١٣٨﴾ ﴿وَقَالُوا﴾، يعني: المشركين، ﴿هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾، أي: حرام، يعني: ما جعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على ما مضى ذكره. وقال مجاهد: يعني بالأنعام: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، يعنون الرجال دون النساء، ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، هي: الحوامي

كانوا لا يركبونها، ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، أي: يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقال أبو وائل: معناه لا يحجّون عليها ولا يركبونها لفعل الخير، لأنه لمّا جرتِ العادة بذكر اسم الله على فعل الخير عبّر بذكر الله تعالىٰ عن فعل الخير. ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، يعني: أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراءً عليه ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، أي: نسائنا. قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد أجنّة البحائر والسوائب فما وُلد منها حيّاً فهو خالص للرجال دون النساء، وما وُلد ميّتاً أكله الرجال والنساء جميعاً. وأدخل الهاء في الخالصة للتأكيد كالخاصة والعامة، كقولهم: نسّابة وعلاّمة، وقال الفراء رحمه الله: أُدخلت الهاء [لتأنيث الأنعام لأن ما في بطونها مثلها فأنثت بتأنيثها. وقال الكسائي: خالص وخالصة واحد، مثل وعظٍ وموعظة.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر: ﴿تَكُن﴾ بالتاء ﴿مَّيْتَةٌ﴾ رفع، ذكر الفعل بعلامة التأنيث، لأن الميتة في اللفظ مؤنثة. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿تَكُن﴾ بالتاء ﴿مَّيْتَةً﴾ نصب، أي: وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ ابن كثير ﴿وَإِن يَكُن﴾ بالياء ﴿مَّيْتَةٌ﴾ رفع، لأنّ المراد بالميتة الميت، أي: وإن يقع ما في البطون ميّتاً، وقرأ الآخرون: ﴿وَإِن يَكُن﴾ بالياء ﴿مَّيْتَةً﴾ نصب، ردّه إلى ﴿مَا﴾، أي: وإن يكن ما في البطون ميتة، يدلّ عليه أنه قال: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، ولم يقل فيها، وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾، أي: بوصفهم، أو على وصفهم الكذب على الله تعالى، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(١٤٠) ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير ﴿قَتَّلُوٓا۟﴾ بتشديد التاء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ﴿سَفَهًۢا﴾، جهلاً، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، نزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم، كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك.

﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني: البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾، حيث قالوا: إن الله أمرهم بها، ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

(١٤١) قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾، ابتدع. ﴿جَنَّٰتٍ﴾، بساتين، ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾، أي: مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات. وقال ابن عباس: معروشات: ما انبسط على وجه الأرض، وانتشر مما يعرش مثل: الكرم والقرع والبطيخ وغيرها، وغير معروشات: ما قام على ساق وبسق، مثل النخل والزرع وسائر الأشجار.

وقال الضحاك: كلاهما من الكرم خاصة، منها ما عرش، ومنها ما لم يعرش. ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾، أي: وأنشأ النخل والزرع، ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾، ثمره وطعمه منها الحلو والحامض والجيد والرديء، ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾، في المنظر، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، في المطعم مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف، ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، هذا أمر إباحة.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم ﴿حَصَادِهِۦ﴾ بفتح الحاء، وقرأ الآخرون بكسرها معناهما واحد، كالصَرام والصِّرام والجَزاز والجِزاز.

واختلفوا في هذا الحق فقال ابن عباس وطاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب: إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر.

وقال عليّ بن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد والحكم: هو حق في المال سوى الزكاة، أمر بإتيانه لأن الآية مكية وفرضت الزكاة بالمدينة.

قال إبراهيم: هو الضغث. وقال الربيع: لقاط السنبل.

وقال مجاهد: كانوا يعلقون العذق عند الصرام فيأكل منه مَنْ مرّ.

وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا يجيؤون بالعذق فيعلّقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه.

وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقاً يؤمر بإتيانه في ابتداء الإسلام منسوخاً بإيجاب العشر.

قال مِقْسم عن ابن عباس: نسختِ الزكاةُ كلَّ نفقة في القرآن.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

الجزء الثامن — سورة الأنعام

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧

﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، قيل: أراد بالإسراف إعطاء الكل. قال ابن عباس في رواية الكلبي: إنَّ ثابت بن قيس بن شمَّاس صرم خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال السدي: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، أي: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء. قال الزجاج: على هذا إذا أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف. لأنه جاء في الخبر: «ابدأ بمن تعول». وقال سعيد بن المسيب: معناه لا تمنعوا الصدقة. فتأويل الآية على هذا: لا تجاوزوا الحدّ في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة.

وقال مقاتل: لا تُشركوا الأصنام في الحرث والأنعام.

وقال الزهري: لا تنفقوا في المعصية. وقال مجاهد: الإسراف ما قصّرت به عن حق الله عزّ وجلّ، وقال: لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً أو مداً في معصية الله كان مسرفاً. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف وإسراف. وروى ابن وهب عن أبي زيد، قال: الخطاب للسلاطين، يقول إلا تأخذوا فوق حقكم.

﴿١٤٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وأنشأ من الأنعام، ﴿حَمُولَةً﴾، وهي كل ما يحمل عليها من الإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾، وهي الصغار من الإبل التي لا تحمل. ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والأنعام، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿١٤٣﴾ ثم بين الحمولة والفرش فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، نصبها على البدل من الحمولة والفرش، أي: وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف، ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، أي: الذكر والأنثى، فالذكر زوج والأنثى زوج، والعرب تسمّي الواحد زوجاً إذا كان لا ينفك عن الآخر، والضأن النعاج، وهي ذوات الصوف من الغنم، والواحد ضائن والأنثى ضائنة، والجمع ضوائن، ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأهل البصرة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ﴾ بفتح العين والباقون بسكونها، والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه، وهي ذوات الشعر من الغنم، وجمع الماعز مَعِيز، وجمع الماعزة مواعز، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾، الله عليكم، يعني ذكر الضأن والمعز، ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، يعني: أنثى الضأن والمعز، ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، منهما فإنها لا تشتمل إلا على ذكر وأنثى، ﴿نَبِّـُٔونِى﴾، أخبروني، ﴿بِعِلْمٍ﴾، قال الزجاج: فسّروا ما حرّمتم بعلم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أن الله تعالى حرّم ذلك.

﴿١٤٤﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حِجْر، وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا مُحرّم على أزواجنا، وحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال، فلمّا قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبيّ ﷺ، وكان خطيبهم مالك بن عوف أبو الأحوص الجشمي، فقال: يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء ممّا كان آباؤنا يفعلونه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنكم قد حرّمتم أصنافاً من الغنم على غير أصل، وإنّما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ من قِبل

الذكر أم من قبل الأنثى»؟ فسكت مالك بن عوف وتحيّر فلم يتكلّم. فلو قال جاء التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرّم جميع الذكور، وإن كان بسبب الأنوثة وجب أن يحرّم جميع الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل، لأنّ الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو البعض دون البعض فمن أين؟.

ويُروى أنّ النبيّ ﷺ قال لمالك: «يا مالك: مالك لا تتكلم»؟ قال له مالك: بل تكلمْ وأسمعُ منك.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾، قيل: أراد به عمرو بن لحي ومن جاء بعده على طريقته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

ثم بيّن أن التحريم والتحليل يكون بالوحي والتنزيل، فقال:

(١٤٥) ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾، ورُوي أنهم قالوا: فما المحرم إذاً فنزل: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ أي: شيئاً محرماً، ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، آكل يأكله، ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿تكون﴾ بالتاء، ﴿مَيْتَةٌ﴾ رفع، أي: إلا أن تقع ميتة، وقرأ ابن كثير وحمزة ﴿تكون﴾ بالتاء، ﴿مَيْتَةً﴾ نصب على تقدير اسم مؤنث، أي: إلا أن تكون النفس، أو: الجثة ميتة، وقرأ الباقون ﴿يَكُونَ﴾ بالياء ﴿مَيْتَةً﴾ نصب، يعني: إلا أن يكون المطعوم ميتة، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾، أي: مُهْراقاً سائلاً، قال ابن عباس: يريد ما خرج من الحيوان، وهن أحياء وما خرج من الأوداج وما يخرج من الأوداج عند الذبح، ولا يدخل فيه الكبد والطحال، لأنهما جامدان. وقد جاء الشرع بإباحتهما ولا ما اختلط باللحم من الدم، لأنه غير سائل.

قال عمران بن حُدَيْر: سألت أبا مجلز عمّا يختلط اللحم من الدم، وعن القِدْر يرى فيها حمرة الدم. فقال: لا بأس به، إنما نهى عن الدم المسفوح.

وقال إبراهيم: لا بأس بالدم في عرق أو مخ، إلا المسفوح الذي تعمد ذلك. وقال عكرمة: لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما يتبع اليهود.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ حرام، ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾، وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالىٰ. فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء. ويُروى ذلك عن عائشة وابن عباس، قالوا: ويدخل في الميتة المنخنقة والموقوذة، وما ذُكر في أول سورة المائدة.

وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختصّ بهذه الأشياء بل المحرم بنص الكتاب ما ذكر هنا. وذلك معنى قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾، وقد حرّمت السنّةُ أشياء يجب القول بها. منها ما:

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد بن عيس الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج، قال: ثنا عبيد الله بن معاذ العنبري أخبرنا أبي أنا شعبة عن الحكم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحاق الهاشمي ثنا أبو مصعب عن مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم عن عبيدة بن سفيان الحضرمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكلُ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السباع حرامٌ».

والأصل عند الشافعي: أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل، فإن كان مما أمر الشرع بقتله ـ كما قال: «خمسٌ فواسق يقتلن في الحِلّ والحَرم»، أو نهى عن قتله. كما رُوي أنه نهى عن قتل النحلة والنملة ـ فهو حرام، وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب، فما يأكله الأغلب منهم فهو حلال، وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام، لأن الله تعالىٰ خاطبهم بقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، فثبت أن ما استطابوه فهو حلال.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أباح الله أكل هذه المحرمات عند الاضطرار في غير العدوان.

(١٤٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، يعني: اليهود،

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٨

﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل: البعير والنعامة والأوز والبط، قال القتيبي: هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وحكاه عن بعض المفسّرين، وقال: سمّى الحافر ظُفراً على الاستعارة.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾، يعني: شحوم الجوف، وهي الثروب، وشحم الكليتين، ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾، أي: إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾، وهي المباعر واحدتها: حاوية وحويّة أي: ما حملته الحوايا من الشحم. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، يعني: شحم الألية هذا كله داخل في الاستثناء، والتحريم مختص بالثُرْب وشحم الكلية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «أن الله ورسوله حَرّمَا بيعَ الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يُطلى بها السفن ويُدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا هو حرام». ثم قال رسول الله عند ذلك: «قاتلَ اللّهُ اليهودَ إن الله عزّ وجلّ لمّا حرم شحومها جَمَلُوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه».

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم﴾، أي: ذلك التحريم عقوبة لهم ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾، أي: بظلمهم من قتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله وأخذهم الرّبا واستحلال أموال الناس بالباطل، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، في الإخبار عما حرّمنا عليهم وعن بغيهم.

﴿١٤٧﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾، بتأخير العذاب عنكم، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾، عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، إذا جاء وقته.

﴿١٤٨﴾ ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، لمّا لزمتهم الحجّة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرّمه الله قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، نحن، ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾، من قبل، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، من البحائر والسوائب وغيرهما أرادوا أن يجعلوا قوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، حجةً لهم على إقامتهم على الشرك، وقالوا: إن الله تعالىٰ قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منّا وأمرَنَا بِهِ لَحَالَ بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالىٰ تكذيباً لهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من كفار الأمم الخالية، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، عذابنا.

ويستدل أهل القدر بهذه الآية، يقولون: إنهم لما قالوا: لو شاء الله ما أشركنا كذّبهم الله وردّ عليهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

قلنا: التكذيب ليس في قولهم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، بل ذلك القول صدق ولكن في قولهم: إن الله تعالىٰ أمرنا بها ورضي بما نحن عليه، كما أخبر عنهم في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فالردّ عليهم في هذا كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، بالتشديد ولو كان ذلك خبراً من الله عزّ وجلّ

عن كذبهم في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، لقال كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان نسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب. وقال الحسن بن الفضل: لو ذكروا هذه المقالة تعظيماً وإجلالاً لله عزّ وجلّ، ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، والمؤمنون يقولون ذلك، ولكنهم قالوه تكذيباً وتخرصاً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذراً لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان، وردّ عليهم في هذا لأنّ أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنهُ مريدٌ لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، أي: كتاب وحجة من الله، ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، حتى يظهر ما تدّعون على الله تعالى من الشرك وتحريم ما حرّمتم، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾، ما تتبعون فيما أنتم عليه، ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، من غير علم ويقين، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، تكذبون.

(١٤٩) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، التامة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فهذا يدلّ على أنه لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه.

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلُمَّ﴾، يقال للواحد والاثنين والجمع، ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾، أي: ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾، هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعواهم أن الله أمرهم به، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾، وهم كاذبون، ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾، أنت، ﴿مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يشركون.

(١٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾، وذلك أن المشركين سألوا وقالوا: أيّ شيءٍ الذي حرّم الله تعالى؟ فقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾، أقرأ ما حرّم ربكم عليكم حقاً يقيناً لا ظناً ولا كذباً كما تزعمون.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، والمحرّم هو الشرك لا ترك الشرك؟ قيل: موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا، وقيل: محله نصب واختلفوا في وجه انتصابه، قيل: معناه حرّم عليكم أن تشركوا، ولا صلة؛ كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، أي: ما منعك أن تسجد. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، ثم قال: عليكم أن لا تُشركوا به شيئاً، على وجه الإغراء. قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا محمولاً على المعنى، أي: أتلُ عليكم تحريم الشرك، وجائز أن يكون على معنى: أوصيكم ألاّ تشركوا، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، فقراً ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، أي: لا تئدوا بناتكم خشية العَيلة، فإني رازقكم وإيّاهم، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ما ظهر يعني: العلانية وما بطن يعني: السّر.

وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السرّ، فحرم الله تعالى الزنا في العلانية والسّر.

وقال الضحاك: ما ظهر الخمر: وما بطن الزنا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، حرّم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلا بالحق، إلاّ بما يبيح قتله من ردّة أو قصاص أو وزنا يوجب الرجم.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي ثنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري ثنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دمُ امرىءِ مسلم يشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأني رسول الله بإحدَى ثلاث: الشيب الزاني، والنّفسُ بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

١٤٩

الذي ذكرت، ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، أمركم به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، يعني: بما فيه صلاحه وتثميره. وقال مجاهد: هو التجارة فيه. وقال الضحاك: هو أن يبتغي له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئاً، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، قال الشعبي ومالك: الأشد: الحُلم، حتى يكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات. قال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوّته. وقال الكلبي: الأشدّ ما بين الثمانية عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وقيل: إلى أربعين سنة. وقيل: إلى ستين سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. قال السدي: ثلاثون سنة. وقال مجاهد: الأشدّ ثلاث وثلاثون سنة.

والأشد جمع شدّ، مثل قدّ وأقدّ، وهو استحكام قوة شبابه وسنّه، ومنه شدُّ النهار وهو ارتفاعه، وقيل: بلوغ الأشد أن يؤنس رشده بعد البلوغ، وتقدير الآية: ولا تقربُوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشدّه، فادفعوا إليه ماله إن كان رشيداً. ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾، بالعدل، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتها في إيفاء الكيل والميزان، لم يكلف المعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾، فاصدقوا في الحكم والشهادة، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة، ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون، قرأ حمزة والكسائي وحفص تذكرون خفيفة الذال، كل القرآن، والآخرون بتشديدها.

قال ابن عباس: هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، لم ينسخهن شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم، وهنّ أم الكتاب من عمل بهنّ دخل الجنّة، ومن تركهنّ دخل النار.

﴿١٥٣﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾، أي: هذا الذي وصّيتكم به في هاتين الآيتين، ﴿صِرَٰطِى﴾، طريقي وديني، ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، مستوياً قويماً، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «وإن» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون: بفتح الألف، قال الفراء: والمعنى وأتلُ عليكم أنّ هذا صراطي مستقيماً، وقرأ ابن عامر ويعقوب: بسكون النون. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل، وقيل: الأهواء والبدع، ﴿فَتَفَرَّقَ﴾، فتميل، ﴿بِكُمْ﴾، وتشتت، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾، عن طريقه ودينه الذي ارتضى، وبه أوصى، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، الذي ذكرت، ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي المعروف بأبي بكر بن أبي الهيثم أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي ثنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد ثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ثنا عبد الرحمٰن بن مهدي عن حماد بن زيد عن عاصم بن بَهْدلة عن أبي وائل عن عبد الله قال: خطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً ثم قال: «هذا سبيلُ الله»، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سُبلٌ على كلّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

﴿١٥٤﴾ قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، فإن قيل: لِمَ قال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾ وحرف «ثم» للتعقيب وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن؟ قيل: معناه ثم أخبركم أنا

الجزء الثامن — سورة الأنعام

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

١٥٠

آتينا موسى الكتاب، فدخل ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول.

﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾، اختلفوا فيه، قيل: تماماً على المحسنين من قومه، فيكون ﴿ٱلَّذِى﴾ بمعنى من، أي: على من أحسن من قومه، وكان بينهم محسن ومسيء، يدلّ عليه قراءة ابن مسعود: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، وقال أبو عبيدة: معناه على كل من أحسن، أي: أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين، يعني: أظهرنا فضله عليهم، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وقيل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ هو موسى، و﴿ٱلَّذِى﴾ بمعنى ما، أي: على ما أحسن موسى، تقديره: آتيناه الكتاب يعني التوراة إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر.

وقيل: الإحسان بمعنى العلم، وأحسن بمعنى علم، ومعناه تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة، أي آتيناه الكتاب زيادة على ذلك.

وقيل: معناه تماماً مني على إحساني إلى موسى.

﴿وَتَفْصِيلًا﴾، بياناً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، يحتاج إليه من شرائع الدين، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، هذا في صفة التوراة، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، قال ابن عباس: كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَهَٰذَا﴾، يعني: القرآن، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾، واعملوا بما فيه، ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾، وأطيعوا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾، يعني: لئلا تقولوا؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلّوا، وقيل: معناه أنزلناه كراهة أن تضلوا ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾، قال الكسائي: معناه: واتقوا أن تقولوا يا أهل مكة، ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، يعني: اليهود والنصارى، ﴿وَإِن كُنَّا﴾، وقد كنّا، ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم، ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾، لا نعلم ما هي، معناه: أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا إن الكتاب أنزل على من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته، فتجعلونه عذراً لأنفسكم.

﴿١٥٧﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، وقد كان جماعة من الكفار قالوا ذلك لو أنّا أُنزل علينا ما أُنزل على اليهود والنصارى لكنا خيراً منهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، حجة واضحة بلغة تعرفونها، ﴿وَهُدًى﴾ بيان ورحمة ونعمة لمن اتبعه، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ﴾، أعرض، ﴿عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: شدّة العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾، يعرضون.

﴿١٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، أي: هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، لتقبض أرواحهم، وقيل: بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي ﴿يأتيهم﴾ بالياء هنا وفي النحل، والباقون بالتاء، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾، بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، يعني: «طلوع الشمس من مغربها»، عليه أكثر المفسرين ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً. ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي: لا ينفعهم الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان، ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، يريد: لا يُقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق، ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾، يا أهل مكة، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، بكم العذاب.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن

محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن همام بن منبه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طلعتْ ورآها الناسُ آمنُوا أجمعين، وذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً».

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبيدة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يدا الله بُسْطَان لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ولمسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريّاني أنا حميد بن زنجويه أنا النضر بن شُميل أنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ تابَ قبلَ أن تطلعَ الشمسُ من مغربها تابَ اللّهُ عليه».

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الريّاني أنا حميد بن زنجويه أنا أحمد بن عبد الله أنا حماد بن زيد أنا عاصم بن أبي النجود عن زرّ بن حُبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسال المرادي فذكر عن رسول الله ﷺ: «أن الله عزّ وجلّ جعل بالمغرب باباً مسيرة عرضه سبعونُ عاماً للتوبة لا يُغلق ما لمْ تطْلُع الشمسُ مِنْ قِبَلِهِ»، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾.

وروى أبو حازم عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل أو كسبتْ في إيمانِها خيراً: الدجال، والدابّة، وطلوع الشمس من مغربها».

(١٥٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾، بالألف هنا وفي سورة الروم، أي: خرجوا من دينهم وتركوه، وقرأ الآخرون: ﴿فَرَّقُوا۟﴾ مشدّداً، أي: جعلوا دينَ الله وهو واحد ـ دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية ـ أدياناً مختلفة فتهوّد قوم وتنصّر قوم، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾، أي: صاروا فرقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي.

وقيل: هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأمة. ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائشةُ إنّ الذين فارقُوا دينَهم وكانوا شيعاً هم أصحاب البدع، والشبهات من هذه الأمّة».

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفي أنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن أحمد بن محمد الأنصاري أنا أبو عبد الله محمد بن عقيل بن الأزهري بن عقيل الفقيه البلخي أنا الرمادي أحمد بن منصور أنا الضحاك بن مخلد أنا ثور بن يزيد نا خالد بن معدان عن عبد الرحمٰن بن عمرو السلمي عن العرباض بن سارية قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظةً بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنّها موعظةُ مودِّع فأوْصِنا، فقال: «أوصِيكُمْ بتقوى الله والسمعِ والطّاعةِ وإنْ كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي: وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُوا عليها بالنواجذِ وإياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كل بدعة ضلالة».

ورُوي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ بني إسرائيل تفرّقتْ على اثنينِ وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلّة، كلهم في النار إلاّ واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

قال عبد الله بن مسعود: «إن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمور مُحدثاتُها». ورواه جابر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، قيل: لست من قتالهم في شيء، نسختها آية القتال، وهذا على

قول من يقول: المراد في الآية اليهود والنصارى، ومن قال: أراد بالآية أهل الأهواء قال: المراد من قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، أي: أنتَ منهم بريء وهم منك براء، وتقول العرب: إن فعلتَ كذا فلست مني ولستُ منكَ، أي: كل واحد منّا بريء من صاحبه، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يعني: في الجزاء والمكافآت، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، إذا وردوا للقيامة.

﴿١٦٠﴾ قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، أي: له عشر حسنات أمثالها، وقرأ يعقوب عَشْرٌ منون، ﴿أمثالُها﴾ بالرفع. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا محمد بن يوسف القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدُكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملُها تُكتبُ له بعشرِ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعف، وكلُّ سيئةٍ يعملُها تُكتبُ له بمثلها حتى يلْقَى الله عزّ وجلّ».

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني ثنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عشرُ أمثالِها وأزيد، ومَنْ جاءَ بالسيّئةِ فجزاءُ سيئةٍ مثلها أو أغفر، ومنْ تقرّبَ منّي شِبْراً تقرّبتُ منه ذراعاً ومنْ تقرّب منّي ذِراعاً تقرّبتُ منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً، ومن لقيني بقُرَابِ الأرض خطيئةً لا يُشركُ بي شيئاً لقيتُه بمثلها مغفرة».

قال ابن عمر: الآية في غير الصدقات من الحسنات، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف.

﴿١٦١﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾، قرأ أهل الكوفة والشام قيماً بكسر القاف وفتح الياء خفيفة، وقرأ الآخرون بفتح القاف وكسر الياء مشدداً ومعناهما واحد وهو القويم المستقيم، وانتصابه على معنى هداني ديناً قيماً، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿١٦٢﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾، قيل: أراد بالنسك الذبيحة في الحجّ والعمرة، وقال مقاتل: نسكي: حجي، وقيل: ديني، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾، أي: حياتي ووفاتي، ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: هو يحييني ويميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله رب العالمين، وقيل: طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله ربِّ العالمين. قرأ أهل المدينة: ﴿ومحيايْ﴾ بسكون الياء و﴿مماتيَ﴾ بفتحها، وقراءة العامة ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان.

﴿١٦٣﴾ قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قال قتادة: وأنا أوّل المسلمين من هذه الأمة.

﴿١٦٤﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيداً وإلهاً ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وذلك أن الكفار كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: ارجعْ إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتبعوا سبيلي أحملْ عنكم أوزاركم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، لا تجني كل نفس إلا ما كان من إثمه على الجاني، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي لا تحمل نفس حمل أخرى، أي: لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: أهلك أهل القرون الماضية وأورثكم الأرضَ يا أمة محمد ﷺ من بعدهم، فجعلكم خلائف منهم فيها تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم، والخلائف جمع خليفة كالوصائف جمع وصيفة، وكل من جاء بعد مَنْ مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، أي: خالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، ليختبركم فيما رزقكم، يعني: يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع

والحرّ والعبد، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، لأن ما هو آت فهو سريع قريب، قيل: هو الهلاك في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾، قال عطاء سريع العقاب لأعدائه غفور لأوليائه رحيم بهم.

❀ ❀ ❀

سورة الأعراف

مكيّة كلها إلا خمس آيات أولها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ [١٦٣ ـ ١٦٧].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) (٢) ﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وهو القرآن، ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، قال مجاهد: شكّ، فالخطاب للرسول ﷺ والمراد به الأمّة. وقال أبو العالية: حرج أي ضيق، معناه: لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أُرسلتَ به، ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، أي: كتاب أنزلناه إليكَ لِتُنذِرَ به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: عظة لهم، وهو رفع، مردود على الكتاب.

(٣) ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾، أي: وقل لهم اتّبعوا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله تعالى، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون، وقرأ ابن عامر: ﴿يتذكرون﴾، بالياء والتاء.

(٤) ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾، بالعذاب، و«كم» للتكثير و«رُبّ» للتقليل ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾، عذابنا، ﴿بَيَٰتًا﴾، ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾، من القيلولة، تقديره: فجاءها بأسُنا ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون أو نائمون ظهيرة، والقيلولة: استراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم. ومعنى الآية: أنهم جاءهم بأسُنا وهم غير متوقّعين، إمّا ليلاً أو نهاراً. قال الزجاج: و﴿أَوْ﴾ لتصريف العذاب، أي: مرّة ليلاً ومرة نهاراً. وقيل: معناه مِنْ أهل القرى مَنْ أهلكناهم ليلاً، ومنهم من أهلكناهم نهاراً.

فإن قيل: ما معنى أهلكناها فجاءها بأسُنا؟ فكيف يكون مجيء البأس بعد الهلاك؟ قيل: معنى أهلكنا حَكَمْنا بإهلاكها فجاءها بأسُنا. وقيل: فجاءها بأسنا وهو بيان قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، مثل قول القائل: أعطيتني فأحسنت إليّ، لا فرق بينه وبين قوله: أحسنت إليّ فأعطيتني، فيكون أحدهما بدلاً من الآخر.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، أي: قولهم ودعاؤهم وتضرّعهم، والدعوى تكون بمعنى الادّعاء وبمعنى الدعاء، قال سيبويه: تقول العرب: اللّهمّ أشركنا في صالح دعوى المسلمين، أي في دعائهم، ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾، عذابنا، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، معناه: لم يقدروا على ردّ العذاب، وكان

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١

١٥١

حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف.

(٦) ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، يعني: الأمم عن إجابتهم الرسل، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، يعني: لنسألهم عمّا عملوا فيما بلغتهم الرسل، ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، عن الإبلاغ.

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾، أي: لنخبرنهم عن علم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينطق عليهم كتاب أعمالهم؛ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]. ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا.

(٨) قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، يعني: يوم السؤال. قال مجاهد: معناه والقضاء يومئذٍ العدل. وقال الأكثرون: أراد به وزن الأعمال بالميزان، وذاك أن الله

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

تعالىٰ ينصب ميزاناً له لسان وكفتان كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب.

واختلفوا في كيفية الوزن، فقال بعضهم: تُوزن صحائف الأعمال: وروينا: «أنّ رجلاً يُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مدّ البصر، فيُخرج له بطاقةٌ فيها شهادة أنْ لا إلٰه إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثَقُلَتِ البطاقةُ».

وقيل: توزن الأشخاص. وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السّمينُ يوم القيامة فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضة».

وقيل: تُوزن الأعمال، روي ذلك عن ابن عباس، فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيّئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمةُ في وزن الأعمال امتحانُ الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجّة عليهم في العقبى، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، قال مجاهد: حسناته، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿٩﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، يجحدون، وقال أبو بكر رضي الله عنه حين حضره الموت في وصيّته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفتْ موازينُ من خفتْ موازينُه يومَ القيامة باتّباعهم الباطلَ في الدنيا، وخفته عليهم حق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

فإن قيل: فقد قيل: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ذكر بلفظ الجمع، والميزان واحد، قيل: يجوز أن يكون لفظه جمعاً ومعناه واحد؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقيل: لكل عبد ميزان، وقيل: الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلق به، وقيل: جَمَعَهُ؛ لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلا باجتماعهما.

﴿١٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: المراد من التمكين التمليك والقدرة، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، أي: أسباباً تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش جمع المعيشة، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، فيما صنعتُ إليكم.

﴿١١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾، قال ابن عباس: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أي: أصولكم وآباءكم ثم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في أرحام أمّهاتكم، وقال قتادة والضحاك والسدي: أمّا خلقناكم فآدم، وأمّا ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فذريّته. وقال مجاهد في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ آدم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في ظهر آدم بلفظ الجمع لأنه أبو البشر ففي خلقه خلق من يخرج من صلبه، وقيل: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ في ظهر آدم ثم ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر. وقال عكرمة: خلقناكم في أصلاب الرجال وصوّرناكم في أرحام النساء. وقال يمان: خلق الإنسان في الرحم ثم صوّره فشقّ سمعَه وبصَره وأصابعه. وقيل: الكل آدم خلقه وصوّره و﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواو.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ﴾، فإن قيل: الأمر بسجود الملائكة كان قبل خلق بني آدم، فما وجه قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا﴾، وثم للترتيب والتراخي؟ قيل: على قول من يصرف الخلق والتصوير إلى آدم وحده يستقيم الكلام إما على قول من يصرفه إلى الذرية فعنه أجوبة.

أحدها أن ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواو، أي: وقلنا للملائكة، فلا تكون

للترتيب والتعقيب. وقيل: أراد ثم أخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا.

وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره ولقد خلقناكم، يعني: آدم ثم قلنا للملائكة اسجدوا ثم صوّرناكم.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، يعني: الملائكة، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، لآدم.

(١٢) ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾، أي: وما منعك أن تسجد و«لا» زائدة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. ﴿قَالَ﴾ إبليس مجيباً: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنك ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، والنار خير وأنور من الطين.

قال ابن عباس: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس.

قال ابن سيرين: ما عُبِدَتِ الشمسُ إلا بالقياس.

قال محمد بن جرير: ظن الخبيث أن النار خير من الطين ولم يعلم أن الفضل لمن جعل الله له الفضل، وقد فضل الله الطين على النار. وقالت الحكماء: للطين فضل على النار من وجوه، منها أنّ من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرّع فأورثه الاجتباء والتوبة والهداية، ومن جوهر النار الخفة والطيش والجرأة والارتفاع وهو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه اللعنة والشقاوة، ولأن الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفرّقها ولأن التراب سبب الحياة، فإنّ حياة الأشجار والنبات به، والنار سبب الهلاك.

(١٣) قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، أي: من الجنّة، وقيل: من السماء إلى الأرض وكان له ملك الأرض وأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه في البحر الأخضر، فلا يدخل الأرض إلا خائفاً على هيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ﴾، بمخالفة الأمر، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنّة، ولا ينبغي أن يسكن في الجنّة ولا السماء متكبّرٌ مخالفٌ لأمر الله تعالى، ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، من الأذلاّء، والصغار: الذلّ والمهانة.

(١٤) ﴿قَالَ﴾ إبليس عند ذلك، ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾، أخرني وأمهلني فلا تمتني، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، من قبورهم وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت.

(١٥) ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، المؤخّرين، وبيّن مدة النظرة والمهلة في موضع آخر، فقال: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]، وهي النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

(١٦) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، اختلفوا في «ما»، قيل: هو استفهام يعني فبأيّ شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ فقال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾، وقيل: هو «ما» الجزاء، أي: لأجل أنك أغويتني لأقعدنّ لهم، وقيل: هو «ما» المصدرية موضع القسم تقديره: فبإغوائك إيّاي لأقعدنّ لهم؛ كقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧]، يعني: لغفران ربي، والمعنى بقدرتك عليّ ونفاذ سلطانك فيّ. وقال ابن الأنباري: أي فيما أوقعت في قلبي من الغي الذي كان سبب هبوطي من السماء أغويتني، أي: أضللتني عن الهدى. وقيل: أهلكتني. وقيل: خيّبتني، ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، أي: لأجلسنّ لبني آدم على طريقك القويم وهو الإسلام.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: من بين أيديهم أي مِنْ قِبل الآخرة فأشكّكهم فيها، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أشبّه عليهم أمر دينهم. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، أشهي لهم المعاصي. وروى عطية عن ابن عباس: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من قِبَلِ دنياهم، يعني أزيّنها في قلوبهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، من قِبَلِ الآخرة فأقول: لا بعث ولا نشور ولا جنّة ولا نار، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من قِبَلِ حسناتهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ من قِبَلِ سيّئاتهم.

وقال الحكم: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: من قبل الدنيا يُزيّنها لهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: من قبل الآخرة يثبّطهم عنها، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قبل الحق يصدّهم عنه، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: من قبل الباطل يزيّنه لهم. وقال قتادة: أتاهم ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فأخبرهم أنه لا

بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: من أمور الدنيا زيّنها لهم ودعاهم إليها، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: من قبل حسناتهم بطّأهم عنها، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: زيّن لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم من حيث لا يبصرون. وقال ابن جريج: معنى قوله حيث لا يبصرون، أي: لا يخطئون، وحيث لا يبصرون، أي: لا يعلمون أنهم يخطؤون.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾، مؤمنين، فإن قيل: كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل: قاله ظناً فأصاب. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، أي: معيباً، والذيم والذأم أشد العيب، يقال: ذأمه يذأمه ذأماً فهو مذؤوم وذامه يذيمه ذاماً فهو مذيم، مثل سار يسير سيراً. المدحور: المبعد المطرود، يقال: دحره يدحره دحراً إذا أبعده وطرده. قال ابن عباس: مذؤوماً أي ممقوتاً، وقال قتادة: مذؤوماً مدحوراً، أي: لعيناً منفياً. وقال الكلبي: مذؤوماً ملوماً مدحوراً مقصياً من الجنة ومن كل خير. ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، من بني آدم، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، اللام لام القسم، ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم أجمعين.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: إليهما، والوسوسة: حديث يُلقيه الشيطان في قلب الإنسان، ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، أي: ليظهر لهما ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما، قيل: اللام فيه لام العاقبة وذلك أن إبليس لم يوسوس بهذا، ولكن كان عاقبة أمرهم ذلك، وهو ظهور عورتهما؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، ثم بين الوسوسة فقال: ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبليس لآدم وحواء، ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، يعني: لئلا تكونا، كراهية أن تكونا مَلَكَيْن من الملائكة يعلمان الخير والشر، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، من الباقين الذين لا يموتون؛ كما قال في موضع آخر: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠].

﴿٢١﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، أي: وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد، وقال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتّبعاني أرشدكما، وإبليس أوّل من حلف بالله كاذباً فلما حلف ظنّ آدم أن أحداً لا يحلف بالله فاغترّ به.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي: خدعهما، يقال: ما زال فلان يدلي لفلان بالغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول باطل.

وقيل: حطّهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية، ولا يكون التدلّي إلاّ من علو إلى أسفل والتدلية: إرسال الدلو في البئر، يُقال: تدلّى بنفسه ودلّى غيره، وقال الأزهري: وأصله تدلية العطشان في البئر ليروى من الماء ولا يجد الماء، فيكون مُدَلّى بالغرور والغرور إظهار النصح مع إبْطانِ الغش.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، قال الكلبي: فلما أكلا منها. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قبل أن ازدردا أخذتْهُما العقوبةُ، والعقوبةُ أنْ ﴿بَدَتْ﴾ ظهرت لهما «سوآتهما» عوراتُهما، وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما وُورِيَ عنه من عورة صاحبه، وكانا لا يريان ذلك. قال وهب: كان لباسهما من النور. وقال قتادة: كان ظفراً ألبسهما الله من الظفر لباساً فلمّا وقعا في الذنب بدت لهما سوءاتهما فاستحييا، ﴿وَطَفِقَا﴾، أقبلا وجعلا ﴿يَخْصِفَانِ﴾، يرقعان ويلزقان ويصلان، ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب.

قال الزجاج: يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما. ورُوي عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «كان آدم رجلاً طِوَالاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته، وكان لا

يراها فانطلق هارباً في الجنة، فعرضتْ له شجرةٌ من شجر الجنة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني، قالت: لست بمرسلتك، فناداه ربُّه يا آدمُ أمني تفر؟ قال: لا يارب ولكن استحييتُك».

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، يعني: عن الأكل منها، ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن العداوة، قال محمد بن قيس: ناداه ربُّه يا آدم أكلت منها وقد نهيتُك؟ قال: ربِّ أطعمتني حواء، قال لحواء: لم أطعمتيه؟ قالت: أمرتني الحية، قال: للحيةِ لِمَ أمرتيها؟ قالتْ: أمرني إبليس، فقال الله تعالى: أمّا أنتِ يا حواء فكما أدميت الشجرة فتدمين كل شهر، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين على بطنك ووجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك، وأمّا أنتَ يا إبليس فملعون مدحور.

(٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، ضررناها بالمعصية، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، الهالكين.

(٢٤) ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، يعني: في الأرض تعيشون، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، أي: من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بفتح التاء هُهنا وفي الزخرف، وافق يعقوب هُهنا وزاد حمزة والكسائي:

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في أول الروم، والباقون بضم التاء وفتح الراء فيهن.

(٢٦) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾، أي: خلقنا لكم ﴿لِبَاسًا﴾، وقيل: إنما قال: ﴿أَنزَلْنَا﴾ لأن اللباس يكون من نبات الأرض، والنبات يكون بما ينزل من السماء، فمعنى قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ أي: أنزلنا أسبابه. وقيل: كل بركات الأرض منسوبة إلى بركات السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وإنما يستخرج الحديد من الأرض.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)

وسبب نزول هذه الآية أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة. قال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّه ... وما بَدَا منه فلا أُحِلُّه

فأمر الله سبحانه بالستر، فقال: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾، يستر عوراتكم، واحدتها سوأة سمّيت بها لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها، فلا تطوفوا عراةً، ﴿وَرِيشًا﴾، يعني: مالاً في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي، يُقال: تريش الرجل إذا تموّل، وقيل: الريش الجمال، أي: ما تتجمّلون به من الثياب، وقيل: هو اللباس ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي: ﴿وَلِبَاسَ﴾ بنصب السين عطفاً على قوله: ﴿لِبَاسًا﴾، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره ﴿خَيْرٌ﴾، وجعلوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ صلة في الكلام، وكذلك قرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

واختلفوا في ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، قال قتادة والسدي: لباس التقوى هو الإيمان. وقال الحسن: هو الحياء لأنه يبعث على التقوى.

وقال عطاء عن ابن عباس: هو العمل الصالح. وعن عثمان بن عفان أنه قال: السَّمْت الحسن.

وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله. وقال الكلبي: هو العفاف. والمعنى: لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خُلق له من اللباس للتجمّل.

وقال ابن الأنباري: لباس التقوى

هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أن ستر العورة خير من التعري في الطواف.

قال زيد بن علي: لباس التقوى الآلات التي يُتقى بها في الحرب كالدرع والمغفر والساعد والساقين.

وقيل: لباس التقوى هو الصوف والثياب الخشنة التي يلبسها أهل الورع. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

(٢٧) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: لا يضلنكم الشيطان، ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾، أي: كما فتن أبويكم آدم وحواء فأخرجهما، ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾، أي: ليرى كل واحد سوأة الآخر. ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾، يعني الشيطان يراكم يا بني آدم، ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده، قال ابن عباس: هو وولده. وقال قتادة: قبيلة الجنّ والشياطين، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، قال مالك بن دينار: إنّ عدواً يراكَ ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلاّ من عصم الله، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ قرناء وأعواناً، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال الزجاج: سلطانهم عليهم يزيدون في غيّهم كما قال: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، قال ابن عباس ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة، وقال عطاء: الشرك. والفاحشة: اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، وفيه إضمار معناه: وإذا فعلوا فاحشة فنُهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا. قيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾، قال ابن عباس: بلاَ إلٰهَ إلاّ الله. وقال الضحاك: التوحيد. وقال مجاهد والسدي: بالعدل. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، قال مجاهد والسدي: يعني وجّهوا وجوهكم حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة. وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلّوا فيه ولا يقولنّ أحدكم أصلي في مسجدي. وقيل: معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً. ﴿وَٱدْعُوهُ﴾، واعبدوه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، الطاعة والعبادة، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال ابن عباس: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً؛ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً. قال مجاهد: يبعثون على ما ماتوا عليه.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي حدثنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنبأنا محمد بن عبد الله الصفار حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه، المؤمن على إيمانه والكافر على كفره».

وقال أبو العالية: عادوا على عمله فيهم، قال سعيد بن جبير: كما كتب عليكم تكونون.

قال محمد بن كعب: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل بعمل أهل السعادة، كما أن إبليس كان يعمل بأعمال أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بعمل أهل الشقاوة، كما أن السحرة كانت تعمل بعمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة.

أخبرنا عبدالواحد المليحي أنبأنا عبد الرحمٰن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد حدثنا أبو غسان عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنّة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناسُ بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنّة، وإنما الأعمال بالخواتيم».

وقال الحسن ومجاهد: كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً، كذلك تعودون أحياء يوم القيامة كما ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. قال قتادة: بدأهم من التراب وإلى التراب يعودون، ونظيره قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

(٣٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، أي: هداهم الله، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ﴾، وجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، أي: الإرادة السابقة، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فيه دليل على أن

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ ﴾

الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء.

(٣١) قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، قال أهل التفسير: كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، يعني: الثياب. قال مجاهد: ما يُواري عورتك ولو عباءة. قال الكلبي: الزينة ما يُواري العورة عند كل مسجد لطواف أو صلاة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم من الطعام إلاّ قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظّمون بذلك حجّهم، فقال المسلمون: نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلُواْ﴾، يعني: اللحم والدسم [الذي امتنعوا منه أهل الجاهلية] ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ اللبن، ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾، بتحريم ما أحلّ الله لكم من اللحم والدسم، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، الذين يفعلون ذلك. قال ابن عباس: كُلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة. قال علي بن الحسين بن واقد: جمع الله الطبَّ كله في نصف آية فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾.

(٣٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، يعني: لبس الثياب في الطواف، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾، يعني: اللحم والدسم في أيام الحج. وعن ابن عباس وقتادة: والطيبات من الرزق ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب.

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، فيه حذف تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظّ للمشركين فيها.

وقيل: هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغمّ للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغم.

قرأ نافع ﴿خَالِصَةٗ﴾ رفع، أي: قلْ هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا، وهي في الآخرة خالصة يوم القيامة للمؤمنين. وقرأ الآخرون بالنصب على القطع، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

(٣٣) ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، يعني: الطواف عراة ﴿مَا ظَهَرَ﴾ طواف الرجال بالنهار، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ طواف النساء بالليل. وقيل: هو الزنا سرّاً وعلانيةً.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي وائل عن عبد الله قال: قلت: أنت سمعت هذا من عبد الله؟ قال: نعم، فرفعه، قال: قال ﷺ: «لا أحدَ أغْيَرُ من الله، فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدح من الله فلذلك مَدَحَ نفسَه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾، يعني: الذنب والمعصية. وقال الضحاك: الذنب الذي لا حدَّ فيه. قال الحسن: الإثم: الخمر، قال الشاعر:

شربتُ الإثم حتى ضلَّ عقلي
كذاك الإثمُ يَذْهب بالعقول

﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾، الظلم والكِبْر، ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، حجةً وبرهاناً، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، في تحريم الحرث والأنعام، في قول مقاتل. وقال غيره: هو عام في تحريم القول في الدين من غير يقين.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾، يعني: مدّة وأكل وشرب، وقال ابن عباس

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وعطاء والحسن: يعني وقتاً لنزول العذاب بهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، وانقطع أكلهم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، أي: ولا يتقدمون وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية.

﴿٣٥﴾ قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: إن يأتيكم. قيل: أراد جميع الرسل. وقال مقاتل: أراد بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ مشركي العرب وبالرسل محمداً ﷺ وحده، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾، قال ابن عباس: فرائضي وأحكامي، ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾، أي: اتقى الشرك وأصلح عمله. وقيل: أخلص ما بينه وبين ربه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، إذا خاف الناس، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: إذا حزنوا.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، تكبّروا عن الإيمان بها، وإنما ذكر الاستكبار لأن كل مكذّب وكافر متكبّر. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿٣٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، جعل له شريكاً، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، بالقرآن، ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾، نصيبهم: أي: حظّهم ممّا كتب لهم في اللوح المحفوظ. واختلفوا فيه، قال الحسن والسدي: ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون. قال عطية عن ابن عباس: كُتب لمن يفتري على الله أنّ وجهه مسود، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة.

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: يعني أعمالهم التي عملوها وكتب عليهم من خير وشرّ يجزي عليها.

وقال محمد بن كعب القرظي: ما كتب لهم من الأرزاق والآجال والأعمار والأعمال فإذا فنيت، ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، يقبضون أرواحهم يعني ملك الموت وأعوانه، ﴿قَالُوا﴾، يعني: يقول الرسل للكفار، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾، تعبدون، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، سؤال تبكيت وتقريع، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، بطلوا وذهبوا عنّا، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، اعترفوا عند معاينة الموت، ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾، يعني: يقول الله لهم يوم القيامة ادخلوا في أمم، أي: مع جماعات، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾، يعني: كفار الأمم الخالية، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، يريد أختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أختها ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل أخاها لأنه عني الأمة والجماعة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾، أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾، قال مقاتل: يعني أخراهم دخولاً النار وهم الأتباع، ﴿لِأُولَاهُمْ﴾، أي: لأولاهم دخولاً وهم القادة، لأن القادة يدخلون النار أوّلاً. قال ابن عباس: يعني آخر كل أمة لأولاها. وقال السدي: أهل [آخر] الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين، ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ﴾ الذين ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى، يعني: القادة ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، أي: ضعّف عليهم العذاب، ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، يعني: القادة والأتباع ضعف من العذاب، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب.

قرأ الجمهور: «ولكن لا

تعلمون»، وقرأ أبو بكر ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالياء، أي: لا يعلم الأتباع ما للقادة ولا القادة ما للأتباع.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾، يعني: القادة، ﴿لِأُخْرَاهُمْ﴾، للأتباع، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، لأنكم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم في الكفر سواء وفي العذاب سواء، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾، بالتاء، خفّف أبو عمرو، وبالياء، خفف حمزة والكسائي، والباقون بالتاء والتشديد، ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، لأدعيتهم ولا لأعمالهم. وقال ابن عباس: لأرواحهم لأنها خبيثة لا يُصعد بها بل يُهوى بها إلى سجين، إنما تفتح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، والخياط والمخيط واحد، وهو الإبرة والمراد منه: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً لأن الشيء إذا عُلّق بما يستحيل كونه يدلّ لك على تأكيد المنع، كما يقال: لا أفعل ذلك حتى يشيب الغراب أو يبيض القار، يريد: لا أفعله أبداً. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾، أي: فراش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، أي: لُحف. وهي جمع غاشية، يعني: ما غشاهم وغطّاهم، يريد إحاطة النار بهم من كل جانب؛ كما قال الله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتها وما لا يحرج فيه ولا تضيق عليه، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾، أخرجنا، ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، من غشّ وعداوة كانت بينهم في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سُرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خصّ الله به بعضهم. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، روى الحسن عن عليّ رضي الله عنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال عليّ رضي الله عنه أيضاً: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال لهم الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا الصلت بن محمد حدثنا يزيد بن زُريع، حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا».

وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غِلّ، فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يسحنوا بعدها أبداً. [﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾]، أي: إلى هذا، يعني طريق الجنّة. وقال سفيان الثوري: معناه هدانا لعمل هذا ثوابه، ﴿وَمَا كُنَّا﴾، قرأ ابن عامر: (ما كنا) بلا واو، ﴿لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، هذا قول أهل الجنّة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً، ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، قيل: هذا النداء إذا رأوا الجنّة من بعيد نُودُوا أنْ تلكم الجنّة، وقيل: هذا النداء يكون في الجنّة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الخطيب أنبأنا أبو طاهر محمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمد أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال حدثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي إسحاق عن الأغر عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا: ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحُوا فلا تسقمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبُوا فلا تهرمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تَبْأسُوا أبداً، فذلك قوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هذا حديث صحيح أخرجه

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

مسلم بن الحجاج عن إسحاق بن إبراهيم وعبد الرحمٰن بن حميد عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري بهذا الإسناد مرفوعاً.

ورُوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أحدٍ إلاّ وله منزلةٌ في الجنة ومنزلة في النار، فأمّا الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر ومنزله من الجنّة».

﴿٤٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، من الثواب، ﴿حَقًّا﴾، أي: صدقاً، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾، من العذاب، ﴿حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾، قرأ الكسائي بكسر العين حيث كان، والباقون بفتحها وهما لغتان، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾، أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين، ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم: (أن) خفيف، ﴿لَّعْنَةُ﴾ رفع، وقرأ الآخرون بالتشديد، ﴿لَّعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ بالنصب ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: الكافرين.

﴿٤٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾، أي: يصرفون الناس، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، طاعة الله، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: يطلبونها زيغاً وميلاً، أي: يبطلون سبيل الله جائرين عن القصد، قال ابن عباس: يصلّون لغير الله، يعظّمون ما لم يعظّمه الله. والعِوَج بكسر العين: في الدِّين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائماً، وبالفتح في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح ونحوهما. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، يعني: بين الجنة والنار. وقيل: بين أهل الجنة وبين أهل النار حجاب، وهو السور الذي ذكر الله في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد: ١٣]، قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، والأعراف هي ذلك السور الذي بين الجنّة والنار، وهي جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع، ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده. وقال السدي: سُمّي ذلك السور أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس.

واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف، فقال حذيفة وابن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنّة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يدخلون الجنّة بفضل رحمته، وهم آخر من يدخل الجنّة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلاّل ثنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جُبير يُحدّث:

عن ابن مسعود قال: يُحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثرَ من سيّئاته بواحدة دخل الجنّة، ومن كانت سيئاته أكثرَ من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيّئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنّة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلامٌ عليكم، وإذا صرفوا أبصارَهم إلى أصحاب النار قالوا: ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، أمّا أصحاب الحسنات فإنهم يُعطون نوراً يمشُون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطي كل عبدٍ يومئذ نوراً فإذا أتوا على الصراط سَلَبَ اللّهُ نورَ كلِّ منافق ومنافقة،

فلمّا رأى أهل الجنّة ما لقي المنافقون قالوا ربّنا أتمِمْ لنا نورَنا.

وأمّا أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم، ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا وبقي في قلوبهم الطمع إذ لم يُنزع النورُ من بين أيديهم، فهنالك يقول الله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، وكان الطمع للنور الذي بين أيديهم، ثم أُدخلوا الجنّة، وكانوا آخر أهل الجنّة دخولاً.

وقال شرحبيل بن سعد: أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم.

ورواه مقاتل في تفسيره مرفوعاً: «هم رجالٌ غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم فقُتِلُوا، فأُعتِقُوا من النار بقتلهم في سبيل الله وحُبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر من يدخل الجنّة».

ورُوي عن مجاهد: أنهم أقوام رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يُحبسون على الأعراف إلى أن يقضي الله بين الخلق، ثم يدخلون الجنّة. قال عبد العزيز بن الكناني: هم الذين ماتوا في الفترة ولم يُبدلوا دينهم. وقيل: هم أطفال المشركين. قال الحسن: هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطّلعُون على أهل الجنّة وأهل النار جميعاً، ويطالعون أحوال الفريقين.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: يعرفون أهل الجنّة ببياض وجوههم وأهل النّار بسواد وجوههم. ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: إذا رأوا أهل الجنة قالوا سلام عليكم، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾، يعني: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنّة، ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم. قال الحسن: الذي جعل الطمعَ في قلوبهم يُوصلهم إلى ما يطمعون.

(٤٧) ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، تعوّذُوا بالله، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: الكافرين في النار.

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾، كانوا عظماء في الدنيا من أهل النار، ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، في الدنيا من المال والولد، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، عن الإيمان. قال الكلبي: ينادون وهم على السور: يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان، وهم ينظرونهم في النار، ثم ينظرون إلى الجنّة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤون بهم، مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم، فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار:

(٤٩) ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾، يعني: هؤلاء الضعفاء، ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾، حلفتم، ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، أي: حلفتم أنهم لا يدخلون الجنّة، ثم يقال لأهل الأعراف، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وفي قول آخر: أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار: إن دخل أولئك الجنّة وأنتم لم تدخلوها، فيعيّرونهم بذلك ويُقسمون أنهم يدخلون النار، فتقول الملائكةُ الذين حَبَسُوا أصحابَ الأعراف على الصراط لأهل النار: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾، يعني أصحاب الأعراف ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ يا أهل النار أنه ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيدخلون الجنّة.

(٥٠) قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا﴾، أي: صُبّوا، ﴿عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، أي: أوسعوا علينا مما رزقكم الله من طعام الجنّة.

قال عطاء عن ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنّة طمع أهل النار في الفرج، وقالوا: يا رب إنّ لنا قَرابات من أهل الجنّة، فأذنْ لنا حتى نراهم ونكلّمهم، فينظرون إلى قرابتهم في الجنّة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنّة لسواد وجوههم، فينادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله، ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، يعني: الماء والطعام.

(٥١) ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، وهو ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البَحيرة وأخواتها والمُكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وقيل: دينهم أي عيدهم، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾، نتركهم في النار، ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾،

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

أي: كما تركوا العمل للقاء يومهم هـذا، ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾، يعني: القرآن ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾، بيّناه، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّا لِما يصلحهم، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا القرآن هادياً وذا رحمة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، أي: هل ينتظرون، ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، قال مجاهد: جزاءه. وقال السدي: عاقبته. ومعناه: هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من العذاب ومصيرهم إلى النار. ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: جزاؤه وما يؤول إليه أمرهم، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، اعترفوا به حين لا ينفعهم الاعتراف، ﴿فَهَل لَّنَا﴾، اليوم، ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾، إلى الدنيا، ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أهلكوها بالعذاب، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿٥٤﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أراد به في مِقْدار سِتّةِ أيام لأن اليوم من لَدن طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء، وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة وكل يوم كألف سنة. وقيل: كأيام الدنيا. قال سعيد بن جبير: كان الله عزّ وجلّ قادراً على خلق السمٰوات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهن في ستة أيام تعليماً لخلقه التثبّت والتأنّي في الأمور. وقد جاء في الحديث: «التأنّي من الرحمٰن والعجلة من الشيطان».

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، قال الكلبي ومقاتل: استقرّ. وقال أبو عبيدة: صعد. وأوّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء. فأمّا أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالىٰ بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عزّ وجلّ.

وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالاً، ثم أمر به فأخرج. وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنّة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف.

والعرش في اللغة: هو السرير. وقيل: هو ما علا فأظلّ، ومنه عرش الكروم. وقيل: العرشُ المُلْكُ. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يغشّي﴾ بالتشديد ها هنا وفي سورة الرعد، والباقون بالتخفيف، أي: يأتي الليل على النهار فيغطيه، وفيه حذف أي: ويغشي النهار الليل، ولم يذكر لدلالة الكلام عليه وذكر في آية أخرى فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، أي: سريعاً، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه، فكأنه يطلبه. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾، قرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر، والباقون بالنصب، وكذلك في سورة النحل عطفاً على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: خلق هذه الأشياء مسخراتٍ، أي: مُذلّلاتٍ ﴿بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، له الخلق لأنه خلقهم والأمر يأمر في خلقه بما يشاء، قال سفيان بن عيينة: فرّق الله بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: تعالىٰ الله وتعظّم. وقيل: ارتفع. والمبارك المرتفع. وقيل: تبارك

تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة، أي: البركةُ تُكتسبُ وتُنال بذكره. وعن ابن عباس قال: جاء بكل بركة. قال الحسن: تجيء البركة من قِبَله.

قيل: تبارك تقدّس، والقدس الطهارة. وقيل: تبارك الله أي باسمه يُتبرّك في كل شيء. وقال المحقّقون: معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة الثبوت. ويُقال: تبارك الله، ولا يقال: متبارك ولا مبارك، لأنه لم يرد به التوقيف. ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾، تذلّلاً واستكانة، ﴿وَخُفْيَةً﴾، أي: سرّاً. قال الحسن: بينَ دعوةِ السرّ ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إنْ كان إلاّ همساً بينهم وبين ربّهم، ذلك أن الله سبحانه يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وإنّ الله ذكرَ عبداً صالحاً ورضيَ فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، قيل: المعتدين في الدعاء. وقال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء عليهم السلام.

أخبرنا محمد بن عبد العزيز القاشاني أنبأنا القاسم بن جعفر الهاشمي أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي ثنا أبو داود السجستاني حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد يعني ابن سلمة أنبأنا سعيد الجريري عن أبي نعامة:

أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللّهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنّة إذا دخلتها، فقال: يا بني سلِ اللَّهَ الجنة وتعوّذْ به من النار، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطّهور والدّعاء».

وقيل: أراد به الاعتداء بالجهر والصياح، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح.

روينا عن أبي موسى قال: لمّا غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرفَ الناسُ على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «أرْبِعوا على أنفسِكم إنّكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً».

وقال عطية: هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحلّ، فيقولون: اللّهمّ اخزهم اللّهمّ العنهم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾، أي: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيّاها ببعث الرسل وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي. وقال عطية: لا تعصوا في الأرض فيُمسك الله المطر ويُهلك الحرث بمعاصيكم. فعلى هذا معنى قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾، أي: بعد إصلاح الله إيّاها بالمطر والخصب. ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: خوفاً منه ومن عذابه وطمعاً فيما عنده من مغفرته وثوابه. وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل قريبة، قال سعيد بن جبير: الرحمة هٰهنا الثواب، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ؛ كقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، ولم يقل منها لأنه أراد الميراث والمال. وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوي فيهما المذكر والمؤنّث والواحد والجمع. وقال أبو عمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة، تقول العرب: هذه المرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة، وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة.

﴿٥٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا﴾، قرأ عاصم ﴿بُشْرًا﴾ بالباء وضمها وسكون الشين ها هنا وفي الفرقان [٤٨] وسورة النمل [٦٢]، يعني: أنها تبشر بالمطر بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقرأ حمزة والكسائي ﴿نشراً﴾ بالنون وفتحها، وهي الرياح الطيبة اللينة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ [المرسلات: ٣]، وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين، وقرأ الآخرون بضم النون والشين، جمع نشور، مثل صبور وصبر ورسول ورسل، أي: متفرّقة وهي الرياح التي تهبّ من كل ناحية. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قدام المطر.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

١٥٨

الخطيب أنبأنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنبأنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن الزهري عن ثابت بن قيس عن أبي هريرة قال:

أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة وعمر حاج فاشتدّتْ، فقال عمر رضي الله عنه لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئاً، فبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركتُ عمر وكنتُ في مؤخر الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألتَ عن الريح وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب فلا تسبوها وسلوا الله من خيرها وتعوّذوا به من شرّها». ورواه عبدالرزاق عن معمر عن الزهري بإسناده.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾، حملت الرياح، ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾، بالمطر، ﴿سُقۡنَٰهُ﴾، ردّ الكناية إلى السحاب، ﴿لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾، أي: إلى بلد ميت محتاج إلى الماء. وقيل: معناه لإحياء بلد ميت لا نباتَ فيه، ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾، أي: بالسحاب. وقيل: بذلك البلد الميت ﴿ٱلۡمَآءَ﴾، يعني: المطر، ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، استدل بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطراً كمنيّ الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان، فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم يُلقي عليهم النوم فينامون في قبورهم، ثم يُحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، فعند ذلك يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].

(٥٨) قوله عز وجلّ: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾، هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب يصيبه المطر فيخرج نباته بإذن ربّه، ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾، يريد الأرض السبخة التي، ﴿لَا يَخۡرُجُ﴾ نباتُها، ﴿إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾، قرأ أبو جعفر بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: عسراً قليلاً بعناء ومشقّة. فالأول مثل المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به، والثاني مثل الكافر الذي يسمع القرآن ولا يؤثر فيه، كالبلد الخبيث الذي لا يتبيّن فيه أثر المطر، ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبيّنها، ﴿لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد بن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه: عن النبيّ ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعلم كمثلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلتِ الماءَ فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكانتْ منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ فنفع اللَّهُ بها الناسَ فشربُوا وسَقَوْا وزرعُوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنّما هي قيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مثلُ من فَقُه في دينِ الله ونفعه وما بعثني اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وعلّمَ، ومثلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً ولم يقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به».

(٥٩) قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس، وكان نجاراً بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقيل: بُعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة. وقال مقاتل: ابن مائة سنة. وقال ابن

الجزء الثامن — سورة الأعراف

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

١٥٩

عباس: سُمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه. واختلفوا في سبب نوحه فقال بعضهم: لدعوته على قومه بالهلاك. وقيل: لمراجعته ربَّه في شأن ابنه كنعان. وقيل: لأنه مرّ بكلب مجذوم، فقال: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالىٰ إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ ﴿فَقَالَ﴾ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، قرأ أبو جعفر والكسائي ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ﴾، بكسر الراء حيث كان على نعت الإله، وافق حمزة في سورة فاطر: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وقرأ الآخرون برفع الراء على التقديم، تقديره: ما لكم غيره من إله، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، إن لم تؤمنوا، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ﴾، خطأ وزوال عن الحق، ﴿مُّبِينٍ﴾، بيّن.

﴿٦١﴾ ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، ولم يقل ليست، لأن معنى الضلالة الضلال، أو على تقديم الفعل، ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو: ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾ بالتخفيف حيث كان من الإبلاغ، لقوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣]، ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبليغ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، رسالات ربي، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾، يقال: نصحته ونصحت له، والنصح أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أن عقابه لا يُردّ عن القوم المجرمين.

﴿٦٣﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾، ألف استفهام دخلت على واو العطف، ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: موعظة. وقيل: بيان. وقيل: رسالة. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾، عذاب الله إن لم تؤمنوا، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾، أي: لكي تتقوا الله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، لكي ترحموا.

﴿٦٤﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، يعني: كذبوا نوحاً، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾، من الطوفان، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾، في السفينة، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، أي: كفاراً. قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله. قال الزجاج: عموا عن الحق والإيمان، يقال: رجلٌ عمٍ عن الحق وأعمى في البصر. وقيل: العمي والأعمى كالخضر والأخضر. قال مقاتل: عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق.

﴿٦٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، أي: وأرسلنا إلى عاد، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهي عاد الأولى ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب لا في الدين، ﴿هُودًا﴾ وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص، وقال ابن إسحاق: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أفلا تخافون نقمته.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ﴾، يا هود، ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾، في حمق وجهالة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: تدعو إلى دين لا تعرفه، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، أنك رسول الله إلينا.

﴿٦٧﴾ ﴿قَالَ﴾ هود: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، ناصح أدعوكم إلى التوبة أمين على الرسالة. قال الكلبي: كنتُ فيكم قبل اليوم أميناً.

﴿٦٩﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾

﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، يعني: نفسه، ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾، يعني: في الأرض، ﴿مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، أي: من بعد إهلاكهم، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، أي: طولاً وقوّة. قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير منهم ستون ذراعاً. وقال أبو حمزة الثمالي: سبعون ذراعاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانون ذراعاً. وقال مقاتل: كان طول كل رجل اثني عشر ذراعاً. وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل يفرخ فيها الضباع وكذلك مناخرهم. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ نِعَم الله، واحدها إلىً، وآلاء مثل معيً وأمعاء وقفا وأقفاء، ونظيرها: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]، واحدها أنىً وآناء، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(٧٠) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، من الأصنام، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ هود: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾، وجب ونزل، ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾، أي: عذاب، والسين مبدلة من الزاي، ﴿وَغَضَبٌ﴾، أي: سخط، ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾، وضعتموها، ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾، قال أهل التفسير: كانت لهم أصنام يعبدونها سمّوها أسماء مختلفة، ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، حجّة وبرهان، ﴿فَانتَظِرُوا﴾، نزول العذاب، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾، يعني: هوداً عند نزول العذاب، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم، ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

قصة عاد

وكانت قصة عاد على ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا قوماً ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالأحقاف، وهي رمال بين عمان وحضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوّتهم التي آتاهم الله عزّ وجلّ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، صنم يقال له صدى وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فأمرهم أن يُوحّدُوا الله ويكفّوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك، فكذّبوه وقالوا من أشد منّا قوة فبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء فطلبوا الفرج كانت طلبتهم إلى الله عزّ وجلّ عند بيته الحرام بمكة مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتّى، مختلفة أديانهم وكلهم معظّم لمكة، وأهل مكة يومئذ العماليق سموا عماليق، لأن أباهم عمليق بن لاذا بن سام بن نوح، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبري رجل من عاد، فلما قحط المطر عن عاد وجهدوا قالوا: جهّزوا وفداً منكم إلى مكة فليستسقوا لكم، فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صندين بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه، وجهلمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر، ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغر بن صندين بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلاً، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر، وكان سيرهم شهراً ومقامهم شهراً فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون بهم من البلاء الذي أصابهم شقّ ذلك عليه، وقال: هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي، والله ما أدري كيف أصنع بهم، استحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بُعِثُوا إليه، فيظنون أنه ضيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهداً وعطشاً، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قلْ شعراً نغنّيهم به لا يدرون من قاله لعلّ ذلك أن يُحرّكهم، فقال معاوية بن بكر:

ألاَ يا قيلَ ويحكَ قمْ فهينم
لعلّ اللّهَ يسقينا غماماً
فيسقي أرضَ عادٍ إنّ عاداً
قد أمسُوا لا يَبينُون الكلاما
منَ العطشِ الشديدِ فليسَ نرجُو
به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلاما
وقدْ كانتْ نساؤُهم بخيرٍ
فقدْ أمستْ نساؤُهم أيامَى
وإنّ الوحشَ تأتيهم جِهاراً
فلا تخشَى لعادي سهاما
وأنتم هٰهنا فيما اشتهيتم
نهارُكمو وليلكمو تماما
فَقُبِّحَ وفدُكم منْ وفدِ قوم
ولا لقُوا التحيةَ والسلاَما

فلمّا غنّتهم الجرادتان هذا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنّما بعثكم قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن سعد بن عفير وكان قد آمن بهود سراً: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربّكم سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك وقال شعراً:

عصتْ عادٌ رسولَهمْ فأمسُوا
عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يُقال له صمودٌ
يقابله صداءٌ والهباءُ
فبصّرنا الرسولُ سبيلَ رشد
فأبصرنا الهُدى وجَلَى العماءُ
وإن إلٰه هود هو إلٰهي
على اللّهِ التوكلُ والرجاءُ

فقالوا لمعاوية بن بكر: احبس عنا مرثد بن سعد فلا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون لعادٍ، فلما ولّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجُوا له، فلمّا انتهى إليهم قام يدعو الله، وبها وفد عاد يدعون، فقال: اللّهمّ أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوكَ به وفدُ عاد، وكان قِيلُ بنُ عنز رأسَ وفد عاد، فقال وفد عاد: اللّهمّ أعط قيلاً ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله، وكان قد تخلف عن وفد عاد ـ حين دعوا ـ لُقمانُ بنُ عاد، وكان سيّدَ عاد، حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال: اللّهمّ جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي، وسأل اللّهَ طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر، وقال قِيلُ بنُ عنز حين دعا: يا إلٰهنا إن كان هودُ صادقاً فاسقنا فإنا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مُنادٍ من السحاب: يا قيلُ اختر لنفسك وقومك من هذه السحائب ما شئت، فقال قيلُ: اخترتُ السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً فناداه منادٍ اخترت رماداً رمدداً لا يبقي من آل عاد أحداً، وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المغيث، فلمّا رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥]، أي: كل شيء مرّتْ به، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد، فلما تبيّنت ما فيها صاحت [بأعلى صوتها] ثم صُعقت، فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيتِ؟ قالتْ: رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فلم تدع من آل عادٍ أحداً إلا هلك، واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه هو ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذّ الأنفس، وإنها لَتَمرُّ من عاد بالظعن فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة حتى مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذا أقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هوداً وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق وربِّ مكة.

وذكروا أن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم: قد أعطيتكم مُنَاكم فاختاروا لأنفسكم إلاّ أنه لا سبيل إلى الخلود، ولا بدّ من الموت، فقال مرثد: اللّهمّ أعطني صدقاً وبِراً فأُعطي ذلك، وقال لقمان: أعطني يا ربِّ عمراً فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوّته، حتى إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، وكان آخرها لبداً فلما مات لبد مات لقمان معه. وأمّا

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

١٦٠

قيل فإنه قال: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي، فقيل له: إنه الهلاك، فقال: لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعدهم، فأصابه الذي أصاب عاداً من البلاء والعذاب فهلك.

قال السدي: بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلمّا رأوها تبادروا البيوت فدخلوها وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فلمّا أهلكهم الله أرسل عليهم طيراً سوداء فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه.

وروي أن الله عزّ وجلّ أمر الريح فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين تحت الرمل، ثم أمر الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها. وفي الحديث:

«إنها خرجت عليهم على قدر خرق الخاتم». وروي عن علي رضي الله عنه: أن قبر هود عليه السلام بحضرموت في كثيب أحمر. وقال عبد الرحمٰن بن سابط: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبياً، وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في تلك البقعة.

ويُروى: أنّ النبيّ من الأنبياء إذا هلك قومُه جاءَ هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا.

﴿٧٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾. وهو ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح، وأراد هٰهنا القبيلة. قال أبو عمرو بن العلاء: سُميت ثمود لقلّة مائها، والثمد: الماء القليل، فكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب لا في الدين، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماشيح بن عبيد بن خادر بن ثمود، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، حجة من ربكم على صدقي، ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، أضافها إليه على التفضيل والتخصيص، كما يقال بيت الله، ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾، نصب على الحال، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾، العشب، ﴿فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، لا تصيبوها بعقر، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾، أسكنكم وأنزلكم، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، كانوا ينقبون في الجبال البيوت ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبل، وقيل: كانوا ينحتون في الجبل البيوت لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، والعيث: أشدّ الفساد.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾، قرأ ابن عامر: وقالَ الملأ بالواو، ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾، يعني: الأشراف والقادة الذين تعظموا عن الإيمان بصالح، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾، يعني الأتباع، ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾، يعني: قال الكفار للمؤمنين، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، إليكم، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، جاحدون.

﴿٧٧﴾ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾، قال الأزهري: العقر هو قطع عرقوب البعير، ثم جُعل النحر عقراً لأنّ

ناحر البعير يعقره ثم ينحره. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، والعتوّ الغلو بالباطل، يقال: عتا يعتو عتواً إذا استكبروا. والمعنى: عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذّبوا نبيّهم. ﴿وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، وهي زلزلة الأرض وحركتها وأهلكوا بالصيحة والرجفة، ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ﴾، قيل: أراد الديار، وقيل: أراد في أرضهم وبلدتهم، فلذلك وحّد الدار، ﴿جَٰثِمِينَ﴾، خامدين ميتين. قيل: سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم.

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾، أعرض صالح، ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فإن قيل: كيف خاطبهم بقوله لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم بعدما أُهلكوا بالرجفة؟.

قيل: كما خاطب النبيّ ﷺ الكفار من قتلى بدر حين ألقاهم في القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: أيسرّكم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبيّ ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنْ لا يجيبون».

وقيل: خاطبهم ليكون عبرة لمن خلفهم، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: فتولّى عنهم، وقال يا قوم لقد أبلغتُكم رسالة ربي فأخذتهم الرجفة.

وكانت قصة ثمود على ما ذكره محمد بن إسحاق ووهب وغيرهما: أن عاداً لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وعمروا وكثروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم فعتوا وأفسدُوا في الأرض وعبدُوا غير الله، فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً وموضعاً، فبعثه الله إليهم غلاماً شاباً فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلاّ قليل مستضعفون، فلمّا ألحّ عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يُريهم آية تكون مصداقاً لما يقول، فقال لهم: أيّ آية تريدون؟ قالوا: أتخرج معنا غداً إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلٰهك وندعوا آلهتنا، فإن استُجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتّبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم، وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يُستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن حوّاس وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ـ ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء ـ والمخترجة ما شاكل البخت من الإبل ـ فإن فعلتَ صدّقناك وآمنّا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي، قالوا: نعم، فصلّى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخّضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، ثم تحركت الهضبة فانصدت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وَصَفُوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله عظماً، وهم ينظرون ثم نتجت سقياً مثلها في العظم، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يُؤمنوا به ويصدّقوه فنهاهم ذُؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمغر وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد الماء غباً فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ماء فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفشخ حتى تفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدّخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلّها ثم تصدر من غير الفج الذي منه وردت لا تقدر أن تصدر من حيث ترد يضيق عنها، حتى إذا كان الغد كان يومهم فيشربون ما شاءوا من الماء ويدّخرون ما شاءوا ليوم

الناقة، فهم من ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيّف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها المواشي أغنامهم وبقرهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه، وتشتو ببطن الوادي إذ كان الشتاء فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب فأضرّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار، فكبر ذلك عليهم وعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة، فأجمعوا على عقرها، وكانت امرأتان من ثمود إحداهما يقال لها: عنيزة بنت غنم بن مجلز تكنّى بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزاً مسنة، وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المحيا وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة، وكانتا من أشدّ الناس عداوة لصالح وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرّت بهما من مواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً، فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق العينين قصيراً، يزعمون أنه كان لزانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراش سالف، فقالت: أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان قُدَار عزيزاً منيعاً في قومه.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا وُهيب حدثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة. أنه سمع النبيّ ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: «﴿إِذِ انۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢]، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في قومه مثل أبي زمعة».

رجعنا إلى القصة، قالوا: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة ثمود فاتّبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في طريق آخر فمرّت على مصدع، فرماها بسهم فانتظم به في عضلة ساقها، وخرجت بنت غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقدار ثم ذمرته، فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرّت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها، ثم طعن في لبتها فنحرها، وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها وطبخوه، فلما رأى سقبها ذلك انطلق [هارباً] حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له صنو، وقيل: اسمه قارة وأتى صالح فقيل له: أدرك الناقة فقد عقرت، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبي الله إنّما عقرها فلان ولا ذنب لنا، فقال صالح: انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع الله عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله إلى الجبل فتطاول في السماء حتى ما يناله الطير، وجاء صالح فلما رآه الفصيلُ بكى حتى سالت دموعه، ثم رغا ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخلها، فقال لهم صالح: لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. وقال ابن إسحاق: اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذؤاب بن مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جرّه برجله فأنزله، وألقى لحمه مع لحم أمه، فقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته، فقالوا وهم يهزؤون به: ومتى ذلك؟ وما آية ذلك يا صالح؟ وكانوا يسمّون الأيام فهم الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنساً والجمعة العَروبة والسبت شبار، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذلك: تُصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة، ثم تُصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة، ثم تُصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول، فلما قال لهم صالح قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمّ فلنقتلْ صالحاً فإن كان

صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً قد كنّا ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح [لينظروا أصحابهم] فوجدوهم قد رُضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم همّوا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلاّ غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنّما طُليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، فعند ذلك أيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم، فطلبوه ليقتلوه فخرج صالح هارباً منهم حتى جاء إلى بطن من ثمود يقال لهم بني غنم، فنزل على سيّدهم رجل يقال له: نفيل ويُكنّى بأبي هدب وهو مشرك فغيّبه عنهم ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذّبونهم ليدلوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبيّ الله إنهم ليعذّبوننا لنهديهم عليك أفندلهم؟ قال: نعم، فدلّهم عليه وأتوا أبا هدب فكلّموه في ذلك، فقال: نعم عندي صالح وليس لكم عليه سبيل، فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من العذاب، فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم،

فلما أمسوا صاحوا جميعاً ألاَ قدْ مضى يومان من الأجل، وعرفوا أنه العذاب فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا وبكوا، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنّما طُليت بالقار فصاحوا بأجمعهم ألاَ قد حضركم العذاب، فلما أن كانت ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، فلما أصبح القوم تكفّنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم إلى الأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرّة وإلى الأرض مرّة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتدّ الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطّعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ هلك؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، إلاّ جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة الكفر والعداوة لصالح فأطلق الله رجليها بعدما عاينت العذاب فخرجت كأسرع ما يرى شيء قطّ حتى أتت قزح وهو واد القرى، فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصاب ثمود، ثم استسقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت. وذكر السدي في عقر الناقة: فأوحى الله إلى صالح عليه السلام أنّ قومك سيعقرون ناقتك،

فقال لهم ذلك فقالوا: ما كنّا لنفعل، فقال صالح: إنه يولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلا قتلناه، قال: فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك وكان ابنه أزرق [العينين] أحمر فنبت نباتاً سريعاً فكان إذا مرّ بالتسعة ورأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم، فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، قالوا: نخرج ليرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم رجعنا إلى الغار فبتنا فيه ثم انصرفنا إلى رحلنا فقلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدّقوننا ويظنون أنّا قد خرجنا إلى سفر، وكان صالح لا ينام معهم في القرية، وكان يبيت في مسجد يقال له: مسجد صالح، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكّرهم وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه، فانطلقوا فدخلوا الغار، فسقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجال ممن قد اطّلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ فرجعوا يصيحون في القرية: أيْ عباد الله ما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم، فاجتمع أهل القرية [عليهم فرأوهم قتلاً فأجمعوا] على عقر الناقة. وقال ابن إسحاق: كان تقاسم التسعة على

تبييت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكرنا، قال السدي وغيره: فلما ولد ابن العاشر يعني قذاد، شب في اليوم شباب غيره في الجمعة وشب في شهر شباب غيره في السنة فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب، فأرادوا ماءً يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة، فاشتدّ ذلك عليهم وقالوا: ما نصنع نحن باللبن لو كنّا نأخذ هذا الماء الذي تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيراً لنا، فقال ابن العاشر: هل لكم في أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم، فعقرها.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن مسكين ثنا يحيى بن حسان بن حيان أبو زكريا ثنا سليمان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر. أن رسول الله ﷺ لمّا نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء.

وقال نافع عن ابن عمر: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من آبارها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة.

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لمّا مرّ رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخل أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تكونُوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثم قال: «أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الناقة فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها، وأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها، فأهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلاّ رجلاً واحداً يقال له أبو رغال، وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه [فدفن] ودفن معه غصن من ذهب»، وأراهم قبر أبي رغال، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن.

وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف فخرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلوها مات صالح فسمّي حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة، يقال لها حاصوراء، قال قوم من أهل العلم: توفي صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، [وأقام في قومه عشرين سنة].

(٨٠) قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾، أي: وأرسلنا لوطاً، وقيل: معناه واذكر لوطاً. وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخي إبراهيم، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وهم أهل سدوم وذلك أن لوطاً شخص من أرض بابل سافر مع عمّه إبراهيم عليه السلام مؤمناً به مهاجراً معه إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطاً الأردن، فأرسله الله عزّ وجلّ إلى أهل سدوم فقال لهم، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، يعني: إتيان الذكران، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال عمرو بن دينار: ما يرى ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان من قوم لوط.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ﴾، قرأ أهل المدينة وحفص (إِنكم) بكسر الألف على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستئناف، ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، في أدبارهم، ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فسرّ تلك الفاحشة: يعني أدبار الرجال أشهى إليكم من فروج النساء، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، مجاوزون الحلال إلى الحرام. قال محمد بن إسحاق: كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس لينالوا من ثمارهم فآذوهم، فعرض لهم إبليس في صورة شيخ، فقال: إن فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم، فأبوا فلما ألحّ الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلماناً صباحاً فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم فأخبثوا بهم، فاستحكم ذلك فيهم. قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلا الغرباء.

وقال الكلبي: إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس، لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثّل لهم إبليس في صورة شاب ثم دعا إلى دبره فنكح في دبره ثم نشأ فيهم، فأمر الله تعالى السماء أن

الجزء الثامن — سورة الأعراف

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

١٦١

تحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾، قال بعضهم لبعض، ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، يعني: لوطاً وأهل دينه، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، يتنزّهون عن أدبار الرجال.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، يعني: لوطاً، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ المؤمنين، وقيل: أهله ابنتاه، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، يعني: الباقين في العذاب. وقيل: معناه كانت من الباقين المعمّرين قد أتى عليها دهر طويل فهلكتْ مع من هلك من قوم لوط، وإنما قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، لأنه أراد ممن بقي من الرجال فلما ضمّ ذكرها إلى ذكر الرجال قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾، يعني: حجارة من سجيل، قال وهب: الكبريت والنار، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، قال أبو عبيدة: يقال في العذاب أمطر، وفي الرحمة: مطر.

﴿٨٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين وهو مدين بن إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام، وهم أصحاب الأيكة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ في النسب لا في الدين. قال عطاء: وهو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم.

وقال ابن إسحاق: هو شعيب بن ميكائيل بن يسخر بن مدين بن إبراهيم وأم ميكائيل بنت لوط. وقيل: هو شعيب بن يشرون بن مدين بن يسخر، وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾، ولم يكن لهم آية؟ قيل: قد كانت لهم آية إلاّ أنها لم تذكر، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن، وقيل: أراد بالبيّنة مجيء شعيب، ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾، فأتموا الكيل، ﴿وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾، أي: ببعث الرسل والأمر بالعدل، وكل نبيّ بعث إلى قوم فهو صلاحهم، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، مصدّقين بما أقول.

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، أي: على كل طريق، ﴿تُوعِدُونَ﴾، تهدّدون، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، دين الله، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾، زيغاً، وقيل: تطلبون الاعوجاج في الدين والعدول عن القصد، وذلك أنهم كانوا يجلسون على [قوارع] الطريق فيقولون لمن يريد الإيمان بشعيب: إن شعيب كذاب فلا يفتنك عن دينك ويتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوّفونهم. وقال السدي: كانوا عشارين. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾، فكثر عددهم، ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: آخر أمر قوم لوط.

﴿٨٧﴾ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مكذّبين ومصدّقين، ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾، بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

١٦٢

(٨٨) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾، يعني: الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، لترجعنّ إلى ديننا الذي نحن عليه، ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾، يعني: ولو كنا، أي: وإن كنا كارهين لذلك فتجبروننا عليه؟

(٨٩) ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾، بعد إذ أنقذنا الله منها، ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، يقول إلاّ أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أنا نعود فيها، فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا. فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾، ولم يكن شعيب قط على ملّتهم حتى يصح قولهم ترجع إلى ملتنا؟ قيل: معناه أو لتدخلن في ملتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها، وقيل: معناه إن صرنا في ملتكم. ومعنى عاد: صار، وقيل: أراد به قوم شعيب لأنهم كانوا كفاراً فآمنوا فأجاب شعيب عنهم، قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أحاط علمه بكل شيء، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، فيما توعدوننا به، ثم دعا شعيب بعد ما أيس من فلاحهم، فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾، أي: اقضِ بيننا، ﴿بِالْحَقِّ﴾، والفتاح: القاضي، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، أي: الحاكمين.

(٩٠) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾، وتركتم دينكم، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، مغبونون، قال عطاء: جاهلون. قال الضحاك: عجزة.

(٩١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، قال الكلبي: الزلزلة، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظلّ ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ليتبرّدوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشدّ حراً من الظاهر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها برداً ونسيماً، فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحت السحابة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألْهَبها اللّهُ عليهم ناراً ورجفت بهمُ الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً.

ورُوي أن الله تعالىٰ حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلّط عليهم الحرّ. قال يزيد الجريري: سلّط الله عليهم الحر سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون فنادى أصحابه إليه ليستظلوا، فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم، فذلك قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأهل مدين، أما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأمّا أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعاً. قال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوّز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين، وكان ملكهم في زمن شعيب عليه السلام يوم الظلة كَلمن، فلما هلك قامت ابنته تبكيه:

كَلَمُنْ قد هدَّ ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحتفُ ناراً تحت ظله
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحلّة

(٩٢) وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، أي: لم يقيموا ولم ينزلوا فيها، من قولهم:

غنيت بالمكان إذا قمت به، والمغاني المنازل واحدها مغنى، وقيل: كأن لم يتنعموا فيها. ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، لا المؤمنين كما زعموا.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أعرض عنهم شعيب شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾، أحزن، ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، والأسى: الحزن، والأسى: الصبر.

(٩٤) قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾، فيه إضمار، يعني: فكذّبوه، ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ﴾، عاقبنا ﴿أَهْلَهَا﴾، حين لم يؤمنوا، ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، قال ابن مسعود: البأساء الفقر والضراء المرض، وهذا معنى قول من قال البأساء في المال والضراء في النفس. وقيل: البأساء البؤس وضيق العيش، والضراء الضر وسوء الحال. وقيل: البأساء في الحرب والضراء في الجدب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، لكي يتضرّعوا فيتوبوا.

(٩٥) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ يعني مكان البأساء والضراء الحسنة، يعني: النعمة والسعة والخصب والصحة، ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾، أي: كثروا وازدادوا، أو كثرت أموالهم، يقال: عفا الشعر إذا كثر. قال مجاهد: كثرت أموالهم وأولادهم، ﴿وَّقَالُواْ﴾، من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء، ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، أي: هكذا كانت عادة الدهر قديماً لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسّنا من الضراء عقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء، قال الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، فجأة آمن ما كانوا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، بنزول العذاب.

(٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني: المطر من السماء والنبات من الأرض. وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أي: تابعنا عليهم المطر والنبات ورفعنا عنهم القحط والجدب، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، من الأعمال الخبيثة.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا، يعني: مكة وما حولها، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾، عذابنا، ﴿بَيَٰتًا﴾، ليلاً، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

(٩٨) ﴿أَوَ أَمِنَ﴾، قرأ أهل الحجاز والشام: ﴿أو أمن﴾ بسكون الواو، والباقون بفتحها، ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾، أي: نهاراً، والضحى: صدر النهار، وقت انبساط الشمس، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، ساهون لاهون.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ومكر الله استدراجه إيّاهم بما أنعم عليهم في دنياهم.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٦٣

وقال عطية: يعني أخذه وعذابه.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، قرأ قتادة ويعقوب: ﴿نهد﴾ بالنون على التعظيم، والباقون بالياء على التفريد، يعني: أوَ لم يتبين، ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ﴾، هلاك ﴿أَهْلِهَآ﴾، الذين كانوا فيها، ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾، أخذناهم وعاقبناهم، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما عاقبنا من قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ﴾، نختم، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، الإيمان ولا يقبلون الموعظة، قال الزجاج: قوله ﴿وَنَطْبَعُ﴾ منقطع عمّا قبله لأن قوله: ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ ماض و﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستقبل.

(١٠١) ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها، يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، أخبارها لما فيها من

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

الاعتبار، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، بالآيات والمعجزات والعجائب، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، أي: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب، بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٢]. قال ابن عباس والسدي: يعني فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فأقرّوا باللّسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل هلاكهم؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. قال يمانُ بن رباب: هذا على معنى أن كل نبيّ أنذر قومه بالعذاب فكذّبوه، يقول: ما كانوا ليؤمنوا بما كذّب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل كذبوا بما كذب أوائلهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية التي أهلكها كذلك يطبع الله على قلوب الكفّار الذين كتب عليهم أنْ لا يؤمنوا من قومك.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، أي: وفاء بالعهد الذي عاهدهم يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم، ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾، ما وجدنا أكثّرهم إلا فاسقين ناقضين للعهد.

﴿١٠٣﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد نوح وهود وصالح وشعيب، ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، بأدلّتنا، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، فجحدوا بها. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فظلمهم وضع الكفر موضع الإيمان، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وكيف فعلنا بهم.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾، لما دخل على فرعون، ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك، فقال فرعون: كذبتَ،

﴿١٠٥﴾ فقال موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، أي: أنا خليق بأن لا أقول على الله إلاّ الحق، فتكون ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى الباء كما تقول: رميت بالقوس ورميت على القوس، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة، ويدلّ عليه قراءة أبيّ والأعمش «حقيقٌ بأنْ لا أقول»، قال أبو عبيدة: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلاّ الحق، وقرأ نافع ﴿عَلَيَّ﴾ بتشديد الياء، أي حق واجب عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق. ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني العصا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلق عنهم وخلّهم يرجعون إلى الأرض المقدّسة، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقّة من ضرب اللّبن ونقل التراب ونحوهما، فقال فرعون مجيباً لموسى.

﴿١٠٦﴾ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، والثعبان: الذكر العظيم من الحيات، فإن قيل: أليس قد قال في موضع آخر ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، والجان الحية الصغيرة؟ قيل: إنها كانت كالجان في الحركة والخفة، وهي في جثتها حية عظيمة. قال ابن عباس والسدي: إنه لما ألقى العصا صارت حيّة عظيمة صفراء شعراء فاغرةً فاها بين لحييها ثمانون ذراعاً ارتفعت من الأرض بقدر ميل، وقامت له على ذنبها واضعةً لحييها

الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر، وتوجهت نحو فرعون لتأخذه. ورُوي أنها أخذت قبة فرعون بين نابيها فوثب فرعون من سريره هارباً وأحدث، وقيل: أخذه البطن في ذلك اليوم أربعمائة مرة، وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً وقتل بعضهم بعضاً ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصاً كما كانت، ثم قال فرعون: هل معك آية أخرى؟ قال: نعم.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾، فأدخل يده في جيبه ثم نزعها منه، وقيل: أخرجها من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى آدم اللون، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت.

﴿١٠٩﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، يعنون أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيّل إليهم العصا حية والآدم أبيض، ويُري أن الشيء بخلاف ما هو عليه.

﴿١١٠﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾، يا معشر القبط، ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، مصر، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، أي: تشيرون إليه، هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره، وقيل: من قول الملأ لفرعون وخاصّته.

﴿١١١﴾ ﴿قَالُوٓا۟﴾، يعني الملأ، ﴿أَرْجِهْ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وابن عامر بالهمزة وضم الهاء، وقرأ الآخرون بلا همزة، ثم نافع برواية ورش والكسائي يشبعان الهاء كسراً، ويسكنها عاصم وحمزة، ويختلسها أبو جعفر وقالون، قال عطاء: معناه أخّره. وقيل: احبسه. ﴿وَأَخَاهُ﴾، معناه أشاروا عليه بتأخير أمره وترك التعرّض إليه بالقتل، ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، يعني: الشرط في المدائن، وهي مدائن الصعيد من نواحي مصر، قالوا: أرسل إلى هذه المدائن رجالاً يحشرون إليك من فيها من السحرة، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد، فإن غلبهم موسى صدّقناه وإن غلبوا علمنا أنه ساحر.

﴿١١٢﴾ فذلك قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿سحار﴾ ههنا وفي سورة يونس ولم يختلفوا في الشعراء أنه سحار، قيل: الساحر الذي يعلم السحر ولا يُعلِّمُ، والسحار الذي يعلّم ويعمل. وقيل: الساحر من يكون سحره في وقت دون وقت، والسحار من يديم السحر. قال ابن عباس وابن إسحاق والسدي: قال فرعون لمّا رأى من سلطان الله في العصا ما رأى: إنّا لا نُغالب إلا بمن هو منه، فاتّخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغرباء يعلّمونهم السحر، فعلّموهم سحراً كثيراً وواعد موسى فرعون موعداً فبعث إلى السحرة فجاؤوا ومعلّمهم معهم، فقال له: ماذا صنعتم؟ قال: قد علمتهم سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمر من السماء فإنه لا طاقة لهم به، ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحراً إلا أتى به. واختلفوا في عددهم، فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط وهم رؤساء القوم وسبعون من بني إسرائيل. وقال الكلبي: كان الذين يعلّمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وكانوا سبعين غير رئيسهم. وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفاً. وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً. وقال مقاتل: كان رئيس السحرة شمعون. وقال ابن جريج: كان رئيس السحرة يوحنا.

﴿١١٣﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، واجتمعوا، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، أي: جُعْلاً ومالاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، قرأ أهل الحجاز وحفص: ﴿ان لنا﴾ على الخبر، وقرأ الباقون بالاستفهام، ولم يختلفوا في الشعراء أنه مستفهم.

﴿١١٤﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، في المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر، قال الكلبي: يعني أوّل من يدخل وآخر من يخرج.

﴿١١٥﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ يعني السحرة، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، لعصيّنا وحبالنا.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالَ﴾ [لهم] موسى بل ﴿أَلْقُوا۟﴾ أنتم، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وهذا هو السّحر، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، أي: أرهبوهم

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

١٦٥

وأفزعوهم، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، وذلك أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وفي القصة أن الأرض كانت ميلاً في ميل صارت حيات وأفاعي في أعين الناس.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدّت الأفق. قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية. ويقال: بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾، قرأ حفص ﴿تَلْقَفُ﴾ ساكنة اللام خفيفة حيث كان، وقرأ الآخرون بفتح اللام وتشديد القاف، أي: تبتلع، ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، يكذبون من التخاييل، وقيل: يزورون على الناس. فكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكلّ وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفاً، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت.

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، قال الحسن ومجاهد: ظهر الحق، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، من السحر، وذلك أن السحرة قالوا: لو كان ما يصنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾، ذليلين مقهورين.

(١٢٠) ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لله. قال مقاتل: ألقاهم الله. وقيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا. قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا.

(١٢١) ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقال فرعون: إياي تعنون؟

(١٢٢) فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، قال مقاتل: قال موسى لكبير السحرة: تؤمن بي إن غلبتك؟ فقال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، ولئن غلبتني لأؤمنن بك، وفرعون ينظر.

(١٢٣) ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ حين آمنوا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، قرأ حفص ﴿ءَامَنتُم﴾ على الخبر هٰهنا وفي طه [٧١] والشعراء [٤٩]، وقرأ الآخرون بالاستفهام آآمنتم به، ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، أصدقتم موسى من غير أمري إياكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾، أي: صنع صنعتموه أنتم وموسى: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر، ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ما أفعل بكم.

(١٢٤) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، وهو أن يقطع من كل شق طرفاً. قال الكلبي: لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، على شاطىء نهر مصر.

(١٢٥) ﴿قَالُوٓا۟﴾، يعني السحرة لفرعون: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، راجعون في الآخرة.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾، أي: ما تكره منّا. وقال الضحاك وغيره: وما تطعن علينا. وقال عطاء: ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ثم فزعوا إلى الله عزّ وجلّ فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ أصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، ذكر الكلبي: أن فرعون قطّع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، وذكر غيره: أنه لم يقدر عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وأرادوا بالإفساد في الأرض دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته، ﴿وَيَذَرَكَ﴾، أي: وليذرك، ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾، فلا يعبدك

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٣١) وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ (١٣٢) فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ (١٣٧)

ولا يعبدها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها، وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج السامري لهم عجلاً. قال الحسن: كان قد علق على عنقه صليباً يعبده. وقال السدي: كان فرعون قد اتّخذ لقومه أصناماً وأمرهم بعبادتها، وقال لقومه: هذه آلهتكم وأنا ربها وربكم، فذلك قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك: «ويذرك وإلهتك» بكسر الألف، أي: عبادتك فلا يعبدك، لأن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُد. وقيل: أراد بالآلهة الشمس، وكانوا يعبدونها. قال الشاعر:

تروحنا من اللّعباء قصراً
فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾، قرأ أهل الحجاز: ﴿سنقتل﴾ بالتخفيف من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على التكثير، ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾، نتركهن أحياء، ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾، غالبون. قال ابن عباس: كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له أنه يولد مولود يذهب بملكك، فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة، وكان من أمره ما كان فقال فرعون: أعيدوا عليهم القتل فأعادوا عليهم القتل، فشكت ذلك بنو إسرائيل إلى موسى.

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾، يعني: أرض مصر، ﴿يُورِثُهَا﴾، يعطيها، ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، بالنصر والظفر. وقيل: السعادة والشهادة. وقيل: الجنّة.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا﴾، قال ابن عباس: لمّا آمنت السحرة اتّبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، فقالوا يعني قوم موسى: إنا أوذينا ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾، بالرسالة بقتل الأبناء، ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾، بإعادة القتل علينا. وقيل: المراد منه أن فرعون كان يستسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النهار، فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجر. وذكر الكلبي أنهم كانوا يضربون اللبن بتبن فرعون، فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بتبن من عندهم. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾ فرعون، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: ويسكنكم أرض مصر من بعدهم، ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، فحقق الله ذلك فأغرق فرعون واستخلفهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل.

(١٣٠) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾، أي: بالجدب والقحط. تقول العرب: مسّتهم السنةُ، أي: جدب السنة وشدّة السنة. وقيل: أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة، ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بإتلاف الغلات بالآفات والعاهات. قال قتادة: أمّا السنين فلأهل البوادي، وأمّا نقص الثمرات فلأهل الأمصار، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: يتعظون، وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله عزّ وجلّ.

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾، يعني: الخصب والسعة والعافية، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي: نحن أهلها ومستحقّوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا ولم يروها تفضّلاً من الله عزّ وجلّ فيشكروا عليها، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، جدب وبلاء ورأوا ما يكرهون، ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، يتشاءموا، ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه. وقال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: وكان مُلْكُ فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لا يرى مكروهاً، ولو كان له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة

لمّا ادّعى الربوبية قط. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله. وقال ابن عباس: طائرهم ما قضى الله عليهم وقدّر لهم، وفي رواية عنه: شُؤمهم عند الله ومن قِبَل الله، أي: إنما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله. وقيل: معناه الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أن الذي أصابهم من الله.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾، يعني: القبط لموسى، ﴿مَهۡمَا﴾ متى، ﴿ما﴾ كلمة تستعمل للشرط والجزاء، ﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾، علامة، ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾، لتنقلنا عمّا نحن عليه من الدين، ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، بمصدّقين.

﴿١٣٣﴾ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق دخل كلام بعضهم في بعض: لمّا آمنت السحرة رجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلاّ الإقامة على الكفر والتمادي في الشرّ، فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فلما عالج بالآيات الأربع: العصا واليد والسنين ونقص الثمار، فأبوا أن يؤمنوا فدعا عليهم، فقال: يا ربِّ إنّ عبدك فرعون علا في الأرض وطغى وعتا وإن قومه قد نقضوا عهدك، ربِّ فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمةً ولقومي عظةً ولمن بعدهم آيةً وعبرة، فبعث الله عليهم الطوفان، وهو الماء أرسل الله عليهم الماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة من الماء، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت. وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت. وقال وهب: الطوفان الطاعون بلغة اليمن. وقال أبو قلابة: الطوفان الجدري، وهم أول من عذّب به فبقي في الأرض. وقال مقاتل: الطوفان الماء طغى فوق حروثهم. وروي عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: الطوفان أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩]، قال نحاة الكوفة: الطوفان مصدر لا يجمع كالرجحان والنقصان. وقال أهل البصرة: هو جمع واحدها طوفانة.

فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربَّه فرفع عنهم الطوفان، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم، فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً، فلم يؤمنوا فأقاموا شهراً في عافية، فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم، وابتلى الجراد بالجوع، فكان لا يشبع ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك فعجوا وضجّوا، وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشف عنا الرجز لنؤمننّ لك وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت.

وفي الخبر: «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم». ويقال: إن موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت، وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاتهم بقية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا، فلم يفوا بما عاهدوا، وعادوا لأعمالهم السوء فأقاموا شهراً في عافية، ثم بعث الله عليهم القمل. واختلفوا في القمل، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: القمل السوس الذي يخرج من الحنطة. وقال مجاهد والسدي وقتادة والكلبي: القمل الدبى والجراد الطيارة التي لها أجنحة، والدبى الصغار التي لا أجنحة لها. وقال عكرمة: هي بنات الجراد. وقال أبو عبيدة: وهو الحمنان وهو ضرب من القراد. وقال عطاء الخراساني: هو القمل. وبه قرأ الحسن «القَمْل» بفتح القاف وسكون الميم، قالوا: أمر الله موسى أن يمشي إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين الشمس، فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان أهيل فضربه بعصاه فانثال عليهم

القمل، فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله، ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضّه، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء قملاً. قال سعيد بن المسيّب: القمل السوس الذي يخرج من الحبوب، وكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يرد منها ثلاثة أقفزة، فلم يصابوا ببلاء كان أشدّ عليهم من القمل، وأخذ أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى: أنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنّا البلاء، فدعا موسى عليه السلام ربّه فرفع القمل عنهم بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم، وقالوا: ما كنّا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منّا اليوم يجعل الرمل دواب، وقالوا: وعزّة فرعون لا نتّبعه أبداً ولا نصدقه، فأقاموا شهراً في عافية فدعا موسى عليه السلام بعدما أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحدٌ إناءً ولا طعاماً إلاّ وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم، وكان أحدهم يضجع فتركبه الضفادع فتكون عليه ركاماً حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه، ولا يعجن عجيناً إلا تشدّخت فيه ولا يفتح قدراً إلا امتلأت ضفادع، فلقوا منها أذىً شديداً.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانت الضفادع برّيّة، فلما أرسلها الله على آل فرعون وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى، وقالوا هذه المرة: نتوب إلى الله تعالى ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربّه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام عليهم سبعاً من السبت إلى السبت، فأقاموا شهراً في عافية ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دماً وصارت مياههم دماً فما يستقون من الآبار والأنهار إلا وجدوه دماً عبيطاً أحمر، فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب، فقال: إنه سحركم، فقال القوم: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دماً عبيطاً، فكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دم، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول: اسقيني من مائك فتصب لها من قربتها فيعود في الإناء دماً حتى كانت تقول: اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ، فتأخذ في فيها ماء فإذا مجته في فيها صار دماً، وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها في فيه ملحاً أجاجاً فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يشربون إلاّ الدم. قال زيد بن أسلم: الدم الذي سُلّط عليهم كان الرعاف، فأتوا موسى وقالوا: يا موسى ادع ربّك يكشف عنّا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربّه عزّ وجلّ فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ﴾، يتبع بعضها بعضاً وتفصيلها أن كل عذاب كان يمتدّ أسبوعاً وبين كل عذابين شهراً، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، أي: نزل بهم العذاب وهو ما ذكر الله عزّ وجلّ من الطوفان وغيره. وقال سعيد بن جبير: الرجز الطاعون، وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس، حتى مات منهم سبعون ألفاً في يوم أحد فأمسوا وهم لا يتدافنون، ﴿قَالُوا۟﴾ لموسى: ﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي: بما أوصاك. قال عطاء: بما نبأك. وقيل: بما عهد عندك من إجابة دعوتك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾، وهو الطاعون، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي ثنا

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحاق الهاشمي ثنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: أسمعتَ من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة بن زيد:

قال رسول الله ﷺ: «الطاعونُ رجزٌ أُرسلَ على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

﴿١٣٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، يعني: إلى الغرق في اليمّ، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، ينقضون العهد.

﴿١٣٦﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾، يعني البحر، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: عن النقمة قبل حلولها. وقيل: معناه عن آياتنا معرضين.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يُقهرون ويُستذلّون بذبح الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وهم بنو إسرائيل، ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، يعني مصر والشام، ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، بالماء والأشجار والثمار والخصب والسّعة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يعني: وتمّت كلمة الله وهي وعده إيّاهم بالنصر والتمكين في الأرض، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية، ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، على دينهم وعلى عذاب فرعون، ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، في أرض مصر من العمارات، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾، قال مجاهد: يبنون من البيوت والقصور. وقال الحسن: يعرشون من الأشجار والثمار والأعناب. وقرأ أبو بكر وابن عامر ﴿يَعْرُشُونَ﴾ بضم الراء ها هنا وفي النحل [٦٨]، وقرأ الآخرون بكسرها.

﴿١٣٨﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾، قال الكلبي: عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكراً لله عزّ وجلّ، ﴿فَأَتَوْا۟﴾ فمرّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾، يقيمون، قرأ حمزة والكسائي ﴿يَعْكِفُونَ﴾ بكسر الكاف، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان، ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾، أوثان ﴿لَّهُمْ﴾، يعبدونها من دون الله. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر، وذلك أول شأن العجل. قال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقّة، فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾، أي: مثالاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، ولم يكن ذلك شكاً من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنّما معناه اجعل لنا شيئاً نعظّمه ونتقرّب بتعظيمه إلى الله يظنون أن ذلك لا يضرّ الديانة وكان ذلك لشدّة جهلهم. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، عظمة الله.

﴿١٣٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾، مهلَكٌ، ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾، والتتبير الإهلاك، ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ مضمحل وزائل، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٤٠﴾ ﴿قَالَ﴾ يعني موسى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾، أي: أبغي لكم وأطلب، ﴿إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانكم.

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمٰن البزاز أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الديري أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي، قال:

خرجنا مع النبيّ ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما كان للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبيّ ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم».

(١٤١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم﴾، قرأ ابن عامر ﴿وإذ أنجاكم﴾، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام، ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، قرأ نافع «يقتلون» خفيفة التاء من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير من التقتيل، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

(١٤٢) ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً﴾، ذا القعدة، ﴿وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ﴾، من ذي الحجة، ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة ﴿لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾، كن خليفتي، ﴿فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾، أي: أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله، وقال ابن عباس: يريد الرفق بهم والإحسان إليهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: لا تطع من عصى الله ولا توافقه على أمره وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر: أن الله إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون! فلمّا فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربّه الكتاب فأمره الله عزّ وجلّ أن يصوم ثلاثين يوماً، فلما تمّت الثلاثون أنكر خلوف فمه فتسوّك بعود خروب، وقال أبو العالية: أكل من لحاء شجرة فقالت له الملائكة: كنّا نشم من فيك رائحة المسك، فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجّة، وقال: أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وكانت فتنتهم في العشر التي زادها.

(١٤٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾، أي: للوقت الذي ضربنا له أن نكلّمه فيه. قال أهل التفسير: إن موسى تطهّر وطهّر ثيابه لميعاد ربه لما أتى طور سيناء. وفي القصة: إن الله عزّ وجلّ أنزل ظلمة على سبعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه هوام الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء، ورأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً وكلّمه الله وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلّمه به ربّه وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربّه واشتاق إلى رؤيته، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾، قال الزجاج: فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر إليك. قال ابن عباس: أعطني النظر إليك. فإن قيل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا قال الحسن: هاج به الشوق فسأل الرؤية. وقيل سأل الرؤية ظناً منه أنه يجوز أن يرى في الدنيا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، وليس لبشر أن يطيق النظر إليّ في الدنيا من نظر إليّ في الدنيا مات، فقال: إلٰهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحبّ إليّ من أن أعيش ولا أراك، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾، وهو أعظمَ جبل بمدين يقال له زبير.

قال السدي: لمّا كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى، فوسوس إليه وقال: إنّ مَنْ كلّمك شيطان فعند ذلك سأل موسى الرؤية، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، وتعلّقت نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولن تكون للتأبيد، ولا حجّة لهم فيها، ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال، فإنه كان يسأل الرؤية في الحال ولن لا تكون للتأبيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، إخباراً عن اليهود، ثم أخبر عنهم أنهم يتمنّون الموت في الآخرة؛ يقولون: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ﴿يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، والدليل عليه أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية وأنه لم يقل إني لا أُرى حتى تكون لهم حجة بل علّق الرؤية على استقرار الجبل واستقرار الجبل عند التجلّي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوّة، والمُعلّق بما لا يستحيل لا يكون محالاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، قال وهب وابن إسحاق: لما سأل موسى ربّه

الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب، وأمر الله ملائكة السماء أن يعترضوا على موسى فمرّت به ملائكة السماء الدنيا كثيرانِ البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه واعترضوا عليه أمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران ممّا رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ذرعت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء؟ فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبِرْ لِما سألت، فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيتَ. ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أنِ اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد، وأفواههُمْ تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى واشتدّ فزعه وأيِس من الحياة، فقال له خير الملائكة: مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أنِ اهبطوا فاعترضوا على موسى بن عمران، فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الملائكة الذين مرّوا به قبلهم ألوانهم كلهب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتقديس والتسبيح لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مرّوا به من قبلهم، فاصطكّت ركبتاه وارتعد قلبه واشتدّ بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران اصبِرْ لما سألت فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيت، ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره، فلم يرَ مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أنِ اهبطوا على عبدي الذي طلب ليراني فهبطوا عليه في يد كل مَلَكٍ منهم عمود مثل النخلة الطويلة، نار أشدّ ضوءاً من الشمس، ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدّسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السمٰوات، كلهم يقولون بشدّة أصواتهم: سُبُوحٌ قُدّوسٌ ربُّ الملائكة والروح، ربُّ العزّة أبداً لا يموت، وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبّح معهم حين سبّحوا وهو يبكي ويقول: ربِّ اذكرني ولا تنسَ عبدك لا أدري أأنفلتُ ممّا أنا فيه أم لا؟ إنْ خرجتُ احترقتُ وإن مكثتُ متُّ، فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتدَّ خوفُك وينخلع قلبك فاصبِرْ للذي سألت، ثم أمر الله أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة فلمّا بدَا نورُ العرش انفرج الجبل من عظمة الرب جلّ جلاله، ورفعت ملائكة السمٰوات أصواتهم جميعاً يقولون: سبحان الملك القدّوس ربُّ العزّة أبداً لا يموت بشدّة أصواتهم، فارتجّ الجبل واندكتّ كل شجرة كانت فيه وخرّ العبدالضعيف موسى صَعِقاً على وجهه ليس معه روحه، فأرسل الله برحمته الروح فيغشاه، وقلب عليه الحجر الذي كان موسى عليه وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل اللامة، فقام موسى يسبّح الله ويقول: آمنتُ بكَ ربّي وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا، من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت ربّ الأرباب وإلٰه الآلهة وملك الملوك، لا يَعْدِلُك شيء ولا يقوم لك شيء، ربِّ تبتُ إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك ما أجلّك رب العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال ابن عباس: ظهر نورُ ربّه للجبل جبل زبير. وقال الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور. وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار: ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلا مثل سمّ الخياط حتى صار دكاً. وقال السدي: ما تجلّى إلاّ قدر الخنصر، يدلّ عليه ما روى ثابت عن أنس أنّ النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية وقال «هكذا» ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل.

وحكي عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالىٰ أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم، فجعل الجبل دكاً.

أي: مستوياً بالأرض. قرأ حمزة والكسائي ﴿دكاء﴾ ممدوداً غير منوّن ها هنا وفي سورة الكهف، [وافق عاصم في الكهف]، وقرأ الآخرون ﴿دَكًّا﴾ مقصوراً منوّناً، فمن قَصَرَ فمعناه جعله مدقوقاً: والدكّ والدق واحد، وقيل: معناه دكّه الله دكاً فتته كما قال: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، ومن قرأ بالمدّ أي جعله مستوياً أرضاً دكاء. وقيل: معناه جعله مثل دكاء وهي الناقة التي لا سنام لها، قال ابن عباس: جعله تراباً. وقال سفيان: ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه. وقال عطية العوفي: صار رملاً هائلاً. وقال الكلبي: جعله دكاً أي كسراً جبالاً صغاراً.

ووقع في بعض التفاسير: طارت لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة أحد وورقان ورضوي، ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، قال ابن عباس والحسن: مغشياً عليه. وقال قتادة: ميّتاً. وقال الكلبي: خرّ موسى صعقاً يوم الخميس يوم عرفة وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر.

قال الواقدي: لمّا خرّ موسى صَعِقاً قالت ملائكة السمٰوات: مَا لابْنِ عمران وسؤال الرؤية؟ وفي بعض الكتب: أن ملائكة السمٰوات أتوا موسى وهو مغشي عليه فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيّض أطمعت في رؤية ربّ العزّة؟. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، موسى من صعقته وثاب إليه عقله وعرف أنه قد سأل أمراً لا ينبغي له، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، عن سؤال الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، بأنك لا ترى في الدنيا. وقال مجاهد والسدي: وأنا أول من آمن بك من بني إسرائيل.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: اخترتك، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إِنِّيَ﴾ بفتح الياء وكذلك ﴿أَخِي ۞ ٱشْدُدْ﴾ [طـه: ٣٠ ـ ٣١]، ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾، قرأ أهل الحجاز برسالتي على التوحيد، والآخرون بالجمع، ﴿وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، أعطيتك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، لله على نعمه، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾، وقد أعطي غيره الرسالة؟ قيل: لمّا لم تكن الرسالة على العموم في حق الناس كافة [استقام قوله] اصطفيتك على الناس وإن شاركه فيه غيره، كما يقول الرجل: خصصتك بمشورتي وإن شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيماً.

وفي القصة: أن موسى عليه السلام

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١٦٨

كان بعدما كلّمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لِمَا غُشي وجهه من النور، ولم يزل على وجهه برقع حتى مات. وقالت له امرأته: أنا لم أرك منذ كلّمك ربك فكشف لها [عن] وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرّت لله ساجدة، وقالت: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنّة، قال: ذلك لك إن لم تتزوّجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي المزكي أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن إسحاق السراج حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا راشد بن سعد عن عبد الرحمٰن المغافري عن أبيه:

عن كعب الأحبار أن موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون

بالمعروف، وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وبالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال، ربِّ اجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد يا موسى، فقال: ربي إني أجد أمةً هم الحمّادون لله على كل حال رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هي أمّة محمد، فقال: ربِّ إني أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم، وكان الأوّلون يحرقون صدقاتهم بالنار، وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمّتي، قال: هي أمّة محمد، فقال: يا ربِّ إنّي أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله فإذا هبط وادياً حمد الله، الصعيدُ لهم طهور والأرض لهم مسجد حيث ما كانوا، يتطهّرون من الجنابة بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرٌّ محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمّتي، قال: هي أمة أحمد، فقال: يا ربِّ إنّي أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة لم يعملها كُتبت له حسنة مثلها وإن عملها كتبت بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كُتبت له سيّئة مثلها، فاجعلهم أمّتي، قال: هي أمّة محمد، فقال: يا ربِّ إني أجد أمّة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب من الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلاّ مرحوماً فاجعلهم أمّتي، قال: هي أمة محمد، قال: يا ربِّ إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنّة يُصفّون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدويّ النحل لا يدخل النار أحد منهم أبداً إلاّ من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء الشجر برىء من الحسنات مثل ما برىء الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمّتي، قال: هي أمّة أحمد، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً وأمته قال: يا ليتني من أصحاب محمد، أو أمته فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، قال: فرضي موسى كلَّ الرّضا.

(١٤٥) قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ﴾، يعني لموسى، ﴿فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، قال ابن عباس: يريد ألواح التوراة.

وفي الحديث: «كانت من سدر الجنّة طول اللوح اثنا عشر ذراعاً».

وجاء في أحاديث: خلق الله آدم بيده: «وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده».

وقال الحسن: كانت الألواح من خشب. قال الكلبي: كانت من زبرجدة خضراء. وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر. وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من برد. وقال ابن جريج: كانت من زمرد أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمدّ من نهر النور، قال وهب: أمر الله بقطع الألواح من صخرة صماء ليّنها الله له فقطعها بيده ثم شقّقها بإصبعه، وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي القعدة، وكانت الألواح عشرة أذرع على طول موسى. وقال مقاتل ووهب: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، كنقش الخاتم. وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى. وقال الحسن: هذه الآية في التوراة ألف آية، يعني ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، مما أُمروا به ونُهوا عنه، ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾ نهياً عن الجهل، وحقيقة الموعظة: التذكيرة والتحذير مما يخاف عاقبته، ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام. ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾، أي: بجد واجتهاد. وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة، لأنه إذا أخذه بضعف النيّة أدّاه إلى الفتور، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾، قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يُحلوا حلالَها ويُحرّموا حرامها ويتدبّروا أمثالها ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها. وكان موسى عليه السلام أشدّ عبادة من قومه، فأمر بما لم

يُؤمروا به. قال قطرب: بأحسنها أي بحسنها وكلها حسن. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وهي ما يستحق عليها الثواب وما دونها المباح لأنه لا يستحق عليه الثواب. وقيل: بأحسنها، بأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار. ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قال مجاهد: مصيرها في الآخرة، وقال الحسن وعطاء: يعني جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشأم فأوريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله ليعتبروا بها. وقال عطية العوفي: أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدلّ عليه قراءة قسامة بن زهير: «سأورثكم دار الفاسقين». وقال السدي: دار الفاسقين مصارع الكفار. وقال الكلبي: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا.

﴿١٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، قال ابن عباس: يريد الذين يتجبّرون على عبادي ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. قال سفيان بن عيينة: سأمنعهم فهم القرآن. قال ابن جريج: يعني عن خلق السمٰوات والأرض وما فيهما، أي سأصرفهم أن يتفكّروا فيها ويعتبروا بها. وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى عليه السلام. والأكثرون على أن الآية عامة، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟﴾، يعني: هؤلاء المتكبّرين، ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿الرَّشَد﴾ بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسُّقم والسَّقم والبُخل والبَخل والحُزن والحَزن. وكان أبو عمرو يفرق بينهما، فيقول: الرشد بالضم الصلاح في الأمر وبالفتح الاستقامة في الدين. ومعنى الآية: وإن يروا طريق الهدى والسداد، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ لأنفسهم ﴿سَبِيلًا﴾، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾، أي: طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، عن التفكير فيها والاتّعاظ بها غافلين ساهين.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ولقاء الدار الآخرة التي هي موعد الثواب والعقاب، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، بطلت وصارت كأن لم تكن، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في العقبى ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟﴾، أي: إلا جزاء ما كانوا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

﴿١٤٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعارها من قوم فرعون. قرأ حمزة والكسائي ﴿مِنْ حِلِيِّهِمْ﴾ بكسر الحاء [وقرأ يعقوب بفتح الحاء] وسكون اللام، اتّخذ السامريّ منها ﴿عِجْلًا﴾، وألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فتحوّل عجلاً، ﴿جَسَدًا﴾، حياً لحماً ودماً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، وهو صوت البقر وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير. وقيل: كان جسداً مجسداً من ذهب لا روح فيه، كان يسمع منه صوت. وقيل: كان يسمع صوت حفيف الريح يدخل في جوفه ويخرج. والأول أصح. وقيل: إنه ما خار إلا مرة واحدة. وقيل: إنه كان يخور كثيراً فكلّما خار سجدوا له فإذا سكت رفعوا رؤوسهم. وقال وهب: كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرّك. وقال السدي: كان يخور ويمشي، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾، يعني: الذين عبدوا العجل ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، أي: اتخذوه إلهاً وكانوا كافرين.

﴿١٤٩﴾ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: ندموا على عبادة العجل، تقول العرب لكل نادم على أمر: قد سقط في يديه، ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾، يتب علينا ربنا، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، يتجاوز عنا، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿ترحمنا وتغفر لنا﴾ بالتاء فيهما، ﴿ربَّنا﴾ بنصب الباء.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع موسى إليهم.

﴿١٥٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، قال أبو الدرداء: الأسِفُ: الشديد الغضب. وقال ابن عباس والسدي: أسفاً أي حزيناً. والأسف أشدّ الحزن. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾، أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، يقال: خلفه بخير أو بشرّ إذا أولاه في أهله بعد شخوصه عنهم خيراً أو شراً، ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾، أسبقتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، قال الحسن: وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ليلة.

وقال الكلبي: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرُ ربكم. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾، التي فيها التوراة وكان حاملاً لها، فألقاها على الأرض من شدّة الغضب.

قالت الرواة: كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى الألواح تكسّرت فرفعت ستة أسباعها وبقي سبع، فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾، بذوائبه ولحيته ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين وأحب إلى بني إسرائيل من موسى، لأنه كان لين الغضب. ﴿قَالَ﴾ هارون عند ذلك، ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام ها هنا وفي طه [٩٤] بكسر الميم، يريد: يا ابن أمي فحذف ياء الإضافة وأبقيت الكسرة لتدلّ على الإضافة؛ كقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ [الزمر: ١٠، ١٦]، وقرأ أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم على معنى يا ابن أماه. وقيل: جعله اسماً واحداً وبناه على الفتح، كقولهم: حضرموت وخمسة عشر ونحوهما، وإنما قال ابنَ أمَّ وكان هارون أخاه لأبيه وأمه ليرققه ويستعطفه. وقيل: كان أخاه لأمه دون أبيه، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾، يعني: عبدة العجل، ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾، هموا وقاربوا أن يقتلوني، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى﴾، في مؤاخذتك عليّ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعني: عبدة العجل.

﴿١٥١﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى لما تبين له عذر أخيه، ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، ما صنعت إلى أخي، ﴿وَلِأَخِى﴾، إن كان منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل، ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ جميعاً ﴿فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿١٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: اتخذوه إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، في الآخرة ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال أبو العالية: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم. وقال عطية العوفي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾، أراد اليهود الذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ عيّرهم بصنيع آبائهم فنسبه إليهم، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أراد ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الجزية، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾، الكاذبين، قال أبو قلابة: هو ـ والله ـ جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذلّه الله. قال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة.

﴿١٥٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٥٤﴾ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، أي: سكن، ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾، التي كان ألقاها وقد ذهبت ستة أسباعها، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾، اختلفوا فيه، قيل: أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسى لمّا ألقى الألواح تكسّرت فنسخ نسخة أخرى فهو المراد من قوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾. وقيل: أراد فيما نسخ منها. وقال عطاء: فيما بقي

منها. قال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسّرت صام أربعين يوماً فردت عليه في لوحين فكان فيه، ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب، ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أي: للخائفين من ربهم، واللام في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ زيادة توكيد؛ كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، وقال الكسائي: لما تقدمتْ قبل الفعل حَسُنَتْ، كقوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وقال قطرب: أراد من ربهم يرهبون. وقيل أراد راهبون لربهم.

(١٥٥) قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾، أي: من قومه فانتصب لنزع حرف الصفة، ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾، وفيه دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل.

قال السدي: أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ﴿فَلَمَّا﴾ أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرة فأخذتْهم الصاعقةُ فماتُوا. وقال ابن إسحاق: اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا ويسألوا التوبة على مَنْ تركوا وراءهم من قومهم، فهذا يدل على أن كلهم عبدوا العجل. قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، لأنهم لم يُزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر.

وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، كانوا قبل السبعين [الذين أخذتهم الرجفة وإنما أمر الله موسى أن يختار من قومه سبعين] رجلاً فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكانوا فيما دعوا أن قالوا: اللّهمّ أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. وقال وهب: لم تكن [تلك] الرجفة موتاً ولكن القوم لمّا رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا، حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم، فلما رأى ذلك موسى رحمهم وخاف عليهم الموت، واشتدّ عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربّه فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا وسمعوا كلام ربهم، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ﴾، يعني: موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾، يعني: عند عبادة العجل، ﴿وَإِيَّايَ﴾، بقتل القبطي، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، يعني: عبدة العجل، وظنّ موسى أنهم عُوقبوا باتخاذهم العجل، وقال: هذا على طريق السؤال، يسأل أتهلكنا بفعل السفهاء. وقال المبرد: قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، استفهام استعطاف، أي: لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدل من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره. قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، أي: التي وقع السفهاء فيها لم يكن إلا اختبارك وابتلاءك أضللت بها قوماً فافتتنوا وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك، فذلك هو معنى قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، ناصرنا وحافظنا، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

(١٥٦) ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ أوجب لنا ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، النعمة والعافية، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: المغفرة والجنة، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: تبنا إليك، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾، من خلقي، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾، أي: عمّت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته في الدنيا البرّ والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين

الجزء التاسع — سورة الأعراف

۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

١٧٠

خاصة. قال عطية العوفي: وسعت كل شيء ولكن لا تجب إلا للذين يتقون، وذلك أن الكافر يرزق ويدفع عنه بالمؤمنين لسعة رحمة الله للمؤمنين فيعيش فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وابن جريج: لمّا نزلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، فتمناها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن، فجعلها الله لهذه الأمة فقال:

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية. قال نوف البكالي الحميري: لما اختار موسى سبعين رجلاً قال الله تعالىٰ لموسى: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحرّ والعبد والصغير والكبير، فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلّي إلاّ في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً، فقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فجعلها الله لهذه الأمة. فقال موسى عليه السلام: يا ربّ اجعلني نبيّهم، فقال نبيّهم منهم قال: رب اجعلني منهم فقال: إنّك لن تدركهم، فقال موسى عليه السلام: يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فرضي موسى.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، وهو محمد ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو نبيّكم كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب.

قال النبيّ ﷺ: «إنّا أُمّة أُمّيّة لا نكتب ولا نحسب». وهو منسوب إلى الأم أي هو على ما ولدته أمه. وقيل: هو منسوب إلى أمته، أصله أُمّتِي، فسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكي والمدني. وقيل: هو منسوب إلى أم القرى وهي مكة. ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾، أي: يجدون صفته ونعته ونبوّته، ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمدبن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا محمد بن سنان حدثنا فليح حدثنا هلال عن عطاء بن يسار قال:

لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجلْ والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وحرزاً للأميّين أنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً.

تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة [عن هلال]، وقال سعيد: عن هلال عن عطاء عن ابن سلام.

أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام أنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي حدثنا عبد الله بن عثمان عن أبي حمزة عن الأعمش عن أبي صالح عن عبد الله بن ضمرة: عن كعب رضي الله عنه قال: إني أجد في التوراة مكتوباً محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيّئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمّادون يحمدون الله في كل منزلة ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون على أنصافهم ويُوضّؤون أطرافهم، صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جوّ السماء، لهم في جوف الليل دويّ كدوي النحل، مولده بمكة ومهاجره بطابة وملكه بالشام.

قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بالإيمان، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، يعني: عن الشرك، وقيل: المعروف: الشريعة والسنّة، والمنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة. وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام، وينهاهم عن المنكر: عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، يعني: ما كانوا يحرّمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، يعني: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والزنا، وغيرها من المحرّمات، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾، قرأ ابن عامر «آصارهم» بالجمع، والإصر: كل ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل. قال ابن عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد: يعني العهد الثقيل كان أُخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة. قال قتادة: يعني التشديد الذي كان عليهم في الدين. ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾، يعني: الأثقال ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وذلك مثل قتل الأنفس في التوراة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد، وشُبّهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: بمحمد ﷺ، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، وقروه، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾، على الأعداء، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، يعني: القرآن، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

(١٥٨) قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: آياته وهي القرآن. وقال مجاهد والسدي: يعني عيسى ابن مريم. ويقرأ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

(١٥٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾، يعني: من بني إسرائيل، ﴿أُمَّةٌ﴾، أي: جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يرشدون ويدعون إلى الحق. وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، أي: بالحق يحكمون وبالعدل يقومون، قال الكلبي والضحاك والربيع: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر مجرى الرمل يسمّى نهر أوداف، ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويسقون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منا أحد وهم على الحق.

وذُكر أن جبرائيل عليه السلام ذهب بالنبيّ ﷺ ليلة أُسري به، فكلّمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلّمون؟ قالوا: لا، فقال لهم: هذا محمد النبيّ الأمي فآمنوا به، فقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منا السلام، فردّ النبيّ ﷺ على موسى وعليهم، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يُجمّعوا ويتركوا السبت.

وقيل: هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبيّ ﷺ، والأول أصح.

(١٦٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾، أي: فرّقناهم، يعني بني إسرائيل، ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، قال الفراء: إنما قال: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، والسبط مذكر لأنه قال: ﴿أُمَمًا﴾، فرجع التأنيث إلى الأمم. وقال

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٧١

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

١٧٢

الزجاج: المعنى وقطّعناهم اثنتا عشرة فرقة أمماً، وإنما قال: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، بالجمع وما فوق العشرة لا يفسّر بالجمع، فلا يقال: أتاني اثنا عشر رجالاً لأن الأسباط في الحقيقة نعت المفسّر المحذوف وهو الفرقة، أي: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أمماً. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديرها: وقطعناهم أسباطاً أمماً اثنتي عشرة، والأسباط القبائل واحدها سبط. قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾، في التيه، ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ﴾، فانفجرت. وقال أبو عمرو بن العلاء: عرقت وهو الانبجاس، ثم انفجرت، ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، لكل سبط عين، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾، كل سبط، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾، وكل سبط بنو أب واحد.

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾، في التيه تقيهم حرّ الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب: ﴿تغفر﴾ بالتاء وضمّها وفتح الفاء. وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الفاء، ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾، قرأ ابن عامر «خطيئتكم» على التوحيد ورفع التاء، وقرأ أبو عمرو: ﴿خطاياكم﴾، وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «خطيئاتُكم» بالجمع ورفع التاء. وقرأ الآخرون بالجمع وكسر التاء بالجمع. ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾، عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

(١٦٣) قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾، قيل: هي «مدين» سلْ يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك، سؤال توبيخ وتقريع عن القرية التي كانت حاضرة البحر، أي: بقربه. قال ابن عباس: هي قرية يقال لها إيلة بين مدين والطور على شاطىء البحر. وقال الزهري: هي طبرية الشام. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾، أي: يظلمون فيه ويجاوزون أمر الله تعالى بصيد السمك، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، أي: ظاهرة على الماء كثيرة، جمع شارع. وقال الضحاك: متتابعة. وفي القصة: أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السمان البيض. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كإتيانهم يوم السبت، قرأ الحسن: لا يُسبتون بضم الياء، أي: لا يدخلون في السبت، والقراءة المعروفة بنصب الياء، ومعناه: لا يعظّمون السبت، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾، نختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، فوسوس إليهم الشيطان وقال: إن الله لم ينهكم عن الاصطياد إنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا. وقيل: وسوس إليهم أنكم إنما نُهيتم عن الأخذ، فاتّخذوا حياضاً على شاطىء البحر، تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ثم تأخذونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً ثم تجرّؤوا على السبت وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أُحلّ لنا فأخذوا وأكلوا أو باعوا، فصار أهل القرية أثلاثاً وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلث نُهوا، وثلث لم ينهوا وسكتوا وقالوا: لِمَ تعظون قوماً اللّهُ مُهلكهم، وثلث هم أصحاب الخطيئة، فلم لم ينتهوا قال الناهون: لا نُساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار، للمسلمين باب وللمعتدين باب، ولعنهم

داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن لهم لشأناً لعلّ الخمر غلبتهم فعلَوا على الجدار واسترقوا عليهم فإذا هم كلهم صاروا قردة وخنازير فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي فيقول: ألم ننهكم فتقول برأسها نعم، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

﴿١٦٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، اختلفوا في الذين قالوا هذا، قيل: كانوا من الفرقة الهالكة، وذلك أنهم لما قيل لهم انتهوا عن هذا العمل السيّء، قبل أن ينزل بكم العذاب فإنّا نعلم أن الله منزل بكم بأسه إن لم تنتهوا أجابوا وقالوا: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم، ﴿أَوْ﴾ علمتم أنه ﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا﴾، أي: قال الناهون ﴿مَعْذِرَةً﴾، أي: موعظتنا معذرة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وقرأ حفص: ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنصب، أي: نفعل ذلك معذرة إلى ربكم. والأصح أنها من قول الفرقة الساكتة، قالوا: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم، قالوا: معذرة إلى ربكم، ومعناه: أن الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتقون الله ويتركون المعصية ولو كان الخطاب مع المعتدين لكان يقول ولعلكم تتقون.

﴿١٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أي: تركوا ما وعظوا به، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: الفرقة العاصية، ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، أي: شديد وجيع، من البأس وهو الشدّة. واختلف القراء، فيه، قرأ أهل المدينة وابن عامر «بئيس» بكسر الباء على وزن فعل، إلا أن ابن عامر يهمزه، وأبو جعفر ونافع لا يهمزان، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل، وقرأ الآخرون على وزن فعيل مثل بعير وصغير، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسمع الله يقول: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة. قال عكرمة: قلت له جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا فكرهوا ما هم عليه، وقالوا: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فأعجبه قولي فرضي وأمر لي ببردين فكسانيهما، وقال يمان بن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا لِمَ تعظون قوماً والذين قالوا معذرةً إلى ربكم، وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان، وهذا قول الحسن. وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه أشدّ آية في ترك النهي عن المنكر.

﴿١٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾، قال ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، مبعدين فمكثوا ثلاثة أيام ينظر الناس [إليهم]، ثم هلكوا.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، أي: آذن وأعلم ربك، يقال: تأذن وآذن مثل توعد وأوعد. وقال ابن عباس: تأذن ربك قال ربك. وقال مجاهد: أمر ربك. وقال عطاء: حكم ربك. ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: على اليهود، ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، بعث الله عليهم محمداً ﷺ وأمّته يقاتلونهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٦٨﴾ ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ﴾، فرّقناهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾، فرقاً فرقهم الله فتشتت أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني الذين بقوا على الكفر.

وقال الكلبي: منهم الصالحون هم الذين وراء نهر أوداف من وراء الصين، ومنهم دون ذلك، يعني: من هٰهنا من اليهود، ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ﴾، بالخصب والعافية، ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، الجدب والشدّة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا.

﴿١٦٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم ﴿خَلْفٌ﴾، والخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء، والخلَف بفتح اللام: البدل سواء كان ولداً أو غريباً. وقال ابن الأعرابي: الخلَف بفتح اللام:

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

الصالح، ويسكون اللام: الطالح. وقال النضر بن شميل: الخلف: بتحريك اللام وإسكانها في القرن السوء واحد، وأما في القرن الصالح فبتحريك اللام لا غير. وقال محمد بن جرير: أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذم بتسكينها وقد يُحرّك في الذم ويُسكّن في المدح. ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾، العرض متاع الدنيا، والعرض بسكون الراء ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير. وأراد بالأدنى العالم وهو هذه الدار الفانية فهو تذكير الدنيا، فهؤلاء اليهود ورثوا التوراة فقرؤوها وضيّعوا العمل بما فيها وخالفوا حكمها يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، ذنوبنا يتمنّون على الله الأباطيل.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا طاهر محمد بن محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنبأنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم الغساني عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس قال:

قال رسول الله ﷺ: «الكَيسُ منْ دانَ نفسَه وعمِلَ لِما بعدَ الموتِ والعاجزُ من أتبع نفسَه هواها وتمنّى على الله الأماني».

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، يقول: إذا أشرف لهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه. وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، فيقال له: ما لك ترتشي فيقول: سيغفر لي فيطعن عليه الآخرون، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي أيضاً، يقول: وإن يأت الآخرين عرض مثله يأخذوه. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، أي: أخذ عليهم العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله الباطل، وهي تمني المغفرة مع الإصرار وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار، ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾، قرأوا ما فيه فهم ذاكرون لذلك، ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة، ودرس الكتاب قراءه وتدبّره مرة بعد أخرى، ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿١٧٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: «يمسكون» بالتخفيف وقراءة العامة بالتشديد لأنه يقال مسكت بالشيء، ولا يقال أمسكت بالشيء، إنما يقال أمسكته، وقرأ أُبيّ بن كعب: «والذين تمسّكوا بالكتاب»، على الماضي وهو جيد لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إذْ قلّ ما يعطف ماضٍ على مستقبل إلاّ في المعنى، وأراد الذين يعملون بما في الكتاب، قال مجاهد: هم المؤمنون من أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه تمسّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى فلم يحرّفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلةً. وقال عطاء: هم أمّة محمد ﷺ. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿١٧١﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، فلقنا الجبل. وقيل: رفعنا ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، قال عطاء: سقيفة. والظلّة: كل ما أظلك، ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟﴾، أي: وقلنا لهم خذوا، ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، بجدٍ واجتهاد، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾، واعلموا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وذلك حين أبَوْا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله على رؤوسهم جبلاً. قال الحسن: فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهمَ ساجداً

على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه، ولذلك لا تجد يهودياً إلا ويكون سجوده على حاجبه الأيسر.

(١٧٢) قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، الآية.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن [محمد] السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن، عن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، قال عمر بن الخطاب:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرِّيةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريّةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: فَفِيمَ العملُ يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن اللّهَ عزّ وجلّ إذا خلق العبد للجنّة استعمله بعمل أهل الجنّة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة، فيدخله به الجنّة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمالِ أهل النار فيدخله به النار».

وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً.

قال مقاتل وغيره من أهل التفسير: إن الله مسح صفحة ظهرِ آدمَ اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحرّكون، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذريةً سوداء كهيئة الذر، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك، ثم قال لهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، فقال للبيض: هؤلاء في الجنّة برحمتي ولا أبالي وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي، وهم أصحاب الشمال، ثم أعادهم جميعاً في صلبه، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء. قال الله تعالىٰ فيمن نقض العهد الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾. وقال بعض أهل التفسير: إن أهل السعادة أقرّوا طوعاً وقالوا بلى، وأهل الشقاوة قالوا تقية وكرهاً، وذلك معنى قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، واختلفوا في موضع الميثاق، قال ابن عباس رضي الله عنهما ببطن نعمان وادٍ إلى جنب عرفة. وروي عنه أيضاً أنه بدهناء من أرض الهند، وهو الموضع الذي هبط آدم عليه السلام عليه. وقال الكلبي: بين مكّة والطائف. وقال السدي: أخرج الله آدم عليه السلام من الجنّة فلم يهبط من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريّته. وروي: أن الله أخرجهم جميعاً وصوّرهم وجعل لهم عقولاً يعملون بها وألسناً ينطقون بها ثم كلّمهم قبلاً يعني عياناً، وقال: ألست بربّكم، قال الزجاج: وجائز أن يكون الله تعالىٰ جعل لأمثال الذر فهماً تعقل به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، وروي أن الله تعالىٰ قال لهم جميعاً: اعلموا أنه لا إله غيري وأنا ربّكم لا ربّ لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلاً يذكّرونكم عهدي وميثاقي ومنزّل عليكم كتباً.

فتكلموا جميعاً، وقالوا: شهدنا أنك ربُّنا وإلٰهنا لا ربّ لنا غيرُك، أخذ بذلك مواثيقهم، ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم، فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغني والفقير وحَسَنَ الصورة ودون ذلك، فقال: يا ربِّ لولا سوّيتَ بينهم؟ قال: إني أحب أن أُشكر، فلمّا قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ ميثاقه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، أي: من ظهور بني آدم ذريتهم، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر: «ذرياتهم» بالجمع وكسر التاء، وقرأ الآخرون ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد، ونصب التاء، فإن قيل: ما معنى قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قيل: إنّ الله أخرج ذرية آدم بعضهم من

ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء في الترتيب، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لِمَا علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، أي: أشهد بعضهم على بعض. قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟﴾، قرأ أبو عمرو: (أن يقولوا) ويقولوا بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما، واختلفوا في قوله: ﴿شَهِدْنَآ﴾، قال السدي: هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم. وقال بعضهم: هو خبر عن قول بني آدم أشهدَ اللَّهُ بعضَهم على بعض، فقالوا: بلى شهدنا. وقال الكلبي: ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره: لما قالت الذرية بلى قال الله للملائكة: اشهدوا، قالوا: شهدنا، قوله: ﴿أن يقولوا﴾، يعني: وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا، أي: لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا، ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام: أخاطبكم ألستِ بربكم لئلا تقولوا، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾، أي: عن هذا الميثاق والإقرار، فإن قيل: كيف يلزم الحجّة واحد لا يذكر الميثاق، قيل: قد أوضح الله الدلائل على وحدانيّته وصدق رسله فيما أخبروا، فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجّة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يُسْقِطُ الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة.

(١٧٣) قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، يقول إنما أخذت الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنّما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنّا ذرية من بعدهم، أي: كنّا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذراً لأنفسكم وتقولوا، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أفتعذّبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنهم أن يحتجّوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالىٰ بأخذ الميثاق على التوحيد.

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾، أي: نُبيّن الآيات ليتدبّرها العباد، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، من الكفر إلى التوحيد.

(١٧٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآية، اختلفوا فيه، قال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وقال مجاهد: بلعام بن باعر. وقال عطية عن ابن عباس: كان من بني إسرائيل. ورُوي عن عليّ بن أبي طلحة رضي الله عنه أنه كان من الكنعانيّين من مدينة الجبارين. وقال مقاتل: هو من مدينة بلقا.

وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم: أن موسى لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إلى بلعم، وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير، وأنه جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرجْ فادعُ الله أن يردّهم عنّا، فقال لهم: ويلكم نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم، وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي، فراجعوا وألحّوا عيه فقال: حتى أُؤامر ربي، وكان لا يدعوا حتى ينظر ما يؤمر به في المنام فآمر في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تدع عليهم، فقال لقومه: إني قد آمرتُ ربي وإني قد نُهيتُ فأهدوا إليه هديةً فقبلها، ثم راجعوه فقال: حتى أؤامر ربّي فآمر، فلم يوحَ إليه شيء، فقال: قد آمرتُ فلم يوح إليّ شيء، قالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى، فلم يزالوا يتضرّعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركبَ أتاناً له متوجهاً إلى جبل يُطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له حُسْبان، فلما سار عليه غيرَ كثيرٍ رَبَضَتْ به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أذلقها، [قامت فركبها، فلم تسرْ به كثيراً حتى ربضت، ففعل بها مثل ذلك فقامت، فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت، وضربها حتى إذا أذلقها] أذن الله لها بالكلام فكلّمته حجّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب بي؟ ألاَ ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب بي إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع ولم يصغ إلى قوله لحكمة أرادها الله به فخلّى الله سبيلها فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل حُسْبان جعل يدعو عليهم ولا يدعو بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: يا بلعم

أتدري ماذا تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا؟! فقال: هذا ما لا أملكه، هذا شيء قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال جملوا النساء وزيّنوهنّ وأعطوهنّ السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومُروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجلٌ واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيّين اسمها كستى بنت صور، برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب، فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، فقال: يا موسى إني أظنك ستقول هذه حرام عليك؟ فقال: أجلْ هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، ثم دخل بها قبّته فوقع عليها، فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلاً قد أعطي بسطة في الخلق وقوّة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس بني إسرائيل فأُخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليهما القبّة، وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته وكان بِكْرَ العَيْزار، وجعل يقول: اللّهمّ هكذا نفعل بمن يعصيك ورُفع الطاعون، فحُسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفاً في ساعة من النهار، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إيّاها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بكر العيزار، وفي بلعم أنزل الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية.

وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادعُ اللّهَ على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنحت خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها، فقالت له: لِمَ تضربني إني مأمورة هذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع فأخبر الملك، [بما قالته الأتان، فقال له: لتدعون عليه، أو لأصلبنّك فدعى على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب بأيّ ذنب وقعنا في التّيه؟ فقال: بدعاء بلعام، قال: فكما سمعتَ دعاءَه عليّ فاسمعْ دعائي عليه، فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان، فنزع الله عنه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء، فذلك قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيّب وزيد بن أسلم: نزلت هذه الآية في أميّة بن أبي الصلت الثقفي، وكانت قصته: أنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً فَرَجَا أن يكون هو ذلك الرسول، فلمّا أرسل اللّهُ محمداً ﷺ حسده وكفر به، وكان صاحب حكمة وموعظة حسنة، وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مرَّ على قتلى بدر، فسأل عنهم فقيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه، فلما مات أمية أتت أخته فارعةُ إلى رسول الله ﷺ، فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها فقالت: بينما هو راقد أتاه آتيان فكشفا سقف البيت، فنزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: وعى؟ قال: وعى قال: أزكى؟ قال: أبى، قالت: فسألته عن ذلك، فقال: خيرٌ أُريدَ بي، فصرف عني فغشي عليه، فلما أفاق قال شعراً:

كل عيشٍ وإن تطاول دهراً
صائرٌ مرةً إلى أن يزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما قدْ بدَا لي
في قلال الجبالِ أرعى الوُعولا
إنّ يومَ الحسابِ يومٌ عظيمٌ
شابَ فيه الصغيرُ يوماً ثقيلًا

ثم قال لها رسول الله ﷺ: «أنشديني من شعر أخيك»، فأنشدته

بعض قصائده، فقال لها رسول الله ﷺ: «آمَن شِعْرُهُ وكفر قلبه»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآية.

وفي رواية عن ابن عباس: أنها نزلت في البسوس، رجل من بني إسرائيل وكان قد أعطي له ثلاث دعوات مستجابات، وكان له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعلْ لي منها دعوة، فقال: لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا لها فجُعلت أجمل النساء في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الزوج ودعا عليها فصارت كلبة نباحة، فذهبت فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُنا كلبةً نباحة والناس يعيّروننا بها، ادعُ الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات كلها. والقولان الأولان أظهر.

قال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبيّ ﷺ كما يعرفون أبناءهم. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لمن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله، فذلك قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾. قال ابن عباس والسدي: اسم الله الأعظم. قال ابن زيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه. وقال ابن عباس في رواية أخرى: أوتي كتاباً من كتب الله فانسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: لحقه وأدركه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

﴿١٧٦﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، أي: رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لرفعناه بعلمه بها. وقال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: سكن إلى الدنيا ومال إليها. قال الزجاج: خلد وأخلد واحد. وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام، يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، والأرض هٰهنا عبارة عن الدنيا لأن ما فيها من القفار والرباع كلها أرض وسائر متاعها مستخرج من الأرض. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، انقاد لما دعاه إليه الهوى. قال ابن زيد: كان هواه مع القوم. قال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه وهذه أشدّ آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آية من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتّباع الهوى تغيير النعمة عليه بالانسلاخ عنها، ومَن الذي يَسْلَمُ من هاتين الخلّتين إلا من عصمه الله؟

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن زكريا بن أبي زائدة عن محمد بن عبد الرحمٰن بن سعد بن زرارة عن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه، قال:

قال رسول الله ﷺ: «ما ذِئْبَانِ جَائعان أُرسلا في غَنَم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، يقال: لهث الكلب يلهث لهثاً إذا أدلع لسانه. قال مجاهد: هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به. والمعنى: إن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر وإن تركته لم يهتدِ، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب إن طرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً وإن تُرك وربَض كان لاهثاً. قال القتيبي: كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وفي حال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذّب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، ثم عمّ بهذا التمثيل جميع من يكذب بآيات الله، فقال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقيل: هذا مثل لكفار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنّون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله،

فلما جاءهم نبيّ لا يشكّون في صدقه كذّبوه فلم يهتدوا وتُركوا أو دُعوا.

(١٧٧) ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وتقديره: ساء مثلاً مثلُ القوم، فحذف مثل وأقيم القوم مقامه فرُفع، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

(١٧٨) ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أخبر الله تعالىٰ أنه خلق كثيراً من الجنّ والإنس للنار وهم الذين حقّت عليهم الكلمة الأزليّة بالشقاوة، ومن خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها.

أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أحمد بن محمد بن أبي حمزة البلخي حدثنا موسى بن محمد بن الحكم الشطوي حدثنا حفص بن غياث عن طلحة بن يحيى عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: أدرك النبيّ ﷺ جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له، عصفورٌ من عصافير الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك؟ إنّ الله خلق الجنّة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم».

وقيل: اللام في قولهم ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ لام العاقبة، أي: ذرأناهم، وعاقبة أمرهم جهنم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، أي: لا يعلمون بها الخير والهدى، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، طريق الحق وسبيل الرشاد، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، مواعظ القرآن فيتفكّرون فيها ويعتبرون بها، ثم ضرب لهم مثلاً في الجهل والاقتصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، أي: كالأنعام في أنّ همتهم في الأكل والشرب والتمتّع بالشهوات، بل هم أضلّ لأن الأنعام تُميّز بين المضار والمنافع، فلا تقدم على المضار وهؤلاء يقدمون على النار معاندةً مع العلم بالهلاك، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

(١٨٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، قال مقاتل: وذلك أن رجلاً دعا الله عزّ وجلّ في صلاته ودعا الرحمٰن، فقال بعض مشركي مكة: إن محمداً ﷺ وأصحابه يدّعون أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، والحسنى تأنيث الأحسن كالكبرى والصغرى، فادعوه بها.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

١٧٤

محمد بن عبد الله بن بشران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة: عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة، إنه وِترٌ يحب الوتر».

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾، قرأ حمزة ﴿يلحدون﴾ بفتح الياء والحاء حيث كان، ووافقه الكسائي في النحل، والباقون بضم الياء وكسر الحاء، ومعنى الإلحاد هو الميل عن المقصد، يقال: ألحد يُلحد إلحاداً، ولحد يلحد لحوداً إذا مال. قال يعقوب بن السكيت: الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه، يقال: ألحد في الدين ولحد وبه قرأ حمزة.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ

أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالىٰ عمّا هي عليه، فسمّوا بها أوثانهم فزادُوا ونقصوا فاشتقوا اللاّت من الله والعزّىٰ من «العزيز» ومناة من «المنّان»، هذا قول ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة.

روي عن ابن عباس: يلحدون في أسمائه أي يكذبون. وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تسميته بما لم يسَمّ به ولم ينطق به كتاب الله ولا سنّة رسول الله ﷺ، وجملته أن أسماء الله تعالىٰ على التوقيف فإنه يسمى جواداً ولا يسمى سخياً، وإن كان في معنىٰ الجواد، ويسمّى رحيماً ولا يسمّى رفيقاً، ويسمّى عالماً ولا يسمّى عاقلاً. وقال تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال عزّ مِنْ قائل: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ولا يقال في الدعاء يا مخادع يا مكار، بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله يا رحمٰن يا رحيم يا عزيز يا كريم ونحو ذلك. ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة.

(١٨١) قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾، أي: عصابة، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمّة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان.

وقال قتادة: بلغنا أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون».

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا الوليد، حدثني ابن جابر، حدثني عمير بن هانىء أنه سمع معاوية رضي الله عنه يقول:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك».

وقال الكلبي: هم من جميع الخلق.

(١٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون. وقيل: نأتيهم من مأمنهم؛ كما قال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، قال الكلبي: يُزيّن لهم أعمالهم ويهلكهم بها، وقال الضحاك: كلما جدّدوا معصية جددنا لهم نعمة. قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر. قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرّج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً، فلا يباغت ولا يجاهر، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئاً بعد شيء.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾، أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي، ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، أي: إن أخذي قوي شديد، قال ابن عباس: إن مكري شديد. قيل: نزلت في المستهزئين فقتلهم الله في ليلة واحدة.

(١٨٤) قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾. قال قتادة: ذكر لنا أن النبيّ ﷺ قام على الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشاً فَخِذاً فخذاً: يا بني فلان يا بني فلان، يحذّرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يُصوّت إلى الصباح، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم﴾، محمد ﷺ: ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون، ﴿إِنْ هُوَ﴾، ما هو، ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ثم حثّهم على النظر المؤدّي إلى العلم فقال:

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، فيهما، ﴿مِن شَىْءٍ﴾، أي: وينظروا إلى ما خلق الله فيهما من شيء ليستدلوا بها على وحدانيّته. ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: لعلّ أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ويصيروا إلى العذاب، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: بعد القرآن يؤمنون، يقول: بأي كتاب غير ما جاء به محمد ﷺ يصدّقون، وليس بعده نبيّ ولا كتاب، ثم ذكر علّة إعراضهم عن الإيمان فقال:

(١٨٦) ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾، قرأ أهل البصرة وعاصم بالياء ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء، لأن ذكر الله قد مرّ قبله، وجزم الراء مردود على ﴿يُضْلِلِ﴾، وقرأ الآخرون بالنون ورفع الراء على أنه

كلام مستأنف. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، يترددون متحيرين.

(١٨٧) قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسِرّ إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، يعني: القيامة، ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: منتهاها. وقال قتادة: قيامها. وأصله الثبات، أي: متى مثبتها، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، استأثر بعلمها ولا يعلمها إلا هو، ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾، لا يكشفها ولا يظهرها. قال مجاهد: لا يأتي بها، ﴿لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني: ثقل علمها وخفي أمرها على أهل السمٰوات والأرض، وكل خفي ثقيل. قال الحسن: يقول إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السمٰوات والأرض، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، فجأة على غفلة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمٰن الأعرج عن أبي هريرة:

أن رسول الله ﷺ قال: «لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها».

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، فيه تقديم وتأخير، أي: يسألونك عنها كأنك حفي بها عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة، أي: بالغت فيها، معناه: كأنك بالغت في السؤال عنها حتى علمتها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أن علمها عند الله حتى سألوا محمداً ﷺ عنها.

(١٨٨) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه وتربح فيه عند الغلاء وبالأرض التي يريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾، أي: لا أقدر لنفسي نفعاً، أي: اجتلاب نفع بأن أربح ولا ضراً، أي دفع ضَرّ بأن ارتحل من أرض يريد أن تجدب إلا ما شاء الله أن أملكه، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، أي: لو كنت أعلم الخصب والجدب لاستكثرت من الخير، أي من المال لسنة القحط ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، أي: الضرّ والفقر والجوع.

وقال ابن جريج: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، يعني: الهدى والضلالة، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: متى أموت ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، يعني: من العمل الصالح ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾. قال ابن زيد: اجتنبت ما يكون من الشر واتقيته. وقيل: معناه ولو كنت أعلم الغيب أي متى [تقوم] الساعة لأخبرتكم حتى تؤمنوا وما مسّني السوء بتكذيبكم. وقيل: ما مسّني السوء ابتداء يريد وما مسّني الجنون لأنهم كانوا ينسبونه إلى الجنون. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾، لمن لا يصدّق بما جئت به، ﴿وَبَشِيرٌ﴾، بالجنة، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، يصدّقون.

(١٨٩) قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، يعني: من آدم، ﴿وَجَعَلَ﴾، وخلق ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعني: حواء، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، ليأنس بها ويأوي إليها، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾، أي: واقعها وجامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾،

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥)

١٧٥

وهو أن أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفاً عليها، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، أي: استمرّت به وقامت وقعدت به ولم يثقلها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾، أي: كبر الولد في بطنها وصارت ذات ثقل بحملها ودنت ولادتها، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، يعني آدم وحوّاء، ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ يا ربّنا ﴿صالحاً﴾، أي: بشراً سوياً مثلنا، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، قال المفسّرون: فلما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل، فقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري. قال: إني أخاف أن يكون بهيمة، أو كلباً، أو خنزيراً، وما يدريك من أين يخرج؟ من دبرك فيقتلك أو من قُبلك ويشق بطنك، فخافت حواء من ذلك، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام فلم يَزالاَ في همّ من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني من الله بمنزلة فإن دعوتُ الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحارث؟ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فذكرت ذلك لآدم، فقال: لعلّه صاحبنا الذي قد علمت، فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرّهما، فلما ولدت سمّياه عبد الحارث.

قال الكلبي: قال إبليس لها إن دعوت الله فولدت إنساناً أتسمِّينه بي؟ قالت: نعم، فلما ولدت قال سمّيه بي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمّى لها نفسه لعرفته فسمّته عبد الحارث.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت حواء تلد لآدم فيسمّيه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمٰن فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس وقال: إن سرّكما أن يعيش لكما ولد فسمّياه عبد الحارث، فولدت فسمّياه عبد الحارث فعاش. وجاء في الحديث: «خَدعَهُما إبليس مرّتين مرة في الجنّة ومرّة في الأرض». وقال ابن زيد: ولد لآدم ولد فسمّاه عبد الله فأتاهما إبليس فقال: ما سمّيتما ابنكما؟ قالا: عبد الله، وكان قد ولد لهما قبل ذلك ولد فسمّياه عبد الله فمات، فقال إبليس: أتظنّان أن الله تارك عبده عندكما لا والله ليذهبنّ به كما ذهب بالآخر، ولكن أدلّكم على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمّياه عبد شمس. والأول أصح، فذلك قوله:

﴿١٩٠﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾، بشراً سوياً، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، قرأ أهل المدينة وأبو بكر «شِركاً» بكسر الشين والتنوين، أي: شركة، قال أبو عبيدة: أي حظاً ونصيباً، وقرأ الآخرون «شركاء» بضم الشين ممدوداً على جمع شريك يعني إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أي: جعلا له شريكاً إذ سمّياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكاً في العبادة ولا أن الحارث ربّهما فإن آدم كان نبياً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمّه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما يطلق اسم الربّ على من لا يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمّي نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربّه، ويقول للغير: أنا عبدك، قال يوسف لعزيز مصر: إنه ربّي، ولم يرد به أنه معبوده وكذلك هذا. وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قيل: هذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكّة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم من حيث أنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في الاسم، وفي الآية قول آخر: وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم، وهو قول الحسن وعكرمة، ومعناه: جعل له شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تعييرهم بفعل الآباء، فقال: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ خاطب به اليهود الذين كانوا في عهد النبيّ ﷺ، وكان ذلك الفعل من آبائهم. وقيل هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا. وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم عبدالعزى وعبداللات وعبدمناة ونحوه وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ من نفس واحدة، أي: خلق كل واحد من أبيه، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: جعل من جنسها زوجها، وهذا قول حسن، لولا قول السلف مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن المسيّب وجماعة من المفسّرين إنه في آدم وحوّاء.

﴿١٩١﴾ قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾، يعني: إبليس والأصنام، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، أي: هم مخلوقين.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

١٧٦

﴿١٩٢﴾ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾، الأصنام لا تنصر من أطاعها، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه من أرادهم بكسر أو نحوه، ثم خاطب المؤمنين فقال:

﴿١٩٣﴾ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾، قرأ نافع بالتخفيف، وكذلك: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، في الشعراء وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما وهما لغتان، يقال: تبعه تبعاً واتّبعه اتّباعاً. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾، إلى الدين، ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، عن دعائهم لا يؤمنون؛ كما قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقيل: معناه وإن تدعوهم إلى الهدى، يعني الأصنام لا يتبعوكم لأنها غير عاقلة.

﴿١٩٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يعني الأصنام، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، يريد أنها مملوكة أمثالكم. وقيل: أمثالكم في التسخير، أي: أنهم مسخرون مذلّلون لما أريد منهم. قال مقاتل: قوله عبادٌ أمثالكم أراد به الملائكة، والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة. والأول أصح. ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أنها آلهة. قال ابن عباس: فاعبدوهم، هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة؟ ثم بيّن عجزهم فقال:

﴿١٩٥﴾ ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الطاء هنا وفي القصص والدخان، وقرأ الآخرون بكسر الطاء، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فأنتم مفضّلون عليهم بالأرجل الماشية والأيدي الباطشة والأعين الباصرة والآذان السامعة، فكيف تعبدون من أنتم أفضل وأقدر منهم؟ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾، يا معشر المشركين، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾، أنتم وهم، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: لا تمهلوني واعجلوا في كيدي.

﴿١٩٦﴾ قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني القرآن، أي: إنه يتولاّني وينصرني كما أيدني بإنزال الكتاب، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين لا يعدلون بالله شيئاً، فاللَّهُ يتولاهم بنصره فلا يضرّهم عداوة من عاداهم.

﴿١٩٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

﴿١٩٨﴾ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾، يعني الأصنام، ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، يعني: الأصنام، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وليس المراد من النظر حقيقة النظر، إنما المراد منه المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، أي: تقابلها، وقيل: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: كأنهم ينظرون إليك؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]، أي: كأنهم سُكارى هذا قول المفسّرين. وقال الحسن: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، يعني: المشركين لا يسمعوا ولا يعقلوا ذلك بقلوبهم، وتراهم ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم.

﴿١٩٩﴾ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال عبد الله بن الزبير: أمر الله نبيّه عليه الصّلاة والسّلام أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: خذ العفو يعني العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وذلك مثل قبول الاعتذار. والعفو: المساهلة وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك.

ورُوي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟

قال: لا أدري حتى أسأله، ثم رجع فقال: إنّ ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمّن ظلمك». وقال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي والضحاك والكلبي: يعني خُذْ ما عفا لك من الأموال وهو الفضل عن العيال، وذلك معنى قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات. قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، أي: بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع. وقال عطاء: وأمرْ بالعُرف يعني بلا إلٰه إلاّ الله. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أبي جهلٍ وأصحابه، نسختها آية السيف. وقيل: إذا تسفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، وذلك مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذلك سلام المُتاركة. قال جعفر الصادق: أمر الله نبيّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

أخبرنا عبد الواحد بن عبد الصمد الجرجاني ثنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي ثنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الله الجدلي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح».

ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي ثنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الواعظ ثنا عمار بن محمد البغدادي ثنا أحمد بن سعيد الحافظ ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمر بن إبراهيم يعني الكوفي ثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال».

(٢٠٠) قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، أي: يصيبك ويعتريك ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة. والنزغ من الشيطان الوسوسة. وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد: لما نزلت هذه الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال النبيّ ﷺ: «كيف يا رب والغضب»، فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، أي: استجرْ بالله ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، يعني المؤمنين، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي: ﴿طيف﴾، وقرأ الآخرون ﴿طائف﴾ بالمد والهمز وهما لغتان كالميت والمائت، ومعناهما: الشيء يلمّ بك. وفرّق قوم بينهما، فقال أبو عمرو: الطائف ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللمّة والوسوسة. وقيل: الطائف ما يطوف بك من وسوسة الشيطان، والطيف: اللمم والمسّ. ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾، عرفوا، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالىٰ فيكظم الغيظ. وقال مجاهد: الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، أي: يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكّر والتفكّر. قال السدي: إذا زلّوا تابُوا. وقال مقاتل: إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية، فأبصر فنزغ عن مخالفة الله.

(٢٠٢) قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾، يعني: إخوان الشياطين من المشركين يمدونهم، أي: يمدّهم الشيطان. قال الكلبي: لكل كافر أخٌ من الشياطين. ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾، أي: يطلبون لهم الإغواء حتى يستمروا عليه. وقيل: يزيدونهم في الضلالة. وقرأ أهل المدينة: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ بضم الياء وكسر الميم من الإمداد، والآخرون بفتح الياء وضم الميم وهما لغتان بمعنى واحد. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، أي: لا يكفّون. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا الإنس يقصرون عمّا يعملون من السيّئات ولا الشياطين يمسكون عنهم، فعلى هذا قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ من فعل المشركين والشياطين جميعاً. قال الضحاك ومقاتل: يعني المشركين لا يقصرون عن الضلالة ولا يبصرونها، بخلاف ما قال المؤمنين: تذكروا فإذا هم مبصرون.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾، يعني: إذا لم تأت المشركين بآية، ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾، هلاّ افتعلتها وأنشأتها من قِبَلِ نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجتبيتُ الكلام إذا اختلقته. قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون

النبيّ ﷺ الآيات تعنتاً فإذا تأخرت اتهموه وقالوا: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾؟ أي: هلاّ أحدثتها وأنشأتها من عندك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾، ثم قال: ﴿هَـٰذَا﴾، يعني: القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾، حجج وبيان وبرهان؟ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، واحدتها بصيرة، وأصلها ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان، فيهتدي به يقول: هذا دلائل تقودكم إلى الحق. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٢٠٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فذهب جماعة إلى أنها في القراءة في الصلاة.

رُوي عن أبي هريرة أنهم كانوا يتكلّمون في الصلاة بحوائجهم فأُمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن.

وقال قوم: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام. روى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنّة والنار. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال: أمَا آن لكم أن تفقهوا وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله؟ وهذا قول الحسن والزهري والنخعي: أن الآية في القرآن في الصلاة. وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد: إن الآية في الخطبة، أُمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة. وقال سعيد بن جبير: هذا في الإنصات يوم الأضحى والفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام. وقال عمر بن عبد العزيز: الإنصات لقول كلّ واعظ. والأول أولاها، وهو أنها في القراءة في الصلاة لأنّ الآية مكيّة والجمعة وجبت بالمدينة. واتفقوا على أنه مأمور بالإنصات حالة ما يخطب الإمام.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ثنا الشافعي ثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة:

أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قُلْتَ لصاحبِكَ أَنْصِتْ والإمامُ يخطبُ يوم الجمعة فقد لغوت».

واختلف أهل العلم في القراءة خلف الإمام في الصلاة فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ. رُوي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ، وهو قول الأوزاعي والشافعي. وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه القراءة ولا يقرأ إذا جهر. يروىٰ ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر، يُروى ذلك عن جابر، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي، وتمسّك من لا يرى القراءة خلف الإمام بظاهر هذه الآية، ومن أوجبها قال الآية في غير الفاتحة وإذا قرأ الفاتحة يتبع سكتات الإمام ولا ينازع الإمام في القراءة، والدليل عليه ما:

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي ثنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا هناد، ثنا عبدة بن سليمان، عن محمدبن إسحاق عن مكحول، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:

صلّى النبيُّ ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إنّي أراكم تقرؤون وراءَ إمامِكم»؟ قال: قلنا: يا رسول الله إيْ والله، قال: «لا تفعلوا إلاّ بأمّ القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها».

(٢٠٥) قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾، قال ابن عباس: يعني بالذكر: القراءة في الصلاة، يريد يقرأ سرّاً في نفسه، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، خوفاً، أي: تتضرّع إلي وتخاف مني هذا في صلاة السرّ. وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، أراد في صلاة الجهر لا تجهر جهراً شديداً بل في خفض وسكون، تُسمعُ مَنْ خلفك. وقال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرّع إليه في الدعاء والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح بالدعاء. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾، أي: والبكر والعشيات، واحد آصال: أصيل، مثل يمين وأيمان، وهو ما بين العصر والمغرب.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾،

سُورَةُ الأَنفَال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

يعني الملائكة المقرّبين بالفضل والكرامة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، لا يتكبّرون، ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، وينزهونه ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنبأنا أحمد بن الحسن الحيري أنبأنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب، ثنا يعلى بن عبيد عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السّجدةَ فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله أُمِرَ هذا بالسجودِ فسجدَ فَلَهُ الجنّةُ، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فليَ النار».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرّيّاني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن يوسف ثنا الأوزاعي عن الوليد بن هشام عن معدان قال: سألتُ ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قلت: حدثني حديثاً ينفعني اللّهُ به، قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يسجدُ للّهِ سجدةً إلاّ رفعه اللّهُ بها درجةً وحطَّ عنه بها سيئةً».

[والله سبحانه أعلم بالصواب].

❁ ❁ ❁

سورة الأنفال

مدنية وهي خمس وسبعون آية.

قيل: إلاّ سبع آيات من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [٣٠ ـ ٣٧]، إلى آخر سبع آيات، فإنها نزلت بمكة. والأصح أنها نزلت بالمدينة، وإن كانت الواقعة بمكة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية.

قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية هو أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ أتى مكان كذا فله من النفل كذا ومَنْ قَتل قتيلاً فله كذا ومَنْ أسر أسيراً فله كذا»، فلما التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبيّ ﷺ، فقال الأشياخ: كنّا رِدْءاً لكم ولو انهزمتهم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، وقام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله إنّك وعدت أنّ من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا وإنّا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين، فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله ما منعنا أن نطلب ما يطلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو، ولكن كرهنا أن تعرى مصافك فيعطف عليه خيل من المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله ﷺ. فقال سعد: يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك، فإن تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لك ولا لأصحابك كبير شيء، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

وقال ابن إسحاق: أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه: هو لنا قد كان رسول الله ﷺ نفل كلَّ امرىء ما أصاب، [وقال الذين يقاتلون العدو: لولا نحن ما أصبتموه]، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ: لقد رأينا أن نقتل العدو وأن نأخذ المتاع ولكنّا خفنا على رسول الله ﷺ كرة العدو، فقمنا دونه فما أنتم بأحق به منّا.

وروى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا

فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بيننا عن بواء ـ يقول على السّواء ـ وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص بن أمية، وأخذت سيفه وكان يسمّى ذا الكثيفة، فأعجبني فجئت به إلى النبيّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين فهبْ لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اذهب فاطرحه في القبض»، فطرحته ورجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلاحي، وقلت: عسى أن يعطى هذا السيف من لم يبل ببلائي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني الرسول ﷺ وقد أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية. فخفت أن يكون قد نزل فيّ شيء فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قال: «يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهبْ فخذه فهو لك».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المغانم لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء، وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمن حبس منه إبرةً أو سِلكاً فهو غلول.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، أي: عن حكم الأنفال وعلمها، وهو سؤال استخبار لا سؤال طلب. وقيل: هو سؤال طلب، قاله الضحاك وعكرمة. وقوله: ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، أي: من الأنفال، عن بمعنى من. وقيل: عن صلة، أي: يسألونك الأنفال، وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف عن. والأنفال: الغنائم، واحدها نفل، وأصله الزيادة، يقال نفلتك وأنفلتك أي زدتك. سمّيت الغنائم أنفالاً لأنها زيادة من الله لهذه الأمة على الخصوص. وأكثر المفسّرين على أن الآية في غنائم بدر.

وقال عطاء: هي ما شذّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع فهو للنبيّ ﷺ يصنع به ما شاء.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، يُقسمانها كما شاءا، واختلفوا فيه، فقال مجاهد وعكرمة والسدي: هذه الآية منسوخة بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]. كانت الغنائم يومئذ للنبيّ ﷺ فنسخها الله عزّ وجلّ بالخُمس. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة غير منسوخة، ومعنى الآية: قل الأنفال لله مع الدنيا والآخرة وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى، أي: الحكم فيها لله ولرسوله، وقد بيّن الله مصارفها في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: اتقوا الله بطاعته وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، يقول ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، خافت وفرقت قلوبهم. وقيل: إذا خُوّفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، تصديقاً ويقيناً. وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادةً ونقصاناً، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله عزّ وجلّ وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائضَ وشرائط وشرائعَ وحدوداً وسُنناً فمن استكملها استكمل الإيمان ومنْ لم يستكملْها لم يستكملِ الإيمان. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يُفوّضون إليه أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

(٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، يعني يقيناً. قال ابن عباس: بَرِؤُوا من الكفر. وقال مقاتل: حقاً لا شكّ في إيمانهم. وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوماً مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقّق وجود تلك الأوصاف فيه.

وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل

الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنّة والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنتَ تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟

وقال علقمة: كنّا في سفر فلقينا قوماً فقلنا: مَنِ القوم؟ قالوا: نحن المؤمنون حقاً، فلم ندرِ ما نُجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا، قال: فما رددتم عليهم؟ قلنا: لم نردّ عليهم شيئاً، قال: أفلا قلتم أمِنْ أهل الجنّة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنّة.

وقال سفيان الثوري: من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله، ثم لم يشهد أنه في الجنّة فقد آمن بنصف الآية دون النصف.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال عطاء: يعني درجات الجنّة يرتقونها بأعمالهم. وقال الربيع بن أنس: سبعون درجة ما بين كل درجتين حَضرُ الفرس المضمّر سبعين خريفاً. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، حسن يعني ما أعد [الله] لهم في الجنّة.

⑤ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾، اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، قال المبرد: تقديره الأنفال لله والرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا. وقيل: تقديره: امضِ لأمر الله في الأنفال وإن كرهوا كما أمضيت لأمر الله في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون. وقال عكرمة: معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق خير لكم، وإن كرهه فريق منكم. وقال مجاهد: معناه كما أخرك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم، كذلك يكرهون القتال ويجادلون فيه. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، تقديره: وَعْدُ الله الدرجات لهم حقٌّ ينجزه الله عزّ وجلّ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، فأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل: الكاف بمعنى على، تقديره: امضِ على الذي أخرجك ربّك. قال أبو عبيدة: هي بمعنى القسم مجازاً والذي أخرجك، لأن ما في موضع الذي، وجوابه ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، وعليه يقع القسم، تقديره: يجادلونك والله الذي أخرجك ربّك من بيتك بالحق. وقيل: الكاف بمعنى إذْ تقديره: واذكرْ إذْ أخرجك ربّك. وقيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة. والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربك بالخروج من بيتك إلى المدينة بالحق، قيل: بالوحي لطلب المشركين، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، منهم، ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾.

⑥ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾، أي: في القتال، ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾، وذلك أن المؤمنين لمّا أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لم تُعلمنا أنا نلقى العدو فنستعدّ لقتالهم، وإنّما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعدما تبيّن لهم أنك ما تصنع إلاّ ما أمرك الله، وتبيّن صدقك في الوعد، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ لشدّة كراهيتهم القتال، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون يجادلونك في الحق بعدما تبيّن. قال ابن زيد: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إيّاه وهم ينظرون.

⑦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

قال ابن عباس وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش في أربعين راكباً من كفار قريش فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري، وفيها تجارة كثيرة، وهي اللّطيمة، حتى إذا كانوا قريباً من بدر، فبلغ النبيّ ﷺ ذلك فندب أصحابه إليه وأخبرهم بكثرة المال وقلّة العدد، وقال: هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجُوا إليها لعلّ الله أن يُنفلكموها، فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبيّ ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم في أصحابه، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة.

وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها فبعث إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة، فاكتمْ عليّ ما أحدثك، قال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مَثُل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت وتطايرت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فِلْقَة، فقال العباس: والله إنّ هذه لرؤيا رأيت! فاكتميها ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إيّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدّثت به قريش.

قال العباس: فغدوتُ أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، قال: فلما فرغت من طوافي أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبيّة فيكم؟ قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت [أختك] عاتكة؟ قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك ما قالت حقاً فسيكون، وإنْ تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيئاً نكتب عليكم كتاباً إنكم أكذب أهل بيت في العرب، فقال العباس: والله ما كان مني إليه كبير إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثم قد تناول النساء [بالوقيعة] وأنت تسمع، ثم لم تكن عندك غيرة لشيء مما سمعت؟ قال: قلت والله قد فعلت ما كان مني إليه من كبير، وايم الله لأتعرضنّ له فإن عاد لأكفينّكه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمشي نحوه أتعرّضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر، إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ، قال: قلت في نفسي: ما له لعنه الله؟ أكلُّ هذا فرقاً مني أن أشاتمه، قال: فإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره [وقد]، جدع أنف بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللّطيمة اللّطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّدٌ في أصحابه، ولا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث، قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجهّز الناس سراعاً فلم يتخلّف من أشراف قريش أحد إلاّ أن أبا لهب قد تخلّف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة، فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحارث، فقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم. فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر، وقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه في ليال مضت من شهر رمضان حتى إذا بلغ وادياً يقال له ذَفِران، فأتاه الخبر عن مسيرة قريش ليمنعوا عيرهم فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم.

وبعث رسول الله ﷺ أيضاً عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى عبد الله بن أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله ﷺ، فنزل جبريل وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإما قريشاً، وكانت العير أحبّ إليهم.

فاستشار النبيّ ﷺ أصحابه في

الجزء التاسع — سورة الأنفال

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٧٨

طلب العير وحرب النفير، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امضِ لِما أراك الله فنحن معك، فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس»، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليهم نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم.

فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فإنّا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئتنا به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً إنّا لصبرٌ عند الحرب صدق في اللقاء، ولعلّ الله تعالىٰ يُريك منّا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

قال ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان»، قال: ويضع يده على الأرض ها هنا وهٰهنا، قال: فما ماط أحدٌ عن موضع يد رسول الله ﷺ، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، أي: الفريقين إحداهما أبو سفيان مع العير والأخرى أبو جهل مع النفير، ﴿وَتَوَدُّونَ﴾، أي: تريدون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، يعني العير التي ليس فيها قتال. والشوكة: الشدّة والقوة. ويقال: السلاح. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾، أي: يُظهره ويُعليه، ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، بأمره إياكم بالقتال. وقيل: بعداته التي سبقت من إظهاره الدين وإعزازه، ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَٰفِرِينَ﴾، أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد، يعني: كفّار العرب.

﴿٨﴾ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾، ليثبت الإسلام، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَٰطِلَ﴾، أي: يفني الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، المشركون. وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من شهر رمضان.

﴿٩﴾ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، تستجيرون به من عدوّكم وتطلبون منه الغوث والنصر.

ورُوي عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فدخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستقبل القبلة ومدّ يده فجعل يهتف بربّه عزّ وجلّ: «اللّهمّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللّهمّ إنّك إنْ تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما

زال يهتف بربّه عزّ وجلّ مادّاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتُك ربّك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، مرسلٌ إليكم مدداً وردءاً لكم، ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

قرأ أهل المدينة ويعقوب: ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدال، أي: أردف الله المسلمين وجاء بهم مدداً. وقرأ الآخرون بكسر الدال أي متتابعين بعضهم في إثر بعض، يقال: أردفته وردفته بمعنى تبعته.

يُروى أنه نزل جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم بيض، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم.

ورُوي أن النبيّ ﷺ لمّا ناشد ربّه عزّ وجلّ وقال أبو بكر: إن الله منجزٌ لك ما وعدك فخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه، فقال: «يا أبا بكر أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا عبد الوهّاب ثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس:

أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فرسهِ عليه أداةُ الحرب».

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً.

ورُوي عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدراً أنه قال بعدما ذهب بصره: لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعبَ الذي خرجت منه الملائكة.

(١٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾، يعني: الإمداد بالملائكة، ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، أي: بشارة، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يغشاكم﴾ بفتح الياء، ﴿النُّعَاسُ﴾ رفع على أن الفعل له؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. قرأ أهل المدينة: ﴿يُغْشِيكُمُ﴾ بضم الياء وكسر الشين خفيف، ﴿النُّعَاسَ﴾ نصب؛ كقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [يونس: ٢٧]، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الشين مشدّداً، ﴿النُّعَاسَ﴾ نصب على أن الفعل لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤]، والنعاس: النوم الخفيف. ﴿أَمَنَةً﴾ آمناً ﴿مِّنْهُ﴾، مصدر أمنت أمناً وأمنة وأماناً. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة وسوسة من الشيطان. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر وأصبح المسلمون بعضهم مُحْدِثين وبعضهم مُجْنِبِينَ، وأصابهم الظمأ ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبيّ الله، وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عزّ وجلّ عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضّؤوا وسقوا الركاب، وملؤوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبّد الأرض، حتى ثبتت عليهم الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من الأحداث والجنابة.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، ووسوسته، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، باليقين والصبر، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، حتى لا تسوخ في الرمل بتلبيد الأرض. وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوّة القلب.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾، الذين أمدّ بهم المؤمنين، ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، بالعون والنصر، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: قوّوا قلوبهم، قيل: ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبّتوهم بقتالكم معهم المشركين. وقال مقاتل: أي:

بشروهم بالنصر، وكان المَلَكُ يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم. ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، قال عطاء: يريد الخوف من أوليائي، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: هذا خطاب مع الملائكة، وهو متصل بقوله: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾، قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحاك: معناه فاضربوا الأعناق، وفوق صلة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق. فوق بمعنى: على. ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قال عطية: يعني كل مفصل. وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني الأطراف والبَنَانُ جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين. قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعلم كيف تُقتل الآدميون فعلّمهم الله عزّ وجلّ.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا زهير بن حرب ثنا عمر بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمار ثنا أبو زميل هو سماك الحنفي ثنا عبد الله بن عباس قال:

بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشُقّ وجهه كضربة السوط فاخضرّ ذلك أجمعُ، فجاء الأنصاري فحدّث ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «صدقتَ ذلك من مَدَدِ السماء الثالثة». فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

ورُوي عن أبي داود المازني وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

ورَوى أبو أُمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقال عكرمة: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنتُ غلاماً للعباس بن عبد المطّلب رضي الله عنه، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمتْ أمُّ الفضل وأسلمتُ وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرّق في قومه، وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلّف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر كَبَتَه الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزّاً وكنتُ رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب قد قدم، فقال أبو لهب: إليّ يا ابن أخي فعندك الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، قال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إن كان إلاّ أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايْمُ الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، لا والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، فثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجّة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيّده؟ فقام مُولّياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته.

وروى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: كيف أسرتَ العباس؟ قال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه قبل

الجزء التاسع — سورة الأنفال

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧٩

ذلك ولا بعده، هيئتُهُ كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

﴿١٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾، خالفوا الله، ﴿وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار ببدر، ﴿فَذُوقُوهُ﴾، عاجلاً، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: واعلموا وأيقنوا أن للكافرين أجلاً في المعاد، ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو أسير في وثاقه: لا يصلح لك، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَهْ»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾، أي: مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال: والزحف مصدر ولذلك لم يجمع؛ كقولهم: قوم عدل ورضاً. قال الليث: الزحف جماعة يزحفون إلى عدوٍّ لهم بمرّة، فهم [الزحف و] الجمع الزحوف. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، يقول: فلا تولوهم ظهوركم، أي: لا تنهزموا فإن المنهزم يولي دُبره.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، ظهره، ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾، أي: منعطفاً يري من نفسه الانهزام، وقصده طلب الغرة وهو يريد الكرة، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾، أي: منضماً صائراً إلى جماعة من المؤمنين يريد العود إلى القتال. ومعنى الآية النهي عن الانهزام من الكفار والتولّي عنهم، إلاّ على نية التحرّف للقتال والانضمام إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ويعودون إلى القتال، فمن ولّى ظهره لا على هذه النية لحقه الوعيد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبيّ ﷺ كان معهم، ولم يكن لهم فئة يتحيّزون إليها دون النبيّ ﷺ، ولو انحازُوا لانحازُوا إلى المشركين، فأمّا بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض، فيكون الفار متحيزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك. وقال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله النار لمن فرّ يوم بدر، فلما كان يوم أُحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُنين بعده فقال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

وقال عبد الله بن عمر: كنّا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرّارون، قال: «بل أنتم الكرّارون، أنا فئة المسلمين».

وقال محمد بنُ سيرين: لما قُتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ كنت له فئة فأنا فئة كل مسلم. وقال بعضهم: حكم الآية عام في حقّ كل من ولّى منهزماً.

جاء في الحديث: «من الكبائر الفِرَارُ من الزحف».

وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفرّوا من مثليهم فنسخت تلك إلاّ في هذه العدة، وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفرّوا ويولّوا ظهورهم إلاّ متحرّفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة، وإن كانوا أقلّ من ذلك جاز لهم أن يُولّوا ظهورهم وينحازوا عنهم. قال ابن عباس: مَنْ فرّ من ثلاثة فلم يفر، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ.

﴿١٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، قال مجاهد: سبب نزول هذه الآية أنهم لمّا انصرفُوا عن القتال كان الرجل يقول: أنا قتلتُ فلاناً ويقول الآخر مثله، فنزلت هذه الآية. ومعناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوّتكم ولكنّ الله قتلهم بنصرته إيّاكم وتقويته لكم. وقيل: ولكن الله قتلهم بإمداد الملائكة. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال أهل التفسير والمغازي: ندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، ووردتْ عليهم روايا قريش، وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعيد، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فقال لهما: «أين قريش»؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العقنقل، فقال رسول الله ﷺ: «كَم القوم»؟ قالا: كثير، قال: «ما عِدّتُهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلّ يوم»؟ قالا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسع مائة إلى الألف»، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري ابن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأميّة بن خلف، ونبيه ومُنبّه ابنا الحجاج وسُهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»، فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال لهم: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّكَ وتُكذّب رسولك، اللّهمّ فنصرَكَ الذي وعدتني»، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذْ قبضةً من تراب فارمِهم بها، فلمّا التقى الجمعان تناول رسول الله ﷺ كفّاً من حصى عليه تراب فرمى به في وجوه القوم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فلم يبق منهم مشركٌ إلاّ ودخل في عينيه وفمه ومنخريه منها شيء، فانهزموا وردَفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

وقال قتادة وابن زيد: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاثَ حصيات فرمَى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فانهزموا، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، إذْ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفاً من الحصا إلى وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلاّ ويصيبها منه شيء. وقيل: معنى [الآية] وما بلّغت إذْ رميت ولكنّ الله بلّغ. وقيل: وما رميت بالرعب في قلوبهم إذْ رميت بالحصباء ولكنّ الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، أي: ولينعم على المؤمنين نعمةً عظيمةً بالنصر والغنيمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتكم.

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، قيل: فيه إضمار، أي: واعلموا أن الله ﴿مُوهِنُ﴾، مضعف، ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة: «موهّنٌ» بالتشديد والتنوين، ﴿كَيْدَ﴾ نصب، وقرأ الآخرون [موهن] بالتخفيف والتنوين إلاّ حفصاً، فإنه يضيفه ولا ينون ويخفض ﴿كَيْدِ﴾.

(١٩) قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، وذلك أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ قال يوم بدر لمّا التقى الناس: اللّهمّ أيّنا أقطعنا للرحم وآتانا بما لم نعرف فأحِنْهُ الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يعقوب بن إبراهيم [ثنا إبراهيم] بن سعد عن أبيه عن جده قال:

قال عبد الرحمٰن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ فقال: عاهدتُ اللّهُ عزّ وجلّ إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله، فما سرّني أني بين رجلين بمكانهما فأشرت لهما إليه فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد

المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى ثنا ابن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «مَنْ ينظرُ لنا ما فعل أبو جهل»؟، قال: فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه.

[قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر قال: قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة أمر بأبي جهل بن هشام أن يُلتمس في القتلى، فقال: «اللّهمّ لا يعجزنّك»، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، قال: وضربني ابنُه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلّقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامّة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثمّ تمطّيت بها حتى طرحتها، ثم مرّ بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، فمرّ عبد الله بن مسعود، قال عبد الله بن مسعود: وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدوّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني أعْمَدُ من رجل قتلتموه، فأخبرني لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله.

ورُوي عن ابن مسعود أنّه قال: قال لي أبو جهل: لقد ارتقيت يا رُوَيْعِيَ الغنم مرتقاً صعباً، ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هذا رأس [عدوّ الله] أبي جهل، فقال: «الله الذي لا إلٰه غيره»؟ قلت: نعم والذي لا إلٰه غيره، ثم ألقيته بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله عزّ وجلّ]. وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبيّ ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللّهمّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أفضل الدينين، ففيه نزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

وقال عكرمة: قال المشركون: والله لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، أي: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء.

وقال أُبيّ بن كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ، قال الله تعالىٰ للمسلمين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن [أحمد] ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا الفضل بن موسى ثنا إسماعيل بن [أبي] خالد عن قيس عن خباب رضي الله عنه قال:

شكونا إلى النبيّ ﷺ وهو متوسّد بردة في ظل الكعبة، [وقد لقينا من المشركين شِدّة]، فقلنا: ألا تدعو الله [لنا، ألا تستنصر الله لنا]، فجلس محماراً لونه أو وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم يؤخذ بالرجل فيحفر له في الأرض ثم ليجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه، ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ولكنكم تعجلون».

قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾، يقول الله للكفار: إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيّه ﷺ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟﴾، لحربه وقتاله، ﴿نَعُدْ﴾ بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر. وقيل: وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نعد للفتح لمحمد ﷺ، ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾، جماعتكم، ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتح الهمزة، أي: ولأن الله مع المؤمنين، كذلك ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾، وقيل: هو عطف على قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وقرأ الآخرون: ﴿وإن الله﴾ بكسر الألف على الابتداء.

﴿٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾، أي: لا تُعرضوا عنه،

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، القرآن ومواعظه.

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون، أي: لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا.

(٢٢) قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾، أي: شرّ من دبّ على وجه الأرض من خلق الله، ﴿عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾، عن الحق فلا يسمعونه ولا يقولونه، ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَمْرَ الله عزّ وجلّ سمّاهم ﴿الدَّوَابِّ﴾ لقلّة انتفاعهم بعقولهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صُمٌّ بُكمٌ عُمي عمّا جاء به محمد، فقُتلوا جميعاً بأُحد، وكانوا أصحاب اللّواء لم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة.

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لأسمعهم سماع التفهّم والقبول، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، بعد أن علم في غيبه أنّ لا خير فيهم ما انتفعوا بذلك، ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره. وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: أحيي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوّة فنؤمن بك، فقال [لهم] الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ كلام قصي بعد إحيائه لهم ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

(٢٤) قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، يقول: أجيبوهما بالطاعة، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، الرسول ﷺ، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أي: إلى ما يُحييكم. قال السدي: هو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان. وقال قتادة: هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين. وقال مجاهد: هو الحق. وقال ابن إسحاق: هو الجهاد أعزّكم الله به بعد الذلّ. وقال القتيبي: بل الشهادة، قال الله تعالىٰ في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وروينا أن النبيّ ﷺ مرّ على أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وهو يصلّي فدعاه فعجل أُبي في صلاته، ثم جاء فقال رسول الله ﷺ: «ما منعك أن تجيبني إذ دعوتُك»؟ قال: كنت في الصلاة، قال: «أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»؟ [فقال: لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلاّ أجبت وإن كنت مصلياً].

قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان. وقال الضحاك: يحول بين الكافر والطاعة، ويحول بين المؤمن والمعصية. وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يعمل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه. وقيل: هو أنّ القوم لمّا دُعوا إلى القتال في حالة الضعف ساءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الله الخوف أمناً والجبن جُرأةً وشجاعة. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقلّبَ القُلوبِ ثبّتْ قلبي على دينِك»، قالوا: يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «القلوبُ بينَ أصبعين من أصابع الله يُقلّبها كيف يشاء».

(٢٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾، اختباراً وبلاءً ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾، قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ ليس بجزاء محض، ولو كان جزاءً لم تدخل فيه النون، لكنه نفي، وفيه طرف من الجزاء؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٨]، وتقديره واتقوا فتنة إنْ لم تتقوها أصابتكم، فهو كقول القائل: انزل عن الدابة لا تطرحك ولا تطرحنْك، فهو جواب الأمر بلفظ النفي، معناه: إن تنزل لا تطرحك. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ ومعناه اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم قال الحسن: نزلت في عليّ وعمّار وطلحة والزبير رضي الله

وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

عنهم. قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، يعني ما كان يوم الجمل. وقال السدي ومقاتل والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل. وقال ابن عباس: أمر الله عزّ وجلّ المؤمنين أن لا يُقِرّوا المُنكر بينَ أظهرهم فيعمّهم اللّهُ بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سيف بن أبي سليمان قال: سمعت عدي بن عدي الكندي يقول: حدّثني مولىً لنا أنه سمع جدي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله لا يُعذبُ العامّةَ بعملِ الخاصة حتى يَرَوْا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن يُنكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامّة والخاصة».

وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً.

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكونُ فِتنٌ القاعدُ فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرّفَ لها تستشرفه، فمن وجد ملجأً أو معاذاً فليَعُذْ به».

قوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، يعني: العذاب، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: اذكروا يا معشر المهاجرين إذ أنتم قليل في العدد مستضعفون في أرض مكة في ابتداء الإسلام، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾، يذهب بكم الناس، يعني: كفار العرب. وقال عكرمة: كفار مكة. وقال وهب: فارس والروم، ﴿فَآوَاكُمْ﴾، إلى المدينة، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾، أي: قوّاكم يوم بدر بالأنصار. [وقال الكلبي: قوّاكم يوم بدر بالملائكة]، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: الغنائم التي أحلّها لكم ولم يُحلّها لأحدٍ قبلكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، قال السدي: كانوا يسمعون الشيءَ من رسول الله ﷺ فيفشونه، حتى يبلغ المشركين.

وقال الزهري والكلبي: نزلت الآية في أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري من بني عوف بن مالك، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم، فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه، ولم يأتِ رسول الله ﷺ وشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أبرح ولا أذوق طعاماً ولا شراباً، حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال:

«أما لو جاءني لاستغفرتُ له فأما إذا فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه»، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله، فقال النبيّ ﷺ: «يجزيك الثلث أن تصدّق به»، فنزلت فيه ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، أي: ولا تخونوا أماناتكم، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أنها أمانة. وقيل: وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة.

قال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنّته وتخونوا أماناتكم. قال ابن عباس: هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله، والأعمال التي ائتمن الله العباد عليها. قال قتادة: اعلموا أنّ دين الله أمانة فأدّوا إلى الله عزّ وجلّ ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

(٢٨) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، قيل: هذا أيضاً في أبي لبابة، وذلك أن أمواله وأولاده كانوا في بني قريظة، فقال ما قال خوفاً عليهم. وقيل: هذا في جميع الناس.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي إملاءً وأبو بكر محمد بن محمد بن علي بن الحسن الطوسي قالا: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني أنا محمد بن محمد بن زَرْمُويه حدثنا يحيى بن محمد بن غالب حدثنا [يحيى] بن يحيى حدثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة.

أن النبيّ ﷺ أُتي بصبي فقبله، وقال: «أما إنهم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وإنّهم لَمِنْ ريحانِ اللّهِ عزّ وجلّ».

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، لمن نصح الله ورسوله وأدّى أمانته.

(٢٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾، بطاعته وترك معصيته، ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، قال مجاهد: مخرجاً في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجاً في الدين من الشبهات. وقال عكرمة: نجاة أي يفرّق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بياناً. وقال ابن إسحاق: فصلاً بين الحق والباطل يُظهر الله به حقّكم، ويطفىء باطل من خالفكم. والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، يمح عنكم ما سلف من ذنوبكم، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

(٣٠) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا وإذا قالوا اللّهمّ، لأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كانا بمكّة، ولكن الله ذكرهم بالمدينة؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير: أنّ قريشاً فَرِقُوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة، ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، وكانت رؤوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأميّة بن خلف، فاعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، قالوا: ادخل فدخل، فقال أبو البختري: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدّوا باب البيت غير كوّة، تلقون إليه طعامه وشرابه وتتربّصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه، كما هلك من كان قبله من الشعراء؛ قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم والله لئن حبستموه في بيت فخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم، قالوا: صدق الشيخ النجدي.

فقال هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي: أمّا أنا فأرى أن تحملوه على بعير فتخرجوه من بين أظهركم فلا يضرّكم ما صنع ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه، فقال إبليس لعنه الله: ما هذا لكم برأي، تعتمدون عليه، تعمدون إلى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم، ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن وليستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ النجدي. فقال أبو جهل: والله لأشيرنّ عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسيطاً فتياً ثم يُعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلّها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، وبأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدي قريش ديّته، فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأياً، القول ما قال لا أرى رأياً غيره فتفرّقوا على قول أبي جهل وهم مجمعون له.

فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، فأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب أن ينام في مضجعه وقال له: «تسجّ ببردتي هذه، فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه».

ثم خرج النبيّ ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر، وخلف علياً بمكة حتى يُؤدي عنه الودائع التي كانت عنده، وكانت الودائع تودع عنده ﷺ لصدقه وأمانته، وبات المشركون يحرسون علياً في فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبيّ ﷺ. فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا علياً رضي الله عنه، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصّوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾. قال الضحاك: يصنعون ويصنع الله، والمكر التدبير وهو من الله التدبير بالحق، وقيل: يجازيهم جزاء المكر، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟﴾، يعني: النضر بن الحارث، ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وذلك أنه كان يختلف تاجراً إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم وإسفنديار، وأحاديث العجم ويمرّ باليهود والنصارى، فيراهم يركعون ويسجدون ويقرؤون التوراة والإنجيل، ويركعون ويسجدون فجاء مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلّي ويقرأ القرآن، فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم وما سطر الأولون في كتبهم. والأساطير: جمع أسطورة، وهي المكتوبة، من قولهم: سطرت أي كتبت.

(٣٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾، الآية نزلت في النضر بن الحارث من بني عبد الدار، قال ابن عباس: لما قصّ رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا إنّ هذا إلا أساطير الأولين، فقال له عثمان بن مظعون رضي الله عنه: اتقِ الله فإن محمداً يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول لا إله إلاّ الله، قال: وأنا أقول لا إله إلاّ الله، ولكن هذه بنات الله، يعني الأصنام، ثم قال: اللّهمّ إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك، ﴿ٱلْحَقَّ﴾ نصب بخبر كان، وهو عماد صلة، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، كما أمطرتها على قوم لوط، ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: ببعض ما عذبت به الأمم، وفيه نزل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وقال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر.

قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة [صبراً]

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

من قريش: طُعيمة بن عدي وعقبة بن أبي مُعيط والنضر بن الحارث.

وروى أنس رضي الله عنه أن الذي قاله أبو جهل:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن النضر، ثنا عبيدالله بن معاذ، ثنا أبي ثنا شعبة، عن عبد الحميد صاحب الزيادي، سمع أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق مِنْ عندك فأمطِرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

﴿٣٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال محمد بن إسحاق: هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، وذلك أنهم كانوا يقولون: إن الله لا يعذّبنا ونحن نستغفره، ولا يعذب أمّة ونبيّها فيها، فقال الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ يذكر جهالتهم وغرّتهم واستفتاحهم على أنفسهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، وقالوا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم قال ردًا عليهم: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾؟ وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون، وهم يصدّون عن المسجد الحرام. وقال الآخرون: هذا كلام مستأنف يقول الله عزّ وجلّ إخباراً عن نفسه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾.

واختلفوا في تأويلها، فقال الضحاك وجماعة: تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم. قالوا: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكّة، خرج من بين أظهرهم وبقيت فيها بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم خرج أولئك من بينهم فعذّبوا وأذن الله لهم في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم الله. قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: لم يعذب الله قرية حتى يخرج النبيّ منها والذين آمنوا ويلحق بحيث أمر. فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، فعذّبهم الله يوم بدر.

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: كان فيكم أمانان: وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فأمّا النبيّ ﷺ فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين، وذلك أنهم كانوا يقولون بعد الطواف: غفرانك غفرانك.

وقال يزيد بن رومان: قالت قريش: [اللّهمّ] إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللّهمّ، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. وقال قتادة والسدي: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، أي: لو استغفروا، ولكنهم لم يكونوا يستغفرون، ولو أنهم أقرّوا بالذنب واستغفروا لكانوا مؤمنين، وقيل: هذا يدعوهم إلى الإسلام والاستغفار بهذه الكلمة، كالرجل يقول لغيره: لا أعاقبك وأنت تطيعني، دعاء حتى لا أعاقبك. وقال مجاهد وعكرمة: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، أي: يسلمون.

يقول: لو أسلموا لما عُذّبوا. وروى الوالبي عن ابن عباس: وفيهم من سبق له من الله أنه يسلم ويؤمن ويستغفر، وذلك مثل أبي سفيان وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم. وروى عبد الوهّاب عن مجاهد ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، أي: وفي أصلابهم من يستغفر.

(٣٤) قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا، يريد بعد خروجك من بينهم، ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت. وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال، وأراد بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: بالسيف. وقيل: أراد بالأول عذاب الدنيا، وبهذه الآية عذاب الآخرة. وقال الحسن: الآية الأولى وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، قال الحسن: كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، أي: أولياء البيت، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ﴾، أي: أولياء البيت، ﴿إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، يعني: المؤمنين الذين يتقون الشرك، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣٥) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصفير، وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير، كأنه قال: الأصوات مكاء، والتصدية: التصفيق. قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفّرون ويصفقون. وقال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يُعارضون النبيّ ﷺ في الطواف ويستهزؤون به، ويُدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون. فالمكاء: جعل الأصابع في الشدق. والتصدية: الصفير، ومنه الصدا الذي يسمعه المصوت في الجبل. قال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمٰن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيراً.

وقال مقاتل: كان النبيّ ﷺ إذا صلّى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفّران، ورجلان عن يساره فيصفقان ليخلطوا على النبيّ ﷺ صلاته، وهم من بني عبد الدار.

قال سعيد بن جبير: التصدية صدّهم المؤمنين عن المسجد [الحرام] وعن الدين والصلاة، وهي على هذا التأويل التصددة بدالين، فقلبت إحدى الدالين ياءً كما يقال: تظنيت من الظن، وتقضى البازي إذا البازي كسر، أي تقضض البازي. قال ابن الأنباري: إنما سمّاه صلاة لأنهم أمروا بالصلاة في المسجد الحرام، فجعلوا ذلك صلاتهم، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(٣٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: ليصرفوا عن دين الله. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المُطعِمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختري ابن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيم بن حزام، وأُبيّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر.

وقال الحكم بن عتيبة: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أُحد أربعين أوقية. قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، يريد ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، ولا يظفرون، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، منهم، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، خصّ الكفار لأن منهم من أسلم.

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾، [في سبيل الشيطان]، ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾، يعني: الكافر من المؤمن فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران. وقال الكلبي: العمل الخبيث، من العمل الصالح الطيب، فيثبت على الأعمال الصالحة الجنّة، وعلى الأعمال الخبيثة النار. وقيل: يعني الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان من الإنفاق الطيّب في سبيل الله. ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: فوق بعض، ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾، أي: يجمعه. ومنه السحاب المركوم، وهو المجتمع الكثيف، فيجعله في جهنم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ردّه إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ... أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسرت

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

تجارتهم، لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

﴿٣٨﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾، عن الشرك ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام، ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، في نصر الله أنبياءه وأوليائه وإهلاك أعدائه. قال يحيى بن معاذ الرازي: توحيد يعجز عن هدم ما قبله من كفر أرجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب.

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: شرك، [و] قال الربيع: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، أي: ويكون الدين خالصاً لله لا شرك فيه، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾، عن الكفر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قرأ يعقوب «تعملون» بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾، عن الإيمان وعادوا إلى قتال أهله، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾، ناصركم ومعينكم، ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، أي: الناصر.

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية، الغنيمة والفيء اسمان لمال يصيبه المسلمون من أموال الكفار، فذهب جماعة إلى أنهما واحد. وذهب قوم أنهما يختلفان، فالغنيمة ما أصابه المسلمون منهم عُنوةً بقتال، والفيء: ما كان عن صلح بغير قتال، فذكر الله عزّ وجلّ في هذه الآية حكم الغنيمة، فقال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، فذهب أكثر المفسّرين والفقهاء إلى أن قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ افتتاح كلام على سبيل التبرّك وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أنّ سهماً من الغنيمة لله منفرداً، فإن الدنيا والآخرة كلها لله عزّ وجلّ، وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي، قالوا: سَهْمُ الله وسهم الرسول واحد. والغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة أخماس لمن قاتل عليها، وخمس لخمسة أصناف؛ كما ذكر الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وقال بعضهم: يقسم الخمس على ستة أسهم، وهو قول أبي العالية، سهم الله فيصرف إلى الكعبة. والأول أصح أن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم كان لرسول الله ﷺ في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوّة الإسلام، وهو قول الشافعي رحمه الله، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبيّ ﷺ في الكراع والسلاح. وقال قتادة: هو للخليفة بعده. وقال بعضهم: سهم رسول الله ﷺ مردود في الخمس والخمس لأربعة أصناف. قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أراد أن سهماً من الخمس لذوي القربى وهم أقارب النبيّ ﷺ. واختلفوا فيهم فقال قوم: جميع قريش. وقال قوم: هم الذين لا تحل لهم الصدقة. وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم. وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء، وإن كانوا إخوة، والدليل عليه ما:

أخبرنا عبد الوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن ابن شهاب، عن ابن المسيب، عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط

منه أحداً من بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئاً.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي، أنا مطرف بن مازن عن معمر بن راشد، عن ابن شهاب، أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال:

لـمّا قسم رسول الله ﷺ ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا وشبّك بين أصابعه».

واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم؟ فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت، وهو قول مالك والشافعي. وذهب أصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا: سهم رسول الله ﷺ وسهم ذوي القربى مردُودان في الخمس، وخمس الغنيمة لثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل. وقال بعضهم: يُعطى للفقراء منهم دون الأغنياء. والكتاب والسنة يدلاّن على ثبوته، والخلفاء بعد الرسول ﷺ كانوا يعطونه، ولا يُفضّل فقير على غني لأن النبيّ ﷺ والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة، غير أنه يعطى القريب والبعيد. وقال: يفضّل الذكر على الأنثى فيُعطى الرجل سهمين والأنثى سهماً واحداً.

قوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهو جمع اليتيم، واليتيم الذي له سهم في الخمس وهو الصغير المسلم الذي لا أب له إذا كان فقيراً، و﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، و﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة، للفارس منهم ثلاثة أسهم وللرّاجِل سهم واحد، لِما:

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا عبد الله بن يوسف أنا أبو سعيد بن الأعرابي ثنا سعدان بن نصر ثنا أبو معاوية عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر.

أنّ رسول الله ﷺ أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهماً له وسهمين لفرسه.

وهذا قول أكثر أهل العلم، وإليه ذهب الثوري، والأوزاعي، ومالك، وابن المبارك، والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: للفارس سهمان وللراجل سهم واحد، ويُرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال، ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول. وعند أبي حنيفة يتخيّر الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم، وبين أن يجعله وقفاً على المصالح. وظاهر الآية لا يفرق بين العقار والمنقول. ومن قتل مشركاً في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة. لِما رُوي عن أبي قتادة أن النبيّ ﷺ قال يوم حنين: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه». والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذي هو راكبه، ويجوز للإمام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصّهم به من بين سائر الجيش ويجعلهم أسوة الجماعة في سائر الغنيمة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامّة الجيش.

ورُوي عن حبيب بن مسلمة الفهري قال: شهدت النبيّ ﷺ نفّل الربع في البدْأة والثلث في الرجعة.

واختلفوا في أن النفل من أين يعطى؟ فقال قوم: من خمس الخمس، سهم النبيّ ﷺ، وهو قول سعيد بن المسيّب، وبه قال الشافعي. وهذا معنى قول النبيّ ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلاّ الخُمُسَ والخُمسُ مردُودٌ فيكم».

وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام

الغزاة، وهو قول أحمد وإسحاق. وذهب بعضهم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل الخمس كالسلب للقاتل. وأمّا الفيء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، بأن صالحهم على مال يؤدّونه ومال الجزية، وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت واحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كله فيء.

ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله ﷺ في حياته. قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله قد خصّ رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله عزّ وجلّ.

واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال قوم: هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان، أحدهما: للمقاتلة الذين أُثبتتْ أساميهم في ديوان الجهاد، لأنهم القائمون مقام النبيّ ﷺ في إرهاب العدوّ. والقول الثاني: أنه لمصالح المسلمين، ويُبدأ بالمقاتلة فيُعطون منهم كفايتهم، ثم بالأهم فالأهم من المصالح. واختلف أهل العلم في تخميس الفيء، فذهب الشافعي إلى أنه يخمس خمسه لأهل الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح. وذهب الأكثرون إلى أن الفيء لا يُخمّس بل مصرفُ جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق.

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدي عبد الصمد بن عبدالرحمٰن البزاز أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبري، ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن الزهري، عن مالك بن أوس بن الحَدَثَان أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما على وجه الأرض مسلم إلاّ له في هذا الفيء حق، إلاّ ما ملكت أيمانكم.

وأخبرنا أبو سعيد الطاهري أنبأنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمٰن البزاز أنبأنا محمد بن زكريا العذافري أنبأنا أبو إسحاق الدبري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ حتى بلغ: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، فقال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ حتى بلغ: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الحشر: ٧]، حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ [الحشر: ٨]، ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامّة، فلئن عشت، فليأتينّ الراعي وهو بِسَرْوِ حِمْيَر نصيبهُ منها، لم يعرق فيها جبينه.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، قيل: أراد ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، يأمر فيه بما يريد، فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، يعني: يوم بدر، فرّق الله فيه بين الحقّ والباطل وهو ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، على نصركم مع قلّتكم وكثرتهم.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنتُم﴾، أي: إذ أنتم نزول يا معشر المسلمين، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا: تأنيث الأدنى، ﴿وَهُم﴾، يعني عدوّكم من المشركين، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، بشفير الوادي الأقصى من المدينة، والقصوى تأنيث الأقصى. قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿بالعِدوة﴾ بكسر العين فيهما والباقون بضمّها، وهما لغتان كالكِسوة والكُسوة والرِّشوة والرُّشوة. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾، يعني: العير يريد أبا سفيان وأصحابه، ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، أي: في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، على ثلاثة أميال من بدر، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾، وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها، فالتقوا على غير ميعاد، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾، لقلّتكم وكثرة عدوّكم،

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

﴿وَلَٰكِن﴾ الله جمعكم على غير ميعاد، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، أي: ليموت من يموت على بيّنة رآها وعبرة عاينها وحجّة قامت عليه. ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، ويعيش من يعيش على بيّنة لوعده: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال محمد بن إسحاق: ليكفر من كفر بعد حجّة قامت عليه، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، فالهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان. وقال قتادة: ليضلّ من ضلّ عن بينة، ويهتدي من اهتدى على بينة. قرأ أهل الحجاز وأبو بكر ويعقوب ﴿حَيِيَ﴾ بيائين مثل «خشي»، وقرأ الآخرون بياء واحدة مشددة، لأنه مكتوب بياء واحدة. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾، لدعائكم، ﴿عَلِيمٌ﴾، بنيّاتكم.

﴿٤٣﴾ قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، يريك يا محمد المشركين، ﴿فِي مَنَامِكَ﴾، أي: في نومك. وقال الحسن: في منامك أي في عينك، لأن العين موضع النوم. ﴿قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾، لجبنتم ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾، أي: اختلفتم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾، أي: في الإحجام والإقدام، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، أي: سلّمكم من المخالفة والفشل، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. قال ابن عباس: علم ما في صدوركم من الحبّ لله عزّ وجلّ.

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، قال مقاتل: وذلك أن النبيّ ﷺ رأى في المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾، يا معشر المؤمنين ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت فارجعوا، فقال أبو جهل: الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور، فلا تقتلوهم، واربطوهم بالحبال. يقوله من القدرة التي في نفسه.

قال الكلبي: استقلّ بعضهم بعضاً ليجترؤوا على القتال، فقلّل المشركين في أعين المؤمنين لكي لا يجبنوا، وقلّل المؤمنين في أعين المشركين لكي لا يهربوا، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ من إعلاء الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله، ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ كائناً، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾، أي: جماعة كافرة ﴿فَاثْبُتُوا﴾، لقتالهم، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: ادعوا الله بالنصرة والظفر بهم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: كونوا على رجاء الفلاح.

﴿٤٦﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾، لا تختلفوا، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾، أي: تجبنوا وتضعفوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، قال مجاهد: نصرتكم. وقال السدي: جراءتكم وجدكم. وقال مقاتل بن حيان: حدّتكم. وقال النضر بن شميل: قوّتكم. وقال الأخفش: دولتكم. والريح ها هنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبّت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد. قال قتادة وابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قطّ إلا بريح يبعثها الله عزّ وجلّ تضرب وجوه العدوّ. ومنه قول النبيّ ﷺ:

«نُصرتُ بالصَّبا وأهلكتْ عادُ بالدبور». وعن النعمان بن مُقَرِّن قال: شهدت مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أحمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا معاوية بن عمرو ثنا أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتباً له قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى فقرأته. أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس لا تتمنّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف»، ثم قال: «اللّهمّ مُنزّلَ الكتاب ومُجريَ السحاب وهَازِمَ الأحزاب اهْزِمْهُمْ وانصرنا عليهم».

(٤٧) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾، فخراً وأشراً، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، قال الزجاج: البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل ليرى وإبطان القبيح، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ هذه قريشٌ قدْ أقبلتْ بخيلائها وفخرها تُجادِلُكَ وتُكذّبُ رسولَكَ، اللّهمّ فنصرُكَ الذي وعدتني»، قالوا: لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرزَ عِيرَه أرسل إلى قريش أنكم إنّما خرجتُم لتمنعوا عِيركم فقد نجّاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيمَ بها ثلاثاً فننحر الجزور ونُطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً، فوافوها فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيّه ﷺ.

(٤٨) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، وكان تزيينه أن قريشاً لما اجتمعت للسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته فتبدّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، ﴿وَقَالَ﴾ لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، أي: مجير لكم من كنانة، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾، أي: التقى الجمعان رأى إبليس أثر الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، قال الضحاك: ولّى مدبراً. وقال النضر بن شميل: رجع القهقرى على قفاه هارباً.

قال الكلبي: لما التقوا كان إبليس في صفّ المشركين على صورة سراقة آخذاً بيد الحارث بن هشام، فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فجعل يمسكه فدفع في صدره وانطلق هارباً وانهزم الناس، فلما قدموا مكّة قالوا: هزم الناسَ سرقةُ فبلغ ذلك سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان.

وقال الحسن في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، قال: رأى إبليس جبريل معتجراً ببرد يمشي بين يدي النبيّ ﷺ، وفي يده اللجام يقود الفرس، ما ركب بعد.

وقال قتادة: كان إبليس يقول: إني أرى ما لا ترون وصدق. وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، وكذب والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوّة به ولا مِنعة فأوردهم وأسلمهم، وذلك عادة عدوّ الله لمن أطاعه إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرّأ منهم. وقال عطاء: إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك.

وقال الكلبي: خاف أن يأخذه جبريل عليه السلام ويُعرّف حاله فلا يطيعوه. وقيل: معناه إني أخاف الله، أي: أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، قيل: معناه إني أخاف الله عليكم والله

شديد العقاب. وقيل: انقطع الكلام عند قوله أخاف الله، ثم يقول الله: والله شديد العقاب.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك عن إبراهيم بن أبي عُلَيَّة، عن طلحة بن عبد الله بن كُريز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُؤي الشيطانُ يوماً هو فيه أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منه يوم عرفة، وما ذاك إلاّ لما يرى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلاّ ما كان من يوم بدر»، فقيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو يَزع الملائكة»، هذا حديث مرسل.

(٤٩) قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، شكّ ونفاق، ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، يعني: غرّ المؤمنين دينُهم، هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة قد أسلموا، وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر، أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا إلى قلّة المسلمين ارتابوا وارتدّوا، وقالوا: غرّ هؤلاء دينُهم، فقتلوا جميعاً منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، والعاص بن منبه بن الحجاج. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، قوي يفعل بأعدائه ما يشاء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوّي بين وليّه وعدوّه.

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾، أي: يقبضون أرواحهم. اختلفوا فيه، قيل: هذا عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار [وأدبارهم] بسياط النار. وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر كانت الملائكة يضربون، ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، قال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد استاههم ولكن الله حَيِيّ يكني. قال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد ما أقبل منهم وما أدبر، أي: يضربون أجسادهم كلها، والمراد بالتّوفي القتل. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: وتقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق. وقيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار، فتلتهب النار في جراحاتهم، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذاب الحريق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون لهم ذلك بعد الموت.

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك الضرب الذي وقع بكم، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: بما كسبت أيديكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون. قال ابن عباس: هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذّبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصدق فكذّبوه، فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أراد أن الله تعالىٰ لا يغيّر ما أنعم على قوم حتى يغيّروا هم ما بهم بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غيّر الله ما بهم، فسلبهم

الجزء العاشر — سورة الأنفال

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١)

١٨٤

النعمة. وقال السدي: نعمة الله محمد ﷺ أنعم الله به على قريش وأهل مكة، فكذّبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، كصنيع آل فرعون، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من كفار الأمم، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، أهلكنا بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالمسخ، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالغرق، فكذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف، لمّا كذّبوا بآيات ربهم، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾، يعني: الأوّلين والآخرين.

﴿٥٥﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال الكلبي ومقاتل: يعني يهود بني قريظة، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿٥٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾، يعني: عاهدتهم، وقيل: عاهدت بعضهم. وقيل: أدخل ﴿من﴾ لأن معناه أخذت منهم العهد، ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾، وهم بنو قريظة، نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبيّ ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة، فوافقهم على مخالفة النبيّ ﷺ، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، لا يخافون الله تعالىٰ في نقض العهد.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾، تجدنهم، ﴿فِى ٱلْحَرْبِ﴾، قال مقاتل: إن أدركتهم بالحرب وأسرتهم، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، قال ابن عباس: فنكّل بهم من ورائهم. وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم. وأصل التشريد: التفريق والتبديد، معناه: فرّق بهم جمع كل ناقض، أي: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك وجاؤوا لحربك فعلاً من القتل والتنكيل، يَفرَقُ منك ويخافك مَنْ خلفهم من أهل مكة واليمن، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، يتذكّرون ويتّعظون ويعتبرون فلا ينقضون العهد.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾، أي: تعلمن يا محمد، ﴿مِن قَوْمٍ﴾، معاهدين، ﴿خِيَانَةً﴾، نقضَ عهد بما يظهر لكم من آثار الغدر كما ظهر من قريظة والنضير، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾، فاطرح لهم عهدهم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، يقول: أعلمهمْ قبلَ حربك إيّاهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء، فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي، أنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة السجزي، أنا أبو سليمان الخطابي أنا أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزاق بن داسة التمار، ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ثنا حفص بن عمر النمري ثنا شعبة عن أبي الفيض عن سُليم بن عامر رجل من حِمْيَر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاءً لا غدراً، فنظر فإذا هو عمرو بن عبسة، فأرسل إليها معاوية فسأله فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلّها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم عهدهم على سواء»، فرجع معاوية رضي الله عنه.

﴿٥٩﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وحفص ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿سَبَقُوٓا۟﴾، أي: فاتُوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين، فمن قرأ بالياء يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب. قرأ ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، بفتح الألف، أي: لأنهم لا يعجزون، ولا يفوتونني. وقرأ الآخرون بكسر الألف على الابتداء.

﴿٦٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، الإعداد: اتّخاذ الشيء لوقت الحاجة. ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر

أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم بن الحجاج ثنا هارون بن معروف ثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن أبي علي ثمامة بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ألا إنّ القوّةَ الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّةَ الرمي». وبهذا الإسناد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عزّ وجلّ فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو نعيم، ثنا عبد الرحمٰن بن الغسيل، عن حمزة بن أبي أُسيد عن أبيه قال:

قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا هشام الدستوائي عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي نجيح السّلمي قال: حاصرنا مع النبيّ ﷺ الطائف فسمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنّة»، قال: فبلغت يومئذ ستة عشر سهماً. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر».

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلاّم عن عبد الله بن زيد الأزرق عن عقبة بن عامر الجهني. عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله يُدخل بالسهم الواحد الجنّة ثلاثةً صانعه، والممِدَّ به، والرامي به في سبيل الله».

ورُوي عن خالد بن زيد عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ يُدخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ في الجنّة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنْبِلَهُ فارمُوا وارْكَبُوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلاّ رميَهُ بقوسه وتأديبَهُ فرسَهُ وملاعبتَهُ امرأته فإنهنّ من الحق. ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنّه نعمة تركها، أو قال كفرها».

قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، يعني: ربطها واقتناؤها للغزو. وقال عكرمة: القوة الحصون من رباط الخيل الإناث. ورُوي عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب في القتال إلاّ الإناث، لقلّة صهيلها. وعن أبي محيريز قال: كان الصحابة رضي الله عنهم يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند البيات والغارات.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو نعيم ثنا زكريا عن عامر، ثنا عروة البارقي.

أن النبيّ ﷺ قال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمَغنم».

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن حفص ثنا ابن المبارك ثنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعتُ سعيداً المقبري يحدّث أنه سمع أبا هريرة يقول: قال النبيّ ﷺ: «مَنِ احتبسَ فرساً في سبيلِ اللّهِ إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإنّ شبَعَهُ وريّهُ، وروْثَهُ، وبوله في ميزانه يوم القيامة».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنبأنا أبو مصعب عن مالك، عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة لرجل أجرٌ، ولرجل سِترٌ وهي لرجل وِزْرٌ، فأمّا التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيلِ الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستنت شرفاً أو شرفين، كانت آثارُها

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

وأرواثُها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربتْ منه ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات، فهي له أجر، وأما التي له ستر فرجلٌ ربطها تغنياً وتعففاً ثم لم ينس حقَّ الله في ظُهورها ولا رقابها فهي له سِتر، وأما التي هي له وزر فرجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر». وسُئلَ رسولُ الله ﷺ عن الحُمُرِ فقال: «ما أُنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة»: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾، تُخوِّفون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ﴾، أي: وترهبون آخرين، ﴿مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، قال مجاهد ومقاتل وقتادة: هم بنو قريظة. وقال السدي: هم أهل فارس. وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون، لا تعلمونهم لأنهم معكم يقولون لا إله إلاّ الله. وقيل: هم كفار الجنّ.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، يوفَّ لكم أجره، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾، لا تنقص أجوركم.

﴿٦١﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾، أي: مالوا إلى الصلح، ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾، أي: مِلْ إليها وصالحهم. رُوي عن قتادة والحسن: أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾! ثق بالله، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، يغدروا ويمكروا بك. قال مجاهد: يعني: بني قريظة، ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، كافيك الله، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: بالأنصار.

﴿٦٣﴾ ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، أي: بين الأوس والخزرج، كانت بينهم إحن وثارات في الجاهلية فصيّرهم الله إخواناً بعد أن كانوا أعداء، ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿٦٤﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قال سعيد بن جبير: أسلم مع رسول الله ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وستُّ نسوة، ثم أسلم عمر بن الخطاب فتمّ به الأربعون، فنزلت هذه الآية. واختلفوا في محل «من»، فقال أكثر المفسّرين محلّه خفض، عطفاً على الكاف في قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾، [معناه: حسبك الله] وحسب من اتبعك، وقال بعضهم: هو رفع عطفاً على اسم الله معناه: حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين.

﴿٦٥﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾، أي: حثّهم على القتال. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ﴾، رجلاً ﴿صَٰبِرُونَ﴾، محتسبون، ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾، من عدوهم ويقهروهم، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ﴾، صابره محتسبة، ﴿يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ذلك ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، أي: لأن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال، خشية أن يقتلوا، وهذا خبر بمعنى الأمر، وكان هذا يوم بدر فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين، فخفّف الله عنهم، فنزل:

﴿٦٦﴾ ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾، أي: ضعفاً في الواحد عن قتال العشرة وفي المائة عن قتال الألف، [وقرأ أبو جعفر: «ضُعَفَاء» بفتح العين والمد على الجمع، وقرأ الآخرون بسكون

العين]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، من الكفار، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، فردّ من العشرة إلى الاثنين، فإن كان المسلمون على الشطر من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفرّوا. وقال سفيان: قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا. قرأ أهل الكوفة: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾، بالياء فيهما، وافق أهل البصرة في الأول والباقون بالتاء فيهما، ثم قرأ عاصم وحمزة: «ضَعفاً» بفتح الضاد هٰهنا وفي سورة الروم، والباقون بضمّها.

(٦٧) وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة: ﴿تكون﴾ بالتاء والباقون بالياء، وقرأ أبو جعفر: «أسارى»، والآخرون: ﴿أَسْرَىٰ﴾.

وروى الأعمش عن عمر بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم واستأن بهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوّة على الكفار، وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك قدّمهم نضرب أعناقهم، مكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، ومكّني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً، فقال له العباس: قطعت رحمك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم، ثم دخل: فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: «إنّ الله تعالىٰ ليليّن قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدّد قلوب رجال حتىٰ تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم». [ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ومثلك يا عبد الله بن رواحة مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [يونس: ٨٨]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتنّ منهم أحد إلاّ بفداء أو ضرب عنق»، قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء».

قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هٰذه الشجرة» ـ لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ ـ، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩]. فأحل الله الغنيمة لهم بقوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾ جمع أسير مثل قتلى وقتيل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يبالغ في المشركين وأسرهم، ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ بأخذكم الفداء، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله عزّ وجلّ، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وكان الفداء لكل أسير أربعين أوقية، والأوقية أربعون درهماً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتدّ سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، فجعل الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار إن شاؤوا أعتقوهم وإن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا

الجزء العاشر — سورة الأنفال

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

١٨٦

استبعدوهم، وإن شاؤوا فادوهم وإن شاؤوا أعتقوهم.

﴿٦٨﴾ قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، قال ابن عباس: كانت الغنائم حراماً على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا شيئاً من الغنائم جعلوه للقربان، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، يعني: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحلّ لكم الغنائم. وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يُبيّن لهم ما يتقون، وأنه لا يؤاخذ قوماً فعلوا أشياء بجهالة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾، لنالكم وأصابكم، ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾، من الفداء قبل أن تؤمروا به، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلاّ أحبّ الغنائم إلاّ عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ قال: يا رسول الله كان الإثخان في القتل أحبّ إليّ من استبقاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء عذاب ما نجا منهم غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ».

﴿٦٩﴾ فقال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، رُوي أنه لما نزلت الآية الأولى كفّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية.

وروينا عن جابر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «أُحلتْ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي».

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن همام ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائمُ لأحد من قبلنا، و ذلك بأنّ الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيّبها لنا».

﴿٧٠﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «من الأسارى» بالألف والباقون: بلا ألف.

نزلت في العباس بن عبد المطلب وكان أُسر يوم بدر، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر وكان يوم بدر نوبته، وكان قد خرج بعشرين أوقية من الذهب ليطعم بها الناس، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا وبقيت العشرون أوقية معه، فأُخذتْ منه في الحرب، فكلّم النبيّ ﷺ أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى، وقال: «أما شيء خرجتَ تستعينُ به علينا، أفلا أتركه لك»، وكلّف فداء بني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد تركتني أتكفّف قريشاً ما بقيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «أين الذهب الذي دفعته أم الفضل وقت خروجك من مكة فقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم»، يعني بنيه، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي عزّ وجلّ»، قال العباس: أشهد أنك صادق! وأن لا إله إلاّ الله وإنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلاّ الله عزّوجلّ، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل

لِمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾، الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، أي: إيماناً، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾، من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله عنها عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير، وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم، وما أحبّ أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عزّ وجلّ.

(٧١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾، يعني الأسارى، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، ببدر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، قال ابن جريج: أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل، فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

(٧٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾، أي: هجروا قومهم وديارهم، يعني المهاجرين من مكة، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟﴾ رسول الله ﷺ والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم منازلهم، ﴿وَّنَصَرُوٓا۟﴾، أي: ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضي الله عنهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، دون أقربائهم من الكفار. قيل: في العون والنصرة. وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام، وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكّة وانقطعت الهجرة وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا، وصار ذلك منسوخاً بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، يعني: في الميراث، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾، قرأ حمزة: ﴿وِلايتهم﴾ بكسر الواو والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا، ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، عهد فلا تنصروهم عليهم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، في العون والنصرة. وقال ابن عباس: في الميراث، أي: يرث المشركون بعضهم من بعض، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال ابن عباس: ألاّ تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به. وقال ابن جريج: ألاّ تعاونوا وتناصروا. وقال ابن إسحاق: جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾، وهو أن يتولّى المؤمن الكافر دون المؤمن، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، فالفتنة في الأرض قوّة الكفر، والفساد الكبير ضعف الإسلام.

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، لا مرية ولا ريب في إيمانهم. قيل: حقّوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال في الدين، ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، الجنة. فإن قيل: فأي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات، فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكّة، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية.

(٧٥) قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾، أي: معكم، يريد أنتم منهم وهم منكم، ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، وهذا نسخ التوارث بالهجرة وردّ الميراث إلى ذوي الأرحام. قوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله عزّ وجلّ. وقيل: أراد بكتاب الله القرآن، يعني: القسمة التي بيّنها في سورة النساء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

* * *

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

١٨٧

سورة التوبة

قال مقاتل: هذه السورة مدنية كلها إلا آيتين من آخرالسورة. قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عباس: ما تقول في سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل «ومنهم»، و«فيهم» حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: قل سورة بني النضير.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد [بن] إبراهيم الثعلبي، أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى ثنا عبيد الله القواريري ثنا يزيد بن زريع ثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، حدثني يزيد الفارسي حدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده، فيقول: «ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال مما نزلت بالمدينة»، وكانت براءة من آخر ما نزل، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها فمن ثَمّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطّوال.

﴿١﴾ قوله تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنّشاءة والدناءة.

قال المفسّرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزّ وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] الآية. قال الزجاج: براءة أي: قد برىء اللّهُ ورسولهُ من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا نكثوا، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الخطاب مع أصحاب النبيّ ﷺ، وإن كان النبيّ ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم، لأنه عاهدهم وأصحابه راضون بذلك، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿٢﴾ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، رجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قل لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين، ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾، أي: غير فائتين ولا سابقين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: مذلّهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذي برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ. فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالىٰ للمشركين، فمن كانت مدةُ عهده أقلَّ من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدّة أكثر من أربعة أشهر حطّه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدّة عهده بغير أجل محدود حدّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيُقتل حيث يُدرك ويُؤسر، إلا أن يتوب، وابتداء هذا الأجل يوم الحجّ الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، فأمّا من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم،

وذلك خمسون يوماً. وقال الزهري: الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجّة والمحرم، لأن هذه الآية نزلت في شوال، والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة أشهر لمن كان له عهد دون أربعة أشهر فأتمّ له أربعة أشهر، فأمّا من كان له عهد أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده، بقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]. وقال الحسن: أمر الله عزّ وجلّ رسولَه ﷺ بقتال من قاتله من المشركين، فقال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فكان لا يقاتل إلاّ من قاتله ثم أمره بقتال المشركين، والبراءة منهم، وأجلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر، لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد، فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر. وأحلّ دماء جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل. وقيل: نزلت هذه قبل تبوك.

قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكّة وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فنالت منها، وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال:

لا هُمّ إنّي ناشدٌ محمداً
حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
فانصرْ هداك اللّه نصراً أبداً
وادعُ عبادَ اللّه يأتوك مدداً
أبيض مثل الشمس يسمو صعداً
إن سيم خسفاً وجههُ تربّدا
هم بيّتونا بالهجير هجّداً
وقتلونا ركّعاً وسجّداً
كنت لنا أباً وكنّا ولداً
ثمّت أسلمنا ولم ننزع يداً
فيهم رسولُ اللّه قدْ تجرّدا
في فَليقٍ كالبحر يجري مُزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
وزعموا أن لستَ تنجي أحداً
وهم أذلّ وأقلّ عدداً

فقال رسول الله ﷺ: «لا نصرتُ إنْ لم أنصركم»، وتجهّز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة، فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحجّ ثم قال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحجّ، وبعث معه أربعين آيةً من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده علياً كرّم الله وجهه، على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يُؤذّن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمّة الله وذمة رسوله ﷺ من كل مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء؟ قال: «لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلاّ رجل من أهلي أمَا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض»؟ قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحجّ، وعليّ رضي الله عنه ليُؤذّن ببراءة، فلمّا كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحدّثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج، والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحجّ، حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فأذّن في الناس بالذي أُمر به وقرأ عليهم سورة براءة.

وقال زيد بن يُثَيْع: سألنا علياً: بأي شيء بعثت في تلك الحجّة؟ قال: بعثتُ بأربع: لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبيّ ﷺ عهد فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنّة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا. ثم حجّ النبيّ ﷺ سنة عشر حجّة الوداع.

فإن قال قائل: كيف بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ثم عزله وبعث علياً رضي الله عنه؟ قلنا: ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر رضي الله عنه، وكان هو الأمير وإنما بعث علياً رضي الله عنه لينادي بهذه الآيات، وكان السبب فيه أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولّى ذلك إلا سيدهم، أو رجل من رهطه، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحة للعلّة لئلا يقولوا: هذا خلاف

ما نعرفه فيُنافي نقض العهد، والدليل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الأمير ما:

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إسحاق، ثنا يعقوب بن إبراهيم، ثنا ابن أخي ابن شهاب، عن عمّه، أخبرني حميد بن عبد الرحمٰن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجّة في مؤذنين يوم النحر نؤذّن بمنى: ألاّ لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وقال حميد بن عبد الرحمٰن: ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذّن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ألاّ لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

(٣) ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ عطف على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾، أي: إعلام. ومنه: الأذان بالصلاة، يقال: آذنته فأذن أي: أعلمته فعلم، وأصله من الأذان أي أوقعته في أذنه، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾، واختلفوا في يوم الحج الأكبر، روى عكرمة عن ابن عباس: أنه يوم عرفة. ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير. وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب. وقال جماعة: هو يوم الحج. رُوي عن يحيى بن الجزار قال: خرج عليّ رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء، يريد الجبانة، فجاءه رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر، فقال: يومك هذا، خلِّ سبيلها. ويُروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي. وروى ابن جريج عن مجاهد: يوم الحجّ الأكبر حين الحجّ أيام منى كلها. وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحجّ الأكبر أيام منى كلها، مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بُعاث، يُراد به الحين والزمان، لأن هذه الحروب دامت أياماً كثيرة. وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: يوم الحجّ الأكبر الذي حجّ فيه رسول الله ﷺ، وهو قول ابن سيرين؛ لأنه اجتمع فيه حجّ المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، ولم يجتمع قبله ولا بعده، واختلفوا في الحجّ الأكبر، فقال مجاهد: الحجّ الأكبر القِران، والحج الأصغر إفراد الحجّ. وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحجّ الأكبر: الحج، والحج الأصغر: العمرة. قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها. قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ يعقوب [ورسوله] بنصب اللام، أي: إنّ اللّهَ ورسولَه بريءٌ، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾، رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أعرضتم عن الإيمان، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، هذا استثناء من قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضمرة، حيّ من كنانة، أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدّتهم، وكان قد بقي من مدّتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾، من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ﴾، لم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من عدوّكم. وقرأ عطاء بن يسار: «لم ينقضوكم»، بالضاد المعجمة من نقض العهد، ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾، فأوفوا لهم بعهدهم، ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾، إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

(٥) قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾، انقضى ومضى ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾، قيل: هي الأشهر الحرم الأربعة: رجب وذو القعدة وذو الحجّة والمحرم. وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر، ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يوماً. وقيل لها «حُرُمٌ» لأن الله تعالىٰ حرّم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرّض لهم. فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾؟ قيل: لمّا كان هذا القدر متّصلاً بما مضى أُطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدّة المضروبة التي يكون معها انسلاخ [مدة] الأشهر الحُرم.

قوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

الجزء العاشر — سورة التوبة

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، في الحلّ والحرم، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾، وأسروهم، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾، أي: احبسوهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد إن تحصّنوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من دخول مكّة والتصرّف في بلاد الإسلام.

﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، أي: على كل طريق، والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقّبته، يريد كونوا لهم رصداً لتأخذوهم من أيّ وجه توجّهوا. وقيل: اقعدوا لهم بطريق مكّة حتى لا يدخلوها، ﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، يقول: دعوهم فليتصرّفوا في أمصارهم ويدخلوا مكّة، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، لمن تاب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ به. وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء.

﴿٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾، أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله، ﴿فَأَجِرْهُ﴾، فأعذه وآمنه، ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللَّهِ﴾، فيما له وعليه من الثواب والعقاب، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي: الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدِرتَ عليه فاقتله، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

﴿٧﴾ قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾، هذا على وجه التعجّب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلّ وعلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، قال ابن عباس: هم قريش. وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ﴾، أي: على العهد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إمّا أن يسلموا وإمّا أن يلحقوا بأي بلاد الله شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر. قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم [من] قبائل بكر: بنو خزيمة بنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية فلم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة. وهذا القول أقرب إلى الصواب لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكّة، فكيف يقول لشيء قد مضى: ﴿فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، وإنما هم الذين قال عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، هذا مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله وإن يظهروا عليكم، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، قال الأخفش: كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم، أي: يظفروا بكم، لا يرقُبوا: لا يحفظوا؟ وقال الضحاك: لا ينتظروا. وقال قطرب:

لا يراعوا فيكم إلاّ. قال ابن عباس والضحاك: قرابةً. وقال يمان: رحماً. وقال قتادة: الإِلُّ: الحِلْفُ. وقال السدي: هو العهد. وكذلك الذمّة، إلاّ أنه كرر لاختلاف اللفظين. وقال أبو مجلز ومجاهد: الإل هو الله عزّ وجلّ. وكان عبيد بن عمير يقرأ: «جبر إلّ» بالتشديد، يعني: «عبدالله» وفي الخبر أن ناساً قدِمُوا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذاب، فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي: من الله عزّ وجلّ. والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة: «لا يرقبون في المؤمن إيلاً» بالياء، يعني: الله عزّ وجلّ. مثل جبرائيل وميكائيل. ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾، أي: عهداً. ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يطيعونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، الإيمان، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون، فكيف قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؟ قيل: أراد بالفسق نقض العهد، وكان في المشركين من وفى بعهده وأكثرهم نقضوا، فلهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

(٩) ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ أطعمهم إيّاها أبو سفيان. وقال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاءه، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾، فمنعوا الناس من الدخول في دين الله. وقال ابن عباس رضي الله عنه: وذلك أن أهل الطائف أمدّوهم بالأموال ليقوّوهم على حرب رسول الله ﷺ، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ﴾ بئس ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، يقول: لا تُبْقوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يُبْقون عليكم لو ظهروا، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾، بنقض العهد.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، أي فهم إخوانكم، ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيّن الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة. قال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، ثنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري ثنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة رضي الله عنه قال:

لمّا توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه بعده، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلاّ الله، فمَنْ قال لا إله إلا الله عَصَمَ منّي مالَهُ ونفسَهُ إلا بحقّهِ وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يُؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلاّ أنّ قد شرح الله صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن عباس، ثنا ابن المهدي ثنا منصور بن سعد عن ميمون بن سياه عن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى صلاتَنا واستقبلَ قِبلتَنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذِمّةُ الله وذِمّةُ رسوله».

(١٢) قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾، نقضوا عهودهم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾، عقدهم يعني مشركي قريش، ﴿وَطَعَنُوا۟﴾، قدحوا ﴿فِى دِينِكُمْ﴾، وعابوه. فهذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظَاهِراً لا يبقى له عهد، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام: ﴿أَئِمَّةَ﴾ بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقون: بتليين الهمزة الثانية. وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكّة. قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش يومئذ

الجزء العاشر — سورة التوبة

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

١٨٩

الذين نقضوا العهد، وهم الذين همّوا بإخراج الرسول. وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم. وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتِلَ أهلُ هذه الآية ولم يأتِ أهلُها بعد، ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾، أي: لا عهود لهم، جمع يمين. قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ ابن عامر: ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾، بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم. وقيل: هو من الأمان أي لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾، أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم. وقيل: عن الكفر، ثم حضّ المسلمين على القتال.

﴿١٣﴾ فقال جلّ ذكره: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾، نقضوا عهدهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على قتال خزاعة. ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾، من مكّة حين اجتمعوا في دار الندوة، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه. وقال جماعة من المفسّرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خُزاعةَ حلفاء رسول الله ﷺ، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، أتخافونهم فتتركون قتالهم، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾، في ترك قتالهم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، يقتلهم الله بأيديكم، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، ويذلهم بالأسر والقهر، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾، ويبرىء داء قلوب قوم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾، مما كانوا ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم، فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبيّ ﷺ وبالمؤمنين.

﴿١٥﴾ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، كَرْبَها ووَجْدَها بمعونة قريش بني بكر عليهم، ثم قال مستأنفاً: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

رُوي أن النبيّ ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السّيفَ، إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر».

﴿١٦﴾ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أظننتم ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾، قيل: هذا خطاب للمنافقين. وقيل: للمؤمنين الذين شقّ عليهم القتال، فقال: أم حسبتم أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تُمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، ولم يرَ الله ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، بطانة وأولياء يُوالونَهم ويُفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم [وليجة]، فوليجة الرجل: من يختص بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي للواحد والجمع، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٧﴾ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسر العباس يوم بدر عيّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ عليّ رضي الله عنه له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له عليّ رضي الله

عنه: ألكم محاسن؟ فقال: نعم، إنّا لَنَعْمرُ المسجدَ الحرام ونحجبُ الكعبةَ ونُسقي الحاج، فأنزل الله عزّ وجلّ رداً على العباس: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله، أوجب على المسلمين منعهم من ذلك، لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها فذهب جماعة إلى أنّ المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا تمتثل. وحمل بعضهم العمارة هٰهنا على دخول المسجد والقعود فيه. قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام. قرأ ابن كثير وأهل البصرة: ﴿مسجد الله﴾ على التوحيد، وأراد به المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التوبة: ١٩]، ولقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقرأ الآخرون: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالجمع، والمراد منه أيضاً المسجد الحرام. قال الحسن: إنما قال مساجد لأنه قبلة المساجد كلّها. قال الفراء: ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول: أخذت في ركوب البراذين، ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار، يريد الدراهم والدنانير؟

قوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾، أرادَ وهم شاهدون، فلما طرحت ﴿وهم﴾ نصبت، قال الحسن: لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بُعْداً. وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يُسأل من أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهود يقول: أنا يهودي، ويقال للمشرك: ما دينك؟ فيقول: مشرك. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، لأنها لغير الله عزّ وجلّ، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس معناه: شاهدين على رسولهم بالكفر لأنه ما من بطن وإلا ولدته.

ثم قال تعالى:

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ولم يخفْ في الدين غيرَ الله ولم يترك أمر الله لخشية غيره، ﴿فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، «وعسى» من الله واجب، أي: فأولئك هم المهتدون، والمهتدون هم المتمسّكون بطاعة الله عزّ وجلّ التي تؤدّي إلى الجنّة.

أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الرحمٰن النسوي، ثنا أحمد بن الحسين الحيري، ثنا محمد بن يعقوب، ثنا أحمد بن الفرج الحجازي، ثنا بقية، ثنا أبو الحجاج المهدي، عن عمرو بن الحارث عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدُوا له بالإيمان، فإن الله قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا يزيد بن هارون، ثنا محمد بن مطرف عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ غدَا إلى المسجدِ أو راحَ أعدّ الله نُزلَه منَ الجنّةِ كلّما غَدا أو رَاحَ».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر حدثني أبي عن محمود بن لبيد: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبّوا أن يدعه، فقال عثمان: سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى للَّهِ مسجداً بنَىٰ اللَّهُ له بيتاً كهيئته في الجنّة». وأخبرنا الإمام أبو عليّ الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي، أنا محمد بن الحسين القطان ثنا

علي بن الحسين الدَّارَبَجْرِدِيّ ثنا أبو عاصم بهذا الإسناد، وقال: «بَنَى اللَّهُ له بيتاً في الجنّة».

⑲ قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي ثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، ثنا عبد الله بن حامد بن محمد الوزان ثنا أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله المعافري ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي، ثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلاّم عن أبي سلاّم ثنا النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمّر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صلّيتُ دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، [و] لقد كنّا نعمر المسجد الحرام، ونُسقي الحاج، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبيّ ﷺ خيرٌ مما هم عليه.

وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في عليّ بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبة، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولون لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾، و﴿سِقَايَةَ﴾ مصدر كالرعاية والحماية. قوله: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فيه اختصار تقديره: أجعلتم سقايةَ الحاج وعمارة المسجد الحرام]، كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله؟ وقيل: السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر، وتقديره: أجعلتم ساقي الحاج وعامرَ المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، أي: للمتقين، يدل عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأبي بن كعب ﴿أجعلتم سُقَاةَ الحاجّ وعَمَرَة المسجدِ الحرم﴾، على جمع الساقي والعامر، ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدثني إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو أسامة، حدثنا يحيى بن مهلب، عن حسين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأتِ رسولَ الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: اسقني، فقال: يا رسول الله إنّهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: «اعملوا فإنكم على عمل صالح»، ثم قال: «لولا [أن تغلبوا لنزلت حتى أضع] الحبل على هذه»، وأشار إلى عاتقه.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن منهال الضرير، ثنا يزيد بن زُريع، ثنا حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنتُ جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمّكم يسقون العسل واللّبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمِنْ حاجةٍ بكم؟ أم من بُخلٍ؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بنا حاجة ولا بخل، قدم رسول الله ﷺ على راحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: «أحسنتم وأجملتم

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

كذا فاصنعوا»، فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ.

﴿٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، فضيلة، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، الناجون من النار،

﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الآية]، قال مجاهد: هذه الآية متّصلة بما قبلها، نزلت في قصة العباس وطلحة وامْتِنَاعِهِما من الهجرة.

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لمّا أمر النبيّ ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلّق به أهله وولده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيِّعنا. فيرقّ لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن دين الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله عن ولايتهم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾، اختاروا ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾، فيطلعهم على عورة المسلمين ويؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وكان في ذلك الوقت لا يُقبل الإيمان إلاّ من مهاجر، فهذا معنى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿٢٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة، ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾، وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحنُ هاجرنا ضاعت أموالُنا وذهبت تجاراتُنا وخُرّبتْ دورُنا وقطعنا أرحامنا، فنزل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وعشيراتكم﴾ بالألف على الجمع، والآخرون بلا ألف على التوحيد؛ لأن [جمع] العشيرة [عشائر] واقعة على الجمع، ويقوي هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات، إنما نجمعها على العشائر. ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، أي: تستطيبونها يعني القصور والمنازل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾، فانتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، قال عطاء: بقضائه. وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكّة وهذا أمر تهديد، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يُوفّق ولا يُرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، الخارجين عن الطاعة.

﴿٢٥﴾ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ﴾، أي: مشاهد، ﴿كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وحنين وادٍ بين مكة والطائف. وقال عروة: إلى جنب ذي المجاز. وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة: أن رسول الله ﷺ فتح مكّة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، ثم خرج إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الطلقاء. قال عطاء: كانوا ستة عشر ألفاً. وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط، والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النصري، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفي، فلما التقى

الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن وقش: لن نُغلبَ اليومَ عن قلّة فساء رسول الله ﷺ كلامه، ووكّلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرض الله قوله، ووكَلَهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلّوا عن الذراري، ثم نادوا: يا حماة السواد اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون. قال قتادة: وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبدالعزيز أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو خيثمة عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب: يا أبا عمارة فررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم وهم حُسّرٌ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر وقال: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطّلب»، ثم صفّهم.

ورواه محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق، وزاد قال: فما رُؤي مِنَ الناس يومئذ أشدّ منه.

ورواه زكريا عن أبي إسحاق، وزاد قال البراء: كنّا إذا احمرّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منّا للذي يحاذي به، يعني: النبيّ ﷺ.

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء: إن هوازن كانوا قوماً رماة، وإنّا لمّا لقيناهم حملنا عليهم، فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام، فأمّا رسول الله ﷺ فلم يفر.

قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلثمائة من المسلمين وانهَزَم سائرُ الناس. وقال آخرون: لم يبق مع النبيّ ﷺ يومئذ غير العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن، فقتل يومئذ بين يدي رسول الله ﷺ.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج.

قال: وحدثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن سرح ثنا ابن وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب، قال: حدثني كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُركض بغلتَه قِبَل الكفار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادةَ أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس نادِ أصحاب السَّمُرة»، فقال عباس، وكان رجلاً صيتاً: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبّيك يا لبّيك، قال: فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: «هذا حين حَمِيَ الوطيس»، ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصياتٍ فرمَى بهنّ وجوهَ الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً، وأمرهم مدبراً.

وقال سلمة بن الأكوع: غزونا مع رسول الله ﷺ حُنيناً قال: فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزلَ عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجُوه»، فما خلّى الله منهم إنساناً إلاّ ملأ عينه تراباً بتلك القبضة، فولّوا

مُدْبِرين، فهزمهم الله عزّ وجلّ فقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.

قال سعيد بن جبير: أمدّ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين.

وفي الخبر: أن رجلاً من بني نضر يقال له شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض، ما كنّا نراكم فيهم إلاّ كهيئة الشامة وما كنا قتلنا إلا بأيديهم؟ فأخبروا بذلك النبيّ ﷺ فقال: «تلك الملائكة».

قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان بن طلحة قال: استدبرتُ رسولَ الله ﷺ يوم حُنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أُحد، فأطلع اللَّهُ رسولَهُ ﷺ على ما في قلبي فالتفتَ إليّ وضرب في صدري وقال: «أعيذك بالله يا شيبة»، فأرعدت فرائصي فنظرت إليه وهو أحب إليّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنكَ رسول الله، وإن الله قد أطلعك على ما في نفسي، فلما هزم الله المشركين وولّوا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمّره على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وقتل دريد بن الصمة، وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري، فأتى الطائف فتحصّنَ بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ. وقُتل أميرُ المسلمين أبو عامر.

قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى الجعرّانة فأحرم منها بعُمرة وقسّم فيها غنائم حنين وأوطاس، وتألف أناساً منهم أبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ، ثنا أبو اليمان، ثنا شعيب، ثنا الزهري أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه:

أنّ أناساً من الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يَدَعْ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم»؟ فقال له فقهاؤهم: أمّا ذوو رأينا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منّا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»، قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض». وقال يونس عن ابن شهاب: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألّفهم»، وقال: «فاصبروا حتى تلقَوُا اللَّهَ ورسولَه فإني على الحوض»، قالوا: سنصبر.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل [ثنا موسى بن إسماعيل]، ثنا وهيب ثنا عمرو بن يحيى عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال:

لمّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قسم في الناس في المؤلّفة قلوبهم ولم يعطِ الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذْ لم يصبهم ما أصابه الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالَةً فأغناكم الله بي»؟ كلما قال شيئاً قالوا: اللَّهُ ورسولُه أمَنُّ، قال: ما يمنعكم أن تُجيبوا رسولَ الله ﷺ، قال: كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنُّ؟ قال: «لو شئتُم قلتُم [جئتنا] كذا وكذا»، قال: «ألا ترضَوْنَ أن يذهب الناس بالشاة

والبعير، وتذهبون بالنبيّ ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شِعارٌ والناسُ دِثار، إنكم ستلقون بعدي أثَرَةً فاصبرُوا حتى تلقوني على الحوض».

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن أبي عمر المكي ثنا سفيان عن عمر بن سعيد] بن مسروق عن أبيه عن عباية بن رفاعة عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: أعطى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أميّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

فما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس في مجمع
أتجعل نهبي ونهب العبـ
ـيد بين عيينة والأقرع
وما كنت دون امرىء منهما
ومن تُخفض اليوم لا يرفع

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة.

وفي الحديث: أن ناساً من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك، فقالوا: يا رسول الله أنت خيرُ الناس وأبرُّ الناس، وقد أخذت أبناؤنا ونساؤنا وأموالنا.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سعيد بن عفير حدّثني الليث، حدّثني عُقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير: أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه: أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردّ إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن معي من ترون وأحبّ الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال»، قالوا: فإنّا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ [في المسلمين] فأثنى على الله عزّ وجلّ بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمن أحبّ منكم أن يُطيّب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس، فكلّمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا.

فأنزل الله تعالى في قصة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ

الجزء العاشر — سورة التوبة

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

١٩١

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلّة، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾، كثرتكم، ﴿شَيْئًا﴾، يعني: إن الظفر لا يكون بالكثرة، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: برحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، منهزمين.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بعد الهزيمة، ﴿سَكِينَتَهُ﴾، يعني: الأمنة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، يعني: الملائكة. قيل: لا للقتال ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين، لأنه يُروى أن الملائكة لم يقاتلوا إلاّ يوم بدر، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾، فيهديه إلى

الإسلام، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢٨) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة: نجس قذر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النجس بكسر النون وسكون الجيم، فلا يقال على الانفراد، وإنما يقال: رِجسٌ نَجسٌ، فإذا أُفرد قيل: نَجِسٌ بفتح النون وكسر الجيم، وأراد به نجاسة الحكم لا نَجاسةَ العين، سُمّوا نجساً على الذمّ. وقال قتادة: سمّاهم نجساً لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون ويُحدثون فلا يتوضؤون. قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به الحرم وهذا كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أم هانيء. قال الشيخ الإمام الأجلّ رضي الله عنه: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام، أحدها: الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام، والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم، بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم. وجوّز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم. والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز فيجوز للكافر دخولها بالإذن، ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام. لما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالىٰ لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ فيها إلا مسلماً». فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، فلم يتفرّغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجل لمن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً.

وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدّة وما وَالاَها من ساحل البحر إلى أطراف الشام. والقسم الثالث: سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمّة أو أمان، ولكن لا يدخلون المساجد إلاّ بإذن مسلم.

قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، يعني: العام الذي حجّ فيه أبو بكر رضي الله عنه بالنّاس، ونادَى عليّ كرّم الله وجهه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة.

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، وذلك أنّ أهل مكة كانت معايشهم من التجارات، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتّجرون، فلما مُنِعُوا من دخول الحرم خافُوا الفقر، وضيقَ العيش، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً وفاقةً. يُقال: عال يعيل عَيْلةً إذا افتقر، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، قال عكرمة: فأغناهم الله عزّ وجلّ بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدّة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكّة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة: عوّضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

(٢٩) وذلك قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك. وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذُلّ أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين، قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فإنْ قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيماناً بالله. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة. وقال قتادة: الحق هو الله، أي: لا يدينون دينَ الله، ودينه الإسلام. وقال أبو عبيدة: معناه ولا يطيعون الله تعالىٰ طاعة أهل الحقّ. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾، وهي: الخراج المضروب على رقابهم، ﴿عَن يَدٍ﴾، عن قهر وذل. قال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير

طيب نفس أعطاه عن يد. وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم. وقيل: عن يد أي نقد لا نسيئة. وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم، ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أذلاء مقهورون. قال عكرمة: يعطون الجزية عن قيام، والقابض جالس. وعن ابن عباس قال: تُؤخذ منه ويُوطأ عنقه. وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه. وقيل: يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه، وقيل: يُلبّب ويُجر إلى موضع الإعطاء بعنف، وقيل: إعطاؤه إيّاها هو الصغار. وقال الشافعي رحمه الله: الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم، واتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين، وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً. واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم، فذهب الشافعي: إلى أنّ الجزية على الأديان لا على الأنساب، فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً، ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال، واحتجّ بأن النبيّ ﷺ أخذها من أكيدر دومة، وهو رجل من العرب يقال إنه من غسان، وأخذ من أهل ذمة اليمن، وعامتهم عرب. وذهب مالك والأوزاعي إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي كتابياً كان أو مشركاً وتُؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً، وأما المجوس فاتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم.

أخبرنا عبد الوهّاب بن محمد الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي، ، أنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع بَجَالة بن عَبدة يقول: لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف أن النبيّ ﷺ أخذها من مجوس هجر.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه. أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم، فقال عبد الرحمٰن بن عوف: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب».

وفي امتناع عمر رضي الله عنه عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف أن النبيّ ﷺ أخذها من مجوس هجر، دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تُؤخذ من كل مشرك، وإنما تُؤخذ من أهل الكتاب. واختلفوا في أن المجوس: هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ فرُوي عن علي رضي الله عنه [أنه] قال: كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا يوماً، وقد أسري على كتابهم، فرُفعَ من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين، أما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نظر، إن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يُقرّون بالجزية وتحلّ مناكحتهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء محمد ﷺ لا يقرون بالجزية لا تحلّ مناكحتهم ولا ذبائحهم، ومن شككنا في أمرهم بأنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرّون بالجزية تغليباً لحقن الدم، ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم تغليباً للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرهم عمر رضي الله عنه على الجزية، وقال: لا تحل لنا ذبائحهم. وأما قدر الجزية فأقلّه دينار، لا يجوز أن ينقص منه، ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لِما:

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غيلان ثنا عبد الرزاق أنا معمر أنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمرني أن آخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافر.

فالنبيّ ﷺ أمره أن يأخذ من كل حَالِم، أي بالغ ديناراً ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط، وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النساء، إنما

تُؤخذ من الأحرار العاقلين البالغين من الرجال. وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط ديناران، وعلى كل فقير دينار، وهو قول أصحاب الرأي.

(٣٠) قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [الآية].

روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعةٌ من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشأس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب: ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين والآخرون بغير تنوين، فمن لم ينوّن قال: لأنه اسم أعجمي ويشبه اسماً مصغراً، ومن نوّن قال لأنه اسم خفيف، فوجّهه أن يصرف، وإن كان أعجمياً مثل نوح وهود ولوط. واختار أبو عبيدة التنوين وقال: لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه، إنما هو كقولك زيد ابن الأمير وزيد ابن أختنا، فعزيرٌ مبتدأ وما بعده خبر له. وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء، وهو الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وروى عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قالت اليهود عزير ابن الله من أجل أن عزيراً كان فيهم، وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت، وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلّي مبتهلاً إلى الله تعالىٰ إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه التوراة فأذن في قومه، وقال: يا قوم إن الله تعالىٰ قد آتاني التوراة وردّها إليّ فعلق به الناس يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله تعالىٰ، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله، فقالوا: ما أُوتي عزير هذا إلاّ أنه ابن الله.

وقال الكلبي: إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيراً ليجدّد لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة، يقال: وأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال: أنا عزير فكذّبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة، فكتبها لهم. ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها، فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منها حرفاً، فقالوا: إن الله لم يقذف التوراة في قلب رجل إلاّ أنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود: عزيرٌ ابن الله.

وأمّا النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى عليه السلام يصلّون إلى القبلة، ويصومون رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جملة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنّة ودخلنا النار، فإني أحتال وأضلّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة، ووضع على رأسه التراب، فقال له النصارى: من أنت؟ قال: بولص عدوّكم، فنوديت من السماء ليست لك توبة إلا أن تتنصّر وقد تبت ورجعت عن دين اليهودية، فأدخلوه الكنيسة، ودخل بيتاً سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله قبل توبتك، فصدّقوه وأحبّوه ثم مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم نسطوراً وأعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاّهوت والناسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنس ولا بجسم، ولكنه ابن الله، وعلّم ذلك رجلاً يقال له يعقوب، ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي، وقد رأيت

عيسى في المنام فرضي عني وقال لكل منهم إني غداً أذبح نفسي، فادعُ الناس إلى نحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فتبع كلَّ واحد طائفة من الناس، فاختلفوا واقتتلوا فقال الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، يقولون بألسنتهم من غير علم. قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زوراً. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾، قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً، والآخرون بضم الهاء غير مهموز، وهما لغتان يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه: يشابهون. والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يواطؤون. وقال الحسن: يوافقون، ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، قال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود من قبل عزير ابن الله. وقال مجاهد: يضاهؤون قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون اللات والعزّى ومناة بنات الله. وقال الحسن: شبّه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة كما قال في مشركي العرب: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وقال القتيبي: يريد أن من كان في عصر النبيّ ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلهم، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، قال ابن عباس: لعنهم الله. وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله. وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه.

﴿٣١﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾، أي: علماءهم وقرّاءهم، والأحبار العلماء واحدها حبر، وحبر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع واحدها راهب، كصاحب وصحبان، ﴿أَرْبَابًا﴾، فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلّوا ما أحلّوا وحرّموا ما حرّموا، فاتخذوهم كالأرباب.

رُوي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: «يا عدي اطرحْ هذا الوثن من عنقك»، فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، حتى فرغ منها، قلت له: لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلونه»؟ قال: فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم».

قال عبد الله بن المبارك:

الجزء العاشر — سورة التوبة

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

١٩٢

وهلْ بدّلَ الدينَ إلاّ الملوك
وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، أي: اتخذوه إلهاً [واحداً]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إيّاه. وقال الكلبي: النور القرآن، أي: يريدون أن يردّوا القرآن بألسنتهم تكذيباً، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، أي: يُعلي دينه ويظهر كلمته ويتمّ الحق الذي بعث به محمداً ﷺ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، يعني: الذي يأبى إلا إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ، ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، قيل: بالقرآن. وقيل: ببيان الفرائض، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾،

وهو: الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾، ليعليه وينصره، ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، على سائر الأديان كلها، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، واختلفوا في معنى هذه الآية، فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ، أي: ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدانَ الله تعالىٰ إلاّ به. وقال أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام.

وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلاّ [ملة] الإسلام».

وروى المقداد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزِّ عزيز أو ذلِّ ذليلٍ»، إمّا يعزّهم الله فيجعلهم من أهله فيعزّ به، أو يذلّهم فيدينون له.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، ثنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن منصور، ثنا أبو مسلم بن إبراهيم بن عبد الله الكجي ثنا أبو عاصم النبيل ثنا عبد الحميد هو ابن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ اللاّتُ والعُزّى»، قالت: قلت: يا رسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالىٰ عليك: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله تعالىٰ ريحاً طيبة، فتقبض من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، ثم يبقى من لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم».

قال الحسين بن الفضل: معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة. وقيل: ليظهره على الأديان التي حول النبيّ ﷺ فيغلبهم. قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلّها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: بأن جماع الشرك دينان: دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حين دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم.

(٣٤) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾، يعني: العلماء والقراء من أهل الكتاب، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، يريد ليأخذون الرشا في أحكامهم ويُحرّفون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتباً يقولون: هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبيّ ﷺ يخافون لو صدقوهم لذهبت عنهم تلك المآكل، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾، ويصرفون الناس، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عن دين الله عزّ وجلّ، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كل ما تؤدّى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً، وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفوناً، ومثله عن ابن عباس.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج حدثني سويد بن سعيد ثنا حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن أبا صالح ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فِضّة لا يُؤدّي منها حقّها إلاّ إذا كان يومُ القيامة، صُفّحتْ له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيُكوى بها جبينُه وجُنبه وظهرُه، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحبَ إبلٍ لا يُؤدي منها حقَّها ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها، إلاّ إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافِها وتعضّه بأفواهها، كلّما

مرّ عليه أولاها رُدّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحبَ بَقَرٍ ولا غنم لا يُؤدي منها حقّها، إلاّ إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاعٍ قرقرٍ لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلّما مرَّ عليه أولاها رُدّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضي بين العباد فيرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار».

وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاتَه مُثّلَ له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلَهْزَمَتَيهِ - يعني: شِدْقيه - ثم يقول: ، أنا مالك، أنا كنزُك»، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أُدِيتْ منه الزكاة أو لم تُؤدَّ، وما دونها نفقة. وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظلّ الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة»، قال: فجئت حتى جلست فلم أتقارّ أن قمت فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا [وهكذا] من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليلٌ ما هم».

ورُوي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقول: من ترك بيضاء أو حمراء، كوي بها يوم القيامة.

ورُوي عن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصُفّة فوجد في مئزره دينار، فقال النبيّ ﷺ: «كيّةٌ»، ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبيّ ﷺ: «كيّتان».

والقول الأول أصح لأن الآية نزلت في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال.

قال النبيّ ﷺ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح».

ورُوى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منّا يدع لولده شيئاً، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ لم يفرض الزكاة إلا ليطيّبَ بها ما بقي من أموالكم».

وسُئل ابن عمر رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال.

وقال ابن عمر: ما أبالي لو أن لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده فأزكيه وأعمل بطاعة الله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قيل: لِمَ قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾، ولم يقل: ولا ينفقونهما، وقد ذكر الذهب والفضة جميعاً؟ قيل: أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضّة. وقيل: ردّ الكناية إلى الفضّة لأنها أعمّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥]، ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أعم، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: أنذرهم.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي: تدخل النار فيوقد عليها، يعني الكنوز، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾، فتحرق بها، ﴿جِبَاهُهُمْ﴾، أي: جباه كانزيها، ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، روي عن ابن مسعود قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدة. وسئل أبو بكر الوراق: لِمَ خَصّ الجباه والجنوب والظهور بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض جبهته، وزوى ما بين عينيه وولاه جنبيه فإذا رآه أتى إليه من جنبه ولاه ظهره وأعرض عنه بكشحة، فهو قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ الآية. قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

كنزتم﴾، أي: يقال لهم هذا ما كنزتم، ﴿لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم. وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل الكتاب. وقال الأكثرون: هي عامّة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذرّ رضي الله عنه.

(٣٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾، أي: عدد الشهور، ﴿عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وهي المحرّم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني وجُمادى الأول، وجمادى الآخرة ورجب وشعبان، ورمضان وشوّال وذو القعدة وذو الحجّة. وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله. وقيل: في اللّوح المحفوظ. قرأ أبو جعفر اثنا عشر وتسعة عشر، وإحدى عشر، بسكون الشين، وقرأ العامة بفتحها، ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، والمراد منه الشهور الهلالية وهي الشهور التي يعتدّ بها المسلمون في صيامهم وحجّهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يوماً بنقصان الأهلة. والغالب أنها تكون ثلاثمائة يوماً وأربعة وخمسين يوماً، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، [أي]: من الشهور [الاثني عشر] أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجّة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سرد، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أي: الحساب المستقيم، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، قيل: قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعصية وترك الطاعة. وقيل: ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في الأشهر الحرم. قال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم والظلم فيهنّ أعظم من الظلم فيما سواهنّ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهنّ. قال محمد بن إسحاق ن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كفعل أهل الشرك وهو النسيء.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، جميعاً عامة، ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم. فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾، كأنه يقول فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة وعطاء الخراساني، والزهري وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبيّ ﷺ غزا هَوازن بحُنين، وثقيفاً بالطائف، وحاصرهم في شوّال وبعض ذي القعدة. وقال الآخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم إلا أن يُقاتلوا فيها، وما نسخت.

(٣٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، قيل: هو مصدر كالسعير والحريق، وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير. ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسا الله في أجله أي أخّر، وهو ممدود مهموز عند أكثر القراء، وقرأ ورش عن نافع من طريق البخاري بتشديد الياء من غير همز، فقد قيل: أصله الهمزة فخفف. وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي أي المتروك. ومعنى النسيء هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسّكت به من ملّة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامّة معايشهم من الصيد والغارة فكان يشقّ عليهم الكفّ عن ذلك ثلاثة أشهر على

التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم فنسؤوا، أي: أخّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمون صفر ويستحلّون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخّروه إلى ربيع وهكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبيّ ﷺ في حجّته، وبيّن ذلك كما:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف الفربري، ثنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا محمد بن سَلاَم حدثنا عبدالواحد ثنا عبد الوهّاب حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين عن ابن أبي بكرة. عن أبي بكر: عن النبيّ ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئتِهِ يومَ خَلقَ السمواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشرَ شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجّة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وقال: «أيّ شهر هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجّة»؟ قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس البلد الحرام»؟ قلنا: بلى، قال: «فأيّ يوم هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر»؟ قلنا: بلى، قال: «فإنّ دماءكم وأموالكم»، قال محمد: وأحسبه قال: «وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألاَ فلا ترجعوا بعدي ضُلاّلاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب فلعلّ بعضَ من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغتُ ألا هل بلغت»؟

قالوا: وكان قد استمرّ النسيء بهم، فكانوا ربما يحجّون في بعض السنين في شهر، ويحجّون من قابل في شهر آخر. قال مجاهد: كانوا يحجّون في كل شهر عامين، فحجُّوا في شهر ذي الحجّة عامين، ثم حجّوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور الباقية، فوافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثامنة من ذي القعدة، ثم حج النبيّ ﷺ في العام القابل حجة الوداع، فوافق حجه شهر الحج المشروع وهو ذو الحجّة، فوقف بعرفة يوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدّل في مستأنف الأيام.

واختلفوا في أول من نسأ النسيء.

فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول من نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة: أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني. وقال الكلبي: أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان يقوم أميراً على الناس بالموسم فإذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فقال: لا مردّ لما قضيت، أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، فيقول له المشركون: لبّيك، ثم يسألونه أن ينسأهم شهراً يغيرون فيه، فيقول فإن صفراً العام حرام، فإذا قال ذلك حلّوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة، وإن قال حلال عقدوا الأوتار وشدّوا الأزجة وأغاروا. وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف، وهو الذي أدركه النبيّ ﷺ. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هو رجل من بني كنانة يقال له القلمس. قال شاعرهم:

«وفينا ناسيء الشهر القلمس»

وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجّة إذا اجتمعت العرب للموسم.

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول من سنّ النسيء عمرو بن لُحيّ بن قمعة بن خندف.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، ثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب، وهو يجر قُصْبَهُ في النار».

فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، يريد زيادة كفر على كفرهم، ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «يُضَلُّ» بضم الياء وفتح الضاد؛ كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد، وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى ﴿يُضِلُّ﴾ به الذين كفروا الناس، وقرأ الآخرون: بفتح الياء وكسر الضاد لأنهم هم الضالّون؛ لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾، يعني: النسيء، ﴿عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾، أي: ليوافقوا، والمواطأة الموافقة، ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، يريد أنهم لم يحلّوا شهراً من الحرام إلا حرّموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام، لئلا يكون الحرام أكثر من أربعة أشهر كما حرّم الله فيكون الموافقة في العدد، ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾، قال ابن عباس: يريد زيّن لهم الشيطان، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

(٣٨) قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبيّ ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدّة من الحرّ، حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز هائلة وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ولم يورها بغيرها ليتأهّبوا أهبة عدوهم، فشقّ عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ قال لكم رسول الله ﷺ: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ أخرجوا في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [أي: تثاقلتم وتباطأتم إلى الأرض]، أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: بخفض الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ثم أوعدهم على ترك الجهاد.

(٣٩) فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، في الآخرة، وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا.

وسأل نجدةُ بن نفيع ابنَ عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عليه فأمسك الله عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم وأطوع، قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾، بتركِكم النفير، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٤٠) قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، هذا إعلام من الله عزّ وجلّ أنه المتكفّلُ بنصرِ رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه وأنه قد نصره عند قلّة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدَدِ والعُدَد، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، من مكّة حين مكروا به وأرادوا تبييته وهمّوا بقتله، ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾، أي: هو أحد الاثنين، والاثنان أحدهما رسول الله ﷺ والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾، وهو نقب في جبل ثور بمكة، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، قال الشعبي: عاتب الله عزّ وجلّ أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي أنبأنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن عثمان أنبأنا خيثمة بن سليمان ثنا عبد الله بن أحمد بن الدورقي ثنا سعيد بن سليمان عن عليّ بن هاشم عن كثير النواء عن جُميع بن عُمير قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنه فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض».

قال الحسين بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نصّ القرآن. وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا يكون كافراً. وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿مَعَنَا﴾، لم يكن حزن أبي بكر جُبْناً منه، وإنما كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ. وقال: إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمّة.

ورُوي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار، جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا بكر»؟ قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من عمر، ومن آل عمر.

أخبرنا أبو المظفر التميمي، أنا محمد بن عبدالرحمٰن بن عثمان المعروف بابن أبي النصر، أنا خيثمة بن سليمان ثنا أبو قلابة الرقاشي ثنا حَبان بن هلال ثنا همام بن يحيى ثنا ثابت البناني ثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدّثهم، قال:

نظرتُ إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظرَ تحتَ قدميه أبصرَنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنّك باثنين اللَّهُ ثالثُهما».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيى بن بُكير ثنا الليث عن عُقَيل قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت:

لم أعقل أبويّ قط إلاّ وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشياً، فلما ابتلي المسلمون.

فقال النبيّ ﷺ للمسلمين: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان»، فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامّة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهّز أبو بكر رضي الله عنه قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رَسْلِكَ فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو بذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر، وهو الخبط أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال النبيّ ﷺ لأبي بكر: «أخرج مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحثّ الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمّيت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ فيها فلا يسمع أمراً يكادان به إلاّ وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً ـ والخريتُ: الماهر بالهداية ـ قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمٰن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه بكر أخبره أنه سمع سراقة بن

مالك بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج [إذا] أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعة ثم قمتُ فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخطَطْتُ بزُجِّه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبيّ ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم خبرَ ما يُريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني شيئاً إلا أن قالا: «اخْفِ عنّا»، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيّ أبا بكر حتى أصابت الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسّسَ المسجد الذي أُسّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللّبِنَ في بنيانه ويقول وهو ينقل اللّبن:

هذا الحمال لا حمال خيبر
هذا أبرُّ ربّنا وأطهر

ويقول:

«اللّهمّ إن الأجر أجر الآخرة
فارحم الأنصار والمهاجرة»

فتمثل ببيت رجل من المسلمين لم يسمّ لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات.

قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالىٰ زوجاً من حمام حتى باضتا في أسفل النقب والعنكبوت حتى نسجت بيتاً، وفي القصة أنبت يمامة على فم الغار، وقال

النبيّ ﷺ: «اللّهمّ أعمِ أبصارهم عنّا»، فجعل الطلب يضربون يميناً وشمالاً حول الغار يقولون: لو دخلا هذا الغار لتكسّر بيض الحمام وتفسّخ بيت العنكبوت.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾، قيل: على النبيّ ﷺ. وقال ابن عباس: على أبي بكر رضي الله عنه، فإن النبيّ ﷺ كانت عليه السكينة من قبل، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته [ﷺ]، وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا. وقال مجاهد والكلبي: أعانة بالملائكة يوم بدر أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾، وكلمتهم الشرك وهي السفلى إلى يوم القيامة، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾، إلى يوم القيامة. ثم قال ابن عباس: هي قول لا إله إلاّ الله. وقيل: كلمة الذين كفروا ما قدّروا بينهم من الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله وَعْدُ الله أنه ناصره. وقرأ يعقوب: ﴿وَكَلِمَةَ ٱللَّهِ﴾، بنصب التاء على العطف أنها معطوفة على المفعول الأول لجعل، وهو ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والتقدير: وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وجعل كلمة الله هي العليا، فكلمة الله معطوفة على المفعول الأول والعليا معطوفة على المفعول الثاني. وقرأ الباقون: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾، بالرفع على الاستئناف، كأنه تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾، على الابتداء والخبر، فكلمة الله مبتدأ والعليا خبره، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٤١) قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شُبّاناً وشيوخاً. وعن ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركباناً ومشاةً. وقال أبو صالح: خفافاً من المال، أي: فقراء، وثقالاً أي: أغنياء. وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له. ويروى عن ابن عباس قال: خفافاً أهل الميسرة من المال وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً من السلاح، أي: مقلّين منه، وثقالاً أي: مستكثرين منه. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال مرّة الهمذاني: أصحاء ومرضى. وقال يمان بن رباب عزاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالاً مستكثرين بهم. وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالاً بعد التروّي فيه والاستعداد له.

﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع. وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نُسخت هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتدّ شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١] الآية، ثم نزل في المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك:

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾، واسم كان مضمر، أي: لو كان ما تدعوهم إليه عرضاً قريباً، أي: غنيمة قريبة

الجزء العاشر — سورة التوبة

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٤٢) عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧)

١٩٤

الجزء العاشر — سورة التوبة

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

١٩٥

المتناول، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، أي قريباً هيناً، ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾، لخرجوا معك، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾، أي: المسافة، والشقة السفر البعيد لأنه يشق على الإنسان. وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، يعني: باليمين الكاذبة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، في أيمانهم لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿٤٣﴾ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون. قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيّره بالذنب. وقيل: إن الله عزّ وجلّ وقّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألاّ زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، أي: في التخلّف عنك ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾، في أعذارهم، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيها، أي: تعلم من لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿٤٤﴾ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، أي: لا يستأذنك في التخلّف، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: شكّت [قلوبهم] ونافقت، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، يتحيّرون.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾، إلى الغزو، ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾، أي: ليهيّئوا له ﴿عُدَّةً﴾، أهبة وقوّة من السلاح والكراع، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾، خروجهم، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾، منعهم وحبسهم عن الخروج، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ في بيوتكم، ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، يعني: مع المرضى والزَّمْنَى. وقيل: مع النسوان والصبيان. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقِيلَ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا. وقيل: أوحى إلى قلوبهم وأُلهِمُوا أسباب الخذلان.

﴿٤٧﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك فضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أُبيّ على ذي جدّة أسفل من ثنية الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلّف عنه عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الرِّيَب، فأنزل الله تعالى يعزّي نبيّه ﷺ بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟﴾، يعني المنافقين ﴿فِيكُم﴾، أي: معكم، ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، أي: فساداً وشرّاً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾، أسرعوا، ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾، في وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾، أي: أسرعوا فيما يخلّ بكم. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك. وقال الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العيب والشرّ. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بغاءً إذا التمسته له، يعني: بغيت له. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد:

معناه وفيكم مخبرون لهم يؤدّون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يستمعون كلامهم ويطيعونهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾، أي: طلبوا صدّ أصحابك عن الدين وردّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أبيّ يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه. ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، وأجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي بالتخذيل عنك، وتشتيت أمرك، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾، النصر والظفر، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، دين الله، ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾، نزلت في جد بن قيس المنافق. وذلك أن النبيّ ﷺ لما تجهز لغزوة تبوك قال [له]: «يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر»؟ ـ يعني الروم ـ «تتخذ منهم سراري ووصفاء»، فقال جد: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، ائذنْ لي في القعودِ ولا تفتني بهنّ وأعينك بمالي ـ قال ابن عباس: اعتلّ جد بن قيس ولم تكن له علّة إلا النفاق ـ فأعرض عنه النبيّ ﷺ، فقال: «أذنت لك»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُم﴾ يعني من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ببنات بني الأصفر. قال قتادة: ولا تؤثمني. ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾، أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمر الله ورسوله، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، مطبقة بهم وجامعة لهم فيها.

﴿٥٠﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾، نصرة وغنيمة، ﴿تَسُؤْهُمْ﴾، تُحزنُهم، يعني: المنافقين، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾، قتل وهزيمة، ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾، حذرَنا، أي: أخذنا في القعود عن الغزو، ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾، ويدبروا، ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿٥١﴾ ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، أي: علينا في اللّوح المحفوظ، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، ناصرنا وحافظنا. وقال الكلبي: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، تنتظرون بنا أيها المنافقون، ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة.

وروينا عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «تكفّل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته أن يدخله الجنّة. أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة». قوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾، إحدى السوأتين إمّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾، فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، أو بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، قال الحسن: فتربّصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

﴿٥٣﴾ ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً، نزلت في جد بن قيس حين استأذن في القعود، قال: أعينكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ﴾، أي: لأنكم، ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿يقبل﴾ بالياء لتقدم الفعل، وقرأ الباقون: بالتاء لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات، فأنّث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث، ﴿نَفَقَٰتُهُمْ﴾، صدقاتهم، ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، متثاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً، فإن قيل: كيف ذكر الكسلَ في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسل والإيمان منشط، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، لأنهم يعدّونها مغرماً ومنعها مغنماً.

الجزء العاشر سورة التوبة

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

١٩٦

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾، والإعجاب هو السرور بما يتعجّب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثّر الله ماله وولده، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإن قيل أي تعذيب في المال والولد وهم يتنعّمون بها في الحياة الدنيا؟ قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذّبهم بها في الآخرة. وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد. وقال الحسن: يعذّبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها، والنفقة في سبيل الله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه، والوجل في حفظه والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يَحْمِده، ثم يُقدم على مَلِكٍ لا يَعْذره. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾، أي: تخرج، ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، أي: يموتون على الكفر.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾، أي: على دينكم وشريعتكم وطريقتكم، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾، يخافوا أن يظهروا ما هم عليه.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾، حرزاً أو حصناً أو معقلاً. وقال عطاء: مهرباً، وقيل: قوماً يأمنون فيهم. ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾، غِيرَاناً في الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه، أي: يستتر. وقال عطاء: سراديب. ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾، موضع دخول يدخلون فيه، وهو من أدخل يدخل، وأصله: مدتخل مفتعل، من أدخل يدخل. قال مجاهد: محرزاً. وقال قتادة: سرباً. وقال الكلبي: نفقاً في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ، وقرئ: ﴿مُدْخَلًا﴾، بفتح الميم وتخفيف الدال، وكذلك قرأ يعقوب، ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾، إليه هرباً منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، يسرعون في إباءٍ ونفورٍ ولا يردّ وجوهَهم شيء. ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصاً منكم ومهرباً لفارقوكم.

(٥٨) قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، الآية نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير أصل الخوارج.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمٰن أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذُو الخُويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: «وَيْلَكَ فمنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ، فقد خبت وخسرت إن لم أكنْ أعدل»، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السّهمُ مِنَ الرَّميّة ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم آيتهم، رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس». قال أبو سعيد: أشهد إني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليّ بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأُتِيَ به حتى نظرت إليه على نعت

رسول الله ﷺ الذي نعته.

وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجوّاظ لرسول الله ﷺ: لم تقسمْ بالسويّة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَٰتِ﴾، أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ويطعن عليك فيها. يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني: أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يعطي إلاّ من أحب. وقرأ يعقوب: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ حيث كان، وقال مجاهد: يلمزك أي يروزك يعني يختبرك. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، قيل: إن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، كافينا الله، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾، ما نحتاج إليه ﴿إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، في أن يوسّع علينا من فضله، فيُغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس. وجوابَ ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لكان خيراً لهم وأعْوَد عليهم.

﴿٦٠﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ﴾ الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية أهل سهمان الصدقات وجعلها لثمانية أصناف.

ورُوي عن زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنّ الله لم يرضَ بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزّأها ثمانية أجزاء، فإن كنتَ من تلك الأجزاء أعطيتك».

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ﴾، فأحدُ أصناف الصدقة، الفقراءُ، والثاني: المساكين، واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل. وقال ابن عمر: ليس الفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى نفسه وثيابه لا يقدرُ على شيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف، فذلك الفقير. وقال قتادة: الفقير المحتاج الزَّمِنُ، والمسكين الصحيح المحتاج. وروي عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين والمساكين من أهل الكتاب. وقال الشافعي: الفقير من لاَ مَالَ له ولا حِرْفَة تقع منه موقعاً زَمِناً كان أو غير زَمِن، والمسكين من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه، سائلاً كان أو غير سائل، فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير لأن الله تعالى قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩]، أثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة، وعند أصحاب الرأي الفقير أحسن حالاً من المسكين. وقال القتيبي: الفقير الذي له البلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له. وقيل: الفقير من له المسكن والخادم، والمسكين من لا ملك له. وقالوا: كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره، قال الله تعالى: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، والمسكين المحتاج إلى كل شيء ألا ترى كيف حضّ على إطعامه، وجعل طعام الكفارة له ولا فاقة أشدّ من الحاجة إلى سدّ الجوعة. وقال إبراهيم النخعي: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين. وفي الجملة: الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فِقَار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت.

أخبرنا عبد الوهّاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان بن عيينة عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عبيدالله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسولَ الله ﷺ فسألاه عن الصدقة، فصعّد فيهما وصوّب، فقال: «إنْ شئتما أعطيتُكما ولا حظَّ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب».

واختلفوا في حدّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة، فقال الأكثرون: حدّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي. وقال أصحاب الرأي: حدّه أن يملك مائتي درهم. وقال قوم: من ملك خمسين درهماً لا تحلّ له الصدقة.

لما روينا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سأل النّاسَ وله ما يُغنيه جاء يومَ القيامةِ ومسألتهُ في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح»، قيل: يا

رسول الله وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب».

وهو قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وقالوا: لا يجوز أن يعطى الرجل من الزكاة أكثر من خمسين درهماً. وقيل: أربعون درهماً.

لِما رُوي أنّ النبيّ ﷺ قال: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً».

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم السعاة الذين يتولّون قبض [الأموال من] الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيُعطون من مال الصدقة فقراءَ كانوا أو أغنياءَ، فيُعطَوْن مثل أجر عملهم. وقال الضحاك ومجاهد: لهم الثمن من الصدقة. ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم المؤلّفة قلوبهم، وهم قسمان: قسم مسلمون وقسم كفار، فأمّا المسلمون: فقسمان قسم دخلوا في الإسلام ونيّتهم ضعيفة فيه، فكان النبيّ ﷺ يعطيهم تألّفاً كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي، وأسلموا ونيّتهم قوية في الإسلام وهم شرفاء في قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر، فكان يعطيهم تألّفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبيّ ﷺ، وكان النبيّ ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات. والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع مُتناطٍ لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إمّا لضعف نيّتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة. وقيل: من سهم المؤلّفة ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلّفة من الصدقات. وقيل: من سهم سبيل الله. رُوي أنّ عدي بن حاتم جاء إلى أبي بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً. وأمّا الكفار من المؤلفة فهو من يُخشى شره منهم أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي هذا حذراً من شره أو يُعطى ذلك ترغيباً له في الإسلام، فقد كان النبيّ ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لِمَا كان يرى من ميله إلى الإسلام، وأما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام فله الحمد وأغناه عن أن يتألّف عليه رجال، فلا يُعطي مشركٌ تألفاً بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط. رُوي ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهويه، وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك. قوله تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾، والصنف الخامس: وهم الرقاب وهم المكاتبون لهم سهم من الصدقة هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد والشافعي. وقال جماعة: يشتري بسهم الرقاب عبيداً فيُعتقون. وهذا قول الحسن، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾، والصنف السادس: هم الغارمون وهم قسمان: قسم أدانوا لأنفسهم في غير معصيته فإنهم يُعطَوْن من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاءٌ فلا يُعطون، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البَيْن فإنهم يُعطَوْن من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَحِلُّ الصدقة لغني إلاّ لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرَجلٍ له جارٌ مسكين فتُصُدِّق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها».

ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ متصلاً بمعناه.

أمّا من كان دينه في معصية الله وفساد فلا يُدفع شيءٌ إليه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أراد

بها الغزاة فلهم سهم من الصدقة، يُعطَوْن إذا أرادوا الخروج إلى الغزو، وما يستعينون به على أمر الغزو من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة، وإن كانوا أغنياء، ولا يُعطى شيء منه في الحجّ عند أكثر أهل العلم. وقال قوم: يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحجّ. ويُروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول الحسن وأحمد وإسحاق. قوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، والصنف الثامن: هم أبناء السبيل، فكل من يريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به المسافةُ يُعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة سواء كان له في البلد المنتقل إليه مال أو لم يكن. وقال قتادة: ابن السبيل هو الضّيف. وقال فقهاء العراق: ابن السبيل الحاج المنقطع. قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً﴾، أي: واجبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهو نصب على القطع، وقيل: على المصدر، أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. واختلف أهل العلم والفقهاء في كيفية قسم الصدقات، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف، فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرف كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف، وهو قول عكرمة وبه قال الشافعي، قال: يجب أن تقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف السّتة الذينَ سهمانهم ثابتة قسمةً على السواء، لأن سهم المؤلّفة ساقط وسهم العامل إذا قسمه بنفسه [ساقط أيضاً]، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلا واحداً صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدّ الاستحقاق، فإن انتهت حاجتُه وفضل شيء ردّه إلى الباقين.

وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم يجوز، وإنما سمى الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الأصناف، لا إيجاباً لقسمها بينهم جميعاً. وهو قول عمر وابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وعطاء، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وبه قال أحمد، قال: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى. وقال إبراهيم: إن كان المال كثيراً يحتمل الأجزاء قسّمه على الأصناف، وإن كان المال قليلاً جاز وضعه في صنف واحد. وقال مالك: يتحرّى موضع الحاجة منهم ويُقدّم الأولى فالأولى من أهل الخلّة والحاجة، فإن رأى الخلّة في الفقراء في عام أكثر قدّمهم، وإن رآها في عام في صنف آخر حوّلها إليهم، وكلُّ من دُفِعَ إليه شيءٌ من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق، فلا يزيد الفقير على قدر غناه، فإذا حصل أدنى اسم الغنى لا يُعطى بعده، فإن كان محترفاً لكنه لا يجد آلة حرفته فيعطى قدر ما يحصل به آلة حرفته ولا يزاد على العامل على أجر عمله، والمُكاتَبُ على قدر ما يُعتق به، وللغريم على قدر دينه، والغازي على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام في مغزاه وما يحتاج إليه من الفرس والسلاح، ولابن السبيل على قدر إتيانه مقصده مآله.

واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر مع وجود المستحقين فيه، فكرهه أكثر أهل العلم.

لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنبأنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو كريب ثنا وكيع ثنا زكريا [بن] إسحاق المكي ثنا يحيى بن عبد الله بن الصيفي عن أبي معبد عن ابن عباس. أنّ رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إنّك تأتي قوماً أهل كتاب فادْعُهمْ إلى شهادة أنْ لا إله إلاّ الله وأني محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّقِ دعوةَ المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

فهذا يدلّ على أن صدقة أغنياء كل قوم تُردّ على فقراء ذلك القوم. واتّفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر وأُدّي مع الكراهية وسقط الفرض عن ذمّته، إلا ما حُكي عن

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه ردّ صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان، [وقال: إن فقراء خراسان أولى بها].

﴿٦١﴾ ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبيّ ﷺ، ويقولون له ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال الجلاس بن سويد منهم: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنما محمدٌ أُذُنٌ، أي: أذنٌ سامعة، يقال: فلان أذن سامعة وأذنة على وزن فعلة، إذا كان يسمع ما قيل له ويقبله. وأصله من أذن يأذن أذناً إذا استمع. وقيل: هو أذن أي: ذو أذن سامعة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أذلم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسفع الخدّين مشوّه الخلقة، وقد قال النبيّ ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان ينم حديث النبيّ ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن فمن حدّثه شيئاً صدقه، فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف بالله فيصدّقنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾، قرأ العامة بالإضافة، أي: مستمعُ خير وصلاح لكم، لا مستمع شر وفساد. وقرأ الأعمش والبرجمي عن أبي بكر: ﴿أذن خيرٌ لكم﴾ مرفوعين منوّنين، يعني أن يسمع منكم ويصدّقكم خير لكم من أن يكذّبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذّبهم فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، أي: لا، بل يؤمن بالله، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يصدق المؤمنين ويقبل منهم لا من المنافقين، يقال: أمنته وأمنت له بمعنى صدقته. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، قرأ حمزة: ﴿وَرَحْمَةٍ﴾ بالخفض على معنى [أي هو] إذن خير لكم وأذن رحمة، وقرأ الآخرون: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع، أي: هو أذن خير وهو رحمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

قال قتادة والسدي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد، ووديعة بن ثابت، فوقعوا في النبيّ ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس فحقّروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره بما قاله المنافقون، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أنّ عامراً كذاب. وحلف عامر أنهم كَذَبَة فصدّقهم النبيّ ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللّهمّ صدّق الصادقَ وكذّب الكاذبَ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله، ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، أي: الفضيحة العظيمة.

﴿٦٤﴾ ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾، أي: يخشى المنافقون، ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: تنزل على المؤمنين،

﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرّون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم. قال قتادة: هذه السورة تُسمّى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين لئلا يعيّر بعضهم بعضاً، لأنّ أولادهم كانوا مؤمنين، ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾، مظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لمّا رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها، ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكّروا له في ليلة مظلمة، فأخبر جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما قدّروا، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ راحلته، وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: «اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاها، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: «من عرفت من القوم»؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «فإنهم فلان وفلان» حتى عدّهم كلهم، فقال حذيفة: ألا تبعثُ إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر محمد بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدبيلة».

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبدالغافر [بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن المثنى ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عبادة قال: قلنا لعمّار: أرأيتكم قتالكم أرأياً رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطىء ويصيب أو عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسولُ الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، وقال:

إن رسول الله ﷺ قال: «إنّ في أمتي - قال شعبة: وأحسبه قال: حدثني حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: إن في أمتي - اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنّة ولا يجدون ريحها، حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة، سراج من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم».

﴿٦٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية. وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أنّ النبيّ ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين، اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك. قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك.

وقيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك؛ فقال: احبسوا علي الركب، فدعاهم وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنّما كنا نخوض ونلعب، أي كنا نتحدّث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

قال ابن عمر: فلقد رأيت عبد الله بن أبي يشتد قدام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنّما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول له: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون» ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه. قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد للمنافقين، ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾، كتابه، ﴿وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فإن قيل كيف قال: أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾، أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحداً، ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، بالاستهزاء، وقرأ عاصم: ﴿نَّعْفُ﴾ بالنون وفتحها وضم الفاء، ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالنون وكسر الذال، ﴿طَائِفَةً﴾ نصبٌ. وقرأ الآخرون: ﴿يُعفَ﴾ بالياء وضمّها وفتح الفاء، ﴿تعذَّبْ﴾ بالتاء وفتح الدال، ﴿طائفٌ﴾ رفع على غير تسمية الفاعل.

وقال محمد بن إسحاق: الذي عُفا عنه رجل واحد، وهو مخشي بن حمير الأشجعي، يقال

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللهمّ إني لا أزل أسمع آية تقرأ أعنىٰ بها تقشعر الجلود منها، وتجبّ منها القلوب، اللهمّ اجعلْ وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأُصيب يومَ اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره.

﴿٦٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق. ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾، بالشرك والمعصية، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: عن الإيمان والطاعة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، تركوا طاعة الله، فتركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ﴾، كافيتهم جزاءً على كفرهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أبعدهم الله من رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، دائم.

﴿٦٩﴾ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعُدول عن أمر الله، فَلُعِنتُم كما لُعِنُوا ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، بطشاً ومنعةً، ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ﴾، فتمتعوا أو انتفعوا بخلاقهم، بنصيبهم من الدنيا باتّباع الشهوات ورضوا به عوضاً عن الآخرة، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾، أيها الكفار والمنافقون، ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ﴾، وسلكتم سبيلهم، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والكذب على الله تعالىٰ، وتكذيب رُسله، وبالاستهزاء بالمؤمنين، ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، أي: كما خاضوا. وقيل: كالذي بمعنى كالذين خاضوا، وذلك أن الذي اسم ناقص، مثل «مَا ومَن» يُعبّر به عن الواحد والجمع؛ نظيره قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، ثم قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطتْ أعمالُكم وخسرتُم.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد العزيز، ثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبيّ ﷺ قال: «لتتبعن سُنَنَ مَنْ قَبْلِكُم شِبْراً بشبرٍ وذِراعاً بِذِراعٍ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لاتّبعتُموهُم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية أبي هريرة: «فهلِ الناسُ إلاّ هُمْ».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سَمْتاً وهَدْياً تتّبعون عملهم حِذْوَ القُذّةِ بالقُذّةِ غيرَ أني لا أدري أتعبدُونَ العِجْلَ أم لا.

﴿٧٠﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، يعني المنافقين، ﴿نَبَأُ﴾، خبر، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، حين عصوا رُسلنا وخالفوا أمرنا كيف عذبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم، فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، أُهلكوا بالطوفان، ﴿وَعَادٍ﴾، أُهلِكوا بالريح، ﴿وَثَمُودَ﴾ بالرجفة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، بسلب النعمة وهلاك نمرود، ﴿وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ﴾،

الجزء العاشر — سورة التوبة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

١٩٩

يعني: قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾، المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط وقُراهم، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فكذّبوهم وعصَوْهم كما فعلتم يا معشر الكفار فاحذرُوا تعجيلَ النِقْمة، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿٧١﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، في الدِّين واجتماع الكلمة والعون والنصرة. ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، بالإيمان والطاعة والخير، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، المفروضة، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿٧٢﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، منازل طيبة، ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: عدن بالمكان إذا أقام به. قال ابن مسعود: هي بطنان الجنّة، أي: وسطها.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنّة قصراً يقال له عَدْنٌ حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلاّ نبيٌّ أو صديق أو شهيدٌ. وقال الحسن: قصرٌ من ذهب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ أو حَكَم عدلٌ. وقال عطاء بن السائب: «عدن» نهر في الجنّة جنباته على حافّتيه.

وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم، والجنان حولها، مُحدِّقة بها، وهي مغطّاة من حين خلقها الله تعالىٰ حتى ينزلها أهلها الأنبياءُ والصِّدِّيقُون والشهداءُ والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصورُ الدُّر واليواقيت والذهب، فتهبّ ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كُثبانُ المِسْكِ الأذْفر الأبيض، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك النعيم الذي هم فيه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

روينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ لأهلِ الجنّةِ: يا أهلَ الجنّة هلْ رضيتُم؟ فيقولون: ربَّنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولُونَ: ربنا وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

﴿٧٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: بالسيف والقتل، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، فقال ابن مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال: لا تلقَ المنافقين إلاّ بوجه مكفهّر. وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق. وقال الضحاك: بتغليظ الكلام. وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقال عطاء: نسخت هذه الآية كلَّ شيء من العفو والصفح.

﴿٧٤﴾ قوله تعالىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [الآية]. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلّموه»، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلامَ تشتمني أنتَ وأصحابُكَ؟!» فانطلق الرجل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال الكلبي: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، فذكر المنافقين وسمّاهم رجساً وعابهم، فقال جلاس: لئن

كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير، فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل إنّ محمداً لصادقٌ وأنتم شرٌّ من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب عليّ يا رسول الله، وأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله، ولقد كَذَبَ عليّ عامر، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو لقد قاله وما كذَبْتُ عليه، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: اللّهمّ أنزل على نبيّك تصديق الصادقِ منّا، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: «آمين»، فنزل جبريل عليه السلام [على النبي] من السماء قبل أن يتفرّقا بهذه الآية، حتى بلغ: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمعُ اللَّهَ عزّ وجلّ قد عرضَ عليّ التوبة، صدقَ عامرُ بن قيس فيما قاله لقد قلتُه وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقَبِلَ رسولُ الله ﷺ ذلك منه ثم تاب وحَسُنَتْ توبتُه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام، وقيل: هي سبُّ النبي ﷺ. وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كانَ محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. وقيل: كلمة الكفر قولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وستأتي [تلك] القصة في موضعها في سورة المنافقين إن شاء الله، ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، قال مجاهد: هَمّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شر من الحمير، لكي لا يفشيه. وقيل: هم اثنا عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتِكُوا برسول الله ﷺ، فجاء جبريل عليه السلام وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وُجُوهَ رَوَاحِلِهم، فأرسل حذيفة لذلك. وقال السدي: قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجاً، فلم يصلوا إليه.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾، وما كرهوا وما أنكروا منهم، ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وذلك أن مولى الجلاس قُتِل فأمر له رسول الله ﷺ بديّته اثني عشر ألف درهم فاستغنى. وقال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبيّ ﷺ في ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَ عليهم النبيّ ﷺ استغنوا بالغنائم.

﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾، يعرضوا عن الإيمان، ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾، بالخزي، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، أي: وفي الآخرة بالنار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

(٧٥) قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الآية.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي ثنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبد الله بن حامد الأصفهاني، ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، ثنا محمد بن نصر، حدّثني أبو الأزهر أحمد بن الأزهر، ثنا مروان بن محمد بن شعيب ثنا مُعَان بن رفاعة عن عليّ بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمٰن عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليلٌ تُؤدي شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا لَكَ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسَارتْ»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع اللَّهَ أن يرزقني مالاً فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني اللّه مالاً لأعطين كلَّ ذِي حقٍّ حقَّه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ ارزُقْ ثعلبةَ مالاً»، قال: فاتّخذ غنماً فَنَمتْ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كالدود، فكان يصلّي مع النبيّ ﷺ الظهر والعصر ويصلّي في غنمه سائر الصلوات، ثم كثُرتْ ونَمَتْ حتى تباعد بها عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كَثُرتْ فنمتْ فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة.

فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقّى الناسَ يسألهم عن الأخبار، فذكره ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة»؟ قالوا: يا رسول الله اتّخذ

ثعلبة غنماً [ما] يسعها وادٍ، فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ ثعلبةَ، يا وَيْحَ ثعلبة، يا وَيْحَ ثعلبة»، فأنزل الله آيةِ الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلٍ من جُهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذان، وقال لهما: «مُرّا بثعلبة بن حاطب، ورجلٍ من بني سليم فخذا صدقاتهما»، فخرجا إلى ثعلبة حتى أتياه فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذ إلاّ أخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثمّ عُودا إليّ فانطلقا وسمع بهما السلمي [فنظر إلى] خيار أسنان إبله فعزَلَها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالوا: ما هذه عليك؟ قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمرّا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعَا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقرأه، ثم قال: ما هذ إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي، قال: فأقبلا فلمّا رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلّماه قال: «يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْح ثعلبة، ثم دعا للسلمي بخير». فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧]، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيّ ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ منعني فلم أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك وقد أمرتُك فلم تطعني»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله. وقُبض رسولُ الله ﷺ، ثم أتى أبا بكر فقال: اقبلْ صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ ثم أنا أقبلها؟ فقُبضَ أبو بكر ولم يقبلها. فلمّا وَلِيَ عمرُ أتاه: فقال: اقبلْ صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ ولا أبو بكر أنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها. فلمّا وَلِيَ عثمان أتاه فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقَّه، وتصدّقت منه، ووصلت الرحم، وأحسنت إلى القرابة، فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يفِ بما قال، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود وقالا: والله لئن رزقنا اللّهُ مالاً لنصدقنّ، فلما رزقهما الله عزّ وجلّ بَخِلاَ به، فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُم﴾، يعني: المنافقين، ﴿مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولنؤدينّ حقَّ الله منه، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، نعمل بعمل أهل الصلاح فيه، من صلة الرحم والنفقة في الخير.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿٧٧﴾ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾، فأخلفهم، ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: صيّر عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلاناً ندامةً إذا صيّر عاقبة أمره ذلك. وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم. يُقال: عاقبتُه وأعقبته بمعنى واحد. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، ثنا أبو الحسن عليّ بن عبد الله الطيسفوني، ثنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حُجْر، ثنا إسماعيل بن جعفر، ثنا أبو سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أخلفَ، وإذا ائتمِنَ خان».

﴿٧٨﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿٧٩﴾ قوله عز وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ الآية.

قال أهل التفسير: حثّ رسولُ الله ﷺ على الصدقة فجاء عبد الرحمٰن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال

الجزء العاشر — سورة التوبة

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٢٠٠

رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ»، فبارك الله في مال عبد الرحمٰن حتى أنه خلّف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم. وتصدّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بثمانية وِسْقٍ من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحباب بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله بتُّ ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نِلْتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما لأهلي وأتيتُك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمٰن وعاصم إلا رياءً وإن الله ورسوله لغنيّان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يُذكر بنفسه ليعطى من الصدقة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾.

أي: يعيبون، ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ [المتبرعين] ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، يعني: عبد الرحمٰن بن عوف وعاصماً. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل [والجَهد] والجُهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز. وقرأ الأعرج بالفتح.

وقال القتيبي: الجُهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، يستهزؤون بهم، ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، أي: جازاهم الله على السخرية، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، لفظ أمر معناه الخبر، تقديره: استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ الله لهم، ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وذكر السبعين في العدد للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة.

وقال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد رخّص لي فلأزيدنّ على السبعين لعلّ الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿٨١﴾ ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك، والمخلف المتروك، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾، أي: بقعودهم، ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ. وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار وأقاموا، ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، وكانت غزوة تبوك في شدّة الحرّ، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، يعلمون وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

﴿٨٢﴾ ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾، في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾، في الآخرة. تقديره: فليضحكوا قليلاً فسيبكون كثيراً، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنبأنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال: أنا عبد الله بن محمد بن الحسن الشرقي، ثنا عبد الله بن هاشم، ثنا يحيى بن سعيد ثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنهم قال:

قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتُم كثيراً».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثنا عبد الله بن المبارك عن عمران بن زيد التغلبي، ثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا، فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في

النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرّح العيون، فلو أن سُفناً أجريت فيها لَجَرَتْ».

(٨٣) قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: ردّك يا محمد من غزوة تبوك، ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، يعني: من المخلّفين، وإنما قال «طائفة منهم» لأنه ليس كل من تخلّف عن غزوة تبوك كان منافقاً، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، معك في غزوة أخرى، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ في سفر، ﴿وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، في غزوة تبوك، ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾، أي: مع النساء والصبيان، وقيل: مع الزَّمْنَى والمرضَى. وقال ابن عباس: مع الذين تخلّفوا بغير عذر. وقيل: مع الخالفين. قال الفراء: يقال صاحب خالف إذا كان مخالفاً.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية [التوبة: ٨٤].

قال أهل التفسير: بعث عبد الله بن أُبيّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له: «أهلكك حبُّ اليهود»؟ فقال: يا رسول الله إني لم أبعث إليك لتؤنبني، إنما بعثت إليك لتستغفر لي وسأله أن يكفنه في قميصه ويصلّي عليه.

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي، ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بُكير، حدثني الليث، عن عُقيل، عن ابن شهاب عن عبيدالله بن عبد الله [عن] ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لما مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ ليصلّي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه فقلت: يا رسول الله أتصلّي على ابن أُبيّ ابن سلول وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ أعدد عليه قوله، فتبسّم رسولُ الله ﷺ وقال: «أخِّرْ عني يا عمر»، فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيِّرتُ فاخترت لو أعلم أني إنْ زدت على السبعين غفر له لزدت عليها»، قال: فصلّى عليها رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾. قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن عبد الله، ثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: أتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبيّ بعدما أُدخل في حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث في فيه من ريقه وألبسه قميصه، فالله أعلم وكان كَسَا عباساً قَميصاً. قال سفيان: وقال هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان، فقال [له] ابن عبد الله: يا رسول الله ألبسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك.

ورُوي عن جابر قال: لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأُتيَ بالعباس ولم يكن عليه ثوب [فنظر النبيّ ﷺ له قميصاً] فوجدوا قميص عبد الله بن أُبيّ يقدر عليه، فكساه النبيّ ﷺ [إياه]، فلذلك نزع النبيّ ﷺ قميصه الذي ألبسه عبد الله ـ وقال ابن عيينة ـ كانت له عند النبيّ ﷺ يدٌ فأحبَّ أن يُكافئه.

ورُوي أن النبيّ ﷺ كُلّم فيما فعل بعبدِ الله بن أُبيّ، فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله شيئاً، والله إني كنتُ أرجو أنْ يُسلم به ألف من قومه».

ورُوي أنه أسلم به ألفٌ من قومه لمّا رأوه يتبرّك بقميص النبيّ ﷺ.

(٨٤) قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، ولا تقف عليه، ولا تتول دفنه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾، فما صلّى النبيّ ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قُبِضَ.

(٨٥) قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

(٨٦) ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾، ذوو الغنى والسّعة منهم في القعود والتخلّف، ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾، في رحالهم.

الجزء العاشر — سورة التوبة

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٢٠١

(٨٧) ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، يعني: النساء. وقيل: مع أدنياء الناس وسفلتهم. يقال: فلانٌ خالِفةُ قومه إذا كان دونهم، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾، يعني: الحسنات، وقيل: الجواري الحسان في الجنّة، قال الله تعالىٰ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧]، جمع خيرة، وحكي عن ابن عباس: أنّ الخير لا يعلم معناه إلاّ الله؛ كما قال جلّ ذكرهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(٨٩) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(٩٠) قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية، قرأ يعقوب ومجاهد: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بالتخفيف وهم المبالغون في العذر، يقال في المثل: لقد أعذر من أنذر، أي: بالغ في العذر من قدم النذارة، وقرأ الآخرون: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتشديد، أي: المقصّرون، يقال: عذر أي: قصر، وقال الفراء: المعذّرون المعتذرون أدغمت التاء في الذال ونُقلت حركة التاء إلى العين.

وقال الضحاك: المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم، فقالوا: يا نبيّ الله إنْ نحنُ غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم».

وقال ابن عباس: هم الذين تخلّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ. ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، يعني: المنافقين. قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئاً قوم تكلّفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم تعالىٰ بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾، وقوم تخلّفوا عن غير تكلّف عذر فقعدوا جراءَةً على الله تعالىٰ، وهم المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ذكر أهل العذر.

(٩١) فقال جلّ ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾، قال ابن عباس: يعني الزَّمْنَى والمشايخ والعجزة. وقيل: هم الصبيان، وقيل: النسوان، ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾، يعني: الفقراء ﴿حَرَجٌ﴾، مأثم. وقيل: ضيق في القعود عن الغزو، ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، في مغيبهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وبايعوا الرسول. ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، أي: من طريق بالعقوبة، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال قتادة: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه.

وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر.

(٩٢) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾، معناه: أنه لا سبيل على الأوّلين ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُمّوا البكّائين: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعُلْبة بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل المزني، أتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنّ الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا. واختلفوا في قوله: ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾، قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب. وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة، ليغزوا معه فأجابهم النبيّ ﷺ كما أخبر الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٢٠٢

عَلَيْهِ تَوَلَّوا﴾، وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾.

﴿٩٣﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾، بالعقوبة، ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾، في التخلّف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، مع النساء والصبيان، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٩٤﴾ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، يُروى أن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعةً وثمانين نفراً، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾، لن نصدّقكم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، فيما سلف، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، في المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، لتصفحوا عنهم ولا تؤنّبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، فدعوهم، وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نجس، أي: إن عملهم قبيح، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن عباس: نزلت في جدّ بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين، فقال النبيّ ﷺ حين قدم المدينة: «لا تُجالسوهم ولا تكلّموهم».

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ حلَفَ للنبيّ ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلّف عنه بعدها، وطلب من النبيّ ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية:

﴿٩٦﴾ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿الْأَعْرَابُ﴾، أي: أهل البدو، ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، من أهل الحضر، ﴿وَأَجْدَرُ﴾، أي: أخلق وأحرى، ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السُّنن، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾، فيما فرض من فرائضه.

﴿٩٨﴾ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾، قال عطاء: لا يرجون على إعطائه ثواباً ولا يخافون على إمساكه عقاباً وإنما ينفقون خوفاً ورياءً. والمغرم: التزام ما لا يلزم. ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾، وينتظر، ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾، يعني: صروف الزمان، التي تأتي مرة بالخير ومرّة بالشر. وقال يمان بن رباب: يعني ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، عليهم يدور البلاء والحزن ولا يرون في محمد ودينه إلا ما يكرهون وما يسوءهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ ههنا وفي سورة الفتح بضم السين، معناه: الضر والبلاء والمكروه. وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر. وقيل: بالفتح الردة والفساد، وبالضم الضرّ والمكروه. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم. ثم استثنى فقال:

﴿٩٩﴾ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وقال مجاهد: هم بنو مقرن من مُزينة. وقال الكلبي: أسلم وغفار وجُهينة.

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنبأنا جدي

وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

عبد الصمد بن عبد الرحمٰن البزاز، أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَري، أنبأنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينة ومُزينة خيرٌ عندَ اللهِ يومَ القيامة مِن تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان». ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبيّ ﷺ، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾. قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء، والباقون بسكونها. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾، في جنته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [الآية]، قرأ يعقوب ﴿والأنصارُ﴾] بالرفع، عطفاً على قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، واختلفوا في السابقين الأولين، قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلّوا إلى القبلتين. وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر. وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية. واختلفوا في أوّل من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتّفاقهم على أنّها أولُ من آمن برسول الله ﷺ. فقال بعضهم: أول من آمن وصلّى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين. وقال بعضهم: أول من آمن بعد خديجة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي. وقال بعضهم: أول من أسلم زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وعروة بن الزبير، وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أوّل من أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن العبيد بلال، ومن الموالي زيد بن حارثة.

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلاً محبّباً سهلاً وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجراً ذا خُلقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وحُسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فأسلم على يديه فيما بلغني عثمان بن عفان، والزبير بن العوام وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلّوا، فكان هؤلاء الثمانية نفرُ الذين سبقوا إلى الإسلام، ثم تتابع الناس في الدخول إلى الإسلام. وأمّا السابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستة [نفر] في العقبة الأولى وسبعين في [العقبة] الثانية، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زُرارة مُصعب بن عُمير يعلّمهم القرآن، فأسلم معهم خلق كثير وجماعة من النساء والصّبيان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم. ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾، أي: ومن الأنصار، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأوّلين. وقيل: هم الذين سلكوا

سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة. وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء. وقال أبو صخر حميد بن زياد: أتيتُ محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟ فقال: اقرأ قولَ الله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، إلى أن قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة. قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط.

ورُوي أن النبيّ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيدِهِ لو أنّ أحدكم أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذهباً ما أدركَ مُدَّ أحَدِهِم ولا نَصِيفَه». ثم جمعهم الله عزّ وجلّ في الثواب فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قرأ ابن كثير: ﴿من تحتها الأنهار﴾، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١٠١) قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾، وهم من مزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرّد فلان على ربِّه، أي: عتا ومرد على معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ومنه التمرد والمارد، وقال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيرَه. وقال ابن زيد: أقاموا عليه [واعتادوه] ولم يتوبوا، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾، أنت يا محمد، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾.

اختلفوا في هذين العذابين.

قال الكلبي والسدي: قام النبيّ ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرُجْ يا فلان فإنّك منافق، اخرج يا فلان»، أخرج ناساً من المسجد وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول. والثاني: عذاب القبر.

وقال مجاهد: الأول القتل والسبي، والثاني: عذاب القبر. عنه رواية أخرى: عُذّبوا بالجوع مرّتين. وقال قتادة: الدبيلة في الدنيا وعذاب القبر. وقال ابن زيد: الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأخرى عذاب الآخرة. وعن ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى عذاب القبر. وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر. وقيل: إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والآخرى عذاب القبر. وقيل: الأولى إحراق مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، أي: [إلى] عذاب جهنم يخلدون فيه.

(١٠٢) قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، أي: ومن أهل المدينة أو من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين، ﴿ٱعْتَرَفُوا۟﴾، أقرّوا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو إقرارهم بذنوبهم وتوبتهم، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، أي: بعمل آخر سيء، وضع الواو موضع الباء، كما يقال: خلطتُ الماءَ واللبن، أي: باللبن. والعمل السيء هو تخلّفهم عن رسول الله ﷺ، والعمل الصالح هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري. وقيل: غزواتهم مع النبيّ ﷺ.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

نزلت هذه الآية في قوم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندِمُوا على ذلك، وقالوا: نكون في الظلال مع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللأواء، فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا: والله لَنُوثِقَنّ أنفسَنا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكونَ رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ويعذُرُنا، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مرّ بهم فرآهم، فقال: «مَنْ هؤلاء»؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلّفوا عنك فعاهدُوا اللَّهَ عزّ وجلّ أن لا يُطلقوا أنفسَهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أُعذرهم حتى أومرَ بإطلاقهم، لأنهم رغبوا عني وتخلّفوا

عن الغزو مع المسلمين»، فأنزل الله هذه الآية، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلّفتنا عنك فتصدّق بها وطهّرنا واستغفر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية.

واختلفوا في أعداد هؤلاء التائبين. فرُوي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانوا عشرة منهم أبو لبابة. ورَوى عطية عنه: أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال الضحاك وقتادة: كانوا سبعة. وقالوا جميعاً: أحدهم أبو لبابة. وقال قوم: نزلت في أبي لبابة خاصة. واختلفوا في ذنبه، قال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار بيده إلى حلقه.

وقال الزهري: نزلت في تخلّفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية، وقال: والله لا أحِلّ نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقيل له: قد تيب عليك، فقال: والله لا أحلّ نفسي حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلّني، فجاء النبيّ ﷺ فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: يُجزيك يا أبا لبابة الثلث. قالوا جميعاً: فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين. لأن الله تعالىٰ قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، ولم يقل: خذ أموالهم. قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلّفوا.

﴿١٠٣﴾ قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾، بها من ذنوبهم، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، أي: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين. وقيل: تنمّي أموالهم، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ادعُ لهم واستغفر لهم. وقيل: هو قول الساعي للمصدّق إذا أخذ الصدقة منه: آجَرَكَ اللَّهُ فيما أعطيتَ وبارَكَ لكَ فيما أبقيت. والصلاةُ في اللغة: الدعاء. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿صلاتك﴾ على التوحيد ونصب التاء هٰهنا، وفي سورة هود: ﴿أصلاتك﴾ [هود: ٨٧]، وفي سورة المؤمنين: «على صلاتهم» [٢]، كلهن على التوحيد، وَافَقَهُما حفصٌ هٰهنا وفي سورة هود [٨٧]، وقرأ الآخرون بالجمع فيهنّ وكسر التاء ها هنا ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، أي: إن دعاءك رحمة لهم، قاله ابن عباس. وقيل: طمأنينة لهم وسكون لهم أن الله عزّ وجلّ قد قَبِلَ منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيتٌ لقلوبهم. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة، فقال بعضهم: يجب. وقال بعضهم: يُستحب. وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوّع. وقيل: يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم بن أبي إياس، ثنا شعبة عن عمرو بن مرّة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوْفَى وكان من أصحاب الشجرة قال:

كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: «اللّهمّ صلِّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللّهمّ صلِّ على آل أبي أوْفى».

وقال ابن كيسان: ليس هذا في صدقة الفرض إنما هو لصدقة كفارة اليمين. وقال عكرمة: هي صدقة الفرض، فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلّفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يُكَلّمون ولا يُجَالَسُون، فما لهم؟ وذلك أن النبيّ ﷺ لما رجع إلى المدينة نهى المؤمنين عن مكالمة المنافقين ومجالستهم؟ فقال الله تعالىٰ:

﴿١٠٤﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: يقبلها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصمّ، أنبأنا الربيع بن سليمان، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان، عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

٢٠٤

رضي الله عنه قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدّق بصدقةٍ من كسب طيّبٍ، ولا يقبلُ اللَّهُ إلا طيباً ولا يَصْعُدُ إلى السماءِ إلا طيّبٌ، إلا كأنما يضعها في يد الرحمٰن فيُربيها له كما يُربي أحدكم فُلُوَه، حتى أنّ اللّقمة لتأتي يومَ القيامة وإنّها لمثلِ الجبلِ العظيم»، ثم قرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

﴿١٠٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، قال مجاهد: هذا وعيدلهم. قيل: في رؤية النبي ﷺ بإعلام الله تعالى إيّاه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة لأهل الفساد.

﴿١٠٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بغير همز، والآخرون بالهمز، والإرجاء: التأخير، مرجون: مؤخرون لأمر الله: لحكم الله عزّ وجلّ فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصّتهم من بعدُ: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى شقّهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا من أهل بدر فجعل أناسٌ يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مرجئين لأمر الله، لا يدرون أيعذبهم أم يرحمهم؟ حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة.

﴿١٠٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿الَّذِينَ﴾ بلا واو وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون بالواو. ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾.

نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنو مسجداً يضارّون به مسجدَ قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق، وديعة بن ثابت، وخِذام بن خالد، ومن داره أخرج هذا المسجد، وثعلبة بن حاطب، وجارية بن عمرو، وابناه مجمع وزيد، ومعتب بن قشير، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف، وأبو حبيبة بن الأزعر، ونبتل بن الحارث، وبجاد بن عثمان، ورجل يقال له بحزج، بنوا هذا المسجد ضراراً، يعني مضارّة للمؤمنين، ﴿وَكُفْرًا﴾، بالله ورسوله، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلّي فيه بعضهم فيؤدّي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، وكان يصلّي بهم مجمع بن جارية، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، إنا نحب أن تأتينا وتصلّي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا لكم فيه».

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له إذا أعددت له. وهو أبو عامر الراهب وكان أبو عامر هذا رجلاً منهم ـ وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة ـ وكان قد ترهّب في الجاهلية، وتنصّر ولبس المسوح، فلما قدم النبيّ ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: فإنا عليها، فقال له

النبيّ ﷺ: «إنك لستَ عليها»، قال: بلى، ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبيّ ﷺ: «ما فعلتُ ولكني جئتُ بها بيضاء نقيّة»، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذبَ منّا طريداً وحيداً غريباً، فقال النبيّ ﷺ: «آمين»، وسمّاه أبا عامر الفاسق، فلما كان يوم أُحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هارباً إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أنِ استعدّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابْنُوا لي مسجداً فأنا ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتِ بجندٍ من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجدَ الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وهو أبو عامر الفاسق ليصلّي فيه إذا رجع من الشام.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، يرجع إلى أبي عامر يعني حارب الله ورسوله من قبل، أي: من قبل بناء مسجد الضرار.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾، ما أردنا ببنائه، ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾، إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، في قيلهم وحلفهم.

ورُوي أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ونزل بذي أَوَان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالىٰ خبر مسجد الضرار وما همّوا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهدموه واحرقوه»، فخرجوا سريعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل وأشعل فيه ناراً، ثم خرجوا يشتدّون، حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرقوه وهدموه، وتفرّق عنه أهله، وأمر النبيّ ﷺ أن يتّخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً.

ورُوي أن بني عمرو بن عوف، الذين بنوا مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمّهم في مسجدهم، فقال: لا ولا نعمت عين أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ فواللّهِ لقد صلّيت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صليتُ معهم فيه، كنتُ غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون القرآن فصلّيت ولا أحسب إلا أنهم يتقرّبون إلى الله تعالىٰ، ولم أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصّلاة في مسجد قباء. وقال عطاء: لما فتح الله على عمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أنْ لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه.

(١٠٨) قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، قال ابن عباس: «لا تُصلِّ فيه»، منعَ اللّهُ تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يصلّي في مسجد الضِّرار. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾، اللام لام الابتداء، وقيل: لام القسم، تقديره: والله لمسجدٌ أُسِّس، أي: بُني أصله على التقوى، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، أي: من أول يوم بني ووضع أساسه، ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، مصلياً واختلفوا في المسجد الذي أسّس على التقوى، فقال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه ما:

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن حاتم، ثنا يحيى بن سعيد، عن حميد الخراط قال: سمعتُ أبا سلمة عبد الرحمٰن قال: مرّ بي عبد الرحمٰن بن أبي سعيد الخدري قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسّس على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسّس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»، قال: فقلت أشهد

أني سمعت أباك هكذا يذكره.

وأخبرنا أبو الحسن الشيرازي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة.

أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنّة، ومنبري على حوضي».

وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا موسى بن إسماعيل، ثنا عبد العزيز بن مسلم، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

كان النبيّ ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً، وكان عبد الله بن عمر يفعله، وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ، فيصلّي فيه ركعتين.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾، من الأحداث والجنابات والنجاسات. وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني، أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح عن أبي هريرة:

عن النبيّ ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾، قال: «كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية»، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، أي: المتطهرين.

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، قرأ نافع وابن عامر «أُسِّسَ» بضم الهمزة وكسر السين، ﴿بُنْيَـٰنُهُۥ﴾ برفع النون فيهما جميعاً على غير تسمية الفاعل. وقرأ الآخرون: ﴿أَسَّسَ﴾ بفتح الهمزة والسين بنيانه بنصب النون على تسمية الفاعل. ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾، أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خيرٌ، ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾، أي: على شفير، ﴿جُرُفٍ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «جُرْف» ساكنة الراء، وقرأ الباقون بضم الراء وهما لغتان، وهي البئر التي لم تطوَ، قال أبو عبيدة: هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فيتجرّف بالماء فيبقى واهياً، هار، أي: هائر وهو الساقط يقال هار يهور فهو هائر، ثم يقلب فيقال: هار مثل شاك وشائك وعاق وعائق. وقيل: هو من يهار إذا انهدم، ومعناه الساقط الذي يتداعى بعضه في إثر بعض، كما ينهار الرمل والشيء الرخو. ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾، أي: سقط بالباني ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنّم فيهور بأهلها فيها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد صيّرهمُ النفاقُ إلى النار. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، قال قتادة: والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه، فرؤيَ الدخان يخرج منها. وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾، أي: شكاً ونفاقاً، ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾، يحسبون أنهم كانوا في بنيانه مُحسنين كما حُبّب العجل إلى قوم موسى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الكلبي: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه. وقال السدي: لا يزال هدم بنائهم ريبة أي حزازة وغيظاً في قلوبهم. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: تتصدّع قلوبهم فيموتوا. وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة ﴿تَقَطَّعَ﴾ بفتح التاء، أي: تتقطع، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ الآخرون: ﴿تُقَطَّعَ﴾، وقرأ يعقوب وحده «إلى أن» بتخفيف اللام على الغاية، ويدلّ على قراءة يعقوب تفسير الضحاك وقتادة: لا يزالون في شك منه وندامة إلى أن يموتوا فحينئذ يستيقنوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(١١١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾.

قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعتِ الأنصارُ رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً، قال

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

٢٠٥

عبدالله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربي عزّ وجلّ أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنّة»، قالوا: رَبِحَ البيعُ لا نقيلُ ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾.

وقرأ الأعمش «بالجنة»، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «فيُقتَلون» بضم الياء وفتح التاء «ويَقتُلون» بفتح الياء وضمّ التاء على تقديم فعل المفعول على فعل الفاعل، يعني: يُقتل بعضهُم بعضاً ويقتل الباقون، وقرأ الباقون ﴿فَيَقۡتُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم التاء ﴿وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ بضم الياء وفتح التاء على تقديم فعل الفاعل على ما فعل المفعول. والوجه أنهم يقتلون الكفار أولاً ثم يستشهدون، هذا الوجه أظهر والقراءة به أكثر. ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، أي: ثواب الجنّة لهم وعدٌ وحقٌّ ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، يعني: أنّ اللّهَ عزّ وجلّ وعدهم هذا الوعد وبيّنه في هذه الكتب، وقيل فيه دليل على أن أهل الملل كلّهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنّة، ثم هنأهم فقال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾، فافرحوا ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال قتادة: ثَامَنَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ فأغلى لهم، وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن. وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشترِ الجنّة ببعضها، ثم وصفهم فقال:

﴿١١٢﴾ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾، قال الفراء: استُؤنفَتْ بالرفع لتمام الآية وانقطاع الكلام. وقال الزجاج: التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر المعنى التائبون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأنّ بعض المسلمين يُجزي عن بعض في الجهاد، فمن كانت هذه صفته فله الجنّة أيضاً، وهذا أحسن فكأنه وعدَ الجنّةَ لجميع المؤمنين؛ كما قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [النساء: ٩٥]، فمن جعله تابعاً للأول كان الوعد بالجنّة خاصاً، للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات. قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾، أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق، ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عزّ وجلّ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾، الذين يحمدون الله على كل حال في السرّاء والضرّاء.

وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يدعى إلى الجنّة يوم القيامة الذين يحمدُون الله في السرّاء والضرّاء».

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: هم الصائمون. وقال سفيان بن عيينة: إنّما سُمّيَ الصائمُ سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والمنكح. وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله.

رُوي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال: «إن سياحة أمّتي الجهاد في سبيل الله».

وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم. ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، يعني المصلين، ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، بالإيمان، ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، عن الشرك. وقيل: المعروف السنة والمنكر البدعة. ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، القائمون بأوامر الله. وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله. ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية.

فقال قوم: سبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيّب عن أبيه، قال: لما حضرتْ أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قلْ لا إله إلاّ الله كلمة أحاجُ لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة: أترغب عن ملّة عبد المطّلب، فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويعيدان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: على مِلّةِ عبد المطلب، وأبى أنْ يقول لا إله إلاّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنكَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وأنزل [الله] في أبي طالب [فقال لرسول الله ﷺ]: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني محمد بن حاتم بن ميمون، ثنا يحيى بن سعيد، ثنا يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمّه أبي طالب: «قلْ لا إله إلاّ الله أشهدُ لكَ بها يوم القيامة»، فقال: لولا أن تعيّرني قريشٌ فيقولون إنّما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينكَ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبد الله بن يوسف، حدّثني الليث حدثني يزيد بن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكِرَ عنده عمُّه أبو طالب، فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَحْضَاحٍ منَ النار يبلغُ كعبيه يغلي منه دماغه».

وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم رسول الله ﷺ مكّة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، ثنا عبد الغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنبأنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبيّ ﷺ قبرَ أمّه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنتُ ربي عزّ وجلّ في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي فزوروا القبور، فإنها تُذكّر الموت».

قال قتادة: قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنّ لأبي كما استغفرَ إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أنزل الله عزّ وجلّ خبراً عن إبراهيم عليه السلام قوله لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧]، سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: تستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أوَ لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

(١١٤) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، قال بعضهم: الهاء في إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام. والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم سأستغفر لك ربي، يعني إذا أسلمت. وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. وهو قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم:

٤٧]، يدلّ عليه قراءة الحسن: ﴿وعدها أباه﴾، بالباء الموحدة، والدليل على أن الوعد [كان] من إبراهيم وكان الاستغفار في حال شرك الأب، قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤]، إلى أن قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، فصرّح أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾، لموته على الكفر، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، وقيل: فلما تبيّن له في الآخرة أنه عدوّ الله تبرأ منه، أي: يتبرأ منه، وذلك لما:

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم عليه السلام: يا ربّ إنّك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزى مَنْ أبي [الأبعد] فيقول الله عزّ وجلّ: إني حرّمتُ الجنّةَ على الكافرين، ثم يقال لإبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»، وفي رواية: فيتبرأ منه يومئذ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، واختلفوا في معنى الأوّاه.

جاء في الحديث: «إن الأوّاه الخاشعُ المتضرع».

وقال عبد الله بن مسعود: الأوّاه الدّعّاء. وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التوّاب. وقال الحسن وقتادة: الأوّاه الرحيم بعباد الله. وقال مجاهد: الأوّاه الموقن. وقال عكرمة: هو المستيقن بلغة الحبشة. وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوّه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: آهٍ من النار، قبل أن لا ينفع آهٍ. وقيل: هو الذي يتأوّه من الذنوب. وقال عقبة بن عامر: الأوّاه الكثير الذكر لله تعالى. وعن سعيد بن جبير قال: الأوّاه المسبّح. ورُوي عنه: الأوّاه: المعلم للخير. وقال النخعي: هو الفقيه. وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله. وقال أيضاً: هو الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوّه شَفَقاً وفَرَقاً المتضرع يقيناً. يريد أن يكون تضرّعه على يقيناً ولزوم للطاعة. قال الزجاج: قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأوّاه. وأصله من التأوّه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء، والفعل منه أوّه وتأوّه، والحليم الصفوح عمن سبه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه عند وعيده، وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الحليم السيّد.

(١١٥) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ الآية، معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر وباستغفاركم للمشركين، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، يريد حتى يتقدم إليكم بالنهي، فإذا تبيّن ولم تأخذوا به فعند ذلك تَسْتَحِقُّون الضلال. وقال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال الضحاك: ما كان الله ليعذّبَ قوماً حتى يبيّن لهم ما يأتون وما يذَرُون.

وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ وذلك أن قوماً قدموا على النبيّ ﷺ فأسلموا ولم تكن الخمر حراماً ولا القبلة مصروفة إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قدموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حُرّمت والقبلة قد صُرفت، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضُلاّل؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾.

يعني: ما كان الله ليبطل عمل قوم قد علموا بالمنسوخ حتى يبيّن لهم الناسخ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ثم عظّم الله نفسه، فقال:

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يحكم بما يشاء، ﴿يُحْيِۦ

﴿وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

(١١٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، ﴿تَّابَ ٱللَّهُ﴾، أي: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبيّ ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلّف عنه. وقيل: افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، ونحوه. ﴿وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمّى جيش العسرة، والعسرة الشدّة، وكانت عليهم عسرة في الظّهر والزاد والماء.

قال الحسن: كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعةً ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغيّر، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلاّ التمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم مبلغه أخذ التمرة فلاكَها [في فمه] حتى يجد طعمَها ثم يعطيها لصاحبه فيمصها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلا النّواة، فمضوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك على صِدْقِهم ويقينهم ففازوا بالجنّة ونعيمها.

وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبيّ ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادعُ اللّهَ، قال: «أتحبُّ ذلك»؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم من القرب، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾، قرأ حمزة وحفص: ﴿يَزِيغُ﴾ بالياء؛ لقوله: ﴿كَادَ﴾، ولم يقل: كادت. وقرأ الآخرون بالتاء. والزيغ: الميل، أي: من بعد كادت تميل، ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: قلوب بعضهم، ولم يُرِدِ الميلَ عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلّف والانصراف للشدّة التي عليهم. قال الكلبي: هَمّ ناسٌ [هموا] بالتخلف ثم لحقوه. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾؟ قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عزّ وجلّ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها. ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾،

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

٢٠٦

قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذّبه أبداً.

(١١٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، أي: خُلّفوا عن غزوة تبوك. وقيل: خُلّفوا أي: أُرجِىء أمرهم، عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية، كلّهم من الأنصار.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بُكير، ثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعتُ كعبَ بن مالك يحدث حين

تخلّف عن غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطّ إلاّ في غزوة تبوك غير أني كنت تخلّفت عن غزوة بدر ولم يُعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريدون عِيرَ قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في الناس منها، وكان من خبري أني لم أكن قط أقوىٰ ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة. ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ وَرّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ واستقبل سفراً بعيداً ومفاوزَ وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبَة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلاّ ظنّ أنّ ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال. فتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهّز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر عليه إذا أردت، فلم يزل يتمادَى بي الأمر حتى اشتدّ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أنْ فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت ثم رجعْتُ ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل [ذلك يتمادى] بي حتى أسرعُوا أو تفارط الغزو، فهممتُ أن أرتحل فأُدْرِكهم وليتني فعلت، فلم يُقدّرْ لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم أحزنني أني لا أرى لي أسوة إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عَذَرَ اللّهُ من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسولُ الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً من تبوك حضرني هَمِّي، وطفقتُ أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطلُ وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمتُ عليه تبسّم تبسم المغضب، ثم قال: «تعالَ»، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ فقلت: بلى يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيتُ جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكنّ الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليَ فيه ثقلاً، إني لأرجو فيه عفوَ اللّهِ، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوَى قط ولا أيسَرَ مني حين تخلفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضيَ الله فيك»، فقمتُ وثارَ رجالٌ من بني سلمة فاتّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ [لك]، فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردت أن أرجع وأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي

رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصّلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا، ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفتُ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمتُ عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلتُ له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أُحِبُ اللَّهَ ورسولَه؟ فسكتَ، فعدتُ له فنشدته فسكتَ، فعدتُ فنشدته فقال: اللَّهُ ورسولُه أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له نحوي حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أنّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نُواسِكَ، فقلتُ لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمت به التنور فسجرته.

حتى إذا مضتْ أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ لرسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله فينا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقتْ عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفَى على جبلِ سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشرْ، [قال]: فخررتُ لله ساجداً وعرفتُ أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشّرون، وركض رجل إليّ فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفَى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعتُ له ثوبيّ فكسوته إيّاهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى النبيّ ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنّؤونني بالتوبة ويقولون لي: ليُهْنِكَ توبةُ اللّهِ عليك.

قال كعب: حتى دخلتِ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني [بتوبة الله عليّ]، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يُبرق وجهه من السرور: «أبشرْ بخيرِ يوم مرّ عليكَ منذُ ولدتْك أمك»! قال: قلت: أمِنْ عندِكَ يا رسولَ الله أم مِنْ عند الله؟ قال: لا بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُهُ حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليكَ بعضَ مالك فهو خيرٌ

لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: فقلت: يا رسول الله إنّما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألاّ أحدث إلاّ صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ووالله ما تعمدت منذُ ذَكَرْتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحبيّ، فلبثتُ كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت ولا يصلّي عليّ رسول الله ﷺ، أو يموتَ رسولُ الله ﷺ فأكونَ من الناس بتلك المنزلة [التي أنا بها]، فلا يكلّمني أحد منهم ولا يصلّي عليّ [أحد]، وأنزل الله توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني معينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أمّ سلمة تِيبَ على كعب»، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: «إذاً يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة»، حتى إذا صلّى ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، اتسعت، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾، غمّاً وهمّاً، ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، أي: تيقنوا، ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، لا مفزع من الله، ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾، أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم قد سبقت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، قال نافع: مع محمد وأصحابه. وقال سعيد بن جبير: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن جريج: مع المهاجرين؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مع الذين صدقت نيّاتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نيّة. وقيل: مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة. وكان ابن مسعود يقرأ: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جدّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه شيئاً ثم لا ينجز له، اقرؤوا إن شئتم هذه الآية.

(١٢٠) قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾، ظاهره خبر ومعناه نهي؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، سكان البوادي مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغِفار، ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، إذا غزا، ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ﴾، أي: ولا أن يرغبوا، ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه. وقال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة، ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾، في سفرهم، ﴿ظَمَأٌ﴾، عطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾، تعب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾، مجاعة، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾، أرضاً، ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾، وطؤهم إياه، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾، أي: لا يصيبون من عدوهم قتلاً أو أسراً أو غنيمةً أو هزيمةً، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عليّ بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي مريم، حدثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ اغبرّتْ قدماه في سبيل اللّهِ حرّمه اللّهُ على النار».

واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصة لرسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلّف عنه إلاّ بعذر، فأمّا غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المسلمين أن يتخلّف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة. وقال

الوليد بن مسلم: سمعتُ الأوزاعي وابنَ المبارك وابنَ جابر وسعيدَ بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها. وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً، فلما كثروا نسخها الله تعالىٰ وأباح التخلّف لمن يشاء من المسلمين أن يتخلف عنه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾.

(١٢١) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾، أي: في سبيل الله، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، ولو علاقة سوط، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾، لا يجاوزون وادياً في مسيرهم مقبلين أو مدبرين، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، يعني: آثارهم وخطاهم، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

رُوي عن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقةً في سبيل الله كُتِبَ له سبعُمائةِ ضعْفٍ».

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، أنا جرير عن الأعمش عن أبي عمرو الشّيباني عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُمائةِ ناقة كلها مخطومة».

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث حدثنا الحسين، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة، حدثني بسر بن سعيد، حدثني زيد بن خالد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جهّز غازياً في سبيل الله فقدْ غَزا، ومن خَلَفَ غازياً في سبيل الله في أهله بخير فقدْ غَزا».

(١٢٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾، قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما أنزل الله عزّ وجلّ عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبيّ ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبيّ ﷺ وحده، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وهذا نفي بمعنى النهي.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، أي: فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعةٌ ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعةٌ، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، يعني: فرقة القاعدين يتعلّمون القرآن والسُّنَن والفرائضَ والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل [الله] بعدهم [على نبيّه من القرآن] فتمكث السرايا يتعلّمون ما نزل بعدهم وتبعث سرايا أخر، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، وليعلموهم بالقرآن ويخوّفوهم به، ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، أن يجهلوا فلا يعملون بخلافه.

وقال الحسن: هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلاّ نفرَ فرقةٌ ليتفقهوا، أي: ليتبصّروا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومَهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله ورسوله ﷺ والمؤمنين لعلّهم يحذرون أن يُعادُوا النبيّ ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار.

وقال الكلبي: لها وجه آخر وهو أن أحياء من بني أسد وخزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة فأفسدُوا طُرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها، فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين.

وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفاً ودَعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلاّ وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً، وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبيّ ﷺ، فأنزل الله هذه الآية.

أي: هلاّ نَفَر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا في الدين وليستمعوا ما أنزل [الله] بعدهم ولينذروا قومهم، يعني: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله، لعلّهم يحذرون بأس الله ونقمته، وقعدت طائفة يبتغون الخير.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، حدثنا عبد الله بن عمر

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

سُورَةُ يُونُسَ

٢٠٧

الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حُجْر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُردِ اللّهُ به خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين».

أخبرنا عبد الوهّاب بن محمد الخطيب، ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناسَ معادنَ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ، فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا».

والفقه: هو معرفة أحكام الدين وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين مثل علم الطهارة والصلاة والصوم فعلى كل مكلّف معرفته. قال النبيّ ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلّ مسلم ومسلمةٍ». وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحد يجب عليه معرفتها ومعرفة علمها مثل علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحجّ إن وجب عليه. وأما فرض الكفاية هو أن يتعلّم حتى يبلغ درجة الاجتهاد ورتبة الفتيا، فإذا قعد أهل بلد عن تعلّمه عصوا جميعاً وإذا قام من كل بلد واحد بتعلّمه سقط الفرض عن الآخرين، وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث.

روى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلُ العَالِم على العابد كفضلي على أدناكم».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد».

قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

(١٢٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ الآية، أُمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها. وقيل: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، شدّةً وحمية. قال الحسن: صبراً على جهادهم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، بالعون والنصرة.

(١٢٤) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾، يقيناً. كان المنافقون يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقيناً وتصديقاً، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، يفرحون بنزول القرآن.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، شكٌّ ونفاق، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، أي: [كفراً إلى] كفرهم فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها. قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان يزيد وينقص، وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتى نزداد إيماناً.

وقال عليّ بن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لُمظَة بيضاء في القلب، فكلّما ازدادَ الإيمان عِظَماً ازداد ذلك البياضُ حتى يبيضَ القلبُ كلّه، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازدادَ النفاقُ ازدادَ ذلك السوادُ حتى يسودَّ القلبُ كله، وأيْمُ الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

(١٢٦) قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾، قرأ حمزة ويعقوب: «ترون» بالتاء على خطاب النبيّ والمؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء خبر عن المنافقين المذكورين. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ

مَرَّتَيْنِ﴾، بالأمراض والشدائد. وقال مجاهد: بالقحط والشدّة. وقال قتادة: بالغزو والجهاد. وقال مقاتل بن حيان: يفضحون بإظهار نفاقهم. وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقال يمان [بن رباب]: ينقضون عهدهم في السنة مرّة أو مرتين. ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، من نقض العهد ولا يرجعون إلى الله من النفاق، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: ولا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، يريدون الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة، ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا وثبتوا، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾، عن الإيمان بها. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها، ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، عن الإيمان. قال أبو إسحاق الزجاج: أضلّهم اللّهُ مجازاةً على فعلهم ذلك، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، عن الله دينه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا إذا صليتم: انصرفنا فإنّ قوماً انصرفوا فصرف اللّهُ قلوبَهم، ولكنْ قولوا قد قضينا الصّلاة.

﴿١٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي: من العرب من بني إسماعيل. قال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلاّ وقد ولدت النبيّ ﷺ، وله فيهم نسب. وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا محمد بن أحمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا عبد الله بن حامد، حدثنا حامد بن محمد، أنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن أبي نعيم، حدثنا هشيم، حدثني المدنيّ يعني أبا معشر، عن أبي الحويرث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام».

وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن «من أنفَسكم» بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾، شديد عليه، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، قيل: ﴿مَا﴾ صلة، أي: عنتكم، وهو دخول المشقّة والمضرّة عليكم. وقال القتيبي: ما أعنتكم وضرّكم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ضللتم. وقال الضحاك والكلبي: ما أثمتم. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أي: على إيمانكم وصلاحكم. وقال قتادة: حريص عليكم أي على ضالّكم أن يهديه الله، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين.

﴿١٢٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك الحرب، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

روى عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، وقال: هما أحدث الآيات بالله عهداً.

* * *

سورة يونس

سورة يونس عليه الصّلاة والسّلام مكيّة إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [٩٤ ـ ٩٦]، إلى آخرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

٢٠٨

﴿١﴾ ﴿الر﴾ و﴿المر﴾ [الرعد: ١]، قرأ أهل الحجاز والشام وحفص

بفتح الراء فيهما وقرأ الآخرون بالإمالة، قال ابن عباس والضحاك: ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى، و﴿الٓمٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى. وقال سعيد بن جبير ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ حروف اسم الرحمٰن، وقد سبق الكلام في حرف التهجي. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾، أي: هذا وأراد بالكتاب الحكيم القرآن. وقيل: أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: ﴿تِلْكَ﴾، وتلك إشارة إلى غائب مؤنث والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مفعل بدليل قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنّة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه.

(٢) قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾، العجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. وسبب نزول الآية أن الله عزّ وجلّ لما بعث محمداً ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾، يعني: أهل مكة، والألف فيه للتوبيخ ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، أي: أعلمهم مع التخويف، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، واختلفوا فيه، قال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. قال الضحاك: ثواب صدق. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنّه قال: هو السعادة في الذكر الأوّل. وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة الرسول ﷺ. وقال عطاء: مقام صدق لا زوال ولا بؤس فيه. وقيل: منزلة رفيعة. وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته، كقولهم: مسجد الجامع، وحب الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنّث فيقال: قدم صالحة. ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾، قرأ نافع وأهل البصرة والشام: «لسحر» بغير ألف يعنون القرآن، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساحر» بالألف، يعنون محمداً ﷺ.

(٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، يقضيه وحده، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، معناه أن الشفعاء لا يشفعون إلا بإذنه، وهذا ردّ على النضر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزّى. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربكم لا ربّ لكم سواه، ﴿فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون.

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، صدقاً لا خلف فيه. نصب على المصدر، أي: وعدكم وعداً حقاً ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: يُحييهم ابتداء ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامة: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾، بالعدل، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، ماء حارٌ انتهى حرُّه، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

(٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾، بالنهار، ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمرَ ذَا نُور، ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: قدّر له يعني هيّأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدرهما. قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة لأن بالقمر يُعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً وأسماؤها: الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنسر، والطوف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم،

والبلدة، وسعد الذابح وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت، وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدي والدلو والحوت، فلكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلاً منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان الشهر تسعاً وعشرين فليلة واحدة، فيكون انقضاء الشهر بنزول تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً وثلث يوم، فيكون انقضاء السنة من انقضائها.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾، أي: قدر المنازل. ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ دخولها وانقضاءها، ﴿وَالْحِسَابَ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾، ردّه إلى الخلق والتقدير ولولا ردُّه إلى الأعيان المذكورة لقال تلك، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: لم يخلقه باطلاً بل إظهاراً لصنعه ودلالة على قدرته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو و [أبو جعفر] وحفص ويعقوب: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياء، لقوله: ﴿مَا خَلَقَ﴾، وقرأ الباقون: «نفصل» بالنون على التعظيم.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، يؤمنون.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أي: لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فاختاروها وعملوا لها، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾، وسكنوا إليها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، أي: عن أدلتنا غافلون لا يعتبرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن آياتنا [أي] عن محمد ﷺ والقرآن غافلون معرضون.

﴿٨﴾ ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، من الكفر والتكذيب.

﴿٩﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، فيه إضمار، أي: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى جنات، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، وقال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنّة يجعل لهم نوراً يمشون به. وقيل: يهديهم معناه يثيبهم ويجزيهم. وقيل: معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم تجري من تحتهم الأنهار، أي: بين أيديهم؛ كقوله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، لم يُرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها. وقيل: تجري من تحتهم أي: بأمرهم، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿دَعْوَاهُمْ﴾، أي: قولهم وكلامهم. وقيل: دعاؤهم. ﴿فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، وهي كلمة تنزيه، تنزّه الله من كل سوء.

وروينا: «أن أهل الجنةَ يلهمون الحمدَ والتسبيح، كما يُلهمون النَّفسَ».

قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنّة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سُبْحَانَكَ اللَّهمّ فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة مِيلٌ في مِيل، على كل مائدة سبعون ألف صحفة، وفي كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضُها بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، أي:

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٢٠٩

يحيّ بعضهم بعضاً بالسلام. وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام. وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام. ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، يريد يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد.

﴿١١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾، قال ابن عباس: هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله ولا بارك الله فيكم. قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب. معناه: لو يعجل الله للناس إجابةَ دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم بالخير، أي: كما يحبون استعجالهم بالخير، ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: ﴿لقضى﴾ بفتح القاف والضاد، ﴿أَجَلَهُمْ﴾ نصب، أي: لأهلَك من دعى عليه وأماته. وقال الآخرون: ﴿لَقُضِىَ﴾ بضم القاف وكسر الضاد ﴿أَجَلُهُمْ﴾ رفع، أي: لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً. وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، لا يخافون البعث والحساب، ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أنبأنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول:

قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إنّي اتخذتُ عندك عهداً لن تُخلِفَنيهِ، فإنما أنا بشر فيصدر مني ما يصدر من البشر، فأيّ المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً تقرّبه بها إليك يوم القيامة».

﴿١٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾، الجهد والشدّة، ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾، أي: على جنبه مضطجعاً، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾، يريد في جميع حالاته، لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾، رفعنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، أي: استمرّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضرّ، ونسي ما كان فيه من الجهد البلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسّه، أي: ولم يطلب منا كشف ضُرّ مسّه، ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، المجاوزين الحدَّ في الكفرِ والمعصية، ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، من العصيان. قال ابن جريج: كذلك زيّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء. وقيل: معناه كما زيّن لكم أعمالكم كذلك زيّن للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

﴿١٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا، ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ﴾، أي: كما أهلكناهم بكفرهم، ﴿نَجْزِى﴾، نعاقب ونهلك، ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، الكافرين بتكذيبهم محمداً ﷺ، يُخوّف كفار مكة بعذابِ الأمم الخالية المكذبة.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾، أي: خلفاء، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد القرون التي أهلكناهم، ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهو أعلم بهم.

وروينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ألا إنّ هذه الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ وإنّ اللّهَ مستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون».

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾، قال قتادة: يعني مشركي مكّة. وقال مقاتل: هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هشام. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، [هم السابق ذكرهم] قالوا للنبيّ ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ﴾، ليس فيه ترك عبادة اللاّتِ والعُزّى ومناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقلْ أنت من عند نفسك، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حرام حلالاً أو مكان حلال حراماً، ﴿قُلْ﴾ لهم يا

محمد: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾، من قِبَلِ نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، [أي: ما أتبع إلاّ ما يُوحى إليّ] فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليّ، ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: ولا أعلمكم الله. وقرأ البزي عن ابن كثير: «ولأدراكم به»، بالقصر به على الإيجاب، يريد ولا علّمكم به من غير قراءتي عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتُكم بهِ»، من الإنذار. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾، حيناً وهو أربعون سنة، ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾، من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أنه ليس من قبلي، ولبث النبيّ ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستّين سنة، وروى أنسٌ: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستّين سنة، والأول أشهر وأظهر.

﴿١٧﴾ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، لا ينجو المشركون.

﴿١٨﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، إن عصوه وتركوا عبادته، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، إن عبدوهم، يعني: الأصنام، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، أتخبرون الله، ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾، الله صحته، ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شريكاً وعنده شفيعاً بغير إذنه ولا يعلم الله لنفسه شريكاً، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿تشركون﴾ بالتاء ها هنا وفي سورة النحل [١ ـ ٣] موضعين، وفي سورة الروم [٣٣]، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

﴿١٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: على الإسلام فاختلفوا. وقد ذكرنا الاختلاف في سورة البقرة. ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾، وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، بأن جعل لكل أمّة أجلاً. وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذّبين، وكان ذلك فصلاً بينهم، ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربك مضت في حكمه، أنه: لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنّة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾، يعني: أهل مكّة، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد ﷺ، ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، على ما نقترحه، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لم يفعل ذلك ولا يعلمه إلاّ هو. وقيل: الغيب نزول الآية لا يعلم متى ينزل أحد غيره، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولها، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل.

الجزء الحادي عشر　　سورة يونس

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢١٠

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿٢١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾، يعني: الكفار، ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾، أي: راحة ورخاء من بعد شدّة وبلاء. وقيل: القطر بعد القحط، ﴿مَسَّتْهُمْ﴾، أي: أصابتهم، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، قال مجاهد: تكذيب واستهزاء، وقال مقاتل بن حيان: لا يقولون هذا من رزق الله إنما يقولون سُقينا بنَوْءِ كذا، وهو قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، [أي:] أعجل عقوبة وأشدّ أخذاً وأقدر على الجزاء، يريد عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾، حفظتنا، ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾، وقرأ يعقوب: ﴿يمكرون﴾ بالياء.

﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، يجريكم ويحملكم، وقرأ أبو جعفر وابن عامر: ﴿ينشركم﴾ بالنون والشين من النشر وهو البسط والبث، ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾، على ظهور الدواب، ﴿وَ﴾ في ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾، على الفلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفن، تكون واحداً وجمعاً ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الخبر، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ليّنة، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾، أي: بالريح، ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ﴾، أي: جاءت الفلك ريح، ﴿عَاصِفٌ﴾، شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة، لاختصاص الريح بالعصوف. وقيل: الريح يُذكّر ويؤنث. ﴿وَجَآءَهُمُ﴾، يعني: ركبان السفينة، ﴿ٱلْمَوْجُ﴾، وهو حركة الماء واختلاطه، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟﴾، أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾، يا ربنا، ﴿مِنْ هَـٰذِهِۦ﴾، الريح العاصف، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، لك بالإيمان والطاعة.

﴿٢٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عزّ وجلّ في الأرض، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: [بالفساد] أي: بالقتال. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبر ابتداء مضمر؛ كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: هذا بلاغ. وقيل: هو كلام متصل، والبغي ابتداء ومتاع خبره، ومعناه: إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا لا يصلح زاداً لمعادٍ لأنكم تستوجبون به غضب الله. وقرأ حفص ﴿مَّتَـٰعَ﴾ بالنصب، أي: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٢٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، في فنائها وزوالها، ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾، أي: بالمطر، ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾، من الحبوب والثمار، ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمُ﴾، من الحشيش، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، حسنَها وبهجتَها وظهر الزهر أخضرّ [وأحمر وأصفر وأبيض]، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، أي: تزيّنت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: تزيّنت. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، على جذاذها، وقطافها وحصادها، ردّ الكناية إلى الأرض. والمراد: النبات إذ كان مفهوماً، وقيل: ردّها إلى الغلّة. وقيل: إلى الزينة. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾، قضاؤنا بإهلاكها، ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾، أي: محصودة مقطوعة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به. وقال قتادة: معناه إن المتشبّث بالدنيا يأتيه أمر الله

وعذابه أغفل ما يكون، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٢٥) قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، قال قتادة: السلام هو الله وداره الجنّة. وقيل: السلام بمعنى السلامة، سُمّيت الجنّة دار السلام لأنّ من دخلها سَلِمَ من الآفات. وقيل: المراد بالسلام التحيّة سُمّيت الجنّة دار السلام، لأنّ أهلها يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام والملائكة تسلّم عليهم. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

وروينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبيّ ﷺ وهو نائم قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً قال: فاضربُوا له مثلاً، فقال بعضهم: كمثل رجل بنَى داراً وجعل فيها مأدبةً وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومنْ لَمْ يُجبِ الداعي لم يدخل الدار ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا: أوّلُوهَا له يفقهها، قال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: فالدارُ الجنّة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرقٌ بين الناس.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فالصراط المستقيم هو الإسلام عمّ بالدعوة لإظهار الحجّة، وخُصّ بالهداية استغناءً عن الخلق.

(٢٦) قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنَى، وهي الجنّة وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه وحذيفة، وأبو موسى، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والضحاك، والسدي.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن [عبد الله الحافظ أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم إملاءً، حدثنا أبو بكر محمد بن] إسحاق الصّغاني حدثنا الأسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت يعني البناني عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن صُهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ نادَى منادٍ: يا أهلَ الجنّةِ إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكُمُوه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ألمْ يثقّلْ موازيننا ويبيّضْ وجوهَنا ويدخلْنَا الجنةَ ويُجِرْنَا من النّار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

إلى وجه الله عزّ وجلّ، قال: فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه».

ورُوي عن ابن عباس: أنّ الحُسنى هي: أنّ الحسنة بمثلها والزيادة هي التضعيف عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقال مجاهد: الحُسنَى: حسنة مثل حسنة، والزيادة المغفرة والرضوان. ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾، لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، غبار، جمع قترة. وقال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، هَوانٌ قال قتادة: كآبة. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾، أي: لهم مثلها، كما قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾،

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

و﴿مِنْ﴾ صلة، أي: ما لهم من الله عاصم، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾، أُلبست، ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾، جمع قطعة، ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، نصبه على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قطعاً من الليل في حال ظلمته أو قطعاً من الليل المظلم. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: ﴿قِطْعًا﴾ ساكنة الطاء، أي بعضاً؛ كقوله: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾، أي: الزموا مكانكم، ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، يعني: الأوثان، معناه: ثم نقول للذين أشركوا الزموا أنتم وشركاؤكم مكانكم ولا تبرحوا. ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ميّزنا وفرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده، ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾، يعني: الأصنام، ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، بطلبتنا فيقولون: بلى كنّا نعبدكم، فتقول الأصنام:

﴿٢٩﴾ ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: ما كنّا عن عبادتكم إيّانا إلا غافلين، ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

﴿٣٠﴾ قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا﴾، أي تُختبر. وقيل: ومعناه تعلم وتقف عليه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «تتلو» بتاءين أي تقرأ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، صحيفتها. وقيل: معناه تتبع كل نفس، ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾، ما قدّمتْ من خير أو شر. وقيل: معناه تعاين، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، إلى حكمه فيتفرّد فيهم بالحكم، ﴿مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾، الذي يتولّى ويملك أمرهم، فإن قيل: أليس قد قال: ﴿وَأَنَّ الْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؟ [محمد: ١١] قيل: المولى هناك هو الناصر، وهٰهنا بمعنى المالك، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، زال عنهم وبطل، ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، في الدنيا من التكذيب.

﴿٣١﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ﴾، أي: من إعطائكم السمع والأبصار، ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، أي: [من] يقضي الأمر، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، هو الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أفلا تخافون عقابه في شرككم. وقيل: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار.

﴿٣٢﴾ ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾، الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم، ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرّون به.

﴿٣٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، قال الكلبي: هكذا، ﴿حَقَّتْ﴾، وجبتْ، ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، حكمه السابق، ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، كفروا، ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّكَ﴾ بالجمع هٰهنا موضعين وفي المؤمن، والآخرون على التوحيد.

﴿٣٤﴾ قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، أوثانكم ﴿مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾، ينشىء الخلق من غير أصل ولا مثال، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ثم يحييه من [بعد] الموت كهيئته، فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ﴾ أنت، ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: تصرفون عن قصد السبيل.

﴿٣٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ﴾، [أي]: يرشد، ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾، فإذا قالوا لا، ولا بدّ لهم من ذلك، ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾،

أي: إلى الحق، ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾، قرأ حمزة والكسائي ساكنة الهاء، خفيفة الدال، وقرأ الآخرون بتشديد الدال ثم قرأ أبو جعفر وقالون بسكون الهاء، وأبو عمرو بروم الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص بفتح الياء وكسر الهاء، وأبو بكر بكسرهما، والباقون بفتحهما، ومعناه: يهتدي في جميعها. فمن خفّف الدال قال: يقال هديته فهُدي، أي: اهتدى، ومن شدّد الدال أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إيثار التخفيف، ومن سكّن الهاء تركها على حالتها كما فعل في (تعدوا) و (يخصمون)، ومن فتح الهاء نقل فتحة التاء المدغمة إلى الهاء، ومن كسر الهاء فلالتقاء الساكنين، وقال: الجزم يُحرّكُ إلى الكسر، ومن كسر الياء مع الهاء أتبع الكسرة الكسرة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يُهدَى. فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، والصنم لا يتصوّر أن يهتدي ولا أن يُهدَى؟ قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تُحمل وتُنقل، بيّن به عجز الأصنام. وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لمّا اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبّر عنها بما يُعبّر عمن يعلم ويعقل، ووُصِفَتْ بصفة من يعقل، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكاً.

(٣٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾، منهم يقولون: إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم في الآخرة ظناً منهم، لم يَرِدْ بهِ كتابٌ ولا رسول، وأراد بالأكثر جميع من يقول ذلك، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً وقيل: لا يقوم مقام العلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(٣٧) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال الفراء: معناه وما ينبغي لمثل هذا القرآن أنْ يُفْتَرى من دون الله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وقيل: ﴿أَن﴾ بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآنُ لِيُفترَى من دُونِ اللّهِ. قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل. وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث، ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، وقال أبو عبيدة: ﴿أَمْ﴾ بمعنى الواو، أي: ويقولون، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، اختلق محمد القرآن من قِبَلِ نفسه، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، شبه القرآن ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾، ممن تعبدون، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليُعينُوكم على ذلك، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أن محمداً افتراه، ثم قال:

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾، يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما كذّب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذّب الذين من قبلهم من كفار الأمم الخالية، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، آخر أمر المشركين بالهلاك.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، أي: من قومك من يؤمن بالقرآن، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، لعلم الله السابق فيهم، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، الذين لا يُؤمنون.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾، يا محمد، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾، وجزاؤه، ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، وجزاؤه، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، هذا كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره.

(٤٢) فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾، يريد سمع القلب، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٢١٤

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، بأبصارهم الظاهرة، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾، يريد عميَ القلوب، ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾، وهذا تسلية من الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسمعَ من سلبتُه السمعَ، ولا أن تهديَ من سلبتُه البصرَ، ولا أن تُوفّق للإيمان من حكمتُ عليه أن لا يؤمن.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾، لأنه في جميع أفعاله مُتفضّل وعادل، ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بالكفر والمعصية.

(٤٥) قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، قرأ حفص بالياء والآخرون بالنون، ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾، قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار. وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاّ قدر ساعة من النهار، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، يعرف بعضهم بعضاً حين بعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة. وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم القيامة مَنْ بجنبه ولا يُكلّمه هيبةً وخشيةً. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

(٤٦) قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، يا محمد في حياتك من العذاب، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، قبل تعذيبهم، ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾، فيجزيهم به، ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواو، تقديره: والله شهيد. وقال مجاهد: فكان البعض الذي أراه [له ﷺ] قتلهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

(٤٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، خلت، ﴿رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾، وكذّبوه، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، أي: عُذّبُوا في الدنيا وأُهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب. وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم الذي أُرسل إليهم يوم القيامة قُضِيَ بينه وبينهم بالقسط، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، لا يعذّبون بغير ذنب ولا يُؤاخذون بغير حجّة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيّئاتهم.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول: المشركون، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾، الذي تعدنا يا محمد من العذاب. وقيل: قيام الساعة، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أنتَ يا محمدُ وأتباعُك.

(٤٩) ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾، لا أقدر لها على شيء، ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: دفع ضر ولا جلب نفع، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، أن أملكه، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، مدّة مضروبة، ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، وقت فناء أعمارهم، ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، أي: لا يتأخّرون ولا يتقدّمون.

(٥٠) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾، ليلاً، ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ماذا يستعجل من الله المشركون. وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، وقد وقعوا فيه. وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، فيقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فيقول الله تعالى: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾، يعني: [أي شيء] يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون، كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحاً ماذا جنيت على نفسك.

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾، قيل: معناه أهنالك، وحينئذ، وليس بحرف عطف، ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ نزل العذاب، ﴿آمَنتُم بِهِ﴾، أي بالله في وقت اليأس. وقيل: آمنتم به أي صدّقتم بالعذاب وقت نزوله، ﴿آلْآنَ﴾، فيه إضمار، أي: يقال:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

لكم الآن تؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، تكذيباً واستهزاءً.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أشركوا، ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، في الدنيا.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾، أي: يستخبرونك يا محمد، ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾، أي: ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة، ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾، أي: نعم وربي، ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: بفائتين من العذاب، لأن من عجز عن شيء فقد فاته.

(٥٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، أي: أشركت، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ﴾، يوم القيامة، والافتداء هٰهنا بذل ما ينجو به من العذاب. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾، قال أبو عبيدة: معناه أظهروا الندامة، لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبّر وتصنّع. وقيل: معناه أخفوا أي أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء خوفاً من ملامتهم وتعييرهم، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، فرغ من عذابهم، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٥٥) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(٥٧) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾، تذكرة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: دواء لما في الصدور من داء الجهل، وقيل: ﴿لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: شفاء لعمى القلوب، [والصدر موضع القلب، وهو أعز موضع في الإنسان لجوار القلب]، ﴿وَهُدًى﴾، من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والرحمة هي النعمة على المحتاج، فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئاً [فإنه] لا يقال قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة فإنه لم يضعها في محتاج.

(٥٨) قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن. وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله، وقال ابن عمر: فضل الله: الإسلام، رحمته: تزيينه في القلب. وقال خالد بن معدان: فضل الله: الإسلام، ورحمته: السُّنن. وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: الجنة. ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: [خير] مما يجمعه الكفار من الأموال. وقيل: كلاهما خبر عن الكفار. وقرأ أبو جعفر وابن عامر: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ بالياء و (تجمعون) بالتاء، وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء، مختلف عنه خطاباً للمؤمنين.

(٥٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة، ﴿أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾، عبّر عن الخلق بالإنزال، لأن ما في الأرض من خير، فمما أنزل الله من رزق، من زرع وضرع، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾، هو ما حرموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي. قال الضحاك: هو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾، في هذا التحريم والتحليل، ﴿أَمْ﴾، بل ﴿عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وهو قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

(٦١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾، يا محمد، ﴿فِي شَأْنٍ﴾، عمل من

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

الأعمال، وجمعه شؤون، ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾، من الله، ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾، نازل، وقيل: منه أي من الشأن من قرآن، نزل فيه ثم خاطبه وأمّته فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: تدخلون وتخوضون فيه، والهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تكثرون [فيه]، والإفاضة: الدفع بكثرة، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾، يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي ﴿يَعْزِبُ﴾ بكسر الزاي، وكذلك في سورة سبأ [٣]، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، أي: مثقال ذرة، و﴿مِن﴾ صلة والذرة هي النملة الحمراء الصغيرة. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، أي: من الذرة، ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾، قرأ حمزة [والكسائي] ويعقوب برفع الراء فيهما، عطفاً على موضع المثقال قبل دخول ﴿مِن﴾، وقرأ الآخرون بنصبهما، إرادة للكسرة عطفاً على الذرة في الكسر، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وهو اللوح المحفوظ.

(٦٢) قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم. قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله، فقال:

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، وقال قوم: هم المتحابون في الله عزّ وجلّ.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن [ابن] أبي حسين عن شهر بن حوشب، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: كنت عند النبيّ ﷺ فقال: «إنّ للّهِ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيّون والشهداء لقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدثنا يا رسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيتُ في وجه النبيّ ﷺ البشرَ، فقال: «هُمْ عبادٌ مِن عبادِ اللّهِ من بلدانٍ شتّى وقبائل لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نوراً، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمٰن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون».

ورواه عبدالله بن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام قال: حدثنا شهر بن حوشب، حدثني عبد الرحمٰن بن غنم عن أبي مالك الأشعري عن النبيّ ﷺ سُئِلَ: من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله».

ويُروَى عن النبيّ ﷺ: قال الله تعالى: «إن أوليائي من عبادي الذين يُذكَرون بذكري وأذكر بذكرهم».

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، اختلفوا في هذه البشرى. روي عن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَمْ يبقَ من النبوّةِ إلاّ المبشرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة».

وقيل: البشرى في الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة [الجنة].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

٢١٧

المليحي، أنا عبد الرزاق بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أنا شعبة عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يا رسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحبّه الناس؟ قال: «تلكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن».

وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن يحيى بن يحيى عن حماد بن زيد عن أبي عمران، وقال: ويحمده الناس عليه.

وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من عند الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال عطاء [بن السائب] عن ابن عباس: البشرى في الدنيا يريد عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، يعرج بها إلى الله، ويُبشّر برضوان الله. وقال الحسن: هي ما بشّر الله المؤمنين [به] في كتابه من جنّته وكريم ثوابه؛ كقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]. وقيل: بشرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، لا تغيير؛ لقوله: ﴿ولا خلف لوعده﴾. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، يعني: قول المشركين، تمّ الكلام هٰهنا ثم ابتدأ، فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾، يعني: الغلبة والقدرة لله ﴿جَمِيعًا﴾ هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم، قال سعيد بن المسيّب: إنّ العزّة للّه جميعاً، يعني: أن الله يعز من يشاء، كما قال في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وعزّة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلّها لله، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(٦٦) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾، هو إمّا استفهام معناه: وأيّ شيء يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ وقيل: وما يتبعون حقيقة لأنهم يعبدونها على ظنّ أنهم شركاء فيشفعون لنا وليس على ما يظنون، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، يظنون أنها تُقرّبهم إلى الله تعالى، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، يكذبون.

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، مضيئاً يُبصر فيه، كقولهم: ليل نائم وعيشة راضيةٌ. قال قطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء وبصر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، سمعَ الاعتبار أنه ممّا لا يقدر عليه إلاّ عالم قادر.

(٦٨) ﴿قَالُوا﴾، يعني: المشركين، ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، وهو قولهم الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، عن خلقه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، عبيداً وملكاً، ﴿إِنْ عِندَكُم﴾، [أي]: ما عندكم، ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾، حجّة وبرهان، و﴿مِن﴾ صلة، ﴿بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٦٩) ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، لا ينجون، وقيل: لا يبقون في الدنيا، ولكن:

(٧٠) ﴿مَتَاعٌ﴾، قليل يتمتعون به، وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم، و﴿مَتَاعٌ﴾ رفع بإضمار، أي: هو متاع، ﴿فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

(٧١) قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

نُوحٍ﴾، أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾، وهم ولد قابيل، ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾، عَظُمَ وثَقُلَ عليكم، ﴿مَّقَامِى﴾ طول عمري ومكثي فيكم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾، ووعظي إيّاكم ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، بحججه وبيّناته، فعزمتم على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾، أي: أحكموا أمركم واعزموا عليه، ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: وادعوا شركاءكم أي آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم، على ما أردتموه مني. قال الزجاج: معناه فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك «مع» انتصب. وقرأ يعقوب: ﴿شركاؤكم﴾ رفعٌ، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: خفيّاً مبهماً، من قولهم: غمّ الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم وخفي، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾، أي: أمضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات وقضى دينه إذا فرغ منه. وقيل: معناه توجّهوا إليّ بالقتل والمكروه. وقيل: فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طـه: ٧٢]، أي: اعمل ما أنت عامل، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ولا تؤخرون وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح [صلاة الله وسلامه عليه] أنه كان واثقاً بنصر الله تعالىٰ غير خائف من كيد قومه، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر، إلاّ أن يشاء الله.

﴿٧٢﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أعرضتم عن قولي وقبول نصحي، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾، على تبليغ الرسالة والدعوة، ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾، من جعل وعوض، ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾، ما أجري وثوابي، ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: من المؤمنين. وقيل: من المستسلمين لأمر الله.

﴿٧٣﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، يعني نوحاً ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾، أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾، أي: من بعد نوح رسلاً. ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، بالدلالات الواضحات، ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾، أي: بما كذّب به قوم نوح من قبل، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾، أي: نختم، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿٧٥﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، يعني: أشراف قومه، ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾، يعني: جاء فرعون وقومه، ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿٧٧﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا﴾، تقدير الكلام: أتقولون للحقّ لما جاءكم سحر، أسحر هذا، فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾، يعني: فرعون وقومه لموسى، ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾، لتصرفنا. وقال قتادة: لتلوينا، ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، الملك والسلطان، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أرض مصر، وقرأ أبو بكر: ﴿ويكون﴾ بالياء، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾، بمصدّقين.

﴿٧٩﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

﴿٨١﴾ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحر»، بالمدّ على

الاستفهام، وقرأ الآخرون بلا مد، يدل عليه قراءة ابن مسعود «ما جئتم بهِ سِحرٌ»، بغير الألف واللام. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(٨٢) ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، بآياته، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

(٨٣) ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾، لم يُصَدِّق موسى مع ما آتاهم به من الآيات، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾، اختلفوا في الهاء التي في ﴿قَوْمِهِ﴾، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه. قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء وبقي الأبناء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون. وروى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطة ابنته. وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله. وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً [عليه] من القتل، فنشؤوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غلبت السحرة [فيه]. قال الفراء: سُمّوا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾، قيل: أراد بفرعون آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم؛ كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية. وقيل: إنما قال: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾، وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه، كما يُقال قدم الخليفة يُراد هو ومن معه. وقيل: أراد ملأ الذرية، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾، لمتكبر، ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾، المجاوزين الحدّ لأنه كان عبداً فادّعى الربوبية.

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمؤمني قومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

(٨٥) ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا تُظهرْهُم علينا ولا تُهلكنا بأيديهم، فيظنّوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً. وقال مجاهد: لا تعذّبنا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق لما عُذّبوا ويظنوا أنهم خير منّا فيُفتتنوا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

(٨٧) قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون، ﴿أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾، يقال: تَبوّأ فلان لنفسه بيتاً ومضجعاً إذا اتّخذه، وبوّأته أنا إذا اتخذته له، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال أكثر المفسّرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبِيَعِهم، وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة [فيها] فأُمروا أن يتّخذوا مساجدهم في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون، وهذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس. وقال مجاهد: خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، فأُمروا [أن يجعلوا] في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلّون فيها سراً [﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾]، معناه: واجعلوا بيوتكم إلى القبلة. وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الكعبة قِبْلَةَ موسى ومن معه. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يا محمد.

(٨٨) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾، من متاع الدنيا، ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾، اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لامُ كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيضلّوا ويضلّوا عن سبيلك؛ كقوله: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۞ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧]، وقيل: هي لام العاقبة يعني: فيضلوا ويكون عاقبة أمرهم الضلال؛ كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾، قال مجاهد:

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴿٨٩﴾ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿٩٠﴾ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿٩١﴾ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴿٩٢﴾ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿٩٣﴾ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴿٩٤﴾ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴿٩٥﴾ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ﴿٩٦﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿٩٧﴾

٢١٩

أهلكها، والطمس: المحق، [وقال أكثر المفسّرين: امسخها وغيّرها عن هيئتها]. وقال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم كلها حجارة. وقال محمد بن كعب: جعل سكّرهم حجارة، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً، [وكان الرجل كذلك]. قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر. قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع. ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: أقسها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾، قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء. وقيل: هو عطف على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾، أي: ليضلّوا فلا يؤمنوا. وقال الفراء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللّهمّ فلا يؤمنوا، ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وهو الغرق. قال السدي: معناه أمتْهُم على الكفر.

﴿٨٩﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، إنما نسب إليهما، والدعاء كان من موسى لأنه رُوي أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والتأمين دعاء. وفي بعض القصص: كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾، على الرسالة والدعوة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ﴾، نهي بالنون الثقيلة، ومحله جزم، يقال في الواحد: لا تتبعنَ بفتح النون لالتقاء الساكنين وبكسر النون في التثنية لهذه العلّة. وقرأ ابن عامر بتخفيف النون. لأن نون التأكيد تثقل وتخفف. ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني: ولا تسلكا سبيل الذين يجهلون حقيقة وَعْدي، فإن وعدي لا خُلْفَ فيه، ووعيدي نازل بفرعونَ وقومِه.

﴿٩٠﴾ ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، عبرنا بهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لحقهم وأدركهم، ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾، يقال: أتبعه وتَبِعه إذا أدركه ولحقه، واتّبعه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به. وقيل: هما واحد. ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، أي: ظلماً واعتداءً. وقيل: بغياً في القول وعدواً في الفعل. وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدّمهم جبريل على فرس وديق وخاض البحر، فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج من البحر انطبق عليهم الماء. وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾، أي: غمره الماء وقرب هلاكه، ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر الألف، أي: آمنت وقلت إنه. وقرأ الآخرون أنه بالفتح على وقوع آمنت عليها. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فدسّ جبريل في فِيْهِ مِن حمأة البحر.

﴿٩١﴾ وقال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

رُوي عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل [وأنا من المسلمين]، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فِيْهِ مخافةَ أن تدركه الرحمة». فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه، قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور، فرآه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٢٢٠

يقبل الماءُ مَيْتاً أبداً [بل طرحه خارجه]، فذلك قوله:

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾، أي: نُلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع. وقرأ يعقوب: ﴿نُنْجيك﴾ بالتخفيف، ﴿بِبَدَنِكَ﴾، بجسدك لا روح فيه. وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصّع بالجواهر، فرأوه في درعه فصدّقوا موسى، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، عِبرةً وعظةً، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أنزلنا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، منزل صدق، يعني: مصر. وقيل: الأردن وفلسطين وهي الأرض المقدّسة التي كتب الله ميراثاً لإبراهيم وذرّيته. قال الضحاك: هي مصر والشام، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، الحلالات، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾، يعني اليهود الذين كانوا في عهد النبيّ ﷺ في تصديقه وأنه نبي، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، يعني: القرآن والبيان بأنه رسولُ الله صدق ودينُه حق. وقيل: حتى جاءهم معلومهم وهو محمد ﷺ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق: خَلْق، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]، [أي: مخلوقه]، ويقال: هذا الدرهم ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، من الدين.

(٩٤) قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، يعني: القرآن ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، فيخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة. قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، خاطب النبيّ ﷺ والمراد به المؤمنون بدليل أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]، ولم يقل بما تعمل، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، وقيل: كان الناس على عهد النبيّ ﷺ بين مصدّق ومكذّب وشاك فهذا الخطاب مع أهل الشك معناه: إن كنت أيها الإنسان في شك، مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد [ﷺ]، فاسئلِ الذين يقرءون الكتابَ من قبلك. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، فسيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوّته. قال الفراء: علم الله سبحانه وتعالىٰ أن رسوله غير شاك، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد منهم لعبده: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إنْ كنتَ ابني، ولا يكون بذلك على وجه الشك. ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، من الشاكين.

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وهذا كله خطاب مع النبيّ ﷺ والمراد منه غيره.

(٩٦) قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾، وجبتْ عليهم، ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، قيل: لعنته. وقال قتادة: سخط الله. وقيل: الكلمة هي قوله: «هؤلاء في النار ولا أبالي»! ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، دلالة، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، قال الأخفش: أنّث فعل «كل» لأنه مضاف إلى المؤنث وهي قوله: آية، ولفظ كل للمذكر والمؤنث سواء.

(٩٨) قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾، [أي]: فهلاّ كانت، ﴿قَرْيَةٌ﴾، ومعناه: فلم تكن قرية لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد، أي: أهل قرية، ﴿ءَامَنَتْ﴾، عند معاينة

العذاب، ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾، في حالة البأس، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، فإنه نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، ﴿قَوْمَ﴾ نصبٌ على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس، ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وهو وقت انقضاء آجالهم، واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب؟ والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾، والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُب.

وقصة الآية على ما ذكره عبد الله بن مسعود، وسعيد بن جبير، ووهب وغيرهم: أن قوم يونس كانوا بنينوى، من أرض الموصل، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنّا لم نجرب عليه كذباً فانظرُوا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم [لا محالة]، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل.

وقال وهب: غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى تغشاهم في مدينتهم واسودّت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه، وقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابّهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النيّة وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحن بعضها إلى بعض، وعلتِ الأصوات واختلطتْ أصواتُها بأصواتهم، وعجُّوا وتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أضلّهم، وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه، فلم يرَ شيئاً، وكان مَنْ كذّب ولم يكن له بينة قتل، فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتباً على ربّه مغاضباً لقومه، فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة، فعرفوه فحملوه بغير أجر، فلما دخلها وتوسّطت بهم ولججت، وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم، قال أهل السفينة: إن لسفينتنا لشأناً، قال يونس: قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا: ومن هو؟ قال: أنا اقذفوني في البحر، قالوا: ما كنّا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك، فاسْتَهَمُوا فاقترعُوا ثلاثَ مرات فأدحض سهمه، والحوت عند رجل السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربّه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلكنّ جميعاً أو لتطرحنني فيه، فقذفوه فيه وانطلقوا وأخذه الحوت.

ورُوي: أن الله تعالىٰ أوحى إلى حوت عظيم حتى قصد السفينة، فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى من في السفينة كأنه يطلب شيئاً خافوا منه، ولما رآه يونس زجّ نفسه في الماء.

وعن ابن عباس: أنه خرج مغاضباً لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة، فركبها فلما لججت السفينة، تكفّأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: هٰهنا رجل عاصٍ أو عبد آبق [من سيده] وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القارعة في كلها على يونس. فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، فألقى نفسه في الماء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت [أن] لا تؤذي منه شعرة، فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاماً لك.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُودي [الحوت] إنّا لم نجعل يونس لك قوتاً، وإنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً.

ورُوي: أنه قام قبل القرعة فقال: أنا العبد العاصي والآبق، قالوا: من أنت؟ قال: أنا يونس بن متى، فعرفوه فقالوا: لا نلقيك يا رسول الله ولكن نُساهِمْ فلعل السهم يخرج على غيره فاقترعوا، فخرجتِ القرعةُ عليه فألقى نفسه في الماء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار

الأرض السابعة، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات: أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ الممعط، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين، وهو الدباء، فجعل يستظل تحتها ووكل به وعلة يشرب من لبنها فيبست الشجرة، فبكى عليها فأوحى الله إليه: تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، فقال [له]: إذا رجعتَ إليهم فأخبرهم أني لقيت يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن لي بينة كذّبوني وقُتلت، قال يونس عليه السلام: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمرْهما، فقال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام، فقال للملك: إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إنّ لي بيّنة فأرسلوا معي فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، فأقام لهم أمرهم ذلك الغلامُ أربعين سنة.

(٩٩) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، يا محمد، ﴿لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، هذه تسلية للنبيّ ﷺ، وذلك أنه كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جلّ ذكره: أنه لا يؤمن إلاّ من سبق له من الله السعادة، ولا يضلّ إلاّ من سبق له من الله الشقاوة.

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾، وما ينبغي لنفس. وقيل: وما كانت نفس، ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عباس: بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله. وقيل: بعلم الله. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾، قرأ أبو بكر: ﴿ونجعل﴾ بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجسَ، أي: العذاب وهو الرجز، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، عن الله أمره ونهيه.

(١٠١) ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾، أي: قل للمشركين الذين يسألونك الآيات انظروا، ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، من الآيات والدلائل والعبر ففي السمٰوات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، الرسل، ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾، يعني: مشركي مكّة، ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾، مضوا، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، من مكذّبي الأمم، قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود. والعرب تسمّي العذاب أياماً والنعيم أياماً؛ كقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام، ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾، قرأ يعقوب ﴿نُنجي﴾ خفيف مختلف عنه، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، معهم عند نزول العذاب معناه: نجينا، مستقبل بمعنى الماضي، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، كما نجيناهم، ﴿حَقًّا﴾ واجباً، ﴿عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قرأ الكسائي وحفص ويعقوب ﴿ننجي﴾ بالتخفيف والآخرون بالتشديد، ونجّا وأنجى بمعنى واحد.

(١٠٤) قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾، الذي أدعوكم إليه، فإن قيل: كيف قال إن كنتم في شك وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟ قيل: كان فيهم شاكّون، فهم المراد بالآية، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكّوا في أمرهم وأمر النبيّ ﷺ، قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، من الأوثان، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، يُميتكم ويقبض أرواحكم، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٠٥) قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، قال ابن عباس: عملك. وقيل: استقيم على الدين حنيفاً. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ﴾، ولا تعبد، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾، إن

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

٢٢١

أطعته، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾، إن عصيته، ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾، فعبدت غيرَ اللَّهَ، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الضارين لأنفسهم الواضعين العبادة في غير موضعها.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، أي: يصبك بشدة وبلاء، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾، فلا دافع له، ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، رخاء ونعمة وسعة، ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، فلا مانع لرزقه، ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾، بكل واحد من الضرّ والخير، ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: القرآن والإسلام، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: على نفسه ووباله عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، بكفيل أحفظ أعمالكم. قال ابن عباس: نسختها آية القتال.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾، بنصرك وقهر عدوّك وإظهار دينه، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يَدٍ وهم صاغرون.

* * *

سورة هود

مكية إلا قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ [١١٤]، وهي مائة وثلاث وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، بُيّنت بالأحكام والحلال والحرام. وقال الحسن: أحكمت بالأمر والنهي، ثم فُصّلت بالوعد والوعيد. قال قتادة: أحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض. وقال مجاهد: فُصلت أي: فُسرت. وقيل: فُصلت أي: أنزلت شيئاً فشيئاً، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

﴿٢﴾ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: وفي ذلك الكتاب أنْ لا تعبدوا إلاّ الله، ويكون محل (أن) رفعاً. وقيل: محله خفض تقديره: بأن لا تعبدوا إلاّ الله، ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾، أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾، للعاصين، ﴿وَبَشِيرٌ﴾، للمطيعين.

﴿٣﴾ ﴿وَأَنِ﴾، عطف على الأول، ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾، أي: ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفراء: ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار. وقيل: وأن استغفروا [ربكم من المعاصي ثم توبوا] إليه في المستأنف ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾، يعيشكم عيشاً حسناً في خفض ودعة وأمن وسعة. قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، إلى حين الموت، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة. وقال أبو العالية: من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة في الجنّة، لأن الدرجات تكون بالأعمال.

وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيّئاته دخل الجنّة، ومن زادت سيّئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيّئاته كان من أصحاب الأعراف، ثم يدخل الجنّة بعد. وقيل: ويؤت كل ذي فضل فضله، يعني: من عمل لله عزّ وجلّ وفّقه الله فيما يستقبل على طاعته. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، أعرضوا، ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، وهو يوم القيامة.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

٢٢٢

(٤) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٥) قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شُريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ على ما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره.

وقوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، أي: يُخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة.

وقال عبد الله بن شداد: نزلت هذه الآية في بعض المنافقين كان إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وحنى ظهره وطأطأ رأسه وغطّى وجهه كي لا يراه النبيّ ﷺ.

وقال قتادة: كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالىٰ ولا ذكره. وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشّى بثوبه. ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي. وقال السدي: يثنون أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم: ثنيت عناني. وقيل: يعطفون، ومنه ثني الثوب. وقرأ ابن عباس: ﴿يثنوني﴾ على وزن «يَحْلَولِي» جعل الفعل للصدر ومعناه المبالغة في الثني. ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾، أي: من رسول الله ﷺ. وقال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، يغطون رؤوسهم بثيابهم، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، قال الأزهري: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم.

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحسن بن محمد بن صباح، ثنا حجاج قال: قال ابن جريج: أخبرني محمد بن عباد بن جعفر أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: «ألا إنّهم يثنون صدورَهم»، فقال: سألته عنها فقال: كان أناس يستحيون أن يتخلّوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

(٦) قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ليس دابة في الأرض، ﴿مِن﴾ صلة، والدابة: كل حيوان يدبّ على وجه الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، [أي: هو المتكفّل برزقها]، أي: هو المتكفّل بذلك فضلاً وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق. وقيل: على بمعنى من، أي: من الله رزقها. قال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله عزّ وجلّ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، قال ابن مقسم: ويروى ذلك عن ابن عباس، مستقرها المكان الذي تأوي إليه وتستقر فيه ليلاً ونهاراً، ومستودعها: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [المستقر أرحام الأمهات والمستودع المكان الذي تموت فيه. وقال عطاء]: المستقر أرحام الأمّهات والمستودع أصلاب الآباء. ورواه سعيد بن جبير وعلي بن [أبي] طلحة وعكرمة عن ابن عباس. وقيل: المستقر الجنّة أو النار والمستودع القبر؛ لقوله تعالىٰ في صفة الجنّة والنار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، أي: كلّ مثبت في اللّوح المحفوظ قبل أن خلقها.

(٧) قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، قبل أن خلق السموات والأرض وكان ذلك الماء على متن الريح.

قال كعب: خلق الله عزّ وجلّ

الجزء الثاني عشر — سورة هود

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٢٣

ياقوتةً خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح، فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء. قال ضمرة: إن الله تعالىٰ كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض، وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبّح الله ومجّده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ليختبركم وهو أعلم، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أعملُ بطاعة الله وأورع عن محارم الله تعالىٰ. ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾، يا محمد، ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يعنون: القرآن. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ساحر﴾، يعنون محمداً ﷺ.

﴿٨﴾ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، إلى أجل محدود، وأصل الأمّة الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى، ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾، أي: أيُّ شيء يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً، يعنون أنه ليس بشيء.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾، يعني العذاب، ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، لا يكون مصروفاً عنهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، نزل بهم، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: وبال استهزائهم.

﴿٩﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، نعمةً وسعة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾، أي: سلبناها منه، ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾، قنوط في الشدّة، ﴿كَفُورٌ﴾ في النعمة.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾، بعد بلاء أصابه، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، زالت الشدائد عني، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، أشر بطر، والفرح لذّة في القلب بنيل المشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهيٌّ عنه.

﴿١١﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، قال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه: لكن الذين صبروا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فإنهم وإن نالتهم شدّة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، لذنوبهم، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وهو الجنّة.

﴿١٢﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾، يا محمد، ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، فلا تبلغه إيّاهم. وذلك أن كفار مكة لما قالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ [يونس: ١٥]، ليس فيه سبّ آلهتنا همَّ النبيُّ ﷺ أن يدعَ إلهتَهم ظاهراً، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، يعني: سبّ الآلهة، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾، أي: فلعلك يضيق صدرك ﴿أَن يَقُولُوا﴾، أي: لأن يقولوا، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقه ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾، يصدقه، قاله عبد الله بن [أبي] أمية المخزومي. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾، ليس عليك إلاّ البلاغ، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، حافظ.

﴿١٣﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، بل يقولون اختلقه، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، فإن قيل: قد قال في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾، فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهماً فيعجز، فيقول: أعطني عشرة دراهم؟ الجواب: قد قيل نزلت سورة هود أولاً. وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال معنى قوله في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم على الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي

مجرد البلاغة، ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾، واستعينوا بمن استطعتم، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، يا أصحاب محمد. وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده. ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: مع المشركين، ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، يعني: القرآن. وقيل: أنزله وفيه علمه، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، أي: فاعلموا أن لا إله إلاّ هو، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.

﴿١٥﴾ قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: من كان يريد بعلمه الحياة الدنيا، ﴿وَزِينَتَهَا﴾، نزلت في كل من عمل عملاً يريد به غير الله عزّ وجلّ، ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾، أي: نُوَفِّ لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾، أي: في الدنيا لا ينقص حظّهم.

﴿١٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾، أي: في الدنيا، ﴿وَبَٰطِلٞ﴾، وماحق، ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال مجاهد: هم أهل الرياء.

وروينا أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»، قالوا: يا رسول الله وما الشركُ الأصغر؟ قال: «الرياء». وقيل: هذا في الكفار، وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة، فيجازي بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

وروينا عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يظلم المؤمنَ حسنةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكنْ له حسنة يُعطى بها خيراً».

﴿١٧﴾ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ بيان، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، قيل: في الآية حذف ومعناه: أفمن كان على بيّنة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها أو من كان على بيّنةٍ من ربّه كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بيّنة من ربه النبيّ ﷺ، ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾، أي: يتبعه من يشهد به بصدقه.

واختلفوا في هذا الشاهد، فقال ابن عباس، وعلقمة، وإبراهيم، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام. وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ. وروى ابن جريج عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده. وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه. وقيل: هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قال علي: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن، فقال له رجل: وأنت أيُّ شيءٍ نزل فيك؟ قال: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾. وقيل: شاهد منه: هو الإنجيل. ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾، أي: ومن قبل مجيء محمد ﷺ. وقيل: من قبل نزول القرآن. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: كان كتاب موسى، ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ﴾، لمن اتبعها، يعني التوراة وهي مصدقة للقرآن شاهدة للنبيّ ﷺ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾، يعني أصحاب محمد ﷺ. وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب، ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾، أي: بمحمد ﷺ. وقيل: بالقرآن، ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، من الكفار من أهل الملل كلها، ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا محمد بن الحسين القطان، أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن همام بن منبه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة ولا يهودي، ولا نصراني، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به إلاّ كان من أصحاب النار».

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾، أي: في شكٍّ منه، ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، أي: لا أحد أظلم منه أو كذب بآياته يعني القرآن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، يعني: الكاذبين والمكذّبين، ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، فيسألهم عن أعمالهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد. وعن ابن

أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾

٢٢٤

عباس رضي الله عنهما: إنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو قول الضحاك. وقال قتادة: الخلائق كلهم.

وروينا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله يدني المؤمن [يوم القيامة] فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره فيقول: [أي عبدي] أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى إذا قرّرَهُ بذنوبِهِ ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتابَ حسناته».

وأما الكفار والمنافقون [فينادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

(١٩) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يمنعون عن دين الله، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

(٢٠) ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾، قال ابن عباس: سابقين. [وقال قتادة: هاربين. وقال مقاتل: فائتين. ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، يعني: أنصاراً وأعواناً يحفظونهم من عذابنا، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾، أي: يزاد لهم، في عذابهم. قيل يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الأتباع بهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾، الهُدَى. قال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهُدَى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله عزّ وجلّ أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: ما كانوا يستطيعون السمعَ، وهو طاعتُه، وفي الآخرة قال: فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم.

(٢١) ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، غَبَنُوا أنفسهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام.

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً. وقيل: بلى. وقال الفراء: لا محالة، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾، يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار.

(٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾، قال ابن عباس: خافوا. قال قتادة: أنابوا. قال مجاهد: اطمأنوا. وقيل: خشعوا. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: لربهم، ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٢٤) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾، المؤمن والكافر، ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، قال الفراء: لم يقل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيّز كأنهما واحد لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيّز كأنهما واحد لأنهما من وصف المؤمن، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تتعظون.

(٢٥) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب: (أني) بفتح الهمزة، أي: بأني، وقرأ الباقون بكسرها، أي: فقال إني، لأن في الإرسال معنى القول: إني لكم نذير مبين.

(٢٦) ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، أي: مؤلم. قال ابن عباس: بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة. وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة. وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة. وقيل: بُعث وهو ابن خمسين سنة. وقيل: بعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة، ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة، قال الله

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤]، أي: فلبث فيهم داعياً.

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾، والملأ هم الأشراف والرؤساء، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾، يا نوح، ﴿إِلَّا بَشَرٗا﴾، آدمياً، ﴿مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾، سفلتنا، والرذل: الدون من كل شيء، والجمع: أرذل، ثم يجمع على أراذل، مثل كلب وأكلب وأكالب، وقال في سورة الشعراء: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، يعني: السفلة. وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة، ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، قرأ أبو عمرو «بادىء» بالهمز أي: أول الرأي يريدون أنهم اتّبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكّر، ولو تفكّروا لم يتّبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز، أي ظاهر الرأي من قولهم: بدا الشيء إذا ظهر معناه اتّبعوك ظاهراً من غير أن يتدبّروا ويتفكّروا باطناً. قال مجاهد: رأي العين، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾، بيان، ﴿مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾، أي: هدى ومعرفة، ﴿مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: خفيت والتبست عليكم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضم العين وتشديد الميم، أي: شُبّهت ولبست عليكم، ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾، أي: أنلزمكم البينة والرحمة، ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، لا تريدونها. قال قتادة: لو قدر الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أن يُلزموا قومهم الإيمان لألزموهم، ولكن لم يقدروا.

﴿٢٩﴾ قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾، ما ثوابي، ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين، ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، أي: صائرون إلى ربهم في المعاد فيجزي من طردهم، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾. من يمنعني من عذاب الله، ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، فآتي منها ما تطلبون، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، فأخبركم بما تريدون. وقيل: إنهم لما قالوا لِنُوح إن الذين آمنوا بك إنما اتبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح [عليه الصلاة والسلام] مجيباً لهم: لا أقول لكم عندي خزائن غيوب الله، التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب، فأعلم ما يسرونه في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر من إيمانهم، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾، هذا جواب قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾. ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾، أي: تحتقره وتستصغره في أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا، ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، أي: توفيقاً وإيماناً وأجراً، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، من الخير والشر مني، ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لو قلت هذا.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾، خاصمتنا، ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾، يعني: بالعذاب، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، بفائتين.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾، أي: نصيحتي، ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾، يضلّكم، ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾، له الحكم والأمر ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، قال

الجزء الثاني عشر — سورة هود

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

٢٢٦

ابن عباس رضي الله عنهما: يعني نوحاً عليه السلام. وقال مقاتل: يعني محمداً ﷺ. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾، أي: إثمي ووبال جُرْمي. والإجرام: كسب الذنب. ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، لا أؤاخذ بذنوبكم.

﴿٣٦﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلقونه في لبد، ويلقونه في قعر بيت، يظنون أنه قد مات فيخرج [عليهم] في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عزّ وجلّ.

ورُوي أنّ شيخاً منهم جاء يتوكّأ على عصى ومعه ابنه فقال: يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبتِ أمكني من العصى، فأخذ العصى من أبيه، فضرب نوحاً حتى شجّه شجّة منكرة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، فلا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، فإنّي مهلكهم [ومنقذك منهم]، فحينئذ دعا نوح عليهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه: أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: ربِّ اغفرْ لقومي فإنّهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية واشتدّ عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلاّ كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكا إلى الله تعالىٰ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، إلى أن قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فأوحى الله تعالىٰ إليه:

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، قال ابن عباس: بمرأىً منّا. وقال مقاتل: بعلمنا. وقيل: بحفظنا. ﴿وَوَحْيِنَا﴾، أي: بأمرنا، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، بالطوفان، قيل: معناه ولا تخاطبني في إمهال الكفار، فإني حكمت [في غيبي] بإغراقهم. وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك وَاعِلة فإنهما هالكان مع القوم. وفي القصةِ: أن جبريل أتى نوحاً عليه السلام فقال: إن ربّك عزّ وجلّ يأمرك أن تصنع الفلك، فقال: كيف أصنع ولستُ بنجارٍ؟ فقال: إنّ ربّك يقول اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدوم وجعل يصنع ولا يخطىء. وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

﴿٣٨﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾، فلما أمره الله تعالىٰ أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولَهَا عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيّء عدّة الفلك من القارّ وغيره، وجعل قومه يمرُّون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوّة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد. وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه من أَزْوَرَ وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً، وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعليا ويجعل فيه كُوًى، ففعله نوح كما أمره الله عزّ وجلّ.

وقال ابن عباس: اتّخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها

ثلاثة بطون، فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، و[جعل] في البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد. قال قتادة: كان بابها في عرضها.

وروي عن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ست مائة ذراع. والمعروف هو الأول أن طولها ثلاثمائة ذراع. وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها، ومائة سنة يعمل الفلك. وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة. وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة، وروي أنها كانت ثلاث طبقات، الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب شكا ذلك إلى الله عزّ وجلّ فأوحى الله إلى نوح أنِ اغمِزِ ذنبَ الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث فأكلاه، فلما وقع الفار بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها، أوحى الله تعالى أن اضربْ بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفار فأكلاه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون: إن هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجاراً. وروي أنهم كانوا يقولون له: يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتاً يمشي على الماء، فيضحكون منه، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾، إذا عاينتم عذاب الله، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبيّ؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني: إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم. وقيل: معناه إن تسخروا منّا فسترون عاقبة سخريتكم.

(٣٩) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، يهينه، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾، يجب عليه، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، دائم.

(٤٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، عذابنا، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء، فارَ على وجه الأرض فاركبِ السفينة. ورُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: فار التنور أي: طلع الفجر ونور الصبح. وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسّرين.

ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن: كان تنوراً من حجارة، كانت حواء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام، فقيل لنوح: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنور فاركبِ السفينة أنتَ وأصحابُك. واختلفوا في موضعه، قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة. وكان الشعبي يحلف: ما فار التنور إلاّ من ناحية الكوفة. وقال: اتّخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة. وكان التنّور على يمين الداخل مما يلي باب بني كندة، وكان فورانُ الماء منه عَلَماً لنوح عليه السلام. وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين ورده.

ورُوي عن ابن عباس: أنه كان بالهند. والفوران: الغليان.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾، أي: في السفينة، ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خف وزوج نعل، والمراد بالزوجين هٰهنا: الذكر والأنثى. قرأ حفص هٰهنا وفي سورة المؤمنين [٢٧]: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين، أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكره تأكيداً. وفي القصة: أن نوحاً عليه الصّلاة والسلام قال: يا ربِّ كيفَ أحمل من زوجين اثنين، فحشر الله إليه الوحوشَ والسباعَ والهوام والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة، ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: واحملْ أهلكَ، أي: ولدك وعيالك، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، بالهلاك يعني امرأته وَاعِلة وابنه كنعان، ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، يعني: واحمل من آمن بك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية، نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام يافث، ونساؤهم. وقال الأعمش: كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين له وثلاث كنائن. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم،

نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعاً. وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً، نوحاً وامرأته وبنيه الثلاثة ونسائهم، فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان [في] سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم. قال مقاتل: حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميعُ الدواب والطيور ليحملها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه، فلم يستقل رجلاه فجعل نوح يقول: ويحك ادخل فينهض فلم يستطع، حتى قال نوح: ويحك ادخُلْ وإن كان الشيطان معك كلمة زلّت على لسانه، فلما قالها نوح خلّى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك عليّ يا عدوّ الله؟ قال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك، قال: اخرج عني يا عدوّ الله، فقال: ما لك بدّ من أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك.

ورُوي عن بعضهم: أن الحية والعقرب أتيا نوحاً فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضر والبلاء، فلا أحملكما، فقالتا له: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضرّ أحداً ذكرك فمن قرأ حين خاف مضرّتهما سلام على نوح في العالمين ما ضرّتاه.

قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلاّ ما يلد ويبيض، فأمّا ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض والذباب فلم يحمل منها شيئاً.

(٤١) ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾، أي: قال لهم نوح اركبوا فيها أي في السفينة، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿مَجْرٜىٰهَا﴾ بفتح الميم ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بضمّها، وقرأ محمد بن محيصن «مَجريها ومَرساها» بفتح الميمين من جرت ورست، أي: بسم الله جريها ورسوّها، وهما مصدران. وقرأ الآخرون: ﴿مُجراها ومُرسَاها﴾ بضم الميمين من أجريت وأرسيت، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها وهما أيضاً مصدران؛ كقوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩]، ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، والمراد منه الإنزال والإدخال والإخراج. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، فجرت وإذا أراد أن ترسوَ قال: بسم الله، فرست.

(٤٢) ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾، والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدّت عليه الريح، شبّهه بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام وكان كافراً، ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾، عنه لم يركب السفينة، ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، قرأ نافع وابن عامر وحمزة عن عاصم ويعقوب: ﴿ٱرْكَب﴾، بإظهار الباء والآخرون يدغمونها في الميم، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فتهلك.

(٤٣) ﴿قَالَ﴾ له ابنه: ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾، سأصير وألتجىء، ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، يمنعني من الغرق، ﴿قَالَ﴾ له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: من عذاب الله، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، قيل: ﴿مَن﴾ في محل الرفع، أي: لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم. وقيل: ﴿مَن﴾ في محل النصب، معناه: لا معصوم إلاّ من رحمه الله؛ كقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: مرضية، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾، فصار، ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

ويُروى: أن الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعاً، وقيل: خمسة عشر ذراعاً. ويُروى: أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم الصبيّ عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبيّ.

(٤٤) ﴿وَقِيلَ﴾، بعدما تناهى أمر الطوفان: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، اشربي، ﴿مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، أمسكي، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

غيضاً إذا نقص، وغاضه الله أي أنقصه، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، فرغ من الأمر وهو هلاك القوم ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾، يعني: السفينة استقرّت، ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾، هلاكاً ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ورُوي أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل: إنه دعا على الغراب بالخوف فذلك لا يؤلف البيوت، وطوق الحمامة الخضرةُ التي في عنقها ودعا لها بالأمان، فمن ثم تأمن وتألف البيوت.

ورُوي: أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة [لعشر مضت من محرم] ستة أشهر، ومرت بالبيت فطافت به سبعاً وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء، فصام نوح، ذلك العام وأمر جميع من معه بالصوم شكراً لله عزّ وجلّ.

وقيل: ما نجا من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق كان الماء إلى حجزته، وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج إليه من الشام، فنجّاه الله تعالىٰ من الغرق لذلك.

(٤٥) قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾، لا خلف فيه، ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.

(٤٦) ﴿قَالَ﴾ الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، قرأ الكسائي ويعقوب: ﴿عَمِلَ﴾ بكسر الميم وفتح اللام، ﴿غيرَ﴾ بنصب الراء على الفعل، أي: عمل الشرك والتكذيب. وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام وتنوينه، ﴿غَيۡرُ﴾ برفع الراء معناه: أن سؤالك إيّاي أن أنجيه عمل غير صالح، ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾، يا نوح، ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، قرأ أهل الحجاز والشام ﴿فلا تسألَنِّ﴾ بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها. وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة، ويُثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش ويعقوب الياء في الوصل ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، واختلفوا في هذا الابن، قال مجاهد والحسن: كان وَلد حِنْث من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، وقرأ الحسن: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته وكان يعلمه نوح ولذلك قال: ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾، ولم يقل مني. وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه. قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قطّ. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، أي: من أهل الدين لأنه كان مخالفاً له في الدين. وقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، أي: في الدين والعمل لا في الفراش. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، يعني: تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر.

(٤٧) ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

(٤٨) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ انزل من السفينة، ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾، أي: بأمن وسلامة منّا، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، البركة هي ثبوت الخير ومنه بروك البعير. وقيل: البركة هٰهنا هي أن الله تعالىٰ جعل ذريته، هُم الباقين إلى يوم القيامة، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾، أي: على ذرية أمم ممن

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّٗا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾

كان معك في السفينة، يعني: وعلى قرون تجيء بعدك من ذرية من معك في السفينة، يعني: من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي: دخل فيه كل مؤمن إلى يوم القيامة، ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، هذا ابتداء، أي: أمم سنمتعهم في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

﴿٤٩﴾ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، من أخبار الغيب، ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾، من قبل نزول القرآن، ﴿فَٱصْبِرْۖ﴾ على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح، ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ آخر الأمر بالسعادة والنصرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، [لأهل التقوى].

﴿٥٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾، أي: وأرسلنا إلى عاد، ﴿أَخَاهُمْ هُودٗاۚ﴾، في النسب لا في الدين، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وحّدوا الله ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ما أنتم في إشراككم إلاّ كاذبون.

﴿٥١﴾ ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾، أي: على تبليغ الرسالة، ﴿أَجْرًاۖ﴾، جعلاً، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾، ما ثوابي، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾، خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: آمنوا به، والاستغفار هٰهنا بمعنى الإيمان، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، من عبادة غيره من سالف ذنوبكم، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارٗا﴾، أي: يرسل المطر متتابعاً مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، أي: شدّة مع شدّتكم. وذلك أن الله عزّ وجلّ حبس عنهم القطر ثلاث سنين وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم [بالله وحده وصدقتموني] أرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالاً ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة في البدن. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾، أي: لا تدبروا مشركين.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، أي: بقولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، بمصدّقين.

﴿٥٤﴾ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أي أصابك ﴿بِسُوٓءٖۗ﴾، يعني: لست تتعاطى ما نتعاطاه من مخالفتنا وسبّ آلهتنا إلاّ أن بعض آلهتنا اعتراك، أي: أصابك بسوء بخبل وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل لا نحمل أمرك إلا على هذا، ﴿قَالَ﴾ لهم هود: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾، على نفسي، ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ يا قوم ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾، يعني: الأوثان، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾، فاحتالوا في مكري وضرّي أنتم وأوثانكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، [لا تؤخّرون ولا تمهلون].

﴿٥٦﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾، أي: اعتمدتُ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، قال الضحاك: يحييها ويميتها. قال الفراء: مالكها والقادر عليها. وقال القتيبي: يقهرها، لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته. وقيل: إنما خصّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة، فتقول: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسَروا إنساناً وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جزّوا ناصيته ليعتدّوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، يعني: إن ربي وإن كان قادراً عليهم

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلاّ بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه. وقيل: معناه إن دين ربي إلى صراط مستقيم. وقيل: فيه إضمار، أي: إن ربي يحثكم ويحملكم على صراط مستقيم.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، أي: تتولّوا، يعني: تعرضوا عمّا دعوتكم عليه، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: إن أعرضتم يهلككم الله عزّ وجلّ ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم يوحّدونه ويعبدونه، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾، بتولّيكم وإعراضكم إنما تضرّون أنفسكم. وقيل: لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.

(٥٨) قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، عذابنا، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، وكانوا أربعة آلاف. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، بنعمة ﴿مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجّيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجّيناهم في الآخرة.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾، ردّه إلى القبيلة، ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾، يعني: هوداً وَحْدَهُ، وذكره بلفظ الجمع لأن من كذّب رسولاً واحداً كان كمن كذّب جميع الرسل، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: واتبع السفلة والسقاط أهل التكبّر والعناد. والجبار: المتكبّر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق، يقال: عَنَدَ الرجلُ يعند عنوداً إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه. وقال أبو عبيدة: العنيد والعاند والعنود والمعاند المعارض لك بالخلاف.

(٦٠) ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي: أردفوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطرد عن الرحمة، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: وفي يوم القيامة أيضاً لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾، أي: بربهم، ويقال: كفرته وكفرت به، كما يقال: شكرتُه وشكرتُ له ونصحتُه ونصحتُ له. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، قيل: بعداً من رحمة الله. وقيل: هلاكاً. والبعد له معنيان، أحدهما ضد القرب، يقال منه: بَعُدَ يبعُدُ بُعْداً، والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعِدَ يبعِدُ بُعْداً وبَعَداً.

(٦١) قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب لا في الدين، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدوا الله عزّ وجلّ، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم﴾، ابتدأ خلقكم، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وذلك أنهم من آدم عليه السلام وآدم خُلق من الأرض، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي: جعلكم عُمّارها وسُكّانها. قال الضحاك: أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك قوم عاد. قال مجاهد: أعمركم من العُمْري، أي: جعلها لكم ما عشتم. وقال قتادة: أسكنكم فيها. ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾، من المؤمنين، ﴿مُّجِيبٌ﴾ لدعائهم.

(٦٢) ﴿قَالُوا۟﴾، يعني ثمود: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، القول، أي: كنّا نرجوا أن تكون سيّداً فينا. وقيل: كنا نرجوا أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عزّ وجلّ وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، من قبلُ من الآلهة، ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، موقع للريبة والتهمة، يقال: أربته إرابةً إذا فعلتُ به فعلاً يوجب له الريبة.

(٦٣) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾، نبوّة وحكمة، ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ

﴿اللَّهِ﴾، أي: من يمنعني من عذاب الله، ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، قال ابن عباس: ما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم. قال الحسين بن الفضل: لم يكن صالح عليه السلام في خسارة حتى قال فما تزيدونني غير تخسير، وإنما المعنى ما تزيدونني بما تقولون من الفحش إلا نسبتي إيّاكم إلى الخسارة، والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى الخسران.

(٦٤) ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، نصب على الحال والقطع، وذلك أن قومه طلبوا منه أن يخرج ناقةً عشراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولداً مثلها، وقد بيّناه في سورة الأعراف، فهذا معنى قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، من العشب والنبات فليست عليكم مؤونتها، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، ولا تصيبوها بعقر، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾، إن قتلتموها، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا﴾، عيشوا، ﴿فِى دَارِكُمْ﴾، أي: في دياركم، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ثم تهلكون، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، أي: غير كذب. رُوي أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتُصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرّة، وفي اليوم الثاني محمرّة، وفي اليوم الثالث مسودة، فكان كما قال، فأتاهم العذاب اليوم الرابع.

(٦٦) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، بنعمة منّا، ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾، أي: من عذابه وهوانه، قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي: ﴿خِزْىِ يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿عَذَابِ يَوْمَئِذٍ﴾ [المعارج: ١١]، بفتح الميم. وقرأ الباقون بالكسر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، كفروا، ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾، وذلك أنّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطّعت قلوبهم في صدورهم. وإنما قال: ﴿فَأَخَذَكُمْ﴾ والصيحة مؤنثة، لأن الصيحة بمعنى الصياح. ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، صَرْعَى هلكَى.

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾، يقيموا ويكونوا فيها، ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾، قرأ حمزة وحفص ويعقوب: (ثمودَ) غير منوّن، وكذلك في سورة الفرقان [٣٨] والعنكبوت [٣٨] والنجم [٥١]، ووافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين، وقرأ الكسائي: ﴿لِّثَمُودٍ﴾ بخفض الدال والتنوين، والباقون بنصب الدال، فمن جرّه فلأنه اسم مذكر، ومن لم يجرّه جعله اسماً للقبيلة.

(٦٩) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، أراد بالرسل الملائكة عليهم السلام. واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقال الضحاك: كانوا تسعة. وقال مقاتل: كانوا اثنى عشر مَلَكاً. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه سبعة. وقال السدي: كانوا أحد عشر مَلَكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم، ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب. وقيل: بإهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَٰمًا﴾، أي: سلّموا سلاماً، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٨٥، الأعراف: ١٦١] وقرأ حمزة الكسائي: «سِلْم» هٰهنا وفي سورة الذاريات [٢٥] بكسر السين بلا ألف. قيل: هو بمعنى السلام. كما يقال: حِل وحَلال، وحِرم وحَرام. وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم أي صلح لكم غير حرب.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، والحنيذ المحنوذ وهو المشوي على الحجارة في خَدٍّ من الأرض، وكان سميناً يسيل دسماً، كما قال في موضع آخر: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، قال قتادة: كان عامّة مال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام البقر.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾، أي: إلى العجل، ﴿نَكِرَهُمْ﴾، أنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ﴾، أضمر، ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، خوفاً. قال مقاتل: وقع في

قلبه، وأصل الوجس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه. قال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأتِ بخيرٍ وإنما جاء بشر. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾، يا إبراهيم، ﴿إِنَّآ﴾ ملائكة الله ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾، سارة بنت هاران بن أحور وهي ابنة عم إبراهيم، ﴿قَآئِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم. وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل وإبراهيم جالس معهم. ﴿فَضَحِكَتْ﴾، قال مجاهد وعكرمة: ضحكتْ، أي: حاضت في الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرنب، أي: حاضت. والأكثرون على أن المراد منه الضحك [المعلوم] المعروف. واختلفوا في سبب ضحكها، فقيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾.

قال السدي: لما قرّب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم [منهم] وظنّهم لصوصاً فقال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنّا لا نأكل طعاماً إلاّ بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوّله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهم الصلاة والسلام، وقال: حقّ لهذا أن يتّخذه ربّه خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارّة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجباً لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم وهم لا يأكلون [من] طعامنا.

وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم.

وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة في بيته، وهو فيما بين خدمه وحشمه. وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة.

وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسنّ زوجها. وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأته قائمةٌ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكتْ، وقالت: يا ويلتي أألِدُ وأنا عجوزٌ؟

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾، أي: من بعد إسحاق، ﴿يَعْقُوبَ﴾، أراد به ولد الولد، فبشرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب بنصب الباء، أي: من وراء إسحاق يعقوب. وقيل: بإضمار فعل، أي: وهبنا له يعقوب. وقرأ الباقون بالرفع [على حذف حرف الصفة]. وقيل: ومن بعد إسحاق يحدث يعقوب، فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجباً.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾، نداء ندبة وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجّب منه، أي: يا عجباً، والأصل يا ويلتاه. ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠

الجزء الثاني عشر — سورة هود

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٢٣٠

عَجُوزٌ﴾، وكانت ابنة تسعين سنة، في قول ابن إسحاق. وقال مجاهد: تسعاً وتسعين سنة. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾، أي: زوجي، سمّي بذلك لأنه قيّم أمرها، ﴿شَيْخًا﴾، نصب على الحال، وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق. وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوٓا۟﴾، يعني: الملائكة [لسارّة]، ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، معناه: لا تعجبي من أمر الله، فإنّ اللَّهَ عزّ وجلّ إذا أراد شيئاً كان. ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: بيت إبراهيم عليه السلام. قيل: هذا معنى الدعاء من الملائكة، وقيل: على معنى الخبر والرحمة والنعمة. والبركاتُ جمع بركة، وهي ثبوت الخير. وفيه دليل على أنّ الأزواج من

أهل البيت. ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد الرفعة.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾، الخوف، ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، بإسحاق ويعقوب، ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾، فيه إضمار، أي: أخذ وظلّ يجادلنا. قيل: معناه يكلّمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربّه عزّ وجلّ إنما يسأله ويطلب إليه. وقال عامّة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسةً، قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قال: لا، قال لهم إبراهيم عند ذلك: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف، فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم.

﴿٧٦﴾ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أي أعرض عن هذا المقال ودغ عنك الجدال، ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، عذاب ربّك وحكم ربك، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ﴾، نازل بهم، ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، أي: غير مصروف عنهم.

﴿٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾، يعني: هؤلاء الملائكة، ﴿لُوطًا﴾، على صورة غلمان مرد حسان الوجوه، ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾، أي: حزن لوط بمجيئهم [يقال] سوءته فسيء، كما يقال: سررته فسر. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، أي: قلباً. يقال: ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن لوطاً عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، أي: شديد لأنه عصب به الشرّ والبلاء، أي: شدّ.

قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية قوم لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها. وقيل: إنه كان يحتطب. وقد قال الله تعالىٰ للملائكة: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم إلى منزله، فلما مشى ساعة قال لهم: ما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرّ قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله.

ورُوي: أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمرّ على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي أشرُّ خلق الله، ثم مرّ على قوم آخرين، فغمزوا، فقال مثله، ثم مرّ بقوم آخرين فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة: اشهدوا، حتى أتى منزله.

ورُوي: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلاّ أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قط.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يسرعون إليه. وقال مجاهد: يهرولون، وقال الحسن: مشي بين مشيتين. قال شمر بن عطية: بين الهرولة والجمز. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل مجيئهم إلى لوط، ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، كانوا يأتون الرجال في أدبارهم. ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، يعني: بالتزويج، وفي أضيافه ببناته وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزاً كما زوج النبيّ ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾، أراد [به] نساءهم وأضاف إلى نفسه لأنّ كلّ نبي أبو أمّته. وفي قراءة أبيّ بن كعب: «النبيُّ أوْلَى بالمؤمنينَ من أنفسهم وأزواجهُ أمهاتُهم، وهو أب لهم». وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على [سبيل] التحقيق، أي: لا تَسُوؤوني ولا تفضحُوني في أضيافي. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، صالح سديد. قال عكرمة: رجل يقول لا إله إلاّ الله. وقال ابن

إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، يا لوط، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: لسن أزواجاً لنا فنستحقهنّ بالنكاح. وقيل: معناه مَا لَنا فيهنّ من حاجة وشهوة. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، من إتيان الرجال.

﴿٨٠﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم لوط عند ذلك: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، أراد قوّة البدن أو القوة بالأتباع، ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أي: أنضمّ إلى عشيرةٍ مانعة. وجواب ﴿لَوْ﴾ مضمر، أي: لقاتلناكم وحلنا بينكم وبينهم، قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبياً إلا في منعة من عشيرته.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أبو اليمان، أنبأ شعيب بن أبي حمزة، أنبأنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: أن النبيَّ ﷺ قال: «يغفرُ اللَّهُ للوطِ إنْ كانَ ليأوي إلى رُكنٍ شديدٍ».

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّرَ الجدار، فلما رأتِ الملائكة ما يلقى لوطٌ بسببهم.

﴿٨١﴾ ﴿قَالُوا يَٰلُوطُ﴾، إن رُكنك لشديد، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ﴾، فافتح الباب ودعنا وإيّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربّه عزّ وجلّ في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حبك مثل المرجان، كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعمى أبصارهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منّا غداً، يوعدونه. فقال لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ثم قالوا: ﴿فَأَسْرِ﴾، يا لوط، ﴿بِأَهْلِكَ﴾، قرأ أهل الحجاز: «فاسْرِ وأنِ اسْرِ» بوصل الألف حيث وقع في القرآن من سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري. ومعناهما واحد وهو المسير بالليل ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ﴾ قال ابن عباس بطائفة من الليل. وقال الضحاك: ببقية. وقال قتادة: بعد مضيّ أوله. وقيل: إنه السحر الأوّل. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «امرأتُك»، برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتُك فإنها تلتفت فتهلك وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى من معه ممن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته فإنها لما سمعت هدة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه فأدركها حجر فقتلها. وقرأ الآخرون بنصب التاء على استثناء من الإسراء، أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسرِ بها وخلّفها مع قومها، فإنّ هَوَاهَا إليهم، وتصديقه قراءة ابن مسعود: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾، من العذاب، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿٨٢﴾ قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، عذابنا، ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف. وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلّها حتى سمع أهل السماء صياح الدّيكة، ونباح الكلاب. فلم يُكفأ لهم إناءٌ ولم ينتبه نائمٌ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾، أي على شُذّاذها ومسافريها. وقيل: بعدما قلبها أمطر عليها، ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير: (سنك وكل) فارسي معرب. وقال قتادة وعكرمة: السجّيل الطين، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]. قال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشددت. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقيل: السجيل اسم السماء

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

الدنيا. وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]. قوله تعالىٰ: ﴿مَّنضُودٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: متتابع يتبع بعضه بعضاً مفعول من النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

﴿٨٣﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾، من نعت الحجارة وهي نصب على الحال، ومعناها معلمة. قال ابن جريج: عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض. وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع. وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. ﴿عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ﴾، يعني: تلك الحجارة، ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: من مشركي مكة، ﴿بِبَعِيدٍ﴾، وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة، والله ما أجار الله منها ظالماً بعدُ. وفي بعض الآثار: ما من ظالم إلا وهو بعرض حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة. رُوي: أن الحجر اتّبع شذاذهم ومسافريهم، أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر معلّقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج فأصابه فأهلكه.

﴿٨٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُطفّفون مع شركهم، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾، قال ابن عباس: موسرين في نعمة. وقال مجاهد: في خصب وسعة فحذّرهم زوال النعمة، وغلاء السعر وحلول النقمة، إن لم يتوبوا. ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، يحيط بكم فيهلككم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، أتموهما، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، بالعدل. وقيل: بتقويم لسان الميزان، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟﴾، لا تنقصوا، ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿٨٦﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خيرٌ مما تأخذونه بالتطفيف. وقال مجاهد: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾، أي: طاعة الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، بأن ما عندكم من رزق الله وعطائه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، بوكيل. وقيل: إنما قال ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، من الأوثان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان شعيب عليه السّلام كثير الصلاة، لذلك قالوا هذا. وقال الأعمش: يعني أقراءتك.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾، أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الزيادة والنقصان. وقيل: كان شعيب عليه السلام قد نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم، زعم أنه محرم عليهم فقالوا: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء من قطعها.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادوا السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضدّه فتقول: للديغ سليم وللفلاة مفازة. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء. وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك. وقيل: هو على الصحة أي إنك يا شعيب فينا حليم رشيد، لا يجمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم، وهذا كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢].

﴿٨٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾، بصيرة وبيان، ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾، حلالاً. وقيل: كثيراً. كان شعيب عليه السلام كثير المال. وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. ﴿إِنۡ أُرِيدُ﴾، ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، والتوفيق خلق قدرة الطاعة في العبد وتسهيل سبيل الخير والطاعة، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، اعتمدت، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، أرجع فيما ينزل بي من النوائب. وقيل: في المعاد.

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾، لا يحملنكم، ﴿شِقَاقِيٓ﴾، خلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾، أي: على فعل ما أنهاكم عنه [فيصيبكم]، ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾، من الغرق، ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾، من الريح، ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾، من الصيحة، ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾، وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط. وقيل: معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط.

﴿٩٠﴾ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾، والودود له معنيان، أحدهما: أنه محب للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود أي المحبوب للمؤمنين. وجاء في الخبر: إن شعيباً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾، [أي:] ما نفهم، ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾، وذلك أنه كان ضرير البصر، فأرادوا ضعف البصر، ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾، عشيرتك وكان في منعة من قومه، ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾، لقتلناك. والرجم: أقبح القتل. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا﴾، عندنا، ﴿بِعَزِيزٖ﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: أمكان رهطي أهيب عندكم من الله، إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله. ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

﴿٩٣﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، أي: على تؤدتكم وتمكّنكم. يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكّن. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾، على تمكّني، ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، أينا الجاني على نفسه والمخطىء في فعله، فذلك قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يذله، ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾، قيل: ﴿مَنۡ﴾ في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب. وقيل: محله رفع، تقديره: ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره. ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾، وانتظروا العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾، منتظر.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، قيل: إن جبريل عليه السّلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم. ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، ميتين.

﴿٩٥﴾ ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾، [أي: كأن لم يقيموا] ولم يكونوا، ﴿فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا﴾، هلاكاً، ﴿لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ﴾، هلكت ﴿ثَمُودُ﴾.

﴿٩٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، حجة بيّنة.

﴿٩٧﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، بسديد.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

﴿٩٨﴾ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾، يتقدمهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ﴾، فأدخلهم، ﴿ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، أي: بئس المدخل المدخول فيه.

﴿٩٩﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ﴾، [أي: في هذه الدنيا] ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، أي: العون المعان. وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

﴿١٠٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾، عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾، خراب. وقيل: منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف. وحصيد، أي: انمحي أثره. وقال مقاتل: قائم يرى له أثر وحصيد لا يُرى له أثر، وحصيد بمعنى محصود.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾، بالعذاب والهلاك، ﴿وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، بالكفر والمعصية ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، عذاب ربك، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾، أي: غير تخسير، وقيل: تدمير.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، وهكذا، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا أبو معاوية، أنبأنا بُرَيْد بن أبي بردة، [عن أبي بردة] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيُملي للظالِم حتى إذا أخذه لم يفلِتْهُ»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ الآية.

﴿١٠٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾، لعبرة، ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، أي: يشهده أهل السماء والأرض.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾، أي: وما نُؤخر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة. وقرأ يعقوب: وما يُؤخره بالياء، ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، [أي:] معلوم عند الله [تعالى].

﴿١٠٥﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾، قرىء بإثبات الياء وحذفها، ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾، أي: لا تتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة ومنهم من سبقت له السعادة.

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الظاهري، أنبأنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمٰن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدبري، أنبأنا عبد الرزاق، أنا [معمر عن منصور، عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمٰن السّلمي] عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجنا على جنازة فبينا نحن بالبقيع إذْ خرجَ رسولُ الله ﷺ وبيده مِخْصَرةٌ فجاء فجلس ثم نكتَ بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ إلاّ وقد كُتِبَ مكانُها من الجنّة أو النار، إلاّ وقدْ كُتِبَتْ شقية أو سعيدة». قال: فقال رجل: أفلا نتّكل على كتابنا يا رسول الله وندع العمل؟ قال: «لا، ولكن اعْملُوا فكلٌّ ميسّرٌ لِما خُلِقَ له، أما أهل الشقاوة فسييسّرون لعمل أهل الشقاوة، وأما أهل السعادة فسييسّرون لعمل أهل السعادة»، قال: ثم تلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

(١٠٦) قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمار، والشهيق آخره إذا ردّده في جوفه. وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، لابثين مقيمين فيها، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، قال الضحاك: ما دامت سموات الجنّة والنار وأرضهما، وكلُّ ما علاكَ فأظلّكَ فهو سماء، وكل ما استقرّت عليه قدمك فهو أرض. وقال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأبيد على عادة العرب، يقولون: لا آتيك ما دامت السمواتُ والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف اللّيل والنهار، يعنون أبداً. قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، اختلفوا في هذين الاستثنائين، فقال بعضُهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من الموحّدين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء من غير الجنس، لأن الذين أُخرجوا من النار سعداء ثم استثناهم الله من جملة الأشقياء، وهذا كما:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد [المليحي، أنبأنا أحمد] بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا حفص بن عمر، ثنا هشام، عن قتادة، عن أنس: عن النبيّ ﷺ قال: «ليُصيبنَّ أقواماً سفعٌ من النار بذنوب أصابوها، عقوبة ثم يدخلهم الله الجنّة بفضل رحمته، فيقال لهم الجهنميون».

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، قال: أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا مُسدّد، أخبرنا يحيى، عن الحسن بن ذكوان، أنبأنا أبو رجاء، حدّثني عمران بن حصين رضي الله عنه: عن النبيّ ﷺ قال: «يخرج قومٌ من النار بشفاعةِ محمدٍ فيدخلون الجنّة ويسمّون الجهنميين».

وأمّا الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنّة. وقيل: إلى ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنّة أو النار، يعني: هم خالدون في الجنّة أو النار إلا هذا المقدار. وقيل: معنى إلا ما شاء ربك [أي] سوى ما شاء ربك، معناه: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء الله من الزيادة على قدر مدة بقاء السموات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، وكما تقول: لفلان عليّ ألف إلا الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدّمتا. وقيل: إلاّ بمعنى الواو، أي: وقد شاء ربُّك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنّة؛ كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: ولا الذين ظلموا. وقيل: معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لا يشاء لأنه حكم لهم بالخلود. وقال الفراء: هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله؛ كقولك: والله لأضربنّك إلاّ أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سُعِدُوا۟﴾، بضم السين وكسر العين، أي: رُزِقُوا السّعادة، وسعد وأسعد بمعنى واحد. وقرأ الآخرون بفتح السين قياساً على ﴿شَقُوا۟﴾ [هود: ١٠٦]. ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، قال الضحاك: إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنّة. قال قتادة: الله أعلم بثنياه. ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، أي: غير مقطوع. قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنّة، فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليأتينّ على جهنّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً. وعن أبي هريرة رضي الله عنه مثله. ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

الإيمان. وأمّا مواضع الكفار فممتلئة أبداً.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾، في شكٍّ، ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾، أنهم ضُلاّل، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾، فيه إضمار، أي: كما كان يعبد، ﴿ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، حظّهم من الجزاء. ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، التوراة، ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾، فمن مصدق به ومكذّب كما فعل قومك بالقرآن، يُعزّي نبيّه ﷺ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، في تأخير العذاب عنهم، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لعُذّبوا في الحال وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، موقع في الريبة والتّهمة.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾، ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، ﴿لَّمَّا﴾ شددها هنا وفي يسٓ والطارق، ابن عامر وعاصم وحمزة. ووافق أبو جعفر هٰهنا، وفي الطارق وفي الزخرف، بالتشديد عاصم وحمزة، والباقون بالتخفيف، فمن شدّد [قال: الأصل فيه ﴿وإنّ كلا﴾ لمن ما، فوصلت من الجارة بما، فانقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهنّ، فبقيت لما بالتشديد، و﴿ما﴾ هٰهنا بمعنى مَنْ، هو اسم لجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]، أي: من طاب لكم، والمعنى: وإنّ كلاً لمن جماعة ليوفينّهم. ومن قرأ بالتخفيف قال: ﴿ما﴾ صلة زيدت بين اللاّمين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى: وإن كلاً ليوفينّهم. وقيل ﴿ما﴾ بمعنى مَنْ، تقديره: لمن ليوفينهم]، واللام في ﴿لما﴾ لام التأكيد، [التي تدخل على خبر إن]، وفي ليوفينّهم لام القسم، [والقسم مضمر] تقديره: والله، ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: جزاء أعمالهم، ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿١١٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، أي: استقم على دين ربّك والعمل به والدعاء إليه كما أُمرتَ، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، أي: ومن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب.

أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أنا والدي إملاء، ثنا أبو بكر محمد بن إسحاق، ثنا محمد بن العلاء ابن كريب، ثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنتُ باللّهِ ثم استقم».

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني. وقيل: معناه ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُ. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيّبتني هودٌ وأخواتُها».

أخبرنا عبد الواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، ثنا عمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الدين يُسْرٌ ولنْ يشادّ هذا الدين أحدٌ إلاّ غلبه،

فسدّدُوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجَة».

(١١٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا. والركون: هو المحبة والميل بالقلب. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. قال السدي: لا تداهنوا الظلمة. وعن عكرمة: لا تطيعوهم، وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾، فتصيبكم، ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أعوان يمنعونكم من عذابه، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

(١١٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: الغداة والعشي. يعني: صلاة الصبح والمغرب قال مجاهد: طرفا النهار صلاة الصبح والظهر والعصر. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، صلاة المغرب والعشاء. وقال مقاتل: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفاً من الليل يعني صلاة العشاء. وقال الحسن: طرفا النهار الصبح والعصر، وزُلَفاً من اللّيل المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طرفي النهار الغداة والعشي، يعني صلاة الصبح والمغرب. قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، أي: ساعاته واحدتها زلفة وقرأ أبو جعفر: ﴿وَزُلُفاً﴾ بضم اللام. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

ورُوي أنها نزلت في أبي اليَسَر، قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلتُ لها: إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلت معي في البيت، فأهويتُ إليها فقبلتها، فأتيتُ أبا بكر رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: استرْ على نفسك وتُبْ، فأتيتُ عمر رضي الله عنه فذكرت ذلك له، فقال: استرْ على نفسِك وتبْ، فلم أصبر فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: أخلفتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا، حتى ظنّ أنه من أهل النار؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الآية، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصةً أم للناس عامة؟ قال: «بلْ للناس عامةً».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا قتيبة بن سعيد، ثنا يزيد بن زُريع، عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم».

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني أبو الطاهر، وهارون بن سعيد الأيلي قالا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدّثه عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ إلى رمضان مكفراتٌ لما بينهنّ إذا اجتُنبتِ الكبائر».

وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا [أبو] محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحاق [السراج] أنبأنا قتيبة، أنبأنا الليث وبكر بن مضر عن ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتُم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيءٌ؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «فكذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك الذي ذكرنا. وقيل: هو إشارة إلى القرآن، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾، أي: لمن ذكره.

(١١٥) ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى. وقيل: على الصلاة، نظيره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، في أعمالهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المصلّين.

(١١٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَوْلَا﴾، فهلا، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾، التي أهلكناهم، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾، الآية للتوبيخ، ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾، أي: أولو

الجزء الثاني عشر — سورة هود

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

٢٣٥

تمييز. وقيل: أولو طاعة. وقيل: أولو خير. يقال: فلان ذو بقية إذا كان فيه خير. معناه: فهلاً كان من القرون من قبلكم من فيه خير ينهى عن الفساد في الأرض؟ وقيل: معناه أولو بقية من خير. يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه جحد، أي: لم يكن فيهم أولو بقية. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلاً، ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟﴾، نَعِمُوا، ﴿فِيهِ﴾، والمترَفُ: المُنعَم. وقال مقاتل بن حيان: خُوّلوا. وقال الفراء: عُوِّدوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا، أي: واتبع الذين ظلموا ما عوّدوا من النعيم واللذّات وإيثار الدنيا على الآخرة. ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾، كافرين.

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أي: لا يهلكهم بشركهم، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، فيما بينهم يتعاطون الأنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، وإنما يهلكهم إذا تظالموا. وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيّئات.

﴿١١٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾، كلّهم، ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، على دين واحد، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك.

﴿١١٩﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، معناه: لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لا يختلفون، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال الحسن وعطاء: وللاختلاف خلقهم. وقال أشهب: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنّة وفريق في السعير. وقال أبو عبيدة: الذي أختاره قول من قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم، يعني الذين رحمهم. وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف. وحاصل الآية أن أهل الباطل مختلفون وأهل الحق متفقون، فخلق الله أهل الحق للاتفاق وأهل الباطل للاختلاف.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، وتمّ حكم ربّك، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾، معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أممهم نقصُّها عليك، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، لنثبت به فؤادك، لنزيدك يقيناً ونقوّي قلبك، وذلك أنّ النبيّ ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه. ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾، قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا. وقال غيرهما: في هذه السورة. وهذا قول الأكثرين، خصّ هذه السورة تشريفاً، وإن كان قد جاءه الحقُّ في جميع السور. ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾، أي: وجاءتك موعظة، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٢١﴾ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أمرُ تهديدٍ ووعيد، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾، ما يحلّ بنا من رحمة الله، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، ما يحلّ بكم من نقمة الله.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: [علم] ما غاب عن العباد فيهما، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾، في المعاد. قرأ نافع وحفص: ﴿يُرْجَعُ﴾ بضم الياء وفتح الجيم، أي: يرد. قرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي:

يعود الأمر كلّه إليه حتى لا يكون للخلق أمر.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وثق به، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء هٰهنا وفي آخر سورة النمل. وقرأ الآخرون بالياء فيهما. قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود.

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أنبأنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا أبو كُريب محمد بن العلاء، ثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، فقال ﷺ: «شيبني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلونَ، وإذا الشمسُ كوِّرتْ».

ويُروى: «شيّبتني هودٌ وأخواتها».

❁ ❁ ❁

سورة يوسف

سورة يوسف عليه السلام مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، أي: البيّن حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه. قال قتادة: مبيّن والله بركته وهداه ورشده، فهذا من بان أي: ظهر. وقال الزجاج: مبيّنٌ الحقَّ من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر.

(٢) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، يعني الكتاب، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: أنزلناه بلغتكم، لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، أي: نقرأ، ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، والقاص هو الذي يتبع الآثار ويأتي بالخبر على وجهه، معناه: نبيّن لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان. وقيل: المراد منه قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمّاها أحسن القصص لِمَا فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدِّين والدنيا، من سِيَرِ الملوك والمماليك والعلماء، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء. وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد. قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم عليهم السلام يتفكّه بهما أهل الجنّة في الجنّة. وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف عليه السلام محزون إلا استراح لها. قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، ﴿ما﴾ المصدر، أي: بإيحائنا إليك، ﴿هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ﴾، [أي]: وقد كنت، ﴿مِن قَبْلِهِ﴾، أي: من قبل وحينا، ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، لمن الساهين عن هذه القصة لا تعلمها.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فقالوا: يا رسول الله لو ذكرتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

(٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾، أي: اذكر إذ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم أعجمي، ولذلك لا يجري عليه الإعراب. وقيل: هو عربي، سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف، فقال: الأسف في اللغة الحزن، والأسيف العبد، واجتمعا في يوسف عليه السلام فسُمّي به.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، قال: قال عبد الله بن محمد، ثنا عبد الصمد، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما:

عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

﴿يَا أَبَتِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ﴿يا أبتَ﴾ بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه، وقرأ الآخرون: ﴿يَا أَبَتِ﴾ بكسر التاء لأن أصله: يا أبتْ والجزم يحرّك إلى الكسر. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، أي: نجماً من نجوم السماء ونصب الكواكب على التفسير، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾،

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

٢٣٦

ولم يقل رأيتها ساجدات، والهاء والميم والياء والنون من كنايات من يعقل، لأنه لما أخبر عنها بفعل من [يعقل] عبّر عنها بكناية من يعقل؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، وكأن النجوم في التأويل أخواته، وكانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه والقمر أمه. قال قتادة وقال السدي: القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت. وقال ابن جريج: القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكّر، وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا. وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصّها على أبيه.

٥ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن الأخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، فيحتالوا في إهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك، واللام في قوله: ﴿لَكَ﴾ صلة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وقيل: هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك. ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: يزين لهم الشيطان ويحملهم على الكيد لعداوته القديمة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبد الرحمٰن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، ثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة عن عبد ربّه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنتُ أرى الرؤيا تهمني، حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الصالحة من الله تعالىٰ، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به إلاّ من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثاً ولا يحدث به أحداً فإنها لن تضره».

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا عبد الرحمٰن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن أبي رزين العقيلي قال:

قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا جزء من أربعين أو ستة وأربعين جزءاً من النبوّة، وهي على رجل طائر فإذا حدّث بها وقعت»، وأحسبه قال: «لا تحدّث بها إلا حبيباً أو لبيباً».

٦ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، يصطفيك ربُّك، بقوله: يعقوب ليوسف عليهما السلام، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصفيك ربُّك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، يريد تعبير الرؤيا سمّي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل ما يؤول إليه عاقبة الأمر، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، يعني: النبوّة، ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي: على أولاده فإنّ أولاده كلهم كانوا أنبياء، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، فجعلهما نبيّين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة. وقيل: إنجاؤه من النار، وعلى إسحاق إنجاؤه من الذبح. وقيل: بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير. وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة. فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف [عليه السلام] حسدوه، وقالوا: ما رضي أن تسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فبغوه وحسدوه.

٧ يقول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ

﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾، أي: في خبره وخبر إخوته، وأسماؤهم روبيل، وقيل روبين بالنون وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون. وقيل: زيلون وآشر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، وله له من سريتين له اسم إحداهما زلفة والأخرى يلهمة أربعة أولاد، دان ونفتالي، وقيل: نفتولي وجاد وأشير، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، وقيل: وابن يامين فكان بنو يعقوب عليه السلام اثني عشر رجلاً. ﴿ءَايَٰتٌ﴾، قرأ ابن كثير ﴿آية﴾ على التوحيد أي عظة وعبرة. وقيل: عجب، وقرأ الآخرون: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على الجمع. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام. وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف جميعها، فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجّبوا منه، فهذا معنى قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾. [أي: دلالة على نبوّة رسول الله ﷺ. وقيل: آيات للسائلين] ولمن لم يسأل؛ كقوله: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]، وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة وعلى الرق وعلى اللبث في السجن، وما آل أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف وما آل أمره من الوصول إلى المراد، وغير ذلك من الآيات.

﴿٨﴾ ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ﴾، اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف، ﴿وَأَخُوهُ﴾، بنيامين، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، كان يوسف [عليه السلام] وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعة وكانوا عشرة. قال الفراء: العصبة هي العشرة فما زاد. وقيل: العصبة ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقال مجاهد: ما بين العشرة إلى الخمسة عشرة. وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقيل: جماعة يتعصّب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي خطأ بيّن [في] إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد منه الضلال عن الدين، ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه الخطأ في تدبير أمر الدنيا يقولون نحن أنفع له في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه من يوسف، فنحن أولى بالمحبة منه، فهو مخطىء في صرف محبّته إليه.

﴿٩﴾ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، اختلفوا في قائل هذا القول، فقال وهب: قاله شمعون. وقال كعب: قاله دان. ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، أي: إلى أرض تبعد عن أبيه. وقيل: في أرض تأكله السباع، ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾، يخلص لكم ويصف لكم، ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، عن شغله بيوسف، ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، من بعد قتل يوسف، ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾، تائبين، أي: توبوا بعدما فعلتم هذا يعفُ الله عنكم [جرمكم]. وقال مقاتل: صالحين: يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، هو يهوذا، وقال قتادة: روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً. والأول أصح، نهاهم عن قتله وقال: القتل كبيرة عظيمة. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، قرأ أبو علي جعفر ونافع (غيابات الجب) [على] الجمع في الحرفين، وقرأ الباقون «غيابة الجب» على الواحد، أي: في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر عنك الشيء وغيّبه والجب البئر غير المطوية لأنه جب، أي: قطع ولم يطوَ ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾، يأخذه، والالتقاط أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه الإنسان، ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾، أي: بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى [من نواحي الأرض] فتستريحوا منه، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، أي: إن عزمتم على فعلكم وهم كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء بعد. وقيل: لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾، ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا﴾ [يوسف: ٩٧]، والصغير لا ذنب له.

وقال محمد بن إسحاق: اشتمل

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

فعلهم على جرائم من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله. وقال بعض أهل العلم: إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعون، وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله تعالى.

وسئل أبو عمرو بن العلاء: كيف قالوا ﴿نلعب﴾ وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضروب من الحيل.

﴿١١﴾ ﴿قَالُوا﴾ ليعقوب، ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿تَأْمَنَّا﴾ بلا إشمام، [وهو رواية عن نافع، وقرأ الباقون: ﴿تَأْمَ۫نَّا﴾ بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة من غير إمحاض ليعلم أن أصله لا تأمننا بنونين على تفعلنا، فأدغمتِ النون الأولى في الثانية]، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه؟ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾، قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾، فقال أبوهم: إني ليحزنني أن تذهبوا به، فحينئذ قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾، النصح هٰهنا القيام بالمصلحة. وقيل: البرّ والعطف، معناه: وإنا عاطفون عليه قائمون بمصلحته نحفظه حتى نردّه إليك.

﴿١٢﴾ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾، إلى الصحراء، ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وجزم العين من ﴿نرتع﴾، وقرأ يعقوب: ﴿نرتع﴾ بالنون، ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالياء، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين في ﴿يرتع﴾ يعني يوسف، وقرأ الآخرون ﴿نرتع﴾ النون ﴿ويلعب﴾ بالياء، والرتع هو الاتّساع في الملاذ. يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته. [يريد ينعم ويأكل ويلهو ويبسط]. وقرأ أهل الحجاز: ﴿يَرْتَعِ﴾ بكسر العين وهو يفتعل من الرعي، ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أي: نتحارس ويحفظ بعضُنا بعضاً. وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخباراً عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ﴾، يحزنني ذهابكم، والحزن هٰهنا: ألم القلب بفراق المحبوب، ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾، وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام كأن ذئباً شدّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثم قال هذه المقالة:

﴿١٤﴾ ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، عشرة، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، عجزة ضعفاء.

﴿١٥﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا﴾، أي: عزموا، ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ يلقوه، ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾، هذه الواو زائدة تقديره: أوحينا إليه؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٤]، أي: ناديناه، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقنّ رؤياك ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إيّاه ذلك، قاله مجاهد. وقيل: معناه: وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم [له] منكرون، وذكر وهب وغيره أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه [وطرحوه] وجعلوا يضربونه، فإذا

ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة. وقيل: ثماني عشرة سنة، فجاؤوا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيّقة الرأس. قال مُقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام. قال كعب: بين مدين ومصر. وقال وهب: بأرض الأردن. وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس فجعلوا يدلّونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه رُدّوا عليّ القميص أتوارى به في الجبّ، فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكِبَ تواريك، قال: إني لم أرَ شيئاً، فألقوه فيها. وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها. وقيل: إنهم لمّا ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظنّ أن رحمةً أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وبقي فيها ثلاث ليالٍ، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾. والأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشّره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿١٦﴾ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب. ورُوي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج، وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم وأين يوسف؟؟

﴿١٧﴾ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتد على أقدامنا. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، بمصدّق لنا، ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾، وإن كنا، ﴿صَٰدِقِينَ﴾، فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادق؟ قيل: معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر لأنك خفتنا عليه في الابتداء واتّهمتنا في حقّه. وقيل: معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل [لنا] على صدقنا وإن كنّا صادقين عند الله.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: بدم [هو] كذب لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم. وفي القصة: إنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتّهمهم، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾، زيّنت، ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبرٌ جميل. وقيل: فصبر جميل أختاره. والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون. وفي القصة: أنّهم جاؤوا بذئب وقالوا هذا الذي أكله، فقال له يعقوب: يا ذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي، فأنطقه الله عزّ وجلّ فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قط. قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟ قال: جئت لصلة قرابة فصادني هؤلاء، فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾، وهم القوم المسافرون سُمّوا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض كانت رفقة من مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً من الجبّ، وكان الجب في قفر بعيد من العمران للرعاة والمارّة، وكان ماؤه مالحاً فعذب حين ألقي يوسف عليه السلام فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر، لطلب الماء فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾، والوارد الذي يتقدّم الرفقة إلى الماء فيهيّىء الأرشية والدلاء، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليتُ الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون.

قال النبيّ ﷺ: «أعطيَ يوسفُ شطر الحُسْن».

ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة، وكانت قد أُعطيت سُدسَ الحُسنِ. قال ابن إسحاق: ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن فلما رآه مالك بن ذعر، ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾، قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء، بشّر المستقي أصحابه يقول: أبشروا، وقرأ أهل الكوفة: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ بغير إضافة يريد نادى المستقي رجلاً من أصحابه اسمه بشرى. ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، وروى ابن مجاهد عن أبيه: أن جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أخرج منها. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾، أخفوه، ﴿بِضَٰعَةً﴾، قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم وقالوا هو بضاعة استبضعها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة. وقيل: أراد أن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف وقالوا هو عبد لنا أبق قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، فأتى يهوذا يوسف بالطعام [على عادته] فلم يجده في البئر، فأخبر بذلك إخوته، فطلبوه فإذا هم بمالك [بن ذعر] وأصحابه نزولاً فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا هذا عبد أبق منّا. ويقال: إنهم هدّدوا يوسف حتى لم يعرف حاله. وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عزّ وجلّ:

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ﴾، أي: باعوه، ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾، قال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام لأن ثمن الحرّ حرام، وسُمّي الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة. وعن ابن عباس وابن مسعود: بخس أي زيوف. وقال عكرمة والشعبي: بثمن قليل. ﴿دَرَٰهِمَ﴾، بدل من الثمن، ﴿مَعْدُودَةٍ﴾، ذكر العدد عبارة عن قلّته. وقيل: إنما قال معدودة لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنون ما كان أقلّ من أربعين درهماً، إنما كانوا يعدّونها عداً فإذا بلغت أوقية وزنوها. واختلفوا في عدد تلك الدراهم، فقال ابن عباس وابن مسعود وقتادة: عشرون درهماً فاقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة: أربعون درهماً. ﴿وَكَانُوا۟﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿فِيهِ﴾، أي: في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله. وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه، ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف، فتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأبق، قال: فذهبوا به حتى قدموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير، قاله ابن عباس. وقيل: إطفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن شروان من العمالقة. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتّبعَ يوسف على دينه، ثم مات ويوسف حي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا دخلوا مصر تلقى قطفير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين. وقال وهب بن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً، وكان وزنه أربعمائة رطل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فابتاعه قطفير من مالك بن ذعر بهذا الثمن، فذلك قوله تعالى:

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾، واسمها راعيل. وقيل: زليخا، ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة. وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام. وقال قتادة وابن جريج: منزلته. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: نتبناه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز في يوسف حيث قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، وابنة شعيب عليه السلام حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: يا أبتِ استأجره، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: في أرض مصر، أي: كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب، كذلك مكّنّا له في الأرض فجعلناه على خزائنها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: مكّنّا له في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا.

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

٢٣٨

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾، قيل: الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء لا يغلبه شيء ولا يردُّ عليه حكمه رادٌ. وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام معناه: إن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة لاَ يَكِلُه إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ما الله به صانع.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾، منتهى شبابه وشدّته وقوّته ومعرفته. قال مجاهد: ثلاثاً وثلاثين سنة. وقال السدي: ثلاثين سنة. وقال الضحاك: عشرين سنة. وقال الكلبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وسئل مالك رحمه الله عن الأشد قال: هو الحلم. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فالحكم النبوّة والعلم الفقه في الدين. وقيل: حكماً يعني إصابة في القول، وعلماً بتأويل الرؤيا. وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم، أن العالم هو الذي يعلم الأشياء والحكيم الذي يعمل بما يوجبه العلم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المؤمنين، وعنه أيضاً: المهتدين. وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام.

﴿٢٣﴾ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، يعني: امرأة العزيز. والمراودةُ: طلب الفعل، والمراد هٰهنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها، ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَٰبَ﴾، أي: أطبقتها وكانت سبعة، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، أي: هلمّ وأقبل، قرأ أهل الكوفة والبصرة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتاء جميعاً، وقرأ أهل المدينة والشام: «هِيتَ» بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير: «هَيتُ» بفتح الهاء وضمّ التاء، وقرأ السلمي وقتادة: ﴿هِئْتُ لك﴾ بكسر الهاء وضمّ التاء مهموزاً على مثال جئت، يعني: تهيّأتُ لك، وأنكره أبو عمرو [و] الكسائي، وقالا: لم يحكَ هذا عن العرب. والأول هو المعروف عند العرب.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني النبيّ ﷺ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز معناها: تعالَ. وقال عكرمة: هي أيضاً بالحورانية هلمّ. وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حثّ وإقبال على الشيء. قال أبو عبيدة: إن العرب لا تثني ﴿هَيْتَ﴾ ولا تجمع ولا تؤنث وإنها بصورة واحدة في كل حال. ﴿قَالَ﴾ يوسف لها عند ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾، يريد أن زوجك قطفير سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أي: أكرم منزلي هذا قول أكثر المفسّرين. وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى يريد أن الله تعالى ربّي أحسن مثوايَ، أي آواني ومن بلاء الجب عافاني. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ﴾، يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون. وقيل: لا يفلح الظالمون أي لا يسعد الزناة.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾، والهمُّ هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا، وأمّا همُّه: فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخاتن. وعن مجاهد قال: حلّ سراويله وجعل يعالج ثيابه. وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن. وقال الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما. قال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: قد أنكر قوم هذا

القول، والقول ما قال متقدمو هذه الأمّة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء عليهم السلام من غير علم. وقال السدي وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوّقه إلى نفسها، فقالت: يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما ينتثر من جسدي، قالت: ما أحسن عينيك، قال: هي أول ما تسيل على وجهي في قبري، قالت: ما أحسن وجهك، قال: هو للتراب يأكله، وقيل: إنها قالت إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقضِ حاجتي، قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنّة، فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذّة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها مما يرى من كلفها به، وهمّ بها، ثم إن الله تعالىٰ تدارك عبده ونبيّه بالبرهان الذي ذكره وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السّلام، وقال: تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السّلام فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، [على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه] لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم، وأنكره النحاة، وقالوا: إن العرب لا تُؤخّر لولا عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهو يريد لولا زيد لَقُمْتُ. وقيل: همت بيوسف أن يفترشها، وهمّ بها يوسف أي: تمنّى أن تكون له زوجة. وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعلم. وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر، والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السّلام. ورُوي أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرّت المرأة، قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]، قال له جبريل: ولا حين هممتَ بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال الحسن البصري: إن الله تعالىٰ لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليعيّرهم، ولكن ذكرها ليبيّن موضع النعمة عليهم، ولئلا ييأس أحد من رحمته. وقيل: إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرّد بالطهارة والعزّة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية. وقيل: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو. وقال بعض أهل الحقائق: الهمّ همّان، همّ ثابتٌ وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل هم امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمّ عارضٌ وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مؤاخذ به ما لم يتكلّم أو يعمل.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي، ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السّلمي، ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر عن همام بن منبه قال: حدّثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزّ وجلّ: إذا تحدّث عبدي بأنّ يعملَ حَسنةً فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدّث بأن يعمل سيّئة فأنا أغفرها ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، اختلفوا في ذلك البرهان، قال قتادة وأكثر المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب وهو يقول له: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال السدي: نُودي يا يوسف تواقعها وإنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق ومثلك إن واقعتها مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه.

عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، قال: حلّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته فإذا بكف قد

بدت بينهما بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهرت تلك الكف مكتوباً عليها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهر فرأى تلك الكف مكتوباً عليها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عزّ وجلّ لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل عليه السلام عاضاً على أصبعه، يقول: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في [ديوان] الأنبياء. ورُوي أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله.

وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ بها فرأى مكتوباً في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وروى عطية عن ابن عباس: في البرهان أنه رأى مثال الملك.

وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: البرهان النبوّة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عزّ وجلّ.

وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف: لِمَ فعلتِ هذا؟ فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية، فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحق أن أستحي من ربّي الذي هو يسمع ويبصر ويفقه ثم تولّى عنها هارباً. قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، جواب لولا محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لواقع المعصية. ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، فالسوءُ الإثم. وقيل: السوء القبيح والفحشاء: الزنا. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، قرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدّين، زاد الكوفيون ﴿مُخْلَصًا﴾ في سورة مريم [٥١] عليها السلام ففتحوا. ومعنى ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ المختارين للنبوّة. دليله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦]، وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلِصين لله بالطاعة والعبادة.

(٢٥) ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾، وذلك أن يوسف [عليه الصّلاة والسّلام] لمّا رأى البرهان قام مبادراً إلى باب البيت هارباً وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلّقت بقميصه [من] خلفه فجذبته إليها حتى لا يخرج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾، أي: فشقته ﴿مِن دُبُرٍ﴾، أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾، وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالساً مع ابن عم راعيل فلما رأته هابته و﴿وَقَالَتْ﴾ سابقة بالقول لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله [ولم تبلغ منه مأرباً]، فقالت: ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾، أي: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ضرب بالسّياط، فلما سمع يوسف مقالتها.

(٢٦) ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت منها. قيل: ما كان يريد يوسف أن يذكره، فلما قالت المرأة «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً» ذكره، فقال: هي راودتني عن نفسي. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وحكم حاكم، ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾، اختلفوا في ذلك الشاهد، فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبياً في المهد أنطقه الله عزّ وجلّ.

وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: «تكلّم في المهد أربعة وهم صغار، ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام».

وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة. وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً ذا رأي. قال السدي: هو ابن عمّ راعيل فحكم فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾، أي: من قدّام، ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾، قطفير، ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام،

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧)﴾

﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُ﴾، أي: هذا الصنيع، ﴿مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقيل: إن هذا من قول الشاهد، ثم أقبل قطفير على يوسف.

(٢٩) فقال: ﴿يُوسُفُ﴾، أي: يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، أي: عن هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع. وقيل: معناه لا تكترث به فقد بان عذرُك وبراءتُك، ثم قال لامرأته: ﴿وَاسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، أي: توبي إلى الله، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِـِٔينَ﴾، من المذنبين. وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل، أراد بقوله: واستغفري لذنبك، أي: سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِـِٔينَ﴾، من المذنبين حتى راودتِ شاباً عن نفسه وخنتِ زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات، لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمّن يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، بيانه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

(٣٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ﴾ الآية، يقول: شاع أمرُ يوسف والمرأة في المدينة مدينة مصر. وقيل: مدينة عين شمس، وتحدّث النساء بذلك وقلن وهنّ خمس نسوة، امرأة حاجب الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة صاحب السجن، قاله مقاتل. وقيل: هنّ نسوة من أشراف مصر، ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾، أي: عبدها الكنعاني، ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: تطلب من عبدها الفاحشة، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: علقها حباً. قال الكلبي: حجب حبّه قلبَها حتى لا تعقل سواه. وقيل: أحبّته حتى دخل حبه شغاف قلبها، أي: داخل قلبها. قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب. وقرأ الشعبي والأعرج: ﴿شَعَفَهَا﴾ بالعين غير المعجمة، معناه: ذهب الحب بها كل مذهب، ومنه شعف الجبال وهو رؤوسها. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: خطأ ظاهر. وقيل: [معناه] إنها تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر.

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾، راعيل، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾، بقولهنّ وحديثهن، قاله قتادة والسدي. وقال ابن إسحاق: إنما قلنَ ذلك مكراً بها لتريهن يوسف الذي سلبها العقل، وكان يوصف لهنّ حسنُه وجماله. وقيل: إنها أفشت لهن سرّها واستكتمتهن فأفشين ذلك، فلذلك سمّاه مكراً. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، قال وهب: اتّخذت [راعيل] مأدبة ودعت أربعين امرأة منهنّ هؤلاء اللاتي عيّرنها. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾، أي: أعدّت، ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾، أي: ما يتكأ عليه. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأ أي: طعاماً سمّاه متكأ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكؤون على الوسائد، فسمّي الطعام متكأ على الاستعارة. يقال: اتكأنا عند فلان، أي: طعمنا. ويقال: المتكأ ما اتّكأت عليه للشراب أو الحديث أو الطعام، ويقرأ في الشواذ «متْكاً» بسكون التاء. واختلفوا في معناه، فقال ابن عباس: هو الأترج. وقد روي عن مجاهد مثله. وقيل: هو الأترج بالحبشة. وقال الضحاك: هو الرباورد الزماورد. وقال عكرمة: هو كل شيء يقطع بالسكين. وقال أبو زيد الأنصاري: كل ما يجزّ بالسكين فهو عند العرب متك، والمتك والبتك بالميم والباء: القطع، فزيّنت المأدبة بألوان الفواكه والأطعمة،

ووضعت الوسائد ودعت النسوة. ﴿وَءَاتَتْ﴾، أعطت، ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، فكن يأكلن اللحم حزاً بالسكين. ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وذلك أنها كانت أجلسته في مجلس آخر، فخرج عليهن يوسف. قال عكرمة: كان فضل يوسف على سائر الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم.

ورُوي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسري بي إلى السماء [فإذا] يوسف كالقمر ليلة البدر».

قال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألأ وجهه على الجدران. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾، أعظمنه، قال أبو العالية: هالَهُنّ أمرُه وبُهتنَ. وقيل: أكبرنَه أي: حضن لأجله من جماله. ولا يصح. ﴿وَقَطَّعْنَ﴾، أي: حززن بالسكاكين التي معهن، ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف. قال مجاهد: فما أحسسن إلا بالدم. وقال قتادة: إنهنّ أبنّ أيديهنّ حتى ألقينها. والأصح [أنه] كان قطعاً بلا إبانة، وقال وهب: ماتت جماعة منهن. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، أي: معاذا الله أن يكون هذا بشراً، قرأ أبو عمر: [حاشى الله بإثبات الياء] في الوصل على الأصل، وقرأ الآخرون بحذف الياء لكثرة دورها في الألسن واتباعاً للكتاب. وقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، نصب بنزع حرف الصفة، أي: ليس هذا ببشر، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، أي: ما هذا، ﴿إِلَّا مَلَكٌ﴾، من الملائكة، ﴿كَرِيمٌ﴾، على الله تعالى.

(٣٢) ﴿قَالَتْ﴾، يعني: راعيل، ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، أي: في حبّه، ثم صرّحت بما فعلت، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، أي: فامتنع، وإنما صرّحت به لأنها علمت أن لا ملامة عليها منهنّ وقد أصابهنّ ما أصابها من رؤيته، فقلن له: أطع مولاتك. فقالت راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾، ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، أي: ليعاقبن بالحبس، ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، من الأذلاء. ونون التوكيد تثقل وتخفّف. فالوقف على قوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، بالنون لأنها مشددة، وعلى قوله: ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالألف لأنها مخففة، وهي شبيهة بنون الإعراب في الأسماء؛ كقوله: رأيت رجلاً، وإذا وقفت [قلت]: رأيت رجلاً بالألف، ومثله: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعّدته المرأة.

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، قيل: كان الدعاء منها خاصة، ولكنه أضاف إليهن خروجاً من التصريح إلى التعريض. وقيل: إنهنّ جميعاً دعونه إلى أنفسهن، قرأ يعقوب وحده: بفتح السين. وقرأ العامّة بكسرها واتّفقوا على كسر السين في قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ﴾ [يوسف: ٣٦]. وقيل: لو لم يقل السجن أحب إليّ لم يبتل بالسجن، والأولى بالمرء أن يسأل الله العافية. قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، أمل إليهن وأتابعهن، يقال: صبا فلان إلى كذا يصبوا صبواً وصُبوّاً وصُبوّةً إذا مال واشتاق إليه. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنباً يرتكبه عن جهالة.

(٣٤) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، السميع لدعائه العليم بمكرهنّ.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾، يعني: للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض. ثم بدا لهم أن يحبسوه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾، الدالّة على براءة يوسف من قدّ القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهنّ وذهاب عقولهن. ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، إلى مدّة يرون فيه رأيهم. وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة الناس. قال عكرمة: سبع سنين. وقال الكلبي: خمس سنين. قال السدي: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبدالعبراني قد فضحني في الناس يخبرهم أني راودتُه عن نفسه، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر إلى الناس، وأما أن تحبسه، فحبسهُ وذُكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف عليه السلام من همّه بالمرأة. قال ابن عباس: عثر يوسف [عليه الصّلاة والسّلام] ثلاث عثرات حين همّ بها فسجن، وحين قال اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة إنكم لسارقون، فقالوا:

إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل.

(٣٦) قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾، وهما غلامان كانا للريان بن الوليد بن شروان العمليقي ملك مصر الأكبر، أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما. وكان السبب فيه أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا لهذين مالاً ليسمّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم ثم إن الساقي نكل عنه، وقبل الخباز الرشوة فسمّ الطعام، فلما أحضروا الطعام والشراب، قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب [منه] فلم يضرّه، وقال للخباز: كل من الطعام، فأبى فجرب ذلك الطعام على دابّة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه [على من في السجن]، ويقول: إني أعبّر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ فلنجرب هذا العبراني، فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً، [قال ابن مسعود: ما رأيا شيئاً] وإنّما تحالَما ليجربَا يوسف [فيما يقول]، وقال قوم: بل كانا رأيا حقيقة، فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما، وقد رأيا رؤياً قد غمّتهما، فقال يوسف: قُصّا عليّ ما رأيتُما، فقصّا عليه فـ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾، أي: عنباً سمّي العنب خمراً باسم ما يؤول إليه، كما يقال: فلان يطبخ الآجر، أي: يطبخ اللَّبن للآجر. وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وذلك أنه قال إني رأيتُ كأني في بستان، فإذا أنا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه. ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾، وهو الخباز: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾، وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز والألوان من الأطعمة وسباع الطير ينهشن وينهبن منه. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾، أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: العالِمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى العلم. ورُوي أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه [بالتعهد]، وإذا ضاق عليه المجلس وسع له وإذا احتاج إلى شيء جمع له شيئاً، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصّلاة. وقيل: إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً قد اشتدّ بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يُسلّيهم وجعل يقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، فيقولون: بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك، لقد بورك لنا في جوارك فمنَ أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: يا فتى والله لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن سأحسن جوارك [تسكن في أيّ البيوت من السجن شئت]. ورُوي أن الفتيين لمّا رأيا يوسف قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبّني أحدٌ قط إلاّ دخل عليّ من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ بلاء، ثم أحبني أبي فألقيت في الجبّ، وأحبّتني امرأة العزيز فحبست، فلما قصّا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبّر لهما ما سألاه لِمَا علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد.

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾، قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما، ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾، في اليقظة، وقيل: أراد به في اليقظة يقول: لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه تُطعمانه وتأكلانه إلاّ نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما، ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾، قبل أن يصل إليكُما، وأيّ طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم، فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فقالا: هذا فعل العرّافين والكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

وإنما ﴿ذَٰلِكُمَا﴾، العلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وتكرار ﴿هُمْ﴾ على التأكيد.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾، أظهر أنه من أولاد الأنبياء، ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾، ما ينبغي لنا، ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾، معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك، ﴿ذَٰلِكَ﴾، التوحيد والعلم، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، بما بيّن لهم من الهدى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿٣٩﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾، جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما قال لسكان الجنّة: أصحاب الجنة، ولسكان النار: أصحاب النار، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾، أي: آلهة شتّى هذا من ذهب وهذا من فضّة، وهذا من حديد، وهذا أعلى، وهذا أوسط، وهذا أدنى، متباينون لا تضرّ ولا تنفع، ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، الذي لا ثاني له، القهار: الغالب على الكل، ثم بيّن عجز الأصنام فقال:

﴿٤٠﴾ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: من دون الله، وإنما ذُكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للاثنين لأنه أراد جميعَ أهل السجن، وكلّ من هو على [مثل حالهما من أهل الشرك]، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، آلهة وأرباباً خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾، حجّة وبرهان، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾، ما القضاء والأمر والنهي، ﴿إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم فسّر رؤياهما، فقال:

﴿٤١﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾، يعني الملك، ﴿خَمْرًاۖ﴾، والعناقيد الثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة أيام، ويردّه إلى منزلته التي كان عليها، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾، يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسلال الثلاث الثلاثة أيام يبقى في السجن، ثم يخرجه فيأمر به، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ﴾، قال ابن مسعود: لمّا سمِعَا قولَ يوسفَ [عليه الصّلاة والسّلام ذلك لهم] قالا: ما رأينا شيئاً إنّما كنّا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي: فُرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتُكما به، رأيتُما أو لم ترَيا.

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَالَ﴾، يعني: يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾، [أي]: علم ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، وهو الساقي، ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، يعني: سيدك الملك، وقل له إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً طال حبسه، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، قيل: أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه. وقال ابن عباس وعليه الأكثرون: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه حين ابتغى الفرج، من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان. ﴿فَلَبِثَ﴾، فمكث، ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، واختلفوا في معنى البضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع. وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع. وقال ابن عباس: ما دون العشرة. وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة. وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعذب بختنصر فحول في السباع سبع سنين. قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

٢٤١

اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلنَّ حبسَك، فبكى يوسف، وقال: يا ربّ أنسي قلبي كثرة البلوى فقلتُ كلمةً ولن أعود. وقال الحسن: دخل جبريل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر [يا بن] الطاهرين يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين، ويقول لك: أما استحييت مني أن استشفعت بالآدميين، فوعزّتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين، فقال يوسف: وهو في ذلك عنّي راضٍ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالي.

وقال كعب: قال جبريل ليوسف: إن الله تعالى يقول من خلقك؟ قال: الله، قال: فمن حبّبكَ إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمن نجّاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علّمك تأويلَ الرؤيا؟ قال: الله، قال: فمن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟ فلما انقضت سبع سنين. قال الكلبي: فهذه السبع سوى الخمس التي كانت قبل ذلك، ودنا فرجُ يوسف فرأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجت من البحر ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان فدخلن في بطونهن، فلم ير منهن شيءٌ ولم يتبيّن على العجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها وسبعاً أخرى يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من خضرتها شيء، فجمع السّحرة والكهنة والحازّة والمعبّرين وقصّ عليهم رؤياه.

﴿٤٣﴾ فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ﴾، ثم قال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة [أهاويل] واحدها ضغث، وأصله الحزمة من أنواع الحشيش، والأحلام جمع الحلم، وهو الرؤيا، والفعل منه [أحلم] بفتح اللام في الماضي وضمّها في الغابر حلماً وحلماً، مثقلاً ومخففاً. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾، من القتل، ﴿مِنْهُمَا﴾، من الفتيين وهو الساقي، ﴿وَٱدَّكَرَ﴾، أي: تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أي: بعد حين وهو سبع سنين، ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، وذلك أن الغلام [الساقي] جثا بين يدي الملك، وقال: [أيها الملك] إن في السجن رجلاً يعبّر الرؤيا، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله فأتى السجن. قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

﴿٤٦﴾ فقال: ﴿يُوسُفُ﴾، يعني: يا يوسف، ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾، والصديق الكثير الصدق، ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾، فإن الملك رأى هذه الرؤيا، ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾، أهل مصر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، تأويل الرؤيا. وقيل: لعلّهم يعلمون منزلتك في العلم، فقال لهم يوسف معبّراً ومعلماً: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات [اليابسات]، فالسنون المجدبة، فذلك قوله تعالى إخباراً عن يوسف.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة، والدأب: العادة. وقيل: بجدٍّ واجتهاد. وقرأ عاصم برواية حفص: ﴿دَأَبًا﴾، بفتح الهمزة، وهما لغتان،

يقال: دأبت في الأمر أداب دأباً ودأباً إذا اجتهدت فيه. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، أمرهم بترك الحنطة في السنبلة لتكون أبقى على [طول] الزمان ولا تفسد، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أي: تدرسون قليلاً للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾، سمّى السنين المجدبة شداداً لشدّتها على الناس، ﴿يَأْكُلْنَ﴾، أي: يفنين ويُهلكن، ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، أي: يؤكل فيهنّ ما أعددتم لهنّ من الطعام أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسّع، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، تُحرِزُونَ وتدخّرون للبذر.

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: يمطرون من الغيث، وهو المطر. وقيل: ينقذون من قول العرب استغثت فلاناً فأغاثني، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿تعصرون﴾، بالتاء لأن الكلام كلّه على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء رداً إلى الناس، ومعناه: يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً وأراد به كثرة النعم والخير. وقال أبو عبيدة: ﴿يَعْصِرُونَ﴾، أي: ينجون من الكرب والجدب [الذي كانوا فيه]، والعصر: النجاة والملجأ.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾، وقال له: أجب الملك أبى أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم، ﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، يعني: سيدك الملك، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً.

قال النبيّ ﷺ: «لو لبثتُ في السجن طول ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي».

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، أي: إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهن بعد طول المدّة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة، ويصير إليه بعدَ زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ﴾ لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾، ما شأنكن وأمركن، ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، خاطبهن والمراد امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن جميعاً، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾، معاذ الله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، خيانة، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر وتبيّن. وقيل: إن النّسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها فأقرّت، وقيل: خافت أن يشهدن عليها فأقرّت وقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال:

﴿٥٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك إليه، ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز، ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾، في زوجته، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: في حال غيبته، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من كلام يوسف اتّصل بقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ من غير تميز لمعرفة السامعين. وقيل: فيه تقديم وتأخير، معناه: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النّسوة اللاتي قطّعن أيديَهنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليمٌ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، قيل: لما قال يوسف هذه المقالة، قال له جبريل عليه السلام: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف عند ذلك: وما أبرىء نفسي. وقال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف؟، فقال يوسف [عند ذلك]:

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾، من

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾

٢٤٢

الخطأ والزلل فأزكيها، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، بالمعصية ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾، أي: إلا من رحم ربي فعصمه، و﴿ما﴾ بمعنى من؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]، أي: مَنْ طاب لكم، وهم الملائكة، عصمهم الله عزّ وجلّ فلم يركبْ فيهم الشهوة. وقيل: إلاّ ما رحم ربي إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان. ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلما تبيّن للملك عذر يوسف عليه السلام وعرف أمانته وعلمه.

﴿٥٤﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾، أي: أجعله خالصاً لنفسي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾، فيه اختصار تقديره: فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملك الآن.

رُوي أنه قام ودعا لأهل السجن فقال: اللّهمّ عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء، ثم اغتسل وتنظّف من درن السجن ولبس ثياباً حساناً وقصد الملك. قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عزّ جارُه وجلّ ثناؤه ولا إله غيره، فلما نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان آبائي ولم يعرف الملك هذين اللسانين. قال وهب: وكان الملك يتكلّم بسبعين لساناً، فكلما تكلّم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك ما رأى منه مع حداثة سنه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأجلسه و﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾، المكانة في الجاه، ﴿أَمِينٌ﴾، أي: صادق.

ورُوي أنّ الملك قال له: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فقال له يوسف: نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غرّ حِسَانٍ، كشفَ لك عنهنَّ النيلُ فطلعنَ عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً فبينما أنت تنظر إليهن ويعجبك حُسنهنّ إذ نضبَ النيلُ فغار ماؤه وبدا يبسه، فخرج من حمأته سبع بقراتٍ عجافٍ شُعثٍ غُبرٍ متقلصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف، ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فافترسن السمان افتراس السبع فأكلن لحومهن ومزّقنَ جلودهنّ، وحطمنَ عظامهنّ وتمششن مخهن، فبينما أنت تنظر وتتعجّب إذا سبع سنابل خضر وسبع أخر [يابسات] سود في منبت واحد عروقهن في الثرى [والماء فبينما أنت تقول في نفسك أي شيء هؤلاء؟ خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات]، والمنبت واحد وأصولهنّ في الماء، أذهبتْ ريحٌ فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار، فأحرقتهن فصرن سوداً فهذا ما رأيت؟ ثم انتبهتَ من نومك مذعوراً، فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجيبة بأعجب مما سمعت منك، فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟ فقال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله ليكون القصب والسنبل عَلَفاً للدواب والحبُّ طعاماً للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخُمسَ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من [سائر] النواحي للميرة فتبيع منهم الطعام وتأخذ ثمنه فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد [قبلك]، فقال الملك: ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟

﴿٥٥﴾ فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، الخزائن: جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض أرض مصر، أي: خزائن أرضك. [وقال الربيع بن أنس: أي] على خراج مصر ودخله، ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، أي: حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ عليم، أي: كاتب حاسب. وقيل: حفيظ لما استودعتني عليم بما ولّيتني. وقيل: حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتيني. وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين الخصبة في الأرض الجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع [في الأرض الجدب]، فقال له الملك: ومن أحقّ به منك؟! فولاّه ذلك وقال له: إنك

اليوم لدينا مكين، ذو مكانة ومنزلة، أمين على الخزائن.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الفنجوي، ثنا مخلد بن جعفر الباقرجي، ثنا الحسن بن علوية، ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنّه أخّره لذلك سنة فأقام في بيته سنة مع الملك».

[قال]: وبإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه وقلّده بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حلّة من استبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع عليه ثلاثون فراشاً وستون مقرمة، ثم أمره أن يخرج متوجّاً ولونه كالثلج ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه فانطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عمّا كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن إسحاق، وقال ابن زيد: وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذاً، قالوا: ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي فزوّج الملك يوسف راعيل امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين مني؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وجمالك وهيئتك فغلبتني نفسي وقويت عليّ شهوتي ولم أتمالك عقلي في محبتي فيك، فقرب منها يوسف فوجدها عذراء فأصابها فولدت له ولدين أفرائيم وميشا ابني يوسف. واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم العدل وأحبّه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٥٦)، يعني: أرض مصر ملكّناه، ﴿يَتَبَوَّأُ﴾، أي: ينزل أيّ ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، ويصنع فيها ما يشاء. قرأ ابن كثير وحده: ﴿نشاء﴾ بالنون رداً على قوله: ﴿مَكَّنَّا﴾، وقرأ الآخرون بالياء رداً على قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ﴾. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾، أي: بنعمتنا، ﴿مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين. قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطّف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس، فهذا في أمر الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ (٥٧)، ثواب الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فلما اطمأنّ يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله. ورُوي أنه كان قد دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار، فلما دخلت سنة القحط كان أول من أخذه الجوع هو الملك في نصف اللّيل فنادى يا يوسف الجوع [الجوع]، فقال يوسف: هذا أوان القحط، ففي السنة الأولى من سني الجدب هلك كل شيء أعدّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم في أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق [بمصر] في يد أحد عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها [أجمع]، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقّهم، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى استرقّهم، ولم يبق بمصر حرّ ولا حرّة إلا صار عبداً له، فقال الناس: ما رأينا يوماً كاليوم ملكاً أجلّ ولا أعظم من هذا، ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي فيما خولني فما ترى في ذلك؟ قال الملك: الرأي رأيك والأمر إليك ونحن لك تبع، قال:

فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددتُ عليهم أملاكهم. وروي أن يوسف كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام، فقيل له: تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف عليه السلام طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار. قال: وقصد الناسُ مصرَ من كل أوبٍ يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحداً منهم، وإن كان عظيماً أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، وتزاحم الناس عليه فأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدّة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس [من الضيق والجهد في المعيشة]، فأرسل بنيه إلى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه.

(٥٨) فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾، وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بنيّ بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهّزوا واذهبُوا [إليه] لِتَشْتَرُوا منه الطعام، فأرسلهم فقدمُوا مصرَ، ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، على يوسف، ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾، يوسف عليه السلام. قال ابن عباس ومجاهد: عرفهم بأول ما نظر إليهم، وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرّفوا إليه، ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: لم يعرفوه. قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه. وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك. وقيل: لأنه كان بزي ملوك مصر عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب، فلما نظر إليهم يوسف وكلّموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاةٌ أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلّكم جئتم تنظرون عورة بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس إنّما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق يقال له: يعقوب نبيّ من أنبياء الله، فقال: وكم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبّنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم هٰهنا؟ قالوا: عشرة، قال: وأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلّى به، فقال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق وصدق؟ قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد من أهلها، فقال لهم يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك، قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم الذي من أبيكم، فاقترعوا [حينها] [على من يَدَعوه عنده] بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلّفوه عنده. فذلك قوله عزّ وجلّ:

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: حمل لكل واحد بعيراً بعدتهم، ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، يعني: بنيامين، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾، أي: أُتمّه ولا أبخس الناس شيئاً فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم، ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، قال مجاهد: أي خير المضيفين. وكان قد أحسن ضيافتهم.

(٦٠) ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، أي: ليس لكم عندي طعام أكيله، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، أي: لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك، وهو جزم على النهي.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، ما أمرتنا به.

(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾، بالألف والنون، وقرأ الباقون: «لفتيته» بالتاء من غير ألف، يريد غلمانه، وهما لغتان مثل الصبيان والصبية، ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾، [أي]: ثمن طعامهم وكانت دراهم. وقال الضحاك عن ابن عباس: كانت النعال والأدم. وقيل: كانت ثمانية جرب من سويق المقل. والأول أصح ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾، [أي]: أوعيتهم، وهي جمع رحل، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾، انصرفوا، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يريهم كرمه في ردّ البضاعة وتقديم الضمان في البرّ

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود لعلّهم يعرفونها أي كرامتهم علينا. وقيل: رأى لؤماً [في] أخذ [ثمن] الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرّماً. وقال الكلبي: تخوّف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى. وقيل: فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة نفياً للغلط ولا يستحلّون إمساكها.

﴿٦٣﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا﴾، إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرؤوه مني السلام، قولوا له: إنّ أبانا يصلّي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة، فقال لهم: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال أنتم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية، وقصّوا عليه القصة، وقالوا: يا أبانا ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، قال الحسن: معناه يمنع منّا الكيل إن لم تحمل أخانا معنا. وقيل: معناه أعطى باسم كل واحد منا حملاً ويمنع منا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل الطعام لأنه كان يكال، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين، ﴿نَكْتَلْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿يكتل﴾ بالياء، يعني: يكيل لنفسه كما نحن نكتال، وقرأ الآخرون: ﴿نَكْتَلْ﴾ بالنون، يعني: نكتل وهو الطعام. وقيل: نكتل له، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾، يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿حَـٰفِظًا﴾ بالألف على التفسير، كما يقال هو خير رجلاً، وقرأ الآخرون: ﴿حفظاً﴾ بغير ألف على المصدر، يعني: خيركم حفظاً، يقول: حفظه خير من حفظكم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ﴾، الذي حملوه من مصر، ﴿وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾، [أي]: ثمن الطعام، ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾، أي: ماذا نبغي وأي شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام إحسان الملك إليهم وحثّوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع وجدوا البضاعة، قالوا: يا أبانا ما نبغي، ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي: شيء نطلب بالكلام فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أوفى لنا الكيل وردّ علينا الثمن، أرادوا تطييب نفس أبيهم، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم. يقال: مار أهله يمير ميراً إذا حمل إليهم الطعام من بلد إلى بلدٍ آخر. ومثله امتار يمتار امتياراً. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين، أي: مما تخاف عليه.

﴿وَنَزْدَادُ﴾، على أحمالنا، ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، أي: حمل بعير يكال لنا من أجله، لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير، ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، أي: ما حملنا قليل لا يكفينا وأهلنا. وقيل: معناه ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير لا مؤنة فيه ولا مشقّة. وقال مجاهد: البعير ها هنا الحمار كيل بعير، أي: حمل حمار، وهي لغة، يقال للحمار: بعير. وهم كانوا أصحاب حمر. والأول أصح [أنه البعير المعروف].

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾، أي: ميثاقاً وعهداً، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والعهد الموثق: المؤكّد بالقسم. وقيل: المؤكّد بإشهاد الله على نفسه، ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾، وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين، ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، قال مجاهد:

إلاّ أن تهلكوا جميعاً. وقال قتادة: إلاّ أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. وفي القصة: أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا شدّ الجهد، فلم يجد يعقوب بداً من إرسال بنيامين معهم. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾، أعطوه عهودهم، ﴿قَالَ﴾، يعني: يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، شاهد. وقيل: حافظ. قال كعب: لما قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال الله عزّ وجلّ: وعزّتي [وجلالي] لأردنّ عليك كليهما بعدما توكّلت عليّ.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالَ﴾ له يعقوب: لمّا أرادوا الخروج من عنده، ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، وذلك أنه خاف عليهم [من] العين لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوّة وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرّقوا في دخولهم لئلا يصابوا بالعين، فإن العين حق.

وجاء في الأثر: «إنّ العينَ تُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ».

وعن إبراهيم النخعي أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرّق. والأول أصح. ثم قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرّقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع عن القدر، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾، ما الحكم، ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾، هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدتُ، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أي: من الأبواب المتفرّقة. وقيل: كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى﴾، يدفع ﴿عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، صدقَ اللَّهُ تعالى يعقوبَ فيما قال، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾، مراداً، ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾، يعني: كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، أي: لتعليمنا إيّاه. وقيل: إنه لعامل بما علم. قال سفيان: من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً. وقيل: إنه لذو حفظ لِمَا علّمناه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. قال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه.

﴿٦٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم فأكرم منزلتهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً فأجلسه معه على مائدته فجعل يُواكله فلمّا كان الليل أمر لهم بمثل [ذلك]، وقال [لهم]: لينم كل أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح، قال لهم: إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمّه إليّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأمه [معه]، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، أي: ضمّ إليه أخاه فلما خلا به قال [له]: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لما ولد هلكت أمه قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل، قال: راحيل بنتُ مَن؟ قال: راحيل بنت لاوى، قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، قال: فهل لك من أخ لأمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه، وقال [له]: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، أي: لا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالىٰ قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم شيئاً مما أعلمتك، ثم أوفي يوسف لإخوته الكيل وحمل لهم بعيراً بعيراً ولبنياميين بعيراً باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين.

قال السدي: جعل السقاية في رحل أخيه، والأخ لا يشعر، وقال كعب: لما قال له يوسف: إني أنا

الجزء الثالث عشر　　سورة يوسف

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

٢٤٤

أخوك، قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال [له] يوسف: قد علمت اغتمام والدي بي وإذا حبستك ازداد غمّه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمد، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقكَ، قال: فإني أدسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة ليهيّأ لي ردّك بعد تسريحك، قال: فافعل كما تريد.

﴿٧٠﴾ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها. قال ابن عباس: كانت من زبرجد. وقال ابن إسحاق: كانت من فضة. وقيل: من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر، وجعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها، وكان يشرب منها. والسقاية والصواع واحد، فجعلت في وعاء طعام [أخيه] بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً. وقيل: حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث من خلفهم مَن استوقفهم وحبسهم. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، نادى منادٍ، ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾، وهي القافلة التي فيها الأحمال. قال مجاهد: كانت العير حميراً. قال الفراء: كانوا أصحاب إبل. ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، قفوا. قيل قالوه من غير أمر يوسف. وقيل: قالوه بأمره، وكان هفوة منه. وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، فلما انتهى إليهم الرسول، قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، قالوا: وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا نتّهِمُ عليها غيركم.

﴿٧١﴾ فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾، عطفوا على المؤذن وأصحابه، ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، ما الذي ضلّ عنكم. والفقدان: ضدّ الوجد.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، من الطعام، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، كفيل، يقوله المؤذن.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوا۟﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿تَٱللَّهِ﴾، أي: والله، خصّت هذه الكلمة بأن أُبدلت الواو فيها بالتاء في اليمين دون سائر أسماء الله تعالىٰ. ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لنسرق في أرض مصر، فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟ قيل: قالوا قد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإنا منذ قطعنا هذا الطريق لم نرزأ أحداً شيئاً فاسألوا عنّا من مررنا به، هل ضررنا أحداً. وقيل: لأنهم ردّوا البضاعة التي جعلت في رحالهم، قالوا: فلو كنّا سارقين ما رددناها. وقيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمّموا أفواه دوابّهم كيلا تتناول شيئاً من حروث الناس، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿قَالُوا۟﴾، يعني: المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾، يعني: ما جزاء السارق، ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾، في قولكم: ما كنا سارقين.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالُوا۟﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ﴾، أي: فالسارق جزاؤه أن يسلم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقّه سنة، وكان ذلك سنّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان [في] حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فردّ الحكم إليهم ليتمكّن من حبسه عنده على حكمهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير، فقال الرسول عند ذلك: لا بدّ

من تفتيش أمتعتكم، فأخذ في تفتيشها. ورُوي أنه ردّهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه [واحداً واحداً].

(٧٦) [﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾، لإزالة التهمة، ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، فكان يفتش أوعيتهم واحداً واحداً]. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلاّ استغفر الله تأثماً مما قذفهم به حتى إذا لم يبقَ إلاّ رحل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، وإنما أنّث الكناية في قوله: ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾، والصُّوَاع مذكر، بدليل قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]، لأنه ردّ الكناية هٰهنا إلى السقاية. وقيل: الصواع يذكّر ويؤنّث، فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا بني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء متى أخذت هذا الصواع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية والله قد وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فأخذوا بنيامين رقيقاً. وقيل: إن ذلك الرجل أخذه برقبته وردّه إلى يوسف كما يرد السراق، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، والكيد هٰهنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم. وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، فكدنا ليوسف في أمرهم. والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله: التدبير بالحق. وقيل: كدنا ألهمنا. وقيل: دبرنا. وقيل: أردنا. ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضمّ أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته [وذلك قوله]: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾، فيضمّه إلى نفسه، ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، أي: في حكمه. قال قتادة وقال ابن عباس: في سلطانه. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني: إن يوسف لم يكن يتمكّن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كِدْنَا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجري على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالىٰ. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته. وقرأ يعقوب «يرفع» و «يشاء» بالياء فيهما، [وإضافة ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ إلى ﴿مَّن﴾ في هذه السورة. والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالىٰ. وقد تقدم ذكره في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: يرفع الله درجات من يشاء. وقرأ الباقون بالنون فيهما، إلاّ أن الكوفيين قرؤوا: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالتنوين، ومَنْ سواهم بالإضافة، أي: نرفع به نحن، الواقع أيضاً هو الله تعالىٰ]. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ فوق كل عالم.

(٧٧) ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، يريدون أخاً له من أمه يعنون به يوسف، واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف [عليه السلام]، فقال سعيد بن جبير وقتادة: كان لجده، أبي أمه، صنم يعبده فأخذه سرّاً، كسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد. وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت فناولها السائل. وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً. وقال وهب: كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء.

وذكر محمد بن إسحاق: أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل، فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً، فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه، فأتاها وقال: يا أختاه سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت: لا والله، فقال: والله ما أنا بتاركه، فقالت: دعه عندي أياماً أنظر إليه لعلّ ذلك يسليني عنه، ففعل ذلك فعمدت [عمته] إلى منطقة لإسحاق كانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت عندها لأنها كانت أكبر ولد إسحاق، فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لَسَلَمٌ لي، فقال يعقوب: إن كان فعل ذلك

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

فهو سلم لك، فأمسكتهُ حتى ماتت، فذلك الذي قال إخوة يوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، ﴿فَأَسَرَّهَا﴾، أضمرها ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، وإنما أنت الكناية لأنه عَنَا بها الكلمة وهي قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، ذكرها سراً في نفسه ولم يصرح بها، يريد أنتم شر مكاناً أي منزلاً عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف، لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتكم حقيقة، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، تقولون.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، وفي القصة أنهم غضبوا غضباً شديداً لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسّه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه. وقيل: كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب. ورُوي أنه قال لإخوته: كم عدد الأسواق بمصر؟ فقالوا: عشرة، فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل: لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلاّ ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابن له صغير: قم إلى جنب روبيل فمسّه. ورُوي: خذ بيده فأتني به، فذهب الغلام فمسّه فسكن غضبه. فقال روبيل: إن ها هنا لبذراً من بذر يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟ ورُوي أنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض وقال: أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشدّ منكم؟ فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلّوا وقالوا: يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يحبّه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، بدلاً منه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، في أفعالك.

وقيل: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة وردّ البضاعة. وقيل: يعنون: إن فعلت ذلك كنت من المحسنين.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، أعوذ بالله، ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل إلا من سرق تحرّزاً من الكذب، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾، إن أخذنا بريئاً بمجرم.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾، أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه. وقال أبو عبيدة: استيأسوا استيقنوا أن الأخ لا يُردّ إليهم. ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، أي: خَلاَ بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم. والنجيّ يصلح للجماعة كما قال هٰهنا ويصلح للواحد كقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتاً كالعدل والزور، ومثله النجوى يكون اسماً ومصدراً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧]، أي: متناجون. وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال في المصدر: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة: ١٠]. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، يعني: في العقل والعلم لا في السن. قال ابن عباس والكلبي: هو يهوذا وهو أعقلهم. وقال مجاهد: هو شمعون، وكانت له الرئاسة على إخوته. وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل، وكان أكبرهم في السن، وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾، عهداً، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾، قصّرتم ﴿فِى يُوسُفَ﴾، واختلفوا في محل ﴿مَا﴾، قيل: هو نصب بإيقاع العلم عليه، يعني: ألم

تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف. وقيل: وهو في محل رفع على الابتداء وتمّ الكلام عند قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾، هذا تفريطكم في يوسف. وقيل: ﴿ما﴾ صلة، أي: ومن قبل هذا فرطتم في يوسف، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، التي أنا بها وهي [أرض] مصر، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾، بالخروج منها يدعوني، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾، بردّ أخي إليّ أو بخروجي وترك أخي. وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأستردّ أخي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أعدل من فصل بين الناس.

﴿٨١﴾ ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾، يقول الأخ المحتبس بمصر لإخوته ارجعوا إلى أبيكم، ﴿فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ﴾، بنيامين، ﴿سَرَقَ﴾، وقرأ ابن عباس والضحاك [سُرِّق] بضم السين وكسر الراء وتشديدها، يعني: نُسب إلى السرقة، كما يقال خوّنته أي نسبته إلى الخيانة، ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، يعني: ما قلنا هذا إلاّ بما علمنا فإنّا رأينا إخراج الصاع من متاعه. وقيل: معناه وما شهدنا إلاّ بما علمنا أي ما كانت منّا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمنا، وليست هذه شهادة منّا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم. وقيل: قال لهم يعقوب عليهم السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يُؤخذ بسرقته إلاّ بقولكم، فقالوا: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلاّ بما علمنا، وكان الحكم ذلك عند يعقوب وبنيه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، قال مجاهد وقتادة: ما كنّا نعلم إن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه عنه سبيل. وعن ابن عباس: ما كنّا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين. وقال عكرمة: وما كنا للغيب حافظين فلعلها دُسّت بالليل في رحله.

﴿٨٢﴾ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾، أي: أهلَ القرية وهي مصر. قال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر. ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، أي: القافلة التي كنّا فيها. وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب. قال ابن إسحاق: عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لِما كانوا صنعوا في أمر يوسف فأمرهم أن يقولوا هذه المقالة لأبيهم، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبر بمكانه وحبس أخاه مع علمه بشدّة وجد أبيه عليه؟ وقيل: معنى العقوق: قطيعة الرحم وقلّة الشفقة؟ قيل: قد أكثر الناس فيه [من الأقوال]. والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالىٰ، وأمره به ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين. وقيل: إنه لم يظهر نفسه لإخوته لأنه لم يأمن أن يدبّروا في أمره تدبيراً فيكتموه عن أبيه، والأول أصح.

﴿٨٣﴾ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾، زيّنت، ﴿أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، فيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾، يعني: يوسف وبنيامين وأخاهم المقيم بمصر، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾، بحزني ووجدي على فقدهم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، في تدبير خلقه.

﴿٨٤﴾ قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، وذلك أن يعقوب عليه السلام لمّا بلغه خبر بنيامين فقام حزنه وبلغ جهده، وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾، يا حزناه، ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، والأسفُ أشدُّ الحزن، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾، يعني: عُمي بصره. قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه. قال قتادة: تردّد حزنه في جوفه ولم يقل إلاّ خيراً. وقال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً لا تجفّ عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب [عليه الصّلاة والسّلام].

﴿٨٥﴾ ﴿قَالُوا۟﴾، يعني: أولاد يعقوب، ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه، يقال: ما فتىء يفعل كذا، أي: ما زال يفعل، و﴿لا﴾ محذوفه من قوله: ﴿تَفْتَؤُا۟﴾، يقال: ما فتىء يفعل كذا، أي: ما زال؛ كقول امرىء القيس:

فقلتُ يمينُ اللّه أبرح قائماً
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي: لا أبرح. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، قال ابن عباس: دفناً. قال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريباً من الموت. وقال ابن إسحاق: فاسداً لا عقل لك، والحرض: الذي فسد جسمه وعقله. وقيل: ذائباً من الهمّ. ومعنى الآية: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل. وأصل الحرض: الفساد في الجسم، والعقل من الحزن أو الهرم، أو العشق أو الهمّ، يقال: رجل حرض وامرأة حرض، ورجلان وامرأتان حرض، ورجال ونساء كذلك، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكّر والمؤنث، لأنه مصدر وُضع موضع [الحال و] الاسم. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾، أي: من الميّتين.

(٨٦) ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك لما رأى غِلظتهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والبث أشدّ الحزن، سمّي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثّه أي يظهره، وقال الحسن: بثي أي: حاجتي. يروى أنه دخل على يعقوب جارٌ له فقال [له]: يا يعقوب ما الذي غيّر حالك ما لي أراك قد تهشّمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا ربّ خطيئة أخطأتها فاغفرها لي، فقال: قد غفرتها لك، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، ورُوي أنه قيل له: يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ فقال: أذهب بصري بكائي على يوسف، وقوّس ظهري حزني على أخيه؟ فأوحى الله إليه: أتشكوني فوعزّتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني، فعند ذلك قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي لو كانا ميّتين لأخرجتهما لك، وإنّما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة، فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيء، وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع إليه المساكين، فصنع طعاماً ثم قال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب. ورُوي أنه كان بعد ذلك إذا تغدّى أمر من ينادي: من أراد الغداء فليأتِ يعقوب، وإذا أفطر أمر من ينادي: من أراد أن يفطر فليأت يعقوب: فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وعن وهب بن منبه قال: لما أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لِمَ عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا [يا إلهي قال]: لأنك قد شويت عناقاً وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه.

ورُوي: أن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه وهي تخور.

وقال وهب والسدي وغيرهما: أتى جبريل إلى يوسف في السجن فقال [له]: هل تعرفني أيها الصديق؟ قال: أرى صورة طاهرة وريحاً طيبة، قال: إني رسول ربّ العالمين وأنا الروح الأمين، قال: فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيّبين ورأس المقرّبين وأمين رب العالمين؟ قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالىٰ يطهّر البيوت بطهر النبيّين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأراضين، وأن الله تعالىٰ قد طهّر بك السجن وما حوله يا طاهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: كيف لي باسم الصديقين وتعدّني من المخلصين الطاهرين، وقد أدخلت مدخل المذنبين وسمّيت باسم الفاسقين؟ قال جبريل: لأنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربّك لذلك سمّاك الله في الصدّيقين، وعدّك من المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين، قال يوسف: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فكم قدّر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فماذا له من الأجر يا جبريل؟ قال: أجر مائة شهيد، قال: أفتراني لاقيه؟ قال: نعم، فطابت نفسه، وقال: ما أبالي بما لقيت إن رأيتُه. قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون.

رُوي أن ملك الموت زار يعقوب [عليه الصّلاة والسّلام] فقال له: أيّها الملك الطيّب ريحه، الحسن صورته، هل قبضت روح ولدي في الأرواح؟ قال: لا، فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، وقيل: وأعلم أن رؤيا [ولدي] يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له.

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

وقال السدي: لما أخبره ولده بسيرة الملك أحسّت نفس يعقوب فطمع وقال لعله يوسف، فقال: يا بَنِيَّ اذهبُوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه.

ورُوي عن عبد الله بن يزيد بن أبي فروة: أن يعقوب عليه السلام كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر، أمّا بعد، فإنّا أهل بيت وُكِّلَ بِنَا البلاءُ أمّا جدي إبراهيم فشدّتْ يداه ورجلاه وألقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدّتْ يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه، وكنت أتسلّى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته إلي [أقرّ الله عينيك ولا أحزن قلبك] وإلاّ دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره، فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ.

﴿٨٧﴾ [قوله]: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾، تخبّروا واطلبوا الخبر، ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، والتحسّسُ بالحاء والجيم [لا يبعد أحدهما من الآخر، إلا أن التحسّس بالحاء في الخير وبالجيم] في الشر، والتحسّس هو طلب الشيء بالحاسّة. قال ابن عباس: معناه التمسوا ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾، ولا تقنطوا، ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾، أي: من الرحمة. وقيل: من فرج الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿٨٨﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾، وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على [يوسف، فلما دخلوا عليه]، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، أي: الشدّة والجوع، ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾، أي: قليلة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع فيها، وأصل الإزجاء [فيها] السوق والدفع. وقيل: للبضاعة مزجاة لأنها غير نافقة، وإنما تجوز على دفع من أخذها. واختلفوا فيها، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً. وقيل: كانت خلق الغرائر والحبال. وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط. وقال الكلبي ومقاتل: كانت الحبّة الخضراء. وقيل: كانت سويق المقل. وقيل: كانت الأدم والنعال. ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾، أي: أعط لنا ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيّد الوافي، ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾، أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا. هذا قول أكثر المفسّرين، وقال ابن جريج والضحاك: وتصدّق علينا بردّ أخينا إلينا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي﴾ يثيب، ﴿ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، وقال الضحاك: لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن. وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام؟ فقال سفيان: ألم تسمع قوله تعالىٰ: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾]، يريد أن الصدقة كانت حلالاً لهم. ورُوي أن الحسن سمع رجلاً يقول: اللّهمّ تصدّق عليّ، فقال: إن الله لا يتصدّق وإنما يتصدّق من يبغي الثواب، قل: اللّهمّ أعطني أو تفضّل عليّ.

﴿٨٩﴾ ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾، اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته

الرقة فارفضّ دمعه فباح بالذي كان يكتمه منهم. وقال الكلبي: إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال: إني وجدت غلاماً في بئر من حاله كيت وكيت، فابتعته بكذا [وكذا] درهماً، فقالوا: أيها الملك، نحن بعنا ذلك الغلام [منه]، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منّا حتى كفّ بصره، فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم؟ ثم قالوا له: إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك حين رحمهم وبكى، وقال ذلك القول. وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه الذي كتب إليه فلم يتمالك البكاء، فقال: هل علمتُم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذْ فرقتم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتم جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذنبون عاصون. وقال الحسن: إذ أنتم شبان ومعكم جهل الشباب. فإن قيل: كيف قال ما فعلتم بيوسف وأخيه وما كان منهم [ضرر] إلى أخيه شيء وهم لم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الصاع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً. وقيل: لِمَا كانا من أم واحدة وكانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿٩٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر: ﴿إنك﴾ على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام. قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلّم من وراء ستر، فلما قال يوسف: هل علمتم ما فعلتم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لما قال هذا القول تبسّم يوسف فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فشبّهوه بيوسف، فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟

وقال عطاء عن ابن عباس: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه فقالوا: أئنك لأنت يوسف، وقيل: قالوه على التوهّم حتى، ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ بنيامين، ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ أنعم الله علينا بأن جمع بيننا، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾، بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ﴿وَيَصْبِرْ﴾، عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه. قال ابن عباس: يتّقيَ الزّنا ويصبر على العزوبة. وقال مجاهد: يتّقي المعصية ويصبر على السجن، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ﴾، معتذرين، ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: اختارك الله وفضلك علينا، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، أي: [وما كنا في صنيعنا بك إلا] مخطئين مذنبين. يقال: خطىء خطأ إذا تعمّد، وأخطأ إذا كان غير متعمّد.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليماً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ﴾، لا تعيير عليكم اليوم ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فلما عرّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه، وقال:

﴿٩٣﴾ ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، أي: يعد مبصراً. وقيل: [يأتيني] بصيراً لأنه كان قد دعا له.

قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيراً إلاّ بعد أن أعلمه الله عزّ وجلّ. قال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة.

وعن مجاهد قال: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه جرّد من ثيابه وألقي في النار عرياناً فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إيّاه، فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات [إبراهيم] ورثه إسحاق، فلما مات ورثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة وسدّ رأسها وعلّقها في عنقه [فجعله مخرزاً] لما كان يخاف عليه من العين، وكان لا يفارقه فلما ألقي في البئر عرياناً جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إيّاه، ففي ذلك الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وقال له: أرسل إلى أبيك ذلك القميص، فإن فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلاّ عوفي [لوقته]، فدفع يوسف ذلك القميص إلى أخوته وقال: ألقوه على وجه

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٢٤٧

أبي يأتِ بصيراً، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، أي: خرجت من عريش مصر متوجّهة إلى كنعان، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾، [أي: قال يعقوب] لولد ولده، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، روي أن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير. قال مجاهد: أصاب يعقوب ريح القميص من مسيرة ثلاثة أيام. وحكي عن ابن عباس: من مسيرة ثمان ليال. وقال الحسن: كان بينهما ثمانون فرسخاً. وقيل: هبّت ريح الصبا فصفقت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنّة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنّة إلا ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف. ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، تسفّهوني، وعن ابن عباس: تجهّلوني. وقال الضحاك: تهرمون فتقولون: شيخ كبير قد خرف وذهب عقله. وقيل: تضعفوني. وقال أبو عبيدة: تضللوني. وأصل الفند: الفساد.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالُوا﴾، يعني: أولاد أولاده، ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، لفي خطئك القديم من ذكر يوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن الطريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره.

﴿٩٦﴾ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾، وهو المبشّر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير [من] بين يدي العير. قال ابن عباس: هو يهوذا. [قال السدي: قال يهوذا]، قال: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أنه حيّ فأفرحه كما أحزنته. قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوفِ أكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً. وقيل: البشير مالك بن ذعر. ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، يعني: ألقى البشيرُ قميصَ يوسف على وجه يعقوب، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، فعاد بصيراً بعدما كان أعمى وعادت إليه قوّته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن. ﴿قَالَ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا.

ورُوي أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة.

﴿٩٧﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، مذنبين.

﴿٩٨﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، قال أكثر المفسّرين: أخّر الدعاء إلى السحر وهو الوقت الذي يقول الله تعالىٰ: هل [من] داعٍ فأستجيب له. فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ وقال: اللّهمّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلّة صبري عنه واغفرْ لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله تعالىٰ إليه إني قد غفرتُ لك ولهم أجمعين.

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: سوف أستغفرُ لكم ربي يعني ليلة الجمعة.

قال وهب: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة.

وقال طاوس: أخّر الدعاء إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء.

وعن الشعبي قال: سوف أستغفرُ لكم ربّي، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرُ لكم ربي، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وروي أن يوسف كان قد بعث مع

البشير إلى يعقوب مائتي راحلة [و] جهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وأولاده، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة. وقال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين، فلما دنا من مصر كلّم يوسف الملك الذي فوقه، فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقّون يعقوب، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر، قال: لا هذا ابنك، [قال]: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأه بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان. ورُوي أنهما نزلا وتعانقا. وقال الثوري: لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبتِ بكيت [عليّ] حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني ولكن [فارقتك وأنت صغير]، فخشيتُ أن تسلب دينُك فيحال بيني وبينك.

(٩٩) فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾، أي: ضمّ إليه، ﴿أَبَوَيْهِ﴾، قال أكثر المفسّرين: هو أبوه وخالته ليّا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين. قال الحسن: هو أبوه وأمه وكانت حيّة. وفي بعض التفاسير: أن الله عزّ وجلّ أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، فإن قيل: فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، فكيف قال ادخلوا مصر بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول؟ قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقّاهم قبل دخولهم مصر، وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله. وقيل: الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلاّ بجواز من ملوكهم، يقول: آمنين من الجواز إن شاء الله، كما قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقيل: ﴿إِنْ﴾ هٰهنا بمعنى إذ، يريد إذ شاء الله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، أي: إذ كنتم مؤمنين.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أي: على السرير، أجلسهما [عليه]. والرفع: هو النقل إلى العلوّ. ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، يعني: يعقوب وخالته وإخوته وكانت تحيةَ الناس يومئذ [لملوكهم] السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع. وقيل: وضعوا الجباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحيّة والتعظيم، لا على طريق العبادة. وكان ذلك جائزاً في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة.

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: معناه خرّوا لله عزّ وجلّ سُجّداً بين يدي يوسف. والأول أصح. ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، وهو قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾، [ربي]، أي: أنعم عليّ، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، ولم يقل من الجبّ مع كونه أشدّ [بلاء] من السجن استعمالاً للكرم لكيلا يخجل إخوته بعدما قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الجبّ صار إلى العبودية والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك، ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته [له]، وفي السجن كان مكافأة من الله تعالىٰ لزلّة كانت منه. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾، والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، وكانوا أهل بادية ومواشي، يقال: بدَا يبدُو [بدواً] إذا صار إلى البادية. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾، أفسد، ﴿الشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾، بالحسد والبغض، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾، أي: ذُو لُطف، ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾، وقيل: معناه بمن يشاء. وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرّفق، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، قال أهل التاريخ: أقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر. وقال سعيد بن جبير: نُقل يعقوبُ عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، فوافق ذلك اليوم الذي مات فيه العيص فَدُفِنَا في قبر واحد، وكانا وُلِدَا في بطن واحد، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة، فلما جمع الله تعالىٰ ليوسف شمله علم أنّ نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالىٰ حُسنَ العاقبة، فقال:

(١٠١) ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتّساع المقدور لمن له السياسة والتدبير. ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، يعني: تعبير الرؤيا. ﴿فَاطِرَ﴾، أي: يا فاطر، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما، ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾، أي: مُعيني ومتولّي أمري، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾، يقول: اقبضني إليك مسلماً، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يريد بآبائي النبيّين. قال قتادة: لم يسأل نبيّ من الأنبياء الموت إلاّ يوسف [عليه السلام]. وفي القصة: لما جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربّه عزّ وجلّ فقال هذه المقالة. قال الحسن: عاش بعد هذا سنين كثيرة. وقال غيره: لما قال هذا القول لم يمضِ عليه أسبوع حتى توفّي. واختلفوا في مدّة غيبة يوسف عن أبيه، فقال الكلبي: اثنتان وعشرون سنة. وقيل: أربعون سنة. وقال الحسن: ألقي يوسف في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مات وهو ابن مائة وعشرين سنة وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد: أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب [المبتلى] عليه السلام. وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستين سنة. وقيل: أكثر. واختلفتِ الأقاويل فيه. وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلّتهم رجاء بركته، حتى همّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرّق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته إلى جميعهم. وقال عكرمة: دفن في الجانب الأيمن من النيل، فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فدفنوه في وسطه. وقدّروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعاً إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرتُ، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، أي: وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب، ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾، أي: عَزَمُوا على إلقاء يوسف في الجبّ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، بيوسف.

(١٠٣) ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾، يا محمد، ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، على إيمانهم. رُوي أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبيّ ﷺ، فقيل له: إنهم لا يؤمنون ولو حَرَصْتَ على إيمانهم.

(١٠٤) ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالىٰ، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، [أي]: جَعْلٍ وجزاء، ﴿إِنْ هُوَ﴾، ما هو يعني القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، عِظة وتذكير، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٠٥) ﴿وَكَأَيِّن﴾، وكم، ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾، عِبرةٍ ودَلالةٍ، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

﴿مُعۡرِضُونَ﴾، لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾، فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: من خلق السمٰواتِ والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزّل القطرَ؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون.

وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

وقال عطاء: هذا في الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] الآية، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وغير ذلك من الآيات.

﴿١٠٧﴾ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾، أي: عقوبة مجلّلة، قال مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ الآية [العنكبوت: ٥٥]. قال قتادة: وقيعة. وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع. ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، فجأة، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، بقيامها. قال ابن عباس: تهيّج [الصيحة] بالناس وهم في أسواقهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها، ﴿سَبِيلِيٓ﴾، سُنّتي ومنهاجي. وقال مقاتل: ديني، نظيره قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: إلى دينه. ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، على يقين. والبصيرة: هي المعرفة التي يميّز بها بين الحق والباطل، ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾، أي: ومن آمن بي وصدّقني أيضاً يدعو إلى الله، هذا قول الكلبي وابن زيد. قالوا: حقّ على من اتّبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، ثم استأنف: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾، يقول: إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني. قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمٰن. قال عبد الله بن مسعود: من كان مُسْتَنّاً فليستنّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمّة، أبرّها قلوباً وأعمقها علماً وأقلّها تكلّفاً، [قوم] اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، [واتبعوهم على آثارهم وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم]، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. قوله تعالىٰ: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: وقلْ سبحانَ اللّهِ تنزيهاً له عمّا أشركوا به. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾، يا محمد، ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾، [لا] ملائكة، ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾، قرأ حفص: ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنون وكسر الحاء، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء. ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾، يعني: من أهل الأمصار دون أهل البوادي لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم. [قال الحسن لم يبعث الله نبياً من بدو ولا من الجن ولا من النساء، وقيل: إنما لم يبعث] من أهل البوادي لغلظهم وجفائهم. ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يعني: هؤلاء المشركين المكذّبين، ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، آخر أمر، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، يعني: الأمم المكذبة فيعتبروا، ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾، يقول جلّ ذكره هذا فعلنا بأهل [ولايتنا] طَاعَتِنا أن ننجيهم عند نزول العذاب، وما في الدار الآخرة خير لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاء بدلالة الكلام عليه. قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، قيل: معناه ولدار الحال الآخرة [خير]. وقيل: هو إضافة الشيء إلى نفسه؛ كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وكقولهم: يوم الخميس وربيع الآخر. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، فتؤمنون.

﴿١١٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾، [أمرنا].

اختلف القُرّاء في قوله: ﴿كُذِبُواْ﴾، فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف، وكانت عائشة تنكر هذه القراءة. وقرأ الآخرون بالتشديد، فمن شدّده قال: معناه حتى إذا استيأس،

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

٢٤٩

الرسلُ من إيمان قومهم روي عن مجاهد أنه قرأ: وقد كذبوا بفتح الكاف والذال مخففة ولها تأويلان: أحدهما معناه أن القوم المشركين ظنوا أن الرسل قد كُذِبُوا والثاني معناه أن الرسل ظنوا - أي علموا - أن قومهم قد افتروا على الله بكفرهم من إيمان قومهم وظنّوا: أي أيقنوا - يعني الرسل - أن الأمم قد كذّبوهم تكذيباً لا يُرجى بعده إيمانهم، والظنّ بمعنى اليقين، وهذا معنى قول قتادة. وقال بعضهم: معناه حتى إذا استيأسَ الرسلُ ممن كذّبهم من قومهم أن يُصدّقوهم، وظنّوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذّبوهم وارتدّوا عن دينهم لشدّة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النظرَ. ومَنْ قرأ بالتخفيف قال: معناه حتى إذا استيأسَ الرسلُ من إيمان قومهم وظنّوا، أي: ظنّ قومُهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العذاب.

ورُوي عن ابن عباس: أن معناه ضعف قلوب الرسل، يعني: وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر، وكانوا بشراً فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم أُخلِفوا، ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، أي: جاء الرسل نصرُنا. ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾، قرأ العامة بنونين، أي: نحن ننجي من نشاء. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسمّ فاعله، لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة مضمومة، فيكون محل ﴿مَن﴾ رفعاً على هذه القراءة، وعلى القراءة الأولى يكون نصباً، فَنُجّيَ مَنْ نشاءُ عند نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾، عذابُنا، ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: المشركين.

﴿١١١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾، أي: في خبر يوسف وإخوته، ﴿عِبْرَةٌ﴾ عِظَة، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ﴾، يعني: القرآن، ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾، أي: يُختلق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى﴾، أي: ولكن كان تصديقَ الذي، ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، من التوراة والإنجيل، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، بياناً ونعمةً، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، [والله تعالى أعلم].

❁ ❁ ❁

سورة الرعد

مكية إلا قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الرعد: ٣١]، إلى قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]، وهي ثلاث وأربعون آية.

﴿١﴾ ﴿الٓمٓرۚ﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أعلم وأرى، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾، يعني: تلك الأخبار التي قصصتُها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك، ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: هو الحق فاعتصم به، فيكون محل الذي رفعاً على الابتداء و«الحق» خبره، وقيل: محله خفض يعني تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ثم ابتدأ الحق يعني ذلك الحق.

وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه هذه آيات الكتاب يعني القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، فردّ قولهم ثم بين دلائل ربوبيته، فقال عزّ من قائل:

﴿٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾، يعني: السواري

واحدها عمود مثل أديم وأدم، وعمد أيضاً جمعه مثل رسول ورُسل، ومعناه نفي العمد أصلاً وهو الأصح يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها. قال إياس بن معاوية: السماء مقبّبة على الأرض مثل القبة. وقيل: ترونها راجعة إلى العمد، معناه: لها عمد ولكن لا ترونها، وزعم: أن عمدها جبل قاف وهو محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، علا عليه، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، ذلّلهما لمنافع خلقه فهما مقهوران، ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾، أي: يجريان على ما يريد الله عزّ وجلّ، ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها ولا يجاوزانها، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، يقضيه وحده، ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، يبين الدلالات، ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، جبالاً ثابتة، واحدتها: راسية.

قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾، أي: وجعل فيها أنهاراً. ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، أي: صنفين أحمر وأصفر وحلواً وحامضاً، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: يلبس النهار بظلمة الليل ويلبس الليل بضوء النهار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيستدلون. والتفكر تصرف القلب في طلب معاني الأشياء.

(٤) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، متقاربات يقرب بعضها من بعض وهي مختلفة هذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع، ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾أي: بساتين، ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾، رفعها كلها ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب عطفاً على الجنات، وجرها الآخرون نسقاً على الأعناب، والصنوان جمع صنو وهو النخلات يجمعهن أصل واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، هي النخلة المنفردة بأصلها.

وقال أهل التفسير: صنوان مجتمع وغير صنوان متفرق نظيره من الكلام قنوان جمع قنو.

ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «إنّ عمّ الرجل صنو أبيه» ولا فرق في الصنوان والقنوان بين التثنية والجمع إلا في الإعراب وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منونة وفي الجمع منونة، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب «يسقى» بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ ولقوله تعالى من بعد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولم يقل بعضه، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام، [لالون له فيلون بلون إنائه] ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، في الثمر والطعم، قرأ حمزة والكسائي «ويفضل» بالياء، لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾. وقرأ الآخرون بالنون على معنى ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل.

وجاء في الحديث [عن النبي ﷺ]: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، قال «الفارسي والدقل والحلو والحامض» قال مجاهد: كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد.

قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عزّ وجلّ فسطحها فصارت قطعاً متجاورةً فينزل عليها المطرُ من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها، وكل يُسقَى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع وتقسو قلوب فتلهو، قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

(٥) ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق [فعجب أمرهم وكان المشركون ينكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق] من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب.

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٢٥٠

وقيل: معناه وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع آلهةً يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجبَ أيضاً من قولهم، ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾، بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: نعاد خلقاً جديداً كما كنا قبل الموت.

قرأ نافع والكسائي ويعقوب ﴿أَءِذَا﴾ مستفهماً «إنا» بتركه، على الخبر، ضده: أبو جعفر وابن عامر، وكذلك في سبحان [٤٩ ـ ٩٨] في موضعين والمؤمنون [٨٢] وآلم السجدة [١٠]، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وفي الصافات في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، يوم القيامة ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿٦﴾ قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته والسيئة ههنا هي العقوبة، والحسنة: العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾، أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات، والمثلات جمع المثلة بفتح الميم وضم الثاء مثل صدقة وصدقات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾، مُخـوِّف، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى، وقال الكلبي: داع يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة. وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ يقول: إنما أنت منذر وأنت هاد لكل قوم أي داع، وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى.

﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، من ذكر أو أنثى سوي الخلق أو ناقص الخلق واحداً أو اثنين أو أكثر ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾، أي ما تنقص ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

وقال أهل التفسير: غيض الأرحام الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في الولد لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم.

وقيل: إذا حاضت ينتقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر ظاهراً فإن رأت خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء والزيادة في المدة. وقال الحسن: غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر.

وقيل: النقصان السقط والزيادة تمام الخلق، وأقل مدة الحمل ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش.

واختلفوا في أكثرها فقال قوم: أكثرها سنتان وهو قول عائشة رضي الله عنها، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي رحمه الله. قال حماد بن سلمة: إنما سمي هرم بن حيان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ

﴿بِمِقْدَارٍ﴾، أي: بتقدير واحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه.

﴿٩﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾، الذي كل شيء دونه، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، المستعلي على كل شيء بقدرته.

﴿١٠﴾ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، أي: يستوي في علم الله المسر بالقول والجاهر به، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾، أي: مستتر بظلمة الليل، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: ذاهب في سربه ظاهراً، والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق، قال القتيبي: سارب بالنهار أي متصرف في حوائجه.

قال ابن عباس في هذه الآية: هو صاحب ريبة مستخف بالليل فإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم، وقيل: مستخف بالليل أي ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته، وسارب بالنهار أي متوار داخل في سرب.

﴿١١﴾ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل، والتعقيب: العود بعد البدء وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب، وجمعه معقبة، ثم جمع الجمع معقبات كما قيل: ابناوات سعد ورجالات بكر.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب، عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾، يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ومن خلفه: من وراء ظهره، ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله ما لم يجيء القدر، فإذا جاء القدر خلوا عنه. وقيل: يحفظونه من أمر الله أي: مما أمر الله به من الحفظ عنه.

قال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريده إلاّ قال وراءك! إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

قال كعب الأحبار: لولا أن الله عزّ وجلّ وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن. وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وقيل: الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وقال ابن جريج: معنى يحفظونه أي يحفظون عليه من أمر الله يعني الحسنات والسيئات. وقيل: الهاء في (له) راجعة إلى رسول الله ﷺ.

روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: له معقبات يعني لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يعني من شر الجن وطوارق الليل والنهار.

وقال عبدالرحمٰن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة.

وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما عامريان يريدان رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من أجمل الناس، فقال رجل: يا رسول الله: هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: «دعه فإن يرد الله به خيراً يهده» فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد مالي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين»، قال: تجعل لي الأمر بعدك، قال: «ليس ذلك إليّ إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ يجعله حيث يشاء»، قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: لا، قال: فماذا تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها»، قال: أوليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ وكان عامر أوصى إلى أربد بن ربيعة

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

٢٥١

إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أربد من خلف النبي ﷺ ليضربه بالسيف فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله تعالى عنه فلم يقدر على سله وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع بسيفه [في علاجه]، فقال: «اللهم أكفنيهما بما شئت»، فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته وولى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً، فقال النبي ﷺ: «يمنعك الله تعالى من ذلك، وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج»، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وقد تغير لونه فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز يا ملك الموت، ويقول الشعر، ويقول واللات والعزى لئن أبصرت محمداً وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذنهما برمحي، فأرسل الله ملكاً فلطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبتيه في الوقت غدة عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فقتل عامربالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القصة قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۞ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله، يعني تلك المعقبات من أمر الله، وفيه تقديم تأخير، وقال لهذين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، من العافية والنعمة، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، من الحال الجميلة فيعصوا ربهم، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾، أي: عذاباً وهلاكاً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: لا رادّ له، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾، أي: ملجأ يلجؤن إليه، وقيل: وال يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

﴿١٢﴾ قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قيل: خوفاً من الصاعقة، طمعاً في نفع المطر، وقيل: الخوف للمسافر يخاف منه الأذى والمشقة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة. وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وإبانه، والطمع إذا كان في مكانه وإبانه، ومن البلدان إذا مطروا قحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، بالمطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت، والسحاب جمع واحدتها سحابة، قال علي رضي الله عنه: السحاب غربال الماء.

﴿١٣﴾ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾، أكثر المفسرين على أن الرعد اسم لملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه، قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته. وعن عبدالله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد.

وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد». وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر وأن بحور الماء في نقرة إبهامه وأنه يسبح الله تعالى فإذا سبح لا يبقى ملك في

السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القطر. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾، أي: تسبح الملائكة من خيفة الله عزّ وجلّ وخشيته. وقيل: أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعوناً فهم خائفون خاضعون [متذللون] طائعون.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾، جمع صاعقة وهي العذاب المهلك ينزل من البرق فيحرق من يصيبه، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾، كما أصاب أربد بن ربيعة. وقال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر، ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾، يخاصمون، ﴿فِى ٱللَّهِ﴾، نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ. ممَّ ربك أمن درّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته.

وسُئل الحسن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً يدعونه إلى الله ورسوله. فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه ممَّ هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس، فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه، فقال: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه؟ فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله ما زادنا على [مثل] الأولى وأخبث فقال: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فبينما هم جلوس عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر وهم جلوس [عنده]، فجاؤوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم فقالوا أوحى الله إلى النبي ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، قال علي رضي الله عنه: شديد الأخذ. وقال ابن عباس: شديد الحول. وقال الحسن: شديد الحقد[1]. وقال مجاهد: شديد القوة. وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة. وقيل: شديد المكر. والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة.

﴿١٤﴾ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾، أي: لله دعوة الصدق. قال علي رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد. وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقيل: الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عزّ وجلّ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾، أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء والقابض على الماء لا يكون في يده شيء ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع لا يكون بيده شيء. وقيل: معناه كالرجل العطشان الذي يريد الماء من بعيد فهو يشير بكفه إلى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبداً فهذا معنى قول مجاهد. ومثله عن علي وعطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء ولا يرتفع إليه الماء فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم نداؤها ودعاؤها، وهي لا تقدر على شيء.

وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه إلى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطاً كفيه، مثلٌ ضربه الله لخيبة الكفار. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أصنامهم، ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، يضل عنهم إذا احتاجوا إليه كما قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] وقال الضحاك عن ابن عباس وما دعاء الكافرين ربهم إلاّ في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

﴿١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾، يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿وَكَرْهًا﴾، يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف. ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾، يعني: ظلال الساجدين طوعا وكرها تسجد لله عزّ وجلّ طوعاً. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، يعني إذا سجد بالغدو والعشي يسجد معه

ظله، والآصال: جمع «الأُصُل» و«الأُصُل» جمع «الأصيل» وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس. وقيل: ظلالهم أي: أشخاصهم بالغدو والآصال بالبكر والعشايا. وقيل: سجود الظل تذليله لما أريد له.

(١٦) قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله، لأنهم يقرون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض فإذا أجابوك فقل أنت أيضاً يا محمد (الله).

ورُوي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أجب أنت، فأمره الله عزّ وجلّ فقال [له] فـ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، معناه: إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، فكيف يملكون لكم؟ ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، [كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن].

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يَسْتَوِى﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لأنه لا حائل بين الفعل والاسم المؤنث. ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾، أي: كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان. ﴿أَمْ جَعَلُوا۟﴾، أي: جعلوا، ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾، ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل.

(١٧) فقال عزّ وجلّ: ﴿أَنزَلَ﴾ يعني الله عزّ وجلّ، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، يعني المطر، ﴿فَسَالَتْ﴾، من ذلك الماء، ﴿أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، أي: في الصغر والكبر، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾، الذي حدث من ذلك الماء، ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾، الزبد الخبث الذي يظهر على وجه الماء، وكذلك على وجه القِدْر، رابياً أي عالياً مرتفعاً فوق الماء فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهب والزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل.

وقيل: قوله ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذا مثل للقرآن، والأودية مثل للقلوب يريد ينزل القرآن، فتحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل.

فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، ولا مخاطبة ههنا، وقرأ الآخرون بالتاء «ومما توقدون»، أي: ومن الذي توقدون عليه في النار، والإيقاد جعل النار تحت الشيء ليذوب، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾، أي لطلب زينة، وأراد الذهب والفضة؛ لأن الحلية تطلب منهما، ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد والنحاس، والرصاص، والصفر، تذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: إذا أذيب فله أيضاً زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾، الذي علا السيل والفلز، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد والقِذْر إلى جنباته، يقال: جفا الوادي وأجفأ إذا ألقى غثاءه، وأجفأت القدر وجفأت إذا غلت وألقت زبدها، فإذا سكنت لم يبق فيها شيء، معناه: إن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل. وقيل: جُفَاءً أي: متفرقاً. يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرقته وذهبت به، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس، ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يبقى ولا يذهب، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، جعل الله هذا مثالاً للحق والباطل، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، والحق كالماء والفلز يبقى في القلوب. وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئاً وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات.

(١٨) قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾، أجابوا، ﴿لِرَبِّهِمُ﴾، فأطاعوه، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾، أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾. قال إبراهيم النخعي: سوء

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾

٢٥٢

الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له من شيء، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، الفراش، أي: بئس ما مهد لهم.

(١٩) قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾، فيؤمن به ويعمل بما فيه، ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾، عنه لا يعلمه ولا يعمل به.

قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل. وقيل: في عمار وأبي جهل، فالأول حمزة أو عمار والثاني أبو جهل، وهو الأعمى، أي: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. ذوو العقول.

(٢٠) ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، قيل: أراد العهد الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه.

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما، والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا ابن أبي شيبة، ثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري عن أبي سلمة أن عبدالرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال يعني عبدالرحمن سمعتُ رسولَ الله ﷺ [يقول] فيما يحكي عن ربه عز وجل: «أنا اللّهُ وأنا الرحمن خلقتُ الرحم وشققت لها من اسمي اسماً فمن وصلها وصلتُه ومن قطعها بتتُّه».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا ابن أبي أويس، قال: حدثني سليمان بن بلال عن معاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذلك لك»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني، أنبأنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا كثير بن عبدالله اليشكري، ثنا الحسن بن عبدالرحمن بن عوف عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يحاج العباد، له ظهر وبطن، والأمانة، والرحم تنادي ألاَ مَنْ وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، أنا حميد بن زنجويه، ثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني عُقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصلْ رحمه».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد، ثنا شعبة، عن عيينة بن عبدالرحمن قال: سمعت أبي يحدث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن

يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الزيادي، ثنا عبدالرزاق، ثنا معمر عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنةَ قاطعُ رحم».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، ثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني، أنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر، ثنا أبو نعيم الفضل بن دُكين، ثنا عمرو بن عثمان قال: سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبدالله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا يعلى وأبو نعيم قالا: ثنا قطر، عن مجاهد، عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها».

رواه محمد بن إسماعيل عن محمد بن كثير عن سفيان عن قطر وقال: «إذا قطعت رحمه وصلها».

قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

(٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾، على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عزّ وجلّ. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: عن الشهوات. وقيل: عن المعاصي. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، طلب تعظيمه أن يخالفوه، ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، يعني يؤدون الزكاة، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيءَ من العمل، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملتَ سيئةً فاعملْ بجنبها حسنةً تمحها، السرُّ بالسر والعلانيةُ بالعلانية».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، حدثنا أبو الخير، أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه: يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت عنه حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض».

وقال ابن كيسان: معنى الآية يدفعون الذنب بالتوبة. وقيل: لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير. وقال القتيبي: معناه إذا سفه عليهم حلموا، فالسفه: السيئة، والحلم: الحسنة. وقال قتادة: ردوا عليهم معروفاً ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال الحسن: إذا حُرِمُوا أعطوا وإذا ظُلِمُوا عَفَوا وإذا قُطِعُوا وصلوا. قال عبدالله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، يعني الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب. ثم بيّن فقال:

(٢٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، بساتين إقامة، ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، قيل: من أبواب الجنة. وقيل: من أبواب القصور.

(٢٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، أي: يقولون سلام عليكم. وقيل: يقولون سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافون منها قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات، معهم الهدايا والتحف من الله عزّ وجلّ، يقولون سلام عليكم، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبدالله بن محمود أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال ثنا عبدالله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثني أرطأة بن

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

المنذر قال: سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال [له] أبو الحجاج يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكأ على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل المَلَك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا هو بالمَلَك يستأذن فيقول للذي يليه [هذا] ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه: ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا له، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيُفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف.

﴿٢٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، هذا في الكفار. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

وقيل: يقطعون الرحم، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يعملون بالمعاصي، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، يعني: النار، وقيل: سوء المنقلب لأن منقلب الناس دُورهم.

﴿٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: مشركي مكة أشروا وبطروا، والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام. ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: قليل ذاهب. قال الكلبي: كمثل السكرجة والقصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من أهل مكة، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: يهدي إليه من يشاء بالإنابة. وقيل: يرشد إلى دينه من يرجع إليه بقلب.

﴿٢٨﴾ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، في محل النصب، بدلاً من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾، تسكن، ﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال مقاتل: بالقرآن، والسكون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين.

قال ابن عباس: هذا في الحلف، يقول: إذا حلف المسلم بالله على شيء تسكن قلوب المؤمنين إليه، فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فكيف تكون الطمأنينة والوَجل في حالة واحدة؟.

قيل: الوَجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وثوابه وكرمه.

﴿٢٩﴾ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ابتداء، [وقوله] ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره، واختلفوا في تفسير ﴿طُوبَىٰ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: فَرَحٌ لهم وقُرَّة عين.

وقال عكرمة: نِعْمَ مالهم. وقال قتادة: حسنى لهم. وقال معمر عن قتادة: هذه كلمة عربية يقول الرجل للرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً.

وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة. قال الفراء: أصله من الطيب والواو فيه لضمة الطاء، وفيه لغتان، تقول العرب: طوباك وطوبى لك أي لهم الطيب. ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: حسن المنقلب.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية. وقال الربيع: هو البستان بلغة الهند.

قالوا: ورُوي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها [من كبرها]. وقال عبيد بن عمير: هي شجرة في

جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلا وفيها منها إلا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها، ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل.

قال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها ملك يسبح الله عز وجل بأنواع التسبيح.

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة ظلها مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرجُ من أكمامها».

وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: «طوبى شجرةٌ غرسها الله تعالى بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت بالحلي والحلل وإن أغصانها لتُرى من وراء سُور الجنة».

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زياد مولى بني مخزوم، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام [والإنجيل على عيسى] والقرآن على محمد ﷺ، لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرِماً، إن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة.

وبهذا الإسناد عن عبدالله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبدالله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى، يقول الله عزّ وجلّ لها تفتقي لعبدي عما شاء فتنفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء وعن الثياب.

(٣٠) قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ أي: كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟﴾، لتقرأ، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

قال قتادة ومقاتل وابن جريج: الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عمرو لمّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم، فهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

والمعروف أن الآية مكية وسبب نزولها.

أنَّ أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو «يا الله يا رحمن» فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وروى الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن»، قالوا: وما الرحمن؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، لهم يا محمد إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته، ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدت ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، أي: توبتي ومرجعي.

(٣١) قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، الآية نزلت في نفر من مشركي مكة منهم أبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية؛ جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم فقال له عبدالله بن أبي أمية: إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبها عنا حتى تنفسخ، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً لنغرس فيها الأشجار ونزرع، ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داوود عليه السلام حيث سخر له الجبال تسبح معه، أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا، فقد سخرت الريح لسليمان كما زعمت، ولست بأهون على ربك من سليمان، وأحيي لنا جدك قصياً أو من شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحق ما تقول

أم باطل؟، فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ فأذهبت عن وجه الأرض، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾، أي: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

واختلفوا في جواب لو فقال قوم جوابه محذوف اكتفاء بمعرفة السامعين مراده وتقديره لكان هذا القرآن كقول الشاعر:

فأقسمُ لو شيءٌ أتانا رسوله
سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً

أراد لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم. وقال آخرون: جواب لو مقدم وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، كأنه قال: لو سيرت به الجبال ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا، لما سبق من علمنا فيهم، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، أي: في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم. قال الكلبي: هي لغة النخع. وقيل: هي لغة هوازن، يدل عليه قراءة ابن عباس: ﴿أفلم يتبين الذين آمنوا﴾، وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول يئست، بمعنى علمت، ولكن معنى العلم فيه مضمر.

وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يعني: الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء، أي ألم ييأسوا علماً، وكل من علم شيئاً يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلم، ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء، أحياناً بالجدب، وأحياناً بالسلب، وأحياناً بالقتل والأسر.

وقال ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾، يعني: السرية أو القارعة، ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

وقيل: أو تحل أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريباً من ديارهم، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسلية لنبيه ﷺ.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، كما استهزؤوا بك، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أمهلتهم وأطلت لهم المدة، ومنه «المَلَوان»: وهما الليل والنهار، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: عقابي لهم.

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: حافظها ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت، وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه، ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بيّنوا أسماءهم. وقيل: صفوهم ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد؟ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: تخبرون الله تعالى: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا في الأرض إلهاً غيره، ﴿أَم بِظَٰهِرٍ﴾ [يعني: أم تتعلقون بظاهر]، ﴿مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾، مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له. وقيل: بزائل من القول قال الشاعر:

وعيرني الواشون أني أحبها
وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي: زائل، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾، كيدهم. وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله، ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: صرفوا عن الدين.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿وَصُدُّوا۟﴾ وفي حم المؤمن ﴿وَصُدَّ﴾ بضم الصاد فيهما وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، بخذلانه إياه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بالقتل والأسر، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿أَشَقُّ﴾، أشد، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [أي] مانع يمنعهم من العذاب.

﴿٣٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفة العليا، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها.

وقيل: مثل «صلة» مجازها الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، ﴿وَظِلُّهَا﴾، أي: ظلها ظليل لا يزول وهو ردّ على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى. ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي: عاقبة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ يعني: الجنة، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

﴿٣٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وهم اليهود والنصارى، ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، هذا قول مجاهد وقتادة.

وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسليمة الكذاب، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] وإنما قال ﴿بَعْضَهُۥ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن. ﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾، أي: مرجعي.

﴿٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، يقول كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد فأنكره الأحزاب كذلك أنزلنا إليك الحكم والدين عربياً، نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب.

وقيل: نظم الآية كما أنزلت الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك الكتاب حكماً عربياً. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، في الملة. وقيل: في القبلة، ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، يعني: من ناصر ولا حافظ.

﴿٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾، روي أن اليهود. وقيل: إن المشركين قالوا إن هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، هذا جواب عبدالله بن أبي أمية.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، يقول: لكل أمر قضاه الله كتاب قد كتبه فيه [ووقت يقع فيه وقيل لكل آجل أجله الله كتاب أثبت فيه]. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره أي: لكل كتاب أجل ومدة أي: الكتب المنزلة لكل واحد منها وقت ينزل فيه.

﴿٣٩﴾ ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم ويعقوب ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد. واختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما

يشاء منها فلا ينسخه.

وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة.

وروينا عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أيْ ربِّ أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص».

وعن عمر وابن مسعود أنهما قالا: يمحو السعادة والشقاوة أيضاً، ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء.

رُوي عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليّ الشقاوة فامحني، وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. ومثله عن ابن مسعود.

وفي بعض الآثار: إن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمدُّ إلى ثلاثين سنة.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني زيادة بن محمد الأنصاري، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عزّ وجل في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهم في أم الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت».

وقيل: معنى الآية إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب. مثل قوله: أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحوها من كلام هو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي. وقال الكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب.

وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعة الله عز وجلّ فهو الذي يثبت.

وقال الحسن: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجيء أجله إلى يوم أجله.

وعن سعيد بن جبير قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها.

وقال عكرمة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقال السدي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني القمر ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني الشمس بيانه قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه فأمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، بيانه قوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآية. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾، أي: أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير.

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب الذي لا يغير منه شيء.

وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن لله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت، لله في كل يوم فيه ثلاثمائة وستون لحظة ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ۝﴾.

وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى﴾، من العذاب قبل وفاتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ﴾، ليس عليك إلا ذلك، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، الجزاء يوم القيامة.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٢٥٥

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أهل مكة الذين يسألون محمداً ﷺ الآيات، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ نقصدها ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فنفتحها لمحمد أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم [وبلادهم]، أفلا يعتبرون؟ هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة.

وقال قوم: هو خراب الأرض معناه أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك؟

وقال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها.

وعن عكرمة قال: قبض الناس. وعن الشعبي مثله.

وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء. وذهاب الفقهاء.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثنا مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

وقال الحسن: قال عبدالله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله.

وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تَعُدْ. وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم.

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾، لا راد لقضائه ولا ناقض لحكمه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر، ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي: عند الله جزاء مكرهم.

وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعاً بيده الخير والشر وإليه النفع والضر، [فلا يضر مكرُ أحد أحداً إلا بإذنه]، ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾.

قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «الكافر» على التوحيد وقرأ الآخرون «الكفار» على الجمع. ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿٤٣﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [أي لست رسولاً إلينا] ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، إني رسوله إليكم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، يريد مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضاً على ذلك.

قال قتادة: هو عبدالله بن سلام. وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبدالله بن سلام أسلم بالمدينة.

وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أهو عبدالله بن سلام؟ فقال: وكيف يكون عبدالله بن سلام وهذه السورة مكية؟ وقال الحسن ومجاهد: ومن عنده علم الكتاب هو الله عزّ وجلّ

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

٢٥٦

يدل عليه قراءة عبدالله بن عباس، «ومِن عندِه» بكسر الميم والدال [أي: من عند الله عزّ وجلّ.

وقرأ الحسن وسعيد بن جبير «ومِن عِنده» بكسر الميم والدال] ﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الفعل المجهول، دليل هذه القراءة: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ ـ ٢].

* * *

سورة إبراهيم

مكية وهي إحدى وخمسون آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾، يا محمد يعني القرآن، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، بأمر ربهم. وقيل: بعلم ربهم، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى دينه و«العزيز» هو الغالب و«الحميد» هو المستحق للحمد.

(٢) ﴿ٱللَّهِ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ٱللَّهُ﴾ بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعد.

وقرأ الآخرون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وصل خفض، وقال أبو عمرو: الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يمنعون الناس عن قبول دين الله، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبونها زيغاً وميلاً، يريد يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد.

وقيل: الهاء راجعة إلى الدنيا، ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق، أي: لجهة الحرام. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، بلغتهم ليفهموا عنه [ما يلقيه إليهم] فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟ قيل: بعث من العرب بلسانهم والناس تبع لهم، ثم بث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزّ وجلّ ويترجمون لهم بألسنتهم، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله.

وقال مقاتل: بوقائع الله [كما] في الأمم السالفة. يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم، وإنما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، «الصبار»: الكثير الصبر، و«الشكور»: الكثير الشكر، وأراد: لكل مؤمن، لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، قال الفراء: العلة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في «يذبّحون» و«يقتّلون» أراد

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، يتركوهن أحياء ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾، أي: أعلم، يقال: أذن وتأذن بمعنى واحد، مثل أوعد وتوعد، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ في النعمة.

وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾، نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها، ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۞﴾، أي: غني عن خلقه، حميد محمود في أفعاله، لأنه فيها متفضل وعادل.

﴿٩﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ﴾، خبر الذين، ﴿مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، يعني: من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود.

روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه [قرأ هذه الآية ثم قال] كذب النسابون.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله تعالى.

وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، وكذلك في حق النبي ﷺ لأنه لا يعلم أولئك الآباء أحد إلاَّ الله عزّ وجلّ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات، ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً كما قال: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. قال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به، يقال: رددت قول فلان في فيه أي كذبته. وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردوا أيديهم في أفواههم أي في أفواه أنفسهم، أي وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة إلى الرسل أن اسكتوا. وقال مقاتل: فردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك. وقيل: إن الأيدي بمعنى النعم معناه ردوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعماً في أفواههم أي: بأفواههم يعني بألسنتهم. ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يعني الأمم للرسل، ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، موجب للريبة موقع للتهمة.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، خالقهما، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، أي: ذنوبكم و﴿من﴾ صلة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب، ﴿قَالُوٓا۟﴾، للرسل، ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾، ما أنتم، ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، في الصورة والجسم ولستم ملائكة وإنما، ﴿تُرِيدُونَ﴾، بقولكم، ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، حجة بينة على صحة دعواكم.

﴿١١﴾ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، بالنبوة والحكمة ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقد عرفنا أن لا ينالنا شيء إلا بقضائه وقدره، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾، بين لنا الرشد وبصّرنا طريق النجاة. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾، اللام لام القسم مجازه، والله لنصبرن، ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، يعنون، إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١٤) ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: [من] بعد هلاكهم، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: خاف قيامه بين يدي كما قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأضاف قيام العبد إلى نفسه.

كما تقول: ندمت على ضربك أي على ضربي إياك، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي عقابي.

(١٥) قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصروا.

قال ابن عباس ومقاتل: يعني الأمم وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال مجاهد وقتادة: واستفتحوا يعني الرسل وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، الآية.

﴿وَخَابَ﴾، وخسر. وقيل: هلك، ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والجبار: الذي لا يرى فوقه أحداً. والجبرية: طلب العلو بما لا غاية وراءه. وهذا الوصف لا يكون إلا لله عزّ وجلّ.

وقيل: الجبار: الذي يجبر الخلق على مراده، والعنيد: المعاند للحق ومجانبه. قاله مجاهد، وعن ابن عباس: هو المعرض عن الحق. وقال مقاتل: هو المتكبر.

وقال قتادة: العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامه كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم. قال أبو عبيدة: هو من الأضداد.

وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك، وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه.

وقال مقاتل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي بعده، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: من ماء هو صديد وهو ما يسيل من أبدان الكفار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب: ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر.

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة جرعة لمرارته وحرارته، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، ويكاد صلة أي لا يسيغه، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يرها، قال ابن عباس: لا يجيزه. وقيل: معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه.

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، قال: «يقرب إلى فيه فيتكرهه فإذا أُدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى يخرج من دبره»، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، يعني: يجدُ همَّ الموت وألمه من كل مكان من أعضائه.

قال إبراهيم التيمي: حتى من تحت كل شعرة من جسده.

وقيل: يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، فيستريح قال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته ولا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة. نظيرها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣]، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾، أمامه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، شديد.

وقيل: العذاب الغليظ الخلود في النار.

(١٨) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يعني: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة، ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، وصف اليوم

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

بالعصوف، والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيها، كما يقال: يوم حار ويوم بارد، لأن الحر والبرد فيه. وقيل: معناه في يوم عاصف الريح، فحذف الريح لأنها قد ذكرت من قبل، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يريد أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به، فذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾، يعني: الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾، في الدنيا، ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، في الآخرة، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «خالق السموات والأرض» وفي سورة النور «خالق كل دابة» مضافاً، وقرأ الآخرون «خلق» على الماضي «والأرض» وكل بالنصب، و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً وإنما خلقهما لأمر عظيم، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، سواكم أطوع لله منكم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾، منيع شديد، يعني أن الأشياء تسهل في القدرة ولا يصعب على الله شيء وإن جلّ وعظُم.

﴿٢١﴾ قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعاً، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾، يعني الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾، أي: تكبروا على الناس وهم القادة والرؤساء، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع تابع مثل حرس وحارس، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾، دافعون، ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟﴾، يعني القادة للمتبوعين، ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾، أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى، فلما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، مهرب ولا منجاة.

قال مقاتل: يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام، فلا ينفعهم الجزع، ثم يقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر، فحينئذٍ يقولون ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝﴾ [غافر: ٤٩]، فردت الخزنة عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، فردت الخزنة عليهم [قالوا]: ﴿فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠] فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، فلما أيسوا مما قبله قال بعضهم لبعض إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلموا فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم، فأجمعوا على الصبر، فطال صبرهم ثم جزعوا فطال جزعهم فنادوا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من منجاة. قال فقام إبليس عند ذلك فخطبهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝﴾ [غافر: ١٠]، قال فنادوا الثانية ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فرد عليهم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] الآيات، فنادوا الثالثة: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾، فرد

عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] الآيات، ثم نادوا الرابعة: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، الآية قال: ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فلما سمعُوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۞ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال عند ذلك: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٥ ـ ١٠٨] فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء عنهم، فأقبل بعضهم على بعض ينفخ بعضهم في وجوه بعض وأطبقت عليهم النار.

(٢٢) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، يعني: إبليس، ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال مقاتل: يوضع له منبر في النار فيرقاه فيجتمع عليه الكفار بالأئمة فيقول لهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾، فوفى لكم به، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

وقيل: يقول لهم قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، ولاية.

وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: لكن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾، بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾، بمغيثكم، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾، بمغيثي.

قرأ الأعمش وحمزة «بمصرخي» بكسر الياء، وقرأ الآخرون بالنصب لأجل التضعيف، ومن كسر فلالتقاء الساكنين، حركت إلى الكسر لأن الياء أخت الكسرة، وأهل النحو لم يرضوه، وقيل: إنه لغة بني يربوع. والأصل «بمصرخيني» فذهبت النون لأجل الإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت بجعلكم إياي شريكاً في عبادته وتبرأت من ذلك، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الكافرين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبدالله بن محمود، ثنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن رشدين بن سعد، أخبرني عبدالرحمن بن زياد، عن دخين الحَجْري، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: «يقول عيسى عليه السلام ذلكم النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمّها أحد حتى آتي ربي عزّ وجلّ فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظهر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا؟ فيقولون ما هو غير إبليس، هو الذي أضلنا، فيأتونه فيقولون له قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد، ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية».

(٢٣) قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، يسلم بعضهم على بعض، وتسلم الملائكة عليهم. وقيل: المحيي بالسلام هو الله عزّ وجلّ.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، ألم تعلم، والمثل قولٌ سائر لتشبيه شيء بشيء. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، هي قول: لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمر.

وقال ظبيان عن ابن عباس: هي شجرة في الجنة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، في الأرض، ﴿وَفَرْعُهَا﴾، أعلاها، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، كذلك أصل هذه الكلمة: راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

﴿٢٥﴾ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾، تعطي ثمرها، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، والحين في اللغة هو الوقت، وقد اختلفوا في معناه ههنا فقال مجاهد وعكرمة: الحين ههنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر كل سنة.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى صرامها. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها.

وقال سعيد بن المسيب: شهران من حين تؤكل إلى الصرام.

وقال الربيع بن أنس: كل حين أي كل غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً، وصيفاً وشتاء، إما تمراً أو رطباً أو بسراً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبداً، بل تصل إليه في كل وقت. والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون بثلاثة أشياء: عِرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان... لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنبأنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنبأنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حُجر، ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا عبدالله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي»؟ قال عبدالله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة» قال عبدالله فذكرت ذلك لعمر فقال: لأن تكون قلت هي النخلة كان أحب إلي من كذا وكذا.

وقيل الحكمة في تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار أن النخلة [من دون سائر الأشجار] أشبه الأشجار بالإنسان من حيث أنها إذا قطع رأسها يبست وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام.

ولذلك قال النبي ﷺ: «أكرموا عمتكم» قيل: ومن عمتنا؟ [يا رسول الله] قال: «النخلة» ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾. وهي الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وهي الحنظل. وقيل: هي الثوم. وقيل: [هي] الكشوث وهي العشقة، ﴿اجْتُثَّتْ﴾، يعني اقتلعت، ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، ثبات، معناه وليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

﴿٢٧﴾ قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، كلمة التوحيد وهي قول لا إله إلا الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني قبل الموت، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، يعني في القبر هذا قول أكثر المفسرين وقيل: في الحياة الدنيا عند السؤال في القبر، وفي الآخرة عند البعث. والأول أصح.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو الوليد، ثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، فذلك قوله

تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن بشار، ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك فيقول ربي الله، ونبيي محمد، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية.

وأخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عياش بن الوليد، ثنا عبدالأعلى، ثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنّه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان [له] ما كنت تقول في هذا الرجل، لمحمد ﷺ، فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره - ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، ثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنبأنا أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ، ثنا عبدالله بن سعيد، ثنا أسد بن موسى، ثنا عنبسة بن سعيد بن كثير، حدثني جدي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يسمع حِسَّ النعال إذا ولى عنه الناس مدبرين، ثم يجلس ويوضع كفنه في عنقه ثم يسأل».

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير، فيقولان [له] ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان له: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نَمْ فيقول أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً أو كافراً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك».

وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن وقال: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد فينتهرانه ويقولان له الثانية: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فيثبته الله عزّ وجلّ، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ فينادي منادٍ من السماء: أنْ صدق عبدي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا أبو العباس عبدالله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام، أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي، ثنا إبراهيم بن موسى الفراء أبو إسحاق، ثنا هشام بن يوسف ثنا عبدالله بن يحيى عن هانيء مولى عثمان عن عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل».

وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يبكي: فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فسنوا علي التراب سناً ثم أقيموا

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)

حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمه حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي.

قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يهدي الله المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، من التوفيق والخذلان والتثبيت وترك التثبيت.

(٢٨) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] الآية.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: هم والله كفار قريش.

وقال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله.

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: البوار يوم بدر، قوله: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] أي: غيّروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعثه الله منهم ﴿كُفْرًا﴾ كفروا به ﴿وَأَحَلُّوا﴾ أي: أنزلوا قومهم وممّن تابعهم على كفرهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: الهلاك، ثم بين دار البوار فقال.

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، يدخلونها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، المستقر وعن علي كرم الله وجهه: الذين بدلوا نعمة الله كفراً هم كفار قريش نحروا يوم بدر.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أمثالاً وليس لله تعالى ند، ﴿لِّيُضِلُّوا﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج [٩] وفي سورة لقمان [٦] والزمر [٨] ﴿لِيَضِلُّوا﴾ وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس، ﴿عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا﴾، عيشوا في الدنيا، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، قال الفراء: هذا جزم على الجزاء، ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، مخاللة وصداقة، قرأ ابن كثير، وابن يعقوب: «لا بيعَ فيه وخلالَ» بالنصب فيهما على النفي العام. وقرأ الباقون «لا بيعٌ ولا خلالٌ» بالرفع والتنوين.

(٣٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، بإذنه. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾، ذللها لكم، تجرونها حيث شئتم.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾، يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران، قال ابن عباس دؤوبهما في طاعة الله عزّ وجلّ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة.

(٣٤) ﴿وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، يعني: آتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فحذف الشيء الثاني اكتفاء بدلالة الكلام، على التبعيض.

وقيل: هو على التكثير نحو قولك: فلان يعلم كل شيء، وآتاه كل الناس، وأنت تريد بعضهم نظيره قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقرأ الحسن ﴿مِّن كُلٍّ﴾ بالتنوين ﴿مَا﴾ على النفي يعني من كل ما لم تسألوه، يعني: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها،

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: نعم الله، ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾، أي: لا تطيقوا عدها ولا القيام بشكرها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، أي: ظالم لنفسه بالمعصية، كافر بربه عزّ وجلّ. في نعمته وقيل: الظلوم الذي يشكر غير من أنعم عليه، والكافر: من يجحد منعمه.

(٣٥) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾، يعني: الحرم، ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن يؤمن فيه، ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾، أبعدني، ﴿وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، يقال: جنبته الشيء وأجنبته جنباً وجنّبته تجنيباً، واجتنبته اجتناباً بمعنى واحد. فإن قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟ وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة؟ قيل: الدعاء في حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه، ولم يعبد منهم أحد الصنم. وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعني: ضل بهن كثيرٌ من الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهن، وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفكم بأوليائه. وقيل: نسب الإضلال إلى الأصنام لأنهن سبب فيه، كما يقول القائل فتنتني الدنيا، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها سبب الفتنة. ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾، أي: من أهل ديني وملتي، ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال السدي: معناه ومن عصاني ثم تاب، وقال مقاتل بن حيان: ومن عصاني فيما دون الشرك. وقيل: قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك.

(٣٧) قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾، أدخل «من» للتبعيض ومجاز الآية أسكنت من ذريتي ولداً، ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، وهو مكة؛ لأن مكة وادٍ بين جبلين، ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، سماه محرماً لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن محمد، ثنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب السختياني وكثير ابن أبي كثير بن المطلب بن أبي وداعة ـ يزيد أحدهما على الآخر ـ عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لِتُعَفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبط أو قال يتلوى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعتَ صوتاً فقالت: صه ـ تريد نفسها ـ، ثم تسمعت فسمعته أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، أو جعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء في

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

سقائها لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا إنّ هذا الطائر ليدور على ماء، ولعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريّاً أو جريّين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وكان أنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته. ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾، الأفئدة جمع الفؤاد ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، تشتاق وتحن إليهم. قال السدي: معناه أملْ قلوبهم إلى هذا الموضع، قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال: «أفئدة من الناس» فهم المسلمون. ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾، ما رزقت سكان القرب ذوات الماء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، من أمورنا. وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، قيل: هذا كله قول إبراهيم متصل بما قبله. وقال الأكثرون: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾، أعطاني على كبر السن، ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: بُشّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة.

﴿٤٠﴾ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، يعني: ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، يعني: واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾، أي عملي وعبادتي، سمّى العبادة دعاءً، وجاء في الحديث: «الدعاء مخ العبادة» وقيل: معناه استجب دعائي.

﴿٤١﴾ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾، فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟ قيل قد قيل إن أمه أسلمت، وقيل: أراد إن أسلما وتابا، وقيل: قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه وقد بيّن الله عذر خليله في استغفاره لأبيه في سورة التوبة [١١٤]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: واغفر للمؤمنين كلهم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، أي: يبدو ويظهر. وقيل: أراد يوم يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً.

﴿٤٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور و[في] الآية تسلية للمظلوم وتهديداً للظالم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، أي لا تغمض من هول ما ترى في ذلك

اليوم، وقيل: ترتفع وتزول عن أماكنها.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾، قال قتادة: مسرعين. قال سعيد بن جبير: الإهطاع النَّسَلان كعَدْوِ الذئب، قال مجاهد: مديمي النظر.

ومعنى الإهطاع أنهم لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ولا يعرفون مواطن أقدامهم، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، أي: رافعي رؤوسهم.

قال القتيبي: المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل بصره على ما بين يديه.

وقال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾، أي: خالية.

قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم، لا تخرج عن أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، فالأفئدة هواء لا شيء فيها ومنه سمي ما بين السماء والأرض هواء لخلوه، وقيل: خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من الخوف.

وقال الأخفش: جوفاء لا عقول لها. والعرب تسمي كل أجوف خاوٍ هواء. وقال سعيد بن جبير: وأفئدتهم هواء أي: مترددة تمور في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه، وحقيقته المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

(٤٤) ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾، خوّفهم، ﴿يَوْمَ﴾، أي: بيوم، ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أشركوا، ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾، أمهلنا، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، هذا سؤالهم الرد إلى الدنيا، أي: ارجعنا إليها، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾، حلفتم في دار الدنيا، ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، عنها أي: لا تبعثون. وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ﴾، في الدنيا، ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، بالكفر والعصيان، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾، أي: عرفتم عقوبتنا إيّاهم، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾، أي: بينا مثلكم كمثلهم.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، أي: جزاء مكرهم، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾، قرأ علي وابن مسعود: ﴿وَإِن كَادَ مَكْرُهُمْ﴾ بالدال، وقرأ العامة بالنون.

﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾، قرأ العامة «لتزول» بكسر اللام الأولى ونصب الثانية، معناه: وما كان مكرهم قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال.

وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال. وقرأ ابن جريج والكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معناه: إن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلاً يزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد ﷺ.

قال قتادة: معناه وإن كان شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩١].

ويُحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معنى الآية: أنها نزلت في نمرود الجبار الذي حاج إبراهيم في ربه، وذلك أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور فرباها حتى شبت واتخذ تابوتاً وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل، وقعد نمرود مع رجل في التابوت ونصب خشبات في أطراف التابوت، وجعل على رؤوسها اللحم وربط التابوت بأرجل النسور، وخلاّها فطرن وصعدن طمعاً في اللحم حتى مضى يوم وأبعدن في الهواء، فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربناها، ففتح الباب ونظر فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها؟ ففعل، فقال أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان فطارت النسور يوماً آخر، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغية أين تريد؟ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم ملطخاً بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء. وقيل: طائر أصابه السهم، فقال: كفيت شغل إله السماء، قال: ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات وينكس اللحم، ففعل، فهبطت النسور بالتابوت، فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور، ففزعت وظنت أنه

قد حَدَثَ حدثٌ من السماء، وأن الساعة قد قامت، فكادت تزول عن أماكنها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

(٤٧) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

(٤٨) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا خالد بن مخلد عن محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدثني أبو حازم [سلمة] بن دينار عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ كقرصة النقي ليس فيها عَلَم لأحد».

وأخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بُكير، ثنا الليث، عن خالد هو ابن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة».

وعن ابن مسعود في هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل فيها خطيئة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب.

وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقيل: معنى التبديل جعل السموات جناناً وجعل الأرض نيراناً.

وقيل: تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة أخرى، وهي تسيير جبالها، وطم أنهارها وتسوية أوديتها، وقلع أشجارها، وجعلها قاعاً صفصفاً، وتبديل السموات تغييرها عن حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا علي بن مسهر، عن داود وهو ابن أبي هند، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط».

وروي عن ثوبان أن حبراً من أحبار اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «هم في الظلمة دون الجسر».

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾، خرجوا من قبورهم، ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(٤٩) ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾، مشدودين بعضهم ببعض، ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾، في القيود والأغلال واحدها صفد، وكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته.

قال أبو عبيدة: صفدت الرجل فهو مصفود وصفدته بالتشديد فهو مصفد.

وقيل: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، بيانه قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، يعني: قرناءهم من الشياطين وقيل: معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود، ومنه قيل للحَبْل قرن.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾، أي: قُمُصهم، واحدها سربال. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو ما تهنأ به الإبل، وقرأ عكرمة ويعقوب ﴿من قِطرٍ آنٍ﴾ على كلمتين منونتين، والقطر النحاس والصفر المذاب، والآن الذي انتهى حره، قال الله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، أي: تعلو.

(٥١) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، من خير وشر، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(٥٢) ﴿هَٰذَا﴾، أي: هذا القرآن، ﴿بَلَاغٌ﴾، أي: تبليغ وعظة، ﴿لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا﴾، وليخوفوا، ﴿بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أي: ليتعظ أولو العقول.

❁ ❁ ❁

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

سُورَةُ الحِجْر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

٢٦٢

سورة الحجر

مكية وهي تسعة وتسعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الٓر﴾ قيل معناه أنا الله أرى، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ أي: وآيات قرآن، ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بين الحلال من الحرام والحق من الباطل، فإن قيل: لم ذكر الكتاب ثم قال ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ وكلاهما واحد؟ قلنا: قد قيل كل واحد منهما يفيد فائدة أخرى فإن الكتاب ما يكتب والقرآن ما يجمع بعضه إلى بعض.

وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب.

﴿٢﴾ ﴿رُّبَمَا﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها، وهما لغتان، ورُبَّ للتقليل وكم للتكثير، ورُبَّ تدخل على الاسم، وربما على الفعل، يقال: رب رجل جاءني، وربما جاءني رجل، وأدخل ما ههنا للفعل بعدها. ﴿يَوَدُّ﴾، يتمنى، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام، قال الضحاك: حالة المعاينة. وقيل: يوم القيامة. والمشهور أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار.

وروي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار، قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيغفر الله لهم بفضل رحمته، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين».

فإن قيل: كيف قال «ربما» وهي للتقليل وهذا التمني يكثر من الكفار؟ قلنا: قد تذكر «ربما» للتكثير أو أراد أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحياناً.

﴿٣﴾ ﴿ذَرْهُمْ﴾، يا محمد يعني الذين كفروا، ﴿يَأْكُلُوا۟﴾ في الدنيا، ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾، من لذاتها ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾، يشغلهم، ﴿ٱلْأَمَلُ﴾، عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد.

وقال بعض أهل العلم: ذرهم تهديد وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، تهديد آخر، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين. والآية نسختها آية القتال.

﴿٤﴾ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾، أي: من أهل قرية، ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۞ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه ولا يتأخروا عنه.

﴿٥﴾ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾، مِن صلة أي: ما تسبق أمة أجلها، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب. وقيل: الأجل المضروب.

﴿٦﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: مشركي مكة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، أي: القرآن، وأرادوا به محمداً ﷺ، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء.

﴿٧﴾ ﴿لَّوْ مَا﴾، هلا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، شاهدين لك بالصدق على ما تقول إن الله أرسلك، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، إنك نبي.

﴿٨﴾ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين «الملائكة» ونصب، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي وبرفع «الملائكة»، وقرأ الباقون بالتاء وفتحها وفتح الزاي ورفع

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)

٢٦٣

«الملائكة». ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب ولو نزلت يعني الملائكة لعجلوا بالعذاب، ﴿وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي: مؤخرين وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه أنهم لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال.

(٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾، يعني القرآن، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه، أو يبدلوا، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] والباطل: هو إبليس، لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه. وقيل: الهاء في ﴿لَهُ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

(١٠) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾، أي: رسلاً، ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: في الأمم والقرونُ الماضية والشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم على رأي واحد.

(١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي ﷺ.

(١٢) ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه: ندخله، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾، يعني مشركي مكة قومك، وفيه رد على القدرية.

(١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: وقائع الله تعالى بالإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية، يخوّف أهل مكة.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾، يعني: على الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة، ﴿بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي فظلت الملائكة يعرجون فيها، وهم يرونها عياناً، هذا قول الأكثرين. وقال الحسن: معناه فظل هؤلاء الكفار يعرجون فيه أي: يصعدون. والأول أصح.

(١٥) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾، سُدت، ﴿أَبْصَارُنَا﴾، قاله ابن عباس. وقال الحسن: سُحرت وقال قتادة أُخذت، وقال الكلبي: عميت.

وقرأ ابن كثير «سُكِرَت» بالتخفيف، أي: حُبست ومُنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد ـ ﷺ ـ.

(١٦) قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾، والبروج هي النجوم الكبار، مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة إذا ظهرت، وأراد بها: المنازل التي تنزلها الشمس، والقمر، والكواكب السيارة، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. وقال عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾، أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم. ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾.

(١٧) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾، مرجوم. وقيل: ملعون، قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة ما سمعوا فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب، فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس، فقال: لقد حدث في الأرض حدث، قال: فبعثهم [ينظرون ما الخبر] فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو

القرآن، فقالوا: هذا والله ما حدث.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾، لكن من استرق السمع، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، والشهاب الشعلة من النار وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة، فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبداً، فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضل الناس في البوادي.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا ـ بعضهم فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع أحدهم الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد حدثنا ابن أبي مريم، ثنا الليث، ثنا ابن جعفر، عن محمد بن عبدالرحمن، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العَنَان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحي إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».

واعلم أن هذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساساً لنبوته عليه السلام.

وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إن أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف، وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أهدى العرب، فقالوا له: ألم ترَ ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي ـ والله ـ طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها، وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق.

قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] الآية؟ قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ.

وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ـ ﷺ ـ ولكن لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه. وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه، والله أعلم.

(١٩) قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، بسطناها على وجه الماء، يقال: إنها مسيرة خمسمائة عام في مثلها دحيت من تحت الكعبة. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، جبالاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾، أي: في الأرض، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾، مقدَّر معلوم.

وقيل: يعني في الجبال، وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزناً. وقال ابن زيد: هي الأشياء التي توزن وزناً.

(٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾، جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس. وقيل: ما يعيش به الآدمي في الدنيا، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾، أي: جعلنا فيها معايش من لستم له برازقين من الدواب والأنعام، أي: جعلناها لكم وكفيناكم رزقها و﴿من﴾ في الآية بمعنى ما، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ [النور: ٤٥]، وقيل: «من»

في موضعها؛ لأنه أراد المماليك مع الدواب. وقيل: «من» في محل الخفض عطفاً على الكاف والميم في «لكم».

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾، أي: وما من شيء، ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾، أي مفاتيح خزائنه. وقيل: أراد به المطر، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، لكل أرض حد مقدر، ويقال: ما تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها [إلى] حيث يريد الله عزّ وجلّ ويشاء، وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: في العرش مثال جميع ما خلق الله في البرّ والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد. قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمرّ به السحاب فيدرّ كما تدر اللقحة ثم تمطر. وقال أبو عبيدة: أراد باللواقح الملاقح واحدتها ملقحة، لأنها تلقح الأشجار، قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشرة فتقمّ الأرض قمّاً ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلّفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر. وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه، فالصبا تهيجه والشمال تجمعه، والجنوب تذره، والدبور تفرقه، وفي الخبر: أن اللقح رياح الجنوب. وفي بعض الآثار: ما هبت ريح الجنوب إلا وانبعثت عيناً غدقة. وأما الريح العقيم: فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا من لا أتهم، ثنا العلاء بن راشد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً».

قال ابن عباس: في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]. وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال: ﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، أي: جعلنا المطر لكم سقياً، يقال: أسقى فلان فلاناً إذا جعل له سقياً: وسقاه: إذا أعطاه ما يشرب. وتقول العرب: سقيت الرجل ماءً ولبناً إذا كان لسقيه، فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ودوابه تقول: أسقيته. ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾، يعني المطر في خزائننا لا في خزائنكم، وقال سفيان: بمانعين.

﴿٢٣﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾، بأن نميت جميع الخلائق، فلا يبقى حي سوانا، والوارث من صفات الله عزّ وجل، قيل الباقي بعد فناء الخلق. وقيل: معناه أن مصير الخلق إليه.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء.

قال الشعبي: الأولين والآخرين، وقال عكرمة: المستقدمون مَنْ خَلَقَ الله، والمستأخرون من لم يخلق الله. قال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمدﷺ. وقال الحسن: المستقدمون في الطاعة والخير، والمستأخرون المبطئون عنها. وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها.

وذلك أن النساء كن يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال ليقرب من النساء، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال. فنزلت هذه الآية.

وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها».

وقال الأوزاعي: أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره. وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال، وقال ابن عيينة: أراد من يسلم ومن لا يسلم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، على ما علم منهم. وقيل: يميت الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين.

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبدالملك المؤذن، أنا أبو سعيد الصيرفي، ثنا أبو العباس الأصم، ثنا

أحمد بن عبدالجبار، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله عليه».

﴿٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، يعني: آدم عليه السلام سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه. وقيل: من النسيان لأنه عهد إليه فنسي. ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾، وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلةً، أي: صوتاً. قال ابن عباس: هو الطين الحر الطيب، الذي إذا نضب عنه الماء تشقق، فإذا حرك تقعقع. وقال مجاهد: هو الطين المنتن. واختاره الكسائي، وقال: هو مِنْ صَلَّ اللحم وأَصَلَّ، إذا أنتن، ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾، والحمأ: الطين الأسود، ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: متغير. قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغير. وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء إي صببته.

قال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن، جعل صلصالاً كالفخار.

وفي بعض الآثار: إن الله عزّ وجلّ خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيراً أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾، قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر. وقال قتادة: هو إبليس خلق قبل آدم.

ويقال: الجان: أبو الجن وإبليس أبو الشياطين، وفي الجن مسلمون وكافرون، ويحيون ويموتون، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون، ويموتون إذا مات إبليس.

وذكر وهب: إن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون. ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، والسموم ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله. يقال: السموم بالنهار والحرور بالليل. وعن الكلبي عن أبي صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أراد الله أن يحدث أمراً خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به، فالهدة التي تسمعون في خرق ذلك الحجاب. وقيل: نار السموم لهب النار. وقيل: من نار السموم أي: من نار جهنم.

وعن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السَّموم، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا من النور.

﴿٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾، أي: سأخلق بشراً، ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، عدلت صورته، وأتممت خلقه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، فصار بشراً حياً، والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان، أضاف الروح إلى نفسه تشريفاً، ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، سجود تحية لا سجود عبادة.

﴿٣٠﴾ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، الذين

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

٢٦٤

أمروا بالسجود، ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، فإن قيل: لِمَ قال ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟ قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيداً، وذكر المبرد أن قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر كلهم ليزول هذا الإشكال، ثم كان يحتمل أنهم سجدوا في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجلّ قال لجماعة من الملائكة: اسجدوا لآدم، فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم، فسجدوا.

﴿٣١﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ

خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، أراد إني أفضل منه لأنه طيني وأنا ناري والنار تأكل الطين.

٣٤ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، طريد.

٣٥ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون في السماء والأرض.

٣٦ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أراد الخبيث أن لا يموت.

٣٧ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

٣٨ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾، أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى. ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهي ما بين النفختين، ويقال: إنه لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه.

٣٩ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، أضللتني. وقيل: خيبتني من رحمتك، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، حب الدنيا ومعاصيك، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، أي: لأضلنهم، ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

٤٠ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، المؤمنين الذين اخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح اللام أي: من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته.

٤١ ﴿قَالَ﴾، الله تعالى، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال الحسن: معناه صراط [إليّ] مستقيم وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله تعالى، وعليه طريقه، لا يعوج عليه شيء.

وقال الأخفش: يعني عليَّ الدلالة على الصراط المستقيم. قال الكسائي: هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه: طريقك عليّ، أي: لا تفلت مني، كما قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية، وقرأ ابن سيرين، وقتادة، ويعقوب: «عليٌّ» من العلو أي: رفيع، وعبر بعضهم عنه: رفيع أن ينال مستقيم أن يمال.

٤٢ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: قوة. قال أهل المعاني: يعني على قلوبهم. وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي ومغفرتي. وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم. ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

٤٣ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعني موعد إبليس ومن تبعه.

٤٤ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾، أطباق. قال علي كرم الله وجهه: تدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى، أي: سبعة أطباق بعضها فوق بعض، وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران أطباق بعضها فوق بعض. قال ابن جريج: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أي: لكل دركة قوم يسكنونها. وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «ولجهنّم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد».

٤٥ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: في بساتين وأنهار.

٤٦ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم ادخلوا الجنة، ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، أي: بسلامة ﴿ءَامِنِينَ﴾، من الموت والخروج والآفات.

٤٧ ﴿وَنَزَعْنَا﴾، أخرجنا، ﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد، ﴿إِخْوَٰنًا﴾، نصب على الحال، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه. وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا وَدّ أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

٤٨ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾، لا يصيبهم، ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾، أي: تعب [ومشقة] ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، هذه أنص آية في القرآن على الخلود.

﴿٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، قال ابن عباس: يعني لمن تاب منهم.

وروي أن النبي ﷺ خرج يوماً على نفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار»، فنزل جبريل بهذه الآية وقال: «يقول لك ربك يا محمد لِمَ تقنط عبادي من رحمتي».

﴿٥٠﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

قال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا يعقوب بن عبدالرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

﴿٥١﴾ قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: عن أضيافه وهم الملائكة والضيف اسم يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط.

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

٢٦٥

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ﴾، إبراهيم، ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، أي: غلام في صغره عليم في كبره يعني إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ أي: بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾، أي: على حال الكِبَر، قاله على طريق التعجب، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، فبأي شيء تبشرون؟ قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها أي: تبشرونِ، وقرأ ابن كثير بكسرها وبتشديد النون أي تبشرونني، ادغمت نون الجمع في نون الإضافة، وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها.

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر النون والآخرون بفتحها وهما لغتان قنِط يقنَط وقنَط يقنِط أي: ييأس، ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أي: الخاسرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره.

﴿٥٧﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم، ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، ما شأنكم، ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، مشركين.

﴿٥٩﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾، أتباعه وأهل دينه، ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، خفف الجيم حمزة والكسائي وشدده الباقون.

﴿٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾، أي: امرأة لوط، ﴿قَدَّرْنَآ﴾، قضينا، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، الباقين في العذاب، والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين، قرأ أبو بكر «قدرنا» ههنا وفي سورة النمل بتخفيف الدال. والباقون بتشديدها.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

٢٦٦

﴿٦٢﴾ ﴿قَالَ﴾، لوط لهم، ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنا لا أعرفكم.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: يشكون في أنه نازل بهم، وهو العذاب لأنه كان يوعدهم بالعذاب فلا يصدقونه.

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، باليقين. وقيل: بالعذاب، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي سر خلفهم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم. وقيل: جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لـوط، ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، قال ابن عباس: يعني الشام. وقال مقاتل: يعني زُغر. وقيل: الأردن.

﴿٦٦﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: فرغنا إلى آل لوط من ذلك الأمر، أي: أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يدل عليه قراءة عبدالله: «وقلنا له إن دابر هؤلاء» يعني أصلهم، ﴿مَقْطُوعٌ﴾، مستأصل، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾، إذا دخلوا في الصبح.

﴿٦٧﴾ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾، يعني مدينة سدوم، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، بأضياف لوط أي: يبشر بعضهم بعضاً طمعاً في ركوب الفاحشة منهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالَ﴾، لـوط لقومه، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي﴾، وحق على الرجل إكرام ضيفه، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، فيهم.

﴿٦٩﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾، ولا تُخجلون.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين. وقيل: ألم ننهك أن تُدخل الغرباء بالمدينة، فإنا نركب منهم الفاحشة.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ أزوجهن إياكم إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، ما آمركم به. وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته.

﴿٧٢﴾ قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، يا محمد أي وحياتك، ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾، حيرتهم وضلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾، يترددون، وقال قتادة: يلعبون. روي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياته.

﴿٧٣﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، أي: حين أضاءت الشمس، فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وتمامه حين أشرقوا.

﴿٧٤﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال ابن عباس: للناظرين. وقال مجاهد: للمتفرسين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني قرى قوم لوط، ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: بطريق واضح، وقال مجاهد: بطريق معلم، ليس بخفي ولا زائل.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِن كَانَ﴾، وقد كان ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾، الغيضة، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾، لكافرين، واللام للتأكيد، وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف، وكانت عامة شجرهم الدوم، وهو المُقْل.

﴿٧٩﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، بالعذاب، وذلك أن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث عليهم منها ناراً فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، لبطريق واضح مستبين.

(٨٠) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾، وهي مدينة ثمود قوم صالح، وهي بين المدينة والشام، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أراد صالحاً وحده.

(٨١) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾، يعني: الناقة وولدها والبئر، فالآيات في الناقة، خروجها من الصخرة، وكبرها، وقرب ولادها، وغزارة لبنها، ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾، من الخراب ووقوع الجبل عليهم.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، يعني: صيحة العذاب، ﴿مُصْبِحِينَ﴾، أي: داخلين في وقت الصبح.

(٨٤) ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، من الشرك والأعمال الخبيثة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، ثنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن معمر عن الزهري، أنا سالم بن عبدالله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه لما مر بالحجر قال «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، قال: وتقنّع بردائه وهو على الرحل.

وقال عبدالرزاق عن معمر: «ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي».

(٨٥) قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾، يعني: القيامة ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، فأعرض عنهم واعفُ عفواً حسناً نسختها آية القتال.

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقه.

(٨٧) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، قال عمر وعلي: هي فاتحة الكتاب. وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا ابن أبي ذئب، ثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وعن ابن مسعود قال: السبع المثاني هي فاتحة الكتاب، والقرآن العظيم: هو سائر القرآن، واختلفوا في أن الفاتحة لمَ سميت مثاني، فقال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تُثنى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة. وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين نصفها ثناء ونصفها دعاء.

كما روينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين».

وقال الحسين بن الفضل: سميت مثاني لأنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، كل مرة معها سبعون ألف ملك.

وقال مجاهد: سميت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم.

وقال أبو زيد البلخي: سميت مثاني لأنها تُثني أهل الشر عن الفسق من قول العرب ثنيت عناني. وقيل: لأن أولها ثناء.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة، وآخرها الأنفال مع التوبة. وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي، أنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبدالله بن محمد بن مسلم قالا: أنبأنا هلال بن العلاء، ثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن [أبي] كثير، عن شداد بن عبدالله، عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطولى مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل».

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوتي النبي ﷺ السبع الطوال، وأعطي موسى ستاً فلما ألقى الألواح رفع ثنتان وبقي أربع. قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والشر والعبر والخبر ثنيت فيها.

وقال طاوس: القرآن كله مثاني قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ


الجزء الرابع عشر — سورة النحل

ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

٢٦٧

ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. وسمي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه، وعلى هذا القول المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا وهي القرآن العظيم. وقيل: الواو مقحمة، مجازه: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم.

﴿٨٨﴾ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، يا محمد، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾، أصنافاً، ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار متمنياً لها، نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن العنزي ثنا عيسى بن نصر، أنبأنا عبدالله بن المبارك، أنا جهم بن أوس، قال سمعت عبدالله بن أبي مريم ـ ومرّ به عبدالله بن رستم في موكبه، فقال لابن أبي مريم: إني لأشتهي مجالستك وحديثك، فلما مضى قال ابن مريم: سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: «لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته، إن له عند الله قاتلاً لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبه فأرسل إليه وهب أبا داود الأعور، قال: يا أبا فلان ما قاتلاً لا يموت؟ قال ابن أبي مريم: النار.

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبدالملك المظفري السرخسي، أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه، ثنا أبو الحسن بن إسحاق، ثنا إبراهيم بن عبدالله العبسي، أنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها وذلك أنه لما منَّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا. رُوي أن سفيان بن عُيَيْنة ـ رحمه الله ـ تأول قول النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن أي: من لم يستغن بالقرآن. فتأول هذه الآية. قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أي لين جناحك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وارفق بهم، والجناحان من ابن آدم جانباه.

﴿٨٩﴾ ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال الفراء: مجازه أنذركم عذاباً كعذاب المقتسمين، حكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: هم اليهود والنصارى.

﴿٩١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، جزؤوه: فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرقوه وبدّلوه. وقيل: «المقتسمون»: قوم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم: كذب. وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقيل: الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر، وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أعقاب مكة وأطرافها وقعدوا على أنقابها، يقولون لمن جاء من الحجاج: لا تغتروا بهذا الرجل الخارج الذي يدعي النبوة منّا، وتقول طائفة منهم: إنه مجنون وطائفة: إنه كاهن وطائفة: إنه شاعر والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكماً فإذا سئل عنه قال: صدق أولئك يعني المقتسمين.

قوله: ﴿عِضِينَ﴾ قيل: هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عضّيت

الشيء تعضيةً، إذا فرقته، ومعناه: أنهم جعلوا القرآن أعضاء، فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: كهانة. وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقيل: هو جمع عضة. يقال: عضة وعضين مثل بُرَة وبُرِين وعِزَة وعِزين، وأصلها: عضهة ذهبت هاؤها الأصلية كما نقصوا من الشفة وأصلها: شفهة، بدليل أنك تقول في التصغير شفيهة، والمراد بالعضة الكذب والبهتان. وقيل: المراد بالعضين العَضْهُ، وهو السحر، يريد أنهم سموا القرآن سحراً.

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يوم القيامة.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا قال محمد بن إسماعيل: قال عدة من أهل العلم: عن لا إله إلا الله. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم بهم منهم ولكن يقول: لِم عملتم كذا وكذا؟ اعتمده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، يعني: استعلاماً. وقوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: توبيخاً وتقريعاً. وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف مختلفة يسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]، وقال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

(٩٤) قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، قال ابن عباس: أظهره. ويروى عنه: امضه. وقال الضحاك: أعلم. وقال الأخفش: افرق، أي: افرق بالقرآن بين الحق والباطل. وقال سيبويه: اقض بما تؤمر، وأصل الصدع الفصل، والفرق: أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة. وروي عن عبدالله بن عبيدة [أن النبي ﷺ] كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، نسختها آية القتال.

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاصدع بأمر الله ولا تخف أحداً غير الله عزّ وجلّ، فإن الله كافيك من عاداك كما كفاك المستهزئين.

وهم خمسة نفر من رؤساء قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبدالمطلب بن الحارث بن أسد بن عبدالعزىٰ بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: «اللهم أعم بصره واثكله بولده» والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس بن الطلاطلة فأتى جبريل النبي ﷺ، والمستهزؤن يطوفون بالبيت، فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه، فمرّ به الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا فقال: بئس عبدالله، فقال: قد كفيته، وأومأ إلى ساق الوليد، فمر برجل من خزاعة نبال يريش نبلاً له وعليه بردٌ يماني وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من النبل بإزاره فمنعه الكبر أن [يطأطىء رأسه] فينزعها، وجعلت تضرب ساقه، فخدشته، فمرض منها فمات. ومرّ به العاص بن وائل فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبدالله»، فأشار جبريل إلى أخمص رجليه، وقال: قد كفيته فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطىء على شبرقة فدخلت منها شوكة في أخمص رجله فقال: لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه. ومرّ به الأسود بن المطلب فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال: «عبد سوء» فأشار بيده إلى عينيه، وقال: قد كفيته، فعمي. وقال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك.

وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك، حتى مات، وهو يقول قتلني رب محمد، ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبدالله على أنه ابن خالي»، فقال: قد كفيته، وأشار إلى

بطنه فاستسقى بطنه فمات حيناً.

وفي رواية للكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السَّمُوم فاسود [جلده] حتى عاد حبشياً فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد، ومرّ به الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: «عبد سوء» فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله. وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقد بطنه فمات، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾، بك وبالقرآن.

(٩٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وقيل استهزاؤهم واقتسامهم هو أن الله لما أنزل في القرآن سورة البقرة وسورة النحل وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء هذا في سورة البقرة، وهذا في سورة النحل، وهذا في سورة العنكبوت.

(٩٧) ـ (٩٨) فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، قال ابن عباس: فصل بأمر ربك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، من المصلين المتواضعين، وقال الضحاك: «فسبح بحمد ربك» قل سبحان الله وبحمده «وكن من الساجدين»، يعني: من المصلين. وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

(٩٩) ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، أي الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

أخبرنا المطهر بن علي الفارسي، أنا محمد بن إبراهيم الصالحي، أنا عبدالله [بن] محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ، ثنا أمية بن محمد الصواف البصري، ثنا محمد بن يحيى الأزدي، ثنا أبي والهيثم بن خارجة قالا: ثنا إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي مسلم الخولاني عن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال واكون من التاجرين ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين».

وروي عن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلّة شراها، أو شريت له، بمائتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه». والله أعلم.

❁ ❁ ❁

سورة النحل

مكية مئة وثمان وعشرون آية إلاّ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿أَتَىٰ﴾ أي: جاء ودنا وقرُب، ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، قال ابن عرفة: تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع بعد، أي: أتى أمر الله وعداً ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وقوعاً، ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال الكلبي وغيره: المراد منه القيامة. وقال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما لم ينزل شيء قالوا: ما نرى شيئاً [مما تخوفنا به] فنزل قوله ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، فأشفقوا، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فأنزل الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم [إلى السماء] وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا. والاستعجال: طلب الشيء قبل حينه.

ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بأصبعيه ـ وإن كادت لتسبقني».

قال ابن عباس: كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة ولما مرّ جبريل عليه السلام بأهل السموات مبعوثاً إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر قامت الساعة.

وقال قوم: المراد بالأمر ههنا: عقوبة المكذبين والعذاب بالسيف، وذلك أن النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)

٢٦٨

فأمطر علينا حجارة من السماء، فاستعجل العذاب، فنزلت هذه الآية. وقتل النضر يوم بدر صبراً. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، معناه تعاظم بالأوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾، قرأ العامة بضم الياء وكسر الزاي، ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ نصب. وقرأ يعقوب بالتاء وفتحها وفتح الزاي و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ رفع، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بالوحي، سماه روحاً لأنه يحيى به القلوب والحق. قال عطاء: بالنبوة. وقال قتادة: بالرحمة. وقال أبو عبيدة: بالروح يعني مع الروح وهو جبريل. ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا﴾، أعلموا، ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، وقيل: معناه مروهم بقول لا إله إلا الله منذرين مخوفين بالقرآن إن لم يقولوا. وقوله ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي: فخافون.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: ارتفع عما يشركون.

(٤) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾، جدل بالباطل، ﴿مُبِينٌ﴾، نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم فقال [يا محمد]: اتقول إن الله تعالى يحيى هذا بعد ما قد رم؟ كما قال جل ذكره ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨] نزلت فيه أيضاً. والصحيح أن الآية عامة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحد نعم الله مع ظهورها عليهم.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾، يعني الإبل والبقر والغنم، ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يعني: من أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولُحفاً تستدفئون بها، ﴿وَمَنَافِعُ﴾، بالنسل والدر والركوب والحمل وغيرها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، يعني لحومها.

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾، زينة، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾، أي: حين تردونها بالعشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها، وقدم الرواح لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، أحمالكم، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾، آخر غير بلدكم. قال عكرمة: البلد مكة، ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾، أي: بالمشقة والجهد. والشق: النصف أيضاً أي: لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها. وقرأ أبو جعفر «بشق» بفتح الشين وهما لغتان مثل رطل ورطل. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، بخلقه حيث جعل لكم هذه المنافع.

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ﴾، يعني: وخلق الخيل، وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء، ﴿وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، يعني: وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها. واحتج بهذه الآية من حرم لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس، وتلا هذه الآية، فقال: هذه للركوب، وإليه ذهب الحَكَمُ، ومالك، وأبو حنيفة، وذهب جماعة إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن، وشريح، وعطاء، وسعيد بن جبير، وبه قال الشافعي، وأحمد، وإسحاق، ومن أباحها قال: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منه تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، واحتجوا بما.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد عن عمرو ـ هو ابن دينار ـ عن محمد بن علي

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخص في لحوم الخيل».

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنا أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ، ثنا الحسن بن الفرج، ثنا عمرو بن خالد، ثنا عبدالله بن عبدالكريم، عن عطاءبن أبي رباح، عن جابر، أنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ، ونهى عن لحوم البغال والحمير.

روي عن المقدام بن معدي كرب عن خالد بن الوليد «أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير» وإسناده ضعيف.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قيل: يعني ما أعد الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر. وقال قتادة يعني: السوس في النبات والدود في الفواكه.

(٩) قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يعني: بيان طريق الهدى من الضلالة. وقيل: بيان الحق بالآيات والبراهين، والقصد: الصراط المستقيم. ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يعني: ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوجٌّ، فالقصد من السبيل دين الإسلام، والجائر منها دين اليهودية، والنصرانية، وسائل ملل الكفر. قال جابر بن عبدالله: «قصد السبيل» بيان الشرائع والفرائض. وقال عبدالله بن المبارك وسهل بن عبدالله: قصد السبيل السنة. ومنها جائر الأهواء والبدع، دليله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

(١٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، تشربونه، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾، أي: من ذلك الماء شراب أشجاركم، وحياة نباتكم، ﴿فِيهِ﴾ يعني: في الشجر، ﴿تُسِيمُونَ﴾، ترعون مواشيكم.

(١١) ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي: ينبت الله لكم به، يعني بالماء الذي أنزل، إليكم وقرأ أبو بكر عن عاصم «نُنْبِت» بالنون. ﴿الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾، ذلّل لكم ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾، مذللات، ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بإذنه وقرأ حفص عن عاصم ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع على الابتداء. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾، خلق، ﴿لَكُمْ﴾، لأجلكم، أي: وسخر ما خلق لأجلكم، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، من الدواب والأشجار والثمار وغيرها، ﴿مُخْتَلِفًا﴾، نصب على الحال، ﴿أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، يعتبرون.

(١٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ والمرجان، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، جواري فيه. قال قتادة: مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة. قال الحسن: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: مملوءة. وقال الفراء والأخفش: شواق تشق الماء بجناحيها. قال مجاهد: تمخر السفن الرياح. وأصل المخر: الرفع والشق.

وفي الحديث: «إذا أراد أحدكم البول فليستمخر الريح» أي: لينظر من أين مجراها وهبوبها، فليستدبرها حتى لا يرد عليه البول. وقال أبو

عبيدة: صوائخ، والمخر: صوت هبوب الريح عند شدتها، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: التجارة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، إذا رأيتم صنع الله فيما سخر لكم.

﴿١٥﴾ ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد بكم أي تتحرك وتميل، والميد: هو الاضطراب والتكفؤ ومنه قيل للدوار الذي يعترى راكب البحر: مَيْدٌ، قال وهب: لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: أن هذه غير مقرّة أحداً على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال، ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً وطرقاً مختلفة، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، إلى ما تريدون فلا تضلون عنه.

﴿١٦﴾ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، يعني: معالم الطرق. قال بعضهم: ههنا تم الكلام ثم ابتدأ، ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، قال محمد بن كعب والكلبي: أراد بالعلامات النجوم والجبال فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل. وقال مجاهد: أراد بالكل النجوم، منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به. قال السدي: أراد بالنجوم الثريا، وبنات نعش، والفرقدين، والجدي، يُهتدى بها إلى الطرق والقبلة. وقال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء، لتكون زينة للسماء، ومعالم للطرق، ورجوماً للشياطين. فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾، يعني: الله تعالى، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، يعني: الأصنام، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لتقصيركم في شكر نعمه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث وسّع عليكم النعم، ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، وقرأ عاصم ويعقوب ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أي الأصنام ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، يعني: الأصنام ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾، والقرآن يدل على أن الأصنام تبعث وتجعل فيها الحياة فتتبرأ من عابديها. وقيل: وما يدري الكفار عبدة الأصنام متى يبعثون.

﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، جاحدة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، مستعظمون.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾، حقاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

أخبرنا أبو سعيد بكر بن محمد بن محمد بن محمي البسطامي، أنا أبو الحسن عبدالرحمن بن إبراهيم بن سختويه، أنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهري، ثنا علي بن الحسن بن أبي عيسى الهلالي، ثنا يحيى بن حماد، ثنا شعبة، عن أبان بن تغلب، عن فضيل الفقيمي، عن إبراهيم النخعي، عن علقمة بن قيس، عن عبدالله عن النبي ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبْرٍ، ولا يدخلُ النار من في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟ قال: «إنّ الله جميلٌ يحبُ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغمطُ الناس».

﴿٢٤﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾، يعني: لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عقابها، إذا سأل الحاج: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أحاديثهم وأباطيلهم.

﴿٢٥﴾ ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ﴾، ذنوب أنفسهم، ﴿كَامِلَةً﴾، وإنما ذكر الكمال لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون فيها من الحسنات لا تكفر عنهم شيئاً، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، ما يحملون.

أنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، ثنا العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)

كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً.

(٢٦) قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهو نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء. قال ابن عباس ووهب: كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع.

وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين فهبت ريح وألقت رأسه في البحر، وخرّ عليهم الباقي وهم تحته، ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذٍ فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل.

وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: قصد تخريب بنيانهم من أصولها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ يعني: أعلى البيوت ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، من مأمنهم.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، يهينهم بالعذاب، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾، تخالفون المؤمنون فيهم ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب، وكسر نافع النون من ﴿تُشَاقُّونَ﴾ على الإضافة، والآخرون بفتحها. ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، وهم المؤمنون، ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾، الهوان، ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾، أي: العذاب، ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

(٢٨) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه.

قرأ حمزة «يتوفاهم» بالياء وكذا ما بعده، ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾، بالكفر، ونصب على الحال أي: في حال كفرهم، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وانقادوا وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾، شرك فقال لهم الملائكة، ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قال عكرمة: عنى بذلك من قتل من الكفار ببدر.

(٢٩) ﴿فَادْخُلُوا﴾ أي: يقال لهم ادخلوا ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، عن الإيمان، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون: ساحر، كاهن، شاعر، كذاب، مجنون، ولو لم تلقه خير لك، فيقول السائل: إنا شر وفد إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة فألقاه، فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث.

(٣٠) فذلك قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ يعني: أنزل خيراً، ثم ابتدأ فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، كرامة من الله.

قال ابن عباس: هي تضعيف الأجر إلى العشر. وقال الضحاك: هي النصر والفتح. وقال مجاهد: هي الرزق الحسن.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾، أي ولدار الحال الآخرة، ﴿خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، قال الحسن: هي الدنيا؛ لأن أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة. وقال أكثر المفسرين: هي الجنة، ثم فسرها.

(٣١) فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

(٣٢) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾، مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم. وقيل: معناه إن وفاتهم تقع طيبة سهلة. ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: الملائكة لهم، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾، وقيل: معناه يبلغونهم سلام الله، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٣٣) قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، لقبض أرواحهم،

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، يعني: يوم القيامة، وقيل: العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كفروا [كما كفر الذين من قبلهم]، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتعذيبه إياهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، نزل بهم، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، يعني في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فلولا أن الله رضيها لنا لغيّر ذلك وهدانا إلى غيرها، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أي: ليس إليهم الهداية وإنما إليهم التبليغ.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي: كما بعثنا فيكم، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وهو معبود من دون الله، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾، أي: هداه الله إلى دينه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وجبت [عليه الضلالة] بالقضاء السابق حتى مات على كفره، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: مآل أمرهم، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك.

(٣٧) ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾، يا محمد، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾، قرأ أهل الكوفة «يهدي» بفتح الياء وكسر الدال أي: لا يهدي الله من أضله. وقيل: معناه لا يهتدي من أضله الله، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الدال يعني من أضله الله فلا هادي له كما قال: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: مانعين من العذاب.

(٣٨) قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، وهم منكرو البعث قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: ليظهر لهم الحق فيما يختلفون فيه، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، يقول الله تعالى: إذا أردنا أن نبعث الموتى لا تعب علينا في إحيائهم ولا في شيء مما يحدث إنما نقول له: كن فيكون.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن همام بن منبه، ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كذبني عبدي، ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي أن يقول لن يعيدنا كما بدأنا، وأما شتمه إيّاي أن يقول اتخذ الله ولداً، وأنا الصمد، لم ألد، ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد».

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

٢٧١

(٤١) قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، عذبوا وأوذوا في الله.

نزلت في بلال، وصهيب، وخباب، وعمّار، وعابس، وجبر، وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم. وقال قتادة: هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، وهو أنه أنزلهم المدينة.

الجزء الرابع عشر　سورة النحل

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾

٢٧٢

روي أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم تلا هذه الآية.

وقيل: معناه لنحسننّ إليهم في الدنيا. وقيل: الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية. ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾. وقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه.

﴿٤٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، في الله على ما نابهم، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾، نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، يعني مؤمني أهل الكتاب، ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾، واختلفوا في الجالب للباء في قوله ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: هي راجعة إلى قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾، وإلا بمعنى غير. مجازه: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يُوحى إليهم ولم نبعث ملائكة.

وقيل: تأويله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر. ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، أراد بالذكر الوحي وكان النبي ﷺ مبيناً للوحي وبيان الكتاب يطلب من السنة، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾، عملوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، من قبل يعني نمرودَ بن كنعان وغيره من الكفار، ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ﴾، بالعذاب ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، تصرفهم في الأسفار. وقال ابن عباس: في اختلافهم. وقال ابن جريج: في إقبالهم وإدبارهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بسابقين الله.

﴿٤٧﴾ ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، والتخوف: التنقيص، أي: ينقص من أطرافهم ونواحيهم شيئاً بعد شيء حتى يهلك جميعهم، يقال: تخوّفه الدهر وتخوّنه: إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه، ويقال: هذه لغة بني هذيل. وقال الضحاك والكلبي: هو من الخوف، أي: يعذب طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيرهم مثل ما أصابهم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، حين لم يعجل بالعقوبة.

﴿٤٨﴾ قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب وكذلك في سورة العنكبوت ١٩ و٦٧، والآخرون بالياء خبراً عن الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من شيء من جسم قائم له ظل، ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء، والآخرون بالياء. ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾، أي: تميل وتدور من جانب إلى جانب فهي في أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى سجداً لله، فميلانها ودورانها: سجودها لله عزّ وجلّ. ويقال للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء، أي: رجع من المغرب إلى المشرق، فالفيء الرجوع، والسجود الميل. يقال: سجدت النخلة إذا مالت. قوله عزّ وجلّ: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾، قال قتادة والضحاك: أما اليمين فأول النهار والشمال آخر النهار، تسجد الظلال لله.

وقال الكلبي: الظل قبل طلوع الشمس عن يمينك وعن شمالك وقدامك وخلفك، وكذلك إذا غابت، فإذا طلعت كان من قدامك، وإذا ارتفعت كان عن يمينك، ثم بعده كان خلفك، فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك، فهذا

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

تفيؤه وتقلبه وهو سجوده. وقال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله.

وقيل: المراد من الظلال سجود الأشخاص فإن قيل لم وحّد اليمين وجمع الشمائل؟ قيل: من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقيل: اليمين يرجع إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ ولفظ «ما» واحد والشمائل: جمع يرجع إلى المعنى. ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾، صاغرون.

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، إنما أخبر بما لغلبة ما لا يعقل على من يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث، ﴿مِن دَابَّةٍ﴾، أراد من كل حيوان يدب.

ويقال: السجود: الطاعة، والأشياء كلها مطيعة لله عزّ وجلّ من حيوان وجماد، قال الله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقيل: سجود الأشياء تذللها وتسخرها لما أُريدت له وسُخّرت له. وقيل: سجود الجمادات وما لا يعقل: ظهور أثر الصنع فيه على معنى أنه يدعو الغافلين إلى السجود عند التأمل والتدبر فيه، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾، خصّ الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة ما في السموات والأرض تشريفاً ورفعاً لشأنهم.

وقيل: لخروجهم من الموصوفين بالدبيب إذ لهم أجنحة يطيرون بها. وقيل: أراد: ولله يسجد ما في السموات من الملائكة وما في الأرض من دابة، وتسجد الملائكة. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا محمد بن [محمد بن] سمعان، ثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم الشعراني، ثنا محمد بن يحيى الذهلي، ثنا عبيد الله بن موسى العبسي، ثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن مورِّق، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّتِ السماء وحق لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك يُمجِّد الله، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفُرُشات، ولصعدتم إلى الصعدات تجأرون»، قال أبو ذر: «يا ليتني كنت شجرة تعضد». رواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع، عن أبي أحمد الزبيري، عن إسرائيل وقال: «إلاّ وملك واضع جبهته ساجداً لله».

(٥١) قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

(٥٢) ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ﴾، الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًا﴾، دائماً ثابتاً، معناه: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك غير الله عزّ وجلّ، فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، أي: تخافون، استفهام على طريق الإنكار.

(٥٣) قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، أي: وما يكن بكم من نعمة فمن الله، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾، القحط والمرض، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، تضجون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة.

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُوا﴾، ليجحدوا، ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، وهذه اللام تُسمى

لام العاقبة، أي: حاصل أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم أعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾، أي: عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم هذا وعيد لهم.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾، له حقاً أي: الأصنام، ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، من الأموال، وهو ما جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾، يوم القيامة، ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾، في الدنيا.

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾، وهم خزاعة وكنانة، قالوا: الملائكة بنات الله تعالى. ﴿سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يشتهونهم فتكون «ما» في محل النصب، ويجوز أن يكون على الابتدا فتكون «ما» في محل الرفع.

(٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾، متغيراً من الغم والكراهية، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلىء حزناً وغيظاً، فهو يكظمه، أي: يمسكه ولا يظهره.

(٥٩) ﴿يَتَوَارَىٰ﴾، أي: يختفي، ﴿مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، من الحزن والعار، ثم يتفكر ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾، ذكر الكناية رداً على «ما» ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوانٍ، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، أي: يخفيه منه فيئده، وذلك أن مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون البنات أحياء، خوفاً من الفقر عليهم، وطمع غير الأكفاء فيهن، وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها، ألبسها جبة من صوف أو شعر، وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها، تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئر في الصحراء، فإذا بلغ بها البئر قال لها: «انظري إلى هذه البئر» فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحسَّ بشيء من ذلك وجّه إلى والد البنت إبلاً يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر به:

وعمي الذي منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم تُوأَدِ

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، بئس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين، نظيره: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، وقيل: بئس حكمهم وأد البنات.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، يعني: لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾، صفة السوء من الاحتياج إلى الولد وكراهية الإناث وقتلهن خوف الفقر، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، الصفة العليا وهي التوحيد وأنه لا إله إلا هو. وقيل: جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء وغيرها من الصفات. قال ابن عباس: «مثل السوء» النار، و«المثل الأعلى» شهادة أن لا إله إلا الله. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾، فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾، أي: على الأرض، كناية عن غير مذكور، ﴿مِن دَابَّةٍ﴾، قال قتادة في الآية: قد فعل الله ذلك في زمن نوح، فأهلك من على الأرض، إلا من كان في سفينة نوح عليه السلام. روي أن أبا هريرة سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بئس ما قلت: إن الحبارى تموت في وكرها بظلم الظالم. وقال ابن مسعود: إن الجعل لتعذب في جحرها بذنب ابن آدم. وقيل: إن معنى الآية لو يؤاخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل، ولم توجد الأبناء، فلم يبق في الأرض أحد. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، يمهلهم بحلمه إلى أجل، ﴿مُّسَمًّى﴾، إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

(٦٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، لأنفسهم يعني البنات، ﴿وَتَصِفُ﴾، أي: تقول، ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾، يعني البنين محل «إنّ» نصب بدل عن الكذب، قال يمان: يعني بالحسنى: الجنة في المعاد يقولون نحن في الجنة إن كان محمد صادقاً بالوعد في البعث. ﴿لَا جَرَمَ﴾، حقاً. قال ابن عباس: بلى، ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾، في الآخرة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، قرأ نافع بكسر الراء أي:

مسرفون، وقرأ أبو جعفر بتشديد الراء وكسرها أي: مضيعون أمر الله، وقرأ الآخرون بفتح الراء وتخفيفها أي: منسيون في النار، قاله ابن عباس، وقال سعيد بن جبير: مبعدون وقال مقاتل: متروكون. قال قتادة: معجلون إلى النار. قال الفراء: مقدَّمون إلى النار.

ومنه قوله ﷺ: «أنا فَرَطكم على الحوض» أي: متقدمكم.

﴿٦٣﴾ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلنا إلى هذه الأمة، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، الخبيثة، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾، ناصرهم، ﴿الْيَوْمَ﴾، وقرينهم، سماه ولياً لهم، لطاعتهم إياه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، في الآخرة.

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، من الدين والأحكام، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ما أنزلنا عليك الكتاب إلا بياناً وهدىً ورحمة فالهدى والرحمة عطف على قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، يعني: المطر، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، بالنبات، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يبوستها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، سمع القلوب لا سمع الآذان.

﴿٦٦﴾ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾، لعظة، ﴿نُّسْقِيكُم﴾، بفتح النون ههنا وفي المؤمنين [٢١]، قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب والباقون بضمها وهما لغتان. ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، قال الفراء: رد الكناية إلى النَّعم، والنَّعم والأنعام واحد، ولفظ النعم مذكر، قال أبو عبيدة والأخفش: النعم يذكر ويؤنث، فمن أنث فلمعنى الجمع، ومن ذكر فلحكم اللفظ. قال الكسائي: رده إلى ما يعني في بطون ما ذكرنا، وقال المؤرج. الكناية مردودة إلى البعض والجزء، كأنه قال: نسقيكم مما في بطونه اللبن إذ ليس لكلها لبن، واللبن فيه مضمر، ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾، وهو ما في الكرش من الثفل، فإذا خرج منه لا يُسمى فرثاً، ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾، من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث، ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾، هنيئاً يجري على السهولة في الحلق. وقيل: إنه لم يغص أحد باللبن قط. قال ابن عباس: إذا أكلت الدابة العلف واستقر في كرشها وطحنته كان أسفله فرثاً، وأوسطه اللبن، وأعلاه الدم، والكبد مسلطة عليها تقسمها، بتقدير الله تعالى، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو.

﴿٦٧﴾ ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾، يعني: ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ والكناية في ﴿مِنْهُ﴾ عائدة إلى (ما) محذوفة أي: ما تتخذون منه، ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال قوم: «السكر» الخمر، والرزق «الحسن» الخل، والزبيب والتمر والرُّبُّ، قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر، وإلى هذا ذهب ابن مسعود، وابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وقال الشعبي: السكر ما شربت، والرزق الحسن ما أكلت. وروى العوفي عن ابن عباس: أن السكر هو الخل بلغة الحبشة، وقال بعضهم: السكر النبيذ المسكر وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير، وهو قول الضحاك والنخعي، ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرمه يقول: المراد من الآية الإخبار لا الإحلال وأولى الأقاويل أن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ منسوخ، وروي عن ابن عباس قال: السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما أحل. وقال أبو عبيدة: السكر الطعم يقال هذا سكر لك أي: طعم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٢٧٤

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته، والنحل: زنابير العسل واحدتها نحلة. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، يبنون، وقد جرت العادة أن أهلها يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها، قال ابن زيد: هي الكروم.

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾. قيل: هي نعت الطرق، يقول: هي مذللة للنحل سهلة المسالك. قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان سلكته. وقال آخرون: الذلل نعت النحل، أي: مطيعة منقادة بالتسخير. يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾، يعني: العسل ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أبيض وأحمر وأصفر. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، أي: في العسل. وقال مجاهد: أي في القرآن والأول أولى.

أنا إسماعيل بن عبدالقاهر، ثنا عبدالغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن مثنى، أنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي المتوكِّل، عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً»، فسقاه ثم جاء فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال النبي ﷺ له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: «اسقه عسلاً»، قال: قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً»، فسقاه فبرأ.

وقال عبدالله بن مسعود: العسلُ شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور. وروي عنه أنه قال: عليكم بالشفاءين القرآن والعسل. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعتبرون.

(٧٠) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، صبياناً أو شباناً أو كهولاً، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أردئه، قال مقاتل: يعني الهرم. وقال قتادة: أرذل العمر تسعون سنة. روي عن علي قال: أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وقيل: ثمانون سنة.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، لكيلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، ثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا موسى بن إسماعيل، ثنا هارون بن موسى أبو عبدالله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل، والكسل، وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات».

(٧١) ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾، بسط على واحد وضيّق على آخر وقلّل وكثّر. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، من العبيد، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، أي: حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك، يقول الله تعالى: لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتُهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم به الحجة على المشركين. قال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ فهل منكم أحد يشركه مملوكه في زوجته وفراشه وماله أفتعدلون بالله خلقه وعباده ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، بالإشراك به، وقرأ أبو بكر بالتاء لقوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾، والآخرون بالياء لقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

(٧٢) قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، يعني: النساء، خلق من آدم زوجته حواء، وقيل: «من أنفسكم» أي: من جنسكم أزواجاً، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، قال ابن مسعود والنخعي: الحفدة أختان الرجل على بناته، وعن ابن مسعود أيضاً أنهم الأصهار، فيكون معنى الآية على هذا القول: وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات، تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار. وقال عكرمة، والحسن، والضحاك: هم الخدم. قال مجاهد: هم الأعوان من أعانك فقد حفدك. وقال عطاء: هم ولد ولد الرجل، الذين يعينونه ويخدمونه. وقال قتادة: مَهَنَةٌ يمتهنونهم ويخدمونكم من أولادكم. وقال الكلبي ومقاتل: «البنين»

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

الصغار و«الحفدة». كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله. وروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس: أنهم ولد الولد. وروى العوفي عنه: أنهم بنو امرأة الرجل ليسوا منه ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، من النعم والحلال، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾، يعني الأصنام، ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، يعني التوحيد والإسلام، وقيل: الباطل الشيطان، أمرهم بتحريم البحيرة، والسائبة، و«بنعمة الله» أي: بما أحل الله لهم يكفرون يجحدون تحليله.

﴿٧٣﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، يعني المطر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني النبات، ﴿شَيْـًٔا﴾، قال الأخفش: هو بدل من الرزق، معناه أنهم لا يملكون من أمر الرزق شيئاً قليلاً ولا كثيراً. وقال الفراء نصب «شيئاً» بوقوع الرزق عليه، أي لا يرزق شيئاً، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ولا يقدرون على شيء، يذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضر.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، يعني الأشباه فتشبهونه بخلقه وتجعلون له شركاء فإنه واحد لا مثل له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، خطأ ما تضربون من الأمثال، ثم ضرب [الله] مثلاً للمؤمن الكافر، فقال جل ذكره.

﴿٧٥﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، هذا مثل الكافر رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً، ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾، هذا مثل المؤمن أعطاه الله مالاً، فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه في رضاء الله سراً وجهراً، فأثابه الله عليه الجنة.

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾، ولم يقل هل يستويان لمكان «من» وهو اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالجمع لأجل «ما». معناه هل يستوي هذا الفقير البخيل والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن المطيع. وروى ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، أي: أبو جهل بن هشام.

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يقول ليس الأمر كما يقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله عزّ وجلّ، لأنه المنعم [المتفضل] والخالق والرازق، (ولكن أكثر [الناس]): الكفار (لا يعلمون) ثم ضرب [الله] مثلاً للأصنام فقال:

﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، كل ثقل ووبال ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ ابن عمه وأهل ولايته، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾، يرسله، ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يفهم عنه، هذا مثل الأصنام، لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عابده، يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه، ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾، يعني: الله فإنه قادر، متكلم، يأمر بالتوحيد، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال الكلبي: يعني يدلكم على صراط مستقيم. وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس.

وقال عطاء: الأبكم: أُبيّ بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن مظعون. وقال مقاتل: نزلت في هاشم بن عمرو بن الحارث بن ربيعة القرشي، وكان قليل الخير يعادي رسول الله ﷺ.

وقيل: نزلت في عثمان بن عفان ومولاه، كان عثمان ينفق عليه،

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

٢٧٦

وكان مولاه يكره الإسلام.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾، في قرب كونها، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾، إذا قال له: «كن» فيكون، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، بل هو أقرب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء.

(٧٨) ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، قرأ الكسائي (بطون أمهاتكم) بكسر الهمزة.

وقرأ حمزة بكسر الميم والهمزة، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، تم الكلام، ثم ابتدأ فقال جلّ وعلا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات، وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، نعمة الله.

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء والباقون بالياء لقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ٧٣]. ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾، مذللات، ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الهواء بين السماء والأرض، عن كعب الأحبار أن الطير ترتفع اثنى عشر ميلاً، ولا يرتفع فوق هذا، وفوق الجو السكاك، وفوق السكاك السماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الهواء ﴿إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٨٠) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي من الحجر والمدر، ﴿سَكَنًا﴾ أي: مسكناً تسكنونه، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، يعني الخيام، والقباب، والأخبية، والفساطيط من الأنطاع والأدم، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخف عليكم حملها، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾، رحلتكم في سفركم، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ساكنة العين، والآخرون بفتحها، وهو أجزل اللغتين، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، في بلدكم لا تثقل عليكم في الحالين، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾، يعني أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، والكنايات راجعة إلى الأنعام، ﴿أَثَٰثًا﴾، قال ابن عباس: مالاً. قال مجاهد: متاعاً. قال القتيبي: الأثاث المال جميعه من الإبل والغنم والعبيد والمتاع، وقال غيره: هو متاع البيت من الفرش والأكسية، ﴿وَمَتَٰعًا﴾، بلاغاً ينتفعون بها، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني الموت. وقيل: إلى حين تبلى.

(٨١) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ تستظلون بها من شدة الحرّ وهي ظلال الأبنية والأشجار، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، يعني: الأسراب، والغيران، واحدها كِنٌّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قمصاً من الكتان والقز والقطن والصوف، ﴿تَقِيكُمُ﴾، تمنعكم، ﴿ٱلْحَرَّ﴾، قال أهل المعاني: أراد الحر والبرد واكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، يعني: الدروع، والبأس: الحرب، يعني: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، تخلصون له الطاعة، قال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفتهم، فقال: وجعل لكم من الجبال أكناناً وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ لأنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، وكما قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج. وقال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وما تقي من البرد أكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، فإن أعرضوا

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٢٧٧

فلا يلحق في ذلك عتب ولا سمة تقصير، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ قال السدي يعني: محمداً ﷺ، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، يكذبون به. وقال قوم: هي الإسلام.

وقال مجاهد وقتادة: يعني ما عدّ لهم من النعم في هذه السورة، يقرون أنها من الله، ثم إذا قيل لهم: تصدقوا وامتثلوا أمر الله فيها، ينكرونها فيقولون: ورثناها من آبائنا. وقال الكلبي: هو أنه لمّا ذكر لهم هذه النعم قالوا: نعم، هذه كلها من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقال عوف بن عبدالله: هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا وكذا ولولا فلان لما كان كذا، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، الجاحدون.

(٨٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، يعني رسولا ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي، في الاعتذار.

وقيل: في الكلام أصلاً، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، يسترضون، يعني: لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون، وحقيقة المعنى في الاستعتاب أنه التعرض لطلب الرضا، وهذا الباب منسد في الآخرة على الكفار.

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، كفروا، ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، يعني جهنّم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، يوم القيامة، ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾، أوثانهم، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾، أرباباً ونعبدهم، ﴿فَأَلْقَوْا﴾، يعني الأوثان، ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: قالوا لهم، ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا.

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا﴾، يعني المشركين ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾، استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم، ولم تغن عنهم آلهتهم شيئاً، ﴿وَضَلَّ﴾، وزال، ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، من أنها تشفع لهم.

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، منعوا الناس عن طريق الحق ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، قال عبدالله: عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال. وقال سعيد بن جبير: حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال، تلسع إحداهن اللسعة يجد صاحبها حرها أربعين خريفاً. وقال ابن عباس ومقاتل: يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل من تحت العرش، يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار، وقيل: إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها. وقيل: يضاعف لهم العذاب. ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، في الدنيا بالكفر وصد الناس عن الإيمان.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعني نبيها من أنفسهم، لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾، يا محمد، ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، الذين بعثت إليهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾، بياناً، ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام، ﴿وَهُدًى﴾، من الضلالة، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾، بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

(٩٠) قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾، بالإنصاف، ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، إلى الناس وعن ابن عباس: «العدل»: التوحيد «والإحسان»: أداء الفرائض. وعنه أيضا: «الإحسان»: الإخلاص في التوحيد.

وذلك معنى قول النبي ﷺ:

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

«الإحسان أن تعبدالله كأنك تراه».

وقال مقاتل: «العدل»: التوحيد، و«الإحسان»: العفو عن الناس، ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، صلة الرحم، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾، ما قبح من القول والفعل. وقال ابن عباس: الزنا، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾، ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾، الكبر والظلم. وقال ابن عيينة: «العدل» استواء السريرة والعلانية، و«الإحسان» أن تكون سريرته أحسن من علانيته، و«الفحشاء» و«المنكر» أن تكون علانيته أحسن من سريرته، ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، لعلكم تتعظون. قال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن هذه الآية.

وقال أيوب عن عكرمة: إن النبي ﷺ قرأ على الوليد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلى آخر الآية فقال له: يا ابن أخي أعد فأعاد عليه، فقال: إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر.

﴿٩١﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾، والعهد ههنا هو اليمين، قال الشعبي: العهد يمين وكفارته كفارة اليمين، ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، تشديدها فتحنثوا فيها، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾، شهيداً بالوفاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية وإن كان حكمها عاماً، قيل نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أمرهم الله بالوفاء بها. وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية ثم ضرب الله مثلاً لنقض العهد.

﴿٩٢﴾ فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾، أي: من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها: «ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم»، وتلقب بجعر وكانت بها وسوسة، وكانت اتخذت مغزلاً بقدر ذراع وصنارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك، فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلنَ فهذا كان دأبها، ومعناه أنها لم تكف عن العمل، ولا حين عملت كفت عن النقض، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به، ﴿أَنكَـٰثًا﴾، يعني أنقاضاً واحدها نكث وهو ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبلاً. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾، أي: دخلا وخيانة وخديعة، و«الدخل» ما يدخل في الشيء للفساد، وقيل: الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض. ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي: لأن تكون، ﴿أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ﴾، أي: أكثر وأعلى، ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوماً أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه طلبتم العز بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة، فنهاهم الله عن ذلك. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾، يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، في الدنيا.

﴿٩٣﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، على ملة واحدة وهي الإسلام، ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، بخذلانه إيَّاهم عدلاً منه، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، بتوفيقه إيَّاهم فضلاً منه، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، يوم القيامة.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلَۢا﴾، خديعة وفساداً، ﴿بَيْنَكُمْ﴾، فتغرون بها الناس، فيسكنون إلى أيمانكم،

ويأمنون، ثم تنقضونها، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، فتهلكوا بعدما كنتم آمنين، والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زلت قدمه، ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قيل: معناه سهلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عَرَضاً قليلاً من الدنيا، ولكن أوفوا بها. ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ﴾، من الثواب لكم على الوفاء بالعهد، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فضل ما بين العوضين، ثم بين ذلك.

(٩٦) فقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾، أي الدنيا وما فيها يفنى، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير وعاصم بالنون والباقون بالياء، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، على الوفاء في السراء والضراء، ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، ثنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

(٩٧) قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: هي الرزق الحلال. وقال الحسن: هي القناعة. وقال مقاتل بن حيان: يعني العيش في الطاعة. قال أبو بكر الوراق: هي حلاوة الطاعة. وقال مجاهد وقتادة: هي الجنة. ورواه عوف عن الحسن. وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(٩٨) قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾، أي: إذا أردت قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦]، والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن، وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة. وقال أبو هريرة: بعدها، ولفظُهُ أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، ثنا علي بن الجعد، أنا شعبة عن عمرو بن مرة، سمعت عاصماً عن ابن جبير بن مطعم، عن أبيه أنه رأى النبي ﷺ يصلي، قال: فكبر، فقال: «الله أكبر كبيراً، ثلاث مرات، والحمد لله كثيراً، ثلاث مرات، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاث مرات، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ولمزه ونفخه ونفثه». قال عمرو: ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر، وهمزه: المُوتة، والموتة الجنون، والاستعاذة بالله هي الاعتصام به.

(٩٩) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾، حجة وولاية، ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، قال سفيان: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يُغفر.

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، يطيعونه ويدخلون في ولايته، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، أي: بالله مشركون. وقيل: الكناية راجعة إلى الشيطان، ومجازه الذين هم من أجله مشركون بالله.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾، يعني وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ﴾، يا محمد، ﴿مُفْتَرٍ﴾، مختلق، وذلك أن المشركين قالوا: إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، ما هو إلاَّ مفتر يتقوّله من تلقاء نفسه، قال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، حقيقة القرآن، وبيان الناسخ من المنسوخ.

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾، يعني القرآن، ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾، جبريل [عليه السلام]، ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، بالصدق، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: يثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً ويقيناً، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْءَاخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

٢٧٩

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، آدمي وما هو من عند الله، واختلفوا في هذا البشر.

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة اسمه «بلعام» وكان نصرانياً أعجمي اللسان، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج، فكانوا يقولون إنما يعلمه «بلعام».

وقال عكرمة: كان النبي ﷺ يُقرىء غلاماً لبني المغيرة يقال له «يعيش» وكان يقرأ الكتب، فقالت قريش: إنما يعلمه يسار، ويعيش.

وقال الفراء: قال المشركون إنما يتعلم من عايش مملوك كان لحويطب بن عبدالعزى، وكان قد أسلم وحسن إسلامه، وكان أعجمي اللسان.

وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني، عبدٍ لبعض بني الحضرمي، يقال له جبر، وكان يقرأ الكتب.

وقال عبدالله بن مسلم الحضرمي كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لأحدهما يسار، ويكنى «أبا فكيهة»، ويقال للآخر «جبر»، وكانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل، فربما مرّ بهما النبي ﷺ، وهما يقرآن التوراة، فيقف ويستمع. قال الضحاك: وكان النبي ﷺ إذا آذاه الكفار يقعد إليهما ويستروح بكلامهما، فقال المشركون: إنما يتعلم محمد منهما، فنزلت هذه الآية، قال الله تعالى تكذيباً لهم. ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾، أي يميلون ويشيرون إليه، ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾، الأعجمي الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية، والعجمي منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً، والأعرابي البدوي، والعربي منسوب إلى العرب، وإن لم يكن فصيحاً، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فصيح وأراد باللسان القرآن، والعرب تقول: اللغة لسان، وروي أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه.

﴿١٠٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾، لا يرشدهم الله، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون.

﴿١٠٥﴾ فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾، لا محمد ﷺ، فإن قيل: قد قال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فما معنى قوله: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾، قيل ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ﴾ إخبار عن فعلهم، ﴿هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾ نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره: كذبت وأنت كاذب، أي كذبت في هذا القول، ومن عادتك الكذب.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو حفص عمر بن أحمد الجوهري أنا جدي أبو بكر محمد بن عمر بن حفص، ثنا أبو بكر محمد بن الفرج الأزرق، [ثنا أبو زياد يزيد بن عبدالملك] ثنا سعيد بن عبدالحميد بن جعفر ثنا يعلى بن الأشدق عن عبدالله بن جراد قال: قلت: يا رسول الله المؤمن يزني؟ قال: قد يكون ذلك، قال قلت: المؤمن يسرق؟ قال: قد يكون ذلك، قلت: المؤمن يكذب؟ قال: لا، قال الله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عمار، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سميّة، وصهيباً، وبلالاً، وخباباً، وسالماً، فعذبوهم، فأما سُمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قُبُلَها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في

۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

الإسلام [رضي الله عنهما]، وأما عمار: فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً.

قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عماراً وغطوه في بئر ميمون، وقالوا له: اكفر بمحمد فتابعهم على ذلك، وقلبه كاره، فأخبر رسول الله ﷺ بأن عماراً كفر فقال: «كلا، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال رسول الله ﷺ: «ما وراءك»؟ قال: شر يا رسول الله، [أي] نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف وجدت قلبك» قال: «مطمئناً بالإيمان»، فجعل النبي ﷺ، يمسح عينيه وقال: إن عادوا لَكَ فعُدْ لهم بما قلت، فنزلت هذه الآية.

قال مجاهد: نزلت في ناس من أهل مكة، آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أن هاجروا، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش في الطريق فكفروا كارهين.

وقال مقاتل: نزلت في جبر، مولى عامر بن الحضرمي، أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرهاً، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، ثم أسلم مولى جبر وحسن إسلامه، وهاجر جبر مع سيده، ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: فتح صدره للكفر بالقبول واختاره، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وأجمع العلماء على أن من أكره على كلمة الكفر، يجوز له أن يقول بلسانه، وإذا قال بلسانه غير معتقد لا يكون كفراً، وإن أبى أن يقوله حتى يقتل كان أفضل. واختلف أهل العلم في طلاق المكره، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقع.

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ آثروا، ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، لا يرشدهم.

(١٠٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، عمّا يراد بهم.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ﴾، [أي حقاً] ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، أي المغبونون.

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾، عذبوا ومنعوا من الإسلام، فتنهم المشركون، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾، من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، نزلت في عياش بن أبي ربيعة، أخي أبي جهل من الرضاعة، وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعبدالله بن أبي أسيد الثقفي، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا.

وقال الحسن وعكرمة: نزلتْ في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله، فاستجاره عثمان وكان أخاه لأمه من الرضاعة، فأجاره رسول الله ﷺ، ثم إنه أسلم وحسن إسلامه فأنزل الله هذه الآية.

وقرأ ابن عامر «فتنوا» بفتح الفاء والتاء، ورده إلى من أسلم من المشركين فتنوا المسلمين.

(١١١) ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾، تخاصم وتحتج، ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾، بما أسلفت من خير وشر مشتغلاً بها لا تتفرغ إلى غيرها، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. روي أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: خوفنا، قال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

سبعين نبياً لأتت عليك ساعات وأنت لا تهمك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل منتخب إلا وقع جاثياً على ركبتيه، حتى إبراهيم خليل الرحمن، يقول: يا رب لا أسألك إلاّ نفسي، وإن تصديق ذلك الذي أنزله الله عليكم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة، حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح: يا رب لم يكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا أعين أبصر بها، فنجني وعذبه، ويقول الجسد يا رب [حيث كنت معدوم الروح] لم تبطش يدي ولم تمش رجلي ولم تبصر عيني، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لساني وأبصرت عيني وبطشت يدي ومشت رجلي، قال: فيضرب الله لهما مثلاً [فقال وإنما مثلكما مثل] أعمى ومقعد دخلا حائطاً فيه ثمار فالأعمى لا يبصر الثمر، والمقعد يرى ولا يناله، فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب.

﴿١١٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾، يعني: مكة كانت آمنة لا يهاج أهلها ولا يُغار عليها، ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾، قارّة بأهلها، لا يحتاجون إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، يُحمل إليها من البر والبحر نظيره: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾، جمع النعمة، وقيل: جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس، ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾، ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين، وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرّقة، والجيف والكلاب الميتة، والعهن وهو الوبر يعالج بالدم، حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، ثم إن رؤساء مكة كلّموا رسول الله ﷺ وقالوا: ما هذا؟ هَبْكَ عَاديتَ الرجال فما بال النساء والصبيان؟ فأذِنَ رسول الله ﷺ للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون، وذكر اللباس لأن ما أصابهم من الهزال والشحوب وتغير ظاهرهم عما كانوا عليه من قبل كاللباس لهم، ﴿وَالْخَوْفِ﴾، يعني: بعوث النبي ﷺ وسراياه التي كانت تطيف بهم. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾، محمد ﷺ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿١١٤﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

﴿١١٥﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١١٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾، أي: لا تقولوا لوصف ألسنتكم أو لأجل وصفكم الكذب أنكم تُحلّون وتُحرّمون لأجل الكذب لا لغيره، ﴿هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، يعني البحيرة والسائبة، ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، فتقولون إن الله أمرنا بهذا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، لا ينجون من عذاب الله.

﴿١١٧﴾ ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾، يعني: الذي هم فيه متاع قليل، أو لهم متاع قليل في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، في الآخرة.

﴿١١٨﴾ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، يعني في سورة الأنعام. وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية ﴿وَمَا

﴿ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فحرمنا عليهم ببغيهم.

(١١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ يعني بالإصلاح: الاستقامة على التوبة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾، أي: من بعد الجهالة، ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١٢٠) قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال ابن مسعود، الأمة معلم الخير، أي: كان معلماً للخير يأتم به أهل [الخير في] الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أمة، قال مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. وقال قتادة: ليس من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه. ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، مطيعاً لله. وقيل: قائماً بأوامر الله تعالى، ﴿حَنِيفًا﴾ مسلماً مستقيماً على دين الإسلام. وقيل: مخلصاً. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ﴾، اختاره، ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى دين الحق.

(١٢٢) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، يعني الرسالة والخلة. وقيل: لسان الصدق والثناء الحسن وقال مقاتل بن حيان: يعني الصلاة عليه في قول هذه الأمة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم. وقيل: أولاداً أبراراً على الكبر. وقيل: القبول العام في جميع الأمم. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مع آبائه الصالحين في الجنة. وفي الآية تقديم وتأخير مجازه: وآتيناه في الدنيا والآخرة حسنة، وإنه لمن الصالحين.

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، يا محمد، ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، حاجاً مسلماً، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال أهل الأصول كان النبي ﷺ مأمور بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ في شريعته، وما لم ينسخ صار شرعاً [له].

(١٢٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: خالفوا فيه. قيل: معناه إنما جعل السبتُ لعنة على الذين اختلفوا فيه. وقيل: معناه ما فرض الله تعظيم السبت وتحريمه إلا على الذين اختلفوا فيه، يعني: اليهود، فقال قوم: هو أعظم الأيام لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة، ثم سبت يوم السبت. وقال قوم: بل أعظم الأيام يوم الأحد، لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق الأشياء فاختاروا تعظيم غير ما فرض الله عليهم، وقد فرض الله عليهم تعظيم يوم الجمعة.

قال الكلبي: أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة، فقال: تفرّغوا لله في كل سبعة أيام يوماً، فاعبدوه يوم الجمعة ولا تعملوا فيه لصنعتكم، وستة أيام لصناعتكم، فأبوا وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه، من الخلق يوم السبت، فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام بيوم الجمعة، فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ـ يعنون اليهود ـ، فاتخذوا الأحد، فأعطى الله الجمعة لهذه الأمة فقبلوها وبورك لهم فيه.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السلمي، أنبأنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع، فاليهود غداً والنصارى بعد غد».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾. [قال قتادة: الذين اختلفوا فيه هم] اليهود استحله بعضهم وحرّمه بعضهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

(١٢٥) ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾، بالقرآن، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، يعني مواعظ القرآن. وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب. وقيل: هو قول اللين الرقيق من غير تغليظ ولا تعنيف، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن، أي: أعرض عن أذاهم، ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق، نسختها آية القتال. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.



﴿١٢٦﴾ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾.

هذه الآيات نزلت بالمدينة في شهداء أُحد، وذلك أن المسلمين لمّا رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد من تبقير البطون، والمثلة السيئة، حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلاّ مُثِّلَ به غير حنظلة بن الراهب، فإن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان، فتركوا حنظلة لذلك، فقال المسلمون حين رأوا ذلك: لئن أظهرنا الله عليهم لنزيدن على صنيعهم، ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد، فوقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة بن عبدالمطلب، وقد جدعوا أنفه وأذنيه، وقطعوا مذاكيره، وبقروا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً، إن حمزة أكرم على الله تعالى من أن يدخل شيئاً من جسده النار»، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال النبي ﷺ: «رحمة الله عليك، فإنك ما علمتك إلا فعالاً للخيرات، وصولاً للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى، أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ الآية.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، أي: ولئن عفوتم لهو خير للعافين فقال النبي ﷺ: «بل نصبر» وأمسك عما أراد وكفَّر عن يمينه.

قال ابن عباس والضحاك: كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي ﷺ بقتال من قاتله ومنع من الابتداء بالقتال، فلما أعز [الله] الإسلام وأهله نزلت براءة، وأمروا بالجهاد ونسخت هذه الآية، وقال النخعي والثوري ومجاهد وابن سيرين: الآية محكمة نزلت في من ظلم بظلامة، فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه، أمر بالجزاء والعفو ومنع من الاعتداء، ثم قال لنبيه ﷺ.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، أي: بمعونة الله وتوفيقه، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، في إعراضهم عنك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، أي: فيما فعلوا من الأفاعيل، قرأ ابن كثير ههنا وفي النمل [٧٠] «ضيق» بكسر الضاد وقرأ الآخرون بفتح الضاد، قال أهل الكوفة: هما لغتان مثل رِطل ورَطل، وقال أبو عمرو: الضيق بالفتح الغم، وبالكسر الشدة.

وقال أبو عبيدة: الضِّيق بالكسر في قلة المعاش وفي المساكن، فأما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح. وقال ابن قتيبة: الضيق تخفيف ضيق مثل هَيْن وهيِّن، ولين ولين، فعلى هذا هو صفة كأنه قال: ولا تك في أمر ضيق من مكرهم.

﴿١٢٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، المناهي، ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بالعون والنصرة [والله تعالى أعلم].

❋ ❋ ❋

سورة الإسراء

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، سبحان الله تنزيه الله تعالى من كل سوء ووصف بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة، وتكون سبحان بمعنى التعجب «أسرى بعبده»، أي: سيّره، وكذلك سرى به، والعبد هو: محمد ﷺ، ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، قيل: كان الإسراء من مسجد مكة.

روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْرِ بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق»، فذكر حديث المعراج.

وقال قوم: عرج به من دار أم هانيء بنت أبي طالب، ومعنى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: من الحرم.

قال مقاتل: كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة. ويقال: كان في رجب. وقيل: كان في شهر رمضان. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، يعني: بيت المقدس، وسُمي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار. وقيل: لبعده عن المسجد الحرام. ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، بالأنهار والأشجار والثمار. وقال مجاهد: سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة. ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾، من عجائب قدرتنا، وقد رأى هناك الأنبياء والآيات الكبرى، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ذكر «السميع» لينبه على أنه [هو] المجيب لدعائه، وذكر «البصير» لينبه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: ما فقد جسد النبي ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه. والأكثرون على أنه أسرى بجسده [وروحه] في اليقظة، وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك.

أخبرنا أبو عمرو عبدالواحد بن أحمد بن المليحي، أنا أبو حامد أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا أبو عبدالله محمد بن يوسف الفربري، ثنا أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا هدبة بن خالد، ثنا همام بن يحيى، ثنا قتادة (ح) قال البخاري: وقال لي خليفة العصفري: ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد وهشام. قالا: ثنا قتادة ثنا أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ، حدثهم عن ليلة أسري به، (ح) قال البخاري: ثنا يحيى بن بكير، ثنا الليث، عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال: وكان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: (ح)، وأخبرنا أبو سعيد إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا أبو الحسن عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ثنا شيبان بن فروخ، ثنا حماد بن سلمة، ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: - دخل حديث بعضهم في بعض -.

قال أبو ذر: إن رسول الله ﷺ قال: «فُرج عني سقف بيتي، وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه».

وقال مالك بن صعصعة: إن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحجر بين النائم واليقظان»، وذكر بين رجلين «فأتيت بطست من ذهب مملوء حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق البطن، واستخرج قلبي فغسل ثم ملىء، وقيل حشي، ثم أُعيد».

وقال سعيد وهشام: «ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمةً، ثم أُوتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، [يقع] حافره عند منتهى طرفه، فركبته فانطلقت مع جبريل حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح له الباب، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال لي: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمتُ عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح».

وفي حديث أبي ذر: «علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قِبل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكى، فقال مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله

أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن قبل شماله بكى، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح [له]، فلما خلصت إذا بيحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهما السلام وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت فردا عليَّ السلامُ، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت، فإذا يوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، قال: هذا يوسف فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه فردّ علي، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا بإدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمتُ عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، [ففتح] فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلمْ عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح له، فلما خلصت فإذا بموسى، قال: هذا موسى فسلمْ عليه فسلمتُ عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما جاوزت بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فسلمتُ عليه فردّ السلام ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم».

وقال ثابت عن أنس: «فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها مثل آذان الفيلة، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ فقال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات. وأوحى إلي ما أوحي، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعتُ إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال الله تعالى: يا محمد إنهنّ خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لديّ، ومَنْ همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرتهُ، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فقلت:

سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي، ثم أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري، كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرتُ لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام، قال ابن حزم وأنس: قال النبي ﷺ: ففرض الله على أمتي خمسين صلاة».

وروى مَعْمَرُ عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ: «أُتي بالبراق ليلة أسريَ به ملجّماً مسْرجاً، فاستصعب عليه فقال له جبريل: أبمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه، فارفضّ عرقاً».

وقال ابن بريدة عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل بأصبعه فخرق بها الحجر وشدّ بها البراق».

أنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثني محمود، أنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي لقيتُ موسى، قال: فنعته، فإذا هو رجل ـ حسبته قال مضطرب ـ رَجْلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى، فنعته النبي ﷺ فقال: «ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس، يعني: الحمام، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين: أحدهما لبن والآخر فيه خمر، فقيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل لي: هديت الفطرة وأصبت الفطرة، أمَا إنك لو أخذت الخمر لغوت أمتك».

أنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، ثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، قال: هي رؤيا عين أُريها النبي ﷺ ليلة أسريَ به إلى بيت المقدس. قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم.

أنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالعزيز بن عبدالله، حدثني سليمان، عن شريك بن عبدالله قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال: أوسطهم هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم.

فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه ووضعوه عند بئر زمزم، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده.

وساق حديث المعراج بقصته.

فقال: فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطّردان، قال: هذا النيل والفرات، [يطردان] عنصرهما واحد، ثم مضى به إلى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، قال: «ما هذا يا جبريل»؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك. وساق الحديث، وقال: «ثم عُرج بي إلى السماء السابعة».

وقال: قال موسى: ربِّ لم أظن أن ترفع علي أحداً، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنى الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه فيما أوحى إليه خمسين صلاة كل يوم وليلة، وقال: فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس.

فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من ذلك فضعفوا عنه وتركوه، فأمتك أضعف قلوباً وأجساداً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، وكل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة، فقال: «يا رب إن أمتي ضعفاء

أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنهم»، فقال الجبار [جل جلاله]: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لديَّ كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فقال موسى: ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً.

فقال رسول الله ﷺ: «قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه»، قال: فاهبط بسم الله، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

وروى مسلم هذا الحديث مختصراً عن هارون بن سعيد الإيلي، عن ابن وهب، عن سليمان بن بلال.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: قد قال بعض أهل الحديث ما وجدنا لمحمد بن إسماعيل، ولمسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا هذا، وأحال الأمر فيه إلى شريك بن عبدالله، وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحى إليه، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشر سنة قبل الهجرة بسنة، وفيه أيضاً: أن الجبار دنا فتدلى. وذكرت عائشة أن الذي دنا فتدلى جبريل عليه السلام.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: وهذا الاعتراض عندي لا يصح لأن هذا كان رؤيا في النوم أراه الله عزّ وجلّ قبل الوحي، بدليل آخر الحديث، قال: فاستيقظ وهو في المسجد الحرام، ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة بسنة تحقيقاً لرؤياه من قبل، كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة، ثم كان تحقيقه سنة ثمان ونزل قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧].

وروي أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسري به وكان بذي طوى قال: «يا جبريل إن قومي لا يصدقوني»، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق.

قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ: «لما كانت ليلة أسري بي أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت أن الناس مكذِّبي»، فروي أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلاً حزيناً فمر به أبو جهل فجلس إليه فقال له كالمستهزىء: هل استفدت من شيء؟ قال: «نعم إني أسري بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قال: «ثم أصبحت بين ظهرانينا»، قال: «نعم»، فلم يرَ أبو جهل أنه ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث، قال: أتحدث قومك بما حدثتني به؟ قال: «نعم»، قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا، قال: فانقضت إليه المجالس فجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: فحدث قومك بما حدثتني، قال: «نعم إنه أسري بي الليلة»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم»، قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، وارتد ناس ممن كان آمن به وصدقه، وسعى رجل من المشركين إلى أبي بكر فقال: هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوقد قال ذلك؟ قال: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس في ليلة وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق، قال: وفي القوم من قد أتى المسجد الأقصى، فقالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى؟ قال: «نعم»، قال: «فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعتُ، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد، وأنا أنظر إليه»، فقال القوم: أمّا النعت فوالله لقد أصاب، ثم قالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا، فهل لقيت منها شيئاً؟ قال: «نعم مررت على عير بني فلان، وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم، وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه»، قالوا: هذه آية، قال: «ومررت بعَيْرِ بني فلان وفلان راكبان قعوداً لهما بذي طوى، فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان، فانكسرت يده، فسلوهما عن ذلك»، فقالوا: وهذه آية، قالوا: فأخبرنا عن عيرنا نحن متى تجيء؟ قال: «مررت بها بالتنعيم»، قالوا: فما عدتها وأحمالها

وهيئتها ومن فيها، فقال: «نعم هيئتها كذا وكذا، وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان، تطلع عليكم عند طلوع الشمس»، قالوا: وهذه آية، ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون: والله لقد قص محمد شيئاً وبينه حتى أتوا كُدىً، فجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذْ قال قائل منهم: والله هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه والله الإِبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال لهم، فلم يؤمنوا، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥].

أنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، ثنا حُجَر بن المثنى أنبأنا عبدالعزيز ـ وهو ابن أبي سلمة ـ عن عبدالله بن الفضل، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسرايَ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، قال: فكربت كرباً ما كربتُ مثله قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، ولقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فجاءت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام».

﴿٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا﴾، بأن لا، ﴿تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾، رباً وكفيلاً قرأ أبو عمرو «لا يتخذوا» بالياء لأنه خبر عنهم والآخرون بالتاء، يعني قلنا لهم لا تتخذوا.

﴿٣﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾، قال مجاهد: هذا نداء يعني يا ذرية من حملنا، ﴿مَعَ نُوحٍ﴾، في السفينة فأنجيناهم من الطوفان، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، كان نوح عليه السلام إذا أكل طعاماً أو شرب شراباً أو لبس ثوباً قال: الحمد لله، فسمي عبداً شكوراً، أي: كثير الشكر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات.

روى سفيان بن سعيد الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن خراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لمّا اعتدوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر، وكان الله ملكه سبعمائة سنة، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصروها وفتحها، وقتل على دم يحيى بن زكريا عليه السلام سبعين ألفاً، ثم سبى أهلها وأولاد الأنبياء، وسلب حُليَّ بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة من حلي»، قلت: يا رسول الله كان بيت المقدس عظيماً؟ قال: «أجل بناه سليمان بن داود من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد، وكان عمده ذهباً، أعطاه الله ذلك، وسخر له الشياطين، يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين، فسار بها بختنصر حتى نزل بابل فأقام بنو إسرائيل في يده مائة سنة يستعبدهم المجوس وأبناء المجوس، فيهم الأنبياء، ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورش وكان مؤمناً، أن يسير إليهم ليستنقذ بقايا بني إسرائيل، فسار «كورش» لبني إسرائيل وأخذ حليّ بيت المقدس حتى رده إليه، فأقام بنو إسرائيل بها مطيعين لله تعالى مائة سنة، ثم إنهم عادوا في المعاصي فسلط الله عليهم ملكاً يقال له «أنطيانوس» فغزا بني إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس، فسبى أهلها وأحرق بيت المقدس، وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم في المعاصي عدنا عليكم بالسبي، فعادوا، فسلط الله عليهم ملك رومية يقال له «فاقس بن أستيانوس»، فغزاهم في البر والبحر فسباهم وسبى حلي بيت المقدس وأحرق بيت المقدس، قال رسول الله ﷺ: هذا من صفة حليّ بيت المقدس، ويرده المهدي إلى بيت المقدس، هو ألف وسبعمائة سفينة يرمي بها على يافا تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأولين والآخرين».

قال محمد بن إسحاق: كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم

محسناً إليهم، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم كما أخبر على لسان موسى عليه السلام، أن ملكاً منهم كان يدعى صُدَيْقَة وكان الله تعالى إذا ملك الملك عليهم بعث معه نبياً يسدده ويرشده [وكان] لا ينزل عليهم الكتب إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التي فيها، فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أصفيا، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وشعياء هو الذي بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام، فقال: أبشري أورشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير، فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً طويلاً فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث وشعياء معه بعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل، معه ستمائة ألف راية فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس، والملك مريض وفي ساقه قرحة، فجاء النبي شعياء وقال له: يا ملك بني إسرائيل إن «سنجاريب» ملك بابل قد نزل بك، هو وجنوده بستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفرقوا، فكبر ذلك على الملك، فقال: يا نبي الله هل أتاك وحي من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده، فقال: لم يأتني وحي، فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي أن ائت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصيته ويستخلف ـ على ملكه من يشاء من أهل بيته، فأتى شعياء ملك بني إسرائيل «صُدَيقة» فقال له: إن ربك قد أوحى إليّ أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك، فإنك ميت، فلما قال [ذلك] شعياء لصُدَيقة أقبل على القبلة فصلى ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله بقلب مخلص:

«اللهم ربَّ الأرباب، وإلٰه الآلهة، يا قدوس المتقدس، يا رحمٰن، يا رحيم، يا رؤوف، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به مني، سرّي وعلانيتي لك وأنت الرحمٰن».

فاستجاب له وكان عبداً صالحاً فأوحى الله تعالى إلى شعياء أن تخبر صُديقة أن ربه قد استجاب له ورحمه، وأخر له أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنجاريب، فأتاه شعياء فأخبره بذلك فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن، وخرّ ساجداً لله، وقال: «يا إلهي وإلٰه آبائي لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذي تعطي الملك لمن تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين، وأنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي»، فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صُديقة فيأمر عبداً من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله في قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل وشفي، وقال الملك لشعياء: سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا. قال الله لشعياء قل له: إني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر، فلما أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة، يا ملك بني إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك، فاخرج فإن سنجاريب ومن معه قد هلكوا، فلما خرج الملك التمس سنجاريب في القتلى فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مغارة وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فجعلوهم في الجوامع ثم أَتَوْا بهم إلى ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجداً لله من حين طلعت الشمس إلى [وقت] العصر، ثم قال: يا سنجاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون؟ فقال سنجاريب له: قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشداً ولم يلقني في الشقوة إلا ذلة في الدنيا وعذاب في الآخرة، ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال صُديقة، الحمد لله رب العالمين الذي كفانا كم بما شاء وإن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك على ربك، ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذاباً في الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلكم، ولدمك

ولدم من معك أهون على الله من دم قراد، لو قتلت. ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير حرسه فقذف في رقابهم الجوامع فطافت بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيليا وكان يرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، فقال سنجاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا فأمر بهم الملك إلى السجن والقتل فأوحى الله إلى شعياء عليه السلام أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم، فبلغ شعياء الملك ذلك ففعل الملك صُديقة ما أمر به، فخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قدموا جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانه وسحرته: يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله إلى نبيهم فلم تطعنا، [ولم تسمع قولنا] وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم، وكان أمر سنجاريب تخويفاً لهم ثم كفاهم الله، تذكرة وعبرة، ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين، ثم مات واستخلف بختنصر، ابن ابنه، على ما كان عليه جده يعمل عمله، فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صُديقة، فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضاً، ونبيهم شعياء معهم ولا يقبلون منه [أمراً ونهياً]، فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم في قومك حتى أُوحي على لسانك، فلما قام النبي شعياء انطق الله على لسانه بالوحي، فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض انصتي، فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل الذين ربّاهم بنعمته واصطنعهم لنفسه وخصهم بكرامته، وفضلهم على عباده، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها، فآوى شاردتها، وجمع ضالتها، وجبر كسرها، وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها، فقتل بعضها بعضاً، حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أنىٰ جاءهم الخير أن البعير مما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار لما يذكر الأريَّ الذي شبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وأن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أولوا الألباب العقول، ليسوا ببقر ولا حمير وأني ضارب لهم مثلاً فليسمعوه وقل لهم: كيف ترون في أرض كانت خواءً زماناً خراباً أمواتاً لا عمران فيها، وكان لها رَبٌّ حكيم قوي، فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه وهو قوي، أو أن يقال ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جداراً وشيّد فيها قصوراً وأنبط نهراً وصنف فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه فيما ذا رأي وهمة حفيظاً قوياً أميناً، فلما اطلعت جاء طلعها خروباً. قالوا بئست الأرض هذه فنرى أن يهدم جدرانها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خراباً مواتاً لا عمران فيها، قال الله قل لهم فإن الجدارَ ديني وإن القصر شريعتي وإن النهر كتابي وإن القيم نبيي، وإن الغراس هم وإن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة، وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وإنه مثل ضربته لهم يتقربون إلي بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدعون أن يتقربوا إليّ بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها فأيديهم مخضوبة منها وثيابهم مزملة بدمائها، ويشيدون لي البيوت مساجداً، ويطهرون أجوافها، وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها، ويزوقون إلى المساجد، ويزينونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأي حجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها؟ وأي حاجة لي إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها، يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا، وصلينا فلم يرفع تنور صلاتنا وتصدقنا، فلم تُزَكَّ صدقاتنا، ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب، في كل ذلك لا يستجاب لنا، قال الله: فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم؟ ألست أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين؟ فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقوله الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟ أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي؟ أم كيف

تزكى عندي صدقاتهم [وهم] يتصدقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المغصوبين؟ أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قولهم بألسنتهم، والفعل من ذلك بعيد، إنما أستجيب للداعي اللين، وإنما أسمع قول المستضعف المسكين، وإن من علامة رضاي رضا المساكين، يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي: أنها أقاويل منقولة، وأحاديث متوارثة، وتأليف مما يؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، ولو شاؤوا أن يطلعوا على علم الغيب مما يوحي إليهم الشياطين اطلعوا، وأني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاءً أثبته وحتّمته على نفسي، وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً لا بدّ أنه واقع، فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه، أو في أي زمان يكون؟ وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون، فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا ما يشاؤون فليقولوا مثل الحكمة التي بها أدبر أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين، وإني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض أن أجعل النبوة في الأجراء، وأن أجعل الملك في الرعاء، والعزّ في الأذلاء، والقوة في الضعفاء، والغنى في الفقراء، والعلم في الجهالة، والحكمة في الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم به، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون، وإني باعث لذلك نبياً أمياً أميناً ليس أعمى من عميان ولا ضالاً من ضالين ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنَا أسدِّده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، أجعل السكينة لِباسَه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره والحكمة معقولة، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلامَ ملته وأحمدَ اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلّم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة، وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء مشتّتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، توحيداً لي وإيماناً [لي] وإخلاصاً لي يصلون [لي] قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضواني، ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومناقبهم ومثواهم، يكبّرون يهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف ويطهرون لي الوجوه والأطراف، ويعقدون الثياب على الأنصاف، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، وذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم، فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم، فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها، فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إيّاها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها، واستحلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك رجلاً منهم يقال له «ناشية بن أموص»، وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبياً، وكان من سبط هارون بن عمران.

وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء، سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهي تهتزّ خضراء، فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك يسدده ويرشده ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم، فأوحى الله إلى أرمياء أن ائت قومك من بني إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي وعرفهم بأحداثهم، فقال أرمياء: يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني، مخذول إن لم تنصرني، قال الله تعالى: أولم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن القلوب والألسنة بيدي أقلبها كيف شئت، إني معك ولن يصل إليك شيء معي، فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله عزّ وجل في الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال في آخرها [أقول] عن الله تعالى: وإني حلفت بعزتي لأقيضنّ لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلّطن عليهم جباراً

قاسياً ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرحمة، يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرمياء: إني مهلك بني ـ إسرائيل بيافث، ويافث من أهل بابل ـ على ما ذكرنا في سورة البقرة، فسلط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية، ودخل بيت المقدس بجنوده ووطىء الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخرب بيت المقدس، وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ثم يقذفه في بيت المقدس، ففعلوا ذلك حتى ملأوه، ثم أمرهم أن يجمعوا مَنْ في بلدان بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل، فاختار منهم سبعين ألف صبي فلما خرجت غنائم جنده، وأراد أن يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل، فقسمهم بين الملوك الذي كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان، وفرّق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق، فثلثاً أقر بالشام، وثلثاً سبي وثلثاً قُتل وذهب بناشئة بيت المقدس وبالصبيان السبعين الألف حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزل الله ببني إسرائيل بظلمهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] يعني: بختنصر وأصحابه، ثم إن بختنصر أقام في سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا أعجبته وكان إذ رأى شيئاً أصابه، فأنساه الله الذي رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل، وكانوا من ذراري الأنبياء وسألهم عنها فقالوا: أخبرنا بها نخبرك بتأويلها، قال: ما أذكرها ولئن لم تخبروني بها وبتأويلها لأنزعنّ رؤوسكم عن أكتافكم فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا إليه، فأعلمهم الله بالذي رأى وسألهم عنه، فجاؤوه وقالوا: رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخار، وركبتاه وفخذاه من نحاس، وبطنه من فضة وصدره من ذهب، ورأسه وعنقه من حديد، قال: صدقتم، قالوا: فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل الله تعالى صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستكها، قال: صدقتم، قال: فما تأويلها؟ قالوا: تأويلها أنك رأيت ملك الملوك، فبعضهم كان ألين ملكاً وبعضهم كان أحسن ملكاً وبعضهم كان أشدّ ملكاً، الفَخّار أضعفه، ثم فوقه النحاس أشد منه، ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل، والذهب أحسن من الفضة وأفضل، ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما كان قبله، والصخرة التي رأيت أرسل الله من السماء فدقته [هو] نبي يبعثه الله من السماء فيدق الملوك أجمع ويصير الأمر إليه. ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر: أرأيت هؤلاء الغلمان من بني إسرائيل الذين كنا سألناك أن تعطيناهم ففعلت، فإنا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا، لقد رأينا نساءنا انصرفت عنا وجوههن إليهم، فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم، قال: شأنكم بهم، فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده فليفعل ذلك، فلما قرّبوهم للقتل بكوا إلى الله تعالى وقالوا: يا رب أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعد الله أن يجيبهم، فقتلوا إلا من استبقى بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل، ثم لما أراد الله هلاك بختنصر انبعث وتيقظ فقال لمن في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيت الذي خربته والناس الذين [قتلت مَنْ هم]؟ وما هذا البيت؟ قالوا: هذا بيت الله، وهؤلاء أهله، كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم، وكان ربهم رب السموات والأرض ورب الخلق كلهم، يكرمهم ويعزهم، فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله وسلط عليهم غيرهم، فاستكبر وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل، قال: فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العلياء فأقتل من فيها وأتخذها ملكاً لي، فإني قد فرغت من [ملوك] الأرض، قالوا: ما يقدر عليها أحد من الخلائق، قال: لتفعلُنَّ أو لأقتلنّكم عن آخركم، فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت بأم دماغه، فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجا له رأسه على أم دماغه، فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه، ليُري الله العباد قدرته، وينجي الله من بقي من بقيَ من بني إسرائيل في يديه، فردوهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا

حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه. ويزعمون أن الله تعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم، ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم عهد من الله تعالى وكانت التوراة قد احترقت، وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام يبكي عليها ليله ونهاره وقد خرج من الناس [واعتزلهم فبينما] هو كذلك إذ أقبل إليه رجل فقال: يا عزير ما يبكيك؟ قال: أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا، الذي لا يصلح أمر دنيانا وآخرتنا غيره، قال: أفتحب أن يرده إليك؟ قال: ارجع فصم وتطهر، وطهر ثيابك، ثم موعدك هذا المكان غداً، فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه، ثم عمد إلى المكان الذي وعده فجلس فيه، فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء، وكان ملكاً بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء، فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حتى لم يحبوا حبه شيئاً قط، ثم قبضه الله وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى [عليهم السلام]، وكانوا من بيت آل داود، فمات زكريا وقيل قتل زكريا، فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى، بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خردوش، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤوس جنوده يدعى بيورزاذان صاحب القتل، فقال: إني كنت حلفت بإلهي لئن أنا ظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، إلا أني لا أجد أحداً أقتله، فأمره أن يقتلهم حتى بلغ ذلك منهم بيورزاذان، ودخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يُقرّبون فيها قربانهم فوجد فيها دماً يغلي فسألهم عنه، فقال: يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟ أخبروني خبره، قالوا: هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فلذلك يغلي، ولقد قربناه منذ ثمانمائة سنة والقربان يتقبل منا إلا هذا، فقال: ما صدقتموني، فقالوا: لو كان كأول زماننا لتقبل منا ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يقبل منا، فذبح منهم بيورزاذان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين زوجاً من رؤوسهم، فلم يهدأ [غليانه] فأمر فأتي بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ، فلما رأى بيورزاذان الدم لا يهدأ قال لهم: يا بني إسرائيل ويلكم اصدقوني، واصبروا على أمر ربكم، فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار أنثى ولا ذكر إلا قتلته، فلما رأوا الجهد منه وشدة القتل صدقوا الخبر، فقالوا: إن هذا الدم دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أنا أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه، فقتلناه فهذا دمه، فقال لهم بيورزاذان: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا، قال الآن صدقتموني، لمثل هذا انتقم ربُّكم منكم، فلما رأى بيورزاذان أنهم صدقوه خرّ ساجداً وقال لمن حوله: اغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش، وخلا في بني إسرائيل [ثم] قال: يا يحيى بن زكريا قد علم ربّي وربُّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم، فاهدأ بإذن ربك قبل أن لا أبقى من قومك أحداً فهدأ الدم بإذن الله، ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأيقنت أنه لا رب غيره، وقال لبني إسرائيل: إنّ خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لست أستطيع أن أعصيه، فقالوا له: افعل ما أمرت به، فأمرهم فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم، فذبحها حتى سال الدم في العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، فلم يظن خردوش إلا أن ما في الخندق [وجميعه] من بني إسرائيل، فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل، ثم انصرف إلى بابل، وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد أن يفنيهم، وهي الوقعة الأخيرة التي أنزل الله ببني إسرائيل، وذلك قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، فكانت الوقعة الأولى

بختنصر وجنوده، والأخرى خردوش وجنوده، وكانت أعظم الوقعتين فلم يقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم اليونانية إلا أن بقايا بني إسرائيل كثروا، وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك، وكانوا في نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططيوس بن سبيانوس الرومي، فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة فليسوا في أمة إلا وعليهم الصغار والجزية، وبقي بيت المقدس خراباً إلى أيام عمر بن الخطاب فعمّره المسلمون بأمره. وقال قتادة: بعث الله عليهم جالوت في الأولى فسبى وقتل وخرّب ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦] يعني في زمان داود، فإذا جاء وعد الآخرة بعث الله عليهم بختنصر فسبى وخرّب، ثم قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] فعاد الله عليهم بالرحمة ثم عاد القوم بشرٍّ ما بحضرتهم، فبعث الله عليهم ما شاء من نقمته وعقوبته، ثم بعث الله عليهم العرب كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فهم في العذاب إلى يوم القيامة. وذكر السدي بإسناده أن رجلاً من بني إسرائيل رأى في النوم أن خراب بيت المقدس على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل، يدعى بختنصر، وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم، فأقبل ليسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ثم قعد، فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم، فقال: اشتر بهذا طعاماً وشراباً، فاشترى بدرهم لحماً، وبدرهم خبزاً، وبدرهم خمراً، فأكلوا وشربوا، وفعل في اليوم الثاني كذلك وفي اليوم الثالث كذلك، ثم قال: إني أحب أن تكتب لي أماناً إن أنت ملكت يوماً في الدهر [وصرت من ملوك الأرض]، فقال [له] أتسخر مني؟ فقال: إني لا أسخر منك ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندي يداً، فكتب له أماناً وقال: أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، قال: ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك، فكتب له وأعطاه، ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه وأنه هوي بنت امرأته. وقال ابن عباس: ابنة أخته، فسأل يحيى بن زكريا عن تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى بن زكريا وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً، وطيبتها وألبستها الحليّ وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تسقيه الخمر، فإن أرادها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها سألت رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به في طست ففعلت ذلك، فلما أرادها قال: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك، قال: فما تسأليني؟ قالت: رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به في هذا الطست، فقال: ويحك سليني [شيئاً] غير هذا، فقالت: ما أريد إلا هذا فلما أبت عليه [هاجت شهوته وهو في خمرته] فأتي برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم، ويقول: ويل لك لا تحل لك ويكرر ذلك، فلما أصبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقي عليه فرقى الدم يعني صعد الدم يغلي، ويلقي عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي فبعث صخابين ملك بابل جيشاً إليهم وأمر عليهم بختنصر، فسار بختنصر وأصحابه حتى بلغوا ذلك المكان فلما سمعوا به تحصنوا منه في مدائنهم، فلما اشتد عليهم المقام أراد الرجوع فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل، فقالت: تريد أن ترجع قبل فتح المدينة؟ قال: نعم، قد طال مقامي وجاع أصحابي، قالت: أرأيت إن فَتحتُ لك المدينةَ تعطيني ما أسألك فتقتل من أمرتك بقتله وتكف إذا أمرتك أن تكف؟ قال: نعم، قالت: إذا أصبحت تقسم جندك أربعة أرباع ثم أقم على كل زاوية ربعاً ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا [اللهم] إنا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريا فإنها سوف تتساقط، ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها، فقالت: كفَّ يدك وانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا وقالت: اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل عليه سبعين ألفاً حتى سكن، فلما سكن قالت: كف الآن يدك فإن الله لم يرض إذا قتل نبي حتى يقتل من قتله ومن رضي بقتله، فأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن

أهل بيته، فخرب بيت المقدس وطرح فيه الجيف وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، وذهب معه بوجوه بني إسرائيل وذهب بدانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت، فلما قدم بابل وجد صخابين قد مات فملك مكانه، وكان أكرم الناس عنده دانيال وأصحابه، فحسدهم المجوس ووشوا بهم إليه وقالوا له: إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك، فسألهم فقالوا: أجل إن لنا رباً نعبده، ولسنا نأكل من ذبيحتكم، فأمر الملك بخدّ فخُدّ لهم فألقوا فيه وهم ستة، وألقى معهم بسبع ضار ليأكلهم، فذهبوا ثم راحوا فوجدوهم جلوساً والسبع مفترش ذراعيه معهم لم يخدش منهم أحداً، ووجدوا معهم رجلاً سابعاً، فقال: ما [كان] هذا السابع إنما كانوا ستة فخرج السابع وكان ملكاً فلطمه لطمة فصار في صورة الوحش ومسخه الله سبع سنين.

وذكر وهب: أن الله مسخ بختنصر نسراً في الطيور ثم مسخه ثوراً في الدواب، ثم مسخه أسداً في الوحوش، فكان مسخه سبع سنين، وقلبه في ذلك قلب إنسان، ثم ردّ الله إليه ملكه فآمن. فسئل وهب أكان مؤمناً؟ فقال: وجدت أهل الكتاب اختلفوا فيه فمنهم من قال مات مؤمناً ومنهم من قال أحرق بيت المقدس وكتبه وقتل الأنبياء، فغضب الله عليه فلم يقبل توبته. وقال السدي: إن بختنصر لما رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله إليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس، وقالوا لبختنصر: إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عاراً فجعل لهم طعاماً وشراباً فأكلوا وشربوا، وقال للبواب انظر أول من يخرج ليبول فاضربه بالطبرزين فإن قال [لك] أنا بختنصر فقل كذبت بختنصر أمرني بذلك، فكان أول من قام للبول بختنصر فلما رآه البواب شدّ عليه، فقال: ويحك أنا بختنصر، فقال: كذبت بختنصر أمرني فضربه فقتله، هذا ما ذكره في «المبتدأ»، إلا أن رواية من روى أن بختنصر غزى بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا غلط عند أهل السير، بل هم مجمعون على أن بختنصر إنما غزى بني إسرائيل عن قتلهم شعياء في عهد أرمياء، ومن وقت أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم كانوا يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى حين عمارته في عهد كيرش بن أخشورش بن أصيهيد ببابل من قِبَلِ بَهْمَن بن إسفنديار سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمان وثمانون سنة، ثم من بعد مملكته إلى مولد يحيى بن زكريا ثلثمائة وستون سنة. والصحيح من ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق.

﴿٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون، والقضاء على وجوه يكون أمراً كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ويكون حكماً كقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ [يونس: ٩٣] ويكون خلقاً كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال ابن عباس وقتادة: يعني وقضينا عليهم، و«إلى» [ههنا] بمعنى «على»، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ اللام لام القسم مجازه والله لتفسدن، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، بالمعاصي، والمراد بالارض أرض الشام وبيت المقدس، ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾، ولتستكبرن ولتظلمن الناس، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [أي استكباراً وظلماً كبيراً].

﴿٥﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، يعني أولى مرتين، قال قتادة: إفسادهم في المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة وركوب المحارم. وقال محمد بن إسحاق: إفسادهم في المرة الأولى قتل شعياء بين الشجرة وارتكابهم المعاصي. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾، قال قتادة: يعني جالوت الخزري وجنوده، وهو الذي قتله داود [وذكرنا قصته في البقرة]. وقال سعيد بن جبير: يعني سنجاريب من أهل نينوى. وقال ابن إسحاق: بختنصر البابلي وأصحابه، وهو الأظهر. ﴿أُولِى بَأْسٍ﴾، ذوي بطش ﴿شَدِيدٍ﴾، في الحرب، ﴿فَجَاسُوا۟﴾، أي: فطافوا وداروا، ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، وسطها يطلبونكم ويقتلونكم، والجوس طلب الشيء

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

بالاستقصاء. قال الفراء: جاسوا قتلوكم بين بيوتكم. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، قضاء كائناً لا خلف فيه.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾، يعني: الرجعة والدولة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، عدداً، أي: من ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، أي: لها ثوابها، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أي: فعليها [عقاب الإساءة]، كقوله تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ [الواقعة: ٩١] أي: عليك. وقيل: فلها الجزاء والعقاب، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الأخيرة من إفسادكم وذلك قصدهم قتل عيسى عليه السلام حين رفع وقتلهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فسلط الله عليهم الفرس والروم، خردوش وطيطوس حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي: تحزن وجوهكم، وسوء الوجه بإدخال الغم والحزن، قرأ الكسائي ويعقوب: «لنسوء» بالنون وفتح الهمزة على التعظيم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا﴾ [الحجر: ٦٦] ﴿وَبَعَثْنَا﴾ [المائدة: ١٢] وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح الهمزة [على التوحيد]، أي: ليسوء الله وجوهكم، وقيل: ليسوء الوعد وجوهكم، وقرأ الباقون بالياء وضم الهمزة على الجمع، أي ليسوء العباد أولوا البأس الشديد وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾، يعني: بيت المقدس ونواحيه، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾، وليهلكوا، ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتْبِيرًا﴾ [هلاكاً].

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾، يا بني إسرائيل، ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾، بعد انتقامه منكم، فيرد الدولة إليكم، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي: إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة. قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ﷺ فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، سجناً ومحبساً من الحصر وهو الحبس. قال الحسن: حصيراً أي: فراشاً. وذهب إلى الحصير الذي يبسط ويفرش.

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، أي: إلى الطريقة التي هي أصوب. وقيل [إلى] الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿وَيُبَشِّرُ﴾، يعني: القرآن، ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [قولاً وفعلاً على سنة نبيها] ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾، بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾، وهو الجنة.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهو النار.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾، حذف الواو لفظاً لاستقبال اللام الساكنة كقوله ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وحذف في الخط أيضاً وهي غير محذوفة في المعنى، ومعناه: يدعو الإنسان على ماله وولده ونفسه، ﴿بِالشَّرِّ﴾، فيقول عند الغضب: اللهم العنه واهلكه ونحوهما، ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾، أي: كدعائه ربه بالخير أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك، ولكن الله لا يستجيب بفضله، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه. قال جماعة من أهل التفسير، وقال ابن عباس: ضجراً، لا صبر له على السراء والضراء.

(١٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾، أي: علامتين دالتين على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾، قال ابن عباس: جعل الله نور الشمس سبعين جزءاً،

ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعلها مع نور الشمس، وحكى أن الله تعالى أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور. وسأل ابن الكوّاء علياً [رضي الله عنه] عن السواد الذي في القمر؟ قال: هو أثر المحو. ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، منيرة مضيئة، يعني يبصر بها. قال الكسائي: تقول العرب أبصر النهار إذا أضاء بحيث يبصر به، ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، أي: لو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل النهار ولم يدر الصائم متى يفطر، ولم يدر وقت الحج ولا وقت حلول الآجال ولا وقت السكون والراحة. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

(١٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، قال ابن عباس: عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان. وقال الكلبي ومقاتل: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه به. وقال الحسن: يمنه وشؤمه. وعن مجاهد: ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد.

وقال أهل المعاني: أراد بالطائر ما قضى الله عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة وسمي طائر على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها.

وقال أبو عبيدة والقتيبي: أراد بالطائر حظه من الخير والشر، من قولهم: طار سهم فلان بكذا، وخص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرهما مما يزين أو يشين، فجرى على كلام العرب بتشبيه الأشياء اللازمة إلى الأعناق، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾، يقول الله تعالى ونحن نخرج له، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾، وقرأ الحسن ومجاهد ويعقوب «ويَخْرُجُ له» بفتح الياء وضم الراء، معناه: ويخرج له الطائر يوم القيامة كتاباً. وقرأ أبو جعفر «يُخْرَجُ» بالياء وضمها وفتح الراء، ﴿يَلْقَىٰهُ﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر «يُلَقَّاهُ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، يعني: يلقي الإنسان ذلك الكتاب، أي: يؤتاه. وقرأ الباقون بفتح الياء وخفيفة [القاف] أي يراه ﴿مَنشُورًا﴾، وفي الآثار: أن الله تعالى يأمر الملك بطي الصحيفة إذا تمّ عمر العبد فلا تنشر إلى يوم القيامة.

(١٤) ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾، أي: يقال له: اقرأ كتابك، قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، محاسبا. قال الحسن: لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك. قال قتادة: سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئاً في الدنيا.

(١٥) ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، لها ثوابه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، لأن عليها عقابه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: لا تحمل حاملة حمل أخرى من الآثام، أي: لا يؤخذ أحد بذنب أحد. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، إقامة للحجة وقطعاً للعذر، وفيه دليل على أن ما وجب وجب بالسمع لا بالعقل.

(١٦) ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾، قرأ مجاهد: «أمَّرنا» بالتشديد أي: سلّطنا شرارها فعصوا، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب «آمرنا» بالمد، أي: أكثرنا. وقرأ الباقون [مقصوراً مخففاً]، أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، ويحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء ويحتمل أن تكون بمعنى أكثرنا، يقال: أمرهم الله أي كثرهم الله.

وفي الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أي كثيرة النسل. ويقال: منه أمر القوم يأمرون أمراً إذا كثروا، وليس من الأمر بمعنى الفعل، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، واختار أبو عبيدة قراءة العامة وقال: لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها يعني الأمر والإمارة والكثرة. ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ منعميها وأغنياءها ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾، وجب عليها العذاب، ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، أي: خربناها وأهلكنا من فيها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بكر، ثنا الليث، عن عُقيل، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة حدثته عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش أنّ النبي ﷺ دخل عليها فزعاً وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب فقلت: يا

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

١٨٤

رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

﴿١٧﴾ قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: المكذبة، ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾، يُخوّف كفار مكة، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، قال عبدالله بن أبي أوفى: القَرْنُ مائة وعشرون سنة، فبعث رسول الله ﷺ في أول قرن، وكان في آخره يزيد بن معاوية. وقيل: مائة سنة.

ورُوي عن محمد بن القاسم عن عبدالله بن بشر المازني أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرناً» قال محمد بن القاسم فما زلنا نعد له حتى تم له مائة سنة، ثم مات.

قال الكلبي: القرن ثمانون سنة. وقيل: أربعون سنة.

﴿١٨﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، يعني الدنيا أي الدار العاجلة، ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾، من البسط والتقتير، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، أن نفعل به ذلك أو إهلاكه، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ في الآخرة، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾، يدخل نارها، ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾، مطروداً مبعداً.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، عمل عملها، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، مقبولاً.

﴿٢٠﴾ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾، أي: يرزقهما جميعاً ثم يختلف بهما الحال في المآل، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾، رزق ربك، ﴿مَحْظُورًا﴾، ممنوعاً عن عباده فالمراد من العطاء: العطاء في الدنيا وإلا فلا حظ للكفار في الآخرة.

﴿٢١﴾ ﴿ٱنظُرْ﴾، يا محمد، ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، في الرزق والعمل الصالح، يعني: طالب العاجلة وطالب الآخرة، ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾. الخطاب مع النبي ﷺ والمراد غيره. وقيل: معناه لا تجعل أيها الإنسان مع اللّه إلاهاً آخر ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، مذموماً من غير حمد مخذولاً من غير نصر.

﴿٢٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، وأمر ربك، قاله ابن عباس وقتادة والحسن. قال الربيع بن أنس: وأوجب ربك. قال مجاهد: وأوصى ربك.

وحكى عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأها: «ووصّى ربك». وقال: إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصارت قافاً، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً براً بهما وعطفاً عليهما.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالألف على التثنية فعلى هذا قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، كلام مستأنف، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾[المائدة: ٧١] وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣] ابتداء وقرأ الباقون «يبلغن» على التوحيد، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، فيه ثلاث لغات، قرأ ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: بفتح الفاء وقرأ أبو جعفر، ونافع، وحفص بالكسر والتنوين والباقون بكسر الفاء غير منون، ومعناها واحد وهي كلمة كراهية، قال أبو عبيدة: أصل التف والأف الوسخ على الأصابع إذا فتلتها. وقيل: «الأف» ما يكون في المغابن من الوسخ، و«التف» ما يكون في الأصابع. وقيل: «الأف» وسخ الأذن والتف وسخ الأظفار. وقيل: «الأف» وسخ الظفر و«التف» ما رفعته بيدك من الأرض من شيء حقير.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، ولا تزجرهما،

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، حسناً جميلاً ليناً.

قال ابن المسيب: كقول العبد المذنب للسيد الفظ. وقال مجاهد: لا تسميهما، ولا تكنهما، وقل: يا أبتاه يا أماه.

وقال مجاهد: في هذه الآية أيضاً إذا بلغا عندك من الكبر ما يبولان فلا تتقذرهما، ولا تقل لهما أف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيراً.

(٢٤) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾، أي: ألنْ جانبك لهما واخضع لهما. وقال عروة بن الزبير: ألن لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحباه ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، من الشفقة، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾، أراد إذا كانا مسلمين. وقال ابن عباس: هذا منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن يزيد عن عطاء بن السائب، عن أبي عبدالرحمن ـ يعني ـ السلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ إن شئت أو ضيّع».

أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن علي الزراد، أنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني، أنا أبو الحسن علي بن الحسين المالِيني، أنا حسن بن سفيان، ثنا يحيى بن حبيب بن عدي، ثنا خالد بن الحارث، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار، ثنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمتام الضبي، ثنا عبدالله بن مسلمة، ثنا عبدالعزيز بن مسلم عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة منّان، ولا عاقٌ، ولا مُدمنُ خمر».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد بن باموية الأصفهاني، أنا أبو سعيد أحمد [بن محمد] بن زياد البصري، أنا الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح، ثنا رِبْعي بن عُلية، عن عبدالرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له، ورغم أنف امرىء أدرك أبويه الكبرُ فلم يدخلاه الجنة».

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾، من برّ الوالدين وعقوقهما، ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾، أبراراً مطيعين بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك، ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾، بعد المعصية ﴿غَفُورًا﴾.

قال سعيد بن جبير في هذه الآية: هو الرجل يكون منه البادرة إلى أبويه، لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به. وقال سعيد بن المسيب: «الأوّاب» الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب. قال سعيد بن جبير [هو] الرجّاع إلى الخير.

وعن ابن عباس قال: هو الرجاع إلى الله فيما يحزنه وينوبه. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هُمُ المسبِّحون، دليله قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]. قال قتادة: هم المصلون، قال عوف العقيلي: هم الذين يصلون صلاة الضحى.

أخبرنا أبو الحسن طاهر بن الحسين الرَّوْقي الطوسي، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب، أنا أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف، ثنا الحسن بن سفيان، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا وكيع عن هشام صاحب الدستوائي، عن قتادة، عن القاسم بن عوف، عن زيد بن أرقم قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء وهم يصلون صلاة الضحى، فقال: «صلاة الأوابين. إذا رمضت الفصال من الضحى».

وقال محمد بن المنكدر: الأواب [الذي] يصلي بين المغرب والعشاء.

وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوابين.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

(٢٦) قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، يعني صلة الرحم، وأراد به قرابة الإنسان وعليه الأكثرون. [و] عن علي بن الحسين أراد به قرابة الرسول ﷺ. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، أي: لا تنفق مالك في المعصية. وقال مجاهد: لو انفق الإنسان ماله كله [في الحق ما كان] تبذيراً ولو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه. قال شعبة: كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة فأتى على دار بنيت بجص وآجر، فقال: هذا التبذير، وفي قول عبدالله: إنفاق المال في غير حقه.

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: أولياءهم، والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، جحوداً لنعمه.

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾، نزلت في مهجع، وبلال، وصهيب، وسالم، وخباب، كانوا يسألون النبي ﷺ في الأحايين ما يحتاجون إليه، ولا يجد، فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول، فنزل ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾، وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم، ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾، انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ليناً، وهي العدة، أي: عِدْهم وَعْداً جميلاً. وقيل: القول الميسور أن تقول: يرزقنا الله وإياك.

(٢٩) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.

قال جابر: أتى صبي فقال: يا رسول الله إن أمي تستكسيك درعاً، ولم يكن لرسول الله ﷺ إلا قميصه، فقال للصبي: «من ساعة إلى ساعة يظهر كذا، فَعُدْ إلينا وقتاً آخر»، فعاد إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره فنزع قميصه وأعطاه إياه وقعد عرياناً فأذن بلال بالصلاة، فانتظروه فلم يخرج، فشغل قلوب أصحابه، فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.

يعني: ولا تمسك يدك عن النفقة في الخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾، بالعطاء، ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾، فتعطي جميع ما عندك، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾، يلومك سائلوك بالإمساك إذا لم تعطهم، والملوم الذي أتى بما يلوم نفسه أو يلومه غيره، ﴿مَّحْسُورًا﴾ منقطعاً لا شيء عندك تنفقه. يقال: حسرته بالمسألة إذا ألحفت عليه، ودابة حسيرة إذا كانت كالة رازحة. وقال قتادة ﴿مَّحْسُورًا﴾ نادماً على ما فرط منك.

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ﴾، يوسع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يقتر ويضيق، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

(٣١) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، فقر، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهوا عنه، وأخبروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر «خطأ» بفتح الخاء والطاء مقصوراً. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء ممدوداً وقرأ الآخرون بكسر الخاء وجزم الطاء، ومعنى الكل واحد، أي: إثماً كبيراً.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وحقها ما روينا.

أن النبي ﷺ قال: «لا يحل دمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس فيقتل بها».

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، أي: قوة وولاية على القاتل بالقتل، قاله مجاهد، وقال الضحاك: سلطانه هو أنه يتخير، فإن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا عنه. ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «فلا تسرف» بالتاء يخاطب ولي القتيل، وقرأ الآخرون بالياء على الغائب أي: لا يسرف الولي في القتل.

واختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه ولي القتيل، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: معناه [و] لا يقتل غير القاتل، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قُتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتلوا أشرف منه.

وقال سعيد بن جبير: إذا كان القاتل واحداً فلا يقتل جماعة بدل واحد، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه. وقال قتادة: معناه لا يمثل بالقاتل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾، فالهاء راجعة إلى المقتول في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ يعني: أن المقتول منصور في الدنيا بإيجاب القود على قاتله، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله، هذا قول مجاهد، وقال قتادة: الهاء راجعة إلى ولي المقتول معناه أنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية.

وقيل في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ أنه أراد به القاتل المعتدي، يقول: لا يتعدى بالقتل بغير الحق، فإنه إن فعل ذلك فولي المقتول منصور عليه باستيفاء القصاص منه.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾، بالإتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه.

وقيل: أراد بالعهد ما يلتزمه الإنسان على نفسه، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾، وقال السدي: كان مطلوباً.

وقيل: العهد يسأل عن صاحب العهد، فيقال: فيم نقضت، كالموؤودة تسأل فيم قُتلت.

﴿٣٥﴾ ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص «بالقسطاس» بكسر القاف والباقون بالضم، وهما لغتان وهو الميزان صَغُراً أو كَبُر أي: بميزان العدل. وقال الحسن: هو القبان. قال مجاهد: هو رومي.

وقال غيره: هو عربي مأخوذ من القسط وهو العدل، أي: زنوا بالعدل. ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: عاقبةً.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تره، وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلم. وقال مجاهد: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. قال القتيبي: لا تتبعه بالحدس والظن. وهو في اللغة اتباع الأثر، يقال: قفوت فلاناً أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره، وبه سميت القافة لتتبعهم الآثار. قال القتيبي: هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور، أي: يكون في إقفائها يتبعها ويتعرفها. وحقيقة المعنى لا تتكلم أيها الإنسان بالحدس والظن. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، قيل: معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده.

وقيل: يسأل السمع والبصر والفؤاد عمّا فعله المرء. وقوله: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي كل هذه الجوارح والأعضاء، وعلى القول الأول يرجع أولئك إلى أربابها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن الحسين، أنا أبو علي حامد بن محمد الرّفّاء، ثنا أبو الحسن علي بن عبدالعزيز، أنا الفضل بن دكين، ثنا ابن أوس العبسي، حدثني بلال بن يحيى العبسي، أن شُتير بن شَكَل أخبره عن أبيه شكل بن حميد قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله علمني تعويذاً أتعوذ به، قال: فأخذ بيدي ثم قال: «قل اللهم إني أعوذ بك من شرِّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ لساني، وشرِّ قلبي، وشرِّ مَنِيِّي» قال: فحفظتها قال سعد: والمني ماؤه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي بطراً وكبراً وخيلاء، وهو تفسير المشي، فلذلك أخرجه على المصدر، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك، معناه: أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئاً، كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٢٨٦

يحصل على شيء. وقيل: ذكر ذلك لأن من مشى مختالاً يمشي مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه، فقيل له: إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك، ولن تبلغ الجبال طولاً إن مشيت على صدور قدميك.

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا سفيان بن وكيع، ثنا أبي، عن المسعودي، عن عثمان بن مسلم بن هرمز، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى يتكفأ تكفؤاً، كأنما ينحط من صبب.

أخبرنا أبو محمد [عبدالله بن عبدالصمد] الجرجاني، أنا أبو القاسم الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا ابن لهيعة، عن أبي يونس، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال [ما] رأيتُ شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنّ الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحداً أسرَع في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

﴿٣٨﴾ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة برفع الهمزة وضم الهاء على الإضافة، ومعناه كل الذي ذكرنا من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي: سيء ما عددنا عليك عند ربك مكروهاً لأنه قد عد أموراً حسنة كقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤] وغير ذلك، وقرأ الآخرون «سيئةً» منصوبة منونة يعني: كل الذي ذكرنا من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه، إذ الكل يرجع إلى المنهي عنه دون غيره، ولم يقل مكروهة لأن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره: وكل ذلك كان مكروهاً سيئة. وقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ على التكرير لا على الصفة، مجازه كل ذلك كان سيئة وكان مكروهاً، أو رجع إلى المعنى دون اللفظ، لأن السيئة الذنب وهو مذكر.

﴿٣٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكر، ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾، وكل ما أمر الله به أو نهى الله عنه فهو حكمة. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، خاطب النبي ﷺ في هذه الآيات والمراد منه الأمة، ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾، مطروداً مبعداً من كل خير.

﴿٤٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾، أي: اختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة، يعني اختاركم، ﴿بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، يخاطب مشركي مكة.

﴿٤١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، يعني العبر والحكم، والأمثال، والأحكام، والحجج، والإعلام، والتشديد للتكثير والتكرير، ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا، وقرأ حمزة والكسائي بإسكان الذال وضم الكاف وكذلك في الفرقان. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا، ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، ذهاباً وتباعداً عن الحق.

﴿٤٢﴾ ﴿قُل﴾، يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾، قرأ حفص وابن كثير «يقولون» بالياء وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾، لطلبوا يعني الآلهة ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، للمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه [ويضادوا ما يفعله من الإيجاد والإعدام]، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقيل: معناه لطلبوا إلى ذي العرش سبيلاً [طريقاً] بالتقرب إليه. قال قتادة:

لعرفوا الله بفضله وابتغوا ما يقربهم إليه. والأول أصح، ثم نزه نفسه.

(٤٣) فقال عزّ من قائل: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «تقولون» بالتاء [وقرأ] الآخرون بالياء، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب «تسبح» بالتاء وقرأ الآخرون بالياء للحائل بين الفعل والتأنيث، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

روي عن ابن عباس أنه قال: وإن من شيء حي إلا يسبح بحمده. وقال قتادة: يعني الحيوانات والناميات، وقال عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح. وعن المقدام بن معد يكرب قال: إن التراب يسبح ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الخرزة لتسبح ما لم ترفع من موضعها، فإذا رفعت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً فإذا وسخ ترك التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الوحش والطير تسبح إذا صاحت فإذا سكنت تركت التسبيح. وقال إبراهيم النخعي: وإن من شيء جماد وحيّ إلاّ يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف.

وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حياً كان أو ميتاً أو جماداً وتسبيحها سبحان الله وبحمده.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن المثنى، أنا أبو أحمد الزبير، أنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء» فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

وقال بعض أهل المعاني: تسبح السموات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء ما دامت تدل بلطيف تركيبها وعجيب هيئتها على خالقها، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها. والأول هو المنقول عن السلف واعلم أن الله تعالى [أودع] علما في الجمادات لا يقف عليه غيره، فينبغي أن يوكل علمه إليه. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي لا تعلمون تسبيح ما عدا من يسبح بلغاتكم وألسنتكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

(٤٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به. قال قتادة: وهو الأكنة، والمستور بمعنى الساتر كقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] مفعول بمعنى الفاعل. وقيل: مستوراً عن أعين الناس فلا يرونه. وفسره بعضهم بالحجاب عن الأعين الظاهرة.

كما روي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر، والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال: والله ما ينطق عن الهوى ولا ينطق بالشعر، ولا يقوله، فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه، فقال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله، قال: «لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني».

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أغطية، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، كراهية أن يفقهوه. وقيل: لئلا يفقهوه، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، ثقلاً لئلا يسمعوه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾، يعني إذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه، ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾، جمع «نافر» مثل قاعد، وقعود، وجالس، وجلوس، أي نافرين.

(٤٧) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، قيل: «به» صلة أي: يطلبون سماعه، ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، وأنت تقرأ القرآن، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾، يتناجون في أمرك. وقيل: ذوو نجوى، فبعضهم يقول: هذا مجنون، وبعضهم يقول: كاهن، وبعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: شاعر. ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، مطبوباً. وقال مجاهد: مخدوعاً. وقيل: مصروفاً عن الحق.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)

٢٨٧

يقال: ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه؟ وقال أبو عبيدة: أي رجلاً له سحر، والسحر: الرئة، أي إنه بشر مثلكم معلل بالطعام والشراب يأكل ويشرب. قال الشاعر:

أرانا موضِعَين لحتم غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب

أي: يغذى ويعلل.

(٤٨) ﴿انظُرْ﴾، يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، الأشباه، فقالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون، ﴿فَضَلُّوا﴾، فحاروا وحادوا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: وصولاً إلى طريق الحق.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بعد الموت ﴿وَرُفَاتًا﴾ قال مجاهد: تراباً. وقيل: حطاماً. والرفات: كل ما يكسر ويبلى من كل شيء كالفتات والحطام.

﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، في الشدة والقوة، وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز، أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة.

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، قيل: السماء والأرض والجبال. وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين: إنه الموت، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، أي: ولو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾، من يبعثنا بعد الموت، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾، خلقكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ومن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، أي: يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بها، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾، أي: البعث والقيامة، ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: هو قريب، لأن عسى من الله واجب، نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى موقف القيامة، ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، قال ابن عباس: بأمره. وقال قتادة: بطاعته. وقيل: مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدون حين لا ينفعهم الحمد. وقيل: هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم يبعثون حامدين [له] ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾، في الدنيا أو في القبور، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، لأن الإنسان لو مكث ألوفاً من السنين في الدنيا أو في القبور، عدّ ذلك قليلاً في مدة القيامة والخلود. قال قتادة: يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة.

(٥٣) قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، قال الكلبي: كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ المؤمنين ﴿يَقُولُوا﴾ للكافرين ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يكافؤوهم بسفههم. قال الحسن: يقول له يهديك الله.

وكان هذا قبل الإذن في الجهاد والقتال. وقيل: نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو.

وقيل: أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا التي هي أحسن أي: الخصلة التي هي أحسن. وقيل: الأحسن: كلمة الإخلاص لا إله إلا الله. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يفسد ويلقي العداوة بينهم، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، ظاهر العداوة.

(٥٤) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾، يوفقكم فتؤمنوا [فيثيبكم على الإيمان]، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، يميتكم على الشرك فتعذبوا، قاله ابن جريج.

وقال الكلبي: إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة، وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم، ﴿وَمَا

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

أرسلناك عليهم وكيلا﴾ حفيظاً وكفيلاً. قيل: نسختها آية القتال.

﴿٥٥﴾ ﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾، أي: ربك العالم بمن في السموات والأرض فجعلهم مختلفين في صورهم وأخلاقهم وأحوالهم ومللهم، ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾، قيل جعل أهل السموات والأرض مختلفين كما فضل بعض النبيين على بعض. قال قتادة في هذه الآية: اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلّم موسى تكليماً، وقال لعيسى كن فيكون، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زَبوراً كما قال: ﴿وآتينا داود زبورا﴾، والزبور كتاب علمه الله داود يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله عزّ وجلّ، ليس فيها حرام ولا حلال ولا فرائض ولا حدود، ومعناه: إنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي ﷺ وإعطاءه القرآن؟ وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿٥٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾، وذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ أنها آلهة ﴿فلا يملكون كشف الضر﴾، القحط والجوع، ﴿عنكم ولا تحويلا﴾، إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر.

﴿٥٧﴾ ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾، يعني الذين يدعونهم المشركون آلهة [و] يعبدونهم. قال ابن عباس ومجاهد: هم عيسى، وأمه، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، يبتغون أي يطلبون إلى ربهم «الوسيلة»، أي القُربة. وقيل: الوسيلة الدرجة العليا. وقيل: الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى. وقوله: ﴿أيهم أقرب﴾، معناه، ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به. وقال الزجاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح، ﴿ويرجون رحمته﴾، جنته، ﴿ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾، أي يطلب منه الحذر. وقال عبدالله بن مسعود: نزلت الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيّون ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم، فتمسكوا بعبادتهم فعيّرهم الله وأنزل هذه الآية، وقرأ ابن مسعود «الذين تدعون» بالتاء.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية﴾ وما من قرية، ﴿إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة﴾، أي: مخربوها ومهلكو أهلها، ﴿أو معذبوها عذابا شديدا﴾، بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا.

وقال مقاتل وغيره: مهلكوها في حق المؤمنين بالإماتة، ومعذبوها في حق الكفار بأنواع العذاب.

قال عبدالله بن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في إهلاكها. ﴿كان ذلك في الكتاب﴾، في اللوح المحفوظ، ﴿مسطورا﴾، مكتوبا.

قال عبادة بن الصامت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال [له] اكتب، قال: ما أكتب؟ قال القدر، وما كان وما هو كائن إلى الأبد».

﴿٥٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾.

قال ابن عباس: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ إن شئت أن أستأني بهم فعلت، وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت، فإن لم يؤمنوا أهلكهم كما أهلكتُ من كان قبلهم من

الأمم، فقال النبي ﷺ: «لا بل تستأني بهم»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾. التي سألها كفار قومك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فأهلكناهم، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكتهم، لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات، ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها، أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب، فقال جلّ ذكره: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، مضيئة بينة، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، أي: جحدوا بها أنها من عند الله كما قال: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، أي: يجحدون. وقيل: ظلموا أنفسهم بتكذيبها يريد فعاجلناهم بالعقوبة. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: العبر والدلالات، ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، للعباد ليؤمنوا قال قتادة: إن الله تعالى يُخوّف الناس بما شاء من آياته لعلّهم يرجعون.

(٦٠) قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾، أي: هم في قبضته، لا يقدرون على الخروج عن مشيئته، فهو حافظك ومانعك منهم، فلا تهبهم وامضِ إلى ما أمر الله به من تبليغ الرسالة، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات. قال ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها النبي ﷺ، وهو قول سعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، والأكثرين. والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا، فلما ذكرها رسول الله ﷺ للناس أنكر بعضهم ذلك، وكذبوا وكان فتنة للناس. وقال قوم: أسري بروحه دون بدنه. وقال بعضهم: كان له معراجان: رؤية بالعين، ومعراج رؤيا بالقلب، وقال قوم: أراد بهذه الرؤيا ما رأى ﷺ عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه، فجعل السير إلى مكة قبل الأجل فصدّه المشركون، فرجع إلى المدينة، وكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم، حتى دخلها في العام المقبل، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾، يعني شجرة الزقوم، مجازه والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن، والعرب تقول لكل طعام كريه: طعام ملعون. وقيل: معناه الملعون أكلها، ونصب الشجرة عطفاً على الرؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة للناس، فكانت الفتنة في الرؤيا ما ذكرنا، والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين.

أحدهما أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجر.

والثاني: أن عبدالله بن الزبعري قال: إن محمداً يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر.

وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد، فقال: يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوفكم به محمد، فوصفها الله تعالى في الصافات [٦٢]. وقيل: الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر فتجففه، يعني الكشوث، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، التخويف، ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي: تمردا وعتوا عظيما:

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: خلقته من طين أنا جئت به، وذلك ما روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن الله تعالى بعث إبليس حتى أخذ كفاً من تراب الأرض من عذبها ومالحها، فخلق منه آدم، فمن خلقه من العذب فهو سعيد وإن كان ابن كافرين، ومن خلقه من المالح فهو شقي وإن كان ابن مؤمنين.

(٦٢) ﴿قَالَ﴾، يعني إبليس، ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أي أخبرني والكاف لتأكيد المخاطبة، ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضلته عليّ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أمهلتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأستأصلنهم بالإضلال، يقال احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله. وقيل: هو من قول العرب حنك الدابة يحنكها: إذا شدّ في حنكها الأسفل حبلاً يقودها [به]، أي لأقودنّهم كيف شئت. وقيل: لأستولينّ عليهم بالإغواء، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، يعني المعصومين الذين

استثناهم الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ الله ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاء أتباعك، ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾، وافراً مكملاً، فتقول: وفرته أوفره وفراً.

(٦٤) وقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ [أي] استخفف [واستزل] واستجهد ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾، أي: من ذرية آدم، ﴿بِصَوْتِكَ﴾، قال ابن عباس وقتادة: بدعائك إلى معصية الله، وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس. قال الأزهري: معناه ادعهم دعاء تستفزهم به إلى جانبك، أي: تستخفهم. وقال مجاهد: بالغناء والمزامير، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، قيل: اجمع عليهم مكايدك وخيلك، يقال: «أجلبوا» و«جلبوا» إذا صاحوا، يقول: صخ بخيلك ورجلك وحثهم عليه بالإغواء، [و] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، والخيل: الركبان، والرجل: المشاة.

قال أهل التفسير: كل راكب وماش في معاصي الله فهو من جند إبليس.

وقال مجاهد وقتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس وهو كل من يقاتل في المعصية، والرجل والرجالة والراجلة واحد، يقال: راجل ورَجْل، مثل تاجر وتجر، وراكب وركب.

وقرأ حفص «ورجلك» بكسر الجيم وهما لغتان، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ﴾، فالمشاركة في الأموال: كل ما أصيب من حرام، أو أنفق في حرام، هذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير.

وقال عطاء: هو الربا وقال قتادة هو ما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وقال الضحاك: هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم. وأما المشاركة في الأولاد رُوي عن ابن عباس: أنها الموؤودة. وقال مجاهد: والضحاك: هم أولاد الزنا. وقال الحسن وقتادة: هو أنهم هودوا أولادهم، ونصروهم ومجسوهم. وعن ابن عباس [في] رواية أخرى: هو تسميتهم الأولاد عبدالحارث، وعبد شمس، وعبدالعزى، وعبدالدار، ونحوها. وروي عن جعفر بن محمد أن الشيطان يقعد على ذكر الرجل فإذا لم يقل «بسم الله» أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل.

وروي في بعض الأخبار «إن فيكم مغربين» قيل: وما المغرّبون؟ قال: «الذين يشارك فيهم الجن».

وروي أن رجلاً قال لابن عباس إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة من نار، قال: ذلك من وطء الجن.

وفي الآثار: أن إبليس لما أخرج إلى الأرض، قال: يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فَسلّطني عليه وعلى ذريته، قال: أنت مسلط، فقال: لا أستطيعه إلا بك فزدني، قال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ الآية، فقال آدم: يا رب سلطت إبليس عليّ وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك، قال: لا يولد لك ولد إلاّ وكلت به من يحفظه، فقال: زدني، قال: الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، قال: زدني، قال: التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد، فقال: زدني، قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

وفي الخبر: أن إبليس قال: يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتباً فما قراءتي؟ قال: [قرآنك] الشعر، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: ومن رسلي؟ قال: الكهنة، قال: وأين مسكني؟ قال: الحمامات، قال: وأين مجلسي؟ قال: الأسواق، قال: أي شيء مطعمي؟ قال: ما لم يُذكر عليه اسمي، قال: ما شرابي؟ قال: كل مسكر، قال: وما حِبالي؟ قال: النساء، قال: وما أذاني؟ قال: المزامير. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعِدْهُمْ﴾، [أي: مَنّهم] الجميل في طاعتك. وقيل: قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق، فإن قيل: كيف يذكر الله هذه الأشياء وهو يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؟ قيل: هذا على طريق التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وكقول القائل: افعل ما شئت فسترى.

(٦٥) قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أي حافظاً بمن يوكل الأمر إليه.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٢٨٩

(٦٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: يسوق ويجري لكم الفلك، ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، لتطلبوا من رزقه، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾، الشدة وخوف الغرق، ﴿فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾، أي: بطل وسقط، ﴿مَن تَدْعُونَ﴾، من الآلهة، ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾، إلا الله فلم تجدوا مغيثاً سواه، ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾، أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم، ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [أغمضتم] عن الإيمان والإخلاص والطاعة، كفراً منكم لنعمه، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾.

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾، بعد ذلك، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾، يغور بكم، ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾، ناحية البر وهي الأرض، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، أي: يمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطر على قوم لوط. وقال أبو عبيدة والقتيبي: الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء، وهي الحصا الصغار، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾، قال قتادة: مانعاً [يمنع عنكم ما فعلنا بكم].

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾، يعني في البحر، ﴿تَارَةً﴾ مرة، ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾، قال ابن عباس: أي: عاصفاً وهي الريح الشديدة. وقال أبو عبيدة: هي الريح التي تقصف كل شيء، أي تدقه وتحطمه. وقال القتيبي: هي التي تقصف الشجر، أي تكسره، ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾، ناصراً ولا ثائراً، وتبيع بمعنى تابع أي [تابعاً مطالباً بالثأر]. وقيل: من يتبعنا بالإنكار قرأ ابن كثير وأبو عمرو «أن نخسف، ونرسل، ونعيدكم، فنرسل، فنغرقكم»، بالنون فيهن، لقوله ﴿عَلَيْنَا﴾ وقرأ الآخرون بالياء لقوله: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقرأ أبو جعفر ويعقوب «فتغرقكم» بالتاء يعني الريح.

(٧٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، روي عن ابن عباس أنه قال: هو أنهم يأكلون بالأيدي، وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض. وروي عنه أنه قال: بالعقل. وقال الضحاك: بالنطق. وقال عطاء: بتعديل القامة وامتدادها، والدواب منكبة على وجوهها. وقيل: بحسن الصورة. وقيل: الرجال باللحى، والنساء بالذوائب.

وقيل: بأن سخر لهم سائر الأشياء. وقيل: بأن منهم خير أمة أخرجت للناس. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: حملناهم في البر على الدواب وفي البحر على السفن، ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني: لذيذ الطعام والشراب.

قال مقاتل: السمن، والزبد، والتمر، والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى [عليكم من التبن والعظام وغيرها] ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، وظاهر الآية أنه فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل. وقال قوم: فُضّلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة. وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وأشباههم.

وفي تفضيل الملائكة على البشر اختلاف، فقال قوم: فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم، وقد يوضع الأكثر موضع الكل كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣] أي: كلهم.

وفي الحديث عن جابر يرفعه قال: «لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا

ولنا الآخرة، فقال تعالى: «لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كنْ فكان». والأولى أن يقال: عوام المؤمنين أفضل من عوام الملائكة، وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، وروي عن أبي هريرة [رضي الله عنه] أنه قال: المؤمن أفضل وأكرم على الله من الملائكة الذين عنده.

(٧١) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾، قال مجاهد وقتادة: بنبيهم. وقال: أبو صالح والضحاك: بكتابهم الذي أنزل عليهم. وقال الحسن وأبو العالية: بأعمالهم. وقال قتادة أيضاً: بكتابهم الذي فيه أعمالهم، بدليل سياق الآية، ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، ويسمي الكتاب إماماً كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقيل: بمعبودهم. وعن سعيد بن المسيب قال: كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر. وقال محمد بن كعب: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾، قيل: يعني بأمهاتهم، [قيل] فيه ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها: لأجل عيسى عليه السلام، والثاني لشرف الحسن والحسين، والثالث لئلا يفتضح أولاد الزنا. ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا ينقص من حقهم قدر فتيل.

(٧٢) ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾، اختلفوا في هذه الإشارة فقال قوم: هي راجعة إلى النعم التي عددها الله تعالى في هذه الآيات من قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ إلى قوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١ و٧٠] يقول: ومن كان منكم في هذه النعم التي قد عاين [وشاهد] أعمى، ﴿فَهُوَ فِى﴾، أمر، ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾، التي لم يعاين ولم ير، ﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، يروى هذا عن ابن عباس، وقال آخرون: هي راجعة إلى الدنيا، يقول: من كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق، ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أشد عمى ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أخطأ طريقاً.

وقيل: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الاعتبار فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار.

وقال الحسن: ومن كان في هذه الدنيا ضالاً كافراً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، لأنه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لا تقبل توبته، وأمال بعض القراء هذين الحرفين وفتحهما بعضهم، وكان أبو عمرو يكسر الأول ويفتح الثاني [يعني] فهو في الآخرة أشد عمى لقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

(٧٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية، اختلفوا في سبب نزولها.

قال سعيد بن جبير: كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها، فحدث نفسه [وقال]: ما عليَّ أن أفعل ذلك، والله تعالى يعلم أني لها كاره، بعد أن يدعوني حتى أستلم الحجر الأسود.

وقيل: طلبوا منه أن يمس آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحث نفسه بذلك، فأنزل الله هذه الآية.

قال ابن عباس: قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال، قال: «وما هنّ؟» قالوا: أن لا ننحني في الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا باللات [والعزى] سنة من غير أن نعبدها، فقال النبي ﷺ: «لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود، وأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاغية يعني اللات ـ والعزى ـ فإني غير ممتعكم بها»، فقالوا: يا رسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك؟ فسكت رسول الله ﷺ، فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليصرفونك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ﴾، لتختلق، ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا﴾، لو فعلت ما دعوك إليه ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: والوك وصافوك.

(٧٤) ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾، على

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

٢٩٠

الحق بعصمتنا، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ أي: تميل، ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: قريباً من الفعل، فإن قيل: كان النبي ﷺ معصوماً فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه وما طلبوه كفر؟ قيل: كان ذلك خاطر قلب، ولم يكن عزماً وقد عفا الله عزّ وجلّ عن حديث النفس.

قال قتادة: كان النبي ﷺ يقول بعد ذلك: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين». والجواب الصحيح وهو: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ وقد ثبته الله فلم يركن [إليهم] وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. [وقد تفضل فلم يتبعوا].

﴿٧٥﴾ ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، أي: لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يعني أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقيل: «الضعف» هو العذاب، سمي ضعفاً لتضاعف الألم فيه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾، أي: ناصرا يمنعك من عذابنا.

﴿٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، اختلفوا في معنى الآية فقال بعضهم: هذه الآية مدنية.

قال الكلبي: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة حسداً منهم، فأتوه وقالوا: يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء فإن أرض الأنبياء الشام، وهي الأرض المقدسة، وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن كنت نبياً مثلهم فأتِ الشام، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافتك الروم، وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله، فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة. وفي رواية: إلى ذي الحُليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويخرج، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ ههنا هي المدينة.

وقال مجاهد وقتادة: الأرض أرض مكة. والآية مكية، هَمَّ المشركون أن يُخرجوه منها فكفّهم الله عنه حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه [ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه]. وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية. وقيل: همّ الكفار كلهم، أرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه، فمنع الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ ولم ينالوا منه ما أمّلوا، والاستفزاز هو الإزعاج بسرعة، ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب «خلافك» اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]، ومعناهما واحد. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يلبثون بعدك إلا قليلاً حتى يهلكوا، فعلى هذا القول: الأول مدة حياتهم، وعلى الثاني: ما بين خروج النبي ﷺ إلى المدينة إلى أن قتلوا ببدر.

﴿٧٧﴾ قوله عز وجل: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: كسنتنا، فانتصب بحذف الكاف، وسنة الله في الرسل إذا كذبتهم الأمم أن لا يعذبهم ما دام نبيهم بين أظهرهم، فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبهم. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، أي تبديلا.

﴿٧٨﴾ قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، اختلفوا في الدلوك: روي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: الدلوك هو الغروب، وهو قول إبراهيم النخعي، ومقاتل بن حيان، والضحاك، والسدي، وقال ابن عباس وابن عمر وجابر: هو زوال الشمس، وهو قول عطاء، وقتادة،

ومجاهد، والحسن، وأكثر التابعين، ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل، إذا زالت أو غربت، والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به، ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ يتناول المغرب والعشاء، ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ هو صلاة الصبح.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ظهور ظلمته، وقال ابن عباس: بدُوّ الليل. وقال قتادة: وقت صلاة المغرب. وقال مجاهد: غروب الشمس، ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، يعني صلاة الفجر، سمي صلاة الفجر قرآناً لأنها لا تجوز إلا بقرآن، وانتصاب «قرآن» من وجهين؟ أحدهما أنه عطف على الصلاة، أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفراء، وقال أهل البصرة: على الإغراء أي وعليك قرآن الفجر، ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾، أي: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾.

(٧٩) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي: قم بعد نومك، والتهجد لا يكون إلا بعد النوم، يقال: تهجد إذا قام بعدما نام، وهجد إذا نام، والمراد من الآية: قيام الليل للصلاة، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء، وعلى الأمة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ١ ـ ٢]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخاً في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب: قال الله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هنّ عليّ فريضة، وهنّ سنة لكم: الوتر والسواك وقيام الليل».

قوله عزّ وجلّ: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: زيادة لك، يريد فريضة زائدة، على سائر الفرائض، فرضها الله عليك. وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخاً في حقه كما في حق الأمة، فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة، لأن الله تعالى قال: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ ولم يقل عليك، فإن قيل: فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حقه ﷺ؟ قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم، والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب فتبقى له زيادة في رفع الدرجات.

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، ثنا قتيبة وبشر بن معاذ قالا: ثنا أبو عوانة عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: قام النبي ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر [الله] لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك، عن عبدالله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عبدالله بن قيس بن مخرمة، أنه أخبره عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ الليلة، فتوسدت عتبته أو فسطاطه، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، أنه أخبره أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف

كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قال: فقالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهنّ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً». قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسن الإسفرايني، أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق، أنا يونس بن هارون بن عبدالأعلى، أنا ابن وهب، أخبرني يونس وابن أبي ذئب وعمرو بن الحارث أن ابن شهاب أخبرهم عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين، ويوتر بواحدة، ويسجد السجدة قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر، وتبين له الفجر، قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة فيخرج»، وبعضهم يزيد على بعض.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا عبدالرحمٰن بن منيب، أنا يزيد بن هارون، أنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ من الليل مصلياً إلا رأيناه، وما نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه، وقال: وكان يصوم [من] الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عسى من الله تعالى واجب، لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه، والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأمته لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، أنا عبدالله بن يزيد المقري، أنا حياة عن كعب بن علقمة، عن عبدالرحمن بن جبير، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن عباس، ثنا سعيد بن أبي حمزة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة».

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبدالرحيم بن منيب أنا يعلى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً».

وأخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل قال: وقال الحجاج بن منهال، ثنا همام بن يحيى، ثنا قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهتموا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفعْ لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا قال، فيقول: لست هناكم ـ ويذكر خطيئته التي أصاب وأكله من الشجرة، وقد نهي عنها ـ ولكن ائتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون

نوح فيقول: لست هناكم ـ ويذكر خطيئته التي أصاب، سؤاله ربه بغير علم ـ ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. قال: فيأتون إبراهيم، فيقول: إني لست هناكم ـ ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ـ ولكن ائتوا موسى عبداً أتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا. قال: فيأتون موسى، فيقول: إني لستُ هناكم ـ ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس ـ ولكن ائتوا عيسى عبدالله ورسوله، وروح الله وكلمته. قال: فيأتون عيسى، فيقول: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً فَيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، فيقول ارفعْ رأسك يا محمد وقلْ تُسمع واشفعْ تشفع، وسلْ تعطه. قال: فأرفع رأسي فأُثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه. قال: ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج، أدخلهم الجنة». قال قتادة: وسمعته أيضاً يقول: «فأخرج فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة ثم أعود الثانية فأستأذ على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت رأسك يا ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ محمدُ وقلْ تسمعْ واشفع تشفعْ، وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد وقلْ تسمعْ واشفعْ تشفعْ وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأدخلهم الجنة». قال قتادة: وقد سمعته يقول: «فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن»، أي وجب عليه الخلود، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال: «وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم ﷺ».

وبهذا الإسناد قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد، ثنا معبد بن هلال قال: ذهبنا إلى أنس بن مالك فذكر حديث الشفاعة، بمعناه، وقال: «فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخرّ له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً وذكر مثله، وقال: فيقال لي: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من الإيمان، قال: فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، وذكر مثله، ثم يقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأنطلق فأفعل» فلما خرجنا من عند أنس مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا لم يزدنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو يومئذٍ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم، ثم قال: «أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول يا ربي أتأذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله».

ورُوي عن عبدالله بن عمر قال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ، فيشفع ليقضىٰ بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذٍ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم.

وأخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد بن باصويه، ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا محمد بن حيوية، ثنا سعيد بن سليمان، ثنا منصور بن أبي الأسود، ثنا الليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولهم خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا

شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذٍ بيدي، ولواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف عليّ ألف خادم كأنهم بَيْض مكنون أو لؤلؤ منثور».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني الحكم بن موسى، ثنا معقل بن زياد عن الأوزاعي، حدثنى أبو عمار، حدثني عبدالله بن فروخ، حدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع».

والأخبار في الشفاعة متواترة كثيرة، وأول من أنكرها عمرو بن عبيد، وهو مبتدع باتفاق أهل السنة.

ورُوي عن يزيد بن صهيب الفقير قال: كنت قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج، وكنت رجلاً شاباً فخرجنا في عصابة نريد أن نحج، فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبدالله يحدث القوم عن رسول الله ﷺ، وذكر حديث الجهنميين، فقلت له: يا صاحب رسول الله ما هذا الذي يحدثون والله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فقال لي: يا فتى أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: هل سمعت بمقام محمد المحمود الذي يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من النار من يخرج، ثم نعتَ وَضْعَ الصراط ومرَّ الناس عليه، وأن قوماً يخرجون من النار بعد ما يكونون فيها، قال: فرجعنا وقلنا أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟.

ورُوي عن أبي وائل عن عبدالله عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن صاحبكم حبيب الله وأكرم الخلق على الله»، ثم قرأ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: يجلسه على العرش. وعن عبدالله بن سلام قال: يقعده على الكرسي.

(٨٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ المراد من المدخل والمخرج الإدخال والإخراج، واختلف أهل التفسير فيه.

فقال ابن عباس والحسن وقتادة: «أدخلني مدخل صدق» المدينة، «وأخرجني مخرج صدق» من مكة، نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة. وقال الضحاك: «وأخرجني مخرج صدق» من مكة آمناً من المشركين، «وأدخلني مدخل صدق» مكة ظاهراً عليها بالفتح. وقال مجاهد: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق [الجنة]، وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب عليّ من حقها، مخرج صدق.

وعن الحسن أنه قال: أدخلني مدخل صدق الجنة، وأخرجني مخرج صدق من مكة. وقيل: أدخلني في طاعتك، وأخرجني من المناهي. وقيل: معناه أدخلني حيث ما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه، فإنّ ذا الوجهين لا يكون آمناً ووجيهاً عند الله.

ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يؤول إليه الخروج والدخول من النصر والعز ودولة الدين، كما وصف القدم بالصدق فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾، قال مجاهد: حجة بيّنة. وقال الحسن: ملكاً قوياً تنصرني به على من ناوأني وعزاً ظاهراً أقيم به دينك، فوعده الله لينزعنّ ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له. قال قتادة: علم نبي الله ﷺ أن لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان نصير، فسأل سلطاناً نصيراً: كتاب الله، وحدوده، وإقامة دينه.

(٨١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾، يعني القرآن، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، أي [ذهب] الشيطان، قاله قتادة، وقال السدي: الحق الإسلام، والباطل الشرك. وقيل: الحق عبادة الله، والباطل عبادة الأصنام. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ذاهباً، يقال: زهقت نفسه أي خرجت.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا صدقة بن الفضل، ثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح، عن

مجاهد عن أبي معمر عن عبدالله، قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد».

﴿٨٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، قيل: ﴿مِنَ﴾ ليس للتبعيض، ومعناه: وننزل من القرآن ما كله شفاء، أي: بيان من الضلالة والجهالة، يتبين به المختلف، ويتضح به المشكل، ويستشفى به من الشبهة، ويهتدى به من الحيرة، هو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها ورحمة للمؤمنين. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، لأن الظالم لا ينتفع به، والمؤمن من ينتفع به فيكون رحمة له، وقيل: زيادة الخسارة للظالم من حيث أن كل آية تنزل يتجدد منهم تكذيب ويزداد لهم خسارة، قال قتادة: لم يجالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان قضى الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

﴿٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾، عن ذكرنا ودعائنا، ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، أي تباعد منا بنفسه، أي ترك التقرب إلى الله بالدعاء. وقال عطاء: تعظم وتكبر، ويكسر النون والهمزة حمزة والكسائي، ويفتح النون ويكسر الهمزة أبو بكر، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر «وناء» مثل جاء قيل: هو بمعنى نأى، وقيل: ناء من النوء وهو النهوض والقيام. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، الشدة والضر، ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾، أي آيساً قنوطاً. وقيل: معناه أنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة، فإذا تأخرت الإجابة يئس ولا ينبغي للمؤمن أن ييأس من الإجابة، وإن تأخرت فيدع الدعاء.

﴿٨٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، قال ابن عباس: على ناحيته. قال الحسن وقتادة: على نيّته. وقال مقاتل: على خليقته. قال الفراء على طريقته التي جبل عليها. وقال القتيبي: على طبيعته وجبلته. وقيل: على السبيل الذي اختاره لنفسه، وهو من الشكل، يقال: لست على شكلي ولا شاكلتي، وكلها لغات متقاربة، تقول العرب: طريق ذو شواكل إذا تشعبت منه الطرق، ومجاز الآية: كل يعمل على ما يشبهه كما يقال في المثل: كل امرىء يشبهه فعله. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾، أوضح طريقاً.

﴿٨٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، الآية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قيس بن حفص، ثنا عبدالواحد يعني ابن زياد، ثنا الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله [بن مسعود] قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث المدينة، وهو يتوكأ على عسيب معه، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه الوحي وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وفي رواية «وما أوتوا من العلم إلاّ قليلاً». قال الأعمش: هكذا في قراءتنا.

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: إن قريشاً قد اجتمعوا وقالوا: إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب، وقد ادعى ما ادعى، فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه [وأخبروهم بخبره وما ادعاه وانظروا ما يقولون في أمره] فإنهم أهل كتاب فبعثوا جماعة إليهم، فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها، فليس بنبي، وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي، فسلوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول، ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها وما خبره؟ وعن الروح؟، فسألوه، فقال النبي ﷺ: «أخبركم بما سألتم غداً» ولم يقل إن شاء الله، فلبث الوحي، قال مجاهد: اثني عشرة ليلة، وقيل: خمسة عشر يوماً. وقال عكرمة: أربعين يوماً ـ وأهل مكة ـ يقولون: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، حتى حزن النبي ﷺ من مكث

الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة، ثم نزل جبريل بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، ونزل في الفتية ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، ونزل في الروح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه، فروي عن ابن عباس: أنه جبريل عليه السلام، وهو قول الحسن وقتادة، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: هو ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بكلها. وقال مجاهد: خلق على صور بني آدم، لهم أيد وأرجل ورؤوس، وليسوا بملائكة، ولا ناس، يأكلون الطعام، وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم من الروح غير العرش، لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيها بلقمة واحدة لفعل، صورة خلقه على صورة خلق الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله عزّ وجلّ اليوم عند الحجب السبعين، وأقرب إلى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السموات من نوره. وقيل: الروح هو القرآن. وقيل: المراد منه عيسى عليه السلام، فإنه روح الله وكلمته، ومعناه أنه ليس كما يقوله اليهود ولا كما يقوله النصارى، وقال قوم: هو الروح المركب في الخلق الذي يحيىٰ به الإنسان، وهو الأصح. وتكلم فيه قوم فقال بعضهم: هو الدم، ألا ترى أن الحيوان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم؟. وقال قوم: هو نَفَسُ الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس. وقال قوم: هو عرض. وقال قوم: هو جسم لطيف. وقال بعضهم: الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلو والعلم والبقاء، ألا ترى أنه إذا كان موجوداً يكون الإنسان موصوفاً بجميع هذه الصفات، فإذا خرج ذهب الكل، وأولى الأقاويل: أن يوكل علمه إلى الله عزّ وجلّ، وهو قول أهل السنة. قال عبدالله بن بريدة: إن الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ قيل: من علم ربي، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في جنب علم الله قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ. وقيل: خطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير. وقيل: كان النبي ﷺ يعلم معنى الروح، ولكن لم يخبر به أحداً لأن ترك إخباره به كان علماً لنبوته. والأول أصح لأن الله عزّ وجلّ استأثر بعلمه.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

٢٩١

﴿٨٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، يعني القرآن، معناه: إنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك، لو شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك يعني القرآن، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾، أي: من يتوكل برد القرآن إليك.

﴿٨٧﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾، فإن قيل: كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عزّ وجلّ؟ قيل: المراد منه محوه من المصاحف وإذهاب ما في الصدور. وقال عبدالله بن مسعود: اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع. قيل: هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يسرى عليه ليلاً

فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون [منه] شيئاً ولا يجدون في المصاحف شيئاً، ثم يفيضون في الشعر، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب مَالَكَ وهو أعلم؟ فيقول: يا رب أُتْلَى ولا يعمل بي.

﴿٨٨﴾ قوله جلّ وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، لا يقدرون على ذلك، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، عوناً ومظاهراً، نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله تعالى، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات المبالغة لا يشبه كلام الخلق، لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله.

﴿٨٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، جحوداً.

﴿٩٠﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، لن نصدقك، ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب «تفجر» بفتح التاء وضم الجيم مخففاً، لأن الينبوع واحد، وقرأ الباقون بالتشديد من التفجير، واتفقوا على تشديد قوله: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾، لأن الأنهار جمع، والتشديد يدل على التكثير، ولقوله: «تفجيراً من بعد».

وروي عكرمة عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث، وأبا البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهاً ومنبهاً ابني الحجاج اجتمعوا ومن اجتمع معهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بينك وبيننا، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الأمر الذي بك رئي تراه حتى قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف عليكم، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» فقالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق منّا بلاداً ولا أشد منّا عيشاً، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا ويفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عمّا تقول أحق هو أم باطل، فإن صدقوك صدقناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثتُ، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه [عليّ] أصبر لأمر الله»، قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك، واسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، فقال: «ما بعثتُ بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً»، قالوا: فأسقط السماء كما زعمت، إن ربك لو شاء فعل، فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

٢٩٢

[٩] «كسفا» بالفتح، حفص، وفي الروم [٤٨] ساكنة أبو جعفر، وابن عامر.

فعله»، وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ وقام معه عبدالله بن أبي أمية، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا عليك فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله تعالى فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل، فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ترقى فيها وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك، فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً لما رأى من مباعدتهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مكة ﴿يَنبُوعًا﴾ أي: عيوناً.

﴿٩١﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾، بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾، تشقيقاً.

﴿٩٢﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين، أي: قطعاً وهي جمع «كسفة»، وهي القطعة والجانب، مثل كسرة وكسر، وقرأ الآخرون بسكون السين على التوحيد، وجمعه أكساف وكسوف، أي: تسقطها طبقاً واحداً. وقيل: أراد جانبها علينا. وقيل: معناه أيضاً القطع، وهي جمع التكسير مثل سدرة وسدر في الشعراء [٨٧] وسبأ ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾، قال ابن عباس: كفيلاً، أي يكفلون بما تقول. وقال الضحاك: ضامناً. وقال مجاهد: هو جمع القبيلة أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة. وقال قتادة: عياناً، أي: تراهم القابلة أي معاينة. وقال الفراء: هو من قول العرب لقيت فلاناً قبلاً، وقبيلاً أي: معاينة.

﴿٩٣﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب، وأصله الزينة، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾، تصعد، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، هذا قول عبدالله بن أبي أمية، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾، لصعودك، ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾، أمرنا فيه باتباعك، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر «قال» يعني محمداً، وقرأ الآخرون على الأمر، أي: قل يا محمد، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، أمره بتنزيهه وتمجيده، على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل، ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر، وما أنا إلاّ بشر وليس ما سألتم في طوق البشر.

واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله، مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبهها، والقوم عامتهم كانوا متعنتين لم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا، فردّ الله عليهم سؤالهم.

﴿٩٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا﴾، جهلاً منهم، ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، أراد: أن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لأنك بشر، وهلا بعث الله إلينا ملكاً فأجابهم الله تعالى:

﴿٩٥﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾، مستوطنين مقيمين، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، من جنسهم، لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس.

﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أني رسول الله إليكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾، يهدونهم، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا الحسين بن شجاع الصوفي المعروف بابن الموصلي، أنبأنا أبو بكر بن الهيثم، ثنا جعفر بن محمد الصائغ، ثنا حسين بن محمد، ثنا سفيان عن قتادة عن أنس [بن مالك] أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه».

وجاء في الحديث: «إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك»، ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، فإن قيل: كيف وصفهم بأنهم عميٌ وبكم وصم. وقد قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، أثبت الرؤية والكلام والسمع؟ قيل: يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد إليهم هذه الأشياء، وجواب آخر، قال ابن عباس: عمياً لا يرون ما يسرهم، بكماً لا ينطقون بحجة، صماً لا يسمعون شيئاً يسرهم. وقال الحسن: هذا حين يساقون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار. وقال مقاتل: هذا حين [يساقون إلى الموقف] يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيصيرون بأجمعهم عمياً وبكماً وصماً، لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون. ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾، قال ابن عباس: كلما سكنت، أي: سكن لهيبها. وقال مجاهد: طفئت وقال قتادة: ضعفت وقيل: هو الهدو من غير أن يوجد نقصان في ألم الكفار، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقيل: [كلما خبت] أي أرادت أن تخبو، ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾، أي: وقوداً، وقيل: المراد من قوله ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا إلى ما كانوا عليه، وزيد في تسعير النار لتحرقهم [وتؤلمهم].

(٩٨) فأجابهم الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأجابهم الله تعالى.

(٩٩) فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، في عظمتها وشدتها، ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾، في صغرهم وضعفهم، نظيره قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٧٥]. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾، وقتاً لعذابهم، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، أنه يأتيهم، قيل: هو الموت، وقيل: هو يوم القيامة، ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي: جحوداً وعناداً.

(١٠٠) ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي: نعمة ربي. وقيل: رزق ربي، ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾، لبخلتم وحبستم، ﴿خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾، أي: خشية الفاقة، قاله قتادة، وقيل: خشية النفاد، يقال: أنفق الرجل أي أملق وذهب ماله ونفق الشيء، إذا ذهب، وقيل: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾، بخيلاً: ممسكاً عن الإنفاق.

(١٠١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، أي: دلالات واضحات، فهي الآيات التسع.

قال ابن عباس والضحاك: هي العصا، واليد البيضاء، والعقدة التي كانت بلسانه فحلها، وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وقال عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء: هي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات. وذكر محمد بن كعب القرظي: الطمس، والبحر بدل السنين، ونقص من الثمرات، وقال: فكان الرجل منهم مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين، والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجراً.

وقال بعضهم: هنّ آيات الكتاب.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني الحسن بن محمد الثقفي، أنا هارون بن محمد بن هارون العطار، أنبأنا يوسف بن عبدالله بن ماهان، ثنا [أبو] الوليد الطيالسي، ثنا شعبة عن عمرو بن مرة، عن عبدالله بن مسلمة، عن صفوان بن عسّال المرادي، أن يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر: لا تقل نبي فإنه لو سمع

صارت أربعة أعين، فأتياه فسألاه عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال: «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ولا تزنوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تسحروا، ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله، ولا تسرفوا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت»، فقبلا يده، قالا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا: إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنّا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَسْـَٔلْ﴾، يا محمد، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾، موسى، يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره، ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، أي: مطبوباً سحروك، قاله الكلبي، وقال ابن عباس: مخدوعاً. وقيل: مصروفاً عن الحق. وقال الفراء وأبو عبيدة: ساحراً، فوضع المفعول موضع الفاعل. وقال محمد بن جرير: معطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك.

﴿١٠٢﴾ ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، قرأ العامة بفتح التاء خطاباً لفرعون، وقرأ الكسائي بضم التاء، ويُروى ذلك عن علي [رضي الله عنه]، وقال: لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق، ولو علم لآمن، ولكن موسى هو الذي علم، وقال ابن عباس: علمه فرعون ولكنه عاند، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهذه القراءة، وهي نصب التاء، أصح في المعنى وعليه أكثر القراء، لأن موسى لا يحتج عليه بعلم نفسه، ولا يثبت عن علي ورفع التاء، لأنه يروى عن رجل من مراد عن علي، وذلك أن الرجل مجهول، ولم يتمسك بها أحد من القراء غير الكسائي، ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، هذه الآيات التسع، ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾، جمع بصيرة أي يبصر بها، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، قال ابن عباس: ملعوناً. وقال مجاهد: هالكاً. وقال قتادة: مهلكاً. وقال الفراء: أي مصروفاً ممنوعاً عن الخير. يقال: ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما منعك وصرفك عنه.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾، أي: أراد فرعون أن يستفز موسى وبني إسرائيل، أي يخرجهم، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، يعني أرض مصر، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾، ونجينا موسى وقومه.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي من بعد هلاك فرعون، ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، يعني أرض مصر والشام، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً إلى موقف القيامة.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الكَهْفِ — ترتيبها ١٨ — آياتها ١١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

٢٩٣

واللفيف: الجمع الكثير، إذا كانوا مختلطين من كل نوع، يقال: لَفَّت الجيوش إذا اختلطوا، وجمعُ القيامةِ كذلك، فيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر. وقال الكلبي: فإذا جاء وعد الآخرة: يعني مجيء عيسى من السماء جئنا بكم لفيفاً أي: النُّزاع من كل قوم من ههنا وههنا لفوا جميعاً.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، يعني القرآن، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيعين، ﴿وَنَذِيرًا﴾، للعاصين.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾، قيل: أنزلناه نجوماً، لم ينزل مرة واحدة، بدليل قراءة ابن عباس: «وقرآناً فرّقناه» بالتشديد، وقراءة العامة بالتخفيف، أي: فصّلناه. وقيل: بيّناه. وقال الحسن: معناه فرقنا به بين الحق والباطل. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تؤدة وترتيل وترسل في ثلاث وعشرين سنة،

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [أي رتلناه ترتيلا].

(١٠٧) ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، هذا على طريق الوعيد والتهديد، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾، قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب وهم الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله ﷺ ثم أسلموا بعد مبعثه، مثل زيد بن عمر بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأبي ذر وغيرهم. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، يعني القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يسقطون على الأذقان، قال ابن عباس: أراد بها الوجوه، ﴿سُجَّدًا﴾.

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، أي: كائناً واقعاً.

(١٠٩) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾، أي: يقعون على الوجوه يبكون، والبكاء مستحب عند قراءة القرآن، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾، نزول القرآن، ﴿خُشُوعًا﴾، خضوعاً لربهم، نظيره قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو عمرو بن بكر بن محمد المزني، ثنا أبو بكر محمد بن عبدالله الجنيد، ثنا الحسن بن الفضل البجلي، أنا عاصم بن علي بن عاصم، ثنا المسعودي، هو عبدالرحمن بن عبدالله، عن محمد بن عبدالرحمن مولى آل طلحة، عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبداً».

أخبرنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري، أنا أبو القاسم عبدالخالق بن علي بن عبدالخالق المؤذن، أنا [أبو] أحمد بكر بن محمد بن حمدان، ثنا محمد بن يونس الكديمي، أنبأنا عبدالله بن محمد الباهلي، ثنا أبو حبيب القنوي ثنا بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حرمت النار على ثلاثِ أعين: عين بكت من خشية الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين غضت عن محارم الله».

(١١٠) قوله جلّ وعلا: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

قال ابن عباس: سجد رسول الله ﷺ بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول في سجوده: «يا الله يا رحمن» فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومعناه أنهما اسمان لواحد، ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾، «ما» صلة معناه أياً تدعو من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه، ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، ثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وبهذا الإسناد عن محمد بن إسماعيل قال: ثنا مسدد عن هشيم، عن أبي بشر بإسناده مثله وزاد ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، أسمعهم، ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن.

وقال قوم: نزلت الآية في الدعاء، وهو قول عائشة رضي الله عنها، والنخعي، ومجاهد ومكحول.

أخبرنا عبدالواحدالمليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا طلق بن غنام، ثنا زائدة عن هشام عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها [في قوله تعالى] ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قالت: أنزل ذلك في الدعاء.

وقال عبدالله بن شداد: كان أعراب من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا مالاً وولداً فيجهرون بذلك، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾.

أي: لا ترفع صوتك بقراءتك أو بدعائك ولا تخافت بها، والمخافتة خفض الصوت والسكوت، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: بين الجهر والخفاء.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الخزاعي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا محمود بن غيلان، ثنا يحيى بن إسحاق، ثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبدالله بن أبي رباح الأنصاري، عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «مررتُ بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك، فقال: إني أسمعت من ناجيت، فقال: ارفع قليلاً، وقال لعمر: مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع صوتك، فقال: إني أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال: اخفض قليلاً».

(١١١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته، ومعنى الحمد لله هو الثناء عليه بما هو أهله، قال الحسين بن الفضل: معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولداً، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، قال مجاهد: لم يذل حتى يحتاج إلى ولي يتعزز به، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾، أي: وعظمه عن أن يكون له شريك أو ولي.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، ثنا أبو العباس الأصم، ثنا محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن إسحاق الصَّغاني، ثنا نضر بن حماد أبوالحارث الوراق ثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت قال: سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنبأنا عبدالرزاق ثنا معمر عن قتادة أن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رأس الشكر، ما شكر الله عبداً لا يحمده».

أخبرنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أحمد الأنصاري، أنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، ثنا يحيى بن خالد بن أيوب المخزومي، ثنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشر الخزامي الأنصاري، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الدعاء الحمد لله، وأفضل الذكر لا إله إلا الله».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد، ثنا زهير، ثنا منصور عن هلال بن يسار عن الربيع بن عميلة عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، لا يضرك بأيهنّ بدأت».

❁ ❁ ❁

سورة الكهف

مكية وهي مائة عشر آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه، وخص رسوله ﷺ بالذكر، لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾، فيه تقديم وتأخير معناه أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيماً. قال ابن عباس: عدلاً. وقال الفراء: قيماً على الكتب كلها أي: مصدقاً لها ناسخاً لشرائعها. وقال قتادة: ليس على التقديم والتأخير بل معناه: أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، ولكن جعله قيماً. ولم يكن مختلفاً، على ما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقيل: معناه لم يجعله مخلوقاً. وروى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] أي: غير مخلوق. ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، أي [لينذر] ببأس شديد، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾، أي من عنده، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾، أي الجنة.

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

(٣) ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيه.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾، أي قالوه عن جهل لا عن علم، ﴿كَبُرَتْ﴾، أي: عظمت، ﴿كَلِمَةً﴾، نصب على التمييز، يقال تقديره: كبرت الكلمة كلمة. وقيل: من كلمة، فحذف مِن فانتصب، ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: تظهر من أفواههم، ﴿إِن يَقُولُونَ﴾، ما يقولون، ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾.

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾، من بعدهم، ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي: القرآن، ﴿أَسَفًا﴾، أي حزناً وقيل غضباً.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾، فإن قيل: أيُّ زينة في الحيّات والعقارب والشياطين؟ قيل: فيها زينة على معنى أنها تدل على وحدانية الله تعالى.

وقال مجاهد: أراد به الرجال خاصة، وهم زينة الأرض. وقيل: أراد به العلماء والصلحاء.

وقيل: الزينة بالنبات والأشجار والأنهار، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، لنختبرهم، ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي أصلح عملاً. وقيل: أيهم أترك للدنيا.

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾، فالصعيد وجه الأرض. وقيل: هو التراب، ﴿جُرُزًا﴾ يابساً أملس لا ينبت شيئاً يقال: جرزت الأرض إذا أُكل نباتها.

(٩) قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، يعني أظننت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، أي هم عجب من آياتنا. وقيل: معناه إنهم ليسوا بأعجب من آياتنا فإن ما خلقت من السموات والأرض وما فيهن من العجائب أعجب منهم. و«الكهف»: هو الغار في الجبل.

واختلفوا في الرقيم، قال سعيد بن جبير: هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم وهذا أظهر الأقاويل، ثم وضعوه على باب الكهف وكان اللوح من رصاص، وقيل: من حجارة، فعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم، أي: المكتوب، والرقم: الكتابة.

وحكي عن ابن عباس أنه قال: هو اسم للوادي الذي فيه أصحاب الكهف، وعلى هذا هو من رقمة الوادي، وهو جانبه.

وقال كعب الأحبار هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف. وقيل: اسم للجبل الذي فيه الكهف، ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف.

(١٠) فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، أي صاروا إليه، واختلفوا في سبب مصيرهم إلى الكهف، فقال محمد بن إسحاق بن يسار: مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له «دقيانوس» عبدالأصنام وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه، وكان ينزل قرى الروم، ولا يترك في قرية نزلها أحداً إلا فتنه حتى يعبدالأصنام، ويذبح للطواغيت أو قتله، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف، وهي «أفسوس»، فلما نزلها كبر على أهل الإيمان، فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه، وكان دقيانوس حين قدمها أمر أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له، واتخذ شرطاً من الكفار من أهلها، يتبعون أهل الإيمان في أماكنهم فيخرجونهم إلى «دقيانوس»،

فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب في الحياة فيعبدهم ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل.

فلما رأى ذلك أهل الشدة في الإيمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل، فيقتلون ويقطعون ثم يربط ما قطع من أجسادهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة، فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً، فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء.

وكانوا من أشراف الروم، وكانوا ثمانية نفر، بكوا وتضرعوا إلى الله وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً إن عبدنا غيره، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة، وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك، فبينما هم على مثل ذلك وقد دخلوا في مصلى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم، وهم سجود على وجوههم، يبكون ويتضرعون إلى الله، فقالوا لهم: ما خلفكم عن أمر الملك؟ انطلقوا إليه، ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى «دقيانوس»، فقالوا: تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤون بك ويعصون أمرك، فلما سمع بذلك بعث إليهم، فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب. فقال لهم: «ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة لسادات أهل مدينتكم؟ فاختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا، وإما أن أقتلكم، فقال «مكسلمينا» وهو أكبرهم سناً، إن لنا إلٰهاً ملأ السموات والأرض عظمة، لن ندعو من دونه إلٰهاً أبداً، له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصاً أبداً، إيّاه نعبد وإيّاه نسأل النجاة والخير، فأما الطواغيت فلن نعبدها أبداً فاصنع بنا ما بدا لك».

وقال أصحاب «مكسلمينا» «الدقيانوس» مثل ما قال «مكسلمينا»، فلما قالوا ذلك أمر فنزع عنهم لبوساً كانت عليهم من لبوس عظمائهم، ثم قال: «سأفرغ لكم فأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة، وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم إلاّ إني أراكم شباناً حديثة أسنانكم، فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه وتراجعون عقولكم، ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم.

ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق «دقيانوس» إلى مدينة سوى مدينتهم قريباً منهم لبعض أموره، فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه، وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم وأن يعذبهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها، ويتزودوا بما بقي، ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له «بخلوس»، فيمكثون فيه ويعبدون الله، حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء، فلما قال ذلك بعضهم لبعض، عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذه نفقة فتصدق منها، ثم انطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف، فلبثوا فيه. قال كعب الأحبار: مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب: يا قوم ما تريدون مني؟ لا تخشوا جانبي، أنا أحب أحباب الله، فناموا حتى أحرسكم.

وقال ابن عباس: هربوا ليلاً من دقيانوس، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم، وتبعه كلبه، فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد.

قال ابن إسحاق: فلبثوا فيه ليس لهم عملٌ إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد ابتغاء وجه الله، وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له «تمليخا» فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً وكان من أحملهم وأجلدهم، وكان إذا دخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حساناً ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها، ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشتري لهم طعاماً وشراباً ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء، ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما لبثوا.

ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت، ففزع من ذلك أهل الإيمان، وكان «تمليخا» بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل، وأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة، وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة

ففزعوا ووقعوا سجوداً يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة.

ثم إن «تمليخا» قال لهم: يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم، فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع، فطعموا، وذلك [مع] غروب الشمس، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضاً، فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم النوم في الكهف، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف، فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم.

فلما كان من الغد فقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم، فقال لبعضهم: لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا، لقد كانوا ظنوا أن بي غضباً عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري، ما كنت لأحمل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي.

فقال عظماء المدينة: ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلاً، ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل، ولكنهم لم يتوبوا.

فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم، فقال: أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني وتوعدهم بالقتل فقالوا له: أما نحن فلم نعصك، فلِمَ تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا، فأهلكوها في أسواق المدينة، ثم انطلقوا وارتقوا إلى جبل يدعى «بخلوس».

فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم، وجعل لا يدري ما يصنع بالفتية، فألقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم، وأراد الله أن يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها. وأن الله يبعث من في القبور، فأمر «دقيانوس» بالكهف أن يسد عليهم، وقال: دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم.

وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال.

ثم إن رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر «روناس»، ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسمائهم وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس، ويجعلا التابوت في البنيان، وقالا: «لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة، فيعلم من فتح عنهم حين يقرأ هذا الكتاب خبرهم، ففعلا وبنيا عليه فبقي «دقيانوس» ما بقي.

ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك.

وقال عبيد بن عمير: كان أصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسورين ذوي ذوائب، وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم في زي عظيم وموكب، وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها، وقد قذف الله [في] قلوب الفتية الإيمان، وكان أحدهم وزير الملك، فآمنوا وأخفى كل واحد منهم إيمانه، فقالوا في أنفسهم: نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة، فجلس فيه، ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك، ثم خرج الآخر فاجتمعوا إلى مكان، فقال بعضهم لبعض: ما جمعكم؟ وكل واحد يكتم صاحبه إيمانه مخافة على نفسه، ثم قالوا: ليخرج كل فتى فيخلو بصاحبه ثم يفشي واحد منكم سره إلى صاحبه، ففعلوا فإذا هم جميعاً على الإيمان، وإذا كهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وفقدهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم.

فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح: فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان ابن فلان ووضعوا اللوح في خزانة الملك.

وقالوا: ليكونن لهذا شأن، ومات ذلك الملك، وجاء قرن بعد قرن.

وقال وهب بن منبه: جاء حواري عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له فكره أن يدخلها، فأتى حماماً قريباً من المدينة

فكان يؤاجر نفسه من الحمامي، ويعمل فيه ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة واجتمع عليه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا وصدقوه، وكان شرط على صاحب الحمام أن الليل لي لا يحول بيني وبينه ولا بين الصلاة أحد.

وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيره الحواري، وقال: أنت ابن الملك وتدخل مع هذه؟ فاستحيا وذهب فرجع مرة أخرى.

فقال له مثل ذلك فسبه وانتهره ولم يلتفت إلى مقالته حتى دخلا معاً فماتا في الحمام، وأتى الملك فقيل له قتل صاحب الحمام ابنك، فالتمس فلم يقدر عليه وهرب.

فقال: من كان يصحبه؟ فسموا الفتية، فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم على مثل إيمانهم فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه، وقالوا: نبيت هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى، فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يبتغونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، فأراد رجل منهم الدخول [عليهم] فأرعب فلم يطق أحد أن يدخله، فقال قائل منهم: أليس لو قدرته عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتون جوعاً [وعطشاً]، ففعل.

قال وهب: فعبر زمان بعد زمان، بعدما سدوا عليهم باب الكهف، ثم إن راعياً أدركه المطر عند الكهف فقال لو فتحت باب هذا الكهف وأدخلت غنمي فيه من المطر لكان حسناً، فلم يزل يعالجه حتى فتحه ورد الله عليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا.

وقال محمد بن إسحاق: ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له «بيدروس»، فلما ملك بقي في ملكه ثمانياً وستين سنة، فتحزب الناس في ملكه فكانوا أحزاباً، منهم من يؤمن بالله، ويعلم أن الساعة حق ومنهم من يكذب بها، فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع إلى الله وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق، ويقولون لا حياة إلا حياة الدنيا، وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فجعل «بيدروس» يرسل إلى من يظن فيهم خيراً وأنهم أئمة في الخلق، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه، ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً فجلس عليه فدأب ليله ونهاره زماناً يتضرع إلى الله تعالى ويبكي. ويقول: أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث إليهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه. ثم إن الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة العباد أراد أن يظهر الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه، وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين.

فألقى الله في نفس رجل من [أهل] ذلك البلد الذي فيه الكهف، وكان اسم ذلك الرجل أولياس، أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف فيبني به حظيرة لغنمه، فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة، حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله عن الناس بالرعب، فلما فتحا باب الكهف أذن الله ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف. فجلسوا فرحين، مسفرة وجوههم، طيبة أنفسهم، فسلم بعضهم على بعض، كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون فيها إذا أصبحوا من ليلتهم.

ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه كهيئتهم حين رقدوا، وهم يرون أن دقيانوس في طلبهم، فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم: أنبأنا ما الذي قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار؟، وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون، وقد تخيل لهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون، حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض: كم لبثتم نياماً؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، ثم قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم، وكل ذلك في أنفسكم يسير.

فقال لهم تمليخا: التمستم في المدينة فلم توجدوا، وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم، فتذبحون للطواغيت

أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل، فقال لهم مكسلمينا: يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله، ثم قالوا لتمليخا: انطلق إلى المدينة فتسمَّع ما يقال لنا بها، وما الذي يذكر عند دقيانوس، وتلطف ولا تشعرنّ بك أحداً، وابتع لنا طعاماً فائتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به، فقد أصبحنا جياعاً.

ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقاً من نفقتهم التي كانت معهم والتي ضربت بطابع دقيانوس، فكانت كخفاف الربع، والربع أول ما ينتج من ولد الضأن في الربيع، فانطلق تمليخا خارجاً فلما مرّ بباب الكهف، رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفياً يصد عن الطريق مخافة أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة.

فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره، فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان إذا كان [أمر] الإيمان ظاهراً فيها، فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفياً وجعل ينظر يميناً وشمالاً، ثم ترك ذلك الباب فتحول إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى ناساً كثيراً مُحْدَثين لم يكن يراهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران.

ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول: يا ليت شعري ما هذا؟ أما عيشة أمس، كان المسلمون يخبئون هذه العلامة ويستخفون بها، وأما اليوم فإنها ظاهرة، لعلي نائم؟ ثم يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظَهرَيْ سوقها فيسمع ناساً يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده ذلك فرقاً ورأى أنه حيران.

فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدر المدينة، وقال في نفسه: والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس على ظهر الأرض إنسان يذكر عيسى ابن مريم إلا قتل، وأما الغداة فاسمعهم وكل إنسان يذكر اسم عيسى ولا يخاف أحداً، ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف، والله ما أعلم مدينة أقرب [من] مدينتنا، فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟ قال اسمها «أفسوس»، فقال في نفسه: لعل بي مساً أو أمراً أذهب عقلي، والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبني شرٌ فأهلك ثم إنه أفاق فقال: والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بي لكان أيسر بي.

فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كانت معه فأعطاها رجلاً منهم، فقال بعني بهذه الورق طعاماً فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها، ثم طرحها إلى رجل آخر من أصحابه فنظر إليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل. ويتعجبون منها. ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض إن هذا أصاب كنزاً خبيئاً في الأرض منذ زمان ودهر طويل، فلما رآهم تمليخا يتشاورون من أجله فرق فرقاً شديداً وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم «دقيانوس»، وجعل أناس آخرون يأتونه فيتعرفونه فلا يعرفونه، فقال لهم وهو شديد الفرق منهم: افضلوا عليّ قد أخذتم ورقي فأمسكوها وأما طعامكم فلا حاجة لي به.

فقالوا له: من أنت يا فتى؟ وما شأنك؟ والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين، وأنت تريد أن تخفيه عنّا، فانطلق معنا وأرنا وشاركنا فيه. نخف عليك ما وجدت، فإنك إن لم تفعل نأت بك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك»، فلما سمع قولهم قال في نفسه: قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه، فقالوا: «يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت».

فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وما يرجع إليهم، وفرق حتى ما وجد ما يخبر إليهم شيئاً، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه، ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة صغيرهم وكبيرهم حتى سمع به من فيها، فسألوه ما الخبر؟ فقيل: هذا رجل عنده كنز، وقيل: فاجتمع إليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه، ويقولون: والله

ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة، وما رأيناه فيها قط وما نعرفه قط، فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم، فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق فسكت فلم يتكلم. وكان مستيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة، وأن حسبه ونسبه من أهل المدينة من عظماء أهلها، وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينا هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذا اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها، وهما رجلان صالحان اسم أحدهما «آريوس» واسم الآخر «طنطيوس».

فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا أنه ينطلق به إلى دقيانوس الجبار، فجعل يلتفت يميناً وشمالاً وجعل الناس يسخرون منه كما يسخر من المجنون، وجعل تمليخا يبكي ثم رفع رأسه إلى السماء فقال في نفسه: اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ اليوم عليّ صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيدني به عند هذا الجبار، وجعل يبكي ويقول في نفسه: فرق بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت يا ليتهم ولو أنهم يعلمون يأتوني فنقوم جميعاً بين يدي هذا الجبار، فإنا كنا تواثقنا لنكونن معاً لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئاً، فرق بيني وبينهم فلن يروني ولن أراهم أبداً، وكنا تواثقنا أن لا نفترق في حياة ولا موت أبداً، يحدث به نفسه تمليخا، فما يخبر أصحابه حين يرجع إليهم، حتى انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس، فلما رأى تمليخا أنه لا يذهب به إلى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء، فأخذ أريوس وطنطيوس الورق فنظرا إليها وعجباً منها ثم قال له أحدهما: أين الكنز الذي وجدت يا فتى؟ فقال تمليخا: ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم.

فقال أحدهما: فمن أنت؟ فقال: تمليخا أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة، فقالوا: ومن أبوك ومن يعرفك فيها؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحداً يعرفه ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق، فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض، فقال بعض من حوله: هذا رجل مجنون، وقال بعضهم: ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمداً لكي يتفلت منكم.

فقال له أحدهما و [قد] نظر إليه نظراً شديداً: أتظن [يا هذا] أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق وضربها أكثر من ثلاثمائة سنة، وإنما أنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ كما ترى، وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار، وإني لأظنني سآمر بك فتعذب عذاباً شديداً، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته.

فلما قال ذلك قال لهم تمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عمّا عندي، قالوا: سل لا نكتمك شيئاً، قال لهم: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس، ولم يكن إلا ملك هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة.

فقال تمليخا: إني إذاً لحيران وما يصدقني أحد من الناس بما أقول، لقد كنا فتية على دين واحد وهو الإسلام وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا، فلما انتبهنا خرجت لأشتري له طعاماً وأتجسس الأخبار فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف الذي بجبل «بخلوس» أريكم أصحابي، فلما سمع أريوس ما يقول تمليخا، قال: يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يدي هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه يرنا أصحابه، فانطلق معه أريوس وأسليوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم.

ولما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي به، ظنوا أنه قد أخذ فذهب به إلى ملكهم دقيانوس، فبينما هم يظنون ذلك ويتخوّفونه إذ سمعوا الأصوات وجلب الخيل مصعدة نحوهم، فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث إليهم ليؤتى بهم، فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضاً، وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي

الجبار ينتظر متى نأتيه، فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهري الكهف لم يروا إلا أريوس وأصحابه وقوفاً على باب الكهف. وسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه، ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم، وقصّ عليهم القصة والنبأ كله، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله بأمر الله، وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالاً من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما: أن مكسلمينا، ومخشلمينا، وتمليخا، ومرطونس، وكشطونس، ويبرونس، وديموس، وبطيوس، والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من مهلكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف، فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة، وأنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر عليهم، فلما قرأوه عجبوا، وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية إلى الكهف فوجدوهم جلوساً بين ظهرانيهم مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم، فخر أريوس وأصحابه سجوداً، وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته، ثم كلم بعضهم بعضاً وأنبأهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس من إكراههم على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت وإخفاء إيمانهم منه وهروبهم إلى الكهف، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله في ملكك، وجعلها آية للعالمين لتكون لهم نوراً وضياءً وتصديقاً للبعث، فاعجل إلى فتية بعثهم الله عزّ وجلّ، وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة، فلما أتى الملك الخبر رجع إليه عقله وذهب عنه غمه، فقال: أحمدك الله رب السموات والأرض، وأعبدك، وأسبح لك، تطولت علي ورحمتني فلم تطفىء النور الذي كنت جعلته لآبائي وللعبد الصالح اسطنطينوس الملك.

فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة أفسوس، فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف، فلما رأى الفتية بيدروس فرحوا به وخرّوا سجداً على وجوههم، وقام بيدروس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه، ثم قال الفتية لبيدروس: نستودعك الله إيمانك وخواتيم أعمالك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شرّ الإنس والجن، فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله تعالى أنفسهم.

وقام الملك إليهم فجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في المنام، فقالوا له: إننا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه.

فأمر الملك حينئذٍ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم فأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً يصلي فيه وجعل لهم عيداً عظيماً وأمر أن يؤتى كل سنة.

وقيل: إن تمليخا لما حمل إلى الملك الصالح قال له الملك: من أنت؟ قال: أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد، وكان الملك قد سمع أن فتية فقدوا في الزمن الأول وأن أسماءهم مكتوبة على اللوح بالخزانة، فدعا باللوح وقد نظر في أسمائهم فإذا هو من أولئك القوم، وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابي.

فلما سمع الملك ذلك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا: دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم، فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم، فدخل فبشرهم، فقبض الله أرواحهم وأعمى عليهم أثرهم فلم يهتدوا إليهم مرة ثانية، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: صاروا إلى الكهف، يقال: أوى فلان إلى

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

موضع كذا أي: اتخذه منزلاً إلى الكهف، وهو غار في جبل «بخلوس» واسم الكهف «حيرم».

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾. ومعنى الرحمة الهداية في الدين. وقيل: الرزق، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾، يسر لنا، ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: ما نلتمس من خير رضاك وما فيه رشدنا، وقال ابن عباس: رشداً أي: مخرجاً من الغار في سلامة.

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾، أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم. وقيل معناه منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه، ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: أنمناهم سنين معدودة وذكر العدد على سبيل التأكيد. وقيل: ذكره يدل على الكثرة فإن القليل لا يعد في العادة.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾، يعني من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: علم المشاهدة، ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾، أي الطائفتين، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. وذلك أن أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف واختلفوا في قوله: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا﴾ [أي] أحفظ لما مكثوا في كهفهم نياماً [أمداً] أي: غاية. وقال مجاهد: عدداً. نصبه على التفسير.

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك ﴿نَبَأَهُم﴾، خبر أصحاب الكهف ﴿بِالْحَقِّ﴾، بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾، شبان، ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، إيماناً وبصيرة.

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا﴾، وشددنا، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، بالصبر والتثبيت وقوّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العز وخصب العيش وفرّوا بدينهم إلى الكهف، ﴿إِذْ قَامُوا﴾، بين يدي دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾، قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان، ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾، يعني إن دعونا غير الله لقد قلنا إذا شططاً، قال ابن عباس: جوراً. وقال قتادة: كذباً. وأصل الشطط والإشطاط مجاوزة القدر والإفراط.

(١٥) ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾، يعني أهل بلدهم، ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾، أي: من دون الله، ﴿آلِهَةً﴾، يعني الأصنام يعبدونها، ﴿لَّوْلَا﴾، أي: هلا، ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾، أي: على عبادتهم، ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، بحجة واضحة [تبين وتوضح أن الأصنام تستحق العبادة من دون الله] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وزعم أن له شريكاً أو ولداً.

(١٦) ثم قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾، يعني قومهم، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، قرأ ابن مسعود «وما يعبدون من دون الله»، وأما القراءة المعروفة فمعناها أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان، يقولون: وإذ اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلا الله فإنكم لم تعتزلوا عبادته، ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾، فالجأوا إليه، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾، يبسط لكم، ﴿رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾، يسهل لكم، ﴿مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي: ما يعود إليه يسركم ورفقكم. قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «مرفقا» بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الآخرون بكسر الميم وفتح الفاء، ومعناهما واحد، وهو ما يرتفق به الإنسان.

(١٧) قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب «تَزْوَرُّ» بسكون الزاي وتشديد الراء على وزن تحمر، وقرأ أهل الكوفة بفتح الزاي خفيفة وألف بعدها، وقرأ الآخرون بتشديد الزاي، وكلها بمعنى واحد، أي: تميل وتعدل، ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: جانب اليمين، ﴿وَإِذَا

﴿غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾، أي: تتركهم وتعدل عنهم، ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، وأصل القرض القطع، ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: متسع من الكهف وجمعها فجوات، قال ابن قتيبة: كان كهفهم مستقبل بنات نعش، لا تقع فيه الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب ولا فيما بين ذلك، قال: اختار الله لهم مضجعا في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم، وهم في متسع ينالهم برد الريح ونسيمها، ويدفع عنهم كرب الغار وغمومه. وقل بعضهم: هذا القول خطأ وهو أن الكهف كان مستقبل بنات نعش فكانت الشمس لا تقع عليهم، ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم، ألا ترى أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، من عجائب صنع الله ودلالات قدرته التي يعتبر بها، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ﴾، أي: من يضلله الله ولم يرشده، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا﴾، معيناً، ﴿مُّرْشِدًا﴾.

(١٨) قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ أي: منتبهين جمع يقظ، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾، نيام، جمع راقد مثل قاعد وقعود، وإنما اشتبه حالهم لأنهم كانوا مفتّحي الأعين يتنفسون ولا يتكلمون، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر. قال ابن عباس: كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جنب لئلا تأكل الأرض لحومهم. وقيل كان يوم عاشوراء يوم تقلبهم. وقال أبو هريرة كان لهم في كل سنة تقلبان، ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب. وروي عن ابن جريج: أنه كان أسداً وسمي الأسد كلباً.

فإن النبي ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»، فافترسه أسد، والأول أصح، قال ابن عباس: كان كلباً أغر. ويُروى عنه أنه: فوق القلطي ودون الكردي، والقلطي كلب صيني. وقال مقاتل: كان أصفر. وقال القرظي: كانت شدة صفرته تضرب إلى الحمرة. وقال الكلبي: لونه كالخلنج. وقيل: لون الحجر. قال ابن عباس: كان اسمه قطمير. وعن علي: اسمه ريان. وقال الأوزاعي: بتور. وقال السدي: تور. وقال كعب: صهيلة وقال خالد بن معدان: ليس في الجنة شيء من الدواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام. قوله: ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال مجاهد والضحاك: «الوصيد» فناء الكهف. وقال عطاء: عتبة الباب. وقال السدي: «الوصيد» الباب، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس، فإن قيل: لم يكن للكهف باب ولا عتبة؟ قيل: معناه موضع الباب والعتبة، كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم. قال السدي: كان أصحاب الكهف إذا انقلبوا انقلب الكلب معهم، وإذا انقلبوا إلى اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها، وإذا انقلبوا إلى الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها. ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾، يا محمد، ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد، حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم، ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾، خوفاً، قرأ أهل الحجاز بتشديد اللام والآخرون بتخفيفها. واختلفوا في أن الرعب كان لماذا؟ قيل: من وحشة المكان. وقال الكلبي: لأن أعينهم كانت مفتحة، كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم، وهم نيام، وقيل: لكثرة شعورهم وطول أظفارهم، وتقلبهم من غير حس ولا شعور. وقيل: إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد، ورُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم. فقال ابن عباس رضي الله عنهم: لقد منع ذلك من هو خير منك، فقال ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فبعث معاوية ناساً فقال: اذهبوا فانظروا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم.

(١٩) قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسادهم من البلى على طول الزمان، فكذلك بعثناهم من النومة التي تشبه الموت، ﴿لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾، ليسأل بعضهم بعضاً، واللام فيه لام العاقبة، لأنهم لم يبعثوا للسؤال، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾، وهو رئيسهم مكسلمينا، ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، في نومكم؟ وذلك

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

أنهم استنكروا طول نومهم. ويقال: إنهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك، ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا﴾، وذلك أنهم دخلوا الكهف غدوة فانتبهوا عشية فقالوا لبثنا يوماً، ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقية، فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فلما نظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، وقيل: إن رئيسهم مكسلمينا لما سمع الاختلاف، بينهم قال: دعوا الاختلاف، ربكم أعلم بما لبثتم، ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾، يعني تمليخا، قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «بورقكم» ساكنة الراء والباقون بكسرها، ومعناهما واحد وهي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة. ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾، قيل: هي طرسوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فسموها في الإسلام طرسوس، ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أحل طعاماً حتى لا يكون من غصب أو سبب حرام، وقيل: أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا يكون من ذبيحة من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم. وقال الضحاك: أطيب طعاماً. وقال مقاتل بن حيان: أجود طعاماً. وقال عكرمة أكثر، وأصل الزكاة الزيادة. وقيل: أرخص طعاماً. ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، أي: قوت وطعام تأكلونه، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾، ولا يعلمن، ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾، من الناس.

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، أي: يعلموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال ابن جريج: يشتموكم ويؤذوكم بالقول. وقيل: يقتلوكم، وقيل: كان من عاداتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل. وقيل يضربوكم، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: إلى الكفر، ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، إن عدتم إليه.

﴿٢١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا، ﴿عَلَيْهِمْ﴾، يقال: عثرت على الشيء: إذا اطلعت عليه، وأعثرت غيري، أي: أطلعته، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، يعني قوم بيدروس الذين أنكروا البعث، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، قال ابن عباس: يتنازعون في البنيان، فقال: المسلمون: نبني عليهم مسجداً يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم بنياناً لأنهم من أهل نسبنا. وقال عكرمة: تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: البعث للأجساد والأرواح معاً، وقال قوم: للأرواح دون الأجساد، فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح. وقيل: تنازعوا في مدة لبثهم. وقيل: في عددهم. ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾، بيدروس الملك وأصحابه، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، رُوي أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد ـ وكان يعقوبياً ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا خمسة سادسهم كلبهم.

وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين بعدما حكى قول النصارى، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: ظناً وحدساً من غير يقين، ولم يقل هذا في حق السبعة، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: المسلمين، ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، واختلفوا في الواو في قوله ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ قيل: تركها وذكرها سواء.

وقيل: هي واو الحكم والتحقيق، كأنه حكى اختلافهم، وتم الكلام عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾ ثم حقق هذا القول بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والثامن لا يكون إلا بعد السابع. وقيل: هذه واو الثمانية، وذلك أن العرب تعدّ فتقول واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية، لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة، نظيره قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال في أزواج النبي ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]. ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، أي: بعددهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: إلا قليل من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل كانوا سبعة.

وقال محمد بن إسحاق: كانوا ثمانية. وقرأ: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: حافظهم، والصحيح هو الأول. وروي عن ابن عباس أنه قال: هم مكسلمينا، وتمليخا، ومرطونس، وبينونس، وسارينونس، وذو نوانس، وكشفيططنونس، وهو الراعي، والكلب قطمير. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾، أي: لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم، ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، إلا بظاهر ما قصصنا عليك، يقول حسبك ما قصصنا عليك فلا تزد عليه وقف عنده، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ﴾، من أهل الكتاب، ﴿أَحَدًا﴾ أي: لا ترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك.

(٢٣) ـ (٢٤) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، يعني: إذا عزمت على أن تفعل غداً شيئاً فلا تقل أفعل غداً، حتى تقول إن شاء الله، وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله، فلبث الوحي أياماً ثم نزلت هذه الآية. ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والحسن: معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن، وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وإن كان إلى سنة وجوزه الحسن ما دام في المجلس، وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان، فإن بعد فلا يصح، ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلاً بالكلام. وقال عكرمة: معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت. وقال وهب: مكتوب في الإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب. وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا الحسن بن أحمد المخلدي، ثنا أبو العباس السراج، ثنا قتيبة، ثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها».

﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، أي: يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد. وقيل: أمر الله نبيه أن يذكره إذا نسي شيئاً، ويسأله أن يهديه لما هو خير له من ذكر ما نسيه. ويقال: هو أن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله عزّ وجل أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل، حيث آتاه من علم الغيب خبر المرسلين ما كان أوضح لهم في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقال بعضهم: هذا شيء أمر أن يقوله مع قوله: «إن شاء الله» إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسي الإنسان إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول: عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً.

(٢٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾، يعني أصحاب الكهف. قال بعضهم: هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك، ولو كان خبراً من الله عزّ وجلّ عن قدر لبثهم لم يكن لقوله ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وجه، وهذا قول قتادة، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: «وقالوا لبثوا في كهفهم» ثم ردّ الله تعالى عليهم فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وقال الآخرون: هذا إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف وهو الأصح، وأما قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ فمعناه أن الأمر من مدة لبثهم كما ذكرنا فإن نازعوك فيها فأجبهم، وقل: الله أعلم بما لبثوا، أي: هو أعلم منكم، وقد أخبرنا بمدة لبثهم. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن هذه المدة من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين، فردّ الله عليهم وقال: ﴿قُلِ

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله. قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «ثلاثمائة» بلا تنوين، وقرأ الآخرون بالتنوين، فإن قيل: لِمَ قال ثلاثمائة سنين ولم يقل سنة؟ قيل: نزل قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾، فقالوا: أياماً أو شهوراً أو سنين؟ فنزلت ﴿سِنِينَ﴾، قال الفراء: ومن العرب من يضع سنين في موضع سنة. وقيل: معناه ولبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة. ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾، قال الكلبي: قالت نصارى نجران أما ثلاثمائة فقد عرفنا، وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ وروي عن علي أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة شمسية، والله تعالى ذكر ثلاثمائة قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون في الثلاثمائة تسع سنين، فلذلك قال: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾. ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فالغيب ما يغيب عن إدراكك، والله عزّ وجلّ لا يغيب عن إدراكه شيء. ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ أي: ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع، أي لا يغيب عن سمعه وبصره شيء، ﴿مَا لَهُم﴾ أي: ما لأهل السموات والأرض، ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله، ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ ناصر، ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: «ولا تشرك» بالتاء على المخاطبة والنهي، وقرأ الآخرون بالياء أي: لا يشرك الله في حكمه أحداً. وقيل: «الحكم» هنا علم الغيب، أي لا يشرك في علم غيبه أحداً.

(٢٧) قوله عز وجلّ: ﴿وَٱتۡلُ﴾ أي: واقرأ يا محمد، ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، يعني القرآن، واتبع ما فيه، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، قال الكلبي: لا مغيّر للقرآن. وقيل: لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه، ﴿وَلَن تَجِدَ﴾، أنت، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، إن لم تتبع القرآن، ﴿مُلۡتَحَدٗا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حرزاً. وقال الحسن: مدخلاً. وقال مجاهد: ملجأ. وقيل: مَعْدِلاً. وقيل: مهرباً. وأصله من الميل.

(٢٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ الآية.

نزلت في عيينة بن حصن الفزاري، أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء، فيهم سلمان وعليه شملة قد عرق فيها، وبيده خوصة يشقها ثم ينسجها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾.

أي: واحبس يا محمد نفسك، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ

سُورَةُ الكَهْفِ — الجزء الخامس عشر

وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا (٢٨) وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا (٢٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا (٣١) ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا (٣٢) كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا (٣٤)

٢٩٧

وَٱلۡعَشِيِّ﴾، طرفي النهار، ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾، أي: يريدون الله، لا يريدون به عرضاً من الدنيا.

قال قتادة: نزلت في أصحاب الصفة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع، ويصلون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم».

﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ أي: لا تصرف ولا تتجاوز، ﴿عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾، إلى غيرهم، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا، ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾، أي جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا يعني: عيينة بن حصن. وقيل: أمية بن

خلف، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي مراده في طلب الشهوات، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، قال قتادة ومجاهد: ضياعاً. وقيل: معناه ضيع عمره وعطل أيامه. وقيل: ندماً. وقال مقاتل ابن حيان: سرفاً. وقال الفراء: متروكاً. وقيل باطلاً. وقيل: مخالفاً للحق. وقال الأخفش: مجاوزاً للحد. وقيل: معنى التجاوز في الحد، هو قول عيينة: إن أسلمنا أسلم الناس، وهذا إفراط عظيم.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي ما ذكرناه من الإيمان والقرآن، معناه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس الحق من ربكم وإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، ليس إليَّ من ذلك شيء. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقيل معنى الآية. وقل الحق من ربكم، ولست بطارد المؤمنين لِهواكم، فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا، فإن كفرتم فقد أعدّ لكم ربكم ناراً أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم فلكم ما وصف الله عزّ وجلّ لأهل طاعته. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر، وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾، أعددنا وهيأنا، من الإعداد، وهو العدة، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين، ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، «السرادق» الحجرة التي تطيف بالفساطيط.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن رشدين بن سعد، حدثنا عمرو بن الحارث، عن دراج بن أبي السمح، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة».

قال ابن عباس: هو حائط من نار. وقال الكلبي: هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار وهو الذي ذكره الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾، من شدة العطش، ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾.

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن رشدين بن سعد، ثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه».

وقال ابن عباس: هو ماء غليظ مثل دردي الزيت. وقال مجاهد: هو القيح والدم.

وسئل ابن مسعود عن المهل فدعا بذهب وفضة فأوقد عليهما النار حتى ذابا، ثم قال: هذا أشبه شيء بالمهل، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، ينضج الوجوه من حره، ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ﴾ النار، ﴿مُرْتَفَقًا﴾، قال ابن عباس: منزلا. وقال مجاهد: مجتمعاً. وقال عطاء: مقراً. وقال القتيبي: مجلساً. وأصل «المرتفق» المتكأ.

﴿٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، فإن قيل: أين جواب قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؟ قيل: جوابه قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى﴾، وأما قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ فكلام معترض. وقيل: فيه إضمار معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنا لا نضيع أجرهم بل نجازيهم، ثم ذكر الجزاء.

﴿٣١﴾ فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة، يقال: عَدَنَ فلان بالمكان إذا أقام به، سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، قال سعيد بن جبير: يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور، واحد من ذهب، وواحد من فضة، وواحد من لؤلؤ ويواقيت، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾، وهو مارقّ من الديباج، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما غلظ منه، ومعنى الغلظ في ثياب الجنة: إحكامه. وعن أبي عمران الجوني قال: السندس هو الديباج المنسوج

بالذهب، ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا﴾، في الجنان، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، وهي السرر في الحجال، واحدتها أريكة، ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾، أي نِعْمَ الجزاء، ﴿وَحَسُنَتْ﴾، الجنان ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: مجلساً ومقراً.

﴿٣٢﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية، قيل: نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن عبد ياليل، وكان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ والآخر كافر وهو الأسود بن عبدالأسد بن عبد ياليل. وقيل: هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان، وأصحابه شبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس، وقال مقاتل: تمليخا، والآخر كافر واسمه قطروس، وقال وهب: قطفير، وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات [٥٠ ـ ٥١].

وكانت قصتهما على ما حكى عبدالله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكين، لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل: كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها، فعمد أحدهما فاشترى أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار، فإني أشتري منك أرضاً في الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار، فقال هذا: اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار، فإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدّق بذلك. ثم تزوّج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال هذا المؤمن: اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار. فتصدق بألف دينار، ثم اشترى صاحبه خدماً ومتاعاً بألف دينار، فقال هذا: اللهم إني أشتري منك متاعاً وخدماً في الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم أصابته حاجة شديدة، فقال: لو أتيتُ صاحبي لعله ينالني منه معروف، فجلس على طريقه حتى مرّ به في حشمه، فقام إليه فنظر إليه الآخر فعرفه، فقال: فلان؟ قال: نعم، فقال: ما شأنك؟ فقال: أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتصيبني بخير، فقال: ما فعل مالك وقد اقتسمنا مالاً وأخذت شطره؟ فقصّ عليه قصته، فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا؟ اذهب فلا أعطيك شيئاً، فطرده فقضي لهما أن توفيا، فنزل فيهما: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾، وروي أنه لما أتاه أخذ بيده وجعله يطوف به ويريه أموال نفسه، فنزل فيهما: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ اذكر لهم خبر رجلين، ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، بستانين، ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾، أي: أطفناهما من جوانبهما بنخل، والحفاف: الجانب، وجمعه أحفة، يقال: حف به القوم، أي طافوا بجوانبه، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، أي: جعلنا حول الأعناب النخيل ووسط الأعناب الزرع. وقيل: «بينهما» أي بين الجنتين زرعاً، يعني لم يكن بين الجنتين موضع خراب.

﴿٣٣﴾ ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ﴾، أي: أعطت كل واحدة من الجنتين، ﴿أُكُلَهَا﴾، ثمرها تاماً، ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾، لم تنقص، ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا﴾، قرأ العامة بالتشديد، وقرأ يعقوب بتخفيف الجيم، ﴿خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ يعني شققنا وأخرجنا وسطهما نهراً.

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾، لصاحب البستان، ﴿ثَمَرٌ﴾ قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ثَمَر بفتح الثاء والميم، وكذلك «بثمره»، وقرأ أبو عمرو: بضم الثاء ساكنة الميم، وقرأ الآخرون بضمهما، فمن قرأ بالفتح فهو جمع ثمرة، وهو ما تخرجه الشجرة من الثمار المأكولة، ومن قرأ بالضم فهي الأموال الكثيرة المثمّرة من كل صنف، جمع ثمار. وقال مجاهد: ذهب وفضة. وقيل: جميع الثمرات. قال الأزهري: الثمرة تجمع على ثمر، ويجمع الثمر على ثمار، ثم تجمع الثمار على ثُمُر. ﴿فَقَالَ﴾، يعني صاحب البستان، ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾، المؤمن، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، يخاطبه ويجاوبه، ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: عشيرة ورهطاً. وقال قتادة: خدماً وحشماً. وقال مقاتل: ولداً، تصديقه قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

﴿٣٥﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾، يعني

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

الكافر، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به فيها ويريه أثمارها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، بكفره، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾، تهلك، ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، قال أهل المعاني: راقهُ حُسنها وغرته زهرتُها، فتوهم أنها لا تفنى أبداً، وأنكر البعث.

﴿٣٦﴾ فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، كائنة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، وقرأ أهل الحجاز والشام هكذا على التثنية، يعني من الجنتين، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون «منها» أي: من الجنة التي دخلها، ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي: مرجعاً، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾، وهو منكر البعث؟

قيل: معناه ولئن رددت إلى ربي ـ على ما تزعم أنت ـ يعطيني هنالك خيراً منها، فإنه لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾، المسلم، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾، أي خلق أصلك من تراب، ﴿ثُمَّ﴾، خلقك، ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عدلك بشراً سوياً ذكراً.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب لكنا بالألف في الوصل، وقرأ الباقون بلا ألف، واتفقوا على إثبات الألف في الوقف، وأصله: «لكن أنا»، فحذفت الهمزة طلباً للتخفيف، لكثرة استعمالها ثم أدغمت إحدى النونين في الأخرى.

﴿٣٨﴾ قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير مجازه: لكن الله هو ربي، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾، أي: هلا إذ دخلت جنتك، ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمر ما شاء الله. وقيل: جوابه مضمر، أي ما شاء الله كان، وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أي: لا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلا بالله.

وروي عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه. قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ثم قال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ و«أنا» عماد، ولذلك نصب أقلّ معناه: إن ترني أقل منك مالاً وولداً فتكبرت وتعاظمت عليّ.

﴿٤٠﴾ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾، فلعلّ ربي، ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾، يعطيني في الآخرة، ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾، أي على جنتك، ﴿حُسْبَانًا﴾، قال قتادة: عذاباً. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ناراً. وقال القتيبي: مراقي. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وهي مثل صاعقة أو شيء يهلكها، واحدتها «حسبانة»، ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أي أرضاً جرداء ملساء لا نبات فيها. وقيل: تزلق فيها الأقدام. وقال مجاهد: رملاً هائلاً.

﴿٤١﴾ ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾، أي: غائراً منقطعاً ذاهباً لا تناله الأيدي، ولا الدِّلاء، و«الغور» مصدرٌ وُضع موضع الاسم، مثل زور وعدل، ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾، يعني: إن طلبته لم تجده.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي: أحاط العذاب بثمر جنته، وذلك أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأهلكتها وغار ماؤها، ﴿فَأَصْبَحَ﴾، صاحبها الكافر، ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، أي يصفق بيديه الواحدة على الأخرى، ويقلب كفيه ظهراً لبطن، تأسفاً وتلهفاً، ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾، أي ساقطة، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، سقوفها، ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

﴿٤٣﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾، جماعة، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يمنعونه من عذاب الله، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، ممتنعاً منتقماً أي لا يقدر على الانتصار لنفسه. وقيل: لا

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقدر على ردِّ ما ذهب منه.

﴿٤٤﴾ ﴿هُنَالِكَ الْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، يعني في القيامة، قرأ حمزة والكسائي «الوِلاية» بكسر الواو، يعني السلطان، وقرأ الآخرون بفتح الواو من الموالاة والنصرة، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قال القتيبي: يريد أنهم يتولونه يومئذٍ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون.

وقيل: بالفتح: الربوبية وبالكسر: الإمارة، ﴿الْحَقُّ﴾ برفع القاف: أبو عمرو والكسائي على نعت الولاية، وتصديقه قراءة أُبيّ: «هنالك الولاية الحق لله»، وقرأ الآخرون بالجر على صفة الله كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾، أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، فهو خير إثابة، وعاقبة: طاعة، قرأ حمزة وعاصم «عقباً» ساكنة القاف، وقرأ الباقون بضمها.

﴿٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾، يا محمد لقومك: ﴿مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ﴾، يعني: المطر، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، خرج منه كل لون وزهرة، ﴿فَأَصْبَحَ﴾، عن قريب، ﴿هَشِيمًا﴾، يابساً. قاله ابن عباس وقال الضحاك: كسيراً. والهشيم: ما يبس وتفتت من النباتات فأصبح هشيماً، ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ﴾، قال ابن عباس: تثيره الرياح. وقال أبو عبيدة مثله. وقال القتيبي تنسفه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، قادراً.

﴿٤٦﴾ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾، التي يفتخر بها عتبة وأصحابه الأغنياء، ﴿زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، ليست من زاد الآخرة، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المال والبنون حرث الدنيا، والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام. ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ﴾، اختلفوا فيها، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «أفضل الكلام أربع كلمات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد الحنفي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا أبو جعفر عبدالله بن إسماعيل الهاشمي، أنبأنا أحمد بن عبدالجبار العطاردي، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار، أنبأنا حميد بن زنجويه، ثنا عثمان عن أبي صالح، ثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الملة» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وقال سعيد بن جبير، ومسروق، وإبراهيم: «الباقيات الصالحات» هي الصلوات الخمس. ويروى هذا عن ابن عباس، وعنه رواية أخرى أنها الأعمال الصالحة، وهو قول قتادة.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي جزاء، المراد ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي ما يأمله الإنسان.

(٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «تُسَيَّرُ» بالتاء وفتح الياء الجبال رفع دليله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، وقرأ الآخرون بالنون وكسر الياء، «الجبال» نصب، وتسيير الجبال: نقلها من مكان إلى مكان، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي ظاهرة، ليس عليها شجر، ولا جبل، ولا نبات، كما قال: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ ـ ١٠٧]، قال عطاء: هو بُروز ما في باطنها من الموتى وغيرهم، فترى باطن الأرض ظاهراً، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، جميعاً إلى الموقف والحساب، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ﴾، أي فلم نترك منهم، ﴿أَحَدًا﴾.

(٤٨) ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، أي صفاً صفاً، فوجاً فوجاً، لا أنهم صف واحد. وقيل: قياماً، ثم يقال لهم يعني الكفار: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، يعني أحياء، وقيل: فُرادى كما ذكر في سورة الأنعام [٩٢]. وقيل: عراة وقيل: غرلاً. ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، يوم القيامة، يقوله لمنكري البعث.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا معلى بن أسد، ثنا وهيب عن ابن طاوس، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق، راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن كثير، ثنا سفيان بن المغيرة بن النعمان، حدثني سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلاً»، ثم قرأ، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن ناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبدالصالح عيسى ابن مريم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨].

أخبرنا أبو الحسن [محمد بن محمد] السرخسي، أنا [أبو علي] زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن المغلس ببغداد، ثنا هارون بن إسحاق الهمذاني، أنبأنا أبو خالد الأحمر عن حاتم بن أبي صغيره، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله كيف يحشر الناس يوم القيامة؟ قال: «عُراةً حفاةً»، قالت: قلت والنساء؟ قال: والنساء قالت: قلت يا رسول الله نستحي، قال: «يا عائشة الأمر أشد من ذلك أن يهمهم أن ينظر بعضهم إلى بعض».

(٤٩) قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، يعني كتاب أعمال العباد يوضع في أيدي الناس، في أيمانهم وشمائلهم وقيل: معناه يوضع بين يدي الله تعالى. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾، خائفين، ﴿مِمَّا فِيهِ﴾، من الأعمال السيئة، ﴿وَيَقُولُونَ﴾، إذا رأوها، ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾، يا هلاكنا، و«الويل» و«الويلة» الهلكة، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء تنبيه المخاطبين، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، من ذنوبنا. قال ابن عباس: «الصغيرة» التبسم و«الكبيرة» القهقهة. وقال سعيد بن جبير: الصغيرة اللمم واللمس والقبلة، والكبيرة الزنا [ونحوه]. ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، عدها، قال السدي: كتبها وأثبتها. وقال مقاتل بن حيان: حفظها.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا أبو العباس عبدالله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام، أنبأنا أبو الحسن أحمد بن يسار القرشي، ثنا يوسف بن عدي المصري ثنا أبو ضمرة أنس بن عياض، عن أبي حازم قال: لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم

ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود، وجاء هذا بعود، فأنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب لموبقات».

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، مكتوباً مثبتاً في كتابهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، أي: لا ينقص ثواب أحد عمل خيراً. وقال الضحاك: لا يؤاخذ أحداً بجرم لم يعمله.

وقال عبدالله بن قيس: تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما العرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه، وآخذٌ بشماله. ورفعه بعضهم عن أبي موسى.

(٥٠) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يقول واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قال ابن عباس: كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن، خُلقوا من نار السموم. وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة، فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. ﴿فَفَسَقَ﴾، أي خرج، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، عن طاعة ربه، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾، يعني يا بني آدم ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، أي أعداء.

وروى مجالد عن الشعبي قال: إني لقاعد يوماً إذ أقبل رجل فقال: أخبرني هل لإبليس زوجة؟ قلت: إن ذلك لعرس ما شهدته، ثم ذكرت قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾، فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم. وقال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض، فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين. وقال مجاهد: من ذرّية إبليس «لاقيس» و«ولهان»، وهما صاحبا الطهارة والصلاة، و«الهفاف» و«مرّة» وبه يكنى، و«زلنبور» وهو صاحب الأسواق، يزين اللغو والحلف الكاذبة ومدح السلع، و«ثبر» وهو صاحب المصائب يزين للناس خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب، و«الأعور» وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجز المرأة، و«مطوس» وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس، لا يجدون لها أصلاً، و«داسم» وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله بصّره من المتاع ما لم يرفع ولم يوضع في موضعه أو يحتبس موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه.

قال الأعمش: ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم، فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر اسم الله فأقول داسم داسم.

وروي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان. فاتقوا وسواس الماء».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، ثنا يحيى بن خلف الباهلي، أنبأنا عبدالأعلى عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً»، قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني.

وأخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو كريب محمد بن علاء، أنبأنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نِعْم أنت». قال الأعمش أراه قال: «فيلتزمه».

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، قال قتادة: بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم.

(٥١) ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾، ما أحضرتهم، وقرأ أبو جعفر «ما

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

٣٠٠

أشهدناهم» بالنون والألف على التعظيم، أي أحضرناهم يعني إبليس وذريته. وقيل: الكفار. وقال الكلبي: يعني الملائكة، ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾، يقول: ما أشهدتهم خلقاً فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، أي الشياطين الذين يضلون الناس عضداً، أي: أنصاراً وأعواناً.

﴿٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ قرأ حمزة بالنون والآخرون بالياء، أي: يقول الله لهم يوم القيامة، ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾، يعني الأوثان ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، أنهم شركائي، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾، فاستغاثوا بهم، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾، أي: لم يجيبوهم ولم ينصروهم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾، يعني بين الأوثان وعبدتها، وقيل بين أهل الهدى وأهل الضلالة، ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً، قاله عطاء والضحاك. وقال ابن عباس: هو واد في النار. وقال مجاهد: واد في جهنم. وقال عكرمة: هو نهر في النار يسيل ناراً على حافتيه حيات مثل البغال الدهم، قال ابن الأعرابي: كل حاجز بين شيئين فهو موبق، وأصله الهلاك يقال: أوبقه أي أهلكه، قال الفراء: وجعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة، والبين على هذا القول التواصل كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة من قرأ بالرفع.

﴿٥٣﴾ ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾، أي المشركون، ﴿فَظَنُّوا﴾، أيقنوا، ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، داخلوها وواقعون فيها، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، معدلا، لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿٥٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾، بينا، ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي ليتذكروا ويتعظوا، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، خصومة في الباطل. قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن. قال الكلبي: أراد به أُبيّ بن خلف الجمحي. وقيل: المراد من الآية الكفار، لقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقيل: هي على العموم، وهذا أصح.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري، أنبأنا علي بن الحسين، أن الحسين بن علي أخبره، أن علياً أخبره، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال: «ألاَ تصليان؟» قلت: يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ له ذلك ولم يُرجعْ إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿٥٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، القرآن والإسلام والبيان من الله عزّ وجلّ. وقيل: إنه الرسول ﷺ. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، يعني سنتنا في إهلاكهم إن لم يؤمنوا. وقيل إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين من معاينة العذاب، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، قال ابن عباس: عياناً من المقابلة. وقال مجاهد فجأة، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة «قبلا» بضم القاف والباء، جمع قبيل أي: أصناف العذاب نوعاً نوعاً.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾، ومجادلتهم قولهم: ﴿أَبَعَثَ

﴿ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. و﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وما أشبهه. ﴿لِيُدْحِضُوا﴾، ليبطلوا، ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾، وأصل الدحض الزلق يريد ليزيلوا به الحق، ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾، فيه إضمار يعني وما أنذروا به وهو القرآن، هزواً أي استهزاء.

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾، وعظ، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها، ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي ما عمل من المعاصي من قبل، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أغطية، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: يفهموه يريد لئلا يفهموه، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي صمماً وثقلاً، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾، يا محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، إلى الدين [الحق]، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾، وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، ذو النعمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾، يعاقب الكفار، ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾، من الذنوب ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾، في الدنيا، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾، يعني البعث والحساب، ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾، ملجأ.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، يعني قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾، كفروا، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، أي أجلاً، قرأ أبو بكر «لمَهلَكهم» بفتح الميم واللام، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام، وكذلك في النمل [٤٩] «مهلك» أي وقت هلاكهم، وقرأ الآخرون بضم الميم وفتح اللام أي: لإهلاكهم.

(٦٠) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، عامة أهل العلم قالوا: إنه موسى بن عمران. وقال بعضهم: هو موسى بن ميشا من أولاد يوسف. والأول أصح.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا عمرو بن دينار، أخبرني سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أُبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتاً فجعله في مِكتَل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد، فلما جاوزا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، وقال له فتاه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً، وقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلبه ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: رجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر عليه السلام وأنى بأرضك السلام، فقال له: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، حتى إذا ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

٣٠١

فخرقتها لتغرق أهلها؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾، قال: وقال النبي ﷺ: فكانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً»، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم [الله] إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده وقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ قال: وهذه أشد من الأولى، قال: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قال: كان مائلاً، فقال الخضر بيده فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما» قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً» وكان يقرأ «وأمّا الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين».

وعن سعيد بن جبير في رواية أخرى عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قام موسى رسول الله فذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إلى الله قيل: بلى عبدنا الخضر، قال: يا رب وأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: ربِّ اجعل لي علماً أعلم بك منه، قال: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح، وفي رواية قيل له: تزود حوتاً مالحاً فإنه حيث تفقد الحوت، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل».

رجعنا إلى التفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾، يوشع بن نون، ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾، أي لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، قال قتادة: بحر فارس وبحر الروم، مما يلي المشرق. وقال محمد بن كعب: طنجة. وقال أُبيّ بن كعب: أفريقية. ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، أي دهراً طويلاً وزماناً، وجمعه أحقاب، والحُقب: جمع الحَقب. قال عبدالله بن عمر: والحقب ثمانون سنة، فحملا خبزاً وسمكة مالحة حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين ليلاً وعندها عين تسمى ماء الحياة لا يصيب ذلك الماء شيئاً إلا حي، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وعاشت ودخلت البحر.

﴿٦١﴾ فذلك قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾، يعني موسى وفتاه، ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، أي: بين البحرين ﴿نَسِيَا﴾، تركا، ﴿حُوتَهُمَا﴾، وإنما كان الحوت مع يوشع [بن نون]، وهو الذي نسيه، وأضاف النسيان إليهما لأنهما جميعاً تزوداه لسفرهما، كما يقال: خرج القوم إلى موضع كذا وحملوا من الزاد كذا، وإنما حمله واحد منهم، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾، أي الحوت، ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أي مسلكاً.

وروي عن أُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «انجاب

الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر»، قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى صار صخرة، وقال الكلبي: توضأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح في المكتل من ذلك الماء فعاش ثم وثب في ذلك الماء فجعل يضرب بذنبه، فلا يضرب بذنبه شيئاً من الماء وهو ذاهب إلا يبس. وقد روينا أنهما لما انتهيا إلى الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج وسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ [موسى] نسي صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى إذا كان من الغد.

(٦٢) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، يعني ذلك الموضع وهو مجمع البحرين، ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، أي طعامنا، والغداء ما يعد للأكل غدوة، والعشاء ما يعد للأكل عشية، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، أي تعباً وشدة وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة، ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه.

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكر ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾، وهي صخرة كانت بالموضع الموعود، قال معقل بن زياد: هي الصخرة التي دون نهر الزيت، ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، أي تركته وفقدته، وذلك أن يوشع حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى فيخبره، فنسي أن يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد. قيل في الآية إضمار معناه: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، أي وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان، وقرأ حفص: «أنسانيه»، وفي الفتح [١٠] ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضم الهاء. وقيل معناه أنسانيه لئلا أذكره، ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قيل هذا من قول يوشع، يقول طفر الحوت إلى البحر فاتخذ فيه مسلكاً فعجبت من ذلك عجباً. وروينا في الخبر: كان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً. وقيل: هذا من قول موسى لما قال له يوشع واتخذ سبيله في البحر سرباً، قال له موسى: عجباً، كأنه قال: أعجب عجباً. قال ابن زيد: أي شيء أعجب من حوت يؤكل منه جهراً ثم صار حياً بعدما أكِل بعضه.

(٦٤) ﴿قَالَ﴾. موسى ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أي: نطلب، ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: رجعا يقصان الأثر الذي جاءا منه يبتغيانه، فوجدا عبداً من عبادنا، قيل: كان مَلَكاً من الملائكة، والصحيح الذي جاء في التواريخ، وثبت عن النبي ﷺ أنه الخضر، واسمه بليا بن ملكان، قيل: كان من نسل بني إسرائيل. وقيل: كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا في الدنيا، والخضر لقب له سمي بذلك لما.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء».

قال مجاهد: سمي خضراً لأنه إذا صلى اخضر ما حوله.

وروينا: أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً.

وفي رواية أخرى لقيه مسجى بثوب مستلقياً على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه.

وفي رواية لقيه وهو يصلي. ويروى لقيه على طنفسة خضراء على كبد البحر.

(٦٥) فذلك قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً﴾، أي نعمة، ﴿مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، أي علم الباطن إلهاماً ولم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم.

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يقول جئت لأتبعك وأصحبك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب: «رشداً» بفتح الراء والشين، وقرأ الآخرون بضم الراء وسكون الشين، أي صواباً. وقيل: علماً ترشدني به. وفي بعض الأخبار أنه لما قال له موسى هذا قال له الخضر: كفى بالتوراة علماً وببني إسرائيل شغلاً، فقال له موسى:

إن الله أمرني بهذا فحينئذٍ.

(٦٧) ﴿قَالَ﴾، له الخضر، ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أموراً منكرة، ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات، ثم بيّن عذره في ترك الصبر.

(٦٨) فقال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، أي علماً.

(٦٩) ﴿قَالَ﴾ [له] موسى، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، [و] إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، أي لا أخالفك فيما تأمرني.

(٧٠) ﴿قَالَ﴾، الخضر، ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾، فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني، ولكن جعل الاختيار إليه إلا أنه شرط عليه شرطاً فقال، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون وقرأ الآخرون بسكون اللام وتخفيف النون، ﴿عَن شَيْءٍ﴾ أعمله فيما تنكره و[لا تعترض عليه]، ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، حتى ابتدئ لك بذكره فأبيّن لك شأنه.

(٧١) ﴿فَانطَلَقَا﴾، يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها، فقال أهل السفينة: هؤلاء لصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: ما هم بلصوص، ولكني أرى وجوه الأنبياء.

وروينا عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأساً فخرق لوحاً من السفينة» فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ﴾، له موسى، ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي: «لِيَغْرَقَ» بالياء وفتحها وفتح الراء، «أهلُها» بالرفع على اللزوم، وقرأ الآخرون [لِتُغْرِقَ] بالتاء ورفعها وكسر الراء «أهلَها» بالنصب على أن الفعل للخضر، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي منكراً، والإمر في كلام العرب الداهية، وأصله كل شيء شديد كثير، يقال: أَمِرَ القوم إذا كثروا واشتد أمرهم. وقال القتيبي ﴿إِمْرًا﴾ أي عجباً. ورُوي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء. وروي أن موسى لما رأى ذلك [من الخضر] أخذ ثوبه فحشى به الخرق. وروي أن الخضر أخذ قدحاً من زجاج ورقع به خرق السفينة.

(٧٢) ﴿قَالَ﴾، العالم وهو الخضر، ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

(٧٣) ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، قال ابن عباس: إنه لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام، فكأنه نسي شيئاً آخر. وقيل: معناه بما تركت من عهدك، والنسيان: الترك. وقال أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً». ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾، ولا تغشني، ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، وقيل: لا تكلفني مشقة، يقال: أرهقته عسراً، أي كلفته ذلك، يقول: لا تضيق على أمري، وعاملني باليسر، ولا تعاملني بالعسر.

(٧٤) ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ وفي القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرا بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلاماً ظريفاً وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قال السدي: كان أحسنهم وجهاً وكان وجهه يتوقد حسناً. وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده. وروى عبدالرزاق هذا الخبر: وأشار بأصابعه الثلاثة الإبهام والسبابة والوسطى، وقلع برأسه. وروي أنه رضخ رأسه بالحجارة. وقيل: ضرب رأسه بالجدار فقتله. قال ابن عباس: كان غلاماً لم يبلغ الحنث، وهو قول الأكثرين، قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: أقتلت نفساً زكية إلاّ وهو صبي لم يبلغ، وقال الحسن: كان رجلاً. وقال شعيب الجبائي: كان اسمه حيسور. وقال الكلبي: كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه. وقال الضحاك: كان غلاماً يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر أنا عبدالغافر بن محمد [الفارسي] أنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج أنبأنا عبدالله بن مسلمة بن قعنب ثنا معتمر بن سليمان عن أبيه عن رقية بن مصقلة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً».

﴿قَالَ﴾. موسى، ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو: «زاكية» بالألف، وقرأ الآخرون «زكية»، قال الكسائي والفراء: معناهما واحد، مثل: القاسية والقسية، وقال أبو عمرو بن العلاء: «الزاكية» التي لم تذنب قط، و«الزكية» التي اذنبت ثم تابت، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي لم تقتل نفساً بشيء وجب به عليها القتل، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، أي: منكراً. قال قتادة: النكر أعظم من الإمر لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك، وقيل: الإمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر ههنا «نكراً» وفي سورة الطلاق [٨] بضم الكاف، والآخرون بسكونها.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ﴾، يعني الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، قيل: زاد لك لأنه نقض العهد مرتين، وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ [أي] بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾، وفارقني، وقرأ يعقوب: «فلا تصحبني» بغير ألف من الصحبة. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو بكر ﴿مِن لَّدُنِي﴾ خفيفة النون، وقرأ الآخرون، بتشديدها، قال ابن عباس: أي قد أعذرت فيما بيني وبينك. وقيل: قد حذرتني أني لا أستطيع معك صبراً. وقيل: واتضح لك العذر في مفارقتي.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد [الفارسي]، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن عبدالأعلى القيسي، ثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه عن رقية، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى»، وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه، «لولا أنه عجّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة، قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فلو صبر لرأى العجب».

﴿٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، قال ابن عباس: يعني «أنطاكية». وقال ابن سيرين: هي «الأُيُلّة» وهي أبعد الأرض من السماء. وقيل: «برقة». وعن أبي هريرة: بلدة بالأندلس. ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

قال أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما». وروي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافوهم فلم يضيفوهما. قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف. وروي عن أبي هريرة قال: أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما. فدعا لنسائهم ولعنا رجالهم. قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أي يسقط، وهذا من مجاز كلام العرب، لأن الجدار لا إرادة له، وإنما معناه: قرب ودنا من السقوط، كما تقول

العرب: داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، أي سواه.

وروي عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ «فقال الخضر بيده فأقامه».

وقال سعيد بن جبير: مسح الجدار بيده فاستقام. وروي عن ابن عباس: هدمه ثم قعد يبنيه. وقال السدي: بلَّ طينا وجعل يبني الحائط. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «لتَخِذْت» بتخفيف التاء وكسر الخاء، وقرأ الآخرون «لتَّخَذْت» بتشديد التاء وفتح الخاء، وهما لغتان مثل اتبع وتبع عليه يعني على إصلاح الجدار، ﴿أَجْرًا﴾ يعني جعلاً، معناه: إنك قد علمت أننا جياع، وأن أهل القرية لم يطعمونا، فلو أخذت على عملك أجراً.

(٧٨) ﴿قَالَ﴾ الخضر، ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، يعني هذا وقت فراق بيني وبينك. وقيل: هذا الإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا. وقال الزجاج: معناه هذا فراق بيننا أي فراق اتصالنا وكرر «بين» تأكيداً. ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾، أي سوف أخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وفي بعض التفاسير أن موسى أخذ بثوبه، فقال: أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني.

(٧٩) فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، قال كعب: كانت لعشرة إخوة خمسة زمنى، وخمسة يعملون في البحر.

وفيه دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً فلا يزول عنه اسم المسكنة إذ لم يقم ما يملكه بكفايته، ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي يؤاجرون ويكتسبون بها، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، أجعلها ذات عيب، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾، أي أمامهم، ﴿مَّلِكٌ﴾، كقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقيل: وراءهم خلفهم، وكان رجوعهم في طريقهم عليه، والأول أصح، يدل عليه قراءة ابن مسعود ﴿وكان أمامهم ملك﴾ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، أي كل سفينة صالحة غصباً وكان ابن عباس يقرؤها كذلك، فخرقها وعيبها الخضر حتى لا يأخذها الملك الغاصب، وكان اسمه الجلندي وكان كافراً. وقال محمد بن إسحاق اسمه «متوله بن جلندي الأزدي». وقال شعيب الجبائي اسمه «هُدَدُ بن بُدَدُ».

وروي أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن «الملك» الغاصب، ولم يكونوا يعلمون بخبره، وقال: أردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها، فإذا جاوزوه أصلحوها فانتفعوا بها. وقيل: سدوها بقارورة. وقيل: بالقار.

(٨٠) قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ﴾، أي فعلمنا، وفي قراءة ابن عباس «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين فخشينا» أي فعلمنا، ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾، يغشيهما، وقال الكلبي: يكلفهما، ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، قال سعيد بن جبير: خشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو بالتشديد ههنا وفي سورة «التحريم» [٥] والقلم [٣٢]، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان، وفرق بعضهم فقال: «التبديل» تغيير الشيء، أو تغيير حاله وعين الشيء قائم، و«الإبدال» رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه، ﴿رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، أي صلاحاً وتقوى، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: بضم الحاء والباقون بجزمها، أي: عطفاً من الرحمة. وقيل: هو من الرحم والقرابة، قال قتادة: أي أوصل للرحم وأبر بوالديه. وقال الكلبي: أبدلهما الله جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمة من الأمم. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: أبدلهما الله جارية ولدت سبعين نبياً. وقال ابن جريج: أبدلهما بغلام مسلم. قال مطرف: فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل. ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤٌ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

(٨٢) قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، وكان اسمهما أصرم وصريم، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، اختلفوا في ذلك الكنز.

روي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان ذهباً وفضة».

وقال عكرمة: كان مالاً. وعن سعيد بن جبير: كان الكنز صحفاً فيها علم.

وعن ابن عباس: أنه قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: «عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل! عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب! عجباً لمن أيقن بالقدر كيف ينصب! عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله». وفي الجانب الآخر مكتوب: «أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه [وويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه]».

وهذا قول أكثر المفسرين. وروي ذلك أيضاً مرفوعاً. قال الزجاج: الكنز إذا أطلق ينصرف إلى كنز المال، ويجوز عند التقييد أن يقال عنده كنز علم، وهذا اللوح كان جامعاً لهما. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، قيل: كان اسمه كاسح وكان من الأتقياء. قال ابن عباس حُفظا بصلاح أبويهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم. قال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي. قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، أي يبلغا ويعقلا. وقيل: أن يدركا شدتهما وقوتهما. وقيل: ثمان عشرة سنة. ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ حينئذٍ ﴿كَنزَهُمَا رَحْمَةً﴾، نعمة، ﴿مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، أي باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي لم تطق عليه صبراً، و«استطاع» و«اسطاع» بمعنى واحد، وروي أن موسى لما أراد أن يفارقه قال له: أوصني، قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به. واختلفوا في أن الخضر حيّ أم ميت؟ قيل: إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان في كل سنة بالموسم.

وقيل: وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة، وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمات لطلب عين الحياة. وكان الخضر على مقدمة عسكر ذي القرنين فوقع الخضر على العين فنزل واغتسل وتوضأ وشرب وصلى شكراً لله عزّ وجلّ، وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد. وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وقال النبي ﷺ بعدما صلى العشاء ليلة: «أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم حي على ظهر الأرض أحد».

ولو كان الخضر حياً لكان لا يعيش بعده.

﴿٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، خبراً، واختلفوا في نبوته فقال بعضهم: كان نبياً. وقال أبو الطفيل سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين أكان نبياً أم ملكاً؟ فقال: لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه الله، ناصح الله فناصحه الله. وروي أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال تسميتم بأسماء الأنبياء فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة. والأكثرون على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً. واختلفوا في سبب تسميته بذي القرنين، قال الزهري: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقيل: لأنه كان ملك الروم وفارس. وقيل: لأنه دخل النور والظلمة. وقيل لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس. وقيل: لأنه كانت له ذؤابتان حسنتان. وقيل: لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة. وروى أبو الطفيل عن علي أنه قال: سمي ذا القرنين لأنه أمر قومه بتقوى الله، فضربوه على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله، ثم أمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات، فأحياه الله، واختلفوا في اسمه قيل: اسمه «مرزبان بن مرزبة اليوناني» من ولد يونان بن يافث بن نوح. وقيل: اسمه «الإسكندر بن فيلفوس بن ياملوس الرومي».

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

﴿٨٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أوطأنا، والتمكين: تمهيد الأسباب. وقال علي: سخر له السحاب فحمله عليها، ومدّ له في الأسباب وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكينه في الأرض، وهو أنه سهل عليه السير فيها وذلّل له طُرقها. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقيل: من كل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء، ﴿سَبَبًا﴾، أي: علماً يتسبب به إلى كل ما يريد، ويسير له في أقطار الأرض، والسبب: ما يوصل به إلى الشيء. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد. وقيل: قربنا إليه أقطار الأرض.

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، أي: سلك وسار طريقاً، قرأ أهل الحجاز والبصرة «فاتّبع» «ثم اتّبع» موصولاً مشدداً، وقرأ الآخرون بقطع الألف وجزم التاء: قيل: معناهما واحد، والصحيح الفرق بينهما فمن قطع الألف فمعناه: أدرك ولحق، ومن قرأ بالتشديد فمعناه سار، يقال: ما زلت أتبعه حتى اتبعته أي: ما زلت أسير خلفه حتى لحقته. وقوله: سبباً أي طريقاً. وقال ابن عباس: منزلاً.

﴿٨٦﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «حامية» بالألف غير مهموزة، أي حارة، وقرأ الآخرون «حمئة» مهموزاً بغير الألف أي ذات حمأة، وهي الطينة السوداء، وسأل معاوية كعباً كيف تجد في التوراة أين تغرب الشمس؟ قال: أجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين. وقال القتيبي: يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي عندها عين حمئة أو في رأي العين. ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾، أي عند العين أمة، قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب. ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، استدل بها من زعم أنه كان نبياً فإن الله تعالى خاطبه، والأصح أنه لم يكن نبياً والمراد منه الإلهام، ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾، يعني إمّا أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، يعني تعفو وتصفح. وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدى، خيّره اللهُ بين الأمرين.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي كفر، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، أي: نقتله، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾، في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً يعني: بالنار، والنار أنكر من القتل.

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب: «جزاء» منصوباً منوناً أي: فله الحسنى «جزاء» نصب على المصدر، وهو مصدر وقع موقع الحال، أي فله الحسنى مجزياً بها وقرأ الآخرون بالرفع على الإضافة، فالحسنى الجنة وإضاف الجزاء إليها كما قال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]، والدار هي الآخرة. وقيل: المراد بالحسنى على هذه القراءة الأعمال الصالحة. أي له جزاءُ الأعمال الصالحة. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، أي نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا. وقال مجاهد: يسراً أي معروفاً.

﴿٨٩﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، أي سلك طرقاً ومنازل.

﴿٩٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي موضع طلوعها، ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، قال قتادة والحسن: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، فكانوا يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقال الحسن: كانوا إذا طلعت الشمس يدخلون الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا يتراعون كالبهائم. وقال الكلبي: هم قوم عراة يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى.

﴿٩١﴾ قوله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، قيل: معناه ما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها، والصحيح أن معناه كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس كذلك حكم في الذين هم عند مطلع الشمس، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، يعني: بما عنده ومعه من الجند، والعدة، والآلات «خبراً» أي علماً.

﴿٩٢﴾ - ﴿٩٣﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص «السدين» و«سداً» ههنا بفتح السين ووافق حمزة والكسائي في «سداً» وقرأ الباقون بضم السين وفي [سورة] يس ﴿سَدًّا﴾ بالفتح: حمزة والكسائي وحفص، وقرأ الباقون بالضم، منهم من قال هما لغتان معناهما واحد. وقال عكرمة: ما كان من صنعة بني آدم فهو السد بالفتح، وما كان من صنع الله فهو سُد بالضم. وقاله أبو عمرو. وقيل: «السَّد» بالفتح مصدر وبالضم اسم، وهما هنا جبلان، سدَّ ذو القرنين ما بينهما حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ يعني: أمام السدين. ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، قرأ حمزة والكسائي «يُفقهون» بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يفهمون غيرهم قولاً، وقرأ الآخرون بفتح الياء والقاف، أي لا يفهمون كلام غيرهم، قال ابن عباس: لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم.

﴿٩٤﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فإن قيل: كيف قالوا ذلك وهم لا يفقهون؟ قيل: تكلم عنهم مترجم، دليله قراءة ابن مسعود: «لا يكادون يفقهون قولاً قال الذين من دونهم يا ذا القرنين» ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾، قرأهما عاصم مهموزين وذلك في الأنبياء «فتحت يأجوج ومأجوج»، و[قرأ] الآخرون بغير همز في السورتين، وهما لغتان أصلهما من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وقيل: بالهمز من أجيج النار وبترك الهمز اسمان أعجميان، مثل هارون وماروت، وهم من أولاد يافث بن نوح. قال الضحاك: هم جيل من الترك. قال السدي: الترك سرية من يأجوج ومأجوج، خرجت فضرب ذو القرنين السد، فبقيت خارجه، فجميع الترك منهم. وعن قتادة: أنهم اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السدّ على إحدى وعشرين قبيلة فبقيت قبيلة واحدة فهم الترك، سموا الترك لأنهم تُركوا خارجين. قال أهل التواريخ: أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة، ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس في رواية عطاء: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء.

وروي عن حذيفة مرفوعاً: إن يأجوج أمة ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم، يسيرون إلى خراب الدنيا. قلت: «هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز، شجر بالشام، طوله عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع في السماء، وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف الأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية»، وعن علي أنه قال: منهم من طوله شبر، ومنهم من هو مفرط في الطول. وقال كعب: هم نادرة في ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم.

وذكر وهب بن منبه: أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم ابن عجوز، فلما بلغ كان عبداً صالحاً.

قال الله له: إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمتان بينهما طول الأرض: إحداهما عند مغرب الشمس، يقال لها ناسك، والأخرى عند مطلعها، يقال لها منسك، وأمتان بينهما عرض الأرض إحداهما في القطر الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فقال ذو القرنين: يا رب بأي قوة أكابرهم؟ وبأي جمع أكاثرهم؟ وبأي لسان أناطقهم؟ قال الله عزّ وجلّ: إني سأقويك وأبسط لك لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك،

يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك، فانطلق، حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله.

فكابرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد، فدعاهم إلى الله وعبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه، فأدخل عليهم الظلمة فدخلت في أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته، فجنّد من أهل المغرب جنداً عظيماً فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل فعمل فيهم كعمله في ناسك، ثم مضى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجنّد منها جنوداً كفعله في الأمتين، ثم أخذ ناحية الأرض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله [فيما قبلها]، ثم عمد إلى الأمم التي في وسط الأرض.

فلما دنا مما يلي منقطع الترك نحو المشرق، قالت له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقاً أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش، لهم أنياب وأضراس كالسباع، يأكلون الحيات والعقارب، وكل ذي روح، خلق في الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم، ولا شك أنهم سيملؤون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾.

ثم قال: أعدُّوا إلي الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم، فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخاليب كالأظفار في أيدينا وأنياب وأضراس كالسباع، ولهم هدب من الشعر في أجسادهم ما يواريهم ويتقون به من الحر والبرد، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى ويصيف في إحداهما ويشتو في الأخرى، يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا، فلما عاين ذلك ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما فحفر له الأساس حتى بلغ الماء، وجعل حشوه الصخر وطينه النحاس، يذاب فيصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض.

قوله تعالى: ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال الكلبي: فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرض الذين شكوهم إلى ذي القرنين فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلاّ أكلوه ولا يابساً إلاّ احتملوه، وأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديداً وقتلاً.

وقيل: فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس. وقيل: معناه أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، قرأ حمزة والكسائي «خراجاً» بالألف، وقرأ الآخرون «خرجاً» بغير ألف وهما لغتان بمعنى واحد، أي جعلا وأجراً من أموالنا. قال أبو عمرو: و«الخرج» ما تبرعت به، و«الخراج» ما لزمك أداؤه. وقيل: «الخراج» على الأرض و«الخرج» على الرقاب. يقال: أدِّ خَرْجَ رأسك وخراج مدينتك. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، أي حاجزاً فلا يصلون إلينا.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾، لهم ذو القرنين، ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ﴾، قرأ ابن كثير «مكنني» بنونين ظاهرين. وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة على الإدغام، أي ما قواني عليه، ﴿رَبِّى خَيْرٌ﴾، من جعلكم، ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾، معناه إني لا أريد المال بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، أي سداً، قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل، والآلة. قالوا: وما تلك الآلة؟ قال:

(٩٦) ﴿ءَاتُونِى﴾، أعطوني وقرأ أبو بكر «ائتوني» أي جيئوني، ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، أي: قطع الحديد، واحدتها زُبْرة، فأتوه بها وبالحطب، وجعل بعضها على بعض، فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضم الصاد والدال، وجزم أبو بكر الدال، وقرأ الآخرون بفتحهما، وهما الجبلان، «ساوى» أي: سوى بين طرفي الجبلين. ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾.

وفي القصة أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد ثم قال: انفخوا يعني في النار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، أي صار الحديد ناراً، ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ﴾، قرأ حمزة وأبو بكر وصلاً، وقرأ الآخرون بقطع الألف. ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، أي آتوني قطراً أفرغ عليه، والإفراغ الصبّ والقطر هو النحاس المذاب،

الجزء السادس عشر — سورة الكهف

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

٣٠٤

فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس.

قال قتادة: هو كالبرد المحبَّر، طريقة سوداء وطريقة حمراء، وفي القصة أن عرضه كان خمسين ذراعاً وارتفاعه مائتي ذراع وطوله فرسخ.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾، أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، من أسفله لشدته وصلابته. وقرأ حمزة «فما استطاعوا» بتشديد الطاء أدغم تاء الافتعال في الطاء.

﴿٩٨﴾ ﴿قَالَ﴾، يعني ذا القرنين، ﴿هَٰذَا﴾، أي السد، ﴿رَحْمَةٌ﴾، نعمة، ﴿مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾، قيل: [يوم] القيامة. وقيل: وقت خروجهم. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، قرأ أهل الكوفة «دكاء» بالمد والهمز، أرضاً ملساء، وقرأ الآخرون بلا مدّ أي: جعله مدكوكاً مستوياً مع وجه الأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

وروى قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة يرفعه «أن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعيده الله كما كان، حتى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، واستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه فيخرجون على الناس، فيتتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع فيها كهيئة الدم فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم فيهلكون، وإن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكراً».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن مهران الرازي، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم»؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفَّضت فيه ورفَّعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم؟ إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه اليمنى طافية كأني أشبهه بعبدالعزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج خُلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله فما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً يوم كسنة ويومٌ كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا اقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، قال: فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك

فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذْ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي باب دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان اللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ فيقتله، ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذْ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرِّزْ عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقول: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصَرُ نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدِكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكون منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض، حتى يتركها كالزَّلَفَة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك، وردي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسْل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللحقة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون [فيها] تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».

وبهذا الإسناد حدثنا مسلم بن الحجاج، ثنا علي بن حجر السعدي، ثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، والوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر بهذا الإسناد نحو ما ذكرنا وزاد بعد قوله: «ـ لقد كان بهذه مرة ماء ـ ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون لقد قلنا لمن في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً».

وقال وهب: إنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الخشب والشجر، ومن ظفروا به من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أحمد، أنبأنا أبي أنبأنا إبراهيم عن الحجاج بن حجاج عن قتادة عن عبدالله بن أبي عتبة، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج».

وفي القصة: أن ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفي بشهر زور. وذكر بعضهم: أن عمره كان نيفاً وثلاثين سنة.

(٩٩) قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قيل: هذا عند فتح السد، يقول: تركنا يأجوج ومأجوج يموج، أي: يدخل بعضهم في بعض، كموج الماء، ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم، وقيل: هذا عند قيام الساعة، يدخل الخلق بعضهم في بعض، ويختلط إنسيهم بجنيهم خيارى، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾، في صعيد واحد.

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا﴾، أبرزنا، ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، حتى يشاهدوها عياناً.

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾، أي غشاء، والغطاء ما يغطى به الشيء ويستره، ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾، عن الإيمان والقرآن. وعن الهدى والبيان. وقيل: عن رؤية الدلائل. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾، أي سمع القبول والإيمان، لغلبة الشقاوة عليهم. وقيل: لا يعقلون وقيل:

كانوا لا يستطيعون [سمعاً] أي لا يقدرون أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يتلوه عليهم لشدة عداوتهم له، كقول الرجل: لا أستطيع أن أسمع من فلان شيئاً لعداوته.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ﴾، أفظن، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، أرباباً، يريد بالعباد عيسى والملائكة، كلا بل هم لهم أعداء ويتبرؤون منهم. قال ابن عباس: يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله. وقال مقاتل: الأصنام سماها عباداً، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وجواب هذا الاستفهام محذوف. وقال ابن عباس: يريد إني لأغضب لنفسي، يقول: أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم. وقيل: أفظنوا أنهم ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: منزلاً، قال ابن عباس: هي مثواهم. وقيل: النزل ما يهيأ للضيف، يريد: هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف.

(١٠٣) قال عزّ وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، يعني الذين أتبعوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً، فنالوا هلاكاً وبواراً، كمن يشتري سلعة يرجو بها عليها ربحاً فخسر وخاب سعيه. واختلفوا فيهم، وقال ابن عباس، وسعد بن أبي وقاص: هم اليهود والنصارى. وقيل: هم الرهبان.

(١٠٤) ﴿الَّذِينَ﴾ حبسوا أنفسهم في الصوامع. وقال علي بن أبي طالب: هم أهل حروراء. ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾، بطل عملهم واجتهادهم، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: عملاً.

(١٠٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ﴾، بطلت، ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، أي لا نجعل لهم خطراً وقدراً، تقول العرب: ما لفلان عندنا وزن أي قدر لخسته.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا أحمد عن محمد بن يوسف، عن محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن عبدالله، ثنا سعيد بن [أبي] مريم، أنبأنا المغيرة عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»، وقال: [اقرؤوا] ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

قال أبو سعيد الخدري: يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من حبوط أعمالهم وخسة أقدارهم، ثم ابتدأ فقال: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾، يعني القرآن، ﴿وَرُسُلِي هُزُوًا﴾، أي: سخرية ومهزوءاً بهم.

(١٠٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾.

روينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

[و] قال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

وقال قتادة: «الفردوس» ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها. قال كعب: «الفردوس» هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال مجاهد: هو البستان بالرومية. وقال عكرمة: هي الجنة بلسان الحبشة. وقال الزجاج: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة الأشجار. وقيل: هي الروضة المستحسنة. وقيل: هي التي تنبت ضروباً من النبات، وجمعه فراديس، ﴿نُزُلًا﴾، أي منزلاً. وقيل: ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلاً، ومعنى «كانت لهم» أي في علم الله قبل أن يُخلقوا.

(١٠٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ﴾، لا يطلبون، ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي تحولاً إلى غيرها. قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى.

(١٠٩) ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾.

الجزء السادس عشر — سورة مريم

سُورَةُ مَرْيَمَ — آياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

٣٠٥

قال ابن عباس: قالت اليهود: يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثم تقول: وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: لما نزلت: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالت اليهود: أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ سُمي المداد مداداً لإمداد الكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء.

قال مجاهد: لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾، أي ماؤه، ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «ينفد» بالياء لتقدم الفعل، والباقون بالتاء، (كلمات ربي)، أي علمه وحكمه، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، معناه لو كان الخلائق يكتبون، والبحر يمدهم لنفد [ماء] البحر ولم تنفد كلمات الله، ولو جئنا بمثله، [أي] البحر في كثرته مداداً وزيادة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿١١٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، قال ابن عباس: علّم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره أن يقر فيقول: «إني آدمي مثلكم، إلاّ إني خُصصت بالوحي وأكرمني الله به، يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد لا شريك له»، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أي يخاف المصير إليه.

وقيل: يأمل رؤية ربه، فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً، قال الشاعر:

فلا كل ما ترجو من الخير كائنٌ
ولا كل ما ترجو من الشر واقعُ

فجمع بين المعنيين، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، أي: لا يُرائي بعمله.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أبو نعيم، أنا سفيان عن سلمة هو ابن كهيل قال: سمعت جندباً يقول: قال النبي ﷺ: «من سمَّعَ سمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به».

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنبأنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، ثنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، ثنا أبي وشعيب قال: ثنا الليث، ، عن ابن الهاد، عن عمرو، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء، عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء وهو للذي عمله».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا حفص بن عمر، ثنا همام، عن قتادة حدثنا سالم بن [أبي] الجعد الغطفاني، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي الدرداء يرويه عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال».

وأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر [محمد بن أحمد بن عبدالجبار] الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو الأسود،

ثنا ابن لهيعة، عن زبّان، عن سهل ـ هو ابن معاذ ـ عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدميه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء» [والله أعلم].

❁ ❁ ❁

سورة مريم

مكية وهي ثمان وتسعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) قوله عزّ وجلّ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، ضده ابن عامر، وحمزة، ويكسرهما الكسائي وأبو بكر، والباقون بفتحهما، ويظهر الدال عند الذال من صاد، «ذكر» ابن كثير، ونافع، وعاصم ويعقوب، والباقون بالإدغام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو اسم من أسماء الله تعالى. وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن. وقيل: اسم للسورة. وقيل: هو قسم أقسم الله به. وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: الكاف من كريم وكبير، والهاء من هادي، والياء من رحيم، والعين من عليم، وعظيم، والصاد من صادق. قال الكلبي: معناه كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم ببريّته، صادق في وعده.

(٢) ﴿ذِكْرُ﴾، رفع بالمضمر أي هذا الذي نتلوه عليك ذكر ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، وفيه تقديم وتأخير معناه: ذكر ربك، ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، برحمته.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، دعا، ﴿رَبَّهُۥ﴾، في محرابه، ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾، دعا سراً من قومه في جوف الليل.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ﴾، ضعف ورق، ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، من الكبر. قال قتادة: اشتكى سقوط الأضراس، ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾، أي ابيض شعر الرأس، ﴿شَيْبًا﴾، شمطاً، ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، يقول عوّدتني الإجابة فيما مضى ولم تخيبني. وقيل: معناه لما دعوتني إلى الإيمان آمنت ولم أشقَ بترك الإيمان.

(٥) ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾، والموالي: بنو العم. [و] قال مجاهد: العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة. وقال الكلبي: الورثة. ﴿مِن وَرَآءِى﴾ من بعد موتي، قرأ ابن كثير: «من ورائي» بفتح الياء، والآخرون بإسكانها. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾، لا تلد، ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾، أعطني من عندك، ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً.

(٦) ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الثاء فيهما على جواب الدعاء، وقرأ الباقون بالرفع على الحال والصفة، يعني ولياً وارثاً، واختلفوا في هذا الإرث، قال الحسن: معناه يرث ما لي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة. وقيل: أراد ميراث النبوة والعلم. وقيل: أراد إرث الحبورة، لأن زكريا كان رأس الأحبار. وقال الزجاج: والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأنه يبعد أن يشفق زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يرث بنو عمه ماله، والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان يشاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أُمّتِهِ، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين. وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، أي بَرّاً تقياً مرضياً.

(٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، وفيه اختصار، معناه فاستجاب الله دعاءه، فقال: يا زكريا إنا نبشرك، ﴿بِغُلَٰمٍ﴾، بولد ذكر، ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، قال قتادة والكلبي: لم يُسمَّ أحد قبله يحيى.

وقال سعيد بن جبير وعطاء: لم نجعل له شبهاً ومثلاً، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي مثلاً، والمعنى: أنه لم يكن له مثل لأنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط. وقيل: لم يكن له ميل في أمر النساء، لأنه كان سيداً وحصوراً.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي لم تلد العواقر مثله ولداً. وقيل: لم يرد الله به اجتماع الفضائل كلها ليحيى إنما أراد بعضها، لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾، من أين،

الجزء السادس عشر — سورة مريم

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

٣٠٦

﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي وامرأتي عاقر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، أي يبساً، وقال قتادة: يريد نحول العظم، يقال: عتا الشيخ يعتو عتياً وعسياً، إذا انتهى سنه وكبر، وشيخ عات وعاس إذا صار إلى حالة اليبس والجفاف. قرأ حمزة والكسائي: «عتياً وبكياً وصلياً وجثياً» بكسر أوائلهن، والباقون برفعها، وهما لغتان.

﴿٩﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، يسير، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «خلقناك» بالنون والألف على التعظيم، ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل يحيى، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، دلالة على حمل امرأتي، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، أي صحيحاً سليماً من غير ما بأس ولا خرس.

قال مجاهد: أي لا يمنعك من الكلام مرض. وقيل: ثلاث ليال سوياً أي متتابعاً، والأول أصح.

وفي القصة: أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فإذا أراد ذكر الله تعالى انطلق لسانه.

﴿١١﴾ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾، وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون، إذ خرج عليهم زكريا متغيراً لونه فأنكروه، فقالوا: مالك يا زكريا فأومأ إليهم، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ قال مجاهد: كتب لهم في الأرض، ﴿أَن سَبِّحُوا﴾، أي صلوا لله، ﴿بُكْرَةً﴾، غدوة، ﴿وَعَشِيًّا﴾ معناه أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشياً فيأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع الكلام حتى خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة.

﴿١٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾، قيل: فيه حذف ومعناه: ووهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى، ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾، بجد، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: النبوّة، ﴿صَبِيًّا﴾، وهو ابن ثلاث سنين. وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب، فقرأ التوراة وهو صغير. وعن بعض السلف قال: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبياً.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، رحمة من عندنا.

قال الحطيئة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

تحنَّنْ عليَّ هداك المليك … فإن لكل مقام مقالا

أي: ترحَّم. ﴿وَزَكَوٰةً﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص. وقال قتادة رضي الله عنه: هي العمل الصالح، وهو قول الضحاك، ومعنى الآية وآتيناه: رحمة من عندنا وتحنناً على العباد، ليدعوهم إلى طاعة ربهم ويعمل عملاً صالحاً في إخلاص. قال الكلبي: يعني صدقة تصدق الله بها على أبويه، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، مسلماً ومخلصاً مطيعاً، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا همّ بها.

﴿١٤﴾ ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾، أي باراً لطيفاً بهما محسناً إليهما. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، «الجبار» المتكبر، وقيل: الجبار الذي يضرب، ويقتل على الغضب، و«العصي» العاصي.

﴿١٥﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾، أي: سلامة له، ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال يوم يولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث حياً فيرى نفسه في محشر لم يرَ مثله، فخصّ يحيى بالسلامة في هذه المواطن.

﴿١٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، في القرآن، ﴿مَرْيَمَ إِذِ

﴿ٱنتَبَذَتۡ﴾، تنحت واعتزلت، ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، من قومها، ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، أي مكاناً في الدار مما يلي المشرق، وكان يوماً شاتياً شديد البرد فجلست في مشرقة تفلي رأسها. وقيل: كانت طهرت من الحيض، فذهبت لتغتسل. قال الحسن: ومن ثم اتخذ النصارى المشرق قبلة.

﴿١٧﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾، فضربت، ﴿مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ستراً. وقيل: جلست وراء جدار، وقال مقاتل: وراء جبل.

قال عكرمة: إن مريم كانت تكون في المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت، إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، سوي الخلق، فذلك قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ يعني جبريل عليه السلام، وقيل: المراد بالروح عيسى عليه السلام، جاء في صورة بشر فحملت به. والأول أصح، فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد.

﴿١٨﴾ فـ ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، مؤمناً مطيعاً، فإن قيل: إنما يستعاذ من الفاجر، فكيف قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً؟ قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً من الظلم، وكذلك ههنا معناه: وينبغي أن يكون تقواك مانعاً لك من الفجور.

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ﴾، لها جبريل، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾، قرأ نافع وأهل البصرة: «ليهب لك» أي ليهب لك ربك، وقرأ الآخرون: «لأهب لك» أسند الفعل إلى الرسول، وإن كانت الهبة من الله تعالى، لأنه أرسل به، ﴿غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب.

﴿٢٠﴾ ﴿قَالَتۡ﴾، مريم، ﴿أَنَّىٰ﴾، من أين، ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾، لم يقربني زوج، ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾، فاجرةً، تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن هنا واحد منهما.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ﴾، جبريل، ﴿كَذَٰلِكِ﴾، قيل معناه كما قلت يا مريم ولكن، ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾، وقيل هكذا قال ربك، ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾، أي: خلق ولد بلا أب، ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ﴾، علامة، ﴿لِّلنَّاسِ﴾، ودلالة على قدرتنا، ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾، ونعمة لمن تبعه على دينه، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك، ﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾، محكوما مفروغاً منه لا يرد ولا يبدل.

﴿٢٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾، قيل: إن جبريل رفع عنها درعها فنفخ في جيبها فحملت حين لبسته. وقيل: مدّ جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب. وقيل: نفخ في كم قميصها. وقيل: في فيها. وقيل: نفخ جبريل عليه السلام نفخاً من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى في الحال، ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾، أي: [فلما حملته انتبذت به] تنحت بالحمل، وانفردت، ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾، أي بعيداً من أهلها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج، واختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة. وقيل: كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء. وقيل: كان مدة [حملها] ثمانية أشهر، وكان ذلك آية أخرى لأنه لا يعيش ولد يولد لثمانية أشهر، وولد عيسى لهذه المدة وعاش. وقيل: ولدت لستة أشهر. وقال مقاتل بن سليمان: حملته مريم في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وهي بنت عشر سنين، وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى.

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَجَآءَهَا﴾، أي ألجأها وجاء بها، ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾، وهو وجع الولادة، ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ وكانت نخلة يابسة في الصحراء، في شدة الشتاء، لم يكن لها سعف.

وقيل: التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة، ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾، تمنت الموت استحياءً من الناس وخوف الفضيحة، ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾، قرأ حمزة وحفص «نسيا» بفتح النون، والباقون بكسرها، وهما لغتان، مثل الوَتر والوِتر والجَسر والجِسر، وهو الشيء المنسي، والنسي في اللغة كل ما أُلقي ونُسي ولم يذكر لحقارته،

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

٣٠٧

﴿مَنسِيًّا﴾، أي: متروكاً قال قتادة: شيء لا يعرف ولا يذكر. قال عكرمة والضحاك ومجاهد: جيفة ملقاة. وقيل: تعني لم أخلق.

﴿٢٤﴾ ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفص «من تحتها» بكسر الميم والتاء يعني جبريل عليه السلام، وكانت مريم على أكمة، وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها، وقرأ الآخرون بفتح الميم والتاء، وأراد جبريل عليه السلام أيضاً، ناداها من سفح الجبل.

وقيل: هو عيسى لما خرج من بطن أمه ناداها، ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، وهو قول مجاهد والحسن، والأول قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والسدي، وقتادة، والضحاك، وجماعة: أن المنادي كان جبريل لما سمع كلامها وعرف جزعها ناداها ألاّ تحزني، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، والسري: النهر الصغير.

وقيل: تحتك أي جعله الله تحت أمرك، إن أمرتِهِ أن يجري جرى، وإن أمرتِهِ بالإمساك أمسك. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ضرب جبريل عليه السلام. ويقال [ضرب] عيسى عليه الصلاة والسلام برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذب وجرى. وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله سبحانه وتعالى فيه الماء وحييت النخلة اليابسة، فأورقت وأثمرت وأرطبت. وقال الحسن: تحتك سرياً يعني عيسى وكان والله عبداً سرياً، يعني رفيعاً.

﴿٢٥﴾ ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ﴾، يعني قيل لمريم حركي ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾، تقول العرب: هزّه وهزّ به، كما تقول: حزّ رأسه وحزّ برأسه، وأمدد الحبل وأمدَدَ به، ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ﴾، القراءة المعروفة بفتح التاء والقاف وتشديد السين، يعني تتساقط، فأُدغمتْ إحدى التاءين في السين يعني تسقط عليك النخلة رطباً، وخفف حمزة السين وحذف التاء التي أدغمها غيره.

وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف خفيف على وزن تُفاعِل، وتساقط بمعنى أسقط، والتأنيث لأجل النخلة، وقرأ يعقوب «يساقط» بالياء مشددة ردّه إلى الجذع، ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾، مجنياً. وقيل: الجني هو الذي بلغ الغاية، وجاء أوان اجتنائه.

قال الربيع بن خُثَيم: ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل.

﴿٢٦﴾ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾، أي: فكلي يا مريم من الرطب، واشربي من ماء النهر، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾، أي: طيبي نفساً وقيل: قري عينك بولدك عيسى. يقال: أقر الله عينك يعني صادف فؤادك ما يرضيك، فتقر عينك من النظر إلى غيره. وقيل: أقر الله عينه يعني أنامها، يقال: قرّ يقرّ إذا سكن. وقيل: إن العين إذا بكت من السرور فالدمع بارد، وإذا بكت من الحزن فالدمع يكون حاراً، فمن هذا قيل: أقر الله عينه وأسخن الله عينه. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، أي ترى، فدخل عليه نون التأكيد فكسرت الياء لالتقاء الساكنين، معناه: فإما ترين من البشر أحداً فيسألك عن ولدك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، يعني: صمتاً، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رضي الله عنه، والصوم في اللغة الإمساك عن الطعام والشراب والكلام.

قال السدي: كان في بني إسرائيل من إذا أراد أن يجتهد صام عن الكلام، كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي. وقيل: إن الله تعالى أمرها أن تقول هذا إشارة. وقيل: أمرها أن تقول هذا القدر نطقاً، ثم تمسك عن الكلام بعده،

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، يقال كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس.

٢٧ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، وقيل: إنها ولدته ثم حملته إلى قومها في الحال. وقال الكلبي: حمل يوسف النجار مريم وابنها عيسى عليهما السلام إلى غار، ومكثت أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها، ثم حملته مريم عليها السلام إلى قومها. فكلمها عيسى عليه السلام في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبدالله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين، ﴿قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، عظيماً منكراً، قال أبو عبيدة: كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فري.

قال النبي ﷺ في عمر: «فلم أرَ عبقرياً يفري فريه»، يعني عمله.

٢٨ ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾، يريد يا شبيهة هارون، قال قتادة وغيره: كان هارون رجلاً صالحاً عابداً في بني إسرائيل.

وروي أنه اتبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل سوى سائر الناس، شبهوها [به] على معنى إنّا ظننا أنك مثله في الصلاح، وليس المراد منه الأخوّة في النسب كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، أي أشباههم.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن عبدالله بن نمير، ثنا بن إدريس، عن أبيه، عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا إنكم تقرؤون: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا سنة، فلمّا قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».

وقال الكلبي: كان هارون أخا مريم من أبيها، وكان أمثل رجل في بني إسرائيل. وقال السدي: إنما عنوا به هارون أخا موسى، لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم.

وقيل: كان هارون رجلاً فاسقاً في بني إسرائيل عظيم الفسق فشبهوها به.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾، عمران، ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: زانياً، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾، حنة، ﴿بَغِيًّا﴾، أي: زانية فمن أين لك هذا الولد؟

٢٩ ﴿فَأَشَارَتْ﴾، مريم، ﴿إِلَيْهِ﴾، أي إلى عيسى عليه السلام أن كلّموه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما لم تكن لها حجة أشارت إليه، ليكون كلامه حجة لها.

وفي القصة: لما أشارت إليه غضب القوم، وقالوا مع ما فعلت تسخرين بنا؟ ثم، ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: من هو في المهد، وهو [في] حجرها.

وقيل: هو المهد بعينه، ﴿كَانَ﴾ بمعنى هو، وقال أبو عبيدة: «كان» صلة أي كيف نكلم صبياً في المهد، وقد يجيء «كان» حشواً في الكلام لا معنى له كقوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] أي: هل أنا؟ قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم. وقيل: لما أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره، وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه.

٣٠ ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وقال وهب: أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود، فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوماً. وقال مقاتل: بل هو يوم ولد ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، أقرّ على نفسه بالعبودية لله عزّ وجلّ أول ما تكلم لئلا يتخذ إلـهاً، ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾، قيل: معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبياً. وقيل: هذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ.

كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبياً؟ قال: «كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد».

وقال الأكثرون أوتيَ الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال. وعن الحسن: أنه قال ألهم التوراة وهو في بطن أمه.

٣١ ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، أي نفاعاً حيث ما توجهت. وقال مجاهد: معلماً للخير. وقال عطاء: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته. وقيل: مباركاً

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

على من تبعني: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، أي أمرني بهما، فإن قيل: لم يكن لعيسى مال فكيف يؤمر بالزكاة؟ قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال. وقيل: أوصاني بالزكاة أي أمرني أن أوصيكم بالزكاة. وقيل: بالاستكثار من الخير. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

(٣٢) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: جعلني براً بوالدتي، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أي عاصياً لربه. وقيل: الشقي الذي يذنب ولا يتوب.

(٣٣) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾، أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان. ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾، أي عند الموت من الشرك، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، من الأهوال، فلما كلمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى عليه السلام فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، قال الزجاج: أي ذلك الذي قال إني عبدالله عيسى ابن مريم، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: «قولَ الحق» بنصب اللام وهو نصب على المصدر أي: قال: قول الحق، ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلفون، فقائل يقول هو ابن الله، وقائل يقول هو الله، وقائل يقول هو ساحر كذاب. وقرأ الآخرون برفع اللام يعني هو قول الحق، أي هذا الكلام هو قول الحق، أضاف القول إلى الحق، كما قال: حق اليقين، ووعد الصدق، وقيل: هو نعت لعيسى ابن مريم، يعني ذلك عيسى ابن مريم كلمة الحق [والحق] هو الله ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون، ويختلفون ويقولون غير الحق، ثم نفى عن نفسه الولد، ثم عظّم نفسه فقال:

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾، أي ما كان من صفته اتخاذ الولد. وقيل: اللام منقولة أي ما كان لله أن يتخذ من ولد، ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾، إذا أراد أن يحدث أمراً، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

(٣٦) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «أن الله» بفتح الألف يرجع إلى قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وبأن الله ربي وربكم، وقرأ أهل الشام والكوفة ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف. ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

(٣٧) قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾، يعني النصارى، سموا أحزاباً لأنهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى، النسطورية، والملكانية، واليعقوبية. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني يوم القيامة.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا في الدنيا. قال الكلبي: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله تعالى لعيسى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية. ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في خطأ بيّن.

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذبح الموت.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عمر بن حفص بن غياث، أنا أبي، أنا الأعمش، أخبرنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه [ثم ينادي: يا

أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه] فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ورواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع، عن النضر بن إسماعيل، عن الأعمش بهذا الإسناد، وزاد: «فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار الحياة والبقاء لماتوا ترحاً».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا معاذ بن أسد، أنا عبدالله، أنا عمر بن محمد بن زيد، عن أبيه أنه حدثه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار. ثم يذبح ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان، أنا شعيب، أنا أبو الزناد، عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنة إلاّ رأى مقعدَه من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحدٌ إلاّ رأى مقعدَه من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة».

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا الحسين بن الحسن، أنا ابن المبارك، أنا يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلاّ ندم»، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، أي عمّا يُفعل بهم في الآخرة، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، لا يصدقون.

﴿٤٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾، أي نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعاً، ويبقى الرب وحده فيرثهم، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، فنجزيهم بأعمالهم.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، الصديق الكثير الصدق القائم عليه. وقيل: من صَدَّق الله في وحدانيته، وصدّق أنبياءه ورسله، وصدق بالبعث، وقام بالأوامر فعمل بها، فهو الصديق. و«النبي»: العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إيّاه.

﴿٤٢﴾ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ﴾، إبراهيم، ﴿لِأَبِيهِ﴾، آزر وهو يعبد الأصنام، ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾، صوتاً، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾، شيئاً، ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ﴾، أي لا يكفيك، ﴿شَيْـًٔا﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، بالله والمعرفة، ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾، على ديني، ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، مستقيماً.

﴿٤٤﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾، عاصياً، كان بمعنى الحال، أي هو كذلك.

﴿٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾، أي أعلم، ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾، يصيبك، ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، إن أقمت على الكفر، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾، قريناً في النار.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ﴾ أبوه مجيباً له، ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾، لئن لم تسكت وترجع عن عيبك آلهتنا وشتمك إياها، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قال الكلبي ومقاتل والضحاك: لأشتمنّك ولأبعدنّك عني بالقول القبيح. قال ابن عباس: لأضربنك. وقال عكرمة: لأقتلنّك بالحجارة. ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾، قال الكلبي: اجتنبني طويلاً. وقال مجاهد وعكرمة: حيناً. وقال سعيد بن جبير: دهراً. وأصل «الحين» المكث، ومنه يقال: مكثت حيناً، والملوان: الليل والنهار. وقال قتادة وعطاء: سالماً. وقال ابن عباس: اعتزلني سالماً لا تصيبك مني معرّة، يقال: فلان ملي بأمر كذا إذا كان كافياً.

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا (٥٥) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)

٣٠٩

(٤٧) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾، أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره. وقيل: هذا سلام هجران ومفارقة. وقيل: سلام برٍّ ولطفٍ، وهو جواب الحليم للسفيه. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾، قيل: إنه لما أعياه أمره ووعده أن يراجع الله فيه، فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له، معناه: سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها المغفرة. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، برّاً لطيفاً. قال الكلبي: عالماً يستجيب لي إذا دعوته. قال مجاهد: عودني الإجابة لدعائي.

(٤٨) ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي أعتزل ما تعبدون من دون الله. قال مقاتل: كان اعتزاله إيّاهم أنه فارقهم من «كوثى»، فهاجر منها إلى الأرض المقدسة، ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾، أي أعبد ربي، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾، أي عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام. وقيل: عيسى أن يجيبني إذا دعوته ولا يخيبني.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ذهب مهاجراً ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد الهجرة ﴿إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ آنسنا وحشته من فراقهم، وأقررنا عينه بأولاد كرام على الله عز وجل ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ يعني إسحاق ويعقوب.

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ أي: نعمتنا. قال الكلبي: المال والولد، وهو قول الأكثرين، قالوا معناه: ما بسط لهم في الدنيا من سعة الرزق. وقيل: الكتاب والنبوّة، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، يعني ثناء حسناً رفيعاً في كل أهل الأديان، كلهم يتولونهم، ويثنون عليهم.

(٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾، غير مراء، أخلص العبادة والطاعة لله عزّ وجلّ. قرأ أهل الكوفة «مخلصا» بفتح اللام أي: مختاراً اختاره الله عزّ وجلّ. وقيل: أخلصه الله من الدنس. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

(٥٢) ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، يعني يمين موسى، والطور: جبل بين مصر ومدين. ويقال اسمه الزبير، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار نودي ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]. ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾، أي: مناجياً، النجي المناجي، كما يقال: جليس ونديم. قال ابن عباس: معناه قربه فكلمه، ومعنى التقريب إسماعه كلامه. وقيل: رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم.

(٥٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾، وذلك حين دعا موسى فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۞ هَـٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]، فأجاب الله دعاءه وأرسل إلى هارون، ولذلك سماه هبة له.

(٥٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ﴾، وهو إسماعيل بن إبراهيم جد النبي ﷺ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، قال مجاهد: لم يعد شيئاً إلاّ وفى به.

وقال مقاتل: وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل.

وقال الكلبي: انتظره حتى حَالَ عليه الحَوْل ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾، إلى جرهم، ﴿نَّبِيًّا﴾، مخبراً عن الله عزّ وجلّ.

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: قومه. وقيل: أهله وجميع أمته، ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، قال ابن عباس: يريد التي افترضها الله تعالى عليهم، وهي الحنيفية التي افترضت علينا، ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾، قائماً لله بطاعته وقيل: رضيه الله عزّ وجلّ لنبوته ورسالته.

(٥٦) قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾، وهو جَدّ أبي نوح، واسمه أخنوخ، سمي إدريس لكثرة درسه الكتب.

وكان خياطاً وهو أول من خطّ بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس الثياب المخيطة، وكانوا من قبله يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح، وقاتل الكفار، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

(٥٧) ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾، قيل: هي الجنة. وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا. وقيل: هو إنه رفع إلى السماء الرابعة.

روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج.

وكان سبب رفع إدريس على ما قاله كعب وغيره، أنه سار ذات يومٍ في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا رب أنا مشيت يوماً واحداً، فأصابني المشقة الشديدة من وهج الشمس وأضرّني حرُّها ضرراً بليغاً، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد، اللّهمَّ خففْ عنه من ثقلها وحرّها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لم يعرف. فقال: يا رب ما الذي قضيت فيه؟ حتى خففت عني ما أنا فيه؟ قال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته، فقال: يا رب اجعل بيني وبينه خِلّة، فأذن له حتى أتى إدريس، فكان يسأله إدريس، فقال له [يوماً] إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزداد شكراً وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: لي حاجة إليك، فقال: وما هي؟ قال: صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، قال: ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله متى يموت، فيقدم لنفسه، فقال: نعم، فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فلا أراك تجده إلاّ وقد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء، فرجع الملك فوجده ميتاً.

واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت؟ فقال قوم: هو ميت، وقال قوم: هو حي، وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى.

وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربّه عزّ وجلّ في زيارته، فأذن له فأتاه في صورة بني آدم، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه، ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس، فقال له [إدريس] في الليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت استأذنت ربّي أن أصحبك، قال: فلي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: تقبض روحي، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه وردها إليه بعد ساعة [بإذن الله تعالى] قال له ملك الموت: ما الفائدة في سؤالك قبض الروح؟ قال لأذوق كرب الموت وغمته فأكون أشد استعداداً له، ثم قال إدريس له: إن لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار، فأذن الله [له] في رفعه، فلما قرب من النار قال: لي إليك حاجة أخرى، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكاً أن يفتح لي أبوابها فأردها ففعل، ثم قال: فكما أريتني النار فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها، فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: أخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكاً حكماً بينهما، فقال له الملك: ما لك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقد ذقته، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وقد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، فلست أخرج، [حين دخلتها] فأوحى الله إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة

وبأمري لا يخرج، فهو حي هناك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾، أي إدريس ونوحاً، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، يريد إبراهيم لأنه [من] ولد سام بن نوح، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب، قوله: ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي ومن ذرية إسرائيل، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾، هؤلاء كانوا ممن أرشدنا واصطفينا، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، سجداً جمع ساجد وبكياً جمع باك، أخبرالله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا.

﴿٥٩﴾ قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾، أي من بعد النبيين المذكورين خلف، وهم قوم سوء والخلف بالفتح: الصالح وبالجزم: الطالح قال السدي: أراد بهم اليهود ومن لحق بهم. وقال مجاهد وقتادة: هم قوم في هذه الأمة، ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: تركوا الصلاة المفروضة. وقال ابن مسعود وإبراهيم: أخّروها عن وقتها. وقال سعيد بن المسيب: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تغرب الشمس، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي المعاصي وشرب الخمر [والزنا]، أي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله. وقال مجاهد: هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، قال وهب: الغي نهر في جهنم، بعيد قعره، خبيث طعمه.

وقال ابن عباس: الغي وادٍ في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرّه، أُعد للزاني المصر عليه، ولشارب الخمر المدمن عليها، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً، وقال عطاء: الغي وادٍ في جهنم يسيل قيحاً ودماً. وقال كعب: هو واد في جهنم أبعدها قعراً، وأشدها حراً، فيه بئر تسمى الهيم، كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتستعر بها جهنم.

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا محمد بن أحمد الحارثي، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك عن هشيم بن بشير، أنا زكريا بن أبي مريم الخزاعي قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة سبعين خريفاً من حجر يهوي، أو قال صخرة تهوي عظمها كعشر عشراوات عظام سمان، فقال له مولى لعبدالرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم غي وآثام.

وقال الضحاك: غياً خسراناً. وقيل: هلاكاً. وقيل: عذاباً. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية.

﴿٦٠﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

﴿٦١﴾ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، ولم يروها، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾، يعني آتياً مفعول بمعنى فاعل. وقيل: لم يقل آتياً لأن كل من أتاك فقد أتيته، والعرب لا تفرق بين قول القائل أتت عليّ خمسون سنة وبين قوله: أتيت على خمسين سنة، ويقول: وصل إليّ الخير ووصلت إلى الخير [و] قال ابن جرير: وعده أي موعوده، وهو الجنة «مأتياً» يأتيه أولياؤه وأهل طاعته.

﴿٦٢﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾، في الجنة ﴿لَغْوًا﴾، باطلاً وفحشاً وفضولاً من الكلام. وقال مقاتل: هو اليمين الكاذبة، ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾، استثناء من غير جنسه يعني بل يسمعون فيها سلاماً أي قولاً يسلمون منه، والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة، معناه إن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤثمهم، إنما يسمعون ما يسلمهم. وقيل: هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم. وقيل: هو تسليم الله عليهم، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال أهل التفسير: ليس في الجنة ليل يعرف به البكرة والعشي، بل هم في نور أبداً ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار. وقيل: إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب، ووقت الليل بإرخاء

رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

الحجب، وقيل: المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق، وكان الحسن البصري يقول: كانت العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي، فوصف الله عزّ وجلّ جنته بذلك.

(٦٣) ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي نعطي وننزل. وقيل: يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا، ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، أي المتقين من عباده.

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا خلاد بن يحيى، أنا عمر بن ذر قال: سمعت أبي يحدث عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية.

قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ.

وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل، والكلبي: احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله، حتى شق ذلك على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله ﷺ: «أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك»، فقال له جبريل: إني كنت أشوق [إليك منك]، ولكن عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتبست، فأنزل الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وأنزل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي له علم ما بين أيدينا، وما خلفنا واختلفوا فيه فقال سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الآخرة والثواب والعقاب، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما يكون من هذا الوقت إلى قيام الساعة، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما بقي من الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما مضى منها، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مدة حياتنا. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ بعد أن نموت ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ قبل أن نخلق ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مدة الحياة. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الأرض إذا أردنا النزول إليها، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ السماء إذا نزلنا منها، وما بين ذلك الهواء يريد أن ذلك كله لله عزّ وجلّ فلا تقدر على شيء إلا بأمره. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، أي ناسياً، يقول: ما نسيك ربك أي ما تركك، والناسي التارك.

(٦٥) ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، أي اصبر على نهيه وأمره. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما [هل تعلم له مثالاً]. وقال سعيد بن جبير: عدلاً. وقال الكلبي: هل تعلم أحداً يُسمى الله «غيره».

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾، يعني أُبي بن خلف الجمحي كان منكراً للبعث، قال: ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، من القبر، قاله استهزاءً وتكذيباً للبعث.

(٦٧) قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾، أي يتذكر ويتفكر، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم ويعقوب (يَذْكُرُ) خفيف، ﴿الْإِنسَانُ﴾، يعني أبيّ بن خلف ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾، أي لا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة، ثم أقسم بنفسه، فقال:

(٦٨) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين

المنكرين للبعث، ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، مع الشياطين، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾، قيل في جهنم ﴿جِثِيًّا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: جماعات، جمع جثوة، وقال الحسن والضحاك: جمع جاث أي جاثين على الركب. قال السدي: قائمين على الركب لضيق المكان.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ (٦٩)، لنخرجنّ، ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾، أي من كل أمة وأهل دين من الكفار. ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾، عتواً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني جرأة. وقال مجاهد: فجوراً يريد الأعتى فالأعتى. وقال الكلبي: قائدهم ورأسهم في الشر يريد أنه يقدم في إدخال النار من هو أكبر جرماً وأشد كفراً. وفي بعض الآثار أنهم يحضرون جميعاً حول جهنم مسلسلين مغلولين، ثم يقدم الأكفر فالأكفر. ورفع «أيهم» على معنى الذي، يقال لهم: أيهم أشد على الرحمن عتياً. وقيل: على الاستئناف، ثم لننزعن يعمل في موضع من كل شيعة.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (٧٠)، أي أحق بدخول النار، يقال: صلي يصلى صلياً مثل لقي يلقى لقياً، وصلى يصلي صُلياً مثل مضى يمضي مضياً، إذا دخل النار وقاسى حرّها.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (٧١)، أي وما منكم إلا واردها، وقيل: القسم فيه مضمر، أي: والله ما منكم من أحد إلا واردها، والورود هو موافاة المكان، واختلفوا في معنى الورود هنا وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله: ﴿وَارِدُهَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول الأكثرين؛ معنى الورود ههنا هو الدخول، والكناية راجعة إلى النار، وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر، ثم ينجي الله المتقين، فيخرجهم منها، والدليل على أن الورود هو الدخول قول الله عزّ وجلّ حكاية عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق مارى ابن عباس رضي الله عنهما في الورود، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الدخول. وقال نافع: ليس الورود الدخول، تلا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع أما والله، أنا وأنت سنردها، وأنا أرجو أن يخرجني الله منها، وما أرى الله عزّ وجلّ يخرجك منها بتكذيبك. وقال قوم: ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا: النار لا يدخلها مؤمن أبداً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٢]، وقالوا: كل من دخلها لا يخرج منها، والمراد من قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، الحضور والرؤية، لا الدخول، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] أراد به الحضور، وقال عكرمة. الآية [في الكفار] فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني القيامة والكناية راجعة إليها. والأول أصح، وعليه أهل السنة أنهم جميعاً يدخلون النار ثم يخرج الله عزّ وجل منها أهل الإيمان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، أي اتقوا الشرك، وهم المؤمنون. والنجاة إنّما تكون مما دخلت فيه لا ما وردت، وقرأ الكسائي ويعقوب ننجي بالتخفيف والآخرون بالتشديد، والدليل على هذا ما. أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا عبدالرحيم بن منيب، أنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم»، وأراد بالقسم قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد [بن عبدالله] النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا مسلم بن إبراهيم، أنا هشام، أنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير. ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير».

وقال أبان عن قتادة: «من إيمان»

مكان «خير».

أخبرنا أبو المظفر محمد بن إسماعيل بن علي الشجاعي، أنا أبو نصر النعمان بن محمد بن محمود الجرجاني، أنا أبو عثمان عمرو بن عبدالله البصري، أنا محمد بن عبدالوهاب، أنا محمد بن الفضل أبو النعمان، أنا سلام بن مسكين، أنا أبو الظلال عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان، فيقول الله عزّ وجلّ لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا، قال: فذهب جبريل فوجد أهل النار منكبين يبكون، قال: فرجع [جبريل] فأخبر ربه عزّ وجلّ، قال: اذهب فإنه في موضع كذا وكذا، قال: فجاء به، قال [الله]: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ قال: يا رب شرّ مكان وشرّ مقيل، قال: ردوا عبدي، قال: ما كنت أرجو أن تعيدني إليها إذ أخرجتني منها، قال الله تعالى لملائكته: دعوا عبدي».

وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] فقيل: إن الله عزّ وجلّ أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنهم لا يسمعون حسيسها يجوز أن يكونوا قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة، لأنه لم يقل لم يسمعوا حسيسها ويجوز أن لا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إياها، لأن الله عزّ وجلّ يجعلها عليهم برداً وسلاماً.

وقال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار [قبل أن ندخل الجنة]، فيقال: بلى ولكنكم مررتم بها، وهي خامدة.

وفي الحديث «تقول النار للمؤمن جزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي».

وروي عن مجاهد في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: من حُمّ من المسلمين فقد وردها.

وفي الخبر «الحمى كير من جهنم، وهي حظ المؤمن من النار».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن المثنى، أنا يحيى، عن هشام، أخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء».

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، أي كان ورودكم جهنم حتماً لازماً مقضياً قضاه الله عليكم.

﴿٧٢﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، أي اتقوا الشرك، قرأ الكسائي «ننجي» بالتخفيف، والباقون بالتشديد، ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، جميعاً. وقيل: جاثين على الركب، وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتقين، وترك فيها الظالمين. وهم المشركون.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب»، قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله عزّ وجلّ فيقول: أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا [فيدعوهم] ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذٍ: اللهم سلمْ سلمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل لنا، أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبدالله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، [فيخرجون من النار] فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود، فيُخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل [ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد]، ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل الأرض دخولاً إلى

الجنة مقبل بوجهه قبل النار، فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار، قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك فيعطي الله ما يشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة ورأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدمني عند باب الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت، فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلني الجنة فيقول الله تعالى: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه [فإذا ضحك أذن له في دخول الجنة] فيقول: تمن فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيتُه، قال الله تعالى: تمن كذا وكذا أقبل يُذكّره ربه: حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد لأبي هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: «قال [الله تعالى لك] ذلك وعشرة أمثاله» قال أبو هريرة: لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله لك ذلك: ﴿ومثله معه﴾، قال أبو سعيد: إني سمعته يقول «ذلك لك وعشرة أمثاله».

ورواه محمد بن إسماعيل عن محمود بن غيلان، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي هريرة بمعناه، قال: «فيأتيهم الله عزّ وجلّ في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا محمد بن حماد، أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يعذب أناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة، قال: فيُخرجون فيُطرحون على أبواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما تنبت القثاء في حمالة السيل، ثم يدخلون الجنة».

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا هناد بن السَّريّ، أنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السلماني عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار [خروجاً من النار] رجل يخرج منها زحفاً فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب ليدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيرجع فيقول: يا رب قد أخذ الناس المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم فيقال له: تمن، فيتمنى، فيقال له: إن لك الذي تمنيته وعشرة أضعاف الدنيا، قال فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا محمد بن حماد، أنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية» قال: قلت يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؟ قال: أفلم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، واضحات، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني النضر بن الحارث وذويه من قريش،

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾، يعني فقراء أصحاب النبي ﷺ، وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يُرَجّلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون ثيابهم، فقالوا للمؤمنين ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، منزلاً ومسكناً، وهو موضع الإقامة، وقرأ ابن كثير: «مقاماً» بضم الميم أي [موضع الإقامة]، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي مجلساً، ومثله النادي، فأجابهم الله تعالى فقال:

﴿٧٤﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا﴾، أي متاعاً وأموالاً. قال مقاتل: لباساً وثياباً، ﴿وَرِءْيًا﴾، قرأ أكثر القراء بالهمز، أي منظراً من الرؤية، وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ونافع غير ورش «ريا» مشدداً بغير همز، وله تفسيران أحدهما هو الأول، بطرح الهمزة والثاني من الري الذي هو ضد العطش، ومعناه الارتواء من النعمة، فإن المتنعم يظهر فيه ارتواء النعمة، والفقير يظهر عليه ذبول الفقر.

﴿٧٥﴾ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾، هذا أمر بمعنى الخبر، معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾، وهو الأسر والقتل في الدنيا، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، يعني القيامة فيدخلون النار، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾، عن ذلك ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، منزلاً، ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾، أقل ناصراً أهم أم المؤمنون؟ لأنهم في النار والمؤمنون في الجنة. وهذا ردٌّ عليهم في قوله: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، أي إيماناً وإيقاناً على يقينهم، ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾، الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها، ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ عاقبة ومرجعاً.

﴿٧٧﴾ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عمر بن حفص، أنا أبي، أنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، حدثنا خباب قال: كنت قيناً، فعملت للعاص بن وائل، فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: [و] إنه سيكون لي ثم مال وولد فأقضيك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾، قال ابن عباس: أنظرَ في اللوح المحفوظ؟ وقال مجاهد: أعلم [علم] الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾، يعني قال لا إله إلا الله. وقال قتادة: يعني عمل عملاً صالحاً قدمه. وقال الكلبي: أعهد إليه أن يدخل الجنة؟

الجزء السادس عشر — سورة مريم

أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَـٰطِينَ عَلَى الْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

٣١١

﴿٧٩﴾ ﴿كَلَّا﴾، ردٌّ عليه يعني لم يفعل ذلك، ﴿سَنَكْتُبُ﴾، سنحفظ عليه، ﴿مَا يَقُولُ﴾، فنجازيه به في الآخرة. وقيل: نأمر الملائكة حتى يكتبوا ما يقول. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾، أي نزيده عذاباً فوق العذاب. وقيل: نطيل مدة عذابه.

﴿٨٠﴾ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطال ملكه وقوله ما يقول لأنه زعم أن له مالاً وولداً في الآخرة، أي لا نعطيه ونعطي غيره، فيكون الإرث راجعاً إلى ما تحت القول لا إلى نفس القول. وقيل: معنى قوله: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، يوم القيامة بلا مال ولا ولد.

﴿٨١﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿ءَالِهَةً﴾ يعني مشركي قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها، ﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾، أي منعة، يعني يكونون لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب.

(٨٢) ﴿كَلَّا﴾، أي ليس الأمر كما زعموا، ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي يجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤون منهم، كما أخبر الله تعالى [عنهم] ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي أعداءاً لهم، وكانوا أولياءهم في الدنيا. وقيل: أعواناً عليهم يكذبونهم ويلعنونهم.

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي سلطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، الآية، ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية، و«الأزّ والهزّ» التحريك، أي: تحركهم وتحثهم على المعاصي.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾، أي لا تعجل بطلب عقوبتهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾، قال الكلبي: يعني الليالي والأيام والشهور والأعوام. وقيل: الأنفاس التي يتنفسون بها في الدنيا إلى الأجل الذي أجل لعذابهم.

(٨٥) قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي يجتمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى الرحمن، أي إلى جنته وفداً، أي جماعات، جمع وافد، مثل راكب وركب، وصاحب وصحب. وقال ابن عباس: ركباناً. وقال أبو هريرة: على الإبل.

وقال علي بن أبي طالب: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوقٍ، رحالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت، إن هموا بها سارت، وإن هموا بها طارت.

(٨٦) ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾، الكافرين الكاذبين، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾، أي: مشاة. وقيل: عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش. والوِردُ جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الماء إلا بعد العطش.

(٨٧) ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، يعني: لا إله إلا الله. وقيل: معناه لا يشفع الشافعون إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهداً، يعني المؤمنين، كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقيل: لا يشفع إلا من شهد أن لا إلـه إلا الله أي لا يشفع إلا المؤمن.

(٨٨) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، يعني اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله، وقرأ حمزة والكسائي «وُلْداً» بضم الواو وسكون اللام ههنا وفي الزخرف [٨١] وسورة نوح [٢٧]، ووافق ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح، [والباقون بفتح الواو اللام]، وهما لغتان مثل العَرَبُ والعُرْب والعَجَم والعُجْم.

(٨٩) ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾، قال ابن عباس منكراً. وقال قتادة ومجاهد: عظيماً. وقال مقاتل: لقد قلتم قولاً عظيماً. والإدّ في كلام العرب أعظم الدواهي.

(٩٠) ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾، قرأ نافع والكسائي «يكاد» بالياء ههنا وفي ﴿حم ۝ عسق﴾ [الشورى: ١ ـ ٢] لتقدم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السموات، ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾، هاهنا وفي «حم عسق» بالنون من الانفطار قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وافق ابن عامر وحمزة ههنا لقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] و﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ﴾ [المزمل: ١٨]، وقرأ الباقون بالتاء من التفطر ومعناهما واحد، يقال: انفطر الشيء وتفطر أي تشقق. ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، أي: تنكسر كسراً. وقيل: تنشق الأرض أي تنخسف بهم، والانفطار في السماء أن تسقط عليهم ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تنطبق عليهم.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْا﴾، أي من أجل أن جعلوا ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾، قال ابن عباس وكعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولداً، ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال:

(٩٢) ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به.

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ﴾، أي إلا آتيه يوم القيامة، ﴿عَبْدًا﴾ ذليلاً خاضعاً يعني [أن] الخلق كلهم عبيده.

(٩٤) ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي

عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، فلا يخفى عليه شيء.

﴿٩٥﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [أي] وحيداً ليس معه من الدنيا شيء.

﴿٩٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: محبة. قال مجاهد: يحبهم الله ويحببهم إلى عباده المؤمنين.

أنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداوودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله عزّ وجلّ قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله العبد» قال مالك لا أحسبه إلاّ قال في البغض مثل ذلك.

قال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عزّ وجلّ إلاّ أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم.

﴿٩٧﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، أي سهلنا القرآن بلسانك يا محمد، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يعني المؤمنين، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ شداداً في الخصومة، جمع الألد. وقال الحسن: صماً عن الحق. قال مجاهد: «الألد» الظالم الذي لا يستقيم. قال أبو عبيدة: «الألد» الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل.

﴿٩٨﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ﴾، هل ترى، وقيل: هل تجد، ﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾، أي صوتاً، والركز الصوت الخفي، قال الحسن: أي بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر.

❁ ❁ ❁

الجزء السادس عشر — سورة طه

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طه — ترتيبها ٢٠ — آياتها ١٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٣١٢

سورة طه

مكية وهي مائة وأربعة، وقيل: خمس وثلاثون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا ابن أبي أويس، حدثني أبي، عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيتُ طه والطواسين من ألواح موسى [عليه السلام]، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها، والبقرة من كنز تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة».

﴿١﴾ ﴿طه﴾، قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء، ويكسرهما حمزة والكسائي وأبو بكر، والباقون بفتحهما، قيل: هو قسم. وقيل: اسم من أسماء الله تعالى. وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك: معناه يا رجل. وقال قتادة: هو يا رجل بالسريانية. وقال الكلبي: هو يا إنسان بلغة عك. وقال مقاتل بن حيان: معناه طأ الأرض بقدميك يريد في التهجد. وقال محمد بن كعب القرظي: هو قسم أقسم الله عزّ وجلّ بطَوْله وهدايته. قال سعيد بن جبير: الطاء افتتاح اسمه الطاهر، والهاء افتتاح اسمه هادٍ.

قال الكلبي: لما نزل على رسول الله ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه، وكان يصلي الليل كله، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يخفف عن نفسه فقال:

﴿٢﴾ ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

وقيل: لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة فقالوا ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك، فنزلت: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي لتتعنى وتتعب، وأصل الشقاء في اللغة العناء.

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى. وقيل: تقديره ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى.

﴿٤﴾ ﴿تَنزِيلًا﴾، بدل من قوله تذكرة، ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾، يعني العالية الرفيعة، وهي جمع العليا كقولهم كبرى وكبر، وصغرى وصغر.

﴿٥﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

﴿٦﴾ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، يعني الهواء، ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، والثرى هو التراب الندي [و] قال الضحاك: يعني ما وارى الثرى من شيء.

وقال ابن عباس: إن الأرضين على ظهر النون، والنون على بحر، ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهي الصخرة التي ذكر الله في قصة لقمان فتكن في صخرة، والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما تحت الثرى لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله عزّ وجلّ البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور، فإذا وقعت في جوفه يبست.

﴿٧﴾ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾، أي تعلن به، ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قال الحسن: «السر» ما أسر الرجل إلى غيره، وأخفى من ذلك ما أسر في نفسه. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: السر ما تسر في نفسك «أخفي» من السر: ما يلقيه الله عز وجل في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك تعلم ما شربه اليوم ولا تعلم ما تسر به غداً، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر به غداً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «السر» ما أسر ابن آدم في نفسه، وأخفي ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعمله. وقال مجاهد: «السر» العمل الذي تسرون من الناس، وأخفى الوسوسة. وقيل: السر هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه. وقال زيد بن أسلم: يعلم السر وأخفى أي يعلم أسرار العباد، وأخفى سره عن عباده فلا يعلمه أحد، ثم وحدّ نفسه، فقال:

﴿٨﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

﴿٩﴾ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، أي وقد أتاك استفهام بمعنى التقرير.

﴿١٠﴾ ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾، وذلك أن موسى استأذن شعيباً في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخته، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام، وامرأته في سقمها، لا تدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق فقدح زنده فلم يور.

وقيل: إن موسى كان رجلاً غيوراً وكان يصحب الرفقة بالليل ويفارقهم بالنهار، لئلا ترى امرأته، فأخطأ مرة الطريق في ليلة مظلمة شاتية، لما أراد الله عزّ وجلّ من كرامته [وإظهار رسالته]، فجعل يقدح الزند فلا يورى، فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ [لزوجته] ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾، أقيموا، قرأ حمزة بضم الهاء ههنا وفي القصص [٢٩]، ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾، أي أبصرت، ﴿نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، [أي شعلة] من نار، والقبس قطعة من نار يأخذها في طرف عمود من معظم النار، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، أي أجد عند النار من يدلني على الطريق.

﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار. قال ابن مسعود: كانت الشجرة سمرة خضراء. وقال قتادة ومقاتل والكلبي: كانت من العوسج. وقال وهب: كانت من العليق. وقيل: كانت شجرة العناب، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه

الجزء السادس عشر — سورة طه

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

٣١٣

موسى ناراً بل كان نوراً ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً. وقال أكثر المفسرين: إنه نور الرب عزّ وجلّ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما. وقال سعيد بن جبير: هي النار بعينها وهي إحدى حجب الله تعالى، يدل عليه ما:

روينا عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «حجابه النار لو كشفها الله لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصرهُ من خلقه».

وفي القصة أن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنَا نَأتْ منه النار، وإذا نأى دنتْ، فوقف متحيراً فسمع تسبيح الملائكة، وألقيت عليه السكينة، ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ﴾، قرأ بو جعفر وابن كثير وأبو عمرو، و«أني» بفتح الألف على معنى نودي بأني، وقرأ الآخرون بكسر الألف أي نودي، فقيل: إني، أنا ربُك، قال وهب: نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى، فأجاب سريعاً لا يدري من دعاه، فقال إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك، وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله فأيقن به، قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، وكان السبب فيه:

ما رُوي عن ابن مسعود مرفوعاً في قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، قال: «كانتا من جلد حمار ميت». ويروى «غير مدبوغ». وقال عكرمة ومجاهد: أمر بخلع النعلين ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدسة، فتناله بركتها لأنها قدست مرتين، فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي المطهر، ﴿طُوًى﴾، وطوى اسم الوادي، قرأ أهل الكوفة والشام: «طوى» بالتنوين ههنا وفي سورة النازعات [١٦]، وقرأ الآخرون بلا تنوين لأنه معدول به عن طاو فلما كان معدولاً عن وجهه كان مصروفاً عن إعرابه، مثل عُمَر وزُفَر، وقال الضحاك: «طوى» واد مستدير عميق مثل الطوى في استدارته.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، اصطفيتك برسالاتي، قرأ حمزة «وأنّا» مشددة النون، اخترناك على التعظيم. ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، إليك.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾، ولا تعبد غيري، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾، قال مجاهد: أقم الصلاة لتذكرني فيها، وقال مجاهد: إذا تركت صلاة ثم ذكرتها، فأقمها.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني، أنا أبو بكر محمد بن عبدالله الحفيد، أنا الحسين بن الفضل البَجَلي، أنا عفان، أنا همام، أنا قتادة عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك»، ثم قال: سمعته يقول بعد ذلك: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، قيل: معناه إن الساعة آتية أخفيها، ﴿أَكَادُ﴾ صلة، وأكثر المفسرين قالوا: معناه أكاد أخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أُبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود: «أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق»، وفي بعض القراءات «فكيف أظهرها لكم» وذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون: كتمت سرك من نفسي أي أخفيته غاية الإخفاء، والله تعالى لا يخفى عليه شيء، وقال [الأخفش] أكاد: أي أريد ومعنى

الآية: إن الساعة آتية أريد أخفيها، والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف، لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت، وقرأ الحسن [أخفيها] بفتح الألف أي أظهرها، يقال: خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته، قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أي بما تعمل من خير وشر.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾، فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، مراده خالف أمر الله ﴿فَتَرْدَىٰ﴾، أي فتهلك.

(١٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيهه وتوفيقه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة، وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه.

(١٨) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، قيل: وكان لها شعبتان وفي أسفلها سنان، ولها محجن، قال مقاتل: اسمها نبعة، ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾، أعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم، وقرأ عكرمة «وأهس» بالسين غير المعجمة، أي أزجر بها الغنم، والهس زجر الغنم، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، حاجات ومنافع أخرى، جمع مأربة بفتح الراء [وضمها]، ولم يقل أُخر لرؤوس الآي، وأراد بالمآرب ما يستعمل فيه العصا في السفر، فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السباع، ويستظل بها إذا قعد وغير ذلك.

وروي عن ابن عباس: أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تماشيه وتحادثه وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه، ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصنت غصناً كالشجرة وأورقت وأثمرت، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقي، وكانت تضيء بالليل بمنزلة السراج، وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه.

(١٩) ﴿قَالَ﴾، الله تعالى، ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾، انبذها، قال وهب: ظن موسى أنه يقول ارفضها.

(٢٠) ﴿فَأَلْقَاهَا﴾، على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة، ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾، صفراء من أعظم ما يكون من الحيات، ﴿تَسْعَىٰ﴾، تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [القصص: ٣١] وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم، وقال في موضع: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وهي أكبر ما يكون من الحيات، فأما الحية فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى، وقيل: الجان عبارة عن ابتداء حالها، فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعباناً، والثعبان عبارة عن انتهاء حالها، وقيل: إنها كانت في عظم الثعبان وخفة الجان. قال محمد بن إسحاق: نظر موسى فإذا العصا حيّة من أعظم ما يكون من الحيات صارت شعبتاها شدقين لها، والمحجن عنقاً لها وعرفاً تهتز كالنيازك، وعيناها تتقدان كالنّار تمرّ بالصخرة العظيمة مثل الحلقة من الإبل، فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها، ويسمع لأسنانها صريف عظيم، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبراً وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نُودي أنْ يا موسى أقبل وارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف.

(٢١) ﴿قَالَ خُذْهَا﴾، بيمينك، ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾، هيئتها الأولى أي نردها عصاً كما كانت، وكان على موسى مدرعة من صوف قد خللها بعيدان فلما قال الله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ لَفّ طرف المدرعة على يده، فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشفها، وذكر بعضهم: أنّه لمّا لفّ كم المدرعة على يده قال له ملك: أرأيت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت،

فكشف عن يده ثم وضعها [في فم الحية] فإذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ. قال المفسرون: أراد الله عزّ وجلّ أن يُري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون. وقوله: ﴿سِيرَتَهَا﴾ نصب بحذف «إلى»، يريد إلى سيرتها الأولى.

﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، يعني إبطك، قال مجاهد: تحت عضدك، وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾، نيرة مشرقة، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، من غير عيب والسوء ههنا بمعنى البرص. قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر، ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾، يعني دلالة أخرى على صدقك سوى العصا.

﴿٢٣﴾ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، ولم يقل الكبر لرؤوس الآي. وقيل: فيه إضمار معناه لنريك من آياتنا [الآية] الكبرى، دليله قول ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته.

﴿٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، يعني جاوز الحدّ في العصيان والتمرد، فادعه إلى عبادتي.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، وسعه للحق، قال ابن عباس: يريد حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفاً شديداً لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدراً بما كُلّف من مقاومة فرعون وخده، فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أنّ أحداً لا يقدر على مضرّته إلا بإذن الله، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون مع شدة شوكته وكثرة جنوده.

﴿٢٦﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، يعني سهلْ عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾، وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره، فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: إن هذا عدوي وأراد أن يقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل ولا يميّز. وفي رواية أن أمّ موسى لما فطمته ردته، فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته آسية يربيانه، واتخذاه ولداً، فبينما هو يلعب يوماً بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون، فغضب فرعون وتطيّر بضربه حتى همّ بقتله، فقالت [له] آسية: أيها الملك إنه صغير لا يعقل فجربه إن شئت، فجاءت بطشتين في أحدهما الجمر وفي الآخر الجواهر، فوضعتهما بين يدي موسى فأراد [موسى] أن يأخذ الجواهر، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها في فيه فأحرقت لسانه وصارت عليه عقدة.

﴿٢٨﴾ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾، يقول احلل العقدة كي يفقهوا كلامي.

﴿٢٩﴾ ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾، معيناً وظهيراً، ﴿مِّنْ أَهْلِى﴾ والوزير من يوازرك ويعينك ويتحمل عنك بعض ثقل عملك، ثم بيّن من هو فقال:

﴿٣٠﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾، وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين، وكان أفصح منه لساناً وأجملَ وأوسم، أبيض اللون، وكان موسى آدم أقنى أجعد.

﴿٣١﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾، قوِّ به ظهري.

﴿٣٢﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾، يعني في النبوة وتبليغ الرسالة، وقرأ ابن عامر «اشدد» بفتح الألف «وأُشركه» بضمها على الجواب، حكاية عن موسى، يعني أفعل ذلك، وقرأ الآخرون على الدعاء، والمسألة عطفاً على ما تقدم من قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۞ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾، قال الكلبي: نصلي لك كثيراً.

﴿٣٤﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نّعمك.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾، خبيراً عليماً.

﴿٣٦﴾ ﴿قَالَ﴾، الله تعالى ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾، أعطيتَ، ﴿سُؤْلَكَ﴾، جميع ما سألته، ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾، أنعمنا عليك، ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾، يعني قبل هذه المرة وهي:

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

﴿٣٨﴾ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ﴾، وحي إلهام، ﴿مَا يُوحَىٰ﴾، ما يلهم. ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه فقال:

﴿٣٩﴾ ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾، يعني ألهمناها أن اجعليه في التابوت، ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، يعني نهر النيل، ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾، يعني شاطىء النهر، لفظه أمرٌ ومعناه خبر، مجازه حتى يلقيه اليم بالساحل، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾، يعني فرعون، فاتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وخصاصه يعني شقوقه ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ التابوت يجيء به الماء فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك [لبه في محبته]، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، قال ابن عباس: أحبه وحببه إلى خلقه. قال عكرمة: ما رآه أحد إلا أحبه. قال قتادة: ملاحة كانت في عيني موسى، ما رآه أحد إلاّ عشقه. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، أي لتُربى بمرآي ومنظر مني، قرأ أبو جعفر «ولتصنع» بالجزم.

﴿٤٠﴾ ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾، واسمها مريم متعرفة خبره، ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾، أي على امرأة ترضعه وتضمه إليها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فلما قالت لهم أخته ذلك قالوا: نعم، فجاءت بالأم [فضمته وألقمته ثديها] فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، بلقائك، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، أي ليذهب عنها الحزن.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قتل قبطياً كافراً. قال كعب الأحبار: كان إذْ ذاك ابن اثنتي عشر سنة، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾، أي من غم القتل وكربه، ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه اختبرناك اختباراً. وقال الضحاك ومقاتل: ابتليناك ابتلاءً. وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصاً.

وعن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير: أنّ الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلّصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم القاوه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذ بلحية فرعون حتى همّ بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي، ثم خروجه إلى مدين خائفاً. فكان ابن عباس يقص القصة على سعيد بن جبير، فعلى هذا معنى ﴿فتناك﴾ خلصناك من تلك المحن، كما يفتن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث فيه، والفتون مصدر، ﴿فَلَبِثْتَ﴾، فمكثت أي فخرجت من أرض مصر إلى مدين فلبثت، ﴿سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، يعني ترعى الأغنام [لشعيب] عشر سنين، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر، هرب إليها موسى.

وقال وهب: لبث عند شعيب عليه السلام ثمانياً وعشرين سنة، عشر سنين منها مهر [ابنته «صفيرا»] شعيب، وثمان عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾، قال مقاتل: على موعد ولم يكن هذا الموعد مع موسى وإنما كان موعداً في تقدير الله، قال محمد بن كعب: جئت على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء إليّ فيه. وقال عبدالرحمن بن كيسان: على رأس أربعين سنة، وهو القدر الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، وهذا معنى قول أكثر المفسرين، أي على

الموعد الذي وعده الله وقدره أنه يوحى إليه بالرسالة، وهو أربعون سنة.

(٤١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، أي اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي، يعني لتتصرف على إرادتي ومحبتي، وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته، قال الزجاج: اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي، كأني الذي أقمت بك عليهم الحجة وخاطبتهم.

(٤٢) ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، بدلالاتي، وقال ابن عباس: يعني الآيات التسع التي بعث بها موسى ﴿وَلَا تَنِيَا﴾، ولا تضعفا، وقال السدي: لا تفترا. وقال محمد بن كعب: لا تقصرا، ﴿فِى ذِكْرِى﴾.

(٤٣) ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، قرأ أبو عمرو وأهل الحجاز: «لنفسيَ اذهب»، «وذكريَ اذهبا»، و«إن قوميَ اتخذوا»، و«من بعديَ اسمه» بفتح الياء فيهن وافقهم أبو بكر: «من بعدي اسمه»، وقرأ الباقون بإسكانها.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، يقول: دارياه وارفقا به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تعنفا في قولكما [له]، وقال السدي وعكرمة: كنياه فقولا يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد، وقال مقاتل: يعني بالقول اللين: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]، وقيل: أمرهما باللطافة في القول لما له من حق التربية. وقال السدي: القول اللين أن موسى أتاه ووعده على قبول الإيمان شباباً لا يهرم معه، وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وإذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان، وكان غائباً فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى، وقال أردت أن أقبل منه، فقال له هامان: كنت أرى أن لك عقلاً ورأياً، أنت رب، تريد أن تكون مربوباً؟ وأنت تُعبد تريد أن تعْبُدَ، فقلبه عن رأيه، وكان هارون يومئذٍ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هارون وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة، وأخبره بما أوحى إليه، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي يتعظ ويخاف فيسلم، فإن قيل: كيف قال ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ وقد سبق في علمه أنه لا يتذكر ولا يسلم؟ قيل: معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع، وقضاء الله وراء أمركما. وقال الحسين بن الفضل: هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكر ويخشى خاشٍ إذا رأى بري وألطافي بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية. وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق: لعلّ من الله واجب، ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية، وذلك حين ألجمه الغرق، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين، وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ هذه الآية: فقالا له قولاً ليناً، فبكى يحيى، وقال: إلهي هذا رفقك بمن يقول، أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟!

(٤٥) ﴿قَالَا﴾، يعني موسى وهارون، ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعجل علينا بالقتل والعقوبة، يقال: فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه، وفرط منه أمرٌ أي بدرَ وسبقَ، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، أي يجاوز الحد في الإساءة إلينا.

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما.

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، أرسلنا إليك، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي خلّ عنهم وأطلقهم عن أعمالك، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة، ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، قال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده، لها شعاع كشعاع الشمس، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ليس المراد منه التحية؟ إنما معناه يسلم من عذاب الله من أسلم.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي إنما يعذب اللّهُ من كذب بما جئنا به وأعرض عنه.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، من إلهكما الذي أرسلكما.

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه ثم

الجزء السادس عشر — سورة طه

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

٣١٥

هداه لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان، ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح. وقال الضحاك: أعطى كل شيء خلقه يعني اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع. وقال سعيد بن جبير: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يعني زوج، للإنسان المرأة، وللبعير الناقة وللفرس الرمكة، وللحمار الأتان، ثم هدى أي ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى.

(٥١) ﴿قَالَ﴾ فرعون، ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾، ومعنى البال الحال، أي ما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونني إليها، فإنها كانت تعبدالأوثان وتنكر البعث.

(٥٢) ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها. وقيل: إنما رد موسى علم ذلك إلى الله لأنه لم يعلم ذلك، فإن التوراة أنزلت إليه بعد هلاك فرعون وقومه. ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾، يعني في اللوح المحفوظ، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾، أي لا يخطىء. وقيل: لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء، ﴿وَلَا يَنسَى﴾، ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم وقيل: لا ينسى أي لا يترك الانتقام، فينتقم من الكافر ويجازي المؤمن.

(٥٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿مَهْدًا﴾، ههنا وفي الزخرف [١٠] فيكون مصدراً أي فرشاً، وقرأ الآخرون: «مهاداً»، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦] أي فراشاً وهو اسم لما يفرش كالبساط اسم لما يبسط، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء، والمعنى ادخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها.

قال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقاً تسلكونها، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، يعني المطر. تمّ الإخبار عن موسى ثم أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، بذلك الماء ﴿أَزْوَاجًا﴾، أصنافاً، ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، مختلف الألوان والطعوم والمنافع من أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس ومنها للدواب.

(٥٤) ﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾ أي وارتعوا، ﴿أَنْعَامَكُمْ﴾، تقول العرب: رعيت الغنم فرعت أي أسيموا أنعامكم ترعى، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت، ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، لذوي العقول، واحدتها نهية سميت نهية لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي. قال الضحاك: لأولي النهى الذين ينتهون عمّا حرّم الله عليهم، قال قتادة: لذوي الورع.

(٥٥) ﴿مِنْهَا﴾أي من الأرض، ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، يعني أباكم آدم. وقال عطاء الخراساني: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن [فيه] فيذره على النطفة فيخلق الله من التراب ومن النطفة فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، أي عند الموت والدفن، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، يوم البعث.

(٥٦) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾، يعني فرعون، ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾، يعني الآيات التسع التي أعطاها الله موسى، ﴿فَكَذَّبَ﴾، بها وزعم أنها سحر، ﴿وَأَبَىٰ﴾، أن يسلم.

(٥٧) ﴿قَالَ﴾، يعني فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾، يعني أرض مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، أي أتريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها.

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾، أي فاضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاتاً، ﴿لَّا نُخْلِفُهُ﴾، قرأ أبو جعفر «لا نخلفه» جزماً، لا

نجاوزه، ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب: «سُوى» بضم السين، وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان مثل عُدى وعِدى وطُوى وطِوى، قال مقاتل وقتادة: مكاناً عدلاً بيننا وبينك. وعن ابن عباس: ونصفا، ومعناه تستوي [فيه] مسافة الفريقين إليه. قال أبو عبيدة والقتيبي: وسطاً بين الفريقين. قال مجاهد: منصفا. وقال الكلبي: يعني سوى هذا المكان.

(٥٩) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان يوم عيد لهم، يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة. وقيل: هو يوم النيروز. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: يوم عاشوراء، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾، أي وقت الضحوة نهاراً وجهاراً ليكون [أبعد] من الريبة.

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾، مكره وحيلته وسحرته، ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، إلى الميعاد.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾، يعني للسحرة الذين جمعهم فرعون، وكانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد حبل وعصا. وقيل: كانوا أربعمائة. وقال كعب [الأحبار]: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: أكثر من ذلك، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «فيُسحتكم» بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء وهما لغتان. قال مقاتل والكلبي: فيهلككم. وقال قتادة: فيستأصلكم، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي تناظروا وتشاوروا، يعني السحرة في أمر موسى سراً من فرعون. قال الكلبي: قال سراً إن غلبنا موسى اتبعناه. وقال محمد بن إسحاق: لما قال لهم موسى [ويلكم] لا تفتروا على الله كذباً، قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾، أي المناجاة، يكون مصدراً أو اسماً.

(٦٣) ثم: ﴿قَالُوٓا۟﴾، وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون، ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، يعني موسى وهارون، وقرأ ابن كثير وحفص: «إنْ» بتخفيف النون، «هذان» أي ما هذان إلا ساحران، كقوله: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، أي ما نظنك إلا من الكاذبين، وشدد ابن كثير النون من «هذانّ»، وقرأ أبو عمرو «إنّ» بتشديد النون «هذين» بالياء على الأصل، وقرأ الآخرون: «إنّ» بتشديد النون، «هذان» بالألف، واختلفوا فيه، فروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين: أنه خطأ من الكاتب. وقال قوم: هو لغة الحارث بن كعب، وخثعم، وكنانة فإنهم يجعلون الاثنين في موضع الرفع والنصب والخفض بالألف، يقولون: أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان، فلا يتركون ألف التثنية في شيء، وكذلك يجعلون كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألف، [كما في التثنية]، يقولون: كسرت يداه وركبت علاه، يعني يديه وعليه. وقال شاعرهم:

تزود مني بين أذناه ضربة
دعته إلى هابي التراب عقيم

يريد بين أذنيه. وقال آخر:

إن أباها وأبا أباها
قد بلغا في المجد غايتاها

قيل: تقدير الآية أن هذان، فحذف الهاء، وذهب جماعة إلى أن حرف «أن» ههنا بمعنى نعم، أي نعم هذان. روي أن أعرابياً سأل ابن الزبير شيئاً فحرمه، فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إن وصاحبها، أي: نعم. وقال الشاعر:

بكرت عليّ عواذلي
يلحينني فألومهنّه

ويقلن شيب قد علا
ك وقد كبرت فقلت إنّه

أي: نعم. ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، مصر، ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، قال ابن عباس: يعني بسراة قومكم وأشرافكم، يقال: هؤلاء طريقة قومهم أي أشرافهم، ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ تأنيث الأمثل وهو الأفضل، حدث الشعبي عن علي، قال: يصرفان وجوه الناس إليهما. وقال قتادة: طريقتهم المثلى، كان بنو إسرائيل يومئذٍ أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يريد أن يذهبا بهم لأنفسهم. وقيل: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ بسنتكم ودينكم الذي أنتم عليه، و﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ نعت الطريقة، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى، يعني على الهدى المستقيم.

(٦٤) ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو فأجمعوا بوصل الألف وفتح

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الميم، من الجمع، أي لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلاّ جئتم به، بدليل قوله: فجمع كيده وقرأ الآخرون بقطع الألف وكسر الميم فقد قيل: معناه الجمع أيضاً، تقول العرب: أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد، والصحيح أن معناه العزم والإحكام، أي اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له، ولا تختلفوا فيختل أمركم، ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي جميعاً، قاله مقاتل والكلبي، وقال قوم أي مصطفين مجتمعين ليكون أشد لهيبتكم، وقال أبو عبيدة: الصف المجمع، ويسمى المصلى صفاً، معناه ثم ائتوا المكان الموعود صفاً، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾، أي فاز من غلب.

﴿٦٥﴾ ﴿قَالُوا﴾، يعني السحرة، ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾، عصاك، ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾، عصاه.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾، أنتم أولاً، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾، وفيه إضمار، أي فألقوا فإذا حبالهم، ﴿وَعِصِيُّهُمْ﴾، جمع العصا، ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب تخيل بالتاء رد إلى الحبال والعصي، وقرأ الآخرون بالياء ردوه إلى الكيد والسحر، ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾، حتى تظن أنها تسعى أي تمشي وذلك أنهم كانوا لطخوا حبالهم وعصيهم بالزئبق، فلما أصابه حرّ الشمس انهمست واهتزت فظن موسى أنها تقصده وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصيّ أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأنّ الأرض امتلأت حيات، وكانت قد أخذت ميلاً من كل جانب ورأوا أنها تسعى وهو قوله يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

﴿٦٧﴾ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾، أي وجد، وقيل: أضمر في نفسه خوفاً، واختلفوا في خوفه، قيل: طبع البشرية، وذلك أنه ظن أنها تقصده، وقال مقاتل: خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعوه.

﴿٦٨﴾ ﴿قُلْنَا﴾، لموسى، ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، أي الغالب، يعني لك الغلبة والظفر.

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، يعني العصا، ﴿تَلْقَفْ﴾، تلتقم، وتبتلع، ﴿مَا صَنَعُوا﴾، قرأ ابن عامر تلقف برفع الفاء ههنا، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الأمر، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾، أي الذي صنعوا، ﴿كَيْدُ سِحْرٍ﴾، أي حيلة سحر، هكذا قرأ حمزة والكسائي: بكسر السين بلا ألف، وقرأ الآخرون «ساحر» لأن إضافة الكيد إلى الفاعل أولى من إضافته إلى الفعل، وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، من الأرض، قال ابن عباس: لا يسعد حيث كان. وقيل: معناه حيث احتال.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۝ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾، لرئيسكم ومعلمكم، ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، أي على جذوع النخل، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾، يعني على إيمانكم به، أو رب موسى على ترك الإيمان به، ﴿وَأَبْقَى﴾، أي أدوم.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالُوا﴾، يعني السحرة، ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾، لن نختارك، ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، يعني الدلالات، قال مقاتل: يعني اليد البيضاء والعصا. وقيل: كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحراً فأين حبالنا وعصينا. وقيل: من البينات يعني من اليقين والعلم. حكي عن القاسم بن أبي بزة أنه قال: إنهم لما ألقوا سجداً ما رفعوا رؤوسهم [من السجود] حتى رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلها، ورأوا منازلهم في الجنة، فعند ذلك قالوا: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ

عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾، أي لن نؤثرك على الله الذي فطرنا، وقيل: هو قسم، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، فاصنع ما أنت صانع، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، أي: أمرك وسلطانك في الدنيا وسيزول عن قريب.

(٧٣) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، فإن قيل: كيف قالوا هذا وقد جاءوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة؟ قيل: روي عن الحسن أنه قال: كان فرعون يُكره قوماً على تعلم السحر لكيلا يذهب أصله وقد كان أكرههم في الابتداء. وقال مقاتل: كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل كان عدو الله فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلم السحر، فذلك قولهم ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، وقال عبدالعزيز بن أبان: قالت السحرة لفرعون: أرنا موسى إذا نام، فأراهم موسى نائماً وعصاه تحرسه، فقالوا لفرعون إن هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى عليهم إلا أن يتعلموا [وأكرههم على السحر]، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، قال محمد بن إسحاق: خير منك ثواباً وأبقى عذاباً، وقال محمد بن كعب خير منك ثواباً إن أُطيعَ وأبقى منك عذاباً إن عُصي، وهذا جواب لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

(٧٤) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾، قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى، وقيل: من تمام قول السحرة مجرماً أي مشركاً يعني من مات على الشرك، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، فيستريح، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، حياة ينتفع بها.

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾، قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر، وقالُون ويعقوب، وقرأ الآخرون بالإشباع، ﴿مُؤْمِنًا﴾، أي: من مات على الإيمان، ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾، أي الرفيعة، والعُلى جمع العليا والعليا تأنيث الأعلى.

(٧٦) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، يعني تطهر من الذنوب. وقال الكلبي: أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو القاسم عبدالرحمن بن عبيد الله السمسار، أنا أبو أحمد حمزة بن محمد بن العباس الدهقان، أنا أحمد بن عبدالجبار العطاردي، أنا أبو معاوية عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق من آفاق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما».

الجزء السادس عشر — سورة طه

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢) ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧)

٣١٧

(٧٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، يعني: سر بهم ليلاً من أرض مصر، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ﴾، يعني اجعل لهم طريقاً في البحر بالضرب بالعصا، ﴿يَبَسًا﴾، ليس فيه ماء ولا طين، وذلك أن الله أيبس لهم الطريق في البحر، ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾، قرأ حمزة «لا تخفْ» بالجزم على النهي، والباقون بالألف والرفع على النفي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾، قيل: لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر من أمامك.

(٧٨) ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾، فلحقهم، ﴿فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾، وقيل: معناه أمر فرعون جنوده أن يتبعوا موسى وقومه، والباء فيه زائدة وكان هو فيهم، ﴿فَغَشِيَهُم﴾، أصابهم، ﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، وهو الغرق. وقيل:

غشيهم علاهم وسترهم بعض ماء اليم لا كله. وقيل: غشيهم من اليم ما يغشى قوم موسى فغرقوا هم ونجا موسى وقومه.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾، يعني ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

(٨٠) قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، فرعون، ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

(٨١) ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي «أنجيتكم» و«واعدتكم» و«رزقتكم»، بالتاء على التوحيد، وقرأ الآخرون بالنون والألف على التعظيم، ولم يختلفوا في ونزلنا لأنه مكتوب بالألف، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ فيه، قال ابن عباس: لا تظلموا، وقال الكلبي: لا تكفروا النعمة فتكونوا ظالمين طاغين. وقيل: لا تنفقوا في معصيتي. وقيل: لا تدخروا، فادخروا فتدود، ﴿فَيَحِلَّ﴾، قرأ الأعمش والكسائي «فيحل» بضم الحاء، «ومن يحلل» بضم اللام، يعني ينزل، وقرأ الآخرون بكسرها يعني يجب، ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾، هلك وتردى في النار.

(٨٢) ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، قال ابن عباس تاب من الشرك، ﴿وَءَامَنَ﴾، وحدّ الله وصدقه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أدى الفرائض، ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله تعالى. وقال قتادة وسفيان الثوري: يعني لزم الإسلام حتى مات عليه، وقال الشعبي ومقاتل والكلبي: علم أن لذلك ثواباً. وقال زيد بن أسلم: تعلم العلم ليهتدي به كيف يعمل. وقال الضحاك: استقام [له]. وقال سعيد بن جبير: أقام على السنة والجماعة.

(٨٣) ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾، أي ما حملك على العجلة، ﴿عَن قَوْمِكَ﴾، وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً حتى يذهبوا معه إلى الطور، ليأخذوا التوراة، فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه عزّ وجلّ، وخلّف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾، مجيباً لربه تعالى: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾، يعني هم بالقرب مني يأتون من بعدي، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، لتزداد رضاً.

(٨٥) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾، أي ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي من بعد انطلاقك إلى الجبل، ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾، أي دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل، أضاف الضلال إلى السامري لأنهم ضلوا بسببه.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، حزيناً. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾، صدقاً أنه يعطيكم التوراة، ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾، مدة مفارقتي إياكم، ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يوجب عليكم الغضب من ربكم، ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

(٨٧) ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم: «بملكنا» بفتح الميم، وقرأ حمزة والكسائي بضمها، وقرأ الآخرون بكسرها أي ونحن نملك أمرنا. وقيل: باختيارنا، ومن قرأ بالضم فمعناه، بقدرتنا وسلطاننا، وذلك أن المرء إذا وقع في البلية والفتنة لم يملك نفسه، ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «حَمَلْنا» بفتح الحاء، وتخفيف الميم، وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم أي جعلونا نحملها وكلفنا حملها، ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾، من حُلي قوم فرعون، سمّاها أوزاراً لأنهم أخذوها على وجه العاريّة فلم يردوها، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حلياً من القبط، وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر. وقيل: إن الله تعالى لما أغرق فرعون [وقومه] نبذ البحر حليهم فأخذوها، فكانت غنيمة، ولم تكن الغنيمة حلالاً لهم في ذلك الزمان، فسماها أوزاراً لذلك، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾، قيل: إن السامري قال لهم احفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى، قال السدي: قال لهم هارون إن تلك غنيمة لا تحل، فاحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى، فيرى فيها رأيه، ففعلوا. قوله: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي

طرحناها في الحفرة، ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾، ما معه من الحلي فيها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أوقد هارون ناراً وقال: اقذفوا ما معكم فيها، [فألقوه فيها] ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل. قال قتادة: كان [قد] صر قبضة من ذلك التراب في عمامته.

﴿٨٨﴾ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾، أي تركه موسى ههنا وذهب يطلبه. وقيل: أخطأ الطريق وضل.

﴿٨٩﴾ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم ولا يجيبهم إذا دعوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، وقيل: إن هارون مرّ على السامري وهو يصوغ العجل فقال له: ما هذا؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي، فقال هارون: اللهم اعطه ما سألك على ما في نفسه، فألقى [السامري] التراب في فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان ذلك بدعوة هارون، والحقيقة أن ذلك كان فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل.

﴿٩٠﴾ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل رجوع موسى، ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ابتليتم بالعجل، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى﴾، على ديني في عبادة الله، ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾، في ترك عبادة العجل.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ﴾، أي لن نزال، ﴿عَلَيْهِ﴾، على عبادته، ﴿عَٰكِفِينَ﴾، مقيمين، ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً ومن الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله.

﴿٩٢﴾ و﴿قَالَ﴾، له، ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾، أشركوا.

﴿٩٣﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾، أي: أن تتبعني و﴿لَا﴾ صلة أي [أن] تتبع أمري ووصيتي، يعني: هلا قاتلتهم وقدعلمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم. وقيل: أن لا تتبعني أي ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم، فتكون مفارقتك إياهم تقريعاً وزجراً لهم عمّا أتوه، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾، أي خالفت أمري.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

٣١٨

﴿٩٤﴾ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾، أي بشعر رأسي وكان قد أخذ ذوائبه، ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾، لو أنكرتُ عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً، ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزاباً يتقاتلون، فتقول: أنت فرقت بين بني إسرائيل، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾، ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي، وأصلح أي ارفق بهم، ثم أقبل موسى على السامري.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ أي ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟ ﴿يَٰسَٰمِرِىُّ﴾.

﴿٩٦﴾ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾، رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا، قرأ حمزة والكسائي «ما لم تبصروا» بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء على الخبر، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي من تراب أثر فرس جبريل، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾، أي ألقيتها في فم العجل، وقال بعضهم: إنما خار لهذا [السبب] لأن التراب كان مأخوذاً من تحت حافر فرس جبريل، فإن قيل: كيف عرف ورأى جبريل من بين سائر الناس؟ قيل: لأن أمه لما ولدته في السنة التي كان فرعون يقتل فيها البنين

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

وضعته في كهف حذراً عليه من فرعون فبعث الله جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾، أي زينت، ﴿لِى نَفْسِى﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾، أي ما دمت حياً، ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، أي لا تخالط أحداً ولا يخالطك أحد وأمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه.

قال ابن عباس: لا مساس لك ولولدك، والمساس من المماسة معناه لا يمس بعضنا بعضاً، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحداً ولا يمسه أحد، فعاقبه الله بذلك، وكان إذا لقي أحداً يقول: «لا مساس»، أي لا تقربني ولا تمسني، وقيل: كان إذا مس أحداً أو مسه أحد حُمّا جميعاً حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإذا مسّ [أحد من غيرهم أحداً منهم] حما جميعاً في الوقت، ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾، يا سامري، ﴿مَوْعِدًا﴾، لعذابك، ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «لن تخلفه» بكسر اللام. أي لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة، وقرأ الآخرون بفتح اللام أي لن تكذبه ولن يخلفك الله، ومعناه أن الله تعالى يكافئك على فعلك فلا تفوته، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾، بزعمك، ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾، أي ظلت ودمت عليه مقيماً تعبده، والعرب تقول: ظلت افعل كذا بمعنى ظللت، ومستُ بمعنى مسستُ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار، وقرأ أبو جعفر بالتخفيف من الإحراق، ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾، لنذرينه، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، في البحر، ﴿نَسْفًا﴾.

روي أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم، لأنه كان قد صار لحماً ودماً ثم حرقه بالنار، ثم ذراه في اليم، قرأ ابن محيصن: «لنحرقنّه» بفتح النون وضم الراء لنبردنه بالمبرد، ومنه قيل للمِبْرد المحرق. وقال السدي: أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد ثم ذراه في اليم.

﴿٩٨﴾ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، وسع علمه كل شيء.

﴿٩٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، من الأمور، ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾، يعني القرآن.

﴿١٠٠﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه، ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، حملاً ثقيلاً من الإثم.

﴿١٠١﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾، مقيمين في عذاب الوزر، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾، أي بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفراً بالقرآن.

﴿١٠٢﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، قرأ أبو عمرو «ننفخ» بالنون وفتحها وضم الفاء لقوله: ﴿وَنَحْشُرُ﴾ وقرأ الآخرون بالياء وضمها وفتح الفاء علي غير تسمية الفاعل، ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، المشركين، ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، والزرقة هي الخضرة، في سواد العين، فيحشرون زرق العيون سود الوجوه. وقيل: زرقاً أي عمياً. وقيل: عطاشاً.

﴿١٠٣﴾ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، أي يتشاورون بينهم ويتكلمون خفية، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾، أي ما مكثتم في الدنيا، ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾، أي عشر ليال. وقيل: في القبور. وقيل: بين النفختين، وهو أربعون سنة، لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين استقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا.

﴿١٠٤﴾ قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي يتشاورون بينهم،

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، أوفاهم عقلاً وأعدلهم قولاً، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة. وقيل: نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم.

(١٠٥) قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ فقال: كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله هذه الآية. والنسف هو القلع يعني يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثوراً.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾، أي فيدع أماكن الجبال من الأرض، ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، يعني أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها، والقاع ما انبسط من الأرض والصفصف الأملس.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾، قال مجاهد: انخفاضاً وارتفاعاً. قال الحسن: والعوج ما انخفض من الأرض، والأمت ما نشز من الروابي، أي لا ترى وادياً ولا رابية. قال قتادة: لا ترى فيها صدعاً ولا أكمة.

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾، أي صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، وذلك أنه يضع الصور في فيه، ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن، ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، يعني لدعائه، وهو من المقلوب، يعني لا عوج لهم عن دعاء الداعي، لا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعاً، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، يعني سكتت وذلت وخضعت، ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، يعني صوت وطء الأقدام إلى المحشر، والهمس الصوت الخفي كصوت اخفاف الإبل في المشي. وقال مجاهد: هو تخافت الكلام وخفض الصوت.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تحريك الشفاه من غير نطق.

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، يعني لا تنفع الشفاعة أحداً من الناس، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، يعني إلا من أذن له الله أن يشفع، ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾، يعني ورضي قوله. قال ابن عباس: يعني قال لا إله إلا الله، فهذا يدل على أنه لا يُشفع لغير المؤمن.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي، أي يعلم الله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما خلفوا من أمر الدنيا. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من [أمر] الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأعمال، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، قيل: الكناية ترجع إلى ما أي هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم لا يعلمونه. وقيل: الكناية راجعة إلى الله لأن عباده لا يحيطون به علماً.

(١١١) ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، أي ذلت وخضعت، ومنه قيل للأسير: عان. وقال طلق بن حبيب: هو [ما قدم من] السجود على الجبهة للحي القيوم، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، قال ابن عباس: خسر من أشرك بالله، والظلم هو الشرك.

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ﴾، قرأ ابن كثير «فلا يخف» مجزوماً على النهي جواباً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾، وقرأ الآخرون ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ مرفوعاً على الخبر، ﴿ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، قال ابن عباس: لا يخاف أن يزاد [عليه في] سيئاته ولا أن ينقص من حسناته. قال الحسن: لا ينقص من ثواب حسناته ولا يحمل عليه ذنب مسيء. وقال الضحاك: لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا يبطل حسنة عملها، وأصل الهضم النقص والكسر، ومنه هضم الطعام.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي كما بينا في هذه السورة، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، يعني أنزلنا هذا الكتاب، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، يعني بلسان العرب، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾، أي صرّفنا القول فيه بذكر الوعيد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي يجتنبون الشرك، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، أي يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبروا ويتعظوا بذكر عتاب الله للأمم الخالية.

الجزء السادس عشر — سورة طه

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾

٣٢٠

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [أي] جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون، ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أراد النبي ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة، ومخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي لا تعجل بقراءته، ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾، أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ، نظيره قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦] وقرأ يعقوب: «نقضي» بالنون وفتحها وكسر الضاد، وفتح الياء «وحيه» بالنصب، وقال مجاهد وقتادة: معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى نبين لك معانيه، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، يعني بالقرآن ومعانيه. وقيل: علماً إلى ما علمت. وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم زدني إيماناً ويقيناً.

(١١٥) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ﴾، يعني أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣]، ﴿فَنَسِيَ﴾، فترك الأمر، والمعنى أنهم [أن] نقضوا العهد فإن آدم أيضاً عهدنا إليه فنسي، ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾، قال الحسن لم نجد له صبراً عمّا نُهي عنه، وقال عطية العوفي: حفظاً لما أُمر به. وقال ابن قتيبة: رأياً معزوماً حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له، والعزم في اللغة هو توطين النفس على الفعل، قال أبو أمامة الباهلي: لو وزن حلم آدم وحلم جميع ولده لرجح حلمه، وقد قال الله: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾، فإن قيل: أتقولون إن آدم كان ناسياً لأمر الله حين أكل من الشجرة؟ قيل: يجوز أن يكون نسي أمره، ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعاً عن الإنسان بل كان مؤاخذاً به، وإنما رفع عنا، وقيل: نسي عقوبة الله وظن أنه نهاه تنزيهاً.

(١١٦) قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾، أن يسجد.

(١١٧) ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾، حواء، ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾، يعني تتعب وتنصب، ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك. قال السدي: يعني الحرث والزرع والحصيد والطحن والخبيز. وعن سعيد بن جبير: قال: أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه، فذلك شقاؤه، ولم يقل: فتشقيا رجوعاً به إلى آدم لأن تعبه أكثر فإن الرجل هو الساعي على زوجته. وقيل: لأجل رؤوس الآي.

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾، أي في الجنة ﴿وَلَا تَعۡرَىٰ﴾.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالفتح نسقاً على قوله: ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ﴾، لا تعطش، ﴿فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾، يعني لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها. وقال عكرمة: لا تصيبك الشمس وأذاها، لأنه ليس في الجنة شمس، وأهلها في ظل ممدود.

(١٢٠) ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾، يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلداً، ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾، لا يبيد ولا يفنى.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا﴾، يعني آدم وحواء عليهما السلام، ﴿مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾، [بأكله من] الشجرة، ﴿فَغَوَىٰ﴾، يعني فعل ما لم يكن له فعله. وقيل: أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

بأكل ما نهي عن أكله، فخاب ولم ينل مراده. وقال ابن الأعرابي: أي فسد عليه عيشه وصار من العزِّ إلى الذل، ومن الراحة إلى التعب. قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص، لأنه إنما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه ويقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده.

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، أنا أبو معاذ الشاه [بن] عبدالرحمن المزني، [حدثنا] أبو بكر عبدالله بن محمد بن زياد النيسابوري ببغداد، أنا يونس بن عبدالأعلى الصدفي، أنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار عن طاوس، سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا [خيبتنا] وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، أفتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى».

ورواه عبدالرحمن الأعرج عن أبي هريرة وزاد: «قال آدم يا موسى بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى».

﴿١٢٢﴾ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، اختاره واصطفاه، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، بالعفو، ﴿وَهَدَىٰ﴾، هداه إلى التوبة حين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا.

﴿١٢٣﴾ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾، يعني الكتاب والرسول، ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾. وقال الشعبي عن ابن عباس: أجار الله تعالى تابعَ القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾، يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، ضيقاً، روي عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: هو عذاب القبر. قال أبو سعيد: يضغط حتى تختلف أضلاعه.

وفي بعض المسانيد مرفوعاً. «يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب حتى يبعث». وقال الحسن: هو الزقوم والضريع والغسلين في النار. قال عكرمة: هو الحرام. وقال الضحاك: هو الكسب الخبيث. وعن ابن عباس قال: الشقاء.

وروى عنه أنه قال: كل مال أعطي العبد قلّ أم كثر فلم يتقِ فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن أقواماً أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم يرون [أن] الله ليس بمخلف عليهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله عز وجل، قال سعيد بن جبير: يسلبه القناعة حتى لا يشبع، ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، قال ابن عباس: أعمى البصر. وقال مجاهد: أعمى عن الحجة.

﴿١٢٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، بالعين أو بصيراً بالحجة.

﴿١٢٦﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، أي كما ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾، فتركتها وأعرضت عنها، ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ

﴿تُنسَىٰ﴾، تترك في النار. قال قتادة: نسوا من الخير ولم يُنسَوْا من العذاب.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي وكما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك، ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾، أشرك، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾، مما يعذبهم به في الدنيا والقبر، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾، وأدوم.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، يبيّن لهم القرآن يعني كفار مكة، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾، ديارهم ومنازلهم [إذا سافروا، والخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين] من أصحاب الحِجْر وثمود وقريات قوم لوط، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، لذوي العقول.

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى، والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم، أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو [يوم] القيامة لكان لزاماً، أي لكان العذاب لازماً لهم [في الدنيا] كما لزم القرون الماضية الكافرة.

(١٣٠) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، نسختها آية القتال، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي صلِّ بأمر ربك. وقيل: صلِّ لله بالحمد له والثناء عليه، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾، يعني صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾، ساعاتها واحدها إنى، ﴿فَسَبِّحْ﴾، يعني صلاة المغرب والعشاء. قال ابن عباس: يريد أول الليل، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، يعني صلاة الظهر، وسمى وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال، وهو [طرف] النصف الأول انتهاءً وطرف النصف الآخر ابتداء، وقيل: المراد من آناء الليل صلاة العشاء ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب، لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار، وفي أول الطرف الآخر من النهار، فهو في طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس، وعند ذلك يصلي المغرب، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، أي ترضى ثوابه في المَعَاد، قرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم تُرضى بضم التاء أي تعطى ثوابه. وقيل: ترضى أي يرضاك الله تعالى، كما قال: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]، وقيل: معنى الآية لعلك ترضى بالشفاعة، كما قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الخطيب الحميدي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، أنا أبو عبدالله محمد بن يعقوب الشيباني إملاء، أنا إبراهيم بن عبدالله السعدي، أنا يزيد بن هارون، أنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبدالله، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

(١٣١) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾.

قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودي فقال لي: «قلْ له إن رسول الله يقول لك بعني كذا وكذا من الدقيق وأسلفني إلى هلال رجب» فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لا أبيعه ولا أسلفه إلاّ برهن، فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «والله لئن باعني وأسلفني لقضيته وإني لأمينٌ في السماء وأمين في الأرض، اذهبْ بدرعي الحديد إليه» فنزلت هذه الآية.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، لا تنظر، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾، أعطينا، ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أصنافاً، ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي زينتها وبهجتها، قرأ يعقوب زهرة بفتح الهاء وقرأ العامة بجزمها، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾، في المعاد يعني في الجنة، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، قال أبي بن كعب: من لم يعتز بعز الله تقطت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره فيما في أيدي الناس بطل حزنه، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قلّ علمه وحضر عذابه.

(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي

قومك. وقيل: من كان على دينك. كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]، ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، أي اصبر على الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾، لا نكلفك أن ترزق أحداً من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك وإنما نكلفك عملاً، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ﴾، الخاتمة الجميلة المحمودة، ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي لأهل التقوى. قال ابن عباس: يعني الذين صدّقوك واتبعوك واتقوني.

وفي بعض المسانيد أن النبي ﷺ: «كان إذا أصاب أهله ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية».

(١٣٣) قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾، يعني المشركين، ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي الآية المقترحة فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وحفص عن عاصم: «تأتهم» [بالتاء] لتأنيث البينة، وقرأ الآخرون بالياء لتقديم الفعل، ولأن البينة هي البيان فرد إلى المعنى، ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، أي بيان ما فيها، وهو القرآن أقوى دلالة وأوضح آية: وقيل: أولم يأتهم بيان ما في الصحف الأولى: التوراة، والإنجيل، وغيرهما من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، كيف عجّلنا لهم العذاب والهلاك، فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾، يعني من قبل إرسال الرسول وإنزال القرآن، ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾، هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، يدعونا، إلى لقاء يوم القيامة، ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، بالعذاب والذل: الهوان والخزي والافتضاح.

(١٣٥) ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾، منتظر دوائر الزمان، وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد حوادث الدهر، فإن مات تخلصنا، قال الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾، إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾، من الضلالة نحن أم أنتم؟

❁ ❁ ❁

الجزء السابع عشر | سورة الأنبياء

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

٣٢٢

سورة الأنبياء

مكيّة وهي مائة واثنتا عشرة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾، قيل: اللام بمعنى من، يعني اقترب من الناس حسابهم، أي وقت محاسبة الله إيّاهم على أعمالهم، يعني يوم القيامة، نزلت في منكري البعث، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، عن التأهب له.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به. قال مقاتل: يحدث الله الأمر بعد الأمر. وقيل: الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ وبيّنه من السنن والمواعظ سوى [ما في] القرآن، وأضافه إلى الربّ عزّ وجلّ لأنه قال بأمر الرب، ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، يعني استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون.

(٣) ﴿لَاهِيَةً﴾، ساهية غافلة، ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، معرضة عن ذكر الله، وقوله: ﴿لَاهِيَةً﴾ نعتٌ تقدم الاسم، ومن حق النعت أن يتبع الاسم في الإعراب، وإذا تقدم النعت الاسم فله حالتان: فصل ووصل، فحالته في الفصل النصب كقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر: ٧]، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ [الإنسان: ١٤]، و﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، وفي الوصل حالة ما قبله من الإعراب كقوله، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]. ﴿وَأَسَرُّوا

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني أشركوا، قوله: ﴿وَأَسَرُّوا﴾ فعل تقدم الجمع وكان حقه وأسر، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، أراد: والذين ظلموا أسروا النجوى. وقيل: محل الذين رفع على الابتداء، معناه: وأسروا النجوى، ثم قال: وهم الذين ظلموا. وقيل: رفع على البدل من الضمير في أسروا. قال المبرد: هذا كقولك إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبدالله، على البدل مما في انطلقوا ثم بيّن سرهم الذي تناجوا به فقال: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، انكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة، ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾، يعني أتحضرون السحر وتقبلونه، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، تعلمون أنه سحر.

﴿٤﴾ ﴿قَالَ﴾، لهم [يا] محمد، ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «قال ربي»، على الخبر عن محمد ﷺ، ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾، لأقوالهم، ﴿الْعَلِيمُ﴾، بأفعالهم.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، أباطيلها وأهاويلها رآها في النوم، ﴿بَلِ افْتَرَىٰهُ﴾، [أي] اختلقه، ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، يعني أن المشركين اقتسموا القول فيه وفيما يقوله: فقال بعضهم: أضغاث أحلام. وقال بعضهم: بل هو فرية. وقال بعضهم: بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر. ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد، ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، إن كان صادقاً ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، من الرسل بالآيات.

﴿٦﴾ قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾، أي قبل مشركي مكة، ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي من أهل قرية أتتهم الآيات، ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، أهلكناهم بالتكذيب، ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، إن جاءتهم آية، معناه: [إن] أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء.

﴿٧﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] يعني إنا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالاً نوحي إليهم، ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾، يعني أهل التوراة والإنجيل، يريد علماء أهل الكتاب، فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشراً، وإن أنكروا نبوة محمد ﷺ، وأمر المشركين بمسألتهم لأنهم إلى تصديق من لم يؤمن بالنبي ﷺ أقرب منهم إلى تصديق من آمن به. وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن أراد: فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾، أي الرسل، ﴿جَسَدًا﴾، ولم يقل أجساداً لأنه اسم الجنس، ﴿لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾، هذا رد لقولهم ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، يقول لم نجعل الرسل ملائكة بل جعلناهم بشراً يأكلون الطعام، ﴿وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ﴾، في الدنيا.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ الْوَعْدَ﴾، الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾، يعني أنجينا المؤمنين الذين صدقوهم، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾، يعني المشركين المكذبين، وكل مشرك مسرف على نفسه.

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾، يا معشر قريش، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، يعني شرفكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو شرف لمن آمن به، وقال مجاهد: فيه حديثكم. وقال الحسن: فيه ذكركم أي ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿١١﴾ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾، أهلكنا، والقصم الكسر، ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أي كافرة، يعني أهلها،

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾، يعني: أحدثنا بعد هلاك أهلها، ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾، يعني رأوا عذابنا بحاسة البصر ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾، يعني يُسرعون هاربين.

﴿١٣﴾ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾، يعني قيل لهم لا تركضوا لا تهربوا لا تذهبوا، ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾، يعني نعمتم به، ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾، قال ابن عباس: عن قتل نبيكم. وقال قتادة: من دنياكم شيئاً، نزلت هذه الآية في أهل حضوراء، وهي قرية باليمن وكان أهلها من العرب، فبعث الله إليهم نبياً يدعوهم إلى الله فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر، حتى قتلهم وسباهم، فلما استمرّ فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا، فقالت الملائكة لهم استهزاءً، لا تركضوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسألون، قال قتادة: لعلكم تسألون شيئاً من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم، فإنكم أهل ثروة ونعمة، يقولون ذلك استهزاءً بهم، فاتبعهم [عسكر] بختنصر وأخذتهم السيوف، ونادى منادٍ من جو السماء يا ثارات الأنبياء، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم.

﴿١٤﴾ ـ ﴿١٥﴾ ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، أي تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا، دعاؤهم يدعون بها ويرددونها، ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾، بالسيوف كما يحصد الزرع، ﴿خَٰمِدِينَ﴾، ميتين.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، أي عبثاً وباطلاً.

﴿١٧﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، واختلفوا في اللهو، قال ابن عباس في رواية عطاء: اللهو ههنا المرأة، وهو قول الحسن وقتادة، وقال في رواية الكلبي: اللهو الولد، وهو قول السدي، وهو في المرأة أظهر لأن الوطء يسمى لهواً في اللغة، والمرأة محل الوطء. ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾، يعني من عندنا من حور العين لا من عندكم من أهل الأرض. وقيل: معناه لو كان جائزاً ذلك في صفته لم يتخذه بحيث يظهر لهم بل يستر ذلك حتى لا يطلعوا عليه، وتأويل الآية أن النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رَدّ الله عليهم بهذا وقال: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره، ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، قال قتادة ومقاتل وابن جريج: «إن» للنفي، معناه: ما كنا فاعلين. وقيل: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ للشرط أي [إن] كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا، ولكنا لم نفعله لأنه لا يليق بالربوبية.

﴿١٨﴾ ﴿بَلْ﴾، يعني دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل، ﴿نَقْذِفُ﴾، نرمي ونسلط، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، بالإيمان، ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾، على الكفر، وقيل: الحق قول الله، فإنه لا ولد له، والباطل قولهم اتخذ الله ولداً، ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾، يعني يهلكه، وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، ذاهب، والمعنى: أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يضمحل ويذهب، ثم أوعدهم على كذبهم فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾، يا معشر الكفار. ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾، الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد. وقال مجاهد: مما تكذبون.

﴿١٩﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، عبيداً وملكاً، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾، يعني الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، ولا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، لا يعيون، يقال: حسر واستحسر إذا تعب وأعيا. وقال السدي: لا ينقطعون عن العبادة.

﴿٢٠﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، لا يضعفون ولا يسأمون، قال كعب الأحبار: التسبيح لهم كالنَّفَسِ لبني آدم.

﴿٢١﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ استفهام بمعنى الجحد أي لم يتخذوا، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، يعني الأصنام من الخشب والحجارة وهما من الأرض، ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾، يحيون الأموات، ولا يستحق الإلهية إلاّ من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم.

﴿٢٢﴾ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾، يعني في السماء والأرض، ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، يعني غير الله، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجرِ على النظام، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، يعني عما يصفه به المشركون من الشريك والولد.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، ويحكم في خلقه لأنه الربُّ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

أي الخلق يسألون، عن أفعالهم وأعمالهم لأنهم عبيد.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾، استفهام إنكار وتوبيخ، ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾، يعني حجتكم على ذلك، ثم قال مستأنفاً، ﴿هَٰذَا﴾، يعني القرآن. ﴿ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾، فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. ﴿وَذِكۡرُ﴾، خبر، ﴿مَن قَبۡلِيۗ﴾، من الأمم السالفة ما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة. وعن ابن عباس في رواية عطاء: ذكر من معي: القرآن، وذكر من قبلي: التوراة والإنجيل، ومعناه: راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أنّ الله اتخذ ولداً، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «نوحي» بالنون وكسر الحاء على التعظيم، لقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٥٤]، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وحّدون.

﴿٢٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾، نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾، نزّه نفسه عمّا قالوا، ﴿بَلۡ عِبَادٞ﴾، أي هم عباد، يعني الملائكة، ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، لا يتقدمونه بالقول ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به، ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾، معناه أنهم لا يخالفونه قولاً ولا عملاً.

﴿٢٨﴾ ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، [أي ما عملوا وما هم عاملون. وقيل: ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾، قال ابن عباس: لمن قال لا إله إلا الله، وقال مجاهد: إلا لمن رضي [الله] عنه، ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾، [أي] خائفون لا يأمنون مكره.

﴿٢٩﴾ ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾، قال قتادة: عنى به إبليس حيث دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعة نفسه، فإن أحداً من الملائكة لم يقل إنّي إلـٰه من دون الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها.

﴿٣٠﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، قرأ العامة بالواو وقرأ ابن كثير «أَلَمْ يرَ» بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم، معناه: أولم يعلم الذين كفروا، ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وعطاء وقتادة: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾، فصلنا بينهما بالهواء والرتق في اللغة السدّ، والفتق الشق، قال كعب [الأحبار]: خلق الله السمواتِ والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحاً فوسطها ففتحها بها. قال مجاهد والسدي: كانت السماوات مرتفعة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين. قال عكرمة وعطية: كانت السماء رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات. وإنما قال: ﴿رَتۡقٗا﴾ على التوحيد وهو من نعت السماوات والأرض لأنه مصدر وُضع موضع الاسم، مثل الزور والصوم ونحوهما، ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وخلقنا، ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾، أي أحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي أي من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر، يعني أنه سبب لحياة كل شيء. والمفسرون يقولون: يعني أن كل شيء حي فهو مخلوق

من الماء، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ [النور: ٤٥]، قال أبو العالية: يعني النطفة، فإن قيل: قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء؟ قيل: هذا على وجه التكثير، يعني أن أكثر الأحياء في الأرض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء، ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، أي جبالاً ثوابت، ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾، لئلا تميد بهم، ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا﴾، في الرواسي، ﴿فِجَاجٗا﴾، طرقاً ومسالك، والفج الطريق الواسع بين الجبلين، أي جعلنا بين الجبال طرقاً [ومسالك] كي يهتدوا [بها] إلى مقاصدهم، ﴿سُبُلٗا﴾، تفسير للفجاج، ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾، من أن تسقط، دليله قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥]، وقيل: محفوظاً من الشياطين بالشهب، دليله قوله تعالى: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]، ﴿وَهُمۡ﴾، يعني الكفار، ﴿عَنۡ ءَايَٰتِهَا﴾، أي عن ما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، ﴿مُعۡرِضُونَ﴾، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾، يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء، وإنما قال: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾، ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء من الجري والسبح، فذكر على ما يعقل، والفلك مدار النجوم الذي يضمها، والفلك في كلام العرب كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك، ومنه فلك المغزل.

وقال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل، يريد أن الذي يجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة. قال الضحاك: فَلَكُها مجراها وسرعة سيرها. قال مجاهد: كهيئة حديد الرحى. وقال بعضهم: الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب، فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه، وهو معنى قول قتادة.

وقال الكلبي: الفلك استدارة السماء.

وقال آخرون: الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم.

﴿٣٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾، دوام البقاء في الدنيا، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾، أي أفهم الخالدون إن مت، قيل: نزلت هذه الآية حين قال مشركو مكة نتربص بمحمد ريب المنون.

﴿٣٥﴾ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم﴾، نختبركم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾، بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون، ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾، ابتلاءً لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون، ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾، ما يتخذونك، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾، سخرياً، قال السدي: نزلت في أبي جهل مرّ به النبي ﷺ فضحك، وقال: هذا نبيُّ بني عبد مناف، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي﴾، أي يقول بعضهم لبعض أهذا الذي، ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، أي يعيبها، يقال: فلان يذكر فلاناً أي يعيبه، وفلان يذكر الله أي يُعظّمه ويجلّه، ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة [الكذاب]، و«هم» الثانية صلة.

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾،

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٢٥

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

اختلفوا فيه، فقال قوم: معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] قال سعيد بن جبير والسدي: لما دخلت الروح في رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قائماً قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة، فوقع، فقيل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والمراد بالإنسان آدم، وأورث أولاده العجلة، والعرب تقول للذي يكثر من الشيء: خلقت منه، كما تقول العرب: خلقت من لعب وخلقت من غضب، تريد المبالغة في وصفه بذلك، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال قوم: معناه خُلق الإنسانُ يعني آدم من تعجيل في خلق الله إياه، لأن خلقه كان بعد خلق كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس. وقال مجاهد: فلما أحيا الروح رأسه قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس. وقيل: بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها. وقال قوم: من عجل أي من طين قال الشاعر:

والنبع في الصخرة الصماء منتبة
والنخل ينبت بين الماء والعجل

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، [هذا خطاب للمشركين]، نزل هذا في المشركين كانوا يستعجلون العذاب، ويقولون أمطر علينا حجارة من السماء، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، فقال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ أي مواعيد عذابي فلا تستعجلون، أي فلا تطلبوا العذاب من [قبل] وقته، فأراهم يوم بدر، وقيل: كانوا يستعجلون القيامة.

﴿٣٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾،

﴿٣٩﴾ فقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾، لا يدفعون ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾، قيل: ولا عن ظهورهم السياط، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، يمنعون من العذاب، وجواب لو في قوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ﴾ محذوف معناه: لو علموا لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا [العذاب]، ولا قالوا متى هذا الوعد.

﴿٤٠﴾ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾، يعني الساعة ﴿بَغْتَةً﴾، فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾، أي تحيرهم، يقال فلان مبهوت أي متحير، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، يمهلون.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾، نزل، ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي جزاء استهزائهم.

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾، يحفظكم، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، إن أنزل بكم عذابه، وقال ابن عباس: من يمنعكم من عذاب الرحمن، ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾، عن القرآن ومواعظ الله، ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ﴾، أي: صلة فيه، وفي أمثاله ﴿ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، ثم وصف الآلهة بالضعف، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، منع أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم، ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، قال ابن عباس: يمنعون. وقال عطية: عنه يجارون، تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، أي مجير منه. وقال مجاهد: ينصرون ويحفظون.

وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير.

(٤٤) ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ﴾، الكفار، ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾، في الدنيا أي أمهلناهم. وقيل: أعطيناهم النعمة، ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، أي امتدّ بهم الزمان فاغتروا، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، أي ما ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين، يريد ظهور النبي ﷺ وفتحه ديار الشرك أرضاً فأرضاً، ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، أم نحن.

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾، أي أخوفكم بالقرآن، ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾، قرأ ابن عامر [تسمع] بالتاء وضمها وكسر الميم، ﴿ٱلصُّمُّ﴾ نصب، جعل الخطاب للنبي ﷺ، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها وفتح الميم، ﴿ٱلصُّمُّ﴾رفع، ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، يخوفون.

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾، أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما طرف. وقيل: قليل. وقال ابن جريج: نصيب، من قولهم نفح فلان لفلان من ماله أي أعطاه حظاً ونصيباً منه. وقيل: ضربة من قولهم نفحت الدابة برجلها إذا ضربت بها، ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، أي بإهلاكنا إنّا كنّا مشركين، دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالشرك.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، أي ذوات القسط والقسط العدل، ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أي: لا ينقص من ثواب حسناتها ولا يزاد على سيآتها، وفي الأخبار: إن الميزان له لسان وكفتان. روي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة [قدر] ما بين المشرق والمغرب، فغُشي عليه، فلما أفاق قال: يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ قال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة، ﴿وَإِن كَانَ﴾، الشيء، ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾، أي زنة مثقال حبة، ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، قرأ أهل المدينة «مثقال» برفع اللام ههنا وفي سورة لقمان [١٦]، يعني وإن وقع مثقال حبة من خردل، ونصبها الآخرون على معنى وإن كان ذلك الشيء مثقال حبة [أي زنة حبة] من خردل، ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها لنجازي بها.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، قال السدي: مُحصين، والحسب معناه: العدل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عالمين حافظين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، يعني الكتاب المفرّق بين الحق والباطل، وهو التوراة. وقال ابن زيد: الفرقان النصر على الأعداء، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، يعني يوم بدر لأنه قال ﴿وَضِيَآءً﴾، أدخل الواو فيه أي آتينا موسى النصر والضياء، وهو التوراة. ومن قال: المراد بالفرقان التوراة، قال: الواو في قوله: ﴿وَضِيَآءً﴾، زائدة مقحمة، معناه: آتيناه التوراة ضياء، وقيل: هو صفة أخرى للتوراة، ﴿وَذِكْرًا﴾، تذكيراً، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

(٤٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، أي يخافونه ولم يروه، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، خائفون.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، يعني القرآن وهو ذكر لمن تذكر به، مبارك لمن يتبرك به ويطلب منه الخير، ﴿أَفَأَنتُمْ﴾، يا أهل مكة، ﴿لَهُ مُنكِرُونَ﴾، جاحدون، وهذا استفهام توبيخ وتعيير.

(٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُ﴾، قال القرطبي: أي صلاحه، ﴿مِن قَبْلُ﴾، يعني من قبل موسى وهارون، وقال المفسرون: رشده من قبل، أي هداه من قبل البلوغ، وهو حين خرج من السرب وهو صغير، يريد هديناه صغيراً كما قال تعالى ليحيى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، أنه أهل للهداية والنبوة.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾، أي الصور، يعني الأصنام ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، يعني على عبادتها مقيمون.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، فاقتدينا بهم.

(٥٤) (قال)، إبراهيم، ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، خطأ بيّن بعبادتكم إيّاها.

(٥٥) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾، يعنون أصادق أنت فيما تقول أم لاعب؟

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

٣٢٧

(٥٦) ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾، خلقهن، ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾، يعني على أنه الإله الذي لا يستحق العبادة غيره. وقيل: من الشاهدين على أنه خالق السموات والأرض.

(٥٧) ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾، لأمكرنّ بها، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، يعني بعد أن تدبروا منطلقين إلى عيدكم. قال مجاهد وقتادة: إنما قال إبراهيم هذا سراً من قومه ولم يسمع ذلك إلاّ رجل واحد فأفشاه عليه، وقال إنا سمعنا فتًى يذكرهم يقال له إبراهيم.

قال السدي: وكان لهم في كل سنة مجمع وعيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال إني سقيم، يقول: أشتكي رجلي فلما مضوا نادى إبراهيم في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس، ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهنّ في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه، والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلنا [منه]، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم على طريق الاستهزاء: ألا تأكلون، فلما لم تجبه قال: ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين، وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلاّ الصنم الأكبر علّق الفأس في عنقه ثم خرج، فذلك قوله عزّ وجلّ.

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾، قرأ الكسائي «جِذاذاً» بكسر الجيم أي كسراً وقطعاً جمع جذيذ، وهو الهشيم مثل خفيف وخفاف، وقرأ الآخرون بضمها، مثل الحطام والرفات، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، فإنه لم يكسره ووضع الفأس على عنقه، وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنماً بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من رصاص وشَبّة وخشب وحجر، وكان الصنم الكبير من الذهب مكلّلاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان. قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، قيل: معناه لعلّهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل: لعلّهم إليه يرجعون فيسألونه، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا الأصنام جُذاذاً.

(٥٩) ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني من المجرمين.

(٦٠) ﴿قَالُوا﴾ يعني [الضعفاء] الذين سمعوا قول إبراهيم وتالله لأكيدن أصنامكم، ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، يعيبهم ويسبهم، ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، هو الذي نظن أنه صنع هذا، فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه.

(٦١) ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾، قاله نمرود يقول جيئوا به ظاهراً بمرأى من الناس، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، عليه أنه الذي فعله، وكرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، قاله الحسن وقتادة والسدي، وقال محمد بن إسحاق ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقابه وما يصنع به فلما أتوا به.

(٦٢) ﴿قَالُوا﴾، له ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

(٦٣) ﴿قَالَ﴾، إبراهيم، ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، غضب من

أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منهم فكسرهنّ، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، فذلك قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم. قال القتيبي: معناه بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون على سبيل الشرط فجعل النطق شرطاً للفعل أي إن قدروا على النطق قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق، وفي ضميره، أنا فعلت، وروي عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ ويقول معناه فعله من فعله، والأول أصح.

لما رُوي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله على سارة «هذه أختي».

وقيل في قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي سأسقم، وقيل: سقيم القلب أي مغتم بضلالتكم، وقوله على سارة: هذه أختي أي في الدين، وهذه التأويلات لنفي الكذب عن إبراهيم، والأولى هو الأول للحديث فيه، ويجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم، كما أذن ليوسف حتى أمر مناديه [أن ينادي] فقال لإخوته: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧]. ولم يكونوا سرقوا.

﴿٦٤﴾ ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: فتفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾، ما نراه إلا كما قال، ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، يعني بعبادتكم من لا يتكلم [ولم تشعر بمن آذاها]. وقيل: أنتم الظالمون لهذا الرجل [في] سؤالكم إيّاه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها.

﴿٦٥﴾ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، قال أهل التفسير: أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، فهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، يقال نكس المريض إذا رجع إلى حالته الأولى، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، فكيف نسألهم؟ فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليه السلام.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ﴾، لهم، ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾، إن عبدتموه، ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، إن تركتم عبادته.

﴿٦٧﴾ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾، يعني تباً وقذراً لكم، ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يعني أليس لكم عقل تعرفون به هذا، فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾، يعني إن كنتم ناصرين لها، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الذي قال هذا رجل من الأكراد. وقيل: إن اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، قيل: قاله نمرود، فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام، حبسوه في بيت، وبنوا له بنياناً كالحظيرة. وقيل: بنوا أتوناً بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عافاني الله لأجمعنّ حطباً لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبن في نار إبراهيم، وكان الرجل يُوصي بشراء الحطب وإلقائه فيه، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها، فتلقيه فيه احتساباً [في دينها]. قال ابن إسحاق: كانوا يجمعون الحطب شهراً فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب النار فاشتعلت النار [فيه] واشتدت حتى إن كان الطير ليمرّ بها [فتخطفه] فيحترق من شدة وهجها، فأوقدوا عليها سبعة أيام.

روي أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها فجاء إبليس فعلمهم عمل المنجنيق [ليتوصلوا إلى إلقائه فيها] فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيّدوه ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة [وضجت ضجة عظيمة]، أيْ ربنا إبراهيم خليلك يُلقَى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذنْ لنا في نصرته، فقال الله عزّ وجلّ: إنه خليلي ليس لي غيره خليل، وأنا إلهه وليس له إله غيري، فإن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه، فلما

أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه فقال [لله] إن أردت أخمدت النار، وأتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل.

وروي عن أُبيّ بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: [إبراهيم] أمّا إليك فلا، فقال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي.

قال كعب الأحبار: جعل كل شيء يطفىء عنه النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبيد الله بن موسى أو ابن سلام عنه، أنا ابن جريج عن عبدالحميد بن جبير، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ النار على إبراهيم».

(٦٩) قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قال ابن عباس: لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذٍ نار في الأرض إلا طفئت، فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم، ولو لم يقل وسلاماً على إبراهيم بقيت ذات برد أبداً. قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس.

قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه، قالوا: وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام.

قال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار.

قال ابن يسار: وبعث الله عزّ وجلّ ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم يؤنسه، قال وبعث الله جبريل إليه بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه، وقال جبريل: يا إبراهيم إن ربك يقول لك: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي، ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرآه جالساً في روضة والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته، أن حال بينك وبين ما أرى، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا، قال: فقم فاخرج منها، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه قال له: يا إبراهيم مَنِ الرجل الذي رأيتُه معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله إليّ ربّي ليؤنسني فيها، فقال نمرود: يا إبراهيم إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حيث أبيت إلا عبادته وتوحيده إني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له إبراهيم: إذاً لا يقبلها منك ما كنت على دينك حتى تفارقه إلى ديني، فقال: لا أستطيع ترك ملتي وملكي. ولكن سوف أذبحها فذبحها له نمرود ثم كف عن إبراهيم، ومنعه الله منه.

قال شعيب الجبائي: ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة.

(٧٠) قوله: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، قيل: معناه أنهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم، وقيل: معناه إن الله عزّ وجلّ أرسل على نمرود وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت واحدة في دماغه فأهلكته.

(٧١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾، من نمرود وقومه من أرض العراق، ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار، ومنها بعث أكثر الأنبياء. وقال أبي بن كعب: سماها [الله] مباركة لأنه ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي هي بيت المقدس.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن قتادة، أن عمر بن الخطاب قال لكعب: ألا تتحول إلى المدينة فبها

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ (٨١)

٣٢٨

مهاجر رسول الله ﷺ وقبره، فقال كعب: إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين إن الشام كنز الله من أرضه، وبها كنزه من عباده.

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق الديري، أنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن قتادة، عن شهر بن حوشب عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار الناس إليّ مهاجر إبراهيم».

وقال محمد بن إسحاق: استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به من جعل النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمرود وملئه وآمن به لوط، وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له تاخور بن تارخ، وآمنت به أيضاً سارة وهي بنت عمه وهي سارة بنت هاران الأكبر، عم إبراهيم فخرج من كوثى من أرض العراق مهاجراً إلى ربه، ومعه لوط وسارة، كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين، وهي برية الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة، أو أقرب، فبعثه الله نبياً فذلك قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة العطية وهما جميعاً من عطاء الله نافلة يعني عطاء. وقال الحسن والضحاك: فضلاً. وعن ابن عباس وأُبي بن كعب وابن زيد وقتادة رضي الله عنهم: النافلة هو يعقوب لأن الله عز وجلّ أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال: ﴿هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وزاد يعقوب وهو ولد الولد، والنافلة الزيادة، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدعون الناس إلى ديننا، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، يعني العمل بالشرائع، ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، يعني المحافظة عليها، ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، إعطاءها، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، موحدين.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ﴾، يعني وآتينا لوطاً، وقيل: واذكر لوطاً آتيناه، ﴿حُكْمًا﴾، يعني الفصل بين الخصوم بالحق، ﴿وَعِلْمًا﴾، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، يعني سدوماً و[هي القرية التي] كان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم مع أشياء أخر، كانوا يعملون من المنكرات، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾، دعا، ﴿مِن قَبْلُ﴾، يعني من قبل إبراهيم ولوط، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، قال ابن عباس: من الغرق وتكذيب قومه. وقيل: لأنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء، والكرب، أشد الغم.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾، منعناه، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أن يصلوا إليه بسوء. وقال أبو عبيدة: يعني على القوم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٧٨) قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾، اختلفوا في الحرث، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وأكثر المفسرين: كان الحرث كرماً قد تدلّت عناقيدُه. وقال قتادة: كان زرعاً، ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾، يعني رعته ليلاً فأفسدته، والنفش الرعي بالليل والهمل بالنهار وهما الرعي بلا راع، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، يعني كان ذلك بعلمنا وبمرأى منّا لا يخفى علينا علمه. قال الفراء: [هو] جمع اثنين، فقال لحكمهم وهو يريد داود وسليمان لأن الاثنين جمع وهو مثل قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، وهو يريد أخوين.

قال ابن عباس وقتادة والزهري: وذلك أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبق منه شيء فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه، فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت [بينكما] بغير هذا.

وروي أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضي؟ ويروى أنه قال [له]: بحق النبوة والأبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين، قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى أهله، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك. وقيل: إن سليمان يوم حكم بذلك كان ابن إحدى عشرة سنة، وأما حكم الإسلام في هذه المسألة أن ما أفسدت الماشية المرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان على ربها، وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار، والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن ابن شهاب، عن حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فقضى رسول الله ﷺ «أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمانه على أهلها».

وذهب أصحاب الرأي إلى أن المالك إذا لم يكن معها فلا ضمان عليه فيما أتلفت ماشيته ليلاً كان أو نهاراً.

(٧٩) قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، أي علمناه القضية وألهمناها سليمان، ﴿وَكُلًّا﴾، يعني داود وسليمان، ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصَوَابِه وأثنى على هذا باجتهاده. واختلف العلماء في أن حكم داود كان بالاجتهاد أو بالنص، وكذلك حكم سليمان، فقال بعضهم: فعلاً بالاجتهاد. وقالوا يجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين، إلاّ أن داود أخطأ وأصاب سليمان. وقالوا: يجوز الخطأ على الأنبياء إلاّ أنهم لا يقرون عليه، فأما العلماء فلهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب ولا سنة، فإذا أخطأوا فلا إثم عليهم، فإنه موضوع عنهم، لما:

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع بن سليمان، أنا الشافعي، أنا عبدالعزيز بن محمد، عن يزيد بن عبدالله بن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن بشر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر».

وقال قوم: إن داود وسليمان حكما بالوحي، فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، وهذا القائل يقول لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عن الاجتهاد بالوحي، وقالوا لا يجوز الخطأ على الأنبياء، واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر الآية وبالخبر حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ، وهو قول أصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيباً بل إذا اختلف اجتهاد مجتهدين في حادثة

كان الحق مع واحد لا بعينه، ولو كان كل واحد مصيباً لم يكن للتقسيم معنى.

وقوله عليه السلام: «وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة، والإثم في الخطأ عنه موضوع إذ لم يألُ جهده.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان، أنا شعيب، عن الزهري أنا أبو الزناد، عن عبدالرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان وأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى».

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، أي وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان [داود] يفهم تسبيح الحجر والشجر. وقال وهب: كانت الجبال تجاوب بالتسبيح وكذلك الطير. وقال قتادة: يسبحن أي يصلين معه إذا صلى. وقيل: كان داود إذا فتر يُسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه. ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [يعني] ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

﴿٨٠﴾ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، المراد باللبوس هاهنا الدروع لأنها تلبس وهو في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها، وهو بمعنى الملبوس كالجلوس والركوب، قال قتادة: أول من صنع الدروع وسردها وحلقها داود وكانت [الدروع] من قبل صفائح والدرع يجمع الخفة والحصانة، ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، لتحرزكم وتمنعكم، ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، أي من حرب عدوكم، قال السدي: من وقع السلاح فيكم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب: «لتحصنكم» بالتاء، يعني الصنعة، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون لقوله: «وعلمناه» وقرأ الآخرون بالياء وجعلوا الفعل للبوس، وقيل: ليحصنكم الله عزّ وجلّ، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، يقول لداود وأهل بيته. وقيل: يقول لأهل مكة فهل أنتم شاكرون نعمي بطاعة الرسول.

﴿٨١﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾، أي وسخرنا لسليمان الريح وهي هواء متحرك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحسّ بحركته، والريح يذكر ويؤنث، عاصفة شديدة الهبوب، فإن قيل: قد قال في موضع آخر تجري بأمره رُخاءً والرخاء اللين؟ قيل: كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، يعني الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ﴾، علمناه، ﴿عَٰلِمِينَ﴾، بصحة التدبير فيه أي علمنا أن ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه عزّ وجلّ.

قال وهب بن منبه: كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، وكان امرءاً غزّاءً قلّ ما يقعد عن الغزو، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك [إلا] أتاه حتى يذله، فكان فيما يزعمون أنه إذا أراد الغزو وأمر بمعسكره فضرب بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصفة من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهراً في روحته وشهراً في غدوته إلى حيث أراد، وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير تراباً ولا تؤذي طائراً. قال وهب: ذُكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان إما من الجن وإما من الإنس نحن نزلناه وما بنيناه مبنيا وجدناه، غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فبائتون بالشام.

قال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

ذهباً في إبريسم، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب فضة، ويقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح.

وعن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس الإنس فيما يليه ثم يليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح.

وقال الحسن: لما شغلت الخيل نبي الله سليمان عليه السلام حتى فاتته صلاة العصر غضب الله عزّ وجلّ فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيراً منها، وأسرع الريح تجري بأمره كيف يشاء، فكان يغدو من إيلياء فيقيل باصطخر، ثم يروح ومنها فيكون رواحها ببابل.

وقال ابن زيد: كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش.

وروي أن سليمان سار من أرض العراق غادياً فقال بمدينة مرو، وصلى العصر بمدينة بلخ، تحمله وجنوده الريح، وتظلهم الطير، ثم سار من مدينة بلخ متخللاً بلاد الترك، ثم جاز بهم إلى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك، ثم [عطف] يمنةً عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى على أرض القندهار، وخرج منها إلى أرض مكران وكرمان، ثم جاوزها [حتى أتى] أرض فارس فنزلها أياماً وغدا منها، فقال بكسكر ثم راح [إلى الشام] وكان مستقره بمدينة تدمر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر، وفي ذلك يقول النابغة:

ألا سليمان إذْ قال المليك له
قم في البرية فاحددها عن الفَنِد
وجيش الجن إني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعمد

﴿٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، يعني وسخرنا له من الشياطين، ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾، يعني يدخلون تحت الماء يخرجون له من قعر البحر الجواهر، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني دون الغوص، وهو ما ذكر الله عزّ وجلّ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ: ١٣] الآية. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾، حتى لا يخرجوا عن أمره. وقال الزجاج: معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا.

وفي القصة أن سليمان كان إذا بعث شيطاناً مع إنسان ليعمل له عملاً، قال له: إذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل، وكان من عادة الشياطين أنهم إذا فرغوا من العمل ولم يشتغلوا بعمل آخر خربوا ما عملوا وأفسدوه.

﴿٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، يعني دعا ربه. قال وهب بن منبه: كان أيوب [عليه السلام] رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا، وكانت له البثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها، وكان له فيها من أصناف المال كله، من البقر والإبل والغنم والخيل والحمر ما لا يكون لرجل أفضل منه من العدة والكثرة، وكان له خمسمائة

فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة، وفوق ذلك وكان الله عزّ وجلّ أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يطعم المساكين ويكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله مؤدياً لحق الله، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من أهل اليمن يقال له: اليفن ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما يلدد والآخر صافر وكانوا كهولاً وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيث ما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع سموات، فلما بعث محمد ﷺ حجب من الثلاث الباقية، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فأدركه البغي والحسد فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه، فقال إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك، فلو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عمّا هو عليه من شكرك وعبادتك، ولخرج من طاعتك، قال الله عزّ وجلّ: انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله إبليس حتى وقع إلى الأرض، ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين، وقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة؟ ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار وأحرقت كل شيء آتي عليه، قال له إبليس: فأتِ الإبل ورعاتها، فأتى الإبل حين وضعت رؤوسها وثبتت في مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها أحد إلا احترق فأحرقتها ورعاتها، حتى أتى على آخرها، ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قبيحة على قعود إلى أيوب فوجده قائماً يصلي، فقال: يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك فأحرقتها ومن فيها غيري، فقال أيوب: الحمد لله الذي هو [أعطاني إياها] وهو أخذها، وقديماً ما وطنت نفسي ومالي على الفناء، قال إبليس: فإنّ ربّك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها، منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور، ومنهم من يقول لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليه، ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ذلك ليشمت به عدوه ويفجع صديقه، قال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود في التراب، وعرياناً أحشر إلى الله، ليس لك أن تفرح حين أعارك ولا أن تجزع حين قبض عاريته منك، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً، ولكنه علم منك شراً فأخرك، قال عفريت: عندي من القوة ما [إذا] شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلاّ خرجت مهجة نفسه، فقال إبليس فات الغنم ورعاتها، فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتاً عن آخرها ومات رعاؤها، ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلي، فقال له مثل القول الأول فردّ عليه مثل الرد الأول ثم رجع إبليس إلى أصحابه [خاسئاً] فقال ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً تنسف كل شيء تأتي عليه، قال فأت الفدادين والحرث فانطلق ولم يشعروا حتى هبت ريح عاصف، فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن، ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلي، فقال له مثل قوله الأول فردّ عليه أيوب، مثل رده الأول كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمدَ الله وأحسن الثناء عليه، ورضي منه بالقضاء والقدر، ووطن نفسه بالصبر على البلاء، حتى لم يبق له مال. فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله صعد إلى السماء فقال إلهي إن أيوب يرى منك أنك ما متعته بولده فأنت تعطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده، فإنها المعصية [العظمى التي لا تقوم لها] قلوب الرجال.

قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ولده، فانقض عدو الله إبليس حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل، حتى إذا مثل بهم كل مثلة رفع القصر فقلبه فصاروا منكسين، ثم انطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة [وهو جريح مخدوش الوجه يسيل دمه ودماغه فأخبره]، وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا وكانوا منكسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم ودماغهم، ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك [عليهم]، فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال:

يا ليت أمي لم تلدني، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر، صعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم، فوقف إبليس ذليلاً فقال: يا إلهي إنما هون على أيوب المال والولد أنه يرى منك أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده، فقال الله عزّ وجلّ: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه، وكان الله عزّ وجلّ أعلم به لم يسلطه عليه إلا رحمة له ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين [من بعده] وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم، ليتأسوا به في الصبر ورجاءً للثواب، فانقض عدو الله إبليس سريعاً فوجد أيوب ساجداً فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جميع جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل أليات الغنم ووقعت فيه حكة فحكها بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه، وتقطع وتغير وأنتن، وأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة من كناساتهم وجعلوا له فيها عريشاً فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهي رحمة ابنة أفرائيم بن يوسف بن يعقوب كانت تختلف إليه بما يصلحه ويقويه ويلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه [الذين آمنوا به] وهم: يقن ويلدد وصافر ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكتوه ولاموه وقالوا له: تبْ إلى الله من الذنب الذي عوقبت به.

وكان من حضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول، وكنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته من خلقه وصفوته من أهل الأرض إلى يومكم هذا، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله من أمره على أنه قد سخط عليه شيئاً من أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التي أكرمه [الله] بها، ولأن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم، ولكنه كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعتزل أخاه عند البلاء، ولا أن يعيره بالمصيبة ولا أن يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن لحزنه، ويدل على مراشد أمره، وليس بحليم ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم، ويكسر قلوبكم، ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم خشية من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت

قلوبهم، وطاشت عقولهم، إعظاماً وإجلالاً لله عزّ وجلّ، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عزّ وجلّ بالأعمال الزكية يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين، وأنهم لأبرار نزهاء برءاء، ومع المقصرين المفرطين وأنهم لأكياس أقوياء.

فقال أيوب: إن الله عزّ وجلّ يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا، لم تسقط منزلته عند الحكماء، وهم يرون من الله عليه نور الكرامة، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثاً به متضرعاً إليه، فقال ربّ لأي شيء خلقتني؟ ليتني إذ كرهتني لم تخلقني، يا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت به وجهك الكريم عني، لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي الكرام، فالموت كان أجمل بي، ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قيماً، إلهي، أنا عبدك إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء عرضاً، وللفتنة نصباً، وقد وقع عليّ بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي؟ وإن قضاءك هو الذي أذلني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي بما كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلا نظر إلي فيرحمني ولا دنا مني ولا أدناني فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي، فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب أليم، ثم نودي يا أيوب إن الله عزّ وجلّ يقول: ها، أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً قم فأدل بعذرك، وتكلم ببراءتك، وخاصم عن نفسك، واشدد إزرك، وقم مقام جبار يخاصم جبار إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي، ولا شبه لي، لقد منتك نفسك يا أيوب أمراً ما تبلغه بمثل قوتك، أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها؟ هل كنت معي تمد بأطرافها؟ وهل علمت بأي مقدار قدرتها؟ أم على شيء وضعت أكنافها؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفاً [محفوظاً] في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها؟ هل تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسيّر نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين أنت مني يوم نبعت الأنهار وسكرت البحار، أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل تدري على أي شيء أرسيتها أو بأي مثقال وزنتها؟ أم هل لك من ذراع تطيق حملها؟ أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ أم هل تدري من أي شيء أنشيء السحاب؟ أم هل تدري أين خزائن الثلج، أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل، وأين خزائن الريح؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار؟ ومن جعل العقول في أجواف الرجال، ومن شق الأسماع والأبصار؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته؟ وقسم الأرزاق بحكمته؟ في كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب، فقال أيوب: صغر شأني وكَلَّ لساني وعقلي ورائي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي تعرض عليّ يا إلهي، قد علمت أن كل الذي ذكرت صنيع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت لا يعجزك شيء ولا يخفى عليك خافية إذ لقيني البلاء، إلهي فتكلمت ولم أملك لساني وكان البلاء هو الذي أنطقني، فليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي، أو ليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني، وسكت حين سكت لترحمني، كلمة زلت مني فلن أعود، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني، وألصقت بالتراب خدي، أعوذ بك اليوم منك وأستجيرك من جهد البلاء فأجرني، وأستغيث بك من عقابك فأغثني، وأستعين بك

على أمري فأعني، وأتوكل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني، وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني، قال الله تعالى: يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية، وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين، فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاؤك، وقرب عن أصحابك قرباناً فاستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه [على العادة] فلم تجده ووجدت مكانه رجل أحسن ما كان من الرجال فقامت كالوالهة متلددة ثم قالت: يا عبدالله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟ قال لها: هل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: نعم ومالي لا أعرفه، ثم تبسم وقال، أنا هو: فعرفته بضحكه فاعتنقته. قال ابن عباس فوالذي نفس عبدالله بيده ما فارقته من عناقه حتى مرّ بهما كل مال لهما وولد، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله أني مسني الضر وفي مدة بلائه.

روى ابن شهاب عن أنس يرفعه «أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة». وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين ولم يزد يوماً.

وقال كعب: كان أيوب في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبع أيام. وقال الحسن: مكث أيوب مطروحاً على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً تختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير امرأته رحمة، صبرت معه بصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله والصبر على ما ابتلاه به، فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ما حزنك؟ قال أعياني هذا العبد أيوب الذي لم أدع له مالاً ولا ولداً فلم يزدد إلا صبراً، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة [من مزابل بني إسرائيل] لا يقربه إلا امرأته، [فلم يكن عنده جزع]. فاستعنت بكم لتعينوني عليه، فقالوا له أين مكرك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليّ قالوا: نشير عليك، من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال: من قبل امرأته، قالوا: فشأنك في أيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال أصبتم: فانطلق حتى أتى امرأته وهي تتصدق فتمثل لها في صورة رجل فقال لها: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده، فلما سمع مقالتها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه [الآن] من

الضر، وأن ذلك لا ينقطع عنهم أبداً، قال الحسن: فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ، فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك، أين المال، أين الولد، أين الصديق، أين لونك الحسن، أين جسمك الصحيح، اذبح هذه السخلة [على اسم عبد من عباد الله أتانيها وأنت تبرأ مما فيك من البلاء] واسترح، فقال أيوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت: الله، قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة، قال: فمنذ كم ابتلانا، قالت: منذ سبع سنين وأشهر، قال: ويلك ما أنصفت إلا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتيني أن أذبح لغير الله، طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام وحرام عليّ أن أذوق [منه] شيئاً مما تأتيني به بعد إذ قلتِ لي هذا، فاغربي عني، فلا أراك فطردها فذهبت، فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرّ ساجداً لله وقال رب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك، اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين [ماء] فاغتسل منها فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلا سقط وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا

خرج فقام صحيحاً وكسي حُلّة، قال: فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال إلا وقد ضاعفه الله [له] حتى ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير منه على صدره جراداً من ذهب فجعل يضمه بيده، فأوحى الله إليه: يا أيوب ألم أغنك؟ قال: بلى، ولكنها بركتك فمن يشبع منها، قال: فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت: أرأيتك إن كان أيوب طردني إلى من أكله؟ أدعه يموت جوعاً ويضيع فتأكله السباع، لأرجعنّ إليه. فرجعت فلا كناسة ترى ولا تلك الحالة التي كانت، وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عنه، فدعاها أيوب فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل [به] فقال أيوب: ما كان [هو] منك فبكت، وقالت: بعلي، قال: فهل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: وهل يخفى على أحد [بعله إذا] رآه، ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ثم قالت: أما أنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا أيوب الذي أمرتيني أن أذبح لإبليس، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله سبحانه فردّ عليّ ما ترين.

وقال وهب بن منبه: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال، فقال لها: أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى، قالت: نعم، قال: فهل تعرفيني قالت: لا قال: أنا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبدالله إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي ثم أراها إيّاهم ببطن الوادي الذي لقيها فيه، قال وهب: وقد سمعت أنه إنما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم الله عليه لعوفي مما به من البلاء، والله أعلم.

وفي بعض الكتب: إن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاكِ عدو الله إبليس ليفتنك عن دينك، ثم أقسم إن عافاه الله ليضربنّها مائة جلدة، وقال عند ذلك: مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له، ودعائه إياها وإيّاي إلى الكفر، ثم إن الله عزّ وجلّ رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء، وخفف عليها وأراد أن يبرّ يمين أيوب، فأمره أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [صٓ: ٤٤].

وروي أن إبليس اتخذ تابوتاً وجعل فيه أدوية وقعد على طريق امرأته يداوي الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت: يا شيخ إن لي مريضاً أفتداويه؟ قال: نعم والله لا أريد شيئاً إلا أن يقول إذا شفيته أنت شفيتني، فذكرت ذلك لأيوب فقال هو إبليس قد خدعك، ثم حلف إن شفاه الله أن يضربها مائة جلدة. وقال وهب وغيره: كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته، فلما طال عليه البلاء وسئمها الناس ولم يستعملها أحد التمست يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً فجزت قرنا من رأسها، فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذٍ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، وقال قوم: إنما قال ذلك حين قصدت الدودة إلى قلبه ولسانه فخشي أن يفتر عن الذكر والفكر.

وقال حبيب بن أبي ثابت: لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء:

أحدها: قدم عليه صديقان [له] حين بلغهما خبره فجاءا إليه ولم يبق له إلا عيناهُ ورأيا أمراً عظيماً فقالا: لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا.

والثاني: أن امرأته طلبت طعاماً فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعاماً.

والثالث: قول إبليس إني أداويه على أن يقول أنتَ شفيتني. وقيل: إن إبليس [لعنه الله] وسوس إليه أن امرأتك زنت. فقطعت ذؤابتها فحينئذٍ عيل صبره، فدعا [وقال مسني الضر] وحلف ليضربنّها مائة جلدة. وقيل: معناه مسني الضر من شماتة الأعداء.

حتى روي أنه قيل له بعدما عُوفي ما كان أشد عليك في بلائك قال شماتة الأعداء. وقيل: قال كذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها إلى موضعها. وقال: كلي فقد جعلني الله طعامك فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاساه من عض الديدان. فإن قيل: إن الله سماه صابراً وقد أظهر الشكوى والجزع، بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، و﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ [ص: ٤١]، قيل ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق فأما الشكوى إلى الله عزّ وجلّ فلا يكون جزعاً ولا ترك صبراً كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. قال سفيان بن عيينة: وكذلك [كل] من أظهر الشكوى إلى الخلق وهو راض بقضاء الله لا يكون ذلك جزعاً.

كما روي أن جبريل دخل على النبي ﷺ في مرضه فقال: كيف تجدك؟ قال: «أجدني مغموماً وأجدني مكروباً».

وقال لعائشة حين قالت وارأساه: «بل، أنا وارأساه».

﴿٨٤﴾ قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾، وذلك أنه قال له اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء بارد، فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد، فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجملهم. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، واختلفوا في ذلك فقال ابن مسعود، وقتادة، وابن عباس، والحسن، وأكثر المفسرين: ردّ الله عزّ وجلّ إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله [له] وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن. وقال الحسن: آتاه الله المثل من نسل ماله الذي رده الله إليه وأهله، يدل عليه ما روي عن الضحاك عن ابن عباس: أن الله عزّ وجلّ ردّ على المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً. قال وهب: كان له سبع بنات وثلاثة بنين. قال ابن يسار: كان له سبعة بنين وسبع بنات.

وروي عن أنس يرفعه: «أنه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله عزّ وجلّ سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض».

وروي «أن الله تعالى بعث إليه ملكاً وقال له: إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك، فخرج إليه فأرسل الله عليه جراداً من ذهب فطارت واحدة فاتبعها وردها إلى أندره، فقال له الملك: أما يكفيك ما في أندرك؟ فقال: هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركته».

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا محمد بن الحسين القطان، أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه قال: أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً [إذ] خرّ عليه جراداً من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركتك».

وقال قوم: آتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا، فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا.

قال عكرمة: قيل لأيوب: إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا قال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، فعلى هذا يكون معنى الآية: وآتيناه أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي نعمة من عندنا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، أي عظة وعبرة لهم.

﴿٨٥﴾ قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾، يعني ابن إبراهيم، ﴿وَإِدْرِيسَ﴾، وهو أخنوخ، ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، على أمر الله، واختلفوا في ذا الكفل.

فقال عطاء: إن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه: أني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفل لك أن يصلي بالليل لا يفتر، ويصوم بالنهار لا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه ففعل

ذلك، فقام شاب: فقال: أتكفل لك بهذا فتكفل، ووفّى به فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل.

قال مجاهد: لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر [إليه] كيف يعمل، قال: فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاث أستخلفه: يصوم النهار ويقوم الليل، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فردّه ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فردّه ذلك اليوم، فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: شيخ كبير مظلوم، فقام ففتح الباب فقال الشيخ: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا وفعلوا، فجعل يطول حتى حضر الرواح، وذهبت القائلة، فقال له: إذا رحت فائتني حتى آخذ حقك، فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يبتغيه فلما كان من الغد جلس يقضي بين الناس ينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ المظلوم ففتح [له الباب] فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فائتني؟ قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني، قال فانطلق فإذا رحت فائتني، ففاتته القائلة فراح فجعل ينظر فلا يراه فشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله لا تدعن أحداً يقرب من هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق عليّ النوم، فلما كان تلك الساعة جاء [إليه] فلم يأذن له الرجل، فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت يدق الباب من داخل، فاستيقظ فقال: يا فلان ألم آمرك [أن لا تدخل علي أحداً] فقال: أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت، فقام: إلى الباب فإذا هو مغلق كما هو أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فقال: أتنام والخصوم ببابك، فعرفه فقال: أعدو الله؟ قال: نعم أعييتني ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله مني، فسمى ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفّى به.

وقيل: إن إبليس جاءه وقال: إن لي غريماً يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه، فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب. وروى: أنه اعتذر إليه. وقال: إن صاحبي هرب، وقيل: إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلي كل ليلة مائة ركعة إلى أن يقبضه الله فوفى به، واختلفوا في أنه [هل] كان نبياً، فقال بعضهم: كان نبياً. وقيل: هو إلياس. وقيل: [هو] زكريا. وقال أبو موسى: لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً.

﴿٨٦﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ﴾، يعني ما أنعم الله عليهم في الدنيا من النبوة وصيرهم إليه في الجنة من الثواب، ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿٨٧﴾ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، أي واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، اختلفوا في معناه فقال الضحاك: مغاضباً لقومه، وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطاً ونصف، فأوحى الله إلى شعياء النبي أنْ سرْ إلى حزقيل الملك، وقل له حتى يوجه نبياً قوياً فإني ألقي هيبة في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك فمن ترى، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس: فإنه قوي أمين فدعا الملك بيونس أمره أن يخرج، فقال له يونس: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا قال: فهل سماني لك؟ قال: لا، فههنا غيري أنبياء أقوياء، فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضباً للنبي وللملك، ولقومه فأتى بحر الروم فركبه.

وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة: ذهب عن قومه مغاضباً لربه إذ كشف عن قومه العذاب بعدما وعدهم وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم، واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي به [رفع] العذاب [عنهم]، وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده، وأنه يسمى كذاباً لا كراهية لحكم الله تعالى، وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد الذي وعدهم فيه فغضب، والمغاضبة ههنا من المفاعلة التي

تكون من واحد، كالمسافرة والمعاقبة، فمعنى قوله مغاضباً أي غضبان.

وقال الحسن: إنما غضب ربَّه عزّ وجلّ من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربّه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأل أن ينظر إلا أن يأخذ نعلاً يلبسها فلم ينظره. وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضباً. وعن ابن عباس، قال: أتى جبريل يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم، فقال: ألتمس دابة قال: الأمر أعجل من ذلك فغضب فانطلق إلى السفينة.

وقال وهب بن منبه: إن يونس بن متى كان عبداً صالحاً وكان في خلقه ضيق، فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه، وخرج هارباً منها، فلذلك أخرجه الله من أولي العزم من الرسل وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] [وقال]: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي لن نقضي عليه العقوبة، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي، وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال: قدر الله الشيء تقديراً، وقدر يقدر قدراً بمعنى واحد، ومنه قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] في قراءة من قرأها بالتخفيف دليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبدالعزيز والزهري: «فظنّ أن لن نقدّر عليه» بالتشديد، وقال عطاء وكثير من العلماء: معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، أي يضيق.

وقال ابن زيد: هو استفهام معناه فظن أنه يعجز ربّه، فلا يقدر عليه.

وقرأ يعقوب يقدر بضم الياء على المجهول خفيف. وعن الحسن قال: بلغني أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضباً لربه واستنزله الشيطان حتى ظن لن نقدر عليه، وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان، فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة. وقال عطاء: سبعة أيام. وقيل: ثلاثة أيام. وقيل: إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة. وقيل: بلغ به تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه تعالى في بطن الحوت، وراجع نفسه فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، حين عصيتك وما صنعت من شيء فلن أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته، والتأويلات المتقدمة أولى بحال الأنبياء أنه ذهب مغاضباً لقومه وللملك، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعني ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت.

وروي عن أبي هريرة مرفوعاً: «أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه أن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة»، وفي رواية: «صوتاً معروفاً من مكان مجهول، فقال: ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا: العبدالصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه إلى الساحل، كما قال الله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥].

(٨٨) فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، أي: أجبناه، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، من تلك الظلمات، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، من كل كرب إذا دعونا واستغاثوا بنا، قرأ ابن عامر وعاصم برواية أبي بكر: «نجي» بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، واختلف النحاة في هذه القراءة، فذهب أكثرهم إلى أنها لحن لأنه لو كان على ما لم يسم فاعله لم تسكن الياء ورفع «المؤمنين»، ومنهم من صوبها، وذكر الفراء لها وجهاً آخر وهو إضمار المصدر، أي نجا النجاة المؤمنين [ونصب المؤمنين] كقولك: ضرب الضرب زيداً، ثم يقول ضرب زيداً بالنصب على إضمار المصدر، وسكن الياء في «نجي» كما يسكنون في بقي ونحوها.

قال القتيبي: من قرأ بنون واحدة

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

٣٣٠

والتشديد إنما أراد ننجي من التنجية إلاّ أنه أدغم وحذف نوناً طلباً للخفة ولم يرضه النحويون لبعد مخرج النون من الجيم، والإدغام يكون عند قرب المخرج، وقرأ العامة «ننجي» بنونين من الإنجاء، وإنما كتبت بنون واحدة لأن النون الثانية كانت ساكنة والساكن غير ظاهر على اللسان فحذفت كما فعلوا في إلاّ حذفوا النون من إن لخفائها، واختلفوا في أن رسالة يونس بن متّى متى كانت؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل أن الله عزّ وجلّ ذكره في سورة والصافات، ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾، ثم ذكر بعده: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، وقال الآخرون: إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠].

﴿٨٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، أي دعا ربه، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾، وحيداً لا ولد لي وارزقني وارثاً، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، ثناءً على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه أفضل من بقي حياً.

﴿٩٠﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾، ولداً ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، أي جعلناها ولوداً بعد ما كانت عقيماً، قاله أكثر المفسرين، وقال بعضهم: كانت سيئة الخلق فأصلحها الله بأن رزقها حسن الخلق. ﴿إِنَّهُمْ﴾ الأنبياء، يعني الأنبياء الذين سمّاهم في هذه السورة، ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾، طمعاً، ﴿وَرَهَبًا﴾، خوفاً، رغباً من رحمة الله، ورهباً من عذاب الله [عز وجل]، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، أي متواضعين، قال قتادة: ذللاً لأمر الله. قال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم في القلب.

﴿٩١﴾ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، حفظته من الحرام وأراد مريم بنت عمران، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾، أي أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها، وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضاف الروح إليه تشريفاً لعيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب، ولم يقل آيتين وهما آيتان لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية ولأن الآية. كانت فيهما واحدة، وهي أنها أتت به من غير فحل.

﴿٩٢﴾ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾، أي ملتكم ودينكم. ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي ديناً واحداً وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان، وأصل الأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد، ونصب أمة على القطع. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

﴿٩٣﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي اختلفوا في الدين فصاروا فرقاً وأحزاباً، قال الكلبي: فرّقوا دينهم بينهم، يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض، والتقطع ههنا بمعنى التقطيع، ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾، فنجزيهم بأعمالهم.

﴿٩٤﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾، [أي] لا يُجحد ولا يبطل عملُهُ بل يُشكر ويُثاب عليه، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾، لعمله حافظون، وقيل: معنى الشكر من الله المجازاة، ومعنى الكفران ترك المجازاة.

﴿٩٥﴾ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [أي أهل قرية] قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «وحرم» بكسر الحاء بلا ألف، وقرأ الباقون بالألف «حرام» وهما لغتان مثل حلّ وحلال، قال ابن عباس: معنى الآية وحرام على قرية أي أهل قرية،

﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، أن يرجعوا بعد الهلاك، فعلى هذا تكون ﴿لَا﴾ صلة، وقال آخرون: الحرام بمعنى الواجب، فعلى هذا تكون ﴿لَا﴾ ثابتة معناه واجب على أهل قرية أهلكناهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، إلى الدنيا، وقال الزجاج: معناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أي حكمنا بهلاكهم أن تتقبل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون، والدليل على هذا المعنى أنه قال في الآية التي قبلها ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي يتقبل عمله، ثم ذكر هذه الآية عقيبه وبين أن الكافر لا يتقبل عمله.

(٩٦) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «فتّحت» بالتشديد على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، يريد فتح السدّ عن يأجوج [ومأجوج]، ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾، أي نشز وتل، والحدب المكان المرتفع، ﴿يَنسِلُونَ﴾، يسرعون النزول من الآكام والتلال كنسلان الذئب، وهو سرعة مشيه، واختلفوا في هذه الكناية، فقال قوم: عني بها يأجوج ومأجوج بدليل ما:

روينا عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يبعث الله يأجوج ومأجوج [وهم] من كل حدب ينسلون».

وقال قوم: أراد جميع الخلق يعني أنهم يخرجون من قبورهم، يدل عليه قراءة مجاهد وهم من كل جدث بالجيم والثاء كما قال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يونس: ٥١].

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني، أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج، أنا أبو خيثمة زهير بن حرب، أنا سفيان بن عيينة، عن فرات القزاز، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: اطّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

(٩٧) قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾، يعني [يوم] القيامة، قال الفراء وجماعة: الواو في قوله «واقترب» مقحمة معناً حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي ناديناه.

والدليل عليه ما روي عن حذيفة قال: لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة.

وقال قوم: لا يجوز طرح الواو، وجعلوا جواب حتى إذا فتحت في قوله يا ويلنا، فيكون مجاز الآية. حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق، قالوا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا. قول: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفي قوله: «هي» ثلاثة أوجه أحدها أنها كناية عن الإبصار. ثم أظهر الإبصار بياناً معناه فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا. والثاني أنّ هي تكون عماداً كقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦]، والثالث أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿هِيَ﴾، على معنى فإذا هي بارزة يعني من قربها كأنها حاضرة، ثم ابتدا: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على تقديم الخبر على الابتداء، مجازه أبصار الذين كفروا شاخصة. قال الكلبي: شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله، يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، اليوم، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، بوضعنا العبادة في غير موضعها.

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، يعني الأصنام، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، يعني وقودها. وقال مجاهد وقتادة: حطبها، والحصب في لغة أهل اليمن: الحطب. وقال عكرمة: هو الحطب بلغة الحبشة. قال الضحاك: يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصباء، وأصل الحصب الرمي، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤] أي ريحاً ترميهم بحجارة، وقرأ علي بن أبي

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

سورة الحج

٣٣١

طالب: «حطب جهنم»، ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، أي فيها داخلون.

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ﴾، يعني الأصنام، ﴿آلِهَةً﴾ على الحقيقة، ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾، أي ما دخل عابدوها النار، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يعني العابدين والمعبودين.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، قال ابن مسعود: في هذه الآية إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى ثم تلك التوابيت في توابيت أخر، عليها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره، ثم استثنى فقال:

(١٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قال بعض أهل العلم: «إنّ» ههنا بمعنى «إلاّ» معناه: إلاّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى، يعني السعادة والعِدَةُ الجميلة بالجنة، ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة. وقال أكثر المفسرين: عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره.

وذلك أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، الآيات الثلاثة، ثم قام فأقبل عبدالله بن الزبعري السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ فقال عبدالله: أمَا والله لو وجدته لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعري: أأنت قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؟ قال: نعم، قال: أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح، وبنو مليح تعبد الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشياطين» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، يعني عزيراً والمسيح والملائكة، ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، وأنزل في ابن الزبعري: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، ولو أراد به الملائكة والناس لقال ومن تعبدون من دون الله.

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة، والحسّ والحسيس الصوت الخفي، ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾، مقيمون كما قال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

(١٠٣) ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾، قال ابن عباس: الفزع الأكبر النفخة الأخيرة بدليل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]. قال الحسن: حتى يؤمر بالعبد إلى النار. قال ابن جريج: حين يذبح الموت ويُنادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يُخرج الله منها من يريد أن يخرجه. ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم، ويقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾، قرأ أبو جعفر: «تطوى السماء» بالتاء وضمها وفتح الواو، «والسماء»، رفع على المجهول، وقرأ العامة بالنون وفتحها وكسر الواو،

«والسماء» نصب، ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم للكتب على الجمع، وقرأ الآخرون للكتاب على الواحد، واختلفوا في السجل، فقال السدي: السجل ملك يكتب أعمال العباد، واللام زائدة، أي: كطي السجل الكتب كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، اللام فيه زائدة، وقال ابن عباس ومجاهد والأكثرون: السجل الصحيفة للكتب أي لأجل ما كتب معناه [هو] كطي الصحيفة على مكتوبها، والسجل اسم مشتق من المساجلة وهي المكاتبة، والطي الدرج الذي هو ضد النشر، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾، أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، يعني الإعادة والبعث.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، قال سعيد بن جبير ومجاهد: الزبور جميع الكتب المنزلة، والذكر أمّ الكتاب الذي عنده، والمعنى من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ. قال ابن عباس والضحاك: الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة. وقال الشعبي: الزبور كتاب داود، والذكر التوراة. وقيل: الزبور زبور داود والذكر القرآن، وبعد بمعنى قبل، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]: أي أمامهم، ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] أي: قبله، ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾، يعني أرض الجنة، ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، قال مجاهد: يعني أمة محمد ﷺ دليله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤] وقال ابن عباس: أراد أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز المسلمين. وقيل: أراد بالأرض الأرض المقدسة.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾، أي في هذا القرآن، ﴿لَبَلَٰغًا﴾، وصولاً إلى البغية أي من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجو من الثواب. وقيل: بلاغاً أي كفاية. يقال في هذا الشيء بلاغ وبُلغة أي كفاية، والقرآن زادُ الجنةِ كبلاغ المسافر، ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾، أي مؤمنين الذين يعبدون الله [عزّ وجلّ]. وقال ابن عباس: عالمين. قال كعب الأحبار: هم أمة محمد ﷺ أهل الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن زيد: يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم. وقال ابن عباس: هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمةٌ له في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم.

وقد قال النبي ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مهداة».

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي أسلموا.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾، أي أعلمتكم بالحرب وأنْ لا صلح بيننا، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، يعني إنذار بينٌ يستوى في علمه لا أستيذاناً به دونكم لتتأهبوا لما يُراد بكم، يعني آذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به، وقيل لتستووا في الإيمان به، ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾، يعني وما أعلم. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، يعني القيامة.

﴿١١٠﴾ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾، يعني لعل تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور، ﴿فِتْنَةٌ﴾، اختبار، «لكم»، ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، يعني تتمتعون إلى انقضاء آجالكم.

﴿١١٢﴾ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ قرأ حفص عن عاصم: «قال رب احكم»، وقرأ الآخرون: «قل رب احكم» يعني أفصل بيني وبين من كذبني بالحق، فإن قيل كيف قال احكم بالحق [والله لا يحكم إلا بالحق]؟ قيل: الحق ههنا بمعنى العذاب كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يومَ بدر، نظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال أهل المعاني: معناه رب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه، والله تعالى يحكم بالحق طُلب منه أو لم يُطلب، ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، من الكذب والباطل.

* * *

سورة الحج

مكية [غير آيات من قوله]: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [١٩ ـ ٢٥] [إلى قوله ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: احذروا عقابه بطاعته، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، والزلزلة والزِّلْزال شدة الحركة على الحالة الهائلة، واختلفوا في هذه الزلزلة، فقال علقمة والشعبي: هي من أشراط الساعة. قيل: قيام الساعة. وقال الحسن والسدي: هذه الزلزلة تكون يوم القيامة. وقال ابن عباس: زلزلة الساعة قيامها فتكون معها.

(٢) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾، يعني الساعة، وقيل: الزلزلة، ﴿تَذْهَلُ﴾ قال ابن عباس: تشغل، وقيل: تنسى، يقال: ذهلت عن كذا إذا تركته واشتغلت بغيره عنه. ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾، أي: كل امرأة معها ولد ترضعه، يقال: امرأة مرضع بلا هاء إذا أريد به الصفة مثل حائض وحامل، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم، قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل. ومن قال: تكون في القيامة، قال هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته، كقولهم: أصابنا أمر يشيب منه الوليد يريد به شدته. ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، قرأ حمزة والكسائي «سكرى وما هم بسكرى» بلا ألف وهما لغتان في جمع السكران مثل كسلى وكسالى، قال الحسن: معناه وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب. وقيل: معناه وترى الناس كأنهم سكارى، ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن [محمد بن] محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أنا إبراهيم بن عبدالله بن عمر بن بكير الكوفي العبسي، أنا وكيع عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجلّ يوم القيامة: يا آدم قم فابعث بَعْثَ النار، قال فيقول: لبيك وسعديك والخير [كله] في يديك، يا رب وما بعث النار؟ قال: فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فحينئذٍ يشيب المولود وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، قال: فيقولون: وأينا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد» [قال] فقال الناس: الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله [إني] لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، قال: فكبر الناس، فقال رسول الله ﷺ: ما أنتم يومئذٍ في الناس إلا كالشعرة البيضاء

في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض».

وروي عن عمران بن حصين، وأبي سعيد الخدري، وغيرهما: أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة [تبوك وقيل في] غزوة بني المصطلق ليلاً فنادى منادي رسول الله ﷺ فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله ﷺ، فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدراً، والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله عزّ وجلّ لآدم قم فابعث بعث النار من ولدك، قال: فيقول آدم: من كل كم؟ فيقول الله عزّ وجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة، قال: فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا: فمن ينجوا إذاً يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلاّ كثرتاه يأجوج ومأجوج، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتي، وما المسلمون في الكفار إلا كالشامة في جنب البعير وكالرقمة في الذراع الدابة، بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب، فقال عمر: سبعون ألفاً؟ قال: نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: أنت منهم، [أو قال: اللهم اجعله منهم]، فقام رجل [من الأنصار] [فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم] فقال رسول الله ﷺ: سبقك بها عكاشة».

﴿٣﴾ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، نزلت في النضر بن الحارث، كان كثير الجدل وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً. قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: ويتبع في جداله في الله بغير علم، ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾، والمريد المتمرد الغالي العاتي والمستمر في الشر.

﴿٤﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، أي: قُضِيَ على الشيطان، ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ﴾، يعني الشيطان: ﴿يُضِلُّهُۥ﴾، أي: يضل من تولاه، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال:

﴿٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾، يعني: في شك، ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾، يعني: أباكم آدم الذي هو أصل النسل، ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: ذريته والنطفة هي المني وأصلها الماء القليل وجمعها نطاف، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، وهي الدم الغليظ المتجمد الطري، وجمعها علق، وذلك أن النطفة تصير دماً غليظاً ثم تصير لحماً، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾، وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال ابن عباس وقتادة: مخلّقة أي تامة الخلق، وغير مخلّقة غير تامة أي ناقصة الخَلْق. وقال مجاهد: مصورة وغير مصورة، يعني السقط. وقيل: «المخلّقة» الولد الذي تأتي به المرأة لوقته، وغير «المخلقة» السقط.

وروي عن علقمة عن عبدالله بن مسعود قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه وقال: أي ربِّ مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة قذفها الرحم دماً ولم تكن نسمة، وإن قال مخلقة، قال الملك: أي ربِّ أذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ ما العمل ما الأجل ما الرزق وبأي أرض تموت؟ فيقال له: اذهب إلى أمِّ الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك، فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة. وقيل: لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه في العبادة، ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾، فلا تمجه ولا تسقطه، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، إلى وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي: صغاراً، ولم يقل أطفالاً، لأن العرب تذكر الجمع باسم الواحد. وقيل: تشبيهاً بالمصدر مثل عدل وزور. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾

الجزء السابع عشر — سورة الحج

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

٣٣٢

يعني: الكمال والقوة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، من قبل بلوغ الكبر، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي: الهرم والخرف، ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، أي: يبلغ من السن ما يتغير عقله فلا يعقل شيئاً ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، أي: يابسة لا نبات فيها، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾، المطر، ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾، تحركت بالنبات وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها، ﴿وَرَبَتْ﴾، أي: ارتفعت وزادت، وقرأ أبو جعفر: «وربأت» بالهمزة، وكذلك في حم السجدة أي: ارتفعت وعلت، قال المبرد: أراد اهتزت بإنباتها فحذف المضاف، والاهتزاز في النبات أظهر، يقال: اهتز النبات أي: طال وإنما أنث لذكر الأرض. وقيل: فيه تقديم وتأخير معناه: ربت واهتزت، ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، أي: صنف حسن يبهج به من رآه أي: يسر، فهذا دليل آخر على البعث.

﴿٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: لتعلموا أن الله هو الحق، ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، يعني: النضر بن الحارث، ﴿وَلَا هُدًى﴾، بيان ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿٩﴾ ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ [أي]: متبختراً لتكبره. قال مجاهد وقتادة: لاوي عنقه. قال عطية وابن زيد: معرضاً عما يدعى إليه تكبراً. قال ابن جريج: يعرض عن الحق تكبراً. والعطف: الجانب، وعِطْفا الرجل: جانباه عن يمين وشمال وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عن دين الله، ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾، عذاب وهوان هو القتل ببدر، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط يوم بدر صبراً. ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿١٠﴾ ويقال له: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فيعذبهم بغير ذنب وهو جل ذكره على أيّ وجه شاء تصرف في عبيده، فحكمه عدل وهو غير ظالم.

﴿١١﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله، قال: هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأن إليه، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه وقلّ ماله قال: ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شراً فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، أكثر المفسرين قالوا على شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذي [القائم] عليه غير مستقر، قيل للشاك في الدين أنه يعبدالله على حرف لأنه على طرف وجانب من الدين لم يدخل فيه على الثبات والتمكن وأصله كالقائم على حرف الجبل مضطرب غير مستقر، يعرض أن يقع في أحد جانبي الطرف لضعف قيامه، ولو عبدوا الله في الشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف، قال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه

دون قلبه. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾، صحة في جسمه وسعة في معيشته، ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾، أي: رضي وسكن إليه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾، بلاء في جسده، وضيق في معيشته، ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني هذا الشاك خسر الدنيا بفوات ما كان يؤمله، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، بذهاب الدين والخلود في النار. قرأ يعقوب «خاسر» بالألف «والآخرة» جرٌّ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [أي]: الظاهر.

(١٢) ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾، إن عصاه ولم يعبده، ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، إن أطاعه وعبده، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [يعني البعيد] عن الحق والرشد.

(١٣) ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾، هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة أولها قالوا قد قال الله في الآية السابقة ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ وقال ههنا: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فكيف التوفيق بينهما؟ قيل قوله في الآية الأولى ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ أي: لا يضره ترك عبادته، وهو قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: ضر عبادته، فإن قيل: قد قال: «لمن ضره أقرب من نفعه» ولا نفع في عبادة الصنم أصلاً؟ قيل: هذا على عادة العرب فإنهم يقولون لِما لا يكون أصلاً بعيد، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أي: لا رجع أصلاً، فلما كان نفع الصنم بعيداً على معنى أنه لا نفع فيه أصلاً، قيل: ضره أقرب من نفعه، لأنه كائن. السؤال الثالث: قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ما وجه هذه اللام؟ اختلفوا فيه فقال بعضهم: هي صلة، مجازها «يدعو من ضره أقرب»، وكذلك قرأها ابن مسعود وقيل: «لم ضره أي إلى الذي ضره أقرب من نفعه. وقيل: يدعو بمعنى يقول، والخبر محذوف أي يقول لمن ضره أقرب من نفعه هو إله. وقيل: معناه يدعو لمن ضره أقرب من نفعه يدعو، فحذف يدعو الأخيرة اجتزاء بالأولى ولو قلت يضرب لمن خيره أكثر من شره يضرب، ثم يحذف الأخيرة جاز. وقيل: على التوكيد معناه يدعو والله لَمَنْ ضره أقرب من نفعه. وقيل: ﴿يَدْعُوا۟ مِن﴾ صلة قوله ذلك هو الضلال البعيد يقول ذلك هو الضلال البعيد يدعو، ثم استأنف فقال: «لمن ضره أقرب من نفعه» فيكون ﴿مَن﴾ في محل رفع بالابتداء وخبره، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: أي: الناصر. وقيل: المعبود. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، أي: الصاحب والمخالط يعني الوثن، والعرب تسمي الزوج عشيراً لأجل المخالطة.

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾، يعني نبيه محمداً ﷺ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾، أي: بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بالسماء سقف البيت على قول الأكثرين، أي: ليشد حبلاً في سقف بيته فليختنق به حتى يموت، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ الحبل بعد الاختناق. وقيل: «ثم ليقطع» أي ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾، صنعه وحيلته، ﴿مَا يَغِيظُ﴾ «ما» بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنّ كيده وحيلته غيظه، معناه: فليختنق غيظاً حتى يموت، وليس هذا على سبيل الحتم أن يفعله لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق الموت، ولكنه كما يقال للحاسد: إن لم ترض هذا فاختنق ومت غيظاً.

وقال ابن زيد: المراد [من السماء] السماء المعروفة، ومعنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله، فإن أصله من السماء فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبي ﷺ الوحي الذي يأتي من السماء فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل.

وروي أن هذه الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود حلف، فقالوا: لا يمكننا أن نسلم لأنا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود، فلا يميروننا ولا يأووننا فنزلت هذه الآية .

وقال مجاهد: النصر بمعنى الرزق والهاء راجعة إلى «من» ومعناه من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، نزلت فيمن أساء الظن بالله عزّ وجلّ وخاف ألا يرزقه الله، فليمدد بسبب إلى السماء أي إلى سماء البيت، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، وهو خيفة أن لا يرزق، وقد يأتي

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

النصر بمعنى الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله، قال أبو عبيدة: تقول العرب: أرض منصورة، أي ممطورة، قرأ أبو عمرو، ونافع، وابن عامر، ويعقوب «ثم ليقطع»، «ثم ليقضوا» بكسر اللام، والباقون بجزمها لأن الكل لام الأمر، زاد ابن عامر ﴿وليوفوا نذورهم وليطوفوا﴾ [الحج: ٢٩] بكسر اللام فيهما، ومن كسر في «ثم ليقطع» وفي: «ثم ليقضوا» فرق بأن ثم مفصول من الكلام، والواو كأنها من نفس الكلمة كالفاء في قوله: «فلينظر».

﴿١٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك يعني: ما تقدم من آيات القرآن، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، يعني: القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾، يعني: عبدة الأوثان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، يحكم بينهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ألم تعلم، وقيل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها. وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه. وقيل: سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له كما أخبر الله تعالى عن السموات والأرض ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال في وصف الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذا مذهب حسن موافق [لقول أهل] السنة. قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: من هذه الأشياء كلها تسبح الله عزّ وجلّ «وكثير من الناس» يعني المسلمين. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، وهم الكفار لكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عزّ وجلّ والواو في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، واو الاستئناف. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ أي: يهنه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: من يذله الله فلا يكرمه أحد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته. قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: جادلوا في دينه وأمره، والخصم اسم شبيه بالمصدر، فلذلك قال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ بلفظ الجمع كقوله: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، واختلفوا في هذين الخصمين.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا يعقوب بن إبراهيم، أنا هشيم، أنا أبو هاشم عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذر يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة، وشيبة ابني أبي ربيعة، والوليد بن عتبة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا حجاج بن منهال، ثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعتُ أبي قال أنا أبو مجلز، عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة،

قال قيس وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

قال محمد بن إسحاق خرج - يعني يوم بدر - عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وعبدالله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، فقالوا حين انتسبوا: أكفاء كرام، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبدالمطلب ويا علي بن أبي طالب، فلما دنوا قالوا من أنتم؟ فذكروا فقالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وعليٌّ الوليدَ بن عتبة، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه، وقد قطعت رجله ومخها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟ قال: «بلى»، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً فعلم، أنا أحق بما قال منه حيث يقول:

ونسلمه حتى نصرع حوله
ونذهب عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس وقتادة: نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد ﷺ ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربهم.

وقال مجاهد: وعطاء بن أبي رباح والكلبي: هم المؤمنون والكافرون كلهم من أي ملة كانوا. وقال بعضهم: جعل الأديان ستة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٦٩] الآية فجعل خمسة للنار وواحداً للجنة.

(١٩) فقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ ينصرف إليهم فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم. وقال عكرمة: هما الجنة والنار اختصمتا كما:

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا أبو بكر القطان، أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجّتِ الجنةُ والنارُ فقالت النار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالتِ الجنةُ فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرّتهم؟ قال الله عزّ وجلّ للجنة: إنما أنت رحتمي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله فيها رجله فتقول قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عزّ وجلّ ينشىء لها خلقاً» ثم بيّن الله عزّ وجل ما للخصمين فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حراً منه وسُمي باسم الثياب لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب. وقال بعضهم: يلبس أهل النار مقطعات من نار، ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ والحميم: هو الماء الحار الذي انتهت حرارته.

(٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يذاب بالحميم، ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ [من الأمعاء] يقال: صهرت الإلية والشحم بالنار إذا أذبتهما، أصهرها صهراً، معناه يذاب بالحميم الذي يصبّ من فوق رؤوسهم حتى يسقط ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء، ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: يشوي حرها جلودهم [وما في بطونهم] فتتساقط.

أخبرنا أبو بكر [محمد بن عبدالله بن أبي توبة، حدثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم] بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك، عن سعيد بن زيد، عن أبي السمح، عن ابن حجيرة واسمه عبدالرحمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى

الجزء السابع عشر — سورة الحج

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان».

﴿٢١﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، سياط من حديد واحدتها مقمعة، قال الليث: المقمعة شبه الجرز من الحديد، من قولهم: قمعت رأسه إذا ضربته ضرباً عنيفاً.

وفي الخبر: «لو وضع مقمع من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض».

﴿٢٢﴾ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾، يعني: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، يعني: ردوا إليها بالمقامع. وفي التفسير: إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفاً. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: تقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق، أي: المحرق مثل الأليم والوجيع، قال الزجاج: هؤلاء أحد الخصمين. وقال في الآخر هم المؤمنون.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، جمع سوار، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم «ولؤلؤاً» ههنا وفي سورة الملائكة [فاطر: ٣٣] بالنصب وافق يعقوب ههنا على معنى ويحلون لؤلؤاً، ولأنها مكتوبة في المصاحف بالألف، وقرأ الآخرون بالخفض عطفاً على قوله: «من ذهب» وترك الهمزة الأولى في كل القرآن أبو جعفر وأبو بكر، واختلفوا في وجه إثبات الألف فيه، فقال أبو عمرو: أثبتوها فيها كما أثبتوا في: قالوا وكانوا، وقال الكسائي: أثبتوها للهمزة، لأن الهمزة حرف من الحروف ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: أنهم يلبسون في الجنة ثياب الإبريسم وهو الذي حرم لبسه في الدنيا على الرجال.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا شعبة عن قتادة، عن داود السراج، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه الله إيّاه في الآخرة، فإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو».

﴿٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، قال ابن عباس: هو شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن زيد: لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله. وقال السدي: أي القرآن. وقيل: هو قول أهل الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] هدوا إلى صراط الحميد، إلى دين الله وهو الإسلام، والحميد هو الله المحمود في أفعاله [وأقواله].

﴿٢٥﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عطف المستقبل على الماضي لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٧]، وقيل: معناه إن الذين كفروا فيما تقدم، ويصدون عن سبيل الله في الحال، أي: وهم يصدون. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: ويصدون عن المسجد الحرام. ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾، قبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً كما قال: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦]. ﴿سَوَآءً﴾، قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: «سواء» نصباً بإيقاع الجعل عليه [لأن الجعل] يتعدى إلى مفعولين. وقيل: معناه مستوياً فيه، ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبر، وتمام الكلام عند قوله ﴿لِلنَّاسِ﴾ وأراد بالعاكف: المقيم

فيه، وبالبادي الطارىء المنتاب إليه من غيره، واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم «سواء العاكف فيه والباد» يعني في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه، وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة، وقالوا: المراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية: هو التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت، وقال آخرون المراد منه جميع الحرم، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول به، ليس أحدهما بأحق بالمنزل يكون فيه من الآخر غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل. قال عبدالرحمن بن سابط: كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم.

وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وعلى القول الأول ـ وهو الأقرب إلى الصواب ـ يجوز، لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

فنسب [الديار إليهم نسبة] ملك، واشترى عمر داراً للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم، فدل على جواز بيعها، وهذا قول طاووس وعمر بن دينار، وبه قال الشافعي. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾ أي: في المسجد الحرام ﴿بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ وهو الميل إلى الظلم، والباء في قوله: ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ زائدة كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومعناه من يرد فيه إلحاداً بظلم، قال الأعشى: ضمنت برزق عيالنا أرماحنا، أي: رزق عيالنا. وأنكر المبرد أن تكون الباء زائدة وقال: معنى الآية من تكن إرادته فيه أن يلحد بظلم. واختلفوا في هذا الإلحاد فقال مجاهد وقتادة: هو الشرك وعبادة غير الله. وقال قوم: هو كل شيء كان منهياً عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم. وقال عطاء: هو دخول الحرم غير محرم، أو ارتكاب شيء من محظورات الإحرام من قتل صيد، أو قطع شجر. وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم من لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك. وعن مجاهد أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات. وقال حبيب بن أبي ثابت: هو احتكار الطعام بمكة. وقال عبدالله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، قال: لو أن رجلا همّ بخطيئة لم تكتب عليه، ما لم يعملها، ولو أن رجلاً همّ بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم. قال السدي: إلا أن يتوب. وروي عن عبدالله بن عمر[و] أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فسئل عن ذلك فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله.

(٢٦) قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، أي: وطّأنا، وقال ابن عباس: جعلنا. وقيل: بينا. قال الزجاج: جعلنا مكان البيت مبوءاً لإبراهيم. وقال مقاتل بن حيان: هيأنا. وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء في زمن الطوفان، ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت لم يدر أين يبني فبعث الله ريحاً خجوجاً فكنست له ما حول البيت على الأساس. وقال الكلبي: بعث الله سحابةً بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابنِ على قدري فبنى عليه. قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ أي: عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له لا تشرك بي شيئاً، ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، أي: الذين يطوفون بالبيت [من دنس الذنوب]، ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾ أي: المقيمين، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، أي: المصلين.

(٢٧) ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: أعلم ونادِ في الناس، ﴿بِٱلۡحَجِّ﴾، فقال إبراهيم وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذان وعلينا البلاغ، فقام إبراهيم على المقام فارتفع [به] المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى لكم بيتاً فكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه كل من كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: لبيك

اللهم لبيك، قال ابن عباس: فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً.

وروي أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى. وقال ابن عباس عنى بالناس في هذه الآية أهل القبلة، وزعم الحسن أن قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ كلام مستأنف وإن المأمور بهذا التأذين محمد ﷺ أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا».

قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، أي: مشاة على أرجلهم جمع راجل، مثل قائم وصائم وصيام، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾، أي: ركباناً على كل ضامر، والضامر: البعير المهزول. ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل طريق بعيد، وإنما جمع يأتين لمكان «كل» أراد النوق.

(٢٨) ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾، ليحضروا، ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، قال سعيد بن المسيب ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة. وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس، قال الأسواق. قال مجاهد: التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة. ﴿وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾، يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين. قيل: لها معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. ويروى عن علي رضي الله عنه: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق. وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، يعني الهدايا والضحايا تكون من النعم، وهي الإبل والبقر والغنم. واختار الزجاج أن الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق [لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها]، ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة وليس بواجب، وإنما قال ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً، واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لِما:

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبدالله قال في قصة حجة الوداع: وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بدنة بيده ونحر علي ما بقي، ثم أمر النبي ﷺ أن تؤخذ بضعة من كل بدنة فتجعل في قدر، فأكلا من لحمها وحسيا من مرقها.

واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئاً؟ مثل دم التمتع والقِرَان والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد؟ فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئاً وبه قال الشافعي، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر، وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر، ويأكل مما سوى ذلك، وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور، وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتع والقِرَان ولا يأكل من واجب سواهما. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، يعني: الزَّمِن الفقير الذي لا شيء له والبائس الذي اشتد بؤسه، والبؤس شدة الفقر.

(٢٩) ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، التفث: الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار والشعث، تقول العرب لمن تستقذره: ما أتفثك، أي أوسخك. والحاج أشعث أغبر أي: لم يحلق شعره ولم يقلم ظفره، فقضاء التفث: إزالة هذه الأشياء ليقضوا تفثهم، أي: يزيلوا أدرانهم، والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق، وقص الشارب، ونتف الإبط، والاستحداد، وقلم الأظفار، ولبس الثياب. قال ابن عمر وابن عباس: «قضاء التفث»: مناسك الحج كلها. وقال مجاهد: هو مناسك الحج، وأخذ الشارب ونتف الإبط، وحلق العانة، وقلم الأظفار. وقيل: التفث ههنا رمي الجمار. قال الزجاج: لا نعرف التفث ومعناه إلا

من القرآن. قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قال مجاهد: أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي: ليتموها بقضائها. وقيل: المراد منه الوفاء بما نذر على ظاهره. وقيل: أراد به الخروج عما وجب عليه نذر ولم ينذر. والعرب تقول لكل من خرج عن الواجب عليه وَفّى بنذره. وقرأ عاصم برواية أبي بكر «وليوفوا» بنصب الواو وتشديد الفاء، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، أراد به الطواف الواجب عليه وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق، والطواف ثلاثة، طواف القدوم، وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعاً يرمل ثلاثاً من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعاً، وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أحمد هو ابن عيسى، أنا ابن وهب، أنا عمرو بن الحارث، عن محمد بن عبدالرحمن بن نوفل القرشي [أنه] سأل عروة بن الزبير فقال: قد حج النبي ﷺ فأخبرتني عائشة أنه أول شيء بدأ به حين قدم أنه توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة، ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة، ثم عمر مثل ذلك، ثم حج عثمان فرأيته أول شيء بدأ به الطواف بالبيت.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا أنس بن عياض عن موسى بن عقبة، عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ «أنه كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم يسعى ثلاثة أطواف ويمشي أربعاً ثم يصلي سجدتين ثم يطوف بين الصفا والمروة سبعاً».

والطواف الثاني هو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق، وهو واجب لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأتِ به.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عمر بن حفص، ثنا أبي، أنا الأعمش، أنا إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: حاضت صفية ليلة النفر فقالت: ما أراني إلا حابستكم قال النبي ﷺ: «عقرىٰ حلقىٰ» أطافت يوم النحر؟ قيل: نعم، قال: فانفري».

فثبت بهذا أن [من] لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر، والطواف الثالث هو طواف الوداع لا رخصة فيه لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعاً، فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع.

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان عن سليمان الأحول، عن طاوس عن ابن عباس قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت إلا أنه رخّص للمرأة الحائض». والرمل مختص بطواف القدوم، ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع.

قوله: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ اختلفوا في معنى العتيق، قال ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وقتادة: سمي عتيقاً لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه، فلم يظهر عليه جبار قط. قال سفيان بن عُيَيْنَة: سمي عتيقاً لأنه لم يُملك قطُّ، وقال الحسن وابن زيد: سُمي به لأنه قديم وهو أول بيت وضع للناس، يقال: دينار عتيق أي قديم، وقيل: سمّي عتيقاً لأن الله أعتقه من الغرق، فإنه رفع أيام الطوفان.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، يعني ما ذكر من أعمال الحج، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي معاصي الله وما نهى [الله] عنه، وتعظيمها ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات ههنا: المناسك بدليل ما يتصل بها. من الآيات. وقال ابن زيد: الحرمات ههنا البيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام، والإحرام. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، أي: تعظيم الحرمات، خير له عند الله في الآخرة. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، أن تأكلوها إذا ذبحتموها وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿إِلَّا مَا

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، تحريمه، وهو قوله في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]، الآية، ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي: عبادتها، يقول كونوا على جانب منها فإنها رجس، أي: سبب الرجس، وهو العذاب، والرجس: بمعنى الرجز. وقال الزجاج: «من» هٰهنا للتجنيس أي: اجتنبوا الأوثان التي هي رجس، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾، يعني: الكذب والبهتان. وقال ابن مسعود: شهادة الزور.

وروي أن النبي ﷺ قام خطيباً فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله»، ثم قرأ هذه الآية.

وقيل: هو قول المشركين في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

(٣١) ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، مخلصين له، ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾، قال قتادة: كانوا في الشرك يحجون، ويحرمون البنات والأمهات والأخوات، وكانوا يُسمون حنفاء، فنزلت: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: حجاجاً لله مسلمين موحدين يعني: مَنْ أشرك لا يكون حنيفاً. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾، أي: سقط، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، إلى الأرض، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أي: تستلبه الطير وتذهب به، والخطف والاختطاف تناول الشيء بسرعة، وقرأ أهل المدينة «فتخطّفه» بفتح الخاء وتشديد الطاء، أي: يتخطفه، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، أي: تميل وتذهب به، ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي بعيد، معناه أن بعد من أشرك بالحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير، أو هوت به الريح، فلا يصل [إليه] بحال. وقيل: شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تُسقطه الريح، فهو هالك لا محالة إما باستلاب الطير لحمه وإما بسقوطه إلى المكان السحيق، وقال الحسن: شبه أعمال الكفار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها.

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾، يعني الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، قال ابن عباس: «شعائر الله» البُدْن والهدي، وأصلها من الإشعار، وهو إعلامها ليعرف أنها هدي، وتعظيمها استسمانها واستحسانها، وقيل: «شعائر الله» أعلام دينه، فإنها من تقوى القلوب، أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في البدن قبل تسميتها للهدي، ﴿مَنَٰفِعُ﴾، في درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وهو أن يسميها ويوجبها هدياً فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها، هذا قول مجاهد، وقتادة والضحاك، ورواه مقسم عن ابن عباس. وقيل: معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدياً بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة «إلى أجل مسمى»، يعني إلى أن تنحروها، وهو قول عطاء بن أبي رباح، واختلف أهل العلم في ركوب الهدي، فقال قوم: يجوز له ركوبها والحمل عليها غير مضر بها، وهو قول مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، لما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا أبو علي زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال [له] «اركبها»، فقال [يا رسول الله] إنها بدنة، فقال: اركبها، ويلك، في الثانية أو الثالثة» وكذلك قال له: «اشرب لبنها بعدما فضل عن ريّ ولدها».

وقال أصحاب الرأي: لا يركبها.

وقال قوم: لا يركبها إلا أن يضطر إليه. وقال بعضهم: أراد بالشعائر: المناسك ومشاهدة مكة، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ بالتجارة والأسواق ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وهو الخروج من مكة. وقيل: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ بالأجر والثواب في قضاء المناسك ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى انقضاء أيام الحج، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: منحرها عند البيت العتيق، يريد أرض الحرم كلها، كما قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨] أي: الحرم كله.

وروي عن جابر في قصة حجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال: «نحرتُ ههنا ومِنًى كلها منحر فانحروا في رحالكم».

ومن قال «الشعائر» المناسك قال معنى قوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: أن يطوفوا به طواف الزيادة يوم النحر.

﴿٣٤﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، يعني جماعة مؤمنة سلفت قبلكم، ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، قرأ حمزة والكسائي بكسر السين ههنا وفي آخر السورة، على معنى الاسم مثل المجلس والمطلع، يعني مذبحاً وهو موضع القربان، وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر، مثل المدخل والمخرج، يعني إراقة الدماء وذبح القرابين، ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، عند نحرها وذبحها، وسماها بهيمة لأنها لا تتكلم، وقال: ﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وقيدها بالنَّعم لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير، لا يجوز ذبحها في القرابين. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: سموا على الذبائح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد، ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾، انقادوا وأطيعوا، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، قال ابن عباس وقتادة: المتواضعين. قال مجاهد: المطمئنين إلى الله عزّ وجلّ، والخبت المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعين. وقال النخعي: المخلصين. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

﴿٣٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾، من البلاء والمصائب، ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: المقيمين للصلاة في أوقاتها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: يتصدقون.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾، جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها، يريد: الإبل العظام الصحاح الأجسام، يقال بَدُنَ الرجل بدناً وبدانةً إذا ضخم، فأما إذا أسنّ واسترخى يقال بدن تبديناً. قال عطاء والسدي: البُدن الإبل والبقر أما الغنم لا تسمى بدنة. ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، من أعلام دينه، سُميت شعائر لأنها تشعر، وهو أن تُطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، النفع في الدنيا والأجر في العقبى، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، أي: عند نحرها، ﴿صَوَآفَّ﴾، أي: قياماً على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها، ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالله بن مسلمة، أنا يزيد بن زريع، عن يونس، عن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها، قال: ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ.

وقال مجاهد: الصواف إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث [قوائم]، وقرأ ابن مسعود «صوافن» وهي أن تعقل منها يد وتنحر على ثلاث، وهو مثل صواف، وقرأ أُبي والحسن ومجاهد: «صوافي» بالياء أي: صافية خالصة لله لا شريك له فيها، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، يعني: سقطت بعد النحر ووقعت جنوبها على الأرض، وأصل الوجوب: الوقوع. يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، أمر إباحة، ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، اختلفوا في معناها، فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة: «القانع» الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يُعطي ولا يسأل، و«المعترّ» الذي يسأل. وروى العوفي عن ابن عباس: القانع الذي لا يتعرض ولا يسأل، والمعتر الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل، فعلى هذين التأويلين يكون القانع من

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

القناعة، يقال: قنع قناعة إذ رضي بما قُسم له. وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي: القانع الذي يسأل، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل، فيكون القانع من قنع يقنع قنوعاً إذا سأل. وقرأ الحسن «والمعتري» وهو مثل المعتر، يقال: عره واعتره وعراه واعتراه إذا أتى يطلب معروفه، إمّا سؤالاً وإما تعرضاً. وقال ابن زيد: «القانع»: المسكين، و«المعتر»: الذي ليس بمسكين، ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني: مثل ما وصفنا من نحرها قياماً، ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، نعمة منا لتتمكنوا من نحرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، لكي تشكروا إنعامي عليكم.

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾، وذلك أن [أهل] الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ قرأ يعقوب «تنال وتناله» بالتاء فيهما، وقرأ العامة بالياء، قال مقاتل: لن يُرفع إلى الله لحومُها ولا دماؤها، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، ولكن تُرفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى، والإخلاص وما أريد به وجه الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾، يعني: البدن، ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، وهو أن يقول [أحدكم]: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال ابن عباس: الموحدين.

(٣٨) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة «يدفع»، وقرأ الآخرون «يدافع» بالألف، يريد يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم من المؤمنين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، يعني: خوان في أمانة الله كفور لنعمته، قال ابن عباس: خانوا الله فجعلوا معه شريكاً وكفروا نِعَمه. قال الزجاج: من تقرب إلى الأصنام بذبيحته وذكر عليها اسم غير الله فهو خوان كفور.

(٣٩) ﴿أُذِنَ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم: «أُذن» بضم الألف والباقون بفتحها، أي: أذن الله، ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص «يقاتَلون» بفتح التاء يعني المؤمنين الذين يقاتلهم المشركون، وقرأ الآخرون بكسر التاء يعني الذين أذن لهم بالجهاد ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ المشركين.

قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجلّ هذه الآية، وهي أول آية أَذِنَ الله فيها بالقتال ونزلت هذه الآية بالمدينة. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا يمنعون [من الهجرة إلى رسول الله] فأذِنَ اللَّهُ لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة، ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾، يعني: بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

(٤٠) ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، بدل من الذين الأولى ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، يعني: لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم ربنا الله وحده، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، بالجهاد وإقامة الحدود، ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾، قرأ أهل المدينة بتخفيف الدال وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير فالتخفيف يكون للقليل والكثير والتشديد

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)

٣٣٨

يختص بالكثير، ﴿صَوَامِعُ﴾، قال مجاهد والضحاك: يعني صوامع الرهبان. وقال قتادة: صوامع الصابئين، ﴿وَبِيَعٌ﴾، يعني: بيع النصارى جمع بيعة وهي كنيسة النصارى، ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾، يعني كنائس اليهود، ويسمونها بالعبرانية صلوتا، ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، يعني مساجد المسلمين من أمة محمد ﷺ، ومعنى الآية: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض [بالمجاهدة وإقامة شرائع كل ملة] لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البيع والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد. وقال ابن زيد: أراد بالصلوات صلوات أهل الإسلام فإنها لا تنقطع إذا دخل العدو عليهم. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، يعني: ينصر دينه ونبيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

(٤١) ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، قال الزجاج: هذا من صفة ناصريه ومعنى «مكناهم في الأرض»: نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا في البلاد، قال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ. قال الحسن: هذه الأمة ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، يعني: آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه، يعني يبطل كل ملك سوى ملكه، فتصير الأمور [كلها] إليه بلا منازع ولا مدع.

(٤٢) قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، يعزي نبيه ﷺ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، يعني: أمهلتهم وأخرت عقوبتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، عاقبتهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، يعني: إنكاري، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوف به من يُخالِفُ النبيَّ ﷺ ويكذبه.

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّن﴾، فكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا﴾، بالتاء، هكذا قرأ أهل البصرة ويعقوب، وقرأ الآخرون «أهلكناها» بالنون والألف على التعظيم، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، يعني: وأهلها ظالمون، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، على سقوفها، ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾: يعني وكم بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، قال قتادة والضحاك ومقاتل: رفيع طويل، من قولهم شاد بناءه إذا رفعه. وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: مجصّص من الشيد، وهو الجص. قيل: إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن، أما القصر فعلى قلة جبل، والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله، وبقي البئر والقصر خاليين. وروى أبو روق عن الضحاك: أن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح، نجوا من العذاب، أتوا حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح، فسمي حضرموت، لأن صالحاً لما حضره [الموت] مات فبنوا [القرية وسميت] حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، ثم إنهم عبدوا الأصنام وكفروا [بخالق الأرض والسماوات] فأرسل الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان، وكان حمالاً فيهم، فقتلوه في السوق فأهلكهم الله، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم.

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني: كفار مكة، فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، يعني: ما يذكر لهم من أخبار

القرون الماضية فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا﴾، الهاء عماد، ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، ذكر التي في الصدور تأكيداً كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] معناه أن العمى الضار هو عمى القلب، فأمّا عمى البصر فليس بضار في أمر الدين، قال قتادة: البصر الظاهر: بلغة ومتعة، وبصر القلب: هو البصر النافع.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فأنجز ذلك يوم بدر. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: يعدون بالياء ههنا لقوله: «يستعجلونك»، وقرأ الباقون بالتاء لأنه أعم، ولأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين واتفقوا في تنزيل السجدة [٥] أنه بالتاء، قال ابن عباس: يعني يوماً من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وقال مجاهد وعكرمة: يوماً من أيام الآخرة، والدليل عليه ما رُوي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقداره خمسمائة سنة».

قال ابن زيد: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هذه أيام الآخرة. وقوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] يوم القيامة. والمعنى على هذا: أنهم يستعجلون بالعذاب في الدنيا، وإن يوماً من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة.

وقيل: معناه وإن يوماً من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدة كألف سنة مما تعدون، فكيف تستعجلونه؟ هذا كما يقال: أيام الهموم طوال، وأيام السرور قصار.

وقيل: معناه إن يوماً عنده وألف سنة في الإمهال سواء، لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير، فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾، يعني أمهلتها، ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، الرزق الكريم: الذي لا ينقطع أبداً. وقيل: هو الجنة.

﴿٥١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، يعني عملوا في إبطال آياتنا، ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «معجّزين» بالتشديد ههنا وفي سورة سبأ [٥] يعني مثبطين الناس عن الإيمان، وقرأ الآخرون «معاجزين» بألف أي يعني معاندين مشاقين.

وقال قتادة: معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، معنى يعجزوننا، أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وقيل: معاجزين مغالبين يريد كل واحد أن يُظهر عجز بصاحبه.

﴿٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، الآية.

قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين: لما رأى رسول الله ﷺ تولّيَ قومه عنه وشقّ عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تمنّى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم، فكان يوماً في مجلس لقريش فأنزل الله تعالى سورة والنجم فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه بما كان يحدث به نفسه ويتمناه: «تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجى»، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله ﷺ في قراءته، فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلاّ سجد إلاّ الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها، لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود،

وتفرقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عزّ وجلّ، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كبيراً فأنزل الله هذه الآية يعزيه، وكان به رحيماً، وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي ﷺ وبلغهم سجود قريش. وقيل: [قد] أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم، وقالوا: هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفياً، فلما نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك، وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه، وشدة على من أسلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً، ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ وهو الذي تكون نبوته إلهاماً أو مناماً، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾، قال بعضهم: أي: أحب شيئاً واشتهاه وحدّث به نفسه مما لم يؤمر به ألقى الشيطان في أمنيته يعني مراده. وعن ابن عباس قال: إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلاً، وما من نبي إلا تمنى أن يؤمن به قومه يتمنّ ولم يتمنى ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه فينسخ الله ما يلقي الشيطان. وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني تلا وقرأ كتاب الله تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يعني في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنّى كتابَ الله أوّلَ ليلةٍ ... وآخرها لاقى حمامَ المقادر

(٥٣) واختلفوا في أنه هل كان يقرأ في الصلاة أو في غير الصلاة؟ فقال قوم: كان يقرأ في الصلاة. وقال قوم: كان يقرأ في غير الصلاة. فإن قيل كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصوماً من الغلط في أصل الدين وقال جلّ ذكره في القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني إبليس؟ قيل: قد اختلف الناس في الجواب عنه فقال بعضهم: إن الرسول ﷺ لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته، فظن المشركون أن الرسول الله ﷺ قرأه. وقال قتادة: أغفي النبي ﷺ إغفاءة فجرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان ولم يكن له خبر، والأكثرون قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان ولم يلبث أن نبهه الله عليه وقيل: إن شيطاناً يقال له أبيض عمل هذا العمل، وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: يُبطله ويذهبه، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فيثبتها، ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: محنة وبلية، شك ونفاق، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ﴾، يعني: الجافية، ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، عن قبول الحق وهم المشركون، وذلك أنهم افتتنوا لما سمعوا ذلك، ثم نُسخ ورفع فازدادوا عُتواً، وظنوا أن محمداً يقوله من عند نفسه ثم يندم فيبطل، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، المشركين، ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ [أي] ضلال، بعيد أي: في خلاف شديد.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، التوحيد والقرآن. وقال السدي: التصديق بنسخ الله تعالى، ﴿أَنَّهُ﴾، يعني: الذي أحكم الله من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: يعتقدوا أنه من الله، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: فتسكن [وتطمئن] إليه قلوبهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: [إلى] طريق قويم هو الإسلام.

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني في شك مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ يقولون: ما باله ذكر آلهتنا بخير ثم ارتد عنها. وقال ابن جريج: ﴿مِّنْهُ﴾ [أي من القرآن. وقيل: من الدين وهو الصراط المستقيم]. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، يعني: [يوم] القيامة. وقيل: الموت، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قال

الضحاك وعكرمة: عذابُ يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة. والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة. وسُمي يوم بدر عقيماً لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير، كالريح العقيم التي لا تأتي بغير سحاب ولا مطر، [والعقم في اللغة: المنع، يقال: رجل عقيم إذا مُنع من الولد]، وقيل: لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه. وقال ابن جريج: لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليل حتى قتلوا قبل المساء.

(٥٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿لِّلَّهِ﴾، من غير منازع، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، ثم بيّن الحكم، فقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾، وهم كذلك، قرأ ابن عامر «قتّلوا» بالتشديد ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، والرزق الحسن الذي لا ينقطع أبداً وهو رزق الجنة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قيل: هو قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(٥٩) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾، لأن لهم فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾، بنياتهم، ﴿حَلِيمٌ﴾، عنهم.

(٦٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾، يعني: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾، جازى الظالم بمثل ظلمه. قال الحسن: يعني قاتل المشركين كما قاتلوه، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾، يعني ظلم بإخراجه من منزله يعني، ما آتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم، نزلت في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال لأجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنُصروا عليهم، قال الله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، والعقاب الأول بمعنى الجزاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، عفا عن مساوىء المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم.

(٦١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني ذلك النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [بأنه] القادر على ما يشاء، فمن قدرته بأنه، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي وحفص: بالياء وقرأ الآخرون بالتاء، يعني المشركين، ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، العالي على كل شيء، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، العظيم الذي كل شيء دونه.

(٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، بالنبات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾، بأرزاق عباده واستخراج النبات من الأرض، ﴿خَبِيرٌ﴾، بما في قلوب العباد واستخراج النبات من الأرض إذا تأخر المطر عنهم.

(٦٤) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، عبيداً ومُلكاً، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾، عن عباده، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، في أفعاله.

الجزء السابع عشر — سورة الحج

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤)

٣٣٩

الجزء السابع عشر — سورة الحج

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٣٤٠

﴿٦٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ﴾ يعني وسخر لكم الفلك، ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، وقيل: ما في الأرض الدواب التي تركب في البر، والفلك التي تركب في البحر، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾، لكيلا تسقط على الأرض، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾، يعني: أنشأكم ولم تكونوا شيئاً، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، يوم البعث للثواب والعقاب، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، لنعم الله [عزّ وجلّ].

﴿٦٧﴾ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، قال ابن عباس: يعني شريعة هم عاملون بها. وروي عنه أنه قال: عيداً. قال قتادة ومجاهد: موضع قربان يذبحون فيه. وقيل: موضع عبادة. وقيل: مألفاً يألفونه. والمنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد لعمل خير أو شر، ومنه «مناسك» الحج لتردد الناس إلى أماكن أعمال الحج. ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾، يعني في أمر الذبائح. نزلت في بديل بن ورقاء، وبشر بن سفيان، ويزيد بن خُنيس، قالوا لأصحاب النبي ﷺ: مالكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله؟ قال الزجاج: معنى قوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ أي: لا تنازعهم أنت، كما يقال: لا يخاصمك فلان، أي: لا تخاصمه، وهذا جائز فيما يكون بين الاثنين، ولا يجوز: لا يضربنك فلان وأنت تريد: لا تضربه، وذلك أن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا ترك أحدهما فلا مخاصمة هناك. ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، إلى الإيمان بربك، ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، فتعرفون حينئذٍ الحق من الباطل. والاختلاف: ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، كله، ﴿فِي كِتَابٍ﴾، يعني اللوح المحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: علمه لجميع ذلك، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، حجة وبرهاناً، ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾، يعني أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل لا عن علم، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾، المشركين، ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾، مانع يمنعهم من عذاب الله.

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، يعني: القرآن، ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾، يعني الإنكار يتبين ذلك في وجوههم من الكراهية والعبوس، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾، يعني: يقعون ويبسطون إليكم أيديهم بالسوء. وقيل: يبطشون، ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، يعني: بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ. يقال: سطا عليه وسطا به، إذا تناوله بالبطش والعنف، وأصل السطو القهر. «قل»، يا محمد [لهم]، ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾، يعني بشرٍّ لكم وأكره إليكم من [هذا] القرآن الذي تستمعون، ﴿النَّارُ﴾ يعني: هي النار، ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، معنى: ضُرب، جعل، كقولهم ضرب السلطان البعث على الناس وضرب الجزية على أهل الذمة، أي جعل ذلك عليهم. ومعنى الآية: جعل لي شبه، وشبه بي الأوثان،

أي: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها ومعنى ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾، يعني: فاستمعوا حالها وصفتها، ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يعني: الأصنام، قرأ يعقوب بالياء والباقون بالتاء ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾، واحداً في صغره وقلته لأنها لا تقدر عليه، والذباب واحد وجمعه القليل: أذبة والكثير: ذِبّان، مثل غراب وأغربة وغربان، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، يعني خلقه، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، قال ابن عباس كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جف جاء الذباب فاستلب منه. وقال السدي: كانوا يضعون الطعام بين يدي الأصنام فتقع الذباب عليه فيأكلن منه. وقال ابن زيد: كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر، ويطيبونها بألوان الطيب فربما تسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استردادها، فذلك قوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ أي: وإن يسلب الذباب الأصنام شيئاً مما عليها لا يقدرون أن يستنقذوه منه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، قال ابن عباس: «الطالب» الذباب يطلب ما يسلب من الطيب عن الصنم، و«المطلوب» الصنم يطلب الذباب منه السلب. وقيل: على العكس: «الطالب» الصنم و«المطلوب» الذباب. وقال الضحاك: «الطالب»: العابد و«المطلوب» المعبود.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته إن أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

(٧٥) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾، يعني يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعني: يختار من الناس رسلاً مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء [صلوات الله عليهم أجمعين]، نزلت حين قال المشركون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ فأخبره أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، يعني: سميع لقولهم بصير بمن يختاره لرسالته.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، قال ابن عباس: ما قدموا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، ما خلفوا. وقال الحسن: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما عملوا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عاملون من بعد. وقيل: ما بين أيدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم وخلفهم أي ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

(٧٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾، يعني: صلوا، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود، ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: وحدوه، ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾، قال ابن عباس: صلة الرحم ومكارم الأخلاق، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة. واختلف أهل العلم في سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية، فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها، وهو قول عمر وعلي، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وبه قال ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، واحتجوا بما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا قتيبة، أنا ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله فضلت سورة الحج بأنّ فيها سجدتين؟ فقال: «نعم، من لم يسجدهما فلا يقرأهما».

الجزء السابع عشر — سورة الحج

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

٣٤١

وذهب قوم إلى أنه لا يسجد ههنا وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي، [وعدد سجدات القرآن أربع عشرة سجدة عند] أكثر أهل العلم منها ثلاث في المفصل. وذهب قوم إلى أنه ليس في المفصل سجود. روي ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس، وبه قال مالك.

وقد صح عن أبي هريرة قال سجدنا مع رسول الله ﷺ في «اقرأ»، و«إذا السماء انشقت».

وأبو هريرة من متأخري الإسلام.

واختلفوا في سجود ص فذهب الشافعي إلى أنه سجود شكر ليس من عزائم السجود، ويروى ذلك عن ابن عباس وذهب قوم إلى أنه يسجد فيها، يروى ذلك عن عمر، وبه قال سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، فعند ابن المبارك وإسحاق وأحمد وجماعة سجود القرآن خمسة عشر سجدة فعدوا سجدتي الحج وسجدة ص.

روى عن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أقرأه خمسَ عشرةَ سجدةً في القرآن.

(٧٨) قوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، قيل: جاهدوا في سبيل الله أعداء الله حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه، قاله ابن عباس، وعنه أيضاً أنه قال: لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، كما قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. قال الضحاك ومقاتل: اعملوا لله حقّ عمله واعبدوه حق عبادته. وقال مقاتل بن سليمان: نسخها قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال أكثر المفسرين: «حق الجهاد» أن يكون بنية صادقة خالصة لله عزّ وجلّ. وقال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى. وقال عبدالله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر وهو حق الجهاد.

وقد رُوي أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وأراد بالجهاد الأصغر الجهاد مع الكفار، وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ يعني: اختاركم لدينه، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ضيق، معناه أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجاً، بعضها بالتوبة، وبعضها برد المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفارات، فليس في دين الإسلام ذنب لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب فيه. وقيل: من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس ذلك عليكم وسع ذلك عليكم، حتى تتيقنوا. وقال مقاتل: يعني الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة في السفر، والتيمم عند فقد الماء، وأكل الميتة عند الضرورة، والإفطار بالسفر والمرض، والصلاة قاعداً عند العجز عن القيام. وهو قول الكلبي. وروي عن ابن عباس أنه قال: الحَرَجُ ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله عن هذه الأمة. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، يعني كلمة أبيكم، نصب بنزع حرف الصفة وقيل: نصب على الإغراء، يعني اتبعوا مِلّة أبيكم إبراهيم، وإنما أمرنا باتباع ملة إبراهيم لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ وليس كل المسلمين يرجع نسبه إلى إبراهيم؟ قيل: خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم. وقيل: خاطب به جميع المسلمين، وإبراهيم أب لهم، على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال النبي ﷺ: «إنما، أنا لكم مثل الوالد لولده»، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾، يعني أن الله تعالى سماكم ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، يعني من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ يعني: في الكتاب، هذا قول أكثر المفسرين. وقال ابن زيد هو يرجع إلى إبراهيم [أي إن إبراهيم هو] سماكم المسلمين في أيامه، من قبل هذا الوقت وفي هذا الوقت، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، يوم القيامة أن قد بلغكم، ﴿وَتَكُونُوا۟﴾، أنتم، ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أن رسلهم قد بلغتهم، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، ثقوا بالله وتوكلوا عليه. قال الحسن: تمسكوا بدين الله. وروي

عن ابن عباس قال: سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره. وقيل: معناه ادعوه ليثبتكم على دينه. وقيل: الاعتصام بالله هو التمسك بالكتاب والسنة، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، وليكم وناصركم وحافظكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، الناصر لكم.

❁ ❁ ❁

سورة المؤمنون

مكية وهي مائة وثماني عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

٣٤٢

أخبرنا [أبو حامد] أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أحمد بن الحسين الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا محمد بن حماد، أنا عبدالرزاق، أنا يونس بن سليمان، أملى عليّ يونس صاحب أيلة، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عبدالرحمن بن عبدالقاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يُسمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، فمكثنا ساعة. وفي رواية: فنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات.

ورواه أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وجماعة عن عبدالرزاق، وقالوا: «وأعطنا ولا تحرمنا وأرضنا وارض عنّا».

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، «قد» حرف تأكيد، وقال المحققون (قد) تقرب الماضي من الحال، يدل على أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال، وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل، والفلاح: النجاة والبقاء، قال ابن عباس: قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة.

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، اختلفوا في معنى الخشوع، فقال ابن عباس: مخبتون أذلاء. وقال الحسن وقتادة: خائفون. وقال مقاتل: متواضعون. وقال مجاهد: هو غض البصر وخفض الصوت، والخشوع قريب من الخضوع إلاّ أن الخضوع في البدن والخشوع في القلب والبدن والبصر والصوت، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، وعن عليّ رضي الله عنه: هو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً. وقال سعيد بن جبير: هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله، ولا يلتفت من الخشوع لله عز وجلّ.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، حدثنا مسدد، أنا أبو الأحوص، أنا أشعث بن سليم، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطان من صلاة العبد».

وأخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا أبو علي زاهر بن أحمد، أنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي ببغداد، أنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي، أنا عبدالغفار بن عبيد الله الكريدي، أنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن أبي الأحوص، عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض عنه».

وقال عمرو بن دينار: هو السكون وحسن الهيئة. وقال ابن

سيرين وغيره: هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك.

قال أبو هريرة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا علي بن عبدالله، أنا يحيى بن سعيد، أنا ابن أبي عروبة، أنا قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: قال النبي ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم»، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «لينتهنّ عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم».

وقال عطاء: هو أن لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة.

وروي أن النبي ﷺ أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، أنا أبو العباس المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا سعيد بن عبدالرحمن المخزومي، أنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي الأحوص عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه».

وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر.

﴿٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: عن الشرك وقال الحسن: عن المعاصي. وقال الزجاج: عن كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل. وقيل: هو معارضة الكفار بالشتم والسب: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، أي: للزكاة الواجبة مؤدّون، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنه فعل. وقيل: الزكاة ههنا هو العمل الصالح، أي: والذين هم للعمل الصالح فاعلون.

﴿٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾، الفرج اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج التعفف عن الحرام.

﴿٦﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾، أي: من أزواجهم، «على» بمعنى «من». ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، «ما» في محل خفض يعني أو مما ملكت أيمانهم، والآية في الرجال خاصة بدليل قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ والمرأة لا يجوز [لها] أن تستمتع بفرج مملوكها. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، يعني يحفظ فرجه إلا من امرأته أو أمته فإنه لا يلام على ذلك، وإنما لا يلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتي، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور وهو على فعله ملوم.

﴿٧﴾ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، أي: التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام، وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء. قال ابن جريج: سألت عطاء عنه فقال: مكروه، سمعت أنّ قوماً يحشرون وأيديهم حُبالى فأظن أنهم هؤلاء. وعن سعيد بن جبير قال: عذب الله أُمّةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

﴿٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾، قرأ ابن كثير «لأمانتهم» على التوحيد ههنا وفي سورة المعارج [٣٢]، لقوله تعالى: ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ والباقون بالجمع، كقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، حافظون، أي يحفظون ما ائتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها، والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العباد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، ويكون من [بين العباد] كالودائع والصنائع فعلى العبدالوفاء بجميعها.

﴿٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «صلاتهم» على التوحيد، والآخرون صلواتهم على الجمع. ﴿يُحَافِظُونَ﴾، أي: يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها، كرر ذكر الصلاة ليبين أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب.

﴿١٠﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أهل هذه الصفة، ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، يرثون

منازل أهل النار من الجنة.

ورُوي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله» وذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. وقال مجاهد: لكل واحد منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدّم منزله الذي له في النار، وأما الكافر فيهدم منزله الذي [له] في الجنة ويبني منزله الذي في النار. وقال بعضهم: معنى الوراثة هو أنه يؤول أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث.

﴿١١﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾، وهو أعلى الجنة قد ذكرناه في سورة الكهف، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، لا يموتون ولا يُخرجون.

وجاء في الحديث: «أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي لا يدخلها مدمن خمر، ولا ديوث».

﴿١٢﴾ وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾، يعني: ولد آدم، والإنسان اسم الجنس يقع على الواحد والجمع، ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾، روي عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء. وقال مجاهد: من بني آدم. وقال عكرمة: هو [الماء] يسيل من الظهر، والعرب تسمي النطفة سلالةً، والولد سليلاً وسلالة لأنهما مسلولان منه قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾، يعني: طينة آدم. والسلالة: تولدت من طين خلق آدم منه. قال الكلبي: من نطفة سُلت من طين، والطين آدم عليه السلام، وقيل المراد من الإنسان هو آدم. وقوله: ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ أي: سل من كل تربة.

﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾، يعني الذي هو الإنسان جعلناه نطفة، ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، حريز، وهو الرحم مُكنّ أي قد هيّء لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾، قرأ ابن عامر وأبو بكر «عظماً»، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ﴾ بسكون الظاء على التوحيد فيهما، وقرأ الآخرون بالجمع لأن الإنسان ذو عظام كثيرة. وقيل: بين كل خلقتين أربعون يوماً. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾، أي ألبسناه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، اختلف المفسرون فيه، فقال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية: هو نفخ الروح فيه. وقال قتادة: نبات الأسنان والشعر.

وروى ابن جريج عن مجاهد: أنه استواء الشباب. وعن الحسن قال: ذكراً أو أنثى. وروى العوفي عن ابن عباس: أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع، إلى القعود إلى القيام، إلى المشي إلى الفطام، إلى أن يأكل ويشرب، إلى أن يبلغ الحلم، ويتقلب في البلاد إلى ما بعدها. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾، أي: استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال. ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، المصوّرين والمقدرين. والخلق في اللغة التقدير. وقال مجاهد يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، يقال: رجل خالق أي: صانع.

﴿١٥﴾ وقال ابن جريج: إنما جمع الخالقين لأنّ عيسى كان يخلق [الطير من الطين] كما قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين. ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]، والميت بالتشديد، والمائت الذي لم يمت بعد وسيموت، والميت بالتخفيف من مات، ولذلك لم يجز التخفيف ههنا.

كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

﴿١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾، أي: سبع سموات، سميت طرائق لتطارقها، وهو أن بعضها فوق بعض، يقال: طارقت النعل إذا جعلت بعضه فوق بعض. وقيل: سميت طرائق لأنها طرائق الملائكة. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، أي [لم نغفل عن حرسهم بل] كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم كما قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]. وقيل: ما تركناهم سدى بغير أمر ونهي. وقيل: وما كنا عن الخلق غافلين أي بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، يعلمه الله. قال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة، ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾، يريد ما يبقى في الغدران والمستنقعات، ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر. وقيل: فأسكناه في الأرض ثم أخرجنا منها ينابيع، فماء الأرض كله من السماء، ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، حتى تهلكوا عطشاً وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم.

وفي الخبر: أن الله عزّ وجلّ أنزل أربعة أنهار من الجنة، سيحان، وجيحان، ودجلة، والفرات.

وروى مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أنزل من الجنة خمسة أنهار: جيحون، وسيحون، ودجلة، والفرات، والنيل، أنزلها الله عزّ وجلّ من عين واحدة من عيون الجنة، من أسفل درجة من درجاتها، على جناحي جبريل، استودعها الله الجبال وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾، فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن، والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت، ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا».

وروى هذا الحديث الإمام الحسن بن سفيان، عن عثمان بن سعيد بالإجازة، عن سعيد بن سابق الإسكندراني، عن مسلمة بن علي، عن مقاتل بن حيان.

﴿١٩﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾، يعني بالماء، ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾، في الجنات، ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، شتاء وصيفاً، وخصّ النخيل والأعناب بالذكر لأنها أكثر فواكه العرب.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَجَرَةً﴾ أي وأنشأنا لكم شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾، وهي الزيتون، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «سيناء» بكسر السين. وقرأ الآخرون بفتحها، واختلفوا في معناه وفي ﴿سِينِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢] قال مجاهد: معناه البركة، أي: من جبل مبارك. وقال قتادة: معناه الحسن، أي من الجبل الحسن. وقال الضحاك: هو بالنبطية، ومعناه الحسن: وقال عكرمة: هو بالحبشية. وقال الكلبي: معناه الشجر، أي: جبل ذو شجر. وقيل: هو بالسريانية الملتفة بالأشجار. وقال مقاتل: كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سينا، وسينين بلغة النبط. وقيل: هو فيعال من السناء وهو الارتفاع. وقال ابن زيد: هو الجبل الذي نُودي منه موسى بين مصر وأيلة. وقال مجاهد: سينا اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده. وقال عكرمة: هو اسم للمكان الذي فيه هذا الجبل، ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ويعقوب «تنبت» بضم التاء وكسر الباء، وقرأ الآخرون بفتح التاء وضم الباء، فمن قرأ [تنبت] بفتح التاء فمعناه تنبت تثمر الدهن وهو الزيتون. وقيل: تنبت ومعها الدهن، ومن قرأ بضم التاء، اختلفوا فيه فمنهم من قال: الباء زائدة، معناه: تنبت الدهن، كما يقال: أخذت ثوبه وأخذت بثوبه، ومنهم من قال: نبت وأنبت لغتان بمعنى واحد، كما قال زهير:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم
قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل

أي: نبت، ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾، الصبغ والصباغ الإدام الذي يلون الخبز إذ غمس فيه وينصبغ، والإدام

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

٣٤٤

كل ما يؤكل مع الخبز سواء ينصبغ به الخبز أو لا ينصبغ. قال مقاتل: جعل الله في هذه الشجرة أدماً ودُهناً، فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت، وقال: خُصّ الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها. ويقال: لأن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان.

﴿٢١﴾ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾، يعني: آية تعتبرون بها، ﴿نُّسْقِيكُم﴾، قرأ العامة بالنون، وقرأ أبو جعفر ههنا بالتاء وفتحها، ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، يعني: على الإبل في البر وعلى الفلك في البحر.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وحدوه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، معبود سواه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعاً وأنتم له تبع، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أن لا يعبد سواه، ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، يعني بإبلاغ الوحي ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، الذي يدعونا إليه نوح ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقيل: ما سمعنا بهذا أي: بإرسال بشر رسولاً.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، يعني: جنون، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، يعني إلى أن يموت فتستريحوا منه.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾، يعني: أعِنّي بإهلاكهم لتكذيبهم إياي.

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾، أدخل فيها، يقال سلكته في كذا وأسلكته فيه، ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، يعني من سبق عليه الحكم بالهلاك.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

﴿٢٨﴾ ـ ﴿٢٩﴾ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾، اعتدلت ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعني الكافرين، ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم «منزلاً» بفتح الميم وكسر الزاي، يريد موضع النزول، قيل: هو السفينة بعد الركوب، وقيل: هو الأرض بعد النزول [ويحتمل أنه أراد في السفينة، ويحتمل بعد الخروج]. وقرأ الباقون «مُنزلاً» بضم الميم وفتح الزاي، أي إنزالاً مباركاً، فالبركة في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، يعني الذي ذكرت من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، دلالات على قدرته، ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، يعني: وقد كنا. وقيل: وما كنا إلا مبتلين أي: مختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم.

﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، من بعد إهلاكهم، ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، يعني هوداً وقومه. وقيل: صالحاً وقومه. والأول أظهر، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي بالمصير إلى الآخرة، ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾، نعمناهم ووسعنا عليهم، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، يعني مما تشربون منه.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، لمغبونون.

﴿٣٥﴾ ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾، من قبوركم أحياء وأعاد أنكم لما طال الكلام، ومعنى الكلام: أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً مخرجون؟ وكذلك هو في قراءة عبدالله، نظيره في القرآن: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٣].

﴿٣٦﴾ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، قال ابن عباس: هي كلمة بُعْد، أي: بعيد ما توعدن، قرأ أبو جعفر «هيهات هيهات» بكسر التاء، وقرأ نصر بن عاصم بالضم، وكلها لغات صحيحة فمن نصب جعله مثل أين وكيف، ومن رفع جعله مثل منذ وقط وحيث، ومن كسر جعله مثل أمس وهؤلاء، ووقف عليها أكثر القراء بالتاء، ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هِىَ﴾، يعنون الدنيا، ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، قيل فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت. وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء. وقيل: يموت قوم ويحيا قوم. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، بمنشرين بعد الموت.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾، يعنون الرسول، ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾، بمصدقين بالبعث بعد الموت.

﴿٣٩﴾ ـ ﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾، أي: عن قليل «وما» صلة، ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾، ليصيرون، ﴿نَٰدِمِينَ﴾، على كفرهم وتكذيبهم.

﴿٤١﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، يعني صيحة العذاب، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، قيل: أراد بالصيحة الهلاك. وقيل: صاح بهم جبريل صيحة فتصدعت قلوبهم، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، وهو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، معناه: صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾، يعني: أقواماً آخرين.

﴿٤٣﴾ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾، يعني: ما تسبق أمة أجلها، «ومن» صلة أي: وقت هلاكها، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، وما يتأخرون عن وقت هلاكهم.

﴿٤٤﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾، يعني: مترادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين، لأن بين كل نبيين زماناً طويلاً وهي فعلى من المواترة، قال الأصمعي: يقال واترت الخبر إذا أتبعت بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيهة، واختلف القراء فيه، فقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو بالتنوين، ويعقوب بالألف، ولا يميله أبو عمرو في الوقف. [والألف] فيها كالألف في قولهم رأيت زيداً، وقرأ الباقون بلا تنوين، والوقف عندهم يكون بالياء ويميله حمزة والكسائي، وهو مثل قولهم غضبَى وسكرَى، وهو اسم جمع مثل شتى، وعلى القراءتين التاء الأولى بدل من الواو، وأصله «وترى» من المواترة والتواتر، فجعلت الواو تاء، مثل التقوى والتكلان، ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾، بالهلاك، أي: أهلكنا بعضهم في إثر بعض، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾، يعني سمراً وقصصاً يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم وهي جمع أحدوثة. وقيل: جمع حديث. قال الأخفش: إنما هذا في الشر وأما في الخير فلا يقال جعلتهم أحاديث وأحدوثة، وإنما يقال صار فلان حديثاً، ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، يعني بحجة بينة من اليد والعصا. وغيرهما.

﴿٤٦﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، تعظموا عن الإيمان، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾، متكبرين قاهرين [غيرهم] بالظلم.

(٤٧) ﴿فَقَالُوٓا۟﴾، يعني فرعون وقومه، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾، يعنون: موسى وهارون، ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾، مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من دان لملك عابداً له.

(٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾، بالغرق.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، لكي يهتدي به قومه.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾، دلالة على قدرتنا، ولم يقل آيتين، قيل: معناه [جعلنا] شأنهما آية. وقيل: معناه جعلنا كل واحد منهما آية، كقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣]. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، الربوة المكان المرتفع من الأرض، واختلفت الأقوال فيها، فقال عبدالله بن سلام: هي دمشق، وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل، وقال الضحاك: غوطة دمشق. قال أبو هريرة: هي الرملة. وقال عطاء عن ابن عباس: هي بيت المقدس، وهو قول قتادة وكعب. قال كعب: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وقال ابن زيد: هي مصر. وقال السدي: أرض فلسطين. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها. ﴿وَمَعِينٍ﴾، المعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر.

(٥١) قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي وجماعة: أراد به محمداً ﷺ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة. وقال بعضهم: أراد به عيسى وقيل: أراد به جميع الرسل عليهم السلام، ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي الحلالات، ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة، ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ قرأ أهل الكوفة و«إن» بكسر الألف على الابتداء، وقرأ الباقون بفتح الألف، وخفف ابن عامر النون وجعل «إن» صلة مجازه وهذه ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، وقرأ الباقون بتشديد النون على معنى وبأن هذا تقديره: بأن هذه أمتكم، أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها، ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي ملة واحدة وهي الإسلام، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، أي: اتقوني لهذا، وقيل: معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم فأمركم واحد ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فاحذورن وقيل: هو نصب بإضمار فعل، أي: واعلموا أن هذه أمتكم أي ملتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾، دينهم، ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: تفرقوا فصاروا فرقاً يهوداً ونصارى ومجوساً، ﴿زُبُرًا﴾ أي: فرقاً وقطعاً مختلفة، واحدها زبور وهو الفرقة والطائفة، ومثله الزبرة وجمعها زبر، ومنه: ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] أي: صاروا فرقاً كزبر الحديد. وقرأ بعض أهل الشام «زبراً» بفتح الباء، قال قتادة ومجاهد «زبراً» أي: كتباً يعني دان كل فريق بكتاب غير الكتاب الذي دان به الآخرون. وقيل: جعلوا كتبهم قطعاً مختلفة آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض وحرفوا البعض، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: بما عندهم من الدين، ﴿فَرِحُونَ﴾، معجبون ومسرورون.

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾، قال ابن عباس: في كفرهم وضلالتهم، وقيل: عمايتهم، وقيل: غفلتهم﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، إلى أن يموتوا.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [أي] ما نعطيهم ونجعله مدداً لهم من المال والبنين في الدنيا.

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: نعجل لهم في الخيرات، ونقدمها ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم، ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، أنّ ذلك استدراج لهم. ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال:

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون، والإشفاق: الخوف، والمعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه، قال الحسن

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

البصري: المؤمن من جمع إحساناً وخشية، والمنافق من جمع إساءة وأمناً.

﴿٥٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، يصدِّقون.

﴿٥٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾، أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات، روي عن عائشة أنها كانت تقرأ «والذين يأتون ما أتوا» أي: يعملون ما عملوا من أعمال البر، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تُقبل منهم، ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، لأنهم موقنون أنهم يرجعون إلى الله عزّ وجلّ. قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم.

أخبرنا أبو سعيد [أحمد بن إبراهيم] الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن يوسف، أنا محمد بن حامد حدثنا محمد بن الجهم، أنا عبدالله بن عمرو، أنا وكيع عن مالك بن مغول، عن عبدالرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يُقبل منه».

﴿٦١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، يبادرون إلى الأعمال الصالحات، ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، أي: إليها سابقون، كقوله تعالى: ﴿لِمَا نُهُوا﴾ [الأنعام: ٢٨] أي: إلى ما نهوا، و«لما قالوا» ونحوها، قال ابن عباس في معنى هذه الآية: سبقت لهم من الله السعادة. وقال الكلبي: سبقوا الأمم إلى الخيرات.

﴿٦٢﴾ قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتها فمن لم يستطع القيام فليصل قاعداً، ومن لم يستطع الصوم فليفطر، ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾، وهو اللوح المحفوظ «ينطق بالحق» يبين بالصدق، ومعنى الآية لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، إلا ما أطاقت من العمل، وقد أثبتنا عمله في اللوح المحفوظ، فهو ينطق به ويبينه. وقيل: هو كتب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، ثم ذكر الكفار.

﴿٦٣﴾ فقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾، أي: في غفلة وجهالة، ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: من القرآن، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: للكفار أعمال خبيثة من المعاصي، والخطايا محكومة عليهم من دون ذلك، يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، لا بد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة، هذا قول أكثر المفسرين. وقال قتادة: هذا ينصرف إلى المسلمين معناه وأن لهم أعمالاً سوى ما عملوا من الخيرات هم لها عاملون، والأول أظهر.

﴿٦٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾، أي: أخذنا أغنيائهم ورؤساءهم، ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾، قال ابن عباس: هو السيف يوم بدر.

وقال الضحاك: يعني الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وَطْأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فابتلاهم الله عزّ وجلّ بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف. ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ يضجون ويجزعون

ويستغيثون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرع.

(٦٥) ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾، أي لا تضجوا، ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم.

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، يعني القرآن، ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى تتأخرون عن الإيمان.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾، اختلفوا في هذه الكناية، فأظهر الأقاويل أنها تعود إلى البيت الحرام كناية عن غير مذكور، أي: مستكبرين متعظمين بالبيت الحرام، وتعظمهم به أنهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحداً فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف، هذا قول ابن عباس ومجاهد وجماعة.

وقيل: مستكبرين به أي بالقرآن فلا يؤمنون به. والأول أظهر، [أن] المراد منه الحرم، ﴿سَٰمِرًا﴾، نصب على الحال، أي أنهم يسمرون بالليل في مجالسهم حول البيت، ووحّد سامراً وهو بمعنى السمار لأنه وضع موضع الوقت، أراد تهجرون ليلاً. وقيل: وحّد سامراً، ومعناه الجمع، كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، ﴿تَهْجُرُونَ﴾، قرأ نافع «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم من الإهجار وهو الإفحاش في القول، أي تفحشون وتقولون الخنا.

وذكر أنهم كانوا يسبون النبي ﷺ وأصحابه، وقرأ الآخرون «تهجرون» بفتح التاء وضم الجيم، أي: تعرضون عن النبي ﷺ وعن الإيمان والقرآن، وترفضونها. وقيل: هو من الهجر وهو القول القبيح، يقال هجر يهجر هجراً إذا قال غير الحق. وقيل: تهزؤون وتقولون ما لا تعلمون، من قولهم: هجر الرجل في منامه إذا هذى.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾، يعني يتدبروا، ﴿ٱلْقَوْلَ﴾، يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ، ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فأنكروا، يريد إنا قد بعثنا من قبلهم رسلاً إلى قومهم كذلك بعثنا محمداً ﷺ إليهم. وقيل: أم بمعنى بل يعني جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروا.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾، محمداً ﷺ، ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود، وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، جنون وليس كذلك، ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، يعني بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

(٧١) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾، قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة: «الحق» هو الله أي لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل، وقيل: لو اتبع مرادهم، فسمى لنفسه شريكاً وولداً كما يقولون: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وقال الفراء والزجاج: المراد بالحق القرآن أي: لو نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدونه ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾، بما يذكرهم، قال ابن عباس: أي بما فيه فخرهم وشرفهم، يعني القرآن، فهو كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: شرفكم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: شرف لك ولقومك. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم﴾، يعني عن شرفهم، ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾، على ما جئتهم به، ﴿خَرْجًا﴾، أجراً وجعلاً، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، يعني ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «خراجاً» «فخراج» كلاهما بالألف، وقرأ ابن عامر كلاهما بغير ألف، وقرأ الباقون «خرجاً» بغير ألف «فخراج» بالألف.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الإسلام.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، أي عن دين

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٣٤٧

الحق، ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾، لعادلون مائلون.

(٧٥) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾، قحط وجدوبة ﴿لَّلَجُّوا﴾، تمادوا، ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ولم ينزعوا عنه.

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾.

وذلك أن النبي ﷺ دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وقال أنشدك الله والرحم، ألستَ تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع [فأين الرحمة] فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم، وأصله طلب السكون، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر، وهو قول مجاهد، وقيل: هو الموت. وقيل: هو قيام الساعة، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، آيسون من كل خير.

(٧٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: الأسماع ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: لم تشكروا هذه النعم.

(٧٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾، خلقكم، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، تبعثون.

(٨٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، قال الفراء: جعلهما مختلفين، يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ما ترون من صنعه فتعتبرون.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، أي: كذبوا كما كذب الأولون.

(٨٢) ﴿قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، لمحشورون، قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾، الوعد، ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: وعد آباءنا قوم ذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أكاذيب الأولين.

(٨٤) «قل»، يا محمد مجيباً لهم، يعني أهل مكة، ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾، من الخلق، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، خالقها ومالكها.

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، ولا بدّ لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة. «قل» لهم إذا أقروا بذلك، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت.

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، قرأ العامة «لله» ومثله ما بعده فجعلوا الجواب على المعنى، كقول القائل للرجل: من مولاك؟ فيقول: فلان، أي، أنا لفلان وهو مولاي، وقرأ أهل البصرة فيهما «الله» وكذلك هو في مصحف أهل البصرة، وفي سائر المصاحف، مكتوب بالألف كالأول، ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، تحذرون.

(٨٨) ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والملكوت الملك، والتاء فيه للمبالغة، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾، أي: يؤمن من يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، أي: لا يؤمن من أخافه الله أو يمنع هو من السوء من يشاء ولا يمنع منه من أراده بسوء، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قيل: معناه أجيبوا إن كنتم تعلمون.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، أي: تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته، والمعنى: كيف

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

٣٤٨

يخيل لكم الحق باطلاً؟

﴿٩٠﴾ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يدعون من الشريك والولد.

﴿٩١﴾ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾، أي: من شريك، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾، أي: تفرد بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومَنَعَ الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: طلب بعضهم مغالبةً بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص: «عالم» برفع الميم على الابتداء، وقرأ الآخرون بجرها على نعت الله في سبحان الله، ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعظم عما يشركون، ومعناه أنه أعظم من أن يوصف بهذا الوصف.

﴿٩٣﴾ قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾، أي: إن أريتني، ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: ما أوعدتهم من العذاب.

﴿٩٤﴾ ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا تهلكني بهلاكهم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾، من العذاب لهم، ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾.

﴿٩٦﴾ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن وهي الصفح والإعراض والصبر، ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، يعني أذاهم، أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة، نسختها آية السيف. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، يكذبون ويقولون من الشرك.

﴿٩٧﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾، أي: أمتنع وأعتصم بك، ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، قال ابن عباس نزغاتهم. وقال الحسن: وساوسهم. وقال مجاهد: نفخهم ونفثهم. وقال أهل المعاني دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، وأصل الهمز شدة الدفع.

﴿٩٨﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، في شيء من أموري، وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه، ثم أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت.

﴿٩٩﴾ فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، ولم يقل ارجعني، وهو يسأل الله وحده الرجعة على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظة الجمع على وجه التعظيم، كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومثله كثير في القرآن. وقيل: هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله لأنهم استغاثوا أولاً بالله ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا.

﴿١٠٠﴾ قوله تعالى: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أي: ضيعت أن أقول لا إله إلا الله. وقيل: أعمل بطاعة الله. قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرءاً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب، ﴿كَلَّآ﴾، كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها، ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: سؤاله الرجعة، ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، ولا ينالها، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾، أي أمامهم وبين أيديهم حاجز، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، والبرزخ الحاجز بين الشيئين، واختلفوا في معناه ههنا، قال مجاهد: حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا. وقال قتادة: بقية الدنيا. وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث. وقيل:

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ النُّور

٣٤٩

هو القبر وهم فيه إلى يوم يبعثون.

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ واختلفوا في هذه النفخة، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها النفخة الأولى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

وعن ابن مسعود: أنها النفخة الثانية، قال: يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه، فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده وولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود «فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون».

وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها الثانية فلا أنساب بينهم أي: لا يتفاخرون بالأنساب يومئذٍ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا، ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا: من أنت ومن أي قبيلة أنت؟ ولم يرد أن الأنساب تنقطع، فإن قيل: أليس قد جاء في الحديث «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي»؟ قيل: معناه ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببه ونسبه، وهو الإيمان والقرآن، فإن قيل: قد قال ههنا ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]؟ الجواب: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن للقيامة أحوالاً ومواطنُ ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون.

(١٠٢) قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾. أي: تسفع، وقيل: تحرق، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، عابسون.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا محمد بن أحمد الحارثي، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك، عن سعيد بن يزيد، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «وهم فيها كالحون، قال: تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته».

وبهذا الإسناد عن عبدالله بن المبارك عن حاجب بن عمر عن الحكم بن الأعرج قال: قال أبو هريرة: يعظم الكافر في النار مسيرة سبع ليال، فيصير ضرسه مثل أحد، وشفاهم عند سررهم، سود زرق [خسر] مقبوحون.

(١٠٥) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، يعني القرآن، تخوفون بها، ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

(١٠٦) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، قرأ حمزة والكسائي «شقاوتنا» بالألف وفتح الشين وهما لغتان أي: غلبت علينا شقوتنا التي كتبت علينا فلم نهتد. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، عن الهدى.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾، أي: من النار، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾، لما تكره ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [مستحقون العذاب].

(١٠٨) ﴿قَالَ اخْسَئُوا﴾، ابعدوا، ﴿فِيهَا﴾، كما يقال للكلب إذا طرد اخسأ، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، في رفع

العذاب فإني لا أرفعه عنكم، [أبداً] فعند ذلك أيس المساكين من الفرج، قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، روي عن عبدالله بن عمرو: أن أهل جهنم يدعون مالكاً خازن النار أربعين عاماً ﴿يَمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ثم ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ يدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فلا ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق. وقال القرطبي: إذا قيل لهم «اخسئوا فيها ولا تكلمون» انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم [جهنم].

﴿١٠٩﴾ «إنهم» الهاء في «إنه» عماد وتسمى أيضاً المجهولة، ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾، وهم المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي: «سخرياً» بضم السين ههنا وفي سورة ص [٦٣]، وقرأ الباقون بكسرها واتفقوا على الضم في سورة الزخرف [٣٢]. قال الخليل: هما لغتان مثل قولهم: بحرلجي، ولجي بضم اللام وكسرها، مثل كوكب دُري ودِري، قال الفراء والكسائي: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل، واتفقوا في سورة الزخرف بأنه بمعنى التسخير، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ أي: أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم، ﴿ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ نظيره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] قال مقاتل: نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وسلمان والفقراء من الصحابة، كان كفار قريش يستهزؤون بهم.

﴿١١١﴾ ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾، على أذاكم واستهزائكم في الدنيا، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «أنهم» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتحها، فيكون في موضع المفعول الثاني إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة.

﴿١١٢﴾ ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي «قل» على الأمر. ومعنى الآية: قولوا أيها الكافرون، فأخرج الكلام مخرج الواحد، والمراد منه الجماعة، إذ كان معناه مفهوماً، ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحد منهم، أي قل يا أيها الكافرون، وقرأ ابن كثير: «قل كم» على الأمر قال «إن» على الخبر، لأن الثانية جواب، وقرأ الآخرون «قال» فيهما جميعاً أي قال الله تعالى للكفار يوم البعث: كم لبثتم؟ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: في الدنيا وفي القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾.

﴿١١٣﴾ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب، ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [أي] الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.

﴿١١٤﴾ ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾، أي: ما لبثتم في الدنيا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، سماه قليلاً لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فإنه يكون قليلاً في جنب ما يلبث في الآخرة لأن لبثه في الدنيا وفي القبر متناه، ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قدر لبثكم في الدنيا.

﴿١١٥﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [أي] لعباً وباطلاً لا لحكمة، وهو نصب على الحال، أي: عابثين. وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله تعالى، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لا ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم.

﴿١١٦﴾ أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا بشر بن عمر، أنا عبدالله بن لهيعة، أنا عبدالله بن هبيرة، عن حنش، أن رجلاً مصاباً مُرّ به على ابن مسعود فرقاه في أذنيه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا رقيت [المصاب] في أذنه»؟ فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي

بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال».

ثم نزّه الله نفسه عمّا يصفه به المشركون.

فقال جل ذكره: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، يعني السرير الحسن. وقيل: المرتفع.

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، أي: لا حجة ولا بينة له به لأنه لا حجة في دعوى الشرك، ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾، جزاؤه، ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾. يجازيه بعمله كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، لا يسعد من جحد وكذب.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

سورة النور

مدنية [وهي ثنتان أو أربع وستون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿سُورَةٌ﴾، أي: هذه سورة، ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمر «وفرّضناها» بتشديد الراء، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها. وقيل: معناه قدرنا ما فيها من الحدود والفرض: التقدير، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي: قدرتم، ودليل التخفيف قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القصص: ٨٥]، وأما التشديد فمعناه وفصلناه وبيناه. وقيل: هو بمعنى الفرض الذي هو بمعنى الإيجاب أيضاً، والتشديد للتكثير لكثرة ما فيها من الفرائض، أي أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم إلى قيام الساعة. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، واضحات، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون.

﴿٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، أراد إذا كانا حرين عاقلين بالغين بكرين غير محصنين، فاجلدوا فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة، يقال جلده إذا ضربَ جِلده، كما يقال رأسه وبطنه، إذا ضرب رأسه وبطنه، وذكر بلفظ الجلد لئلا يبرح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم، وقد وردت السنة أنه يجلد مائة [جلدة] ويغرب عاماً وهو قول أكثر أهل العلم، وإن كان الزاني محصناً فعليه الرجم، ذكرناه في سورة النساء، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، أي: رحمة ورقة، قرأ ابن كثير «رأَفة» بفتح الهمزة ولم يختلفوا في سورة الحديد أنها ساكنة لمجاورة قوله ورحمة، والرأفة معنى يكون في القلب، لا ينهى عنه لأنه لا يكون باختيار الإنسان. واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: لا تأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي. وقال جماعة: معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضرباً وهو قول سعيد بن المسيب والحسن، قال الزهري: يجتهد في حد الزنا والفرية ويخفف في حد الشرب. وقال قتادة: يجتهد في حد الزنا ويخفف في الشرب والفرية. ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله [روي أن عبدالله بن عمر جلد جارية له زنت، فقال للجلاد: اضرب ظهرها ورجليها، فقال له ابنه لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، فقال: يا بُنيّ إن الله عزّ وجلّ لم يأمرني بقتلها وقد ضُربت فأوجعت]. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، معناه أن المؤمن لا تأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله تعالى، ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾، وليحضر، ﴿عَذَابَهُمَا﴾ حدهما إذا أقيم عليهما ﴿طَآئِفَةٌ﴾، نفر، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال مجاهد والنخعي: أقله رجل واحد فما فوقه، وقال عكرمة وعطاء رجلان فصاعداً. وقال الزهري وقتادة: ثلاثة فصاعداً. وقال مالك وابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنا.

﴿٣﴾ قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، واختلف العلماء في معنى الآية وحكمها.

فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن، وهن يومئذٍ أخصب أهل المدينة، فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة

الجزء الثامن عشر — سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

٣٥٠

والزهري والشعبي، ورواية العوفي عن ابن عباس.

وقال عكرمة: نزلت في نساء بمكة والمدينة، منهن تسع لهن رايات كرايات البيطار يعرفن بها، منهنّ أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مألكة، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة، فاستأذن رجل من المسلمين رسول الله ﷺ في نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله هذه الآية.

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكان بمكة بغي يقال لها عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرّم الزنا، قالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد شيئاً، فنزلت: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني النبي ﷺ فقرأها عليّ وقال لي: «لا تنكحها».

فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصاً في حق أولئك دون سائر الناس. وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، ومعناه أن الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني إلا بزان أو مشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم. ورواه الوالبي عن ابن عباس.

قال يزيد بن هارون: إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك، وإن جامعها وهو مُحرِّم فهو زان، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبداً. وقال الحسن: الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلا زان مجلود. وقال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، كان نكاح الزانية حراماً بهذه الآية فنسخها قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] فدخلت الزانية في أيامى المسلمين. واحتج من جوز نكاح الزانية بما أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنا أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ، أنا الحسن بن الفرج، أنا عمرو بن خالد الحراني، أنا عبيد الله عن عبدالكريم الجزري، عن أبي الزبير، عن جابر، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ امرأتي لا تدفع يَدَ لامِس؟ قال: طلقها، قال: فإني أحبها وهي جميلة، قال: استمتع بها». وفي رواية غيره «فأمسكها إذاً».

وروي أن عمر بن الخطاب ضرب رجلاً وامرأة في زنا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام.

﴿٤﴾ قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، أراد بالرمي القذف بالزنا وكل من رمى محصناً أو محصنة بالزنا، فقال له: زنيت أو يا زاني فيجب عليه جلد ثمانين جلدة، إن كان حراً وإن كان عبداً فيجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن، فعلى القاذف التعزير، وشرائط الإحصان خمسة: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنى، حتى أن من زنى مرة في أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره قذفه قاذف لا حدّ عليه. فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة من الشهود على زناه سقط الحدّ عن القاذف، لأن الحد الذي وجب عليه حد الفرية وقد ثبت صدقه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون بالزنا المحصنات، يعني المسلمات الحرائر

العفائف ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون على زناهم ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، أي: اضربوهم ثمانين جلدة. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

٥ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفي حكم هذا الاستثناء فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت توبته قبلت شهادته، سواء تاب بعد إقامة الحدّ عليه أو قبله، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وقالوا: الاستثناء يرجع إلى ردّ الشهادة وإلى الفسق، فبعد التوبة تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق، يروى ذلك عن ابن عباس وعمر، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبدالعزيز والزهري وبه قال مالك والشافعي. وذهب قوم إلى أن شهادة المحدود في القذف لا تقبل أبداً وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأي، وقالوا: بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحدّ، قال الشافعي: وهو قبل أن يحد شر منه حين يحدّ، لأن الحدود كفارات، فكيف يردونها في أحسن حاليه ويقبلونها في شر حاليه، وذهب الشعبي إلى أن حدّ القذف يسقط بالتوبة، وقال: الاستثناء يرجع إلى الكل. وعامة العلماء على أنه لا يسقط بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط، كالقصاص يسقط بالعفو، ولا يسقط بالتوبة. فإن قيل إذا قبلتم شهادته بعد التوبة فما معنى قوله ﴿أَبَدًا﴾ قيل: معناه لا تقبل شهادته أبداً ما دام هو مصراً على قذفه لأن أبد كل إنسان مدته على ما يليق بحاله، كما يقال: لا تقبل شهادة الكافر أبداً: يراد ما دام كافراً.

٦ قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، يقذفون نساءهم، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾، يشهدون على صحة ما قالوا، ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ [أي] غير أنفسهم، ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص «أربع شهادات» برفع العين على خبر الابتداء، أي: فشهادة أحدهم التي تدرأ الحد أربع شهادات، وقرأ الآخرون بالنصب أي: فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين.

٧ ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، قرأ نافع ويعقوب «أن» خفيفة وكذلك الثانية «لعنةُ الله» رفع، ثم يعقوب قرأ «غضبُ» بالرفع، وقرأ نافع «غَضِبَ» بكسر الضاد وفتح الباء على الفعل الماضي «الله» رفع، وقرأ الآخرون «أن» بالتشديد فيهما، «لعنة» نصب، و«غضب» بفتح الضاد على الاسم، «الله» جر، وقرأ حفص عن عاصم «والخامسة» الثانية نصب، أي ويشهد الشهادة الخامسة، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره في أن كالأولى. وسبب نزول هذه الآية ما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي أخبره أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ سل لي عن ذلك يا عاصم رسول الله ﷺ، قال: فسأل عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ، فلما رجع عاصم إلى أهله جاء عويمر فقال له: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله ﷺ؟ فقال عاصم لعويمر، لم تأتني بخير، قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي سألته عنها، فقال عويمر، والله لا أنتهي حتى أسأله عنها، فجاء عويمر ورسول الله ﷺ وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فات بها»، فقال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

قال مالك قال ابن شهاب: فكانت تلك سنة المتلاعنين.

وقال محمد بن إسماعيل، أنا إسحاق، أنا محمد بن يوسف، أنا

الأوزاعي، أنا الزهري بهذا الإسناد بمثل معناه وزاد: ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين، خدلج الساقين، فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمر إلا قد كذب عليها»، فجاءت [به] على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر. فكان بعد ينسب إلى أمه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا محمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن بشار، أنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، أنا عكرمة، عن ابن عباس، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك»، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلاّ حدّ في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحدّ فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة، قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

روى عكرمة عن ابن عباس: قال لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية. قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي [أن] أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم»؟ قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد: يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك، فقال النبي ﷺ: «فإن الله يأبى إلا ذلك»، فقال صدق الله ورسوله [إنها حق]، قال: فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلاً مع امرأته يزني بها، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاءً فوجدت رجلاً مع امرأتي، رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهية في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم إني لصادق وما قلت إلاّ حقاً وإني لأرجو أن يجعل الله لي فرجاً، فهمّ رسول الله ﷺ بضربه [الحد] فقال: واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد يجلد هلال وتبطل شهادته، وإنهم لكذلك، ورسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه الحد إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل عليه، حتى فرغ رسول الله ﷺ فأمسكوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، إلى آخر الآيات فقال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً»، فقال: لقد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها، فجاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل لها [زوجك يرميك بالزنا] فكذبت، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ فقال هلال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي قد صدقت وما قلت إلاّ حقاً، فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما، فقيل لهلال: اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال له عند الخامسة: يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال هلال: والله لا

يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله ﷺ، فشهد الخامسة: أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قال للمرأة: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فقال لها عند الخامسة ووقفها: اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقضى بأن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه»، فجاءت به غلاماً كأنه جمل أورق، على الشبه المكروه، وكان بعد أميراً على مصر، لا يدري من أبوه.

وقال ابن عباس في سائر الروايات ومقاتل: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الآية، فقرأها رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: جعلني الله فداك، إن رأى رجل منّا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جُلدَ ثمانين جلدة، وسماه المسلمون فاسقاً، ولا تقبل شهادته أبداً، فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومر؟ وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس بن محصن، فأتى عويمر عاصماً وقال: لقد رأيت شريك بن السمحاء على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله ﷺ في الجمعة الأخرى، فقال: يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي، فأخبره وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عم عاصم، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً، وقال لعويمر: «اتق الله في زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان» فقال: يا رسول الله أقسم بالله إني رأيت شريكاً على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإنها حبلى من غيري، فقال رسول الله ﷺ للمرأة: «اتقي الله ولا تخبري إلا بما صنعت» فقالت: يا رسول الله إن عويمراً رجلٌ غيور وإنه رآني وشريكاً نطيل السمر ونتحدث فحملته الغيرة على ما قال، فقال رسول الله ﷺ لشريك: «ما تقول»؟ فقال: ما تقوله المرأة كذب، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية، فأمر رسول الله ﷺ حتى نودي الصلاة جامعة، فصلى العصر ثم قال لعويمر: قم، فقام فقال: أشهدُ بالله أن خولة لزانية وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثانية أشهد بالله إني رأيت شريكاً على بطنها، وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثالثة أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين، ثم قال في الرابعة أشهد بالله إني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين، ثم قال في الخامسة: لعنة الله على عُويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالقعود وقال لخولة: قومي فقامت، فقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا لمن الكاذبين، ثم قالت في الثانية: أشهد بالله أنه ما رأى شريكاً على بطني وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الثالثة: أشهد بالله إني حبلى منه وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الرابعة: أشهد بالله إنه ما رآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الخامسة: غضب الله على خولة تعني نفسها إن كان من الصادقين، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما، وقال لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي، ثم قال: «تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أُصيهب أُثيبج يضرب إلى السواد فهو لعويمر، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو للذي رُميت به». قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق الله بشريك.

والكلام في حكم الآية: أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحد عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن لم تكن محصنة، غير أن المخرج منهما مختلف، فإن قذف أجنبياً يقام الحد عليه، إلا أن يقيم أربعة من الشهود على زناها، أو يقرّ به المقذوف فيسقط عنه حد القذف، وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاَعَنَ يسقط عنه الحد، فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلاً ربما لا يمكنه إقامة البينة عليه ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان

حجة له على صدقه، فقال تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وإذا أقام الزوج البينة على زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحد واللعان، إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه.

وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما يبدأ فيقيم الرجل ويلقنه كلمات اللعان، فيقول: قل أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به فلانة بالزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه باللعان، وإن رماها بجماعة سماهم، ويقول الزوج كما يلقنه الإمام وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وإن هذا الولد أو الحمل لمن الزنا وما هو مني، ويقول في الخامسة: عليّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتى بكلمة منها من غير تلقين الحاكم لا تكون محسوبة، فإذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه على التأبيد، وانتفى عنه النسب وسقط عنه حد القذف، ووجب على المرأة حد الزنا، إن كانت محصنة ترجم، وإن كانت غير محصنة تجلد وتغرب، فهذه خمسة أحكام تتعلق كلها بلعان الزوج.

⑧ قوله: ﴿وَيَدْرَؤُا﴾، يدفع، ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

⑨ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وأراد بالعذاب الحد، كما قال في أول السورة: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حدهما، ومعنى الآية: أن الزوج إذ لاعَنَ وجب على المرأة حد الزنا، وإذا وجب عليها حدّ الزنا بلعانه فأرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن، فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم [لها] أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة عليَّ غضبُ الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به، ولا يتعلق بلعانها إلا حكم واحد وهو سقوط الحد عنها ولو أقام الزوج بينة على زناها فلا يسقط الحد عنها باللعان، وعند أصحاب الرأي: لا حدّ على من قذف زوجته، بل موجبه اللعان، فإن لم يلاعن يحبس حتى يلاعن فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة عن اللعان حبست حتى تلاعن، وعند الآخرين اللعان حجة على صدقه والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة، وعند أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلا بلعان الزوجين جميعاً، وقضاء القاضي، وفرقة اللعان فرقة فسخ عند كثير من أهل العلم وبه قال الشافعي، وتلك الفرقة متأبدة حتى لو كذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه دون ما له، فيلزمه الحد ويلحقه الولد ولكن لا يرتفع تأبيد التحريم، وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فإذا كذب الزوج نفسه جاز له أن ينكحها، وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم، وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل في تعلق الحكم به، فكل من صح يمينه صح لعانه حراً [كان] أو عبداً مسلماً كان أو ذمياً، وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن، وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم. وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي: لا يجري اللعان إلا بين مسلمين حرّين غير محدودين فإن كان الزوجان أو أحدهما رقيقاً أو ذمياً أو محدوداً في قذف فلا لعان بينهما، وظاهر القرآن حجة لمن قال يجري اللعان بينهما، لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣]، ثم يستوي الحر والعبد هنا في الظهار، ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو خليفته، ويغلظ اللعان بأربعة أشياء: بعدد الألفاظ، والمكان، والزمان، وأن يكون بمحضر جماعة من الناس، أما الألفاظ المستحقة فلا يجوز الإخلال بها، وأما المكان فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن إن كان بمكة فبين الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وفي سائر البلاد ففي المسجد الجامع عند المنبر، والزمان هو أن يكون بعد صلاة العصر، وأما الجمع فأقلهم أربعة، والتغليظ بالجمع مستحب، حتى لو لاعَنَ الحاكم بينهما وحده جاز، وهل التغليظ بالمكان والزمان واجب أو مستحب: فيه قولان.

⑩ قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، جواب لولا محذوف يعني لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ورفع عنكم الحد

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

باللعان، وإن الله تواب يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة حكيم فيما فرض من الحدود.

﴿١١﴾ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية ما:

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالعزيز بن عبدالله، أنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يُصدّق بعضاً وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه وأيهنّ خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ معه، قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنت أُحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت، فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمت إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبيّ بن سلول، قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه، وقال عروة أيضاً: لم يسم من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ عبدالله بن أبي ابن سلول، قال عروة: وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا

أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي وجعاً، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم»؟ ثم ينصرف، فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقت، أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلتُ، أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هنتاه أوَ لم تستمعي ما قال؟ قالت فقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوّني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط رضيّة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله أوَ لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق [الله] عليك [في أمر النساء] والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. [قالت] فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبيّ ابن سلول وهو على المنبر، فقال: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ووالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي»، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبدالأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، [قالت عائشة]: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد [بن معاذ] كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم لسعد بن عبادة: فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيّان الأوسُ والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت وأصبح أبواي عندي، قالت: وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجسلت تبكي معي، [قالت] فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ فسلم علينا ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه،

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله لقد علمت ولقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني بريئة لتصدقنني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا أعلم والله يعلم إني حينئذٍ بريئة وإن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما والله قد برأك الله، قالت: فقالت لي أمي قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله، قالت وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة، وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك: قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل فيه ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط، قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله [عزّ وجلّ].

ورواه محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير، أنا الليث عن يونس عن ابن شهاب بإسناد مثله، وقال: وإنْ كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، إلى قوله: فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

ورواه أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي، فقالت: لا والله ما علمت عليها عيباً إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، فانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله حتى أسقطوا [لها به]، فقالت: سبحان الله والله ما علمت عليها إلا كما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر.

وفيه قالت: وأنزل على رسول الله ﷺ، فرُفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك، فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمده ولا أحمد أحداً، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه.

أما تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ بالكذب، والإفك أسوأ الكذب، سُمي إفكاً لكونه مصروفاً عن الحق، من قولهم: أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه، ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعة منهم عبدالله بن أبيّ ابن سلول،

ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، زوجة طلحة بن عبيد الله، وغيرهم، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾، يا عائشة ويا صفوان، وقيل: هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبي ﷺ ولصفوان، يعني: لا تحسبوا الإفك شراً لكم، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾، يعني من العصبة الكاذبة ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾، أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾، أي: تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه، قرأ يعقوب «كبره» بضم الكاف، وقرأ العامة بالكسر، قال الكسائي: هما لغتان وقال الضحاك: قام بإشاعة الحديث، وهو عبدالله بن أبيّ ابن سلول. وروى الزهري عن عروة عن عائشة ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ قالت: عبدالله بن أبيّ ابن سلول، والعذاب العظيم هو النار في الآخرة.

وقد روى ابن أبي مُليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت: ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين، وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس، فقال عبدالله بن أبيّ رئيسهم: مَنْ هذه؟ قالوا: عائشة قال: والله ما نجت منه وما نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها. وشرع في ذلك أيضاً حسان بن ثابت ومسطح وحمنة فهم الذين تولوا كبره.

وقال قوم: هو حسان بن ثابت.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا بشر بن خالد، أنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سليمان عن أبي الضحاك عن مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشد شعراً يشبب بأبيات له وقال:

حصان رزان ما تزن بريبة
وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك، قال مسروق فقلت لها: لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأي عذاب أشد من العمى، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ.

ويروى أن النبي ﷺ أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحدّ جميعاً ثمانين ثمانين.

(١٢) قوله: ﴿لَّوْلَا﴾، هلا، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾، بإخوانهم، ﴿خَيْرًا﴾ وقال الحسن: بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. ﴿وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، أي: كذب بيّن.

(١٣) ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [أي] على ما زعموا، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، فإن قيل: كيف يصيرون عند الله كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت؟ قيل: عند الله أي في حكم الله وقيل: معناه كذّبوهم بأمر الله. وقيل: هذا في حق عائشة ومعناه أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾، خضتم، ﴿فِيهِ﴾، من الإفك، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال ابن عباس أي: عذاب لا انقطاع له يعني في الآخرة لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، وقد أصابه فإنه قد جُلد وحُدّ.

وقد روت عمرة عن عائشة أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية حدّ أربعة نفر: عبدالله بن أبيّ، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

(١٥) قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تقولونه، ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، قال مجاهد ومقاتل: يرويه بعضكم عن بعض وقال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول [له] بلغني كذا وكذا يتلقونه تلقياً، [وكذا قرأه أبيّ بن كعب] وقال الزجاج: يلقيه بعضكم إلى بعض، قرأت عائشة «تلقونه» بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾، تظنون أنه سهل لا إثم فيه، ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، في الوزر.

(١٦) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ﴾، هذا

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

اللفظ ههنا بمعنى التعجب، ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾، يعني كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمته. وفي بعض الأخبار أن أم أيوب قالت لأبي أيوب الأنصاري: أما بلغك ما يقول الناس في عائشة؟ فقال أبو أيوب: سبحانك هذا بهتان عظيم، فنزلت الآية على وفق قوله.

﴿١٧﴾ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحرّم الله عليكم، وقال مجاهد: ينهاكم الله. ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾، بالأمر والنهي، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمر عائشة وصفوان بن المعطل، ﴿حَكِيمٌ﴾، حكم ببراءتهما.

﴿١٩﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾، يعني تظهر، ويذيع الزنا، ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، يعني عبدالله بن أبيّ وأصحابه المنافقين، والعذاب في الدنيا الحد وفي الآخرة النار، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، جواب ﴿وَلَوۡلَا﴾ محذوف يعني: لعاجلكم بالعقوبة، قال ابن عباس: يريد مسطحاً، وحسان بن ثابت وحمنة.

﴿٢١﴾ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، يعني بالقبائح من الأفعال، ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾، كل ما يكرهه الله عز وجل، ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾، قال مقاتل: ما صلح. وقال ابن قتيبة: ما طهر، ﴿مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾، والآية على العموم عند بعض المفسرين، قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد. وقال قوم: هذا الخطاب للذين خاضوا في الإفك، ومعناه: ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: ما قبل توبة أحد منكم، ﴿أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي﴾، يطهر، ﴿مَن يَشَآءُۗ﴾، من الذنب بالرحمة والمغفرة، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾، يعني ولا يحلف، وهو يفتعل من الألية وهي القسم، قرأ أبو جعفر «يتأل» بتقديم التاء وتأخير الهمزة، وهو يتفعل من الألية وهي القسم. ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾، يعني أولوا الغنىٰ والسعة يعني أبا بكر الصديق ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، يعني مسطحاً وكان مسكيناً مهاجراً بدرياً ابن خالة أبي بكر.

[حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه حين قال ما قال في عائشة عند نزول براءتها] ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾، عنهم خوضهم في أمر عائشة، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾، يخاطب أبا بكر، ﴿أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فلما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر قال: بلى، أنا أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

وقال ابن عباس والضحاك: أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر أن لايتصدقوا على رجل [ولا امرأة] تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿٢٣﴾ قوله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، العفائف، ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾، عن الفواحش، ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، والغافلة عن الفاحشة التي لا يقع في قلبها فعل الفاحشة وكانت عائشة كذلك، قوله تعالى: ﴿لُعِنُواْ﴾، عذبوا، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، بالحدّ، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، بالنار، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، قال مقاتل: هذا خاص في عبدالله بن أبيّ المنافق.

وروي عن خصيف قال: قلت لسعيد بن جبير: من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة؟ فقال ذلك لعائشة خاصة. وقال قوم: هي لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة دون سائر المؤمنات.

روي عن العوام بن حوشب عن شيخ من بني كاهل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ليس فيها توبة. ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٤ ـ ٥] فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة. وقال الآخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ وكان ذلك حتى نزلت الآية التي في أول السورة ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤ ـ ٥] فأنزل [الله] الجلد والتوبة.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدم الفعل وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾، وهذا قبل أن يختم على أفواههم، ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [تنطق]، يروى أنه يختم على الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا. وقيل: معناه تشهد ألسنة بعضهم على بعض وأيديهم وأرجلهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، جزاءهم الواجب. وقيل: حسابهم العدل. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا. قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن عبدالله بن أبيّ كان يشك في الدين فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين.

(٢٦) قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، قال أكثر المفسرين: الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس. ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾، من الناس، ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾، من القول، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾، من القول، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾، من الناس، ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾، من الناس، ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾، من القول، والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس والطيب لا يليق إلا بالطيب من الناس، فعائشة لا يليق بها الخبيثات من القول لأنها طيبة رضي الله عنها فيضاف إليها طيبات الكلام من المدح والثناء الحسن وما يليق بها. وقال الزجاج: معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة، ومدح للذين برؤوها بالطهارة. وقال ابن زيد: معناه الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبدالله بن أبيّ والشاكين في الدين، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. يريد عائشة طيبها الله لرسوله الطيب ﷺ. ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾، يعني: عائشة وصفوان ذكرهما بلفظة الجمع كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] أي إخوان. وقيل: أولئك مبرؤون يعني الطيبين والطيبات منزهون، ﴿مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فالمغفرة هي العفو عن الذنوب والرزق الكريم الجنة. وروي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها، منها.

أن جبريل أتى بصورتها في سرقة من حرير، وقال: هذه زوجتك.

وروى أنه أتى بصورتها في راحته وأن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها، وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها، ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحاف، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله ﷺ وصديقه، وخلقت طيبة، ووُعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال: حدثتني الصدّيقة بنت الصدّيق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء.

(٢٧) قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، قيل: معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي: حتى تستأذنوا.

وكان ابن عباس يقرأ حتى «تستأذنوا» ويقول: «تستأنسوا» خطأ من الكاتب.

وكذلك كان يقرأ أبيّ بن كعب، والقراءة المعروفة «تستأنسوا» وهو

الجزء الثامن عشر — سورة النور

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٣٥٢

بمعنى الاستئذان. وقيل: الاستئناس طلب الأنس وهو أن ينظر هل في البيت إنسان فيؤذنهم إني داخل. وقال الخليل: الاستئناس الاستبصار من قوله ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت. وقيل: هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو يتنحنح، يؤذن أهل البيت. وجملة حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد السلام والاستئذان.

واختلفوا في أنه يقدم الاستئذان أم السلام؟ فقال قوم: يقدم الاستئذان فيقول: أدخل سلام عليكم، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ والأكثرون على أنه يقدم السلام فيقول: سلام عليكم أأدخل. وفي الآية تقديم وتأخير، تقديرها: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وكذلك هو في مصحف عبدالله بن مسعود.

وروي عن كلدة بن حنبل قال: دخلت على النبي ﷺ فلم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: ارجعْ فقل: السلام عليكم أأدخل.

وروي عن ابن عمر أن رجلاً استأذن عليه فقال: أأدخل؟ فقال ابن عمر: لا، فأمر بعضهم الرجل أن يسلم فسلم فأذن له.

وقال بعضهم: إن وقع بصره على إنسان قدّم السلام، وإلاّ قدم الاستئذان، ثم سلم.

وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة: يستأذن على ذوات المحارم، ومثله عن الحسن، إن كانوا في دار واحدة يتنحنح ويتحرك أدنى حركة.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن سعيد الجُريري، عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: سلم عبدالله بن قيس على عمر بن الخطاب ثلاث مرات فلم يأذن له فرجع فأرسل عمر في إثره فقال: لم رجعت؟ فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع». قال عمر: لتأتين على ما تقول ببينة وإلا لأفعلن بك كذا وكذا غير أنه قد أوعده، قال: فجاء أبو موسى ممتقعاً لونه وأنا في حلقة جالس، فقلنا: ما شأنك؟ فقال: سلمت على عمر، فأخبرنا خبره، فهل سمع أحد منكم من رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم كلنا قد سمعه، قال: فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره بذلك.

ورواه بسر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري، وفيه: قال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذن له فليرجعْ».

قال الحسن: الأول إعلام والثاني مؤامرة، والثالث استئذان بالرجوع.

﴿٢٨﴾ قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾، أي إن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها، ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾، يعني إن كان في البيت قوم فقالوا: ارجع فليرجع ولا يقف على الباب ملازماً، ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، يعني الرجوع أطهر وأصلح لكم، قال قتادة: إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب فإن للناس حاجات، وإذا حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظراً جاز. وكان ابن عباس يأتي باب الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن، فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عم رسول الله لو أخبرتني، فيقول: هكذا أمرنا أن نطلب العلم. وإذا وقف فلا ينظر من شق الباب إذا كان الباب مردوداً.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور، أنا

عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري عن سهل بن سعد الساعدي أن رجلاً اطلع على النبي ﷺ من ستر الحجرة في يد النبي ﷺ مدرى، فقال: «لو علمت أن هذا ينظرني حتى آتيه لطعنت بالمدرىٰ في عينيه، وهلْ جُعل الاستئذان إلاّ من أجل البصر».

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأً اطَّلَعَ عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح».

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، من الدخول بالإذن وغير الإذن، ولما نزلت آية الاستئذان قالوا: كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق، ليس فيها ساكن؟

(٢٩) فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾، أي: بغير استئذان، ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾، يعني منفعة لكم، واختلفوا في هذه البيوت، فقال قتادة: هي الحانات والبيوت والمنازل المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤووا أمتعتهم إليها، جاز دخولها بغير استئذان، والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد. وقال ابن زيد: هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهو المنفعة. قال إبراهيم النخعي: ليس على حوانيت السوق إذن، وكان ابن سيرين إذا جاء إلى حانوت السوق يقول: السلام عليكم أأدخل؟ ثم يلج.

وقال عطاء: هي البيوت الخربة، والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط.

وقيل: هي جميع البيوت التي لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يطلع على عورة فإن لم يخف ذلك فله الدخول بغير استئذان، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾.

(٣٠) قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، أي: عن النظر إلى ما [لا] يحل النظر إليه. وقيل: «من» صلة يعني يغضوا أبصارهم. وقيل: هو ثابت لأن المؤمنين غير مأمورين بغض البصر أصلاً لأنه لا يجب الغض عما يحل النظر إليه، وإنما أمروا بأن يغضوا عمّا لا يحل النظر إليه، ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، عمّا لا يحل، قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني غض البصر وحفظ الفرج، ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾، يعني خير لهم وأطهر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، يعني عليم بما يفعلون.

روي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تُتبعِ النظرةَ النظرة فإنّ لك الأولى وليست لك الآخرة».

وروي عن جرير بن عبدالله قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصرف بصرك».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بنُ الحجاج، أنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنا زيد بن الحباب، عن الضحاك بن عثمان قال: أخبرني زيد بن أسلم، عن عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد».

(٣١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾، عمّا لا يحل، ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، عمن لا يحل. وقيل أيضاً: يحفظن فروجهن يعني يسترنها حتى لا يراها أحد.

وروي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعدما أُمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه، فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه»؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، يعني لا يظهرن زينتهن لغير محرم، وأراد بها الزينة الخفية وهما زينتان خفية وظاهرة، فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل، والسوار في المعصم والقرط والقلائد، فلا يجوز لها إظهارها،

ولا للأجنبي النظر إليها، والمراد من الزينة موضع الزينة. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أراد به الزينة الظاهرة، اختلف أهل العلم في هذه الزينة الظاهرة التي استثناها الله تعالى، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: هو الوجه والكفان. وقال ابن مسعود: هي الثياب بدليل قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأراد بها الثياب [وقال الحسن: الوجه والثياب]. وقال ابن عباس: الكحل والخاتم والخضاب في الكف، فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئاً منها غض البصر وإنما رُخص في هذا القدر أن تبديه المرأة من بدنها لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة، وسائر بدنها عورة يلزمها ستره. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾، يعني: ليلقين بمقانعهن، ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، وصدورهنّ ليسترن بذلك شعورهنّ وصدورهنّ وأعناقهن وأقراطهن. قالت عائشة: رحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهنّ فاختمرن بها. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للأجانب وهو ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، قال ابن عباس ومقاتل: يعني لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلا لأزواجهن، ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾، فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة [من المرأة] ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة، ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها. قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلاّ ما بين السرة والركبة كالرجل المحرم، هذا إذا كانت المرأة مسلمة، فإن كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها. اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم: يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء، وقال بعضهم: لا يجوز لأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ والكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية في الدين، كانت أبعد من الرجل الأجنبي، وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات. قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، اختلفوا فيها، فقال قوم: عبدالمرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً وأن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة، كالمحارم وهو ظاهر القرآن. وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة.

وروى ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك».

وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو قول سعيد بن المسيب، وقال: المراد من الآية الإماء دون العبيد، وعن ابن جريج أنه قال ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ لأنه لا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة إلا أن تكون تلك المرأة المشركة أمة لها. قوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر غير بنصب الراء على القطع لأن ﴿التَّابِعِينَ﴾ معرفة و﴿غَيْرِ﴾ نكرة. وقيل: [إنّ «غير»] بمعنى «إلا» فهو استثناء معناه: يبدين زينتهن للتابعين إلاّ ذا الإربة منهم فإنهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة. وقرأ الآخرون بالجر على نعت ﴿التَّابِعِينَ﴾ والإربة والأرب الحاجة، والمراد ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ وهم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، وهو قول مجاهد وعكرمة والشعبي. وعن ابن عباس أنه الأحمق العنين. وقال الحسن: هو الذي لا ينتشر ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن. وقال سعيد بن جبير: هو المعتوه وقال عكرمة المجبوب. وقيل هو المخنث. وقال مقاتل: هو الشيخ الهرم والعنين والخصي والمجبوب ونحوه.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا محمد بن أحمد بن

محمد بن معقل بن محمد الميداني، أنا محمد [بن] يحيى، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلنّ عليكن هذا» فحجبوه.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أراد بالطفل الأطفال، يكون واحداً وجمعاً، أي: لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها. وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر، وهو قول مجاهد. وقيل: لم يطيقوا أمر النساء. وقيل: لم يبلغوا حدّ الشهوة. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها [الأرض] ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها، فنهيت عن ذلك. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، من التقصير الواقع في أمره ونهيه. وقيل: راجعوا طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السورة، ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قرأ ابن عامر «أيةُ المؤمنون» و«يا أيةُ الساحر» و«أيةَ الثقلان» بضم الهاء فيهن، ويقف بلا ألف على الخط، وقرأ الآخرون بفتح الهاآت الثلاث على الأصل ويقف أبو عمرو والكسائي على الوصل ويقف الباقون بغير ألف على الرسم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن [محمد بن سمعان]، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا وهب بن جرير، أنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي بردة أنه سمع الأغر يحدث عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب [إلى ربي كل يوم] مائة مرة».

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن [محمد] الداودي، أنا [أبو] محمد بن عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن حريم الشاشي، أنا أبو محمد عبدالله بن حميد الكشي، حدثني ابن أبي شيبة، أنا عبدالله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن محمد بن سوقة، عن نافع، عن ابن عمر قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «رب اغفر لي، وتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم»، مائة مرة.

وجملة الكلام في بيان العورات: أنه لا يجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل، وعورته ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المرأة مع المرأة ولا بأس بالنظر إلى سائر البدن إذا لم يكن خوف فتنة، وقال مالك وابن أبي ذئب: الفخذ ليس بعورة لما روي عن عبدالعزيز بن صهيب عن أنس قال: أجرى نبي الله ﷺ فرساً في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني لأنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ.

وأكثر أهل العلم على أن الفخذ عورة لما:

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبي كثير عن محمد بن جحش، قال: مرّ رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان، قال: «يا معمر غط فخذيك فإن الفخذين عورة».

وروي عن ابن عباس وجرهد بن خويلد، كان من أصحاب الصفة أن النبي ﷺ قال: «إن الفخذ عورة».

قال محمد بن إسماعيل: حديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط، أما المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبية حرة فجميع بدنها في حق الأجنبي عورة لا يجوز النظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين، وإن كانت أمة فعورتها مثل عورة الرجل، ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المحارم بعضهم مع بعض، والمرأة في النظر إلى الرجل الأجنبي كهو معها. ويجوز للرجل أن ينظر إلى جميع بدن امرأته وأمته التي تحل له، وكذلك هي منه إلا نفس الفرج فإنه يكره النظر إليه، وإذا زوج الرجل أمته حرم عليه النظر إلى عورتها كالأَمَة الأجنبية.

وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زوج أحدكم عبدَه أمتَه فلا ينظر

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

إلى ما دون السرة وفوق الركبة».

﴿٣٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، الأيامى جمع أيم وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة، يقال رجل أيم وامرأة أيمة، وأيم. ومعنى الآية: زوجوا أيها المؤمنون [من لا زوج له] من أحرار رجالكم ونسائكم، ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، وهذا الأمر أمر ندب واستحباب. فيستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم، لما:

أخبرنا أبو بكر محمد بن [محمد بن] علي بن الحسن الطوسي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايني، أنا أبو بكر محمد بن يزداد بن مسعود، أنا أبو عبدالله محمد بن أيوب البجلي، أنا محمد بن كثير، أنا سفيان، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبدالرحمن بن يزيد، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقال رسول الله ﷺ: «تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم حتى بالسقط [يوم القيامة]».

وقال ﷺ: «من أحب فطرتي فليستنّ بسنتي، ومن سنتي النكاح».

أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة له أفضل من النكاح عند الشافعي رحمه الله، وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل. قال الشافعي: وقد ذكر الله تعالى عبداً كرّمه فقال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، والحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليه، وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن إلى النكاح. وفي الآية دليل على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء لأن الله تعالى خاطبهم به.

كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات، لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم، روي ذلك عن عمر، وعلي، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وأبي هريرة، وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وإبراهيم النخعي وعمر بن عبدالعزيز، وإليه ذهب الثوري، والأوزاعي، وعبدالله بن المبارك، والشافعي، وأحمد وإسحاق، وجوز أصحاب الرأي للمرأة الحرة تزويج نفسها، وقال مالك: إن كانت المرأة دنيئة جاز لها تزويج نفسها، وإن كانت شريفة فلا، والدليل على أن الولي شرط من جهة الأخبار ما:

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا [أبو] محمد الحسن بن أحمد المخلدي، أنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أنا قتيبة بن سعيد، أنا أبو عوانة، عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «لا نكاح إلا بولي».

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سعيد بن سالم عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل ـ ثلاثاً ـ فإن أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له».

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قيل: الغنى ههنا القناعة. وقيل:

اجتماع الرزقين رزق الزوج ورزق الزوجة.

وقال عمر: عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. وعن بعضهم: أن الله تعالى وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون مالاً ينكحون به للصداق والنفقة، ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي يوسع عليهم من رزقه. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: يطلبون المكاتبة، ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾، سبب نزول هذه الآية ما رُوي أن غلاماً لحويطب بن عبدالعزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب، والكتابة أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال ويسمي مالاً معلوماً، يؤدي ذلك في نجمين أو نجوم معلومة في كل نجم كذا، فإذا أديت [ذلك] فأنت حر، يقبل العبد ذلك، فإذا أدى المال عتق، ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة، وإذا أعتق بعد أداء المال فما فضل في يده من المال يكون له، ويتبعه أولاده الذين حصلوا في حال الكتابة في العتق، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق، وما في يده من المال يكون لمولاه لِما:

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن نافع، أنا عبدالله بن عمر كان يقول: المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته شيء.

ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته درهم».

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر إيجاب فيجب على المولى أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيراً إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وإن سأل على أقل من قيمته فلا يجب، وهو قول عطاء وعمرو بن دينار.

ولما رُوي أنّ سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكاه إلى عمر، فعلاه بالدرة وأمره بالكتابة فكاتبه.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب، ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي، لأنه عقد جوز إرفاقاً بالعبد، ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل، فيحصل المقصود، كالدية في قتل الخطأ وجبت على العاقلة على سبيل المواساة فكانت عليهم مؤجلة منجمة، وجوّز أبو حنيفة الكتابة على نجم واحد وحالّة. قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، اختلفوا في معنى الخير، قال ابن عمر: قوة على الكسب. وهو قول مالك والثوري، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: مالاً، كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] أي: مالاً.

ورُوي أنّ عبداً لسلمان الفارسي قال له كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: لا، قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس، ولم يكاتبه. قال الزجاج: لو أراد به المال لقال إن علمتم لهم خيراً، وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة: صدقاً وأمانة. قال طاوس، وعمرو بن دينار: مالاً وأمانة. وقال الشافعي: وأظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا أبو [محمد] الحسن بن علي بن شريك الشافعي، أنا عبدالله بن محمد بن مسلم، أنا أبو بكر الجوربذي، أنا يونس بن عبدالأعلى، أنا ابن وهب أخبرني الليث عن محمد بن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله».

وحكى محمد بن سيرين عن عبيدة: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أقاموا الصلاة. وقيل: هو أن يكون العبد بالغاً عاقلاً، أما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصح، وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق. قوله

سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، اختلفوا فيه فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي يجب على المولى أن يحط عن مكاتبه من مال كتابته شيئاً، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي، ثم اختلفوا في قدره فقال قوم: «يحط عنه ربع مال الكتابة»، وهو قول علي ورواه بعضهم عن علي مرفوعاً، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يحط عنه الثلث.

وقال الآخرون: ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء، وهو قول الشافعي، قال نافع: كاتب عبدالله بن عمر غلاماً له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم.

وقال سعيد بن جبير: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع إليه صدقته، ويضع من آخر كتابته ما أحب، وقال بعضهم: هو أمر استحباب، والوجوب أظهر [وقال] قوم: أراد بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ أي سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات، بقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو قول الحسن وزيد بن أسلم، وقال إبراهيم: هو حث لجميع الناس على معونتهم، ولو مات المكاتب قبل أداء النجوم اختلف أهل العلم فيه فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقاً، وترتفع الكتابة، سواء ترك مالاً أو لم يترك، كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع، وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه قال عمر بن عبدالعزيز، والزهري، وقتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد، وقال قوم: إن ترك وفاءً بما بقي عليه من الكتابة كان حراً، وإن كان فيه فضل فالزيادة لأولاده الأحرار، وهو قول عطاء وطاوس والنخعي والحسن، وبه قال مالك، والثوري، وأصحاب الرأي. ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال لأن عتقه معلق بالأداء، وقد وجد وتبعه الأولاد والاكتساب كما في الكتابة الصحيحة، ويفترقان في بعض الأحكام: وهي أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم، ولا تبطل بموت المولى، ويعتق بالإبراء عن النجوم، والكتابة الفاسدة يملك المولى فسخها قبل أداء المال، حتى لو أدى المال بعد الفسخ لا يعتق ويبطل بموت المولى، ولا يعتق بالإبراء عن النجوم، وإذا عتق المكاتب بأداء المال لا يثبت التراجع في الكتابة الصحيحة، ويثبت في الكتابة الفاسدة، فيرجع المولى عليه بقيمة رقبته، وهو يرجع على المولى بما دفع إليه إن كان مالاً. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الآية.

نزلت في عبدالله بن أبيّ ابن سلول المنافق، كانت له جاريتان: معاذة ومسيكة، وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية، يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين، فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه، فأنزل الله هذه الآية.

وروي أنه جاءت إحدى الجاريتين يوماً ببُرْدٍ وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، قالتا والله لا نفعل، قد جاء الإسلام وحرم الزنا، فأتيا رسول الله ﷺ وشكتا إليه، فأنزل هذه الآية.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي [على] الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي إذا أردن، وليس معناه الشرط لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا وإن لم يردن تحصناً، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي إذا كنتم مؤمنين. وقيل: [إنما] شرط إرادة التحصن لأن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصن، فإذا لم ترد التحصن بغت طوعاً، والتحصن التعفف، وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصناً ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لتطلبوا من أموال الدنيا يريد من كسبهن وبيع أولادهن، ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني للمكرهات، والوزر على المُكره. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: لهن والله لهن والله.

(٣٤) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، من الحلال والحرام، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن

﴿قَبۡلِكُمۡ﴾، أي: شبهاً من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين، ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر.

(٣٥) قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، قال ابن عباس: هادي أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من الضلالة ينجون. وقال الضحاك: منوّر السموات والأرض، يقال: نوّر السماء بالملائكة ونوّر الأرض بالأنبياء. وقال مجاهد: مدبر الأمور في السموات والأرض. وقال أبيّ بن كعب والحسن وأبو العالية: مزّين السموات والأرض، زيّن السماء الشمس والقمر والنجوم، وزيّن الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. ويقال: بالنبات والأشجار. وقيل: معناه الأنوار كلها منه، كما يقال: فلان رحمة أي منه الرحمة، وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل: «شعر»:

إذا سار عبدالله عن مرو ليلة
فقد سار منها نورها وجمالها

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدي به، كما قال ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، وكان ابن مسعود يقرأ مثل نوره في قلب المؤمن. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثل نوره الذي أعطى المؤمن. وقال بعضهم: الكناية عائدة إلى المؤمن، أي: مثل نور قلب المؤمن، وكان أُبيّ يقرأ: «مثل نور من آمن به» وهو عبد جعل الإيمان والقرآن في صدره. وقال الحسن وزيد بن أسلم: أراد بالنور القرآن. وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد ﷺ.

وقيل: أراد بالنور الطاعة، سمّى طاعةَ الله نوراً وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلاً، ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾، وهي الكوة التي لا منفذ لها فإن كان لها منفذ فهي كوة. وقيل: المشكاة حبشية. قال مجاهد: هي القنديل ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ أي: سراج وأصله من الضوء، ومنه الصبح، ومعناه: كمصباح في مشكاة، ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾، يعني القنديل، قال الزجاج: إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوؤه يزيد في الزجاج، ثم وصف الزجاجة، فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

قرأ أبو عمرو والكسائي «دِرِّيء» بكسر الدال والهمزة، وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والهمز، فمن كسر الدال فهو فعيل من الدرء، وهو الدفع، لأن الكوكب يدفع الشيطان من السماء، وشبهه بحالة الدفع لأنه يكون في تلك الحالة أضوأ وأنور، وقيل: دُري مكرر أي طالع، يقال درأ النجم إذا طلع وارتفع، ويُقال: هو من درأ الكوكب إذا اندفع منقبضاً فيتضاعف ضوءه في ذلك الوقت. ويقال: درأ علينا فلان أي طلع وظهر، فأما رفع الدال مع الهمزة كما قرأ حمزة، قال أكثر النحاة: هو لحن، لأنه ليس في كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين.

قال أبو عبيدة: وأنا أرى لها وجهاً وذلك أنها دروء على وزن فعول من دراتُ مثل سبوح وقدوس، وقد استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى الكسر، كما قالوا: عتيا وهو مفعول من عتوت، وقرأ الآخرون «دُري» بضم الدال وتشديد الياء بلا همز، أي: شديد الإنارة، نسب إلى الدر في صفائه وحسنه، وإن كان الكوكب أكثر ضوءاً من الدر لكنه يفضل الكواكب بضيائه، كما يفضل الدر سائر الحب. وقيل: الكوكب الدري واحد من الكواكب الخمسة العظام، وهي زحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد. وقيل: شبهه بالكواكب، ولم يشبهه بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف. ﴿يُوقَدُ﴾ قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب «تَوَقَّدُ» بالتاء وفتحها وفتح الواو والدال وتشديد القاف على الماضي يعني المصباح، أي: اتقد يقال توقدت النار إذا اتقدت. وقرأ أهل الكوفة غير حفص «تُوقد» بالتاء وضمها وفتح القاف خفيفاً، يعني الزجاجة أي: نار الزجاجة لأن الزجاجة لا توقد، وقرأ الآخرون بالياء وضمها خفيفاً يعني المصباح، ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾، أي من زيت شجرة مباركة، فحذف

المضاف بدليل قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾، وأراد بالشجرة المباركة الزيتونة وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به وهو أضوأ وأصفى الأدهان، وهو إدام وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجه إلى إعصار بل كل أحد يستخرجه.

وجاء في الحديث: «أنه مصحة من الباسور».

وهي شجرة تورق من أعلاها إلى أسفلها.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي، أنا أبو أمية الطرسوسي، أنا قبيصة بن عقبة، أنا سفيان الثوري، عن عبدالله بن عيسى، عن عطاء الذي كان بالشام، وليس بابن أبي رباح، عن أسد بن ثابت وأبي أسلم الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيتَ وادَّهِنوا به فإنه من شجرة مباركة».

قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، أي: ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار، تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال: فلان ليس بأسود ولا بأبيض يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص، بل اجتمع فيه كل واحد منهما، وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض أي اجتمعت فيه الحلاوة والحموضة، هذا قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي، والأكثرين. وقال السديّ وجماعة: معناه أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل، فهي لا تضرها شمس ولا ظل.

وقيل: معناه أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر، ولا في غرب يضرها البرد. وقيل: معناه هي شامية لأن الشام لا شرقي ولا غربي. وقال الحسن: ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾، دهنها، ﴿يُضِيٓءُ﴾، من صفائه، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، أي: قبل أن تصيبه النار، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، يعني نور المصباح على نور الزجاجة.

واختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال كعب: هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار.

وروى سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال: المشكاة جوف محمد، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله فيه، لا شرقية ولا غربية، لا يهودي ولا نصراني، توقد من شجرة مباركة إبراهيم، نور على نور، قلب إبراهيم، ونور: قلب محمد ﷺ وقال محمد بن كعب القرظي: المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين سماه الله مصباحاً كما سماه سراجاً، فقال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] توقد من شجرة مباركة وهي إبراهيم، وسماه مباركاً لأن أكثر الأنبياء من صلبه، لا شرقية ولا غربية يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، لأن اليهود تصلي قِبَلَ المغرب والنصارى تصلي قِبَلَ المشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه «نور على نور»، نبي من نسل نبي، نور محمد على نور إبراهيم. وقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن.

روى أبو العالية عن أبيّ بن كعب قال: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان، والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة وهي الإخلاص لله وحده، فمثله كمثل الشجرة التي التف بها الشجر [فهي] خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك

المؤمن، قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أُعطيَ شكر وإن ابتلي صَبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه نور على نور.

قال أُبيّ فهو يتقلب في خمسة أنوار. قوله: «نور»، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة. قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدى ونوراً على نور. قال الكلبي قوله: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، يعني إيمان المؤمن وعمله. وقال السدي: نور الإيمان ونور القرآن.

وقال الحسن وابن زيد: هذا مثل للقرآن، فالمصباح هو القرآن فكما يُستضاء بالمصباح يُهتدى بالقرآن، والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ، نور على نور: يعني القرآن نور من الله عزّ وجلّ لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن، فازداد بذلك نوراً على نور.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لدين الإسلام، وهو نور البصيرة وقيل القرآن ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾، يبين الله الأشياء للناس تقريباً للأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(٣٦) قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾، أي ذلك المصباح في بيوت. وقيل: توقد في بيوت، والبيوت: هي المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض.

وروى صالح بن حيان عن ابن بريدة في قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾، قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان، ومسجد المدينة بناه رسول الله ﷺ، ومسجد قباء أسس على التقوى بناه رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾، قال مجاهد أن تبنى، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧] وقال الحسن: تعظم يعني لا يذكر فيها الخنَا مِنَ القول. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتلى فيها كتابه، ﴿يُسَبِّحُ﴾، قرأ ابن عامر وأبو بكر «يسبح» بفتح الباء على غير تسمية الفاعل، والوقف على هذه القراءة عند قوله: ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النور: ٣٦] وقرأ الآخرون بكسر الباء جعلوا التسبيح فعلاً للرجال، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: يصلي، ﴿لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، أي بالغداة والعشي. قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضات. فالتي تؤدى بالغداة صلاة الصبح، والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يجمعهما. وقيل: أراد به صلاة الصبح والعصر.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أنا محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميداني، ثنا محمد بن يحيى، أنا عبدالله بن رجاء، أنا همام عن أبي حمزة، أن أبا بكر بن عبدالله بن قيس حدثه عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «من صلى البردين دخل الجنة».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال التسبيح بالغدو صلاة الضحى.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا عبدالله بن يوسف، أنا الهيثم بن حميد أخبرني يحيى بن الحارث عن القاسم بن عبدالرحمن [عن] أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجْرُه كأجر الحاج المحرم، ومن مشى إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إيّاه فأجره كأجر المعتمر، وصلاة

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين».

﴿٣٧﴾ قوله: ﴿رِجَالٌ﴾، قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد، ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾، لا تشغلهم، ﴿تِجَٰرَةٌ﴾، قيل خص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلوات والطاعات، وأراد بالتجارة الشراء [وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعاً لأنه ذكر البيع بعد هذا]، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً﴾ [الجمعة: ١١] يعني الشراء، وقال الفراء: التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه. قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن حضور المساجد لإقامة الصلوات ﴿وَإِقَامِ﴾، أي: إقامة ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾، حذف الهاء وأراد أداءها في وقتها، لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه أراد بإقامة الصلاة حفظ المواقيت.

روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: المفروضة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها. وقيل: هي الأعمال الصالحة. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، قيل: تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتنفتح الأبصار من الأغطية. وقيل: تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء تخشى الهلاك وتطمع في النجاة، وتقلب الأبصار من هَوْله أي: ناحيةً يؤخذ بهم ذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أين يؤتون الكتب أم من قبل الإيمان أم من قبل الشمائل، وذلك يوم القيامة. وقيل: تتقلب القلوب في الجوف فترتفع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج، وتقلب البصر شخوصه من هول الأمر وشدته.

﴿٣٨﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾، يعني أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، يريد يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوي أعمالهم لا يجزيهم بها، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، ما لم يستحقوه بأعمالهم، ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ثم ضرب [الله] لأعمال الكفار مثلاً.

﴿٣٩﴾ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾، «السراب» الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري، يشبه الماء الجاري على الأرض يظنه من رآه ماء، فإذا قرب منه انفشّ فلم يَرَ شيئاً، والأول ما ارتفع من الأرض، وهو شعاع يرى بين السماء والأرض بالغداوات شبه الملاءة [لأنه] يرفع فيه الشخوص يرى فيه الصغير كبيراً والقصير طويلاً، والرقراق يكون بالعشايا، وهو ما ترقرق من السراب، أي جاء وذهب. والقيعة: جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض، وفيه يكون السراب، ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾، أي يتوهمه العطشان، ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء ما قد رأى أنه ماء. وقيل: جاء موضع السراب، ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، على ما قدره وحسبه، كذلك الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا أتاه ملك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى عنه شيئاً ولا نفعه. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾، أي عند عمله، أي وجد الله بالمرصاد. وقيل: قدم

علـــى الله، ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، أي جزاء عمله، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾، وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار، يقول مثل أعمالهم من فسادها وجهالتهم [وضلالهم] فيها كظلمات، ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾، وهو العميق الكثير الماء، ولجة البحر معظمه، ﴿يَغْشَىٰهُ﴾، يـعـلـوه، ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، متراكم، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، قرأ ابن كثير برواية القواس «سحاب» بالرفع والتنوين، «ظلمات»، بالجر على البدل من قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾.

وروى أبو الحسن البري عنه: ﴿سَحَابُ ظُلُمَٰتٌ﴾ بـالإضـافـة، وقـرأ الآخرون «سحاب ظلمات» كلاهما بالرفع والتنوين، فيكون تمام الكلام عند قوله ﴿سَحَابٌ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، ظـلـمـة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر بعضها فوق بعض، أي: ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج فوق الموج، وظلمة السحاب على ظلمة الموج، أراد بالظلمات أعمال الكافر وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه.

وقال أبيّ بن كعب: في هذه الآية الكافر ينقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار. ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾، يعني الناظر، ﴿يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، يـعـنـي لـم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة. وقال الفراء «يكد» صلة أي لم يرها، قال المبرد: يعني لم يرها إلاّ بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه، ولكن بعد يأس وشدة. وقيل: معناه قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يقال: كاد النعام يطير. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، قال ابن عباس: من لم يجعل الله له ديناً وإيماناً فلا دين له. وقيل: من لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر. والأكثرون على أنه عام في جميع الكفار.

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، باسطات أجنحتهن بالهواء. قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من في الســمـاء والأرض، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، قال مجاهد: الصلاة لبني آدم، والتسبيح لسائر الخلق. وقيل إن ضرب الأجنحة صلاة الطير وصوته تسبيحه. قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي: كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه. وقيل: معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى﴾، يعني يسوق بأمره، ﴿سَحَابًا﴾، إلى حيث يريد، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾، يعني يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلـى بـعـض، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾، متراكماً بعضه فوق بعض، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾، يعني المطر، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، وسطه وهو جمع الخلل، كالجبال جمع الجبل. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، يـعـنـي: ينزل البرد، و«من» صلة، وقيل: معناه وينزل من السماء من جبال أي مقدار جبال في الكثرة من البرد، و«من» في قوله ﴿مِن جِبَالٍ﴾ صلة أي: ينزل من السماء جبالاً من برد. وقيل: معناه وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله عزّ وجلّ أن في السماء جبالاً من برد، ومفعول الإنزال محذوف تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها برد، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. قال أهل النحو ذكر الله تعالى «من» ثلاث مرات في هذه الآية فقوله ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء، وقوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ لـلـتـبـعـيـض لأن ما ينزله الله تعالى بعض تلك الجبال التي في السماء، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد. ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾، يعني بالبرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فيهلك زروعه وأمـوالـه، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾، فلا يضره، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾، يعني ضـوء بـرق الـسـحـاب، ﴿يَذْهَبُ

الجزء الثامن عشر — سورة النور

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

٣٥٦

﴿بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، من شدة ضوئه وبريقه، وقرأ أبو جعفر يذهب بضم الياء وكسر الهاء.

﴿٤٤﴾ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما يأتي بالليل ويذهب النهار [ويأتي بالنهار] ويذهب بالليل.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا الحميدي، أنا سفيان، أنا الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، يعني في ذلك الذي ذكرت من هذه الأشياء، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، يعني دلالة لذوي العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده.

﴿٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي «خالق كل» بالإضافة، وقرأ الآخرون «خلق كل» على الفعل، ﴿مِّن مَّآءٍ﴾، يعني: من نطفة، وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا، ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن، لأنا لا نشاهدهم. وقيل: أصل جميع الخلق من الماء، وذلك أن الله تعالى خلق ماء ثم جعل بعضه ريحاً فخلق منها الملائكة، وبعضه ناراً فخلق منها الجن، وبعضها طيناً فخلق منها آدم، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، كالحيات والحيتان والديدان، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾، مثل بني آدم والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾، كالبهائم والسباع، ولم يذكر من تمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض لأنها في الصورة كالتي يمشي على الأربع، وإنما قال: ﴿مَّن يَمْشِي﴾، و«من» إنما تستعمل فيمن يعقل دون من لا يعقل من الحيات والبهائم، لأنه ذكر كل دابة، فدخل فيه الناس وغيرهم، وإذا جمع اللفظ من يعقل ومن لا يعقل تجعل الغلبة لمن يعقل. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾، إليك، ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾. يعني المنافقين، يقولونه، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾، يعرض عن طاعة الله ورسوله، ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي من بعد قولهم آمنا، ويدعو إلى غير حكم الله. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

نزلت هذه الآية في بشر المنافق، كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد ﷺ، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإن محمداً يحيف علينا، فأنزل الله هذه الآية.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، الرسول يحكم بحكم الله، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، يعني عن الحكم. وقيل: عن الإجابة.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، مطيعين منقادين لحكمه، يعني إذا كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضاً بالحق.

﴿٥٠﴾ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾، يعني شكوا، هذا استفهام ذم وتوبيخ، يعني هم كذلك، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، يعني بظلم، ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، إلى كتاب الله ورسوله، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، هذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغي أن يكونوا، ونصب القول على الخبر واسمه في قوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، يعني سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فيما ساءه وسره ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما عمل من الذنوب. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾، فيما بعده، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، الناجون، قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يتقه» ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر وقالون ويعقوب، كما في نظائرها ويشبعها الباقون كسراً، وقرأ حفص «يتقه» بسكون القاف واختلاس الهاء، وهذه اللغة إذا سقطت الياء للجزم يسكنون ما قبلها يقولون لم أشترْ طعاماً بسكون الراء.

﴿٥٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وجهد اليمين أن يحلف بالله، ولا حلف فوق الحلف بالله، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت نكن معك، لئن خرجتَ خرجنا، وإن أقمتَ أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: ﴿قُل﴾، لهم، ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾، لا تحلفوا، وقد تم الكلام، ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، يعني هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة يعني أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد رضي الله عنه. وقيل: معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل. وقال مقاتل بن سليمان: لتكن منكم طاعة معروفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾، يعني تولوا عن طاعة الله ورسوله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، يعني على الرسول ما كُلف وأُمر به من تبليغ الرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، من الإجابة والطاعة، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، أي التبليغ البين.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال أبو العالية: في هذه الآية مكث النبي ﷺ بعد الوحي بمكة عشر سنين مع أصحابه، وأمروا بالصبر على أذى الكفار، وكانوا يصبحون ويُمسون خائفين ثم أُمروا بالهجرة إلى المدينة، وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه فقال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نؤمن فيه ونضع السلاح؟ فأنزل الله هذه الآية.

﴿٥٥﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أدخل اللام لجواب اليمين المضمرة، يعني والله ليستخلفنّهم أي ليورثنّهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها، ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم «كما استخلف» بضم التاء وكسر اللام على ما لم يسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح التاء واللام لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ قال قتادة: «كما استخلف» داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء. وقيل: كما استخلف الذين من قبلهم أي بني إسرائيل حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي اختار، قال ابن عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان،

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف من الإبدال، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل، وهما لغتان، وقال بعضهم: التبديل تغير حال إلى حال، والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه، ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى﴾، آمنين، ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن الحكم، أنا النضر، أنا إسرائيل، أنا سعيد الطاهري، أنا محمد بن خليفة عن عدي بن حاتم قال: بينا، أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة فلترينّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله»، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، لئن طالت بك حياة لترينّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقينّ اللّهَ أحدكم يوم [القيامة] وليس بينه وبينه ترجمان يترجم، فليقولنّ له ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنّم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم»، قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة»، قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج [الرجل] ملء كفه.

وفي الآية دلالة على خلافة الصديق وإمامة الخلفاء الراشدين.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد، أخبرني حماد هو ابن سلمة بن دينار، عن سعيد [بن] جمهان، عن سفينة قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً». ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشراً و[خلافة] عثمان اثنتا عشر، و[خلافة] علي ستة، قال علي: قلت لحماد: سفينة القائل لسعيد أمسك؟ قال: نعم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أراد به كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾، العاصون لله، قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه، فلما قتلوه غيّر الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً.

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن عثمان بن القاسم المعروف بابن [أبي] نصر، أنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة المعروف بالطرابلسي، أنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد، عن عبدالرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال قال: قال عبدالله بن سلام في عثمان: إن الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله ﷺ حتى اليوم، فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبداً، فوالله لا يقتله رجل منكم إلا لقي الله أجذم لا يَدَ لهُ، وإن سيف الله لم يزل مغموداً عنكم، والله لئن قتلتموه ليسلنّه الله ثم لا يغمده عنكم، إما قال: أبداً، وإما قال إلى يوم القيامة، فما قتل نبي قط إلاّ قتل به سبعون ألفاً، ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً.

(٥٦) قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي افعلوها على رجاء الرحمة.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قرأ [ابن] عامر وحمزة «لا يحسبن» بالياء أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء يقول لا تحسبن يا محمد الذين كفروا معجزين فائتين عنا، ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(٥٨) قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة [كره عمر] رؤيته ذلك فأنزل الله هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت [أبي] مرثد كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾.

اللام لام الأمر ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يعني العبيد والإماء، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾، من الأحرار وليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل الذين عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أي ليستأذنوا في ثلاث أوقات، ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، يريد المقيل، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾، وإنما خص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب فربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، من العبيد والصبيان [فأمرهم] بالاستئذان في هذه الأوقات، وأما غيرهم فليستأذنوا في جميع الأوقات ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي [وأبو بكر] «ثلاث» بنصب التاء بدلاً من قوله ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، وقرأ الآخرون بالرفع، أي هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾، جناح، ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني: على العبيد والخدم والصبيان، ﴿جُنَاحٌۢ﴾، في الدخول عليكم من غير استئذان، ﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي بعد هذه الأوقات الثلاثة، ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾، أي: العبيد والخدم يطوفون عليكم فيترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالكم بغير إذن، ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يطوف ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: [هو] منسوخ.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن للقوم ستور ولا حجاب، فكان الولائد والخدم يدخلون فربما يرون منهم ما لا يحبون، فأمروا بالاستئذان، فقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان. وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة.

روى سفيان عن موسى بن [أبي] عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أمنسوخة هي؟ قال: لا والله، قلت: إن الناس لا يعملون بها، قال: الله المستعان.

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: إن ناساً يقولون نسخت والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس.

﴿٥٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا، ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾، أي يستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم، ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من الأحرار والكبار. وقيل: يعني الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، دلالاته. وقيل: أحكامه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بأمور خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾، بما دبّر لهم. قال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك. وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، وإن لم يفعل رأى منها ما يكره.

(٦٠) قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكبر، فلا يلدن ولا يحضن، واحدتها قاعد بلا هاء. وقيل: قعدن عن الأزواج، وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾، أي لا يردن الرجال لكبرهن.

قال ابن قتيبة: سميت المرأة قاعدة إذا كبرت، لأنها تكثر القعود. وقال ربيعة الرأي: هنّ العجّز اللواتي إذا رآهن الرجال استقذروهن، فأما من كانت فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الآية، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، عند الرجال، يعني يضعن بعض ثيابهن، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع، الذي فوق الخمار، فأما الخمار فلا يجوز وضعه.

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وأبيّ بن كعب «أن يضعن من ثيابهن»، ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾، أي من غير أن يردن بوضع الجلباب، والرداء إظهار زينتهن، والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره، ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾، فلا يلقين الجلباب والرداء، ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٦١) قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال ابن عباس رضي الله عنهما لما أنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزّمِنَ والعمي [والعرج]، وقالوا الطعام أفضل الأموال، وقد نهانا اللَّهُ عن أكل المال بالباطل. والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي الطعام، فأنزل الله هذه الآية، وعلى هذا التأويل يكون «على» بمعنى «في» أي ليس في الأعمى، يعني ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض.

وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم، ويقول الأعمى: ربما أكل أكثر، ويقول الأعرج ربما أخذ مكان الاثنين، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد نزلت الآية ترخيصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمى الله في هذه الآية، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله في هذه الآية، كان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك الطعام ويقولون أذهب بنا إلى بيت غيره؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم.

قال الحسن: نزلت هذه الآية رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد. قال: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كلام منقطع عمّا قبله. وقيل: لما نزل قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، قالوا لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم. قيل: أراد من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج. وقال ابن قتيبة: أراد من بيوت أولادكم نسب بيوت الأولاد إلى الآباء.

كما جاء في الحديث: «أنت ومالك لأبيك»، ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: عني بذلك وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته، ولا يحمل ولا يدخر.

وقال الضحاك: يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزائن، لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الفُرْقَان

ترتيبها ٢٥ — آياتها ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

[الأنعام: ٥٩] ويجوز أن يكون الذي يفتح به، وقال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير.

وقال السدي: الرجل يولي طعامه غيره يقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه. وقال قوم «ما ملكتم مفاتحه» ما خزنتموه عندكم. قال مجاهد وقتادة: من بيوت أنفسكم مما أحرزتم وملكتم، ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، الصديق الذي صدقك في المودة.

قال ابن عباس: نزلت في الحارث بن عمرو رضي الله عنه، خرج غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف مالك بن زيد على أهله. فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل طعامك بغير إذنك فأنزل الله هذه الآية.

وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والتحرم بطعامه من غير استئذان منه في الأكل بهذه الآية، والمعنى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا﴾، من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا، من غير أن تتزودوا وتحملوا. قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من بني كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج.

وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه، فيقول: والله إني لأجنح أي أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير، فنزلت هذه الآية.

وقال عكرمة وأبو صالح: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا «جميعاً» [مجتمعين] «أو أشتاتاً» متفرقين، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي ليسلم بعضكم على بعض، هذا في دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن في بيته، وهو قول جابر وطاوس والزهري وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار، قال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهو أحق من سلمت عليه، وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. حُدِّثنا أن الملائكة ترد عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، نصب على المصدر أي تحيون [أنفسكم] تحية، ﴿مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حسنة جميلة. وقيل: ذكر البركة والطيبة ههنا لما فيه من الثواب والأجر. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾، أي مع رسول الله ﷺ، ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾، يجمعهم من حرب حضرت، أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل، ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾، لم يتفرقوا عنه، لم ينصرفوا عمّا اجتمعوا له من الأمر، ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

الجزء الثامن عشر — سورة الفرقان

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣٦٠

قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن شاء منهم.

قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام، فإذا حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة، أو يجنب رجل، أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا اسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾، أي أمرهم، ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، في الانصراف، معناه إن شئت فأذن وإن شئت فلا تأذن، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب [لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره. وقال مجاهد وقتادة: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً: يا محمد، يا عبدالله: ولكن فَخِّمُوه وشرّفوه، فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، في لين وتواضع، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾، أي: يخرجون ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، يستتر بعضكم ببعض ويروغ في خيفة، فيذهب، واللواذ مصدر لاوَذَ يُلاوِذُ مُلاوَذَةً، ولواذاً، وقيل: كان هذا في حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لواذاً» أي: يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار، ومعنى قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ للتهديد بالمجازاة، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، أي أمره، و«عن» صلة. وقيل: معناه يُعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي لئلا تصيبهم فتنة، قال مجاهد: بلاء في الدنيا، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وجيع في الآخرة. وقيل: عذاب أليم عاجل في الدنيا. ثم عظّم نفسه، فقال:

﴿٦٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، ملكاً وعبيداً، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، من الإيمان والنفاق أي يعلم، و«قد» صلة ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، يعني يوم البعث، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾، من الخير والشر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه حدثنا عبيد الله بن محمد بن [أبي] شيبة حدثنا محمد بن أحمد الكرابيسي حدثنا سليمان بن توبة أبو داود الأنصاري، أنا محمد بن إبراهيم الشامي، ثنا شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة [رضي الله عنها] قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنزلوا النساء الغرف، ولا تعلموهنّ الكتابة وعلموهنّ الغزلَ، وسورة النور».

❋ ❋ ❋

سورة الفرقان

مكية [وهي سبع وسبعون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾، تفاعل، من البركة، وعن ابن عباس: معناه جاء

بكل بركة، دليله قول الحسن: مجيء البركة من قبله، وقال الضحاك: تعظم، ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي القرآن، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، محمد ﷺ. ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي: للجن والإنس. قيل: النذير هو القرآن. وقيل: محمد ﷺ.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، مما يطلق عليه صفة المخلوق، ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، فسوّاه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت، وقيل: قدر لكل شيء تقديراً من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق. قوله عزّ وجلّ:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾، يعني عبدة الأوثان، ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، يعني: الأصنام، ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي دفع ضر ولا جلب نفع، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾، أي إماتة وإحياء، ﴿وَلَا نُشُورًا﴾، أي بعثاً بعد الموت.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني: المشركين، يعني النضر بن الحارث وأصحابه، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، ما هذا القرآن، ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾، كذب، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، اختلقه محمد ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، قال مجاهد: يعني اليهود. وقال الحسن: هو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن. وقيل: جبر، ويسار، وعداس بن عبيد، كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمداً ﷺ يأخذ منهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾، يعني قائلي هذه المقالة، ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي بظلم وزور. فلما حذف الباء انتصب، يعني جاؤوا شركاً وكذباً بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾، يعني النضر بن الحارث كان يقول: إنّ هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون مثل حديث رستم واسفنديار، اكتتبها انتسخها محمد من جبر ويسار وعداس، ومعنى اكتتب يعني طلب أن يكتب له لأنه كان لا يكتب، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، يعني تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، غدوة وعشياً. قال الله عزّ وجلّ رداً عليهم:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ﴾، يعني القرآن، ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، يعني الغيب ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، يعنون محمداً ﷺ، ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، كما نأكل نحن، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، يلتمس المعاش كما نمشي فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة، وكانوا يقولون له لست أنت بمَلَك [ولا بمَلِكٍ]، لأنك تأكل والمَلَك لا يأكل، ولست بملك لأن الملك لا يتسوق، وأنت تتسوق وتتبذل. وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدمياً، ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له وشيء من ذلك لا ينافي النبوة. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، فيصدقه، ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، داعياً.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾، أي: ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى التردد والتصرف في طلب المعاش، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [أي] بستان، ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي «نأكل» بالنون أي نأكل نحن منها، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، مخدوعاً. وقيل: مصروفا عن الحق.

﴿ٱنظُرْ﴾، يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، يعني الأشباه، فقالوا: مسحور محتاج وغيره، ﴿فَضَلُّوا۟﴾، عن الحق، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، إلى الهدى ومخرجاً عن الضلالة.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾، الذي قالوا، أو أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش، ثم بيّن ذلك الخير فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾، بيوتاً مشيدة، والعرب تسمي كل بيت مشيّد قصراً، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم برواية أبي بكر، «ويجعل» برفع اللام، وقرأ الآخرون بجزمها على محل الجزاء في قوله: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة الكشميهني، أنا أبو طاهر محمد بن الحارث، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي،

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن يحيى بن أيوب، حدثني عبيد الله بن زخر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن أبي عبدالرحمن، عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، ـ وقال ثلاثاً ـ أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعتُ إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ حمدتُك وشكرتُك».

حدثنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبيد الله الفارسي، أنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني، أنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ، أنا أبو يعلى، ثنا محمد بن بكار، ثنا أبو معشر عن سعيد يعني المقبري، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرت إلى جبريل فأشار إليّ أن ضع نفسك، وفي رواية ابن عباس: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقلت: نبياً عبداً» قالت: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً يقول: «آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد».

﴿١١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، بالقيامة، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، ناراً مستعرة.

﴿١٢﴾ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قال الكلبيّ والسدي: من مسيرة عام. وقيل: من مسيرة مائة سنة. وقيل: خمسمائة سنة.

وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنّم مقعداً». قالوا: وهل لها من عينين؟ قال: نعم ألم تستمعوا قول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾».

وقيل إذا رأتهم زبانيتها. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ غلياناً، كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب. ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتاً، فإن قيل: كيف يسمع التغيظ؟ قيل: معناه رأوا وعلموا أن لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً، كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى
متقلداً سيفاً ورمحاً

أي وحاملاً رمحاً. وقيل: سمعوا لها تغيظاً أي: صوت التغيظ من التلهب والتوقد. قال عبيد بن عمير: تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، قال ابن عباس: يضيق عليهم الزج في الرمح، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل، ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، قال ابن عباس: ويلاً. وقال الضحاك: هلاكاً.

﴿١٤﴾ وفي الحديث: «إنّ أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول: يا ثبوراه، وهم ينادون: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار فينادون: يا ثبوراه وينادي: يا ثبورهم، فيقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، قيل: أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، فادعوا أدعية كثيرة.

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾، يعني الذي ذكرته من صفة النار وأهلها، ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾، ثواباً، ﴿وَمَصِيرًا﴾، مرجعاً.

﴿١٦﴾ ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾

كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾، مطلوباً، وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنة خلد وعداً، وعدهم على طاعتهم إيّاه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك. وقال محمد بن كعب القرظي: الطلب من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ [غافر: ٨].

(١٧) ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر، ويعقوب، وحفص: «يحشرهم» بالياء، وقرأ الباقون بالنون، ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال مجاهد: من الملائكة والجن والإنس وعيسى وعزير. وقال عكرمة والضحاك والكلبي: يعني الأصنام ثم يخاطبهم، ﴿فَيَقُولُ﴾، قرأ ابن عامر بالنون والآخرون بالياء، ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، أخطئوا الطريق.

(١٨) ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾، نزهوا الله من أن يكون معه آله، ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، يعني ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك بل أنت ولينا من دونهم. وقيل: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك. وقرأ أبو جعفر «أن نتخذ» بضم النون وفتح الخاء فتكون «من» الثاني صلة، ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾، في الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة، ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾، تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن. وقيل: تركوا ذكرك وغفلوا عنه، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾، يعني هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان، رجل يقال له بائر، وقوم بور، وأصله من البوار وهو الكساد والفساد، ومنه بوار السلعة وهو كسادها. وقيل هو اسم مصدر كالزور، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث.

(١٩) ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾، هذا خطاب مع المشركين، أي: كذبكم المعبودون، ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾، إنهم آلهة، ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾، قرأ حفص بالتاء يعني العابدين، وقرأ الآخرون بالياء يعني: الآلهة. ﴿صَرۡفٗا﴾ يعني صرف العذاب عن أنفسهم، ﴿وَلَا نَصۡرٗا﴾ يعني ولا نصر أنفسهم. وقيل: ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم، وقيل: الصرف الحيلة، ومنه قول العرب: إنه ليصرف أي يحتال، ﴿وَمَن يَظۡلِم﴾، يشرك، ﴿مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾.

(٢٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، يا محمد، ﴿إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما عيّر المشركون رسول الله ﷺ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

يعني ما، أنا إلا رسول وما كنتُ بِدعاً من الرسل، وهم كانوا بشراً يأكلون الطعام، ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾. وقيل: معناه وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل لهم مثل هذا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما قال في موضع آخر: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾، أي بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله؟ والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع. وقال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاءً لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى.

وقيل: نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف، وقال: أسلم بعده فيكون له عليّ السابقة والفضل؟! فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض، وهذا قول الكلبي.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، والوليد بن عقبة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث. وذلك أنهم لما رأوا أبا ذر، وابن مسعود، وعماراً، وبلالاً، وصهيباً، وعامر بن فهيرة، وذويهم، قالوا: نسلم فنكون مثل هؤلاء؟

وقال مقاتل: نزلت في ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً من موالينا وأراذلنا، فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ يعني على هذه الحال من الفقر والشدة والأذى، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾، بمن صبر وبمن جزع.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن، الحيري أنا أبو العباس الأصم، ثنا زكريا بن يحيى المروزي، ثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والجسم فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم».

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أي لا يخافون البعث، قال الفراء: «الرجاء» بمعنى الخوف، لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون لله عظمة. ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، فتخبرنا أن محمداً صادق، ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، فيخبرنا بذلك، ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾، أي تعظموا. ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، بهذه المقالة، ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾. قال مجاهد: عتوا طغوا قال مقاتل: عتوا غلوا في القول والعتو أشد الكفر وأفحش الظلم، وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به.

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ عند الموت. وقيل: في القيامة. ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، للكافرين، وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة، ويقولون للكفار لا بشرى لكم، هكذا قال عطية، وقال بعضهم: معناه أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين، أي لا بشارة لهم بالجنة، كما يُبَشَّرُ المؤمنون. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾، قال عطاء عن ابن عباس: تقول الملائكة حراماً محرما أن يدخل الجنة، إلا من قال لا إله إلا الله. وقال مقاتل: إذا خرج الكفار من قبورهم قالت لهم الملائكة حراماً محرماً عليكم أن تكون لكم البشرى. وقال بعضهم: هذا قول الكفار للملائكة. قال ابن جريج: كانت العرب إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون، قالوا حجراً محجوراً، فهم يقولونه إذا عاينوا الملائكة، قال مجاهد: يعني عوذاً معاذاً يستعيذون به من الملائكة.

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَا﴾، وعمدنا، ﴿إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾، أي باطلاً لا ثواب له، لأنهم لم يعملوه لله عزّ وجلّ. واختلفوا في «الهباء» قال علي: هو ما يرى في الكوة إذا وقع ضوء الشمس فيها كالغبار، فلا يمس بالأيدي، ولا يرى في الظل، وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد، و«المنشور» والمتفرق، وقال ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير: هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر.

وقال مقاتل: هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير. وقيل: «الهباء المنثور» ما يرى في الكوة و«الهباء المنبث» هو ما تطيره الرياح من سنابك الخيل.

(٢٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ أي: من هؤلاء المشركين المستكبرين ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، موضع قائلة يعني [أن] أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقرأ «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» هكذا كان يقرأ.

وقال ابن عباس في هذه الآية الحساب ذلك اليوم في أوله. وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة.

قال الأزهري: القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن مع ذلك نوم، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والجنة لا نوم فيها. ويُروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس.

㉕ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾، أي عن الغمام، الباء وعن يتعاقبان، كما يقال رميت عن القوس وبالقوس، وتشقق بمعنى تتشقق، أدغموا إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا، وفي سورة «ق» [٤٤] بحذف إحدى التاءين، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي تنشق بالغمام وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾، قرأ ابن كثير «وننزل» بنونين خفيف ورفع اللام، «الملائكة» نصب.

قال ابن عباس: تتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا، ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تتشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون سادة الملائكة وهم المقربون ثم حملة العرش.

㉖ ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الملك الذي هو الملك الحق حقا ملك الرحمن يوم القيامة قال ابن عباس يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضي غيره. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾، شديداً فهذا الخطاب يدل على أنه لا يكون على المؤمنين عسيراً.

وجاء في الحديث: «أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا».

㉗ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط.

وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً فدعا الناس [على عادته] ودعا رسول الله ﷺ، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقاً لأبيّ بن خلف، فلما أخبر أبيّ بن خلف قال له: يا عقبة صبأت؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له أنه رسول الله فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف» فقتل عقبة يوم بدر صبراً، وأما أبيّ بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أحد بيده.

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت.

وقال الشعبي: كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً، فكفر وارتد فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس بن مناف على يديه ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله بطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه.

قال عطاء: يأكل يديه حتى تبلغ مرفقيه ثم تنبتان ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يداه أكلهما تحسراً على ما فعل ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾، في الدنيا، ﴿مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، ليتني اتبعت محمداً ﷺ واتخذت معه سبيلاً إلى الهدى، قرأ أبو عمرو «يا ليتني اتخذت» بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

㉘ ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، يعني أبيّ بن خلف.

㉙ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾، عن الإيمان والقرآن، ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ يعني الذكر مع الرسول، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾، وهو كل متمرد عات من الإنس والجن وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان. ﴿لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾، أي تاركاً يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب، وحكم هذه الآيات عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله [عز وجل].

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن العلاء، أنا أبو أسامة، عن يزيد، عن أبي بردة، عن أبي موسى عن النبي ﷺ

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قال: «مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا تجد منه ريحاً خبيثة».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، [أنبأنا] محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن حياة بن شريح، أخبرني سالم بن غيلان أن الوليد بن قيس التجيبي أخبره أنه سمع أبا سعيد الخدري ـ قال سالم أو عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن كسّاب النيسابوري، أنا أبو العباس الأصم، ثنا حميد بن عياش الرملي، أنا مؤمل بن إسماعيل، ثنا زهير بن محمد الخراساني، ثنا موسى بن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾، يعني: ويقول الرسول في ذلك اليوم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، يعني متروكاً فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه.

وقيل: جعلوه بمنزلة الهجر وهو الهذيان، والقول السيء، فزعموا أنه شعر وسحر، وهو قول النخعي ومجاهد. وقيل: قال الرسول يعني محمداً ﷺ يشكو قومه إلى الله يا رب: إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً فعزّاه الله تعالى [في الأمم السالفة] فقال:

﴿٣١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾، يعني كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك كذلك جعلنا، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، يعني المشركين. قال مقاتل: يقول لا يكبرن عليك، فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم، فاصبرْ لأمري كما صبروا فإني ناصرك وهاديك، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فعلنا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، يعني أنزلناه مفرقاً ليقوي به قلبك فتعيه وتحفظه، فإن الكتب أنزلت على الأنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل الله القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله ﷺ وأيسر على العامل به. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال ابن عباس بيناه بياناً، والترتيل التبيين في ترسل وتثبت. وقال السدي: فصلناه تفصيلاً. وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض. وقال النخعي والحسن وقتادة: فرقناه تفريقاً، آية بعد آية.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾، يا محمد يعني هؤلاء المشركين، ﴿بِمَثَلٍ﴾، يضربونه في إبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، يعني بما ترد به ما جاؤوا به من المثل وتبطله [عليهم]، فسمى ما يوردون من الشبه مثلاً، وسمي ما يدفع به الشبه حقاً، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، يعني بياناً وتفصيلاً، والتفسير تفعيل من الفسر وهو كشف ما قد غطي. ثم ذكرَ ما لهؤلاء المشركين فقال:

﴿٣٤﴾ ﴿الَّذِينَ﴾، أي: هم الذين، ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، فيساقون ويجرون، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ

﴿مَّكَانًا﴾، أي مكانة ومنزلة، ويقال منزلاً ومصيراً، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أخطأ طريقاً.

(٣٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [أي] معيناً وظهيراً.

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعني القبط، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾، فيه إضمار، أي: فكذبوهما فدمرناهم، ﴿تَدْمِيرًا﴾، [أي] أهلكناهم إهلاكاً.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: الرسول، ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، فلذلك ذكر بلفظ الجمع. ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾، أي لمن بعدهم عبرة، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾، في الآخرة، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، سوى ما حل بهم من عاجل العذاب.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾، أي وأهلكنا عاداً وثمود، ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، اختلفوا فيهم.

قال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر قعوداً عليها، وأصحاب مواشٍ يعبدون الأصنام، فوجّه الله إليهم شعيباً يدعوهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وانكبابهم على عبادة الأوثان وفي أذى شعيب عليه السلام، فبينما هم حوالي البئر في منازلهم فانهارت بهم البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم، فهلكوا جميعاً، والرس: البئر وكل ركية لم تطوَ بالحجارة والآجر فهو رس.

وقال قتادة والكلبي: «الرس» بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله عزّ وجلّ، وقال بعضهم: هم بقية ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله تعالى.

وقال كعب ومقاتل والسدي: الرس [اسم] بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار، وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس.

وقيل: هم أصحاب الأخدود، والرس هو الأخدود الذي حفروه، وأوقدوا فيه ناراً وكانوا يلقون فيه من آمن بالله. وقال عكرمة: هم قوم رسّوا نبيهم في بئر فمات فأهلكهم الله. وقيل: الرس المعدن وجمعه رساس، ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، أي وأهلكنا قرونا كثيرا بين عاد وأصحاب الرس.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، أي الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾، أي أهلكنا إهلاكاً. وقال الأخفش: كسرنا تكسيراً. قال الزجاج: كل شيء كسرتَه وفتتّه فقد تبّرته.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾، يعني الحجارة، وهي قريات قوم لوط، وكانت خمس قرى، فأهلك الله أربعاً منها، نجت واحدة، وهي أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، إذا مروا بهم في أسفارهم فيعتبروا ويتذكروا إنما فعل بهم لأنّ مدائن قوم لوط كانت على طريقهم عند ممرهم إلى الشام، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾، لا يخافون، ﴿نُشُورًا﴾ بعثاً.

(٤١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾، يعني: ما يتخذونك، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾، يعني مهزوءاً به، نزلت في أبي جهل كان إذا مرّ بأصحابه على رسول الله ﷺ قال مستهزئاً ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

(٤٢) ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾، يعني قد قارب أن يضلنا، ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، يعني لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، من أخطأ طريقاً.

(٤٣) ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر فإذا رأى حجراً أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخر، فعبده.

وقال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة الله وخالقه ثم هوى حجراً فعبده ما حاله عندي؟ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، يعني حافظاً، يقول أفأنت عليه كفيل تمنعه من اتباع هواه وعبادة ما يهوى من دون الله؟ أي لست كذلك. قال الكلبي: نسختها آية القتال.

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

٣٦٤

﴿٤٤﴾ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ما تقول سماع طالب الإفهام، ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾، ما يعاينون من الحجج والإعلام، ﴿إِنْ هُمْ﴾، ما هم ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربّهم الذي خلقهم ورزقهم، ولأن الأنعام تسجد وتسبح لله وهؤلاء الكفار لا يفعلون [شيئا من ذلك بل يؤثرون السجود إلى ما ينحتونه من الأحجار على السجود لله الواحد القهار].

﴿٤٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، معناه ألم ترَ إلى مَدّ ربِّك الظلَّ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه، كما قال: «في ظل الجنة»، ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لم يكن معه شمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾، أي: دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس. قال أبو عبيدة: الظل ما نسخته الشمس. وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس، وهو بعد الزوال، سُمي فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، يعني على الظل ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها.

﴿٤٦﴾ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾، يعني الظل، ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، بالشمس التي تأتي عليه، و«القبض» جمع المنبسط من الشيء، معناه أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظلَّ جزءاً فجزءاً قبضاً يسيراً أي: خفياً.

﴿٤٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أي ستراً تستترون به، يريد أن ظلمته تغشى كل شيء، كاللباس الذي يشتمل على لابسه، ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، راحةً لأبدانكم وقطعاً لعملكم، وأصل السبت القطع، والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي يقظة وزماناً، تنتشرون فيه لابتغاء الرزق وتنتشرون لأشغالكم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، يعني المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، والطَّهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، فهو اسم لما يتطهر به كالسحور اسم لما يتسحّر به، والفطور اسم لما يفطر به، والدليل عليه ما روينا أن النبي ﷺ قال في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

وأراد به المطهر فالماء مطهر لأنه يطهر الإنسان من الحَدَث والنجاسة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [الأنفال: ١١] فثبت به أن التطهير يختص بالماء، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الطهور هو الطاهر حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة، كالخل وماء الورد والمرق ونحوها، ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها.

وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما يتكرر منه التطهير، كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر، والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر، وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء الذي توضأ به مرة.

وإن وقع في الماء شيء غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته؟ نظر: إن كان الواقع شيئاً لا يمكن صون الماء عنه، كالطين والتراب وأوراق الأشجار، لا يزول، فيجوز الطهارة به كما لو تغير لطول المكث في قراره، وكذلك لو وقع فيه ما لا يخالطه، كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته يجوز الطهارة به، لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة.

وإن كان شيئاً يمكن صون الماء منه ويخالطه كالخل والزعفران ونحوهما يزول طهوريته ولا يجوز الوضوء به.

وإن لم يتغير أحد أوصافه نُظر إن كان الواقع فيه شيئاً طاهراً لا تزول طهوريته فتجوز الطهارة به سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً، وإن كان الواقع فيه شيئاً نجساً نظر [فيه] فإن كان الماء قليلاً أقل من القلتين ينجس الماء.

وإن كان قدر قلتين فأكثر [ولا تغير به] فهو طاهر يجوز الوضوء به، والقلتان خمس قُرب ووزنها خمسمائة رطل، والدليل عليه ما:

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا عبدالرحيم بن المنيب، أنا جرير عن محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبدالله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنه سئل عن الماء يكون في الفلاة من الأرض وما يرده من الدواب والسباع فقال: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث».

وهذا قول الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وجماعة من أهل الحديث: أن الماء إذا بلغ هذا الحدّ فلا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه الثلاثة، وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه، وهو قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري [وبه قال مالك] واحتجوا بما:

أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد الحنيفي، أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري، ثنا أبو محمد الحسين بن محمد بن حكيم، ثنا أبو الموجه محمد بن عمرو بن الموجه، ثنا صدقة بن الفضل، أنا أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب القرظي عن عبيد الله بن عبدالرحمن بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن، فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء».

(٤٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿لِنُحْيِۦَ بِهِۦ﴾، أي: بالمطر، ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، ولم يقل ميتة لأنه رجع به إلى الموضع والمكان، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [أي] نسقي من ذلك الماء أنعاماً، ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾، أي بشراً كثيرا، والأناسي جمع أنسي، وقيل جمع إنسان، وأصله أناسين مثل بستان وبساتين، فجعل الياء عوضاً عن النون.

(٥٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ﴾، يعني المطر، مرة ببلد ومرة ببلد آخر. قال ابن عباس: ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض. وقرأ هذه الآية وهذا كما روي مرفوعاً «ما من ساعة من ليل أو نهار إلاّ والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء».

وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل وبلغوا به ابن مسعود يرفعه قال: «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكنّ الله قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار». وقيل: المراد من تصريف المطر تصريفه وابلاً وطلاً ورذاذاً ونحوها. وقيل: التصريف راجع إلى الريح. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، جحوداً، وكفرانهم هو أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا [معتقدين أن النوء هو الفعال].

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأمّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب».

(٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾، رسولاً ينذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

جميعها، لتستوجب بصبرك على ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم، ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [أي] شديداً.

﴿٥٣﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾، أي: خلطهما وأفاض أحدهما في الآخر، وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخلاّهما كما يرسل الخيل في المرج، وأصل المرج الخلط والإرسال.

يقال: مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، شديد العذوبة والفرات أعذب المياه، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، شديد الملوحة. وقيل: أجاج أي مرّ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً بقدرته لئلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ستراً ممنوعاً فلا يبغيان، فلا يفسد الملح العذب.

﴿٥٤﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾، من النطفة، ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: جعله ذا نسب وذا صهر.

قيل: النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه، فالنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها.

وقيل: ـ وهو الصحيح ـ النسب من القرابة، والصهر: الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرم للنكاح، وقد ذكرنا أن الله تعالى حرّم بالنسب سبعاً وبالسبب سبعاً في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، يعني هؤلاء المشركين، ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾، إن عبدوه، ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، إن تركوه، ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، أي: معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي. وقال الزجاج: أي يعاون الشيطان على معصية الله لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان.

وقيل: معناه وكان الكافر على ربه ظهيراً، أي هيناً ذليلاً كما يقول الرجل: جعلني بظهير أي جعلني هيناً.

ويقال: ظهر به إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: منذراً.

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي على تبليغ الوحي، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتبعه، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، هذا من الاستثناء المنقطع، مجازه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بالإنفاق من ماله في سبيله فعل ذلك، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجراً ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

﴿٥٨﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾، أي صلّ له شكراً على نعمه. وقيل: قل سبحان الله، والحمد لله، ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾، عالماً بصغيرها وكبيرها فيجازيهم بها.

﴿٥٩﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾، أي: الرحمن.

قال الكلبي: يقول فاسأل الخبير بذلك يعني بما ذكرنا من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش. وقيل: الخطاب للرسول والمراد منه غيره لأنه كان مصدقاً به، والمعنى: أيها الإنسان لا ترجع في طلب العلم بهذا إلى غيري. وقيل: الباء بمعنى «عن» أي: فاسأل عنه خبيراً وهو الله عزّ وجلّ. وقيل: جبريل عليه السلام.

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [أي] ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسليمة الكذاب، كانوا يسمونه رحمن اليمامة. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

قرأ حمزة والكسائي «يأمرنا» بالياء أي لما يأمرنا محمد بالسجود له، وقرأ الآخرون بالتاء أي لما تأمرنا أنت يا محمد، «وزادهم» يعني زادهم قول القائل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿نُفُورًا﴾، عن الدين والإيمان.

(٦١) قوله عزّ وجلّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة: البروج هي النجوم الكبار، سميت بروجاً لظهورها.

وقال عطية العوفي: «بروجاً» أي قصوراً فيها الحرس، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال عطاء عن ابن عباس: هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثه نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثه ترابية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثه مائية. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني الشمس كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وقرأ حمزة والكسائي «سُرُجاً» بالجمع يعني النجوم. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، والقمر قد دخل في السرج على قراءة من قرأ بالجمع، غير أنه خصه بالذكر لنوع فضيلة، كما قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، خص النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في الفاكهة [لنوع شرف].

(٦٢) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، اختلفوا فيه قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني خلفاً وعوضاً، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر.

قال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، فقال فاتتني الصلاة الليلة، فقال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عزّ وجلّ: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾.

قال مجاهد: يعني جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض، وقال ابن زيد وغيره يعني يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان، ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾، قرأ حمزة بتخفيف الذال والكاف وضمها من الذكر، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي يتذكر ويتعظ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، قال مجاهد: أي شكر نعمة ربه عليه فيهما.

(٦٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، يعني أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله. ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، يعني بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين، ولا متكبرين، وقال الحسن: علماء وحكماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سُفه عليهم حلموا، والهون في اللغة الرفق واللين، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، يعني السفهاء بما يكرهون، ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، قال مجاهد: سداداً من القول. وقال مقاتل بن حيان: قولاً يسلمون فيه من الإثم.

وقال الحسن: إن جهل عليهم جاهل حلموا ولم يجهلوا، وليس المراد منه السلام المعروف. وروي عن الحسن: معناه سلموا عليهم، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]، قال الكلبي وأبو العالية: هذا قبل أن يؤمروا بالقتال، ثم نسختها آية القتال.

وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف نهارهم، ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾، قال: هذا وصف ليلهم.

(٦٤) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾، يقال لمن أدرك الليل: بات، نام أو لم ينم، يقال:

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سورة الشعراء

٣٦٦

بات فلان قلقاً، والمعنى يبيتون لربهم بالليل في الصلاة، ﴿سُجَّدًا﴾، على وجوههم، ﴿وَقِيَامًا﴾ على أقدامهم. قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً وقائماً.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن [محمد بن] سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو نعيم، عن سفيان، عن عثمان بن حكيم، عن عبدالرحمن بن أبي عمرة، عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة كأنما صلى الليل كله».

﴿٦٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، يعني ملحاً دائماً لازماً غير مفارق من عذب به من الكفار، ومنه سمي الغريم لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إياه. قال محمد بن كعب القرظي: سأل الله الكفار ثمن نعمه فلم يؤدوا فأغرمهم فيه، فبقوا في النار، وقال الحسن: كل غريم يفارق غريمه إلا جهنم. و«الغرم»: الشر اللازم، وقيل: غراماً هلاكاً.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا﴾، يعني جهنم، ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، يعني بئس موضع قرار وإقامه.

﴿٦٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة «يقتروا» بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء، وكلها لغات صحيحة. يقال: أقتر وقترَ بالتشديد، وقتَر يقتر، واختلفوا في معنى الإسراف والإقتار، فقال بعضهم: «الإسراف» النفقة في معصية الله وإن قلّت، و«الإقتار» منع حق الله تعالى. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج، وقال الحسن في هذه الآية لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله. وقال قوم: «الإسراف»: مجاوزة الحد في الإنفاق، حتى يدخل في حد التبذير و«الإقتار»: التقصير عمّا لا بدّ منه، وهذا معنى قول إبراهيم [قال] لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار، حسنةً بين السيئتين.

وقال يزيد بن أبي حبيب في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا [لا] يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحر والقر. قال عمر بن الخطاب: كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله.

﴿٦٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن موسى، أنا هشام بن يوسف [أن] ابن جريج أخبرهم قال: قال يعلى ـ وهو يعلى بن مسلم ـ أن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس، أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملناه كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، أي شيئاً من هذه الأفعال، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يريد جزاء الإثم. وقال أبو عبيدة: الآثام العقوبة.

وقال مجاهد: الآثام واد في جهنم، يُروى ذلك عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

ويروى في الحديث: «الغي والآثام بئران يسيل فيهما صديد أهل النار».

(٦٩) ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾، قرأ ابن عمر وأبو بكر «يضاعف» و«يخلد» برفع الفاء والدال على الابتداء، وشدّد ابنُ عامر «يضعّف»، وقرأ الآخرون بجزم الفاء والدال على جواب الشرط.

(٧٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، قال قتادة: إلا من تاب من ذنبه، وآمن بربه وعمل عملاً صالحاً فيما بينه وبين ربه.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن عبدالله، ثنا [محمد بن] موسى بن محمد، ثنا موسى بن هارون الحمال، ثنا إبراهيم بن محمد الشافعي، ثنا عبدالله بن رجاء عن عبيد الله بن عمر، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنتين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، ثم نزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط كفرحه بها وفرحه بـ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والسدي، والضحاك: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً.

وقال قوم: يبدل الله سيآتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة، وهو قول سعيد بن المسيب، ومكحول، يدل عليه ما:

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، أنا أبو عيسى الترمذي، ثنا أبو عمار الحسين بن خريت، ثنا وكيع، ثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال [له] عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: ربِّ إنَّ لي ذنوباً ما أراها ههنا»، قال أبو ذر: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذه.

وقال بعضهم: إن الله عزّ وجلّ يمحو بالندم جميع السيئات، ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة.

(٧١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، قال بعض أهل العلم: هذا في التوبة عن غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا، يعني من تاب من الشرك وعمل صالحاً أي: أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن، ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي يعود إليه بالموت، ﴿مَتَابًا﴾، حسناً يفضل به على غيره ممن قتل وزنا فالتوبة الأولى وهو قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ رجوع عن الشرك والثاني رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة. وقال بعضهم: هذه الآية أيضاً في التوبة عن جميع السيئات. ومعناه: ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله. وقوله: ﴿يَتُوبُ إِلَى

﴿ٱللَّهِ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: ليتب إلى الله.

وقيل: معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله.

﴿٧٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، قال الضحاك وأكثر المفسرين: يعني الشرك. وقال علي بن [أبي] طلحة: يعني شهادة الزور. وكان عمر بن الخطاب: يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه ويطوف به في السوق. وقال ابن جريج: يعني الكذب. وقال مجاهد: يعني أعياد المشركين. وقيل النوح وقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون اللهو والغناء.

وقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع. وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾، قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد. ونظيره قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، قال السدي: وهي منسوخة بآية القتال. قال الحسن والكلبي: «اللغو»: المعاصي كلها يعني إذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كراماً مسرعين معرضين. يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه.

﴿٧٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟﴾، لم يقعوا ولم يسقطوا، ﴿عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، كأنهم صم عمي، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه. قال القتيبي: لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

﴿٧٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾، قرأ بغير ألف: أبو عمرو، وحمزة والكسائي، وأبو بكر، وقرأ الباقون بالألف على الجمع، «قرة أعين»، يعني أولاداً أبراراً أتقياء، يقولون اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك.

قال القرظي: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزّ وجل. وقاله الحسن، ووحد القرة لأنها مصدر، وأصلها من البرد، لأن العرب تتأذى من الحر وتستروح إلى البرد، وتذكر قرة العين عند السرور، وسخنة العين عند الحزن، ويقال: دمع العين عند السرور بارد، وعند الحزن حار. وقال الأزهري: معنى قرة الأعين: أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه به عن النظر إلى غيره. ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، يعني أئمة يقتدون في الخير بنا ولم يقل أئمة. كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقيل: أراد أئمة كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] يعني أعداء، ويقال أميرنا هؤلاء، أي أمراؤنا وقيل: لأنه مصدر كالصيام والقيام، يقال أمّ إماماً كما يقال قام قياماً، وصام صياماً. قال الحسن: نقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون. وقال ابن عباس: اجعلنا أئمة هداة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولا تجعلنا أئمة ضلالة كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقيل: هذا من المقلوب يعني واجعل المتقين لنا إماماً، واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم، وهو قول مجاهد.

﴿٧٥﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ﴾، يعني ينالون، ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾، يعني الدرجة الرفيعة في الجنة، والغرفة: كل بناء مرتفع عال. وقال عطاء: يريد غرف الدر والزبرجد [والياقوت] في الجنة، ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، على أمر الله تعالى وطاعته. وقيل: على أذى المشركين. وقيل: عن الشهوات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر بفتح الياء وتخفيف القاف، كما قال فسوف يلقون غياً. وقرأ الآخرون بضم الياء وتشديد القاف كما قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾، أي ملكاً وقيل بقاءً دائماً، ﴿وَسَلَٰمًا﴾ أي: يسلم بعضهم على بعض. وقال الكلبي: يحيي بعضهم [بعضاً] بالسلام، ويرسل الرب إليهم بالسلام. وقيل: سلاماً أي سلامة من الآفات.

﴿٧٦﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، أي: موضع قرار وإقامة.

﴿٧٧﴾ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، قال مجاهد وابن زيد: أي ما يصنع وما يفعل بكم، قال أبو عبيدة يقال: ما عبأت به شيئاً أي لم أعدّه، فوجوده وعدمه سواء، مجازه: أيّ وزن وأيّ

مقدار لكم عنده، ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إيّاه، وقيل: لولا إيمانكم، وقيل: لولا عبادتكم، وقيل: لولا دعاؤه إيّاكم إلى الإسلام، فإذا آمنتم ظهر لكم قدر. وقال قوم: معناه قلْ ما يعبأ بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم إيّاه يعني إنه خلقكم لعبادته، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهذا قول ابن عباس ومجاهد.

وقال قوم: قلْ ما يعبأ [بكم ربي] ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة، أو ما يفعل بعذابكم لولا شرككم، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقيل: ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إيّاه في الشدائد، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. وقيل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يقول ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلاّ أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعني إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوه. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾، هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبكم لزاماً، قال ابن عباس موتاً. وقال أبو عبيدة: هلاكاً. وقال ابن زيد: قتالاً. والمعنى: يكون التكذيب لازماً لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله. وقال ابن جريج عذاباً دائماً وهلاكاً مقيماً يلحق بعضكم ببعض واختلفوا فيه، فقال قوم: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون. وهو قول عبدالله بن مسعود وأبيّ بن كعب ومجاهد ومقاتل، يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة، لازماً لهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عمر بن حفص بن غياث، أنا أبي، أنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبدالله: خمس قد مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ وقيل: اللزام عذاب القبر.

❋ ❋ ❋

سورة الشعراء

مكية إلا أربع آيات من آخر السورة.

من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [٢٢٤ ـ ٢٢٧] [وهي مائتان وسبع وعشرون آية].

وروينا عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام».

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

٣٦٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿طسٓمٓ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿طسٓمٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ [النمل: ١] و﴿حمٓ﴾ [غافر: ١] و﴿يسٓ﴾ [يس: ١] بكسر الطاء والياء والحاء، وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر، وقرأ الآخرون بالفتح على التفخيم، وأظهر النون من السين عند الميم في طسم أبو جعفر وحمزة، وأخفاها الآخرون.

وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال: طسم عجزت العلماء عن تفسيرها.

وروى علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس: أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى: وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: اسم للسورة. قال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه.

(٢) ﴿تِلْكَ﴾، أي هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾، قاتل، ﴿نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [أي] إن لم يؤمنوا، وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾، قال قتادة: لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله. وقال ابن جريج: معناه: لو شاء الله لأراهم أمراً من أمره، لا يعمل أحد منهم بعده معصية. وقوله عزّ وجلّ: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق، وفيه أقاويل أحدها: أراد أصحاب الأعناق، فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، جعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال. وقال الأخفش: ردّ الخضوع على المضمر الذي أضاف الأعناق إليه. وقال قوم: ذكر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قولهم على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث. وقيل: أراد فظلوا خاضعين فعبر بالعنق عن جميع البدن، كقوله ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] و﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. وقال مجاهد: أراد بالأعناق الرؤساء والكبراء، أي: فظلت [رؤوساءهم] كبراؤهم [لها] خاضعين. وقيل: أراد بالأعناق الجماعات، يقال: جاء القوم عنقاً عنقاً أي جماعات وطوائف. وقيل: إنما قال خاضعين على وفاق رؤوس الآي ليكون على نسق واحد.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾، وعظ وتذكير، ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾، أي محدث إنزاله، فهو محدث في التنزيل. قال الكلبي: كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، أي عن الإيمان به.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ﴾، أي: فسوف يأتيهم، ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾، أخبار وعواقب، ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾، صنف وضرب، ﴿كَرِيمٍ﴾، حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام، يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها، وناقة كريمة إذا كثر لبنها. قال الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

(٨) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت، ﴿لَءَايَةً﴾، دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، مصدقين، أي سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون. وقال سيبويه: كان ههنا صلة، مجازه: وما أكثرهم مؤمنين.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، العزيز بالنقمة من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، ذو الرحمة بأوليائه.

(١٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾، واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار، ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

(١٢) ﴿قَالَ﴾، يعني موسى، ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ بتكذيبهم إيّاي، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾، قال: هذا للعقدة التي كانت على لسانه، قرأ يعقوب «ويضيق»، «ولا ينطلق» بنصب القافين على معنى وأن يضيق، وقرأ العامة برفعهما رداً على قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾، ليوازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾، أي دعوى ذنب، وهو قتله القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، أي يقتلونني به.

(١٥) ﴿قَالَ﴾، الله تعالى، ﴿كَلَّا﴾، أي لن يقتلوك، ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، سامعون ما يقولون، ذكر معكم بلفظ الجمع، وهما اثنان أجراهما مجرى الجماعة. وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون.

(١٦) ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل رسولا رب العالمين، لأنه أراد بالرسالة، أنا ذُو رسالة رب العالمين، كما قال كثير:

لقد كذب الواشون ما بحتُ عندهم
بسرٍ ولا أرسلتهم برسول

أي بالرسالة، وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا

رسولي ووكيلي وهذان وهؤلاء رسولي ووكيلي، كما قال الله تعالى: ﴿وهو لكم عدو﴾ [وقيل إنه أراد الرسل]، وقيل: معناه كل واحد منّا رسول رب العالمين.

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾، أي بأن أرسلْ، ﴿مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وقيل استعبدهم فرعون أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك.

وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده العصى، والمكتل معلق في رأس العصا، وفيه زاده، فدخل دار نفسه وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون وأرسلني إليك حتى تدعو فرعون إلى الله، فخرجتْ أمهما وصاحت وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما إليه قتلكما فلم يمتنعا بقولها، وذهبا إلى باب فرعون ليلاً، ودقّا الباب، ففزع البوابون وقالوا من بالباب؟ وروي أنه اطلع البواب عليهما فقال من أنتما؟ فقال موسى: أنا رسول رب العالمين، فذهب البواب إلى فرعون وقال: إنّ مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين، فنزل حتى أصبح ثم دعاهما.

وروي أنهما انطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البواب وقال لفرعون: هٰهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك عنه، فدخل عليه وأديا رسالة الله عزّ وجلّ فعرف فرعون موسى، لأنه نشأ في بيته.

(١٨) ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، صبياً، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، وهو ثلاثون سنة.

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾، يعني قتل القبطي، ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قال الحسن والسدي: يعني وأنت من الكافرين بإلهك، وكنت: على ديننا هذا الذي تعيبه. وقال أكثر المفسرين: معنى قوله «وأنت من الكافرين»، يعني من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي، يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منّا نفساً وكفرت بنعمتنا. وهذه رواية العوفي عن ابن عباس [وقال] إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية.

(٢٠) ﴿قَالَ﴾، موسى، ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾، أي فعلت ما فعلت حينئذٍ، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي من الجاهلين [أي] لم يأتني من الله شيء. وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله. وقيل: من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد. وقيل: من المخطئين.

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، إلى مدين، ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾، يعني النبوة، وقال مقاتل: يعني العلم والفهم، ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، اختلفوا في تأويلها: فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار، فمن قال هو إقرار، قال عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه، ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل، مجازه: بلى وتلك نعمة لك عليّ أن عبّدت بني إسرائيل، وتركتني فلم تستعبدني. ومن قال: هو إنكار قال قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ وهو على طريق الاستفهام أي: أو تلك نعمة؟ حذف ألف الاستفهام، كقوله: ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؟ قال الشاعر:

تروح من الحي أم تبتكر ... وماذا يضرك لو تنتظر

أي: تروح من الحي وقال عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة:

لم أنس يوم الرحيل وقفتها ... وطرفها في دموعها غرق

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩)

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

٣٦٩

وقولها والركاب واقفة
تتركني هكذا وتنطلق

أي: أتتركني، يقول تمنّ عليّ أن ربيتني، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟ أو يريد: كيف تمنّ عليّ بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه ذُلّ، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إليّ، وقيل: معناه تمنّ علي بالتربية. وقوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: باستعبادك بني إسرائيل وقتلك أولادهم، دفعت إليك حتى ربيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم وتقتلهم كان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم، فأي نعمة لك عليّ؟ قوله ﴿عَبَّدتَّ﴾ أي اتخذتهم عبيداً، يقال عبدت فلاناً وأعبدته وتعبدته واستعبدته، أي اتخذته عبداً.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إليّ؟ يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه بـ «ما» وهو سؤال عن جنس الشيء، والله منزّه عن الجنسية، فأجابه موسى عليه السلام يذكر أفعاله التي يعجز [الخلق] عن الإتيان بمثلها.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أنه خلقهما. قال أهل المعاني: أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها فأيقنوا أن إله الخلق هو الله عزّ وجلّ، فلما قال موسى ذلك تحير فرعون في جواب موسى.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾، من أشراف قومه. قال ابن عباس: كانوا خمس مائة رجل عليهم الأسورة، قال لهم فرعون استبعاداً لقول موسى، ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم، فزادهم موسى في البيان.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ﴾، يعني فرعون، ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالَ﴾، فرعون ـ حين لزمته الحجة وانقطع عن الجواب ـ تكبراً عن الحق:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، أي: المحبوسين، قال الكلبي: كان سجنه أشد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه شيئاً من عمقه، يهوي [به] في الأرض.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ﴾ له موسى حين توعده بالسجن ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أي: وإن جئتك، ﴿بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾، بآية مبينة، ومعنى الآية أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بينة؟ وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

﴿٣١﴾ ﴿قَالَ﴾ له فرعون، ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، فإنا لن نسجنك حينئذٍ، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ فقال: وهل [من آية] غيرها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَنَزَعَ﴾، موسى، ﴿يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

﴿٣٤﴾ ـ ﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون. ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وهو يوم الزينة. وروي عن ابن عباس قال: وافق ذلك اليوم يوم السبت في أول يوم من السنة [وكان

يوم عيدهم] وهو يوم النيروز.

(٣٩) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾، لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة.

(٤٠) ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾، لموسى، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما.

(٤١) ـ (٤٩) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(٥٠) ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾، لا ضرر، ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، من أهل زماننا.

(٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر. وروي عن ابن جريج قال: أوحى الله تعالى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أهل أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسآمرها فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري ففعل ذلك. فلما أصبحوا قال فرعون هذا عمل موسى وقومه، قتلوا أبكارنا من أنفسنا، وأخذوا أموالنا، فأرسل في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في الكرسي العظيم.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾، يحشرون الناس يعني الشرط ليجمعوا السحرة. وقيل: حتى يجمعوا له الجيش، وذكر بعضهم: أنه كان له ألف مدينة واثنا عشرة ألف قرية. وقال لهم:

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾، عصابة ﴿قَلِيلُونَ﴾، والشرذمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها شراذم. وقال أهل التفسير: كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف. وعن ابن مسعود قال: كانوا ستمائة وسبعين ألفاً ولا يحصي عدد أصحاب فرعون [إلا الله].

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾، يقال غاظه وأغاظه وغيظه إذا أغضبه، والغيظ والغضب واحد، يقول: أغضبونا بمخالفتهم ديننا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منّا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾، قرأ أهل الحجاز والبصرة «حذرون» و«فرهين» [الشعراء: ١٤٩] بغير ألف، وقرأ الآخرون «حاذرون» و«فارهين» بألف فيهما، وهما لغتان. قال أهل التفسير: حاذرون أي مؤدون ومقوون، أي: ذو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح، ومعنى حذرون أي خائفون شرهم. وقال الزجاج: الحاذر المستعد، والحذر المتيقظ. وقال الفراء: الحاذر الذي يحذرك الآن، والحذر المخوف. وكذلك لا تلقاه إلاّ حذراً. والحذر اجتناب الشيء خوفاً منه.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ﴾، وفي القصة [أن] البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية.

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ﴾، يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، قال مجاهد سماها كنوزاً لأنه لم يعط حق الله منها، وما لم يعط حق الله منها فهو كنز، وإن كان ظاهراً، قيل: كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام، كل غلام على فرس عتيق، في عنق كل فرس طوق من ذهب، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي مجلس حسن.

قال المفسرون: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هي المنابر. وذكر بعضهم: أنه كان إذا قعد [فرعون] على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف عليهم الأقبية من الديباج مَخُوصة بالذهب.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [أي] كما وصفنا، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ بهلاكهم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وذلك أن الله تعالى ردّ بني إسرائيل

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

٣٧٠

إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن.

﴿٦٠﴾ ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾، يعني لحقوهم في وقت إشراق الشمس، وهو إضاءتها، أي أدرك قوم فرعون موسى وأصحابه وقت شروق الشمس.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، وكسر حمزة الراء من تراءى وفتحها الآخرون. ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالَ﴾، موسى ثقة بوعد الله إياه ﴿كَلَّآۖ﴾ لن يدركونا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ يدلني على طريق النجاة.

﴿٦٣﴾ ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾، يعني فضربه فانفلق فانشق، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ﴾، قطعة من الماء، ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، كالجبل الضخم، قال ابن جريج وغيره: لما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح، والبحر يرمي بموج مثل الجبال، فقال يوشع: يا مكلم الله أين أُمرتَ فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ قال موسى: ههنا، فخاض يوشع الماء وجاز البحر، ما يواري حافر دابته الماء وقال الذي يكتم إيمانه يا مكلم الله أين أُمرتَ؟ قال: ههنا، فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه، ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا، فجعل موسى لا يدري كيف يصنع. فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده.

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾، يعني وقربنا ﴿ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾، يعني قوم فرعون، يقول قدمناهم إلى البحر، وقربناهم إلى الهلاك، وقال أبو عبيدة: «وأزلفنا»: جمعنا، ومنه ليلة المزدلفة أي ليلة الجمع. وفي القصة أن جبريل كان بين بني إسرائيل وبين قوم فرعون وكان يسوق بني إسرائيل، ويقولون ما رأينا أحسن سياقةً من هذا الرجل، وكان يزع قوم فرعون، وكانوا يقولون ما رأينا أحسن زَعَةً من هذا.

﴿٦٥﴾ ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾، فرعون وقومه. وقال سعيد بن جبير: كان البحر ساكناً قبل ذلك فلما ضربه موسى بالعصا اضطرب فجعل يمد ويجزر.

﴿٦٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي من أهل مصر، قيل: لم يكن آمن من أهل مصر إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل المؤمن [الذي يكتم إيمانه]، ومريم بنت مأمويا التي دلت على عظام يوسف عليه السلام.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، العزيز في الانتقام من أعدائه، الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم [من عدوهم].

﴿٦٩﴾ قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

﴿٧٠﴾ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، أي: شيء تعبدون.

﴿٧١﴾ ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، يعني نقيم على عبادتها. قال بعض أهل العلم: إنما قال: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار، دون الليل، يقال: ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ﴾، أي هل يسمعون دعاءكم، ﴿إِذۡ تَدۡعُونَ﴾، قال ابن عباس يسمعون لكم.

﴿٧٣﴾ ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾، قيل بالرزق، ﴿أَوۡ يَضُرُّونَ﴾، إن تركتم عبادتها.

﴿٧٤﴾ ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾، معناه إنها لا تسمع قولاً،

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

٣٧١

ولا تجلب نفعاً، ولا تدفع ضراً لكن اقتدينا بآبائنا، فيه إبطال التقليد في الدين.

(٧٥) ـ (٧٦) ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾، الأولون.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾، يعني أعدائي، ووحده على معنى أن كل معبود لكم عدو لي، فإن قيل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي جمادات؟ قيل: معناه فإنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]، وقال الفراء: هو من المقلوب، أراد أتولاهم عدوٌّ لهم، لأن من عاديته فقد عاداك. وقيل: «فإنهم عدو لي» على معنى إني لا أتوهم ولا أطلب من جهتهم نفعاً كما لا يتولى العدو ولا يطلب من جهته النفع، قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء، قيل: هو استثناء منقطع، كأنه قال: فإنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي [وناصري]. وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم: كل من تعبدون أعدائي إلا ربَّ العالمين. وقيل: إنهم غير معبود لي إلا ربَّ العالمين، فإني أعبده. وقال الحسين بن الفضل: معناه إلا من عبد ربه العالمين، ثم وصف معبوده فقال:

(٧٨) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي يرشدني إلى طريق النجاة.

(٧٩) ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾، أي يرزقني ويغذّيني بالطعام والشراب، فهو رازقي ومن عنده رزقي.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله من الله، استعمالاً لحسن الأدب كما قال الخضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، أي يبرئني من المرض.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، أدخل ﴿ثُمَّ﴾ ههنا للتراخي أي يميتني في الدنيا ويحييني في الآخرة.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ﴾، [أي] أرجو، ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، أي خطاياي يوم الحساب. قال مجاهد: هو قوله «إني سقيم»، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله لسارة: هذه أختي، وزاد الحسن وقوله للكواكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧].

وأخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا حفص بن غياث، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوماً ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين».

وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، وإخبار أنه لا تصلح للإلهية إلا لمن يفعل هذه الأفعال.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾، قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه. وقال مقاتل: الفهم والعلم. وقال الكلبي: النبوة، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، بمن قبلي من النبيين في المنزلة والدرجة.

(٨٤) ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي ثناء حسناً، وذكراً جميلاً، وقبولاً عاماً في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه خيراً ويؤمنون به. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول

على الاستعارة لأن القول يكون به.

(٨٥) ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي ممن تعطيه جنة النعيم.

(٨٦) ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال هذا قبل أن يتبين له أنه عدو الله، كما سبق ذكره في سورة التوبة.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ [أي] لا تفضحني ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

(٨٨) ـ (٨٩) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أي خالص من الشرك والشك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسرين، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض. قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة المطمئن على السنة.

(٩٠) ـ (٩١) ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قربت ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، أظهرت، ﴿ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، للكافرين.

(٩٢) ـ (٩٣) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾، يوم القيامة، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾، يمنعونكم من العذاب، ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم.

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾، قال ابن عباس: جمعوا. وقال مجاهد: دُهوروا. وقال مقاتل: قذفوا. وقال الزجاج: طرح بعضهم على بعض. وقال القتيبي: ألقوا على رؤوسهم. ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾، يعني الشياطين، قال قتادة ومقاتل والكلبي: كفرة الجن.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾، وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس. ويقال: ذريته.

(٩٦) ﴿قَالُوا۟﴾ أي: قال الغاوون للشياطين والمعبودين، ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾، مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضاً.

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾، نعدلكم، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فنعبدكم.

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ أي: ما دعانا إلى الضلال، ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. قال مقاتل: يعني الشياطين. وقال الكلبي: الأولون الذين اقتدينا بهم. وقال أبو العالية وعكرمة: يعني: إبليس، وابن آدم الأول، وهو قابيل، لأنه أول من سنّ القتل، وأنواع المعاصي.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، أي: من يشفع لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، أي قريب يشفع لنا، يقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، والصديق هو الصادق في المودة بشرط الدين.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، ثنا محمد بن الحسن اليقطيني، أنا أحمد بن عبدالله [بن] يزيد العقيلي، ثنا صفوان بن صالح، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا من سمع أبا الزبير يقول أشهد لسمعت جابر بن عبدالله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان، وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي [في النار]: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم».

قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ العزيز الذي لا يُغالَب، فالله عزيزٌ، وهو في وصف عزته رحيم.

(١٠٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد أرأيت قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إن الآخر جاء بما جاء به الأول، فإذا كذبوا واحداً فقد كذبوا الرسل أجمعين.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾، في النسب لا في الدين، ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٠٧) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، على الوحي.

(١٠٨) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، بطاعته وعبادته، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما آمركم

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

٣٧٢

به من الإيمان والتوحيد.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ﴾، ثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿١١١﴾ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، قرأ يعقوب: «وأتباعك الأرذلون» السفلة. وعن ابن عباس قال: الصاغة. وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة.

﴿١١٢﴾ ﴿قَالَ﴾، نوح، ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهرُ أمرهم.

﴿١١٣﴾ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾، ما حسابهم، ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. قال الزجاج: الصناعات لا تضرُ في الديانات. وقيل: معناه أي لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم.

﴿١١٤﴾ ـ ﴿١١٥﴾ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾، عما تقول: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، قال مقاتل والكلبي: من المقتولين بالحجارة. وقال الضحاك: من المشتومين.

﴿١١٧﴾ ـ ﴿١١٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ﴾، فاحكم، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، حكماً، ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٩﴾ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، الموقر المملوء من الناس والطير والحيوانات كلها.

﴿١٢٠﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾، أي أغرقنا بعد إنجاء نوح، وأهله من بقي من قومه.

﴿١٢١﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿١٢٣﴾ قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾، يعني في النسب لا في الدين، ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، على الرسالة، قال الكلبي: أمين فيكم قبل الرسالة فكيف تتهموني اليوم.

﴿١٢٦﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٢٨﴾ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾، قال الوالبي عن ابن عباس: بكل شرف. وقال الضحاك ومقاتل والكلبي: بكل طريق، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وعن مجاهد قال: هو الفج بين الجبلين. وعنه أيضاً: أنه المنظر ﴿آيَةً﴾ علامة ﴿تَعْبَثُونَ﴾، بمن مرّ بالطريق.

والمعنى: أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم. وعن سعيد بن جبير ومجاهد: هذا في بروج الحَمَام أنكر عليهم هود اتخاذها [واللعب بها] بدليل قوله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي تلعبون، وهم كانوا يلعبون بالحمام. وقال أبو عبيدة: الرِّيع المكان المرتفع.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، قال ابن عباس: أبنية. وقال مجاهد: قصوراً مشيدة. وعن الكلبي: أنها الحصون. وقال قتادة: مآخذ الماء يعني الحياض، واحدتها مصنعة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، أي كأنكم تبقون فيها خالدين [لا تموتون]، والمعنى: أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾، أخذتم وسطوتم، ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط، والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.

﴿١٣١﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، أي أعطاكم من الخير ما

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

تعلمون ثم ذكر ما أعطاهم فقال:

(١٣٣) - (١٣٤) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، يعني بساتين وأنهار.

(١٣٥) ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، [قال ابن عباس: إن عصيتموني]، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٣٦) ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾، يعني مستوٍ عندنا، ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد. قال الكلبي: نهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا.

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، ما هذا، ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب «خلق» بفتح الخاء وسكون اللام أي اختلاق الأولين وكذبهم، دليل هذه القراءة قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقرأ الآخرون «خلق» بضم الخاء واللام، أي عادة الأولين من قبلنا، وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٤١) - (١٤٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾، يعني في الدنيا ﴿ءَامِنِينَ﴾، من العذاب.

(١٤٧) - (١٤٨) ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾، ثمرها يريد ما يطلع منها من الثمر، ﴿هَضِيمٌ﴾، قال ابن عباس: لطيف، ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفاً. وروى عطية عنه: يانع نضيج. وقال عكرمة: اللين. وقال الحسن: الرخو. وقال مجاهد: متهشم يتفتت إذا مس، وذلك أنه ما دام رطباً فهو هضيم، فإذا يبس فهو هشيم. وقال الضحاك ومقاتل: قد ركب بعضه [فوق] بعض حتى هضم بعضه بعضاً، أي كسّره. وقال أهل اللغة: هو المنضم بعضه إلى بعض [في وعائه قبل أن يظهر. وقال الأزهري: الهضيم هو الداخل بعضه في بعض] من النضج والنعومة. وقيل: هضيم أي هاضم يهضم الطعام. وكل هذا للطافته.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾، وقرىء: «فرهين»، قيل: معناهما واحد. وقيل: فارهين أي حاذقين بنحتها، من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره، ومن قرأ «فرهين» قال ابن عباس: أشرين بطرين. وقال عكرمة: ناعمين. وقال مجاهد: شرهين. وقال قتادة: معجبين بصنيعكم. وقال السدي: متجبرين. وقال أبو عبيدة: مرحين. وقال الأخفش فرحين. والعرب تعاقب بين الهاء والحاء مثل مدحته ومدهته. وقال الضحاك: كيّسين.

(١٥٠) - (١٥١) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، قال ابن عباس: المشركين. وقال مقاتل: هم التسعة الذين عقروا الناقة وهم:

(١٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بالمعاصي، ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، لا يطيعون الله فيما أمرهم به.

(١٥٣) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، قال مجاهد وقتادة: من المسحورين والمخدوعين، أي ممن يسحر مرة بعد مرة. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أي: من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب، يقال: سحره أي علله بالطعام والشراب، يريد إنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك، بل:

(١٥٤) ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾، على صحة ما تقول، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أنك رسول الله إلينا.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

٣٧٤

(١٥٥) ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾، حظ ونصيب من الماء، ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

(١٥٦) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، بعقر، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾، على عقرها حين رأوا العذاب.

(١٥٨) ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٦٠) ـ (١٦٥) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾، قال مقاتل: يعني جماع الرجال. ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يعني] من بني آدم.

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾، قال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام.

(١٦٧) ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، من قريتنا.

(١٦٨) ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، المبغضين، ثم دعا فقال:

(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، من العمل الخبيث.

(١٧٠) ـ (١٧١) قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهي امرأة لوط، بقيت في العذاب والهلاك.

(١٧٢) ـ (١٧٣) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾، أي: أهلكناهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، قال وهب بن منبه: الكبريت والنار.

(١٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٧٦) قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهم قوم شعيب عليه السلام، قرأ العراقيون: «الأيكة» ههنا وفي ص [١٣] بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء، وقرأ الآخرون: «ليكة» بفتح اللام والتاء غير مهموز، جعلوها اسم البلد، وهو لا ينصرف، ولم يختلفوا في سورة الحجر [٧٨] وق [١٤] أنهما مهموزان مكسوران، والأيكة: الغيضة من الشجر الملتف.

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً لأنه كان منهم، وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٧٨) ـ (١٨٠) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة.

(١٨١) ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾، الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن.

(١٨٢) ـ (١٨٤) ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾، الخليقة، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعني الأمم المتقدمين، والجبلة: الخلق، يقال: جُبل أي خُلق.

(١٨٥) ـ (١٨٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. أي من نقصان الكيل

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إليّ وما عليّ إلا الدعوة.

﴿١٨٩﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾، وذلك أنه أخذهم حرّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فخرجوا، فأظلتهم سحابة، وهي الظلة، فاجتمعوا تحتها [ليتقوا الحر] فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا، ذكرناه في سورة هود. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿١٩٠﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٩١﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿١٩٢﴾ ـ ﴿١٩٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُ﴾، يعني القرآن. ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وحفص: «نزل» خفيف، «الروح الأمين» برفع الحاء والنون، أي نزل جبريل بالقرآن. وقرأ الآخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء والنون أي: نزّل الله به جبريل، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٩٤﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، يا محمد حتى وعيته، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، المخوّفين.

﴿١٩٥﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، قال ابن عباس: لسان قريش ليفهموا ما فيه.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾، أي ذكر إنزال القرآن، قاله أكثر المفسرين، وقال مقاتل: ذكر محمد ﷺ ونعته، ﴿لَفِي زُبُرِ﴾ كتب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿١٩٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾، قرأ ابن عامر: «تكن» بالتاء «آيةٌ» بالرفع، جعل الآية اسماً وخبره: ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾، وقرأ الآخرون بالياء، ﴿آيَةً﴾ نصب، جعلوا الآية خبر يكن، معناه: أولم يكن لهؤلاء المتكبرين علم بني إسرائيل آية، أي علامة ودلالة على نبوة محمد ﷺ، لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل، كانوا يخبرون بوجوده في كتبهم، وهم عبدالله بن سلام وأصحابه. قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه وإنا نجد في التوراة نعتَه وصفته، فكان ذلك آية على صدقه. قوله تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾، يعني يعلم محمد ﷺ، ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، قال عطية: كانوا خمسة عبدالله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد.

﴿١٩٨﴾ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾، يعني القرآن، ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾، جمع الأعجمي، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربياً في النسب، والعجمي: منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً. ومعنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان.

﴿١٩٩﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾، بغير لغة العرب، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقالوا: ما نفقه قولك، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفةً من اتّباعه.

﴿٢٠٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أدخلناه [أي] الشرك والتكذيب ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿٢٠١﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي بالقرآن، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، يعني عند الموت.

﴿٢٠٢﴾ ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾، يعني العذاب، ﴿بَغْتَةً﴾، فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، به في الدنيا.

﴿٢٠٣﴾ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، أي لنؤمن ونصدق، يتمنون الرجعة والنظرة. قال مقاتل: لما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب، قالوا: إلى متى

توعدنا بالعذاب، ومتى هذا العذاب؟ قال الله تعالى:

(٢٠٤) ـ (٢٠٥) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾، كثيرة في الدنيا، يعني كفار مكة ولم نهلكهم.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾، يعني بالعذاب.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾، به في تلك السنين. والمعنى أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يُغنِ عنهم طول التمتع شيئاً، ويكونون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، رسل ينذرونهم.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ﴾، محلها نصب أي ينذرونهم، تذكره، وقيل: رفع أي: تلك ذكرى، ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد ﷺ، فقال جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ﴾ به أي بالقرآن الشياطين.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾، أن ينزلوا بالقرآن، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ذلك.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ أي عن استراق السمع من السماء، ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾، أي محجوبون بالشهب مرجومون.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليّ ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

روى محمد بن إسحاق، عن عبدالغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، عن عبدالله بن عباس، عن علي بن أبي طالب. قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا علي إن الله يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُ عليها حتى جاءني جبريل، فقال لي: يا محمد إلاّ تفعل ما تؤمر [به] يعذبك ربُّك، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عساً من لبن، ثم اجمع لي بني عبدالمطلب حتى أبلغهم ما أُمرتُ به، ففعلتُ ما أمرني به، ثم دعوتهم له وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس رضي الله عنهما، وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم، فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: «كلوا باسم الله» فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وأيْمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم، ثم قال: «اسقِ القومَ» فجئتهم بذلك العُسِّ، فشربوا حتى رووا جميعاً، وأيْمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم [بما أوحى إليه ربه] بدره أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ، [فلما كان الغد قال لعلي] «يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فعدَّ لنا من الطعام مثل ما صنعت بالأمس ثم اجمعهم» ففعلت ثم جمعتهم فدعاني بالطعام فقربته، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا ثم تكلم

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)

سورة النمل

٣٧٦

رسول الله ﷺ فقال: «يا بني عبدالمطلب إني قد جئتكم بخيريّ الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يوازرني على أمري هذا؟ ويكون أخي ووصيّتي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً فسكتوا عن آخرهم فقلت وأنا أحدثهم سناً، أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه». قال: فأخذ برقبتي ثم قال إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين» خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتُكم إنْ أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبّاً لك ما جمعتنا إلاّ لهذا، ثم قام. فنزلت «تبتْ يدا أبي لهب [وقد] تب» هكذا قرأ الأعمش يومئذٍ.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عمر بن حفص بن غياث، ثنا أبي، ثنا الأعمش، حدثني عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عدي» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، وقال: «أرأيتُكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١ ـ ٢].

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فقال: «يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز، أنا أبو بكر محمد بن زكريا العُذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن قتادة، عن مطرف بن عبدالله بن الشخير، عن عياض بن حمار المجاشعي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، وإنه قال: إن كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركُوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهم عربَهم وعجمَهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب، وإن الله تعالى أمرني أن أخوّف قريشاً، فقلت: يا رب إنهم إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزةً، فقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وقد أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه في المنام واليقظة، فاغزهم نغزك، وأنفق ننفق عليك، وابعث جيشاً نمددك بخمسة أمثالهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، ثم قال أهل الجنة ثلاثة: إمام مُقسط، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق، وأهل النار خمسة:

الضعيف الذي لا دين له، الذين هم فيكم تبع لا يتبعون بذلك أهلاً ولا مالاً، ورجل إن أصبح أصبح يخادعك عن أهلك ومالك، ورجل لا يخفى له طمع وإن دق إلا ذهب به، والشنظير الفاحش». وذكر البخل والكذب.

(٢١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾، يعني ألِنْ جانبك، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

(٢١٦) ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، من الكفر وعبادة غير الله.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: «فتوكل» بالفاء، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو «وتوكل»، ﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ليكفيك كيد الأعداء.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾، إلى صلاتك، عن أكثر المفسرين. وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت. وقيل: حين تقوم لدعائهم.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، يعني يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك. قال عكرمة وعطية عن ابن عباس: في الساجدين أي في المصلين. وقال مقاتل والكلبي: أي مع المصلين في الجماعة، يقول: يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة. وقال مجاهد: يرى تقلب بصرك في المصلين، فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفي عليّ خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري».

وقال الحسن: «وتقلبك في الساجدين» أي تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين.

وقال سعيد بن جبير: يعني وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء [عليهم السلام] من قبلك. والساجدون: هم الأنبياء.

وقال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

(٢٢١) ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ﴾، [هل] أخبركم، ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، هذا جواب قولهم: «تنزّل عليه شيطان». ثم بين فقال:

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ﴾، أي تتنزل، ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾، كذاب، ﴿أَثِيمٖ﴾، فاجر، قال قتادة: هم الكهنة يسترق الجن السمع ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس. وهو قوله عزّ وجلّ.

(٢٢٣) ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، أي يستمعون من الملائكة مستقرين فيلقونه إلى الكهنة، ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾، لأنهم يخلطون به كذباً كثيراً.

(٢٢٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾. قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ وذكر مقاتل أسماءهم، فقال: منهم عبدالله بن الزبعرى السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف. وأبو عزة بن عبدالله الجمحي، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب والباطل على رسول الله ﷺ، وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد. وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه، ويروون عنهم وذلك قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾، هم الرواة الذين يروون هجاء النبي ﷺ والمسلمين. وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين.

وقال الضحاك: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، ومع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء فنزلت هذه الآية. وهي رواية عطية عن ابن عباس.

(٢٢٥) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ﴾، من أودية الكلام، ﴿يَهِيمُونَ﴾، جائرون وعن طريق الحق جائرون، والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له. قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: في كل لغو يخوضون. وقال مجاهد: في كل فن يفتنون. وقال قتادة: يمدحون بالباطل ويستمعون ويهجون بالباطل، فالوادي مثلٌ لفنون الكلام، كما يقال، أنا في وادٍ وأنت في واد. وقيل: ﴿فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ أي على كل حرف من

حروف الهجاء يصوغون القوافي.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦)، أي: يكذبون في شعرهم، يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، ثنا علي بن الجعد، أنا شعبة، عن الأعمش، عن ذكوان، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً».

ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيبون شعراء الجاهلية، ويهجون الكفار، وينافِحُون عن النبي ﷺ وأصحابه، منهم حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٢٢٧).

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نَضْحَ النَّبل».

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، أنا أبو عيسى الترمذي، ثنا إسحاق بن منصور، أنا عبدالرزاق، أنا جعفر بن سليمان، ثنا ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه و[هو] يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال النبي ﷺ: «خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النَّبل».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا حجاج بن منهال، ثنا شعبة، أخبرني عدي أنه سمع البراء قال: قال رسول الله ﷺ لحسان: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك».

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى، ثنا إسماعيل بن موسى الفزاري وعلي بن حجر، المعنى واحد، قالا: ثنا عبدالرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو [قالت] ينافح عن رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يُؤيّد حسانَ بروح القدس، ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عبدالملك بن شعيب بن الليث حدثني أبي عن جدي، ثنا خالد بن يزيد حدثني سعيد بن أبي هلال عن عمارة بن غزية عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُوا قريشاً فإنه أشدّ عليها من رشق النبل»، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهجهم»، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينّهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنّ لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي»، فأتاه حسان ثم رجع، فقال: يا رسول الله قد لَخَّص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»، وقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»، قال حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه
وعند الله في ذاك الجزاء
هجوتَ محمداً براً حنيفاً
رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالدتي وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء
فمن يهجو رسولَ الله منكم
ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو بكر بن عبدالرحمن أن مروان بن الحكم أخبره أن عبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره أن أُبيّ بن كعب أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر لحكمة».

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: الشعر كلام، فمنه حسن، ومنه قبيح، فخذ الحسن ودع القبيح.

وقال الشعبي: كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يقول الشعر، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول الشعر، وكان علي رضي الله تعالى عنه أشعر الثلاثة [رضي الله عنهم] وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده، فروي أنه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي قالها وهي:

«أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر»

فأنشده ابن أبي ربيعة القصيدة إلى آخرها، وهي قريبة من سبعين بيتاً، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها، وكان حفظها بمرة واحدة.

﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، قال مقاتل انتصروا من المشركين لأنهم بدؤوا بالهجاء، ثم أوعد شعراء المشركين فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾، أشركوا وهجوا رسول الله ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، أي مرجع يرجعون بعد الموت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى جهنم والسعير. والله أعلم.

❀ ❀ ❀

سورة النمل

مكية وهي ثلاث وتسعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجزء التاسع عشر　　سورة النمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

٣٧٧

﴿١﴾ ﴿طسٓ﴾، قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقد سبق الكلام في حروف الهجاء. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي هذه آيات القرآن، ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، يعني وآيات كتاب مبين.

﴿٢﴾ ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني هو هدى من الضلالة وبشرى للمؤمنين المصدقين به بالجنة.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي يؤدون الصلاة بأركانها وشروطها، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [أي] يعطون ما وجب عليهم من زكاة أموالهم لأربابها، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، القبيحة حتى رأوها حسنة، ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي يترددون فيها متحيرين.

﴿٥﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، شدة العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ببدر، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي تُؤتى القرآن وتلقن، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أي وحياً من عند الله الحكيم العليم.

﴿٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾، أي واذكر يا محمد إذ قال موسى لأهله في مسيره من مدين إلى مصر، ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي أبصرت

ناراً، ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق أو النار، وكان قد ترك الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، قرأ أهل الكوفة «بشهابٍ» بالتنوين، جعلوا القبس نعتاً للشهاب، وقرأ الآخرون بلا تنوين على الإضافة، وهو إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الشهاب والقبس متقاربان في المعنى، وهو العود الذي في أحد طرفيه فيه نار، وليس في الطرف الآخر نار. وقال بعضهم: الشهاب هو شيء ذو نور، مثل العمود، والعرب تسمي كل أبيض ذي نور شهاباً، والقبس: القطعة من النار، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، تستدفئون من البرد، وكان ذلك في شدة الشتاء.

﴿٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي بورك على من في النار أو فيمن في النار، والعرب تقول: باركه الله وبارك فيه وبارك عليه، بمعنى واحد. وقال قوم: البركة راجعة إلى موسى والملائكة، معناه: بورك في من طلب النار، وهو موسى عليه السلام، ومن حولها وهم الملائكة الذين حول النار، ومعناه: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله عزّ وجلّ لموسى بالبركة، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت. ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور، وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هم الملائكة.

وذلك أن النور الذي رآه موسى [عليه السلام] كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومن حولها [هو] موسى لأنه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها. وقيل: من في النار ومن حولها جميعاً الملائكة. وقيل: «من في النار» موسى «ومن حولها» الملائكة، وموسى وإن لم يكن في النار كان قريباً منها، كما يقال: بلغ فلان المنزل إذا قرب منه، وإن لم يبلغه بعد، وذهب بعضهم إلى أن البركة راجعة إلى النار.

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: معناه أن بُوركتِ النار.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سمعت أُبيّاً يقرأ: «أن بوركت النار ومن حولها»، و﴿مَن﴾ قد تأتي بمعنى ما، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥]، و«ما» قد تكون صلة في الكلام، كقوله ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ [ص: ١١]، ومعناه: بورك في النار وفيمن حولها، وهم الملائكة وموسى عليه السلام، وسمى النار مباركة كما سمي البقعة مباركة فقال: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن في قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، يعني قُدس من في النار، وهو الله، عنى به نفسه، على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها.

كما روي: أنه مكتوب في التوراة جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعين، واستعلى من جبال فاران، فمجيئه من سيناء: بعثة موسى منها، ومن ساعين بعثة المسيح منها، ومن جبال فاران بعثة المصطفى منها، وفاران مكة. وقيل: كان ذلك نوره عزّ وجلّ. وقال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها، والنار إحدى حجب الله تعالى.

كما جاء في الحديث: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، ثم نزّه الله نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب، فقال جلّ ذكره. ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، ثم تعرف إلى موسى بصفاته، فقال:

﴿٩﴾ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، والهاء في قوله ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ عماد وليس بكناية، وقيل: هي كناية عن الأمر والشأن، أي الأمر والشأن، أي: المعبود أنا، ثم أرى موسى آية على قدرته، فقال:

﴿١٠﴾ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، تتحرك، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، وهرب من الخوف، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، ولم يرجع، يقال: عقّب فلان إذا رجع، وكل راجع معقب. وقال قتادة: ولم يلتفت، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، يريد إذا آمنتهم لا يخافون، أما الخوف الذي هو شرط الإيمان فلا يفارقهم.

قال النبي ﷺ: «أنا أخشاكم لله».

﴿١١﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، اختُلف في هذا الاستثناء، قيل: هذا إشارة إلى أن موسى حين قتل القبطي خاف من ذلك، ثم تاب فقال: ربِّ

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فغفر له.

قال ابن جريج: قال الله تعالى لموسى: إنما أخفتُك لقتلِك النفس. وقال: معنى الآية: لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحاً وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الناس كافة، وفي الآية متروك استُغني عن ذكره بدلالة الكلام عليه، تقديره: فمن ظَلَمَ ثم بدّل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم.

قال بعض العلماء: ليس هذا باستثناء من المرسلين لأنه لا يجوز عليهم الظلم، بل هو استثناء من المتروك في الكلام، معناه: لا يخاف لديّ المرسلون، إنما الخوف على غيرهم من الظالمين، إلاّ من ظلم ثم تاب، وهذا من الاستثناء المنقطع، معناه: لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف، فإن تاب وبدّل حسناً بعد سوء فإن الله غفور رحيم، يعني يغفر الله له ويزيل الخوف عنه. وقال بعض النحوين: إلاّ ههنا بمعنى لا، يعني: لا يخاف لديّ المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء، يقول: لا يخاف لديّ المرسلون ولا المذنبون التائبون، كقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] يعني ولا الذين ظلموا، ثم أراه الله آية أخرى فقال:

﴿١٢﴾ ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾، والجيب حيث جبب من القميص، أي قطع، قال أهل التفسير: كانت عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق مثل البرق، فذلك قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، من غير برص، ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مرسل بهنّ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾، بيّنة واضحة يبصر بها، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ظاهر.

﴿١٤﴾ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾، أي أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله، [﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، يعني علموا أنها من عند الله]، قوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، يعني شركاً وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾، يعني علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾، بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابناً، وأُعطي سليمان ما أُعطي داود من الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين. وقال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبداً من سليمان، وكان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، سمى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس. روي عن كعب قال: صاح ورشان عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب، وصاحت فاختة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول كما تدين تدان،

وصاح هدهد، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول من لا يَرحم لا يُرحم، وصاح صرد، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول استغفروا الله يا مذنبين، قال: وصاحت طيطوى، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، فإنها تقول: كل حي ميت وكل حديد بال، وصاح خطاف، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، وهدرت حمامة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، فإنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: سبحان ربي الأعلى، قال: والغراب يدعو على العشار، والحدأة تقول: كل شيء هالك إلاّ الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا [أكبر] همه، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس، والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، والضفدعة تقول: سبحان [ربي] المذكور بكل لسان، وعن مكحول قال: صاح دراج عند سليمان، فقال: هل تدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: الرحمن على العرش استوى، و[روي] عن فرقد السَّبَخي قال مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا: الله ونبيه أعلم، قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء.

وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس: إنا سائلوك عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا آمنا وصدقنا، قال: سلوا تفقهاً ولا تسألوا تعنتاً، قالوا: أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره، والديك في صعيقه، والضفدع في نقيقه، والحمار في نهيقه، والفرس في صهيله، وماذا يقول الزرزور والدراج؟ قال: نعم، أما القنبر فيقول: اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد، وأما الديك فيقول: اذكروا الله يا غافلين، وأما الضفدع فيقول: سبحان [الله] المعبود في لجج البحار، وأما الحمار فيقول: اللهم العن العشار، وأما الفرس فيقول: إذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وأما الزرزور فيقول: اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رازق، وأما الدراج فيقول: الرحمن على العرش استوى، قال: فأسلم اليهود وحسن إسلامهم.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي قال: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم، عش ما شئت [فإن] آخره الموت، وإذا صاح العقاب قال: في البعد من الناس أُنس، وإذا صاح القنبر قال: إلهي العن مبغضي محمد [وآل محمد]، وإذا صاح الخطاف قرأ: الحمد لله رب العالمين، ويمد الضالين كما يمد القارىء. قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، يُؤتى الأنبياء والملوك، قال ابن عباس: من أمر الدنيا والآخرة.

وقال مقاتل: يعني النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا.

وروي أن سليمان عليه السلام أعطي ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطير والسباع، وأعطي على ذلك منطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة.

(١٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾، وجمع لسليمان، ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ في مسير له، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، فهم يكفون. قال قتادة: كان على كل صف من جنوده وزعة تردّ أولها على آخرها، لئلا يتقدموا في السير، والوازع الحابس، وهو النقيب، وقال مقاتل: يوزعون يساقون، وقال السدي: يوقفون. وقيل: يجمعون. وأصل الوزع الكف والمنع، قال محمد بن كعب القرظي: كان معسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة زوجة، وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، فأوحى الله إليه وهو بين السماء والأرض، إني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلاّ جاءت به الريح، فأخبرتك.

(١٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾، روي عن وهب بن منبه عن كعب قال: كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه، وقد اتخذ مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد وقدور عظام، يسع كل قدر عشر جزائر، وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم فسار من اصطخر إلى اليمن فسلك مدينة رسول الله ﷺ، فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه، ورأى حول البيت أصناماً تُعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت، فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ قال: يا رب أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مرّوا عليّ فلم يهبطوا ولم يصلوا عندي، والأصنام تُعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه أن لا تبكِ، فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إليّ وأجعل فيك عمّاراً من خلقي يعبدونني، وأفرض على عبادي فريضة يذفون إليك ذفيف النسور إلى وكرها، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشياطين، ثم مضى سليمان حتى مرّ بوادي السدير وادٍ من الطائف، فأتى على وادي النمل، هكذا قال كعب: إنه وادٍ بالطائف.

وقال قتادة ومقاتل: هو أرض بالشام. وقيل: واد كان يسكنه الجن، وأولئك النمل مراكبهم. وقال نوف الحميري: كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب. وقيل: كالبخاتي. والمشهور: أنه النمل الصغير. وقال الشعبي: كانت تلك النملة ذات جناحين. وقيل: كانت نملة عرجاء فنادت، ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمۡ﴾، ولم تقل ادخلن لأنه لما جعل لهم قولاً كالآدميين خوطبوا بخطاب الآدميين، ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، لا يكسرنكم، ﴿سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، والحطم الكسر، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، فسمع سليمان قولها، وكان لا يتكلم [أحد من] خلق [الله] إلا حملت الريح ذلك فألقته في مسامع سليمان، قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وقال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، وقال مقاتل: كان اسمها جرمى، فإن قيل كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل: كان جنوده ركباناً وفيهم مشاة على الأرض تطوى لهم. وقيل: يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الله الريح لسليمان: قال أهل التفسير: علم النمل أن سليمان نبي ليس فيه جبرية ولا ظلم. ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم ولم يشعروا بكم.

ويروى أن سليمان لما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخل النمل بيوتهم.

(١٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾، قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسم. وقوله: ﴿ضَاحِكٗا﴾ أي متبسماً وقيل: كان أوله التبسم وآخره الضحك.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، أنا عمرو، وهو ابن الحارث، أنا أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم.

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن المغيرة عن عبدالله بن الحارث بن جزء قال: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ.

قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجباً، لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك ثم حمد سليمان ربَّه على ما أنعم عليه، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، ألهمني، ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، أي أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم.

قال ابن عباس: يريد مع إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب،

ومن بعدهم من النبيين. وقيل: أدخلني الجنة برحمتك من عبادك الصالحين.

﴿٢٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾، أي: طلبها وبحث عنها، والتفقد طلب ما فقد، ومعنى الآية: طلب ما فقد من الطير، ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾، أي ما للهدهد لا أراه، تقول العرب: مالي أراك كئيباً؟ أي مالك؟ والهدهد: طائر معروف، وكان سبب تفقد الهدهد وسؤاله عنه، قيل: إخلاله بالنوبة، وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلاً يظله وجنده جناح الطير من الشمس فأصابته الشمس، من موضع الهدهد، فنظر فرآه خالياً.

وروي عن ابن عباس: أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء وكان يعرف مواضع الماء ويرى الماء تحت الأرض، كما يرى في الزجاجة، ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء [منه]. قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق: يا وصاف انظر ما تقول في الهدهد، إن الصبي منّا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه فكيف يبصر ما في الأرض من الماء. فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر. وفي رواية: إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر. فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا، فتفقد الهدهد ليدل على الماء، فقال: مالي لا أرى الهدهد، على تقرير أنه مع جنوده، وهو لا يراه، ثم أدركه الشك في غيبته، فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، يعني أكان من الغائبين، والميم صلة، وقيل: أم بمعنى بل، ثم أوعده على غيبته، فقال:

﴿٢١﴾ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، واختلفوا في العذاب الذي أوعده به، فأظهر الأقاويل [أن عذابه] أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً، لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض. وقال مقاتل بن حيان: لأطلينّه بالقطران ولأشمسنّه وقيل: لأودعنّه القفص. وقيل: لأفرقن بينه وبين إلفه. وقيل: لأحبسنّه مع ضده. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [أي] لأقطعن حلقه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، بحجة بينة في غيبته، وعذر ظاهر، قرأ ابن كثير «ليأتينّني» بنونين، الأولى مشددة، وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة، وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكر العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم المكي، فتجهز للمسير، واستصحب من الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ، فحملتهم الريح، فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم، وكان ينحر كل يوم بمقامه بمكة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة، وقال لمن حضره من أشراف قومه: إن هذا مكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا، يخرج آخر الزمان، يعطى النصر على جميع من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا: فبأي دين يدين يا نبي الله؟ قال: يدين بدين الحنيفية البيضاء، فطوبى لمن أدركه وآمن به، قالوا: كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله؟ قال: مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه سيّد الأنبياء وخاتم الرسل، قال: فأقام [سليمان] بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحاً وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغدى، فلما نزل قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فأنظر إلى طول الدنيا وعرضها، ففعل ذلك فنظر يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس، فمال إلى الخضرة [والرياحين] فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه، وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن «عنفير» فقال «عنفير» اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت وأين تريد، قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، فقال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والرياح، فمن أين أنت؟ قال: أنا من هذه البلاد، قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها بلقيس، وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كلها وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل، فهل أنت

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال: أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء [فإني دليل مائه]، قال الهدهد اليماني: إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها، وما رجع إلى سليمان إلا في وقت العصر، قال: فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة وكان نزل على غير ماء، فسأل الإنس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموا [به] فتفقد الطير ففقد الهدهد، فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك، ما أدري أين هو، ما أرسلته مكاناً، فغضب عند ذلك سليمان، وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية ثم دعا العقاب سيد الطير فقال: عليّ بالهدهد الساعة، فرفع العُقاب نفسه صوب السماء حتى التصق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم، ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقضّ العقاب نحوه يريده، فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده، فقال: بحق الله الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء، قال فولّى عنه العقاب، وقال له: ويلك ثكلتك أمك، إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهيا إلى المعكسر تلقاه النسر والطير، فقالوا له ويلك أين غبت في يومك هذا، ولقد توعدك نبي الله بالعذاب، وأخبراه بما قال، فقال الهدهد: أو ما استثنى نبي الله؟ قالوا: بلى قال: «أو ليأتيني بسلطان مبين»، قال [لهم]: نجوت إذاً، ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه، فقال العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان، فلما دنا منه أخذ [سليمان] برأسه فمده إليه وقال: أين كنت؟ لأعذبنك عذاباً شديداً، فقال الهدهد: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه، ثم سأله فقال: ما الذي أبطأ بك عني؟ فقال الهدهد: ما أخبر الله عنه في قوله:

﴿٢٢﴾ ﴿فَمَكَثَ﴾ قرأ عاصم ويعقوب «فمكث» بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، أي غير طويل، ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، يقول: علمت ما لم تعلم، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ﴾ قرأ أبو عمرو، والبزي عن ابن كثير «من سبأ» و«لسبأ» في سورة سبأ [١٥] مفتوحة الهمزة، وقرأ القواص وعن ابن كثير ساكنة بلا همزة، وقر الآخرون بالجر، فمن لم يجره جعله اسم للبلدة، ومن أجراه جعله اسم رجل.

فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ سئل عن سبأ فقال: «كان رجلاً له عشرة من البنين تيامَنَ منهم ستة وتشاءم أربعة». ﴿بِنَبَإٍ﴾، بخبر ﴿يَقِينٍ﴾، فقال سليمان: وما ذاك؟ قال:

﴿٢٣﴾ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل، من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملكاً عظيم الشأن، قد ولد له أربعون ملكاً هو آخرهم، وكان يملك أرض اليمن كلها، وكان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوج فيهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها.

وجاء في الحديث: «إن أحد أبوي بلقيس كان جنياً» فلما مات أبو

بلقيس ولم يكن له عقب يورث الملك غيرها طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها قوم آخرون، فملكوا عليهم رجلاً، وافترقوا فرقتين، كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن، ثم إن الرجل الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر بهن، فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت ذلك بلقيس أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه، فأجابها الملك، وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلاّ اليأس منك، فقالت: لا أرغب عنك كفؤ كريم، فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم، فجمعهم وخطبها إليهم، فقالوا: ألا تراها تفعل هذا، فقال لهم: إنها ابتدأتني وأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاؤوها، فذكروا لها ما كان من الملك، فقالت: نعم أحببت الولد. فزوجوها منه، فلما زفت إليه خرجت في أناس كثير من حشمها، فلما جاءته واجتمعت به سقته الخمر حتى سكر، ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب دارها، فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكراً وخديعة منها، فاجتمعوا إليها وقالوا: أنت بهذا الملك أحق من غيرك، فملّكوها الملك وبايعوها بأجمعهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عثمان بن الهيثم، أنا عوف عن الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة».

قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

قال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً. وقال مقاتل: كان طوله ثمانين ذراعاً [في ثمانين] وطوله في السماء ثمانين ذراعاً. وقيل: كان طوله ثمانين ذراعاً وعرضه أربعين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

(٢٥) ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾، قرأ [أبو جعفر] والكسائي: «ألاَ يسجدوا» بالتخفيف، وإذا وقفوا يقفون «ألاَ يا» ثم يبتدئون: «اسجدوا»، على معنى: ألاَ يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه أمراً من عند الله مستأنفاً، وحذفوا هؤلاء اكتفاءً بدلالة «يا» عليها، وذكر بعضهم سماعاً من العرب: ألاَ يا ارحمونا، يريدون ألاَ يا قوم، وقال الأخطل:

ألا يا اسلمي يا هند هند بنت بكر
وإن كان [حاناً عداً] آخر الدهر

يريد: ألاَ يا هند اسلمي، وعلى هذا يكون قوله «ألاَ» كلاماً معترضاً من غير القصة، إما من الهدهد وإما من سليمان. قال أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف يعني: يا أيها الناس اسجدوا. وقرأ الآخرون: «ألا يسجدوا» بالتشديد بمعنى، وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا، ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾، أي الخفي المخبأ، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي ما خبأت. قال أكثر المفسرين: خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات. وفي قراءة عبدالله: «يخرج الخبء من السموات والأرض»، و«من» و«في» يتعاقبان، تقول العرب: لأستخرجن العلم فيكم، يريد: منكم. وقيل: معنى الخبء الغيب، يريد يعلم غيب السموات والأرض، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، قرأ الكسائي، وحفص، عن عاصم: بالتاء فيهما، لأن أول الآية خطاب على قراءة الكسائي بتخفيف ألاَ، وقرأ الآخرون بالياء.

(٢٦) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾، أي هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره. وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيماً فهو صغير حقير في جنب عرشه عزّ وجلّ، تم هنا كلام الهدهد، فلما فرغ الهدهد من كلامه.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾، سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾، فيما أخبرت،

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، فدلهم الهدهد على الماء، فاحتفروا [وملؤوا] الركايا، وروى الناس [منه] والدواب، ثم كتب سليمان كتاباً من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين.

قال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه. وقال قتادة: وكذلك كل الأنبياء كانت تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون، فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه.

(٢٨) فقال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾، قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ساكنة الهاء ويختلسها أبو جعفر، ويعقوب وقالون كسراً [والباقون بالإشباع كسراً]، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، تنح عنهم فكنْ قريباً منهم، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، يردون من الجواب. وقال ابن زيد: في الآية تقديم وتأخير مجازها: اذهبْ بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، [من الجواب]، ثم تول عنهم، أي انصرف إليّ فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس، وكانت بأرض يقال لها: مأرب من صنعاء على ثلاثة [أميال فوافاها] في قصرها وقد غلّقت الأبواب وكانت إذا رقدت غلّقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة، وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها، وقال ابن منبه وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر، فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم ملكاً منها، فقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد، فجاءت حتى قعدت على سرير مملكتها وجمعت الملأ من قومها، وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل. وعن ابن عباس قال: كان مع بلقيس مائة ألف، قيل: كان مع كل مائة ألف [مقاتل]، والقَيْل الملك دون الملك الأعظم. وقال قتادة ومقاتل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف، قال: فجاؤوا وأخذوا مجالسهم.

(٢٩) ﴿قَالَتْ﴾، لهم بلقيس، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾، وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾، قال عطاء والضحاك: سمته كريماً لأنه كان مختوماً.

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كرامة الكتاب ختمه».

وقال قتادة ومقاتل: «كتاب كريم» أي حسن، وهو اختيار الزجاج، وقال حسن ما فيه.

وروي عن ابن عباس: «كريم» أي شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمته كريماً لأنه كان مصدراً ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بينت ممّن الكتاب.

(٣٠) فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾، وبينت المكتوب [فيه] فقالت، ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾، قال ابن عباس: أي لا تتكبروا عليّ. وقيل: لا تتعظموا ولا تترفعوا عليّ. وقيل: معناه لا تمتنعوا علي من الإجابة، فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر، ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، مؤمنين طائعين. قيل هو من الإسلام، وقيل: هو من الاستسلام.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾، أشيروا عليّ فيما عرض لي وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾، قاضيةً وفاصلةً، ﴿أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، أي تحضرون.

(٣٣) ﴿قَالُوا۟﴾، مجيبين لها، ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾، في القتال، ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، عند الحرب، قال مقاتل: أرادوا بالقوة كثرة العدد، وبالبأس الشديد الشجاعة، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك ثم قالوا، ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، أيتها الملكة في القتال وتركه، ﴿فَٱنظُرِى﴾ [أيتها الملكة] من الرأي، ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، تجدين لأمرك مطيعين.

﴿٣٤﴾ ﴿قَالَتْ﴾، بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال، ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾، عنوة، ﴿أَفْسَدُوهَا﴾، خربوها، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، أي أهانوا أشرافها وكبراءها، كي يستقيم لهم الأمر، تحذرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وتناهى الخبر عنها ههنا، فصدّق الله قولها فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي كما قالت هي يفعلون.

﴿٣٥﴾ ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾، والهدية هي: العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلة إليهم أي إلى سليمان وقومه، بهدية أصانعه بها عن ملكي وأختبره بها أملكٌ هو أم نبي؟ فإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ولم يرضه منّا إلاّ أن نتبعه على دينه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، فأهدت إليه وصفاء ووصائف، قال ابن عباس: ألبستهم لباساً واحداً كي لا يعرف الذكر من الأنثى. وقال مجاهد: ألبست الغلمان لباس الجواري وألبست الجواري لباس الغلمان، واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس: مائة وصيف ومائة وصيفة، وقال مجاهد ومقاتل: مائتا غلام ومائتا جارية. وقال قتادة وسعيد بن جبير: أرسلت إليه بلبنة من ذهب في حرير وديباج. وقال ثابت البناني: أهدت إليه صفائح من الذهب في أوعية الديباج. وقيل: كانت أربع لبنات من ذهب. وقال وهب وغيره: عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الغلمان لباسَ الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، [وألبست الجواري لباس الغلمان، الأقبية والمناطق]، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملون، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود الألنجوج، وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه، رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية، وقالت فيه إن كنت نبياً فميزْ لي بيّنِ الوصائف والوصفاء، وأخبرني بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدر ثقباً مستوياً، وأدخل خيطاً في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جنّ، وأمرت بلقيس الغلمان فقالت: إذا كلمكم فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره، فإنا أعزّ منه، وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله، ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر كله فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شُرفها من الذهب والفضة [ففعلوا ذلك]، ثم قال: أي الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟ قالوا: يا نبي الله إنا رأينا دواب في بحر كذا وكذا منقطعة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، فقال: عليّ بها الساعة، فأتوا بها، فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفتها فيها، ثم قال للجن: عليّ بأولادكم، فاجتمع خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان و[عن] يساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثله عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير، فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم ترَ أعينُهم مثلها تروث على لَبِنِ الذهب والفضة،

الجزء التاسع عشر — سورة النمل

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

٣٨٠

تقاصرت نفوسهم ورموا بما معهم من الهدايا، وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع اللبنات التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً وكانت الأرض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب، ففزعوا، فقالت لهم الشياطن جوزوا فلا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والهوام والسباع والوحوش، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له وأعطاه كتاب الملك فنظر فيه، ثم قال: أين الحقة؟ فأتي فحركها وجاء جبريل فأخبره بما في الحقة، فقال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجة الثقب، فقال الرسول: صدقت، فاثقب الدرة، وأدخل الخيط في الخرزة، فقال سليمان: من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الشياطين، فقالوا: نرسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان ما حاجتك؟ فقالت: تصيّر رزقي في الشجرة، فقال لك ذلك.

وروي أنها جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت: أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف، فجعل لها ذلك، فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر، ثم قال: من لهذه الخرزة فيسلكها في الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله، فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: [سليني] ما حاجتك؟ فقالت: تجعل رزقي في الفواكه، قال: لك ذلك، ثم ميّز بين الجواري والغلمان، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام كما يأخذه من الآنية فيضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء على بطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صباً وكان الغلام يحدر الماء على يديه حدراً، فميّز بينهم بذلك، ثم ردّ سليمان الهدية.

﴿٣٦﴾ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، قرأ حمزة ويعقوب «أتمدوني» بنون واحدة مشددة وإثبات الياء، وقرأ الآخرون بنونين خفيفتين، ويثبت الياء أهل الحجاز والبصرة، والآخرون يحذفونها، ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾، أعطاني الله من النبوة والدين والحكمة والملك، ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل، ﴿مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها، تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض، فأما، أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي، لأن الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحداً، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد:

﴿٣٧﴾ ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾، بالهدية، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾، لا طاقة لهم، ﴿بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾، أي من أرضهم وبلادهم وهي سبأ، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، ذليلون إن لم يأتوني مسلمين، قال وهب وغيره من أهل الكتب: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت: قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا

به طاقة، فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من سبعة قصور لها ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراساً يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ولا يقربه حتى آتيك، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها يؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف، قيل: من ملوك اليمن، تحت يد كل قيل ألوف كثيرة.

قال ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يوماً فجلس على سرير ملكه، فرأى وهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان، وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس: وكان بين الكوفة والحيرة مسيرة قدر فرسخ، فأقبل سليمان حينئذ على جنوده.

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، أي مؤمنين، وقال ابن عباس: طائعين، واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها، فقال أكثرهم: لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد [أن] يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها، وقيل: ليريها قدرة الله وعظيم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها، وقال قتادة لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد فأحب أن يراه. قال ابن زيد: أراد أن يأمر بتنكيره وتغييره ليختبر بذلك عقلها.

﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وهو المارد القوي، قال وهب: اسمه كوذى، وقيل: ذكوان، قال ابن عباس: العفريت الداهية. وقال الضحاك: هو الخبيث. وقال الربيع: الغليظ، وقال الفراء: القوي الشديد، وقيل: هو صخرة الجني، وكان بمنزلة الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، أي من مجلسك الذي تقضي فيه، قال ابن عباس: وكان له [في] كل غداة مجلس يقضي فيه إلى متسع النهار، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾، أي على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، على ما فيه من الجواهر، فقال سليمان: أريد أسرع من هذا.

﴿٤٠﴾ فـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، واختلفوا فيه فقال بعضهم: هو جبريل. وقيل: هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام.

وقال أكثر المفسرين: هو آصف بن برخيا، وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى.

وروى جويبر، ومقاتل، عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن آصف قال لسليمان حين صلى: مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدّ سليمان عينيه، فنظر نحو اليمين، فدعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدون به خداً حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان.

وقال الكلبي: خرّ آصف ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان. وقيل: كانت المسافة مقدار شهرين.

واختلفوا في الدعاء الذي دعا [به] آصف، فقال مجاهد ومقاتل: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الكلبي: يا حي يا قيوم. وروي ذلك عن عائشة. وروي عن الزهري قال: دعاء الذي عنده علم من الكتاب: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان، قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله علماً وفهماً. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، قال: سليمان هات، قال أنت النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك فإن دعوت الله وطلبت إليه كان عندك، فقال: صدقت، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت، وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى، وهو أن يصل إليك من كان منك على مدّ بصرك. قال قتادة: قبل أن يأتيك الشخص من مدّ البصر. وقال مجاهد: يعني إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئاً. قال وهب: تمد عينيك فلا ينتهي طرفك إلى مداه، حتى أمثله بين يديك، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾، يعني رأى سليمان العرش، ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، محمولاً إليه من مأرب إلى

الشام في قدرِ ارتدادِ الطرف، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾، نعمه، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾، فلا أشكرها، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، أي يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها، لأن الشكر قَيْدُ النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة، ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾، عن شكره، ﴿كَرِيمٌ﴾، بالإفضال على من يكفر نعمه.

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، يقول: غيّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قال قتادة ومقاتل: هو أن يزاد فيه وينقص منه.

وروى أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ﴾، إلى عرشها فتعرفه، ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ﴾، الجاهلين، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، إليه.

وإنما حمل سليمان على ذلك كما ذكره وهب ومحمد بن كعب وغيرهما: أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن وذلك أن أمها كانت جنية، وإذا ولدت له ولداً لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأساؤوا الثناء عليها ليزهدوه فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئاً وإن رجلها كحافر الحمار وأنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح.

﴿٤٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ﴾، لها، ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، قال مقاتل: عرفته [و] لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها. وقال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل: نعم خوفاً من أن تكذب، ولم تقل ـ لا خوفاً من التكذيب، قالت: كأنه هو، فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر، وقيل اشتبه عليها أمر العرش، لأنها تركته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها، قيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، فقالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾، بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدية والرسل، ﴿مِن قَبْلِهَا﴾، من قبل الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، منقادين طائعين لأمر سليمان، وقيل: «قوله وأوتينا العلم من قبلها» قاله سليمان، يقول: وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وكنا مسلمين، هذا قول مجاهد. وقيل: معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنّا مسلمين طائعين لله [عز وجل].

﴿٤٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي منعها ما كانت تعبد من دون الله، وهو الشمس، أن تعبدالله، أي صدها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله، فعلى هذا التأويل تكون «ما» في محل الرفع. وقيل: معناه ما صدها عن عبادة الله نقصان عقلها كما قالت الجن: إن في عقلها شيئاً بل ما كانت تعبد من دون الله. وقيل: معناه وصدها سليمان ما كانت تعبد من دون الله أي: منعها من ذلك وحال بينها وبينه فيكون محل «ما» نصباً، ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، هذا استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس.

﴿٤٤﴾ قوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ الآية، وذلك أن سليمان [عليه السلام] أراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها، لما قالت الشياطين: إن رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين، أمر الشياطين فبنوا له صرحاً أي قصراً من زجاج، وقيل بيتاً من زجاج كأنه الماء بياضاً وقيل: الصرح صحن الدار، وأجرى تحته الماء، وألقي فيه كل شيء من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس وقيل: اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع، فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء. وقيل: إنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها كما فعلت هي بالوصائف والوصفيات، فلما جلس على السرير دعا بلقيس، فلما جاءت قيل لها ادخلي الصرح، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، وهي معظم الماء، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدماً وساقاً إلاّ أنها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنه وناداها، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾، مملس مستو، ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾، وليس بماء، ثم إن سليمان: دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح

الجزء التاسع عشر — سورة النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٣٨١

فأجابت [سليمان] ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾، بالكفر، وقال مقاتل: لما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من الله فقالت: ربِّ إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي أخلصت له التوحيد، وقيل: إنها لما بلغت الصرح فظنته لجة، قالت في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقني، وكان القتل عليّ أهون من هذا، فقولها «ظلمت نفسي» يعني بذلك الظن، واختلفوا في أمرها بعد إسلامها.

فقال عون بن عبدالله: سأل رجل عبدالله بن عتبة: هل تزوجها سليمان؟ فقال: انتهى أمرها إلى قولها: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، يعني لا علم لنا وراء ذلك.

وقال بعضهم: تزوجها ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها، فسأل الإنس ما يذهب هذا [الشعر]؟ قالوا: الموسى، فقالت المرأة: لم تمسني حديدة قط، فكره سليمان الموسى، وقال: إنها تقطع ساقيها، قال الحسن: فسأل الجن فقالوا: لا ندري، ثم سأل الشياطين فقالوا: إنا نحتال لك حتى يكون كالفضة البيضاء، فاتخذوا النورة والحمام، فكانت النور والحمامات من يومئذٍ، فلما تزوجها سليمان أحبها حباً شديداً، وأقرّها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم يرَ الناسُ مثلها ارتفاعاً وحسناً، وهي سلحين وبيسنون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقيم عندها ثلاثة أيام، يبتكر من الشام إلى اليمن، ومن اليمن إلى الشام، وولدت له فيما ذكر.

وروي [عن] وهب قال: زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أزوجكه، قالت: ومثلي يا نبي الله ينكح الرجال، وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان، قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك، ولا ينبغي لك أن تحرّمي ما أحل الله لك، فقالت: زوجني إن كان لا بدّ من ذلك ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه، ثم ردها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على اليمن، ودعا زوبعة أمير الجن باليمن، فقال: اعمل لذي تبع ما استعملك فيه، فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان، فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات، فارفعوا أيديكم عما أنتم فيه من انشغالكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا، وانقضى ملك ذي تبع، وملك بلقيس مع ملك سليمان. وقيل: إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

﴿٤٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وحده، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾، مؤمن وكافر، ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، في الدين، قال مقاتل: واختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٧].

﴿٤٦﴾ فـ ﴿قَالَ﴾، لهم صالح، ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، بالبلاء والعقوبة، ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾، العافية والرحمة، ﴿لَوْلَا﴾، هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾، بالتوبة من كفركم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا﴾، أي تشاءمنا، وأصله تطيرنا، ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾،

الجزء العشرون — سورة النمل

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

٣٨٢

قيل: إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم. وقيل: لأنه أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا، فقالوا: أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك، ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي ما يصيبكم من الخير والشر عندالله بأمره، وهو مكتوب عليكم، سمي طائراً لسرعة نزوله بالإنسان، فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم، قال ابن عباس: الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم. وقيل طائركم أي عملكم عند الله، سمي طائراً لسرعة صعوده إلى السماء. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، قال ابن عباس: تختبرون وبالخير والشر، نظيره قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال محمد بن كعب القرظي: تعذبون.

﴿٤٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني مدينة ثمود وهي الحجر، ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾، من أبناء أشرافهم، ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة، وهم غواة قوم صالح، ورأسهم قدار بن سالف، وهو الذي تولى عقرها؛ كانوا يعملون بالمعاصي.

﴿٤٩﴾ ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، تحالفوا، يقول بعضهم لبعض: احلفوا بالله أيها القوم، وموضع تقاسموا جزم على الأمر، وقال قوم: محله نصب على الفعل الماضي، يعني أنهم تحالفوا وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: لنقتلنه بياتاً أي: ليلاً، ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾، أي قومه الذين أسلموا معه، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «لتبيتنه» و«لتقولن» بالتاء فيهما وضم لام الفعل على الخطاب، وقرأ الآخرون بالنون فيهما وفتح لام الفعل، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾، أي لولي دمه، ﴿مَا شَهِدْنَا﴾، ما حضرنا، ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، أي إهلاكهم، ولا ندري من قتله، ومن فتح الميم فمعناه هلاك أهله، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، في قولنا ما شهدنا ذلك.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾، غدروا غدراً حين قصدوا تبييت صالح والفتك به، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾، جزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا﴾، قرأ أهل الكوفة «أنا» بفتح الألف رداً على العاقبة، أي [كانت العاقبة]، أنا دمرناهم، وقرأ الآخرون «إنا» بالكسرعلى الاستئناف، ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، أي أهلكناهم التسعة. واختلفوا في كيفية هلاكهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة، فقتلتهم. قال مقاتل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم، ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أهلكهم الله بالصيحة.

﴿٥٢﴾ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾، نصب على الحال أي خالية، ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾، أي بظلمهم وكفرهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾، لعبرة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قدرتنا.

﴿٥٣﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، يقال: كان الناجون منهم أربعة آلاف.

﴿٥٤﴾ قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي الفعلة القبيحة، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أي تعلمون أنها فاحشة. وقيل: معناه يرى بعضكم بعضاً وكانوا لا يستترون عتواً منهم.

﴿٥٥﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

﴿٥٦﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾

الجزء العشرون — سورة النمل

أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٣٨٣

﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، من أدبار الرجال.

(٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾، قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا، ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي الباقين في العذاب.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، وهو الحجارة، ﴿فَسَاءَ﴾ فبئس، ﴿مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

(٥٩) قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، هذا خطاب لرسول الله ﷺ أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية. وقيل: على جميع نعمه. ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾، قال مقاتل: هم الأنبياء والمرسلون، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]، وقال ابن عباس في رواية أبي مالك هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال الكلبي: هم أمة محمد ﷺ. وقيل: هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين، ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قرأ أهل البصرة وعاصم: «يشركون» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، يخاطب أهل مكة، وفيه إلزام الحجة على المشركين بعد هلاك الكفار، يقول آلله خير لمن عبده أم الأصنام خير لمن عبدها؟ والمعنى: أن الله ينجي مَنْ عَبَدَه مِنَ الهلاك، والأصنام لم تغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب بهم.

(٦٠) ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، معناه آلهتكم خيرٌ أم الذي خلق السموات والأرض، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، يعني المطر، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾، بساتين جمع حديقة، قال الفراء: الحديقة البستان المحاط عليه، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي منظر حسن، والبهجة: الحُسن يبتهج به من يراه، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾، أي ما ينبغي لكم، لأنكم لا تقدرون عليها. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، استفهام على طريق الإنكار أي هل معه معبود سواه يعينه على صنعه بل ليس معه إله. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾، يعني كفار مكة، ﴿يَعْدِلُونَ﴾، يشركون.

(٦١) ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾، لا تميد بأهلها، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾، وسطها ﴿أَنْهَارًا﴾، تطرد بالمياه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾، العذب والمالح، ﴿حَاجِزًا﴾، مانعاً لئلا يختلط أحدهما بالآخر، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، توحيد ربهم وسلطانه.

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾، المكروب المجهود، ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، الضر، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، سكانها يهلك قرناً وينشيء آخر. وقيل: يجعل أولادكم خلفاءكم وقيل: جعلكم خلفاء الجن في الأرض. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، قرأ أبو عمرو بالياء والآخرون بالتاء.

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، إذا سافرتم، ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قدام المطر، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، بعد الموت، ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي من السماء المطر ومن الأرض النبات. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، حجتكم على قولكم أنّ مع الله إلهاً آخر. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، نزلت في المشركين حيث سألوا النبي ﷺ عن وقت قيام الساعة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾، متى، ﴿يُبْعَثُونَ﴾.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو: «أدرك» على وزن أفعل أي: بلغ ولحق، كما يقال: أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، يريد: ما جهلوا في الدنيا وسقط علمه عنهم أعلموه في الآخرة. وقال مجاهد: يدرك علمهم، ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾، ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم. قال مقاتل: بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكّوا وعمُوا عنه في الدنيا وهو قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، يعني هم اليوم في شك من الساعة، وقرأ الآخرون بل «ادّارك» موصولاً مشدداً مع ألف بعد الدال المشددة، يعني تدارك وتتابع علمهم في الآخرة وتلاحق. وقيل: معناه اجتمع علمهم حين عاينوها في الآخرة أنها كائنة، وهم في شك منها في وقتهم، فيكون بمعنى الأول، وقيل: هو على طريق الاستفهام، معناه: هل تدارك وتتابع علمهم بذلك في الآخرة؟ يعني: لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه، لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد يدل عليه، قراءة ابن عباس «بلى» بإثبات الياء، «أادّارك» بفتح الألف على الاستفهام، يعني: لم يدرك، وفي حرف أُبيّ «أم تدارك علمهم»، والعرب تضع بل موضع «أم» و«أم» موضع «بل»، وجملة القول فيه أن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا، وذكر علي بن عيسى [الرماني] أن معنى «بل» ههنا: «لو» ومعناه: لو أدركوا في الدنيا ما أدركوا في الآخرة لم يشكوا.

قوله عز وجل ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، بل هم اليوم في الدنيا في شك من الساعة. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، جمع عم وهو الأعمى القلب. قال الكلبي: يقول هم جهلة بها.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، يعني مشركي مكة، ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾، من قبورنا أحياء، قرأ أهل المدينة «إذا» غير مستفهم، «أئنّا» بالاستفهام، وقرأ ابن عامر والكسائي «أإذا» بهمزتين «إننا» بنونين، وقرأ الآخرون بالاستفهام [فيهما].

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾، أي هذا البعث، ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل محمد وليس ذلك بشيء ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، على تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك، ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا أعقاب مكة.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ﴾، أي دنا وقرب، ﴿لَكُم﴾، وقيل تبعكم، والمعنى ردفكم، أدخل فيه اللام كما أدخل في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] قال الفراء: اللام صلة زائدة، كما تقول: نقدته مائة، ونقدت له ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب، فحل بهم ذلك يوم بدر.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، قال مقاتل: على أهل مكة حيث لم يعجل عليهم العذاب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ذلك.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾، تخفي، ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾، أي جملة غائبة من مكتوم سرّ، وخفي أمرٍ، وشيءٍ غائب، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي في اللوح المحفوظ.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي يبيّن لهم، ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، من أمر الدين، قال الكلبي: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، يعني القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الجزء العشرون — سورة النمل

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٣٨٤

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى﴾، [يفصل] ﴿بَيْنَهُم﴾، أي بين المختلفين في الدين يوم القيامة، ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾، الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، المنيع فلا يرد له أمر، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء.

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، البين.

﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني الكفار، ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، قرأ ابن كثير: «لا يسمع» بالياء وفتحها وفتح الميم «الصم» رفع وكذلك في سورة الروم [٥٢]، وقرأ الباقون بالتاء وضمها وكسر الميم، الصم نصب. ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾، معرضين، فإن قيل ما معنى قوله: ﴿وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾، وإذا كانوا صماً لا يسمعون سواء ولّوا أو لم يولوا؟ قيل: ذكره على سبيل التأكيد والمبالغة. وقيل: الأصم إذا كان حاضراً فقد يسمع برفع الصوت ويفهم بالإشارة، فإذا ولّى لم يسمع ولم يفهم. قال قتادة: الأصم إذا ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان، ومعنى الآية أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصم الذي لا يسمع.

﴿٨١﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾، قرأ الأعمش، وحمزة: «تهدي» التاء وفتحها على الفعل «العمي» بنصب الياء ههنا وفي الروم. وقرأ الآخرون بهادي بالباء على الاسم، «العمي»، بكسر الياء، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، أي ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان، ﴿إِن تُسْمِعُ﴾، ما تسمع، ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، إلا من يصدق بالقرآن أنه من الله، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، مخلصون.

﴿٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، وجب العذاب عليهم، وقال قتادة إذا غضب الله عليهم، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحد: هذا مؤمن، وتقول لآخر هذا كافر. وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، قال مقاتل تكلمهم بالعربية، فتقول أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث، قرأ أهل الكوفة «أن الناس» بفتح الألف أي بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، أي إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وقرأ سعيد بن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي: «تَكْلَمهم» بفتح التاء وتخفيف اللام من الكَلْم وهو الجرح.

وقال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية «تُكَلِّمُهم أو تَكْلِمهُم» قال: كل ذلك تفعل، تكلّم المؤمن وتكْلم الكافر.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر، أنا العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال ودابة الأرض وخاصة أحدكم وأمر العامة».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالله، أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج، أنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبدالله بن

عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحًى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأُخرى على أثرها قريباً».

وأخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن فنجويه، أنا أبو بكر بن خرجة، أنا محمد بن عبدالله بن سليمان الحضرمي، أنا هشيم بن حماد، أنا عمرو بن محمد العبقري، عن طلحة بن عمرو، عن عبدالله بن عبيد بن عمير الليثي عن أبي الطفيل عن أبي سريحة الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية»، يعني مكة، «ثم تمكث زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة، فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية»، يعني مكة، «فبينما الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عزّ وجلّ - يعني المسجد الحرام - لم يرعهم إلاّ وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو» كذا قال ابن عمرو وما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك فارفضّ الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية، ثم ولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه، فيتجاوز الناس في ديارهم، ويصطحبون في أسفارهم، ويشتركون في الأموال، يُعرف الكافر من المؤمن، فيقال للمؤمن: يا مؤمن، ويقال للكافر: يا كافر.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد، أنا أبو بكر بن مالك القطيعي، أنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، أنا أبي، ثنا يزيد، ثنا حماد هو ابن أبي سلمة، أنا علي بن زيد عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدابة ومعها عصى موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر».

وروي عن علي [رضي الله عنه] قال: ليست بدابة لها ذنب، ولكن لها لحية، كأنه يشير إلى أنها رجل، والأكثرون على أنها دابة.

وروى ابن جريج عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً، معها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلاّ نكتته في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء لها وجهه، ولا يبقى كافر إلاّ نكتت [في] وجهه بخاتم سليمان فيسود لها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم يا مؤمن؟ بكم يا كافر ثم تقول لهم الدابة: يا فلان أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النار، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ الآية.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني عقيل بن محمد الجرجاني الفقيه، أنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادي، أنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أنا أبو كريب، أنا الأشجعي، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن ابن عمر قال: تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها.

وبه عن محمد بن جرير الطبري قال: حدثني عصام بن داود بن الجراح، حدثنا أبي [حدثنا] سفيان بن سعيد، أنا منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حرمة على الله، بينما عيسى [عليه الصلاة والسلام] يطوف بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضرب الأرض تحتهم وتنشق الصفا مما يلي المشعر، وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو منها رأسها ملمعة ذات وبرٍ وريش، لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب، تُسمي الناس مؤمناً وكافراً، أما المؤمن فتترك وجهه

كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء، وتكتب بين عينيه كافر».

ورُوي عن ابن عباس: أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه.

وعن عبدالله بن عمرو، قال: تخرج الدابة من شعب [بالأجياد] فيمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض ما خرجتا، فتمر بالإنسان يصلي فتقول: ما الصلاة من حاجتك، فتخطمه.

وعن ابن عمر قال: تخرج الدابة ليلة جمع، والناس يسيرون إلى منى.

وعن سهيل بن صالح عن [أبيه] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بئس الشعب شعب أجياد»، مرتين أو ثلاثاً، قيل: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها مَنْ بين الخافقين».

وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، فتخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون.

(٨٣) قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، أي: من كل قرن جماعة، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وليس من ههنا للتبعيض، لأن جميع المكذبين يحشرون، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى النار.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾، يوم القيامة، ﴿قَالَ﴾، الله لهم، ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾، ولم تعرفوها حق معرفتها، ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، حين لم تفكروا فيها ومعنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها، ولم تفكروا في صحتها بل كذبتم بها جاهلين؟.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾، وجب العذاب، ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾، [أي] بما أشركوا، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجة لهم، نظيره قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦]، وقيل: لا ينطقون لأن أفواههم مختومة.

(٨٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾، خلقنا، ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، مضيئاً يبصر فيه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، يصدقون فيعتبرون.

(٨٧) قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقال الحسن: الصور هي القرن، وأوّل بعضهم كلامه أن الأرواح تجمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد فتحيا بالأجساد، قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي فصعق، كما قال في آية أخرى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، أي ماتوا، والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا، وقيل: ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء.

روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سأل جبريل عن قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، قال: «هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش».

وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس: هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم.

وفي بعض الآثار: الشهداء ثنية الله عزّ وجلّ. أي الذين استثناهم الله تعالى.

وقال الكلبي، ومقاتل: يعني جبريل، ومكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، فلا يبقى بعد النفخة إلاّ هؤلاء الأربعة، ثم يقبض الله روح ميكائيل، [ثم روح إسرافيل] ثم روح ملك الموت، [ثم روح جبريل] فيكون آخرهم موتاً جبريل عليه السلام.

ويُروى أن الله تعالى يقول لملك الموت: خذ نفس إسرافيل، ثم يقول من بقي يا ملك الموت؟ فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، بقي جبريل وميكائيل وملك الموت، فيقول: خذ نفس ميكائيل، فيأخذ نفسه فيقع كالطود العظيم، فيقول [الله] من بقي؟ فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت، بقي جبريل وملك الموت، فيقول: مت يا ملك الموت فيموت، فيقول: يا جبريل من بقي؟ فيقول: تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني، قال فيقول: يا جبريل لا بد من موتك، فيقع ساجداً يخفق بجناحيه فيروى أن فضل خلقه على خلق ميكائيل

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ القَصَص — مكية ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

كالطود العظيم على ظرب من الظرب.

ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش، فيقبض روح جبريل وميكائيل، ثم أرواح حملة العرش، ثم روح إسرافيل، ثم روح ملك الموت.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر، أنا محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يرفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله عزّ وجلّ أم رفع رأسه قبلي؟ ومن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب».

وقال الضحاك: هم رضوان، والحور، ومالك، والزبانية. وقيل: عقارب النار وحياتها. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل الذين أحيوا بعد الموت، ﴿أَتَوْهُ﴾، قرأ الأعمش وحمزة وحفص «أتوه» مقصوراً بفتح التاء على الفعل أي جاؤوه، وقرأ الآخرون بالمد وضم التاء كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، ﴿دَٰخِرِينَ﴾، صاغرين.

﴿٨٨﴾ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، قائمة واقفة، ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، أي تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض. فتستوي بها وذلك أن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبعد ما بين أطرافه فهو في حسبان الناظر واقف وهو سائر، كذلك سير الجبال لا يرى يوم القيامة لعظمتها، كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه وهو سائر، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾، نصب على المصدر، ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، يعني أحكم، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة بالياء والباقون بالتاء.

﴿٨٩﴾ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، بكلمة الإخلاص، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، قال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف ولا يستثني: أن الحسنة لا إله إلا الله. وقال قتادة: بالإخلاص. وقيل: هي كل طاعة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، قال ابن عباس: فمنها يصل الخير إليه، يعني: له من تلك الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب والأمن من العذاب، أما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا، لأنه ليس شيء خيراً من قوله لا إله إلا الله. وقيل: فله خير منها يعني رضوان الله، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال محمد بن كعب: وعبدالرحمن بن زيد: «فله خير منها» يعني الأضعاف، أعطاه الله تعالى بالواحدة عشراً فصاعداً، وهذا حسن لأن للأضعاف خصائص، منها أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف، ومنها أن للشيطان سبيلاً إلى عمله وليس له سبيل إلى الأضعاف، ولا مطمع للخصوم في الأضعاف، ولأن الحسنة على استحقاق العبد والتضعيف كما يليق بكرم الرب تبارك وتعالى، ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، قرأ أهل الكوفة «من فزع» بالتنوين «يومئذ» بفتح الميم، وقرأ الآخرون بالإضافة لأنه أعم فإنه يقتضي الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وبالتنوين كأنه فزع دون فزع، ويفتح أهل المدينة الميم من يومئذ.

﴿٩٠﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، يعني الشرك، ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، يعني ألقوا على وجوههم، يقال:

الجزء العشرون — سورة القصص

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

٣٨٦

كَبَبْتُ الرجلَ إذا ألقيتُه على وجهه فانكب وأكب، وتقول لهم خزنة جهنم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، في الدنيا من الشرك.

﴿٩١﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾، يقول الله لرسوله ﷺ قل إنما أمرت، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾، يعني مكة، ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾، يعني جعلها الله حرماً آمناً، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها، ولا يختلى خلاها، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، خلقاً وملكاً، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، لله.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾، يعني وأمرت أن أتلو القرآن، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾، أي نفع اهتدائه يرجع إليه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾، عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، من المخوفين فليس عليّ إلا البلاغ، نسختها آية القتال.

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، على نعمه، ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، يعني يوم بدر، من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال مجاهد: سيريكم آياته في السماء والأرض وفي أنفسكم، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾، يعني تعرفون الآيات والدلالات، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وعدلهم بالجزاء على أعمالهم.

❊ ❊ ❊

سورة القصص

مكية إلاّ قوله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [٥٢ ـ ٥٥].

وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥]. [وهي ثمان وثمانون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿طسم﴾.

﴿٢﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿٣﴾ ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾، بالصدق، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، يصدقون بالقرآن.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾، استكبر وتجبّر وتعظّم، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أرض مصر، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، فرقاً وأصنافاً في الخدمة والتسخير، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾، أراد الطائفة بني إسرائيل، ثم فسّر الاستضعاف فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾. سمى هذا استضعافاً لأنهم عجزوا أو ضعفوا عن دفعه عن أنفسهم، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿٥﴾ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني بني إسرائيل، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾، قادة في الخير يقتدىٰ بهم. وقال قتادة ولاة ملوكاً دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال مجاهد: دعاة إلى الخير. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، يعني أملاك فرعون وقومه يخلفونهم في مساكنهم.

﴿٦﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، نوطّن لهم في أرض مصر والشام، ونجعلها لهم مكاناً يستقرون فيه، ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾، قرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، «يرى» بالياء وفتحها، ﴿فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا﴾، مرفوعات على أن الفعل لهم، وقرأ الآخرون بالنون وضمها، وكسر الراء، ونصب الياء ونصب ما بعده بوقوع الفعل عليه، ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، والحذر هو التوقي من الضرر، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل فكانوا

على وجل منه، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، وهو وحي إلهام لا وحي نبوة، قال قتادة: قذفنا في قلبها، وأم موسى يوخاند بنت لاوى بن يعقوب، ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، واختلفوا في مدة الرضاع، قيل: ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر. وقيل: ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها، وهو لا يبكي ولا يتحرك، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، يعني من الذبح، ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، واليم: البحر وأراد ههنا النيل، ﴿وَلَا تَخَافِى﴾، قيل: لا تخافي عليه من الغرق، وقيل: من الضيعة، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾، على فراقه، ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر، استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يدي نبيه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها، وكانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما حزبها الطلق أرسلت إليها فقالت: قد نزل بي ما نزل، فلينفعني حبك إيّاي اليوم، قالت: فعالجت قبالتها، فلما أن وقع موسى بالأرض هالَها نورٌ بين عيني موسى. فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى قلبها. ثم قالت لها: يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا ومن رأيي قتل مولودك، ولكن وجدت لابنك هذا حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه، فاحفظي ابنك فإني أراه عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس بالباب، فلفت موسى في خرقة ووضعته في التنور وهو مسجور وطاش عقلها، فلم تعقل ما تصنع، قال: فدخلوا فإذا التنور مسجور، ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت علي زائرة، فخرجوا من عندها، فرجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى: فأين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه برداً وسلاماً، فاحتملته، قال: ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها، فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتاً فتجعله فيه ثم تقذف التابوت في اليم وهو النيل، فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتاً صغيراً، فقال لها النجار: ما تصنعين بهذا التابوت، قال: ابن لي أخبئه في التابوت، وكرهت الكذب، قال ولم تقل: أخشى عليه كيد فرعون، فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى، فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم يطق الكلام، وجعل يشير بيده فلم يدر الأمناء ما يقول، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم: اضربوه فضربوه وأخرجوه، فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم، فانطلق أيضاً يريد الأمناء فلما هَمَّ ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً، فضربوه وأخرجوه فوقع في واد يهوى فيه حيران، فجعل لله عليه إن رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه يحفظه حيث ما كان، فعرف الله منه الصدق فردّ عليه لسانه وبصره فخر لله ساجداً، فقال: يا رب دلني على هذا العبدالصالح، فدله الله عليه، فخرج من الوادي فآمن به وصدقه، وعلم أن ذلك من الله عزّ وجلّ.

وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس، فلم يطلع على حبلها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي ولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن يفتشن النساء تفتيشاً لم يفتشن قبل ذلك مثله، وحملت أم موسى فلم ينتأ بطنها، ولم يتغير لونها، ولم يظهر لبنها، فكانت القوابل لا يتعرضن لها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة، ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم، فأوحى الله إليها «أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم» الآية، فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها، لا يبكي ولا يتحرك، فلما

خافت عليه عملت تابوتاً له مطبقاً ثم ألقته في البحر ليلاً.

قال ابن عباس وغيره: وكان لفرعون يومئذٍ بنت لم يكن له ولد غيرها، وكانت من أكرم الناس عليه، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون، وكان بها برص شديد، وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا له: أيها الملك لا تبرأ إلا من قبل البحر، يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم، وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون: إن هذا الشيء في البحر قد تعلق بالشجرة إيتوني به، فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فدنت منه آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في مهده، وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمصه لبناً فألقى الله لموسى المحبة في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه، وأقبلت بنت فرعون فلما [أخرجوه] من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته إلى صدرها فقال الغواة من قوم فرعون: أيها الملك إنا نظن أن ذلك المولود الذي تحذر منه [من] بني إسرائيل هو هذا رمي به في البحر خوفاً منك فاقتله، فهمّ فرعون بقتله، فقالت آسية: قرة عين لي ولك لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وقال فرعون: أما أنا فلا حاجة لي فيه.

قال رسول الله ﷺ: «لو قال فرعون يومئذٍ هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها».

فقيل لآسية: سميه فقالت: قد سميته موسى لأنا وجدناه في الماء والشجر فمو هو الماء وسى هو الشجر، فذلك قوله عزّ وجلّ.

﴿٨﴾ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك، قرأ حمزة والكسائي «حزناً» بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاي، وهما لغتان، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾، عاصين آثمين.

﴿٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾، قال وهب: لما وضع التابوت بين يدي فرعون فتحوه فوجد فيه موسى فلما نظر إليه قال عبراني من الأعداء فغاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وكانت أماً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم، فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرت أن يذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكون قرة عين لي ولك، ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وروي أنها قالت له: إنه أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أن هلاكهم على يديه، فاستحياه فرعون، وألقى الله عليه محبته وقال لامرأته: عسى أن ينفعك، فأما أنا فلا أريد نفعه، قال وهب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله، ولكنه أبى، للشقاء الذي كتبه الله عليه.

﴿١٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، أي خالياً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى، وهمه، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: فارغاً، أي ناسياً للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في اليم ولا تخاف ولا تحزن، والعهد الذي عهد أن يرده إليها ويجعله من المرسلين، فجاءها الشيطان فقال: كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنتِ قتله فألقيته في البحر، وأغرقتِه، ولما أتاها الخبر

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَاسْتَغَٰثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

بأن فرعون أصابه في النيل قالت: إنه وقع في يد عدوه الذي فررت منه، فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها.

وقال أبو عبيدة: فارغاً أي فارغاً من الحزن، لعلمها بصدق وعد الله تعالى، وأنكر القتيبي هذا، وقال كيف يكون هذا والله تعالى يقول: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، والأول أصح، قوله عزّ وجلّ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، قيل الهاء في «به» راجعة إلى موسى أي كادت لتبدي به أنه ابنها من شدة وجدها. وقال عكرمة عن ابن عباس: كادت تقول وابناه.

وقال مقاتل: لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر، خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها. وقال الكلبي: كادت تظهر أنه ابنها، وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شب: موسى بن فرعون، فشق عليها، وكادت تقول: بل هو ابني. وقال بعضهم: الهاء عائدة إلى الوحي أي كادت تبدي بالوحي الذي أوحى الله إليها أن يردّه إليها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، بالعصمة والصبر والتثبيت، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، المصدقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾، أي لمريم أخت موسى ﴿قُصِّيهِ﴾، اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، أي عن بعد، وفي القصة أنها كانت تمشي جانباً وتنظر اختلاساً تري أنها لا تنظره، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أنها أخته وأنها ترقبه.

قال ابن عباس: إن امرأة فرعون كان همها في الدنيا أن تجد له مرضعة، وكلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها، فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿١٢﴾ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾، والمراد من التحريم المنع، والمراضع: جمع المرضع، ﴿مِن قَبْلُ﴾، أيْ من قبل مجيء أم موسى، فلما رأت أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلبه ذلك قالت لهم: هل أدلكم؟

وفي القصة أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثدياً ويصيح وهم في طلب مرضعة له، ﴿فَقَالَتْ﴾، يعني أخت موسى، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾، أي يضمنونه ﴿لَكُمْ﴾، ويرضعونه، وهي امرأة قد قتل ولدها فأحب شيء إليها أن تجد صغيراً ترضعه، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، والنصح ضد الغش، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد، قالوا: نعم فأتينا بها.

قال ابن جريج والسدي: لما قالت أخت موسى: «وهم له ناصحون» أخذوها وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله. فقالت: ما أعرفه، وقلت هم للملك ناصحون.

وقيل: إنها قالت إنما قلت هذا رغبة في سرور الملك واتصالنا به، وقيل إنها لما قالت: «هل أدلكم على أهل بيت» قالوا لها من؟ قالت: أمي، قالوا: أو لأمك ابن؟ قالت: نعم هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها الولدان، قالوا [لها]: صدقت فأتينا بها، فانطلقت إلى أمها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه رياً.

قال السدي: كانوا يعطونها كل يوم ديناراً فذلك قوله تعالى:

﴿١٣﴾ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، برد موسى إليها، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، أي لئلا تحزن، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، برده إليها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أن الله وعدها رده إليها.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، قال الكلبي: الأشد ما بين ثماني عشرة

سنة إلى ثلاثين سنة. وقال مجاهد وغيره: ثلاث وثلاثون سنة، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، أي بلغ أربعين سنة، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقيل: استوى انتهى شبابه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أي: الفقه والعقل والعلم في الدين، فعلم موسى وحكم قبل أن يُبعث نبياً، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٥) قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾، يعني دخل موسى المدينة، قال السدي: هي مدينة «منف» من أرض مصر.

وقال مقاتل: كانت قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر. وقيل: مدينة عين الشمس، ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة.

وقال محمد بن كعب القرظي: دخلها فيما بين المغرب والعشاء.

واختلفوا في السبب الذي من أجله دخل المدينة في هذا الوقت.

قال السدي: وذلك أن موسى عليه السلام كان يُسمى ابن فرعون، فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه، فركب فرعون يوماً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى قيل له: إن فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار، وليس في طرفها أحد، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قال محمد بن إسحاق: كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يستمعون منه ويقتدون به، فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى كثر ذلك منه وخافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلا خائفاً مستخيفاً فدخلها يوماً على حين غفلة من أهلها.

وقال ابن زيد: لما علا موسى فرعون بالعصا في صغره، فأراد فرعون قتله، فقالت امرأته: هو صغير، فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل عليهم إلا بعد أن كبر وبلغ أشده ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، يعني عن ذكر موسى، أي من بعد نسيانهم خبره وأمره لبعد عهدهم [به]، وروي عن علي في قوله: ﴿حِينِ غَفْلَةٍ﴾ كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، يختصمان ويتنازعان، ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾، من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، من القبط، قيل: الذي كان من شيعته السامري، والذي من عدوه من القبط، قيل: طباخ فرعون اسمه فلتثون. وقيل: هذا من شيعته وهذا من عدوه أي هذا مؤمن وهذا كافر، وكان القبطي يسخر الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى المطبخ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى، لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم، فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، والاستغاثة: طلب الغوث، فغضب موسى واشتد غضبه، لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني خلِّ سبيله، فقال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه، فقال الفرعوني: لقد هممت أن أحمله عليك، وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، وقرأ ابن مسعود «فلكزه موسى»، ومعناهما واحد، وهو الضرب بجميع الكف. وقيل: «الوكز» الضرب في الصدر و«اللكز» في الظهر. وقال الفراء: معناهما واحد، وهو الدفع، قال أبو عبيدة: الوكز الدفع بأطراف الأصابع.

وفي بعض التفاسير: عقد موسى ثلاثاً وثمانين وضربه في صدره، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي قتله وفرغ من أمره، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه، فندم موسى عليه ولم يكن قصدُه القتل فدفنه في الرمل، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، أي بيّن الضلالة.

(١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾، بقتل القبطي من غير أمر، ﴿فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾، بالمغفرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾، عوناً، ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، قال ابن عباس: للكافرين وهذا يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً، وهو قول مقاتل، وقال قتادة:

الجزء العشرون — سورة القصص

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٣٨٨

لن أعين بعدها على خطيئة، قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي في المدينة التي قتل فيها القبطي ﴿خَآئِفًا﴾، من قتله القبطي، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾، ينتظر سوءاً، والترقب: انتظار المكروه، وقال الكلبي: ينتظر متى يؤخذ به، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾، يستغيثه ويصيح به من بُعْدٍ.

قال ابن عباس: أتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا منّا رجلاً فخذ لنا بحقنا، فقال: ابغوا لي قاتله ومن يشهد عليه، فلا يستقيم أن يقضي بغير بينة، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مرّ موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً [آخر] فاستغاثه على الفرعوني فصادف موسى، وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطي، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾، للإسرائيلي، ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، ظاهر الغواية قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟ وقيل: إنما قال موسى للفرعوني: إنك لغوي مبين بظلمك، والأول أصوب، وعليه الأكثرون أنه قال ذلك للإسرائيلي.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، وذلك أن موسى أدركته الرقة بالإسرائيلي فمدّ يده ليبطش بالفرعوني، فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضبه وسمع قوله: إنك لغوي مبين، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾، ما تريد، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بالقتل ظلماً، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى.

قال ابن عباس: فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم.

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾، من شيعة موسى، ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي من آخرها، قال أكثر أهل التأويل: اسمه حزقيل مؤمن آل فرعون، وقيل: اسمه شمعون، وقيل: شمعان، ﴿يَسْعَىٰ﴾، أي يسرع في مشيه، فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى، فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقاً آخر، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، يعني أشراف قوم فرعون يتشاورون فيك، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال الزجاج: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، ﴿فَٱخْرُجْ﴾، من المدينة، ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، في الأمر لك بالخروج.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾، موسى، ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، أي ينتظر الطلب، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الكافرين، وفي القصة: أن فرعون بعث في طلبه حين أُخبر بهربه فقال اركبوا ثنيات الطريق فإنه لا يعرف كيف الطريق.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي قصد نحوها ماضياً إليها، يقال: داره تلقاء دار فلان، إذا كانت محاذيتها، وأصله من اللقاء.

قال الزجاج: أي سلك الطريق التي يلقى مدين فيها، ومدين هو مدين بن إبراهيم، سميت البلدة باسمه، وكان موسى قد خرج خائفاً بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي قصد الطريق إلى مدين، قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها قبل: فلما دعا جاء ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين.

قال المفسرون: خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر والبقل، حتى كان يرى خضرته في بطنه، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه. قال ابن

عباس: وهو أول ابتلاء من الله عزّ وجلّ لموسى عليه الصلاة والسلام.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾، وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾، جماعة، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، مواشيهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾، أي الجماعة [وقيل بعيداً عن الجماعة بجانب عنهم]، ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، يعني تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر، وقال الحسن: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، وقال قتادة: تكفان الناس عن أغنامهما. وقيل: تمنعان أغنامهما عن أن تشذ وتذهب. والقول الأول أصوبهما لما بعده وهو قوله، ﴿قَالَ﴾، يعني موسى للمرأتين، ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، ما شأنكما لا تسقيان أغنامكما مع الناس، ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾، أغنامنا، ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر «يصدر» بفتح الياء وضم الدال على اللزوم، أي حتى يرجع الرعاء عن الماء، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال، أي حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء، والرعاء جمع راع، مثل تاجر وتجار، ومعنى الآية: لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء، لأنا امرأتان لا نطيق أن نستسقي ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا [وتولوا] سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض [من الماء]، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، لا يقدر أن يسقي مواشيه، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم. واختلفوا في اسم أبيهما، فقال مجاهد والضحاك، والسدي والحسن: [هو] شعيب النبي عليه السلام.

وقال وهب بن منبه وسعيد بن جبير: هو بثرون بن أخي شعيب، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كُفَّ بصره، فدفن بين المقام وزمزم، وقيل: رجل ممن آمن بشعيب، قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس. وقال ابن إسحاق: إن موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين.

ويُروى: أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر، فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين. ويقال: إنه نزع ذنوباً واحداً ودعا فيه بالبركة، فروَى منه جميع الغنم، فذلك قوله:

﴿٢٤﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾، ظل شجرة، فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ من طعام، ﴿فَقِيرٌ﴾، قال أهل اللغة اللام بمعنى «إلى» يقال: هو فقير له، وفقير إليه، يقول إني لما أنزلت إليّ من خير، أي طعام، فقير محتاج، كان يطلب الطعام لجوعه.

قال ابن عباس: سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه. قال محمد [بن علي] الباقر: لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لقد قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة. وقال مجاهد: ما سأله إلا الخبز، قالوا: فلما رجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حفل بطان، قال لهما: ما أعجلكما [أتيتما قبل الرعاة] قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي.

﴿٢٥﴾ قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قال أبو حازم سلمة بن دينار: لما سمع ذلك موسى أراد أن لا يذهب، ولكن كان جائعاً فلم يجد بداً من الذهاب، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها: امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك، فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ فقال: اجلس يا شاب فتعش، فقال موسى: أعوذ بالله، فقال شعيب: ولِمَ ذاكَ ألستَ بجائع؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا، فقال له

شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى وأكل. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾، يعني أمره أجمع، من قتله القبطي وقصد فرعون قتله، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يعني فرعون وقومه، وإنما قال هذا لأنه لم يكن لفرعون سلطان على أهل مدين.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، اتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، يعني خير من استعملت من قوي على العمل وأدى الأمانة، فقال لها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: أمّا قوته: فإنه رفع حجراً من رأس البئر لا يرفعه إلا عشرة. وقيل إلا أربعون رجلاً، وأمّا أمانته فإنه قال لي: امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ شعيب عند ذلك، ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾، واسمهما «صفورة» و«ليا» في قول شعيب الجبائي وقال ابن إسحاق: «صفورة» و«شرقا» وقال غيرهما الكبرى صفراء والصغرى صفيراء. وقيل زوجه الكبرى، وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى منهما واسمها «صفورة» وهي التي ذهبت لطلب موسى، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾، يعني أن تكون أجيراً لي ثمان سنين، قال الفراء: يعني تجعل ثوابي من تزويجها أن ترعى غنمي ثماني حجج، تقول العرب: آجرك الله يأجرك أي أثابك، والحجج السنون، واحدتها حجة، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، أي إن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع، وليس بواجب عليك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾، أن ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قال عمر [رضي الله عنه]: يعني في حسن الصحبة والوفاء بما قلت.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾، موسى ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾، يعني هذا الشرط بيني وبينك، فما شرطت عليّ فلك وما شرطتَ من تزويج إحداهما فلي، والأمر بيننا، تم الكلام، ثم قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾، يعني أيّ الأجلين و«ما» صلة «قضيت» أتممت أو فرغت من الثمان أو العشر، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ لا ظلم عليّ بأن أطالب بأكثر منها، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، قال ابن عباس ومقاتل: شهيد فيما بيني وبينك. وقيل: حفيظ.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن عبدالرحيم، أنا سعيد بن سليمان، أنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل.

وروي عن أبي ذرّ مرفوعاً: إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل خيرهما وأبرهما، وإذا سئلت بأي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت: يا أبت استأجره، فتزوج أصغرهما وقضى أوفاهما.

وقال وهب: أنكحه الكبرى.

روي عن شداد بن أوس مرفوعاً: بكى شعيب النبي ﷺ حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فقال الله: ما هذا البكاء؟؟ أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: لا يا رب، ولكن شوقاً إلى لقائك، فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب، لذلك أخدمتك موسى كليمي. ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصاً يدفع بها السباع عن غنمه، واختلفوا في تلك العصا.

قال عكرمة: خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه.

وقال آخرون: كانت من آس الجنة، حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء، وكان لا يأخذها غير نبي إلا أكلته، فصارت من آدم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب، وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى.

وقال السدي: كانت تلك العصا استودعها إيّاه ملك [في] صورة رجل، [قال] فأمر ابنته أن تأتيه

الجزء العشرون — سورة القصص

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

٣٨٩

بعصا، فدخلت فأخذت العصا فأتته بها فلما رآها شعيب قال لها: ردي هذه العصا [فإنها وديعة عندي]، وآتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا تقع في يدها إلاّ هي، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطتها موسى فأخرجها موسى معه، ثم إن الشيخ ندم وقال: كانت وديعة [عندي أعطيها لغيري]، فذهب في أثره وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه. وقال: هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فلقيهما ملك في صورة آدمي فحكم أن تطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ ليأخذها فلم يطقها، فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ، ثم إن موسى لما أتم الأجل وسلم شعيب ابنته إليه.

قال موسى للمرأة: اطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم، فطلبت من أبيها [شعيب] فقال شعيب: لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها.

وقيل: أراد شعيب أن يجازي موسى على حسن رعيته [في غنمه] إكراماً له وصلةً لابنته، فقال له إني قد وهبت لك من الجدايا التي تضعها أغنامي هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستسقى الأغنام، فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلاّ وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم [شعيب] أن ذلك رزق ساقه الله عزّ وجلّ إلى موسى وامرأته فوفّى له بشرطه وسلم الأغنام إليه.

﴿٢٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾، يعني أتمه وفرغ منه، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، قال مجاهد: لما قضى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخرى فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر، فأذن له، فخرج بأهله إلى جانب مصر، ﴿ءَانَسَ﴾، يعني أبصر، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، وكان في البرية في ليلة مظلمة شاتية شديدة البرد وأخذ امرأته الطلقُ، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، يعني عن الطريق، لأنه كان قد أخطأ الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، يعني قطعة وشعلة من النار، وفيها ثلاث لغات، قرأ عاصم «جذوة» بفتح الجيم، وقرأ حمزة بضمها وقرأ الآخرون بكسرها، قال قتادة ومقاتل: هي العود الذي قد احترق بعضه وجمعها جذىً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، تستدفئون.

﴿٣٠﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى، ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾، لموسى، جعلها الله مباركة لأن الله كلّم موسى هناك وبعثه نبياً. وقال عطاء: يريد المقدسة، ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، من ناحية الشجرة.

قال ابن مسعود: كانت سَمُرة خضراء تبرق.

وقال قتادة ومقاتل والكلبي: كانت عوسجة، قال وهب: من العليق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنها العُنّاب، ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، تتحرك، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، وهي الحية الصغيرة من سرعة حركتها، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، هارباً منها، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع [إليها] فنودي، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿ٱسْلُكْ﴾، أدخل ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، برص، فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس، ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام: بضم الراء وسكون الهاء وبفتح الراء

الجزء العشرون — سورة القصص

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

٣٩٠

حفص، وقرأ الآخرون بفتحهما، وكلها لغات بمعنى الخوف، ومعنى الآية: إذا هالك أمر يدك وما ترى من شعاعها فأدخلها في جيبك تعذ إلى حالتها الأولى، والجناح اليد كلها. وقيل: هو العضد.

وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم: أمره الله بضم يده إلى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية، وقال: ما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقال مجاهد: كل من فزع فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع [وما يجد من الخوف]، وقيل: المراد من ضم الجناح السكون، أي سكن روعك واخفض عليك جانبك، لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه، ومثله قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، يريد الرفق [بهما]، وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي ارفق بهم وألن جانبك لهم، وقال الفراء: أراد بالجناح العصا، معناه: أضمم إليك عصاك. وقيل: «الرهب» الكم بلغة حمير، قال الأصمعي: سمعت بعض الأعراب يقول: أعطني ما في رهبك، أي [ما] في كمك، معناه واضمم إليك يدك وأخرجها من الكم، لأنه تناول العصا [حين صارت حية] ويده في كمه، ﴿فَذَٰنِكَ﴾، يعني العصا واليد البيضاء، ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، آيتان، ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾، وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه، ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾، عوناً، يقال ردأته أي أعنته، قرأ نافع «ردا» بفتح الدال من غير همز طلباً للخفة، وقرأ الباقون بسكون الدال مهموزاً، ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾، قرأ [عاصم] وحمزة: برفع القاف على الحال، أي ردءاً مصدقاً، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والتصديق لهارون في قول الجميع، قال مقاتل: لكي يصدقني فرعون، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، يعني فرعون وقومه.

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، أي نقويك بأخيك وكان هارون يومئذٍ بمصر، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، حجة وبرهاناً، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا بما نعطيكما من المعجزات فلا يصلون إليكما، ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، أي لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه.

﴿٣٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، واضحات، ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، مختلق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، بالذي تدعونا إليه، ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾، قرأ أهل مكة [قال موسى] بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم، ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، بالمحق من المبطل، ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، يعني العقبى المحمودة في الدار الآخرة، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يعني الكافرون.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، يعني فاطبخ لي الآجر، وقيل: إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به، ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾، قصراً عالياً، وقيل: منارة.

قال أهل التفسير: لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع

الجزء العشرون — سورة القصص

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

٣٩١

خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء، ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير، فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، أراد الله عزّ وجلّ أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابه [فوضعها في القوس] فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي ملطخة دماً، فقال: قد قتلتُ إله موسى، وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله جبريل جنح غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد ممن عمل فيه بشيء إلاّ هلك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾، أنظر إليه وأقف على حاله، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾، يعني موسى، ﴿مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، في زعمه أن للأرض وللخلق إلهاً غيري، وأنه رسوله.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، ويعقوب: «يرجعون» بفتح الياء وكسر الجيم، والباقون بضم الياء وفتح الجيم.

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾، فألقيناهم، ﴿فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿٤١﴾ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾، قادة ورؤساء، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، لا يمنعون من العذاب.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، خزياً وعذاباً، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، أي المبعدين الملعونين، وقال أبو عبيدة: من المهلكين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما [قال]: من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون، يقال: قَبَحه الله وقبّحه إذا جعله قبيحاً، ويقال: قبحه قبحاً، وقبوحاً، إذا أبعده من كل خير.

﴿٤٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى، ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، يعني ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به، ﴿وَهُدًى﴾، من الضلال لمن عمل به، ﴿وَرَحْمَةً﴾، لمن آمن به، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، بما فيه من المواعظ والبصائر.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾، يعني: بجانب الجبل الغربي، قاله قتادة والسدي، وقال الكلبي: بجانب الوادي الغربي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد حيث ناجى موسى ربَّه، ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [أي] الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾، خلقنا أمماً من بعد موسى عليه السلام، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، أي طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وميثاقه وتركوا أمره.

وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلقت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾، مقيماً، ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، كمقام موسى وشعيب فيهم، ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾، تذكرهم بالوعد والوعيد، قال مقاتل: يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم، ﴿وَلَـٰكِنَّا

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

٣٩٢

كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي أرسلناك رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار، فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، بناحية الجبل الذي كلم الله عليه موسى، ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، قيل: إذ نادينا موسى خذِ الكتاب بقوة.

وقال وهب: قال موسى يا ربِّ أرني محمداً، قال: إنك لن تصل إلى ذلك، وإن شئت ناديت أمته وأسمعتك أصواتهم، قال: بلى يا رب، قال الله تعالى: يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم.

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ورفعه بعضهم، قال الله: يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: «لبيك اللهم لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»، قال الله تعالى: يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي سبق عقابي، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصوني، من جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة، وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ولكن رحمناك رحمة بإرسالك بالوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، يعني أهل مكة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾، عقوبة ونقمة، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعصية، ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾، هلا، ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وجواب لولا محذوف أي لعاجلناهم بالعقوبة، [بكفرهم]، يعني لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم. وقيل: معناه لما بعثناك إليهم رسولاً ولكن بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿قَالُواْ﴾، يعني كفار مكة، ﴿لَوْلَآ﴾، هلا، ﴿أُوتِيَ﴾، محمد، ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، من الآيات كاليد البيضاء والعصا، وقيل: مثل ما أوتي موسى كتاباً جملة واحدة. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، قرأ أهل الكوفة: «سحران» أي: التوراة والقرآن، «تظاهرا» يعني: كل سحر يقوي الآخر، نسب التظاهر إلى السحرين على الاتساع.

قال الكلبي: كانت مقالتهم تلك حين بعثوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا: «سِحْرَانِ تظاهرا»، وقرأ الآخرون: «ساحران» يعنون محمداً وموسى عليهما السلام، لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالكتب، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ﴾، لهم يا محمد، ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾، يعني من التوراة والقرآن، ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾، أي: [إن] لم يأتوا بما طلبت، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما:

بيناً، قال الفراء: أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً قال قتادة: وصل لهم القول في هذا القرآن كيف صنع بمن مضى. قال مقاتل: بيّنا لكفار مكة ما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم، وقال ابن زيد وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(٥٢) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾، من قبل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقيل من قبل القرآن، ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه.

وقال مقاتل: بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي ﷺ.

وقال سعيد بن جبير: هم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي ﷺ فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا: يا نبي الله إن لنا أموالاً فإن أذنت لنا انصرفنا وجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فنزل فيهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، أربعون من نجران، واثنان وثلاثون من [أهل] الحبشة، وثمانية من الشام، ثم وصفهم الله فقال:

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، يعني القرآن، ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

وذلك أن ذكر النبي ﷺ كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، أي من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي حق.

(٥٤) ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، على دينهم، قال مجاهد: نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذُوا.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا أبو علي زاهر بن أحمد، أنا أبو عبدالله محمد بن حفص الجويني، أنا أحمد بن سعيد الدارمي، أنا عثمان، أنا شعبة، عن صالح، عن الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبدٌ أحسن عبادةَ الله ونصحَ سيده».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون بشهادة أن لا إلٰه إلا الله الشرك، قال مقاتل: يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو والمغفرة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، في الطاعة.

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾، القبيح من القول، ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون تباً لكم تركتم دينكم، فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم، ﴿وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، لنا ديننا ولكم دينكم، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، ليس المراد منه سلام التحية ولكنه سلام المتاركة، معناه سلمتُم منّا لا نُعاوضكم بالشتم والقبيح من القول، ﴿لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ﴾، أي دين الجاهلين، يعني لا نحب دينكم الذي أنتم عليه. وقيل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال.

(٥٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي أحببت هدايته. وقيل: أحببته لقرابته، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، قال مجاهد ومقاتل: بمن قُدّر له الهدى، نزلت في أبي طالب قال له النبي ﷺ: قل لا إلٰه إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٥٧) ﴿وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، مكة.

نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكنّا إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة.

وهو معنى قوله: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، والاختطاف: الانتزاع بسرعة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾، وذلك أن

الجزء العشرون — سورة القصص

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

٣٩٢

العرب في الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا، لحرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة، ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب: «تجبى» بالتاء لأجل الثمرات، والآخرون بالياء للحائل بين الاسم المؤنث والفعل، أي يجلب ويجمع، ﴿إِلَيْهِ﴾، يقال: جبيت الماء في الحوض أي جمعته، قال مقاتل: يحمل إلى الحرم، ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أن ما يقوله حق.

﴿٥٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية، ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، أي في معيشتها، أي أشرت وطغت، قال عطاء: عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافرون ومارُّ الطريق يوماً أو ساعة، معناه لم تسكن من بعدهم إلا سكوناً قليلاً. وقيل: معناه لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠].

﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، أي القرى الكافر أهلها، ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾، يعني في أكبرها وأعظمها رسولاً [أي] ينذرهم، وخص الأعظم ببعثة الرسول فيها، لأن الرسول يبعث إلى الأشراف، والأشراف يسكنون المدائن، والمواضع التي هي أم ما حولها، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، قال مقاتل: يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، مشركون، يريد أهلكهم بظلمهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أن الباقي خير من الفاني، قرأ عامة القراء: «تعقلون» بالتاء وأبو عمرو بالخيار بين التاء والياء.

﴿٦١﴾ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾، أي الجنة، ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾، مصيبه ومدركه وصائر إليه، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ويزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، النار، قال قتادة: يعني المؤمن والكافر، قال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل.

وقال محمد بن كعب نزلت في حمزة وعلي وأبي جهل، وقال السدي: نزلت في عمار والوليد بن المغيرة.

﴿٦٢﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، في الدنيا أنهم شركائي.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾، أي دعوناهم إلى الغي وهم الأتباع، ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، أضللناهم كما ضللنا، ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾، منهم، ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، برىء بعضهم من بعض وصاروا أعداء، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿٦٤﴾ ﴿وَقِيلَ﴾، للكفار، ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾، أي الأصنام لتخلصكم من العذاب، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾، لم يجيبوهم، ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾، وجواب «لو» محذوف على تقدير: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

﴿٦٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي يسأل الله الكفار، ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿فَعَمِيَتْ﴾، خفيت

الجزء العشرون — سورة القصص

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

٣٩٤

واشتبهت، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾، أي الأخبار والأعذار، وقال مجاهد: الحجج، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فلا يكون لهم عذر ولا حجة، ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: لا يجيبون، وقال قتادة: لا يحتجون، وقيل: يسكنون لا يسأل بعضهم بعضاً.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾، من السعداء الناجين.

(٦٨) قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، نزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين «عظيم» يعني: الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود الثقفي، أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم. قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، قيل: «ما» للإثبات، معناه: ويختار الله ما كان لهم الخيرة، أي: يختار ما هو الأصلح والخير. وقيل: هو للنفي أي ليس إليهم الاختيار، أو ليس لهم أن يختاروا على الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والخيرة: اسم من الاختيار تقام مقام المصدر، وهي اسم للمختار أيضاً كما يُقال: محمدٌ خيرةُ اللهِ من خلقه، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، يظهرون.

(٧٠) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة في الجنة، ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، فصل القضاء بين الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(٧١) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، أخبروني يا أهل مكة، ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾، دائماً، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لا نهار معه، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾، بنهار تطلبون فيه المعيشة، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، سماع فهم وقبول.

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني يا أهل مكة ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لا ليل فيه، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ما أنتم عليه من الخطأ.

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أي في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالنهار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، نعم الله عزّ وجلّ.

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ.

(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا﴾، أخرجنا، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، يعني رسولهم الذي أرسل إليهم كما قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ﴾، حجتكم بأن معي شريكاً. ﴿فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾، التوحيد، ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، في الدنيا.

(٧٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، كان ابن عمه، لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وموسى بن عمران بن قاهث.

وقال ابن إسحاق: كان قارون عم موسى وكان أخا عمران، وهما ابنا يصهر، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون، ولكنه نافق كما نافق السامري، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

ويظلمهم، وقال قتادة: بغى عليهم بكثرة المال. وقال الضحاك: بغى عليهم بالشرك، وقال شهر بن حوشب: زاد في طول ثيابه شبراً.

وروينا عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

وقيل: بغي عليهم بالكبر والعلو، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾، وهي جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب، هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل: مفاتحه خزائنه، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] أي خزائنه، ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، لتثقلهم أي وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، قال أبو عبيدة: هذا من المقلوب، تقديره: ما إن العصبة لتنوء بها، يقال: ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلاً، واختلفوا في عدد العصبة، فقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقيل: أربعون رجلاً. وقيل: سبعون.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يحمل مفاتحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال. وقال جرير عن منصور عن خيثمة: قال: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً ما يزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز، ويقال: كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب، فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الإصبع، وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [أي] قال لقارون قومه من بني إسرائيل، ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

﴿٧٧﴾ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [أي] اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة والجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله تعالى، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، قال مجاهد، وابن زيد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة. وقال السدي: بالصدقة وصلة الرحم، وقال علي: لا تنس صحتك [وقوتك] وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن شاذان، أنا أبو يزيد حاتم بن محبوب الشامي، أنا الحسين المروزي، أنا عبدالله بن المبارك، أنا جعفر بن برقان عن زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك....».

الحديث مرسل.

قال الحسن: أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه، قال منصور بن زاذان في قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: قوتك وقوت أهلك، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، أي أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته وقيل: أحسنْ إلى الناس كما أحسنَ الله إليك، ﴿وَلَا تَبْغِ﴾، ولا تطلب، ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ﴾، يعني قارون، ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي على

فضل وخير علمه الله عندي فرآني أهلاً لذلك، ففضلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره، وقيل: هو علم الكيمياء، قال سعيد بن المسيب: كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله. وقيل: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ بالتصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾، الكافرة، ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، للأموال، ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقال مجاهد: يعني لا يسأل الملائكة عنهم، لأنهم يعرفونهم بسيماهم. وقال الحسن: لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾، قال إبراهيم النخعي، خرج هو وقومه في ثياب حمر وصفر، وقال ابن زيد في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات. وقال مجاهد: على براذين بيض عليها سرج الأرجوان. قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان، ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان، ومعه ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر وهن على البغال الشهب، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، من المال.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الأحبار من بني إسرائيل. وقال مقاتل: أوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة، قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي قارون في الدنيا. ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، يعني ما عند الله من الثواب والجزاء خير ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ﴾، وصدق بتوحيد الله، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، مما أوتي قارون في الدنيا، ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، قال مقاتل: لا يؤتاها، يعني الأعمال الصالحة. وقال الكلبي: لا يعطاها في الآخرة. وقيل: لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله: «ويلكم ثواب الله خير» إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الدنيا.

(٨١) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

قال أهل العلم بالأخبار: كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم، وكان حسن الصوت فبغى وطغى، وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكروني به إذا نظروا إلى السماء، ويعلمون أني منزل منها كلامي، فقال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً، فإن بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط، فقال له ربه: يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير، فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، فدعاهم موسى عليه السلام وقال: إن الله يأمركم أن تجعلوا في أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها، ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم، فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون، وهي رياسة المذبح، فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجد قارون من ذلك في نفسه وأتى موسى فقال: يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة، ولست في شيء من ذلك، وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا، فقال له موسى: ما، أنا جعلتها في هارون بل الله جعلها له، فقال قارون: والله لا أصدقك حتى تريني بيانه، فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل فقال: هاتوا عصيكم، فحزمها وألقاها في قبته التي كان يعبدالله فيها، فجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا، فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون ترى هذا؟ فقال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارون موسى بأتباعه، وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً

ومعاداةً لموسى حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة على شاة، وعن كل ألف شيء على شيء، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيراً فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بني إسرائيل فقال لهم: يا بني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت، فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي، فنجعل لها جعلاً حتى تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج بنو إسرائيل عليه ورفضوه، فدعاها فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل ألف دينار، وقيل طستاً من ذهب، وقيل: قال لها إني أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل، فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال: إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض، فقام [فيهم] فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنا وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة، ومن زنا وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون: وإن كنت أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فقال: ادعوها فإن قالت، فهو كما قالت، فلما جاءت قال لها موسى يا فلانة، أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها القسم وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله تعالى بالتوفيق، وقالت في نفسها: أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذي رسول الله ﷺ، فقالت: لا، كذبوا ولكن جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبكي ويقول: اللهم إن كنتُ رسولك فاغضبْ لي، فأوحى الله تعالى إليه: إني أمرتُ الأرض أن تطيعك، فمرها بما شئت، فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا ولم يبق مع قارون إلا رجلان، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذت الأرض بأقدامهم. وفي رواية: كان [قارون] على سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم، حتى روي أنه ناشده سبعين مرة وموسى، عليه السلام في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه، ثم قال: يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الأرض، فأوحي الله إلى موسى ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم تغثه، أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته.

وفي بعض الآثار: لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد. قال قتادة: خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة. قال: وأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾، ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ﴾، جماعة، ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، يمنعونه من الله، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾، من الممتنعين مما نزل به من الخسف.

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾، صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من المال والزينة يتندمون على ذلك التمني، والعرب تعبر عن الصيرورة بأضحى وأمسى وأصبح، تقول: أصبح فلان عالماً، وأضحى معدماً، وأمسى حزيناً، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾، اختلفوا في معنى هذه اللفظة، قال مجاهد: ألم تعلم، وقال قتادة: ألم ترَ. قال الفراء: هي كلمة تقرير، كقول الرجل: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه. وذكر أنه

إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

أخبره من سمع أعرابية تقول لزوجها: أين ابنك؟ فقال: ويكأنه وراء البيت، يعني أما ترينه وراء البيت. وعن الحسن: أنه كلمة ابتداء، تقديره: أن الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيه بمنزلة ألا وقال قطرب «ويك» بمعنى ويلك حذفت اللام منه كما قال عنترة:

ولقد شفى وأبرأ سقمها
قول الفوارس ويك عنتر أقدم

أي ويلك، و«أن» منصوب بإضمار، واعلم أن الله، وقال الخليل: «وي» مفصولة من «كأن» ومعناها التعجب، كما تقول وي لم فعلت ذلك! وذلك أن القوم تندموا فقالوا: وي! متندمين على ما سلف منهم، وكأن معناه أظن ذلك وأقدره، كما تقول: كأن الفرج قد أتاك، أي أظن ذلك وأقدره، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾، أي يوسع ويضيق، ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، قرأ حفص ويعقوب: بفتح الخاء والسين، وقرأ العامة بضم الخاء وكسر السين، ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾، قال الكلبي ومقاتل: استكباراً عن الإيمان، وقال عطاء: «علواً» استطالة على الناس وتهاوناً بهم. وقال الحسن: لم يطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطان.

وعن علي رضي الله عنه: أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل المقدرة ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ قال الكلبي: هو الدعاء إلى عبادة غير الله. وقال عكرمة: أخذ أموال الناس بغير حق. وقال ابن جريج ومقاتل: العمل بالمعاصي، ﴿وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب معاصيه. وقال قتادة: الجنة للمتقين.

﴿٨٤﴾ ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٨٥﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾، أي أنزل عليك القرآن على قول أكثر المفسرين، وقال عطاء: أوجب عليك العمل بالقرآن، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، إلى مكة، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول مجاهد، قال القتيبي: معاد الرجل: بلده، لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده، وذلك.

أن النبي ﷺ لمّا خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها، فأتاه جبريل وقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما لرادّك إلى معاد إلى الموت. وقال الزهري وعكرمة: إلى القيامة. وقيل: إلى الجنة. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ﴾، أي يعلم من جاء بالهدى وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ إنك لفي ضلال، فقال الله عزّ وجلّ: قل لهم ربي أعلم من جاء بالهدى أي أعلم من جاء بالهدى يعني نفسه، ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، يعني المشركين ومعناه [الله] أعلم بالفريقين.

﴿٨٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ﴾، أي يوحي

إليك القرآن، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، قال الفراء: هذا من الاستثناء المنقطع معناه لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾، أي معيناً لهم على دينهم. وقال مقاتل: وذلك حين دعي إلى دين آبائه فذكر الله نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، يعني القرآن، ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، إلى معرفته وتوحيده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد به أهل دينه أي: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي إلا هو، وقيل: إلا ملكه، وقال أبو العالية: إلا ما أريد به وجهه، ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾، أي فصل القضاء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

❁ ❁ ❁

سورة العنكبوت

مكية وهي تسع وستون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ﴾، أظن الناس، ﴿أَن يُتْرَكُوا﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء، ﴿أَن يَقُولُوا﴾، أي بأن يقولوا، ﴿آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا لنختبرنهم ليبيّن المخلص من المنافق والصادق من الكاذب، واختلفوا في سبب نزول هذه الآية. قال الشعبي: نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ: أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله هاتين الآيتين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما [قال]: وأراد الناس الذين آمنوا بمكة: سلمة بن هشام، وعياش بن [أبي] ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر وغيرهم.

وقال ابن جريج: نزلت في عمار بن ياسر، كان يعذب في الله عزّ وجلّ.

وقال مقاتل: نزلت في مهجع بن عبدالله مولى عمر، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، فقال النبي ﷺ «سيد الشهداء مهجع، وهوأول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة»، فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقيل: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ بالأوامر والنواهي، وذلك أن الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الإيمان، ثم فرض عليهم الصلاة، والزكاة، وسائر الشرائع، فشق على بعضهم، فأنزل الله هذه الآية، ثم عزاهم فقال:

﴿٣﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني الأنبياء والمؤمنين، فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، في قولهم آمنا، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، والله عالم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: وليظهرنّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يُوجدَ معلومَه [الذي فيما نزله]، وقال مقاتل: فليرينّ الله. وقيل: ليميّز الله كقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، يعني الشرك، ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾، يُعجزونا ويفوتونا، فلا نقدر على الانتقام منهم، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي بئس ما حكموا حين ظنوا ذلك.

﴿٥﴾ ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل: من كان يخشى البعث والحساب، والرجاء بمعنى الخوف، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: من كان يطمع في ثواب الله، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾. يعني ما وعد الله من الثواب والعقاب. وقال مقاتل: يعني يوم القيامة لكائن. ومعنى الآية أن من يخشى الله أو يأمله فليستعد له، وليعمل لذلك اليوم، كما قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] الآية، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿٦﴾ ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، له ثوابه، و«الجهاد»: هو

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

٣٩٧

الصبر على الشدة، ويكون ذلك في الحرب، وقد يكون على مخالفة النفس. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، عن أعمالهم وعباداتهم.

﴿٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، لنبطلنها، يعني: حتى تصير بمنزلة ما لم يُعمل، والتكفير: إذهاب السيئة بالحسنة، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة، وقيل: نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن، كما قال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾، أي براً بهما وعطفاً عليهما، معناه ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن.

نزلت هذه الآية والتي في سورة لقمان [١٤] والأحقاف [١٥] في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو سعد بن مالك [أبو] إسحاق الزهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لما أسلم، وكان من السابقين الأولين، وكان باراً بأمه قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنتَ عليه، أو أموت فتعيّر بذلك أبد الدهر، فيقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا تطعهما في الشرك، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

وجاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، ثم أوعد بالمصير إليه فقال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها.

﴿٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾، في زمرة الصالحين، وهم الأنبياء والأولياء، وقيل: في مدخل الصالحين، وهو الجنة.

﴿١٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾، أصابه بلاء من الناس افتتن، ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، أي: جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة، أي: جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله مَن خاف [مِن] عذابه، هذا قول السدي وابن زيد، قالا: هو المنافق: إذا أوذي في الله رجع عن الدين فكفر، ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾، أي فتح ودولة للمؤمنين، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين، ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، على عدوكم وكنا مسلمين وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا، فكذّبهم الله فقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، من الإيمان والنفاق.

﴿١١﴾ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، بترك الإسلام عند نزول البلاء. واختلفوا في [سبب] نزول هذه الآية.

قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس أومصيبة في أنفسهم افتتنوا.

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم إلى بدر، وهم الذين نزلت فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

وقال قتادة: نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة، وقال الشعبي: هذه الآيات العشر من أول السورة إلى ههنا مدنية وباقي السورة مكية.

⑫ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾، قال مجاهد: هذا من قول كفار مكة لمن آمن منهم. وقال الكلبي ومقاتل: قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش «اتبعوا سبيلنا»: ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم، فذلك قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أوزاركم، قال الفرّاء: لفظه أمر ومعناه جزاء، مجازه: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، كقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩]، وقيل: هو جزم على الأمر، كأنهم أمروا أنفسهم بذلك فأكذبهم الله عزّ وجلّ فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي فيما قالوا من حمل خطاياهم.

⑬ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾، أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، أي أوزار من أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزارهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]. ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، سؤال توبيخ وتقريع.

⑭ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، فغرقوا، ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، قال ابن عباس: مشركون.

⑮ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، يعني من الغرق، ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾، يعني السفينة ﴿ءَايَةً﴾، أي عبرة، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، فإنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة. وقيل: جعلنا عقوبتهم للغرق عبرة [لمن بعدهم]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

⑯ قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾، أي وأرسلنا إبراهيم، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، أطيعوا الله وخافوه، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

⑰ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصناماً، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، تقولون كذباً، قال مجاهد: تصنعون أصناماً بأيديكم فتسمونها آلهة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾، لا يقدرون أن يرزقوكم، ﴿فَٱبْتَغُواْ﴾، فاطلبوا، ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

⑱ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

٣٩٨

⑲ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كيف يخلقهم ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ في الآخرة عند البعث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

⑳ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت، فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءاً لا يتعذر عليه إنشاؤها معيداً، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النشاءة» بفتح الشين ممدودة حيث وقعت، وقرأ الآخرون بسكون الشين مقصورة نظيرها الرأفة والرافة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

㉑ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، تردون.

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضٗا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

٣٩٩

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فإن قيل ما وجه قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ والخطاب مع الآدميين وهم ليسوا في السماء؟ قال الفراء: معناه ولا من في السماء بمعجز كقول حسان بن ثابت:

فمن يهجو رسول الله منكم
ويمدحه وينصره سواء

أراد من يمدحه ومن ينصره فأضمر «من»، يريد لا يعجزه أهل الأرض في الأرض، ولا أهل السماء في السماء. وقال قطرب: معناه وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، كقول الرجل [للرجل] لا يفوتني فلان ههنا ولا بالبصرة، أي ولا بالبصرة لو كان بها، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي من ولي يمنعكم مني ولا نصير ينصركم من عذابي.

(٢٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالقرآن وبالبعث، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾، جنتي، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، فهذه الآيات في تذكير أهل مكة وتحذيرهم، وهي معترضة في قصة إبراهيم ثم عاد إلى قصة إبراهيم، فقال جل ذكره:

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وجعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾، يصدقون.

(٢٥) ﴿وَقَالَ﴾، يعني إبراهيم لقومه، ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾، قرأ ابن كثير، والكسائي، وأبو عمرو، ويعقوب: «مودة» رفعاً بلا تنوين، «بينكم» خفضاً بالإضافة على معنى: إن الذين اتخذتم من دون الله أوثاناً هي مودة بينكم، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم هي تنقطع ولا تنفع في الآخرة، وقرأ حمزة، وحفص: «مودة» نصباً بغير تنوين على الإضافة بوقوع الاتخاذ عليها، وقرأ الباقون «مودة» منصوبة منونة «بينكم» بالنصب، معناه إنكم [إنما] اتخذتم هذه الأوثان مودةً بينكم في الحياة الدنيا تتواردون على عبادتها وتتواصلون عليها في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضٗا﴾، تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾، جميعاً العابدون والمعبودون، ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

(٢٦) ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾، يعني صدقه، وهو أول من صدق إبراهيم وكان ابن أخيه، (وقال) يعني إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، فهاجر من كوثى، وهو من سواد الكوفة، إلى حران ثم إلى الشام، ومعه لوط وامرأته سارة، وهو أول من هاجر، قال مقاتل: هاجر إبراهيم عليه السلام وهو ابن خمس وسبعين سنة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، يقال: إن الله لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلا من نسله، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾، وهو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولونه، وقال السدي: هو الولد الصالح، وقيل: هو أنه رأى مكانه في الجنة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي في زمرة الصالحين. قال ابن عباس مثل آدم ونوح.

(٢٨) قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر: «أئنكم» بالاستفهام، وقرأ الباقون بلا استفهام، واتفقوا على استفهام الثانية، ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي إتيان الرجال، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٢٩) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، وذلك أنهم

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

٤٠٠

كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فترك الناس الممر بهم. وقيل: تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، النادي، والندى، والمنتدي، مجلس القوم ومتحدثهم.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو العباس بن سهل بن محمد المروزي، أنا جدي لأمي أبو الحسن المحمودي، أنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، أن بشر بن معاذ حدثهم: أنا يزيد بن زريع، أنا حاتم بن أبي صغيرة، عن سِمَاك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانىء بنت أبي طالب عن أم هانىء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، قلت: ما المنكر الذي كانوا يأتونه؟ قال: «كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم».

وروي أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مرّ بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كان أولى به. وقيل: إنه كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم، ولهم قاض بذلك، وقال القاسم بن محمد: كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال مجاهد: كان يجامع بعضهم بعضاً في مجالسهم. وعن عبدالله بن سلام قال: كان يبزق بعضهم على بعض. وعن مكحول قال: كان من أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار، والصفير، والحذف، واللوطية، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾، له استهزاء ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أن العذاب نازل بنا، فعند ذلك.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ﴾، لوط، ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾، بتحقيق قولي في العذاب.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾، من الله بإسحاق ويعقوب، ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، يعني قوم لوط، والقرية سدوم، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿وَقَالَ﴾، إبراهيم للرسل، ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا﴾، قالت الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: ﴿لَنُنَجِيَنَّهُ﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، ﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي الباقين في العذاب.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، ظن أنهم من الإنس، ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾، [حزن بهم]، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ﴾، بمجيئهم ﴿ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ﴾، من قومك علينا، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾، بإهلاكنا إياهم، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، ويعقوب: «مُنجوك» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾، قرأ ابن عامر بالتشديد، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ﴿عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾، عذاباً، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾، قال مقاتل: الخسف والحصب، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾، من قريات لوط، ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾، عبرة ظاهرة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول، قال ابن عباس: الآية البينة هي آثار منازلهم الخربة. وقال قتادة: هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقال مجاهد: هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شُعيباً،

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠١

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، أي واخشوا اليوم الآخر، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾، أي وأهلكنا عاداً وثموداً، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾، يا أهل مكة، ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾، منازلهم بالحجر واليمن، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [أي] عن سبيل الحق ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

قال مقاتل، والكلبي، وقتادة: كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم، يحسبون أنهم على هدى، وهم على الباطل، والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين، قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر.

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾، أي وأهلكنا هؤلاء، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، بالدلالات، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾، أي فائتين من عذابنا.

﴿٤٠﴾ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم قوم لوط، و«الحاصب»: الريح التي تحمل الحصباء، وهي الحصا الصغار، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، يعني ثمود، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، يعني قارون وأصحابه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، يعني قوم نوح، وفرعون وقومه، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿٤١﴾ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾، يعني: الأصنام يرجون نصرها ونفعها، ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، لنفسها تأوي إليه، وإن بيتها في غاية الضعف والوهاء، لا يدفع عنها حراً ولا برداً، فكذلك الأوثان لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، قرأ أهل البصرة، وعاصم يدعون بالياء لذكر الأمم قبلها، وقرأ الآخرون بالتاء.

﴿٤٣﴾ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ الأشباه والمثل: كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول، يريد: أمثال القرآن التي شبه بها أحوال كفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم المتقدمة، ﴿نَضْرِبُهَا﴾، نبينها، ﴿لِلنَّاسِ﴾، قال مقاتل لكفار مكة: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي ما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، أنا ابن برزة، أنا الحارث ابن أبي أسامة، أنا داود بن المُحَبّر، أنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء وأبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، قال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه».

﴿٤٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، أي للحق وإظهار الحق، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، في خلقها، ﴿لَآيَةً﴾، لدلالة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، على قدرته وتوحيده.

﴿٤٥﴾ ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، يعني القرآن، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، الفحشاء: ما قبح من الأعمال، والمنكر: ما لا يعرف في الشرع. قال ابن مسعود وابن عباس: في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً.

وقال الحسن، وقتادة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه.

وروي عن أنس قال: كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً» فلم يلبث أن تاب وحسن حاله، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم إن صلاته تنهاه يوماً».

وقال ابن عون: معنى الآية أن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها. وقيل: أراد بالصلاة القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك. وقيل: أراد أنه يقرأ القرآن في الصلاة، فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا قيس بن الربيع، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن رجلاً يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق، قال: «ستنهاه قراءته».

وفي رواية قيل: يا رسول الله إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أي ذكر الله أفضل الطاعات.

أخبرنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري، أنا أبو الحسن علي بن محمد بن بشران ببغداد، أنا أبو علي الحسين بن صفوان البرادعي، أنا أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا، أنا هارون بن معروف، أنا أبو علي الضرير، أنا أنس بن عياض، ثنا عبدالله بن سعيد بن أبي هند عن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش، عن أبي بحريَّة، عن أبي الدرداء رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والورِق وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: وما ذاك [يا رسول الله] قال: «ذكر الله».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا [أبو] منصور محمد بن [محمد بن] سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا أبو الأسود، أنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي السمح، عن [أبي] الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ [أنه] سئل: أيّ العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً»، فقالوا: يا رسول الله و[من] الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً، لكان الذاكر لله كثيراً أفضل منه درجة».

وروينا أن أعرابياً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني، أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج القشيري، أنا أمية بن بسطام العيشي، أنا يزيد بن زريع، أنا روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرّ على جبل يقال له جُمْدان، فقال: «سيروا هذا جُمْدان سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا خلاد بن أسلم، ثنا النضر، أنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال: أَشْهَدُ على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ، قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وقال قوم: معنى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي «ذكر الله إيّاكم أفضل من ذكركم إيّاه». ويروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير.

ويروى ذلك مرفوعاً عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وقال عطاء في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال: ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية. ﴿وَاللَّهُ

الجزء الحادي والعشرون سورة العنكبوت

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾

٤٠٢

﴿يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾، قال عطاء: يريد لا يخفى عليه شيء.

(٤٦) قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، لا تخاصموهم، ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه، وأراد من قَبِلَ الجزية منهم، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، أي: أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب، فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ومجاز الآية إلا الذين ظلموكم، لأن جميعهم ظالم بالكفر. وقال سعيد بن جبير هم أهل الحرب ومن لا عهد له. قال قتادة ومقاتل: صارت منسوخة بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩]. ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يريد إذا أخبركم واحد منهم ممن قبل الجزية بشيء مما في كتبهم فلا تجادلوهم عليه، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن بشار، أنا عثمان بن عمر، أنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا» وما أنزل إليكم.

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري، أنا ابن أبي نملة الأنصاري، أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره: أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من اليهود ومرّ بجنازة، فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم»، فقال اليهودي: إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوه وإن كان حقاً لم تكذبوه».

(٤٧) قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني كما أنزلنا إليهم الكتب، ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني أهل مكة، ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾، وهم مؤمنو أهل مكة، ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمداً نبي، والقرآن حق، فجحدوا. وقال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة.

(٤٨) ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾، يا محمد، ﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾، يعني من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، يعني ولا تكتبه، يعني لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي، ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، يعني لو كنت تقرأ أو تكتب قبل الوحي لشك المبطلون المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنه يقرؤوه من كتب الأولين وينسخه منها، قاله قتادة. وقال مقاتل: «المبطلون» هم اليهود، ومعناه: إذاً لشكوا فيك واتهموك، وقالوا إن الذي نجد نعته في التوراة أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت.

(٤٩) ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾، قال الحسن يعني القرآن آيات بينات، ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾، يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٤٠٣

وقتادة: بل هو ـ يعني محمداً ﷺ ـ ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، لأنهم يجدونه بنعته وصفته في كتبهم، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، كما أنزل على الأنبياء من قبل، قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر آية على التوحيد، وقرأ الآخرون آيات من ربه. قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وهو القادر على إرسالها إذا شاء أرسلها، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أنذر أهل المعصية بالنار، وليس إنزال الآيات بيدي.

﴿٥١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾، هذا الجواب لقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧] قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، يعني أولم يكفهم من الآيات القرآن يتلى عليهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، في إنزال القرآن، ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي تذكيراً وعظة لمن آمن وعمل به.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، أني رسوله وهذا القرآن كتابه، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾، قال ابن عباس: بغير الله. وقال قتادة: بعبادة الشيطان، ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، نزلت في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء، ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، قال ابن عباس: ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأوخر عذابهم إلى يوم القيامة كما قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] وقال الضحاك: مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب، وقيل: يوم بدر، ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾، يعني العذاب وقيل الأجل، ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، بإتيانه.

﴿٥٤﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أعاده تأكيداً، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، جامعة لهم لا يبقى أحد منهم إلا دخلها.

﴿٥٥﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ﴾، يصيبهم، ﴿الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، يعني إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم، كما قال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾، قرأ نافع، وأهل الكوفة: «ويقول» بالياء، أي: ويقول لهم الموكل بعذابهم: ذوقوا وقرأ الآخرون بالنون، لأنه لما كان بأمره نسب إليه، ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي جزاء ما كنتم تعملون.

﴿٥٦﴾ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾، قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة، إن أرضي [يعني المدينة] واسعة آمنة، قال مجاهد: إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها.

وقال سعيد بن جبير: إذا عمل في الأرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة. وقال عطاء: إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة. وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا: نخشى، إن هاجرنا، من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج. وقال مطرف بن عبدالله: [إن] أرضي واسعة أي رزقي لكم واسع فاخرجوا.

﴿٥٧﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، خوّفهم بالموت ليهوّن عليهم الهجرة، أي: كل واحد ميت أينما

كان فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، فنجزيكم بأعمالكم، وقرأ أبو بكر: «يرجعون» بالياء.

﴿٥٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾، قرأ حمزة، والكسائي، بالثاء ساكنة من غير همز، يقال: ثوى الرجل إذا أقام، وأثويته: إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه، وقرأ الآخرون بالباء وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أي لننزلنّهم، ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، علالي، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾.

﴿٥٩﴾ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، يعتمدون.

﴿٦٠﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾.

وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون: «هاجروا إلى المدينة»، فقالوا: «كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا؟» فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ﴾ ذات حاجة إلى غداء، ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا ترفع رزقها معها ولا تدخر شيئاً لغد مثل البهائم والطير، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، حيث كنتم، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، السميع لأقوالكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة، العليم بما في قلوبكم، وقال سفيان عن علي بن الأقمر: «وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها»، قال: لا تدخر شيئاً لغد. قال سفيان: وليس شيء من خلق الله يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة.

أخبرنا [أبو سعيد] أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني أبو عبدالله الحسين بن محمد الثقفي، أنا عبدالله بن عبدالرحمن الدقاق، أنا محمد بن عبدالعزيز، أنا إسماعيل بن زرارة الرقي، أنا أبو العَطُوف الجراح بن منهال، عن الزهري، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: دخلت مع رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط الأنصار، فجعل رسول الله ﷺ يلقط الرطب بيده ويأكل، فقال: «كلْ يا ابن عمر»، قلت: لا أشتهيها يا رسول الله، قال: «الكني أشتهيه»، وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعاماً ولم أجده، فقلت إنا لله، الله المستعان، قال: يا ابن عمر لو سألتُ ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافاً مضاعفة، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا ابن عمر إذا عمّرت وبقيت في حثالة من الناس يخبئون رزق سنة ويضعف اليقين، فنزلت هذه الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي، أنا أبو العباس السراج، أنا قتيبة بن سعيد، أنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، أن النبي ﷺ: كان لا يدخر شيئاً لغد.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكّلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبدالملك المظفري، أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه، أنا أبو نصر بن حمدويه المطوعي، أنا أبو الموجه محمد بن عمرو، أنا عبدان عن أبي حمزة عن إسماعيل هو ابن أبي خالد، عن رجلين أحدهما زبيد اليامي، عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد نفث في رُوعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته».

وقال هشيم عن إسماعيل عن زبيد [اليامي] عمن أخبره عن ابن مسعود.

﴿٦١﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، يعني كفار مكة، ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ

الجزء الحادي والعشرون — سورة العنكبوت

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٤٠٤

مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقيل: قل الحمد لله على إقرارهم ولزوم الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه الخالق لهذه الأشياء.

قوله تعالى:

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾، اللهو: هو الاستمتاع بلذات الدنيا، واللعب: العبث، سميت بها لأنها فانية، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، أي الحياة الدائمة الباقية، و«الحيوان»: بمعنى الحياة أي فيها الحياة الدائمة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فناء الدنيا وبقاء الآخرة.

﴿٦٥﴾ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾، وخافوا الغرق، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وتركوا الأصنام، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، هذا إخبار عن عنادهم وأنهم عند الشدائد يقرّون أن القادر على كشفها هو الله عزّ وجلّ وحده، فإذا زالت عادوا إلى كفرهم، قال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا: يا رب يا رب.

﴿٦٦﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، هذه لام الأمر، ومعناه التهديد والوعيد، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، أي ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إيّاهم، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي [وابن كثير وقالون] ساكنة اللام، وقرأ الباقون بكسرها نسقاً على قوله: «ليكفروا»، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، قيل: من كسر اللام جعلها لام كي وكذلك في «ليكفروا»، والمعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة.

﴿٦٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني العرب، يسبي بعضهم بعضا، وأهل مكة آمنون، ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾، بالأصنام والشيطان، ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾، بمحمد والإسلام، ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فزعم أن لله شريكاً وأنه أمر بالفواحش، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾، بمحمد ﷺ والقرآن، ﴿لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾، استفهام بمعنى التقرير، معناه: أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم.

﴿٦٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾، الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، لنثبتنهم على ما قاتلوا عليه، وقيل: لنزيدنّهم هدىً كما قال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقيل: لنوفقنّهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي توصل إلى رضا الله عزّ وجلّ. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور، فإن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات. قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى. وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينّهم سُبل العمل به. وقال سهل بن عبدالله: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينّهم سبل الجنة.

وروي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينّهم سُبل ثوابنا. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، بالنصر والمعونة في دنياهم وبالثواب والمغفرة في عُقباهم.

❁ ❁ ❁

سورة الروم

مكية [وهي ستون آية، وقيل: تسع وخمسون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞﴾

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾، سبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسرون.

أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودّون أن تغلب فارس الروم، لأن أهل فارس كانوا مجوساً أميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليها رجلاً يقال له شهريراز، وبعث قيصر جيشاً [وأمر] عليهم رجلاً يدعى بخنس، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة، فشق عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميّون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا فوالله ليظهرنّ على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أُبيّ بن خلف الجمحي فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلاً أُناحِبُك عليه، والمناحبة: المراهنة على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ وإن ظهرت فارس غرمتَ، ففعلوا، وجعلوا الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، وذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي ﷺ: «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل»، فخرج أبو بكر ولقي أبيّاً، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا، فتعال أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين، قال: قد فعلت، فلما خشي أُبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه، وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي كفيلاً، فكفل له ابنه عبدالله بن أبي بكر، فلما أراد أبيّ بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبدالله بن أبي بكر فلزمه، فقال: لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً، فأعطاه كفيلاً، ثم خرج إلى أحد ثم رجع أُبيّ بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم. وقيل: كان يوم بدر.

وقال الشعبي: لم تمض تلك المدة التي عقدوا المناحبة بين أهل مكة، وفيها صاحب قمارهم أبيّ بن خلف، والمسلمون وصاحب قمارهم أبو بكر، وذلك قبل تحريم القمار، حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فقمر أبو بكر أبيّاً وأخذ مال الخطر من ورثته، فجاء به يحمله إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «تصدق به».

وكان سبب غلبة الروم فارساً على ما قال عكرمة وغيره: أن شهريراز بعدما غلبت الروم لم يزل يطأهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرخان جالس ذات يوم يشرب إذ قال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهريراز إذا أتاك كتابي [هذا] فابعث إلي برأس فرخان، فكتب إليه: أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان إن له نكاية وصوتاً في العدو، فلا تفعل البتة، فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه، فعجلْ عليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس أني قد نزعت عنكم شهريراز واستعملت عليكم فرخان الملك، ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمره فيها بقتل شهريراز، وقال: إذا ولي فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه، فلما قرأ شهريراز، الكتاب قال سمعاً وطاعة، ونزل عن سريره وجلس فرخان ورفع إليه الصحيفة [فلما قرأها] قال ائتوني بشهريراز فقدمه ليضرب عنقه، فقال: لا تعجل علي حتى أكتب وصيتي، قال: نعم، فدعا بالسفط فأعطاه ثلاث صحائف وقال: كل هذا راجعت فيك كسرى، وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد، فرد الملك إلى أخيه، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف، فألقني، ولا تلقني إلا في خمسين رومياً، فإني ألقاك في خمسين فارسياً، فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق، وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً، ثم بسط لهما فالتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، ومع كل واحد منهما سكين، فدعوا بترجمان بينهما، فقال شهريراز: إن الذين خربوا مدائنك، أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني، فقد خلعناه جميعاً فنحن نقاتله معك، قال: قد أصبتما، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا، فقتلا الترجمان معاً بسكينهما، فأديلت الروم على فارس عند ذلك فاتبعوهم يقتلونهم، ومات كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح ومن معه [بذلك] فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، قال عكرمة: هي أذرعات وكسكر، وقال مجاهد: أرض الجزيرة. وقال مقاتل: الأردن وفلسطين. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾، أي الروم من بعد غلبة فارس إياهم، والغلب والغلبة لغتان، ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾، فارساً.

﴿٤﴾ ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾، والبضع ما بين الثلاث إلى السبع، [وقيل: ما بين الثلاث إلى التسع]. وقيل: ما دون العشرة. وقرأ عبدالله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، والحسن، وعيسى بن عمر: «غلبت» بفتح الغين واللام، «سيغلبون» بضم الياء وبفتح اللام، وقالوا نزلت حين أخبر النبي ﷺ عن غلبة الروم فارساً، ومعنى الآية: الم، غلبت الروم فارساً في أدنى الأرض إليكم وهم من بعد غلبهم سيغلبون يغلبهم المسلمون في بضع سنين، وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم. والأول أصح وهو قول أكثر المفسرين.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾، من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها، فأي الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله وقضائه وقدره. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٥﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، الروم على فارس، قال السدي: فرح النبي ﷺ والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك، ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، الغالب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، بالمؤمنين.

﴿٦﴾ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ﴾، نصب على المصدر أي: وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٧﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني أمر معايشهم كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، وقال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطىء وهو لا يحسن أن يصلي ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، ساهون عنها جاهلون بها لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها.

﴿٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، أي للحق، وقيل: لإقامة الحق، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾، أي لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت، وهو [يوم] القيامة، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

﴿٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾، أولم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا، ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، حرثوها وقلبوها للزراعة، ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أكثر مما عمرها أهل مكة، قيل: قال ذلك لأنه لم يكن لأهل مكة حرث، ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ﴾، فلم يؤمنوا فأهلكهم الله، ﴿فَمَا

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، بنقص حقوقهم، ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ببخس حقوقهم.

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾، أي أساءوا العمل، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، يعني الخلة التي تسوؤهم وهي النار، وقيل: «السوأى» اسم لجهنم كما أن «الحسنى» اسم للجنة، ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾، أي لأن كذبوا، وقيل تفسير «السوء» ما بعده، وهو قوله «أن كذبوا» يعني: ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا، ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، قرأ أهل الحجاز والبصرة: «عاقبة» بالرفع أي ثم كان آخر أمرهم السوء، وقرأ الآخرون بالنصب على خبر كان، وتقديره: ثم كان السوء عاقبة الذين أساؤوا.

(١١) قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء، ولم يقل يعيدهم، رده إلى الخلق، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فيجزيهم بأعمالهم، قرأ أبو عمرو وأبو بكر: «يرجعون» بالياء والآخرون بالتاء.

(١٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، قال قتادة، والكلبي: ييأس المشركون من كل خير. وقال الفراء: ينقطع كلامهم وحجتهم. وقال مجاهد: يفتضحون.

(١٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، جاحدين متبرئين يتبرؤون منها وتتبرأ منهم.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، أي يتميز أهل الجنة من أهل النار. وقال مقاتل: يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار فلا يجتمعون أبداً.

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾، وهي البستان الذي في غاية النضارة، ﴿يُحْبَرُونَ﴾، قال ابن عباس: يكرمون. وقال مجاهد وقتادة: يُنَعَّمون. وقال أبو عبيدة يسرون، والحبرة السرور، وقيل: «الحبرة» في اللغة، كل نعمة حسنة، والتحبير التحسين، وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: تحبرون هو السماع في الجنة. وقال الأوزاعي: إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت، وقال: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم.

(١٦) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي البعث يوم القيامة، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

(١٧) قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي سبحوا الله و[قيل] معناه صلوا لله، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، أي تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، أي تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح.

(١٨) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال ابن عباس: يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له، ﴿وَعَشِيًّا﴾، أي صلوا لله عشياً يعني صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، تدخلون في الظهيرة وهو الظهر، قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت الآية الصلوات الخمس ومواقيتها.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك عن سُمي مولى أبي بكر بن عبدالرحمن، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده [في كل يوم] مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش

الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، ثنا السري بن خزيمة الأبيوردي، ثنا المعلى بن سعد، أنا عبدالعزيز بن المختار، عن سهيل، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله، وبحمده مائة، مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلاّ أحد قال مثل ما قال أو زاد [عليه]».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا قتيبة بن سعيد، أنا محمد بن فضيل، أنا عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا علي بن المديني، أنا ابن عيينة عن محمد بن عبدالرحمن مولى آل طلحة قال: سمعت كريباً أبا رشدين يحدث عن ابن عباس عن جويريه بنت الحارث بن أبي ضرار أن النبي ﷺ خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برّة فحوّله رسول الله ﷺ وسماها جويرية، وكره أن يقال خرج من عند برة، فخرج وهي في المسجد ورجع بعدما تعالى النهار فقال: ما زلتِ في مجلسكِ هذا منذ خرجتُ بعد؟ قالت: نعم، فقال: «لقد قلتُ بَعْدَكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو [وزنت بكلماتك] لوزنتهنّ: سبحان الله وبحمده عددَ خلقه، ورضاء نفسه، وزنَةَ عرشهِ، ومدادَ كلماتِه».

﴿١٩﴾ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «تَخرجُون» بفتح التاء وضم الراء، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، أي خلق أصلكم يعني آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، تنبسطون في الأرض.

﴿٢١﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، من جنسكم من بني آدم، وقيل: خلق حواء من ضلع آدم، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادّان ويتراحمان وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، في عظمة الله وقدرته.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾، يعني اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما، ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، أبيض وأسود وأحمر وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾، قرأ حفص: «للعالمين» بكسر اللام.

﴿٢٣﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار أي تصرفكم في طلب المعيشة، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، سماع تدبر واعتبار.

﴿٢٤﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾، للمسافر من الصواعق، ﴿وَطَمَعًا﴾، للمقيم في المطر. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ﴾، يعني بالمطر، ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، أي بعد يبسها وجدوبتها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ

الجزء الحادي والعشرون — سورة الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

٤٠٧

﴿وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾. قال ابن مسعود: قامتا على غير عمد بأمره. وقيل: يدوم قيامهما بأمره، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال ابن عباس: من القبور، ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، منها، وأكثر العلماء على أن معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة إذا أنتم تخرجون من الأرض.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، مطيعون، قال الكلبي: هذا خاص لمن كان منهم مطيعاً. وعن ابن عباس: كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، قال الربيع بن خيثم، والحسن وقتادة، والكلبي: أي: هو هين عليه وما شيء عليه بعزيز، وهو [في] رواية العوفي عن ابن عباس، وقد يجيء أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة. وقال مجاهد وعكرمة: «وهو أهون عليه» أي أيسر، ووجهه أنه على طريق ضرب المثل أي هو أهون عليه على ما يقع في عقولكم، فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء، أي الابتداء، وقيل: هو أهون عليه عندكم. وقيل: هو أهون عليه، أي: على الخلق، يقومون بصيحة واحدة، فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً، ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساءً، وهذا معنى رواية ابن حبّان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي الصفة العليا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال ابن عباس: هي أنه ليس كمثله شيء، وقال قتادة هي أنه لا إله إلا الله هو ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، في ملكه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، في خلقه.

﴿٢٨﴾ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي بين لكم شبهاً بحالكم، وذلك المثل من أنفسكم ثم بيّن المثل فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، أي عبيدكم وإمائكم، ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، من المال، ﴿فَأَنتُمْ﴾، وهم، ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾، أي [فيما] شرع [سواء] أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحرّ شريكه الحرّ في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمر دونه، وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث، وهو يحب أن ينفرد به.

قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً فإذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولم ترضوا ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي؟ ومعنى قوله: ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ أي أمثالكم من الأحرار كقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بأمثالهم، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم.

﴿٢٩﴾ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾، أشركوا بالله، ﴿أَهْوَآءَهُم﴾، في الشرك، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، جهلاً بما يجب عليهم، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، أي أضله الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، مانعين يمنعونهم من عذاب الله عزّ وجلّ.

﴿٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، أي أخلص دينك لله، قاله سعيد بن جبير، وإقامة الوجه: إقامة الدين، وقال غيره: سدد عملك، والوجه ما يتوجه إليه الإنسان، ودينه وعمله مما يتوجه إليه لتسديده، ﴿حَنِيفًا﴾، مائلاً مستقيماً عليه، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، دين الله وهو نصب على الإغراء، أي إلزمْ فطرة الله، ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، أي خلق الناس عليها، وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين أن المراد بالفطرة: الدين، وهو الإسلام، وذهب قوم إلى أن الآية خاصة في المؤمنين وهم الذين فطرهم الله على الإسلام.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن [محمد بن] محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُولد يُولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو يُنصرانه أو يُمجسانه كما تُنتِجون البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا

وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴿٣٣﴾ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿٣٤﴾ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴿٣٥﴾ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴿٣٦﴾ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣٧﴾ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴿٣٨﴾ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴿٣٩﴾ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿٤٠﴾ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴿٤١﴾

أنتم تجدعونها»، قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

ورواه الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة من غير ذكر من يموت وهو صغير، وزاد: ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

قوله: «من يولد يولد على الفطرة» يعني على العهد الذي أخذ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، وكل مولود في العالم على ذلك الإقرار، وهو الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها وإن عبد غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ولكن لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى أنه يقول: «فأبواه يهودانه»، فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكوم له بحكم أبويه الكافرين، وهذا معنى قوله ﷺ: «يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم».

ويحكى [معنى] هذا عن الأوزاعي وحماد بن سلمة. وحكي عن عبدالله بن المبارك أنه قال: معنى الحديث إن كل مولود يولد على فطرته، أي على خلقته التي جُبل عليها في علم الله تعالى من السعادة أو الشقاوة، فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليها [وعامل] في الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه ـ لشقائه ـ على اعتقاد دينهما، وقيل: معناه أن كل مولود يولد في مبدأ الخلقة على الفطرة أي على الجبلة السليمة والطبع المتهيء لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، لأن هذا الدين موجود حسنه في العقول، وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره، ثم يتمثل بأولاد اليهود والنصارى وأتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة، ذكر أبو سليمان الخطابي هذه المعاني في كتابه. قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فمن حمل الفطرة على الدين قال: معناه لا تبديل لدين الله، فهو خبر بمعنى النهي، أي لا تبدلوا دين الله، قاله مجاهد وإبراهيم، ومعنى الآية الزموا فطرة الله، أي دين الله، واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقيل لا تبديل لخلق الله أي: ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لا يبدل، فلا يصير السعيد شقياً ولا الشقي سعيداً. وقال عكرمة ومجاهد: معناه تحريم إخصاء البهائم.

﴿٣١﴾ ﴿مُنِيبِينَ﴾ أي: فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه لأن المخاطبة للنبي ﷺ يدخل معه فيها الأمة كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، أي: راجعين إليه بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة، ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي صاروا فرقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى. وقيل: هم أهل البدع من هذه الأمة، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي راضون بما عندهم.

﴿٣٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، قحط وشدة، ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، مقبلين إليه بالدعاء، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾، خصباً

ونعمة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

(٣٤) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا، هذا خطاب تهديد فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، حالكم في الآخرة.

(٣٥) ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حجة وعذراً، وقال قتادة: كتاباً، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، ينطق، ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾، أي ينطق بشركهم ويأمرهم به.

(٣٦) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾، أي الخصب وكثرة المطر، ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾، يعني فرح البطر، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، أي: الجدب وقلة المطر، ويقال الخوف والبلاء ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، من السيئات، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة.

(٣٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٣٨) قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، من البر والصلة، ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾، وحقه أن يتصدق عليه، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، يعني المسافر، وقيل: هو الضيف، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يطلبون ثواب الله بما يعملون، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(٣٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾، قرأ ابن كثير: «أتيتم» مقصوراً، وقرأ الآخرون بالمدّ، أي أعطيتم، ومن قصر فمعناه: ما جئتم من ربا، ومجيئهم ذلك على وجه الإعطاء كما تقول: أتيت خطئاً، وأتيت صواباً، فهو يؤول في المعنى إلى قول من مدّ. ﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب لتربوا بالتاء وضمها وسكون الواو على الخطاب أي: لتربوا أنتم وتصيروا ذوي زيادة من أموال الناس، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها، ونصب الواو وجعلوا الفعل للربا لقوله: ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾، في أموال الناس أي: في اختطاف أموال الناس واجتذابها.

واختلفوا في معنى الآية.

فقال سعيد بن جبير، ومجاهد، وطاوس، وقتادة، والضحاك، وأكثر المفسرين: هو الرجل يعطي غيره العطية ليثيب أكثر منها فهذا جائز حلال، ولكن لا يثاب عليه في القيامة، وهو معنى قوله عزّ وجلّ ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾، وكان هذا حراماً على النبي ﷺ خاصة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت، وقال النخعي: هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه ليكثر ماله ولا يريد به وجه الله.

وقال الشعبي: هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لوجه الله، فلا يربو عند الله لأنه لم يرد به وجه الله تعالى، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾، أعطيتم من صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها، فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات، تقول العرب: القوم مهزولون ومسمونون، إذا هزلت أو سمنت إبلهم.

(٤٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٤١) قوله عزّ وجلّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، يعني قحط المطر وقلة النبات، وأراد بالبر البوادي والمفاوز، وبالبحر المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية. قال عكرمة: العرب تسمي المصر بحراً، تقول: أجدب البر وانقطعت مادة البحر، ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، أي: بشؤم ذنوبهم، وقال عطية وغيره: «البر» ظهر الأرض من الأمصار وغيرها، و«البحر» هو البحر المعروف وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلوا أجواف الأصداف [لأن الصدف] إذا جاء المطر يرتفع إلى وجه البحر ويفتح فاه فما يقع في فيه من المطر صار لؤلؤاً، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: الفساد في البر: قتل أحد ابني آدم أخاه، وفي البحر: غصب الملك الجائر السفينة، وقال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة، وكان ماء البحر عذباً وكان لا يقصد الأسد البقر والغنم، فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعافاً وقصد الحيوان بعضها بعضاً.

الجزء الحادي والعشرون　　سورة الروم

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

٤٠٩

قال قتادة: هذا قبل مبعث النبي ﷺ، امتلأت الأرض ظلماً وضلالة، فلما بعث الله محمداً ﷺ رجع راجعون من الناس بما كسبت أيدي الناس من المعاصي، يعني كفار مكة، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، أي عقوبة بعض الذي عملوا من الذنوب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، عن الكفر وأعمالهم الخبيثة.

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، فأهلكوا بكفرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾، المستقيم وهو دين الإسلام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، يعني يوم القيامة، لا يقدر أحد على رده من الله، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، أي: يتفرقون، فريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿٤٤﴾ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، أي وبال كفره، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور.

﴿٤٥﴾ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٤٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾، تبشر بالمطر، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، نعمة، نعمة المطر وهي الخصب، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ في البحر، بهذه الرياح، ﴿بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، ولتطلبوا من رزقه بالتجارة في البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، رب هذه النعم.

﴿٤٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، بالدلالات الواضحات على صدقهم، ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، عذبنا الذين كذبوهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنجاؤهم من العذاب، ففي هذا تبشير للنبي ﷺ بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء، قال الحسن: أنجاهم مع الرسل من عذاب الأمم.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا أحمد بن زنجويه، أنا أبو شيخ الحراني، أنا موسى بن أعين عن ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردّ عن عِرض أخيه إلاّ كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة»، ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، أي ينشره، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على ما يشاء، ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾، قطعاً متفرقة، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾، المطر، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، وسطه، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾، أي الودق، ﴿مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، يفرحون بالمطر.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن كَانُوا﴾، وقد كانوا، ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾، أي آيسين، قيل: وإن كانوا أي وما كانوا إلا مبلسين، وأعاد قوله «من قبله» تأكيداً، وقيل: الأولى ترجع إلى إنزال المطر والثانية إلى إنشاء السحاب.

وفي حرف عبدالله بن مسعود: «وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين»، غير مكرر.

﴿٥٠﴾ ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾، هكذا قرأ أهل الحجاز، والبصرة، وأبو بكر، وقرأ الآخرون: «إلى آثار رحمة الله»، على الجمع، أراد برحمة الله: المطر، أي انظر إلى حسن تأثيره في الأرض، قال

وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

مقاتل: أثر رحمة الله أي: نعمته وهو النبت وإخراج الثمر منه، ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، يعني أن ذلك الذي يحيي الأرض لمحيي الموتى، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

(٥١) ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ باردة مضرة فأفسدت الزرع، ﴿فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي رأوا النبت والزرع مصفراً بعد الخضرة، ﴿لَّظَلُّواْ﴾، لصاروا، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد إصفرار الزرع، ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، يجحدون ما سلف من النعمة، يعني: أنهم يفرحون عند الخصب، ولو أرسلت عذاباً على زرعهم جحدوا سالف نعمتي.

(٥٢) ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

(٥٣) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

(٥٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾، قرىء بضم الضاد وفتحها، فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم، ومعنى من ضعف أي من نطفة، يريد من ذي ضعف، أي من ماء ذي ضعف كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات: ٢٠]، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ أي من بعد ضعف الطفولة شباباً وهو وقت القوة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا﴾ [هرماً] ﴿وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، من الضعف والقوة والشباب والشيبة، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾، بتدبير خلقه، ﴿ٱلۡقَدِيرُ﴾، على ما يشاء.

(٥٥) ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، يحلف المشركون، ﴿مَا لَبِثُواْ﴾، في الدنيا، ﴿غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾، إلا ساعة، استقلوا أجل الدنيا لمّا عاينوا الآخرة، وقال مقاتل والكلبي: ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾، يصرفون عن الحق في الدنيا.

قال الكلبي ومقاتل: كذبوا في قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا بعث، والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء يتبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه، وكان ذلك بقضاء الله وقدره بدليل قوله: ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ أي يصرفون عن الحق، ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال:

(٥٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه من اللبث في القبور، وقيل: «في كتاب الله» أي «في حكم الله»، وقال قتادة ومقاتل: فيه تقديم وتأخير تقديره: وقال الذين [أوتوا العلم] في كتاب الله والإيمان: لقد لبثتم إلى يوم البعث، يعني الذين يعلمون كتاب الله، وقرأوا قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، أي: قالوا للمنكرين لقد لبثتم، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾، الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل:

(٥٧) قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾، يعني عذرهم، ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، لا يطلب منهم العُتبى والرجوع في الآخرة، قرأ أهل الكوفة: «لا ينفع» بالياء ههنا وفي «حم» المؤمن [وافق نافع في حم المؤمن]، وقرأ الباقون بالتاء فيهما.

(٥٨) ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾، ما أنتم إلاَّ على باطل.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ توحيد الله.

(٦٠) ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا

﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾، في نصرتك وإظهارك على عدوك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾، ولا يستجهلنك، معناه: لا يحملنك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي، وقيل لا يستخفن رأيك وحلمك، ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، بالبعث والحساب.

***

سورة لقمان

مكية وهي أربع وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ (٣) ﴿الٓمٓ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، قرأ حمزة ﴿ورحمةٌ﴾ بالرفع على الابتداء، أي هو هدى ورحمة، وقرأ الآخرون بالنصب على الحال ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

(٤) ـ (٥) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، الآية. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم فيحدث بها قريشاً، ويقول: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية، وقال مجاهد: يعني شراء القيان والمغنيين، ووجه الكلام على هذا

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

٤١١

التأويل، من يشتري ذات لَهو أو ذَا لَهو الحديث.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق المزكي، ثنا جدي محمد بن إسحاق بن خزيمة، أنا علي بن حجر، أنا مشعل بن ملحان الطائي، عن مُطّرح بن يزيد، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبدالعزيز، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام»، وفي مثل هذا أنزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالاَنِ يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت».

أخبرنا عبدالرحمن [بن عبدالله بن أحمد القفال، أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجردي، أنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي، أنا محمد بن غالب بن تمام، أنا خالد بن أبي يزيد، عن هشام هو ابن حسان، عن محمد هو ابن سيرين، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ «نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة».

قال مكحول: من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصل عليه، إن الله يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ الآية.

وعن عبدالله بن مسعود، وابن عباس، والحسن، وعكرمة، وسعيد بن جبير قالوا: «لهو الحديث» هو الغناء والآية نزلت فيه، ومعنى قوله: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن، قال أبو الصباء البكري سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات.

وقال إبراهيم النخعي: الغناء ينبت النفاق في القلب، وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف. وقيل: الغناء رُقيةُ الزنا.

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

وقال ابن جريج: هو الطبل. وعن الضحاك قال: هو الشرك. وقال قتادة: هو كل لهو ولعب، ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، يعني يفعله عن جهل، قال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق. قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، أي: يتخذ آيات الله هزوا. قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب: «ويتخذها» بنصب الدال عطفاً على قوله: «ليضل» وقرأ الآخرون بالرفع نسقاً على قوله: «يشتري»، ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿٨﴾ ـ ﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿١١﴾ ﴿هَٰذَا﴾، يعني الذي ذكرت مما تعاينون، ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، من آلهتكم التي تعبدونها، ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿١٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور، وقال محمد بن إسحاق، وهو لقمان بن ناعور بن ناحور بن تارح وهو آزر. وقال وهب: إنه كان ابن أخت أيوب وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن خالة أيوب.

قال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل. واتفق العلماء على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، إلا عكرمة فإنه قال: كان لقمان نبياً، وتفرد بهذا القول. وقال بعضهم: خيّر لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة.

وروي أنه كان نائماً نصف النهار فنودي يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض لتحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت فقال: إن خيرني ربي [بين العافية والبلاء] قبلت العافية ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعةً، فإني أعلم إن فعل ذلك بي أعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان أن يعدل [فيخذل أو يعان] فبالأحرى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه وهو يتكلم بها، ثم نُودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهوى في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو [الله] عنه، وكان لقمان يؤازره بحكمته.

وعن خالد الربعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وقال سعيد بن المسيب: كان خياطاً. وقيل: كان راعي غنم.

فروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال: ألست فلاناً الراعي [قال: نعم قال]: فبم بلغت ما بلغت؟ قال: بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني. وقال مجاهد: كان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين. قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾، واسمه أنعم ويقال مشكم، ﴿وَهُوَ

يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، قرأ ابن كثير: «يا بني لا تشرك بالله» بإسكان الياء، وفتحها حفص، والباقون بالكسر، «يا بني إنها» بفتح الياء حفص، والباقون بالكسر، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧] بفتح الياء البزي عن ابن كثير وحفص، وبإسكانها القواس، والباقون بكسرها.

⑭ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، قال ابن عباس: شدة بعد شدة. وقال الضحاك: ضعفاً على ضعف. وقال مجاهد: مشقة على مشقة. وقال الزجاج: المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة. ويقال: الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾، أي فطامه، ﴿فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، المرجع، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين.

⑮ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، أي بالمعروف، وهو البر والصلة والعشرة الجميلة، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾، أي: دين من أقبل إلى طاعتي وهو النبي ﷺ وأصحابه.

قال عطاء عن ابن عباس: يريد أبا بكر، وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، فقالوا له: قد صدّقت هذا الرجل وآمنت به؟ قال: نعم، هو صادق، فآمنوا به، ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا، فهؤلاء لهم سابقة الإسلام، أسلموا بإرشاد أبي بكر، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾، يعني أبا بكر، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقيل: نزلت هاتان الآيتان في سعد بن أبي وقاص وأمه، وقد مضت القصة وقيل: الآية عامة في حق كافة الناس.

⑯ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ الكناية في قوله: ﴿إِنَّهَآ﴾ راجعة إلى الخطيئة، وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾، قال قتادة تكن في جبل. وقال ابن عباس: هي صخرة تحت الأرضين السبع، وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار، وخضرة السماء منها.

قال السدي: خلق الله الأرض على حوت ـ وهو النون الذي ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] ـ والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، والصخرة على الريح. ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾، باستخراجها، ﴿خَبِيرٌ﴾، عالم بمكانها، قال الحسن: معنى الآية هي الإحاطة بالأشياء، صغيرها وكبيرها، وفي بعض الكتب إن هذه الكلمة آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات رحمه الله.

⑰ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، يعني من الأذى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما، من الأمور الواجبة التي أمر الله بها وهي من الأمور التي يعزم عليها لوجوبها.

⑱ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: «ولا تصعر» بتشديد العين من غير ألف، وقرأ الآخرون: «تصاعر» بالألف. يقال: صعر وجهه وصاعر إذا مال وأعرض تكبراً، ورجل أصعر: أي مائل العنق. قال ابن عباس: يقول: لا تتكبر فتحقّر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وقال مجاهد: هو الرجل يكون بينك وبينه إحنة فتلقاه فيعرض عنك بوجهه. وقال عكرمة: هو الذي إذا سُلّم عليه لَوَى عنقه تكبراً. وقال الربيع بن أنس وقتادة: لا تحتقرن الفقراء ليكن الفقر والغنى عندك سواء، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، خيلاء تكبراً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾، في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾، على الناس.

⑲ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، أي ليكن مشيك قصداً لا تخيلاً ولا إسراعاً. وقال عطاء: امش بالوقار والسكينة، كقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ
الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
وَإِلَى اللَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، اخفض صوتك، ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾، أقبح الأصوات، ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، أوله زفير وآخره شهيق، وهما صوتا أهل النار.

وقال موسى بن أعين: سمعت سفيان الثوري يقول في قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، قال: صياح كل شيء تسبيح لله إلا الحمار. وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قال: هي العطسة القبيحة المنكرة. قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة، أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم و[من] حكمه.

قال خالد الربعي: كان لقمان عبداً حبشياً فدفع مولاه إليه شاة وقال: اذبحها واتتني بأطيب مضغتين منها، فأتاه باللسان والقلب، ثم دفع إليه شاة أخرى، وقال: اذبحها واتتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب، فسأله مولاه [عن ذلك]، فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا.

﴿٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾، أتم وأكمل، ﴿نِعَمَهُ﴾ قرأ أهل المدينة، وأبو عمرو، وحفص: «نعمه» بفتح العين وضم الهاء على الجمع، وقرأ الآخرون منونة على الواحد ومعناه الجمع أيضاً كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ١٤]، ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، قال عكرمة عن ابن عباس: النعمة الظاهرة: الإسلام والقرآن، والباطنة ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة. وقال الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة وتسوية الأعضاء، والباطنة، المعرفة. وقال مقاتل: الظاهرة: تسوية الخلق، والرزق، والإسلام، والباطنة [ما ستر من الذنوب]، وقال الربيع: الظاهرة: بالجوارح، والباطنة: بالقلب، وقيل: الظاهرة الإقرار باللسان والباطنة: الاعتقاد بالقلب. وقيل: الظاهرة: تمام الرزق والباطنة: حسن الخلق. وقال عطاء: الظاهرة تخفيف الشرائع، والباطنة الشفاعة. وقال مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء، والباطنة الإمداد بالملائكة. وقيل: الظاهرة الإمداد بالملائكة، والباطنة: إلقاء الرعب في قلوب الكفار. وقال سهل بن عبدالله: الظاهرة اتباع الرسول، والباطنة محبته. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، نزلت في النضر بن الحارث، وأُبيّ بن خلف، وأمية بن خلف، وأشباههم كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم، ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، وجواب لو محذوف، ومجازه: يدعوهم فيتبعونه، يعني يتبعون الشيطان وإن كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: لله، يعني يخلص دينه لله ويفوّض أمره إلى الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، في عمله، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، أي اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾، أي: نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلاً إلى انقضاء آجالهم، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾، ثم نلجئهم ونردهم في الآخرة، ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وهو عذاب النار.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

(٢٧) قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ الآية.

قال المفسرون: نزلت بمكة، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا: يا محمد بلغنا عنك أنك تقول: «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً» أفعنيتنا أم قومك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: كُلاًّ قد عنيت، قالوا: ألست تتلوا فيما جاءك، أنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن علمتم به انتفعتم»، قالوا: يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فكيف يجتمع هذا، علم قليل وخير كثير؟ فأنزل هذه الآية. وقال قتادة: إن المشركين قالوا: إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفذ فينقطع، فنزلت.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي بريت أقلاماً، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب: «والبحر» بالنصب عطفاً على «ما»، والباقون بالرفع على الاستئناف ﴿يَمُدُّهُ﴾ أي يزيده، وينصبّ فيه ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من خلفه، ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾، وفي الآية اختصار تقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفذت كلمات الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهذه الآية على قول عطاء بن يسار مدنية، وعلى قول غيره مكية، وقالوا: إنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعدُ بمكة والله أعلم.

(٢٨) ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أي [إلاّ] كخلق نفس واحدة، وبعثها لا يتعذر عليه شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي ذلك الذي ذكرت لتعلموا أن الله هو الحق، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾، إن ذلك من نعمة الله عليكم، ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾، عجائبه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾، على أمر الله، ﴿شَكُورٍ﴾، لنعمه.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾، قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: [والسدي]: كالسحاب. والظلل

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

سورة السجدة

٤١٤

جمع ظلة شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها، وجعل الموج، وهو واحد، كالظل وهي جمع، لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾، أي عدل موف في البر بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له يعني: ثبت على إيمانه. نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءتهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجاني الله من هذا لأرجعن إلى محمد ﷺ ولأضعن يدي في يده، فسكنت الريح، فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه.

وقال مجاهد: فمنهم مقتصد في القول مضمر للكفر.

وقال الكلبي [فمنهم] مقتصد في القول: أي من الكفار، لأن بعضهم كان أشد قولاً وأغلى في الافتراء من

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

٤١٥

بعض، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، والختر أسوأ الغدر.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾، لا يقضي ولا يغني، ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾، مغن، ﴿عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، قال ابن عباس: كل امرىء تهمه نفسه، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، يعني الشيطان. قال سعيد بن جبير: هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة.

(٣٤) قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، الآية.

نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة، من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركتُ امرأتي حبلى، فمتى تلد؟ وقد علمتُ أين ولدتُ فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وقرأ أُبي بن كعب «بأي أرض» والمشهور «بأيه أرض» لأن الأرض ليس فيها من علامات التأنيث شيء، وقيل: أراد بالأرض المكان.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالعزيز بن عبدالله، أنا إبراهيم بن ساعدة، أنا ابن شهاب، عن سالم بن عبدالله، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

* * *

سورة السجدة

مكية [وهي ثلاثون آية].

قال عطاء: إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [١٨] إلى آخر ثلاث آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ (٢) ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال مقاتل: لا شك فيه أنه تنزيل من رب العالمين.

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، بل يقولون ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وقيل الميم صلة أي أيقولون افتراه؟ استفهام توبيخ، وقيل: «أم» بمعنى الواو، أي ويقولون افتراه. وقيل: فيه إضمار مجاز فهل يؤمنون، أم يقولون افتراه، ثم قال: ﴿بَلْ هُوَ﴾، يعني القرآن، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾، يعني: لم يأتهم، ﴿مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، قال قتادة: كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ. وقال ابن عباس، ومقاتل: ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى عليه السلام وبين محمد ﷺ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وقيل: ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾، يصعد، ﴿إِلَيْهِ﴾، جبريل بالأمر، ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، أي في يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة ألف سنة، خمسمائة نزوله، وخمسمائة صعوده، لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، يقول: لو سار فيه أحد من بني آدم

لم يقطعه إلا في ألف سنة، والملائكة يقطعونه في يوم واحد، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء، وأما قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، أراد مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل يسير جبريل، والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا، هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك. وقوله «إليه» أي إلى الله.

وقيل: على هذا التأويل [أي] إلى مكان الملك الذي أمره الله عزّ وجلّ أن يعرج إليه.

وقال بعضهم: ألف سنة وخمسون ألف سنة كلها في القيامة، يكون على بعضهم أطول وعلى بعضهم أقصر، معناه: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا، ثم يعرج أي: يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا، وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة، وهو يوم القيامة، وأما قوله: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فإنه أراد على الكافر يجعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة، وعلى المؤمن دون ذلك حتى جاء في الحديث «أنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا».

وقال إبراهيم التيمي: لا يكون على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر، ويجوز أن يكون هذا إخبار عن شدته وهوله ومشقته.

وقال ابن أبي مليكة: دخلت أنا وعبدالله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن قوله خمسين ألف سنة؟ فقال له ابن عباس: أيام سماها الله لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم.

﴿٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، يعني ذلك الذي صنع ما ذكره من خلق السموات والأرض، عالم مَا غابَ عن [عيان] الخلق وما حضر، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، قرأ نافع وأهل الكوفة «خلَقه» بفتح اللام على الفعل وقرأ الآخرون بسكونها، أي أحسنَ خلقَ كل شيء، قال ابن عباس: أتقنه وأحكمه. قال قتادة: حسّنه. وقال مقاتل: علم كيف يخلق كل شيء، من قولك: فلان يحسن كذا إذا كان يعلمه. وقيل: خلق كل حيوان على صورته لم يخلق البعض على صورة البعض، فكل حيوان كامل في خلقه حسن، وكل عضو من أعضائه مقدر بما يصلح به معاشه. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾، يعني آدم.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾، يعني ذريته، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾، نطفة، سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، أي ضعيف وهو نطفة الرجل.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، وسوى خلقه، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، ثم عاد إلى ذريته، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، بعد أن كنتم نطفاً، ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، يعني لا تشكرون ربَّ هذه النعم فتوحدونه.

﴿١٠﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾، يعني منكري البعث، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾، هلكنا، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وصرنا تراباً، وأصله من قولهم: ضل الماء في اللبن إذا ذهب، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، استفهام إنكار. قال الله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾، أي بالبعث بعد الموت.

﴿١١﴾ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾، يقبض أرواحكم ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، أي وكل بقبض أرواحكم وهو عزرائيل، والتوفي استيفاء العدد، [المضروب للخلق في الأزل]، معناه أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت.

وروي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة، فهو يقبض أنفس الخلق في مشارق الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، [فملائكة الرحمة للمؤمنين وملائكة العذاب للكافرين].

وقال ابن عباس: إن خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب.

وقال مجاهد: جعلت له الأرض مثل طست يتناول منها حيث يشاء.

وفي بعض الأخبار: أن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فينزع أعوانه روح الإنسان فإذا بلغ ثغره نحره قبضه ملك الموت.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

وروى خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال: إن لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب، وهو يتصفح وجوه الناس، فما من أهل بيت إلا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين، فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة، وقال: الآن تزار بك سكرات الموت. قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، أي تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، المشركون، ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾، مطأطئو رؤوسهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، حياءً منه وندماً، ﴿رَبَّنَآ﴾، أي يقولون ربنا، ﴿أَبْصَرْنَا﴾، ما كنا به مكذبين، ﴿وَسَمِعْنَا﴾، منك تصديق ما أتتنا به رسلك. وقيل: أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾، فارددنا إلى الدنيا، ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وجواب لو مضمر مجازه لرأيت العجب.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾، رشدها وتوفيقها للإيمان، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ﴾، وجب، ﴿ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وهو قوله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ثم يقال لأهل النار، وقال مقاتل: إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة.

﴿١٤﴾ ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، أي تركتم الإيمان به في الدنيا، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾، تركناكم، ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، من الكفر والتكذيب.

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾، وعظوا بها، ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾، سقطوا على وجوههم ساجدين، ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قيل: صلوا بأمر ربهم، وقيل: قالوا سبحان الله وبحمده، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، عن الإيمان والسجود له.

﴿١٦﴾ ﴿تَتَجَافَىٰ﴾، ترتفع وتنبو، ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، جمع مضجع، وهو الموضع الذي يضطجع عليه، يعني الفرش، وهم المتهجدون بالليل، الذين يقومون للصلاة.

واختلفوا في المراد بهذه الآية.

قال أنس: نزلت فينا معشر الأنصار، كنّا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ.

وعن أنس أيضاً قال: نزلت في أناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء.

وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر، وقالا: هي صلاة الأوابين. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوابين. وقال عطاء: هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة. وعن أبي الدرداء، وأبي ذر، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم: هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن سمي مولى أبي بكر بن عبدالرحمن، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلاّ أن يستهمُوا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون

ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً».

وأشهر الأقاويل أن المراد منه: صلاة الليل، وهو قول الحسن، ومجاهد، ومالك، والأوزاعي، وجماعة.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرنا فأصبحت يوماً قريباً منه وهو يسير فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني من النار، قال: «لقد سئلت عن أمرٍ عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبدُ الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُ البيتَ»، ثم قال: «ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، قال: فأخذ بلسانه فقال: اكفف عليك هذا، فقلت: يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم».

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أحمد المخلدي، أنا محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حمد بن زنجويه، أنا عبدالله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي أمامة الباهلي، عن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا روح بن أسلم، أنا حماد بن سلمة، أنا عطاء بن السائب، عن مرة الهَمْداني، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربُنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته»، فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبةً فيما عندي وشفقاً مما معه عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه، فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع، فرجع فقاتل حتى أهريق دمه، فيقول الله لملائكته: «انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقاً مما عندي حتى أهريق دمه».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، أنا أبو العباس المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا قتيبة بن سعيد، أنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن حميد بن عبدالرحمن الحميري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن معانق، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا إصبغ، أخبرني عبدالله بن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، أن الهيثم بن أبي سنان، أخبره أنه سمع أبا هريرة في قصصه يذكر عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «إن أخاً لكم لا يقول

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سورة الأحزاب

٤١٧

الرفث» يعني بذلك عبدالله بن رواحة، قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال ابن عباس خوفاً من النار وطمعاً في الجنة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، قيل أراد به الصدقة المفروضة. وقيل: [هو عام] في الواجب والتطوع.

﴿١٧﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾، قرأ حمزة ويعقوب «أخفيْ لهم» ساكنة الياء أي، أنا أخفي لهم، ومن حجته قراءة ابن مسعود «نخفي» بالنون، وقرأ الآخرون بفتحها، ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، مما تقرّ به أعينهم، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا إسحاق بن نصر، أنا أبو أسامة عن الأعمش، أنا أبو صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما اطلعتم عليه»، ثم قرأ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: هذا مما لا تفسير له. وعن بعضهم قال: أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

﴿١٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾، نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي مُعيط أخي عثمان لأمه، وذلك أنه كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد بن عقبة لعلي: اسكت فإنك صبي وأنا والله أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾، ولم يقل: لا يستويان، لأنه لم يرد مؤمناً واحداً وفاسقاً واحداً بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين.

﴿١٩﴾ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾، التي يأوي إليها المؤمنون، ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، [أي سوى العذاب الأكبر]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال أبي بن كعب، والضحاك، والحسن، وإبراهيم: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها، وهو رواية الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال عكرمة عنه: الحدود. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب. وقال ابن مسعود: هو القتل بالسيف يوم بدر، وهو قول قتادة والسدي، ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ يعني عذاب الآخرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، إلى الإيمان، يعني من بقي منهم بعد بدر وبعد القحط.

﴿٢٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، يعني المشركين، ﴿مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾، يعني فلا تكن في شك من لقاء موسى ليلة المعراج، قاله ابن عباس وغيره.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن بشار، أنا غندر، عن شعبة، عن قتادة رحمة الله قال: وقال لي خليفة، أنا يزيد بن زُريع، أنا سعيد عن قتادة عن أبي العالية قال: أنا ابن عم نبيكم يعني ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إيّاه فلا تكن في مرية من لقائه».

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبدالملك المؤذن، أنا عبدالله المحاملي، أنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن إبراهيم البزار، أنا محمد بن يونس، أنا عمر بن حبيب القاضي، أنا سليمان التيمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما سُرِيَ بي إلى السماء رأيت موسى يصلي في قبره».

وروينا في المعراج أنه رآه في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة، وقال السدي: «فلا تكن في مرية من لقائه» أي من تلقي موسى كتاب الله بالرضا والقبول، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، يعني الكتاب وهو التوراة، وقال قتادة: موسى، ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾، يعني من بني إسرائيل، ﴿أَئِمَّةً﴾، قادة في الخير يقتدى بهم، يعني الأنبياء الذين كانوا فيهم. وقال قتادة: أتباع الأنبياء، ﴿يَهْدُونَ﴾، يدعون، ﴿بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾، قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم، أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾، يقضي، ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، لم يتبين، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، آيات الله وعظاته فيتعظون بها.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، أي اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، قال ابن عباس: هي أرض باليمن. وقال مجاهد: هي أرض بابين، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾، من العشب والتبن، ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾، من الحبوب والأقوات، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، قيل: أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم بين العباد.

قال قتادة: قال أصحاب النبي ﷺ للكفار: إن لنا يوماً نتنعم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم، فقالوا استهزاء: متى هذا الفتح؟ أي القضاء والحكم.

وقال الكلبي: يعني فتح مكة.

وقال السدي: يوم بدر لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون لهم: إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم، فيقولون متى هذا الفتح.

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، يوم القيامة، ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾، ومن حمل الفتح على فتح مكة والقتل يوم بدر قال: معناه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، لا يمهلون ليتوبوا ويعتذروا.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، قال ابن عباس: نسختها آية السيف، ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، قيل: انتظر موعدي لك بالنصر إنهم منتظرون بك حوادث الزمان. وقيل: انتظر عذابنا فيهم فإنهم منتظرون ذلك.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو نعيم، أنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبدالرحمن بن هرمز، عن أبي هريرة أنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١ ـ ٢]، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا أبو نعيم، أنا سفيان، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١ ـ ٢]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

❁ ❁ ❁

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

٤١٨

سورة الأحزاب

مدنية [وهي ثلاث وسبعون آية].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾.

نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي، وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبدالله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين بعد قتال أُحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا، اللات والعزى ومناة، وقل إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال عمر: يا رسول الله ائذن لنا في قتلهم، فقال: إني قد أعطيتُهم الأمان، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾.

أي دُم على التقوى، كالرجل يقول لغيره وهو قائم قم ههنا أي اثبت قائماً. وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الأمة. وقال الضحاك: معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة يعني أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾، من أهل المدينة، عبدالله بن أبيّ وعبدالله بن سعد وطعمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾، بخلقه، قبل أن يخلقهم، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لهم.

﴿٢﴾ ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، قرأ أبو عمرو «يعملون خبيراً» و«يعملون بصيراً» بالياء فيهما وقرأ غيره بالتاء.

﴿٣﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق بالله، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، حافظاً لك، وقيل كفيلاً برزقك.

﴿٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلاّ وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه في يده والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما لك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنهما في رجليّ، فعلموا يومئذٍ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

وقال الزهري ومقاتل: هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره، يقول: فكما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمّه حتى تكون له أمان، ولا يكون له ولد واحد ابن رجلين. ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، قرأ أهل الشام والكوفة «اللاتي» ههنا وسورة الطلاق [٤] بياء بعد الهمزة، وقرأ قالون عن نافع ويعقوب بغير ياء بعد الهمزة، وقرأ الباقون بتليين الهمزة، وكلها لغات معروفة، ﴿تُظَاهِرُونَ﴾ قرأ عاصم بالألف وضم التاء وكسر الهاء مخففاً، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء والهاء مخففاً، وقرأ ابن عامر بفتحها وتشديد الظاء، وقرأ الآخرون بفتحها وتشديد الظاء والهاء من غير ألف بينهما، وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي، يقول الله تعالى: ما جعل نساءكم اللاتي تقولون لهن هذا في التحريم كأمهاتكم، ولكنه منكر وزور، وفيه كفارة نذكرها إن

شاء الله تعالى في سورة المجادلة [٣ ـ ٤]. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾، يعني من تبنيتموه ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾، فيه نسخ التبني، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود له، يدعوه الناس إليه ويرث ميراثه.

وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة بن عبدالمطلب، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة، قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية ونسخ التبني، ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾، لا حقيقة له يعني قولهم زيد بن محمد ﷺ نسب لا حقيقة له، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، يعني قوله الحق، ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، أي يرشد إلى سبيل الحق.

(٥) ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾، الذين ولدوهم، ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾، أعدل، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا معلى بن أسد، أنا عبدالعزيز بن المختار، أنا موسى بن عقبة، حدثني سالم، عن عبدالله بن عمر، أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ قال: ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، يعني فهم إخوانكم، ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، إن كانوا محررين وليسوا ببنيكم، أي سموهم بأسماء إخوانكم في الدين. وقيل: مواليكم أي أولياءكم في الدين، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، قبل النهي فنسبتموه إلى غير أبيه، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، من دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهي. وقال قتادة: فيما أخطأتم به أن تدعوه لغير أبيه وهو يظن أنه كذلك، ومحل «ما» في قوله تعالى: ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ خفض رداً على «ما» التي في قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ مجازه ولكن فيما تعمدت قلوبكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن بشار، أنا غندر، أنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا عثمان قال: سمعت سعداً وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأبا بكرة وكان قد تسور حصن الطائف في أناس، فجاء إلى النبي ﷺ فقالا: سمعنا النبي ﷺ يقول: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام».

(٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعني من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم. وقال ابن عباس وعطاء: يعني إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من [طاعة] أنفسهم. وقال ابن زيد: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فيما قضى فيهم، كما أنت أولى بعبدك فيما قضيت عليه. وقيل: هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه. وقيل: كان النبي ﷺ يخرج إلى الجهاد فيقول قوم: نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالله بن محمد، أنا أبو عامر، أنا فليح، عن هلال بن علي عن عبدالرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا، أنا أولى به في الدنيا والآخرة» اقرأوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته مَنْ كانوا، ومن ترك دَيناً أو ضَياعاً فليأتني فأنا مولاه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، وفي حرف أبي «وأزواجه وأمهاتهم وهو [أب] لهم» وهن أمهات المؤمنين في تعظيم حقهن وتحريم نكاحهن على التأبيد، لا في النظر إليهن والخلوة بهن، فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجانب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، ولا يقال لبناتهن هن أخوات المؤمنين ولا لإخوانهن أخواتهن، هم أخوال المؤمنين وخالاتهم.

قال الشافعي: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، وهي أخت أم المؤمنين، ولم يقل هي خالة المؤمنين، واختلفوا في أنهن هل كنّ

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

٤١٩

أمهات النساء المؤمنات؟ قيل: كن أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعاً. وقيل: كنّ أمهات المؤمنين دون النساء.

وروى الشعبي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها: يا أمه! فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم، فبان بهذا أن معنى هذه الأمومة تحريم نكاحهنّ. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، يعني في الميراث، قال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة.

قال الكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين الناس، فكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم، ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، يعني ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرث بالإيمان والهجرة، فنسخت هذه الآية الموارثة بالمآخاة والهجرة وصارت بالقرابة.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾، أراد بالمعروف الوصية للذين يتولونه من المعاقدين، وذلك أن الله لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلثه.

وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة لحق الإيمان والهجرة. وقيل: أراد بالآية إثبات الميراث بالإيمان والهجرة، يعني وأولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض، أي: لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً، يعني إلا أن توصوا لذوي قراباتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة، وهذا قول قتادة وعطاء وعكرمة. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، أي كان الذي ذكرت من أن ذوي الأرحام بعضهم أولى ببعض في اللوح المحفوظ مسطوراً مكتوباً. وقال القرظي: في التوراة.

﴿٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾، على الوفاء بما حملوا وأن يصدق بعضهم بعضاً ويبشر بعضهم ببعض. قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعو إلى عبادته ويصدّق بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم، ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولوا العزم من الرسل وقدّم النبي ﷺ بالذكر لِما.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد الحديثي، أنا عبدالله بن أحمد بن يعقوب المقرىء، أنا محمد بن محمد بن سليمان الساعدي، أنا هارون بن محمد بن بكار بن بلال، أنا أبي، أنا سعيد، يعني ابن بشير عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كنتُ أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»، قال قتادة: وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾، فبدأ به ﷺ قبلهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، عهداً شديداً على الوفاء بما حمّلوا.

﴿٨﴾ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، يقول: أخذنا ميثاقهم لكي نسأل الصادقين عن صدقهم يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم، مع علمه أنهم صادقون، بتكذيب من أرسلوا إليهم. وقيل: ليسأل الصادقين عن عملهم لله عزّ وجلّ. وقيل: ليسأل الصادقين

بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿٩﴾ قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وذلك حين حُوصر المسلمون مع رسول الله ﷺ أيام الخندق، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، يعني الأحزاب، وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة والنضير، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، وهي الصبا.

قال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول الله ﷺ فقالت الشمال إن الحرة لا تسري بالليل، وكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا آدم، أنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور».

قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهم الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذٍ، فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحاً باردةً فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل حي يقول: يا بني فلان هلم إليّ فإذا اجتمعوا عنده قال: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم من الرعب فانهزموا من غير قتال. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير، عن عروة بن الزبير، ومن لا أتهم، عن عبدالله بن كعب بن مالك، وعن الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعن محمد بن كعب القرظي، وعن غيرهم من علمائنا، دخل حديث بعضهم في بعض: أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهودة بن قيس وأبي عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منهم، قالوا: فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٥]، فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ما قالوا ونشطوا لِما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس غيلان، فدعوهم إلى ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك، فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في [بني] فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع، فلما سمع [بهم] رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حرّ، فقال: يا رسول الله إنّا كنّا بفارس إذا حصرنا خندقنا علينا، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد الأصبهاني، أنا محمد بن جعفر الطبري، ثنا حماد بن الحسن، ثنا محمد بن خالد بن عثمة، ثنا كثير بن عبدالله، عن عمرو بن عوف، حدثني أبي عن أبيه قال: خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، قال: فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقال الأنصار: سلمان منّا، فقال النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

قال عمرو بن عوف: كنت، أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن

المازني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحفرنا حتى إذا كنا بجنب ذي ناب أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان ارقَ إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة، فإما أن يعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، قال: فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا، حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان إلى الخندق [والتسعة على شق الخندق]، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من يد سلمان فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، يعني المدينة، حتى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير [فتح] كبر [معه] المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية [فصدعها] وبرق عنها، برقٌ أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون [معه]، [ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح، وكبر المسلمون [معه]، فأخذ بيد سلمان ورقى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: «أرأيتم ما يقول سلمان»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا»، فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون: ألا تعجبون من محمد يعدكم ويمنيكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال فنزل القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وأنزل الله في هذه القصة: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالله بن محمد، أنا معاوية بن عمرو، أنا أبو إسحاق، عن حميد، قال: سمعت أنساً يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك عنهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»، فقالوا: مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً
على الجهاد ما بقينا أبداً

وأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا مسلم بن إبراهيم، أنا شعبة عن أبي إسحاق عن البراء [بن عازب] قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغمّر بطنه أو اغبر بطنه وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكِينةً علينا
وثبت الأقدام إنْ لاقينا
إن الألى قد بَغَوْا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته أبينا أبينا.

رجعنا إلى حديث ابن إسحاق قال [فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة من الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل

نجد، حتى نزلوا بذنب نَقْمىٰ إلى جانب أُحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالنساء والذراري فرُفعوا في الآطام، وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب بِحُيَي بن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه حيي فأبى أن يفتح له فناداه حيي: يا كعب افتح لي، فقال: وَيْحَك يا حُيَي إنك امرؤ مشؤم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقاً، قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما، أنا فاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلا على جشيشتك أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحد، وقد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، قال له كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هَرَاق ماؤه برعد وبرق، ليس فيه شيء، فدعني ومحمداً وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقاً ووفاءً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده وتبرأ مما كان عليه فيما كان بينه وبين رسول الله ﷺ]، [فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، أحد بني عبدالأشهل، وهو يومئذٍ سيد الأوس، وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة، وهو يومئذٍ سيد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة أخو الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به جهراً للناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم منهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن معاذ: دعْ عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا: عَضَلٌ والقارة [أي] لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع: خبيب بن عدي وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً، وحتى قال أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن قيظي: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك على ملأ من رجال قومه، فائذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة، فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عمر، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح على ذلك، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أشيء أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به أم أمر تحبه فتصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: [لا] بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت

العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبدالله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأخذوا منّا ثمرة واحدة، إلاّ قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال: ليجهدوا علينا. فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم مخاصروهم]، [ولم يكن بينهم قتال إلاّ أنّ فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ود، أخو بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان، ونوفل بن عبدالله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب بن فهر، قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ودّ قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج مُعلّماً ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال له علي: يا عمرو إنك كنت تعاهد الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذت منه إحداهما، قال: أجل، فقال له علي بن أبي طالب: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال، قال: ولِمَ يا ابن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي: ولكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي فتناولا وتجاولا، فقتله علي، فخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبدالدار أصابه سهم، فمات منه بمكة، ونوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، وكان [قد] اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة، فقال: يا معشر العرب قتله أحسن من هذا، فنزل إليه علي فقتله، فغلب المسلمون على جسده، فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لنا في جسد وثمنه، فشأنكم به، فخلّى بينهم وبينه]. [قالت عائشة أم المؤمنين: كنا يوم الخندق في حصن، بني حارثة، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معنا في الحصن، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلّصة، قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربة وهو يقول شعر:

لبث قليلاً يدرك الهيجا حمل
لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: الحق يا بني فقد والله أجزت، قالت عائشة فقلت لها: يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، قالت: وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه، قالت: فرمي سعد يومئذٍ بسهم وقُطع منه الأكحل، رماه خباب بن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤي، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال سعد: عرّق الله وجهك في النار، ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إليّ من أن أجاهدهم من قومٍ هم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية].

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عباد قال: كانت صفية بنت عبدالمطلب في فارع، حصن حسان بن ثابت، قالت: وكان حسان معنا فيه، مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمرّ بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة،

فقطعت ما بيننا وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم، إذا أتانا آت، قالت: فقلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى، يطيف بالحصن وإني والله لم آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابُه، فانزلْ إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا ابنة عبدالمطلب، والله، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئاً اعتجرت، ثم أخذتُ عموداً، ونزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان انزلْ إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه [إلا] لأنه رجل، قال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبدالمطلب.

قالوا: أقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله تعالى من الخوف والشدة لتظاهرِ عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر من بني غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّلْ عنا إنِ استطعتَ، فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم وُدي إيّاكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان جاؤوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان، أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بعيدة، إن رأوا نهزةً وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً، حتى تناجزوه، قالوا: لقد أشرت برأي ونصح، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: يا معشر قريش قد عرفتم وُدي إيّاكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ رأيت أن حقاً عليّ أن أبلغكم نصحاً لكم، فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد نَدِمُوا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أن قد نَدِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من القبيلتين، من قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسلَ إليهم أن نَعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، أنتم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت، قال: فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم، فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان [ذلك] مما صنع لرسول الله ﷺ، أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فقال لهم بنو قريظة: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث بعضنا فيه حدثاً فأصابه ما لم يخفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضَرَسَتْكم الحربُ واشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلما رجعت إليهم الرسل بذلك الذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تَعلَمنّ والله أن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة إنّا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، وإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم

إلا أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً.

روى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، وروى غيره عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قالا: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبدالله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه، قال: نعم يا ابن أخي، قال: كيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، فقال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ، فقال: من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة، فما قام منّا رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هوناً من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم، وما قام منّا رجل ثم صلى رسول الله ﷺ هوناً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: هل من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة، فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال: يا حذيفة، فلم يكن لي بدٌّ من المقام إليه حين دعاني، فقلت: لبيك يا رسول الله وقمت حتى أتيه، وإن جنبيّ ليضطربانِ فمسح رأسي ووجهي، ثم قال: ائت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تُحدثنّ شيئاً حتى ترجع إليّ، ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، فأخذتُ سهمي، وشددت عليّ سلاحي ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأنما أمشي في حمام، فذهبت فدخلت في القوم، وقد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً [وجنود] الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً [قال] وأبو سفيان قاعد يصطلي، فأخذت سهماً فوضعته في كبد قوسي فأردت أن أرميه، ولو رميتُه لأصبته، فذكرتُ قول النبي ﷺ لاتحدثنّ حدثاً حتى ترجع إليّ فرددت سهمي في كنانتي، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم، لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء، قام فقال: يا معشر قريش ليأخذْ كل رجل منكم بيد جليسه، فلينظر من هو، [قال:] فأخذت بيد جليسي فقلت: من أنت، فقال: سبحان الله أما تعرفني، أنا فلان ابن فلان، فإذا هو رجل من هوازن، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ولقد هلكنا وهلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم، وسمعتْ غطفان بما فعلتْ قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ كأني أمشي في حمام فأتيته وهو قائم يصلي، فلما سلم أخبرته الخبر، فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، قال: فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عني الدفاء، فأدناني النبي ﷺ منه، وأنامني عند رجليه، وألقى عليّ طرف ثوبه، وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت قال: قمْ يا نومان.

(١٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾، أي من فوق الوادي من قبل المشرق، وهم أسد، وغطفان، وعليهم مالك بن عوف النصري، وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان، ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، يعني من بطن الوادي، من قبل المغرب، وهم قريش وكنانة، عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعه، وأبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق، وكان الذي جر غزوة ـ الخندق ـ فيما قيل، إجلاء رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾،

مالت وشخصت من الرعب، وقيل: مالت عن كل شيء فلم تنظر [إلا] إلى عدوها، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، فزالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع، والحنجرة: جوف الحلقوم وهذا على التمثيل عبّر به عن شدة الخوف، قال الفراء: معناه أنهم جبنوا وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رئته فإذا انتفخت الرئة رفعت القلب إلى الحنجرة، ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾، أي اختلفت الظنون فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر: الظنونا، والرسولا، والسبيلا، بإثبات الألف وصلاً ووقفاً، لأنها مثبتة في المصاحف بالألف، وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير الألف في الحالين على الأصل، وقرأ الآخرون بالألف في الوقف دون الوصل لموافقة رؤوس الآي.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ﴾، أي عند ذلك اختبر، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، بالحصر والقتال، ليتبين المخلص من المنافق، ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، حركوا حركة شديدة.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، معتب بن قشير، وقيل: عبدالله بن أبيّ وأصحابه، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وضعف اعتقاد، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، وهو قول أهل النفاق: يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، هذا والله الغرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾، أي من المنافقين، وهم أوس بن قيظي وأصحابه، ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾، يعني المدينة، قال أبو عبيدة: يثرب [اسم أرض]، مدينة الرسول ﷺ في ناحية منها، وفي بعض الأخبار:

أن النبي ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال: «هي طابة»، كأنه كره [هذه اللفظة] ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾، قرأ العامة بفتح الميم، أي لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي وحفص بضم الميم أي لا إقامة لكم، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم عن اتباع محمد ﷺ، وقيل: عن القتال إلى مساكنكم، ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾، وهم بنو حارثة وبنو سلمة، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، أي خالية ضائعة، وهو مما يلي العدو ونخشى عليها السرّاق، وقرأ أبو رجاء العطاردي «عورة» بكسر الواو، أي قصيرة الجدران يسهل دخول السراق إليها، فكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أي ما يريدون إلا الفرار.

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أي لو دخلت عليهم المدينة، [يعني] هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الأحزاب، ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، جوانبها ونواحيها جمع قطر، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي الشرك، ﴿لَءَاتَوْهَا﴾، لأعطوها، وقرأ أهل الحجاز لأتوها مقصوراً، أي لجاؤوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾، أي ما احتبسوا عن الفتنة، ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾، ولأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيّبة به أنفسهم، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الحسن والفراء: وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل غزوة الخندق، ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، من عدوهم أي لا ينهزمون.

قال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة، هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها. وقال قتادة: هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنّ، فساق الله إليهم ذلك.

وقال مقاتل والكلبي: هم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وقالوا: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبي ﷺ: «أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا رسول الله؟ قال: «لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»، قالوا: قد فعلنا ذلك فذلك عهدهم.

وهذا القول ليس بمرضي، لأن الذين بايعوا محمداً ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفراً، لم يكن فيهم شاك ولا من يقول مثل هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يفروا فنقضوا العهد، ﴿وَكَانَ عَهْدُ

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

٤٢٠

﴿ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، أي مسؤولاً عنه.

﴿١٦﴾ ﴿قُل﴾، لهم ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، الذي كتب عليم لأن من حضرَ أجله مات أو قتل، ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي لا تمتعون بعد هذا الفرار إلا مدة آجالكم وهي قليل.

﴿١٧﴾ ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي يمنعكم من عذابه، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾، هزيمة، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، نصرة، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾، أي قريباً ينفعهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾، أي ناصراً يمنعهم.

﴿١٨﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، أي المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أي ارجعوا إلينا، ودعوا محمداً، فلا تشهدوا معه الحرب، فإنا نخاف عليكم الهلاك، قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين، كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ ويقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلاّ أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم، أي: ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا الرجل فإنه هالك، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين، وذلك أن اليهود أرسلت إلى المنافقين، وقالوا ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إن قدروا عليكم في هذه المرّة لم يَسْتَبْقُوا منكم أحداً، وإنّا نشفق عليكم، أنتم إخواننا وجيراننا هلمّوا إلينا، فأقبل عبدالله بن أُبي وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومن معه، وقالوا: لئن قدروا عليكم لم يَسْتَبْقُوا منكم أحداً ما ترجون من محمد؟ ما عنده خير، ما هو إلا أن يقتلنا ههنا، انطلقوا بنا إلى إخواننا، يعني اليهود، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾، الحرب، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، رياء وسمعة من غير احتساب، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً.

﴿١٩﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، بخلاء بالنفقة في سبيل الله [والنصرة]، وقال قتادة: بخلاء عند الغنيمة، وصفهم الله بالبخل والجبن، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾، في الرؤوس من الخوف والجبن، ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، أي كدوران الذي يُغشى عليه من الموت، وذلك أن من قرب من الموت وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص بصره، فلا يطرف، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾، آذوكم ورموكم في حالة الأمن، ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، ذربة، جمع حديد، يقال للخطيب الفصيح: الذرب اللسان: مسلق ومصلق وسلاق وصلاق، قال ابن عباس: سلقوكم أي عضدوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة. وقال قتادة: بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطونا فإنا قد شهدنا معكم القتال، فلستم أحق بالغنيمة منّا، فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند البأس أجبن قوم، ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، أي عند الغنيمة يشاحون المؤمنين، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، قال مقاتل: أبطل الله جهادهم، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿يَحْسَبُونَ﴾، يعني هؤلاء المنافقين، ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾، يعني قريشاً وغطفان اليهود، ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾، لم ينصرفوا عن قتالهم جبناً وفرقاً وقد انصرفوا، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾، أي يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب، ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾، أي يتمنّوا لو كانوا في بادية مع الأعراب من الخوف والجبن، يقال: بدا يبدو بداوةً، إذا خرج إلى البادية. ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾، أخباركم وما آل إليه أمركم، وقرأ يعقوب: «يسّاءلون» مشددة ممدودة أي

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

٤٢١

يتساءلون، ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾، يعني هؤلاء المنافقين، ﴿فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، تعذيراً، أي يقاتلون قليلاً يقيمون به عذرهم، فيقولون قد قاتلنا. قال الكلبي: إلا قليلاً أي رمياً بالحجارة. وقال مقاتل: إلا رياءً وسمعةً من غير احتساب. قوله عزّ وجلّ:

(٢١) ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، قرأ عاصم: «أسوة» حيث كانت بضم الهمزة، والباقون بكسرها، وهما لغتان، أي قدوة صالحة، وهي فعلة من الائتساء، كالقدوة من الاقتداء، اسم وضع موضع المصدر، أي به اقتداء حسن إن تنصروا دين الله وتؤازروا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كُسِرَتْ رُباعيتُه وجُرح وجهه، وقُتل عمّه وأوذي بضروب من الأذى، فَوَاسَاكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضاً واستنوا بسنته، ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾، بدل من قوله لكم وهو تخصيص بعد تعميم للمؤمنين، يعني أن الأسوة برسول الله ﷺ لمن كان يرجو الله، قال ابن عباس: يرجو ثواب الله. وقال مقاتل: يخشى الله، ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، أي يخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال، ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في جميع المواطن على السراء والضراء، ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال:

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا﴾، تسليماً لأمر الله وتصديقاً لوعده، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وعد الله إياهم ما ذكر في سورة البقرة [٢١٤]: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾، إلى قوله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء، فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، [أي تصديقاً لله وتسليماً لأمر الله].

(٢٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، أي قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، أي فرغ من نذره، ووفّى بعهده، فصبر على الجهاد حتى استشهد، والنحب: النذر، والنحب: الموت أيضاً، قال مقاتل: «قضى نحبه» يعني أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأصحابه. وقيل: قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد من قول العرب: نحب فلان في سَيْره يومه وليلته أجمع إذا مدّ فلم ينزل، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [يعني] الشهادة.

وقال محمد بن إسحاق: «فمنهم من قضى نحبه» من استشهد يوم بدر وأحد، «ومنهم من ينتظر» يعني من بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين، إمّا الشهادة أو النصر، ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾، عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سعيد الخزاعي، أنا عبدالأعلى عن حميد قال: سألت أنساً.

(ح) وحدثني عمرو بن زرارة، أنا زياد، حدثني حميد الطويل، عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرَيَنّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر

إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نظن أو نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا محمد بن حماد، أنا [أبو] معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن خباب بن الأرت قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله فمنّا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد، فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمرة، فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر»، قال: و[منا] من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها».

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد النعيمي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي نصر، أنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي، أنا محمد بن سليمان الجوهري بأنطاكية، أنا مسلم بن إبراهيم، أنا الصلت بن دينار، عن أبي نصرة، عن جابر بن عبدالله قال: نظر النبي ﷺ إلى طلحة بن عبيد الله فقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى هذا».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالله بن أبي شيبة، أنا وكيع بن إسماعيل، عن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد.

(٢٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، أي جزاء صدقهم، وصدقهم هو الوفاء بالعهد، ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فيهديهم إلى الإيمان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، من قريش وغطفان، ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا، ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾، ظفراً، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، بالملائكة والريح، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، قوياً في ملكه عزيزاً في انتقامه.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ والمسلمين وهم بنو قريظة، ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، حصونهم ومعاقلهم، واحدها صيصية، ومنه قيل للقرن ولشوكة الديك والحاكة صيصية.

وذلك أن رسول الله ﷺ لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب فيها راجعين إلى بلادهم وانصرف النبي ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة، ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة، وعليها قطيفة من ديباج، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غلست شقه، فقال: قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم» فقال جبريل: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة، وما رجعت الآن إلاّ من طلب القوم.

وروي أنه كان الغبار على وجه جبريل عليه السلام وفرسه فجعل النبي ﷺ يمسح الغبار عن وجهه وعن فرسه، فقال [جبريل]: إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد إلى بني قريظة فانهد إليهم فإني قد قطعت أوتارهم، وفتحت أبوابهم، وتركتهم في زلزال وبلبال، فأمر النبي ﷺ منادياً فأذن: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلاّ في بني قريظة، وقدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إليهم، وابتدرها الناس فسار علي رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لِمَ، أظنك سمعتَ لي منهم أذىً؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلما دنا

رسول الله ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، ومرّ رسول الله ﷺ على أصحابه بالصَّوْرَيْن من قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مرّ بكم أحد؟ قالوا: نعم يا رسول الله مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال عليه السلام: ذاك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم، فلما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم [يقال لها بئر أناء]، فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ: «لا يصلّين أحد العصر إلاّ في بني قريظة»، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله بذلك ولا عنفهم به رسول الله ﷺ.

قال: وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله إنه لقد تبين لكم أنه مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال كعب: فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد [وأصحابه] رجالاً مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك [نهلك] ولن نترك وراءنا شيء نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتخذنّ النساء والأبناء، فقالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير في العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنُوا فيها فانزِلُوا لعلّنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا؟ أما من قد علمت فأصابهم من المسخ ما لم يخف عليك، فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً؟ قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم، فقالوا [له]: يا أبا لبابة أترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، قالوا: ماذا يفعل بنا إذا نزلنا؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح من مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة أبداً ولا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه، قال: أما لو قد جاءني لاستغفرتُ له فأما إذا فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، ثم إن الله تعالى أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ يضحك فقلت: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال: تيب على أبي لبابة، فقلت: ألا أبشره بذلك يا رسول الله؟ فقال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يُضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قال: فثار الناس عليه ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده، فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى [صلاة] الصبح أطلقه، قال: ثم إن ثعلبة بن شعبة وأسيد بن شعبة وأسيد بن عبيد، وهم نفر من بني هذيل ليسوا من بني قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التي نزل فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ، وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعدي القرظي

فمرّ بحرس رسول الله ﷺ وعليها محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: عمرو بن سُعدي، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، فقال: لا أغدر بمحمد أبداً، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني من عثرات الكرام ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله، فذكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: ذاك رجل قد نجاه الله بوفائه. وبعض الناس يزعم أنه كان قد أوثق برمة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رمته ملقاة لا يدري أين ذهب، فقال فيه رسول الله ﷺ تلك المقالة، والله أعلم. فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه فسألهم إيّاه عبدالله بن أبي ابن سلول، فوهبهم إيّاه فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم»؟ قالوا: بلى، قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ»، وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده، وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، فلما حكّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فاحتملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة من قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه»، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك موالك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيها ما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ههنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء.

[قال] فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خندقاً ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رئيسا القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول كانوا بين ثمانمائة إلى تسعمائة، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما ترى يصنع بنا فقال كعب: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع وإن من يذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم النبي ﷺ وأتي حيي بن أخطب عدو الله عليه حلة تفاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله [كتاب] وقدره وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة قالت والله إنها عندي تتحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ لم يزل يقتل رجالهم

بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة قالت: أنا والله هي، قالت: قلت ويلك مالك؟ قالت: أقتل، قلت: ولِمَ؟ قالت: حدثٌ أحدثتُه، قالتْ: فانطلق بها فضُربت عنقُها، وكانت عائشة تقول: ما أنسى عجباً منها طيب نفس وكثرة ضحك، وقد عرفت أنها تقتل.

قال الواقدي: وكان اسم تلك المرأة شبابة امرأة الحكم القرظي وكانت قتلت خلاد بن سويد، رمتْ عليه رحىً فدعا رسول الله ﷺ بها فضربت عنقها بخلاد بن سويد، قال: وكان علي والزبير يضربان أعناق بني قريظة، ورسول الله ﷺ جالس هناك.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري: أن الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنّى أبا عبدالرحمن، كان قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعاث، أخذه فجز ناصيته، ثم خلى سبيله، فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال: يا أبا عبدالرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم، قال: ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد كانت للزبير عندي يد وله عليّ منة، وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: «هو لك» فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أهله وماله؟ قال: هم لك فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: ماله يا رسول الله؟ قال: هو لك، قال: فأتاه فقال إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك، فقال: أيْ ثابت ما فعل الله بمن كان وجهه مرآة مضيئة تتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد، قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمنا إذا شددنا وحامينا إذا كررنا عزال بن شموئيل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا وقتلوا، قال: فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه، فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً أبداً. قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل من أنبت منهم، ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعزل في ذلك اليوم سُهمان الخيل وسُهمان الرجال وأخرج منهما الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان وللفارس سهم، وللراجل ممن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً وكان أول فيء وقع فيه السهمان، ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبدالأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم بهم خيلاً وسلاحاً، وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنانة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك. فتركها وقد كانت حين سباها كرهت الإسلام وأبت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه بذلك في أمرها، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرني بإسلام ريحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسره ذلك.

فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، وذلك أنه دعا بعد أن حكم في بني قريظة ما حكم فقال: اللهم إنك قد علمت أنه لم يكن قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئاً فأبقني لها وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك، فانفجر كَلْمُهُ فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضُربت عليه في المسجد، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء

عمر من بكاء أبي بكر وإني لفي حجرتي، قالت [عائشة]: وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكان فتح بني قريظة في آخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالله بن محمد، أنا يحيى بن آدم، أنا إسرائيل، سمعت أبا إسحاق يقول، سمعت سليمان بن صُرَد يقول، سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا قتيبة، أنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «لا إله إلا الله وحده، أعزّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

قال الله تعالى في قصة بني قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، وهم الرجال يقال كانوا ستمائة، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، وهم النساء والذراري، يقال: كانوا سبعمائة وخمسين، ويقال: تسعمئة.

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، بعد، قال ابن زيد ومقاتل: يعني خيبر، قال قتادة: كنا نحدث أنها مكة. وقال الحسن: فارس والروم. وقال عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٨) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾، متعة الطلاق، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي ﷺ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فهجرهنّ رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهنّ شهراً ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا: ما شأنه؟ وكانوا يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر: لأعلمنّ لكم شأنه، قال: فدخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أطلقتهنّ؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهنّ؟ قال: «نعم إن شئت»، قال: فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، قال: فكنت، أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله آية التخيير.

وكانت تحت رسول الله ﷺ يومئذٍ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وغير القرشيات: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة، رضوان الله عليهنّ، فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، وكانت أحبهن إليه فخيّرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعنها على ذلك. قال قتادة: فلما اخترن الله ورسوله شكرهنّ الله على ذلك فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغفار بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج، أنا زهير بن حرب، أنا روح بن عُبادة، أنا زكريا بن إسحاق أخبرنا أبو الزبير عن جابر بن عبدالله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه ولم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن [فأذن] له فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، فقال: لأقولنّ شيئاً أضحك به النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة

سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول لا تسألن رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهنّ شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾، حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك»، قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ؟ بل أختار اللَّهَ ورسولَه وأختار الدارَ الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأةٌ منهن إلا أخبرتُها أن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً مبشراً».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري أن النبي ﷺ أقسم أنْ لا يدخل على نسائه شهراً، قال الزهري فأخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: فلما مضت تسع وعشرون أعدهنّ دخل عليّ رسول الله ﷺ فقلت حين بدأ بي: يا رسول الله إنك أقسمت ألاّ تدخل علينا شهراً وإنك دخلت في تسع وعشرين أعدهنّ؟ فقال: «إن الشهر تسع وعشرون».

واختلف العلماء في هذا الخيار أنه هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهن حتى يقع بنفس الاختيار أم لا؟ فذهب الحسن، وقتادة، وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما خيرهنّ على أنهنّ إذا اخترن الدنيا فارقهن، لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور فإنه قال لعائشة: «لا تعجلي حتى تستشيري أبويك»، وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور، وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقاً.

واختلف أهل العلم في حكم التخيير: فقال عمر وابن مسعود وابن عباس: إذا خيّر الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء وإن اختارت نفسها يقع طلقة واحدة، وهو قول عمر بن عبدالعزيز، وابن أبي ليلى، وسفيان، والشافعي، وأصحاب الرأي، إلا أن عند أصحاب الرأي تقع طلقة بائنة إذا اختارت نفسها، وعند الآخرين رجعية، وقال زيد بن ثابت: إذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة، وإذا اختارت نفسها فثلاث، وهو قول الحسن وبه قال مالك.

وروي عن علي أيضاً [أنها] إذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها فطلقة بائنة، وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها لا يقع شيء.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عمر بن حفص، أنا أبي، أنا الأعمش، أنا مسلم، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترنا اللَّهَ ورسولَه فلم يعدّ ذلك علينا شيئاً.

﴿٣٠﴾ قوله عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، بمعصية ظاهرة، قيل: هي كقوله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] لا أن منهن من أتت بفاحشة. وقال ابن عباس: المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق. ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر: «نضعّف» بالنون وكسر العين وتشديدها، «العذاب» نصب، وقرأ الآخرون بالياء وفتح العين «العذابُ» رفع ويشددها أبو جعفر وأهل البصرة، وشدد أبو عمرو هذه وحدها لقوله: «ضعفين»، وقرأ الآخرون: «يضاعف» بالألف وفتح العين، «العذاب» رفع، وهما لغتان مثل بعد وباعد، قال أبو عمرو وأبو عبيدة: ضعفت الشيء إذا جعلته مثليه وضاعفته جعلته أمثاله. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، قال مقاتل: كان عذابها على الله هيناً وتضعيف عقوبتهن على المعصية لشرفهنّ كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن، وفيه

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾، يطع، ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، قرأ يعقوب: «من تأت منكن، وتقنت» بالتاء فيهما، وقرأ العامة بالياء لأن «من» أداةٌ تقوم مقام الاسم يعبّر به عن الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، أي: مثلي أجر غيرها، قال مقاتل: مكان كل حسنة عشرين حسنة. وقرأ حمزة والكسائي: «يعمل يؤتها» بالياء فيهما نسقاً على قوله: «ومن يأت، ويقنت» وقرأ الآخرون «تعمل» بالتاء، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، حسناً، يعني الجنة.

﴿٣٢﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، قال ابن عباس: يريد ليس قَدْرُكُنّ عندي مثل قدر غيركنّ من النساء الصالحات، أنتن أكرم عليّ، وثوابكنّ أعظم لديّ، ولم يقل: كواحدة، لأن الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، قال الله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾، الله فأطعتنّه، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، لا تلِنّ بالقول للرجال ولا ترققن الكلام، ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، أي: فجور وشهوة، وقيل نفاق، والمعنى: لا تقلن قولاً يجد منافق أو فاجر به سبيلاً إلى الطمع فيكنّ، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، لوجه الدين والإسلام بتصريح وبيان من غير خضوع.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم «وقرن» بفتح القاف، وقرأ الآخرون بكسرها فمن فتح القاف فمعناه: اقررن أي الزمن بيوتكن من قولهم قررت بالمكان أقر قراً ويقال قررت أقر وقررت أقر وهما لغتان، فحذفت الراء الأولى التي هي عين الفعل لثقل التضعيف ونقلت حركتها إلى القاف كقولهم: في ظللت ظلت، قال الله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]، ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، ومن كسر القاف فقد قيل: هو من قررت أقر، معناه قررن بكسر الراء، فحذفت الأولى ونقلت حركتها إلى القاف كما ذكرنا، وقيل: هو الأصح أنه أمر من الوقار، كقولهم من الوعد: عدن، ومن الوصل: صلن، أي كن أهل وقار وسكون، من قولهم وقر فلان يقر وقوراً إذا سكن واطمأن، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ قال مجاهد وقتادة: التبرج هو التكسر والتغنج، وقال ابن أبي نجيح: هو التبختر. وقيل: هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال، ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، اختلفوا في الجاهلية الأولى. قال الشعبي: هي ما بين عيسى ومحمد ﷺ.

وقال أبو العالية هي في زمن داود وسليمان عليهما السلام، كانت المرأة تلبس قميصاً من الدر غير مخيط من الجانبين فيُرى خلقها فيه. وقال الكلبي: كان ذلك في زمن نمرود الجبار، كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق وليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال.

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الجاهلية الأولى بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وأن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وأن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل واجّرَ نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يزمر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس بمثله، فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يستمعون إليه،

فاتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرج النساء للرجال ويتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقال قتادة: هي ما قبل الإسلام. وقيل: الجاهلية الأولى: ما ذكرنا، والجاهلية الأخرى: قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان. وقيل: قد تذكر الأولى إن لم يكن لها أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]، ولم يكن لها أخرى. قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أراد بالرجس الإثم الذي نهى الله النساء عنه، قاله مقاتل.

وقال ابن عباس: يعني عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضاً، وقال قتادة: يعني السوء. وقال مجاهد: الرجس الشك، وأراد بأهل البيت نساء النبي ﷺ لأنهنّ في بيته، وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وتلا قوله:

(٣٤) ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [وهو قول عكرمة ومقاتل]، وذهب أبو سعيد الخدري، وجماعة من التابعين، منهم مجاهد، وقتادة، وغيرهما: إلى أنهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين.

ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري، أنا أبو [بكر] محمد [بن] يحيى بن محمد بن صاعد، أنا أبو همام الوليد بن شجاع، أنا يحيى بن زكريا بن [أبي] زائدة، أنا أبي عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة الحجبية، عن عائشة أم المؤمنين قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مُرَجَّل من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء عليّ فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء حسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد الحميدي، أنا [أبو] عبدالله الحافظ، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب [ثنا] الحسن بن مكرم، أنا عثمان بن عمر، أنا عبدالرحمن بن عبدالله بن دينار، عن شريك بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار، عن أم سلمة قالت: في بيتي أنزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين، فقال: «هؤلاء أهل بيتي»، قالت: فقلت يا رسول الله، أمَا أنا من أهل البيت؟ قال: «بلى إن شاء الله».

قال زيد بن أرقم: أهل بيته مَنْ حرم الصدقة عليه بعده، آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾، قال قتادة: يعني السنة. وقال مقاتل: أحكام القرآن ومواعظه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أي لطيفاً بأوليائه خبيراً بجميع خلقه.

(٣٥) قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، الآية. وذلك أن أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله، إن الله ذكر الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير، فما فينا خير تُذكر به، إنا نخاف أن لا يقبل الله منا طاعةً، فأنزل الله هذه الآية. قال مقاتل: قالت أم سلمة بنت أبي أمية وأنيسة بنت كعب الأنصارية للنبي ﷺ: ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه [إنا] نخشى أن لا يكون فيهن خير. فنزلت هذه الآية.

وروي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فدخلت على نساء النبي ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار، قال: «ومِمَّ ذاك»؟ قالت: لأنهنّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾، المطيعين ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في إيمانهم وفيما ساءهم وسرهم، ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، على ما أمر الله به، ﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾، المتواضعين، ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، وقيل: أراد به الخشوع في الصلاة ومن الخشوع أن لا يلتفت،

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾، مما رزقهم الله، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾، عمّا لا يحل، ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

قال عطاء بن أبي رباح: من فوض أمره إلى الله عزّ وجلّ فهو داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ومن أقر بأن الله ربه ومحمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة: فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾، ومن صان نفسه عن الكذب فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزية: فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، ومن صام من كل شهر الأيام البيض، الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾، ومن حفظ فرجه عمّا لا يحل فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾.

﴿٣٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، الآية.

نزلت في زينب بنت جحش الأسدية، وأخيها عبدالله بن جحش، وأمهما أمية بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ، خطب رسول الله ﷺ زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾، يعني عبدالله بن جحش، ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني أخته زينب، ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾، أي إذا أراد الله ورسوله أمراً وهو نكاح زينب لزيد، ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

قرأ أهل الكوفة «أن يكون» بالياء للحائل بين التأنيث والفعل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الخيرة من أمرهم، والخيرة الاختيار، والمعنى أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، أي أخطأ خطأً ظاهراً فلما سمعا ذلك رضيا بذلك وسلما، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً فدخل بها وساق رسول الله ﷺ إليها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً ودرعاً وإزاراً وملحفة وخمسين مدّاً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر.

﴿٣٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، الآية.

نزلت في زينب [بنت جحش] وذلك أن رسول الله ﷺ لما زوج زينب من زيد مكثت عنده حيناً ثم

إن رسول الله ﷺ أتى زيداً ذات يوم لحاجة فأبصر زينب قائمة في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها، فقال: سبحان الله مقلب القلوب وانصرف، فلما جاء زيد ذكرت ذلك له، ففطن زيد، فألقي في نفس زيد كراهيتها في الوقت، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي، قال: «ما لك أرابكَ منها شيء»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك» [يعني زينب بنت جحش]، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، في أمرها، ثم طلقها زيد، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتربية والإعتاق وهو زيد بن حارثة، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، يعني زينب بنت جحش، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيها ولا تفارقها، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، أي تسرّ في نفسك ما الله مظهره، أي كان في قلبه لو فارقها لتزوجها.

وقال ابن عباس: حبها. وقال قتادة: ودّ أنه طلقها. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾، قال ابن عباس والحسن: تستحييهم. وقيل: تخشى لائمة الناس أن يقولوا: أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها. و﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

قال [ابن] عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية.

وروي عن مسروق قال: قالت عائشة: لو كتم النبي ﷺ شيئاً مما أوحي إليه لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين زين العابدين ما يقول الحسن في قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؟ قلت: يقول لما جاء زيد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أريد أن أطلق زينب فأعجبه ذلك، [ثم قال]: أمسك عليك زوجك واتق الله، فقال علي بن الحسين: ليس كذلك بل كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال إني أريد أن أطلقها قال له: «أمسك عليك زوجك»، فعاتبه الله وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك.

وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله علم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها [لكان] أظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدل على أنه إنما عُوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له وإنما أخفاه استحياءً أن يقول لزيد [إن] التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي، وهذا قول الحسن مرضٍ، وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها ونكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الأنبياء، لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه في مثل هذه الأشياء ما لم يقصد فيه المآثم، لأن الود وميل النفس من طبع البشر. وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أمر بالمعروف وهو خشية لا إثم فيه، قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق.

فإنه عليه السلام قد قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم [له]»، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء. قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، أي حاجة من نكاحها، ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها.

قال أنس: كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجَكُنّ أهاليكُنّ وزوجني الله من فوق سبع سموات.

وقال الشعبي: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدلُ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلي بهنّ: جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن حاتم بن ميمون، أنا بهز، أنا سليمان بن

المغيرة عن ثابت عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ»، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتُها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ إليك يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم، حتى امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجَرَ نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري، أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخله معه فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا سليمان بن حرب، أنا حماد، عن ثابت، عن أنس قال: ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، أولم بشاة.

أخبرنا محمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو العباس الأصم، أنا محمد بن هشام بن ملاس النمري، أنا مُرْوَان الفزاري، أنا حميد عن أنس قال: أولم رسول الله ﷺ حين ابتنى بزينبَ بنت جحش فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، إثم، ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، والأدعياء جمع الدعي وهو المتبنى، يقول: زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته لتعلم أن زوجة المتبنى حلال للمتبني، وإن كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، أي كان قضاء الله ماضياً وحكمه نافذاً وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

﴿٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾، أي فيما أحل الله له، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾، أي كسنة الله، نصب بنزع الخافض، وقيل: نصب على الإغراء أي الزموا سنة الله، ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، أي في الأنبياء الماضين أن لا يؤاخذهم بما أحل لهم. قال الكلبي ومقاتل: أراد داود حين جمع بينه وبين المرأة التي هو هويها فكذلك جمع بين محمد ﷺ وبين زينب.

وقيل: أشار بالسنة إلى النكاح فإنه من سنة الأنبياء عليهم السلام. وقيل: إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليهما السلام، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾، قضاءً مقضياً كائناً ماضياً.

﴿٣٩﴾ ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾، يعني سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾، أي لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم.

ثم إن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه.

﴿٤٠﴾ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، يعني زيد بن حارثة، أي ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، فإن قيل: أليس أنه كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذلك الحسن والحسين.

فإن النبي ﷺ قال للحسن: «إن ابني هذا سيد؟»،

قيل: هؤلاء كانوا صغاراً لم يكونوا رجالاً. والصحيح ما قلنا: إنه أراد أبا أحد من رجالكم [الذي لم يلده]، ﴿وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، ختم الله به النبوة.

وقرأ ابن عامر وعاصم: «خاتم» بفتح التاء على الاسم، أي آخرهم، وقرأ الآخرون بكسر التاء على الفاعل، لأنه ختم به النبيين فهو خاتمهم. قال ابن عباس: يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً يكون بعده نبياً. وروي عن عطاء عن ابن عباس: أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

٤٢٤

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد الخداشاهي، أنا عبدالله بن محمد بن مسلم، حدثنا أبكر الجوريذي، أنا يونس بن عبدالأعلى، أنا ابن وهب، أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء [قبلي] كمثل قصر أحسن بنيانه، ترك منه موضع لَبِنَةٍ فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللَّبنة لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع اللبنة، ختم بي البنيان وختم بي الرسل».

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا علي بن أحمد الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب الشاشي، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا سعيد بن عبدالرحمن المخزومي، وغير واحد قالوا، أنا سفيان عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي».

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، قال ابن عباس: لم يفرض الله تعالى فريضة على عباده إلا جعل لها حداً معلوماً أعذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حداً يُنتهى إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فلذلك أمرهم به في كل الأحوال، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. وقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي بالليل والنهار، في البر والبحر وفي الصحة والسقم، وفي السر والعلانية. وقال مجاهد: الذكر الكثير أن لا تنساه أبداً.

﴿٤٢﴾ ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، أي صلُّوا له، ﴿بُكْرَةً﴾، يعني: صلاة الصبح، ﴿وَأَصِيلًا﴾، يعني صلاة العصر. وقال الكلبي: وأصيلاً صلاة الظهر والعصر والعشاءين. وقال مجاهد: يعني: قولوا سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فعبّر بالتسبيح عن أخواته. وقيل: المراد من قوله ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث.

﴿٤٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾، فالصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار للمؤمنين، قال السدي: قالت بنو إسرائيل لموسى: أيصلي ربنا؟ فكبر هذا الكلام على موسى، فأوحى الله إليه أن قل لهم إني أصلي وأن صلاتي رحمتي، وقد وسعت رحمتي كلَّ شيء، وقيل: الصلاة من الله [الرحمة وقيل الصلاة من الله] على العبد هي إشاعة الذكر الجميل له في عباده. وقيل: الثناء عليه.

قال أنس: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو بكر ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه، فأنزل الله هذه الآية. قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، يعني: أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾، أي تحية المؤمنين، ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، أي يرون الله، ﴿سَلَـٰمٌ﴾، أي يسلم الله عليهم، ويسلمهم من جميع الآفات.

وروي عن البراء بن عازب قال: «تحيتهم يوم يلقونه» يعني يلقون ملك الموت، لا يقبض روح مؤمن إلا يسلم عليه.

وعن ابن مسعود قال: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: إن ربك يقرئك السلام. وقيل: تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حين يخرجون من قبورهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، يعني الجنة.

﴿٤٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: شاهداً للرسل بالتبليغ، ومبشراً لمن آمن بالجنة، ونذيراً لمن كذب [بآياتنا] بالنار.

﴿٤٦﴾ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، إلى توحيده وطاعته، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، بأمره، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، سماه سراجاً لأنه يهتدى به كالسراج يستضاء به في الظلمة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، ذكرنا تفسيره في أول السورة، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، قال ابن عباس وقتادة: اصبر على أذاهم. وقال الزجاج: لا تجازهم عليه وهذا منسوخ بآية القتال. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، حافظاً.

﴿٤٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح، حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا نكحتك فأنت طالق، وقال كل امرأة أنكحها فهي طالق، فنكح لا يقع الطلاق، وهو قول علي وابن عباس، وجابر، ومعاذ، وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب، وعروة، وشريح، وسعيد بن جبير، والقاسم، وطاوس، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وسليمان بن يسار، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، وأكثر أهل العلم رضي الله عنهم، وبه قال الشافعي، وروي عن ابن مسعود: أنه يقع الطلاق، وهو قول إبراهيم النخعي، وأصحاب الرأي، وقال ربيعة ومالك والأوزاعي: إن عيّن امرأة يقع، وإن عمّ فلا يقع.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كذبوا على ابن مسعود، إن كان قالها فزلة من عالم في [أن] الرجل يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، يقول الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا الحسين بن محمد الديموري، أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي، أنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري بمكة، أنا الربيع بن سليمان، أنا أيوب بن سويد، أنا ابن أبي ذئب عن عطاء، عن جابر [قال]: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح».

قوله عزّ وجلّ: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، تجامعوهن، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، تحصونها بالأقراء والأشهر، ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾، أي أعطوهنّ ما يستمتعن به.

قال ابن عباس: هذا إذا لم يكن سمى لها صداقاً فلها المتعة، فإن كان قد فرض لها صداقاً فلها نصف الصداق ولا متعة لها. وقال قتادة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقيل: هذا أمر ندب، فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر. وذهب بعضهم إلى أنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، خلوا سبيلهن بالمعروف من غير ضرار.

﴿٥٠﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾، أي مهورهن، ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾، ردّ عليك من الكفار بأن تسبي فتملك مثل صفية وجويرية، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له [إبراهيم]، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾، يعني نساء قريش، ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾، يعني نساء بني زهرة، ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، إلى المدينة فمن لم تهاجر منهن معه لم يجز له نكاحها.

وروى أبو صالح عن أم هانىء أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له، لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء.

ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل، ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق، فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه.

واختلفوا في أنه هل كان يحل للنبي ﷺ نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر؟ فذهب جماعة إلى أنه كان لا

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

يحل له ذلك، لقوله: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾، وأول بعضهم الهجرة في قوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ على الإسلام أي أسلمن معك، فيدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة وكان النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر، وكان ذلك من خصائصه ﷺ في النكاح لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كالزيادة على الأربع ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه ولا مشاركة لأحد معه فيه.

واختلف أهل العلم في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج، وهو قول سعيد بن المسيب، والزهري، ومجاهد، وعطاء، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي، وذهب قوم إلى أنه ينعقد بلفظ الهبة والتمليك، وهو قول إبرهيم النخعي، وأهل الكوفة، ومن قال لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج اختلفوا في نكاح النبي ﷺ، فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه بلفظ الهبة، لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذهب آخرون إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج كما في حق الأمة لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، وكان اختصاصه ﷺ في ترك المهر لا في لفظ النكاح.

واختلفوا في التي وهبت نفسها لرسول الله ﷺ وهل كانت عنده امرأة منهن، فقال عبدالله ابن عباس، ومجاهد: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها منه، ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين.

وقوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ على طريق الشرط والجزاء، وقال آخرون: بل كانت عنده موهوبة.

واختلفوا فيها، فقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الهلالية، يقال لها: أم المساكين. وقال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث. وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي أم شريك بنت جابر من بني أسد. وقال عروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم من بني سليم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي أوجبنا على المؤمنين، ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾، من الأحكام أن لا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾، وهذا يرجع إلى أول الآية أي: أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لك لكي لا يكون عليك حرج وضيق، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿٥١﴾ ﴿تُرْجِي﴾، تؤخر، ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي﴾، أي تضم، ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾، اختلف المفسرون في معنى الآية، فأشهر الأقاويل أنه في القسم بينهن، وذلك أن التسوية بينهن في القسم كانت واجباً عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهن.

قال أبو رزين، وابن زيد: نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي ﷺ وطلب بعضهن زيادة النفقة، فهجرهنّ النبي ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير، فأمره الله عز وجلّ أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة، وأن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، على أنهن أمهات المؤمنين ولا ينكحن أبداً، وعلى أنه يؤوي إليه من يشاء منهن، ويرجي من يشاء، فيرضين به قسم لهنّ أو لم يقسم، أو قسم لبعضهنّ دون بعض، أو فضل بعضهنّ في النفقة والقسمة، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف

يشاء، وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط.

واختلفوا في أنه هل أخرج أحداً منهم عن القسم، فقال بعضهم: لم يخرج أحداً، بل كان رسول الله ﷺ مع ما جعله الله له من ذلك، يسوي بينهن في القسم إلا سودة فإنها رضيت بترك حقها من القسم، وجعلت يومها لعائشة، وقيل: أخرج بعضهن.

روى جرير عن منصور عن أبي رزين قال: لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن، فقلن: يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا، فنزلت هذه الآية، فأرجى رسول الله ﷺ بعضهن وآوى إليه بعضهن، وكان ممن آوى إليه عائشة، وحفصة، وزينب، وأم سلمة، فكان يقسم بينهنّ سواء، وأرجى منهن خمساً: أم حبيبة، وميمونة، وسودة، وصفية، وجويرية، فكان يقسم لهن ما شاء.

وقال مجاهد: «ترجي من تشاء منهن» يعني تعزل من تشاء منهن بغير طلاق وترد إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد نكاح. وقال ابن عباس: تطلق [من تشاء] منهن وتمسك من تشاء.

وقال الحسن: تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من نساء أمتك، قال: وكان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله ﷺ.

وقيل: تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن لك فتؤويها إليك وتترك من تشاء فلا تقبلها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سلام، أنا ابن فضيل، أنا هشام عن أبيه قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾، قلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك.

قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾، أي طلبت وأردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن القسم، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ لا إثم عليك، فأباح الله له ترك القسم لهن حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن في نوبتها ويطأ من يشاء منهن في غير نوبتها، ويرد إلى فراشه من عزلها تفضيلاً له على سائر الرجال، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾، أي التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أقرب إلى رضاهن وأطيب لأنفسهن وأقل لحزنهن إذا علمن أن ذلك من الله عزّ وجلّ، ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾، أعطيتهن، ﴿كُلُّهُنَّ﴾، من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، من أمر النساء والميل إلى بعضهن، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

(٥٢) قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب: «لا تحل» بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء من بعد يعني «من بعد» هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن فاخترنك، وذلك أن النبي ﷺ لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن، هذا قول ابن عباس وقتادة.

واختلفوا في أنه هل أبيح له النساء من بعد؟

قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء سواهن.

وقال أنس: مات على التحريم.

وقال عكرمة والضحاك: معنى الآية لا يحل لك النساء إلا اللاتي أحللنا لك وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية، ثم قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ إلا اللاتي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها. وقيل لأبيّ بن كعب: لو مات نساء النبي ﷺ أكان يحل له أن يتزوج؟ قال: وما يمنعه من ذلك؟ قيل: قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، قال: إنما أحل الله له ضرباً من النساء [من بعد النساء]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ثم قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، قال أبو صالح: أُمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية، ويتزوج من نساء قومه من بنات العم والعمة [والخال] والخالة إن شاء ثلاثمائة، وقال مجاهد: معناه لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد

المسلمات ولا أن تبدل بهن، يقول أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى، يقول لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية، إلاّ ما ملكت يمينك، أحل له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهنّ.

وروي عن الضحاك: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ أي ولا أن تبدل بأزواجك اللاتي هنّ في حيالك أزواجاً غيرهن بأن تطلقن فتنكح غيرهن، فحرم عليه طلاق النساء اللواتي كن عنده إذ جعلهن أمهات المؤمنين، وحرمهن على غيره حين اخترنه، فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾، كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم، يقول الرجل للرجل: بادلني بامرأتك، وأبادلك بامرأتي، تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾، يعني لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجك وتأخذ زوجته ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [أي] لا بأس أن تبدل بجاريتك ما شئت، فأما الحرائر فلا.

وروي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: دخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ بغير إذن، وعنده عائشة، فقال له النبي ﷺ: «يا عيينة فأين الاستئذان»؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال: هذه عائشة أم المؤمنين، فقال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق وتنزل لي عن هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد حرّم ذلك»، فلما خرج قالت عائشة: من هذا يا رسول الله؟ فقال: «هذا أحمق مطاعٌ وإنه على ما ترين لسيد قومه».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، يعني ليس لك أن تطلق أحداً من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها. قال ابن عباس: يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنهي عن ذلك، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ملك بعد هؤلاء مارية، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾، حافظاً. وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء.

روي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل».

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا محمد بن محمد بن علي بن شريك الشافعي، أنا عبدالله بن محمد بن مسلم الجوربذي قال: أنا أحمد بن حرب، أنا أبو معاوية عن عاصم وهو ابن سليمان عن بكر بن عبدالله عن المغيرة بن شعبة قال: خطبتُ امرأةً، فقال لي النبي ﷺ: «هل نظرتَ إليها»؟ قلت: لا، قال: «فانظرْ إليها فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد، أنا حامد بن محمد، أنا بشر بن موسى، أنا الحميدي، أنا سفيان، أنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «انظرْ إليها فإن في أعين نساء الأنصار شيئاً»، قال الحميدي يعني الصغر.

(٥٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، الآية. قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا يحيى بن بُكير، أنا الليث عن عقُيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، قال: وكانت أم هانىء تواظبني على خدمة النبي ﷺ فخدمته عشر سنين، وتوفي النبي ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، فكان أول ما أنزل، في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبي ﷺ بها عروساً فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت

حتى جاء [عتبة] حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يخرجوا، فرجع النبي ﷺ، ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر، وأنزل الحجاب.

وقال أبو عثمان، واسمه الجعد، عن أنس قال: فدخل رسول الله ﷺ البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة، وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يقول إلا أن تُدعَوا، ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، فيؤذن لكم فتأكلونه، ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، غير منتظرين إدراكه ووقت نضجه، يقال أنَى الحميم: إذا انتهى حره، وإنَى أن يفعل ذلك إذا حان، إنَى بكسر الهمزة مقصورة، فإذا فتحها مددت فقلت الإناء، وفيه لغتان إنى يأنى، وآن يئين مثل حان يحين، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾، أكلتم الطعام، ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾، تفرقوا واخرجوا من منزله، ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، ولا طالبين الأنس للحديث، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون طويلاً فنُهوا عن ذلك، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، أي لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياءً، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، أي من وراء ستر، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة [من نساء] رسول الله ﷺ متنقبة كانت أو غير متنقبة، ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الريب، وقد صح في سبب نزول آية الحجاب ما:

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا يحيى بن بُكير، أنا الليث، حدثني عُقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع، وهو صعيد أفيح، وكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله تعالى آية الحجاب.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا عبدالرحيم بن منيب، أنا يزيد بن هارون، أنا حميد عن أنس قال: قال عمر: وافقني ربي في ثلاثة، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى [فأنزل الله واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى]، وقلت: يا رسول الله إنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني بعض ما آذى به رسول الله ﷺ نساؤُه، قال: فدخلتُ عليهنّ فجعلت أستقربهن واحدة واحدة، قلت: والله لتنتهُنّ أو ليبدلنّه الله أزواجاً خيراً منكنّ، حتى أتيت على زينب فقالت: يا عمر ما كان في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، قال: فخرجت فأنزل الله عز وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [أي] ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

نزلت في رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال: لئن قبض رسول الله ﷺ لأنكحن عائشة.

قال مقاتل بن سليمان: هو طلحة بن عبيد الله، فأخبره الله عزّ وجلّ أن ذلك محرم، وقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، أي ذنباً عظيماً.

وروى معمر عن الزهري، أن العالية بنت ظبيان التي طلقها النبي ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له، وذلك قبل تحريم أزواج النبي ﷺ على الناس.

﴿٥٤﴾ ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٤٢٦

رسول الله ﷺ، وقيل: قال رجل من الصحابة: ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا، فنزلت هذه الآية، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب؟

﴿٥٥﴾ فأنزل الله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، أي لا إثم عليهن في ترك الاحتجاب من هؤلاء، ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، قيل أراد به النساء المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول عليهن، وقيل: هو عام في المسلمات والكتابيات، وإنما قال: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، لأنهن بين أجناسهن، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، واختلفوا في أن عبدالمرأة هل يكون محرماً لها أم لا؟ فقال قوم يكون محرماً لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، وقال قوم: هو كالأجانب، والمراد من الآية الإماء دون العبيد، ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أن يراكن غير هؤلاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، من أعمال العباد ﴿شَهِيدًا﴾.

﴿٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، قال ابن عباس أراد إن الله يرحم النبي، والملائكة يدعون له. وعن ابن عباس أيضاً: «يصلون» يتبركون. وقيل: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾، أي ادعوا له بالرحمة، ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، أي حيوه بتحية الإسلام.

وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي، أخبرنا [أبو] عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، أنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ببغداد، أنا أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب، أنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة، أنا عبدالواحد بن زياد، أنا أبو فروة، حدثني عبدالله بن عيسى بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، سمع عبدالرحمن بن أبي ليلى يقول: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ قلت: بلى فاهدها لي، قال: سألنا رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن عمرو بن سليمان الزرقي، أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي [أنهم] قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

أخبرنا ابن عمرو محمد بن عبدالرحمن النسوي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا محمد بن يعقوب، أنا العباس بن محمد الدوري، أنا خالد بن مخلد القطواني، أنا موسى بن يعقوب الزمعي عن عبدالله بن كيسان أخبرني عبدالله بن شداد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

أخبرنا أبو عبدالله [محمد] بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن

علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حُجر، أنا إسماعيل بن جعفر، أنا العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه [بها] عشراً».

أخبرنا أبو بكر [محمد] بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم [بن] عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبدالله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه جاء ذات يوم والبشر [يرى] في وجهه، فقال: «إنه جاءني جبريل فقال [إن ربك يقول] أما يرضيك يا محمد، أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صلّيت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا شعبة، عن عاصم هو ابن عبيد [الله] قال: سمعت عبدالله [بن عامر] بن ربيعة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من صلى عليّ صلاة صلّتْ عليه الملائكة ما صلى عليّ فليقللِ العبدُ من ذلك أو ليكثر».

حدثنا أبو القاسم يحيى بن علي الكشميهني، أنا [جناح] بن نذير المحاربي بالكوفة، أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أنا أحمد بن حازم، أنا عبدالله بن موسى وأبو نعيم، عن سفيان، عن عبدالله بن السائب، عن زاذان، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام».

(٥٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون، فأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله ويد الله مغلولة، وقالوا إن الله فقير، وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة، وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «يقول الله سبحانه وتعالى: شتمني عبدي، يقول اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد.

وروينا عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمو أقلب الليل والنهار».

وقيل: معنى «يؤذون الله» أي يلحدون في أسمائه وصفاته، وقال عكرمة هم أصحاب التصاوير.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن العلاء، أنا ابن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة سمع أبا هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة».

وقال بعضهم: يؤذون الله أي يؤذون أولياء الله، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي أهل القرية.

وروينا عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وقال من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة».

ومعنى الأذى هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم، والله عزّ وجلّ منزه عن أن يلحقه أذى من أحد، وإيذاء الرسول، قال ابن عباس: هو أنه شج في وجهه وكسرت رباعيته. وقيل: شاعر ساحر معلم مجنون.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم، وقال مجاهد: يقعون فيهم ويرعونهم بغير جرم، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وقال مقاتل: نزلت: في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه ويشتمونه. وقيل: نزلت في شأن عائشة.

وقال الضحاك والكلبي: نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة

فإن سكتت اتبعوها وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحداً، يخرجن في درع وخمارة الحرة والأمة كذلك، فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء.

(٥٩) فقال جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾، جمع الجلباب وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وقال ابن عباس و عبيدة: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدة ليعلم أنهن حرائر، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ﴾، أنهن حرائر، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، فلا يتعرض لهن، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة، وقال يا لكاع أتتشبهين بالحرائر، ألقي القناع.

(٦٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾، عن نفاقهم، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فجور، يعني الزناة، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، بالكذب.

وذلك أن ناساً منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس الرعب وإذا التحم القتال ولوا وانهزموا، ويقولون قد أتاكم العدو ونحوها.

وقال الكلبي: كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويفشون الأخبار ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليه، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾، لا يساكنوك في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، حتى يخرجوا منها، وقيل: لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم وتخلي منهم المدينة.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾، مطرودين، نصب على الحال، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾، وجدوا وأدركوا، ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾، أي الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾، أي كسنة الله، ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾، من المنافقين والذين فعلوا مثل [ما فعل] هؤلاء، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

(٦٣) قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: أيُّ شيء يعلمك أمر الساعة، ومتى يكون قيامها أي أنت لا تعرفه، ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

(٦٤) ـ (٦٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾، ظهراً لبطن حين يسحبون عليها، ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾، في الدنيا.

(٦٧) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾

سورة الأحزاب — الجزء الثاني والعشرون

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣)

٤٢٧

قرأ أبو عامر ويعقوب ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع، وقرأ الآخرون بفتح التاء بلا ألف قبلها، ﴿وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾.

(٦٨) ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، أي ضعفي عذاب غيرهم. قوله تعالى: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، قرأ عاصم «كبيراً» بالباء قال الكلبي أي عذاباً كثيراً، وقرأ الآخرون بالثاء كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] وهذا يشهد للكثرة أي مرة بعد مرة.

(٦٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾، فطهره الله مما قالوا، ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾، أي

كريماً ذا جاهٍ، يقال: وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه، إذا كان ذا جاه وقدر. قال ابن عباس: كان حظياً عند الله لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه. وقال الحسن: كان مستجاب الدعوة. وقيل: كان محبباً مقبولاً. واختلفوا فيما أوذي به موسى.

فأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا إسحاق بن إبراهيم، أنا روح بن عبادة، أنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر موسى هذا التستر إلا من عيب بجلده، إمّا برص وإما أدرة [وإما آفة]، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده ليغتسل فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجرَ عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً». فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقال قوم: إيذاؤهم إيّاه أنه لما مات هارون في التيه ادعوا على موسى أنه قتله، فأمر الله الملائكة حتى مروا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله، فبرأه الله مما قالوا.

وقال أبو العالية: هو أن قارون استأجر مومسة لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك، وأهلك قارون.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو الوليد، أنا شعبة عن الأعمش قال: سمعت أبا وائل قال: سمعت عبدالله قال: قَسَمَ النبي ﷺ قَسْماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

(٧٠) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، قال ابن عباس: صواباً. وقال قتادة: عدلاً. وقال الحسن: صدقاً. وقيل: مستقيماً. وقال عكرمة هو: قول لا إله إلا الله.

(٧١) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم. وقال مقاتل: يزكي أعمالكم، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، أي ظفر بالخير كله.

(٧٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، الآية. وأراد بالأمانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده، عرضها على السماوات والأرض والجبال على أنهم إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، وهذا قول ابن عباس.

وقال ابن مسعود: الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث، وقضاء الدين، والعدل في المكيال، والميزان، وأشد من هذا كله الودائع. وقال مجاهد: الأمانة الفرائض. وحدود الدِّين. وقال أبو العالية: ما أمروا به ونهوا عنه. وقال زيد بن أسلم: هو الصوم والغسل من الجنابة، وما يخفى من الشرائع.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له. وقال بعضهم: هي أمانات الناس والوفاء بالعهد، فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء قليل ولا كثير، وهي رواية الضحاك عن ابن عباس، فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال، هذا قول ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن

عصيتن عوقبتن، فقلن: لا يا رب، نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً، وقلن ذلك خوفاً وخشية وتعظيماً لدين الله أن لا يقمن بها لا معصية ولا مخالفة، وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلها خاضعة لله عزّ وجلّ مطيعة ساجدة له كما قال جلّ ذكره في السموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال للحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨] الآية.

وقال بعض أهل العلم: ركّب الله عزّ وجلّ فيهنّ العقل والفهم حين عرض الأمانة عليهن حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن، وقال بعضهم: المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهل السموات والأرض، عرضها على من فيها من الملائكة. وقيل: على أهلها كلها دون أعيانها، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهل القرية. والأول أصح، وهو قول العلماء. ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، أي خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، يعني آدم عليه السلام، فقال الله: يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت، وإن أسأت عوقبت، فتحملها آدم، وقال [أحملها] بين أذني وعاتقي، قال الله تعالى أمّا إذا تحملت فسأعينك، أجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه، وأجعل للسانك لحيين وغلقاً فإذا خشيت فأغلق، واجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه على ما حرمت عليك. قال مجاهد: فما كان بين أن تحمّلها وبين أن خرج من الجنة إلاّ مقدار ما بين الظهر والعصر.

وحكى النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه قال: مُثّلَتِ الأمانة كصخرة ملقاة، ودُعيت السموات والأرض والجبال إلى [حملها] فلم يقربوا منها، وقالوا: لا نطيق حملها، وجاء آدم من غير أن يُدعى، وحرك الصخرة، وقال: لو أمرت بحملها لحملتُها، فقلن له: احملها، فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها، وقال والله لو أردت أن أزداد لزدت، فقلن له: احملها فحملها إلى حقوه، ثم وضعها، وقال: والله لو أردت أن أزداد لزدت، فقلن له: احمل، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها فقال الله: مكانك فإنها في عنقك وعنق ذريتك إلى يوم القيامة. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، قال ابن عباس: ظلوماً لنفسه جهولاً بأمر الله وما احتمل من الأمانة. وقال الكلبي: ظلوماً حين عصى ربه، جهولاً لا يدري ما العقاب في ترك الأمانة. وقال مقاتل: ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة ما تحمّل. وذكر الزجاج وغيره من أهل المعاني، في قوله وحملها الإنسان قولان، فقالوا: إن الله ائتمن آدم وأولاده على شيء وائتمن السموات والأرض والجبال على شيء، فالأمانة في حق بني آدم ما ذكرنا من الطاعة والقيام بالفرائض، والأمانة في حق السموات والأرض والجبال هي الخضوع والطاعة لما خلقهن له. وقيل: قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾، أي أدين الأمانة، يقال: فلان لم يحتمل الأمانة أي لم يخن فيها وحملها الإنسان أي خان فيها، يقال: فلان حمل الأمانة أي أثم فيها بالخيانة. قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، إنه كان ظلوماً جهولاً، حكي عن الحسن على هذا التأويل: إنه قال: وحملها الإنسان يعني الكافر والمنافق، حملا الأمانة أي خانا. وقول السلف ما ذكرنا.

(٧٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ قال مقاتل: ليعذبهم بما خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق، ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، يهديهم ويرحمهم بما أدّوا من الأمانة. وقال ابن قتيبة أي عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه أي يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات.

❁ ❁ ❁

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

٤٢٨

سورة سبأ

مكية [وهي أربع وخمسون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ملكاً وخلقاً، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، كما هو له في الدنيا، لأن النعم في الدارين كلها منه، وقيل الحمد لله في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] وهو الحكيم الخبير.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي يدخل فيها من الماء والأموات، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، من النبات والأموات إذا حشروا، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، من الأمطار، ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾، يصعد، ﴿فِيهَا﴾، من الملائكة وأعمال العباد، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، الساعة، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: «عالمُ» بالرفع على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالجر على نعت الرب، أي وربّي عالم الغيب، وقرأ حمزة والكسائي: «علام» على وزن فعال، وجر الميم، ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، لا يغيب، ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾، أي من الذرة، ﴿وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، يعني الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، حسن يعني في الجنة.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، في إبطال أدلتنا، ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، يحسبون أنهم يفوتوننا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب: «أليمٌ» بالرفع ههنا وفي الجاثية [١١] على نعت العذاب، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت الرجز، وقال قتادة الرجز سوء العذاب.

(٦) ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ﴾، أي ويرى الذين، ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، يعني مؤمني أهل الكتاب: عبدالله بن سلام وأصحابه. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، يعني القرآن، ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾، يعني أنه من عند الله، ﴿وَيَهْدِىٓ﴾، يعني القرآن، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وهو الإسلام.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، منكرين للبعث متعجبين منه، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾، أي يخبركم يعنون محمداً ﷺ، ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، قُطّعتم كل تقطيع وفُرّقتم كل تفريق وصرتم تراباً ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، يقول لكم: إنكم لفي خلق جديد.

(٨) ﴿أَفْتَرَىٰ﴾، ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ولذلك نصبت، ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، يقولون أزعم كذباً أم به جنون، قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾، من الحق في الدنيا.

(٩) قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها، وأنا القادر عليهم، ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾، قرأ الكسائي «نخسف بهم» بإدغام الفاء في الباء، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «إن يشأ يخسف أو يسقط»، بالياء فيهن لذكر الله من قبل، وقرأ الآخرون بالنون فيهن ﴿إِنَّ

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، أي فيما ترون من السماء والأرض، ﴿لَآيَةً﴾، تدل على قدرتنا على البعث، ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، تائب راجع إلى الله بقلبه.

﴿١٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، يعني النبوة والكتاب، وقيل: الملك. وقيل: جميع ما أوتي من حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خُص به، ﴿يَٰجِبَالُ﴾، أي وقلنا يا جبال، ﴿أَوِّبِى﴾، أي سبحي، ﴿مَعَهُۥ﴾، إذا سبح، [وقيل هو تفعيل من الإياب وهو الرجوع، أي رجّعي معه]، وقال القتيبي: أصله من التأويب في السير، وهو أن يسير النهار كله فينزل ليلاً [كأنه قال أوبي النهار كله] بالتسبيح معه. وقال وهب: نوحي معه، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾، عطف على موضع الجبال، لأن كلَّ منادًى في موضع النصب. وقيل: معناه: وسخرنا وأمرنا الطير أن تسبح معه. وقرأ يعقوب: «والطيرُ» بالرفع ردّاً على الجبال، أي أوّبي أنت والطير. وكان داود إذا نادى بالناحية أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم من ذلك. وقيل: كان داود إذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح. وقيل: كان داود عليه السلام إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطاً له. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل فيه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة.

وكان سبب ذلك على ما روي في الأخبار: أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكراً، فإذا رأى رجلاً لا يعرفه يقدم إليه ويسأله عن داود فيقول له: ما تقول في داود واليكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه، ويقولون خيراً، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي، فلما رآه داود تقدم إليه على عادته فسأله، فقال الملك: نعم الرجل هو لولا خصلة فيه، فراع داود ذلك وقال: ما هي يا عبدالله؟ قال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال، قال: فتنبه لذلك وسأل الله أن يسبب له سبباً يستغني به عن بيت المال، فيتقوت منه ويطعم عياله، فألان الله تعالى له الحديد وعلمه صنعة الدرع، وإنه أول من اتخذها. ويقال: إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم، فيأكل ويطعم منها عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين. ويقال: إنه كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم، فينفق ألفين منها على نفسه وعياله، ويتصدق بأربعة آلاف على فقراء بني إسرائيل.

قال رسول الله ﷺ: «كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده».

﴿١١﴾ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، دروعاً كوامل واسعات طوالاً تسحب في الأرض، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، والسرد نسج الدروع، يقال لصانعه: السراد والزراد، يقول: قدر المسامير في حلق الدرع أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتفلت ولا غلاظاً فتكسر الحلق، ويقال «السرد» المسمار في الحلقة، يقال: درع مسرودة أي مسمورة الحلق، وقدر في السرد اجعله على القصد وقدر الحاجة، ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، يريد داود وآله، ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾، أي وسخرنا لسليمان الريح، وقرأ أبو بكر عن عاصم «الريحُ» بالرفع أي [له تسخير] الريح، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، أي سير غدوّ تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر، وسير رواحها مسيرة شهر، وكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر و[كان] بينهما مسيرة شهر،

ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: إنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند، ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾، أي أذبنا له عين النحاس، والقِطْرُ النحاس.

قال أهل التفسير: أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء، وكان بأرض اليمن، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان، ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، بأمر ربه قال ابن عباس سخر الله الجن لسليمان وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به، ﴿وَمَن يَزِغْ﴾، أي يعدل، ﴿مِنْهُمْ﴾، من الجن، ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾، الذي أمرنا به من طاعة سليمان، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، في الآخرة، وقال بعضهم: في الدنيا وذلك أن الله عزّ وجلّ وكّل بهم ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾، أي مساجد، والأبنية المرتفعة وكان مما عملوا [له] بيت المقدس ابتدأه داود ورفعه قدر قامة رجل، فأوحى الله إليه إني لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملّكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده، فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بناء بيت المقدس، فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال فخصّ كل طائفة منهم بعمل يستصلحه لهم، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الأبيض من معادنه، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضاً، وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطاً، فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقاً فرقاً يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر، وفرقاً يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها، وفرقاً يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنه، فأتى من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله عزّ وجلّ، ثم أحضر الصناعيين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلىء، فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين المها الصافي وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يومئذٍ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله عزّ وجلّ، وأن كل شيء فيه خالص لله، واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً.

وروى عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة، سأله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إيّاه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إيّاه، وسأله أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك».

قالوا: فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد، وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر، فحمله إلى دار مملكته من أرض العراق، وبنى الشياطين لسليمان باليمن حصوناً كثيرة عجيبة من الصخر. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي كانوا يعملون له تماثيل أي صوراً من نحاس وصفر وشبة وزجاج ورخام. وقيل: كانوا يصورون السباع والطيور. وقيل: كانوا يتخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة، ولعلها كانت مباحة في شريعتهم، كما أن عيسى كان يتخذ صوراً من الطين فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله. ﴿وَجِفَانٍ﴾، أي قصاع واحدتها جفنة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾، كالحياض التي يجبى فيها الماء، أي يجمع واحدتها جابية، يقال: كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون [منها وقدور راسيات] ثابتات لها قوائم لا تحركن عن أماكنهن لعظمهن، ولا ينزلن ولا يعطّلن، وكان يصعد عليها بالسلالم، وكانت باليمن، ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، أي وقلنا اعملوا آل داود شكراً، مجازه: اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكراً له على نعمه، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ

﴿ٱلشَّكُورُ﴾، أي العامل بطاعتي شكراً لنعمتي، قيل: المراد من آل داود هو داود نفسه. وقيل: داود وسليمان وأهل بيته. وقال جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً يقول: كان داود نبي الله عليه السلام قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي.

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾، أي على سليمان، قال أهل العلم: كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي مات فيها، وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يوماً إلا نبتت في محراب بيت المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا، فيقول لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع، فإن كانت نبتت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء تركت، حتى نبتت الخروبة، فقال لها: ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: لأي شيء نبت؟ قالت: لخراب مسجدك، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس! فنزعها وغرسها في حائط له، ثم قال: اللهم عم على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ويعلمون ما في غد، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه فمات قائماً وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه، وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياته، و[هم] ينظرون إليه يحسبون أنه حي، ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرضة عصا سليمان، فخرّ ميتاً فعلموا بموته. قال ابن عباس: فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب.

فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾، وهي الأرضة التي، ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾، يعني عصاه، قرأ أهل المدينة، وأبو عمرو «منساته» بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز، وهما لغتان، ويسكن ابن عامر الهمز، وأصلها من نسأت الغنم، أي زجرتها وسقتها، ومنه: نسأ الله في أجله أي أخره، ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾، أي سقط على الأرض، ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾، أي علمت الجن وأيقنت، ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، أي في التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حياً، أراد الله بذلك أن يُعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب، لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، لغلبة الجهل عليهم. وذكر الأزهري: أن معنى «تبينت

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

٤٣٠

الجن»، أي ظهرت وانكشفت الجن للإنس، أي ظهر أمرهم أنهم لا يعلمون [الغيب] لأنهم كانوا قد شبهوا على الإنس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس «تبينت الإنس أن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في العذاب المهين» أي علمت الإنس وأيقنت ذلك، وقرأ يعقوب: «تبيّنت» بضم التاء [والباء] وكسر الياء أي أعلمت الإنس الجن، ذكر بلفظ ما لم يسم فاعله، وتبين لازم ومتعد، وذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه.

(١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾.

روى أبو سبرة النخعي عن

فروة بن مسيك القطيعي، قال: قال رجل: يا رسول الله أخبرني عن سبأ كان رجلاً أو امرأة أو أرضاً؟ قال: «كان رجلاً من العرب و[ولد] له عشرة من الولد، تيامن منهن ستة، وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فكندة، والأشعريون، وأزد، ومذحج، وأنمار، وحمير، فقال رجل: وما أنمار؟ [فقال الذين منهم خثعم وبجيلة وأما] الذين تشاءموا فعاملة وجذام، ولخم، وغسان، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان». ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾، قرأ حمزة وحفص «مسكنهم» بفتح الكاف على الواحد وقرأ الكسائي بكسر الكاف، وقرأ الآخرون «مساكنهم» على الجمع، وكانت مساكنهم بمأرب من اليمن، ﴿ءَايَةٌ﴾، دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ثم فسر الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ﴾، أي هي جنتان بستانان، ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، أي عن يمين الوادي وشماله. وقيل عن يمين من أتاهم وشماله، وكان لهم وادٍ قيل أحاطت الجنتان بذلك الوادي ﴿كُلُوا﴾، أي قيل لهم كلوا، ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾، يعني من ثمار الجنتين، قال السدي ومقاتل: كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلىء مكتلها من أنواع الفواكه من غير أن تمس شيئاً بيدها، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾، أي على ما رزقكم من النعمة والمعنى: اعملوا بطاعته، ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، أي أرض سبأ بلدة طيبة ليست بسبخة، قال ابن زيد: لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وكان الرجل يمرّ ببلدتهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل كله من طيب الهواء، فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾، أي طيبة الهواء، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، قال مقاتل: وربكم إن شكرتموه فيما رزقكم ربٌّ غفور للذنوب.

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا﴾.

قال وهب: أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم، وقالوا: ما نعرف لله عزّ وجلّ علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعم عنّا إن استطاع، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، والعرم جمع عرمة وهي السكر الذي يحبس به الماء، وقال ابن الأعرابي: العرم السيل الذي لا يطاق.

وقيل: كان ماء أحمر، أرسله الله عليهم من حيث شاء.

وقيل «العرم»: الوادي وأصله من العرامة وهي الشدة والقوة، وقال ابن عباس، ووهب، وغيرهما: كان ذلك السدّ بنته بلقيس، وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم، فأمرت بواديهم فسدّ بالعرم، وهو المسناة بلغة حمير، فسدت بين الجبلين بالصخر والقار وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا سدوها، فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السدّ فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الباب الأسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك، فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذاً يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فغرّق الماء جناتهم وخرب أرضهم.

قال وهب: وكان مما يزعمون ويجدون في علمهم وكهانتهم: أنه يخرب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمانه وما أراد الله عزّ وجلّ بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت منها الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها فتغلغلت في السد فنقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل، وهم لا يدرون بذلك فلما جاء السيل وجد خللاً فدخل فيه حتى قطع السد، وفاض على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم الرمل، فتفرقوا وتمزقوا حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون صار بنو فلان أيدي سبأ وأيادي سبأ أي تفرقوا وتبددوا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾.

قرأ العامة بالتنوين، وقرأ أهل البصرة: «أكل خمط» بالإضافة، الأُكل: الثمر، والخمط: الأراك وثمره يقال له: البرير، هذا قول أكثر

المفسرين: وقال المبرد والزجاج: كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله فخمط.

وقال ابن الأعرابي: الخمط ثمر شجرة يقال له فسوة الضبع، على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به، فمن جعل الخمط اسماً للمأكول فالتنوين في «أكل» حسن، ومن جعله أصلاً وجعل الأكل ثمرة فالإضافة فيه ظاهرة، والتنوين سائغ، تقول العرب: في بستان فلان أعناب كرم [وأعنابُ كرمٍ]، يترجم عن الأعناب بالكرم لأنها منه، ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فالأثل هو الطرفاء، وقيل: هو شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه، والسدر [وهو شجر معروف]، شجر النبق ينتفع بورقه لغسل الرأس ويغرس في البساتين، ولم يكن هذا من ذلك، بل كان سدراً برياً لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشيء، قال قتادة: كان شجر القوم من خير الشجر فصيّره الله من شر الشجر بأعمالهم.

﴿١٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾، أي ذلك الذي فعلنا بهم جزيناهم بكفرهم، ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب «وهل نجازي» بالنون وكسر الزاي، «الكفور» نصب لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم﴾، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الزاي، «الكفور» رفع، أي وهل يجازي مثل هذا الجزاء إلا الكفور، وقال مجاهد: يجازي أي يعاقب. ويقال في العقوبة: يجازي، وفي المثوبة يجزي، قال مقاتل: هل يكافأ بعمله السيء إلا الكفور لله في نعمه. قال الفراء: المؤمن يُجزى ولا يجازى أي يجزى للثواب بعمله ولا يكافأ بسيئاته.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر هي قرى الشام، ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها، وكان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى وكانوا لا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام.

وقيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام، ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي قدرنا سيرهم بين هذه القرى فكان مسيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار.

وقال قتادة: كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها، وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلىء مكتلها من الثمار، وكان ما بين اليمن والشام كذلك، ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾، أي وقلنا لهم سيروا فيها، وقيل: هو أمر بمعنى الخبر أي مكناهم من السير فكانوا يسيرون فيها، ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، أي بالليالي والأيام أيّ وقت شئتم، ﴿آمِنِينَ﴾، لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً، فبطروا وطغوا ولم يصبروا على العافية، وقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه.

﴿١٩﴾ ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، فاجعل بيننا وبيني الشام فلوات ومفاوز لنركب فيها الرواحل ونتزوّد الأزواد، فعجل الله لهم الإجابة. وقال مجاهد: بطروا النعمة وسئموا الراحة. قرأ ابن كثير. وأبو عمرو: بعّد التشديد من التبعيد، وقرأ الآخرون (باعد)، بالألف، وكل على وجه الدعاء والسؤال، وقرأ يعقوب: «ربّنا» برفع الباء، «باعد» بفتح العين والدال على الخبر، كأنهم استبعدوا أسفارهم القريبة وبطروا وأشروا. ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، بالبطر والطغيان.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق. قال الشعبي: لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة، ومرَّ آل خزيمة إلى العراق، والأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر، وهو جدّ الأوس والخزرج. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾، لعبراً ودلالات، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾، عن معاصي الله، ﴿شَكُورٍ﴾، لأنعمه، قال مقاتل: يعني المؤمن من هذه الأمة صبورٌ على البلاء شاكرٌ للنعماء. قال مطرف: هو المؤمن إذا أُعطِيَ شكر وإذا ابْتُلِيَ صبر.

﴿٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾، قرأ أهل الكوفة: «صدّق» بالتشديد أي ظن فيهم ظناً حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] فصدق ظنه حققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه.

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٤٣١

وقرأ الآخرون بالتخفيف أي صدق عليهم في ظنه بهم أي على أهل سبأ. وقال مجاهد: على الناس كلهم إلا من أطاع الله، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال السدي عن ابن عباس: يعني المؤمنين كلهم لأن المؤمنين لم يتبعوه في أصل الدين، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، يعني المؤمنين. وقيل: هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه.

قال ابن قتيبة: إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره الله، قال لأغوينهم أجمعين ولأضلنهم، لم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وإنما قاله ظناً فيهم، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه [فيهم]. قال الحسن: إنه لم يسلّ عليهم سيفاً ولا ضربهم بسوط وإنما وعدهم ومناهم فاغتروا.

﴿٢١﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أي ما كان تسليطنا إياه عليهم، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، أي إلا لنعلم أي لنرى ونميز المؤمن من الكافر، وأراد علم الوقوع والظهور، وقد كان معلوماً عنده بالغيب، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، رقيب.

﴿٢٢﴾ ﴿قُلِ﴾، يا محمد لكفار مكة، ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾، أنهم آلهة، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وفي الآية حذف أي: ادعوهم ليكشفوا الضرّ الذي نزل بكم في سني الجوع، ثم وصفها فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، من خير وشر ونفع وضر ﴿وَمَا لَهُمْ﴾، يعني الآلهة، ﴿فِيهِمَا﴾، في السموات والأرض، ﴿مِن شِرْكٍ﴾، من شركة، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾، أي وما لله، ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، عون.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، الله في الشفاعة، قاله تكذيباً لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله له أن يشفع له، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «أُذن» بضم الهمزة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء والزاي [وقرأ الآخرون بضم الفاء وكسر الزاي] أي كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم، فالتفزيع إزالة الفزع كالتمريض والتفريد، واختلفوا في الموصوفين بهذه الصفة، فقال قوم: هم الملائكة، ثم اختلفوا في ذلك السبب فقال بعضهم: إنما يفزع عن قلوبهم من غشية نصيبهم عند سماع كلام الله عزّ وجلّ.

وروينا عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي قال أنبأني محمد بن الفضل بن محمد، أنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، أنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري، أنا نُعيم بن حماد، أنا أبو الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان قال: قال: رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من

يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله».

وقال بعضهم: إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة.

قال مقاتل والكلبي والسدي: كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، خمسمائة وخمسين سنة، وقيل ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحياً، فلما بعث الله محمداً ﷺ كُلّم جبريل عليه السلام بالرسالة إلى محمد ﷺ فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة لأن محمداً ﷺ عند أهل السموات بعثته من أشراط الساعة، فصعقوا مما سمعوا خوفاً من قيام الساعة، فلما انحدر جبريل جعل يمرّ بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم قالوا: قال الحق يعني الوحي وهو العلي الكبير.

وقال جماعة: الموصوفون بذلك المشركون. وقال الحسن وابن زيد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا به حين لا ينفعهم الإقرار.

(٢٤) قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فالرزق من السموات المطر، ومن الأرض النبات، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي إن لم يقولوا رازقنا الله فقل أنت إن رازقكم هو الله، ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ليس هذا على طريق الشك ولكن على جهة الإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل للآخر: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب، والمعنى ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال، فالنبي ﷺ ومن اتبعه على الهدى، ومن خالفه في ضلال، فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب.

وقال بعضهم: «أو» بمعنى الواو، والألف فيه صلة، كأنه قال: وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، يعني: نحن على الهدى وأنتم في الضلال.

(٢٥) ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(٢٦) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾، يقضي، ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٢٧) ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾، أي أعلموني الذين ألحقتموهم به [شركاء] أي في العبادة معه هل يخلقون وهل يرزقون، ﴿كَلَّا﴾، لا يخلقون ولا يرزقون، ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾، الغالب على أمره، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، في تدبيره لخلقه فأنى يكون له شريك في ملكه.

(٢٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، يعني للناس [عامة] أحمرهم وأسودهم، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي مبشراً ومنذراً، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وروينا عن جابر أن النبي ﷺ قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

وقيل: كافة أي: كافاً يكفهم عمّا هم عليه من الكفر، والهاء للمبالغة.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، يعني [يوم] القيامة.

(٣٠) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، أي لا تتقدمون عليه يعني يوم القيامة، وقال الضحاك: يوم الموت لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون بأن يزاد في أجلكم أو ينقص منه.

(٣١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، يعني التوراة والإنجيل، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، يا محمد، ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾، محبوسون، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾، يرد بعضهم إلى بعض القول في الجدال، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، استحقروا وهم الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، وهم القادة والأشراف، ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، أي أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، أجابهم المتبوعون في الكفر، ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾، بترك الإيمان.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي مكركم بِنَا في الليل والنهار، والعرب تضيف الفعل إلى الليل والنهار على توسع الكلام، كما قال الشاعر:

ونمت وما ليل المطي بنائم

وقيل: مكر الليل والنهار هو طول السلامة وطول الأمل فيهما، كقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا﴾، وأظهروا ﴿النَّدَامَةَ﴾، وقيل: أخفوا، وهو من الأضداد، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، في النار الأتباع والمتبوعين جميعاً. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿٣٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾، رؤساؤها وأغنياؤها، ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿وَقَالُوا﴾، يعني قال المترفون للفقراء الذين آمنوا، ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾، ولو لم يكن الله راضياً بما نحن عليه من الدين والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، أي إن الله أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا.

﴿٣٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، يعني أن الله يبسط الرزق ويقدر ابتلاءً وامتحاناً لا يدل البسط على رضا الله عنه ولا التضييق على سخطه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنها كذلك.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾، أي قربى، قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريباً، ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾، لكن من آمن، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، قال ابن عباس: يريد إيمانه وعمله يقربه مني، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾، أي يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشرة إلى سبعمائة قرأ يعقوب: «جزاء» منصوباً منوناً و«الضعف» رفع تقديره: فأولئك لهم الضعف جزاء، وقرأ العامة بالإضافة، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾، قرأ حمزة: «في الغُرفة» على واحدة، وقرأ الآخرون بالجمع لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿٣٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾، يعملون، ﴿فِي آيَاتِنَا﴾، في إبطال حجتنا، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾، معاندين يحسبون أنهم يُعجزوننا ويفوتوننا، ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، يعطي خَلَفَه، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه. وقال الكلبي: ما تصدقتم [به] من صدقة وأنفقتم في الخير من نفقة فهو يخلفه على المنفق، إمّا أن يعجله في الدنيا وإمّا أن يدخره له في الآخرة، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، خير من يعطي ويرزق.

وروينا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنفق يا ابن آدم أُنفق عليك».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، ثنا إسماعيل، ثنا أخي، عن سليمان هو ابن بلال، عن معاوية بن أبي مُزَرِّد، عن أبي الحباب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعطِ منفقاً

خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا ابن أبي أويس، أنا عبدالعزيز بن محمد عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزاً، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا أبو الربيع، أنا عبدالحميد بن الحسن الهلالي، أنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة وكل ما أنفقَ الرجل على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وقى به الرجل عرضه كتب له بها صدقة»، قلت: ما يعني [ما] وقى الرجل عرضه؟ قال: «ما أعطى الشاعر وذا اللسان للمتّقى، وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلاّ ما كان من نفقة في بنيان أو في معصية الله عزّ وجلّ».

قوله: «قلت ما يعني» يقول عبدالحميد لمحمد بن المنكدر.

قال مجاهد: إذا كان في يدِ أحدكم شيء فليقتصد، ولا يتأول هذه الآية. ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، فإن الرزق مقسوم لعل رزقه قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه. ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه.

﴿٤٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، قرأ يعقوب وحفص: «يحشرهم»، ويقول بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالنون، ﴿جَمِيعًا﴾ يعني هؤلاء الكفار، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، في الدنيا، قال قتادة: هذا استفهام تقرير، كقوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ١١٦]، فتتبرأ منهم الملائكة.

﴿٤١﴾ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، تنزيهاً لك، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، أي نحن نتولاك ولا نتولاهم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، يعني الشياطين، فإن قيل لهم كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله: ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، قيل: أراد الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة، فقوله: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ أي يطيعون الجن، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، يعني مصدقون للشياطين.

﴿٤٢﴾ ثم يقول الله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾، بالشفاعة، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بالعذاب، يريد أنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضر، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

> سورة سبأ — الجزء الثاني والعشرون
>
> وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾
>
> ٤٣٢

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾، يعنون محمداً ﷺ، ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾، يعنون القرآن، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي بيّن.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾، يعني هؤلاء المشركين، ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾، يقرؤونها، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، أي لم يأت العرب قبلك نبي ولا نزل عليهم كتاب.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من الأمم رسلنا، وهم: عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط وغيرهم، ﴿وَمَا بَلَغُوا۟﴾ يعني هؤلاء المشركين، ﴿مِعْشَارَ﴾، أي عشر، ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، أي أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر، ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

﴿نَكِيرِ﴾، أي إنكاري وتغييري عليهم، يُحذِّر كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾، أي بخصلة واحدة، ثم بيّن تلك الخصلة فقال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾، أي لأجل الله، ﴿مَثْنَىٰ﴾، أي اثنين اثنين، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾، أي واحداً واحداً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾، جميعاً أي تجتمعون فتنظرون وتتحاورون وتنفردون، فتفكرون في حال محمد ﷺ فتعلموا، ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، أي جنون، وليس المراد من القيام القيام الذي هو ضد الجلوس، وإنما هو قيام بالأمر الذي هو في طلب الحق، كقوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧]. ﴿إِنْ هُوَ﴾، ما هو، ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وقال مقاتل: تم الكلام عند قوله ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي في خلق السموات والأرض فتعلموا أن خالقها واحد لا شريك له ثم ابتدأ فقال ما بصاحبكم من جنة.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم﴾ عليه، على تبليغ الرسالة، ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾، جُعْلٍ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾، يقول: قل لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً فتتهموني، ومعنى قوله: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي لم أسألكم شيئاً كقول القائل: ما لي من هذا فقد وهبته لك يريد ليس لي فيه شيء، ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾، ما ثوابي، ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾، والقذف الرمي بالسهم والحصى، والكلام، ومعناه يأتي بالحق وبالوحي ينزله من السماء فيقذفه إلى الأنبياء، ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، رفع بخبر أن، أي: وهو علام الغيوب.

﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾، يعني القرآن والإسلام، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، أي ذهب الباطل وزهق فلم يبق منه بقية يبدىء شيئاً أو يعيد، كما قال تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾، وقال: قتادة: «الباطل» هو إبليس أي ما يخلقه إبليس أحداً ابتداءً ولا يبعث. وهو قول مقاتل والكلبي، وقيل: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ الأصنام.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾، وذلك أن كفار مكة [كانوا] يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي إثم ضلالتي على نفسي، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾، من القرآن والحكمة، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾، قال قتادة عند البعث حين يخرجون من قبورهم، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾، أي فلا يفوتونني كما قال: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وقيل: إذ فزعوا [عند الموت] فلا فوت ولا نجاة، ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قال الكلبي من تحت أقدامهم، وقيل: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها، وحيثما كانوا فهم من الله قريب، لا يفوتونه. وقيل: من مكان قريب يعني عذاب الدنيا. وقال الضحاك: يوم بدر. وقال ابن أبزى: خسف بالبيداء، وفي الآية حذف تقديره: ولو ترى إذ فزعوا لرأيتَ أمراً تعتبرُ به.

﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، حين عاينوا العذاب، وقيل: عند اليأس. وقيل: عند البعث. ﴿وَأَنَّىٰ﴾، من أين، ﴿لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾، قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر: التناوش بالمد والهمزة، وقرأ الآخرون بواو صافية من غير مدّ ولا همز، ومعناه التناول أي كيف لهم تناول ما بَعُدَ عنهم، وهو الإيمان والتوبة، وقد كان قريباً في الدنيا فضيعوه، ومن همز قيل: معناه هذا أيضاً.

وقيل: التناوش بالهمز من النبش وهو حركة في إبطاء، يقال: جاء نبشاً أي مبطئاً متأخراً، والمعنى من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم

فيه، وعن ابن عباس قال: يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد إلى الدنيا، ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، أي من الآخرة إلى الدنيا.

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾، أي بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قال مجاهد: يرمون محمداً بالظن لا باليقين، وهو قولهم ساحر وشاعر وكاهن، ومعنى الغيب: هو الظن لأنه غاب علمه عنهم، والمكان البعيد بعدهم عن علم ما يقولون، والمعنى يرمون محمداً بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون. وقال قتادة: يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار.

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، أي الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا. وقيل: نعيم الدنيا وزهرتها، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾، يعني بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار، ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت اليأس، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾، من البعث ونزول العذاب بهم، ﴿مُّرِيبٍ﴾، موقع لهم الريبة والتهمة.

❁ ❁ ❁

سورة فاطر

مكية [وهي خمس وأربعون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، خالقها ومبدعها على غير مثال سبق، ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾، ذوي أجنحة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

قال قتادة ومقاتل: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة أجنحة، ويزيد فيها ما يشاء وهو قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، وقال [عبدالله] بن مسعود في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح.

وقال ابن شهاب في قوله: «يزيد في الخلق ما يشاء» قال: حسن الصوت. وعن قتادة قال: هو الملاحة في العينين. وقيل: هو العقل والتمييز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾، قيل: من مطر ورزق، ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، لا يستطيع أحد [على] حبسها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، فيما أمسك ﴿الْحَكِيمُ﴾، فيما أرسل من مطر ورزق.

أخبرنا الإمام أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا عبيدالله بن أسباط، أنا أبي [قال]: أنا عبدالملك بن عمير، عن وَرّاد، عن المغيرة بن شعبة، أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي «غير» بجر الراء، وقرأ الآخرون برفعها على معنى هل خالق غير الله، لأن «من» زائدة، وهذا استفهام على طريق التقرير كأنه قال: لا خالق غير الله، ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي من السماء المطر ومن الأرض النبات، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، يعزي نبيه ﷺ، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤٣٥

﴿٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، يعني وعد القيامة، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، وهو الشيطان.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾، أي أشياعه وأولياءه، ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي ليكونوا في السعير، ثم بيّن حال موافقيه ومخالفيه فقال:

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة، وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع. وقال قتادة: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم. فأما أهل الكبائر فليسوا منهم لأنهم لا يستحلون الكبائر، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾ شبه وموه ﴿عليه﴾ وحُسِّنَ ﴿لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي قبيح عمله، ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، زين له الشيطان ذلك بالوسواس، وفي الآية حذف مجازه: أفمن زُيّن له سوء عمله فرأى الباطل حقاً كمن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقيل: جوابه تحت قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، فيكون معناه: أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة، أي تتحسر عليه فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير مجازه: أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر، ومعنى الآية: لا تهتم بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا، وقرأ أبو جعفر: «فلا تذهب» بضم التاء وكسر الهاء نفسك نصب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ من القبور.

﴿١٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، قال الفراء معنى الآية من كان يريد أن يعلم لمن العزة فللّه العزة جميعاً، وقال قتادة: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله معناه الدعاء إلى طاعة من له العزة، أي: فليطلب العزة من عند الله بطاعته، كما يقال: من كان يريد المال فالمال لفلان، أي فليطلبه من عنده، وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزيز كما قال الله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا﴾ [مريم: ٨١].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] ﴿إِلَيْهِ﴾، أي إلى الله، ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، وهو قوله لا إلـه إلا الله، وقيل: هو قول الرجل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا الحجاج بن نصر، أنا المسعودي عن عبدالله بن المحارق، عن أبيه، عن ابن مسعود قال: إذا حدثتكم حديثاً أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عزّ وجلّ: ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه حتى صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بها وجه رب العالمين، ومصداقه ذلك من كتاب الله عزّ وجلّ قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ذكره ابن مسعود. وقيل: «الكلم الطيب» ذكر الله. وعن قتادة: «إليه يصعد الكلم الطيب» أي يقبل الله الكلم الطيب. قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، أي يرفع العمل الصالح الكلام الطيب، فالهاء في قوله ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ راجعة إلى الكلم الطيب، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وعكرمة، وأكثر المفسرين. وقال الحسن وقتادة: الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء فرائضه، فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُدّ كلامُه على عمله، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال حسناً وعمل غير صالح رَدّ الله عليه قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

وجاء في الحديث: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلاّ بنية».

وقال قوم: الهاء في قوله «يرفعه» راجعة إلى العمل الصالح أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، فلا يقبل عمل إلا أن يكون صادراً عن التوحيد، وهذا معنى قول الكلبي ومقاتل: وقيل: الرفع من صفة الله عزّ وجلّ معناه: العمل الصالح يرفعه الله عزّ وجلّ. وقال سفيان بن عيينة: العمل الصالح [هو] الخالص، يعني أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء، ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، قال الكلبي: أي الذين يعملون السيئات. وقال مقاتل: يعني الشرك. وقال أبو العالية: يعني الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال مجاهد وشهر بن حوشب: هم أصحاب الرياء، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، يبطل ويهلك في الآخرة.

(١١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، أي آدم، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، يعني نسله، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾، ذكراناً وإناثاً، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾، لا يطول عمره، ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، يعني من عمر آخر، كما يقال لفلان عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، وقيل: قوله: «ولا ينقص من عمره» منصرف إلى الأول.

قال سعيد بن جبير: مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره.

وقال كعب الأحبار حين حضر عمر رضي الله عنه الوفاة: والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر، فقيل له إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] فقال: هذا إذا أحضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص، وقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي كتابة الآجال والأعمال على الله هين.

(١٢) قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾، يعني: العذب والمالح، ثم ذكرهما فقال، ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، طيب، ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾، أي جائز في الحلق هنيء، ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، شديد الملوحة. وقال الضحاك: هو المر. ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، يعني الحيتان من العذاب والمالح جميعاً، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾، أي من المالح دون العذب ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾، يعني اللؤلؤ. وقيل: نسب اللؤلؤ إليهما لأنه يكون في البحر الأجاج، عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من [بين] ذلك، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، جواري مقبلة ومدبرة بريح واحدة، ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، بالتجارة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، الله على نعمه.

(١٣) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾، يعني الأصنام، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، وهو لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة.

(١٤) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾، يعني إن تدعو الأصنام، ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، ما أجابوكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

٤٣٧

﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ [أي] يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، يعني: نفسه أي: لا ينبئك أحد مثلي خبير عالم بالأشياء.

﴿١٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، إلى فضل الله والفقير المحتاج، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، الغني عن خلقه المحمود في إحسانه إليهم.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، شديد.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾، أي نفس مثقلة بذنوبها غيرها، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾، أي حمل ما عليها من الذنوب، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي ولو كان المدعو ذا قرابة له ابنه أو أباه أو أمه أو أخاه. قال ابن عباس: يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع [حمل شيء] حسبي ما عليّ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾، يخافون، ﴿رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، ولم يروه. وقال الأخفش: تأويله أي إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم بالغيب، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ﴾، صلح وعمل خيراً، ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾، لها ثوابه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، يعني الجاهل والعالم. وقيل: الأعمى عن الهدى والبصير بالهدى، أي المؤمن والمشرك.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، يعني الكفر والإيمان.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾، يعني الجنة والنار، قال ابن عباس: «الحرور» الريح الحارة بالليل، و«السموم» بالنهار. وقيل: الحرور يكون بالنهار مع الشمس.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾، يعني المؤمنين والكفار. وقيل: العلماء والجهال. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، حتى يتعظ ويجيب، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، يعني الكفار شبههم بالأموات في القبور حين لم يجيبوا.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، ما أنت إلاّ منذرٌ تخوّفهم بالنار.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾، ما من أمة فيما مضى ﴿إِلَّا خَلَا﴾، سلف، ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾، نبي منذر.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ﴾، بالكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، الواضح كرر ذلك الكتاب بعد ذكر الزبر على طريق التأكيد.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي إنكاري.

﴿٢٧﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾، طرق وخطط واحدتها جدة مثل مدة ومدد، ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، يعني سود غرابيب على التقديم والتأخير، يقال أسود غربيب، أي شديد السواد تشبيهاً بلون الغراب، أي طرائق سود.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾، ذكر الكتابة لأجل «من»، وقيل: رد الكناية إلى ما في الإضمار، مجازه: ومن الناس والدواب والأنعام ما هو مختلف ألوانه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعني كما اختلف ألوان الثمار والجبال، وتم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، قال ابن عباس: يريد إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عمر بن

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)

٤٣٨

حفص، أنا أبي [ثنا] الأعمش، أنا مسلم، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»، وقال النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

وقال رجلٌ للشعبي: أفتني أيها العالم، فقال الشعبي: إنما العالم من خشي الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، أي عزيز في ملكه غفور لذنوب عباده.

(٢٩) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، يعني قرأوا القرآن، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾، لن تفسد ولن تهلك، والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب، قال الفراء: قوله «يرجون» جواب لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

(٣٠) ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾، جزاء أعمالهم بالثواب، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، قال ابن عباس: يعني سوى الثواب مما لم ترَ عين ولم تسمع أذن، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، قال ابن عباس: يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم.

(٣١) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني القرآن، ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، من الكتب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني الكتاب الذي أنزلناه إليك الذي ذكر في الآية الأولى، وهو القرآن، جعلناه ينتهي إلى، ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، ويجوز أن يكون «ثم» بمعنى الواو، أي وأورثنا، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧]، أي وكان من الذين آمنوا، ومعنى أورثنا أعطينا لأن الميراث عطاء، قاله مجاهد، وقيل: «أورثنا» أي أخرنا، ومنه الميراث لأنه أخر عن الميت، ومعناه أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناكموه، وأهلناكم له ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، قال ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ، ثم قسمهم ورتبهم فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

روي عن أسامة بن زيد في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، الآية قال: قال النبي ﷺ: «كلهم من هذه الأمة».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني [أبو] الحسين بن محمد بن فنجويه، أنا محمد بن علي بن الحسين بن القاضي، أنا بكر بن محمد المروزي، أنا أبو قلابة، [ثنا] عمرو بن الحصين، عن الفضل بن عميرة، عن ميمون الكردي، عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، الآية، فقال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفور له»، قال أبو قلابة: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

واختلف المفسرون في معنى الظالم والمقتصد والسابق.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن

عيسى الصيرفي، أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي، حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت أن رجلاً دخل المسجد فقال: اللهم ارحم غربتي، وآنس وحشتي وسق لي جليساً صالحاً، فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك، سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فقال: «أمّا السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب، وأمّا المقتصد فيحاسب حساباً يسير، وأمّا الظالم لنفسه فيحبسه [الله] في المقام حتى يدخله الهم، ثم يدخل الجنة» ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، فقالت: يا بني كلهم في الجنة، أمّا السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وأمّا المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأمّا الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا.

وقال مجاهد، والحسن، وقتادة: فمنهم ظالم لنفسه وهم أصحاب المشأمة، ومنهم مقتصد وهم أصحاب الميمنة، ومنهم سابق بالخيرات هم السابقون المقربون من الناس كلهم.

وعن ابن عباس قال: السابق: المؤمن المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر نعمة الله غير الجاحد لها، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، وقال بعضهم: يذكر ذلك عن الحسن، قال: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من رجحت سيئاته على حسناته. وقيل: الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه، والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره. وقيل: الظالم من وحّد الله بلسانه ولم يوافق فعله قوله، والمقتصد من وحّد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه. والسابق من وحّد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه وأخلص له عمله.

وقيل: الظالم التالي للقرآن، والمقتصد القارىء له العالم به، والسابق القارىء له العالم به العامل بما فيه. وقيل: الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر، والسابق الذي لم يرتكب كبيرة ولا صغيرة، وقال سهل بن عبدالله: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل. قال جعفر الصادق: بدأ بالظالمين إخباراً بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة. وقال أبو بكر الوراق: رتّبهم هذا الترتيب على مقامات الناس، لأن أحوال العبد ثلاثة: معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة، فإن عصى دخل في حيز الظالمين، فإذا تاب دخل في جملة المقتصدين، فإذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين.

وقال بعضهم: المراد بالظالم الكافر ذكره الكلبي. وقيل: المراد منه المنافق، فعلى هذا لا يدخل الظالم في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ وحمل هذا القائل الاصطفاء على الاصطفاء في الخلقة وإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتب. والأول هو المشهور أن المراد من جميعهم المؤمنون، وعليه عامة أهل العلم. قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: سابق إلى الجنة أو إلى رحمة الله «بالخيرات» أي بالأعمال الصالحات، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، بأمر الله وإرادته، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، يعني إيراثهم الكتاب.

(٣٣) ثم أخبر بثوابهم فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، يعني الأصناف الثلاثة، قرأ أبو عمرو و«يدخلونها» بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

(٣٤) ﴿وَقَالُوا﴾، أي ويقولون إذا دخلوا الجنة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، والحزن واحد كالبخل والبخل. قال ابن عباس: حزن النار. وقال قتادة: حزن الموت. وقال مقاتل: حزنوا لأنهم كانوا لا يدرون ما يصنع الله بهم. وقال عكرمة: حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات. وقال القاسم: حزن زوال النعم وتقليب القلب، وخوف العاقبة، وقيل: حزن أهوال يوم القيامة. وقال الكلبي: ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير: هَمّ الخبز في الدنيا. وقيل: هَمّ المعيشة. وقال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاشٍ أو لمعاد.

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن [محمد بن] الضحاك الخطيب، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرايني، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، أنا أبو العباس أحمد بن محمد الترابي، ثنا يحيى بن عبدالحميد، ثنا عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

(٣٥) ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾، أنزلنا، ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾، أي الإقامة، ﴿مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾، أي لا يصيبنا فيها عناء ومشقة، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، إعياء من التعب.

(٣٦) قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، أي لا يهلكون فيستريحوا كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، أي قتله. وقيل: لا يقضي عليهم الموت فيموتوا، كقوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي ليقض علينا الموت فنستريح، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، من عذاب النار، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾، كافر، قرأ أبو عمرو «يجزي» بالياء وضمها وفتح الزاي «كل» رفع على غير تسمية الفاعل، وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الزاي، «كل» نصب.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾، يستغيثون ويصيحون، ﴿فِيهَا﴾ وهم يفتعلون من الصراخ وهو الصياح يقولون، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾، منها من النار، ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، في الدنيا من الشرك والسيئات، فيقول الله لهم توبيخاً ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، قيل: هو البلوغ. وقال عطاء وقتادة والكلبي: ثمان عشرة سنة. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال ابن عباس: ستون سنة، يروي ذلك عن علي، وهو العمر الذي أعذر الله تعالى إلى ابن آدم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبدالسلام بن مُطَهَّر، حدثنا عمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله تعالى إلى امرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهاويه حدثنا الحسن بن عرفة، أنا المحاربي، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك».

قوله: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، يعني محمداً ﷺ، هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: القرآن. وقال عكرمة، وسفيان بن عيينة، ووكيع: هو الشيب. معناه: أولم نعمركم حتى شبتم. ويقال: الشيب نذير الموت. وفي الأثر: ما من شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدي فقد

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٤٣٩

قرب الموت. قوله: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾.

(٣٨) ﴿إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور﴾.

(٣٩) ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾، أي يخلف بعضكم بعضاً، وقيل: جعلكم أمة خلفت من قبلها. ورأت فيمن قبلها، ما ينبغي أن تعتبرَ به. ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾، أي عليه وبال كفره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾، غضباً ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾.

(٤٠) ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾، أي جعلتموهم شركائي بزعمكم يعني: الأصنام، ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً﴾، قال مقاتل: هل أعطينا كفار مكة كتاباً، ﴿فهم على بينت منه﴾، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وحفص «بينة» على التوحيد، وقرأ الآخرون «بينات» على الجمع، يعني دلائل واضحة منه مما في ذلك الكتاب من ضروب البيان. ﴿بل إن يعد﴾، أي ما يَعِدُ، ﴿الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾، والغرور ما يغر الإنسان مما لا أصل له، قال مقاتل: يعني ما يعد الشيطان كفار بني آدم من شفاعة الآلهة لهم في الآخرة غرور وباطل.

(٤١) قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾، أي كيلا تزولا، ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾، أي ما يمسكهما أحد من بعده، أي أحد سواه، ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾، فإن قيل: فما معنى ذكر الحلم هٰهنا؟ قيل: لأن السموات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار فأمسكهما الله تعالى عن الزوال لحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة.

(٤٢) ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾، يعني كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم، وأقسموا بالله وقالوا لو أتى رسول الله لنكوننّ أهدى ديناً منهم، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بعث محمد كذبوه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير﴾، رسول، ﴿ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾، يعني من اليهود والنصارى، ﴿فلما جاءهم نذير﴾، محمد ﷺ، ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾، أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى.

(٤٣) ﴿استكباراً في الأرض﴾، نصب ﴿استكباراً﴾ على البدل من النفور، ﴿ومكر السيئ﴾، يعني العمل القبيح، أضيف المكر إلى صفته.

قال الكلبي: هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبي ﷺ، وقرأ حمزة «مكر السيىء» بسكون الهمزة تخفيفاً وهي قراءة الأعمش، ﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾، أي لا يحل ولا يحيط المكر السيىء، ﴿إلا بأهله﴾، فقتلوا يوم بدر، وقال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحل إلا بمن أشرك. والمعنى: إن وبال مكرهم راجع عليهم، ﴿فهل ينظرون﴾، ينتظرون، ﴿إلا سنت الأولين﴾، إلا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار، ﴿فلن تجد لسنت الله تبديلاً ولن تجد لسنت الله تحويلاً﴾.

(٤٤) ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه﴾، يعني ليفوت عنه، ﴿من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾.

الجزء الثاني والعشرون — سورة يس

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ — مكية ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٤٠

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾، من الجرائم، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾، يعني على ظهر الأرض، كناية عن غير مذكور، ﴿مِن دَابَّةٍ﴾، كما كان في زمان نوح أهلك الله ما على الأرض إلا من كان في سفينة نوح، ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾، [قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل طاعته وأهل معصيته].

❁ ❁ ❁

سورة يس

مكّية وهي ثلاث وثمانون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿يسٓ﴾، و﴿نٓ﴾ [القلم: ١]، قرأ بإخفاء النون فيهما: ابن عامر، والكسائي، وأبو بكر وقالون يخفي النون من «يسٓ» ويظهرها من «نٓ»، والباقون يظهرون فيهما، واختلفوا في تأويل ﴿يسٓ﴾ حسب اختلافهم في حروف التهجي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: [هو] قسمٌ، ويروى عنه أن معناه: يا إنسان، بلغة طيء، يعني محمداً ﷺ، وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، وجماعة. وقال أبو العالية: [معناه] يا رجل. وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر.

﴿٢﴾ ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أقسم الله بالقرآن أن محمداً ﷺ من المرسلين، وهو ردّ على الكفار حيث قالوا:

﴿٤﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو خبر بعد خبر، أي إنه لمن المرسلين وإنه على صراط مستقيم.

وقيل: معناه إنك لمن المرسلين الذين هم على صراط مستقيم.

﴿٥﴾ ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ﴿تَنزِيلَ﴾ بنصب اللام كأنه قال نزل تنزيلاً، وقرأ الآخرون بالرفع، أي هو تنزيل العزيز الرحيم.

﴿٦﴾ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾، قيل: ﴿مَا﴾ للنفي أي: لم ينذر آباؤهم، لأن قريشاً لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ. وقيل ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، أي: لتنذر قوماً بالذي أُنذر آباؤهم، ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، عن الإيمان والرشد.

﴿٧﴾ ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾، وجب العذاب، ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، هذا كقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿٨﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾، نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين.

وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخنّ رأسه بالحجر وهو يصلي، فأتاه يوماً وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به، فلما رفعه أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر، فقال رجل من بني مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر، فأعمى الله تعالى بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: ما رأيته، ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر بذنبه، لو دنوت منه لأكلني، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾.

قال أهل المعاني: هذا على طريق المثل، ولم يكن هناك غل، [بل] أراد: ومنعناهم عن الإيمان بموانع، فجعل الأغلال مثلاً لذلك، قال الفراء: معناه إنا حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] معناه لا تمسكها عن

الجزء الثاني والعشرون — سورة يس

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

٤٤١

النفقة. ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، وهي كناية عن الأيدي ـ وإن لم يجر لها ذكر ـ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق، معناه: إنا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ والمقمح الذي رفع رأسه وغض بصره، يقال: بعير قامح إذا روى من الماء، فأقمح إذا رفع رأسه وغض بصره. قال الأزهري: أراد أن أيديهم لما غلت إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم، فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص (سداً) بفتح السين، وقرأ الآخرون بضمها، ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾، فأعميناهم من التغشية وهي التغطية، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، سبيل الهدى.

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾، يعني إنما ينفع إنذارك من اتبع الذكر يعني القرآن فعمل بما فيه، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾، حسن وهو الجنة.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، عند البعث، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾، من الأعمال من خير وشر، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، أي ما سنوا من سنة حسنة أو سيئة.

قال النبي ﷺ: «مَنْ سَنّ في الإسلام سُنةً حسنةً يعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة يعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وقال قوم: قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: خطاهم إلى المساجد.

رُوي عن أبي سعد الخدري قال: شكت بنو سَلِمَة بُعْدَ منازلهم من المسجد فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، حدثنا أبو سعيد محمد بن عيسى الصيرفي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن هشام بن ملاّس النميري، حدثنا مروان الفزاري، حدثنا حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: أرادت بنو سَلِمَةُ أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة، فقال: «يا بني سَلِمَة ألا تحتسبون آثاركم؟»، فأقاموا.

وأخبرنا عبدالواحد [ابن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن يزيد بن عبدالله، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: «أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم فأبعدُهم ممشىً، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام».

﴿١٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ حفظناهُ وعددناه وبيّناه، ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وهو اللوح المحفوظ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، يعني اذكر لهم شبهاً مثل حالهم من قصة أصحاب القرية وهي أنطاكية، ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، يعني رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام: بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى أهل مدينة أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غُنيمات له وهو حبيب النجار، صاحب يَس فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ فقالا:

رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نحن نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نطلع على حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه، فقام في الوقت - بإذن الله - صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك، - قال وهب: كان اسمه انطيخس - ، وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام، قال: فانتهى الخبر إليه فدعاهما، فقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، قال: وفيم جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، فقال لهما: ولكما إله دون آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك؟ قال: قومَا حتى أنظر في أمركما، فتتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق. قال وهب: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية، فأتياها فلم يصلا إلى ملكها، وطال مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله، فغضب الملك وأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، قالوا: فلما كُذّبَ الرسولان وضُربا، بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على إثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه فرضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل كلمتهما وسمعت قولهما؟ فقال الملك: حال الغضبُ بيني وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون: فصفاه وأوجزا، فقالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فقال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمناه فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: إن أنت سألت آلهتك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهك، فقال الملك: ليس لي عنك سر [أسره إليك] إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلي كثيراً ويتضرع، حتى ظنوا أنه على ملتهم، فقال الملك للمرسلين: إن قدر إلهكم الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن ههنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه [وينظره]، وكان غائباً فجاؤوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربه سراً، فقام الميت، وقال: إني قدمت منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه آمنوا بالله [حتى تنجوا منها]، ثم قال: فتحت لي أبواب السماء فنظرت فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه، فتعجب الملك، فلما علم شمعون أن قوله [قد] أثر في الملك أخبره بالحال، ودعاه إلى الإسلام فآمن الملك وآمن قوم كثير، وكفر [قوم] آخرون.

وقيل: إن ابنة للملك كانت قد توفيت ودفنت، فقال شمعون للملك: اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك، فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصليا ودعوا وشمعون معهما في السر، فأحيا الله المرأة وانشق القبر عنها فخرجت، وقالت: أسلموا فإنهما صادقان، قالت: ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها إلى مكانها فذرا تُراباً عل رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب: بل كفر الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً، وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين.

﴿١٤﴾ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾، وقال وهب:

اسمهما يوحنا وبولس، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾، يعني فقوّينا ﴿بِثَالِثٍ﴾، برسول ثالث وهو شمعون، وقرأ أبو بكر عن عاصم فعززنا بالتخفيف وهو بمعنى الأول كقولك: شددنا وشدّدنا، بالتخفيف والتثقيل.

وقيل: أي فغلبناه كقولهم: من عزّ بزّ. وقال كعب: الرسولان صادق وصدوق، والثالث شلوم، وإنما أضاف الله الإرسال إليه لأن عيسى إنما بعثهم بأمره تعالى ﴿فَقَالُوٓا﴾، جميعاً لأهل أنطاكية، ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

(١٥) ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، ما أنتم إلا كاذبون فيما تزعمون.

(١٦) ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

(١٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، تشاءمنا بكم وذلك أن المطر حبس عنهم حين قدم الرسل عليهم، فقالوا: [ما] أصابنا هذا [إلا] بشؤمكم، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، لنقتلنكم، وقال قتادة: بالحجارة، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٩) ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، يعني شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبكم، يعني أصابكم الشؤم من قبلكم. وقال ابن عباس والضحاك: حظكم من الخير والشر، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، يعني وعظتم بالله، وهذا استفهام محذوف، الجواب [مجازه]: أإن ذكرتم [و] وعظتم بالله تطيرتم بنا وقرأ أبو جعفر أن بفتح الهمزة الملينة ذكرتم بالتخفيف، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، مشركون مجاوزون الحد.

(٢٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، وهو حبيب النجار، وقال السدي: كان قصّاراً. وقال وهب: كان رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين، فيطعم نصفاً لعياله ويتصدق بنصفه، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرسل جاءهم، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٢١) ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، قال قتادة: كان حبيب في غار يعبد ربه، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم فأظهر دينه، فلما انتهى حبيب إلى الرسل قال لهم: أتسألون على هذا أجراً؟ قالوا: لا، فأقبل على قومه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فلما قال ذلك قالوا له: وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم؟

(٢٢) فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قرأ حمزة ويعقوب «ماليْ» بإسكان الياء، والآخرون بفتحها. قيل: أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم، لأن الفطرة أثر النعمة، وكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر وكان بهم أليق. وقيل: إنه لما قال: اتبعوا المرسلين أخذوه فرفعوه إلى الملك، فقال له الملك: أفأنت تتبعهم على دينهم وتعبد آلهتهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، يعني وأي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم.

(٢٣) ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، استفهام بمعنى الإنكار، أي لا أتخذ من دونه آلهة، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، بسوء ومكروه، ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾، لا تدفع عني، ﴿شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا شفاعة لها أصلاً فتغني ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من ذلك المكروه وقيل لا ينقذون من العذاب لو عذبني الله إن فعلت ذلك.

(٢٤) ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، خطأ ظاهر.

(٢٥) ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾، يعني فاسمعوا مني، فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه. قال ابن مسعود: وطؤوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره. قال السدي: كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي، حتى قطعوه وقتلوه. وقال الحسن: خرقوا خرقاً في حلقة فعلقوه بسور من سور المدينة، وقبروه بأنطاكية فأدخله الله الجنة، وهو حي فيها يرزق.

(٢٦) فذلك قوله عز وجل: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، فلما أفضى إلى الجنة، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾، أي بغفران ربي لي، ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾، تمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه، ليرغبوا في دين

الرسل، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل لهم النقمة، فأمر جبريل عليه السلام فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم.

(٢٨) فذلك قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني الملائكة، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما كنا نفعل هذا، بل الأمر في إهلاكهم كان أيسر مما يظنون. وقيل: معناه ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي على قوم حبيب من بعد قتله ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وما كنا ننزلهم على الأمم إذا أهلكناهم، كالطوفان والصاعقة والريح، ثم بين عقوبتهم.

(٢٩) فقال تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وقرأ أبو جعفر: صيحةٌ واحدةٌ بالرفع جعل الكون بمعنى الوقوع. قال المفسرون: أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحةً واحدة، ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾، ميتون.

(٣٠) ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾، قال عكرمة: يعني يا حسرتهم على أنفسهم والحسرة: شدة الندامة.

وفيه قولان: أحدهما: يقول الله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ وندامة وكآبة على العباد يوم القيامة حين لم يؤمنوا بالرسل، والآخر أنه من قول الهالكين.

قال أبو العالية: لما عاينوا العذاب قالوا: يا حسرة أي ندامة على العباد. يعني الرسل الثلاثة حيث لم يؤمنوا بهم، فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم.

قال الأزهري: الحسرة لا تدعى، ودعاؤها تنبيه المخاطبين.

وقيل: العرب تقول: يا حسرتا ويا عجباً، على طريق المبالغة والنداء عندهم بمعنى التنبيه، فكأنه يقول: يا أيها العجب هذا وقتك؟ وأيتها الحسرة هذا أوانك؟ وحقيقة المعنى أن هذا زمان الحسرة والتعجب، وثم بين سبب الحسرة والندامة، فقال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾

٤٤٢

(٣١) ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، ألم يخبروا يعني أهل مكة، ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾، والقرن أهل كل عصر، سموا بذلك لاقترانهم في الوجود، ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، أي لا يعودون إلى الدنيا أفلا يعتبرون بهم.

(٣٢) ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ﴾، قرأ عاصم وحمزة ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد ههنا وفي الزخرف [٣٥] والطارق [٤]، وافق ابن عامر إلا في الزخرف، ووافق أبو جعفر في الطارق، وقرأ الآخرون بالتخفيف، فمن شدد جعل ﴿إن﴾ بمعنى الجحد، و﴿لما﴾ بمعنى إلا، تقديره: وما كل إلا جميع، ومن خفف جعل ﴿إن﴾ للتحقيق و﴿ما﴾ صلة، مجازه. وكل جميع، ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾.

(٣٣) ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾، بالمطر، ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾، يعني الحنطة والشعير وما أشبههما، ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾، أي من الحب.

(٣٤) ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ﴾ بساتين، ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا﴾، في الأرض، ﴿مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾.

(٣٥) ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾، أي من الثمر الحاصل بالماء، ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «عملت» بغيرها، وقرأ الآخرون «عملته» بالهاء، أي: يأكلون من الذي عملته، ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾، من الزرع والغرس، والهاء عائدة إلى ﴿ما﴾ التي هي بمعنى الذي. وقيل: و«ما» للنفي في قوله ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ﴾ أي وجدوها معمولة ولم تعمله أيديهم، ولا صنع لهم فيها، وهذا بمعنى قول الضحاك ومقاتل، وقيل: أراد العيون والأنهار التي لم تعملها يد خلق مثل

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

٤٤٣

دجلة والفرات والنيل ونحوها، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، نعمة الله.

(٣٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾، أي الأصناف كلها، ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، من الثمار والحبوب، ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعني الذكور والإناث، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، مما خلق من الأشياء من دواب البر والبحر.

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾، تدل على قدرتنا، ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ﴾، ننزع ونكشط، ﴿مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، داخلون في الظلمة، ومعناه نذهب بالنهار ونجيء بالليل، وذلك أن الأصل هي الظلمة، والنهار داخل عليها، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل، فتظهر الظلمة.

(٣٨) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، أي إلى مستقر لها. قيل: إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة. وقيل: إنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها، ثم ترجع فذلك مستقرها لأنها لا تجاوزه. وقيل: مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مستقرها تحت العرش».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا الحميدي، أنا وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه عن أبي ذر قال:

سألت رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: «مستقرها تحت العرش».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي أخبرنا وكيع، محمد بن يوسف، ثنا سفيان، عن الأعمش عن إبراهيم [التيمي] عن أبيه عن أبي ذر قال:

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب»؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيُقالُ لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾».

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس: «والشمس تجري لا مستقر لها»، وهي قراءة ابن مسعود أي لا قرار لها ولا وقوف فهي جارية أبداً ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

(٣٩) ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾، أي قدرنا له، قرأ ابن كثير، ونافع، وأهل البصرة «والقمرُ» برفع الراء لقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، وقرأ الآخرون بالنصب لقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي قدرنا القمر، ﴿مَنَازِلَ﴾، وقد ذكرنا أسامي المنازل في سورة يونس [٥]، فإذا صار القمر إلى آخر المنازل دق، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، العرجون عود العذق الذي عليه الشماريخ، فإذا قدم وعتق يبس وتقوس واصفر، فشبّه القمر في دقته وصفرته في آخر المنازل به.

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، أي: لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل: لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، لا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء، وإذا اجتمعا وأدرك كل واحد منهما

صاحبه قامت القيامة. وقيل: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي تجتمع معه في فلك واحد ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي لا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما نهار فاصل، ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، يجرون.

(٤١) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب ﴿وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ بجمع، وقرأ الآخرون ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد، فمن جمع كسر التاء، ومن لم يجمع نصبها، والمراد بالذرية: الآباء والأجداد، واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، أي المملوء، وأراد سفينة نوح، وهؤلاء من نسل من حُمل مع نوح، وكانوا في أصلابهم.

(٤٢) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، قيل: أراد به السفن [الصغار] التي عملت بعد سفينة نوح على هيئتها. وقيل: أراد [به] السفن [الصغار] التي تجري في الأنهار، فهي في الأنهار كالفلك الكبار في البحار، هذا قول قتادة، والضحاك وغيرهما.

وروي عن ابن عباس: أنه قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، يعني الإبل، فالإبل في البر كالسفن في البحر.

(٤٣) ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ﴾، أي لا مغيث، ﴿لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾، ينجون من الغرق. قال ابن عباس: ولا أحد ينقذهم من عذابي.

(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، إلى انقضاء آجالهم، يعني: إلا أن يرحمهم [الله] ويمتعهم إلى حين انقضاء آجالهم.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، قال ابن عباس: «ما بين أيديكم» يعني الآخرة، فاعملوا لها، وما «خلفكم» يعني من الدنيا، فاحذروها، ولا تغتروا بها. وقيل: «ما بين أيديكم» وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم، وما خلفكم عذاب الآخرة، وهو قول قتادة ومقاتل. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والجواب محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا عنه، دليله ما بعده.

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أي دلالة على صدق محمد ﷺ، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أعطاكم الله، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ﴾، أنرزق، ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾، وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله، وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأنعامهم، قالوا: أنطعم، أنرزق من لو يشاء الله أطعمه رزقه، ثم لم يرزقه مع قدرته عليه، فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله، وهذا مما يتمسك به البخلاء، يقولون: لا نعطي من حرمه الله، وهذا الذي يزعمون باطل، لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء، فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجة إلى ماله، ولكن ليبلو الغني فيما فرض له من مال الغني بالفقير فيما أمر وفرض له في مال الغني، ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، يقول الكفار للمؤمنين: ما أنتم إلا في خطأ بين في اتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، أي القيامة والبعث، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

(٤٩) قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾، أي ما ينتظرون، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، قال ابن عباس: يريد النفخة الأولى، ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، يعني يختصمون في أمر الدنيا من البيع والشراء، ويتكلمون في المجالس والأسواق، قرأ حمزة ﴿يخصِمون﴾ بسكون الخاء وتخفيف الصاد، أي يغلب بعضهم بعضاً بالخصام، وقرأ الآخرون بتشديد الصاد، أي يختصمون، أدغموا التاء في الصاد، ثم ابن كثير ويعقوب وورش يفتحون الخاء بنقل حركة التاء المدغمة إليها، ويجزمها أبو جعفر وقالون، ويروم فتحة الخاء أبو عمرو، وقرأ الباقون بكسر الخاء.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد رفع رجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها».

(٥٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾، أي: لا يقدرون على الإيصاء. قال مقاتل: عجزوا عن الوصية فماتوا، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

٤٤٤

﴿يَرْجِعُونَ﴾، ينقلبون، والمعنى أن الساعة لا تمهلهم لشيء.

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، وهي [النفخة] الأخيرة نفخة البعث، وبين النفختين أربعون سنة، ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾، يعني القبور، واحدها: جدث، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، يخرجون من القبور أحياء ومنه قيل للولد: نسل لخروجه من بطن أمه.

(٥٢) ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، قال أبي بن كعب، وابن عباس، وقتادة: إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين، فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل.

وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها، صار عذاب القبر في جنبها كالنوم، فقالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أقروا حين لم ينفعهم الإقرار.

وقيل: قالت الملائكة لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. قال مجاهد: يقول الكفار: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فيقول المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾، ما كانت، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، يعني النفخة الأخيرة، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

(٥٤) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «شُغْل» بسكون الغين والباقون بضمها، وهما لغتان، مثل السُّحْت والسُّحُت، واختلفوا في معنى الشغل، قال ابن عباس: في افتضاص الأبكار. وقال وكيع بن الجراح: في السماع. وقال الكلبي: في شغل عن أهل النار وعمّا هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم. وقال الحسن: شُغلوا بما في الجنة من النعيم عمّا فيه أهل النار من العذاب. وقال ابن كيسان: في زيارة بعضهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى: ﴿فَاكِهُونَ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿فكهون﴾ حيث كان، وافقه حفص في المطففين؛ وهما لغتان مثل الحاذر والحذر، أي ناعمون. قال مجاهد والضحاك: معجبون بما هم فيه. وعن ابن عباس قال: فرحون.

(٥٦) ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، أي حلائلهم، ﴿فِي ظِلَالٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي «ظُلل» بضم الظاء من غير ألف، جمع ظلة، وقرأ العامة ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ بالألف وكسر الظاء على جمع ظل، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، يعني السرر في الحجال، واحدتها أريكة. قال ثعلب: لا تكون أريكة حتى يكون عليها حجلة. ﴿مُتَّكِئُونَ﴾، ذوو اتكاء.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، يتمنون ويشتهون.

(٥٨) ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، أي يسلم الله عليهم قولاً. أي يقوله الله لهم قولاً.

أخبرنا أبو سعيد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا عبدالخالق بن علي بن عبدالخالق المؤذن، حدثني أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الملحمي الأصفهاني، أنا الحسن بن أبي علي الزعفراني، أنا ابن أبي الشوارب، أنا أبو عاصم العباداني، أنا الفضل الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربُّ عزّ وجلّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، فينظر إليهم وينظرون إليه،

فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركتهُ عليهم في ديارهم».

وقيل: تسلم عليهم الملائكة من ربهم. وقال مقاتل: تدخل الملائكة على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم. وقيل: يعطيهم السلامة، يقول: اسلموا السلامة الأبدية.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩)، قال مقاتل: اعتزلوا اليوم من الصالحين. قال أبو العالية: تميزوا. وقال السدي: كونوا على حدة. وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين. قال الضحاك: إن لكل كافر في النار بيتاً يدخل ذلك البيت ويردم بابه بالنار، فيكون فيه أبد الآبدين، لا يَرى ولا يُرى.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ (٦٠)، ألم آمركم يا بني آدم، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، أي لا تطيعوا الشيطان في معصية الله، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ظاهر العداوة.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ (٦١)، أطيعوني ووحدوني، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ (٦٢)، قرأ أهل المدينة وعاصم ﴿جِبِلاًّ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ يعقوب ﴿جُبُلاًّ﴾ بضم الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ [ابن] عامر، وأبو عمرو، بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة اللام، وقرأ الآخرون بضم الجيم والباء خفيفة اللام وكلها لغات صحيحة، ومعناها: الخلق والجماعة أي خلقاً كثيراً، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس، ويقال لهم لما دنوا من النار.

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٦٣)، بها في الدنيا.

﴿اصْلَوْهَا﴾ (٦٤)، ادخلوها ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥)، هذا حين ينكر الكفار كفرهم وتكذيبهم الرسل بقولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو الحسن محمد بن عمرو بن حفصويه السرخسي، سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، أنا أبو يزيد حاتم بن محبوب، أنا عبدالجبار بن العلاء، أنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: سأل الناس رسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فهل تضارون في رؤية الشمس عند الظهيرة ليست في سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارُون في رؤية ربكم، كما لا تضارُون في رؤية أحدهما» قال: فيلقى العبد قال فيقول: أي عَبدي ألم أكرمك؟ ألم أسوِّدك؟ ألم أزوِّجك؟ وألم أسخِّر لك الخيل والإبل وأتركك تترأس وتتربَّع؟ قال: بلى يا رب، قال: فظننت أنك ملاقيِّ؟ قال: لا يا رب، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني قال: فيلقى الثاني، فيقول: ألم أكرمك، ألم أسوِّدك، ألم أزوجك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك تترأس وتتربّع؟ قال: فيقول: بلى يا رب، قال: فظننت أنك ملاقيّ؟ قال: لا يا رب ـ وقال غيره سفيان ترأس وتربع في الموضعين ـ، قال: فاليوم أنساك كما نسيتني، قال: ثم يلقى الثالث، فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك، وبنبيّك وبكتابك، وصمت وصلّيت وتصدّقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقال له: ألم نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيفكّر في نفسه من الذي تشهد عليه فيختم على فيه، ويقال لفخذه: أنطقي، قال: فتنطق فخذه، ولحمه وعظامه بما كان يعمل، قال: وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي سخط الله عليه».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَري، أنا عبدالرزاق، أنا مَعْمَر، عن بهز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إنكم تدعون فيفدم على أفواهكم بالفدام فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكفه».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا

مسلم بن الحجاج، أنا أبو بكر بن أبي النضر، حدثني هاشم بن القاسم، أنا عبيد الله الأشجعي، عن سفيان الثوري، عن عبيد المكتب، عن فضيل، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك»؟ قال: قلنا اللَّهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه يقول: يا رب ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: فيقول: بلى: قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقاً فَعَنْكنّ كنتُ أناضل».

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق، وهو معنى الطمس كما قال الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] يقول كما أعمينا قلوبهم لو شئنا أعمينا أبصارهم الظاهرة، ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾، فتبادروا إلى الطريق، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾، فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم؟ يعني: لو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عمياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ؟ هذا قول الحسن والسدي، وقال ابن عباس، وقتادة، ومقاتل وعطاء: معناه لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم، فأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ ولم أفعل ذلك بهم؟

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، يعني مكانهم، يريد: لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير في منازلهم، وقيل: لو نشاء لجعلناهم حجارة، وهم قعود في منازلهم لا أرواح لهم. ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾، يعني إلى ما كانوا عليه، وقيل: لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع.

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾، قرأ عاصم وحمزة ننكّسه بالتشديد، وقرأ الآخرون بفتح النون الأولى وضم الكاف مخففاً، أي نرده إلى أرذل العمر شبه الصبي في أول الخلق: وقيل: ننكسه في الخلق أي نضعف جوارحه بعد قوتها ونردها إلى نقصانها بعد زيادتها. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، فيعتبروا ويعلموا أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان يقدر على البعث بعد الموت.

(٦٩) قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، قال الكلبي: إن كفار مكة قالوا: إن محمداً شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيباً لهم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ما يتسهل له ذلك، وما كان يتزن له بيت من الشعر، حتى إذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسراً.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا الحسين بن محمد الثقفي، أنا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا يوسف بن عبدالله بن ماهان، أنا موسى بن إسماعيل، أنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن أن النبي ﷺ: كان يتمثل بهذا البيت:

. . . .

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

. . . .

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال أبو بكر وعمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا شريك، عن المقدام بن شريح، عن أبيه قال: قلتُ لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر عبدالله بن رواحة، قالت: وربما قال:

. . . .

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سئلت: هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان الشعر أبغض الحديث إليه، قالت: ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس، طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل يقول: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا يا

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سورة الصافات

٤٤٥

رسول الله، فقال: «إني لستُ بشاعر ولا ينبغي لي».

﴿إِنْ هُوَ﴾، يعني ما القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، موعظة، ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾، فيه الفرائض والحدود والأحكام.

﴿٧٠﴾ ﴿لِّيُنذِرَ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب ﴿لتنذر﴾ بالتاء وكذلك في [سورة] الأحقاف، وافق ابن كثير في الأحقاف [١٢] أي: لتنذر يا محمد، وقرأ الآخرون بالياء أي: لينذر القرآن، ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾، يعني مؤمناً حي القلب، لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر، ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾، وتجب حجة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٧١﴾ قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾، تولينا خلقه بإبداعنا من غير إعانة أحد، ﴿أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾، ضابطون قاهرون، أي لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل هي مسخرة لهم.

﴿٧٢﴾ وهي قوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، سخرناها لهم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي ما يركبون هي الإبل، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [أي]: من لحمانها.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونسلها، ﴿وَمَشَارِبُ﴾، من ألبانها، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، رب هذه النعم.

﴿٧٤﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، يعني: لتمنعهم من عذاب الله، ولا يكون ذلك قط.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾. قال ابن عباس: لا تقدر الأصنام على نصرهم ومنعهم من العذاب. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، أي الكفار جندٌ للأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تستطيع لهم نصراً. وقيل: هذا في الآخرة يُؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه أتباعه الذين عبدوه كأنهم جند محضرون في النار.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، يعني قول كفار مكة في تكذيبك، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾، في ضمائرهم من التكذيب، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، من عبادة الأصنام أو ما يعلنون بألسنتهم من الأذى.

﴿٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾، جدل بالباطل، ﴿مُّبِينٌ﴾، بين الخصومة، يعني إنه مخلوق من نطفة ثم يخاصم، فكيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع الخصومة.

نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد بَلِيَ ففتته بيده، فقال: أترى يحيي اللهُ هذا بعدما رم؟ فقال النبي ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك النار»، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿٧٨﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، بدء أمره ثم، ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، بالية، ولم يقل رميمة، لأنه معدول عن فاعله، وكل ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، أسقط الهاء لأنها كانت مصروفة عن باغية.

﴿٧٩﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾، خلقها، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾، قال ابن عباس: هما شجرتان يقال لأحدهما: المرخ والأخرى العفار، فمن أراد منهم النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فيخرج منهما النار بإذن الله عز جل.

تقول العرب: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار، وقال الحكماء: في كل شجرٍ نارٌ إلا

العذاب. ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾، تقدحون وتوقدون النار من ذلك الشجر، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان.

﴿٨١﴾ فقال: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقدر﴾، وقرأ يعقوب يقدر بالياء على الفعل، ﴿على أن يخلق مثلهم بلى﴾، أي: قل بلى هو قادر على ذلك، ﴿وهو الخلاق﴾، يخلق خلقاً بعد خلق، ﴿العليم﴾ بجميع ما خلق.

﴿٨٢﴾ ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت﴾، أي ملك، ﴿كل شيء وإليه ترجعون﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو الطاهر الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا علي بن الحسين الدرابجردي، حدثنا عبدالله بن عثمان، أخبرنا عبدالله بن المبارك، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان ـ وليس بالنهدي ـ عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤا على موتاكم سورة يس».

ورواه محمد بن العلاء عن ابن المبارك، وقال عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار.

❁ ❁ ❁

الجزء الثالث والعشرون　سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ الۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنۡيَا بِزِينَةٍ الۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الۡمَلَإِ الۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمۡ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ الۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةً يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا الۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ الۡفَصۡلِ الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احۡشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ الۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾

٤٤٦

سورة الصافات

مكية وهي مائة واثنتان وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿والصافات صفا﴾، قال ابن عباس، رضي الله عنهما، والحسن وقتادة: هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة.

أخبرنا عمر بن عبدالعزيز القاشاني، أخبرنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي، أخبرنا أبو علي محمد بن العلاء أحمد اللؤلؤي، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا عبدالله بن محمد النفيلي، حدثنا زهير قال: سألت سليمان الأعمش عن حديث جابر بن سمرة في الصفوف المقدمة فحدثنا عن المسيب بن رافع عن تميم بن طرفة عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم»؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يتمون الصفوف المقدمة ويتراصون في الصف».

وقيل: هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله بما يريده. وقيل: هي الطيور دليله قوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ [النور: ٤١].

﴿٢﴾ قوله تعالى: ﴿فالزاجرات زجرا﴾، يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبائح.

﴿٣﴾ ﴿فالتاليات ذكرا﴾، هم الملائكة يتلون ذكر الله عزّ وجلّ. وقيل: هم جماعة قراء القرآن وهذا كله قسم أقسم الله تعالى به وموضع القسم:

﴿٤﴾ قوله: ﴿إن إلهكم لواحد﴾، وقيل: فيه إضمار، أي وربِّ الصافات والزاجرات والتاليات، وذلك أن كفار مكة قالوا: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ [ص: ٥]؟ فأقسم الله بهؤلاء إن إلهكم لواحد.

﴿٥﴾ ﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾، أي مطالع الشمس قيل أراد به المشارق والمغارب كما قال في موضع آخر ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ [المعارج: ٤٠]، فإن قيل: قد قال في موضع: ﴿برب المشارق والمغارب﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال في موضع [آخر] ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧]، وقال في

موضع: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]، فكيف وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

قيل: أما قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، أراد به جهة المشرق وجهة المغرب. وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف، وأراد بالمغربين: مغرب الشتاء ومغرب الصيف. وقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، أراد الله تعالى أنه خلق للشمس ثلثمائة وستين كوة في المشرق وثلثمائة وستين كوة في المغرب، على عدد أيام السنة، تطلع الشمس كل يوم من كوة منها، وتغرب في كوة منها، لا ترجع إلى الكوة التي تطلع الشمس منها إلى ذلك اليوم من العام المقبل، فهي المشارق والمغارب، وقيل: كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه الشمس فهو مغرب، كأنه أراد [به] رب جميع ما أشرقت عليه الشمس وغربت.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، قرأ عاصم، برواية أبي بكر ﴿بِزِينَةٍ﴾ منونة، ﴿ٱلْكَوَاكِبَ﴾ نصب أي بتزييننا الكواكب، وقرأ حمزة وحفص ﴿بِزِينَةٍ﴾ منونة ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ خفضاً على البدل، أي بزينة بالكواكب، أي زيناها بالكواكب. وقرأ الآخرون ﴿بِزِينَةِ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، بلا تنوين على الإضافة. قال ابن عباس: بضوء الكواكب.

﴿٧﴾ ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حفظناها حفظاً. ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾، متمرد يرمون بها.

﴿٨﴾ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم، أي لا يتسمعون، فأدغمت التاء في السين، وقرأ الآخرون بسكون السين خفيف الميم، ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي إلى الكتبة من الملائكة، «والملأ الأعلى» هم الملائكة لأنهم في السماء ومعناه أنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى، ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾، ويرمون، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، من كل آفاق السماء بالشهب.

﴿٩﴾ ﴿دُحُورًا﴾، يبعدونهم عن مجالس الملائكة، يقال: دحره دحراً ودحوراً، إذ طرده وأبعده، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، دائم، قال مقاتل: دائم إلى النفخة الأولى لأنهم يحرقون ويتخبلون.

﴿١٠﴾ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾، لحقه [وأدركه] ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، كوكب مضيء قوي لا يخطئه يقتله، أو يحرقه أو يخبله، وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه طمعاً في السلامة ونيل المراد، كراكب البحر، قال عطاء: سمي النجم الذي يرمي به الشياطين ثاقباً لأنه يثقبهم.

﴿١١﴾ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، يعني سلهم يعني أهل مكة، ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾، يعني من السموات والأرض والجبال، وهذا استفهام بمعنى التقرير أي هذه الأشياء أشد خلقاً كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقيل: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يعني من الأمم الخالية، لأن من يذكر فيمن يعقل، يقول: إن هؤلاء ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بذنوبهم، فما الذي يؤمن هؤلاء من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، يعني جيد حر لاصق يعلق باليد، ومعناه: اللازم أبدل الميم باء كأنه يلزم اليد [إذا وضعت فيه فيصبغها ويتراكم عليها] وقال مجاهد والضحاك: منتن.

﴿١٢﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾، قرأ حمزة والكسائي بضم التاء وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس، والعجب من الله عزّ وجل ليس كالتعجب من الآدميين، كما قال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال عزّ وجلّ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، والعجب من الآدميين: إنكاره وتعظيمه، والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار والذم، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا.

كما جاء في الحديث: «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة».

وجاء في الحديث: عجب ربكم من سؤالكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم» وسئل الجنيد عن هذه الآية، فقال: إن الله لا يعجب من شيء، ولكن الله وافق رسوله لما عجب رسوله فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

٤٤٧

قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] أي هو كما تقوله، وقرأ الآخرون بفتح التاء على خطاب النبي ﷺ: أي عجبت من تكذيبهم إياك، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾، يعني وهم يسخرون من تعجبك.

قال قتادة: عجب النبي ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم، وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن فسخروا منه ولم يؤمنوا به، فعجب من ذلك النبي ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

١٣ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾، يعني: إذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون.

١٤ ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾، قال ابن عباس ومقاتل يعني انشقاق القمر، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾، يسخرون ويستهزؤون، وقيل: يستدعي بعضهم عن بعض السخرية.

١٥ ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يعني سحر بين.

١٦ ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

١٧ ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾، أي وآباؤنا الأولون.

١٨ ﴿قُلْ نَعَمْ﴾، تبعثون، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾، صاغرون، والدخور أشد الصغار.

١٩ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي قصة البعث أو القيامة، ﴿زَجْرَةٌ﴾، أي صيحة، ﴿وَاحِدَةٌ﴾، يعني نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾، أحياء.

٢٠ ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، أي يوم الحساب ويوم الجزاء.

٢١ ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، يوم القضاء، وقيل: يوم الفصل بين المحسن والمسيء، ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٢٢ ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا، اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء، ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، أشباههم وأتباعهم وأمثالهم، قال قتادة والكلبي: كل من عمل مثل عملهم، فأهل الخمر، مع أهل الخمر وأهل الزنا مع أهل الزنا.

وقال الضحاك ومقاتل: وقرناءهم من الشياطين كل كافر مع شيطانه في سلسلة. وقال الحسن: وأزواجهم المشركات. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، في الدنيا، يعني الأوثان والطواغيت. وقال مقاتل: يعني إبليس وجنوده، واحتج بقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

٢٣ ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، قال ابن عباس: دلوهم إلى طريق النار. وقال ابن كيسان: قدّموهم. والعرب تسمي السابق هادياً.

٢٤ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾، واحبسوهم، يقال: وقفته وقفاً فوقف وقوفاً. قال المفسرون: لما سيقوا إلى النار حُبِسُوا عند الصراط لأن السؤال عند الصراط، فقيل: وقفوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾، قال ابن عباس: عن جميع أقوالهم وأفعالهم. وروي عنه: عن لا إله إلا الله.

وفي الخبر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربعة أشياء: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

٢٥ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، أي لا تتناصرون، يقال لهم توبيخاً: مالكم لا ينصر بعضكم بعضاً، يقول لهم خزنة النار هذا جواب لأبي جهل حين قال يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

٢٦ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾، قال ابن عباس: خاضعون. وقال الحسن: منقادون، يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع له، والمعنى: هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم.

٢٧ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، يتخاصمون.

(٢٨) ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي الأتباع للرؤساء، ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، أي من قبل الدين فتضلوننا عنه وترونا أن الدين ما تضلوننا به، قاله الضحاك، وقال مجاهد: عن الصراط الحق، واليمين عبارة عن الدين والحق، كما أخبر الله تعالى عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، فمن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبّس عليه الحق. وقال بعضهم: كان الرؤساء يحلفون لهم أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فمعنى قوله: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي من ناحية الأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها. وقيل: عن «اليمين» أي عن القوة والقدرة، كقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥]، والمفسرون على القول الأول.

(٢٩) ﴿وَقَالُواْ﴾، يعني الرؤساء للأتباع، ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، لم تكونوا على الحق فنضلكم عنه، أي إنما الكفر من قِبَلكم.

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾، من قوة وقدرة فنقهركم على متابعتنا، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، ضالين.

(٣١) ﴿فَحَقَّ﴾، وجب، ﴿عَلَيْنَا﴾، جميعاً، ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، يعني كلمة العذاب، وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، العذاب، أي أن الضال والمضل جميعاً في النار.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾، ضالين.

(٣٣) قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [أي] الرؤساء والأتباع.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، قال ابن عباس: الذين جعلوا لله شركاء.

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، يتكبرون عن كلمة التوحيد، ويمتنعون منها.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنون النبي ﷺ.

(٣٧) قال الله عز وجل ردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ﴾، محمد، ﴿بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله.

(٣٨) - (٣٩) ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، في الدنيا من الشرك.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، الموحدين.

(٤١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، يعني بكرة وعشياً كما قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

(٤٢) ﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع الفاكهة، وهي الثمار كلها رطبها ويابسها، وهي كل طعام يؤكل للتلذذ لا للقوت، ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾، بثواب الله.

(٤٣) - (٤٤) ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، لا يرى بعضهم قفا بعض.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾، إناء فيه شراب ولا يكون كأساً حتى يكون فيه شراب، وإلا فهو إناء، ﴿مِّن مَّعِينٍۭ﴾، خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون.

(٤٦) ﴿بَيْضَآءَ﴾، قال الحسن: خمر أشد بياضاً من اللبن، ﴿لَذَّةٍ﴾، أي لذيذة، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، قال الشعبي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. وقال الكلبي [ليس فيها] إثم. وقال قتادة: وَجَعُ البطن. وقال الحسن: صداع. وقال أهل المعاني: الغول فساد يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية، وخمرة الدنيا يحصل منها أنواع من الفساد، منها السكر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول، ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿يُنزِفُونَ﴾ بكسر الزاي وافقهما عاصم في الواقعة [١٩]، وقرأ الآخرون بفتح الزاي فيهما فمن فتح الزاي فمعناه: لا يغلبهم على عقولهم ولا يسكرون، يقال: نزف الرجل فهو منزوف ونزيف إذا سكر، ومن كسر الزاي فمعناه: لا ينفد شرابهم، يقال أنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمرته.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، حابسات الأعين غاضات الجفون، قصرن أعينهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿عِينٌ﴾، أي حسان الأعين، يقال: رجل أعين وامرأة عيناء ونساء عين.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾، جمع البيضة، ﴿مَّكْنُونٌ﴾، مصون مستور، وإنما ذكر المكنون والبيض جمع لأنه

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٤٤٨

رده إلى اللفظ. قال الحسن: [شبههنّ ببيض [النعام لأن] النعامة تُكنها بالريش من الريح والغبار حين خروجها]، فلونها أبيض في صفرة. ويقال: هذا أحسن ألوان النساء أن تكون المرأة ﴿بَيْضَآءَ﴾ مشرّبة صفرة، والعرب تشبهها ببيضة النعامة.

﴿٥٠﴾ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، يعني أهل الجنة في الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾، يعني من أهل الجنة، ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾، في الدنيا ينكر البعث. قال مجاهد: كان شيطاناً. وقال الآخرون: كان من الإنس. وقال مقاتل: كانا أخوين. وقال الباقون: كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا، وهما اللذان قصّ الله تعالى خبرهما في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [٣٢].

﴿٥٢﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، بالبعث.

﴿٥٣﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، مجزيون ومحاسبون وهذا استفهام إنكار.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ﴾، الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، إلى النار، وقيل: يقول المؤمن لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف منزلة أخي، فيقول أهل الجنة: أنت أعرف به منا.

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾، قال ابن عباس: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار، فاطلع هذا المؤمن، ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فرأى قرينه في وسط النار، وإنما سمي وسط الشيء سواءً لاستواء الجوانب منه.

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ﴾، له، ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ والله لقد كدت أن تهلكني، قال مقاتل: [معناه] والله لقد كدت أن تغويني، ومن أغوى إنساناً فقد أهلكه.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾، رحمته وإنعامه علي بالإسلام، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، معك في النار.

﴿٥٨﴾ - ﴿٥٩﴾ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۞ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، في الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، قال بعضهم: يقول هذا أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت: أفما نحن بميتين؟ فتقول لهم الملائكة: لا.

﴿٦٠﴾ فيقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقيل: إنما يقولونه على جهة الحديث بنعمة الله عليهم في أنهم لا يموتون ولا يعذبون. وقيل: يقوله المؤمن لقرينه على جهة التوبيخ بما كان ينكره.

﴿٦١﴾ قال الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، أي لمثل هذا المنزل ولمثل هذا النعيم الذي ذكره من قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، إلى ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿أَذَٰلِكَ﴾. أي ذلك الذي ذكر لأهل الجنة، ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، التي هي نُزُل أهل النار، والزقوم: [ثمرة] شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، يكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ومنه قولهم: تزقّم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة.

﴿٦٣﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، للكافرين وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟ وقال ابن الزبعري لصناديد قريش: إن محمداً يخوّفنا بالزقوم، والزقوم بلسان بربر: الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال: يا جارية زقمينا فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد.

﴿٦٤﴾ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، قعر النار، وقال الحسن: أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾، ثمرها سمي طلعاً لطلوعه، ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الشياطين بأعيانهم شبه بها لقبحها، لأن الناس إذا وصفوا شيئاً بغاية القبح قالوا: كأنه شيطان، وإن كانت الشياطين لا ترى لأن قبح صورتها متصور في النفس، وهذا معنى قول ابن عباس والقرظي، وقال بعضهم: أراد بالشياطين الحيات، والعرب تُسمى الحية القبيحة المنظر شيطاناً. وقيل: هي شجرة قبيحة مرّة منتنة تكون في البادية، تسميها العرب رؤوس الشياطين.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا﴾، خلطاً ومزاجاً، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾، من ماء حار شديد الحرارة، يقال: لهم إذا أكلوا الزقوم: شربوا عليه الحميم، فيشوب الحميم في بطونهم الزقوم فيصير شوباً له.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾، بعد شرب الحميم، ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الجحيم كما يورد الإبل الماء، ثم يردون إلى الجحيم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقرأ ابن مسعود: ﴿ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم﴾.

(٦٩) ـ (٧٠) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ وجدوا، ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾، يسرعون، قال الكلبي: يعملون مثل أعمالهم.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، من الأمم الخالية.

(٧٢) ـ (٧٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، الكافرين أي كان عاقبتهم العذاب.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، الموحدين نجوا من العذاب.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾، دعا ربه على قومه فقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾، نحن يعني أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، الغم العظيم الذي لحق قومه وهو الغرق.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، وأراد أن الناس كلهم من نسل نوح، روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءهم، قال سعيد بن المسيب، كان ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾، أي أبقينا له ثناء حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

٤٤٩

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي سلام عليه منّا في العالمين. وقيل: أي تركنا عليه في الآخرين أن يصلى عليه إلى يوم القيامة.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين.

(٨١) ـ (٨٢) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾، يعني الكفار.

(٨٣) ـ (٨٤) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أي من أهل دينه وملته وسنته، ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، مخلص من الشرك والشك.

(٨٥) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، استفهام توبيخ.

(٨٦) ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، يعني أتأفكون إفكاً وهو أسوأ الكذب، وتعبدون آلهة سوى الله.

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يصنع بكم.

(٨٨) ـ (٨٩) ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾، قال ابن عباس: كان قوم يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا [يتعاطون] لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع وكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لهم القرابين، ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم، زعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم ألا تخرج غداً معنا إلى عيدنا، فنظر إلى النجوم فقال: إني سقيم، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرون من الطاعون فراراً عظيماً. قال الحسن: مريض. وقال مقاتل: وجع. وقال الضحاك: سأسقم.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها.

(٩١) كما قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، مال إليها ميلة في خفية، ولا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه، ﴿فَقَالَ﴾ استهزاءً بها. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، يعني الطعام الذي بين أيديكم.

(٩٢) ـ (٩٣) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ مال عليهم ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾، أي كان يضربهم بيده اليمنى لأنها أقوى على العمل من الشمال. وقيل: باليمين أي بالقوة. وقيل: أراد به القسم أي القسم الذي سبق منه وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾، يعني إلى إبراهيم، ﴿يَزِفُّونَ﴾، يسرعون وذلك أنهم أخبروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه، وقرأ الأعمش وحمزة «يُزفون» بضم الياء وقرأ الآخرون بفتحها، وهما لغتان وقيل بضم الياء: أي يحملون دوابهم على الجد والإسراع.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾، لهم إبراهيم على وجه الحجاج، ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، يعني ما تنحتون بأيديكم [من الأصنام].

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، بأيديكم من الأصنام، وفيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

(٩٧) ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، معظم النار، قال مقاتل: بنوا له حائطاً من الحجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وملؤوه من الحطب وأوقدوا فيه النار فطرحوه فيها.

(٩٨) ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾، شراً وهو أن يحرقوه، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، أي المقهورين حيث سلّم الله تعالى إبراهيم وردّ كيدهم.

(٩٩) ﴿وَقَالَ﴾، يعني إبراهيم، ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾، أي مهاجر إلى ربي، والمعنى: أهجر دار الكفر وأذهب إلى مرضاة ربي، قاله بعد الخروج من النار، كما قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿سَيَهْدِينِ﴾، إلى حيث أمرني بالمصير إليه وهو الشام. قال مقاتل: فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد.

(١٠٠) فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يعني هب لي ولداً صالحاً من الصالحين.

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، قيل: غلام في صغره حليم في كبره، ففيه بشارة أنه نبي وأنه يعيش فينتهي في السن حتى يوصف بالحلم.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يعني المشي معه إلى الجبل.

وقال مجاهد عن ابن عباس: لما شبّ حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم.

والمعنى: بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله. قال الكلبي: يعني العمل لله تعالى، وهو قول الحسن ومقاتل بن حيان وابن زيد، قالوا: هو العبادة لله تعالى، واختلفوا في سنه، قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين. قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.

واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي، وهي رواية

عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وقالوا: وكانت هذه القصة بالشام.

وروي عن سعيد بن جبير قال: أُرِيَ إبراهيم ذبح إسحاق في المنام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى، فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش ذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة وطويت له الأودية والجبال. وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبدالله بن عمر وهو قول سعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع به أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي وهي رواية عطاء بن أبي رباح، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس، قال: المفدى إسماعيل، وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ.

ومن ذهب إلى أن الذبيح إسحاق احتج من القرآن بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أمر بذبح من بُشِّر به، وليس في القرآن أنه بُشِّر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود [٧١] ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾، ومن ذهب إلى أنه إسماعيل احتج بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، دلّ على أن المذبوح غيره، وأيضاً قال الله تعالى في سورة هود [٧١]: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه. قال القرظي: سأل عمر بن عبدالعزيز رجلاً كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله تعالى بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق بن إبراهيم.

ومن الدليل عليه: أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج.

قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة.

وعن ابن عباس قال: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة، وقد وحش، يعني يبس.

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

وأما قصة الذبح قال السدي: لما دعا إبراهيم فقال: ربّ هب لي من الصالحين، وبشر به، قال: هو إذاً لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك، هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بذبح ابنه، فقال عند ذلك لإسحاق: انطلق فقرب قرباناً لله تعالى فأخذ سكيناً وحبلاً فانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حُمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أمر في المنام أن يذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روي في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى في المنام ثانياً، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله عزّ وجلّ، فمن ثم سُمي يوم عرفة، قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متواليات، فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

قرأ حمزة والكسائي «تُرِي» بضم التاء وكسر الراء ماذا تشير، وإنما أمره ليعلم صبره على أمر الله تعالى وعزيمته على طاعته، وقرأ العامة بفتح التاء والراء إلا أبا عمرو فإنه يميل الراء، قال له ابنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾، انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي صرعه على الأرض. قال ابن عباس: اضجعه على جبينه على الأرض والجبهة بين الجبينين، قالوا: فقال له ابنه الذي أراد ذبحه يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واستحد شفرتك وأسرع مرَّ السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم عليه السلام: نِعْمَ العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن أيضاً يبكي، ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك السكين.

ويروى: أنه كان يجر الشفرة في حلقه فلا تقطع، فشحذها مرتين أو ثلاثة بالحجر، كل ذلك وهي لا تستطيع. قال السدي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه، قالوا: فقال الابن عند ذلك يا أبت كبني بوجهي إلى الأرض على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقةٌ تحول بينك وبين أمر الله تعالى، وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكين ونودي: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً، فتمثل له الشيطان رجلاً وأتى أم الغلام، فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولِمَ؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعاً وطاعةً، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئاً مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى.

﴿١٠٣﴾ وروى أبو الطفيل عن ابن عباس، أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى

إبراهيم لأمر الله عزّ وجلّ.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾.

١٠٤ ـ ١٠٥ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾، الواو في وناديناه صلة مقحمة، مجازه ناديناه كقوله: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ١٥] أي أوحينا إليه، فنودي من الجبل، ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، تم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، والمعنى: إنا كما عفونا عن إبراهيم عند ذبح ولده [كذلك] نجزي من أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه.

١٠٦ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾، الاختبار الظاهر حيث اختبره بذبح ابنه.

وقال مقاتل: البلاء ههنا النعمة، وهي أن فدي ابنه بالكبش، فإن قيل: كيف قال صدقت الرؤيا، وكان قد رأى الذبح ولم يذبح؟ قيل: جعله مصدقاً لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب إسلامهما لأمر الله تعالى وقد فعلا.

وقيل: كان [قد] رأى في النوم معاجلة الذبح ولم ير إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم، فلذلك قال له: قد صدقت الرؤيا.

١٠٧ قوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبّر جبريل، وكبّر الكبش، وكبر إبراهيم، وكبّر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه.

قال أكثر المفسرين: كان ذلك الكبش رعى في الجنة أربعين خريفاً. وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم هابيل. قال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيماً. قال مجاهد: سماه عظيماً لأنه متقبل. وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله. وقيل: عظيم في الشخص. وقيل: في الثواب. وقال الحسن: ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير.

١٠٨ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي تركنا له في الآخرين ثناء حسناً.

١٠٩ ـ ١١٢ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فمن جعل الذبيح إسماعيل قال: بشره بعد هذه القصة بإسحاق نبياً جزاءً لطاعته، ومن جعل الذبيح إسحاق قال: بشر إبراهيم بنبوة إسحاق، رواه عكرمة عن ابن عباس. قال: بشر به مرتين حين ولد وحين نبئ.

١١٣ ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، يعني على إبراهيم في أولاده، ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾، يكون أكثر الأنبياء من نسله، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾، أي مؤمن، ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي كافر، ﴿مُبِينٌ﴾، أي ظاهر الكفر.

١١٤ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، أنعمنا عليهم بالنبوة.

١١٥ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾، بني إسرائيل، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي الغم العظيم وهو الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم. وقيل: من الغرق.

١١٦ ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾، يعني موسى وهارون وقومهما، ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، على القبط.

١١٧ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾، أي المستنير وهو التوراة.

١١٨ ـ ١٢٢ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٢٣ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، روي عن عبدالله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. وفي مصحفه: وإن إدريس لمن المرسلين. وهذا قول عكرمة.

وقال الآخرون: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل. قال ابن عباس: هو ابن عم اليسع. قال محمد بن إسحاق: هو إلياس بن بشير بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

وقال أيضاً محمد بن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار: لما قبض الله عزّ وجلّ حزقيل النبي عليه السلام، عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الأوثان وعبدوها من

دون الله، فبعث الله عزّ وجلّ إليهم إلياس نبياً وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنو إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام، وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطاً منهم ببعلبك ونواحيها، وهم السبط الذين كان منهم إلياس فبعثه الله تعالى إليهم نبياً، وعليهم يومئذ ملك يقال له: آجب قد أضل قومه وأجبرهم على عبادة الأصنام، وكان يعبد هو وقومه صنماً يقال له: بعل، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ وهم لا يسمعون منه شيئاً إلا ما كان من أمر الملك، فإنه صدقه وآمن به فكان إلياس يقوم أمره ويسدده ويرشده، وكان لآجب الملك هذا امرأة يقال لها أزبيل وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها، وكانت تبرز للناس وتقضي بين الناس، وكانت قتالة الأنبياء، يقال هي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه، وكان قد خلّص من يدها ثلثمائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم، وكانت في نفسها غير محصنة، وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل، قتلتهم كلهم بالاغتيال، وكانت معمرة يقال أنها ولدت سبعين ولداً، وكان لآجب هذا جار [وهو] رجل صالح يقال له مزدكي، وكانت له جنينة يعيش منها، ويقبل على عمارتها ومرمتها، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها، وكان آجب الملك يحسن جوار صاحبها مزدكي ويحسن إليه، وامرأته أزبيل تحسده لأجل تلك الجنينة، وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها، وتحتال أن تقتله والملك ينهاها عن ذلك ولا تجد عليه سبيلاً، ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد وطالت غيبته فاغتنمت امرأته أزبيل ذلك، فجمعت جمعاً من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي أنه سبَّ زوجها آجب فأجابوها إليه، وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على من سبّ الملك إذا قامت عليه البينة، فأحضرت مزدكي وقالت له: بلغني أنك شتمت الملك فأنكر مزدكي فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور، فأمرت بقتله، وأخذت جنينته، فغضب الله عليهم للعبد الصالح.

فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر، فقال لها: ما أصبت ولا أرانا نفلح بعده، فقد جاورنا منذ زمان فأحسنا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا، فختمت أمره بأسوأ الجوار، فقالت: إنما غضبت لك وحكمت فيه بحكمك، فقال لها: أو ما كان يسعه حلمك فتحفظين له جواره؟ قالت: قد كان ما كان، فبعث الله تعالى إلياس إلى آجب الملك وقومه، وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب لوليّه حين قتلوه ظلماً، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا على صنيعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكي أن يهلكهما، يعني آجب وامرأته في جوف الجنينة، ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما من لحومهما، ولا يتمتعان بها إلا قليلاً.

قال: فجاء إلياس وأخبره بما أوحى الله تعالى إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة، فلما سمع الملك ذلك اشتدّ غضبه عليه ثم قال له: يا إلياس والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً وما أرى فلاناً وفلاناً سمى ملوكاً منهم قد عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويتمتعون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما ترى لنا عليهم من فضل.

قال: وهمّ الملك بتعذيب إلياس وقتله، فلما أحسّ إلياس بالشر والمكر به رفضه وخرج عنه، فلحق بشواهق الجبال، وعاد الملك إلى عبادة بعل، وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه.

ويقال: إنه بقي سبع سنين شريداً خائفاً يأوي إلى الشعاب والكهوف يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون والله يستره، فلما مضى سبع سنين أذن الله في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله عزّ وجلّ ابناً [كان] لآجب وكان أحب ولد إليه وأشبههم به، فأدنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتنوا ببعل

وعظّموه حتى جعلوا له أربعمائة سادن، فوكلوهم به وجعلوهم أنبياءه، وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم، والأربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلالة فيبثونها للناس، فيعملون بها ويسمونهم أنبياء.

فلما اشتد مرض ابن الملك طلب إليهم الملك أن يتشفعوا إلى بعل، ويطلبوا لابنه من قبله الشفاء فدعوه فلم يجبهم، ومنع الله الشيطان فلم يمكنه الولوج في جوفه وهم مجتهدون في التضرع إليه، فلما طال عليهم ذلك قالوا لآجب: إن في ناحية الشام آلهة أخرى فابعث إليها أنبياءك فلعلها تشفع لك إلى إلهك بعل، فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لأجابك.

قال: ومن أجل ماذا غضب عليّ وأنا أطيعه؟ قالوا: من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطت فيه حتى نجا سليماً وهو كافر بإلهك، قال آجب: وكيف لي أن أقتل إلياس وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني، وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع نقصده، فلو عُوفي ابني لفرغت لطلبه حتى أجده فأقتله فأرضي إلهي، ثم إنه بعث أنبياءه الأربعمائة إلى الآلهة التي بالشام يسألونها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفي ابنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويكلمهم.

وقال الله: لا تخف فإني سأصرف عنك شرهم وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم فلما وقفوا قال لهم: إن الله تعالى أرسلني إليكم وإلى من ورائكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم فارجعوا إليه، وقولوا له: إن الله تعالى يقول لك ألست تعلم يا آجب أني أنا الله لا إله إلا أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم، ورزقهم وأحياهم وأماتهم، فجهلك وقلة علمك حملك على أن تشرك بي، وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا ما شئت، إني حلفت باسمي لأغيظنك في ابنك ولأميتنه في فوره هذا حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً [من] دوني.

فلما قال لهم هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رعباً، فلما صاروا إلى الملك أخبروه بأن إلياس قد انحط عليهم، وهو رجل نحيف طوال قد نحل وتمعط شعره وتقشر جلده، عليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا، فلما صار معنا قذف له في قلوبنا الهيبة والرعب، فانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير فلم نقدر على أن نكلمه ونراجعه حتى رجعنا إليك، وقصوا عليه كلام إلياس.

فقال آجب: لا ننتفع بالحياة ما كان إلياس حياً وما يطاق إلا بالمكر والخديعة، فقيض له خمسين رجلاً من قومه ذوي القوة والبأس، وعهد إليهم عهده، وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال به وأن يطمعوه في أنهم قد آمنوا به، هم ومن وراءهم ليستنهم إليهم [أي يسكن] ويغتر بهم فيمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس، ثم تفرقوا فيه ينادونه بأعلى أصواتهم، ويقولون: يا نبي الله ابرز إلينا وامنن علينا بنفسك، فإنا قد آمنا بك وصدقناك، وملكنا آجب وجميع قومنا، وأنت آمن على نفسك وجميع بني إسرائيل، يقرؤون إليك السلام ويقولون: قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت، فآمنّا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا فهلمّ إلينا وأقم بين أظهرنا واحكم فينا فإنا ننقاد لما أمرتنا، وننتهي عما نهيتنا وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا وطاعتنا، فارجع إلينا.

قال: وكل هذا منهم مُمَاكَرةٌ وخديعة.

فلما سمع إلياس مقالتهم وقعت في قلبه، وطمع في إيمانهم، وخاف [من] الله إن هو لم يظهر لهم، فألهمه الله التوقف والدعاء، فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم فما استتم قوله حتى حُصبوا بالنار من فوقهم، فاحترقوا أجمعين، قال: وبلغ آجب وقومه الخبر فلم يرتدع من همه بالسوء، واحتال ثانياً في أمر إلياس وقيض له فئة أخرى مثل عدد أولئك أقوى منهم وأمكن من الحيلة والرأي، فأقبلوا أي حتى توقَّلوا، أي صعدوا قلل تلك الجبال متفرقين، وجعلوا ينادون: يا نبي الله إنا نعوذ

بالله وبك من غضب الله وسطواته، إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا وإن أولئك فرقة نافقوا فصاروا إليك ليكيدوا بك من غير رأينا، ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم، فالآن قد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم وانتقم لنا ولك منهم. قال: فلما سمع إلياس مقالتهم دعا إلى الله بدعوته الأولى فأمطر [الله] عليهم النار، فاحترقوا عن آخرهم وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه.

فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غضباً على غضب وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه، إلا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه، فلم يمكنه فوجه نحو إلياس المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً، وإنما أظهر له [ذلك] لما اطلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضياً عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة وسداد الرأي.

فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه وأوعز إلى الفئة دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوا به إن أراد التخلف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقاً به لم يروعوه، ثم أظهر مع الكاتب الإنابة وقال له إنه قد آن لي أن أتوب وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس، ولست آمن أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته، فانطلق إليه وأخبره إنا قد تبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا في توبتنا، وما نريد من رضى ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا، يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضي ربنا.

وأمر قومه فاعتزلوا الأصنام، وقال له: أخبر إلياس أنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد، وأرجينا أمرها حتى ينزل إلياس فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها بيده، [قال:] وكان ذلك مكراً من الملك.

فانطلق الكاتب والفئة حتى [أتى] علا الجبل الذي فيه إلياس ثم ناداه فعرف إلياس صوته، فتاقت نفسه إليه وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله تعالى إليه أن ابرز إلى أخيك الصالح فالقه، وجدد العهد به فبرز إليه وسلم عليه وصافحه، وقال له: ما الخبر؟ فقال له المؤمن: أنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغية وقومه.

وقص عليه ما قالوا ثم قال: وإني لخائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني فمرني بما شئت [فإني] أفعله، إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته، وإن شئت جاهدته معك وإن شئت ترسلني إليه بما تحب فأبلغه رسالتك، وإن شئت دعوت ربك فجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن كل شيء جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك، وإن آجب إن أخبرته رسلُهُ أنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك اتهمه وعرف أنه قد داهن في أمرك، فلم يأمن أن يقتله، فانطلق معه فإني سأشغل عنكما آجب فأضاعف على ابنه البلاء، حتى لا يكون له همّ غيره، ثم أميته على شرّ حال، فإذا مات هو فارجع عنه.

قال: فانطلق معهم حتى قدموا على آجب، فلما قدموا شدّد الله تعالى الوجع على ابنه وأخذ الموت يكظمه، فشغل الله تعالى بذلك آجب وأصحابه عن إلياس، فرجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلما مات ابن آجب وفرغوا من أمره وقلّ جزعه انتبه لإلياس، وسأل عنه الكاتب الذي جاء به، فقال له: ليس لي علم به شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه، ولم أكن أحسبك إلا قد استوثقت منه، فأعرض عنه آجب وتركه لما فيه من الحزن على ابنه، فلما طال الأمر على إلياس ملّ السكون في الجبال واشتاق إلى الناس نزل من الجبل فانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل، وهي أم يونس بن متى ذي النون، استخفى عندها ستة أشهر ويونس بن متى يومئذ مولود يرضع، فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال فأحب اللحوق بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه، فجزعت أم يونس لفراقه فأوحشها فقده.

ثم لم تلبث إلا يسيراً حتى مات ابنها يونس حين فطمته، فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه، فوجدته وقالت له: إني قد فجعت بعدك لموت ابني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي، وليس لي ولد غيره،

فارحمني وادع لي ربك جل جلاله ليحيي لي ابني وإني قد تركته مسجى لم أدفنه، وقد أخفيت مكانه.

فقال لها إلياس: ليس هذا مما أمرتُ به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربي، فجزعت المرأة وتضرعت فأعطف الله تعالى قلب إلياس لها.

فقال لها: متى مات ابنك؟ قالت: منذ سبعة أيام فانطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها، فوجد ابنها ميتاً له أربعة عشر يوماً، فتوضأ وصلى ودعا، فأحيا الله تعالى يونس بن متى.

فلما عاش وجلس وثب إلياس وتركه وعاد إلى موضعه، فلما طال [عليه] عصيان قومه ضاق بذلك إلياس ذرعاً فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه؟ ألست أميني على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي من خلقي؟ فسلني أعطك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم.

قال: تميتني وتلحقني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملوني، فأوحى الله تعالى إليه: يا إلياس ما هذا اليوم الذي أعري منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحها بك وبأشباهك، وإن كنتم قليلاً ولكن سلني فأعطك، قال إلياس: إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل.

قال الله تعالى: فأي شيء تريد أن أعطيك؟ قال: تمكن من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشر عليهم سحابة إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرة [سبع سنين] إلا بشفاعتي، فإنهم لا يذلهم إلا ذلك.

قال الله تعالى: يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك، وإن كانوا ظالمين، قال: فست سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، قال: فخمس سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك قال: فأربع سنين قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكني أعطيك ثأرك ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك.

قال إلياس: فبأي شيء أعيش؟ قال: أسخر لك جيشاً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف و[من] الأرض التي لم تقحط، فقال إلياس: قد رضيت، قال: فأمسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً، وإلياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق حيث ما كان، وقد عرف ذلك قومه وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا: لقد دخل إلياس هذا المكان، فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شراً. قال ابن عباس: أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط، فمرّ إلياس بعجوز فقال لها: هل عندك طعام؟ قالت: نعم شيء من دقيق وزيت قليل.

قال: فدعا ربه ودعا فيه بالبركة ومسّه حتى ملأ جرابها دقيقاً، وملأ خوابيها زيتاً، فلما رأوا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا، فوصفته بوصفته فعرفوه، فقالوا ذلك إلياس، فطلبوه فوجدوه فهرب منهم، ثم إنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن أخطوب به ضَرٌ فآوته وأخفت أمره، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسع إلياس فآمن به وصدقه ولزمه.

وكان يذهب حيث ما ذهب وكان إلياس قد أسن فكبر واليسع غلام شاب، ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس: أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام بحبس المطر، فيزعمون ـ والله أعلم ـ أن إلياس قال: يا رب دعني أكن أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء، لعلهم أن يرجعوا وينزعوا عمّا هم عليه من عبادة غيرك، فقيل له: نعم، جاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال: إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم، وإنكم على باطل فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل، فنزعتم ودعوت [لكم] الله تعالى ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا: أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها، فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء.

ثم قالوا لإلياس: إنا قد هلكنا فادع الله تعالى لنا، فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

٤٥١

ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم، وأحييت بلادهم، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه، فلما رأى ذلك إلياس دعا ربه عزّ وجلّ أن يريحه منهم، فقيل له فيما يزعمون: انظر يوم كذاوكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا وكذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كانا بالموضع الذي أمر أقبل فرس من نار، وقيل: لونه كلون النار، حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس، فانطلق به الفرس فناداه اليسع: يا إلياس، ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل، فكان ذلك آخر العهد به، فرفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، فكساه الريش فكان إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً، وسلّط الله تعالى على آجب الملك وقومه عدواً لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم، فقتل آجب وامرأته أزبيل في بستان مزدكي، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما، ونبأ الله تعالى اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إلى اليسع وأيده، فآمنت به بنو إسرائيل فكانوا يعظمونه، وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع.

وروى السري بن يحيى عن عبدالعزيز بن أبي رواد، قال: الخضر وإلياس يصومان شهر رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسم في كل عام.

وقيل: إن إلياس موكل بالفيافي، والخضر موكل بالبحار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿١٢٤﴾ - ﴿١٢٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ أَتَدْعُونَ﴾، أتعبدون، ﴿بَعْلًا﴾، وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه، ولذلك سميت مدينتهم بعلبك، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: البعل الرب بلغة أهل اليمن.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، فلا تعبدونه.

﴿١٢٦﴾ ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ﴾ بنصب الهاء والباءين على البدل، وقرأ الآخرون برفعهن على الاستئناف.

﴿١٢٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، في النار.

﴿١٢٨﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، من قومه فإنهم نَجَوْا من العذاب.

﴿١٢٩﴾ - ﴿١٣٠﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾، قرأ نافع وابن عامر «آل ياسين» بفتح الهمزة مشبعة، وكسر اللام مقطوعة، لأنها في المصحف مفصولة. وقرأ الآخرون بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة.

فمن قرأ «آل يس»، مقطوعة، قيل: أراد آل محمد ﷺ، وهذا القول بعيد لأنه لم يسبق له ذكر، وقيل: أراد آل إلياس، والقراءة المعروفة بالوصل.

واختلفوا فيه، فقد قيل: إلياسين لغة في إلياس مثل إسماعيل وإسماعين، وميكائيل وميكائين وميكال وميكاييل.

وقال الفراء: هو جمع أراد [به] إلياس وأصحابه وأتباعه من المؤمنين، فيكون بمنزلة الأشعرين والأعجمين بالتخفيف، وفي حرف عبدالله بن مسعود: سلامٌ على إدراسين يعني إدريس وأتباعه، لأنه يقرأ: وإن إدريس لمن المرسلين.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٥﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۞

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي الباقين في العذاب.

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾، والتدمير: الإهلاك.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾، على آثارهم ومنازلهم، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾، [أي] وقت الصباح.

(١٣٨) ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾، يريد تمرون بالنهار وبالليل عليهم إذا ذهبتم إلى أسفاركم ورجعتم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فتعتبرون [بهم].

(١٣٩) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي من جملة رسل الله.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، يعني هرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما ووهب: كان يونس وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خشي على نفسه القتل فخرج كالمشور منهم، فقصد البحر فركب السفينة، فاحتبست السفينة فقال الملاحون: ههنا عبد آبق من سيده، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فاقترعوا ثلاثاً فوقعت على يونس، فقال يونس: أنا الآبق، وزجّ نفسه في الماء.

وروي في القصة: أنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له، فجاء مركب فأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها، فحال الموج بينه وبين المركب ومرّ المركب، ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب فأخذ الابن الأصغر، فبقي فريداً، فجاء مركب آخر فركبه فقعد ناحية من القوم، فلما مرت السفينة في البحر ركدت، فاقترعوا، وقد ذكرنا القصة في سورة يونس.

(١٤١) فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَاهَمَ﴾، فقارع، والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾، أي المقروعين.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾، ابتلعه، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي آت بما يلام عليه.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾، من الذاكرين لله قبل ذلك، وكان [عليه السلام] كثير الذكر، وقال ابن عباس: من المصلين. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً. وقال الضحاك: شكر اللَّهُ تعالى له طاعته القديمة. وقيل: «فلولا أنه كان من المسبحين» في بطن الحوت. قال سعيد بن جبير: يعني قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة.

(١٤٥) ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾، طرحناه، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾، يعني على وجه الأرض، قال السدي: بالساحل، والعراء الأرض الخالية عن الشجر والنبات. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، عليل كالفرخ الممعط.

وقيل: كان قد بلي لحمه ورقّ عظمه ولم يبق له قوة.

واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت، فقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقال عطاء: سبعة أيام. وقال الضحاك: عشرين يوماً.

وقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. وقال الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية.

(١٤٦) ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾، أي له، وقيل: عنده، ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾، يعني القرع، على قول جميع المفسرين، وقال الحسن ومقاتل: كل نبت يمد وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين، قال مقاتل بن حيان: فكان يونس يستظل بالشجرة، وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي، فنام نومة فاستيقظ وقد يبست الشجرة فحزن حزناً شديداً وأصابه أذى الشمس فجعل يبكي، فبعث الله تعالى إليه جبريل وقال: أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك وقد أسلموا وتابوا، فإن قيل: قال ههنا: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [القلم: ٤٩] فهذا ما يدل على أنه لم ينبذ؟ قيل: «لولا» هنالك ترجع إلى الذم، معناه: لولا نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، ولكن تداركه بالنعمة فنبذ، وهو غير [مذموم].

(١٤٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾، قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ أي وقد أرسلناه، وقيل:

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سورة ص — مكية ٣٨ — آياتها ٨٨

كان إرساله بعد خروجه من بطن الحوت إليهم، وقيل: إلى قوم آخرين. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾، [قال ابن عباس: معناه: «ويزيدون» أو بمعنى الواو كقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٦]] قال مقاتل والكلبي: معناه بل يزيدون. وقال الزجاج: ﴿أَوْ﴾ ههنا على أصلها، ومعناه أو يزيدون على تقديركم وظنكم، كالرجل يرى قوماً فيقول هؤلاء ألف أو يزيدون فالشك على تقدير المخلوقين، والأكثرون على أن معناه ويزيدون.

واختلفوا في مبلغ تلك الزيادة، فقال ابن عباس ومقاتل: كانوا عشرين ألفاً.

ورواه أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال سعيد بن جبير: سبعين ألفاً.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَآمَنُوا﴾، يعني الذين أرسل إليهم يونس بعد معاينة العذاب، ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي حين انقضاء آجالهم.

﴿١٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾، فاسأل يا محمد أهل مكة وهو سؤال توبيخ، ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾، وذلك أن جهينة وبني سلمة وبني عبدالدار زعموا أن الملائكة بنات الله ـ تعالى الله عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً ـ يقول: جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين.

﴿١٥٠﴾ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾، معناه: أخلقنا الملائكة إناثاً، ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾، حاضرون خلقنا إياهم، نظيره قوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿١٥١﴾ ـ ﴿١٥٢﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، من كذبهم، ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿١٥٣﴾ ﴿أَصْطَفَى﴾، قرأ أبو جعفر ﴿لَكَاذِبُونَ ۞ اصْطَفَى﴾ موصولاً على الخبر عن قول المشركين، وعند الوقف يبتدئ: اصطفى بكسر الألف، وقراءة [العامة] بقطع الألف لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة، مثل استكبرت ونحوها، ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾.

﴿١٥٤﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، لله بالبنات ولكم بالبنين.

﴿١٥٥﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أفلا تتعظون.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾، برهان بين على أن لله ولداً.

﴿١٥٧﴾ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾، الذي لكم فيه حجة، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، في قولكم.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾. قال مجاهد وقتادة: وأراد بالجنّة: الملائكة، سُموا لاجتنانهم عن الأبصار. وقال ابن عباس: [هم] حي من الملائكة يقال لهم الجن، منهم إبليس، قالوا: هم بنات الله. وقال الكلبي: قالوا ـ لعنهم الله ـ بل تزوج من الجن فخرج منها الملائكة، تعالى الله عن ذلك [علواً كبيراً]، وقد كان زعم بعض قريش أن الملائكة بنات الله ـ تعالى الله ـ، فقال أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن، وقال الحسن: معنى النسب أنهم أشركوا الشياطين في عبادة الله، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾، يعني قائلي هذا المقالة، ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾، في النار ثم نزه نفسه عمّا قالوا فقال:

﴿١٥٩﴾ ـ ﴿١٦٠﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، هذا استثناء من المحضرين يعني أنهم لا يحضرون.

﴿١٦١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾، يقول لأهل مكة، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، من الأصنام.

﴿١٦٢﴾ ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، على ما تعبدون، ﴿بِفَاتِنِينَ﴾، بمضلين أحداً.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾، إلا من قدر الله أنه سيدخل النار، أي سبق له في علم الله الشقاوة.

(١٦٤) قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، يقول جبرائيل للنبي ﷺ وما منا معشر الملائكة إلا له مقام معلوم أي ما منا ملك إلا له مقام معلوم في السموات يعبد الله فيه، قال ابن عباس: ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي أو يسبح.

وروينا عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «أطّتِ السماءُ وحقَّ لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله».

قال السدي: إلا له مقام معلوم في القربة والمشاهدة. وقال أبو بكر الوراق: إلاّ له مقام معلوم يعبد الله عليه، كالخوف والرجاء والمحبة والرضا.

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾، قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم. وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء للعبادة كصفوف الناس في الأرض.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾، أي المصلون المنزهون الله عن السوء، يخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم يعبدون الله بالصلاة والتسبيح، وأنهم ليسوا بمعبودين، كما زعمت الكفار، ثم أعاد الكلام إلى الإخبار عن المشركين فقال:

(١٦٧) ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾، أي وقد كانوا يعني أهل مكة، ﴿لَيَقُولُونَ﴾، [هذه] لام التأكيد.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي كتاباً مثل كتاب الأولين.

(١٦٩) ـ (١٧٠) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي فلما أتاهم ذلك الكتاب كفروا به، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد لهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهي قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

(١٧٢) (١٧٣) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، أي حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة في العاقبة.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ﴾، فأعرض، ﴿عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، قال ابن عباس: يعني الموت. وقال مجاهد: يوم بدر وقال السدي: حتى يأمرك بالقتال. وقيل: إلى أن يأتيهم عذاب الله. قال مقاتل بن حيان: نسختها آية القتال.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، إذا نزل بهم العذاب، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، ذلك فقالوا: متى هذا العذاب؟

(١٧٦) ـ (١٧٧) فقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ فَإِذَا نَزَلَ﴾، يعني العذاب، ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾، قال مقاتل: بحضرتهم. وقيل: بفنائهم. قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا بالعذاب.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، أخبرنا مالك، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر، أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ، قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» ثم كرر ما ذكرنا تأكيداً لوعيد العذاب.

(١٧٨) ـ (١٧٩) فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ﴾، العذاب إذا نزل بهم، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، ثم نزه نفسه.

(١٨٠) فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، الغلبة والقوة، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، من اتخاذ الصاحبة والأولاد.

(١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء عليهم السلام.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلوية، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع عن ثابت بن أبي صفية، عن أصبغ بن

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾

٤٥٣

بنانة عن علي قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

سورة صَ

مكية وهي ثمان وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿صٓ﴾، قيل: هو قسم، وقيل: هو اسم للسورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي في أوائل السور، وقال محمد بن كعب القرظي: «ص» مفتاح اسم الصمد، وصادق الوعد. وقال الضحاك: معناه صدق الله.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: صدق محمد ﷺ، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، أي ذي البيان، قاله ابن عباس ومقاتل، وقال الضحاك: ذي الشرف، دليله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو قسم، واختلفوا في جواب القسم، قيل: جوابه قد تقدم، وهو قوله ﴿ص﴾ أقسم الله بالقرآن أن محمداً قد صدق.

وقال الفراء: ﴿صٓ﴾ معناها وجب وحق، فهي جواب قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾، كما تقول: نزل والله، وقيل: جواب القسم محذوف تقديره: والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار، ودلّ على هذا المحذوف قوله تعالى:

﴿٢﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقال قتادة: موضع القسم قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، كما قال [ق] ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ [ق: ١ و٢]. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: بل الذين كفروا، ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، والقرآن ذي الذكر.

قال الأخفش: جوابه قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [ص: ١٤] كقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا﴾ [الشعراء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفۡسٖ﴾ [الطارق: ١ ـ ٤] إن كل نفس، وقيل: جوابه قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا﴾ [ص: ٥٤].

وقال الكسائي: قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، وهذا ضعيف لأنه تخلل بين هذا القسم. وبين الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة.

وقال القتيبي: بل لتدارك كلام ونفي آخر، ومجاز الآية: إن الله أقسم بـ«صٓ» والقرآن ذي الذكر أن الذين كفروا من أهل مكة في عزة حمية جاهلية وتكبر عن الحق وشقاق [و] خلاف وعداوة لمحمد ﷺ.

وقال مجاهد: ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ معازّين.

﴿٣﴾ ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾، يعني من الأمم الخالية، ﴿فنادوا﴾، استغاثوا عند نزول العذاب وحول النقمة، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾، قوة، ولا فرار، و«المناص» مصدر ناص ينوص، وهو الفوت والتأخر، يقال: ناص ينوص إذا تأخر، وباص يبوص إذا تقدم، ولات بمعنى ليس بلغة أهل اليمن، وقال النحويون: هي لا، زِيدَتْ فيها التاء، كقولهم: ربّ وربّتْ وثمّ وثمّتْ، وأصلها هاء وصلت بلا، فقالوا: لاة، كما قالوا ثمة فجعلوها في الوصل تاء والوقف عليه بالتاء عند الزجاج، وعند الكسائي بالهاء: «لاه»، وذهب جماعة إلى أن التاء زيدت في حين والوقف على ولا، ثم يبتدئ «تحين» وهو اختيار أبي عبيدة، وقال: كذلك وجدت في مصحف عثمان، وهذا كقول أبي وجرة السعدي:

«العاطفون تحين ما من عاطف
والمطعمون زمان ما مطعم»

وفي حديث ابن عمر، وسأله رجل عن عثمان، فذكر مناقبه ثم

قال: «اذهب بها تلان إلى أصحابك، يريد الآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض: مناص، أي: اهربوا وخذوا حذركم، فلما أنزل الله بهم العذاب ببدر قالوا: مناص، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس هذا حين هذا القول.

﴿٤﴾ ﴿وَعَجِبُوٓا﴾، يعني الكفار الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، يعني رسولاً من أنفسهم ينذرهم، ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿٥﴾ ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم فشق ذلك على قريش، وفرح به المؤمنون.

فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش، وهم الصناديد والأشراف، وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سناً الوليد بن المغيرة، فقال لهم: امشوا إلى أبي طالب، فأتوا أبا طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا قد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فدعاه، فقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء فلا تمل كل الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألوني؟» قالوا: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، فقال النبي ﷺ: «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟» فقال أبو جهل: لله أبوك لنعطيكها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقاموا، وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، أي عجيب.

والعجب والعجاب واحد، كقولهم رجل كريم وكُرام، وكبير وكبار، وطويل وطُوال، وعريض وعراض.

﴿٦﴾ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، أي انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، ويقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم أي اثبتوا على عبادة آلهتكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾، أي لأمر يراد بنا.

وذلك أن عمر بن الخطاب لما أسلم وحصل للمسلمين قوة بمكانه قالوا: إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد لشيء يراد بنا، وقيل: يراد بأهل الأرض، وقيل: يراد بمحمد أن يملك علينا.

﴿٧﴾ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، أي بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد، ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، قال ابن عباس والكلبي ومقاتل: يعنون في النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يوحدون، بل يقولون ثالث ثلاثة. وقال مجاهد وقتادة: يعنون ملة قريش ودينهم الذي هم عليه، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾، كذب وافتعال.

﴿٨﴾ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، القرآن، ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾، وليس بأكبرنا ولا أشرفنا، يقوله أهل مكة. قال الله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾، أي وحيي وما أنزلت، ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾، أي لم يذوقوا عذابي، ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول.

﴿٩﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ أعندهم، ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، يعني نعمة ربك يعني مفاتيح النبوة يعطونها من شاؤوا، ونظيره ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي نبوة ربك، ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾، العزيز في ملكه الوهاب وهب النبوة لمحمد ﷺ.

﴿١٠﴾ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي ليس لهم ذلك، ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾، أي إن ادعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء فليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون، قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز.

﴿١١﴾ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾، أي هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند ما هنالك، و﴿ما﴾ صلة، ﴿مَهْزُومٌ﴾ مغلوب، ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أي من جملة الأجناد يعني قريشاً، قال قتادة: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين، وقال ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، فجاء تأويلها يوم بدر، وهنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم من الأحزاب، أي من جملة الأحزاب أي هم من القرون الماضية الذين تحزبوا وتجمعوا على الأنبياء بالتكذيب، فقهروا وأهلكوا.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿١٢﴾ ثم قال معزياً لنبيه ﷺ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس، ومحمد بن كعب: ذو البناء المحكم، وقيل: أراد ذو الملك الشديد الثابت، وقال القتيبي: تقول العرب: هم في عز ثابت الأوتاد، يريدون أنه دائم شديد.

وقال الأسود بن يعفر:

«ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة
في ظل ملك ثابت الأوتاد»

وأصل هذا أن بيوتهم كانت تثبت بالأوتاد.

وقال الضحاك: ذو القوة والبطش. وقال عطية: ذو الجنود والجموع الكثيرة، يعني أنهم كانوا يقوون أمره، ويشدون ملكه، كما يقوي الوتد الشيء، وسميت الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم، وهو رواية عطية عن ابن عباس.

وقال الكلبي ومقاتل: الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها، وكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد، يشد كل يد ورجل منه إلى سارية، ويتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت.

وقال مجاهد ومقاتل بن حيان: كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض، ثم يشد يديه ورجليه ورأسه على الأرض بالأوتاد وأرسان وملاعب يلعب عليها بين يديه.

﴿١٣﴾ ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾، الذين تحزبوا على الأنبياء، واعلم أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب.

﴿١٤﴾ ﴿إِن كُلٌّ﴾، ما كل، ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾، وجب عليهم ونزل بهم عذابي.

﴿١٥﴾ ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾، ينتظر، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني كفار مكة، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، وهي نفخة الصور، ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿فُواق﴾ بضم الفاء، وقرأ الآخرون بفتحها وهما لغتان، فالفتح لغة قريش، والضم لغة تميم، قال ابن عباس وقتادة: [معناه] من رجوع، أي ما يرد ذلك الصوت فيكون له رجوع. وقال مجاهد: نظرة. وقال الضحاك: مثنوية، أي صَرْفٌ ورَدٌّ، والمعنى: أن تلك الصيحة التي هي ميعاد عذابهم إذا جاءت لم ترد ولم تصرف، وفرّق بعضهم بين الفتح والضم.

فقال الفراء، وأبو عبيدة: الفتح بمعنى الراحة والإفاقة، كالجواب من الإجابة، ذهبا بها إلى إفاقة المريض من علته، والفُواق بالضم ما بين الحلبتين وهو أن تحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن، فما بين الحلبتين فُواق، أي أن العذاب لا يمهلهم بذلك القدر، وقيل: هما أيضاً مستعارتان من الرجوع، لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين، وإفاقة المريض رجوعه إلى الصحة.

﴿١٦﴾ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني كتابنا، والقط الصحيفة التي أحصت كل شيء، قال الكلبي: لما نزلت في الحاقة [١٩ و٢٥]: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، قالوا استهزاءً عجل لنا كتابنا في الدنيا قبل يوم الحساب.

وقال سعيد بن جبير: يعنون حظنا ونصيبنا من الجنة التي تقول.

وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: يعني عقوبتنا ونصيبنا من العذاب. وقال عطاء: قاله النضر بن الحارث، وهو قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وعن مجاهد قال: «قطنا» حسابنا، ويقال لكتاب الحساب «قط». وقال أبو

عبيدة والكسائي: القِطّ الكتاب بالجوائز.

(١٧) قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي على ما يقولون الكفار من تكذيبك، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾، قال ابن عباس: أي القوة في العبادة.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو نعيم، ثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه».

وقيل: ذو القوة في الملك. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، رجاع إلى الله عزّ وجلّ بالتوبة عن كل ما يكره، قال ابن عباس مطيع. قال سعيد بن جبير: مسبح بلغة الحبش.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾، كما قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، بتسبيحه، ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، قال الكلبي: غدوة وعشية، والإشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها، وفسره ابن عباس: بصلاة الضحى.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا ابن أبي شيبة، ثنا الحسين بن بختويه، ثنا أبو أمية محمد بن إبراهيم، ثنا الحجاج بن نصير، أنا أبو بكر الهذلي، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، قال: كنت أمرّ بهذه الآية ولا أدري ماهي حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى، فقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق».

(١٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالطَّيْرَ﴾، أي وسخرنا له الطير، ﴿مَحْشُورَةً﴾، مجموعة إليه تسبح معه، ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾، مطيع رجاع إلى طاعته بالتسبيح، وقيل: أواب معه أي مسبح.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾، أي قويناه بالحرس والجنود، قال ابن عباس: كان أشد ملوك الأرض سلطاناً كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد، أنا محمد بن خالد بن الحسن، ثنا داود بن سليمان، ثنا محمد بن حميد، ثنا محمد بن الفضل، ثنا داود بن أبي الفرات، عن على بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود عليه السلام فقال أن هذا غصبني بقراً، فسأله داود فجحد، فقال للآخر: البينة؟ فلم يكن له بينة، فقال لهما داود: قوما حتى أنظر في أمركما، فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه، فقال: هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت، فأوحى إليه مرة أخرى فلم يفعل، فأوحى الله إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة، فأرسل داود إليه فقال: إن الله أوحى إليّ أن أقتلك، فقال: تقتلني بغير بيّنة؟ قال داود: نعم والله لأنفذنّ أمر الله فيك، فلما عرف الرجل أنه قاتله، قال له: لا تعجل حتى أخبرك، إني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته، فلذلك أخذت، فأمر به داود فقتل، فاشتدت هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود، واشتد به ملكه فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾، يعني النبوة والإصابة في الأمور، ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، قال ابن عباس: بيان الكلام، وقال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل: علم الحكم والتبصر في القضاء. وقال علي بن أبي طالب: هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به. ويُروى ذلك عن أبي بن كعب قال: «فصل الخطاب» الشهود والأيمان، وهو قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح. وروي عن الشعبي: أن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه: «أما بعد» إذا أراد الشروع في كلام آخر، وأول من قاله داود عليه السلام.

(٢١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، هذه الآية من [قصة] امتحان داود عليه السلام، اختلف العلماء بأخبار

الأنبياء عليهم السلام في سببه، فقال قوم: كان سبب ذلك أنه عليه السلام تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل مثل ما أعطاهم.

فروى السدي والكلبي ومقاتل: عن أشياخهم قد دخل حديثهم بعضهم في بعض، قالوا: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه، ويوماً لنسائه وأشغاله، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: يا رب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها، ابتُلي إبراهيم بنمرود وبذبح ابنه، وابتُلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره، وابتُلي يعقوب بالحزن على يوسف، فقال: رب لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضاً، فأوحى الله إليه أنك مبتلى في شهر كذا وفي يوم كذا فاحترس، فلما كان ذلك اليوم الذي وعده الله دخل داود محرابه وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن. وقيل: كان جناحاها لها من الدر والزبرجد فوقعت بين رجليه فأعجبه حسنها، فمد يده ليأخذها ويريها بني إسرائيل فينظروا إلى قدرة الله تعالى، فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها، فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة، فذهب ليأخذها، فطارت من الكوة، فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها، فأبصر امرأة في بستان على شط بركة لها تغتسل. هذا قول الكلبي وقال السدي: رآها تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً، فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها، فزاده ذلك إعجاباً بها فسأل عنها، فقيل هي تيشايع بنت شايع امرأة أوريا بن حنانا، وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود. وذكر بعضهم أنه أحب أن يقتل أوريا ويتزوج امرأته، فكان ذنبه هذا القدر.

وذكر بعضهم أنه كتب داود إلى ابن أخته أيوب أن أبعث أوريا إلى موضع كذا، وقدّمه قبل التابوت وكان من قُدّم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد، فبعثه وقدمه ففتح له، فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن يبعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه ففتح له، فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن يبعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً، فبعثه فقتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود، فهي أم سليمان عليهما السلام.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كان ذلك ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته.

قال أهل التفسير: كان ذلك مباحاً لهم غير أن الله تعالى لم يرض له ذلك لأنه كان ذلك رغبة في الدنيا، وازدياداً للنساء، وقد أغناه الله عنها بما أعطاه من غيرها.

وروي عن الحسن في سبب امتحان داود عليه السلام: أنه كان قد جزأ الدهر أجزاء يوماً لنسائه، ويوماً للعبادة، ويوماً للقضاء بين بني إسرائيل ويوماً لبني إسرائيل يُذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل ذكروه فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً، فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك. وقيل: إنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إذا ابتلي اعتصم، فلما كان يوم عبادته أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد، وأكبّ على التوراة فبينما هو يقرأ إذ دخلت عليه حمامة من ذهب كما ذكرنا، قال: وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا إذا سار إليه قتل، ففعل فأصيب فتزوج امرأته، قالوا: فلما دخل داود بامرأة أوريا لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله إليه ملكين في صورة رجلين في يوم عبادته، فطلبا أن يدخلا عليه، فمنعهما الحرس فتسوروا المحراب عليه، فما شعر وهو يصلي إلا وهما بين يديه جالسين، يقال: كانا جبريل وميكائيل، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ﴾، خبر الخصم، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، صعدوا وعلوا، يقال: تسورت الحائط والسور إذا علوته، وإنما جمع الفعل وهما اثنان لأن الخصم اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع

والمذكر والمؤنث، ومعنى الجمع في الاثنين موجود، لأن معنى الجمع ضم شيء إلى شيء هذا كما قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، خاف منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، فقال: ما أدخلكما علي، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾، أي نحن خصمان ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ جئناك لتقضي بيننا، فإن قيل: كيف قالا: ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وهما ملكان لا يبغيان؟ قيل: معناه رأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر، وهذا من معاريض الكلام لا على تحقيق البغي من أحدهما ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾، أي لا تجر، يقال: شط الرجل شططاً وأشط إشطاطاً إذا جار في حكمه، ومعناه مجاوزة الحد، وأصل الكلمة من شطت الدار وأشطت إذا بعُدت. ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾، أرشدنا إلى طريق الصواب والعدل، فقال داود لهما: تكلّما.

﴿٢٣﴾ فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، أي على ديني وطريقتي، ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾، يعني امرأة، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي امرأة واحدة، والعرب تكني بالنعجة عن المرأة.

قال الحسين بن الفضل: هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغي فهو كقولهم: ضرب زيد عمراً أو اشترى بكرٌ داراً، ولا ضرب هنالك ولا شراء، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾، قال ابن عباس: اعطنيها. قال مجاهد: انزل لي عنها. وحقيقته ضمها إليّ فاجعلني كافلها، وهو الذي يعولها وينفق عليها، والمعنى: طلقها لأتزوجها، ﴿وَعَزَّنِي﴾، وغلبني، ﴿فِي الْخِطَابِ﴾، أي في القول. وقيل: قهرني لقوة ملكه. قال الضحاك: يقول إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني.

وحقيقة المعنى: أن الغلبة كانت له لضعفي في يده، وإن كان الحق معي وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود حيث كان لداود تسع وتسعون امرأة ولأوريا امرأة واحدة فضمها إلى نسائه.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ﴾، أي قال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾، أي بسؤاله نعجتك ليضمها إلى نعاجه، فإن قيل كيف قال لقد ظلمك ولم يكن سمع قول صاحبه؟ـ قيل: معناه إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك، وقيل: قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾، الشركاء، ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، يظلم بعضهم بعضاً، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، أي قليل هم و﴿ما﴾ صلة يعني الصالحين الذين لا يظلمون قليل، قالوا: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعد إلى السماء، فعلم داود أن الله تعالى ابتلاه، وذلك قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾، أيقن وعلم، ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾، إنما ابتليناه.

وقال السدي بإسناده: أن أحدهما لما قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ الآية قال داود للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة ولأخي نعجة واحدة وأنا أريد أن آخذها منه فأكمل نعاجي مائة، وهو كاره، قال: إذاً لا ندعك وإن رمت ذلك ضربت منك هذا وهذا، يعني طرف الأنف وأصله والجبهة، فقال: يا داود أنت أحق بذلك حيث لم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، ولك تسع وتسعون امرأة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته، فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه.

وقال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة أن ذنب داود إنما كان أنه تمنى أن تكون امرأة أوريا حلالاً له، فاتفق غزو أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكه، فلما بلغ قتله داود لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده إذا هلك، ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله.

وقيل: كان ذنب داود أن أوريا كان خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها، فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوجت منه لجلالته، فاغتم لذلك أوريا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، قال: ومما يصدق ما ذكرنا عن المتقدمين ما أخبرني عقيل بن محمد بن أحمد الفقيه أن المعافى بن زكريا القاضي ببغداد أخبره عن محمد بن جرير الطبري، قال: حدثني يونس بن

عبدالأعلى الصيرفي أنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي حين نظر إلى المرأة فهمّ أن يُجمع على بني إسرائيل وأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حصر العدو فقرّبْ فلاناً بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به وبمن قدم بين يدي التابوت، فلم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة، ونزل الملكان يقصان عليه قصته ففطن داود فسجد ومكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه. وهو يقول في سجوده: ربِّ زل داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده، فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذي هممت به، فقال داود: إن الرب قادر على أن يغفر لي الهمّ الذي هممت به، وقد عرفت أن الله عدل لا يميل، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة، فقال: يا رب دمي الذي عند داود، فقال جبريل: ما سألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، قال: نعم فعرج جبريل وسجد داود، فمكث ما شاء الله ثم نزل، فقال: سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه، فقال: قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له هب لي دمك الذي عند داود فيقول: هو لك يا رب، فيقول: فإن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضاً عنه».

وروي عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار، ووهب بن منبه، قالوا جميعاً: إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه فتحولا عن صورتيهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه، وعلم داود أنه إنما عني به فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة، ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب، وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عزّ وجلّ، ويسأله التوبة، وكان من دعائه في سجوده: سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء، سبحان خالق النور، سبحان الحائل بين القلوب، سبحان خالق النور، إلهي أنت خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي، سبحان خالق النور، إلهي أنت خلقتني وكان من سابق علمك ما أنا إليه صائر، سبحان خالق النور، إلهي الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء، فيقال هذا داود الخاطئ، سبحان خالق النور، إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي، سبحان خالق النور، إلهي بأي قدم أقوم أمامك وأقوم بين يديك يوم القيامة، يوم تزل أقدام الخاطئين، سبحان خالق النور، إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده؟ سبحان خالق النور إلهي أنا الذي لا أطيق حرَّ شمسك فكيف أطيق حرّ نارك، سبحان خالق النور، إلهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك، فكيف أطيق سوط جهنم؟ سبحان خالق النور، إلهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصاب، سبحان خالق النور، إلهي أنت تعلم سري وعلانيتي فاقبل عذري، سبحان خالق النور، إلهي برحمتك اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواي، سبحان خالق النور، إلهي أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني، سبحان خالق النور، إلهي فررت إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين، ولا تخزني يوم الدين، سبحان خالق النور.

قال مجاهد: مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينيه وغطى رأسه، فنودي: يا داود أجائعٌ فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أو عارٍ فتُكسى؟ فأجيب في غير ما طلب.

قال: فنحب نحبة هاج لها العود فاحترق من حر جوفه، ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة.

قال وهب: إن داود أتاه نداء: إني قد غفرت لك، قال: يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً؟ قال: اذهب إلى قبر أوريا فناده، فأنا أسمعه نداءك فتحلل منه، قال: فانطلق وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبره، ثم نادى يا أوريا، فقال: لبيك من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني؟ قال: أنا داود، قال: ما جاء بك يا نبي الله؟ قال: [جئت] أسألك أن تجعلني في حل مما كان

مني إليك، قال: وما كان منك إليّ؟ قال: عرضتُك للقتل، قال: قد عرضتني للجنة فأنت في حل، فأوحى الله إليه: يا داود ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالعنت، ألاعلمته، إنك قد تزوجت امرأته، قال: فرجع إليه فناداه فأجابه فقال: من هذا الذي قطع عليَّ لذتي؟ قال: أنا داود، قال: يا نبي الله أليس قد عفوت عنك؟ قال: نعم ولكن إنما فعلت ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتها، قال: فسكت فلم يجبه ودعاه فلم يجبه وعاوده فلم يجبه، فقام عند قبره وجعل يحثو التراب على رأسه، ثم نادى الويل لداود ثم الويل لداود ثم الويل الطويل لداود، سبحان خالق النور، والويل لداود [ثم الويل له] إذا نصبت الموازين بالقسط، سبحان خالق النور، الويل لداود ثم الويل الطويل لداود له حين يؤخذ بذقنه فيدفع إلى المظلوم، سبحان خالق النور، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء: يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمت بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك، قال: يا رب كيف وصاحبي لم يعف عني؟ قال: يا داود أعطيه من الثواب يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه، فأقول له رضيت عن عبدي داود؟ فيقول: يا رب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول: هذا عوض من عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي، قال: يا رب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي. فذلك قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أي ساجداً، عبّر بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء، قال الحسين بن الفضل: سألني عبدالله بن طاهر عن قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ هل يقال للراكع «خرّ»؟ قلت: لا، ومعناه فخر بعدما كان راكعاً أي: سجد. ﴿وَأَنَابَ﴾، أي رجع وتاب.

﴿٢٥﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، يعني ذلك الذنب، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾، بعد المغفرة، ﴿عِندَنَا﴾، يوم القيامة، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾، لقربة ومكانة، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي حسن مرجع ومنقلب. وقال وهب بن منبه: إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا يرقأ دمعه ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء في إسرائيل ويوم لنسائه ويوم يسبّح في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه، فيساعدونه على ذلك، فإذا كان يوم نياحته يخرج في الفيافي فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير، حتى تسيل من بكائهم الأودية، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء والسباع، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه أن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده، فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط له ثلاثة فرش من مسوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجيء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصي، فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، وترفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى تغرق الفُرُشُ من دموعه، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه، ثم يمسح بها وجهه، ويقول: يا رب اغفر لي ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله.

قال وهب: ما رفع داود رأسه حتى قال له الملك: أول أمرك ذنب وآخره معصية، ارفع رأسك، فرفع رأسه فمكث حياته لا يشرب ماءً إلا مزجه بدموعه، ولا يأكل طعاماً إلا بله بدموعه.

وذكر الأوزاعي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «إن مثل عيني داود كقربتين تنطفان ماءً، ولقد خدت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض».

قال وهب: لما تاب الله على داود قال: يا رب غفرت لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة؟ قال: فوسم الله خطيئته في يده اليمنى فما

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

٤٥٥

رفع فيها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيباً للناس إلا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا وسم خطيئته، وكان يبدأ إذا دعا فاستغفر للخاطئين قبل نفسه.

وقال قتادة عن الحسن: كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، يقول: تعالوا إلى داود الخاطئ فلا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة فلا يزال يبكي عليه حتى يبتل بدموع عينيه، وكان يذر عليه الملح [والتراب] والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين.

قال: كان داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، فلما كان من خطيئته ما كان، صام الدهر كله وقام الليل كله.

وقال ثابت: كان داود إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله فلا يشدها إلا الأسر، وإذا ذكر رحمة الله تراجعت.

وفي القصة: أن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته فلما فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته.

فروي أنها قالت: يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك.

وأخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سليمان بن حرب وأبو النعمان قالا: ثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجدة ص ليست من عزائم السجود، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها.

وأخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن عبدالله، ثنا محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ قال: أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، إلى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠]، وكان داود ممن أُمِرَ نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا قتيبة [ثنا] محمد بن يزيد بن خنيس، ثنا الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود.

وقال الحسن: قال ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد صَ فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

﴿٢٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تدبر أمور العباد بأمرنا، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، بالعدل، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾، أي بأن تركوا الإيمان بيوم الحساب. وقال الزجاج: بتركهم العمل لذلك اليوم. وقال عكرمة والسدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما

نسوا، أي تركوا القضاء بالعدل.

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾، قال ابن عباس: لا لثواب ولا لعقاب. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شيء، وأنه لا بعث ولا حساب. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

(٢٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين إنا نعطى في الآخرة من الخير ما تعطون، فنزلت هذه الآية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، أي المؤمنين كالكفار. وقيل: أراد بالمتقين أصحاب محمد ﷺ، أي لا نجعل ذلك.

(٢٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾، أي هذا الكتاب أنزلناه إليك، ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، كثير خيره ونفعه، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾، أي ليتدبروا، ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، وليتفكروا فيها، وقرأ أبو جعفر ﴿ليتدبروا﴾ بتاء واحدة وتخفيف الدال، قال الحسن: تدبر آياته: اتباعه، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾، ليتعظ، ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

(٣٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين، فأصاب منهم ألف فرس. وقال مقاتل: ورث من أبيه داود ألف فرس. وقال عوف عن الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً أخرجت من البحر لها أجنحة. قالوا: فصلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرضت عليه تسعمائة فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتته الصلاة ولم يُعلم بذلك [هيبة له] فاغتم لذلك هيبة لله، فقال: ردّوها عليّ فردوها عليه، فأقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف تقرباً إلى الله عزّ وجلّ وطلباً لمرضاته، حيث اشتغل بها عن طاعته، وكان ذلك مباحاً له وإن كان حراماً علينا كما أبيح لنا ذبح بهيمة الأنعام وبقي منها مائة فرس، فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل يقال من نسل تلك المائة.

قال الحسن: فلما عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء، [وقال إبراهيم التيمي: كانت عشرين فرساً. وعن عكرمة: كانت عشرين ألف فرس، لها أجنحة].

(٣١) قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، والصافنات هي الخيل القائمة على ثلاث قوائم وأقامت واحدة على طرف الحافر من يد أو رجل، يقال: صفن الفرس يصفن صفوناً إذا قام على ثلاث قوائم، وقلب أحد حوافره.

وقيل: الصافن في اللغة القائم.

وجاء في الحديث: «من سرّه أن يقوم له الرجال صفوناً فليتبوأ مقعده من النار» أي قياماً، والجياد الخيار السراع، واحدها جواد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يريد الخيل السوابق.

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾، أي آثرت حب الخير [عن ذكر ربي] وأراد بالخير: الخيل، والعرب تعاقب بين الراء واللام، فتقول: ختلت الرجل وخترته، أي: خدعته، وسميت الخيل خيراً لأنه معقود بنواصيها الخير، الأجر والمغنم، قال مقاتل: يعني المال فهي الخيل التي عرضت عليه. ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، يعني عن الصلاة وهي صلاة العصر. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، أي توارت الشمس بالحجاب: أي استترت بما يحجبها عن الأبصار، يقال: الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة، والشمس تغرب من ورائه.

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾، أي ردوا الخيل عليّ، فردوها، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾، قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، والمراد بالمسح القطع، فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسرين، وكان ذلك مباحاً له لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر.

وقال محمد بن إسحاق: لم يعنّفه الله على عقر الخيل إذ كان ذلك أسفاً على ما فاته من فريضة ربّه عزّ وجلّ. وقال بعضهم: إنه ذبحها ذبحاً وتصدق بلحومها، وكان الذبح على ذلك الوجه مباحاً في شريعته.

وقال قوم: معناه أنه حبسها في سبيل الله، وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة. وقال الزهري وابن

كيسان: إنه كان يمسح سوقها وأعناقها بيده، يكشف الغبار عنها حباً لها وشفقة عليها، وهذا قول ضعيف، والمشهور هو الأول.

وحكي عن علي أنه قال في معنى قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يقول سليمان بأمر الله عزّ وجلّ للملائكة الموكلين بالشمس ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني الشمس، فردوها عليه حتى صلى العصر في وقتها، وذلك أنه كان يعرض عليه الخيل لجهاد عدو حتى توارت بالحجاب.

(٣٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه.

وكان سبب ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه قال: سمع سليمان عليه السلام بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون، بها ملك عظيم الشأن، لم يكن للناس إليه سبيلاً لمكانه في البحر، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر، إنما يركب إليه الريح، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء.

حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستولى واستفاء وسبى ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك، يقال لها جرادة لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه، وأحبها حباً لم يحبه شيء من نسائه، وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها، فشق ذلك على سليمان فقال لها: ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك.

قال سليمان: فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله، قالت: إن ذلك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا لي صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشياً لرجوت أن يذهب ذلك حزني، وأن يسليني عن بعض ما أجد في نفسي. فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئاً، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه فأزّرته وقمّصته وعمّمته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبس، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تعدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن له، كما كانت تصنع به في ملكه، وتروح كل عشية بمثل ذلك وكان سليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً، وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقاً وكان لا يرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل، حاضراً كان سليمان أو غائباً، فأتاه فقال: يا نبي الله كبر سني ورق عظمي، ونفد عمري، وقد حان مني الذهاب، فقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأُعَلِّمُ الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل، فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى، فأثنى على كل نبي ما فيه، فذكر ما فضله الله حتى انتهى إلى سليمان، فقال: ما أحكمك في صغرك وأورعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعدك من كل ما تكره في صغرك، ثم انصرف، فوجد سليمان عليه السلام في نفسه من ذلك حتى ملأه غضباً [وغيظاً] فلما دخل سليمان داره أرسل إليه.

فقال: يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله، فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم، فلمّا ذكرتني جعلت تثني عليّ بخير في صغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري؟ فما الذي أحدثت في آخر أمري؟ فقال: إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة، فقال: في داري؟ فقال: في دارك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد عرفت أنك ما قلت الذي قلت ذلك إلا عن شيء بلغك، ثم رجع سليمان إلى داره وكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها.

ثم أمر بثياب الظهيرة فأتي بها وهي ثياب لا تغزلها إلا الأبكار ولا تنسجها إلا الأبكار ولا تغسلها إلا الأبكار لم تمسسها امرأة قد رأت الدم، فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده فأمر برماد ففرش له،

ثم أقبل تائباً إلى الله عزّ وجلّ، حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً لله تعالى، وتضرعاً إليه يبكي ويدعو، ويستغفر مما كان في داره.

فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره، وكانت له أم ولد يقال لها الأمينة، وكان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها، ثم دخل مذهبه فأتاها الشيطان، صاحب البحر، واسمه صخر على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً، فقال: خاتمي [يا] أمينة فناولته إياه، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سليمان فأتى الأمينة وقد غيرت حاله وهيئته عند كل من رآه.

فقال: يا أمينة خاتمي، قالت: من أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود، قالت: كذبت فقد جاء سليمان فأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه، فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون أي شيء يقول يزعم أنه سليمان، فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأخرى فأكلها، فمكث بذلك أربعين صباحاً عدة ما كان عبدالوثن في داره.

فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت؟ قالوا: نعم، قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهن فهل أنكرتن منه في خاصة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته، فدخل على نسائه، فقال: ويحكن هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن أشده ما يدع منا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين، ثم خرج على بني إسرائيل فقال: ما في الخاصة أعظم مما في العامة، فلما مضى أربعون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه، ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم، فخرج سليمان بسمكتيه، فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذها فجعله في يده ووقع ساجداً، وعكفت عليه الطير والجن وأقبل عليه الناس، وعرف الذي كان قد دخل عليه لما كان قد أحدث في داره، فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين فقال: ائتوني بصخر فطلبته الشياطين حتى أخذته فأتي به وجاؤوا له بصخرة فنقرها فأدخله فيها ثم سدّ عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقذف في البحر. هذا حديث وهب.

وقال الحسن: ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه.

وقال السدي: كان سبب فتنة سليمان أنه كان له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة هي آثر نسائه وآمنهن عنده، وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته، فقالت له يوماً: إن أخي كان بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال: نعم، ولم يفعل فابتلي بقوله لزوجته نعم.

فأعطاها خاتمه ودخل المخرج فجاء الشيطان في صورته فأخذه وجلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان فسألها خاتمه فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا، وخرج مكانه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، فأنكر الناس حكمه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم حتى دخلوا على نسائه.

فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله، فبكى النساء عند ذلك فأقبلوا حتى أحدقوا به ونشروا التوراة فقرؤوها فطار من بين أيديهم، حتى وقع على شرفة، والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، وأقبل سليمان حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع قد اشتد جوعه،

فاستطعمه من صيده، وقال: إني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجه، فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه وأعطوه سمكتين مما قد مَذُرَ عندهم، فشق بطونهما وجعل يغسلهما، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فلبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه، وحامت عليه الطير فعرف القوم أنه سليمان، فقاموا يعتذرون مما صنعوا.

فقال: ما أؤاخذكم على غدركم ولا ألومكم على ما كان منكم، هذا أمر كائن لا بد منه، فلما أتى مملكته أمر جنياً أتى بالشيطان الذي أخذ خاتمه وجعله في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه، وأمر به فألقي في البحر وهو حي كذلك حتى تقوم الساعة.

وفي بعض الروايات: أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأعاده سليمان إلى يده فسقط فأيقن سليمان بالفتنة، فأتى آصف فقال لسليمان إنك مفتون بذنبك، والخاتم لا يتماسك في يدك أربعة عشر يوماً، ففرّ إلى الله تائباً، وإني أقوم مقامك، وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك، ففرّ سليمان هارباً إلى ربه آخذاً آصف الخاتم، فوضعه في أصبعه فثبت فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ فأقام آصف في ملكه يسير بسيرته أربعة عشر يوماً إلى أن ردّ الله على سليمان ملكه، فجلس على كرسيه وأعاد الخاتم في يده فثبت.

ورويَ عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام، فأوحى الله إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام؟ فلم تنظر في أمور عبادي؟ فابتلاه الله عزّ وجلّ. وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما روينا.

وقيل: قال سليمان يوماً لأطوفن الليلة على نسائي كلهن فتأتي كل واحدة بابن يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فجامعهن فما خرج له منهن إلا شق مولود فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب، ثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله ونسي، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الله الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

وقال طاوس عن أبي هريرة: [قال سليمان] لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة، قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي. وأشهر الأقاويل أن الجسد الذي ألقي على كرسيه هو صخر الجني، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً فلما رجع.

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، قال مقاتل وابن كيسان: لا يكون لأحد من بعدي، قال عطاء بن أبي رباح: يريد هب لي ملكاً لا تسلبنيه في آخر عمري، وتعطيه غيري كما استلبته في ما مضى من عمري. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، قيل: سأل ذلك ليكون آية لنبوته ودلالة على رسالته، ومعجزة، وقيل: سأل ذلك ليكون علماً على قبول توبته حيث أجاب الله دعاءه ورد إليه ملكه، وزاده فيه. وقال مقاتل بن حيان: كان لسليمان ملكاً ولكنه أراد بقول: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ تسخير الرياح والطير والشياطين، بدليل ما بعده.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل حدثنا محمد بن بشار، ثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾، فرددته خاسئاً».

﴿٣٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾، لينة ليست

بعاصفة، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، حيث أراد، تقول العرب: أصاب الصواب فأخطأ الجواب، تريد أراد الصواب.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أي سخرنا له الشياطين، ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، يبنون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، ﴿وَغَوَّاصٍ﴾، يستخرجون له اللآلئ من البحر، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر.

﴿٣٨﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، مشدودين في القيود، أي وسخرنا له آخرين يعني مردة الشياطين سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد.

﴿٣٩﴾ ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾، أي قلنا له هذا عطاؤنا، ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾، المن هو الإحسان إلى من لا تستثنيه، معناه: أعط من شئت وأمسك عمن شئت، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت.

قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه تبعة، إلا سليمان فإن أعطى أجر، وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة. وقال مقاتل: هذا في أمر الشياطين، يعني: خلّ من شئت منهم وأمسك من شئت في وثاقك لا تبعة عليك فيما تتعاطاه.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

﴿٤١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾، بمشقة وضر، قرأ أبو جعفر ﴿بنُصُب﴾ بضم النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحهما، وقرأ الآخرون بضم النون وسكون الصاد، ومعنى الكل واحد. قال قتادة ومقاتل: بنصب في الجسد، ﴿وَعَذَابٍ﴾، في المال وقد ذكرنا قصة أيوب ومدة ابتلائه في سورة الأنبياء عليهم السلام.

﴿٤٢﴾ فلما انقضت مدة بلائه قيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، اضرب رجلك الأرض ففعل فنبعت عين ماء، ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾، فأمره الله أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فركض الأرض برجله الأخرى فنبعت عين أخرى ماء عذب بارد، فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه، فقوله: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾، يعني الذي اغتسل منه بارد، ﴿وَشَرَابٌ﴾ أراد الذي شرب منه.

﴿٤٣﴾ ـ ﴿٤٤﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾، وهو ملء الكف من الشجر أو الحشيش، ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، في يمينك وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط فأمره الله أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار، ويضربها ضربة واحدة، ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾، قرأ ابن كثير ﴿عبدنا﴾ على التوحيد، وقرأ الآخرون ﴿عبادنا﴾ بالجمع، ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ في المعرفة بالله أي البصائر في الدين، قال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين.

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾، اصطفيناهم، ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [و] قرأ أهل المدينة ﴿بخالصة﴾ مضافاً، وقرأ الآخرون بالتنوين، فمن أضاف فمعناه: أخلصناهم بذكر الدار الآخرة، وأن يعملوا لها، والذكرى بمعنى الذكر.

قال مالك بن دينار: نزعنا من قلوبهم حبَّ الدنيا وذكرها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها.

وقال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله عزّ وجلّ.

وقال السدي: أخلصوا بخوف الآخرة.

وقيل: معناه أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة.

قال ابن زيد ومن قرأ بالتنوين:

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

٤٥٦

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

٤٥٧

فمعناه بخلةٍ خالصة، وهي ذكرى الدار، فيكون ذكرى الدار بدلاً عن الخالصة. وقيل: «أخلصناهم»: جعلناهم مخلصين، بما أخبرنا عنهم من ذكر الآخرة.

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٩﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ۝ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، أي هذا الذي تُلِيَ عليكم ذكر أي: شرفٌ وذكرٌ جميل تذكرون به ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾، أي أبوابها مفتحة لهم.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾، مستويات الأسنان، بنات ثلاث وثلاثين سنة، واحدها ترب.

وعن مجاهد قال: متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن.

﴿٥٣﴾ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، قرأ ابن كثير ﴿يوعدون﴾ بالياء ههنا وفي «ق» أي: ما يوعد المتقون، وافق أبو عمرو ههنا، وقرأ الباقون بالتاء فيهما، أي قل للمؤمنين: هذا ما توعدون، ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، أي في يوم الحساب.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، فناء وانقطاع.

﴿٥٥﴾ ﴿هذا﴾ أي الأمر هذا ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾، للكافرين، ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾، مرجع.

﴿٥٦﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، يدخلونها، ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا العذاب، ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، قال الفراء: أي هذا حميم وغساق فليذوقوه، و«الحميم» الماء الحار الذي انتهى حره «وغساق»، قرأ حمزة والكسائي وحفص «وغساق» حيث كان بالتشديد، وخففها الآخرون، فمن شدد جعله اسماً على فعال نحو الخباز والطباخ، ومن خفف جعله اسماً على فَعَال نحو العذاب.

واختلفوا في معنى الغساق، قال ابن عباس: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرّها. قال مقاتل ومجاهد: هو الذي انتهى برده. وقيل: هو المنتن بلغة الترك. وقال قتادة: هو ما يغسق أي ما يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة، من قولهم غسقت عينه إذا انصبت، والغسقان الانصباب.

﴿٥٨﴾ ﴿وَآخَرُ﴾، قرأ أهل البصرة ﴿أُخر﴾ بضم الألف على جمع أخرى، مثل الكبرى والكبر، واختاره أبو عبيدة لأنه نعته بالجمع، فقال: أزواج، وقرأ الآخرون بفتح الهمزة مشبعة على الواحد. ﴿مِن شَكْلِهِ﴾. مثله أي مثل الحميم والغساق، ﴿أَزْوَاجٌ﴾، أي أصناف أخر من العذاب.

﴿٥٩﴾ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، قال ابن عباس: «هذا» هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة: هذا يعني: الأتباع، فوج جماعة مقتحم معكم النار، أي داخلوها كما أنتم دخلتموها، والفوج القطيع من الناس وجمعه أفواج، والاقتحام الدخول في الشيء رمياً بنفسه فيه، قال الكلبي: إنهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار، خوفاً من تلك المقامع، فقالت القادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، يعني بالأتباع، ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، أي داخلوها كما صلينا.

﴿٦٠﴾ ﴿قالوا﴾، فقال الأتباع للقادة، ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، والمرحب والرحب: السعة، تقول العرب: مرحباً وأهلاً وسهلاً أي أتيت رحباً وسعة، وتقول: لا مرحباً بك أي لا رحبت عليك الأرض. ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتم بالكفر قبلنا، وشرعتم وسننتموه لنا، وقيل: أنتم

قدمتم هذا العذاب لنا، بدعائكم إيانا إلى الكفر، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، أي فبئس دار القرار جهنم.

(٦١) ﴿قَالُوا۟﴾، يعني الأتباع، ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾، أي شرعه وسنه لنا، ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾، أي ضعّف عليه العذاب في النار. قال ابن مسعود: يعني حيات وأفاعي.

(٦٢) ﴿وقالوا﴾، يعني صناديد قريش وهم في النار، ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾، في الدنيا، ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾، يعنون فقراء المؤمنين: عماراً وخباباً وصهيباً وبلالاً وسلمان رضي الله عنهم، ثم ذكروا أنهم كانوا يسخرون من هؤلاء، فقالوا:

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي: ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ وَصْلٌ، ويكسرون الألف عند الابتداء، وقرأ الآخرون بقطع الألف وفتحها على الاستفهام، قال أهل المعاني: القراءة الأولى أولى، لأنهم علموا أنهم اتخذوهم سخرياً فلا يستقيم الاستفهام، وتكون أم على هذه القراءة بمعنى «بل»، ومن فتح الألف قال هو على اللفظ لا على المعنى ليعادل أم في قوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، قال الفراء: هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب، ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾، أي مالت، ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ومجاز الآية: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً لم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم حين دخلوها؟ وقيل: أم هم في النار لكن احتجبوا عن أبصارنا؟ فقال ابن كيسان: يعني أم كانوا خيراً منا ولكن نحن لا نعلم، وكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئاً.

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت، ﴿لَحَقٌّ﴾ ثم بين فقال، ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، أي تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾، يا محمد لمشركي مكة، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾، مخوف، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

(٦٦) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

(٦٧) قوله: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿هُوَ﴾، يعني القرآن، ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقيل: هو يعني القيامة كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ ـ ٢].

(٦٨) ـ (٦٩) ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝﴾، يعني الملائكة، ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني في شأن آدم عليه السلام، حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

(٧٠) ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، قال الفراء: إن شئت جعلت ﴿أنما﴾ في موضع رفع أي ما يوحي إلي إلا الإنذار، وإن شئت جعلت المعنى: ما يُوحى إليّ إلاّ أني نذير مبين. وقرأ أبو جعفر: ﴿إنما﴾ بكسر الألف، لأن الوحي قولٌ.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا هشام بن عمار، ثنا صدقة بن خالد، ثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، قال مر بنا خالد بن اللجلاج فدعاه مكحول فقال: يا أبا إبراهيم حدثنا حديث عبدالرحمن بن عائش، قال: سمعت عبدالرحمن بن عائش الحضرمي يقول: قال النبي ﷺ: «رأيتُ ربي في أحسن صورة، فقال: فِيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أي ربِّ، مرتين، قال: فموضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماء والأرض»، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ثم قال: «فِيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: في الكفارات، قال: وما هن؟ قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد خلف الصلوات، وإبلاغ الوضوء أماكنه في المكاره، قال: ومَنْ يفعل ذلك يعشْ بخير ويمتْ بخير ويكنْ من خطيئته كيوم ولدته أمه، ومن الدرجات إطعام الطعام وبذل السلام وأن يقوم بالليل والناس نيام، [ثم] قال: قل اللهم إني أسألك الطيبات وترك المنكرات وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليّ وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، فقال رسول الله ﷺ: تعلّموهن فوالذي نفسي بيده إنهن لحق».

(٧١) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، يعني آدم عليه السلام.

(٧٢) - (٧٥) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، أتممت خلقه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾، ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، المتكبرين استفهام توبيخ وإنكار، يقول: استكبرت بنفسك حتى أبيت السجود؟ أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك منهم؟

(٧٦) - (٧٧) ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾، أي من الجنة، وقيل: من السموات. وقال الحسن وأبو العالية: أي من الخلقة التي أنت فيها. قال الحسين بن الفضل: هذا تأويل صحيح لأن إبليس تجبّر وافتخر بالخلقة، فغيّر الله خلقته فاسود وقبح بعد حسنه. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، مطرود.

(٧٨) - (٨١) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، وهو النفخة الأولى.

(٨٢) - (٨٤) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب: ﴿فالحق﴾ برفع القاف على الابتداء وخبره محذوف تقديره: الحق مني، ونصب الثانية أي: وأنا أقول الحق، قاله مجاهد، وقرأ الآخرون بنصبهما، واختلفوا في وجههما، قيل: نصب الأولى على الإغراء كأنه قال: الزم الحق، والثاني بإيقاع القول عليه أي أقول الحق. وقيل: الأول قسم أي فبالحق وهو الله عزّ وجلّ، فانتصب بنزع الخافض، وهو حرف الصفة، وانتصاب الثاني بإيقاع القول عليه. وقيل: الثاني تكرار القسم، أقسم الله بنفسه.

(٨٥) - (٨٦) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، على تبليغ الرسالة، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، جعل، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾، المتقوّلين القرآن من تلقاء نفسي، وكل من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلّفه.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة، ثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: دخلنا على عبدالله بن مسعود فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

(٨٧) قوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾، ما هو، يعني القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، موعظة، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾، للخلق أجمعين.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾، أنتم يا كفار مكة، ﴿نَبَأَهُ﴾، خبر صدقه، ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾، قال ابن عباس وقتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. وقال الكلبي: من بقي علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا، ومن مات علمه بعد موته. قال الحسن: ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

❀ ❀ ❀

سورة الزمر

مكية إلا قوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، فمدنية، وهي خمس وسبعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾، أي هذا تنزيل الكتاب من الله. وقيل: تنزيل

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

٤٥٩

الكتاب مبتدأ وخبره، ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، أي تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، قال مقاتل: لم ننزله باطلاً لغير شيء، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، الطاعة.

﴿٣﴾ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، قال قتادة: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: لا يستحق الدين الخالص إلا الله. وقيل: الدين الخالص من الشرك هو لله. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾، أي من دون الله، ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، يعني الأصنام، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، أي قالوا ما نعبدهم، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، وكذلك قرأ ابن مسعود وابن عباس، قال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم: مَن ربكم ومَن خلقكم ومَن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، أي قربى، وهو اسم أقيم في مقام المصدر، كأنه قال: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً ويشفعوا لنا عند الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، من أمر الدين، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾، لا يرشد لدينه من كذب، فقال: إن الآلهة لتشفع وكفى باتخاذ الآلهة دونه كذباً وكفراً.

﴿٤﴾ ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ﴾، لاختار، ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، يعني الملائكة، كما قال: ﴿لَّوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧]، ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، تنزيهاً له عن ذلك وعما لا يليق بطهارته، ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿٥﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾، قال قتادة: يغشي هذا هذا، كما قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤، الرعد: ٣]، وقيل: يدخل أحدهما على الآخر كما قال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، وقال الحسن والكلبي: ينقص من الليل فيزيد في النهار، وينقص من النهار فيزيد في الليل، فما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل، ومنتهى النقصان تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة، وأصل التكوير اللف والجمع، ومنه كوّر العمامة. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

﴿٦﴾ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، يعني آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعني حواء، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾، معنى الإنزال ههنا: الإحداث والإنشاء، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقيل: إنه أنزل الماء الذي هو سبب نبات القطن الذي يكون منه اللباس، وسبب النبات الذي تبقى به الأنعام. وقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ جعلها لكم نزلاً ورزقاً. ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، أصنافاً، مر تفسيرها في سورة الأنعام. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾، نطفة ثم علقة ثم مضغة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾، قال ابن عباس: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾، أي الذي خلق هذه الأشياء، ﴿رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، عن طريق الحق بعد هذا البيان.

﴿٧﴾ ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، قال ابن عباس والسدي: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

﴿سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، يريد بعض العباد، وأجراه قوم على العموم، وقالوا: لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ومعنى الآية: لا يرضى لعباده الكفر أن يكفروا به، ويروى ذلك عن قتادة، وهو قول السلف، قالوا: كفر الكافر غير مرضي لله عزّ وجلّ، وإن كان بإرادته، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾، تؤمنوا بربكم وتطيعوه، ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، فيثيبكم عليه، قرأ أبو عمرو ﴿يرضهْ لكم﴾ ساكنة الهاء، ويختلسها أهل المدينة وعاصم وحمزة، والباقون بالإشباع، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه مستغيثاً به، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾، أعطاه نعمة منه، ﴿نَسِىَ﴾، ترك، ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾، أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، يعني الأوثان، ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ليزيد عن دين الله، ﴿قُلْ﴾، لهذا الكافر، ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، في الدنيا إلى أجلك، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، وقال مقاتل: نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وقيل: عام في كل كافر.

﴿٩﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وحمزة ﴿أمن﴾ بتخفيف الميم، وقرأ الآخرون بتشديدها، فمن شدد فله وجهان، أحدهما: أن تكون الميم في ﴿أم﴾ صلة، فيكون معنى الكلام استفهاماً وجوابه محذوفاً، مجازه: أمن هو قانت كمن هو غير قانت؟ كقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، يعني كمن لم يشرح صدره. والوجه الآخر: أنه عطف على الاستفهام، مجازه: الذي جعل لله أنداداً خير أم [من] هو قانت؟ ومن قرأ بالتخفيف فهو ألف استفهام دخلت على [من]، معناه: أهذا كالذي جعل لله أنداداً. وقيل: الألف في ﴿أمن﴾ بمعنى حرف النداء، تقديره: يا من هو قانت، والعرب تنادي بالألف كما تنادي بالياء، فتقول: أبني فلان ويا بني فلان، فيكون معنى الآية: قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار، ويا من هو قانت ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، إنك من أهل الجنة قاله ابن عباس.

وفي رواية عطاء: نزلت في أبي بكر الصديق.

وقال الضحاك: نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وعن ابن عمر أنها نزلت في عثمان.

وعن الكلبي أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان، والقانت: المقيم على الطاعة. قال ابن عمر: «القنوت» قراءة القرآن وطول القيام، وآناء الليل: ساعاته، ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾، يعني في الصلاة، ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، يخاف الآخرة، ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، يعني كمن لا يفعل شيئاً من ذلك، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قيل الذين يعلمون عمار، والذين لا يعلمون أبو حذيفة المخزومي، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، بطاعته واجتناب معاصيه، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، أي آمنوا وأحسنوا العمل، ﴿حَسَنَةٌ﴾ يعني الجنة، قاله مقاتل. وقال السدي: في هذه الناحية حسنة يعني الصحة والعافية، ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، قال ابن عباس: يعني ارتحلوا من مكة. وفيه حث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي. وقيل: نزلت في مهاجري الحبشة. وقال سعيد بن جبير: من أمر بالمعاصي ببلد فليهرب منها إلى غيرها ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى. وقيل: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه، حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء، وصبروا وهاجروا.

قال علي رضي الله عنه: كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرين، فإنه يُحثى لهم حثياً.

ويروى: «يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم الميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب» قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض

الجزء الثالث والعشرون — سورة الزمر

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

٤٦٠

مما يذهب به أهل البلاء من الفضل».

﴿١١﴾ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، مخلصاً له التوحيد لا أشرك به شيئاً.

﴿١٢﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، من هذه الأمة.

﴿١٣﴾ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، وعبدت غيره، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهذا حين دعي إلى دين آبائه.

﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۞ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أمر توبيخ وتهديد، كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾، أزواجهم وخدمهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قال ابن عباس: وذلك أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة وأهلاً، فمن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له، ومن عمل بمعصية الله دخل النار، وكان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بطاعة الله. وقيل: خسران النفس بدخول النار، وخسران الأهل بأن يفرق بينه وبين أهله، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أطباق سرادقات من النار ودخانها، ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، فراش ومهاد من نار إلى أن ينتهي إلى القعر، سُمي الأسفل ظللاً لأنها ظلل لمن تحتهم نظيرها قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، الأوثان، ﴿أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، رجعوا إلى عبادة الله، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، في الدنيا [و] الجنة في العقبى، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾، القرآن، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

قال السدي: أحسن ما يؤمرون به فيعملونه.

وقيل: هو أن الله ذكر في القرآن الانتصار من الظالم وذكر العفو، والعفو أحسن الأمرين.

وقيل: ذكر العزائم والرخص فيتبعون الأحسن وهو العزائم. وقيل: يستمعون القرآن وغير القرآن فيتبعون القرآن.

وقال عطاء عن ابن عباس: آمن أبو بكر بالنبي ﷺ فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا، فنزلت فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، وكله حسن. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال ابن زيد: نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآيتان، في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي. والأحسن: قول لا إله إلا الله.

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من سبق في علم الله أنه من أهل النار. وقيل: كلمة العذاب قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] وقيل: كلمة العذاب قوله: «هؤلاء في النار ولا أبالي». ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، أي لا تقدر عليه. قال ابن عباس: يريد أبا لهب وولده.

﴿٢٠﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، أي منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾، أي وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعداً لا يخلفه.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا

أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثني عبدالعزيز بن عبدالله، حدثني مالك عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

(٢١) قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ﴾، أدخل ذلك الماء، ﴿يَنَابِيعَ﴾، عيوناً وركايا، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾، أي بالماء ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾، أحمر وأصفر وأخضر، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، ييبس، ﴿فَتَرَاهُ﴾، بعد خضرته ونضرته، ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾، فتاتاً متكسراً، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

(٢٢) قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وسعه لقبول الحق، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، ليس كمن أقسى الله قلبه.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا ابن فنجويه، ثنا عبدالله بن محمد بن شيبة، ثنا أبو جعفر محمد بن الحسن بن يزيد الموصلي ببغداد، أنا أبو فروة واسمه يزيد بن محمد، حدثني أبي عن أبيه، ثنا زيد بن أبي أنيسة، عن عمرو بن مرة، عن عبدالله بن الحارث، عن عبدالله بن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قلنا: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت».

قوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، قال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عز وجل على قوم إلا نزع منهم الرحمة.

(٢٣) قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾، يشبه بعضه بعضاً في الحسن، ويصدق بعضه بعضاً ليس فيه تناقض ولا اختلاف. ﴿مَّثَانِيَ﴾، يثنى فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام، ﴿تَقْشَعِرُّ﴾، تضطرب وتشمئز، ﴿مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، والاقشعرار تغير في جلد الإنسان عند الوجل والخوف، وقيل: المراد من الجلود القلوب أي قلوب الذين يخشون ربهم، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي لذكر الله، أي إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وحقيقة المعنى أن قلوبهم تقشعر من الخوف وتلين عند الرجاء.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد، حدثنا موسى بن محمد بن علي، ثنا محمد بن عبدوس بن كامل، ثنا يحيى بن عبدالحميد الحماني، ثنا عبدالعزيز بن محمد عن يزيد بن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أم كلثوم بنت العباس عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله

تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد، ثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا موسى بن إسحاق الأنصاري، ثنا محمد بن معاوية، ثنا الليث بن سعد، ثنا يزيد بن عبدالله بن الهاد بهذا الإسناد، وقال: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله حرّمه الله على النار».

قال قتادة: هذا نعت أولياء الله نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا الحسين بن محمد بن فنجويه، ثنا ابن شيبة، ثنا حمدان بن داود، ثنا سلمة بن شبيب، ثنا خلف بن سلمة، ثنا هشيم عن حصين عن عبدالله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قُرئ [عليهم] القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عزّ وجلّ تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قال فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وبه عن سليمان بن سلمة ثنا يحيى بن يحيى، ثنا سعيد بن عبدالرحمن الجمحي أن ابن عمر مرّ برجل من أهل العراق ساقطاً فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط؟ وقال ابن عمر: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ.

وذكر عند ابن سيرين: الذين يصرعون إذ قرئ عليهم القرآن، فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم، على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإنْ رمى بنفسه فهو صادق.

﴿ذَٰلِكَ﴾، يعني أحسن الحديث، ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي شدته، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قال مجاهد: يجر على وجهه في النار. وقال عطاء: يرمى به في النار منكوساً فأول شيء منه تمسه النار وجهه. قال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة مثل جبل عظيم من الكبريت فتشتعل النار في الحجر، وهو معلق في عنقه فحرّ ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عن وجهه، للأغلال التي في عنقه ويده. ومجاز الآية: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب؟ ﴿وَقِيلَ﴾، يعني تقول الخزنة، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، أي وباله.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من قبل كفار مكة كذبوا الرسل، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يعني هم آمنون غافلون من العذاب.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾، العذاب والهوان، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، يتعظون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، نصب على الحال، ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾، قال ابن عباس: غير مختلف. قال مجاهد: غير ذي لبس. قال السدي: غير مخلوق. ويروى ذلك عن مالك بن أنس، وحكي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الكفر والتكذيب به.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾، قال الكسائي نصب رجلاً لأنه تفسير للمثل، ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم، يقال: رجل شكس شرس، إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس، لا يرضى بالإنصاف، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾.

قرأ أهل مكة والبصرة ﴿سالماً﴾ بالألف أي خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه، وقرأ الآخرون ﴿سلماً﴾ بفتح اللام من غير ألف، وهو الذي لا ينازع فيه من قولهم: هو لك سلم، أي مسلم، لا منازع لك فيه. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ للكافر الذي يعبد آلهة شتى، والمؤمن من الذي لا يعبد إلا الله الواحد، وهذا استفهام إنكار لا يستويان، ثم قال:

سورة الزمر

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾

٤٦٢

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي لله الحمد كله دون غيره من المعبودين. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ما يصيرون إليه والمراد بالأكثر الكل.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾، أي ستموت، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. أي سيموتون، قال الفراء والكسائي: الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت، الميت بالتخفيف من فارقه الروح، ولذلك لم يخفف ههنا.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قال ابن عباس: يعني المحق والمبطل، والظالم والمظلوم.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا ابن فنجويه، ثنا ابن مالك، ثنا ابن حنبل، حدثنا أبي، ثنا ابن نمير، ثنا محمد يعني ابن عمرو عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب، عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير: والله إنّ الأمر لشديد.

وقال ابن عمر: عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قلنا: كيف نختصم وديننا وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا.

وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

وعن إبراهيم قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قالوا: كيف نختصم ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان قالوا هذه خصومتنا؟

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، ثنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد، ثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له أخذ من سيئاته فجعلت عليه».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضيل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، وقد كان شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته، قال: فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طُرح في النار».

(٣٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾، فزعم أن له ولداً وشريكاً، ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، بالقرآن ﴿إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾، منزل ومقام، ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾، استفهام بمعنى التقرير.

(٣٣) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾.

قال ابن عباس: والذي جاء بالصدق يعني رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلا الله وصدق به الرسول أيضاً بلغه إلى الخلق.

وقال السدي: «والذي جاء بالصدق» جبريل جاء بالقرآن، «وصدق به» محمد ﷺ تلقاه بالقبول.

وقال الكلبي وأبو العالية: «والذي جاء بالصدق» رسول الله ﷺ، «وصدّق به» أبو بكر رضي الله عنه.

وقال قتادة ومقاتل: «والذي جاء بالصدق» رسول الله ﷺ، «وصدّق به» هم المؤمنون، لقوله عزّ وجلّ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وقال عطاء: والذي جاء بالصدق الأنبياء وصدّق به الأتباع، وحينئذ يكون «الذي» بمعنى «الذين» كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

قال الحسن: هم المؤمنون صدقوا به في الدنيا وجاؤوا به في الآخرة. وفي قراءة عبدالله بن مسعود: والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

(٣٤) (٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، يسترها عليهم بالمغفرة، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ.

(٣٦) قوله عز وجل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ يعني محمداً ﷺ. وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي، ﴿عباده﴾ بالجمع يعني الأنبياء عليهم السلام، قصدهم قومهم بالسوء كما قال: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، فكفاهم الله شر من عاداهم، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، وذلك أنهم خوّفوا النبي ﷺ معاداة الأوثان. وقالوا: لتكفنّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾، منيع في ملكه منتقم من أعدائه.

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾، بشدة وبلاء، ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ بنعمة وبركة، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، قرأ أهل البصرة «كاشفاتٌ» و«ممسكاتٌ» بالتنوين، ﴿ضُرَّهُ﴾ ﴿ورحمتَهُ﴾ بنصب الراء والتاء، وقرأ الآخرون بلا تنوين وجر الراء والتاء على الإضافة، قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ عن ذلك فسكتوا، فقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، ثقتي به واعتمادي عليه، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، يثق به الواثقون.

(٣٩) (٤٠) ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي ينزل عليه عذاب دائم.

(٤١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، [أي] وبال ضلالته عليه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، بحفيظ ورقيب [أي] لم توكل بهم ولا تؤاخذ بهم.

(٤٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾، أي الأرواح، ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾، فيقبضها عند فناء أكلها وانقضاء آجالها، وقوله: ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ يريد موت أجسادها، ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾، يريد يتوفى الأنفس التي لم تمت، ﴿فِي مَنَامِهَا﴾، والتي تتوفى عند النوم هي النفس التي يكون بها العقل والتمييز، ولكل إنسان نفسان: إحداهما نفس الحياة وهي التي

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)

٤٦٣

تفارقه عند الموت فتزول بزوالها النفس، والأخرى نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام، وهو بعد النوم يتنفس. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾، فلا يردها إلى الجسد، قرأ حمزة والكسائي ﴿قُضِيَ﴾ بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء، ﴿الموت﴾ رفع على ما لم يسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح القاف والضاد، ﴿الموت﴾ نصب لقوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾، ويرد الأخرى وهي التي لم يقضِ عليها الموت إلى الجسد، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، إلى أن يأتي وقت موته، ويقال للإنسان نفس وروح، فعند النوم يُخرج النفس ويُبقي الروح. وعن علي قال: تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة. ويقال: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أحمد بن يونس، ثنا زهير، ثنا عبدالله بن عمر، حدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، لدلالات على قدرته حيث لم يغلط في إمساك ما يمسك من الأرواح وإرسال ما يرسل منها. قال مقاتل: لعلامات لقوم يتفكرون في أمر البعث، يعني إن توفي نفس النائم وإرسالها بعد التوفي دليل على البعث.

(٤٣) ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ﴾، يا محمد، ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾، وإن كانوا يعني الآلهة، ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾، من الشفاعة، ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أنكم تعبدونهم، وجواب هذا محذوف تقديره: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم.

(٤٤) - (٤٥) ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، قال مجاهد: لا يشفع أحد إلا بإذنه، ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾، نفرت، وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: انقبضت عن التوحيد. وقال قتادة: استكبرت. وأصل الاشمئزاز النفور والاستكبار. ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني الأصنام ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون.

قال مجاهد ومقاتل: وذلك حين قرأ النبي ﷺ سورة النجم فألقى الشيطان في أمنيته: تلك الغرانيق العلى، ففرح به الكفار.

(٤٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو نعيم الإسفرايني، أنا أبو عوانة، ثنا السلمي، ثنا النضر بن محمد، ثنا عكرمة بن عمار، أنا يحيى بن أبي كثير، ثنا أبو سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها بِمَ كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة من الليل؟ قالت: كان يقول: «اللهمّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلفت فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

(٤٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، قال مقاتل: ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة.

قال السدي: ظنوا أنها حسنات فبدت لهم سيئات، والمعنى أنهم كانوا يتقربون إلى الله بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدا لهم من الله ما لم يحتسبوا.

وروي أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت، فقيل له في ذلك فقال: أخشى أن يبدو لي ما لم أحتسب.

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

٤٦٤

﴿٤٨﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي مساوئ أعمالهم من الشرك والظلم بأولياء الله. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾، شدة، ﴿دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾، أعطيناه، ﴿نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي على علم من الله أني له أهل. وقال مقاتل: على خير علم الله عندي، وذكر الكناية لأن المراد من النعمة الإنعام، ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، يعني تلك النعمة فتنة استدراج من الله وامتحان وبلية. وقيل: بل كلمته التي قالها فتنة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنه استدراج وامتحان.

﴿٥٠﴾ ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، قال مقاتل: يعني قارون فإنه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فما أغنى عنهم الكفر من العذاب شيئاً.

﴿٥١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي جزاؤها يعني العذاب، ثم أوعد كفار مكة فقال: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، بفائتين لأن مرجعهم إلى الله عزّ وجلّ.

﴿٥٢﴾ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يقتر على من يشاء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا النبي ﷺ وقالوا: إن الذي تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت هذه الآية.

وقال عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق آثاماً يضاعف له العذاب، وأنا قد فعلت ذلك كله، فأنزل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم: ٦٠] فقال وحشي: هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فقال وحشي: أراني بعد في شبهة، فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، فقال وحشي: نعم هذا، فجاء وأسلم، فقال المسلمون: هذا له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال: بل للمسلمين عامة.

وروي عن ابن عمر قال: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، وقوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه، فأنزل الله هذه الآيات، فكتبها عمر بن الخطاب بيده ثم بعث بها إلى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

وروى مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أو نقول: ليس بشيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر والفواحش، قال: فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك، فنزلت هذه الآية، فكففنا عن القول في ذلك، وكنا إذا رأينا أحداً

أصاب منها شيئاً خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له.

وأراد بالإسراف ارتكاب الكبائر.

وروي عن ابن مسعود أنه دخل المسجد فإذا قاص يقص وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال: يا مذكر لم تقنطِ الناس؟ ثم قرأ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي، أنا أبو محمد عبدالله بن أحمد الحموي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن خزيم الشاشي، ثنا عبدالله بن حميد، ثنا حيان بن هلال وسليمان بن حرب وحجاج بن منهال قالوا: ثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن بشار، ثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصِّدِّيق الناجي، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعاً وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله، فقال: هل [لي من] توبة؟ فقال: لا، فقتله [فكمل به المائة] [وجعل يسأل] فقال له رجل: ائتِ قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوُجِدَ إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

ورواه مسلم بن الحجاج عن محمد بن المثنى العنبري عن معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة بهذا الإسناد، وقال: «فدلّ على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله وكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال له: قتلت مائة نفس فهل لي من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم حكماً، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل - لم يعمل خيراً قط - لأهله إذا مات فحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، قال: فلما مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت أعلم، فغفر له».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو الحسين محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن عكرمة عن عمار، ثنا ضمضم بن جوس قال: دخلت [مسجد] المدينة فناداني شيخ، فقال [لي]: يا يماني تعال، وما أعرفه، فقال: لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك أبداً، ولا يدخلك الله الجنة، قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، قال فقلت: إن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر كان مذنباً، فجعل يقول له: أقصر عما أنت فيه، قال فيقول: خلني وربي، قال: حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: اقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أبداً، ولا يدخلك الله الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

عبدي رحمتي؟ فقال: لا يا رب، فقال: اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أخبرنا عبدالرحمن بن أبي بكر القفال، أنا أبو مسعود محمد بن أحمد بن يونس الخطيب ثنا محمد بن يعقوب الأصم، ثنا أبو قلابة، ثنا أبو عاصم، ثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهمّ تغفر جما
وأي عبد لك لا ألمّا»

(٥٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾، أقبلوا وارجعوا إليه بالطاعة، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾، وأخلصوا له التوحيد، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، يعني القرآن، والقرآن كله حسن، ومعنى الآية ما قاله الحسن: التزموا طاعته واجتنبوا معصيته فإن في القرآن ذكر القبيح لتجتنبه وذكر الأدون لئلا ترغب فيه، وذكر الأحسن لتؤثره. قال السدي: الأحسن ما أمر الله به في الكتاب، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾، يعني لئلا تقول نفس، كقوله: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠] يعني لئلا تميد بكم، قال المبرد: أي بادروا واحذروا أن تقول نفس. وقال الزجاج: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون هذا القول، ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ يا ندامتا، والتحسر الاغتمام على ما فات، وأراد يا حسرتي على الإضافة، لكن العرب تحول ياء الكناية ألفاً في الاستغاثة، فتقول: يا ويلتا ويا ندامتا، وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف لتدل على الإضافة، وكذلك قرأ أبو جعفر يا «حسرتاي»، وقيل: معنى قوله «يا حسرتا» يا أيتها الحسرة هذا وقتك، ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، قال الحسن: قصرت في طاعة الله. وقال مجاهد: في أمر الله. وقال سعيد بن جبير: في حق الله. وقيل: ضيعت في ذات الله. وقيل: معناه قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضاء الله. والعرب تسمي الجنب جانباً. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾، المستهزئين بدين الله وكتابه ورسوله والمؤمنين، قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى جعل يسخر بأهل طاعته.

(٥٧) ـ (٥٨) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾، عياناً، ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾، رجعة إلى الدنيا، ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، الموحدين.

(٥٩) يقال لهذا القائل: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾، يعني القرآن، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، وقلت إنها ليست من الله، ﴿واستكبرت﴾، تكبرت عن الإيمان بها، ﴿وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾، فزعموا أن له ولداً وشريكاً، ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، عن الإيمان.

(٦١) ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿بمفازاتهم﴾ بالألف على الجمع، أي بالطرق التي تؤديهم إلى الفوز والنجاة، وقرأ الآخرون ﴿بمفازتهم﴾ على الواحد لأن المفازة بمعنى الفوز، أي ينجيهم بفوزهم من النار بأعمالهم الحسنة. قال المبرد: المفازة مفعلة من الفوز، والجمع حسن كالسعادة والسعادات.

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

٤٦٦

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، لا يصيبهم المكروه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أي الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها.

(٦٣) ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي مفاتيح خزائن السموات والأرض، واحدها مقلاد، مثل مفتاح، ومقليد مثل منديل ومناديل.

وقال قتادة ومقاتل: مفاتيح السموات والأرض بالرزق والرحمة. وقال الكلبي: خزائن المطر وخزائن النبات. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

(٦٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؟ قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه. قرأ أهل الشام ﴿تأمرونني﴾ بنونين خفيفتين على الأصل، وقرأ أهل المدينة بنون واحدة خفيفة على الحذف، وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة على الإدغام.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، أي الذي عملته قبل الشرك وهذا خطاب مع رسول الله ﷺ، والمراد منه غيره. وقيل: هذا أدب من الله عزّ وجلّ لنبيه وتهديد لغيره، لأن الله تعالى عصمه من الشرك. ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، لإنعامه عليك.

(٦٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، ما عظموه حقّ عظمته حين أشركوا به، أخبر عن عظمته فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا شيبان عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبدالله بن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾».

ورواه مسلم بن الحجاج عن أحمد بن عبدالله بن يونس، عن فضيل بن عياض، عن منصور قال: «والجبال والشجر على إصبع، وقال [ثم] يهزهن هزاً، فيقول (أنا الملك أنا الله)».

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني الحسين بن فنجويه، ثنا عمر بن الخطاب، ثنا عبدالله بن الفضل، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا أبو أسامة، عن عمر بن حمزة، عن سالم بن عبدالله أخبرني عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟، ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟».

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة الكشميهني، ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، ثنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا

عبدالله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض».

﴿٦٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي ماتوا من الفزع، وهي النفخة الأولى، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، اختلفوا في الذين استثناهم الله عزّ وجلّ، وقد ذكرناهم في سورة النمل [٨٧]، قال الحسن: إلا من شاء الله يعني الله وحده، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾، أي في الصور، ﴿أُخْرَىٰ﴾، أي مرة أخرى، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، من قبورهم ينتظرون أمر الله فيهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد، ثنا أبو معاوية [عن] الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت»، قال: ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب ومنه تركب الخلق يوم القيامة».

﴿٦٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، أضاءت، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور خالقها، وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه فما يتضارون في نوره كما لا يتضارون في الشمس في اليوم الصحو. وقال الحسن والسدي: بعدل ربها، وأراد بالأرض عرصات القيامة، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي كتاب الأعمال، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، قال ابن عباس: يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة، وهم أمة محمد ﷺ. وقال عطاء: يعني الحفظة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٧٠﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، أي ثواب ما عملت، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، قال عطاء: يريد أني عالم بأفعالهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

﴿٧١﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً، ﴿زُمَرًا﴾، أفواجاً بعضها على إثر بعض، كل أمة على حدة. قال أبو عبيدة والأخفش: زمراً أي جماعات في تفرقة، واحدتها زمرة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك، قرأ أهل الكوفة ﴿فتحت، وفتحت﴾ بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾، توبيخاً وتقريعاً لهم، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، من أنفسكم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ﴾، وجبت، ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿٧٢﴾ ـ ﴿٧٣﴾ ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، قال الكوفيون: هذه الواو زائدة حتى تكون جواباً لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ كما في سوق الكفار، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: ٤٨] أي ضياء، والواو زائدة، وقيل: الواو واو الحال، مجازه: وقد فتحت أبوابها، فأدخل الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفها في الآية الأولى أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم، فإذا لم تجعل الواو زائدة في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ اختلفوا في جواب قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، قيل: جوابه قوله: ﴿جاؤوها﴾، وقال لهم خزنتها، والواو فيه ملغاة تقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها قال لهم خزنتها.

وقال الزجاج: القول عندي أن الجواب محذوف، تقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، دخلوها فحذف دخلوها لدلالة الكلام عليه، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، يريد أن خزنة الجنة يسلمون عليهم ويقولون طبتم

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

قال ابن عباس: طاب لكم المقام. قال قتادة: هم إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هُذِّبوا وطيّبوا أدخلوا الجنة، فقال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وروي عن علي عليه السلام قال: سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيغتسل المؤمن من إحداهما فيطهر ظاهره، ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه، وتلقيهم الملائكة على أبواب الجنة يقولون: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

﴿٧٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾، أي أرض الجنة، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ﴿نَتَبَوَّأُ﴾، ننزل، ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، ثواب المطيعين.

﴿٧٥﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، أي محدقين محيطين بالعرش، مطيفين بحوافيه أي بجوانبه، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قيل: هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد، لأن التكليف متروك في ذلك اليوم، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي قضي بين أهل الجنة والنار بالعدل، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول أهل الجنة: شكراً لله حين تم وعد الله لهم.

❁ ❁ ❁

سورة غافر

مكية وهي خمس وثمانون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وأخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عبدالله بن موسى، ثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات، فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو محمد الرومي، ثنا أبو العباس السراج، حدثنا قتيبة، ثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب أن الجراح بن [أبي] الجراح حدثه عن ابن عباس قال: لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم.

وقال ابن مسعود: إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات أتأنّق فيهن. وقال سعد بن إبراهيم: كن آل الحواميم يُسَمَّين العرائس.

﴿١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿حمٓ﴾، قد سبق الكلام في حروف التهجي.

قال السدي عن ابن عباس: حم اسم الله الأعظم. وروى عكرمة عنه قال: «الٓر» و«حمٓ» و«نون»، حروف «الرحمن» مقطعة. وقال سعيد بن جبير وعطاء الخراساني: الحاء افتتاح أسمائه حكيم حميد حي حليم حنان، والميم افتتاح أسمائه ملك مجيد منان. وقال الضحاك والكسائي: معناه قضى ما هو كائن كأنه أشار إلى أن معناه: حُمَّ، بالضم وتشديد الميم، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر حم بكسر الحاء، والباقون بفتحها.

﴿٢﴾ ـ ﴿٣﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، ساتر

الذنب، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، يعني التوبة مصدر تاب يتوب توباً. وقيل: التوب جمع توبة مثل دومة ودوم وحَوْمة وحَوْم. قال ابن عباس: غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله، وقابل التوب ممن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله. ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، لمن لا يقول لا إله إلا الله، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾، ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله. قال مجاهد: «ذي الطول» ذي السعة والغنى. وقال الحسن: ذو الفضل. قال قتادة: ذو النعم. وقيل: ذو القدرة وأصل الطول الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

(٤) ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، في دفع آيات الله بالتكذيب والإنكار، ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، و﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن أحمد، ثنا محمد بن خالد أنا داود بن سليمان، أنا عبدالله بن حميد، ثنا الحسين بن علي الجعفي عن زائدة عن ليث عن سعد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جدالاً في القرآن كفر».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتمارون في القرآن، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه».

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾، تصرفهم في البلاد للتجارات وسلامتهم فيها مع كفرهم، فإن عاقبة أمرهم العذاب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾، وهم الكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب من بعد قوم نوح، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾، قال ابن عباس: ليقتلوه ويهلكوه. وقيل: ليأسروه. والعرب تسمي الأسير أخيذاً، ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا﴾، ليبطلوا، ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾، الذي جاء به الرسل ومجادلتهم مثل قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، و﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] ونحو ذلك، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، يعني كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة حقت، ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من قومك، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، قال الأخفش: لأنهم أو بأنهم أصحاب النار.

(٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾، حملة العرش والطائفون به وهم الكروبيون، وهم سادة الملائكة.

قال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمئة عام.

ويروى: أن أقدامهم في تخوم الأرضين، والأرضون والسموات إلى حجزهم، وهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سُبّوحٌ قُدّوسٌ ربُّ الملائكة والروح.

وقال ميسرة بن عروبة: أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء التي تليها، والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها.

وقال مجاهد: بين الملائكة والعرش سبعون حجاباً من نور.

وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذن لي أن أُحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: إن ما بين القائمة

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام، والعرش يُكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور، لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله، والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة. وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب [حجاب] من نور، وحجاب من ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة. وقال وهب بن منبه: إن حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة، صف خلف صف يطوفون بالعرش، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلّل هؤلاء وكبّر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم، فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رفعوا أصواتهم، فقالوا: سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا إله غيرك، أنت الأكبر، الخلق كلهم لك راجعون، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد إلا وهو يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلثمائة عام، وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه أربعمائة عام، واحتجب الله من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار، وسبعين حجاباً من ظلمة، وسبعين حجاباً من نور، وسبعين حجاباً من دُرّ أبيض، وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر، وسبعين حجاباً من ياقوت أصفر، وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر، وسبعين حجاباً من ثلج، وسبعين حجاباً من ماء، وسبعين حجاباً من برد، وما لا يعلمه إلا الله تعالى.

قال: ولكل واحد من حملة العرش ومن حوله أربعة وجوه، وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر ووجه إنسان، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة، أما جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق، وأما جناحان فيهفو بهما كما يهفو هذا الطائر بجناحيه إذا حركه، ليس لهم كلام إلا التسبيح [والتسليم والتحميد والتكبير] والتمجيد. قوله عزّ وجلّ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يصدقون بأنه واحد لا شريك له.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عمر بن عبدالله الرقاشي، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا هارون بن رباب، ثنا شهر بن حوشب قال: حملة العرش ثمانية، فأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، قال: وكأنهم ينظرون ذنوب بني آدم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا﴾، يعني يقولون ربنا، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، قيل: نصب على التفسير، وقيل: على النقل، أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، دينك. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، قال مطرف: أنصح عباد الله للمؤمنين هم الملائكة، وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين.

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ﴾، آمن، ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، قال سعيد بن جبير: يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبي، أين أمي، أين ولدي، أين زوجتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا مثل عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي ولهم، فيقال: أدخلوهم [الجنة].

﴿٩﴾ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾، العقوبات، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ﴾،

أي ومن تقه السيئات يعني العقوبات، وقيل: جزاء السيئات، ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿١٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾، يوم القيامة وهم في النار وقد مَقَتُوا أنفسهم حين عُرضت عليهم سيئاتهم، وعاينوا العذاب، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، يعني لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم عند حلول العذاب بكم.

﴿١١﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، قال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما موتتان وحياتان، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة. ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، أي من خروج من النار إلى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك، نظيره: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

﴿١٢﴾ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾، فيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعي الله وحده كفرتم، أي إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم، وقلتم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾، غيره ﴿تُؤْمِنُوا﴾، تصدقوا ذلك الشرك، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، الذي لا أعلى منه ولا أكبر.

﴿١٣﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، وما يتعظ بهذه الآيات، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره.

﴿١٤﴾ ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، الطاعة والعبادة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾، رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾، خالقه ومالكه، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾، ينزل الوحي، سماه روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا به الأبدان بالأرواح، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾، قال ابن عباس: من قضائه. وقيل: من قوله. وقال مقاتل: بأمره. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ﴾، أي لينذر النبي بالوحي، ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، وقرأ يعقوب بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد

الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾

٤٦٩

يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. قال قتادة ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. قال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم. وقيل: يلتقي العابدون والمعبودون. وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله.

﴿١٦﴾ ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾، خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ﴾، من أعمالهم وأحوالهم، ﴿شَيْءٌ﴾، ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فلا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول، ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، الذي قهر الخلق بالموت.

﴿١٧﴾ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، يُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿لَا

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾، يعني يوم القيامة، سمّيت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، أي قربت القيامة. ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا. ﴿كَٰظِمِينَ﴾، مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾، قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، فيشفع فيهم.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل. قال مجاهد: [هو] نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، يعني الأوثان، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾، لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر على شيء.

قرأ نافع وابن عامر «تدعون»، بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(٢١) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، قرأ ابن عامر «منكم» بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلم ينفعهم ذلك. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، يدفع عنهم العذاب.

(٢٢) - (٢٥) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك العذاب الذي نزل بهم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا﴾، يعني فرعون وقومه، ﴿ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾.

قال قتادة: هذا غير القتل الأول، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم، فمعناه أعيدوا عليهم القتل. ﴿وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ﴾، ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهرته، ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم، ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي يذهب كيدهم باطلاً، ويحيق بهم ما يريده الله عزّ وجلّ.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾، لملئه ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، وإنما قال هذا لأنه كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتله خوفاً من الهلاك، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، أي وليدع موسى ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ﴾، أن يغير، ﴿دِينَكُمْ﴾، الذي أنتم عليه، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، قرأ يعقوب وأهل الكوفة ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾، وقرأ الآخرون ﴿وَأَن يَظْهَرَ﴾، وقرأ أهل المدينة والبصرة وحفص يُظْهِر بضم الياء وكسر الهاء على التعدية، ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ نصب لقوله: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، حتى يكون الفعلان على نسق واحد، وقرأ الآخرون بفتح الياء والهاء على اللزوم، ﴿الفسادُ﴾، رفع وأراد بالفساد تبديل الدين وعبادة غيره.

(٢٧) - (٢٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾، لما توعده فرعون بالقتل، ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۞ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، واختلفوا في هذا المؤمن قال مقاتل

والسدي: كان قبطياً ابن عم فرعون وهو الذي حكى الله عنه فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، وقال قوم: كان إسرائيلياً، ومجاز الآية: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، وكان اسمه حزبيل عند ابن عباس، وأكثر العلماء.

وقال ابن إسحاق: كان اسمه جبران. وقيل: كان اسم الرجل الذي آمن من آل فرعون حبيباً. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، لأن يقول ربي الله، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي بما يدل على صدقه، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾، لا يضركم ذلك، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾، فكذبتموه وهو صادق، ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

قال أبو عبيد: المراد بالبعض الكل، أي إن قتلتموه وهو صادق أصابكم ما يتوعدكم به من العذاب. قال الليث: بعض ههنا صلة يريد: يصبكم الذي يعدكم.

وقال أهل المعاني: هذا على الظاهر في الحجاج كأنه قال: أقل ما في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وفي بعض ذلك هلاككم، فذكر البعض ليوجب الكل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾، إلى دينه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، مشرك، ﴿كَذَّابٌ﴾، على الله.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن عبدالله، ثنا الوليد بن مسلم، حدثني الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عُروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

(٢٩) ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، غالبين في أرض مصر، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾، من يمنعنا من عذاب الله، ﴿إِن جَآءَنَا﴾، والمعنى لكم الملك اليوم فلا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب، وقتل النبي فإنه لا مانع من عذاب الله إن حل بكم، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ﴾، من الرأي والنصيحة، ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، لنفسي. وقال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ما أدعوكم إلا إلى طريق الهدى.

(٣٠) ـ (٣١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب حتى أتاهم العذاب، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، أي لا يهلكهم قبل اتخاذ الحجة عليهم.

(٣٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، يوم القيامة يُدعى كل أناس بإمامهم وينادي بعضهم بعضاً، فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار و[ينادي] أصحاب النار أصحاب الجنة، وينادى أصحاب الأعراف، ويُنادى بالسعادة والشقاوة، ألا إنَّ فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وفلان ابن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

وقرأ ابن عباس والضحاك: «يوم التنادّ» بتشديد الدال أي يوم التنافر، وذلك أنهم هربوا فندوا في الأرض كما تند الإبل إذا شردت عن أربابها.

وقال الضحاك: وكذلك إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣].

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، منصرفين عن موقف الحساب إلى النار. وقال مجاهد: فارين غير معجزين، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، يعصمكم من عذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يعني يوسف بن يعقوب ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل موسى، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، يعني قوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾، قال ابن عباس: من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾، مات، ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، أي أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، مشرك، ﴿مُّرْتَابٌ﴾، شاك.

(٣٥) ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، قال الزجاج: هذا تفسير للمسرف المرتاب يعني هم الذين يجادلون في آيات الله أي: في إبطالها بالتكذيب، ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾، حجة، ﴿أَتَاهُمْ﴾، من الله، ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾، أي كبر ذلك الجدال [عند الله] مقتاً، ﴿عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿قلب﴾ بالتنوين، وقرأ الآخرون بالإضافة، دليله قراءة عبدالله بن مسعود «على قلب كل متكبر جبار».

(٣٦) ـ (٣٧) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾، لوزيره، ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾، والصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، وأصله من التصريح وهو الإظهار، ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ والأرض، يعني طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، قراءة العامة برفع العين نسقاً على قوله: ﴿أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾، وقرأ حفص عن عاصم بنصب العين وهي قراءة حميد الأعرج، على جواب «لعل» بالفاء ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾، يعني موسى ﴿كَاذِبًا﴾، فيما يقول أن له رباً غيري، ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿وَصُدَّ﴾ بضم الصاد نسقاً على قوله: ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ﴾ قال ابن عباس: صده الله عن سبيل الهدى. وقرأ الآخرون بالفتح أي صدّ فرعون الناس عن السبيل. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، يعني وما كيده في إبطال آيات الله وآيات موسى إلا في خسار وهلاك.

(٣٨) ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، طريق الهدى.

(٣٩) ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾، متعة تنتفعون بها مدة ثم تنقطع، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾، التي لا تزول.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال مقاتل: لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير.

(٤١) ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾، يعني مالكم كما تقول العرب: مالي أراك حزيناً؟ أي مالك؟ يقول: أخبروني عنكم؟ كيف هذه الحال أدعوكم إلى النجاة من النار بالإيمان بالله، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾، إلى الشرك الذي يوجب النار، ثم فسر فقال:

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، العزيز في انتقامه ممن كفر، الغفار لذنوب أهل التوحيد.

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾، حقاً، ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، أي إلى الوثن، ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾، قال السدي: لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة، يعني ليست له استجابة دعوة. وقيل: ليست له دعوة إلى عبادته في الدنيا لأن الأوثان لا تدّعي الربوبية، ولا تدعو إلى عبادتها، وفي الآخرة تتبرأ من عابديها. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾،

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ۝٤٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾

٤٧٢

مرجعنا إلى الله فيجازي كلاً بما يستحق، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، المشركين، ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

(٤٤) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾، إذا عاينتم العذاب حين لا ينفعكم التذكر، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وذلك أنهم توعدوه لمخالفته دينهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، يعلم المحق من المبطل، ثم خرج المؤمن من بينهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه.

(٤٥) وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾، ما أرادوا به الشر، قال قتادة: نجا مع موسى وكان قبطياً، ﴿وَحَاقَ﴾، نزل، ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، الغرق في الدنيا والنار في الآخرة.

(٤٦) وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾، هي رفع على البدل من السوء، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، صباحاً ومساء، قال ابن مسعود: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين، تغدو وتروح إلى النار، ويقال: يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة. وقال قتادة، ومقاتل، والسدي، والكلبي: تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشياً ما دامت الدنيا.

أخبرنا أبو الحسين السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن نافع، عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

ثم أخبر الله تعالى عن مستقرهم يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، ﴿ادخلوا﴾، بحذف الألف والوصل وبضمها في الابتداء وضم الخاء من الدخول، أي يقال لهم ادخلوا يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقرأ الآخرون أدخلوا بقطع الألف وكسر الخاء من الإدخال، أي يقال للملائكة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب. قال ابن عباس: يريد ألوان العذاب غير الذي كانوا يعذبون به منذ أُغرقوا.

(٤٧) ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾، أي اذكر يا محمد لقومك إذ يختصمون، يعني أهل النار في النار، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، في الدنيا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، والتبع يكون واحداً وجمعاً في قول أهل البصرة، واحده تابع، وقال أهل الكوفة: جمع لا واحد له، وجمعه أتباع.

(٤٨) ـ (٤٩) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾، حين اشتد عليهم العذاب، ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

(٥٠) ﴿قالوا﴾، يعني خزنة جهنم لهم، ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾، أنتم إذاً ربكم، أي إنا لا ندعو لكم لأنهم علموا أنه لا يخفف عنهم العذاب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي يبطل ويضل ولا ينفعهم.

(٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال ابن عباس: بالغلبة والقهر، وقال الضحاك: بالحجة وفي الآخرة بالعذاب. وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله

الجزء الرابع والعشرون — سورة غافر

قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

٤٧٣

بالقهر على من ناوأهم وإهلاك أعدائهم ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قتل، قتل به سبعون ألفاً، فهم منصورون بأحد هذه الوجوه، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، يعني يوم القيام يقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾، إن اعتذروا عن كفرهم لم يقبل منهم، وإن تابوا لم ينفعهم، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾، البعد من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، يعني جهنم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾، قال مقاتل: الهدى من الضلالة، يعني التوراة، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، التوراة.

﴿٥٤﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾، يا محمد على أذاهم، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، في إظهار [دينك] وإهلاك أعدائك، ﴿حَقٌّ﴾، قال الكلبي: نسخت آية القتال آية الصبر، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، هذا تعبد من الله ليزيده به درجة وليصير سنة لمن بعده، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، صلي شاكراً لربك، ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، قال الحسن: يعني صلاة العصر وصلاة الفجر. وقال ابن عباس: الصلوات الخمس.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ﴾، ما في قلوبهم، والصدر موضع القلب، فكنى به عن القلب لقرب الجوار، ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾، قال ابن عباس: ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة، ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، قال مجاهد: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله عزّ وجلّ مذلهم. قال ابن قتيبة: إن في صدورهم إلا تكبر على محمد ﷺ، وطمع في أن يغلبوه ما هم ببالغي ذلك. قال أهل التفسير: نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن صاحبنا المسيح بن داود ـ يعنون الدجال ـ يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، ويرد الملك إلينا، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، من فتنة الدجال، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مع عظمهما، ﴿أَكْبَرُ﴾، أعظم في الصدور، ﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، أي من إعادتهم بعد الموت، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، يعني الكفار، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها. وقال قوم: أكبر أي أعظم من خلق الدجال، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني اليهود الذي يخاصمون في أمر الدجال.

وروي عن هشام بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر فتنةً من الدجال».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، ثنا عبدالرزاق، ثنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت: كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال.

فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين: سنة تمسك السماء فيها ثلث قَطْرِها، والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قَطْرِها والأرض ثلثي نباتها، والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله، فلا يبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلك، وإن من أشد فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول: أرأيت إن أحييت لك إبلك أليس تعلم أني

ربك؟ فيقول: بلى، فيتمثل له الشيطان نحو إبله كأحسن ما يكون ضروعاً وأعظمه أسنمة، قال: ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول: أرأيت إن أحييت لك أباك وأخاك ألست تعلم أني ربك؟ فيقول: بلى، فيتمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه». قالت: ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجته، ثم رجع القوم في اهتمام وغم مما حدثهم، قالت: فأخذ بلحمتي الباب فقال: مَهْيَم أسماء؟ فقلت: يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال: «إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه، وإلاّ فإن ربي خليفتي على كل مؤمن»، قالت أسماء فقلت: يا رسول الله والله إنا لنعجن عجيناً فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ؟ قال: «يجزيهم ما يجزئ أهل السماء من التسبيح والتقديس».

وبهذا الإسناد أخبرنا معمر، عن ابن خيثم، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله ﷺ: «يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة، السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كاضطرام السعفة في النار».

أخبرنا أبو سعيد الطاهري، أنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق الدبري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور وإن الله ليس بأعور».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا موسى بن إسماعيل، ثنا جويرية عن نافع عن عبدالله قال: ذُكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجاني، أنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا علي بن حجر، ثنا شعيب بن صفوان عن عبدالملك بن عُمير عن ربعي بن حِراش عن عقبة بن عمرو بن مسعود الأنصاري قال: انطلقت معه إلى حذيفة بن اليمان فقال له عقبة: حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال؟ قال: «إن الدجال يخرج وإنّ معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماءٌ بارد عذبٌ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب» فقال عقبة: وأنا قد سمعته تصديقاً لحذيفة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثني إبراهيم بن المنذر، ثنا ابن الوليد، حدثنا ابن عمرو، وهو الأوزاعي، ثنا إسحاق، حدثني أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ليس من بلد إلا سيطأه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق وهمته المدينة، حتى ينزل دُبُرَ أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قِبلَ الشام، وهناك يهلك».

أخبرنا أبو سعيد الطاهري، أنا جدي عبدالصمد البزار، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق الدبري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن [أبي] هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال من أمتي سبعون ألفاً عليهم السِّيجان».

ويرويه أبو أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مع الدجال يومئذ سبعون ألف يهودي

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

كلهم ذو ساج وسيف محلى».

﴿٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿تتذكرون﴾ بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء لأن أول الآيات وآخرها خبر عن قوم.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾، أي القيامة لآتية لا ريب فيها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أي اعبدوني دون غيري أجبكم وأثبكم وأغفر لكم، فلما عبّر عن العبادة بالدعاء جعل الإنابة استجابة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن [محمد بن] سمعان، ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا محمد بن يوسف، ثنا سفيان عن منصور عن ذر عن يُسيع الكندي عن النعمان بن بشير قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي الزرقي، ثنا أبو الحسن علي بن يوسف الشيرازي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى القرشي ببغداد، ثنا محمد بن عبيد [الله] بن العلاء، ثنا أحمد بن بديل، ثنا وكيع، ثنا أبو المليح قال: سمعت أبا صالح يذكر عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «من لم يدعُ الله غضب الله عليه».

وقيل: الدعاء: هو الذكر والسؤال، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر: ﴿سيدخلون﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء، ومعنى داخرين صاغرين ذليلين.

﴿٦١﴾ ـ ﴿٦٣﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ كَذَٰلِكَ﴾، يعني كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل كذلك، ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿٦٤﴾ ـ ﴿٦٥﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، فراشاً، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، سقفاً كالقبة، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، قال مقاتل: خلقكم فأحسن خلقكم. قال ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده، وغير ابن آدم يتناول بفيه. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، قيل: هو من غير رزق الدواب ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الفراء: هو خبر وفيه إضمار الأمر، مجازه: فادعوه واحْمَدُوهُ. وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وذلك حين دعي إلى الكفر.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)

(٦٧) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي أطفالاً، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل أن يصير شيخاً، ﴿ولتبلغوا﴾، جميعاً، ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، وقتاً معلوماً محدوداً لا تجاوزونه، يريد أجل الحياة إلى الموت، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته.

(٦٨) - (٦٩) ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، يعني القرآن، يقولون ليس من عند الله، ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾، كيف يصرفون عن دين الحق. قيل: هم المشركون. وعن محمد بن سيرين وجماعة: إنها نزلت في القدرية.

(٧٠) - (٧١) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾، يجرون.

(٧٢) ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، قال مقاتل: توقد بهم النار. وقال مجاهد: يصيرون وقوداً للنار.

(٧٣) - (٧٤) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ يعني الأصنام، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، فقدناهم فلا نراهم، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾، قيل: أنكروا. وقيل: معناه بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ينفع ويضر. وقال الحسين بن الفضل: أي لم نكن نصنع من قبل شيئاً، أي ضاعت عبادتنا لها، كما يقول من ضاع عمله: ما كنت أعمل شيئاً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما أضل هؤلاء، ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نزل بكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تبطرون وتأشرون، ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تفرحون وتختالون.

(٧٦) - (٧٧) ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾، بنصرك، ﴿حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، من العذاب في حياتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، قبل أن يحل ذلك بهم، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، خبرهم في القرآن، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، بأمر الله وإرادته ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، قضاؤه بين الأنبياء والأمم، ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

(٧٩) - (٨٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ [أي]، بعضها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾، تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ولتبلغوا عليها حاجاتكم، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، أي على الإبل في البر وعلى السفن في البحر، نظيره قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، دلائل قدرته، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني مصانعهم وقصورهم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، لم ينفعهم، ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقيل:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

هو بمعنى الاستفهام، ومجازه: أي شيء أغنى عنهم كسبهم؟

(٨٣) ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا﴾، رضوا، ﴿بما عندهم من العلم﴾، قال مجاهد هو قولهم نحن أعلم، لن نبعث ولن نعذب، سمي ذلك علماً على ما يدعونه ويزعمونه وهو في الحقيقة جهل.

(٨٤) ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾، يعني تبرأنا مما كنا نعدل بالله.

(٨٥) ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾، عذابنا، ﴿سنت الله﴾، قيل نصبها بنزع الخافض، أي كسنة الله. وقيل: على المصدر. وقيل: على الإغراء أي احذروا سنة الله، ﴿التي قد خلت في عباده﴾، وتلك السنة أنهم إذا عاينوا عذاب الله آمنوا، ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب. ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾، بذهاب الدارين، قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنهم يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

* * *

سورة فصلت

مكية وهي أربع وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ (٢) ﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم﴾، قال الأخفش: تنزيل مبتدأ وخبره قوله عزّ وجلّ.

(٣) ﴿كتاب فصلت آياته﴾ بينت آياته ﴿قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾، اللسان العربي ولو كان بغير لسانهم ما علموه نصب قرآناً بوقوع البيان عليه أي: فصلناه قرآناً.

(٤) ﴿بشيراً ونذيراً﴾، نعتان للقرآن أي بشيراً لأولياء الله ونذيراً لأعدائه، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾، أي لا يصغون إليه تكبراً.

(٥) ﴿وقالوا﴾، يعني مشركي مكة ﴿قلوبنا في أكنة﴾، في أغطية، ﴿مما تدعونا إليه﴾، فلا نفقه ما تقول، ﴿وفي آذاننا وقر﴾، صمم فلا نسمع ما تقول، والمعنى: إنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾، خلاف في الدين وحاجز في الملة فلا نوافقك على ما تقول، ﴿فاعمل﴾، أنت على دينك، ﴿إننا عاملون﴾، على ديننا.

(٦) ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾، يعني كواحد منكم ولولا الوحي ما دعوتكم، وهو قوله: ﴿يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾، قال الحسن: علمه الله التواضع، ﴿فاستقيموا إليه﴾، توجهوا إليه بالطاعة ولا تميلوا عن سبيله، ﴿واستغفروه﴾، من ذنوبكم، ﴿وويل للمشركين﴾.

(٧) ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾، قال ابن عباس: الذين [لا] يقولون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس، والمعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد. وقال الحسن وقتادة: لا تقرون بالزكاة ولا ترون إيتاءها واجباً، وكان يقال: الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك. وقال الضحاك ومقاتل: لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون. وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

(٨) ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾، قال ابن عباس: غير مقطوع. وقال مقاتل: غير منقوص، ومنه [كأس] الممنون لأنه ينقص منة الإنسان

وقوته، وقيل: غير ممنون عليهم به. وقال مجاهد: غير محسوب.

وقال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى، إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم [الأجر] كأصح ما كانوا يعملون فيه.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن خيثمة بن عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه أو أكفته إليّ».

﴿٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، يوم الأحد والاثنين، ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض، ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، ﴿مِن فَوْقِهَا﴾، من فوق الأرض، ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾، أي في الأرض بما خلق فيها من البحار والأنهار والأشجار والثمار، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

قال الحسن ومقاتل: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم. وقال عكرمة والضحاك: قدّر في كل بلدة ما لم يجعله في [البلدة] الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. قال الكلبي قدر الخبز لأهل قطر [والتمر لأهل قطر] والذرة لأهل قطر، والسمك لأهل قطر وكذلك أقواتها. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، يريد خلق ما في الأرض وقدر الأقوات في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع الأحد والاثنين أربعة أيام، رد الآخر على الأول في الذكر، كما تقول: تزوجت أمس امرأة واليوم ثنتين وإحداهما هي التي تزوجتها بالأمس.

﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ قرأ أبو جعفر ﴿سواء﴾ رفع على الابتداء، أي هي سواء، وقرأ يعقوب بالجر على نعت قوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، وقرأ الآخرون ﴿سواء﴾ نصب على المصدر استوت [سواء و] استواءً، ومعناه: سواء للسائلين عن ذلك. قال قتادة والسدي: من سأل عنه فهكذا الأمر سواء لا زيادة ولا نقصان جواباً لمن سأل في كم خلقت الأرض والأقوات.

﴿١١﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: عمد إلى خلق السماء، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وكان ذلك الدخان بخار الماء، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أي ائتيا ما آمركما أي افعلاه، كما يقال: ائت ما هو الأحسن، أي: افعله.

وقال طاوس عن ابن عباس: «ائتيا [طائعين] أعطيا [قالت أتينا: أعطينا]» يعني أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد.

قال ابن عباس: قال الله عزّ وجلّ: أما أنتِ يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك، وقال لهما افعلا ما آمركما طوعاً وإلا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع، و﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، ولم يقل طائعتين لأنه ذهب به إلى السموات والأرض ومن فيهن، مجازه: أتينا بما فينا طائعين، فلما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل.

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

٤٧٧

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، أي أتمهن وفرغ من خلقهن، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، قال عطاء عن ابن عباس: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله. وقال قتادة والسدي: يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها. وقال مقاتل: وأوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي، وذلك يوم الخميس والجمعة. ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، كواكب، ﴿وَحِفْظًا﴾، لها ونصب حفظاً على المصدر، أي حفظناها بالكواكب حفظاً من الشياطين الذين يسترقون السمع، ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكر من صنعه، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾، في ملكه، ﴿العليم﴾، بخلقه.

(١٣) قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾، يعني هؤلاء المشركين عن الإيمان بعد هذا البيان، ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾، خوّفتكم، ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، أي هلاكاً مثل هلاكهم، والصاعقة المهلكة من كل شيء.

(١٤) ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ﴾، يعني عاداً وثموداً، ﴿الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أراد بقوله: ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم من قبلهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني من بعد الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم الذين أرسلوا إليهم هود وصالح، فالكناية في قوله من بين أيديهم راجعة إلى عاد وثمود وفي قوله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ راجعة إلى الرسل، ﴿أَلَّا﴾، بأن لا، ﴿تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ﴾، بدل هؤلاء الرسل، ﴿مَلَائِكَةً﴾، أي لو شاء ربنا دعوة الخلق لأنزل ملائكة، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، ثنا عبدالله بن حامد الأصفهاني، ثنا أحمد بن محمد بن يحيى العبدي، أنا أحمد بن مجدة بن العريان، ثنا الحماني، ثنا ابن فضيل، عن الأجلح، عن الذيال بن حرملة، عن جابر بن عبدالله قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلّمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي أن كان كذلك أو لا، فأتاه فلما خرج إليه قال: يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبدالمطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ فيم تشتم آلهتنا؟ وتضلل آباءنا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رأساً ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش؟ وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني أنت وعقبك من بعدك؟ ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، الآية فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش فاحتبس عنهم فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى دين محمد، وقد أعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حبسك عنّا إلا أنك صبوت على دين محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت

عليه القصة فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ الآية فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

وقال محمد بن كعب القرظي: حُدّثتُ أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها، فنعطيه ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت جماعتهم وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم وكفّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون [من] أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب، ولعل هذا شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري بني عبدالمطلب تقدرون على ذلك ما لا يقدر عليه غيركم، حتى إذا فرغ ما عنده من سائر الأمور التي يزعم أنها ترده عمّا يقول فقال له رسول الله ﷺ: أوقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: أفعل، فقال ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، ثم مضى فيها يقرأ فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: وما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت بمثله قط، ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني خلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ [عظيم] فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم، فأنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال والله ما سحرني: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وذلك أن هوداً هددهم بالعذاب، فقالوا: من أشد منّا قوة، ونحن نقدر على دفع العذاب عنّا بفضل قوتنا، وكانوا ذوي أجسام طوال، قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، عاصفاً شديدة الصوت، من الصرة وهي الصيحة. وقيل: هي الباردة من الصر وهو البرد، ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿نحسات﴾ بسكون الحاء، وقرأ الآخرون بكسرها أي: نكدات مشؤومات ذات نحوس. وقال الضحاك: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودامت الرياح عليهم [عصرات] من غير مطر، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾، أي عذاب الهون والذل، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أشد إهانة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾، دعوناهم، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: بينا لهم سبيل الهدى. وقيل: دللناهم على الخير والشر، كقوله ﴿هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، فاختاروا الكفر على الإيمان، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾، أي مهلكة العذاب، ﴿الْهُونِ﴾، أي ذي الهون أي الهوان وهو الذي يهينهم ويخزيهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿١٨﴾ ـ ﴿١٩﴾ ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾، قرأ نافع ويعقوب

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿نحشر﴾ بالنون، ﴿أعداء﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء ورفعها وفتح الشين ﴿أعداء﴾ رفع أي يجمع إلى النار، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، يساقون ويدفعون إلى النار، وقال قتادة والسدي: يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا.

﴿٢٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾، جاؤوا النار ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾، أي بشراتهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال السدي وجماعة: المراد بالجلود الفروج. وقال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم.

﴿٢١﴾ ﴿وقالوا﴾، يعني الكفار الذين يحشرون إلى النار، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، تم الكلام ههنا. وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وليس هذا من جواب الجلود، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾، أي تستخفون عند أكثر أهل العلم. وقال مجاهد: تتقون. وقال قتادة تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحميدي، أنا سفيان، أنا منصور، عن مجاهد، عن أبي معمر، عن عبدالله بن مسعود، قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قيل: الثقفي وعبد ياليل وختناه القرشيان: ربيعة، وصفوان بن أمية.

﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾، أهلككم، أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، أرداكم، قال ابن عباس: طرحكم في النار، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ثم أخبر عن حالهم فقال:

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، مسكن لهم، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾، يسترضوا ويطلبوا العتبى، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، المرضين، والمعتب الذي قُبل عتابه وأجيب إلى ما سأل، يقال: أعتبني فلان أي أرضاني بعد إسخاطه إياي، واستعتبته طلبت منه أن يعتب أي يرضى.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾، أي بعثنا ووكلنا، وقال مقاتل: هيأنا. وقال الزجاج: سببنا لهم. ﴿قُرَنَآءَ﴾، نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث، ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾، مع أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من مشركي قريش، ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾، قال ابن عباس: يعني: الغطوا فيه، وكان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو. قال مجاهد: والغوا فيه بالمكاء والصفير. وقال الضحاك: أكثروا الكلام فيختلط عليه ما يقول: وقال السدي: صيحوا في وجهه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، محمداً على قراءته.

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى﴾، يعني

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨)

بأسوأ الذي، أي بأقبح الذي، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، في الدنيا وهو الشرك بالله.

(٢٨) ﴿ذَلِكَ﴾، الذي ذكرت من العذاب الشديد، ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، ثم بين ذلك الجزاء فقال: ﴿النَّارُ﴾، أي هو النار، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي في النار، ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾، دار الإقامة لا انتقال منها، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي في النار يقولون، ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، يعنون إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه لأنهما سنّا المعصية، ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾، في النار، ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾، ليكونا في الدرك الأسفل من النار. قال ابن عباس: ليكونا أشد عذاباً منا.

(٣٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، سئل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أخلصوا العمل لله.

وقال علي رضي الله عنه: أدوا الفرائض.

وقال ابن عباس: استقاموا على أداء الفرائض.

وقال الحسن: استقاموا على أمر الله تعالى، فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته.

وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله.

وقال مقاتل: استقاموا على المعرفة ولم يرتدوا.

وقال قتادة: كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، قال ابن عباس: عند الموت. وقال قتادة ومقاتل: إذا قاموا من قبورهم. قال وكيع بن الجراح: البشرى تكون في ثلاث مواطن: عند الموت وفي القبر وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾، من الموت. وقال مجاهد: لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾، على ما خلفتم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾، تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة نحن أولياؤكم أنصاركم وأحباؤكم، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. وقال السدي: تقول الملائكة نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة يقولون لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾، من الكرامات واللذات، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾، في الجنة ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾، تتمنون.

(٣٢) ـ (٣٣) ﴿نُزُلًا﴾، رزقاً، ﴿مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، إلى طاعة الله، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال ابن سيرين والسدي وابن عباس: هو رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله. قال الحسن: هو المؤمن الذي أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين. وقالت عائشة: أرى هذه الآية نزلت في المؤذنين. وقال عكرمة: هو المؤذن. [وقال] أبو أمامة الباهلي: وعمل صالحاً صلى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال قيس بن أبي حازم: هو الصلاة بين الأذان والإقامة.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

٤٨١

محمد بن العباس الحميدي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، ثنا أبو عبدالله الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي، ثنا أبو يحيى بن أبي ميسرة، ثنا عبد الله ابن يزيد المقري، ثنا كهمس بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة عن عبدالله بن المغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة»، ثلاث مرات ثم قال الثالثة: «لمن شاء».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا محمد بن يوسف، ثنا سفيان عن زيد العمي عن أبي إياس معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال سفيان: لا أعلمه إلا وقد رفعه إلى النبي ﷺ قال: «لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة».

﴿٣٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾، قال الفراء: ﴿لا﴾ ههنا صلة، معناه: ولا تستوي الحسنة والسيئة، يعني الصبر والغضب، والحلم والجهل، والعفو والإساءة. ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، قال ابن عباس أمر بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ يعني إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك، وصار الذي بينك وبينه عداوة، ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، كالصديق والقريب.

قال مقاتل بن حيان: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وذلك أنه لان للمسلمين بعد شدة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ ثم أسلم فصار ولياً بالإسلام، حميماً بالقرابة.

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَا﴾، ما يلقى هذه الخصلة وهي دفع السيئة بالحسنة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، على كظم الغيظ واحتمال المكروه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، في الخير والثواب، وقال قتادة: «الحظ العظيم»: الجنة، أي ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، لاستعاذتك وأقوالك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، بأفعالك وأحوالك.

﴿٣٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾، إنما قال ﴿خلقهن﴾ بالتأنيث لأنه أجراها على طريق جمع التكسير، ولم يجرها على طريق التغليب للمذكر على المؤنث، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، عن السجود، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، يعني الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، لا يملون ولا يفترون.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، دلائل قدرته، ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، يابسة غبراء لا نبات فيها، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، يميلون عن الحق في أدلتنا، قال مجاهد: يلحدون في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو والغلط. قال قتادة: يكذبون في آياتنا. قال السدي: يعاندون ويشاقون. قال مقاتل: نزلت في أبي جهل ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾، وهو أبو جهل، ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ﴾، قيل: هو حمزة. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾، أمر تهديد ووعيد، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، عالم فيجازيكم به.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾، بالقرآن، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، ثم أخذ في وصف الذكر وترك جواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، على تقدير الذين

كفروا بالذكر يجازون بكفرهم. وقيل: خبره قوله من بعد: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، قال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: كريم على الله: قال قتادة: أعزه الله عزّ وجلّ فلا يجد الباطل إليه سبيلاً.

﴿٤٢﴾ وهو قوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، قال قتادة والسدي: الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه. قال الزجاج: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه، فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، وعلى هذا معنى «الباطل»: الزيادة والنقصان. وقال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ثم عزّى نبيه ﷺ على تكذيبهم.

﴿٤٣﴾ فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾، من الأذى، ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، يقول إنه قد قيل للأنبياء والرسل قبلك ساحر، كما يقال لك وكذبوا كما كذبت، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، لمن تاب وآمن بك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، لمن أصر على التكذيب.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾، أي جعلنا هذا الكتاب الذي تقرؤه على الناس، ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾، بغير لغة العرب، ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، هلاّ بينت آياته بالعربية حتى نفهمها، ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾، يعني: أكتاب أعجمي ورسول عربي؟ وهذا استفهام على وجه الإنكار، أي أنهم كانوا يقولون: المنزّل عليه عربي والمنزل أعجمي.

قال مقاتل: وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على يسار، غلام عامر بن الحضرمي، وكان يهودياً أعجمياً، يُكنى أبا فكيهة، فقال المشركون: إنما يعلمه يسار فضربه سيده، وقال: إنك تعلم محمداً، فقال يسار: هو يعلمني، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿هُوَ﴾، يعني القرآن، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ هدىً من الضلالة وشفاء، لما في القلوب، وقيل: شفاء من الأوجاع، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، قال قتادة: عموا عن القرآن وصموا عنه فلا ينتفعون به، ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، أي أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي [من] مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم، وهذا مثل لقلة انتفاعهم بمايوعظون به كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾، فمصدق ومكذب كما اختلف قومك في كتابك، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾، من صدقك،

الجزء الخامس والعشرون — سورة فصلت

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

٤٨٢

﴿مُرِيبٍ﴾، موقع لهم الريبة.

﴿٤٦﴾ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، أي علمها إذا سئل عنها مردود إليه لا يعلمه غيره، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص: ﴿ثمرات﴾، على الجمع، وقرأ الآخرون ﴿ثمرة﴾ على التوحيد، ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها، واحدها: كم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الكفرى قبل أن تنشق. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، إلا بإذنه، يقول: يرد إليه علم الساعة كما يرد إليه علم الثمار والنتاج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، ينادي الله المشركين، ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾، الذين كنتم تزعمون أنها آلهة، ﴿قَالُوا﴾، يعني المشركين،

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴿٣﴾ له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم ﴿٤﴾ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴿٥﴾ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴿٦﴾ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿٧﴾ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴿٨﴾ أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿٩﴾ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴿١٠﴾

٤٨٣

﴿آذناك﴾، أعلمناك، ﴿ما منا من شهيد﴾، أي من شاهد بأن لك شريكاً لما عاينوا العذاب تبرأوا من الأصنام.

﴿٤٨﴾ ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون﴾، يعبدون، ﴿من قبل﴾، في الدنيا ﴿وظنوا﴾، أيقنوا، ﴿ما لهم من محيص﴾، مهرب.

﴿٤٩﴾ ﴿لا يسأم الإنسان﴾، لا يمل الكافر، ﴿من دعاء الخير﴾، أي لا يزال يسأل ربه الخير، يعني المال والغنى والصحة، ﴿وإن مسه الشر﴾، الشدة والفقر، ﴿فيئوس﴾، من روح الله، ﴿قنوط﴾، من رحمته.

﴿٥٠﴾ ﴿ولئن أذقناه رحمة منا﴾، آتيناه خيراً وعافية وغنى، ﴿من بعد ضراء مسته﴾، من بعد شدة وبلاء أصابته، ﴿ليقولن هذا لي﴾، أي بعملي وأنا محقوق بهذا، ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾، يقول هذا الكافر: لست على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك، ورددت إلى ربي أن لي عنده للحسنى، أي الجنة، أي كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لنقفنهم على مساوئ أعمالهم، ﴿ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾، كثير والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال: أطال فلان الكلام والدعاء وأعرض، أي أكثر.

﴿٥٢﴾ ﴿قل أرأيتم إن كان﴾، هذا القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾، خلاف للحق بعيد عنه أي فلا أحد أضل منكم.

﴿٥٣﴾ ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني منازل الأمم الخالية. ﴿وفي أنفسهم﴾، بالبلاء والأمراض. وقال قتادة: في الآفاق يعني وقائع الله في الأمم، وفي أنفسهم يوم بدر. وقال مجاهد والحسن والسدي والكلبي: في الآفاق ما يفتح من القرى على محمد ﷺ والمسلمين، وفي أنفسهم فتح مكة. ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، يعني دين الإسلام.

وقيل: القرآن يتبين لهم أنه من عند الله. وقيل: محمد ﷺ يتبين لهم أنه مؤيد من قبل الله تعالى. وقال عطاء وابن زيد: في الآفاق يعني أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، حتى يتبين لهم أنه الحق: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾، قال مقاتل: أو لم يكفِ بربك لأنه على كل شيء شهيدٌ شاهد لا يغيب عنه شيء.

﴿٥٤﴾ ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾، في شك من البعث، ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾، أحاط بكل شيء علماً.

* * *

سورة الشورى

مكية وهي ثلاث وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ـ ﴿٢﴾ ﴿حم﴾، سُئل الحسين بن الفضل: لِمَ تقطع حم عسق ولَمْ يُقطع كهيعص؟ فقال: لأنها سور أوائلها حم، فجرت مجرى نظائرها فكان حم مبتدأ وعسق خبره، ولأنهما عُدًا آيتين، وأخواتها مثل «كهيعص» و«المص» و«آلمر» عُدَّتْ آية واحدة.

وقيل: لأن أهل التأويل لم يختلفوا في «كهيعص» وأخواتها

أنها حروف التهجي لا غير.

واختلفوا في «حم» فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً، وقال: معناها حُمَّ أي قضى ما هو كائن، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ح حلمه، م مجده، ع علمه، س سناؤه، ق قدرته، أقسم الله بها.

وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح: حَ حرب يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز من قريش، مَ مالك يتحول من قوم إلى قوم، عَ عدو لقريش يقصدهم، سَ سيء، يكون فيهم، قَ قدرة الله النافذة في خلقه.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحيت إليه «حم عسق».

(٣) فلذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾، وقرأ ابن كثير ﴿يُوحَى﴾ بفتح الحاء وحجته قوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وعلى هذه القراءة قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تبيين للفاعل، كأنه قيل من يوحي؟ فقيل الله العزيز الحكيم، وقرأ الآخرون ﴿يوحي﴾ بكسر الحاء، إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أخبار الغيب.

(٤) - (٥) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾، أي كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ نظيره في سورة مريم [٨٨]: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، من المؤمنين، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، يحفظ أعمالهم ويحصيها عليهم ليجازيهم بها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، لم يوكلك الله عليهم حتى تؤخذ بهم.

(٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، مثل ما ذكرنا، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، مكة، يعني أهلها، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، يعني قرى الأرض كلها، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، أي تنذرهم بيوم الجمع وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين وأهل السموات والأرضين، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لا شك في الجمع أنه كائن ثم بعد الجمع يتفرقون. ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، ثنا أبو منصور الخمشاذي ثنا أبو العباس الأصم، ثنا أبو عثمان سعيد بن عثمان التنوخي، ثنا بشر بن بكر، حدثني سعيد بن عثمان عن أبي الزاهر، حدثنا جُرير بن كريب عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

قال الثعلبي: وأخبرنا أبو عبدالله بن فنجويه الدينوري، ثنا أبو بكر بن مالك القطيعي، ثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، [ثنا] هشام بن القاسم، ثنا ليث، حدثني أبو قبيل المعافري عن شفي الأصبحي، عن عبدالله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابضاً على كفيه ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا يا رسول الله [إلا أن تخبرنا]، فقال «للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة، ثم قال للذي في يساره: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا بناقص منهم، إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة»، قال عبدالله بن عمرو: ففيم العمل إذا يا رسول الله؟ فقال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل، ثم قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فضل من الله، ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ عدل من الله عزّ وجلّ».

(٨) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٨٤

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: على دين واحد. وقال مقاتل: على ملة الإسلام كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، في دين الإسلام، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾، الكافرون، ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾، يدفع عنهم العذاب، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، يمنعهم من النار.

(٩) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾، بل اتخذوا أي الكافرون، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي من دون الله، ﴿أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وليك يا محمد وولي مَنِ اتبعك، ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١٠) ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾، من أمر الدين، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يقضي فيه ويحكم يوم القيامة بالفصل الذي يزيل الريب، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾، الذي يحكم بين المختلفين هو، ﴿رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

(١١) ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، من مثل خلقكم حلائل، قيل: إنما قال من أنفسكم لأنه خلق حواء من ضلع آدم. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾، أصنافاً ذكوراً وإناثاً، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، يخلقكم، ﴿فِيهِ﴾، أي في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: «في» بمعنى الباء أي يذرؤكم به. وقيل: معناه يكثركم بالتزويج. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، المثل صلة أي ليس هو كشيء فأدخل المثل للتوكيد، كقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقيل: الكاف صلة، مجازه ليس مثله شيء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس له نظير ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(١٢) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مفاتيح الرزق في السموات والأرض. قال الكلبي: المطر والنبات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لأن مفاتيح الرزق بيده، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، بيّن لكم وسنّ لكم ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وهو أول أنبياء الشريعة، قال مجاهد: أوصيناك وإياه يا محمد ديناً واحداً. ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، من القرآن وشرائع الإسلام، ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، واختلفوا في وجه الآية، فقال قتادة: تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والبنات والأخوات. وقال مجاهد: لم يبعث الله نبياً إلاّ أوصاه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة له، فذلك دينه الذي شرع لهم. وقيل: هو التوحيد والبراءة من الشرك. وقيل: هو ما ذكر من بعد وهو قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة، ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، من التوحيد ورفض الأوثان ثم قال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾، يصطفي لدينه من عباده من يشاء، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، يقبل إلى طاعته.

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾، يعني أهل الأديان المختلفة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أهل الكتاب كما ذكر في سورة المنفكين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البينة: ٤]، الآية. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، بأن الفرقة ضلالة ولكنهم فعلوا ذلك، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، أي للبغي، قال عطاء: يعني بغياً بينهم على محمد ﷺ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، في تأخير العذاب عنهم، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾،

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

وهو يوم القيامة، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، بين من آمن وكفر، يعني أنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾، يعني اليهود والنصارى، ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي من بعد أنبيائهم، وقيل: من بعد الأمم الخالية. وقال قتادة: معناه من قبلهم أي من قبل مشركي مكة. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي من محمد ﷺ.

﴿١٥﴾ ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾، أي فإلى ذلك كما يقال دعوت إلى فلان ولفلان، وذلك إشارة إلى ما وصّى به الأنبياء من التوحيد، ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، أي اثبت على الدين الذي أمرت به، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾، أي آمنت بكتب الله كلها، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أن أعدل بينكم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمرتُ أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام وقيل: لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء، ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، يعني إلهنا واحد وإن اختلفت أعمالنا فكل يُجازَى بعمله، ﴿لَا حُجَّةَ﴾، لا خصومة، ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، نسختها آية القتال، فإذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة لم يكن بينه وبين من لا يجيب خصومة، ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، في المعاد لفصل القضاء، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾، يخاصمون في دين الله تعالى نبيَّه ﷺ، وقال قتادة: هم اليهود قالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم، فنحن خير منكم، فهذه خصومتهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾، أي استجاب له الناس فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾، خصومتهم باطلة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، في الآخرة.

﴿١٧﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، قال قتادة ومجاهد ومقاتل: العدل، وسمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البخس. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، ولم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي، ومجازه: الوقت قريب. وقال الكسائي: إتيانها قريب.

﴿١٨﴾ قال مقاتل: ذكر النبي ﷺ الساعة ذات يوم وعنده قوم من المشركين، فقالوا تكذيباً: متى تكون الساعة فأنزل الله هذه الآية ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، ظناً منهم أنها غير آتية، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾، أي خائفون، ﴿مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾، أنها آتية لا ريب فيها، ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾، يخاصمون وقيل تدخلهم المرية والشك، ﴿فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: حفيٌّ بهم. قال عكرمة: بارٌّ بهم. قال السدي: رفيق. قال مقاتل: لطيف بالبرّ والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم، يدل عليه قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، فكل من رزقه الله من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه. قال جعفر بن محمد الصادق: اللطف في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقك من الطيبات، والثاني أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾، الحرث في اللغة: الكسب، يعني من كان يريد بعمله الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾، بالتضعيف بالواحد عشرة إلى ما شاء من الزيادة، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

﴿ٱلدُّنْيَا﴾، يريد بعمله الدنيا، ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، قال قتادة: أي نؤته بقدر ما قسم الله له، كما قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، لأنه لم يعمل للآخرة.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن بلال، ثنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر بن منيع العبدي، ثنا محمد بن يوسف الفريابي، ثنا سفيان عن المغيرة، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشرت هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب».

﴿٢١﴾ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، يعني كفار مكة، يقول أم لهم آلهة سنُّوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، لولا أن الله حكم في كلمة الفصل بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾، لفرغ من عذاب الذين يكذبونك في الدنيا، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، المشركين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، في الآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، المشركين يوم القيامة، ﴿مشفقين﴾، وجلين، ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، جزاء كسبهم واقع بهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾، ذكرت من نعيم الجنة، ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، بأنهم أهله، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن بشار، ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن عبدالملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سئل عن قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، قال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: عجلْتَ أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

وكذلك روى الشعبي وطاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني أن تحفظوا قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي. وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك رضي الله عنهم، وقال عكرمة: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا أن تحفظوني في قرابتي بيني وبينكم، وليس كما يقول الكذابون.

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية: إلا أن تودوا الله وتتقربوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن، قال: هو القربى إلى الله، يقول إلا التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح.

وقال بعضهم: معناه إلا أن تودوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم، وهو قول سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب.

واختلفوا في قرابته [وقيل هم] فاطمة الزهراء وعلي وابناهما وفيهم نزل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وروينا عن يزيد بن حيان عن

زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، قيل لزيد بن أرقم: مَنْ أهل بيته؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن عبدالوهاب، ثنا خالد، ثنا شعبة عن واقد قال: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر عن أبي بكر قال: ارقبُوا محمداً في أهل بيته.

وقيل: هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخمس، وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يتفرقوا في جاهلية ولا في إسلام.

وقال قوم: هذه الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية فأمرهم فيها بمودة رسول الله ﷺ وصلة رحمه، فلما هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحبَّ اللَّهُ عزّ وجلّ أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام حيث قال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩ و١٢٧ و١٤٥ و١٨٠]، فأنزل الله تعالى ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: ٤٧]، فهي منسوخة بهذه الآية، وبقوله: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [الزمر: ٨٦]، وغيرها من الآيات، وإلى هذا ذهب الضحاك بن مزاحم، والحسين بن الفضل، وهذا قول غير مرضي، لأن مودة النبي ﷺ وكف الأذى عنه ومودة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة، والعمل الصالح من فرائض الدين، وهذه أقاويل السلف في معنى الآية فلا يجوز المصير إلى نسخ شيء من هذه الأشياء. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، ليس باستثناء متصل بالأول حتى يكون ذلك أجراً في مقابلة أداء الرسالة، بل هو منقطع، ومعناه: لكنني أذكركم المودة في القربى وأذكركم قرابتي منكم.

كما روينا في حديث زيد بن أرقم: «أذكركم الله في أهل بيتي». قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾، أي: من يكتسب طاعة نزد له فيها حسناً بالتضعيف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾، الذنوب، ﴿شَكُورٌ﴾، للقليل من الحسنات حتى يضاعفها.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾، بل يقولون يعني كفار مكة، ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾، قال مجاهد: نربط عل قلبك بالصبر حتى يشق عليك أذاهم، وقولهم إنه مفتر، قال قتادة: يعني يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما آتاك، فأخبرهم أنه لو افترى على الله كذباً لفعل به ما أخبر عنه في هذه الآية ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير مجازه: والله يمحو الباطل. فهو في محل رفع، ولكنه حذف منه الواو في المصحف على اللفظ كما حذفت من قوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧] أخبر أن ما يقولون باطل يمحوه الله، ﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾، أي الإسلام بما أنزل من كتابه، وقد فعل الله ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الإسلام، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده، فنزل جبريل فأخبره أنهم اتهموه وأنزل هذه الآية، فقال القوم الذين اتهموه: يا رسول الله [فإنا] نشهد أنك صادق.

﴿٢٥﴾ فنزل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، قال ابن عباس: يريد أولياءه وأهل طاعته، قيل: التوبة ترك المعاصي نيةً وفعلاً، والإقبال على الطاعة نيةً وفعلاً، قال سهل بن عبدالله: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، إذا تابوا فلا يؤاخذهم بها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن سمعان، ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، ثنا يحيى بن حماد، ثنا أبو عوانة عن سليمان عن الأعمش عن عمارة بن عمير، عن الحارث بن سويد قال: دخلت على عبدالله أعوده، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله أفرح بتوبة عبده من رجل، أظنه قال: في بِدَوِّيةٍ مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنزل فنام فاستيقظ وقد

ضلّت راحلته، فطاف عليها حتى أدركه العطش، فقال أرجع إلى حيث كانت راحلتي فأموت عليه، فرجع فأغفى فاستيقظ فإذا هو بها عنده عليها طعامه وشرابه».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالا: ثنا عمر بن يونس، ثنا عكرمة بن عمار، ثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك وهو عمه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هوكذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهمّ أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيمحوها إذا تابوا. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿تفعلون﴾ بالتاء، وقالوا: هو خطاب للمشركين، وقرأ الآخرون بالياء لأنه بين خبرين عن قوم، فقال: قبله ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وبعده ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي ويجيب الذين آمنوا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، إذا دعوه.

وقال عطاء عن ابن عباس: ويثيب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، سوى ثواب أعمالهم تفضلاً منه. وقال أبو صالح عنه: يشفعهم في إخوانهم، ويزيدهم من فضله. قال في إخوان إخوانهم. ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

(٢٧) ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾، قال خباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فتمنيناها فأنزل الله عزّ وجلّ الآية ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ وسع الله الرزق ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾، ﴿لَبَغَوْا۟﴾، لطغوا وعتوا، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال ابن عباس: بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس. ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ﴾، أرزاقهم، ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، كما يشاء نظراً منه لعباده ولحكمة اقتضتها قدرته، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني، ثنا أبو بكر محمد بن عبدالله حفيد العباس بن حمزة، ثنا الحسين بن الفضل البجلي، ثنا أبو حفص عمر بن سعيد الدمشقي، ثنا صدقة بن عبدالله، ثنا هشام الكناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله عزّ وجلّ قال: «يقول الله عزّ وجلّ من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد، وما تقرب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته ولا بدّ له منه، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أن لا يدخله عجبٌ فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير».

(٢٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، المطر، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾، يعني من بعد ما يئس الناس منه، وذلك أدعى لهم إلى الشكر، قال مقاتل: حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر فذكرهم الله نعمته، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، يبسط مطره، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾، لأهل طاعته، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، عند خلقه.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، يعني يوم القيامة.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، بغير فاء، وكذلك هو في مصاحفهم، فمن حذف الفاء جعل «ما» في أول الآية بمعنى الذي أصابكم بما كسبت أيديكم. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني أبو عبدالله بن فنجويه، ثنا أبو بكر بن مالك القطيعي، ثنا بشر بن موسى الأسدي، ثنا خلف بن الوليد، ثنا مروان بن معاوية، أخبرني الأزهر بن راشد الباهلي عن الخضر بن القواس البجلي عن أبي سُخيلة قال: قال علي بن أبي طالب: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عزّ وجلّ حدثنا بها رسول الله ﷺ؟ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، قال: وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله عزّ وجلّ أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه».

قال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها، أو درجة لم يكن الله ليبلغها إلا بها.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، بفائتين، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، هرباً يعني لا تعجزونني حيث ما كنتم ولا تسبقونني، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

(٣٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾، يعني السفن، واحدتها جارية وهي السائرة، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، أي الجبال، قال مجاهد: القصور واحدها علم، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم.

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾، التي تجريها، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾، يعني الجواري، ﴿رَوَاكِدَ﴾، ثوابت، ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، على ظهر البحر لا تجري، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي لكل مؤمن لأن صفة المؤمن الصبر في الشدة والشكر في الرخاء.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾، يهلكهن ويغرقهن، ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾، أي بما كسبت ركبانها من الذنوب، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، من ذنوبهم فلا يعاقب عليها.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: «ويعلمُ» برفع الميم على الاستئناف كقوله عزّ وجلّ في سورة براءة [١٥]: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، وقرأ الآخرون بالنصب على الصرف والجزم إذا صرف عنه معطوفه نصب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً وكراهية لتوالي الجزم: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أي يعلم الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من عذاب الله.

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾، من رياش الدنيا، ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ليس من زاد المعاد، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، من الثواب، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيه بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهم يتمتعان بها فإذا صارا إلى الآخرة كان ما عند الله خيراً للمؤمن.

(٣٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿كبير الإثم﴾ على الواحد ههنا، وفي سورة النجم [٣٢] وقرأ الآخرون: ﴿كبائر﴾

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

بالجمع، وقد ذكرنا معنى الكبائر في سورة النساء. ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، قال السدي: يعني الزنا. وقال مجاهد ومقاتل: ما يوجب الحدّ. ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، يحلمون ويكظمون الغيظ ويتجاوزون.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾، أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾، الظلم والعدوان، ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، ينتقمون من ظالميهم من غير أن يعتدوا. قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين: صنف يعفون عن ظالميهم فبدأ بذكرهم، وهو قوله ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وصنف ينتصرون من ظالميهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية. قال إبراهيم: في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا. قال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم ثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم، ثم ذكر الله الانتصار فقال:

﴿٤٠﴾ ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾، سمى الجزاء سيئة وإن لم تكن سيئة لتشابههما في الصورة. قال مقاتل: يعني القصاص في الجراحات والدماء. قال مجاهد والسدي: هو جواب القبيح إذا قال له أحد: أخزاك الله تقول أخزاك الله، وإذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي. قال سفيان بن عيينة: قلت لسفيان الثوري ما قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾؟ قال: أن يشتمك رجل فتشتمه، أو أن يفعل بك فتفعل به، فلم أجد عنده شيئاً فسألت هشام ابن حجيرة عن هذه الآية، فقال: الجارح إذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك فتشتمه. ثم ذكر العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾، عن ظلمه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾، بالعفو بينه وبين ظالمه، ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا من عفا، ثم قرأ هذه الآية. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال ابن عباس: الذين يبدؤون بالظلم.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي بعد ظلم الظالم إياه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾، يعني المنتصرين، ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، بعقوبة ومؤاخذة.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾، يبدأون بالظلم، ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾، يعملون فيها بالمعاصي، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، فلم ينتصر، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، الصبر والتجاوز، ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، حقها وحزمها. قال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها. قال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتم عزماً.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾، فما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه أو يمنعه من عذاب الله، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، يوم القيامة، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، يسألون الرجعة في الدنيا.

﴿٤٥﴾ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، أي على النار، ﴿خَٰشِعِينَ﴾، خاضعين متواضعين، ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ﴾، خفي النظر لما عليهم من الذل يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلةً في أنفسهم. وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى الباء أي بطرف خفي ضعيف من الذل. وقيل: إنما قال: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ﴾ لأنه لا يفتح عينه إنما ينظر ببعضها. وقيل: معناه ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً والنظر بالقلب خفي. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قيل: خسروا أنفسهم بأن صاروا إلى النار وأهليهم بأن صاروا لغيرهم في الجنة، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾، طريق إلى الصواب وإلى الوصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى قد انسدّ عليهم طريق الخير.

(٤٧) ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾، أجيبوا داعي الله يعني محمداً ﷺ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، لا يقدر أحد على دفعه وهو يوم القيامة ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ تلجأون إليه ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ من منكر يغير ما بكم.

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾، عن الإجابة، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ﴾، ما عليك، ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، قال ابن عباس: يعني الغنى والصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾، قحط، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، أي لما تقدم من نعمة الله عليه ينسى ويجحد بأول شدة جميع ما سلف من النعم.

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، له التصرف فيهما بما يريد، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، فلا يكون له ولد ذكر، قيل: من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله تعالى بدأ بالإناث، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، فلا يكون له أنثى.

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾، يجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، فلا يلد ولا يولد له. قيل: هذا في الأنبياء عليهم السلام ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يعني لوطا لم يولد له ذكر إنما ولد له ابنتان، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ يعني محمد ﷺ ولد له بنون وبنات، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ يحيى وعيسى عليهما السلام لم يولد لهما، وهذا على وجه التمثيل، والآية عامة في حق كافة الناس. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

(٥١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال: لم ينظر موسى إلى الله عزّ وجلّ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يوحي إليه في المنام أو بالإلهام، ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، يسمعه كلامه ولا يراه كما كلمه موسى عليه الصلاة والسلام، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾، إما جبريل أو غيره من الملائكة، ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾، أي يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء،

قرأ نافع: ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ برفع اللام على الابتداء، ﴿فيوحي﴾ ساكنة الياء، وقرأ الآخرون بنصب اللام والياء عطفاً على محل الوحي لأن معناه: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي إليه أو يرسل رسولاً. ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي كما أوحينا إلى سائر رسلنا، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، قال ابن عباس: نبوة. وقال الحسن: رحمة. وقال السدي ومقاتل: وحياً. وقال الكلبي: كتاباً، وقال الربيع: جبريل. وقال مالك بن دينار: يعني القرآن. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾، قبل الوحي، ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، يعني شرائع الإيمان ومعالمه.

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: الإيمان في هذا الموضع الصلاة، ودليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)

سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)

كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم يتبين له شرائع دينه، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾، قال ابن عباس: يعني الإيمان. وقال السدي: يعني القرآن. ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾، نرشد به، ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾، أي لتدعو، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، يعني الإسلام.

(٥٣) ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي أمور الخلائق كلها في الآخرة.

❁ ❁ ❁

سورة الزخرف

مكية وهي تسع وثمانون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ (٢) ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، أقسم بالكتاب الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة من الشريعة.

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قوله جعلناه أي صيرنا [قراءة] هذا الكتاب عربياً. وقيل: بيناه. وقيل: سميناه. وقيل: وصفناه، يقال: جعل فلان زيداً أعلم الناس، أي وصفه بهذا كقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩]، كلها بمعنى الوصف والتسمية.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، يعني القرآن، ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، في اللوح المحفوظ قال قتادة: أم الكتاب أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله.

قال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب بما يريد أن يخلق، فالكتاب عنده، ثم قرأ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾، فالقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]. ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾، قال قتادة: يخبر عن منزلته وشرفه، أي إن كذبتم بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا لعلي رفيع شريف محكم من الباطل.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾، يقال: ضربت عنه وأضربت عنه إذا تركته وأمسكت عنه والصفح مصدر قولهم صفحت عنه إذا أعرضت عنه، وذلك بأن توليه صفحة وجهك وعنقك والمراد بالذكر القرآن، ومعناه: أفنترك عنكم الوحي ونمسك عن إنزال القرآن فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان؟ استفهام بمعنى الإنكار، أي لا نفعل ذلك، وهذا قول قتادة وجماعة، قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد عليهم بعائدته ورحمته، فكرره عليهم عشرين سنة أو ما شاء الله. وقيل: معناه أفنضرب عنكم بذكرنا إياكم صافحين معرضين.

قال الكسائي والسدي: أفنطوي عنكم الذكر طياً فلا تدعون ولا توعظون. وقال الكلبي: أفنترككم سُدى لا نأمركم ولا ننهاكم. قال مجاهد والسدي: أفنعرض عنكم ونترككم فلا نعاقبكم على كفركم. ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على معنى إذ كنتم كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقرأ الآخرون بالفتح على معنى لأن كنتم [قوماً] مسرفين مشركين.

(٦) ـ (٧) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي وما كان يأتيهم، ﴿مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كاستهزاء قومك بك، يعزي نبيه ﷺ.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي أقوى من قومك، يعني الأولين الذين أهلكوا بتكذيب الرسل، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي صفتهم وسنتهم وعقوبتهم، فعاقبة هؤلاء كذلك في الأهلاك.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، أي سألت قومك، ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وأقروا بأن الله خالقها، وأقروا بعزه وعلمه ثم عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم. إلى ههنا تم الأخبار عنهم ثم ابتدأ دالاً على نفسه بصنعه فقال:

(١٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. إلى مقاصدكم في أسفاركم.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

(١١) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، أي بقدر حاجتكم إليه لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أهلكهم. ﴿فَأَنشَرْنَا﴾، أحيينا، ﴿بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ﴾، أي كما أحيينا هذه البلدة الميتة بالمطر كذلك، ﴿تخرجون﴾، من قبوركم أحياء.

(١٢) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾، أي الأصناف ﴿كُلَّهَا﴾. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، في البر والبحر.

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ ذكر الكناية لأنه ردها إلى «ما» ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بتسخير المراكب في البر والبحر، ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ذلل لنا هذا، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين، وقيل ضابطين.

(١٤) ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، لمنصرفون في المعاد.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا إسماعيل بن [محمد] الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن أبي إسحاق، أخبرني علي بن ربيعة أنه شهد علياً رضي الله عنه حين ركب فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد ثلاثاً وكبر ثلاثاً، ثم قال: لا إله إلا الله ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقيل: ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت، وقال مثل ما قلت: ثم ضحك، فقلنا: ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: «العبد ـ أو قال: عجبت للعبد ـ إذا قال لا إله إلا الله ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو».

(١٥) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، أي نصيباً وبعضاً وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ومعنى الجعل ههنا الحكم بالشيء، والقول كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس، أي وصفته وحكمت به، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾، يعني الكافر، ﴿لَكَفُورٌ﴾، جحود لنعم الله، ﴿مُبِينٌ﴾، ظاهر الكفران.

(١٦) ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، هذا استفهام توبيخ وإنكار، اتخذ ربكم لنفسه البنات، ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾، كقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

(١٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾، بما جعل لله شبهاً وذلك أن ولد كل شيء يشبهه، يعني إذا بُشّر أحدهم بالبنات كما ذكر في سورة النحل [٥٨]: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، من الغيظ والحزن.

(١٨) ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿ينشأ﴾ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، أي يُربّى، وقرأ الآخرون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين، أي ينبت ويكبر، ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾، في الزينة يعني النساء، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، في المخاصمة غير مبين للحجة من ضعفهن وسفههن، قال قتادة: في هذه الآية قلما تتكلم امرأة تريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، ﴿أَوَمَنْ﴾ في محل من ثلاثة أوجه: الرفع على الابتداء، والنصب على الإضمار، مجازه: أو من ينشؤ في الحلية يجعلونه بنات الله، والخفض رداً على قوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾، وقوله: ﴿بِمَا ضَرَبَ﴾.

(١٩) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾، قرأ أهل الكوفة

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٩١

وأبو عمرو ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالباء والألف بعدها ورفع الدال كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقرأ الآخرون: ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالنون ونصب الدال على الظرف وتصديقه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] الآية: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾، قرأ أهل المدينة على ما يسم فاعله، وليّنوا الهمزة الثانية بعد همزة الاستفهام، أي أحضروا خلقهم، وقرأ الآخرون بفتح الشين أي أحضروا خلقهم حين خلقوا، وهذا كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾، على الملائكة أنهم بنات الله، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾، عنها.

قال الكلبي ومقاتل: لما قالوا هذا القول سألهم النبي ﷺ فقال: «ما يدريكم أنهم إناث؟ قالوا: سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾، عنها في الآخرة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، يعني الملائكة، قاله قتادة ومقاتل والكلبي، وقال مجاهد: يعني الأوثان وإنما لم يعجل عقوبتنا على عبادتنا إياها لرضاه منا بعبادتها. قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، فيما يقولون ما هم إلا كاذبون في قولهم: إن الله تعالى رضي منّا بعبادتها، وقيل: إن هم إلا يخرصون، في قولهم: إن الملائكة إناث وأنهم بنات الله.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله، ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، على دين وملة، قال مجاهد: على إمام. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، جعلوا أنفسهم باتباع آبائهم الأولين مهتدين.

﴿٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، أغنياؤها ورؤساؤها، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، بهم.

﴿٢٤﴾ ﴿قَٰلَ﴾، قرأ ابن عامر وحفص: ﴿قال﴾ على الخبر، وقرأ الآخرون ﴿قل﴾ على الأمر، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾، قرأ أبو جعفر: «جئناكم» على الجمع، والآخرون ﴿جئتكم﴾ على الواحد، ﴿بِأَهْدَىٰ﴾، بدين أصوب، ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾، قال الزجاج: قال لهم أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى منه؟ فأبوا أن يقبلوه. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿٢٦﴾ ـ ﴿٢٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾، أي بريء، ولا يثنى «البراء» ولا يجمع ولا يؤنث لأنه مصدر وضع موضع النعت. ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾، يرشدني لدينه.

﴿٢٨﴾ ﴿وَجَعَلَهَا﴾، يعني هذه الكلمة، ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [في ذريته]، قال مجاهد وقتادة: يعني كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله كلمة باقية في عقبه أي في ذريته. قال قتادة: لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده. وقال القرظي: يعني جعل وصية إبراهيم التي أوصى بها نبيه باقية في نسله وذريته، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣١]. وقال ابن زيد: يعني قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم، وقال السدي:

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزّ وجلّ.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾، يعني المشركين في الدنيا، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، يعني القرآن، وقال الضحاك: الإسلام. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، يبين لهم الأحكام وهو محمد ﷺ، وكان من حق هذا الأنعام أن يطيعوه فلم يفعلوا، وعصوا.

(٣٠) (٣١) وهو قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، يعني القرآن، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، يعنون الوليد بن مغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، قاله قتادة، وقال مجاهد: عتبة بن ربيعة من مكة، وابن عبدياليل الثقفي من الطائف. وقيل: الوليد بن المغيرة من مكة، ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. ويُروى هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(٣٢) قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، يعني النبوة، قال مقاتل: يقول: بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ ثم قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً وهذا مالكاً وهذا مملوكاً، فكما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق كما شئنا، كذلك اصطفينا بالرسالة من شئنا، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، بالغنى والمال، ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، ليستخدم بعضهم بعضاً فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش، هذا بماله، وهذا بأعماله، فيلتئم قوام أمر العالم. وقال قتادة والضحاك: يملك بعضهم بمالهم بعضاً بالعبودية والملك. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾، يعني الجنة، ﴿خَيْرٌ﴾، للمؤمنين، ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، مما يجمع الكفار من الأموال.

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي لولا أن يصيروا كلهم كفاراً فيجتمعون على الكفر، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو: ﴿سقفاً﴾ بفتح السين وسكون القاف على الواحد، ومعناه الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، وقرأ الآخرون بضم السين والقاف على الجمع، وهي جمع سقف مثل رُهُن ورَهْن، قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف. وقيل: جمع سقوف جمع الجمع. ﴿وَمَعَارِجَ﴾، مصاعد ودرجاً من فضة، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، يعلون ويرتقون، يقال: ظهرت على السطح إذا علوته.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾، من فضة، ﴿وَسُرُرًا﴾ أي جعلنا لهم سرراً من فضة، ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

(٣٥) ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي وجعلنا مع ذلك لهم زخرفاً وهو الذهب، نظيره: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قرأ حمزة وعاصم: «لمّا» بالتشديد على معنى: ما كلّ ذلك إلا متاع الحياة الدنيا فكان: ﴿لما﴾ بمعنى إلاّ، وخففه الآخرون على معنى وكل ذلك متاع الحياة الدنيا، فيكون: ﴿إن﴾ للابتداء، و﴿ما﴾ صلة، يريد: إنّ هذا كله متاع الحياة الدنيا، يزول ويذهب، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، خاصة يعني الجنة.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو العباس عبدالله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنا أبو بكر أحمد بن عمر بن بسطام، أنا أحمد بن سيار

القرشي، ثنا عبدالرحمن بن يونس أبو مسلم، ثنا أبو بكر بن منظور، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها قطرة ماء».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله أخبرنا محمد بن إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبدالله بن المبارك، عن مجالد بن سعيد، عن قيس بن [أبي] حازم، عن المستورد بن شداد أخي بني فهر قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها» من هوانها ألقوها، قال رسول الله ﷺ: «فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها».

(٣٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي يعرض عن ذكر الرحمن فلم يخف عقابه، ولم يرج ثوابه، يقال: عشوت إلى النار أعشو عشواً، إذا قصدتها مهتدياً بها، وعشوت عنها أعرضت عنها، كما يقول: عدلت إلى فلان وعدلت عنه، وملت إليه، وملت عنه.

قال القرظي: يولي ظهره عن ذكر الرحمن وهو القرآن. قال أبو عبيدة والأخفش: يظلم بصرف بصره عنه. قال الخليل بن أحمد: أصل العشو النظر ببصر ضعيف.

وقرأ ابن عباس: ﴿وَمَن يَعْشَ﴾ بفتح الشين أي يعم، يقال: عشي يعشى عشياً إذا عمي فهو أعشى، وامرأة عشواء. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾، قرأ يعقوب: ﴿يقيض﴾ بالياء، والباقون بالنون، نسبب له شيطاناً ونضمه إليه ونسلطه عليه. ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، لا يفارقه يزين له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ﴾، يعني الشياطين، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي ليمنعونهم عن الهدى وجمع الكناية لأن قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ في مذهب جمع وإن كان اللفظ على الواحد، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، ويحسب كفار بني آدم أنهم على الهدى.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾، قرأ أهل العراق غير أبي بكر: ﴿جاءنا﴾ على الواحد يعنون الكافر، وقرأ الآخرون: جاءانا، على التثنية يعنون الكافر وقرينه قد جعلا في سلسلة واحدة. ﴿قَالَ﴾، الكافر لقرينه الشيطان، ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي بعد ما بين المشرق والمغرب فغلب اسم أحدهما على الآخر كما يقال للشمس والقمر: القمران، ولأبي بكر وعمر: العُمَران. وقيل: أراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، والأول أصح، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، قال أبو سعيد الخدري: إذا بعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير إلى النار.

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، في الآخرة، ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾، أشركتم في الدنيا، ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، يعني لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب، لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب.

وقال مقاتل: لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في الكفر.

(٤٠) ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، يعني الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون.

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾، بأن نميتك قبل أن نعذبهم، ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، بالقتل بعدك.

(٤٢) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾، في حياتك، ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾، من العذاب، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، قادرون متى شئنا عذبناهم، وأراد به مشركي مكة انتقم منهم يوم بدر، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن وقتادة: عنى به أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ، وقد كان بعد النبي ﷺ نقمة شديدة عليهم في أمته، فأكرم الله نبيه وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي يقر عينه، وأبقى النقمة بعده.

وروي أن النبي ﷺ أري ما يُصيب أمته بعده فما رُئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله لنفسه.

(٤٣) ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، يعني القرآن، ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾، أي لشرف لك، ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾، من قريش، نظيره:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي شرفكم، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾، عن حقه وأداء شكره.

روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك؟ لم يخبر بشيء حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل لمن هذا؟ قال: لقريش.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا عبدالرحمن بن [أبي] شريح، أنا أبو القاسم البغوي، ثنا علي بن الجعد، أنا عاصم بن محمد بن زيد، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين».

وقال مجاهد: القوم هم العرب، فالقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم، ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص من العرب، حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم.

وقيل: «ذكر لك»: شرف لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك المؤمنين بما هداهم الله به، وسوف تسألون عن القرآن وعمّا يلزمكم من القيام بحقه.

﴿٤٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، اختلفوا في هؤلاء المسؤولين.

قال عطاء عن ابن عباس: لما أسري بالنبي ﷺ بعث الله له آدم وولده من المرسلين، فأذن جبريل ثم أقام، وقال: يا محمد تقدم فصلِّ بهم، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل: سَلْ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل فقد اكتفيت».

وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد، قالوا: جمع الله له المرسلين ليلة أسري به وأمره أن يسألهم فلم يشك ولم يسأل.

وقال أكثر المفسرين: سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد؟ وهو قول ابن عباس في سائر الروايات، ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي والحسن والمقاتليين يدلّ عليه قراءة عبدالله وأبي: «واسئل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا»، ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عزّ وجلّ.

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، استهزاء.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، قرينتها وصاحبتها التي كانت قبلها، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى، وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، عن كفرهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾، لموسى لما عاينوا العذاب، ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾، يا أيها العالم الكامل الحاذق، وإنما قالوا هذا توقيراً وتعظيماً له، لأن السحر عندهم كان علماً عظيماً وصفةً ممدوحة، وقيل: معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره.

وقال الزجاج: خاطبوه به لما

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

٤٩٣

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم (٦١) ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين (٦٢) ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون (٦٣) إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٦٤) فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم (٦٥) هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون (٦٦) الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (٦٧) يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون (٦٨) الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين (٦٩) ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون (٧٠) يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون (٧١) وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون (٧٢) لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون (٧٣)

٤٩٤

تقدم له عندهم من التسمية بالساحر. ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي بما أخبرتنا من عهده إليك إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله يكشف عنا العذاب، ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾، مؤمنون، فدعى موسى فكشف عنهم فلم يؤمنوا.

(٥٠) فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾، أنهار النيل، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، من تحت قصوري، وقال قتادة: يجري بين يدي في جناني وبساتيني. وقال الحسن: بأمري. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، عظمتي وشدة ملكي.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾، بل أنا خير، ﴿أم﴾ بمعنى بل وليس بحرف عطف على قول أكثر المفسرين، وقال الفراء: الوقف على قوله ﴿أم﴾، وفيه إضمار مجازه: أفلا تبصرون أم تبصرون، ثم ابتدأ فقال أنا خير، ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، ضعيف حقير يعني موسى، قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يفصح بكلامه للثغته التي في لسانه.

(٥٣) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾، إن كان صادقاً، ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾، قرأ حفص ويعقوب ﴿أسورة﴾ جمع سوار، وقرأ الآخرون ﴿أساورة﴾ على جمع الأسورة، وهي جمع الجمع. قال مجاهد: كانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالة لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان سيداً تجب علينا طاعته. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، متتابعين يقارن بعضها بعضاً يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره.

(٥٤) قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾، أي استخف فرعون قومه القبط، أي وجدهم جهالاً، وقيل: حملهم على الخفة والجهل. يقال استخفه عن رأيه، إذا حمله على الجهل وأزاله عن الصواب، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾، على تكذيب موسى، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

(٥٥) (٥٦) ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾، أغضبونا، ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿سلفاً﴾ بضم السين واللام.

قال الفراء: هو جمع سليف من سلف بضم اللام يسلف، أي تقدم، وقرأ الآخرون بفتح السين واللام على جمع السالف مثل حارس وحرس، وخادم وخدم، وراصد ورصد، وهما جميعاً الماضون المتقدمون من الأمم، يقال: سلف يسلف، إذا تقدم والسلف من تقدم من الآباء، فجعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون. ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾، عبرة وعظة لمن بقي بعدهم. وقيل: سلفاً لكفار هذه الأمة إلى النار ومثلاً لمن يجيء بعدهم.

(٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾.

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الآية نزلت في مجادلة عبدالله بن الزبعرى مع النبي ﷺ في شأن عيسى عليه السلام، لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقد ذكرناه في سورة الأنبياء عليهم السلام. ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، قرأ أهل المدينة والشام والكسائي ﴿يصدون﴾ بضم الصاد، أي يعرضون، نظيره قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقرأ الآخرون بكسر الصاد.

واختلفوا في معناه. قال الكسائي: هما لغتان مثل يعرُشون ويعرِشون، وشد عليه يشُد ويشِد، ونمّ بالحديث ينُم وينِم، وقال ابن

عباس: معناه يضجون. وقال سعيد بن المسيب: يصيحون. وقال الضحاك: يعجون. وقال قتادة: يجزعون. وقال القرظي: يضجرون: ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون يقولون ما يريد منّا محمد إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عبدت النصارى عيسى.

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، قال قتادة: «أم هو» يعنون محمداً، فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا. وقال السدي وابن زيد ﴿أَمْ هُوَ﴾ يعنون عيسى، قالوا: يزعم محمد أن كل ما عبد من دون الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار، وقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾، يعني هذا المثل، ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾، خصومة بالباطل وقد علموا أن المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هؤلاء الأصنام. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو بكر عبدالرحمن بن عبدالله الحمشاوي، أنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، ثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، ثنا عبدالله بن نمير، ثنا حجاج بن دينار الواسطي، عن أبي غالب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

(٥٩) ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾، ما هو، يعني عيسى السلام، ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، بالنبوة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا﴾ آية وعبرة، ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يعرفون به قدرة الله عزّ وجلّ على ما يشاء حيث خلقه من غير أب.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾، أي ولو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، يكونون خلفاء منكم يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني. وقيل: يخلف بعضهم بعضاً.

(٦١) ﴿وإنه﴾، يعني عيسى عليه السلام، ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، يعني نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، بفتح اللام والعين أي أمارة وعلامة.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، وتهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام».

ويروى: «أنه ينزل على ثنية بالأرض المقدسة، وعليه ممصرتان، وشعر رأسه دهين، وبيده حربة وهي التي يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا ابن بُكير، ثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أباهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»؟

وقال الحسن وجماعة: و«إنه» يعني وإن القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها. ويخبركم بأحوالها وأهوالها، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، فلا تشكن فيها، قال ابن عباس: لا تكذبوا بها، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾، على التوحيد، ﴿هَٰذَا﴾، الذي أنا عليه، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾، لا يصرفنكم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، عن دين الله، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾، بالنبوة، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، من أحكام التوراة، قال قتادة: يعني اختلاف الفرق الذين تحزبوا على أمر عيسى. قال الزجاج: الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو الذي اختلفوا فيه، وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(٦٤) ـ (٦٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ﴾، هل ينتظرون، ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، يعني أنها تأتيهم لا محالة فكأنهم ينتظرونها، ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، فجاة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(٦٧) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾، على المعصية في الدنيا، ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾، يوم القيامة، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، إلا المتحابين في الله عزّ وجلّ على طاعة الله عزّ وجلّ.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني عقيل بن محمد بن أحمد، أن أبا الفرج البغدادي القاضي أخبرهم عن محمد بن جرير، ثنا ابن عبدالأعلى، عن قتادة، ثنا أبو ثور عن معمر عن قتادة عن أبي إسحاق أن علياً قال في هذه الآية: خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويخبرني أني ملاقيك، يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما، فيقول: ليثن أحدكما على صاحبه، فيقول: نِعْمَ الأخ، ونعم الخليل، ونعم الصاحب، قال: ويموت أحد الكافرين، فيقول: يا رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فيقول بئس الأخ، وبئس الخليل، وبئس الصاحب.

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ﴾، أي فيقال لهم يا عبادي، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

روي عن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: سمعتَ أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع، فينادي منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرجوها الناس كلهم فيتبعها.

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، فييأس الناس منها غير المسلمين.

(٧٠) فيقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، تسرون وتنعمون.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾، جمع صحفة وهي القصعة الواسعة، ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾، جمع كوب وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عرى لها، ﴿وَفِيهَا﴾، أي في الجنة، ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص «تشتهيه»، وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الآخرون بحذف الهاء. ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن سفيان عن علقمة بن مَرْثد، عن عبدالرحمن بن سابط قال: قال رجل: يا رسول الله أفي الجنة خيل؟ فإني أحب الخيل، فقال: «إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت، إلا فعلت»، وقال اعرابي: يا رسول الله أفي الجنة إبل؟ فإني أحب الإبل، فقال: «يا أعرابي إن يدخلك الله الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك».

(٧٢) ـ (٧٣) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وفي الحديث: «لا ينزع رجل من الجنة من ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها».

(٧٤) ـ (٧٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، المشركين، ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾، يدعون خازن النار، ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، ليمتنا ربك فنستريح فيجيبهم مالك بعد ألف سنة، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، مقيمون في العذاب.

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة يذكره عن أبي أيوب، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: إن أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون، قال: هانت ـ والله ـ دعوتهم على مالك وعلى رب مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم اخسأوا فيها ولا تكلمون، قال: فوالله ما نبس القوم بعدها

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بكلمة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، فشبه أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق.

﴿٧٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾، يقول أرسلنا إليكم يا معشر قريش رسولنا بالحق، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾، أحكموا، ﴿أَمْرًا﴾، في المكر برسول الله ﷺ، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، محكمون أمراً في مجازاتهم، قال مجاهد: إن كادوا كدتهم مثله.

﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، ما يسرونه من غيرهم ويتناجون به بينهم، ﴿بَلَىٰ﴾، نسمع ذلك ونعلم، ﴿وَرُسُلُنَا﴾، أيضاً من الملائكة يعني الحفظة، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۞ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، يعني إن كان للرحمن ولد في قولكم وعلى زعمكم، فأنا أول من عبده فأنه واحد لا شريك له ولا ولد. وروي عن ابن عباس: ﴿إِن كَانَ﴾ أي ما كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين الشاهدين له بذلك، جعل: ﴿إن﴾ بمعنى الجحد: وقال السدي: معناه لو كان للرحمن ولد فأنا أول من أعبده بذلك، ولكن لا ولد له. وقيل: «العابدين» بمعنى الآنفين، يعني أنا أول الجاحدين والمنكرين لما قلتم. ويقال: معناه أنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد، يقال: عبد يعبد إذا أنف أو غضب عبداً. وقال قوم: قل ما يُقال: عَبِد فهو عابد، إنما يقال: فهو عبد.

﴿٨٢﴾ ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يقولون من الكذب.

﴿٨٣﴾ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾، في باطلهم، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾، في دنياهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، يعني يوم القيامة.

﴿٨٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، قال قتادة: يعبد في السماء وفي الأرض لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، في تدبير خلقه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، بمصالحهم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قرأ ابن كثير والكسائي «يرجعون» بالياء، والآخرون بالتاء.

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾، وهم عيسى وعزير والملائكة فإنهم عبدوا من دون الله، ولهم الشفاعة، وعلى هذا يكون ﴿من﴾ في محل الرفع، وقيل: ﴿من﴾ في محل الخفض، وأراد بالذين يدعون عيسى وعزير والملائكة، يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، والأول أصح، وأراد بشهادة الحق قوله لا إله إلا الله كلمة التوحيد، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، يصرفون عن عبادته.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾، يعني قول محمد ﷺ شاكياً إلى ربه يا رب، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، قرأ عاصم وحمزة ﴿وقيله﴾ بجر اللام والهاء، على معنى وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب، وقرأ الآخرون بالنصب، وله وجهان: أحدهما معناه: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله يا رب، والثاني: وقال قيله.

﴿٨٩﴾ ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، أعرض عنهم، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾، معناه: المتاركة، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، قرأ أهل المدينة والشام بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، قال مقاتل: نسختها آية السيف.

❁ ❁ ❁

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

٤٩٦

سورة الدخان

مكية وهي تسع وخمسون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ـ ﴿٣﴾ ﴿حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، قال قتادة وابن زيد: هي ليلة القدر أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً في عشرين سنة. وقال آخرون: هي ليلة النصف من شعبان.

أخبرنا عبدالوحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا الأصبغ بن الفرج، أخبرني ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن عبدالملك بن عبدالملك حدثه أن ابن أبي ذئب [واسمه مصعب] حدثه عن القاسم بن محمد، عن أبيه أو عمه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله جل ثناؤه ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لكل نفس إلا إنساناً في قلبه شحناء أومشركاً بالله».

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

﴿٤﴾ ﴿فِيهَا﴾، أي في الليلة المباركة، ﴿يُفْرَقُ﴾، أي يفصل، ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، محكم، وقال ابن عباس: يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج، يقال: يحج فلان ويحج فلان، قال الحسن ومجاهد وقتادة: يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق، وما يكون في تلك السنة. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وتنسخ الأحياء من الأموات فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبوجعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب، أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له ولقد خرج اسمه في الموتى».

وروى أبو الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر.

﴿٥﴾ ﴿أَمْرًا﴾، أي أنزلنا أمراً، ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾، قال الفراء: نُصب على معنى فيها يفرق كل أمر حكيم فرقاً وأمراً، أي نأمر أمراً ببيان ذلك. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، محمداً ﷺ ومن قبله من الأنبياء.

﴿٦﴾ ـ ﴿٧﴾ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، قال ابن عباس: رأفة مني بخلقي ونعمتي عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل. وقال الزجاج: أنزلناه في ليلة مباركة للرحمة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿رب﴾ جراً، رداً على قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، ورفعه الآخرون رداً على قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقيل: على الابتداء، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أن الله رب السموات والأرض.

﴿٨﴾ ـ ﴿٩﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾، من هذا القرآن، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يهزؤون به لاهون عنه.

﴿١٠﴾ ـ ﴿١١﴾ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تقديره: هو عذاب إلهي، ويجوز: أن يكون حكاية لكلامهم بما بعده، أي: يقولون هذا عذاب أليم.

اختلفوا في هذا الدخان.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن كثير، عن سفيان، ثنا منصور والأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في كندة، فقال: يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ففزعنا فأتيت ابن مسعود وكان متكئاً [فأخبرته فغضب] فجلس؟ فقال: من علم فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم لا أعلم، فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وإن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، فقرأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء؟ ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، يعني يوم بدر، ولزاماً يوم بدر، ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، إلى [قوله] ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾، والروم قد مضى». ورواه محمد بن إسماعيل عن يحيى عن وكيع عن الأعمش، قال قالوا:

﴿١٢﴾ ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا إلى كفرهم، فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى، ثنا وكيع، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبدالله قال: خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان. وقال قوم: هو دخان يجيء قبل قيام الساعة ولم يأت بعد، فيدخل في أسماع الكفار والمنافقين حتى يكون كالرأس الحنيذ، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه النار، وهو قول ابن عباس وابن عمر والحسن.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عقيل بن محمد الجرجاني، ثنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادي، ثنا محمد بن جرير الطبري، حدثني عصام بن رواد بن الجراح، ثنا أبي، أنا أبو سفيان بن سعيد، ثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا»، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام، وأما الكافر فكمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره».

﴿١٣﴾ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، من أين لهم التذكر والاتعاظ؟ يقول: كيف يتذكرون ويتعظون؟ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، ظاهر الصدق يعني محمداً ﷺ.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾، أعرضوا عنه، ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ﴾، أي يعلمه بشر، ﴿مَّجْنُونٌ﴾.

﴿١٥﴾ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾، أي عذاب الجوع، ﴿قَلِيلًا﴾، أي زماناً يسيراً، قال مقاتل: إلى يوم بدر. ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، إلى كفركم.

﴿١٦﴾ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، وهو يوم بدر، ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، وهذا قول ابن مسعود وأكثر العلماء، وقال الحسن: يوم القيامة، وروى عكرمة ذلك عن ابن عباس.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾، بلونا، ﴿قَبْلَهُمْ﴾، قبل هؤلاء، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾، على الله وهو موسى بن عمران.

﴿١٨﴾ ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، يعني بني إسرائيل أطلقهم ولا تعذبهم، ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، على الوحي.

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

٤٩٧

﴿١٩﴾ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾، أي لا تتجبروا عليه بترك طاعته، ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، ببرهان بيّن على صدق قولي، فلما قال ذلك توعدوه بالقتل.

﴿٢٠﴾ فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾، أن تقتلون، وقال ابن عباس تشتموني وتقولوا هو ساحر. وقال قتادة: ترجموني بالحجارة.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾، فاتركوني لا معي ولا عليّ. وقال ابن عباس: فاعتزلوا أذاي باليد واللسان، فلم يؤمنوا.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، مشركون فأجابه الله وأمره أن يسري.

﴿٢٣﴾ فقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾، أي ببني إسرائيل، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، يتبعكم فرعون وقومه.

﴿٢٤﴾ ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾، إذا قطعته أنت وأصحابك، ﴿رَهْوًا﴾، ساكناً على حالته وهيئته، بعد أن ضربته ودخلته، معناه لا تأمره أن يرجع، اتركه حتى يدخله آل فرعون، وأصل الرهو: السكون. وقال مقاتل: معناه اترك البحر راهياً أي ساكناً، فسمي بالمصدر، أي ذا رهو، وقال كعب: اتركه طريقاً. قال قتادة: طريقاً يابساً. قال قتادة: لما قطع موسى البحر وخرج بمن معه من بني إسرائيل فنظر إلى البحر فإذا هو على حاله لم يلتئم، عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل له: اترك البحر رهواً كما هو، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، أخبر [الله] موسى أنه يغرقهم ليطمئن قلبه في تركه [البحر] كما جاوزه، ثم ذكر ما تركوا بمصر.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾، يعني بعد الغرق، ﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، مجلس شريف، قال قتادة: الكريم الحسن.

﴿٢٧﴾ ﴿وَنَعْمَةٍ﴾، ومتعة وعيش لين، ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾، ناعمين، وفاكهين: أشرين بطرين.

﴿٢٨﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، قال الكلبي: كذلك أفعل بمن عصاني، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾، يعني بني إسرائيل.

﴿٢٩﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده، ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليه.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله الفنجوي، ثنا أبو علي المقري، ثنا أبو يعلى الموصلي، ثنا أحمد بن إسحاق البصري، ثنا مكي بن إبراهيم، ثنا موسى بن عبيدة الربذي، أخبرني يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد إلا له في السماء بابان، باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾.

قال عطاء: بكاء السماء حمرة أطرافها. قال السدي: لما قتل الحسين بن علي بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها. ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾، لم ينظروا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، قتل الأبناء واستحياء النساء والتعب في العمل.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ۞ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾، يعني مؤمني بني إسرائيل، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، بهم، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، على عالمي زمانهم.

﴿٣٣﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾، قال قتادة: نعمة بينه من فلق البحر وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، والنعم التي أنعمها

عليهم. قال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدة، وقرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿٣٤﴾ ـ ﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾، يعني مشركي مكة ﴿لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾، أي لا موتة إلا هذه التي نموتها في الدنيا، ثم لا بعث بعدها، وهو قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، بمبعوثين بعد موتتنا.

﴿٣٦﴾ ـ ﴿٣٧﴾ ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾، الذين ماتوا، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أنا نبعث أحياء بعد الموت، ثم خوفهم مثل عذاب الأمم الخالية فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، أي ليسوا خيراً منهم، يعني أقوى وأشد وأكثر من قوم تبع. قال قتادة: هو تبع الحميري، وكان سار بالجيوش حتى حير الحيرة، وبني سمرقند وكان من ملوك اليمن، سمي تبعاً لكثرة أتباعه، وكل واحد منهم يسمى «تبعاً» لأنه يتبع صاحبه، وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام وهم حمير، فكذبوه.

وكان من خبره ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، وذكر عكرمة عن ابن عباس قالوا: كان تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب أسعد بن مليك جاء بكرب حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة، وقد كان حين مرّ بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة، فقدمها وهو مجمع على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره، فخرجوا لقتاله وكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام فبينما هوكذلك إذ جاءه حبران اسمهما: كعب وأسد من أحبار بني قريظة، عالمان وكانا ابني عم، حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد مولده مكة، وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه، وفي عدوهم.

قال تبع: من يقاتله وهو نبي؟ قالا: يسير إليه قومه فيقتلون ههنا، فتناهى لقولهما عمّا كان يريد بالمدينة، ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن، فأتاه في الطريق نفر من هذيل وقالوا: إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة، قال: أي بيت؟ قالوا: بيت بمكة، وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يردهُ أحدٌ قط بسوء إلا هلك، فذكر ذلك للأحبار، فقالوا: ما نعلم لله في الأرض بيت غير هذا البيت، فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك، وما أراد القوم إلا هلاكك لأنه ما ناوأهم أحد قط إلا هلك، فأكرمه واصنع عنده ما يصنع أهله، فلما قالوا له ذلك أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قدم مكة نزل الشعب شعب البطائح، وكسا البيت الوصائل، وهو أول من كسا البيت، ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة، وأقام به [ستة] أيام وطاف به وحلق وانصرف.

فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بين ذلك وبينه، قالوا: لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا، فدعاهم إلى دينه وقال: إنه دين خير من دينكم، قالوا: فحاكمنا إلى النار.

وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه، فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم، فقال تبع: أنصفتم، فخرج القوم بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار فأقبلت حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير.

وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، يتلوان التوراة تعرق جباههما لم تضرهما، ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما، فمن هنالك كان أصل اليهودية في اليمن.

وذكر أبو حاتم عن الرقاشي قال: كان أبو كرب أسعد الحميري من التابعة آمن بالنبي محمد ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة.

وذكر [لنا] أن كعباً كان يقول: ذم الله قومه ولم يذمه.

وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سورة الجاثية

٤٩٨

وقال سعيد بن جبير: هو الذي كسا البيت.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبدالله بن فنجويه الدينوري ثنا أبو بكر بن مالك القطيعي، ثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، ثنا أبي، ثنا حسن بن موسى، ثنا بن لهيعة، حدثنا أبو زرعة عمرو بن جرير عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا ابن أبي شيبة، ثنا محمد بن علي بن سالم الهمداني، ثنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر النيسابوري، ثنا عبدالرزاق، ثنا معمر عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري تبع نبياً كان أو غير نبي».

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من الأمم الكافرة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿٣٨﴾ ـ ﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قيل: يعني للحق وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، يوم يفصل الرحمن بين العباد، ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يوافي يوم القيامة الأولون والآخرون.

﴿٤١﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾، لا ينفع قريب قريبه ولا يدفع عنه شيئاً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، لا يمنعون من عذاب الله.

﴿٤٢﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾، يريد المؤمنين فإنه يشفع بعضهم لبعض، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾، في انتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾، بالمؤمنين.

﴿٤٣﴾ ـ ﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾، أي ذي الإثم، وهو أبو جهل.

﴿٤٥﴾ ـ ﴿٤٦﴾ ﴿كَالْمُهْلِ﴾، هو دردي الزيت أسود، ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾، قرأ ابن كثير وحفص ﴿يغلي﴾ بالياء، جعلا الفعل للمهل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الشجرة، ﴿فِي الْبُطُونِ﴾، أي بطون الكفار، ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾، كالماء الحار إذا اشتد غليانه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو بكر العبدوسي، أنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يزيد، ثنا سليمان بن يوسف، ثنا وهب بن جرير، ثنا شعبة عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبدالله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله حقَّ تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن تكون طعامه وليس لهم طعام غيره».

﴿٤٧﴾ قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾، أي يقال للزبانية: خذوه يعني الأثيم، ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو بكسر التاء، وقرأ الباقون بضمها، وهما لغتان، أي ادفعوه وسوقوه، يقال: عتله يعتله عتلاً، إذا ساقه بالعنف والدفع والجذب، ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، وسطه.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، قال مقاتل: إن خازن النار يضربه عل رأسه فيثقب رأسه عن دماغه، ثم يصب فيه ماءً حميماً قد انتهى حره.

﴿٤٩﴾ ثم يقال له: ﴿ذُقْ﴾، هذا العذاب، ﴿إِنَّكَ﴾، قرأ الكسائي ﴿أنك﴾ بفتح الألف، أي لأنك كنت تقول: أنا العزيز الكريم، وقرأ الآخرون بكسرها على الابتداء، ﴿أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، عند قومك بزعمك، وذلك أن أبا جهل كان

يقول: أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم، فتقول له هذا خزنة النار على طريق الاستحقار والتوبيخ.

﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾، تشكون فيه ولا تؤمنون به ثم ذكر مستقر المتقين، فقال:

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿فِي مُقام﴾ بضم الميم على المصدر، أي في إقامة، وقرأ الآخرون بفتح الميم، أي في مجلس أمين، أمنوا فيه من الغير أي من الموت ومن الخروج منه.

﴿٥٢﴾ ـ ﴿٥٤﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۞ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم﴾، أي كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنات والعيون واللباس كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم، ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾، أي قرناهم بهن، ليس من عقد التزويج، لأنه لا يقال: زوجته بامرأة.

قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجاً لهن كما يزوّج البعل بالبعل، أي جعلناهم اثنين اثنين، والحور هن النساء النقيات البياض.

قال مجاهد: يحار فيهن الطرف من بياضهن وصفاء لونهن.

وقال أبو عبيدة: الحور هُنّ شديدات بياض الأعين الشديدات سوادها، واحدها حور، والمرأة حوراء، والعين جمع العيناء وهي عظيمة العينين.

﴿٥٥﴾ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، اشتهوها، ﴿ءَامِنِينَ﴾، من نفارها ومن مضرتها. وقال قتادة: آمنين من الموت والأوصاب والشياطين.

﴿٥٦﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، وبعدها وضع: ﴿إلا﴾ موضع سوى وبعد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، أي سوى ما قد سلف، وبعد ما قد سلف، وقيل: إنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا من موت في الجنة لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف [الله تعالى] إلى أسباب الجنة، يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم في الجنة، فكان موتهم في الدنيا كأنهم في الجنة لاتصالهم بأسبابهم ومشاهدتهم إياها. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾، أي فعل ذلك بهم فضلاً منه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾، سهلنا القرآن كناية عن غير مذكور، ﴿بِلِسَانِكَ﴾، على لسانك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، يتعظون.

﴿٥٩﴾ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾، فانظر النصر من ربك. وقيل: فانتظر لهم العذاب. ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾، منتظرون قهرك بزعمهم.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن فنجويه، ثنا يحيى بن محمد بن يحيى، ثنا أبو عيسى موسى بن علي الختلي، ثنا أبو هشام الرفاعي، ثنا زيد بن الحباب، ثنا عمر بن عبدالله بن أبي خثعم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

❀ ❀ ❀

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

٤٩٩

سورة الجاثية

مكية إلا آية ١٤ فمدنية وهي سبع وثلاثون آية نزلت بعد الدخان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ـ ﴿٤﴾ ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾، قرأ حمزة

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

٥٠٠

والكسائي ويعقوب ﴿آيات﴾ ﴿وتصريف الريح آياتٍ﴾ بكسر التاء فيهما ردّاً على قوله: ﴿لآيات﴾ وهو في موضع النصب، وقرأ الآخرون برفعهما على الاستئناف على أن العرب تقول إن لي عليك مالاً وعلى أخيك مال، ينصبون الثاني ويرفعونه، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أنه لا إله غيره.

﴿٥﴾ ﴿وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾، يعني الغيث الذي هو سبب أرزاق العباد، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿٦﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، يريد هذا الذي قصصنا عليك من آيات الله نقصها عليك بالحق، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ اللَّهِ﴾، بعد كتاب الله، ﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب: ﴿تؤمنون﴾ بالتاء، على معنى قل لهم يا محمد: فبأي حديث تؤمنون، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿٧﴾ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، كذاب صاحب إثم يعني: النضر بن الحارث.

﴿٨﴾ - ﴿٩﴾ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ قال مقاتل: من القرآن، ﴿شَيْـًٔا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وذكر بلفظ الجمع رداً إلى «كل» في قوله: ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾، أمامهم، ﴿جَهَنَّمُ﴾، يعني أنهم في الدنيا يمتعون بأموالهم ولهم في الآخرة النار يدخلونها، ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾، من الأموال، ﴿شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، ولا ما عبدوا من دون الله من الآلهة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١١﴾ ﴿هَٰذَا﴾، يعني هذا القرآن، ﴿هُدًى﴾، بيان من الضلالة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ ﴿۞ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾، ومعنى تسخيرها أنه خلقها لمنافعنا، فهو مسخر لنا من حيث إنا ننتفع به، ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فلا تجعلوا لله أنداداً.

قال ابن عباس: «جميعاً منه» كل ذلك رحمة منه. قال الزجاج: كل ذلك تفضل منه وإحسان. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، أي لا يخافون من وقائع الله ولا يبالون نقمته.

قال ابن عباس ومقاتل: نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وذلك أن رجلاً من بني غفار شتمه بمكة فهمّ عمر رضي الله تعالى عنه أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يعفو عنه.

وقال القرظي والسدي: نزلت في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديد من المشركين، من قبل أن يؤمروا بالقتال، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿لنجزي﴾ بالنون، وقرأ الآخرون بالياء، أي ليجزي الله، وقرأ أبو جعفر ﴿ليجزى﴾ بضم الياء الأولى وسكون الثانية وفتح الزاي، قال أبو عمرو: وهو لحن. قال الكسائي: معناه ليجزي الجزاء قوماً، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ﴾، التوراة، ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ﴾، الحلالات يعني

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

المن والسلوى، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي عالمي زمانهم، قال ابن عباس: لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم.

﴿١٧﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، يعني العلم بمبعث محمد ﷺ وما بيّن لهم من أمره، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾، يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾، سنة وطريقة بعد موسى، ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، من الدين، ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني مراد الكافرين، وذلك أنهم كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك.

﴿١٩﴾ فقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿هَٰذَا﴾، يعني القرآن، ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾، معالم، ﴿لِلنَّاسِ﴾، في الحدود والأحكام يبصرون بها، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ﴾، بل حسب، ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، نزلت في نفر من مشركي مكة، قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا.

﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب ﴿سواء﴾ بالنصب أي نجعلهم سواء، يعني أحسبوا أن حياة الكافرين ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ كحياة المؤمنين وموتهم سواء كلا، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء والخبر أي محياهم ومماتهم سواء فالضمير فيهما يرجع إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، معناه المؤمن مؤمن محياه ومماته أي في الدنيا والآخرة والكافر كافر محياه ومماته في الدنيا والآخرة، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، بئس ما يقضون، قال مسروق: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو كاد أن يصبح يقرأ آيةً من كتاب الله يرددها يركع بها ويسجد ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة: معناه ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه، ولا يحرم ما حرم الله. وقال الآخرون: معناه اتخذ معبوده هواه فيعبد ما تهواه نفسه. قال سعيد بن جبير: كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئاً أحسن من الأول رموه أو كسروه، وعبدوا الآخر. قال الشعبي: إنما سُمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه في النار. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، منه بعاقبة أمره، وقيل على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، ﴿وَخَتَمَ﴾، طبع، ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلم يستمع الهدى، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾، فلم يعقل الهدى، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، قرأ حمزة والكسائي غشوة بفتح الغين وسكون الشين، والباقون «غشاوة» ظلمة فهو لا يبصر الهدى، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾، أي فمن يهديه بعد أن أضله الله، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾، يعني منكري البعث، ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، ﴿نَمُوتُ

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)

﴿وَنَحْيَا﴾، أي يموت الآباء ويحيا الأبناء، وقال الزجاج: يعني نموت ونحيا، فالواو للاجتماع، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، أي وما يفنينا إلا مر الزمان وطول العمر واختلاف الليل والنهار. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾، أي الذي قالوه، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، أي لم يقولوه عن علم، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه، ثنا أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، ثنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن أيوب عن ابن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسب أحدكم الدهر فإن الله هو الدهر، ولا يقولن للعنب الكرم، فإن الكرم هو الرجل المسلم».

ومعنى الحديث: أن العرب كان من شأنهم ذم الدهر، وسبّه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر.

كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، وكان مرجع سبهم إلى الله عزّ وجلّ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر، فنهوا عن سب الدهر.

(٢٥) - (٢٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي ليوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، يعني الكافرين الذين هم أصحاب الأباطيل، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم بأن يصيروا إلى النار.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، باركة على الركب، وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء من الله.

قال سلمان الفارسي: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين، يخر الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إبراهيم عليه السلام ينادي ربه: لا أسألك إلا نفسي. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾، الذي فيه أعمالها، وقرأ يعقوب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ بالنصب، ويقال لهم، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾، يعني ديوان الحفظة، ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾، يشهد عليكم ببيان شاف، كأنه ينطق. وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أي بكتبها وإثباتها عليكم. وقيل: نستنسخ أي نأخذ نسخته وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له فيه ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب، وقيل: الاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة كل عام ما يكون [من] أعمال بني آدم، والاستنساخ لا يكون إلا من أصل، فينسخ كتاب من كتاب. وقال الضحاك: نستنسخ أي نثبت. وقال السدي: نكتب. وقال الحسن: نحفظ.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، الظفر الظاهر.

(٣١) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقال لهم، ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، متكبرين كافرين.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة: «والساعة» نصب عطفاً على الوعد، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، أي ما نعلم ذلك إلا حدساً وتوهماً. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، أنها كائنة.

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، في الدنيا أي جزاؤها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(٣٤) ـ (٣٥) ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾، نترككم في النار، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، حتى قلتم: لا بعث ولا حساب، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله، لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذراً ولا توبة.

(٣٦) ـ (٣٧) ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، العظمة، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، حدثنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الشرقي، ثنا أحمد بن حفص وعبد الله بن محمد الفراء وقطن بن إبراهيم قالوا، أنا حفص بن عبدالله، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما أدخلته النار».

❁ ❁ ❁

سورة الأحقاف

مكية وهي خمس وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ (٢) ﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة، وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض، وهو إشارة إلى فنائهما، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ خوفوا به في القرآن من البعث والحساب، ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

(٤) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾، أي بكتاب جاءكم من الله قبل القرآن فيه بيان ما تقولون، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، قال الكلبي: أي بقية من علم يؤثر على الأولين، أي يسند إليهم. قال مجاهد وعكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء. وقال قتادة: خاصة من علم. وأصل الكلمة من الأثر وهو الرواية، يقال: أثرت الحديث أثراً وأثارة، ومنه قيل للخبر: أثر ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾، يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، يعني أبداً ما دامت الدنيا، ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، لأنها جماد لا تسمع ولا تفهم.

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً

الجزء السادس والعشرون — سورة الأحقاف

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

٥٠٣

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ جاحدين، بيانه قوله: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

﴿٧﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يسمون القرآن سحراً.

﴿٨﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، محمد من قبل نفسه، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، لا تقدرون أن تردوا عني عذابه إن عذبني على افترائي، فكيف أفتري على الله من أجلكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾، [أي] الله أعلم ﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه إنه سحر. ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أن القرآن جاء من عنده، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، في تأخير العذاب عنكم، قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، معناه: إن الله عزّ وجلّ غفور لمن تاب منكم رحيم به.

﴿٩﴾ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾، أي بديعاً مثل نصف ونصيف، وجمع البدع أبداع، أي لست بأول مرسل، قد بعث قبلي كثير من الأنبياء، فكيف تنكرون نبوتي. ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، اختلف العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناه ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون، فقالوا: واللات والعزى ما أمرُنا وأمر محمد عند الله إلا واحد، وما له علينا من مزية وفضل، ولولا أنه ابتدع ما يقوله من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به، فأنزل الله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فقالت الصحابة: هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥] الآية، وأنزل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، فبين الله تعالى ما يفعل به وبهم، وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة، قالوا: إنما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه وإنما أخبر بغفران ذنبه عام الحديبية، فنسخ ذلك.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن الزهري، عن خارجة بن زيد قال: كانت أم العلاء الأنصارية تقول: لما قدم المهاجرون المدينة: اقترعت الأنصار على سكنتهم، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فمرضناه، ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ «وما يدريك أن الله قد أكرمه»؟ فقلت لا والله لا أدري فقال النبي ﷺ «أما هو فقد أتاه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً، قالت: ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عيناً تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذاك عمله».

وقالت جماعة: قوله ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في الدنيا، أما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة، وأن من كذبه فهو في النار، ثم اختلفوا فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وهو بمكة أرضاً ذات سباخ ونخل رفعت له يهاجر إليها، فقال له أصحابه: متى تهاجر إلى الأرض التي أريت؟ فسكت، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، أأترك في مكاني أم أخرج وإياكم إلى الأرض التي رفعت لي؟

وقال بعضهم ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ إلى ماذا يصير عاقبة أمري وأمركم في الدنيا، إما أن أخرج كما خرجت الأنبياء من قبلي، أم أقتل كما قتل الأنبياء من قبلي، وأنتم أيها المصدقون لا أدري تخرجون معي أم تتركون، أم ماذا يفعل بكم [وما أدري ما يفعل بكم] أيها المكذبون، أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم، أم أي شيء يفعل بكم، مما فعل بالأمم المكذبة؟ ثم أخبر الله عزّ وجلّ أنه يظهر دينه على الأديان، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩]، وقال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ

ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فأخبر الله ما يصنع به وبأمته، هذا قول السدي. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي ما أتبع إلا القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئاً، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، معناه: أخبروني ماذا تقولون، ﴿إِن كَانَ﴾، يعني القرآن، ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾، أيها المشركون، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، المثل: صلة، يعني عليه، أي على أنه من عند الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾، يعني الشاهد، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، عن الإيمان به، وجواب قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوف على تقدير: أليس قد ظلمتم؟ يدل على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال الحسن: جوابه: ﴿فمن أضل منكم﴾ كما قال في سورة السجدة [١٠]. واختلفوا في هذا الشاهد، قال قتادة والضحاك: هو عبدالله بن سلام، شهد على نبوة المصطفى ﷺ وآمن به، واستكبر اليهود فلم يؤمنوا.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن منير، سمع عبدالله بن بكير، ثنا حميد، عن أنس قال: «سمع عبدالله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً، قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، [البقرة: ٩٧]، فأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول الطعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني يبهتوني، فجاءت اليهود فقال لهم: أي رجل عبدالله فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن يوسف قال: سمعت مالكاً يحدث عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، قال: لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث.

قال الآخرون الشاهد هو موسى بن عمران.

وقال الشعبي: قال مسروق في هذه الآية: والله ما نزلت في عبدالله بن سلام لأن آل حم نزلت بمكة، وإنما أسلم عبدالله بن سلام بالمدينة، ونزلت هذه الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه، ومثل القرآن التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد ﷺ على القرآن، وكل واحد يصدق الآخر. وقيل: هو نبي من بني إسرائيل فآمن واستكبرتم فلم تؤمنوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، من اليهود، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ﴾، دين محمد ﷺ، ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، يعني عبدالله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة نزلت في مشركي مكة، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه محمد خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان. وقال الكلبي: الذين كفروا أسد وغطفان، قالوا للذين آمنوا يعني جهينة ومزينة: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهم: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾، يعني بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، كما قالوا أساطير الأولين.

(١٢) ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

القرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾، يعني التوراة، ﴿إِمَامًا﴾، يقتدى به، ﴿وَرَحْمَةً﴾، من الله لمن آمن به، ونصبا على الحال عن الكسائي، وقال أبو عبيدة: فيه إضمار، أي جعلناه إماماً ورحمة، وفي الكلام محذوف، تقديره: وتقدمه كتاب موسى إماماً ولم يهتدوا به، كما قال في الآية الأولى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾، ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾، أي القرآن مصدق للكتب التي قبله، ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، نصب على الحال، وقيل بلسان عربي، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني مشركي مكة، قرأ أهل الحجاز والشام ويعقوب: ﴿لتنذر﴾ بالتاء على خطاب النبي ﷺ، وقرأ الآخرون بالياء يعني الكتاب، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وبشرى﴾ في محل الرفع، أي هذا كتاب مصدق وبشرى.

(١٣) - (١٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾. وقرأ أهل الكوفة: ﴿إحساناً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣ والنساء: ٣٦، الأنعام: ١٥١ والإسراء: ٢٣]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، يريد شدة الطلق، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو كرهاً بفتح الكاف فيهما، وقرأ الآخرون بضمهما. ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾، فطامه، وقرأ يعقوب: ﴿وفصله﴾ بغير ألف، ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، يريد أقل مدة الحمل وهي ستة أشهر وأكثر مدة الرضاع أربعة وعشرون شهراً.

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً، وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾، نهاية قوته، وغاية شبابه واستوائه، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين سنة، فذلك قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وقال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقد مضت القصة.

وقال الآخرون: نزلت في أبي بكر الصديق وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو.

قال علي بن أبي طالب: الآية نزلت في أبي بكر، أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أسلم أبواه غيره أوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، وكان أبوبكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام، فلما بلغ أربعين سنة ونُبّئ النبي ﷺ آمن به ودعا ربه - ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾، ألهمني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، بالهداية والإيمان، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

قال ابن عباس: وأجابه الله عزّ وجلّ فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه، ودعا أيضاً فقال: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً فأدرك أبو قحافة النبي ﷺ وابنه أبو بكر وابنه عبدالرحمن بن أبي بكر وابن عبدالرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبي ﷺ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة. قوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

(١٦) ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلها حسن، والأحسن بمعنى الحسن، فيثيبهم عليها، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن

سَيِّئَاتِهِمْ﴾، فلا نعاقبهم عليها، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ بالنون، ﴿أَحْسَنَ﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء، وضمها ﴿أحسن﴾ رفع. ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾، مع أصحاب الجنة، ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿١٧﴾ ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾، إذ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث، ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾، وهي كلمة كراهية، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾، من قبري حياً، ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾، فلم يبعث منهم أحد، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾، يستصرخان ويستغيثان الله عليه ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا﴾، ما هذا الذي تدعواني إليه، ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، قال ابن عباس والسدي ومجاهد: نزلت في عبدالله.

وقيل: في عبدالرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى، ويقول: أحيوا لي عبدالله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون، وأنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون هذا في عبدالرحمن بن أبي بكر، والصحيح أنها نزلت في كافر عاق لوالديه، قاله الحسن وقتادة، وقال الزجاج: قول من قال إنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه يبطله قوله.

﴿١٨﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، الآية، أعلم الله تعالى أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وعبد الرحمن مؤمن من أفاضل المسلمين فلا يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب، ومعنى أولئك الذين حق عليهم القول، وجب عليهم العذاب، ﴿فِي أُمَمٍ﴾، مع أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد من سبق إلى الإسلام، فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو بساعة، قال مقاتل: ولكل فضائل بأعمالهم فيوفيهم الله جزاء أعمالهم. وقيل: «ولكل» يعني ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين «درجات»، يعني منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم، فيجازيهم عليها. قال ابن زيد في هذه الآية: درج أهل النار تذهب سفلاً، ودرج أهل الجنة تذهب علواً. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم بالياء، وقرأ الباقون بالنون. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، ليكتمل لهم ثواب أعمالهم، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، فيقال لهم، ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿أأذهبتم﴾، بالاستفهام، ويهمز ابن عامر همزتين، والآخرون بلا استفهام على الخبر، كلاهما فصيحان، لأن العرب تستفهم بالتوبيخ، وتترك الاستفهام فتقول: أذهبت ففعلت كذا؟ ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، يقول: أذهبتم طيباتكم يعني اللذات وتمتعتم بها؟ ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، أي العذاب الذي فيه ذل وخزي، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، تتكبرون، ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فلما وبّخ الله الكافرين بالتمتع بالطيبات في الدنيا آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة.

وروينا عن عمر قال: دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير قد أثر الرمال بجنبه، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم قد وسّع عليهم وهم لا يعبدون الله، فقال: «أولئك قوم قد عجّلوا طيباتهم في الحياة الدنيا».

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، [الشاشي] حدثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار قالا ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت عبدالرحمن بن يزيد يحدث عن الأسود بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين [علي بن محمد بن عبدالله] بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

عبدالرزاق، ثنا معمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد كان يأتي علينا الشهر ما نُوقد فيه ناراً وما هو إلا الماء والتمر، غير أن جزى الله نساءً من الأنصار خيراً، كن ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن.

أخبرنا عبدالله بن الصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب الشاشي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا عبدالله بن معاوية الجمحي، ثنا ثابت بن يزيد، عن هلال بن خبّاب، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى، ثنا عبدالله بن عبدالرحمن، ثنا روح بن أسلم ثنا أبو حاتم البصري، ثنا حماد بن سلمة، أنا ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يوسف بن عيسى، ثنا ابن فضيل عن أبيه عن أبي حازم عن أبي هريرة أنه قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة الكشميهني، ثنا أبو طاهر محمد [بن أحمد] بن الحارث، ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن مبارك، عن شعبة بن الحجاج، عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم أن عبدالرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي بها رجلاه بدا رأسه، قال: وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني. فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

وقال جابر بن عبدالله: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي، فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته، فقال عمر: أو كلما اشتهيت شيئاً يا جابر اشتريت، أما تخاف هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

﴿٢١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، يعني هوداً، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾، قال ابن عباس: «الأحقاف» وادٍ بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل باليمن في حضر موت بموضع يقال له مهرة، وإليها تنسب الإبل المهرية، وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا من قبيلة إرم.

قال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياء باليمن، وكانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها «الشِّحْر» و«الأحقاف» جمع حقف، وهي المستطيل المعوج من الرمال.

قال ابن زيد هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون

جبلاً، قال الكسائي: هي ما استدار من الرمال، ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾، مضت الرسل، ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، أي من قبل هود، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، إلى قومهم، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(٢٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾، لتصرفنا، ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾، أي عن عبادتها، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، أن العذاب نازل بنا.

(٢٣) ﴿قَالَ﴾، هود، ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهو يعلم متى يأتيكم العذاب ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾، من الوحي إليكم، ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾، يعني ما يوعدون به من العذاب، ﴿عَارِضًا﴾، سحاباً يعرض أي يبدو في ناحية من السماء ثم يطبق السماء، ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾، فخرجت عليهم سحابة سوداء من وادٍ لهم يقال له المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا، ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فجعلت الريح تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة.

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾، مرت به من رجال عاد وأموالها، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، فأول ما عرفوا أنها عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، وكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام، لهم أنينٌ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو نعيم عبدالملك بن الحسن الأسفرايني، أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ، أنا يونس، أنا ابن وهب، أنا عمرو بن الحارث أخبرنا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه بياض لهواته، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وإذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، الآية».

﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب ﴿يرى﴾، بضم الياء «مساكنُهم» برفع النون يعني لا يرى شيء إلا مساكنهم، وقرأ الآخرون بالتاء وفتحها، ﴿مساكنهم﴾ نصب يعني لا ترى أنت يا محمد إلا مساكنهم لأن السكان والأنعام بادت بالريح، فلم يبق إلا هود ومن آمن معه. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ﴾، يعني فيما لم نمكنكم فيه من قوة الأبدان وطول العمر وكثرة المال. قال المبرد: ﴿ما﴾ في قوله ﴿فيما﴾ بمنزلة الذي، و﴿إن﴾ بمنزلة ما، وتقديره: ولقد مكّناهم في الذي ما مكناكم فيه. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾، يا أهل مكة، ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾، كحجر ثمود وأرض سدوم ونحوهما، ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الحجج والبينات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، عن كفرهم فلم يرجعوا، فأهلكناهم، يخوّف مشركي مكة.

(٢٨) ﴿فَلَوْلَا﴾، فهلا ﴿نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾، يعني الأوثان، التي اتخذوها آلهة يتقربون بها إلى الله عزّ وجلّ، القربان كل ما يتقرب به إلى الله عزّ وجلّ، وجمعه قرابين، كالرهبان والرهابين. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾، قال مقاتل بل ضلت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، أي كذبهم الذي كانوا يقولون أنها تقربهم إلى الله عزّ وجلّ وتشفع لهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، يكذبون أنها آلهة.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ٤٧ آياتها ٣٨

(٢٩) قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، الآية. قال المفسرون: لما مات أبو طالب خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه.

فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله ما أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، لئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموه علي، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيدهم عليه ذلك، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، ولقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة التي من بني جمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟ فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»، فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل ذلك عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: بسم الله ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى؛ فقال له رسول الله ﷺ: أَمِنْ قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال له رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ فقبل رأسه ويديه وقدميه، قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تُقبّل هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقال: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه، ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة

حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمرّ به نفر من جن أهل نصيبين باليمن، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، ثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، فأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١]، فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحي إليه قول الجن.

وروي: أنهم لما رجموا بالشهب بعث إبليس سراياه لتعرف الخبر، وكان أول بعث بعث ركباً من أهل نصيبين وهم أشراف الجن وساداتهم، فبعثهم إلى تهامة.

وقال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أنهم من [بني] الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً، وهم عامة جنود إبليس، فلما رجعوا قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

وقال جماعة: بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن، فصرف إليه نفراً من الجن من أهل نينوي، وجمعهم له، فقال رسول الله ﷺ: إني أُمرتُ أن أقرأ على الجن الليلة، فأيكم يتبعني؟ فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فاتّبعه عبدالله بن مسعود، قال عبدالله: ولم يحضر معه أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي الله ﷺ شعباً يقال له: شعب الحجون، وخطّ لي خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه، وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فجعلت أرى أمثال النسور تهوي، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق إليّ وقال لي: أنمتَ؟ فقلت: لا والله يا رسول الله ﷺ، وقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا، قال: لو خرجت [والله] لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم يا رسول الله رأيت رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض، قال: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع، والمتاع الزاد، فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة. قال فقالوا: يا رسول الله تقذرها الناس [علينا]، فنهى النبي ﷺ أن يستنجي بالعظم والروث، قال فقلت: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، قال فقلت: يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً؟ فقال: إن الجن تدارأت في قتيل قتل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق، قال: ثم تبرز رسول الله ﷺ ثم أتاني، فقال: هل معك ماء؟ قلت: يا رسول الله معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر، فاستدعاه فصببتُ على يده فتوضأ وقال: «تمرةٌ طيبةٌ وماءٌ طهورٌ».

وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن مسعود لما قدم الكوفة رأى شيوخاً شمطاً من الزط فأفزعوه حين رآهم، فقال: اظهروا، فقيل له: إن هؤلاء قوم من الزط، فقال: ما أشبههم بالنفر الذين صُرفوا إلى رسول الله ﷺ، يريد الجن.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغفار بن محمد، ثنا

محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن المثنى، ثنا عبدالأعلى، ثنا داود وهو ابن أبي هند، عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأتُ عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، قال: وسألوه الزاد، فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن».

ورواه مسلم [بن الحجاج] عن علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن داود بهذا الإسناد إلى قوله: و«آثار نيرانهم».

قال الشعبي: وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة إلى آخر الحديث من قول الشعبي مفصلاً من حديث عبدالله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، اختلفوا في عدد ذلك النفر.

فقال ابن عباس: كانوا سبعة من جن نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم.

وقال آخرون: كانوا تسعة. وروى عاصم عن زر بن حبيش: كان زوبعة من التسعة الذي استمعوا القرآن. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾، قالوا: صه.

وروي في الحديث: «أن الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون».

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُوا۟﴾ واسكتوا [أي] لنستمع إلى قراءته، فلا يحول بيننا وبين الاستماع شيء، فأنصتوا واستمعوا القرآن حتى كاد يقع بعضهم على بعض من شدة حرصهم، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾، فرغ من تلاوته، ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾، انصرفوا إليهم، ﴿مُّنذِرِينَ﴾، مخوفين داعين بأمر رسول الله ﷺ.

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠)، قال عطاء: كان دينهم اليهودية، لذلك قالوا: إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ (٣١)، يعني محمداً ﷺ، ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿مِّن﴾ صلة أي ذنوبكم، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فاستجاب لهم من قومهم نحو من سبعين رجلاً من الجن، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً.

قال مقاتل: لم يبعث قبله نبي إلى الإنس والجن جميعاً.

واختلف العلماء في حكم مؤمني الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار، وتأوّلوا قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه. وحكى سفيان عن ليث قال: الجن ثوابهم أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، وهذا مثل البهائم.

وعن أبي الزناد قال: إذا قضي بين الناس قيل لمؤمني الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، وقال الآخرون: يكون لهم الثواب في الإحسان كما يكون عليهم العقاب في الإساءة كالإنس، وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى.

وقال جرير عن الضحاك: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، وذكر النقاش في تفسيره حديث أنهم يدخلون الجنة. فقيل: هل يصيبون من نعيمها؟ قال: يلهمهم الله تسبيحه وذكره، فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة.

وقال أرطأة بن المنذر: سألت ضمرة بن حبيب، هل للجن ثواب؟ قال: نعم، وقرأ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦

و٧٤]، قال فالإنسيات للإنس والجنيات للجن. وقال عمر بن عبدالعزيز: إن مؤمني الجن حول الجنة، في ربض ورحاب، وليسوا فيها.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لا يعجز الله فيفوته، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾، أنصار يمنعونه من الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾، لم يعجز عن إبداعهن، ﴿بقادر﴾، هكذا قراءة العامة، واختلفوا في وجه دخول الباء فيه، فقال أبو عبيدة والأخفش: الباء زائدة للتأكيد، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقال الكسائي والفراء: العرب تدخل الباء في الاستفهام مع الجحد، فتقول: ما أظنك بقائم، وقرأ يعقوب «يقدر» بالياء على الفعل، واختار أبو عبيدة قراءة العامة لأنها في قراءة عبدالله قادر بغير باء، ﴿أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، فيقال لهم، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ﴾، أي فيقال لهم، ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، قال ابن عباس: ذوو الحزم. وقال الضحاك: ذوو الجد والصبر.

واختلفوا فيهم، فقال ابن زيد: كل الرسل. كانوا أولي عزم، لم يبعث الله نبياً إلا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال عقل، وإنما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال: اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز وقال بعضهم: الأنبياء كلهم أولوا عزم إلا يونس بن متى لعجلة كانت منه، ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وقال قوم: هم نُجباء الرسل المذكورين في سورة الأنعام [٩٠] وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال الكلبي: هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين. وقيل: هم ستة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، عليهم السلام، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء.

وقال مقاتل: هم ستة: نوح، صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره، ويوسف صبر على البئر والسجن، وأيوب صبر على الضر، وقال ابن عباس وقتادة: هم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، أصحاب الشرائع، فهم مع محمد ﷺ خمسة، قلت: ذكرهم الله على التخصيص في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] الآية.

أخبرنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبيد الله الفارسي، ثنا أبو ذر محمد بن إبراهيم سبط الصالحاني، أنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ الحافظ، أنا عبدالرحمن بن أبي حاتم، أنا محمد بن الحجاج، أنا السري بن حيان، أنا عباد بن عباد، ثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت عائشة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها، والصبر على مجهودها ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وإني والله لا بدّ لي من طاعته، والله لأصبرن كما صبروا وأجهدنّ كما جهدوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، أي ولا تستعجل العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة، كأنه ضجر بعض الضجر فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمر بالصبر وترك الاستعجال، ثم أخبر عن قرب العذاب فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾، من العذاب في الآخرة، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، في الدنيا، ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، أي إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار، لأن ما مضى وإن كان طويلاً كأن لم يكن، ثم قال: ﴿بَلَٰغٌ﴾، أي هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾، بالعذاب إذا نزل ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

٥٠٧

﴿الْفَاسِقُونَ﴾، الخارجون من أمر الله، قال الزجاج: تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون، ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

* * *

سورة محمد

مدينة وهي ثمان وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أبطلها فلم يقبلها وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام الطعام وصلة الأرحام، قال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم.

﴿٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، قال سفيان الثوري: يعني لم يخالفوه في شيء، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مشركو مكة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الأنصار.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، حالهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عصمهم أيام حياتهم، يعني أن هذا الإصلاح يعود إلى إصلاح أعمالهم حتى لا يعصوا.

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾، الشيطان، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، يعني القرآن ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، أشكالهم، قال الزجاج: كذلك يبين الله أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين.

﴿٤﴾ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، نصب على الإغراء، أي فاضربوا رقابهم يعني أعناقهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾، بالغنم في القتل وقهرتموهم، ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾، يعني في الأسر حتى لا يفلتوا منكم، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل، كما قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، يعني بعد أن تأسروهم فإما أن تمنّوا عليهم منّاً بإطلاقهم من غير عوض، وإما أن تفادوهم فداء، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وبقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المنّ على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء، وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال، أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عزّ وجلّ في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، وهذا هو الأصح والاختيار لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، ثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن يوسف، ثنا الليث، ثنا سعيد بن أبي سعيد سمع أبا هريرة قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «وماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي

يا محمد خير إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان الغد، فقال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك، فقال رسول الله ﷺ: «أطلقوا ثمامة»، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحبّ البلاد كلها إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا عبدالوهّاب بن عبدالمجيد الثقفي، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي المهلب، عن عمران بن حصين قال: أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل فأوثقوه، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ، ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، أي أثقالها وأحمالها، يعني حتى تضع أهل الحرب السلاح، فيمسكوا عن الحرب، وأصل الوزر، ما يحمله الإنسان فسمي الأسلحة أوزاراً لأنها تحمل، وقيل: الحرب هم المحاربون كالسرب والركب، وقيل: الأوزار الآثام، ومعناه حتى يضع المحاربون آثامها، بأن يتوبوا من كفرهم فيؤمنوا بالله ورسوله. وقيل: حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا، ومعنى الآية: أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام، ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولا قتال، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال» وقال الكلبي: حتى يسلموا أو يسالموا وقال الفراء: حتى لا يبق إلا مسلم أو مسالم. ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت وبينت من حكم الكفار، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾، فأهلكهم وكفاكم أمرهم بغير قتال، ﴿وَلَٰكِن﴾، أمركم بالقتال، ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب ومن قتل من الكفار إلى العذاب، ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قرأ أهل البصرة وحفص: ﴿قتلوا﴾ بضم القاف وكسر التاء خفيف، يعني الشهداء، وقرأ الآخرون ﴿قاتلوا﴾ بالألف من المقاتلة، وهم المجاهدون، ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية أنزلت يوم أحد، وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل.

(٥) ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾، أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الدرجات، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، يرضي خصماءهم ويقبل أعمالهم.

(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، أي بيّن لهم منازلهم في الجنة حتى يهتدوا إلى مساكنهم لا يخطؤونها ولا يستدلون عليها أحداً كأنهم سكانها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى درجته، وزوجته وخدمه إلى منزله وأهله في الدنيا، هذا قول أكثر المفسرين.

وروى عطاء عن ابن عباس: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طيبها لهم، من العرف، وهو الريح الطيبة وطعام معرف أي مطيب.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي دينه ورسوله، ﴿يَنصُرْكُمْ﴾، على عدوكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، عند القتال.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، قال ابن عباس: بُعداً لهم. وقال أبو العالية: سقوطاً لهم. وقال الضحاك: خيبةً لهم. وقال ابن زيد: شقاءً لهم. قال الفراء: هو نصبٌ على المصدر، على سبيل الدعاء. وقيل: في الدنيا العثرة، وفي الآخرة

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

٥٠٨

التردي في النار. ويقال للعاثر: تعساً إذا لم يريدوا قيامه، وضده لعاً إذا أرادوا قيامه، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، لأنها كانت في طاعة الشيطان.

(٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال، ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، ثم خوّف الكفار.

(١٠) فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي أهلكهم، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، أي لم يؤمنوا يتوعد مشركي مكة.

(١١) ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وليهم وناصرهم، ﴿وَأَنَّ الْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، لا ناصر لهم، ثم ذكر مآل الفريقين فقال:

(١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾، في الدنيا، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ﴾، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عما في غد، قيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾، أي أشد قوة من أهل مكة، ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾، أي أخرجك أهلها، قال ابن عباس: كم رجال هم أشد من أهل مكة؟ يدل عليه قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، ولم يقل: أهلكناها، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحبّ بلاد الله إلى الله وأحبّ بلاد الله إليّ ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» فأنزل الله هذه الآية.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، يقين من دينه محمد والمؤمنون، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم﴾، يعني عبادة الأوثان، وهم أبو جهل والمشركون.

(١٥) ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، أي صفتها، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، آجن متغير منتن، قرأ ابن كثير ﴿أسن﴾ بالقصر، والآخرون بالمد، وهما لغتان يقال: أسن الماء يأسن أسناً، وآسن يأسن ويأسن، وأجن يأجن أجنن، أسوناً وأجوناً إذا تغير، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾، لذيذة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، لم تدنسها الأرجل ولم تدنسها الأيدي، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنا أبو أسامة وعبد الله بن نمير وعلي بن مسهر، عن عبيد الله بن عمر، عن خُبَيْب بن عبدالرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة».

قال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي النَّارِ﴾، أي من كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار، ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾، شديد الحر تسعر عليهم جهنم منذ خلقت إذا أدني منهم شوى وجوههم ووقعت فروة رؤوسهم فإذا شربوه، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، فخرجت من أدبارهم، والأمعاء جميع ما في البطن من الحوايا وأحدها معي.

(١٦) ﴿وَمِنْهُم﴾، يعني من هؤلاء الكفار، ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً، ﴿حَتَّىٰٓ

﴿إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾، يعني فإذا خرجوا من عندك، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، من الصحابة، ﴿مَاذَا قَالَ﴾، محمد، ﴿آنِفًا﴾، يعني الآن، وهو من الائتناف ويقال: ائتنفت الأمر أي ابتدأته وأنف الشيء أوله، قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبدالله بن مسعود استهزاءً ماذا قال رسول الله ﷺ؟ قال ابن عباس: وقد سئلت فيمن سئل ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فلم يؤمنوا، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، في الكفر والنفاق.

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾، يعني المؤمنين، ﴿زَادَهُمْ﴾، ما قال الرسول، ﴿هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وفقهم للعمل بما أمر الله به، وهو التقوى، قال سعيد بن جبير: وآتاهم ثواب تقواهم.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، ثنا أبو إسحاق الهاشمي، ثنا الحسين بن الحسن، ثنا ابن المبارك، أنا معمر بن راشد، عمن سمع المقبري يحدث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾، أي أماراتها وعلاماتها، واحدها شرط، وكان النبي ﷺ من أشراط الساعة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أحمد بن المقدام، ثنا فضيل بن سليمان، ثنا أبو حازم، ثنا سهل بن سعد قال: رأيت النبي ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا حفص بن عمر الحوضي، ثنا هشام، عن قتادة، عن أنس قال: لأحدثنكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثنكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقلّ الرجال ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن سنان، ثنا فليح، حدثني هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم إذا جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال: وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: «أين السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة»: قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾، فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة، نظيره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

(١٩) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، قيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به غيره، وقيل: معناه فاثبت عليه. وقال الحسين بن الفضل: فازدد علماً على علمك. وقال أبو العالية وابن عيينة: هو متصل بما قبله معناه: إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله. وقيل فاعلم أنه لا إله إلا الله أن الممالك تبطل عند قيامها فلا ملك ولا حكم لأحد إلا لله.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، أمر بالاستغفار مع أنه مغفور له لتستن به أمته.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أبي بردة، عن الأغر المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «أنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة».

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾، قال ابن عباس والضحاك: «متقلبكم» متصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا، و«مثواكم» مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار.

وقال مقاتل وابن جرير: متقلبكم منصرفكم لأشغالكم بالنهار ومثواكم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل. وقال عكرمة: متقلبكم من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم مقامكم في الأرض. وقال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن ومثواكم مقامكم في القبور، والمعنى: أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حرصاً منهم على الجهاد، ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، تأمرنا بالجهاد، ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين، ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يعني المنافقين، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، شزراً بتحديق شديد، كراهية منهم للجهاد وجبناً عن لقاء العدو، ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، وعيد وتهديد، ومعنى قولهم في التهديد أولى لك أي وليك وقاربك ما تكره.

﴿٢١﴾ ثم قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، وهذا ابتداء محذوف الخبر تقديره: طاعة، وقول معروف أمثل، أي لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل وأحسن. وقيل: مجازه يقول هؤلاء المنافقون قبل نزول السورة المحكمة: طاعة، رفع على الحكاية أي أمرنا طاعة أو منّا طاعة، وقول معروف حسن. وقيل: هو متصل بما قبله، واللام في قولهم بمعنى الباء، مجازه: فأولى بهم طاعة الله ورسوله، وقول معروف بالاجابة، أي لو أطاعوا كانت الطاعة والإجابة أولى بهم، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء. ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾، أي جد الأمر ولزم فرض القتال وصار الأمر معزوماً، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾، في إظهار الإيمان والطاعة، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، وقيل جواب إذا محذوف تقديره فإذا عزم الأمر نكلوا وكذبوا فيما وعدوا ولو صدقوا لكان خيراً لهم.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾، فلعلكم قرأ نافع عسيتم بكسر السين والباقون بفتحها وهما لغتان والفتح أفصح ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية فتفسدوا في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدماء، وترجعوا إلى الفرقة بعدما جمعكم الله بالإسلام. ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، قرأ يعقوب ﴿وتقطعوا﴾ بفتح التاء خفيف، والآخرون بالتشديد من التقطيع على التكثير لأجل الأرحام، قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ وقال بعضهم: هو من الولاية. وقال المسيب ابن شريك والفراء: يقول فهل عسيتم إن وليتم أمر الناس أن تفسدوا في الأرض بالظلم، نزلت في بني أمية وبني هاشم، يدل عليه قراءة علي بن أبي طالب ﴿توليتم﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام، يقول: إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة وعاونتموهم.

﴿٢٣﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، عن الحق.

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾

٥١٠

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، فلا تفهم مواعظ القرآن وأحكامه، و﴿أم﴾ بمعنى (بل).

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنبأني عقيل بن محمد، أنا المعافى بن زكريا، أنا محمد بن جرير، ثنا بشر، ثنا يزيد قال: ثنا سعيد قال: ثنا حماد بن زيد، ثنا هشام بن عروة عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فقال شاب من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر حتى وُلّي فاستعان به.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾، رجعوا كفاراً، ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾، قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في كتابهم، وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون، ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، زين لهم القبيح، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، قرأ أهل البصرة بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله، وقرأ مجاهد بإرسال الياء على وجه الخبر من الله عزّ وجلّ عن نفسه أنه يفعل ذلك، وتروى هذه القراءة عن يعقوب، وقرأ الآخرون ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ بفتح الألف أي وأملى الشيطان لهم مدّ لهم في الأمل.

﴿٢٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، يعني المنافقين أو اليهود، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾، وهم المشركون، ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، في التعاون على عداوة محمد ﷺ والقعود عن الجهاد، وكانوا يقولونه سراً فأخبر الله تعالى عنهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بكسر الهمزة على المصدر، والباقون بفتحها على جمع السر.

﴿٢٧﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي الضرب، ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾، قال ابن عباس: بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، كرهوا ما فيه رضوان الله، وهو الطاعة والإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يعني المنافقين، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾، أن لن يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرفوا نفاقهم، واحدها ضغن، قال ابن عباس: حسدهم.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾، أي لأعلمناكهم وعرفناكهم، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، بعلامتهم، قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة تعرفهم بها.

قال أنس: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، في معناه ومقصده، واللحن: وجهان صواب وخطأ، فالفعل من الصواب لحن يلحن لحناً فهو لحن إذا فطن للشيء.

ومنه قول النبي ﷺ: «ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض».

والفعل من الخطأ لحن يلحن لحناً فهو لاحن، والأصل فيه إزالة الكلام عن جهته، والمعنى إنك تعرفهم فيما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله، ويستدل بفحوى كلامه على فساد دخيلته وعقيدته، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، ولنعاملنكم معاملة المختبر بأن نأمركم بالجهاد

والقتال، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي علم الوجود يريد حتى يتبين المجاهد والصابر على دينه من غيره، ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾، أي نظهرها ونكشفها بإباء من يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾، ويبلو بالياء فيهن، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، وقرأ الآخرون بالنون فيهن، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾، وقرأ يعقوب ﴿ونبلو﴾ ساكنة الواو رداً على قوله: ﴿ولنبلونكم﴾ وقرأ الآخرون بالفتح رداً على قوله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾.

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي رسول الله ﷺ، ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، إنما يضرون أنفسهم، ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فلا يرون لها ثواباً في الآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المطعمون يوم بدر، نظيرها قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

(٣٣) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، قال عطاء: بالشك والنفاق، وقال الكلبي: بالرياء والسمعة. وقال الحسن: بالمعاصي والكبائر.

وقال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإخلاص ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت هذه الآية فخافوا الكبائر بعد أن تحبط الأعمال.

وقال مقاتل: لا تمنوا على رسول الله ﷺ فتبطلوا أعمالكم، نزلت في بني أسد وسنذكره في سورة الحجرات إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، قيل: هم أصحاب القليب وحكمها عام.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾، لا تضعفوا ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، أي لا تدعوا إلى الصلح ابتداء، منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، الغالبون، قال الكلبي: آخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾، بالعون والنصرة، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وتراً وترة إذا نقص حقه، قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك: لن يظلمكم أعمالكم الصالحة بل يؤتيكم أجورها.

ثم حض على طلب الآخرة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، باطل وغرور، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾، الفواحش، ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، جزاء أعمالكم في الآخرة، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾، ربكم، ﴿أَمْوَٰلَكُمْ﴾، لإيتاء الأجر بل يأمركم بالإيمان والطاعة ليثيبكم عليها الجنة، نظيره قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧]، وقيل: لا يسألكم محمدٌ أموالكم، نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧، ص: ٨٦]، وقيل معنى الآية: لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات، إنما يسألانكم غيضاً من فيض، ربع العشر فطيبوا بها نفساً، وقُروا بها عيناً.

وإلى هذا القول ذهب ابن عيينة، يدل عليه سياق الآية: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾، أي يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى فلان فلاناً إذا جهده، وألحف عليه بالمسألة، ﴿تَبْخَلُوا۟﴾، بها فلا تعطوها، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾، بغضكم وعداوتكم، قال قتادة: علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني إخراج ما فرض الله عليكم، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، بما فرض عليه من الزكاة، ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾، عن صدقاتكم وطاعتكم، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، إليه وإلى ما عنده من الخير. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾، بل يكونوا أمثل منكم وأطوع لله منكم، قال الكلبي: هم كندة والنخع، وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: فارس والروم.

أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي نصر الكوفاني، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن عمر، حدثنا إسحاق النجيبي المصري المعروف بابن النحاس، أنا أبو الطيب الحسن بن محمد الرياش، ثنا يونس بن عبدالأعلى، ثنا ابن وهب، ثنا مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي

هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآيـة: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس».

❁ ❁ ❁

سورة الفتح

مدنية وهي تسع وعشرون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسير مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر نزّرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله فسلمت عليه، فقال: «لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني، ثنا أبو بكر محمد بن عبدالله حفيد العباس بن حمزة، ثنا الحسين بن الفضل البجلي، ثنا عفان، ثنا همام، ثنا قتادة، ثنا أنس قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى آخر الآية، مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطهم الحزن والكآبة، فقال: «نزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً»، فلما تلاها نبي الله ﷺ قال رجل من القوم: هنيئاً مريئاً لك قد بيّن الله ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله هذه الآية التي بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾، حتى ختم الآية.

(١) بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، اختلفوا في هذا الفتح، وروي عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس: أنه فتح مكة، وقال مجاهد: فتح خيبر، والأكثرون على أنه صلح الحديبية، ومعنى الفتح فتح المنغلق، والصلح مع المشركين بالحديبية كان متعذراً حتى فتحه الله عزّ وجلّ.

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

سُورَةُ الفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

٥١١

وروى شعبة عن قتادة عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: صلح الحديبية.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية كنّا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبّه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا.

وقال الشعبي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

﴿لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: فتح الحديبية، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس.

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، أسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، أي قضينا لك قضاء بيناً. وقال الضحاك: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً بغير قتال، وكان الصلح من الفتح المبين، قيل: اللام في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ لام كي، معناه إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح. وقال الحسين بن الفضل: هو مردود إلى قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

﴿٢﴾ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية.

وقال محمد بن جرير: هو راجع إلى قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك في الجاهلية قبل الرسالة، وما تأخر إلى وقت نزول هذه السورة. وقيل: ما تأخر مما يكون، وهذا على طريقة من يجوز الصغائر على الأنبياء. وقال سفيان الثوري: «ما تقدم» ممّا عملت في الجاهلية و«ما تأخر» كل شيء لم تعمله، ويذكر مثل ذلك على طريق التأكيد، كما يقال: أعطى من رآه ولم يره، وضرب من لقيه ومن لم يلقه. وقال عطاء الخراساني: ما تقدم من ذنبك: يعني ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، وما تأخر ذنوب أمتك بدعوتك. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، بالنبوة والحكمة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي يثبتك عليه، والمعنى ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام. وقيل: ويهديك أي يهدي بك.

﴿٣﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ غالباً. وقيل: معزاً.

﴿٤﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾، الطمأنينة والوقار، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم، قال ابن عباس كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلا التي في سورة البقرة [٢٤٨]، ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾، قال ابن عباس: بعث الله رسوله بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الجهاد، حتى أكمل لهم دينهم، فكلما أُمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم. وقال الضحاك: يقيناً مع يقينهم. قال الكلبي: هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿٥﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وقد ذكرنا عن أنس أن الصحابة قالوا لما نزل «ليغفر لك الله»: هنيئاً مريئاً فما يفعل بنا فنزل: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية.

﴿٦﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، يريد أهل النفاق بالمدينة وأهل الشرك بمكة، ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، أن لن ينصر [الله] محمداً والمؤمنين، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، بالعذاب والهلاك، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

(٧) - (٩) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾، أي تعينوه وتنصروه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، تعظموه وتفخموه هذه الكنايات راجعة إلى النبي ﷺ وههنا وقف، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أي تسبحوا الله يريد تصلوا له، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، بالغداة والعشي، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿وليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبحوه﴾ بالياء فيهن لقوله: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيهن.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾، يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا حاتم بن إسماعيل، عن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج، ثنا يحيى بن يحيى، ثنا يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبدالله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر.

قال أبو عيسى: معنى الحديثين صحيح بايعه جماعة على الموت، أي لا نزال نقاتل بين يديك ما لم نقتل، وبايعه آخرون، وقالوا: لا نفر.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يد الله بالوفاء لما وعدهم من الخير فوق أيديهم. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم في المبايعة. قال الكلبي: نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾، نقض البيعة، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، عليه وباله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾، ثبت على البيعة، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾، قرأ أهل العراق ﴿فسيؤتيه﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالنون، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وهو الجنة.

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد: يعني أعراب بني غفار ومزينة وجهينة، وأشجع وأسلم، وذلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب وتخلفوا واعتلوا بالشغل، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ يعني الذين خلفهم الله عزّ وجلّ عن صحبتك، فإذا انصرفت من سفرك إليهم فعاتبهم على التخلف عنك.

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، يعني النساء والذراري أي لم يكن لنا من يخلفنا فيهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، تخلفنا عنك، فكذبهم الله عزّ وجلّ في اعتذارهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، من أمر الاستغفار، فإنهم لا يبالون استغفر لهم النبي ﷺ أو لا.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾، سوءاً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿ضراً﴾ بضم الضاد، وقرأ الآخرون بفتحها لأنه قابله بالنفع والنفع ضد الضر، وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، ويعجل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم الله تعالى: إن أراد بهم شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه. ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي ظننتم أن العدو يستأصلهم فلا يرجعون، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أكلة رأس، فلا يرجعون، فأين تذهبون

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

معه انتظروا ما يكون من أمرهم. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، هلكى لا تصلحون لخير.

(١٣) ـ (١٥) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾، يعني هؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية، ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ﴾، سرتم وذهبتم أيها المؤمنون، ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾، يعني غنائم خيبر، ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، إلى خيبر نشهد معكم قتال أهلها، وذلك أنهم لما انصرفوا من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضاً عن غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئاً، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ بغير ألف جمع كلمة، وقرأ الآخرون: ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾، يريدون أن يغيروا مواعيد الله تعالى لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة.

وقال مقاتل: يعني أمر الله نبيه ﷺ أن لا يسير منهم أحد، قال ابن زيد: هو قول الله عز وجل: فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣]، والأول أصوب، وعليه عامة أهل التأويل، ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، إلى خيبر، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، أي يمنعكم الحسد من أن نصيب معكم الغنائم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾، لا يعلمون عن الله ما لهم وعليهم من الدين، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، منهم وهو من صدق الله والرسول.

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وعطاء: هم أهل فارس. وقال كعب: هم الروم. وقال الحسن: فارس والروم. وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهري ومقاتل وجماعة: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب. قال رافع بن خديج: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم. وقال ابن جريج: دعاهم عمر رضي الله عنه إلى قتال فارس. وقال أبو هريرة: لم يأت تأويل هذه الآية بعد. ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾، يعني الجنة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾، تعرضوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾، عام الحديبية، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهو النار، فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟

(١٧) فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾، يعني في التخلف عن الجهاد، ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿ندخله﴾ و﴿نعذبه﴾، بالنون فيهما، وقرأ الآخرون بالياء لقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

(١٨) ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾، بالحديبية على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، وكانت سمرة.

قال سعيد ابن المسيب: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة، فقال: أين

كانت؟ فجعل بعضهم يقول ههنا وبعضهم ههنا، فلما كثر اختلافهم قال سيروا، قد ذهبت الشجرة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان قال عمرو: سمعت جابر بن عبدالله قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»، وكنا ألفاً وأربع مائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن حاتم، ثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره.

وروى سالم عن جابر قال: كنا خمس عشرة مائة.

وقال عبدالله بن أبي أوفى: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة، وكانت أسلم ثُمُنَ المهاجرين.

وكان سبب هذه البيعة ـ على ما ذكره محمد بن إسحاق عن أهل العلم ـ أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الحديبية، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له، يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس [بمكة] من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت بحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فنزل عن دابته وحمله بين يديه، ثم أردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان وعظماء قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى تناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، قال بكر بن الأشج: بايعوه على الموت، فقال رسول الله ﷺ: بل على ما استطعتم.

وقال جابر بن عبدالله ومعقل بن يسار: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر، فكان أول من بايع بيعة الرضوان رجلاً من بني أسد يقال له أبو سنان بن وهب، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا جد بن قيس أخو بني سلمة، قال جابر: لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته مستتراً بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، ثنا علي بن أحمد بن نصرويه، ثنا أبو عمران موسى بن سهل بن عبدالحميد الجوني، ثنا محمد بن رمح، ثنا الليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

قوله عز وجل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، من الصدق والوفاء، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾، الطمأنينة والرضا، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، يعني فتح خيبر.

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، من أموال يهود خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال، فاقتسمها رسول الله ﷺ بينهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾، وهي الفتوح التي تفتح لهم إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾، يعني خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾، وذلك أن النبي ﷺ

لما قصد خيبر وحاصر أهلها همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة، فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقيل: كفّ أيدي الناس عنكم يعني أهل مكة بالصلح، ﴿وَلِتَكُونَ﴾، كفهم وسلامتكم، ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، على صدقك ويعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، يثبتكم على الإسلام ويزيدكم بصيرة ويقيناً بصلح الحديبية وفتح خيبر، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم سنة سبع إلى خيبر.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن حميد، عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ: كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر إليهم، فإن سمع أذاناً كف عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد ـ والله ـ محمد والخميس، فلجأوا إلى الحصن، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، أنا أبو علي الحنفي، ثنا عبيد الله بن عبدالمجيد، ثنا عكرمة بن عمار، ثنا إياس بن سلمة حدثني أبي قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ، قال فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم:

«تاللّهِ لولا اللّهِ ما اهتدينا
ولا تصدّقنا ولا صلّينا
ونحنُ عن فضلك ما استغنينا»
«فثبّتِ الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكينةً علينا
إن الألى قد بغوا علينا»

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» فقال: أنا عامر [قال] غفر لك ربك، قال وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، قال: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله لولا ما متعتنا بعامر، قال فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

«قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلتهب»

قال: وبرز له عمي عامر، فقال:

«قد علمت خيبر أني عامرُ
شاكي السلاح بطلٌ مغامِرُ»

قال فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، وكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطلَ عملُ عامر قتل نفسه، قال رسول الله ﷺ: «من قال ذلك؟» قلت: ناس من أصحابك، قال: «كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين»، ثم أرسلني إلى علي رضي الله عنه وهو أرمد، فقال: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، قال: فأتيت علياً رضي الله عنه فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج مرحب فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي رضي الله عنه:

أنا الذي سمتني أمي حيدره
كليث غابات كريه المنظرة
أُوفيهم بالصاع كيل السندرة

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

وروى حديث خيبر [جماعة] سهل بن سعد، وأنس، وأبو هريرة، يزيدون وينقصون وفيه: أن رسول الله ﷺ كان قد أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فأخذ أبو بكر رضي الله عنه راية رسول الله ﷺ، ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع فأخذها عمر رضي الله عنه فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال

الأول، ثم رجع، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه»، فدعا علي بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال له: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك، فأتى مدينة خيبر، فخرج مرحب، صاحب الحصن وعليه مغفر وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز، فبرز إليه علي فضربه فقدَّ الحجر والبيضة والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف في الأضراس، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، وهو يرتجز، فخرج إليه الزبير بن العوام، فقالت أمه صفية بنت عبدالمطلب: أو يقتل ابني يا رسول الله؟ قال: لا بل ابنك يقتله إن شاء الله، ثم التقيا فقتله الزبير، ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون، ويقتل المقاتلة ويسبي الذرية، ويحوز الأموال.

قال محمد بن إسحاق: وكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن سلمة ألقت عليه اليهود حجراً فقتله، ثم فتح العموص، حصن بن أبي الحقيق، فأصاب منه سبايا، منهم صفية بنت حيي بن أخطب، جاء بلال بها وبأخرى معها، فمر بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: أعزبوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى: أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما، وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً، فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها منها، فأتي رسول الله ﷺ بها وبها أثر منها فسألها ما هو، فأخبرته هذا الخبر وأتى رسول الله ﷺ بزوجها كنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضر فسأله، فجحده أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ برجل من اليهود فقال لرسول الله إني قد رأيت كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أنقتلك؟» قال: نعم.

فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله ما بقي فأبى أن يؤديه، فأمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزنده في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يعقوب بن إبراهيم، ثنا ابن علية، ثنا عبدالعزيز بن صهيب، عن أنس أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني لأنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ، فلما دخل القرية قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، قالها ثلاثاً، قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد، قال عبدالعزيز، وقال بعض أصحابنا: والخميس يعني الجيش، قال: فأصبناها عنوة فجمع السبي فجاء دحية فقال: يا نبي الله أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها فجاء بها فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها، قال: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها.

فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها فتزوجها، حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل فأصبح النبي ﷺ عروساً، فقال: من كان عنده شيء فليجيء به، وبسط نطعاً فجعل الرجل يجيء

بالتمر وجعل الآخر يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حيساً فكانت وليمة رسول الله ﷺ.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا موسى بن إسماعيل، ثنا عبدالواحد ثنا الشيباني قال: سمعت ابن أبي أوفى يقول: أصابتنا مجاعة ليالي خيبر، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية فانتحرناها، فلما غلت القدور نادى منادي رسول الله ﷺ اكفئوا القدور ولا تطعموا من لحوم الحمر شيئاً.

قال عبدالله [ابن أبي أوفى]: فقلنا إنما نهى النبي ﷺ عنها لأنها لم تخمس.

وقال آخرون: حرمها البتة.

وسألت عنها سعيد بن خيبر فقال: حرمها البتة.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا يحيى بن حبيب الحارثي، أنا خالد بن الحارث، ثنا شعبة، عن هشام بن زيد، عن أنس أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك، فقالت: أردت أن أقتلك، قال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك، أو قال علي» قال: قالوا ألا تقتلها يا رسول الله؟ قال: «لا» وتجاوز عنها رسول الله ﷺ، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن إسماعيل: قال يونس: عن الزهري قال عروة، قالت عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن بشار، أنا حرمي، أنا شعبة قال أخبرني عمارة، عن عكرمة، عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر.

أنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أحمد بن المقدام، ثنا فضيل بن سليمان، ثنا موسى بن عقبة، أخبرني نافع، عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله ﷺ: نقركم على ذلك ما شئنا، فأقروا حتى أجلاهم عمر في أمارته إلى تيماء وأريحاء.

قال محمد بن إسحاق: فلما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بخيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ويحقن لهم دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل. ثم إن أهل خيبر سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف، ففعل على أنا إذا شئنا أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب، فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السم، وسمّمت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع فأخذها فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر عنها، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل.

قال: ودخلت أم بشر [بن] البراء على رسول الله ﷺ تعوده في مرضه الذي توفي فيه، فقال: «يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع

ابنك تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري».

وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله من النبوة.

﴿٢١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾، أي وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾، حتى يفتحها لكم كأنه حفظها لكم ومنعها من غيركم حتى تأخذوها، قال ابن عباس: علم الله أنه يفتحها لكم، واختلفوا فيها، فقال ابن عباس والحسن ومقاتل: هي فارس والروم، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا خولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام. وقال الضحاك وابن زيد: هي خيبر، وعدها الله نبيه ﷺ قبل أن يصيبها، ولم يكونوا يرجونها. وقال قتادة: هي مكة. وقال عكرمة: حنين. وقال مجاهد: ما فتحوا حتى اليوم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أسد وغطفان وأهل خيبر، ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾، لانهزموا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي كسنة الله في نصر أوليائه وقهر أعدائه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿٢٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، قرأ أبو عمرو بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، واختلفوا في هؤلاء.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عمرو بن محمد الناقد، ثنا يزيد بن هارون، أنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنهم: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة، هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غِرّة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال عبدالله بن مغفل المزني: كنا مع النبي ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، على ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب بين يديه يكتب كتاب الصلح، فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم نبي الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: جئتم في عهدٍ أو جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: اللهم لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، الآية. روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ من المدينة زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، يريدون زيارة البيت، لا يريدون قتالاً، وساق معه سبعين بدنةً، والناس سبعمائة رجل، وكانت كل بدنة عن عشرة نفر، فلما أتى ذا الحُليفة قلّد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان، أتاه عتبة الخزاعي وقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

٥١٤

وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس، أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه»، فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله، فنفروا، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حلّ حلّ، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياه، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتربضه الناس تربُضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، وشكى الناس إلى النبي ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبي ﷺ، فنزل في البئر فغرزه في جوفه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي نزلوا على أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلّو بيني وبين البيت، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا قد جَمُّوا، وإن هم أبو فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، قال فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذووا الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: أي قوم ألست بالوالد؟ قالوا: بلى قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني بشيء من أمر محمد؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلّحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا [الرجل] قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: يا محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً وإني لا أرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر الصديق: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، فقال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيْ غدر ألست أسعى في غدرتك، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال:

أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظرة تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له»، واستقبله الناس يلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت؟ فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت، ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراه»، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صدّ الهدي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، فقالوا له: اجلس إنما أنت رجل أعرابي لا علم لك، فغضب الحليس عند ذلك، فقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاءه معظماً له، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه، كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا بما نرضى به، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال عكرمة فلما رآه النبي ﷺ قال: «قد سهل لكم من أمركم»، قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات نكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ لعلي: اكتب باسمك اللهم، ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب يا علي محمد بن عبدالله».

قال الزهري: وذلك لقوله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله ألا أعطيتهم إياها، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض، فقال له النبي ﷺ: وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به، فقال سهيل: والله لا نخلي بينكم وبينه في هذا العام لربما تتحدث العرب إنا أُخِذْنا ضُغْطة منكم ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

وروى أبو إسحاق عن البراء قصة الصلح وفيه قالوا: لو نعلم إنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبدالله، قال: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبدالله» ثم قال لعلي رضي الله عنه: «أمحُ رسول الله»، قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، قال: «فأرنيه» فأراه إياها، فمحاه النبي ﷺ بيده وفي رواية فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن أن يكتب، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبدالله، قال البراء: صالح على ثلاثة أشياء على أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يرده، وعلى أن يدخلها من قابل، ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بجلبّان السلاح السيف والقوس ونحوه.

وروى ثابت عن أنس: أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ فاشترطوا: إن من جاءنا منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً، ومخرجاً».

رجعنا إلى حديث الزهري قال: فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو، يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: فما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، ثم جعل سهل يجره ليرده إلى قريش، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا جندل احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً وأنا لا نغدر» فوثب عمر يمشي إلى جنب أبي جندل، فقال: اصبر فإنما هم المشركون ودم أحدهم كدم كلب ويدني قائم السيف منه، قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضن الرجل بأبيه، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ذلك دخل الناس أمر عظيم حتى كادوا يهلكون، وزادهم أمر أبي جندل شراً إلى ما بهم.

قال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ.

قال الزهري في حديثه عن عروة عن مروان والمسور، ورواه أبو وائل عن سهل بن حنيف قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت النبي ﷺ، فقلت: ألست نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: : «بلى»، قلت: فلِمَ نُعطي الدنيّة في ديننا إذن؟ قال: «إني رسول الله ولستُ أعصيه وهو ناصري»، قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي في البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله ليس يعصي ربَّه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومُطوِّف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضاً غمّاً وحزناً.

قال ابن عمر وابن عباس: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلّقين» قالوا: والمقصرين؟ قال: «يرحم الله المحلقين». قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: «والمقصرين»، قالوا: يا رسول الله فلِمَ ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال «لأنهم لم يشكوا».

قال ابن عمر: وذلك أنه تربص قوم وقالوا لعلنا نطوف بالبيت.

قال ابن عباس: وأهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك.

وقال الزهري في حديثه: ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾، حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج أحدهما معاوية بن أبي سفيان، الأخرى صفوان بن أمية، قال: فنهاهم أن يردوا النساء، وأمر بردّ الصداق، قال: ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير عتبة بن أسيد، رجل من قريش وهو مسلم، وكان ممن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق الثقفي إلى رسول الله ﷺ وبعثا في طلبه رجلاً من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله ﷺ وقالا: العهد الذي جعلت لنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»، ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحُليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر من غمده، فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأخذه وعلا به فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: «ويلك مالك»؟ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً السيف حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب، لو كان معه أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وبلغ المسلمين الذين احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبي بصير: ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد فخرج عصابة منهم إليه، وانفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقدموا عليه بالمدينة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ حتى بلغ ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ﷺ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت.

(٢٥) قال الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني كفار مكة، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أن تطوفوا به. ﴿وَالْهَدْيَ﴾، أي وصدوا الهدي وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ وكانت سبعين بدنة، ﴿مَعْكُوفًا﴾، محبوساً، يقال: عكفته عكفاً إذا حبسته وعكوفاً للازم، كما يقال: رجع رجعاً ورجوعاً، ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾، منحره وحيث يحل نحره يعني الحرم، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾، يعني المستضعفين بمكة، ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، لم تعرفوهم، ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾، بالقتال وتوقعوا بهم، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، قال ابن زيد: معرة إثم. وقال ابن إسحاق: غرم الدية. وقيل: الكفارة لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وقيل: هو أن المشركين يعيبونكم ويقولون قتلوا أهل دينهم، والمعرة المشقة، يقول: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم فيلزمكم بهم كفارة أو يلحقكم سبة، وجواب لولا محذوف، تقديره: لأذن لكم في دخولها ولكنه حال بينكم وبين ذلك. ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، فاللام في «ليدخل» متعلق بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام، يعني حال بينكم وبين ذلك ليدخل الله في رحمته في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوها، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾، لو تميزوا يعني المؤمنين من الكفار، ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، بالسبي والقتل بأيديكم، وقال بعض أهل العلم: «لعذبنا» جواب لكل من الآيتين

أحدهما: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ﴾، والثاني: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾، ثم قال: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، يعني المؤمنين والمؤمنات، وقوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾، أي جنته. وقال قتادة في هذه الآية: إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة.

﴿٢٦﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾، حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا محمداً رسول الله ﷺ، والحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية إذا كان ذا غضب وأنفة. قال مقاتل: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعزى لا يدخلونها علينا، فهذه ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، التي دخلت قلوبهم، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، حتى لم يدخلهم ما دخلهم من الحمية فيعصوا الله في قتالهم، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، والسدي، وابن زيد وأكثر المفسرين: كلمة التقوى «لا إله إلا الله» وروي عن أبي بن كعب مرفوعاً.

وقال علي وابن عمر: كلمة التقوى لا إله إلا الله والله أكبر. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال الزهري: هي بسم الله الرحيم الرحيم. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾، من كفار مكة، ﴿وَأَهْلَهَا﴾، أي وكانوا أهلها في علم الله لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، وذلك أن النبي ﷺ أري في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلقون رؤوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم دخلوا مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقّ عليهم ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

وروي عن مجمع بن جارية الأنصاري: قال شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر، فقال بعضهم: ما بال الناس؟ فقالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، قال فخرجنا نوجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع إليه الناس قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فقال عمر: أوفتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده».

ففيه دليل على أن المراد بالفتح صلح الحديبية، وتحقق الرؤيا كان في العام المقبل، فقال جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾، أخبر أن الرؤية التي أراها إياه في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق. قوله ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ يعني وقال: لتدخلن.

وقال ابن كيسان: لتدخلن من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه، فأخبر الله عن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك، وإنما استثنى مع علمه بدخولها بإخبار الله تعالى، تأدباً بآداب الله، حيث قال له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]. وقال أبو عبيدة: ﴿إِن﴾ بمعنى إذ مجازه: إذ شاء الله، كقوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال الحسين بن الفضل: يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول لأن بين الرؤيا وتصديقها سنة، ومات في تلك السنة ناس فمجاز الآية: لتدخلن المسجد الحرام كلكم إن شاء الله، وقيل الاستثناء واقع على الأمر لا على الدخول، لأن الدخول لم يكن فيه شك.

كقول النبي ﷺ عند دخول المقبرة: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، فالاستثناء راجع إلى اللحوق بأهل لا إله إلا الله إلى الموت. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾، كلها، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾، بأخذ بعض شعورها، ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، أن الصلاح كان في الصلح وتأخير الدخول، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾، الآية. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي من قبل دخولكم المسجد الحرام،

مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

(مدنية ٤٩) (آياتها ١٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو صلح الحديبية عند الأكثرين، وقيل: فتح خيبر.

﴿٢٨﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، على أنك نبي صادق صالح فيما تخبر.

﴿٢٩﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، تم الكلام ههنا، قال ابن عباس، شهد له بالرسالة، ثم قال مبتدئاً ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، قالوا: وفيه واو الاستئناف أي والذين معه من المؤمنين، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، غلاظ عليهم كالأسد على فريسته لا تأخذهم فيهم رأفة، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، متعاطفون متوادون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد، كما قال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أخبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أن يدخلهم الجنة، ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، أن يرضى عنهم، ﴿سِيمَاهُمْ﴾، أي علامتهم، ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

اختلفوا في هذا السيما.

فقال قوم: هو نور وبياض في وجوههم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا، وهو رواية عطية العوفي عن ابن عباس، قال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس: استنارت وجوههم من كثرة ما صلوا.

وقال شهر بن حوشب: تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر.

وقال آخرون: هو السمت الحسن والخشوع والتواضع. وهو رواية الوالبي عن ابن عباس قال: ليس بالذي ترون لكنه سيماء الإسلام وسجيته وسمته وخشوعه، وهو قول مجاهد: والمعنى: أن السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذي يعرفون به.

وقال الضحاك: هو صفرة الوجه من السهر. قال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هو بمرضى.

قال عكرمة وسعيد بن جبير: هو أثر التراب على الجباه. قال أبو العالية لأنهم يسجدون على التراب لا على الأثواب. وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ عل الصلوات الخمس. ﴿ذَٰلِكَ﴾، الذي ذكرت، ﴿مَثَلُهُمْ﴾، صفتهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، ههنا تم الكلام ثم ذكر نعتهم في الإنجيل، فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾، صفتهم، ﴿فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾.

قرأ ابن كثير وابن عامر: شطأه بفتح الطاء، وقرأ الآخرون بسكونها وهما لغتان كالنهْر والنهَر، وأراد فراخه، يقال أشطأ الزرع فهو مشطئ، إذا أفرخ، قال مقاتل: هو نبت واحد فإذا خرج ما بعده فهو شطؤه.

وقال السدي: هو أن يخرج معه الطاقة الأخرى. قوله: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾، قرأ ابن عامر: ﴿فأزره﴾ بالقصر والباقون بالمد، أي قواه وأعانه وشدّ أزره، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾، ذلك الزرع، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، أي تم وتلاحق نباته وقام، ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾، أعجب ذلك زراعه، هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون.

قال قتادة: مثل أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وقيل: الزرع محمد والشطء أصحابه والمؤمنون.

وروي عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ عثمان بن عفان رضي الله عنه، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ﴿يَبْتَغُونَ

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بقية العشرة المبشرين بالجنة.

وقيل: ﴿كَزَرْعٍ﴾ محمد ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، أبو بكر ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ عمر ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ عثمان للإسلام ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ علي بن أبي طالب استقام الإسلام بسيفه، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ قال: هم المؤمنون ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، قول عمر لأهل مكة بعدما أسلم: لا تعبدوا الله سراً بعد اليوم.

حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد الشجاعي السرخسي املاءً، أنا أبو بكر عبدالله بن أحمد القفال، ثنا أبو أحمد عبدالله بن محمد الفضل السمرقندي، ثنا شيخي أبو عبدالله محمد بن الفضل البلخي، ثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد، ثنا عبدالعزيز بن محمد الدراوردي، عن عبدالرحمن بن حميد، عن أبيه، عن عبدالرحمن بن عوف: أن النبي ﷺ، قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة».

حدثنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن عثمان بن قاسم، ثنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الطرابلسي، ثنا أحمد بن هاشم الأنطاكي، ثنا قطبة بن العلاء، ثنا سفيان الثوري، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي [بأمتي] أبو بكر، وأشدهم في [أمر] الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرأهم أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

ورواه معمر عن قتادة مرسلاً وفيه: «وأقضاهم علي».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا معلى بن أسد، ثنا عبدالعزيز بن المختار قال خالد الحذاء، ثنا عن أبي عثمان قال حدثني عمرو بن العاص أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثم مَنْ؟ قال: «عمر بن الخطاب»، فعدّ رجالاً فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم.

أخبرنا أبو منصور عبدالملك وأبو الفتح نصر بن الحسين، ابنا علي بن أحمد بن منصور محمد بن الحسين بن شاذويه الطوسي بها، قالا: ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب، نا الحسن بن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن شريك الأسدي، ثنا إبراهيم بن إسماعيل هو ابن يحيى بن سلمة بن كهيل، ثنا أبي عن أبيه عن سلمة عن أبي الزعراء عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمّار، وتمسكوا بعهد عبدالله بن مسعود».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن أبي حازم، عن سهل بن سعد أن أُحداً ارتج وعليه النبي ﷺ وأبو بكر [وعمر] وعثمان، فقال النبي ﷺ: «اثبتْ أحد ما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد».

أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، ثنا أبو سعيد الأشج، أنا وكيع، ثنا الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن زر بن حبيش، عن علي قال: عهد إليّ النبي ﷺ أنه لا يُحبُك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق.

أخبرنا أبو المظفر التميمي، أنا عبدالرحمن بن عثمان، أنا خيثمة بن سليمان، ثنا محمد بن عيسى بن حيان المدائني، ثنا محمد بن الفضل بن عطية، عن عبدالله بن مسلم عن عبدالله بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «من مات من أصحابي [بأرض] كان نورهم وقائدهم يوم القيامة».

قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، أي إنما كثرهم وقواهم ليكونوا غيظاً للكافرين.

قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

أخبرنا أبو الطيب طاهر بن محمد بن العلاء البغوي، ثنا أبو معمر الفضل بن إسماعيل بن إبراهيم الإسماعيلي أنا جدي أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، أخبرني الهيثم بن خلف الدوري، ثنا المفضل بن غسان بن المفضل العلائي، ثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، ثنا عبيدة بن أبي رابطة عن عبدالرحمن بن زياد عن عبدالله بن مغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه».

حدثنا أبو المظفر بن محمد بن أحمد بن حامد التميمي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن عثمان بن القاسم، أنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان، ثنا إبراهيم بن عبدالله العبسي القصار بالكوفة، أنا وكيع بن الجراح، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو عبدالله محمد بن الحسين الزعفراني، ثنا أبو محمد عبدالله بن عروة، ثنا محمد بن الحسين بن محمد بن إشكاب، ثنا شبابة بن سوار، ثنا فضيل بن مرزوق عن أبي خباب عن أبي سليم الهمداني، عن أبيه، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سرك أن تكون من أهل الجنة فإن قوماً ينتحلون حبك يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، نبزهم الرافضة فإن أدركتهم فجاهدهم فإنهم مشركون»، في إسناد هذا الحديث نظر، قول الله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ مِنْهُم﴾، قال ابن جرير: يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة، ورد الهاء والميم وقول على معنى الشطء لا على لفظه، ولذلك لم يقل: منه ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، يعني الجنة والله أعلم.

❁ ❁ ❁

سورة الحجرات

مدنية وهي ثمان عشرة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، قرأ يعقوب: ﴿لا تَقَدَّموا﴾ بفتح التاء والدال، من التقدم أي لا تقدموا، وقرأ الآخرون بضم التاء وكسر الدال، من التقديم، وهو لازم بمعنى التقدم، مثل بين وتبين، وقيل: هو متعد على ظاهره، والمفعول محذوف، أي: لا تقدموا القول والفعل بين يدي الله ورسوله.

قال أبو عبيدة تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي لا تعجل بالأمر والنهي دونه، ومعنى: بين اليدين الأمام، والقدام: أي لا تقدموا بين يدي أمرهما ونهيهما، واختلفوا في معناه، روى الشعبي عن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى، وهو قول الحسن، أي لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي ﷺ، وذلك أن ناساً ذبحوا قبل صلاة النبي ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سليمان بن حرب، ثنا شعبة، عن زبيد، عن الشعبي، عن البراء قال خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل أن نصلي فإنما هو لحم عجّله لأهله ليس من النسك في شيء».

وروى مسروق عن عائشة أنه في النهي عن صوم يوم الشك، أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن موسى، ثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم عن ابن أبي مليكه أن عبدالله بن عبدالله بن الزبير أخبرهم أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمّر

القعقاع معبد بن زرارة، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت.

ورواه نافع بن عمر الجمحي عن ابن أبي مليكة، قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وزاد: قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسْمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

ولم يذكر عن أبيه، يعني أبا بكر.

وقال قتادة: نزلت الآية في ناس كانوا يقولون لو أنزل في كذا، وصُنع في كذا وكذا، فكره الله ذلك. وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه.

وقال الضحاك: يعني في القتال وشرائع الدين لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، في تضييع حقه ومخالفة أمره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، أمرهم أن يبجلوه ويفخموه ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا ينادونه كما ينادي بعضهم بعضاً، ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، لئلا تحبط حسناتكم. وقيل: مخافة أن تحبط حسناتكم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أخبرنا إسماعيل [بن] عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا الحسن بن موسى، ثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ [عنه] سعد بن معاذ فقال: «يا أبا عمرو وما شأن ثابت أشتكي؟» فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة».

وروي أنه لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي، فمرّ به عاصم بن عدي فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيّ، وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملي، وأن أكون [من] أهل النار، فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ، وغلب ثابتاً البكاء، فأتى امرأته جميلة بنت عبدالله بن أبي [ابن] سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي فشدي عليّ الضبة بمسمار [فضربته بمسمار] وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عنّي رسول الله ﷺ، فأتى عاصم رسول الله ﷺ، فأخبره خبره فقال له: اذهب فادعه، فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسر الضبه فكسرها، فأتيا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت»؟ فقال: أنا صيّت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة»؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، ولا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ فأنزل الله:

(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال أنس: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا.

فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة الكذاب، رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم، فقال: أفٍ لهؤلاء، ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا.

واستشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام وأنه قال له: اعلم أن فلاناً رجل من المسلمين نزع درعي فذهب بها وهي في ناحية من المعسكر عند فرس يسير به في طِوَلِه وقد وضع على درعي برمة، فأتِ خالد بن الوليد وأخبره حتى يسترد درعي،

وأتِ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ وقل له: إن عليّ ديناً حتى يقضيه عني، وفلان وفلان من رقيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وصفه له، فاسترد الدرع، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته، قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه.

قال أبو هريرة وابن عباس: لما نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار.

وقال ابن الزبير: لما نزلت هذه الآية ما حدث عمر النبي ﷺ بعد ذلك فيسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾، يخفضون ﴿أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، إجلالاً له، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، اختبرها وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾، قرأ العامة بضم الجيم، وقرأ أبو جعفر بفتح الجيم، وهما لغتان، وهي جمع الحجر والحجر جمع الحجرة فهي جمع الجمع.

قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر وأمّر عليهم عيينة بن حفص الفزاري، فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة بن حصن وقدم بهم على رسول الله ﷺ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة، ووافقوا رسول الله ﷺ قائماً في أهله، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون، وكان لكل امرأة من نساء الله ﷺ حجرة، فعجّلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا، ويصيحون حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد فادنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو، وهو على دينكم؟» فقالوا: نعم، فقال سبرة: إني لا أحكم بينهم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة، فرضوا به، فقال الأعور: أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد رضيت»، ففادى نصفهم وأعتق نصفهم فقال رسول الله ﷺ من كان محرر من ولد إسماعيل فليعتق. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وصفهم بالجهل وقلة العقل.

﴿٥﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، قال مقاتل: لكان خيراً لهم لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال قتادة: نزلت في ناس من أعراب بني تميم جاؤوا إلى النبي ﷺ فنادوا على الباب.

ويروى ذلك عن جابر قال: جاءت بنو تميم فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين، وذمنا شين، فسمعها النبي ﷺ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين». فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشعرائنا وخطبائنا لنشاعرك ونفاخرك، فقال النبي ﷺ: «ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا ما عندكم»، فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه، فقال النبي ﷺ لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبي ﷺ: «قم فأجبه»، فأجابه، وقام شاعرهم فذكر أبياتاً، فقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «أجبه» فأجابه، فقام الأقرع بن حابس، فقال: إن محمداً

الجزء السادس والعشرون — سورة الحجرات

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

٥١٦

لموتى له والله ما أدري هذا الأمر تكلم خطيبنا، فكان خطيبهم أحسن من خطيبنا قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من النبي ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «ما يضرك ما كان قبل هذا»، ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم، وكان قد تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم، وأزرى به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ، فنزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآيات الأربع إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال زيد بن أرقم: جاء ناس من العرب إلى النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه، فجاؤوا فجعلوا ينادونه: يا محمد يا محمد، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، الآية.

نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقاً، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع به القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله عزّ وجلّ، فبدا له الرجوع، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد إليهم خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم قدوم قومه، وقال له: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار، ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾ يعني الوليد بن عقبة، ﴿بِنَبَإٍ﴾، بخبر، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟﴾، كي لا تصيبوا بالقتل والقتال، ﴿قَوْمًۢا﴾، براء، ﴿بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، من إصابتكم بالخطأ.

(٧) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذبوه، فإن الله يخبره ويعرفه أحوالكم فتفتضحوا، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾، أي الرسول، ﴿فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، مما تخبرونه به فيحكم برأيكم، ﴿لَعَنِتُّمْ﴾، لأثمتم وهلكتم، والعنت: الإثم والهلاك. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، فجعله أحب الأديان إليكم، ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾، حسنه ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾، حتى اخترتموه، وتطيعوا رسول الله ﷺ، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾، قال ابن عباس: يريد الكذب، ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾، جميع معاصي الله، ثم عاد من الخطاب إلى الخبر، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، المهتدون.

(٨) ﴿فَضْلًا﴾، أي كان هذا فضلاً، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، الآية.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، ثنا معتمر قال: سمعت أبي يقول: إن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبدالله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاهم النبي ﷺ فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما، فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

ويروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض.

وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لآخذن حقي منك عنوة، لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبي الله ﷺ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، ولم يكن بينهما قتال بالسيوف.

وقال سفيان عن السدي: كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد تحت رجل، وكان بينها وبين زوجها شيء فرقى بها إلى علية وحبسها، فبلغ ذلك قومها فجاؤوا، وجاء قومه فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما، ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، تعدت إحداهما، ﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله، ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾، ترجع، ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، في كتابه وحكمه، ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾، رجعت إلى الحق، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾، بحملهما على الإنصاف والرضا بحكم الله، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾، اعدلوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، في الدين والولاية، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، إذا اختلفا واقتتلا، قرأ يعقوب ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بالتاء على الجمع، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدي، أنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا الليث، عن عقيل، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كُرْبة فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

وفي هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين.

يدل عليه ما روي عن الحارث الأعور أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل وهو القدوة في قتال أهل البغي، عن أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ فقال: لا مِنَ الشرك فرّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

والباغي في الشرع هو الخارج على الإمام العدل، فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل، ونصبوا إماماً فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا على بغيهم قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته، ثم الحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم، ولا يذفف على جريحهم، نادى منادي علي رضي الله عنه يوم الجمل: ألا لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح.

وأتي علي رضي الله عنه يوم صفين بأسير فقال له: لا أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين.

وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس أو مال فلا ضمان عليها.

قال ابن شهاب: كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول، وأتلف فيها أموال كثيرة، ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم، وجرى الحكم عليهم، فما علمته اقتص من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه.

أما من لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إماماً فلا يتعرض لهم إن لم ينصبوا قتالاً ولم يتعرضوا للمسلمين، فإن فعلوا فهم كقطاع الطريق.

رُوي أن علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد: لا حكم إلا لله تعالى، فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم من مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال.

(١١) وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾، الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه كان في أذنه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه، فيسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم، فضن كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد، فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً يجلس فيه قام قائماً كما هو، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس، ويقول: تفسحوا تفسحوا، فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له: الرجل تفسح، فقال الرجل: قد أصبت مجلساً فاجلس، فجلس ثابت خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، فقال له ثابت: ابن فلانة، وذكر أماً له كان يعير بها في الجاهلية، فنكّس الرجل رأسه واستحيا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذي ذكرناهم، كانوا يستهزؤون بفقراء أصحاب النبي ﷺ مثل عمار وخبّاب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة، لما رأوا من رثاثة حالهم، فأنزل الله تعالى في الذين آمنوا منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ أي رجال من رجال، و«القوم» اسم يجمع الرجال والنساء، وقد يختص بجمع الرجال، ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

روي عن أنس أنها نزلت في نساء رسول الله ﷺ حين عيرن أم سلمة بالقِصَر.

وعن عكرمة عن ابن عباس: أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب، قال لها النساء: يهودية بنت يهوديين.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، أي لا يعب بعضكم بعضاً، ولا يطعن بعضكم على بعض، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، التنابز التفاعل من النبز وهو اللقب، وهو أن يدعى الإنسان بغير ما سمي به. قال عكرمة: وهو قول الرجل للرجل: يا فاسق يا منافق يا كافر.

وقال الحسن: كان اليهودي والنصراني يسلم، فيقال له بعد إسلامه يا يهودي يا نصراني، فنهوا عنه ذلك. قال عطاء: هو أن تقول لأخيك: يا كلب يا حمار يا خنزير.

وروي عن ابن عباس: قال: «التنابز بالألقاب» أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنهي أن يعير بما سلف من عمله. ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، أي بئس الاسم أن يقول يا يهودي أو يا فاسق بعد ما آمن وتاب، وقيل معناه: إن من فعل ما نُهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾، من ذلك، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾.

قيل: نزلت الآية في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما، ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيئ لهما شيئاً، فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئاً؟ قال: لا غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً، فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً، فقال

له رسول الله ﷺ: «انطلق إلى أسامة بن زيد، وقل له: إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك» وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ على رحله، فأتاه فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة طعامٌ ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً، فلما رجع قالا: لو بعثناك إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان، هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ، فلما جاءا إلى رسول الله قال لهما: «مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً، قال: «بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

وأراد أن يظن بأهل الخير سوءاً، ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، قال سفيان الثوري: الظن ظنان: أحدهما: إثم، وهو أن تظن وتتكلم به، والآخر: ليس بإثم وهو أن تظن ولا تتكلم. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾، التجسس هو البحث عن عيوب الناس، نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوارتهم حتى لا يظهر على ما ستره الله منها.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن الحسن الطوسي بها، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، أنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، أنا عبدالله بن ناجية، ثنا يحيى بن أكثم، أنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دلهم، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، ولا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورات المسلمين، يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم عند الله حرمه منك.

وقال زيد بن وهب: قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً، فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن يظهر لنا شيئاً نأخذه به. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، يقول: لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو الطاهر الحارثي، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك، عن المثنى بن الصبّاح، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً فقالوا: لا يأكل حتى يطعم، ولا يرحل حتى يرحل، فقال النبي ﷺ: «اغتبتموه»، فقالوا: إنما حدثنا بما فيه، قال: «حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، قال مجاهد: لما قيل لهم ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ قالوا: لا، قيل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً. قال الزجاج: تأويله: إن ذكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحم أخيك وهو ميت لا يحس بذلك.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي،

أخبرني ابن فنجويه، ثنا ابن أبي شيبة، ثنا الفريابي، ثنا محمد بن المصفى، ثنا أبو المغيرة عبدالقدوس بن الحجاج، حدثني صفوان بن عمرو، ثنا راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

قال ميمون بن سياه: بينما أنا نائم إذا أنا بجيفة زنجي وقائل يقول: كل، قلت: يا عبدالله ولِمَ آكل؟ قال: بما اغتبت عبد فلان، فقلت: والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً، قال: لكنك استمعت ورضيت به، فكان ميمون لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً يغتاب عنده أحداً.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، الآية.

قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس، وقوله للرجل الذي لم يفسح له: ابن فلانة، يُعيِّره بأمه، قال النبي ﷺ: «من الذاكر فلانة؟» فقال ثابت: أنا يا رسول الله ﷺ فقال: «انظر في وجوه القوم» فنظر فقال: «ما رأيت يا ثابت؟» قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى»، فنزلت في ثابت هذه الآية، وفي الذي لم يتفسح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ [المجادلة: ١١].

وقال مقاتل: لما كانت يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذن، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، قال الحارث بن هاشم: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا: فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزراء بالفقراء.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني آدم وحواء أي إنكم متساوون في النسب. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾، جمع شعب بفتح الشين، وهي رؤوس القبائل مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج، سموا شعوباً لتشعبهم واجتماعهم، كشعب أغصان الشجر، والشعب من الأضداد يقال: شَعَب أي: جمع، وشعب، أي: فرق. ﴿وَقَبَائِلَ﴾، وهي دون الشعوب، واحدتها قبيلة وهي كبكر من ربيعة وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر، واحدتها عمارة، بفتح العين ووهم كشيبان من بكر، ودارم من تميم، ودون العمائر البطون، واحدتها بطن، وهم كبني غالب ولؤي من قريش، ودون البطون الأفخاذ واحدتها فخذ وهم كبني هاشم وأمية من بني لؤي، ثم الفصائل والعشائر واحدتها فصيلة وعشيرة، وليس بعد العشيرة حي يوصف به، وقيل: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل. وقال أبو روق: الشعوب من الذين لا يعتزون إلى أحد، بل ينتسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، ليعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب وبعده، لا ليتفاخروا. ثم أخبر أن أرفعهم منزلة عند الله أتقاهم فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، قال قتادة: في هذه الآية إن أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور.

أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي، أنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه، أنا إبراهيم بن خزيم الشاشي، ثنا عبدالله بن حميد، ثنا يونس بن محمد، ثنا سلام بن أبي مطيع، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسب المال، والكرم التقوى».

قال ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى.

أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم، أنا عبدالله بن أحمد بن حمويه، أنا إبراهيم بن خزيم، ثنا عبد بن حميد، أنا الضحاك بن مخلد، عن موسى بن عبيدة، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه، فلما خرج لم يجد مناخاً، فنزل على أيدي الرجال، ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه،

وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتكبرها بآبائها [وفخرها بالآباء وتكبرها]، إنما الناس رجلان برٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، ثم تلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد هو ابن سلام، ثنا عبدة عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عمرو الناقد، ثنا كثير بن هشام، ثنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

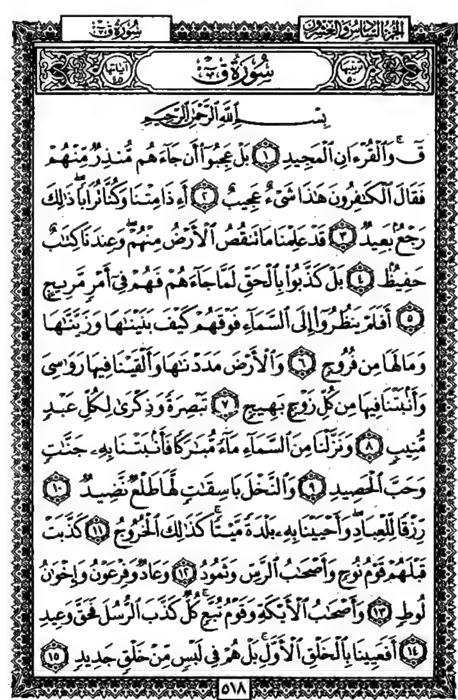
(١٤) قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾، الآية.

نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر، فأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون على النبي ﷺ، ويريدون الصدقة، ويقولون أعطنا، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقال السدي: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح، وهم أعراب من جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا يقولون: آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية فيهم، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ صدقنا، ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، انقدنا استسلمنا مخافة القتل والسبي، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، فأخبر أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيماناً دون التصديق بالقلب والإخلاص.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن غُرير الزهري، ثنا يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن صالح، عن ابن شهاب أخبرني عامر بن سعد عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس فيهم، قال: فترك رسول الله ﷺ فيهم رجلاً لم يعطه وهو أعجبهم إليّ، فقمت إلى رسول الله فساررته، فقلت: مالك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً، قال: «أو مسلماً» قال: فسكت قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً قال: «أو مسلماً» فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً قال: «أو مسلماً» قال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه».

فالإسلام هو الدخول إلى السلم وهو الانقياد والطاعة، يقال: أسلم الرجل إذا دخل في السلم كما يقال: أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء، وأصاف إذا دخل في الصيف، وأربع إذا دخل في الربيع، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان، والأبدان والجنان، كقوله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ظاهراً وباطناً سراً وعلانية. قال ابن عباس تخلصوا الإيمان، ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ قرأ أبو عمرو ﴿يا لتكم﴾ بالألف لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ [الطور: ٢١] والآخرون بغير ألف وهما لغتان معناهما لا ينقصكم، يقال: ألت يألت ألتا ولات يليت ليتاً إذا نقص،


الجزء السادس والعشرون | سورة ق

سُورَةُ قٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥

٥١٨

﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾، أي لا ينقص من ثواب أعمالكم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم بين حقيقة الإيمان.

(١٥) فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، لم يشكوا في دينهم، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، في إيمانهم، فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون، وعرف الله غير ذلك منهم.

(١٦) فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، والتعليم ههنا بمعنى الإعلام، ولذلك قال بدينكم وأدخل الباء فيه، يقول: أتخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لا يحتاج إلى إخباركم.

(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾، أي بإسلامكم، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، وفي مصحف عبدالله ﴿إذ هداكم للإيمان﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، إنكم مؤمنون.

(١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ ابن كثير «يعملون» بالياء وقرأ الآخرون بالتاء.

❀ ❀ ❀

سورة قٓ

مكية وهي خمس وأربعون آية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿قٓ﴾ قال ابن عباس: هو قسم، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن. وقال القرظي: هو مفتاح اسمه «القدير»، و«القادر» و«القاهر» و«القريب» و«القابض»، وقال عكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء، منه خضرة السماء، والسماء مقبية [عليه]، عليه كتفاها، ويقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة، وقيل: معناه قضي الأمر أو قضي ما هو كائن كما قالوا في ﴿حمٓ﴾ [السجدة: ١]. ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، الشريف الكريم على الله الكثير الخير واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال أهل الكوفة جوابه بل عجبوا وقيل جوابه محذوف، مجازه: والقرآن المجيد لتبعثن. وقيل: جوابه قوله ما يلفظ من قول. وقيل: قد علمنا، وجوابات القسم سبعة إنّ الشديدة كقوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] وما النفي كقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ و٣]، واللام المفتوحة كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وإن الخفيفة كقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧] ولا كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، و«قد» كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ١ و٩]، وبل كقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

(٢) ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ﴾، مخوف، ﴿مِّنْهُمْ﴾، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، غريب.

(٣) ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، نبعث ترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه، ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ﴾، أي رد إلى الحياة ﴿بَعِيدٌ﴾، وغير كائن أي يبعد أن نبعث بعد الموت.

(٤) قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي ما تأكل من لحومهم ودمائهم وعظامهم لا يعزب عن علمه شيء. قال السدي: هو الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى، ﴿وَعِندَنَا

كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، محفوظ من الشياطين ومن أن يدرس ويتغير وهو اللوح المحفوظ، وقيل: حفيظ أي حافظ لعدتهم وأسمائهم.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، بالقرآن، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾، مختلط، قال سعيد بن جبير ومجاهد: ملتبس. قال قتادة: في هذه الآية من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه. وقال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم. وذكر الزجاج معنى اختلاط أمرهم، فقال: هو أنهم يقولون للنبي ﷺ، مرة شاعر، ومرة ساحر، ومرة معلم، ويقولون للقرآن مرة سحر، ومرة رجز، ومرة مفترىً، فكان أمرهم مختلطاً ملتبساً عليهم، ثم دلهم على قدرته.

﴿٦﴾ فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾، بغير عمد، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾، بالكواكب، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، شقوق وفتوق وصدوع واحدها فرج.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، بسطناها على وجه الماء، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، جبالاً ثوابت، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، حسن كريم يبهج به، أي يسر بنظره.

﴿٨﴾ ﴿تَبْصِرَةً﴾، أي جعلنا ذلك تبصرة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾، أي تبصيراً وتذكيراً، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، أي ليتبصر به ويتذكر به.

﴿٩﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾، كثير الخير وفيه حياة كل شيء وهو المطر، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾، يعني البر والشعير وسائر الحبوب التي تحصد فأضاف الحب إلى الحصيد، وهما واحد لاختلاف اللفظين، كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول. وقيل: حب الحصيد أي حب النبت الحصيد.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: طوالاً، يقال: بسقت النخلة بسوقاً إذا طالت. وقال سعيد بن جبير: مستويات. ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ ثمر وحمل، سمي بذلك لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشق، ﴿نَّضِيدٌ﴾، متراكب متراكم منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد.

﴿١١﴾ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، أي جعلناها رزقاً للعباد، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾، أي بالمطر، ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، أنبتنا فيها الكلأ، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾، من القبور.

﴿١٢﴾ ـ ﴿١٤﴾ قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾، وهو تبع الحميري، واسمه أسعد أبو كرب، قال قتادة: ذم الله قومه ولم يذمه، ذكرنا قصته في سورة الدخان. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، أي كل من هؤلاء المذكورين كذب الرسل، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، وجب لهم عذابي ثم أنزل جواباً لقولهم ذلك رجع بعيد.

الجُزءُ السَّادِسُ وَالعِشرُونَ — سُورَةُ قٓ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

٥١٩

﴿١٥﴾ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾، يعني أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعيا بالإعادة وهذا تقرير لهم لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث، ويقال لكل من عجز عن شيء عيي به. ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾، أي في شك، ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وهو البعث.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، يحدث به قلبه فلا يخفى علينا سرائره وضمائره، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾، أعلم به، ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء، وحبل الوريد عرق العنق، وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين، يتفرق في سائر البدن، والحبل هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

﴿١٧﴾ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، أي يتلقى

ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه، ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾، أي أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. ﴿قَعِيدٌ﴾، أي قاعد، ولم يقل قعيدان لأنه أراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، هذا قول أهل البصرة، وقال أهل الكوفة: أراد قعوداً كالرسول يجعل للاثنين والجمع، كما قال الله تعالى في الاثنين: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، قيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. قال مجاهد: القعيد الرصيد.

(١٨) ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾، ما يتكلم من كلام فيلفظه أي يرميه من فيه، ﴿إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ﴾، حافظ، ﴿عَتِيدٌ﴾، حاضر أينما كان.

قال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين: عند غائطه وعند جماعه. وقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر فيه. وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر على الحنك، ومثله عن الحسن، وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته.

أخبرنا أبو سعيد الشرشيحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري، ثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، ثنا الفضل بن العباس بن مهران، ثنا طالوت، ثنا حماد بن سلمة أنا جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

(١٩) ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان. وقيل: بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة. ويقال: لمن جاءته سكرة الموت، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾، تميل، قال الحسن: تهرب. قال ابن عباس: تكره، وأصل الحيد الميل، يقال: حدتُ عن الشيء أحيد حيداً ومحيداً إذا ملت عنه.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، يعني نفخة البعث، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾، أي ذلك اليوم يوم الوعيد الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه. قال مقاتل: يعني بالوعيد العذاب أي يوم وقوع الوعيد.

(٢١) ﴿وَجَآءَتۡ﴾، ذلك اليوم، ﴿كُلُّ نَفۡسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾، يسوقها إلى المحشر، ﴿وَشَهِيدٌ﴾، يشهد عليها بما عملت، وهو عمله، قال الضحاك: السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل، وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وقال الآخرون: هما جميعاً من الملائكة.

(٢٢) فيقول الله لها: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَٰذَا﴾، اليوم في الدنيا، ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٌ﴾، نافذ تبصر ما كنت تنكر في الدنيا. وروي عن مجاهد قال: يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾، الملك الموكل به، ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، معد محضر، وقيل: ﴿ما﴾ بمعنى (من)، وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من ابن آدم حاضر عندي قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله.

(٢٤) فيقول الله عزّ وجلّ لقرينه: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾، هذا خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب، يقولون: ويلك ارحلاها وازجراها وخذاها وأطلقاها، للواحد، قال الفراء: وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه وسفره اثنان، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ومنه قولهم في الشعر للواحد خليلي. وقال الزجاج: هذا أمر للسائق والشهيد، وقيل: للمتلقيين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، عاص معرض عن الحق. قال عكرمة ومجاهد: مجانب للحق معاند لله.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ﴾، أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب في ماله، ﴿مُعۡتَدٍ﴾، ظالم لا يقر بتوحيد الله، ﴿مُّرِيبٍ﴾، شاك في التوحيد، ومعناه: داخل في الريب.

(٢٦) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾، وهو النار.

(٢٧) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾، يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر، ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾، ما أضللته وما أغويته، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، عن الحق فيتبرأ منه شيطانه، قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل: قال قرينه يعني الملك، قال سعيد بن جبير: يقول الكافر يا رب إن الملك زاد علي في الكتابة، فيقول الملك: ربنا ما أطغيته، يعني ما زدت عليه وما كتبت إلا ما قال وعمل، ولكن كان في ضلال بعيد، طويل لا يرجع عنه إلى الحق.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾، يعني يقول الله ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾، في القرآن وأنذرتكم وحذرتكم على لسان الرسول، وقضيت عليكم ما أنا قاض.

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾، لا تبديل لقولي وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال قوم: معنى قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: لا يكذب القول عندي، ولا يغير القول عن وجهه لأني أعلم الغيب. وهذا قول الكلبي، واختيار الفراء، لأنه قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ ولم يقل ما يبدل قولي ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فأعاقبهم بغير جرم.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بالياء، أي يقول الله لقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾، وقرأ الآخرون بالنون، ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾، وذلك لما سبق لها من وعده إياها أنه يملؤها من الجنة والناس، وهذا السؤال من الله عزّ وجلّ لتصديق خبره وتحقيق وعده، ﴿وَتَقُولُ﴾، جهنم، ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، قيل: معناه قد امتلأت فلم يبق في موضع لم يمتلىء، فهو استفهام إنكار، هذا قول عطاء ومجاهد ومقاتل ابن سليمان. وقيل: هذا استفهام بمعنى الاستزادة، وهو قول ابن عباس في رواية أبي صالح، وعلى هذا يكون السؤال بقوله: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾، قبل دخول جميع أهلها فيها.

وروي عن ابن عباس: أن الله تعالى سبقت كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فلما سيق أعداء الله إليها لا يُلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء، فتقول: ألست قد أقسمت لتملأني؟ فيضع قدمه عليها، تعالى عمّا يقول الظالمون، ثم يقول: هل امتلأت؟ فتقول: قط قط قد امتلأت فليس فيّ مزيد.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، ثنا أبو عبدالله الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي، أنا أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي، ثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني، ثنا شيبان بن عبدالرحمن، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه، فتقول قط قط وعزتك، وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله خلقاً فيسكنه فضول الجنة».

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، قربت وأدنيت، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، الشرك، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، [هل] ينظرون إليها قبل أن يدخلوها.

(٣٢) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، قرأ ابن كثير بالياء والآخرون بالتاء، يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، رجاع إلى الطاعة عن المعاصي.

قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الشعبي ومجاهد [هو] الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. وقال الضحاك: هو التوّاب. وقال ابن عباس وعطاء: هو المسبح، من قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠] وقال قتادة: هو المصلي. ﴿حَفِيظٍ﴾، قال ابن عباس: الحافظ لأمر الله، وعنه أيضاً: هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها. قال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه. قال الضحاك: المحافظ على نفسه المتعهد لها. قال الشعبي: المراقب، قال سهل بن عبدالله: هو المحافظ على الطاعات والأوامر.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، محل «مَنْ» جر على نعت الأوّاب. وقيل رفع على الاستئناف، ومعنى الآية: من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد، وقال الحسن: إذا أرخى

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

الستر وأغلق الباب. ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، مخلص مقبل إلى طاعة الله.

(٣٤) ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي يقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها، أي ادخلوا الجنة. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

(٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يعني الزيادة لهم في النعيم مما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس هو النظر إلى وجه الله الكريم.

(٣٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، ضربوا وساروا وتقلبوا وطافوا، وأصله من النقب، وهو الطريق كأنهم سلكوا كل طريق، ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾، فلم يجدوا محيصاً من أمر الله. وقيل: هل من محيص مفرّ من الموت؟ فلم يجدوا فيه، إنذاراً لأهل مكة وأنهم على مثل سبيلهم لا يجدون مفراً عن الموت يموتون، فيصيرون إلى عذاب الله.

(٣٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، فيما ذكرت من العبر والعذاب وإهلاك القرى، ﴿لذكرى﴾، تذكرة وعظة، ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، قال ابن عباس: أي عقل. قال الفراء: هذا جائز في العربية، تقول: مالك قلب وما قلبك معك، أي ما عقلك معك. وقيل له: قلب حاضر مع الله. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، استمع القرآن، واستمع ما يقال له لا يحدث نفسه بغيره، تقول العرب: ألقِ إلي سمعك، يعني استمع، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، يعني حاضر القلب ليس بغافل ولا ساه.

(٣٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، إعياء وتعب.

نزلت في اليهود حيث قالوا يا محمد: أخبرنا بما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، والجبال يوم الثلاثاء، والمدائن والأنهار والأقوات يوم الأربعاء، والسموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالث آدم» قالوا: صدقت إن أتممت، قال: وما ذاك؟ قالوا: ثم استراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم.

(٣٩) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، من كذبهم فإن الله لهم بالمرصاد، وهذا قبل الأمر بقتالهم، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي صل حمداً لله، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾، يعني صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، يعني صلاة العصر. وروي عن ابن عباس قال: قبل الغروب الظهر العصر.

(٤٠) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾، يعني صلاة المغرب والعشاء. وقال مجاهد: ومن الليل أي صلاة الليل أي وقت صلى. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ أهل الحجاز وحمزة: ﴿إدبار السُّجُود﴾ بكسر الهمزة، مصدر أدبر إدباراً، وقرأ الآخرون بفتحها على جمع الدبر. قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والحسن، والشعبي، والنخعي، والأوزاعي: أدبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر، وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وروي عنه مرفوعاً، هذا قول أكثر المفسرين.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد]

المليحي، أنا أبو المنصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو أيوب الدمشقي، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ معاهدةً منه على الركعتين أمام الصبح.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا صالح بن عبدالله، ثنا أبو عوانة عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى، عن سعد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، أنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا محمد بن المثنى، ثنا بدل بن المحبر، ثنا عبدالملك بن معدان عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود أنه قال: ما أحصي ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل صلاة الفجر: بقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد.

وقال مجاهد: قوله ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات.

أخبرنا أبو الحسين طاهر بن الحسين الروقي الطوسي بها، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب، أنا محمد بن [محمد بن] يوسف، ثنا محمد بن أيوب، أنا مسدد، ثنا خالد هو ابن عبدالله، ثنا سهيل عن أبي عبيد عن عطاء بن يزيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبح الله في دبر كل صلاة [مكتوبة] ثلاثاً وثلاثين، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، فذلك تسعة وتسعون، ثم قال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إسحاق، أنا يزيد، أنا ورقاء عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم، قال: «كيف ذاك؟» قالوا: صلّوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال، قال: «أفلا أخبركم بأمر تدركون به من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله: تسبحون في دُبرِ كل صلاة عشراً وتحمدون عشراً وتكبرون عشراً».

﴿٤١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أي واستمع يا محمد صيحة القيامة والنشور يوم ينادي المنادي، قال مقاتل: يعني إسرافيل ينادي بالحشر يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي وسط الأرض. قال الكلبي: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾، وهي الصيحة الأخيرة، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾، من القبور.

﴿٤٣﴾ ـ ﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، جمع سريع أي يخرجون سراعاً، ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا﴾، جمع علينا ﴿يَسِيرٌ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، يعني كفار مكة في تكذيبك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، بمسلط تجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، أي ما أوعدت به من عصاني من العذاب. قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله لو خوفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

❁ ❁ ❁

سورة الذاريات

مكية وهي ستون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، يعني الرياح التي تذر ذرواً، يقال: ذرت الريح التراب وأذرت.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

(٢) ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾، يعني السحاب التي تحمل ثقلاً من الماء.

(٣) ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾، هي السفن تجري في الماء جرياً سهلاً.

(٤) ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾، هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به، أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته.

(٥) ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾، من الثواب والعقاب، ﴿لَصَادِقٌ﴾.

(٦) ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، الحساب والجزاء، ﴿لَوَاقِعٌ﴾، لكائن.

(٧) ثم ابتدأ قسماً آخر فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذات الخلق الحسن المستوي، يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد: ما أحسن حبكه! قال سعيد بن جبير: ذات الزينة. قال الحسن: حبكت بالنجوم.

قال مجاهد: هي المتقنة البنيان. وقال مقاتل والكلبي والضحاك: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح، وحبك الرمل والشعر الجعد، ولكنها لا ترى لبعدها من الناس وهي جمع حباك وحبيكة، وجواب القسم قوله:

(٨) ﴿إِنَّكُمْ﴾، يا أهل مكة، ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، في القرآن وفي محمد ﷺ، تقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين، وفي محمد ﷺ ساحر وشاعر ومجنون. وقيل: لفي قول مختلف أي مصدق ومكذب.

(٩) ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾، يصرف عن الإيمان به من صرف حتى يكذبه، يعني من حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن. وقيل ﴿عن﴾ بمعنى: من أجل، أي: يصرف من أجل هذا القول المختلف أو بسببه عن الإيمان من صرف. وذلك أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون: إنه ساحر وكاهن ومجنون، فيصرفونه عن الإيمان، وهذا معنى قول مجاهد.

(١٠) ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾، لعن الكذابون، يقال: تخرّص على فلان الباطل، وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة، واقتسموا القول في النبي ﷺ ليصرفوا الناس عن دين الإسلام. وقال مجاهد: هم الكهنة.

(١١) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾، غفلة وعمى وجهالة ﴿ساهون﴾ لاهون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء، وهو ذهاب القلب عنه.

(١٢) ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾، يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء، يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاءً.

(١٣) ـ (١٤) قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾، أي يكون هذا الجزاء في يوم هم ﴿عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، أي يعذبون ويحرقون بها كما يفتن الذهب بالنار. وقيل: ﴿على﴾ بمعنى الباء أي بالنار، وتقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾، عذابكم، ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، في الدنيا تكذيباً به.

(١٥) ـ (١٦) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ﴾، أعطاهم، ﴿رَبُّهُمْ﴾، من الخير والكرامة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾، قبل دخولهم الجنة، ﴿مُحْسِنِينَ﴾، في الدنيا.

(١٧) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، والهجوع النوم بالليل دون النهار، و«ما» صلة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل أي يصلون أكثر الليل، وقيل: معناه كان الليل الذي ينامون فيه كله قليلاً، وهذا معنى قول سعيد بن جبير عن ابن عباس، يعني: كانوا قلّ ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها أو من أوسطها [أو من آخرها].

قال أنس بن مالك: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء. وقال

محمد بن علي: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة. قال مطرف بن عبدالله بن الشخير قلّ ليلة أتت عليهم هجعوها كلها. قال مجاهد: كانوا لا ينامون كل الليل. ووقف بعضهم على قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ أي كانوا من الناس قليلاً ثم ابتدا: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، وجعله جحداً أي لا ينامون بالليل البتة، بل يقومون للصلاة والعبادة، وهو قول الضحاك ومقاتل.

⑱ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال الحسن: لا ينامون من الليل إلا أقله، وربما نشطوا فمدوا إلى السحر، ثم أخذوا في الأسحار بالاستغفار. وقال الكلبي ومجاهد ومقاتل: وبالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد المخلدي، أنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، ثنا قتيبة، ثنا يعقوب بن عبدالرحمن، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من الذي يدعوني فأستجيب له؟ من الذي يسألني فأعطيه؟ من الذي يستغفرني فأغفر له».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان، ثنا سليمان بن أبي مسلم عن طاوس سمع ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: «اللهم لك الحمد أنت قيّمُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ـ ولا إله غيرك».

قال سفيان: وزاد عبدالكريم أبو أمية: «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا صدقة، أنا الوليد عن الأوزاعي، حدثني عمير بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أمية حدثني عبادة عن النبي ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قُبلت صلاته».

⑲ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، السائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له في الغنائم سهم، ولا يجري عليه من الفيء سهم، هذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، قالا: المحروم الذي ليس له في الإسلام سهم، ومعناه في اللغة: الذي مُنع الخير والعطاء. وقال قتادة والزهري: المحروم المتعفف الذي لا يسأل.

وقال زيد بن أسلم: هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وهو قول محمد بن كعب القرظي، قال: المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦].

⑳ ـ ㉑ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾، عِبَر، ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾، إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، آيات إذ كانت نطفةً ثم علقة ثم مضغةً ثم عظماً إلى أن نفخ فيها الروح، وقال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من السبيلين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث.

㉒ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾، قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١)

الذي هو سبب الأرزاق، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر. وقال الضحاك: وما توعدون من الجنة والنار، ثم أقسم بنفسه فقال:

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، أي ما ذكرت من أمر الرزق لحق، ﴿مِثْلَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿مثلُ﴾ برفع اللام بدلاً من الحق، وقرأ الآخرون بالنصب أي كمثل، ﴿مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، فتقولون: لا إله إلا الله. وقيل: شبّه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي، كما تقول: أنه لحق كما أنت ههنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: إنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة: وقال بعض الحكماء: يعني كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسانٍ يأكل رزق نفسه الذي قسم له. ولا يقدر أن يأكل رزق غيرُه.

(٢٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ذكرنا عددهم في سورة هود [٧٨]، ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾، قيل: سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله، وقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وكان إبراهيم أكرم الخليقة، وضيف الكرام مكرمون. وقيل: لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، والقيام بنفسه عليه وطلاقة الوجه. وقال بن أبي نجيح عن مجاهد: خدمته إياهم بنفسه.

وروي عن ابن عباس: سماهم مكرمين لأنهم جاؤوا غير مدعوين.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾، إبراهيم، ﴿سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾، أي غرباء لا نعرفكم، قال ابن عباس: قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم. وقيل: إنما أنكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ﴾، فعدل ومال، ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، مشوي.

(٢٧) ـ (٢٩) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾، ليأكلوا فلم يأكلوا، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾، أي صيحة، قيل: لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى أخذ في شتمي، أي أخذت تولول كما قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ﴾ [هود: ٧٢]، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾، قال ابن عباس: لطمت وجهها. وقال الآخرون: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً، كعادة النساء إذا أنكرن شيئاً، وأصل الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، مجازه: أتلد عجوز عقيم، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك.

(٣٠) ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾، أي كما قلنا لك قال ربك إنك ستلدين غلاماً، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

(٣١) ـ (٣٢) ﴿قَالَ﴾، إبراهيم، ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، يعني قوم لوط.

(٣٣) ـ (٣٤) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۝ مُسَوَّمَةً﴾، معلّمة، ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، قال ابن عباس: للمشركين، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾، أي في قرى قوم لوط، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١].

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾، أي

غير أهل بيت، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، يعني لوطاً وابنتيه، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم.

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾، أي في مدينة قوم لوط، ﴿ءَايَةً﴾، عبرة، ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، أي علامة للخائفين تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.

(٣٨) ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾، أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة. وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وفي موسى، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، بحجة ظاهرة.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾، أي فأعرض وأدبر عن الإيمان، ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾، أي بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم، كالركن الذي يتقوى به البنيان، نظيره قوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، قال أبو عبيدة: ﴿أو﴾، بمعنى الواو.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أغرقناهم فيه، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل.

(٤١) ﴿وَفِى عَادٍ﴾، أي وفي إهلاك عاد أيضاً آية، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾، وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، من أنفسهم وأنعامهم ومواشيهم وأموالهم، ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾، كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس وديس. قال مجاهد: كالتبن اليابس. قال قتادة: كرميم الشجر. قال أبو العالية: كالتراب المدقوق. وقيل: أصله من العظم البالي.

(٤٣) ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، يعني وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا ثلاثة أيام.

(٤٤) ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، يعني بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس، قال مقاتل: يعني العذاب، والصاعقة: كل عذاب مهلك، وقرأ الكسائي: ﴿الصعقة﴾، وهي الصوت الذي يكون في الصاعقة، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، يرون ذلك عياناً.

(٤٥) ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾، فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض. قال قتادة: لم ينهضوا من تلك الصرعة، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾، منتقمين منّا. قال قتادة: ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من الله.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿وقوم﴾، بجر الميم، أي وفي قوم نوح، وقرأ الآخرون بنصبها بالحمل على المعنى، وهو أن قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، معناه: أغرقناهم، كأنه قال: أغرقناهم وأغرقنا قوم نوح. ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي من قبل هؤلاء، وهم عاد وثمود وقوم فرعون. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

(٤٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾، بقوة وقدرة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لقادرون. وعنه أيضاً: لموسعون الرزق على خلقنا. وقيل: ذو سعة. وقال الضحاك: أغنياء، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، قال الحسن: المطيقون.

(٤٨) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾، بسطناها ومهدناها لكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، الباسطون نحن: قال ابن عباس: نعم ما وطأت لعبادي.

(٤٩) ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والجنة والنار، والحق والباطل، والحلو والمرّ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فتعلمون أن خالق الأزواج فرد.

(٥٠) ـ (٥١) ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه، بالإيمان والطاعة. قال ابن عباس: فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبدالله: فروا مما سوى الله إلى الله. ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

الجزء السابع والعشرون — سورة الذاريات

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

٥٢٣

ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي كما كذبك قومك يا محمد وقالوا ساحر أو مجنون كذلك، ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾، من قبل كفار مكة، ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

﴿٥٣﴾ ـ ﴿٥٤﴾ قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾، أي أوصى أولهم آخرهم وبعضهم بعضاً بالتكذيب وتواطؤوا عليه؟ والألف فيه للتوبيخ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، قال ابن عباس: حملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسعت عليهم على تكذيبك، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، لا لوم عليك فقد أديت الرسالة وما قصرت فيما أمرت به.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ واشتدّ ذلك على أصحابه، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فطابت أنفسهم.

قال مقاتل: معناه عظ بالقرآن كفار مكة، فإن الذكرى تنفع من سبق في علم الله أن يؤمن منهم. وقال الكلبي: عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

﴿٥٥﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، قال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين، يدل عليه قراءة ابن عباس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ من المؤمنين ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ثم قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقال بعضهم: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي والأشقياء منهم إلا لمعصيتي، وهذا معنى قول زيد بن أسلم، قال: هم على ما جُبلُوا عليه من الشقاوة والسعادة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إلا ليعبدون. أي: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي، يؤيده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]، وقال مجاهد: إلا ليعرفوني. وهذا أحسن لأنه لو لم يخلقهم لم يُعْرَف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقيل: معناه إلا ليخضعوا إلي ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة: التذلل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، ومتذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه قدر ذرة من نفع وضرر. وقيل: إلا ليعبدوني إلا ليوحدوني، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]،

﴿٥٦﴾ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾، أي أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، أي أن يطعموا أحداً من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه.

كما جاء في الحديث: يقول الله: «يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني»، أي فلم تطعم عبدي، ثم بيّن أن الرزاق هو لا غيره فقال:

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، يعني لجميع خلقه، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، وهو القوي المتقدر المبالغ في القوة والقدرة.

﴿٥٨﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، كفروا من أهل مكة، ﴿ذَنُوبًا﴾، نصيباً من العذاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾، مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا من قوم نوح وعاد وثمود، وأصل

الذنوب في اللغة: الدلو العظيمة المملوءة ماء، ثم استعمل في الحظ والنصيب، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، بالعذاب يعني أنهم أخروا إلى يوم القيامة.

(٥٩) يدل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، يعني يوم القيامة، وقيل: يوم بدر.

❀ ❀ ❀

سورة الطور

مكية وهي تسع وأربعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالطُّورِ﴾، أراد به الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة أقسم الله تعالى به.

(٢) ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾، مكتوب.

(٣) ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾، الرق: ما يكتب فيه، وهو أديم المصحف والمنشور المبسوط، واختلفوا في هذا الكتاب، قال الكلبي: هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو دواوين الحفظة تخرج إليهم يوم القيامة منشورة، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله.

دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

(٤) ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾، بكثرة الغاشية والأهل، وهو بيت في السماء السابعة حذاء العرش بحيال الكعبة يقال له: الضُّراح، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبداً.

(٥) ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾، يعني السماء نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

(٦) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾، قال محمد بن كعب القرظي والضحاك: يعني الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور، وهو قوله ابن عباس: وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

وجاء في الحديث عن عبدالله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «لا يركبن رجل بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً».

وقال مجاهد والكلبي: المسجور المملوء، يقال: سجرت الإناء إذا ملأته. وقال الحسن وقتادة وأبو العالية: هو اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب. وقال الربيع بن أنس: هو المختلط العذب بالمالح. وروى الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال في البحر المسجور: هو بحر تحت العرش، غمره كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين، فيه ماء غليظ يقال له: بحر الحيوان. يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. هذا قول مقاتل: أقسم الله بهذه الأشياء.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، نازل كائن.

(٨) ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾، مانع.

قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أساري بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب، وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ ﴿والطور﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾، فكأنما صدع قلبي حين سمعته، ولم يكن أسلم يومئذ، قال: فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب. ثم بيّن أنه متى يقع فقال:

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾، أي تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة. قال قتادة: تتحرك. قال عطاء الخراساني: تختلف أجزاؤها بعضها في بعض. وقيل: تضطرب، والمور يجمع هذه المعاني فهو في اللغة: الذهاب والمجيء والتردد والدوران والاضطراب.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾، فتزول عن أماكنها وتصير هباءً منثوراً.

(١١) ـ (١٢) ﴿فَوَيْلٌ﴾ فشدة عذاب، ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾، يخوضون في الباطل يلعبون غافلين لاهين.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾، يدفعون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾، دفعاً بعنف وجفوة، وذلك أن خزنة جهنم يغلون

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزجاً في أقفيتهم حتى يردوا النار، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها.

﴿١٤﴾ ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، في الدنيا.

﴿١٥﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾، وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فوبِّخوا، به، وقيل لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا﴾، قاسوا شدتها، ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾، الصبر والجزع، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٧﴾ ـ ﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۞ فَٰكِهِينَ﴾، معجبين بذلك ناعمين، ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، ويقال لهم:

﴿١٩﴾ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾، مأمون العاقبة من التخمة والسقم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾، موضوعة بعضها إلى جنب بعض، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، قرأ أبو عمرو: ﴿أتبعناهم﴾ بقطع الألف على التعظيم، ﴿ذرياتهم﴾، بالألف وكسر التاء فيهما لقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، ليكون الكلام على نسق واحد، وقرأ الآخرون ﴿واتبعتهم﴾ بوصل الألف وتشديد التاء بعدها وسكون التاء الأخيرة، ثم اختلفوا في ذريتهم، قرأ أهل المدينة الأولى بغير ألف وضم التاء، والثانية بالألف وكسر التاء، وقرأ أهل الشام ويعقوب كلاهما بالألف وكسر التاء في الثانية، وقرأ الآخرون بغير ألف فيهما ورفع التاء في الأولى ونصبها في الثانية.

واختلفوا في معنى الآية: فقال قوم: معناها والذين آمنوا واتبعتهم بإيمان يعني أولادهم الصغار والكبار، فالكبار بإيمانهم بأنفسهم، والصغار بإيمان آبائهم، فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد الأبوين ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المؤمنين في الجنة بدرجاتهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم لتقرَّ بذلك أعينهم، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم.

وقال آخرون: معناه والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم البالغون بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم. وهو قول الضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أخبر الله عزّ وجلّ أنه يجمع لعبده المؤمن ذريته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا إليه، يدخلهم الجنة بفضله ويلحقهم بدرجته بعمل أبيه، من غير أن ينقص الآباء من أعمالهم شيئاً، فذلك قوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، قرأ ابن كثير بكسر اللام، والباقون بفتحها أي ما نقصناهم يعني الآباء، ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن عبدالله الحديثي، ثنا سعيد بن محمد بن إسحاق الصيرفي، ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا جبارة بن المغلس، ثنا قيس بن الربيع، ثنا عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل، لتقرّ بهم عينه»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، إلى آخر الآية.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن

فنجويه الدينوري، ثنا أبو بكر مالك القطيعي، ثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني عثمان بن أبي شيبة، ثنا محمد بن فضيل عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي رضي الله عنه قال: سألت خديجة رضي الله تعالى عنها النبيَّ ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار»، فلما رأى الكراهية في وجهها، قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»، قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، قال مقاتل: كل امرئ كافر بما عمل من الشرك مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهناً، لقوله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلَّا أَصْحَٰبَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ و٣٩] ثم ذكر ما يزيدهم من الخير والنعمة.

﴿٢٢﴾ فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾، زيادة على ما كان لهم ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، من أنواع اللحمين.

﴿٢٣﴾ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، يتعاطون ويتناولون، ﴿فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾، وهو الباطل، وروي ذلك عن قتادة، وقال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. وقال سعيد بن المسيب: لا رفث فيها. وقال ابن زيد: لا سباب ولا تخاصم فيها. وقال القتيبي: لا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا، ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، أي لا يكون منهم ما يؤثمهم. قال الزجاج: لا يجري بينهم ما يلغي ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لشربة الخمر. وقيل: لا يأثمون في شربها.

﴿٢٤﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، بالخدمة ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ﴾، في الحسن والبياض والصفاء، ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، مخزون مصون لم تمسه الأيدي.

قال سعيد بن جبير: مكنون يعني في الصدف. قال عبدالله بن عمرو: ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام، وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه.

وروي عن الحسن أنه لما تلا هذه الآية قال: قالوا يا رسول الله: الخادم كاللؤلؤ المكنون، فكيف المخدوم؟ وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال: «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، يسأل بعضهم بعضاً في الجنة. قال ابن عباس: يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا﴾، في الدنيا، ﴿مُشْفِقِينَ﴾، خائفين من العذاب.

﴿٢٧﴾ ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، بالمغفرة، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، قال الكلبي: عذاب النار. وقال الحسن: «السموم» اسم من أسماء جهنم.

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾، في الدنيا، ﴿نَدْعُوهُ﴾، نخلص له العبادة، ﴿إِنَّهُ﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿أنه﴾ بفتح الألف، أي لأنه أو بأنه، وقرأ الآخرون بالكسر على الاستئناف، ﴿هُوَ الْبَرُّ﴾، قال ابن عباس: اللطيف. وقال الضحاك: الصادق فيما وعد ﴿الرَّحِيمُ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿فَذَكِّرْ﴾، يا محمد بالقرآن أهل مكة، ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾، برحمته وعصمته، ﴿بِكَاهِنٍ﴾، تبتدع القول وتخبر بما في غد من غير وحي، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾، نزلت في الذين اقتسموا عقاب مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر.

﴿٣٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، بل يقولون يعني هؤلاء المقتسمين الخراصين، ﴿شَاعِرٌ﴾، أي هو شاعر، ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء، أو يتفرق أصحابه، وأن أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه، والمنون يكون بمعنى الدهر ويكون بمعنى الموت، سُميا بذلك لأنهما يقطعان الأجل.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾، انتظروا بي الموت، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾، من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فيكم، فتعذبوا يوم بدر بالسيف.

الجزء السابع والعشرون — سورة الطور

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سورة النجم

٥٢٥

﴿٣٢﴾ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم﴾، عقولهم، ﴿بِهَٰذَا﴾، وذلك أن عظماء قريش كانوا يُوصَفُون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تتميز لهم معرفة الحق من الباطل، ﴿أَمْ هُمْ﴾، بل هم، ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾، أي تخلق القرآن من تلقاء نفسه، والتقول: تكلّف القول، ولا يستعمل ذلك إلا في الكذب وليس الأمر كما زعموا، ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، بالقرآن استكباراً.

﴿٣٤﴾ ثم ألزمهم الحجة فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾، أي مثل القرآن في نظمه وحسن بيانه، ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾، أن محمداً تقوّله من تلقاء نفسه.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، قال ابن عباس: من غير رب، ومعناه: أخلقوا من غير شيء خلقهم فوُجِدُوا بلا خالق؟ وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فلا بد له من خالق، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، لأنفسهم وذلك في البطلان أشد، لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟، فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به، ذكر هذا المعنى أبو سليمان الخطابي، قال الزجاج: معناه أخُلِقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون؟ وقال ابن كيسان: أخلقوا عبثاً وتركوا سُدى لا يؤمرون ولا ينهون، فهو كقول القائل فعلت كذا وكذا من غير شيء، أي لغير شيء، أم هم الخالقون لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر؟

﴿٣٦﴾ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فيكونوا هم الخالقين، ليس الأمر كذلك، ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾، قال عكرمة: يعني النبوة. قال مقاتل: أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ قال الكلبي: خزائن المطر والرزق، ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾، المسلطون الجبارون، قال عطاء: أرباب قاهرون فلا يكونوا تحت أمر ونهي، ويفعلون ما شاؤوا، ويجوز بالسين والصاد جميعاً، قرأ ابن عامر بالسين ههنا وفي قوله: ﴿بمسيطر﴾، وقرأ حمزة بإشمام الزاي فيهما، وقرأ ابن كثير ههنا بالسين و﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] بالصاد، وقرأ الآخرون بالصاد فيهما.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾، مرقى ومصعد إلى السماء، ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، أي يستمعون عليه الوحي، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي عليها، معناه: ألهم سُلّم يرتقون به إلى السماء، فيستمعون الوحي ويعلمون أن ما هم عليه حق بالوحي، فهم مستمسكون به كذلك؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾، إن ادّعوا ذلك، ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، بحجة بينة.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾، هذا إنكار عليهم حين جعلوا لله ما يكرهون، كقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾، جعلاً على ما جئتهم به ودعوتهم إليه من الدين، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، أثقلهم ذلك الغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذلك عن الإسلام.

﴿٤١﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾، أي علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم الرسول من أمر القيامة البعث باطل. وقال قتادة: هذا جواب لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، يقول: أعندهم علم الغيب [أي علم ما غاب عنهم] حتى علموا أن محمداً ﷺ يموت قبلهم؟ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، قال القتيبي: فهم يكتبون أي يحكمون، والكتاب الحكم.

قال النبي ﷺ للرجلين اللذين تخاصما إليه: «أقضي بينكما بكتاب الله»، أي بحكم الله، وقال

ابن عباس: معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به؟

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾، مكراً بك ليهلكوك، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾، أي هم المجزيون بكيدهم يريد أن ضرر ذلك يعود عليهم، ويحيق مكرهم بهم، وذلك أنهم مكروا به في دار الندوة فقتلوا ببدر.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾، يرزقهم وينصرهم، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قال الخليل: ما في هذه السورة من ذكر «أم» كلمة استفهام وليس بعطف.

(٤٤) ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾، قطعة، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، يقول: لو عذبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم، ﴿يَقُولُوا﴾، لمعاندتهم هذا، ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، بعضه على بعض يسقينا.

(٤٥) ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾، يعاينوا، ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، يموتون، أي حتى يعاينوا الموت، قرأ ابن عامر وعاصم يصعقون بضم الياء أي يهلكون.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانع.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، كفروا، ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة. قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين. وقال البراء بن عازب: هو عذاب القبر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أن العذاب نازل بهم.

(٤٨) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي بمرأى منّا، قال ابن عباس: نرى ما يعمل بك. وقال الزجاج: معناه أنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إلى مكروهك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك، فإن كان المجلس خيراً ازددت إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفارة له.

أخبرنا أبو عبدالله عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد القفال، أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البرونجردي، أنا أبو أحمد بكر بن محمد الصيرفي، ثنا أحمد بن عبيد الله النرسي، ثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لَغَطُهُ، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا كان كفارةً لما بينهما».

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه صل لله حين تقوم من مقامك. وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك.

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا الحسن بن عرفة ويحيى بن موسى قالا، ثنا أبو معاوية عن حارثة بن أبي الرجال، عن عمرة عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا افتتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك».

وقال الكلبي: هو ذكر الله باللسان حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبدالعزيز القاشاني، أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبدالواحد الهاشمي، أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، ثنا أبو داود سليمان [بن] الأشعث، ثنا محمد بن نافع، ثنا زيد بن حباب، أخبرني معاوية بن صالح، أنا أزهر بن سعيد الحرازي عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: كان إذا قام كبّر الله عشراً وحمد الله عشراً، وسبح الله عشراً وهلّل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة.

(٤٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾، أي صل له، قال مقاتل: يعني صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾، يعني ركعتين قبل صلاة الفجر، وذلك

الجزء السابع والعشرون — سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)

٥٢٦

حين تدبر النجوم أن تغيب بضوء الصبح، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الضحاك: هو فريضة صلاة الصبح.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطّور.

* * *

سورة النجم

مكية وهي اثنتان وستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، قال ابن عباس في رواية الوالبي والعوفي: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهُويّهُ مَغيبُه، والعرب تسمي الثريا نجماً.

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما طلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع» وأراد بالنجم الثريا. وقال مجاهد: هي نجوم السماء كلها حين تغرب، لفظه واحد ومعناه الجمع، سُمي الكوكب نجماً لطلوعه، وكل طالع نجم يقال: نَجَمَ السنُّ، والقرنُ والنبتُ إذا طلع.

وروي عن عكرمة عن ابن عباس: أنه الرجوم من النجوم، يعني ما تُرمى بها الشياطين عند استراقهم السمع. وقال أبو حمزة الثمالي: هي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة. وقيل: المراد بالنجم القرآن، سُمي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة، وسمي التفريق: تنجيماً، والمفرق: منجماً، هذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وهو قول الكلبي، والهوى: النزول من أعلى إلى أسفل. وقال الأخفش: النجم هو النبت الذي لا ساق له، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وهُويّهُ سقوطُه على الأرض. وقال جعفر الصادق: يعني محمداً ﷺ إذا نزل من السماء إلى الأرض ليلة المعراج، و«الهويّ»، النزول، يقال: هوى يهوي هوياً إذا نزل، مثل مضى يمضي مضياً.

(٢) - (٣) وجواب القسم. قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، يعني محمداً ﷺ ما ضل عن طريق الهدى، ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، يعني بالهوى يريد لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً ﷺ يقول القرآن من تلقاء نفسه.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ﴾، ما نطقه في الدين، وقيل: القرآن، ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، يعني وحي من الله يوحى إليه.

(٥) ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾، وهو جبريل، والقُوى جمع القوة.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، قوة وشدة في خلقه، يعني جبريل. قال ابن عباس: ذومرة يعني ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾، يعني جبريل.

(٧) ﴿وَهُوَ﴾، يعني محمداً ﷺ، وأكثر كلام العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا أن يظهروا كناية المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلما يقولون: استوى وفلان، ونظير هذا قوله: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، عطف الآباء على المكنى في كنا من غير إظهار نحن، ومعنى الآية: استوى جبريل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج، ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾، وهو أقصى الدنيا عند مطلع الشمس، وقيل: فاستوى يعني جبريل، وهو كناية عن جبريل أيضاً، أي قام في صورته التي خلقه الله، وهو بالأفق الأعلى.

وذلك أن جبريل كان يأتي

رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، والمراد بالأعلى جانب المشرق، وذلك أن محمداً ﷺ كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب، فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، وأما في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا محمد ﷺ.

(٨) ـ (٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، اختلفوا في معناه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن يوسف، ثنا أبو أسامة، ثنا زكريا بن أبي زائدة عن ابن الأشوع عن الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾؟ قالت: ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسدّ الأفق.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا طلق بن غنّام، ثنا زائدة عن الشيباني قال: سألت زرّاً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، قال أخبرنا عبدالله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، «فتدلى» فنزل إلى محمد ﷺ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، بل أدنى وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ثم تدلّى فدنا، لأن التدلي سبب الدنو، وقال آخرون: ثم دنا الرب عزّ وجلّ من محمد ﷺ فتدلى، فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى.

وروينا في قصة المعراج عن شريك بن عبدالله عن أنس: ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى.

وهذا رواية أبي سلمة عن ابن عباس، والتدلي هو النزول إلى الشيء، حتى يقرب منه. وقال مجاهد: دنا جبريل من ربه. وقال الضحاك: دنا محمد ﷺ من ربه فتدلى فأهوى للسجود، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، ومعنى قوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدر قوسين، والقاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن المقدار، والقوس: ما يرمي به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس، فأخبر أنه كان بين جبريل وبين محمد عليهما السلام مقدار قوسين، قال مجاهد: معناه حيث الوتر من القوس.

وهذا إشارة إلى تأكيد القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما، يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه.

وقال عبدالله بن مسعود: قاب قوسين أي قدر ذراعين، وهو قول سعيد بن جبير وشقيق بن سلمة، والقوس: الذراع يقاس بها كل شيء، أو أدنى بل أقرب.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ﴾، أي أوحى الله، ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، محمد ﷺ، قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي والحسن والربيع وابن زيد: معناه أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى إليه ربه عزّ وجل. قال سعيد بن جبير: أوحى إليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: ٤]، وقيل: أوحى إليه إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

(١١) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، قرأ أبو جعفر ما كذّب بتشديد الذال أي ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ الذي رأى، بل صدقه، يقال: كذبه إذا قال له الكذب، وصدقه إذا قال له الصدق، مجازه: ما كذب الفؤاد فيما رأى،

واختلفوا في الذي رآه، فقال قوم: رأى جبريل، وهو قول ابن مسعود وعائشة.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر بن محمد، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا حفص هو ابن غياث عن الشيباني عن زرّ عن عبدالله قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قال: رأى جبريل وله ستمائة جناح.

وقال آخرون: هو الله عزّ وجلّ. ثم اختلفوا في معنى الرؤية، فقال بعضهم: جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده، وهو قول ابن عباس.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو سعيد الأشج، ثنا وكيع، ثنا الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين.

وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، قالوا: رأى محمد ربه.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمداً ﷺ بالرؤية.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لم يَرَ رسول الله ﷺ ربه.

وتحمل الآية على رؤيته جبريل عليه السلام.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى، ثنا وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد عن عامر عن مسروق قال: قلت لعائشة يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، ومن حدثك أنه كتم شيئاً فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبدالله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه».

﴿١٢﴾ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «أفتمرونه» بفتح التاء بلا ألف، أي أفتجحدونه، تقول العرب: مريت الرجل حقّه إذا جحدته.

وقرأ الآخرون: ﴿أفتمارونه﴾ بالألف وضم التاء، على معنى أفتجادلونه على ما يرى، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به، فقالوا: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن عيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به، والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، يعني رأى جبريل في صورته التي خلق عليه نازلاً من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء.

﴿١٤﴾ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وعلى قول ابن عباس معنى: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ هو أنه كانت للنبي ﷺ عرجات في تلك الليلة لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى ربه في بعضها.

وروينا عنه: «أنه رأى ربه بفؤاده مرتين».

وعنه: «أنه رآه بعينه»، وقوله: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

وروينا عن عبدالله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال:

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب.

وروينا في حديث المعراج: «ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام فسلمت عليه، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذن الفيلة».

والسدرة شجرة النبق، وقيل لها: سدرة المنتهى لأنه إليها ينتهي علم الخلق.

قال هلال بن يساف: سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر، فقال كعب: إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا ابن شيبة، ثنا المسوحي، ثنا عبيد بن يعيش، ثنا يونس بن بكير، أنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة عام يستظل في الغصن منها مائة ألف راكب، فيها فراش من ذهب، كأن ثمرها القلال».

وقال مقاتل: هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان، لو أن ورقة منها وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض، وهي طوبى التي ذكرها الله تعالى في سورة الرعد.

﴿١٥﴾ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: جنة المأوى جنة يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال مقاتل والكلبي: يأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿١٦﴾ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، قال ابن مسعود: فراش من ذهب.

وروينا في حديث المعراج عن أنس عن رسول الله ﷺ: «ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، وأوحى إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة».

وقال مقاتل: تغشاها الملائكة أمثال الغربان. وقال السدي: من الطيور.

وروي عن أبي العالية عن أبي هريرة رضي الله عنه أو غيره قال: غشيها نور الخلائق وغشيتها الملائكة من حب الله أمثال الغربان، حتى يقعن على الشجرة، قال: فكلمه عند ذلك، فقال له: سَلْ. وعن الحسن قال: غشيها نور رب العزة فاستنارت.

ويروي في الحديث: «رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى».

﴿١٧﴾ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، أي ما مال بصر النبي ﷺ يميناً ولا شمالاً وما طغى، أي ما جاوز ما رأى. وقيل: ما جاوز ما أمر به وهذا وصف أدبه في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً.

﴿١٨﴾ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يعني الآيات العظام. وقيل: أراد ما رأى تلك الليلة في مسيره وعوده، دليله قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]، وقيل: معناه لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، ثنا أبي، ثنا شعبة عن سليمان الشيباني سمع زر بن حبيش عن عبدالله قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح.

وأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا حفص بن عمرو، ثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله [قال]: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال: «رأى رفرفاً أخضر سد أفق السماء».

﴿١٩﴾ قوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، اشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى. وقيل: العزى تأنيث الأعز، أما اللات قال قتادة: كانت بالطائف، وقال ابن زيد: بيت بنخلة كانت قريش تعبده، وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح: اللات بتشديد التاء، وقالوا: كان رجلاً يلت

السويق للحاج، فلما مات عكفوا عن قبره يعبدونه.

وقال مجاهد: كان في رأس جبل له غنيمة يسلأ منها السمن ويأخذ منها الأقِطَ، ويجمع رسلها ثم يتخذ منها حيساً فيطعم منه الحاج، وكان ببطن نخلة، فلما مات عبدوه، وهو اللات.

وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف يقال له صرمة بن غنم، وكان يسلأ السمن فيضعها على صخرة ثم تأتيه العرب فتلتّ به أسوقتهم، فلما مات الرجل حولتها ثقيف إلى منازلها فعبدتها، فسدرة الطائف على موضع اللات. وأما العزّى قال مجاهد: هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها.

فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها فجعل خالد بن الوليد يضربها بالفأس ويقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك
إني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها. ويقال: إن خالداً رجع إلى النبي ﷺ فقال: قد قلعتها، فقال: ما رأيت؟ قال: ما رأيت شيئاً، فقال النبي ﷺ: ما قلعت، فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها فخرجت منها امرأة عريانة، فقتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك، فقال: «تلك العزى ولن تعبد أبداً».

وقال الضحاك: هي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن ظالم الغطفاني، وذلك أنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما، فعاد إلى بطن نخلة، وقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك، فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة، فوضع الذي أخذ من الصفا، فقال: هذا الصفا، ثم وضع الذي أخذه من المروة، فقال: هذه المروة، ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة، فقال: هذا ربكم، فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة، فأمر برفع الحجارة، وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها. وقال ابن زيد: هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف.

(٢٠) ﴿وَمَنَوٰةَ﴾، قرأ ابن كثير بالمد والهمزة، وقرأ العامة بالقصر غير مهموز، لأن العرب سمت زيد مناة وعبد مناة، ولم يسمع فيها المد. قال قتادة: هي لخزاعة كانت بقديد.

قالت عائشة رضي الله عنها في الأنصار: كانوا يهلون لمناة، وكانت حذو قديد. قال ابن زيد: بيت كان بالمشلل يعبده بنو كعب. قال الضحاك: مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة. وقال بعضهم: اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها.

واختلف القراء في الوقف على اللات ومناة، فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالتاء. وقال بعضهم: ما كُتب في المصحف بالتاء يوقف عليه بالتاء، وما كُتب بالهاء فيوقف عليه بالهاء. وأما قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، فالثالثة نعت لمناة أي الثالثة للصنمين في الذكر، وأما الأخرى فإن العرب لا تقول للثالثة أخرى، إنما الأخرى ههنا نعت للثانية. قال الخليل: فالياء لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل: أُخر: وقيل: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة، ومعنى الآية: أفرأيتم أخبرونا أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقال الكلبي: كان المشركون بمكة يقولون الأصنام والملائكة بنات الله، وكان الرجل منهم إذا بُشّر بالأنثى كره ذلك.

(٢١) ـ (٢٢) فقال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، قال ابن عباس وقتادة: أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم. قال مجاهد ومقاتل: قسمة عوجاء. وقال الحسن: غير معتدلة. قرأ ابن كثير: «ضئزى» بالهمز، وقرأ الآخرون بغير همز.

قال الكسائي: يقال منه ضاز يضيز ضيزاً، وضاز يضوز ضوزاً، وضاز يُضاز ضازاً إذا ظلم ونقص، وتقدير ضيزى من الكلام فعلى بضم الفاء، لأنها صفة والصفات لا تكون إلا على فعلى بضم الفاء، نحو حبلى وأنثى وبُشرى، أو فعلى بفتح الفاء، نحو غضبى وسكرى وعطشى، وليس في كلام العرب فِعلى بكسر

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

الفاء في النعوت، إنما يكون في الأسماء مثل ذكرى وشعرى وكسرى، وبكسر الضاد ههنا لئلا تنقلب الياء واواً وهي من بنات الياء كما قالوا في جمع أبيض بيض، والأصل بوض مثل حُمْر وصفر، فأما من قال: ضاز يضوز فالاسم منه ضُوزى مثل شُورى.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنْ هِيَ﴾، ما هذه الأصنام، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، حجة وبرهان بما تقولون إنها آلهة، ثم رجع إلى الخبر بعد المخاطبة فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، في قولهم إنها آلهة، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، وهو ما زين لهم الشيطان، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾، أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام؟

﴿٢٥﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ليس كما ظن الكافر وتمنى، بل لله الآخرة والأولى، لا يملك أحد فيهما شيئاً إلا بإذنه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله، ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾، في الشفاعة، ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، أي من أهل التوحيد. قال ابن عباس: يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه، وجمع الكناية في قوله: شفاعتهم والملك واحد، لأن المراد من قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾، الكثرة فهو كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾، أي بتسمية الأنثى حين قالوا إنهم بنات الله.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، قال مقاتل: معناه ما يستيقنون أنهم بنات الله، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، والحق بمعنى العلم أي لا يقوم الظن مقام العلم. وقيل: الحق بمعنى العذاب، أي أن ظنهم لا ينقذهم من العذاب.

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن﴾، يعني القرآن. وقيل: الإيمان، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿٣٠﴾ ثم صغّر رأيهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي ذلك نهاية علمهم وقدر عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله، وأنها تشفع لهم فاعتمدوا على ذلك وأعرضوا عن القرآن. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، أي هو عالم بالفريقين فيجازيهم.

﴿٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهذا معترض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾، فاللام في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ متعلق بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلاً بما يستحقه، الذين أساؤوا أي أشركوا بما عملوا من الشرك، ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾، وحدوا ربهم ب«الحسنى» بالجنة، وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك، ولذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿٣٢﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، اختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: هذا استثناء صحيح، واللمم: من الكبائر والفواحش، ومعنى الآية: إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب، ويقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس، قال عبدالله بن عمرو بن

العاص: اللّمم ما دون الشرك. وقال السدي قال أبو صالح: سئلت عن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليهما ملك كريم.

وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهمّ تغفر جمّاً وأي عبد لك إلا ألمّا».

وأصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين، ولا يكون له إعادة، ولا إقامة عليه.

وقال آخرون: هذا استثناء منقطع مجازه: لكن اللمم، ولم يجعلوا اللّمم من الكبائر والفواحش.

ثم اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنهم كانوا بالأمس يعملون معنا؟ فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وقال بعضهم: هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة وما كان دون الزنا، وهذا قول ابن مسعود وأبي هريرة، ومسروق، والشعبي، ورواية طاووس عن ابن عباس.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمود بن غيلان، أنا عبدالرزاق، أنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه».

ورواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وزاد: «والعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش. والرجل زناها الخطى».

وقال الكلبي: «اللمم» على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر هو: الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه.

وقال سعيد بن المسيب: هو ما لم على القلب أي خطر. وقال الحسين بن الفضل: اللمم النظرة من غير تعمد فهو مغفور، فإن أعاد النظرة فليس بلمم وهو ذنب. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾، قال ابن عباس: لمن فعل ذلك ثم تاب، تم الكلام ههنا، ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي خلق أباكم آدم من التراب، ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾، جمع جنين، سُمي جنيناً لاجتنانه في البطن، ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾، قال ابن عباس: لا تمدحوها. قال الحسن: علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، فلا تبرؤها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها.

قال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا وجهادنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، أي بر وأطاع وأخلص العمل لله تعالى.

(٣٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه فعيره بعض المشركين، وقال له: أتركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن الذي عاتبه إن هو وافقه ورجع إلى شركه أعطاه كذا من ماله أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أدبر عن الإيمان.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ﴾، صاحبه، ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾، بخل بالباقي، وقال مقاتل: أعطى يعني الوليد قليلاً من الخير بلسانه، ثم أكدى، يعني قطعه وأمسك ولم يقم على العطية.

وقال السدي: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه كان ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور.

وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال: والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾، أي لم يؤمن به، ومعنى أكدى: يعني قطع، وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر، تقول العرب:

أكدى الحافر وأجبل، إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل.

﴿٣٥﴾ ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، ما غاب عنه ويعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه.

﴿٣٦﴾ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾، لم يخبر، ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، يعني أسفار التوراة.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾، وفي صحف إبراهيم عليه السلام، ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، تمم وأكمل ما أمر به. قال الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة: عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه إلى خلقه. قال مجاهد: وفّى بما فرض عليه.

قال الربيع: وفّى رؤياه وقام بذبح ابنه. وقال عطاء الخراساني: استكمل الطاعة. وقال أبو العالية: وفّى سهام الإسلام. وهو قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، والتوفية الإتمام. وقال الضحاك: وفّى ميثاق المناسك.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، ثنا إبراهيم بن إسحاق الزهري، ثنا إسحاق بن منصور عن إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [قال] «كان يصلي أربع ركعات أول النهار».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا أبو جعفر السمناني، ثنا أبو مُسْهِر، ثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «ابن آدم اركع لي أربع ركعاتٍ من أول النهار أكفِكَ آخره».

﴿٣٨﴾ ثم بيّن ما في صحفهما فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها، وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة بأنه يحمل عنه الإثم. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، كان الرجل يقتل بذنب أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده، حتى كان إبراهيم فنهاهم عن ذلك، وبلغهم عن الله ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، أي عمل كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وهذا أيضاً في صحف إبراهيم وموسى. قال ابن عباس: هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة، بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء. وقال عكرمة: كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى، فأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم.

لما رُوي أن امرأة رفعت صبياً لها فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر».

وقال رجل للنبي ﷺ: إن أمي افتلتت نفسها، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وقال الربيع بن أنس: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ يعني الكافر، فأما المؤمن فله ما سعى وما سُعي له. قيل: ليس للكافر من الخير إلا ما عمل هو، فيثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير.

ويروى أن عبدالله بن أبي كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه، فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكفنه فيه.

فلم يبق له حسنة في الآخرة يثاب عليها.

﴿٤٠﴾ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، في ميزانه يوم القيامة، من أريته الشيء.

﴿٤١﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، الأكمل والأتم أي يجزى الإنسان بسعيه، يقال: جزيت فلاناً سعيه وبسعيه، قال الشاعر:

إن أجزِ علقمة ابن سعد سعيَه
لم أجزه ببلاء يوم واحد

فجمع بين اللغتين.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، أي منتهى الخلق ومصيرهم إليه، وهو مجازيهم بأعمالهم. وقيل: منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن بن محمد الشيباني، أنا محمد بن سيساء بن الفتح الحنبلي، ثنا علي بن محمد المصري، أنا أبو إسحاق [بن إبراهيم] بن منصور الصعدي، أنا العباس بن زفر عن أبي جعفر الرازي، عن أبيه عن

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

سُورَةُ القَمَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، قال: «لا فِكْرَةَ في الربِّ».

وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة».

﴿٤٣﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، فهذا يدل على أن كل ما يعمله الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء، قال مجاهد والكلبي: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

قال عطاء بن أبي مسلم: يعني فرّح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، ثنا علي بن الجعد، أنا قيس هو ابن الربيع الأسدي، ثنا سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم وكان أصحابه يجلسون فيتناشدون الشعر، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسّم معهم إذا ضحكوا، يعني النبي ﷺ.

وقال معمر عن قتادة: سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل.

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، أي أمات في الدنيا وأحيا للبعث. وقيل: أمات الآباء وأحياء الأبناء. وقيل: أمات الكافر بالنكرة وأحيا المؤمن بالمعرفة.

﴿٤٥﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾، من كل حيوان.

﴿٤٦﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، أي تصب في الرحم، يقال: منى الرجل وأمنى. قال الضحاك وعطاء بن أبي رباح وقال آخرون: [تمنى] تُقدّر، يقال: منيتُ الشيء إذا قدرته.

﴿٤٧﴾ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾، أن الخلق الثاني للبعث يوم القيامة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾، قال أبو صالح: أغنى الناس بالأموال وأقنى أي أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. قال الضحاك: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال [وأقنى] بالإبل والبقر والغنم. وقال قتادة والحسن: أقنى أخدم. وقال ابن عباس: أغنى وأقنى أعطى فأرضى. قال مجاهد ومقاتل: أقنى أرضى بما أعطى وقنع. وقال ابن زيد: أغنى أكثر وأقنى أقل، وقرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦، الإسراء: ٣٠، سبأ: ٣٦، الزمر: ٥٢، الشورى: ١٢]، وقال الأخفش: أقنى أفقر. وقال ابن كيسان: أولد.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾، وهو كوكب خلف الجوزاء وهما شعريان، يقال لأحدهما العبور وللأخرى الغميصاء، سميت بذلك لأنها أخفى من الأخرى، والمجرة بينهما. وأراد ههنا الشعرى العبور وكانت خزاعة تعبدها، وأول من سن لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها، وقال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعرى [تقطها] طولاً فهي مخالفة لها، فعبدتها خزاعة، فلما خرج رسول الله ﷺ على خلاف العرب في الدين سموه بن أبي كبشة لخلافه إياهم كخلاف أبي كبشة في عبادة الشعرى.

﴿٥٠﴾ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة بلام مشددة بعد الدال، ويهمز واوه قالون عن نافع، والعرب تفعل ذلك فتقول:

قم لانّ عنا، تريد: قم الآن عنا، ويكون الوقف عندهم عاداً، والابتداء «أولى»، بهمزة واحدة مفتوحة بعدها لام مضمومة، ويجوز الابتداء: لولى، بحذف الهمزة المفتوحة، وقرأ الآخرون: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾، وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى.

﴿٥١﴾ ﴿وَثَمُودَا﴾، وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة، ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾، منهم أحداً.

﴿٥٢﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، أي أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾، لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب.

﴿٥٣﴾ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾، يعني قرى قوم لوط، ﴿أَهْوَىٰ﴾، أسقط أي أهواها جبريل بعدما رفعها إلى السماء.

﴿٥٤﴾ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾، ألبسها الله، ﴿مَا غَشَّىٰ﴾، يعني الحجارة المنضودة المسومة.

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾، نعم ربك أيها الإنسان، وقيل: أراد الوليد بن المغيرة، ﴿تَتَمَارَىٰ﴾، تشك وتجادل، قال ابن عباس: تكذب.

﴿٥٦﴾ ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، أي رسول من الرسل أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم، وقال قتادة يقول: أنذر محمد كما أنذر الرسل من قبله.

﴿٥٧﴾ ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾، دنت القيامة واقتربت الساعة.

﴿٥٨﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، أي مظهرة مبينة كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والهاء فيه للمبالغة أو على تقدير نفس كاشفة، ويجوز أن تكون الكاشفة مصدراً كالخافية والعافية، والمعنى: ليس لها من دون الله كاشف، أي لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه: ليس لها من دون الله كاشف، أي لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه ليس لها راد يعني: إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد، وهذا قول عطاء وقتادة والضحاك.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، يعني القرآن، ﴿تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ﴾، الاستهزاء، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، لما فيه من الوعد والوعيد.

﴿٦١﴾ ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾، لاهون غافلون، والسمود الغفلة عن الشيء واللهو، يقال: دع عنّا سمودك أي لهوك، هذا رواية الوالبي والعوفي عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة أهل اليمن وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وقال الضحاك: أشرون بطرون. وقال مجاهد غضاب مبرطمون فقيل له: ما البرطمة؟ قال: الإعراض.

﴿٦٢﴾ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾، أي واعبدوه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، ثنا عبدالوارث، ثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ: سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، ثنا نصر بن علي، أخبرني أبو أحمد، ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد، عن عبدالله قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: النجم، قال فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا آدم بن أبي إياس، أنا ابن [أبي] ذئب، أنا يزيد بن عبدالله بن قسيط، عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت قال: قرأت على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد فيها.

فقلت: هذا دليل على أن سجود التلاوة غير واجب. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء. وهو قول الشافعي وأحمد. وذهب قوم إلى أن وجوب سجود التلاوة على القارئ والمستمع جميعاً، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

❁ ❁ ❁

الجزء السابع والعشرون سورة القمر

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

٥٢٩

سورة القمر

مكية وهي خمس وخمسون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، دنت القيامة، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن عبدالوهاب، أنا بشر بن المفضل، ثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما.

وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، ثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبدالله قال: انشق القمر بمكة. وقال مقاتل: انشق القمر ثم التأم بعد ذلك.

وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبدالله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: سحركم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّفَّار، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

﴿٢﴾ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي ذاهب وسوف يذهب ويبطل من قولهم مرّ الشيء واستمر إذا ذهب، مثل قولهم: قرّ واستقر، هذا قول مجاهد وقتادة، وقال أبو العالية والضحاك: مستمر، أي قوي شديد يعلو كل سحر، من قولهم مرّ الحبل إذا صلب واشتد، وأمررته إذا أحكمت فتله واستمر الشيء إذا قوي واستحكم.

﴿٣﴾ ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي كذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله عزّ وجلّ، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، قال الكلبي: لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر، وما كان منه في الآخرة فسيعرف.

وقال قتادة: كل أمر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير، والشر مستقر بأهل الشر. وقيل: كل أمر من خير أو شر مستقر قراره. فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار. وقيل: يستقر قول المصدقين والمكذبين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب. وقال مقاتل: لكل حديث منتهى. وقيل: كل ما قدر كائن واقع لا محالة. وقرأ أبو جعفر ﴿مستقرٍ﴾، بجرّ الراء، ولا وجه له.

﴿٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾، يعني أهل مكة، ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾، من أخبار الأمم المكذبة في القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، متناهى مصدر بمعنى الازدجار، أي نهي وعظة، يقال زجرته وازدجرته إذا نهيته عن السوء، وأصله مزتجر، قُلبت التاء دالاً.

﴿٥﴾ ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾، يعني القرآن حكمة تامة قد بلغت الغاية في الزجر، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، يجوز أن تكون ﴿ما﴾ نفياً على معنى فليست تغني النذر، ويجوز أن يكون استفهاماً، والمعنى: فأي شيء تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم، كقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، والنذر جمع نذير.

﴿٦﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي أعرض

عنهم نسختها آية القتال. قيل: ههنا وقف تام. وقيل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، أي إلى يوم [يدعو] الداعي، قال مقاتل: هو إسرافيل ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس، ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾، منكر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظاماً، قرأ ابن كثير: ﴿نكر﴾ بسكون الكاف، والآخرون بضمها.

(٧) ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾، قرأ أبو عمرو، ويعقوب، وحمزة، والكسائي: ﴿خاشعاً﴾ على الواحد، وقرأ الآخرون: ﴿خُشَّعًا﴾ بضم الخاء وتشديد الشين على الجمع، ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والجمع والتذكير والتأنيث، تقول: مررت برجال حسن أوجههم وحسنة أوجههم وحسان أوجههم، قال الشاعر:

ورجال حسن أوجههم
من إياد بن نزار بن معد

وفي قراءة عبدالله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾، أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب. ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، من القبور، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، منبث حيارى، وذكر المنتشر على لفظ الجراد، نظيرها: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، وأراد أنهم يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم يقصدها كالجراد لا جهة لها، تكون مختلطة بعضها في بعض.

(٨) ﴿مُّهْطِعِينَ﴾، مسرعين مقبلين، ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾، إلى صوت إسرافيل، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، صعب شديد.

(٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، أي قبل أهل مكة، ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾، نوحاً، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، أي زجروه عن دعوته ومقالته بالشتم والوعيد، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقال مجاهد معنى: ازدجر أي استطير جنوناً.

(١٠) ﴿فَدَعَا﴾، نوح، ﴿رَبَّهُ﴾، وقال، ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾، مقهور، ﴿فَانتَصِرْ﴾، فانتقم لي منهم.

(١١) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، مُنصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً، وقال يمان: قد طبق ما بين السماء والأرض.

(١٢) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾، يعني ماء السماء وماء الأرض، وإنما قال: التقى الماء والالتقاء لا يكون من واحد إنما يكون بين اثنين فصاعداً لأن الماء يكون جمعاً وواحداً، وقرأ عاصم الجحدري: فالتقى الماآن. ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، أي قضي عليهم في أم الكتاب. وقال مقاتل: قدر الله أن يكون الماآن سواء فكانا على ما قدر.

(١٣) ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾، يعني نوحاً، ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، أي سفينة ذات ألواح، ذكر النعت وترك الاسم، أراد بالألواح خشب السفينة العريضة، ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي المسامير التي تشد بها الألواح، واحدها دسار ودسير، يقال: دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير. وقال الحسن: الدُّسر صدر السفينة سميت بذلك لأنها تدسر الماء بجؤجؤها، أي تدفع. وقال مجاهد: هي عوارض السفينة. وقيل: أضلاعها وقال الضحاك: الألواح جانباها، والدسر أصلها وطرفاها.

(١٤) ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، أي بمرأى منا. وقال مقاتل بن حيان: بحفظنا، ومنه قولهم للمودع: عين الله عليك. قال سفيان: بأمرنا. ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، قال مقاتل بن حيان يعني فعلنا به وبهم من انجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لمن كان كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، وقيل: «من» بمعنى «ما» أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم، أو جزاء لما صنع بنوح وأصحابه وقرأ مجاهد، جزاء لمن كان كفر بفتح الكاف والفاء، يعني كان الغرق جزاء لمن كان كفر بالله وكذب رسوله.

(١٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾، يعني الفعلة التي فعلنا، ﴿آيَةً﴾، يعتبر بها. وقيل: أراد السفينة. قال قتادة: أبقاها الله بباقردي من أرض الجزيرة، عبرة وآية حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أي متذكر متعظ معتبر خائف مثل عقوبتهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو نعيم، ثنا زهير عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً سأل الأسود عن قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أو مذكر؟ قال: سمعت عبدالله يقرأها ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وقال

الجزء السابع والعشرون — سورة القمر

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

٥٣٠

سمعت النبي ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، دالاً.

(١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، أي إنذاري، قال الفراء: الانذار والنذر مصدران، تقول العرب أنذرت إنذاراً ونذراً، كقولهم أنفقت إنفاقاً ونفقة، وأيقنت إيقاناً ويقيناً، أقيم الاسم مقام المصدر.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾، سهلنا، ﴿الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾، ليتذكر ويعتبر به، وقال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، متعظ بمواعظه.

(١٨) ـ (١٩) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، شديدة الهبوب، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، شديد دائم الشؤم، استمر عليهم بنحو سنة فلم يُبقِ منهم أحد إلا أهلكه، قيل: كان ذلك يوم الأربعاء في آخر الشهر.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾، تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم: وروي أنها كانت تنزع الناس من قبورهم، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾، قال ابن عباس: أصولها، وقال الضحاك: أوراك نخل. ﴿مُّنقَعِرٍ﴾، منقلع من مكانه ساقط على الأرض وواحد الأعجاز عجز، مثل عضد وأعضاد، وإنما قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ وهي أصولها التي قطعت فروعها لأن الريح كانت تبين رؤوسهم من أجسادهم، فتبقى أجسام بلا رؤوس.

(٢١) ـ (٢٣) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، بالإنذار الذي جاءهم به صالح.

(٢٤) ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا﴾، آدمياً، ﴿مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾، ونحن جماعة كثيرة وهو واحد، ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ﴾، خطأ وذهاب عن الصواب، ﴿وسعر﴾، قال ابن عباس: عذاب، وقال الحسن: شدة عذاب. وقال قتادة: عناء، يقولون: إنا إذا لفي عناء وعذاب مما يلزمنا من طاعته. قال سفيان بن عيينة: هو جمع سعير. وقال الفراء: جنون، يقال ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها. وقال وهب: وسُعُر: أي بُعْدَ عن الحق.

(٢٥) ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ﴾، أأنزل الذكر الوحي، ﴿عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾، بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة، و«الأَشَر» المرح والتجبر.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة: ﴿ستعلمون﴾، بالتاء على معنى قال صالح لهم، وقرأ الآخرون بالياء، يقول الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾، حين ينزل بهم العذاب. وقال الكلبي يعني يوم القيامة وذكر الغد للتقريب على عادة الناس، يقولون: إن مع اليوم غداً، ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾، أي باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا أن يخرجها منها، وذلك أنهم تعنتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، محنة واختباراً لهم، ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾، فانتظر ما هم صانعون، ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [واصبر] على ارتقابهم، وقيل: على ما يصيبك من الأذى.

(٢٨) ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾، وبين الناقة، يوم لها ويوم لهم، وإنما قال «بينهم» لأن العرب إذا أخبرت عن بني آدم وعن البهائم غلبت بني آدم على البهائم، ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾، نصيب من الماء، ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم، وحضر واحتضر بمعنى واحد، قال مجاهد: يعني

يحضرون الماء إذا غابت الناقة، فإذا جاءت الناقة حضروا اللبن.

(٢٩) ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾، وهو قدار بن سالف، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾، فتناول الناقة بسيفه ﴿فَعَقَرَ﴾، أي فعقرها.

(٣٠) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، ثم بين عذابهم.

(٣١) فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، قال عطاء: يريد صيحة جبريل عليه السلام، ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، قال ابن عباس: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم. وقال ابن زيد: هو الشجر البالي الذي تهشم حتى ذرته الريح، والمعنى أنهم صاروا كيبس الشجر إذا تحطم، والعرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً، وقال قتادة: كالعظام النخرة المحترقة. وقال سعيد بن جبير: هو التراب الذي يتناثر من الحائط.

(٣٢) ـ (٣٤) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾، ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصا، قال الضحاك: يعني صغار الحصى. وقيل: الحصباء هي الحجر الذي دون ملء الكف، وقد يكون الحاصب الرامي، فيكون المعنى على هذا: أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم، يعني يرميهم بالحجارة، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾، يعني لوطاً وابنتيه، ﴿نَّجَّيْنَاهُم﴾، من العذاب، ﴿بِسَحَرٍ﴾.

(٣٥) ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، يعني جعلناه نعمة منا عليهم حيث أنجيناهم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، يعني كما أنعمنا على آل لوط، ﴿نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾، قال مقاتل: من وحد الله لم يعذبه مع المشركين.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾، لوط، ﴿بَطْشَتَنَا﴾، أخذنا إياهم بالعقوبة، ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾، شكوا بالإنذار وكذبوا ولم يصدقوا.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾، طلبوا أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾، وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط وعالجوا الباب ليدخلوا، قالت الرسل للوط: خل بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه بإذن الله فتركهم عمياً يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب، فأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون. قوله: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾، يعني صيرناها كسائر الوجه لا يرى لها شق، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الضحاك: طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا، فلم يروهم فرجعوا. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، أي ما أنذركم به لوط من العذاب.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾، جاءهم وقت الصبح، ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾، دائم استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة، وقيل: عذاب حق.

ـ (٣٩) ـ (٤١) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾، يعني موسى وهارون عليهما السلام، وقيل: هي الآيات التي أنذرهم بها موسى.

(٤٢) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾، وهي الآيات التسع، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾، بالعذاب، ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾، غالب في انتقامه، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾، قادر على إهلاكهم، لا يعجزه ما أراد بهم، ثم خوف أهل مكة فقال:

(٤٣) ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾، أشد وأقوى من الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار، أي ليسوا بأقوى منهم، ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ﴾، من العذاب، ﴿فِي الزُّبُرِ﴾، في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية.

(٤٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، يعني كفار مكة، ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، قال الكلبي: نحن جميع أمرنا منتصر من أعدائنا، والمعنى: نحن يد واحدة على من خالفنا، منتصر ممن عادانا، ولم يقل منتصرون لموافقة رؤوس الآي.

(٤٥) قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾، قرأ يعقوب: ﴿سنهزم﴾ بالنون، ﴿الجمعَ﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء ورفعها، ﴿الجمع﴾ رفع على غير تسمية الفاعل، يعني كفار مكة، ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، يعني الأدبار فوحد لأجل رؤوس الآي، كما يقال: ضربنا منهم الرؤوس وضربنا منهم الرأس إذا كان الواحد يؤدي معنى الجمع، أخبر الله أنهم يولون أدبارهم منهزمين فصدق الله وعده وهزمهم يوم بدر.

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن المثنى، ثنا عبدالوهاب، ثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ وهو في قبته يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، [فخرج] وهو في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

قال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ كنت لا أدري أي جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في درعه ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، أي أعظم داهية وبلية وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر.

﴿٤٧﴾ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾، المشركين، ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، قيل: في ضلال بعد عن الحق. قال الضحاك: وسُعُر أي نار تسعر عليهم. وقيل: في ضلال ذهاب عن طريق الجنة في الآخرة، وسُعُر: نار مسعرة، قال الحسين بن فضل: إن المجرمين في ضلال في الدنيا ونار في الآخرة. وقال قتادة: في عناء وعذاب.

﴿٤٨﴾ ثم بيَّن عذابهم فقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾، يجرون، ﴿فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، ويقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، أي ما خلقناه فمقدور ومكتوبٌ في اللوح المحفوظ، قال الحسن: قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له.

أخبرنا أبو الحسن علي بن الحسين القرشي، أنا [أبو] مسلم غالب بن علي الرازي، أنا أبو معشر يعقوب بن عبدالجليل بن يعقوب، ثنا أبو يزيد حاتم بن محبوب، أنا أحمد بن نصر النيسابوري، أنا عبدالله بن الوليد العدني، أنا الثوري عن زياد بن إسماعيل السهمي، عن محمد بن عباد المخزومي عن أبي هريرة قال: جاءت مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي الخداشاهي، أنا عبدالله بن محمد بن مسلم أبوبكر الجوربذي، أنا يونس بن عبدالأعلى الصدفي، أنا عبدالله بن وهب أخبرني أبو هانئ الخولاني، عن أبي عبدالرحمن الحبلي، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليماني قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كل شيء بقدر الله»، قال: وسمعت عبدالله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء قدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا أبو جعفر

محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة، أنا يعلى بن عبيد وعبيد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش، عن رجل عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر» زاد عبيد الله «خيره وشره».

ورواه أبو داود عن شعبة عن منصور وقال: عن ربعي عن علي ولم يقل: عن رجل، وهذا أصح.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، قوله: ﴿واحدة﴾، ترجع إلى المعنى دون اللفظ، أي: وما أمرنا إلا مرة واحدة، وقيل: معناه وما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة: كن فيكون، لا مراجعة فيها كلمح بالبصر. قال عطاء عن ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر وقال الكلبي عنه: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾، أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، متعظ يعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾، يعني فعله الأشياع من خير وشر، ﴿فِي الزُّبُرِ﴾، في كتاب الحفظة، وقيل: في اللوح المحفوظ.

﴿٥٣﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾، من الخلق وأعمالهم وآجالهم، ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾، مكتوب، يقال: سطرت واستطرت وكتبت واكتتبت.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾، بساتين، ﴿وَنَهَرٍ﴾، أي أنهار، ووحده لأجل رؤوس الآي، وأراد أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل. وقال الضحاك: يعني في ضياء وسعة ومنه النهار. وقرأ الأعرج: ﴿وَنُهُر﴾ بضمتين جمع النهار يعني لا ليل لهم.

﴿٥٥﴾ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾، في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، ملك قادر لا يعجزه شيء. قال جعفر الصادق رضي الله عنه: مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق.

❋ ❋ ❋

سورة الرحمن

مكية وقيل مدنية وهي ثمان وسبعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ [قيل] نزلت حين قالوا وما الرحمن، وقيل: هو جواب لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر.

﴿٢﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، قال الكلبي علم القرآن محمداً. وقيل: علم القرآن يسره للذكر.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾، يعني آدم عليه السلام، قاله ابن عباس وقتادة.

﴿٤﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، أسماء كل شيء، وقيل: علمه اللغات كلها، وكان آدم يتكلم بسبعمائة [ألف] لغة أفضلها العربية. وقال الآخرون: الإنسان اسم جنس، وأراد به جميع الناس، علمه البيان النطق والكتابة الفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له، هذا قول أبي العالية وابن زيد والحسن وقال السدي: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقال ابن كيسان: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ يعني بيان ما كان وما يكون لأنه كان يبين عن الأولين والآخرين وعن يوم الدين.

﴿٥﴾ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، قال مجاهد: كحسبان الرحى يدوران في مثل قطب الرحى، قال غيره: معناه أي يجريان بحسبان ومنازل لا يعدوانها، قاله ابن عباس وقتادة. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني [أن] بهما تحسب الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف [يحسب] شيئاً. وقال الضحاك: يجريان بقدر، والحسبان يكون مصدر حسبت حساباً وحسباناً مثل الغفران والكفران، والرجحان والنقصان، وقد يكون «الحسبان» جمعاً كالشبهان والركبان.

﴿٦﴾ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، النجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ما له ساق يبقى في الشتاء، وسجودهما سجود ظلهما كما قال: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ﴾ [النحل: ٤٨] وقال مجاهد:

الجزء السابع والعشرون — سورة الرحمٰن

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

٥٣٢

النجم هو الكوكب وسجوده طلوعه.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، فوق الأرض، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، قال مجاهد: أراد بالميزان العدل [والإنصاف و] المعنى أنه أمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى.

﴿٨﴾ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، أي لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن وقتادة والضحاك أراد به الذي يوزن به ليوصّل به الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير [قوله] «ألا تطغوا» يعني لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان.

﴿٩﴾ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾، بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل. قال [سفيان] بن عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾، ولا تنقصوا ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾، ولا تطففوا في الكيل والوزن.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، للخلق الذين بثهم فيها.

﴿١١﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، يعني أنواع الفواكه، قال ابن كيسان: [يعني] ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى، ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ الأوعية التي يكون فيها التمر لأن ثمر النخل يكون في غلاف ما لم ينشق، واحدها كم، وكل ما ستر شيئاً فهو كم، وكمة، ومنه كم القميص، ويقال للقلنسوة كمة. قال الضحاك: ذات الأكمام أي ذات الغلف. وقال الحسن: أكمامها ليفها. وقال ابن زيد: هو الطلع قبل أن ينشق.

﴿١٢﴾ ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾، أراد بالحب جميع الحبوب التي تحرث في الأرض [﴿والعصف﴾]. قال مجاهد: هو ورق الزرع. قال ابن كيسان: ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ ورق كل شيء يخرج منه الحب، يبدو أولاً ورقاً وهو العصف ثم يكون سوقاً ثم يحدث الله فيه أكماماً، ثم يحدث من الأكمام الحب. وقال ابن عباس في رواية الوالبي: هو التبن. وهو قول الضحاك وقتادة. وقال عطية عنه: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾، هو الرزق في قول الأكثرين، قال ابن عباس: كل ريحان في القرآن فهو رزق وقال الحسن وابن زيد هو ريحانكم [هذا] الذي يشم، قال الضحاك: العصف هو التين والريحان ثمرته، وقراءة العامة: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، كلها مرفوعات بالرد على الفاكهة، وقرأ ابن عامر ﴿وَٱلْحَبَّ ذَا ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانَ﴾ بنصب الباء والنون و«ذا» بالألف على معنى: خلق الإنسان وخلق هذه الأشياء، وقرأ حمزة والكسائي ﴿والريحان﴾ بالجر عطفاً على العصف فذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجن والإنس.

﴿١٣﴾ فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أيها الثقلان يريد من هذه الأشياء المذكورة وكرّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدّد على الخلق آلاءه [ونعماه] ويفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها، كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار سائغ في كلام العرب حسن تقريراً، وقيل خاطب بلفظ التثنية على عادة العرب تخاطب الواحد بلفظ التثنية كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

وروي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «مالي أراكم

سكوتاً، للجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية مرة فبأي آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾، وهو أبو الجن، وقال الضحاك: هو إبليس، ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه. قال مجاهد: وهو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت، من قولهم: مرج أمر القوم إذا اختلط.

(١٦) ـ (١٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، مشرق الصيف ومشرق الشتاء، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، مغرب الصيف ومغرب الشتاء.

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، العذب والمالح أرسلهما وخلاهما ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾، حاجز من قدرة الله تعالى، ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾، لا يختلطان ولا يتغيران ولا يبغي أحدهما على صاحبه. وقال قتادة: لا يطغيان على الناس بالغرق. وقال الحسن مرج البحرين يعني بحر الروم وبحر الهند، وأنتم الحاجز بينهما. وعن قتادة أيضاً: بحر فارس وبحر الروم بينهما برزخ يعني الجزائر. وقال مجاهد والضحاك: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام.

(٢١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة ﴿يخرج﴾ بضم الياء وفتح الراء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الراء، ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وإنمايخرج من المالح دون العذب، وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئان ثم يخص أحدهما بفعل كما قال عزّ وجلّ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وكانت الرسل من الإنس دون الجن.

وقال بعضهم يخرج من ماء السماء وماء البحر. قال ابن جريج: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فحيثما وقعت قطرة كانت لؤلؤة.

واللؤلؤ ما عظم من الدر، والمرجان صغارها. وقال مقاتل ومجاهد على الضد من هذا. وقيل: المرجان الخرز الأحمر. وقال عطاء الخراساني: هو اليسر.

(٢٣) ـ (٢٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾، السفن الكبار، ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾، وقرأ حمزة وأبو بكر المنشآت بكسر الشين أي المنشئات السير يعني اللاتي ابتدأن وأنشأن السير، وقرأ الآخرون بفتح الشين أي المرفوعات وهي التي رفع خشبها بعضها على بعض. وقيل: هي ما رفع قلعه من السفن وأما ما لم يرفع قلعه فليس من المنشئات. وقيل: المخلوقات المسخرات، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل شبه السفن في البحر وبالجبال في البر.

(٢٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾، أي على الأرض من حيوان فإنه ﴿فَانٍ﴾، هالك.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾، ذو العظمة والكبرياء، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾، أي مكرم أنبيائه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته.

(٢٨) ـ (٢٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، من ملك وإنس وجن. وقال قتادة: معناه لا يستغني عنه أهل السماء والأرض. قال ابن عباس: فأهل السموات يسألونه المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والتوبة والمغفرة. وقال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسأله الملائكة أيضاً لهم الرزق والمغفرة.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

قال المفسرون: من شأنه أن يحيي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل قوماً ويشفي مريضاً ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس المزكي إملاءً، أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى البزار، أنا يحيى بن الربيع المكي، أنا سفيان بن عيينة،

أنا أبو حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن مما خلق الله عزّ وجلّ لوحاً من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور، ينظر الله عزّ وجلّ فيه كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة، يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعزّ ويذلّ ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

قال سفيان بن عيينة: الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة، فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الإخبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

وقيل: شأنه جل ذكره أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر، عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبور، ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عز وجل.

وقال الحسين بن الفضل: هو سَوْق المقادير إلى المواقيت. وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية: كل يوم له إلى العبيد بر جديد.

(٣٠) ـ (٣١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾، قرأ حمزة والكسائي: سيفرغ بالياء لقوله: ﴿يَسْئَلُهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾، فأتبع الخبر، وقرأ الآخرون بالنون، وليس المراد منه الفراغ عن شغل، لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولكنه وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة، كقول القائل لأتفرغن لك، وما به شغل، وهذا قول ابن عباس والضحاك، وإنما حسن هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن.

وقال آخرون: معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم، كقول القائل للذي لا شغل له قد فرغت لي. وقال بعضهم: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور، ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم، فنحاسبكم ونجازيكم وننجز لكم ما وعدناكم، فيتم ذلك ونفرغ منه، وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾، أي الجن والإنس، سميا ثقلين لأنهما ثقلا على الأرض أحياء وأمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل.

قال النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي».

فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما، وقال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، سمي الجن والإنس ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب.

(٣٢) ـ (٣٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾، أي تجوزوا وتخرجوا، ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي من جوانبهما وأطرافهما، ﴿فَانفُذُوا﴾، معناه إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض. فاهربوا واخرجوا منها، والمعنى حيث ما كنتم أدرككم الموت، كما قال جلّ ذكره: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨].

وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، أي: بملك، وقيل: بحجة، والسلطان: القوة التي يتسلط بها على الأمر، فالملك والقدرة والحجة كلها سلطان، يريد حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني.

وروي عن ابن عباس قال: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله عزّ وجلّ. وقيل قوله: إلا بسلطان أي إلى سلطان كقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي إليّ.

(٣٤) ـ (٣٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وفي الخبر: يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾، الآية. فذلك قوله عز وجلّ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾، قرأ ابن كثير [«شواظ»] بكسر الشين والآخرون بضمها، وهما لغتان مثل صِوار من البقر وصُوار وهو اللهب الذي لا دخان فيه هذا قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: هو اللهيب الأخضر المنقطع من النار، ﴿وَنُحَاسٌ﴾، قرأ

الجزء السابع والعشرون — سورة الرحمٰن

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

٥٣٢

ابن كثير وأبو عمرو ونحاس بجرّ السين عطفاً على النار، وقرأ الباقون برفعها عطفاً على الشواظ. قال سعيد بن جبير والكلبي: النحاس الدخان، وهو رواية عطاء عن ابن عباس، ومعنى الرفع يرسل عليكما شواظ، ويرسل نحاس هذا مرة وهذا مرة، ويجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر، ومن جر بالعطف على النار يكون ضعيفاً لأنه يكون شواظ من نحاس، فيجوز أن يكون تقديره شواظ من نار وشيء من نحاس، على أنه حكى أن الشواظ لا يكون إلا من النار والدخان جميعاً، قال مجاهد وقتادة: النحاس هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم وهو رواية العوفي عن ابن عباس. وقال عبدالله بن مسعود: النحاس هو المهل. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، أي فلا تمتنعان من عذاب الله ولا يكون لكم ناصر منه.

﴿٣٦﴾ ـ ﴿٣٧﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَإِذَا انشَقَّتِ﴾، انفرجت، ﴿السَّمَآءُ﴾، فصارت أبواباً لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾، أي كلون الفرس الوردي وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة والصفرة، قال قتادة: إنها اليوم خضراء ويكون لها يومئذٍ لون آخر يضرب إلى الحمرة. وقيل: إنها تتلون ألواناً يومئذ كلون الفرس الوردي يكون في الربع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد الشتاء كان أغبر، فشبه السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه ﴿كَالدِّهَانِ﴾، جمع دهن، شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، وهو قول الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح: كالدهان كعصير الزيت يتلون في الساعة ألواناً. وقال مقاتل: كدهن الورد الصافي. وقال ابن جريج تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم. وقال الكلبي: كالدهان أي كالأديم الأحمر وجمعه أدهنة ودهن.

﴿٣٨﴾ ـ ﴿٣٩﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾، قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم، لأن الله عزّ وجلّ علمها منهم، وكتبت الملائكة عليهم وهي رواية العوفي عن ابن عباس.

وعنه أيضاً لا تسأل الملائكة المجرمين لأنهم يعرفونهم بسيماهم دليله ما بعده وهذا قول مجاهد.

وعن ابن عباس في الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، قال: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يسألهم لم عملتم كذا وكذا؟

وعن عكرمة أنه قال: إنها مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وعن ابن عباس أيضاً لا يسألون سؤال شفقة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

وقال أبو العالية لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم.

﴿٤٠﴾ ـ ﴿٤١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾، وهو سواد الوجوه وزرقة العيون، كما قال جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ﴾ تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ويلقون في النار.

﴿٤٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿٤٣﴾ ثم يقال لهم ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، المشركون.

﴿٤٤﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾، قد انتهى حره، قال الزجاج: أنى يأنى

فهو آن إذا انتهى في النضج، والمعنى: أنهم يسعون بين الجحيم والحميم فإذا استغاثوا من حر النار جعل عذابهم الحميم الآني الذي صار كالمهل، وهو قوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال كعب الأحبار: «آن» وادٍ من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار، وذلك قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وكل ماذكر الله تعالى من قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى ههنا مواعظ وزواجر وتخويف، وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر عن المعاصي، ولذلك ختم كل آية بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ثم ذكر ما أعده لمن اتقاه وخافه.

﴿٤٦﴾ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية والشهوة. وقيل: قيام ربه عليه بيانه قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال إبراهيم النخعي ومجاهد: هو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من مخافة الله. وقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ قال مقاتل جنة عدن وجنة نعيم قال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه ربه وجنة لتركه شهوته.

قال الضحاك: هذا لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عمل من خير أفضى به إلى الله، لا يحب أن يطلع عليه أحد.

وقال قتادة: إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودأبوا بالليل والنهار.

أخبرنا أبو الحسن علي بن [الحسين] القرشي، أنا أبو مسلم غالب بن علي الرازي، حدثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن يونس، أنا أبو جعفر محمد بن موسى بن عيسى الحلواني، أنا محمد بن حميد الهمداني، أنا هاشم بن القاسم عن أبي عقيل هو الثقفي عن يزيد بن سنان سمعت بُكير بن فيروز قال سمعت أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة مولى حويطب بن عبدالعزيز، عن عطاء بن يسار، عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء».

﴿٤٧﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ثم وصف الجنتين.

﴿٤٨﴾ فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، أغصان واحدها فنن، وهو الغصن المستقيم طولاً. وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبي، وقال عكرمة ظل الأغصان على الحيطان. قال الحسن: ذواتا ظلال. قال ابن عباس: ألوان. قال سعيد بن جبير والضحاك: ألوان الفواكه، واحدها فنن من قولهم أفتن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب. وجمع عطاء بين القولين فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة. وقال قتادة: ذواتاً فضل وسعة على ما سواهما.

﴿٤٩﴾ ـ ﴿٥٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، قال ابن عباس: بالكرامة والزيادة على أهل الجنة. قال الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل. وقال عطية إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين.

﴿٥١﴾ ـ ﴿٥٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، صنفان ونوعان، قيل: معناه إن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطباً

ويابساً. قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾، جمع فراش، ﴿بَطَآئِنُهَا﴾، جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. وقال الزجاج: وهي مما يلي الأرض. ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما غلظ من الديباج. قال ابن مسعود وأبو هريرة: هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر؟ وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق. فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وعنه أيضاً قال: بطائنها من إستبرق فظواهرها من نور جامد. وقال ابن عباس: وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾، الجنى ما يجتنى من الثمار، يريد ثمرهما دان قريب يناله القائم والقاعد والنائم.

قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً. قال قتادة: لا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، غاضات الأعين، قصرن طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ولا يردن غيرهم. قال ابن زيد: تقول لزوجها وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يجامعن ولم يفترعهن، وأصله الطمث وهو الدم ومنه قيل للحائض طامث، كأنه قال لم يدمهن بالجماع، ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، قال الزجاج: فيه دليل على أن الجني يغشى ما يغشى الإنسي. قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه. قال مقاتل في قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: لأنهن خلقن في الجنة. فعلى قوله هؤلاء من حور الجنة.

قال الشعبي: هن من نساء الدنيا لم يمسسن منذ أنشئن خلقاً، وهو قول الكلبي يعني: لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان. وقرأ طلحة بن مصرّف: ﴿لا يطمثهن﴾ بضم الميم فيهما، وقرأ الكسائي إحداهما بالضم، فإن كسر الأولى ضم الثانية وإن ضم الأولى كسر الثانية.

لما روى أبو إسحاق السبيعي قال: كنت أصلي خلف أصحاب علي رضي الله عنه فأسمعهم يقرؤون ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ بالرفع، وكنت أصلي خلف أصحاب عبدالله بن مسعود فأسمعهم يقرؤون بكسر الميم، وكان الكسائي يضم إحداهما ويكسر الأخرى لئلا يخرج عن هذين الأثرين.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، قال قتادة: صفاء الياقوت في بياض المرجان.

وروينا عن أبي سعيد في صفة أهل الجنة عن رسول الله ﷺ: «لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ سوقهن دون لحمهما ودمائهما وجلدهما».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان، أنا شعيب، أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءةً، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن، يسبحون الله بُكرة وعشياً لا يسقمون ولا يبولون ولا يمتخطون ولا يبصقون ولا يتغوطون ولا يتفلون، آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة ورشحهم المسك».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين، أنا هارون بن محمد بن هارون، أنا حازم بن يحيى الحلواني، أنا سهل بن عثمان العسكري، أنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب عن عمرو بن ميمون عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ومخها. إن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجر

الجزء السابع والعشرون — سورة الواقعة

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الوَاقِعَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

٥٣٤

لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه». وقال عمرو بن ميمون: إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء.

﴿٥٩﴾ ـ ﴿٦٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة.

وقال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه، أنا ابن أبي شيبة، أنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام، أنا الحجاج بن يوسف المكتب، أنا بشر بن الحسين، عن الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ثم قال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة».

﴿٦١﴾ ـ ﴿٦٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، أي من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان. قال ابن عباس: من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. وقال أبو موسى الأشعري: جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين. وقال ابن جريج: هن أربع: جنتان للمقربين السابقين فيهما [من] كل فاكهة زوجان، وجنتان لأصحاب اليمين والتابعين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا علي بن عبدالله، أنا عبدالعزيز بن عبدالصمد عن أبي عمران عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وقال الكسائي: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي أمامهما وقبلهما، يدل عليه قول الضحاك: الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والأخريان من ياقوت.

﴿٦٣﴾ ـ ﴿٦٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُدْهَآمَّتَانِ﴾، ناعمتان سوداوان من ريّهما وشدة خضرتهما، لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد، يقال: ادهام الزرع إذا علاه السواد رياً ادهيماماً فهو مدهام.

﴿٦٥﴾ ـ ﴿٦٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، فوارتان بالماء لا تنقطعان والنضخ فوران الماء من العين.

قال ابن عباس: تنضخان بالخير والبركة على أهل الجنة، وقال ابن مسعود: تنضخان بالمسك والكافور على أولياء الله. وقال أنس بن مالك: تنضخان بالمسك والعنبر في دور أهل الجنة كطش المطر.

﴿٦٧﴾ ـ ﴿٦٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، قال بعضهم: ليس النخل والرمان من الفاكهة والعامة على أنهما من الفاكهة، وإنما أعاد ذكر النخل والرمان وهما من جملة الفواكه للتخصيص والتفصيل، كما قال تعالى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن حارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا

عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك، عن سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر كربها ذهب أحمر وسعفها كِسوة لأهل الجنة فيها مقطّعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم.

(٦٩) ـ (٧٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ﴾، يعني في الجنات الأربع، ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

روى الحسن عن أبيه عن أم سلمة قالت: قلت لرسول الله ﷺ: أخبرني عن قوله: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾؟ قال: «خَيْرات الأخلاق حسان الوجوه».

(٧١) ـ (٧٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، محبوسات مستورات في الحجال، يقال: امرأة مقصورة وقصيرة إذا كانت مخدرة مستورة لا تخرج. وقال مجاهد: يعني قصرن طرفهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغين لهم بدلاً.

وروينا عن النبي ﷺ قال: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾، جمع خيمة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن المثنى، أنا عبدالعزيز بن عبدالصمد، أنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون».

(٧٣) ـ (٧٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، قال سعيد بن جبير: «الرفرف» رياض الجنة «خضر» مخصبة. ويروى ذلك عن ابن عباس، واحدتها رفرفة، وقال: الرفارف جمع الجمع، وقيل: الرفرف البسط، وهو قول الحسن ومقاتل والقرظي.

وروى العوفي عن ابن عباس: الرفرف فضول المجالس والبسط، وقال الضحاك وقتادة: هي مجالس خضر فوق الفرش. وقال ابن كيسان: هي المرافق. وقال ابن عيينة الزرابي. وقال غيره: كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف، ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾، هي الزرابي والطنافس الثخان، وهي جمع واحدتها عبقرية، وقال قتادة: العبقري عتاق الزرابي.

وقال أبو العالية: هي الطنافس المخملة إلى الرقة [ما هي] وقال القتيبي: كل ثوب موشى عند العرب عبقري. وقال أبو عبيدة هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي. قال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبقري.

ومنه قول النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقرياً يفري فريه».

(٧٧) ـ (٧٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، قرأ أهل الشام ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ بالواو وكذلك هو في مصاحفهم إجراءً على الاسم.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا أبو محمد بن محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي، أنا عبدالله بن محمد بن مسلم، ثنا أبو بكر الجوربذي، أنا أحمد بن حرب، أنا أبو معاوية الضرير عن عاصم الأحول، عن عبدالله بن الحارث عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

❀ ❀ ❀

سورة الواقعة

مكية وهي ست وتسعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، إذا قامت القيامة. وقيل: إذا نزلت صيحة القيامة، وهي النفخة الأخيرة.

(٢) ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾، لمجيئها، ﴿كَاذِبَةٌ﴾، كذب، كقوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، أي لغو يعني أنها تقع صدقاً وحقاً. والكاذبة اسم كالعافية والنازلة.

(٣) ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، تخفض

أقواماً إلى النار وترفع آخرين إلى الجنة. وقال عطاء عن ابن عباس: تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مستضعفين.

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾، حركت وزلزلت زلزالاً، قال الكلبي: إن الله إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً. قال المفسرون: ترج كما يرج الصبي في المهد حتى ينهدم كل بناء عليها وينكسر كل ما عليها من الجبال وغيرها. وأصل الرج في اللغة التحريك، يقال: رججته فارتج.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾، قال عطاء ومقاتل ومجاهد: فُتّت فتاً فصارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول. قال سعيد بن المسيب والسدي: كسرت كسراً. وقال الكلبي: سيرت على وجه الأرض تسييراً. وقال الحسن: قلعت من أصلها فذهبت، نظيرها: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] قال ابن كيسان: جعلت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة طويلة.

(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾، غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة وهو الهباء.

(٧) ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أصنافاً، ﴿ثَلَٰثَةً﴾.

(٨) ثم فسرها فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وقال ابن عباس: هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، وقال الله لهم هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال الضحاك: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. وقال الحسن والربيع: هم الذين كانوا ميامين مباركين على أنفسهم، وكانت أعمارهم في طاعة الله وهم التابعون بإحسان، ثم عجب نبيه ﷺ فقال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، وهذا كما يقال: زيد ما زيد يراد زيد شديد.

(٩) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، يعني أصحاب الشمال، والعرب تسمي اليد اليسرى الشؤمى، ومنه يسمى الشأم واليمن لأن اليمن عن يمين الكعبة والشأم عن شمالها، وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

وقال ابن عباس: هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية وقال الله لهم: هؤلاء في النار ولا أبالي، وقال الضحاك: هم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم. وقال الحسن: هم المشائيم على أنفسهم وكانت أعمارهم في المعاصي.

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، قال ابن عباس: السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة. وقال عكرمة: السابقون إلى الإسلام. قال ابن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبلتين، دليله قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال الربيع بن أنس: السابقون إلى إجابة الرسول ﷺ في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى. وقال مقاتل: إلى إجابة الأنبياء صلوات الله عليهم بالإيمان. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: إلى الصلوات الخمس. وقال الضحاك: إلى الجهاد.

وقال سعيد بن جبير: هم المسارعون إلى التوبة وإلى أعمال البر. قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنين: ٦١]، وقال ابن كيسان: والسابقون إلى كل ما دعا الله إليه.

وروي عن كعب قال: هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة. وقيل: هم أولهم رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في الجهاد في سبيل الله. وقال القرظي: إلى كل خير.

(١١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، من الله.

(١٢) ـ (١٣) ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي من الأمم الماضية من لدن آدم عليه السلام إلى زمان نبينا ﷺ، والثلة: جماعة غير محصورة العدد.

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾، يعني من هذه الأمة، قال الزجاج [هم] الذين عاينوا جميع النبيين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام وصدقوهم، أكثر ممن عاين النبي ﷺ.

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾، منسوجة كما توضن حلق الدرع فيدخل بعضها في بعض. قال المفسرون: هي موصولة منسوجة بالذهب والجواهر. وقال الضحاك: موضونة مصفوفة.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

(١٦) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾، لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، للخدمة، ﴿وِلْدَانٌ﴾، غلمان، ﴿مُخَلَّدُونَ﴾، لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وقال الفراء: تقول العرب لمن كبر ولم يشمط إنه مخلد. قال ابن كيسان: يعني ولداناً لا يحولون من حالة إلى حالة.

قال سعيد بن جبير: مقرطون يقال خلد جاريته إذا حلاها بالخلد، وهو القرط.

قال الحسن: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها لأن الجنة لا ولادة فيها فهم خدم أهل الجنة.

(١٨) ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾، فالأكواب جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرى، والأباريق [جمع إبريق] وهي ذوات الخراطيم سميت أباريق لبريق لونها من الصفاء. ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾، خمر جارية.

(١٩) ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، لا تصدع رؤوسهم من شربها، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [لا يذهب عقولهم] أي لا يسكرون هذا إذا قرئ بفتح الزاي ومن كسر فمعناه لا ينفد شرابهم.

(٢٠) ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، يختارون ما يشتهون يقال تخيرت الشيء إذا أخذت خيره.

(٢١) ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، قال ابن عباس: يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، ويقال: إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير فيذهب.

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي بكسر الراء والنون، أي وبحور عين أتبعه قوله: «بأكواب وأباريق ـ وفاكهة ـ ولحم طير» في الإعراب وإن اختلفا في المعنى لأن الحور لا يطاف بهن.

كقول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً
وزججن الحواجب والعيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل ومثله كثير، وقيل: معناه ويكرمون بفاكهة ولحم طير وحور عين. وقرأ الباقون بالرفع أي ويطوف عليهم حور عين.

وقال الأخفش رفع على معنى لهم حور عين ورجاء في تفسيره: «حور عين» بيض ضخام العيون.

(٢٣) ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾، المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي.

ويروى أنه يسطع نور في الجنة قالوا وما هذا قالوا ضوء ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها.

ويروى: أن الحوراء إذا مشيت ليسمع تقديس الخلاخل من ساقيها وتمجيد الإسورة من ساعديها، وإن عقد الياقوت ليضحك من نحرها، وفي رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح.

(٢٤) ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(٢٥) ـ (٢٦) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا﴾، أي قولاً: ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾، نصبهما اتباعاً لقوله قيلاً أي يسمعون قيلاً سلاماً سلاماً. قال عطاء: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، ثم ذكر أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال جل ذكره:

(٢٧) ـ (٢٨) ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾، لا شوك فيه، كأنه خضد شوكه أي قطع ونزع منه، هذا قول ابن عباس وعكرمة. وقال الحسن: لا يعقر الأيدي. قال ابن كيسان: هو الذي لا أذى فيه. قال: وليس شيء من ثمرة الجنة في غلف كما يكون في الدنيا من الباقلاء وغيره بل كلها

مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه. قال الضحاك ومجاهد: هو الموقر حملاً. قال سعيد بن جبير: ثمارها أعظم من القلال. قال أبو العالية والضحاك: ونظر المسلمون إلى وج وهو واد مخصب بالطائف فأعجبهم سدرها، وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا فأنزل الله هذه الآية.

﴿٢٩﴾ ﴿وَطَلْحٍ﴾، أي موز واحدتها طلحة، عن أكثر المفسرين. وقال الحسن: ليس هو بالموز ولكنه شجر لها ظل بارد طيب. قال الفراء وأبو عبيدة: الطلح عند العرب شجر عظام لها شوك. وروى مجاهد عن الحسن بن سعيد قال: قرأ رجل عند علي رضي الله عنه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾، فقال: وما شأن الطلح إنما هو «طلع منضود» ثم قرأ «طلعها هضيم»، قلت: يا أمير المؤمنين إنها في المصحف بالحاء أفلا تحولها؟ فقال: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول.

والمنضود المتراكم الذي قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره، ليست له سوق بارزة.

قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنائها ثمر كله.

﴿٣٠﴾ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، دائم لا تنسخه الشمس والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع ممدود.

أخبرنا أبو علي بن حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ قال: شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عزّ وجلّ عليها ريحاً من الجنة فتتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾، مصبوب يجري دائماً في غير أخدود لا ينقطع.

﴿٣٢﴾ ـ ﴿٣٣﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جنيت ولا تمتنع من أحد أراد أخذها.

وقال بعضهم: لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان، كما ينقطع أكثر ثمار الدنيا إذا جاء الشتاء، ولا يتوصل إليها إلا بالثمن. وقال القتيبي: يعني لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا.

وجاء في الحديث: «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين».

﴿٣٤﴾ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، قال علي رضي الله عنه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ على الأسرة. وقال جماعة من المفسرين: بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا ابن حبيش، ثنا أبو عبدالرحمن النسائي، ثنا أبو كريب رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: «إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمسمائة عام».

وقيل: أراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة، «مرفوعة» رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا، دليل هذا التأويل قوله في عقبه:

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، خلقناهن خلقاً جديداً، قال ابن عباس: يعني الآدميات العجز الشمط، يقول خلقناهن بعد الهرم خلقاً آخر.

﴿٣٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ عذارى.

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي عن الهيثم بن كليب الشاشي، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا عبد بن حميد، أنا مصعب بن المقدام، أنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز»، قال: فولت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾».

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم

الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن الخطيب، أنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن منصور، أنا أبو بكر محمد بن سليمان بن الحارث الواسطي ببغداد، أنا خلاد بن يحيى بن صفوان السلمي، ثنا سفيان الثوري [موسى بن عبيدة] عن يزيد بن أبان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، قال: «عجائز كن في الدنيا عمشاً رمصاً ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾».

وقال المسيب بن شريك: هن عجائز الدنيا أنشأهن الله تعالى خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً.

وذكر المسيب عن غيره أنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا.

وقال مقاتل وغيره: هن الحور العين أنشأهن الله، لم يقع عليهن ولادة، فجعلناهن أبكاراً عذارى، وليس هناك وجع.

﴿٣٧﴾ ﴿عُرُبًا﴾ قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع وأبو بكر: ﴿عرباً﴾ ساكنة الراء، الباقون بضمها وهي جمع عروب أي عواشق متحببات إلى أزواجهن. قاله الحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير. وهي رواية الوالي عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: مَلِقَة. وقال عكرمة: غنجة. وقال أسامة بن زيد عن أبيه: عربا حسان الكلام. ﴿أَتْرَابًا﴾، مستويات في السن على سن واحد.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا بن شيبة ثنا الفريابي، عن علي بن أبي شيبة، أنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاف جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم طوله ستون ذراعاً في سبعة أذرع».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارثي، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن رشدين بن سعد حدثني عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء».

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك».

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون أبناء [ثلاث و] ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار».

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «إن عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة فيها لتضيء ما بين المشرق والمغرب».

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر الحارثي، أنا محمد بن يعقوب، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، أنا عبدالله بن المبارك عن محمد بن سليم عن الحجاج بن عتاب العبدي عن عبدالله بن معبد الزِّمَّاني عن أبي هريرة قال: أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دانٍ ـ لمن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم، مع كل واحد منهم طريفة ليست مع صاحبه.

﴿٣٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، يريد أنشأناهن لأصحاب اليمين.

﴿٣٩﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، من المؤمنين الذين كانوا قبل هذه الأمة.

﴿٤٠﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾، من مؤمني هذه الأمة، هذا قول عطاء ومقاتل.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد العدل، ثنا عبدالله بن عبدالرحمن الدقاق، ثنا محمد بن عبدالعزيز، ثنا عيسى بن المساور، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا عيسى بن موسى عن عروة بن رويم قال: لما أنزل الله على رسوله ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ بكى عمر رضي الله عنه، فقال: يا نبي الله آمنا برسول الله ﷺ وصدقناه ومن ينجو منا قليل؟ فأنزل الله عزّ

وجلّ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال: «قد أنزل الله عزّ وجلّ فيما قلت»، فقال عمر رضي الله عنه: رضينا عن ربنا وتصديق لنبينا، فقال رسول الله ﷺ: «من آدم إلينا ثلة، ومنى إلى يوم القيامة ثلة، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مُسَدَّد، ثنا حصين بن نُمير عن حصين بن عبدالرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «عُرضت عليّ الأمم فجعل يمرّ النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي معه الرهط والنبي ليس معه أحد، ورأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق فرجوت أن يكونوا أمتي، فقيل هذا موسى في قومه، ثم قيل لي: انظر فرأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق فقيل لي: أنظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرق الناس ولم يبين لهم فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ النبي ﷺ فقال: «هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: نعم، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال عليه السلام: «قد سبقك بها عكاشة».

ورواه عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «اعرضت علي الأنبياء الليلة بأتباعها حتى أتى علي موسى عليه السلام في كبكبة بني إسرائيل فلما رأيتهم أعجبوني، فقلت: أي رب [من] هؤلاء؟ قيل: هذا أخوك موسى ومن بني إسرائيل، قلت: رب فأين أمتي؟ قيل: انظر عن يمينك فإذا ظراب مكة قد سدت بوجوه الرجال، قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت رب رضيت رب رضيت، قيل: انظر عن يسارك فإذا الأفق قد سدّ بوجوه الرجال، قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت: رب رضيت، فقيل: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة لا حساب عليهم، فقال نبي الله ﷺ إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا وإن عجزتم وقصرتم فكونوا من أهل الظراب وإن عجزتم فكونوا من أهل الأفق فإني قد رأيت ثمّ أناساً يتهاوشون كثيراً».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن بشار، ثنا غندر، ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبدالله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في قبة فقال «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

وذهب جماعة إلى أن الثلثين جميعاً من هذه الأمة، وهو قول أبي العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رياح والضحاك، قالوا: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من سابقي هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة في آخر الزمان.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن بن محمد الدينوري، ثنا أحمد بن إسحاق السني، أنا أبو خليفة الفضل بن الحباب، ثنا محمد بن كثير، أنا سفيان عن أبان بن أبي عياش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هما جميعاً من أمتي».

(٤١) ـ (٤٢) قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ﴾، ريح حارة ﴿وَحَمِيمٍ﴾، ماء حار.

(٤٣) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، دخان شديد السواد، تقول العرب: أسود يحموم إذا كان شديد السواد، وقال الضحاك: النار سوداء وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود. وقال ابن كيسان اليحموم اسم من أسماء النار.

(٤٤) ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، قال قتادة؛ لا بارد المنزل ولا كريم

المنظر. وقال سعيد بن المسيب: ولا كريم ولا حسن، نظيره ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧، لقمان: ١٠]. وقال مقاتل: طيب.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾، يعني في الدنيا، ﴿مترفين﴾، منعمين.

﴿٤٦﴾ ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾، يقيمون ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾، على الذنب الكبير وهو الشرك. وقال الشعبي: الحنث العظيم اليمين الغموس. ومعنى هذا: أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع [والكسائي] ويعقوب ﴿أئذا﴾ مستفهماً ﴿إنا﴾ بتركه، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما.

﴿٤٨﴾ - ﴿٥٥﴾ ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۞ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۞ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۞ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۞ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۞ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم وحمزة ﴿شرب﴾ بضم الشين، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان، فالفتح على المصدر والضم اسم بمعنى المصدر كالضُّعف والضَّعف ﴿والهيم﴾ الإبل العطاش، قال عكرمة وقتادة: الهيام داء يصيب الإبل لا تروى معه، ولا تزال تشرب حتى تهلك. يقال: جمل أهيم، وناقة هيماء، والإبل هيم. وقال الضحاك وابن عيينة: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل.

﴿٥٦﴾ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾، يعني ما ذكر من الزقوم والحميم، أي رزقهم وغذاؤهم وما أعدلهم، ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، يوم يجازون بأعمالهم ثم احتج عليهم في البعث.

﴿٥٧﴾ فقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾، قال مقاتل خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك، ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾، بالبعث.

﴿٥٨﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، تصبون في الأرحام من النطف.

﴿٥٩﴾ ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾، يعني أأنتم تخلقون ما تمنون بشراً. ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وهما لغتان ﴿بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾، قال مقاتل فمنكم من يبلغ الهرم ومنكم من يموت صبياً وشاباً. وقال الضحاك: تقديره إنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء فعلى هذا يكون معنى قدرنا قضينا. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم.

﴿٦١﴾ فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾، يعني نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم، ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾، نخلقكم ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من الصور، قال مجاهد: في أي خلق شئنا. وقال الحسن: أي نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم، يعني إن أردنا أن نفعل ذلك ما فاتنا ذلك. وقال سعيد بن المسيب: فيما لا تعلمون يعني في حواصل طير سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف وبرهوت واد باليمن.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾، الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئاً. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أني قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم.

﴿٦٣﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، يعني تثيرون من الأرض وتلقون فيها من البذر.

﴿٦٤﴾ ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾، تنبتونه، ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾، المنبتون.

﴿٦٥﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾، قال عطاء تبناً لا قمح فيه، وقيل: هشيماً لا ينتفع به في مطعم وغذاء ﴿فَظَلْتُمْ﴾، وأصله فظللتم، حذفت إحدى اللامين تخفيفاً. ﴿تَفَكَّهُونَ﴾،

الجزء السابع والعشرون — سورة الواقعة

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

٥٣٦

تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل: وقيل: تندمون على نفقاتكم، وهو قول يمان، نظيره: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]، وقال الحسن: تندمون على ما سلف منكم من المعصية التي أوجبت تلك العقوبة. وقال عكرمة: تتلاومون. قال ابن كيسان: تحزنون. قال الكسائي: هو تلهف على ما فات، وهو من الأضداد، تقول العرب: تفكهت أي تنعمت وتفكهت أي حزنت.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم «أئنا» بهمزتين وقرأ الآخرون [إنا] على الخبر، ومجاز الآية فظلتم تفكهون وتقولون إنا لمغرمون. وقال مجاهد وعكرمة لمولع بنا. وقال ابن عباس وقتادة: معذبون، والغرام العذاب. وقال الضحاك وابن كيسان: غرمنا أموالنا وصار ما أنفقنا غرماً علينا، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض.

(٦٧) وهو قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، محدودون ممنوعون أي حرمنا ما كنا نطلبه من الريع في الزرع.

(٦٨) ـ (٧٠) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾، السحاب واحدتها مزنة، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، قال ابن عباس شديد الملوحة، قال الحسن: مراً. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

(٧١) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، تقدحون وتستخرجون من زندكم.

(٧٢) ـ (٧٣) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾، التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾، خلقناها يعني نار الدنيا ﴿تَذْكِرَةً﴾، للنار الكبرى إذا رآها الرائي ذكر جهنم، قاله عكرمة ومجاهد ومقاتل. وقال عطاء: موعظة يتعظ بها المؤمن.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا أبو علي زاهر بن أحمد الفقيه، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

﴿وَمَتَٰعًا﴾، بلغة ومنفعة، ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾، المسافرين والمقوي النازل في الأرض والقِيُّ والقوا هو القفر الخالية البعيدة من العمران يقال: قوت الدار إذا خلت من سكانها والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والأسفار، فإن منفعتهم بها أكثر من منفعة المقيم وذلك أنهم يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السباع ويهتدي بها الضُّلاَّل وغير ذلك من المنافع، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة: للمقوين يعني للمستمتعين بها من الناس أجمعين، المسافرين والحاضرين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز.

قال الحسن: بلغة للمسافرين يتبلغون بها إلى أسفارهم، يحملونها في الخرق والجواليق. وقال ابن زيد: للجائعين تقول العرب أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئاً. قال قطرب: المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال، ويقال للغني: مقو لقوته على ما يريد، يقال: أقوى الرجل إذا قويت دوابه وكثر ماله، وصار إلى حالة القوة، والمعنى أن فيها متاعاً للأغنياء والفقراء جميعاً لا غنى لأحد عنها.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

(٧٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أقسم ولا صلة، وكان عيسى بن عمر يقرأ: فلأقسم، على التحقيق. وقيل: قوله ﴿فلا﴾ رد لما قاله الكفار في القرآن إنه سحر وشعر وكهانة، معناه ليس الأمر كما يقولون ثم استأنف القسم، فقال ﴿أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾. قرأ حمزة والكسائي «بموقع» على التوحيد. وقرأ الآخرون «بمواقع» على الجمع. قال ابن عباس: أراد نجوم القرآن فإنه كان نزل على رسول الله ﷺ متفرقاً نجوماً. وقال جماعة من المفسرين: أراد مغارب النجوم ومساقطها. وقال عطاء بن أبي رباح أراد منازلها. وقال الحسن: أراد انكدارها وانتثارها يوم القيامة.

﴿٧٧﴾ ـ ﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ﴾، يعني هذا الكتاب وهو موضع القسم. ﴿لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾، عزيز مكرم لأنه كلام الله. قال بعض أهل المعاني: الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير.

﴿٧٩﴾ ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾، مصون عند الله في اللوح المحفوظ محفوظ من الشياطين.

﴿٨٠﴾ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾، أي ذلك الكتاب المكنون، ﴿إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة يروى هذا عن أنس، وهو قول سعيد بن جبير، وأبي العالية، وقتادة وابن زيد: أنهم الملائكة.

وروى حسان عن الكلبي قال هم السفرة الكرام البررة، وروى محمد بن فضيل عنه لا يقرؤه إلا الموحدون. قال عكرمة: وكان ابن عباس ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن. قال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به. وقال قوم: معناه لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات. وظاهر الآية نفي ومعناها نهي، قالوا: لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا المحدث حمل المصحف ولا مسه، وهو قول عطاء، وطاوس، وسالم والقاسم، وأكثر أهل العلم، وبه قال مالك والشافعي وقال الحكم، وحماد، وأبو حنيفة: يجوز للمحدث والجنب حمل المصحف ومسه بغلاف، والأول قول أكثر الفقهاء.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم (أن لا يمسّ القرآن إلا طاهر).

والمراد بالقرآن المصحف، سماه قرآناً على قرب الجوار والاتساع.

كما روي أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو». وأراد به المصحف.

﴿٨١﴾ ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي القرآن منزل من عند رب العالمين سمي المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة. كما يقال للمقدور قدر للمخلوق خلق.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾، يعني القرآن ﴿أنتم﴾، يا أهل مكة، ﴿مدهنون﴾، قال ابن عباس: مكذبون. قال مقاتل بن حيان: كافرون نظيره: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، والمدهن والمداهن الكذاب والمنافق، وهو من الإدهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر، هذا أصله ثم قيل للمكذب: مدهن، وإن صرح بالتكذيب والكفر.

﴿٨٣﴾ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾، حظكم ونصيبكم من القرآن، ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، قال الحسن في هذه الآية: خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به. وقال جماعة من المفسرين: معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقال الهيثم بن عدي: إن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان، بمعنى ما شكر، وهذا في الاستسقاء بالأنواء، وذلك أنهم كانوا يقولون: إذا مطروا: مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك من فضل الله تعالى، فقيل لهم: أتجعلون رزقكم أي شكركم بما رزقتم، يعني شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن

الجزء السابع والعشرون — سورة الواقعة

إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

٥٣٧

مسعود، عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب».

ورواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ وزاد: فنزلت هذه الآية ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن سلمة المرادي، ثنا عبدالله بن وهب عن عمرو بن الحارث أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الله تعالى الغيث فيقولون: مطرنا بكوكب كذا وكذا».

(٨٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَوۡلَآ﴾، فهلا، ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، أي بلغت النفس الحلقوم عند الموت.

(٨٥) ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾، يريد وأنتم يا أهل الميت ينظرون إليه متى تخرج نفسه. وقيل: معنى قوله تنظرون أي إلى أمري وسلطاني لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً.

(٨٦) ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾، بالعلم والقدرة والرؤية. وقيل: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾، الذين حضروه.

(٨٧) ﴿فَلَوۡلَآ﴾، فهلا ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، مملوكين، وقال أكثرهم: محاسبين ومجزيين.

(٨٨) ﴿تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم فأجاب عن قوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، وعن قوله ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد، ومثله قوله عز وجلّ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، معناه إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، وإذ لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عزّ وجلّ فآمنوا به، ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال.

(٨٩) ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وهم السابقون.

(٩٠) ﴿فَرَوۡحٞ﴾ قرأ يعقوب ﴿فروح﴾، بضم الراء والباقون بفتحها فمن قرأ بالضم، قال الحسن معناه: تخرج روحه في الريحان، وقال قتادة: الروح الرحمة أي له الرحمة، وقيل: معناه فحياة وبقاء لهم.

ومن قرأ بالفتح معناه فله روح وهو الراحة، وهو قول مجاهد. وقال سعيد بن جبير: فرح. وقال الضحاك: مغفرة ورحمة. ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾، استراحة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: رزق. وقال مقاتل: هو الرزق بلسان حمير، يقال خرجت أطلب ريحان الله أي رزق الله. وقال آخرون: هو الريحان الذي يشم، قال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم تقبض روحه. ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾، قال أبو بكر الوراق: «الرَّوْح» النجاة من النار و«الريحان» دخول دار القرار.

(٩١) ـ (٩٢) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى، ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي سلامة لك يا محمد منهم، فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله أو أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة. قال مقاتل: هو أن الله تعالى يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم.

وقال الفراء وغيره: فسلم لك إنهم من أصحاب اليمين، أو يقال لصاحب اليمين: سلم لك إنك من أصحاب اليمين وألفيت إن كان، كالرجل يقول إني مسافر عن قليل، فتقول له: أنت مصدق مسافر عن قليل، وقيل: «فسلام لك» أي عليك من أصحاب اليمين.

(٩٣) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، بالبعث، ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، عن الهدى وهم أصحاب المشأمة.

(٩٤) ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، فالذي يعدلهم حميم جهنم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، وإدخال نار عظيمة.

﴿٩٦﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، يعني ما ذكر من قصة المحتضرين، ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾، أي الحق اليقين أضافه إلى نفسه.

﴿٩٧﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قيل: فصل بذكر ربك وأمره، وقيل: «الباء» زائدة ومعناه فسبح اسم ربك العظيم.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا ابن فنجويه، أنا ابن شيبة، ثنا حمزة بن محمد الكاتب، ثنا نعيم بن حماد، ثنا عبدالله بن المبارك، عن موسى بن أيوب الغافقي، عن عمه وهو إياس بن عامر، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا محمود بن غيلان، ثنا أبو داود، قال: أنا شعبة عن الأعمش قال: سمعت سعد بن عبيدة يحدث عن المستورد، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى، وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا محمد بن فضيل، أنا عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

أخبرنا أبو نصر محمد بن الحسن الجُلْفَرِيُّ، حدثني أبو القاسم تمَّام بن محمد بن عبدالله الرازي بدمشق، ثنا علي بن الحسين البزاز وأحمد بن سليمان بن حذلم وابن راشد قالوا: أخبرنا بكّار بن قتيبة، ثنا روح بن عبادة، ثنا حجاج الصواف عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، قال أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا يونس بن عبدالأعلى، أنا ابن وهب، أخبرني السري بن يحيى أن شجاعاً حدثه عن أبي طيبة عن عبدالله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقه أبداً» [قال] وكان أبو طيبة لا يدعها أبداً.

❁ ❁ ❁

سورة الحديد

مدنية وهي تسع وعشرون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، يعني هو «الأول» قبل كل شيء بلا ابتداء بل كان هو ولم يكن شيء موجوداً، و«الآخر» بعد فناء كل شيء بلا انتهاء، تفنى الأشياء ويبقى هو و«الظاهر» الغالب العالي على كل شيء، و«الباطن» العالم بكل شيء، هذا معنى قول ابن عباس. وقال يمان: «هو الأول القديم و«الآخر» الرحيم، و«الظاهر» الحليم، و«الباطن» العليم.

وقال السدي: هو الأول ببره إذ عرفك توحيده، والآخر بجوده إذ عرفك التوبة على ما جنيت، والظاهر بتوفيقه إذ وفقك للسجود له، والباطن بستره إذ عصيته فستر عليك. وقال الجنيد: هو الأول بشرح القلوب، والآخر بغفران الذنوب، والظاهر بكشف الكروب، والباطن يعلم الغيوب. وسأل عمر رضي الله تعالى عنه كعباً عن هذه الآية فقال: معناها إن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج حدثني زهير بن

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

حرب، ثنا جرير عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، [و] منزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين واغنني من الفقر» وكان يروى ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

﴿٤﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، بالعلم، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿٥﴾ ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، يخاطب كفار مكة، ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، مملكين فيه يعني المال الذي كان بيد غيرهم فأهلكهم وأعطاه قريشاً فكانوا في ذلك المال خلفاء عمن مضوا. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو ﴿أخذ﴾ بضم الهمزة وكسر الخاء ﴿ميثاقكم﴾ برفع القاف على ما لم يسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف، أي: أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، قال مجاهد: وقيل: أخذ ميثاقكم بإقامة الحجج والدلائل التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يوماً، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، محمد ﷺ، ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، يعني القرآن، ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾، الله بالقرآن، ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول: أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله وأنتم ميتون تاركون أموالكم، ثم بين فضل من سبق بالإنفاق [فيما يقرب] في سبيل الله وبالجهاد فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾، يعني فتح مكة في قول أكثر المفسرين، وقال الشعبي: هو صلح الحديبية، ﴿وَقَاتَلَ﴾، يقول لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع من أنفق وقاتل بعده، ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾.

وروى محمد بن فضيل عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله. وقال عبدالله بن مسعود: أول من أظهر إسلامه بسيفه النبي ﷺ وأبو بكر.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، حدثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد بن محمد، أنا أحمد بن إسحاق بن أيوب، أنا محمد بن يونس، ثنا العلاء بن عمرو الشيباني، ثنا أبو إسحاق الفزاري، ثنا سفيان بن سعيد عن آدم بن علي عن ابن عمر قال: كنت

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل فقال: مالي أرى، أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال؟ فقال: «أنفق ماله عليّ قبل الفتح» قال: فإن الله عزّ وجلّ يقول: اقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن الله عزّ وجلّ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربي؟ إني عن ربي راضٍ إني عن ربي راضٍ.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، أي كلا الفريقين وعدهم الله الجنة. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا [من] قبل الفتح في أفضلها. وقرأ ابن عامر «وكل» بالرفع، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(١١) ـ (١٢) ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾، يعني على الصراط، ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾، يعني عن أيمانهم. قال بعضهم: أراد جميع جوانبهم، فعبر بالبعض عن الكل وذلك دليلهم إلى الجنة.

وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نوره [يعني: على الصراط]، من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه».

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم: وأدناهم نوراً من نوره أعلى إبهامه فيطفأ مرة ويقد مرة. وقال الضحاك ومقاتل: يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم كتبهم يريد أن كتبهم التي أعطوها بأيمانهم ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾، قرأ الأعمش وحمزة: ﴿أنظرونا﴾ بفتح الهمزة وكسر الظاء يعني أمهلونا. وقيل: انتظرونا. وقرأ الآخرون بحذف الألف في الوصل وضمها في الابتداء وضم الظاء، تقول العرب: انظرني وأنظرني يعني انتظرني. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، نستضيء من نوركم، وذلك أن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، فبينما هم يمشون إذ بعث الله عليهم ريحاً وظلمة فأطفأ نور المنافقين، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون وبقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾، قال ابن عباس: يقول لهم المؤمنون، وقال قتادة: تقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم، ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فاطلبوا هناك لأنفسكم نوراً فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين، وهو قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، أي سور، والباء صلة يعني بين المؤمنين والمنافقين، وهو حائط بين الجنة والنار، ﴿لَّهُ﴾ أي لذلك السور،

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾، أي في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة، ﴿وَظَاهِرُهُ﴾، أي خارج ذلك السور، ﴿مِن قِبَلِهِ﴾، أي من قبل ذلك الظاهر، ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وهو النار.

﴿١٤﴾ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ روي عن عبدالله بن عمر قال: إن السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ هو سور بيت المقدس الشرقي، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وادي جهنم. وقال شريح: كان كعب يقول: في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ الآية، «ينادونهم» يعني: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور حين حجز بينهم بالسور وبقوا في الظلمة: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا نصلي ونصوم؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، بالإيمان والتوبة. قال مقاتل: وتربصتم بمحمد ﷺ الموت وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾، شككتم في نبوته وفيما أوعدكم به. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾، الأباطيل وما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، يعني الموت، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، يعني الشيطان، قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار.

﴿١٥﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب ﴿تؤخذ﴾ بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، ﴿فِدْيَةٌ﴾ بدل وعوض بأن تفدوا أنفسكم من العذاب، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يعني المشركين، ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، صاحبكم وأولى بكم لما أسلفتم من الذنوب، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب، فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فأخبرهم أن القرآن أحسن قصصاً من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله، ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فقالوا: حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية. فعلى هذا تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، يعني في العلانية وباللسان.

وقال الآخرون: نزلت في المؤمنين.

قال عبدالله بن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، إلا أربع سنين.

وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

﴿١٦﴾ فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، ألم يحن للذين آمنوا أن تخشع [قلوبهم] ترق وتلين وتخضع لذكر الله، ﴿وَمَا نَزَلَ﴾، قرأ نافع وحفص عن عاصم بتخفيف الزاي، وقرأ الآخرون بتشديدها، ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وهو القرآن، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾، وهم اليهود والنصارى، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، الزمان بينهم وبين أنبيائهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، والمعنى: أن الله عزّ وجلّ ينهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر. روي أن أبا موسى الأشعري بعث إلى قرّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال لهم: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، يعني الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾، قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي المؤمنين والمؤمنات، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي المتصدقين والمتصدقات أدغمت التاء في الصاد، ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، بالصدقة والنفقة في سبيل الله عزّ وجلّ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾، ذلك

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

٥٤٠

القرض ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، ثواب حسن وهو الجنة.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾، والصديق الكثير الصدق، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وتلا هذه الآية.

قال الضحاك: هم ثمانية نفر من هذه الأمة، سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام أبو بكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وتاسعهم عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته.

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، اختلفوا في نظم هذه الآية منهم من قال: هي متصلة بما قبلها والواو واو النسق، وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين.

وقال الضحاك: هم الذين سميناهم.

وقال مجاهد: كل مؤمن صديق شهيد، وتلا هذه الآية. وقال قوم: تم الكلام عند قوله: ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قالوا والواو واو الاستئناف، وهو قول ابن عباس ومسروق وجماعة، ثم اختلفوا فيهم فقال: قوم هم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة، ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مقاتل بن حيان. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، بما عملوا من العمل الصالح، ﴿وَنُورُهُمْ﴾، على الصراط ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(٢٠) قوله عزّ وجلّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي أن الحياة الدنيا، و﴿ما﴾ صلة أي إن الحياة في هذه الدار، ﴿لَعِبٌ﴾، باطل لا حاصل له، ﴿وَلَهْوٌ﴾، فرح ثم ينقضي، ﴿وَزِينَةٌ﴾، منظر يتزينون به، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾، تفخر به بعضكم على بعض.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، ثم ضرب لها مثلاً فقال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾، أي الزراع، ﴿نَبَاتُهُ﴾، ما نبت من ذلك الغيث، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، ييبس، ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾، بعد خضرته ونضرته، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، قال مقاتل: لأعداء الله، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، لأوليائه وأهل طاعته.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن يشتغل فيها بطلب الآخرة ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه.

(٢١) ﴿سَابِقُوا﴾، سارعوا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، لو وصل بعضها ببعض، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فبين أن أحداً لا يدخل الجنة إلا بفضل الله.

(٢٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، يعني: [من] قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار، ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾، يعني الأمراض وفقد الأولاد، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، يعني اللوح المحفوظ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾، من قبل أن نخلق الأرض والأنفس. وقال ابن عباس: من قبل أن نبرأ المصيبة. وقال أبو العالية: يعني النسمة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي إثبات ذلك على كثرته هين على الله عزّ وجلّ.

(٢٣) ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾، تحزنوا، ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، من الدنيا، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ [تبطروا بما آتاكم]، قرأ أبو عمرو بقصر الألف لقوله ﴿فاتكم﴾ فجعل الفعل له، وقرأ الآخرون ﴿آتاكم﴾ بمد الألف، أي: أعطاكم. قال عكرمة: ليس

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾، متكبر بما أوتي من الدنيا، ﴿فَخُورٍ﴾، يفخر به على الناس.

قال جعفر بن محمد الصادق: يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت.

﴿٢٤﴾ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، قيل: هو في محل الخفض على نعت المختال. وقيل: هو رفع بالابتداء وخبره فيما بعده. ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي يعرض عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿فإن الله الغني﴾، بإسقاط «هو» وكذلك هو في مصاحفهم.

﴿٢٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، بالآيات والحجج، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾، يعني العدل. وقال مقاتل بن سليمان: هو ما يوزن به أي ووضعنا الميزان كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] بأن وضع ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، ليتعاملوا بينهم بالعدل، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾.

روي عن ابن عمر يرفعه: إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح، وقال أهل المعاني معنى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، أنشأنا وأحدثنا، أي أخرج لهم الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. وقال قطرب: هذا من النزل كما يقال أنزل الأمير على فلان نزلاً حسناً فمعنى الآية أنه جعل ذلك نزلاً لهم. ومثله قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، قوة شديدة يعني السلاح للحرب.

قال مجاهد: فيه جنة وسلاح يعني آلة [الدفع] وآلة الضرب، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، مما ينتفعون به في مصالحهم كالسكين والفأس والإبرة ونحوها إذ هو آلة لكل صنعة، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾، أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل وليعلم الله وليرى الله، ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾، أي دينه. ﴿وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾، أي قام بنصرة الدين ولم ير الله ولا الآخرة وإنما يحمد ويثاب من أطاع الله بالغيب. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، قوي في أمره عزيز في ملكه.

﴿٢٦﴾ ـ ﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾، على دينه، ﴿رَأْفَةً﴾، وهي أشد الرقة، ﴿وَرَحْمَةً﴾، كانوا متوادين بعضهم لبعض، كما قال الله تعالى في وصف أصحاب النبي ﷺ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾، من قبل أنفسهم وليس هذا بعطف على ما قبله وانتصابه بفعل مضمر كأنه قال: وابتدعوا رهبانية أي جاؤوا بها من قبل أنفسهم، ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾، أي ما فرضناها، ﴿عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾، يعني ولكنهم ابتغوا رضوان الله بتلك الرهبانية وتلك الرهبانية ما حملوا أنفسهم من المشاق في الامتناع من المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الجبال، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى فتهودوا وتنصروا ودخلوا في دين ملوكهم وتركوا الترهب، وأقام منهم أناس على دين عيسى عليه الصلاة والسلام حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به، وذلك قوله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ

﴿أَجۡرَهُمۡۖ﴾، وهم الذين ثبتوا عليها وهم أهل الرأفة والرحمة، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنبأني عبدالله بن حامد، أنا أحمد بن عبدالله المزني، ثنا محمد بن عبدالله بن سليمان، ثنا شيبان بن فروخ، ثنا الصعق بن حزن، عن عقيل الجعدي، عن أبي إسحاق عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها ثلاث وهلك سائرهن، فرقة آزت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فأخذوهم وقتلوهم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى عليه السلام فساحوا في البلاد وترهبوا، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فقال النبي: من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون».

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا ابن أم عبد هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بالمعاصي، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فقالوا: تعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام، يعنون محمداً ﷺ فتفرقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ الآية، ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ يعني من ثبتوا عليها أجرهم، ثم قال النبي ﷺ: «يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع».

وروي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله».

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت ملوك بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم: لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه، فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة ابنوا لنا اسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي نحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نَرِدُ عليكم ولا نمرّ بكم، ففعلوا بهم ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى عليه الصلاة والسلام، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غيّر الكتاب، فجعل الرجل يقول: نكون في مكان فلان فتتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ أي ابتدعها هؤلاء الصالحون، فما رعوها حق رعايتها، يعني الآخرين الذين جاؤوا من بعدهم، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، يعني الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [هم] الذين جاؤوا من بعدهم، قال: فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل انحط رجل من صومعته وجاء سياح من سياحته وصاحب دير من ديره وآمنوا به.

(٢٨) فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى، يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد ﷺ ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، محمد ﷺ، ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾، نصيبين، ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى عليه الصلاة والسلام، والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن، وقال قوم:

انقطع الكلام عند قوله ﴿ورحمة﴾ ثم ابتدأ: ورهبانية ابتدعوها، وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان، فما رعوها يعني الطاعة والملة ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كناية عن غير مذكور ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهم أهل الرأفة والرحمة وكثير منهم فاسقون، وهم الذين ابتدعوا الرهبانية، وإليه ذهب مجاهد، معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ على هذا التأويل ما أمرناهم وما كتبناه عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وما أمرناهم بالترهب. قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين من رحمته.

وروينا عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده» ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، قال ابن عباس ومقاتل: يعني على الصراط، كما قال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النور هو القرآن. وقال مجاهد: هو الهدى والبيان، أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقيل: لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله عزّ وجلّ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] قالوا للمسلمين: أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وبكتابنا وأما من لم يؤمن منا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فجعل لهم الأجرين إذا آمنوا برسوله محمد ﷺ وزادهم النور والمغفرة.

(٢٩) ثم قال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، قال قتادة: حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [و] قال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي ليعلم و﴿لا﴾ صلة، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي ليعلم الذين لم يؤمنوا أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم في فضل الله، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا الليث عن نافع، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين، فغضبت اليهود والنصارى: وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء؟ قال الله تعالى: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال: فإنه فضلي أعطيه من شئت».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثني محمد بن العلاء، ثنا أبو أسامة عن يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملناه باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: ما عملنا باطل

ولك الأجر الذي جلعت لنا فيه، فقال أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» [أي القرآن].

❁ ❁ ❁

سورة المجادلة

مدنية وهي اثنتان وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، الآية.

نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، وكانت حسنة الجسم، وكان به لمم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت: والله ما ذاك طلاق، وأتت رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي فقد طالت [معه] صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: حرمت عليه هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي، وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبي الله، فقالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه [الوحي] أخذه مثل السبات، فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته، فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾، الآيات، قالت عائشة: تبارك الذي

الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

سُورَةُ المُجَادَلَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

٥٤٢

وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ الآيات.

ومعنى قوله ﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ تخاصمك وتحاورك وتراجعك في زوجها، ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾، مراجعتكما الكلام، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، سميع لما تناجيه وتتضرع إليه، بصير بمن يشكو إليه، ثم ذم الظهار.

(٢) فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾، قرأ عاصم ﴿يظاهرون﴾ فيها بضم الياء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء، وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وحمزة، والكسائي: بفتح الياء والهاء، وتشديد الظاء والألف بعدها، وقرأ

الآخرون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء من غير ألف. ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، أي ما اللواتي يجعلونهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات وخفض التاء في أمهاتهم على خبر ﴿ما﴾ ومحله نصب كقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] المعنى ليس هن بأمهاتهم، ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم، ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾، لا يعرف في شرع ﴿وزوراً﴾، كذباً، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، عفا عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم، وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي، أو أنت مني أو معي أو عندي كظهر أمي، وكذلك لو قال: أنت عليّ كبطن أمي أو كرأس أمي أو كيد أمي أو قال بطنك أو رأسك أو يدك علي كظهر أمي أو شبه عضواً منها بعضو آخر من أعضاء أمه فيكون ظهاراً.

وعند أبي حنيفة رضي الله عنه إن شبهها ببطن الأم أو فرجها أو فخذها يكون ظهاراً وإن شبهها بعضو آخر لا يكون ظهاراً. ولو قال أنت عليّ كأمي أو كروح أمي، وأراد به الإعزاز والكرامة فلا يكون ظهاراً حتى يريده، ولو شبهها بجدته فقال أنت علي كظهر جدتي يكون ظهاراً، وكذلك لو شبهها بامرأة محرمة عليه بالقرابة بأن قال أنت علي كظهر أختي أو عمتي أو خالتي أو شبهها بامرأة محرمة عليه بالرضاع يكون ظهاراً على الأصح من الأقاويل.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ثم حكم الظهار: أنه يحرم على الزوج وطؤها بعد الظهار ما لم يكفر، والكفارة تجب بالعود بعد الظهار. لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، واختلف أهل العلم في العود فقال [جماعة] أهل الظاهر: هو إعادة لفظ الظهار، وهو قول أبو العالية، وقال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي إلى ما قالوا أي إعادة مرة أخرى فإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة عليه، وذهب قوم إلى أن الكفارة تجب بنفس الظهار والمراد من العود هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من نفس الظهار، وهو قول مجاهد والثوري. وقال قوم: المراد من العود الوطء، وهو قول الحسن وقتادة وطاوس والزهري، وقالوا: لا كفارة عليه ما لم يطأها، وقال: قوم هو العزم على الوطء، وهو قول مالك وأصحاب الرأي، وذهب الشافعي إلى أن العود هو أن يمسكها عقيب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها، فلم يفعل فإن طلقها عقيب الظهار في الحال أو مات أحدهما في الوقت فلا كفارة عليه لأن العود للقول هو المخالفة، وفسر ابن عباس العود بالندم، فقال: يندمون فيرجعون إلى الألفة ومعناه [على] هذا، قال الفراء: يقال عاد فلان لما قال أي فيما قال، وفي بعض ما قال يعني رجع عما قال، وهذا يبين ما قال الشافعي وذلك أن قصده بالظهار التحريم فإذا أمسكها على النكاح فقد خالف قوله ورجع عما قاله فتلزمه الكفارة حتى قال لو ظاهر عن امرأته الرجعية ينعقد ظهاره ولا كفارة عليه حتى يراجعها فإن راجعها، صار عائداً ولزمته الكفارة قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ والمراد بالتماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر عنها ما لم يكفر سواء أراد التكفير بالإعتاق أو بالصيام أو بالإطعام، وعند مالك: إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله لأن الله تعالى قيد العتق والصوم بما قبل المسيس وقال في الإطعام: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] ولم يقل من قبل أن يتماسا، وعند الآخرين الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام.

واختلفوا في تحريم ما سوى الوطء من المباشرات قبل التكفير كالقبلة والتلذذ فذهب أكثرهم إلى أنه لا يحرم سوى الوطء وهو قول الحسن، وسفيان الثوري، وأظهر قولي الشافعي، كما أن الحيض يحرم الوطء دون سائر الاستمتاعات وذهب بعضهم إلى أنه يحرم لأن اسم «التماس» يتناول الكل ولو جامع المظاهر قبل التكفير يعصي الله تعالى، والكفارة في ذمته. ولا يجوز أن يعود ما لم يكفر ولا يجب بالجماع كفارة أخرى، وقال بعض أهل العلم: إذا واقعها قبل التكفير عليه كفارتان، وكفارة الظهار مرتبة عليه: يجب عليه عتق رقبة مؤمنة،

فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمداً أو نسي النية يجب عليه استئناف الشهرين، فإن عجز عن الصوم يجب عليه أن يطعم ستين مسكيناً، وقد ذكرنا في سورة المائدة مقدار ما يطعم كل مسكين، ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾، تؤمرون به، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿٤﴾ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾، يعني الرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، فإن كانت له رقبة إلا أنه محتاج إلى خدمته، أو له ثمن رقبة لكنه محتاج إليه لنفقته ونفقة عياله فله أن ينتقل إلى الصوم. وقال مالك والأوزاعي: يلزمه الإعتاق إذا كان واجداً للرقبة أو ثمنها وإن كان محتاجاً إليه. وقال أبو حنيفة: إن كان واجداً لعين الرقبة يجب عليه إعتاقها، وإن كان محتاجاً إليها فأما إذا كان واجداً لثمن الرقبة وهو محتاج إليه فله أن يصوم، فلو شرع المظاهر في صوم شهرين ثم جامع في خلال الشهر بالليل يعصي الله تعالى بتقديم الجماع على الكفارة، ولكن لا يجب عليه استئناف الشهرين، وعند أبي حنيفة يجب عليه استئناف الشهرين. قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، يعني المظاهر إذا لم يستطع الصوم لمرض أو كبر أو فرط شهوة لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستين مسكينا.

أخبرنا أبو عبدالله بن محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، عن محمد بن أبي حرملة، عن عطاء بن يسار أن خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، فظاهر منها وكان به لمم، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تظاهر مني وذكرت أن به لمماً فقالت: والذي بعثك بالحق ما جئتك إلا رحمة له إن له فيّ منافع، فأنزل الله القرآن فيهما فقال رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة»، قالت: والذي بعثك بالحق ما عنده رقبة ولا ثمنها، قال: مريه فليصم شهرين متتابعين، فقالت: والذي بعثك بالحق لو كلفته ثلاثة أيام ما استطاع، قال: مريه فليطعم ستين مسكيناً، قالت: والذي بعثك بالحق ما يقدر عليه، قال: مريه فليذهب إلى فلان ابن فلان فقد أخبرني أن عنده شطر تمر صدقة، فليأخذه صدقة عليه ثم ليتصدق به على ستين مسكيناً».

وروى سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر قال: كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينما هي تحدثني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلم ألبث أن وقعت عليها، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: أنت بذاك؟ فقلت: أنا بذاك قاله: ثلاثاً، قلت: أنا بذاك وها، أنا ذا فامض في حكم الله، فإني صابر لذلك، قال: فأعتق رقبة، فضربت صفحة عنقي بيدي فقلت: والذي بعثك بالحق ما أملك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقلت: يا رسول الله ﷺ وهل أصابني ما أصابني إلا من الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكيناً، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وُحْشاً ما لنا عشياً، قال: اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقاً ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك، قال: فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليّ، قال: فدفعوها إليه.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، لتصدقوا ما أتى به الرسول ﷺ من الله عزّ وجلّ، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، يعني ما وصف من الكفارات في الظهار، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: لمن جحده وكذب به.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما، ﴿كُبِتُوا﴾، أذلوا وأخزوا وأهلكوا، ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾، إليك، ﴿ءَايَٰتٍ

الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

٥٤٣

بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

(٦) ـ (٧) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، حفظ الله أعمالهم، ﴿وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ﴾، قرأ أبو جعفر بالتاء لتأنيث النجوى، وقرأ الآخرون بالياء لأجل الحائل، ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾، أي من سرار ثلاثة يعني من المسارة، أي: ما من شيء يناجي به الرجل صاحبيه، ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، بالعلم وقيل: معناه ما يكون من متناجين ثلاثة يسار بعضهم بعضاً إلا هو رابعهم بالعلم، يعلم نجواهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ قرأ يعقوب أكثرُ بالرفع على محل الكلام قبل دخول من ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم إلا وقد بلغهم عن إخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك عليهم وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي المناجاة ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾، قرأ الأعمش وحمزة «ينتجون» على وزن يفتعلون، وقرأ الآخرون ﴿ويتناجون﴾ لقوله: ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وذلك أن اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ، ﴿وَيَقُولُونَ﴾، السام عليك، والسام الموت وهم يوهمونه أنهم يقولون السلام عليك، وكان النبي ﷺ يرد عليهم فيقول: «عليكم» فإذا خرجوا قالوا: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، يريدون لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول، قال الله عزّ وجلّ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا عبدالوهّاب، ثنا أبو أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة أن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا: السام عليك قال: «وعليكم»، فقالت عائشة: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش» قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ».

ثم إن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود.

(٩) فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي كفعل المنافقين واليهود وقال مقاتل أراد بقوله: آمنوا المنافقين أي آمنوا بلسانهم قال عطاء: يريد الذين آمنوا بزعمهم قال لهم: لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي من تزيين الشيطان، ﴿لِيَحْزُنَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، أي إنما يزين لهم ذلك ليحزن المؤمنين، ﴿وَلَيْسَ﴾، التناجي، ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾، وقيل: ليس الشيطان بضارهم شيئاً، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه».

(١١) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟﴾، الآية.

قال مقاتل بن حيان: كان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ وسلموا عليه، فرد عليهم، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله: قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله هذه الآية.

وقال الكلبي: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرنا في سورة الحجرات قصته.

وقال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض.

وقيل: كان ذلك يوم الجمعة فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟﴾ أي توسعوا في المجلس، قرأ الحسن وعاصم في المجالس لأن الكل جالس مجلساً، معناه ليتفسح كل رجل في مجلسه، وقرأ الآخرون «في المجلس» على التوحيد لأن المراد منه مجلس النبي ﷺ ﴿فَٱفْسَحُوا۟﴾: أوسعوا، يقال: فسح يفسح فسحاً إذا وسع في المجلس، ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، يوسع الله لكم الجنة، والمجالس فيها.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا».

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا عبدالمجيد عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: «لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا».

وقال أبو العالية، والقرظي والحسن: هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال، كان الرجل يأتي القوم في الصف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم بضم الشين، وقرأ الآخرون بكسرها، وهما لغتان أي ارتفعوا، قيل: ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم.

وقال عكرمة والضحاك: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة إذا نودي لها فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه: إذا نودي للصلاة فانهضوا لها. وقال مجاهد وأكثر المفسرين: معناه إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة وإلى الجهاد وإلى مجالس كل خير وحق فقوموا لها ولا تقصروا، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾، بطاعتهم لرسوله ﷺ وقيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم، ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم، ﴿دَرَجَـٰتٍ﴾، فأخبر الله عزّ وجلّ أن رسوله ﷺ مصيب فيما أمر وأن أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا، وأن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا من الإكرام، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال: [يا] أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم فإن الله تعالى يقول: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات.

الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

٥٤٤

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، ثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، ثنا أبو علي حامد بن محمد بن عبدالله الهروي، أنا محمد بن يونس القرشي، أنا عبدالله بن داود، ثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، حدثني داود بن جميل عن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال: يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول عليه السلام في حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: ما كانت لك حاجة غيره؟ قال: لا، قال: ولا جئت لتجارة؟ قال: لا، قال: ولا جئت إلا رغبة فيه؟ قال: نعم قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم، وإن السموات والأرض والحوت في الماء لتدعو له، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإنّ العلماء [هم] ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ [به] فقد أخذ بحظ وافر».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو علي الحسين بن أحمد بن إبراهيم السراج، أنا الحسن بن يعقوب العدل، ثنا محمد بن عبدالوهاب الفراء، ثنا جعفر بن عون، أنا عبدالرحمن بن زياد عن عبدالرحمن بن رافع، عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مرّ بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، قال: «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضل وإنما بعثت معلماً، ثم جلس فيهم».

(١٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾، أمام مناجاتكم، ﴿صَدَقَةً﴾، قال ابن عباس: وذلك أن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف على نبيه ويثبطهم ويردعهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقةً على المناجاة مع الرسول ﷺ.

وقال مقاتل بن حيان: نزلت في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت الرخصة.

قال مجاهد: نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي رضي الله عنه تصدق بدينار وناجاه، ثم نزلت الرخصة فكان علي رضي الله عنه يقول: آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية المناجاة.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية دعاني رسول الله ﷺ فقال: «أما ترى ديناراً» قلت: لا يطيقونه، قال:

«فكم» قلت: حبة أو شعيرة، قال: «إنك لزهيد»، فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾، قال علي رضي الله تعالى عنه: فبي قد خفف الله عن هذه الأمة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعني تقديم الصدقة على المناجاة، ﴿وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به معفو عنهم.

(١٣) ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا﴾ قال ابن عباس: أبخلتم؟ والمعنى: أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم، ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، ما أمرتم به، ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، تجاوز عنكم ولم يعاقبكم بترك الصدقة، وقيل: الواو صلة مجازه: فإن لم تفعلوا تاب الله عليكم وتجاوز عنكم وخفف عنكم، ونسخ الصدقة. قال مقاتل بن حيان: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كانت إلا ساعة من نهار. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، المفروضة، ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾، الواجبة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾، نزلت في المنافقين تولوا اليهود وناصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم، وأراد بقوله: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ اليهود، ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾، يعني المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية ولا من اليهود والكافرين، كما قال: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قال السدي ومقاتل: نزلت في عبدالله بن نبتل المنافق، كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان»، فدخل عبدالله بن نبتل وكان أزرق العينين، فقال النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه، فأنزل الله عزّ وجل هذه الآيات، فقال: «﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذبة».

(١٥) ـ (١٦) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَٰنَهُمْ﴾، الكاذبة، ﴿جُنَّةً﴾، يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

(١٧) ـ (١٨) ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾، يوم القيامة، ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾، كاذبين ما كانوا مشركين، ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، في الدنيا، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من أيمانهم الكاذبة، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾.

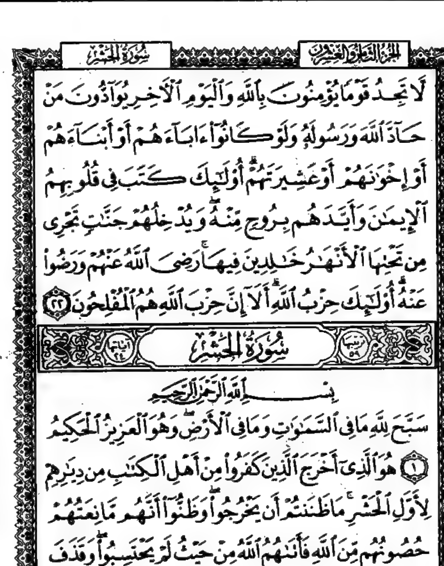
(١٩) ـ (٢٠) ﴿اسْتَحْوَذَ﴾، غلب واستولى، ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَٰنِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَٰنِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰٓئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾، الأسفلين أي هم في جملة من يلحقهم للذل في الدنيا والآخرة.

(٢١) ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾، قضى الله قضاءاً ثابتاً، ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، نظيره قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ و١٧٢]، قال الزجاج: غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب، فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة.

(٢٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، الآية أخبر أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكفار وأن من كان مؤمناً لا يوالي من كفر، وإن كان من عشيرته.

قيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وسيأتي في سورة الممتحنة، إن شاء الله عزّ وجلّ.

وروى مقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن عبدالله بن مسعود في هذه الآية قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ﴾ يعني أبا عبيدة بن الجراح، قتل أباه عبدالله بن الجراح يوم أحد أو أبناءهم، يعني أبا بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وقال:



الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

يا رسول الله دعني أكن في الرحلة الأولى، فقال له رسول الله ﷺ: «متعنا بنفسك يا أبا بكر».

﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعلياً وحمزة وعبيدة قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، أثبت التصديق في قلوبهم فهي موقنة مخلصة. وقيل: حكم لهم بالإيمان فذكر القلوب لأنها موضعه. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، قواهم بنصر منه. قال الحسن: سمّى نصره إياهم روحاً لأن أمرهم يحيا به. وقال السدي: يعني بالإيمان. وقال الربيع: يعني بالقرآن وحججه، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: برحمة منه. وقيل: أمدهم بجبريل عليه السلام. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

سورة الحشر

مدنية وهي أربع وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قال المفسرون: نزلت هذه السورة في بني النضير، وذلك أن النبي ﷺ دخل المدينة فصالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منهم فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية، فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين: ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ، ودخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، فأمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة ـ ذكرناه في سورة آل عمران ـ وكان النبي ﷺ اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة، فهموا بطرح حجر عليه من فوق الحصن، فعصمه الله وأخبره بذلك ـ ذكرناه في سورة المائدة ـ فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النُّضير، وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار إليهم النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية؟ قال: نعم، قالوا: ذرنا نبكي شجوناً ثم ائتمر أمرك، فقال النبي ﷺ: «اخرجوا من المدينة»، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب وآذنوا بالقتال، ودس المنافقون ـ عبدالله بن أبي ابن سلول

وأصحابه ـ إليهم: أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه أن اخرج في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان [نصف] بيننا وبينك، فيستمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود حتى إذا كانوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيستمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا بك وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة من أصحابه، وخرج ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فسارّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان [من] الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبي ﷺ، فقبلوا ذلك، فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة وهي السلاح، وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم.

وقال ابن عباس: على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، ولنبي الله ﷺ ما بقي.

وقال الضحاك: أعطي كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاً [من طعام] ففعلوا وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحاء إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

(٢) فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ﴾، يعني بني النضير، ﴿مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾، التي كانت بيثرب، قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني النضير بعد مرجع النبي ﷺ من أحد وفتح قريظة عند مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان. ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله عزّ وجلّ قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا.

قال ابن عباس: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية، فكان هذا أول حشر إلى الشام، قال لهم النبي ﷺ: «اخرجوا»، قالوا إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر، ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام».

وقال الكلبي: إنما قال لأول «الحشر» لأنهم كانوا أول من أجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال مرة الهمداني: كان أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحاء من الشام في أيام عمر. وقال قتادة: كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا: ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾، أيها المؤمنون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟﴾، من المدينة لعزتهم ومنعتهم وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخيل كثيرة، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾، أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله، ﴿فَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ﴾، أي أمر الله وعذابه، ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، وهو أنه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، ﴿يُخْرِبُونَ﴾، قرأ أبو عمرو بالتشديد، والآخرون بالتخفيف، ومعناهما واحد، ﴿بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما أقلّت الإبل، كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون منها ما يستحسنونه فيحملونه على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها.

الجزء الثامن والعشرون　　سورة الحشر

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

٥٤٦

قال ابن زيد: كانوا يقلعون العمد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران، ويقلعون الخشب حتى الأوتاد يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً. قال قتادة: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ويخربها اليهود من داخلها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم في أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصنون فيها ويكسرون ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟﴾، فاتعظوا وانظروا فيما نزل بهم، ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، يا ذوي العقول والبصائر.

﴿٣﴾ ـ ﴿٤﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾، الخروج من الوطن، ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ﴾، الذي لحقهم، ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿٥﴾ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، الآية.

وذلك أن رسول الله ﷺ لما نزل بني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخيل؟ فهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض، فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم، وخشوا أن يكون ذلك فساداً، واختلفوا في ذلك فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فأنزل الله هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا الليث عن نافع عن ابن عمر قال: حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع البويرة: فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أخبر الله في هذه الآية أن ما قطعوه وما تركوه فبإذن الله، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، واختلفوا في اللينة فقال قوم: النخل كلها لينة ما خلا العجوة، وهو قول عكرمة وقتادة.

ورواه زاذان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقطع نخلهم إلا العجوة.

وأهل المدينة يسمون ما خلا العجوة من التمرة: الألوان واحدها لون ولينة. وقال الزهري: هي ألوان النخل كلها إلا العجوة والبرنية. وقال مجاهد وعطية: هي النخل كلها من غير استثناء. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم: هي لون من النخل. وقال سفيان: هي كرام النخل. وقال مقاتل: هي ضرب من النخل يقال لثمرها اللون، وهو شديد الصفرة يرى نواه من خارج يغيب فيها الضرس، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم، وكانت النخلة الواحدة منها ثمنها ثمن وصيف، وأحب إليهم من وصيف، فلما رأوهم يقطعونها شق ذلك عليهم وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد في الأرض وأنتم تفسدون دعوا هذا النخل قائماً هو لمن غلب عليها، فأخبر الله تعالى أن ذلك بإذنه.

﴿٦﴾ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، أي رده على رسوله، يقال: أفاء يفيء أي

رجع وأفاء الله، ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من يهود بني النضير، ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ أوضعتم، ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجيفاً وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير، وأراد بالركاب الإبل التي تحمل القوم. وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في هذه الآية أنها فيء لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركاباً ولم يقطعوا إليها شقة. ولا نالوا مشقة ولم يلقوا حرباً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فجعل أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري، أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان النضري، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ، فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فأدخلهم فلبث يرفأ قليلاً ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعلي يستأذنان؟ قال: نعم، فلما دخلا قال عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا - وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله من بني النضير - فقال الرهط: يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر.

قال: اتئدوا، أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه؟ قالوا: قد قال ذلك، فأقبل عمر على علي وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال ذلك؟ قالا: نعم، قال: فإني أحدثكم عن هذا الأمر أن الله كان خص رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته. ثم توفي النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ فقبضها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعمل بها بما عمل به فيها رسول الله ﷺ، وأنتما حينئذ جميع، وأقبل على علي وعباس: تذكران أن أبا بكر فعل فيه كما تقولان والله يعلم أنه فيها صادق بار راشد تابع للحق. ثم توفى الله أبا بكر، فقلت: أنا ولي رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ وأبو بكر، والله يعلم أني فيه صادق بار راشد تابع للحق، ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع فقلت لكما: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت: إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل به رسول الله ﷺ وأبو بكر، وبما عملت به فيها منذ وليتها، وإلا فلا تكلماني فيها، فقلتما: ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما؟ أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك، فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلي فإني أكفيكماها.

(٧) قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾، يعني من أموال كفار أهل القرى، قال ابن عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، قد ذكرنا في سورة الأنفال حكم الغنيمة وحكم الفيء، إن مال الفيء كان لرسول الله ﷺ في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله.

واختلف أهل العلم في مصرف

الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال قوم: هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان: أحدهما هو للمقاتلة، والثاني لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح.

واختلفوا في تخميس مال الفيء فذهب بعضهم إلى أنه يخمس، فخمسه لأهل الغنيمة وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق، قرأ عمر بن الخطاب: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾، حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامة، وقال: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم. ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾، قرأ العامة بالياء، ﴿دولة﴾ نصب أي لكيلا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر ﴿تكون﴾ بالتاء ﴿دولة﴾ بالرفع على اسم كان أي كيلا يكون الأمر إلى دولة، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع وحينئذ لا خبر له، والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم، ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، يعني بين الرؤساء والأقوياء. معناه كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء والأقوياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي منها بعد المرباع ما شاء، فجعله الله لرسوله ﷺ يقسمه فيما أمر به، ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾، أعطاكم، ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، من الفيء والغنيمة، ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، من الغلول وغيره، ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾، وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن يوسف، ثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك [قد] لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ثم بين من له الحق في الفيء فقال:

(٨) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾ رزقاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، أي خرجوا إلى دار الهجرة طلباً لرضا الله عزّ وجلّ، ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها.

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي، أنا أبو العباس الطحان، أنا أبو أحمد بن محمد بن قريش بن سليمان، أنا علي بن عبدالعزيز المكي، أنا أبو عبيد القاسم بن سلام، حدثني عبدالرحمن بن مهدي عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أمية بن خالد بن عبدالله بن أسيد عن النبي ﷺ: أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين.

قال أبو عبيد: هكذا قال عبدالرحمن وهو عندي أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد.

وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمسمائة سنة».

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، وهم الأنصار تبوؤا الدار توطنوا الدار، أي المدينة، اتخذوها دار الهجرة والإيمان، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين. ونظم الآية: والذين تبوؤا الدار من قبلهم أي من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا لأن الإيمان ليس

بمكان تبوء، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾، حزازة وغيظاً وحسداً، ﴿مِمَّآ أُوتُوا﴾، أي مما أعطي المهاجرون دونهم من الفيء، وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط منها الأنصار فطابت أنفس الأنصار بذلك، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي يؤثرون على إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، ثنا عبدالله بن داود، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستضافه فبعث إلى نسائه هل عندكن من شيء؟ فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: من يضم أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبيان، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك، إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من أفعالكما، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحكم بن نافع، أنا شعيب، ثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن محمد، ثنا سفيان عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبيّ ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «ألا فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، فإنه سيصيبكم أثرة بعدي».

وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة»، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

والشح في كلام العرب: البخل ومنع الفضل. وفرّق العلماء بين الشح والبخل.

روي أن رجلاً قال لعبد الله بن مسعود: إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال عبدالله: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل.

وقال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له. وقال سعيد بن جبير: الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة. وقيل: الشح هو الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب المحارم. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يدعه الشح إلى أن يمنع شيئاً من شيء أمره الله به فقد وقاه شح نفسه.

أخبرنا الإمام [أبو علي] الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو سعيد خلف بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي نزار، ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن حزاز القهندري، ثنا أبو عبدالله محمد بن

وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

إسحاق [بن سعيد] السعدي، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا القعنبي، ثنا داود بن قيس الفراء عن عبيد الله بن مِقْسم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، ثنا أبو العباس الأصم، أنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، أنا أبي وشعيب قالا: أنا الليث عن يزيد بن الهاد عن سهيل بن أبي صالح عن صفوان بن أبي يزيد عن القعقاع، هو ابن اللجلاج عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً».

﴿١٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، يعني التابعين وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، ثم ذكر أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان والمغفرة، فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ غشاً وحسداً وبغضاً، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فكل من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية، لأن الله تعالى رتّب المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين والأنصار والتابعين الموصوفين بما ذكر الله، فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين.

قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرين، والذين تبوؤا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم، فاجتهد أن لا تكون خارجاً من هذه المنازل.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد، أنا أحمد بن عبدالله بن سليمان، ثنا محمد بن عبدالله بن نمير، ثنا أبي عن إسماعيل بن إبراهيم، عن عبدالملك بن عمير، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها».

وقال مالك بن مغول: قال عامر بن شرحبيل الشعبي: يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟، فقالت: أصحاب موسى عليه السلام، وسئلت النصارى من خير من أهل ملتكم، فقالوا: حواري عيسى عليه السلام وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم، فقالوا: أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجتهم، أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة.

قال مالك بن أنس: من يبغض أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [الحشر: ٨ و٩]، حتى أتى على هذه الآية: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ﴾ [الحشر: ٨ و٩] إلى قوله: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿١١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، أي أظهروا خلاف ما أضمروا يعني عبدالله بن أبي بن

سلول وأصحابه، ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهم اليهود من بني قريظة والنضير، جعل المنافقين إخوانهم في الدين، لأنهم كفار مثلهم. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾، من المدينة، ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا﴾، يسألنا خذلانكم وخلافكم، ﴿أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ﴾ يعني المنافقين ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾، وكان الأمر كذلك، فإنهم أخرجوا من ديارهم فلم يخرج المنافقون معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم. قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، أي لو قدر وجود نصرهم. قال الزجاج: معناه لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، يعني بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم.

﴿١٣﴾ ﴿لَأَنتُمْ﴾، يا معشر المسلمين، ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله، ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي ذلك الخوف منكم، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، عظمة الله.

﴿١٤﴾ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، يعني اليهود، ﴿جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، أي لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى والجدران، وهو قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿جدار﴾ على الواحد، وقرأ الآخرون ﴿جُدُر﴾ بضم الجيم والدال على الجمع.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، أي بعضهم فظ على بعض وعداوة بعضهم بعضاً شديدة. وقيل: بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، متفرقة مختلفة، قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أهواؤهم، مختلفة شهاداتهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقال مجاهد: أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم، ﴿قَرِيبًا﴾، يعني مشركي مكة، ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، يعني القتل ببدر، كان ذلك قبل غزوة بني النضير، قاله مجاهد: وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني بني قينقاع. وقيل: مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما سنتان. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ضرب مثلاً للمنافقين واليهود جميعاً في تخادعهم.

﴿١٦﴾ فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، [أي مثل المنافقين في غرورهم بني النضير وخذلانهم كمثل الشيطان] ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾.

وذلك ما روى عطاء وغيره عن ابن عباس قال: كان راهب في الفترة يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين، وإن إبليس أعياه في أمره الحيل، فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال: ألا أجد أحداً منكم يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبي ﷺ، وجاءه في صورة جبرائيل ليوسوس إليه على جهة الوحي فدفعه جبرائيل إلى أقصى أرض الهند، فقال الأبيض لإبليس: أنا أكفيك أمره، فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام ولا يفطر إلا في عشرة أيام مرة، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته، فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه حين لم يجبه، فقال له: إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك، فما حاجتك؟ قال: حاجتي أني أحببت أن أكون معك، فأتأدب بك وأقتبس من عملك وعلمك، ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك، فقال برصيصا: إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض، وأقبل الأبيض يصلي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً بعدها، فلما انفتل رآه قائماً يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته، فأقام معه حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً

ولا ينفتل عن صلاته إلا في كل أربعين يوماً مرة، وربما مد إلى الثمانين، فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا: إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت، فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته للذي رأى من شدة اجتهاده، فلما ودعه قال له الأبيض: إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه يشفي الله بها السقيم ويعافي بها المبتلى والمجنون، قال برصيصا: إني أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً وإني أخاف إن علم به الناس شغلوني عن العبادة، فلم يزل به الأبيض حتى علمه، ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال: قد والله أهلكت الرجل، قال: فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله إن بصاحبكم جنوناً أفأعالجه؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إني لا أقوى على جنته ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه، انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الأعظم الذي إذا دعا به أجيب، فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان، فكان الأبيض يفعل مثل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا، فيدعو فيعافون، فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل بين ثلاثة إخوة وكان أبوهم ملكهم، فمات واستخلف أخاه فكان عمها ملك بني إسرائيل، فعذبها وخنقها ثم جاء إليهم في صورة متطبب فقال لهم: أتريدون أن أعالجها؟ قالوا: نعم، قال: إن الذي عرض لها مارد لا يطاق، ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تدعونها عنده إذا جاء شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت وتردونها صحيحة، قالوا: ومن هو؟ قال: برصيصا، قالوا: وكيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من ذلك؟ قال: فانطلقوا فابنوا صومعة إلى جانب صومعته حتى تشرفوا عليه، فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعته، ثم قولوا له هي أمانة عندك، فاحتسب فيها، قال: فانطلقوا إليه فسألوه فأبى عليهم، فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ووضعوا الجارية في صومعته، وقالوا هذه أختنا أمانة فاحتسب فيها، ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا عن صلاته عاين الجارية وما بها من الحسن والجمال، فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم، ثم أقبل في صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها، وكانت تكشف عن نفسها، فجاءه الشيطان وقال واقعها فستتوب بعد ذلك والله تعالى غفار للذنوب والخطايا، فتدرك ما تريد من الأمر، فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها، فقال له الشيطان: ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب، فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقدر عليه، فدخل فخنقها ثم انطلق بها [من صومعته] فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها فبقي طرف [إزارها] خارجاً من التراب، ثم رجع برصيصا إلى صومعته فأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها، فقالوا: يا برصيصا ما فعلت أختنا؟ قال: قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا [من عنده]، فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال: ويحك إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا وإنه خاف منكم فقتلها ودفنها في موضع كذا وكذا فقال الأخ في نفسه: هذا حلم وهو من عمل الشيطان، فإن برصيصا خير من ذلك، قال: فتتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث. فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك فقال الأوسط مثل ماقاله الأكبر فلم يخبر أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك فقال أصغرهم لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا، وقال الأوسط وأنا والله قد رأيت مثله، وقال الأكبر وأنا رأيت مثله، فانطلقوا إلى برصيصا وقالوا: يا برصيصا ما فعلت أختنا؟ قال: أليس قد أعلمتكم بحالها؟ فكأنكم اتهمتموني، فقالوا: والله لا نتهمك واستحيوا منه فانصرفوا فجاءهم

الشيطان فقال: ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وإن طرف إزارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم، فمشوا في مواليهم وغلمانهم ومعهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعته وأنزلوه ثم كتفوه فانطلقوا به إلى الملك فأقر على نفسه، وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر يجتمع عليك أمران، قتل ومكابرة اعترف، فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة، فلما صلب أتاه الأبيض فقال: يا برصيصا أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل، أما استحييت، فلم يزل يعيره، ثم قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وفضحت أشباهك من الناس، فإن مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك، قال: فكيف أصنع قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم فأخرجك من مكانك؟ قال: وما هي، قال: تسجد لي، قال: ما أستطيع قال: افعل، قال: بطرفك افعل فسجد له فقال: يا برصيصا هذا الذي كنت أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك، إني بريء منك ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٧) يقول الله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾، يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [أي جزاء من ظلم نفسه بطاعة الشيطان وخالف مولاه واتبع هواه] قال ابن عباس: ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أن الله عزّ وجلّ أمر نبيه ﷺ بإجلاء بني النضير عن المدينة فدس المنافقون إليهم، وقالوا: لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلكم فإنا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم، فأجابوهم ودربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين، حتى جاءهم النبي ﷺ فناصبوه الحرب يرجون نصر المنافقين، فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله، فكان عاقبة الفريقين النار. قال ابن عباس رضي الله عنه: فكان الرهبان بعد ذلك في بني إسرائيل لا يمشون إلا بالتقية والكتمان، وطمع أهل الفسق والفجور في الأحبار [والرهبان] ورموهم بالبهتان والقبيح حتى كان أمر جريج الراهب، فلما برأه الله مما رموا به انبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس. وكانت قصة جريج على ما:

الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سورة الممتحنة

٥٤٨

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، ثنا يزيد بن هارون، أنا جرير بن حازم، ثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصاحب يوسف».

وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي؟ فأقبل على صلاته، فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي؟ فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها،

فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه من صومعته وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغية فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي فصلى فلما انصرف أتى الصبي وطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا.

وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل عليه ونظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع، قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها، قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جباراً فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت، ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها».

﴿١٨﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، يعني ليوم القيامة، أي لينظر أحدكم أي شيء قدم لنفسه، عملاً صالحاً ينجيه أم سيئاً يوبقه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾، تركوا أمر الله، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

﴿٢١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، قيل: لو جعل في الجبل تمييز وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صلابته ورزانته، حذراً من أن لا يؤدي حق الله عزّ وجلّ في تعظيم القرآن، والكافر يعرض عما فيه من العبر كأن لم يسمعها، يصفه بقساوة القلب، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، الغيب ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه، والشهادة ما شاهدوه وما علموه، ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾، الطاهر من كل عيب، المنزه عما لا يليق به، ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾، الذي سلم من النقائص، ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾، قال ابن عباس: هو الذي أمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به من عذابه، هو من الأمان الذي هو ضد التخويف كما قال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤]، وقيل: معناه الصدق لرسله بإظهار المعجزات، والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب، وللكافرين بما أوعدهم من العقاب. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾، الشهيد على عباده بأعمالهم، وهوقول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ومقاتل.

يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء، وقيل: هو في الأصل مؤيمن قلبت الهمزة هاء، كقولهم أرقت وهرقت، ومعناه المؤمن، قال الحسن: الأمين. وقال الخليل: هوالرقيب الحافظ. وقال ابن زيد: المصدق. وقال سعيد بن المسيب والضحاك: القاضي. وقال ابن كيسان: هو اسم من أسماء الله تعالى في الكتب والله أعلم بتأويله.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾، قال ابن عباس: الجبار هو العظيم، وجبروت الله عظمته، وهو على هذا القول صفة

ذات لله، وقيل: هو من الجبر وهو الإصلاح، يقال: جبرت الأمر، وجبرت العظم إذا أصلحته بعد الكسر، فهو يغني الفقير ويصلح الكسير. وقال السدي ومقاتل: هو الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراد. وسئل بعضهم عن معنى الجبار فقال: هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، الذي تكبر عن كل سوء. وقيل: المتعظم عما لا يليق به وأصل الكبر والكبرياء الامتناع. وقيل: ذوالكبرياء وهو الملك، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٢٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾، المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره، كما قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾، المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾، الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض. يقال: هذه صورة الأمر أي مثاله، فأولاً يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه، ثنا ابن شيبة، ثنا ابن وهب، ثنا أحمد بن أبي شريح وأحمد بن منصور الرمادي قالا، أنا أبو أحمد الزبيري، ثنا خالد بن طهمان حدثني نافع بن أبي نافع عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وكَّل الله به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قال حين يمسي كان بتلك المنزلة».

ورواه أبو عيسى عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد الزبيري بهذا الإسناد، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

❁ ❁ ❁

سورة الممتحنة

مدنية وهي ثلاث عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، الآية.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، ثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرني الحسن بن محمد أنه سمع عبدالله بن أبي رافع يقول: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ، أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي كتاب فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: «يا حاطب ما هذا؟» قال: يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب

الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥)

٥٤٩

فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضىً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله تعالى هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قال المفسرون: نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أمسلمة جئت»؟ قالت: لا، قال: «أمهاجرة جئت»؟ قالت: لا، قال: «فما جاء بك»؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال لها: «وأين أنت من شبان مكة»؟ وكانت مغنية نائحة، قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبدالعزى، فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً، على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، فخرجت سارة، ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً، فقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها وخلوا سبيلها، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها»، قال: فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب، فحلفت بالله ما معها من كتاب ففتحوا متاعها [ونبشوها] فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع، فقال علي رضي الله عنه. والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل سيفه فقال: أخرجي الكتاب وإلا لأجردنك ولأضربن عنقك، فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبأته في شعرها، فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب، فأتاه فقال: «هل تعرف الكتاب»؟ قال: نعم، قال: «فما حملك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله ﷺ ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره، فقام عمر بن الخطاب فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر؟ فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله عزّ وجلّ في شأن حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، قيل: أي المودة، والباء زائدة كقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال الزجاج: معناه تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟﴾، الواو للحال أي وحالهم أنهم كفروا، ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، يعني القرآن ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، من مكة، ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟﴾، أي لأن آمنتم، كأنه قال يفعلون ذلك لإيمانكم، ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾، هذا شرط جوابه متقدم وهو قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، قال مقاتل بالنصيحة، ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾، من المودة للكفار، ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، أظهرتم بألسنتكم ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أخطأ طريق الهدى.

(٢) ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾، يظفروا بكم

سورة الممتحنة — الجزء الثامن والعشرون

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

٥٥٠

ويروكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، بالضرب والقتل، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾، بالشتم، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، كما كفروا، يقول لا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم ولا يوادونكم.

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾، معناه لا يدعونكم ولا يحملنكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم التي بمكة إلى خيانة الرسول ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالاة أعدائهم فلن تنفعكم أرحامكم، ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾، الذين عصيتم الله لأجلهم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار، قرأ عاصم ويعقوب ﴿يَفْصِلُ﴾ بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر الصاد مشدداً، وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الصاد مشدداً، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الصاد مخففاً. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾، قدوة، ﴿حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، من أهل الإيمان ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾، من المشركين، ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾، جمع بريء، ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، جحدنا وأنكرنا دينكم، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، يأمر حاطباً والمؤمنين بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، والذين معه من المؤمنين في التبرؤ من المشركين، ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، يعني لكم أسوة [حسنة] في إبراهيم وأموره إلا في استغفاره لأبيه المشرك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد قال لأبيه لأستغفرن لك، ثم تبرأ منه على ما ذكرناه في سورة التوبة، ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، يقول إبراهيم عليه السلام لأبيه ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، يقوله إبراهيم ومن معه من المؤمنين، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال الزجاج: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيفتتنوا.

وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٦) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾، أي في إبراهيم ومن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، هذا بدل من قوله «لكم» وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، يعرض عن الإيمان ويوال الكفار، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، عن خلقه، ﴿الْحَمِيدُ﴾، إلى أوليائه، وأهل طاعته. قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة، ويعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله:

(٧) ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾، أي من كفار مكة، ﴿مَّوَدَّةً﴾، ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم رخص الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال:

(٨) ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، أي لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، تعدلوا فيهم بالإحسان والبر، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، قال ابن عباس: نزلت في خزاعة كانوا قد صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخص الله في برهم.

وقال عبدالله بن الزبير: نزلت في

أسماء بنت أبي بكر، وذلك أن أمها قتيلة بنت عبدالعزى قدمت عليها المدينة بهدايا، ضباباً وأقطاً وسمناً وهي مشركة، فقالت أسماء: لا أقبل منك هدية ولا تدخلي على بيتي حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فسألت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها منزلها وتقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة، ثنا حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدّتهم [مع أبيها] فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «[نعم] صليها».

وروي عن ابن عيينة قال: فأنزل الله فيها ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

ثم ذكر الذين نهاهم عن صلتهم فقال:

﴿٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾، وهم مشركو مكة، ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿١٠﴾ قوله عز وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، الآية.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بكير، ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قالا: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وأبى سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد النبي ﷺ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ إلى ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

قال عروة فأخبرتني عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فمن أقرت بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك [كلاماً يكلمها به] والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ما بايعهن إلا بقوله.

قال ابن عباس: أقبل رسول الله ﷺ معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم ـ وقال مقاتل: صيفي بن الراهب ـ في طلبها، وكان كافراً، فقال: يا محمد ردّ عليّ امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾، من دار الكفر إلى دار الإسلام، ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

قال ابن عباس: امتحانها أن تستحلف ما خرجت لبغض زوج ولا عشقاً لرجل من المسلمين ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا لحدث أحدثته ولا لالتماس دنيا، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ولرسوله، قال: فاستحلفها رسول الله ﷺ على ذلك فحلفت فلم يردها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء بعد الامتحان ويعطي أزواجهن مهورهن.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي هذا

الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهن، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ما أحل الله مؤمنة لكافر، ﴿وَءَاتُوهُم﴾، يعني أزواجهن الكفار، ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟﴾، عليهن يعني المهر الذي دفعوا إليهن، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي مهورهن، أباح الله نكاحهن للمسلمين، وإن كان لهن أزواج في دار الكفر لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار، ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتشديد، والآخرون بالتخفيف من الإمساك، ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، والعصم جمع العصمة وهي ما يعتصم به من العقد والنسب، والكوافر جمع الكافرة، نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، يقول من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما.

قال الزهري: فلما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة مشركتين: قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أم ابنه عبدالله بن عمر، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم، وهما على شركهما، وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وهي بمكة على دين قومها، ففرق الإسلام بينهما فتزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبي ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردها عليه رسول الله ﷺ.

﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾، أيها المؤمنون، ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾، أي إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فاسألوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم، ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾، يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾، من المهر ممن تزوجها منكم، ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، قال الزهري: لولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله عزّ وجلّ وأدوا ما أمروا به من نفقات [المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمروا من أداء نفقات المسلمين على نسائهم].

(١١) فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾، أيها المؤمنون، ﴿شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، فلحقن بهم مرتدات، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾.

قال المفسرون معناه غنمتم، أي غزوتم فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، وقيل ظهرتم وكانت العاقبة لكم، وقيل: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم، قرأ حميد الأعرج ﴿فعقبتم﴾ بالتشديد وقرأ الزهري ﴿فعقبتم﴾ خفيفة بغير ألف، وقرأ مجاهد ﴿فأعقبتم﴾ أي صنعتم بهم كما صنعوا بكم وكلها لغات بمعنى واحد، يقال: عاقب وعقب وعقّب وأعقب وتعقّب وتعاقب واعتقب، إذا غنم، وقيل: التعقيب غزوة بعد غزوة، ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾، إلى الكفار منكم، ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾، عليهن من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار. وقيل: فعاقبتم المرتدة بالقتل.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين والمهاجرين ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان، كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة، كانت تحت عمر بن الخطاب، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعزة بنت عبدالعزيز بن نضلة وزوجها عمرو بن عبدودّ، وهند بنت أبي جهل بن هشام، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وأم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب، فكلهن رجعن عن الإسلام، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾، واختلف القول في أن رد مهر من أسلمت من النساء إلى أزواجهن،

الجزء الثامن والعشرون — سورة الصف

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

٥٥١

كان واجباً أو مندوباً؟ وأصله أن الصلح هل كان وقع على رد النساء؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه وقع على رد الرجال والنساء جميعاً، لما روينا «أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا» ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، فعلى هذا كان رد المهر واجباً.

والقول الآخر: أن الصلح لم يقع على رد النساء، لأنه يروى عن علي أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها، وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت، وأكرهت عليها لضعف قلبها، وقلة هدايتها إلى المخرج منها بإظهار كلمة الكفر مع التورية، وإضمار الإيمان، ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته إلى التقية، فعلى هذا كان رد المهر مندوباً. واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المال إذا شرط في معاقدة الكفار؟

فقال قوم: لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة، وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة، وقال قوم: هي غير منسوخة ويرد إليهم ما أنفقوا.

(١٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، الآية.

وذلك يوم فتح مكة لما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال، وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه، وهو يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فقال رسول الله ﷺ أبايعهن ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فرفعت هند رأسها وقالت: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبي ﷺ: «ولا يسرقن»، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة»؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، فقالت هند: أو تزني الحرة؟ فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، فقالت هند: ربيناهن صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، وهي أن تقذف ولداً على زوجها ليس منه، قالت هند: والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾، قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهن.

قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أراد وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية، قوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: ليس المراد منه نهيهن عن الزنا لأن النهي عن الزنا قد تقدم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولوداً وتقول لزوجها هذا ولدي منك، فهو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها، قوله ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: أي في كل أمر وافق طاعة الله. قال بكر بن عبدالله المزني: في كل أمر فيه رشدهن. وقال مجاهد: لا تخلو المرأة

بالرجال. وقال سعيد بن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد: هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثوب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه، ولا تحدث المرأة الرجال إلا ذا محرم، ولا تخلو برجل غير ذي محرم، ولا تسافر إلا مع ذي محرم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو معمر، ثنا عبدالوارث، ثنا أيوب عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها فقالت: أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها، فما قال لها النبي ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت وبايعها.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري، ثنا أحمد بن محمد بن إسحاق، ثنا أبو يعلى الموصلي، ثنا هدبة بن خالد، ثنا أبان بن يزيد، ثنا يحيى بن أبي كثير أن زيداً حدثه، أن أبا سلام حدثه أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عمرو بن حفص، ثنا أبي، أنا الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق عن عبدالله قال: قال النبي ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

قوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾، يعني إذا بايعنك فبايعهن، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، حدثني محمود بن غيلان، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ قالت: وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا محمد بن عبدالله بن حمدون، أنا مكي بن عبدان، ثنا عبدالرحمن بن بشر، ثنا سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، سمع أميمة بنت رقية تقول: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال لنا: «فيما استطعتن وأطقتن»، فقلت: رسول الله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا، قلت: يا رسول الله بايعنا ـ قال سفيان يعني صافحنا ـ فقال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة كقولي لمائة امرأة».

(١٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وهم اليهود وذلك أن أناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتوصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم، فنهاهم الله عن ذلك، ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾، يعني هؤلاء اليهود، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾، بأن يكون لهم فيها ثواب وخير، ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾، أي كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم حظ وثواب في الآخرة. قال مجاهد: الكفار حين دخلوا قبورهم أيسوا من رحمة الله. قال سعيد بن جبير: يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار الذين ماتوا فعاينوا الآخرة. وقيل: كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

❁ ❁ ❁

سورة الصف

مدنية [وقال عطاء: مكية وهي أربع عشرة آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ (٢) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجلّ لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عزّ وجلّ:

الجزء الثامن والعشرون — سورة الصف

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

٥٥٢

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى رسول الله ﷺ بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعده قتالاً لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد فعيّرهم الله بهذه الآية. وقال قتادة والضحاك: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، فنزلت هذه الآية. قال ابن زيد: نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ﴾، قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ في موضع رفع فهو كقولك: بئس رجلاً أخوك، ومعنى الآية: أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله أي إن الله يبغض بغضاً شديداً أن تقولوا، ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، أي تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم تفوا به.

(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾، أي يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٞ مَّرْصُوصٞ﴾، قد رُصّ بعضه ببعض أي ألزق بعضه ببعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل. وقيل: أحكم كالرصاص.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾، من بني إسرائيل، ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾، وذلك حين رموه بالأدرة، ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، والرسول يعظم ويحترم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾، عدلوا عن الحق، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، أمالها عن الحق، يعني أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قال الزجاج: يعني لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، والألف فيه للمبالغة في الحمد، وله وجهان أحدهما أنه مبالغة من الفاعل أي الأنبياء كلهم حمادون لله عز وجل وهو أكثر حمداً لله من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول أي الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ﴾.

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم﴾، قرأ ابن عامر تنجّيكم بالتشديد والآخرون بالتخفيف، ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، نزل هذا حين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه، وجعل ذلك بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيها رضا الله ونيل جنته والنجاة من النار [ثم بين تلك التجارة] فقال:

(١١) ـ (١٢) ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾، ولكم خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الخصلة، ﴿نَصْرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٞ قَرِيبٞ﴾، قال الكلبي: هو النصر على قريش، وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يا محمد بالنصر في

الدنيا والجنة في الآخرة ثم حضهم على نصر الدين وجهاد المخالفين.

﴿١٤﴾ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿أنصاراً﴾ بالتنوين ﴿لله﴾ بلام الإضافة، وقرأ الآخرون ﴿أَنصَارَ اللَّهِ﴾ بالإضافة كقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾، أي أنصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام، ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي من ينصرني مع الله، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾، قال ابن عباس: يعني في زمن عيسى عليه السلام.

وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا كان الله فارتفع، وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه الله إليه، وفرقة قالوا كان عبدالله ورسوله فرفعه إليه وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين، حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت [الفرقة] المؤمنة على الكافرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾، غالبين عالين.

وروى مغيرة عن إبراهيم قال فأصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه.

❁ ❁ ❁

سورة الجمعة

مدنية [وهي إحدى عشرة آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾، يعني العرب كانت أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، يعني محمداً ﷺ نسبه نسبهم، ولسانه لسانهم ليكون أبلغ في إقامة الحجة عليهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي ما كانوا قبل بعثة الرسول إلا في ضلال مبين يعبدون الأوثان.

﴿٣﴾ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾، وفي آخرين وجهان من الإعراب: أحدهما الخفض على الرد إلى الأميين مجازه: وفي آخرين. والثاني النصب على الرد إلى الهاء والميم في قوله ﴿ويعلمهم﴾ أي ويعلم آخرين منهم، أي [من] المؤمنين الذين يدينون بدينهم، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، فإن المسلمين كلهم أمة واحدة.

واختلفوا العلماء فيهم فقال قوم: هم العجم، وهو قول ابن عمر وسعيد بن جبير ورواية ليث عن مجاهد، والدليل عليه ما:

أخبرنا أبو جعفر محمد بن عبدالله بن المعلم الطوسي بها، ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب، أنا أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف، ثنا الحسن بن سفيان، وعلي بن طيفور، وأبو العباس الثقفي قالوا: حدثنا قتيبة، ثنا عبدالعزيز، عن ثور، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال رجل: من هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسي؟ قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق الديري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن جعفر الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي

الجزء الثامن والعشرون — سورة الجمعة

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

٥٥٣

الجزء الثامن والعشرون — سورة المنافقون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾

٥٥٤

هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب إليه رجل أو قال رجال من أبناء فارس حتى يتناولوه».

وقال عكرمة ومقاتل: هم التابعون. وقال ابن زيد: هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ [إلى يوم القيامة] وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد. قوله: ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾، أي لم يدركوهم ولكنهم يكونون بعدهم. وقيل ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ أي في الفضل والسابقة لأن التابعين لا يدركون شأو الصحابة. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، يعني الإسلام والهداية. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

﴿٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، أي كلفوا القيام بها والعمل بما فيها، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾، لم يعملوا بما فيها ولم يؤدوا حقها، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾، أي كتباً من العلم واحدها سفر، قال الفراء: هي الكتب العظام يعني كما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها، كذلك اليهود يقرؤون التوراة ولا ينتفعون بها لأنهم خالفوا ما فيها، ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء عليهم السلام يعني: من سبق في علمه أنه لا يؤمن لا يهديهم.

﴿٦﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، محمد ﷺ وأصحابه، ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾، فادعوا بالموت على أنفسكم، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، أنكم أبناء الله وأحباؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه.

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿٩﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾، أي في يوم الجمعة كقوله: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي في الأرض، وأراد بهذا النداء الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء.

قرأ الأعمش: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمۡعَةِ﴾ بسكون الميم، وقرأ العامة بضمها، واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة، منهم من قال: لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه السلام.

وقيل: لأن الله تعالى فرغ من خلق جميع الأشياء فاجتمعت فيه المخلوقات. وقيل: لاجتماع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة. وقيل: أول من سماها جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة: أول من قال «أما بعد» كعب بن لؤي، وكان أول من سمى الجمعة جمعة، وكان يقال له: يوم العروبة.

عن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة وقبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة، قبل أن ينزل يوم الجمعة وهم الذين سموها الجمعة. وقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى يوم، فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونصلي فيه، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم

العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة، ثم أنزل الله عزّ وجلّ في ذلك بعد.

وروي عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن كعب، أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟ قال: لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في بقيع يقال له: بقيع الخضمات، قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون.

وأما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه [على ما] ذكر أهل السير: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى، فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجداً، فجمع هناك وخطب.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي فامضوا إليه واعملوا له، وليس المراد من السعي الإسراع، إنما المراد منه العمل والفعل، كما قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وكان عمر بن الخطاب يقرأ: فامضوا إلى ذكر الله، وكذلك هي في قراءة عبدالله بن مسعود.

وقال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وعن قتادة في هذه الآية: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] يقول فلما مشى معه.

أخبرنا أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا محمد بن [أحمد بن] محمد بن معقل الميداني، ثنا محمد بن يحيى، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا».

قوله: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي الصلاة، وقال سعيد بن المسيب: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال هو موعظة الإمام، ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، يعني البيع والشراء لأن اسم البيع يتناولهما جميعاً. وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني، وقال الزهري عند خروج الإمام. وقال الضحاك: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء، ﴿ذلكم﴾، الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، من المبايعة، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، مصالح أنفسكم، واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان، فتجب على كل من جمع العقل، والبلوغ، والحرية، والذكورة، والإقامة إذا لم يكن له عذر فمن تركها استحق الوعيد، أما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما، لأنهما ليسا من أهل أن يلزمهما فروض الأبدان لنقصان أبدانهما، ولا جمعة على النساء بالاتفاق.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز [بن] أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا إبراهيم بن محمد، حدثني سلمة بن عبدالله الخطمي عن محمد بن كعب أنه سمع رجلاً من بني وائل يقول: قال النبي ﷺ: «تجب الجمعة على كل مسلم إلا امرأة أو صبياً أو مملوكاً».

وذهب أكثرهم إلى أنه لا جمعة على العبيد. وقال الحسن وقتادة والأوزاعي: تجب على العبد المخارج. ولا تجب على المسافر عند الأكثرين. وقال النخعي والزهري: تجب على المسافر إذا سمع النداء، وكل من له عذر من مرض أو تعهد مريض أو خوف، جاز له ترك الجمعة، وكذلك له تركها بعذر المطر والوحل.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، [حدثنا مسدد] حدثنا إسماعيل أخبرنا عبدالحميد صاحب الزيادي، ثنا عبدالله بن الحارث بن عمر، حدثنا محمد بن

سيرين [قال] قال ابن عباس لمؤذنه في يوم مطير: إذا قلت أشهد أن محمداً رسول الله، فلا تقل حي على الصلاة، قل صلوا في بيوتكم، فكأن الناس استنكروا، فقال: فعله من هو خير مني، إن الجمعة عزيمة، وإني كرهت أن أخرجكم من بيوتكم فتمشون في الطين والدحض.

وكل من لا يجب عليه حضور الجمعة، فإذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة سقط عنه فرض الظهر، ولكن لا يكمل به عدد الجمعة إلا صاحب العذر، فإنه إذا حضر يكمل به العدد.

أخبرنا الإمام أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، أنا عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي، ثنا أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي السمرقندي، أنا يحيى بن حسان، ثنا معاوية بن سلاّم، أخبرني زيد بن سلاّم أنه سمع أبا سلاّم يقول حدثني الحكم بن مينا أن ابن عمر حدثه وأبا هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول وهو على أعواد منبره: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا علي بن خشرم، أنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عمرو، عن عبيدة بن سفيان، عن أبي الجعد يعني الضمري قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاثة مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه».

واختلف أهل العلم في موضع إقامة الجمعة، وفي العدد الذي تنعقد بهم الجمعة، وفي المسافة التي يجب أن يؤتى منها.

أما الموضع فذهب قوم إلى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلاً من أهل الكمال، بأن يكونوا أحراراً عاقلين بالغين مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفاً إلا ظعن حاجة، يجب عليهم إقامة الجمعة فيها، وهو قول عبيد الله بن عبدالله وعمر بن عبدالعزيز، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق، وقالوا: لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة وشرط عمر بن عبدالعزيز مع عدد الأربعين أن يكون فيهم والٍ، والوالي غير شرط عند الشافعي، وقال علي: لا جمعة إلا في مصر جامع وهو قول أصحاب الرأي، ثم عند أبي حنيفة رضي الله عنه تنعقد بأربعة والوالي شرط، وقال الأوزاعي وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم والٍ. وقال الحسن وأبو ثور: تنعقد باثنين كسائر الصلوات. وقال ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلاً، والدليل على جواز إقامتها في القرى ما:

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن المثنى، أنا أبو عامر العقدي، ثنا إبراهيم بن طهمان عن أبي حمزة الضبعي عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبدالقيس بجواثى من البحرين.

وإذا كان الرجل مقيماً في قرية لا تقام فيها الجمعة، أو كان مقيماً في برية، فذهب قوم إلى أنه إن كان يبلغهم النداء من موضع الجمعة يلزمهم حضور الجمعة، وإن كان لا يبلغهم النداء فلا جمعة عليهم، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت يؤذن في وقت تكون الأصوات فيه هادئة والرياح ساكنة، فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة. وقال سعيد بن المسيب: تجب على كل من آواه المبيت. وقال الزهري: تجب على من كان على ستة أميال. وقال ربيعة: على أربعة أميال. وقال مالك والليث: على ثلاثة أميال. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا جمعة على أهل السواد قريبة كانت القرية أو بعيدة. وكل من تلزمه صلاة الجمعة لا يجوز له أن يسافر يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلي الجمعة، وجوّز أصحاب الرأي أن يسافر بعد الزوال إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت، أما إذا سافر قبل الزوال [أو] قبل طلوع الفجر فيجوز، غير أنه يكره إلا أن يكون سفره سفر طاعة من حج أو غزو، وذهب بعضهم إلى أنه إذا أصبح يوم الجمعة

مقيماً فلا يسافر حتى يصلي الجمعة، والدليل على جوازه ما:

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، أنا أبو العباس المحبوبي، أنا أبو عيسى، ثنا أحمد بن منيع، ثنا [أبو] معاوية، عن الحجاج، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس قال: بعث النبي ﷺ عبدالله بن رواحة في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة، فغدا أصحابه وقال: أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم، فلما صلى مع النبي ﷺ رآه فقال: «ما منعك أن تغدو مع أصحابك»؟ قال: أردت أن أصلي معك ثم ألحقهم، فقال: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً عليه هيئة السفر يقول: لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت، فقال عمر: اخرج فإن الجمعة لا تحبس أحداً عن سفر.

وقد ورد أخبار في سنن يوم الجمعة وفضله منها:

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد الفقيه، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن يزيد بن عبدالله بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة أنه قال: خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار، فجلست معه فحدثني عن التوراة، وحدثته عن رسول الله ﷺ، فكان فيما حدثته أن قلت له: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه أهبط وفيه تيب عليه، وفيه مات وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حين تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه»، قال كعب: ذلك في كل سنة يوم، فقلت: بل في كل جمعة، قال: فقرأ كعب التوراة فقال: صدق رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: ثم لقيت عبدالله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة، قال عبدالله بن سلام: قد علمت أية ساعة هي، هي آخر ساعة في يوم الجمعة، قال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي فيها» وتلك ساعة لا يصلي فيها؟ فقال عبدالله بن سلام: ألم يقل رسول الله ﷺ من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصليها؟ قال أبو هريرة: بلى، قال: فهو ذاك.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري أخبرني أبي عن عبدالله بن وديعة عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرّق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبومنصور محمد بن محمد بن سمعان، ثنا أبوجعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أحمد بن خالد، ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبدالرحمن وعن أبي أمامة يعني ابن سهل بن حنيف حدثاه عن أبي سعيد وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة واستن ومس من طيب إن كان عنده وليس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد، فلم يتخطّ رقاب الناس ثم ركع ما شاء الله أن يركع، وأنصت إذا خرج الإمام كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة التي كانت قبلها»، وقال أبو هريرة: وزيادة ثلاثة أيام لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أخبرنا أبو طاهر عمر بن

عبدالعزيز القاشاني، أنا القاسم بن جعفر الهاشمي، أنا أبو علي محمد أحمد بن عمر اللؤلؤي، ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ثنا محمد بن حاتم الجَرْجَرائي، ثنا ابن المبارك عن الأوزاعي حدثنا حسان بن عطية حدثني أبو الأشعث الصنعاني، حدثني أوس بن أوس الثقفي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها».

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على منازلهم، الأول فالأول فإذا خرج الإمام طويت الصحف. واستمعوا الخطبة والمهجر إلى الصلاة كالمهدي بدنةً، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة، ثم الذي يليه كالمهدي شاة ثم الذي يليه كالمهدي كبشاً حتى ذكر الدجاجة والبيضة».

﴿١٠﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي إذا فرغ من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم، ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، يعني الرزق وهذا أمر إباحة كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، قال ابن عباس: إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر، وقيل: فانتشروا في الأرض ليس لطلب الدنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ هو طلب العلم. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿١١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ الآية.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا حفص بن عمر، ثنا خالد بن عبدالله، أنا حصينٌ عن سالم بن أبي الجعد وعن أبي سفيان عن جابر بن عبدالله قال: أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي ﷺ، فثار الناس إلا اثني عشر رجلاً فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾.

ويحتج بهذا الحديث من يرى الجمعة باثني عشر رجلاً، وليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة حتى يكون حجة، لاشتراط هذا العدد.

وقال ابن عباس في رواية الكلبي: لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط.

وقال الحسن وأبو مالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة زيت من الشام والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا إليه، فلم يبق مع النبي ﷺ إلا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً».

وقال مقاتل: بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة، وكان إذا قدم لم تبق بالمدينة عاتق إلا أتته، وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبُرّ وغيره، فينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه، فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب، فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال النبي ﷺ: «كم بقي في المسجد»؟ فقالوا: اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال النبي ﷺ: «لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة من السماء»، فأنزل الله هذه الآية.

وأراد باللهو الطبل. وقيل: كانت العير إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق. وقوله: ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ رد الكناية إلى التجارة لأنها أهم.

وقال علقمة: سئل عبدالله: أكان النبي ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال: أما تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا إبراهيم بن

محمد أخبرني جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبدالله: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنا أبو الأحوص، عن سماك، عن جابر بن سمرة قال: كان للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس.

وبهذا الإسناد عن جابر بن سمرة قال: «كنت أصلي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً».

والخطبة فريضة في صلاة الجمعة، ويجب أن يخطب قائماً خطبتين، وأقل ما يقع عليه اسم الخطبة أن يحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ويوصي بتقوى الله، هذه الثلاثة فرض في الخطبتين جميعاً، ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن [و] يدعو للمؤمنين في الثانية فلو ترك واحدة من هذه الخمس لا تصح جمعته عند الشافعي، وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه لو أتى بتسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أجزأه، وهذا القدر لا يقع عليه اسم الخطبة، وهو مأمور بالخطبة.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا عبدالله بن يوسف بن محمد بن ماموية، أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري بمكة، ثنا الحسن بن الصباح الزعفراني، ثنا عبدالوهاب بن عبدالمجيد الثقفي، عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبيد الله بن أبي رافع أن مروان استخلف أبا هريرة على المدينة، فصلى بهم أبو هريرة الجمعة فقرأ سورة الجمعة في الركعة الأولى وفي الثانية: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فقال عبيد الله: فلما انصرف مشيت إلى جنبه فقلت له: لقد قرأت بسورتين سمعت علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الصلاة، فقال: سمعت النبي ﷺ يقرأ بهما.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبومصعب، عن مالك، عن ضمرة بن سعيد المازني، عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: ماذا كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الجمعة على أثر سورة الجمعة؟ فقال: كان يقرأ بهل أتاك حديث الغاشية.

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى، ثنا قتيبة، ثنا أبو عوانة عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه عن حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وهل أتاك حديث الغاشية.

وربما اجتمع في يوم واحد فيقرأ بهما، ولجواز الجمعة خمس شرائط: الوقت وهو: الظهر ما بين زوال الشمس إلى دخول وقت العصر، والعدد، والإمام، والخطبة، ودار الإقامة، فإذا فقد شرط من هذه الخمسة يجب أن يصلوها ظهراً، ولا يجوز للإمام أن يبتدئ الخطبة قبل اجتماع العدد، وهو عدد الأربعين عند الشافعي، فلو اجتمعوا وخطب بهم ثم انفضوا قبل افتتاح الصلاة أو انتقص واحد من العدد لا يجوز أن يصلي بهم الجمعة، بل يصلي الظهر، ولو افتتح بهم الصلاة ثم انفضوا، فأصح أقوال الشافعي، أن بقاء الأربعين شرط إلى آخر الصلاة، كما أن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة، فلو انتقص واحد منهم قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقين أن يصلوها أربعاً، وفيه قول آخر إن بقي معه اثنان أتمها جمعة.

وقيل: إن بقي معه واحد أتمها جمعة، وعند المزني إذا انفضوا بعد ما صلى الإمام بهم ركعة أتمها جمعة، وإن بقي وحده فإن كان في الركعة الأولى أتمها أربعاً وإن انتقص من العدد واحد، وبه قال أبو حنيفة في العدد الذي يشترطه كالمسبوق إذا أدرك مع الإمام ركعة من الجمعة فإذا سلم الإمام أتمها جمعة فإن أدرك أقل من ركعة أتمها أربعاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾، أي ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ خير من اللهو ومن التجارة، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، لأنه موجد الأرزاق فإياه فاسألوا ومنه فاطلبوا فهو موجود على الدوام لا يخيب من سأله لأنه أكرم الأكرمين.

❁ ❁ ❁

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُنِ — آياتها ١٨ — ترتيبها ٦٤

سورة المنافقون

مدنية [وهي إحدى عشرة آية]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، يعني عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه، ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، سترة، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾، أقـروا باللسان إذا رأوا المؤمنين، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾، إذا خلوا إلى المشركين ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، بالكفر، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، الإيمان.

(٤) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، يعني أن لهم أجساماً ومناظر، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، فتحسب أنه صدق.

قال عبدالله بن عباس: كان عبدالله بن أبي جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام، قرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿خشب﴾ بسكون الشين، وقرأ الباقون بضمها، ﴿مسندة﴾ ممالة إلى جدار من قولهم أسندت الشيء إذا أملته، والتثقيل للتكثير، وأراد أنها ليست بأشجار تثمر، ولكنها خشب مسندة إلى حائط، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، أي لا يسمعون صوتاً في العسكر بأن نادى منادٍ أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة إلا ظنوا من جبنهم وسوء ظنهم، أنهم يرادون بذلك وظنوا أنهم قد أتوا، لما في قلوبهم من الرعب. وقيل: ذلك لكونهم على وجل من أن ينزل الله فيهم أمراً بهتك أستارهم ويبيح دماءهم ثم قال، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، هذا ابتداء وخبره، ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، ولا تأمنهم، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾، لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، يصرفون عن الحق.

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾، أي عطفوا وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار، قرأ نافع ويعقوب ﴿لووا﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد، لأنهم فعلوها مرة بعد مرة ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، يعرضون عما دعوا إليه، ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم.

(٦) ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾، يا محمد، ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن جماعة من أصحاب [السير أن] رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله نبي المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليهم، فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج، على ذلك الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجاهاً الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال، وكان فقيراً، فغضب عبدالله بن أبي ابن

سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم، غلام حديث السن، فقال ابن أبي: أفعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولتحولوا إلى غير بلادكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فقال زيد بن أرقم: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك مُحمد ﷺ في عز من الرحمن عزّ وجلّ ومودة من المسلمين، فقال عبدالله بن أبي: اسكت فإنما كنت ألعب، قال: فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ، وذلك بعد فراغه من العدو، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله، قال: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذّن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبي فأتاه فقال له: أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني؟ فقال عبدالله: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيداً لكاذب، وكان عبدالله في قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله، فعذره النبي ﷺ وفشت الملامة في الأنصار لزيد وكذبوه، وقال له عمه وكان زيد معه: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ والناس كلهم يقولون إن عبدالله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار مقتوك وكان زيد يساير النبي ﷺ فاستحيا أن يدنو من النبي ﷺ، فلما استقبل رسول الله ﷺ وسار للقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم عبدالله بن أبي»؟ قال: وما قال، قال: «زعم إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل» فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً، وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي، لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرُّ بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» قالوا: وسار رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أمسى، وليلته حتى أصبح، وصدر يومه ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أبي، ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع، يقال له نقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوا منها، وضلّت ناقة النبي ﷺ وذلك ليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار توفي بالمدينة»، قيل: من هو؟ قال: رفاعة بن زيد بن التابوت، فقال رجل من المنافقين كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي، فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ أصحابه، وقال: «ما أزعم أني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي، هي في الشعب قد تعلق زمامها بشجرة» فخرجوا يسعون قبل الشعب فإذا هي كما قال: فجاؤوا بها من ذلك الشعب وآمن ذلك المنافق، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت قد مات ذلك اليوم، وكان من عظماء

الجزء الثامن والعشرون — سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

٥٥٦

اليهود وكهفاً للمنافقين، فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة، قال زيد بن أرقم: جلست في البيت لما بي من الهم والحياء، فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبدالله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد وقال: «يا زيد إن الله قد صدقك وأوفى بأذنك» وكان عبدالله بن أبي أتى بقرب المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبدالله بن عبدالله حتى أناخ [راحلته] على مجامع طرق المدينة، فلما جاء عبدالله بن أبي قال: [ما] وراءك، قال: مالك ويلك؟ قال: لا والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ، ولتعلمن اليوم مَنِ الأعز مِنَ الأذل، فشكا عبدالله إلى رسول الله ﷺ ما صنع ابنه، فأرسل رسول الله ﷺ أن خل عنه حتى يدخل، فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم، فدخل فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات، قالوا: فلما نزلت الآية وبان كذب عبدالله بن أبي قيل له: يا أبا حباب إنه قد نزل فيك آيٌ شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي، إلا أن أسجد لمحمد ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية.

(٧) ونزل: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، يتفرقوا، ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه ولا يمنعه إلا بمشيئته، ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾، من غزوة بني المصطلق، ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فعزة الله قهره من دونه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم. ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علموا ما قالوا هذه المقالة.

(٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾، لا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال المفسرون يعني الصلوات الخمس نظيره قوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي من شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾، قال ابن عباس: يريد زكاة الأموال، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، فيسأل الرجعة، ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾، هلا أخرتني أمهلتني، وقيل: ﴿لا﴾ صلة فيكون الكلام بمعنى التمني أي لو أخرتني، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾، فأتصدق وأزكي مالي، ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، أي من المؤمنين، نظيره، قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣] [غافر: ٨]، هذا قول مقاتل وجماعة، وقالوا: نزلت الآية في المنافقين. وقيل: نزلت الآية في المؤمنين. والمراد بالصلاح هنا الحج.

وروى الضحاك وعطية عن ابن عباس أنه قال: ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت. وقرأ هذه الآية. وقال: ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قرأ أبو عمرو «وأكون» بالواو ونصب النون على جواب التمني وعلى لفظ فأصدق، وقال: إنما حذفت الواو من المصحف اختصاراً، وقرأ الآخرون وأكن بالجزم عطفاً على قوله فأصدق لو لم يكن فيه الفاء لأنه لو لم يكن فيه

الفاء لكان جزماً يعني إن أخرتني أصدق وأكن ولأنه مكتوب في المصحف بحذف الواو.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ أبو بكر يعملون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء.

[والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه]،

❁ ❁ ❁

سورة التغابن

قال عطاء هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلى آخرهن، وهي ثماني عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ (٢) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً.

وروينا عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام طبع كافراً».

وقال جلّ ذكره ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد، عن عبيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي ربِّ نطفة، أي ربِّ علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب ذلك في بطن أمه».

وقال جماعة: معنى الآية إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا، لأن الله تعالى ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم، فقال ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] فالله خلقهم والمشي فعلهم ثم اختلفوا في تأويلها.

فروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «فمنكم كافر» في حياته «مؤمن» في العاقبة، ومنكم مؤمن في حياته كافر في العاقبة. وقال عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب. وقيل: فمنكم كافر بأن الله تعالى خلقه، وهو مذهب الدهرية، ومنكم مؤمن بأن الله خلقه. وجملة القول فيه: أن الله خلق الكافر، وكفره فعلٌ له وكسب، وخلق المؤمن، وإيمانه فعلٌ له وكسب، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار، وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته. فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان، لأن الله تعالى أراد ذلك منه، وقدره عليه وعلمه منه، والكافر بعد خلق الله تعالى إياه يختار الكفر، لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه، وهذا طريق أهل السنة والجماعة من سلكه أصاب الحق وسلم من الجبر والقدر.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۞ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٤) ـ (٥) ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾، يخاطب كفار مكة، ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾، يعني الأمم الخالية، ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، يعني ما لحقهم من العذاب في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، في الآخرة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾، العذاب، ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، ولم يقل يهدينا لأن البشر وإن كان لفظه واحد فإنه في معنى الجمع، وهو اسم الجنس لا واحد له من لفظه، وواحده إنسان، ومعناه ينكرون ويقولون آدمي مثلنا يهدينا، ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾، عن إيمانهم، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾، عن خلقه، ﴿حَمِيدٌ﴾، في أفعاله، ثم أخبر عن إنكارهم البعث.

(٧) ـ (٨) فقال جلّ ذكره: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ﴾، يا محمد، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾، وهو القرآن، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾، يعني يوم القيامة يجمع فيه أهل السموات والأرض، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، وهو تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد بالمغبون من

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

سُورَةُ الطَّلَاقِ

٥٥٧

غبن عن أهله ومنازله في الجنة فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، قرأ أهل المدينة والشام «نكفر» «وندخله»، وفي سورة الطلاق [١١] «ندخله» بالنون فيهن وقرأ الآخرون بالياء، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

(١١) ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، بإرادته وقضائه، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾، فيصدق أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلّم لقضائه، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

(١٣) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(١٤) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

قال ابن عباس: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا إلى المدينة، فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا صبرنا على إسلامكم فلا نصبر على فراقكم فأطاعوهم، وتركوا الهجرة، فقال تعالى ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة، ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر، فإذا هاجر رأى الذين سبقوه بالهجرة وقد فقهوا في الدين هم أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه عن الهجرة، وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم ولم يصبهم بخير، فأمرهم الله عزّ وجلّ بالعفو عنهم والصفح.

وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق لهم ويقيم، فأنزل الله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم، ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ فلا تعاقبوهم على خلافهم إياكم فالله غفور رحيم.

(١٥) ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام، ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه «من» للتبعيض، فقال: إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم، لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر «من» في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب. وكان عبدالله بن مسعود يقول: لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس منكم أحد يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبدالملك المظفري، أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه، أنا أبو الحسن أحمد بن إسحاق الفقيه، ثنا أحمد بن بكر بن يوسف، ثنا علي بن الحسين، أنا الحسين بن واقد، عن عبدالله بن بريدة قال سمعت أبا بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما

فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما».

(١٦) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، أي أطقتم، هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾، الله ورسوله، ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾، أي أنفقوا من أموالكم خيراً لأنفسكم. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى يعطي حق الله من ماله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

(١٧) ـ (١٨) ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

❁ ❁ ❁

سورة الطلاق

مدنية [وهي اثنتا عشرة آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، نادى النبي ﷺ، ثم خاطب أمته لأنه السيد المقدم، فخطاب الجميع معه، وقيل: مجازه يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء، أي إذا أردتم تطليقهن، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] أي إذا أردت القراءة. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أي لطهرهن الذي يحصينه من عدتهن، وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن (فطلقوهن في قُبُل عدتهن)، نزلت

الجزء الثامن والعشرون　　سورة الطلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

٥٥٨

هذه الآية في عبدالله بن عمر كان قد طلق امرأته في حال الحيض.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد الفقيه، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن نافع، عن عبدالله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء.

ورواه سالم عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر بن الخطاب للنبي ﷺ قال: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً».

ورواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر: ولم يقولا: (ثم تحيض ثم تطهر).

أخبرنا عبدالوهّاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز [بن] أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا مسلم وسعيد بن سالم عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبدالرحمن بن أيمن مولى عزة يسأل عبدالله بن عمر وأبو الزبير يسمع فقال: كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال ابن عمر: طلق عبدالله بن عمر امرأته حائضاً؟ فقال النبي ﷺ: «مره فليراجعها فإذا طهرت فليطلق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقال الله عزّ وجلّ: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن أو لقبل عدتهن» الشافعي يشك.

ورواه حجاج بن محمد عن ابن جريج، وقال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن».

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة، وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه. لقول النبي ﷺ: «وإن شاء طلق قبل أن يمس».

والطلاق السني: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، وهذا في حق

امرأة تلزمها العدة بالأقراء، فأما إذا طلق غير المدخول بها في حال الحيض، أو طلق الصغيرة التي لم تحض قط، أو الآيسة بعدما جامعها، أو طلق الحامل بعد ما جامعها، أو في حال رؤية الدم، لا يكون بدعياً، ولا سنة ولا بدعة في طلاق هؤلاء، لأن النبي ﷺ قال: «ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً» والخلع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه لا يكون بدعياً لأن النبي ﷺ أذن لثابت بن قيس في مخالعة زوجته من غير أن يعرف حالها، ولولا جوازه في جميع الأحوال لأشبه أن يتعرف الحال، ولو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصداً يعصي الله تعالى.

ولكن يقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر بالمراجعة ولولا وقوع الطلاق لكان لا يأمره بالمراجعة، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلقها في الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس.

كما رواه يونس بن جبير، وأنس بن سيرين، عن ابن عمر، وما رواه نافع عن ابن عمر: «ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر» فاستحباب، استحب تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني حتى لا يكون مراجعته إياها للطلاق، كما يكره النكاح للطلاق، ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث، عند بعض أهل العلم، حتى لو طلق امرأته في حال الطهر ثلاثاً لا يكون بدعيا، وهو قول الشافعي وأحمد، وذهب بعضهم إلى أنه بدعة، وهو قول مالك وأصحاب الرأي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، أي عدد أقرائها فاحفظوها، قيل: أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً. وقيل: للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾، أراد به إذا كان المسكن الذي طلقها فيه للزوج لا يجوز أن يخرجها منه، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، ولا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أو حاجة أثمت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً.

فإن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا، فأذن لهن النبي ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن، فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها.

وأذن النبي ﷺ لخالة جابر حين طلقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها.

وإذا لزمتها العدة في السفر تعتد في أهلها ذاهبة وجائية، والبدوية تتبوأ حيث يتبوأ أهلها في العدة، لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم.

قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، قال ابن عباس: الفاحشة المبينة أن تبدو على أهل زوجها فيحل إخراجها، وقال جماعة: أراد بالفاحشة أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها، ثم ترد إلى منزلها، ويروى ذلك عن ابن مسعود، وقال قتادة: معناه إلا أن يطلقها على نشوزها، فلها أن تتحول من بيت زوجها. والفاحشة: النشوز. وقال ابن عمر والسدي: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، يعني ما ذكر من سنة الطلاق وما بعدها، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، يوقع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة والطلقتين، وهذا يدل على أن المستحب أن يفرق الطلقات، ولا يوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا ندم أمكنه المراجعة.

﴿٢﴾ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي قربن من انقضاء عدتهن، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾، أي راجعوهن، ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فتبين منكم، ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، على الرجعة أو الفراق أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق، ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾، أيها الشهود ﴿لِلَّهِ﴾، ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

قال عكرمة والشعبي والضحاك: ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة.

وأكثر المفسرين قالوا: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر المشركون ابناً له يسمى مالكاً فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أسر

العدو ابني وشكا إليه أيضاً الفاقة، فقال له النبي ﷺ: «اتق الله واصبر، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله»، ففعل الرجل ذلك، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه.

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: فغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة. فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في ابنه.

﴿٣﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ما ساق من الغنم.

وقال مقاتل: أصاب غنماً ومتاعاً ثم رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر، وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به ابنه؟ فقال له النبي ﷺ: نعم، فأنزل الله هذه الآية.

قال ابن مسعود: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه. وقال الربيع بن خيثم: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من كل شيء ضاق على الناس. وقال أبو العالية: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من كل شدة. وقال الحسن: ﴿مخرجاً﴾ عما نهاه الله عنه.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه.

وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، قرأ طلحة بن مصرف وحفص عن عاصم ﴿بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بالإضافة، وقرأ الآخرون ﴿بالغ﴾ بالتنوين ﴿أمره﴾ نصب، أي منفذ أمره ممض في خلقه قضاءه. ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾، أي جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. قال مسروق: في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، توكل عليه أو لم يتوكل، غير أن المتوكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.

﴿٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾، فلا يرجون أن يحضن، ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، أي شككتم فلم تدروا ما عدتهن، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، قال مقاتل: لما نزلت: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري: يا رسول الله فما عدة من لا تحيض والتي لم تحض وعدة الحبلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ يعني القواعد اللائي قعدن عن الحيض ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في حكمهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾. ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾، يعني الصغائر اللائي لم يحضن فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر أما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغها سن الآيسات، فذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء أو تبلغ سن الآيسات فتعتد بثلاثة أشهر، وهو قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي، وحكي عن عمر: أنها تتربص تسعة أشهر فإن لم تحض تعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك. وقال الحسن: تتربص سنة فإن لم تحض تعتد بثلاثة أشهر. وهذا كله في عدة الطلاق، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممن تحيض أو لا تحيض، وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء طلقها زوجها أو مات عنها لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان، عن الزهري عن عبيد الله بن عبدالله عن أبيه أن سبيعة بنت الحارث وضعت بعد وفاة زوجها بليال فمر بها أبو السنابل بن بعكك فقال: قد تصنعت للأزواج إنها أربعة أشهر وعشر، فذكرت ذلك سبيعة لرسول الله ﷺ فقال: «كذب أبو السنابل ـ أو: ليس كما قال أبو السنابل ـ قد حللت فتزوجي».

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة.

﴿٥﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾، يعني ما ذكر من الأحكام، ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

(٦) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، يعني مطلقات نسائكم ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾، ﴿من﴾ صلة أي أسكنوهن حيث سكنتم، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾، سعتكم وطاقتكم يعني إن كان موسراً يوسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾، لا تؤذوهن، ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، مساكنهن فيخرجن، ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فيخرجن من عدتهن.

اعلم أن المعتدة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدة وتعني بالسكنى مؤنة السكنى فإن كانت الدار التي طلقها فيها ملكاً للزوج يجب على الزوج أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها، وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأجرة وإن كانت عارية ورجع المعير فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها، فأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلقات الثلاث أو باللعان فلها السكنى، حاملاً كانت أو حائلاً، عند أكثر أهل العلم. روي ذلك عن ابن عباس أنه قال: لا سكنى لها إلا أن تكون حاملاً وهو قول الحسن وعطاء والشعبي.

واختلفوا في نفقتها فذهب قوم إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً روي ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وعطاء والشعبي، وبه قال الشافعي وأحمد، ومنهم من أوجبها بكل حال روي ذلك عن ابن مسعود، وهو قول إبراهيم النخعي وبه قال الثوري وأصحاب الرأي، وظاهر القرآن يدل على أنها لا تستحق إلا أن تكون حاملاً لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ والدليل عليه من جهة السنة ما:

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا مصعب عن مالك عن عبدالله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب بالشام فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقالت: والله ما لك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال لها: «ليس لك عليه نفقة» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا حللت فآذنيني» قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له انكحي أسامة بن زيد» قالت فكرهته، ثم قال: «انكحي أسامة بن زيد» فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به.

واحتج من لم يجعل لها السكنى بحديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت عمرو ابن أم مكتوم ولا حجة فيه.

لما روي عن عائشة أنها قالت: كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها.

وقال سعيد بن المسيب: إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان للسانها ذرابة، أما المعتدة عن وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً، والمعتدة عن وفاة الزوج لا نفقة لها حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم.

وروي عن علي رضي الله تعالى عنه أن لها النفقة، إن كانت حاملاً، من التركة حتى تضع، وهو قول شريح، والشعبي، والنخعي، والثوري، واختلفوا في سكناها، وللشافعي رضي الله عنه فيه قولان

أحدهما لا سكنى لها بل تعتد حيث تشاء، وهو قول علي وابن عباس وعائشة، وبه قال عطاء والحسن وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، والثاني: لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر، وبه قال مالك، وسفيان الثوري، وأحمد، وإسحاق، واحتج من أوجب لها السكنى بما.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه ولا نفقة، فقالت: قال رسول الله ﷺ: نعم، فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني أو أمر بي رسول الله ﷺ فدعيت له، فقال رسول الله ﷺ: «كيف قلت»؟ قالت: فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به.

فمن قال بهذا القول قال: إذنه لفريعة أولاً بالرجوع إلى أهلها صار منسوخاً بقوله آخراً: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» ومن لم يوجب السكنى قال: أمرها بالمكث في بيتها آخراً استحباباً لا وجوباً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾، أي أرضعن أولادكم، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، على إرضاعهن، ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾، ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقال الكسائي: شاوروا، قال مقاتل: بتراضي الأب والأم على أجر مسمى، والخطاب للزوجين جميعاً، يأمرهم أن يأتوا بالمعروف وبما هو الأحسن، ولا يقصدوا الضرار، ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾، في الرضاع والأجرة، فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرتها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾.

(٧) ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾، على قدر غناه، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾، من المال، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾، في النفقة، ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، أعطاها من المال، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، بعد ضيق وشدة غنى وسعة.

(٨) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾، عصت وطغت، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾، أي وأمر رسله، ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، بالمناقشة والاستقصاء، قال مقاتل: حاسبها بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب، وهو قوله ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾، منكراً فظيعاً وهو عذاب النار لفظهما ماض ومعناهما الاستقبال. وقيل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر البلايا، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، جزاء أمرها، وقيل: ثقل عاقبة كفرها، ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، خسراناً في الدنيا والآخرة.

(١٠) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، يعني القرآن.

(١١) ﴿رَّسُولًا﴾ بدلاً من الذكر، وقيل: أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً وقيل مع الرسول، وقيل: الذكر هو الرسول. وقيل: ذكراً أي شرفاً. ثم بيّن ما هو فقال: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾، يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ في العدد ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى، قال أهل المعاني: هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاتها وينقلها من حال إلى حال. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

٥٦٠

خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه. ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فلا يخفى عليه شيء.

❀ ❀ ❀

سورة التحريم

مدنية وهي اثنتا عشرة آية.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وسبب نزولها ما:

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبيد الله بن إسماعيل، ثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان إذا صلى العصر دخل على نسائه فيدنو منهن، فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله ﷺ منها شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له، فذكرت ذلك لسودة، وقلت: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له: يا رسول الله أكلت مغافير؟ فإنه سيقول: لا فقولي له: ما هذه الريح، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح، فإنه سيقول: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحله العُرْفط، سأقول ذلك وقوليه أنت يا صفية، فلما دخل على سودة قالت سودة: والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أباديه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك، فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله أكلت مغافير، قال: «لا» قالت: فما بال هذه الريح قال: «سقتني حفصة شربة عسل» قالت: جرست نحله العرفط، فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، ودخل على صفية فقالت مثل ذلك، فلما دخل على حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه قال: «لا حاجة لي به» قالت تقول سودة: سبحان الله لقد حرمناه، قالت: قلت لها اسكتي.

وأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحسن بن محمد [بن] الصَّبَّاح، ثنا الحجاج عن ابن جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواصيت، أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: «لا بأس شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة. ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شربت عسلاً.

وبهذا الإسناد قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، أنا إبراهيم بن موسى، أنا هشام بن يوسف، عن ابن جريج، عن عطاء بإسناده وقال: قال: «لا ولكن كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت فلا تخبري بهذا أحداً» يبتغي بذلك مرضاة أزواجه.

وقال المفسرون: وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة، فوقع

عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً، فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً، وحفصة تبكي فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي، أما رأيت لي حرمة وحقاً، ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، فقال رسول الله ﷺ: «أليست هي جاريتي أحلها الله لي؟ اسكتي فهي حرام عليّ ألتمس بذلك رضاك، فلا تخبري بذلك امرأة منهن» فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية، وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ، فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ يعني العسل ومارية ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأمره أن يكفر يمينه ويراجع أمته، فقال:

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، أي بيّن وأوجب أن تكفروها إذا حنثتم وهي ما ذكر في سورة المائدة [٨٩] ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، وليكم وناصركم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

واختلف أهل العلم في لفظ التحريم، فقال قوم: ليس هو بيمين، فإن قال لزوجته: أنت علي حرام، أو حرمتك، فإن نوى به طلاقاً فهو طلاق، وإن نوى به ظهاراً فظهار، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين بنفس اللفظ، وإن قال ذلك لجاريته فإن نوى عتقاً عتقت، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين، فإن قال لطعام حرمته على نفسي فلا شيء عليه، وهذا قول ابن مسعود وإليه ذهب الشافعي، وذهب جماعة إلى أنه يمين، فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقربها، كما لو حلف أن لا يطأها، وإن حرم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكل، يروى ذلك عن أبي بكر وعائشة، وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة رضي الله عنه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا معاذ بن فضالة، ثنا هشام عن يحيى، عن ابن حكيم، وهو يعلى بن حكيم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الحرام: يُكَفِّر، وقال ابن عباس: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(٣) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، وهو تحريم فتاته على نفسه، وقوله لحفصة: «لا تخبري بذلك أحداً» وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أسرّ أمر الخلافة بعده فحدثت به حفصة. قال الكلبي: أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي. وقال ميمون بن مهران: أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أخبرت به حفصة عائشة، ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أي أطلع الله تعالى نبيه على أنها أنبأت به، ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾، قرأ [أبو] عبدالرحمن السلمي والكسائي ﴿عرف﴾ بتخفيف الراء أي عرف بعض الفعل الذي فعلته من إفشاء سره، أي غضب من ذلك عليها وجازاها به، من قول القائل لمن أساء إليه لأعرفن لك ما فعلت، أي لأجازينك عليه، وجازاها به عليه بأن طلقها.

فلما بلغ ذلك عمر قال: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله ﷺ، فجاء جبريل وأمره بمراجعتها فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهراً وقعد في مشربة أم إبراهيم مارية، حتى نزلت آية التخيير.

وقال مقاتل بن حيان: لم يطلق رسول الله ﷺ حفصة وإنما هم بطلاقها فأتاه جبريل عليه السلام، وقال: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من جملة نسائك في الجنة، فلم يطلقها.

وقرأ الآخرون ﴿عرّف﴾ بالتشديد، أي عرف حفصة بعد ذلك الحديث، أي أخبرها ببعض القول الذي كان منها، ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، يعني لم يعرفها إياه، ولم يخبرها به. قال الحسن: ما استقصى كريم قط، قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

وذلك أن النبي ﷺ لما رأى

الكراهية في وجه حفصة أراد أن يتراضاها فأسر إليها شيئين: تحريم الأمة على نفسه، وتبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وفي أبيها عمر رضي الله عنهما، فأخبرت به حفصة عائشة وأطلع الله تعالى نبيه عليه، عرف حفصة وأخبرها ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة وأعرض عن بعض، يعني ذكر الخلافة، كره رسول الله ﷺ أن ينتشر ذلك في الناس، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾، أي أخبر النبي ﷺ حفصة بما أظهره الله عليه، ﴿قَالَتْ﴾، حفصة، ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، أي من أخبرك بأني أفشيت السر؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿٤﴾ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء، يخاطب عائشة وحفصة، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما التوبة. قال ابن زيد: مالت قلوبكما بأن سرهما ما كره رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب [عن] الزهري أخبرنا عبيد الله بن عبدالله بن أبي ثور، عن عبدالله بن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، حتى حج فحججت معه وعدل وعدلت معه بإداوة، فتبرز ثم جاء، فسكبت على يديه من الإداوة، فتوضأ فقلت له: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عزّ وجلّ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال: واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة. ثم استقبل عمر الحديث يسوقه فقال: إني كنت، أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر، ذلك اليوم من الأمر أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني فقلت خابت من فعلت منهن ذلك، ثم جمعت علي ثيابي فدخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة أتغاضب إحداكن النبي ﷺ حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله تعالى لغضب رسوله فتهلكي، لا تستكثري على النبي ﷺ ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ يريد عائشة، قال عمر: وكنا تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فرجع إلينا عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أثمّ هو، ففزعت فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم؟ فقلت: ما هو أجاء غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأهول، طلق النبي ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مشربة له فاعتزل فيها فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي، فقلت: ما يبكيك أولم أكن حذرتك؟ أطلقكن النبي ﷺ؟ قالت: لا أدري ها هو ذا [معتزل] في المشربة، فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي ﷺ ثم رجع إليّ فقال: قد كلمت النبي ﷺ فذكرتك له فصمت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر، فدخل ثم رجع إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فاستأذن ثم رجع إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني، فقال: قد أذن لك النبي ﷺ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه

متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فرفع إلي بصره فقال: لا، فقلت: الله أكبر، ثم قلت وأنا قائم: أستأنس يا رسول الله لو رأيتني، وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتني، ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة، فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى، فجلست حين رأيته يتبسم فرفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله تعالى فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله تعالى، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: «أو في هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فاعتزل النبي ﷺ، وسلم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعٌ وعشرين ليلة، وكان يقول: ما أنا بداخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى، فلما مضت تسعاً وعشرون ليلة، دخل على عائشة رضي الله عنها فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله إنك كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً فإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عداً؟ فقال: الشهر تسع وعشرون، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة. قالت عائشة: ثم أنزل الله آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فاخترته، ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبدالرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي بالجواب حتى تستأمري أبويك» وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨ و٥٩] إلى تمام الآيتين، فقلت: أو في هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، ثنا عمر بن يونس الحنفي، ثنا عكرمة بن عمار، عن سماك بن زميل حدثنا عبدالله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه وذكر الحديث، وقال: دخلت عليه فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلما تكلمت وأحمد الله تعالى بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. قوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾، أي تتظاهرا أو تتعاونا على أذى النبي ﷺ، قرأ أهل الكوفة بتخفيف الظاء، والآخرون بتشديدها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، أي وليه وناصره قوله: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال الكلبي: هم المخلصون الذي ليسوا بمنافقين. قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، قال مقاتل: بعد الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، أي: أعوان النبي ﷺ، وهذا من الواحد الذي يؤدي عن الجمع، كقوله: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، أي واجب من الله إن طلقكن رسوله، ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾، خاضعات لله بالطاعة، ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، مصدقات بتوحيد الله، ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾، طائعات، وقيل: داعيات وقيل مصليات، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، صائمات، وقال زيد بن أسلم: مهاجرات وقيل: يسحن معه حيث ما

الجزء الثامن والعشرون — سورة التحريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

٥٦١

ساح ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾، وهذا في الإخبار عن القدرة لا عن الكون لأنه قال: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وقد علم أنه لا يطلقهن وهذا كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وهذا إخبار عن القدرة لأن [ليس] في الوجود أمة هي خير من أمة محمد ﷺ.

(٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: أي بالانتهاء عما نهاكم الله تعالى عنه والعمل بطاعته، ﴿وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، يعني مروهم بالخير وانهوهم عن الشر، وعلموهم وأدبوهم تقوهم بذلك ناراً، ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، يعني خزنة النار، ﴿غِلَاظٌ﴾، فظاظ على أهل النار، ﴿شِدَادٌ﴾، أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار وهم الزبانية لم يخلق الله فيهم الرحمة، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

(٧) - (٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، قرأ الحسن وأبو بكر عن عاصم ﴿نُصوحا﴾ بضم النون، وقرأ العامة بفتحها أي توبة ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه.

واختلفوا في معناه قال عمر وأبيّ ومعاذ: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. قال الحسن: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألا يعود فيه. قال الكلبي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن. قال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم، قال القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الإخوان. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، أي لا يعذبهم الله بدخول النار، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، على الصراط، ﴿يَقُولُونَ﴾، إذ طفئ نور المنافقين، ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، ثم ضرب الله مثلاً للصالحين والصالحات من النساء.

(١٠) فقال جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾، واسمها واعلة، ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾، واسمها واهلة. وقال مقاتل: والعة والهة، ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾، وهما نوح ولوط عليهما السلام، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون وإذا آمن به أحد أخبرت به الجبابرة، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه نزل به ضيف. وقال الكلبي: أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لم يدفعا عنهما مع نبوتهما عذاب الله، ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، قطع الله بهذه الآية طمع كل من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعاً.

(١١) فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، وهي آسية بنت مزاحم، قال المفسرون:

لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون، ولما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس. قال سلمان: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته. وفي القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة قالت: رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزع روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، ولم تجد ألماً. وقال الحسن وابن كيسان: رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب. ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، قال مقاتل ﴿وعمله﴾ يعني الشرك. وقال أبو صالح عن ابن عباس: وعمله، قال: جماعه. ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الكافرين.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾، أي في جيب درعها، ولذلك ذكر الكناية، ﴿مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾، يعني الشرائع التي شرعها الله للعباد بكلماته المنزلة، ﴿وكتبه﴾، قرأ أهل البصرة وحفص ﴿وكتبه﴾ على الجمع، وقرأ الآخرون ﴿وكتابه﴾ على التوحيد، والمراد منه الكثرة أيضاً. وأراد «بكتبه» الكتب التي أنزلت على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم السلام. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، أي من القوم القانتين المطيعين لربها ولذلك لم يقل من القانتات. وقال عطاء: من القانتين أي من المصلين ويجوز أن يريد بالقانتين رهطها وعشيرتها فإنهم كانوا أهل صلاح مطيعين لله.

وروينا عن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون».

❋ ❋ ❋

سورة الملك

مكية [وهي ثلاثون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة. وقال قتادة: أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا، جعل الله الدنيا دار حياة وفناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء. قيل: إنما قدم الموت لأنه إلى القهر أقرب. وقيل: قدمه لأنه أقدم لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوهما،

الجزء التاسع والعشرون — سورة الملك

سُورَةُ المُلْك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

٥٦٢

ثم طرأت عليها الحياة. وقال ابن عباس: خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلق الحياة على صورة فرس بلقاء أنثى وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي، وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقى على العجل فحيي ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، فيما بين الحياة إلى الموت، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

روي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً: أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله».

وقال الفضيل بن عياض: أحسن عملاً أخلصه وأصوبه. وقال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة. وقال الحسن: أيكم أزهد في الدنيا وأترك لها. وقال

الجزء التاسع والعشرون | سورة الملك

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦)

٥٦٣

الفراء: لم تقع البلوى على أي إلا وبينهما إضمار كما تقول بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ومثله ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي سلهم وانظر أيهم، فـ«أي» رفع على الابتداء وأحسن خبره، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، في انتقامه ممن عصاه، ﴿الغفور﴾، لمن تاب إليه.

(٣) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، طبقاً على طبق بعضها فوق بعض، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي من «تفوّت» بتشديد الواو بلا ألف، وقرأ الآخرون بتخفيف الواو وألف قبلها، وهما لغتان كالتحمل والتحامل، والتظهر والتظاهر، ومعناه: ما ترى يا ابن آدم في خلق الرحمن من اعوجاج واختلاف وتناقض، بل هي مستقيمة مستوية وأصله من الفوت وهو أن يفوت بعضها بعضاً لقلة استوائها، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾، كرر النظر، معناه: انظر ثم ارجع، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، شقوق وصدوع.

(٤) ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، قال ابن عباس مرة بعد مرة، ﴿يَنقَلِبْ﴾، ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾، صاغراً ذليلاً مبعداً لم يرَ ما يهوي، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، كليل منقطع لم يدرك ما طلب. وروي عن كعب أنه قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية مرمرة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة صفراء، وقال: نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء، وبين السماء السابعة إلى الحجب السبعة صحارى [من] نور.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾، أراد الأدنى من الأرض وهي التي يراها الناس. وقوله ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ الكواكب، واحدها مصباح، وهو السراج سمي الكوكب مصباحاً لإضاءته، ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾، مرامي، ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾، إذا استرقوا السمع، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾، في الآخرة، ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، النار الموقدة.

(٦) ـ (٧) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾، وهو أول نهيق الحمار وذلك أقبح الأصوات، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾، تغلي بهم كغلي المرجل. وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل.

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾، تتقطع، ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾، من تغيظها عليهم، قال ابن قتيبة: تكاد تنشق غيظاً على الكفار، ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾، جماعة منهم، ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، سؤال توبيخ، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، رسول ينذركم.

(٩) ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾، للرسل، ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

(١٠) ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾، من الرسل ما جاؤونا به، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾، منهم، وقال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به. ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعي ويتفكر أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار.

(١١) ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا﴾، بعداً، ﴿لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، قرأ أبو جعفر والكسائي ﴿فسحقاً﴾ بضم الحاء، وقرأ الباقون بسكونها، وهما لغتان مثل الرعب والرعب والسحت والسحت.

(١٢) ـ (١٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم كي لا يسمع إله محمد.

(١٤) فقال الله جلّ ذكره: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، ألا يعلم ما في الصدور من خلقها، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، لطيف علمه في القلوب

الخبير بما فيها من السر والوسوسة. وقيل: ﴿من﴾ يرجع إلى المخلوق، أي ألا يعلم الله مخلوقه.

(١٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، سهلاً لا يمتنع المشي فيها بالحزونة، ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، قال ابن عباس وقتادة: في جبالها. وقال الضحاك: في آكامها. وقال مجاهد: في طرقها وفجاجها. قال الحسن: في سبلها. وقال الكلبي: في أطرافها. وقال مقاتل: في نواحيها. قال الفراء: في جوانبها. والأصل في الكلمة الجانب، ومنه منكب الرجل، الريح النكباء وتنكب فلان. ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، مما خلقه رزقاً لكم في الأرض، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، أي وإليه تبعثون من قبوركم.

(١٦) ثم خوّف الكفار فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، قال ابن عباس: أي عقاب من في السماء إن عصيتموه، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾، قال الحسن: تتحرك بأهلها. وقيل: تهوي بهم، والمعنى: أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تلقيهم إلى أسفل [والأرض] تعلو عليهم وتمر فوقهم. يقال: مار يمور، إذا جاء وذهب.

(١٧) ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾، في الآخرة وعند الموت، ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾، أي إنذاري إذا عاينتم العذاب.

(١٨) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني كفار الأمم الماضية، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي إنكاري عليهم بالعذاب.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، تصف أجنحتها في الهواء، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، أجنحتهن بعد البسط، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾، في حال القبض والبسط أن يسقطن، ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

(٢٠) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، استفهام إنكار. قال ابن عباس: أي منعة لكم، ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، يمنعكم من عذابه ويدفع عنكم ما أراد بكم. ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، أي في غرور من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

(٢١) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، أي من الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم، ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ﴾، تمادٍ في الضلال، ﴿وَنُفُورٍ﴾، تباعد من الحق وقال مجاهد: كفور.

(٢٢) ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾، راكباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى العين والقلب لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر. قال قتادة: راكباً على المعاصي في الدنيا فحشره الله على وجهه يوم القيامة، ﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾، معتدلاً يبصر الطريق وهو، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو المؤمن. قال قتادة: يمشي يوم القيامة سوياً.

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، قال مقاتل: يعني أنهم لا يشكرون رب هذه النعم.

(٢٤) ـ (٢٧) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾، يعني العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: يعني العذاب ببدر، ﴿زُلْفَةً﴾، أي قريباً وهو اسم يوصف به المصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والاثنان والجمع، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، اسودت وعلتها الكآبة، فالمعنى قبحت وجوههم بالسواد يقال ساء الشيء يسوء فهو سيئ إذا قبح، وسيئ يساء إذا قبح، ﴿وَقِيلَ﴾ لها أي قال لهم الخزنة، ﴿هَٰذَا﴾، أي هذا العذاب، ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، تفتعلون، من

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ (٣٠)

سُورَةُ القَلَم — ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥)

٥٦٤

الدعاء [أي: تدعون تتمنون أن يعجل لكم]، وقرأ يعقوب تدعون بالتخفيف، وهي قراءة قتادة ومعناهما واحد مثل تذكرون وتذكرون.

(٢٨) ﴿قُلْ﴾، يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾، من المؤمنين، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾، فأبقاها إلى منتهى آجالنا، ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فإنه واقع بهم لا محالة. وقيل: معناه أرأيتم إن أهلكني الله فعذبني ومن معي أو رحمنا فغفر لنا، فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا لأن حكمه نافذ فينا، فمن يجيركم ويمنعكم من عذابه وأنتم كافرون، وهذا معنى قول ابن عباس.

(٢٩) ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، الذي نعبده، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ﴾، قرأ الكسائي بالياء وقرأ الباقون بالتاء. ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي ستعلمون عند معاينة العذاب من الضال [منا] نحن أم أنتم.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أي غائرا ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي والدلاء. قال الكلبي ومقاتل: يعني ماء زمزم، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾، ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء. وقال عطاء عن ابن عباس: معين أي جار.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن الفارسي، ثنا أبو عبدالله محمد بن يزيد، ثنا أبو يحيى البزاز، ثنا محمد بن يحيى، ثنا أبو داود، ثنا عمران عن قتادة عن عباس الجشمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة [من النار] وأدخلته الجنة، وهي سورة تبارك».

❁ ❁ ❁

سورة القلم

مكية [وهي اثنتان وخمسون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿نٓ﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عباس: هو الحوت الذي على ظهره الأرض. وهو قول مجاهد ومقاتل والسدي والكلبي. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال وإن الجبال لتفخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. واختلفوا في اسمه، فقال الكلبي ومقاتل: بهموت. وقال الواقدي: ليوثا. وقال كعب: لوثيا. وعن علي: اسمه بلهوث: قالت الرواة: لما خلق الله الأرض وفتقها بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع [فوضعها على عاتقه إحدى يديه بالمشرق الأخرى بالمغرب باسطتين قابضتين على الأرضين السبع]، حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار، فأهبط الله عليه من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه، فلم تستقر قدماه فأخذ الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة في الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، ومنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مدّ البحر وأزبد وإذا رد نفسه جزر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] فتكن في صخرة ولم يكن للصخرة مستقر، فخلق الله نوناً وهو الحوت العظيم، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة. يقال: فكل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار: كوني فكانت. [قال] كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه، فقال له: أتدري ما على ظهرك يا لِويثا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك، فهم لِويثا أن يفعل ذلك فبعث الله دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله منها فأذن لها الله فخرجت. قال كعب:

فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت إلى ذلك كما كانت. وقال بعضهم: إن نون آخر حروف الرحمن، وهي رواية عكرمة عن ابن عباس. وقال الحسن وقتادة والضحاك: النون الدواة. وقيل: [هو قسم أقسم الله به. وقيل: فاتحة السورة. وقال عطاء: افتتاح اسمه نور وناصر. وقال محمد بن كعب:] أقسم الله بنصرته للمؤمنين. ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾، هو الذي كتب الله به الذكر، وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض.

ويقال: أول ما خلق الله القلم ونظر إليه فانشق نصفين، ثم قال [له]: أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، يكتبون أي ما تكتب الملائكة الحفظة من أعمال بني آدم.

﴿٢﴾ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ﴾، بنبوة ﴿رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، هذا جواب لقولهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] فأقسم الله بالنون والقلم وما يكتب من الأعمال فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾، بنبوة ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾، هذا جواب القسم أي: إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوّة والحكمة. وقيل: بعصمة ربك. وقيل: هو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله. وقيل: معناه: ما أنت بمجنون والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك أي والحمد لك.

﴿٣﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، أي منقوص ولا مقطوع بصبرك على افترائهم عليك.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: دين عظيم لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. وقال الحسن: هو آداب القرآن.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله، والمعنى إنك لعلى الخلق الذي أمرك الله به في القرآن. وقيل: سمي الله خلقه عظيماً لأنه امتثل تأديب الله إياه بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية.

وروينا عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وتمام محاسن الأفعال».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أحمد بن سعيد أبو عبدالله، ثنا إسحاق بن منصور، ثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير.

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍ قطُّ ما قال لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته؟، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا بو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا [أبو] عبدالله محمد بن عبدالله الصفار، ثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني، ثنا محمد بن كثير، ثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن مسروق، عن عبدالله بن عمر، قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول: «خياركم أحسانكم أخلاقاً».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو العباس الأصم، ثنا محمد بن هشام بن ملاس، ثنا مروان الفزاري، ثنا حميد الطويل عن أنس أن امرأة عرضت لرسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال: يا أم فلان اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك، قال: ففعلت فقعد إليها رسول الله ﷺ، حتى قضى حاجتها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، قال: ثنا محمد بن عيسى، ثنا هشيم، أنا حميد الطويل، ثنا أنس بن مالك قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد، أخبرنا عمران بن زيد التغلبي عن زيد العَمّي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له.

أخبرنا عبدالله بن عبدالصمد، أنا أبو القاسم الخزاعي، أنا الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى، ثنا هارون بن إسحاق الهمداني، ثنا عبيدة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا إسماعيل بن عبدالله حدثني مالك عن إسحاق عن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس قال كنت أمشي مع رسول الله ﷺ [وعليه] برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا علي المديني، ثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم الدرداء تحدث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن، والله تعالى يبغض الفاحش البذيء».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو نعيم، ثنا داود بن يزيد الأودي سمعت أبي يقول سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفرج والفم. أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق».

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، ثنا أبو العباس الأصم، ثنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، أنا أُبيّ وشعيب قالا، ثنا الليث عن ابن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبدالله عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار».

(٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب.

(٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، قيل معناه بأيكم المجنون فالمفتون مفعول بمعنى المصدر، كما يقال ما بفلان مجلود ومعقول، أي جلادة وعقل، وهذا معنى قول الضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس: وقيل: الباء بمعنى في، مجازه: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون في فريقك أو في فريقهم؟ وقيل: الباء بمعنى «مع» و«المفتون» هو الشيطان والمعنى مع أيكم الشيطان مع المؤمنين أم مع الكافرين؟ وهذا معنى قول مجاهد. وقال آخرون: الباء فيه زائدة معناه: أيكم المفتون؟ أي المجنون الذي فتن بالجنون، وهذا قول قتادة.

(٧) ـ (٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۞ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، يعني مشركي

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

سنسمه على الخرطوم (١٦) إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠) فتنادوا مصبحين (٢١) أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين (٢٢) فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣) أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين (٢٤) وغدوا على حرد قادرين (٢٥) فلما رأوها قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧) قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون (٢٨) قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (٢٩) فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠) قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين (٣١) عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون (٣٢) كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣٣) إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم (٣٤) أفنجعل المسلمين كالمجرمين (٣٥) ما لكم كيف تحكمون (٣٦) أم لكم كتاب فيه تدرسون (٣٧) إن لكم فيه لما تخيرون (٣٨) أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون (٣٩) سلهم أيهم بذلك زعيم (٤٠) أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين (٤١) يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون (٤٢)

٥٦٥

مكة فإنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه أن يطيعهم.

(٩) ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، قال الضحاك: لو تكفر فيكفرون. وقال الكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك. قال الحسن: لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. قال زيد بن أسلم: لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون. قال ابن قتيبة: أرادوا على أن تعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾، كثير الحلف بالباطل. قال مقاتل: يعني الوليد بن المغيرة. وقيل: الأسود بن عبد يغوث. وقال عطاء: الأخنس بن شريق. قوله: ﴿مَّهِينٍ﴾، ضعيف حقير. قيل: هو فعيل من المهانة وهي قلة الرأي والتمييز. وقال ابن عباس: كذاب، وهو قريب من الأول لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه.

(١١) ﴿هَمَّازٍ﴾، مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والغيبة. وقال الحسن هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، كقوله ﴿همزة﴾ [الهمزة: ١] ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، قتات يسعى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم.

(١٢) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، بخيل بالمال قال ابن عباس: «مناع للخير» أي للإسلام، يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام، يقول: لئن دخل واحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً. ﴿مُعْتَدٍ﴾، ظلوم يتعدى الحق، ﴿أثيم﴾، فاجر.

(١٣) ﴿عُتُلٍّ﴾، العتل: الغليظ الجافي. وقال الحسن: هو الفاحش الخلق السيىء الخلق. قال الفراء: هو الشديد الخصومة في الباطل. وقال الكلبي: هو الشديد في كفره، وكل شديد عند العرب عتل، وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف. قال عبيد بن عمير: العتل الأكول الشروب القوي الشديد في كفره لا يزن في الميزان شعيرة، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً في النار دفعة واحدة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي مع ذلك يريد مع ما وصفناه به ﴿زَنِيمٍ﴾، وهو الدَّعِي الملصق بالقوم، وليس منهم، قال عطاء عن ابن عباس: يريد مع هذا هو دعي في قريش وليس منهم. قال مرة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة. وقيل: الزنيم الذي له زنمة كزنمة الشاة. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية نعت فلم يعرف حتى قيل زنيم فعرف، وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها. وقال سعيد بن جبير: عن ابن عباس قال: [كان] يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان الواعظ، حدثني أبو محمد بن زنجويه بن محمد، ثنا علي بن الحسن الهلالي، ثنا عبدالله بن الوليد العدني عن سفيان، حدثني معبد بن خالد القيسي، عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ متكبر».

(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب ﴿ءَأن﴾ بالاستفهام، ثم حمزة وأبو بكر يخففان الهمزتين بلا مد، ويمد الهمزة الأولى أبو جعفر وابن عامر ويعقوب، ويلينون الثانية، وقرأ الآخرون بلا استفهام على الخبر، فمن قرأ بالاستفهام فمعناه: الأن كان ذا مال وبنين؟

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: جعل مجازاة النعم التي خولها من البنين والمال

الكفر بآياتنا. وقيل: معناه ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه. ومن قرأ على الخبر فمعناه: لا تطع كل حلاف مهين لأن كان ذا مال وبنين، أي لا تطعه لماله وبنيه، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(١٦) ثم أوعده فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، والخرطوم الأنف. قال أبو العالية ومجاهد: أي نسود وجهه فنجعل له علماً في الآخرة يعرف به وهو سواد الوجه. قال الفراء: خص الخرطوم بالسمة وأنه في مذهب الوجه لأن بعض الشيء يعبر به عن كله. وقال ابن عباس: سنخطمه بالسيف، وقد فعل ذلك يوم بدر. وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه. قال القتيبي: تقول العرب للرجل يسب الرجل سبة قبيحة! قد وسمه ميسم سوء، يريد ألصق به عاراً لا يفارقه، كما أن السمة لا تنمحي ولا يعفو أثرها، وقد ألحق الله بما ذكر من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوسم على الخرطوم. وقال الضحاك والكسائي: سنكويه على وجهه.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾، يعني اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾، ابتلينا، ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾.

روى محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، قال: كان بستان باليمن يقال له الضروان، دون صنعاء بفرسخين، يطؤه أهل الطريق، كان غرسه قوم من أهل الصلاة وكان لرجل فمات فورثه ثلاثة بنين له وكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل [فلم يجزه] فإذا طرح من فوق النخل إلى البساط فكل شيء يسقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين، وإذا داسوا كان لهم كل شيء ينتثر أيضاً، فلما مات الأب وورثه هؤلاء الإخوة عن أبيهم، فقالوا: والله إن المال لقليل وإن العيال لكثير، وإنما كان هذا الأمر يفعل إذا كان المال كثيراً والعيال قليلاً فأما إذ قل المال وكثر العيال فإنا لا نستطيع أن نفعل هذا، فتحالفوا بينهم يوماً ليغدون غدوة قبل خروج الناس فليصرمن نخلهم ولم يستثنوا، يقول: يعني لم يقولوا: إن شاء الله، فغدا القوم بسدفة من الليل إلى جنتهم ليصرموها قبل أن يخرج المساكين، فرأوها مسودة وقد طاف عليها من الليل طائف من العذاب فأحرقها، فأصبحت كالصريم فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾، حلفوا، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾. ليجذنّها، وليقطعن ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يعلم المساكين، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، لا يقولون إن شاء الله. (١٨)

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾، عذاب، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، ليلاً ولا يكون الطائف إلا بالليل وكان ذلك الطائف ناراً نزلت من السماء فأحرقتها، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، كالليل المظلم الأسود. وقال الحسن: أي صرم منها الخير فليس فيها شيء. وقال الأخفش كالصبح الصريم من الليل، وأصل الصريم المصروم، مثل قتيل ومقتول وكل شيء قطع فهو صريم فالليل صريم والصبح صريم، لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. وقال ابن عباس: كالرماد الأسود بلغة خزيمة.

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾، نادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا.

(٢٢) ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يعني الثمار والزروع والأعناب، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾، قاطعين للنخل.

(٢٣) ﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾، مشوا إليها، ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾، يتسارون يقول بعضهم لبعض سراً.

(٢٤) ـ (٢٥) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾، الحردُ في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب، قال الحسن وقتادة وأبو العالية: على جد وجهد. وقال القرظي ومجاهد وعكرمة: على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم، وهذا على معنى القصد لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر. وقال أبو عبيدة والقتيبي: غدوا ونيتهم على منع المساكين، يقال: حاردت السنة، إذا لم يكن لها مطر، وحاردت الناقة إذا لم يكن لها لبن. وقال الشعبي وسفيان: على حنق وغضب من المساكين. وعن ابن عباس: على قدرة، ﴿قَٰدِرِينَ﴾، عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينها وبينهم أحد.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي لما رأوا الجنة محترقة قالوا: إنا

لمخطئون الطريق أضللنا مكان جنتنا ليست هذه بجنتنا.

(٢٧) فقال بعضهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، حرمنا خيرها ونفعها بمنعنا المساكين وتركنا الاستثناء.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، هلا تستثنون، أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم، «ليصرمنها مصبحين»، وسمي الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله، وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته. وقال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله، وقيل: هلا تسبحون الله وتقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم. وقيل: هلا تستغفرونه من فعلكم.

(٢٩) ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾، نزهوه عن أن يكون ظالماً فيما فعل وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، بمنعنا المساكين.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾، يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم ونادوا على أنفسهم بالويل.

(٣١) ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾، في منعنا حق الفقراء. وقال ابن كيسان: طغينا نِعَمَ الله فلم نشكرها ولم نصنع ما صنع آباؤنا من قبل.

(٣٢) ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾، قال عبدالله بن مسعود: بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها: الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾، أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣٤) ثم أخبر بما عنده للمتقين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فقال المشركون: إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون فقال الله تكذيباً لهم.

(٣٥) - (٣٧) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾، نزل من عند الله، ﴿فِيهِ﴾، في هذا الكتاب، ﴿تَدْرُسُونَ﴾، تقرؤون.

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾، في ذلك الكتاب، ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، تختارون وتشتهون.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾، عهود ومواثيق، ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾، مؤكدة عاهدناكم عليها، فاستوثقتم بها منا فلا ينقطع عهدكم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ﴾، وذلك العهد، ﴿لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله، وكسر ﴿إن﴾ في الآيتين لدخول اللام في خبرهما.

(٤٠) ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝﴾، كفيل لهم أي: أيهم يكفل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين؟

(٤١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي عندهم شركاء الله أرباب تفعل هذا. وقيل: شهداء يشهدون لهم بصدق ما يدعونه. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، قيل: يوم ظرف لقوله فليأتوا بشركائهم، أي فليأتوا بها في ذلك اليوم لتنفعهم وتشفع لهم ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قيل: عن أمر فظيع شديد، قال ابن عباس: هو أشد ساعة في القيامة. قال سعيد بن جبير: يوم يكشف عن ساق: عن شدة الأمر. وقال ابن قتيبة: تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج فيه إلى الجد ومقاساة الشدة، شمر عن ساقه، ويقال: إذا اشتد الأمر في الحرب كشفت الحرب عن ساق.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، ثنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني سويد بن سعيد، حدثني جعفر، حدثني حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أناساً في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، فلا يبقى أحد إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر

وغُبَّرِ أهل الكتاب فتدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فقالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، ثم تدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون، قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم؟ ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها، فيقولون: نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، فلا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم، قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دحضٌ مُزِلّة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة يكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم ومخدوش مرسل، ومكردس في نار جهنم.

حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا به أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً فيه خير ممن أمرتنا به، وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى [الشجر] ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟ قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله من النار الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: «ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا: أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا فيقولون: يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

وروى محمد بن إسماعيل هذا الحديث عن يحيى بن بكير عن الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم بهذا المعنى:

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الحَاقَّةِ — ترتيبها ٦٩ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

٥٦٦

أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، يعني الكفار والمنافقون، تصير أصلابهم كصياصي البقر فلا يستطيعون السجود.

﴿٤٣﴾ ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه الكافرين والمنافقين، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، يغشاهم ذلة الندامة والحسرة، ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾، قال إبراهيم التيمي: يعني إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة. وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حي على الصلاة حي على الفلاح فلا يجيبون، ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾، أصحاء فلا يأتونه، قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات.

﴿٤٤﴾ ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي فدعني والمكذبين بالقرآن، وخل بيني وبينهم. قال الزجاج: معناه لا تشغل قلبك بهم وكلهم إلي فإني أكفيكهم، قال مثله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ معناه في اللغة: لا تشغل قلبك به وكله إلي فإني أجازيه. ومثله قول الرجل: ذرني وإياه، ليس أنه منعه منه ولكن تأويله: كِلْهُ فإني أكفيك أمره ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، سنأخذهم بالعذاب، ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فعذبوا يوم بدر.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٨﴾ ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، اصبر على أذاهم لقضاء ربك، ﴿وَلَا تَكُن﴾، في الضجر والعجلة، ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، وهو يونس بن متى، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، ربه وهو في بطن الحوت، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، مملوء غماً.

﴿٤٩﴾ ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾، أدركه ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، حين رحمه وتاب عليه، ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾، لطرح بالفضاء من بطن الحوت، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، يذم ويلام بالذنب.

﴿٥٠﴾ ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، اصطفاه، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وذلك أن الكفار أرادوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد حتى كانت الناقة والبقرة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية خذي المكتل والدرهم فأتينا بشيء من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت، فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل [ولا يشرب] يومين أو ثلاثاً ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة وعدة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيه وأنزل: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾، أي ويكاد، ودخلت اللام في ﴿ليزلقونك﴾ لمكان إن، وقرأ أهل المدينة ﴿ليزلقونك﴾ بفتح الياء، والآخرون بضمها، وهما لغتان، يقال: زلقه يزلقه زلقاً وأزلقه يزلقه إزلاقاً. قال ابن عباس: معناه

ينفذونك، يقال: زلق السهم إذا أنفذ، قال السدي: يصيبونك بعيونهم. قال النضير بن شميل: يعينونك. وقيل: يزيلونك. وقال الكلبي: يصرعونك. وقيل: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة. قال ابن قتيبة: ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك.

وقال الزجاج: يعني من شدة عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في كلام العرب يقول القائل: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني، ونظراً يكاد يأكلني، يدل على صحة هذا المعنى: أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن. وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية فيحدون إليه النظر بالبغضاء، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾، أي ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن.

(٥٢) فقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾، يعني القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، قال ابن عباس: موعظة للمؤمنين. قال الحسن: دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان هذه الآية.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، أنا أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه، أنا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العين حق» ونهى عن الوشم.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، ثنا السيد أبو الحسن بن محمد بن الحسين بن داود العلوي، أنا أبو نصر محمد بن حمدويه بن سهل المروزي، ثنا محمود بن آدم المروزي، ثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عبيد بن رفاعة الزرقي أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن ابني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

❁ ❁ ❁

سورة الحاقة

مكية [وهي اثنتان وخمسون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الْحَاقَّةُ﴾، يعني القيامة سميت حاقة لأنها حقت فلا كاذبة لها. وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها، ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال، أي يجب، يقال: حق عليه الشيء إذا وجب يحق حقوقاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] قال الكسائي: الحاقة يوم الحق.

(٢) ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما يقال: زيد ما زيدٌ، على التعظيم لشأنه.

(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، أي أنك لا تعلمها إذ لم تعاينها ولم تر ما فيها من الأهوال.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾، قال ابن عباس وقتادة: بالقيامة سميت قارعة لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة. وقيل: كذبت بالعذاب الذي أوعدهم نبيهم حتى نزل فقرع قلوبهم.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، أي بطغيانهم وكفرهم. قيل: هي مصدر، وقيل: نعت، أي بأفعالهم الطاغية، وهذا معنى قول مجاهد: كما قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١] وقال قتادة: بالصيحة الطاغية، وهي التي جاوزت مقادير الصياح فأهلكتهم. وقيل: طغت على الخزان كما طغى الماء على قوم نوح.

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، عتت على خزائنها فلم تطعهم ولم يكن لهم عليها سبيل، وجاوزت المقدار فلم يعرفوا كم خرج منها.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾. أرسلها عليهم. وقال مقاتل: سلطها عليهم. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾، قال وهب: هي الأيام التي تسميها العرب أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة. قيل: سميت عجوزاً لأنها في عجز

الشتاء. وقيل: سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعتها الريح، فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب. ﴿حُسُومًا﴾، قال مجاهد وقتادة: متابعة ليس فيها فترة، فعلى هذا هو حسم الكي، وهو أن يتابع على موضع الداء بالمكواة حتى يبرأ، ثم قيل لكل شيء توبع: حاسم، وجمعه حسوم، مثل شاهد وشهود، وقال الكلبي ومقاتل: حسوماً دائمة. وقال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم، والحسم: القطع والمنع ومنه حسم الداء. قال الزجاج: أي تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم. وقال عطية [حسوماً] شؤماً كأنها حسمت الخير عن أهلها. ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾، أي في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾، هلكى جمع صريع، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، ساقطة، وقيل: خالية الأجواف.

﴿٨﴾ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، أي من نفس باقية يعني لم يبق منهم أحد.

﴿٩﴾ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾، قرأ أهل البصرة والكسائي بكسر القاف، وفتح الباء أي ومن معه من جنوده وأتباعه، وقرأ الآخرون بفتح القاف وسكون الباء، أي ومن قبله من الأمم الكافرة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾، يعني أي قرى قوم لوط يريد أهل المؤتفكات. وقيل: يريد الأمم الذين ائتفكوا بخطيئتهم، أي أهلكوا بذنوبهم ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾، أي بالخطيئة والمعصية وهي الشرك.

﴿١٠﴾ ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، يعني لوطاً وموسى، ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، نامية، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: شديدة. وقيل: زائدة على عذاب الأمم.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾، أي عتا وجاوز حده حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه يعني زمن نوح عليه السلام. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾، أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، في السفينة التي تجري في الماء.

﴿١٢﴾ ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلنا، من إغراق قوم نوح ونجاة من حملنا معه، ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، عبرة وعظة ﴿وَتَعِيَهَآ﴾، قرأ القواس عن ابن كثير وسليم عن حمزة، باختلاس العين، وقرأ الآخرون بكسرها أي تحفظها ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: حافظة لما جاء من عند الله. قال قتادة: أذن سمعت وعقلت ما سمعت. قال الفراء: لتحفظها كل أذن فتكون عبرة وموعظة لمن يأتي بعد.

﴿١٣﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، وهي النفخة الأولى.

﴿١٤﴾ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، رفعت [من] أماكنها، ﴿فَدُكَّتَا﴾، كسرتا، ﴿دَكَّةً﴾ كسرة، ﴿وَٰحِدَةً﴾، فصارتا هباء منبثاً.

﴿١٥﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، قامت القيامة.

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

﴿١٦﴾ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، ضعيفة، قال الفراء: وهيها تشققها.

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾، يعني الملائكة، ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾، نواحيها وأقطارها ما لم ينشق منها، واحدها رجا [مقصوراً] وتثنيته رجوان. قال الضحاك: تكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾، أي فوق رؤوسهم يعني الحملة، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يوم القيامة، ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾، أي ثمانية أملاك.

جاء في الحديث: «إنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى، فكانوا ثمانية، على صورة الأوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء».

وجاء في الحديث: «لكل ملك

منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر».

أخبرنا أبو بكر بن الهيثم الترابي، أنا أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي، أنا محمد بن يحيى الخالدي، أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا عبدالرزاق، ثنا يحيى بن العلاء البجلي عن عمه شعيب بن خالد، ثنا سماك بن حرب عن عبدالله بن عميرة عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: السحاب، قال: و«المزن»، قلنا: والمزن، قال: و«العنان»، فقلنا: والعنان، فسكتنا فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكذلك غلظ كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله ما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء».

ويروى هذا عن عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس. وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله.

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾، على الله، ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾، قرأ [حمزة والكسائي لا يخفى] بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، أي فعلة خافية. قال الكلبي: لا يخفى على الله منكم شيء. قال أبو موسى: يعرض الناس ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعندها تطاير الصحف فآخذ بيمينه وآخذ بشماله.

(١٩) وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، الهاء في ﴿كتابيه﴾ هاء الوقف.

(٢٠) ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ علمت وأيقنت، ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، أي أني أحاسب في الآخرة.

(٢١) ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ﴾، يعني حالة من العيش، ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، مرضية كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ يريد برضاها بأن لقي الثواب وأمن العقاب.

(٢٢) ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، رفيعة.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطعون كيف شاؤوا.

(٢٤) ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾، قدمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة، ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾، الماضية يريد أيام الدنيا.

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، قال ابن السائب تُلْوَى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه. وقيل: تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه. ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾، يتمنى أنه لم يؤت كتابه لما يرى فيه من قبائح أعماله.

(٢٦) ـ (٢٧) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، يقول يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية [الفارغة] من كل ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أحي بعدها. والقاضية موت لا حياة بعده، يتمنى أنه لم يبعث للحساب. قال قتادة: يتمنى الموت وإن لم يكن عنده في الدنيا شيء أكره من الموت.

(٢٨) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾، لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً.

(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾، ضلت عني حجتي، عن أكثر المفسرين، وقال ابن زيد: زال عني ملكي وقوتي. قال مقاتل: يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك يقول الله لخزنة جهنم:

(٣٠) ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، اجمعوا يده إلى عنقه.

(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، أي أدخلوه الجحيم.

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾، فأدخلوه فيها. قال ابن عباس: سبعون ذراعاً بذراع الملك، فتدخل في دبره تخرج من منخره. وقيل: تدخل في فيه وتخرج من دبره. وقال نوف البكالي: سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً، كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان: كل ذراع سبعون ذراعاً. وقال الحسن: الله أعلم أي ذراع هو.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو

الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة مثل هذه، وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة التي ذكرها الله في القرآن لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار، قبل أن تبلغ أصلها» أو قعرها.

وعن كعب قال: لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها.

(٣٣) ـ (٣٤) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، لا يطعم المسكين في الدنيا ولا يأمر أهله بذلك.

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ﴾، قريب ينفعه ويشفع له.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، وهو صديد أهل النار مأخوذ من الغسل، كأنه غسالة جروحهم وقروحهم. قال الضحاك والربيع: هو شجر يأكله أهل النار.

(٣٧) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾، أي الكافرون.

(٣٨) ـ (٣٩) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، «لا» رد لكلام المشركين كأنه قال: ليس كما يقول المشركون أقسم، ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي بما ترون وبما لا ترون. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها فيدخل فيه جميع المكونات والموجودات. وقال: أقسم بالدنيا والآخرة. وقيل: ما تبصرون ما على وجه الأرض وما لا تبصرون ما في بطنها. وقيل: ما تبصرون من الأجسام وما لا تبصرون من الأرواح. وقيل: ما تبصرون: الإنس وما لا تبصرون: الملائكة والجن. وقيل: النعم الظاهرة والباطنة. وقيل: ما تبصرون ما أظهر الله للملائكة واللوح والقلم، وما لا تبصرون ما استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحداً.

الجزء التاسع والعشرون — سورة الحاقة

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٥٦٨

(٤٠) ﴿إنه﴾ يعني القرآن، ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي تلاوة رسول كريم يعني محمداً ﷺ.

(٤١) ـ (٤٢) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿يؤمنون ويذكرون﴾، بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء، وأراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك: قلما تأتينا، وأنت تريد لا تأتينا أصلاً.

(٤٣) ـ (٤٤) ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾، تخرّص واختلق، ﴿عَلَيْنَا﴾، محمد، ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾، وأتى بشيء من عند نفسه.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، قيل ﴿من﴾ صلة، مجازه، لأخذناه وانتقمنا منه باليمين أي بالحق، كقوله: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]، أي: من قبل الحق. وقال ابن عباس: لأخذناه بالقوة والقدرة. قال الشماخ يمدح عرابة ملك اليمن.

إذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

أي بالقوة عبر عن القوة باليمين، لأن قوة كل شيء في ميامنه. وقيل: معناه لأخذنا بيده اليمنى، وهو مثل معناه: لأذللناه، وأهناه، كالسلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من يريد، يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، قال ابو عباس: أي نياط القلب، وهو قول أكثر المفسرين: وقال مجاهد: الحبل الذي في الظهر. وقيل هو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه.

(٤٧) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾، مانعين يحجزوننا عن

عقوبته، والمعنى: أن محمداً لا يتكلف الكذب لأجلكم مع علمه بأنه لو تكلفه لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه، وإنما قال: ﴿حاجزين﴾ بالجمع هو فعل واحد رداً على معناه كقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، يعني القرآن، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي لعظة لمن اتقى عقاب الله.

(٤٩) - (٥٠) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يوم القيامة يندمون على ترك الإيمان به.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

❁ ❁ ❁

سورة المعارج

مكية [وهي أربع وأربعون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿سأل﴾ بغير همز وقرأ الآخرون بالهمز، فمن همز فهو من السؤال، ومن قرأ بغير همز قيل: هو لغة في السؤال، يقول: سال يسال مثل خاف يخاف، يعني سال يسال خفف الهمزة وجعلها ألفاً. وقيل: هو من السيل، وسال وادٍ من أودية جهنم، يروى ذلك عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، والأول أصح. واختلفوا في الباء في قوله: ﴿بِعَذَابٍ﴾، قيل: هي بمعنى «عن» كقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي عنه خبيراً، ومعنى الآية سأل سائل عن عذاب، ﴿وَاقِعٍ﴾، نازل كائن على من ينزل ولمن ذلك العذاب.

(٢) فقال الله مبيناً مجيباً لذلك السائل: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي ﷺ بالعذاب قال بعضهم لبعض: من أهل هذا العذاب؟ ولمن هو؟ سلوا عنه محمداً فسألوه فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هو للكافرين، هذا قول الحسن وقتادة. وقيل: الباء صلة ومعنى الآية: دعا داع وسأل سائل عذاباً واقعاً للكافرين، أي على الكافرين، اللام بمعنى على، وهو النضر بن الحارث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]، الآية، فنزل به ما سأل يوم بدر فقتل صبراً. وهذا قول ابن عباس ومجاهد: ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾ أي للعذاب ﴿دَافِعٌ﴾ أي مانع.

(٣) ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، قال ابن عباس: أي ذي السموات، سماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقال سعيد بن جبير: ذي الدرجات. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم، ومعارج الملائكة.

(٤) ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قرأ الكسائي ﴿يعرج﴾ بالياء، وهي قراءة ابن مسعود، وقرأ الآخرون ﴿تَعْرُجُ﴾ بالتاء، ﴿وَٱلرُّوحُ﴾، يعني جبريل عليه السلام، ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله عزّ وجلّ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، من سني الدنيا لو صعد غير الملك وذلك أنها تصعد منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة، لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة والملك يقطع ذلك كله في ساعة واحدة. وروى ليث عن مجاهد أن مقدار هذا خمسون ألف سنة. وقال محمد بن إسحاق: لو سار بنو آدم من الدنيا إلى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة. وقال عكرمة وقتادة: هو يوم القيامة. وقال الحسن أيضاً: هو يوم القيامة. وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ليس يعني به مقدار طوله هذا دون غيره لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود، ولو كان له آخر لكان منقطعاً. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنا أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ، ثنا عبدالله بن سعيد، ثنا أسد بن موسى، ثنا ابن لهيعة، عن دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله ﷺ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا».

وقيل: معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة. وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس ومقاتل. وقال عطاء: ويفرغ الله منه في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. وروى محمد بن الفضل عن الكلبي قال: يقول لو وليتُ حساب ذلك اليوم الملائكة والجنَّ والإنس وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة، وأنا أفرغ منها في ساعة من النهار. وقال يمان: هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة. وفيه تقديم وتأخير كأنه قال: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه.

(٥) ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، يا محمد على تكذيبهم، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال.

(٦) ـ (٧) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، يعني العذاب، ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، لأن ما هو آت قريب وهو يوم القيامة.

(٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾، كعكر الزيت. وقال الحسن: كالفضة إذا أذيبت.

(٩) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾، كالصوف المصبوغ. ولا يقال: عهن إلا للمصبوغ. وقال مقاتل: كالصوف المنفوش. وقال الحسن: كالصوف الأحمر وهو أضعف الصوف، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم تصير هباءً منثوراً.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، قرأ البزي عن ابن كثير ﴿وَلاَ يُسأَل﴾ بضم الياء أي لا يسأل حميم عن حميم، أي لا يقال له أين حميمك؟ وقرأ الآخرون بفتح الياء، أي لا يسأل قريب قريباً لشغله بشأن نفسه.

الجزء التاسع والعشرون — سورة المعارج

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)

٥٦٩

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، يرونهم وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس، فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسأله، ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه.

قال ابن عباس: يتعارفون ساعة من النهار ثم لا يتعارفون بعده. وقيل: «يبصرونهم» يعرفونهم، أي يعرف الحميم حميمه حتى يعرفه، ومع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه. وقال السدي: يعرفونهم أما المؤمن فببياض وجهه، وأما الكافر فبسواد وجهه، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾، يتمنى المشرك، ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾.

(١٢) ـ (١٣) ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾، زوجته، ﴿وَأَخِيهِ ۞ وَفَصِيلَتِهِ﴾، عشيرته التي فصل منهم. قال مجاهد: قبيلته وقال غيره: أقربائه الأقربين. ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾، أي تعينه ويأوي إليها.

(١٤) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، يود لو يفتدى بهم جميعاً، ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾، ذلك الفداء من عذاب الله.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾، لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾، وهي اسم من أسماء جهنم وقيل: هي الدركة الثانية، سميت بذلك لأنها تتلظى، أي تتلهب.

(١٦) ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾، قرأ حفص عن عاصم ﴿نزاعة﴾ نصب على الحال والقطع، وقرأ الآخرون بالرفع أي هي نزاعة للشوى، وهي الأطراف: اليدان، والرجلان، وسائر الأطراف. وقال مجاهد: لجلود الرأس. وروى إبراهيم بن مهاجر عنه: اللحم دون العظام. قال مقاتل: تنزع النار الأطراف فلا تترك لحماً ولا جلداً. وقال الضحاك: تنزع الجلد واللحم عن العظم. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: للعصب والعقب. وقال الكلبي: لأم الرأس تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان، ثم تعود لأكله فتأكله فذلك

دأبها. وقال قتادة: لمكارم خلقه وأطرافه. وقال أبو العالية: لمحاسن وجهه. وقال ابن جرير: الشوى جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً، يقال: رمى فأشوى إذا أصاب الأطراف ولم يصب المقتل.

(١٧) ﴿تَدْعُوا﴾، النار إلى نفسها، ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾، عن الإيمان، ﴿وَتَوَلَّى﴾، عن الحق فتقول إلي يا مشرك إلي يا منافق إليّ إليّ. قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. حكي عن الخليل. أنه قال: تدعو أي تعذب. وقال: قال أعرابي لآخر: دعاك الله أي عذبك الله.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ﴾، أي جمع المال، ﴿فَأَوْعَى﴾، أمسكه في الوعاء ولم يؤدِ حق الله منه.

(١٩) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، روى السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: الهلوع الحريص على ما لا يحل له. وقال سعيد بن جبير: شحيحاً. وقال عكرمة: ضجوراً. وقال الضحاك والحسن: بخيلاً. وقال قتادة: جزوعاً. وقال مقاتل: ضيّق القلب. والهلع: شدة الحرص، وقلة الصبر. وقال عطية عن ابن عباس: تفسيره ما بعده.

(٢٠) ـ (٢١) وهو قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، يعني إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أصاب المال لم ينفق. قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره، ثم تعبده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره.

(٢٢) ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، استثنى الجمع من الواحد لأن الإنسان في معنى الجمع.

(٢٣) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، يقيمونها في أوقاتها يعنى الفرائض. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب، أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون أبداً؟ قال: لا ولكنهم إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمينهم ولا عن شمائلهم ولا خلفهم.

(٢٤) ـ (٣٣) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾، قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بشهاداتهم على الجمع، وقرأ الآخرون بشهادتهم على التوحيد. ﴿قَائِمُونَ﴾ أي يقومون فيها بالحق ولا يكتمونها ولا يغيرونها.

(٣٤) ـ (٣٥) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾.

(٣٦) ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي فما بال الذين كفروا، كقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، ﴿قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهزؤون به ويكذبونه، فقال الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يستمعون.

(٣٧) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾، حلقاً وفرقاً، العزون: جماعات في تفرقة واحدتها عزة.

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، قال ابن عباس: معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها وقد كذب نبيي؟

(٣٩) ﴿كَلَّا﴾، لا يدخلونها، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، نبّه الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه، ثنا موسى بن محمد بن علي، ثنا جعفر بن محمد الفريابي، ثنا صفوان بن صالح، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا جرير بن عثمان

الرحبي، عن عبدالرحمن بن ميسرة، عن جبير بن نفير، عن بشر بن جَحَّاش قال: قال النبي ﷺ وبصق يوماً في كفه ووضع عليها إصبعه فقال: يقول الله عزّ وجلّ «ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين، والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة»؟

وقيل: معناه إنا خلقناهم من أجل ما يعملون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقيل: ﴿ما﴾ بمعنى ﴿من﴾، مجازه: إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون لا كالبهائم.

(٤٠) - (٤١) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه، ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، على أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله [ورسوله]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

(٤٢) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾، في باطلهم، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾، في دنياهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، نسختها آية القتال.

(٤٣) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أي القبور، ﴿سِرَاعًا﴾، إلى إجابة الداعي، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾، قرأ ابن عامر وحفص ﴿نصب﴾ بضم النون والصاد، وقرأ الآخرون بفتح النون وسكون الصاد، يعنون إلى شيء منصوب، يقال: فلان نصب عيني. وقال الكلبي: إلى علم وراية. ومن قرأ بالضم. قال مقاتل والكسائي: يعني إلى أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. [كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]] قال الحسن: يسرعون إليها أيهم يستلمها أولاً. ﴿يُوفِضُونَ﴾، أي يسرعون.

(٤٤) ﴿خَٰشِعَةً﴾، ذليلة خاضعة ﴿أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، يغشاهم هوان، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾، يعني يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

الجزء التاسع والعشرون — سورة نوح

فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ — ترتيبها ٧١ — آياتها ٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

٥٧٠

سورة نوح

مكية [وهي ثمان وعشرون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، بأن أنذر قومك، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، المعنى: إنا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

(٢) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أنذركم وأبيّن لكم رسالة الله بلغة تعرفونها.

(٣) - (٤) ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿من﴾ صلة أي يغفر لكم ذنوبكم. وقيل: يعني ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان، وذلك بعض ذنوبهم، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أن يعافيكم إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يقول آمنوا قبل الموت، تسلموا من العذاب، فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولا يمكنكم الإيمان.

(٥) - (٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾، نفاراً وإدباراً عن الإيمان والحق.

(٧) ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾، إلى الإيمان بك، ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، لئلا يسمعوا دعوتي، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾، غطوا بها وجوههم لئلا يروني، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾، على كفرهم. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، عن الإيمان بك، ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، معلناً: بالدعاء. قال ابن عباس: بأعلى صوتي.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾، أي كررت

الجزء التاسع والعشرون — سورة نوح

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

٥٧١

الدعاء معلناً، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، قال ابن عباس: يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سراً بيني وبينه، أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك.

(١٠) ـ (١١) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم، فقال لهم نوح: استغفروا ربكم من الشرك، أي استدعوا المغفرة بالتوحيد، يرسل السماء عليكم مدراراً. وروى مطرف عن الشعبي أن عمر رضي الله تعالى عنه خرج يستسقي بالناس، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما سمعناك استسقيت؟ فقال: طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر، ثم قرأ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

(١٢) ـ (١٣) ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾، قال عطاء: يكثر أموالكم وأولادكم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته. وقال الكلبي: لا تخافون الله حق عظمته، والرجاء: بمعنى الخوف، والوقار: العظمة، اسم من التوقير وهو التعظيم. قال الحسن: لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة. قال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، تارات، حالاً بعد حال، نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى تمام الخلق.

(١٥) ـ (١٦) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، قال الحسن: يعني في السماء الدنيا، كما يقال أتيت بني تميم، وإنما أتى بعضهم، وفلان متوارٍ في دور بني فلان وإنما هو في دار واحدة. وقال عبدالله بن عمرو: إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس ونور القمر فيهن وأقفيتهما إلى الأرض. ويروى هذا عن ابن عباس.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، مصباحاً مضيئاً.

(١٧) ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، أراد مبدأ خلق أبي البشر آدم، خلقه من الأرض، والناس ولده، قوله: ﴿نَبَاتًا﴾ اسم جعل في موضع المصدر أي إنباتاً، قال الخليل: مجازه فنبتم نباتاً.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾، بعد الموت، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾، منها يوم البعث أحياء، ﴿إِخْرَاجًا﴾.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، فرشها وبسطها لكم.

(٢٠) ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، طرقاً واسعة.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، يعني لم يجيبوا دعوتي، ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾، يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين هم لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

(٢٢) ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾، أي كبيراً عظيماً، يقال: كبير وكبار، بالتخفيف، وكبّار بالتشديد، شدد للمبالغة، وكلها بمعنى واحد، كما يقال: أمر عجيب وعجاب وعجّاب بالتشديد هو أشد في المبالغة. واختلفوا في مكرهم. وقال ابن عباس: قالوا قولاً عظيماً. وقال الضحاك: افتروا على الله [كذباً] وكذبوا رسله. وقيل: منع الرؤساء أتباعهم عن الإيمان بنوح وحرضوهم على قتله.

(٢٣) ﴿وَقَالُوا﴾. لهم ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، أي لا تتركوا عبادتها،

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾، قرأ أهل المدينة [وداً] بضم الواو والباقون بفتحها، ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هذه أسماء آلهتهم. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن موسى، ثنا هشام عن ابن جريج وقال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح [تعبد] في العرب بعده، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يَغُوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يَعُوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ذكره في تفسيره. وروى سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قوله تعالى: ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً قال: كانت وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبِدَتْ.

وروي عن ابن عباس: أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمها التراب، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب، وكانت للعرب أصنام أخر، فاللات كانت لثقيف، والعزى لسليم وغطفان وجشم، ومناة لقديد، وإساف ونائلة وهُبل لأهل مكة.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس كقوله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال مقاتل: أضل كبراؤهم كثيراً من الناس. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، هذا دعاء عليهم بعدما أعلم الله نوحاً أنهم لا يؤمنون، وهو قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

﴿٢٥﴾ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾، أي من خطيئاتهم، و﴿ما﴾ صلة، وقرأ أبو عمر و﴿خطاياهم﴾ وكلاهما جمع خطيئة، ﴿أُغْرِقُوا﴾، بالطوفان، ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، قال الضحاك هي في حالة واحدة في الدنيا يغرقون من جانب ويحترقون من جانب، وقال مقاتل: فأدخلوا ناراً في الآخرة، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله الواحد القهار.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيء، أصله من الدوران، وقال القتيبي: إن أصله من الدار، أي نازل دار.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾، قال ابن عباس، والكلبي، ومقاتل: كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي حذرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير عليه، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، قال محمد بن كعب ومقاتل، والربيع، وغيرهم: إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة. وقيل: سبعين سنة، وأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً فحينئذ دعا عليهم نوح فأجاب الله دعاءه، وأهلكهم كلهم ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]، ولم يوجد التكذيب من الأطفال.

﴿٢٨﴾ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾، واسم أبيه لمك بن متوشلخ، واسم أمه سمحاء بنت أنوش، وكانا مؤمنين، وقيل: اسمها هيجل بنت لاموش بن متوشلخ فكانت بنت عمه ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾، داري، ﴿مُؤْمِنًا﴾، وقال الضحاك والكلبي: مسجدي. وقيل: سفينتي. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، هذا عام في كل من آمن بالله وملائكته وصدق الرسل، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾، هلاكاً ودماراً فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم [عن آخرهم].

الجزء التاسع والعشرون — سورة الجن

سُورَةُ الجِنّ — ترتيبها ٧٢ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

٥٧٢

سورة الجن

مكية [وهي ثمان وعشرون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، وكانوا تسعة من جن نصيبين. وقيل: سبعة، استمعوا قراءة النبي ﷺ ذكرنا خبرهم في سورة الأحقاف [٢٩] ﴿فَقَالُوا﴾، لما رجعوا إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، قال ابن عباس: بليغاً، أي قرآناً ذا عجب يعجب منه لبلاغته.

(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان، ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، قرأ أهل الشام والكوفة غير أبي بكر عن عاصم ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ بفتح الهمزة وكذلك ما بعده إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾، وقرأ الآخرون بكسرهن، وفتح أبو جعفر منها ﴿وأنه﴾ وهو ما كان مردوداً على الوحي، وكسر ما كان حكاية عن الجن، والاختيار كسر الكل لأنه من قول الجن لقومهم، فهو معطوف على قوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، وقالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ ومن فتح [رده] على قوله: ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ وآمنا بكل ذلك، ففتح ﴿أن﴾ لوقوع الإيمان عليه، ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ جلال ربنا وعظمته، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة، يقال: جد الرجل، أي عظم، ومنه قول أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي عظم قدره، وقال السدي: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي أمر ربنا: وقال الحسن: غنى ربنا. ومنه قيل للجد: حظ، ورجل مجدود. وقال ابن عباس: قدرة ربنا. قال الضحاك: فعله. وقال القرظي: آلاؤه ونعماؤه على خلقه. وقال الأخفش: علا ملك ربنا. ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، قيل: تعالى جلّ جلاله وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً.

(٤) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾، جاهلنا، قال مجاهد وقتادة: هو إبليس، ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾، كذباً وعدواناً وهو وصفه بالشريك والولد.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾، حسبنا، ﴿أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾، قرأ يعقوب «تَقَوَّل» بفتح الواو وتشديدها ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي كنا نظنهم في قولهم إن لله صاحبة وولداً حتى سمعنا القرآن.

(٦) قال الله ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾، وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في أرض قفرة قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا ابن فنجويه، ثنا عبدالله بن يوسف بن أحمد بن مالك، حدثنا أبو القاسم عبدالرحمٰن بن محمد بن أسحاق المروزي حدثنا موسى بن سعيد النعمان بن بطرسوس، ثنا فروة بن أبي المغراء الكندي، ثنا القاسم بن مالك عن عبدالرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي سائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك، فنادى مناد لا نراه، يقول: يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة، فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ بمكة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾، ﴿فَزَادُوهُمْ﴾، يعني زاد الإنس والجن باستعاذتهم بقادتهم، ﴿رَهَقًا﴾، قال ابن عباس: إثماً، وقال مجاهد:

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

طغياناً. وقال مقاتل: غياً. قال الحسن: شراً. قال إبراهيم: عظمة وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوذ طغياناً، يقولون: سدنا الجن والإنس، والرهق في كلا العرب الإثم وغشيان المحارم.

﴿٧﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾، يقول الله تعالى إن الجن ظنوا، ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾، يا معشر الكفار من الإنس، ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، بعد موته.

﴿٨﴾ ﴿وَأَنَّا﴾، يقول الجن، ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، قال الكلبي: السماء الدنيا، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾، من الملائكة ﴿وَشُهُبًا﴾، من النجوم.

﴿٩﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء، ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، أي كنا نستمع، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، أرصد له ليرمى به، قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدة الحراسة، وكانوا يسترقون السمع في بعض الأحوال، فلما بعث النبي ﷺ منعوا من ذلك أصلاً ثم قالوا:

﴿١٠﴾ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، برمي الشهب، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿١١﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، دون الصالحين. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾، أي جماعات متفرقين وأصنافاً مختلفة، والقدة: القطعة من الشيء، يقال: صار القوم قدداً إذا اختلفت حالاتهم، وأصلها من القد وهو القطع، قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين، وقيل: ذوو أهواء مختلفة. وقال الحسن والسدي: الجن أمثالكم فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً لكل فرقة هوى كأهواء الناس. وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى. وقال أبو عبيدة: أصنافاً.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾، علمنا وأيقنا، ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي لن نفوته إن أراد بنا أمراً، ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾، إن طلبنا.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾، القرآن وما أتى به محمد، ﴿آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾، نقصاناً من عمله وثوابه، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾، ظلماً. وقيل: مكروهاً يغشاه.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾، الجائرون العادلون عن الحق. قال ابن عباس: الذين جعلوا لله نداً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل فهو مقسط، وقسط إذا جار فهو قاسط. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، أي قصدوا طريق الحق وتوخوه.

﴿١٥﴾ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾، الذين كفروا، ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، كانوا وقود النار يوم القيامة.

﴿١٦﴾ ثم رجع إلى كفار مكة فقال: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾، اختلفوا في تأويلها، فقال قوم: لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى فكانوا مؤمنين مطيعين، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾، كثيراً، قال مقاتل: وذلك بعدما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقالوا: معناه لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا وأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً، وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله في المطر، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خُوّلوا. وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل والحسن. وقال آخرون: معناها وأن لو

استقاموا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه، عقوبة لهم واستدراجاً حتى يفتتنوا بها فنعذبهم، وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان، كما قال الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية. ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿يسلكه﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالنون، أي ندخله، ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾، قال ابن عباس: شاقاً، والمعنى ذا صعد، أي ذا مشقة. قال قتادة: لا راحة فيه. وقال مقاتل: لا فرح فيه. قال الحسن: لا يزداد إلا شدة. والأصل فيه أن الصعود يشق على الإنسان.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾، يعني المواضع التي بنيت للصلاة وذكر الله، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد وأراد بها المساجد كلها. وقال الحسن: أراد بها البقاع كلها لأن الأرض جعلت كلها مسجداً للنبي ﷺ.

وقال سعيد بن جبير: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد وأن نشهد معك الصلاة ونحن ناؤون؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾. وروي عن سعيد بن جبير أيضاً: أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة: الجبهة واليدان والركبتان والقدمان، يقول: هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، أنا [أبو] عبدالله محمد بن يعقوب، ثنا علي بن الحسن الهلالي والسري بن خزيمة قالا: ثنا معلى بن أسد، ثنا وهيب، عن عبدالله بن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء: الجبهة ـ وأشار بيده إليها ـ، واليدين والركبتين، وأطراف القدمين، ولا أكف الثوب ولا الشعر».

فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة، فواحدها مسجد، بكسر الجيم، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مسجد بفتح الجيم.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَنَّهُ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها، ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾، يعني النبي ﷺ، ﴿يَدْعُوهُ﴾، يعني يعبده ويقرأ القرآن وذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، ﴿كَادُوا﴾، يعني الجن، ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي يركب بعضهم بعضاً، ويزدحمون حرصاً على استماع القرآن، هذا قول الضحاك ورواية عطية عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير عنه، هذا من قول النفر الذين رجعوا إلى قومهم من الجن أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ واقتدائهم به في الصلاة. وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني لما قام عبدالله بالدعوة تلبدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاءهم به، ويطفئوا نور الله، فأبى الله إلا أن يتم نوره، ويتم هذا الأمر وينصره على من ناوأه. وقرأ هشام عن ابن عامر ﴿لبداً﴾ بضم اللام، وأصل اللبد الجماعات بعضها فوق بعض، ومنه سمي اللبد الذي يفرش لتراكمه وتلبد الشعر إذا تراكم.

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾، قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة ﴿قل﴾ على الأمر، وقرأ الآخرون «قال» يعني رسول الله ﷺ: «إنما أدعو ربي»، قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم: «إنما أدعو ربي»، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

﴿٢١﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾، لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً، ﴿وَلَا رَشَدًا﴾، أي لا أسوق لكم أو إليكم رشداً، أي خيراً يعني أن الله يملكه.

﴿٢٢﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾، لن يمنعني منه أحد إن عصيته. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، ملجأ أميل إليه. ومعنى الملتحد أي المائل، قال السدي: حرزاً. وقال الكلبي: مدخلاً في الأرض مثل السرب.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، ففيه الجوار والأمن والنجاة، قاله الحسن. قال مقاتل: ذلك الذي يجيرني من عذاب الله، يعني التبليغ. وقال قتادة: إلا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله

وتوفيقه. وقيل: لا أملك لكم ضراً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً من الله فإنما، أنا مرسل به لا أملك إلا ما ملكت. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ولم يؤمن، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾، يعني العذاب يوم القيامة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾، عند نزول العذاب، ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، أهم أم المؤمنون.

(٢٥) - (٢٧) ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾، أي ما أدري، ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، من العذاب وقيل يوم القيامة، ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أجلاً وغاية تطول مدتها يعني: أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلا الله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ رفع على نعت، قوله ﴿ربي﴾، وقيل: عالم الغيب: ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾، لا يطلع، ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، إلا من يصطفيه لرسالته فيظهره على ما يشاء من الغيب لأنه يستدل على نبوته بالآية المعجزة بأن نخبر عن الغيب، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾، ذكر بعض الجهات دلالة على جميعها ﴿رَصَدًا﴾ أي يجعل بين يديه وخلفه حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع، ومن الجن أن يستمعوا الوحي فيلقوا إلى الكهنة. قال مقاتل وغيره: كان الله إذا بعث رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين، فإذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان، فاحذره وإذا جاءه ملك قالوا له: هذا رسول ربك.

(٢٨) ﴿لِّيَعْلَمَ﴾، قرأ يعقوب ليعلم بضم الياء أي ليعلم الناس، ﴿أَن﴾ الرسل، ﴿قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾، قرأ الآخرون بفتح الياء أي ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا، ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي علم الله ما عند الرسل فلم يخف عليه شيء، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾، قال ابن عباس: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الدر والخردل، ونصب ﴿عدداً﴾ على الحال، وإن شئت على المصدر، أي عدّ عداً.

***

سورة المزمل

مكية [وهي عشرون آية].

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، أي الملتفف بثوبه، وأصله المتزمل أدغمت التاء في الزاي، ومثله المدثر أدغمت التاء في الدال، يقال: تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى به. وقال السدي: أراد يا أيها النائم قم فصل. قال الحكماء: كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبي والرسول.

الجزء التاسع والعشرون — سورة المزمل

سورة المزمل

ترتيبها ٧٣ — آياتها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

٥٧٤

(٢) - (٣) ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، أي للصلاة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكان قيام الليل فريضة في الابتداء ثم بين قدره فقال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، إلى الثلث.

(٤) ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، على النصف إلى الثلثين، خيره بين هذه المنازل، فكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان، فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها بقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠]، فكان بين أول السورة وآخرها سنة.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو نعيم

عبدالملك بن الحسن الإسفرايني، أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ، ثنا الحسن بن علي بن عفان، ثنا يحيى بن بشير، ثنا سعيد يعني ابن أبي عروبة، ثنا قتادة، عن زرارة بن أبي أوفى، عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: ألست تقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة.

قال مقاتل وابن كيسان: كان هذا بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، قال ابن عباس: بينه بياناً. قال الحسن: اقرأه قراءة بينة. قال مجاهد: ترسل فيه ترسلاً. قال قتادة: تثبت فيه تثبتاً. وعن ابن عباس أيضاً: اقرأه على هينتك ثلاث آيات أو أربعاً أو خمساً.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عمرو بن عاصم، ثنا همام عن قتادة قال: سئل أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم، ثنا شعبة، ثنا عمرو بن مرة قال: سمعت أبا وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود، قال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذاً كهذّ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين من آل حاميم في كل ركعة.

أخبرنا أبو جعفر أحمد بن أبي أحمد مثويه، أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد بن علي الحسيني الحراني فيما كتبه إليّ، أنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، أنا أبو بكر عبدالله بن محمد بن حميد الواسطي، ثنا زيد بن أخرم، ثنا محمد بن الفضل، ثنا سعيد بن زيد عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله يعني ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذّا الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.

أخبرنا أبو جعفر أحمد بن أبي أحمد بن مثويه، أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد بن علي الحسيني الحراني فيما كتب إلي، ثنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، ثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، ثنا الحسين بن الحسن المروزي، ثنا ابن المبارك، أنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن موسى بن عبيدة عن عبيد الله بن عبيدة وهو أخوه عن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأحمر والأسود والأبيض اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرؤونه يقيمون حروفه كما يقام السهم لا يجاوز تراقيهم، يتعجلون آخره ولا يتأجلونه».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا أبو بكر محمد بن نافع البصري، ثنا عبدالصمد بن عبدالوارث عن إسماعيل بن مسلم العبدي عن أبي المتوكل الناجي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة.

ورواه أبو ذر، قال: قام النبي ﷺ ليلة حتى أصبح بآية، الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شديداً. قال الحسن: إن الرجل ليهذّ السورة ولكن العمل بها ثقيل. قال

قتادة: ثقيلاً هو والله فرائضه وحدوده. قال مقاتل: ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود. قال أبو العالية: ثقيل بالوعد والوعيد والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين. قال الحسين بن الفضل: قولاً خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان. قال الفراء: ثقيل ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا. قال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا ثقل في الموازين يوم القيامة.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهذا أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشاتي الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً.

(٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي ساعته كلها وكل ساعة منه ناشئة، سميت بذلك لأنها تنشأ أي تبدو ومنه نشأت السحابة إذا بدت وكل ما حدث بالليل وبدأ فقد نشأ فهو ناشئ، والجمع ناشئة. وقال ابن أبي مليكة: سألت ابن عباس وابن الزبير عنها، فقالا: الليل كله ناشئة. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: أي ساعة قام من الليل فقد نشأ وهو بلسان الحبش القيام، يقال: نشأ فلان أي قام. وقالت عائشة: الناشئة القيام بعد النوم. وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل. وقال عكرمة: هي القيام من أول الليل. يروى عن علي بن الحسين أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء، ويقول: هذه ناشئة الليل. وقال الحسن: كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة من الليل. وقال الأزهري: ناشئة الليل قيام الليل، مصدر جاء على فاعلة كالعافية بمعنى العفو. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾، قرأ ابن عامر وأبو عمرو: «وِطاء» بكسر الواو ممدوداً بمعنى المواطأة والموافقة، يقال: وطأت فلاناً مواطأة ووطئاً، إذا وافقته، وذلك أن مواطأة القلب والسمع والبصر واللسان، بالليل تكون أكثر مما يكون بالنهار. وقرأ الآخرون بفتح الواو وسكون الطاء، أي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل للنوم والراحة.

ومنه قوله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر».

وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل هي أشد وطأ، يقول هي أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من القيام، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ. وقال قتادة: أثبت في الخير وأحفظ للقراءة. وقال الفراء: أثبت قياماً أي أوطأ للقيام وأسهل للمصلي من ساعات النهار، لأن النهار خلق لتصرف العبادة، والليل للخلوة فالعبادة فيه أسهل. وقيل: أشد نشاطاً. وقال ابن زيد: أفرغ له قلباً من النهار لأنه لا تعرض له حوائج. وقال الحسن: أشد وطأ في الخير وأمنع من الشيطان. ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾، وأصوب قراءة وأصح قولاً لهدأة الناس وسكون الأصوات. وقال الكلبي: أبين قولاً بالقرآن، وفي الجملة عبادة الليل أشد نشاطاً وأتم إخلاصاً وأكثر بركة وأبلغ في الثواب من عبادة النهار.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، أي تصرفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك، وأصل السبح سرعة الذهاب، ومنه السباحة في الماء، وقيل: سبحاً طويلاً أي فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك فصلّ من الليل، وقرأ يحيى بن يعمر «سبخاً» بالخاء المعجمة أي استراحة وتخفيفاً للبدن.

منه قول النبي ﷺ لعائشة، وقد دعت على سارق: «لا تسبّخي عنه بدعائك عليه»، أي لا تخففي.

(٨) ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، بالتوحيد والتعظيم، ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾، قال ابن عباس وغيره: أخلص إليه إخلاصاً. قال الحسن: اجتهد. وقال ابن زيد: تفرغ لعبادته. وقال سفيان: توكل عليه توكلاً. وقيل: انقطع إليه في العبادة انقطاعاً، وهو الأصل في الباب، يقال: تبتلت الشيء أي قطعته، وصدقة بتة: أي مقطوعة عن صاحبها لا سبيل له عليها، والتبتيل: تفعيل، منه يقال: بتلته فتبتل، المعنى: بتّل إليه

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

سورة المدثر

ترتيبها ٧٤ — آياتها ٥٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

نفسك، ولذلك قال: تبتيلاً. قال ابن زيد: التبتل رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله تعالى.

﴿٩﴾ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص ﴿رب﴾ برفع الباء على الابتداء، وقرأ الآخرون بالجر على نعت الرب في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، قيماً بأمورك ففوضها إليه.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، نسختها آية القتال.

﴿١١﴾ ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾، نزلت في صناديد المستهزئين. وقال مقاتل بن حيان: نزلت في المطعمين ببدر فلم يكن إلا يسير حتى قتلوا ببدر.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾، عندنا في الآخرة، ﴿أَنكَالًا﴾، قيوداً عظاماً لا تنفك أبداً واحدها نكل. قال الكلبي: أغلالاً من حديد، ﴿وَجَحِيمًا﴾.

﴿١٣﴾ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، غير سائغة يأخذ بالحق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿١٤﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، أي تتزلزل وتتحرك، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، رملاً سائلاً. قال الكلبي: هو الرمل الذي أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده، يقال: أهلت الرمل أهيله هيلاً إذا حركت أسفله حتى انهال من أعلاه.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

﴿١٦﴾ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، شديداً ثقيلاً، يعني عاقبناه عقوبة غليظة يخوف كفار مكة.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾، أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة إذ كفرتم في الدنيا يعني لا سبيل لكم إلى التقوى إذا وافيتم يوم القيامة؟ وقيل: معناه كيف تتقون العذاب يوم القيامة وبأي شيء تتحصنون منه إذا كفرتم؟ ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، شمطاً من هوله وشدته، وذلك حين يقال لآدم قم فابعث بعث النار من ذريتك.

﴿١٨﴾ ثم وصف هول ذلك اليوم فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، متشقق لنزول الملائكة به أي بذلك المكان.

وقيل: الهاء ترجع إلى الرب أي بأمره وهيبته، ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾، كائناً.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾، أي آيات القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، تذكير وموعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، بالإيمان والطاعة.

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾، أقل من، ﴿ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾، قرأ أهل مكة والكوفة ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾، بنصب الفاء والثاء وإشباع الهاءين ضماً، أي وتقوم نصفه وثلثه وقرأ الآخرون بجر الفاء والثاء وأشباع الهاءين كسراً، عطفاً على ثلثي، ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ يعني المؤمنين وكانوا يقومون معه، ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، قال عطاء: لا يفوته علم ما تفعلون، أي أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم القدر الذي تقومون من الليل، ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، قال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فنزل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [أي]، لن تطيقوه. وقال مقاتل: كان الرجل يصلي الليل كله، مخافة أن لا يصيب ما أمر به من القيام، فقال ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تطيقوا معرفة ذلك. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، فعاد عليكم بالعفو والتخفيف، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، يعني في الصلاة، قال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء. قال قيس بن أبي حازم: صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة، ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرف

أقبل علينا بوجهه فقال: إن الله عزّ وجلّ يقول: فاقرؤوا ما تيسر منه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عثمان بن أبي صالح، ثنا ابن لهيعة حدثني حميد بن مخراق، عن أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ خمسين آية في يوم أو في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر».

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، حدثني القاسم بن زكريا، عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن يحيى عن محمد بن عبدالرحمن مولى بني زهرة، عن أبي سلمة عن عبدالله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر»، قال قلت: إني أجد قوة، قال: «فاقرأه في عشرين ليلة»، قال قلت: إني أجد قوة، قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك».

قوله عزّ وجلّ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، يعني المسافرين للتجارة يطلبون من رزق الله، ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لا يطيقون قيام الليل، روى إبراهيم عن ابن مسعود قال: أيما رجل جلب شيئاً ما إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء، ثم قرأ عبدالله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أي ما تيسر عليكم من القرآن. قال أهل التفسير كان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بالصلوات الخمس، وذلك قوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، [قال ابن عباس]: يريد سوى الزكاة من صلة الرحم، وقرى الضيف. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾، تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتم، ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، من الذي أخرتم، ولم تقدموه، ونصب ﴿خَيْرًا وَأَعْظَمَ﴾ على المفعول الثاني، فإن الوجود إذا كان بمعنى الرؤية يتعدى إلى مفعولين، وهو فصل في قول البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له في الإعراب.

أخبرنا أبو القاسم يحيى بن علي الكشميهني، أنا أبو نصر أحمد بن علي البخاري بالكوفة، أنا أبو القاسم نصر بن أحمد الفقيه بالموصل، ثنا أبو يعلى الموصلي، ثنا أبو خيثمة، ثنا جرير عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد قال: قال عبدالله: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه»؟ قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون»، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله، قال: «ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر». ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، لذنوبكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

❊ ❊ ❊

سورة المدثر

مكية [وهي ست وخمسون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى، ثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال لي جابر لا أحدثك إلا بما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت من خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماء بارداً، قال فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبدالله بن يوسف، ثنا الليث، عن عُقيل قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال أخبرني جابر بن عبدالله قال: سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي قال: «فبينا، أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري [قبل السماء] فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت منه رعباً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني، فزملوني»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱهْجُرْ﴾، قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي بعد وتتابع.

(١) ـ (٢) قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، أي أنذر كفار مكة.

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي عظمه عمّا يقوله عبدة الأوثان.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب، وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري. وقال عكرمة: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، فقال: لا تلبسها على معصية ولا على غدر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

«وإني بحمد الله لا ثوب فاجر
لبست ولا من غدرة أتقنع»

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء إنه طاهر الثياب، وتقول لمن غدر إنه لدنس الثياب، وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على إثم، البسها وأنت برّ طاهر. وروى أبو روق عن الضحاك معناه: وعملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر. وقال الحسن والقرظي: وخلقك فحسّنْ. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها، وذلك أن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصر لأن تقصير الثياب طهرة لها.

(٥) ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب والرجز بضم الراء، وقرأ الآخرون بكسرهما وهما لغتان ومعناهما واحد. قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد وأبو سلمة: المراد بالرجز الأوثان، قال: فاهجرها ولا تقربها. وقيل: الزاي فيه منقلبة عن السين، والعرب تعاقب بين السين والزاي لقرب مخرجهما، ودليل هذا التأويل قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وروي عن ابن عباس أن معناه: اترك المآثم. وقال أبو العالية والربيع: الرجز، بضم الراء الصنم، وبالكسر النجاسة والمعصية. قال الضحاك: يعني الشرك. وقال الكلبي: يعني العذاب، ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الأعمال.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، أي لا تعط مالك مصانعة لتعطى أكثر منه، وهذا قول أكثر المفسرين، قال الضحاك ومجاهد: كان هذا للنبي ﷺ خاصة. قال الضحاك: هما رباءان من حلال وحرام، فأما الحلال فالهدايا، وأما الحرام فالربا. قال قتادة: لا تعطِ شيئاً طمعاً لمجازاة الدنيا، يعني أعط لربك وأرد به الله. وقال الحسن: معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، قال الربيع: لا تكثرن عملك في عينك فإنه فيما أنعم الله عليك وأعطاك قليل. وروى خصيف عن مجاهد: ولا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولهم: حبل متين إذاكان ضعيفاً دليله قراءة ابن مسعود ﴿ولا تمنن أن تستكثر من الخير﴾، وقال ابن زيد معناه: لا تمنن بالنبوة على الناس فتأخذ عليها أجراً أو عرضاً من الدنيا.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، قيل: فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله. وقال مجاهد: فاصبر لله على ما أوذيت فيه. وقال ابن زيد: معناه حملت أمراً عظيماً فيه محاربة العرب والعجم فاصبر عليه لله عزّ وجلّ. وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾، أي نفخ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل، يعني النفخة الثانية.

(٩) ﴿فَذَٰلِكَ﴾، أي النفخ في

الجزء التاسع والعشرون — سورة المدثر

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

٥٧٦

الصور، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، شديد.

(١٠) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، يعسر فيه الأمر عليهم، ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، غير هين.

(١١) قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، [أي خلقته في بطن أمه وحيداً] فريداً لا مال له ولا ولد، نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، كان يسمى الوحيد في قومه.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾. أي كثيراً. قيل: هو ما يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة. واختلفوا في مبلغه، قال مجاهد وسعيد بن جبير: مائة ألف دينار. وقال قتادة: أربعة آلاف دينار. وقال سفيان الثوري: ألف ألف. وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة. وقال مقاتل: كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً. وقال عطاء عن ابن عباس: كان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونَعَم، وكان له عير كثيرة وعبيد وجوارٍ. وقيل مالاً ممدوداً غلة شهر بشهر.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً بمكة لا يغيبون عنه وكانوا عشرة، قاله مجاهد وقتادة. وقال مقاتل: كانوا سبعة وهم الوليد بن الوليد، فخالد، وعمارة، وهشام، والعاص، وقيس، وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾، أي بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً. وقال الكلبي: يعني المال بعضه على بعض كما يمهد الفرش.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾، يرجو، ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾، أي أن أزيده مالاً وولداً، وتمهيداً.

(١٦) ﴿كَلَّا﴾، لا أفعل ولا أزيده، قالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾، معانداً.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾، سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها.

وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «الصّعود جبل من نار يتصعد فيه [الكافر] سبعين خريفاً، ثم يهوي».

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا عمر بن الخطاب، ثنا عبدالله بن الفضل، أنا منجاب بن الحارث، أنا شريك، عن عمار الدُّهني، عن عطية، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾، قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت، فإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت».

وقال الكلبي: الصعود صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها لا يترك أن يتنفس في صعوده ويجذب من أمامه بسلاسل من حديد ويضرب من خلفه بمقامع من حديد، فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أُحدر إلى أسفلها، ثم يكلف أن يصعدها ويجذب من أمامه ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً.

(١٨) ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات.

وذلك أن الله تعالى لما أنزل على النبي ﷺ ﴿حم ۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، إلى قوله: ﴿الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ ـ ٢] قام النبي ﷺ في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وأنه يعلو وما يُعلى، ثم

انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبون قريش كلهم، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك النفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زيّنت كلام محمد وأنك تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد، فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيء من الكذب؟ قالوا: لا، وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر في نفسه ثم نظر وعبس، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في محمد والقرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن.

(١٩) ﴿فَقُتِلَ﴾، لعن، وقال الزهري: عُذّب، ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾، على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، كرره للتأكيد، وقيل: معناه لعن على أي حال قدر من الكلام، كما قال لأضربنه كيف صنع أي على أي حالٍ صنع.

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ويرده.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، كلح وقطب وجهه فنظر بكراهية شديدة كالمهتم المتفكر في شيء.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾، عن الإيمان، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾، تكبر حين دعي إليه.

(٢٤) ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾، ما هذا الذي يقرؤه محمد، ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، يروى ويحكى عن السحرة.

(٢٥) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، يعني يساراً وجبراً فهو يأثره عنهما. وقيل: يرويه عن مسيلمة صاحب اليمامة.

(٢٦) قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾، سأدخله، ﴿سَقَرَ﴾، وسقر اسم من أسماء جهنم.

(٢٧) ـ (٢٨) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾، أي لا تبقي ولا تذر فيها شيئاً إلا أكلته وأهلكته. وقال مجاهد: لا تميت ولا تحيي يعني لا تبقي من فيها حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جُدِّدوا. وقال السدي: لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً. وقال الضحاك: إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئاً وإذا أعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم، ولكل شيء ملالة وفترة إلا لجهنم.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، مغيرة للجلد حتى تجعله أسود، يقال: لاحه السقم والحزن إذا غيره، قال مجاهد: تلفح الجلد حتى تدعه أشد سواداً من الليل. وقال ابن عباس: وزيد بن أسلم محرقة للجلد. وقال الحسن وابن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً نظيره قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، و﴿لَوَّاحَةٌ﴾ رفع على نعت، ﴿سقر﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾، و﴿ٱلْبَشَرِ﴾ جمع بشرة وجمع البشر أبشار.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، أي على النار تسعة عشر من الملائكة، وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر، وجاء في الأثر: أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي، يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، نُزعت منهم الرحمة يرفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم.

قال عمرو بن دينار: إن واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر.

قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أي الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأشد أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين.

وروي أنه قال: أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة.

(٣١) فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾، لا رجالاً آدميين فمن ذا يغلب الملائكة؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾، أي عددهم في القلة، ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، لأنه مكتوب في التوراة والإنجيل إنهم تسعة عشر، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، يعني من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ إذا وجدوا ما قاله موافقاً لما في كتبهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾، لا يشك، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، في عددهم، ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، شك ونفاق، ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾، مشركو مكة ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، أي شيء أراد بهذا الحديث؟ وأراد بالمثل الحديث نفسه. ﴿كَذَلِكَ﴾، أي كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة وهدى من صدق كذلك، ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، قال مقاتل: هذا جواب أبي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر؟ قال عطاء: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى إن تسعة عشر هم خزنة النار، ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمهم إلا الله عزّ وجلّ، ثم رجع إلى ذكر سقر فقال: ﴿وَمَا هِيَ﴾، يعني النار، ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾، إلا تذكرة وموعظة للناس.

(٣٢) ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾، هذا قسم يقول حقاً.

(٣٣) ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾، قرأ نافع وحمزة وحفص ويعقوب ﴿إذ﴾ بغير ألف، ﴿أدبر﴾، بالألف، وقرأ الآخرون ﴿إذا﴾ بالألف، ﴿دبر﴾ بلا ألف، لأنه أشد موافقة لما يليه، وهو قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، ولأنه ليس في القرآن قسم بجانبه إذ وإنما بجانب الأقسام إذا وكلاهما لغة، يقال: دبر الليل وأدبر إذا ولى ذاهباً. قال أبو عمرو: دبر لغة قريش، وقال قطرب: دبر أي أقبل، تقول العرب: دبرني فلان أي جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار.

(٣٤) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، أضاء وتبين.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾، يعني أن سقر لإحدى الأمور العظام، وواحد الكُبَر كبرى، قال مقاتل والكلبي: أراد بالكبر دركات جهنم وهي سبعة: جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾، يعني النار نذيراً للبشر. قال الحسن: والله ما أنذر الله بشيء أدهى منها، وهو نصب على القطع من قوله لإحدى الكبر لأنها معرّفة، ونذيراً نكرة، قال الخليل: النذير مصدر كالنكير، ولذلك وصف به المؤنث، وقيل: هو من صفة الله سبحانه وتعالى، مجازه: وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة نذيراً للبشر أي إنذاراً لهم قال أبو رزين يقول: أنا لكم منها نذير، فاتقوها. وقيل: هو صفة محمد ﷺ معناه: يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر، فأنذر، وهذا معنى قول ابن زيد.

(٣٧) ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾، بدل من قوله للبشر: ﴿مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾، في الخير والطاعة، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، عنها في الشر والمعصية، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممن آمن أو كفر.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، مرتهنة في النار بكسبها مأخوذة بعملها.

(٣٩) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم في النار ولكن يغفرها الله لهم. قال قتادة: علق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين.

واختلفوا فيهم: روي عن علي رضي الله عنه أنهم أطفال المسلمين. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس: هم الملائكة. وقال مقاتل: هم أصحاب الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق، حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وعنه أيضاً: هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم، وعنه أيضاً: هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم. وقال الحسن: هم المسلمون المخلصون. وقال القاسم: كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من اعتمد على الفضل، وكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به، ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به.

(٤٠) - (٤١) ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، المشركين.

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾، أدخلكم، ﴿فِي سَقَرَ﴾، فأجابوا.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ (ترتيبها ٧٥) (آياتها ٤٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

(٤٣) ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾، لله.

(٤٤) ـ (٤٧) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ﴾، في الباطل، ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾، وهو الموت.

(٤٨) قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾. قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين، فلا يبقى في النار إلا أربعة، ثم تلا: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال عمران بن الحصين: الشفاعة نافعة لكل واحد دون هؤلاء الذين تسمعون.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا محمد بن حماد، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصَفُّ أهل النار فيعذبون قال: فيمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول الرجل منهم: يا فلان قال فيقول: ما تريد؟ فيقول: أما تذكر رجلاً سقاك شربة ماء يوم كذا وكذا؟ قال فيقول: وإنك لأنت هو؟ فيقول: نعم، فيشفع له فيُشفع فيه. قال: ثم يمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول: يا فلان، فيقول: ما تريد؟ فيقول: أما تذكر رجلاً وهب لك وضوءاً يوم كذا وكذا؟ فيقول: إنك لأنت هو؟ فيقول: نعم، فيشفع له فيشفّع فيه».

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، عن مواعظ القرآن معرضين نصب على الحال، وقيل صاروا معرضين.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾، جمع حمار، ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾، قرأ أهل المدينة والشام بفتح الفاء، وقرأ الباقون بكسرها، فمن قرأ بالفتح فمعناها منفرة مذعورة، ومن قرأ بالكسر فمعناها نافرة، يقال: نفر واستنفر بمعنى واحد، كما يقال عجب واستعجب.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾، قال مجاهد وقتادة والضحاك: القسورة، جماعة الرماة لا واحد لها من لفظها، وهي رواية عطاء عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: هم القناص وهي رواية عطية عن ابن عباس. قال زيد بن أسلم: هم رجال أقوياء، وكل ضخم شديد عند العرب قسور وقسورة. وعن أبي المتوكل قال: هي لغط القوم وأصواتهم. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هي حبال الصيادين. وقال أبو هريرة: هي الأسد، وهو قول عطاء والكلبي، وذلك أن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركين إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه. قال عكرمة: هي ظلمة الليل، ويقال لسواد أول الليل قسورة.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك لرسوله نؤمر فيه باتباعك. قال الكلبي: إن المشركين قالوا: يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً عند رأسه ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك، والصحف الكتب، وهي جمع الصحيفة، ومنشّرة منشورة.

(٥٣) فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، لا يؤتون الصحف. وقيل: حقاً وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه بل، ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، أي لا يخافون عذاب الآخرة، والمعنى أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة.

(٥٤) ﴿كَلَّآ﴾، حقاً، ﴿إِنَّهُۥ﴾،

يعني القرآن، ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، موعظة.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، اتعظ به.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾، قرأ نافع ويعقوب تذكرون بالتاء والآخرون بالياء، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، قال مقاتل: إلا أن يشاء الله لهم الهدى. ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، أي أهل أن تتقى محارمه وأهل أن يغفر لمن اتقاه.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا ابن فنجويه، ثنا عمر بن الخطاب، ثنا عبدالله بن الفضل، ثنا هدبة بن خالد، ثنا سهيل بن أبي حزم، عن ثابت، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ قال: قال ربكم عزّ وجلّ: «أنا أهل أن أتقى ولا يشرك بي غيري، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بي أن أغفر له».

وسهيل هو ابن عبدالرحمن القطعي، أخو حزم القطعي.

❁ ❁ ❁

سورة القيامة

مكية [وهي أربعون آية].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، قرأ القواس عن ابن كثير ﴿لأقسم﴾ الحرف الأول بلا ألف قبل الهمزة.

(٢) ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، بالألف وكذلك قرأ عبدالرحمن الأعرج، على معنى أنه أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة والصحيح، أنه أقسم بهما جميعاً و﴿لا﴾ صلة فيهما أي أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. وقال أبو بكر بن عياش: هو تأكيد القسم كقولك لا والله. وقال الفراء: ﴿لا﴾ رد لكلام المشركين المنكرين، ثم ابتدأ فقال أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة. وقال المغيرة بن شعبة: يقولون القيامة وقيامة أحدهم موته، وشهد علقمة جنازة فلما دفنت قال: أما هذا فقد قامت قيامته. ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء والضراء. قال قتادة: اللوامة الفاجرة. قال مجاهد: تندم على ما فات وتقول لو فعلت ولو لم أفعل. قال الفراء: ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت، وإن عملت شراً قالت: ليتني لم أفعل. قال الحسن: هي النفس المؤمنة قال: إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلتي؟ وإن الفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها. قال مقاتل: هي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا.

(٣) ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

نزلت في عدي بن ربيعة، حليف بني زهرة، ختن الأخنس بن شريق الثقفي، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم اكفني جاري السوء يعني عدياً والأخنس» وذلك أن عدي بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك أو يجمع الله العظام؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافر ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد التفرق والبلى فنحييه، قيل: ذكر العظام وأراد نفسه لأن العظام قالب النفس لا يستوي الخلق إلا باستوائها. وقيل: هو خارج على قول المنكر أو يجمع الله العظام كقوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨].

(٤) ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾، أي نقدر استقبال صرف إلى الحال، قال الفراء ﴿قادرين﴾ نصب على الخروج من نجمع كما تقول في الكلام أتحسب أن لا نقوى عليك؟ بلى قادرين على أقوى منك، يريد بل قادرين على أكثر من ذا، مجاز الآية: بلى نقدر على جمع عظامه وعلى ما هو أعظم من ذلك، وهو: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، أنامله، فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار فلا يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرها، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الزجاج وابن قتيبة: معناه ظن الكافر، أنا لا نقدر على جمع عظامه بلى نقدر على أن نعيد السلاميات على صغرها فنؤلف بينها حتى نسوي البنان، فمن قدر على جمع صغار العظام فهو على جمع كبارها أقدر.

⑤ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، يقول لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على جمع عظامه لكنه يريد أن يفجر أمامه أي يمضي قدماً في الله ما عاش راكباً رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، هذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدي. وقال سعيد بن جبير: ليفجر أمامه يقدم على الذنب ويؤخر التوبة فيقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت. وقال ابن عباس وابن زيد: يكذب بما أمامه من البعث والحساب. وأصل الفجور الميل وسمي الفاسق والكافر فاجراً لميله عن الحق.

⑥ ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي متى يكون ذلك تكذيباً به.

⑦ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾، قرأ أهل المدينة ﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان. قال قتادة ومقاتل: شخص البصر فلا يطرف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا. قيل: وذلك عند الموت. وقال الكلبي: عند رؤية جهنم تبرق أبصار الكفار. وقال الفراء والخليل برق بالكسر أي فزع وتحير لما يرى من العجائب، وبرق بالفتح أي شق عينه وفتحها من البريق وهو التلألؤ.

⑧ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾، أظلم وذهب نوره وضوءه.

⑨ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أي صارا أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران. وقيل: يجمع بينهما في ذهاب الضياء. وقال عطاء بن يسار يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: يجمعان ثم يقذفان في النار. وقيل يجمعان فيطلعان من المغرب.

⑩ ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي الكافر المكذب ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، أي المهرب وهو موضع الفرار. وقيل: هو مصدر أي أين الفرار.

⑪ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، لا حصن ولا حرز ولا ملجأ. وقال السدي: لا جبل، وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به [فقال: قل] لا جبل يومئذ يمنعهم.

⑫ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أي مستقر الخلق. وقال عبدالله بن مسعود: المصير نظيره قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

⑬ ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس بما قدم قبل الموت من عمل صالح وسيىء، وما أخر بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها. وقال عطية عن ابن عباس بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة. وقال قتادة: بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيّعه. وقال مجاهد: بأول عمله وآخره. وقال عطاء بما قدم في أول عمره وما أخر في آخر عمره. وقال زيد بن أسلم بما قدم من أمواله لنفسه وما أخر خلفه للورثة.

⑭ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، قال عكرمة ومقاتل والكلبي: معناه بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه [بما عمله] وهي سمعه وبصره وجوارحه، ودخول الهاء في البصيرة لأن المراد بالإنسان ههنا جوارحه ويحتمل أن يكون معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة، يعني لجوارحه، فحذف حرف الجر كقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي لأولادكم، ويجوز أن يكون نعتاً لاسم مؤنث أي بل الإنسان على نفسه عين بصيرة. وقال أبو العالية وعطاء: بل الإنسان على نفسه شاهد وهي رواية العوفي عن ابن عباس والهاء في بصيرة للمبالغة دليل على التأويل. قوله عزّ وجلّ: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

⑮ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، يعني يشهد عليه الشاهد ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وعطاء. قال الفراء: ولو اعتذر فعليه [من نفسه من يكذب عذره ومعنى] الإلقاء القول كما قال: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]. وقال الضحاك والسدي: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ يعني ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب وأهل اليمن يسمون الستر معذاراً وجمعه معاذير، ومعناه على هذا القول: وإن أسبل الستر ليخفي ما كان يعمل فإن نفسه شاهدة عليه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ ٱلْإِنسَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٥٧٨

﴿١٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا جرير عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي كان يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه فأنزل الله عزّ وجلّ الآية التي في ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قال علينا أن نجمعه في صدرك ونقرأه.

﴿١٨﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، فإذا أنزلناه فاستمع.

﴿١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، علينا أن نبينه بلسانك. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عزّ وجلّ.

ورواه محمد بن إسماعيل عن عبدالله بن موسى، عن إسرائيل، عن موسى بن أبي عائشة بهذا الإسناد. وقال: كان يحرك شفتيه إذا نزل عليه، يخشى أن ينفلت منه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾، أن نجمعه في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن تقرأه.

﴿٢٠﴾ ـ ﴿٢١﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾. قرأ أهل المدينة والكوفة تحبون وتذرون بالتاء فيهما، وقرأ الآخرون بالياء أي يختارون الدنيا على العقبى ويعملون لها يعني كفار مكة، ومن قرأ بالتاء فعلى تقدير قل لهم يا محمد: بل تحبون وتذرون.

﴿٢٢﴾ ـ ﴿٢٣﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾، قال ابن عباس: حسنة، وقال مجاهد: مسرورة. وقال ابن زيد: ناعمة. وقال مقاتل: بيض يعلوها النور. وقال السدي: مضيئة. وقال يمان: مسفرة. وقال الفراء: مشرقة بالنعيم. يقال: نضر الله وجهه ينضره نضراً، ونضره الله وأنضره ونضر وجهه ينضر نضرة ونضارة. قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال ابن عباس: وأكثر الناس تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب. قال الحسن: تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق.

أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي، أنا عبدالله بن أحمد الحموي، أنا إبراهيم بن خزيم الشاشي، أنا عبدالله بن حميد، ثنا شبابة، عن إسرائيل، عن ثوير قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾، عابسة كالحة مغبرة مسودة.

﴿٢٥﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، تستيقن أن يعمل بها عظيم من العذاب، والفاقرة: الداهية العظيمة، والأمر الشديد يكسر فقار الظهر. قال سعيد بن المسيب: قاصمة الظهر. قال ابن زيد: هي دخول النار وقال الكلبي: هي أن تحجب عن رؤية الرب عزّ وجلّ.

﴿٢٦﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾، يعني النفس كناية عن غير مذكور ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾، فحشرج بها عند الموت والتراقي جمع الترقوة، وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت.

﴿٢٧﴾ ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾، أي قال من

حضره الموت هل من طبيب يرقيه ويداويه فيشفيه برقيته أو دوائه، وقال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً. وقال سليمان التيمي ومقاتل بن سليمان: هذا من قول الملائكة يقول بعضهم لبعض من يرقى بروحه؟ فتصعد بها ملائكة الرحمة أوملائكة العذاب.

(٢٨) ﴿وَظَنَّ﴾، أيقن الذي بلغت روحه التراقي، ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾، من الدنيا.

(٢٩) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾، قال قتادة الشدة بالشدة. قال عطاء: شدة الموت بشدة الآخرة، قال سعيد بن جبير: تتابعت عليه الشدائد، قال السدي: لا يخرج من كرب إلا جاءه أشد منه، قال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان في آخر يوم من [أيام] الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وقال مجاهد: اجتمع فيه الحياة والموت. وقال الضحاك: الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه. وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن. وقال الشعبي: هما ساقاه إذا التفتا عند الموت.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾، أي مرجع العباد إلى الله يساقون إليه.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، يعني أبا جهل لم يصدق بالقرآن ولا صلى لله.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، رجع إليهم، ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾، يتبختر ويختال في مشيه قيل: أصله يتمطط أي يتمدد والمط هو المد.

(٣٤) ـ (٣٥) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، هذا وعيد على وعيد من الله عزّ وجلّ لأبي جهل، وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد. وقال بعض العلماء: معناه إنك أجدر بهذا العذاب وأحق وأولى به، يقال للرجل حيث يصيبه مكروه يستوجبه. وقيل: هي كلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من الولي وهو القرب قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾، فقال أبو جهل: أتوعدني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبليها؟ فلما كان يوم بدر صرعه الله شر مصرع، وقتله أسوأ قتلة.

وكان النبي ﷺ يقول: «إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل».

(٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، هملاً لا يؤمر ولا ينهى، قال السدي: معناه المهمل وإبل سدى إذا كانت ترعى حيث شاءت بلا راع.

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾، تصف في الرحم، قرأ حفص عن عاصم ﴿يمنى﴾ بالياء وهي قراءة الحسن، وقرأ الآخرون بالتاء لأجل النطفة.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، فجعل فيه الروح وسوى خلقه.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، خلق من مائه أولاداً ذكوراً وإناثاً.

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾، الذي فعل هذا، ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبدالعزيز القاشاني، أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي، أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، ثنا أبو داود سليمان بن أشعث، ثنا عبدالله بن محمد الزهري، ثنا سفيان حدثني إسماعيل بن أمية قال: سمعت أعرابياً يقول سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١] فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] فليقل: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾».

أخبرنا عمر بن العزيز، أنا أبو القاسم بن جعفر، أنا أبو علي اللؤلؤي، أنا أبو داود، ثنا محمد بن المثنى، ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك بلى، فسألوه

عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

سورة الإنسان

قال عطاء: هي مكية. وقال مجاهد وقتادة: مدنية. وقال الحسن وعكرمة: هي مدنية إلا آية وهي قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [٢٤] وهي إحدى وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾، قد أتى، ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾، يعني آدم عليه السلام، ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾، أربعون سنة وهو من طين ملقى بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح، ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به، يريد كان شيئاً ولم يكن مذكوراً، وذلك من حين خلقه من طين إلى أن نفخ فيه الروح.

روي أن عمر سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ فقال عمر: ليتها تمت يريد ليته بقي على ما كان، قال ابن عباس: ثم خلقه بعد عشرين ومائة سنة.

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾، يعني ولد آدم، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، يعني مني الرجل ومني المرأة، ﴿أَمْشَاجٍ﴾، أخلاط واحدها مشج ومشيج، مثل خدن وخدين، قال ابن عباس والحسن ومجاهد والربيع: يعني ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد، فماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا صاحبه كان الشبه له وما كان من عصب وعظم فهو من نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة. وقال الضحاك: أراد بالأمشاج اختلاف ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء وحمراء وصفراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء وصفراء، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس وكذلك قال الكلبي قال: الأمشاج البياض في الحمرة والصفرة. وقال يمان: كل لونين اختلطا فهو أمشاج. وقال ابن مسعود: هي العروق التي تكون في النطفة. وقال الحسن: نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة فإذا حبلت ارتفع الحيض. وقال قتادة: هي أطوار الخلق نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظماً ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالأمر والنهي، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ قال بعض أهل العربية: فيه تقديم وتأخير، مجازه: فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾، أي بينا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرفناه طريق الخير والشر. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، إما مؤمناً سعيداً وإما كافراً شقياً. وقيل: معنى الكلام الجزاء، يعني: بينا له الطريق إن شكر أو كفر.

(٤) ثم بين ما للفريقين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا﴾، يعني في جهنم، قرأ أهل المدينة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿سَلَاسِلَا﴾ و﴿قَوَارِيرَا۝ قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥] بالألف في الوقف، وبالتنوين في الوصل فيهن جميعاً، وقرأ حمزة ويعقوب بلا ألف في الوقف، ولا تنوين في الوصل فيهن، وقرأ ابن كثير ﴿قوارير﴾ الأولى بالألف في الوقف وبالتنوين في الوصل، و﴿سلاسل﴾ و﴿قوارير﴾ الثانية بلا ألف ولا تنوين وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحفص ﴿سَلَاسِلَا﴾ و﴿قَوَارِيرَا﴾ الأولى بالألف في الوقف على الخط وبغير تنوين في الوصل، و﴿قوارير﴾ الثانية بغير ألف ولا تنوين. قوله ﴿وَأَغْلَالًا﴾ يعني في أيديهم، تغل في أعناقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾، وقوداً شديداً.

(٥) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾، يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم، واحدهم بار، مثل شاهد وأشهاد وناصر وأنصار، و﴿بَرّ﴾ أيضاً مثل نهر وأنهار، ﴿يشربون﴾، في الآخرة، ﴿مِن كَأْسٍ﴾، فيه شراب ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، قال قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك، قال عكرمة مزاجها طعمها، وقال أهل المعاني أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده لأن الكافور لا يشرب، وهو كقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي كنار، وهذا معنى قول مجاهد: يمازجه ريح الكافور. وقال ابن كيسان: طيبت بالكافور والمسك والزنجبيل. قال عطاء والكلبي: الكافور اسم لعين ماء في الجنة.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)

(٦) ﴿عَيْنًا﴾، نصب تبعاً للكافور. وقيل: نصب على المدح. وقيل: أعني عيناً. وقال الزجاج: الأجود أن يكون المعنى من عين، ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، قيل: يشربها والباء صلة وقيل بها أي منها، ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس أولياء الله، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، أي يقودونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، كمن يكون له نهر يفجره ههنا وههنا إلى حيث يريد.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، هذا من صفاتهم في الدنيا أي كانوا في الدنيا كذلك، قال قتادة: أراد يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة، وغيره من الواجبات، ومعنى النذر الإيجاب. وقال مجاهد وعكرمة: إذا نذروا في طاعة الله وفوا به.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن طلحة بن عبدالملك الأيلي، عن القاسم بن محمد، عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، فاشياً ممتداً، يقال: استطار الصبح إذا امتد وانتشر. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة، وفي الأرض فنسفت الجبال وغارت المياه، وتكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء.

(٨) ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾، أي على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه. وقيل: على حب الله، ﴿مِسْكِينًا﴾، فقيراً لا مال له، ﴿وَيَتِيمًا﴾، صغيراً لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القبلة. وقال قتادة: أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك. وقيل: الأسير المملوك. وقيل: المرأة.

لقول النبي ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» أي أسراء.

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً.

وروى مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أنه عمل ليهودي بشيء من شعير، فقبض الشعير فطحن ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه، فلما تم إنضاجه أتى مسكين فسأل فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني فلما تمّ إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين، فسأل فأطعموه، وطووا يومهم ذلك.

وهذا قول الحسن وقتادة، أن الأسير كان من أهل الشرك، وفيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حسن يرجى ثوابه.

(٩) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾، والشكور مصدر كالقعود والدخول والخروج. قال مجاهد وسعيد بن جبير. إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم، فأثنى عليهم.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾، تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، ونسب العبوس إلى اليوم، كما يقال يوم صائم وليل قائم. وقيل: وفي اليوم بالعبوس لما فيه من الشدة، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾، قال قتادة ومجاهد ومقاتل: «القمطرير»: الذي يقبض الوجوه والجباه بالتعبيس. وقال الكلبي: العبوس الذي لا انبساط فيه، و«القمطرير»: الشديد، قال

الأخفش: «القمطرير»: أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء، يقال: يوم قمطرير وقماطر إذا كان شديداً كريهاً، واقمطر اليوم فهو مقمطر.

﴿١١﴾ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، الذين يخافون، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾، حسناً في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾، في قلوبهم.

﴿١٢﴾ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا﴾، على طاعة الله واجتناب معصيته، وقال الضحاك: على الفقر. وقال عطاء: على الجوع. ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، قال الحسن: أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير.

﴿١٣﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، على الحال، ﴿فِيهَا﴾، في الجنة، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، السرر في الحجال، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعا، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، أي صيفاً ولا شتاءً. قال مقاتل: يعني شمساً يؤذيهم حرها ولا زمهريراً يؤذيهم برده، لأنهما يؤذيان في الدنيا. والزمهرير: البرد الشديد.

﴿١٤﴾ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾، أي قريبة منهم ظلال أشجارها، ونصب ﴿دانية﴾، بالعطف على قوله ﴿متكئين﴾، وقيل: على موضع قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، ويرون ﴿وَدَانِيَةً﴾، وقيل: على المدح، ﴿وَذُلِّلَتْ﴾، سخرت وقربت، ﴿قُطُوفُهَا﴾، ثمارها، ﴿تَذْلِيلًا﴾، يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين ويتناولونها كيف شاؤوا على أي حال كانوا.

﴿١٥﴾ ـ ﴿١٦﴾ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۞ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ قال المفسرون: أراد بياض الفضة في صفاء القوارير، فهي من فضة في صفاء الزجاج، يرى ما في داخلها من خارجها.

قال الكلبي: إن الله جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم، وإن أرض الجنة من فضة، فجعل منها قوارير يشربون فيها، ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، قدروا الكأس على قدر ريّهم لا يزيد ولا ينقص، أي قدرها لهم السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم يقدرونها ثم يسقون.

﴿١٧﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾، يشوق ويطرب، والزنجبيل: مما كانت العرب تستطيبه جداً، فوعدهم الله تعالى أنهم يسقون في الجنة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنة. قال مقاتل: لا يشبه زنجبيل الدنيا. قال ابن عباس: كل ما ذكر الله [في] القرآن مما في الجنة وسماهُ ليس له في الدنيا مثل. وقيل: هو عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل. قال قتادة: يشربها المقربون صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنة.

﴿١٨﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾، قال قتادة: سلسة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، قال مجاهد: حديدة شديدة الجرية.

قال أبو العالية ومقاتل بن حيان: سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطريق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان وشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك. قال الزجاج: سميت سلسبيلاً لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق، ومعنى قوله: ﴿تسمى﴾ أي توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلاً صفة لا اسم.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، قال عطاء: يريد في بياض اللؤلؤ وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط، كان أحسن منه منظوماً. وقال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة، فلو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾، أي إذا رأيت ببصرك ونظرت به ثم يعني في الجنة، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾، لا يوصف، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، وهو أن أدناهم منزلة ينظر إلى ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه. قال مقاتل والكلبي: هو أن رسول رب العزة من الملائكة لا يدخل عليه إلا بإذنه. وقيل: ملكاً لا زوال له.

﴿٢١﴾ ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة ﴿عاليهم﴾ ساكنة الياء مكسورة الهاء، فيكون في موضع رفع بالابتداء، وخبره ثياب سندس، وقرأ الآخرون بنصب الياء وضم الهاء على الصفة، أي فوقهم وهو نصب على الظرف، ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، قرأ نافع وحفص ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ مرفوعان عطفاً على الثياب، وقرأهما حمزة والكسائي مجرورين، وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿خضر﴾ بالجر ﴿واستبرقٌ﴾ رفع، وقرأ أبو جعفر

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

سُورَةُ المُرْسَلَات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

وأهل البصرة والشام على ضده فالرفع على نعت الثياب والجر على نعت السندس. وإستبرق بالرفع على أنه معطوف على ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه كقوله «واسأل القرية» أي أهل القرية، ومثله قوله: خز أي ثوب خز، وأما جر إستبرق فعلى أنه معطوف على سندس وهو جر بإضافة الثياب إليه، وهما جنسان أضيفت الثياب إليهما كما تقول: ثوب خز وكتان فتضيفه إلى الجنسين ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، قيل: طاهراً من الأقذار والأقذاء لم تدنسه الأيدي والأرجل كخمر الدنيا. وقال أبو قلابة وإبراهيم: إنه لا يصير بولاً نجساً ولكنه يصير رشحاً في أبدانهم، ريحه كريح المسك، وذلك أنهم يؤتون بالطعام فيأكلون، فإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم ريحاً أطيب من المسك الإذفر، وتضمر بطونهم وتعود شهوتهم. وقال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، أي ما وصف من نعيم الجنة كان لكم جزاء بأعمالكم وكان سعيكم عملكم في الدنيا بطاعة الله مشكوراً، قال عطاء: شكرتكم عليه فأثيبكم أفضل الثواب.

(٢٣) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، قال ابن عباس: متفرقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾، يعني من مشركي مكة، ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، يعني وكفوراً، والألف صلة، قال قتادة: أراد بالآثم والكفور أبا جهل وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها، وقال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأنّ عنقه. وقال مقاتل: أراد بالآثم عتبة بن ربيعة، وبالكفور الوليد بن المغيرة، قالا للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر، قال عتبة: فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله هذه الآية.

(٢٥) ـ (٢٦) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾، يعني صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، يعني التطوع بعد المكتوبة.

(٢٧) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني كفار مكة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، أي الدار العاجلة وهي الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، يعني أمامهم، ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، شديداً وهو يوم القيامة. أي يتركون فلا يؤمنون به ولا يعملون له.

(٢٨) ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ﴾، قوّينا وأحكمنا، ﴿أَسْرَهُمْ﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل: أسرهم أي خلقهم، يقال رجل حسن الأسر، أي الخلق، وقال الحسن: يعني أوصالهم شددنا بعضها إلى بعض بالعروق والعصب.

وروي عن مجاهد في تفسير الأسر قال: الفرج يعني موضع مصرفيّ البول والغائط إذا خرج الأذى تقبّضا. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾، أي إذا شئنا أهلكناهم. وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾، يعني هذه السورة، ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، تذكير وعظة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وسيلة للطاعة.

(٣٠) ـ (٣١) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾، قرأ

ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ﴿يشاؤون﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله عزّ وجلّ، لأن الأمر إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين. ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

* * *

سورة المرسلات

مكية [وهي خمسون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، يعني الرياح أرسلت متتابعة كعرف الفرس. وقيل: عرفاً أي كثيراً تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد، إذا توجهوا إليه فأكثروا، هذا معنى مجاهد وقتادة. قال مقاتل: يعني الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه، وهي رواية مسروق عن ابن مسعود.

﴿٢﴾ ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾، يعني الرياح الشديدة الهبوب.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾، يعني الرياح اللينة. وقال الحسن: هي الرياح التي يرسلها الله بشراً بين يدي رحمته. وقيل: هي الرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر. وقال مقاتل: هم الملائكة ينشرون الكتب.

﴿٤﴾ ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل. وقال قتادة والحسن: هي آي القرآن تفرق بين الحلال والحرام. وروي عن مجاهد قال: هي الرياح تفرق السحاب وتبدده.

﴿٥﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾، يعني الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، نظيرها ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥].

﴿٦﴾ ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، أي للإعذار والإنذار، قرأ الحسن ﴿عذراً﴾ بضم الذال واختلف فيه عن أبي بكر عن عاصم، وقراءة العامة بسكونها، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص [عن عاصم] ﴿نذراً﴾ ساكنة الذال، وقرأ الباقون بضمها، ومن سكن قال لأنهما في موضع مصدرين بمعنى الإنذار والإعذار وليسا بجمع فينقلا وقال ابن كثير ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب برواية رويس بن حسان: «عذراً» سكون الذال و«نُذُراً» بضم الذال، وقرأ روح بالضم في العذر والنذر جميعاً، وهي قراءة الحسن، والوجه فيهما أن العذر والنذر بضمتين كالأُذُن والعُنُق هو الأصل ويجوز التخفيف فيهما كما يجوز التخفيف في العنق والأذن، يقال: عذر ونذر، وعذُر ونذُر، كما يقال: عُنْق وعُنُق، وأُذْن وأُذُن، والعذر والنذر مصدران بمعنى الإعذار والإنذار كالنكير والعذير والنذير، ويجوز أن يكونا جمعين لعذير ونذير، ويجوز أن يكون العذر جمع عاذر، كشارف وشُرُف، والمعنى في التحريك والتسكين واحد على ما بينا إلى ههنا أقسام ذكرها على قوله:

﴿٧﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾، من أمر الساعة والبعث، ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، لكائن ثم ذكر متى يقع.

﴿٨﴾ فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، محي نورها.

﴿٩﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾، شقت.

﴿١٠﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، قلعت من أماكنها.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، قر أهل البصرة ﴿وقتت﴾ بالواو، وقرأ أبو جعفر بالواو وتخفيف القاف، وقرأ الآخرون بالألف وتشديد القاف، وهما لغتان. والعرب تعاقبت بين الواو والهمزة كقولهم: وكدت وأكدت، ورخت وأرخت، ومعناهما جمعاً لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم.

﴿١٢﴾ ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾، أي أخرت، وضرب الأجل لجمعهم فعجّب العباد من ذلك اليوم.

﴿١٣﴾ ثم بين فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾، قال ابن عباس: يوم يفصل الرحمن عز وجل بين الخلائق.

﴿١٤﴾ ـ ﴿١٦﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعني الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾، السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب يعني كفار مكة بتكذيبهم محمداً ﷺ.

ألم نخلقكم من ماء مهين ﴿٢٠﴾ فجعلناه في قرار مكين ﴿٢١﴾ إلى قدر معلوم ﴿٢٢﴾ فقدرنا فنعم القادرون ﴿٢٣﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٢٤﴾ ألم نجعل الأرض كفاتا ﴿٢٥﴾ أحياء وأمواتا ﴿٢٦﴾ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴿٢٧﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٢٨﴾ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴿٢٩﴾ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴿٣٠﴾ لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴿٣١﴾ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴿٣٢﴾ كأنه جمالت صفر ﴿٣٣﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٣٤﴾ هذا يوم لا ينطقون ﴿٣٥﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿٣٦﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٣٧﴾ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴿٣٨﴾ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴿٣٩﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٠﴾ إن المتقين في ظلال وعيون ﴿٤١﴾ وفواكه مما يشتهون ﴿٤٢﴾ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ﴿٤٣﴾ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿٤٤﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٥﴾ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ﴿٤٦﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٧﴾ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴿٤٨﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٩﴾ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴿٥٠﴾

﴿١٨﴾ - ﴿٢٠﴾ ﴿كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين * ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، يعني النطفة.

﴿٢١﴾ ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾، يعني الرحم.

﴿٢٢﴾ ﴿إلى قدر معلوم﴾، وهو وقت الولادة.

﴿٢٣﴾ ﴿فقدرنا﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿فقدّرنا﴾ بالتشديد من التقدير، وقرأ الآخرون بالتخفيف من القدرة، لقوله: ﴿فنعم القادرون﴾، وقيل: معناهما واحد، وقوله: ﴿فنعم القادرون﴾، أي المقدرون.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٥﴾ ﴿ويل يومئذ للمكذبين * ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾، وعاءً، ومعنى الكفت: الضم والجمع، يقال: كفت الشيء إذا ضمه وجمعه. وقال الفراء يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وتكفتهم أمواتاً في بطنها أي تحوزهم.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ وهو قوله: ﴿أحياء وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي﴾، جبالاً ﴿شامخات﴾، عاليات، ﴿وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾، عذباً.

﴿٢٨﴾ ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث الذي تكذبون به، ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة.

﴿٢٩﴾ ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾، في الدنيا.

﴿٣٠﴾ ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾، يعني دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق. وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب نور ودخان ولهب، فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين، والدخان يقف على رؤوس المنافقين، واللهب الصافي يقف على رؤوس الكافرين.

﴿٣١﴾ ثم وصف ذلك الظل فقال: ﴿لا ظليل﴾ لا يظل من الحر، ﴿ولا يغني من اللهب﴾، قال الكلبي: لا يرد لهب جهنم عنكم، والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لم يدفع عنهم حر اللهب.

﴿٣٢﴾ ﴿إنها﴾، يعني جهنم، ﴿ترمي بشرر﴾، وهو ما تطاير من النار، واحدها شررة، ﴿كالقصر﴾، وهو البناء العظيم، قال ابن مسعود: يعني الحصون. وقال عبدالرحمن بن عياش سألت بن عباس عن قوله: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ قال: هي الخشب العظام المقطعة، وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندخرها للشتاء، فكنا نسميها القصر. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: هي أصول النخل والشجر العظام، واحدتها قصرة، مثل تمرة وتمر، وجمرة وجمر، وقرأ علي وابن عباس ﴿كالقصر﴾ بفتح الصاد، أي أعناق النخل، والقصرة العنق، وجمعها قصر وقصرات.

﴿٣٣﴾ ﴿كأنه﴾ رد الكناية إلى اللفظ، ﴿جمالت﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿جمالة﴾ على جمع الجمل، مثل حجر وحجارة، وقرأ يعقوب بضم الجيم بلا ألف، أراد الأشياء العظام المجموعة، وقرأ الآخرون ﴿جمالات﴾ بالألف وكسر الجيم على جمع الجمال، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير: هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض، حتى تكون كأوساط الرجال، ﴿صفر﴾، جمع الأصفر، يعني لون النار. وقيل: الصفر معناه السود لأنه جاء في الحديث «أن شرر نار جهنم أسود كالقير»، والعرب تسمي سود الإبل صفر لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة كما يقال لبيض الظباء: أدم

لأن بياضها يعلوه كدرة.

(٣٤) - (٣٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، أي في القيامة لأن فيها مواقف، ففي بعضها يختصمون ويتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، رفع عطف على قوله «يؤذن»، قال الجنيد: أي لا عذر لمن أعرض عن منعمه وكفر بأياديه ونعمه.

(٣٧) - (٣٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، هذا يوم الفصل بين أهل الجنة والنار، ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾، يعني مكذبي هذه الأمة والأولين الذين كذبوا أنبياءهم.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، قال مقاتل: إن كانت لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم.

(٤٠) - (٤١) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾، جمع ظل أي في ظلال الشجر، ﴿وعيون﴾، الماء.

(٤٢) ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

(٤٣) ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، في الدنيا بطاعتي.

(٤٤) - (٤٥) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٤٦) ثم قال لكفار مكة: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾، في الدنيا، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾، مشركون بالله عزّ وجلّ مستحقون للعذاب.

(٤٧) - (٤٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾، يعني صلوا، ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾، لا يصلون، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنما يقال لهم هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

(٤٩) - (٥٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾، أي بعد القرآن، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، إذا لم يؤمنوا به.

❁ ❁ ❁

سورة النبأ

الجزء الثلاثون　سورة النبأ

سُورَةُ النَّبَإِ (ترتيبها ٧٨) (آياتها ٤٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

٥٨٢

مكية [وهي أربعون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿عَمَّ﴾، أصله (عن ما) فأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما كقوله: (فيم)، و(بم)، ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون.

وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون: ماذا جاء به محمد ﷺ، قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام ومعناه التفخيم، كما تقول: أي شيء زيد؟ إذا أعظمت أمره وشأنه.

(٢) ثم ذكر أن تساؤلهم عماذا فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، قال مجاهد والأكثرون: هو القرآن، دليله قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، وقال قتادة: هو البعث.

(٣) - (٤) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فمصدق ومكذب، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، كلا نفي لقوله سيعلمون عاقبة تكذيبهم حتى تنكشف الأمور.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، وعيد لهم على أثر وعيد. قال الضحاك: كلا سيعلمون يعني الكافرين ثم كلا سيعلمون يعني المؤمنين ثم ذكر صنائعه ليعلموا توحيده.

(٦) فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، فراشاً.

(٧) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، للأرض حتى تميد.

(٨) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي راحة لأبدانكم. قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه. وقيل: معناه جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم لأن أصل السبت القطع.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، غطاء وغشاء يستر كل شيء بظلمته.

﴿١١﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، المعاش العيش، وكل ما يعاش فيه فهو معاش، أي جعلنا منها سبباً للمعاش والتصرف في المصالح. قال ابن عباس: يريد تبتغون من فضل الله، وما قسم لكم من رزقه.

﴿١٢﴾ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، يريد سبع سموات.

﴿١٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾، يعني الشمس، ﴿وَهَّاجًا﴾، مضيئاً منيراً. قال الزجاج: الوهاج الوقاد. وقال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرارة، والوهج يجمع النور والحرارة.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي: يعني الرياح التي تعصر السحاب، وهي رواية العوفي عن ابن عباس: قال الأزهري: هي الرياح ذوات الأعاصير، فعلى هذا التأويل تكون «من» بمعنى الباء أي بالمعصرات، وذلك أن الريح تستدر المطر، وقال أبو العالية والربيع والضحاك: المعصرات السحائب وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال الفراء: المعصر السحابة التي تتحلب بالمطر ولا تمطر، كالمرأة المعصر هي التي دنا حيضها ولم تحض. وقال ابن كيسان: هي المغيثات من قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾. وقال الحسن، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان: من المعصرات أي من السموات. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، أي صباباً، وقال مجاهد: مدراراً. وقال قتادة: متتابعاً يتلو بعضه بعضاً. وقال ابن زيد: كثيراً.

﴿١٥﴾ ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾، أي بذلك الماء، ﴿حَبًّا﴾، وهو ما يأكله الناس، ﴿وَنَبَاتًا﴾، ما تنبته الأرض مما تأكله الأنعام.

﴿١٦﴾ ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، ملتفة بالشجر واحدها لف لفيف، وقيل: هو جمع الجمع، يقال جنة لفا وجمعها لف، بضم اللام وجمع الجمع ألفاف.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، يوم القضاء بين الخلق، ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾، لما وعد الله من الثواب والعقاب.

﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، زمراً زمراً من كل مكان للحساب.

﴿١٩﴾ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾، قرأ أهل الكوفة فتحت بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي شقت لنزول الملائكة، ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾، أي ذات أبواب. وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق.

﴿٢٠﴾ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾، عن وجه الأرض، ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، أي هباء منبثاً لعين الناظر كالسراب.

﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، طريقاً وممراً فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار. وقيل: كانت مرصاداً أي معدة لهم، يقال: أرصدت الشيء إذا أعددته له. وقيل: هو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته، و«المرصاد» المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو.

وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، أي ترصد الكفار.

وروى مقسم عن ابن عباس: أن على جسر جهنم سبعة محابس يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله، فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني، فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث، فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع، فيسأل عن الصوم فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس، فيسأل عن الحج فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس، فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع، فيسأل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا فإن كان له تطوع أكمل به أعماله، فإذا فرغ منه انطلق به إلى الجنة.

﴿٢٢﴾ ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾، للكافرين، ﴿مَـَٔابًا﴾، مرجعاً يرجعون إليه.

﴿٢٣﴾ ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، قرأ حمزة ويعقوب ﴿لبثين﴾ بغير ألف، وقرأ العامة ﴿لابثين﴾ بالألف وهما لغتان. ﴿فِيهَآ أَحْقَابًا﴾، جمع حقب، والحقب الواحد: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وروي ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال مجاهد: الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً، [كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، وكل يوم ألف سنة] قال الحسن: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ فوالله ما هو إلا إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد،

الجزء الثلاثون — سورة النبأ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

٥٨٣

فليس للأحقاب عدة إلا الخلود. وروى السدي عن مرة عن عبدالله قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا. وقال مقاتل بن حيان: الحقب الواحد سبع عشرة ألف سنة. قال: وهذه الآية منسوخة نسختها ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل.

﴿٢٤﴾ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، روي عن ابن عباس: أن البرد النوم، ومنه ما قال الكسائي وأبو عبيدة، تقول العرب: منع البردُ البردَ أي أذهب البرد النوم. وقال الحسن وعطاء: لا يذوقون فيها برداً أي روحاً وراحة. قال مقاتل: لا يذوقون فيها برداً ينفعهم من حر ولا شراباً ينفعهم من عطش.

﴿٢٥﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، قال: «الغساق»: الزمهرير يحرقهم ببرده. وقيل: صديد أهل النار، وقد ذكرناه في سورة صٓ.

﴿٢٦﴾ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون.

﴿٢٨﴾ ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي بما جاء به الأنبياء، ﴿كِذَّابًا﴾، يعني تكذيباً، قال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة، يقولون في مصدر التفعيل فِعّال وقال: قال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني: الحلق أحب إليك أم القصار:

﴿٢٩﴾ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾، أي وكل شيء من الأعمال بيناه في اللوح المحفوظ، كقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

﴿٣٠﴾ ﴿فَذُوقُوا۟﴾، أي يقال لهم فذوقوا، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

﴿٣١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، فوزاً ونجاةً من النار، وقال الضحاك: متنزهاً.

﴿٣٢﴾ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾، يريد أشجار الجنة وثمارها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾، جواري نواهد قد تكعبت ثديهن، واحدتها كاعب، ﴿أَتْرَابًا﴾، مستويات في السن.

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد: مترعة مملوءة. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: متتابعة. قال عكرمة: صافية.

﴿٣٥﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، باطلاً من الكلام، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾، تكذيباً، لا يكذب بعضهم بعضاً. وقرأ الكسائي «كذاباً»، بالتخفيف [وهو] مصدر كاذب كالمكاذبة، وقيل: هو الكذب. وقيل: هو بمعنى التكذيب كالمشدد.

﴿٣٦﴾ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾، أي جازاهم جزاء وأعطاهم عطاءً «حساباً» أي كافياً وافياً، يقال: أحسبت فلاناً، أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي. وقال ابن قتيبة: عطاءً حساباً أي كثيراً. وقيل: هو جزاء بقدر أعمالهم.

﴿٣٧﴾ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿رب﴾ رفع على الاستئناف والرحمن خبره وقرأ الآخرون بالجر اتباعاً لقوله «من ربك» وقرأ ابن عامر، وعاصم ويعقوب ﴿الرحمن﴾ جراً اتباعاً لقوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقرأ الآخرون بالرفع، فحمزة والكسائي يقرآن ﴿ربّ﴾ بالخفض لقربه من قوله: ﴿جَزَآءً مِّن

رَبِّكَ﴾ ويقرآن ﴿الرحمن﴾ بالرفع لبعده منه على الاستئناف، وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ في موضع رفع خبره، ومعنى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه. وقال الكلبي: لا يملكون شفاعة إلا بإذنه.

﴿٣٨﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾، أي في ذلك اليوم، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾، واختلفوا في هذا الروح، قال الشعبي والضحاك: هو جبريل. وقال عطاء عن ابن عباس: الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام [هو] وحده صفاً وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً، فيكون عظم خلقه مثلهم. وعن ابن مسعود [قال]: الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال، ومن الملائكة وهو في السماء الرابعة، يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً وحده. وقال مجاهد وقتادة وأبو صالح: الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفاً والملائكة صفاً، هؤلاء جند وهؤلاء جند.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: هم خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم. وقال الحسن: هم بنو آدم. ورواه قتادة عن ابن عباس، وقال: هذا مما كان يكتمه ابن عباس ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ قال الشعبي: هما سماطا رب العالمين، يوم يقوم سماط من الروح وسماط من الملائكة. ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، في الدنيا، أي حقاً. وقيل: قال: لا إله إلا الله.

﴿٣٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾، الكائن الواقع يعني يوم القيامة، ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾، مرجعاً وسبيلاً بطاعته، أي فمن شاء رجع إلى الله بطاعته.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، يعني العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي كل امرئ يرى في ذلك اليوم ما قدم من العمل مثبتاً في صحيفته، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾.

قال عبدالله بن عمرو: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها، فإذا فرغ من القصاص قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. ومثله عن مجاهد، وقال مقاتل: يجمع الله الوحوش والبهائم والهوام والطير فيقضي بينهم حتى يقتص للجماء من القرناء، ثم يقول لهم: أنا خلقتكم وسخرتكم لبني آدم وكنتم مطيعين إياهم أيام حياتكم، فارجعوا إلى الذي كنتم، كونوا تراباً، فإذا التفت الكافر إلى شيء صار تراباً يتمنى، فيقول: يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير وكنت اليوم تراباً.

وعن أبي الزناد عبدالله بن ذكوان قال: إذا قضى الله بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقيل لسائر الأمم ولمؤمني الجن عودوا تراباً [فيعودون تراباً] فحينئذ يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. وبه قال الليث بن أبي سُليم، مؤمنو الجن يعودون تراباً.

وقيل: إن الكافر ههنا إبليس، وذلك أنه عاب آدم وأنه خلق من التراب وافتخر بأنه خلق من النار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والرحمة، وما هو فيه من الشدة والعذاب، قال [إبليس]: يا ليتني كنت تراباً. قال أبو هريرة فيقول التراب لا، ولا كرامة لك من جعلك مثلي؟

❁ ❁ ❁

سورة النازعات

مكية [وهي ست وأربعون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أجسادهم، كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، [بعدما نزعها حتى إذا كادت أن تخرج ردها في جسده فهذا عمله بالكفار] والغرق اسم أقيم مقام الإغراق، أي والنازعات إغراقاً، والمراد بالإغراق المبالغة في المد، وقال ابن مسعود: ينزعها ملك الموت من تحت كل شعرة ومن الأظافير وأصول القدمين، ويرددها في جسده بعدما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردها في جسده بعدما ينزعها، فهذا عمله بالكفار. وقال مقاتل ملك الموت

وأعوانه ينزعون أرواح الكفار كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفسه كالغريق في الماء. وقال مجاهد: هو الموت ينزع النفوس. وقال السدي: هي النفس حين تغرق في الصدر. قال الحسن وقتادة وابن كيسان: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب. وقال عطاء وعكرمة: هي القسي. وقيل: هي الغزاة الرماة.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي تحل حلاً رفيقاً فتقبضها، كما ينشط العقال من يد البعير، أي يحل برفق، حكى الفراء هذا القول، ثم قال: والذي سمعت من العرب أن يقولوا: أنشطت العقال، إذا حللته ونشطته إذا عقدته بأنشوطة.

وفي الحديث: «كأنما أنشط من عقال».

وعن ابن عباس: هي نفس المؤمن تنشط للخروج عند الموت، لما يرى من الكرامة لأنه تعرض عليه الجنة قبل أن يموت.

وقال علي بن أبي طالب: هي الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكرب والغم، والنشط: الجذب والنزع، يقال: نشطت الدلو نشطاً إذا نزعتها. قال الخليل: النشط والإنشاط مدك الشيء إلى نفسك، حتى ينحل. وقال مجاهد: هو الموت ينشط النفوس. وقال السدي: هي النفس تنشط من القدمين أي تجذب. وقال قتادة: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي تذهب، يقال: نشط من بلد إلى بلد إذا خرج في سرعة، ويقال: حمارٌ ناشط، ينشط من بلد إلى بلد، وقال عطاء وعكرمة: هي الإزهاق.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾، هم الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح كالسابح بالشيء في الماء يرفق به. وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد يقال له سابح إذا أسرع في جريه. وقيل: هي خيل الغزاة. وقال قتادة: هي النجوم والشمس والقمر، قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عطاء: هي السفن.

﴿٤﴾ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾، قال مجاهد: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

وعن ابن مسعود قال: هي أنفس المؤمنين تتسارع وتسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامته، وقد عاينت السرور. وقال قتادة: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير. وقال عطاء: هي الخيل.

﴿٥﴾ ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، قال ابن عباس: هم الملائكة وكلوا بأمور عرّفهم الله عزّ وجلّ العمل بها. قال عبدالرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل عليهم السلام.

أما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو يتنزل بالأمر عليها، وجواب هذه الأقسام محذوف على تقدير: لتبعثن ولتحاسبن. وقيل: جوابه قوله: إن في ذلك لعبرة لمن يخشى. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقاً.

﴿٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾، يعني النفخة الأولى، يتزلزل ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها جميع الخلق.

﴿٧﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، وهي النفخة الثانية ردفت الأولى وبينهما أربعون سنة. قال قتادة: هما صيحتان فالأولى تميت كل شيء والأخرى تحيي كل شيء بإذن الله عزّ وجلّ. وقال مجاهد: ترجف الراجفة تتزلزل الأرض والجبال، تتبعها الرادفة حين تنشق السماء، وتحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة. وقال عطاء: «الراجفة» القيامة، و«الرادفة» البعث. وأصل الرجفة: الصوت والحركة.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا عبدالله بن يوسف بن أحمد بن مالك، ثنا محمد بن هارون الحضرمي، ثنا الحسن بن عرفة، ثنا قبيصة بن عقبة، عن سفيان الثوري عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن

الجزء الثلاثون — سورة النازعات

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

سورة عبس

٥٨٤

أبي بن كعب، عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام، وقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، خائفة قلقة مضطربة، وسمي الوجيف في السير لشدة اضطرابه، يقال: وجف القلب ووجف وجفاً ووجوفاً ووجيفاً ووجوباً ووجيباً. وقال مجاهد: وجلة. وقال السدي: زائلة عن أماكنها، نظيره ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨].

(٩) ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾، ذليلة كقوله: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥] الآية.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني المنكرين للبعث إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾؟ أي: إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنصير أحياء بعد الموت كما كنا؟ تقول العرب: رجع فلان في حافرته، أي رجع من حيث جاء، والحافرة عندهم اسم لابتداء الشيء، وأول الشيء. وقال بعضهم: «الحافرة»: وجه الأرض التي تحفر فيها قبورهم، سميت الحافرة بمعنى المحفورة، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧] أي مرضية. وقيل: سميت حافرة لأنها مستقر الحوافر، أي أئنا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها؟ وقال ابن زيد: الحافرة النار.

(١١) ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾، قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، ويعقوب ﴿أئنا﴾ مستفهم، ﴿إذا﴾ بتركه، ضده أبو جعفر، الباقون باستفهامها، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾، وقرأ الآخرون ﴿نخرة﴾ وهما لغتان، مثل الطمع والطامع والحذر والحاذر، ومعناهما البالية، وفرّق قوم بينهما، فقالوا: النخرة البالية، والناخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر، أي: تصوت.

(١٢) ﴿قَالُوا﴾، يعني المنكرين، ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، رجعة خائبة، يعني إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت.

(١٣) قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾، يعني النفخة الأخيرة، ﴿زَجْرَةٌ﴾، صيحة، ﴿وَاحِدَةٌ﴾، يسمعونها.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، يعني وجه الأرض، أي صاروا على وجه الأرض بعدما كانوا في جوفها. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض: ساهرة. قال بعض أهل اللغة: تراهم سموها ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. قال سفيان: هي أرض الشام. وقال قتادة: هي جهنم.

(١٥) قوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، يقول قد جاءك يا محمد حديث موسى.

(١٦) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

(١٧) فقال يا موسى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، علا وتكبر وكفر بالله.

(١٨) ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾، قرأ أهل الحجاز ويعقوب بتشديد الزاي: أي تتزكى وتتطهر من الشرك، وقرأ الآخرون بالتخفيف أي تسلم وتصلح، قال ابن عباس: تشهد أن لا إله إلا الله.

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، أي أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده فتخشى عقابه.

(٢٠) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾، وهي العصا واليد البيضاء.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ﴾، بأنهما من الله، ﴿وَعَصَىٰ﴾.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾، تولى وأعرض عن الإيمان ﴿يَسْعَىٰ﴾، يعمل بالفساد في الأرض.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾، فجمع قومه وجنوده، ﴿فَنَادَىٰ﴾، لما اجتمعوا.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، فلا رب فوقي. وقيل: أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربكم وربها.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾، قال الحسن وقتادة: عاقبه الله فجعله نكال الآخرة والأولى، أي في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار. وقال مجاهد وجماعة من المفسرين: أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وكان بينهما أربعون سنة.

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى، ﴿لَعِبْرَةً﴾، عظة، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، الله عزّ وجلّ.

(٢٧) ثم خاطب منكري البعث فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾، يعني أخلقكم بعد الموت أشد عنكم وفي تقديركم أم السماء؟ وهما في قدرة الله واحد، كقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ثم وصف من خلق السماء فقال: ﴿بَنَاهَا﴾.

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾، سقفها ﴿فَسَوَّاهَا﴾، بلا شقوق بلا شطور ولا فطور.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ﴾، أظلم، ﴿لَيْلَهَا﴾، والغطش والغبش الظلمة، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، أبرز وأظهر نهارها ونورها، وأضافهما إلى السماء لأن الظلمة والنور كلاهما ينزل من السماء.

(٣٠) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، بعد خلق السماء، ﴿دَحَاهَا﴾، بسطها، والدحو: البسط. قال ابن عباس: خلق الله الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. وقيل: معناه: إذ الأرض مع ذلك دحاها، كقوله عزّ وجلّ: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٢] أي مع ذلك.

(٣١) ـ (٣٤) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾، يعني النفخة الثانية التي فيها البعث وقامت القيامة، وسميت القيامة «طامة» لأنها تطم على كل هائلة من الأمور، فتعلو فوقها وتغمر ما سواها، والطامة عند العرب: الداهية التي لا تستطاع.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾، ما عمل في الدنيا من خير وشر.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، قال مقاتل يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق.

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، في كفره.

(٣٨) ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، على الآخرة.

(٣٩) ـ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، عن المحارم التي تشتهيها، قال مقاتل: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها.

(٤١) ـ (٤٢) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، متى ظهورها وثبوتها.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾، لست في شيء من علمها وذكرها، أي لا تعلمها.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾، أي منتهى علمها عند الله.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾، قرأ أبو جعفر منذر بالتنوين أي إنما أنت مخوف من يخاف قيامها، أي إنما ينفع إنذارك من يخافها.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ﴾، يعني كفار قريش، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾، يعاينون يوم القيامة، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾، في الدنيا، وقيل: في قبورهم، ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، قال الفراء: ليس للعشية ضحى، إنما الضحى اسم لصدر النهار، ولكن هذا ظاهر من كلام العرب أن يقولوا: آتيك العشية أو غداتها، إنما معناه آخر يوم أو أوله، نظيره قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

❊ ❊ ❊

الجزء الثلاثون — سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

٥٨٥

سورة عبس

مكية [وهي اثنتان وأربعون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿عَبَسَ﴾، كلح، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، أعرض بوجهه.

(٢) ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾، وهو ابن أم مكتوم واسمه عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي.

وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبدالمطلب وأبي بن خلف، وأخاه أمية يدعوهم إلى الله، يرجو إسلامهم، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والعبيد والسفلة، فعبس وجهه وأعرض عنه. وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله هذه الآية، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما رسول الله ﷺ.

قال أنس بن مالك: فرأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء.

(٣) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك، وقال ابن زيد: يسلم.

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾، يتعظ، ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾، الموعظة قرأ عاصم (فتنفعه) بنصب العين على جواب «لعل» بالفاء، وقراءة العامة بالرفع نسقاً على قوله: ﴿يَذَّكَّرُ﴾.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾، قال ابن عباس عن الله وعن الإيمان بما له من المال.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، تتعرض له وتقبل عليه وتصغي إلى كلامه، قرأ أهل الحجاز ﴿تصدى﴾ بتشديد الصاد، أي تتصدى، وقرأ الآخرون بتخفيف الصاد على الحذف.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أن لا يؤمن ولا يهتدي، إن عليك إلا البلاغ.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾، يمشي يعني: ابن أم مكتوم.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾، الله عزّ وجل.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، تتشاغل وتعرض عنه.

(١١) ﴿كَلَّآ﴾، زجر أي لا تفعل بعدها مثلها، ﴿إِنَّهَا﴾، يعني هذه الموعظة. وقال مقاتل: آيات القرآن. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، موعظة وتذكير للخلق.

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ﴾، من عباد الله ﴿ذَكَرَهُۥ﴾، أي اتعظ به. وقال مقاتل: فمن شاء الله ذكره وفهمه واتعظ بمشيئته وتفهيمه، والهاء في ﴿ذكره﴾ راجعة إلى القرآن والتنزيل والوعظ. ثم أخبر عن جلالته عنده فقال:

(١٣) ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، يعني اللوح المحفوظ. وقيل: كتب الأنبياء عليهم السلام، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ و١٩].

(١٤) ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾، رفيعة القدر عند الله عزّ وجلّ. وقيل: مرفوعة يعني في السماء السابعة. ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، لا يمسها إلا المطهرون، وهم الملائكة.

(١٥) ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: كتبة، وهم الملائكة الكرام الكاتبون، واحدهم سافر، يقال: سفرت أي كتبت. ومنه قيل للكتاب: سفر وجمعه أسفار. وقال

الآخرون: هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير، وهو الرسول، وسفير القوم الذي يسعى بينهم بالصلح، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم.

(١٦) ثم أثنى عليهم فقال: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾، أي كرام على الله، بررة مطيعين، جمع بار.

(١٧) قوله عز وجلّ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي لعن الكافر.

قال مقاتل: نزلت في عتبة بن أبي لهب ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، ما أشد كفره مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده، على طريق التعجب، قال الزجاج: معناه اعجبوا أنتم من كفره. قال الكلبي ومقاتل: هو ﴿ما﴾ الاستفهام، يعني أي شيء حمله على الكفر؟ ثم بين من أمره ما كان ينبغي معه أن يعلم أن الله خالقه.

(١٨) فقال: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، لفظه استفهام ومعناه التقرير.

(١٩) ثم فسره فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾، أطواراً: نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه. قال الكلبي: قدر خلقه رأسه وعينيه ويديه ورجليه.

(٢٠) ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، أي طريق خروجه من بطن أمه. قاله السدي ومقاتل، وقال الحسن ومجاهد: يعني طريق الحق والباطل سهل له العلم به، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقيل: يسر على كل أحد ما خلقه له وقدره عليه.

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾، جعل له قبراً يوارى فيه. قال الفراء: جعله مقبوراً ولم يجعله ممن يلقى كالسباع والطيور. يقال: قبرت الميت إذا دفنته، وأقبره الله أي صيره بحيث يقبر، وجعله ذا قبر، كما يقال: طردت فلاناً والله أطرده أي صيره طريداً.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أحياه بعد موته.

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾، رداً عليه أي ليس كما يقول ويظن هذا الكافر، وقال الحسن: حقاً. ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، أي لم يفعل ما أمره به ربه ولم يؤد ما فرض عليه، ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر.

(٢٤) فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، كيف قدره ربه [ودبر له] وجعله سبباً لحياته. وقال مجاهد: إلى مدخله ومخرجه.

(٢٥) ثم بين فقال: ﴿أَنَّا﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿أنا﴾ بالفتح على تكرير الخافض، مجازه فلينظر إلى أنا، وقرأ الآخرون بالكسر على الاستئناف. ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، يعني المطر.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾، بالنبات.

(٢٧) ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾، يعني الحبوب التي يتغذى بها.

(٢٨) ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾، وهو القت الرطب، سمي بذلك لأن يقضب في كل الأيام أي يقطع. وقال الحسن: القضب العلف للدواب.

(٢٩) ﴿وَزَيْتُونًا﴾، وهو ما يعصر منه الزيت، ﴿وَنَخْلًا﴾، جمع نخلة.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، غلاظ الأشجار واحدها أغلب، ومنه قيل: الغليظ الرقبة أغلب. وقال مجاهد ومقاتل: الغلب الشجر الملتفة بعضها في بعض، قال ابن عباس: طوالاً.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾، يريد ألوان الفواكه، ﴿وَأَبًّا﴾، يعني الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس، مما يأكله الأنعام والدواب. قال عكرمة: «الفاكهة» ما يأكله الناس، والأب ما يأكله الدواب.

ومثله عن قتادة قال: الفاكهة لكم والأب لأنعامكم.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس والأنعام.

(٣١) وروي عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وروى ابن شهاب عن أنس أنه سمع عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفنا فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب، ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه.

الجزء الثلاثون　　سورة التكوير

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الانفِطَارِ

٥٨٦

(٣٢) ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾، منفعة لكم يعني الفاكهة، ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، يعني العشب.

(٣٣) ثم ذكر القيامة فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾، يعني صيحة القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ في أسماعها حتى تكاد تصمها.

(٣٤) ـ (٣٦) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾، لا يلتفت إلى أحد منهم لشغله بنفسه، حكي عن قتادة قال في هذه الآية: يفر المرء من أخيه، قال: يفر هابيل من قابيل، ويفر النبي ﷺ من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ولوط عليه السلام من صاحبته ونوح عليه السلام من ابنه.

(٣٧) ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، يشغله عن شأن غيره.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن عبدالله، أنا عبدالله بن عبدالرحمن، ثنا محمد بن عبدالعزيز، ثنا ابن أبي أويس، ثنا أبي، عن محمد بن أبي عياش، عن عطاء بن يسار، عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً، قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» فقلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «قد شغل الناس، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه».

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾، مشرقة مضيئة.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ﴾، بالسرور ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾، فرحة بما نالت من كرامة الله عزّ وجلّ.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، سواد وكآبة مما يشاهدونه من الغم والهم.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝﴾، تعلوها وتغشاها ظلمة وكسوف. قال ابن عباس: تغشاها ذلة. قال ابن زيد الفرق بين الغبرة والقترة: أن القترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء، والغبرة ما كان أسفل في الأرض.

(٤٢) ﴿أُولَئِكَ﴾، الذين يصنع بهم هذا، ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، جمع الكافر والفاجر.

❊ ❊ ❊

سورة التكوير

مكية [وهي تسع وعشرون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، ثنا أبو الحسن علي بن محمد بن سهل السرخسي إملاءً، أنا أبو الوفاء المؤمل بن الحسن بن عيسى الماسرجسي، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا إبراهيم بن خالد، ثنا عبدالله بن بحير القاضي، قال: سمعت عبدالرحمن بن زيد الصنعاني قال سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر في أحوال القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

(١) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، قال علي بن أبي طلحة [عن ابن عباس]: أظلمت، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبير: غوّرت. وقال مجاهد: اضمحلت. وقال الزجاج: لفت كما تلف العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسي أكورها كوراً وكورتها تكويراً إذا لففتها، وأصل التكوير جمع بعض الشيء إلى بعض، فمعناه أن الشمس يجمع بعضها إلى بعض ثم تلف، فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها. قال ابن عباس: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد]

المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، ثنا عبدالعزيز بن المختار، ثنا عبدالله الدَّاناج حدثني أبو سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوّران يوم القيامة».

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، أي تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض، يقال: انكدر الطائر إذا سقط عن عشه، قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، على وجه الأرض فصارت هباءً منبثاً.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾، وهي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر، واحدتها عشراء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة، وهي أنفس مال عند العرب، عُطّلت تركت هملاً بلا راع أهملها أهلها، وكانوا لازمين لأذنابها، ولم يكن لهم مال أعجب إليهم منها، لما جاءهم من أهوال يوم القيامة.

(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾، يعني دواب البر، ﴿حُشِرَتْ﴾، جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: حشرها موتها. وقال: حشر كل شيء الموت، غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. وقال أبي بن كعب: اختلطت.

(٦) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، قرأ أهل مكة والبصرة بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، قال ابن عباس: أوقدت فصارت ناراً تضطرم. وقال مجاهد ومقاتل: يعني فجر بعضها في بعض العذب والملح، فصارت البحور كلها بحراً واحداً. وقال الكلبي: ملئت، وهذا أيضاً معناه: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، والمسجور: المملوء، وقيل: صارت مياهها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار. وقال الحسن: يبست، وهو قول قتادة، قال: ذهب ماؤها فلم يبق فيها قطرة.

وروى أبو العالية عن أبي بن كعب، قال: ست آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس [فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم] فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت، وفزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحش والسباع، وماج بعضهم في بعض، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝﴾، واختلطت، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، قال: قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. وعن ابن عباس أيضاً قال: هي اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا وستة في الآخرة.

(٧) وهي ما ذكره بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويعرف بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، وهذا قول عكرمة، وقال الحسن وقتادة: ألحق كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني، قال الربيع بن خثيم: يحشر الرجل مع صاحب عمله. وقيل: زوجت النفوس بأعمالها. وقال عطاء ومقاتل: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين. وروي عن عكرمة قال: وإذا النفوس زوجت ردت الأرواح في الأجساد.

(٨) ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾، وهي الجارية المدفونة حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤدها، أي يثقلها حتى تموت وكانت العرب تدفن البنات حية مخافة العار والحاجة، يقال: وأد يئدو وأداً، فهو وائد والمفعول موؤد، روى عكرمة عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته.

(٩) ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾، قرأ العامة على الفعل المجهول فيهما، وأبو جعفر يقرأ: ﴿قتّلت﴾ بالتشديد، ومعناه تسأل الموؤدة، فيقال لها

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾، ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها لأنها تقول: قتلت بغير ذنب. وروي أن جابر بن زيد كان يقرأ: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾، ومثله قرأ أبو الضحى.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ ﴿١٠﴾، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم ويعقوب ﴿نشرت﴾ بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد، لقوله: ﴿يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ [المدثر: ٥٢]، يعني صحائف الأعمال تنتشر للحساب.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ ﴿١١﴾، قال الفراء: نزعت فطويت. وقال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. وقال مقاتل: تكشف عمن فيها. ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه كما يكشط الجلد عن السنام.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ ﴿١٢﴾، قرأ أهل المدينة والشام، وحفص عن عاصم ﴿سعرت﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف أي: أوقدت لأعداء الله.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ ﴿١٣﴾، قربت لأولياء الله.

﴿عَلِمَتۡ﴾ ﴿١٤﴾، عند ذلك ﴿نَفۡسٞ﴾ أي كل نفس ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، من خير أو شر، وهذا جواب لقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ وما بعدها.

﴿١٥﴾ ـ ﴿١٦﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾، ولا زائدة معناه أقسم بالخنس، قال قتادة هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار، فتخفى فلا ترى. وعن علي أيضاً: أنها الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى، وتكنس بالليل فتأوي إلى مجاريها. وقال قوم: هي النجوم الخمسة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، تخنس في مجراها أي ترجع وراءها وتكنس: تستتر وقت اختفائها وغروبها، كما تكنس الظباء في مغارها. وقال ابن زيد: معنى الخنس أنها تخنس أي تتأخر عن مطالعها في كل عام تأخراً تتأخره عن تعجيل ذلك الطلوع، تخنس عنه بتأخرها. والكنس أي تكنس بالنهار فلا ترى.

وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبدالله أنها هي الوحش، وقال سعيد بن جبير: هي الظباء. وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وأصل الخنوس: الرجوع إلى وراء، والكنوس أن تأوى إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ ﴿١٧﴾، قال الحسن: أقبل بظلامه. وقال الآخرون أدبر. تقول العرب: عسعس الليل وسعسع إذا أدبر ولم يبق منه إلا اليسير.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ﴿١٨﴾، أقبل وبدا أوله وقيل امتد ضوءه وارتفع.

﴿إِنَّهُۥ﴾ ﴿١٩﴾، يعني القرآن، ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، يعني جبريل، أي نزل به جبريل عن الله تعالى.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ﴿٢٠﴾، وكان من قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها، وأنه أبصر إبليس يكلم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف، ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾، في المنزلة.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ ﴿٢١﴾، أي في السموات تطيعه الملائكة ومن طاعة الملائكة إياه أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج، بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله، ﴿أَمِينٖ﴾، على وحي الله ورسالته إلى أنبيائه.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ ﴿٢٢﴾، يقول لأهل مكة وما صاحبكم يعني محمداً ﷺ بمجنون. وهذا أيضاً من جواب القسم أقسم على أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ليس كما يقوله أهل مكة، وذلك أنهم قالوا إنه مجنون، وما يقول يقوله من عند نفسه.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ ﴿٢٣﴾، يعني رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته، ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق، قاله مجاهد وقتادة.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، ثنا محمد بن جعفر، ثنا الحسن ابن عليوة، ثنا إسماعيل بن عيسى، ثنا إسحاق بن بشر، أنا ابن جريج عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء»، قال: لن

الجزء الثلاثون　سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا السماء انفطرت ① وإذا الكواكب انتثرت ② وإذا البحار فجرت ③ وإذا القبور بعثرت ④ علمت نفس ما قدمت وأخرت ⑤ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ⑥ الذي خلقك فسواك فعدلك ⑦ في أي صورة ما شاء ركبك ⑧ كلا بل تكذبون بالدين ⑨ وإن عليكم لحافظين ⑩ كراما كاتبين ⑪ يعلمون ما تفعلون ⑫ إن الأبرار لفي نعيم ⑬ وإن الفجار لفي جحيم ⑭ يصلونها يوم الدين ⑮ وما هم عنها بغائبين ⑯ وما أدراك ما يوم الدين ⑰ ثم ما أدراك ما يوم الدين ⑱ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ⑲

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

ويل للمطففين ① الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ② وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ③ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ④ ليوم عظيم ⑤ يوم يقوم الناس لرب العالمين ⑥

٥٨٧

تقوى على ذلك، قال: بلى، قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: بالأبطح، قال: لا يسعني، قال: فههنا، قال: لا يسعني، قال: فبعرفات، قال: ذلك بالحري أن يسعني فواعده، فخرج النبي ﷺ في الوقت فإذا هو بجبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ كبّر وخرّ مغشياً عليه. قال: فتحول جبريل في صورته فضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف فكيف لك لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله عزّ وجلّ حتى يصير مثل الوصع يعني العصفور، حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته.

٢٤ ﴿وَمَا هُوَ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، أي الوحي، وخبر السماء وما أطلع عليه مما كان غائباً عنه من الأنباء والقصص، ﴿بِضَنِينٍ﴾، قرأ أهل مكة والبصرة والكسائي بالظاء أي بمتهم، يقال: فلان يظن بمال ويزن أي يتهم به والظنة التهمة، وقرأ الآخرون بالضاد أي يبخل، يقول: إنه يأتيه علم الغيب فلا يبخل به عليكم بل يعلمكم ويخبركم به، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً، تقول العرب: ضننت بالشيء بكسر النون أضن به ضناً وضنانة فأنا به ضنين أي بخيل.

٢٥ ﴿وَمَا هُوَ﴾، يعني القرآن، ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش.

٢٦ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، أي أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان؟ قال الزجاج: أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم.

٢٧ ثم بين فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾، أي ما القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، موعظة للخلق أجمعين.

٢٨ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، أي يتبع الحق ويقيم عليه.

٢٩ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله ولا شراً إلا بخذلانه.

❋ ❋ ❋

سورة الانفطار

مكية [وهي تسع عشرة آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، انشقت.

٢ ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾، تساقطت.

٣ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، فجر بعضها في بعض، واختلط العذب بالملح، فصارت بحراً واحداً. وقال الربيع: فجرت فاضت.

٤ ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، بحثت وقلب ترابها وبعث ما فيها من الموتى أحياء، يقال: بعثرت الحوض وبحثرته إذا قلبته فجعلت أسفله أعلاه.

٥ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، قيل ما قدمت من عمل صالح أو سيئ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة. وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت من التركات، على ما ذكرنا في قوله: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ما خدعك وسوّل لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك، والمعنى: ماذا أمنك من عقابه؟ قال

عطاء: نزلت في الوليد بن المغيرة.

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في الأسود بن شريق ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله عزّ وجلّ، فأنزل الله هذه الآية يقول: ما الذي غرك بربك الكريم المتجاوز عنك إذ لم يعاقبك عاجلاً بكفرك.

قال قتادة: غره عدوه المسلط عليه يعني الشيطان. قال مقاتل: غره عفو الله حين لم يعاقبه في أول أمره. وقال السدي: غره رفق الله به.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة. فيقول: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة فقال: يا فضيل ما غرك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول غرني ستورك المرخاة. وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني بين يديه فقال: ما غرك بي؟ قلت: غرني بك برُّك بي سالفاً وآنفاً. وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني بك كرم الكريم. قال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة حتى يقول: غرني كرم الكريم.

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر ﴿فعدلك﴾ بالتخفيف فصرفك وأمالك إلى أي صورة شاء حسناً وقبيحاً وطويلاً وقصيراً. وقرأ الآخرون بالتشديد أي قومك وجعلك معتدل الخلق والأعضاء.

﴿٨﴾ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، قال مجاهد والكلبي ومقاتل: في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم.

وجاء في الحديث: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾»، وذكر الفراء قولاً آخر ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ إن شاء في صورة إنسان وإن شاء في صورة دابة، أو حيوان آخر.

﴿٩﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾، قرأ أبو جعفر بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾، ﴿بِٱلدِّينِ﴾، بالجزاء والحساب.

﴿١٠﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾، رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم.

﴿١١﴾ ﴿كراماً﴾ على الله، ﴿كَٰتِبِينَ﴾، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿١٢﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، من خير أو شر.

﴿١٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾، الأبرار الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله عزّ وجلّ واجتناب معاصيه.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾، روي أن سليمان بن عبدالملك قال لأبي حازم المزني: ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله فإنك تعلم ما لك عند الله؟ فقال: فأين أجده في كتاب الله؟ فقال عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾. قال سليمان فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿١٥﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، يدخلونها، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، يوم القيامة.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

﴿١٧﴾ ثم عظم ذلك اليوم، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، كرر تفخيماً لشأنه.

﴿١٨﴾ ـ ﴿١٩﴾ فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾، قرأ أهل الكوفة والبصرة «يوم» برفع الميم رداً على اليوم الأول، وقرأ الآخرون بنصبها أي في «يوم» يعني هذه الأشياء في يوم لا تملك. ﴿نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، وقال مقاتل: يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، أي يوم لا يملك الله في ذلك أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا.

❊ ❊ ❊

سورة المطففين

[مدنية] [وهي ست وثلاثون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، يعني الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف.

أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد

الجزء الثلاثون — سورة المطففين

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

٥٨٨

المخلدي، أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الحافظ، ثنا عبدالرحمن بن بشر، ثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، حدثني يزيد النحوي أن عكرمة حدثه عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل.

وقال السدي: قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله هذه الآية، فالله تعالى جعل الويل للمطففين.

﴿٢﴾ ثم بين أن المطففين من هم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، وأراد إذا اكتالوا من الناس أي أخذوا منهم، و(مِن)، و(عَلى) يتعاقبان. قال الزجاج: المعنى إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وأراد الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم أي للناس، يقال: وزنتك حقك وكلتك طعامك، أي وزنت لك وكلت لك كما يقال نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك كسبتك وكسبت لك. قال أبو عبيدة وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين يقف على ﴿كالوا ووزنوا﴾ ويبتدئ ﴿هم يخسرون﴾ قال أبو عبيدة: والاختيار الأول، يعني أن كل واحدة كلمة واحدة، لأنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكتب: (كالوا أو وزنوا) بالألف كسائر الأفعال مثل جاؤوا وقالوا: واتفقت المصاحف على إسقاط الألف، ولأنه يقال في اللغة: كلتك ووزنتك كما يقال كلت لك ووزنت لك. وقوله: ﴿يخسرون﴾ أي ينقصون، قال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول اتق الله أوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم.

﴿٤﴾ ـ ﴿٥﴾ ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾، يستقين، ﴿أولئك﴾، الذين يفعلون ذلك، ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني يوم القيامة.

﴿٦﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾، من قبورهم، ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي لأمره ولجزائه ولحسابه.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن المنذر، أنا معن حدثني مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة الكشميهني، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، ثنا محمد بن يعقوب الكسائي، ثنا عبدالله بن محمود، ثنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، قال: حدثني سُليم بن عامر، حدثني المقداد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين»، قال سُليم: لا أدري أي الميلين يعني مسافة الأرض أوالميل الذي تكحل به العين، قال: «فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً» فرأيت رسول الله ﷺ وهو يشير بيده إلى فيه يقول: «ألجمه إلجاماً».

﴿٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّآ﴾،

ردع أي ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا، وتمام الكلام ههنا، وقال الحسن: «كلا» ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً، ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، الذي كتبت فيه أعمالهم، ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾، قال عبدالله بن عمر، وقتادة، ومجاهد، والضحاك: ﴿سِجِّينٍ﴾ هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا الحسين بن محمد بن فنجويه: ثنا موسى بن محمد، ثنا الحسن بن علويه، أنا إسماعيل بن عيسى، ثنا المسيب، ثنا الأعمش، عن المنهال، عن زاذان، عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «"سجين" أسفل سبع أرضين، و"عليون" في السماء السابعة تحت العرش».

وقال شمرة بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، فقال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم تهبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبل فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو موضع جند إبليس، فيخرج لها من سجين رق فيرقم ويختم، ويوضع تحت جند إبليس، لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة.

وإليه ذهب سعيد بن جبير، قال: سجين تحت جند إبليس. وقال عطاء الخراساني: هي الأرض السفلى، وفيها إبليس وذريته، وقال الكلبي: هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء، وخضرة السموات منها يجعل كتاب الفجار فيها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً قال: سجين صخرة تحت الأرض السفلى، تقلب، فيجعل كتاب الفجار فيها. وقال وهب: هي آخر سلطان إبليس.

وجاء في الحديث: «الفلق جبٌّ في جهنم مغطى، وسجين جِبٌّ في جهنّم مفتوح».

وقال عكرمة: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ أي لفي خسار وضلال. وقال الأخفش: هو فعيل من السجن، كما يقال: فسيق وشريب، معناه لفي حبس وضيق شديد.

﴿٨﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾، قال الزجاج: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

﴿٩﴾ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، ليس هذا تفسير السجين بل هو بيان الكتاب المذكور في قوله: إن كتاب الفجار أي هو كتاب الفجار مرقوم أي هو كتاب مرقوم، أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب، لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به. وقال قتادة ومقاتل: رقم عليه بشركائه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر. وقيل: مختوم بلغة حمير.

﴿١٠﴾ ـ ﴿١٣﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿كَلَّا﴾، قال مقاتل: أي لا يؤمنون، ثم استأنف فقال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالصمد الترابي، ثنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أنا إبراهيم بن حزيم الشاشي، أنا أبو محمد عبدالله بن حميد الكشي، ثنا صفوان بن عيسى، عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه»، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وأصل «الرين» الغلبة، يقال: رانت الخمر على عقله ترين ريناً وريوناً إذا غلبت عليه حتى سكر، ومعنى الآية: غلبت على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب. قال ابن عباس: ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ طبع عليها.

﴿١٥﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، [قال ابن عباس]: كلا يريد لا يصدقون، ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، قال بعضهم: عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو ألا ينظر إليهم ولا يزكيهم. وقال أكثر المفسرين: عن رؤيته. قال الحسن: لو علم الزاهدون العابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا. قال الحسين بن الفضل كما حجبهم في الدنيا عن

توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي رضي الله عنه في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: دلالة على أن أولياء الله يرون الله عياناً، ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبين عن الله يدخلون النار فقال:

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾، لداخلوا النار.

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾، أي تقول لهم الخزنة، ﴿هَٰذَا﴾، أي هذا العذاب، ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

(١٨) ﴿كَلَّآ﴾، قال مقاتل: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه، ثم بين محمل كتاب الأبرار فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

روينا عن البراء مرفوعاً: «أن عليين في السماء السابعة تحت العرش». وقال ابن عباس: هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه، وقال كعب وقتادة: هو قائمة العرش اليمنى. وقال [عطاء عن] ابن عباس: هو الجنة. وقال الضحاك: سدرة المنتهى، وقال بعض أهل المعاني علو بعد علو وشرف بعد شرف، ولذلك جمعت بالياء والنون. وقال الفراء: هو اسم موضوع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين.

(١٩) ـ (٢٠) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، ليس هذا بتفسير عليين، أي مكتوب أعمالهم، كما ذكرنا في كتاب الفجار، وقيل: كتب هناك ما أعد الله لهم من الكرامة، وهو معنى قول مقاتل، وقيل: رقم لهم بخير وتقدير الآية على التقديم والتأخير، مجازها: إن كتاب الأبرار كتاب مرقوم في عليين، وهو محل الملائكة، ومثله إن كتاب الفجار كتاب مرقوم في سجين، وهو محل إبليس وجنده.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، يعني الملائكة الذين في عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب، وذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين.

(٢٢) ـ (٢٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعمة، وقال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم كيف يعذبون.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة مما ترى في وجوههم من النور والحسن والبياض، قال الحسن: النضرة في الوجه والسرور في القلب، وقرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿تعرف﴾ بضم التاء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل ﴿نضرة﴾ رفع، وقرأ الباقون بفتح التاء وكسر الراء ﴿نضرة﴾ نصب.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾، خمر صافية طيبة قال مقاتل: الخمر البيضاء. ﴿مَّخْتُومٍ﴾، ختم ومنع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار، قال مجاهد: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي مطّين.

(٢٦) ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، أي طينه، ﴿مِسْكٌ﴾، كأنه ذهب إلى هذا المعنى، قال ابن زيد: ختامه عند الله مسك وختام الدنيا طين. [وقال] ابن مسعود: مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه، وعاقبته مسك، فالمختوم الذي له ختام، أي آخر وختم كل شيء الفراغ منه. وقال قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك. وقراءة العامة ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ بتقديم التاء، وقرأ الكسائي ﴿خاتمه﴾ وهي قراءة علي وعلقمة ومعناهما واحد كما يقال: فلان كريم الطابع والطباع والخاتم والختام آخر كل شيء. ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عزّ وجلّ. وقال مجاهد: فليعمل العاملون، نظيره قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، قال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون. وقال عطاء: فليستبق المستبقون، وأصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره، أي يضن.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، شراب ينصب عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم، وقيل: يجري في الهواء متسنماً فينصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلأت أمسك وهذا معنى قول قتادة، وأصل كلمة السنام من العلو، يقال للشيء المرتفع سنام ومنه سنام البعير. قال الضحاك: هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف الشراب. قال ابن مسعود وابن عباس: هو خالص للمقربين يشربونها صرفاً ويمزج

الجزء الثلاثون — سورة الانشقاق

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ ٱلِانشِقَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

٥٨٩

لسائر أهل الجنة. وهو قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿عيناً﴾ نصبٌ على الحال، ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها، وقيل: يشرب بها المقربون صرفاً.

(٢٩) قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾، أشركوا يعني كفار قريش أبا جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأصحابهم من مترفي مكة، ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عمار وخباب وصهيب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين. ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وبهم يستهزؤون.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾، يعني مر المؤمنون بالكفار، ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾، والغمز الإشارة بالجفن والحاجب، أي يشيرون إليهم بالأعين استهزاء.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾، يعني الكفار، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾، معجبين بما هم فيه يتفكهون بذكرهم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾، رأوا أصحاب النبي ﷺ، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، يأتون محمداً ﷺ يرون أنهم على شيء.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟﴾، يعني المشركين، ﴿عَلَيْهِمْ﴾، يعني على المؤمنين، ﴿حَٰفِظِينَ﴾، أعمالهم أي لم يوكلوا بحفظ أعمالهم.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾، يعني في الآخرة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، قال أبو صالح وذلك أنه يفتح للكفار وهم في النار أبوابها، ويقال لهم: اخرجوا فإذا رأوها مفتوحة أقبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، يفعل بهم ذلك مراراً والمؤمنون يضحكون.

وقال كعب: بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوٍ له، كان في الدنيا، اطلع عليه من تلك الكوى، كما قال: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، فإذا اطلعوا في الجنة إلى أعدائهم وهم يعذبون في النار ضحكوا فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

(٣٥) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، من الدر والياقوت، ﴿يَنظُرُونَ﴾، إليهم في النار.

(٣٦) قال الله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾، هل جوزي، ﴿ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، أي جزاء استهزائهم بالمؤمنين ومعنى الاستفهام ههنا التقرير. وثوب وأثاب بمعنى واحد.

❋ ❋ ❋

سورة الانشقاق

مكية [وهي خمس وعشرون آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، انشقاقها من علامات القيامة.

(٢) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أي سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته، من الأذن وهو الاستماع، ﴿وحقت﴾، أي وحق لها أن تطيع ربها.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، مد الأديم العكاظي، وزيد في سعتها. وقال مقاتل: سويت كمد الأديم فلا يبقى فيها بناء ولا جبل.

(٤) ﴿وَأَلْقَتْ﴾، أخرجت، ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز، ﴿وَتَخَلَّتْ﴾، خلت منها.

(٥) ـ (٦) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، واختلفوا في جواب ﴿إذا﴾ قيل: جوابه محذوف تقديره: إذا كانت هذه الأشياء يرى الإنسان الثواب

والعقاب. وقيل جوابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾، ومجازه: إذا السماء انشقت لقي كل كادح ما عمله. وقيل: جوابه وأذنت، وحينئذ تكون الواو زائدة ومعنى قوله: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾، أي ساع إليه في عملك، والكدح: سعي الإنسان وجهده في الأمر من الخير والشر حتى يكدح ذلك فيه، أي يؤثر. وقال قتادة والكلبي والضحاك: عامل لربك عملاً، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي ملاقي جزاء عملك خيراً كان أو شراً.

⑦ ـ ⑧ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾، ديوان أعماله، ﴿بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سعيد ابن أبي مريم، أنا نافع، عن ابن عمر حدثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وإن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّب» قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا رسول الله أوليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قالت فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نُوقش في الحساب يهلك».

⑨ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، يعني في الجنة من الحور العين والآدميات، ﴿مَسْرُورًا﴾، بما أوتي من الخير والكرامة.

⑩ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾، فتغل يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده الشمال وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من رواء ظهره. وقال مجاهد: تخلع يده اليسرى من وراء ظهره.

⑪ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾، ينادي بالويل والهلاك إذا قرأ كتابه يقول: يا ويلاه يا ثبوراه، لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

⑫ ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة وعاصم وحمزة و«يَصْلى» بفتح الياء خفيفاً كقوله: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢]، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام لقوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤]، ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١]،

⑬ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، يعني في الدنيا، باتباع هواه وركوب شهوته.

⑭ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، أن لن يرجع إلينا ولن يبعث.

⑮ ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أي ليس كما ظن بل يحور إلينا ويبعث، ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ من يوم خلقه إلى أن بعثه.

⑯ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾، قال مجاهد: هو النهار كله. وقال عكرمة: ما بقي من النهار. وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. وقال قوم: هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة.

⑰ ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، أي جمع وضم، يقال وسقته أسقه وسقاً، أي جمعته، واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، والمعنى: والليل وما جمع وضم ما كان بالنهار منتشراً من الدواب، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه. روى منصور عن مجاهد قال: ما لف وضم وأظلم عليه. وقال مقاتل بن حيان: ما أقبل من ظلمة أو كوكب. وقال سعيد بن جبير. وما عمل فيه.

⑱ ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، اجتمع واستوى وتم نوره وهو في الأيام البيض. وقال قتادة: استدار وهو افتعل من الوسق الذي هو الجمع.

⑲ ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾، قرأ أهل مكة وحمزة والكسائي ﴿لتركبن﴾ بفتح الباء، يعني لتركبن يا محمد ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، قال الشعبي ومجاهد: سماء بعد سماء. قال الكلبي: يعني تصعد فيها. ويجوز أن يكون درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى والرفعة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سعيد بن النضر، أنا هشيم، أنا أبو بشر عن مجاهد قال قال ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ.

وقيل: أراد به السماء تتغير لوناً بعد لون، فتصير تارة كالدهان وتارة كالمهل، فتنشق بالغمام مرة وتطوى أخرى. وقرأ الآخرون بضم الباء لأن المعنى بالناس أشبه، لأنه ذكر من



الجزء الثلاثون سورة البروج

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الطَّارِقِ

٥٩٠

قبل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، «وشماله» وذكر من بعد ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأراد لتركبن حالاً بعد حال، وأمراً بعد أمر في موقف القيامة، يعني الأحوال تنقلب بهم فيصيرون في الآخرة على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا. و﴿عن﴾ بمعنى بعد، وقال مقاتل: يعني الموت ثم الحياة ثم الموت ثم الحياة. وقال عطاء: مرة فقيراً ومرة غنياً.

وقال عمرو بن دينار عن ابن عباس: يعني الشدائد وأهوال الموت، ثم البعث ثم العرض. وقال عكرمة: حالاً بعد حال، رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ. وقال أبو عبيدة: لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن عبدالعزيز، أنا أبو عمرو الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍ لتبعتموهم» قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».

﴿٢٠﴾ قوله عز وجلّ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، استفهام إنكار.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾. قال الكلبي ومقاتل: لا يصلون.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا قتيبة، ثنا سفيان بن عيينة عن أيوب بن موسى عن عطاء بن مينا عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في «اقرأ باسم ربك» و«إذا السماء انشقت».

أخبرنا، عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا مسدد، أنا معمر قال: سمعت أبي قال حدثني بكر عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ إذا السماء انشقت، فسجد فقلت: ما هذا؟ قال سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه.

﴿٢٢﴾ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾، بالقرآن والبعث.

﴿٢٣﴾ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. في صدورهم من التكذيب. قال مجاهد: يكتمون.

﴿٢٤﴾ ـ ﴿٢٥﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، غير مقطوع ولا منقوص.

❀ ❀ ❀

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ـ ﴿٢﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝﴾، هو يوم القيامة.

﴿٣﴾ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عبدالله بن موسى، عن عبيدة عن أيوب بن خالد، عن عبدالله بن رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، فيه ساعة لا يوافقها

عبد مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذه منه».

وهذا قول ابن عباس. والأكثرون: أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر. وروي عن ابن عمر: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر. قال سعيد بن المسيب: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة.

وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة، ثم تلا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال: ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وقال عبدالعزيز بن يحيى «الشاهد» محمد ﷺ، والمشهود الله عزّ وجلّ، بيانه قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الشاهد آدم والمشهود يوم القيامة. وقال عكرمة الشاهد: الإنسان والمشهود يوم القيامة. وعنه أيضاً: الشاهد الملك يشهد على ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وتلا: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، و﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم، وقال عطاء بن يسار: الشاهد آدم وذريته، والمشهود يوم القيامة. وروى الوالبي عن ابن عباس: الشاهد هو الله عزّ وجلّ والمشهود يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم. بيانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال سالم بن عبدالله: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فقال: الشاهد هو الله والمشهود نحن، بيانه: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وقيل: الشاهد أعضاء بني آدم، بيانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤]. وقيل: الشاهد الأنبياء والمشهود محمد، بيانه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٤) ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، أي لعن، والأخدود: الشق المستطيل في الأرض كالنهر، وجمعه أخاديد. واختلفوا فيهم.

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالله بن سعدان الخطيب أخبرني أبو أحمد محمد بن أحمد بن محمد بن قريش بن نوح بن رستم، ثنا أبو عبدالله محمد بن إبراهيم البوشنجي، ثنا هدبة بن خالد، ثنا حماد بن سلمة، ثنا ثابت البناني عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب، وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه، فشكا إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر، فأخذ حجراً ثم قال اللهم: إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك وكان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال ما [ههنا] لك أجمع إن أنت شفيتني، قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي عزّ وجلّ، قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ به الأكمه والأبرص وتفعل كذا وتفعل

كذا، قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، فجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد قوسه، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده على صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام ثلاثاً فأتى الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فخدت وأضرم بها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له اقتحم، قال: ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست أن تقع عليها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق».

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة.

وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: أن رجلاً كان قد بقي على دين عيسى فوقع إلى نجران فدعاهم فأجابوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير وخيرهم بين النار واليهودية، فأبوا عليه فخدّ الأخاديد وأحرق اثني عشر ألفاً، ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق، قال الكلبي: وذو نواس قتل عبدالله بن التامر.

وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر، أن خربة احتفرت في زمن عمر بن الخطاب فوجدوا عبدالله بن التامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا أميطت يده عنها انبعثت دماً وإذا تركت ارتدت مكانها، وفي يده خاتم من حديد فيه مكتوب ربي الله، فبلغ ذلك عمر فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه.

وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له: يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة، وكان في بلاده غلام يقال له عبدالله بن تامر، وكان أبوه سلمه إلى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بداً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلم وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت، فأعجبه ذلك، وذكر قريباً من معنى حديث صهيب إلى أن قال الغلام للملك: إنك لا تقدر على قتلي إلا أن تفعل ما أقول لك، قال: فكيف أقتلك؟ قال: تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترميني بسهم باسم إلهي، ففعل الملك فقتله، فقال الناس: لا إله إلا الله إله عبدالله بن تامر لا دين إلا دينه، فغضب الملك وأغلق باب المدينة وأخذ أفواه السكك وخدّ أخدوداً وملأه ناراً ثم عرضهم رجلاً رجلاً فمن رجع عن الإسلام تركه، ومن قال: ديني دين عبدالله بن تامر ألقاه في الأخدود فأحرقه، وكان في مملكته امرأة أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاث أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي عن دينك وإلا ألقيتك وأولادك في النار، فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقاه في النار، ثم قال لها: ارجعي عن دينك، فأبت،

فألقي الثاني في النار، ثم قال لها: ارجعي، فأبت، فأخذوا الصبي منها ليلقوه في النار فهمت المرأة بالرجوع، فقال الصبي: يا أماه لا ترجعي عن الإسلام فإنك على الحق، ولا بأس عليك، فألقي الصبي في النار، وألقيت أمه على أثره.

وقال سعيد بن جبير وابن أبزى: لما انهزم أهل إسفندهار قال عمر بن الخطاب: أي شيء يجري على المجوس من الأحكام فإنهم ليسوا بأهل كتاب، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بلى قد كان لهم كتاب وكانت الخمر أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله فتناول أخته فوقع عليها فلما ذهب عنه السكر ندم، وقال لها: ويحك ما هذا الذي أتيت، وما المخرج منه قالت: المخرج منه أن تخطب الناس، وتقول: إن الله قد أحل نكاح الأخوات فإذا ذهب في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمته، فقام خطيباً فقال: إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات، فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا، أو نقرَّ به، وما جاءنا به نبي ولا أنزل علينا فيه كتاب، فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا فجرد فيهم السيف. فأبوا أن يقروا. فخدّ لهم أخدوداً وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبى ولم يطعه قذفه في النار ومن أجاب خلى سبيله.

وقال الضحاك: أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذوا رجالاً ونساء فخدوا لهم أخدوداً ثم أوقدوا فيها النيران فأقاموا المؤمنين عليها، فقالوا: أتكفرون أم نقذفكم في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو الطفيل عن علي رضي الله عنه: كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي، بعث من الحبشة إلى قومه، ثم قرأ علي رضي الله عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، الآية، فدعاهم فتابعه ناس فقاتلهم فقتل أصحابه فأخذوا وأوثق من أفلت منهم فخدوا أخدوداً فملؤوها ناراً فمن اتبع النبي رُمي فيها، ومن تابعهم تركوه، فجاؤوا بامرأة ومعها صبي رضيع فجزعت، فقال الصبي: يا أماه مري ولا تنافقي.

وقال عكرمة: كانوا من النبط أحرقوا بالنار.

وقال مقاتل: كانت الأخدود ثلاثة، واحدة بنجران باليمن، وواحدة بالشام، والأخرى بفارس. أما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي، وأما التي بفارس فبختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو ذو نواس يوسف، فأما التي بالشام وفارس فلم يُنزّل الله فيهما قرآناً وأنزل في التي كانت بنجران، وذلك أن رجلاً مسلماً ممن يقرأ الإنجيل آجر نفسه في عمل، وجعل يقرأ الإنجيل فرأت بنت المستأجر النور يضيء من قراءة الإنجيل، فذكرت ذلك لأبيها فرمقه حتى رآه فسأله فلم يخبره، فلم يزل به حتى أخبره بالدين والإسلام، فتابعه هو وسبعة وثمانون إنساناً من بين رجل وامرأة، وهذا بعدما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فسمع ذلك يوسف ذو نواس فخدّ لهم في الأرض وأوقد فيها ناراً فعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه، وإن امرأة جاءت ومعها ولد صغير لا يتكلم، فلما قامت على شفير الخندق نظرت إلى ابنها فرجعت عن النار، فضربت حتى تقدمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات، فلما كانت في الثالثة ذهبت [حتى] ترجع فقال لها ابنها: يا أماه إني أرى أمامك ناراً لا تطفأ، فلما سمعت ذلك قذفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله وابنها في الجنة، فقذف في النار في يوم واحد سبعة وسبعون إنساناً. فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

(٥) ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، بدل من الأخدود، قال الربيع بن أنس: نجّى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، أي عند النار جلوس يعذبون المؤمنين. قال مجاهد: كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود.

(٧) ﴿وَهُمْ﴾، يعني الملك وأصحابه الذين خدّوا الأخدود، ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، من عرضهم على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم، ﴿شُهُودٌ﴾، حضور، وقال مقاتل: يعني يشهدون أن المؤمنين في ضلال حين تركوا عبادة الصنم.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كرهوا منهم، ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، قال مقاتل ما عابوا منهم. وقيل: ما علموا فيهم عيباً. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم بالله، ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

﴿٩﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾، من أفعالهم، ﴿شَهِيدٌ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾، عذبوا وأحرقوا، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، يقال: فتنت الشيء إذا أحرقته، نظيره: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، بكفرهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، بما أحرقوا المؤمنين. وقيل: ولهم عذاب الحريق في الدنيا، وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت إليهم من الأخدود، قاله الربيع بن أنس والكلبي.

﴿١١﴾ ثم ذكر ما أعد للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، واختلفوا في جواب القسم فقال بعضهم: جوابه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، يعني لقد قتل، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج. وقال قتادة: جوابه:

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، قال ابن عباس: إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد، كقوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، أي يخلقهم أولاً في الدنيا ثم يعيدهم أحياء بعد الموت.

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾، لذنوب المؤمنين، ﴿ٱلْوَدُودُ﴾، المحب لهم، وقيل: معناه المودود، كالحلوب والركوب، بمعنى المحلوب والمركوب. وقيل: يغفر ويود أن يغفر، وقيل: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة.

﴿١٥﴾ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿المجيد﴾ بالجر على صفة العرش أي السرير العظيم. وقيل: أراد حسنه فوصفه بالمجد كما وصفه بالكرم، فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، [ومعناه الكمال، والعرش: أحسن الأشياء وأكملها]، وقرأ الآخرون بالرفع على صفة «ذو العرش».

﴿١٦﴾ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، لا يعجزه شيء يريده ولا يمتنع منه شيء طلبه.

﴿١٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾، قد أتاك خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء، ثم بيّن من هم.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾، من قومك يا محمد، ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾، لك وللقرآن كدأب من قبلهم، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾، عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم.

﴿٢١﴾ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾، كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة.

﴿٢٢﴾ ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾، قرأ نافع «محفوظٌ» بالرفع على نعت القرآن فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير والتحريف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقرأ الآخرون بالجر على نعت اللوح وهو الذي يعرف باللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، ومنه نسخ الكتب، محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا الحسين بن محمد بن فنجويه، أنا مخلد بن جعفر، ثنا الحسن بن علويه، أنا إسماعيل بن عيسى، ثنا إسحاق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عزّ وجلّ وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة، قال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق إلى المغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور وكلامه معقود بالعرش وأصله في حجر ملك.

قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

❋ ❋ ❋

سورة الطارق

مكية [وهي سبع عشرة آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

قال الكلبي: نزلت في أبي طالب وذلك أنه أتى النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ماءً ثم ناراً، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا نجم رُمي به وهو آية من آيات الله عزّ وجلّ»، فعجب أبو طالب، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

وهذا قسم، والطارق النجم يظهر بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق.

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

(٣) ثم فسره قال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، أي المضيء المنير، قال مجاهد: المتوهج، قال ابن زيد: أراد به الثريا، والعرب تسميه النجم. وقيل: هو زحل، سُمي بذلك لارتفاعه، [تقول العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً]: قد ثقب.

(٤) ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾، جواب القسم، ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿لما﴾ بالتشديد يعنون ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل يجعلون ﴿لما﴾ بمنزلة ﴿إلا﴾ يقولون: نشدتك الله لما قمت، أي إلا قمت، وقرأ الآخرون بالتخفيف، جعلوا ﴿ما﴾ صلة، مجازه: إن كل نفس لعليها حافظ، وتأويل الآية: كل نفس عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكتسب من خير وشر.

قال ابن عباس: هم الحفظة من الملائكة. قال الكلبي: حافظ من الله يحفظها ويحفظ قولها وفعلها حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير، ثم يخلّي عنها.

(٥) ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾، أي فليتفكر من أي شيء خلقه ربه، أي فلينظر نظر المتفكر.

(٦) ثم بين فقال: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾، مدفوق أي مصبوب في الرحم، وهو المني، فاعل بمعنى مفعول كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧ والحاقة: ٢١]، والدفق الصب وأراد ماء الرجل وماء المرأة لأن الولد مخلوق منهما، وجعله واحداً لامتزاجهما.

(٧) ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، يعني صلب الرجل وترائب المرأة والترائب جمع التريبة وهي عظام الصدر والنحر.

قال ابن عباس: هي موضع القلادة من الصدر. وروى الوالبي عنه: بين ثديي المرأة. وقال قتادة: النحر: وقال ابن زيد: الصدر.

(٨) ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، قال مجاهد: على رد النطفة في الإحليل. وقال عكرمة: على رد الماء في الصلب الذي خرج منه. وقال الضحاك: إنه على رد الإنسان ماءً كما كان من قبل لقادر.

الجزء الثلاثون — سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)

٥٩١

وقال مقاتل بن حيان: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة.

وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء لقادر حتى لا يخرج.

وقال قتادة: إن الله تعالى على بعث الإنسان وإعادته بعد الموت قادر. وهذا أولى الأقاويل.

(٩) لقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وذلك يوم القيامة تبلى السرائر، تظهر الخفايا. قال قتادة ومقاتل: تختبر. قال عطاء بن أبي رباح: السرائر فرائض الأعمال، كالصوم والصلاة والوضوء والاغتسال من الجنابة، فإنها سرائر بين الله تعالى وبين العبد، فلو شاء العبد لقال: صمت ولم يصم، وصليت ولم يصل، واغتسلت ولم يغتسل، فيختبر حتى يظهر من أداها ممن ضيّعها.

قال ابن عمر: يبدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في وجوه وشيناً في وجوه، يعني من أداها كان وجهه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه أغبر.

(١٠) ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي ما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره من الله.

(١١) ثم ذكر قسماً آخر فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، أي ذات المطر لأنه يرجع كل عام ويتكرر. وقال ابن عباس: هو السحاب يرجع المطر.

(١٢) ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، أي تتصدع وتنشق عن النبات والأشجار والأنهار.

(١٣) وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾، يعني القرآن، ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، حق وجد يفصل بين الحق والباطل.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، باللعب والباطل.

(١٥) ثم أخبر عن مشركي مكة فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، يخافون النبي ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، وكيد الله استدراجه إياهم من حيث لا يعلمون.

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قال ابن عباس: هذا وعيد من الله عزّ وجلّ لهم، ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، قليلاً ومعنى مهل وأمهل: انظر ولا تعجل فأخذهم الله يوم بدر، ونسخ الإمهال بآية السيف.

❁ ❁ ❁

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، يعني قل سبحان ربي الأعلى وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد، أنا أحمد بن عبدالله محمد بن عبدالله، ثنا عبدالله بن عمر بن أبان، ثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم بن البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فقال: «سبحان ربي الأعلى».

وقال قوم: معناه نزّه ربك الأعلى عمّا يصفه به الملحدون، وجعلوا الاسم صلة، ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحداً إلا أن أحداً لا يقول: سبحان اسم الله، وسبحان اسم ربنا، إنما يقولون: سبحان الله وسبحان ربنا، فكان معنى سبح اسم ربك الأعلى: سبّح ربّك. وقال آخرون: نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت معظم ولذكره محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية.

وقال ابن عباس: سبح أي صلّ بأمر ربك الأعلى.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، قال الكلبي: خلق كل ذي روح، فسوى اليدين والرجلين والعينين. قال الزجاج: خلق الإنسان مستوياً، ومعنى سوّى: عدل قامته.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، قرأ الكسائي ﴿قَدَرَ﴾ بتخفيف الدال، وشددها الآخرون، وهما بمعنى واحد.

وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتعها.

وقال مقاتل والكلبي: قدر لكل شيء مسلكه فهدى، عرّفها كيف يأتي الذكر الأنثى.

وقيل: قدر الأرزاق وهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش.

وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها.

وقال السدي: قدر مدة الجنين في الحرم ثم هداه للخروج من الرحم.

قال الواسطي: قدر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسر لكل واحد من الطائفتين سلوك سبيل ما قدر عليه.

(٤) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، أنبت العشب وما ترعاه النعم، من بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾، بعد الخضرة، ﴿غُثَآءً﴾، هشيماً بالياً، كالغثاء الذي تراه فوق السيل. ﴿أَحْوَىٰ﴾، أسود بعد الخضرة، وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس اسودّ.

(٦) ـ (٧) ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، سنعلمك بقراءة جبريل عليك، ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أن تنساه، وما نسخ الله تلاوته من القرآن، كما قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، والإنساء نوع من النسخ.

وقال مجاهد والكلبي: كان

النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل عليه السلام لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، فلم ينس بعد ذلك شيئاً.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾، من القول والفعل، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾، منهما، والمعنى: أنه يعلم السر والعلانية.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، قال مقاتل: نهون عليك عمل أهل الجنة، وهو معنى قول ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيراً، واليسرى عمل الخير. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة. وقيل: هو متصل بالكلام الأول معناه: أنه يعلم الجهر مما تقرأه على جبريل إذا فرغ من التلاوة، (وما يخفى) ما تقرأه في نفسك مخافة النسيان، ثم وعده فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه.

(٩)، ﴿فَذَكِّرْ﴾ عظ بالقرآن، ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، الموعظة والتذكير، والمعنى: نفعت أو لم تنفع، ولم يذكر الحالة الثانية، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وأراد الحر والبرد جميعاً.

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾، سيتعظ، ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾، الله عزّ وجلّ.

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، أي يتجنب الذكرى ويتباعد عنها، ﴿ٱلْأَشْقَى﴾، الشقي في علم الله.

(١٢) ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، العظيمة والفظيعة لأنها أعظم وأشد حراً من نار الدنيا.

(١٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، فيستريح، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، حياة تنفعه.

(١٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، تطهر من الشرك وقال: لا إله إلا الله، هذا قول عطاء وعكرمة، ورواية الوالبي وسعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الحسن: من كان عمله زاكياً. وقال آخرون: هو صدقة الفطر، روي عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قال: أعطى صدقة الفطر.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، قال خرج إلى العيد فصلى صلاته، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدق ثم صلى، ثم يقرأ هذه الآية.

وقال نافع: كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني من يوم العيد قال: يا نافع أخرجتَ الصدقة؟ فإن قلت: نعم مضى إلى المصلى، وإن قلت لا قال فالآن فأخرج فإنما نزلت هذه الآية في هذا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وهو قول أبي العالية وابن سيرين.

وقال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل؟ لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر.

قال الشيخ الإمام محيي السنة رحمه الله: يجوز أن يكون النزول سابقاً عل الحكم كما قال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢].

فالسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح حتى قال عليه الصلاة

الجزء الثلاثون — سورة الغاشية

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

٥٩٢

والسلام: «أحلت لي ساعة من نهار» وكذلك نزل بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر».

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي وذكر ربه فصلى، وقيل: الذكر تكبيرات العيد والصلاة صلاة العيد، وقيل: الصلاة ههنا الدعاء.

(١٦) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالياء يعني الأشقين الذين ذكروا وقرأ الآخرون بالتاء دليله قراءة أبي بن كعب «بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا».

(١٧) ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، قال

عرفجة الأشجعي: كنا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قلنا: لا. قال: لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وأن الآخرة نعتت لنا وزويت عنا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل.

(١٨) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، يعني ما ذكر من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، إلى أربع آيات، ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، أي: الكتب الأولى التي أنزلت قبل القرآن ذكر فيها فلاح المتزكي والمصلي وإيثار الخلق الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى.

(١٩) ثم بيّن الصحف فقال: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، قال عكرمة والسدي: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا محمد بن أحمد [بن محمد] بن معقل الميداني، ثنا محمد بن يحيى، ثنا سعيد بن كثير، ثنا يحيى بن أيوب عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة. قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وفي الوتر بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

❁ ❁ ❁

سورة الغاشية

مكية [وهي ست وعشرون آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، قد أتاك حديث القيامة تغشى كل شيء بالأهوال.

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿خَاشِعَةٌ﴾، ذليلة.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة، وهو قول سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، ومعنى النصب: الدأب في العمل بالتعب.

وقال عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في الآخرة في النار.

وقال بعضهم: عاملة في النار ناصبة فيها.

قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل، والأغلال، وبه قال قتادة: وهي رواية العوفي عن ابن عباس.

قال ابن مسعود: تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، قال الكلبي: يجرون على وجوههم في النار. وقال الضحاك: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في النار، والكلام خرج على الوجوه والمراد منها أصحابها.

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾، قرأ أهل البصرة وأبو بكر ﴿تُصلى﴾ بضم التاء اعتباراً بقوله: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، وقرأ الآخرون بفتح التاء، ﴿حَامِيَةً﴾، قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها ورداً عطاشاً. قال المفسرون: لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت، هذا شرابهم ثم ذكر طعامهم.

(٦) فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: هو نبت ذو شوك لاطئ بالأرض، تسميه قريش الشبرق فإذا هاج سموها الضريع، وهو أخبث طعام وأبشعه. وهو رواية العوفي عن ابن عباس. قال الكلبي: لا تقربه دابة إذا يبس. قال ابن زيد: أما في الدنيا فإن الضريع: الشوك اليابس الذي يبس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، جاء في الحديث عن ابن عباس: الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حراً من النار، قال أبو الدرداء والحسن: إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بالضريع، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصّة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء، فيستسقون، فيعطشهم ألف سنة، ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة ولا مريئة، كلما أدنوه من وجوههم، سلخ جلود

وجوههم وشواها فإذا وصل إلى بطونهم قطعها فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن على الضريع، وكذبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً تسمى شبرقاً فإذا يبس لا يأكله شيء.

﴿٧﴾ فأنزل الله ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

﴿٨﴾ ثم وصف أهل الجنة فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾، قال مقاتل في نعمة وكرامة.

﴿٩﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا﴾، في الدنيا، ﴿رَاضِيَةٌ﴾، في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها.

﴿١٠﴾ ـ ﴿١١﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾. لغوٌ وباطل قرأ أهل مكة والبصرة ﴿لا يسمع﴾ بالياء وضمها، ﴿لاغية﴾ رفع، وقرأ نافع بالتاء وضمها ﴿لاغيةٌ﴾ رفع، وقرأ الآخرون بالتاء وفتحها ﴿لاغية﴾ بالنصب على الخطاب للنبي ﷺ.

﴿١٢﴾ ـ ﴿١٣﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۞ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾، قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترتفع إلى مواضعها.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾، عندهم. جمع كوب، وهو إلا بريق الذي لا عروة له.

﴿١٥﴾ ﴿وَنَمَارِقُ﴾، وسائد ومرافق، ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، بعضها بجنب بعض واحدتها «نُمرقة» بضم النون.

﴿١٦﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ﴾، يعني البسط العريضة قال ابن عباس: هي الطنافس التي لها خمل واحدتها زربية ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾، مبسوطة، وقيل: متفرقة في المجالس.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

قال أهل التفسير: لما نعت الله تعالى في هذه السورة ما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه، فذكّرهم الله تعالى صنعه فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، وكانت الإبل من عيش العرب، لهم فيها منافع كثيرة فكما صنع لهم ذلك في الدنيا صنع لأهل الجنة فيها ما صنع وتكلمت الحكماء في وجه تخصيص الإبل من بين سائر الحيوانات.

فقال مقاتل: لأنهم لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا الشاذ منهم.

وقال الكلبي: لأنها تنهض بحملها وهي باركة، وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع سرر الجنة وفرشها، فقالوا: كيف نصعدها فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة؟ فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد بها، ثم هو خنزير لا يركب ظهرها ولا يؤكل لحمها ولا يُحلب درها، والإبل من أعز مال للعرب وأنفسه تأكل النوى والقت وتخرج اللبن. وقيل: إنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف: حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، عن الأرض بغير عمد حتى لا ينالها شيء بغيرها.

﴿١٩﴾ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، على وجه الأرض مرساة لا تزول.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، بسطت، قال عطاء عن ابن عباس: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال أو يسطح مثل الأرض غيري؟

﴿٢١﴾ ـ ﴿٢٢﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، بمسلط فتقتلهم وتكرههم على الإيمان نسختها آية القتال.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾، استثناء منقطع عما قبله، معناه لكن من تولى، ﴿وَكَفَرَ﴾، بعد التذكير.

﴿٢٤﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وهو أن يدخله النار وإنما قال الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾، رجوعهم بعد الموت، يقال: آب يؤوب أوباً وإياباً، وقرأ أبو جعفر ﴿إيّابهم﴾ بتشديد الياء، وهو شاذ لم يجزهُ أحد غير الزجاج فإنه قال يقال: أيب إيّاباً، على فعل فيعالاً.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، يعني

الجزء الثلاثون — سورة الفجر

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

٥٩٣

جزاءهم بعد المرجع إلى الله عزّ وجلّ.

***

سورة الفجر

مكية وهي ثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم الله عزّ وجلّ بالفجر، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو انفجار الصبح كل يوم. وهو قول عكرمة: وقال عطية عنه: صلاة الفجر. وقال قتادة: هو فجر أول يوم من المحرم، تنفجر منه السنة. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة لأنه قرن به الليالي العشر.

﴿٢﴾ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، روي عن ابن عباس: أنها العشر الأول من ذي الحجة. وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدي والكلبي: وقال أبو روق عن الضحاك: هي العشر الأول من شهر رمضان. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: هي العشر الأواخر من شهر رمضان. وقال يمان بن رباب هي العشر الأول من المحرم التي عاشِرُها يوم عاشوراء.

﴿٣﴾ ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، قرأ حمزة والكسائي الوتر بكسر الواو، وقرأ الآخرون بفتحها، واختلفوا في الشفع والوتر، قيل: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨] والوَتْر: هو الله عزّ وجلّ. روي ذلك عن أبي سعيد الخدري، وهو قول عطية العوفي، وقال مجاهد ومسروق: الشفع الخلق كله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، الكفر والإيمان، والهدى والضلالة، والسعادة والشقاوة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والبر والبحر، والشمس والقمر، والجن والإنس، والوتر هو الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الاخلاص: ١]، قال الحسن وابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله منه شفع ومنه وتر. وروى قتادة عن الحسن قال: هو العدد منه شفع ومنه وتر.

وقال قتادة: هي الصلوات منها شفع ومنها وتر. وروي ذلك عن عمران بن حصين مرفوعاً.

وروى عطية عن ابن عباس: الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب.

وعن عبدالله بن الزبير قال: الشفع يوم النفر الأول، والوتر يوم النفر الأخير.

روي أن رجلاً سأله عن الشفع والوتر والليالي العشر، فقال: أما الشفع والوتر فقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فهما الشفع والوتر، وأما الليالي العشر فالثمان وعرفة والنحر.

وقال مقاتل بن حيان: الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة.

وقال الحسين بن الفضل: الشفع درجات الجنة لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، كأنه أقسم بالجنة والنار، وسئل أبو بكر الوراق عن الشفع والوتر فقال: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والبصر والعمى، والحياة والموت، والوتر انفراد صفات الله عِزٌّ بلا ذُلّ، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف. وعلم بلا جهل، وحياة بلا ممات.

﴿٤﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، أي إذا سار وذهب كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، وقال قتادة: إذا جاء وأقبل، وأراد كل ليلة. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: هي ليلة المزدلفة، قرأ أهل الحجاز والبصرة

﴿يسري﴾ بالياء في الوصل ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء أيضاً، والباقون يحذفونها في الحالين، فمن حذف فلِوفَاق رؤوس الآي، ومن أثبت فلأنها لام الفعل، والفعل لا يحذف منه في الوقف. نحو قوله: هو يقضي وأنا أقضي، وسئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء، فقال: الليل لا يسري ولكن يسرى فيه، فهو مصروف فلما صرفه بخسه حقه من الإعراب، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، ولم يقل بغية لأنها صرفت من باغية.

﴿٥﴾ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكرت، ﴿قَسَمٌ﴾، أي مقنع ومكتفى في القسم، ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾، لذي عقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عمّا لا يحل ولا ينبغي، كما يسمى عقلاً، لأنه يعقله عن القبائح، ونهى لأنه ينهى عما لا ينبغي، وأصل الحجر المنع وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، واعترض بين القسم وجوابه قوله عزّ وجلّ:

﴿٦﴾ ـ ﴿٧﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، قال الفراء: ألم تخبر. وقال الزجاج: ألم تعلم ومعناه التعجب. ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ﴾، يخوّف أهل مكة يعني كيف أهلكهم، وهم كانوا أطول أعماراً وأشد قوة من هؤلاء، واختلفوا في إرم ذات العماد، فقال سعيد بن المسيب: دمشق، وبه قال عكرمة، وقال القرظي: هي الإسكندرية، وقال مجاهد: هي أمة. وقيل: معناها القديمة. وقال قتادة ومقاتل: هم قبيلة من عاد.

قال مقاتل: كان فيهم الملك وكانوا بمهرة وكان عاد أباهم فنسبهم إليه وهو إرم بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. وقال محمد بن إسحاق هو جد عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

وقال الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود [وأهل السواد] وأهل الجزيرة، كان يقال: عاد إرم وثمود إرم، فأهلك الله عاداً ثم ثمود وبقي أهل السواد والجزيرة، وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزروع، ومنازلهم بوادي القرى، وهي التي يقول الله فيها.

﴿٨﴾ ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾، وسموا ذات العماد لهذا لأنهم كانوا أهل عمد سيارة، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي، ورواية عطاء عن ابن عباس، وقال بعضهم: سموا ذلك العماد لطول قامتهم. قال ابن عباس: يعني طولهم مثل العماد. وقال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً. وقوله: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقيل: سموا ذات العماد لبناء بناه بعضهم فشيد عمده، ورفع بناءه، يقال: بناه شداد بن عاد على صفة لم يخلق في الدنيا مثله وسار إليه في قومه، فلما كان منه على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى قومه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً.

﴿٩﴾ ﴿وَثَمُودَ﴾، أي وبثمود ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾، قطعوا الحجر، صخرة واحدتها ﴿بِالْوَادِ﴾، يعني وادي القرى كانوا يقطعون الجبال فيجعلون فيها بيوتاً، وأثبت ابن كثير ويعقوب الياء في الوادي وصلاً ووقفاً على الأصل، وأثبتها ورش وصلاً، والآخرون بحذفها في الحالين على وفق رؤوس الآي.

﴿١٠﴾ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾، سمي بذلك لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد، وقد ذكرناه في سورة ص [١٢].

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا ابن فنجويه، ثنا مخلد بن جعفر، ثنا الحسن بن علويه، ثنا إسماعيل بن عيسى، ثنا إسحاق بن بشر عن ابن سمعان عن عطاء عن ابن عباس: أن فرعون إنما سمي ذا الأوتاد لأنه كانت له امرأة، وهي امرأة خازن فرعون حزبيل، وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون.

فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت بنت فرعون: وهل لك من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت، فقال لها: ويحك اكفري

بإلهك وأقري بأني إلهك، قالت: لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب، وقال لها: اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين، فقالت له: ولو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله، وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على قرب منها، وقال لها: اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك، وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت من على وجه الأرض على في ما كفرت بالله عزّ وجلّ، فأتى بابنتها الصغرى فلما اضطجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً، فقالت: يا أماه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته، فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة.

قال: وبعث في طلب زوجها حزبيل فلم يقدروا عليه، فقيل لفرعون: إنه قد رؤي في موضع كذا في جبل كذا، فبعث رجلين في طلبه فانتهيا إليه وهو يصلي ويليه صفوف من الوحوش خلفه يصلون، فلما رأيا ذلك انصرفا، فقال حزبيل: اللهم إنك تعلم أني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر عليّ أحد، فأيما هذان الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤله، وأيما هذين الرجلين أظهر علي فعجّل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن، وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال له فرعون: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم فلان، فدعا به فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله، ثم صلبه، قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت: يا فرعون أنت شر الخلق وأخبثهم عمدت إلى الماشطة فقتلتها، قال: فلعلّ بك الجنون الذي كان بها قالت ما بي من جنون، وإن إلهي وإلهك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان أن الجنون كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والأرض واحد لا شريك له، فقال أبوها: يا آسية ألستِ من خير نساء العالمين وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك، إن كان ما يقول حقاً فقولا له أن يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله، فقال لهما فرعون: اخرجا عني، فمدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهوّن عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فقبض الله روحها وأسكنها الجنة.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، يعني عاداً وثمود وفرعون، عملوا في الأرض بالمعاصي وتجبروا.

(١٢) ـ (١٣) ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، قال قتادة: يعني لوناً من العذاب صبه عليهم، قال أهل المعاني: هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب، فجرى ذلك لكل نوع من العذاب. قال الزجاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، قال ابن عباس: يعني بحيث يرى ويسمع ويبصر ما تقول وتفعل وتهجس به العباد. قال الكلبي: عليه طريق العباد لا يفوته أحد. قال مقاتل: ممر الناس عليه والمرصاد، والمرصد: الطريق. وقيل: مرجع الخلق إلى حكمه وأمره وإليه مصيرهم. وقال الحسن وعكرمة: يرصد أعمال بني آدم. المعنى: أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت من هو بالمرصاد. وقال السدي: أرصد [الله النار] على طريقهم حتى يهلكهم.

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾، امتحنه، ﴿رَبُّهُۥ﴾، بالنعمة، ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾، بالمال، ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾، بما وسع عليه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، بما أعطاني.

(١٦) ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾، بالفقر، ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾، قرأ أبو جعفر

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ

آياتها ٢٠ — ترتيبها ٩٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمْسِ — آياتها ١٥ — ترتيبها ٩١

وابن عامر ﴿فقدر﴾ بتشديد الدال، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان أي ضيق عليه رزقه. وقيل: قدر بمعنى قتر وأعطاه قدر ما يكفيه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾، أذلني بالفقر. وهذا يعني به الكافر، تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلته. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر، فرد الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة.

﴿١٧﴾ فقال: ﴿كَلَّا﴾ لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته. قرأ أهل الحجاز والبصرة ﴿أكرمني وأهانني﴾، بإثبات الياء في الوصل، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء أيضاً، والآخرون يحذفونها وصلاً ووقفاً. ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، قرأ أهل البصرة (يكرمون، ويحضون، ويأكلون، ويحبون) بالياء فيهن، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ لا تحسنون إليه. وقيل: لا تعطونه حقه. قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف وكان يدفعه عن حقه.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي لا تأمرون بإطعامه، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة ﴿تحاضون﴾ بفتح الحاء وألف بعدها، أي لا يحض بعضكم بعضاً عليه.

﴿١٩﴾ ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾، أي الميراث، ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾، شديداً وهو أن يأكل نصيبه ونصيب غيره، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون نصيبهم. قال ابن زيد: الأكل اللم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل عنه أحلال هو أم حرام، ويأكل الذي له ولغيره، يقال: لممت ما على الخوان إذا أتيت ما عليه فأكلته.

﴿٢٠﴾ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. أي كثيراً، يعني: تحبون جمع المال وتولعون به، ويقال: جم الماء في الحوض، إذا كثر واجتمع.

﴿٢١﴾ ﴿كَلَّآ﴾، ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر.

وقال مقاتل: أي لا يفعلون ما أمروا به من إكرام اليتيم وإطعام المسكين، ثم أخبر عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم، فقال عزّ من قائل: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، مرة بعد مرة وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبق على ظهرها شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، قال الحسن: جاء أمره وقضاؤه. وقال الكلبي: ينزل حكمه، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كل سماء صف على حدة. قال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً مختلطين بالأرض ومن فيها فيكون سبعة صفوف.

﴿٢٣﴾ ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، قال عبدالله بن مسعود ومقاتل في هذه الآية: تقاد جهنم سبعين ألف زمام كل زمام [بيد] سبعين ألف ملك، لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم يجاء بجهنم، ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، يتعظ ويتوب الكافر، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، قال الزجاج: يظهر التوبة ومن أين له التوبة؟

﴿٢٤﴾ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، أي قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة، أي لآخرتي التي لا موت فيها.

﴿٢٥﴾ ـ ﴿٢٦﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، قرأ الكسائي ويعقوب ﴿لَا يُعَذَّبُ﴾، ﴿وَلَا يُوثَقُ﴾ بفتح الذال والثاء على معنى لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله يومئذ، ولا يوثق كوثاقه يومئذ،

وقيل: هو رجل بعينه. وهو أمية بن خلف. يعني لا يعذب كعذاب هذا الكافر أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، وقرأ الآخرون بكسر الذال والثاء، أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كوثاقه أحد، يعني لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب، والوثاق وهو الإسار في السلاسل والأغلال.

﴿٢٧﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، إلى ما وعد الله المصدقة بما قال الله. قال مجاهد: المطمئنة التي أيقنت أن الله تعالى ربها وصبرت جأشاً لأمره وطاعته. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة. وقال عطية: الراضية بقضاء الله تعالى. وقال الكلبي الآمنة من عذاب الله. وقيل المطمئنة بذكر الله، بيانه قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، واختلفوا في وقت هذه المقالة، فقال قوم: يقال لها ذلك عند الموت فيقال لها:

﴿٢٨﴾ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى الله، ﴿رَاضِيَةً﴾، بالثواب، ﴿مَّرْضِيَّةً﴾، عنك، وقال الحسن: إذا أراد الله قبضها اطمأنت إلى الله ورضيت عن الله ورضي الله عنها.

قال عبدالله بن عمرو: إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عزّ وجلّ ملكين وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان ورب عنك راض، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملائكة على أرجاء السماء يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة. فلا تمر بباب إلا فتح لها ولا بملك إلا صلى عليها، حتى يؤتى بها الرحمن فتسجد، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه، وسبعون ذراعاً طوله، وينبذ له فيه الرحيان، وإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نوره مثل الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه. وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين وأرسل [إليه] قطعة من بجاد أنتن وأخشن من كل خشن، فيقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى جهنم وعذاب أليم ورب عليك غضبان.

وقال أبو صالح في قوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، قال: هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

وقال آخرون إنما يقال لها ذلك عند البعث ارجعي إلى ربك، أي إلى صاحبك وجسدك، فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد، وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس.

وقال الحسن: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته راضية عن الله بما أعد لك، مرضية رضي عنها ربك.

﴿٢٩﴾ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾، أي مع عبادي في جنتي. وقيل: في جملة عبادي الصالحين المطيعين المصطفين، نظيره: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٩].

﴿٣٠﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، وقال بعض أهل الإشارة: يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا ارجعي إلى الله بتركها، والرجوع إلى الله هو سلوك سبيل الآخرة.

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ير على صورة خلقه فدخل نعشه، ثم لم يُرَ خارجاً منه فلما دفن تُلِيت هذه الآية على شفير القبر، ولم نذر من قرأها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

❁ ❁ ❁

سورة البلد

مكية وهي عشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾، يعني أقسم، ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، يعني مكة.

﴿٢﴾ ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا﴾، أي حلال، ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم أحل الله لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح، حتى قاتل وقتل وأمر بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صُبابة وغيرهما، فأحل دماء قوم وحرّم دماء قوم.

فقال: «ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

ثم قال: «إن الله حرّم مكة يوم

خلق السموات والأرض ولم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

والمعنى: أن الله تعالى لما أقسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع حرمتها فوعد نبيه ﷺ أنه يحلها له حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده، فهذا وعد من الله عزّ وجلّ بأن يحلها له. قال شرحبيل بن سعد: ومعنى قوله وأنت حلّ بهذا البلد، قال: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويستحلون إخراجك وقتلك؟

(٣) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، يعني آدم عليه السلام وذريته.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، روى الوالبي عن ابن عباس: في نصب. قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة: في مشقة فلا تلقاه إلا يكابد أمر الدنيا [والآخرة]. وقال سعيد بن جبير: في شدة. وقال عطاء عن ابن عباس: في شدة خلق حمله وولادته ورضاعه، وفطامه وفصاله ومعاشه وحياته وموته. وقال عمرو بن دينار: عند نبات أسنانه. قال يمان: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق. وأصل الكبد: الشدة. وقال مجاهد وعكرمة وعطية والضحاك: يعني منتصباً معتدل القامة، وكل شيء خلق فإنه يمشي مكبا [إلا الإنسان فإنه خلق منتصبا] وهي رواية مقسم عن ابن عباس: والكبد الاستواء والاستقامة. وقال ابن كيسان: منتصباً رأسه في بطن أمه فإذا أذن الله في خروجه انقلب رأسه إلى رجلي أمه. وقال مقاتل: في كبد أي في قوة نزلت في أبي الأشدين واسمه أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا، فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ﴾، يعني أبا الأشدين من قوته، ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي يظن من شدته أن لن يقدر عليه الله تعالى. وقيل: هو الوليد بن المغيرة.

(٦) ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾، يعني أنفقت، ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾، أي كثيراً بعضه على بعض من التلبيد في عداوة محمد ﷺ. قرأ أبو جعفر لبداً بتشديد الباء على جمع لابد، مثل راكع وركع، وقرأ الآخرون بالتخفيف على جمع «لبدة»، وقيل على الواحد مثل قُثم وحطم.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، قال سعيد بن جبير وقتادة: أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟ وقال الكلبي: إنه كان كاذباً في قوله أنفقت كذا وكذا، ولم يكن أنفق جميع ما قال يقول أيظن أن الله عزّ وجلّ لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته ثم ذكره نعمه ليعتبر.

(٨) ـ (٩) فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾، قال قتادة: نعم الله متظاهرة يقررك بها كيما تشكره.

وجاء في الحديث: «إن الله عزّ وجلّ يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقتين، فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق».

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، قال: أكثر المفسرين طريق الخير والشر، والحق والباطل، الهدى والضلالة، كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقال محمد بن كعب عن ابن عباس: وهديناه النجدين قال الثديين، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك: والنجد: طريق في ارتفاع.

(١١) ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، يقول: فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام السغبان، فيكون خيراً له من إنفاقه على عداوة محمد ﷺ، هذا قول ابن زيد وجماعة.

وقيل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي لم يقتحمها ولا جاوزها. والاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، وذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة، تقول: لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة ولا الإطعام، وهذا معنى قول قتادة وقيل: إنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وأطعم كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها.

وروي عن ابن عمر: أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقال الحسن

الجزء الثلاثون — سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

٥٩٥

وقتادة: عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله تعالى.

وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي صراط يضرب على جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً، وإن بجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان، فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكردس في النار منكوس، فمن الناس من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم من يمرّ كالفارس، ومنهم من يمر عليه كالرجل يعدو، ومنهم من يمر كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم الزالون، ومنهم من يكردس في النار.

قال ابن زيد: يقول فهلا سلك الطريق التي فيها النجاة ثم بين ما هي فقال:

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾، ما اقتحام العقبة، قال سفيان بن عيينة: كل شيء، قال: وما أدراك فإنه أخبر به، وما قال: وما يدريك فإنه لم يخبر به.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿فك﴾ بفتح الكاف، ﴿رقبة﴾ نصب، ﴿أو أطعم﴾ بفتح الهمزة والميم على الماضي، وقرأ الآخرون ﴿فك﴾ برفع الكاف، ﴿رقبة﴾ جراً، ﴿أَوْ إِطْعَامٌ﴾ على المصدر، وأراد بفك الرقبة إعتاقها وإطلاقها، ومن أعتق رقبة كانت الرقبة فداءه من النار.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، ثنا أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني ابن الهاد، عن عمر بن علي بن حسين، عن سعيد بن مرجانة قال: سمعته يحدث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، حتى يعتق فرجه بفرجه».

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا محمد بن كثير العبدي، ثنا عيسى بن عبدالرحمن السُلمي عن طلحة بن مصرّف اليامي عن عبدالرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة، قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة»، قال: قلت: أو ليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة: أن تعين في ثمنها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير».

وقال عكرمة قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، يعني فك رقبة من الذنوب بالتوبة ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، مجاعة، يقال: سغب يسغب سغباً إذا جاع.

﴿١٥﴾ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي ذا قرابة يريد يتيماً بينك وبينه قرابة.

﴿١٦﴾ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، قد لصق بالتراب من فقره وضره. وقال مجاهد عن ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء، والمتربة مصدر ترب يترب ترباً ومتربة إذا افتقر.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم بين أن هذا القرب إنما تنفع مع الإيمان، وقيل: ﴿ثم﴾ بمعنى الواو، ﴿وَتَوَاصَوْا﴾، أوصى بعضهم بعضاً، ﴿بِالصَّبْرِ﴾، على فرائض الله

وأوامره، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، برحمة الناس.

⑱ ⑲ ⑳ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾، مطبقة عليهم أبوابها لا يدخل فيها روح ولا يخرج منها غم، قرأ أبو عمرو وحمزة وحفص بالهمزة ها هنا، وفي الهمزة وقرأ الآخرون بلا همز وهما لغتان، يقال: آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته، وقيل: معنى الهمزة المطبقة وغير الهمزة المغلقة.

❁ ❁ ❁

سورة الشمس

مكية [هي خمس عشرة آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

① ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، قال مجاهد والكلبي: ضوؤها، والضحى: حين تطلع الشمس، فيصفو ضوؤها. قال قتادة: هو النهار كله. وقال مقاتل: حرها، كقوله في «طه» ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [١١٩]، يعني لا يؤذيك الحر.

② ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾، تبعهاوذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس، تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور. وقال الزجاج: وذلك حين استدار، يعني كمل ضوؤه فصار تابعاً للشمس في الإنارة وذلك في الليالي البيض.

③ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾، يعني إذا جلى الظلمة كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً.

④ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، يعني يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

⑤ ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾، قال الكلبي ومن بناها وخلقها كقوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، أي من طاب. قال عطاء: يريد والذي بناها، وقال الفراء والزجاج: ﴿ما﴾ بمعنى المصدر، أي وبنائها كقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧].

⑥ ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾، بسطها.

⑦ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، عدل خلقها وسوى أعضاءها، قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجن والإنس.

⑧ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، قال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة: بيّن لها الخير والشر. وقال في رواية عطية: علمها الطاعة والمعصية. وروى الكلبي عن أبي صالح عنه: عرّفها ما تأتي وما تتقي. وقال سعيد بن جبير: ألزمها فجورها وتقواها. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك يعني بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور. واختار الزجاج هذا، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان، وهذا يبيّن أن الله عزّ وجلّ خلق في المؤمن التقوى وفي الكافر الفجور.

أنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين بن عبدالله، ثنا موسى بن محمد، ثنا علي بن عبدالله، أنا عبدالله بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن إبراهيم، أنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر، عن الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قد قضي عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً، وقلت: إنه ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: سددك الله إنما سألتك لأختبر عقلك إن رجلاً من جهينة أو مزينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم [به] نبيهم وأكدت به عليهم الحجة؟ فقال: «لا بل شيء قد قضي عليهم ومضى فيهم»، قال قلت: ففيم العمل إذاً؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه الله لها، وتصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد، ثنا زهير بن معاوية عن أبي

الزبير عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، أرأيت عمرتنا هذه ألعامنا هذا أم للأبد؟ قال: بل للأبد، قال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أو فيما يُستقبل؟ قال: «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: فقال كلمة خفيت عليّ، فسألت عنها نسيبي بعدُ، فذكر أنه سمعها، فقال: «اعملوا فإن كلاً ميسر لما خلق له».

﴿٩﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، وهذا موضع القسم أي فازت وسعدت نفس زكاها الله، أي أصلحها وطهرها من الذنوب ووفقها للطاعة.

﴿١٠﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي خابت وخسرت نفس أضلها الله فأفسدها، وقال الحسن: معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزّ وجلّ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أهلكها وأضلها وحملها على المعصية، فجعل الفعل للنفس، ودسّاها أصله: دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأبدلت السين الثانية ياءً، والمعنى ههنا: أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي، أنا عبدالله بن محمد بن مسلم، ثنا أبو بكر الجوربذي، ثنا أحمد بن حرب، ثنا أبو معاوية عن عاصم، عن أبي عثمان وعبد الله بن الحارث، عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا ما قال رسول الله ﷺ لنا: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهمّ وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

﴿١١﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، بطغيانها وعدوانها أي الطغيان حملهم على التكذيب.

﴿١٢﴾ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾، أي قام، والانبعاث: هو الإسراع في الطاعة للباعث، أي كذبوا بالعذاب وكذبوا صالحاً لما انبعث أشقاها وهو: قدار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً قام لعقر الناقة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا موسى بن إسماعيل، ثنا وهيب، ثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبدالله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة».

﴿١٣﴾ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، [أي احذروا عقر ناقة الله. وقال الزجاج منصوب على معنى ذروا ناقة الله، ﴿وسقياها﴾، شربها] أي ذروا ناقة الله وذروا شربها من الماء، فلا تعرضوا للماء يوم شربها.

﴿١٤﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، يعني صالحاً، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، يعني الناقة.

﴿١٥﴾ ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾، قال عطاء ومقاتل: فدمر عليهم ربهم فأهلكهم. قال المؤرج: الدمدمة الهلاك باستئصال. ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾، بتكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، فسوى الدمدمة عليهم جميعاً، وعمهم بها فلم يفلت منهم أحد. وقال الفراء: سوى الأمة وأنزل العذاب بصغيرها وكبيرها، يعني سوى بينهم، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾، قرأ أهل المدينة والشام «فلا» بالفاء وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو وهكذا في مصاحفهم ﴿عقباها﴾ عاقبتها. قال الحسن: معناه لا يخاف الله من أحد تبعة في إهلاكهم. وهي رواية [علي بن أبي طلحة] عن ابن عباس: وقال الضحاك والسدي والكلبي: هو راجع إلى العاقر، وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره: إذا انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها.

* * *

سورة الليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، أي يغشى النهار بظلمة فيذهب بضوئه

﴿٢﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، بان وظهر من بين الظلمة.

﴿٣﴾ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، يعني

ومن خلق، وقيل: هي ﴿ما﴾ المصدرية أي خلق الذكر والأنثى.

قال مقاتل والكلبي: يعني آدم وحواء وفي قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء والذكر والأنثى جواب القسم.

(٤) قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، إن أعمالكم لمختلفة فساع في فكاك نفسه وساع في عطبها.

روى أبو مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، ماله في سبيل الله، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾، ربه.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، قال أبو عبدالرحمن السلمي والضحاك: وصدّق بلا إله إلا الله، هي رواية عطية عن ابن عباس. وقال مجاهد: بالجنة دليله قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] يعني الجنة. وقيل: صدّق بالحسنى أي بالخلف، أي أيقن أن الله تعالى سيخلفه. وهي رواية عكرمة عن ابن عباس. وقال قتادة ومقاتل والكلبي: بموعود الله عزّ وجلّ الذي وعده أن يفي به.

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾، فسنهيئه في الدنيا، ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي للخلة اليسرى وهي العمل بما يرضاه الله عزّ وجلّ:

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾، بالنفقة في الخير، ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾، عن ثواب الله فلم يرغب فيه.

(٩) ـ (١٠) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾، سنهيئه للشر بأن نجزيه على يديه حتى يعمل بما لا يرضى الله، فيستوجب به النار. قال مقاتل: نعسر عليه أن يأتي خيراً.

وروينا عن علي عن النبي ﷺ قال: «ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها في الجنة أو النار»، فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «لا ولكن اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعادة»، ثم تلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

قيل: نزلت في أبي بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشر أواق، فأعتقه فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يعني سعي أبي بكر وأمية.

وروى علي بن حُجر عن إسحاق عن أبي نجيح عن عطاء، قال: كان لرجل من الأنصار نخلة وكان له جار يسقط من بلحها في داره، وكان صبيانه يتناولون منه فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «بعنيها بنخلة في الجنة فأبى»، فخرج فلقيه أبو الدحداح، فقال له: هل لك أن تبيعها بحش، يعني حائطاً له، فقال: هي لك فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتشتريها مني بنخلة في الجنة، قال: «نعم» قال: هي لك، فدعا النبي ﷺ جار الأنصاري فقال: «خذها». فأنزل الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [في أبي] الدحداح والأنصاري صاحب النخلة، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، أبو الدحداح، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ يعني الجنة، ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ يعني الأنصاري، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ يعني الثواب، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾، يعني النار.

(١١) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾، الذي بخل به، ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾، قال مجاهد: إذا مات. وقال قتادة وأبو صالح هوى في جهنم.

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، يعني البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، وهو قول قتادة: قال: على الله بيان حلاله وحرامه. قال الفراء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل معناه: إن علينا للهدى والإضلال كقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

(١٤) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾، يا أهل مكة، ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، أي تتلظى يعني تتوقد وتتوهج.

(١٥) ـ (١٦) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ﴾ الرسول، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، عن الإيمان.

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾، يريد بالأشقى الشقي، وبالأتقى التقي.

(١٨) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾، يعطي ماله، ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾، يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا رياء ولا سمعة،


الجزء الثلاثون — سورة الضحى

لا يصلاها إلا الأشقى ﴿١٥﴾ الذي كذب وتولى ﴿١٦﴾ وسيجنبها الأتقى ﴿١٧﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴿١٨﴾ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴿١٩﴾ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴿٢٠﴾ ولسوف يرضى ﴿٢١﴾

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى ﴿١﴾ والليل إذا سجى ﴿٢﴾ ما ودعك ربك وما قلى ﴿٣﴾ وللآخرة خير لك من الأولى ﴿٤﴾ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴿٥﴾ ألم يجدك يتيما فآوى ﴿٦﴾ ووجدك ضالا فهدى ﴿٧﴾ ووجدك عائلا فأغنى ﴿٨﴾ فأما اليتيم فلا تقهر ﴿٩﴾ وأما السائل فلا تنهر ﴿١٠﴾ وأما بنعمة ربك فحدث ﴿١١﴾

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم نشرح لك صدرك ﴿١﴾ ووضعنا عنك وزرك ﴿٢﴾ الذي أنقض ظهرك ﴿٣﴾ ورفعنا لك ذكرك ﴿٤﴾ فإن مع العسر يسرا ﴿٥﴾ إن مع العسر يسرا ﴿٦﴾ فإذا فرغت فانصب ﴿٧﴾ وإلى ربك فارغب ﴿٨﴾

٥٩٦

يعني أبا بكر الصديق، في قول الجميع.

قال ابن الزبير: كان أبو بكر يبتاع الضعفة فيعتقهم، فقال [له] أبوه: أي بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ قال: منع ظهري أريد، فنزل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة.

وذكر محمد بن إسحاق قال: كان بلال لبعض بني جمح وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. وقال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، قال أبو بكر: أفعل! عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه؟ قال: قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر ست رقاب، بلال سابعهم، عامر بن فهيرة شهد بدراً واحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأم عميس، وزنيرة فأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فرد الله إليها بصرها، وأعتق النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبدالدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما تطحنان لها وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر: كلا يا أم فلان، فقالت: خلا أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما وهما حرتان، ومر بجارية بني المؤمل وهي تعذب فابتاعها فأعتقها.

﴿١٩﴾ وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال: أتبيعه؟ قال: نعم أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار، وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركاً حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون مالَهُ، فأبى فأبغضه أبو بكر، فلما قال له أمية: أبيعه بغلامك نسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه منه، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده. فأنزل الله ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، أي يجازيه يد يكافئه عليها.

﴿٢٠﴾ ﴿إِلَّا﴾، لكن ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، يعني لا يفعل ذلك مجازاة لأحد بيد له عنده، ولكنه يفعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب رضاه.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، بما يعطيه الله عزّ وجلّ في الآخرة من الجنة والكرامة جزاء على ما فعل.

❁ ❁ ❁

سورة الضحى

مكية [وهي إحدى عشرة آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أحمد بن يونس، ثنا زهير، ثنا الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو

ثلاث، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

وقيل: إن المرأة التي قالت ذلك أم جميل امرأة أبي لهب.

وقال المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح فقال: «سأخبركم غداً»، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي. وقال زيد بن أسلم: كان سبب احتباس جبريل عليه السلام عنه. كان جرو في بيته، فلما نزل عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه، فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقال ابن جريج: اثنا عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقال مقاتل: أربعون يوماً.

قال المفسرون: فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك»، فقال جبريل: «إني كنت أشد شوقاً إليكم، ولكني عبد مأمور»، فأنزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

(١) قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، أقسم بالضحى وأراد به النهار كله بدليل أنه قابله بالليل إذا سجى، نظيره قوله ﴿أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحًى﴾ [الأعراف: ٩٨]، أي نهاراً. وقال قتادة ومقاتل: يعني وقت الضحى، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس، واعتدال النهار في الحر والبرد والصيف والشتاء.

(٢) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، قال الحسن: أقبل بظلامه، وهي رواية العوفي عن ابن عباس: وقال الوالبي عنه: إذا ذهب، قال عطاء والضحاك: غطى كل شيء بالظلمة، وقال مجاهد: استوى. وقال قتادة وابن زيد: سكن واستقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك. يقال: ليل ساج وبحر ساج إذا كان ساكناً.

(٣) قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، هذا جواب القسم: أي ما تركك منذ اختارك ولا أبغضك منذ أحبك.

(٤) ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

حدثنا المطهر بن علي الفارسي، أنا محمد بن إبراهيم الصالحي، أنا عبدالله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ، أنا ابن أبي عاصم، أنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنا معاوية بن هشام عن علي بن صالح عن يزيد بن زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا».

(٥) ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى، وهو قول علي والحسن.

وروينا عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك فيهم». وقال حرب بن شريح: سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم معشر أهل العراق تقولون: أرجى آية في القرآن: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله، قيل:

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾ من الثواب. وقيل: من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين، ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾. ثم أخبره الله عزّ وجلّ عن حالته التي كان عليها قبل الوحي، وذكره نعمه فقال جل ذكره:

(٦) ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي فقال: أنباني عبدالله بن حامد الأصفهاني، أنا محمد بن عبدالله النيسابوري، ثنا محمد بن عيسى، أنا أبو عمرو الحوضي وأبو الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وودت إني لم أكن سألته، قلت: يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً، وآتيت فلاناً كذا وآتيت فلاناً كذا؟ قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قلت: بلى أي رب، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى أي ربِّ، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى أي رب».

وزاد غيره عن حماد قال: «ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك

وزرك؟ قلت: بلى أي رب».

ومعنى الآية: ألم يجدك يتيماً صغيراً فقيراً حين مات أبواك ولم يخلفا لك مالاً ولا مأوىً، فجعل لك مأوى تأوي إليه، وضمك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، يعني ضالاً عما أنت عليه ﴿فَهَدَىٰ﴾ فهداك للتوحيد والنبوة: قال الحسن والضحاك وابن كيسان: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عنها، فهداك إليها، كما قال: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: ضالاً في شعاب مكة فهداك إلى جدك عبدالمطلب.

روى أبو الضحى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفاً عن أغنامه فرده إلى عبدالمطلب.

وقال سعيد بن المسيب: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة ظلماء [على] ناقة جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الحبشة، ورده إلى القافلة فمن الله عليه بذلك.

وقيل: وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت، فعرّفك نفسك وحالك.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أي فقيراً فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقال مقاتل: فرضّاك بما أعطاك من الرزق. واختاره الفراء. وقال: لم يكن غنياً عن كثرة المال ولكن الله رضاه بما آتاه وذلك حقيقة الغنى.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن همام بن منبه أنه قال أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

أنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو عبدالله محمد بن الحسين الزغرتاني، أنا أحمد بن سعيد، أنا أبو يحيى محمد بن عبدالله، ثنا أبي حدثني شرحبيل بن شريك عن أبي عبدالرحمن الحُبُلي عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه».

ثم أوصاه باليتامى والفقراء.

(٩) فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، قال مجاهد: لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيماً. وقال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم.

أخبرنا أبو بكر محمد [بن] عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب عن يحيى بن [أبي] بن سليمان عن يزيد بن أبي عتاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»، ثم قال بأصبعيه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وهو يشير بأصبعيه السبابة والوسطى».

(١٠) ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، قال المفسرون: يريد السائل على الباب، يقول: لا تنهره لا تزجره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً، يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره. قال قتادة: رُدَّ السائل برحمة ولين، قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة.

وقال إبراهيم النخعي: السائل يريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل توجهون إلى أهليكم بشيء؟ وروي عن الحسن في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، قال طالب العلم.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، قال مجاهد يعني النبوة روى عنه أبو بشر واختاره الزجاج وقال: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك. وقال الليث عن مجاهد: يعني

القرآن وهو قول الكلبي، أمره أن يقرأه، وقال مقاتل: اشكر لما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من جبر اليتيم والهدى بعد الضلالة والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله شكراً.

أخبرنا أبو سعيد بكر بن محمد بن محمد بن محمي البسطامي، أبو الحسن عبدالرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى بن سختويه، أنا عبدالله بن محمد بن الحسين النصر أباذي، ثنا علي بن سعيد النسوي، أنا سعيد بن عفير، ثنا يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصاري، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «من صنع إليه معروف فليجز به إن وجد، فإن لم يجد ما يجزي به فليثن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا الحسين بن محمد بن الحسين، ثنا أحمد بن محمد بن إسحاق، ثنا أبو القاسم بن منيع، ثنا منصور بن أبي مزاحم، ثنا [أبو] وكيع عن أبي عبدالرحمن يعني القاسم بن الوليد، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

والسنة في قراءة أهل مكة أن يكبر من أول سورة والضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن فيقول: الله أكبر.

قال الشيخ الإمام محيي السنة ناصر الحديث قدوة الأئمة ناشر الدين ركن الإسلام إمام الأئمة مفتي الشرق أبو محمد الحسن بن مسعود رحمه الله.

كذلك قرأته على الإمام المقرئ أبي نصر محمد بن أحمد بن علي الحامدي بمرو، قال: قرأت على أبي القاسم طاهر بن علي الصيرفي، قال: قرأت على أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران، قال: قرأت على أبي علي محمد بن أحمد بن حامد الصفار المقرئ، قال: قرأت على أبي بكر محمد بن موسى الهاشمي، قال: قرأت على أبي ربيعة والحسين بن محمدالحداد، وهما قرأا على أبي الحسن بن أبي بزة وأخبرهما ابن أبي بزة أنه قرأ على عكرمة بن سليمان بن كثير المكي، وأخبره عكرمة أنه قرأ على شبل بن عباد وإسماعيل بن قسطنطين، وأخبراه أنهما قرأا على عبدالله بن كثير، وأخبرهما عبدالله أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب.

وأخبرنا الإمام المقرئ أبو نصر محمد بن أحمد بن علي وقرأت عليه بمرو، وقال: أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد الزيدي بالتكبير، وقرأت عليه بثغر حران، قال: ثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي المعروف بالنقاش، وقرأت عليه بمدينة السلام، ثنا أبو ربيعة محمد بن إسحاق الربعي، وقرأت عليه بمكة، قال: ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله بن أبي بزة، وقرأت عليه قال لي: قرأته على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد قال: فلما بلغت ﴿والضحى﴾ قالا لي: كبر حتى تختم، مع خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك وأخبره أبي أنه قرأ على النبي ﷺ فأمره بذلك.

وكان سبب التكبير أن الوحي لما احتبس قال المشركون هجرة شيطانه، وودعه، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فلما نزل ﴿والضحى﴾ كبّر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذوه سنّةً.

❋ ❋ ❋

سورة الشرح

مكية وهي ثمان آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ألم نفتح ونوسع ونلين لك قلبك بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة؟

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك:

حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، وهو كقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وقال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: ذنوب أمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بهم وقال عبدالعزيز بن يحيى وأبو عبيدة: يعني خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، أثقل ظهرك فأوهنه حتى سمع له نقيض، أي صوت.

﴿٤﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا أبو القاسم عبدالخالق بن علي المؤذن، ثنا أبو بكر بن حبيب، ثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل، ثنا صفوان يعني ابن صالح أبو عبدالملك، ثنا الوليد يعني ابن مسلم، حدثني عبدالله بن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: قال الله تعالى: «إذ ذُكِرْتُ ذُكرتَ معي».

وعن الحسن قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ إذا ذُكرتُ ذُكرتَ. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر، ولو أن عبداً عبدالله وصدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء، وكان كافراً. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال الضحاك: لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به، وقال مجاهد: يعني بالتأذين، وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألم تر أن الله أرسل عبده ... ببرهانه والله أعلى وأمجد

أغرّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهودٌ يلوحُ ويشهدُ

وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

وقيل: [رفع ذكره] بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله، ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدة، وذلك أنه كان بمكة في شدة.

﴿٥﴾ ـ ﴿٦﴾ فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، أي مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسراً ورخاءً بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به، إن مع العسر يسراً كرره لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء.

وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد جاءكم اليسر، لن يغلب عسرٌ يسرين».

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل، إنه لن يغلب عسر يسرين.

قال المفسرون: معنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين» أن الله تعالى كرّر العسر بلفظ المعرفة واليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرّفاً، ثم أعادته كان الثاني هو الأول، وإذا ذكرت نكرة ثم أعادته مثله صار اثنين، وإذا أعادته معرّفة فالثاني هو الأول، كقولك: إذا كسبت درهماً أنفقت درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا قلت إذا كسبت درهماً فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ النكرة، فكانا يسرين، وكأنه قال: فإن مع العسر يسراً، إن مع ذلك العسر يسراً آخر.

قال أبو علي الحسين بن يحيى بن نضر الجرجاني صاحب النظم: تكلم الناس في قوله: «لن يغلب عسر يسرين»، فلم يحصل منه غير قولهم: إن العسر معرفة واليسر نكرة. فوجب أن يكون عسرٌ واحد ويسران، وهذا قول مدخول، إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً، فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنين، فمجاز قوله: لن يغلب عُسْرٌ يسرين أن الله بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قريش تعيره بذلك، حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة، فاغتم النبي ﷺ لذلك، فظن أن قومه إنما يكذبونه لفقره، فعدّد الله نعمه عليه في هذه السورة، ووعده الغنى، يسليه بذلك عما خامره من الغم، فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، مجازه: لا يحزنك ما يقولون فإن مع العسر يسراً في الدنيا عاجلاً،

الجزء الثلاثون — سورة التين

سُورَةُ التِّينِ — ترتيبها ٩٥ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَلَقِ — ترتيبها ٩٦ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

٥٩٧

ثم أنجزه ما وعده، وفتح عليه القرى العربية ووسع عليه ذات يده، حتى كان يعطي المئين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمر الآخرة، فقال: إن مع العسر يسراً، والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو، وهذا وعد لجميع المؤمنين، ومجازه: إن مع العسر يسراً، أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة، فربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى ويسر الآخرة، وهو ما ذكره في الآية الثانية فقوله عليه السلام: «لن يغلب عسر يسرين» أي: لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعده للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة، وإنما يغلب أحدهما، وهو يسر الدنيا، وأما يسر الآخرة فدائم غير زائل أي لا يجمعهما في الغلبة.

كقوله ﷺ: «شهرا عيدٍ لا ينقصان» أي لا يجتمعان في النقصان.

﴿٧﴾ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، أي فاتعب، والنصب: التعب، قال ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي: فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يعطك. وروى عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه قال: إذا صليت فاجتهد في الدعاء والمسألة. وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل.

وقال الشعبي: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك. وقال الحسن وزيد بن أسلم: إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك. وقال منصور عن مجاهد: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وصل. وقال حيان عن الكلبي: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب، أي: استغفر لذنبك وللمؤمنين.

﴿٨﴾ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾، قال عطاء: تضرع إليه راهباً من النار راغباً في الجنة. وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك. قال الزجاج: أي اجعل رغبتك إلى الله وحده.

❁ ❁ ❁

سورة التين

مكية [وهي ثمان آيات].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء بن أبي رباح، ومقاتل، والكلبي: هو تينكم الذي تأكلونه وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت. قيل: خص التين بالقسم لأنها فاكهة مخلصة لا عجم لها، شبيهة بفواكه الجنة. وخصّ الزيتون لكثرة منافعه ولأنه شجرة مباركة جاء بها الحديث وهو تمر ودهن يصلح للاصطباغ والاصطباح. وقال عكرمة: هما جبلان. قال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس لأنهما ينبتان التين والزيتون. وقال الضحاك: هما مسجدان بالشام. قال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا.

﴿٢﴾ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، يعني الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وذكرنا معناه عند قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

﴿٣﴾ ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، أي الآمن، يعني مكة يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام، هذه كلّها أقسام والمقسم عليه قوله:

﴿٤﴾ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ

﴿تَقْوِيمٍ﴾، أعدل قامة وأحسن صورة، وذلك أنه خلق كل حيوان منكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعقل والتمييز.

﴿٥﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، يريد إلى الهرم وأرذل العمر، فينقص عقله ويضعف بدنه، والسافلون هم الضعفاء والزمنى والأطفال، فالشيخ الكبير [أسفل] من هؤلاء جميعاً، وأسفل سافلين نكرة تعم الجنس، كما تقول: فلان أكرم قائم [وإذا عرفت قلت: أكرم القائمين]. وفي مصحف عبدالله «أسفل السافلين» وقال الحسن وقتادة ومجاهد: يعني ثم رددناه إلى النار، يعني إلى أسفل السافلين، لأن جهنم بعضها أسفل من بعض. قال أبو العالية: يعني إلى النار في شر صورة، في صورة خنزير.

﴿٦﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فإنهم لا يردون إلى النار. ومن قال بالقول الأول قال: رددناه أسفل سافلين، فزالت عقولهم وانقطت أعمالهم، فلا يكتب لهم حسنة إلا الذين آمنوا. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإنه يكتب لهم بعد الهرم، والخرف، مثل الذي كانوا يعملون في حال الشباب والصحة. وقال ابن عباس: هم نفرٌ ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى عذرهم، فأخبر أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم. قال عكرمة: لم يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل.

وروى عاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن، وقال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، غير مقطوع لأنه يكتب له كصالح ما كان يعمل. قال الضحاك: أجر بغير عمل، ثم قال: إلزاماً للحجة.

﴿٧﴾ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾، أيها الإنسان، ﴿بَعْدُ﴾، أي بعد هذه الحجة والبرهان، ﴿بِٱلدِّينِ﴾، بالحساب والجزاء والمعنى، أن لا تتفكر في صورتك وشبابك وهرمك فتعتبر وتقول إن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذبك بالمجازاة بعد هذه الحجج؟.

﴿٨﴾ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، بأقضى القاضين، قال مقاتل: يحكم بينكم وبين أهل التكذيب يا محمد.

وروينا أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: أليس الله بأحكم الحاكمين، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو الوليد، ثنا شعبة عن عدي بن ثابت الأنصاري قال: سمعت البراء قال: إن النبي ﷺ كان في سفر فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بالتين والزيتون.

❁ ❁ ❁

سورة العلق

مكية [وهي تسع عشرة آية].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أكثر المفسرين: على أن هذه أول سورة نزلت من القرآن، وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بُكير، ثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع

بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: ماليَ؟ وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ما يقول، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة إلى أن توفي، وفتر الوحي.

وروى محمد بن إسماعيل هذا الحديث في موضع آخر من كتابه، عن يحيى بن بكير بهذا الإسناد، وقال: حدثني عبدالله بن محمد، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر قال الزهري، فأخبرني عروة عن عائشة وذكر الحديث، وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وزاد في آخره فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ. فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً حتى يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

أخبرنا أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد الوراق، أنا مكي بن عبدان، أنا عبدالرحمن بن بشر، ثنا سفيان عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: أول سورة نزلت قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

قال أبو عبيدة مجازه: اقرأ اسم ربك يعني أن الباء زائدة، والمعنى: اذكر اسمه، أمر أن يبتدئ القراءة باسم الله تأديباً، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قال الكلبي: يعني الخلائق، ثم فسره فقال:

﴿٢﴾ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني ابن آدم، ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾، جمع علقة.

﴿٣﴾ ﴿ٱقْرَأْ﴾، كرره تأكيداً ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، فقال الكلبي: الحليم عن جهل العباد لا يعجل عليهم بالعقوبة.

﴿٤﴾ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، يعني الخط والكتابة.

﴿٥﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، من أنواع الهدى والبيان. وقيل: علم آدم الأسماء كلها. وقيل: الإنسان ههنا محمد ﷺ، بيانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿٦﴾ ﴿كَلَّآ﴾، حقاً، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾، ليتجاوز حده ويستكبر على ربه.

﴿٧﴾ ﴿أَن﴾، لأن، ﴿رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، أن رأى نفسه غنياً، قال الكلبي: يرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل كان إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، أي المرجع في الآخرة.

﴿٩﴾ ـ ﴿١٠﴾ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، نزلت في أبي جهل نهى النبي ﷺ عن الصلاة.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عبيد الله بن معاذ ومحمد بن عبدالأعلى القيسي، قالا ثنا المعتمر عن أبيه، حدثني نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته ولأعفرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، وعزم ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال فقيل له: مالك يا أبا الحكم؟



قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: فأنزل الله ـ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ـ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ الآيات. ومعنى أرأيت ههنا تعجيب للمخاطب، وكرر هذه اللفظة للتأكيد.

(١١) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، يعني العبد المنهي وهو محمد ﷺ.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾، يعني بالإخلاص والتوحيد.

(١٣) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾، يعني أبا جهل، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، عن الإيمان، وتقدير نظم الآية أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى، أمر بالتقوى، والناهي مكذب متولٍ عن الإيمان، فما أعجب من هذا.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾، يعني أبا جهل، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، ذلك فيجازيه به.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾، لا يعلم ذلك، ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، عن إيذاء محمد ﷺ وتكذيبه، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، لنأخذن بناصيته فلنجرنه إلى النار، كما قال ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، يقال: سفعت بالشيء إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً، والناصية: شعر مقدم الرأس.

(١٦) ثم قال على البدل: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، أي صاحبها كاذب خاطئ.

قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل أتنتهرني؟ فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ورجالاً مرداً.

(١٧) قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾، أي قومه وعشيرته، أي فليستنصر بهم.

(١٨) ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾، جمع زبنى مأخوذ من الزبن، وهو الدفع، قال ابن عباس: يريد زبانية جهنم سموا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها، قال الزجاج: هم الملائكة الغلاظ الشداد، قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

(١٩) ثم قال: ﴿كَلَّا﴾، ليس الأمر على ما عليه أبو جهل، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، في ترك الصلاة، ﴿وَاسْجُدْ﴾، صل لله، ﴿وَاقْتَرِب﴾، من الله.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبدالعزيز القاشاني، أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي، ثنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي، ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، ثنا أحمد بن صالح وأحمد بن عمرو بن السراج، ومحمد بن سلمة قالوا: أخبرنا وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن عمارة بن غزية عن سُميّ مولى أبي بكر أنه سمع أبا صالح ذكوان يُحدّث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء».

❊ ❊ ❊

سورة القدر

مكية [وهي خمس آيات].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، يعني القرآن كناية عن غير مذكور، أنزله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فوضعه في بيت العزة، ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام نجوماً في عشرين سنة.

(٢) ثم عجب نبيه فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، سُميت ليلة القدر لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام، يقدر الله فيها أمر السنة

في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، وهو مصدر قولهم: قدر الله الشيء بالتخفيف قدراً وقدراً، كالنهر والنهر والشعر والشعر، وقدّره بالتشديد تقديراً بمعنى واحد، قيل للحسين بن الفضل: أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: نعم، قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير التي خلقها إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدر. وقال الأزهري: وليلة العظمة والشرف من قول الناس: لفلان عند الأمير قدر، أي جاه ومنزلة، يقال: قدرت فلاناً أي عظمته. قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧، الحج: ٧٤]، أي: ما عظموه حق تعظيمه. وقيل: لأن العمل الصالح يكون فيها ذا قدر عند الله لكونه مقبولاً.

واختلفوا في وقتها فقال بعضهم: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم رفعت، وعامة الصحابة والعلماء على أنها باقية إلى يوم القيامة. وروي عن عبدالله بن الحسين مولى معاوية قال: قلت لأبي هريرة: زعموا أن ليلة القدر قد رفعت؟ قال: كذب من قال ذلك، قلت: هي في كل شهر أستقبله؟ قال: نعم. وقال بعضهم: هي ليلة من ليالي السنة حتى لو علّق رجل طلاق امرأته وعتق عبده بليلة القدر لا يقع ما لم تمض سنة من حين حلف، يروى ذلك عن ابن مسعود، قال: من يقم الحول يصبها فبلغ ذلك عبدالله بن عمر فقال: يرحم الله أبا عبدالرحمن أما إنه علم أنها في شهر رمضان، ولكن أراد أن لا يتكل الناس. والجمهور من أهل العلم على أنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة، قال أبو رزين العقيلي: هي أول ليلة من شهر رمضان. وقال الحسن: ليلة سبع عشرة، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر. والصحيح والذي عليه الأكثرون: أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا هارون بن إسحاق الهَمْداني، ثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان».

أخبرنا أبو عثمان الضبي، أنا أبو محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى، ثنا قتيبة، ثنا عبدالواحد بن زياد، عن الحسن بن عبيد الله، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان عن أبي يعقور عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شدّ مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله.

واختلفوا في أنها في أي ليلة من العشر؟.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا إسماعيل بن جعفر، ثنا أبو سهل بن مالك، عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان».

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا عبدالله بن حامد الوزان، أنا مكي بن عبدان، ثنا عبدالله بن هاشم بن حيان، ثنا يحيى بن سعيد القطان، ثنا عيينة بن عبدالرحمن، حدثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة، فقال: ما أنا بطالبها بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ إلا في العشر الأواخر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر من تسع بقين أو سبع بقين أو خمس بقين أو ثلاث بقين أو آخر ليلة».

فكان أبو بكرة إذا دخل رمضان يصلي كما يصلي في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد.

وأخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن المثنى حدثني خالد بن الحارث، ثنا حميد الطويل، ثنا أنس عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رأوا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان فقال رسول الله ﷺ: «إني أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحراها في السبع الأواخر». وروي عن أبي سعيد الخدري: أنها ليلة إحدى وعشرين.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن يزيد بن عبدالله بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن أبي سعيد الخدري، أنه قال: كان النبي ﷺ يعتكف العشر الوسطى من رمضان، واعتكف عاماً حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج صبحها من اعتكافه، قال: من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في صبيحتها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر، فقال أبو سعيد الخدري: فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عرش فوكف المسجد، قال أبو سعيد: فبصرت عيناي رسول الله ﷺ قد انصرف علينا وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين. وقال بعضهم: هي ليلة ثلاث وعشرين.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أحمد بن خالد الحمصي، ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم حدثني [ابن] عبدالله بن أنيس عن أبيه أنه قال لرسول الله ﷺ: إني أكون ببادية يقال لها الوطأة، وإني بحمد الله أصلي بهم فمرني بليلة من هذا الشهر أنزلها إلى المسجد فأصليها فيه، فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين فصلها فيه، وإن أحببت أن تستتم آخر الشهر فافعل، وإن أحببت فكف». قال: فكان إذا صلى العصر دخل المسجد فلم يخرج إلا من حاجة حتى يصلي الصبح، فإذا صلى الصبح كانت دابته بباب المسجد.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا يعلى بن عبيد، ثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «كم مضى من الشهر»؟ فقلنا: اثنان وعشرون وبقي سبع، فقال: «مضى اثنتان وعشرون وبقي سبع، اطلبوها الليلة الشهر تسع وعشرون».

وقال قوم: في ليلة سبع وعشرين، وهو قول علي وأُبيّ وعائشة.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، ثنا أبو جعفر الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا يعلى بن عبيد، ثنا سفيان عن عاصم عن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: يا أبا المنذر أخبرنا عن ليلة القدر، فإن [ابن أم عبد] يقول: من يقم الحولَ يصبها، فقال: رحم الله أبا عبدالرحمن، أما إنه قد علم أنها في رمضان ولكن كره أن يخبركم فتتكلوا، هي والذي أنزل القرآن على محمد ﷺ ليلة سبع وعشرين، فقلنا: يا أبا المنذر أنى عملت هذا؟ قال: بالآية التي أخبرنا النبي ﷺ فحفظناها وعددناها هي والله لا تنسى، قال قلنا: وما الآية؟ قال: «تطلع الشمس كأنها طاس ليس لها شعاع». ومن علاماتها.

ما روي عن الحسن رفعه «إنها ليلة بلجة سمحة لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها لا شعاع لها».

وفي الجملة أبهم الله هذه الليلة على هذه الأمة ليجتهدوا في العبادة

ليالي رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفي ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في الأسماء، ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها.

﴿٣﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

قال عطاء عن ابن عباس: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى ذلك لأمته، فقال: «يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً؟ فأعطاه الله ليلة القدر». فقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لك، ولأمتك إلى يوم القيامة.

قال المفسرون: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: معناه عمل صالح في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

حدثنا أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري، إملاءً، ثنا أبو نعيم الإسفرايني، أنا أبو عوانة، ثنا أبو إسماعيل، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا الزهري، أخبرني أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقال سعيد بن المسيب: من شهد المغرب والعشاء في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو بكر بن عبدوس المزكي، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا الحسن بن مكرم، ثنا يزيد بن هارون، أنا كهمس عن عبدالله بن بريدة أن عائشة قالت للنبي ﷺ: إن وافيت ليلة القدر فما أقول؟ قال: «قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني».

﴿٤﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، يعني جبريل عليه السلام معهم، ﴿فِيهَا﴾، أي في ليلة القدر، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي بكل أمر من الخير والبركة، كقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله.

﴿سلام﴾، قال عطاء يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته.

قال الشعبي: هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر.

قال الكلبي: الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة سلموا عليه من ربه حتى يطلع الفجر.

﴿٥﴾ وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، أي ليلة القدر سلام وخير كلها، ليس فيها شر. قال الضحاك: لا يُقدّر الله في تلك الليلة ولا يقضي إلا السلامة.

وقال مجاهد: يعني أن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، ولا أن يحدث فيها أذى.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، أي إلى مطلع الفجر، قرأ الكسائي مطلع بكسر اللام، والآخرون بفتحها، وهو الاختيار، بمعنى الطلوع، على المصدر، يقال: طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً، والكسر موضع الطلوع.

❁ ❁ ❁

سورة البينة

مكية [وهي ثمان آيات].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهم اليهود النصارى، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهم عبدة الأوثان، ﴿مُنفَكِّينَ﴾ [منتهين عن كفرهم وشركهم وقال أهل اللغة] زائلين منفصلين، يقال: فككت الشيء فانفك أي انفصل، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، لفظه مستقبل ومعناه الماضي أي حتى أتتهم الحجة الواضحة، يعني محمد ﷺ أتاهم بالقرآن فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فهذه الآية فيمن آمن من الفريقين، أخبر أنهم لم ينتهوا عن الكفر حتى أتاهم الرسول فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا فأنقذهم الله من الجهل والضلالة.

﴿٢﴾ ثم فسر البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟﴾، يقرأ، ﴿صُحُفًا﴾، كتباً، يريد ما يتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن لأنه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب، قوله: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، من الباطل والكذب والزور.


الجزء الثلاثون — سورة الزلزلة

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سُورَةُ ٱلْعَٰدِيَٰتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾

٥٩٩

(٣) ﴿فِيهَا﴾، أي في الصحف، ﴿كُتُبٌ﴾، يعني الآيات والأحكام المكتوبة فيها، ﴿قَيِّمَةٌ﴾، عادلة مستقيمة غير ذات عوج.

(٤) ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، في أمر محمد ﷺ، ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعثه الله، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم وكفر آخرون. قال بعض أئمة اللغة: معنى قوله ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي هالكين، من قولهم: انفك صلاء المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك. ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين معذبين إلا من بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، والأول أصح، ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم فقال:

(٥) ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾، يعني هؤلاء الكفار، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني إلا أن يعبدوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، قال ابن عباس: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين، ﴿حُنَفَاءَ﴾، مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، المكتوبة في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، عند محلها، ﴿وَذَٰلِكَ﴾، الذي أمروا به، ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [أي الملة والشريعة المستقيمة، أضاف الدين إلى القيمة وهي نعته لاختلاف اللفظين، وأنث القيمة رداً بها إلى الملة، وقيل: الهاء فيه للمبالغة، وقيل: القيمة هي الكتب التي جرى ذكرها، أي وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو إليه وتأمر به، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. قال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾] فقال: القيمة جمع القيم، والقيم والقائم واحد، مجاز الآية: وذلك دين القائمين لله بالتوحيد.

(٦) ثم ذكر ما للفريقين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، قرأ نافع وابن عامر ﴿البريئة﴾ بالهمزة في الحرفين لأنه من قولهم: برأ الله الخلق، وقرأ الآخرون مشدداً بغير همز، كالذرية، ترك همزها في الاستعمال.

(٧) - (٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، وتناهى عن المعاصي، وقيل: الرضا ينقسم إلى قسمين: رضاً به ورضاً عنه، فالرضا به: رباً ومدبراً، والرضا عنه: فيما يقضي ويقدِّر. قال السدّي رحمه الله: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك؟

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن بشار، ثنا غندر، ثنا شعبة قال: سمعت قتادة عن أنس بن مالك قال النبي ﷺ لأُبيّ: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: وسماني ربي؟ قال: نعم» فبكى.

وقال همّام عن قتادة: «أمرني أن أقرأ عليك القرآن».

❁ ❁ ❁

سورة الزلزلة

مدنية [وهي ثمان آيات].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾، حركت الأرض حركة شديدة لقيام الساعة، ﴿زِلْزَالَهَا﴾، تحريكها.

﴿٢﴾ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، موتاها وكنوزها فتلقيها على ظهرها.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، ثنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا واصل بن عبدالأعلى، ثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً».

﴿٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؟ قيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره:

﴿٤﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، فيقول الإنسان: ما لها، أي تخبر الأرض بما عمل عليها.

أخبرنا أبو بكر محمد [بن] عبدالله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبدالله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، ثنا عبدالله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب، ثنا يحيى بن أبي سليمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا كذا كذا، قال: فهذه أخبارها».

﴿٥﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي أمرها بالكلام وأذن لها بأن تخبر بما عمل عليها. قال ابن عباس والقرظي: أوحى إليها، ومجاز الآية: يوحى الله إليها، يقال: أوحى لها وأوحى إليها ووحّى لها ووحى إليها واحد.

﴿٦﴾ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، يرجع الناس عن موقف الحساب بعد العرض، ﴿أَشْتَاتًا﴾، متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار، كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]. ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، قال ابن عباس: ليروا جزاء أعمالهم، والمعنى أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار.

﴿٧﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وزن نملة صغيرة أصغر ما يكون من النمل. ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وقال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته.

قال محمد بن كعب: في هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهل وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر.

قال مقاتل: نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ونحوها، يقول: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة وأشباه ذلك، ويقول: إنما وعد الله النار على الكبائر، وليس في هذا إثم، فأنزل الله تعالى هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر، فالإثم الصغير في عين صاحبه أعظم عند الله من الجبال يوم القيامة، وجميع محاسنه أقل من كل شيء.

قال ابن مسعود: أحكم آية في القرآن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وكان رسول الله ﷺ يسميها الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحمر فقال: «ما أنزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾».

وتصدق عمر بن الخطاب،

وعائشة بحبة عنب، وقالا: فيها مثاقيل كثيرة. وقال الربيع بن خيثم: مرّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهت الموعظة.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا محمد بن القاسم، ثنا أبو بكر محمد [بن] عبدالله، ثنا الحسن بن سفيان، ثنا علي بن حجر، ثنا يزيد بن هارون، ثنا اليمان بن المغيرة، ثنا عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن».

❁ ❁ ❁

سورة العاديات

مكية وهي إحدى عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والكلبي، وقتادة، والمقاتلان وأبو العالية وغيرهم: هي الخيل العادية في سبيل الله تضبح، والضبح صوت أجوافها إذا عدت.

قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من تعب أو فزع، وهو من قول العرب: ضبحته النار إذا غيرت لونه. وقوله: ﴿ضبحاً﴾ نصب على المصدر، مجازه: والعاديات تضبح ضبحاً.

وقال علي: هي الإبل في الحج تعدو من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، وقال: إنها نزلت في وقعهة بدر كانت أول غزوة في الإسلام بدراً، وما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون الخيل العاديات؟ وإلى هذا ذهب ابن مسعود ومحمد بن كعب والسدي. وقال بعض من قال: هي الإبل قوله: ﴿ضبحاً﴾ يعني ضباحاً تمد أعناقها في السير.

(٢) ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، قال عكرمة، وعطاء، والضحاك، ومقاتل، والكلبي: هي الخيل توارى النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، يعني والقادحات قدحاً يقدحن بحوافرهن. وقال قتادة: هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيورون نارهم ويصنعون طعامهم.

وقال مجاهد وزيد بن أسلم: هي مكر الرجال، يعني رجال الحرب، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك. وقال محمد بن كعب: هي النيران تجتمع.

(٣) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾، هي الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصباح، هذا قول أكثر المفسرين. وقال القرظي: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسنة أن لا تدفع حتى تصبح، والإغارة سرعة السير، ومنه قولهم: أشرق ثبير كيما نغير.

(٤) ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾، أي هيجن بمكان سيرها كناية عن غير مذكور لأن المعنى مفهوم، ﴿نَقْعًا﴾، غباراً والنقع الغبار.

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾، أي دخلن به وسط العدو، وهم الكتيبة يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسطتهم بالتشديد وتوسطهم بالتشديد كلها بمعنى واحد. قال القرظي: يعني جمع منى أقسم الله بهذه الأشياء.

(٦) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: لكنود لكفور جحود لنعم الله تعالى. قال الكلبي: هو بلسان مضر وربيعة الكفور، وبلسان كندة وحضر موت العاصي.

وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب وينسى النعم. وقال عطاء: هو الذي لا يعطي في النائبة مع قومه. وقال أبو عبيدة هو قليل الخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً.

وقال الفضيل بن عياض: الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان والشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة.

(٧) ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، قال أكثر المفسرين: وإن الله على كونه كنوداً لشاهد. وقال ابن كيسان:

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

الهاء راجعة إلى الإنسان أي إنه شاهد على نفسه بما يصنع.

(٨) ﴿وَإِنَّهُ﴾، يعني الإنسان، ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾، أي لحب المال، ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي لبخيل، أي إنه من أجل حب المال لبخيل. يقال للبخيل: شديد ومتشدد. وقيل: معناه وإنه لحب الخير لقوي أي شديد الحب للخير، أي المال.

(٩) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾، هذا الإنسان، ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾، أثير وأخرج، ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي ميز وأبرز ما فيها من خير أو شر.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾، جمع الكناية لأن الإنسان اسم الجنس، ﴿يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، عالم، قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ولكن المعنى أنه يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم.

❁ ❁ ❁

سورة القارعة

مكية [وقيل مدنية وهي إحدى عشرة آية].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الْقَارِعَةُ﴾، اسم من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بالفزع.

(٢) ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، تهويل وتعظيم.

(٣) - (٤) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، الفراش الطير التي تراها تتهافت في النار والمبثوث المتفرق.

وقال الفراء: كغوغاء الجراد شبه الناس عند البعث بها يموج بعضهم في بعض ويركب بعضهم بعضاً من الهول كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

(٥) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾، كالصوف المندوف.

(٦) - (٧) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، رجحت حسناته، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، مرضية في الجنة. قال الزجاج ذات رضا يرضاها صاحبها.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، رجحت سيئاته على حسناته.

(٩) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، مسكنه النار سمي المسكن أماً لأن الأصل في السكون إلى الأمهات، والهاوية اسم من أسماء جهنم، وهو المهواة لا يدرك قعرها، وقال قتادة: وهي كلمة عربية قولها العرب للرجل إذا وقع في أمر شديد، يقال: هوت أمه. وقيل: أراد أم رأسه يعني أنهم يهوون في النار على رؤوسهم، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح.

(١٠) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾، يعني الهاوية وأصلها ما هي، أدخل الهاء فيها للوقف والاستراحة ثم فسرها.

(١١) فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، أي حارة قد انتهى حرها.

❁ ❁ ❁

سورة التكاثر

مكية [وهي ثمان آيات].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، شغلتكم المباهاة والمفاخرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، حتى متم ودفنتم في المقابر.

وقال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً.

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في حيين من قريش، بني عبد مناف بن

قصي، وبني سهم بن عمرو كان بينهم تفاخر، فتعادّوا السادة والأشراف أيهم أكثر عدداً، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر عدداً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعد موتانا، حتى زاروا القبور فعدوهم، فقالوا: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً، فأنزل الله هذه الآية.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمدِ بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا عبدالرحيم بن منيب، ثنا النضر بن شُميل، [أنا شعبة] عن قتادة عن مطرف بن عبدالله بن الشخير، عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»؟

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا الحميدي، ثنا سفيان، ثنا عبدالله [بن] أبي بكر بن عمرو بن حزم أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

ثم رد الله عليهم فقال:

﴿٣﴾ ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر بالتكاثر، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعيد لهم ثم تكرره تأكيداً فقال:

﴿٤﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قال الحسن ومقاتل هو وعيد بعد وعيد، والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت. وقال الضحاك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني المؤمنين وكان يقرأ الأولى بالياء والثانية بالتاء.

﴿٥﴾ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، أي علماً يقيناً فأضاف العلم إلى اليقين كقوله: ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي لو تعلمون علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر. قال قتادة: كنا نتحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت.

﴿٦﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾، قرأ ابن عامر والكسائي ﴿لترون﴾ بضم التاء من أريته الشيء، وقرأ الآخرون بفتح التاء أي ترونها بأبصاركم عن بعيد.

﴿٧﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾، مشاهدة، ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قال مقاتل: يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعيم حيث عبدوا غيره، ثم يعذبون على ترك الشكر، هذا قول الحسن.

وعن ابن مسعود رفعه قال: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال: الأمن والصحة.

وقال قتادة: إن الله يسأل كل ذي نعمة عما أنعم عليه.

أخبرنا أبو بكر بن [أبي] الهيثم الترابي، أنا عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، ثنا إبراهيم بن خزيم الشاشي، ثنا عبدالله بن حميد، ثنا شبابة عن عبدالله بن العلاء عن الضحاك بن عرزم الأشعري قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال: ألم نُصحَّ جسمك؟ ونروكِ من الماء البارد».

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، أنا أبو عيسى الترمذي، أنا محمد بن إسماعيل، ثنا آدم بن أبي إياس، ثنا شيبان أبو معاوية، ثنا عبدالملك بن عمير عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر»؟ فقال: خرجت لألقى رسول الله ﷺ وأنظر إلى وجهه وللتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: «ما جاء بك يا عمر»؟ قال: الجوع يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «وأنا قد وجدت بعض ذلك»، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل

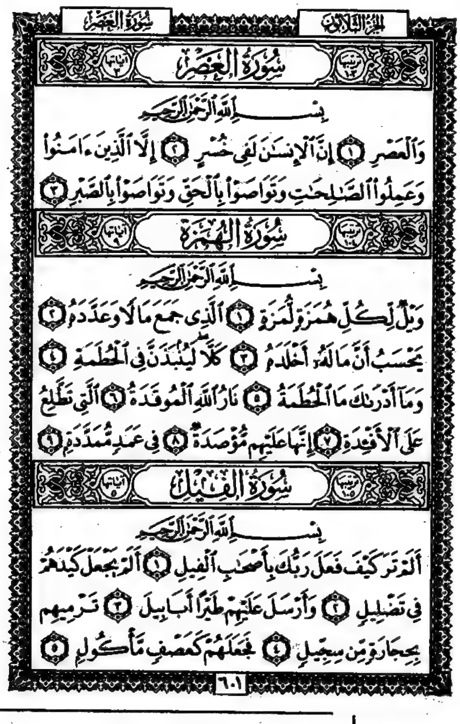
والشاء، ولم يكن له خدم، فلم يجدوه فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق ليستعذب لنا الماء، فلم يلبثوا أن جاء الهيثم بقربة يزعبها ماءً فوضعها، ثم جاء يلتزم رسول الله ﷺ ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنو فوضعه، فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطبه وبسره»، فقال: يا رسول الله إني أردت أن تتخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال النبي ﷺ: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد»، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: «لا تذبحن ذات در»، فذبح لهم عناقاً أو جدياً فأتاهم بها، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإذا أتانا سبيٌ فأتنا»، فأتي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: «اختر منهما»، فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن، خذ هذا، فإني رأيته يصلي، واستوص به معروفاً» فانطلق به أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنت ببالغ فيه ما قال رسول الله ﷺ إلا أن تعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه إلا خبالاً، ومن يوق بطانة السوء فقد وُقي».

وروي عن ابن عباس قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، قال عكرمة: عن الصحة والفراغ. وقال سعيد بن جبير: عن الصحة والفراغ والمال.

أخبرنا الإمام أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، ثنا الحسين بن الحسن بمكة، ثنا عبدالله بن المبارك والفضل بن موسى قالا: ثنا عبدالله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

قال محمد بن كعب: يعني عمّا أنعم عليكم بمحمد ﷺ. وقال أبو العالية: عن الإسلام والسنن. وقال الحسين بن الفضل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

❃ ❃ ❃


الجزء الثلاثون — سورة العصر

سورة العصر — آياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

٦٠١

سورة العصر

مكية [وقيل مدنية وهي ثلاث آيات].

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، قال ابن عباس: والدهر. وقيل: أقسم به لأن فيه عبرة للناظر. وقيل: معناه ورب العصر، وكذلك في أمثاله. وقال ابن كيسان: أراد بالعصر الليل والنهار، يقال لهما العصران. وقال الحسن: من بعد زوال الشمس إلى غروبها. وقال قتادة: آخر ساعة من ساعات النهار. وقال مقاتل: أقسم بصلاة العصر وهي الصلاة الوسطى.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، أي خسران ونقصان، قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين، والخسران ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي،

وهما أكبر رأس ماله.

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإنهم ليسوا في خسران، ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾، أوصى بعضهم بعضاً، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، بالقرآن قاله الحسن وقتادة، وقال مقاتل: بالإيمان والتوحيد. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، على أداء الفرائض وإقامة أمر الله. وروى ابن عون عن إبراهيم قال: أراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم لفي نقص وتراجع إلا المؤمنين فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم، وهي مثل قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤ و٥ و٦].

❁ ❁ ❁

سورة الهمزة

مكية [وهي تسع آيات].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب، ومعناهما واحد وهو العياب.

وقال مقاتل: الهمزة الذي يعيبك في الغيب واللمزة الذي يعيبك في الوجه. وقال أبو العالية والحسن بضده.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم، واللمزة الطعان عليهم.

وقال ابن زيد: الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم.

وقال سفيان الثوري: ويهمز بلسانه ويلمز بعينيه.

ومثله قال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذي يومض بعينه ويشير برأسه، ويرمز بحاجبه وهما نعتان للفاعل نحو سخرة وضحكة: للذي يسخر ويضحك من الناس، وأصل الهمز الكسر والعض على الشيء بالعنف.

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية.

قال الكلبي: نزلت في الأخنس بن شريق بن وهب الثقفي كان يقع في الناس ويغتابهم.

وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي.

وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه.

وقال مجاهد: هي عامة في حق كل من هذه صفته.

﴿٢﴾ ثم وصفه فقال: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي ﴿جمّع﴾ بتشديد الميم على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾، أحصاه، وقال مقاتل: استعده وادخره وجعله عتاداً له، يقال: أعددت الشيء وعددته إذا أمسكته.

﴿٣﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، في الدنيا يظن أنه لا يموت مع يساره.

﴿٤﴾ ﴿كَلَّا﴾، رداً عليه أن لا يخلده ماله، ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، ليطرحن، ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾، في جهنم، والحطمة من أسماء النار، مثل سقر، ولظى، سميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها.

﴿٥﴾ ـ ﴿٧﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب، والاطلاع والبلوغ بمعنى واحد، يحكى عن العرب: متى طلعت أرضنا أي بلغت، ومعنى الآية: أنها تأكل كل شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاده، قاله القرظي والكلبي.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾، مطبقة مغلقة.

﴿٩﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر في ﴿عمد﴾ بضم العين والميم، وقرأ الآخرون بفتحهما كقوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وهما جميعاً جمع عمود مثل أديم وأدم وأُدُم، قاله الفراء، وقال أبو عبيدة: جمع عماد مثل إهاب وأهَب وأُهُب.

قال ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل سدت عليهم بها الأبواب، وقال قتادة: بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار.

وقيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، أي أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممددة، وهي في قراءة عبدالله «بعمد» بالباء.

قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرّها،

فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم رَوح، والممددة من صفة العمد، أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة.

❁ ❁ ❁

سورة الفيل

مكية [وهي خمس آيات].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١)؟

وكانت قصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي:

إن النجاشي ملك الحبشة كان قد بعث «أرياط» إلى أرض اليمن فغلب عليها، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة بن الصباح أبو يكسوم، فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين وكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط.

واجتمعت الحبشة لأبرهة وغلب على اليمن وأقره النجاشي على عمله، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله، فبنى كنيسة بصنعاء وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب، فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها مستخفياً فدخلها ليلاً فقعد فيها وتغوط بها ولطخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: من اجترأ عليّ ولطخ كنيستي بالعذرة؟ فقيل له: صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها.

فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلاً لم ير مثله عظماً، وجسماً وقوة، فبعث به إليه فخرج أبرهة من الحبشة سائراً إلى مكة، وأخرج معه الفيل، فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له: ذو نفر، بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر، فقال: أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائي خيراً لك من قتلي، فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيل، فقال نفيل: أيها الملك إني دليل بأرض العرب وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة فاستبقاه، وخرج معه يدله حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف وقد علمنا أنك تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه.

فبعثوا أبا رغال، مولى لهم، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة، يقال له الأسود بن مسعود، على مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نَعَم الناس، فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير.

ثم إن أبرهة بعث حناطة الحميري إلى أهل مكة، وقال: سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به إليه، أخبره أني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبدالمطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبدالمطلب: ما له عندنا قتال ولا لنا به يد إلا أن نخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا [به] قوة، قال: فانطلق معي إلى الملك، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم المعسكر، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشياً، ولكن سأبعث إلى أنيس، سائس الفيل، فإنه لي صديق فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده.

قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال

له: إن هذا سيد قريش صاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي، أحب ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، يستأذن إليك وأحب أن تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبدالمطلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه.

ثم قال لترجمانه قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبدالمطلب: حاجتي إلى الملك أن يرد إلي مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: لِمَ؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها؟ قال عبدالمطلب: أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت رباً سيمنع عنه من يقصده بسوء، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، فأمر بإبله فردّت عليه، فلما رُدّت الإبل إلى عبدالمطلب خرج فأخبر قريشاً الخبر الذي وقع بينه وبين أبرهة، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش فيهم، ففعلوا وأتى عبدالمطلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا
امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضاً:

لا هُمَّ إن العبد يمـ
ـنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصلـ
ـيب وعابديه اليوم آلَكْ
لا يغلبن صليبهم
ومحالهم عدواً محالك
جروا جموع بلادهم
والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم
جهلوا وما رقبوا جلالَكْ
إن كنت تاركهم وكعـ
ـبتنا فأمرٌ ما بدالَكْ

ثم ترك عبدالمطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح بأبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيله، وكان فيلاً عظيماً لم يُرَ مثله في العظم والقوة، ويقال كان معه اثني عشر فيلاً، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول في رأسه فأبى.

فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه فنزعوه ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد في أعلا [الجبل] وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص والعدس.

فلما غشين القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل القوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه، وهم يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال، فصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل.

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده فجعل تتساقط منه أنامله كلما سقطت أنملة اتبعتها مدة من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيمن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

قال الواقدي: وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم فنجا، والفيل الآخر شجع فحصب.

وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرأ أصحاب الفيل: أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر وثم بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل، فنزلوا فأججوا ناراً

واشتوَوا فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهاجت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصغير إلى النجاشي فأسف غضباً للبيعة، واغتاظ غيظاً شديداً، فبعث أبرهة لهدم الكعبة.

وقال فيه: إنه كان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبيهاً نبيلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطلب، فقال له عبدالمطلب: ماذا عندك هذا يوم لا يستغنى فيه عن رأيك؟ فقال أبو مسعود: اصعد بنا إلى حراء فصعد الجبل، فقال أبو مسعود لعبد المطلب: اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها لله وقلدها نعلاً ثم أرسلها في الحرم لعل بعض هذه السودان يعقر منها شيئاً، فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم، ففعل ذلك عبدالمطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبدالمطلب يدعو، فقال أبو مسعود: إن لهذا البيت رباً يمنعه، فقد نزل تبّع ملك اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه، وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض، وعظّمه ونحر له جزوراً. ثم قال أبو مسعود: انظر نحو البحر، فنظر عبدالمطلب فقال: أرى طيراً بيضاً نشأت من شاطئ البحر، فقال: ارمقها ببصرك أين قرارها؟ قال: أراها قد دارت على رؤوسنا، قال: فهل تعرفها؟ قال: فوالله ما أعرفها ما هي بنجدية ولا تهامية ولا غربية ولا شامية، قال: ما قدّها؟ قال: أشباه اليعاسيب، في منقارها حصى كأنها حصى الخذف، قد أقبلت كالليل يكسع بعضها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق، فجاءت حتى إذا حازت بعكسر القوم ركدت فوق رؤوسهم، فلما توافت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقرها على من تحتها، مكتوب في كل حجر اسم صاحبه، ثم أنها انصاعت راجعة من حيث جاءت، فلما أصبحا انحطا من ذروة الجبل، فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحداً ثم دنوا ربوة فلم يسمعا حِسّاً، فقالا: بات القوم سامدين، فأصبحوا نياماً، فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هم خامدون، وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه.

فعمد عبدالمطلب فأخذ فأساً من فؤوسهم فحفر حتى أعمق في الأرض حفرة فملأه من أموالهم من الذهب الأحمر والجوهر، وحفر لصاحبه حفرة فملأها كذلك، ثم قال لأبي مسعود: هات فاختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك، وإن شئت فهما لك معاً، قال أبو مسعود: اختر لي على نفسك، فقال عبدالمطلب: إني لم آل أن أجعل أجود المتاع في حفرتي فهو لك، وجلس كل واحد منهما على حفرته، ونادى عبدالمطلب في الناس فتراجعوا وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ذرعاً، وساد عبدالمطلب بذلك قريشاً وأعطته القيادة، فلم يزل عبدالمطلب وأبو مسعود في أهليهما في غنى من ذلك المال، ودفع الله عن كعبته وبيته.

واختلفوا في تاريخ عام الفيل.

فقال مقاتل: كان قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة.

وقال الكلبي: بثلاث وعشرين سنة.

والأكثرون على أنه كان في العام الذي وُلِدَ فيه رسول الله ﷺ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾؟ قال مقاتل: كان معهم فيل واحد. وقال الضحاك: كانت الفيلة ثمانية. وقيل: اثنا عشر سوى الفيل الأعظم، وإنما وُحّد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم. وقيل: لِوِفَاق رؤوس الآي.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾، كيدهم يعني مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة. وقوله ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ عما أرادوا أضلّ كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم. قال مقاتل: في خسارة. وقيل: في بطلان.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً. وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة.

قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من ههنا وههنا. وقال الفراء: لا واحد لها من لفظها. وقيل: واحدها إبالة. وقال الكسائي: إني كنت أسمع النحويين يقولون واحدها أبول، مثل عجول وعجاجيل. وقيل: واحدها من لفظها إبّيل.



قال ابن عباس: كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب.

وقال عكرمة: لها رؤوس كرؤوس السباع. قال الربيع: لها أنياب كأنياب السباع. وقال سعيد بن جبير: [طير] خضر لها مناقير صفر. وقال قتادة: طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره لا تصيب شيئاً إلا هشمته.

﴿٤﴾ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾، قال ابن مسعود صاحت الطير ورمتهم بالحجارة فبعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدة فما وقع منها حجر على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره.

﴿٥﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، كزرع وتبن أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرقت أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث. قال مجاهد: العصف ورق الحنطة. وقال قتادة: هو التبن. وقال عكرمة: كالحب إذا أكل فصار أجوف. وقال ابن عباس: هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له.

❋ ❋ ❋

سورة قريش

مكية [وهي أربع آيات].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ليلاف﴾ بغير همز ﴿إلافهم﴾ طلباً للخفة، وقرأ ابن عامر ﴿لالآف﴾ بهمزة مختلسة من غير ياء بعدها، وقرأ الآخرون بهمزة مشبعة وياء بعدها، واتفقوا غير أبي جعفر في ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ أنها بياء بعد الهمزة إلا عبدالوهاب بن فليح عن ابن كثير فإنه قرأ ﴿إلفهم﴾ ساكنة اللام بغير ياء، وعدّ بعضهم سورة الفيل وهذه السورة واحدة؛ منهم أبي بن كعب، لا فصل بينهما في مصحفه، وقالوا: اللام في ﴿لإيلاف﴾ تتعلق بالسورة التي قبلها، وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، وقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، وقال الزجاج: المعنى جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما ألفوا من رحلة الشتاء الصيف.

وقال مجاهد: ألفوا ذلك فلا يشق عليهم في الشتاء والصيف. والعامة على أنهما سورتان.

واختلفوا في العلة الجالبة للام في قوله: ﴿لإيلاف﴾ قال الكسائي والأخفش: هي لام التعجب، يقول: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته كما تقول في الكلام لزيد وإكرامنا إياه على وجه التعجب، أي اعجبوا لذلك، والعرب إذا جاءت بهذه اللام اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل منه.

وقال الزجاج: هي مردودة إلى ما بعدها، تقديره: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف. وقال أبو عبيد لنعمتي على قريش، وقريش هم ولد النضر بن كنانة، وكل من ولده النضر فهو قرشي، ومن لم يلده النضر فليس بقرشي.

أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي، أنا عبدالله بن [محمد بن] مسلم أبو بكر الجوربذي، ثنا يونس بن عبدالأعلى الصدفي، أنا بشر بن بكر عن الأوزاعي، حدثني شداد أبو عمار، ثنا واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى

كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من [بني] كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وسموا قريشاً من القرش، والتقرش، وهو التكسب والجمع، يقال: فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب، وهم كانوا تجاراً حراصاً على جمع المال والإفضال. وقال أبو ريحانة: سأل معاوية عبدالله بن عباس لِمَ سميت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته، وهي تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، قال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، فأنشده شعر الجمحي:

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر سميت قريش قريشا
سلطت بالعلو في لجة البحـ ـر على سائر البحور جيوشا
تأكل الغث والسمن ولا تتـ ـرك فيه لذي الجناحين ريشا
هكذا في الكتاب حي قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا
ولهم في آخر الزمان نبي يُكثر القتل فيهم والخموشا

﴿٢﴾ قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾، بدل من الإيلاف الأول، ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾، ﴿رحلة﴾، نصب على المصدر، أي ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف.

وروى عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف، فأمرهم الله تعالى أن يقيموا بالحرم ويعبدوا ربَّ هذا البيت.

وقال الآخرون: كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة إحداهما في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ، والأخرى في الصيف إلى الشام. وكان الحرم وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم، وكان لا يتعرض لهم أحد بسوء، كانوا يقولون: قريش سكان حرم الله وولاة بيته فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة، أهل الساحل من البحر على السفن، وأهل البر على الإبل والحمير، فألقى أهل الساحل بجدة، وأهل البر بالمحصب، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح، فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤنة الرحلتين، وأمرهم بعبادة رب البيت.

﴿٣﴾ فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾. أي الكعبة.

﴿٤﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، أي من بعد جوع بحمل الميرة إلى مكة، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، بالحرم وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم في رحلتهم.

وقال عطاء عن ابن عباس: إنهم كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم عل الرحلتين، وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيهم.

قال الكلبي: وكان أول من حمل السمراء من الشام ورحل إليها الإبل: هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر:

قل للذي طلب السماحة والندى هلا مررت بآل عبد منافِ
هلاَّ مررت بهم تريد قِرَاهم منعوك من ضر ومن أكفافِ
الرائشينَ وليس يُوجدُ رائِش والقائلين هلمَّ للأضيافِ
والخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيره كالكافي
والقائمين بكلِ وعدٍ صادق والراحلين برحلةِ الإيلافِ
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجافِ
سفرين سنهما له ولقومه سفر الشتاء ورحلة الأصياف

﴿٥﴾ وقال الضحاك والربيع وسفيان: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ من خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم الجذام.

❊ ❊ ❊

سورة الماعون

مكية [وهي سبع آيات].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، قال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي ومقاتل بن حيان وابن كيسان: في الوليد بن المغيرة. قال الضحاك: نزلت في عمرو بن عائذ المخزومي. وقال عطاء عن ابن عباس: في رجل من المنافقين.

ومعنى يُكذّب بالدين أي بالجزاء والحساب.

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾، يقهره ويدفعه عن حقه، والدع: الدفع بالعنف والجفوة.

(٣) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء.

(٤) ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾.

(٥) أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار، أنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمام الضبي، ثنا حرمي بن حفص القسملي، ثنا عكرمة بن إبراهيم الأزدي، ثنا عبدالملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾، قال: «إضاعة الوقت».

قال ابن عباس: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويصلونها في العلانية إذا حضروا.

(٦) لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾، وقال في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال قتادة: ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل. قيل: لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عقاباً إن تركوا. وقال مجاهد: غافلون عنها يتهاونون بها. وقال الحسن: هو الذي إن صلاها صلاّها رياءً، وإن فاتته لم يندم،

وقال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها وسجودها.

(٧) ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾، روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: هي الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك.

وقال عبدالله بن مسعود: الماعون الفأس، والدلو، والقدر، وأشباه ذلك، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال مجاهد: الماعون العارية.

وقال عكرمة: أعلاها الزكاة المعروفة، وأدناها عارية المتاع.

وقال محمد بن كعب والكلبي: الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم.

قال قطرب: أصل الماعون من القلة، تقول العرب: ما له سعة ولا منعة، أي شيء قليل، فسمى الزكاة والصدقة والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير.

وقيل: الماعون ما لا يحل منعه، مثل الماء، والملح، والنار.

* * *

سورة الكوثر

مكية [وهي ثلاث آيات].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا علي بن مُسْهِر عن المختار يعني بن فُلْفُل، عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجلّ فيه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه مني، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عمرو بن محمد، ثنا هشيم، ثنا أبو بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير: إن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

قال الحسن: هوالقرآن العظيم، قال عكرمة: النبوة والكتاب. وقال أهل اللغة: الكوثر فوعل من الكثرة،

كنوفل فوعل من النفل، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر: كوثراً. والمعروف: أنه نهر في الجنة أعطاه الله رسوله ﷺ كما جاء في الحديث:

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن أبي علي الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، ثنا حميد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة، فإذا أنا بنهر يجري بياضه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أذفر، فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثر الذي أعطاكه الله عزّ وجلّ».

أخبرنا عبدالرحمن بن محمد الداودي، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت، ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي، أنا أبو سعيد الأشج، ثنا محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه الذهب مجراه على الدرّ والياقوت تربته أطيب من المسك وأشد بياضاً من الثلج».

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا سعيد بن أبي مريم، ثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: قال عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منها لم يظمأ أبداً».

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزاز، أنا محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا عند عقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن، إني لأضربهم بعصاي حتى يرفضوا عنه، وإن ليغتُّ فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ورق والآخر من ذهب، طوله ما بين بُصرى وصنعاء، أو ما بين أيلة ومكة، أو من مقامي هذا إلى عمان».

﴿٢﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، قال محمد بن كعب: إن إناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي وينحر لله عزّ وجلّ. وقال عكرمة وعطاء وقتادة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: فصل الصلوات المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى وروي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ قال وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر.

﴿٣﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، عدوك ومبغضك، ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، هو الأقل الأذل المنقطع دابره.

نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له: من [ذا] الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة رضي الله عنها.

وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه لنا فإنه رجل أبتر، لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وقال عكرمة عن ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من قريش، وذلك أنه لما قدم كعب مكة قالت له قريش: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه؟ فقال: بل أنتم خير منه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] الآية، ونزل في الذين قالوا إنه أبتر: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي المنقطع من كل خير.

❊ ❊ ❊



سورة الكافرون

مكية [وهي ست آيات].

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، إلى آخر السورة.

نزلت في رهط من قريش منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب بن أسد، وأمية بن خلف، قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فقال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه.

(٢) ومعنى الآية: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، في الحال.

(٣) - (٥) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، في الحال، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، في الاستقبال، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في الاستقبال، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون، وقوله: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ أي من أعبد، لكنه ذكره لمقابلة ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾.

ووجه التكرار.

قال أكثر أهل المعاني: هو أن القرآن نزل بلسان العرب، وعلى مجاز خطابهم، ومن مذاهبهم التكرار، إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز. وقال القتيبي: تكرار الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إن سرك أن ندخل في دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة.

(٦) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، الشرك، ﴿وَلِىَ دِينِ﴾. الإسلام، قرأ ابن كثير ونافع وحفص: ﴿ولي﴾ بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

* * *

سورة النصر

مدنية وهي ثلاث آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، أراد فتح مكة.

وكانت قصته على ما ذكر محمد بن إسحاق وأصحاب الأخبار أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية، واصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، وكان بينهما شر قديم، ثم إن بني بكر عدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة، يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حتى بيت خزاعة، فأصابوا منهم رجلاً وتحاربوا واقتتلوا، ورفدت قرش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً بالليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم متنكرين: صفوان بن أمية،

وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، مع عبيدهم فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل إنا دخلنا الحرم إلهك إلهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إله لي اليوم، أصيبوا ثأركم فيه، فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس، فقال:

«لا هُمَّ إني ناشد محمداً
حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا»

الأبيات كما ذكرنا في سورة التوبة.

فقال رسول الله ﷺ: «قد نُصرتَ يا عمرو بن سالم»، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم وبظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة، ومضى بديل بن ورقاء فلقي أبا سفيان بعسفان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ، ليشدد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ، قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أو ما أتيت محمداً؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف ناقته بها النوى، فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم أرغبت به عني؟ قالت: بلى هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شيء، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً.

ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ، فقال ما، أنا بفاعل.

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أنا لا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد إلا الدر لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها الحسن بن علي رضي الله عنهما غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي إنك أمسّ القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نسطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بنيّ أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله ﷺ أحد، فقال: يا أبا الحسن أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أوتر ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته والله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، فجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت عليَّ بن أبي طالب فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا؟ قالوا: وماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز لك ذلك

محمد ﷺ؟ قال: لا، قالوا: والله إن زاد علي على أن لعب بك فلا يغني عنّا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

قال: وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بُنيّة أمركم رسول الله ﷺ بأن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: ما أدري. ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» فتجهز الناس.

وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش ذكرناها في سورة الممتحنة.

ثم استخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خلف الغفاري، وخرج عامداً إلى مكة لعشر مضين من رمضان سنة ثمان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد ماء ـ بين عسفان وأمج أفطر ـ، ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، فلما نزل بمر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل، فخرج في تلك [الليلة] أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار هل يجدون خبراً.

وقد قال العباس بن عبدالمطلب ليلتئذٍ: واصباحَ قريش، والله لئن بغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخل مكة عنوة إنها لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فخرج العباس على بغلة رسول الله ﷺ وقال أخرج إلى الأراك لعلي أرى حطاباً أو صاحب لبنٍ أو داخلاً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال العباس فخرجت وإني ـ والله ـ لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتحسسون الخبر، فسمعت أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قط نيراناً، وقال بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبا سفيان: خزاعة ألأم من ذلك وأذل، فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: يا أبو الفضل، فقلت: نعم، فقال: مالك فداك أبي وأمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا والله رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قِبلَ لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين، قال: وما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه، فردفني، ورجع صاحباه فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين فنظروا إليّ وقالوا: هذا عم رسول الله ﷺ [على بغلة رسول الله ﷺ] حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقال إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ فركضت البغلة وسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر: فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني فلأضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني.

فلما أكثر فيه عمر رضي الله عنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، [وذلك لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم]، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، قال: فذهبت إلى رحلي فبات عندي.

فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن

تعلم أن لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره فقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، قال العباس: قلت له ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن يضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق وأسلم.

قال العباس قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها» قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، قال: ومرت به القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء يا عباس؟ قال: أقول سليم، قال يقول: مالي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل لا تمر قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته يقول: مالي ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء كتيبة رسول الله ﷺ. فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: والله ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك [الغداة] عظيماً، فقال: ويحك إنها النبوة، قال: نعم إذاً، فقلت: الحق الآن بقومك فحذرهم.

فخرج سريعاً حتى أتى مكة فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، قال: وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله ﷺ بمر الظهران فأسلما وبايعاه، فلما بايعاه بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يَدْعُوَانهم إلى الإسلام، ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند النبي ﷺ عامدين إلى مكة بعث في إثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار، وأمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال: «لا تبرح حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك» ومن ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وضربت هناك قبته.

وأمر خالد بن الوليد فيمن أسلم من قضاعة وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر استنفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف، ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، وإن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وكانوا قد جمعوا أناساً بالخندمة ليقاتلوا، وقال النبي ﷺ لخالد والزبير حين بعثهما: «لا تقاتلا إلا من قاتلكم» وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كدي، فقال سعد حين توجه داخلاً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها» فلم يكن بأعلى [مكة] مِنْ قبل الزبير قتال، وأما خالد بن الوليد فتقدم على قريش وبني بكر والأحابيش بأسفل مكة، فقاتلهم فهزمهم الله، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك.

وقتل من المشركين قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد، ورجلان يقال لهما كرز بن جابر وخنيس بن خالد كانا في خيل بن الوليد، فشذّا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه، فقتلا جميعاً.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا أحداً إلا من قاتلهم، إلا في نفر سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم:

عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركاً، ففرّ إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة، فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن أهل مكة، فاستأمن له.

وعبد الله بن خطل، كان رجلاً من بني تميم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً، وكان له مولى يخدمه وكان مسلماً، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً، ونام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه.

والحويرث بن نفير بن وهب كان ممن يؤذيه بمكة.

ومقيس بن صبابة، وإنما أمر بقتله، لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأً ورجوعه إلى قريش مرتداً، وسارة مولاة كانت لبعض بني المطلب كانت ممن يؤذيه بمكة.

وعكرمة بن أبي جهل، فأما عكرمة فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمنه، فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم.

وأما عبدالله بن خطل، فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، اشتركا في دمه، وأما مقيس بن صبابة، فقتله نميلة بن عبدالله، رجل من قومه.

وأما قينتا بن خطل فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ، فأمّنها، وأما سارة، فتغيبت حتى استُؤمن لها فأمّنها، فعاشت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها.

وأما الحويرث بن نقيد فقتله علي بن أبي طالب.

فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقف قائماً على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرةٍ أو دم أو مالٍ في الجاهلية يدّعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، فلذلك سُمّي أهل مكة الطلقاء.

ثم اجتمع الناس للبيعة، فجلس لهم رسول الله ﷺ على الصفاء، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء.

قال عروة بن الزبير: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيدُ قومي، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فأمّنه، قال رسول الله ﷺ: هو آمن، قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي أذكرن الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتك به، فقال: ويلك اغرب عني فلا تكلمني، قال: أي صفوان فداك أبي وأمي، أفضل الناس وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك عزه عِزّك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمّنتني؟ قال: «صدق»، قال: فاجعلني في أمري بالخيار شهرين، قال: «أنت فيه بالخيار أربعة أشهر».

قال ابن إسحاق وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة، ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حنيناً.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو نعيم،

ثنا شيبان عن يحيى بن أبي كثير بن أبي كثير عن [أبي] سلمة عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً.

وقال محمد بن إسماعيل: قال عبدالله بن رجاء: ثنا حرب عن يحيى، ثنا أبو سلمة، أنا أبو هريرة أنه قال: عام فتح مكة قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ فقال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد من بعدي، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه، حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا منشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما [أن] يؤدوا وإما [أن] يفادوا، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»، ثم قام رجل من قريش فقال: يا رسول الله إلا الإذخر فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله أن أبا مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب أخبره أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، قالت: فسلمت، فقال: «من هذه؟» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، قال: «مرحباً بأم هانئ»، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمان ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، ثم انصرف فقلت له: يا رسول الله زعم ابن أمي، علي بن أبي طالب، أنه قاتل رجلاً أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ» وذلك ضحىً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ إذا جاءك نصر الله يا محمد على من عاداك وهم قريش، والفتح فتح مكة.

(٢) ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾، زمراً وأرسالاً القبيلة بأسرها والقوم بأجمعهم من غير قتال. قال الحسن: لما فتح الله عزّ وجلّ مكة على رسوله قالت العرب بعضها لبعض: إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن.

أنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبدالله بن عمر الجوهري، ثنا أحمد بن الكشميهني، ثنا علي بن حجر، ثنا إسماعيل بن جعفر، ثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية».

(٣) ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فإنك حينئذ لاحق به.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو النعمان، ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة، فذلك علامة أجلك. ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل حدثني عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير عن منصور عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها

قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»، يتأوّل القرآن.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا محمد بن المثنى حدثني عبدالأعلى، ثنا داود عن عامر عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، قالت: فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: «أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها»: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فالفتح فتح مكة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نُعيت إليه نفسه.

قال الحسن: أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالزيادة في العمل الصالح.

قال قتادة ومقاتل: عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سبتين يوماً.

❋ ❋ ❋

سورة المسد

مكية [وهي خمس آيات].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، حدثنا محمد بن حماد، ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا فقال: يا صباحاه، قال: فاجتمعت إليه «قريش فقالوا له»: مالك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم [أو ممسيكم] أما كنتم تصدقوني»؟ قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها.

(١) قوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ أي خابت وخسرت يدا أبي لهب، أي هو أخبر عن يديه، والمراد به نفسه على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله. وقيل: اليد صلة، كما يقال: يد الدهر ويد الرزايا والبلايا. وقيل: المراد به ماله وملكه، يقال: فلان قليل ذات اليد، يعنون به المال و«التباب» الخسار والهلاك.

وأبو لهب هو ابن عبدالمطلب عم النبي ﷺ، واسمه عبدالعزى. قال مقاتل كني بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه. وقرأ ابن كثير ﴿أَبِي لَهۡبٖ﴾ ساكنة الهاء وهي مثل نهر ونهر. واتفقوا في ذات ﴿لَهَبٖ﴾ أنها مفتوحة الهاء لِوِفَاقِ الفواصل، ﴿وَتَبَّ﴾ أبو لهب، وقرأ عبدالله: وقد تبّ. قال الفراء: الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله، وقد فعل.

(٢) ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال ابن مسعود: لما دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله عزّ وجلّ قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾.

أي ما يغني، وقيل: أي شيء يغني عنه ماله، أي ما يدفع عنه عذاب الله ما جمع من المال؟ وكان صاحب مواش، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قيل: يعني ولده لأن ولد الإنسان من كسبه.

كما جاء في الحديث: «أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه، وإن ولده من كسبه».

(٣) ثم أوعده بالنار فقال: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾، أي ناراً تلتهب عليه.

(٤) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾، أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾.

قال [ابن] زيد والضحاك: كانت تحمل الشوك والعضاة فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتعقرهم، وهي رواية عطية عن ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد والسدي: كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث فتلقي العداوة بين

الناس، وتوقد نارها كما توقد النار الحطب، يقال: فلان يحطب على فلان إذا كان يغري به. وقال سعيد بن جبير: حمالة الخطايا، دليله قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]، قرأ عاصم ﴿حمالة﴾ بالنصب على الذم، كقوله: ﴿ملعونين﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقرأ الآخرون بالرفع وله وجهان: أحدهما ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ هو، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ والثاني: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ في النار أيضاً.

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا﴾، في عنقها، وجمعه أجياد، ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

واختلفوا فيه.

قال ابن عباس وعروة بن الزبير: سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً، تدخل في فيها وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها، وأصله من المسد وهو الفتل، والمسد ما فتل وأحكم من أي شيء كان، يعني السلسلة التي في عنقها ففتلت من الحديد فتلاً محكماً.

وروى الأعمش عن مجاهد: من مسد أي من حديد، والمسد: الحديدة التي تكون في البكرة، يقال لها المحور، وقال الشعبي ومقاتل: من ليف. قال الضحاك وغيره: في الدنيا من ليف وفي الآخرة من نار، وذلك الليف هو الحبل الذي كانت تحتطب به، فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة فأعيت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها فأهلكها.

قال ابن زيد: حبل من شجر ينبت باليمن يقال له مسد، قال قتادة: قلادة من ودع.

وقال الحسن: كانت خرزات في عنقها. وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة في عنقها فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد ﷺ.

❁ ❁ ❁

سورة الإخلاص

مكية [وهي أربع آيات].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وروى أبو العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وروى أبو ظبيان، وأبو صالح، عن ابن عباس: أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلام تدعونا يا محمد؟ قال: «إلى الله»، قال: صِفْهُ لنا أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من حديد؟ أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة. فأهلك الله أربد بالصاعقة وعامر بن الطفيل بالطاعون.

وقد ذكرناه في سورة الرعد [١٣].

وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناسٌ من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك يا

الجزء الثلاثون — سورة الإخلاص

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

٦٠٤

محمد لعلنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب؟ ممن يرث؟ ومن يرث منه؟ فأنزل الله هذه السورة.

(١) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي واحد، ولا فرق بين الواحد والأحد، يدل عليه قراءة ابن مسعود: قل هو الله الواحد.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير: الصمد الذي لا جوف له. قال الشعبي: الذي لا يأكل ولا يشرب. وقيل: تفسيره ما بعده.

روى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأن من يولد سيموت ومن يرث يورث منه. قال أبو وائل شقيق بن سلمة: هو السيد الذي قد انتهى سُؤدُده.

وهو رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: هو السيد الذي قد كمل في جميع أنواع السؤدد. وعن سعيد بن جبير أيضاً: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقيل: هو السيد المقصود في الحوائج. وقال السدي: هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب. تقول العرب: صمدت فلاناً أصمده صمداً بسكون الميم إذا قصدته، والمقصود صمد بفتح الميم. وقال قتادة: الصمد الباقي بعد فناء خلقه. وقال عكرمة: الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي. وقال الربيع: الذي لا تعتريه الآفات. قال مقاتل بن حيان: الذي لا عيب فيه.

(٣) - (٤) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، قرأ حمزة وإسماعيل ﴿كفؤاً﴾ ساكنة الفاء مهموزاً، وقرأ حفص عن عاصم بضم الفاء من غير همز، وقرأ الآخرون بضم الفاء مهموزاً، وكلها لغات صحيحة، ومعناه: المثل أي هو أحد، وقيل: هو على التقديم والتأخير مجازه: لم يكن له أحداً كفواً أي مثلاً. قال مقاتل: قال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فأكذبهم الله ونفى عن ذاته الولادة والمثل.

أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب عن الزهري، أنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد».

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا أبو علي زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويرددها، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالها، فقال له رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو بكر محمد بن الحسن الأصفهاني، أنا عبدالله بن جعفر بن أحمد بن فارس، ثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود الطيالسي، ثنا شعبة عن قتادة سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»؟ قلت: يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: «اقرؤوا قل هو الله أحد».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن عبيد الله بن عبدالرحمن عن عبيد بن حنين مولى زيد بن الخطاب أنه قال: سمعت أبا هريرة يقول أقبلت مع رسول الله ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت»، فسألته: ماذا يا رسول الله؟ فقال: «الجنة». فقال أبو هريرة: فأردت أن أذهب إلى الرجل فأبشره، ثم فرقت أن يفوتني الغداء مع رسول الله ﷺ فآثرت الغداء، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا عبدالرحيم بن منيب، ثنا يزيد بن هارون، ثنا المبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: «حبّك إياها أدخلك الجنة»،

❁ ❁ ❁

سورة الفلق

[مدنية وهي خمس آيات].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، قال ابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود، فلم

يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطة، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود، فنزلت السورتان فيه.

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، ثنا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، أنا أنس بن عياض عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ: طُب حتى أنه ليخيل إليه أنه قد صنع شيئاً وما صنعه، وأنه دعا ربه ثم قال: «أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه» فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: هو مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال في مشط ومشاطه وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال في ذروان، وذروان بئر في بني زريق» قالت عائشة: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة، فقال: «والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين» قالت: فقلت له يا رسول الله فهلا أخرجته؟ قال: «أما، أنا فقد شفاني الله فكرهت أن أثير على الناس به شراً».

وروي أنه كان تحت صخرة في البئر، فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه فيها.

أخبرنا المطهر بن علي الفارسي، أنا محمد بن إبراهيم الصالحاني، ثنا عبدالله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ، أنا ابن أبي عاصم، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، قال فاشتكى لذلك أياماً، قال: فأتاه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهود ولا رأوه في وجهه قط.

قال مقاتل والكلبي: كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة.

[وقيل: كانت العقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله هاتين السورتين وهي إحدى عشرة آية] سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال.

وروي: أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال، فنزلت المعوذتان.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا بشر بن هلال الصواف، ثنا عبدالوارث، ثنا عبدالعزيز بن صهيب، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك والله يشفيك».

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، أراد بالفلق الصبح، وهو قول جابر بن عبدالله والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وأكثر المفسرين، وهو رواية العوفي عن ابن عباس بدليل قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وروي عن ابن عباس: أنه سجن في جهنم. وقال الكلبي: وادٍ في جهنم. وقال الضحاك: يعني الخلق، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، والأول المعروف.

(٢) ـ (٣) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا جعفر بن محمد بن المغلس، ثنا هارون بن إسحاق الهمداني، ثنا وكيع عن ابن أبي ذئب، عن خاله الحارث بن عبدالرحمن، عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شرّ غاسق إذا وقب، هذا غاسق إذا وقب».

فعلى هذا المراد به القمر إذا خسف واسود: وَقَبَ، أي دخل في الخسوف أو أخذ في الغيبوبة وأظلم. وقال ابن عباس: الغاسق الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق

الظلمة، يقال: غسق الليل وأغسق إذا أظلم، وهو قول الحسن ومجاهد، يعني: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. قال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وقيل: سمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، والغسق البرد. وقال ابن زيد: يعني الثريا إذا سقطت. ويقال: إن الأسقام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها.

﴿٤﴾ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾، يعني السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها. قال أبو عبيدة: هن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي ﷺ.

﴿٥﴾ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، يعني اليهود فإنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

سورة الناس

[مدنية].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ـ ﴿٤﴾ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾، يعني الشيطان يكون مصدراً واسماً، قال الزجاج: يعني الشيطان ذا الوسواس الخناس الرجاع، وهو الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس. [و] قال [قتادة]: الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس، ويقال: رأسه كرأس الحية واضع رأسه عل ثمرة القلب يمنيه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر يرجع ويضع رأسه.

﴿٥﴾ فذلك ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع.

﴿٦﴾ ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، يعني يدخل في الجني كما يدخل في الإنسي، ويوسوس للجني كما يوسوس للإنسي، قاله الكلبي، وقوله: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أراد بالناس ما ذكر من بعد وهو الجنة والناس، فسمى الجن ناساً كما سماهم رجالاً، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث: جاء قوم من الجن فوقعوا فقيل: من أنتم:؟ قالوا: أناس من الجن. وهذا معنى قول الفراء، قال بعضهم: أثبت أن الوسواس للإنسان من الإنسان كالوسوسة للشيطان من الشيطان، فجعل الوسواس من فعل الجنة والناس جميعاً، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس جميعاً.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا قتيبة بن سعيد، ثنا جرير عن بيان عن قيس بن أبي حازم، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الفلق: ١]».

أخبرنا أبو سعيد [أحمد بن إبراهيم] الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أنا أبو الحسن بن عبدالرحمن بن إبراهيم العدل، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا ابو العباس بن الوليد بن مزيد أخبرني أبي، ثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن [أبي] كثير حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون»؟ قلت: بلى، قال: «﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾».

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالصمد الجوزجاني، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، أنا أبو عيسى الترمذي، ثنا قتيبة، ثنا المفضل بن فضالة عن عُقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من

جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي وأبو حامد أحمد بن عبدالله الصالحي قالا: ثنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا محمد بن أحمد بن معقل الميداني، أنا محمد بن يحيى، ثنا عبدالرزاق، أنا معمر، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار».

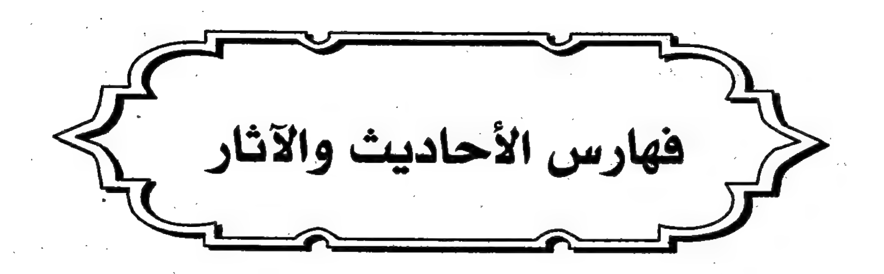
أخبرنا عبدالواحد [بن أحمد] المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن حمزة، حدثني ابن أبي حازم عن يزيد، يعني ابن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»،

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

[تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وحسبنا الله ونعم الوكيل].

❁ ❁ ❁





فهارس الأحاديث والآثار

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الكاف

حرف اللام

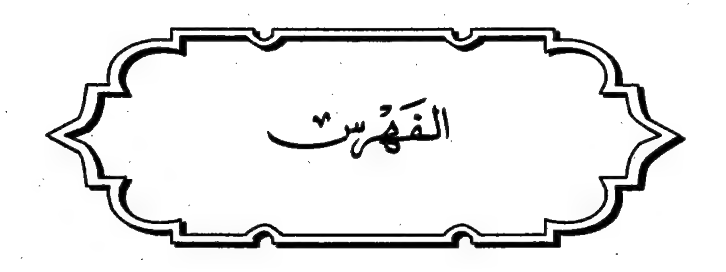
حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❀ ❀ ❀